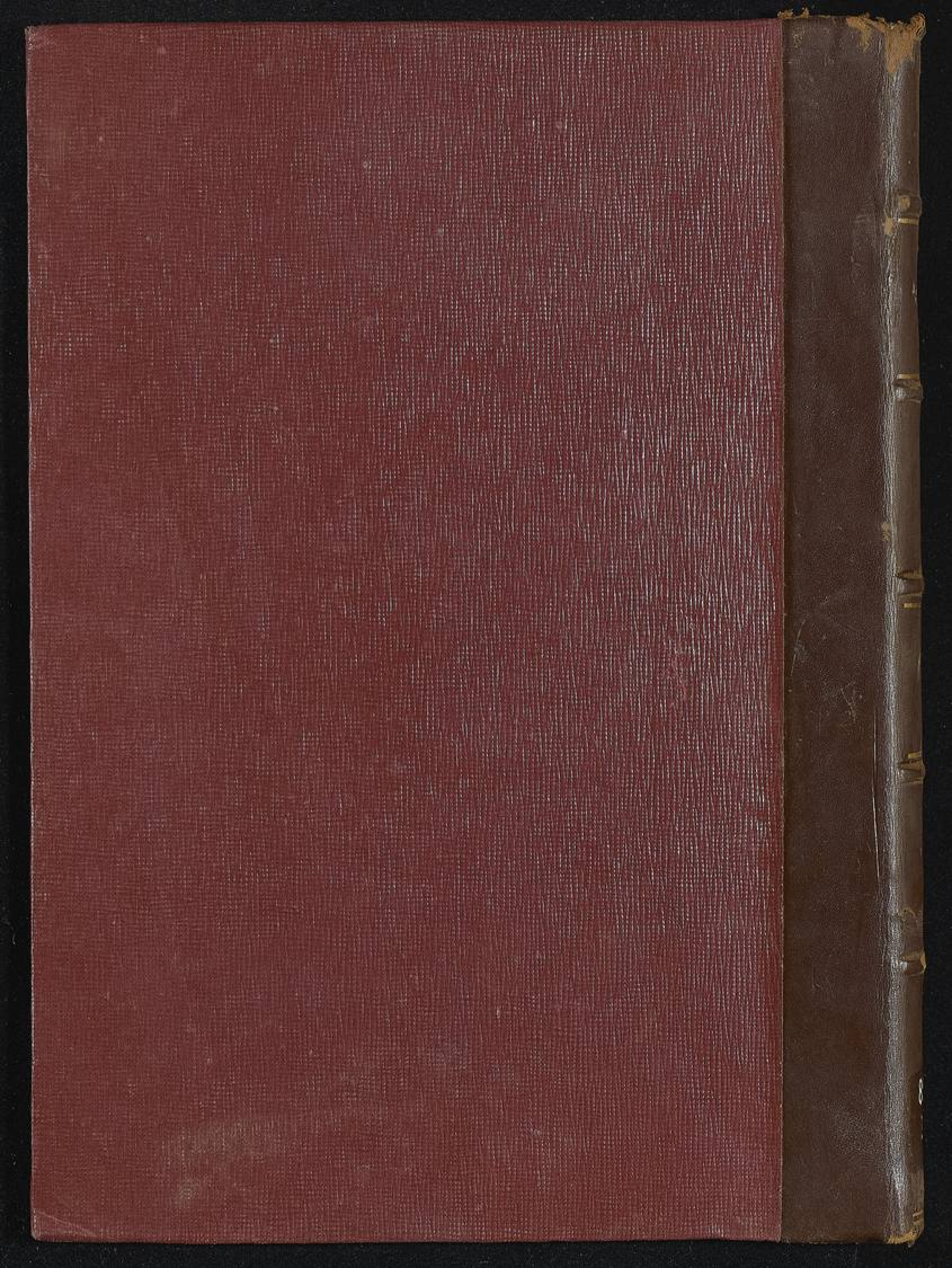


تفسير أبى السعود

المسمى

ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم

لخاتمة المحققين وامام المدققين قاضى القضاة أبى السعود محمد بن محمد العمادى

ولد رحمه الله تعالى سنة ٨٩٦ هجرية وتوفى سنة ٩٥١

الجزء الثانى

صححت هذه الطبعة بمعرفة بعض أفاضل العلماء وقوبلت على عدة نسخ
وقرئت فى المرة الأخيرة على حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير
الشيخ حسن محمد المسعودى
المدرس بالقسم العالى بالأزهر

الملتزم
محمد محمد عبد اللطيف
صاحب المكتبة الحسينية المصرية
بالأزهر الشريف بمصر

الطبعة الأولى
سنة ١٣٤٧ هجرية — سنة ١٩٢٨ ميلادية

المطبعة المصرية
ادارة محمد مجيد عبد اللطيف

893.7K84
DI96
v. 2-3

بسم الله الرحمن الرحيم

V. 2-3

سورة المائدة مدنية وهي مائة وعشرون آية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ الوفاء القيام بموجب العقد وكذا الايفاء والعقد هو العهد الموثق المشبه بعقد الحبل ونحوه والمراد بالعقود مايعم جميع ماألزمه الله تعالى عباده وعقده عليهم من التكاليف والأحكام الدينية ومايعقدونه فيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به أو يحسن دينا بأن يحمل الأمر على معنى يعم الوجوب والندب أمر بذلك أولا على وجه الاجمال ثم شرع فى تفصيل الأحكام التى أمر بالايفاء بها وبدئ بما يتعلق بضروريات معايشهم فقيل ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾ البهيمة كل ذات أربع واضافتها الى الأنعام للبيان كثوب الخز وافرادها لارادة الجنس أى أحل لكم أكل البهيمة من الأنعام وهى الأزواج الثمانية المعدودة فى سورة الأنعام وألحق بها الظباء وبقر الوحش ونحوهما وقيل هى المرادة بالبهيمة ههنا لتقدم بيان حل الأنعام والاضافة لما بينهما من المشابهة والمماثلة فى الاجترار وعدم الأنياب وفائدتها الاشعار بعلة الحكم المشتركة بين المضافين كأنه قيل أحلت لكم البهيمة الشبيهة بالأنعام التى بين احلالها فيما سبق المماثلة لها فى مناط الحكم وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لما مر مرارا من اظهار العناية بالمقدم لما فيه من تعجيل المسرة والتشويق الى المؤخر فان ماحقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة الى وروده فيتمكن عندها فضل تمكن ﴿الا مايتلى عليكم﴾ استثناء من بهيمة الأنعام أى الا محرم مايتلى عليكم من قوله تعالى حرمت عليكم الميتة ونحوه أو الا مايتلى عليكم آية تحريمه ﴿غير محلى الصيد﴾ أى الاصطياد فى البر أو أكل صيده وهو نصب على الحالية من ضمير لكم ومعنى عدم احلالهم له تقرير حرمته عملا واعتقادا وهو شائع فى الكتاب والسنة وقوله تعالى ﴿وأنتم حرم﴾ أى محرمون حال من الضمير فى محلى وفائدة تقييد احلال بهيمة الأنعام بماذكر من عدم احلال الصيد حال الاحرام على تقدير كون المراد بها الظباء ونظائرها ظاهرة لما أن احلالها غير مطلق كأنه قيل أحل لكم الصيد حال كونكم ممتنعين عنه عند احرامكم وأما على التقدير الأول ففائدته اتمام النعمة واظهار الامتنان باحلالها بتذكير احتياجهم اليه فان حرمة الصيد فى حالة الاحرام من مظان حاجتهم الى احلال غيره حينئذ كأنه قيل أحلت لكم الأنعام مطلقا حال كونكم ممتنعين عن تحصيل مايغنيكم عنها فى بعض الأوقات محتاجين الى احلالها وفى اسناد عدم الاحلال اليهم بالمعنى المذكور مع حصول المراد بأن يقال غير محلل لكم أو محرما عليكم الصيد حال احرامكم مزيد تربية للامتنان وتقرير للحاجة ببيان علتها القريبة فان تحريم الصيد عليهم انما يوجب حاجتهم الى احلال مايغنيهم عنه باعتبار تحريمهم له عملا واعتقادا مع مافى ذلك من وصفهم بما هو اللائق بهم ﴿ان الله يحكم مايريد﴾ من الأحكام حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة فيدخل فيها ماذكر من التحليل والتحريم دخولا أوليا ومعنى الايفاء بهما الجريان على موجبهما عقدا وعملا والاجتناب عن تحليل المحرمات وتحريم بعض المحللات كالبحيرة ونظائرها التى سيأتى بيانها ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله﴾ لما بين حرمة احلال الاحرام

الذى هو من شعائر الحج عقب ذلك ببيان حرمة احلال سائر الشعائر واضافتها الى الله عز وجل لتشريفها وتهويل الخطب فى احلالها وهى جمع شعيرة وهى اسم لما أشعر أى جعل شعارا وعلما للنسك من مواقيت الحج ومرامى الجمار والمطاف والمسعى والأفعال التى هى علامات الحاج يعرف بها من الاحرام والطواف والسعى والحلق والنحر واحلالها أن يتهاون بحرمتها و يحال بينها و بين المتنسكين بها و يحدث فى أشهر الحج مايصد به الناس عن الحج وقيل المراد بها دين الله لقوله تعالى ومن يعظم شعائر الله أى دينه وقيل حرمات الله وقيل فرائضه التى حدها لعباده واحلالها الاخلال بها والاول أنسب بالمقام ﴿ ولا الشهر الحرام ﴾ أى لاتحلوه بالقتال فيه وقيل بالنسىء والأول هو الأولى بحال المؤمنين والمراد به شهر الحج وقيل الأشهر الأربعة الحرم والافراد لارادة الجنس ﴿ ولا الهدى ﴾ بأن يتعرض له بالغصب أو بالمنع عن بلوغ محله وهو ما أهدى الى الكعبة من ابل أو بقر أو شاء جمع هدية كجدى وجدية ﴿ ولا القلائد ﴾ هى جمع قلادة وهى ما يقلد به الهدى من نعل أو لحاء شجر ليعلم به أنه هدى فلا يتعرض له والمراد النهى عن التعرض لذوات القلائد من الهدى وهى البدن وعطفها على الهدى مع دخولها فيه لمزيد التوصية بها لمزيتها على ماعداها كما عطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام كأنه قيل والقلائد منه خصوصا أو النهى عن التعرض لنفس القلائد مبالغة فى النهى عن التعرض لأصحابها على معنى لاتحلوا قلائدها فضلا عن أن تحلوها كما نهى عن ابداء الزينة بقوله تعالى ولا يبدين زينتهن مبالغة فى النهى عن ابداء مواقعها ﴿ ولا آمين البيت الحرام ﴾ أى لا تحلوا قوما قاصدين زيارته بأن تصدوهم عن ذلك بأى وجه كان وقيل هناك مضاف محذوف أى قتال قوم أو أذى قوم آمين الخ وقرىء ولا آمى البيت الحرام بالاضافة وقوله تعالى ﴿ يبتغون فضلا من ربهم و رضوانا ﴾ حال من المستكن فى آمين لا صفة له لأن المختار أن اسم الفاعل اذا وصف بطل عمله أى قاصدين زيارته حال كونهم طالبين أن يثيبهم الله تعالى و يرضى عنهم وتنكير فضلا و رضوانا للتفخيم ومن ربهم متعلق بنفس الفعل أو بمحذوف وقع صفة لفضلا مغنية عن وصف ماعطف عليه بها أى فضلا كائنا من ربهم و رضوانا كذلك والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم لتشريفهم والاشعار بحصول مبتغاهم وقرىء تبتغون على الخطاب فالجملة حينئذ حال من ضمير المخاطبين فى لا تحلوا على أن المراد بيان منافاة حالهم هذه للمنهى عنه لا لتقييد النهى بها واضافة الرب الى ضمير الآمين للايماء الى اقتصار التشريف عليهم وحرمان المخاطبين عنه وعن نيل المبتغى و فى ذلك من تعليل النهى وتأكيده والمبالغة فى استنكار المنهى عنه مالا يخفى ومن ههنا قيل ان المراد بالآمين هم المسلمون خاصة و به تمسك من ذهب الى أن الآية محكمة وقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال سورة المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها وقال الحسن رحمه الله تعالى ليس فيها منسوخ وعن أبى ميسرة فيها ثمانى عشرة فريضة وليس فيها منسوخ وقد قيل هم المشركون خاصة لانهم المحتاجون الى نهى المؤمنين عن احلالهم دون المؤمنين على أن حرمة احلالهم ثبتت بطريق دلالة النص و يؤيده أن الآية نزلت فى الحطم بن ضبعة البكرى وقد كان أتى المدينة فخلف خيله خارجها فدخل على النبى عليه الصلاة والسلام وحده ووعده أن يأتى بأصحابه فيسلموا ثم خرج من عنده عليه السلام فمر بسرح المدينة فاستاقه فلما كان فى العام القابل خرج من اليمامة حاجا فى حجاج بكر بن وائل ومعه تجارة عظيمة وقد قلدوا الهدى فسأل المسلمون النبى صلى الله عليه وسلم أن يخلى بينهم و بينه فأباه النبى عليه الصلاة والسلام فأنزل الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله الآية وفسر ابتغاء الفضل بطلب الرزق بالتجارة وابتغاء الرضوان بأنهم كانوا يزعمون أنهم على سداد من دينهم وأن الحج يقربهم الى الله تعالى فوصفهم الله تعالى بظنهم وذلك الظن الفاسد وان كان بمعزل من استتباع رضوانه تعالى لكن لا بعد فى كونه مدارا لحصول بعض مقاصدهم

الدنيوية وخلاصهم عن المكاره العاجلة لاسيما فى ضمن مراعاة حقوق الله تعالى وتعظيم شعائره وقال قتادة هو أن يصلح معايشهم فى الدنيا ولا يعجل لهم العقوبة فيها وقيل هم المسلمون والمشركون لما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن المسلمين والمشركين كانوا يحجون جميعا فنهى الله المسلمين أن يمنعوا أحدا عن حج البيت بقوله تعالى لاتحلوا الآية ثم نزل بعد ذلك انما المشركون نجس فلايقربوا المسجد الحرام وقوله تعالى ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله وقال مجاهد والشعبى لاتحلوا نسخ بقوله تعالى اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ولا ريب فى تناول الآمين للمشركين قطعا اما استقلالا واما اشتراكا لما سيأتى من قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم الخ فيتعين النسخ كلا أو بعضا ولابد فى الوجه الاخير من تفسير الفضل والرضوان بما يناسب الفريقين فقيل ابتغاء الفضل أى الرزق للمؤمنين والمشركين عامة وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة ويجوز أن يكون الفضل على اطلاقه شاملا للفضل الاخروى أيضا ويختص ابتغاؤه بالمؤمنين ﴿واذا حللتم فاصطادوا﴾ تصريح بما أشير اليه بقوله تعالى وأنتم حرم من انتهاء حرمة الصيد بانتفاء موجبها والامر للاباحة بعد الحظر كأنه قيل واذا حللتم فلاجناح عليكم فى الاصطياد وقرئ أحللتم وهو لغة فى حلى وقرئ بكسر الفاء بالقاء حركة همزة الوصل عليها وهو ضعيف جدا ﴿ولا يجرمنكم﴾ نهى عن احلال قوم من الآمين خصوا به مع اندراجهم فى النهى عن احلال الكل كافة لاستقلالهم بأمور ربما يتوهم كونها مصححة لاحلالهم داعية اليه وجرم جار مجرى كسب فى المعنى وفى التعدى الى مفعول واحد والى اثنين يقال جرم ذنبا نحو كسبه وجرمته ذنبا نحو كسبته اياه خلا أن جرم يستعمل غالبا فى كسب ما لاخير فيه وهو السبب فى ايثاره ههنا على الثانى وقد ينقل الأول من كل منهما بالهمزة الى معنى الثانى فيقال أجرمته ذنبا وأكسبته اياه وعليه قراءة من قرأ يجرمنكم بضم الياء ﴿شنآن قوم﴾ بفتح النون وقرئ بسكونها وكلاهما مصدر أضيف الى مفعوله لا الى فاعله كما قيل وهو شدة البغض وغاية المقت ﴿أن صدوكم﴾ متعلق بالشنآن باضمار لام العلة أى لأن صدوكم عام الحديبية ﴿عن المسجد الحرام﴾ عن زيارته والطواف به للعمرة وهذه آية بينة فى عموم آمين للمشركين قطعا وقرئ ان صدوكم على أنه شرط معترض أغنى عن جوابه لايجرمنكم قد أبرز الصد المحقق فيما سبق فى معرض المفروض للتوبيخ والتنبيه على أن حقه أن لايكون وقوعه الا على سبيل الفرض والتقدير ﴿أن تعتدوا﴾ أى عليهم وانما حذف تعويلا على ظهوره وايماء الى أن المقصد الأصلى من النهى منع صدور الاعتداء عن المخاطبين محافظة على تعظيم الشعائر لامنع وقوعه على القوم مراعاة لجانبهم وهو ثانى مفعولى يجرمنكم أى لا يكسبنكم شدة بغضكم لهم لصدهم اياكم عن المسجد الحرام اعتداءكم عليهم وانتقامكم منهم للتشفى وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للشنآن عن كسب الاعتداء للمخاطبين لكنه فى الحقيقة نهى لهم عن الاعتداء على أبلغ وجه وآكده فان النهى عن أسباب الشئ ومباديه المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وابطال للسببية وقد يوجه النهى الى المسبب ويراد النهى عن السبب كما فى قوله لاأرينك ههنا يريد به نهى مخاطبه عن الحضور لديه ولعل تأخير هذا النهى عن قوله تعالى واذا حللتم فاصطادوا مع ظهور تعلقه بما قبله للايذان بأن حرمة الاعتداء لا تنتهى بالخروج عن الاحرام كانتهاء حرمة الاصطياد به بل هى باقية ما لم تنقطع علاقتهم عن الشعائر بالكلية وبذلك يعلم بقاء حرمة التعرض لسائر الآمين بالطريق الأولى ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ لما كان الاعتداء غالبا بطريق التظاهر والتعاون أمروا اثر ما نهوا عنه بأن يتعاونوا على كل ما هو من باب البر والتقوى ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى فدخل فيه مانحن بصدده من التعاون على العفو والاغضاء عما وقع منهم دخولا أوليا ثم نهوا عن التعاون فى كل ماهو من مقولة الظلم والمعاصى بقوله تعالى ﴿ولا تعاونوا على الاثم والعدوان﴾ فاندرج فيه النهى عن التعاون على الاعتداء والانتقام

بالطريق البرهانى وأصل لا تعاونوا لا تتعاونوا فحذف منه احدى التاءين تخفيفا وانما أخر النهى عن الأمر مع تقدم التخلية على التحلية مسارعة الى ايجاب ما هو مقصود بالذات فان المقصود من ايجاب ترك التعاون على الاثم والعدوان انما هو تحصيل التعاون على البر والتقوى ثم أمروا بقوله تعالى ﴿واتقوا الله﴾ بالاتقاء فى جميع الامور التى من جملتها مخالفة ماذكر من الأوامر والنواهى فثبت وجوب الاتقاء فيها بالطريق البرهانى ثم علل ذلك بقوله تعالى ﴿ان الله شديد العقاب﴾ أى لمن لا يتقيه فيعاقبكم لا محالة ان لم تتقوه واظهار الاسم الجليل لما مر مرارا من ادخال الروعة وتربية المهابة وتقوية استقلال الجملة ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ شروع فى بيان المحرمات التى أشير اليها بقوله تعالى الا ما يتلى عليكم والميتة ما فارقه الروح من غير ذبح ﴿والدم﴾ أى المسفوح منه لقوله تعالى أو دما مسفوحا وكان أهل الجاهلية يصبونه فى الامعاء ويشوونه ويقولون لم يحرم من فزد له أى من فصد له ﴿ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾ أى رفع الصوت لغير الله عند ذبحه كقولهم باسم اللات والعزى ﴿والمنخنقة﴾ أى التى ماتت بالخنق ﴿والموقوذة﴾ أى التى قتلت بالضرب بالخشب ونحوه من وقذته اذا ضربته ﴿والمتردية﴾ أى التى تردت من علو أو الى بئر فماتت ﴿والنطيحة﴾ أى التى نطحتها أخرى فماتت بالنطح والتاء للنقل وقرئ والمنطوحة ﴿وما أكل السبع﴾ أى وما أكل منه السبع فمات وقرئ بسكون الباء وقرئ وأكيل السبع وفيه دليل على أن جوارح الصيد اذا أكلت مما صادته لم يحل ﴿الا ما ذكيتم﴾ الا ما أدركتم ذكاته وفيه بقية حياة يضطرب اضطراب المذبوح وقيل الاستثناء مخصوص بما أكل السبع والذكاة فى الشرع بقطع الحلقوم والمرىء بمحدد ﴿وما ذبح على النصب﴾ قيل هو مفرد وقيل جمع نصاب وقرئ بسكون الصاد وأياما كان فهو واحد الانصاب وهى أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويعدون ذلك قربة وقيل هى الاصنام ﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ جمع زلم وهو القدح أى وحرم عليكم الاستقسام بالأقداح وذلك أنهم اذا قصدوا فعلا ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها أمرنى ربى وعلى الثانى نهانى ربى وعلى الثالث غفل فان خرج الآمر مضوا على ذلك وان خرج الناهى اجتنبوا عنه وان خرج الغافل أجالوها مرة أخرى فمعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم لهم بالازلام وقيل هو استقسام الجزور بالاقداح على الانصباء المعهودة ﴿ذلكم﴾ اشارة الى الاستقسام بالازلام ومعنى البعد فيه للاشارة الى بعد منزلته فى الشر ﴿فسق﴾ تمرد وخروج عن الحد ودخول فى علم الغيب وضلال باعتقاد أنه طريق اليه وافتراء على الله سبحانه ان كان هو المراد بقولهم ربى وشرك وجهالة ان كان هو الصنم وقيل ذلكم اشارة الى تناول المحرمات المعدودة لان معنى تحريمها تحريم تناولها ﴿اليوم﴾ اللام للعهد والمراد به الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الماضية والآتية وقيل يوم نزولها وقد نزلت بعد عصر الجمعة يوم عرفة فى حجة الوداع والنبى صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على العضباء فكادت عضد الناقة تندق لثقلها فبركت وأياما كان فهو منصوب على أنه ظرف لقوله تعالى ﴿يئس الذين كفروا من دينكم﴾ أى من ابطاله ورجوعكم عنه بتحليل هذه الخبائث أو غيرها أو من أن يغلبوكم عليه لما شاهدوا من أن الله عز وجل وفى بوعده حيث أظهره على الدين كله وهو الانسب بقوله تعالى ﴿فلا تخشوهم﴾ أى أن يظهروا عليكم ﴿واخشون﴾ أى وأخلصوا الى الخشية ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ بالنصر والاظهار على الأديان كلها أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد وتقديم الجار والمجرور للايذان من أول الامر بأن الاكمال لمنفعتهم ومصلحتهم كما فى قوله تعالى ألم نشرح لك صدرك وعليكم فى قوله تعالى ﴿وأتممت عليكم نعمتى﴾ متعلق بأتممت لا بنعمتى لان المصدر لا يتقدم عليه معموله وتقديمه على المفعول الصريح لما مر مرات أى أتممتها بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين وهدم منار الجاهلية ومناسكها والنهى عن حج المشرك وطواف العريان أو باكمال الدين والشرائع أو

بالهداية والتوفيق قيل معنى أتممت عليكم نعمتي أنجزت لكم وعدي بقولي و لأتم نعمتي عليكم ﴿ و رضيت لكم الاسلام دينا ﴾ أي اخترته لكم من بين الاديان وهو الدين عند الله لاغير . عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن رجلا من اليهود قال له يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤنها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا قال أي آية قال اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي الآية قال عمر رضي الله تعالى عنه قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي أنزلت فيه على النبي عليه الصلاة والسلام وهو قائم بعرفة يوم الجمعة أشار رضي الله تعالى عنه الى أن ذلك اليوم عيد لنا . و روى أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر رضي الله تعالى عنه فقال له النبي عليه الصلاة والسلام ما يبكيك يا عمر قال أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا فاذا كمل فانه لايكمل شيء الا نقص فقال عليه الصلاة والسلام صدقت فكانت هذه الآية نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم فما لبث بعد ذلك الا أحدا وثمانين يوما ﴿ فمن اضطر ﴾ متصل بذكر المحرمات وما بينهما اعتراض بما يوجب أن يجتنب عنه وهو أن تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والاسلام المرضي أي فمن اضطر الى تناول شيء من هذه المحرمات ﴿ في مخمصة ﴾ أي مجاعة يخاف معها الموت أو مباديه ﴿ غير متجانف لاثم ﴾ قيل غير مائل ومنحرف اليه بأن يأكلها تلذذا أو مجاوزا حد الرخصة أو ينتزعها من مضطر آخر كقوله تعالى غير باغ و لا عاد ﴿ فان الله غفور رحيم ﴾ لا يؤاخذه بذلك ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم ﴾ شروع في تفصيل المحللات التي ذكر بعضها على وجه الاجمال اثر بيان المحرمات كأنهم سألوا عنها عند بيان أضدادها ولتضمن السؤال معنى القول أوقع على الجملة فماذا مبتدأ وأحل لهم خبره وضمير الغيبة لما أن يسألون بلفظ الغيبة فانه كما يعتبر حال المحكي عنه فيقال أقسم زيد لأفعلن يعتبر حال الحاكي فيقال أقسم زيد ليفعلن والمسئول ما أحل لهم من المطاعم ﴿ قل أحل لكم الطيبات ﴾ أي مالم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر عنه كما في قوله تعالى و يحل لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث ﴿ وما علمتم من الجوارح ﴾ عطف على الطيبات بتقدير المضاف على أن ما موصولة والعائد محذوف أي وصيد ما علمتموه أو مبتدأ على أن ما شرطية والجواب فكلوا وقد جوز كونها مبتدأ على تقدير كونها موصولة أيضا والخبر كلوا وانما دخلته الفاء تشبيها للموصول باسم الشرط ومن الجوارح حال من الموصول أو ضميره المحذوف والجوارح الكواسب من سباع البهائم والطير وقيل سميت بها لانها تجرح الصيد غالبا ﴿ مكلبين ﴾ أي معلمين لها الصيد والمكلب مؤدب الجوارح ومضريها بالصيد مشتق من الكلب لان التأديب كثيرا ما يقع فيه أو لان كل سبع يسمى كلبا لقوله عليه الصلاة والسلام في حق عتبة بن أبي لهب حين أراد سفر الشأم فقال النبي عليه الصلاة والسلام اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فأكله الأسد وانتصابه على الحالية من فاعل علمتم وفائدتها المبالغة في التعليم لما أن اسم المكلب لا يقع الا على النحرير في علمه وقرئ مكلبين بالتخفيف والمعنى واحد ﴿ تعلمونهن ﴾ حال ثانية منه أو حال من ضمير مكلبين أو استئناف ﴿ مما علمكم الله ﴾ من الحيل وطرق التعليم والتأديب فان العلم به الهام من الله تعالى أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه أو مما عرفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بارسال صاحبه وانزجاره بزجره وانصرافه بدعائه وامساك الصيد عليه وعدم أكله منه ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم ﴾ قد مر فيما سبق أن هذه الجملة على تقدير كون ما شرطية جواب الشرط وعلى تقدير كونها موصولة مرفوعة على الابتداء خبرها وأما على تقدير كونها عطفا على الطيبات فهي جملة متفرعة على بيان حل صيد الجوارح المعلمة مبينة للمضاف المقدر الذي هو المعطوف و به يتعلق الاحلال حقيقة ومشيرة الى نتيجة التعليم وأثره داخلة تحت الامر فالفاء فيها كما في قوله أمرتك الخير فافعل ما أمرت به ومن تبعيضية لما أن البعض مما لايتعلق به الاكل كالجلود والعظام والريش وغير ذلك وما موصولة أو موصوفة حذف عائدها وعلى

متعلقة بأمسكن أى فكلوا بعض ماأمسكنه عليكم وهو الذى لم يأكلن منه وأما ماأكلن منه فهو مما أمسكنه على أنفسهن لقوله عليه الصلاة والسلام لعدى بن حاتم وان أكل منه فلا تأكل انما أمسك على نفسه واليه ذهب أكثر الفقهاء وقال بعضهم لايشترط عدم الاكل فى سباع الطير لما أن تأديبها الى هذه الدرجة متعذر وقال آخرون لايشترط ذلك مطلقا وقد روى عن سلمان وسعد بن أبى وقاص وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهم أنه اذا أكل الكلب ثلثيه وبقى ثلثه وقد ذكرت اسم الله عليه فكل ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ الضمير لما علمتم أى سموا عليه عند ارساله أو لما أمسكنه أى سموا عليه اذا أدركتم ذكاته ﴿واتقوا الله﴾ فى شأن محرماته ﴿ان الله سريع الحساب﴾ أى سريع اتيان حسابه أو سريع تمامه اذا شرع فيه يتم فى أقرب مايكون من الزمان والمعنى على التقديرين أنه يؤاخذكم سريعا فى كل ماجل ودق واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم ﴿اليوم أحل لكم الطيبات﴾ قيل المراد بالايام الثلاثة وقت واحد وانما كرر للتأكيد ولاختلاف الأحداث الواقعة فيه حسن تكريره والمراد بالطيبات مامر ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب﴾ أى اليهود والنصارى واستثنى على رضى الله تعالى عنه نصارى بنى تغلب وقال ليسوا على النصرانية ولم يأخذوا منها الاشرب الخمر وبه أخذ الشافعى رضى الله عنه والمراد بطعامهم مايتناول ذبائحهم وغيرها ﴿حل لكم﴾ أى حلال وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال لابأس وهو قول عامة التابعين وبه أخذ أبو حنيفة رضى الله عنه وأصحابه وحكم الصابئين حكم أهل الكتاب عنده وقال صاحباه هما صنفان صنف يقرؤن الزبور ويعبدون الملائكة عليهم السلام وصنف لايقرؤن كتابا ويعبدون النجوم فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب وأما المجوس فقد سن بهم سنة أهل الكتاب فى أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم لقوله عليه الصلاة والسلام سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحى نسائهم ولا آكلى ذبائحهم ﴿وطعامكم حل لهم﴾ فلا عليكم أن تطعموهم وتبيعوه منهم ولو حرم عليهم لم يجز ذلك ﴿والمحصنات من المؤمنات﴾ رفع على أنه مبتدأ حذف خبره لدلالة ماتقدم عليه أى حل لكم أيضا والمراد بهن الحرائر العفائف وتخصيصهن بالذكر للبعث على ماهو الاولى لالنفى ماعداهن فان نكاح الاماء المسلمات صحيح بالاتفاق وكذا نكاح غير العفائف منهن وأما الاماء الكتابيات فهن كالمسلمات عند أبى حنيفة رضى الله عنه خلافا للشافعى رضى الله عنه ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أى هن أيضا حل لكم وان كن حربيات وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لاتحل الحربيات ﴿اذا آتيتموهن أجورهن﴾ أى مهورهن وتقييد الحل بايتائها لتأكيد وجوبها والحث على الأولى وقيل المراد بايتائها التزامها واذا ظرفية عاملها حل المحذوف وقيل شرطية حذف جوابها أى اذا آتيتموهن أجورهن حللن لكم ﴿محصنين﴾ حال من فاعل آتيتموهن أى حال كونكم أعفاء بالنكاح وكذا قوله تعالى ﴿غير مسافحين﴾ وقيل هو حال من ضمير محصنين وقيل صفة لمحصنين أى غير مجاهرين بالزنا ﴿ولامتخذى أخدان﴾ أى ولامسرين به والخدن الصديق يقع على الذكر والانثى وهو اما مجرور عطفا على مسافحين وزيدت لا لتأكيد النفى المستفاد من غير أو منصوب عطفا على غير مسافحين باعتبار أوجهه الثلاثة ﴿ومن يكفر بالايمان﴾ أى ومن ينكر شرائع الاسلام التى من جملتها مابين ههنا من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمة ويمتنع عن قبولها ﴿فقد حبط عمله﴾ الصالح الذى عمله قبل ذلك ﴿وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ هو مبتدأ من الخاسرين خبره وفى متعلقة بما تعلق به الخبر من الكون المطلق وقيل بمحذوف دل عليه المذكور أى خاسر فى الآخرة وقيل بالخاسرين على أن الالف واللام للتعريف لاموصولة لأن مابعدها لايعمل فيما قبلها وقيل يغتفر فى الظرف مالايغتفر فى غيره كما فى قوله ربيته حتى اذا تمعددا كان جزائى بالعصا أن أجلدا

﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ شروع فى بيان الشرائع المتعلقة بدينهم بعد بيان مايتعلق بدنياهم ﴿اذا قمتم الى الصلوة﴾ أى أردتم القيام اليها كما فى قوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله عبر عن ارادة الفعل بالفعل المسبب عنها مجازا للايجاز والتنبيه على أن من أراد الصلاة حقه أن يبادر اليها بحيث لاينفك عن ارادتها أو اذا قصدتم الصلاة اطلاقا لاسم أحد لازميها على لازمها الآخر وظاهر الآية الكريمة يوجب الوضوء على كل قائم اليها وان لم يكن محدثا لما أن الأمر للوجوب قطعا والاجماع على خلافه وقد روى أن النبي عليه الصلاة والسلام صلى الصلوات الخمس يوم الفتح بوضوء واحد فقال عمر رضى الله تعالى عنه صنعت شيئا لم تكن تصنعه فقال عليه الصلاة والسلام عمدا فعلته ياعمر يعنى بيانا للجواز وحمل الأمر بالنسبة الى غير المحدث على الندب مما لامساغ له فالوجه أن الخطاب خاص بالمحدثين بقرينة دلالة الحال واشتراط الحدث فى التيمم الذى هو بدله وما نقل عن النبي عليه الصلاة والسلام والخلفاء من أنهم كانوا يتوضئون لكل صلاة فلا دلالة فيه على أنهم كانوا يفعلونه بطريق الوجوب أصلا كيف لا وما روى عنه عليه الصلاة والسلام من قوله من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات صريح فى أن ذلك كان منهم بطريق الندب وماقيل كان ذلك أول الأمر ثم نسخ يرده قوله عليه الصلاة والسلام المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ أى أمروا عليها الماء ولاحاجة الى الدلك خلافا لمالك ﴿وأيديكم الى المرافق﴾ الجمهور على دخول المرفقين فى المغسول ولذلك قيل الى بمعنى مع كما فى قوله تعالى ويزدكم قوة الى قوتكم وقيل هى انما تفيد معنى الغاية مطلقا وأما دخولها فى الحكم أو خروجها منه فلا دلالة لها عليه وانما هو أمر يدور على الدليل الخارجى كما فى حفظت القرآن من أوله الى آخره وقوله تعالى فنظرة الى ميسرة فان الدخول فى الاول والخروج فى الثانى متيقن بناء على تحقق الدليل وحيث لم يتحقق ذلك فى الآية وكانت الأيدى متناولة للمرافق حكم بدخولها فيها احتياطا وقيل الى من حيث افادتها للغاية تقتضى خروجها لكن لما لم تتميز الغاية هنا عن ذى الغاية وجب ادخالها احتياطا ﴿وامسحوا برؤسكم﴾ الباء مزيدة وقيل للتبعيض فانه الفارق بين قولك مسحت المنديل ومسحت بالمنديل وتحقيقه أنها تدل على تضمين الفعل معنى الالصاق فكأنه قيل وألصقوا المسح برؤسكم وذلك لايقتضى الاستيعاب كما يقتضيه مالوقيل وامسحوا رؤسكم فانه كقوله تعالى فاغسلوا وجوهكم واختلف العلماء فى القدر الواجب فأوجب الشافعى أقل ما ينطلق عليه الاسم أخذا باليقين وأبو حنيفة ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث مسح على ناصيته وقدرها بربع الرأس ومالك مسح الكل أخذا بالاحتياط ﴿وأرجلكم الى الكعبين﴾ بالنصب عطفا على وجوهكم ويؤيده السنة الشائعة وعمل الصحابة وقول أكثر الأئمة والتحديد اذ المسح لم يعهد محدودا وقرىء بالجر على الجوار ونظيره فى القرآن كثير كقوله تعالى عذاب يوم أليم ونظائره للنحاة فى ذلك باب مفرد وفائدته التنبيه على أنه ينبغى أن يقتصد فى صب الماء عليها ويغسلها غسلا قريبا من المسح وفى الفصل بينه وبين أخواته ايماء الى أفضلية الترتيب وقرىء بالرفع أى وأرجلكم مغسولة ﴿وان كنتم جنبا فاطهروا﴾ أى فاغتسلوا وقرىء فاطهروا أى فطهروا أبدانكم وفى تعليق الأمر بالطهارة الكبرى بالحدث الاكبر اشارة الى اشتراط الأمر بالطهارة الصغرى بالحدث الاصغر ﴿وان كنتم مرضى﴾ مرضا يخاف به الهلاك أو ازدياده باستعمال الماء ﴿أو على سفر﴾ أى مستقرين عليه ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ من لابتداء الغاية وقيل للتبعيض وهى متعلقة بامسحوا وقرىء فأموا صعيدا وقد مر تفسير الآية الكريمة مشبعا فى سورة النساء فليرجع اليه ولعل التكرير ليتصل الكلام فى أنواع الطهارة ﴿مايريد الله﴾ أى مايريد بالامر بالطهارة للصلاة أو بالامر بالتيمم ﴿ليجعل عليكم من حرج﴾ من ضيق فى الامتثال

به ﴿ ولكن يريد ﴾ مايريد بذلك ﴿ ليطهركم ﴾ أى لينظفكم أو ليطهركم عن الذنوب فان الوضوء مكفر لها أو ليطهركم بالتراب اذا أعوزكم التطهر بالماء فمفعول يريد فى الموضعين محذوف واللام للعلة وقيل مزيدة والمعنى مايريد الله أن يجعل عليكم من حرج فى باب الطهارة حتى لايرخص لكم فى التيمم ولكن يريد أن يطهركم بالتراب اذا أعوزكم التطهر بالماء ﴿ وليتم ﴾ بشرعه ماهو مطهرة لابدانكم ومكفرة لذنوبكم ﴿ نعمته عليكم ﴾ فى الدين أو ليتم برخصة انعامه عليكم بعزائمه ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ نعمته ومن لطائف الآية الكريمة أنها مشتملة على سبعة أمور كلها مثنى طهارتان أصل وبدل والاصل اثنان مستوعب وغير مستوعب وغير المستوعب باعتبار الفعل غسل ومسح وباعتبار المحل محدود وغير محدود وأن آلتهما مائع وجامد وموجبهما حدث أصغر وأكبر وأن المبيح للعدول الى البدل مرض وسفر وان الموعود عليهما تطهير الذنوب واتمام النعمة ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ﴾ بالاسلام لتذكركم المنعم وترغبكم فى شكره ﴿ وميثاقه الذى واثقكم به ﴾ أى عهده المؤكد الذى أخذه عليكم وقوله تعالى ﴿ اذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ ظرف لواثقكم به أو لمحذوف وقع حالا من الضمير المجرور فى به أو من ميثاقه أى كائنا وقت قولكم سمعنا وأطعنا وفائدة التقييد به تأكيد وجوب مراعاته بتذكر قبولهم والتزامهم بالمحافظة عليه وهو الميثاق الذى أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله عليه الصلاة والسلام على السمع والطاعة فى حال العسر واليسر والمنشط والمكره وقيل هو الميثاق الواقع ليلة العقبة وفى بيعة الرضوان واضافته اليه تعالى مع صدوره عنه عليه الصلاة والسلام لكون المرجع اليه كما نطق به قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله وقال مجاهد هو الميثاق الذى أخذه الله تعالى على عباده حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام ﴿ واتقوا الله ﴾ أى فى نسيان نعمته ونقض ميثاقه أو فى كل ماتأتون وماتذرون فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا ﴿ ان الله عليم بذات الصدور ﴾ أى بخفياتها الملابسة لها ملابسة تامة مصححة لاطلاق الصاحب عليها فيجازيكم عليها فما ظنكم بجليات الاعمال والجملة اعتراض تذييلى وتعليل للامر بالاتقاء واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة ﴿ ياأيها الذين آمنوا ﴾ شروع فى بيان الشرائع المتعلقة بما يجرى بينهم وبين غيرهم اثر بيان مايتعلق بأنفسهم ﴿ كونوا قوامين لله ﴾ مقيمين لأوامره ممتثلين بها معظمين لها مراعين لحقوقها ﴿ شهداء بالقسط ﴾ أى بالعدل ﴿ ولايجرمنكم ﴾ أى لايحملنكم ﴿ شنآن قوم ﴾ أى شدة بغضكم لهم ﴿ على أن لاتعدلوا ﴾ فلا تشهدوا فى حقوقهم بالعدل أو فتعتدوا عليهم بارتكاب مالايحل كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفياً وغير ذلك ﴿ اعدلوا هو ﴾ أى العدل ﴿ أقرب للتقوى ﴾ الذى أمرتم به صرح لهم بالامر بالعدل وبين أنه بمكان من التقوى بعد مانهاهم عن الجور وبين أنه مقتضى الهوى واذا كان وجوب العدل فى حق الكفار بهذه المثابة فما ظنك بوجوبه فى حق المسلمين ﴿ واتقوا الله ﴾ أمر بالتقوى اثر مابين أن العدل أقرب له اعتناء بشأنه وتنبيها على أنه ملاك الأمر ﴿ ان الله خبير بما تعملون ﴾ من الأعمال فيجازيكم بذلك وتكرير هذا الحكم امالاختلاف السبب كما قيل ان الاول نزل فى المشركين وهذا فى اليهود أو لمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة فى اطفاء ثائرة الغيظ والجملة تعليل لما قبلها واظهار الجلالة لما مر مرات وحيث كان مضمونها منبئا عن الوعد والوعيد عقب بالوعد لمن يحافظ على طاعته تعالى وبالوعيد لمن يخل بها فقيل ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ التى من جملتها العدل والتقوى ﴿ لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ حذف ثانى مفعولى وعد استغناء عنه بهذه الجملة فانه استئناف مبين له وقيل الجملة فى موقع المفعول فان الوعد ضرب من القول فكأنه قيل وعدهم هذا القول ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ التى من جملتها ماتليت من النصوص الناطقة بالأمر

بالعدل والتقوى ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الكفر وتكذيب الآيات ﴿أصحاب الجحيم﴾ ملابسوها ملابسة مؤبدة . من السنة السنية القرآنية شفع الوعد بالوعيد والجمع بين الترغيب والترهيب ايفاء لحق الدعوة بالتبشير والانذار ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾ تذكير لنعمة الانجاء من الشر اثر تذكير نعمة ايصال الخير الذى هو نعمة الاسلام وما يتبعها من الميثاق وعليكم متعلق بنعمة الله أو بمحذوف وقع حالا منها وقوله تعالى ﴿اذهم قوم﴾ على الاول ظرف لنفس النعمة وعلى الثانى لما تعلق به عليكم ولا سبيل الى كونه ظرفا لاذكروا لتنافى زمانيهما أى اذكروا انعامه تعالى عليكم أو اذكروا نعمته كائنة عليكم فى وقت همهم ﴿أن يبسطوا اليكم أيديهم﴾ أى بأن يبطشوا بكم بالقتل والاهلاك يقال بسط اليه يده اذا بطش به و بسط اليه لسانه اذا شتمه وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للمسارعة الى بيان رجوع ضرر البسط وغائلته اليهم حملا لهم من أول الأمر على الاعتداد بنعمة دفعه كما أن تقديم لكم فى قوله عز وجل هو الذى خلق لكم مافى الأرض للمبادرة الى بيان كون المخلوق من منافعهم تعجيلا للمسرة ﴿فكف أيديهم عنكم﴾ عطف على هم وهو النعمة التى أريد تذكيرها وذكر الهم للايذان بوقوعها عند مزيد الحاجة اليها والفاء للتعقيب المفيد لتمام النعمة وكمالها واظهار أيديهم فى موقع الاضمار لزيادة التقرير أى منع أيديهم أن تمد اليكم عقيب همهم بذلك لا أنه كفها عنكم بعدما مدوها اليكم وفيه من الدلالة على كمال النعمة من حيث أنها لم تكن مشوبة بضرر الخوف والانزعاج الذى قلما يعرى عنه الكف بعد المد مالا يخفى مكانه وذلك ماروى أن المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعسفان فى غزوة ذى أنمار وهى غزوة ذات الرقاع وهى السابعة من مغازيه عليه الصلاة والسلام قاموا الى الظهر معا فلما صلوا ندم المشركون ألا كانوا قد أكبوا عليهم فقالوا ان لهم بعدها صلاة هى أحب اليهم من آبائهم وأبنائهم يعنون صلاة العصر وهموا أن يوقعوا بهم اذا قاموا اليها فرد الله تعالى كيدهم بأن أنزل صلاة الخوف وقيل هو ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بنى قريظة ومعه الشيخان وعلى رضى الله تعالى عنهم يستقرضهم لدية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى خطأ يحسبهما مشركين فقالوا نعم يا أبا القاسم اجلس حتى نطعمك ونعطيك ماسألت فأجلسوه فى صفة وهموا بالفتك به وعمد عمرو بن جحاش الى رحا عظيمة يطرحها عليه فأمسك الله تعالى يده ونزل جبريل عليه السلام فأخبره فخرج عليه الصلاة والسلام وقيل هو ماروى أنه عليه الصلاة والسلام نزل منزلا وتفرق أصحابه فى العضاه يستظلون بها فعلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه بشجرة فجاء أعرابى فأخذه وسله فقال من يمنعك منى فقال صلى الله عليه وسلم الله تعالى فأسقطه جبريل عليه السلام من يده فأخذه الرسول عليه الصلاة والسلام فقال من يمنعك منى فقال لا أحد أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ﴿واتقوا الله﴾ عطف على اذكروا أى اتقوه فى رعاية حقوق نعمته ولا تخلوا بشكرها أو فى كل ماتأتون وماتذرون فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا ﴿وعلى الله﴾ أى عليه تعالى خاصة دون غيره استقلالا واشتراكا ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ فانه يكفيهم فى ايصال كل خير ودفع كل شر والجملة تذييل مقرر لما قبله وايثار صيغة أمر الغائب واسنادها الى المؤمنين لايجاب التوكل على المخاطبين بالطريق البرهانى وللايذان بأن ماوصفوا به عند الخطاب من وصف الايمان داع الى ماأمروا به من التوكل والتقوى وازع عن الاخلال بهما واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة التذييلية ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل﴾ كلام مستأنف مشتمل على ذكر بعض ماصدر عن بنى اسرائيل من الخيانة ونقض الميثاق وما أدى اليه ذلك من التبعات مسوق لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله تعالى ومراعاة حق الميثاق الذى واثقهم به وتحذيرهم من نقضه أو لتقرير ماذكر من الهم بالبطش وتحقيقه على تقدير كون ذلك من بنى قريظة حسبما

مر من الرواية ببيان أن الغدر والخيانة عادة لهم قديمة توارثوها من أسلافهم واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتفخيم الميثاق وتهويل الخطب فى نقضه مع مافيه من رعاية حق الاستئناف المستدعى للانقطاع عما قبله والالتفات فى قوله تعالى ﴿وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا﴾ للجرى على سنن الكبرياء أو لأن البعث كان بواسطة موسى عليه السلام كما سيأتى وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر والنقيب فعيل بمعنى فاعل مشتق من النقب وهو التفتيش ومنه قوله تعالى فنقبوا فى البلاد سمى بذلك لتفتيشه عن أحوال القوم وأسرارهم . قال الزجاج وأصله من النقب وهو الثقب الواسع . روى أن بنى اسرائيل لما استقروا بمصر بعد مهلك فرعون أمرهم الله عز وجل بالمسير الى أريحاء أرض الشام وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون وقال لهم انى كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرجوا اليها وجاهدوا من فيها وانى ناصركم وأمر موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيبا أمينا يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقة عليهم فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بنى اسرائيل وتكفل اليهم النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون فرأوا أجراما عظيمة وقوة وشوكة فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم بما رأوا وقد نهاهم موسى عن ذلك فنكثوا الميثاق الا كالب بن يوفنا نقيب سبط يهوذا ويوشع بن نون نقيب سبط افرايم بن يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام قيل لما توجه النقباء الى أرضهم للتجسس لقيهم عوج بن عنق وكان طوله ثلاثة آلاف وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وقد عاش ثلاثة آلاف سنة وكان على رأسه حزمة حطب فأخذهم وجعلهم فى الحزمة وانطلق بهم الى امرأته وقال انظرى الى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا فطرحهم بين يديها وقال ألا أطحنهم برجلى فقالت لا بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا ففعل فجعلوا يتعرفون أحوالهم وكان لايحمل عنقود عنبهم الاخمسة رجال أو أربعة فلما خرج النقباء قال بعضهم لبعض ان أخبرتم بنى اسرائيل بخبر القوم ارتدوا عن نبى الله ولكن اكتموه الا عن موسى وهرون عليهما السلام فيكونان هما يريان رأيهما فأخذ بعضهم على بعض الميثاق ثم انصرفوا الى موسى عليه السلام وكان معهم حبة من عنبهم وقر رجل فنكثوا عهدهم وجعل كل منهم ينهى سبطه عن قتالهم ويخبرهم بما رأى الا كالب ويوشع وكان معسكر موسى فرسخا فى فرسخ فجاء عوج حتى نظر اليهم ثم رجع الى الجبل فقور منه صخرة عظيمة على قدر العسكر ثم حملها على رأسه ليطبقها عليهم فبعث الله تعالى الهدهد فقور من الصخرة وسطها المحاذى لرأسه فانثقبت فوقعت فى عنق عوج وطوقته فصرعته وأقبل موسى عليه السلام وطوله عشرة أذرع وكذا طول العصا فترامى فى السماء عشرة أذرع فما أصاب العصا الا كعبه وهو مصروع فقتله قالوا فأقبلت جماعة ومعهم الخناجر حتى حزوا رأسه ﴿وقال الله﴾ أى لبنى اسرائيل فقط اذ هم المحتاجون الى ماذكر من الترغيب والترهيب كما ينبئ عنه الالتفات مع مافيه من تربية المهابة وتأكيد مايتضمنه الكلام من الوعد ﴿انى معكم﴾ أى بالعلم والقدرة والنصرة لا بالنصرة فقط فان تنبيههم على علمه تعالى بكل مايأتون وما يذرون وعلى كونهم تحت قدرته وملكوته مما يحملهم على الجد فى الامتثال بما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه كأنه قيل انى معكم أسمع كلامكم وأرى أعمالكم وأعلم ضمائركم فأجازيكم بذلك هذا وقد قيل المراد بالميثاق هو الميثاق بالايمان والتوحيد وبالنقباء ملوك بنى اسرائيل الذين ينقبون أحوالهم ويلون أمورهم بالأمر والنهى واقامة العدل وهو الانسب بقوله تعالى ﴿لئن أقمتم الصلوة وآتيتم الزكوة وآمنتم برسلى﴾ أى بجميعهم واللام موطئة للقسم المحذوف وتأخير الايمان عن اقامة الصلاة وايتاء الزكاة مع كونهما من الفروع المترتبة عليه لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما مع ارتكابهم لتكذيب بعض الرسل عليهم السلام ولمراعاة المقارنة بينه وبين قوله تعالى ﴿وعزرتموهم﴾ أى نصرتموهم وقويتموهم وأصله الذب وقيل التعظيم والتوقير

والثناء بخير وقرئ وعزرتموهم بالتخفيف ﴿وأقرضتم الله﴾ بالانفاق فى سبيل الخير أو بالتصدق بالصدقات المندوبة وقوله تعالى ﴿قرضا حسنا﴾ اما مصدر مؤكد وارد على غير صيغة المصدر كما فى قوله تعالى فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا أو مفعول ثان لأقرضتم على أنه اسم للمال المقرض وقوله تعالى ﴿لأكفرن عنكم سيآتكم﴾ جواب للقسم المدلول عليه باللام ساد مسد جواب الشرط ﴿ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ عطف على ماقبله داخل معه فى حكم الجواب متأخر عنه فى الحصول أيضا ضرورة تقدم التخلية على التحلية ﴿فمن كفر﴾ أى برسلى أو بشئ مما عدد فى حيز الشرط والفاء لترتيب بيان حكم من كفر على بيان حكم من آمن تقوية للترغيب بالترهيب ﴿بعد ذلك﴾ الشرط المؤكد المعلق به الوعد العظيم الموجب للايمان قطعا ﴿منكم﴾ متعلق بمضمر وقع حالا من فاعل كفر ولعل تغيير السبك حيث لم يقل وان كفرتم عطفا على الشرطية السابقة لاخراج كفر الكل عن حيز الاحتمال واسقاط من كفر عن رتبة الخطاب وليس المراد احداث الكفر بعد الايمان بل مايعم الاستمرار عليه أيضا كأنه قيل فمن اتصف بالكفر بعد ذلك خلا أنه قصد بايراد مايدل على الحدوث بيان ترقيهم فى مراتب الكفر فان الاتصاف بشئ بعد ورود مايوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أى وسط الطريق الواضح ضلالا بينا وأخطأه خطأ فاحشا لاعذر معه أصلا بخلاف من كفر قبل ذلك اذ ربما يمكن أن يكون له شبهة ويتوهم له معذرة ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ الباء سببية وما مزيدة لتأكيد الكلام وتمكينه فى النفس أى بسبب نقضهم ميثاقهم المؤكد لابشئ آخر استقلالا أو انضماما ﴿لعناهم﴾ طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا أو مسخناهم قردة وخنازير أو أذللناهم بضرب الجزية عليهم وتخصيص البيان بماذكر مع أن حقه أن يبين بعد بيان تحقق نفس اللعن والنقض بأن يقال مثلا فنقضوا ميثاقهم فلعناهم ضرورة تقدم هيئة الشئ البسيطة على هيئته المركبة للايذان بأن تحققهما أمر جلى غنى عن البيان وانما المحتاج الى ذلك مابينهما من السببية والمسببية ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ بحيث لاتتأثر من الآيات والنذر وقيل أمليناهم ولم نعاجلهم بالعقوبة حتى قست أو خذلناهم ومنعناهم الالطاف حتى صارت كذلك وقرئ قسية وهى اما مبالغة قاسية واما بمعنى رديئة من قولهم درهم قسى أى ردئ اذا كان مغشوشا له يبس وخشونة وقرئ بكسر القاف اتباعا لها بالسين ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ استئناف لبيان مرتبة قساوة قلوبهم فانه لامرتبة أعظم مما يصحح الاجتراء على تغيير كلام الله عز وجل والافتراء عليه وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقيل حال من مفعول لعناهم ﴿ونسوا حظا﴾ أى تركوا نصيبا وافرا ﴿مما ذكروا به﴾ من التوراة أو من اتباع محمد عليه الصلاة والسلام وقيل حرفوا التوراة وزلت أشياء منها عن حفظهم وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية ﴿ولاتزال تطلع على خائنة منهم﴾ أى خيانة على أنها مصدر كلاغية وكاذبة أو فعلة خائنة أى ذات خيانة أو طائفة خائنة أو شخص خائنة على أن التاء للمبالغة أو نفس خائنة ومنهم متعلق بمحذوف وقع صفة لها خلا أن من على الوجهين الأولين ابتدائية أى على خيانة أو على فعلة خائنة كائنة منهم صادرة عنهم وعلى الوجوه الباقية تبعيضية والمعنى أن الغدر والخيانة عادة مستمرة لهم ولأسلافهم بحيث لايكادون يتركونها أو يكتمونها فلاتزال ترى ذلك منهم ﴿الاقليلا منهم﴾ استثناء من الضمير المجرور فى منهم على الوجوه كلها وقيل من خائنة على الوجوه الثلاثة الأخيرة والمراد بهم الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل من خائنة على الوجه الثانى فالمراد بالقليل الفعل القليل ومن ابتدائية كما مر أى الافعلا قليلا كائنا منهم ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ أى ان تابوا وآمنوا أو عاهدوا والتزموا الجزية وقيل مطلق نسخ بآية السيف ﴿ان الله يحب المحسنين﴾ تعليل للامر وحث على الامتثال به

وتنبيه على أن العفو على الاطلاق من باب الاحسان ﴿ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم﴾ بيان لقبائح النصارى وجناياتهم اثر بيان قبائح اليهود وخياناتهم ومن متعلقة بأخذنا اذ التقدير وأخذنا من الذين قالوا انا نصارى ميثاقهم وتقديم الجار والمجرور للاهتمام به ولان ذكر حال احدى الطائفتين مما يوقع فى ذهن السامع أن حال الاخرى ماذا فكأنه قيل ومن الطائفة الاخرى أيضا أخذنا ميثاقهم وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع خبراً لمبتدا محذوف قامت صفته أوصلته مقامه أى ومنهم قوم أخذنا ميثاقهم أومن أخذنا ميثاقهم وضمير ميثاقهم راجع الى الموصوف المقدر وأما فى الوجه الأول فراجع الى الموصول وقيل راجع الى بنى اسرائيل أى أخذنا من هؤلاء ميثاق أولئك أى مثل ميثاقهم من الايمان بالله والرسل وبما يتفرع على ذلك من أفعال الخير وانما نسب تسميتهم نصارى الى أنفسهم دون أن يقال ومن النصارى ايذانا بأنهم فى قولهم نحن أنصار الله بمعزل من الصدق وانما هو تقول محض منهم وليسوا من نصرة الله تعالى فى شىء أو اظهاراً لكمال سوء صنيعهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم فان ادعاءهم لنصرته تعالى يستدعى ثباتهم على طاعته تعالى ومراعاة ميثاقه ﴿فنسوا﴾ عقيب أخذ الميثاق من غير تلعثم ﴿حظا﴾ وافرا ﴿مما ذكروا به﴾ فى تضاعيف الميثاق من الايمان بالله تعالى وغير ذلك حسبما مر آنفا وقيل هو ما كتب عليهم فى الانجيل من أن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام فتركوه ونبذوه وراء ظهورهم واتبعوا أهواءهم فاختلفوا وتفرقوا نسطورية ويعقوبية وملكانية أنصارا للشيطان ﴿فأغرينا﴾ أى ألزمنا وألصقنا من غرى بالشىء اذا لزمه ولصق به وأغراه غيره ومنه الغراء وقوله تعالى ﴿بينهم﴾ اما ظرف لأغرينا أومتعلق بمحذوف وقع حالا من مفعوله أى أغرينا ﴿العداوة والبغضاء﴾ كائنة بينهم ولا سبيل الى جعله ظرفا لهما لأن المصدر لا يعمل فيما قبله وقوله تعالى ﴿الى يوم القيامة﴾ اما غاية للاغراء أوللعداوة والبغضاء أى يتعادون ويتباغضون الى يوم القيامة حسبما تقتضيه أهواؤهم المختلفة وآراؤهم الزائغة المؤدية الى التفرق الى الفرق الثلاث فضمير بينهم لهم خاصة وقيل لهم ولليهود أى أغرينا العداوة والبغضاء بين اليهود والنصارى ﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ وعيد شديد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت أى يجازيهم بما عملوه على الاستمرار من نقض الميثاق ونسيان الحظ الوافر مما ذكروا به وسوف لتأكيد الوعيد والالتفات الى ذكر الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة لتشديد الوعيد والتعبير عن العمل بالصنع للايذان برسوخهم فى ذلك وعن المجازاة بالتنبئة للتنبيه على أنهم لا يعلمون حقيقة ما يعملونه من الأعمال السيئة واستتباعها للعذاب فيكون ترتيب العذاب عليها فى افادة العلم بحقيقة حالها بمنزلة الاخبار بها ﴿يا أهل الكتاب﴾ التفات الى خطاب الفريقين على أن الكتاب جنس شامل للتوراة والانجيل اثر بيان أحوالهما من الخيانة وغيرها من فنون القبائح ودعوة لهم الى الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن وايرادهم بعنوان أهلية الكتاب لانطواء الكلام المصدر به على ما يتعلق بالكتاب وللمبالغة فى التشنيع فان أهلية الكتاب من موجبات مراعاته والعمل بمقتضاه وبيان ما فيه من الأحكام وقد فعلوا من الكتم والتحريف ما فعلوا وهم يعلمون ﴿قد جاءكم رسولنا﴾ الاضافة للتشريف والايذان بوجوب اتباعه وقوله تعالى ﴿يبين لكم﴾ حال من رسولنا وايثار الجملة الفعلية على غيرها للدلالة على تجدد البيان أى قد جاءكم رسولنا حال كونه مبينا لكم على التدريج حسبما تقتضيه المصلحة ﴿كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ أى التوراة والانجيل كبعثة محمد عليه الصلاة والسلام وآية الرجم فى التوراة وبشارة عيسى بأحمد عليهما السلام فى الانجيل وتأخير كثيرا عن الجار والمجرور لما مر مرارا من اظهار العناية بالمقدم لما فيه من تعجيل المسرة والتشويق الى المؤخر لأن ما حقه التقديم اذا أخر لاسيما مع الاشعار بكونه من منافع المخاطب تبقى النفس

مترقبة الى وروده فيتمكن عندها اذا ورد فضل تمكن ولأن فى المؤخر ضرب تفصيل ربما يخل تقديمه بتجاذب أطراف النظم الكريم فانما متعلق بمحذوف وقع صفة لكثيرا وماموصولة اسمية ومابعدها صلتها والعائد اليها محذوف ومن الكتاب متعلق بمحذوف هو حال من العائد المحذوف والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرارهم على الكتم والاخفاء أى يبين لكم كثيرا من الذى تخفونه على الاستمرار حال كونه من الكتاب الذى أنتم أهله والمتمسكون به ﴿ويعفو عن كثير﴾ أى ولا يظهر كثيرا مما تخفونه اذا لم تدع اليه داعية دينية صيانة لكم عن زيادة الافتضاح كما يفصح عنه التعبير عن عدم الاظهار بالعفو وفيه حث لهم على عدم الاخفاء ترغيبا وترهيبا والجملة معطوفة على الجملة الحالية داخلة فى حكمها وقيل يعفو عن كثير منكم ولا يؤاخذه وقوله تعالى ﴿قد جاءكم من الله نور﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان أن فائدة مجىء الرسول ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفونه بل له منافع لا تحصى ومن الله متعلق بجاء ومن لابتداء الغاية مجازا أو بمحذوف وقع حالا من نور وأيا ما كان فهو تصريح بما يشعر به اضافة الرسول من مجيئه من جنابه عز وجل وتقديم الجار والمجرور على الفاعل للمسارعة الى بيان كون المجىء من جهته العالية والتشويق الى الجائى ولأن فيه نوع تطويل يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم كما فى قوله تعالى وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين وتنوين نور للتفخيم والمراد به وبقوله تعالى ﴿وكتاب مبين﴾ القرآن لما فيه من كشف ظلمات الشرك والشك وابانة ماخفى على الناس من الحق والاعجاز البين والعطف لتنزيل المغايرة بالعنوان منزلة المغايرة بالذات وقيل المراد بالأول هو الرسول عليه الصلاة والسلام وبالثانى القرآن ﴿يهدى به الله﴾ توحيد الضمير المجرور لاتحاد المرجع بالذات أو لكونهما فى حكم الواحد أو أريد يهدى بما ذكر وتقديم الجار والمجرور للاهتمام واظهار الجلالة لاظهار كمال الاعتناء بأمر الهداية ومحل الجملة الرفع على أنها صفة ثانية لكتاب أو النصب على الحالية منه لتخصصه بالصفة ﴿من اتبع رضوانه﴾ أى رضاه بالايمان به ومن موصولة أو موصوفة ﴿سبل السلام﴾ أى طرق السلامة من العذاب والنجاة من العقاب أو سبل الله تعالى وهى شريعته التى شرعها للناس قيل هو مفعول ثان ليهدى والحق أن انتصابه بنزع الخافض على طريقة قوله تعالى واختار موسى قومه وانما يعدى الى الثانى بالى أو باللام كما فى قوله تعالى ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴿ويخرجهم﴾ الضمير لمن والجمع باعتبار المعنى كما أن الافراد فى اتبع باعتبار اللفظ ﴿من الظلمات﴾ أى ظلمات فنون الكفر والضلال ﴿الى النور﴾ الى الايمان ﴿باذنه﴾ بتيسيره أو بارادته ﴿ويهديهم الى صراط مستقيم﴾ هو أقرب الطرق الى الله تعالى ومؤد اليه لامحالة وهذه الهداية عين الهداية الى سبل السلام وانما عطفت عليها تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى كما فى قوله تعالى ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ﴿لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم﴾ أى لاغير كما يقال الكرم هو التقوى وهم اليعقوبية القائلون بأنه تعالى قد يحل فى بدن انسان معين أو فى روحه وقيل لم يصرح به أحد منهم لكن حيث اعتقدوا اتصافه بصفات الله الخاصة وقد اعترفوا بأن الله تعالى موجود فلزمهم القول بأنه المسيح لاغير وقيل لما زعموا أن فيه لاهوتا وقالوا لا اله الا واحد لزمهم أن يكون هو المسيح فنسب اليهم لازم قولهم توضيحا لجهلهم وتفضيحا لمعتقدهم ﴿قل﴾ أى تبكيتا لهم واظهارا لبطلان قولهم الفاسد والقاما لهم الحجر والفاء فى قوله تعالى ﴿فمن يملك من الله شيئا﴾ نصيحة ومن استفهامية للانكار والتوبيخ والملك الضبط والحفظ التام عن حزم ومن متعلقة به على حذف المضاف أى ان كان الامر كما تزعمون فمن يمنع من قدرته تعالى وارادته شيئا وحقيقته فمن يستطيع أن يمسك شيئا منهما ﴿ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الارض جميعا﴾ ومن حق من

يكون الهاً أن لا يتعلق به و لا بشأن من شئونه بل بشيء من الموجودات قدرة غيره بوجه من الوجوه فضلا عن أن يعجز
عن دفع شيء منها عند تعلقها بهلاكه فلما كان عجزه بينا لا ريب فيه ظهر كونه بمعزل مما تقولوا فى حقه والمراد بالاهلاك
الاماتة والاعدام مطلقا لا بطريق السخط والغضب واظهار المسيح على الوجه الذى نسبوا اليه الألوهية فى مقام الاضمار
لزيادة التقرير والتنصيص على أنه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره وملكوته تعالى ونفى المالكية المذكورة
بالاستفهام الانكارى عن كل أحد مع تحقق الالزام والتبكيت بنفيها عن المسيح فقط بأن يقال فهل يملك شيئاً من الله
ان أراد الخ لتحقيق الحق بنفى الألوهية عن كل ماعداه سبحانه واثبات المطلوب فى ضمنه بالطريق البرهانى فان انتفاء
المالكية المستلزم لاستحالة الألوهية متى ظهر بالنسبة الى الكل ظهر بالنسبة الى المسيح على أبلغ وجه وآكده فيظهر
استحالة ألوهيته قطعا وتعميم ارادة الاهلاك للكل مع حصول ماذكر من التحقيق بقصرها عليه بأن يقال فمن يملك من
الله شيئاً ان أراد أن يهلك المسيح لتهويل الخطب واظهار كمال العجز ببيان أن الكل تحت قهره تعالى وملكوته لا يقدر
أحد على دفع ما أريد به فضلا عن دفع ما أريد بغيره وللايذان بأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات فى كونه عرضة للهلاك كما
أنه أسوة لها فيما ذكر من العجز وعدم استحقاق الألوهية وتخصيص أمه بالذكر مع اندراجها فى ضمن من فى الارض
لزيادة تأكيد عجز المسيح ولعل نظمها فى سلك من فرض ارادة اهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل ذلك لتأكيد التبكيت
وزيادة تقرير مضمون الكلام بجعل حالها انموذجا لحال بقية من فرض اهلاكه كأنه قيل قل فمن يملك من الله شيئا ان
أراد أن يهلك المسيح وأمه ومن فى الارض وقد أهلك أمه فهل مانعه أحد فكذا حال من عداها من الموجودين وقوله
تعالى ﴿ولله ملك السموات والارض وما بينهما﴾ أى ما بين قطرى العالم الجسمانى لا بين وجه الارض ومقعر فلك
القمر فقط فيتناول ما فى السموات من الملائكة عليهم السلام وما فى أعماق الارض والبحار من المخلوقات تنصيص على
كون الكل تحت قهره تعالى وملكوته اثر الاشارة الى كون البعض أى من فى الأرض كذلك أى له تعالى وحده ملك
جميع الموجودات والتصرف المطلق فيها ايجادا واعداما واحياء واماتة لا لأحد سواه استقلالا ولا اشتراكا فهو تحقيق
لاختصاص الألوهية به تعالى اثر بيان انتفائها عن كل ماسواه وقوله تعالى ﴿يخلق ما يشاء﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان
بعض أحكام الملك والألوهية على وجه يزيح ما اعتراهم من الشبهة فى أمر المسيح لولادته من غير أب وخلق الطير واحياء
الموتى وابراء الأكمه والأبرص أى يخلق ما يشاء من أنواع الخلق والايجاد على أن ما نكرة موصوفة محلها النصب على المصدرية
لا على المفعولية كأنه قيل يخلق أى خلق يشاؤه فتارة يخلق من غير أصل كخلق السموات والارض وأخرى من أصل كخلق
ما بينهما فينشىء من أصل ليس من جنسه كخلق آدم وكثير من الحيوانات ومن أصل يجانسه اما من ذكر وحده كخلق
حواء أو انثى وحدها كخلق عيسى عليه السلام أو منهما كخلق سائر الناس ويخلق بلا توسط شيء من المخلوقات كخلق عامة
المخلوقات وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر كخلق الطير على يد عيسى عليه السلام معجزة له واحياء الموتى وابراء الاكمه
والأبرص وغير ذلك فيجب أن ينسب كله اليه تعالى لا الى من أجرى ذلك على يده ﴿والله على كل شيء قدير﴾
اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله واظهار الاسم الجليل للتعليل وتقوية استقلال الجملة ﴿وقالت اليهود والنصارى
نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة وبيان لبطلانها بعد ذكر ما صدر عن
أحدهما وبيان بطلانه أى قالت اليهود نحن أشياع ابنه عزير وقالت النصارى نحن أشياع ابنه المسيح كما قيل لأشياع أبى
خبيب وهو عبد الله بن الزبير الخبيبيون وكما يقول أقارب الملوك عند المفاخرة نحن الملوك وقال ابن عباس رضى الله تعالى
عنهما ان النبى عليه الصلاة والسلام دعا جماعة من اليهود الى دين الاسلام وخوفهم بعقاب الله تعالى فقالوا كيف تخوفنا

به ونحن أبناء الله وأحباؤه وقيل ان النصارى يتلون فى الانجيل أن المسيح قال لهم انى ذاهب الى أبى وأبيكم وقيل أرادوا أن الله تعالى كالأب لنا فى الحنو والعطف ونحن كالأبناء له فى القرب والمنزلة وبالجملة أنهم كانوا يدعون أن لهم فضلا ومزية عند الله تعالى على سائر الخلق فرد عليهم ذلك وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿قل﴾ الزاما لهم وتبكيتا ﴿فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ أى ان صح مازعمتم فلأى شىء يعذبكم فى الدنيا بالقتل والأسر والمسخ وقد اعترفتم بأنه تعالى سيعذبكم فى الآخرة بالنار أياما بعدد أيام عبادتكم العجل ولوكان الأمر كما زعمتم لما صدر عنكم ماصدر ولما وقع عليكم ماوقع وقوله تعالى ﴿بل أنتم بشر﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى لستم كذلك بل أنتم بشر ﴿ممن خلق﴾ أى من جنس من خلقه الله تعالى من غير مزية لكم عليهم ﴿يغفر لمن يشاء﴾ أن يغفر له من أولئك المخلوقين وهم الذين آمنوا به تعالى وبرسله ﴿ويعذب من يشاء﴾ أن يعذبه منهم وهم الذين كفروا به وبرسله مثلكم ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ من الموجودات لاينتمى اليه سبحانه شىء منها الا بالمملوكية والعبودية والمقهورية تحت ملكوته يتصرف فيهم كيف يشاء ايجادا واعداما احياء واماتة واثابة وتعذيبا فأنى لهم ادعاء مازعموا ﴿واليه المصير﴾ فى الآخرة خاصة لاالى غيره استقلالا أو اشتراكا فيجازى كلا من المحسن والمسىء بما يستدعيه عمله من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلويه ﴿ياأهل الكتاب﴾ تكرير للخطاب بطريق الالتفات ولطف فى الدعوة ﴿قد جاءكم رسولنا يبين لكم﴾ حال من رسولنا وايثاره على مبينا لما مر فيما سبق أى يبين لكم الشرائع والأحكام الدينية المقرونة بالوعد والوعيد ومن جملتها مابين فى الآيات السابقة من بطلان أقاويلكم الشنعاء وما سيأتى من أخبار الأمم السالفة وانما حذف تعويلا على ظهور أن مجىء الرسول انما هو لبيانها أو ينزل لكم البيان ويبذله لكم فى كل ماتحتاجون فيه الى البيان من أمور الدين وأما تقدير مثل ما سيق فى قوله تعالى كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب كما قيل فمع كونه تكريرا من غير فائدة يرده قوله عز وجل ﴿على فترة من الرسل﴾ فان فتور الارسال وانقطاع الوحى انما يحوج الى بيان الشرائع والأحكام لاالى بيان ما كتموه وعلى فترة متعلق بجاءكم على الظرفية كما فى قوله تعالى واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان أى جاءكم على حين فتور من الارسال وانقطاع من الوحى ومزيد احتياج الى بيان الشرائع والأحكام الدينية أو بمحذوف وقع حالا من ضمير يبين أو من ضمير لكم أى يبين لكم ماذكر حال كونه على فترة من الرسل أو حال كونكم عليها أحوج ما كنتم الى البيان ومن الرسل متعلق بمحذوف وقع صفة لفترة أى كائنة من الرسل مبتدأة من جهتهم وقوله تعالى ﴿أن تقولوا﴾ تعليل لمجىء الرسول بالبيان على حذف المضاف أى كراهة أن تقولوا معتذرين عن تفريطكم فى مراعاة أحكام الدين ﴿ماجاءنا من بشير ولا نذير﴾ وقد انطمست آثار الشرائع السابقة وانقطعت أخبارها وزيادة من فى الفاعل للمبالغة فى نفى المجىء وتنكير بشير ونذير للتقليل وهذا كما ترى يقتضى أن المقدر أو المنوى فيما سبق هو الشرائع والأحكام لا كيفما كانت بل مشفوعة بما ذكر من الوعد والوعيد وقوله تعالى ﴿فقد جاءكم بشير ونذير﴾ متعلق بمحذوف ينبىء عنه الفاء الفصيحة وتبين أنه معلل به وتنوين بشير ونذير للتفخيم أى لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم بشير أى بشير ونذير أى نذير ﴿والله على كل شىء قدير﴾ فيقدر على الارسال تترى كما فعله بين موسى وعيسى عليهما السلام حيث كان بينهما ألف وسبعمائة سنة وألف نبى وعلى الارسال بعد الفترة كما فعله بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام حيث كان بينهما ستمائة سنة أو خمسمائة وتسع وستون سنة أو خمسمائة وست وأربعون سنة وأربعة أنبياء على ماروى الكلبى ثلاثة من بنى اسرائيل وواحد من العرب خالد بن سنان العبسى وقيل لم يكن بعد عيسى عليه السلام الا رسول الله عليه السلام وهو الأنسب بما فى تنوين فترة من التفخيم اللائق بمقام الامتنان عليهم بأن الرسول قد بعث اليهم عند كمال حاجتهم اليه بسبب مضى دهر طويل

بعد انقطاع الوحى ليهشوا اليه و يعدوه أعظم نعمة من الله تعالى وفتح باب الى الرحمة وتلزمهم الحجة فلا يعتلوا غدا بأنه لم يرسل اليهم من ينبههم من غفلتهم ﴿واذ قال موسى لقومه﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان مافعلت بنو اسرائيل بعد أخذ الميثاق منهم وتفصيل كيفية نقضهم له وتعلقه بما قبله من حيث أن ماذكر فيه من الامور التى وصف النبى عليه السلام بيانها ومن حيث اشتماله على انتفاء فترة الرسل فيما بينهم واذ نصب على أنه مفعول لفعل مقدر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن أهل الكتاب ليعدد عليهم ماصدر عن بعضهم من الجنايات أى واذكر لهم وقت قول موسى لقومه ناصحالهم ومستميلالهم باضافتهم اليه ﴿ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم﴾ وتوجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى ايجاب ذكرها لما أن ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ماوقع فيه بالطريق البرهانى و لأن الوقت مشتمل على ماوقع فيه تفصيلا فاذا استحضر كان ماوقع فيه حاضرا بتفاصيله كأنه مشاهد عيانا وعليكم متعلق بنفس النعمة اذا جعلت مصدرا و بمحذوف وقع حالا منها اذا جعلت اسما أى اذكروا انعامه عليكم أواذكروا نعمته كائنة عليكم و كذا اذفى قوله تعالى ﴿اذجعل فيكم أنبياء﴾ أى اذكروا انعامه تعالى عليكم فى وقت جعله أواذكروا نعمته تعالى كائنة عليكم فى وقت جعله فيما بينكم من أقربائكم أنبياء ذوى عدد كثير وأولى شأن خطير حيث لم يبعث من أمة من الأمم مابعث من بنى اسرائيل من الأنبياء ﴿وجعلكم ملوكا﴾ عطف على جعل فيكم داخل فى حكمه أى جعل فيكم أومنكم ملوكا كثيرة فانه قد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الانبياء وانما حذف الظرف تعويلا على ظهور الأمر أوجعل الكل فى مقام الامتنان عليهم ملوكا لما أن أقارب الملوك يقولون عند المفاخرة نحن الملوك وانما لم يسلك ذلك المسلك فيما قبله لما أن منصب النبوة من عظم الخطر وعزة المطلب وصعوبة المنال ليس بحيث يليق أن ينسب اليه و لو مجازا من ليس ممن اصطفاه الله تعالى له وقيل كانوا مملوكين فى أيدى القبط فأنقذهم الله تعالى فسمى انقاذهم ملكا وقيل الملك من له مسكن واسع فيه ماء جار وقيل من له بيت وخدم وقيل من له مال لايحتاج معه الى تكلف الأعمال وتحمل المشاق ﴿وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين﴾ من فلق البحر واغراق العدو وتظليل الغمام وانزال المن والسلوى وغير ذلك مما آتاهم الله تعالى من الأمور العظام والمراد بالعالمين الأمم الخالية الى زمانهم وقيل من عالمى زمانهم ﴿ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ كرر النداء بالاضافة التشريفية اهتماما بشأن الأمر ومبالغة فى حثهم على الامتثال به والأرض هى أرض بيت المقدس سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين وقيل هى الطور وماحوله وقيل دمشق وفلسطين و بعض الأردن وقيل هى الشأم ﴿التى كتب الله لكم﴾ أى كتب فى اللوح المحفوظ أنها تكون مسكنا لكم ان آمنتم وأطعتم لقوله تعالى لهم بعد ماعصوا فانها محرمة عليهم وقوله تعالى ﴿ولاترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾ فان ترتيب الخيبة والخسران على الارتداد يدل على اشتراط الكتب بالمجاهدة المترتبة على الايمان والطاعة قطعا أى لاترجعوا مدبرين خوفا من الجبابرة فالجار والمجرور متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ترتدوا ويجوز أن يتعلق بنفس الفعل قيل لما سمعوا أحوالهم من النقباء بكوا وقالوا ياليتنا متنا بمصر تعالوا نجعل لنا رأسا ينصرف بنا الى مصر أو لاترتدوا عن دينكم بالعصيان وعدم الوثوق بالله تعالى وقوله فتنقلبوا اما مجزوم عطفا على ترتدوا أو منصوب على جواب النهى والخسران خسران الدين والدنيا لاسيما دخول ما كتب لهم ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى نشأ من مساق الكلام كأنه قيل فماذا قالوا بمقابلة أمره عليه السلام ونهيه فقيل قالوا غير ممتثلين بذلك ﴿ياموسى ان فيها قوما جبارين﴾ متغلبين لايتأتى منازعتهم و لايتسنى مناصبتهم والجبار العاتى الذى يجبر الناس و يقسرهم كائنا من كان على مايريده كائنا ما كان فعال من جبره على الأمر أى أجبره عليه ﴿وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾

من غير صنع من قبلنا فانه لاطاقة لنا باخراجهم منها ﴿فان يخرجوا منها﴾ بسبب من الأسباب التى لاتعلق لنا بها ﴿فانا داخلون﴾ حينئذ أتوا بهذه الشرطية مع كون مضمونها مفهوما مما سبق من توقيت عدم الدخول بخروجهم منها تصريحا بالمقصود وتنصيصا على أن امتناعهم من دخولها ليس الالمكانهم فيها وأتوا فى الجزاء بالجملة الاسمية المصدرة بحرف التحقيق دلالة على تقرر الدخول وثباته عند تحقق الشرط لامحالة واظهارا لكمال الرغبة فيه وفى الامتثال بالأمر ﴿قال رجلان﴾ استئناف كما سبق كأنه قيل هل اتفقوا على ذلك أو خالفهم البعض فقيل قال رجلان ﴿من الذين يخافون﴾ أى يخافون الله تعالى دون العدو و يتقونه فى مخالفة أمره ونهيه و به قرأ ابن مسعود وفيه تعريض بأن من عداهما لايخافونه تعالى بل يخافون العدو وقيل من الذين يخافون العدو أى منهم فى النسب لافى الخوف وهما يوشع بن نون وكالب بن يوقنا من النقباء وقيل هما رجلان من الجبابرة أسلما وسارا الى موسى عليه السلام فالواو حينئذ لبنى اسرائيل والموصول عبارة عن الجبابرة واليهم يعود العائد المحذوف أى من الذين يخافهم بنو اسرائيل و يعضده قراءة من قرأ يخافون على صيغة المبنى للمفعول أى المخوفين وعلى الأول يكون هذا من الاخافة أى من الذين يخوفون من الله تعالى بالتذكير أو يخوفهم الوعيد ﴿أنعم الله عليهما﴾ أى بالتثبيت و ربط الجأش والوقوف على شئونه تعالى والثقة بوعده أو بالايمان وهو صفة ثانية لرجلان أواعتراض وقيل حال من الضمير فى يخافون أومن رجلان لتخصصه بالصفة أى قالا مخاطبين لهم ومشجعين ﴿ادخلوا عليهم الباب﴾ أى باب بلدهم وتقديم الجار والمجرور عليه للاهتمام به لأن المقصود انما هو دخول الباب وهم فى بلدهم أى باغتوهم وضاغطوهم فى المضيق وامنعوهم من البروز الى الصحراء لئلا يجدوا للحرب مجالا ﴿فاذا دخلتموه﴾ أى باب بلدهم وهم فيه ﴿فانكم غالبون﴾ من غير حاجة الى القتال فانا قد رأيناهم وشاهدنا أن قلوبهم ضعيفة وان كانت أجسادهم عظيمة فلا تخشوهم واهجموا عليهم فى المضايق فانهم لايقدرون فيها على الكر والفر وقيل انما حكما بالغلبة لما علماها من جهة موسى عليه السلام ومن قوله تعالى كتب الله لكم أو لما علما من سنته تعالى فى نصرة رسله وما عهدا من صنعه تعالى لموسى عليه السلام من قهر أعدائه والأول أنسب بتعليق الغلبة بالدخول ﴿وعلى الله﴾ تعالى خاصة ﴿فتوكلوا﴾ بعد ترتيب الأسباب و لا تعتمدوا عليها فانها بمعزل من التأثير وانما التأثير من عند الله العزيز القدير ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ أى مؤمنين به تعالى مصدقين لوعده فان ذلك مما يوجب التوكل عليه حتما ﴿قالوا﴾ استئناف كما سبق أى قالوا غير مبالين بهما و بمقالتهما مخاطبين لموسى عليه السلام اظهارا لاصرارهم على القول الأول وتصريحا بمخالفتهم له عليه السلام ﴿ياموسى انا لن ندخلها﴾ أى أرض الجبابرة فضلا عن دخول بابهم وهم فى بلدهم ﴿أبدا﴾ أى دهرا طويلا ﴿ماداموا فيها﴾ أى فى أرضهم وهو بدل من أبدا بدل البعض أوعطف بيان ﴿فاذهب﴾ الفاء فصيحة أى فاذا كان الأمر كذلك فاذهب ﴿أنت وربك فقاتلا﴾ أى فقاتلاهم انما قالوا ذلك استهانة واستهزاء به سبحانه و برسوله وعدم مبالاة بهما وقصدوا ذهابهما حقيقة كما ينبىء عنه غاية جهلهم وقسوة قلوبهم وقيل أرادوا ارادتهما وقصدهما كما تقول كلمته فذهب يجيبنى كأنهم قالوا فأريدا قتالهم واقصداهم وقيل التقدير فاذهب أنت و ربك يعينك و لا يساعده قوله تعالى فقاتلا و لم يذكروا هرون و لا الرجلين كأنهم لم يجزموا بذهابهم أولم يعبأوا بقتالهم وقوله تعالى ﴿انا ههنا قاعدون﴾ يؤيد الوجه الأول وأرادوا بذلك عدم التقدم لاعدم التأخر ﴿قال﴾ عليه السلام لما رأى منهم ما رأى من العناد على طريقة البث والحزن والشكوى الى الله تعالى مع رقة القلب التى بمثلها تستجاب الرحمة وتستنزل النصرة ﴿رب انى لاأملك الانفسى وأخى﴾ عطف على نفسى وقيل على الضمير فى انى على معنى انى لا أملك الانفسى وان أخى لايملك الانفسه وقيل على الضمير فى لاأملك للفصل

﴿فافرق بيننا﴾ يريد نفسه وأخاه والفاء لترتيب الفرق أو الدعاء به على ماقبله ﴿وبين القوم الفاسقين﴾ الخارجين عن طاعتك المصرين على عصيانك بأن تحكم لنا بما نستحقه وعليهم بما يستحقونه وقيل بالتبعيد بيننا وبينهم وتخليصنا من صحبتهم ﴿قال فانها﴾ أى الأرض المقدسة والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها من الدعاء ﴿محرمة عليهم﴾ تحريم منع لاتحريم تعبد لايدخلونها ولايملكونها لان كتابتها لهم كانت مشروطة بالايمان والجهاد وحيث نكصوا على أدبارهم حرموا ذلك وانقلبوا خاسرين وقوله تعالى ﴿أربعين سنة﴾ ان جعل ظرفا لمحرمة يكون التحريم موقتا لامؤبدا فلا يكون مخالفا لظاهر قوله تعالى كتب الله لكم فالمراد بتحريمها عليهم أنه لايدخلها أحد منهم فى هذه المدة لكن لابمعنى أن كلهم يدخلونها بعدها بل بعضهم ممن بقى حسبما روى أن موسى عليه السلام سار بمن بقى من بنى اسرائيل الى أريحا وكان يوشع بن نون على مقدمته ففتحها وأقام بها ماشاء الله تعالى ثم قبضه عليه السلام وقيل لم يدخلها أحد ممن قال لن ندخلها أبدا وانما دخلها مع موسى عليه السلام النواشى من ذرياتهم فالموقت بالاربعين فى الحقيقة تحريمها على ذرياتهم وانما جعل تحريمها عليهم لما بينهما من العلاقة التامة المتاخمة للاتحاد وقوله تعالى ﴿يتيهون فى الارض﴾ أى يتحيرون فى البرية استئناف لبيان كيفية حرمانهم أو حال من ضمير عليهم وقيل الظرف متعلق بيتيهون فيكون التيه موقتا والتحريم مطلقا قيل كانوا ستمائة ألف مقاتل وكان طول البرية تسعين فرسخا وقد تاهوا فى ستة فراسخ أو تسعة فراسخ فى ثلاثين فرسخا وقيل فى ستة فراسخ فى اثنى عشر فرسخا. روى أنهم كانوا كل يوم يسيرون جادين حتى اذا أمسوا اذا هم بحيث ارتحلوا وكان الغمام يظلهم من حر الشمس ويطلع بالليل عمود من نور يضىء لهم وينزل عليهم المن والسلوى ولا تطول شعورهم واذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر يطول بطوله وهذه الانعامات عليهم مع أنهم معاقبون لما أن عقابهم كان بطريق العرك والتأديب. قيل كان موسى وهرون معهم ولكن كان ذلك لهما روحا وسلامة كالنار لابراهيم وملائكة العذاب عليهم السلام وروى أن هرون مات فى التيه ومات موسى بعده فيه بسنة ودخل يوشع أريحا بعد موته بثلاثة أشهر ولا يساعده ظاهر النظم الكريم فانه تعالى بعد ماقبل دعوته على بنى اسرائيل وعذبهم بالتيه بعيد أن ينجى بعض المدعو عليهم أو ذراريهم ويقدر وفاتهما فى محل العقوبة ظاهرا وان كان ذلك لهما منزل روح وراحة وقد قيل انهما لم يكونا معهم فى التيه وهو الأنسب بتفسير الفرق بالمباعدة ومن قال بأنهما كانا معهم فيه فقد فسر الفرق بما ذكر من الحكم بما يستحقه كل فريق ﴿فلا تأس﴾ فلا تحزن ﴿على القوم الفاسقين﴾ روى أنه عليه السلام ندم على دعائه عليهم فقيل لاتندم ولاتحزن فانهم أحقاء بذلك لفسقهم ﴿واتل عليهم﴾ عطف على مقدر تعلق به قوله تعالى واذ قال موسى الخ وتعلقه به من حيث أنه تمهيد لما سيأتى من جنايات بنى اسرائيل بعد ماكتب عليهم ما كتب وجاءتهم الرسل بما جاءت به من البينات ﴿نبأ ابنى آدم﴾ هما قابيل وهابيل ونقل عن الحسن والضحاك أنهما رجلان من بنى اسرائيل بقرينة آخر القصة وليس كذلك. أوحى الله عز وجل الى آدم أن يزوج كلا منهما توأمة الآخر وكانت توأمة قابيل أجمل واسمها اقليما فحسد عليها أخاه وسخط وزعم أن ذلك ليس من عند الله تعالى بل من جهة آدم عليه السلام فقال لهما عليه السلام قربا قربانا فمن أيكما قبل تزوجها ففعلا فنزلت نار على قربان هابيل فأكلته ولم تتعرض لقربان قابيل فازداد قابيل حسدا وسخطا وفعل مافعل ﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر محذوف أى تلاوة ملتبسة بالحق والصحة أو حالا من فاعل اتل أو من مفعوله أى ملتبسا أنت أو نبأهما بالحق والصدق حسبما تقرر فى كتب الأولين ﴿اذ قربا قربانا﴾ منصوب بالنبأ ظرف له أى اتل قصتهما ونبأهما فى ذلك الوقت وقيل بدل منه على حذف المضاف أى اتل عليهم نبأهما نبأ ذلك الوقت ورد عليه بأن اذا لا يضاف اليها غير الزمان كوقتئذ وحينئذ

والقربان اسم لما يتقرب به الى الله تعالى من نسك أوصدقة كالحلوان اسم لما يحلى أى يعطى وتوحيده لما أنه فى الاصل مصدر وقيل تقديره اذ قرب كل منهما قربانا ﴿فتقبل من أحدهما﴾ هوهابيل قيل كان هوصاحب ضرع وقرب جملا سمينا فنزلت نار فأكلته ﴿ولم يتقبل من الآخر﴾ هو قابيل قيل كان هو صاحب زرع وقرب أردأ ما عنده من القمح فلم تتعرض له النار أصلا ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا قال من لم يتقبل قربانه فقيل قال لأخيه لتضاعف سخطه وحسده لما ظهر فضله عليه عند الله عز وجل ﴿لأقتلنك﴾ أى والله لأقتلنك بالنون المشددة وقرئ بالمخففة ﴿قال﴾ استئناف كما قبله أى قال الذى تقبل قربانه لما رأى أن حسده لقبول قربانه وعدم قبول قربان نفسه ﴿انما يتقبل الله﴾ أى القربان ﴿من المتقين﴾ لامن غيرهم وانما تقبل قربانى ورد قربانك لما فينا من التقوى وعدمه أى انما أتيت من قبل نفسك لامن قبلى فلم تقتلنى خلا أنه لم يصرح بذلك بل سلك مسلك التعريض حذارا من تهييج غضبه وحملا له على التقوى والاقلاع عما نواه و لذلك اسند الفعل الى الاسم الجليل لتربية المهابة ثم صرح بتقواه على وجه يستدعى سكون غيظه لوكان له عقل وازع حيث قال بطريق التوكيد ﴿لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك﴾ حيث صدر الشرطية باللام الموطئة للقسم وقدم الجار والمجرور على المفعول الصريح ايذانا من أول الامر برجوع ضرر البسط وغائلته اليه ولم يجعل جواب القسم الساد مسد جواب الشرط جملة فعلية موافقة لما فى الشرط بل اسمية مصدرة بما الحجازية المفيدة لتأكيد النفى بما فى خبرها من الباء للمبالغة فى اظهار براءته عن بسط اليد ببيان استمراره على نفى البسط كما فى قوله تعالى وماهم بمؤمنين وقوله وماهم بخارجين منها فان الجملة الاسمية الايجابية كما تدل بمعونة المقام على دوام الثبوت كذلك السلبية تدل بمعونته على دوام الانتفاء لاعلى انتفاء الدوام وذلك باعتبار الدوام والاستمرار بعد اعتبار النفى لاقبله حتى يرد النفى على المقيد بالدوام فيرفع قيده أى والله لئن باشرت قتلى حسبما أوعدتنى به وتحقق ذلك منك ما أنا بفاعل مثله لك فى وقت من الأوقات ثم علل ذلك بقوله ﴿انى أخاف الله رب العالمين﴾ وفيه من ارشاد قابيل الى خشية الله تعالى على أبلغ وجه وآكده ما لايخفى كأنه قال انى أخافه تعالى ان بسطت يدى اليك لأقتلك أن يعاقبنى وان كان ذلك منى لدفع عداوتك عنى فما ظنك بحالك وأنت البادئ العادى و فى وصفه تعالى بربوبية العالمين تأكيد للخوف قيل كان هابيل أقوى منه ولكن تحرج عن قتله واستسلم خوفا من الله تعالى لأن القتل للدفع لم يكن مباحا حينئذ وقيل تحريا لما هو الأفضل حسبما قال عليه السلام كن عبدالله المقتول و لا تكن عبدالله القاتل و يأباه التعليل بخوفه تعالى الا أن يدعى أن ترك الأولى عنده بمنزلة المعصية فى استتباع الغائلة مبالغة فى التنزه وقوله تعالى ﴿انى أريد أن تبوء باثمى واثمك﴾ تعليل آخر لامتناعه عن المعارضة على أنه غرض متأخر عنه كما أن الاول باعث متقدم عليه وانما لم يعطف عليه تنبيها على كفاية كل منهما فى العلية والمعنى انى أريد باستسلامى لك وامتناعى عن التعرض لك أن ترجع باثمى أى بمثل اثمى لو بسطت يدى اليك و باثمك ببسط يدك الى كما فى قوله عليه السلام المستبان ماقالا فعلى البادئ مالم يعتد المظلوم أى على البادئ عين اثم سبه ومثل سب صاحبه بحكم كونه سببا له وقيل معنى باثمى اثم قتلى ومعنى باثمك اثمك الذى لأجله لم يتقبل قربانك وكلاهما نصب على الحالية أى ترجع ملتبسا بالاثمين حاملا لهما ولعل مراده بالذات انما هو عدم ملابسته للاثم لاملابسة أخيه له وقيل المراد بالاثم عقوبته و لاريب فى جواز ارادة عقوبة العاصى ممن علم أنه لايرعوى عن المعصية أصلا و يأباه قوله تعالى ﴿فتكون من أصحاب النار﴾ فان كونه منهم انما يترتب على رجوعه بالاثمين لاعلى ابتلائه بعقوبتهما وحمل العقوبة على نوع آخر يترتب عليها العقوبة النارية يرده قوله تعالى وذلك جزاء الظالمين فانه صريح فى أن كونه من أصحاب النار تمام

العقوبة وكمالها والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبلها ولقد سلك فى صرفه عما نواه من الشر كل مسلك من العظة والتذكير بالترغيب تارة والترهيب أخرى فما أورثه ذلك الا الاصرار على الغى والانهماك فى الفساد ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه﴾ أى وسعته وسهلته من طاع له المرتع اذا اتسع وترتيب التطويع على ماحكى من مقالات هابيل مع تحققه قبلها أيضا كما يفصح عنه قوله لأقتلنك لما أن بقاء الفعل بعد تقرر مايزيله من الدواعى القوية وان كان استمرارا عليه بحسب الظاهر لكنه فى الحقيقة أمر حادث وصنع جديد كما فى قولك وعظته فلم يتعظ أو لان هذه المرتبة من التطويع لم تكن حاصلة قبل ذلك بناء على تردده فى قدرته على القتل لما أنه كان أقوى منه وانما حصلت بعد وقوفه على استسلام هابيل وعدم معارضته له والتصريح بأخوته لكمال تقبيح ماسولته نفسه وقرىء فطاوعت على أنه فاعل بمعنى فعل أو على أن قتل أخيه كأنه دعى نفسه الى الاقدام عليه فطاوعته ولم تمتنع وله لزيادة الربط كقولك حفظت لزيد ماله ﴿فقتله﴾ قيل لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل فتمثل ابليس وأخذ طائرا ووضع رأسه على حجر ثم شدخها بحجر آخر فتعلم منه فرضخ رأس هابيل بين حجرين وهو مستسلم لا يستعصى عليه وقيل اغتاله وهو نائم وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة واختلف فى موضع قتله فقيل عند عقبة حراء وقيل بالبصرة فى موضع المسجد الاعظم وقيل فى جبل بود ولما قتله تركه بالعراء لايدرى مايصنع به فخاف عليه السباع فحمله فى جراب على ظهره أربعين يوما وقيل سنة حتى أروح وعكفت عليه الطيور والسباع تنظر متى يرمى به فتأكله ﴿فأصبح من الخاسرين﴾ دينا ودنيا ﴿فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه﴾ روى أنه تعالى بعث غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه حفرة فألقاه فيها والمستكن فى يريه لله تعالى أو للغراب واللام على الاول متعلقة ببعث حتما وعلى الثانى بيبحث ويجوز تعلقها ببعث أيضا وكيف حال من ضمير يوارى والجملة ثانى مفعولى يرى والمراد بسوأة أخيه جسده الميت ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا قال عند مشاهدة حال الغراب فقيل قال ﴿ياويلتى﴾ هى كلمة جزع وتحسر والألف بدل من ياء المتكلم والمعنى ياويلتى احضرى فهذا أوانك والويل والويلة الهلكة ﴿أعجزت أن أكون﴾ أى عن أن أكون ﴿مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى﴾ تعجب من عدم اهتدائه الى ما اهتدى اليه الغراب وقوله تعالى فأوارى بالنصب عطف على أن أكون وقرىء بالرفع أى فأنا أوارى ﴿فأصبح من النادمين﴾ أى على قتله لما كابد فيه من التحير فى أمره وحمله على رقبته مدة طويلة . روى أنه لما قتله اسود جسده وكان أبيض فسأله آدم عن أخيه فقال ما كنت عليه وكيلا قال بل قتلته ولذلك اسود جسدك ومكث آدم بعده مائة سنة لا يضحك وقيل لما قتل قابيل هابيل هرب الى عدن من أرض اليمن فأتاه ابليس فقال له انما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يخدمها ويعبدها فان عبدتها أيضا حصل مقصودك فبنى بيت نار فعبدها وهو أول من عبد النار ﴿من أجل ذلك﴾ شروع فيما هو المقصود من تلاوة النبأ من بيان بعض آخر من جنايات بنى اسرائيل ومعاصيهم وذلك اشارة الى عظم شأن القتل وافراط قبحه المفهومين مما ذكر فى تضاعيف القصة من استعظام هابيل له وكمال اجتنابه عن مباشرته وان كان ذلك بطريق الدفع عن نفسه واستسلامه لأن يقتل خوفا من عقابه وبيان استتباعه لتحمل القاتل لاثم المقتول ومن كون قابيل بمباشرته من جملة الخاسرين دينهم ودنياهم ومن ندامته على فعله مع ما فيه من العتو وشدة الشكيمة وقساوة القلب والاجل فى الاصل مصدر أجل شرا اذا جناه استعمل فى تعليل الجنايات كما فى قولهم من جراك فعلته أى من أن جررته وجنيته ثم اتسع فيه واستعمل فى كل تعليل وقرىء من أجل بكسر الهمزة وهى لغة فيه وقرىء من اجل بحذف الهمزة والقاء فتحتها على النون ومن لابتداء الغاية متعلقة بقوله تعالى ﴿كتبنا على بنى اسرائيل﴾ وتقديمها عليه للقصر أى من

ذلك ابتداء الكتب ومنه نشأ لامن شئ آخر أى قضينا عليهم و بينا ﴿أنه من قتل نفسا﴾ واحدة من النفوس ﴿بغير نفس﴾ أى بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص ﴿أو فساد فى الارض﴾ أى فساد يوجب اهدار دمها وهو عطف على ماأضيف اليه غير على معنى نفى كلا الأمرين معا كما فى قولك من صلى بغير وضوء أو تيمم بطلت صلاته لانفى أحدهما كما فى قولك من صلى بغير وضوء أو ثوب بطلت صلاته ومدار الاستعمالين اعتبار ورود النفى على مايستفاد من كلمة أو من الترديد بين الأمرين المنبئ عن التخيير والاباحة واعتبار العكس ومناط الاعتبارين اختلاف حال ماأضيف اليه غير من الأمرين بحسب اشتراط نقيض الحكم بتحقق أحدهما واشتراطه بتحققهما معا ففى الاول يرد النفى على الترديد الواقع بين الأمرين قبل وروده فيفيد نفيهما معا وفى الثانى يرد الترديد على النفى فيفيد نفى أحدهما حتما اذ ليس قبل ورود النفى ترديد حتى يتصور عكسه وتوضيحه أن كل حكم شرط بتحقق أحد شيئين مثلا فنقيضه مشروط بانتفائهما معا وكل حكم شرط بتحققهما معا فنقيضه مشروط بانتفاء أحدهما ضرورة أن نقيض كل شئ مشروط بنقيض شرطه ولاريب فى أن نقيض الايجاب الجزئى كما فى الحكم الاول هو السلب الكلى ونقيض الايجاب الكلى كما فى الحكم الثانى هو رفعه المستلزم للسلب الجزئى فثبت اشتراط نقيض الأول بانتفائهما معا واشتراط نقيض الثانى بانتفاء أحدهما ولما كان الحكم فى قولك من صلى بوضوء أو تيمم صحت صلاته مشروطا بتحقق أحدهما مبهما كان نقيضه فى قولك من صلى بغير وضوء أو تيمم بطلت صلاته مشروطا بنقيض الشرط المذكور البتة وهو انتفاؤهما معا فتعين ورود النفى المستفاد من غير على الترديد الواقع بين الوضوء والتيمم بكلمة أو فانتفى تحققهما معا ضرورة عموم النفى الوارد على المبهم وعلى هذا يدور ماقالوا انه اذا قيل جالس العلماء أو الزهاد ثم أدخل عليه لاالناهية امتنع فعل الجميع نحو ولاتطع منهم آثما أو كفورا اذ المعنى لاتفعل أحدهما فأيهما فعله فهو أحدهما وأما قولك من صلى بوضوء أو ثوب صحت صلاته فحيث كان الحكم فيه مشروطا بتحقق كلا الأمرين كان نقيضه فى قولك من صلى بغير وضوء أو ثوب بطلت صلاته مشروطا بنقيض الشرط المذكور وهو انتفاء أحدهما فتعين ورود الترديد على النفى فأفاد نفى أحدهما ولايخفى أن اباحة القتل مشروطة بأحد ماذكر من القتل والفساد ومن ضرورته اشتراط حرمته بانتفائهما معا فتعين ورود النفى على الترديد لامحالة كأنه قيل من قتل نفسا بغير أحدهما ﴿فكأنما قتل الناس جميعا﴾ فمن قال فى تفسيره أو بغير فساد فقد أبعد عن توفية النظم الكريم حقه ومافى كأنما كافة مهيئة لوقوع الفعل بعدها وجميعا حال من الناس أو تأكيد ومناط التشبيه اشتراك الفعلين فى هتك حرمة الدماء والاستعصاء على الله تعالى وتجسير الناس على القتل وفى استتباع القود واستجلاب غضب الله تعالى وعذابه العظيم ﴿ومن أحياها﴾ أى تسبب لبقاء نفس واحدة موصوفة بعدم ماذكر من القتل والفساد فى الارض امابنهى قاتلها عن قتلها أو استنقاذها من سائر أسباب الهلكة بوجه من الوجوه ﴿فكأنما أحيا الناس جميعا﴾ وجه التشبيه ظاهر والمقصود تهويل أمر القتل وتفخيم شأن الاحياء بتصوير كل منهما بصورة لائقة به فى ايجاب الرهبة والرغبة ولذلك صدر النظم الكريم بضمير الشأن المنبئ عن كمال شهرته ونباهته وتبادره الى الاذهان عند ذكر الضمير الموجب لزيادة تقرير مابعده فى الذهن فان الضمير لايفهم منه من أول الأمر الاشأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده فضل تمكن كأنه قيل ان الشأن الخطير هذا ﴿ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات﴾ جملة مستقلة غير معطوفة على كتبنا أكدت بالتوكيد القسمى وحرف التحقيق لكمال العناية بتحقق مضمونها وانما لم يقل ولقد أرسلنا اليهم رسلنا الخ للتصريح بوصول الرسالة اليهم فانه أدل على تناهيهم فى العتو والمكابرة أى وبالله لقد جاءتهم رسلنا حسبما أرسلناهم بالآيات الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم تأكيدا لوجوب مراعاته وتأييدا لتحتم المحافظة عليه

﴿ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك﴾ أى بعد ماذكر من الكتب وتأكيد الأمر بارسال الرسل تترى وتجديد العهد مرة بعد أخرى و وضع اسم الاشارة موضع الضمير للايذان بكمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة ومافيه من معنى البعد للايماء الى علو درجته و بعد منزلته فى عظم الشأن وثم للتراخى فى الرتبة والاستبعاد ﴿فى الارض﴾ متعلق بقوله تعالى ﴿لمسرفون﴾ وكذا الظرف المتقدم ولا يقدح فيه توسط اللام بينه و بينهما لأنها لام الابتداء وحقها الدخول على المبتدا وانما دخولها على الخبر لمكان ان فهى فى حيزها الاصلى حكما والاسراف فى كل أمر التباعد عن حد الاعتدال مع عدم مبالاة به أى مسرفون فى القتل غير مبالين به و لما كان اسرافهم فى أمر القتل مستلزما لتفريطهم فى شأن الاحياء وجودا وذكرا وكان هو أقبح الأمرين وأفظعهما اكتفى بذكره فى مقام التشنيع ﴿انما جزاء الذين يحاربون الله و رسوله﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حكم نوع من أنواع القتل وما يتعلق به من الفساد بأخذ المال ونظائره وتعيين موجبه العاجل والآجل اثر بيان عظم شأن القتل بغير حق وأدرج فيه بيان ماأشير اليه اجمالا من الفساد المبيح للقتل قيل أى يحاربون رسوله وذكر الله تعالى للتمهيد والتنبيه على رفعة محله عنده عز وجل ومحاربة أهل شريعته وسالكى طريقته من المسلمين محاربة له عليه السلام فيعم الحكم من يحاربهم ولو بعد أعصار بطريق العبارة دون الدلالة والقياس لأن ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص حكمه بالمكلفين عند النزول فيحتاج فى تعميمه لغيرهم الى دليل آخر وقيل جعل محاربة المسلمين محاربة لله تعالى و رسوله تعظيما لهم والمعنى يحاربون أولياءهما وأصل الحرب السلب والمراد ههنا قطع الطريق وقيل المكابرة بطريق اللصوصية وان كانت فى مصر ﴿و يسعون فى الارض﴾ عطف على يحاربون والجار والمجرور متعلق به وقوله تعالى ﴿فسادا﴾ اما مصدر وقع موقع الحال من فاعل يسعون أى مفسدين أو مفعول له أى للفساد أومصدر مؤكد ليسعون لأنه فى معنى يفسدون على أنه مصدر من أفسد بحذف الزوائد أواسم مصدر . قيل نزلت الآية فى قوم هلال بن عويمر الاسلمى وكان وادعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن أتاه من المسلمين فهو آمن لايهاج ومن مر بهلال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو آمن لايهاج فمر قوم من بنى كنانة يريدون الاسلام بناس من قوم هلال ولم يكن هلال يومئذ شاهدا فقطعوا عليهم وقتلوهم وأخذوا أموالهم وقيل نزلت فى العرنيين وقصتهم مشهورة وقيل فى قوم من أهل الكتاب بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأفسدوا فى الارض ولما كانت المحاربة والفساد على مراتب متفاوتة و وجوه شتى من القتل بدون أخذ المال ومن القتل مع أخذه وأخذه بدون القتل ومن الاخافة بدون قتل وأخذ شرعت لكل مرتبة من تلك المراتب عقوبة معينة بطريق التوزيع فقيل ﴿أن يقتلوا﴾ أى حدا من غير صلب ان افردوا القتل ولو عفا الأولياء لايلتفت الى ذلك لأنه حق الشرع ولا فرق بين أن يكون القتل بآلة جارحة أو لا ﴿أو يصلبوا﴾ أى مع القتل ان جمعوا بين القتل والأخذ بأن يصلبوا أحياء وتبعج بطونهم برمح الى أن يموتوا وفى ظاهر الرواية أن الامام مخير ان شاء اكتفى بذلك وان شاء قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وقتلهم وصلبهم وصيغة التفعيل فى الفعلين للتكثير وقرئ بالتخفيف فيهما ﴿أوتقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾ أى أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى ان اقتصروا على أخذ المال من مسلم أو ذمى وكان المقدار بحيث لو قسم عليهم أصاب كلا منهم عشرة دراهم أو مايساويها قيمته أما قطع أيديهم فلأخذ المال وأما قطع أرجلهم فلاخافة الطريق بتفويت أمنه ﴿أو ينفوا من الأرض﴾ ان لم يفعلوا غير الاخافة والسعى للفساد والمراد بالنفى عندنا هو الحبس فانه نفى عن وجه الارض لدفع شرهم عن أهلها و يعزرون أيضا لمباشرتهم منكر الاخافة وازالة الأمن وعند الشافعى رضى الله عنه النفى من بلد الى بلد لايزال

يطلب وهو هارب فزعا وقيل هو النفى عن بلده فقط وكانوا ينفونهم الى دهلك وهو بلد فى أقصى تهامة وناصع وهو بلد من بلاد الحبشة ﴿ذلك﴾ أى ما فصل من الاحكام والاجزية قيل هو مبتدأ وقوله تعالى ﴿لهم خزى﴾ جملة من خبر مقدم على المبتدا وقوله تعالى ﴿فى الدنيا﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لخزى أو متعلق بخزى على الظرفية والجملة فى محل الرفع على أنها خبر لذلك وقيل خزى خبر لذلك ولهم متعلق بمحذوف وقع حالا من خزى لأنه فى الاصل صفة له فلما قدم انتصب حالا و فى الدنيا اما صفة لخزى أو متعلق به على ما مر والخزى الذل والفضيحة ﴿ولهم فى الآخرة﴾ غير هذا ﴿عذاب عظيم﴾ لا يقادر قدره لغاية عظم جنايتهم فقوله تعالى لهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر و فى الآخرة متعلق بمحذوف وقع حالا من عذاب لانه فى الاصل صفة له فلما قدم انتصب حالا أى كائنا فى الآخرة ﴿الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ استثناء مخصوص بما هو من حقوق الله عز وجل كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ أما ما هو من حقوق الاولياء من القصاص ونحوه فاليهم ذلك ان شاؤا عفوا وان أحبوا استوفوا وانما يسقط بالتوبة وجوب استيفائه لا جوازه وعن على رضى الله عنه أن الحرث بن بدر جاءه تائبا بعد ما كان يقطع الطريق فقبل توبته ودرأ عنه العقوبة ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ لما ذكر عظم شأن القتل والفساد و بين حكمهما وأشير فى تضاعيف ذلك الى مغفرته تعالى لمن تاب من جنايته أمر المؤمنون بأن يتقوه تعالى فى كل ما يأتون وما يذرون بترك ما يجب اتقاؤه من المعاصى التى من جملتها ما ذكر من القتل والفساد و بفعل الطاعات التى من زمرتها السعى فى احياء النفوس ودفع الفساد والمسارعة الى التوبة والاستغفار ﴿وابتغوا﴾ أى اطلبوا لانفسكم ﴿اليه﴾ أى الى ثوابه والزلفى منه ﴿الوسيلة﴾ هى فعيلة بمعنى ما يتوسل به و يتقرب الى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصى من وسل الى كذا أى تقرب اليه بشئ واليه متعلق بها قدم عليها للاهتمام به وليست بمصدر حتى لا تعمل فيما قبلها ولعل المراد بها الاتقاء المأمور به فانه ملاك الامر كله كما أشير اليه وذريعة لنيل كل خير ومنجاة من كل ضير فالجملة حينئذ جارية مما قبلها مجرى البيان والتأكيد أو مطلق الوسيلة وهو داخل فيها دخولا أوليا وقيل الجملة الاولى أمر بترك المعاصى والثانية أمر بفعل الطاعات وحيث كان فى كل من ترك المعاصى المشتهاة للنفس وفعل الطاعات المكروهة لها كلفة ومشقة عقب الامر بهما بقوله تعالى ﴿وجاهدوا فى سبيله﴾ بمحاربة أعدائه البارزة والكامنة ﴿لعلكم تفلحون﴾ بنيل مرضاته والفوز بكراماته ﴿ان الذين كفروا﴾ كلام مبتدأ مسوق لتأكيد وجوب الامتثال بالاوامر السابقة وترغيب المؤمنين فى المسارعة الى تحصيل الوسيلة اليه عز وجل قبل انقضاء أوانه ببيان استحالة توسل الكفار يوم القيامة بأقوى الوسائل الى النجاة من العذاب فضلا عن نيل الثواب ﴿لو أن لهم﴾ أى لكل واحد منهم كما فى قوله تعالى و لو أن لكل نفس ظلمت الخ لا لجميعهم اذ ليس فى ذلك هذه المرتبة من تهويل الامر وتفظيع الحال ﴿ما فى الارض﴾ أى من أصناف أموالها وذخائرها وسائر منافعها قاطبة وهو اسم أن ولهم خبرها ومحلها الرفع بلا خلاف خلا أنه عند سيبويه رفع على الابتداء و لا حاجة فيه الى الخبر لاشتمال صلتها على المسند والمسند اليه وقد اختصت من بين سائر ما يؤول بالاسم بالوقوع بعد لو وقيل الخبر محذوف ثم قيل يقدر مقدما أى لو ثابت كون ما فى الأرض لهم وقيل يقدر مؤخرا أى لو كون ما فى الارض لهم ثابت وعند المبرد والزجاج والكوفيين رفع على الفاعلية والفعل مقدر بعد لو أى لو ثبت أن لهم ما فى الارض وقوله تعالى ﴿جميعا﴾ توكيد للموصول أو حال منه ﴿ومثله﴾ بالنصب عطف عليه وقوله تعالى ﴿معه﴾ ظرف وقع حالا من المعطوف والضمير راجع الى الموصول وفائدته التصريح بفرض كينونتهما لهم بطريق المعية لا بطريق التعاقب تحقيقا لكمال فظاعة الأمر مع ما فيه من نوع اشعار بكونهما شيئا واحدا وتمهيدا لافراد الضمير الراجع اليهما

واللام فى قوله تعالى ﴿ليفتدوا به﴾ متعلقة بما تعلق به خبر أن أعنى الاستقرار المقدر فى لهم و بالخبر المقدر عند من
يرى تقدير الخبر مقدما أو مؤخرا و بالفعل المقدر بعد لو على رأى المبرد ومن نحا نحوه ولا ريب فى أن مدار الافتداء
بما ذكر هو كونه لهم لا ثبوت كونه لهم وان كان مستلزما له والباء فى به متعلقة بالافتداء والضمير راجع الى الموصول ومثله
معا وتوحيده اما لما أشير اليه واما لاجرائه مجرى اسم الاشارة كأنه قيل بذلك كما فى قوله كأنه فى الجلد توليع البهق
أى كأن ذلك وقيل هو راجع الى الموصول والعائد الى المعطوف أعنى مثله محذوف كما حذف الخبر من قيار فى قوله
فانى وقيار بها لغريب أى وقيار أيضا غريب وقد جوز أن يكون نصب ومثله على أنه مفعول معه ناصبه الفعل المقدر
بعد لو تفريعا على مذهب المبرد ومن رأى رأيه وأنت خبير بأنه يؤدى الى كون الرافع للفاعل غير الناصب المفعول معه
لأن المعنى على اعتبار المعية بين ما فى الارض ومثله فى الكينونة لهم لا فى ثبوت تلك الكينونة وتحققها ولا مساغ لجعل
ناصبه الاستقرار المقدر فى لهم لما أن سيبويه قد نص على اسم الاشارة وحرف الجر المتضمن للاستقرار لا يعملان
فى المفعول معه وأن قوله هذا لك وأباك قبيح وان جوزه بعض النحاة فى الظرف وحرف الجر وقوله تعالى ﴿من عذاب
يوم القيامة﴾ متعلق بالافتداء أيضا أى لو أن ما فى الارض ومثله ثابت لهم ليجعلوه فدية لأنفسهم من العذاب الواقع
يومئذ ﴿ماتقبل منهم﴾ ذلك وهو جواب لو وترتيبه على كون ذلك لهم لأجل افتدائهم به من غير ذكر الافتداء بأن
يقال وافتدوا به مع أن الرد والقبول انما يترتب عليه لا على مباديه للايذان بأنه أمر محقق الوقوع غنى عن الذكر وانما
المحتاج الى الفرض قدرتهم على ماذكر أو للمبالغة فى تحقق الرد وتخييل أنه وقع قبل الافتداء على منهاج مافى قوله تعالى
أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده حيث لم يقل فأتى به فرآه فلما الخ ومافى قوله تعالى وقالت
اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه من غير ذكر خروجه عليه السلام عليهن ورؤيتهن له والجملة الامتناعية بحالها خبر ان
الذين كفروا والمراد تمثيل لزوم العذاب لهم واستحالة نجاتهم منه بوجه من الوجوه المحققة والمفروضة وعن النبى عليه
الصلاة والسلام يقال للكافر أرأيت لو كان لك ملء الارض ذهبا أكنت تفتدى به فيقول نعم فيقال له قد سئلت أيسر
من ذلك وهو كلمة الشهادة وقوله تعالى ﴿ولهم عذاب أليم﴾ تصريح بما أشير اليه بعدم قبول فديتهم لزيادة تقريره
وبيان هوله وشدته قيل محله النصب على الحالية وقيل الرفع عطفا على خبر ان وقيل عطف على ان الذين فلا محل له
كالمعطوف عليه ﴿يريدون أن يخرجوا من النار﴾ استئناف مسوق لبيان حالهم فى أثناء مكابدة العذاب مبنى على سؤال
نشأ مما قبله كأنه قيل فكيف يكون حالهم أو ماذا يصنعون فقيل يريدون الخ وقد بين فى تضاعيفه أن عذابهم عذاب
النار قيل انهم يقصدون ذلك ويطلبون المخرج فيلفحهم لهب النار ويرفعهم الى فوق فهناك يريدون الخروج ولات حين
مناص وقيل يكادون يخرجون منها لقوة النار وزيادة رفعها اياهم وقيل يتمنونه ويريدونه بقلوبهم وقوله عز وجل
﴿وماهم بخارجين منها﴾ اما حال من فاعل يريدون أو اعتراض وأيا ما كان فايثار الجملة الاسمية على الفعلية مصدرة بما
الحجازية الدالة بما فى خبرها من الباء على تأكيد النفى لبيان كمال سوء حالهم باستمرار عدم خروجهم منها فان الجملة
الاسمية الايجابية كما تفيد بمعونة المقام دوام الثبوت تفيد السلبية أيضا بمعونته دوام النفى لا نفى الدوام كما مر فى قوله تعالى
ما أنا بباسط الخ وقرىء أن يخرجوا على بناء المفعول من الاخراج ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ تصريح بما أشير اليه آنفا
من عدم تناهى مدته بعد بيان شدته ﴿والسارق والسارقة﴾ شروع فى بيان حكم السرقة الصغرى بعد بيان أحكام الكبرى
وقد عرفت اقتضاء الحال لايرادما توسط بينهما من المقال ولما كانت السرقة معهودة من النساء كالرجال صرح بالسارقة أيضا
مع أن المعهود فى الكتاب والسنة ادراج النساء فى الأحكام الواردة فى شأن الرجال بطريق الدلالة لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغة

فى الزجر وهو مبتدأ خبره عند سيبويه محذوف تقديره وفيما يتلى عليكم أو وفيما فرض عليكم السارق والسارقة أى حكمهما وعند المبرد قوله تعالى ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ والفاء لتضمن المبتدا معنى الشرط اذ المعنى الذى سرق والتى سرقت وقرئ بالنصب وفضلها سيبويه على قراءة الرفع لأن الانشاء لا يقع خبر الابتأويل واضمار والسرقة أخذ مال الغير خفية وانما توجب القطع اذا كان الأخذ من حرز والمأخوذ يساوى عشرة دراهم فما فوقها مع شروط فصلت فى موقعها والمراد بأيديهما أيمانهما كما يفصح عنه قراءة ابن مسعود رضى الله تعالى عنه والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم ولذلك ساغ وضع الجمع موضع المثنى كما فى قوله تعالى فقد صغت قلوبكما اكتفاء بتثنية المضاف اليه واليد اسم لتمام الجارحة ولذلك ذهب الخوارج الى أن المقطع هو المنكب والجمهور على أنه الرسغ لأنه عليه الصلاة والسلام أتى بسارق فأمر بقطع يمينه منه ﴿جزاء﴾ نصب على أنه مفعول له أى فاقطعوا للجزاء أو مصدر مؤكد لفعله الذى يدل عليه فاقطعوا أى فجازوهما جزاء وقوله تعالى ﴿بما كسبا﴾ على الاول متعلق بجزاء وعلى الثانى باقطعوا وما مصدرية أى بسبب كسبهما أو موصولة أى ما كسباه من السرقة التى تباشر بالأيدى وقوله تعالى ﴿نكالا﴾ مفعول له أيضا على البدلية من جزاء لأنهما من نوع واحد وقيل القطع معلل بالجزاء والقطع المعلل معلل بالنكال وقيل هو منصوب بجزاء على طريقة الأحوال المتداخلة فانه علة للجزاء والجزاء علة للقطع كما اذا قلت ضربته تأديباً له احسانا اليه فان الضرب معلل بالتأديب والتأديب معلل بالاحسان وقد أجازوا فى قوله عز وجل أن يكفر بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده أن يكون بغيا مفعولا له ناصبه أن يكفروا ثم قالوا ان قوله تعالى أن ينزل الله مفعول له ناصبه بغيا على أن التنزيل علة للبغى والبغى علة للكفر وقوله تعالى ﴿من الله﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لنكالا أى نكالا كائنا منه تعالى ﴿والله عزيز﴾ غالب على أمره يمضيه كيف يشاء من غير ند ينازعه ولا ضد يمانعه ﴿حكيم﴾ فى شرائعه لا يحكم الا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ولذلك شرع هذه الشرائع المنطوية على فنون الحكم والمصالح ﴿فمن تاب﴾ أى من السراق الى الله تعالى ﴿من بعد ظلمه﴾ الذى هو سرقته والتصريح به مع أن التوبة لا تتصور قبله لبيان عظم نعمته تعالى بتذكير عظم جنايته ﴿وأصلح﴾ أى أمره بالتفصى عن تبعات ما باشره والعزم على ترك المعاودة اليها ﴿فان الله يتوب عليه﴾ أى يقبل توبته فلا يعذبه فى الآخرة وأما القطع فلا تسقطه التوبة عندنا لأن فيه حق المسروق منه وتسقطه عند الشافعى فى أحد قوليه ﴿ان الله غفور رحيم﴾ مبالغ فى المغفرة والرحمة ولذلك يقبل توبته وهو تعليل لما قبله واظهار الاسم الجليل للاشعار بعلة الحكم وتأييد استقلال الجملة وكذا فى قوله عز وجل ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض﴾ فان عنوان الألوهية مدار أحكام ملكوتهما والجار والمجرور خبر مقدم وملك السموات والأرض مبتدأ والجملة خبر لأن وهى مع ما فى حيزها سادة مسد مفعولى تعلم عند الجمهور وما فيه من تكرير الاسناد لتقوية الحكم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين وقيل لكل أحد صالح للخطاب والاستفهام الانكارى لتقرير العلم والمراد به الاستشهاد بذلك على قدرته تعالى على ما سيأتى من التعذيب والمغفرة على أبلغ وجه وأتمه أى ألم تعلم أن الله له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلى فيهما وفيما فيهما ايجادا واعداما واحياء واماتة الى غير ذلك حسبما تقتضيه مشيئته ﴿يعذب من يشاء﴾ أن يعذبه ﴿ويغفر لمن يشاء﴾ أن يغفر له من غير ند يساهمه ولا ضد يزاحمه وتقديم التعذيب على المغفرة لمراعاة ما بين سببيهما من الترتيب والجملة اما تقرير لكون ملكوت السموات والأرض له سبحانه أو خبر آخر لأن ﴿والله على كل شئ قدير﴾ فيقدر على ما ذكر من التعذيب والمغفرة والاظهار فى موقع الاضمار لما مر مرارا والجملة تذييل مقرر لما قبلها ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر﴾

خوطب عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة للتشريف والاشعار بما يوجب عدم الحزن والمسارعة فى الشئ الوقوع فيه بسرعة و رغبة وايثاركلمة فى على كلمة الى الواقعة فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة الخ للايماء الى أنهم مستقرون فى الكفر لايبرحونه وانما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه وأحكامه الى بعض آخر منها كاظهار موالاة المشركين وابراز آثار الكيد للاسلام ونحو ذلك كما فى قوله تعالى أولئك يسارعون فى الخيرات فانهم مستمرون على الخير مسارعون فى أنواعه وأفراده والتعبير عنهم بالموصول للاشارة بما فى حيز صلته الى مدار الحزن وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للكفرة عن أن يحزنوه عليه الصلاة والسلام بمسارعتهم فى الكفر لكنه فى الحقيقة نهى له عليه الصلاة والسلام عن التأثر من ذلك والمبالاة بهم على أبلغ وجه وآكده فان النهى عن أسباب الشئ ومباديه المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وقلع له من أصله وقد يوجه النهى الى المسبب و يراد به النهى عن السبب كما فى قوله لاأرينك ههنا يريد نهى مخاطبه عن الحضور بين يديه وقرئ لايحزنك من أحزنه منقولا من حزن بكسر الزاى وقرئ يسرعون يقال أسرع فيه الشيب أى وقع فيه سريعا أى لاتحزن ولا تبال بتهافتهم فى الكفر بسرعة وقوله تعالى ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم﴾ بيان المسارعين فى الكفر وقيل متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يسارعون وقيل من الموصول أى كائنين من الذين الخ والباء متعلقة بقالوا لابآمنا وقوله تعالى ﴿ولم تؤمن قلوبهم﴾ جملة حالية من ضمير قالوا وقيل عطف على قالوا وقوله تعالى ﴿ومن الذين هادوا﴾ عطف على من الذين قالوا الخ وبه يتم بيان المسارعين فى الكفر بتقسيمهم الى قسمين المنافقين واليهود فقوله تعالى ﴿سماعون للكذب﴾ خبر لمبتدأ محذوف راجع الى الفريقين أو الى المسارعين وأما رجوعه الى الذين هادوا فمخل بعموم الوعيد الآتى ومباديه للكل كما ستقف عليه وكذا جعل قوله ومن الذين الخ خبرا على أن قوله سماعون صفة لمبتدأ محذوف أى ومنهم قوم سماعون الخ لأدائه الى اختصاص ماعدد من القبائح ومايترتب عليها من الغوائل الدنيوية والأخروية بهم فالوجه ماذكر أولا أى هم سماعون واللام اما لتقوية العمل واما لتضمين السماع معنى القبول واما لام كى والمفعول محذوف والمعنى هم مبالغون فى سماع الكذب أو فى قبول مايفتريه أحبارهم من الكذب على الله سبحانه وتحريف كتابه أو سماعون أخباركم وأحاديثكم ليكذبوا عليكم بأن يمسخوها بالزيادة والنقص والتبديل والتغيير أو أخبار الناس وأقاويلهم الدائرة فيما بينهم ليكذبوا فيها بأن يرجفوا بقتل المؤمنين وانكسار سراياهم ونحو ذلك مما يضر بهم وأياما كان فالجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهى فان كونهم سماعين للكذب على الوجوه المذكورة وابتناء أمورهم على مالا أصل له من الأباطيل والأراجيف مما يقتضى عدم المبالاة بهم وترك الاعتداد بما يأتون وما يذرون للقطع بظهور بطلان أكاذيبهم واختلال ما بنوا عليها من الأفاعيل الفاسدة المؤدية الى الخزى والعذاب كما سيأتى وقرئ سماعين للكذب بالنصب على الذم وقوله تعالى ﴿سماعون لقوم آخرين﴾ خبر ثان للمبتدأ المقدر مقرر للأول ومبين لما هو المراد بالكذب على الوجهين الأولين واللام مثل مافى سمع الله لمن حمده فى الرجوع الى معنى من أى قبل منه حمده والمعنى مبالغون فى قبول كلام قوم آخرين وأما كونها لام التعليل بمعنى سماعون منه عليه الصلاة والسلام لأجل قوم آخرين وجهوهم عيونا ليبلغوهم ما سمعوا منه عليه الصلاة والسلام أو كونها متعلقة بالكذب على أن سماعون الثانى مكرر للتأكيد بمعنى سماعون ليكذبوا لقوم آخرين فلا يكاد يساعده النظم الكريم أصلا وقوله تعالى ﴿لم يأتوك﴾ صفة أخرى لقوم أى لم يحضروا مجلسك وتجافوا عنك تكبرا وافراطا فى البغضاء قيل هم يهود خيبر والسماعون بنو قريظة وقوله تعالى ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ صفة أخرى لقوم وصفوا أولا بمغايرتهم للسماعين تنبيها على استقلالهم وأصالتهم فى الرأى والتدبير ثم بعدم حضورهم مجلس الرسول عليه الصلاة

والسلام ايذانا بكمال طغيانهم فى الضلال ثم باستمرارهم على التحريف بيانا لافراطهم فى العتو والمكابرة والاجتراء على الافتراء على الله تعالى وتعيينا للكذب الذى سمعه السماعون أى يميلونه و يزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها اما لفظا باهماله أو تغيير وضعه واما معنى بحمله على غير المراد واجرائه فى غير مورده وقيل الجملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب ناعية عليهم شنائعهم وقيل خبر مبتدأ محذوف راجع الى القوم وقوله تعالى ﴿ يقولون ﴾ كالجملة السابقة فى الوجوه المذكورة ويجوز أن يكون حالا من ضمير يحرفون وأما تجويز كونها صفة لسماعون أو حالا من الضمير فيه فمالا سبيل اليه أصلا كيف لا وان مقول القول ناطق بأن قائله ممن لا يحضر مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم والمخاطب به ممن يحضره فكيف يمكن أن يقوله السماعون المترددون اليه عليه الصلاة والسلام لمن لايحوم حوله قطعا وادعاء قول السماعين لأعقابهم المخالطين للمسلمين تعسف ظاهر مخل بجزالة النظم الكريم والحق الذى لامحيد عنه أن المحرفين والقائلين هم القوم الآخرون أى يقولون لأتباعهم السماعين لهم عند القائهم اليهم أقاويلهم الباطلة مشيرين الى كلامهم الباطل ﴿ ان أوتيتم ﴾ من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ هذا فخذوه ﴾ واعملوا بموجبه فانه الحق ﴿ وان لم تؤتوه ﴾ بل أوتيتم غيره ﴿ فاحذروا ﴾ أى فاحذروا قبوله وايا كم واياه وفى ترتيب الأمر بالحذر على مجرد عدم ايتاء المحرف من المبالغة فى التحذير مالايخفى . روى أن شريفا من خيبر زنى بشريفة وهما محصنان وحدهما الرجم فى التوراة فكرهوا رجمهما لشرفهما فبعثوا رهطا منهم الى بنى قريظة ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقالوا ان أمركم بالجلد والتحميم فاقبلوا وان أمركم بالرجم فلا تقبلوا وأرسلوا الزانيين معهم فأمرهم بالرجم فأبوا أن يأخذوا به فقال جبريل عليه السلام اجعل بينك وبينهم ابن صوريا و وصفه له فقال عليه الصلاة والسلام هل تعرفون شابا أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا قالوا نعم وهو أعلم يهودى على وجه الأرض بما أنزل الله على موسى بن عمران فى التوراة قال فأرسلوا اليه ففعلوا فاتاهم فقال له النبى عليه الصلاة والسلام أنت ابن صوريا قال نعم قال عليه الصلاة والسلام وأنت أعلم اليهود قال كذلك يزعمون قال لهم أترضون به حكما قالوا نعم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذى لااله الا هو الذى فلق البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون وظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى ورفع فوقكم الطور وأنزل عليكم التوراة فيها حلاله وحرامه هل تجدون فى كتابكم الرجم على من أحصن قال نعم والذى ذكرتنى به لولا خشيت أن يحرقنى التوراة ان كذبت أو غيرت ما اعترفت لك ولكن كيف هى فى كتابك يا محمد قال عليه الصلاة والسلام اذا شهد أربعة رهط عدول أنه أدخل فيها كما يدخل الميل فى المكحلة وجب عليه الرجم قال ابن صوريا والذى أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله فى التوراة على موسى فوثب عليه سفلة اليهود فقال خفت ان كذبته أن ينزل علينا العذاب ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يعرفها من أعلامه فقال أشهد أن لااله الا الله وأنك رسول الله النبى الامى العربى الذى بشر به المرسلون وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزانيين فرجما عند باب المسجد ﴿ ومن يرد الله فتنته ﴾ أى ضلالته أو فضيحته كائنا من كان فيندرج فيه المذكورون اندراجا أوليا وعدم التصريح بكونهم كذلك للاشعار بكمال ظهوره واستغنائه عن ذكره ﴿ فلن تملك له ﴾ فلن تستطيع له ﴿ من الله شيئا ﴾ فى دفعها والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ومبينة لعدم انفكاكهم عن القبائح المذكورة أبدا ﴿ أولئك ﴾ اشارة الى المذكورين من المنافقين واليهود ومافى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفساد وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ﴾ أى من رجس الكفر وخبث الضلالة لانهما كهم فيهما واصرارهم عليهما واعراضهم عن صرف اختيارهم الى تحصيل الهداية بالكلية كما ينبئ عنه وصفهم بالمسارعة فى الكفر أولا وشرح فنون ضلالاتهم آخرا والجملة استئناف مبين لكون ارادته تعالى لفتنتهم

منوطة بسوء اختيارهم وقبح صنيعهم الموجب لها لا واقعة منه تعالى ابتداء ﴿لهم فى الدنيا خزى﴾ أما المنافقون فخزيهم فضيحتهم وهتك سترتهم بظهور نفاقهم فيما بين المسلمين وأما خزى اليهود فالذل والجزية والافتضاح بظهور كذبهم فى كتمان نص التوراة وتنكير خزى للتفخيم وهو مبتدأ ولهم خبره و فى الدنيا متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار وكذا الحال فى قوله تعالى ﴿ولهم فى الآخرة﴾ أى مع الخزى الدنيوى ﴿عذاب عظيم﴾ هو الخلود فى النار وضمير لهم فى الجملتين للمنافقين واليهود جميعا لا لليهود خاصة كما قيل وتكرير لهم مع اتحاد المرجع لزيادة التقرير والتأكيد والجملتان استئناف مبنى على سؤال نشأ من تفصيل أفعالهم وأحوالهم الموجبة للعقاب كأنه قيل فما لهم من العقوبة فقيل لهم فى الدنيا الآية ﴿سماعون للكذب﴾ خبر آخر للمبتدا المقدر كرر تأكيدا لما قبله وتمهيدا لما بعده من قوله تعالى ﴿أكالون للسحت﴾ وهو أيضا خبر آخر للمقدر وارد على طريقة الذم أو بناء على أن المراد بالكذب ما يفتعله الراشون عند الاكالين والسحت بضم السين وسكون الحاء فى الأصل كل ما لا يحل كسبه وقيل هو الحرام مطلقا من سحته اذا استأصله سمى به لأنه مسحوت البركة والمراد به ههنا اما الرشا التى كان يأخذها المحرفون على تحريفهم وسائر أحكامهم الزائغة وهو المشهور أو ما كان يأخذه فقراؤهم من أغنيائهم من المال ليقيموا على اليهودية كما قيل واما مطلق الحرام المنتظم لما ذكر انتظاما أوليا وقرىء للسحت بضم السين والحاء و بفتحهما و بفتح السين وسكون الحاء و بكسر السين وسكون الحاء وعن النبى عليه الصلاة والسلام كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به ﴿فان جاؤك﴾ لما بين تفاصيل أمورهم الواهية وأحوالهم المختلفة الموجبة لعدم المبالاة بهم و بأفاعيلهم حسبما أمر به عليه الصلاة والسلام خوطب عليه الصلاة والسلام ببعض ما يبتنى عليه من الأحكام بطريق التفريع والفاء فصيحة أى واذا كان حالهم كما شرح فان جاؤك متحاكمين اليك فيما شجر بينهم من الخصومات ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ غير مبال بهم ولا خائف من جهتهم أصلا وهذا كما ترى تخيير له عليه الصلاة والسلام بين الأمرين فقيل هو فى أمر خاص هو ما ذكر من زنا المحصن وقيل فى قتيل قتل من اليهود فى بنى قريظة والنضير فتحاكموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بنو قريظة اخواننا بنو النضير أبونا واحد وديننا واحد ونبينا واحد واذا قتلوا منا قتيلا لم يرضوا بالقود وأعطونا سبعين وسقا من تمر واذا قتلنا منهم قتلوا القاتل وأخذوا منا الضعف مائة وأربعين وسقا من تمر وان كان القتيل امرأة قتلوا بها الرجل منا و بالرجل منهم الرجلين منا و بالعبد منهم الحر منا فاقض بيننا فجعل عليه الصلاة والسلام الدية سواء وقيل هو عام فى جميع الحكومات ثم اختلفوا فمن قائل انه ثابت وهو المروى عن عطاء والنخعى والشعبى وقتادة وأبى بكر الاصم وأبى مسلم وقائل انه منسوخ وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم ينسخ من المائدة الا آيتان قوله تعالى لا تحلوا شعائر الله نسخها قوله تعالى فاقتلوا المشركين وقوله تعالى فان جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم نسخها قوله تعالى وأن احكم بينهم بما أنزل الله وعليه مشايخنا ﴿وان تعرض عنهم﴾ بيان لحال الأمرين اثر تخييره عليه الصلاة والسلام بينهما وتقديم حال الاعراض للمسارعة الى بيان أن لا ضرر فيه حيث كان مظنة الضرر لما أنهم كانوا لا يتحاكمون اليه عليه الصلاة والسلام الا لطلب الايسر والاهون عليهم فاذا أعرض عنهم وأبى الحكومة بينهم شق ذلك عليهم فتشتد عداوتهم ومضارتهم له عليه الصلاة والسلام فأمنه الله عز وجل بقوله ﴿فلن يضروك شيئا﴾ من الضرر فان الله عاصمك من الناس ﴿وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ بالعدل الذى أمرت به كما حكمت بالرجم ﴿ان الله يحب المقسطين﴾ ومن ضرورته أن يحفظهم عن كل مكروه ومحذور ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به و بكتابه والحال أن الحكم منصوص

عليه فى كتابهم الذى يدعون الايمان به وتنبيه على أنهم ماقصدوا بالتحكيم معرفة الحق واقامة الشرع وانما طلبوا به ماهو أهون عليهم وان لم يكن ذلك حكم الله على زعمهم فقوله تعالى وعندهم التوراة حال من فاعل يحكمونك وقوله تعالى فيها حكم الله حال من التوراة ان جعلت مرتفعة بالظرف وان جعلت مبتدا فهو حال من ضميرها المستكن فى الخبر وقيل استئناف مسوق لبيان أن عندهم مايغنيهم عن التحكيم وتأنيثها لكونها نظيرة المؤنث فى كلامهم كموماة ودوداة ﴿ثم يتولون﴾ عطف على يحكمونك داخل فى حكم التعجيب وثم للتراخى فى الرتبة وقوله تعالى ﴿من بعد ذلك﴾ أى من بعدما حكموك تصريح بما علم قطعا تأكيد الاستبعاد والتعجيب أى ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم من بعدما رضوا بحكمك وقوله تعالى ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ تذييل مقرر لفحوى ماقبله ووضع اسم الاشارة موضع ضميرهم للقصد الى احضارهم فى الذهن بما وصفوا به من القبائح ايماء الى علة الحكم والى أنهم قد تميزوا بذلك عن غيرهم أكمل تمييز حتى انتظموا فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم فى العتو والمكابرة أى وما أولئك الموصوفون بما ذكر بالمؤمنين أى بكتابهم لاعراضهم عنه أولا وعن حكمك الموافق له ثانيا أو بهما وقيل وما أولئك بالكاملين فى الايمان تهكما بهم ﴿انا أنزلنا التوراة﴾ كلام مستأنف سيق لبيان علو شأن التوراة ووجوب مراعاة أحكامها وأنها لم تزل مرعية فيما بين الانبياء ومن يقتدى بهم كابرا عن كابر مقبولة لكل أحد من الحكام والمتحاكمين محفوظة عن المخالفة والتبديل تحقيقا لما وصف به المحرفون من عدم ايمانهم بها وتقرير لكفرهم وظلمهم وقوله تعالى ﴿فيها هدى ونور﴾ حال من التوراة فان مافيها من الشرائع والأحكام من حيث ارشادها للناس الى الحق الذى لامحيد عنه هدى ومن حيث اظهارها وكشفها ما استبهم من الأحكام وما يتعلق بها من الأمور المستورة بظلمات الجهل نور وقوله تعالى ﴿يحكم بها النبيون﴾ أى أنبياء بنى اسرائيل وقيل موسى ومن بعده من الانبياء جملة مستأنفة مبينة لرفعة رتبتها وسمو طبقتها وقد جوز كونه حالا من التوراة فيكون حالا مقدرة أى يحكمون بأحكامها ويحملون الناس عليها وبه تمسك من ذهب الى أن شريعة من قبلنا شريعة لنا مالم تنسخ وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بشأن المقدم والتشويق الى المؤخر ولان فى المؤخر وما يتعلق به نوع طول ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم وقوله تعالى ﴿الذين أسلموا﴾ صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح دون التخصيص والتوضيح لكن لا للقصد الى مدحهم بذلك حقيقة فان النبوة أعظم من الاسلام قطعا فيكون وصفهم به بعد وصفهم بها تنزلا من الاعلى الى الادنى بل لتنويه شأن الصفة فان ابراز وصف فى معرض مدح العظماء منبىء عن عظم قدر الوصف لامحالة كما فى وصف الانبياء بالصلاح ووصف الملائكة بالايمان عليهم السلام ولذلك قيل أوصاف الاشراف أشراف الاوصاف وفيه رفع لشأن المسلمين وتعريض باليهود وأنهم بمعزل من الاسلام والاقتداء بدين الانبياء عليهم السلام لاسيما مع ملاحظة ماوصفوا به فى قوله تعالى ﴿للذين هادوا﴾ وهو متعلق بيحكم أى يحكمون فيما بينهم واللام اما لبيان اختصاص الحكم بهم أعم من أن يكون لهم أو عليهم كأنه قيل لاجل الذين هادوا واما للايذان بنفعه للمحكوم عليه أيضا باسقاط التبعة عنه واما للاشعار بكمال رضاهم به وانقيادهم له كأنه أمر نافع لكلا الفريقين ففيه تعريض بالمحرفين وقيل التقدير للذين هادوا وعليهم فحذف ماحذف لدلالة ماذكر عليه وقيل هو متعلق بأنزلنا وقيل بهدى ونور وفيه فصل بين المصدر ومعموله وقيل متعلق بمحذوف وقع صفة لهما أى هدى ونور كائنان للذين هادوا ﴿والربانيون والاحبار﴾ أى الزهاد والعلماء من ولد هرون الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا دين اليهود وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الربانيون الذين يسوسون الناس بالعلم ويربونهم

بصغاره قبل كباره والاحبار هم الفقهاء واحده حبر بالفتح والكسر والثانى أفصح وهو رأى الفراء مأخوذ من التحبير والتحسين فانهم يحبرون العلم ويزينونه ويبينونه وهو عطف على النبيون أى هم أيضا يحكمون بأحكامها وتوسيط المحكوم لهم بين المعطوفين للايذان بأن الاصل فى الحكم بها وحمل الناس على مافيها هم النبيون وانما الربانيون والاحبار خلفاء ونواب لهم فى ذلك كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿بما استحفظوا﴾ أى بالذى استحفظوه من جهة النبيين وهو التوراة حيث سألوهم أن يحفظوها من التغيير والتبديل على الاطلاق ولا ريب فى أن ذلك منهم عليهم السلام استخلاف لهم فى اجراء أحكامها من غير اخلال بشئ منها وفى ابهامها أولا ثم بيانها ثانيا بقوله تعالى ﴿من كتاب الله﴾ من تفخيمها واجلالها ذاتا واضافة وتأكيد ايجاب حفظها والعمل بما فيها مالا يخفى وايرادها بعنوان الكتاب للايماء الى ايجاب حفظها عن التغيير من جهة الكتابة والباء الداخلة على الموصول متعلقة بيحكم لكن لا على أنها صلة له كالتى فى قوله تعالى بها ليلزم تعلق حرفى جر متحدى المعنى بفعل واحد بل على أنها سببية أى ويحكم الربانيون والاحبار أيضا بسبب ما حفظوه من كتاب الله حسبما وصاهم به أنبياؤهم وسألوهم أن يحفظوه وليس المراد بسببيته لحكمهم ذلك سببيته من حيث الذات بل من حيث كونه محفوظا فان تعليق حكمهم بالموصول مشعر بسببية الحفظ المترتب لامحالة على ما فى حيز الصلة من الاستحفاظ له وقيل الباء صلة لفعل مقدر معطوف على قوله تعالى يحكم بها النبيون عطف جملة على جملة أى ويحكم الربانيون والاحبار بحكم كتاب الله الذى سألهم أنبياؤهم أن يحفظوه من التغيير ﴿وكانوا عليه شهداء﴾ أى رقباء يحمونه من أن يحوم حوله التغيير والتبديل بوجه من الوجوه فتغيير الاسلوب لما ذكر من المزايا وقيل بما استحفظوا بدل من قوله تعالى بها باعادة العامل وهو بعيد وكذا تجويز كون الضمير فى استحفظوا للانبياء والربانيين والاحبار جميعا على أن الاستحفاظ من جناب الله عز وجل أى كلفهم الله تعالى أن يحفظوه ويكونوا عليه شهداء وقوله تعالى وتقدس ﴿فلا تخشوا الناس﴾ خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات وأما حكام المسلمين فيتناولهم النهى بطريق الدلالة دون العبارة والفاء لترتيب النهى على ما فصل من حال التوراة وكونها معتنى بشأنها فيما بين الانبياء عليهم السلام ومن يقتدى بهم من الربانيين والاحبار المتقدمين عملا وحفظا فان ذلك مما يوجب الاجتناب عن الاخلال بوظائف مراعاتها والمحافظة عليها بأى وجه كان فضلا عن التحريف والتغيير ولما كان مدار جراءتهم على ذلك خشية ذى سلطان أو رغبة فى الحظوظ الدنيوية نهوا عن كل منهما صريحا أى اذا كان شأنها كما ذكر فلا تخشوا الناس كائنا من كان واقتدوا فى مراعاة أحكامها وحفظها بمن قبلكم من الانبياء وأشياعهم ﴿واخشون﴾ فى الاخلال بحقوق مراعاتها فكيف بالتعرض لها بسوء ﴿ولا تشتروا بآياتى﴾ الاشتراء استبدال السلعة بالثمن أى أخذها بدلا منه لا بذل الثمن لتحصيلها كما قيل ثم استعير لاخذ شئ بدلا مما كان له عينا كان أو معنى أخذا منوطا بالرغبة فيما أخذ والاعراض عما أعطى ونبذ كما فصل فى تفسير قوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فالمعنى لا تستبدلوا بآياتى التى فيها بأن تخرجوها منها أو تتركوا العمل بها وتأخذوا لأنفسكم بدلا منها ﴿ثمنا قليلا﴾ من الرشوة والجاه وسائر الحظوظ الدنيوية فانها وان جلت قليلة مسترذلة فى نفسها لاسيما بالنسبة الى ما فات عنهم بترك العمل بها وانما عبر عن المشترى الذى هو العمدة فى عقود المعاوضة والمقصد الاصلى بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة الى تحصيله وأبرزت الآيات التى حقها أن يتنافس فيها المتنافسون فى معرض الآلات والوسايط حيث قرنت بالباء التى تصحب الوسائل ايذانا بمبالغتهم فى التعكيس بأن جعلوا المقصد الاقصى وسيلة والوسيلة الادنى مقصدا ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ كائنا من كان دون المخاطبين خاصة فانهم مندرجون فيه اندراجا أوليا أى من لم يحكم بذلك مستهينا به منكرا له كما يقتضيه ما فعلوه من تحريف آيات الله تعالى

اقتضاء بينا ﴿ فأولئك ﴾ اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فيما سبق باعتبار لفظها ﴿ هم الكافرون ﴾
لاستهانتهم به وهم اما ضمير الفصل أو مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر لأولئك وقد مر تفصيله فى مطلع سورة البقرة
والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبلها أبلغ تقرير وتحذير عن الاخلال به أشد تحذير حيث علق فيه الحكم بالكفر بمجرد
ترك الحكم بما أنزل الله تعالى فكيف وقد انضم اليه الحكم بخلافه لاسيما مع مباشرة مانهوا عنه من تحريفه و وضع غيره
موضعه وادعاء أنه من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ﴿ و كتبنا ﴾ عطف على أنزلنا التوراة ﴿ عليهم ﴾ أى على الذين
هادوا وقرىء وأنزل الله على بنى اسرائيل ﴿ فيها ﴾ أى فى التوراة ﴿ أن النفس بالنفس ﴾ أى تقاد بها اذا قتلتها بغير
حق ﴿ والعين ﴾ تفقأ ﴿ بالعين ﴾ اذا فقئت بغير حق ﴿ والانف ﴾ يجدع ﴿ بالانف ﴾ المقطوع بغير حق
﴿ والاذن ﴾ تصلم ﴿ بالاذن ﴾ المقطوعة ظلما ﴿ والسن ﴾ تقلع ﴿ بالسن ﴾ المقلوعة بغير حق ﴿ والجروح
قصاص ﴾ أى ذات قصاص اذا كانت بحيث تعرف المساواة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم كانوا لايقتلون
الرجل بالمرأة فنزلت وقرىء وان الجروح قصاص وقرىء والعين الى آخره بالرفع عطفا على محل أن النفس لان المعنى
كتبنا عليهم النفس بالنفس اما لاجراء كتبنا مجرى قلنا واما لان معنى الجملة التى هى قولك النفس بالنفس مما يقع عليه
الكتب كما يقع عليه القراءة تقول كتبت الحمد لله وقرأت سورة أنزلناها ﴿ فمن تصدق ﴾ أى من المستحقين ﴿ به ﴾
أى بالقصاص أى فمن عفا عنه والتعبير عنه بالتصدق للمبالغة فى الترغيب فيه ﴿ فهو ﴾ أى التصدق ﴿ كفارة له ﴾
أى للمتصدق يكفر الله تعالى بها ذنوبه وقيل للجانى اذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه مالزمه وقرىء فهو كفارته
له أى فالمتصدق كفارته التى يستحقها بالتصدق له لاينقص منها شىء وهو تعظيم لما فعل كقوله تعالى فأجره على الله
﴿ ومن لم يحكم ﴾ كائنا من كان فيتناول من لايرى قتل الرجل بالمرأة من اليهود تناولا بينا ﴿ بما أنزل الله ﴾ من
الاحكام والشرائع كائنا ما كان فيدخل فيها الاحكام المحكية دخولا أوليا ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ المبالغون فى الظلم
المتعدون لحدوده تعالى الواضعون للشىء فى غير موضعه والجملة تذييل مقرر لايجاب العمل بالاحكام المذكورة
﴿ وقفينا على آثارهم ﴾ شروع فى بيان أحكام الانجيل اثر بيان أحكام التوراة وهو عطف على أنزلنا التوراة أى آثار
النبيين المذكورين يقال قفيته بفلان اذا أتبعته اياه فحذف المفعول لدلالة الجار والمجرور عليه أى قفيناهم ﴿ بعيسى
ابن مريم ﴾ أى أرسلناه عقيبهم ﴿ مصدقا لما بين يديه من التوراة ﴾ حال من عيسى عليه السلام ﴿ وآتيناه الانجيل ﴾
عطف على قفينا وقرىء بفتح الهمزة ﴿ فيه هدى ونور ﴾ كما فى التوراة وهو فى محل النصب على أنه حال من الانجيل أى كائنا فيه
ذلك كأنه قيل مشتملا على هدى ونور وتنوين هدى ونور للتفخيم و يندرج فى ذلك شواهد نبوته عليه السلام ﴿ ومصدقا لما
بين يديه من التوراة ﴾ عطف عليه داخل فى حكم الحالية وتكرير مابين يديه من التوراة لزيادة التقرير ﴿ وهدى وموعظة
للمتقين ﴾ عطف على مصدقا منتظم معه فى سلك الحالية جعل كله هدى بعدما جعل مشتملا عليه حيث قيل فيه هدى وتخصيص
كونه هدى وموعظة بالمتقين لانهم المهتدون بهداه والمنتفعون بجدواه ﴿ وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ﴾ أمر مبتدأ
لهم بأن يحكموا و يعملوا بما فيه من الأمور التى من جملتها دلائل رسالته عليه الصلاة والسلام وشواهد نبوته وما قرره
الشريعة الشريفة من أحكامه وأما أحكامه المنسوخة فليس الحكم بها حكما بما أنزل الله فيه بل هو ابطال وتعطيل له اذ هو
شاهد بنسخها وانتهاء وقت العمل بها لان شهادته بصحة ماينسخها من الشريعة شهادة بنسخها و بأن أحكامه ماقرره
تلك الشريعة التى شهد بصحتها كما سيأتى فى قوله تعالى ياأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والانجيل الآية
وقيل هو حكاية للأمر الوارد عليهم بتقدير فعل معطوف على آتيناه أى وقلنا ليحكم أهل الانجيل الخ وقرىء وأن ليحكم

على أن أن موصولة بالأمر كما فى قولك أمرته بأن قم كأنه قيل وآتيناه الانجيل وأمرنا بأن يحكم أهل الانجيل الخ وقرىء على صيغة المضارع ولام التعليل على أنها متعلقة بمقدر كأنه قيل وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه آتيناه اياه وقد عطف على هدى وموعظة على أنهما مفعول لهما كأنه قيل وللهدى والموعظة آتيناه اياه وللحكم بما أنزل الله فيه ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ منكرا له مستهينا به ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ المتمردون الخارجون عن الايمان والجملة تذييل مقرر لمضمون الجملة السابقة ومؤكد لوجوب الامتثال بالأمر وفيه دلالة على أن الانجيل مشتمل على الأحكام وأن عيسى عليه السلام كان مستقلا بالشرع مأمورا بالعمل بما فيه من الأحكام قلت أو كثرت لا بما فى التوراة خاصة وحمله على معنى وليحكم بما أنزل الله فيه من ايجاب العمل بأحكام التوراة خلاف الظاهر ﴿وأنزلنا اليك الكتاب﴾ أى الفرد الكامل الحقيق بأن يسمى كتابا على الاطلاق لحيازته جميع الأوصاف الكمالية لجنس الكتاب السماوى وتفوقه على بقية أفراده وهو القرآن الكريم فاللام للعهد والجملة عطف على أنزلنا وما عطف عليه وقوله تعالى ﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا مؤكدة من الكتاب أى ملتبسا بالحق والصدق وقيل من فاعل أنزلنا وقيل من الكاف فى اليك وقوله تعالى ﴿مصدقا لما بين يديه﴾ حال من الكتاب أى حال كونه مصدقا لما تقدمه امامن حيث أنه نازل حسبما نعت فيه أو من حيث أنه موافق له فى القصص والمواعيد والدعوة الى الحق والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش وأما ما يتراءى من مخالفته له فى بعض جزئيات الأحكام المتغيرة بسبب تغير الاعصار فليست بمخالفة فى الحقيقة بل هى موافقة لها من حيث ان كلا من تلك الأحكام حق بالاضافة الى عصره متضمن للحكمة التى عليها يدور أمر الشريعة وليس فى المتقدم دلالة على أبدية أحكامه المنسوخة حتى يخالفه الناسخ المتأخر وانما يدل على مشروعيتها مطلقا من غير تعرض لبقائها وزوالها بل نقول هو ناطق بزوالها لما أن النطق بصحة ما ينسخها نطق بنسخها وزوالها وقوله تعالى ﴿من الكتاب﴾ بيان لما واللام للجنس اذ المراد هو الكتاب السماوى وهو بهذا العنوان جنس برأسه وان كان فى نفسه نوعا مخصوصا من مدلول لفظ الكتاب وعن هذا قالوا اللام للعهد الا أن ذلك لا ينتهى الى خصوصية الفردية بل الى خصوصية النوعيه التى هى أخص من مطلق الكتاب وهو ظاهر ومن الكتاب السماوى أيضا حيث خص بما عدا القرآن ﴿ومهيمنا عليه﴾ أى رقيبا على سائر الكتب المحفوظة من التغيير لأنه يشهد لها بالصحة والثبات ويقرر أصول شرائعها وما يتأبد من فروعها ويعين أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب وانقضاء وقت العمل بها ولا ريب فى أن تمييز أحكامها الباقية على المشروعية أبدا عما انتهى وقت مشروعيته وخرج عنها من أحكام كونه مهيمنا عليه وقرىء ومهيمنا عليه على صيغة المفعول أى هو من عليه وحوفظ من التغيير والتبديل كقوله عز وجل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والحافظ اما من جهته تعالى كما فى قوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون أو الحفاظ فى الأعصار والأمصار والفاء فى قوله تعالى ﴿فاحكم بينهم﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان كون شأن القرآن العظيم حقا مصدقا لما قبله من الكتب المنزلة على الأمم مهيمنا عليه من موجبات الحكم المأمور به أى اذا كان القرآن كما ذكر فاحكم بين أهل الكتابين عند تحاكمهم اليك ﴿بما أنزل الله﴾ أى بما أنزله اليك فانه مشتمل على جميع الأحكام الشرعية الباقية فى الكتب الالهية وتقديم بينهم للاعتناء ببيان تعميم الحكم لهم ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على علية ما فى حيز الصلة للحكم والالتفات باظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والاشعار بعلة الحكم ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ الزائغة ﴿عما جاءك من الحق﴾ الذى لا محيد عنه وعن متعلقة بلا تتبع على تضمين معنى العدول ونحوه كأنه قيل ولا تعدل عما جاءك من الحق متبعا أهواءهم وقيل بمحذوف وقع حالا من فاعله أى لا تتبع أهواءهم عادلا

عما جاءك وفيه أن ماوقع حالا لابد أن يكون فعلا عاما و وضع الموصول موضع ضمير الموصول الأول للايماء بما فى حيز الصلة من مجىء الحق الى مايوجب كمال الاجتناب عن اتباع الأهواء وقوله تعالى ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ كلام مستأنف جىء به لحمل أهل الكتابين من معاصريه عليه الصلاة والسلام على الانقياد لحكمه بما أنزل اليه من القرآن الكريم ببيان أنه هو الذى كلفوا العمل به دون غيره من الكتابين وانما الذين كلفوا العمل بهما من مضى قبل نسخهما من الأمم السالفة والخطاب بطريق التلوين والالتفات للناس كافة لكن لاللموجودين خاصة بل للماضين أيضا بطريق التغليب واللام متعلقة بجعلنا المتعدى لواحد وهو اخبار بجعل ماض لا انشاء وتقديمها عليه للتخصيص ومنكم متعلق بمحذوف وقع صفة لما عوض عنه تنوين كل و لاضير فى توسط جعلنا بين الصفة والموصوف كما فى قوله تعالى أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات الخ والمعنى لكل أمة كائنة منكم أيها الأمم الباقية والخالية جعلنا أى عينا و وضعنا شرعة ومنهاجا خاصين بتلك الأمة لاتكاد أمة تتخطى شرعتها التى عينت لها فالأمة التى كانت من مبعث موسى الى مبعث عيسى عليهما السلام شرعتهم التوراة والتى كانت من مبعث عيسى الى مبعث النبى عليهما الصلاة والسلام شرعتهم الانجيل وأما أنتم أيها الموجودون فشرعتكم القرآن ليس الا فآمنوا به واعملوا بما فيه والشرعة والشريعة هى الطريقة الى الماء شبه بها الدين لكونه سبيلا موصولا الى ماهو سبب للحياة الأبدية كما أن الماء سبب للحياة الفانية والمنهاج الطريق الواضح فى الدين من نهج الأمر اذا وضح وقرىء شرعة بفتح الشين قيل فيه دليل على أنا غير متعبدين بشرائع من قبلنا والتحقيق أنا متعبدون بأحكامها الباقية من حيث أنها أحكام شرعتنا لامن حيث أنها شرعة للأولين ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ متفقة على دين واحد فى جميع الأعصار من غير اختلاف بينكم و بين من قبلكم من الأمم فى شىء من الأحكام الدينية و لانسخ و لاتحويل ومفعول المشيئة محذوف تعويلا على دلالة الجزاء عليه أى و لو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة لجعلكم الخ وقيل المعنى لوشاء الله اجتماعكم على الاسلام لأجبركم عليه ﴿ولكن ليبلوكم﴾ متعلق بمحذوف يستدعيه النظام أى ولكن لم يشأ ذلك أى أن يجعلكم أمة واحدة بل شاء ماعليه السنة الالهية الجارية فيمابين الأمم ليعاملكم معاملة من يبتليكم ﴿فيما آتاكم﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لأعصارها وقرونها هل تعملون بها مذعنين لها معتقدين أن اختلافها بمقتضى المشيئة الالهية المبنية على أساس الحكم البالغة والمصالح النافعة لكم فى معاشكم ومعادكم أوتزيغون عن الحق وتتبعون الهوى وتستبدلون المضرة بالجدوى وتشترون الضلالة بالهدى و بهذا اتضح أن مدار عدم المشيئة المذكورة ليس مجرد الابتلاء بل العمدة فى ذلك ماأشير اليه من انطواء الاختلاف على مافيه مصلحتهم معاشا ومعادا كما ينبىء عنه قوله عزوجل ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أى اذا كان الأمر كما ذكر فسارعوا الى ماهو خير لكم فى الدارين من العقائد الحقة والأعمال الصالحة المندرجة فى القرآن الكريم وابتدروها انتهازا للفرصة واحرازا لسابقة الفضل والتقدم ففيه من تأكيد الترغيب فى الاذعان للحق وتشديد التحذير عن الزيغ مالا يخفى وقوله تعالى ﴿الى الله مرجعكم﴾ استئناف مسوق مساق التعليل لاستباق الخيرات بما فيه من الوعد والوعيد وقوله تعالى ﴿جميعا﴾ حال من ضمير الخطاب والعامل فيه اما المصدر المنحل الى حرف مصدرى وفعل مبنى للفاعل أو مبنى للمفعول واما الاستقرار المقدر فى الجار ﴿فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ أى فيفعل بكم من الجزاء الفاصل بين المحق والمبطل مالايبقى لكم معه شائبة شك فيما كنتم فيه تختلفون فى الدنيا وانما عبر عن ذلك بما ذكر لوقوعه موقع ازالة الاختلاف التى هى وظيفة الاخبار ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم﴾ عطف على الكتاب أى أنزلنا اليك الكتاب والحكم بما فيه والتعرض لعنوان انزاله تعالى اياه لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر أو على الحق أى أنزلناه بالحق و بأن احكم وحكاية

انزال الأمر بهذا الحكم بعد مامر من الأمر الصريح بذلك تأكيد له وتمهيد لما يعقبه من قوله تعالى ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ماأنزل اليك﴾ أى يصرفوك عن بعضه ولو كان أقل قليل بتصوير الباطل بصورة الحق واظهار الاسم الجليل لتأكيد الأمر بتهويل الخطب وأن بصاته بدل اشتمال من ضميرهم أى احذر فتنتهم أومفعول له أى احذرهم مخافة أن يفتنوك واعادة ماأنزل الله لتأكيد التحذير بتهويل الخطب . روى أن أحبار اليهود قالوا اذهبوا بنا الى محمد فلعلنا نفتنه عن دينه فذهبوا اليه صلى الله عليه وسلم وقالوا ياأبا القاسم قد عرفت أنا أحبار اليهود وأنا ان اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم اليك فتقضى لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿فان تولوا﴾ أى أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله تعالى وأرادوا غيره ﴿فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ أى بذنب توليهم عن حكم الله عز وجل وانما عبر عنه بذلك ايذانا بأن لهم ذنوبا كثيرة هذا مع كمال عظمه واحد من جملتها وفى هذا الابهام تعظيم للتولى كما فى قول لبيد أو يرتبط بعض النفوس حمامها يريد به نفسه أى نفسا كبيرة ونفسا أى نفس ﴿وان كثيرا من الناس لفاسقون﴾ أى متمردون فى الكفر مصرون عليه خارجون عن الحدود المعهودة وهو اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ انكار وتعجيب من حالهم وتوبيخ لهم والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أيتولون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية وتقديم المفعول للتخصيص المفيد لتأكيد الانكار والتعجيب لأن التولى عن حكمه عليه الصلاة والسلام وطلب حكم آخر منكر عجيب وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب والمراد بالجاهلية اما الملة الجاهلية التى هى متابعة الهوى الموجبة للميل والمداهنة فى الأحكام فيكون تعييرا لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم يبغون حكم الجاهلية التى هى هوى وجهل لايصدر عن كتاب ولا يرجع الى وحى واما أهل الجاهلية وحكمهم ما كانوا عليه من التفاضل فيما بين القتلى حيث روى أن بنى النضير لما تحاكموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خصومة قتل وقعت بينهم وبين بنى قريظة طلبوا اليه عليه الصلاة والسلام أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل فقال عليه الصلاة والسلام القتلى سواء فقال بنو النضير نحن لانرضى بذلك فنزلت وقرئ برفع الحكم على أنه مبتدأ و يبغون خبره والراجع محذوف حذفه فى قوله تعالى أهذا الذى بعث الله رسولا وقد استضعف ذلك فى غير الشعر وقرئ بتاء الخطاب اما بالالتفات لتشديد التوبيخ واما بتقدير القول أى قل لهم أفحكم الخ وقرئ بفتح الحاء والكاف أى أفحاكما كحكام الجاهلية يبغون ﴿ومن أحسن من الله حكما﴾ انكار لأن يكون أحد حكمه أحسن من حكمه تعالى أو مساو له وان كان ظاهر السبك غير متعرض لنفى المساواة وانكارها وقدمر تفصيله فى تفسير قوله تعالى ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله ﴿لقوم يوقنون﴾ أى عندهم واللام كما فى هيت لك أى هذا الاستفهام لهم فانهم الذين يتدبرون الأمور بأنظارهم فيعلمون يقينا أن حكم الله عز وجل أحسن الأحكام وأعدلها ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ خطاب يعم حكمه كافة المؤمنين من المخلصين وغيرهم وان كان سبب وروده بعضا منهم كما سيأتى و وصفهم بعنوان الايمان لحملهم من أول الأمر على الانزجار عما نهوا عنه بقوله عز وجل ﴿لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ فان تذكير اتصافهم بضد صفات الفريقين من أقوى الزواجر عن موالاتهما أى لايتخذ أحد منكم أحدا منهم وليا بمعنى لاتصافوهم ولا تعاشروهم مصافاة الأحباب ومعاشرتهم لابمعنى لاتجعلوهم أولياء لكم حقيقة فانه أمر ممتنع فى نفسه لايتعلق به النهى ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أى بعض كل فريق من ذينك الفريقين أولياء بعض آخر من ذلك الفريق لامن الفريق الآخر وانما أوثر الاجمال فى البيان تعويلا على ظهور المراد لوضوح انتفاء الموالاة بين فريقى اليهود والنصارى رأسا والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهى

وتأكيد ايجاب الاجتناب عن المنهى عنه أى بعضهم أولياء بعض متفقون على كلمة واحدة فى كل ماياتون وما يذرون ومن ضرورته اجماع الكل على مضادتكم ومضارتكم بحيث يسوموكم السوء ويبغونكم الغوائل فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة وقوله تعالى ﴿ومن يتولهم منكم فانه منهم﴾ حكم مستنتج منه فان انحصار الموالاة فيما بينهم يستدعى كون من يواليهم منهم ضرورة أن الاتحاد فى الدين الذى عليه يدور أمر الموالاة حيث لم يكن بكونهم ممن يواليهم من المؤمنين تعين أن يكون ذلك بكونه من يواليهم منهم وفيه زجر شديد للمؤمنين عن اظهار صورة الموالاة لهم وان لم تكن موالاة فى الحقيقة وقوله تعالى ﴿ان الله لايهدى القوم الظالمين﴾ تعليل لكون من يتولاهم منهم أى لايهديهم الى الايمان بل يخليهم وشأنهم فيقعون فى الكفر والضلالة وانما وضع المظهر موضع ضميرهم تنبيها على أن توليهم ظلم لما أنه تعريض لأنفسهم للعذاب الخالد ووضع للشىء فى غير موضعه وقوله تعالى ﴿فترى الذين فى قلوبهم مرض﴾ بيان لكيفية توليهم واشعار بسببه وبما يؤول اليه أمرهم والفاء للايذان بترتبه على عدم الهداية والخطاب اما للرسول صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين واما لكل أحد ممن له أهلية له وفيه مزيد تشنيع للتشنيع أى لايهديهم بل يذرهم وشأنهم فتراهم الخ وانما وضع موضع الضمير الموصول ليشار بما فى حيز صلته الى أن ماارتكبوه من التولى بسبب مافى قلوبهم من مرض النفاق ورخاوة العقد فى الدين وقوله تعالى ﴿يسارعون فيهم﴾ حال من الموصول والرؤية بصرية وقيل مفعول ثان والرؤية قلبية والاول هو الانسب بظهور نفاقهم أى تراهم مسارعين فى موالاتهم وانما قيل فيهم مبالغة فى بيان رغبتهم فيها وتهالكهم عليها وايثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على أنهم مستقرون فى الموالاة وانما مسارعتهم من بعض مراتبها الى بعض آخر منها كما فى قوله تعالى أولئك يسارعون فى الخيرات لاأنهم خارجون عنها متوجهون اليها كما فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة وقرىء فيرى بياء الغيبة على أن الضمير لله سبحانه وقيل لمن تصح منه الرؤية وقيل الفاعل هو الموصول والمفعول هو الجملة على حذف أن المصدرية والرؤية قلبية أى ويرى القوم الذين فى قلوبهم مرض أن يسارعوا فيهم فلما حذفت أن انقلب الفعل مرفوعا كما فى قول من قال

ألاأيهذا الزاجرى أحضر الوغى والمراد بهم عبدالله بن أبى وأضرابه الذين كانوا يسارعون فى موادة اليهود ونصارى نجران وكانوا يعتذرون الى المؤمنين بأنهم لايأمنون أن تصيبهم صروف الزمان وذلك قوله تعالى ﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ وهو حال من ضمير يسارعون والدائرة من الصفات الغالبة التى لايذكر معها موصوفها أى تدور علينا دائرة من دوائر الدهر ودولة من دوله بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار وقيل نخشى أن يصيبنا مكروه من مكاره الدهر كالجدب والقحط فلا يعطونا الميرة والقرض . روى أن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان لى موالى من اليهود كثيرا عددهم وانى أبرأ الى الله ورسوله من ولايتهم وأوالى الله ورسوله فقال عبدالله بن أبى انى رجل أخاف الدوائر لاأبرأ من ولاية موالى وهم يهود بنى قينقاع ولعله يظهر للمؤمنين أنه يريد بالدوائر المعنى الأخير ويضمر فى نفسه المعنى الأول وقوله تعالى ﴿فعسى الله أن يأتى بالفتح﴾ رد من جهة الله تعالى لعللهم الباطلة وقطع لاطماعهم الفارغة وتبشير للمؤمنين بالظفر فان عسى منه سبحانه وعد محتوم لما أن الكريم اذا أطمع أطعم لامحالة فما ظنك بأكرم الأكرمين وأن يأتى فى محل النصب على أنه خبر عسى وهو رأى الأخفش أو على أنه مفعول به وهو رأى سيبويه لئلا يلزم الاخبار عن الجثة بالحدث كما فى قولك عسى زيد أن يقوم والمراد بالفتح فتح مكة قاله الكلبى والسدى وقال الضحاك فتح قرى اليهود من خيبر وفدك وقال قتادة ومقاتل هو القضاء الفصل بنصره عليه الصلاة والسلام على من خالفه واعزاز الدين ﴿أو أمر من عنده﴾ بقطع شأفة اليهود من القتل والاجلاء ﴿فيصبحوا﴾

أى أولئك المنافقون المتعللون بما ذكر وهو عطف على يأتى داخل معه فى حيز خبر عسى وان لم يكن فيه ضمير يعود الى اسمها فان فاء السببية مغنية عن ذلك فانها تجعل الجملتين كجملة واحدة ﴿على ماأسروا فى أنفسهم نادمين﴾ وهو ماكانوا يكتمونه فى أنفسهم من الكفر والشك فى أمره عليه الصلاة والسلام وتعليق الندامة به لابما كانوا يظهرونه من موالاة الكفرة لما أنه الذى كان يحملهم على الموالاة و يغريهم عليها فدل ذلك على ندامتهم عليها بأصلها وسببها ﴿و يقول الذين آمنوا﴾ كلام مبتدأ مسوق لبيان كمال سوء حال الطائفة المذكورة وقرىء بغير واو على أنه جواب سؤال نشأ مما سبق كأنه قيل فماذا يقول المؤمنون حينئذ وقرىء و يقول بالنصب عطفا على يصبحوا وقيل على يأتى باعتبار المعنى كأنه قيل فعسى أن يأتى الله بالفتح و يقول الذين آمنوا والأول أوجه لأن هذا القول انما يصدر عن المؤمنين عند ظهور ندامة المنافقين لا عند اتيان الفتح فقط والمعنى و يقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود مشيرين الى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ويرجون دولتهم و يظهرون لهم غاية المحبة وعدم المفارقة عنهم فى السراء والضراء عند مشاهدتهم لخيبة رجائهم وانعكاس تقديرهم بوقوع ضد ماكانوا يترقبونه و يتعللون به تعجيبا للمخاطبين من حالهم وتعريضا بهم ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم انهم لمعكم﴾ أى بالنصرة والمعونة كما قالوا فيما حكى عنهم وان قوتلتم لننصرنكم واسم الاشارة مبتدأ ومابعده خبره والمعنى انكار مافعلوه واستبعاده وتخطئتهم فى ذلك أو يقول بعض المؤمنين لبعض مشيرين الى المنافقين أيضا أهؤلاء الذين أقسموا للكفرة انهم لمعكم فالخطاب فى معكم لليهود على التقديرين الا أنه على الأول من جهة المؤمنين وعلى الثانى من جهة المقسمين وهذه الجملة لا محل لها من الاعراب لأنها تفسير وحكاية لمعنى أقسموا لكن لا بألفاظهم والا لقيل انا معكم وجهد الأيمان أغلظها وهو فى الأصل مصدر ونصبه على الحال على تقدير وأقسموا بالله يجهدون جهد أيمانهم فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه ولا يبالى بتعريفه لفظا لأنه مؤول بنكرة أى مجتهدين فى أيمانهم أو على المصدر أى أقسموا اقسام اجتهاد فى اليمين وقوله تعالى ﴿حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ اما جملة مستأنفة مسوقة من جهته تعالى لبيان مآل ماصنعوه من ادعاء الولاية والاقسام على المعية فى المنشط والمكره اثر الاشارة الى بطلانه بالاستفهام الانكارى واما خبر ثان للمبتدا عند من يجوز كونه جملة كما فى قوله تعالى فاذا هى حية تسعى أو هو الخبر والموصول مع مافى حيز صلته صفة لاسم الاشارة فالاستفهام حينئذ للتقرير وفيه معنى التعجب كأنه قيل ماأحبط أعمالهم فما أخسرهم والمعنى بطلت أعمالهم التى عملوها فى شأن موالاتكم وسعوا فى ذلك سعيا بليغا حيث لم تكن لكم دولة فينتفعوا بما صنعوا من المساعى وتحملوا من مكابدة المشاق وفيه من الاستهزاء بالمنافقين والتقريع للمخاطبين مالايخفى وقيل قاله بعض المؤمنين مخاطبا لبعض تعجبا من سوء حال المنافقين واغتباطا بما من الله تعالى على أنفسهم من التوفيق للاخلاص أهؤلاء الذين أقسموا لكم باغلاظ الأيمان أنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار بطلت أعمالهم التى كانوا يتكلفونها فى رأى أعين الناس وأنت خبير بأن ذلك الكلام من المؤمنين انما يليق بما لو أظهر المنافقون حينئذ خلاف ماكانوا يدعونه و يقسمون عليه من ولاية المؤمنين ومعاضدتهم على الكفار فظهر كذبهم وافتضحوا بذلك على رؤس الأشهاد و بطلت أعمالهم التى كانوا يتكلفونها فى رأى أعين المؤمنين و لا ريب فى أنهم يومئذ أشد ادعاء وأكثر اقساما منهم قبل ذلك فضلا عن أن يظهروا خلاف ذلك وانما الذى يظهر منهم الندامة على ماصنعوا وليس ذلك علامة ظاهرة الدلالة على كفرهم و كذبهم فى ادعائهم فانهم يدعون أن ليست ندامتهم الا على ماأظهروه من موالاة الكفرة خشية اصابة الدائرة ﴿ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ وقرىء يرتدد بالفك على لغة الحجاز والادغام لغة تميم لما نهى فيما سلف عن موالاة اليهود والنصارى و بين أن موالاتهم مستدعية للارتداد عن الدين وفصل

مصير أمر من يواليهم من المنافقين شرع فى بيان حال المرتدين على الاطلاق وهذا من الكائنات التى أخبر عنها القرآن قبل وقوعها . روى أنه ارتد عن الاسلام احدى عشرة فرقة ثلاث فى عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام بنو مدلج ورئيسهم ذوالخمار وهو الأسود العنسى كان كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلاده فأخرج منها عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب عليه الصلاة والسلام الى معاذ بن جبل والى سادات اليمن فأهلكه الله تعالى على يدى فيروز الديلمى بيته فقتله وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ليلة قتل فسر به المسلمون وقبض عليه الصلاة والسلام من الغدوأتى خبره فى آخر شهر ربيع الأول و بنوحنيفة قوم مسيلمة الكذاب تنبأ وكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله أما بعد فان الأرض نصفها لى ونصفها لك فأجاب عليه الصلاة والسلام من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين فحاربه أبو بكر رضى الله عنه بجنود المسلمين وقتل على يدى وحشى قاتل حمزة رضى الله عنه وكان يقول قتلت فى جاهليتى خير الناس وفى اسلامى شر الناس و بنوأسد قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث اليه أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد فانهزم بعد القتال الى الشأم فأسلم وحسن اسلامه وسبع فى عهد أبى بكر رضى الله عنه فزارة قوم عيينة بن حصن وغطفان قوم قرة بن سلمة القشيرى و بنوسليم قوم الفجاءة ابن عبد ياليل و بنو يربوع قوم مالك بن نويرة و بعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة التى زوجت نفسها من مسيلمة الكذاب وفيها يقول أبو العلاء المعرى فى كتاب استغفر واستغفرى

آمت سجاح ووالاها مسيلمة　　كذابة فى بنى الدنيا وكذاب

وكندة قوم الاشعث بن قيس و بنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد وكفى الله تعالى أمرهم على يد أبى بكر رضى الله عنه وفرقة واحدة فى عهد عمر رضى الله عنه غسان قوم جبلة بن الايهم نصرته اللطمة وسيرته الى بلاد الروم وقصته مشهورة وقوله تعالى ﴿فسوف يأتى الله﴾ جواب الشرط والعائد الى اسم الشرط محذوف أى فسوف يأتى الله مكانهم بعد اهلاكهم ﴿بقوم يحبهم﴾ أى يريد بهم خيرى الدنيا والآخرة ومحل الجملة الجر على أنها صفة لقوم وقوله تعالى ﴿ويحبونه﴾ أى يريدون طاعته و يتحرزون عن معاصيه معطوف عليها داخل فى حكمها قيل هم أهل اليمن لما روى أن النبى عليه الصلاة والسلام أشار الى أبى موسى الأشعرى وقال قوم هذا وقيل هم الانصار رضى الله عنهم وقيل هم الفرس لما روى أنه عليه السلام سئل عنهم فضرب بيده الكريمة على عاتق سلمان رضى الله عنه وقال هذا وذووه ثم قال لو كان الايمان معلقا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس وقيل هم ألفان من النخع وخمسة آلاف من كندة وثلاثة آلاف من أفناء الناس جاهدوا يوم القادسية ﴿أذلة على المؤمنين﴾ جمع ذليل لا ذلول فان جمعه ذلل أى أرقاء رحماء متذللين ومتواضعين لهم واستعماله بعلى اما لتضمين معنى العطف والحنو أو للتنبيه على أنهم مع علو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم أو لرعاية المقابلة بينه و بين ما فى قوله تعالى ﴿أعزة على الكافرين﴾ أى أشداء متغلبين عليهم من عزه اذا غلبه كما فى قوله عز وعلا أشداء على الكفار رحماء بينهم وهما صفتان أخريان لقوم ترك بينهما العاطف للدلالة على استقلالهم بالاتصاف بكل منهما وفيه دليل على صحة تأخير الصفة الصريحة عن غير الصريحة من الجملة والظرف كما فى قوله تعالى وهذا كتاب أنزلناه مبارك وقوله تعالى ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث وقوله تعالى ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث وماذهب اليه من لا يجوزه من أن قوله تعالى يحبهم ويحبونه كلام معترض وأن مبارك خبر بعد خبر أو خبر لمبتدا محذوف وأن من ربهم ومن الرحمن حالان مقدمتان من ضمير محدث تكلف لا يخفى وقرئ أذلة أعزة بالنصب على الحالية من قوم لتخصصه بالصفة ﴿يجاهدون فى سبيل الله﴾ صفة أخرى لقوم مترتبة على ما قبلها مبينة مع ما بعدها لكيفية

عزتهم أو حال من الضمير فى أعزة ﴿ولايخافون لومة لائم﴾ عطف على يجاهدون بمعنى أنهم جامعون بين المجاهدة فى سبيل الله و بين التصلب فى الدين وفيه تعريض بالمنافقين فانهم كانوا اذا خرجوا فى جيش المسلمين خافوا أولياءهم اليهود فلا يكادون يعملون شيئا يلحقهم فيه لوم من جهتهم وقيل هو حال من فاعل يجاهدون بمعنى أنهم يجاهدون وحالهم خلاف حال المنافقين واعترض عليه بأنهم نصوا على أن المضارع المنفى بلا أوما كالمثبت فى عدم جواز مباشرة واو الحال له واللومة المرة من اللوم وفيها و فى تنكير لائم مبالغة لاتخفى ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماتقدم من الأوصاف الجليلة ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها فى الفضل ﴿فضل الله﴾ أى لطفه واحسانه لا أنهم مستقلون فى الاتصاف بها ﴿يؤتيه من يشاء﴾ ايتاءه اياه و يوفقه لكسبه وتحصيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿والله واسع﴾ كثير الفواضل والألطاف ﴿عليم﴾ مبالغ فى العلم بجميع الأشياء التى من جملتها من هو أهل للفضل والتوفيق والجملة اعتراض تذييلى مقرر لماقبله واظهار الاسم الجليل للاشعار بالعلة وتأكيد استقلال الجملة الاعتراضية ﴿انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ لما نهاهم الله عز وجل عن موالاة الكفرة وعلله بأن بعضهم أولياء بعض لايتصورو لايتهم للمؤمنين وبين أن من يتولاهم يكون من جملتهم بين ههنا من هو وليهم بطريق قصر الولاية عليه كأنه قيل لاتتخذوهم أولياء لان بعضهم أولياء بعض وليسوا بأوليائكم انما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون فاختصوهم بالموالاة ولا تتخطوهم الى غيرهم وانما أفرد الولى مع تعدده للايذان بأن الولاية أصالة لله تعالى وولايته عليه السلام و كذا ولاية المؤمنين بطريق التبعية لولايته عزوجل ﴿الذين يقيمون الصلوة و يؤتون الزكوة﴾ صفة للذين آمنوا لجريانه مجرى الاسم أوبدل منه أو نصب على المدح أو رفع عليه ﴿وهم راكعون﴾ حال من فاعل الفعلين أى يعملون ماذكر من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى وقيل هو حال مخصوصة بايتاء الزكاة والركوع ركوع الصلاة والمراد بيان كمال رغبتهم فى الاحسان ومسارعتهم اليه وروى أنها نزلت فى على رضى الله عنه حين سأله سائل وهو راكع فطرح اليه خاتمه كأنه كان مرجا فى خنصره غير محتاج فى اخراجه الى كثير عمل يؤدى الى فساد الصلاة ولفظ الجمع حينئذ لترغيب الناس فى مثل فعله رضى الله عنه وفيه دلالة على أن صدقة التطوع تسمى زكاة ﴿ومن يتول الله و رسوله والذين آمنوا﴾ أوثر الاظهار على أن يقال ومن يتولهم رعاية لما مر من نكتة بيان أصالته تعالى فى الولاية كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿فان حزب الله هم الغالبون﴾ حيث أضيف الحزب اليه تعالى خاصة وهو أيضا من باب وضع الظاهر موضع الضمير العائد الى من أى فانهم الغالبون لكنهم جعلوا حزب الله تعالى تعظيما لهم واثباتا لغلبتهم بالطريق البرهانى كأنه قيل ومن يتول هؤلاء فانهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا﴾ روى أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث أظهرا الاسلام ثم نافقا وكان رجال من المؤمنين يوادونهما فنهوا عن موالاتهما و رتب النهى على وصف يعمهما وغيرهما تعميما للحكم وتنبيها على العلة وايذانا بأن من هذا شأنه جدير بالمعاداة فكيف بالموالاة ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ بيان للمستهزئين والتعرض لعنوان ايتاء الكتاب لبيان كمال شناعتهم وغاية ضلالتهم لما أن ايتاء الكتاب وازع لهم عن الاستهزاء بالدين المؤسس على الكتاب المصدق لكتابهم ﴿والكفار﴾ أى المشركين خصوا به لتضاعف كفرهم وهو عطف على الموصول الاول ففيه اشعار بأنهم ليسوا بمستهزئين كما ينبئ عنه تخصيص الخطاب بأهل الكتاب فى قوله تعالى ياأهل الكتاب هل تنقمون منا الآية وقرئ بالجر عطفا على الموصول الاخير و يعضده قراءة أبى ومن الكفار وقراءة عبدالله ومن الذين أشركوا فهم أيضا من جملة المستهزئين ﴿أولياء﴾ وجانبوهم كل المجانبة ﴿واتقوا الله﴾ فى ذلك بترك موالاتهم أو بترك المناهى

على الاطلاق فيدخل فيه ترك موالاتهم دخولا أوليا ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ أى حقا فان قضية الايمان توجب الاتقاء لامحالة ﴿واذا ناديتم الى الصلوة اتخذوها﴾ أى الصلاة او المناداة ففيه دلالة على شرعية الاذان ﴿هزوا ولعبا﴾ بيان لاستهزائهم بحكم خاص من أحكام الدين بعد بيان استهزائهم بالدين على الاطلاق اظهارا لكمال شقاوتهم. روى أن نصرانيا بالمدينة كان اذا سمع المؤذن يقول أشهد أن محمدا رسول الله يقول أحرق الله الكاذب فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام فتطايرت منه شرارة فى البيت فأحرقته وأهله جميعا ﴿ذلك﴾ أى الاستهزاء المذكور ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿قوم لايعقلون﴾ فان السفه يؤدى الى الجهل بمحاسن الحق والهزؤ به ولوكان لهم عقل فى الجملة لما اجترءوا على تلك العظيمة ﴿قل﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق تلوين الخطاب بعد نهى المؤمنين عن تولى المستهزئين بأن يخاطبهم و يبين أن الدين منزه عما يصحح صدور ما صدر عنهم من الاستهزاء و يظهر لهم سبب ما ارتكبوه ويلقمهم الحجر أى قل لاولئك الفجرة ﴿يا أهل الكتاب﴾ وصفوا بأهلية الكتاب تمهيدا لما سيأتى من تبكيتهم والزامهم بكفرهم بكتابهم ﴿هل تنقمون منا﴾ من نقم منه كذا اذا عابه وأنكره وكرهه ينقمه من حد ضرب وقرىء بفتح القاف من حد علم وهى أيضا لغة أى ماتعيبون وما تنكرون منا ﴿الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا﴾ من القرآن المجيد ﴿وما أنزل من قبل﴾ أى من قبل انزاله من التوراة والانجيل المنزلين عليكم وسائر الكتب الالهية ﴿وأن أكثركم فاسقون﴾ أى متمردون خارجون عن الايمان بما ذكر فان الكفر بالقرآن مستلزم للكفر بما يصدقه لامحالة وهو عطف على أن آمنا على أنه مفعول له لتنقمون والمفعول الذى هو الدين محذوف ثقة بدلالة ماقبله ومابعده عليه دلالة واضحة فان اتخاذ الدين هزوا ولعبا عين نقمه وانكاره والايمان بما فصل عين الدين الذى نقموه خلا أنه أبرز فى معرض علة نقمهم له تسجيلا عليهم بكمال المكابرة والتعكيس حيث جعلوه موجبا لنقمه مع كونه فى نفسه موجبا لقبوله وارتضائه فالاستثناء من أعم العلل أى ماتنقمون منا دينيا لعلة من العلل الا لأن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل من كتبكم ولان اكثركم متمردون غير مؤمنين بواحد مما ذكر حتى لو كنتم مؤمنين بكتابكم الناطق بصحة كتابنا لآمنتم به واسناد الفسق الى أكثرهم لأنهم الحاملون لأعقابهم على التمرد والعناد وقيل عطف عليه على أنه مفعول لتنقمون منا لكن لا على أن المستثنى مجموع المعطوفين بل هو ما يلزمهما من المخالفة كأنه قيل ماتنقمون منا الا مخالفتكم حيث دخلنا الايمان وأنتم خارجون عنه وقيل على حذف المضاف أى واعتقاد أن أكثركم فاسقون وقيل عطف على ما أى ماتنقمون منا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا و بأنكم فاسقون وقيل عطف على علة محذوفة أى لقلة انصافكم و لأن أكثركم فاسقون وقيل الواو بمعنى مع أى ماتنقمون منا الا الايمان مع أن أكثركم الخ وقيل هو منصوب بفعل مقدر دل عليه المذكور أى و لا تنقمون أن اكثركم فاسقون وقيل هو مرفوع على الابتداء والخبر محذوف أى وفسقكم معلوم أى ثابت والجملة حالية أومعترضة وقرىء بان المكسورة والجملة مستأنفة مبينة لكون أكثرهم فاسقين متمردين ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك﴾ لما أمر عليه الصلاة والسلام بالزامهم وتبكيتهم ببيان أن مدار نقمهم للدين انما هو اشتماله على مايوجب ارتضاءه عندهم أيضا و كفرهم بما هومسلم لهم أمر عليه الصلاة والسلام عقيبه بأن يبكتهم ببيان أن الحقيق بالنقم والعيب حقيقة ماهم عليه من الدين المحرف و ينعى عليهم فى ضمن البيان جنايأتهم وما حاق بهم من تبعاتها وعقوباتها على منهاج التعريض لئلا يحملهم التصريح بذلك على ركوب متن المكابرة والعناد و يخاطبهم قبل البيان بما ينبىء عن عظم شأن المبين و يستدعى اقبالهم على تلقيه من الجملة الاستفهامية المشوقة الى المخبر به والتنبئة المشعرة بكونه أمرا خطيرا لما أن النبأ هو الخبر الذى له شأن وخطر وحيث كان مناط النقم شرية المنقوم حقيقة أو اعتقادا وكان مجرد النقم غير مفيد

لشريته البتة قيل بشر من ذلك ولم يقل بأنقم من ذلك تحقيقا لشرية ماسيذكر وزيادة تقرير لها وقيل انما قيل ذلك لوقوعه فى عبارة المخاطبين حيث أتى نفر من اليهود فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دينه فقال عليه الصلاة والسلام أومن بالله وما أنزل الينا الى قوله ونحن له مسلمون فحين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام قالوا لانعلم شرا من دينكم وانما اعتبر الشرية بالنسبة الى الدين وهو منزه عن شائبة الشرية بالكلية مجاراة معهم على زعمهم الباطل المنعقد على كمال شريته ليثبت أن دينهم شر من كل شر أى هل أخبركم بما هو شر فى الحقيقة مما تعتقدونه شرا وان كان فى نفسه خيرا محضا ﴿مثوبة عند الله﴾ أى جزاء ثابتا فى حكمه وقرئ مثوبة وهى لغة فيها كمشورة ومشورة وهى مختصة بالخير كما أن العقوبة مختصة بالشر وانما وضعت ههنا موضعها على طريقة قوله تحية بينهم ضرب وجيع ونصبها على التميز من بشر وقوله عز وجل ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾ خبر لمبتدا محذوف بتقدير مضاف قبله مناسب لما أشير اليه بكلمة ذلك أى دين من لعنه الخ أو بتقدير مضاف قبلها مناسب لمن أى بشر من أهل ذلك والجملة على التقديرين استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الجملة الاستفهامية اما على حالها وهو الظاهر المناسب لسياق النظم الكريم واما باعتبار التقدير فيها فكأنه قيل ما الذى هو شر من ذلك فقيل هو دين من لعنه الله الخ أو قيل فى السؤال من ذا الذى هو شر من أهل ذلك فقيل هو من لعنه الله ووضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة وادخال الروعة وتهويل أمر اللعن وماتبعه والموصول عبارة عن المخاطبين حيث أبعدهم الله تعالى من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم فى المعاصى بعد وضوح الآيات وسنوح البينات ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ أى مسخ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت وبعضهم خنازير وهم كفار مائدة عيسى عليه السلام وقيل كلا المسخين فى أصحاب السبت مسخت شبانهم قردة وشيوخهم خنازير وجمع الضمير الراجع الى الموصول فى منهم باعتبار معناه كما أن افراد الضميرين الاولين باعتبار لفظه وايثار وضعه موضع ضمير الخطاب المناسب لأنبئكم للقصد الى اثبات الشرية بما عدد فى حيز صلته من الامور الهائلة الموجبة لها على الطريقة البرهانية مع مافيه من الاحتراز عن تهييج لجاجهم ﴿وعبد الطاغوت﴾ عطف على صلة من وافراد الضمير لما مر وكذا عبد الطاغوت على قراءة البناء للمفعول ورفع الطاغوت وكذا عبد الطاغوت بمعنى صار معبودا فالراجع الى الموصول محذوف على القراءتين أى عبد فيهم أو بينهم وتقديم أوصافهم المذكورة بصدد اثبات شرية دينهم على وصفهم هذا مع أنه الأصل المستتبع لها فى الوجود وان دلالته على شريته بالذات لان عبادة الطاغوت عين دينهم البين البطلان ودلالتها عليها بطريق الاستدلال بشرية الآثار على شرية مايوجبها من الاعتقاد والعمل اما للقصد الى تبكيتهم من أول الأمر بوصفهم بما لاسبيل لهم الى الجحود لابشريته وفظاعته ولا باتصافهم به واما للايذان باستقلال كل من المقدم والمؤخر بالدلالة على ماذكر من الشرية ولو روعى ترتيب الوجود وقيل من عبد الطاغوت ولعنه الله وغضب عليه الخ لربما فهم أن علة الشرية هو المجموع وقد قرئ عابد الطاغوت وكذا عبد الطاغوت بالاضافة على أنه نعت كفطن ويقظ وكذا عبدة الطاغوت وكذا عبد الطاغوت بالاضافة على أنه جمع عابد كخدم أو على أن أصله عبدة حذفت تاؤه للاضافة بالنصب فى الكل عطفا على القردة والخنازير وقرئ عبد الطاغوت بالجر عطفا على من بناء على أنه مجرور بتقدير المضاف وقد قيل ان من مجرور على أنه بدل من شر على أحد الوجهين المذكورين فى تقدير المضاف وأنت خبير بأن ذلك مع اقتضائه اخلاء النظم الكريم عن المزايا المذكورة بالمرة مما لاسبيل اليه قطعا ضرورة أن المقصود الأصلى ليس مضمون الجملة الاستفهامية بل هو كما مر مقدمة سيقت أمام المقصود لهزء المخاطبين وتوجيه أذهانهم نحو تلقى مايلقى اليهم عقيبها بجملة خبرية موافقة فى الكيفية للسؤال الناشىء عنها وهو المقصود افادته وعليه يدور ذلك الالزام والتبكيت حسبما شرح فاذا جعل الموصول

بما فى حيز صلته من تتمة الجملة الاستفهامية فأين الذى يأتى اليهم عقيبها جوابا عما نشأ منها من السؤال ليحصل به الالزام والتبكيت وأما الجملة الآتية فبمعزل من صلاحية الجواب كيف لا و لا بد من موافقته فى الكيفية للسؤال الناشىء عن الجملة الاستفهامية وقد عرفت أن السؤال الناشىء عنها يستدعى وقوع الشر من تتمة المخبر عنه لاخبرا كما فى الجملة المذكورة وسيتضح ذلك مزيد اتضاح باذن الله تعالى والمراد بالطاغوت العجل وقيل هو الكهنة و كل من أطاعوه فى معصية الله عز وجل فيعم الحكم دين النصارى أيضا و يتضح وجه تأخير ذكر عبادته عن العقوبات المذكورة اذ لو قدمت عليها لتوهم اشتراك الفريقين فى تلك العقوبات ولما كان مآل ماذكر بصدد التبكيت أن ماهو شر مما نقموه دينهم أوأن من هو شر من أهل مانقموه أنفسهم بحسب ماقدر من المضافين وكانت الشرية على كلا الوجهين من تتمة الموضوع غير مقصودة الاثبات لدينهم أو لأنفسهم عقب ذلك باثباتها لهم على وجه يشعر بعلية ماذكر من القبائح لثبوتها لهم بجملة مستأنفة مسوقة من جهته سبحانه شهادة عليهم بكمال الشرارة والضلال أو داخلة تحت الأمر تأكيدا للالزام وتشديدا للتبكيت فقيل ﴿أولئك شر مكانا﴾ فاسم الاشارة عبارة عمن ذكرت صفاتهم الخبيثة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الشرارة أى أولئك الموصوفون بتلك القبائح والفضائح شر مكانهم جعل مكانا شرا ليكون أبلغ فى الدلالة على شرارتهم وقيل شر مكانا أى منصرفا ﴿وأضل عن سواء السبيل﴾ عطف على شر مقرر له أى أكثر ضلالا عن الطريق المستقيم وفيه دلالة على كون دينهم شرا محضا بعيدا عن الحق لأن مايسلكونه من الطريق دينهم فاذا كانوا أضل كان دينهم ضلالا مبينا لاغاية وراءه وصيغة التفضيل فى الموضعين للزيادة مطلقا لا بالاضافة الى من يشاركهم فى أصل الشرارة والضلال ﴿واذا جاءوكم قالوا آمنا﴾ نزلت فى ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم و يظهرون له الايمان نفاقا فالخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والجمع للتعظيم أوله مع من عنده من المسلمين أى اذا جاءوكم أظهروا الاسلام ﴿وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾ أى يخرجون من عندك ملتبسين بالكفر كما دخلوا لم يؤثر فيهم ماسمعوا منك والجملتان حالان من فاعل قالوا و بالكفر و به حالان من فاعل دخلوا وخرجوا وقد وان دخلت لتقريب الماضى من الحال ليصح أن يقع حالا أفادت أيضا بما فيها من معنى التوقع أن أمارات النفاق كانت لائحة وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يظنه و يتوقع أن يظهره الله تعالى و لذلك قيل ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ أى من الكفر وفيه وعيد شديد لهم ﴿وترى﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب والرؤية بصرية ﴿كثيرا منهم﴾ من اليهود والمنافقين وقوله تعالى ﴿يسارعون فى الاثم﴾ حال من كثيرا وقيل مفعول ثان والرؤية قلبية والأول أنسب بحالهم وظهور نفاقهم والمسارعة المبادرة والمباشرة للشىء بسرعة وايثار كلمة فى على كلمة الى الواقعة فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة الخ لما ذكر فى قوله تعالى فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم والمراد بالاثم الكذب على الاطلاق وقيل الحرام وقيل كلمة الشرك وقولهم عزير ابن الله وقيل هو ما يختص بهم من الآثام ﴿والعدوان﴾ أى الظلم المتعدى الى الغير أومجاوزة الحد فى المعاصى ﴿وأكلهم السحت﴾ أى الحرام خصه بالذكر مع اندراجه فى الاثم للمبالغة فى التقبيح ﴿لبئس ماكانوا يعملون﴾ أى لبئس شيأ كانوا يعملونه والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار ﴿لو لا ينهاهم الربانيون والأحبار﴾ قال الحسن الربانيون علماء الانجيل والاحبار علماء التوراة وقيل كلهم فى اليهود وهو تحضيض للذين يقتدى بهم أفناؤهم و يعلمون قباحة ماهم فيه وسوء مغبته على نهى أسافلهم عن ذلك مع توبيخ لهم على تركه ﴿عن قولهم الاثم وأكلهم السحت﴾ مع علمهم بقبحهما ومشاهدتهم لمباشرتهم لهما ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ وهذا أبلغ مما قيل فى حق عامتهم لما أن العمل لا يبلغ درجة

الصنع مالم يتدرب فيه صاحبه ولم يحصل فيه مهارة تامة و لذلك ذم به خواصهم و لأن ترك الحسنة أقبح من مواقعة المعصية لأن النفس تلتذ بها وتميل اليها و لا كذلك ترك الانكار عليها فكان جديرا بأبلغ ذم وفيه مما ينعى على العلماء توانيهم فى النهى عن المنكرات مالايخفى وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها أشد آية فى القرآن وعن الضحاك مافى القرآن آية أخوف عندى منها ﴿وقالت اليهود﴾ قال ابن عباس وعكرمة والضحاك ان الله تعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالا وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله سبحانه بأن كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبوه كف عنهم مابسط عليهم فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء ﴿يد الله مغلولة﴾ وحيث لم ينكر عليه الآخرون ورضوا به نسبت تلك العظيمة الى الكل كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم وأرادوا بذلك لعنهم الله أنه تعالى ممسك يقتر بالرزق فان كلا من غل اليد و بسطها مجاز عن محض البخل والجود من غير قصد فى ذلك الى اثبات يد وغل أو بسط ألا يرى أنهم يستعملونه حيث لا يتصور فيه ذلك كما فى قوله تعالى

جاد الحمى بسط اليدين بوابل　　شكرت نداه تلاعه ووهاده

وقد سلك لبيد هذا المسلك السديد حيث قال

وغداة ريح قد شهدت وقرة　　اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

فانه انما أراد بذلك اثبات القدرة التامة للشمال على التصرف فى القرة كيفما تشاء على طريقة المجاز من غير أن يخطر بباله أن يثبت لها يدا و لا للقرة زماما وأصله كناية فيمن يجوز عليه ارادة المعنى الحقيقى كما فى قوله تعالى و لا ينظر اليهم يوم القيامة فى سورة آل عمران وقيل أرادوا ماحكى عنهم بقوله تعالى لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء ﴿غلت أيديهم﴾ دعاء عليهم بالبخل المذموم والمسكنة أو بالفقر والنكد أو بغل الايدى حقيقة بأن يكونوا أسارى مغلولين فى الدنيا و يسحبوا الى النار بأغلالها فى الآخرة فتكون المطابقة حينئذ من حيث اللفظ وملاحظة المعنى الاصلى كما فى سبنى سب الله دابره ﴿ولعنوا﴾ عطف على الدعاء الأول أى أبعدوا من رحمة الله تعالى ﴿بما قالوا﴾ أى بسبب ما قالوا من الكلمة الشنعاء وقيل كلاهما خبر ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام أى كلا ليس كذلك بل هو فى غاية ما يكون من الجود واليه أشير بتثنية اليد فان أقصى ماينتهى اليه همم الاسخياء أن يعطوا مايعطونه بكلتا يديهم وقيل التثنية للتنبيه على منحه تعالى لنعمتى الدنيا والآخرة وقيل على اعطائه اكراما وعلى اعطائه استدراجا ﴿ينفق كيف يشاء﴾ جملة مستأنفة واردة لتأكيد كمال جوده وللتنبيه على سر ما ابتلوا به من الضيق الذى اتخذوه من غاية جهلهم وضلالهم ذريعة الى الاجتراء على تلك الكفرة العظيمة والمعنى أن ذلك ليس لقصور فى فيضه بل لأن انفاقه تابع لمشيئته المبنية على الحكم التى عليها يدور أمر المعاش والمعاد وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصى أن يضيق عليهم كما يشير اليه ما سيأتى من قوله عز وجل و لو أنهم أقاموا التوراة والانجيل الآية وكيف ظرف ليشاء والجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير ينفق أى ينفق كائنا على أى حال يشاء أى كائنا على مشيئته أى مريدا وترك ذكر ما ينفقه لقصد التعميم ﴿وليزيدن كثيرا منهم﴾ وهم علماؤهم ورؤساؤهم ﴿ما أنزل اليك﴾ من القرآن المشتمل على هذه الآيات وتقديم المفعول للاعتناء به وتخصيص الكثير منهم بهذا الحكم لما أن بعضهم ليس كذلك ﴿من ربك﴾ متعلق بأنزل كما أن اليك كذلك وتأخيره عنه مع أن حق المبدا أن يتقدم على المنتهى لاقتضاء المقام الاهتمام ببيان المنتهى لأن مدار الزيادة هو النزول اليه عليه السلام كما فى قوله تعالى وأنزل لكم من السماء ماء والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام لتشريفه عليه السلام ﴿طغيانا وكفرا﴾ مفعول ثان للزيادة أى ليزيدنهم طغيانا على طغيانهم

وكفرا على كفرهم القديمين امامن حيث الشدة والغلو وامامن حيث الكم والكثرة اذكلما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم بحسب المقدار كما أن الطعام الصالح للاصحاء يزيد المرضى مرضا ﴿والقينا بينهم﴾ أى بين اليهود فان بعضهم جبرية وبعضهم قدرية وبعضهم مرجئة وبعضهم مشبهة ﴿العداوة والبغضاء﴾ فلا يكاد تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم والجملة مبتدأة مسوقة لازاحة ماعسى يتوهم من ذكر طغيانهم وكفرهم من الاجتماع على أمر يؤدى الى الاضرار بالمسلمين قيل العداوة أخص من البغضاء لأن كل عدو مبغض بلا عكس كلى ﴿الى يوم القيامة﴾ متعلق بألقينا وقيل بالبغضاء ﴿كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله﴾ تصريح بما أشير اليه من عدم وصول غائلة ماهم فيه الى المسلمين أى كلما أرادوا محاربة الرسول عليه الصلاة والسلام ورتبوا مباديها وركبوا فى ذلك متن كل صعب وذلول ردهم الله تعالى وقهرهم أو كلما أرادوا حرب أحد غلبوا فانهم لما خالفوا حكم التوراة سلط الله تعالى عليهم بخت نصر ثم أفسدوا فسلط الله عليهم فطرس الرومى ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين وللحرب اماصلة لأوقدوا أو متعلق بمحذوف وقع صفة لنارا أى كائنة للحرب ﴿ويسعون فى الارض فسادا﴾ أى يجتهدون فى الكيد للاسلام وأهله واثارة الشر والفتنة فيما بينهم مما يغاير ما عبر عنه بايقاد نار الحرب وفسادا اما مفعول له أو فى موقع المصدر أى يسعون للفساد أو يسعون سعى فساد ﴿والله لا يحب المفسدين﴾ ولذلك أطفأ ثائرة افسادهم واللام اما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا واما للعهد ووضع المظهر مقام الضمير للتعليل وبيان كونهم راسخين فى الافساد ﴿ولو أن أهل الكتاب﴾ أى اليهود والنصارى على أن المراد بالكتاب الجنس المنتظم للتوراة والانجيل وانما ذكروا بذلك العنوان تأكيدا للتشنيع فان أهلية الكتاب توجب ايمانهم به واقامتهم له لامحالة فكفرهم به وعدم اقامتهم له وهم أهله أقبح من كل قبيح وأشنع من كل شنيع فمفعول قوله تعالى ﴿آمنوا﴾ محذوف ثقة بظهوره مما سبق من قوله تعالى هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون وما لحق من قوله تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة الخ أى ولو أنهم مع صدور ما صدر عنهم من فنون الجنايات قولا وفعلا آمنوا بما نعى عنهم الايمان به فيندرج فيه فرض ايمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وأما ارادة ايمانهم به عليه السلام خاصة فيأباها المقام لأن ما ذكر فيما سبق وما لحق من كفرهم به عليه السلام انما ذكر مشفوعا بكفرهم بكتابهم أيضا قصدا الى الالزام والتبكيت ببيان أن الكفر به عليه الصلاة والسلام مستلزم للكفر بكتابهم فحمل الايمان ههنا على الايمان به عليه السلام خاصة مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم ﴿واتقوا﴾ ماعددنا من معاصيهم التى من جملتها مخالفة كتابهم ﴿لكفرنا عنهم سيئاتهم﴾ التى اقترفوها وان كانت فى غاية العظم ونهاية الكثرة ولم نؤاخذهم بها ﴿ولأدخلناهم﴾ مع ذلك ﴿جنات النعيم﴾ وتكرير اللام لتأكيد الوعد وفيه تنبيه على كمال عظم ذنوبهم وكثرة معاصيهم وأن الاسلام يجب ماقبله من السيئات وان جلت وجاوزت كل حد معهود ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل﴾ بمراعاة مافيهما من الأحكام التى من جملتها شواهد نبوة النبى صلى الله عليه وسلم ومبشرات بعثته فان اقامتهما انما تكون بذلك لا بمراعاة جميع مافيهما من الأحكام لانتساخ بعضها بنزول القرآن فليست مراعاة الكل من اقامتهما فى شىء ﴿وما أنزل اليهم من ربهم﴾ من القرآن المجيد المصدق لكتبهم وايراده بهذا العنوان للايذان بوجوب اقامته عليهم لنزوله اليهم وللتصريح ببطلان ما كانوا يدعونه من عدم نزوله الى بنى اسرائيل وتقديم اليهم لما مر من قبل وفى اضافة الرب الى ضميرهم مزيد لطف بهم فى الدعوة الى الاقامة وقيل المراد بما أنزل اليهم كتب أنبياء بنى اسرائيل مثل كتاب شعياء وكتاب حنقوق وكتاب دانيال فانها مملوءة بالبشارة بمبعثه صلى الله عليه وسلم ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أى لوسع عليهم أرزاقهم بأن

يفيض عليهم بركات السماء والارض أو بأن يكثر ثمرات الاشجار وغلال الزروع أو بأن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار فيجتنوا ماتهدل منها من رؤس الأشجار و يلتقطوا ماتساقط منها على الأرض وقيل المراد المبالغة فى شرح السعة والخصب لاتعيين الجهتين كأنه قيل لأكلوا من كل جهة ومفعول أكلوا محذوف لقصد التعميم أو للقصد الى نفس الفعل كما فى قوله فلان يعطى و يمنع ومن فى الموضعين لابتداء الغاية وفى هاتين الشرطيتين من حثهم على ماذكر من الايمان والتقوى والاقامة بالوعد بنيل سعادة الدارين و زجرهم عن الاخلال به بما ذكر ببيان افضائه الى الحرمان عنها وتنبيههم على أن ماأصابهم من الضنك والضيق انما هو من شؤم جناياتهم لا لقصور فى فيض الفياض مالايخفى ﴿منهم أمة مقتصدة﴾ جملة مستأنفة مبنية على سؤال نشأ من مضمون الجملتين المصدرتين بحرف الامتناع الدالتين على انتفاء الايمان والاتقاء واقامة الكتب المنزلة من أهل الكتاب كأنه قيل هل كلهم كذلك مصرون على عدم الايمان الخ فقيل منهم أمة مقتصدة اما على أن منهم مبتدأ باعتبار مضمونه أى بعضهم أمة واما بتقدير الموصوف أى بعض كائن منهم كما مر فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الآية أى طائفة معتدلة وهم المؤمنون منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وثمانية وأربعون من النصارى وقيل طائفة حالهم أمم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وكثير منهم﴾ مبتدأ لتخصصه بالصفة خبره ﴿ساء مايعملون﴾ أى مقول فى حقهم هذا القول أى بئسما يعملون وفيه معنى التعجب أى ماأسوأ عملهم من العناد والمكابرة وتحريف الحق والاعراض عنه والافراط فى العداوة وهم الاجلاف المتعصبون ككعب بن الاشرف وأشباهه والروم ﴿ياأيها الرسول﴾ نودى عليه السلام بعنوان الرسالة تشريفا له وايذانا بأنها من موجبات الاتيان بما أمر به من تبليغ ماأوحى اليه ﴿بلغ ماأنزل اليك﴾ أى جميع ماأنزل اليك من الأحكام ومايتعلق بها كائنا ما كان وفى قوله تعالى ﴿من ربك﴾ أى مالك أمورك ومبلغك الى كمالك اللائق بك عدة ضمنية بحفظه عليه السلام وكلاءته أى بلغه غير مراقب فى ذلك أحدا ولا خائف أن ينالك مكروه أبدا ﴿وان لم تفعل﴾ ماأمرت به من تبليغ الجميع بالمعنى المذكور كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿فما بلغت رسالته﴾ فان مالاتتعلق به الأحكام أصلا من الاسرار الخفية ليست مما يقصد تبليغه الى الناس أى فما بلغت شيئاً من رسالته وانسلخت مما شرفت به من عنوان الرسالة بالمرة لما أن بعضها ليس أولى بالاداء من بعض فاذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها لادلاء كل منها بما يدليه غيرها وكونها لذلك فى حكم شىء واحد ولاريب فى أن الواحد لايكون مبلغا غير مبلغ مؤمنا به غير مؤمن به ولأن كتمان بعضها اضاعة لما أدى منها كترك بعض أركان الصلاة فان غرض الدعوة ينتقض بذلك وقيل فكأنك مابلغت شيئاً منها كقوله تعالى فكأنما قتل الناس جميعا من حيث أن كتمان البعض والكل سواء فى الشناعة واستجلاب العقاب وقرىء فما بلغت رسالاتى وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان كتمت آية لم تبلغ رسالاتى و روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنى الله برسالاته فضقت بها ذرعا فأوحى الله الى ان لم تبلغ رسالاتى عذبتك وضمن لى العصمة فقويت وذلك قوله تعالى ﴿والله يعصمك من الناس﴾ فانه كما ترى عدة كريمة بعصمته من لحوق ضررهم بروحه العزيز باعثة له عليه السلام على الجد فى تحقيق ماأمر به من التبليغ غير مكترث بعداوتهم وكيدهم وعن أنس رضى الله عنه أنه عليه السلام كان يحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة أدم فقال انصرفوا ياأيها الناس فقد عصمنى الله من الناس وقوله تعالى ﴿ان الله لايهدى القوم الكافرين﴾ تعليل لعصمته تعالى له عليه السلام أى لايمكنهم مما يريدون بك من الاضرار وايراد الآية الكريمة فى تضاعيف الآيات الواردة فى حق أهل الكتاب لما أن الكل قوارع يسوء الكفار سماعها و يشق على الرسول صلى الله عليه وسلم مشافهتهم بها وخصوصا مايتلوها من النص الناعى

عليهم كمال ضلالتهم ولذلك أعيد الأمر فقيل ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ مخاطبا للفريقين ﴿لستم على شئ﴾ أى دين يعتدبه و يليق بأن يسمى شيئا لظهور بطلانه و وضوح فساده و فى هذا التعبير من التحقير والتصغير ما لا غاية و راءه ﴿حتى تقيموا التوراة والانجيل﴾ أى تراعوهما وتحافظوا على مافيهما من الأمور التى من جملتها دلائل رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وشواهد نبوته فان اقامتهما انما تكون بذلك وأما مراعاة أحكامهما المنسوخة فليست من اقامتهما فى شئ بل هى تعطيل لهما و رد لشهادتهما لانهما شاهدان بنسخها وانتهاء وقت العمل بها لان شهادتهما بصحة ماينسخها شهادة بنسخها وخروجها عن كونها من أحكامهما وأن أحكامهما ماقرره النبى الذى بشر فيهما ببعثته وذكر فى تضاعيفهما نعوته فاذن اقامتهما بيان شواهد النبوة والعمل بما قرره الشريعة من الأحكام كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿وما أنزل اليكم من ربكم﴾ أى القرآن المجيد بالايمان به فان اقامة الجميع لاتتأتى بغير ذلك وتقديم اقامة الكتابين على اقامته مع أنها المقصودة بالذات لرعاية حق الشهادة واستنزالهم عن رتبة الشقاق وايراده بعنوان الانزال اليهم لما مر من التصريح بأنهم مأمورون باقامته والايمان به لا كما يزعمون من اختصاصه بالعرب وفى اضافة الرب الى ضميرهم ما أشير اليه من اللطف فى الدعوة وقيل المراد بما أنزل اليهم كتب أنبياء بنى اسرائيل كما مر وقيل الكتب الالهية فانها بأسرها آمرة بالايمان لمن صدقته المعجزة ناطقة بوجوب الطاعة له . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن جماعة من اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألست تقرأ أن التوراة حق من عند الله تعالى فقال عليه السلام بلى فقالوا فانا مؤمنون بها و لا نؤمن بغيرها فنزلت وقوله تعالى ﴿وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا﴾ جملة مستأنفة مبينة لشدة شكيمتهم وغلوهم فى المكابرة والعناد وعدم افادة التبليغ نفعا وتصديرها بالقسم لتأكيد مضمونها وتحقيق مدلولها والمراد بالكثير المذكور علماؤهم و رؤساؤهم ونسبة الانزال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع نسبته فيما مر اليهم للانباء عن انسلاخهم عن تلك النسبة ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾ أى لاتتأسف و لاتحزن عليهم لافراطهم فى الطغيان والكفر بما تبلغه اليهم فان غائلته آيلة اليهم وتبعته حائقة بهم لاتتخطاهم وفى المؤمنين مندوحة لك عنهم ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالرسوخ فى الكفر ﴿ان الذين آمنوا﴾ كلام مستأنف مسوق لترغيب من عدا المذكورين فى الايمان والعمل الصالح أى الذين آمنوا بألسنتهم فقط وهم المنافقون وقيل أعم من أن يواطئها قلوبهم أولا ﴿والذين هادوا﴾ أى دخلوا فى اليهودية ﴿والصابئون والنصارى﴾ جمع نصران وقد مر تفصيله فى سورة البقرة وقوله تعالى والصابئون رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخر عما فى حيز ان والتقدير ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كيت وكيت والصابئون كذلك كقوله فانى وقيار بها لغريب وقوله

والا فاعلموا أنا وأنتم بغاة مابقينا فى شقاق

خلا أنه وسط بين اسم ان وخبرها دلالة على أن الصابئين مع ظهور ضلالهم و زيغهم عن الاديان كلها حيث قبلت توبتهم ان صح منهم الايمان والعمل الصالح فغيرهم أولى بذلك وقيل الجملة الآتية خبر للمبتدا المذكور وخبر ان مقدر كما فى قوله

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقيل النصارى مرفوع على الابتداء كقوله تعالى والصابئون عطفا عليه وهو مع خبره عطف على الجملة المصدرة بان ولا مساغ لعطفه وحده على محل ان واسمها لاشتراط ذلك بالفراغ عن الخبر والا لارتفع الخبر بان والابتداء معا واعتذر عنه بأن ذلك اذا كان المذكور خبرا لهما وأما اذا كان خبرا لمعطوف محذوفا فلا محذور فيه و لا على الضمير فى هادوا لعدم التأكيد والفصل و لاستلزامه كون الصابئين هودا وقرئ والصابيون بياء صريحة بتخفيف الهمزة وقرئ والصابون

وهو من صبا يصبو لانهم صبوا الى اتباع الهوى والشهوات فى دينهم وقرىء والصابئين وقرىء ياأيها الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون وقوله تعالى ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا﴾ اما فى محل الرفع على أنه مبتدأ خبره ﴿فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ والفاء لتضمن المبتدا معنى الشرط وجمع الضمائر الأخيرة باعتبار معنى الموصول كما أن افراد مافى صلته باعتبار لفظه والجملة خبر ان والعائد الى اسمها محذوف أى من آمن منهم واما فى محل النصب على أنه بدل من اسم ان وماعطف عليه والخبر قوله تعالى فلاخوف والفاء كما فى قوله عزوعلا ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم الآية فالمعنى على تقدير كون المراد بالذين آمنوا المنافقين وهو الاظهر من أحدث من هذه الطوائف ايمانا خالصا بالمبدأ والمعاد على الوجه اللائق لا كما يزعمه أهل الكتاب فان ذلك بمعزل من أن يكون ايمانا بهما وعمل عملا صالحا حسبما يقتضيه الايمان بهما فلاخوف عليهم حين يخاف الكفار العقاب ولاهم يحزنون حين يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب والمراد بيان دوام انتفائهما لابيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما مر مرارا لان النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام وأما على تقدير كون المراد بالذين آمنوا مطلق المتدينين بدين الاسلام المخلصين منهم والمنافقين فالمراد بمن آمن من اتصف منهم بالايمان الخالص بالمبدا والمعاد على الاطلاق سواء كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كما هو شأن المخلصين أو بطريق احداثه وانشائه كما هو حال من عداهم من المنافقين وسائر الطوائف وفائدة التعميم للمخلصين المبالغة فى ترغيب الباقين فى الايمان ببيان أن تأخرهم فى الاتصاف به غير مخل بكونهم أسوة لاولئك الاقدمين الاعلام وأما ماقيل المعنى من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملا بمقتضى شرعه فمما لاسبيل اليه أصلا كما مر تفصيله فى سورة البقرة ﴿لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل﴾ كلام مبتدأ مسوق لبيان بعض آخر من جناياتهم المنادية باستبعاد الايمان منهم أى بالله لقد أخذنا ميثاقهم بالتوحيد وسائر الشرائع والأحكام المكتوبة عليهم فى التوراة ﴿وأرسلنا اليهم رسلا﴾ ذوى عدد كثير وأولى شأن خطير ليقرروهم على مراعاة حقوق الميثاق ويطلعوهم على ما يأتون ويذرون فى دينهم ويتعهدوهم بالعظة والتذكير وقوله تعالى ﴿كلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم﴾ جملة شرطية مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الاخبار بأخذ الميثاق وارسال الرسل وجواب الشرط محذوف كأنه قيل فماذا فعلوا بالرسل فقيل كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما لاتحبه أنفسهم المنهمكة فى الغى والفساد من الأحكام الحقة والشرائع عصوه وعادوه وقوله تعالى ﴿فريقا كذبوا وفريقا يقتلون﴾ جواب مستأنف عن استفسار كيفية ما أظهروه من آثار المخالفة المفهومة من الشرطية على طريقة الاجمال كأنه قيل كيف فعلوابهم فقيل فريقا منهم كذبوهم من غير أن يتعرضوا لهم بشىء آخر من المضار وفريقا آخر منهم لم يكتفوا بتكذيبهم بل قتلوهم أيضا وانما أوثر عليه صيغة المضارع على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها الهائلة للتعجيب منها وللتنبيه على أن ذلك ديدنهم المستمر وللمحافظة على رؤس الآى الكريمة وتقديم فريقا فى الموضعين للاهتمام به وتشويق السامع الى مافعلوابه لاللقصر هذا وأما جعل الشرطية صفة لرسلا كما ذهب اليه الجمهور فلايساعده المقام أصلا ضرورة أن الجملة الخبرية اذاجعلت صفة أوصلة ينسخ مافيها من الحكم وتجعل عنوانا للموصوف تتمة له فى اثبات أمر آخر له ولذلك يجب أن يكون الوصف معلوم الانتساب الى الموصوف عند السامع قبل جعله وصفا له ومن ههنا قالوا ان الصفات قبل العلم بها أخبار والاخبار بعد العلم بها أوصاف ولاريب فى أن ماسيق له النظم انما هو بيان أنهم جعلوا كل من جاءهم من رسل الله تعالى عرضة للقتل أوالتكذيب حسبما يفيده جعلها استئنافا على أبلغ وجه وآكده لابيان أنه تعالى أرسل اليهم رسلا

موصوفين بكون كل منهم كذلك كما هو مقتضى جعلها صفة ﴿وحسبوا أن لاتكون فتنة﴾ أى حسب بنو اسرائيل أن لا يصيبهم من الله تعالى بما أتوا من الداهية الدهياء والخطة الشنعاء بلاء وعذاب وقرئ لاتكون بالرفع على أن هى المخففة من أن واسمها ضمير الشان المحذوف وأصله أنه لاتكون فتنة وتعليق فعل الحسبان بها وهى للتحقيق لتنزيله منزلة العلم لكمال قوته وأن بما فى حيزها ساد مسد مفعوليه ﴿فعموا﴾ عطف على حسبوا والفاء للدلالة على ترتب مابعدها على ماقبلها أى أمنوا بأس الله تعالى فتمادوا فى فنون الغى والفساد وعموا عن الدين بعدما هداهم الرسل الى معالمه الظاهرة وبينوا لهم مناهجه الواضحة ﴿وصموا﴾ عن استماع الحق الذى ألقوه عليهم ولذلك فعلوا بهم مافعلوا وهذا اشارة الى المرة الاولى من مرتى افساد بنى اسرائيل حين خالفوا أحكام التوراة وركبوا المحارم وقتلوا شعياء وقيل حبسوا أرمياء عليهما السلام لاالى عبادتهم العجل كما قيل فانها وان كانت معصية عظيمة ناشئة عن كمال العمى والصمم لكنها فى عصر موسى عليه السلام ولاتعلق لها بما حكى عنهم مما فعلوا بالرسل الذين جاؤهم بعده عليه السلام بأعصار ﴿ثم تاب الله عليهم﴾ حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من الفساد بعدما كانوا ببابل دهرا طويلا تحت قهر بخت نصر أسارى فى غاية الذل والمهانة فوجه الله عز وجل ملكا عظيما من ملوك فارس الى بيت المقدس ليعمره ونجى بقايا بنى اسرائيل من أسر بخت نصر بعد مهلكه وردهم الى وطنهم وتراجع من تفرق منهم فى الاكناف فعمروه ثلاثين سنة فكثروا وكانوا كأحسن ماكانوا عليه وقيل لما ورث بهمن ابن اسفنديار الملك من جده كستاسف ألقى الله عز وجل فى قلبه شفقة عليهم فردهم الى الشام وملك عليهم دانيال عليه السلام فاستولوا على من كان فيها من أتباع بخت نصر فقامت فيهم الانبياء فرجعوا الى أحسن ماكانوا عليه من الحال وذلك قوله تعالى ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأما ماقيل من أن المراد قبول توبتهم عن عبادة العجل فقد عرفت أن ذلك لاتعلق له بالمقام ولم يسند التوبة اليهم كسائر أحوالهم من الحسبان والعمى والصمم تجافيا عن التصريح بنسبة الخير اليهم وانما أشير اليها فى ضمن بيان توبته تعالى عليهم تمهيدا لبيان نقضهم اياها بقوله تعالى ﴿ثم عموا وصموا﴾ وهو اشارة الى المرة الآخرة من مرتى افسادهم وهو اجتراؤهم على قتل زكريا ويحيى وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام لاالى طلبهم الرؤية كما قيل لما عرفت سره فان فنون الجنايات الصادرة عنهم لاتكاد تتناهى خلا أن انحصار ماحكى عنهم ههنا فى المرتين وترتبه على حكاية مافعلوا بالرسل عليهم السلام يقضى بأن المراد ماذكرناه والله عنده علم الكتاب وقرئ عموا وصموا بالضم على تقدير عماهم الله وصمهم أى رماهم وضربهم بالعمى والصمم كما يقال نزكته اذا ضربته بالنيزك وركبته اذا ضربته بركبتك وقوله تعالى ﴿كثير منهم﴾ بدل من الضمير فى الفعلين وقيل خبر مبتدا محذوف أى أولئك كثير منهم ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أى بما عملوا وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورتها الفظيعة ورعاية للفواصل والجملة تذييل أشير به الى بطلان حسبانهم المذكور ووقوع العذاب من حيث لم يحتسبوا اشارة اجمالية اكتفى بها تعويلا على مافصل نوع تفصيل فى سورة بنى اسرائيل والمعنى حسبوا أن لا يصيبهم عذاب ففعلوا مافعلوا من الجنايات العظيمة المستوجبة لأشد العقوبات والله بصير بتفاصيلها فكيف لايؤاخذهم بها ومن أين لهم ذلك الحسبان الباطل ولقد وقع ذلك فى المرة الاولى حيث سلط الله تعالى عليهم بخت نصر عامل لهراسب على بابل وقيل جالوت الجزرى وقيل سنجاريب من أهل نينوى والاول هو الاظهر فاستولى على بيت المقدس فقتل من أهله أربعين ألفا ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية الى أرضه فبقوا هناك على أقصى ما يكون من الذل والنكد الى أن أحدثوا توبة صحيحة فردهم الله عز وجل الى ما حكى عنهم من حسن الحال ثم عادوا الى المرة الآخرة من الافساد فبعث الله تعالى عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من ملوك

الطوائف اسمه خيدرود وقيل خيدروس ففعل بهم مافعل قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دما يغلى فسألهم فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال ماصدقونى فقتل عليه ألوفا منهم ثم قال ان لم تصدقونى ماتركت منكم أحدا فقالوا انه دم يحيى عليه السلام فقال بمثل هذا ينتقم الله تعالى منكم ثم قال يايحيى قد علم ربى و ربك ماأصاب قومك من أجلك فاهدأ باذن الله تعالى قبل أن لا أبقى أحدا منهم فهدأ ﴿لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم﴾ شروع فى تفصيل قبائح النصارى وابطال أقوالهم الفاسدة بعد تفصيل قبائح اليهود وهؤلاء هم الذين قالوا ان مريم ولدت إلهاً قيل هم الملكانية والماريعقوبية منهم وقيل هم اليعقوبية خاصة قالوا ومعنى هذا أن الله تعالى حل فى ذات عيسى واتحد بذاته تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴿وقال المسيح﴾ حال من فاعل قالوا بتقدير قد مفيدة لمزيد تقبيح حالهم ببيان تكذيبهم للمسيح وعدم انزجارهم عما أصروا عليه بما أوعدهم به أى قالوا ذلك وقد قال المسيح مخاطبا لهم ﴿يابنى اسرائيل اعبدوا الله ربى و ربكم﴾ فانى عبد مربوب مثلكم فاعبدوا خالقى وخالقكم ﴿انه﴾ أى الشأن ﴿من يشرك بالله﴾ أى شيئاً فى عبادته أو فيما يختص به من صفات الألوهية ﴿فقد حرم الله عليه الجنة﴾ فلن يدخلها أبدا كما لا يصل اليه المحرم عليه المحرم فانها دار الموحدين واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتهويل الأمر وتربية المهابة ﴿ومأواه النار﴾ فانها هى المعدة للمشركين وهذا بيان لابتلائهم بالعقاب اثر بيان حرمانهم الثواب ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أى مالهم من أحد ينصرهم بانقاذهم من النار اما بطريق المغالبة أو بطريق الشفاعة والجمع لمراعاة المقابلة بالظالمين واللام اما للعهد والجمع باعتبار معنى من كما أن الافراد فى الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها واما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا ووضعه على الأول موضع الضمير للتسجيل عليهم بأنهم ظلموا بالاشراك وعدلوا عن طريق الحق والجملة تذييل مقرر لما قبله وهو اما من تمام كلام عيسى عليه السلام واما وارد من جهته تعالى تأكيدا لمقالته عليه السلام وتقريرا لمضمونها وقد قيل انه من كلامه عز وجل على معنى أنهم ظلموا وعدلوا عن سبيل الحق فيما تقولوا على عيسى عليه السلام فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم و رده وأنكره وان كانوا معظمين له بذلك و رافعين من مقداره أو من قول عيسى عليه السلام على معنى لا ينصركم أحد فيما تقولون و لا يساعدكم عليه لاستحالته و بعده عن المعقول وأنت خبير بأن التعبير عما حكى عنه عليه السلام من مقابلته لقولهم الباطل بصريح الرد والانكار والوعيد بحرمان الجنة ودخول النار بمجرد عدم مساعدته على ذلك ونفى نصرته له مع خلوه عن الفائدة تصوير للقوى بصورة الضعيف وتهوين للخطب فى مقام تهويله بل ربما يوهم ذلك بحسب الظاهر مالا يليق بشأنه عليه السلام من توهم المساعدة والنصرة لاسيما مع ملاحظة قوله وان كانوا معظمين له الخ الا أن يحمل الكلام على التهكم بهم و كذا الحال على تقدير كونه من تمام كلامه عليه السلام فان زجره عليه السلام اياهم عن قولهم الفاسد بما ذكر من عدم الناصر والمساعد بعد زجره اياهم بما مر من الرد الأكيد والوعيد الشديد بمعزل من الافادة والتأثير و لا سبيل ههنا الى الاعتذار بالتهكم ﴿لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة﴾ شروع فى بيان كفر طائفة أخرى منهم ومعنى قولهم ثالث ثلاثة و رابع أربعة ونحو ذلك أحد هذه الأعداد مطلقا لا الثالث والرابع خاصة و لذلك منع الجمهور أن ينصب مابعده بأن يقال ثالث ثلاثة ورابع أربعة وانما ينصبه اذا كان مابعده دونه بمرتبة كما فى قولك عاشر تسعة وتاسع ثمانية قيل انهم يقولون ان الالهية مشتركة بين الله سبحانه وتعالى وعيسى ومريم و كل واحد من هؤلاء اله و يؤكده قوله تعالى للمسيح أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله فقوله تعالى ثالث ثلاثة أى أحد ثلاثة آلهة وهو المتبادر من ظاهر قوله تعالى ﴿وما من اله الا اله واحد﴾ أى والحال أنه ليس فى الوجود ذات واجب مستحق للعبادة من حيث أنه مبدأ جميع

الموجودات الا اله موصوف بالوحدانية متعال عن قبول الشركة ومن مزيدة للاستغراق وقيل انهم يقولون الله جوهر واحد ثلاثة أقانيم أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس وانهم يريدون بالأول الذات وقيل الوجود و بالثانى العلم و بالثالث الحياة فمعنى قوله تعالى وما من اله الا اله واحد الا اله واحد بالذات منزه عن شائبة التعدد بوجه من الوجوه ﴿وان لم ينتهوا عما يقولون﴾ من الكفر الشنيع ولم يوحدوا وقوله تعالى ﴿ليمسن الذين كفروا﴾ جواب قسم محذوف ساد مسد جواب الشرط أى و بالله ان لم ينتهوا ليمسنهم وانما وضع موضع ضميرهم الموصول لتكرير الشهادة عليهم بالكفر فمن فى قوله تعالى ﴿منهم﴾ بيانية أو ليمسن الذين بقوا منهم على ما كانوا عليه من الكفر فمن تبعيضية وانما جئ بالفعل المنبئ عن الحدوث تنبيها على أن الاستمرار عليه بعد ورود ماينحى عليه بالقلع من نص عيسى عليه السلام وغيره كفر جديد وغلو زائد على ما كانوا عليه من أصل الكفر ﴿عذاب أليم﴾ أى نوع شديد الالم من العذاب وهمزة الاستفهام فى قوله تعالى ﴿أفلا يتوبون الى الله و يستغفرونه﴾ لانكار الواقع واستبعاده لا لانكار الوقوع وفيه تعجيب من اصرارهم والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا ينتهون عن تلك العقائد الزائغة والأقاويل الباطلة فلا يتوبون الى الله تعالى و يستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عما نسبوه اليه من الاتحاد والحلول فمدار الانكار والتعجيب عدم الانتهاء وعدم التوبة معا أو أيسمعون هذه الشهادات المكررة والتشديدات المقررة فلا يتوبون عقيب ذلك فمدارهما عدم التوبة عقيب تحقق مايوجبها من سماع تلك القوارع الهائلة وقوله عز وجل ﴿والله غفور رحيم﴾ جملة حالية من فاعل يستغفرونه مؤكدة للانكار والتعجيب من اصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم الى الاستغفار أى والحال أنه تعالى مبالغ فى المغفرة فيغفر لهم عند استغفارهم و يمنحهم من فضله ﴿ما المسيح ابن مريم الا رسول﴾ استئناف مسوق لتحقيق الحق الذى لامحيد عنه و بيان حقيقة حاله عليه السلام وحال أمه بالاشارة أولا الى أشرف مالهما من نعوت الكمال التى بها صارا من زمرة أكمل أفراد الجنس وآخرا الى الوصف المشترك بينهما و بين جميع أفراد البشر بل أفراد الحيوان استنزالا لهم بطريق التدريج عن رتبة الاصرار على ماتقولوا عليهما وارشادا لهم الى التوبة والاستغفار أى هو مقصور على الرسالة لايكاد يتخطاها وقوله تعالى ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ صفة لرسول منبئة عن اتصافه بما ينافى الالوهية فان خلو الرسل السالفة عليهم السلام منذر بخلوه المقتضى لاستحالة ألوهيته أى ماهو الا رسول كالرسل الخالية من قبله خصه الله تعالى ببعض من الآيات كما خص كلا منهم ببعض آخر منها فان أحيي الموتى على يده فقد أحيي العصا فى يد موسى عليه السلام وجعلت حية تسعى وهو أعجب منه وان خلق من غير أب فقد خلق آدم من غير أب ولا أم وهو أغرب منه وكل ذلك من جنابه عز وجل وانما موسى وعيسى مظاهر لشئونه وأفعاله ﴿وأمه صديقة﴾ أى وما أمه أيضا الا كسائر النساء اللاتى يلازمن الصدق أو التصديق و يبالغن فى الاتصاف به فما رتبتهما الا رتبة بشرين أحدهما نبي والآخر صحابى فمن أين لكم أن تصفوهما بما لا يوصف به سائر الانبياء وخواصهم ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ استئناف مبين لما أشير اليه من كونهما كسائر أفراد البشر فى الاحتياج الى مايحتاج اليه كل فرد من أفراده بل من أفراد الحيوان وقوله عز وجل ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾ تعجيب من حال الذين يدعون لهما الربوبية ولا يرعوون عن ذلك بعدما بين لهم حقيقة حالهما بيانا لايحوم حوله شائبة ريب و كيف معمول لنبين والجملة فى حيز النصب معلقة لانظر أى انظر كيف نبين لهم الآيات الباهرة المنادية ببطلان ماتقولوا عليهما نداء يكاد يسمعه صم الجبال ﴿ثم انظر أنى يؤفكون﴾ أى كيف يصرفون عن استماعها والتأمل فيها والكلام فيه كما فيما قبله وتكرير الأمر بالنظر للمبالغة فى التعجيب وثم لاظهار مابين العجبين من التفاوت أى ان بياننا للآيات أمر بديع فى

بابه بالغ لاقاصى الغايات القاصية من التحقيق والايضاح واعراضهم عنها مع انتفاء مايصححه بالمرة وتعاضد مايوجب قبولها أعجب وأبدع ﴿قل﴾ أمر له عليه الصلاة والسلام بالزامهم وتبكيتهم اثر تعجيبه من أحوالهم ﴿أتعبدون من دون الله﴾ أى متجاوزين اياه وتقديمه على قوله تعالى ﴿مالايملك لكم ضرا ولانفعا﴾ لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر والموصول عبارة عن عيسى عليه السلام وايثاره على كلمة من لتحقيق ماهو المراد من كونه بمعزل من الالوهية رأسا ببيان انتظامه عليه السلام فى سلك الاشياء التى لاقدرة لها على شىء أصلا وهو عليه السلام وان كان يملك ذلك بتمليكه تعالى اياه لكنه لايملكه من ذاته و لايملك مثل مايضر به الله تعالى من البلايا والمصائب وماينفع به من الصحة وتقديم الضرر على النفع لأن التحرز عنه أهم من تحرى النفع ولان أدنى درجات التأثير دفع الشر ثم جلب الخير وقوله تعالى ﴿والله هو السميع العليم﴾ حال من فاعل أتعبدون مؤكد للانكار والتوبيخ ومقرر للالزام والتبكيت والرابط هو الواو أى أتشركون بالله تعالى مالايقدر على شىء من ضركم ونفعكم والحال أن الله تعالى هو المختص بالاحاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات التى من جملتها ماأنتم عليه من الأقوال الباطلة والعقائد الزائغة والأعمال السيئة و بالقدرة الباهرة على جميع المقدورات التى من جملتها مضاركم ومنافعكم فى الدنيا والآخرة ﴿قل ياأهل الكتاب﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى فريق أهل الكتاب بطريق الالتفات على لسان النبى عليه الصلاة والسلام بعد ابطال مسلك كل منهما للمبالغة فى زجرهم عما سلكوه من المسلك الباطل وارشادهم الى الامم المثناء ﴿لاتغلوا فى دينكم﴾ أى لاتتجاوزوا الحد وهو نهى للنصارى عن رفع عيسى عن رتبة الرسالة الى ماتقولوا فى حقه من العظيمة ولليهود عن وضعهم له عليه السلام عن رتبته العلية الى ماتقولوا عليه من الكلمة الشنعاء وقيل هو خاص بالنصارى كما فى سورة النساء فذكرهم بعنوان أهلية الكتاب لتذكير أن الانجيل أيضا ينهاهم عن الغلو وقوله تعالى ﴿غير الحق﴾ نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى لاتغلوا فى دينكم غلوا غير الحق أى غلوا باطلا أو حال من ضمير الفاعل أى لاتغلوا مجاوزين الحق أو من دينكم أى لاتغلوا فى دينكم حال كونه باطلا وقيل نصب على الاستثناء المتصل وقيل على المنقطع ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ هم أسلافهم وأئمتهم الذين قد ضلوا من الفريقين أو من النصارى على القولين قبل مبعث النبى عليه الصلاة والسلام فى شريعتهم ﴿وأضلوا كثيرا﴾ أى قوما كثيرا ممن شايعهم فى الزيغ والضلال أو اضلالا كثيرا والمفعول محذوف ﴿وضلوا﴾ عند بعثة النبى عليه الصلاة والسلام وتوضيح محجة الحق وتبيين مناهج الاسلام ﴿عن سواء السبيل﴾ حين كذبوه وحسدوه و بغوا عليه وقيل الاول اشارة الى ضلالهم عن مقتضى العقل والثانى الى ضلالهم عما جاء به الشرع ﴿لعن الذين كفروا﴾ أى لعنهم الله عز وجل و بناء الفعل للمفعول للجرى على سنن الكبرياء ﴿من بنى اسرائيل﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من فاعل كفروا وقوله تعالى ﴿على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ متعلق بلعن أى لعنهم الله تعالى فى الزبور والانجيل على لسانهما وقيل ان أهل ايلة لما اعتدوا فى السبت دعا عليهم داود عليه السلام وقال اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخهم الله قردة وأصحاب المائدة لما كفروا قال عيسى عليه السلام اللهم عذب من كفر بعدما أكل من المائدة عذابا لم تعذبه أحدا من العالمين والعنهم كما لعنت أصحاب السبت فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل مافيهم امرأة ولا صبى ﴿ذلك﴾ اشارة الى اللعن المذكور وايثاره على الضمير للتنبيه على كمال ظهوره وامتيازه عن نظائره وانتظامه بسببه فى سلك الامور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للايذان بكمال فظاعته و بعد درجته فى الشناعة والهول وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ والجملة مستأنفة واقعة موقع الجواب عما نشأ من

الكلام كأنه قيل بأى سبب وقع ذلك فقيل ذلك اللعن الهائل الفظيع بسبب عصيانهم واعتدائهم المستمر كما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل وينبئ عنه قوله تعالى ﴿ كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ﴾ فانه استئناف مفيد بعبارته لاستمرار عدم التناهى عن المنكر ولا يمكن استمراره الا باستمرار تعاطى المنكرات وليس المراد بالتناهى أن ينهى كل واحد منهم الآخر عما يفعله من المنكر كما هو المعنى المشهور لصيغة التفاعل بل مجرد صدور النهى عن أشخاص متعددة من غير اعتبار أن يكون كل واحد منهم ناهيا ومنهيا معا كما فى تراءوا الهلال وقيل التناهى بمعنى الانتهاء يقال تناهى عن الامر وانتهى عنه اذا امتنع عنه وتركه فالجملة حينئذ مفسرة لما قبلها من المعصية والاعتداء ومفيدة لاستمرارهما صريحا وعلى الاول مفيدة لاستمرار انتفاء النهى عن المنكر بأن لايوجد فيما بينهم من يتولاه فى وقت من الاوقات ومن ضرورته استمرار فعل المنكر حسبما سبق وعلى كل تقدير فما يفيده تنكير المنكر من الوحدة نوعية لاشخصية فلا يقدح وصفه بالفعل الماضى فى تعلق النهى به لما أن متعلق الفعل انما هو فرد من أفراد مايتعلق به النهى والانتهاء من مطلق المنكر باعتبار تحققه فى ضمن أى فرد كان من أفراده على أن المضى المعتبر فى الصفة انما هو بالنسبة الى زمان النزول لا الى زمان النهى حتى يلزم كون النهى بعد الفعل فلا حاجة الى تقدير المعاودة أو المثل أو جعل الفعل عبارة عن الارادة على أن المعاودة كالنهى لاتتعلق بالمنكر المفعول فلا بد من المصير الى أحد ماذكر من الوجهين أو الى تقدير المثل أو الى جعل الفعل عبارة عن أرادته وفى كل ذلك تعسف لايخفى ﴿ لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ تقبيح لسوء أعمالهم وتعجيب منه بالتوكيد القسمى كيف لاوقد أداهم الى ماشرح من اللعن الكبير وليس فى تسبيه بذلك دلالة على خروج كفرهم عن السببية مع الاشارة الى سببيته له فيما سبق من قوله تعالى لعن الذين كفروا فان اجراء الحكم على الموصول مشعر بعلية مافى حيز الصلة له لما أن ماذكر فى حيز السببية مشتمل على كفرهم أيضا ﴿ ترى كثيرا منهم ﴾ أى من أهل الكتاب ككعب بن الاشرف وأضرابه حيث خرجوا الى مشركى مكة ليتفقوا على محاربة النبى عليه الصلاة السلام والرؤية بصرية وقوله تعالى ﴿ يتولون الذين كفروا ﴾ حال من كثيرا لكونه موصوفا أى يوالون المشركين بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل من منافقى أهل الكتاب يتولون اليهود وهو قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ومجاهد والحسن وقيل يوالون المشركين ويصافونهم ﴿ لبئس ماقدمت لهم أنفسهم ﴾ لبئس شيأ قدموا ليردوا عليه يوم القيامة ﴿ أن سخط الله عليهم ﴾ هو المخصوص بالذم على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه تنبيها على كمال التعلق والارتباط بينهما كأنهما شئ واحد ومبالغة فى الذم أى موجب سخطه تعالى ومحله الرفع على الابتداء والجملة قبله خبره والرابط عند من يشترطه هو العموم أو لاحاجة اليه لان الجملة عين المبتدا أو على أنه خبر لمبتدا محذوف ينبئ عنه الجملة المتقدمة كأنه قيل ماهو أو أى شئ هو فقيل هو أن سخط الله عليهم وقيل المخصوص بالذم محذوف وما اسم تام معرفة فى محل رفع بالفاعلية لفعل الذم وقدمت لهم أنفسهم جملة فى محل الرفع على أنها صفة للمخصوص بالذم قائمة مقامه والتقدير لبئس الشئ شئ قدمته لهم أنفسهم فقوله تعالى أن سخط الله عليهم بدل من شئ المحذوف وهذا مذهب سيبويه ﴿ وفى العذاب ﴾ أى عذاب جهنم ﴿ هم خالدون ﴾ أبد الآبدين ﴿ ولو كانوا ﴾ أى الذين يتولون المشركين من أهل الكتاب ﴿ يؤمنون بالله والنبى ﴾ أى نبيهم ﴿ وما أنزل اليه ﴾ من الكتاب أو لو كان المنافقون يؤمنون بالله ونبينا ايمانا صحيحا ﴿ ما اتخذوهم ﴾ أى المشركين أو اليهود ﴿ أولياء ﴾ فان الايمان بما ذكر وازع عن توليهم قطعا ﴿ ولكن كثيرا منهم فاسقون ﴾ خارجون عن الدين والايمان بالله ونبيهم وكتابهم أو متمردون فى النفاق مفرطون فيه ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير

ماقبلها من قبائح اليهود وعراقتهم فى الكفر وسائر أحوالهم الشنيعة التى من جملتها موالاتهم للمشركين أكدت بالتوكيد القسمى اعتناء ببيان تحقق مضمونها والخطاب اما الرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد صالح له ايذانا بأن حالهم بما لايخفى على أحد من الناس والوجدان متعد الى اثنين أحدهما أشد الناس والثانى اليهود وماعطف عليه وقيل بالعكس لانهما فى الاصل مبتدأ وخبر ومصب الفائدة هو الخبر لا المبتدأ ولا ضير فى التقديم والتأخير اذا دل على الترتيب دليل وههنا دليل واضح عليه وهو أن المقصود بيان كون الطائفتين أشد الناس عداوة للمؤمنين لا كون أشدهم عداوة لهم الطائفتين المذكورتين وأنت خبير بأنه بمعزل من الدلالة على ذلك كيف لا والافادة فى الصورة الثانية أتم وأكمل مع خلوها عن تعسف التقديم والتأخير اذ المعنى انك ان قصدت أن تعرف من أشد الناس عداوة للمؤمنين وتتبعت أحوال الطوائف طرا وأحطت بما لديهم خبرا و بالغت فى تعرف أحوالهم الظاهرة والباطنة وسعيت فى تطلب ماعندهم من الامور البارزة والكامنة لتجدن الاشد تينك الطائفتين لاغير فتأمل واللام الداخلة على الموصول متعلقة بعداوة مقوية لعملها ولا يضر كونها مؤنثة بالتاء مبنية عليها كما فى قوله رهبة عقابك وقيل متعلقة بمحذوف هو صفة لعداوة أى كائنة للذين آمنوا وصفهم الله تعالى بذلك لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم وانهما كهم فى اتباع الهوى وقربهم الى التقليد وبعدهم عن التحقيق وتمرنهم على التمرد والاستعصاء على الانبياء والاجتراء على تكذيبهم ومناصبتهم وفى تقديم اليهود على المشركين بعد لزهما فى قرن واحد اشعار بتقدمهم عليهم فى العداوة كما أن فى تقديمهم عليهم فى قوله تعالى ولتجدنهم أحرص الناس على حيوة ومن الذين أشركوا ايذانا بتقدمهم عليهم فى الحرص ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا﴾ أعيد الموصول مع صلته روما لزيادة التوضيح والبيان ﴿الذين قالوا انا نصارى﴾ عبر عنهم بذلك اشعارا بقرب مودتهم حيث يدعون أنهم أنصار الله وأوداء أهل الحق وان لم يظهروا اعتقاد حقية الاسلام وعلى هذه النكتة مبنى الوجه الثانى فى تفسير قوله تعالى ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم والكلام فى مفعولى لتجدن وتعلق اللام كالذى سبق والعدول عن جعل مافيه التفاوت بين الفريقين شيئا واحدا قد تفاوتا فيه بالشدة والضعف أو بالقرب والبعد بأن يقال آخرا ولتجدن أضعفهم عداوة الخ أو بأن يقال أو لا لتجدن أبعد الناس مودة الخ للايذان بكمال تباين مابين الفريقين من التفاوت ببيان أن أحدهما فى أقصى مراتب أحد النقيضين والآخر فى أقرب مراتب النقيض الآخر ﴿ذلك﴾ أى كونهم أقرب مودة للمؤمنين ﴿بأن منهم﴾ أى بسبب أن منهم ﴿قسيسين﴾ وهم علماء النصارى وعبادهم ورؤساؤهم والقسيس صيغة مبالغة من تقسس الشئ اذا تتبعه وطلبه بالليل سموا به لمبالغتهم فى تتبع العلم قاله الراغب وقيل القس بفتح القاف تتبع الشئ ومنه سمى عالم النصارى قسيسا لتتبعه العلم وقيل قص الاثر وقسه بمعنى وقيل أنه أعجمى وقال قطرب القس والقسيس العالم بلغة الروم وقيل ضيعت النصارى الانجيل ومافيه وبقى منهم رجل يقال له قسيسا لم يبدل دينه فمن راعى هديه ودينه قيل له قسيس ﴿ورهبانا﴾ وهو جمع راهب كراكب وركبان وفارس وفرسان وقيل أنه يطلق على الواحد وعلى الجمع وأنشد فيه قول من قال

لوعاينت رهبان دير فى قلل لاقبل الرهبان يعدو ونزل

والترهب التعبد فى الصومعة قال الراغب الرهبانية الغلو فى تحمل التعبد من فرط الخوف والتنكير لافادة الكثرة ولا بد من اعتبارها فى القسيسين أيضا اذ هى التى تدل على مودة جنس النصارى للمؤمنين فان اتصاف أفراد كثيرة لجنس بخصلة مظنة لاتصاف الجنس بها والا فمن اليهود أيضا قوم مهتدون ألا يرى الى عبد الله بن سلام واضرابه قال تعالى من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون الخ لكنهم لما لم يكونوا فى الكثرة كالذين من

النصارى لم يتعد حكمهم الى جنس اليهود ﴿ وأنهم لايستكبرون ﴾ عطف على أن منهم أى و بأنهم لايستكبرون عن قبول الحق اذافهموه و يتواضعون و لايتكبرون كاليهود وهذه الخصلة شاملة لجميع أفراد الجنس فسببيتها لاقربيتهم مودة المؤمنين واضحة وفيه دليل على أن التواضع والاقبال على العلم والعمل والاعراض عن الشهوات محمود وان كان ذلك من كافر ﴿ واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ﴾ عطف على لايستكبرون أى ذلك بسبب أنهم لايستكبرون وأن أعينهم تفيض من الدمع عند سماع القرآن وهو بيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم الى قبول الحق وعدم ابائهم اياه ﴿ ترى أعينهم تفيض من الدمع ﴾ أى تمتلىء بالدمع فاستعير له الفيض الذى هو الانصباب عن امتلاء مبالغة أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها ﴿ مما عرفوا من الحق ﴾ من الاولى لابتداء الغاية والثانية لتبيين الموصول أى ابتدأ الفيض ونشأ من معرفة الحق وحصل من أجله و بسببه و يحتمل أن تكون الثانية تبعيضية لان ماعرفوه بعض الحق وحيث أبكاهم ذلك فما ظنك بهم لو عرفوا كله وقرؤا القرآن وأحاطوا بالسنة وقرىء ترى أعينهم على صيغة المبنى للمفعول ﴿ يقولون ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية حالهم عند سماع القرآن كأنه قيل ماذا يقولون فقيل يقولون ﴿ ربنا آمنا ﴾ بهذا أو بمن أنزل هذا عليه أو بهما وقيل حال من الضمير فى عرفوا أو من الضمير المجرور فى أعينهم لما أن المضاف جزؤه كما فى قوله تعالى ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ أى الذين شهدوا بأنه حق أو بنبوته أو مع أمته الذين هم شهداء على الامم يوم القيامة وانما قالوا ذلك لانهم وجدوا ذكرهم فى الانجيل كذلك ﴿ وما لنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق ﴾ كلام مستأنف قالوه تحقيقا لايمانهم وتقرير آله بانكار سبب انتفائه ونفيه بالكلية على أن قوله تعالى لانؤمن حال من الضمير فى لنا والعامل مافيه من الاستقرار أى أى شىء حصل لنا غير مؤمنين على توجيه الانكار والنفى الى السبب والمسبب جميعا كما فى قوله تعالى ومالى لا أعبد الذى فطرنى ونظائره لاالى السبب فقط مع تحقق المسبب كما فى قوله تعالى فمالهم لايؤمنون وأمثاله فان همزة الاستفهام كما تكون تارة لانكار الواقع كما فى أتضرب أباك وأخرى لانكار الوقوع كما فى أأضرب أبى كذلك ما الاستفهامية قد تكون لانكار سبب الواقع ونفيه فقط كما فى الآية الثانية وقوله تعالى مالكم لاترجون لله وقارا فيكون مضمون الجملة الحالية محققا فان كلا من عدم الايمان وعدم الرجاء أمر محقق قد أنكر ونفى سببه وقد تكون لانكار سبب الوقوع ونفيه فيسرى الى المسبب أيضا كما فى الآية الاولى فيكون مضمون الجملة الحالية مفروضا قطعا فان عدم العبادة أمر مفروض حتما وقوله تعالى ﴿ ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴾ حال أخرى من الضمير المذكور بتقدير مبتدا والعامل فيها هو العامل فى الاولى مقيدا بها أى أى شىء حصل لنا غير مؤمنين ونحن نطمع فى صحبة الصالحين أو من الضمير فى لانؤمن على معنى أنهم أنكروا على أنفسهم عدم ايمانهم مع أنهم يطمعون فى صحبة المؤمنين وقيل معطوف على نؤمن على معنى ومالنا نجمع بين ترك الايمان و بين الطمع المذكور ﴿ فأثابهم الله بما قالوا ﴾ أى عن اعتقاد من قولك هذا قول فلان أى معتقده وقرىء فآتاهم الله ﴿ جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين ﴾ أى الذين أحسنوا النظر والعمل أوالذين اعتادوا الاحسان فى الامور والآيات الاربع . روى أنها نزلت فى النجاشى وأصحابه بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه فقرأه ثم دعا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين معه وأحضر القسيسين والرهبان فأمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة مريم فبكوا وآمنوا بالقرآن وقيل نزلت فى ثلاثين أوسبعين رجلا من قومه وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهم سورة مريم فبكوا وآمنوا ﴿ والذين كفروا و كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ عطف التكذيب بآيات الله على الكفر مع أنه ضرب منه لما أن القصد الى بيان حال

المكذبين وذكرهم بمقابلة المصدقين بها جمعا بين الترغيب والترهيب ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم﴾ أى ماطاب ولذ منه كأنه لما تضمن ماسلف من مدح النصارى على الترهب ترغيب المؤمنين فى كسر النفس ورفض الشهوات عقب ذلك بالنهى عن الافراط فى الباب أى لاتمنعوها أنفسكم كمنع التحريم أو لاتقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم فى العزم على تركها تزهدا منكم وتقشفا وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف القيامة لأصحابه يوما فبالغ وأشبع الكلام فى الانذار فرقوا واجتمعوا فى بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على أن لايزالوا صائمين قائمين وأن لايناموا على الفرش ولايأكلوا اللحم والودك ولايقربوا النساء والطيب ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح ويسيحوا فى الارض ويجبوا مذاكيرهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم انى لم أومر بذلك ان لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وافطروا وقوموا وناموا فانى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتى النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى فنزلت ﴿ولاتعتدوا﴾ أى ولاتتعدوا حدود ماأحل لكم الى ماحرم عليكم أو ولاتسرفوا فى تناول الطيبات أو جعل تحريم الطيبات اعتداء وظلما فنهى عن مطلق الاعتداء ليدخل تحته النهى عن تحريمها دخولا أوليا لوروده عقيبه أو أريد ولاتعتدوا بذلك ﴿ان الله لايحب المعتدين﴾ تعليل لما قبله ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا﴾ أى ماحل لكم وطاب مما رزقكم الله فحلالا مفعول كلوا ومما رزقكم اما حال منه تقدمت عليه لكونه نكرة أومتعلق بكلوا ومن ابتدائية أوهو المفعول وحلالا حال من الموصول أومن عائده المحذوف أو صفة لمصدر محذوف أى أكلا حلالا وعلى الوجوه كلها لولم يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة زائدة ﴿واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون﴾ توكيد للوصية بما أمر به فان الايمان به تعالى يوجب المبالغة فى التقوى والانتهاء عما نهى عنه ﴿لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم﴾ اللغو فى اليمين الساقط الذى لايتعلق به حكم وهو عندنا أن يحلف على شىء يظن أنه كذلك وليس كما يظن وهو قول مجاهد قيل كانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظن أنه قربة فلما نزل النهى قالوا كيف بأيماننا فنزلت وعند الشافعى رحمه الله تعالى ما يبدو من المرء من غير قصد كقوله لا والله وبلى والله وهو قول عائشة رضى الله تعالى عنها وفى أيمانكم صلة يؤاخذكم أو اللغو لأنه مصدر أو حال منه ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أى بتعقيدكم الايمان وتوثيقها عليه بالقصد والنية والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقدتموه اذا حنثتم أو بنكث ماعقدتم فحذف للعلم به وقرىء بالتخفيف وقرىء عاقدتم بمعنى عقدتم ﴿فكفارته﴾ أى فكفارة نكثه وهى الفعلة التى من شأنها أن تكفر الخطيئة وتسترها واستدل بظاهره على جواز التكفير قبل الحنث وعندنا لايجوز ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا فليأت الذى هو خير ثم ليكفر عن يمينه ﴿اطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم﴾ أى من أقصده فى النوع أو المقدار وهو نصف صاع من بر لكل مسكين ومحله النصب لأنه صفة مفعول محذوف تقديره أن تطعموا عشرة مساكين طعاما كائنا من أوسط ماتطعمون أو الرفع على أنه بدل من اطعام وأهلون جمع أهل كأرضون جمع أرض وقرىء أهاليكم بسكون الياء على لغة من يسكنها فى الحالات الثلاث كالألف وهذا أيضا جمع أهل كالأراضى فى جمع أرض والليالى فى جمع ليل وقيل جمع أهلاة ﴿أو كسوتهم﴾ عطف على اطعام أو على محل من أوسط على تقدير كونه بدلا من اطعام وهو ثوب يغطى العورة وقيل ثوب جامع قميص أو رداء أو ازار وقرىء بضم الكاف وهى لغة كقدوة فى قدوة واسوة فى اسوة وقرىء أو كاسوتهم على أن الكاف فى محل الرفع تقديره أو اطعامهم كاسوتهم بمعنى أو كمثل ما تطعمون أهليكم اسرافا وتقتيرا تواسون بينهم وبينهم ان لم تطعموهم الأوسط ﴿أو تحرير رقبة﴾ أى أو اعتاق انسان كيفما كان وشرط الشافعى رضى الله تعالى عنه فيه الايمان قياسا على كفارة القتل ومعنى أو ايجاب احدى الخصال

مطلقا وخيار التعيين للمكلف ﴿فمن لم يجد﴾ أى شيئا من الامور المذكورة ﴿فصيام﴾ أى فكفارته صيام ﴿ثلاثة أيام﴾ والتتابع شرط عندنا لقراءة ثلاثة أيام متتابعات والشافعى رضى الله عنه لا يرى الشواذ حجة ﴿ذلك﴾ أى الذى ذكر ﴿كفارة أيمانكم اذا حلفتم﴾ أى وحنثتم ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ بأن تضنوا بها ولا تبذلوها كما يشعر به قوله تعالى اذا حلفتم وقيل بأن تبروا فيها ما استطعتم ولم يفت بها خير أو بأن تكفروها اذا حنثتم وقيل احفظوها كيف حلفتم بها ولا تنسوها تهاونا بها ﴿كذلك﴾ اشارة الى مصدر الفعل الآتى لا الى تبيين آخر مفهوم مما سبق والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحله فى الاصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير يبين الله تبيينا كائنا مثل ذلك التبيين فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار نفس المصدر لا نعتا له وقد مر تفصيله فى قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا أى ذلك البيان البديع ﴿يبين الله لكم آياته﴾ أعلام شريعته وأحكامه لا بيانا أدنى منه وتقديم لكم على المفعول لما مر مرارا ﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج ﴿ياأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب﴾ أى الاصنام المنصوبة للعبادة ﴿والأزلام﴾ سلف تفسيرها فى أوائل السورة الكريمة ﴿رجس﴾ قذر تعاف عنه العقول وافراده لأنه خبر الخمر وخبر المعطوفات محذوف ثقة بالمذكور أو المضاف محذوف أى شأن الخمر والميسر الخ ﴿من عمل الشيطان﴾ فى محل الرفع على أنه صفة رجس أى كائن من عمله لأنه مسبب من تسويله وتزيينه ﴿فاجتنبوه﴾ أى الرجس أو ما ذكر ﴿لعلكم تفلحون﴾ أى راجين فلاحكم وقيل لكى تفلحوا بالاجتناب عنه وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى لعلكم تتقون ولقد أكد تحريم الخمر والميسر فى هذه الآية الكريمة بفنون التأكيد حيث صدرت الجملة بانما وقرنا بالاصنام والازلام وسميا رجسا من عمل الشيطان تنبيها على أن تعاطيهما شر بحت وأمر بالاجتناب عن عينهما وجعل ذلك سببا يرجى منه الفلاح فيكون ارتكابهما خيبة ومحقة ثم قرر ذلك ببيان مافيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقيل ﴿انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر﴾ وهو اشارة الى مفاسدهما الدنيوية ﴿ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾ اشارة الى مفاسدهما الدينية وتخصيصهما باعادة الذكر وشرح مافيهما من الوبال للتنبيه على أن المقصود بيان حالهما وذكر الاصنام والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما فى الحرمة والشرارة لقوله عليه الصلاة والسلام شارب الخمر كعابد الوثن وتخصيص الصلاة بالافراد مع دخولها فى الذكر للتعظيم والاشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الايمان لما أنها عماده ثم أعيد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتبا على ما تقدم من أصناف الصوارف فقيل ﴿فهل أنتم منتهون﴾ ايذانا بأن الامر فى الزجر والتحذير وكشف ما فيهما من المفاسد والشرور قد بلغ الغاية وأن الأعذار قد انقطعت بالكلية ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ عطف على اجتنبوه أى أطيعوهما فى جميع ما أمرا به ونهيا عنه ﴿واحذروا﴾ أى مخالفتهما فى ذلك فيدخل فيه مخالفة أمرهما ونهيهما فى الخمر والميسر دخولا أوليا ﴿فان توليتم﴾ أى أعرضتم عن الامتثال بما أمرتم به من الاجتناب عن الخمر والميسر وعن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام والاحتراز عن مخالفتهما ﴿فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه وخرج عن عهدة الرسالة أى خروج وقامت عليكم الحجة وانتهت الاعذار وانقطعت العلل ومابقى بعد ذلك الا العقاب وفيه من عظم التهديد وشدة الوعيد مالا يخفى وأما ماقيل من أن المعنى فاعلموا أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول لأنه ما كلف الا البلاغ المبين بالآيات وقد فعل وانما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتموه فلا يساعده المقام اذ لا يتوهم منهم ادعاء أنهم بتوليهم يضرونه عليه الصلاة والسلام حتى يرد عليهم بأنهم

لا يضرونه وانما يضرون أنفسهم ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح﴾ أى اثم وحرج ﴿فيما طعموا﴾ أى تناولوا أكلا أو شربا فان استعماله فى الشرب أيضا مستفيض منه قوله تعالى ومن لم يطعمه فانه منى قيل لما أنزل الله تعالى تحريم الخمر بعد غزوة الاحزاب قال رجال من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام أصيب فلان يوم بدر وفلان يوم أحد وهم يشربونها ونحن نشهد أنهم فى الجنة و فى رواية أخرى لما نزل تحريم الخمر والميسر قالت الصحابة رضى الله تعالى عنهم يارسول الله فكيف باخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر و يأكلون الميسر و فى رواية أخرى قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه يارسول الله كيف باخواننا الذين ماتوا وقد شربوا الخمر وفعلوا القمار فنزلت وليست كلمة ما فى ما طعموا عبارة عن المباحات خاصة والا لزم تقييد اباحتها باتقاء ما عداها من المحرمات لقوله تعالى ﴿اذا ما اتقوا﴾ واللازم منتف بالضرورة بل هى على عمومها موصولة كانت أو موصوفة وانما تخصصت بذلك القيد الطارىء عليها والمعنى ليس عليهم جناح فيما تناولوه من المأكول والمشروب كائنا ما كان اذا اتقوا أن يكون فى ذلك شىء من المحرمات والا لم يكن نفى الجناح فى كل ما طعموه بل فى بعضه ولا محذور فيه اذ اللازم منه تقيد اباحة الكل بأن لا يكون فيه محرم لا تقيد اباحة بعضه باتقاء بعض آخر منه كما هو اللازم من الاول ﴿وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ أى واستمروا على الايمان والاعمال الصالحة وقوله تعالى ﴿ثم اتقوا﴾ عطف على اتقوا داخل معه فى حيز الشرط أى اتقوا ما حرم عليهم بعد ذلك مع كونه مباحا فيما سبق ﴿وآمنوا﴾ أى بتحريمه وتقديم الاتقاء عليه اما للاعتناء به أو لأنه الذى يدل على التحريم الحادث الذى هو المؤمن به أو واستمروا على الايمان ﴿ثم اتقوا﴾ أى ما حرم عليهم بعد ذلك مما كان مباحا من قبل على أن المشروط بالاتقاء فى كل مرة اباحة كل ما طعموه فى ذلك الوقت لا اباحة كل ما طعموه قبله لانتساخ اباحة بعضه حينئذ ﴿وأحسنوا﴾ أى عملوا الاعمال الحسنة الجميلة المنتظمة لجميع ما ذكر من الاعمال القلبية والقالبية وليس تخصيص هذه المرات بالذكر لتخصيص الحكم بها بل لبيان التعدد والتكرر بالغا ما بلغ والمعنى أنهم اذا اتقوا المحرمات واستمروا على ما هم عليه من الايمان والاعمال الصالحة وكانوا فى طاعة الله ومراعاة أوامره ونواهيه بحيث كلما حرم عليهم شىء من المباحات اتقوه ثم وثم فلا جناح عليهم فيما طعموه فى كل مرة من المطاعم والمشارب اذ ليس فيها شىء محرم عند طعمه وأنت خبير بأن ما عدا اتقاء المحرمات من الصفات الجميلة المذكورة لا دخل لها فى انتفاء الجناح وانما ذكرت فى حيز اذا شهادة باتصاف الذين سئل عن حالهم بها ومدحا لهم بذلك وحمداً لاحوالهم وقد أشير الى ذلك حيث جعلت تلك الصفات تبعا للاتقاء فى كل مرة تمييزا بينها و بين ما له دخل فى الحكم فان مساق النظم الكريم بطريق العبارة وان كان لبيان حال المتصفين بما ذكر من النعوت فيما سيأتى بقضية كلمة اذا ما لكنه قد أخرج مخرج الجواب عن حال الماضين لاثبات الحكم فى حقهم فى ضمن التشريع الكلى على الوجه البرهانى بطريق دلالة النص بناء على كمال اشتهارهم بالاتصاف بها فكأنه قيل ليس عليهم جناح فيما طعموه اذ كانوا فى طاعته تعالى مع ما لهم من الصفات الحميدة بحيث كلما أمروا بشىء تلقوه بالامتثال وانما كانوا يتعاطون الخمر والميسر فى حياتهم لعدم تحريمها اذ ذاك و لو حرما فى عصرهم لاتقوهما بالمرة . هذا وقد قيل التكرير باعتبار الاوقات الثلاثة أو باعتبار الحالات الثلاث استعمال الانسان التقوى بينه و بين نفسه و بينه و بين الناس و بينه و بين الله عز وجل و لذلك جىء بالاحسان فى الكرة الثالثة بدل الايمان اشارة الى ما قاله عليه الصلاة والسلام فى تفسيره أو باعتبار المراتب الثلاث المبدأ والوسط والمنتهى أو باعتبار ما يتقى فانه ينبغى أن يترك المحرمات توقيا من العقاب والشبهات توقيا من الوقوع فى الحرام و بعض المباحات حفظا للنفس عن الخسة وتهذيبا لها عن دنس الطبيعة وقيل التكرير لمجرد التأكيد كما فى قوله تعالى كلا سوف تعلمون ثم

كلا سوف تعلمون ونظائره وقيل المراد بالاول اتقاء الكفر و بالثانى اتقاء الكبائر و بالثالث اتقاء الصغائر و لاريب فى أنه لاتعلق لهذه الاعتبارات بالمقام فأحسن التأمل ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله أبلغ تقرير ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله ﴾ جواب قسم محذوف أى والله ليعاملنكم معاملة من يختبركم ليتعرف أحوالكم ﴿ بشىء من الصيد ﴾ أى من صيد البر مأكولا أوغير مأكول ماعدا المستثنيات من الفواسق فاللام للعهد نزلت عام الحديبية ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم محرمون كانت الوحوش تغشاهم فى رحالهم بحيث كانوا متمكنين من صيدها أخذا بأيديهم وطعنا برماحهم وذلك قوله تعالى ﴿ تناله أيديكم ورماحكم ﴾ فهموا بأخذها فنزلت وروى أنه عن لهم حمار وحش فحمل عليه أبو اليسر بن عمرو فطعنه برمحه وقتله فقيل له قتلته وأنت محرم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عن ذلك فأنزل الله تعالى الآية فالتأكيد القسمى فى ليبلونكم انما هو لتحقيق أن ماوقع من عدم توحش الصيد عنهم ليس الا لابتلائهم لالتحقيق وقوع المبتلى به كما لو كان النزول قبل الابتلاء وتنكير شىء للتحقير المؤذن بأن ذلك ليس من الفتن الهائلة التى تزل فيها أقدام الراسخين كالابتلاء بقتل الأنفس واتلاف الأموال وانما هو من قبيل ماابتلى به أهل ايلة من صيد البحر وفائدته التنبيه على أن من لم يتثبت فى مثل هذا كيف يتثبت عند شدائد المحن فمن فى قوله تعالى من الصيد بيانية قطعا أى بشىء حقير هو الصيد وجعلها تبعيضية يقتضى اعتبار قلته وحقارته بالنسبة الى كل الصيد لا بالنسبة الى عظائم البلايا فيعرى الكلام عن التنبيه المذكور ﴿ ليعلم الله من يخافه بالغيب ﴾ أى ليتميز الخائف من عقابه الاخروى وهو غائب مترقب لقوة ايمانه فلايتعرض للصيد ممن لايخافه كذلك لضعف ايمانه فيقدم عليه وانما عبر عن ذلك بعلم الله تعالى اللازم له ايذانا بمدار الجزاء ثوابا وعقابا فانه أدخل فى حملهم على الخوف وقيل المعنى ليتعلق علمه تعالى بمن يخافه بالفعل فان علمه تعالى بأنه سيخافه وان كان متعلقا به قبل خوفه لكن تعلقه بأنه خائف بالفعل وهو الذى يدور عليه أمر الجزاء انما يكون عند تحقق الخوف بالفعل وقيل هناك مضاف محذوف والتقدير ليعلم أولياء الله وقرىء ليعلم من الاعلام على حذف المفعول الأول أى ليعلم الله عباده الخ والعلم على القراءتين متعد الى واحد واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة وادخال الروعة ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك ﴾ أى بعد بيان أن ماوقع ابتلاء من جهته تعالى لما ذكر من الحكمة لابعد تحريمه أو النهى عنه كما قاله بعضهم اذ النهى والتحريم ليس أمرا حادثا يترتب عليه الشرطية بالفاء و لابعد الابتلاء كما اختاره آخرون لان نفس الابتلاء لايصلح مدارا لتشديد العذاب بل ربما يتوهم كونه عذرا مسوغا لتخفيفه وانما الموجب للتشديد بيان كونه ابتلاء لان الاعتداء بعد ذلك مكابرة صريحة وعدم مبالاة بتدبير الله تعالى وخروج عن طاعته وانخلاع عن خوفه وخشيته بالكلية أى فمن تعرض للصيد بعدمابينا أن ماوقع من كثرة الصيد وعدم توحشه منهم ابتلاء مؤد الى تمييز المطيع من العاصى ﴿ فله عذاب أليم ﴾ لما ذكر من أنه مكابرة محضة ولان من لايملك زمام نفسه ولايراعى حكم الله تعالى فى أمثال هذه البلايا الهينة لايكاد يراعيه فى عظائم المداحض والمراد بالعذاب الأليم عذاب الدارين قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يوسع ظهره و بطنه جلدا و ينزع ثيابه ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ شروع فى بيان مايتدارك به الاعتداء من الأحكام اثر بيان مايلحقه من العذاب والتصريح بالنهى فى قوله تعالى ﴿ لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾ مع كونه معلوما لاسيما من قوله تعالى غير محلى الصيد وأنتم حرم لتأكيد الحرمة وترتيب مايعقبه عليه واللام فى الصيد للعهد حسبما سلف وحرم جمع حرام وهو المحرم وان كان فى الحل وفى حكمه من فى الحرم وان كان حلالا كردح جمع رداح والجملة حال من فاعل لاتقتلوا أى لاتقتلوه وأنتم محرمون ﴿ ومن قتله ﴾ أى الصيد المعهود وذكر القتل فى الموضعين دون الذبح للايذان بكونه فى حكم الميتة ﴿ منكم ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل قتله أى كائنا منكم ﴿ متعمداً ﴾

حال منه أيضا أى ذاكرا لاحرامه عالما بحرمة قتل مايقتله والتقييد بالتعمد مع أن محظورات الاحرام يستوى فيها العمد والخطأ لما أن الآية نزلت فى المتعمد كما مر من قصة أبى اليسر ولأن الأصل فعل المتعمد والخطأ لاحق به للتغليظ وعن الزهرى نزل الكتاب بالعمد وو ردت السنة بالخطأ وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه لاأرى فى الخطأ شيئاً أخذا باشتراط التعمد فى الآية وهو قول داود وعن مجاهد والحسن أن المراد بالتعمد هو تعمد القتل مع نسيان الاحرام أما اذا قتله عمدا وهو ذاكر لاحرامه فلا حكم عليه وأمره الى الله عزوجل لأنه أعظم من أن يكون له كفارة ﴿فجزاء مثل ماقتل﴾ برفعهما أى فعليه جزاء مماثل لما قتله وقرئ برفع الاول ونصب الثانى على اعمال المصدر وقرئ بجر الثانى على اضافته الى مفعوله وقرئ فجزاؤه مثل ماقتل على الابتداء والخبرية وقرئ بنصبهما على تقدير فليجز جزاء أو فعليه أن يجزى جزاء مثل ماقتل والمراد به عند أبى حنيفة وأبى يوسف رضى الله عنهما المثل باعتبار القيمة يقوم الصيد حيث صيد أو فى أقرب الاماكن اليه فان بلغت قيمته قيمة هدى يخير الجانى بين أن يشترى بها ماقيمته قيمة الصيد فيهديه الى الحرم وبين أن يشترى بها طعاما فيعطى كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعا من غيره وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوما فان فضل مالايبلغ طعام مسكين تصدق به أو صام عنه يوما كاملا اذلم يعهد فى الشرع صوم مادونه فيكون قوله تعالى ﴿من النعم﴾ بيانا للهدى المشترى بالقيمة على أحد وجوه التخيير فان من فعل ذلك يصدق عليه أنه جزى بمثل ماقتل من النعم وعند مالك والشافعى رحمهما الله تعالى ومن يرى رأيهما هو المثل باعتبار الخلقة والهيئة لأن الله تعالى أوجب مثل المقتول مقيدا بالنعم فمن اعتبر المثل بالقيمة فقد خالف النص وعن الصحابة رضى الله عنهم أنهم أوجبوا فى النعامة بدنة و فى الظبى شاة و فى حمار الوحش بقرة و فى الارنب عناقا وعن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال الضبع صيد وفيه شاة اذا قتله المحرم ولنا أن النص أوجب المثل والمثل المطلق فى الكتاب والسنة واجماع الأمة والمعقول يراد به اما المثل صورة ومعنى واما المثل معنى وأما المثل صورة بلا معنى فلا اعتبار له فى الشرع أصلا واذالم يمكن ارادة الاول اجماعا تعينت ارادة الثانى لكونه معهودا فى الشرع كما فى حقوق العباد ألايرى أن المماثلة بين أفراد نوع واحد مع كونها فى غاية القوة والظهور لم يعتبرها الشرع ولم يجعل الحيوان عند الاتلاف مضمونا بفرد آخر من نوعه مماثل له فى عامة الاوصاف بل مضمونا بقيمته مع أن المنصوص عليه فى أمثاله انما هو المثل قال تعالى فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم فحيث لم تعتبر تلك المماثلة القوية مع تيسر معرفتها وسهولة مراعاتها فلأن لاتعتبر مابين أفراد أنواع مختلفة من المماثلة الضعيفة الخفية مع صعوبة مأخذها وتعسر المحافظة عليها أولى وأحرى ولان القيمة قد أريدت فيما لانظير له اجماعا فلم يبق غيره مرادا اذ لاعموم للمشترك فى مواقع الاثبات والمراد بالمروى ايجاب النظير باعتبار القيمة لاباعتبار العين ثم الموجب الاصلى للجناية والجزاء المماثل للمقتول انماهو قيمته لكن لاباعتبار أن يعمد الجانى اليها فيصرفها الى المصارف ابتداء بل باعتبار أن يجعلها معيارا فيقدر بها احدى الخصال الثلاث فيقيمها مقامها فقوله تعالى مثل ماقتل وصف لازم للجزاء غير مفارق عنه بحال وأما قوله تعالى من النعم فوصف له معتبر فى ثانى الحال بناء على وصفه الاول الذى هو المعيار له ولما بعده من الطعام والصيام فحقهما أن يعطفا على الوصف المفارق لاعلى الوصف اللازم فضلا عن العطف على الموصوف كما سيأتى باذن الله تعالى ومما يرشدك الى أن المراد بالمثل هو القيمة قوله عز وجل ﴿يحكم به﴾ أى بمثل ماقتل ﴿ذوا عدل منكم﴾ أى حكمان عادلان من المسلمين لكن لا لأن التقويم هو الذى يحتاج الى النظر والاجتهاد من العدول دون الاشياء المشاهدة التى يستوى فى معرفتها كل أحد من الناس فان ذلك ناشئ من الغفلة عما أرادوا بما به المماثلة بل لأن ماجعلوه مدار المماثلة بين الصيد و بين النعم من ضرب مشاكلة ومضاهاة فى بعض الاوصاف والهيئات

مع تحقق التباين بينهما فى بقية الأحوال مما لايهتدى اليه من أساطين أئمة الاجتهاد وصناديد أهل الهداية والارشاد الا المؤيدون بالقوة القدسية ألا يرى أن الامام الشافعى رضى الله عنه أوجب فى قتل الحمامة شاة بناء على ما أثبت بينهما من المماثلة من حيث أن كلا منهما يعب ويهدر مع أن النسبة بينهما من سائر الحيثيات كما بين الضب والنون فكيف يفوض معرفة أمثال هذه الدقائق العويصة الى رأى عدلين من آحاد الناس على أن الحكم بهذا المعنى انما يتعلق بالانواع لا بالاشخاص فبعد ماعين بمقابلة كل نوع من أنواع الصيد نوع من أنواع النعم يتم الحكم ولا يبقى عند وقوع خصوصيات الحوادث حاجة الى حكم أصلا وقرىء يحكم به ذو عدل على ارادة جنس العادل دون الوحدة وقيل بل على ارادة الامام والجملة صفة لجزاء أو حال منه لتخصصه بالصفة وقوله تعالى ﴿هديا﴾ حال مقدرة من الضمير فى به أو من جزاء لما ذكر من تخصصه بالصفة أو بدل من مثل فيمن نصبه أو من محله فيمن جره أو نصب على المصدر أى يهديه هديا والجملة صفة أخرى لجزاء ﴿بالغ الكعبة﴾ صفة لهديا لأن الاضافة غير حقيقية ﴿أو كفارة﴾ عطف على محل من النعم على أنه خبر مبتدا محذوف والجملة صفة ثانية لجزاء كما أشير اليه وقوله تعالى ﴿طعام مساكين﴾ عطف بيان لكفارة عند من لايخصصه بالمعارف أو بدل منه أو خبر مبتدا محذوف أى هى طعام مساكين وقوله تعالى ﴿أو عدل ذلك صياما﴾ عطف على طعام الخ كأنه قيل فعليه جزاء مماثل للمقتول هو من النعم أو طعام مساكين أو صيام أيام بعددهم فحينئذ تكون المماثلة وصفا لازما للجزاء يقدر به الهدى والطعام والصيام أما الاولان فبلا واسطة وأما الثالث فبواسطة الثانى فيختار الجانى كلا منها بدلا من الآخرين هذا وقد قيل ان قوله تعالى أو كفارة عطف على جزاء فلا يبقى حينئذ فى النظم الكريم مايقدر به الطعام والصيام والالتجاء الى القياس على الهدى تعسف لايخفى هذا على قراءة جزاء بالرفع وعلى سائر القراءات فقوله تعالى أو كفارة خبر مبتدا محذوف والجملة معطوفة على جملة هو من النعم وقرىء أو كفارة طعام مساكين بالاضافة لتبيين نوع الكفارة وقرىء طعام مسكين على أن التبيين يحصل بالواحد الدال على الجنس وقرىء أو عدل بكسر العين والفرق بينهما أن عدل الشىء ماعادله من غير جنسه كالصوم والاطعام وعدله ماعدل به فى المقدار كأن المفتوح تسمية بالمصدر والمكسور بمعنى المفعول وذلك اشارة الى الطعام وصياما تمييز للعدل والخيار فى ذلك للجانى عند أبى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله وللحكمين عند محمد رحمه الله ﴿ليذوق وبال أمره﴾ متعلق بالاستقرار فى الجار والمجرور أى فعليه جزاء ليذوق الخ وقيل بفعل يدل عليه الكلام كأنه قيل شرع ذلك عليه ليذوق وبال أمره أى سوء عاقبة هتكه لحرمة الاحرام والوبال فى الأصل المكروه والضرر الذى ينال فى العاقبة من عمل سوء لثقله ومنه قوله تعالى فأخذناه أخذا وبيلا ومنه الطعام الوبيل وهو الذى لاتستمرئه المعدة ﴿عفا الله عما سلف﴾ من قتل الصيد محرما قبل أن يسألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام وقيل عما سلف منه فى الجاهلية لانهم كانوا متعبدين بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرما ﴿ومن عاد﴾ الى قتل الصيد بعد النهى عنه وهو محرم ﴿فينتقم الله منه﴾ خبر مبتدا محذوف تقديره فهو ينتقم الله منه ولذلك دخلت الفاء كقوله تعالى فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا أى فذلك لايخاف الخ وقوله تعالى ومن كفر فأمتعه أى فأنا أمتعه والمراد بالانتقام التعذيب فى الآخرة وأما الكفارة فعن عطاء وابراهيم وسعيد بن جبير والحسن أنها واجبة على العائد وعن ابن عباس رضى الله عنهما وشريح أنه لا كفارة عليه تعلقا بالظاهر ﴿والله عزيز﴾ غالب لايغالب ﴿ذو انتقام﴾ شديد فينتقم ممن أصر على المعصية والاعتداء ﴿أحل لكم﴾ الخطاب للمحرمين ﴿صيد البحر﴾ أى مايصاد فى المياه كلها بحرا كان أو نهرا أو غديرا وهو مالايعيش الا فى الماء مأكولا أو غير مأكول ﴿وطعامه﴾ أى وما يطعم من صيده وهو تخصيص بعد تعميم والمعنى

أحل لكم التعرض لجميع مايصاد فى المياه والانتفاع به وأكل مايؤكل منه وهو السمك عندنا وعند ابن أبى ليلى جميع مايصاد فيه على أن تفسير الآية عنده أحل لكم صيد حيوان البحر وأن تطعموه وقرئ وطعمه وقيل صيد البحر ماصيد فيه وطعامه ماقذفه أو نضب عنه ﴿ متاعا لكم ﴾ نصب على أنه مفعول له مختص بالطعام كما أن نافلة فى قوله تعالى و وهبنا له اسحق و يعقوب نافلة حال مختصة بيعقوب عليه السلام أى أحل لكم طعامه تمتيعا للمقيمين منكم يأكلونه طريا ﴿ وللسيارة ﴾ منكم يتزودونه قديدا وقيل نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر أى متعكم به متاعا وقيل مؤكد لمعنى أحل لكم فانه فى قوة متعكم به تمتيعا كقوله تعالى كتاب الله عليكم ﴿ وحرم عليكم صيد البر ﴾ وقرئ على بناء الفعل للفاعل ونصب صيد البر وهو مايفرخ فيه وان كان يعيش فى الماء فى بعض الأوقات كطير الماء ﴿ مادمتم حرما ﴾ أى محرمين وقرئ بكسر الدال من دام يدام وظاهره يوجب حرمة ماصاده الحلال على المحرم وان لم يكن له مدخل فيه وهو قول عمر وابن عباس رضى الله عنهم وعن أبى هريرة وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير رضى الله عنهم أنه يحل له أكل ماصاده الحلال وان صاده لاجله اذا لم يشر اليه ولم يدل عليه وكذا ماذبحه قبل احرامه وهو مذهب أبى حنيفة لان الخطاب للمحرمين فكأنه قيل وحرم عليكم ماصدتم فى البر فيخرج منه مصيد غيرهم وعند مالك والشافعى وأحمد لايباح ماصيد له ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما نهاكم عنه أو فى جميع المعاصى التى من جملتها ذلك ﴿ الذى اليه تحشرون ﴾ لاالى غيره حتى يتوهم الخلاص من أخذه تعالى بالالتجاء اليه ﴿ جعل الله الكعبة ﴾ قال مجاهد سميت كعبة لكونها مكعبة مربعة وقيل لانفرادها من البناء وقيل لارتفاعها من الارض ونتوئها وقوله تعالى ﴿ البيت الحرام ﴾ عطف بيان على جهة المدح دون التوضيح كما تجىء الصفة كذلك وقيل مفعول ثان لجعل وقوله تعالى ﴿ قياما للناس ﴾ نصب على الحال ويرده عطف مابعده على المفعول الأول كما سيجىء بل هذا هو المفعول الثانى وقيل الجعل بمعنى الانشاء والخلق وهو حال كما مر ومعنى كونه قياما لهم أنه مدار لقيام أمر دينهم ودنياهم اذ هو سبب لانتعاشهم فى أمور معاشهم ومعادهم يلوذ به الخائف و يأمن فيه الضعيف ويربح فيه التجار و يتوجه اليه الحجاج والعمار وقرئ قيما على أنه مصدر على وزن شبع أعل عينه بما أعل فى فعله ﴿ والشهر الحرام ﴾ أى الذى يؤدى فيه الحج وهو ذو الحجة وقيل جنس الشهر الحرام وهو وما بعده عطف على الكعبة فالمفعول الثانى محذوف ثقة بما مر أى وجعل الشهر الحرام ﴿ والهدى والقلائد ﴾ أيضا قياما لهم والمراد بالقلائد ذوات القلائد وهى البدن خصت بالذكر لان الثواب فيها أكثر وبهاء الحج بها أظهر ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى الجعل المذكور خاصة أو مع ماذكر من الأمر بحفظ حرمة الاحرام وغيره ومحله النصب بفعل مقدر يدل عليه السياق وهو العامل فى اللام بعده أى شرع ذلك ﴿ لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات ومافى الارض ﴾ فان تشريع هذه الشرائع المستتبعة لدفع المضار الدينية والدنيوية قبل وقوعها وجلب المنافع الاولوية والأخروية من أوضح الدلائل على حكمة الشارع وعدم خروج شئ عن علمه المحيط وقوله تعالى ﴿ وأن الله بكل شئ عليم ﴾ تعميم اثر تخصيص للتأكيد ويجوز أن يراد بما فى السموات والارض الاعيان الموجودة فيهما و بكل شئ الأمور المتعلقة بتلك الموجودات من العوارض والاحوال التى هى من قبيل المعانى ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ وعيد لمن انتهك محارمه أو أصر على ذلك وقوله تعالى ﴿ وأن الله غفور رحيم ﴾ وعد لمن حافظ على مراعاة حرماته تعالى أو أقلع عن الانتهاك بعد تعاطيه و وجه تقديم الوعيد ظاهر ﴿ ما على الرسول الا البلاغ ﴾ تشديد فى ايجاب القيام بما أمر به أى الرسول قد أتى بما وجب عليه من التبليغ بما لامزيد عليه وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة فلا عذر لكم من بعد فى التفريط ﴿ والله يعلم ماتبدون وما تكتمون ﴾ فيؤاخذكم بذلك نقيرا وقطميرا ﴿ قل لايستوى الخبيث والطيب ﴾ حكم عام فى نفى المساواة عند الله تعالى

بين الردىء من الاشخاص والأعمال والأموال وبين جيدها قصد به الترغيب فى جيد كل منها والتحذير عن رديئها وان كان سبب النزول شريح بن ضبعة البكرى الذى مرت قصته فى تفسير قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله الخ وقيل نزل فى رجل سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام ان الخمر كانت تجارتى وانى اعتقدت من بيعها مالا فهل ينفعنى من ذلك المال ان عملت فيه بطاعة الله تعالى فقال النبي عليه الصلاة والسلام ان أنفقته فى حج أو جهاد أو صدقة لم يعدل جناح بعوضة ان الله لا يقبل الا الطيب وقال عطاء والحسن رضى الله عنهما الخبيث والطيب الحرام والحلال وتقديم الخبيث فى الذكر للاشعار من أول الأمر بأن القصور الذى ينبىء عنه عدم الاستواء فيه لا فى مقابله فان مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا وان جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب قصور القاصر كما فى قوله تعالى هل يستوى الأعمى والبصير الى غير ذلك وأما قوله تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون فلعل تقديم الفاضل فيه لما أن صلته ملكة لصلة المفضول ﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ أى وان سرك كثرته والخطاب لكل واحد من الذين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بخطابهم والواو لعطف الشرطية على مثلها المقدر وقيل للحال وقد مر أى لولم تعجبك كثرة الخبيث ولوأعجبتك وكلتاهما فى موقع الحال من فاعل لايستوى أى لايستويان كائنين على كل حال مفروض كما فى قولك أحسن الى فلان وان أساء اليك أى أحسن اليه ان لم يسىء اليك وان أساء اليك أى كائنا على كل حال مفروض وقد حذفت الاولى حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة فان الشىء اذا تحقق مع المعارض فلأن يتحقق بدونه أولى وعلى هذا السر يدور ما فى لو وان الوصليتين من المبالغة والتأكيد وجواب لو محذوف فى الجملتين لدلالة ما قبلهما عليه وسيأتى تمام تحقيقه فى مواقع عديدة باذن الله عز وجل ﴿فاتقوا الله ياأولى الألباب﴾ أى فى تحرى الخبيث وان كثر وآثروا عليه الطيب وان قل فان مدار الاعتبار هو الجودة والرداءة لا الكثرة والقلة فالمحمود القليل خير من المذموم الكثير بل كلما كثر الخبيث كان أخبث ﴿لعلكم تفلحون﴾ راجين أن تنالوا الفلاح ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء﴾ هو اسم جمع على رأى الخليل وسيبويه وجمهور البصريين كطرفاء وقصباء أصله شيآء بهمزتين بينهما الف فقلبت الكلمة بتقديم لامها على فائها فصار وزنها لفعاء ومنعت الصرف لالف التأنيث الممدودة وقيل هو جمع شىء على أنه مخفف من شىء كهين مخفف من هين والأصل أشيئاء كأهوناء بزنة أفعلاء فاجتمعت همزتان لام الكلمة والتى للتأنيث اذ الألف كالهمزة فخففت الكلمة بأن قلبت الهمزة الأولى ياء لانكسار ماقبلها فصارت أشيياء فاجتمعت ياءان أولاهما عين الكلمة فحذفت تخفيفا فصارت أشياء وزنها أفلاء ومنعت الصرف لألف التأنيث وقيل انما حذفت من أشيياء الياء المنقلبة من الهمزة التى هى لام الكلمة وفتحت الياء المكسورة لتسلم الف الجمع فوزنها أفعاء وقوله تعالى ﴿ان تبد لكم تسؤكم﴾ صفة لأشياء داعية الى الانتهاء عن السؤال عنها وحيث كانت المساءة فى هذه الشرطية معلقة بابدائها لا بالسؤال عنها عقبت بشرطية أخرى ناطقة باستلزام السؤال عنها لابدائها الموجب للمحذور قطعا فقيل ﴿وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ أى تلك الأشياء الموجبة للمساءة بالوحى كما ينبىء عنه تقييد السؤال بحين التنزيل والمراد بها ما يشق عليهم ويغمهم من التكاليف الصعبة التى لايطيقون بها والأسرار الخفية التى يفتضحون بظهورها ونحو ذلك مما لاخير فيه فكما أن السؤال عن الأمور الواقعة مستتبع لابدائها كذلك السؤال عن تلك التكاليف مستتبع لايجابها عليهم بطريق التشديد لاساءتهم الأدب واجترائهم على المسألة والمراجعة وتجاوزهم عما يليق بشأنهم من الاستسلام لأمر الله عز وجل من غير بحث فيه ولا تعرض لكيفيته ولميته أى لاتكثروا مساءلة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما لايعنيكم من نحو تكاليف شاقة عليكم ان أفتاكم بها وكلفكم اياها

حسبما أوحى اليه لم تطيقوا بها ونحو بعض أمور مستورة تكرهون بروزها وذلك مثل ماروى عن على رضى الله تعالى عنه أنه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال ان الله تعالى كتب عليكم الحج فقام رجل من بنى أسد يقال له عكاشة بن محصن وقيل هو سراقة بن مالك فقال أفى كل عام يارسول الله فأعرض عنه حتى أعاد مسألته ثلاث مرات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم والله لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما استطعتم ولو تركتم لكفرتم فاتركونى ماتركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فاذا أمرتكم بأمر فخذوا منه مااستطعتم واذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه ومثل ماروى عن أنس وأبى هريرة رضى الله عنهما أنه سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء حتى أحفوه فى المسألة فقام عليه الصلاة والسلام مغضبا خطيبا فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال سلونى فوالله ماتسألونى عن شئ مادمت فى مقامى هذا الا بينته لكم فأشفق أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام أن يكون بين يدى أمر قدحضر قال أنس رضى الله عنه فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فلاأجد رجلا الا وهو لاف رأسه فى ثوبه يبكى فقام رجل من قريش من بنى سهم يقال له عبد الله بن حذافة وكان اذا لاحى الرجال يدعى الى غير أبيه وقال يانبى الله من أبى فقال عليه الصلاة والسلام أبوك حذافة بن قيس الزهرى وقام آخر وقال أين أبى قال عليه الصلاة والسلام فى النار ثم قام عمر رضى الله عنه فقال رضينا بالله تعالى ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا نبيا نعوذ بالله تعالى من الفتن انا حديثو عهد بجاهلية وشرك فاعف عنا يارسول الله فسكن غضبه عليه الصلاة والسلام ﴿عفا الله عنها﴾ استئناف مسوق لبيان أن نهيهم عنها لم يكن لمجرد صيانتهم عن المساءة بل لأنها فى نفسها معصية مستتبعة للمؤاخذة وقدعفا عنها وفيه من حثهم على الجد فى الانتهاء عنها مالايخفى وضمير عنها للمسألة المدلول عليها بلا تسألوا أى عفا الله تعالى عن مسائلكم السالفة حيث لم يفرض عليكم الحج فى كل عام جزاء بمسألتكم وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية بسائر مسائلكم فلا تعودوا الى مثلها وأما جعله صفة أخرى لأشياء على أن الضمير لها بمعنى لاتسألوا عن أشياء عفا الله عنها ولم يكلفكم اياها فمما لاسبيل اليه أصلا لاقتضائه أن يكون الحج قد فرض أولا فى كل عام ثم نسخ بطريق العفو وأن يكون ذلك معلوما للمخاطبين ضرورة أن حق الوصف أن يكون معلوم الثبوت للموصوف عند المخاطب قبل جعله وصفا له وكلاهما ضرورى الانتفاء قطعا على أنه يستدعى اختصاص النهى بمسألة الحج ونحوها ان سلم وقوعها مع أن النظم الكريم صريح فى أنه مسوق للنهى عن السؤال عن الأشياء التى يسوؤهم ابداؤها سواء كانت من قبيل الأحكام والتكاليف الموجبة لمساءتهم بانشائها وايجابها بسبب السؤال عقوبة وتشديدا كمسألة الحج لولا عفوه تعالى عنها أو من قبيل الأمور الواقعة قبل السؤال الموجبة للمساءة بالاخبار بها كمسألة من قال أين أبى . ان قلت تلك الاشياء غير موجبة للمساءة البتة بل هى محتملة لايجاب المسرة أيضا لان ايجابها للاولى ان كان من حيث وجودها فهى من حيث عدمها موجبة للاخرى قطعا وليست احدى الحيثيتين محققة عند السائل وانما غرضه من السؤال ظهورها كيف كانت بل ظهورها بحيثية ايجابها للمسرة فلم عبر عنها بحيثية ايجابها للمساءة قلت لتحقيق المنهى عنه كما ستعرفه مع ما فيه من تأكيد النهى وتشديده لان تلك الحيثية هى الموجبة للانتهاء والانزجار لاحيثية ايجابها للمسرة ولا حيثية ترددها بين الايجابين . ان قيل الشرطية الثانية ناطقة بأن السؤال عن تلك الاشياء الموجبة للمساءة مستلزم لابدائها البتة كما مر فلم تخلف الابداء عن السؤال فى مسئلة الحج حيث لم يفرض فى كل عام قلنا لوقوع السؤال قبل ورود النهى وماذكر فى الشرطية انما هو السؤال الواقع بعد وروده اذ هو الموجب للتغليظ والتشديد ولا تخلف فيه . ان قيل ماذكرته انما يتمشى فيما اذا كان السؤال عن الأمور المترددة بين الوقوع وعدمه كما ذكر من التكاليف الشاقة وأما اذا كان عن الأمور الواقعة قبله

فلا يكاد يتسنى لأن ما يتعلق به الابداء هو الذى وقع فى نفس الأمر و لا مرد له سواء كان السؤال قبل النهى أو بعده وقد يكون الواقع ما يوجب المسرة كما فى مسئلة عبد الله بن حذافة فيكون هو الذى يتعلق به الابداء لا غير فيتعين التخلف حتما قلنا لا احتمال للتخلف فضلا عن التعين فان المنهى عنه فى الحقيقة انما هو السؤال عن الأشياء الموجبة للمساءة الواقعة فى نفس الأمر قبل السؤال كسؤال من قال أين أبى لا عما يعمها وغيرها مما ليس بواقع لكنه محتمل للوقوع عند المكلفين حتى يلزم التخلف فى صورة عدم الوقوع وجملة الكلام أن مدلول النظم الكريم بطريق العبارة انما هو النهى عن السؤال عن الأشياء التى يوجب ابداؤها المساءة البتة اما بأن تكون تلك الأشياء بعرضية الوقوع فتبدى عند السؤال بطريق الانشاء عقوبة وتشديدا كما فى صورة كونها من قبيل التكاليف الشاقة واما بأن تكون واقعة فى نفس الأمر قبل السؤال فتبدى عنده بطريق الاخبار بها فالتخلف ممتنع فى الصورتين معا ومنشأ توهمه عدم الفرق بين المنهى عنه و بين غيره بناء على عدم امتياز ما هو موجود أو بعرضية الوجود من تلك الأشياء فى نفس الأمر وما ليس كذلك عند المكلفين وملاحظتهم للكل باحتمال الوجود والعدم وفائدة هذا الابهام الانتهاء عن السؤال عن تلك الأشياء على الاطلاق حذار ابداء المكروه ﴿والله غفور حليم﴾ اعتراض تذييلى مقرر لعفوه تعالى أى مبالغ فى مغفرة الذنوب والاغضاء عن المعاصى و لذلك عفا عنكم ولم يؤاخذكم بعقوبة ما فرط منكم ﴿قد سألها قوم﴾ أى سألوا هذه المسألة لكن لا عينها بل مثلها فى كونها محظورة ومستتبعة للوبال وعدم التصريح بالمثل للمبالغة فى التحذير ﴿من قبلكم﴾ متعلق بسألها ﴿ثم أصبحوا بها﴾ أى بسببها أو بمرجوعها ﴿كافرين﴾ فان بنى اسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم فى أشياء فاذا أمروا بها تركوها فهلكوا ﴿ما جعل الله من بحيرة و لا سائبة و لا وصيلة و لا حام﴾ رد وابطال لما ابتدعه أهل الجاهلية حيث كانوا اذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أى شقوها وحرموا ركوبها ودرها و لا تطرد عن ماء و لا عن مرعى وكان يقول الرجل اذا قدمت من سفرى أو برئت من مرضى فناقتى سائبة وجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها وقيل كان الرجل اذا أعتق عبدا قال هو سائبة فلا عقل بينهما و لا ميراث واذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم وان ولدت ذكرا فهو لآلهتهم وان ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم واذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره فلا يركب و لا يحمل عليه و لا يمنع من ماء و لا مرعى ومعنى ما جعل ما شرع وما وضع و لذلك عدى الى مفعول واحد هو بحيرة وما عطف عليها ومن مزيدة لتأكيد النفى فان الجعل التكوينى كما يجىء تارة متعديا الى مفعولين وأخرى الى واحد كذلك الجعل التشريعى يجىء مرة متعديا الى مفعولين كما فى قوله تعالى جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس وأخرى الى واحد كما فى الآية الكريمة ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾ حيث يفعلون ما يفعلون و يقولون الله أمرنا بهذا وامامهم عمرو بن لحى فانه أول من فعل هذه الأفاعيل الباطلة هذا شأن رؤسائهم وكبرائهم ﴿وأكثرهم﴾ وهم أراذلهم الذين يتبعونهم من معاصرى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يشهد به سياق النظم الكريم ﴿لا يعقلون﴾ أنه افتراء باطل حتى يخالفوهم و يهتدوا الى الحق بأنفسهم فيبقون فى أسر التقليد وهذا بيان لقصور عقولهم وعجزهم عن الاهتداء بأنفسهم وقوله عز وجل ﴿واذا قيل لهم﴾ أى للذين عبر عنهم بأكثرهم على سبيل الهداية والارشاد ﴿تعالوا الى ما أنزل الله﴾ من الكتاب المبين للحلال والحرام ﴿والى الرسول﴾ الذى أنزل هو عليه لتقفوا على حقيقة الحال وتميزوا الحرام من الحلال ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ بيان لعنادهم واستعصائهم على الهادى الى الحق وانقيادهم للداعى الى الضلال ﴿أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾ قيل الواو للحال دخلت عليها

الهمزة للانكار والتعجيب أى أحسبهم ذلك و لو كان آباؤهم جهلة ضالين وقيل للعطف على شرطية أخرى مقدرة قبلها وهو الأظهر والتقدير أحسبهم ذلك أو أيقولون هذا القول لولم يكن آباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين و لايهتدون للصواب و لوكانوا لا يعلمون الخ وكلتاهما فى موقع الحال أى أحسبهم ماوجدوا عليه آباءهم كائنين على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى فى الباب حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة كيف لا وأن الشىء اذا تحقق عند المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى كما فى قولك أحسن الى فلان وان أساء اليك أى أحسن اليه ان لم يسىء اليك وان أساء أى أحسن اليه كائنا على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها دلالة ظاهرة اذ الاحسان حيث أمر به عند المانع فلأن يؤمر به عند عدمه أولى وعلى هذا السر يدور مافى ان ولو الوصليتين من المبالغة والتأكيد وجواب لو محذوف لدلالة ماسبق عليه أى لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا و لايهتدون حسبهم ذلك أو يقولون ذلك ومافى لو من معنى الامتناع والاستبعاد انما هو بالنظر الى زعمهم لا الى نفس الأمر وفائدته المبالغة فى الانكار والتعجيب ببيان أن ماقالوه موجب للانكار والتعجيب اذا كان كون آبائهم جهلة ضالين فى حيز الاحتمال البعيد فكيف اذا كان ذلك واقعا لاريب فيه وقيل مآل الوجهين واحد لأن الجملة المقدرة حال فكذا ماعطف عليها وأنت خبير بأن الحال على الوجه الأخير مجموع الجملتين لا الأخيرة فقط وأن الواو للعطف لا للحال وقدمر التحقيق فى قوله تعالى أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا و لايهتدون فتدبر ﴿ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ أى الزموا أمر أنفسكم واصلاحها وقرىء بالرفع على الابتداء أى واجبة عليكم أنفسكم وقوله عز وجل ﴿لايضركم من ضل اذا اهتديتم﴾ اما مجزوم على أنه جواب للأمر أو نهى مؤكد له وانما ضمت الراء اتباعا لضمة الضاد المنقولة اليها من الراء المدغمة اذ الأصل لا يضرركم ويؤيده القراءة بفتح الراء وقراءة من قرأ لايضركم بكسر الضاد وضمها من ضاره يضيره ويضوره واما مرفوع على أنه كلام مستأنف فى موقع التعليل لما قبله و يعضده قراءة من قرأ لا يضيركم أى لا يضركم ضلال من ضل اذا كنتم مهتدين و لايتوهمن أن فيه رخصة فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع استطاعتهما كيف لا ومن جملة الاهتداء أن ينكر على المنكر حسبما تفى به الطاقة قال عليه الصلاة والسلام من رأى منكم منكرا فاستطاع أن يغيره فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وقد روى أن الصديق رضى الله تعالى عنه قال يوما على المنبر ياأيها الناس انكم تقرءون هذه الآية وتضعونها غير موضعها و لاتدرون ماهى وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الناس اذا رأوا منكرا فلم يغيروه عمهم الله بعقاب فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر و لاتغتروا بقول الله عز وجل ياأيها الذين آمنوا الخ فيقول أحدكم على نفسى والله لتأمرن بالمعروف وتنهن عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لهم وعنه عليه الصلاة والسلام مامن قوم عمل فيهم منكر أوسن فيهم قبيح فلم يغيروه ولم ينكروه الا وحق على الله تعالى أن يعمهم بالعقوبة جميعا ثم لايستجاب لهم والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة وكانوا يتمنون ايمانهم وهم من الضلال بحيث لايكادون يرعوون عنه بالأمر والنهى وقيل كان الرجل اذا أسلم لاموه وقالوا له سفهت آباءك وضللتهم أى نسبتهم الى السفاهة والضلال فنزلت تسلية له بأن ضلال آبائه لايضره و لايشينه ﴿الى الله﴾ لا الى أحد سواه ﴿مرجعكم﴾ رجوعكم يوم القيامة ﴿جميعا﴾ بحيث لايتخلف عنه أحد من المهتدين وغيرهم ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ فى الدنيا من أعمال الهداية والضلال فهو وعد ووعيد للفريقين وتنبيه على أن أحدا لايؤاخذ بعمل غيره ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ استئناف مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بأمور دنياهم اثر بيان الأحوال المتعلقة بأمور دينهم وتصديره بحرفى النداء والتنبيه لاظهار كمال العناية بمضمونه وقوله عز

وجل ﴿شهادة بينكم﴾ بالرفع والاضافة الى الظرف توسعا اما باعتبار جريانها بينهم أو باعتبار تعلقها بما يجرى بينهم من الخصومات مبتدأ وقوله تعالى ﴿اذا حضر أحدكم الموت﴾ أى شارفه وظهرت علائمه ظرف لها وتقديم المفعول لافادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها فانه أدخل فى تهوين أمر الموت وقوله تعالى ﴿حين الوصية﴾ بدل منه لاظرف للموت كما توهم ولا لحضوره كما قيل فان فى الابدال تنبيها على أن الوصية من المهمات المقررة التى لا ينبغى أن يتهاون بها المسلم ويذهل عنها وقوله تعالى ﴿اثنان﴾ خبر للمبتدا بتقدير المضاف أى شهادة بينكم حينئذ شهادة اثنين أو فاعل شهادة بينكم على أن خبرها محذوف أى فيما نزل عليكم أن يشهد بينكم اثنان وقرئ شهادة بالرفع والتنوين والاعراب كما سبق وقرئ شهادة بالنصب والتنوين على أن عاملها مضمر هو العامل فى اثنان أيضا أى ليقم شهادة بينكم اثنان ﴿ذوا عدل منكم﴾ أى من أقاربكم لأنهم أعلم بأحوال الميت وأنصح له وأقرب الى تحرى ماهو أصلح له وقيل من المسلمين وهما صفتان لاثنان ﴿أو آخران﴾ عطف على اثنان تابع له فيما ذكر من الخبرية والفاعلية أى أو شهادة آخرين أو أن يشهد بينكم آخران أو ليقم شهادة بينكم آخران وقوله تعالى ﴿من غيركم﴾ صفة لآخران أى كائنان من غيركم أى من الأجانب وقيل من أهل الذمة وقد كان ذلك فى بدء الاسلام لعزة وجود المسلمين لاسيما فى السفر ثم نسخ وعن مكحول أنه نسخها قوله تعالى وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴿ان أنتم﴾ مرفوع بمضمر يفسره مابعده تقديره ان ضربتم فلما حذف الفعل انفصل الضمير وهذا رأى جمهور البصريين وذهب الأخفش والكوفيون الى أنه مبتدأ بناء على جواز وقوع المبتدا بعد ان الشرطية لجواز وقوعه بعد اذا فقوله تعالى ﴿ضربتم فى الأرض﴾ أى سافرتم فيها لامحل له من الاعراب عند الأولين لكونه مفسرا ومرفوع على الخبرية عند الباقين وقوله تعالى ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾ عطف على الشرطية وجوابه محذوف لدلالة ماقبله عليه أى ان سافرتم فقاربكم الأجل حينئذ وما معكم من الأقارب أو من أهل الاسلام من يتولى أمر الشهادة كما هو الغالب المعتاد فى الأسفار فليشهد آخران أو فاستشهدوا آخرين أو فالشاهدان آخران كذا قيل والأنسب أن يقدر عين ماسبق أى فآخران على معنى شهادة بينكم شهادة آخرين أو فأن يشهد آخران على الوجوه المذكورة ثمة وقوله تعالى ﴿تحبسونهما﴾ استئناف وقع جوابا عما نشأ من اشتراط العدالة كأنه قيل فكيف نصنع ان ارتبنا بالشاهدين فقيل تحبسونهما أى تقفونهما وتصبرونهما للتحليف ﴿من بعد الصلوة﴾ وقيل هو صفة لآخران والشرط بجوابه المحذوف اعتراض فائدته الدلالة على أن اللائق اشهاد الأقارب أو أهل الاسلام وأما اشهاد الآخرين فعند الضرورة الملجئة اليه وأنت خبير بأنه يقتضى اختصاص الحبس بالآخرين مع شموله للأولين أيضا قطعا على أن اعتبار اتصافهما بذلك يأباه مقام الأمر باشهادهما اذ مآله فآخران شأنهما الحبس والتحليف وان أمكن اتمام التقريب باعتبار قيد الارتياب بهما كما يفيده الاعتراض الآتى والمراد بالصلاة صلاة العصر وعدم تعيينها لتعينها عندهم بالتحليف بعدها لأنه وقت اجتماع الناس ووقت تصادم ملائكة الليل وملائكة النهار ولأن جميع أهل الأديان يعظمونه ويجتنبون فيه الحلف الكاذب وقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام وقتئذ حلف من حلف كما سيأتى وقيل بعد أى صلاة كانت لانها داعية الى النطق بالصدق وناهية عن الكذب والزور ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿فيقسمان بالله﴾ عطف على تحبسونهما وقوله تعالى ﴿ان ارتبتم﴾ شرطية محذوفة الجواب لدلالة ماسبق من الحبس والاقسام عليه سيقت من جهته تعالى معترضة بين القسم وجوابه للتنبيه على اختصاص الحبس والتحليف بحال الارتياب أى ان ارتاب بهما الوارث منكم بخيانة وأخذ شئ من التركة فاحبسوهما وحلفوهما بالله وقوله تعالى ﴿لانشترى به ثمنا﴾ جواب للقسم وليس هذا من قبيل مااجتمع فيه قسم وشرط فاكتفى بذكر جواب سابقهما

عن جواب الآخر كما هو الواقع غالبا فان ذلك انما يكون عند سد جواب السابق مسد جواب اللاحق لاتحاد مضمونهما كما فى قولك والله ان أتيتنى لأكرمنك ولاريب فى استحالة ذلك ههنا لأن القسم وجوابه كلاهما وقد عرفت أن الشرط من جهته تعالى والاشتراء هو استبدال السلعة بالثمن أى أخذها بدلا منه لابذله لتحصيلها كما قيل وان كان مستلزما له فان المعتبر فى عقد الشراء ومفهومه هو الجلب دون السلب المعتبر فى عقد البيع ثم استعير لأخذ شىء بازالة ماعنده عينا كان أومعنى على وجه الرغبة فى المأخوذ والاعراض عن الزائل كما هو المعتبر فى المستعار منه حسبما مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والضمير فى به لله والمعنى لانأخذ لانفسنا بدلا من الله أى من حرمته عرضا من الدنيا بأن نهتكها ونزيلها بالحلف الكاذب أى لانحلف بالله كاذبين لأجل المال وقيل الضمير للقسم فلا بد من تقدير مضاف البتة أى لانستبدل بصحة القسم بالله أى لانأخذ لانفسنا بدلا منها عرضا من الدنيا بأن نزيل عنه وصف الصدق ونصفه بالكذب أى لانحلف كاذبين كما ذكر والافلا سداد للمعنى سواء أريد به القسم الصادق أو الكاذب أما ان أريد به الكاذب فلأنه يفوت حينئذ ماهو المعتبر فى الاستعارة من كون الزائل شيئا مرغوبا فيه عند الحالف كحرمة اسم الله تعالى ووصف الصحة والصدق فى القسم ولاريب فى أن القسم الكاذب ليس كذلك وأما ان أريد به الصادق فلأنه وان أمكن أن يتوسل باستعماله الى عرض الدنيا كالقسم الكاذب لكن لامحذور فيه وأما التوسل اليه بترك استعماله فلا امكان له ههنا حتى يصح التبرؤ منه وانما يتوسل اليه باستعمال القسم الكاذب وليس استعماله من لوازم ترك استعمال الصادق ضرورة جواز تركهما معا حتى يتصور جعل ماأخذ باستعماله مأخوذا بترك استعمال الصادق كما فى صورة تقدير المضاف فان ازالة وصف الصدق عن القسم مع بقاء الموصوف مستلزمة لثبوت وصف الكذب له البتة فتأمل وقوله تعالى ﴿ولو كان﴾ أى المقسم له المدلول عليه بفحوى الكلام ﴿ذاقربى﴾ أى قريبا منا تأكيد لتبرئهم من الحلف كاذبا ومبالغة فى التنزه عنه كأنهما قالا لانأخذ لأنفسنا بدلا من حرمة اسمه تعالى مالاولو انضم اليه رعاية جانب الاقرباء فكيف اذا لم يكن كذلك وصيانة أنفسهما وان كانت أهم من رعاية الاقرباء لكنها ليست ضميمة للمال بل هى راجعة اليه وجواب لو محذوف ثقة بدلالة ماسبق عليه أى لانشترى به ثمنا والجملة معطوفة على أخرى مثلها كما فصل فى تفسير قوله تعالى ولو أعجبك الخ وقوله عزوجل ﴿ولانكتم شهادة الله﴾ أى الشهادة التى أمرنا الله تعالى باقامتها معطوف على لانشترى به داخل معه فى حكم القسم وعن الشعبى أنه وقف على شهادة ثم ابتدأ آلله بالمد على حذف حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه وبغير مد كقولهم الله لأفعلن ﴿انا اذا لمن الآثمين﴾ أى ان كتمناها وقرىء لملاثمين بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وادغام النون فيها ﴿فان عثر﴾ أى اطلع بعد التحليف ﴿على أنهما استحقا اثما﴾ حسبما اعترفا به بقولهما انا اذا لمن الآثمين أى فعلا مايوجب اثما من تحريف وكتم بأن ظهر بأيديهما شىء من التركة وادعيا استحقاقهما له بوجه من الوجوه كما وقع فى سبب النزول حسبما سيأتى ﴿فآخران﴾ أى رجلان آخران وهو مبتدأ خبره ﴿يقومان مقامهما﴾ ولامحذور فى الفصل بالخبر بين المبتدا وبين وصفه الذى هو الجار والمجرور بعده أى يقومان مقام اللذين عثر على خيانتهما وليس المراد بمقامهما مقام أداء الشهادة التى توليا ولم يؤدياها كماهى بل هو مقام الحبس والتحليف على الوجه المذكور لاظهار الحق وابراز كذبهما فيما ادعيا من استحقاقهما لما فى أيديهما ﴿من الذين استحق﴾ على البناء للفاعل على قراءة على وابن عباس وأبى رضى الله عنهم أى من أهل الميت الذين استحق ﴿عليهم الأوليان﴾ من بينهم أى الأقربان الى الميت الوارثان له الأحقان بالشهادة أى باليمين كما ستعرفه ومفعول استحق محذوف أى استحقا عليهم أن يجردوهما للقيام بها لانها حقهما ويظهروا بهما كذب الكاذبين وهما فى الحقيقة الآخران القائمان مقام الأولين على وضع

المظهر مقام المضمر وقرئ على البناء للمفعول وهو الاظهر أى من الذين استحق عليهم الاثم أى جنى عليهم وهم أهل الميت وعشيرته فالأوليان مرفوع على أنه خبر لمبتدا محذوف كأنه قيل ومن هما فقيل الأوليان أو هو بدل من الضمير فى يقومان أو من آخران وقد جوز ارتفاعه باستحق على حذف المضاف أى استحق عليهم انتداب الاولين منهم للشهادة وقرئ الاولين على أنه صفة للذين الخ مجرور أو منصوب على المدح ومعنى الأولية التقدم على الاجانب فى الشهادة لكونهم أحق بها وقرئ الاولين على التثنية وانتصابه على المدح وقرئ الأولان ﴿فيقسمان بالله﴾ عطف على يقومان ﴿لشهادتنا﴾ المراد بالشهادة اليمين كما فى قوله تعالى فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله أى ليميننا على أنهما كاذبان فيما ادعيا من الاستحقاق مع كونها حقة صادقة فى نفسها ﴿أحق﴾ بالقبول ﴿من شهادتهما﴾ أى من يمينهما مع كونها كاذبة فى نفسها لما أنه قد ظهر للناس استحقاقهما للاثم ويميننا منزهة عن الريب والريبة فصيغة التفضيل مع أنه لا حقية فى يمينهما رأسا انما هى لامكان قبولها فى الجملة باعتبار احتمال صدقهما فى ادعاء تملكهما لما ظهر فى أيديهما ﴿وما اعتدينا﴾ عطف على جواب القسم أى ما تجاوزنا فيها الحق أو ما اعتدينا عليهما بابطال حقهما ﴿انا اذا لمن الظالمين﴾ استئناف مقرر لما قبله أى انا ان اعتدينا فى يميننا لمن الظالمين أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعذابه بسبب هتك حرمة اسم الله تعالى أو لمن الواضعين الحق فى غير موضعه ومعنى النظم الكريم أن المحتضر ينبغى أن يشهد على وصيته عدلين من ذوى نسبه أو دينه فان لم يجدهما بأن كان فى سفر فآخران من غيرهم ثم ان وقع ارتياب بهما أقسما على أنهما ما كتما من الشهادة ولا من التركة شيئا بالتغليظ فى الوقت فان اطلع بعد ذلك على كذبهما بأن ظهر بأيديهما شئ من التركة وادعيا تملكه من جهة الميت حلف الورثة وعمل بأيمانهم ولعل تخصيص الاثنين لخصوص الواقعة فانه روى أن تميم بن أوس الدارى وعدى ابن يزيد خرجا الى الشأم للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل بن أبى مريم مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً مهاجراً فلما قدموا الشأم مرض بديل فكتب كتابا فيه جميع ما معه وطرحه فى متاعه ولم يخبرهما بذلك وأوصى اليهما بأن يدفعا متاعه الى أهله ومات ففتشاه فوجدا فيه اناء من فضة وزنه ثلثمائة مثقال منقوشا بالذهب فغيباه ودفعا المتاع الى أهله فأصابوا فيه الكتاب فطلبوا منهما الاناء فقالا ما ندرى انما أوصى الينا بشئ وأمرنا أن ندفعه اليكم ففعلنا وما لنا بالاناء من علم فرفعوهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل يا أيها الذين آمنوا الآية فاستحلفهما بعد صلاة العصر عند المنبر بالله الذى لا اله الا هو أنهما لم يختانا شيأ مما دفع ولا كتما فحلفا على ذلك فخلى عليه الصلاة والسلام سبيلهما ثم ان الاناء وجد بمكة فقال من بيده اشتريته من تميم وعدى وقيل لما طالت المدة أظهراه فبلغ ذلك بنى سهم فطلبوه منهما فقالا كنا اشتريناه من بديل فقالوا ألم نقل لكما هل باع صاحبنا من متاعه شيأ فقلتما لا قالا ما كان لنا بينة فكرهنا أن نقر به فرفعوهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قوله عز وجل فان عثر الآية فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبى وداعة السهميان فحلفا بالله بعد العصر أنهما كذبا وخانا فدفع الاناء اليهما وفى رواية الى أولياء الميت واعلم أنهما ان كانا وارثين لبديل فلا نسخ الا فى وصف اليمين فان الوارث لا يحلف على البتات والا فهو منسوخ ﴿ذلك﴾ كلام مستأنف سيق لبيان أن ما ذكر مستتبع للمنافع وارد على مقتضى الحكمة والمصلحة أى الحكم الذى تقدم تفصيله ﴿أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ أى أقرب الى أن يؤدى الشهود الشهادة على وجهها الذى تحملوها عليه من غير تحريف ولا خيانة خوفا من العذاب الأخروى وهذه كما ترى حكمة شرعية التحليف بالتغليظ المذكور وقوله تعالى ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ بيان لحكمة شرعية رد اليمين على الورثة معطوف على مقدر ينبئ عنه المقام كأنه قيل ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة أو يخافوا الافتضاح

على رؤس الاشهاد بابطال أيمانهم والعمل بأيمان الورثة فينزجروا عن الخيانة المؤدية اليه فأى الخوفين وقع حصل المقصد الذى هو الاتيان بالشهادة على وجهها وقيل هو عطف على يأتوا على معنى أن ذلك أقرب الى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو الى أن يخافوا الافتضاح برد اليمين على الورثة فلا يحلفوا على موجب شهادتهم ان لم يأتوا بها على وجهها فيظهر كذبهم بنكولهم وأما ماقيل من أن المعنى ان ذلك أقرب الى أحد الأمرين اللذين أيهما وقع كان فيه الصلاح أداء الشهادة على الصدق والامتناع عن أدائها على الكذب فيأباه المقام اذ لاتعلق له بالحادثة أصلا ضرورة أن الشاهد مضطر فيها الى الجواب فالامتناع عن الشهادة الكاذبة مستلزم للاتيان بالصادقة قطعا فليس هناك أمران أيهما وقع كان فيه الصلاح حتى يتوسط بينهما كلمة أو وانما يتأتى ذلك فى شهود لم يتهموا بخيانة على أن اضافة الامتناع عن الشهادة الكاذبة الى خوف رد اليمين على الورثة ونسبة الاتيان بالصادقة الى غيره مع أن مايقتضى أحدهما يقتضى الآخر لامحالة تحكم بحت فتأمل ﴿واتقوا الله﴾ فى مخالفة أحكامه التى من جملتها هذا الحكم ﴿واسمعوا﴾ ماتؤمرون به كائنا ما كان سمع طاعة وقبول ﴿والله لايهدى القوم الفاسقين﴾ الخارجين عن الطاعة أى فان لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم فاسقين والله لايهدى القوم الفاسقين أى الى طريق الجنة أو الى مافيه نفعهم ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ نصب على أنه بدل اشتمال من مفعول اتقوا لما بينهما من الملابسة فان مدار البدلية ليس ملابسة الظرفية والمظروفية ونحوها فقط بل هو تعلق ما مصحح لانتقال الذهن من المبدل منه الى البدل بوجه اجمالى كما فيما نحن فيه فان كونه تعالى خالق الأشياء كافة مالك يوم الدين خاصة كاف فى الباب مع أن الأمر بتقوى الله تعالى يتبادر منه الى الذهن أن المتقى أى شأن من شئونه وأى فعل من أفعاله وقيل هناك مضاف محذوف به يتحقق الاشتمال أى اتقوا عقاب الله فحينئذ يجوز انتصابه منه بطريق الظرفية وقيل منصوب بمضمر معطوف على اتقوا وما عطف عليه أى واحذروا أو اذكروا يوم الخ فان تذكير ذلك اليوم الهائل مما يضطرهم الى تقوى الله عز وجل وتلقى أمره بسمع الاجابة والطاعة وقيل هو ظرف لقوله تعالى لايهدى أى لايهديهم يومئذ الى طريق الجنة كما يهدى اليه المؤمنين وقيل منصوب بقوله تعالى واسمعوا بحذف مضاف أى اسمعوا خبر ذلك اليوم وقيل منصوب بفعل مؤخر قد حذف للدلالة على ضيق العبارة عن شرحه وبيانه لكمال فظاعة مايقع فيه من الطامة التامة والدواهى العامة كأنه قيل يوم يجمع الله الرسل فيقول الخ يكون من الاحوال والاهوال مالا يفى ببيانه نطاق المقال واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتربية المهابة وتشديد التهويل وتخصيص الرسل بالذكر ليس لاختصاص الجمع بهم دون الامم كيف لا وذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وقد قال الله تعالى يوم ندعو كل أناس بامامهم بل لابانة شرفهم وأصالتهم والايذان بعدم الحاجة الى التصريح بجمع غيرهم بناء على ظهور كونهم أتباعا لهم ولاظهار سقوط منزلتهم وعدم لياقتهم بالانتظام فى سلك جمع الرسل كيف لاوهم عليهم السلام يجمعون على وجه الاجلال وأولئك يسحبون على وجوههم بالاغلال ﴿فيقول﴾ لهم مشيرا الى خروجهم عن عهدة الرسالة كما ينبغى حسبما يعرب عنه تخصيص السؤال بجواب الامم اعرابا واضحا والا لصدر الخطاب بأن يقال هل بلغتم رسالاتى وماذا فى قوله عز وجل ﴿ماذا أجبتم﴾ عبارة عن مصدر الفعل فهو نصب على المصدرية أى أى اجابة أجبتم من جهة أممكم اجابة قبول أو اجابة رد وقيل عبارة عن الجواب فهو فى محل النصب بعد حذف الجار عنه أى بأى جواب أجبتم وعلى التقديرين ففى توجيه السؤال عما صدر عنهم وهم شهود الى الرسل عليهم السلام كسؤال الموءودة بمحضر من الوائد والعدول عن اسناد الجواب اليهم بأن يقال ماذا أجابوا من الانباء عن كمال تحقير شأنهم وشدة الغيظ والسخط عليهم مالا يخفى ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا يقول الرسل عليهم السلام هنالك فقيل يقولون ﴿لاعلم لنا﴾ وصيغة الماضى

للدلالة على التقرر والتحقق كما فى قوله تعالى ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب الاعراف ونظائرهما وانما يقولون ذلك تفويضا للامر الى علمه تعالى واحاطته بما اعتراهم من جهتهم من مقاساة الاهوال ومعاناة الهموم والاوجال وعرضا لعجزهم عن بيانه لكثرته وفظاعته ﴿انك أنت علام الغيوب﴾ تعليل لذلك أى فتعلم ما أجابوا وأظهروا لنا وما لم نعلمه مما أضمروه فى قلوبهم وفيه اظهار للشكاة ورد للامر الى علمه تعالى بما لقوا من قبلهم من الخطوب وكابدوا من الكروب والتجاء الى ربهم فى الانتقام منهم وقيل المعنى لاعلم لنا بما أحدثوا بعدنا وانما الحكم للخاتمة ورد ذلك بأنهم يعرفونهم بسيماهم فكيف يخفى عليهم أمرهم وأنت خبير بأن مرادهم حينئذ أن بعضهم كانوا فى زمانهم على الحق ثم صاروا كفرة وعن ابن عباس ومجاهد والسدى رضى الله عنهم أنهم يفزعون من أول الامر ويذهلون عن الجواب ثم يجيبون بعدما ثابت اليهم عقولهم بالشهادة على أممهم ولا يلائمه التعليل المذكور وقيل المراد به المبالغة فى تحقيق فضيحتهم وقرئ علام الغيوب بالنصب على النداء أو الاختصاص بالمدح على أن الكلام قد تم عند قوله تعالى أنت أى انك أنت المنعوت بنعوت كمالك المعروف بذلك ﴿اذ قال الله ياعيسى ابن مريم﴾ شروع فى بيان ماجرى بينه تعالى وبين واحد من الرسل المجموعين من المفاوضة على التفصيل اثر بيان ماجرى بينه تعالى وبين الكل على وجه الاجمال ليكون ذلك كالانموذج لتفاصيل أحوال الباقين وتخصيص شأن عيسى عليه السلام بالبيان تفصيلا من بين شئون سائر الرسل عليهم السلام مع دلالتها على كمال هول ذلك اليوم ونهاية سوء حال المكذبين بالرسل لما أن شأنه عليه السلام متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نعيت عليهم فى السورة الكريمة جناياتهم فتفصيله أعظم عليهم وأجلب لحسرتهم وندامتهم وأفت فى أعضادهم وأدخل فى صرفهم عن غيهم وعنادهم واذ بدل من يوم يجمع الله الخ وصيغة الماضى لما ذكر من الدلالة على تحقق الوقوع واظهار الاسم الجليل فى مقام الاضمار لما مر من المبالغة فى التهويل وكلمة على فى قوله تعالى ﴿اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك﴾ متعلقة بنفس النعمة ان جعلت مصدرا أى اذكر انعامى عليكما أو بمحذوف هو حال منها ان جعلت اسما أى اذكر نعمتى كائنة عليكما وليس المراد بامره عليه السلام يومئذ بذكر النعمة المنتظمة فى سلك التعديد تكليفه عليه السلام شكرها والقيام بمواجبها ولات حين تكليف مع خروجه عليه السلام عن عهدة الشكر فى أوانه أى خروج بل اظهار أمره عليه السلام بتعداد تلك النعم حسبما بينه الله تعالى اعتدادا بها وتلذذا بذكرها على رؤس الاشهاد لتكون حكاية ذلك على ما أنبأ عنه النظم الكريم توبيخا ومزجرة للكفرة المختلفين فى شأنه عليه السلام افراطا وتفريطا وابطالا لقولهما جميعا ﴿اذ أيدتك﴾ ظرف لنعمتى أى اذكر انعامى عليكما وقت تأييدى لك أو حال منها أى اذكرها كائنة وقت تأييدى لك وقرئ آيدتك والمعنى واحد أى قويتك ﴿بروح القدس﴾ بجبريل عليه السلام لتثبيت الحجة أو بالكلام الذى يحيى به الدين واضافته الى القدس لانه سبب الطهر عن أوضار الآثام أو يحيى به الموتى أو النفوس حياة أبدية وقيل الأرواح مختلفة الحقائق فمنها طاهرة نورانية ومنها خبيثة ظلمانية ومنها مشرقة ومنها كدرة ومنها حرة ومنها نذلة وكان روحه عليه السلام طاهرة مشرقة نورانية علوية وأياما كان فهو نعمة عليهما ﴿تكلم الناس فى المهد وكهلا﴾ استئناف مبين لتأييده عليه السلام أو حال من الكاف وذكر تكليمه عليه السلام فى حال الكهولة لبيان أن كلامه عليه السلام فى تينك الحالتين كان على نسق واحد بديع صادرا عن كمال العقل مقارنا لرزانة الرأى والتدبير وبه استدل على أنه عليه السلام سينزل من السماء لما أنه عليه السلام رفع قبل التكهل قال ابن عباس رضى الله عنهما أرسله الله تعالى وهو ابن ثلاثين سنة ومكث فى رسالته ثلاثين شهرا ثم رفعه الله تعالى اليه ﴿واذ علمتك الكتاب﴾ عطف على قوله تعالى اذ أيدتك منصوب بما نصبه أى اذكر نعمتى عليكما وقت تعليمى

لك الكتاب ﴿والحكمة﴾ أى جنسهما ﴿والتوراة والانجيل﴾ خصا بالذكر مما تناوله الكتاب والحكمة اظهاراً لشرفهما وقيل الخط والحكمة الكلام المحكم الصواب ﴿واذ تخلق من الطين كهيئة الطير﴾ أى تصور منه هيئة مماثلة لهيئة الطير ﴿باذنى﴾ بتسهيلى وتيسيرى لا على أن يكون الخلق صادرا عنه عليه السلام حقيقة بل على أن يظهر ذلك على يده عليه السلام عند مباشرة الأسباب مع كون الخلق حقيقة لله تعالى كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿فتنفخ فيها﴾ أى فى الهيئة المصورة ﴿فتكون﴾ أى تلك الهيئة ﴿طيرا باذنى﴾ فان اذنه تعالى لو لم يكن عبارة عن تكوينه تعالى للطير بل عن محض تيسيره مع صدور الفعل حقيقة عما أسند اليه لكان هـذا تكونا من جهة الهيئة وتكرير قوله باذنى فى الطير مع كونه شيأ واحـدا للتنبيه على أن كلا من التصوير والنفخ أمر معظم بديع لا يتسنى ولا يترتب عليه شئ الا باذنه تعالى ﴿وتبرئ الأكمه والأبرص باذنى﴾ عطف على تخلق ﴿واذ تخرج الموتى باذنى﴾ عطف على اذ تخلق أعيد فيه اذ لكون اخراج الموتى من قبورهم لاسيما بعد ماصارت رمما معجزة باهرة ونعمة جليلة حقيقة بتذكير وقتها صريحا قيل أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية وتكرير قوله باذنى فى المواضع الأربعة للاعتناء بتحقيق الحق ببيان أن تلك الخوارق ليست من قبل عيسى عليه الصلاة والسلام بل من جهته سبحانه قد أظهرها على يديه معجزة له ونعمة خصها به وأما ذكره فى سورة آل عمران مرتين لما أن ذلك موضع الاخبار وهـذا موضع تعداد النعم ﴿واذ كففت بنى اسرائيل عنك﴾ عطف على اذ تخرج أى منعت اليهود الذين أرادوا بك السوء عن التعرض لك ﴿اذ جئتهم بالبينات﴾ بالمعجزات الواضحة مما ذكر وما لم يذكر كالاخبار بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ونحو ذلك وهو ظرف لكففت لكن لا باعتبار المجئ بها فقط بل باعتبار ما يعقبه من قوله تعالى ﴿فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين﴾ فان قولهم ذلك مما يدل على أنهم قصدوا اغتياله عليه السلام المحوج الى الكف أى كففتهم عنك حين قالوا ذلك عنـد مجيئك اياهم بالبينات وانما وضع موضع ضميرهم الموصول لذمهم بما فى حيز الصلة فكلمة من بيانية وهذا اشارة الى ماجاء به والتذكير لأن اشارتهم الى ما رأوه من نفس المسمى من حيث هو أو من حيث هو سحر لا من حيث هو مسمى بالبينات وقرئ ان هذا الا ساحر مبين فهذا حينئذ اشارة الى عيسى عليه السلام ﴿واذ أوحيت الى الحواريين﴾ عطف على ماقبله من أخواتها الواقعة ظروفا للنعمة التى أمر بذكرها وهى وان كانت فى الحقيقة عين ما يفيده الجمل التى أضيف اليها تلك الظروف من التأييد بروح القدس وتعليم الكتاب والحكمة وسائر الخوارق المعدودة لكنها لمغايرتها لها بعنوان منبئ عن غاية الاحسان أمر بذكرها من تلك الحيثية وجعلت عاملة فى تلك الظروف لكفاية المغايرة الاعتبارية فى تحقيق ما اعتبر فى مدلول كلمة اذ من تعدد النسبة فانه ظرف موضوع لزمان نسبتين ماضيتين واقعتين فيه احداهما معلومة الوقوع فيه للمخاطب دون الأخرى فيراد افادة وقوعها أيضا له فيضاف الى الجملة المفيدة للنسبة الأولى ويجعل ظرفا معمولا للنسبة الثانية ثم قد تكون المغايرة بين النسبتين بالذات كما فى قولك اذكر احسانى اليك اذ أحسنت الى تريد تنبيه المخاطب على وقوع احسانك اليه وقت وقوع احسانه اليك وهما نسبتان متغايرتان بالذات وقد تكون بالاعتبار كما فى قولك اذكر احسانى اليك اذ منعتك من المعصية تريد تنبيهه على كون منعه منها احسانا اليه لا على احسان آخر واقع حينئذ ومن هذا القبيل عامة ماوقع فى التنزيل من قوله تعالى ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا الآية وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم الى غير ذلك من النظائر ومعنى ايحائه تعالى اليهم أمره تعالى اياهم فى الانجيل على لسانه عليه السلام وقيل الهامه تعالى اياهم كما فى قوله تعالى وأوحينا الى أم موسى وأن فى قوله تعالى ﴿أن آمنوا بى وبرسولى﴾ مفسرة لما فى الايحاء من معنى القول وقيل مصدرية وايراده

عليه السلام بعنوان الرسالة للتنبيه على كيفية الايمان به عليه السلام كأنه قيل آمنوا بوحدانيتي في الألوهية والربوبية وبرسالة رسولي ولا تزيلوه عن حيزه حطا ولا رفعا وقوله تعالى ﴿قالوا﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا قالوا حين أوحى اليهم ذلك فقيل قالوا ﴿آمنا﴾ أي بما ذكر من وحدانيته تعالى وبرسالة رسوله كما يؤذن به قولهم ﴿واشهد بأننا مسلمون﴾ أي مخلصون في ايماننا من أسلم وجهه لله وهذا القول منهم بمقتضى وحيه تعالى وأمره لهم بذلك نعمة جليلة كسائر النعم الفائضة عليه عليه الصلاة والسلام وكل ذلك نعمة على والدته أيضا. روى أنه عليه السلام لما علم أنه سيؤمر بذكر هاتيك النعم العظام جعل يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يدخر شيأ لغد يقول لكل يوم رزقه لم يكن له بيت فيخرب ولا ولد فيموت أينما أمسى بات ﴿اذ قال الحواريون﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ماجرى بينه عليه السلام وبين قومه منقطع عما قبله كما ينبئ عنه الاظهار في موقع الاضمار واذ منصوب بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام بطريق تلوين الخطاب والالتفات لكن لا لأن الخطاب السابق لعيسى عليه السلام فانه ليس بخطاب وانما هو حكاية خطاب بل لأن الخطاب لمن خوطب بقوله تعالى واتقوا الله الآية فتأمل كأنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم عقيب حكاية ماصدر عن الحواريين من المقالة المعدودة من نعم الله تعالى الفائضة على عيسى عليه السلام اذكر للناس وقت قولهم الخ وقيل هو ظرف لقالوا أريد به التنبيه على أن ادعاءهم الايمان والاخلاص لم يكن عن تحقيق وايقان ولا يساعده النظم الكريم ﴿ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ اختلف في أنهم هل كانوا مؤمنين أولا فقيل كانوا كافرين شاكين في قدرة الله تعالى على ماذكروا وفي صدق عيسى عليه السلام كاذبين في دعوى الايمان والاخلاص وقيل كانوا مؤمنين وسؤالهم للاطمئنان والتثبت لا لازاحة الشك وهل يستطيع سؤال عن الفعل دون القدرة عليه تعبيرا عنه بلازمه وقيل الاستطاعة على ماتقتضيه الحكمة والارادة لا على ماتقتضيه القدرة وقيل المعنى هل يطيع ربك بمعنى هل يجيبك واستطاع بمعنى أطاع كاستجاب بمعنى أجاب وقرئ هل تستطيع ربك أي سؤال ربك والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عنه وهي قراءة علي وعائشة وابن عباس ومعاذ رضي الله عنهم وسعيد بن جبير في آخرين والمائدة الخوان الذي عليه الطعام من ماده اذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدم اليه ونظيره قولهم شجرة مطعمة وقال أبو عبيد هي فاعلة بمعنى مفعولة كعيشة راضية ﴿قال﴾ استئناف مبني على سؤال ناشئ مما قبله كأنه قيل فماذا قال لهم عيسى عليه السلام حين قالوا ذلك فقيل قال ﴿اتقوا الله﴾ أي من أمثال هذا السؤال ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ أي بكمال قدرته تعالى وبصحة نبوتي أو ان صدقتم في ادعاء الايمان والاسلام فان ذلك مما يوجب التقوى والاجتناب عن أمثال هذه الاقتراحات وقيل أمرهم بالتقوى ليصير ذلك ذريعة لحصول المسئول كقوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب وقوله تعالى ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة ﴿قالوا﴾ استئناف كما سبق ﴿نريد أن نأكل منها﴾ تمهيد عذر وبيان لما دعاهم الى السؤال أي لسنا نريد بالسؤال ازاحة شبهتنا في قدرته سبحانه على تنزيلها أو في صحة نبوتك حتى يقدح ذلك في الايمان والتقوى بل نريد أن نأكل منها أي أكل تبرك وقيل أكل حاجة وتمتع ﴿وتطمئن قلوبنا﴾ بكمال قدرته تعالى وان كنا مؤمنين به من قبل فان انضمام علم المشاهدة الى العلم الاستدلالي مما يوجب ازدياد الطمأنينة وقوة اليقين ﴿ونعلم﴾ أي علما يقينيا لايحوم حوله شائبة شبهة أصلا وقرئ ليعلم على البناء للمفعول ﴿أن قد صدقتنا﴾ أن هي المخففة من أن وضمير الشأن محذوف أي ونعلم أنه قد صدقتنا في دعوى النبوة وأن الله يجيب دعوتنا وان كنا عالمين بذلك من قبل ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني أسرائيل ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقينا

ويؤمن بسببها كنمارهم أومن الشاهدين للعين دون السامعين للخبر وعليها متعلق بالشاهدين ان جعل اللام للتعريف وبيان لما يشهدون عليه ان جعلت موصولة كأنه قيل على أى شىء يشهدون فقيل عليها فان ما يتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول أو هو حال من اسم كان أو هو متعلق بمحذوف يفسره من الشاهدين ﴿قال عيسى ابن مريم﴾ لما رأى عليه السلام أن لهم غرضا صحيحا فى ذلك وأنهم لا يقلعون عنه أزمع على استدعائها واستنزالها وأراد أن يلزمهم الحجة بكمالها. روى أنه عليه الصلاة والسلام اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين فطأطأ رأسه وغض بصره ثم قال ﴿اللهم ربنا﴾ ناداه سبحانه وتعالى مرتين مرة بوصف الالوهية الجامعة لجميع الكمالات ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية اظهارا لغاية التضرع ومبالغة فى الاستدعاء ﴿أنزل علينا﴾ تقديم الظرف على قوله ﴿مائدة﴾ لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقوله ﴿من السماء﴾ متعلق بأنزل أو بمحذوف هو صفة لمائدة أى كائنة من السماء نازلة منها وقوله ﴿تكون لنا عيدا﴾ فى محل النصب على أنه صفة لمائدة واسم تكون ضمير المائدة وخبرها اما عيدا ولنا حال منه أو من ضمير تكون عند من يجوز اعمالها فى الحال واما لنا وعيدا حال من الضمير فى لنا لأنه وقع خبرا فيحمل ضميرا أو من ضمير تكون عند من يرى ذلك أى يكون يوم نزولها عيداً نعظمه وانما أسند ذلك الى المائدة لأن شرف اليوم مستعار من شرفها وقيل العيد السرور العائد ولذلك سمى يوم العيد عيدا وقرىء تكن بالجزم على جواب الأمر كما فى قوله تعالى فهب لى من لدنك وليا يرثنى خلا أن قراءة الجزم هناك متواترة وههنا من الشواذ ﴿لأولنا وآخرنا﴾ بدل من لنا باعادة العامل أى عيدا لمتقدمينا ومتأخرينا. روى أنها نزلت يوم الاحد ولذلك اتخذه النصارى عيدا وقيل للرؤساء منا والأتباع وقيل يأكل منها أولنا وآخرنا وقرىء لأولانا وأخرانا بمعنى الأمة والطائفة ﴿وآية﴾ عطف على عيدا ﴿منك﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لآية أى كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتى ﴿وارزقنا﴾ أى المائدة أو الشكر عليها ﴿وأنت خير الرازقين﴾ تذييل جار مجرى التعليل أى خير من يرزق لأنه خالق الارزاق ومعطيها بلا عوض وفى اقباله عليه السلام على الدعاء بتكرير النداء المنبىء عن كمال الضراعة والابتهال وزيادته مالم يخطر ببال السائلين من الامور الداعية الى الاجابة والقبول دلالة واضحة على أنهم كانوا مؤمنين وأن سؤالهم كان لتحصيل الطمأنينة كما فى قول ابراهيم عليه السلام رب أرنى كيف تحيى الموتى والا لما قبل اعتذارهم بما ذكروه ولما أضاف اليه من عنده ما يؤكده ويقربه الى القبول ﴿قال الله﴾ استئناف كما سبق ﴿انى منزلها عليكم﴾ وورود الاجابة منه تعالى بصيغة التفعيل المنبئة عن التكثير مع كون الدعاء منه عليه السلام بصيغة الافعال لاظهار كمال اللطف والاحسان كما فى قوله تعالى قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب الخ بعد قوله تعالى لئن أنجانا من هذه الخ مع ما فيه من مراعاة ما وقع فى عبارة السائلين وفى تصدير الجملة بكلمة التحقيق وجعل خبرها اسما تحقيق للوعد وايذان بأنه تعالى منجز له لامحالة من غير صارف يثنيه ولا مانع يلويه واشعار بالاستمرار أى انى منزل المائدة عليكم مرات كثيرة وقرىء بالتخفيف وقيل الانزال والتنزيل بمعنى واحد ﴿فمن يكفر بعد﴾ أى بعد تنزيلها ﴿منكم﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يكفر ﴿فانى أعذبه﴾ بسبب كفره بعد معاينة هذه الآية الباهرة ﴿عذابا﴾ اسم مصدر بمعنى التعذيب وقيل مصدر بحذف الزوائد وانتصابه على المصدرية بالتقديرين المذكورين وجوز أن يكون مفعولا به على الاتساع وقوله تعالى ﴿لا أعذبه﴾ فى محل النصب على أنه صفة لعذابا والضمير له أى أعذبه تعذيبا لا أعذب مثل ذلك التعذيب ﴿أحدا من العالمين﴾ أى من عالمى زمانهم أو من العالمين جميعا قيل لما سمعوا هذا الوعيد الشديد خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا وقالوا لا نريدها فلم تنزل وبه قال مجاهد والحسن رحمهما الله والصحيح الذى عليه جماهير الامة ومشاهير الأئمة أنها قد

نزلت . روى أنه عليه السلام لما دعا بما دعا وأجيب بما اجيب اذا بسفرة حمراء نزلت بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون اليها حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال اللهم اجعلنى من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة للعالمين ولا تجعلها مثلة وعقوبة ثم قام وتوضأ وصلى و بكى ثم كشف المنديل وقال بسم الله خير الرازقين فاذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسما وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ماخلا الكراث واذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثانى عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون رأس الحواريين يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة قال ليس منهما ولكنه شئ اخترعه الله تعالى بالقدرة العالية كلوا ماسألتم واشكروا يمددكم الله و يزدكم من فضله فقالوا يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال ياسمكة احيي باذن الله فاضطربت ثم قال لها عودى كما كنت فعادت مشوية ثم طارت المائدة ثم عصوا فمسخوا قردة وخنازير وقيل كانت تأتيهم أربعين يوما غبا يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون حتى اذا فاء الفئ طارت وهم ينظرون فى ظلها ولم يأكل منها فقير الاغنى مدة عمره و لامريض الابرئ ولم يمرض أبدا ثم أوحى الله تعالى الى عيسى عليه الصلاة والسلام أن اجعل مائدتى فى الفقراء والمرضى دون الأغنياء والاصحاء فاضطرب الناس لذلك فمسخ منهم من مسخ فأصبحوا خنازير يسعون فى الطرقات والكناسات و يأكلون العذرة فى الحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا الى عيسى عليه السلام و بكوا على الممسوخين فلما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل يدعوهم بأسمائهم واحدا بعد واحد فيبكون و يشيرون بروسهم و لايقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا و روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عيسى عليه السلام قال لهم صوموا ثلاثين يوما ثم سلوا الله ماشئتم يعطكم فصاموا فلما فرغوا قالوا انا لو عملنا لاحد فقضينا عمله لأطعمنا وسألوا الله تعالى المائدة فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم قال كعب نزلت منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل الطعام الا اللحم وقال قتادة كان عليها ثمر من ثمار الجنة وقال عطية العوفى نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شئ وقال الكلبى ومقاتل نزلت سمكة وخمسة أرغفة فأكلوا ماشاء الله تعالى والناس ألف ونيف فلما رجعوا الى قراهم ونشروا الحديث ضحك منهم من لم يشهد وقالوا ويحكم انما سحر أعينكم فمن أراد الله به الخير ثبته على بصيرة ومن أراد فتنته رجع الى كفره فمسخوا خنازير فمكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا وكذلك كل ممسوخ ﴿واذ قال الله ياعيسى ابن مريم﴾ معطوف على اذ قال الحواريون منصوب بما نصبه من المضمر المخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم أو بمضمر مستقل معطوف على ذلك أى اذكر للناس وقت قول الله عز وجل له عليه السلام فى الآخرة توبيخا للكفرة وتبكيتا لهم بأقراره عليه السلام على رؤس الاشهاد بالعبودية وأمره لهم بعبادته عز وجل وصيغة الماضى لما مر من الدلالة على التحقق والوقوع ﴿أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين﴾ الاتخاذ اما متعد الى مفعولين فالهين ثانيهما واما الى واحد فهو حال من المفعول وليس مدار أصل الكلام أن القول متيقن والاستفهام لتعيين القائل كما هو المتبادر من ايلاء الهمزة المبتدأ على الاستعمال الفاشى وعليه قوله تعالى أأنت فعلت هذا بآلهتنا ونظائره بل على أن المتيقن هو الاتخاذ والاستفهام لتعيين أنه بأمره عليه السلام أو من تلقاء أنفسهم كما فى قوله تعالى أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل وقوله تعالى ﴿من دون الله﴾ متعلق بالاتخاذ ومحله النصب على أنه حال من فاعله أى متجاوزين الله أو بمحذوف هو صفة لالهين أى كائنين من دونه تعالى وأياما كان فالمراد اتخاذهما بطريق اشراكهما به سبحانه كما فى قوله تعالى ومن الناس

من يتخذ من دون الله أندادا وقوله عزوجل و يعبدون من دون الله مالا يضرهم و لا ينفعهم و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله الى قوله سبحانه وتعالى عما يشركون اذبه يتأتى التوبيخ ويتسنى التقريع والتبكيت ومن توهم أن ذلك بطريق الاستقلال ثم اعتذر عنه بأن النصارى يعتقدون أن المعجزات التى ظهرت على يد عيسى ومريم عليهما الصلاة والسلام لم يخلقها الله تعالى بل هما خلقاها فصح أنهم اتخذوهما فى حق بعض الأشياء الهين مستقلين ولم يتخذوه تعالى الها فى حق ذلك البعض فقد أبعد عن الحق بمراحل وأما من تعمق فقال ان عبادته تعالى مع عبادة غيره كلا عبادة فمن عبده تعالى مع عبادتهما كأنه عبدهما ولم يعبده تعالى فقد غفل عما يجديه واشتغل بما لا يعنيه كدأب من قبله فان توبيخهم انما يحصل بما يعتقدونه و يعترفون به صريحا لا بما يلزمه بضرب من التأويل واظهار الاسم الجليل لكونه فى حيز القول المسند الى عيسى عليه السلام ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل فماذا يقول عيسى عليه السلام حينئذ فقيل يقول وايثار صيغة الماضى لما مر مرارا ﴿سبحانك﴾ سبحان علم للتسبيح وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه وفيه من المبالغة فى التنزيه من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والابعاد فى الأرض ومن جهة النقل الى صيغة التفعيل ومن جهة العدول من المصدر الى الاسم الموضوع له خاصة المشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة اقامته مقام المصدر مع الفعل مالا يخفى أى أنزهك تنزيها لائقا بك من أن أقول ذلك أو من أن يقال فى حقك ذلك وأما تقدير من أن يكون لك شريك فى الالوهية فلا يساعده سباق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى ﴿ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق﴾ استئناف مقرر للتنزيه ومبين للمنزه منه وما عبارة عن القول المذكور أى ما يستقيم وما ينبغى لى أن أقول قولا لا يحق لى أن أقوله وايثار ليس على الفعل المنفى لظهور دلالته على استمرار انتفاء الحقية وافادة التأكيد بما فى حيزه من الباء فان اسمه ضميره العائد الى ما وخبره بحق والجار والمجرور فيما بينهما للتبيين كما فى سقيا لك ونحوه وقوله تعالى ﴿ان كنت قلته فقد علمته﴾ استئناف مقرر لعدم صدور القول المذكور عنه عليه السلام بالطريق البرهانى فان صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى به قطعا فحيث انتفى علمه تعالى به انتفى صدوره عنه حتما ضرورة أن عدم اللازم مستلزم لعدم الملزوم ﴿تعلم ما فى نفسى﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله كأنه قيل لانك تعلم ما أخفيه فى نفسى فكيف بما أعلنه وقوله تعالى ﴿ولا أعلم ما فى نفسك﴾ بيان للواقع واظهار لقصوره أى ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك وقوله فى نفسك للمشاكلة وقيل المراد بالنفس هو الذات ونسبة المعلومات اليها لما أنها مرجع الصفات التى من جملتها العلم المتعلق بها فلم يكن كنسبتها الى الحقيقة وقوله تعالى ﴿انك أنت علام الغيوب﴾ تعليل لمضمون الجملتين منطوقا ومفهوما وقوله تعالى ﴿ما قلت لهم الا ما أمرتنى به﴾ استئناف مسوق لبيان ما صدر عنه قد أدرج فيه عدم صدور القول المذكور عنه على أبلغ وجه وآكده حيث حكم بانتفاء صدور جميع الأقوال المغايرة للمأمور به فدخل فيه انتفاء صدور القول المذكور دخولا أوليا أى ما أمرتهم الا بما أمرتنى به وانما قيل ما قلت لهم نزولا على قضية حسن الأدب ومراعاة لما ورد فى الاستفهام وقوله تعالى ﴿أن اعبدوا الله ربى وربكم﴾ تفسير للمأمور به وقيل عطف بيان للضمير فى به وقيل بدل منه وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقا ليلزم بقاء الموصول بلا عائد وقيل خبر مضمر أو مفعوله مثل هو أو أعنى ﴿وكنت عليهم شهيدا﴾ رقيبا أراعى أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك وأمنعهم عن المخالفة أو مشاهدا لاحوالهم من كفر وايمان ﴿ما دمت فيهم﴾ ما مصدرية ظرفية تقدر بمصدر مضاف اليه زمان ودمت صلتها أى كنت شهيدا عليهم مدة دوامى فيما بينهم ﴿فلما توفيتنى﴾ بالرفع الى السماء كما فى قوله تعالى انى متوفيك ورافعك الى فان التوفى أخذ الشئ وافيا

والموت نوع منه قال تعالى الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ﴿كنت أنت الرقيب عليهم﴾ لا غيرك فأنت ضمير الفصل أو تأكيد وقرىء الرقيب بالرفع على أنه خبر أنت والجملة خبر لكان وعليهم متعلق به أى أنت كنت الحافظ لأعمالهم والمراقب فمنعت من أردت عصمته عن المخالفة بالارشاد الى الدلائل والتنبيه عليها بارسال الرسل وانزال الآيات وخذلت من خذلت من الضالين فقالوا ماقالوا ﴿وأنت على كل شئ شهيد﴾ اعتراض تذييلى مقرر لما قبله وفيه ايذان بأنه تعالى كان هو الشهيد على الكل حين كونه عليه السلام فيما بينهم وعلى متعلقة بشهيد والتقديم لمراعاة الفاصلة ﴿ان تعذبهم فانهم عبادك﴾ وقد استحقوا ذلك حيث عبدوا غيرك ﴿وان تغفر لهم فانك أنت العزيز﴾ أى القوى القادر على جميع المقدورات ومن جملتها الثواب والعقاب ﴿الحكيم﴾ الذى لا يريد ولا يفعل الا مافيه حكمة ومصلحة فان المغفرة مستحسنة لكل مجرم فان عذبت فعدل وان غفرت ففضل وعدم غفران الشرك انما هو بمقتضى الوعيد فلا امتناع فيه لذاته ليمنع الترديد وقيل الترديد بالنسبة الى فرقتين والمعنى ان تعذبهم أى من كفر منهم وان تغفر لهم أى من آمن منهم ﴿قال الله﴾ كلام مستأنف ختم به حكاية ماحكى مما يقع يوم يجمع الله الرسل عليهم الصلاة والسلام واشير الى نتيجته ومآله أى يقول الله تعالى يومئذ عقيب جواب عيسى عليه السلام مشيرا الى صدقه فى ضمن بيان حال الصادقين الذين هو فى زمرتهم وصيغة الماضى لما مر فى نظائره مرارا وقوله تعالى ﴿هذا﴾ اشارة الى ذلك اليوم وهو مبتدأ خبره مابعده أى هذا اليوم الذى حكى بعض مايقع فيه اجمالا وبعضه تفصيلا ﴿يوم ينفع الصادقين﴾ بالرفع والاضافة والمراد بالصادقين كما ينبىء عنه الاسم المستمرون فى الدارين على الصدق فى الامور الدينية التى معظمها التوحيد الذى نحن بصدده والشرائع والأحكام المتعلقة به من الرسل الناطقين بالحق والصدق الداعين الى ذلك وبه تحصل الشهادة بصدق عيسى عليه السلام ومن الامم المصدقين لهم المقتدين بهم عقدا وعملا وبه يتحقق المقصود بالحكاية من ترغيب السامعين فى الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم لا كل من صدق فى أى شئ كان ضرورة أن الجانى المعترف فى الدنيا بجنايته لا ينفعه يومئذ اعترافه وصدقه ﴿صدقهم﴾ أى صدقهم فيما ذكر من أمور الدين فى الدنيا اذ هو المستتبع للنفع يومئذ واعتبار استمراره فى الدارين مع أنه لا حاجة اليه كما عرفت ولا دخل له فى استتباع النفع والجزاء مما لا وجه له وهذه القراءة هى التى أطبق عليها الجمهور وهى الأليق بسياق النظم الكريم وسياقه وقد قرىء يوم بالنصب اما على أنه ظرف لقال فهذا حينئذ اشارة الى قوله تعالى أأنت قلت الخ واما على أنه خبر لهذا فهو حينئذ اشارة الى جواب عيسى عليه السلام أى هذا الجواب منه عليه السلام واقع يوم ينفع الخ أو الى السؤال والجواب معا وقيل هو خبر ولكنه بنى على الفتح وليس بصحيح عند البصريين لأنه مضاف الى متمكن وقرىء يوم بالرفع والتنوين كقوله تعالى واتقوا يوما لا تجزى الآية ﴿لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا﴾ استئناف مسوق لبيان النفع المذكور كأنه قيل ما لهم من النفع فقيل لهم نعيم دائم وثواب خالد وقوله تعالى ﴿رضى الله عنهم﴾ استئناف آخر لبيان أنه عز وجل أفاض عليهم غير ما ذكر من الجنات ما لا قدر لها عنده وهو رضوانه الذى لا غاية وراءه كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ورضوا عنه﴾ اذ لا شئ أعز منه حتى يمتد اليه أعناق الهمم ﴿ذلك﴾ اشارة الى نيل رضوانه تعالى وقيل الى نيل الكل ﴿الفوز العظيم﴾ لما أن عظم شأن الفوز تابع لعظم شأن المطلوب الذى تعلق به الفوز وقد عرفت أن لا مطلب وراء ذلك أصلا وقوله تعالى ﴿لله ملك السموات والأرض ومافيهن﴾ تحقيق للحق وتنبيه على كذب النصارى وفساد ما زعموا فى حق المسيح وأمه أى له تعالى خاصة ملك السموات والأرض وما فيهما من العقلاء وغيرهم يتصرف فيها كيف يشاء ايجادا واعداما احياء واماتة وأمرا ونهيا من غير أن يكون لشئ من

الأشياء مدخل فى ذلك وفى ايثار ما على من المختصة بالعقلاء على تقدير تناولها للكل مراعاة للاصل واشارة الى تساوى الفريقين فى استحالة الربوبية حسب تساويهما فى تحقق المربوبيـة وعلى تقدير اختصاصها بغير العقلاء تنبيه على كمال قصورهم عن رتبة الألوهية واهانة بهم بتغليب غيرهم عليهم ﴿وهو على كل شئ﴾ من الأشياء ﴿قدير﴾ مبالغ فى القدرة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المائدة أعطى من الأجر عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودى ونصرانى يتنفس فى الدنيا

سـورة الأنعام

مكية غير ست آيات أو ثلاث من قوله تعالى قل تعالوا أتل . وهى مائة وخمس وستون آية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الحمد لله﴾ تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة أو لا باسم الذات الذى عليه يدور كافة مايوجبه من صفات الكمال واليه يؤول جميع نعوت الجلال والجمال للايذان بأنه عز وجل هو المستحق له بذاته لما مر من اقتضاء اختصاص الحقيقة به سبحانه لاقتصار جميع أفرادها عليه بالطريق البرهانى و وصفه تعالى ثانيا بما ينبئ عن تفصيل بعض موجباته المنتظمة فى سلك الاجمال من عظائم الآثار وجلائل الأفعال من قوله عز وجل ﴿الذى خلق السموات والأرض﴾ للتنبيه على استحقاقه تعالى له واستقلاله به باعتبار أفعاله العظام وآلائه الجسام أيضا وتخصيص خلقهما بالذكر لاشتمالهما على جملة الآثار العلوية والسفلية وعامة الآلاء الجلية والخفية التى أجلها نعمة الوجود الكافية فى ايجاب حمده تعالى على كل موجود فكيف بما يتفرع عليها من فنون النعم الأنفسيـة والآفاقية المنوط بها مصالح العباد فى المعاش والمعاد أى أنشأهما على ما هما عليه من النمط الفائق والطراز الرائق منطويتين من أنواع البدائع وأصناف الروائع على ما تتحير فيه العقول والأفكار من تعاجيب العبر والآثار تبصرة وذكرى لأولى الابصار وجمع السموات لظهور تعدد طبقاتها واختلاف آثارها وحركاتها وتقديمها لشرفها وعلو مكانها وتقدمها وجودا على الأرض كما هى ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ عطف على خلق مترتب عليه لكون جعلهما مسبوقا بخلق منشئهما ومحلهما داخل معه فى حكم الاشعار بعلة الحمد فكما أن خلق السموات والارض ومابينهما لكونه أثرا عظيما ونعمة جليلة موجب لاختصاص الحمد بخالقهما جل وعلا كذلك جعل الظلمات والنور لكونه أمرا خطيرا ونعمة عظيمة مقتض لاختصاصه بجاعلهما والجعل هو الانشاء والابداع كالخلق خلا أن ذلك مختص بالانشاء التكوينى وفيه معنى التقدير والتسوية وهـذا عام له كما فى الآية الكريمة وللتشريعى أيضا كما فى قوله تعالى ما جعل الله من بحيرة الآية وأيا ما كان فهو انباء عن ملابسة مفعوله بشئ آخر بأن يكون فيه أو له أو منه أو نحو ذلك ملابسـة مصححة لأن يتوسط بينهما شئ من الظروف لغوا كان أو مستقرا لكن لا على أن يكون عمـدة فى الكلام بل قيدا فيه كما فى قوله عز وجل وجعل بينهما برزخا وقوله تعالى وجعل فيها رواسى وقوله تعالى واجعل لنا من لدنك وليا الآية فان كل واحد من هـذه الظروف اما متعلق بنفس الجعل أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله تقدمت عليه لكونه نكرة وأيا ما كان فهو قيد فى الكلام حتى اذا اقتضى الحال وقوعه عمدة فيه يكون الجعل متعديا الى اثنين هو ثانيهما كما فى قوله تعالى يجعلون أصابعهم فى آذانهم و ربما يشتبه الامر فيظن أنه عمدة فيه وهو فى الحقيقة قيد بأحد الوجهين كما سلف فى قوله تعالى انى جاعل فى الارض خليفة حيث قيل ان الظرف مفعول ثان لجاعل وقد أشير هناك الى أن الذى يقضى به الذوق السليم وتقتضيه جزالة النظم الكريم أنه متعلق بجاعل أو بمحذوف وقع حالا من المفعول وأن المفعول

الثانى هوخليفة وأن الأول محذوف على ما مر تفصيله وجمع الظلمات لظهور كثرة أسبابها ومحالها عند الناس ومشاهدتهم لها على التفصيل وتقديمها على النور لتقدم الاعدام على الملكات مع ما فيه من رعاية حسن المقابلة بين القرينتين وقوله تعالى ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ معطوف على الجملة السابقة الناطقة بما مر من موجبات اختصاصه تعالى بالحمد المستدعى لاقتصار العبادة عليه كما حقق فى تفسير الفاتحة الكريمة مسوق لانكار ما عليه الكفرة واستبعاده من مخالفتهم لمضمونها واجترائهم على ما يقضى ببطلانه بديهة العقول والمعنى أنه تعالى مختص باستحقاق الحمد والعبادة باعتبار ذاته و باعتبار ما فصل من شئونه العظيمة الخاصة به الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه ثم هؤلاء الكفرة لا يعملون بموجبه و يعدلون به سبحانه أى يسوون به غيره فى العبادة التى هى أقصى غايات الشكر الذى رأسه الحمد مع كون كل ما سواه مخلوقا له غير متصف بشىء من مبادى الحمد وكلمة ثم لاستبعاد الشرك بعد وضوح ماذكر من الآيات التكوينية القاضية ببطلانه لا بعد بيانه بالآيات التنزيلية والموصول عبارة عن طائفة الكفار جار مجرى الاسم لهم من غير أن يجعل كفرهم بما يجب أن يؤمن به كلا أو بعضا عنوانا للموضوع فان ذلك مخل باستبعاد ما أسند اليهم من الاشراك والباء متعلقة بيعدلون ووضع الرب موضع ضميره تعالى لزيادة التشنيع والتقبيح والتقديم لمزيد الاهتمام والمسارعة الى تحقيق مدار الانكار والاستبعاد والمحافظة على الفواصل وترك المفعول لظهوره أو لتوجيه الانكار الى نفس الفعل بتنزيله منزلة اللازم ايذانا بأنه المدار فى الاستبعاد والاستنكار لا خصوصية المفعول هذا هو الحقيق بجزالة التنزيل والخليق بفخامة شأنه الجليل وأما جعل الباء صلة لكفروا على أن يعدلون من العدول والمعنى أن الله تعالى حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة على العباد ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته فيرده أن كفرهم به تعالى لاسيما باعتبار ربوبيته تعالى لهم أشد شناعة وأعظم جناية من عدولهم عن حمده عز وجل لتحققه مع اغفاله أيضا فجعل أهون الشرين عمدة فى الكلام مقصود الافادة واخراج أعظمهما مخرج القيد المفروغ عنه مما لا عهد له فى الكلام السديد فكيف بالنظم التنزيلى هذا وقد قيل انه معطوف على خلق السموات والمعنى أنه تعالى خلق ماخلق مما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون به سبحانه ما لا يقدر على شىء منه لكن لا على قصد أنه صلة مستقلة ليكون بمنزلة أن يقال الحمد لله الذى عدلوا به بل على أنه داخل تحت الصلة بحيث يكون الكل صلة واحدة كأنه قيل الحمد لله الذى كان منه تلك النعم العظام ثم من الكفرة الكفر وأنت خبير بأن ما ينتظم فى سلك الصلة المنبئة عن موجبات حمده عز وجل حقه أن يكون له دخل فى ذلك الانباء ولو فى الجملة و لا ريب فى أن كفرهم بمعزل منه وادعاء أن له دخلا فيه لدلالته على كمال الجود كأنه قيل الحمد لله الذى أنعم بمثل هذه النعم العظام على من لا يحمده تعسف لا يساعده النظام وتعكيس يأباه المقام كيف لا ومساق النظم الكريم كما تفصح عنه الآيات الآتية تشنيع الكفرة وتوبيخهم ببيان غاية اساءتهم مع نهاية احسانه تعالى اليهم لا ببيان نهاية احسانه تعالى اليهم مع غاية اساءتهم فى حقه تعالى كما يقتضيه الادعاء المذكور و بهذا اتضح أنه لا سبيل الى جعل المعطوف من روادف المعطوف عليه لما أن حق الصلة أن تكون غير مقصودة الافادة فما ظنك بما هو من روادفها وقد عرفت أن المعطوف هو الذى سيق له الكلام فتأمل وكن على الحق المبين ﴿هو الذى خلقكم من طين﴾ استئناف مسوق لبيان بطلان كفرهم بالبعث مع مشاهدتهم لما يوجب الايمان به اثر بيان بطلان اشراكهم به تعالى مع معاينتهم لموجبات توحيده وتخصيص خلقهم بالذكر من بين سائر دلائل صحة البعث مع أن ماذكر من خلق السموات والارض من أوضحها وأظهرها كما ورد فى قوله تعالى أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم لما أن محل النزاع بعثهم فدلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر وهم بشئون أنفسهم أعرف والتعامى

عن الحجة النيرة أقبح والالتفات لمزيد التشنيع والتوبيخ أى ابتدأ خلقكم منه فانه المادة الأولى للكل لما أنه منشأ آدم الذى هو أبو البشر وانما نسب هذا الخلق الى المخاطبين لا الى آدم عليه السلام وهو المخلوق منه حقيقة بأن يقال هو الذى خلق أباكم الخ مع كفاية علمهم بخلقه عليه السلام منه فى ايجاب الايمان بالبعث و بطلان الامتراء لتوضيح منهاج القياس وللمبالغة فى ازاحة الاشتباه والالتباس مع مافيه من تحقيق الحق والتنبيه على حكمة خفية هى أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من انشائه عليه السلام منه حيث لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر آحاد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكأن خلقه عليه السلام من الطين خلقا لكل أحد من فروعه منه ولما كان خلقه على هذا النمط السارى الى جميع أفراد ذريته أبدع من أن يكون ذلك مقصورا على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور اليه وأدل على عظم قدرة الخلاق العليم وكمال علمه وحكمته وكان ابتداء حال المخاطبين أولى بأن يكون معياراً لانتهائها فعل مافعل ولله در شأن التنزيل وعلى هذا السر مدار قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم الخ وقوله تعالى وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا كما سيأتى وقيل المعنى خلق أباكم منه على حذف المضاف وقيل معنى خلقهم منه خلقهم من النطفة الحاصلة من الأغذية المتكونة من الارض وأياما كان ففيه من وضوح الدلالة على كمال قدرته تعالى على البعث مالايخفى فان من قدر على احياء مالم يشم رائحة الحياة قط كان على احياء ماقارنها مدة أظهر قدرة ﴿ثم قضى﴾ أى كتب لموت كل واحد منكم ﴿أجلا﴾ خاصا به أى حدا معينا من الزمان يفنى عند حلوله لامحالة وكلمة ثم للايذان بتفاوت مابين خلقهم وبين تقدير آجالهم حسبما تقتضيه الحكم البالغة ﴿وأجل مسمى﴾ أى حد معين لبعثكم جميعا وهو مبتدأ لتخصصه بالصفة كما فى قوله تعالى ولعبد مؤمن ولوقوعه فى موقع التفصيل كما فى قول من قال

اذاما بكى من خلفها انصرفت له بشق وشق عندنا لم يحول

وتنوينه لتفخيم شأنه وتهويل أمره ولذلك أوثر تقديمه على الخبر الذى هو ﴿عنده﴾ مع أن الشائع المستفيض هو التأخير كما فى قولك عندى كلام حق ولى كتاب نفيس كأنه قيل وأى أجل مسمى مثبت معين فى علمه لايتغير ولا يقف على وقت حلوله أحد لامجملا ولا مفصلا وأما أجل الموت فمعلوم اجمالا وتقريبا بناء على ظهور أماراته أو على ماهو المعتاد فى اعمار الانسان وتسميته أجلا انما هى باعتبار كونه غاية لمدة لبثهم فى القبور لا باعتبار كونه مبدأ لمدة القيامة كما أن مدار التسمية فى الأجل الأول هو كونه آخر مدة الحياة لا كونه أول مدة الممات لما أن الأجل فى اللغة عبارة عن آخر المدة لا عن أولها وقيل الأجل الأول مابين الخلق والموت والثانى مابين الموت والبعث من البرزخ فان الأجل كما يطلق على آخر المدة يطلق على كلها وهو الأوفق لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله تعالى قضى لكل أحد أجلين أجلا من مولده الى موته وأجلا من موته الى مبعثه فان كان برا تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث فى أجل العمر وان كان فاجرا قاطعا نقص من أجل العمر وزيد فى أجل البعث وذلك قوله تعالى ومايعمر من معمر ولاينقص من عمره الا فى كتاب فمعنى عدم تغير الأجل حينئذ عدم تغير آخره والأول هو الأشهر الاليق بتفخيم الأجل الثانى المنوط باختصاصه بعلمه تعالى والأنسب بتهويله المبنى على مقارنته للطامة الكبرى فان كون بعضه معلوما للخلق ومضيه من غير أن يقع فيه شىء من الدواهى كما يستلزمه الحمل على المعنى الثانى مخل بذلك قطعا ومعنى زيادة الأجل ونقصه فيما روى تأخير الأجل الأول وتقديمه ﴿ثم أنتم تمترون﴾ استبعاد واستنكار لامترائهم فى البعث بعد معاينتهم لما ذكر من الحجج الباهرة الدالة عليه أى تمترون فى وقوعه وتحققه فى نفسه مع مشاهدتكم فى أنفسكم من الشواهد مايقطع مادة الامتراء بالكلية فان من قدر على افاضة الحياة ومايتفرع عليها من العلم والقدرة وسائر الكمالات البشرية على مادة غير مستعدة لشىء منها أصلا

كان أوضح اقتدارا على افاضتها على مادة قد استعدت لها وقارنها مدة ومن ههنا تبين أن ماقيل من أن الأجل الأول هو النوم والثانى هو الموت أو أن الأول أجل الماضين والثانى أجل الباقين أو أن الأول مقدار مامضى من عمر كل أحد والثانى مقدار مابقى منه مما لا وجه له أصلا لما رأيت من أن مساق النظم الكريم استبعاد امترائهم فى البعث الذى عبر عن وقته بالأجل المسمى فحيث أريد به أحد ماذكر من الأمور الثلاثة فى أى شىء يمترون و وصفهم بالامتراء الذى هو الشك وتوجيه الاستبعاد اليه مع أنهم جازمون بانتفاء البعث مصرون على انكاره كما ينبىء عنه قولهم أئذامتناو كناترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ونظائره للدلالة على أن جزمهم المذكور فى أقصى مراتب الاستبعاد والاستنكار وقوله تعالى ﴿وهو الله﴾ جملة من مبتدا وخبر معطوفة على ماقبلها مسوقة لبيان شمول أحكام الهيته تعالى لجميع المخلوقات واحاطة علمه بتفاصيل أحوال العباد وأعمالهم المؤدية الى الجزاء اثر الاشارة الى تحقق المعاد فى تضاعيف بيان كيفية خلقهم وتقدير آجالهم وقوله تعالى ﴿فى السموات و فى الارض﴾ متعلق بالمعنى الوصفى الذى ينبىء عنه الاسم الجليل اما باعتبار أصل اشتقاقه و كونه علما للمعبود بالحق كأنه قيل وهو المعبود فيهما واما باعتبار أنه اسم اشتهر بما اشتهرت به الذات من صفات الكمال فلوحظ معه منها ما يقتضيه المقام من المالكية الكلية والتصرف الكامل حسبما تقتضيه المشيئة المبنية على الحكم البالغة فعلق به الظرف من تلك الحيثية فصار كأنه قيل وهو المالك أو المتصرف المدبر فيهما كما فى قوله تعالى وهو الذى فى السماء اله و فى الارض اله وليس المراد بما ذكر من الاعتبارين أن الاسم الجليل يحمل على معناه اللغوى أو على معنى المالك أو المتصرف أو نحو ذلك بل مجرد ملاحظة أحد المعانى المذكورة فى ضمنه كما لوحظ مع اسم الأسد فى قوله أسد على الخ ما اشتهر به من وصف الجراءة التى اشتهر بها مسماه فجرى مجرى جرىء على و بهذا تبين أن ماقيل بصدد التصوير والتفسير أى هو المعروف بذلك فى السموات و فى الارض أوهو المعروف المشتهر بالصفات الكمالية أو هو المعروف بالالهية فيهما أو نحو ذلك بمعزل من التحقيق فان المعتبر مع الاسم هو نفس الوصف الذى اشتهر به اذهو الذى يقتضيه المقام حسبما بين آنفا لا اشتهاره به ألا يرى أن كلمة على فى المثال المذكور لا يمكن تعليقها باشتهار الاسم بالجراءة قطعا وقيل هو متعلق بما يفيده التركيب الحصرى من التوحد والتفرد كأنه قيل وهو المتوحد بالالهية فيهما وقيل بما تقرر عند الكل من اطلاق هذا الاسم عليه خاصة كأنه قيل وهو الذى يقال له الله فيهما لا يشرك به شىء فى هذا الاسم على الوجه الذى سبق من اعتبار معنى التوحد أو القول فى فحوى الكلام بطريق الاستتباع لا على حمل الاسم الجليل على معنى المتوحد بالالهية أو على تقدير القول وقد جوز أن يكون الظرف خبرا ثانيا على أن كونه سبحانه فيهما عبارة عن كونه تعالى مبالغا فى العلم بما فيهما بناء على تنزيل علمه المقدس عن حصول الصور والاشباح لكونه حضوريا منزلة كونه تعالى فيهما وتصويره به على طريقة التمثيل المبنى على تشبيه حالة علمه تعالى بما فيهما بحالة كونه تعالى فيهما فان العالم اذا كان فى مكان كان عالما به وبما فيه على وجه لا يخفى عليه منه شىء فعلى هذا يكون قوله عز وجل ﴿يعلم سركم وجهركم﴾ أى ما أسررتموه وما جهرتم به من الأقوال أو ما أسررتموه وما أعلنتموه كائنا ما كان من الأقوال والأعمال بيانا وتقريرا لمضمونه وتحقيقا للمعنى المراد منه وتعليق علمه عز وجل بما ذكر خاصة مع شموله لجميع مافيهما حسبما تفيده الجملة السابقة لانسياق النظم الكريم الى بيان حال المخاطبين وكذا على الوجه الثانى فان ملاحظة الاسم الجليل من حيث المالكية الكلية والتصرف الكامل الجارى على النمط المذكور مستتبعة لملاحظة علمه المحيط حتما فيكون هذا بيانا وتقريرا له بلا ريب وأما على الأوجه الثلاثة الباقية فلا سبيل الى كونه بيانا لكن لا لما قيل من أنه لادلالة لاستواء السر والجهر فى علمه تعالى على ما اعتبر فيهما من المعبودية والاختصاص بهذا الاسم اذ ربما يعبد و يختص به من ليس له كمال العلم فانه باطل قطعا اذ المراد

بما ذكر هو المعبودية بالحق والاختصاص بالاسم الجليل ولاريب فى أنهما مما لايتصور فيمن ليس له كمال العلم بديهة بل لان ماذكر من العلم غير معتبر فى مدلول شىء من المعبودية بالحق والاختصاص بالاسم حتى يكون هذا بيانا له وبهذا تبين أنه ليس ببيان على الوجه الثالث أيضا لما أن التوحد بالالهية لايعتبر فى مفهومه العلم الكامل ليكون هذا بيانا له بل هو معتبر فيما صدق عليه المتوحد وذلك غير كاف فى البيانية وقيل هو خبر بعد خبر عند من يجوز كون الخبر الثانى جملة كما فى قوله تعالى فاذا هى حية تسعى وقيل هو الخبر والاسم الجليل بدل من هو وبه يتعلق الظرف المتقدم ويكفى فى ذلك كون المعلوم فيهما كما فى قولك رميت الصيد فى الحرم اذا كان هو فيه وأنت خارجه ولعل جعل سرهم وجهرهم فيهما التوسيع الدائرة وتصوير أنه لا يعزب عن علمه شىء منهما فى أى مكان كان لا لانهما قد يكونان فى السموات أيضا وتعميم الخطاب لاهلها تعسف لايخفى ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ أى ماتفعلونه لجلب نفع أو دفع ضر من الأعمال المكتسبة بالقلوب أو بالجوارح سرا أو علانية وتخصيصها بالذكر مع اندراجها فيما سبق على التفسير الثانى للسر والجهر لاظهار كمال الاعتناء بها لأنها التى يتعلق بها الجزاء وهو السر فى اعادة يعلم ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾ كلام مستأنف وارد لبيان كفرهم بآيات الله واعراضهم عنها بالكلية بعد مابين فى الآية الاولى اشراكهم بالله سبحانه واعراضهم عن بعض آيات التوحيد وفى الآية الثانية امتراؤهم فى البعث واعراضهم عن بعض آياته والالتفات للاشعار بأن ذكر قبائحهم قد اقتضى أن يضرب عنهم الخطاب صفحا وتعدد جناياتهم لغيرهم ذما لهم وتقبيحا لحالهم فما نافية وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أو للدلالة على الاستمرار التجددى ومن الاولى مزيدة للاستغراق والثانية تبعيضية واقعة مع مجرورها صفة لآية واضافة الآيات الى اسم الرب المضاف الى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل مااجترؤا عليه فى حقها والمراد بها اما الآيات التنزيلية فاتيانها نزولها والمعنى ماينزل اليهم آية من الآيات القرآنية التى من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله عز وجل المنبئة عن جريان أحكام ألوهيته تعالى على كافة الكائنات واحاطة علمه بجميع أحوال الخلق وأعمالهم الموجبة للاقبال عليها والايمان بها ﴿الا كانوا عنها معرضين﴾ أى على وجه التكذيب والاستهزاء كما ستقف عليه وأما الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات فاتيانها ظهورها لهم والمعنى ما يظهر لهم آية من الآيات التكوينية التى من جملتها ماذكر من جلائل شؤنه تعالى الشاهدة بوحدانيته الا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدى الى الايمان بمكونها وايثاره على أن يقال الا أعرضوا عنها كما وقع مثله فى قوله تعالى وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر للدلالة على استمرارهم على الاعراض حسب استمرار اتيان الآيات وعن متعلقة بمعرضين قدمت عليه مراعاة للفواصل والجملة فى محل النصب على أنها حال من مفعول تأتى أو من فاعله المتخصص بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما وأيا ما كان ففيها دلالة بينة على كمال مسارعتهم الى الاعراض وايقاعهم له فى آن الاتيان كما يفصح عنه كلمة لما فى قوله تعالى ﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ فان الحق عبارة عن القرآن الذى أعرضوا عنه حين أعرضوا عن كل آية آية منه عبر عنه بذلك ابانة لكمال قبح مافعلوا به فان تكذيب الحق مما لايتصور صدوره عن أحد والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها لكن لاعلى أنها شىء مغاير له فى الحقيقة واقع عقيبه أو حاصل بسببه بل على أن الأول هو عين الثانى حقيقة وانما الترتيب بحسب التغاير الاعتبارى وقد لتحقيق ذلك المعنى كما فى قوله تعالى فقد جاؤا ظلما وزورا بعد قوله تعالى وقال الذين كفروا ان هذا الا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فان ماجاؤه أى فعلوه من الظلم والزور عين قولهم المحكى لكنه لما كان مغايرا له مفهوما وأشنع منه حالا رتب عليه بالفاء ترتيب اللازم على الملزوم تهويلا لأمره كذلك مفهوم التكذيب بالحق حيث كان أشنع من مفهوم الاعراض المذكور أخرج مخرج اللازم البين البطلان فرتب

عليه بالفاء اظهارا لغاية بطلانه ثم قيد ذلك بكونه بلا تأمل تأكيدا لشناعته وتمهيدا لبيان أن ما كذبوا به آثر ذى أثير له عواقب جليلة ستبدو لهم البتة والمعنى أنهم حيث أعرضوا عن تلك الآيات عند اتيانها فقد كذبوا بما لايمكن تكذيبه أصلا من غير أن يتدبروا فى حاله ومآله و يقفوا على مافى تضاعيفه من الشواهد الموجبة لتصديقه كقوله تعالى بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن﴾ فان ما عبارة عن الحق المذكور عبر عنه بذلك تهويلا لأمره بابهامه وتعليلا للحكم بما فى حيز الصلة وأنباؤه عبارة عما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة التى نطقت بها آيات الوعيد و فى لفظ الانباء ايذان بغاية العظم لما أن النبأ لايطلق الا على خبر عظيم الوقع وحملها على العقوبات الآجلة أو على ظهور الاسلام وعلو كلمته يأباه الآيات الآتية وسوف لتأكيد مضمون الجملة وتقريره أى فسيأتيهم البتة وان تأخر مصداق أنباء الشيء الذى كانوا يكذبون به قبل من غير أن يتدبروا فى عواقبه وانما قيل يستهزؤن ايذانا بأن تكذيبهم كان مقرونا بالاستهزاء كما أشير اليه هذا على أن يراد بالآيات الآية القرآنية وهو الاظهر وأما ان أريد بها الآيات التكوينية فالفاء داخلة على علة جواب شرط محذوف والاعراض على حقيقته كأنه قيل ان كانوا معرضين عن تلك الآيات فلا تعجب فقد فعلوا بما هو أعظم منها ماهو أعظم من الاعراض حيث كذبوا بالحق الذى هو أعظم الآيات ولامساغ لحمل الآيات فى هذا الوجه على كلها أصلا وأما ماقيل من أن المعنى أنهم لما كانوا معرضين عن الآيات كلها كذبوا بالقرآن فمما ينبغى تنزيه التنزيل عن أمثاله ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ استئناف مسوق لتعيين ماهو المراد بالانباء التى سبق بها الوعيد وتقرير اتيانها بطريق الاستشهاد وهمزة الانكار لتقرير الرؤية وهى عرفانية مستدعية لمفعول واحد وكم استفهامية كانت أو خبرية معلقة لها عن العمل مفيدة للتكثير سادة مع ما فى حيزها مسد مفعولها منصوبة بأهلكنا على المفعولية على أنها عبارة عن الاشخاص ومن قرن مميز لها على أنه عبارة عن أهل عصر من الاعصار سموا بذلك لاقترانهم برهة من الدهر كما فى قوله عليه الصلاة والسلام خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم الحديث وقيل هو عبارة عن مدة من الزمان والمضاف محذوف أى من أهل قرن وأما انتصابها على المصدرية أو على الظرفية على أنها عبارة عن المصدر أو عن الزمان فتعسف ظاهر ومن الاولى ابتدائية متعلقة بأهلكنا أى ألم يعرفوا بمعاينة الآثار وسماع الاخبار كم أمة أهلكنا من قبل أهل مكة أى من قبل خلقهم أو من قبل زمانهم على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه كعاد وثمود وأضرابهم وقوله تعالى ﴿مكناهم فى الارض﴾ استئناف لبيان كيفية الاهلاك وتفصيل مباديه مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل كيف كان ذلك فقيل مكناهم الخ وقيل هو صفة لقرن لما أن النكرة مفتقرة الى مخصص فاذا وليها مايصلح مخصصا لها تعين وصفيته لها وأنت خبير بأن تنوينه التفخيمى مغن له عن استدعاء الصفة على أن ذلك مع اقتضائه أن يكون مضمونه ومضمون ماعطف عليه من الجمل الاربع أمرا مفروغا عنه غير مقصود بسياق النظم مؤد الى اختلال النظم الكريم كيف لا والمعنى حينئذ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن موصوفين بكذا و كذا و باهلاكنا اياهم بذنوبهم وأنه بين الفساد وتمكين الشيء فى الارض جعله قارا فيها ولما لزمه جعلها مقرا له ورد الاستعمال بكل منهما فقيل تارة مكنه فى الارض ومنه قوله تعالى ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وأخرى مكن له فى الارض ومنه قوله تعالى انا مكناله فى الارض حتى أجرى كل منهما مجرى الآخر ومنه قوله تعالى ﴿مالم نمكن لكم﴾ بعد قوله تعالى مكناهم فى الارض كأنه قيل فى الاول مكنا لهم أو فى الثانى مالم نمكنكم وما نكرة موصوفة بما بعدها من الجملة المنفية والعائد محذوف محلها النصب على المصدرية أى مكناهم تمكينا لم نمكنه لكم والالتفات لما فى مواجهتهم بضعف الحال مزيد بيان لشأن الفريقين ولدفع الاشتباه من أول الأمر عن مرجعى

الضميرين ﴿وأرسلنا السماء﴾ أى المطر أو السحاب أو المظلة لأنها مبدأ المطر ﴿عليهم﴾ متعلق بأرسلنا ﴿مدرارا﴾ أى مغزارا حال من السماء ﴿وجعلنا الانهار﴾ أى صيرناها فقوله تعالى ﴿تجرى من تحتهم﴾ مفعول ثان لجعلنا أو أنشأناها فهو حال من مفعوله ومن تحتهم متعلق بتجرى وفيه من الدلالة على كونها مسخرة لهم مستمرة على الجريان على الوجه المذكور ما ليس فى أن يقال وأجرينا الانهار من تحتهم وليس المراد بتعداد هاتيك النعم العظام الفائضة عليهم بعد ذكر تمكينهم بيان عظم جنايتهم فى كفرانها واستحقاقهم بذلك لأعظم العقوبات بل بيان حيازتهم لجميع أسباب نيل المآرب ومبادى الأمن والنجاة من المكاره والمعاطب وعدم اغناء ذلك عنهم شيأ والمعنى أعطيناهم من البسطة فى الاجسام والامتداد فى الاعمار والسعة من الاموال والاستظهار بأسباب الدنيا فى استجلاب المنافع واستدفاع المضار مالم نعط أهل مكة ففعلوا مافعلوا ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ أى أهلكنا كل قرن من تلك القرون بسبب مايخصهم من الذنوب فما أغنى عنهم تلك العدد والاسباب فسيحل بهؤلاء مثل ماحل بهم من العذاب وهذا كما ترى آخر مابه الاستشهاد والاعتبار وأما قوله سبحانه ﴿وأنشأنا من بعدهم﴾ أى أحدثنا من بعد اهلاك كل قرن ﴿قرنا آخرين﴾ بدلا من الهالكين فلبيان كمال قدرته تعالى وسعة سلطانه وأن ماذكر من اهلاك الأمم الكثيرة لم ينقص من ملكه شيأ بل كلما أهلك أمة أنشأ بدلها أخرى ﴿ولو نزلنا عليك﴾ جملة مستأنفة سيقت بطريق تلوين الخطاب لبيان شدة شكيمتهم فى المكابرة ومايتفرع عليها من الاقاويل الباطلة اثر بيان اعراضهم عن آيات الله تعالى وتكذيبهم بالحق واستحقاقهم بذلك لنزول العذاب ونسبة التنزيل ههنا اليه عليه السلام مع نسبة اتيان الآيات ومجىء الحق فيما سبق اليهم للاشعار بقدحهم فى نبوته عليه السلام فى ضمن قدحهم فيما نزل عليه صريحا وقال الكلبي ومقاتل نزلت فى النضر بن الحرث وعبد الله بن أبى أمية ونوفل بن خويلد حيث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله تعالى وأنك رسوله ﴿كتابا﴾ ان جعل اسما كالامام فقوله تعالى ﴿فى قرطاس﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له أى كتابا كائنا فى صحيفة وان جعل مصدرا بمعنى المكتوب فهو متعلق بنفسه ﴿فلمسوه﴾ أى الكتاب وقيل القرطاس وقوله تعالى ﴿بأيديهم﴾ مع ظهور أن اللمس لايكون عادة الابالايدى لزيادة التعيين ودفع احتمال التجوز الواقع فى قوله تعالى وأنا لمسنا السماء أى تفحصنا أى فمسوه بأيديهم بعد مارأوه بأعينهم بحيث لم يبق لهم فى شأنه اشتباه ولم يقدروا على الاعتذار بتسكير الابصار ﴿لقال الذين كفروا﴾ أى لقالوا وانما وضع الموصول موضع الضمير للتنصيص على اتصافهم بما فى حيز الصلة من الكفر الذى لايخفى حسن موقعه باعتبار مفهومه اللغوى أيضا ﴿ان هذا﴾ أى ماهذا مشيرين الى ذلك الكتاب ﴿الاسحر مبين﴾ أى بين كونه سحرا تعنتا وعنادا للحق بعد ظهوره كما هو دأب المفحم المحجوج وديدن المكابر اللجوج ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ شروع فى قدحهم فى نبوته عليه السلام صريحا بعد ماأشير الى قدحهم فيها ضمنا وقيل هو معطوف على جواب لو وليس بذاك لما أن تلك المقالة الشنعاء ليست مما يقدر صدوره عنهم على تقدير تنزيل الكتاب المذكور بل هى من أباطيلهم المحققة وخرافاتهم الملفقة التى يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل أى هلا أنزل عليه عليه السلام ملك بحيث نراه ويكلمنا أنه نبى حسبما نقل عنهم فيما روى عن الكلبي ومقاتل ونظيره قولهم لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ولما كان مدار هذا الاقتراح على شيئين انزال الملك كما هو وجعله معه عليه السلام نذيرا أجيب عنه بأن ذلك مما لايكاد يدخل تحت الوجود أصلا لاشتماله على أمرين متباينين لايجتمعان فى الوجود لما أن انزال الملك على صورته يقتضى انتفاء جعله نذيرا وجعله نذيرا يستدعى عدم انزاله على صورته لامحالة وقد أشير الى الاول بقوله تعالى ﴿ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر﴾ أى لو أنزلنا

ملكا على هيئته حسبما اقترحوه والحال أنه من هول المنظر بحيث لاتطيق بمشاهدته قوى الآحاد البشرية ألايرى أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائكة و يفاوضونهم على الصور البشرية كضيف ابراهيم و لوط وخصم داود عليهم السلام وغير ذلك وحيث كان شأنهم كذلك وهم مؤيدون بالقوى القدسية فما ظنك بمن عداهم من العوام فلو شاهدوه كذلك لقضى أمر هلاكهم بالكلية واستحال جعله نذيرا وهو مع كونه خلاف مطلوبهم مستلزم لاخلاء العالم عما عليه يدور نظام الدنيا والآخرة من ارسال الرسل وتأسيس الشرائع وقد قال سبحانه وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وفيه كما ترى ايذان بانهم فى ذلك الاقتراح كالباحث عن حتفه بظلفه وان عدم الاجابة اليه للبقيا عليهم وبناء الفعل الأول فى الجواب للفاعل الذى هو نون العظمة مع كونه فى السؤال مبنيا للمفعول لتهويل الأمر وتربية المهابة و بناء الثانى للمفعول للجرى على سنن الكبرياء وكلمة ثم فى قوله تعالى ﴿ثم لا ينظرون﴾ أى لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين فضلا عن أن ينذروا به كما هو المقصود بالانذار للتنبيه على تفاوت مابين قضاء الأمر وعدم الانظار فان مفاجأة العذاب أشد من نفس العذاب وأشق وقيل فى سبب اهلاكهم أنهم اذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صورته وهى آية لاشئ أبين منها ثم لم يؤمنوا لم يكن بد من اهلاكهم وقيل انهم اذا رأوه يزول الاختيار الذى هو قاعدة التكليف فيجب اهلاكهم والى الثانى بقوله تعالى ﴿ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا﴾ على أن الضمير الاول للنذير المفهوم من فحوى الكلام بمعونة المقام وانما لم يجعل للملك المذكور قبله بأن يعكس ترتيب المفعولين و يقال ولو جعلناه نذيرا لجعلناه رجلا مع فهم المراد منه أيضا لتحقيق أن مناط ابراز الجعل الأول فى معرض الفرض والتقدير ومدار استلزامه للثانى انما هو ملكية النذير لا نذيرية الملك وذلك لأن الجعل حقه أن يكون مفعوله الأول مبتدأ والثانى خبرا لكونه بمعنى التصيير المنقول من صار الداخل على المبتدا والخبر ولا ريب فى أن مصب الفائدة ومدار اللزوم بين طرفى الشرطية هو محمول المقدم لا موضوعه فحيث كانت امتناعية أريد بها بيان انتفاء الجعل الأول لاستلزامه المحذور الذى هو الجعل الثانى وجب أن يجعل مدار الاستلزام فى الاول مفعولا ثانيا لامحالة ولذلك جعل مقابله فى الجعل الثانى كذلك ابانة لكمال التنافى بينهما الموجب لانتفاء الملزوم والضمير الثانى للملك لا لما رجع اليه الأول والمعنى لوجعلنا النذير الذى اقترحوه ملكا لمثلنا ذلك الملك رجلا لما مر من عدم استطاعة الآحاد لمعاينة الملك على هيكله و فى ايثار رجلا على بشر ايذان بأن الجعل بطريق التمثيل لا بطريق قلب الحقيقة وتعيين لما يقع به التمثيل وقوله تعالى ﴿وللبسنا عليهم﴾ عطف على جواب لو مبنى على الجواب الأول وقرئ بحذف لام الجواب اكتفاء بما فى المعطوف عليه يقال لبست الامر على القوم ألبسه اذا شبهته وجعلته مشكلا عليهم وأصله الستر بالثوب وقرئ الفعلان بالتشديد للمبالغة أى ولخلطنا عليهم بتمثيله رجلا ﴿ما يلبسون﴾ على أنفسهم حينئذ بأن يقولوا له انما أنت بشر ولست بملك ولو استدل على ملكيته بالقرآن المعجز الناطق بها أو بمعجزات أخر غير ملجئة الى التصديق لكذبوه كما كذبوا النبى عليه الصلاة والسلام ولو أظهر لهم صورته الاصلية لزم الامر الاول والتعبير عن تمثيله تعالى رجلا باللبس اما لكونه فى صورة اللبس أو لكونه سببا للبسهم أو لوقوعه فى صحبته بطريق المشاكلة وفيه تأكيد لاستحالة جعل النذير ملكا كأنه قيل لو فعلناه لفعلنا ما لا يليق بشأننا من لبس الامر عليهم وقد جوز أن يكون المعنى وللبسنا عليهم حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة فى كفرهم بآيات الله البينة ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من قومه و فى تصدير الجملة بلام القسم وحرف التحقيق من الاعتناء بها ما لايخفى وتنوين رسل للتفخيم والتكثير ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لرسل أى و بالله لقد استهزئ برسل أولى شأن خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل

زمانك على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ﴿فحاق﴾ عقيبه أى أحاط أو نزل أو حل أو نحو ذلك فان معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد يستعمل الا فى الشر والحيق ما يشتمل على الانسان من مكروه فعله وقوله تعالى ﴿بالذين سخروا منهم﴾ أى استهزؤا بهم من أولئك الرسل عليهم السلام متعلق بحاق وتقديمه على فاعله الذى هو قوله تعالى ﴿ما كانوا به يستهزؤن﴾ للمسارعة الى بيان لحوق الشر بهم وما اما موصولة مفيدة للتهويل أى فأحاط بهم الذى كانوا يستهزؤن به حيث أهلكوا لأجله واما مصدرية أى فنزل بهم وبال استهزائهم وتقديم الجار والمجرور على الفعل لرعاية الفواصل ﴿قل سيروا فى الأرض﴾ بعد بيان ما فعلت الامم الخالية وما فعل بهم خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بانذار قومه وتذكيرهم باحوالهم الفظيعة تحذيرا لهم عما هم عليه وتكملة للتسلية بما فى ضمنه من العدة اللطيفة بأنه سيحيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم الاولين ولقد أنجز ذلك يوم بدر أى انجاز أى سيروا فى الارض لتعرف أحوال أولئك الامم ﴿ثم انظروا﴾ أى تفكروا ﴿كيف كان عاقبة المكذبين﴾ وكلمة ثم اما لان النظر فى آثار الهالكين لا يتسنى الا بعد انتهاء السير الى أماكنهم واما لابانة ما بينهما من التفاوت فى مراتب الوجوب وهو الاظهر فان وجوب السير ليس الا لكونه وسيلة الى النظر كما يفصح عنه العطف بالفاء فى قوله عز وجل فانظروا الآية وأما أن الأمر الاول لاباحة السير للتجارة ونحوها والثانى لايجاب النظر فى آثارهم وثم لتباعد ما بين الواجب والمباح فلا يناسب المقام وكيف معلقة لفعل النظر ومحل الجملة النصب بنزع الخافض أى تفكروا فى أنهم كيف أهلكوا بعذاب الاستئصال والعاقبة مصدر كالعافية ونظائرها وهى منتهى الأمر ومآله ووضع المكذبين موضع المستهزئين لتحقيق أن مدار اصابة ما أصابهم هو التكذيب لينزجر السامعون عنه لا عن الاستهزاء فقط مع بقاء التكذيب بحاله بناء على توهم أنه المدار فى ذلك ﴿قل﴾ لهم بطريق الالجاء والتبكيت ﴿لمن ما فى السموات والارض﴾ من العقلاء وغيرهم أى لمن الكائنات جميعا خلقا وملكا وتصرفا وقوله تعالى ﴿قل لله﴾ تقرير لهم وتنبيه على أنه المتعين للجواب بالاتفاق بحيث لا يتأتى لاحد أن يجيب بغيره كما نطق به قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقوله تعالى ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ جملة مستقلة داخلة تحت الأمر ناطقة بشمول رحمته الواسعة لجميع الخلق شمول ملكه وقدرته للكل مسوقة لبيان أنه تعالى رؤف بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة ويقبل منهم التوبة والانابة وأن ما سبق ذكره وما لحق من أحكام الغضب ليس من مقتضيات ذاته تعالى بل من جهة الخلق كيف لا ومن رحمته أن خلقهم على الفطرة السليمة وهداهم الى معرفته وتوحيده بنصب الآيات الانفسية والآفاقية وارسال الرسل وانزال الكتب المشحونة بالدعوة الى موجبات رضوانه والتحذير عن مقتضيات سخطه وقد بدلوا فطرة الله تبديلا وأعرضوا عن الآيات بالمرة وكذبوا بالكتب واستهزؤا بالرسل وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين ولولا شمول رحمته لسلك بهؤلاء أيضا مسلك الغابرين ومعنى كتب الرحمة على نفسه أنه تعالى قضاها وأوجبها بطريق التفضل والاحسان على ذاته المقدسة بالذات لا بتوسط شئ أصلا وقيل هو ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما قضى الله تعالى الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش ان رحمتى سبقت غضبى وعنه فى رواية أنه عليه الصلاة والسلام قال لما قضى الله تعالى الخلق كتب كتابا فهو عنده فوق العرش ان رحمتى غلبت غضبى وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكعب ما أول شئ ابتدأه الله تعالى من خلقه فقال كعب كتب الله كتابا لم يكتبه بقلم ولا مداد كتابة الزبرجد واللؤلؤ والياقوت انى أنا الله لا اله الا أنا سبقت رحمتى غضبى ومعنى سبق الرحمة وغلبتها أنها أقدم تعلقا بالخلق وأكثر وصولا اليهم مع أنها من مقتضيات الذات المفيضة للخير وفى التعبير عن الذات بالنفس حجة على من ادعى أن لفظ النفس لا يطاق

على الله تعالى وان أريد به الذات الا مشاكلة لما ترى من انتفاء المشاكلة ههنا بنوعيها وقوله تعالى ﴿ليجمعنكم الى يوم القيامة﴾ جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوق للوعيد على اشراكهم واغفالهم النظر أى والله ليجمعنكم فى القبور مبعوثين أو محشورين الى يوم القيامة فيجازيكم على شرككم وسائر معاصيكم وان أمهلكم بموجب رحمته ولم يعاجلكم بالعقوبة الدنيوية وقيل الى بمعنى اللام أى ليجمعنكم ليوم القيامة كقوله تعالى انك جامع الناس ليوم لاريب فيه وقيل هى بمعنى فى أى ليجمعنكم فى يوم القيامة ﴿لاريب فيه﴾ أى فى اليوم أو فى الجمع وقوله تعالى ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أى بتضييع رأس مالهم وهو الفطرة الأصلية والعقل السليم والاستعداد القريب الحاصل من مشاهدة الرسول عليه الصلاة والسلام واستماع الوحى وغير ذلك من آثار الرحمة فى موضع النصب أو الرفع على الذم أى أعنى الذين الخ أوهم الذين الخ أو هو مبتدأ والخبر قوله تعالى ﴿فهم لا يؤمنون﴾ والفاء لتضمن المبتدا معنى الشرط والاشعار بأن عدم ايمانهم بسبب خسرانهم فان ابطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك فى التقليد واغفال النظر أدى بهم الى الاصرار على الكفر والامتناع من الايمان والجملة تذييل مسوق من جهته تعالى لتقبيح حالهم غير داخل تحت الامر ﴿وله﴾ أى لله عز وجل خاصة ﴿ماسكن فى الليل والنهار﴾ نزل الملوان منزلة المكان فعبر عن نسبة الاشياء الزمانية اليهما بالسكنى فيهما وتعديته بكلمة فى كما فى قوله تعالى وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم أو السكون مقابل الحركة والمراد ماسكن فيهما أو تحرك فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر ﴿وهو السميع﴾ المبالغ فى سماع كل مسموع ﴿العليم﴾ المبالغ فى العلم بكل معلوم فلا يخفى عليه شئ من الاقوال والافعال ﴿قل﴾ لهم بعد مابكتهم بما سبق من الخطاب ﴿أغير الله أتخذ وليا﴾ أى معبودا بطريق الاستقلال أو الاشتراك وانما ساطت الهمزة على المفعول الأول لا على الفعل ايذانا بأن المنكر هو اتخاذ غير الله وليا لا اتخاذ الولى مطلقا كما فى قوله تعالى أغير الله أبغى ربا وقوله تعالى أفغير الله تأمرونى أعبد الخ ﴿فاطر السموات والارض﴾ أى مبدعهما بالجر صفة للجلالة مؤكدة للانكار لانه بمعنى الماضى ولذلك قرئ فطر ولا يضر الفصل بينهما بالجملة لانها ليست بأجنبية اذ هى عاملة فى عامل الموصوف أو بدل فان الفصل بينه وبين المبدل منه أسهل لان البدل على نية تكرير العامل وقرئ بالرفع والنصب على المدح وعن ابن عباس رضى الله عنهما ماعرفت معنى الفاطر حتى اختصم الى أعرابيان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أى ابتدأتها ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ أى يرزق الخلق ولا يرزق وتخصيص الطعام بالذكر لشدة الحاجة اليه أو لانه معظم مايصل الى المرزوق من الرزق ومحل الجملة النصب على الحالية فان مضمونها مقرر لوجوب اتخاذه سبحانه وتعالى وليا وقرئ ولا يطعم بفتح الياء وبعكس القراءة الاولى أيضا على أن الضمير لغير الله والمعنى أأشرك بمن هو فاطر السموات والارض ماهو نازل عن رتبة الحيوانية وبنائهما للفاعل على أن الثانى بمعنى يستطعم أو على معنى أنه يطعم تارة ولا يطعم أخرى كقوله تعالى يقبض ويبسط ﴿قل﴾ بعد بيان أن اتخاذ غيره تعالى وليا مما يقضى ببطلانه بديهة العقول ﴿انى أمرت﴾ من جنابه عز وجل ﴿أن أكون أول من أسلم﴾ وجهه لله مخلصا له لان النبى امام أمته فى الاسلام كقوله تعالى وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين وقوله تعالى سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين ﴿ولا تكونن﴾ أى وقيل لى ولا تكونن ﴿من المشركين﴾ أى فى أمر من أمور الدين ومعناه أمرت بالاسلام ونهيت عن الشرك وقد جوز عطفه على الامر ﴿قل انى أخاف ان عصيت ربى﴾ أى بمخالفة أمره ونهيه أى عصيان كان فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا وفيه بيان لكمال اجتنابه عليه السلام عن المعاصى على الاطلاق وقوله تعالى ﴿عذاب يوم عظيم﴾ أى عذاب يوم القيامة مفعول خاف والشرطية معترضة بينهما والجواب محذوف لدلالة ماقبله عليه وفيه قطع لاطماعهم الفارغة وتعريض بأنهم عصاة

مستوجبون للعذاب العظيم ﴿من يصرف عنه﴾ على البناء للمفعول أى العذاب وقرئ على البناء للفاعل والضمير لله سبحانه وقد قرئ بالاظهار والمفعول محذوف وقوله تعالى ﴿يومئذ﴾ ظرف للصرف أى فى ذلك اليوم العظيم وقد جوز أن يكون هو المفعول على قراءة البناء للفاعل بحذف المضاف أى عذاب يومئذ ﴿فقد رحمه﴾ أى نجاه وأنعم عليه وقيل فقد أدخله الجنة كما فى قوله تعالى فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز والجملة مستأنفة مؤكدة لتهويل العذاب وضمير عنه ورحمه لمن وهو عبارة عن غير العاصى ﴿وذلك﴾ اشارة الى الصرف أو الرحمة لأنها مؤولة بأن مع الفعل وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجته و بعد مكانه فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿الفوز المبين﴾ أى الظاهر كونه فوزا وهو الظفر بالبغية والألف واللام لقصره على ذلك ﴿وان يمسسك الله بضر﴾ أى بلية كمرض وفقر ونحو ذلك ﴿فلا كاشف له﴾ أى فلا قادر على كشفه عنك ﴿الا هو﴾ وحده ﴿وان يمسسك بخير﴾ من صحة ونعمة ونحو ذلك ﴿فهو على كل شئ قدير﴾ ومن جملته ذلك فيقدر عليه فيمسك به و يحفظه عليك من غير أن يقدر على دفعه أو على رفعه أحد كقوله تعالى فلا راد لفضله وحمله على تأكيد الجوابين يأباه الفاء . تذكرة روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم بغلة أهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر ثم أردفنى خلفه ثم سار بى ميلا ثم التفت الى فقال ياغلام فقلت لبيك يارسول الله فقال احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة واذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله فقد مضى القلم بما هو كائن فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب الله عليك ماقدروا عليه فان استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل فان لم تستطع فاصبر فان فى الصبر على ماتكره خيرا كثيرا واعلم أن النصر مع الصبر وأن مع الكرب فرجا وأن مع العسر يسرا ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة ﴿وهو الحكيم﴾ فى كل مايفعله و يأمر به ﴿الخبير﴾ بأحوال عباده وخفايا أمورهم واللام فى المواضع الثلاثة للقصر ﴿قل أى شئ أكبر شهادة﴾ روى أن قريشا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يامحمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد لك أنك رسول الله فنزلت فأى مبتدأ وأكبر خبره وشهادة نصب على التمييز وقوله تعالى ﴿قل الله﴾ أمر له عليه الصلاة والسلام بأن يتولى الجواب بنفسه اما للايذان بتعينه وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيره أو لأنهم ربما يتلعثمون فيه لا لترددهم فى أنه أكبر من كل شئ بل فى كونه شهيدا فى هذا الشأن وقوله تعالى ﴿شهيد﴾ خبر مبتدا محذوف أى هو شهيد ﴿بينى وبينكم﴾ ويجوز أن يكون الله شهيد بينى و بينكم هو الجواب لأنه اذا كان هو الشهيد بينه و بينهم كان أكبر شئ شهادة شهيدا له عليه الصلاة والسلام وتكرير البين لتحقيق المقابلة ﴿وأوحى الى﴾ أى من جهته تعالى ﴿هذا القرآن﴾ الشاهد بصحة رسالتى ﴿لأنذركم به﴾ بما فيه من الوعيد والاقتصار على ذكر الانذار لما أن الكلام مع الكفرة ﴿ومن بلغ﴾ عطف على ضمير المخاطبين أى لأنذركم به ياأهل مكة وسائر من بلغه من الاسود والأحمر أو من الثقلين أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد الى يوم القيامة وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين يوم نزوله ومن سيوجد بعد الى يوم القيامة خلا أن ذلك بطريق العبارة فى الكل عند الحنابلة و بالاجماع عندنا فى غير الموجودين و فى غير المكلفين يومئذ كما مر فى أول سورة النساء ﴿أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى﴾ تقرير لهم مع انكار واستبعاد ﴿قل لا أشهد﴾ بذلك وان شهدتم به فانه باطل صرف ﴿قل﴾ تكرير للامر للتأكيد ﴿إنما هو اله واحد﴾ أى بل انما أشهد أنه تعالى لا اله الا هو ﴿واننى برئ مما تشركون﴾ من الاصنام أو من اشراككم

﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ جواب عما سبق من قولهم لقد سألنا عنك اليهود والنصارى أخر عن تعيين الشهيد مسارعة الى الزامهم بالجواب عن تحكمهم بقولهم فأرنا من يشهد لك الخ والمراد بالموصول اليهود والنصارى و بالكتاب الجنس المنتظم للتوراة والانجيل وايرادهم بعنوان ايتاء الكتاب للايذان بمدار ما أسند اليهم بقوله تعالى ﴿ يعرفونه ﴾ أى يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة الكتابين بحليته ونعوته المذكورة فيهما ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ بحلاهم بحيث لا يشكون فى ذلك أصلا . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة قال عمر رضى الله عنه لعبد الله بن سلام أنزل الله تعالى على نبيه هذه الآية وكيف هذه المعرفة فقال يا عمر لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابنى ولأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى لأنى لا أدرى ماصنع النساء وأشهد أنه حق من الله تعالى ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ من أهل الكتابين والمشركين بأن ضيعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها وأعرضوا عن البينات الموجبة للايمان بالكلية ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ لما أنهم مطبوع على قلوبهم ومحل الموصول الرفع على الابتداء وخبره الجملة المصدرة بالفاء لشبه الموصول بالشرط وقيل على أنه خبر مبتدا محذوف أى هم الذين خسروا الخ وقيل على أنه نعت للموصول الأول وقيل النصب على الذم فقوله تعالى فهم لا يؤمنون على الوجوه الأخيرة عطف على جملة الذين آتيناهم الكتاب الخ ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ بوصفهم النبى الموعود فى الكتابين بخلاف أوصافه عليه الصلاة والسلام فانه افتراء على الله سبحانه و بقولهم الملائكة بنات الله وقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله ونحو ذلك وهو انكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساويا له وان كان سبك التركيب غير متعرض لانكار المساواة ونفيها يشهد به العرف الفاشى والاستعمال المطرد فانه اذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل من فلان فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل ألا يرى الى قوله عز وجل لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون بعد قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا الخ والسر فى ذلك أن النسبة بين الشيئين انما تتصور غالبا لا سيما فى باب المغالبة بالتفاوت زيادة ونقصانا فاذا لم يكن أحدهما أزيد يتحقق النقصان لا محالة ﴿ أو كذب بآياته ﴾ كأن كذبوا بالقرآن الذى من جملته الآية الناطقة بأنهم يعرفونه عليه الصلاة والسلام كما يعرفون أبناءهم و بالمعجزات وسموها سحرا وحرفوا التوراة وغيروا نعوته عليه الصلاة والسلام فان ذلك تكذيب بآياته تعالى وكلمة أو للايذان بأن كلا من الافتراء والتكذيب وحده بالغ غاية الافراط فى الظلم فكيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا مانفاه الله تعالى ونفوا ما أثبته قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿ انه ﴾ الضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصدير الجملة به الايذان بفخامة مضمونها مع مافيه من زيادة تقريره فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه من أول الأمر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكأنه قيل ان الشأن الخطير هذا هو ﴿ لا يفلح الظالمون ﴾ أى لا ينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب واذا كان حال الظالمين هذا فما ظنك بمن فى الغاية القاصية من الظلم ﴿ و يوم نحشرهم جميعا ﴾ منصوب على الظرفية بمضمر مؤخر قد حذف ايذانا بضيق العبارة عن شرحه و بيانه وايماء الى عدم استطاعة السامعين لسماعه لكمال فظاعة مايقع فيه من الطامة والداهية التامة كأنه قيل و يوم نحشرهم جميعا ﴿ ثم نقول ﴾ لهم ما نقول كان من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرة المقال وتقدير صيغة الماضى للدلالة على التحقق ولحسن موقع عطف قوله تعالى ثم لم تكن الخ عليه وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم أى واذكر لهم للتخويف والتحذير يوم نحشرهم الخ وقيل وليتقوا أو ليحذروا يوم نحشرهم الخ والضمير للكل وجميعا حال منه وقرىء يحشرهم جميعا ثم يقول بالياء فيهما ﴿ للذين أشركوا ﴾ أى نقول لهم خاصة للتوبيخ والتقريع على رؤس الأشهاد ﴿ أين شركاؤكم ﴾ أى

آلهتكم التى جعلتموها شركاء لله سبحانه واضافتها اليهم لما أن شركتها ليست الا بتسميتهم وتقولهم الكاذب كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ أى تزعمونها شركاء فحذف المفعولان معا وهذا السؤال المنبىء عن غيبة الشركاء مع عموم الحشر لها لقوله تعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله وغير ذلك من النصوص انما يقع بعد ماجرى بينها وبينهم من التبرؤ من الجانبين وتقطع مابينهم من الأسباب والعلائق حسبما يحكيه قوله تعالى فزيلنا بينهم الخ ونحو ذلك من الآيات الكريمة اما بعدم حضورها حينئذ فى الحقيقة بابعادها من ذلك الموقف واما بتنزيل عدم حضورها بعنوان الشركة والشفاعة منزلة عدم حضورها فى الحقيقة اذ ليس السؤال عنها من حيث ذواتها بل انما هو من حيث انها شركاء كما يعرب عنه الوصف بالموصول ولا ريب فى أن عدم الوصف يوجب عدم الموصوف من حيث هو موصوف فهى من حيث هى شركاء غائبة لامحالة وان كانت حاضرة من حيث ذواتها أصناما كانت أو غيرها وأما مايقال من أنه يحال بينها وبينهم فى وقت التوبيخ ليفقدوهم فى الساعة التى علقوا بها الرجاء فيها فيروا مكان خزيهم وحسرتهم فربما يشعر بعدم شعورهم بحقيقة الحال وعدم انقطاع حبال رجائهم عنها بعد وقد عرفت أنهم شاهدوها قبل ذلك وانصرمت عروة أطماعهم عنها بالكلية على أنها معلومة لهم من حين الموت والابتلاء بالعذاب فى البرزخ وانما الذى يحصل يوم الحشر الانكشاف الجلى واليقين القوى المترتب على المحاضرة والمحاورة ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ بتأنيث الفعل ورفع فتنتهم على أنه اسم له والخبر ﴿الا أن قالوا﴾ وقرىء بنصب فتنتهم على أنها الخبر والاسم الا أن قالوا والتأنيث للخبر كما فى قولهم من كانت أمك وقرىء بالتذكير مع رفع الفتنة ونصبها ورفعها أنسب بحسب المعنى والجملة عطف على ماقدر عاملا فى يوم نحشرهم كما أشير اليه فيما سلف والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء وفتنتهم اما كفرهم مرادا به عاقبته أى لم تكن عاقبة كفرهم الذى لزموه مدة أعمارهم وافتخروا به شيئا من الأشياء الا جحوده والتبرؤ منه بأن يقولوا ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ وأما جوابهم عبر عنه بالفتنة لأنه كذب ووصفه تعالى بربوبيته لهم للمبالغة فى التبرؤ من الاشراك وقرىء ربنا على النداء فهو لاظهار الضراعة والابتهال فى استدعاء قبول المعذرة وانما يقولون ذلك مع علمهم بأنه بمعزل من النفع رأسا من فرط الحيرة والدهش وحمله على معنى ما كنا مشركين عند أنفسنا وما علمنا فى الدنيا أنا على خطأ فى معتقدنا مما لاينبغى أن يتوهم أصلا فانه مما يوهم أن لهم عذرا ما وأن لهم قدرة على الاعتذار فى الجملة وذلك مخل بكمال هول اليوم قطعا على أنه قد قضى ببطلانه قوله تعالى ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ فانه تعجيب من كذبهم الصريح بانكار صدور الاشراك عنهم فى الدنيا أى انظر كيف كذبوا على أنفسهم فى قولهم ذلك فانه أمر عجيب فى الغاية وأما حمله على كذبهم فى الدنيا فتمحل يجب تنزيه ساحة التنزيل عنه وقوله تعالى ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ عطف على كذبوا داخل معه فى حكم التعجيب وما مصدرية أو موصولة قد حذف عائدها والمعنى انظر كيف كذبوا باليمين الفاجرة المغلظة على أنفسهم بانكار صدور ماصدر عنهم وكيف ضل عنهم أى زال وذهب افتراؤهم أو ما كانوا يفترونه من الاشراك حتى نفوا صدوره عنهم بالكلية وتبرءوا منه بالمرة وقيل ماعبارة عن الشركاء وايقاع الافتراء عليها مع أنه فى الحقيقة واقع على أحوالها من الالهية والشركة والشفاعة ونحوها للمبالغة فى أمرها كأنها نفس المفترى وقيل الجملة كلام مستأنف غير داخل فى حيز التعجيب ﴿ومنهم من يستمع اليك﴾ كلام مبتدأ مسوق لحكاية ماصدر فى الدنيا عن بعض المشركين من أحكام الكفر ثم بيان ماسيصدر عنهم يوم الحشر تقريرا لما قبله وتحقيقا لمضمونه والضمير للذين أشركوا ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ باعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف كما فى قوله تعالى ومنا دون ذلك أى وجمع منا الخ ومن موصولة أو موصوفة محلها الرفع على الخبرية والمعنى وبعضهم أو وبعض منهم الذى يستمع

اليك أو فريق يستمع اليك على أن مناط الافادة اتصافهم بما فى حيز الصلة أو الصفة لا كونهم ذوات أولئك المذكورين وقد مر فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ . روى أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا للنضر وكان صاحب أخبار يا أبا قتيلة مايقول محمد فقال والذى جعلها بيته ما أدرى مايقول الا أنه يحرك لسانه و يقول أساطير الأولين مثل ماحدثتكم من القرون الماضية فقال أبو سفيان انى لأراه حقا فقال أبو جهل كلا فنزلت ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ من الجعل بمعنى الانشاء وعلى متعلقة به وضمير قلوبهم راجع الى من وجمعيته بالنظر الى معناها كما أن افراد ضمير يستمع بالنظر الى لفظها وقد روعى جانب المعنى فى قوله تعالى ومنهم من يستمعون اليك الآية والأكنة جمع كنان وهو مايستر به الشىء وتنوينها للتفخيم والجملة امامستأنفة للاخبار بما تضمنه من الختم أوحال من فاعل يستمع باضمار قد عند من يقدرها قبل الماضى الواقع حالا أى يستمعون اليك وقد ألقينا على قلوبهم أغطية كثيرة لايقادر قدرها خارجة عما يتعارفه الناس ﴿أن يفقهوه﴾ أى كراهة أن يفقهوا مايستمعونه من القرآن المدلول عليه بذكر الاستماع و يجوز أن يكون مفعولا لما ينبئ عنه الكلام أى منعناهم أن يفقهوه ﴿وفى آذانهم وقرا﴾ صمما وثقلا مانعا من سماعه والكلام فيه كما فى قوله تعالى على قلوبهم أكنة وهذا تمثيل معرب عن كمال جهلهم بشؤن النبى عليه الصلاة والسلام وفرط نبوة قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له وقدمر تحقيقه فى أول سورة البقرة وقيل هو حكاية لما قالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر الآية وأنت خبير بأن مرادهم بذلك الاخبار بما اعتقدوه فى حق القرآن والنبى عليه الصلاة والسلام جهلا وكفرا من اتصافهما بأوصاف مانعة من التصديق والايمان ككون القرآن سحرا وشعرا وأساطير الأولين وقس على ماتخيلوه فى حق النبى صلى الله عليه وسلم لا الاخبار بأن هناك أمرا وراء ذلك قد حال بينهم وبين ادراكه حائل من قبلهم حتى يمكن حمل النظم الكريم على ذلك ﴿وان يروا كل آية﴾ من الآيات القرآنية أى يشاهدوها بسماعها ﴿لايؤمنوا بها﴾ على عموم النفى لاعلى نفى العموم أى كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائهم اياها كما هى لما مر من حالهم ﴿حتى اذا جاءوك يجادلونك﴾ هى حتى التى تقع بعدها الجمل والجملة هى قوله تعالى اذا جاءوك ﴿يقول الذين كفروا﴾ وما بينهما حال من فاعل جاءوا وانما وضع الموصول موضع الضمير ذما لهم بما فى حيز الصلة واشعارا بعلة الحكم أى بلغوا من التكذيب والمكابرة الى أنهم اذا جاءوك مجادلين لك لايكتفون بمجرد عدم الايمان بما سمعوا من الآيات الكريمة بل يقولون ﴿ان هذا﴾ أى ماهذا ﴿الا أساطير الاولين﴾ فان عد أحسن الحديث وأصدقه الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من قبيل الاباطيل والخرافات رتبة من الكفر لاغاية وراءها ويجوز أن تكون حتى جارة واذا ظرفية بمعنى وقت مجيئهم ويجادلونك حال كما سبق وقوله تعالى يقول الذين كفروا الخ تفسير للمجادلة والاساطير جمع أسطورة أواسطارة أو جمع اسطار وهو جمع سطر بالتحريك وأصل الكل السطر بمعنى الخط ﴿وهم ينهون عنه﴾ الضمير المرفوع للمذكورين والمجرور للقرآن أى لايقنعون بما ذكر من تكذيبه وعده من قبيل الاساطير بل ينهون الناس عن استماعه لئلا يقفوا على حقيته فيؤمنوا به ﴿وينأون عنه﴾ أى يتباعدون عنه بأنفسهم اظهارا لغاية نفورهم عنه وتأكيدا لنهيهم عنه فان اجتناب الناهى عن المنهى عنه من متممات النهى ولعل ذلك هو السر فى تأخير النأى عن النهى وقيل الضمير المجرور للنبى عليه الصلاة والسلام وقيل المرفوع لابى طالب ولعل جمعيته باعتبار استتباعه لاتباعه فانه كان ينهى قريشا عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وينأى عنه فلا يؤمن به وروى أنهم اجتمعوا اليه وأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم سوءا فقال

والله لن يصلوا اليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

فاصدع بأمرك ماعليك غضاضة　　وابشر بذاك وقر منه عيونا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصحى　　ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا لامحالة انه　　من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذارى سبة　　لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

فنزلت ﴿وان يهلكون﴾ أى مايهلكون بما فعلوا من النهى والنأى ﴿الا أنفسهم﴾ بتعريضها لاشد العذاب وأفظعه عاجلا وآجلا وهو عذاب الضلال والاضلال وقوله تعالى ﴿وما يشعرون﴾ حال من ضمير يهلكون أى يقصرون الاهلاك على أنفسهم والحال أنهم مايشعرون أى لا باهلاكهم أنفسهم ولا باقتصار ذلك عليها من غير أن يضروا بذلك شيأ من القرآن والرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وانما عبر عنه بالاهلاك مع أن المنفى عن غيرهم مطلق الضرر اذ غاية مايؤدى اليه مافعلوا من القدح فى القرآن الكريم المانعة فى تمشى أحكامه وظهور أمر الدين الايذان بأن مايحيق بهم هو الهلاك لا الضرر المطلق على أن مقصدهم لم يكن مطلق المانعة فيما ذكر بل كانوا يبغون الغوائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ويجوز أن يكون الاهلاك معتبرا بالنسبة الى الذين يضلونهم بالنهى فقصره على أنفسهم حينئذ مع شموله للفريقين مبنى على تنزيل عذاب الضلال عند عذاب الاضلال منزلة العدم ﴿ولو ترى اذ وقفوا على النار﴾ شروع فى حكاية ماسيصدر عنهم يوم القيامة من القول المناقض لما صدر عنهم فى الدنيا من القبائح المحكية مع كونه كذبا فى نفسه والخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد من أهل المشاهدة والعيان قصدا الى بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الشناعة والفظاعة الى حيث لا يختص استغرابها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الامور العجيبة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها وجواب لو محذوف ثقة بظهوره وايذانا بقصور العبارة عن تفصيله وكذا مفعول ترى لدلالة مافى حيز الظرف عليه أى لو تراهم حين يوقفون على النار حتى يعاينوها لرأيت مالا يسعه التعبير وصيغة الماضى للدلالة على التحقق أو حين يطلعون عليها اطلاعا وهى تحتهم أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها من قولهم وقفته على كذا اذا فهمته وعرفته وقرئ وقفوا على البناء للفاعل من وقف عليه وقوفا ﴿فقالوا ياليتنا نرد﴾ أى الى الدنيا تمنيا للرجوع والخلاص وهيهات ولات حين مناص ﴿ولا نكذب بآيات ربنا﴾ أى بآياته الناطقة بأحوال النار وأهوالها الآمرة باتقائها اذهى التى تخطر حينئذ ببالهم ويتحسرون على مافرطوا فى حقها أو بجميع آياته المنتظمة لتلك الآيات انتظاما أوليا ﴿ونكون من المؤمنين﴾ بها العاملين بمقتضاها حتى لانرى هذا الموقف الهائل أو نكون من فريق المؤمنين الناجين من العذاب الفائزين بحسن المآب ونصب الفعلين على جواب التمنى باضمار أن بعد الواو واجرائها مجرى الفاء ويؤيده قراءة ابن مسعود وابن اسحق فلا نكذب والمعنى ان رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين وقيل ينسبك من أن المصدرية ومن الفعل بعدها مصدر ويقدر قبله مصدر متوهم فيعطف هذا عليه كأنه قيل ليت لنا ردا وانتفاء تكذيب وكونا من المؤمنين وقرئ برفعهما على أنه كلام مستأنف كقوله دعنى ولا أعود أى وأنا لا أعود تركتنى أو لم تتركنى أو عطف على نرد أو حال من ضميره فيكون داخلا فى حكم التمنى كالوجه الاخير للنصب وتعلق التكذيب الآتى به لما تضمنه من العدة بالايمان وعدم التكذيب كمن قال ليتنى رزقت مالا فأكافئك على صنيعك فانه متمن فى معنى الواعد فلو رزق مالا ولم يكافئ صاحبه يكون مكذبا لامحالة وقرئ برفع الاول ونصب الثانى وقد مر وجههما ﴿بل بدالهم ماكانوا يخفون من قبل﴾ اضراب عما ينبئ عنه التمنى من الوعد بتصديق الآيات والايمان بها أى ليس ذلك عن عزيمة صادقة ناشئة عن رغبة فى الايمان وشوق الى تحصيله والاتصاف به بل لانه ظهر لهم

فى موقفهم ذلك ما كانوا يخفونه فى الدنيا من الداهية الدهياء وظنوا أنهم مواقعوها فلخوفها وهول مطلعها قالوا ما قالوا
والمراد بها النار التى وقفوا عليها اذهى التى سيق الكلام لتهويل أمرها والتعجيب من فظاعة حال الموقوفين عليها وباخفائها
تكذيبهم بها فان التكذيب بالشىء كفر به واخفاء له لامحالة وايثاره على صريح التكذيب الوارد فى قوله عز وجل هذه
جهنم التى يكذب بها المجرمون وقوله تعالى هذه النار التى كنتم بها تكذبون مع كونه أنسب بما قبله من قولهم ولا نكذب
بآيات ربنا لمراعاة مافى مقابلته من البدو هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الكريم وأما ماقيل من أن المراد بما
يخفون كفرهم ومعاصيهم أو قبائحهم وفضائحهم التى كانوا يكتمونها من الناس فتظهر فى صحفهم وبشهادة جوارحهم
عليهم أو شركهم الذى يجحدون به فى بعض مواقف القيامة بقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ثم يظهر بما ذكر من
شهادة الجوارح عليهم أو ما أخفاه رؤساء الكفرة عن أتباعهم من أمر البعث والنشور أو ما كتمه علماء أهل الكتابين
من صحة نبوة النبى عليه الصلاة والسلام ونعوته الشريفة عن عوامهم على أن الضمير المجرور للعوام والمرفوع للخواص
أو كفرهم الذى أخفوه عن المؤمنين والضمير المجرور للمؤمنين والمرفوع للمنافقين فبعد الاغضاء عما فى كل منها من
الاعتساف والاختلال لاسبيل الى شىء من ذلك أصلا لما عرفت من أن سوق النظم الشريف لتهويل أمر النار وتفظيع
حال أهلها وقد ذكر وقوفهم عليها وأشير الى أنه اعتراهم عند ذلك من الخوف والخشية والحيرة والدهشة مالا يحيط به
الوصف ورتب عليه تمنيهم المذكور بالفاء القاضية بسببية ماقبلها لما بعدها فاسقاط النار بعد ذلك من تلك السببية وهى
فى نفسها أدهى الدواهى وأزجر الزواجر واسنادها الى شىء من الامور المذكورة التى دونها فى الهول والزجر مع عدم جريان
ذكرها ثمة أمر يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله وأما ماقيل من أن المراد جزاء ما كانوا يخفون فمن قبيل دخول
البيوت من ظهورها وأبوابها مفتوحة فتأمل ﴿ولوردوا﴾ أى من موقفهم ذلك الى الدنيا حسبما تمنوه وغاب عنهم
ماشاهدوه من الاهوال ﴿لعادوا لما نهوا عنه﴾ من فنون القبائح التى من جملتها التكذيب المذكور ونسوا ماعاينوه
بالكلية لاقتصار أنظارهم على الشاهد دون الغائب ﴿وانهم لكاذبون﴾ أى لقوم ديدنهم الكذب فى كل ما يأتون
وما يذرون ﴿وقالوا﴾ عطف على عادوا داخل فى حيز الجواب وتوسيط قوله تعالى وانهم لكاذبون بينهما لانه اعتراض
مسوق لتقرير ما أفاده الشرطية من كذبهم المخصوص ولو أخر لأوهم أن المراد تكذيبهم فى انكارهم البعث والمعنى لو ردوا
الى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وقالوا ﴿ان هى﴾ أى ما الحياة ﴿الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ بعد ما فارقنا
هذه الحياة كان لم يروا ما رأوا من الاحوال التى أولها البعث والنشور ﴿ولو ترى اذ وقفوا على ربهم﴾ الكلام فيه
كالذى مر فى نظيره خلا أن الوقوف ههنا مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجانى بين يدى سيده للعقاب
وقيل عرفوا ربهم حق التعريف وقيل وقفوا على جزاء ربهم وقوله تعالى ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ
من الكلام السابق كأنه قيل فماذا قال لهم ربهم اذ ذاك فقيل قال ﴿أليس هذا﴾ مشيرا الى ماشاهدوه من البعث
وما يتبعه من الامور العظام ﴿بالحق﴾ تقريعا لهم على تكذيبهم لذلك وقولهم عند سماع ما يتعلق به ماهو بحق وما هو
الاباطل ﴿قالوا﴾ استئناف كما سبق ﴿بلى وربنا﴾ أكدوا اعترافهم باليمين اظهاراً لكمال يقينهم بحقيته وايذانا
بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط طمعا فى نفعه ﴿قال﴾ استئناف كما مر ﴿فذوقوا العذاب﴾ الذى عاينتموه
والفاء لترتيب التعذيب على اعترافهم بحقية ما كفروا به فى الدنيا لكن لا على أن مدار التعذيب هو اعترافهم بذلك
بل هو كفرهم السابق بما اعترفوا بحقيته الآن كما نطق به قوله عز وجل ﴿بما كنتم تكفرون﴾ أى بسبب كفركم فى
الدنيا بذلك أو بكل ما يجب الايمان به فيدخل كفرهم به دخولا أوليا ولعل هذا التوبيخ والتقريع انما يقع بعد ما وقفوا

على النار فقالوا ماقالوا اذالظاهر أنه لا يبقى بعد هذا الأمر الاالعذاب ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ هم الذين حكيت أحوالهم لكن وضع الموصول موضع الضمير للايذان بتسبب خسرانهم بما فى حيز الصلة من التكذيب بلقائه تعالى بقيام الساعة ومايترتب عليه من البعث وأحكامه المتفرعة عليه واستمرارهم على ذلك فان كلمة حتى فى قوله تعالى ﴿حتى اذا جاءتهم الساعة﴾ غاية لتكذيبهم لالخسرانهم فانه أبدى لا حد له ﴿بغتة﴾ البغت والبغتة مفاجأة الشئ بسرعة من غير شعور به يقال بغته بغتا و بغتة أى فجأة وانتصابها اما على أنها مصدر واقع موقع الحال من فاعل جاءتهم أى مباغتة أومن مفعوله أى مبغوتين واما على أنها مصدر مؤكد على غير الصدر فان جاءتهم فى معنى بغتتهم كقولهم أتيته ركضا أومصدر مؤكد لفعل محذوف وقع حالا من فاعل جاءتهم أى جاءتهم الساعة تبغتهم بغتة ﴿قالوا﴾ جواب اذا ﴿ياحسرتنا﴾ تعالى فهذا أوانك والحسرة شدة الندم وهذا التحسر وان كان يعتريهم عند الموت لكن لما كان ذلك من مبادى الساعة سمى باسمها ولذلك قال عليه الصلاة والسلام من مات فقد قامت قيامته أوجعل مجئ الساعة بعد الموت كالواقع بغير فترة لسرعته ﴿على مافرطنا فيها﴾ أى على تفريطنا فى شأن الساعة وتقصيرنا فى مراعاة حقها والاستعداد لها بالايمان بها واكتساب الأعمال الصالحة كما فى قوله تعالى على مافرطت فى جنب الله وقيل الضمير للحياة الدنيا وان لم يجرلها ذكر لكونها معلومة والتفريط التقصير فى الشئ مع القدرة على فعله وقيل هو التضييع وقيل الفرط السبق ومنه الفارط أى السابق ومعنى فرط خلى السبق لغيره فالتضعيف فيه للسلب كما فى جلدت البعير وقوله تعالى ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ حال من فاعل قالوا فائدته الايذان بأن عذابهم ليس مقصورا على ماذكر من الحسرة على مافات وزال بل يقاسون مع ذلك تحمل الأوزار الثقال والايماء الى أن تلك الحسرة من الشدة بحيث لاتزول ولاتنسى بما يكابدونه من فنون العقوبات والسر فى ذلك أن العذاب الروحانى أشد من الجسمانى نعوذ برحمة الله عزوجل منهما والوزر فى الأصل الحمل الثقيل سمى به الاثم والذنب لغاية ثقله على صاحبه وذكر الظهور كذكر الايدى فى قوله تعالى فبما كسبت أيديكم فان المعتاد حمل الاثقال على الظهور كما أن المألوف هو الكسب بالايدى والمعنى انهم يتحسرون على مالم يعملوا من الحسنات والحال أنهم يحملون أوزار ماعملوا من السيئات ﴿ألاساء مايزرون﴾ تذييل مقرر لما قبله وتكملة له أى بئس شيأ يزرونه وزرهم ﴿وماالحيوة الدنيا الالعب ولهو﴾ لما حقق فيما سبق أن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى يلقون فيها من الخطوب مايلقون بين بعده حال تينك الحياتين فى أنفسهما واللعب عمل يشغل النفس ويفترها عما تنتفع به واللهو صرفها عن الجد الى الهزل والمعنى اما على حذف المضاف أوعلى جعل الحياة الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة كما فى قول الخنساء فانما هى اقبال وادبار أى وماأعمال الدنيا أى الأعمال المتعلقة بها من حيث هى هى أو وماهى من حيث انها محل لكسب تلك الأعمال الالعب يشغل الناس ويلهيهم بما فيه من منفعة سريعة الزوال ولذة وشيكة الاضمحلال عما يعقبهم منفعة جليلة باقية ولذة حقيقية غير متناهية من الايمان والعمل الصالح ﴿وللدار الآخرة﴾ التى هى محل الحياة الاخرى ﴿خير للذين يتقون﴾ الكفر والمعاصى لأن منافعها خالصة عن المضار ولذاتها غير منغصة بالآلام مستمرة على الدوام ﴿أفلا تعقلون﴾ ذلك حتى تتقوا ماأنتم عليه من الكفر والعصيان والفاء للعطف على مقدر أى أتغفلون فلاتعقلون أوألا تتفكرون فتعقلون وقرئ يعقلون على الغيبة ﴿قدنعلم أنه ليحزنك الذى يقولون﴾ استئناف مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحزن الذى يعتريه مما حكى عن الكفرة من الاصرار على التكذيب والمبالغة فيه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانة من الله عزوجل وأن مايفعلون فى حقه فهو راجع اليه تعالى فى الحقيقة وأنه ينتقم منهم لامحالة أشد انتقام وكلمة قد لتأكيد العلم بما ذكر المفيد لتأكيد

الوعيد كما فى قوله تعالى قد يعلم ما أنتم عليه وقوله تعالى قد يعلم الله المعوقين ونحوهما باخراجها الى معنى التكثير حسبما يخرج اليه ربما فى مثل قوله وان تمس مهجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود
جريا على سنن العرب عند قصد الافراط فى التكثير تقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول رب فارس عندي وعنده مقانب جمة يريد بذلك التمادى فى تكثير فرسانه ولكنه يروم اظهار براءته عن التزيد وابراز أنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلا عن تكثير القليل وعليه قوله عز وجل ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وهذه طريقة انما تسلك عند كون الأمر من الوضوح بحيث لاتحوم حوله شائبة ريب حقيقة كما فى الآيات الكريمة المذكورة أو ادعاء كما فى البيت وقوله قد أترك القرن مصفرا أنامله وقوله ولكنه قد يهلك المال نائله والمراد بكثرة علمه تعالى كثرة تعلقه وهو متعد الى اثنين ومابعده ساد مسدهما واسم ان ضمير الشان وخبرها الجملة المفسرة له والموصول فاعل يحزنك وعائده محذوف أى الذى يقولونه وهو ما حكى عنهم من قولهم ان هذا الا أساطير الأولين ونحو ذلك وقرىء ليحزنك من أحزن المنقول من حزن اللازم وقوله تعالى ﴿فانهم لايكذبونك﴾ تعليل لما يشعر به الكلام السابق من النهى عن الاعتداد بما قالوا لكن لا بطريق التشاغل عنه وعده هينا والاقبال التام على ماهو أهم منه من استعظام جحودهم بآيات الله عز وجل كما قيل فانه مع كونه بمعزل من التسلية بالكلية مما يوهم كون حزنه عليه الصلاة والسلام لخاصة نفسه بل بطريق التسلى بما يفيده من بلوغه عليه الصلاة والسلام فى جلالة القدر ورفعة المحل والزلفى من الله عز وجل الى حيث لاغاية وراءه حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه عليه الصلاة والسلام تكذيبا لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله بل نفى تكذيبهم عنه عليه الصلاة والسلام وأثبت لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ايذانا بكمال القرب واضمحلال شئونه عليه الصلاة والسلام فى شأن الله عز وجل نعم فيه استعظام لجنايتهم منبىء عن عظم عقوبتهم كأنه قيل لاتعتد به وكله الى الله تعالى فانهم فى تكذيبهم ذلك لايكذبونك فى الحقيقة ﴿ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ أى ولكنهم بآياته تعالى يكذبون فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالرسوخ فى الظلم الذى جحودهم هذا فن من فنونه والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة واستعظام ماأقدموا عليه من جحود آياته تعالى وايراد الجحود فى مورد التكذيب للايذان بأن آياته تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كل أحد وأن من ينكرها فانما ينكرها بطريق الجحود الذى هو عبارة عن الانكار مع العلم بخلافه كما فى قوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم وهو المعنى بقول من قال أنه نفى مافى القلب اثباته أواثبات مافى القلب نفيه والباء متعلقة بيجحدون يقال جحد حقه وبحقه اذا أنكره وهو يعلمه وقيل هو لتضمين الجحود معنى التكذيب وأياما كان فتقديم الجار والمجرور للقصر وقيل المعنى فانهم لايكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بألسنتهم ويعضده ما روى من أن الاخنس بن شريق قال لأبى جهل ياأبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب فانه ليس عندنا أحد غيرنا فقال له والله ان محمدا لصادق وما كذب قط ولكن اذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فنزلت وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمى الأمين فعرفوا أنه لا يكذب فى شىء ولكنهم كانوا يجحدون وقيل فانهم لايكذبونك لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ولكنهم يجحدون بآيات الله كما يروى أن أباجهل كان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم مانكذبك وانك عندنا الصادق ولكنا نكذب بما جئتنا به فنزلت وكأن صدق المخبر عند الخبيث بمطابقة خبره لاعتقاده والاول هو الذى تستدعيه الجزالة التنزيلية وقرىء لايكذبونك من الاكذاب فقيل كلاهما بمعنى واحد كأكثر وكثر وأنزل ونزل وهو الأظهر وقيل معنى أكذبه وجده كاذبا ونقل عن الكسائى أن

العرب تقول كذبت الرجل أى نسبت الكذب اليه وأكذبته أى نسبت الكذب الى ماجاء به لا اليه وقوله تعالى ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك﴾ افتنان فى تسليته عليه الصلاة والسلام فان عموم البلية ربما يهون أمرها بعض تهوين وارشاد له عليه الصلاة والسلام الى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام فى الصبر على ما أصابهم من أممهم من فنون الأذية وعدة ضمنية له عليه الصلاة والسلام بمثل مامنحوه من النصر وتصدير الكلام بالقسم لتأكيد التسلية وتنوين رسل للتفخيم والتكثير ومن اما متعلقة بكذبت أو بمحذوف وقع صفة لرسل أى و بالله لقد كذبت من قبل تكذيبك رسل أولو شأن خطير وذوو عدد كثير أو كذبت رسل كانوا من زمان قبل زمانك ﴿فصبروا على ما كذبوا﴾ مامصدرية وقوله تعالى ﴿وأوذوا﴾ عطف على كذبوا داخل فى حكمه فانسبك منهما مصدران من المبنى للمفعول أى نصبروا على تكذيبهم وايذائهم فتأس بهم واصطبر على مانالك من قومك والمراد بايذائهم اما عين تكذيبهم واما مايقارنه من فنون الايذاء لم يصرح به ثقة باستلزام التكذيب اياه غالبا وأياما كان ففيه تأكيد للتسلية وقيل عطف على صبروا وقيل على كذبت وقيل هو استئناف وقوله تعالى ﴿حتى أتاهم نصرنا﴾ غاية للصبر وفيه ايذان بأن نصره تعالى اياهم أمر مقرر لامرد له وأنه متوجه اليهم لابد من اتيانه البتة والالتفات الى نون العظمة لابراز الاعتناء بشأن النصر وقوله تعالى ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ اعتراض مقرر لماقبله من اتيان نصره اياهم والمراد بكلماته تعالى ماينبىء عنه قوله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون وقوله تعالى كتب الله لأغلبن أنا و رسلى من المواعيد السابقة للرسل عليهم الصلاة والسلام الدالة على نصرة رسول الله أيضا لانفس الآيات المذكورة ونظائرها فان الاخبار بعدم تبدلها انما يفيد عدم تبدل المواعيد الواردة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة دون المواعيد السابقة للرسل عليهم الصلاة والسلام و يجوز أن يراد بكلماته تعالى جميع كلماته التى من جملتها تلك المواعيد الكريمة و يدخل فيها المواعيد الواردة فى حقه عليه الصلاة والسلام دخولا أوليا والالتفات الى الاسم الجليل للاشعار بعلة الحكم فان الألوهية من موجبات أن لايغالبه أحد فى فعل من الأفعال ولا يقع منه تعالى خلف فى قول من الأقوال وقوله تعالى ﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ جملة قسمية جىء بها لتحقيق مامنحوا من النصر وتأكيد ما فى ضمنه من الوعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لتقرير جميع ماذكر من تكذيب الأمم وما ترتب عليه من الأمور والجار والمجرور فى محل الرفع على أنه فاعل اما باعتبار مضمونه أى بعض نبأ المرسلين أو بتقدير الموصوف أى بعض من نبأ المرسلين كما مر فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الآية وأياما كان فالمراد بنبئهم عليهم السلام على الأول نصره تعالى اياهم بعد اللتيا والتى وعلى الثانى جميع ماجرى بينهم و بين أممهم على ماينبىء عنه قوله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء و زلزلوا الآية وقيل فى محل النصب على الحالية من المستكن فى جاء العائد الى مايفهم من الجملة السابقة أى ولقد جاءك هذا الخبر كائنا من نبأ المرسلين ﴿وان كان كبر عليك اعراضهم﴾ كلام مستأنف مسوق لتأكيد ايجاب الصبر المستفاد من التسلية ببيان أنه أمر لامحيد عنه أصلا أى ان كان عظم عليك وشق اعراضهم عن الايمان بما جئت به من القرآن الكريم حسبما يفصح عنه ماحكى عنهم من تسميتهم له أساطير الأولين وتنائيهم عنه ونهيهم الناس عنه وقيل أن الحرث بن عامر ابن نوفل بن عبد مناف أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى محضر من قريش فقال يامحمد ائتنا بآية من عند الله كما كانت الأنبياء تفعل وأنا أصدقك فأبى الله أن يأتى بآية مما اقترحوا فأعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك عليه لما أنه عليه الصلاة والسلام كان شديد الحرص على ايمان قومه فكان اذا سألوا آية يود أن ينزلها الله تعالى طمعاً

فى ايمانهم فنزلت فقوله تعالى اعراضهم مرتفع بكبر وتقديم الجار والمجرور عليه لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر والجملة فى محل النصب على أنها خبر لكان مفسرة لاسمها الذى هو ضمير الشأن ولا حاجة الى تقدير قد وقيل اسم كان اعراضهم وكبر جملة فعلية فى محل النصب على أنها خبر لها مقدم على اسمها لأنه فعل رافع لضمير مستتر كما هو المشهور وعلى التقديرين فقوله تعالى ﴿فان استطعت﴾ الخ شرطية أخرى محذوفة الجواب وقعت جوابا للشرط الأول والمعنى ان شق عليك اعراضهم عن الايمان بما جئت به من البينات وعدم عدهم لها من قبيل الآيات وأحببت أن تجيبهم الى ماسألوه اقتراحا فان استطعت ﴿أن تبتغى نفقا﴾ أى سربا ومنفذا ﴿فى الأرض﴾ تنفذ فيه الى جوفها ﴿أو سلما﴾ أى مصعدا ﴿فى السماء﴾ تعرج به فيها ﴿فتأتيهم﴾ منهما ﴿بآية﴾ مما اقترحوه فافعل وقد جوز أن يكون ابتغاؤهما نفس الاتيان بالآية فالفاء فى فتأتيهم حينئذ تفسيرية وتنوين آية للتفخيم أى فان استطعت أن تبتغيهما فتجعل ذلك آية لهم فافعل والظرفان متعلقان بمحذوفين هما نعتان لنفقا وسلما والأول لمجرد التأكيد اذ النفق لايكون الا فى الأرض أو بتبتغى وقد جوز تعلقهما بمحذوف وقع حالا من فاعل تبتغى أى أن تبتغى نفقا كائنا أنت فى الأرض أو سلما كائنا فى السماء وفيه من الدلالة على تبالغ حرصه عليه الصلاة والسلام على اسلام قومه وترامبه الى حيث لو قدر على أن يأتى بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لفعل رجاء لايمانهم مالايخفى وايثار الابتغاء على الاتخاذ ونحوه للايذان بأن ماذكر من النفق والسلم مما لايستطاع ابتغاؤه فكيف باتخاذه ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ أى ولو شاء الله تعالى أن يجمعهم على ما أنتم عليه من الهدى لفعله بأن يوفقهم للايمان فيؤمنوا معكم ولكن لم يشأ لعدم صرف اختيارهم الى جانب الهدى مع تمكنهم التام منه فى مشاهدتهم للآيات الداعية اليه لأنه تعالى لم يوفقهم له مع توجههم الى تحصيله وقيل لوشاء الله لجمعهم عليه بأن يأتيهم بآية ملجئة اليه ولكن لم يفعله لخروجه عن الحكمة وقوله تعالى ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان عليه من الحرص الشديد على اسلامهم والميل الى اتيان مايقترحونه من الآيات طمعاً فى ايمانهم مرتب على بيان عدم تعلق مشيئته تعالى بهدايتهم والمعنى واذا عرفت أنه تعالى لم يشأ هدايتهم وايمانهم بأحد الوجهين فلاتكونن بالحرص الشديد على اسلامهم أو الميل الى نزول مقترحاتهم من الجاهلين بدقائق شئونه تعالى التى من جملتها ماذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بايمانهم أما اختيارا فلعدم توجههم اليه وأما اضطرارا فلخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختيار ويجوز أن يراد بالجاهلين على الوجه الثانى المقترحون ويراد بالنهى منعه عليه الصلاة والسلام من المساعدة على اقتراحهم وايرادهم بعنوان الجهل دون الكفر ونحوه لتحقيق مناط النهى الذى هو الوصف الجامع بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم ﴿انما يستجيب الذين يسمعون﴾ تقرير لما مر من أن على قلوبهم أكنة مانعة من الفقه وفى آذانهم وقرا حاجزا من السماع وتحقيق لكونهم بذلك من قبيل الموتى لايتصور منهم الايمان البتة والاستجابة الاجابة المقارنة للقبول أى انما يقبل دعوتك الى الايمان الذين يسمعون مايلقى اليهم سماع تفهم وتدبر دون الموتى الذين هؤلاء منهم كقوله تعالى انك لاتسمع الموتى وقوله تعالى ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ تمثيل لاختصاصه تعالى بالقدرة على توفيقهم للايمان باختصاصه تعالى بالقدرة على بعث الموتى من القبور وقيل بيان لاستمرارهم على الكفر وعدم اقلاعهم عنه أصلا على أن الموتى من القبور وقيل بيان مستعار للكفرة بناء على تشبيه جهلهم بموتهم أى وهؤلاء الكفرة يبعثهم الله تعالى من قبورهم ﴿ثم اليه يرجعون﴾ للجزاء فحينئذ يستجيبون وأما قبل ذلك فلا سبيل اليه وقرئ يرجعون على البناء للفاعل من رجع رجوعا والمشهورة أوفى بحق المقام لانبائه عن كون مرجعهم اليه تعالى بطريق

الاضطرار ﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ﴾ حكاية لبعض آخر من أباطيلهم بعد حكاية ماقالوا في حق القرآن الكريم و بيان مايتعلق به والقائلون رؤساء قريش وقيل الحرث بن عامر بن نوفل وأصحابه ولقد بلغت بهم الضلالة والطغيان الى حيث لم يقتنعوا بما شاهدوا من البينات التى تخر لهاصم الجبال حتى اجترؤا على ادعاء أنها ليست من قبيل الآيات وانما هى ما اقترحوه من الخوارق الملجئة أو المعقبة للعذاب كما قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية والتنزيل بمعنى الانزال كما ينبئ عنه القراءة بالتخفيف فيما سيأتى وما يفيده التعرض لعنوان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من الاشعار بالعلية انما هو بطريق التعريض بالتهكم من جهتهم واطلاق الآية فى قوله تعالى ﴿ قل ان الله قادر على أن ينزل آية ﴾ مع أن المراد بها ماهو من الخوارق المذكورة لا آية ما من الآيات لفساد المعنى مجاراة معهم على زعمهم و يجوز أن يراد بها آية موجبة لهلاكهم كانزال ملائكة العذاب ونحوه على أن تنوينها للتفخيم والتهويل كما أن اظهار الاسم الجليل لتربية المهابة مع مافيه من الاشعار بعلة القدرة الباهرة والاقتصار فى الجواب على بيان قدرته تعالى على تنزيلها مع أنها ليست فى حيز الانكار للايذان بأن عدم تنزيله تعالى اياها مع قدرته عليه لحكمة بالغة يجب معرفتها وهم عنها غافلون كما ينبئ عنه الاستدراك بقوله تعالى ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى ليسوا من أهل العلم على أن المفعول مطروح بالكلية أو لا يعلمون شيئاً على أنه محذوف مدلول عليه بقرينة المقام والمعنى أنه تعالى قادر على أن ينزل آية من ذلك أو آية أى آية ولكن أكثرهم لا يعلمون فلا يدرون أن عدم تنزيلها مع ظهور قدرته عليه لما أن فى تنزيلها قلعاً للأساس التكليف المبنى على قاعدة الاختيار أو استئصالاً لهم بالكلية فيقترحونها جهلا و يتخذون عدم تنزيلها ذريعة الى التكذيب وتخصيص عدم العلم بأكثرهم لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال وانما يفعلون ما يفعلون مكابرة وعنادا وقوله تعالى ﴿ وما من دابة فى الارض ﴾ الخ كلام مستأنف مسوق لبيان كمال قدرته عز وجل وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه تعالى قادر على تنزيل الآية وانما لا ينزلها محافظة على الحكم البالغة و زيادة من لتأكيد الاستغراق و فى متعلقة بمحذوف هو وصف لدابة مفيد لزيادة التعميم كأنه قيل ومافرد من أفراد الدواب يستقر فى قطر من أقطار الارض و كذا زيادة الوصف فى قوله تعالى ﴿ و لا طائر يطير بجناحيه ﴾ مع مافيه من زيادة التقرير أى و لا طائر من الطيور يطير فى ناحية من نواحى الجو بجناحيه كما هو المشاهد المعتاد وقرئ و لا طائر بالرفع عطفا على محل الجار والمجرور كأنه قيل ومادابة و لا طائر ﴿ الا أمم ﴾ أى طوائف متخالفة والجمع باعتبار المعنى كأنه قيل ومامن دواب و لا طير الا أمم ﴿ أمثالكم ﴾ أى كل أمة منها مثلكم فى أن أحوالها محفوظة وأمورها مقننة ومصالحها مرعية جارية على سنن السداد ومنتظمة فى سلك التقديرات الالهية والتدبيرات الربانية ﴿ مافرطنا فى الكتاب من شئ ﴾ يقال فرط الشئ أى ضيعه وتركه قال ساعدة ابن حوية معه سقاء لا يفرط حمله أى لا يتركه و لا يفارقه و يقال فرط فى الشئ أى أهمل ماينبغى أن يكون فيه وأغفله فقوله تعالى فى الكتاب أى فى القرآن على الأول ظرف لغو وقوله تعالى من شئ مفعول لفرطنا ومن مزيدة للاستغراق أى ماتركنا فى القرآن شيئاً من الأشياء المهمة التى من جملتها بيان أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته على ماينبغى وعلى الثانى مفعول للفعل ومن شئ فى موضع المصدر أى ماجعلنا الكتاب مفرطا فيه شيئاً من التفريط بل ذكرنا فيه كل مالا بد من ذكره وأياً ما كان فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبلها وقيل الكتاب اللوح فالمراد بالاعتراض الاشارة الى أن أحوال الأمم مستقصاة فى اللوح المحفوظ غير مقصورة على هذا القدر المجمل وقرئ فرطنا بالتخفيف وقوله تعالى ﴿ ثم الى ربهم يحشرون ﴾ بيان لأحوال الأمم المذكورة فى الآخرة بعد بيان أحوالها فى الدنيا وايراد ضميرها على صيغة جمع العقلاء لاجرائها مجراهم والتعبير عنها بالأمم أى الى مالك أمورهم يحشرون يوم القيامة كدأبكم لا الى غيره فيجازيهم

فينصف بعضهم من بعض حتى يبلغ من عدله أن يأخذ للجماء من القرناء وقيل حشرها موتها و يأباه مقام تهويل الخطب وتفظيع الحال وقوله تعالى ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ متعلق بقوله تعالى مافرطنا فى الكتاب من شئ والموصول عبارة عن المعهودين فى قوله تعالى ومنهم من يستمع اليك الآيات ومحله الرفع على الابتداء خبره مابعده أى أوردنا فى القرآن جميع الأمور المهمة وأزحنا به العلل والاعذار والذين كذبوا بآياتنا التى هى منه ﴿صم﴾ لا يسمعونها سمع تدبر وفهم فلذلك يسمونها أساطير الأولين ولا يعدونها من الآيات و يقترحون غيرها ﴿و بكم﴾ لا يقدرون على أن ينطقوا بالحق و لذلك لا يستجيبون دعوتك بها وقوله تعالى ﴿فى الظلمات﴾ أى فى ظلمات الكفر أو ظلمات الجهل والعناد والتقليد اما خبر ثان للمبتدا على أنه عبارة عن العمى كما فى قوله تعالى صم بكم عمى واما متعلق بمحذوف وقع حالا من المستكن فى الخبر كأنه قيل ضالون كائنين فى الظلمات أو صفة لبكم أى بكم كائنون فى الظلمات والمراد به بيان كمال عراقتهم فى الجهل وسوء الحال فان الأصم الأبكم اذا كان بصيرا ربما يفهم شيئاً باشارة غيره وان لم يفهمه بعبارته و كذا يشعر غيره بما فى ضميره بالاشارة وان كان معزولا عن العبارة وأما اذا كان مع ذلك أعمى أو كان فى الظلمات فينسد عليه باب الفهم والتفهيم بالكلية وقوله تعالى ﴿من يشأ الله يضلله﴾ تحقيق للحق وتقرير لما سبق من حالهم ببيان أنهم من أهل الطبع لا يتأتى منهم الايمان أصلا فمن مبتدأ خبره مابعده ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وانتفاء الغرابة فى تعلقها به أى من يشأ الله اضلاله أى أن يخلق فيه الضلال يضلله أى يخلقه فيه لكن لا ابتداء بطريق الجبر من غير أن يكون له دخل ما فى ذلك بل عند صرف اختياره الى كسبه وتحصيله وقس عليه قوله تعالى ﴿ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ لا يضل من ذهب اليه و لا يزل من ثبت قدمه عليه ﴿قل أرأيتكم﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبكتهم و يلقمهم الحجر بما لا سبيل لهم الى النكير والكاف حرف جئ به لتأكيد الخطاب لا محل له من الاعراب ومبنى التركيب وان كان على الاستخبار عن الرؤية قلبية كانت أو بصرية لكن المراد به الاستخبار عن متعلقها أى أخبرونى ﴿ان أتاكم عذاب الله﴾ حسبما أتى الأمم السابقة من أنواع العذاب الدنيوى ﴿أو أتتكم الساعة﴾ التى لا محيص عنها البتة ﴿أغير الله تدعون﴾ هذا مناط الاستخبار ومحط التبكيت وقوله تعالى ﴿ان كنتم صادقين﴾ متعلق بأرأيتكم مؤكد للتبكيت كاشف عن كذبهم وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أى ان كنتم صادقين فى أن أصنامكم آلهة كما أنها دعواكم المعروفة أو ان كنتم قوما صادقين فأخبرونى أغير الله تدعون ان أتاكم عذاب الله الخ فان صدقهم بأى معنى كان من موجبات اخبارهم بدعائهم غيره سبحانه وأما جعل الجواب مايدل عليه قوله تعالى أغير الله تدعون أعنى فادعوه على أن الضمير لغير الله فمخل بجزالة النظم الكريم كيف لا والمطلوب منهم انما هو الاخبار بدعائهم غيره تعالى عند اتيان ما يأتى لا نفس دعائهم اياه وقوله تعالى ﴿بل اياه تدعون﴾ عطف على جملة منفية ينبئ عنها الجملة التى تعلق بها الاستخبار انباء جليا كأنه قيل لا غيره تعالى تدعون بل اياه تدعون وقوله تعالى ﴿فيكشف ماتدعون اليه﴾ أى الى كشفه عطف على تدعون أى فيكشفه اثر دعائكم وقوله تعالى ﴿ان شاء﴾ أى ان شاء كشفه لبيان أن قبول دعائهم غير مطرد بل هو تابع لمشيئته المبنية على حكم خفية قد استأثر الله تعالى بعلمها فقد يقبله كما فى بعض دعواتهم المتعلقة بكشف العذاب الدنيوى وقد لا يقبله كما فى بعض آخر منها و فى جميع ما يتعلق بكشف العذاب الأخروى الذى من جملته الساعة وقوله تعالى ﴿وتنسون ماتشركون﴾ أى تتركون ماتشركونه به تعالى من الأصنام تركا كليا عطف على تدعون أيضا وتوسيط الكشف بينهما مع تقارنهما وتأخر الكشف عنهما لاظهار كمال العناية بشأن الكشف والايذان بترتبه على الدعاء خاصة وقوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أن منهم من لا يدعو الله

تعالى عند اتيان العذاب أيضا لتماديهم فى الغى والضلال لا يتأثرون بالزواجر التكوينية كما لا يتأثرون بالزواجر التنزيلية وتصديره بالجملة القسمية لاظهار مزيد الاهتمام بمضمونه ومفعول أرسلنا محذوف لما أن مقتضى المقام بيان حال المرسل اليهم لا حال المرسلين أى وبالله لقد أرسلنا رسلا ﴿الى أمم﴾ كثيرة ﴿من قبلك﴾ أى كائنة من زمان قبل زمانك ﴿فأخذناهم﴾ أى فكذبوا رسلهم فأخذناهم ﴿بالبأساء﴾ أى بالشدة والفقر ﴿والضراء﴾ أى الضر والآفات وهما صيغتا تأنيث لا مذكر لهما ﴿لعلهم يتضرعون﴾ أى لكى يدعوا الله تعالى فى كشفها بالتضرع والتذلل ويتوبوا اليه من كفرهم ومعاصيهم ﴿فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ أى فلم يتضرعوا حينئذ مع تحقق ما يستدعيه ﴿ولكن قست قلوبهم﴾ استدراك عما قبله أى فلم يتضرعوا اليه تعالى برقة القلب والخضوع مع تحقق ما يدعوهم اليه ولكن ظهر منهم نقيضه حيث قست قلوبهم أى استمرت على ما هى عليه من القساوة أو ازدادت قساوة كقولك لم يكرمنى اذ جئته ولكن أهاننى ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ من الكفر والمعاصى فلم يخطروا ببالهم أن ما اعتراهم من البأساء والضراء ما اعتراهم الا لأجله وقيل الاستدراك لبيان أنه لم يكن لهم فى ترك التضرع عذر سوى قسوة قلوبهم والاعجاب بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم وقوله تعالى ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ عطف على مقدر ينساق اليه النظم الكريم أى فانهمكوا فيه ونسوا ما ذكروا به من البأساء والضراء فلما نسوه ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شئ﴾ من فنون النعماء على منهاج الاستدراج لما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال مكر بالقوم ورب الكعبة وقرئ فتحنا بالتشديد للتكثير وفى ترتيب الفتح على النسيان المذكور اشعار بأن التذكر فى الجملة غير خال عن النفع وحتى فى قوله تعالى ﴿حتى اذا فرحوا بما أوتوا﴾ هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية كما فى قوله تعالى حتى اذا جاء أمرنا الآية ونظائره وهى مع ذلك غاية لقوله تعالى فتحنا أو لما يدل هو عليه كأنه قيل ففعلوا ما فعلوا حتى اذا اطمأنوا بما أتيح لهم وبطروا وأشروا ﴿أخذناهم بغتة﴾ أى نزل بهم عذابنا فجأة ليكون أشد عليهم وقعا وأفظع هولا ﴿فاذاهم مبلسون﴾ متحسرون غاية الحسرة آيسون من كل خير واجمون وفى الجملة الاسمية دلالة على استقرارهم على تلك الحالة الفظيعة ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾ أى آخرهم بحيث لم يبق منهم أحد من دبره دبرا ودبورا أى تبعه ووضع الظاهر موضع الضمير للاشعار بعلة الحكم فان هلاكهم بسبب ظلمهم الذى هو وضع الكفر موضع الشكر واقامة المعاصى مقام الطاعات ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ على ما جرى عليهم من النكال فان اهلاك الكفار والعصاة من حيث أنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة نعمة جليلة مستجلبة للحمد لا سيما مع ما فيه من اعلاء كلمة الحق التى نطقت بها رسلهم عليهم السلام ﴿قل أرأيتم﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتكرير التبكيت عليهم وتثنية الالزام بعد تكملة الالزام الأول ببيان أنه أمر مستمر لم يزل جاريا فى الامم وهذا أيضا استخبار عن متعلق الرؤية وان كان بحسب الظاهر استخبارا عن نفس الرؤية ﴿ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ بأن أصمكم وأعماكم بالكلية ﴿وختم على قلوبكم﴾ بأن غطى عليها بما لا يبقى لكم معه عقل وفهم أصلا وتصيرون مجانين ويجوز أن يكون الختم عطفا تفسيريا للاخذ المذكور فان السمع والبصر طريقان للقلب منهما يرد ما يرده من المدركات فأخذهما سد لبابه بالكلية وهو السر فى تقديم أخذهما على ختمها وأما تقديم السمع على الابصار فلانه مورد الآيات القرآنية وافراده لما أن أصله مصدر وقوله تعالى ﴿من اله﴾ مبتدأ وخبر ومن استفهامية وقوله تعالى ﴿غير الله﴾ صفة للخبر وقوله تعالى ﴿يأتيكم به﴾ أى بذاك على أن الضمير مستعار لاسم الاشارة أو بما أخذ وختم عليه صفة أخرى له والجملة متعلق الرؤية ومناط الاستخبار أى أخبرونى ان سلب الله مشاعركم من اله غيره تعالى يأتيكم بها وقوله تعالى ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من

عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة أى انظر كيف نكررها ونقررها مصروفة من أسلوب الى أسلوب تارة بترتيب المقدمات العقلية وتارة بطريق الترغيب والترهيب وتارة بالتنبيه والتذكير ﴿ثم هم يصدفون﴾ عطف على نصرف داخل فى حكمه وهو العمدة فى التعجيب وثم لاستبعاد صدوفهم أى اعراضهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النمط البديع الموجب للاقبال عليها ﴿قل أرأيتكم﴾ تبكيت آخر لهم بالجائهم الى الاعتراف باختصاص العذاب بهم ﴿ان أتاكم عذاب الله﴾ أى عذابه العاجل الخاص بكم كما أتى من قبلكم من الامم ﴿بغتة﴾ أى فجأة من غير أن يظهر منه مخايل الاتيان وحيث تضمن هذا معنى الخفية قوبل بقوله تعالى ﴿أوجهرة﴾ أى بعد ظهور أماراته وعلائمه وقيل ليلا أونهارا كما فى قوله تعالى بياتا أونهارا لما أن الغالب فيما أتى ليلا البغتة وفيما أتى نهارا الجهرة وقرئ بغتة أوجهرة وهما فى موضع المصدر أى اتيان بغتة أواتيان جهرة وتقديم البغتة لكونها أهول وأفظع وقوله تعالى ﴿هل يهلك﴾ متعلق الاستخبار والاستفهام للتقرير أى قل لهم تقريرا لهم باختصاص الهلاك بهم أخبرونى ان أتاكم عذابه تعالى حسبما تستحقونه هل يهلك بذلك العذاب الا أنتم أى هل يهلك غيركم ممن لايستحقه وانما وضع موضعه ﴿الا القوم الظالمون﴾ تسجيلا عليهم بالظلم وايذانا بأن مناط اهلاكهم ظلمهم الذى هو وضعهم الكفر موضع الايمان وقيل المراد بالظالمين الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا قال الزجاج هل يهلك الا أنتم ومن أشبهكم ويأباه تخصيص الاتيان بهم وقيل الاستفهام بمعنى النفى فمتعلق الاستخبار حينئذ محذوف كأنه قيل أخبرونى ان أتاكم عذابه تعالى بغتة أوجهرة ماذا يكون الحال ثم قيل بيانا لذلك مايهلك الا القوم الظالمون أى مايهلك بذلك العذاب الخاص بكم الا أنتم فمن قيد الهلاك بهلاك التعذيب والسخط لتحقيق الحصر باخراج غير الظالمين لما أنه ليس بطريق التعذيب والسخط بل بطريق الاثابة ورفع الدرجة فقد أهمل مايجديه واشتغل بما لايعنيه وأخل بجزالة النظم الكريم وقرئ هل يهلك من الثلاثى ﴿وما نرسل المرسلين﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان وظائف منصب الرسالة على الاطلاق وتحقيق مافى عهدة الرسل عليهم السلام واظهار أن مايقترحه الكفرة عليه عليه السلام ليس مما يتعلق بالرسالة أصلا وصيغة المضارع لبيان أن ذلك أمر مستمر جرت عليه العادة الالهية وقوله تعالى ﴿الا مبشرين ومنذرين﴾ حالان مقدرتان من المرسلين أى مانرسلهم الامقدرا تبشيرهم وانذارهم ففيهما معنى العلة الغائية قطعا أى ليبشروا قومهم بالثواب على الطاعة وينذروهم بالعقاب على المعصية أى ليخبروهم بالخبر السار والخبر الضار دنيويا كان أوأخرويا من غير أن يكون لهم دخل مافى وقوع المخبر به أصلا وعليه يدور القصر والالازم أن لايكون بيان الشرائع والأحكام من وظائف الرسالة والفاء فى قوله تعالى ﴿فمن آمن وأصلح﴾ لترتيب مابعدها على ماقبلها ومن موصولة والفاء فى قوله تعالى ﴿فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ لشبه الموصول بالشرط أى لاخوف عليهم من العذاب الذى أنذروه دنيويا كان أو أخرويا ولاهم يحزنون بفوات مابشروا به من الثواب العاجل والآجل وتقديم نفى الخوف على نفى الحزن لمراعاة حق المقام وجمع الضمائر الثلاثة الراجعة الى من باعتبار معناها كما أن افراد الضميرين السابقين باعتبار لفظها أى لايعتريهم مايوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لايخافون ولايحزنون والمراد بيان دوام انتفائهما لابيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما تقرر فى موضعه من أن النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام ألا يرى أن الجملة الاسمية تدل بمعونة المقام على استمرار الثبوت فاذا دخل عليها حرف النفى دلت على استمرار الانتفاء لاعلى انتفاء الاستمرار كذلك المضارع الخالى عن حرف النفى يفيد استمرار الثبوت فاذا دخل عليه حرف النفى

يفيد استمرار الانتفاء لاانتفاء الاستمرار ولا بعد فى ذلك فان قولك مازيدا ضربت مفيد لاختصاص النفى لانفى الاختصاص كما بين فى محله وقوله عز وجل ﴿والذين كذبوا﴾ عطف على من آمن داخل فى حكمه وقوله تعالى ﴿بآياتنا﴾ اشارة الى أن ماينطق به الرسل عليهم السلام عند التبشير والانذار ويبلغونه الى الامم آياته تعالى وأن من آمن به فقد آمن بآياته تعالى ومن كذب به فقد كذب بها وفيه من الترغيب فى الايمان به والتحذير عن تكذيبه مالايخفى والمعنى مانرسل المرسلين الا ليخبروا أممهم من جهتنا بما سيقع منا من الامور السارة والضارة لاليوقعوها استقلالا من تلقاء أنفسهم أو استدعاء من قبلنا حتى يقترحوا عليهم مايقترحون فاذا كان الامر كذلك فمن آمن بما أخبروا به من قبلنا تبشيرا أو انذارا فى ضمن آياتنا وأصلح مايجب اصلاحه من أعماله أو دخل فى الصلاح فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا التى بلغوها عند التبشير والانذار ﴿يمسهم العذاب﴾ أى العذاب الذى أنذروه عاجلا أو آجلا أو حقيقة العذاب وجنسه المنتظم لدانتظاما أوليا ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أى بسبب فسقهم المستمر الذى هو الاصرار على الخروج عن التصديق والطاعة ﴿قل لاأقول لكم عندى خزائن الله﴾ استئناف مبنى على ماأسس من السنة الالهية فى شأن ارسال الرسل وانزال الكتب مسوق لاظهار تبرئه صلى الله عليه وسلم عما يدورعليه مقترحاتهم أى قل للكفرة الذين يقترحون عليك تارة تنزيل الآيات وأخرى غير ذلك لاأدعى أن خزائن مقدوراته تعالى مفوضة الى أتصرف فيها كيفما أشاء استقلالا أو استدعاء حتى تقترحوا على تنزيل الآيات أو انزال العذاب أو قلب الجبال ذهبا أو غير ذلك مما لا يليق بشأنى وجعل هذا تبرؤا عن دعوى الالهية مما لاوجه له قطعا وقوله تعالى ﴿ولاأعلم الغيب﴾ عطف على محل عندى خزائن الله أى ولاأدعى أيضا أنى أعلم الغيب من أفعاله تعالى حتى تسألونى عن وقت الساعة أو وقت نزول العذاب أو نحوهما ﴿ولاأقول لكم انى ملك﴾ حتى تكلفونى من الافاعيل الخارقة للعادات مالايطيق به البشر من الرقى فى السماء ونحوه أو تعدوا عدم اتصافى بصفاتهم قادحا فى أمرى كما ينبئ عنه قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق والمعنى انى لاأدعى شيأ من هذه الاشياء الثلاثة حتى تقترحوا على ماهو من آثارها وأحكامها وتجعلوا عدم اجابتى الى ذلك دليلا على عدم صحة ماأدعيه من الرسالة التى لاتعلق لها بشئ مما ذكر قطعا بل انما هى عبارة عن تلقى الوحى من جهة الله عز وجل والعمل بمقتضاه فحسب حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿ان أتبع الا مايوحى الى﴾ لاعلى معنى تخصيص اتباعه صلى الله عليه وسلم بما يوحى اليه دون غيره بتوجيه القصر الى المفعول بالقياس الى مفعول آخر كما هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر الى مايتعلق بالفعل باعتبار النفى فى الاصل والاثبات فى القيد بل على معنى تخصيص حاله صلى الله عليه وسلم باتباع مايوحى اليه بتوجيه القصر الى نفس الفعل بالقياس الى مايغايره من الافعال لكن لاباعتبار النفى والاثبات معا فى خصوصية فان ذلك غير ممكن قطعا بل باعتبار النفى فيما يتضمنه من مطلق الفعل والاثبات فيما يقارنه من المعنى المخصوص فان كل فعل من الافعال الخاصة كنصر مثلا ينحل عند التحقيق الى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل والى معنى خاص يقومه فان معناه فعل النصر يرشدك الى ذلك قولهم معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الاعطاء والمنع فمورد القصر فى الحقيقة مايتعلق بالفعل بتوجيه النفى الى الاصل والاثبات الى القيد كأنه قيل ماأفعل الا اتباع مايوحى الى من غير أن يكون لى مدخل مافى الوحى أو فى الموحى بطريق الاستدعاء أو بوجه آخر من الوجوه أصلا ﴿قل هل يستوى الأعمى والبصير﴾ مثل للضال والمهتدى على الاطلاق والاستفهام انكارى والمراد انكار استواء من لايعلم ماذكر من الحقائق ومن يعلمها وفيه من الاشعار بكمال ظهورها ومن التنفير عن الضلال والترغيب فى الاهتداء مالا يخفى وتكرير الأمر لتثنية التبكيت وتأكيد الالزام وقوله تعالى

﴿أفلا تتفكرون﴾ تقريع وتوبيخ داخل تحت الأمر والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا تسمعون هذا الكلام الحق فلا تتفكرون فيه أو أتسمعون فلا تتفكرون فيه فمناط التوبيخ فى الأول عـدم الأمرين معا و فى الثانى عدم التفكر مع تحقق مايوجبه ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم﴾ بعد ماحكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن من الكفرة قوما لا يتعظون بتصريف الآيات الباهرة و لا يتأثرون بمشاهدة المعجزات القاهرة قد ايفت مشاعرهم بالكلية والتحقوا بالأموات وقرر ذلك بأن كرر عليهم من فنون التبكيت والالزام مايلقمهم الحجر أى القام فأبوا الا الاباء والنكير وما نجع فيهم عظة و لا تذكير وما أفادهم الانذار الا الاصرار على الانكار أمر عليه الصلاة والسلام بتوجيه الانذار الى من يتوقع منهم التأثر فى الجملة وهم المجوزون منهم للحشر على الوجه الآتى سواء كانوا جازمين بأصله كأهل الكتاب وبعض المشركين المعترفين بالبعث المترددين فى شفاعة آبائهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كالأولين أو فى شفاعة الأصنام كالآخرين أو مترددين فيهما معا كبعض الكفرة الذين يعلم من حالهم أنهم اذا سمعوا بحديث البعث يخافون أن يكون حقاً وأما المنكرون للحشر رأسا والقائلون به القاطعون بشفاعة آبائهم أو بشفاعة الأصنام فهم خارجون ممن أمر بانذارهم وقد قيل هم المفرطون فى الأعمال من المؤمنين و لا يساعده سباق النظم الكريم و لا سياقه بل فيه مايقضى باستحالة صحته كما ستقف عليه والضمير المجرور لما يوحى أو لما دل هو عليه من القرآن والمفعول الثانى للانذار اما العذاب الأخروى المدلول عليه بما فى حيز الصلة واما مطلق العذاب الذى ورد به الوعيد والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلى لتربية المهابة وتحقيق المخافة وقوله تعالى ﴿ليس لهم من دونه ولى و لا شفيع﴾ فى حيز النصب على الحالية من ضمير يحشروا ومن متعلقة بمحذوف وقع حالا من اسم ليس لأنه فى الأصل صفة له فلما قدم عليه انتصب حالا خلا أن الحال الأولى لاخراج الحشر الذى لم يقيد بها عن حيز الخوف وتحقيق أن مانيط به الخوف هو الحشر على تلك الحالة لا الحشر كيفما كان ضرورة أن المعترفين به الجازمين بنصرة غيره تعالى بمنزلة المنكرين له فى عـدم الخوف الذى عليه يدور أمر الانذار وأما الحال الثانية فليست لاخراج الولى الذى لم يقيد بها عن حيز الانتفاء لفساد المعنى لاستلزام ثبوت ولايته تعالى لهم كما فى قوله تعالى ومالكم من دون الله من ولى و لا نصير بل لتحقيق مدار خوفهم وهو فقدان ماعلقوا به رجاءهم وذلك انما هو ولاية غيره سبحانه وتعالى فى قوله تعالى ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء والمعنى أنذر به الذين يخافون أن يحشروا غير منصورين من جهة أنصارهم على زعمهم ومن هذا اتضح أن لاسبيل الى كون المراد بالخائفين المفرطين من المؤمنين اذ ليس لهم ولى سواه تعالى ليخافوا الحشر بدون نصرته وانما الذى يخافونه الحشر بدون نصرته عز وجل وقوله تعالى ﴿لعلهم يتقون﴾ تعليل للأمر أى أنذرهم لكى يتقوا الكفر والمعاصى أو حال من ضمير الأمر أى أنذرهم راجيا تقواهم أو من الموصول أى أنذرهم مرجوا منهم التقوى ﴿و لا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى﴾ لما أمر صلى الله عليه وسلم بانذار المذكورين لينتظموا فى سلك المتقين نهى صلى الله عليه وسلم عن كون ذلك بحيث يؤدى الى طردهم . روى أن رؤساء من المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو طردت هؤلاء الأعبد وأرواح جبابهم يعنون فقراء المسلمين كعمار وصهيب وخباب وسلمان وأضرابهم رضى الله تعالى عنهم جلسنا اليك وحادثناك فقال صلى الله عليه وسلم ما أنا بطارد المؤمنين فقالوا فأقمهم عنا اذا جئنا فاذا قمنا فأقعدهم معك ان شئت قال صلى الله عليه وسلم نعم طمعا فى ايمانهم . وروى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال له عليه الصلاة والسلام لو فعلت حتى ننظر الى مايصيرون وقيل ان عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدى والحرث بن نوفل وقرصة بن عبيد وعمرو بن نوفل

وأشراف بنى عبد مناف من أهل الكفر أتوا أبا طالب فقالوا ياأبا طالب لو أن ابن أخيك محمدا يطرد موالينا وخلفاءنا وهم عبيدنا وعتقاؤنا كان أعظم فى صدورنا وأدنى لاتباعنا اياه فأتى أبو طالب الى النبى صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذى كلموه فقال عمر رضى الله عنه لو فعلت ذلك حتى ننظر ماالذى يريدون والى مايصيرون وقال سلمان وخباب فينا نزلت هذه الآية جاء الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى وعباس بن مرداس وذو وهم من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم جالسا مع أناس من ضعفاء المؤمنين فلما رأوهم حوله صلى الله عليه وسلم حقروهم فأتوه عليه الصلاة والسلام فقالوا يارسول الله لو جلست فى صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم فجالسناك وحادثناك وأخذنا عنك فقال صلى الله عليه وسلم ماأنابطارد المؤمنين قالوا فانانحب أن تجعل لنا معك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا فان وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا مع هؤلاء الأعبد فاذا نحن جئناك فأقمهم عنا فاذانحن فرغنا فاقعد معهم ان شئت قال صلى الله عليه وسلم نعم قالوا فاكتب لنا كتابا فدعا بالصحيفة و بعلى رضى الله تعالى عنه ليكتب ونحن قعود فى ناحية فنزل جبريل عليه السلام بالآية فرمى عليه السلام بالصحيفة ودعانا فأتيناه وجلسنا عنده وكنا ندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته وكان يقوم عنا اذا أراد القيام فنزلت واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم فترك القيام عنا الى أن نقوم عنه وقال الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى معكم المحيا ومعكم الممات والمراد بذكر الوقتين الدوام وقيل صلاة الفجر والعصر وقرىء بالغدوة وقوله تعالى ﴿يريدون وجهه﴾ حال من ضمير يدعون أى يدعونه تعالى مخلصين له فيه وتقييده به لتأكيد عليته للنهى فان الاخلاص من أقوى موجبات الاكرام المضاد للطرد وقوله تعالى ﴿ماعليك من حسابهم من شىء﴾ اعتراض وسط بين النهى وجوابه تقريرا له ودفعا لما عسى يتوهم كونه مسوغا لطردهم من أقاويل الطاعنين فى دينهم كدأب قوم نوح حيث قالوا مانراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى أى ماعليك شىء مامن حساب ايمانهم وأعمالهم الباطنة حتى تتصدى له وتبنى على ذلك ما تراه من الأحكام وانما وظيفتك حسبما هو شأن منصب النبوة اعتبار ظواهر الأعمال واجراء الأحكام على موجبها وأما بواطن الأمور فحسابها على العليم بذات الصدور كقوله تعالى ان حسابهم الا على ربى وذكر قوله تعالى ﴿وما من حسابك عليهم من شىء﴾ مع أن الجواب قد تم بما قبله للمبالغة فى بيان انتفاء كون حسابهم عليه صلى الله عليه وسلم بنظمه فى سلك ما لاشبهة فيه أصلا وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام عليهم على طريقة قوله تعالى لايستأخرون ساعة ولايستقدمون وأما ماقيل من أن ذلك لتنزيل الجملتين منزلة جملة واحدة لتأدية معنى واحد على نهج قوله تعالى ولاتزر وازرة وزر أخرى فغير حقيق بجلالة شأن التنزيل وتقديم عليك فى الجملة الأولى للقصد الى ايراد النفى على اختصاص حسابهم به صلى الله عليه وسلم اذ هو الداعى الى تصديه عليه الصلاة والسلام لحسابهم وقيل الضمير للمشركين والمعنى انك لاتؤاخذ بحسابهم حتى يهمك ايمانهم ويدعوك الحرص عليه الى أن تطرد المؤمنين وقوله تعالى ﴿فتطردهم﴾ جواب النفى وقوله تعالى ﴿فتكون من الظالمين﴾ جواب النهى وقد جوز عطفه على فتطردهم على طريقة التسبيب وليس بذاك ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾ استئناف مبين لما نشأ عنه ماسبق من النهى وذلك اشارة الى مصدر مابعده من الفعل الذى هو عبارة عن تقديمه تعالى لفقراء المؤمنين فى أمر الدين بتوفيقهم للايمان مع ماهم عليه فى أمر الدنيا من كمال سوء الحال وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه و بعد منزلته فى الكمال والكاف مقحمة لتأكيد ماأفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها فى الاصل النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد محذوف والتقدير فتنا بعضهم ببعض فتونا كائنا مثل ذلك الفتون ثم قدم على الفعل لافادة القصر المفيد لعدم القصور فقط واعتبرت الكاف مقحمة فصار نفس المصدر

المؤكد لانعتاً له والمعنى ذلك الفتون الكامل البديع فتنا أى ابتلينا بعض الناس ببعضهم لافتونا غيره حيث قدمنا الآخرين فى أمر الدين على الاولين المتقدمين عليهم فى أمر الدنيا تقدما كليا واللام فى قوله تعالى ﴿ليقولوا﴾ للعاقبة أى ليقول البعض الأولون مشيرين الى الآخرين محقرين لهم نظرا الى ماينهما من التفاوت الفاحش الدنيوى وتعاميا عما هو مناط التفضيل حقيقة ﴿أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ بأن وفقهم لاصابة الحق ولما يسعدهم عنده تعالى من دوننا ونحن المقدمون والرؤساء وهم العبيد والفقراء وغرضهم بذلك انكار وقوع المن رأسا على طريقة قولهم لوكان خيرا ماسبقونا اليه لاتحقير الممنون عليهم مع الاعتراف بوقوعه بطريق الاعتراض عليه تعالى وقوله تعالى ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ رد لقولهم ذلك وابطال له واشارة الى أن مدار استحقاق الانعام معرفة شأن النعمة والاعتراف بحق المنعم والاستفهام لتقرير علمه البالغ بذلك أى أليس الله بأعلم بالشاكرين لنعمه حتى تستبعدوا انعامه عليهم وفيه من الاشارة الى أن أولئك الضعفاء عارفون بحق نعم الله تعالى فى تنزيل القرآن والتوفيق للايمان شاكرون له تعالى على ذلك مع التعريض بأن القائلين بمعزل من ذلك كله مالا يخفى ﴿واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا﴾ هم الذين نهى عن طردهم وصفوا بالايمان بآيات الله عز وجل كما وصفوا بالمداومة على عبادته تعالى بالاخلاص تنبيها على احرازهم لفضيلتى العلم والعمل وتأخير هذا الوصف مع تقدمه على الوصف الأول لما أن مدار الوعد بالرحمة والمغفرة هو الايمان بها كما أن مناط النهى عن الطرد فيما سبق هو المداومة على العبادة وقوله تعالى ﴿فقل سلام عليكم﴾ أمر بتبشيرهم بالسلامة عن كل مكروه بعد انذار مقابليهم وقيل بتبليغ سلامه تعالى اليهم وقيل بأن يبدأهم بالسلام وقوله تعالى ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ أى قضاها وأوجبها على ذاته المقدسة بطريق التفضل والاحسان بالذات لابتوسط شىء ما أصلا تبشير لهم بسعة رحمته تعالى و بنيل المطالب اثر تبشيرهم بالسلامة عن المكاره وقبوله التوبة منهم و فى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم اظهار اللطف بهم والاشعار بعلة الحكم وقيل ان قوما جاءوا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا انا أصبنا ذنوبا عظاما فلم يرد عليهم شيئاً فانصرفوا فنزلت وقوله تعالى ﴿أنه من عمل منكم سوءا﴾ بدل من الرحمة وقرىء بكسر انه على أنه تفسير للرحمة بطريق الاستئناف وقوله تعالى ﴿بجهالة﴾ حال من فاعل عمل أى عمله وهو جاهل بحقيقة مايتبعه من المضار والتقييد بذلك للايذان بأن المؤمن لايباشر مايعلم أنه يؤدى الى الضرر أو عمله ملتبسا بجهالة ﴿ثم تاب من بعده﴾ أى من بعد عمله أو من بعد سفهه ﴿وأصلح﴾ أى ماأفسده تداركا وعزما على أن لايعود اليه أبدا ﴿فانه غفور رحيم﴾ أى فأمره أنه غفور رحيم أو فله أنه غفور رحيم وقرىء فانه بالكسر على أنه استئناف وقع فى صدر الجملة الواقعة خبراً لمن على أنها موصولة أو جوابا لها على أنها شرطية ﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ قد مر آنفا مافيه من الكلام أى هذا التفصيل البديع نفصل الآيات فى صفة أهل الطاعة وأهل الاجرام المصرين منهم والأوابين ﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾ بتأنيث الفعل بناء على تأنيث الفاعل وقرىء بالتذكير بناء على تذكيره فان السبيل مما يذكر و يؤنث وهو عطف على علة محذوفة للفعل المذكور لم يقصد تعليله بها بعينها وانما قصد الاشعار بأن له فوائد جمة من جملتها ماذكر أو علة لفعل مقدر هو عبارة عن المذكور فيكون مستأنفا أى ولتستبين سبيلهم نفعل مانفعل من التفصيل وقرىء بنصب السبيل على أن الفعل متعد وتاؤه للخطاب أى ولتستوضح أنت يامحمد سبيل المجرمين فتعاملهم بما يليق بهم ﴿قل انى نهيت﴾ أمر عليه الصلاة والسلام بالرجوع الى مخاطبة المصرين على الشرك اثر ماأمر بمعاملة من عداهم من أهل الانذار والتبشير بما يليق بحالهم أى قل لهم قطعا لاطماعهم الفارغة عن ركونه عليه الصلاة والسلام اليهم و بيانا لكون ماهم عليه من الدين هوى محضا وضلالا بحتا انى صرفت و زجرت بما نصب لى

من الأدلة وأنزل على من الآيات فى أمر التوحيد ﴿أن أعبد الذين تدعون﴾ أى عن عبادة ماتعبدونه ﴿من دون الله﴾ كائنا ماكان ﴿قل﴾ كرر الأمر مع قرب العهد اعتناء بشأن المأمور به أو ايذانا باختلاف المقولين من حيث أن الأول حكاية لما من جهته تعالى من النهى والثانى حكاية لما من جهته صلى الله عليه وسلم من الانتهاء عما ذكر من عبادة مايعبدونه وانما قيل ﴿لا أتبع أهواءكم﴾ استجهالا لهم وتنصيصا على أنهم فيما هم فيه تابعون لأهواء باطلة وليسوا على شىء مما ينطلق عليه الدين أصلا واشعارا بما يوجب النهى والانتهاء وقوله تعالى ﴿قد ضللت إذاً﴾ استئناف مؤكد لانتهائه عما نهى عنه مقرر لكونهم فى غاية الضلال والغواية أى ان اتبعت أهواءكم فقد ضللت وقوله تعالى ﴿وما أنا من المهتدين﴾ عطف على ماقبله والعدول الى الجملة الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار أى دوام النفى واستمراره لا نفى الدوام والاستمرار كما مر مرارا أى ما أنا فى شىء من الهدى حين أكون فى عدادهم وقوله تعالى ﴿قل انى على بينة﴾ تحقيق للحق الذى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان لاتباعه اياه اثر ابطال الباطل الذى عليه الكفرة وبيان عدم اتباعه له والبينة الحجة الواضحة التى تفصل بين الحق والباطل والمراد بها القرآن والوحى وقيل هى الحجج العقلية أو مايعمها ولا يساعده المقام والتنوين للتفخيم وقوله تعالى ﴿من ربى﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لبينة مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره صلى الله عليه وسلم من التشريف ورفع المنزلة ما لايخفى وقوله تعالى ﴿وكذبتم به﴾ اما جملة مستأنفة أو حالية بتقدير قد أو بدونه جىء بها لاستقباح مضمونها واستبعاد وقوعه مع تحقق مايقتضى عدمه من غاية وضوح البينة والضمير المجرور للبينة والتذكير باعتبار المعنى المراد والمعنى انى على بينة عظيمة كائنة من ربى وكذبتم بها وبما فيها من الاخبار التى من جملتها الوعيد بمجىء العذاب وقوله تعالى ﴿ماعندى ماتستعجلون به﴾ استئناف مبين لخطئهم فى شأن ماجعلوه منشأ لتكذيبهم بها وهو عدم مجىء ماوعد فيها من العذاب الذى كانوا يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد ان كنتم صادقين بطريق الاستهزاء أو بطريق الالزام على زعمهم أى ليس ماتستعجلونه من العذاب الموعود فى القرآن وتجعلون تأخره ذريعة الى تكذيبه فى حكمى وقدرتى حتى أجىء به وأظهر لكم صدقه أو ليس أمره بمفوض الى ﴿ان الحكم﴾ أى ما الحكم فى ذلك تعجيلا وتأخيرا أو ما الحكم فى جميع الأشياء فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا ﴿الا لله﴾ وحده من غير أن يكون لغيره دخل ما فيه بوجه من الوجوه وقوله تعالى ﴿يقص الحق﴾ أى يتبعه بيان لشئونه تعالى فى الحكم المعهود أو فى جميع أحكامه المنتظمة له انتظاما أوليا أى لايحكم الا بما هو حق فيثبت حقيقة التأخير وقرىء يقضى فانتصاب الحق حينئذ على المصدرية أى يقضى القضاء الحق أو على المفعولية أى يصنع الحق ويدبره من قولهم قضى الدرع اذا صنعها وأصل القضاء الفصل بتمام الأمر وأصل الحكم المنع فكأنه يمنع الباطل عن معارضة الحق أو الخصم عن التعدى على صاحبه ﴿وهو خير الفاصلين﴾ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله مشير الى أن قص الحق ههنا بطريق خاص هو الفصل بين الحق والباطل هذا هو الذى تستدعيه جزالة التنزيل وقد قيل ان المعنى انى من معرفة ربى وأنه لامعبود سواه على حجة واضحة وشاهد صدق وكذبتم به أنتم حيث أشركتم به تعالى غيره وأنت خبير بأن مساق النظم الكريم فيما سبق وما لحق على وصفهم بتكذيب آيات الله تعالى بسبب عدم مجىء العذاب الموعود فيها فتكذيبهم به سبحانه فى أمر التوحيد مما لاتعلق له بالمقام أصلا ﴿قل لو أن عندى﴾ أى فى قدرتى ومكنتى ﴿ماتستعجلون به﴾ من العذاب الذى ورد به الوعيد بأن يكون أمره مفوضا الى من جهته تعالى ﴿لقضى الأمر بينى وبينكم﴾ أى بأن ينزل ذلك عليكم اثر استعجالكم بقولكم متى هذا الوعد ونظائره وفى بناء الفعل للمفعول من الايذان بتعين الفاعل الذى هو

الله تعالى وتهويل الأمر ومراعاة حسن الأدب مالايخفى فما قيل فى تفسيره لأهلكتكم عاجلا غضبا لربى ولتخلصت منكم سريعا بمعزل من توفية المقام حقه وقوله تعالى ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ اعتراض مقرر لما أفادته الجملة الامتناعية من انتفاء كون أمر العذاب مفوضا اليه صلى الله عليه وسلم المستتبع لانتفاء قضاء الأمر وتعليل له والمعنى والله تعالى أعلم بحال الظالمين وبأنهم مستحقون للامهال بطريق الاستدراج لتشديد العذاب ولذلك لم يفوض الأمر الى فلم يقض الأمر بتعجيل العذاب والله أعلم ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ بيان لاختصاص المقدورات الغيبية به تعالى من حيث العلم اثر بيان اختصاص كلها به تعالى من حيث القدرة والمفاتح اما جمع مفتح بفتح الميم وهو المخزن فهو مستعار لمكان الغيب كأنها مخازن خزنت فيها الأمور الغيبية يغلق عليها ويفتح واما جمع مفتح بكسرها وهو المفتاح ويؤيده قراءة من قرأ مفاتيح الغيب فهو مستعار لما يتوصل به الى تلك الأمور بناء على الاستعارة الأولى أى عنده تعالى خاصة خزائن غيوبه أو مايتوصل به اليها وقوله عز وجل ﴿لايعلمها الا هو﴾ تأكيد لمضمون ماقبله وايذان بأن المراد هو الاختصاص من حيث العلم لا من حيث القدرة والمعنى أن ماتستعجلونه من العذاب ليس مقدورا لى حتى ألزمكم بتعجيله ولا معلوما لدى لأخبركم بوقت نزوله بل هو مما يختص به تعالى قدرة وعلما فينزله حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وقوله تعالى ﴿ويعلم مافى البر والبحر﴾ بيان لتعلق علمه تعالى بالمشاهدات اثر بيان تعلقه بالمغيبات تكملة له وتنبيها على أن الكل بالنسبة الى علمه المحيط سواء فى الجلاء أى يعلم مافيهما من الموجودات مفصلة على اختلاف أجناسها وأنواعها وتكثر أفرادها وقوله تعالى ﴿وما تسقط من ورقة الا يعلمها﴾ بيان لتعلقه بأحوالها المتغيرة بعد بيان تعلقه بذواتها فان تخصيص حال السقوط بالذكر ليس الا بطريق الاكتفاء بذكرها عن ذكر سائر الأحوال كما أن ذكر حال الورقة وماعطف عليها خاصة دون أحوال سائر مافيهما من فنون الموجودات الفائتة للحصر باعتبار أنها أنموذج لأحوال سائرها وقوله تعالى ﴿ولا حبة﴾ عطف على ورقة وقوله تعالى ﴿فى ظلمات الأرض﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لحبة مفيدة لكمال نفوذ علمه تعالى أى ولا حبة كائنة فى بطون الأرض الا يعلمها وكذا قوله تعالى ﴿ولا رطب ولا يابس﴾ معطوفان عليها داخلان فى حكمها وقوله تعالى ﴿الا فى كتاب مبين﴾ بدل من الاستثناء الأول بدل الكل على أن الكتاب المبين عبارة عن علمه تعالى أو بدل الاشتمال على أنه عبارة عن اللوح المحفوظ وقرئ الأخيران بالرفع عطفا على محل من ورقة وقيل رفعهما بالابتداء والخبر الا فى كتاب مبين وهو الأنسب بالمقام لشمول الرطب واليابس حينئذ لما ليس من شأنه السقوط وقد نقل قراءة الرفع فى ولا حبة أيضا ﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل﴾ أى ينيمكم فيه على استعارة التوفى من الاماتة للانامة لما بين الموت والنوم من المشاركة فى زوال الاحساس والتمييز وأصله قبض الشئ بتمامه ﴿ويعلم ماجرحتم بالنهار﴾ أى ما كسبتم فيه والمراد بالليل والنهار الجنس المتحقق فى كل فرد من افرادهما اذ بالتوفى والبعث الموجودين فيها يتحقق قضاء الاجل المسمى المترتب عليها لا فى بعضها والمراد بعلمه تعالى ذلك علمه قبل الجرح كما يلوح به تقديم ذكره على البعث أى يعلم ماتجرحون بالنهار وصيغة الماضى للدلالة على التحقق وتخصيص التوفى بالليل والجرح بالنهار مع تحقق كل منهما فيما خص بالآخر للجرى على سنن العادة ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ أى يوقظكم فى النهار عطف على يتوفاكم وتوسيط قوله تعالى ويعلم الخ بينهما لبيان مافى بعثهم من عظيم الاحسان اليهم بالتنبيه على أن مايكتسبونه من السيئات مع كونها موجبة لابقائهم على التوفى بل لاهلاكهم بالمرة يفيض عليهم الحياة ويمهلهم كما ينبئ عنه كلمة التراخى كأنه قيل هو الذى يتوفاكم فى جنس الليالى ثم يبعثكم فى جنس النهر مع علمه بما ستجرحون فيها ﴿ليقضى أجل مسمى﴾ معين لكل فرد فرد بحيث لا يكاد يتخطى أحد ماعين له طرفة عين ﴿ثم اليه مرجعكم﴾

أى رجوعكم بالموت لاالى غيره أصلا ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ بالمجازاة باعمالكم التى كنتم تعملونها فى تلك الليالى والأيام وقيل الخطاب مخصوص بالكفرة والمعنى انكم ملقون كالجيف بالليل كاسبون للآثام بالنهار وانه تعالى مطلع على أعمالكم يبعثكم الله من القبور فى شأن ماقطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار ليقضى الأجل الذى سماه وضرب به لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم وفيه مالايخفى من التكلف والاخلال لافضائه الى كون البعث معللا بقضاء الأجل المضروب له ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ أى هو المتصرف فى أمورهم لاغيره يفعل بهم مايشاء ايجادا واعداما واحياء واماتة وتعذيبا واثابة الى غير ذلك ﴿ويرسل عليكم﴾ خاصة أيها المكلفون ﴿حفظة﴾ من الملائكة وهم الكرام الكاتبون وعليكم متعلق بيرسل لما فيه من معنى الاستيلاء وتقديمه على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقيل متعلق بمحذوف هو حال من حفظة اذلوتأخر لكان صفة أى كائنين عليكم وقيل متعلق بحفظة والمحفوظ محذوف على كل حال أى يرسل عليكم ملائكة يحفظون أعمالكم كائنة ماكانت وفى ذلك حكمة جميلة ونعمة جليلة لما أن المكلف اذا علم أن أعماله تحفظ عليه وتعرض على رؤس الاشهاد كان ذلك أزجر له عن تعاطى المعاصى والقبائح وأن العبد اذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحتشمه احتشامه من خدمه الواقفين على أحواله وحتى فى قوله تعالى ﴿حتى اذا جاء أحدكم الموت﴾ هى التى يبتدأ بها الكلام وهى مع ذلك تجعل مابعدها من الجملة الشرطية غاية لما قبلها كأنه قيل ويرسل عليكم حفظة يحفظون أعمالكم مدة حياتكم حتى اذا انتهت مدة أحدكم كائنا من كان وجاءه أسباب الموت ومباديه ﴿توفته رسلنا﴾ الآخرون المفوض اليهم ذلك وهم ملك الموت وأعوانه وانتهى هناك حفظ الحفظة وقرئ توفاه ماضيا أومضارعا بطرح احدى التاءين ﴿وهم﴾ أى الرسل ﴿لايفرطون﴾ أى بالتوانى والتأخير وقرئ مخففا من الافراط أى لايجاوزون ماحد لهم بزيادة أونقصان والجملة حال من رسلنا وقيل مستأنفة سيقت لبيان اعتنائهم بما أمروا به وقوله تعالى ﴿ثم ردوا﴾ عطف على توفته والضمير للكل المدلول عليه بأحدكم وهو السر فى مجيئه بطريق الالتفات تغليبا والافراد أولا والجمع آخرا لوقوع التوفى على الانفراد والرد على الاجتماع أى ثم ردوا بعد البعث بالحشر ﴿الى الله﴾ أى الى حكمه وجزائه فى موقف الحساب ﴿مولاهم﴾ أى مالكهم الذى يلى أمورهم على الاطلاق لاناصرهم كما فى قوله تعالى وأن الكافرين لامولى لهم ﴿الحق﴾ الذى لايقضى الابالعدل وقرئ بالنصب على المدح ﴿ألاله الحكم﴾ يومئذ صورة ومعنى لا لأحد غيره بوجه من الوجوه ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ يحاسب جميع الخلائق فى أسرع زمان وأقصره لايشغله حساب عن حساب و لاشأن عن شأن وفى الحديث ان الله تعالى يحاسب الكل فى مقدار حلب شاة ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ أى قل تقريرا لهم بانحطاط شركائهم عن رتبة الالهية من ينجيكم من شدائدهما الهائلة التى تبطل الحواس وتدهش العقول ولذلك استعير لها الظلمات المبطلة لحاسة البصر يقال لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذوكواكب أومن الخسف فى البر والغرق فى البحر وقرئ ينجيكم من الانجاء والمعنى واحد وقوله تعالى ﴿تدعونه﴾ نصب على الحالية من مفعول ينجيكم والضمير لمن أى من ينجيكم منها حال كونكم داعين له أومن فاعله أى من ينجيكم منها حال كونه مدعوا من جهتكم وقوله تعالى ﴿تضرعا وخفية﴾ اما حال من فاعل تدعونه أو مصدر مؤكد له أى تدعونه متضرعين جهارا ومسرين أوتدعونه دعاء اعلان واخفاء وقرئ خفية بكسر الخاء وقوله تعالى ﴿لئن أنجيتنا﴾ حال من الفاعل أيضا على تقدير القول أى تدعونه قائلين لئن أنجيتنا ﴿من هذه﴾ الشدة والورطة التى عبرعنها بالظلمات ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ أى الراسخين فى الشكر المداومين عليه لأجل هذه النعمة أوجميع النعماء التى من جملتها هذه

وقرئ لئن أنجانا مراعاة لقوله تعالى تدعونه ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب﴾ أمر صلى الله عليه وسلم بتقرير الجواب مع كونه من وظائفهم للايذان بأنه متعين عندهم ولبناء قوله تعالى ﴿ثم أنتم تشركون﴾ عليه أى الله تعالى وحده ينجيكم مما تدعونه الى كشفه من الشدائد المذكورة وغيرها من الغموم والكرب ثم أنتم بعد ماتشاهدون هذه النعم الجليلة تشركون بعبادته تعالى غيره وقرئ ينجيكم بالتخفيف وقوله تعالى ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا﴾ استئناف مسوق لبيان أنه تعالى هو القادر على القائهم فى المهالك اثر بيان أنه هو المنجى لهم منها وفيه وعيد ضمنى بالعذاب لاشراكهم المذكور على طريقة قوله عز وجل أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر الى قوله تعالى أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى الآية وعليكم متعلق بيبعث وتقديمه على مفعوله الصريح للاعتناء به والمسارعة الى بيان كون المبعوث مما يضرهم ولتهويل أمر المؤخر وقوله تعالى ﴿من فوقكم﴾ متعلق به أيضا أو بمحذوف وقع صفة لعذابا أى عذابا كائنا من جهة الفوق كما فعل بمن فعل من قوم لوط وأصحاب الفيل وأضرابهم ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ أو من جهة السفل كما فعل بفرعون وقارون وقيل من فوقكم أكابركم ورؤسائكم ومن تحت أرجلكم سفلتكم وعبيدكم وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع فلا منع لما كان من الجهتين معا كما فعل بقوم نوح ﴿أو يلبسكم شيعا﴾ أى يخلطكم فرقا متحزبين على أهواء شتى كل فرقة مشايعة لامام فينشب بينكم القتال فتختلطوا فى الملاحم كقول الحماسى

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى اذا التبست نفضت لها يدى

﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ عطف على يبعث وقرئ بنون العظمة على طريقة الالتفات لتهويل الأمر والمبالغة فى التحذير والبعض الأول الكفار والآخر المؤمنون ففيه وعد ووعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال عند قوله تعالى عذابا من فوقكم أعوذ بوجهك وعند قوله تعالى أو من تحت أرجلكم أعوذ بوجهك وعند قوله تعالى أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض هذا أهون أو هذا أيسر وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال سألت ربى أن لا يبعث على أمتى عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطانى ذلك وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنى ذلك ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ من حال الى حال ﴿لعلهم يفقهون﴾ كى يفقهوا ويقفوا على جلية الامر فيرجعوا عما هم عليه من المكابرة والعناد ﴿وكذب به﴾ أى بالعذاب الموعود أو القرآن المجيد الناطق بمجيئه ﴿قومك﴾ أى المعاندون منهم ولعل ايرادهم بهذا العنوان للايذان بكمال سوء حالهم فان تكذيبهم بذلك مع كونهم من قومه عليه الصلاة والسلام مما يقضى بغاية عتوهم ومكابرتهم وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مرارا من اظهار الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقوله تعالى ﴿وهو الحق﴾ حال من الضمير المجرور أى كذبوا به والحال أنه الواقع لامحالة أو انه الكتاب الصادق فى كل مانطق به وقيل هو استئناف وأياما كان ففيه دلالة على عظم جنايتهم ونهاية قبحها ﴿قل﴾ لهم منبها على مايؤول اليه أمرهم وعلى أنك قد أديت ما عليك من وظائف الرسالة ﴿لست عليكم بوكيل﴾ بحفيظ وكل الى أمركم لامنعكم من التكذيب وأجبركم على التصديق انما أنا منذر وقد خرجت عن العهدة حيث أخبرتكم بما سترونه ﴿لكل نبأ﴾ أى لكل شئ ينبأ به من الانباء التى من جملتها عذابكم أو لكل خبر من الاخبار التى من جملتها خبر مجيئه ﴿مستقر﴾ أى وقت استقرار ووقوع البتة أو وقت استقرار بوقوع مدلوله ﴿وسوف تعلمون﴾ أى حال نبئكم فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما معا وسوف للتأكيد كما فى قوله تعالى ولتعلمن نبأه بعد حين ﴿واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا﴾ أى بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها كما هو دأب قريش وديدنهم ﴿فأعرض عنهم﴾ بترك مجالستهم والقيام عنهم وقوله تعالى ﴿حتى يخوضوا فى حديث غيره﴾ غاية للاعراض أى استمر على الاعراض الى أن يخوضوا فى حديث غير آياتنا

والتذكير باعتبار كونها حديثا فان وصف الحديث بمغايرتها مشير الى اعتبارها بعنوان الحديثية وقيل باعتبار كونها قرآنا ﴿ واما ينسينك الشيطان ﴾ بأن يشغلك فتنسى النهى فتجالسهم ابتداء أو بقاء وقرىء ينسينك من التنسية ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى ﴾ أى بعد تذكر النهى ﴿ مع القوم الظالمين ﴾ أى معهم فوضع المظهر موضع المضمر نعيا عليهم أنهم بذلك الخوض ظالمون واضعون التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم راسخون فى ذلك ﴿ وما على الذين يتقون ﴾ روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المسلمين حين نهوا عن مجالستهم عند خوضهم فى الآيات قالوا لئن كنا نقول كلما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس فى المسجد الحرام ونطوف بالبيت فنزلت أى ما على الذين يتقون قبائح أعمال الخائضين وأحوالهم ﴿ من حسابهم ﴾ أى مما يحاسبون عليه من الجرائر ﴿ من شىء ﴾ أى شىء ما على أنه فى محل الرفع على أنه مبتدأ وماتميمية أو اسم لها وهى حجازية ومن مزيدة للاستغراق ومن حسابهم حال منه وعلى الذين يتقون فى محل الرفع على أنه خبر للمبتدا أو لما الحجازية على رأى من لا يجيز اعمالها فى الخبر المقدم مطلقا أو فى محل النصب على رأى من يجوز اعمالها فى الخبر المقدم عند كونه ظرفا أو حرف جر ﴿ ولكن ذكرى ﴾ استدراك من النفى السابق أى ولكن عليهم أن يذكروهم و يمنعوهم عماهم عليه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير و يظهروا لهم الكراهة والنكير ومحل ذكرى اما النصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المحذوف أى عليهم أن يذكروهم تذكيرا أو الرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر أى ولكن عليهم ذكرى ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أى يجتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم وقد جوز كون الضمير للموصول أى يذكروهم رجاء أن يثبتوا على تقواهم أو يزدادوها ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم ﴾ الذى كلفوه وأمروا باقامة مواجبه ﴿ لعبا ولهوا ﴾ حيث سخروا به واستهزءوا أو بنوا أمر دينهم على مالا يكاد يتعاطاه العاقل بطريق الجد وانما يصدر عنه لو صدر بطريق اللعب واللهو كعبادة الاصنام وتحريم البحائر والسوائب ونحو ذلك والمعنى أعرض عنهم ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم وقيل هو تهديد لهم كقوله تعالى ذرهم يأكلوا و يتمتعوا الآية ﴿ وغرتهم الحيوة الدنيا ﴾ واطمأنوا بها حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبدا ﴿ وذكر به ﴾ أى بالقرآن من يصلح للتذكير ﴿ أن تبسل نفس بما كسبت ﴾ أى لئلا تبسل كقوله تعالى أن تضلوا الآية أو مخافة أن تبسل أو كراهة أن تبسل نفوس كثيرة كما فى قوله تعالى علمت نفس ما أحضرت وترتهن لسوء عملها وأصل الابسال والبسل المنع ومنه أسد باسل لان فريسته لا تفلت منه أو لانه ممتنع والباسل الشجاع لامتناعه من قرنه وهذا بسل عليك أى حرام ممنوع وقد جوز أن يكون الضمير المجرور فى به راجعا الى الابسال مع عدم جريان ذكره كما فى ضمير الشأن وتكون الجملة بدلا منه مفسرا له لما فى الابهام أولا والتفسير ثانيا من التفخيم وزيادة التقرير كما فى قوله   على جوده لضن بالماء حاتم   بجر حاتم على أنه بدل من ضمير جوده فالمعنى وذكر بارتهان النفوس وحبسها بما كسبت وقوله تعالى ﴿ ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع ﴾ استئناف مسوق للاخبار بذلك وقيل فى محل النصب على أنه حال من ضمير كسبت وقيل فى محل الرفع على أنه وصف لنفس والاظهر أنه حال من نفس فانه فى قوة نفس كافرة أو نفوس كثيرة كما فى قوله تعالى علمت نفس ما أحضرت ومن دون الله متعلق بمحذوف هو حال من ولى كما بين فى تفسير قوله تعالى وأنذر به الآية وقيل هو خبر لليس فيكون لها حينئذ متعلقا بمحذوف على البيان ﴿ وان تعدل ﴾ أى ان تفد تلك النفس ﴿ كل عدل ﴾ أى كل فداء على أنه مصدر مؤكد ﴿ لا يؤخذ منها ﴾ على اسناد الفعل الى الجار والمجرور لا الى ضمير العدل كما فى قوله تعالى ولا يؤخذ منها عدل فانه المفدى به لا المصدر كما نحن فيه ﴿ أولئك ﴾ اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم فى سوء الحال ومحله الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى ﴿ الذين أبسلوا بما كسبوا ﴾ والجملة مستأنفة سيقت اثر

تحذيرهم من الابسال المذكور لبيان أنهم المبتلون بذلك أى أولئك المتخذون دينهم لعبا ولهوا المغترون بالحياة الدنيا هم الذين أبسلوا بما كسبوا وقوله تعالى ﴿لهم شراب من حميم﴾ استئناف آخر مبين لكيفية الابسال المذكور وعاقبته مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل ماذا لهم حين أبسلوا بما كسبوا فقيل لهم شراب من ماء مغلى يتجرجر فى بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم ﴿وعذاب أليم﴾ بنار تشتعل بأبدانهم ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أى بسبب كفرهم المستمر فى الدنيا وقد جوز أن يكون لهم شراب الخ حالا من ضمير أبسلوا وترتيب ماذكر من العذابين على كفرهم مع أنهم معذبون بسائر معاصيهم أيضا حسبما ينطق به قوله تعالى بما كسبوا لانه العمدة فى ايجاب العذاب والأهم فى باب التحذير أو أريد بكفرهم ماهو أعم منه ومن مستتبعاته من المعاصى والسيئات هذا وقد جوز أن يكون أولئك اشارة الى النفوس المدلول عليها بنفس محله الرفع بالابتداء والموصول الثانى صفته أو بدل منه ولهم شراب الخ خبره والجملة مسوقة لبيان تبعة الابسال ﴿قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا﴾ قيل نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن الى عبادة الأصنام فتوجيه الأمر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للايذان بما بينهما من الاتصال والاتحاد تنويها لشأن الصديق رضى الله تعالى عنه أى أنعبد متجاوزين عبادة الله الجامع لجميع صفات الألوهية التى من جملتها القدرة على النفع والضر مالا يقدر على نفعنا اذا عبدناه ولا على ضرنا اذا تركناه وأدنى مراتب المعبودية القدرة على ذلك وقوله تعالى ﴿ونرد على أعقابنا﴾ عطف على ندعوا داخل فى حكم الانكار والنفى أى ونرد الى الشرك والتعبير عنه بالرد على الأعقاب لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ماهو علم فى القبح مع مافيه من الاشارة الى كون الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر وايثار نرد على نرتد لتوجيه الانكار الى الارتداد برد الغير تصريحا بمخالفة المضلين وقطعا لاطماعهم الفارغة وايذانا بأن الارتداد من غير راد ليس فى حيز الاحتمال ليحتاج الى نفيه وانكاره وقوله تعالى ﴿بعد اذهدانا الله﴾ أى الى الاسلام وأنقذنا من الشرك متعلق بنرد مسوق لتأكيد النكير لا لتحقيق معنى الرد وتصويره فقط والا لكفى أن يقال بعد اذ اهتدينا كأنه قيل ونرد الى الشرك باضلال المضل بعد اذ هدانا الله الذى لاهادى سواه وقوله تعالى ﴿كالذى استهوته الشياطين﴾ فى محل النصب على أنه حال من مرفوع نرد أى أنرد على أعقابنا مشبهين بالذى استهوته مردة الجن واستغوته الى المهامه والمهالك أو على أنه نعت لمصدر محذوف أى أنرد ردا مثل رد الذى استهوته الخ والاستهواء استفعال من هوى فى الأرض اذا ذهب فيها كأنها طلبت هويه وحرصت عليه وقرىء استهواه بألف ممالة وقوله تعالى ﴿فى الأرض﴾ اما متعلق باستهوته أو بمحذوف هو حال من مفعوله أى كائنا فى الأرض وكذا قوله تعالى ﴿حيران﴾ حال منه على أنها بدل من الأولى أو حال ثانية عند من يجيزها أو من الذى أو من المستكن فى الظرف أى تائها ضالا عن الجادة لايدرى مايصنع وقوله تعالى ﴿له أصحاب﴾ جملة فى محل النصب على أنها صفة لحيران أو حال من الضمير فيه أو مستأنفة سيقت لبيان حاله وقوله تعالى ﴿يدعونه الى الهدى﴾ صفة لأصحاب أى لذلك المستهوى رفقة يهدونه الى الطريق المستقيم تسمية له بالمصدر مبالغة كأنه نفس الهدى ﴿ائتنا﴾ على ارادة القول على أنه بدل من يدعونه أو حال من فاعله أى يقولون ائتنا وفيه اشارة الى أنهم مهتدون ثابتون على الطريق المستقيم وأن من يدعونه ليس ممن يعرف الطريق المستقيم ليدعى الى اتيانه وانما يدرك سمت الداعى ومورد النعيق فقط ﴿قل ان هدى الله﴾ الذى هدانا اليه وهو الاسلام ﴿هو الهدى﴾ وحده وماعداه ضلال محض وغى بحت كقوله تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال ونحوه وتكرير الأمر للاعتناء بشأن المأمور به ولأن ماسبق للزجر عن الشرك وهذا حث على الاسلام وهو توطئة لما بعده فان اختصاص الهدى بهداه تعالى مما يوجب الامتثال بالأوامر

الواردة بعده ﴿وأمرنا﴾ عطف على ان هدى الله هو الهدى داخل تحت القول واللام فى ﴿لنسلم لرب العالمين﴾ لتعليل الأمر المحكى وتعيين ماأريد به من الأوامر الثلاثة كمافى قوله تعالى قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلوة وينفقوا الآية كأنه قيل أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم وقيل هى بمعنى الباء أى أمرنا بأن نسلم وقيل زائدة أى أمرنا أن نسلم على حذف الباء وقوله تعالى ﴿وأن أقيموا الصلوة واتقوه﴾ أى الله تعالى فى مخالفة أمره عطف على نسلم على الوجوه الثلاثة على أن أن المصدرية اذا وصلت بالأمر يتجرد هو عن معنى الأمر نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال فالمعنى على الأول أمرنا أى قيل لنا أسلموا وأقيموا الصلاة واتقوا الله لأجل أن نسلم ونقيم الصلاة ونتقيه تعالى وعلى الاخيرين أمرنا بأن نسلم ونقيم الصلاة ونتقيه تعالى والتعرض لوصف ربوبيته تعالى للعالمين لتعليل الأمر وتأكيد وجوب الامتثال به كما أن قوله تعالى ﴿وهو الذى اليه تحشرون﴾ جملة مستأنفة موجبة للامتثال بما أمر به من الأمور الثلاثة ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض﴾ أريد بخلقهما خلق مافيهما أيضا وعدم التصريح بذلك لظهور اشتمالها على جميع العلويات والسفليات وقوله تعالى ﴿بالحق﴾ متعلق بمحذوف هو حال من فاعل خلق أومن مفعوله أوصفة لمصدره المؤكد له أى قائما بالحق أوملتبسة بالحق أوخلقا ملتبسا به وقوله تعالى ﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾ استئناف لبيان أن خلقه تعالى لما ذكر من السموات والارض ليس مما يتوقف على مادة أومدة بل يتم بمحض الأمر التكوينى من غير توقف على شئ آخر أصلا وأن ذلك الأمر المتعلق بكل فرد فرد من أفراد المخلوقات فى حين معين من أفراد الاحيان حق فى نفسه متضمن للحكمة ويوم ظرف لمضمون جملة قوله الحق والواو بحسب المعنى داخل عليها وتقديمه عليها للاعتناء به من حيث أنه مدار الحقية وترك ذكر المقول له للثقة بغاية ظهوره والمراد بالقول كلمة كن تحقيقا أو تمثيلا كما هو المشهور فالمعنى وأمره المتعلق بكل شئ يريد خلقه من الاشياء فى حين تعلقه به لاقبله ولابعده من أفراد الأحيان الحق أى المشهود له بالحقية المعروف بها هذا وقد قيل قوله مبتدأ والحق صفته ويوم يقول خبره مقدما عليه كقولك يوم الجمعة القتال وانتصابه بمعنى الاستقرار وحاصل المعنى قوله الحق كائن حين يقول لشئ من الأشياء كن فيكون ذلك الشئ وقيل يوم منصوب بالعطف على السموات أوعلى الضمير فى واتقوه أو بمحذوف دل عليه بالحق وقوله الحق مبتدأ وخبر أو فاعل يكون على معنى حين يقول لقوله الحق أى لقضائه الحق كن فيكون والمراد حين يكون الأشياء ويحدثها أوحين تقوم القيامة فيكون التكوين حشر الاجساد واحياءها فتأمل حق التأمل ﴿وله الملك يوم ينفخ فى الصور﴾ تقييد اختصاص الملك به تعالى بذلك اليوم مع عموم الاختصاص لجميع الأوقات لغاية ظهور ذلك بانقطاع العلائق المجازية الكائنة فى الدنيا المصححة للمالكية المجازية فى الجملة كقوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أى هو عالمهما ﴿وهو الحكيم﴾ فى كل مايفعله ﴿الخبير﴾ بجميع الامور الجلية والخفية ﴿واذ قال ابراهيم﴾ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام معطوف على قل أندعوا لا على أقيموا كما قيل لفساد المعنى أى واذكر لهم بعد ما أنكرت عليهم عبادة ما لا يقدر على نفع وضر وحققت أن الهدى هو هدى الله ومايتبعه من شئونه تعالى وقت قول ابراهيم الذى يدعون أنهم على ملته موبخا ﴿لأبيه آزر﴾ على عبادة الأصنام فان ذلك مما يبكتهم وينادى بفساد طريقتهم وتوجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة لما مر مرارا من المبالغة فى ايجاب ذكرها وآزر بزنة آدم وعابر وعازر وفالغ وكذلك تارح ذكره محمد بن اسحق والضحاك والكلبى وكان من قرية من سواد الكوفة ومنع صرفه للعجمة والعلمية وقيل اسمه بالسريانية تارح وآزر لقبه المشهور وقيل اسم صنم لقب هو به للزومه عبادته فهو عطف بيان لابيه أو بدل منه

وقال الضحاك معناه الشيخ الهرم وقال الزجاج المخطئ وقال الفراء وسليمان التيمى المعوج فهو نعت له كما اذا جعل مشتقا من الازر أو الوز أو أريد به عابد آزر على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقرئ آزر على النداء وهو دليل العلمية اذ لا يحذف حرف النداء الا من الاعلام ﴿أتتخذ﴾ متعدالى مفعولين هما ﴿أصناما آلهة﴾ أى أتجعلها لنفسك آلهة على توجيه الانكار الى اتخاذ الجنس من غير اعتبار الجمعية وانما ايراد صيغة الجمع باعتبار الوقوع وقرئ أازرا بفتح الهمزة وكسرها بعد همزة الاستفهام وزاء ساكنة وراء منونة منصوبة وهو اسم صنم ومعناه أتعبد ازرا ثم قيل تتخذ أصناما آلهة تثبيتا لذلك وتقريرا وهو داخل تحت الانكار لكونه بيانا له وقيل الازر القوة والمعنى ألأجل القوة والمظاهرة تتخذ أصناما آلهة انكاراً لتعززه بها على طريقة قوله تعالى أيبتغون عندهم العزة ﴿انى أراك وقومك﴾ الذين يتبعونك فى عبادتها ﴿فى ضلال﴾ عن الحق ﴿مبين﴾ أى بين كونه ضلالا لا اشتباه فيه أصلا والرؤية اما علمية فالظرف مفعولها الثانى واما بصرية فهو حال من المفعول والجملة تعليل للانكار والتوبيخ ﴿وكذلك نرى ابراهيم﴾ هذه الاراءة من الرؤية البصرية المستعارة للمعرفة ونظر البصيرة أى عرفناه وبصرناه وصيغة الاستقبال حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها وذلك اشارة الى مصدر نرى لا الى اراءة أخرى مفهومة من قوله انى أراك ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته فى الفضل وكمال تميزه بذلك وانتظامه بسببه فى سلك الامور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير نرى ابراهيم اراءة كائنة مثل تلك الاراءة فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار المشار اليه نفس المصدر المؤكد لا نعتاله أى ذلك التبصير البديع نبصره عليه السلام ﴿ملكوت السموات والأرض﴾ أى ربوبيته تعالى ومالكيته لهما وسلطانه القاهر عليهما وكونهما بما فيهما مربوبا ومملوكا له تعالى لا تبصيرا آخر أدنى منه والملكوت مصدر على زنة المبالغة كالرهبوت والجبروت ومعناه الملك العظيم والسلطان القاهر ثم هل هو مختص بملك الله عز سلطانه أو لا فقد قيل وقيل والأول هو الاظهر وبه قال الراغب وقيل ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما روى أنه كشف له عليه السلام عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين وقيل آياتهما وقيل ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الأرض الجبال والأشجار والبحار وهذه الأقوال لا تقتضى أن تكون الاراءة بصرية اذ ليس المراد باراءة ماذكر من الامور الحسية مجرد تمكينه عليه السلام من ابصارها ومشاهدتها فى أنفسها بل اطلاعه عليه السلام على حقائقها وتعريفها من حيث دلالتها على شئونه عز وجل ولا ريب فى أن ذلك ليس مما يدرك حسا كما ينبئ عنه اسم الاشارة المفصح عن كون المشار اليه أمرا بديعا فان الاراءة البصرية المعتادة بمعزل من تلك المثابة وقرئ ترى بالتاء واسناد الفعل الى الملكوت أى تبصره عليه السلام دلائل الربوبية واللام فى قوله تعالى ﴿وليكون من الموقنين﴾ متعلقة بمحذوف مؤخر والجملة اعتراض مقرر لما قبلها أى وليكون من زمرة الراسخين فى الايقان البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى فعلنا مافعلنا من التبصير البديع المذكور لا لأمر آخر فان الوصول الى تلك الغاية القاصية كمال مترتب على ذلك التبصير لا عينه وليس القصر لبيان انحصار فائدته فى ذلك كيف لا وارشاد الخلق والزام المشركين كما سيأتى من فوائده بلا مرية بل لبيان أنه الأصل الأصيل والباقى من مستتبعاته وقيل هى متعلقة بالفعل السابق والجملة معطوفة على علة أخرى محذوفة ينسحب عليها الكلام أى ليستدل بها وليكون الخ فينبغى أن يراد بملكوتهما بدائعهما وآياتهما لأن الاستدلال من غايات اراءتها لا من غايات اراءة نفس الربوبية وقوله تعالى ﴿فلما جن عليه الليل﴾ على الأول وهو الحق المبين عطف على قال ابراهيم داخل تحت ماأمر بذكره بالأمر

بذكر وقته ومابينهما اعتراض مقرر لما سبق ومالحق فان تعريفه عليه السلام ربوبيته ومالكيته للسموات والأرض ومافيهما وكون الكل مقهورا تحت ملكوته مفتقرا اليه فى الوجود وسائر ما يترتب عليه من الكمالات وكونه من الراسخين فى معرفة شئونه تعالى الواصلين الى ذروة عين اليقين مما يقضى بأن يحكم عليه السلام باستحالة الهية ماسواه سبحانه من الأصنام والكواكب وعلى الثانى هو تفصيل لما ذكر من اراءة ملكوت السموات والارض وبيان لكيفية استدلاله عليه السلام ووصوله الى رتبة الايقان ومعنى جن عليه الليل ستره بظلامه وقوله تعالى ﴿رأى كوكبا﴾ جواب لما فان رؤيته انما تتحقق بزوال نور الشمس عن الحس وهذا صريح فى أنه لم يكن فى ابتداء الطلوع بل كان غيبته عن الحس بطريق الاضمحلال بنور الشمس والتحقيق أنه كان قريبا من الغروب كما ستعرفه قيل كان ذلك الكوكب هو الزهرة وقيل هو المشترى وقوله تعالى ﴿قال هذا ربى﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الشرطية السابقة المتفرعة على بيان اراءته عليه السلام ملكوت السموات والارض فان ذلك مما يحمل السامع على استكشاف ماظهر منه عليه السلام من آثار تلك الاراءة وأحكامها كأنه قيل فماذا صنع عليه السلام حين رأى الكوكب فقيل قال على سبيل الوضع والفرض هذا ربى مجاراة مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب فان المستدل على فساد قول يحكيه على رأى خصمه ثم يكر عليه بالابطال ولعل سلوك هذه الطريقة فى بيان استحالة ربوبية الكواكب دون بيان استحالة الهية الأصنام لما أن هذا أخفى بطلانا واستحالة من الاول فلو صدع بالحق من أول الأمر كما فعله فى حق عبادة الاصنام لتمادوا فى المكابرة والعناد ولجوا فى طغيانهم يعمهون وقيل قاله عليه السلام على وجه النظر والاستدلال وكان ذلك فى زمان مراهقته وأول أوان بلوغه وهو مبنى على تفسير الملكوت بآياتهما وعطف قوله تعالى ليكون على ماذكر من العلة المقدرة وجعل قوله تعالى فلما جن الخ تفصيلا لما ذكر من الاراءة وبيانا لكيفية الاستدلال وأنت خبير بأن كل ذلك مما يخل بجزالة النظم الجليل وجلالة منصب الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿فلما أفل﴾ أى غرب ﴿قال لا أحب الآفلين﴾ أى الارباب المنتقلين من مكان الى مكان المتغيرين من حال الى حال المحتجبين بالاستار فانهم بمعزل من استحقاق الربوبية قطعا ﴿فلما رأى القمر بازغا﴾ أى مبتدئا فى الطلوع اثر غروب الكوكب ﴿قال هذا ربى﴾ على الاسلوب السابق ﴿فلما أفل﴾ كما أفل النجم ﴿قال لئن لم يهدنى ربى﴾ الى جنابه الذى هو الحق الذى لا محيد عنه ﴿لأكونن من القوم الضالين﴾ فان شيئا مما رأيته لا يليق بالربوبية وهذا مبالغة منه عليه السلام فى اظهار النصفة ولعله عليه السلام كان اذ ذاك فى موضع كان فى جانبه الغربى جبل شامخ يستتر به الكوكب والقمر وقت الظهر من النهار أو بعده بقليل وكان الكوكب قريبا منه وأفقه الشرقى مكشوف أو لا والا فطلوع القمر بعد أفول الكوكب ثم أفوله قبل طلوع الشمس كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿فلما رأى الشمس بازغة﴾ أى مبتدئة فى الطلوع مما لا يكاد يتصور ﴿قال﴾ أى على النهج السابق ﴿هذا ربى﴾ وانما لم يؤنث لما أن المشار اليه والمحكوم عليه بالربوبية هو الجرم المشاهد من حيث هو لا من حيث هو مسمى باسم من الاسامى فضلا عن حيثية تسميته بالشمس أو لتذكير الخبر وصيانة الرب عن وصمة التأنيث وقوله تعالى ﴿هذا أكبر﴾ تأكيد لما رامه عليه السلام من اظهار النصفة مع اشارة خفية الى فساد دينهم من جهة أخرى ببيان أن الاكبر أحق بالربوبية من الاصغر ﴿فلما أفلت﴾ هى أيضا كما أفل الكوكب والقمر ﴿قال﴾ مخاطبا للكل صادعا بالحق بين أظهرهم ﴿يا قوم انى برىء مما تشركون﴾ أى من الذى تشركونه من الاجرام المحدثة المتغيرة من حالة الى أخرى المسخرة لمحدثها أو من اشراككم وترتيب هذا الحكم ونظيريه على الافول دون البزوغ والظهور من ضروريات سوق الاحتجاج على هذا المساق الحكيم فان كلا منهما وان كان فى نفسه انتقالا منافيا لاستحقاق معروضه للربوبية قطعا لكن لما كان الأول حالة موجبة لظهور

الآثار والاحكام ملائمة لتوهم الاستحقاق فى الجملة رتب عليها الحكم الأول على الطريقة المذكورة وحيث كان الثانى حالة مقتضية لانطماس الآثار و بطلان الاحكام المنافيين للاستحقاق المذكور منافاة بينة يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد رتب عليها مارتب ثم لما تبرأ عليه السلام منهم توجه الى مبدع هدى المصنوعات ومنشئها فقال ﴿انى وجهت وجهى للذى فطر السموات﴾ التى هذه الاجرام التى تعبدونها من أجزائها ﴿والارض﴾ التى تغيب هى فيها ﴿حنيفا﴾ أى مائلا عن الاديان الباطلة والعقائد الزائغة كلها ﴿وما أنا من المشركين﴾ فى شئ من الأفعال والأقوال ﴿وحاجه قومه﴾ أى شرعوا فى مغالبته فى أمر التوحيد ﴿قال﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية محاجتهم كأنه قيل فماذا قال عليه السلام حين حاجوه فقيل قال منكرا لما اجترءوا عليه من محاجته مع تصورهم عن تلك الرتبة وعزة المطلب وقوة الخصم ﴿أتحاجونى فى الله﴾ بادغام نون الجمع فى نون الوقاية وقرئ بحذف الأولى وقوله تعالى ﴿وقد هدان﴾ حال من ضمير المتكلم مؤكدة للانكار فان كونه عليه السلام مهديا من جهة الله تعالى ومؤيدا من عنده مما يوجب استحالة محاجته عليه السلام أى أتجادلوننى فى شأنه تعالى و وحدانيته والحال أنه تعالى هدانى الى الحق بعد ماسلكت طريقتكم بالفرض والتقدير وتبين بطلانها تبينا تاما كما شاهدتموه وقوله تعالى ﴿ولا أخاف ماتشركون به﴾ جواب عما خوفوه عليه السلام فى أثناء المحاجة من اصابة مكروه من جهة أصنامهم كما قال لهود عليه السلام قومه ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ولعلهم فعلوا ذلك حين فعل عليه السلام بآلهتهم مافعل وما موصولة اسمية حذف عائدها وقوله تعالى ﴿الا أن يشاء ربى شيئاً﴾ استثناء مفرغ من أعم الأوقات أى لا أخاف ماتشركونه به سبحانه من معبوداتكم فى وقت من الاوقات الافى وقت مشيئته تعالى شيئاً من اصابة مكروه بى من جهتها وذلك انما هو من جهته تعالى من غير دخل لآلهتكم فيه أصلا وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام اظهار منه لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى واستسلام لامره واعتراف بكونه تحت ملكوته و ربوبيته وقوله تعالى ﴿وسع ربى كل شئ علما﴾ كأنه تعليل للاستثناء أى أحاط بكل شئ علما فلا يبعد أن يكون فى علمه تعالى أن يحيق بى مكروه من قبلها بسبب من الاسباب وفى الاظهار فى موضع الاضمار تأكيد للمعنى المذكور واستلذاذ بذكره تعالى ﴿أفلا تتذكرون﴾ أى أتعرضون عن التأمل فى أن آلهتكم جمادات غير قادرة على شئ ما من نفع و لاضر فلا تتذكرون أنها غير قادرة على اضرارى و فى ايراد التذكر دون التفكر ونظائره اشارة الى أن أمر أصنامهم مركوز فى العقول لايتوقف الا على التذكر وقوله تعالى ﴿وكيف أخاف ماأشركتم﴾ استئناف مسوق لنفى الخوف عنه عليه السلام بحسب زعم الكفرة بالطريق الالزامى كما سيأتى بعد نفيه عنه بحسب الواقع ونفس الامر والاستفهام لانكار الوقوع ونفيه بالكلية كما فى قوله تعالى كيف يكون للمشركين عهد عند الله الآية لا لانكار الواقع واستبعاده مع وقوعه كما فى قوله تعالى كيف تكفرون بالله الخ و فى توجيه الانكار الى كيفية الخوف من المبالغة ماليس فى توجيهه الى نفسه بأن يقال أأخاف لما أن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الاحوال و كيفية من الكيفيات قطعا فاذا انتفى جميع أحواله و كيفياته فقد انتفى وجوده من جميع الجهات بالطريق البرهانى وقوله تعالى ﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله﴾ حال من ضمير أخاف بتقدير مبتدأ والواو كافية فى الربط من غير حاجة الى الضمير العائد الى ذى الحال وهو مقرر لانكار الخوف ونفيه عنه عليه السلام ومفيد لاعترافهم بذلك فانهم حيث لم يخافوا فى محل الخوف فلأن لايخاف عليه السلام فى محل الامن أولى وأحرى أى وكيف أخاف أنا ماليس فى حيز الخوف أصلا وأنتم لاتخافون غائلة ماهو أعظم المخوفات وأهولها وهو اشراككم بالله الذى ليس كمثله شئ فى الارض ولا فى السماء ماهو من جملة مخلوقاته وانما عبر عنه بقوله تعالى ﴿مالم ينزل به﴾ أى باشراكه

﴿عليكم سلطانا﴾ على طريقة التهكم مع الايذان بأن الأمور الدينية لا يعول فيها الاعلى الحجة المنزلة من عندالله تعالى و فى تعليق الخوف الثانى باشرا كهم من المبالغة ومراعاة حسن الادب مالايخفى هذا وأماماقيل من أن قوله تعالى و لاتخافون الخ معطوف على أخاف داخل معه فى حكم الانكار والتعجيب فما لاسبيل اليـه أصلا لافضائه الى فساد المعنى قطعا كيف لا وقد عرفت أن الانكار بمعنى النفى بالكلية فيؤول المعنى الى نفى الخوف عنه عليـه الصلاة والسلام ونفى نفيه عنهم وأنه بين الفساد وحمل الانكار فى الاول على معنى نفى الوقوع و فى الثانى على استبعاد الواقع مما لامساغ له على أن قوله تعالى ﴿فأى الفريقين أحق بالأمن﴾ ناطق ببطلانه حتما فانه كلام مرتب على انكار خوفه عليه الصلاة والسلام فى محل الأمن مع تحقق عدم خوفهم فى محل الخوف مسوق لالجائهم الى الاعتراف باستحقاقه عليه الصلاة والسلام لما هو عليه من الأمن و بعدم استحقاقهم لماهم عليه وانما جئ بصيغة التفضيل المشعرة باستحقاقهم له فى الجملة لاستنزالهم عن رتبة المكابرة والاعتساف بسوق الكلام على سنن الانصاف والمراد بالفريقين الفريق الآمن فى محل الأمن والفريق الآمن فى محل الخوف فايثار ماعليه النظم الكريم على أن يقال فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم لتأكيد الالجاء الى الجواب الحق بالتنبيه على علة الحكم والتفادى عن التصريح بتخطئتهم لالمجرد الاحترازعن تزكية النفس ﴿ان كنتم تعلمون﴾ المفعول امامحذوف تعويلا على ظهوره بمعونة المقام أى ان كنتم تعلمون من أحق بذلك أوقصدا الى التعميم أى ان كنتم تعلمون شيأ واماً متروك بالمرة أى ان كنتم من أولى العلم وجواب الشرط محذوف أى فأخبرونى ﴿الذين آمنوا﴾ استئناف من جهته تعالى مبين للجواب الحق الذى لامحيد عنه أى الفريق الذين آمنوا ﴿ولم يلبسوا ايمانهم﴾ ذلك أى لم يخلطوه ﴿بظلم﴾ أى بشرك كما يفعله الفريق المشركون حيث يزعمون أنهم يؤمنون بالله عز وجل وأن عبادتهم للاصنام من تتمات ايمانهم وأحكامه لكونها لأجل التقريب والشفاعة كماقالوا مانعبدهم الاليقربونا الى الله زلفى وهذا معنى الخلط ﴿أولئك﴾ اشارة الى الموصول من حيث اتصافه بمافى حيز الصلة وفى الاشارة اليه بعد وصفه بما ذكر ايذان بأنهم تميزوا بذلك عن غيرهم وانتظموا فى سلك الامور المشاهدة ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم و بعد منزلتهم فى الشرف وهو مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿لهم الأمن﴾ جملة من خبر مقدم ومبتدا مؤخر وقعت خبرا لأولئك وهو مع خبره خبر للمبتدا الاول الذى هو الموصول و يجوز أن يكون أولئك بدلا من الموصول أو عطف بيان له ولهم خبرا للموصول والأمن فاعلا للظرف لاعتماده على المبتدا ويجوز أن يكون لهم خبرا مقدما والامن مبتدأ والجملة خبر للموصول ويجوز أن يكون أولئك مبتدأ ثانيا ولهم خبره والامن فاعلا له والجملة خبر للموصول أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الايمان الخالص عن شوب الشرك لهم الامن فقط ﴿وهم مهتدون﴾ الى الحق ومن عداهم فى ضلال مبين. روى أنه لما نزلت الآية شق ذلك على الصحابة رضوان الله عليهم وقالوا أينا لم يظلم نفسه فقال عليه الصلاة والسلام ليس ماتظنون انما هو ماقال لقمان لابنه يابنى لاتشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم وليس الايمان به أن يصدق بوجود الصانع الحكيم و يخلط بهذا التصديق الاشراك به وليس من قضية الخلط بقاء الأصل بعد الخلط حقيقة وقيل المراد بالظلم المعصية التى تفسق صاحبها والظاهر هو الأول لوروده مورد الجواب عن حال الفريقين ﴿وتلك﴾ اشارة الى مااحتج به ابراهيم عليه السلام من قوله تعالى فلما جن وقيل من قوله أتحاجونى الى قوله مهتدون ومافى اسم الاشارة من معنى البعد لتفخيم شأن المشار اليه والاشعار بعلو طبقته وسمو منزلته فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿حجتنا﴾ خبره و فى اضافتها الى نون العظمة من التفخيم مالايخفى وقوله تعالى ﴿آتيناها ابراهيم﴾ أى أرشدناه اليها أوعلمناه اياها فى محل النصب على أنه حال من حجتنا والعامل فيها معنى الاشارة كما فى قوله تعالى فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا أو فى محل الرفع على أنه

خبر ثان أوهو الخبر وحجتنا بدل أو بيان للمبتدا وابراهيم مفعول أول لآتينا قدم عليه الثانى لكونه ضميرا وقوله تعالى ﴿على قومه﴾ متعلق بحجتنا ان جعل خبرا لتلك أو بمحذوف ان جعل بدلا أى آتينا ابراهيم حجة على قومه وقيل بقوله آتينا ﴿نرفع﴾ بنون العظمة وقرىء بالياء على طريقة الالتفات وكذا الفعل الآتى ﴿درجات﴾ أى رتبا عظيمة عالية من العلم والحكمة وانتصابها على المصدرية أو الظرفية أو على نزع الخافض أى الى درجات أو على التمييز والمفعول قوله تعالى ﴿من نشاء﴾ وتأخيره على الوجوه الثلاثة الأخيرة لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ومفعول المشيئة محذوف أى من نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على أن ذلك سنة مستمرة جارية فيمابين المصطفين الأخيار غير مختصة بابراهيم عليه السلام وقرىء بالاضافة الى من والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها لامحل لها من الاعراب وقيل هى فى محل النصب على أنها حال من فاعل آتينا أى حال كوننا رافعين الخ ﴿ان ربك حكيم﴾ فى كل مافعل من رفع وخفض ﴿عليم﴾ بحال من يرفعه واستعداده له على مراتب متفاوتة والجملة تعليل لما قبلها وفى وضع الرب مضافا الى ضميره عليه السلام موضع نون العظمة بطريق الالتفات فى تضاعيف بيان أحوال ابراهيم عليه السلام اظهار لمزيد لطف وعناية به عليه السلام ﴿ووهبنا له اسحق ويعقوب﴾ عطف على قوله تعالى وتلك حجتنا الخ فان عطف كل من الجملة الفعلية والاسمية على الأخرى مما لانزاع فى جوازه ولامساغ لعطفه على آتيناها لأن له محلا من الاعراب نصبا ورفعا حسبما بين من قبل فلو عطف هذا عليه لكان فى حكمه من الحالية والخبرية المستدعيتين للرابط ولاسبيل اليه ههنا ﴿كلا﴾ مفعول لما بعده وتقديمه عليه للقصر لكن لا بالنسبة الى غيرهما مطلقا بل بالنسبة الى أحدهما أى كل واحد منهما ﴿هدينا﴾ لا أحدهما دون الآخر وترك ذكر المهدى اليه لظهور أنه الذى أوتى ابراهيم وأنهما مقتديان به ﴿ونوحا﴾ منصوب بمضمر يفسره ﴿هدينا من قبل﴾ أى من قبل ابراهيم عليه السلام عدهداه نعمة على ابراهيم عليه السلام لأن شرف الوالد سار الى الولد ﴿ومن ذريته﴾ الضمير لابراهيم لأن مساق النظم الكريم لبيان شئونه العظيمة من ايتاء الحجة ورفع الدرجات وهبة الأولاد الانبياء وابقاء هذه الكرامة فى نسله الى يوم القيامة كل ذلك لالزام من ينتمى الى ملته عليه السلام من المشركين واليهود وقيل لنوح لأنه أقرب ولأن يونس ولوطا ليسامن ذرية ابراهيم فلو كان الضمير له لاختص بالمعدودين فى هذه الآية والتى بعدها وأما المذكورون فى الآية الثالثة فعطف على نوحا وروى عن ابن عباس أن هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون الى ذرية ابراهيم وان كان منهم من لم يلحقه بولاد من قبل أم ولا أب لأن لوطا ابن أخى ابراهيم والعرب تجعل العم أبا كما أخبر الله تعالى عن أبناء يعقوب أنهم قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق مع أن اسمعيل عم يعقوب ﴿داود وسليمان﴾ منصوبان بمضمر مفهوم مما سبق وكذا ماعطف عليهما وبه يتعلق من ذريته وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بشأنه مع مافى المفاعيل من نوع طول ربما يخل تأخيره بتجاوب النظم الكريم أى وهدينا من ذريته داود وسليمان ﴿وأيوب﴾ هو ابن اموص من أسباط عيص ابن اسحق ﴿ويوسف وموسى وهرون﴾ أو بمحذوف وقع حالا من المذكورين أى وهديناهم حال كونهم من ذريته ﴿وكذلك﴾ اشارة الى مايفهم من النظم الكريم من جزاء ابراهيم عليه السلام ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير ﴿نجزى المحسنين﴾ جزاء مثل ذلك الجزاء والتقديم للقصر وقد مر تحقيقه مرارا والمراد بالمحسنين الجنس وبمماثلة جزائهم لجزائه عليه السلام مطلق المشابهة فى مقابلة الاحسان بالاحسان والمكافأة بين الأعمال والأجزية من غير بخس لا المماثلة من كل وجه ضرورة أن الجزاء بكثرة الأولاد الأنبياء مما اختص به ابراهيم عليه السلام والأقرب أن لام المحسنين للعهد وذلك اشارة الى مصدر الفعل الذى بعده وهو عبارة عما أوتى

المذكورون من فنون الكرامات ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقته والكاف لتأكيد ماأفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير ونجزى المحسنين المذكورين جزاء كائنا مثل ذلك الجزاء فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار المشار اليه نفس المصدر المؤكد لانعتاله أى وذلك الجزاء البديع نجزى المحسنين المذكورين لاجزاء آخر أدنى منه والاظهار فى موضع الاضمار للثناء عليهم بالاحسان الذى هو عبارة عن الاتيان بالاعمال الحسنة على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المقارن لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك والجملة اعتراض مقرر لما قبلها ﴿وزكريا﴾ هو ابن آذن ﴿ويحيى﴾ ابنه ﴿وعيسى﴾ هو ابن مريم وفيه دليل بين على أن الذرية تتناول أولاد البنات ﴿والياس﴾ قيل هو ادريس جد نوح فيكون البيان مخصوصا بمن فى الآية الاولى وقيل هو من أسباط هرون أخى موسى عليهما السلام ﴿كل﴾ أى كل واحد من أولئك المذكورين ﴿من الصالحين﴾ أى من الكاملين فى الصلاح الذى هو عبارة عن الاتيان بما ينبغى والتحرز عما لاينبغى والجملة اعتراض جئ به للثناء عليهم بالصلاح ﴿واسمعيل واليسع﴾ هو ابن اخطوب بن العجوز وقرئ والليسع وهو على القراءتين علم أعجمى أدخل عليه اللام ولا اشتقاق له ويقال انه يوشع بن نون وقيل انه منقول من مضارع وسع واللام كما فى يزيد فى قول من قال

رأيت الوليد بن اليزيد مباركا ... شديدا بأعباء الخلافة كاهله

﴿ويونس﴾ هو ابن متى ﴿ولوطا﴾ هو ابن هاران بن أخى ابراهيم عليه السلام ﴿وكلا﴾ أى وكل واحد من أولئك المذكورين ﴿فضلنا﴾ بالنبوة لابعضهم دون بعض ﴿على العالمين﴾ على عالمى عصرهم والجملة اعتراض كأختيها وقوله تعالى ﴿ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم﴾ اما متعلق بما تعلق به من ذريته ومن ابتدائية والمفعول محذوف أى وهدينا من آبائهم وذرياتهم واخوانهم جماعات كثيرة واما معطوف على كلا ومن تبعيضية أى وفضلنا بعض آبائهم الخ ﴿واجتبيناهم﴾ عطف على فضلنا أى اصطفيناهم ﴿وهديناهم الى صراط مستقيم﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لبيان ماهدوا اليه ﴿ذلك﴾ اشارة الى مايفهم من النظم الكريم من مصادر الأفعال المذكورة وقيل الى ما دانوا به ومافى ذلك من معنى البعد لما مر مرارا ﴿هدى الله﴾ الاضافة للتشريف ﴿يهدى به من يشاء من عباده﴾ وهم المستعدون للهداية والارشاد وفيه اشارة الى أنه تعالى متفضل بالهداية ﴿ولو أشركوا﴾ أى هؤلاء المذكورون ﴿لحبط عنهم﴾ مع فضلهم وعلو طبقاتهم ﴿ما كانوا يعملون﴾ من الأعمال المرضية الصالحة فكيف بمن عداهم وهم هم وأعمالهم أعمالهم ﴿أولئك﴾ اشارة الى المذكورين من الأنبياء الثمانية عشر والمعطوفين عليهم عليهم السلام باعتبار اتصافهم بما ذكر من الهداية وغيرها من النعوت الجليلة الثابتة لهم ومافيه من معنى البعد لما مر غير مرة من الايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل والشرف وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ أى جنس الكتاب المتحقق فى ضمن أى فرد كان من أفراد الكتب السماوية والمراد بايتائه التفهيم التام بما فيه من الحقائق والتمكين من الاحاطة بالجلائل والدقائق أعم من أن يكون ذلك بالانزال ابتداء أو بالايراث بقاء فان المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معين ﴿والحكم﴾ أى الحكمة أو فصل الأمر على مايقتضيه الحق والصواب ﴿والنبوة﴾ أى الرسالة ﴿فان يكفر بها﴾ أى بهذه الثلاثة أو بالنبوة الجامعة للباقين ﴿هؤلاء﴾ أى كفار قريش فانهم بكفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه من القرآن كافرون بما يصدقه جميعا وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ﴿فقد وكلنا بها﴾ أى أمرنا بمراعاتها

و وفقنا للايمان بها والقيام بحقوقها ﴿قوما ليسوا بها بكافرين﴾ أى فى وقت من الاوقات بل مستمرون على الايمان بها فان الجملة الاسمية الايجابية كما تفيد دوام الثبوت كذلك السلبية تفيد دوام النفى بمعونة المقام لانفى الدوام كما حقق فى مقامه قال ابن عباس ومجاهد رضى الله تعالى عنهما هم الأنصار وأهل المدينة وقيل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقيل كل مؤمن من بنى آدم وقيل الفرس فان كلا من هؤلاء الطوائف موفقون للايمان بالأنبياء و بالكتب المنزلة اليهم عاملون بما فيها من أصول الشرائع وفروعها الباقية فى شريعتنا و به يتحقق الخروج عن عهدة التوكيل والتكليف دون المنسوخة منها فانها بانتساخها خارجة عن كونها من أحكامها وقد مر تحقيقه فى تفسير سورة المائدة وقيل هم الانبياء المذكورون فالمراد بالتوكيل الأمر بما هو أعم من اجراء أحكامها كما هو شأنهم فى حق كتابهم ومن اعتقاد حقيتها كما هو شأنهم فى حق سائر الكتب التى من جملتها القرآن الكريم وقيل هم الملائكة فالتوكيل هو الأمر بانزالها وحفظها واعتقاد حقيتها وأياما كان فتنكير قوما للتفخيم والباء الأولى صلة لكافرين قدمت عليه محافظة على الفواصل والثانية لتأكيد النفى وأما تقديم صلة وكلنا على مفعوله الصريح فلما ذكر آنفا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ولأن فيه نوع طول ربما يؤدى تقديمه الى الاخلال بتجاوب النظم الكريم أو الى الفصل بين الصفة والموصوف وجواب الشرط محذوف يدل عليه المذكور أى فان يكفر بها هؤلاء فلا اعتداد به أصلا فقد وفقنا للايمان بها قوما فخاما ليسوا بكافرين بها قطعا بل مستمرون على الايمان بها والعمل بما فيها ففى ايمانهم بها مندوحة عن ايمان هؤلاء ومن هذا تبين أن الوجه أن يكون المراد بالقوم احدى الطوائف المذكورة اذ بايمانهم بالقرآن والعمل بأحكامه تتحقق الغنية عن ايمان الكفرة به والعمل بأحكامه وأما الانبياء والملائكة عليهم السلام فايمانهم به ليس من قبيل ايمان آحاد الأمة كما أشير اليه ﴿أولئك﴾ اشارة الى الانبياء المذكورين وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿الذين هدى الله﴾ أى الى الحق والنهج المستقيم والالتفات الى الاسم الجليل للاشعار بعلة الهداية ﴿فبهداهم اقتده﴾ أى فاختص هداهم بالاقتداء و لا تقتد بغيرهم والمراد بهداهم طريقتهم فى الايمان بالله تعالى وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع القابلة للنسخ فانها بعد النسخ لاتبقى هدى والهاء فى اقتده للوقف حقها أن تسقط فى الدرج واستحسن اثباتها فيه أيضا اجراء له مجرى الوقف واقتداء بالامام وقرىء باشباعها على أنها كناية المصدر ﴿قل لاأسألكم عليه﴾ أى على القرآن أو على التبليغ فان مساق الكلام يدل عليهما وان لم يجر ذكرهما ﴿أجرا﴾ من جهتكم كما لم يسأله من قبلى من الانبياء عليهم السلام وهذا من جملة ماأمر صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم فيه ﴿ان هو﴾ أى ماالقرآن ﴿الا ذكرى للعالمين﴾ أى عظة وتذكير لهم كافة من جهته سبحانه فلا يختص بقوم دون آخرين ﴿وما قدروا الله﴾ لما بين شأن القرآن العظيم وأنه نعمة جليلة منه تعالى على كافة الأمم حسبما ينطق به قوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين عقب ذلك ببيان غمطهم اياها و كفرهم بها على وجه سرى ذلك الى الكفر بجميع الكتب الالهية وأصل القدر السبر والحزر يقال قدر الشىء يقدره بالضم قدرا اذا سبره وحزره ليعرف مقداره ثم استعمل فى معرفة الشىء فى مقداره وأحواله وأوصافه وقوله تعالى ﴿حق قدره﴾ نصب على المصدرية وهو فى الأصل صفة للمصدر أى قدره الحق فلما أضيف الى موصوفه انتصب على ما كان ينتصب عليه موصوفه أى ماعرفوه تعالى حق معرفته فى اللطف بعباده والرحمة عليهم ولم يراعوا حقوقه تعالى فى ذلك بل أخلوا بها اخلالا ﴿اذ قالوا﴾ منكرين لبعثة الرسل وانزال الكتب كافرين بنعمته الجليلة فيهما ﴿وما أنزل الله على بشر من شىء﴾ فنفى معرفتهم لقدره سبحانه كناية عن حطهم لقدره الجليل و وصفهم له تعالى بنقيض نعته الجميل كما أن نفى المحبة

فى مثل ان الله لايحب الكافرين كناية عن البغض والسخط والا ففى معرفة قدره تعالى يتحقق مع عدم التعرض لحطه بل مع السعى فى تحصيل المعرفة كما فى قول من يناجى مستقصرا لمعرفته وعبادته سبحانك ماعرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك أو ماعرفوه حق معرفته فى السخط على الكفار وشدة بطشه تعالى بهم حسبما نطق به القرآن حين اجترؤا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء فالنفى بمعناه الحقيقى والقائلون هم اليهود وقد قالوه مبالغة فى انكار انزال القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فألزموا بما لاسبيل لهم الى انكاره أصلا حيث قيل ﴿قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى﴾ أى قل لهم ذلك على طريقة التبكيت والقام الحجر وروى أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها ان الله يبغض الحبر السمين فأنت الحبر السمين قد سمنت من مالك الذى تطعمك اليهود فضحك القوم فغضب ثم التفت الى عمر رضى الله عنه فقال ماأنزل الله على بشر من شئ فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الاشرف وقيل هم المشركون والزامهم انزال التوراة لما أنه كان عندهم من المشاهير الذائعة ولذلك كانوا يقولون لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ووصف الكتاب بالوصول اليهم لزيادة التقريع وتشديد التبكيت وكذا تقييده بقوله تعالى ﴿نورا وهدى﴾ فان كونه بينا بنفسه ومبينا لغيره مما يؤكد الالزام أى تأكيد وانتصابهما على الحالية من الكتاب والعامل أنزل أو من الضمير فى به والعامل جاء واللام فى قوله تعالى ﴿للناس﴾ اما متعلق بهدى أو بمحذوف هو صفة له أى هدى كائنا للناس وليس المراد بهذا مجرد الزامهم بالاعتراف بانزال التوراة فقط بل بانزال القرآن أيضا فان الاعتراف بانزالها مستلزم للاعتراف بانزاله قطعا لما فيها من الشواهد الناطقة به وقد نعى عليهم مافعلوا بها من التحريف والتغيير حيث قيل ﴿تجعلونه قراطيس﴾ أى تضعونه فى قراطيس مقطعة وورقات مفرقة بحذف الجار بناء على تشبيه القراطيس بالظرف المبهم أو تجعلونه نفس القراطيس المقطعة وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب ونزلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة والجملة حال كما سبق وقوله تعالى ﴿تبدونها﴾ صفة لقراطيس وقوله تعالى ﴿وتخفون كثيرا﴾ معطوف عليه والعائد الى الموصول محذوف أى كثيرا منها وقيل كلام مبتدأ لامحل له من الاعراب والمراد بالكثير نعوت النبى عليه الصلاة والسلام وسائر ما كتموه من أحكام التوراة وقرئ الأفعال الثلاثة بالياء حملا على قالوا وما قدروا وقوله تعالى ﴿وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ قيل هو حال من فاعل تجعلونه باضمار قد أو بدونه على اختلاف الرأيين قلت فينبغى أن يجعل ما عبارة عما أخذوه من الكتاب من العلوم والشرائع ليكون التقييد بالحال مفيدا لتأكيد التوبيخ وتشديد التشنيع فان مافعلوه بالكتاب من التفريق والتقطيع لما ذكر من الابداء والاخفاء شناعة عظيمة فى نفسها ومع ملاحظة كونه مأخذ لعلومهم ومعارفهم أشنع وأعظم لاعما تلقوه من جهة النبى صلى الله عليه وسلم زيادة على مافى التوراة وبيانا لما التبس عليهم وعلى آبائهم من مشكلاتها حسبما ينطق به قوله تعالى ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون كما قالوا لأن تلقيهم لذلك من القرآن الكريم ليس مما يزجرهم عما صنعوا بالتوراة أما ماورد فيه زيادة على مافيها فلأنه لاتعلق له بها نفيا ولا اثباتا وأما ماورد بطريق البيان فلأن مدار مافعلوا بها من التبديل والتحريف ليس ماوقع فيها من التباس الأمر واشتباه الحال حتى يقلعوا عن ذلك بايضاحه وبيانه فتكون الجملة حينئذ خالية عن تأكيد التوبيخ فلا تستحق أن تقع موقع الحال بل الوجه حينئذ أن تكون استئنافا مقررا لما قبلها من مجئ الكتاب بطريق التكملة والاستطراد والتمهيد لما يعقبه من مجئ القرآن ولا سبيل الى جعل ماعبارة عما كتموه من أحكام التوراة كما يفصح عنه قوله تعالى قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب فان

ظهوره وان كان مزجرتهم عن الكتم مخافة الافتضاح وصحيحا لوقوع الجملة فى موقع الحال لكن ذلك مما يعلمه الكاتمون حتما هذا وقد قيل الخطاب لمن آمن من قريش كما فى قوله تعالى لتنذر قوما ماأنذر آباؤهم وقوله تعالى ﴿قل الله﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عنهم اشعارا بتعين الجواب بحيث لامحيد عنه وايذانا بأنهم أفحموا ولم يقدروا على التكلم أصلا ﴿ثم ذرهم فى خوضهم﴾ فى باطلهم الذى يخوضون فيه ولا عليك بعد الزام الحجة والقام الحجر ﴿يلعبون﴾ حال من الضمير الأول والظرف صلة للفعل المقدم أو المؤخر أو متعلق بمحذوف هو حال من مفعول الاول أو من فاعل الثانى أو من الضمير الثانى لأنه فاعل فى الحقيقة والظرف متصل بالاول ﴿وهذا كتاب أنزلناه﴾ تحقيق لنزول القرآن الكريم بعد تقرير انزال مابشر به من التوراة وتكذيب لهم فى كلمتهم الشنعاء اثر تكذيب ﴿مبارك﴾ أى كثير الفوائد وجم المنافع ﴿مصدق الذى بين يديه﴾ من التوراة لنزوله حسبما وصف فيها أو الكتب التى قبله فانه مصدق للكل فى اثبات التوحيد والأمر به ونفى الشرك والنهى عنه وفى سائر أصول الشرائع التى لاتنسخ ﴿ولتنذر أم القرى﴾ عطف على مادل عليه مبارك أى للبركات ولانذارك أهل مكة وانما ذكرت باسمها المنبىء عن كونها أعظم القرى شأنا وقبلة لأهلها قاطبة ايذانا بأن انذار أهلها أصل مستتبع لانذار أهل الأرض كافة وقرىء لينذر بالياء على أن الضمير للكتاب ﴿ومن حولها﴾ من أهل المدر والوبر فى المشارق والمغارب ﴿والذين يؤمنون بالآخرة﴾ وبما فيها من أفانين العذاب ﴿يؤمنون به﴾ أى بالكتاب لأنهم يخافون العاقبة ولا يزال الخوف يحملهم على النظر والتأمل حتى يؤمنوا به ﴿وهم على صلواتهم يحافظون﴾ تخصيص محافظتهم على الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات التى لا بد للمؤمنين من أدائها للايذان بانافتها من بين سائر الطاعات وكونها أشرف العبادات بعد الايمان ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ فزعم أنه تعالى بعثه نبيا كمسيلمة الكذاب والاسود العنسى أو اختلق عليه أحكاما من الحل والحرمة كعمرو بن لحى ومتابعيه أى هو أظلم من كل ظالم وان كان سبك التركيب على نفى الاظلم منه وانكاره من غير تعرض لنفى المساوى وانكاره فان الاستعمال الفاشى فى قولك من أفضل من زيد أولا أكرم منه على أنه أفضل من كل فاضل وأكرم من كل كريم وقد مر تمام الكلام فيه ﴿أو قال أوحى الى﴾ من جهته تعالى ﴿ولم يوح اليه﴾ أى والحال أنه لم يوح اليه ﴿شىء﴾ أصلا كعبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فلما نزلت ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين فلما بلغ ثم أنشأناه خلقا آخر قال عبد الله تبارك الله أحسن الخالقين تعجبا من تفصيل خلق الانسان ثم قال عليه الصلاة والسلام اكتبها كذلك فشك عبد الله وقال لئن كان محمد صادقا فقد أوحى الى كما أوحى اليه ولئن كان كاذبا فقد قلت كما قال ﴿ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ كالذين قالوا لونشاء لقلنا مثل هذا ﴿ولو ترى اذ الظالمون﴾ حذف مفعول ترى لدلالة الظرف عليه أى ولو ترى الظالمين اذهم ﴿فى غمرات الموت﴾ أى شدائده من غمره اذا غشيه ﴿والملائكة باسطوا أيديهم﴾ بقبض أرواحهم كالمتقاضى الملظ الملح يبسط يده الى من عليه الحق ويعنف عليه فى المطالبة من غير امهال وتنفيس أو باسطوها بالعذاب قائلين ﴿أخرجوا أنفسكم﴾ أى أخرجوا أرواحكم الينا من أجسادكم أو خلصوا أنفسكم من العذاب ﴿اليوم﴾ أى وقت الاماتة أو الوقت الممتد بعده الى ما لا نهاية له ﴿تجزون عذاب الهون﴾ أى العذاب المتضمن لشدة واهانة فاضافته الى الهون وهو الهوان لعراقته فيه ﴿بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾ كاتخاذ الولد له ونسبة الشريك اليه وادعاء النبوة والوحى كاذبا ﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون بها ﴿ولقد جئتمونا﴾ للحساب ﴿فرادى﴾ منفردين عن الاموال والأولاد وغير ذلك مما آثرتموه من الدنيا أو عن الاعوان والأصنام التى كنتم تزعمون أنها شفعاؤكم وهو جمع فرد والالف للتأنيث ككسالى وقرىء فرادا كرخال وفراد كثلاث وفردى كسكرى ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾

بدل من فرادى أى على الهيئة التى ولدتم عليها فى الانفراد أو حال ثانية عند من يجوز تعددها أو حال من الضمير فى فرادى أى مشبهين ابتداء خلقكم عراة حفاة غرلا بهما أو صفة مصدر جئتمونا أى مجيئا كخلقنا لكم أول مرة ﴿ وتركتم ما خولناكم ﴾ تفضلناه عليكم فى الدنيا فشغلتم به عن الآخرة ﴿ وراء ظهوركم ﴾ ما قدمتم منه شيأ ولم تحملوا نقيرا ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ أى شركاء الله تعالى فى الربوبية واستحقاق العبادة ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ أى وقع التقطع بينكم كما يقال جمع بين الشيئين أى أوقع الجمع بينهما وقرئ بينكم بالرفع على اسناد الفعل الى الظرف كما يقال قوتل أمامكم وخلفكم أو على أن البين اسم للفصل والوصل أى تقطع وصلكم وقرئ ما بينكم ﴿ وضل عنكم ﴾ أى ضاع أو غاب ﴿ ما كنتم تزعمون ﴾ أنها شفعاؤكم أو أن لا بعث ولا جزاء ﴿ ان الله فالق الحب والنوى ﴾ شروع فى تقرير بعض أفاعيله تعالى الدالة على كمال علمه وقدرته ولطف صنعه وحكمته اثر تقرير أدلة التوحيد والفلق الشق بابانة أى شاق الحب بالنبات والنوى بالشجر وقيل المراد به الشق الذى فى الحبوب والنوى أى خالقهما كذلك كما فى قولك ضيق فم الركية ووسع أسفلها وقيل الفلق بمعنى الخلق قال الواحدى ذهبوا بفالق مذهب فاطر ﴿ يخرج الحى من الميت ﴾ أى يخرج ماينمو من الحيوان والنبات مما لا ينمو من النطفة والحب والجملة مستأنفة مبينة لما قبلها وقيل خبر ثان لأن وقوله تعالى ﴿ ومخرج الميت ﴾ كالنطفة والحب ﴿ من الحى ﴾ كالحيوان والنبات عطف على فالق الحب لا على يخرج على الوجه الأول لان اخراج الميت من الحى ليس من قبيل فلق الحب والنوى ﴿ ذلكم ﴾ القادر العظيم الشأن هو ﴿ الله ﴾ المستحق للعبادة وحده ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ فكيف تصرفون عن عبادته الى غيره ولا سبيل اليه أصلا ﴿ فالق الاصباح ﴾ خبر آخر لأن أو لمبتدا محذوف والاصباح مصدر سمى به الصبح وقرئ بفتح الهمزة على أنه جمع صبح أى فالق عمود الفجر عن بياض النهار واسفاره أو فالق ظلمة الاصباح وهى الغبش الذى يلى الصبح وقرئ فالق بالنصب على المدح ﴿ وجعل الليل سكنا ﴾ يسكن اليه التعب بالنهار لاستراحته فيه من سكن اليه اذا اطمأن اليه استئناسا به أو يسكن فيه الخلق من قوله تعالى لتسكنوا فيه وقرئ جاعل الليل فانتصاب سكنا بفعل دل عليه جاعل وقيل بنفسه على أن المراد به الجعل المستمر فى الازمنة المتجددة حسب تجددها لا الجعل الماضى فقط وقيل اسم الفاعل من الفعل المتعدى الى اثنين يعمل فى الثانى وان كان بمعنى الماضى لأنه لما أضيف الى الاول تعين نصبه للثانى لتعذر الاضافة بعد ذلك ﴿ والشمس والقمر ﴾ معطوفان على الليل وعلى القراءة الاخيرة قيل هما معطوفان على محله والاحسن نصبهما حينئذ بفعل مقدر وقد قرئا بالجر وبالرفع أيضا على الابتداء والخبر محذوف أى مجعولان ﴿ حسبانا ﴾ أى على أدوار مختلفة يحسب بها الاوقات التى نيط بها العبادات والمعاملات أو محسوبان حسبانا والحسبان بالضم مصدر حسب كما أن الحساب بالكسر مصدر حسب ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى جعلهما كذلك وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته أى ذلك التسيير البديع ﴿ تقدير العزيز ﴾ الغالب القاهر الذى لا يستعصى عليه شئ من الأشياء التى من جملتها تسييرهما على الوجه المخصوص ﴿ العليم ﴾ بجميع المعلومات التى من جملتها ما فى ذلك التسيير من المنافع والمصالح المتعلقة بمعاش الخلق ومعادهم ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم ﴾ شروع فى بيان نعمته تعالى فى الكواكب اثر بيان نعمته تعالى فى النيرين والجعل متعد الى واحد واللام متعلقة به وتأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر أى أنشأها وأبدعها لاجلكم فقوله تعالى ﴿ لتهتدوا بها ﴾ بدل من المجرور باعادة العامل بدل اشتمال كما فى قوله تعالى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا والتقدير جعل لكم النجوم لاهتدائكم لكن لا على أن غاية خلقها اهتداؤهم فقط بل على طريقة افراد بعض منافعها وغاياتها بالذكر

حسبما يقتضيه المقام وقد جوز أن يكون مفعولا ثانيا للجعل وهو بمعنى التصيير أى جعلها كائنة لاهتدائكم فى أسفاركم عند دخولكم المفاوز أو البحار كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿فى ظلمات البر والبحر﴾ أى فى ظلمات الليل فى البر والبحر واضافتها اليهما للملابسة فان الحاجة الى الاهتداء بها انما تتحقق عند ذلك أو فى مشتبهات الطرق عبر عنها بالظلمات على طريقة الاستعارة ﴿قد فصلنا الآيات﴾ أى بينا الآيات المتلوة المذكرة لنعمه التى هذه النعمة من جملتها أو الآيات التكوينية الدالة على شؤنه تعالى مفصلة ﴿لقوم يعلمون﴾ أى معانى الآيات المذكورة ويعملون بموجبها أو يتفكرون فى الآيات التكوينية فيعلمون حقيقة الحال وتخصيص التفصيل بهم مع عمومه للكل لأنهم المنتفعون به ﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة﴾ تذكير لنعمة أخرى من نعمه تعالى دالة على عظيم قدرته ولطيف صنعه وحكمته أى أنشأكم مع كثرتكم من نفس آدم عليه السلام ﴿فمستقر ومستودع﴾ أى فلكم استقرار فى الاصلاب أو فوق الارض واستيداع فى الارحام أو تحت الارض أو موضع استقرار واستيداع فيما ذكر والتعبير عن كونهم فى الاصلاب أو فوق الارض بالاستقرار لأنهما مقرهم الطبيعى كما أن التعبير عن كونهم فى الارحام أو تحت الارض بالاستيداع لما أن كلا منهما ليس بمقرهم الطبيعى وقد حمل الاستيداع على كونهم فى الاصلاب وليس بواضح وقرئ فمستقر بكسر القاف أى فمنكم مستقر ومنكم مستودع فان الاستقرار منا بخلاف الاستيداع ﴿قد فصلنا الآيات﴾ المبينة لتفاصيل خلق البشر من هذه الآية ونظائرها ﴿لقوم يفقهون﴾ غوامض الدقائق باستعمال الفطنة وتدقيق النظر فان لطائف صنع الله عز وجل فى أطوار تخليق بنى آدم مما تحار فى فهمه الالباب وهو السر فى ايثار يفقهون على يعلمون كما ورد فى شأن النجوم ﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء﴾ تذكير لنعمة أخرى من نعمه تعالى منبئة عن كمال قدرته تعالى وسعة رحمته أى أنزل من السحاب أو من سمت السماء ماء خاصا هو المطر وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا ﴿فأخرجنا به﴾ التفت الى التكلم اظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لاجله أى فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء مع وحدته ﴿نبات كل شئ﴾ من الاشياء التى من شأنها النمو من أصناف النجم والشجر وأنواعهما المختلفة فى الكم والكيف والخواص والآثار اختلافا متفاوتا فى مراتب الزيادة والنقصان حسبما يفصح عنه قوله تعالى يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل وقوله تعالى ﴿فأخرجنا منه خضرا﴾ شروع فى تفصيل ما أجمل من الاخراج وقد بدئ بتفصيل حال النجم أى فأخرجنا من النبات الذى لا ساق له شيئا غضا أخضر يقال شئ أخضر وخضر كأعور وعور وأكثر ما يستعمل الخضر فيما تكون خضرته خلقية وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة وقوله تعالى ﴿نخرج منه﴾ صفة لخضرا وصيغة المضارع لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة أى نخرج من ذلك الخضر ﴿حبا متراكبا﴾ هو السنبل المنتظم للحبوب المتراكبة بعضها فوق بعض على هيئة مخصوصة وقرئ يخرج منه حب متراكب وقوله تعالى ﴿ومن النخل﴾ شروع فى تفصيل حال الشجر اثر بيان حال النجم فقوله تعالى من النخل خبر مقدم وقوله تعالى ﴿من طلعها﴾ بدل منه باعادة العامل كما فى قوله تعالى لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله الخ والطلع شئ يخرج من النخل كأنه نعلان مطبقان والحمل بينهما منضود وقوله تعالى ﴿قنوان﴾ مبتدأ أى وحاصلة من طلع النخل قنوان ويجوز أن يكون الخبر محذوفا لدلالة أخرجنا عليه أى ومخرجة من طلع النخل قنوان ومن قرأ يخرج منه حب متراكب كان قنوان عنده معطوفا على حب وقيل المعنى وأخرجنا من النخل نخلا من طلعها قنوان أو ومن النخل شئ من طلعها قنوان وهو جمع قنو وهو عنقود النخلة كصنو وصنوان وقرئ بضم القاف كذئب

وذؤبان و بفتحها أيضا على أنه اسم جمع لان فعلان ليس من أبنية الجمع ﴿دانية﴾ سهلة المجتنى قريبة من القاطف فانها وان كانت صغيرة ينالها القاعد تأتى بالثمر لاينتظر الطول أو ملتفة متقاربة والاقتصار على ذكرها لدلالتها على مقابلها كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر ولزيادة النعمة فيها ﴿وجنات من أعناب﴾ عطف على نبات كل شئ أى وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب وقرئ جنات بالرفع على الابتداء أى ولكم أوثمة جنات وقد جوز عطفه على قنوان كأنه قيل وحاصلة أو مخرجة من النخل قنوان وجنات من نبات أعناب ولعل زيادة الجنات ههنا من غير اكتفاء بذكر اسم الجنس كما فيما تقدم وما تأخر لما أن الانتفاع بهذا الجنس لايتأتى غالبا الاعند اجتماع طائفة من أفراده ﴿والزيتون والرمان﴾ منصوبان على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم أو على العطف على نبات وقوله تعالى ﴿مشتبها وغير متشابه﴾ حال من الزيتون اكتفى به عن حال ماعطف عليه كما يكتفى بخبر المعطوف عليه عن خبر المعطوف فى نحو قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وتقديره والزيتون مشتبها وغير متشابه والرمان كذلك وقد جوز أن يكون حالا من الرمان لقربه ويكون المحذوف حال الأول والمعنى بعضه متشابها و بعضه غير متشابه فى الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الاوصاف الدالة على كمال قدرة صانعها وحكمة منشئها ومبدعها ﴿انظروا الى ثمره اذا أثمر﴾ أى انظروا اليه نظر اعتبار واستبصار اذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلا لايكاد ينتفع به وقرئ الى ثمره ﴿وينعه﴾ أى والى حال نضجه كيف يصير الى كماله اللائق به ويكون شيئا جامعا لمنافع جمة والينع فى الاصل مصدر ينعت الثمرة اذا أدركت وقيل جمع يانع كتاجر وتجر وقرئ بالضم وهى لغة فيه وقرئ يانعة ﴿ان فى ذلكم﴾ اشارة الى ماأمر بالنظر اليه ومافى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار اليه و بعد منزلته ﴿لآيات لقوم يؤمنون﴾ أى لآيات عظيمة أو كثيرة دالة على وجود القادر الحكيم و وحدته فان حدوث هاتيك الاجناس المختلفة والانواع المتشعبة من أصل واحد وانتقالها من حال الى حال على نمط بديع يحار فى فهمه الالباب لايكاد يكون الا باحداث صانع يعلم تفاصيلها ويرجح ماتقتضيه حكمته من الوجوه الممكنة على غيره ولا يعوقه عن ذلك ضد يناويه أو ند يقاويه ولذلك عقب بتوبيخ من أشرك به والرد عليه حيث قيل ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ أى جعلوا فى اعتقادهم لله الذى شأنه مافصل فى تضاعيف هذه الآيات الجليلة شركاء ﴿الجن﴾ أى الملائكة حيث عبدوهم وقالوا الملائكة بنات الله وسموا جنا لاجتنانهم تحقيرا لشأنهم بالنسبة الى مقام الالوهية أو الشياطين حيث أطاعوهم كما أطاعوا الله تعالى أو عبدوا الاوثان بتسويلهم وتحريضهم أو قالوا الله خالق الخير وكل نافع والشيطان خالق الشر وكل ضار كما هو رأى الثنوية ومفعولا جعلوا قوله تعالى شركاء الجن قدم ثانيهما على الاول لاستعظام أن يتخذ لله سبحانه شريك ما كائنا ما كان ولله متعلق بشركاء قدم عليه للنكتة المذكورة وقيل هما لله شركاء والجن بدل من شركاء مفسر له نص عليه الفراء وأبو اسحق أو منصوب بمضمر وقع جوابا عن سؤال مقدر نشأ من قوله تعالى وجعلوا لله شركاء كأنه قيل من جعلوه شركاء لله تعالى فقيل الجن أى جعلوا الجن ويؤيده قراءة أبى حيوة و يزيد بن قطيب الجن بالرفع على تقديرهم الجن فى جواب من قال من الذين جعلوهم شركاء لله تعالى وقد قرئ بالجر على أن الاضافة للتبيين ﴿وخلقهم﴾ حال من فاعل جعلوا بتقدير قد أو بدونه على اختلاف الرأيين مؤكدة لما فى جعلهم ذلك من كمال القباحة والبطلان باعتبار علمهم بمضمونها أى وقد علموا أنه تعالى خالقهم خاصة وقيل الضمير للشركاء أى والحال أنه تعالى خلق الجن فكيف يجعلون مخلوقه شريكا له تعالى وقرئ خلقهم عطفا على الجن أى وما يخلقونه من الاصنام أو على شركاء أى وجعلوا له اختلاقهم الافك حيث نسبوه اليه تعالى ﴿وخرقوا له﴾ أى افتعلوا وافتروا له يقال خلق الافك واختلقه وخرقه واخترقه بمعنى وقرئ خرقوا بالتشديد للتكثير وقرئ وحرفوا

له أى زوروا ﴿بنين وبنات﴾ فقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت طائفة من العرب الملائكة بنات الله ﴿بغير علم﴾ أى بحقيقة ماقالوه من خطأ أو صواب بل رميا بقول عن عمى وجهالة من غير فكر وروية أو بغير علم بمرتبة ماقالوه وأنه من الشناعة والبطلان بحيث لايقادر قدره والباء متعلقة بمحذوف هو حال من فاعل خرقوا أو نعت لمصدر مؤكد له أى خرقوا ملتبسين بغير علم أو خرقا كائنا بغير علم ﴿سبحانه﴾ استئناف مسوق لتنزيهه عز وجل عما نسبوه اليه وسبحان علم للتسبيح الذى هو التبعيد عن السوء اعتقادا وقولا أى اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبح فى الارض والماء اذا أبعد فيهما وأمعن ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه أى أسبح سبحانه أى أنزهه عما لايليق به عقدا وعملا تنزيها خاصا به حقيقا بشأنه وفيه مبالغة من جهة الاشتقاق من السبح ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول عن المصدر الدال على الجنس الى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة اقامته مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران لانه سمع له فعل من الثلاثى كما ذكر فى القاموس أريد به التنزه التام والتباعد الكلى ففيه مبالغة من حيث اسناد التنزه الى ذاته المقدسة أى تنزه بذاته تنزها لائقا به وهو الانسب بقوله سبحانه ﴿وتعالى﴾ فانه معطوف على الفعل المضمر لامحالة ولما فى السبحان والتعالى من معنى التباعد قيل ﴿عما يصفون﴾ أى تباعد عما يصفونه من أن له شريكا أو ولدا ﴿بديع السموات والارض﴾ أى مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه فان البديع كما يطلق على المبدع يطلق على المبدع نص عليه أئمة اللغة كالصريخ بمعنى المصرخ وقد جاء بدعه كمنعه بمعنى أنشأه كابتدعه على ماذكر فى القاموس وغيره ونظيره السميع بمعنى المسمع فى قوله أمن ريحانة الداعى السميع وقيل هو من اضافة الصفة المشبهة الى الفاعل للتخفيف بعد نصبه تشبيها لها باسم الفاعل كما هو المشهور أى بديع سمواته وأرضه من بدع اذا كان على نمط عجيب وشكل فائق وحسن رائق أو الى الظرف كما فى قولهم ثبت الغدر بمعنى أنه عديم النظير فيهما والاول هو الوجه والمعنى أنه تعالى مبدع لقطرى العالم العلوى والسفلى بلا مادة فاعل على الاطلاق منزه عن الانفعال بالمرة والوالد عنصر الولد منفعل بانتقال مادته عنه فكيف يمكن أن يكون له ولد وقرئ بديع بالنصب على المدح وبالجر على أنه بدل من الاسم الجليل أو من الضمير المجرور فى سبحانه على رأى من يجيزه وارتفاعه فى القراءة المشهورة على أنه خبر مبتدا محذوف أو فاعل تعالى واظهاره فى موضع الاضمار لتعليل الحكم وتوسيط الظرف بينه وبين الفعل للاهتمام ببيانه أو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿أنى يكون له ولد﴾ وهو على الاولين جملة مستقلة مسوقة كما قبلها لبيان استحالة مانسبوه اليه تعالى وتقرير تنزهه عنه وقوله تعالى ﴿ولم تكن له صاحبة﴾ حال مؤكدة للاستحالة المذكورة فان انتفاء أن يكون له تعالى صاحبة مستلزم لانتفاء أن يكون له ولد ضرورة استحالة وجود الولد بلا والدة وان أمكن وجوده بلا والد وانتفاء الاول لمما لاريب فيه لاحد فمن ضرورته انتفاء الثانى أى من أين أو كيف يكون له ولد كما زعموا والحال أنه ليس له على زعمهم أيضا صاحبة يكون الولد منها وقرئ لم يكن بتذكير الفعل للفصل أو لان الاسم ضميره تعالى والخبر هو الظرف وصاحبة مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو الظرف خبر مقدم وصاحبة مبتدأ مؤخر والجملة خبر للكون وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون الاسم ضمير الشان لصلاحية الجملة حينئذ لأن تكون مفسرة لضمير الشأن لا على الوجه الاول لما بين فى موضعه أن ضمير الشأن لايفسر الا بجملة صريحة وقوله تعالى ﴿وخلق كل شئ﴾ اما جملة مستأنفة أخرى سيقت لتحقيق ماذكر من الاستحالة أو حال أخرى مقررة لها أى أنى يكون له ولد والحال أنه خلق كل شئ انتظمه التكوين والايجاد من الموجودات التى من جملتها ماسموه ولدا له تعالى فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولدا لخالقه ﴿وهو بكل شئ﴾ من شأنه أن يعلم كائنا ما كان

مخلوقا أو غير مخلوق كما ينبئ عنه ترك الاضمار الى الاظهار ﴿عليم﴾ مبالغ فى العلم أزلا وأبدا حسبما يعرب عنه العدول الى الجملة الاسمية فلا يخفى عليه خافية مما كان وما سيكون من الذوات والصفات والاحوال التى من جملتها مايجوز عليه تعالى ومالايجوز من المحالات التى مازعموه فرد من أفرادها والجملة استئناف مقرر لمضمون ماقبلها من الدلائل القاطعة ببطلان مقالتهم الشنعاء التى اجترءوا عليها بغير علم ﴿ذلكم﴾ اشارة الى المنعوت بما ذكر من جلائل النعوت وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو شأن المشار اليه وبعد منزلته فى العظمة والخطاب للمشركين المعهودين بطريق الالتفات وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شئ﴾ أخبار أربعة مترادفة أى ذلك الموصوف بتلك الصفات العظيمة هو الله المستحق للعبادة خاصة مالك أمركم لاشريك له أصلا خالق كل شئ مما كان ومماسيكون فلا تكرار اذ المعتبر فى عنوان الموضوع انما هو خالقيته لما كان فقط كما ينبئ عنه صيغة الماضى وقيل الخبر هو الاول والبواقى أبدال وقيل الاسم الجليل بدل من المبتدا والبواقى أخبار وقيل يقدر لكل من الاخبار الثلاثة مبتدأ وقيل يجعل الكل بمنزلة اسم واحد وقوله تعالى ﴿فاعبدوه﴾ حكم مترتب على مضمون الجملة فان من جمع هذه الصفات كان هو المستحق للعبادة خاصة وقوله تعالى ﴿وهو على كل شئ وكيل﴾ عطف على الجملة المتقدمة أى هو مع ما فصل من الصفات الجليلة متولى أمور جميع مخلوقاته التى أنتم من جملتها فكلوا أموركم اليه وتوسلوا بعبادته الى نجاح مآربكم الدنيوية والاخروية ﴿لاتدركه الأبصار﴾ البصر حاسة النظر وقد تطلق على العين من حيث انها محلها وادراك الشئ عبارة عن الوصول اليه والاحاطة به أى لاتصل اليه الابصار ولا تحيط به كما قال سعيد بن المسيب وقال عطاء كلت أبصار المخلوقين عن الاحاطة به فلا متمسك فيه لمنكرى الرؤية على الاطلاق وقد روى عن ابن عباس ومقاتل رضى الله عنهم لاتدركه الابصار فى الدنيا وهو يرى فى الآخرة ﴿وهو يدرك الابصار﴾ أى يحيط بها علمه اذ لاتخفى عايه خافية ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ فيدرك مالاتدركه الابصار ويجوز أن يكون تعليلا للحكمين السابقين على طريقة اللف أى لاتدركه الابصار لانه اللطيف وهو يدرك الابصار لانه الخبير فيكون اللطيف مستفادا من مقابل الكثيف لما لا يدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها وقوله تعالى ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ استئناف وارد على لسان النبى عليه الصلاة والسلام والبصائر جمع بصيرة وهى النور الذى به تستبصر النفس كما أن البصر نور به تبصر العين والمراد بها الآية الواردة ههنا أو جميع الآية المنتظمة لها انتظاما أوليا ومن لابتداء الغاية مجازا سواء تعلقت بجاء أو بمحذوف هو صفة لبصائر والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لاظهار كمال اللطف بهم أى قد جاءكم من جهة مالككم ومبلغكم الى كمالكم اللائق بكم من الوحى الناطق بالحق والصواب ماهو كالبصائر للقلوب أو قد جاءكم بصائر كائنة من ربكم ﴿فمن أبصر﴾ أى الحق بتلك البصائر وآمن به ﴿فلنفسه﴾ أى فلنفسه أبصر أو فابصاره لنفسه لأن نفعه مخصوص بها ﴿ومن عمى﴾ أى ومن لم يبصر الحق بعدماظهر له بتلك البصائر ظهورا بينا وضل عنه وانما عبر عنه بالعمى تقبيحاله وتنفيراً عنه ﴿فعليها﴾ أى فعليها عمى أو فعماه عليها أو وبال عماه ﴿وماأنا عليكم بحفيظ﴾ وانما أنا منذر والله هوالذى يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها ﴿وكذلك نصرف الآيات﴾ أى مثل ذلك التصريف البديع نصرف الآيات الدالة على المعانى الرائقة الكاشفة عن الحقائق الفائقة لاتصريفا أدنى منه وقوله تعالى ﴿وليقولوا درست﴾ علة لفعل قد حذف تعويلا على دلالة السياق عليه أى وليقولوا درست نفعل مانفعل من التصريف المذكور واللام للعاقبة والواو اعتراضية وقيل هى عاطفة على علة محذوفة واللام متعلقة بنصرف أى مثل ذلك التصريف نصرف الآيات لنلزمهم الحجة وليقولوا الخ وقيل اللام لام الامر وتنصره القراءة بسكون اللام كانه قيل وكذلك نصرف الآيات وليقولواهم مايقولون

فانه لااحتفال بهم و لااعتداد بقولهم وهذا أمر معناه الوعيد والتهديد وعدم الاكتراث بقولهم و رد عليه بأن مابعده يأباه ومعنى درست قرأت وتعلمت وقرئ دارست أى دارست العلماء ودرست أى قدمت هذه الآيات وعفت كما قالوا أساطير الأولين ودرست بضم الراء مبالغة فى درست أى اشتد دروسها ودرست على البناء للمفعول بمعنى قرئت أوعفيت ودارست وفسروها بدارست اليهود محمدا صلى الله عليه وسلم و جاز الاضمار لاشتهارهم بالدراسة وقد جوز اسناد الفعل الى الآيات وهو فى الحقيقة لأهلها أى دارس أهل الآيات وحملتها محمدا صلى الله عليه وسلم وهم أهل الكتاب ودرس أى درس محمد ودارسات أى هى دارسات أى قديمات أوذات درس كعيشة راضية وقوله تعالى ﴿ولنبينه﴾ عطف على ليقولوا واللام على الأصل لأن التبيين غاية التصريف والضمير للآيات باعتبار المعنى أوللقرآن وان لم يذكر أو للمصدر أى ولنفعل التبيين واللام فى قوله تعالى ﴿لقوم يعلمون﴾ متعلقة بالتبيين وتخصيصه بهم لما أنهم المنتفعون به قال ابن عباس هم أولياؤه الذين هداهم الى سبيل الرشاد و وصفهم بالعلم للايذان بغاية جهل الأولين وخلوهم عن العلم بالمرة ﴿اتبع ماأوحى اليك من ربك﴾ لما حكى عن المشركين قدحهم فى تصريف الآيات عقب ذلك بأمره عليه السلام بالثبات على ماهو عليه و بعدم الاعتداد بهم و بأباطيلهم أى دم على ماأنت عليه من اتباع ماأوحى اليك من الشرائع والأحكام التى عمدتها التوحيد و فى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من اظهار اللطف به مالايخفى وقوله تعالى ﴿لااله الاهو﴾ اعتراض بين الأمرين المتعاطفين مؤكد لايجاب اتباع الوحى لاسيما فى أمر التوحيد وقد جوز أن يكون حالا من ربك أى منفردا فى الألوهية ﴿وأعرض عن المشركين﴾ لاتحتفل بهم و بأقاويلهم الباطلة التى من جملتها ماحكى عنهم آنفا ومن جعله منسوخا بآية السيف حمل الاعراض على مايعم الكف عنهم ﴿ولو شاء الله﴾ أى عدم اشراكهم حسبما هو القاعدة المستمرة فى حذف مفعول المشيئة من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء ﴿ماأشركوا﴾ وهذا دليل على أنه تعالى لايريد ايمان الكافر لكن لابمعنى أنه تعالى يمنعه عنه مع توجهه اليه بل بمعنى أنه تعالى لايريده منه لعدم صرف اختياره الجزئى نحو الايمان واصراره على الكفر والجملة اعتراض مؤكد للاعراض وكذا قوله تعالى ﴿وماجعلناك عليهم حفيظا﴾ أى رقيبا مهيمنا من قبلنا تحفظ عليهم أعمالهم وكذا قوله تعالى ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ من جهتهم تقوم بأمورهم وتدبر مصالحهم وعليهم فى الموضعين متعلق بما بعده قدم عليه للاهتمام به أو لرعاية الفواصل ﴿ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله﴾ أى لاتشتموهم من حيث عبادتهم لآلهتهم كأن تقولوا تبا لكم ولما تعبدونه مثلا ﴿فيسبوا الله عدوا﴾ تجاوزا عن الحق الى الباطل بأن يقولوا لكم مثل قولكم لهم ﴿بغير علم﴾ أى بجهالة بالله تعالى و بما يجب أن يذكر به وقرئ عدوا يقال عدا يعدو عدوا وعدوا وعداء وعدوانا . روى أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند نزول قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون الهك وقيل كان المسلمون يسبونهم فنهوا عن ذلك لئلا يستتبع سبهم سبه سبحانه وتعالى وفيه أن الطاعة اذا أدت الى معصية راجحة وجب تركها فان مايؤدى الى الشر شر ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك التزيين القوى ﴿زينا لكل أمة عملهم﴾ من الخير والشر باحداث مايمكنهم منه و يحملهم عليه توفيقا أو تخذيلا و يجوز أن يراد بكل أمة أمم الكفرة اذ الكلام فيهم و بعملهم شرهم وفسادهم والمشبه به تزيين سب الله تعالى لهم ﴿ثم الى ربهم﴾ مالك أمرهم ﴿مرجعهم﴾ أى رجوعهم بالبعث بعد الموت ﴿فينبئهم﴾ من غير تأخير ﴿بما كانوا يعملون﴾ فى الدنيا على الاستمرار من السيئات المزينة لهم وهو وعيد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت وفيه نكتة سرية مبنية على حكمة أبية وهى أن كل مايظهر

فى هذه النشأة من الأعيان والاعراض فانما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقية التى بها يظهر فى النشأة الآخرة فان المعاصى سموم قاتلة قد برزت فى الدنيا بصورة ماتستحسنها نفوس العصاة كما نطقت به هذه الآية الكريمة وكذا الطاعات فانها مع كونها أحسن الاحاسن قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة ولذلك قال عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات فأعمال الكفرة قد برزت لهم فى النشأة بصورة مزينة يستحسنها الغواة ويستحبها الطغاة وستظهر فى النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم ماذا فعبر عن اظهارها بصورها الحقيقية بالاخبار بها لما أن كلا منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هى فليتدبر قوله تعالى ﴿وأقسموا بالله﴾ روى أن قريشا اقترحوا بعض آيات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فان فعلت بعض ماتقولون أتصدقوننى فقالوا نعم وأقسموا لئن فعلته لنؤمنن جميعا فسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها طمعا فى ايمانهم فهم عليه الصلاة والسلام بالدعاء فنزلت وقوله تعالى ﴿جهد أيمانهم﴾ مصدر فى موقع الحال أى أقسموا به تعالى جاهدين فى أيمانهم ﴿لئن جاءتهم آية﴾ من مقترحاتهم أو من جنس الآيات وهو الأنسب بحالهم فى المكابرة والعناد وترامى أمرهم فى العتو والفساد حيث كانوا لا يعدون ما يشاهدونه من المعجزات الباهرة من جنس الآيات ﴿ليؤمنن بها﴾ وما كان مرمى غرضهم فى ذلك الا التحكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلب المعجزة وعدم الاعتداد بما شاهدوا منه من البينات الحقيقة بأن تقطع بها الارض وتسير بها الجبال ﴿قل انما الآيات﴾ أى كلها فيدخل فيها ما اقترحوه دخولا أوليا ﴿عند الله﴾ أى أمرها فى حكمه وقضائه خاصة يتصرف فيها حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة لاتتعلق بها ولا بشأن من شؤنها قدرة أحد ولا مشيئته لا استقلالا ولا اشتراكا بوجه من الوجوه حتى يمكننى أن أتصدى لاستنزالها بالاستدعاء وهذا كما ترى سد لباب الاقتراح على أبلغ وجه وأحسنه ببيان علو شأن الآيات وصعوبة منالها وتعاليها من أن تكون عرضة للسؤال والاقتراح وأما ماقيل من أن المعنى انما الآيات عند الله تعالى لاعندى فكيف أجيبكم اليها أو آتيكم بها وهو القادر عليها لا أنا حتى آتيكم بها فلا مناسبة له بالمقام كيف لا وليس مقترحهم مجيئها بغير قدرة الله تعالى وارادته حتى يجابوا بذلك وقوله تعالى ﴿ومايشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون﴾ كلام مستأنف غير داخل تحت الأمر مسوق من جهته تعالى لبيان الحكمة الداعية الى ماأشعر به الجواب السابق من عدم مجىء الآيات خوطب به المسلمون اما خاصة بطريق التلوين لما كانوا راغبين فى نزولها طمعا فى اسلامهم واما معه عليه الصلاة والسلام بطريق التعميم لما روى عنه صلى الله عليه وسلم من الهم بالدعاء وقد بين فيه أن أيمانهم فاجرة وايمانهم مما لايدخل تحت الوجود وان أجيب الى ماسألوه وما استفهامية انكارية لكن لا على أن مرجع الانكار هو وقوع المشعر به بل هو نفس الاشعار مع تحقق المشعر به فى نفسه أى وأى شىء يعلمكم أن الآية التى يقترحونها اذا جاءت لا يؤمنون بل يبقون على ماكانوا عليه من الكفر والعناد أى لاتعلمون ذلك فتتمنون مجيئها طمعا فى ايمانهم فكأنه بسط عذر من جهة المسلمين فى تمنيهم نزول الآيات وقيل لامزيدة فيتوجه الانكار الى الاشعار والمشعر به جميعا أى أى شىء يعلمكم ايمانهم عند مجىء الآيات حتى تتمنوا مجيئها طمعا فى ايمانهم فيكون تخطئة لرأى المسلمين وقيل أن بمعنى لعل يقال ادخل السوق أنك تشترى اللحم وعنك وعلك ولعلك كلها بمعنى ويؤيده أنه قرىء لعلها اذا جاءت لا يؤمنون على أن الكلام قد تم قبله والمفعول الثانى ليشعركم محذوف كما فى قوله تعالى ومايدريك لعله يزكى والجملة استئناف لتعليل الانكار وتقريره أى أى شىء يعلمكم حالهم وماسيكون عند مجىء الآيات لعلها اذا جاءت لا يؤمنون بها فمالكم تتمنون مجيئها فان تمنيه انما يليق بما اذا كان ايمانهم بها محقق الوجود عند مجيئها لامرجو العدم وقرىء انها بالكسر على أنه استئناف حسبما سبق مع زيادة

تحقيق لعدم ايمانهم وقرىء لاتؤمنون بالفوقانية فالخطاب فى ومايشعركم للمشركين وقرىء ومايشعرهم أنها اذاجاءتهم لايؤمنون فمرجع الانكار اقدام المشركين على الاقسام المذكور مع جهلهم بحال قلوبهم عند مجىء الآيات وبكونها حينئذ كما هى الآن ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ عطف على لايؤمنون داخل فى حكم مايشعركم مقيد بما قيد به أى وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن ادراك الحق فلا يفقهونه وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه لكن لامع توجهها اليه واستعدادها لقبوله بل لكمال نبوها عنه واعراضها بالكلية ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم ايمانهم اشعارا بأصالتهم فى الكفر وحسما لتوهم أن عدم ايمانهم ناشىء من تقليبه تعالى مشاعرهم بطريق الاجبار ﴿كما لم يؤمنوا به﴾ أى بما جاء من الآيات ﴿أول مرة﴾ أى عند ورود الآيات السابقة والكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف منصوب بلا يؤمنون وما مصدرية أى لا يؤمنون بل يكفرون كفرا كائنا ككفرهم أول مرة وتوسيط تقليب الأفئدة والابصار بينهما لانه من متممات عدم ايمانهم ﴿ونذرهم﴾ عطف على لا يؤمنون داخل فى حكم الاستفهام الانكارى مقيد بما قيد به مبين لما هو المراد بتقليب الأفئدة والابصار ومعرب عن حقيقته بأنه ليس على ظاهره بأن يقلب الله سبحانه مشاعرهم عن الحق مع توجههم اليه واستعدادهم له بطريق الاجبار بل بأن يخليهم وشأنهم بعد ماعلم فساد استعدادهم وفرط نفورهم عن الحق وعدم تأثير اللطف فيهم أصلا ويطبع على قلوبهم حسبما يقتضيه استعدادهم كما أشرنا اليه وقوله تعالى ﴿فى طغيانهم﴾ متعلق بنذرهم وقوله تعالى ﴿يعمهون﴾ حال من الضمير المنصوب فى نذرهم أى ندعهم فى طغيانهم متحيرين لانهديهم هداية المؤمنين أو مفعول ثان لنذرهم أى نصيرهم عامهين وقرىء يقلب ويذر بالياء على اسنادهما الى ضمير الجلالة وقرىء تقلب بالتاء والبناء للمفعول على اسناده الى أفئدتهم ﴿ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة﴾ تصريح بما أشعر به قوله عزوجل ومايشعركم أنها اذاجاءت لايؤمنون من الحكمة الداعية الى ترك الاجابة الى مااقترحوه من الآيات اثر بيان أنها فى حكمه تعالى وقضائه المبنى على الحكم البالغة لامدخل لاحد فى أمرها بوجه من الوجوه وبيان لكذبهم فى أيمانهم الفاجرة على أبلغ وجه وآكده أى ولو أننا لم نقتصر على ايتاء ما اقترحوه هنا من آية واحدة من الآيات بل نزلنا اليهم الملائكة كما سألوه بقولهم لولا أنزل علينا الملائكة وقولهم لوماتأتينا بالملائكة ﴿وكلمهم الموتى﴾ وشهدوا بحقية الايمان بعد أن أحييناهم حسبما اقترحوه بقولهم فأتوا بآبائنا ﴿وحشرنا﴾ أى جمعنا ﴿عليهم كل شىء قبلا﴾ بضمتين وقرىء بسكون الباء أى كفلاء بصحة الامر وصدق النبى صلى الله عليه وسلم على أنه جمع قبيل بمعنى الكفيل كرغيف ورغف وقضيب وقضب وهو الانسب بقوله تعالى أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أى لو لم نقتصر على ما اقترحوه بل زدنا على ذلك بأن أحضرنا لديهم كل شىء يتأتى منه الكفالة والشهادة بما ذكر لا فرادى بل بطريق المعية أو جماعات على أنه جمع قبيل وهو جمع قبيلة وهو الأوفق لعموم كل شىء وشموله للانواع والاصناف أى حشرنا كل شىء نوعا نوعا وصنفا صنفا وفوجا فوجا وانتصابه على الحالية وجمعيته باعتبار الكل المجموعى اللازم للكل الافرادى أو مقابلة وعيانا على أنه مصدر كقبلا وقد قرىء كذلك وانتصابه على الوجهين على أنه مصدر فى موقع الحال وقد نقل عن المبرد وجماعة من أهل اللغة أن الاخير بمعنى الجهة كما فى قولك لى قبل فلان حق وأن انتصابه على الظرفية ﴿ما كانوا ليؤمنوا﴾ أى ماصح وما استقام لهم الايمان لتماديهم فى العصيان وغلوهم فى التمرد والطغيان وأما سبق القضاء عليهم بالكفر فمن الاحكام المترتبة على ذلك حسبما ينبىء عنه قوله عز وجل ونذرهم فى طغيانهم يعمهون وقوله تعالى ﴿الا أن يشاء الله﴾ استثناء مفرغ من أعم الاحوال والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة أى ما كانوا ليؤمنوا بعد اجتماع ماذكر من الامور الموجبة للايمان فى حال من الاحوال الداعية اليه المتممة لموجباته

المذكورة الا فى حال مشيئته تعالى لايمانهم أومن أعم العلل أى ما كانوا ليؤمنوا لعلة من العلل المعدودة وغيرها الا لمشيئته تعالى له وأياما كان فليس المراد بالاستثناء بيان أن ايمانهم على خطر الوقوع بناء على كون مشيئته تعالى أيضا كذلك بل بيان استحالة وقوعه بناء على استحالة وقوعها كأنه قيل ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله وهيهات ذلك وحالهم حالهم بدليل ماسبق من قوله تعالى ونقلب أفئدتهم الآية كيف لا وقوله عز وجل ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ استدراك من مضمون الشرطية بعد ورود الاستثناء لاقبله ولا ريب فى أن الذى يجهلونه سواء أريد بهم المسلمون وهو الظاهر أو المقسمون ليس عدم ايمانهم بلا مشيئة الله تعالى كما هو اللازم من حمل النظم الكريم على المعنى الاول فانه ليس مما يعتقده الاولون ولا مما يدعيه الآخرون بل انما هو عدم ايمانهم لعدم مشيئته ايمانهم ومرجعه الى جهلهم بعدم مشيئته اياه فالمعنى أن حالهم كما شرح ولكن أكثر المسلمين يجهلون عدم ايمانهم عند مجىء الآيات لجهلهم عدم مشيئته تعالى لايمانهم فيتمنون مجيئها طمعا فيما لايكون فالجملة مقررة لمضمون قوله تعالى ومايشعركم الخ على القراءة المشهورة أو ولكن أكثر المشركين يجهلون عدم ايمانهم عند مجىء الآيات لجهلهم عدم مشيئته تعالى لايمانهم حينئذ فيقسمون بالله جهد أيمانهم على مالا يكاد يكون فالجملة على القراءة السابقة بيان مبدأ منشأ خطأ المقسمين ومناط اقسامهم وتقرير له على قراءة لاتؤمنون بالتاء الفوقانية وكذا على قراءة وما يشعرهم أنها اذا جاءتهم لايؤمنون ﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا﴾ كلام مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يشاهده من عداوة قريش له عليه الصلاة والسلام وما بنوا عليها مما لاخير فيه من الاقاويل والافاعيل ببيان أن ذلك ليس مختصا بك بل هو أمر ابتلى به كل من سبقك من الانبياء عليهم الصلاة والسلام ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أشير اليه بذلك منصوب بفعله المحذوف مؤكد لما بعده وذلك اشارة الى مايفهم مما قبله أى جعلنا لكل نبى عدوا والتقديم على الفعل المذكور للقصر المفيد للمبالغة أى مثل ذلك الجعل الذى جعلنا فى حقك حيث جعلنا لك عدوا يضادونك و يضارونك ولا يؤمنون و يبغونك الغوائل و يدبرون فى ابطال أمرك مكايد جعلنا لكل نبى تقدمك عدوا فعلوا بهم مافعل بك أعداؤك لاجعلا أنقص منه وفيه دليل على أن عداوة الكفرة للانبياء عليهم السلام بخلقه تعالى للابتلاء ﴿شياطين الانس والجن﴾ أى مردة الفريقين على أن الاضافة بمعنى من البيانية وقيل هى اضافة الصفة الى الموصوف والاصل الانس والجن الشياطين وقيل هى بمعنى اللام أى الشياطين التى للانس والتى للجن وهو بدل من عدوا والجعل متعدالى واحد أو الى اثنين وهو أول مفعوليه قدم عليه الثانى مسارعة الى بيان العداوة واللام على التقديرين متعلقة بالجعل أو بمحذوف هو حال من عدوا وقوله تعالى ﴿يوحى بعضهم الى بعض﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أحكام عداوتهم وتحقيق وجه الشبه بين المشبه والمشبه به أو حال من الشياطين أو نعت لعدوا وجمع الضمير باعتبار المعنى فانه عبارة عن الاعداء كما فى قوله

اذا أنا لم أنفع صديقى بوده ... فان عدوى لم يضرهموا بغضى

والوحى عبارة عن الايماء والقول السريع أى يلقى و يوسوس شياطين الجن الى شياطين الانس أو بعض كل من الفريقين الى بعض آخر ﴿زخرف القول﴾ أى المموه منه المزين ظاهره الباطل باطنه من زخرفه اذا زينه ﴿غرورا﴾ مفعول له ليوحى أى ليغروهم أو مصدر فى موقع الحال أى غارين أو مصدر مؤكد لفعل مقدر هو حال من فاعل يوحى أى يغرون غرورا ﴿ولو شاء ربك﴾ رجوع الى بيان الشئون الجارية بينه صلى الله عليه وسلم و بين قومه المفهومة من حكاية ماجرى بين الأنبياء عليهم السلام و بين أممهم كما ينبىء عنه الالتفات والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره صلى الله عليه وسلم المعربة عن كمال اللطف فى التسلية أى ولو شاء ربك عدم الامور المذكورة لا ايمانهم كما قيل فان

القاعدة المستمرة أن مفعول المشيئة انما يحذف عند وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وهو قوله تعالى ﴿مافعلوه﴾ أى مافعلوا ماذكر من عداوتك وايحاء بعضهم الى بعض مزخرفات الاقاويل الباطلة المتعلقة بأمرك خاصة لابما يعمه وأمور الانبياء عليهم السلام أيضا كما قيل فان قوله تعالى ﴿فذرهم ومايفترون﴾ صريح فى أن المراد بهم الكفرة المعاصرون له عليه الصلاة والسلام أى اذا كان مافعلوه من أحكام عداوتك من فنون المفاسد بمشيئته تعالى فاتركهم وافتراءهم أو ومايفترونه من أنواع المكايد فان لهم فى ذلك عقوبات شديدة ولك عواقب حميدة لابتناء مشيئته تعالى على الحكم البالغة البتة ﴿ولتصغى اليه﴾ أى الى زخرف القول وهو على الوجه الاول علة أخرى للايحاء معطوفة على غرورا ومابينهما اعتراض وانما لم ينصب لفقد شرطه اذ الغرور فعل الموحى وصغو الافئدة فعل الموحى اليه أى يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول ليغروهم به ولتميل اليه ﴿أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة﴾ انما خص بالذكر عدم ايمانهم بالآخرة دون ماعداها من الامور التى يجب الايمان بها وهم بها كافرون اشعارا بما هو المدار فى صغو أفئدتهم الى مايلقى اليهم فان لذات الآخرة محفوفة فى هذه النشأة بالمكاره وآلامها مزينة بالشهوات فالذين لايؤمنون بها وبأحوال مافيها لايدرون أن وراء تلك المكاره لذات ودون هذه الشهوات آلاما وانما ينظرون الى مابدالهم فى الدنيا بادىء الرأى فهم مضطرون الى حب الشهوات التى من جملتها مزخرفات الاقاويل ومموهات الاباطيل وأما المؤمنون بها فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال ناظرين الى عواقب الامور لم يتصور منهم الميل الى تلك المزخرفات لعلمهم ببطلانها ووخامة عاقبتها وأما على الوجهين الاخيرين فهو علة لفعل محذوف يدل عليه المقام أى ولكون ذلك جعلنا ماجعلنا والمعتزلة جعلوا اللام لام العاقبة أو لام القسم أو لام الامر وضعفه فى غاية الظهور ﴿وليرضوه﴾ لانفسهم بعدما مالت اليه أفئدتهم ﴿وليقترفوا﴾ أى يكتسبوا بموجب ارتضائهم له ﴿ماهم مقترفون﴾ له من القبائح التى لايليق ذكرها ﴿أفغير الله أبتغى حكما﴾ كلام مستأنف وارد على ارادة القول والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام أى قل لهم أأميل الى زخارف الشياطين فأبتغى حكما غير الله يحكم بيننا ويفصل المحق منا من المبطل وقيل ان مشركى قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا وبينك حكما من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما فى كتابهم من أمرك فنزلت واسناد الابتغاء المنكر الى نفسه صلى الله عليه وسلم لا الى المشركين كما فى قوله تعالى أفغير دين الله يبغون مع أنهم الباغون لاظهار كمال النصفة أو لمراعاة قولهم اجعل بيننا وبينك حكما وغير اما مفعول أبتغى وحكما حال منه واما بالعكس وأياما كان فتقديمه على الفعل الذى هو المعطوف بالفاء حقيقة كما أشير اليه للايذان بأن مدار الانكار هو ابتغاء غيره تعالى حكما لامطلق الابتغاء وقيل حكما تمييز لما فى غير من الابهام كقولهم ان لنا غيرها ابلا قالوا الحكم أبلغ من الحاكم وأدل على الرسوخ لما أنه لايطلق الاعلى العادل وعلى من تكرر منه الحكم بخلاف الحاكم وقوله تعالى ﴿وهو الذى أنزل اليكم الكتاب﴾ جملة حالية مؤكدة لانكار ابتغاء غيره تعالى حكما ونسبة الانزال اليهم خاصة مع أن مقتضى المقام اظهار تساوى نسبته الى المتحاكمين لاستمالتهم نحو المنزل واستنزالهم الى قبول حكمه بايهام قوة نسبته اليهم أى أغيره تعالى أبتغى حكما والحال أنه هو الذى أنزل اليكم وأنتم أمة أمية لاتدرون ماتأتون وماتذرون القرآن الناطق بالحق والصواب الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب ﴿مفصلا﴾ أى مبينا فيه الحق والباطل والحلال والحرام وغير ذلك من الأحكام بحيث لم يبق فى أمور الدين شىء من التخليط والابهام فأى حاجة بعد ذلك الى الحكم وهذا كماترى صريح فى أن القرآن الكريم كاف فى أمر الدين مغن عن غيره ببيانه وتفصيله وأما أن يكون لاعجازه دخل فى ذلك كما قيل فلا وقوله تعالى ﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾ كلام مستأنف غير داخل

تحت القول المقدر مسوق من جهته سبحانه لتحقيق حقية الكتاب الذى نيط به أمر الحكمية وتقرير كونه منزلا من عنده عز وجل ببيان أن الذين وثقوا بهم و رضوا بحكميتهم حسبما نقل آنفا من علماء اليهود والنصارى عالمون بحقيته ونزوله من عنده تعالى و فى التعبير عن التوراة والانجيل باسم الكتاب ايماء الى مابينهما و بين القرآن من المجانسة المقتضية للاشتراك فى الحقية والنزول من عنده تعالى مع مافيه من الايجاز وايراد الطائفتين بعنوان ايتاء الكتاب للايذان بأنهم علموه من جهة كتابهم حيث وجدوه حسبما نعت فيه وعاينوه موافقا له فى الاصول وما لا يختلف من الفروع ومخبرا عن أمور لا طريق الى معرفتها سوى الوحى والمراد بالموصول اما علماء الفريقين وهو الظاهر فالايتاء هو التفهيم بالفعل واما الكل وهم داخلون فيه دخولا أوليا فهو أعم مما ذكر ومن التفهيم بالقوة و لا ريب فى أن الكل متمكنون من ذلك وقيل المراد مؤمنو أهل الكتاب وقرىء منزل من الانزال والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره صلى الله عليه وسلم لتشريفه عليه الصلاة والسلام والباء فى قوله تعالى بالحق متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى منزل أى ملتبسا بالحق ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ أى فى أنهم يعلمون ذلك لما لا تشاهد منهم آثار العلم وأحكام المعرفة فالفاء لترتيب النهى على الاخبار بعلم أهل الكتاب بشأن القرآن أو فى أنه منزل من ربك بالحق فيكون من باب التهييج والالهاب كقوله تعالى و لا تكونن من المشركين وقيل الخطاب فى الحقيقة للامة وان كان له صلى الله عليه وسلم صورة وقيل الخطاب لكل أحد على معنى أن الادلة قد تعاضدت وتظاهرت فلا ينبغى لاحد أن يمترى فيه والفاء على هذه الوجوه لترتيب النهى على نفس علمهم بحال القرآن ﴿وتمت كلمة ربك﴾ شروع فى بيان كمال الكتاب المذكور من حيث ذاته اثر بيان كماله من حيث اضافته اليه تعالى بكونه منزلا منه بالحق وتحقيق ذلك بعلم أهل الكتاب به وانما عبر عنه بالكلمة لأنها الاصل فى الاتصاف بالصدق والعدل و بها تظهر الآثار من الحكم وقرىء كلمات ربك ﴿صدقا وعدلا﴾ مصدران نصبا على الحال وقيل على التميز وقيل على العلة وقوله تعالى ﴿لا مبدل لكلماته﴾ اما استئناف مبين لفضلها على غيرها اثر بيان فضلها فى نفسها واما حال أخرى من فاعل تمت على أن الظاهر مغن عن الضمير الرابط والمعنى أنها بلغت الغاية القاصية صدقا فى الاخبار والمواعيد وعدلا فى الاقضية والاحكام لا أحد يبدل شيئاً من ذلك بما هو أصدق وأعدل و لا بما هو مثله فكيف يتصور ابتغاء حكم غيره تعالى ﴿وهو السميع﴾ لكل ما يتعلق به السمع ﴿العليم﴾ بكل ما يمكن أن يعلم فيدخل فى ذلك أقوال المتحاكمين وأحوالهم الظاهرة والباطنة دخولا أوليا هذا وقد قيل المعنى لا أحد يقدر على أن يحرفها كما فعل بالتوراة فيكون ضمانا لها من الله عز وجل بالحفظ كقوله تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون أو لا نبى ولا كتاب بعدها ينسخها ﴿وان تطع أكثر من فى الأرض﴾ لما تحقق اختصاصه تعالى بالحكمية لاستقلاله بما يوجبها من انزال الكتاب الكامل الفاصل بين الحق والباطل وتمام صدق كلامه وكمال عدالة أحكامه وامتناع وجود من يبدل شيأ منها واستبداده تعالى بالاحاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات عقب ذلك ببيان أن الكفرة متصفون بنقائض تلك الكمالات من النقائص التى هى الضلال والاضلال واتباع الظنون الفاسدة الناشىء من الجهل والكذب على الله سبحانه وتعالى ابانة لكمال مباينة حالهم لما يرومونه وتحذيرا عن الركون اليهم والعمل بآرائهم والمراد بمن فى الارض الناس و بأكثرهم الكفار وقيل أهل مكة والارض أرضها أى ان تطعهم بأن جعلت منهم حكما ﴿يضلوك عن سبيل الله﴾ عن الطريق الموصل اليه أو عن الشريعة التى شرعها لعباده ﴿ان يتبعون الا الظن﴾ وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق فهم على آثارهم يهتدون أو جهالاتهم وآراؤهم الباطلة على أن المراد بالظن ما يقابل العلم والجملة استئناف مبنى على سؤال نشأ من الشرطية

كأنه قيل كيف يضلون فقيل لا يتبعون فى أمور دينهم الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا فيضلون ضلالا مبينا ولا ريب فى أن الضال المتصدى للارشاد انما يرشد غيره الى مسلك نفسه فهم ضالون مضلون وقوله تعالى ﴿ وان هم الا يخرصون ﴾ عطف على ما قبله داخل فى حكمه أى يكذبون على الله سبحانه فيما ينسبون اليه تعالى كاتخاذ الولد وجعل عبادة الاوثان ذريعة اليه تعالى وتحليل الميتة وتحريم البحائر ونظائرها أو يقدرون أنهم على شىء وأنى لهم ذلك ودونه مناط العيوق وحقيقته ما يقال عن ظن وتخمين ﴿ ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ تقرير لمضمون الشرطية وما بعدها وتأكيد لما يفيده من التحذير أى هو أعلم بالفريقين فاحذر أن تكون من الاولين ومن موصولة أو موصوفة فى محل النصب لا بنفس أعلم فان أفعل التفضيل لا ينصب الظاهر فى مثل هذه الصور بل بفعل دل هو عليه أو استفهامية مرفوعة بالابتداء والخبر يضل والجملة معاق عنها الفعل المقدر وقرىء يضل بضم الياء على أن من فاعل ليضل ومفعوله محذوف ومحلها النصب بما ذكر من الفعل المقدر أى هو أعلم يعلم من يضل الناس فيكون تأكيدا للتحذير عن طاعة الكفرة وأما أن الفاعل هو الله تعالى ومن منصوبة بما ذكر أى يعلم من يضله أو مجرورة باضافة أعلم اليها أى أعلم المضلين من قوله تعالى من يضلل الله أو من قولك أضللته اذا وجدته ضالا فلا يساعده السباق والسياق والتفضيل فى العلم بكثرته واحاطته بالوجوه التى يمكن تعلق العلم بها ولزومه وكونه بالذات لا بالغير ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ أمر مترتب على النهى عن اتباع المضلين الذين من جملة اضلالهم تحليل الحلال وتحريم الحرام وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين انكم تعبدون الله فما قتله الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم فقيل للمسلمين كلوا مما ذكر اسمه تعالى خاصة على ذبحه لا مما ذكر عليه اسم غيره فقط أو مع اسمه تعالى أو مات حتف أنفه ﴿ ان كنتم بآياته ﴾ التى من جملتها الآيات الواردة فى هذا الشأن ﴿ مؤمنين ﴾ فان الايمان بها يقتضى استباحة ما أحله الله والاجتناب عما حرمه وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه ﴿ وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ انكار لأن يكون لهم شىء يدعوهم الى الاجتناب عن أكل ما ذكر عليه اسم الله تعالى من البحائر والسوائب ونحوها وقوله تعالى ﴿ وقد فصل لكم ﴾ الخ جملة حالية مؤكدة للانكار كما فى قوله تعالى ومالنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا أى وأى سبب حاصل لكم فى أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه أو وأى غرض يحملكم على أن لا تأكلوا و يمنعكم من أكله والحال أنه قد فصل لكم ﴿ ما حرم عليكم ﴾ بقوله تعالى قل لا أجد فيما أوحى الى محرما الخ فبقى ماعداذلك على الحل لا بقوله تعالى حرمت عليكم الميتة الخ لانها مدنية وأما التأخر فى التلاوة فلا يوجب التأخر فى النزول وقرىء الفعلان على البناء للمفعول وقرىء الأول على البناء للفاعل والثانى للمفعول ﴿ الا ما اضطررتم اليه ﴾ مما حرم فانه أيضا حلال حينئذ ﴿ وان كثيرا ﴾ أى من الكفار ﴿ ليضلون ﴾ الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام كعمرو بن لحى وأضرابه وقرىء يضلون ﴿ بأهوائهم ﴾ الزائغة وشهواتهم الباطلة ﴿ بغير علم ﴾ مقتبس من الشريعة الشريفة مستند الى الوحى ﴿ ان ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ المتجاوزين لحدود الحق الى الباطل والحلال الى الحرام ﴿ وذروا ظاهر الاثم وباطنه ﴾ أى ما يعلن من الذنوب وما يسر أو ما يعمل منها بالجوارح وما بالقلب وقيل الزنا فى الحوانيت واتخاذ الاخدان ﴿ ان الذين يكسبون الاثم ﴾ أى يكتسبونه من الظاهر والباطن ﴿ سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾ كائنا ما كان فلا بد من اجتنابهما والجملة تعليل للامر ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ ظاهر فى تحريم متروك التسمية عمدا كان أو نسيانا واليه ذهب داود وعن أحمد بن حنبل مثله وقال مالك والشافعى بخلافه لقوله عليه السلام ذبيحة المسلم حلال وان لم يذكر اسم الله عليه وفرق أبو حنيفة بين العمد والنسيان وأوله بالميتة أو بما ذكر عليه اسم

غيره تعالى لقوله ﴿وانه لفسق﴾ فان الفسق ما أهل به لغير الله والضمير لما ويجوز أن يكون للاكل المدلول عليه بلا تأكلوا والجملة مستأنفة وقيل حالية ﴿وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم﴾ المراد بالشياطين ابليس وجنوده فايحاؤهم وسوستهم الى المشركين وقيل مردة المجوس فايحاؤهم الى أوليائهم ما أنهوا الى قريش بالكتاب أن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ثم يزعمون أن ما يقتلونه حلال وما يقتله الله حرام ﴿ليجادلوكم﴾ أى بالوساوس الشيطانية أو بما نقل من أباطيل المجوس وهو يؤيد التأويل بالميتة ﴿وان أطعتموهم﴾ فى استحلال الحرام وساعدتموهم على أباطيلهم ﴿انكم لمشركون﴾ ضرورة أن من ترك طاعة الله الى طاعة غيره واتبعه فى دينه فقد أشركه به تعالى بل آثره عليه سبحانه ﴿أومن كان ميتاً﴾ وقرئ ميتا على الاصل ﴿فأحييناه﴾ تمثيل مسوق لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين اثر تحذيرهم عنها بالاشارة الى أنهم مستضيئون بأنوار الوحى الالهى والمشركون خابطون فى ظلمات الكفر والطغيان فكيف يعقل اطاعتهم لهم والهمزة للانكار والنفى والواو لعطف الجملة الاسمية على مثلها الذى يدل عليه الكلام أى أأنتم مثلهم ومن كان ميتا فأعطيناه الحياة وما يتبعها من القوى المدركة والمحركة ﴿وجعلنا له﴾ مع ذلك من الخارج ﴿نورا﴾ عظيما ﴿يمشى به﴾ أى بسببه والجملة استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا يصنع بذلك النور فقيل يمشى به ﴿فى الناس﴾ أى فيما بينهم آمنا من جهتهم أو صفة له ﴿كمن مثله﴾ أى صفته العجيبة وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿فى الظلمات﴾ خبره على أن المراد بهما اللفظ لا المعنى كما فى قولك زيد صفته أسمر وهذه الجملة صلة لمن وهى مجرورة بالكاف وهى مع مجرورها خبر لمن الاولى وقوله تعالى ﴿ليس بخارج منها﴾ حال من المستكن فى الظرف وقيل من الموصول أى غير خارج منها بحال وهذا كما ترى مثل أريد به من بقى فى الضلالة بحيث لا يفارقها أصلا كما أن الاول مثل أريد به من خلقه الله تعالى على فطرة الاسلام وهداه بالآيات البينة الى طريق الحق يسلكه كيف يشاء لكن لا على أن يدل على كل واحد من هذه المعانى بما يليق به من الالفاظ الواردة فى المثلين بواسطة تشبيهه بما يناسبه من معانيها فان ألفاظ المثل باقية فى معانيها الاصلية بل على أنه قد انتزعت من الامور المتعددة المعتبرة فى كل واحد من جانبى الممثلين هيئة على حدة ومن الامور المتعددة المذكورة فى كل واحد من جانبى المثلين هيئة على حدة فشبهت بهما الاوليان ونزلتا منزلتيهما فاستعمل فيهما ما يدل على الأخريين بضرب من التجوز وقد أشير فى تفسير قوله تعالى ختم الله على قلوبهم الآية الى أن التمثيل قسم برأسه لا سبيل الى جعله من باب الاستعارة حقيقة وأن الاستعارة التمثيلية من عبارات المتأخرين. نعم قد يجرى ذلك على سنن الاستعارة بأن لا يذكر المشبه كهذين التمثيلين ونظائرهما وقد يجرى على منهاج التشبيه كما فى قوله

وما الناس الا كالديار وأهلها   بها يوم حلوها وغدوا بلاقع

﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك التزيين البليغ ﴿زين﴾ أى من جهة الله تعالى بطريق الخلق عند ايحاء الشياطين أو من جهة الشياطين بطريق الزخرفة والتسويل ﴿للكافرين﴾ التابعين للوساوس الشيطانية الآخذين بالمزخرفات التى يوحونها اليهم ﴿ما كانوا يعملون﴾ ما استمروا على عمله من فنون الكفر والمعاصى التى من جملتها ما حكى عنهم من القبائح فانها لو لم تكن مزينة لهم لما أصروا عليها ولما جادلوا بها الحق وقيل الآية نزلت فى حمزة رضى الله عنه وأبى جهل وقيل فى عمر أو عمار رضى الله عنهما وأبى جهل ﴿وكذلك﴾ قيل معناه كما جعلنا فى مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴿جعلنا فى كل قرية﴾ من سائر القرى ﴿أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾ ومفعولا جعلنا أكابر مجرميها على تقديم المفعول الثانى والظرف لغو أوهما الظرف وأكابر على أن مجرميها

بدل أو مضاف اليه فان أفعل التفضيل اذا أضيف جاز الافراد والمطابقة ولذلك قرىء أكبر مجرميها وقيل أكابر مجرميها مفعوله الاول والثانى ليمكروا فيها ولا يخفى أن أى معنى يراد من هذه المعانى لابد أن يكون مشهور التحقق عند الناس معهودا فيما بينهم حتى يصلح أن تصرف الاشارة عن سباق النظم الكريم وتوجه اليه ويجعل مقياسا لنظائره باخراجه مخرج المصدر التشبيهى وظاهر أن ليس الأمر كذلك ولا سبيل الى توجيهها الى مايفهم من قوله تعالى كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون وان كان المراد بهم أكابر مكة لأن مآل المعنى حينئذ بعد اللتيا والتى كما جعلنا أعمال أهل مكة مزينة لهم جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها الخ فاذن الأقرب أن ذلك اشارة الى الكفرة المعهودين باعتبار اتصافهم بصفاتهم والافراد بتأويل الفريق أو المذكور ومحل الكاف النصب على أنه المفعول الثانى لجعلنا قدم عليه لافادة التخصيص كما فى قوله تعالى كذلك كنتم من قبل الآية والاول أكابر مجرميها والظرف لغو أى ومثل أولئك الكفرة الذين هم صناديد مكة ومجرموها جعلنا فى كل قرية أكابرها المجرمين أى جعلناهم متصفين بصفات المذكورين مزينا لهم أعمالهم مصرين على الباطل مجادلين به الحق ليمكروا فيها أى ليفعلوا المكر فيها وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى ﴿وما يمكرون الا بأنفسهم﴾ اعتراض على سبيل الوعد لرسول الله عليه الصلاة والسلام والوعيد للكفرة أى وما تحيق غائلة مكرهم الا بهم ﴿وما يشعرون﴾ حال من ضمير يمكرون مع اعتبار ورود الاستثناء على النفى أى انما يمكرون بأنفسهم والحال أنهم مايشعرون بذلك أصلا بل يزعمون أنهم يمكرون بغيرهم وقوله تعالى ﴿واذا جاءتهم آية﴾ رجوع الى بيان حال مجرمى أهل مكة بعد مابين بطريق التسلية أن حال غيرهم أيضا كذلك وأن عاقبة مكر الكل ماذكر فان العظيمة المنقولة انما صدرت عنهم لاعن سائر المجرمين أى اذا جاءتهم آية بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ماأوتى رسل الله﴾ قال ابن عباس رضى عنهما حتى يوحى الينا ويأتينا جبريل عليه السلام فيخبرنا أن محمدا صادق كما قالوا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا وعن الحسن البصرى مثله وهذا كما ترى صريح فى أن ماعلق بايتاء ماأوتى الرسل عليهم الصلاة والسلام هو ايمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أنزل اليه ايمانا حقيقيا كما هو المتبادر منه عند الاطلاق خلا أنه يستدعى أن يحمل ماأوتى رسل الله على مطلق الوحى ومخاطبة جبريل عليه السلام فى الجملة وأن تصرف الرسالة فى قوله تعالى ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ عن ظاهرها وتحمل على رسالة جبريل عليه السلام بالوجه المذكور ويراد بجعلها تبليغها الى المرسل اليه لاوضعها فى موضعها الذى هو الرسول ليتأتى كونه جوابا عن اقتراحهم وردا له بأن يكون معنى الاقتراح لن نؤمن بكون تلك الآية نازلة من عند الله تعالى الى الرسول حتى يأتينا بالذات عيانا كما يأتى الرسول فيخبرنا بذلك ومعنى الرد الله أعلم من يليق بارسال جبريل عليه السلام اليه لأمر من الأمور ايذانا بأنهم بمعزل من استحقاق ذلك التشريف وفيه من التمحل ما لا يخفى وقال مقاتل نزلت فى أبى جهل حين قال زاحمنا بنى عبد مناف فى الشرف حتى اذا صرنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يوحى اليه والله لانرضى به ولا نتبعه أبدا حتى يأتينا وحى كما يأتيه وقال الضحاك سأل كل واحد من القوم أن يخص بالرسالة والوحى كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة ولا يخفى أن كل واحد من هذين القولين وان كان مناسبا للرد المذكور لكنه يقتضى أن يراد بالايمان المعلق بايتاء ما أوتى الرسل مجرد تصديقهم برسالته عليه الصلاة والسلام فى الجملة من غير شمول لكافة الناس وأن تكون كلمة حتى فى قول اللعين حتى يأتينا وحى كما يأتيه الخ غاية لعدم الرضا لالعدم الاتباع فانه مقرر على تقديرى ايتاء الوحى وعدمه فالمعنى لن نؤمن برسالته أصلا حتى نؤتى نحن من الوحى والنبوة مثل ماأوتى رسل الله أو ايتاء مثل ايتاء رسل الله وأما

ماقيل من أن الوليد بن المغيرة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك لأنى أكبر منك سناً وأكثر منك مالا و ولدا فنزلت فلا تعلق له بكلامهم المردود الا أن يراد بالايمان المعلق بما ذكر مجرد الايمان بكون الآية النازلة وحياً صادقا لا الايمان بكونها نازلة اليه عليه الصلاة والسلام فيكون المعنى واذا جاءتهم آية نازلة الى الرسول قالوا لن نؤمن بنزولها من عند الله حتى يكون نزولها الينا لا اليه لأنا نحن المستحقون دونه فان ملخص معنى قوله لو كانت النبوة حقا الخ لو كان ماتدعيه من النبوة حقا لكنت أنا النبي لا أنت واذ لم يكن الأمر كذلك فليست بحق وما له تعليق الايمان بحقية النبوة بكون نفسه نبيا ومثل ماأوتى نصب على أنه نعت لمصدر محذوف وما مصدرية أى حتى نؤتاها ايتاء مثل ايتاء رسل الله واضافة الايتاء اليهم لأنهم منكرون لايتائه عليه الصلاة والسلام وحيث نصب على المفعولية توسعا لابنفس أعلم لما عرفت من أنه لايعمل فى الظاهر بل بفعل دل هو عليه أى هو أعلم يعلم الموضع الذى يضعها فيه والمعنى أن منصب الرسالة ليس مما ينال بكثرة المال والولد وتعاضد الأسباب والعدد وانما ينال بفضائل نفسانية يخصها الله تعالى بمن يشاء من خلص عباده وقرئ رسالاته ﴿سيصيب الذين أجرموا﴾ استئناف آخر ناع عليهم ماسيلقونه من فنون الشر بعد مانعى عليهم حرمانهم مما أملوه والسين للتأكيد و وضع الموصول موضع الضمير للاشعار بأن اصابة مايصيبهم لاجرامهم المستتبع لجميع الشرور والقبائح أى يصيبهم البتة مكان ماتمنوه وعلقوا به أطماعهم الفارغة من عزة النبوة وشرف الرسالة ﴿صغار﴾ أى ذلة وحقارة بعد كبرهم ﴿عند الله﴾ أى يوم القيامة وقيل من عند الله ﴿وعذاب شديد﴾ فى الآخرة أو فى الدنيا ﴿بما كانوا يمكرون﴾ أى بسبب مكرهم المستمر أو بمقابلته وحيث كان هذا من معظم مواد اجرامهم صرح بسببيته ﴿فمن يرد الله أن يهديه﴾ أى يعرفه طريق الحق و يوفقه للايمان ﴿يشرح صدره للاسلام﴾ فيتسع له و ينفتح وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق مهيئة لحلوله فيها مصفاة عما يمنعه و ينافيه واليه أشار عليه الصلاة والسلام حين سئل فقال نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فينشرح له و ينفتح فقالوا هل لذلك من أمارة يعرف بها فقال نعم الانابة الى دار الخلود والاعراض عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله ﴿ومن يرد أن يضله﴾ أى يخلق فيه الضلال بصرف اختياره اليه ﴿يجعل صدره ضيقا حرجا﴾ بحيث ينبو عن قبول الحق فلا يكاد يدخله الايمان وقرئ ضيقا بالتخفيف وحرجا بكسر الراء أى شديد الضيق والأول مصدر وصف به مبالغة ﴿كأنما يصعد﴾ ماهذه مهيئة لدخول كأن على الجمل الفعلية ﴿فى السماء﴾ شبه للمبالغة فى ضيق صدره بمن يزاول مالا يكاد يقدر عليه فان صعود السماء مثل فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة وفيه تنبيه على أن الايمان يمتنع منه كما يمتنع منه الصعود وقيل معناه كأنما يتصاعد الى السماء نبوا عن الحق وتباعدا فى الهرب منه وأصل يصعد يتصعد وقد قرئ به وقرئ يصاعد وأصله يتصاعد ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الجعل الذى هو جعل الصدر حرجا على الوجه المذكور ﴿يجعل الله الرجس﴾ أى العذاب أو الخذلان قال مجاهد الرجس مالا خير فيه وقال الزجاج الرجس اللعنة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ﴿على الذين لايؤمنون﴾ أى عليهم و وضع الموصول موضع المضمر للاشعار بأن جعله تعالى معلل بما فى حيز الصلة من كمال نبوهم عن الايمان واصرارهم على الكفر ﴿وهذا﴾ أى البيان الذى جاء به القرآن أو الاسلام أو ماسبق من التوفيق والخذلان ﴿صراط ربك﴾ أى طريقه الذى ارتضاه أو عادته وطريقته التى اقتضتها حكمته و فى التعرض لعنوان الربوبية ايذان بأن تقويم ذلك الصراط للتربية وافاضة الكمال ﴿مستقيما﴾ لاعوج فيه أو عادلا مطردا وهو حال مؤكدة كقوله تعالى وهو الحق مصدقا والعامل فيها معنى الاشارة ﴿قد فصلنا الآيات﴾ بيناها مفصلة ﴿لقوم يذكرون﴾ يتذكرون مافى تضاعيفها

فيعلمون أن كل مايحدث من الحوادث خيرا كان أو شرا فانما يحدث بقضاء الله تعالى وخلقه وأنه تعالى عالم بأحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم وتخصيص القوم المذكورين بالذكر لأنهم المنتفعون بتفصيل الآيات ﴿لهم دار السلام﴾ أى للمتذكرين دار السلامة من كل المكاره وهى الجنة ﴿عند ربهم﴾ أى فى ضمانه أو ذخيرة لهم عنده لايعلم كنهها غيره تعالى ﴿وهو وليهم﴾ أى مولاهم وناصرهم ﴿بما كانوا يعملون﴾ بسبب أعمالهم الصالحة أو متوليهم بجزائها يتولى ايصاله اليهم ﴿ويوم يحشرهم جميعا﴾ منصوب بمضمر اما على المفعولية أو الظرفية وقرىء بنون العظمة على الالتفات لتهويل الأمر والضمير المنصوب لمن يحشر من الثقلين أى واذكر يوم يحشر الثقلين قائلا ﴿يامعشر الجن﴾ أو ويوم يحشرهم يقول يامعشر الجن أو ويوم يحشرهم ويقول يامعشر الجن يكون من الأحوال والأهوال مالا يساعده الوصف لفظاعته والمعشر الجماعة والمراد بمعشر الجن الشياطين ﴿قد استكثرتم من الانس﴾ أى من اغوائهم واضلالهم أو منهم بأن جعلتموهم أتباعكم فحشروا معكم كقولهم استكثر الأمير من الجنود وهذا بطريق التوبيخ والتقريع ﴿وقال أولياؤهم﴾ أى الذين أطاعوهم ومن فى قوله تعالى ﴿من الانس﴾ اما لبيان الجنس أى أولياؤهم الذين هم الانس أو متعلقة بمحذوف هو حال من أوليائهم أى كائنين من الانس ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أى انتفع الانس بالجن بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به اليها وقيل بأن ألقوا اليهم من الأراجيف والسحر والكهانة والجن بالانس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم بقبول ما ألقوه اليهم وقيل استمتاع الانس بهم أنهم كانوا يعوذون بهم فى المفاوز والمخاوف واستمتاعهم بالانس اعترافهم بأنهم قادرون على اجارتهم ﴿وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا﴾ وهو يوم القيامة قالوه اعترافا بما فعلوا من طاعة الشياطين واتباع الهوى وتكذيب البعث واظهارا للندامة عليها وتحسرا على حالهم واستسلاما لربهم ولعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين للايذان بأن المضلين قد أفحموا بالمرة فلم يقدروا على التكلم أصلا ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية كلامهم كأنه قيل فماذا قال الله تعالى حينئذ فقيل قال ﴿النار مثواكم﴾ أى منزلكم أو ذات ثوائكم كما أن دار السلام مثوى المؤمنين ﴿خالدين فيها﴾ حال والعامل مثواكم ان جعل مصدرا ومعنى الاضافة ان جعل مكانا ﴿الا ماشاء الله﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما استثنى الله تعالى قوما قد سبق فى علمه أنهم يسلمون ويصدقون النبى عليه الصلاة والسلام وهذا مبنى على أن الاستثناء ليس من المحكى وما بمعنى من وقيل المعنى الا الاوقات التى ينقلون فيها من النار الى الزمهرير فقدروى أنهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض فيتعاوون ويطلبون الرد الى الجحيم وقيل يفتح لهم وهم فى النار باب الى الجنة فيسرعون نحوه حتى اذا صاروا اليه سد عليهم الباب وعلى التقديرين فالاستثناء تهكم بهم وقيل الا ماشاء الله قبل الدخول كأنه قيل النار مثواكم أبدا الا ما أمهلكم ولا يخفى بعده ﴿ان ربك حكيم﴾ فى أفاعيله ﴿عليم﴾ باحوال الثقلين وأعمالهم وبما يليق بها من الجزاء ﴿وكذلك﴾ أى مثل ماسبق من تمكين الجن من اغواء الانس واضلالهم ﴿نولى بعض الظالمين﴾ من الانس ﴿بعضا﴾ آخر منهم أى نجعلهم بحيث يتولونهم بالاغواء والاضلال أو نجعل بعضهم قرناء بعض فى العذاب كما كانوا كذلك فى الدنيا عند اقتراف ما يؤدى اليه من القبائح ﴿بما كانوا يكسبون﴾ بسبب ماكانوا مستمرين على كسبه من الكفر والمعاصى ﴿يامعشر الجن والانس﴾ شروع فى حكاية ماسيكون من توبيخ المعشرين وتقريعهم بتفريطهم فيما يتعلق بخاصة أنفسهم اثر حكاية توبيخ معشر الجن باغواء الانس واضلالهم وبيان مآل أمرهم ﴿ألم يأتكم﴾ أى فى الدنيا ﴿رسل﴾ أى من عند الله عزوجل لكن لاعلى أن يأتى كل رسول كل واحدة من الامم بل على أن يأتى كل أمة رسول خاص بها أى ألم يأت كل

أمة منكم رسول معين وقوله تعالى ﴿منكم﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لرسل أى كائنة من جملتكم لكن لا على أنهم من جنس الفريقين معاً بل من الانس خاصة وانما جعلوا منهما اما لتأكيد وجوب اتباعهم والايذان بتقاربهما ذاتا واتحادهما تكليفا وخطابا كأنهما جنس واحد ولذلك تمكن أحدهما من اضلال الآخر واما لان المراد بالرسل مايعم رسل الرسل وقد ثبت أن الجن قد استمعوا القرآن وأنذروا به قومهم حيث نطق به قوله تعالى واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن الى قوله تعالى و لوا الى قومهم منذرين وقوله تعالى ﴿يقصون عليكم آياتى﴾ صفة أخرى لرسل محققة لما هو المراد من ارسال الرسل من التبليغ والانذار وقد حصل ذلك بالنسبة الى الثقلين ﴿وينذرونكم﴾ بما فى تضاعيفها من القوارع ﴿لقاء يومكم هذا﴾ يوم الحشر الذى قد عاينوا فيه ما أعدلهم من أفانين العقوبات الهائلة ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام السابق كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك التوبيخ الشديد فقيل قالوا ﴿شهدنا على أنفسنا﴾ أى باتيان الرسل وانذارهم و بمقابلتهم اياهم بالكفر والتكذيب و باستحقاقهم بسبب ذلك للعذاب المخلد حسبما فصل فى حكاية جوابهم عن سؤال خزنة النار حيث قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شئ ان أنتم الا فى ضلال كبير وقد أجمل ههنا فى الحكاية كما أجمل فى حكاية جوابهم حيث قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين وقوله تعالى ﴿وغرتهم الحيوة الدنيا﴾ مع ما عطف عليه اعتراض لبيان ما أداهم فى الدنيا الى ارتكابهم للقبائح التى ارتكبوها والجائهم بعد ذلك فى الآخرة الى الاعتراف بالكفر واستيجاب العذاب وذم لهم بذلك أى واغتروا فى الدنيا بالحياة الدنيئة واللذات الخسيسة الفانية وأعرضوا عن النعيم المقيم الذى بشرت به الرسل واجترؤا على ارتكاب مايجرهم الى العذاب المؤبد الذى أنذروهم اياه ﴿وشهدوا﴾ فى الآخرة ﴿على أنفسهم أنهم كانوا﴾ فى الدنيا ﴿كافرين﴾ أى بالآيات والنذر التى أتى بها الرسل على التفصيل المذكور آنفا واضطروا الى الاستسلام لاشد العذاب كما ينبئ عنه ماحكى عنهم بقوله تعالى وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير وفيه من تحسيرهم وتحذير السامعين عن مثل صنيعهم مالا مزيد عليه ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماذكر من شهادتهم على أنفسهم بالكفر واستيجاب العذاب والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿أن لم يكن ربك مهلك القرى﴾ بحذف اللام على أن أن مصدرية أو مخففة من أن وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف وقوله تعالى ﴿بظلم﴾ متعلق اما بمهلك أى بسبب ظلم أو بمحذوف وقع حالا من القرى أى ملتبسة بظلم فان ملابسة أهلها للظلم ملابسة للقرية له بواسطتهم وأما كونه حالا من ربك أو من ضميره فى مهلك كما قيل فيأباه أن غفلة أهلها مأخوذة فى معنى الظلم وحقيقته لامحالة فلايحسن تقييده بقوله تعالى ﴿وأهلها غافلون﴾ والمعنى ذلك ثابت لانتفاء كون ربك أو لان الشأن لم يكن ربك مهلك القرى بسبب أى ظلم فعلوه من أفراد الظلم قبل أن ينهوا عنه و ينبهوا على بطلانه برسول و كتاب وان قضى به بديهة العقول و ينذروا عاقبة جناياتهم أى لولا انتفاء كونه تعالى معذبا لهم قبل ارسال الرسل وانزال الكتب لما أمكن التوبيخ بما ذكر ولما شهدوا على أنفسهم بالكفر واستيجاب العذاب و لااعتذروا بعدم اتيان الرسل كما فى قوله تعالى ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى وانما علل ماذكر بانتفاء التعذيب الدنيوى الذى هو اهلاك القرى قبل الانذار مع أن التقريب فى تعليله بانتفاء مطلق التعذيب من غير بعث الرسل أتم على مانطق به قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا لبيان كمال نزاهته سبحانه وتعالى عن كلا التعذيبين الدنيوى والأخروى معا من غير انذار على أبلغ وجه وآكده حيث اقتصر على نفى التعذيب الدنيوى عنه تعالى ليثبت نفى التعذيب الأخروى عنه تعالى على الوجه البرهانى بطريق الاولوية فانه تعالى حيث لم يعذبهم بعذاب يسير منقطع

بدون انذار فلأن لا يعذبهم بعذاب شديد مخلد أولى وأجلى ولو علل بما ذكر من نفى التعذيب لانصرف بحسب المقام الى مافيه الكلام من نفى التعذيب الأخروى ونفى التعذيب الدنيوى غير متعرض له لاصريحا ولادلالة ضرورة أن نفى الاعلى لايدل على نفى الادنى ولان ترتب التعذيب الدنيوى على الانذار عند عدم تأثر المنذرين منه معلوم مشاهد عند السامعين فيستدلون بذلك على أن التعذيب الأخروى أيضا كذلك فينزجرون عن الاخلال بمواجب الانذار أشدانزجار هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الكريم وأماجعل ذلك اشارة الى ارسال الرسل عليهم السلام وانذارهم وخبر المبتدا محذوف كما أطبق عليه الجمهور فبمعزل من مقتضى المقام والله سبحانه أعلم ﴿ولكل﴾ أى من المكلفين من الثقلين ﴿درجات﴾ متفاوتة وطبقات متباينة ﴿مما عملوا﴾ من أعمالهم صالحة كانت أو سيئة فان أعمالهم درجات فى أنفسها أو من جزاء أعمالهم فان كل جزاء مرتبة معينة لهم أو من أجل أعمالهم ﴿وماربك بغافل عما يعملون﴾ فيخفى عليه عمل من أعمالهم أو قدر مايستحقون بها من ثواب أو عقاب وقرىء بالتاء تغليبا للخطاب على الغيبة ﴿وربك الغنى﴾ مبتدأ وخبر أى هو المعروف بالغنى عن كل ماسواه كائنا من كان وما كان فيدخل فيه غناه عن العباد وعن عبادتهم وفى التعرض لوصف الربوبية فى الموضعين لاسيما الثانى لكونه موقع الاضمار مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من اظهار اللطف به عليه السلام وتنزيه ساحته عن توهم شمول الوعيد الآتى لها أيضا مالايخفى وقوله تعالى ﴿ذوالرحمة﴾ خبر آخر أو هو الخبر والغنى صفة أى يترحم عليهم بالتكليف تكميلا لهم ويمهلهم على المعاصى وفيه تنبيه على أن ماسلف ذكره من الارسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتمهيد لقوله تعالى ﴿ان يشأ يذهبكم﴾ أى مابه حاجة اليكم ان يشأ يذهبكم أيها العصاة وفى تلوين الخطاب من تشديد الوعيد مالايخفى ﴿ويستخلف من بعدكم﴾ أى من بعد اذهابكم ﴿مايشاء﴾ من الخلق وايثار ماعلى من لاظهار كمال الكبرياء واسقاطهم عن رتبة العقلاء ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ أى من نسل قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه الصلاة والسلام لكنه أبقاكم ترحما عليكم وما فى كما مصدرية ومحل الكاف النصب على أنه مصدر تشبيهى على غير الصدر فان يستخلف فى معنى ينشىء كأنه قيل وينشىء انشاء كائنا كانشائكم الخ أو نعت لمصدر الفعل المذكور أى يستخلف استخلافا كائنا كانشائكم الخ والشرطية استئناف مقرر لمضمون ماقبلها من الغنى والرحمة ﴿ان ماتوعدون﴾ أى الذى توعدونه من البعث وما يتفرغ عليه من الأمور الهائلة وصيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار التجددى ﴿لآت﴾ لواقع لامحالة كقوله تعالى ان ماتوعدون لواقع وايثاره عليه لبيان كمال سرعة وقوعه بتصويره بصورة طالب حثيث لايفوته هارب حسبما يعرب عنه قوله تعالى ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أى بفائتين ذلك وان ركبتم فى الهرب متن كل صعب وذلول كما أن ايثار صيغة الفاعل على المستقبل للايذان بكمال قرب الاتيان والمراد بيان دوام انتفاء الاعجاز لا بيان انتفاء دوام الاعجاز فان الجملة الاسمية كما تدل على دوام الثبوت تدل بمعونة المقام اذا دخل عليها حرف النفى على دوام الانتفاء لاعلى انتفاء الدوام كما حقق فى موضعه ﴿قل ياقوم اعملوا على مكانتكم﴾ اثر مابين لهم حالهم ومآلهم بطريق الخطاب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين بأن يواجههم بتشديد التهديد وتكرير الوعيد ويظهر لهم ماهو عليه من غاية التصاب فى الدين ونهاية الوثوق بأمره وعدم المبالاة بهم أى اعملوا على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ التمكن أوعلى جهتكم وحالتكم التى أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة وقرىء مكاناتكم والمعنى اثبتوا على كفركم ومعاداتكم ﴿انى عامل﴾ ما أمرت به من الثبات على الاسلام والاستمرار على الأعمال الصالحة والمصابرة وايراد التهديد بصيغة الأمر مبالغة فى الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه مجمعا عليه فيحمله بالأمر على مايؤدى اليه وتسجيل بأن المهدد لايتأتى

منه الا الشر كالذى أمر به بحيث لايجد الى التفصى عنه سبيلا ﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ سوف لتأكيد مضمون الجملة والعلم عرفانى ومن اما استفهامية معلقة لفعل العلم محلها الرفع على الابتداء وتكون باسمها وخبرها خبر لها وهى مع خبرها فى محل نصب لسدها مسد مفعول تعلمون أى فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة الحسنى التى خلق الله تعالى هذه الدار لها واما موصولة فمحلها النصب على أنها مفعول لتعلمون أى فسوف تعلمون الذى له عاقبة الدار وفيه مع الانذار انصاف فى المقال وتنبيه على كمال وثوق المنذر بأمره وقرىء بالياء لان تأنيث العاقبة غير حقيقى ﴿انه﴾ أى الشأن ﴿لا يفلح الظالمون﴾ وضع الظلم موضع الكفر ايذانا بأن امتناع الفلاح يترتب على أى فرد كان من أفراد الظلم فما ظنك بالكفر الذى هو أعظم أفراده ﴿وجعلوا﴾ شروع فى تقبيح أحوالهم الفظيعة بحكاية أقوالهم وأفعالهم الشنيعة وهم مشركو العرب كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله تعالى وأشياء منهما لآلهتهم فاذا رأوا ماجعلوه لله تعالى زاكيا ناميا يزيد فى نفسه خيرا رجعوا فجعلوه لآلهتهم واذا زكا ماجعلوه لآلهتهم تركوه معتلين بأن الله تعالى غنى وماذاك الا لحب آلهتهم وايثارهم لها والجعل اما متعد الى واحد فالجاران فى قوله تعالى ﴿لله مما ذرأ﴾ متعلقان به ومن فى قوله تعالى ﴿من الحرث والأنعام﴾ بيان لما وفيه تنبيه على فرط جهالتهم حيث أشركوا الخالق فى خلقه جمادا لا يقدر على شىء ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزكى له أى عينوا له تعالى مما خلقه من الحرث والانعام ﴿نصيبا﴾ يصرفونه الى الضيفان والمساكين وتأخيره عن المجرورين لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر واما الى مفعولين أولهما مما ذرأ على أن من تبعيضية أى جعلوا بعض ماخلقه نصيبا له وما قيل من أن الأول نصيبا والثانى لله لايساعده سداد المعنى وحكاية جعلهم له تعالى نصيبا تدل على أنهم جعلوا لشركائهم أيضا نصيبا ولم يذكر اكتفاء بقوله تعالى ﴿فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾ وقرىء بضم الزاء وهو لغة فيه وانما قيد به الأول للتنبيه على أنه فى الحقيقة ليس بجعل لله تعالى غير مستتبع لشىء من الثواب كالتطوعات التى يبتغى بها وجه الله تعالى لا لما قيل من أنه للتنبيه على أن ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله تعالى به فان ذلك مستفاد من الجعل ولذلك لم يقيد به الثانى ويجوز أن يكون ذلك تمهيدا لما بعده على معنى أن قولهم هذا لله مجرد زعم منهم لايعملون بمقتضاه الذى هو اختصاصه به تعالى فقوله تعالى ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم﴾ بيان وتفصيل له أى فما عينوه لشركائهم لا يصرف الى الوجوه التى يصرف اليها ماعينوه لله تعالى من قرى الضيفان والتصدق على المساكين وماعينوه لله تعالى اذا وجدوه زاكيا يصرف الى الوجوه التى يصرف اليها ماعينوه لآلهتهم من انفاق عليها وذبح نسائك عندها والاجراء على سدنتها ونحو ذلك ﴿ساء مايحكمون﴾ فيما فعلوا من ايثار آلهتهم على الله تعالى وعملهم بما لم يشرع لهم وما بمعنى الذى والتقدير ساء الذى يحكمون حكمهم فيكون حكمهم مبتدأ وماقبله الخبر وحذف لدلالة يحكمون عليه ﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك فى قسمة القربان بين الله تعالى وبين آلهتهم أو مثل ذلك التزيين البليغ المعهود من الشياطين ﴿زين لكثير من المشركين قتل أولادهم﴾ بوأدهم ونحرهم لآلهتهم. كان الرجل يحلف فى الجاهلية لئن ولد له كذا غلاما لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب وهو مشهور ﴿شركاؤهم﴾ أى أولياؤهم من الجن أو من السدنة وهو فاعل زين أخر عن الظرف والمفعول لما مر غير مرة وقرىء على البناء للمفعول الذى هو القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء باضافة القتل اليه مفصولا بينهما بمفعوله وقرىء على البناء للمفعول ورفع قتل وجر أولادهم ورفع شركاؤهم باضمار فعل دل عليه زين كأنه لما قيل زين لهم قتل أولادهم قيل من زينه فقيل زينه شركاؤهم ﴿ليردوهم﴾ أى يهلكوهم بالاغواء ﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾ وليخلطوا عليهم ماكانوا عليه من دين اسمعيل عليه السلام أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به واللام للتعليل ان كان

التزيين من الشياطين وللعاقبة ان كان من السدنة ﴿ولو شاء الله﴾ أى عدم فعلهم ذلك ﴿مافعلوه﴾ أى مافعل المشركون مازين لهم من القتل أو الشركاء التزيين أو الارداء واللبس أو الفريقان جميع ذلك على اجراء الضمير مجرى اسم الاشارة ﴿فذرهم وما يفترون﴾ الفاء فصيحة أى اذا كان مافعلوه بمشيئة الله تعالى فدعهم وافتراءهم أو وما يفترونه من الافك فان فيما شاء الله تعالى حكما بالغة انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين وفيه من شدة الوعيد مالا يخفى ﴿وقالوا﴾ حكاية لنوع آخر من أنواع كفرهم ﴿هذه﴾ اشارة الى ماجعلوه لآلهتهم والتأنيث للخبر ﴿أنعام وحرث حجر﴾ أى حرام فعل بمعنى مفعول كالذبح يستوى فيه الواحد والكثير والذكر والانثى لأن أصله المصدر ولذلك وقع صفة لانعام وحرث وقرىء حجر بالضم و بضمتين وحرج أى ضيق وأصله حرج وقيل هو مقلوب من حجر ﴿لايطعمها الا من نشاء﴾ يعنون خدم الأوثان من الرجال دون النساء والجملة صفة أخرى لانعام وحرث ﴿بزعمهم﴾ متعلق بمحذوف هو حال من فاعل قالوا أى قالوه ملتبسين بزعمهم الباطل من غير حجة ﴿وأنعام﴾ خبر مبتدا محذوف والجملة معطوفة على قوله تعالى هذه أنعام الخ أى قالوا مشيرين الى طائفة أخرى من أنعامهم وهذه أنعام ﴿حرمت ظهورها﴾ يعنون بها البحائر والسوائب والحوامى ﴿وأنعام﴾ أى وهذه أنعام كما مر وقوله تعالى ﴿لا يذكرون اسم الله عليها﴾ صفة لأنعام لكنه غير واقع فى كلامهم المحكى كنظائره بل مسوق من جهته تعالى تعيينا للموصوف وتمييزا له عن غيره كما فى قوله تعالى وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله على أحد التفاسير كأنه قيل وأنعام ذبحت على الأصنام فانها التى لايذكر عليها اسم الله وانما يذكر عليها اسم الأصنام وقيل لايحجون عليها فان الحج لايعرى عن ذكر الله تعالى وقال مجاهد كانت لهم طائفة من أنعامهم لايذكرون اسم الله عليها ولا فى شىء من شأنها لا ان ركبوا و لا ان حلبوا و لا ان نتجوا و لا ان باعوا و لا ان حملوا ﴿افتراء عليه﴾ نصب على المصدر اما على أن ما قالوه تقول على الله تعالى واما على تقدير عامل من لفظه أى افتروا افتراء والجار متعلق بقالوا أو بافتروا المقدر أو بمحذوف هو صفة له لا بافتراء لأن المصدر المؤكد لايعمل أو على الحال من فاعل قالوا أى مفترين أو على العلة أى للافتراء فالجار متعلق به ﴿سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾ أى بسببه أو بدله وفى ابهام الجزاء من التهويل ما لا يخفى ﴿وقالوا﴾ حكاية لفن آخر من فنون كفرهم ﴿ما فى بطون هذه الأنعام﴾ يعنون به أجنة البحائر والسوائب ﴿خالصة لذكورنا﴾ حلال لهم خاصة والتاء للنقل الى الاسمية أو للمبالغة أو لأن الخالصة مصدر كالعافية وقع موقع الخالص مبالغة أو بحذف المضاف أى ذو خالصة أو للتأنيث بناء على أن ما عبارة عن الأجنة والتذكير فى قوله تعالى ﴿ومحرم على أزواجنا﴾ أى جنس أزواجنا وهن الاناث باعتبار اللفظ وفيه كما ترى حمل للنظم الكريم على خلاف المعهود الذى هو الحمل على اللفظ أولا وعلى المعنى ثانيا كما فى قوله تعالى ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم الخ ونظائره وأما العكس فقد قالوا أنه لانظير له فى القرآن وهذا الحكم منهم ان ولد ذلك حيا وهو الظاهر المعتاد ﴿وان يكن ميتة﴾ أى ان ولدت ميتة ﴿فهم﴾ أى الذكور والاناث ﴿فيه﴾ أى فيما فى بطون الأنعام وقيل المراد بالميتة ما يعم الذكر والأنثى فغلب الأول على الثانى ﴿شركاء﴾ يأكلون منه جميعا وقرىء خالصة بالنصب على أنه مصدر مؤكد والخبر لذكورنا أو حال من الضمير الذى فى الظرف لا من الذى فى ذكورنا ولا من الذكور لأنه لا يتقدم على العامل المعنوى ولا على صاحبه المجرور وقرىء خالصه بالرفع والاضافة الى الضمير على أنه بدل من ما أو مبتدأ ثان ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ أى جزاء وصفهم الكذب على الله تعالى فى أمر التحليل والتحريم

من قوله تعالى وتصف ألسنتهم الكذب ﴿ انه حكيم عليم ﴾ تعليل للوعيد بالجزاء فان الحكيم العليم بما صدر عنهم لا يكاد يترك جزاءهم الذى هو من مقتضيات الحكمة ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم ﴾ جواب قسم محذوف وقرئ بالتشديد وهم ربيعة ومضر وأضرابهم من العرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر أى خسروا دينهم ودنياهم ﴿ سفها بغير علم ﴾ متعلق بقتلوا على أنه علة له أى لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله هو الرزاق لهم ولأولادهم أو نصب على الحال ويؤيده أنه قرئ سفهاء أو مصدر ﴿ وحرموا ما رزقهم الله ﴾ من البحائر والسوائب ونحوهما ﴿ افتراء على الله ﴾ نصب على أحد الوجوه المذكورة واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لاظهار كمال عتوهم وطغيانهم ﴿ قد ضلوا ﴾ عن الطريق المستقيم ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ اليه وان هدوا بفنون الهدايات أو وما كانوا مهتدين من الاصل لسوء سيرتهم فالجملة حينئذ اعتراض وعلى الاول عطف على ضلوا ﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات ﴾ تمهيد لما سيأتى من تفصيل أحوال الانعام أى هو الذى أنشأهن من غير شركة لاحد فى ذلك بوجه من الوجوه والمعروشات من الكروم المرفوعات على ما يحملها ﴿ وغير معروشات ﴾ وهن الملقيات على وجه الارض وقيل المعروشات ما غرسه الناس وعرشوه وغير المعروشات ما نبت فى البوادى والجبال ﴿ والنخل والزرع ﴾ عطف على جنات أى أنشأهما ﴿ مختلفا أكله ﴾ وقرئ أكله بسكون الكاف أى ثمره الذى يؤكل فى الهيئة والكيفية والضمير اما للنخل والزرع داخل فى حكمه أو للزرع والباقى مقيس عليه أو للجميع على تقدير أكل ذلك أو كل واحد منهما ومختلفا حال مقدرة اذ ليس كذلك وقت الانشاء ﴿ والزيتون والرمان ﴾ أى أنشأهما وقوله تعالى ﴿ متشابها وغير متشابه ﴾ نصب على الحالية أى يتشابه بعض أفرادهما فى اللون والهيئة أو الطعم ولا يتشابه بعضها ﴿ كلوا من ثمره ﴾ أى من ثمر كل واحد من ذلك ﴿ اذا أثمر ﴾ وان لم يدرك ولم يينع بعد وقيل فائدته رخصة المالك فى الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ أريد به ما كان يتصدق به يوم الحصاد بطريق الوجوب من غير تعيين المقدار لا الزكاة المقدرة فانها فرضت بالمدينة والسورة مكية وقيل الزكاة والآية مدنية والأمر بايتائها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا يؤخر عن وقت الاداء وليعلم أن الوجوب بالادراك لا بالتصفية وقرئ يوم حصاده بكسر الحاء وهو لغة فيه ﴿ ولا تسرفوا ﴾ أى فى التصدق كما روى عن ثابت بن قيس أنه صرم خمسمائة نخلة ففرق ثمرها كلها ولم يدخل منه شيئاً الى منزله كقوله تعالى ولا تبسطها كل البسط الآية ﴿ انه لا يحب المسرفين ﴾ أى لا يرتضى اسرافهم ﴿ ومن الأنعام حمولة وفرشا ﴾ شروع فى تفصيل حال الانعام وابطال ما تقولوا على الله تعالى فى شأنها بالتحريم والتحليل وهو عطف على مفعول أنشأ ومن متعلقة به أى وأنشأ من الانعام ما يحمل عليه الاثقال وما يفرش للذبح أو ما يفرش المصنوع من شعره وصوفه ووبره وقيل الكبار الصالحة للحمل والصغار الدانية من الارض كأنها فرش مفروش عليها ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ ما عبارة عما ذكر من الحمولة والفرش ومن تبعيضية أى كلوا بعض ما رزقكم الله تعالى أى حلاله وفيه تصريح بأن انشاءها لاجلهم ومصلحتهم ﴿ ولا تتبعوا ﴾ فى أمر التحليل والتحريم بتقليد أسلافكم المجازفين فى ذلك من تلقاء أنفسهم المفترين على الله سبحانه ﴿ خطوات الشيطان ﴾ فان ذلك منهم باغوائه واستتباعه اياهم ﴿ انه لكم عدو مبين ﴾ ظاهر العداوة ﴿ ثمانية أزواج ﴾ الزوج ما معه آخر من جنسه يزاوجه ويحصل منهما النسل والمراد بها الانواع الأربعة وايرادها بهذا العنوان وهذا العدد تمهيد لما سيق له الكلام من الانكار المتعلق بتحريم كل واحد من الذكر والأنثى وبما فى بطنها وهو بدل من حمولة وفرشا منصوب بما نصبهما وجعله مفعولا لكلوا على أن قوله تعالى ولا تتبعوا الآية معترض بينهما أوحالا من ما بمعنى مختلفة أو متعددة يأباه جزالة النظم الكريم لظهور أنه مسوق لتوضيح

حال الانعام بتفصيلها أو لا الى حمولة وفرش ثم بتفصيلها الى ثمانية أزواج حاصلة من تفصيل الأولى الى الابل والبقر وتفصيل الثانى الى الضأن والمعز ثم تفصيل كل من الاقسام الأربعة الى الذكر والانثى كل ذلك لتحرير المواد التى تقولوا فيها عليه سبحانه وتعالى بالتحليل والتحريم ثم تبكيتهم باظهار كذبهم وافترائهم فى كل مادة من تلك المواد بتوجيه الانكار اليها مفصلة واثنين فى قوله سبحانه وتعالى ﴿من الضأن اثنين﴾ بدل من ثمانية أزواج منصوب بناصبه وهو العامل فى من أى أنشأ من الضأن زوجين الكبش والنعجة وقرئ اثنان على الابتداء والضأن اسم جنس كالابل وجمعه ضئين كأمير أو جمع ضائن كتاجر وتجر وقرئ بفتح الهمزة ﴿ومن المعز اثنين﴾ عطف على مثله شريك له فى حكمه أى وأنشأ من المعز زوجين التيس والعنز وقرئ بفتح العين وهو جمع ماعز كصاحب وصحب وحارس وحرس وقرئ ومن المعزى وهذه الازواج الأربعة تفصيل للفرش ولعل تقديمها فى التفصيل مع تأخر أصلها فى الاجمال لكون هذين النوعين عرضة للاكل الذى هو معظم مايتعلق به الحل والحرمة وهو السر فى الاقتصار على الامر به فى قوله تعالى كلوا مما رزقكم الله من غير تعرض للانتفاع بالحمل والركوب وغير ذلك مما حرموه فى السائبة وأخواتها ﴿قل﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تفصيل أنواع الانعام التى أنشأها أى قل تبكيتا لهم واظهارا لانقطاعهم عن الجواب ﴿آلذكرين﴾ من ذينك النوعين وهما الكبش والتيس ﴿حرم﴾ أى الله عز وجل كما تزعمون أنه هو المحرم ﴿أم الانثيين﴾ وهما النعجة والعنز ونصب آلذكرين والانثيين بحرم وهو مؤخر عنهما بحسب المعنى وان توسط بينهما صورة وكذا قوله تعالى ﴿أم مااشتملت عليه أرحام الانثيين﴾ أى أم ماحملت اناث النوعين حرم ذكرا كان أو أنثى وقوله تعالى ﴿نبئونى بعلم﴾ الخ تكرير للالزام وتثنية للتبكيت والافحام أى أخبرونى بأمر معلوم من جهة الله تعالى من الكتاب أو أخبار الانبياء يدل على أنه تعالى حرم شيئا مما ذكر أو نبئونى تنبئة ملتبسة بعلم صادرة عنه ﴿ان كنتم صادقين﴾ أى فى دعوى التحريم عليه سبحانه وقوله تعالى ﴿ومن الابل اثنين﴾ عطف على قوله تعالى من الضأن اثنين أى وأنشأ من الابل اثنين هما الجمل والناقة ﴿ومن البقر اثنين﴾ ذكرا وأنثى ﴿قل﴾ افحاما لهم فى أمر هذين النوعين أيضا ﴿آلذكرين﴾ منهما ﴿حرم أم الانثيين أم مااشتملت عليه أرحام الانثيين﴾ من ذينك النوعين والمعنى انكار أن الله سبحانه حرم عليهم شيئاً من الانواع الأربعة واظهار كذبهم فى ذلك وتفصيل ماذكر من الذكور والاناث ومافى بطونها للمبالغة فى الرد عليهم بايراد الانكار على كل مادة من مواد افترائهم فانهم كانوا يحرمون ذكور الانعام تارة واناثها تارة وأولادها كيفما كانت تارة أخرى مسندين ذلك كله الى الله سبحانه وانما عقب تفصيل كل واحد من نوعى الصغار ونوعى الكبار بما ذكر من الأمر بالاستفهام والانكار مع حصول التبكيت بايراد الأمر عقيب تفصيل الأنواع الأربعة بأن يقال قل آلذكور حرم أم الاناث أم مااشتملت عليه أرحام الاناث لما فى التثنية والتكرير من المبالغة فى التبكيت والالزام وقوله تعالى ﴿أم كنتم شهداء﴾ تكرير للافحام كقوله تعالى نبئونى بعلم وأم منقطعة ومعنى الهمزة الانكار والتوبيخ ومعنى بل الاضراب عن التوبيخ بما ذكر الى التوبيخ بوجه آخر أى بل أكنتم حاضرين مشاهدين ﴿اذ وصاكم الله بهذا﴾ أى حين وصاكم بهذا التحريم اذ أنتم لاتؤمنون بنبى فلا طريق لكم حسبما يقود اليه مذهبكم الى معرفة أمثال ذلك الا المشاهدة والسماع وفيه من تركيك عقولهم والتهكم بهم مالايخفى ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ فنسب اليه تحريم مالم يحرم والمراد كبراؤهم المقررون لذلك أو عمرو بن لحى بن قمعة وهو المؤسس لهذا الشر أو الكل لاشتراكهم فى الافتراء عليه سبحانه وتعالى أى فأى فريق أظلم من فريق افتروا الخ ولا يقدح فى أظلمية الكل كون بعضهم مخترعين له وبعضهم مقتدين بهم والفاء لترتيب مابعدها على ماسبق من تبكيتهم واظهار كذبهم وافترائهم أى هو أظلم من

كل ظالم وان كان المنفى صريحا الأظلمية دون المساواة كما مر غير مرة ﴿ليضل الناس﴾ متعلق بالافتراء ﴿بغير علم﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل افترى أى افترى عليه تعالى جاهلا بصدور التحريم عنه تعالى وانما وصفوا بعدم العلم بذلك مع أنهم عالمون بعدم صدوره عنه تعالى ايذانا بخروجهم فى الظلم عن الحدود والنهايات فان من افترى عليه تعالى بغير علم بصدوره عنه تعالى مع احتمال الصدور عنه اذا كان أظلم من كل ظالم فما ظنك بمن افترى عليه تعالى وهو يعلم أنه لم يصدر عنه ويجوز أن يكون حالا من فاعل يضل أى ملتبسا بغير علم بما يؤدى بهم اليه ﴿ان الله لا يهدى القوم الظالمين﴾ كائنا من كان الى مافيه صلاح حالهم عاجلا أو آجلا واذا كان هذا حال المتصفين بالظلم فى الجملة فما ظنك بمن هو فى أقصى غاياته ﴿قل﴾ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الزام المشركين وتبكيتهم وبيان أن ما يتقولونه فى أمر التحريم افتراء بحت لا أصل له قطعا بأن يبين لهم ما حرمه عليهم وفى قوله تعالى ﴿لا أجد فيما أوحى الى محرما﴾ ايذان بأن مناط الحل والحرمة هو الوحى وأنه صلى الله عليه وسلم قد تتبع جميع ما أوحى اليه وتفحص عن المحرمات فلم يجد غير ما فصل وفيه مبالغة فى بيان انحصارها فى ذلك ومحرما صفة لمحذوف أى لا أجد ريثما تصفحت ما أوحى الى طعاما محرما من المطاعم التى حرموها ﴿على طاعم﴾ أى أى طاعم كان من ذكر أو أنثى ردا على قولهم محرم على أزواجنا وقوله تعالى ﴿يطعمه﴾ لزيادة التقرير ﴿الا أن يكون﴾ أى ذلك الطعام ﴿ميتة﴾ وقرئ تكون بالتاء لتأنيث الخبر وقرئ ميتة بالرفع على أن كان تامة وقوله تعالى ﴿أو دما مسفوحا﴾ حينئذ عطف على أن مع مافى حيزه أى الا وجود ميتة أو دما مسفوحا أى مصبوبا كالدماء التى فى العروق لا كالطحال والكبد ﴿أو لحم خنزير فانه﴾ أى الخنزير ﴿رجس﴾ أى لحمه قذر لتعوده أكل النجاسات أو خبيث ﴿أو فسقا﴾ عطف على لحم خنزير وما بينهما اعتراض مقرر لحرمته ﴿أهل لغير الله به﴾ صفة له موضحة أى ذبح على اسم الاصنام وانما سمى ذلك فسقا لتوغله فى الفسق ويجوز أن يكون فسقا مفعولا له لأهل وهو عطف على يكون والمستكن راجع الى ما رجع اليه المستكن فى يكون ﴿فمن اضطر﴾ أى أصابه الضرورة الداعية الى أكل الميتة بوجه من الوجوه المضطرة ﴿غير باغ﴾ فى ذلك على مضطر آخر مثله ﴿ولا عاد﴾ قدر الضرورة ﴿فان ربك غفور رحيم﴾ مبالغ فى المغفرة والرحمة لا يؤاخذه بذلك وليس التقييد بالحال الاولى لبيان أنه لو لم يوجد القيد لتحققت الحرمة المبحوث عنها بل للتحذير من حرام آخر هو أخذه حق مضطر آخر فان من أخذ لحم الميتة من يد مضطر آخر فأكله فان حرمته ليست باعتبار كونه لحم الميتة بل باعتبار كونه حقا للمضطر الآخر وأما الحال الثانية فلتحقيق زوال الحرمة المبحوث عنها قطعا فان التجاوز عن القدر الذى يسد به الرمق حرام من حيث أنه لحم الميتة وفى التعرض لوصفى المغفرة والرحمة ايذان بأن المعصية باقية لكنه تعالى يغفر له ويرحمه والآية محكمة لأنها تدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يجد فيما أوحى اليه الى تلك الغاية غيره ولا ينافيه ورود التحريم بعد ذلك فى شئ آخر فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد ولا على حل الاشياء التى هى غيرها الا مع الاستصحاب ﴿وعلى الذين هادوا﴾ خاصة لا على من عداهم من الأولين والآخرين ﴿حرمنا كل ذى ظفر﴾ أى كل ماله اصبع من الابل والسباع والطيور وقيل كل ذى مخلب وحافر وسمى الحافر ظفرا مجازا والمسبب عن الظلم هو تعميم التحريم حيث كان بعض ذوات الظفر حلالا لهم فلما ظلموا عم التحريم كلها وهذا تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بابطال ما يخالفه من فرية اليهود وتكذيبهم فى ذلك فانهم كانوا يقولون لسنا أول من حرمت عليه وانما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا ﴿ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما﴾ لا لحومهما فانها باقية على الحل والشحوم الثروب وشحوم الكلى والاضافة لزيادة الربط ﴿الا ما حملت ظهورهما﴾ استثناء من الشحوم

مخرج لما علق من الشحم بظهورهما عن حكم التحريم ﴿أو الحوايا﴾ عطف على ظهورهما أى ما حملته الحوايا وهى جمع حاوية أو حاوياء كقاصعاء وقواصع أو حوية كسفينة وسفائن ﴿أو ما اختلط بعظم﴾ عطف على ماحملت وهو شحم الالية واختلاطه بالعظم اتصاله بعجب الذنب وقيل هو كل شحم متصل بالعظم من الأضلاع وغيرها ﴿ذلك﴾ اشارة الى الجزاء أو التحريم فهو على الأول نصب على أنه مصدر مؤكد لما بعده وعلى الثانى على أنه مفعول ثان له أى ذلك التحريم ﴿جزيناهم ببغيهم﴾ بسبب ظلمهم وهو قتلهم الأنبياء بغير حق وأكلهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل كقوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وكانوا كلما أتوا بمعصية عوقبوا بتحريم شئ مما أحل لهم وهم ينكرون ذلك و يدعون أنها لم تزل محرمة على الأمم فرد ذلك عليهم وأكد بقوله تعالى ﴿وانا لصادقون﴾ أى فى جميع أخبارنا التى من جملتها هذا الخبر ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا التوراة كيف وقد بين فيها جميع ما يحذرون أوضح بيان ﴿فان كذبوك﴾ قيل الضمير لليهود لأنهم أقرب ذكرا ولذكر المشركين بعد ذلك بعنوان الاشراك وقيل للمشركين فالمعنى على الأول ان كذبتك اليهود فى الحكم المذكور وأصروا على ما كانوا عليه من ادعاء قدم التحريم ﴿فقل﴾ لهم ﴿ربكم ذو رحمة واسعة﴾ لا يؤاخذكم بكل ما تأتونه من المعاصى و يمهلكم على بعضها ﴿ولا يرد بأسه﴾ بالكلية ﴿عن القوم المجرمين﴾ فلا تنكروا ما وقع منه تعالى من تحريم بعض الطيبات عليكم عقوبة وتشديدا وعلى الثانى فان كذبك المشركون فيما فصل من أحكام التحليل والتحريم فقل لهم ربكم ذو رحمة واسعة لا يعاجلكم بالعقوبة على تكذيبكم فلا تغتروا بذلك فانه امهال لا اهمال وقيل ذو رحمة للمطيعين وذو بأس شديد على المجرمين فأقيم مقامه قوله تعالى ولا يرد بأسه الخ لتضمنه التنبيه على انزال البأس عليهم مع الدلالة على أنه لا حق بهم البتة من غير صارف يصرفه عنهم أصلا ﴿سيقول الذين أشركوا﴾ حكاية لفن آخر من كفرهم واخباره قبل وقوعه ثم وقوعه حسبما أخبر به كما يحكيه قوله تعالى عند وقوعه وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ صريح فى أنه من عند الله تعالى ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾ أى لو شاء خلاف ذلك مشيئة ارتضاء لما فعلنا الاشراك نحن ﴿ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ﴾ أرادوا به أن ما فعلوه حق مرضى عند الله تعالى لا الاعتذار من ارتكاب هذه القبائح بارادة الله تعالى اياها منهم حتى ينتهض ذمهم به دليلا للمعتزلة ألا يرى الى قوله تعالى ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أى مثل ما كذبك هؤلاء فى أنه تعالى منع من الشرك ولم يحرم ما حرموه كذب متقدموهم الرسل فانه صريح فيما قلنا وعطف آباؤنا على الضمير للفصل بلا ﴿حتى ذاقوا بأسنا﴾ الذى أنزلنا عليهم بتكذيبهم ﴿قل هل عندكم من علم﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به على ما زعمتم ﴿فتخرجوه لنا﴾ أى فتظهروه لنا ﴿ان تتبعون الا الظن﴾ أى ما تتبعون فى ذلك الا الظن الباطل الذى لا يغنى من الحق شيئا ﴿وان أنتم الا تخرصون﴾ تكذبون على الله عز وجل وليس فيه دلالة على المنع من اتباع الظن على الاطلاق بل فيما يعارضه قطعى ﴿قل فلله الحجة البالغة﴾ الفاء جواب شرط محذوف أى واذ قد ظهر أن لا حجة لكم فلله الحجة البالغة أى البينة الواضحة التى بلغت غاية المتانة والثبات أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه والمراد بها الكتاب والرسول والبيان وهى من الحجج بمعنى القصد كأنها تقصد اثبات الحكم وتطلبه ﴿فلو شاء﴾ هدايتكم جميعا ﴿لهداكم أجمعين﴾ بالتوفيق لها والحمل عليها ولكن لم يشأ هداية الكل بل هداية البعض الصارفين هممهم الى سلوك طريق الحق وضلال آخرين صرفوا اختيارهم الى خلاف

ذلك من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم ﴿قل هلم شهداءكم﴾ أى أحضروهم وهو اسم فعل لا يتصرف على لغة أهل الحجاز وفعل يؤنث و يجمع على لغة بنى تميم على رأى الجمهور وقد خالفهم البعض فى فعليته وليس بشىء وأصله عند البصريين هالم من لم إذا قصد حذفت الالف لتقدير السكون فى اللام فانه الاصل وعند الكوفيين هل أم فحذفت الهمزة بالقاء حركتها على اللام وهو بعيد لأن هل لا تدخل الأمر و يكون متعديا كما فى الآية ولازما كما فى قوله تعالى هلم الينا ﴿الذين يشهدون أن الله حرم هذا﴾ وهم قدوتهم الذين ينصرون قولهم وانما أمروا باستحضارهم ليلزمهم الحجة و يظهر بانقطاعهم ضلالتهم وأنه لامتمسك لهم لمن يقلدهم ولذلك قيد الشهداء بالاضافة ووصفوا بما يدل على أنهم شهداء معروفون بالشهادة لهم و بنصرة مذهبهم ﴿فان شهدوا﴾ بعد ما حضروا بأن الله حرم هذا ﴿فلا تشهد معهم﴾ أى فلا تصدقهم فانه كذب بحت وافتراء صرف و بين لهم فساده فان تسليمه منهم موافقة لهم فى الشهادة الباطلة ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا﴾ من وضع المظهر مقام المضمر للدلالة على أن من كذب بآيات الله تعالى وعدل به غيره فهو متبع للهوى لا غير وأن من اتبع الحجة لا يكون الا مصدقا بها ﴿والذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ كعبدة الأوثان عطف على الموصول الأول بطريق عطف الصفة على الصفة مع اتحاد الموصوف كما فى قوله

الى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتائب فى المزدحم

فان من يكذب بآياته تعالى لا يؤمن بالآخرة و بالعكس ﴿وهم بربهم يعدلون﴾ أى يجعلون له عديلا عطف على لا يؤمنون والمعنى لا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله و بين الكفر بالآخرة و بين الاشراك به سبحانه لكن لا على أن يكون مدار النهى الجمع المذكور بل على أن أولئك جامعون لها متصفون بكلها ﴿قل تعالوا﴾ لما ظهر بطلان ما ادعوا من أن اشراكهم واشراك آبائهم وتحريم ما حرموه بأمر الله تعالى ومشيئته بظهور عجزهم عن اخراج شىء يتمسك به فى ذلك واحضار شهداء يشهدون بما ادعوا فى أمر التحريم بعد ما كلفوه مرة بعد أخرى عجزا بينا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين لهم من المحرمات ما يقتضى الحال بيانه على الأسلوب الحكيم ايذانا بأن حقهم الاجتناب عن هذه المحرمات وأما الأطعمة المحرمة فقد بينت بقوله تعالى قل لا أجد الآية وتعال أمر من التعالى والأصل فيه أن يقوله من فى مكان عال لمن هو فى أسفل منه ثم اتسع فيه بالتعميم كما أن الغنيمة فى الأصل اصابة الغنم من العدو ثم استعملت فى اصابة كل ما يصاب منهم اتساعا ثم فى الفوز بكل مطلب من غير مشقة ﴿أتل﴾ جواب الأمر وقوله تعالى ﴿ما حرم ربكم﴾ منصوب به على أن ما موصولة والعائد محذوف أى أقرأ الذى حرمه ربكم أى الآيات المشتملة عليه أو مصدرية أى الآيات المشتملة على تحريمه أو بحرم على أنها استفهامية والجملة مفعول لاتل لأن التلاوة من باب القول كأنه قيل أقل أى شىء حرم ربكم ﴿عليكم﴾ متعلق بحرم على كل حال وقيل بأتل والأول أنسب بمقام الاعتناء بايجاب الانتهاء عن المحرمات المذكورة وهو السر فى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم فان تذكير كونه تعالى ربا لهم ومالكا لأمرهم على الاطلاق من أقوى الدواعى الى انتهائهم عما نهاهم عنه أشد انتهاء وأن فى قوله تعالى ﴿أن لا تشركوا به﴾ مفسرة لفعل التلاوة المعلق بما حرم و لا ناهية كما ينبىء عنه عطف ما بعده من الأوامر والنواهى عليه وليس من ضرورة كون المعطوف عليه تفسير التلاوة المحرمات بحسب منطوقه كون المعطوفات أيضا كذلك حتى يمتنع انتظام الأوامر فى سلك العطف عليه بل يكفى فى ذلك كونها تفسيرا لها باعتبار لوازمها التى هى النواهى المتعلقة بأضداد ما تعلقت هى به فان الأمر بالشىء مستلزم للنهى عن ضده بل هو عينه عند البعض كأن الأوامر ذكرت وقصد لوازمها فان عطف الأوامر على النواهى الواقعة بعد أن المفسرة لتلاوة المحرمات مع القطع بأن المأمور به لا يكون محرما

دليل واضح على أن التحريم راجع الى الاضداد على الوجه المذكور فكأنه قيل أتل ماحرم ربكم أن لاتشركوا و لاتسيئوا الى الوالدين خلا أنه قد أخرج مخرج الأمر بالاحسان اليهما بين النهيين المكتنفين له للمبالغة فى ايجاب مراعاة حقوقهما فان مجرد ترك الاساءة اليهما غير كاف فى قضاء حقوقهما و لذلك عقب به النهى عن الاشراك الذى هو أعظم المحرمات وأكبر الكبائر ههنا وفى سائر المواقع وقيل أن ناصبة ومحلها النصب بعليكم على أنه للاغراء وقيل النصب على البدلية مما حرم وقيل من عائدها المحذوف على أن لازائدة وقيل الجر بتقدير اللام وقيل الرفع بتقدير المتلوأن لاتشركوا أو المحرم أن لاتشركوا بزيادة لا وقيل والذى عليه التعويل هو الأول لأمور من جملتها أن فى اخراج المفسر على صورة النهى مبالغة فى بيان التحريم وقوله تعالى ﴿شيئا﴾ نصب على المصدرية أو المفعولية أى لاتشركوا به شيئا من الاشراك أوشيئا من الأشياء ﴿وبالوالدين﴾ أى وأحسنوا بهما ﴿احسانا﴾ وقدمر تحقيقه ﴿ولاتقتلوا أولادكم﴾ تكليف متعلق بحقوق الأولاد عقب به التكليف المتعلق بحقوق الوالدين أى لاتقتلوهم بالوأد ﴿من املاق﴾ أى من أجل فقر كما فى قوله تعالى خشية املاق وقيل هذا فى الفقر الناجز وذا فى المتوقع وقوله تعالى ﴿نحن نرزقكم واياهم﴾ استئناف مسوق لتعليل النهى وابطال سببية ما اتخذوه سببا لمباشرة المنهى عنه وضمان منه تعالى لارزاقهم أى نحن نرزق الفريقين لا أنتم فلاتخافوا الفقر بناء على عجزكم عن تحصيل الرزق وقوله تعالى ﴿ولاتقربوا الفواحش﴾ كقوله تعالى ولاتقربوا الزنا انه كان فاحشة الآية الا أنه جىء ههنا بصيغة الجمع قصدا الى النهى عن أنواعها و لذلك أبدل عنها قوله تعالى ﴿ماظهر منها ومابطن﴾ أى مايفعل منها علانية فى الحوانيت كما هو دأب أراذلهم ومايفعل سرا باتخاذ الأخدان كما هو عادة أشرافهم وتعليق النهى بقربانها اما للمبالغة فى الزجر عنها لقوة الدواعى اليها واما لأن قربانها داع الى مباشرتها وتوسيط النهى عنها بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن القتل مطلقا كما وقع فى سورة بنى اسرائيل باعتبار أنها مع كونها فى نفسها جناية عظيمة فى حكم قتل الأولاد فان أولاد الزنا فى حكم الأموات وقد قال صلى الله عليه وسلم فى حق العزل اذ ذاك وأد خفى ومن ههنا تبين أن حمل الفواحش على الكبائر مطلقا وتفسير ماظهر منها ومابطن بما فسر به ظاهر الاثم وباطنه فيما سلف من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه ﴿ولاتقتلوا النفس التى حرم الله﴾ أى حرم قتلها بأن عصمها بالاسلام أو بالعهد فيخرج منها الحربى وقوله تعالى ﴿الا بالحق﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لاتقتلوها فى حال من الأحوال الاحال ملابستكم بالحق الذى هو أمر الشرع بقتلها وذلك بالكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان وقتل النفس المعصومة أومن أعم الأسباب أى لاتقتلوها بسبب من الأسباب الا بسبب الحق وهو ماذكر أومن أعم المصادر أى لاتقتلوها قتلا ما الاقتلا كائنا بالحق وهو القتل بأحد الأمور المذكورة ﴿ذلكم﴾ اشارة الى ماذكر من التكاليف الخمسة ومافى ذلك من معنى البعد للايذان بعلو طبقاتها من بين التكاليف الشرعية وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿وصاكم به﴾ أى أمركم به ربكم أمرا مؤكدا خبره والجملة استئناف جىء به تجديدا للعهد وتأكيدا لايجاب المحافظة على ما كلفوه ولما كانت الأمور المنهى عنها مما تقضى بديهة العقول بقبحها فصلت الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿لعلكم تعقلون﴾ أى تستعملون عقولكم التى تعقل نفوسكم وتحبسها عن مباشرة القبائح المذكورة ﴿ولاتقربوا مال اليتيم﴾ توجيه النهى الى قربانه لما مر من المبالغة فى النهى عن أكله ولاخراج القربان النافع عن حكم النهى بطريق الاستثناء أى لاتتعرضوا له بوجه من الوجوه ﴿الا بالتى هى أحسن﴾ الا بالخصلة التى هى أحسن ما يكون من الحفظ والتثمير ونحو ذلك والخطاب للأولياء والأوصياء لقوله تعالى ﴿حتى يبلغ أشده﴾ فانه غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهى كأنه قيل احفظوه حتى يصير بالغا رشيدا فحينئذ سلموه اليه كما فى قوله تعالى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم

أموالهم والأشد جمع شدة كنعمة وأنعم أوشد ككلب وأكلب أوشد كصر وآصر وقيل هو مفرد كآنك ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ أى بالعدل والتسوية ﴿لانكلف نفسا الاوسعها﴾ الامايسعها ولايعسر عليها وهو اعتراض جىء به عقيب الأمر بالعدل للايذان بأن مراعاة العدل كما هو عسير كأنه قيل عليكم بمافى وسعكم وماوراءه معفو عنكم ﴿واذا قلتم﴾ قولا فى حكومة أوشهادة أو نحوهما ﴿فاعدلوا﴾ فيه ﴿ولوكان﴾ أى المقول له أوعليه ﴿ذاقربى﴾ أى ذا قرابة منكم ولاتميلوا نحوهم أصلا وقدمر تحقيق معنى لوفى مثل هذا الموضع مرارا ﴿وبعهد الله أوفوا﴾ أى ماعهد اليكم من الأمور المعدودة أو أى عهد كان فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا أوماعاهدتم الله عليه من الايمان والنذور وتقديمه للاعتناء بشأنه ﴿ذلكم﴾ اشارة الى مافصل من التكاليف ومعنى البعد لماذكر فيما قبل ﴿وصاكم به﴾ أمركم به أمرا مؤكدا ﴿لعلكم تذكرون﴾ تتذكرون مافى تضاعيفه وتعملون بمقتضاه وقرىء بتشديد الذال وهذه أحكام عشرة لاتختلف باختلاف الأمم والأعصار. عن ابن عباس رضى الله عنهما هذه آيات محكمات لم ينسخهن شىء من جميع الكتب وهن محرمات على بنى آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار وعن كعب الأحبار والذى نفس كعب بيده ان هذه الآيات لأول شىء فى التوراة بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا الآيات ﴿وان هذا صراطى﴾ اشارة الى ماذكر فى الآيتين من الأمر والنهى قاله مقاتل وقيل الى ماذكر فى السورة فانها بأسرها فى اثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة وقرىء صراطى بفتح الياء ومعنى اضافته الى ضميره عليه الصلاة والسلام انتسابه اليه عليه الصلاة والسلام من حيث السلوك لامن حيث الوضع كما فى صراط الله والمراد بيان أن مافصل من الأوامر والنواهى غير مختصة بالمتلو عليهم بل متعلقة به عليه الصلاة والسلام أيضا وأنه صلى الله عليه وسلم مستمر على العمل بها ومراعاتها وقوله تعالى ﴿مستقيما﴾ حال مؤكدة ومحل أن مع مافى حيزها الجر بحذف لام العلة أى ولأن هذا صراطى أى مسلكى مستقيما ﴿فاتبعوه﴾ كقوله تعالى وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا وتعليل اتباعه بكونه صراطه عليه الصلاة والسلام لا بكونه صراط الله تعالى مع أنه فى نفسه كذلك من حيث أن سلوكه صلى الله عليه وسلم فيه داع للخلق الى الاتباع اذ بذلك يتضح عندهم كونه صراط الله عز وجل وقرىء بكسر الهمزة على الاستئناف وقرىء أن هذا مخففة من أن على أن اسمها الذى هو ضمير الشأن محذوف وقرىء سراطى وقرىء هذا صراطى وقرىء وهذا صراط ربكم وهذا صراط ربك ﴿ولاتتبعوا السبل﴾ الأديان المختلفة أوطرق البدع والضلالات ﴿فتفرق بكم﴾ بحذف احدى التاءين والباء للتعدية أى فتفرقكم حسب تفرقها أيادى سبا فهو كما ترى أبلغ من تفرقكم كما قيل من أن ذهب به لما فيه من الدلالة على الاستصحاب أبلغ من أذهبه ﴿عن سبيله﴾ أى سبيل الله الذى لاعوج فيه ولاحرج وهو دين الاسلام الذى ذكر بعض أحكامه وقيل هو اتباع الوحى واقتفاء البرهان وفيه تنبيه على أن صراطه عليه الصلاة والسلام عين سبيل الله تعالى ﴿ذلكم﴾ اشارة الى مامر من اتباع سبيله تعالى وترك اتباع سائر السبل ﴿وصاكم به لعلكم تتقون﴾ اتباع سبل الكفر والضلالة ﴿ثم آتينا موسى الكتاب﴾ كلام مسوق من جهته تعالى تقريرا للوصية وتحقيقا لها وتمهيدا لما يعقبه من ذكر انزال القرآن المجيد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات الى التكلم معطوف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل بعد قوله تعالى ذلكم وصاكم به بطريق الاستئناف تصديقا له وتقريرا لمضمونه فعلنا ذلك ثم آتينا الخ كما أن قوله تعالى ونطبع على قلوبهم معطوف على مايدل عليه معنى أولم يهد الخ كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع الخ وأما عطفه على ذلكم وصاكم به ونظمه معه فى سلك الكلام الملقن كما أجمع عليه الجمهور فمما لايليق بجزالة النظم الكريم فتدبر وثم للتراخى

فى الاخبار كما فى قولك بلغنى ماصنعت اليوم ثم ماصنعت أمس أعجب أو للتفاوت فى الرتبة كأنه قيل ذلكم وصاكم به قديما وحديثا ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى التوراة فان ايتاءها مشتملة على الوصية المذكورة وغيرها أعظم من التوصية بها فقط ﴿تماما﴾ للكرامة والنعمة أى اتماما لها على أنه مصدر من أتم بحذف الزوائد ﴿على الذى أحسن﴾ أى على من أحسن القيام به كائنا من كان و يؤيده أنه قرئ على الذين أحسنوا وتماما على المحسنين أو على الذى أحسن تبليغه وهو موسى عليه السلام أو تماما على ماأحسنه موسى عليه السلام أى أجاده من العلم والشرائع أى زيادة على علمه على وجه التتميم وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى على الذى هو أحسن دين وأرضاه أو آتينا موسى الكتاب تماما أى تاما كاملا على أحسن مايكون عليه الكتب ﴿وتفصيلا لكل شئ﴾ و بيانا مفصلا لكل مايحتاج اليه فى الدين وهو عطف على تماما ونصبهما اما على العلية أو على المصدرية كما أشير اليه أو على الحالية وكذا قوله تعالى ﴿وهدى و رحمة﴾ وضمير ﴿لعلهم﴾ لبنى اسرائيل المدلول عليهم بذكر موسى وايتاء الكتاب والباء فى قوله تعالى ﴿بلقاء ربهم﴾ متعلقة بقوله تعالى ﴿يؤمنون﴾ قدمت عليه محافظة على الفواصل قال ابن عباس رضى الله عنهما كى يؤمنوا بالبعث و يصدقوا بالثواب والعذاب ﴿وهذا﴾ أى الذى تليت عليكم أوامره ونواهيه أى القرآن ﴿كتاب﴾ عظيم الشأن لايقادر قدره وقوله تعالى ﴿أنزلناه مبارك﴾ أى كثير المنافع دينا ودنيا صفتان لكتاب وتقديم وصف الانزال مع كونه غير صريح لأن الكلام مع منكريه أو خبران آخران لاسم الاشارة أى أنزلناه مشتملا على فنون الفوائد الدينية والدنيوية التى فصلت عليكم طائفة منها والفاء فى قوله تعالى ﴿فاتبعوه﴾ لترتيب مابعدها على ماقبلها فان عظم شأن الكتاب فى نفسه و كونه منزلا من جنابه عز وجل مستتبعا للمنافع الدينية والدنيوية موجب لاتباعه أى ايجاب ﴿واتقوا﴾ مخالفته ﴿لعلكم ترحمون﴾ بواسطة اتباعه والعمل بموجبه ﴿أن تقولوا﴾ علة لأنزلناه المدلول عليه بالمذكور لا لنفسه للزوم الفصل حينئذ بين العامل والمعمول بأجنبى هو مبارك وصفا كان أو خبرا أى أنزلناه كذلك كراهة أن تقولوا يوم القيامة لو لم ننزله ﴿انما أنزل الكتاب﴾ الناطق بتلك الأحكام العامة لكل الأمم ﴿على طائفتين﴾ كائنتين ﴿من قبلنا﴾ وهما اليهود والنصارى وتخصيص الانزال بكتابيهما لأنهما الذى اشتهر حينئذ فيما بين الكتب السماوية بالاشتمال على الأحكام لاسيما الأحكام المذكورة ﴿وان كنا﴾ ان هى المخففة من ان واللام فارقة بينهما و بين النافية وضمير الشأن محذوف ومرادهم بذلك دفع مايرد عليهم من أن نزوله عليهما لاينافى عموم أحكامه فلم لم تعملوا بأحكامه العامة أى وانه كنا ﴿عن دراستهم لغافلين﴾ لاندرى مافى كتابهم اذ لم يكن على لغتنا حتى تتلق منه تلك الأحكام العامة ونحافظ عليها وان لم يكن منزلا علينا و بهذا تبين أن معذرتهم هذه مع أنهم غير مأمورين بما فى الكتابين لاشتمالها على الأحكام المذكورة المتناولة لكافة الأمم كما أن قطع تلك المعذرة بانزال القرآن لاشتماله أيضا عليها لاعلى سائر الشرائع والأحكام فقط ﴿أو تقولوا﴾ عطف على تقولوا وقرئ كلاهما بالياء على الالتفات من خطاب فاتبعوه واتقوا ﴿لو أنا أنزل علينا الكتاب﴾ كما أنزل عليهم ﴿لكنا أهدى منهم﴾ الى الحق الذى هو المقصد الأقصى أو الى مافى تضاعيفه من جلائل الأحكام والشرائع ودقائقها لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا و لذلك تلقفنا من فنون العلم كالقصص والأخبار والخطب والاشعار ونحو ذلك طرفا صالحا ونحن أميون وقوله تعالى ﴿فقد جاءكم﴾ متعلق بمحذوف ينبئ عنه الفاء الفصيحة امامعلل به أى لاتعتذروا بذلك فقد جاءكم الخ واما شرط له أى ان صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم من كونكم أهدى من الطائفتين على تقدير نزول الكتاب عليكم فقد حصل مافرضتم وجاءكم ﴿بينة﴾ وأى بينة أى حجة واضحة لايكتنه كنهها وقوله تعالى

﴿من ربكم﴾ متعلق بجاءكم أو بمحذوف هو صفة لبينة أى بينة كائنة منه تعالى وأيا ما كان ففيه دلالة على فضلها الاضافى كما أن فى تنوينها التفخيمى دلالة على فضلها الذاتى وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم مزيد تأكيد لايجاب الاتباع ﴿وهدى ورحمة﴾ عطف على بينة وتنوينهما أيضا تفخيمى عبر عن القرآن بالبينة ايذانا بكمال تمكنهم من دراسته ثم بالهدى والرحمة تنبيها على أنه مشتمل على ما اشتمل عليه التوراة من هداية الناس ورحمتهم بل هو عين الهداية والرحمة ﴿فمن أظلم﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان مجىء القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذب به أى واذا كان الأمر كذلك فمن أظلم ﴿ممن كذب بآيات الله﴾ وضع الموصول موضع ضميرهم بطريق الالتفات تنصيصا على اتصافهم بما فى حيز الصلة واشعارا بعلة الحكم واسقاطا لهم عن رتبة الخطاب وعبر عما جاءهم بآيات الله تهويلا للامر وتنبيها على أن تكذيب أى آية كانت من آيات الله تعالى كاف فى الأظلمية فما ظنك بتكذيب القرآن المنطوى على الكل والمعنى انكار أن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساويا له وان لم يكن سبك التركيب متعرضا لانكار المساواة ونفيها فاذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد به حتما بحكم العرف الفاشى والاستعمال المطرد أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وقد مر مرارا ﴿وصدف عنها﴾ أى صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والاضلال ﴿سنجزى الذين يصدفون﴾ الناس ﴿عن آياتنا﴾ وعيد لهم ببيان جزاء اضلالهم بحيث يفهم منه جزاء ضلالهم أيضا ووضع الموصول موضع المضمر لتحقيق مناط الجزاء ﴿سوء العذاب﴾ أى العذاب السيء الشديد النكاية ﴿بما كانوا يصدفون﴾ أى بسبب ما كانوا يفعلون الصدف والصرف على التجدد والاستمرار وهذا تصريح بما أشعر به اجراء الحكم على الموصول من علية ما فى حيز الصلة له ﴿هل ينظرون﴾ استئناف مسوق لبيان أنه لا يتأتى منهم الايمان بانزال ما ذكر من البينات والهدى وأنهم لا يرعوون عن التمادى فى المكابرة واقتراح ما ينافى الحكمة التشريعية من الآيات الملجئة وأن الايمان عند اتيانها مما لا فائدة له أصلا مبالغة فى التبليغ والانذار وازاحة العلل والأعذار أى ما ينتظرون ﴿الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك﴾ حسبما اقترحوا بقولهم لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا وبقولهم أو تأتى بالله والملائكة قبيلا وبقولهم لولا أنزل عليه ملك ونحو ذلك أو الا أن تأتيهم ملائكة العذاب أو يأتى أمر ربك بالعذاب والانتظار محمول على التمثيل كما سيجىء وقرىء يأتيهم بالياء لأن تأنيث الملائكة غير حقيقى ﴿أو يأتى بعض آيات ربك﴾ أى غير ما ذكر كما اقترحوا بقولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ونحو ذلك من عظائم الآيات التى علقوا بها ايمانهم والتعبير عنها بالبعض للتهويل والتفخيم كما أن اضافة الآيات فى الموضعين الى اسم الرب المنبىء عن المالكية الكلية لذلك واضافته الى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف وقيل المراد بالملائكة ملائكة الموت وباتيانه سبحانه وتعالى اتيان كل آياته بمعنى آيات القيامة والهلاك الكلى بقرينة ما بعده من اتيان بعض آياته تعالى على أن المراد به أشراط الساعة التى هى الدخان ودابة الأرض وخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب والدجال وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى عليه السلام ونار تخرج من عدن كما نطق به الحديث الشريف المشهور وحيث لم يكن اتيان هذه الأمور مما ينتظرونه كاتيان ما اقترحوه من الآيات فان تعليق ايمانهم باتيانها انتظار منهم له ظاهرا حمل الانتظار على التمثيل المبنى على تشبيه حالهم فى الاصرار على الكفر والتمادى فى العناد الى أن تأتيهم تلك الأمور الهائلة التى لا بد لهم من الايمان عند مشاهدتها البتة بحال المنتظرين لها وأنت خبير بأن النظم الكريم بسباقه المنبىء عن تماديهم فى تكذيب آيات الله تعالى وعدم الاعتداد بها وسياقه الناطق بعدم نفع الايمان عند اتيان ما ينتظرونه يستدعى أن يحمل ذلك على أمور هائلة مخصوصة بهم اما بأن

تكون عبارة عما اقترحوه أو عن عقوبات مترتبة على جناياتهم كاتيان ملائكة العذاب واتيان أمره تعالى بالعذاب وهو الأنسب لما سيأتى من قوله تعالى قل انتظروا انا منتظرون وأما حمله على ماذكر من اتيان ملائكة الموت واتيان كل آيات القيامة وظهور أشراط الساعة مع شمول اتيانها الكل بر وفاجر واشتمال غائلتها على كل مؤمن وكافر فمما لا يساعده المقام على أن بعض أشراط الساعة ليس مما ينسد به باب الايمان والطاعة نعم يجوز حمل بعض الآيات فى قوله عز وجل ﴿يوم يأتى بعض آيات ربك﴾ على ما يعم مقترحاتهم وغيرها من الدواهى العظام السالبة للاختيار الذى عليه يدور فلك التكليف فانه بمنزلة الكبرى من الشكل الأول فيتم التقريب عند وقوعها بدخول ما ينتظرونه فى ذلك دخولا أوليا ويوم منصوب بقوله تعالى ﴿لا ينفع﴾ فان امتناع عمل ما بعد لا فيما قبلها عند وقوعها جواب القسم وقرىء يوم بالرفع على الابتداء والخبر هو الجملة والعائد محذوف أى لا ينفع فيه ﴿نفسا﴾ من النفوس ﴿إيمانها﴾ حينئذ لانكشاف الحال وكون الامر عيانا ومدار قبول الايمان أن يكون بالغيب كقوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا وقرىء لا تنفع بالتاء الفوقانية لاكتساب الايمان من ملابسة المضاف اليه تأنيثا وقوله تعالى ﴿لم تكن آمنت من قبل﴾ أى من قبل اتيان بعض الآيات صفة لنفسا فصل بينهما بالفاعل لاشتماله على ضمير الموصوف ولا ضير فيه لانه غير أجنبى منه لاشتراكهما فى العامل ﴿أو كسبت فى ايمانها خيرا﴾ عطف على آمنت بايراد الترديد على النفى المفيد لكفاية أحد النفيين فى عدم النفع والمعنى أنه لا ينفع الايمان حينئذ نفسا لم تقدم ايمانها أو قدمته ولم تكسب فيه خيرا ومن ضرورته اشتراط النفع بتحقق الامرين أى الايمان المقدم والخير المكسوب فيه معا بمعنى أن النافع هو تحققهما والايمان المؤخر لغو وتحصيل للحاصل لا أنه هو النافع وتحققهما شرط فى نفعه كما لو كان المقدم غير المؤخر بالذات فان قولك لا ينفع الصوم والصدقة من لم يؤمن قبلهما معناه أنهما ينفعانه عند وقوعهما بعد الايمان وقد استدل به أهل الاعتزال على عدم اعتبار الايمان المجرد عن الاعمال وليس بناهض ضرورة صحة حمله على نفى الترديد المستلزم لعمومه المفيد بمنطوقه لاشتراط عدم النفع بعدم الامرين معا وبمفهومه لاشتراط النفع بتحقق أحدهما بطريق منع الخلو دون الانفصال الحقيقى فالمعنى أنه لا ينفع الايمان حينئذ نفسا لم يصدر عنها من قبل أحد الامرين اما الايمان المجرد أو الخير المكسوب فيه فيتحقق النفع بأيهما كان حسبما تنطق به النصوص الكريمة من الآيات والاحاديث وما قيل من أن عدم الايمان السابق مستلزم لعدم كسب الخير فيه بالضرورة فيكون ذكره تكرارا بلا فائدة على أن الموجب للخلود فى النار هو العدم الاول من غير أن يكون للثانى دخل ما فى ذلك قطعا فيكون ذكره بصدد بيان ما يوجب الخلود لغوا من الكلام لغو من الكلام مبنى على توهم أن المقصود بوصف النفس بالعدمين المذكورين مجرد بيان ايجابهما للخلود فيها وعدم نفع الايمان الحادث فى انجائها عنه وليس كذلك والا لكفى فى البيان أن يقال لا ينفع نفسا ايمانها الحادث بل المقصد الاصلى من وصفها بذينك العدمين فى أثناء بيان عدم نفع الايمان الحادث تحقيق أن موجب النفع احدى ملكتيهما أعنى الايمان السابق والخير المكسوب فيه بما ذكر من الطريقة والترغيب فى تحصيلهما فى ضمن التحذير من تركهما ولا سبيل الى أن يقال كما أن عدم الاول مستقل فى ايجاب الخلود فى النار فيلغو ذكر عدم الثانى كذلك وجوده مستقل فى ايجاب الخلاص عنها فيكون ذكر الثانى لغوا لما أنه قياس مع الفارق كيف لا والخلود فيها أمر لا يتصور فيه تعدد العلل وأما الخلاص عنها مع دخول الجنة فله مراتب بعضها مترتب على نفس الايمان وبعضها على فروعه المتفاوتة كما وكيفا وانما لم يقتصر على بيان ما يوجب أصل النفع وهو الايمان السابق مع أنه هو المقابل لما لا يوجبه أصلا أعنى الايمان الحادث بل قرن به ما يوجب النفع الزائد أيضا ارشادا الى تحرى الأعلى وتنبيها على كفاية الأدنى واقناطا للكفرة عما علقوا به

أطاعهم الفارغة من أعمال البر التى عملوهافى الكفر من صلة الارحام واعتاق الرقاب وفك العناة واغاثة الملهوفين وقرى الاضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم ببيان أن كل ذلك لغو بحت لابتنائه على غير أساس حسبما نطق به قوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح الآية ونحو ذلك من النصوص الكريمة وأن الايمان الحادث كما لاينفعهم وحده لاينفعهم بانضمام أعمالهم السابقة واللاحقة ولك أن تقول المقصود بوصف النفس بما ذكر من العدمين التعريض بحال الكفرة فى تمردهم وتفريطهم فى كل واحد من الامرين الواجبين عليهم وان كان وجوب أحدهما منوطا بالآخر كما فى قوله عز وجل فلا صدق و لا صلى تسجيلا بكمال طغيانهم وايذانا بتضاعف عقابهم لما تقرر من أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع فى حق المؤاخذة كما ينبىء عنه قوله تعالى فويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة اذا تحققت هذا وقفت على أن الآية الكريمة أحق بأن تكون حجة على المعتزلة من أن تكون حجة لهم هذا وقد قيل انها من باب اللف التقديرى أى لا ينفع نفسا ايمانها و لا كسبها فى الايمان لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فيه وليس بواضح فان مبنى اللف التقديرى أن يكون المقدر من متممات الكلام ومقتضيات المقام قد ترك ذكره تعويلا على دلالة الملفوظ عليه واقتضائه اياه كما مر فى تفسير قوله عز وجل ومن يستنكف عن عبادته و يستكبر فسيحشرهم اليه جميعا فانه قد طوى فى المفصل ذكر حشر المؤمنين ثقة بانباء التفصيل عنه أعنى قوله تعالى فأما الذين آمنوا الآية و لا ريب فى أن ماقدر ههنا ليس مما يستدعيه قوله تعالى أو كسبت فى ايمانها خيرا و لا هو من مقتضيات المقام لانه ليس مما وعدوه وعلقوه باتيان ماذكر من الآيات كالايمان حتى يرد عليهم ببيان عدم نفعه اذ ذاك على أن ذلك مشعر بأن لهم بعد ماأصابهم من الدواهى ماأصابهم بقاء على السلامة و زمانا يتأتى منهم الكسب والعمل فيه وفيه من الاخلال بمقام تهويل الخطب وتفظيع الحال مالايخفى وقد أجيب عن الاستدلال بوجوه أخر قصارى أمرها اسقاط الآية الكريمة عن رتبة المعارضة للنصوص القطعية المتون القوية الدلالة على ماذكر من كفاية الايمان المجرد عن العمل فى الانجاء من العذاب الخالد ولو بعد اللتيا والتى لما تقرر من أن الظنى بمعزل من معارضة القطعى ﴿قل﴾ لهم بعد بيان حقيقة الحال على وجه التهديد ﴿انتظروا﴾ ماتنتظرونه من اتيان أحد الأمور الثلاثة لترواأى شىء تنتظرون ﴿انا منتظرون﴾ لذلك لنشاهد مايحل بكم من سوء العاقبة وفيه تأييد لكون المراد بما ينتظرونه اتيان ملائكة العذاب أو اتيان أمره تعالى بالعذاب كما أشير اليه وعدة ضمنية لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بمعاينتهم لما يحيق بالكفرة من العقاب ولعل ذلك هوالذى شاهدوه يوم بدر والله سبحانه أعلم ﴿ان الذين فرقوا دينهم﴾ استئناف لبيان أحوال أهل الكتابين اثر بيان حال المشركين أى بددوه و بعضوه فتمسك بكل بعض منه فرقة منهم وقرىء فارقوا أى باينوا فان ترك بعضه وان كان بأخذ بعض آخر منه ترك للكل ومفارقة له ﴿وكانوا شيعا﴾ أى فرقا تشيع كل فرقة اماما لها قال عليه الصلاة والسلام افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة كلهم فى الهاوية الا الواحدة وافترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة كلهم فى الهاوية الا الواحدة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى الهاوية الا الواحدة واستثناء الواحدة من فرق كل من أهل الكتابين انما هو بالنظر الى العصر الماضى قبل النسخ وأما بعده فالكل فى الهاوية وان اختلفت أسباب دخولهم فمعنى قوله تعالى ﴿لست منهم فى شىء﴾ لست من البحث عن تفرقهم والتعرض لمن يعاصرك منهم بالمناقشة والمؤاخذة وقيل من قتالهم فى شىء سوى تبليغ الرسالة واظهار شعائر الدين الحق الذى أمرت بالدعوة اليه فيكون منسوخا بآية السيف وقوله تعالى ﴿انما أمرهم الى الله﴾ تعليل للنفى المذكور أى هو يتولى وحده أمر أولاهم وأخراهم و يدبره كيف يشاء حسبما تقتضيه الحكمة يؤاخذهم فى الدنيا متى شاء و يأمر بقتالهم اذا أراد وقيل المفرقون أهل البدع

والاهواء الزائغة من هذه الأمة ويرده أنه عليه الصلاة والسلام مأمور بمؤاخذتهم والاعتذار بأن معنى لست منهم فى شيء حينئذ أنت بريء منهم ومن مذهبهم وهم برآء منك يأباه التعليل المذكور ﴿ثم ينبئهم﴾ أى يوم القيامة ﴿بما كانوا يفعلون﴾ عبر عن اظهاره بالتنبئة لما بينهما من الملابسة فى أنهما سببان للعلم تنبيها على أنهم كانوا جاهلين بحال ماارتكبوه غافلين عن سوء عاقبته أى يظهر لهم على رؤس الأشهاد ويعلمهم أى شيء شنيع كانوا يفعلونه فى الدنيا على الاستمرار ويرتب عليه مايليق به من الجزاء وقوله تعالى ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ استئناف مبين لمقادير أجزية العاملين وقد صدر ببيان أجزية المحسنين المدلول عليهم بذكر أضدادهم قال عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهم يريد من عمل من المصدقين حسنة كتبت له عشر حسنات أى من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة من المؤمنين اذلاحسنة بغير ايمان فله عشر حسنات أمثالها تفضلا من الله عز وجل وقرىء عشر بالتنوين وأمثالها بالرفع على الوصف وهذا أقل ماوعد من الاضعاف وقد جاء الوعد بسبعين وبسبعمائة وبغير حساب ولذلك قيل المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر فى العدد الخاص ﴿ومن جاء بالسيئة﴾ أى بالأعمال السيئة كائنا من كان من العاملين ﴿فلا يجزى الامثلها﴾ بحكم الوعد واحدة بواحدة ﴿وهم لا يظلمون﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب ﴿قل اننى هدانى ربى﴾ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين لهم ماهو عليه من الدين الحق الذى يدعون أنهم عليه وقد فارقوه بالكلية وتصدير الجملة بحرف التحقيق لاظهار كمال الاعتناء بمضمونها والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره صلى الله عليه وسلم لمزيد تشريفه أى قل لأولئك المفرقين أرشدنى ربى بالوحى وبما نصب فى الآفاق والأنفس من الآيات التكوينية ﴿الى صراط مستقيم﴾ موصل الى الحق وقوله تعالى ﴿دينا﴾ بدل من الى صراط فان محله النصب كما فى قوله تعالى ويهديك صراطا مستقيما أو مفعول لفعل مضمر يدل عليه المذكور ﴿قيما﴾ مصدر نعت به مبالغة والقياس قوما كعوض فأعل لاعلال فعله كالقيام وقرىء قيما وهو فيعل من قام كسيد من ساد وهو أبلغ من المستقيم باعتبار الزنة وان كان هو أبلغ منه باعتبار الصيغة ﴿ملة ابراهيم﴾ عطف بيان لدينا ﴿حنيفا﴾ حال من ابراهيم أى مائلا عن الأديان الباطلة وقوله تعالى ﴿وما كان من المشركين﴾ اعتراض مقرر لنزاهته عليه السلام عما عليه المفرقون لدينه من عقد وعمل أى ماكان منهم فى أمر من أمور دينهم أصلا وفرعا صرح بذلك ردا على الذين يدعون أنهم على ملته عليه السلام من أهل مكة واليهود والمشركين بقولهم عزير ابن الله والنصارى المشركين بقولهم المسيح ابن الله ﴿قل ان صلاتى ونسكى﴾ أعيد الأمر لما أن المأمور به متعلق بفروع الشرائع وماسبق بأصولها أى عبادتى كلها وقيل وذبحى جمع بينه وبين الصلاة كما فى قوله تعالى فصل لربك وانحر وقيل صلاتى وحجى ﴿ومحياى ومماتى﴾ أى وما أنا عليه فى حياتى وما أكون عليه عند موتى من الايمان والطاعة أو طاعات الحياة والخيرات المضافة الى الممات كالوصية والتدبير وقرىء محياى بسكون الياء اجراء للوصل مجرى الوقف ﴿لله رب العالمين لاشريك له﴾ خالصة له لا أشرك فيها غيره ﴿وبذلك﴾ اشارة الى الاخلاص ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل أى بذلك الاخلاص ﴿أمرت﴾ لا بشيء غيره وقوله تعالى ﴿وأنا أول المسلمين﴾ لبيان مسارعته عليه السلام الى الامتثال بما أمر به وأن ما أمر به ليس من خصائصه عليه السلام بل الكل مأمورون به ويقتدى به عليه السلام من أسلم منهم ﴿قل أغير الله أبغى ربا﴾ آخر فأشركه فى العبادة ﴿وهو رب كل شيء﴾ جملة حالية مؤكدة للانكار أى والحال أن كل ماسواه مربوب له مثلى فكيف يتصور أن يكون شريكا له فى المعبودية ﴿ولا تكسب كل نفس الا عليها﴾ كانوا يقولون للمسلمين اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم اما بمعنى ليكتب علينا ما عملتم من الخطايا لا عليكم واما بمعنى لنحمل يوم القيامة ما كتب

عليكم من الخطايا فهذا رد له بالمعنى الأول أى لا تكون جناية نفس من النفوس الا عليها ومحال أن يكون صدورها عن شخص وقرارها على شخص آخر حتى يتأتى ما ذكرتم وقوله تعالى ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ رد له بالمعنى الثانى أى لا تحمل يومئذ نفس حاملة حمل نفس أخرى حتى يصح قولكم ﴿ثم الى ربكم مرجعكم﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى الكل لتأكيد الوعد وتشديد الوعيد أى الى مالك أموركم ورجوعكم يوم القيامة ﴿فينبئكم﴾ يومئذ ﴿بما كنتم فيه تختلفون﴾ ببيان الرشد من الغى وتمييز الحق من الباطل ﴿وهو الذى جعلكم خلائف الارض﴾ حيث خلفتم الامم السالفة أو يخلف بعضكم بعضا أو جعلكم خلفاء الله تعالى فى أرضه تتصرفون فيها على أن الخطاب عام ﴿ورفع بعضكم﴾ فى الشرف والغنى ﴿فوق بعض درجات﴾ كثيرة متفاوتة ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ من المال والجاه أى ليعاملكم معاملة من يبتليكم لينظر ماذا تعملون من الشكر وضده ﴿ان ربك﴾ تجريد الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع اضافة اسم الرب الى ضميره عليه الصلاة والسلام لابراز مزيد اللطف به عليه السلام ﴿سريع العقاب﴾ أى عقابه سريع الاتيان لمن لم يراع حقوق ما آتاه الله تعالى ولم يشكره لأن كل آت قريب أو سريع التمام عند ارادته لتعاليه عن استعمال المبادى والآلات ﴿وانه لغفور رحيم﴾ لمن راعاها كما ينبغى وفى جعل خبر هذه الجملة من الصفات الذاتية الواردة على بناء المبالغة مؤكدا باللام مع جعل خبر الاولى صفة جارية على غير من هى له من التنبيه على أنه تعالى غفور رحيم بالذات مبالغ فيهما فاعل للعقوبة بالعرض مسامح فيها ما لا يخفى والله أعلم . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزلت على سورة الانعام جملة واحدة يشيعها سبعون الف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأ الانعام صلى عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الانعام يوما وليلة والله تعالى أعلم

سورة الاعراف

(مكية غير ثمان آيات من قوله واسألهم الى قوله واذ نتقنا الجبل وآيها مائتان وخمس)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿المص﴾ اما مسرود على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الاعراب واما اسم للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف والتقدير هذا المص أى مسمى به وتذكير اسم الاشارة مع تأنيث المسمى لما أن الاشارة اليه من حيث انه مسمى بالاسم المذكور لا من حيث انه مسمى بالسورة وانما صحت الاشارة اليه مع عدم سبق ذكره لما أنه باعتبار كونه بصدد الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد وقوله عز وجل ﴿كتاب﴾ على الوجه الأول خبر مبتدا محذوف وهو ما ينبىء عنه تعديد الحروف كأنه قيل المؤلف من جنس هذه الحروف مرادا به السورة كتاب الخ أو اسم اشارة أشير به اليه تنزيلا لحضور المؤلف منه منزلة حضور نفس المؤلف أى هذا كتاب الخ وعلى الوجه الثانى خبر بعد خبر جىء به اثر بيان كونه مترجما باسم بديع منبىء عن غرابته فى نفسه ابانة لجلالة محله ببيان كونه فردا من أفراد الكتب الالهية حائزا للكمالات المختصة بها وقد جوز كونه خبرا والمص مبتدأ أى المسمى بالمص كتاب وقد عرفت مافيه من أن ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه عند المخاطب واذ لا عهد بالتسمية قبل فحقها الاخبار بها ﴿أنزل اليك﴾ أى من جهته تعالى بنى الفعل للمفعول جريا على سنن الكبرياء وايذانا بالاستغناء عن التصريح بالفاعل لغاية ظهور تعينه وهو السر فى ترك ذكر مبدأ الانزال كما فى قوله جل ذكره بلغ ما أنزل اليك من ربك ونظائره والجملة صفة لكتاب مشرفة له ولمن أنزل اليه وجعله خبرا له على معنى

كتاب عظيم الشأن أنزل اليك خلاف الأصل ﴿ فلا يكن فى صدرك حرج ﴾ أى شك كما فى قوله تعالى فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك خلا أنه عبر عنه بما يلازمه من الحرج فان الشاك يعتريه ضيق الصدر كما أن المتيقن يعتريه انشراحه وانفساحه مبالغة فى تنزيه ساحته عليه الصلاة والسلام عن نسبة الشك اليه ولو فى ضمن النهى فانه من الأحوال القلبية التى يستحيل اعتراؤها اياه عليه الصلاة والسلام وما قد يقع من نسبته اليه فى ضمن النهى فعلى طريقة التهييج والالهاب والمبالغة فى التنفير والتحذير بايهام أن ذلك من القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه أصلا فكيف بمن يمكن ذلك منه والتنوين للتحقير والجار فى قوله تعالى ﴿ منه ﴾ متعلق بحرج يقال حرج منه أى ضاق به صدره أو بمحذوف وقع صفة له أى حرج كائن منه أى لا يكن فيك شك ما فى حقيته أو فى كونه كتابا منزلا اليك من عنده تعالى فالفاء على الأول لترتيب النهى أو الانتهاء على مضمون الجملة فانه مما يوجب انتفاء الشك فيما ذكر بالكلية وحصول اليقين به قطعا وأما على الثانى فهى لترتيب ما ذكر على الاخبار بذلك لا على نفسه فتدبر وتوجيه النهى الى الحرج مع أن المراد نهيه عليه الصلاة والسلام عنه اما لما مر من المبالغة فى تنزيهه عليه الصلاة والسلام عن الشك فيما ذكر فان النهى عن الشئ مما يوهم امكان صدور المنهى عنه عن المنهى واما للمبالغة فى النهى فان وقوع الشك فى صدره عليه الصلاة والسلام سبب لاتصافه عليه الصلاة والسلام به والنهى عن السبب نهى عن المسبب بالطريق البرهانى ونفى له من أصله بالمرة كما فى قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم الآية وليس هذا من قبيل لا أرينك ههنا فان النهى هناك وارد على المسبب مرادا به النهى عن السبب فيكون المآل نهيه عليه الصلاة والسلام عن تعاطى ما يورث الحرج فتأمل وقيل الحرج على حقيقته أى لا يكن فيك ضيق صدر من تبليغه مخافة أن يكذبوك وأن تقصر فى القيام بحقه فانه عليه الصلاة والسلام كان يخاف تكذيب قومه له واعراضهم عنه فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له فآمنه الله تعالى ونهاه عن المبالاة بهم فالفاء حينئذ للترتيب على مضمون الجملة أو على الاخبار به فان كلا منهما موجب للاقدام على التبليغ وزوال الخوف قطعا وان كان ايجابه الثانى بواسطة الأول وقوله تعالى ﴿ لتنذر به ﴾ أى بالكتاب المنزل متعلق بأنزل وما بينهما اعتراض توسط بينهما تقريرا لما قبله وتمهيدا لما بعده وحسما لتوهم أن مورد الشك هو الانزال للانذار وقيل متعلق بالنهى فان انتفاء الشك فى كونه منزلا من عنده تعالى موجب للانذار به قطعا وكذا انتفاء الخوف منهم أو العلم بأنه موفق للقيام بحقه موجب للتجاسر على ذلك وأنت خبير بأنه لا يتأتى على التفسير الأول لأن تعليل النهى عن الشك بما ذكر من الانذار والتذكير مع ايهامه لامكان صدوره عنه عليه الصلاة والسلام مشعر بأن المنهى عنه ليس محذورا لذاته بل لافضائه الى فوات الانذار والتذكير لا أقل من الايذان بأن ذلك معظم غائلته ولا ريب فى فساده وأما على التفسير الثانى فانما يتأتى التعليل بالانذار لا بتذكير المؤمنين اذ ليس فيه شائبة خوف حتى يجعل غاية لانتفائه وقوله تعالى ﴿ وذكرى للمؤمنين ﴾ فى حيز النصب باضمار فعله معطوفا على تنذر أى وتذكر المؤمنين تذكيرا أو الجر عطفا على محل أن تنذر أى للانذار والتذكير وقيل مرفوع عطفا على كتاب أو خبر لمبتدا محذوف وتخصيص التذكير بالمؤمنين للايذان باختصاص الانذار بالكفرة أى لتنذر به المشركين وتذكر المؤمنين وتقديم الانذار لأنه أهم بحسب المقام ﴿ اتبعوا ما أنزل اليكم ﴾ كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين بطريق التلوين وأمروا باتباع ما أمر النبى صلى الله عليه وسلم قبله بتبليغه بطريق الانذار والتذكير وجعله منزلا اليهم بواسطة انزاله اليه عليه الصلاة والسلام اثر ذكر ما يصححه من الانذار والتذكير لتأكيد وجوب اتباعه وقوله تعالى ﴿ من ربكم ﴾ متعلق بأنزل على أن من لابتداء الغاية مجازا أو بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من ضميره فى الصلة وفى التعرض

لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين مزيد لطف بهم وترغيب لهم فى الامتثال بما أمروا به وتأكيد لوجوبه وجعل ما أنزل ههنا عاما للسنة القولية والفعلية بعيد نعم يعمهما حكمه بطريق الدلالة لا بطريق العبادة ولما كان اتباع ما أنزله الله تعالى اتباعا له تعالى عقب الأمر بذلك بالنهى عن اتباع غيره تعالى فقيل ﴿ ولا تتبعوا من دونه ﴾ أى من دون ربكم الذى أنزل اليكم ما يهديكم الى الحق ومحله النصب على أنه حال من فاعل فعل النهى أى لا تتبعوا متجاوزين الله تعالى ﴿ أولياء ﴾ من الجن والانس بأن تقبلوا منهم ما يلقونه اليكم بطريق الوسوسة والاغواء من الأباطيل ليضلوكم عن الحق ويحملوكم على البدع والأهواء الزائغة أو من أولياء قدم عليه لكونه نكرة اذ لو أخر عنه لكان صفة له أى أولياء كائنة غيره تعالى وقيل الضمير للموصول على حذف المضاف فى أولياء أى ولا تتبعوا من دون ما أنزل أباطيل أولياء كأنه قيل ولا تتبعوا من دون دين ربكم دين أولياء وقرىء ولا تبتغوا كما فى قوله تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا وقوله تعالى ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ بحذف احدى التاءين وتخفيف الذال وقرىء بتشديدها على ادغام التاء المهموسة فى الذال المجهورة وقرىء يتذكرون على صيغة الغيبة وقليلا نصب اما بما بعده على أنه نعت لمصدر محذوف مقدم للقصر أو لزمان كذلك محذوف وما مزيدة لتأكيد القلة أى تذكرا قليلا أو زمانا قليلا تذكرون لا كثيرا حيث لا تتأثرون بذلك ولا تعملون بموجبه وتتركون دين الله تعالى وتتبعون غيره ويجوز أن يراد بالقلة العدم كما قيل فى قوله تعالى فقليلا ما يؤمنون والجملة اعتراض تذييلى مسوق لتقبيح حال المخاطبين والالتفات على القراءة الأخيرة للايذان باقتضاء سوء حالهم فى عدم الامتثال بالأمر والنهى صرف الخطاب عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة واما نصب على أنه حال من فاعل لا تتبعوا وما مصدرية مرتفعة به أى لا تتبعوا من دونه أولياء قليلا تذكركم لكن لا على توجيه النهى الى المقيد فقط كما فى قوله تعالى لا تقربوا الصلوة وأنتم سكارى بل الى المقيد والقيد جميعا وتخصيصه بالذكر لمزيد تقبيح حالهم بجمعهم بين المنكرين ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ شروع فى انذارهم بما جرى على الأمم الماضية بسبب اعراضهم عن اتباع دين الله تعالى واصرارهم على اتباع دين أوليائهم وكم خبرية للتكثير فى موضع رفع على الابتداء كما فى قولك زيد ضربته والخبر هو الجملة بعدها ومن قرية تمييز والضمير فى أهلكناها راجع الى معنى كم أى كثير من القرى أهلكناها أو فى موضع نصب بأهلكناها كما فى قوله تعالى انا كل شىء خلقناه بقدر والمراد باهلاكها ارادة اهلاكها كما فى قوله تعالى اذا قمتم الى الصلوة أى أردنا اهلاكها ﴿ فجاءها ﴾ أى فجاء أهلها ﴿ بأسنا ﴾ أى عذابنا ﴿ بياتا ﴾ مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال أى بائتين كقوم لوط ﴿ أو هم قائلون ﴾ عطف عليه أى أو قائلين من القيلولة نصف النهار كقوم شعيب وانما حذفت الواو من الحال المعطوفة على أختها استثقالا لاجتماع العاطفين فان واو الحال حرف عطف قد استعيرت للوصل لا اكتفاء بالضمير كما فى جاءنى زيد هو فارس فانه غير فصيح وتخصيص الحالتين بالعذاب لما أن نزول المكروه عند الغفلة والدعة أفظع وحكايته للسامعين أزجر وأردع عن الاغترار بأسباب الأمن والراحة ووصف الكل بوصفى البيات والقيلولة مع أن بعض المهلكين بمعزل منهما لاسيما القيلولة للايذان بكمال غفلتهم وأمنهم ﴿ فما كان دعواهم ﴾ أى دعاؤهم واستغاثتهم ربهم أو ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم ﴿ اذ جاءهم بأسنا ﴾ عذابنا وعاينوا أمارته ﴿ الا أن قالوا ﴾ جميعا ﴿ انا كنا ظالمين ﴾ أى الا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وشهادتهم ببطلانه تحسرا عليه وندامة وطمعا فى الخلاص وهيهات ولات حين نجاة ﴿ فلنسألن الذين أرسل اليهم ﴾ بيان لعذابهم الأخروى اثر بيان عذابهم الدنيوى خلا أنه قد تعرض لبيان مبادى أحوال المكلفين جميعا لكونه أدخل فى التهويل والفاء لترتيب الأحوال الاخروية على الدنيوية ذكرا حسب ترتبها عليها وجودا أى لنسألن الأمم قاطبة قائلين ماذا أجبتم المرسلين ﴿ ولنسألن المرسلين ﴾ عما أجيبوا

قال تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم والمراد بالسؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم والذى نفى بقوله تعالى ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون سؤال الاستعلام أو الأول فى موقف الحساب والثانى فى موقف العقاب ﴿فلنقصن عليهم﴾ أى على الرسل حين يقولون لاعلم لنا انك أنت علام الغيوب أو عليهم وعلى المرسل اليهم جميعا ماكانوا عليه ﴿بعلم﴾ أى عالمين بظواهرهم و بواطنهم أو بمعلومنا منهم ﴿وما كنا غائبين﴾ عنهم فى حال من الاحوال فيخفى علينا شىء من أعمالهم وأحوالهم والجملة تذييل مقرر لما قبلها ﴿والوزن﴾ أى وزن الاعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها وجيدها و رديئها و رفعه على الابتداء وقوله تعالى ﴿يومئذ﴾ خبره وقوله تعالى ﴿الحق﴾ صفته أى والوزن الحق ثابت يوم اذ يكون السؤال والقص وقيل خبر مبتدا محذوف كأنه قيل ماذاك الوزن فقيل الحق أى العدل السوى وقرىء القسط واختلف فى كيفية الوزن والجمهور على أن صحائف الاعمال هى التى توزن بميزان له لسان وكفتان ينظر اليه الخلائق اظهارا للمعدلة وقطعا للمعذرة كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وجوارحهم و يشهد عليهم الانبياء والملائكة والاشهاد وكما يثبت فى صحائفهم فيقرءونها فى موقف الحساب و يؤيده ماروى أن الرجل يؤتى به الى الميزان فينشر له تسعة وتسعون سجلا مدى البصر فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فتطيش السجلات وتثقل البطاقة وقيل يوزن الاشخاص لما روى عنه عليه الصلاة والسلام انه ليأتى العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة وقيل الوزن عبارة عن القضاء السوى والحكم العادل و به قال مجاهد والاعمش والضحاك واختاره كثير من المتأخرين بناء على أن استعمال لفظ الوزن فى هذا المعنى شائع فى اللغة والعرف بطريق الكناية قالوا ان الميزان انما يراد به التوصل الى معرفة مقادير الشىء ومقادير أعمال العباد لا يمكن اظهارها بذلك لانها أعراض قد فنيت وعلى تقدير بقائها لاتقبل الوزن وقيل ان الاعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية تبرز فى النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها فى الحسن والقبح حتى ان الذنوب والمعاصى تتجسم هناك وتتصور بصورة النار وعلى ذلك حمل قوله تعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين وقوله تعالى الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وكذا قوله عليه الصلاة والسلام فى حق من يشرب من اناء الذهب والفضة انما يجرجر فى بطنه نار جهنم و لا بعد فى ذلك ألا يرى أن العلم يظهر فى عالم المثال على صورة اللبن كما لا يخفى على من له خبرة بأحوال الحضرات الخمس وقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه يؤتى بالاعمال الصالحة على صور حسنة و بالاعمال السيئة على صور قبيحة فتوضع فى الميزان ان قيل ان المكلف يوم القيامة اما مؤمن بأنه تعالى حكيم منزه عن الجور فيكفيه حكمه تعالى بكيفيات الاعمال وكمياتها واما منكر له فلا يسلم حينئذ أن رجحان بعض الاعمال على بعض لخصوصيات راجعة الى ذوات تلك الاعمال بل يسنده الى اظهار الله تعالى اياه على ذلك الوجه فما الفائدة فى الوزن أجيب بأنه ينكشف الحال يومئذ وتظهر جميع الاشياء بحقائقها على ماهى عليه و بأوصافها وأحوالها فى أنفسها من الحسن والقبح وغير ذلك وتنخلع عن الصور المستعارة التى بها ظهرت فى الدنيا فلا يبقى لاحد ممن يشاهدها شبهة فى أنها هى التى كانت فى الدنيا بعينها وان كل واحد منها قد ظهر فى هذه النشأة بصورته الحقيقية المستتبعة لصفاته ولا يخطر بباله خلاف ذلك والله تعالى أعلم ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ تفصيل للاحكام المترتبة على الوزن والموازين اما جمع ميزان أو جمع موزون على أن المراد به ماله وزن وقدر وهو الحسنات فان رجحان أحدهما مستلزم لرجحان الآخر أى فمن رجحت موازينه التى توزن بها حسناته أو أعماله التى لها قدر وزنة وعن الحسن البصرى وحق لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف ﴿فأولئك﴾ اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بثقل الميزان والجمعية باعتبار معناه كما أن جمع الموازين لذلك وأما ضمير موازينه

فراجع اليه باعتبار لفظه ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم و بعد منزلتهم فى الفضل والشرف ﴿هم المفلحون﴾ الفائزون بالنجاة والثواب وهم اماضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة و يؤكد النسبة و يفيد اختصاص المسند بالمسند اليه أو مبتدأ خبره المفلحون والجملة خبر لاولئك وتعريف المفلحون للدلالة على أنهم الناس الذين بلغك أنهم مفلحون فى الآخرة أواشارة الى مايعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم ﴿ومن خفت موازينه﴾ أى موازين أعماله او أعماله التى لاوزن لها ولا اعتداد بها وهى أعماله السيئة ﴿فأولئك﴾ اشارة اليهم باعتبار اتصافهم بتلك الصفة القبيحة والجمعية ومعنى البعد لما مر آنفا فى نظيره وهو مبتدأ خبره ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أى ضيعوا الفطرة السليمة التى فطروا عليها وقد أيدت بالآيات البينة وقوله تعالى ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ متعلق بخسر وما مصدرية و بآياتنا متعلق يظلمون على تضمين معنى التكذيب قدم عليه لمراعاة الفواصل والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الظلم فى الدنيا أى فأولئك الموصوفون بخفة الموازين الذين خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم المستمر بآياتنا ظالمين ﴿ولقد مكناكم فى الارض﴾ لما أمر الله سبحانه أهل مكة باتباع ما أنزل اليهم ونهاهم عن اتباع غيره و بين لهم وخامة عاقبته بالاهلاك فى الدنيا والعذاب المخلد فى الآخرة ذكرهم ماأفاض عليهم من فنون النعم الموجبة للشكر ترغيبا فى الامتثال بالامر والنهى اثر ترهيب أى جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ المعايش جمع معيشة وهى مايعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها أو مايتوصل به الى ذلك والوجه فى قراءته اخلاص الياء وعن ابن عامر أنه همزة تشبيها له بصحائف ومدائن والجعل بمعنى الانشاء والابداع أى أنشأنا وأبدعنا لمصالحكم ومنافعكم فيها أسبابا تعيشون بها وكل واحد من الظرفين متعلق به أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله المنكر اذلو تأخر لكان صفة له وتقديمهما على المفعول مع أن حقهما التأخير عنه لما مر غير مرة من الاعتناء بشأن المقدم والتشويق الى المؤخر فان النفس عند تأخير ماحقه التقديم لاسيما عند كون المقدم منبئا عن منفعة للسامع تبقى مترقبة لورود المؤخر فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن وأما تقديم اللام على فى فلما أنه المنبىء عما ذكر من المنفعة فالاعتناء بشأنه أتم والمسارعة الى ذكره أهم هذا وقد قيل ان الجعل متعد الى مفعولين ثانيهما أحد الظرفين على أنه مستقر قدم على الاول والظرف الآخر اما لغو متعلق بالجعل أو بالمحذوف الواقع حالا من المفعول الأول كما مر وأنت خبير بأنه لافائدة معتد بها فى الاخبار بجعل المعايش حاصلة لهم أوحاصلة فى الارض وقوله تعالى ﴿قليلا ماتشكرون﴾ أى تلك النعمة تذييل مسوق لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم و بقية الكلام فيه عين مامر فى تفسير قوله تعالى قليلا ماتذكرون ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ تذكير لنعمة عظيمة فائضة على آدم عليه السلام سارية الى ذريته موجبة لشكرهم كافة وتأخيره عن تذكير ماوقع قبله من نعمة التمكين فى الارض اما لانها فائضة على المخاطبين بالذات وهذه بالواسطة واما للايذان بأن كلامنهما نعمة مستقلة مستوجبة للشكر على حيالها فان رعاية الترتيب الوقوعى ربما تؤدى الى توهم عد الكل نعمة واحدة كما ذكر فى قصة البقرة وتصدير الجملتين بالقسم وحرف التحقيق لاظهار كمال العناية بمضمونهما وانما نسب الخلق والتصوير الى المخاطبين مع أن المراد بهما خلق آدم عليه السلام وتصويره حتما توفية لمقام الامتنان حقه وتأكيدا لوجوب الشكر عليهم بالرمز الى أن لهم حظاً من خلقه عليه السلام وتصويره لما أنهما ليسا من الخصائص المقصورة عليه عليه السلام كسجود الملائكة له عليه السلام بل من الامور السارية الى ذريته جميعا اذ الكل مخلوق فى ضمن خلقه على نمطه ومصنوع على شاكلته فكانهم الذى تعلق به خلقه وتصويره أى خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم سار اليكم جميعا ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ صريح فى أنه ورد بعد خلقه

عليه الصلاة والسلام وتسويته ونفخ الروح فيه أمر منجز غير الامر المعلق الوارد قبل ذلك بقوله تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين وهو المراد بما حكى بقوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم الآية فى سورة البقرة وسورة بنى اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من غير تعرض لوقته وكلمة ثم ههنا تقتضى تراخيه عن التصوير من غير تعرض لبيان ماجرى بينهما من الامور وقد بينا فى سورة البقرة أن ذلك ظهور فضل آدم عليه السلام بعد المحاورة المسبوقة بالاخبار باستخلافه عليه السلام حسبما نطق به قوله عز وجل واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة الى قوله وما كنتم تكتمون فان ذلك أيضا من جملة ما نيط به الامر المعلق من التسوية ونفخ الروح وعدم ذكره عند الحكاية لايقتضى عدم ذكره عند وقوع المحكى كما أن عدم ذكر الامر المعلق عند حكاية الامر المنجز لايستلزم عدم مسبوقيته به فان حكاية كلام واحد على أساليب مختلفة يقتضيها المقام ليست بعزيزة فى الكلام العزيز فلعله قد ألقى الى الملائكة عليهم السلام أولا جميع مايتوقف عليه الامر المنجز اجمالا بأن قيل مثلا انى خالق بشرا من طين وجاعل اياه خليفة فى الارض فاذا سويته ونفخت فيه من روحى وتبين لكم فضله فقعوا له ساجدين فخلقه فسواه فنفخ فيه من روحه فقالوا عند ذلك ماقالوا أو ألقى اليهم خبر الخلافة بعد تحقق الشرائط المذكورة بأن قيل اثر نفخ الروح انى جاعل هذا خليفة فى الأرض فهنالك ذكروا فى حقه عليه السلام ما ذكروا فأيده الله تعالى بتعليم الاسماء فشاهدوا منه عليه السلام ماشاهدوا فعند ذلك ورد الامر المنجز اعتناء بشأن المأمور به وايذانا بوقته وقد حكى بعض الأمور المذكورة فى بعض المواطن وبعضها فى بعضها اكتفاء بما ذكر فى كل موطن عما ترك فى موطن آخر والذى يرفع غشاوة الاشتباه عن البصائر السليمة أن ما فى سورة ص من قوله تعالى اذ قال ربك للملائكة الآيات بدل من قوله اذ يختصمون فيما قبله من قوله ماكان لى من علم بالملأ الأعلى اذ يختصمون أى بكلامهم عند اختصامهم ولاريب فى أن المراد بالملأ الأعلى الملائكة وآدم عليهم السلام وابليس حسبما أطبق عليه جمهور المفسرين وباختصامهم ماجرى بينهم فى شأن الخلافة من التقاول الذى من جملته ما صدر عنه عليه السلام من الانباء بالأسماء ومن قضية البدلية وقوع الاختصام المذكور فى تضاعيف ما شرح فيه مفصلا من الأمر المعلق وما علق به من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه وما ترتب عليه من سجود الملائكة وعناد ابليس ولعنه واخراجه من بين الملائكة وما جرى بعده من الأفعال والأقوال واذ ليس تمام الاختصام بعد سجود الملائكة ومكابرة ابليس وطرده من البين لما عرفت من أنه أحد المختصمين كما أنه ليس قبل الخلق ضرورة فاذن هو بعد نفخ الروح وقبل السجود بأحد الطريقين المذكورين والله تعالى أعلم ﴿فسجدوا﴾ أى الملائكة عليهم السلام بعد الأمر من غير تلعثم ﴿الا ابليس﴾ استثناء متصل لما أنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة متصفا بصفاتهم فغلبوا عليه فى فسجدوا ثم استثنى استثناء واحد منهم أو لأن من الملائكة جنسا يتوالدون يقال لهم الجن كما مر فى سورة البقرة فقوله تعالى ﴿لم يكن من الساجدين﴾ أى ممن سجد لآدم كلام مستأنف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء فان عدم السجود قد يكون للتأمل ثم يقع السجود وبه علم أنه لم يقع قط وقيل منقطع فحينئذ يكون متصلا بما بعده أى لكن ابليس لم يكن من الساجدين ﴿قال﴾ استئناف مسوق للجواب عن سؤال نشأ من حكاية عدم سجوده كأنه قيل فماذا قال الله تعالى حينئذ وبه يظهر وجه الالتفات الى الغيبة اذ لا وجه لتقدير السؤال على وجه المخاطبة وفيه فائدة أخرى هى الاشعار بعدم تعلق المحكى بالمخاطبين كما فى حكاية الخلق والتصوير ﴿ما منعك أن لاتسجد﴾ أى أن تسجد كما وقع فى سورة ص ولا مزيدة مؤكدة لمعنى الفعل الذى دخلت عليه كما فى قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب منبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود وقيل الممنوع عن الشئ مصروف الى خلافه

فالمعنى ما صرفك الى أن لا تسجد ﴿اذ أمرتك﴾ قيل فيه دلالة على أن مطلق الامر للوجوب والفور وفى سورة الحجر يا ابليس مالك أن لا تكون مع الساجدين وفى سورة ص مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى واختلاف العبارات عند الحكاية يدل على أن اللعين قد أدمج فى معصية واحدة ثلاث معاص مخالفة الامر ومفارقة الجماعة والاباء عن الانتظام فى سلك أولئك المقربين والاستكبار مع تحقير آدم عليه السلام وقد وبخ حينئذ على كل واحدة منها لكن اقتصر عند الحكاية فى كل موطن على ما ذكر فيه اكتفاء بما ذكر فى موطن آخر واشعاراً بأن كل واحدة منها كافية فى التوبيخ واظهار بطلان ما ارتكبه وقد تركت حكاية التوبيخ رأسا فى سورة البقرة وسورة بنى اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه ﴿قال﴾ استئناف كما سبق مبنى عل سؤال نشأ من حكاية التوبيخ كأنه قيل فماذا قال اللعين عند ذلك فقيل قال ﴿أنا خير منه﴾ متجانفا عن تطبيق جوابه على السؤال بأن يقول منعنى كذا مدعيا لنفسه بطريق الاستئناف شيئا بين الاستلزام لمنعه من السجود على زعمه ومشعرا بأن من شأنه هذا لا يحسن أن يسجد لمن دونه فكيف يحسن أن يؤمر به كما ينبئ عنه ما فى سورة الحجر من قوله لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون فهو أول من أسس بنيان التكبر واخترع القول بالحسن والقبح العقليين وقوله تعالى ﴿خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾ تعليل لما ادعاه من فضله عليه ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر و زل عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أى بغير واسطة على وجه الاعتناء به وما من جهة الصورة كما نبه عليه بقوله تعالى ونفخت فيه من روحى وما من جهة الغاية وهو ملاك الامر ولذلك أمر الملائكة بسجوده عليه السلام حين ظهر لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة فى الأرض وأن له خواص ليست لغيره وفى الآية دليل على الكون والفساد وأن الشياطين أجسام كائنة ولعل اضافة خلق البشر الى الطين والشياطين الى النار باعتبار الجزء الغالب ﴿قال﴾ استئناف كما سلف والفاء فى قوله تعالى ﴿فاهبط منها﴾ لترتيب الامر على ما ظهر من اللعين من مخالفة الامر وتعليله بالاباطيل واصراره على ذلك أى فاهبط من الجنة والاضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها قال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا فى عدن لا فى جنة الخلد وقيل من زمرة الملائكة المعززين فان الخروج من زمرتهم هبوط وأى هبوط وفى سورة الحجر فاخرج منها وأما ما قيل من أن المراد الهبوط من السماء فيرده أن وسوسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد فلابد أن يحمل على أحد الوجهين قطعا وتكون وسوسته على الوجه الاول بطريق النداء من باب الجنة كما روى عن الحسن البصرى وقوله تعالى ﴿فما يكون لك﴾ أى فما يصح ولا يستقيم لك ولا يليق بشأنك ﴿أن تتكبر فيها﴾ أى فى الجنة أو فى زمرة الملائكة تعليل للامر بالهبوط فان عدم صحة أن يتكبر فيها علة للامر المذكور فانها مكان المطيعين الخاشعين ولا دلالة فيه على جواز التكبر فى غيرها وفيه تنبيه على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة وأنه تعالى انما طرده لتكبره لا لمجرد عصيانه وقوله تعالى ﴿فاخرج﴾ تأكيد للامر بالهبوط متفرع على علته وقوله تعالى ﴿انك من الصاغرين﴾ تعليل للامر بالخروج مشعر بأنه لتكبره أى من الاذلاء وأهل الهوان على الله تعالى وعلى أوليائه لتكبرك وعن عمر رضى الله عنه من تواضع لله رفع الله حكمته وقال انتعش نعشك الله ومن تكبر وعدا طوره وهصه الله الى الارض ﴿قال﴾ استئناف كما مر مبنى على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل فماذا قال اللعين بعد ما سمع هذا الطرد المؤكد فقيل قال ﴿أنظرنى﴾ أى أمهلنى ولا تمتنى ﴿الى يوم يبعثون﴾ أى آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وهو وقت النفخة الثانية وأراد اللعين بذلك أن يجد فسحة من اغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت لاستحالته بعد البعث ﴿قال﴾ استئناف كما سلف ﴿انك من المنظرين﴾ وورود الجواب بالجملة

الاسمية مع التعرض لشمول ماسأله لآخرين على وجه يشعر بأن السائل تبع لهم فى ذلك صريح فى أنه اخبار بالانظار المقدر لهم أزلا لاانشاء لانظار خاص به اجابة لدعائه وأن استنظاره كان طلبا لتأخير الموت اذبه يتحقق كونه من جملتهم لالتأخير العقوبة كما قيل أى انك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه الحكمة التكوينية الى وقت فناء غير مااستثناه الله تعالى من الخلائق وهو النفخة الأولى لاالى وقت البعث الذى هو المسئول وقد ترك التوقيت للايجاز ثقة بما وقع فى سورة الحجر وسورة ص كما ترك ذكر النداء والفاء فى الاستنظار والانظار تعويلا على ماذكر فيهما بقوله عز وجل رب فأنظرنى الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم وفى انظاره ابتلاء للعباد وتعريض للثواب ان قلت لاريب فى أن الكلام المحكى له عند صدوره عن المتكلم حالة مخصوصة تقتضى وروده على وجه خاص من وجوه النظم بحيث لو أخل بشىء من ذلك سقط الكلام عن رتبة البلاغة البتة فالكلام الواحد المحكى على وجوه شتى ان اقتضى الحال وروده على وجه معين من تلك الوجوه الواردة عند الحكاية فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال والبالغ الى رتبة البلاغة دون ماعداه من الوجوه اذاتمهد هذا فنقول لايخفى أن استنظار اللعين انما صدر عنه مرة واحدة لاغير فمقامه ان اقتضى اظهار الضراعة وترتيب الاستنظار على ماحاق به من اللعن والطرد على نهج استدعاء الجبر فى مقابلة الكسر كما هو المتبادر من قوله رب فأنظرنى حسبما حكى عنه فى السورتين فما حكى ههنا يكون بمعزل من المطابقة لمقتضى الحال فضلا عن العروج الى معارج الاعجاز قلنا مقام استنظاره مقتض لما ذكر من اظهار الضراعة وترتيب الاستنظار على الحرمان المدلول عليه بالطرد والرجم وكذا مقام الانظار مقتض لترتيب الاخبار بالانظار على الاستنظار وقد طبق الكلام عليه فى تينك السورتين ووفى كل واحد من مقامى الحكاية والمحكى جميعا حظه وأماههنا فحيث اقتضى مقام الحكاية مجرد الاخبار بالاستنظار والانظار سيقت الحكاية على نهج الايجاز والاختصار من غير تعرض لبيان كيفية كل واحد منهما عند المخاطبة والحوار ان قلت فاذن لا يكون ذلك نقلا للكلام على ماهو عليه ولامطابقا لمقتضى المقام قلنا الذى يجب اعتباره فى نقل الكلام انما هو أصل معناه ونفس مدلوله الذى يفيده وأما كيفية افادته له فليس مما يجب مراعاته عند النقل البتة بل قد تراعى وقد لاتراعى حسب اقتضاء المقام ولايقدح فى أصل الكلام تجريده عنها بل قد يراعى عند نقله كيفيات وخصوصيات لم يراعها المتكلم أصلا ولايخل ذلك بكون المنقول أصل المعنى ألايرى أن جميع المقالات المنقولة فى القرآن الكريم انما تحكى بكيفيات واعتبارات لايكاد يقدر على مراعاتها من تكلم بها حتما والا لأمكن صدور الكلام المعجز عن البشر فيما اذا كان المحكى كلاما وأما عدم مطابقته لمقتضى الحال فمنشؤه الغفلة عما يجب توفير مقتضاه من الأحوال فان ملاك الامر هو مقام الحكاية وأما مقام وقوع المحكى فان كان مقتضاه موافقا لمقتضى مقام الحكاية يوفى كل واحد من المقامين حقه كما فى سورة الحجر وسورة ص فان مقام الحكاية فيهما لما كان مقتضيا لبسط الكلام وتفصيله على الكيفيات التى وقع عليها روعى حق المقامين معا وأما فى هذه السورة الكريمة فحيث اقتضى مقام الحكاية الايجاز روعى جانبه ألايرى أن المخاطب المنكر اذا كان ممن لايفهم الاأصل المعنى وجب على المتكلم أن يجرد كلامه عن التأكيد وسائر الخواص والمزايا التى يقتضيها المقام ويخاطبه بما يناسبه من الوجوه لكنه مع ذلك يجب أن يقصد معنى زائدا يفهمه سامع آخر بليغ هو تجريده عن الخواص رعاية لمقتضى حال المخاطب فى الفهم وبذلك يرتقى كلامه عن رتبة أصوات الحيوانات كما حقق فى مقامه فاذا وجب مراعاة مقام الحكاية مع افضائها الى تجريد الكلام عن الخواص والمزايا بالمرة فما ظنك بوجوب مراعاته مع تحلية الكلام بمزايا أخر يرتقى بها الى رتبة الاعجاز لاسيما اذا وفى حق مقام وقوع المحكى فى السورتين الكريمتين وكان هذا الايجاز مبنيا عليه وثقة به ﴿قال﴾ استئناف كامثاله

﴿فبما أغويتنى﴾ الباء للقسم كما فى قوله تعالى فبعزتك لأغوينهم فان اغوائه تعالى اياه أثر من آثار قدرته عز وجل وحكم من أحكام سلطانه تعالى فمآل الاقسام بهما واحد فلعل اللعين أقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه بأحدهما وأخرى بالآخر والفاء لترتيب مضمون الجملة على الانظار ومامصدرية أى فأقسم باغوائك اياى ﴿لأقعدن لهم﴾ أو للسببية على أن الباء متعلقة بفعل القسم المحذوف لابقوله لاقعدن لهم كما فى الوجه الاول فان اللام تصد عن ذلك أى فبسبب اغوائك اياى لأجلهم أقسم بعزتك لأقعدن لآدم وذريته ترصدا بهم كما يقعد القطاع للقطع على السابلة ﴿صراطك المستقيم﴾ الموصل الى الجنة وهو دين الاسلام فالقعود مجاز متفرع على الكناية وانتصابه على الظرفية كما فى قوله كما عسل الطريق الثعلب وقيل على نزع الجار تقديره على صراطك كقولك ضرب زيد الظهر والبطن ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ أى من الجهات الأربع التى يعتاد هجوم العدو منها مثل قصده اياهم للتسويل والاضلال من أى وجه يتيسر باتيان العدو من الجهات الأربع ولذلك لم يذكر الفوق والتحت وعن ابن عباس رضى الله عنهما من بين أيديهم من قبل الآخرة ومن خلفهم من جهة الدنيا وعن أيمانهم وعن شمائلهم من جهة حسناتهم وسيئاتهم وقيل من بين أيديهم من حيث يعلمون و يقدرون على التحرز منه ومن خلفهم من حيث لا يعلمون ولا يقدرون وعن أيمانهم وعن شمائلهم من حيث يتيسر لهم أن يعلموا و يتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم ومن حيث لا يتيسر لهم ذلك وانما عدى الفعل الى الأولين بحرف الابتداء لأنه منهما متوجه اليهم والى الآخرين بحرف المجاوزة فان الآتى منهما كالمنحرف المتجافى عنهم المار على عرضهم ونظيره جلست عن يمينه ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ أى مطيعين وانما قاله ظنا لقوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه لما رأى منهم مبدأ الشر متعددا ومبدأ الخير واحدا وقيل سمعه من الملائكة عليهم السلام ﴿قال﴾ استئناف كما سلف مرارا ﴿اخرج منها﴾ أى من الجنة أو من السماء أو من بين الملائكة ﴿مذءوما﴾ أى مذموما من ذأمه اذا ذمه وقرىء مذوما كمسول فى مسئول أو كمكول فى مكيل من ذامه يذيمه ذيما ﴿مدحورا﴾ مطرودا ﴿لمن تبعك منهم﴾ اللام موطئة للقسم وجوابه ﴿لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ وهو ساد مسد جواب الشرط وقرىء لمن تبعك بكسر اللام على أنه خبر لاملأن على معنى لمن تبعك هذا الوعيد أو علة لاخرج و لأملأن جواب قسم محذوف ومعنى منكم منك ومنهم على تغليب المخاطب ﴿ويا آدم﴾ أى وقلنا كما وقع فى سورة البقرة وتصدير الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بتلقى المأمور به وتخصيص الخطاب به عليه السلام للايذان بأصالته فى تلقى الوحى وتعاطى المأمور به ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ هو من السكن الذى هو عبارة عن اللبث والاستقرار والاقامة لا من السكون الذى هو ضد الحركة وأنت ضمير أكد به المستكن ليصح العطف عليه والفاء فى قوله تعالى ﴿فكلا من حيث شئتما﴾ لبيان المراد مما فى سورة البقرة من قوله تعالى وكلا منها رغدا حيث شئتما من أن ذلك كان جمعا مع الترتيب وقوله تعالى من حيث شئتما فى معنى منها حيث شئتما ولم يذكر ههنا رغدا ثقة بما ذكر هناك وتوجيه الخطاب اليهما لتعميم التشريف والايذان بتساويهما فى مباشرة المأمور به فان حواء اسوة له عليه السلام فى حق الاكل بخلاف السكن فانها تابعة له فيه ولتعليق النهى بهما صريحا فى قوله تعالى ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ وقرىء هذى وهو الاصل لتصغيره على ذيا والهاء بدل من الياء ﴿فتكونا من الظالمين﴾ اما جزم على العطف أو نصب على الجواب ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ أى فعل الوسوسة لاجلهما أو تكلم لهما كلاما خفيا متداركا متكررا وهى فى الأصل الصوت الخفى كالهينمة والخشخشة ومنه وسوس الحلى وقد سبق بيان كيفية وسوسته فى سورة البقرة ﴿ليبدى لهما﴾ أى ليظهر لهما واللام للعاقبة أو للغرض على أنه أراد بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما ولذلك عبر عنهما بالسوأة

وفيه دليل على أن كشف العورة فى الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن فى الطباع ﴿ماوورى عنهما من سوآتهما﴾ ماغطى وستر عنهما من عوراتهما وكانا لايريانها من أنفسهما و لاأحدهما من الآخر وانما لم تقلب الواو المضمومة همزة فى المشهورة كما قلبت فى أو يصل تصغير واصل لأن الثانية مدة وقرئ سواتهما بحذف الهمزة والقاء حركتها على الواو و بقابها واوا وادغام الواو الساكنة فيها ﴿وقال﴾ عطف على وسوس بطريق البيان ﴿مانهاكما ربكما عن هـذه الشجرة﴾ أى عن أكلها ﴿الا أن تكونا ملكين﴾ أى الا كراهة أن تكونا ملكين ﴿أو تكونا من الخالدين﴾ الذين لايموتون أو يخلدون فى الجنة وليس فيـه دلالة على أفضلية الملائكة عليهم السلام لما أن من المعلوم أن الحقائق لاتنقلب وانما كانت رغبتهما فى أن يحصل لهما أوصاف الملائكة من الكمالات الفطرية والاستغناء عن الاطعمة والاشربة وذلك بمعزل من الدلالة على الافضلية بالمعنى المتنازع فيه ﴿وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين﴾ أى أقسم لهما وصيغة المغالبة للمبالغة وقيل أقسما له بالقبول وقيل قالا له أتقسم بالله انك لمن الناصحين وأقسم لهما فجعل ذلك مقاسمة ﴿فدلاهما﴾ فنزلهما على الأكل من الشجرة وفيه تنبيه على أنه أهبطهما بذلك من درجة عالية فان التدلية والادلاء ارسال الشيء من الأعلى الى الأسفل ﴿بغرور﴾ بما غرهما به من القسم فانهما ظنا أن أحدا لايقسم بالله كاذبا أو ملتبسين بغرور ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما﴾ أى فلما وجدا طعمها آخذين فى الأكل منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية فتهافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما واختلف فى أن الشجرة كانت السنبلة أو الكرم أو غيرهما وأن اللباس كان نورا أو ظفرا ﴿وطفقا يخصفان﴾ طفق من أفعال الشروع والتلبس كأخذ وجعل وأنشا وعلق وهب وانبرى أى أخذا يرقعان و يلزقان ورقة فوق ورقة ﴿عليهما من ورق الجنة﴾ قيل كان ذلك ورق التين وقرئ يخصفان من أخصف أى يخصفان أنفسهما و يخصفان من التخصيف و يخصفان أصله يختصفان ﴿وناداهما ربهما﴾ مالك أمرهما بطريق العتاب والتوبيخ ﴿ألم أنهكما﴾ وهو تفسير للنداء فلا محل له من الاعراب أو معمول لقول محذوف أى وقال أو قائلا ألم أنهكما ﴿عن تلكما الشجرة﴾ ما فى اسم الاشارة من معنى البعد لما أنه اشارة الى الشجرة التى نهى عن قربانها ﴿وأقل لكما﴾ عطف على أنهكما أى ألم أقل لكما ﴿ان الشيطان لكما عدو مبين﴾ وهذا عتاب وتوبيخ على الاغترار بقول العدو كما أن الأول عتاب على مخالفة النهى قيل فيه دليل على أن مطلق النهى للتحريم ولكما متعلق بعدو لما فيه من معنى الفعل أو بمحذوف هو حال من عدو ولم يحك هذا القول ههنا وقد حكى فى سورة طه بقوله تعالى ان هذا عدو لك ولزوجك الآية . روى أنه تعالى قال لآدم ألم يكن فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هـذه الشجرة فقال بلى وعزتك ولكن ماظننت أن أحدا من خلقك يحلف بك كاذبا قال فبعزتى لأهبطنك الى الارض ثم لاتنال العيش الا كدا فأهبط وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وعجن وخبز ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ أى ضررناها بالمعصية والتعريض للاخراج من الجنة ﴿وان لم تغفر لنا﴾ ذلك ﴿وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ وهو دليل على أن الصغائر يعاقب عليها ان لم تغفر وقالت المعتزلة لايجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر ولذلك حملوا قولهما ذلك على عادات المقربين فى استعظام الصغير من السيئات واستصغار العظيم من الحسنات ﴿قال﴾ استئناف كما مر مرارا ﴿اهبطوا﴾ خطاب لآدم وحواء وذريتهما أولهما و لابليس كرر الأمر له تبعا لهما ليعلم أنهم قرناء أبدا أو أخبر عما قال لهم مفرقا كما فى قوله تعالى ياأيها الرسل كلوا من الطيبات ولم يذكر ههنا قبول توبتهما ثقة بما ذكر فى سائر المواضع ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ جملة حالية من فاعل اهبطوا أى متعادين ﴿ولكم فى الارض مستقر﴾ أى استقرار أو موضع استقرار ﴿ومتاع﴾ أى تمتع وانتفاع ﴿الى حين﴾ هو حين انقضاء آجالكم ﴿قال﴾ أعيد

الاستئناف اما للايذان بعدم اتصال مابعده بما قبله كما فى قوله تعالى قال فما خطبكم أيها المرسلون اثر قوله تعالى قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون وقوله تعالى قال أرأيتك هذا الذى كرمت على بعد قوله تعالى قال أأسجد لمن خلقت طينا واما لاظهار الاعتناء بمضمون مابعده من قوله تعالى ﴿فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ أى للجزاء كقوله تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴿يابنى آدم﴾ خطاب للناس كافة وايرادهم بهذا العنوان مما لايخفى سره ﴿قد أنزلنا عليكم لباسا﴾ أى خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة منها ونظيره وأنزل لكم من الانعام الخ وقوله تعالى وأنزلنا الحديد ﴿يوارى سوآتكم﴾ التى قصد ابليس ابداءها من أبويكم حتى اضطرا الى خصف الاوراق وأنتم مستغنون عن ذلك وروى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عرايا ويقولون لانطوف بثياب عصينا الله تعالى فيها فنزلت ولعل ذكر قصة آدم عليه السلام حينئذ للايذان بأن انكشاف العورة أول سوء أصاب الانسان من قبل الشيطان وأنه أغواهم فى ذلك كما أغوى أبويهم ﴿وريشا﴾ ولباسا تتجملون به والريش الجمال وقيل مالا ومنه تريش الرجل أى تمول وقرىء رياشا وهو جمع ريش كشعب وشعاب ﴿ولباس التقوى﴾ أى خشية الله تعالى وقيل الايمان وقيل السمت الحسن وقيل لباس الحرب ورفعه بالابتداء خبره جملة ﴿ذلك خير﴾ أو خير وذلك صفته كأنه قيل ولباس التقوى المشار اليه خير وقرىء ولباس التقوى بالنصب عطفا على لباسا ﴿ذلك﴾ أى انزال اللباس ﴿من آيات الله﴾ دالة على عظيم فضله وعميم رحمته ﴿لعلهم يذكرون﴾ فيعرفون نعمته أو يتعظون فيتورعون عن القبائح ﴿يابنى آدم﴾ تكرير النداء للايذان بكمال الاعتناء بمضمون ماصدر به وايرادهم بهذا العنوان مما لايخفى سببه ﴿لايفتننكم الشيطان﴾ أى لايوقعنكم فى الفتنة والمحنة بأن يمنعكم من دخول الجنة ﴿كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ نعت لمصدر محذوف أى لايفتننكم فتنة مثل اخراج أبويكم وقد جوز أن يكون التقدير لايخرجنكم بفتنته اخراجا مثل اخراجه لابويكم والنهى وان كان متوجها الى الشيطان لكنه فى الحقيقة متوجه الى المخاطبين كما فى قولك لاأرينك ههنا وقد مر تحقيقه مرارا ﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾ حال من أبويكم أو من فاعل أخرج واسناد النزع اليه للتسبيب وصيغة المضارع لاستحضار الصورة وقوله تعالى ﴿انه يراكم هو وقبيله﴾ أى جنوده وذريته استئناف لتعليل النهى وتأكيد التحذير منه ﴿من حيث لاترونهم﴾ من لابتداء غاية الرؤية وحيث ظرف لمكان انتفاء الرؤية ولاترونهم فى محل الجر باضافة الظرف اليه ورؤيتهم لنا من حيث لانراهم لاتقتضى امتناع رؤيتنا لهم مطلقا واستحالة تمثلهم لنا ﴿انا جعلنا الشياطين﴾ جعل قبيله من جملته فجمع ﴿أولياء للذين لايؤمنون﴾ أى جعلناهم بما أوجدنا بينهم من المناسبة أو بارسالهم عليهم وتمكينهم من اغوائهم وحملهم على ماسولوا لهم أولياء أى قرناء مسلطين عليهم والجملة تعليل آخر للنهى وتأكيد للتحذير اثر تحذير ﴿واذا فعلوا فاحشة﴾ جملة مبتدأة لامحل لها من الاعراب وقد جوز عطفها على الصلة والفاحشة الفعلة المتناهية فى القبح والتاء لانها مجراة على الموصوف المؤنث أو للنقل من الوصفية الى الاسمية والمراد بها عبادة الأصنام وكشف العورة فى الطواف ونحوهما ﴿قالوا﴾ جوابا للناهين عنها ﴿وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ محتجين بأمرين تقليد الآباء والافتراء على الله سبحانه ولعل تقديم المقدم للايذان منهم بأن آباءهم انما كانوا يفعلونها بأمر الله تعالى بها على أن ضمير أمرنا لهم ولآبائهم فحينئذ يظهر وجه الاعراض عن الأول فى رد مقالتهم بقوله تعالى ﴿قل ان الله لايأمر بالفحشاء﴾ فان عادته تعالى جارية على الأمر بمحاسن الأعمال والحث على مراضى الخصال ولا دلالة فيه على أن قبح الفعل بمعنى ترتب الذم عليه عاجلا والعقاب آجلا عقلى فان المراد بالفاحشة ماينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم وقيل هما جوابا سؤالين مترتبين كأنه قيل لما فعلوها لم فعلتم فقالوا وجدنا عليها

آباءنا فقيل لم فعلها آباؤكم فقالوا الله أمرنا بها وعلى الوجهين يمنع التقليد اذا قام الدليل بخلافه لامطلقا ﴿أتقولون على الله مالا تعلمون﴾ من تمام القول المأمور به والهمزة لانكار الواقع واستقباحه وتوجيه الانكار والتوبيخ الى قولهم عليه تعالى مالا يعلمون صدوره عنه تعالى مع أن بعضهم يعلمون عدم صدوره عنه تعالى مبالغة فى انكار تلك الصورة فان اسناد مالم يعلم صدوره عنه تعالى اليه تعالى اذا كان منكرا فاسناد ما علم عدم صدوره عنه اليه عز وجل أشد قبحا وأحق بالانكار ﴿قل أمر ربى بالقسط﴾ بيان للمأمور به اثر نفى ما أسند أمره اليه تعالى من الأمور المنهى عنها والقسط العدل وهو الوسط من كل شىء المتجافى عن طرفى الافراط والتفريط ﴿وأقيموا وجوهكم﴾ وتوجهوا الى عبادته مستقيمين غير عادلين الى غيرها أو أقيموا وجوهكم نحو القبلة ﴿عند كل مسجد﴾ فى كل وقت سجود أو مكان سجود وهو الصلاة أو فى أى مسجد حضرتكم الصلاة عنده ولا تؤخروها حتى تعودوا الى مساجدكم ﴿وادعوه﴾ واعبدوه ﴿مخلصين له الدين﴾ أى الطاعة فان مصيركم اليه بالآخرة ﴿كما بدأكم﴾ أى أنشأكم ابتداء ﴿تعودون﴾ اليه باعادته فيجازيكم على أعمالكم وانما شبه الاعادة بالابداء تقريرا لامكانها والقدرة عليها وقيل كما بدأكم من التراب تعودون اليه وقيل حفاة عراة غرلا تعودون اليه وقيل كما بدأكم مؤمنا وكافرا يعيدكم ﴿فريقا هدى﴾ بأن وفقهم للايمان ﴿وفريقا حق عليهم الضلالة﴾ بمقتضى القضاء السابق التابع للمشيئة المبنية على الحكم البالغة وانتصابه بفعل مضمر يفسره مابعده أى وخذل فريقا ﴿انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ تعليل لخذلانه أو تحقيق لضلالتهم ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾ فيه دلالة على أن الكافر المخطىء والمعاند سواء فى استحقاق الذم وللفارق أن يحمله على المقصر فى النظر ﴿يابنى آدم خذوا زينتكم﴾ أى ثيابكم لمواراة عورتكم ﴿عند كل مسجد﴾ أى طواف أو صلاة ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة وفيه دليل على وجوب ستر العورة فى الصلاة ﴿وكلوا واشربوا﴾ مما طاب لكم . روى أن بنى عامر كانوا فى أيام حجهم لا يأكلون الطعام الاقوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فهم المسلمون بمثله فنزلت ﴿ولا تسرفوا﴾ بتحريم الحلال أو بالتعدى الى الحرام أو بالافراط فى الطعام والشره عليه وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كل ماشئت والبس ماشئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وقال على بن الحسين بن واقد جمع الله الطب فى نصف آية فقال كلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴿انه لا يحب المسرفين﴾ أى لا يرتضى فعلهم ﴿قل من حرم زينة الله﴾ من الثياب وما يتجمل به ﴿التى أخرج لعباده﴾ من النبات كالقطن والكتان والحيوان كالحرير والصوف والمعادن كالدروع ﴿والطيبات من الرزق﴾ أى المستلذات من المآكل والمشارب وفيه دليل على أن الأصل فى المطاعم والملابس وأنواع التجملات الاباحة لان الاستفهام فى من انكارى ﴿قل هى للذين آمنوا فى الحيوة الدنيا﴾ بالاصالة والكفرة وان شاركوهم فيها فبالتبع ﴿خالصة يوم القيامة﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم وانتصابه على الحالية وقرىء بالرفع على أنه خبر بعد خبر ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ أى مثل هذا التفصيل نفصل سائر الأحكام لقوم يعلمون ما فى تضاعيفها من المعانى الرائقة ﴿قل انما حرم ربى الفواحش﴾ أى ما تفاحش قبحه من الذنوب وقيل ما يتعلق منها بالفروج ﴿ماظهر منها ومابطن﴾ بدل من الفواحش أى جهرها وسرها ﴿والاثم﴾ أى ما يوجب الاثم وهو تعميم بعد تخصيص وقيل هو شرب الخمر ﴿والبغى﴾ أى الظلم أو الكبر أفرد بالذكر للمبالغة فى الزجر عنه ﴿بغير الحق﴾ متعلق بالبغى مؤكد له معنى ﴿وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا﴾ تهكم بالمشركين وتنبيه على تحريم اتباع مالا يدل عليه برهان ﴿وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾ بالالحاد فى صفاته والافتراء عليه كقولهم والله أمرنا بها وتوجيه التحريم الى قولهم عليه تعالى مالا يعلمون وقوعه لا ما يعلمون عدم وقوعه قد مر سره ﴿ولكل أمة﴾ من الأمم المهلكة ﴿أجل﴾ حد معين من الزمان مضروب

لمهلكهم ﴿فاذا جاء أجلهم﴾ ان جعل الضمير للامم المدلول عليها بكل أمة فاظهار الأجل مضافا اليه لافادة المعنى المقصود الذى هو بلوغ كل أمة أجلها الخاص بها ومجيئه اياها بواسطة اكتساب الأجل بالاضافة عموما يفيده معنى الجمعية كأنه قيل اذا جاءهم آجالهم بأن يجئ كل واحدة من تلك الأمم أجلها الخاص بها وان جعل لكل أمة خاصة كما هو الظاهر فالاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاضافة الى الضمير لافادة أكمل التمييز أى اذا جاءها أجلها الخاص بها ﴿لا يستأخرون﴾ عن ذلك الأجل ﴿ساعة﴾ أى شيئا قليلا من الزمان فانها مثل فى غاية القلة منه أى لا يتأخرون أصلا وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك مع طلبهم له ﴿ولا يستقدمون﴾ أى ولا يتقدمون عليه وهو عطف على يستأخرون لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع امكانه فى نفسه كالتأخر بل للمبالغة فى انتفاء التأخر بنظمه فى سلك المستحيل عقلا كما فى قوله سبحانه وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار فان من مات كافرا مع ظهور أن لا توبة له رأسا قد نظم فى عدم القبول فى سلك من سوفها الى حضور الموت ايذانا بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة وقيل المراد بالمجئ الدنو بحيث يمكن التقدم فى الجملة كمجئ اليوم الذى ضرب لهلاكهم ساعة فيه وليس بذاك وتقديم بيان انتفاء الاستيخار لما أن المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم من العذاب وأما ما فى قوله تعالى ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون من سبق السبق فى الذكر فلما أن المراد هناك بيان سر تأخير اهلاكهم مع استحقاقهم له حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون فالأهم هناك بيان انتفاء السبق ﴿يا بنى آدم﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى كافة الناس اهتماما بشأن ما فى حيزه ﴿اما يأتينكم﴾ هى ان الشرطية ضمت اليها ما التأكيد معنى الشرط ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة وفيه تنبيه على أن ارسال الرسل أمر جائز لا واجب عقلا ﴿رسل منكم﴾ الجار متعلق بمحذوف هو صفة لرسل أى كائنون من جنسكم وقوله ﴿يقصون عليكم آياتى﴾ صفة أخرى لرسل أى يبينون لكم أحكامى وشرائعى وقوله تعالى ﴿فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ جملة شرطية وقعت جوابا للشرط أى فمن اتقى منكم التكذيب وأصلح عمله فلا خوف الخ وكذا قوله تعالى ﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أى والذين كذبوا منكم بآياتنا وايراد الاتقاء فى الأول للايذان بأن مدار الفلاح ليس مجرد عدم التكذيب بل هو الاتقاء والاجتناب عنه وادخال الفاء فى الجزاء الأول دون الثانى للمبالغة فى الوعد والمسامحة فى الوعيد ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته﴾ أى تقول عليه تعالى ما لم يقله أو كذب ما قاله أى هو أظلم من كل ظالم وقد مر تحقيقه مرارا ﴿أولئك﴾ اشارة الى الموصول والجمع باعتبار معناه كما أن افراد الفعلين باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للايذان بتماديهم فى سوء الحال أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الافتراء والتكذيب ﴿ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ أى مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار وقيل الكتاب اللوح أى مما أثبت لهم فيه وأيا ما كان فمن الابتدائية متعلقة بمحذوف وقع حالا من نصيبهم أى ينالهم نصيبهم كائنا من الكتاب وقيل نصيبهم من العذاب وسواد الوجه وزرقة العيون وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كتب لمن يفترى على الله سواد الوجه قال تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة وقوله تعالى ﴿حتى اذا جاءتهم رسلنا﴾ أى ملك الموت وأعوانه ﴿يتوفونهم﴾ أى حال كونهم متوفين لأرواحهم يؤيد الأول فان حتى وان كانت هى التى يبتدأ بها الكلام لكنها غاية لما قبلها فلا بد أن يكون نصيبهم مما يتمتعون بها الى حين وفاتهم أى ينالهم نصيبهم من الكتاب الى أن يأتيهم ملائكة الموت فاذا جاءتهم ﴿قالوا﴾ لهم ﴿أينما كنتم تدعون من دون الله﴾ أى أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدنيا وما وقعت موصولة بأين فى

خط المصحف وحقها الفصل لأنها موصولة ﴿قالوا﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية سؤال الرسل كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا ﴿ضلوا عنا﴾ أى غابوا عنا أى لا ندرى مكانهم ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ عطف على قالوا أى اعترفوا على أنفسهم ﴿أنهم كانوا﴾ أى فى الدنيا ﴿كافرين﴾ عابدين لما لا يستحق العبادة أصلا حيث شاهدوا حاله وضلاله ولعله أريد بوقت مجىء الرسل وحال التوفى الزمان الممتد من ابتداء المجىء والتوفى الى انتهائه يوم الجزاء بناء على تحقق المجىء والتوفى فى كل ذلك الزمان بقاء وان كان حدوثهما فى أوله فقط أو قصد بيان غاية سرعة وقوع البعث والجزاء كأنهما حاصلان عند ابتداء التوفى كما ينبئ عنه قوله عليه الصلاة والسلام من مات فقد قامت قيامته والا فهذا السؤال والجواب وما ترتب عليهما من الأمر بدخول النار وما جرى بين أهلها من التلاعن والتقاول انما يكون بعد البعث لا محالة ﴿قال﴾ أى الله عز وجل يوم القيامة بالذات أو بواسطة الملك ﴿ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم﴾ أى كائنين من جملة أمم مصاحبين لهم ﴿من الجن والانس﴾ يعنى كفار الأمم الماضية من النوعين ﴿فى النار﴾ متعلق بقوله ادخلوا ﴿كلما دخلت أمة﴾ من الأمم السابقة واللاحقة فيها ﴿لعنت أختها﴾ التى ضلت بالاقتداء بها ﴿حتى اذا اداركوا فيها جميعا﴾ أى تداركوا وتلاحقوا فى النار ﴿قالت أخراهم﴾ دخولا أو منزلة وهم الاتباع ﴿لأولاهم﴾ أى لأجلهم اذ الخطاب مع الله تعالى لا معهم ﴿ربنا هؤلاء أضلونا﴾ سنوا لنا الضلال فاقتدينا بهم ﴿فآتهم عذابا ضعفا﴾ أى مضاعفا ﴿من النار﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا ﴿قال لكل ضعف﴾ أما القادة فلما ذكر من الضلال والاضلال وأما الاتباع فلكفرهم وتقليدهم ﴿ولكن لا تعلمون﴾ أى ما لكم وما لكل فريق من العذاب وقرئ بالياء ﴿وقالت أولاهم﴾ أى مخاطبين ﴿لأخراهم﴾ حين سمعوا جواب الله تعالى لهم ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ أى فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وانا واياكم متساوون فى الضلال واستحقاق العذاب ﴿فذوقوا العذاب﴾ أى العذاب المعهود المضاعف ﴿بما كنتم تكسبون﴾ من قول القادة ﴿ان الذين كذبوا بآياتنا﴾ مع وضوحها ﴿واستكبروا عنها﴾ أى عن الايمان بها والعمل بمقتضاها ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ أى لا تقبل أدعيتهم ولا أعمالهم أو لا تعرج اليها أرواحهم كما هو شأن أدعية المؤمنين وأعمالهم وأرواحهم والتاء فى تفتح لتأنيث الأبواب والتشديد لكثرتها وقرئ بالتخفيف وبالتخفيف والياء وقرئ على البناء للفاعل ونصب الأبواب على أن الفعل للآيات وبالياء على أنه لله تعالى ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط﴾ أى حتى يدخل ما هو مثل فى عظم الجرم فيما هو علم فى ضيق المسلك وهو ثقبة الابرة وفى كون الجمل مما ليس من شأنه الولوج فى سم الابرة مبالغة فى الاستبعاد وقرئ الجمل كالقمل والجمل كالنغر والجمل كالقفل والجمل كالنصب والجمل كالحبل وهى الحبل الغليظ من القنب وقيل حبل السفينة وسم بالضم والكسر وقرئ فى سم المخيط وهو الخياط أى ما يخاط به كالحزام والمحزم ﴿وكذلك﴾ أى ومثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿نجزى المجرمين﴾ أى جنس المجرمين وهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ أى فراش من تحتهم والتنوين للتفخيم ومن تجريدية ﴿ومن فوقهم غواش﴾ أى أغطية والتنوين للبدل عن الاعلال عند سيبويه وللصرف عند غيره وقرئ غواش على الغاء المحذوف كما فى قوله تعالى وله الجوار المنشآت ﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك الجزاء الشديد ﴿نجزى الظالمين﴾ عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى اشعارا بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بكل واحد من ذينك الوصفين القبيحين وذكر الجرم مع الحرمان من دخول الجنة والظلم مع التعذيب بالنار للتنبيه على أنه أعظم الجرائم والجرائر ﴿والذين آمنوا﴾ أى بآياتنا أو بكل ما يجب أن يؤمن به فيدخل فيه الآيات دخولا أوليا وقوله تعالى ﴿وعملوا الصالحات﴾ أى الأعمال الصالحة التى شرعت بالآيات وهذا بمقابلة

الاستكبار عنها ﴿لانكلف نفسا الا وسعها﴾ اعتراض وسط بين المبتدا الذى هو الموصول والخبر الذى هو جملة ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾ للترغيب فى اكتساب مايؤدى الى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله وتيسر تحصيله وقرئ لاتكلف نفس واسم الاشارة مبتدأ وأصحاب الجنة خبره والجملة خبر للمبتدا الأول أواسم الاشارة بدل من المبتدا الأول الذى هو الموصول والخبر أصحاب الجنة ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل والشرف ﴿هم فيها خالدون﴾ حال من أصحاب الجنة وقدجوز كونه حالا من الجنة لاشتماله على ضميرها والعامل معنى الاضافة أو اللام المقدرة أوخبر ثان لأولئك على رأى من جوزه وفيها متعلق بخالدون ﴿ونزعنا مافى صدورهم من غل﴾ أى نخرج من قلوبهم أسباب الغل أونطهرها منه حتى لا يكون بينهم الا التواد وصيغة الماضى للايذان بتحققه وتقرره وعن على رضى الله تعالى عنه انى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ﴿تجرى من تحتهم الأنهار﴾ زيادة فى لذتهم وسرورهم والجملة حال من الضمير فى صدورهم والعامل امامعنى الاضافة واما العامل فى المضاف أوحال من فاعل نزعنا والعامل نزعنا وقيل هى مستأنفة للاخبار عن صفة أحوالهم ﴿وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا﴾ أى لما جزاؤه هذا ﴿وما كنا لنهتدى﴾ أى لهذا المطلب الأعلى أولمطلب من المطالب التى هـذا من جملتها ﴿لولا أن هدانا الله﴾ ووفقنا له واللام لتأكيد النفى وجواب لولا محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه ومفعول نهتدى وهدانا الثانى محذوف لظهور المراد أو لارادة التعميم كما أشير اليه والجملة مستأنفة أوحالية وقرئ ما كنا لنهتدى الخ بغير واو على أنها مبينة ومفسرة للأولى ﴿لقد جاءت رسل ربنا﴾ جواب قسم مقدر قالوه تبجحا واغتباطا بما نالوه وابتهاجا بايمانهم بما جاءتهم الرسل عليهم السلام والباء فى قوله تعالى ﴿بالحق﴾ اما للتعدية فهى متعلقة بجاءت أوللملابسة فهى متعلقة بمقدر وقع حالا من الرسل أى والله لقد جاؤا بالحق أولقد جاؤا ملتبسين بالحق ﴿ونودوا﴾ أى نادتهم الملائكة عليهم السلام ﴿أن تلكم الجنة﴾ أن مفسرة لما فى النداء من معنى القول أومخففة من أن وضمير الشأن محذوف ومعنى البعد فى اسم الاشارة اما لأنهم نودوا عند رؤيتهم اياها من مكان بعيد واما لرفع منزلتها وبعد رتبتها واما للاشعار بأنها تلك الجنة التى وعدوها فى الدنيا ﴿أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ فى الدنيا من الأعمال الصالحة أى أعطيتموها بسبب أعمالكم أو بمقابلة أعمالكم والجملة حال من الجنة والعامل معنى الاشارة على أن تلكم الجنة مبتدأ وخبر أو الجنة صفة والخبر أورثتموها ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ تبجحا بحالهم وشماتة بأصحاب النار وتحسيرا لهم لالمجرد الاخبار بحالهم والاستخبار عن حال مخاطبيهم ﴿أن قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا﴾ حيث نلنا هـذا المنال الجليل ﴿فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا﴾ حذف المفعول من الفعل الثانى اسقاطا لهم عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد وقيل لأن ماساءهم من الموعود لم يكن بأسره مخصوصا بهم وعدا كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة فانهم قد وجدوا جميع ذلك حقا وان لم يكن وعده مخصوصا بهم ﴿قالوا نعم﴾ أى وجدناه حقا وقرئ بكسر العين وهى لغة فيه ﴿فأذن مؤذن﴾ قيل هو صاحب الصور ﴿بينهم﴾ أى بين الفريقين ﴿أن لعنة الله على الظالمين﴾ بأن المخففة أو المفسرة وقرئ بأن المشددة ونصب لعنة وقرئ ان بكسر الهمزة على ارادة القول أواجراء أذن مجرى قال ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ صفة مقررة للظالمين أو رفع على الذم أونصب عليه ﴿ويبغونها عوجا﴾ أى يبغون لها عوجا بأن يصفوها بالزيغ والميل عن الحق وهو أبعد شئ منهما والعوج بالكسر فى المعانى والأعيان مالم يكن منتصبا وبالفتح ما كان فى المنتصب كالرمح والحائط ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ غير معترفين ﴿وبينهما حجاب﴾ أى بين الفريقين كقوله تعالى فضرب بينهم بسور أو بين الجنة والنار ليمنع وصول أثر

احداهما الى الأخرى ﴿ وعلى الأعراف ﴾ أى على أعراف الحجاب وأعاليه وهو السور المضروب بينهما جمع عرف مستعار من عرف الفرس وقيل العرف ما ارتفع من الشىء فانه بظهوره أعرف من غيره ﴿ رجال ﴾ طائفة من الموحدين قصروا فى العمل فيجلسون بين الجنة والنار حتى يقضى الله تعالى فيهم ما يشاء وقيل قوم علت درجاتهم كالأنبياء والشهداء والأخيار والعلماء من المؤمنين أو ملائكة يرون فى صور الرجال ﴿ يعرفون كلا ﴾ من أهل الجنة والنار ﴿ بسيماهم ﴾ بعلامتهم التى أعلمهم الله تعالى بها كبياض الوجه وسواده فعلى من سام ابله اذا أرسلها فى المرعى معلمة أو من وسم بالقلب كالجاه من الوجه وانما يعرفون ذلك بالالهام أو بتعليم الملائكة ﴿ ونادوا ﴾ أى رجال الأعراف ﴿ أصحاب الجنة ﴾ حين رأوهم ﴿ أن سلام عليكم ﴾ بطريق الدعاء والتحية أو بطريق الاخبار بنجاتهم من المكاره ﴿ لم يدخلوها ﴾ حال من فاعل نادوا أو من مفعوله وقوله تعالى ﴿ وهم يطمعون ﴾ حال من فاعل يدخلوها أى نادوهم وهم لم يدخلوها حال كونهم طامعين فى دخولها مترقبين له أى لم يدخلوها وهم فى وقت عدم الدخول طامعون ﴿ واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ﴾ أى الى جهتهم وفى عدم التعرض لتعلق أنظارهم بأصحاب الجنة والتعبير عن تعلق أبصارهم بأصحاب النار بالصرف اشعار بأن التعلق الأول بطريق الرغبة والميل الثانى بخلافه ﴿ قالوا ﴾ متعوذين بالله تعالى من سوء حالهم ﴿ ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ أى فى النار وفى وصفهم بالظلم دون ماهم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال الذى هو الموجب للدعاء اشعار بأن المحذور عندهم ليس نفى العذاب فقط بل مع ما يوجبه ويؤدى اليه من الظلم ﴿ ونادى أصحاب الأعراف ﴾ كرر ذكرهم مع كفاية الاضمار لزيادة التقرير ﴿ رجالا ﴾ من رؤساء الكفار حين رأوهم فيما بين أصحاب النار ﴿ يعرفونهم بسيماهم ﴾ الدالة على سوء حالهم يومئذ وعلى رياستهم فى الدنيا ﴿ قالوا ﴾ بدل من نادى ﴿ ما أغنى عنكم ﴾ ما اما استفهامية للتوبيخ والتقريع أو نافية ﴿ جمعكم ﴾ أى أتباعكم وأشياعكم أو جمعكم للمال ﴿ وما كنتم تستكبرون ﴾ ما مصدرية أى ما أغنى عنكم جمعكم واستكباركم المستمر عن قبول الحق أو على الخلق وهو الأنسب بما بعده وقرىء تستكثرون من الكثرة أى من الأموال والجنود ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ﴾ من تتمة قولهم للرجال والاشارة الى ضعفاء المؤمنين الذين كانت الكفرة يحتقرونهم فى الدنيا ويحلفون صريحا أنهم لا يدخلون الجنة أو يفعلون ما ينبىء عن ذلك كما فى قوله تعالى أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى أولئك المذكورين أى ادخلوا الجنة على رغم أنوفهم ﴿ لا خوف عليكم ﴾ بعد هذا ﴿ ولا أنتم تحزنون ﴾ أو قيل لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة بفضل الله تعالى بعد أن حبسوا وشاهدوا أحوال الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا والاظهر أن لا يكون المراد بأصحاب الاعراف المقصرين فى العمل لأن هذه المقالات وما تتفرع هى عليه من المعرفة لا يليق بمن لم يتعين حاله بعد وقيل لما عيروا أصحاب النار أقسموا أن أصحاب الاعراف لا يدخلون الجنة فقال الله تعالى أو الملائكة ردا عليهم أهؤلاء الخ وقرىء ادخلوا ودخلوا على الاستئناف وتقديره دخلوا الجنة مقولا فى حقهم لا خوف عليكم ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴾ بعد أن استقر بكل من الفريقين القرار واطمأنت به الدار ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء ﴾ أى صبوه وفيه دلالة على أن الجنة فوق النار ﴿ أو مما رزقكم الله ﴾ من سائر الأشربة ليلائم الافاضة أو من الأطعمة على أن الافاضة عبارة عن الاعطاء بكثرة ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قالوا فقيل قالوا ﴿ ان الله حرمهما على الكافرين ﴾ أى منعهما منهم منعا كليا فلا سبيل الى ذلك قطعا ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ﴾ كتحريم البحيرة والسائبة ونحوهما والتصدية حول البيت واللهو صرف الهم الى ما لا يحسن أن يصرف اليه واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب ﴿ وغرتهم الحيوة الدنيا ﴾ بزخارفها العاجلة ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ نفعل

بهم ما يفعل الناسي بالمنسي من عدم الاعتداد بهم وتركهم في النار تركا كليا والفاء في فاليوم فصيحة وقوله تعالى ﴿ كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ في محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي ننساهم نسيانا مثل نسيانهم لقاء يومهم هذا حيث لم يخطروه ببالهم ولم يعتدوا له وقوله تعالى ﴿ وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ عطف على مانسوا أي وكما كانوا منكرين بأنها من عند الله تعالى انكارا مستمرا ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه ﴾ أي بينا معانيه من العقائد والاحكام والمواعظ والضمير للكفرة قاطبة والمراد بالكتاب الجنس أو للمعاصرين منهم والكتاب هو القرآن ﴿ على علم ﴾ حال من فاعل فصلناه أي عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيما أو من مفعوله أي مشتملا على علم كثير وقرىء فضلناه أي على سائر الكتب عالمين بفضله ﴿ هدى ورحمة ﴾ حال من المفعول ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لأنهم المغتنمون لآثاره المقتبسون من أنواره ﴿ هل ينظرون الا تأويله ﴾ أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة بعدم ايمانهم به الا ما يؤول اليه أمره من تبين صدقه بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد ﴿ يوم يأتي تأويله ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ يقول الذين نسوه من قبل ﴾ أي تركوه ترك المنسي من قبل اتيان تأويله ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ أي قد تبين أنهم قد جاؤا بالحق ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ﴾ اليوم ويدفعوا عنا العذاب ﴿ أو نرد ﴾ أي هل نرد الى الدنيا وقرىء بالنصب عطفا على فيشفعوا أو لأن أو بمعنى الى أن فعلى الأول المسؤل أحد الأمرين اما الشفاعة لدفع العذاب أو الرد الى الدنيا وعلى الثاني أن يكون لهم شفعاء اما لأحد الأمرين أو لأمر واحد هو الرد ﴿ فنعمل ﴾ بالنصب على أنه جواب الاستفهام الثاني وقرىء بالرفع أي فنحن نعمل ﴿ غير الذي كنا نعمل ﴾ أي في الدنيا ﴿ قد خسروا أنفسهم ﴾ بصرف أعمارهم التي هي رأس مالهم الى الكفر والمعاصي ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ظهر بطلان ما كانوا يفترونه من أن الاصنام شركاء الله تعالى وشفعاؤهم يوم القيامة ﴿ ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ﴾ شروع في بيان مبدأ الفطرة اثر بيان معاد الكفرة أي ان خالقكم ومالككم الذي خلق الاجرام العلوية والسفلية في ستة أوقات كقوله تعالى ومن يولهم يومئذ دبره أو في مقدار ستة أيام فان المتعارف أن اليوم زمان طلوع الشمس الى غروبها ولم تكن هي حينئذ وفي خلق الاشياء مدرجا مع القدرة على ابداعها دفعة دليل على الاختيار واعتبار للنظار وحث على التأني في الامور ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ أي استوى أمره واستولى وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة الله تعالى بلا كيف والمعنى أنه تعالى استوى على العرش على الوجه الذي عناه منزها عن الاستقرار والتمكن والعرش الجسم المحيط بسائر الاجسام سمي به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك فان الامور والتدابير تنزل منه وقيل الملك ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ أي يغطيه به ولم يذكر العكس للعلم به أو لأن اللفظ يحتملهما ولذلك قرىء بنصب الليل ورفع النهار وقرىء بالتشديد للدلالة على التكرار ﴿ يطلبه حثيثا ﴾ أي يعقبه سريعا كالطالب له لا يفصل بينهما شيء والحثيث فعيل من الحث وهو صفة مصدر محذوف أو حال من الفاعل أو من المفعول بمعنى حاثا أو محثوثا ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ أي خلقهن حال كونهن مسخرات بقضائه وتصريفه وقرىء كلها بالرفع على الابتداء والخبر ﴿ ألا له الخلق والامر ﴾ فانه الموجد للكل والمتصرف فيه على الاطلاق ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ أي تعالى بالوحدانية في الألوهية وتعظم بالتفرد في الربوبية وتحقيق الآية الكريمة والله تعالى أعلم أن الكفرة كانوا متخذين أربابا فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد هو الله تعالى لأنه الذي له الخلق والامر فانه تعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فأبدع الافلاك ثم زينها بالشمس والقمر والنجوم كما أشار اليه بقوله تعالى فقضاهن سبع سموات في يومين وعمد الى الاجرام السفلية فخلق جسما قابلا للصور المتبدلة والهيئات المختلفة ثم قسمها لصور نوعية متباينة الآثار والافعال وأشار اليه بقوله تعالى وخلق الارض في يومين أي ما في جهة السفل

فى يومين ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولا وتصويرها ثانيا كما قال بعد قوله تعالى خلق الارض فى يومين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام أى مع اليومين الأولين لما فصل فى سورة السجدة ثم لما تم له عالم الملك عمد الى تدبيره كالملك الجالس على سريره فدبر الأمر من السماء الى الارض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالى والايام ثم صرح بما هو فذلكة التقرير ونتيجته فقال تعالى ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ثم أمر بأن يدعوه مخلصين متذللين فقال ﴿ادعوا ربكم﴾ الذى قد عرفتم شئونه الجليلة ﴿تضرعا وخفية﴾ أى ذوى تضرع وخفية فان الاخفاء دليل الاخلاص ﴿انه لا يحب المعتدين﴾ أى لا يحب دعاء المجاوزين لما أمروا به فى كل شىء فيدخل فيه الاعتداء فى الدعاء دخولا أوليا وقد نبه به على أن الداعى يجب أن لا يطلب ما لا يليق به كرتبة الانبياء والصعود الى السماء وقيل هو الصياح فى الدعاء والاسهاب فيه وعن النبى صلى الله عليه وسلم سيكون قوم يعتدون فى الدعاء وحسب المرء أن يقول اللهم انى أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل ثم قرأ انه لا يحب المعتدين ﴿ولا تفسدوا فى الارض﴾ بالكفر والمعاصى ﴿بعد اصلاحها﴾ ببعث الانبياء عليهم السلام وشرع الاحكام ﴿وادعوه خوفا وطمعا﴾ أى ذوى خوف نظرا الى قصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطمع نظرا الى سعة رحمته ووفور فضله واحسانه ﴿ان رحمة الله قريب من المحسنين﴾ فى كل شىء ومن الاحسان فى الدعاء أن يكون مقرونا بالخوف والطمع وتذكير قريب لأن الرحمة بمعنى الرحم أو لأنه صفة لمحذوف أى أمر قريب أو على تشبيهه بفعيل الذى هو بمعنى مفعول أو الذى هو مصدر كالنقيض والصهيل أو للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره أو لاكتسابه التذكير من المضاف اليه كما أن المضاف يكتسب التأنيث من المضاف اليه ﴿وهو الذى يرسل الرياح﴾ عطف على الجملة السابقة وقرىء الريح ﴿بشرا﴾ تخفيف بشر جمع بشير أى مبشرات وقرىء بفتح الباء على أنه مصدر بشره بمعنى باشرات أو للبشارة وقرىء نشرا بالنون المضمومة جمع نشور أى ناشرات ونشرا على أنه مصدر فى موقع الحال بمعنى ناشرات أو مفعول مطلق فان الارسال والنشر متقاربان ﴿بين يدى رحمته﴾ قدام رحمته التى هى المطر فان الصبا تثير السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه ﴿حتى اذا أقلت﴾ أى حملت واشتقاقه من القلة فان المقل للشىء يستقله ﴿سحابا ثقالا﴾ بالماء جمعه لأنه بمعنى السحائب ﴿سقناه﴾ أى السحاب وافراد الضمير لافراد اللفظ ﴿لبلد ميت﴾ أى لأجله ولمنفعته أو لاحيائه أو لسقيه وقرىء ميت ﴿فأنزلنا به الماء﴾ أى بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق أو بالريح والتذكير بتأويل المذكور وكذلك قوله تعالى ﴿فأخرجنا به﴾ ويحتمل أن يعود الضمير الى الماء وهو الظاهر واذا كان للبلد فالباء للالصاق فى الأول والظرفية فى الثانى واذا كان لغيره فهى للسببية ﴿من كل الثمرات﴾ أى من كل أنواعها ﴿كذلك نخرج الموتى﴾ الاشارة الى اخراج الثمرات أو الى احياء البلد الميت أى كما نحييه باحداث القوة النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات نخرج الموتى من الاجداث ونحييها برد النفوس الى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس ﴿لعلكم تذكرون﴾ بطرح احدى التاءين أى تتذكرون فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على هذا من غير شبهة ﴿والبلد الطيب﴾ أى الارض الكريمة التربة ﴿يخرج نباته باذن ربه﴾ بمشيئته وتيسيره عبر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لأنه أوقعه فى مقابلة قوله تعالى ﴿والذى خبث﴾ من البلاد كالسبخة والحرة ﴿لا يخرج الا نكدا﴾ قليلا عديم النفع ونصبه على الحال والتقدير والبلد الذى خبث لا يخرج نباته الا نكدا فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فصار مرفوعا مستترا وقرىء لا يخرج الا نكدا أى لا يخرجه البلد الا نكدا فيكون الا نكدا مفعوله وقرىء نكدا على المصدر أى ذا نكد ونكدا

بالاسكان للتخفيف ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك التصريف البديع ﴿نصرف الآيات﴾ أى نرددها ونكررها ﴿لقوم يشكرون﴾ نعمة الله تعالى فيتفكرون فيها و يعتبرون بها وهذا كما ترى مثل لارسال الرسل عليهم السلام بالشرائع التى هى ماء حياة القلوب الى المكلفين المنقسمين الى المقتبسين من أنوارها والمحرومين من مغانم آثارها وقد عقب ذلك بما يحققه و يقرره من قصص الامم الخالية بطريق الاستئناف فقيل ﴿لقد أرسلنا نوحا الى قومه﴾ هو جواب قسم محذوف أى والله لقد أرسلنا الخ واطراد استعمال هذه اللام مع قد لكون مدخولها مظنة للتوقع الذى هو معنى قد فان الجملة القسمية انما تساق لتأكيد الجملة المقسم عليها ونوح هو ابن لمك بن متوشلح بن أخنوخ وهو ادريس النبى عليهما السلام . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بعث عليه الصلاة والسلام على رأس أربعين سنة من عمره ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا ومائتين وأربعين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة ﴿فقال ياقوم اعبدوا الله﴾ أى اعبدوه وحده وترك التقييد به للايذان بأنها العبادة حقيقة وأما العبادة بالاشراك فليست من العبادة فى شىء وقوله تعالى ﴿مالكم من اله غيره﴾ أى من مستحق للعبادة استئناف مسوق لتعليل العبادة المذكورة أو الامر بها وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله الذى هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية وقرىء بالجر باعتبار لفظه وقرىء بالنصب على الاستثناء وحكم غير حكم الاسم الواقع بعد الا أى مالكم من اله الا اياه كقولك مافى الدار من أحد الازيد أو غير زيد فمن اله ان جعل مبتدأ فلكم خبره أو خبره محذوف ولكم للتخصيص والتبيين أى مالكم فى الوجود أو فى العالم اله غير الله ﴿انى أخاف عليكم﴾ أى ان لم تعبدوه حسبما أمرت به ﴿عذاب يوم عظيم﴾ هو يوم القيامة أو يوم الطوفان والجملة تعليل للعبادة ببيان الصارف عن تركها اثر تعليلها ببيان الداعى اليها و وصف اليوم بالعظم لبيان عظم مايقع فيه وتكميل الانذار ﴿قال الملأ من قومه﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قوله عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قالوا له عليه الصلاة والسلام فى مقابلة نصحه فقيل قال الرؤساء من قومه والاشراف الذين يملؤن صدور المحافل بأجرامهم والقلوب بجلالهم وهيبتهم والابصار بجمالهم وأبهتهم ﴿انا لنراك فى ضلال﴾ أى ذهاب عن طريق الحق والصواب والرؤية قلبية ومفعولاها الضمير والظرف ﴿مبين﴾ بين كونه ضلالا ﴿قال﴾ استئناف كما سبق ﴿ياقوم﴾ ناداهم باضافتهم اليه استمالة لقلوبهم نحو الحق ﴿ليس بى ضلالة﴾ أى شىء ما من الضلال قصد عليه الصلاة والسلام تحقيق الحق فى نفى الضلال عن نفسه ردا على الكفرة حيث بالغوا فى اثباته له عليه الصلاة والسلام حيث جعلوه مستقرا فى الضلال الواضح كونه ضلالا وقوله تعالى ﴿ولكنى رسول من رب العالمين﴾ استدراك مما قبله باعتبار مايستلزمه من كونه فى أقصى مراتب الهداية فان رسالة رب العالمين مستلزمة له لامحالة كأنه قيل ليس بى شىء من الضلال ولكنى فى الغاية القاصية من الهداية ومن لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف هو صفة لرسول مؤكدة لما يفيده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى رسول وأى رسول كائن من رب العالمين ﴿أبلغكم رسالات ربى﴾ استئناف مسوق لتقرير رسالته وتفصيل أحكامها وأحوالها وقيل صفة أخرى لرسول على طريقة أنا الذى سمتنى أمى حيدره وقرىء أبلغكم من الابلاغ وجمع الرسالات لاختلاف أوقاتها أو لتنوع معانيها أو لان المراد بها ما أوحى اليه والى النبيين من قبله وتخصيص ربوبيته تعالى به عليه الصلاة والسلام بعد بيان عمومها للعالمين للاشعار بعلة الحكم الذى هو تبليغ رسالته تعالى اليهم فان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من موجبات امتثاله بأمره تعالى بتبليغ رسالته تعالى

اليهم ﴿وأنصح لكم﴾ عطف على أبلغكم مبين لكيفية أداء الرسالة و زيادة اللام مع تعدى النصح بنفسه للدلالة على محاض النصيحة لهم وأنها لمنفعتهم ومصلحتهم خاصة وصيغة المضارع للدلالة على تجدد نصيحته لهم كما يعرب عنه قوله تعالى رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا وقوله تعالى ﴿وأعلم من الله مالا تعلمون﴾ عطف على ماقبله وتقرير لرسالته عليه الصلاة والسلام أى أعلم من جهة الله تعالى بالوحى مالا تعلمونه من الأمور الآتيـة أو أعلم من شئونه عز وجل وقدرته القاهرة و بطشه الشديد على أعـدائه وأن بأسه لايرد عن القوم المجرمين مالا تعلمونه قيل كانوا لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم فكانوا غافلين آمنين لا يعلمون ماعلمه نوح عليه السلام بالوحى ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم﴾ جواب و رد لما اكتفى عن ذكره بقولهم انا لنراك فى ضلال مبين من قولهم مانراك الا بشرا مثلنا وقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيـل أاستبعدتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر أى وحى أو موعظة من مالك أموركم ومربيكم ﴿على رجل منكم﴾ أى على لسان رجل من جنسكم كقوله تعالى ماوعدتنا على رسلك وقلتم لأجـل ذلك ماقلتم من أن الله تعالى لو شاء لأنزل ملائكة ﴿لينذركم﴾ علة للمجىء أى ليحذركم عاقبة الكفر والمعاصى ﴿ولتتقوا﴾ عطف على العلة الأولى مترتبة عليها ﴿ولعلكم ترحمون﴾ عطف على العلة الثانية مترتبة عليها أى ولتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم وفائدة حرف الترجى التنبيه على عزة المطلب وأن التقوى غير موجب للرحمة بل هى منوطة بفضـل الله تعالى وأن المتقى ينبغى أن لايعتمد على تقواه و لا يأمن عذاب الله عز وجل ﴿فكذبوه﴾ فتموا على تكذيبه فى دعوى النبوة وما نزل عليه من الوحى الذى بلغه اليهم وأنذرهم بما فى تضاعيفه واستمروا على ذلك هذه المدة المتطاولة بعدما كرر عليه الصلاة والسلام عليهم الدعوة مرارا فلم يزدهم دعاؤه الا فرارا حسبما نطق به قوله تعالى رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا الآيات اذ هو الذى يعقبه الانجاء والاغراق لا مجرد التكذيب ﴿فأنجيناه والذين معه﴾ من المؤمنين قيـل كانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة وقيل تسعة أبناؤه الثلاثة وستة ممن آمن به وقوله تعالى ﴿فى الفلك﴾ متعلق بالاستقرار فى الظرف أى استقروا معه فى الفلك أو صحبوه فيه أو بفعل الانجاء أى أنجيناهم فى السفينة و يجوز أن يتعلق بمضمر وقع حالا من الموصول أو من ضميره فى الظرف ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ أى استمروا على تكذيبها وليس المراد بهم الملأ المتصدين للجواب فقط بل كل من أصر على التكذيب منهم ومن أعقابهم وتقديم ذكر الانجاء على الاغراق للمسارعة الى الاخبار به والايذان بسبق الرحمة التى هى مقتضى الذات وتقدمها على الغضب الذى يظهر أثره بمقتضى جرائمهم ﴿انهم كانوا قوما عمين﴾ عمى القلوب غير مستبصرين قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عميت قلوبهم عن معرفة التوحيـد والنبوة والمعاد وقرىء عامين والأول أدل على الثبات والقرار ﴿والى عاد﴾ متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى أرسلنا فى قصة نوح عليه السلام وهو الناصب لقوله تعـالى ﴿أخاهم﴾ أى وأرسلنا الى عاد أخاهم أى واحداً منهم فى النسب لا فى الدين كقولهم ياأخا العرب وقيل العامل فيهما الفعل المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحا والأول هو الأولى وأيا ما كان فلعل تقديم المجرور ههنا على المفعول الصريح للحذار عن الاضمار قبـل الذكر يرشدك الى ذلك ماسيأتى من قوله تعـالى ولوطا الخ فان قومه لما لم يعهـدوا باسم معروف يقتضى الحـال ذكره عليه السلام مضافا اليهم كما فى قصة عاد وثمود ومدين خولف فى النظم الكريم بين قصته عليه السلام و بين القصص الثلاث وقوله تعـالى ﴿هوداً﴾ عطف بيان لأخاهم وهو هود بن عبـد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وقيل هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح بن عم أبى عاد وانما جعـل منهم لأنهم أفهم لكلامه وأعرف بحاله فى صدقه وأمانته

وأقرب الى اتباعه ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية ارساله عليه السلام اليهم كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل
قال ﴿ياقوم اعبدوا الله﴾ أى وحده كما يعرب عنه قوله ﴿مالكم من اله غيره﴾ فانه استئناف جار مجرى البيان للعبادة
المأمور بها والتعليل لها أو للأمر بها كأنه قيل خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئا اذ ليس لكم اله سواه وغيره بالرفع صفة لاله
باعتبار محله وقرئ بالجر حملا له على لفظه ﴿أفلا تتقون﴾ انكار واستبعاد لعدم اتقائهم عذاب الله تعالى بعدما علموا ماحل
بقوم نوح والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا تتفكرون أو أتغفلون فلا تتقون فالتوبيخ على المعطوفين معا أو أتعلمون
ذلك فلا تتقون فالتوبيخ على المعطوف فقط وفى سورة هود أفلا تعقلون ولعله عليه السلام خاطبهم بكل منهما وقد
اكتفى بحكاية كل منهما فى موطن عن حكايته فى موطن آخر كما لم يذكر ههنا ما ذكر هناك من قوله تعالى ان أنتم الا
مفترون وقس على ذلك حال بقية ماذكر ومالم يذكر من أجزاء القصة بل حال نظائره فى سائر القصص لاسيما فى
المحاورات الجارية فى الاوقات المتعددة والله أعلم ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ استئناف كما مر وانما وصف
الملأ بالكفر اذ لم يكن كلهم على الكفر كملأ قوم نوح بل كان منهم من آمن به عليه السلام ولكن كان يكتم ايمانه كمرثد
ابن سعد وقيل وصفوا به لمجرد الذم ﴿انا لنراك فى سفاهة﴾ أى متمكنا فى خفة عقل راسخا فيها حيث فارقت دين
آبائك ألا انهم هم السفهاء ولكن لايعلمون ﴿وانا لنظنك من الكاذبين﴾ أى فيما ادعيت من الرسالة قالوه لعراقتهم
فى التقليد وحرمانهم من النظر الصحيح ﴿قال﴾ مستعطفا لهم ومستميلا لقلوبهم مع ماسمع منهم ماسمع من الكلمة
الشنعاء الموجبة لتغليظ القول والمشافهة بالسوء ﴿ياقوم ليس بى سفاهة﴾ أى شىء منها ولا شائبة من شوائبها
﴿ولكنى رسول من رب العالمين﴾ استدراك مما قبله باعتبار مايستلزمه ويقتضيه من كونه فى الغاية القصوى من
الرشد والاناة والصدق والامانة فان الرسالة من جهة رب العالمين موجبة لذلك حتما كأنه قيل ليس بى شىء مما تنسبتمونى
اليه ولكنى فى غاية ما يكون من الرشد والصدق ولم يصرح بنفى الكذب اكتفاء بما فى حيز الاستدراك ومن لابتداء
الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لرسول مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية وقوله
تعالى ﴿أبلغكم رسالات ربى﴾ استئناف سيق لتقرير رسالته وتفصيل أحوالها وقيل صفة أخرى لرسول والكلام
فى اضافة الرب الى نفسه عليه السلام بعد اضافته الى العالمين وكذا فى جمع الرسالات كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام
وقرئ أبلغكم من الابلاغ ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾ معروف بالنصح والامانة مشهور بين الناس بذلك وانما جئ
بالجملة الاسمية دلالة على الثبات والاستمرار وايذانا بأن من هذا حاله لايحوم حوله شائبة السفاهة والكذب ﴿أوعجبتم
أن جاءكم ذكر من ربكم﴾ الكلام فيه كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام ﴿على رجل منكم﴾ أى من جنسكم ﴿لينذركم﴾
ويحذركم عاقبة ماأنتم عليه من الكفر والمعاصى حتى تنسبتمونى الى السفاهة والكذب وفى اجابة الانبياء صلوات الله
وسلامه عليهم أجمعين من يشافههم بما لاخير فيه من أمثال تلك الاباطيل بما حكى عنهم من المقالات الحقة المعربة
عن نهاية الحلم والرزانة وكمال الشفقة والرأفة من الدلالة على حيازتهم القدح المعلى من مكارم الاخلاق مالايخفى مكانه
﴿واذكروا اذجعلكم خلفاء﴾ شروع فى بيان ترتيب أحكام النصح والامانة والانذار وتفصيلها واذ منصوب باذكروا
على المفعولية دون الظرفية وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة
فى ايجاب ذكرها لما أن ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر مافيه بالطريق البرهانى ولأن الوقت مشتمل عليها فاذا استحضر
كانت هى حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا ولعله معطوف على مقدر كأنه قيل لاتعجبوا من ذلك أو تدبروا فى أمركم
واذكروا وقت جعله تعالى اياكم خلفاء ﴿من بعد قوم نوح﴾ أى فى مساكنهم أو فى الارض بأن جعلكم ملوكا فان

شداد بن عاد ممن ملك معمورة الارض من رمل عالج الى شحر عمان ﴿ و زادكم فى الخلق ﴾ أى فى الابداع والتصوير أو فى الناس ﴿ بسطة ﴾ قامة وقوة فانه لم يكن فى زمانهم مثلهم فى عظم الاجرام قال الكلبي والسدى كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعا ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ التى أنعم بها عليكم من فنون النعماء التى هذه من جملتها وهذا تكرير للتذكير لزيادة التقرير وتعميم اثر تخصيص ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ كى يؤديكم ذلك الى الشكر المؤدى الى النجاة من الكروب والفوز بالمطلوب ﴿ قالوا ﴾ مجيبين عن تلك النصائح العظيمة ﴿ أجئتنا لنعبد الله وحده ﴾ أى لنخصه بالعبادة ﴿ ونذر ما كان يعبد آباؤنا ﴾ أنكروا عليه عليه السلام مجيئه لتخصيصه تعالى بالعبادة والاعراض عن عبادة الاوثان انهما كا فى التقليد وحبا لما ألفوه وألفوا أسلافهم عليه ومعنى المجيء اما مجيئه عليه السلام من متعبده ومنزله واما من السماء على التهكم واما القصد والتصدى مجازا كما يقال فى مقابله ذهب يشتمنى من غير ارادة معنى الذهاب ﴿ فائتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب المدلول عليه بقوله تعالى أفلا تتقون ﴿ ان كنت من الصادقين ﴾ أى فى الاخبار بنزول العذاب وجواب ان محذوف لدلالة المذكور عليه أى فائت به ﴿ قال قد وقع عليكم ﴾ أى وجب وحق أو نزل باصراركم هذا بناء على تنزيل المتوقع منزلة الواقع كما فى قوله تعالى أتى أمر الله ﴿ من ربكم ﴾ أى من جهته تعالى وتقديم الظرف الاول على الثانى مع أن مبدأ الشيء متقدم على منتهاه للمسارعة الى بيان اصابة المكروه لهم و كذا تقديمهما على الفاعل الذى هو قوله تعالى ﴿ رجس ﴾ مع ما فيه من التشويق الى المؤخر ولان فيه نوع طول بما عطف عليه من قوله تعالى ﴿ وغضب ﴾ فربما يخل تقديمهما بتجاوب النظم الكريم والرجس العذاب من الارتجاس الذى هو الاضطراب والغضب ارادة الانتقام وتنوينهما للتفخيم والتهويل ﴿ أتجادلوننى فى أسماء ﴾ عارية عن المسمى ﴿ سميتموها ﴾ أى سميتم بها ﴿ أنتم وآباؤكم ﴾ انكار واستقباح لانكارهم مجيئه عليه السلام داعيا لهم الى عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة الاصنام أى أتجادلوننى فى أشياء سميتموها آلهة ليست هى الا محض الاسماء من غير أن يكون فيها من مصداق الالهية شيء ما لان المستحق للمعبودية بالذات ليس الا من أوجد الكل وأنها لو استحقت لكان ذلك بجعله تعالى اما بانزال آية أو نصب حجة وكلاهما مستحيل وذلك قوله تعالى ﴿ ما نزل الله بها من سلطان ﴾ واذ ليس ذلك فى حيز الامكان تحقق بطلان ما هم عليه ﴿ فانتظروا ﴾ مترتب على قوله تعالى قد وقع عليكم أى فانتظروا ما تطلبونه بقولكم فائتنا بما تعدنا الخ ﴿ انى معكم من المنتظرين ﴾ لما يحل بكم والفاء فى قوله تعالى ﴿ فأنجيناه ﴾ فصيحة كما فى قوله تعالى فانفجرت أى فوقع ما وقع فأنجيناه ﴿ والذين معه ﴾ أى فى الدين ﴿ برحمة ﴾ أى عظيمة لا يقادر قدرها وقوله تعالى ﴿ منا ﴾ أى من جهتنا متعلق بمحذوف هو نعت لرحمة مؤكد لفخامتها الذاتية المنفهمة من تنكيرها بالفخامة الاضافية ﴿ وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أى استأصلناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم ﴿ وما كانوا مؤمنين ﴾ عطف على كذبوا داخل معه فى حكم الصلة أى أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرعووا عن ذلك أبدا وتقديم حكاية الانجاء على حكاية الاهلاك قد مر سره وفيه تنبيه على أن مناط النجاة هو الايمان بالله تعالى وتصديق آياته كما أن مدار البوار هو الكفر والتكذيب. وقصتهم أن عادا قوم كانوا باليمن بالاحقاف وكانوا قد تبسطوا فى البلاد ما بين عمان الى حضرموت و كانت لهم أصنام يعبدونها صدا وصمودا والهبا فبعث الله تعالى اليهم هودا نبيا وكان من أوسطهم وأفضلهم حسبا فكذبوه وازدادوا عتوا وتجبرا فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا وكان الناس اذا نزل بهم بلاء طلبوا الى الله الفرج منه عند بيته الحرام مسلمهم ومشركهم وأهل مكة اذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر فجهزت عاد الى مكة من أماثلهم سبعين رجلا منهم قيل بن عنز ومرثد بن سعد الذي كان يكتم اسلامه فلما قدموا نزلوا على معاوية

ابن بكر وهو بظاهر مكة خارجا عن الحرم فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم قينتا معاوية فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له أهمه ذلك وقال قد هلك أخوالى وأصهارى وهؤلاء على ماهم عليه وكان يستحيي أن يكلمهم خشية أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه فذكر ذلك للقينتين فقالتا قل شعرا نغنيهم به لا يدرون من قاله فقال معاوية

ألا ياقيل ويحك قم فهينم لعل الله يسقينا غماما
فيسقى أرض عاد ان عادا قدامسوا لا يبينون الكلاما

فلما غنتابه قالوا ان قومكم يتغوثون من البلاء الذى نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال لهم مرثد ابن سعد والله لا تسقون بدعائكم ولكن ان أطعتم نبيكم وتبتم الى الله تعالى سقيتم وأظهر اسلامه فقالوا لمعاوية احبس عنا مرثدا لا يقدمن معنا فانه قد اتبع دين هود وترك ديننا ثم دخلوا مكة فقال قيل اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء ياقيل اختر لنفسك ولقومك فقال اخترت السوداء فانها أكثرهن ماء فخرجت على عاد من واد يقال له المغيث فاستبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه فأتوا مكة فعبدوا الله تعالى فيها الى أن ماتوا ﴿والى ثمود أخاهم صالحا﴾ عطف على ماسبق من قوله تعالى والى عاد أخاهم هودا موافق له فى تقديم المجرور على المنصوب وثمود قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الاكبر ثمود بن عابر ابن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وقيل انما سموا بذلك لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وقرىء بالصرف بتأويل الحى وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام الى وادى القرى وأخوة صالح عليه السلام لهم من حيث النسب كهود عليه السلام فانه صالح بن عبيد بن اسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ولما كان الاخبار بارساله عليه السلام اليهم مظنة لأن يسأل ويقال فماذا قال لهم قيل جوابا عنه بطريق الاستئناف ﴿قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره﴾ وقدمر الكلام فى نظائره ﴿قد جاءتكم بينة﴾ أى آية ومعجزة ظاهرة شاهدة بنبوتى وهى من الألفاظ الجارية مجرى الابطح والابرق فى الاستغناء عن ذكر موصوفاتها حالة الافراد والجمع كالصالح افرادا وجمعا وكذلك الحسنة والسيئة سواء كانتا صفتين للاعمال أو المثوبة أو الحالة من الرخاء والشدة ولذلك أوليت العوامل وقوله تعالى ﴿من ربكم﴾ متعلق بجاءتكم أو بمحذوف هو صفة لبينة كما مر مرارا والمراد بها الناقة وليس هذا الكلام منه عليه السلام أول ما خاطبهم اثر دعوتهم الى التوحيد بل انما قاله بعد ما نصحهم وذكرهم بنعم الله تعالى فلم يقبلوا كلامه وكذبوه ألا يرى الى ما فى سورة هود من قوله تعالى هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها الى آخر الآيات . روى أنه لما أهلكت عاد عمرت ثمود بلادها وخلفوهم فى الأرض وكثروا وعمروا أعمارا طوالا حتى ان الرجل كان يبنى المسكن المحكم فينهدم فى حياته فنحتوا البيوت من الجبال وكانوا فى سعة ورخاء من العيش فعتوا على الله تعالى وأفسدوا فى الأرض وعبدوا الاوثان فبعث الله تعالى اليهم صالحا وكانوا قوما عربا وصالح من أوسطهم نسبا فدعاهم الى الله عز وجل فلم يتبعه الا قليل منهم مستضعفون فحذرهم وأنذرهم فسألوه آية فقال أية آية تريدون قالوا تخرج معنا الى عيدنا فى يوم معلوم لهم من السنة فتدعو الهك وندعوا آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك وان استجيب لنا اتبعتنا فقال صالح عليه السلام نعم فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوا الاستجابة فلم تجبهم ثم قال سيدهم جندع بن عمرو وأشار الى صخرة منفردة فى ناحية الجبل يقال لها الكاثبة أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء والمخترجة التى شاكلت البخت فان فعلت صدقناك وأجبناك فاخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن

قالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا
لا يعلم ما بين جنبيها الا الله تعالى وعظماؤهم ينظرون ثم نتجت ولدا مثلها فى العظم فآمن به جندع ورهط من قومه ومنع
أعقابهم ناس من رؤسهم أن يؤمنوا فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد غبا فاذا كان يومها
وضعت رأسها فى البئر فما ترفعها حتى تشرب كل ما فيها ثم تتفحج فيحتلبون ما شاؤا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون
ويدخرون وكانت اذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادى فيهرب منها أنعامهم فتهبط الى بطنه واذا وقع البرد تشتت ببطن
الوادى فتهرب مواشيهم الى ظهره فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار لما
أضرت به من مواشيهما وكانتا كثيرتى المواشى فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه فانطلق سقبها حتى رقى جبلا اسمه
قارة فرغا ثلاثا وكان صالح عليه السلام قال لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه فانفجت
الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح تصبحون غدا ووجوهكم مصفرة وبعد غد ووجوهكم محمرة واليوم الثالث
ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله تعالى الى أرض فلسطين ولما كان
اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالانطاع فأتتهم صيحة من السماء ورجفة من الارض فتقطعت
قلوبهم فهلكوا وقوله تعالى ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ استئناف مسوق لبيان البينة واضافة الناقة الى الاسم الجليل
لتعظيمها ولمجيئها من جهته تعالى بلا أسباب معهودة ووسايطه معتادة ولذلك كانت آية وأى آية ولكم بيان لمن هى آية
له وانتصاب آية على الحالية والعامل فيها معنى الاشارة ويجوز أن يكون ناقة الله بدلا من هذه أو عطف بيان له أو مبتدأ
ثانيا ولكم خبرا عاملا فى آية ﴿فذروها﴾ تفريع على كونها آية من آيات الله تعالى فان ذلك مما يوجب عدم التعرض
لها ﴿تأكل فى أرض الله﴾ جواب الامر أى الناقة ناقة الله والارض أرض الله تعالى فاتركوها تأكل ما تأكل فى
أرض ربها فليس لكم أن تحولوا بينها وبينها وقرئ تأكل بالرفع على أنه فى موضع الحال أى آكلة فيها وعدم التعرض
للشرب اما للاكتفاء عنه بذكر الاكل أو لتعميمه له أيضا كما فى قوله علفتها تبنا وماء باردا وقد ذكر ذلك فى قوله
تعالى لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ نهى عن المس الذى هو مقدمة الاصابة بالشر
الشامل لأنواع الأذية ونكر السوء مبالغة فى النهى أى لا تتعرضوا لها بشئ مما يسوءها أصلا ولا تطردوها ولا تريبوها
اكراما لآية الله تعالى ﴿فيأخذكم عذاب أليم﴾ جواب للنهى ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر
بالحجر فى غزوة تبوك قال لأصحابه لا يدخلن أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين
الا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذى أصابهم وقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه يا على أتدرى من
أشقى الاولين قال الله ورسوله أعلم قال عاقر ناقة صالح أتدرى من أشقى الآخرين قال الله ورسوله أعلم قال قاتلك
﴿واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ أى خلفاء فى الأرض أو خلفاء لهم كما مر ﴿وبوأكم فى الارض﴾ أى
جعل لكم مباءة ومنزلا فى أرض الحجر بين الحجاز والشام ﴿تتخذون من سهولها قصورا﴾ استئناف مبين لكيفية
التبوئة أى تبنون فى سهولها قصورا رفيعة أو تبنون من سهولة الارض بما تعملون منها من الرهص واللبن والآجر
﴿وتنحتون الجبال﴾ أى الصخور وقرئ تنحتون بفتح الحاء وتنحاتون باشباع الفتحة كما فى قوله ينباع من ذفرى
أسيل حرة والنحت نجر الشئ الصلب فانتصاب الجبال على المفعولية وانتصاب قوله تعالى ﴿بيوتا﴾ على أنها حال
مقدرة منها كما تقول خطت هذا الثوب قميصا وقيل انتصاب الجبال على اسقاط الجار أى من الجبال وانتصاب بيوتا
على المفعولية وقد جوز أن يضمن النحت معنى الاتخاذ فانتصابهما على المفعولية قيل كانوا يسكنون السهول فى الصيف

والجبال فى الشتاء ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ التى أنعم بها عليكم مما ذكر أو جميع آلائه التى هذه من جملتها ﴿ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾ فان حق آلائه تعالى أن تشكر ولا تهمل ولا يغفل عنها فكيف بالكفر والعثى فى الأرض بالفساد ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ أى عتوا وتكبروا استئناف كما سلف وقرىء بالواو عطفا على ماقبله من قوله تعالى قال ياقوم الخ واللام فى قوله تعالى ﴿للذين استضعفوا﴾ للتبليغ وقوله تعالى ﴿لمن آمن منهم﴾ بدل من الموصول باعادة العامل بدل الكل ان كان ضمير منهم لقومه و بدل البعض ان كان للذين استضعفوا على أن من المستضعفين من لم يؤمن والأول هو الوجه اذ لاداعى الى توجيه الخطاب أولا الى جميع المستضعفين مع أن المجاوبة مع المؤمنين منهم على أن الاستضعاف مختص بالمؤمنين أى قالوا للمؤمنين الذين استضعفوهم واسترذلوهم ﴿أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه﴾ وانما قالوه بطريق الاستهزاء بهم ﴿قالوا انا بما أرسل به مؤمنون﴾ عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بان يقولوا نعم أو نعلم أنه مرسل منه تعالى مسارعة الى تحقيق الحق واظهار مالهم من الايمان الثابت المستمر الذى ينبىء عنه الجملة الاسمية وتنبيها على أن أمر ارساله من الظهور بحيث لا ينبغى أن يسأل عنه وانما الحقيق بالسؤال عنه هو الايمان به ﴿قال الذين استكبروا﴾ أعيد الموصول مع صلته مع كفاية الضمير ايذانا بأنهم قد قالوا ما قالوه بطريق العتو والاستكبار ﴿انا بالذى آمنتم به كافرون﴾ وانما لم يقولوا انا بما أرسل به كافرون اظهارا لمخالفتهم اياهم و ردا لمقالتهم ﴿فعقروا الناقة﴾ أى نحروها أسند العقر الى الكل مع أن المباشر بعضهم للملابسة أو لان ذلك لما كان برضاهم فكأنه فعله كلهم وفيه من تهويل الامر وتفظيعه بحيث أصابت غائلته الكل ما لا يخفى ﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾ أى استكبروا عن امتثاله وهو ما بلغهم صالح عليه السلام من الامر والنهى ﴿وقالوا﴾ مخاطبين له عليه السلام بطريق التعجيز والالحام على زعمهم ﴿ياصالح ائتنا بما تعدنا﴾ أى من العذاب والاطلاق للعلم به قطعا ﴿ان كنت من المرسلين﴾ فان كونك من جملتهم يستدعى صدق ما تقول من الوعد والوعيد ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أى الزلزلة لكن لا اثر ماقالوا ماقالوا بل بعد ما جرى عليهم ما جرى من مبادىء العذاب فى الايام الثلاثة حسبما مر تفصيله ﴿فأصبحوا فى دارهم﴾ أى صاروا فى أرضهم و بلدهم أو فى مساكنهم ﴿جاثمين﴾ خامدين موتى لاحراك بهم وأصل الجثوم البروك يقال الناس جثوم أى قعود لاحراك بهم ولا ينبسون نبسة قال أبو عبيدة الجثوم للناس والطير والبروك للابل والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب ولا حركة كما يكون عند الموت المعتاد ولا يخفى ما فيه من شدة الاخذ وسرعة البطش اللهم انا بك نعوذ من نزول سخطك وحلول غضبك وجاثمين خبر لاصبحوا والظرف متعلق به ولا مساغ لكونه خبرا وجاثمين حالا لافضائه الى كون الاخبار بكونهم فى دارهم مقصودا بالذات وكونهم جاثمين قيدا تابعا له غير مقصود بالذات قيل حيث ذكرت الرجفة وحدت الدار وحيث ذكرت الصيحة جمعت لان الصيحة كانت من السماء فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة فقرن كل منهما بما هو أليق به ﴿فتولى عنهم﴾ اثر ماشاهد ماجرى عليهم تولى مغتم متحسر على مافاتهم من الايمان متحزن عليهم ﴿وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم﴾ بالترغيب والترهيب وبذلت فيكم وسعى ولكن لم تقبلوا منى ذلك وصيغة المضارع فى قوله تعالى ﴿ولكن لاتحبون الناصحين﴾ حكاية حال ماضية أى شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم خاطبهم عليه الصلاة والسلام بذلك خطاب رسول الله عليه الصلاة والسلام أهل قليب بدر حيث قال انا وجدنا ماوعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا وقيل انما تولى عنهم قبل نزول العذاب بهم عند مشاهدته عليه الصلاة والسلام لعلاماته تولى ذاهب عنهم منكر لاصرارهم على ماهم عليه و روى أن عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء ونزل بهم العذاب يوم السبت و روى أنه خرج فى مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكى

فالتفت فرأى الدخان ساطعا فعلم أنهم قد هلكوا وكانوا ألفا وخمسمائة دار وروى أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم ﴿ولوطا﴾ منصوب بفعل مضمر معطوف على ماسبق وعدم التعرض للمرسل اليهم مقدما على المنصوب حسبما وقع فيما سبق وما لحق قد مر بيانه فى قصة هود عليه والسلام وهو لوط بن هاران بن تارخ بن أخى ابراهيم كان من أرض بابل من العراق مع عمه ابراهيم فهاجر الى الشام فنزل فلسطين وأنزل لوطا الأردن وهى كورة بالشام فأرسله الله تعالى الى أهل سدوم وهى بلد بحمص وقوله تعالى ﴿اذ قال لقومه﴾ ظرف للمضمر المذكور أى أرسلنا لوطا الى قومه وقت قوله لهم الخ ولعل تقييد ارساله عليه السلام بذلك لما أن ارساله اليهم لم يكن فى أول وصوله اليهم وقيل هو بدل من لوطا بدل اشتمال على أن انتصابه باذكر أى اذكر وقت قوله عليه السلام لقومه ﴿أتأتون الفاحشة﴾ بطريق الانكار التوبيخى التقريعى أى أتفعلون تلك الفعلة المتناهية فى القبح المتمادية فى الشر بةوالسوء ﴿ماسبقكم بها﴾ ماعملها قبلكم على أن الباء للتعدية كما فى قوله عليه السلام سبقك بها عكاشة من قولك سبقته بالكرة أى ضربتها قبله ومن فى قوله تعالى ﴿من أحد﴾ مزيدة لتأكيد النفى وافادة معنى الاستغراق وفى قوله تعالى ﴿من العالمين﴾ للتبعيض والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع فان مباشرة القبيح قبيح واختراعه أقبح ولقد أنكر الله تعالى عليهم أولا اتيان الفاحشة ثم وبخهم بأنهم أول من عملها فان سبك النظم الكريم وان كان على نفى كونهم مسبوقين من غير تعرض لكونهم سابقين لكن المراد أنهم سابقون لكل من عداهم من العالمين كما مر تحقيقه مرارا فى نحو قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أومسوقة جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل من جهتهم لم لانأتيها فقيل بيانا للعلة واظهارا للزاجر ماسبقكم بها أحد لغاية قبحها وسوء سبيلها فكيف تفعلونها قال عمرو بن دينار مانزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط قال محمد بن اسحق كانت لهم ثمار وقرى لم يكن فى الدنيا مثلها فقصدهم الناس فآذوهم فعرض لهم ابليس فى صورة شيخ ان فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فأبوا فلما ألح الناس عليهم قصدوهم فأصابوا غلمانا صباحا فأخبثوا فاستحكم فيهم ذلك قال الحسن كانوا لا يفعلون ذلك الا بالغرباء وقال الكلبى أول من فعل به ذلك الفعل ابليس الخبيث حيث تمثل لهم فى صورة شاب جميل فدعاهم الى نفسه ثم عبثوا بذلك العمل ﴿انكم لتأتون الرجال﴾ خبر مستأنف لبيان تلك الفاحشة وقرئ بهمزتين صريحتين وبتليين الثانية بغير مد وبمد أيضا على أنه تأكيد للانكار السابق وتشديد للتوبيخ وفى زيادة ان واللام مزيد توبيخ وتقريع كأن ذلك أمر لايتحقق صدوره عن أحد فيؤكد تأكيدا قويا وفى ايراد لفظ الرجال دون الغلمان والمردان ونحوهما مبالغة فى التوبيخ وقوله تعالى ﴿شهوة﴾ مفعول له أو مصدر فى موقع الحال وفى التقييد بها وصفهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه على أن العاقل ينبغى له أن يكون الداعى له الى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لاقضاء الشهوة ويجوز أن يكون المراد الانكار عليهم وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿من دون النساء﴾ أى متجاوزين النساء اللاتى هن محل الاشتهاء كما ينبئ عنه قوله تعالى هن أطهر لكم ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ اضراب عن الانكار المذكور الى الاخبار بحالهم التى أفضتهم الى ارتكاب أمثالها وهى اعتياد الاسراف فى كل شئ أوعن الانكار عليها الى الذم على جميع معايبهم أو عن محذوف أى لاعذر لكم فيه بل أنتم قوم عادتكم الاسراف ﴿وما كان جواب قومه﴾ أى المستكبرين منهم المتولين للأمر والنهى المتصدين للعقد والحل وقوله تعالى ﴿الا أن قالوا﴾ استثناء مفرغ من أعم الأشياء أى ما كان جوابا من جهة قومه شئ من الأشياء الا قولهم أى لبعضهم الآخرين المباشرين للأمور معرضين عن مخاطبته عليه السلام ﴿أخرجوهم﴾ أى لوطا ومن معه من أهله المؤمنين ﴿من قريتكم﴾ أى الاهذا القول الذى يستحيل أن يكون جوابا لكلام لوط عليه السلام وقرئ برفع جواب على أنه اسم كان والا أن قالوا الخ خبرها وهو

أظهر وان كان الأول أقوى فى الصناعة لأن الاعرف أحق بالاسمية وأياما كان فليس المراد أنه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن مقالات لوط عليه السلام ومواعظه الا هذه المقالة الباطلة كما هو المتسارع الى الافهام بل انه لم يصدر عنهم فى المرة الأخيرة من مرات المحاورات الجارية بينهم و بينه عليه السلام الا هذه الكلمة الشنيعة والا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثير من الترهات حسبما حكى عنهم فى سائر السور الكريمة وهذا هو الوجه فى نظائره الواردة بطريق القصر وقوله تعالى ﴿انهم أناس يتطهرون﴾ تعليل للأمر بالاخراج ووصفهم بالتطهر للاستهزاء والسخرية بهم و بتطهرهم من الفواحش والخبائث والافتخار بما هم فيه من القذارة كما هو ديدن الشطار والدعار ﴿فأنجيناه وأهله﴾ أى المؤمنين منهم ﴿الا امرأته﴾ استثناء من أهله فانها كانت تسر بالكفر ﴿كانت من الغابرين﴾ أى الباقين فى ديارهم الهالكين فيها والتذكير للتغليب ولبيان استحقاقها لما يستحقه المباشرون للفاحشة والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن استثنائها من حكم الانجاء كأنه قيل فماذا كان حالها فقيل كانت من الغابرين ﴿وأمطرنا عليهم مطرا﴾ أى نوعا من المطر عجيبا وقد بينه قوله تعالى وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل قال أبو عبيدة مطر فى الرحمة وأمطر فى العذاب وقال الراغب مطر فى الخير وأمطر فى العذاب والصحيح أن أمطرنا بمعنى أرسلنا عليهم ارسال المطر قيل كانت المؤتفكة خمس مدائن وقيل كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة فأمطر الله عليهم الكبريت والنار وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم وقيل أمطر عليهم ثم خسف بهم و روى أن تاجرا منهم كان فى الحرم فوقف الحجر له أربعين يوما حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه و روى أن امرأته التفتت نحو ديارها فأصابها حجر فماتت ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ خطاب لكل من يتأتى منه التأمل والنظر تعجيبا من حالهم وتحذيرا من أعمالهم ﴿والى مدين أخاهم شعيبا﴾ عطف على قوله والى عاد أخاهم هودا وما عطف عليه وقد روعى ههنا ما فى المعطوف عليه من تقديم المجرور على المنصوب أى وأرسلنا اليهم وهم أولاد مدين بن ابراهيم عليه السلام شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين وقيل شعيب بن ثويب ابن مدين وقيل شعيب بن يثرون بن مدين وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين مع كفرهم ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ عن حكاية ارساله اليهم كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال ﴿ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره﴾ مر تفسيره مرارا ﴿قد جاءتكم بينة﴾ أى معجزة وقوله تعالى ﴿من ربكم﴾ متعلق بجاءتكم أو بمحذوف هو صلة لفاعله مؤكدة لفخامته الذاتية المستفادة من تنكيره بفخامته الاضافية أى بينة عظيمة ظاهرة كائنة من ربكم ومالك أموركم ولم يذكر معجزته عليه السلام فى القرآن العظيم كما لم يذكر أكثر معجزات النبى صلى الله عليه وسلم فمنها ما روى من محاربة عصا موسى عليه السلام التنين حين دفع اليه غنمه ومنها ولادة الغنم الدرع خاصة حين وعد أن يكون له الدرع من أولادها ومنها وقوع عصا آدم عليه السلام على يده فى المرات السبع لأن كل ذلك كان قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام وقيل البينة مجيئه عليه السلام كما فى قوله تعالى ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى أى حجة واضحة و برهان نير عبر بهما عما آتاه الله من النبوة والحكمة ﴿فأوفوا الكيل﴾ أى المكيال كما وقع فى سورة هود و يؤيده قوله تعالى ﴿والميزان﴾ فان المتبادر منه الآلة وان جاز كونه مصدرا كالميعاد وقيل آلة الكيل والوزن على الاضمار والفاء لترتيب الأمر على مجئ البينة و يجوز أن تكون عاطفة على اعبدوا فان عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهى التى معظمها بعد الكفر البخس الذى كانوا يباشرونه ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ التى تشترونها بهما معتمدين على تمامهما أى شئ كان وأى مقدار كان فانهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير وقيل كانوا مكاسين لايدعون شيأ الا مكسوه قال زهير

أفي كل أسواق العراق اتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

﴿ولا تفسدوا في الارض﴾ أي بالكفر والحيف ﴿بعد اصلاحها﴾ بعدما أصلح أمرها وأهلها الانبياء وأتباعهم باجراء الشرائع أو أصلحوا فيها واضافته اليها كاضافة مكر الليل والنهار ﴿ذلكم خير لكم﴾ اشارة الى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه ومعنى الخيرية اما الزيادة مطلقا أو في الانسانية وحسن الأحدوثة وما يطلبونه من التكسب والربح لان الناس اذا عرفوهم بالامانة رغبوا في معاملتهم ومتاجرتهم ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ أي مصدقين لي في قولي هذا ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون﴾ أي بكل طريق من طرق الدين كالشيطان وصراط الحق وان كان واحداً لكنه يتشعب الى معارف وحدود وأحكام وكانوا اذا رأوا أحدا يشرع في شيء منها منعوه وقيل كانوا يجلسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعيبا انه كذاب لا يفتننك عن دينك و يتوعدون لمن آمن به وقيل يقطعون الطريق ﴿وتصدون عن سبيل الله﴾ أي السبيل الذي قعدوا عليه فوقع المظهر موقع المضمر بيانا لكل صراط ودلالة على عظم ما يصدون عنه وتقبيحا لما كانوا عليه أو الايمان بالله أو بكل صراط على أنه عبارة عن طرق الدين وقوله تعالى ﴿من آمن به﴾ مفعول تصدون على اعمال الاقرب ولو كان مفعول توعدون لقيل وتصدونهم وتوعدون حال من الضمير في تقعدوا ﴿وتبغونها عوجا﴾ أي وتطلبون لسبيل الله عوجا بالقاء الشبه أو بوصفها للناس بأنها معوجة وهي أبعد شيء من شائبة الاعوجاج ﴿واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم﴾ بالبركة في النسل والمال ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ من الامم الماضية كقوم نوح ومن بعدهم من عاد وثمود وأضرابهم واعتبروا بهم ﴿وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به﴾ من الشرائع والاحكام ﴿وطائفة لم يؤمنوا﴾ أي به أو لم يفعلوا الايمان ﴿فاصبروا حتى يحكم الله بيننا﴾ أي بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين ﴿وهو خير الحاكمين﴾ اذ لا معقب لحكمه ولا حيف فيه ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ استئناف مبني على سؤال ينساق اليه المقال كأنه قيل فماذا قالوا بعد ما سمعوا هذه المواعظ من شعيب عليه السلام فقيل قال أشراف قومه المستكبرون متطاولين عليه عليه السلام غير مكتفين بمجرد الاستعصاء عليه والامتناع من الطاعة له بل بالغين من العتو والاستكبار الى أن قصدوا استتباعه عليه السلام فيما هم فيه وأتباعه المؤمنين واجترؤا على اكراههم عليه بوعيد النفي وخاطبوه بذلك على طريقة التوكيد القسمي ﴿لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا﴾ بنسبة الاخراج اليه عليه السلام أولا والى المؤمنين ثانيا بعطفهم عليه تنبيها على اصالته عليه السلام في الاخراج وتبعيتهم له فيه كما ينبيء عنه قوله تعالى ﴿معك﴾ فانه متعلق بالاخراج لا بالايمان وتوسيط النداء باسمه العلمي بين المعطوفين لزيادة التقرير والتهديد الناشئة عن غاية الوقاحة والطغيان أي والله لنخرجنك وأتباعك ﴿من قريتنا﴾ بغضا لكم ودفعا لفتنتكم المترتبة على المساكنة والجوار وقوله تعالى ﴿أو لتعودن في ملتنا﴾ عطف على جواب القسم أي والله ليكونن أحد الامرين البتة على أن المقصد الاصلي هو العود وانما ذكر النفي والاجلاء لمحض القسر والالجاء كما يفصح عنه عدم تعرضه عليه السلام لجواب الاخراج كأنهم قالوا لا ندعكم فيما بيننا حتى تدخلوا في ملتنا وادخالهم له عليه السلام في خطاب العود مع استحالة كونه عليه السلام في ملتهم قبل ذلك انما هو بطريق تغليب الجماعة على الواحد وانما لم يقولوا أو لنعيدنكم على طريقة ما قبله لما أن مرادهم أن يعودوا اليها بصورة الطواعية حذار الاخراج باختيار أهون الشرين لا اعادتهم بسائر وجوه الاكراه والتعذيب ﴿قال﴾ استئناف كما سبق أي قال عليه السلام ردا لمقالتهم الباطلة وتكذيبا لهم في أيمانهم الفاجرة ﴿أولو كنا كارهين﴾ على أن الهمزة لانكار الوقوع ونفيه لا لانكار الواقع واستقباحه كالتي في قوله تعالى أولو جئتك بشيء مبين

و يجوز أن يكون الاستفهام فيه باقيا على حاله وقد مر مرارا أن كلمة لو فى مثل هـذا المقام ليست لبيان انتفاء الشئ فى
الزمن الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف تعويلا على دلالة ماقبلها عليه ملاحظة قصدية الاعند
القصد الى بيان الاعراب على القواعد الصناعية بل هى لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق بالذات أو بالواسطة من
الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على أبعدهامنه وأشدها
منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ماعداه من الاحوال بطريق الأولوية لما أن الشئ متى تحقق مع
المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى و لذلك لايذكر معه شئ من سائر الاحوال و يكتفى عنه بذكر الواو العاطفة
للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الاحوال المغايرة لها عند تعددها وهذا معنى قولهم انها لاستقصاء الاحوال
على سبيل الاجمال وهذا المعنى ظاهر فى الخبر الموجب والمنفى والأمر والنهى كما فى قولك فلان جواد يعطى و لوكان
فقيرا أو بخيل لا يعطى ولوكان غنيا وكقولك أحسن اليه ولو أساء اليك ولا تهنه ولو أهانك لبقائه على حاله سالما عما
يغيره وأما فيما نحن فيه ففيه نوع خفاء لتغيره بورود الانكار عليه لكن الأصل فى الكل واحد الا أن كلمة لو فى الصور
المذكورة متعلقة بنفس الفعل المذكور قبلها وأن ما يقصد بيان تحققه على كل حال هو نفس مدلوله وأن الجملة حال
من ضميره أو مما يتعلق به وأن ما فى حيز لو مقرر على ماهو عليه من الاستبعاد بخلاف ما نحن فيه لما أن كلمة لو
متعلقة فيه بفعل مقدر يقتضيه المذكور وأن ما يقصد بيان تحققه على كل حال هو مدلوله لامدلول المذكور وأن الجملة
حال من ضميره لا من ضمير المذكور كما سيأتى وأن المقصود الأصلى انكار مدلوله من حيث مقارنته للحالة المذكورة
وأما تقدير مقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة وأن ما فى حيز لولا يقصد استبعاده فى نفسه بل يقصد الاشعار بأنه أمر
مقرر الا أنه أخرج مخرج الاستبعاد مبالغة فى الانكار من جهة أن العود مما ينكر عند كون الكراهة أمرا مستبعدا
فكيف به عند كونها أمرا محققا ومعاملة مع المخاطبين على معتقدهم لاستنزالهم من رتبة العناد وليس المراد بالكراهة
مجرد كراهة المؤمنين للعود فى ملة الكفر ابتداء حتى يقال انها معلومة لهم فكيف تكون مستبعدة عندهم بل انما هى
كراهتهم له بعد وعيد الاخراج الذى جعل قرينا للقتل فى قوله تعالى و لو أنا كتبنا الآية فانهم كانوا يستبعدونها و يطمعون
فى أنهم حينئذ يختارون العود خشية الاخراج اذ رب مكروه يختار عند حلول ما هو أشد منه وأفظع والتقدير أنعود
فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين غير مبالين بالاكراه فالجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير الفعل المقدر
حسبما أشير اليه اذ مآله أنعود فيها حال عدم الكراهة وحال الكراهة انكارا لما تفيده كلمتهم الشنيعة باطلاقها من العود
على أى حالة كانت غير أنه اكتفى بذكر الحالة الثانية التى هى أشد الاحوال منافاة للعود وأكثرها بعدا منه تنبيها على
أنها هى الواقعة فى نفس الأمر وثقة باغنائها عن ذكر الاولى اغناء واضحا لان العود الذى تعلق به الانكار حين تحقق
مع الكراهة على ما يوجبه كلامهم فلأن يتحقق مع عدمها أولى ان قلت النفى المستفاد من الاستفهام الانكارى فيما
نحن فيه بمنزلة صريح النفى ولا ريب فى أن الأولوية هناك معتبرة بالنسبة الى النفى ألا يرى أن الاولى بالتحقق فيما
ذكر من مثال النفى عند الحالة المسكوت عنها أعنى عدم الغنى هو عدم الاعطاء لانفسه فكان ينبغى أن يكون الاولى
بالتحقق فيما نحن فيه عند عدم الكراهة عدم العود لا نفسه اذ هو الذى يدل عليه قولنا أنعود لأنه فى معنى لا نعود
فلم اختلف الحال بينهما قلت لما أن مناط الأولوية هو الحكم الذى أريد بيان تحققه على كل حال وذلك فى مثال
النفى عدم الاعطاء المستفاد من الفعل المنفى المذكور وأما فيما نحن فيه فهو نفس العود المستفاد من الفعل المقدر
اذ هو الذى يقتضيه الكلام السابق أعنى قولهم لتعودن وأما الاستفهام فخارج عنه وارد عليه لابطال ما يفيده ونفى

ما يقتضيه لا أنه من تمامه كما فى صورة النفى وتوضيحه أن بين النفيين فرقا معنويا تختلف به أحكامهما التى من جملتها ما ذكر من اعتبار الأولوية فى أحدهما بالنسبة الى نفسه وفى الآخر بالنسبة الى متعلقه ولذلك لا تستقيم اقامة أحدهما مقام الآخر على وجه الكلية ألا يرى أنك لو قلت مكان أنعود فيها الخ لا نعود فيها ولو كنا كارهين لاختل المعنى اختلالا فاحشا لأن مدلول الأول نفى العود المقيد بحال الكراهة ومدلول الثانى تقييد العود المنفى بها وذلك لأن حرف النفى يباشر نفس الفعل و ينفيه وما يذكر بعده يرجع اليه من حيث هو منفى وأما همزة الاستفهام فانها تباشر الفعل بعد تقيده بما بعده لما أن دلالتها على الانكار والنفى ليست بدلالة وضعية كدلالة حرف النفى حتى يتعلق معناها بنفس الفعل الذى يليها ويكون ما بعده راجعا اليه من حيث هو منفى بل هى دلالة عقلية مستفادة من سياق الكلام فلا بد أن يكون ما يذكر بعد الفعل من موانعه ودواعى انكاره ونفيه حتما ليكون قرينة صارفة للهمزة عن حقيقتها الى معنى الانكار والنفى ثم لما كان المقصود نفى الحكم على كل حال مع الاقتصار على ذكر بعض منها مغن عن ذكر ماعداها لاستلزام تحققه معه تحققه مع غيره بطريق الأولوية وكانت حال الكراهة عند كونها قيداً لنفس العود كذلك أى مغنيا عن ذكر سائر الأحوال ضرورة أن تحقق العود فى حال الكراهة مستلزم لتحققه فى حال عدمها البتة وعند كونها قيداً لنفيه بخلاف ذلك أى غير مغن عن ذكر غيرها ضرورة أن نفى العود فى حال الكراهة لا يستلزم نفيه فى غيرها بل الأمر بالعكس فان نفيه فى حال الارادة مستلزم لنفيه فى حال الكراهة قطعا استقام الاول لافادته نفى العود فى الحالتين مع الاقتصار على ذكر ما هو مغن عن ذكر الأخرى ولم يستقم الثانى لعدم افادته اياه على الوجه المذكور ان قيل فما وجه استقامتهما جميعا عند ذكر المعطوفين معا حيث يصح أن يقال لا نعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين كما يصح أن يقال أنعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين مع أن المقدر فى حكم الملفوظ قلنا وجهها أن كلا منهما يفيد معنى صحيحا فى نفسه لا أن معنى أحدهما عين معنى الآخر أو متلازمان متفقان فى جميع الأحكام كيف لا ومدلول الاول أن العود منتف فى الحالتين ومدلول الثانى أن العود فى الحالتين منتف وكلا المعنيين صحيح فى نفسه مصحح لنفى العود فى الحالتين مع ذكرهما معا غير أن الثانى مصحح لنفى العود فى الحالتين مع الاقتصار على ذكر حالة الكراهة على عكس المعنى الاول فانه مصحح لنفيه فيهما مع الاقتصار على ذكر حالة الارادة ﴿ قد افترينا على الله كذبا ﴾ أى كذبا عظيما لا يقادر قدره ﴿ ان عدنا فى ملتكم ﴾ التى هى الشرك وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أى ان عدنا فى ملتكم ﴿ بعد اذ نجانا الله منها ﴾ فقد افترينا على الله كذبا عظيما حيث نزعم حينئذ أن لله تعالى ندا وليس كمثله شىء وأنه قد تبين لنا أن ما كنا عليه من الاسلام باطل وأن ما كنتم عليه من الكفر حق وأى افتراء أعظم من ذلك وقيل انه جواب قسم محذوف حذف عنه اللام تقديره والله لقد افترينا الخ ﴿ وما يكون لنا ﴾ أى وما يصح وما يستقيم لنا ﴿ أن نعود فيها ﴾ فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات ﴿ الا أن يشاء الله ﴾ أى الا حال مشيئة الله تعالى أو وقت مشيئته تعالى لعودنا فيها وذلك مما لا يكاد يكون كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ ربنا ﴾ فان التعرض لعنوان ربوبيته تعالى لهم مما ينبىء عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعا وكذا قوله تعالى بعد اذ نجانا الله منها فان تنجيته تعالى لهم منها من دلائل عدم مشيئته لعودهم فيها وقيل معناه الا أن يشاء الله خذلاننا وقيل فيه دليل على أن الكفر بمشيئته تعالى وأياما كان فليس المراد بذلك بيان أن العود فيها فى حيز الامكان وخطر الوقوع بناء على كون مشيئته تعالى كذلك بل بيان استحالة وقوعها كأنه قيل وما كان لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا وهيهات ذلك بدليل ما ذكر من موجبات عدم مشيئته تعالى له ﴿ وسع ربنا كل شىء علما ﴾ فهو محيط بكل ما كان وما سيكون من الأشياء التى من جملتها أحوال عباده وعزائمهم ونياتهم وما هو اللائق بكل

واحد منهم فمحال من لطفه أن يشاء عودنا فيها بعد ما نجانا منها مع اعتصامنا به خاصة حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿على الله توكلنا﴾ أى فى أن يثبتنا على ما نحن عليه من الايمان و يتم علينا نعمته بانجائنا من الاشراك بالكلية واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار للمبالغة فى التضرع والجؤار وقوله تعالى ﴿ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق﴾ اعراض عن مقاولتهم اثر ما ظهر له عليه الصلاة والسلام أنهم من العتو والعناد بحيث لا يتصور منهم الايمان أصلا واقبال على الله تعالى بالدعاء لفصل ما بينه و بينهم بما يليق بحال كل من الفريقين أى احكم بيننا بالحق والفتاحة الحكومة أو أظهر أمرنا حتى ينكشف ما بيننا و بينهم و يتميز المحق من المبطل من فتح المشكل اذا بينه ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله على المعنيين ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ عطف على قال الملأ الذين الخ ولعل هؤلاء غير أولئك المستكبرين ودونهم فى الرتبة شأنهم الوساطة بينهم و بين العامة والقيام بأمورهم حسبما يراه المستكبرون و يجوز أن يكون عين الأولين وتغيير الصلة لما أن مدار قولهم هذا هو الكفر كما أن مناط قولهم السابق هو الاستكبار أى قال أشرافهم الذين أصروا على الكفر لاعقابهم بعد ما شاهدوا صلابة شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين فى الايمان وخافوا أن يستتبعوا قومهم تثبيطا لهم عن الايمان به وتنفيرا لهم عنه على طريقة التوكيد القسمى والله ﴿لئن اتبعتم شعيبا﴾ ودخلتم فى دينه وتركتم دين آبائكم ﴿انكم اذاً لخاسرون﴾ أى فى الدين لاشترائكم الضلالة بهداكم أو فى الدنيا لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف واذن حرف جواب وجزاء معترض بين اسم ان وخبرها والجملة سادة مسد جوابى الشرط والقسم الذى وطأته اللام ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أى الزلزلة وهكذا فى سورة العنكبوت وفى سورة هود وأخذت الذين ظلموا الصيحة أى صيحة جبريل عليه السلام ولعلها من مبادى الرجفة فأسند هلاكهم الى السبب القريب تارة والى البعيد أخرى ﴿فأصبحوا فى دارهم﴾ أى فى مدينتهم و فى سورة هود فى ديارهم ﴿جاثمين﴾ أى ميتين لازمين لأماكنهم لابراح لهم منها ﴿الذين كذبوا شعيبا﴾ استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم فيما سبق لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا وعقوبتهم بمقابلته والموصول مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أى استؤصلوا بالمرة وصاروا كأنهم لم يقيموا بقريتهم أصلا أى عوقبوا بقولهم ذلك وصاروا هم المخرجين من القرية اخراجا لادخول بعده أبدا وقوله تعالى ﴿الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين﴾ استئناف آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الاخير واعادة الموصول والصلة كما هى لزيادة التقرير والايذان بأن ما ذكر فى حيز الصلة هو الذى استوجب العقوبتين أى الذين كذبوه عليه السلام عوقبوا بمقالتهم الاخيرة فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين لا المتبعون له عليه الصلاة والسلام و بهذا القصر اكتفى عن التصريح بانجائه عليه الصلاة والسلام كما وقع فى سورة هود من قوله تعالى ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه الخ ﴿فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم﴾ قاله عليه الصلاة والسلام بعد ما هلكوا تأسفا بهم لشدة حزنه عليهم ثم أنكر على نفسه ذلك فقال ﴿فكيف آسى﴾ أحزن حزنا شديدا ﴿على قوم كافرين﴾ أى مصرين على الكفر ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم أو قاله اعتذارا عن عدم شدة حزنه عليهم والمعنى لقد بالغت فى الابلاغ والانذار و بذلت وسعى فى النصح والاشفاق فلم تصدقوا قولى فكيف آسى عليكم وقرىء ايسى بامالتين ﴿وما أرسلنا فى قرية من نبى﴾ اشارة اجمالية الى بيان أحوال سائر الأمم اثر بيان أحوال الأمم المذكورة تفصيلا ومن مزيدة لتأكيد النفى والصفة محذوفة أى من نبى كذب أو كذبه أهلها ﴿الا أخذنا أهلها﴾ استثناء مفرغ من أعم الاحوال وأخذنا فى محل النصب من فاعل أرسلنا والفعل الماضى لا يقع بعد الا الا بأحد شرطين اما تقدير قد كما فى هذه الآية أو مقارنة قد كما فى قولك ما زيد الا قد قام والتقدير وما أرسلنا فى

قرية من القرى المهلكة نبيا من الأنبياء فى حال من الأحوال الاحال كوننا آخذين أهلها ﴿ بالبأساء ﴾ بالبؤس والفقر ﴿ والضراء ﴾ بالضر والمرض لكن لاعلى معنى أن ابتداء الارسال مقارن للاخذ المذكور بل على أنه مستتبع له غير منفك عنه بالآخرة لاستكبارهم عن اتباع نبيهم وتعززهم عليه حسبما فعلت الأمم المذكورة ﴿ لعلهم يضرعون ﴾ كى يتضرعوا و يتذللوا و يحطوا أردية الكبر والعزة عن أكتافهم كقوله تعالى لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ﴿ ثم بدلنا ﴾ عطف على أخذنا داخل فى حكمه ﴿ مكان السيئة ﴾ التى أصابتهم للغاية المذكورة ﴿ الحسنة ﴾ أى أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة الرخاء والسعة كقوله تعالى و بلوناهم بالحسنات والسيئات ﴿ حتى عفوا ﴾ أى كثروا عددا وعددا من عفا النبات اذا كثر وتكاثف وأبطرتهم النعمة ﴿ وقالوا ﴾ غير واقفين على أن ما أصابهم من الأمرين ابتلاء من الله سبحانه ﴿ قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ كما مسنا ذلك وما هو الا من عادة الدهر يعاقب فى الناس بين الضراء والسراء من غير أن يكون هناك داعية تؤدى اليهما أو تبعة تترتب عليهما ولعل تأخير السراء للاشعار بأنها تعقب الضراء فلا ضير فيها ﴿ فأخذناهم ﴾ اثر ذلك ﴿ بغتة ﴾ فجأة أشد الاخذ وأفظعه ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بذلك و لا يخطرون ببالهم شيئاً من المكاره كقوله تعالى حتى اذا فرحوا بما أوتوا الآية وليس المراد بالاخذ بغتة اهلاكهم طرفة عين كاهلاك عاد وقوم لوط بل ما يعمه وما يمضى بين الاخذ وتمام الاهلاك أيام كدأب ثمود ﴿ ولو أن أهل القرى ﴾ أى القرى المهلكة المدلول عليها بقوله تعالى فى قرية وقيل هى مكة وما حولها من القرى وقيل جنس القرى المنتظمة لما ذكر ههنا انتظاما أوليا ﴿ آمنوا ﴾ بما أوحى الى أنبيائهم معتبرين بما جرى عليهم من الابتلاء بالضراء والسراء ﴿ واتقوا ﴾ أى الكفر والمعاصى أو اتقوا ما أنذروا به على ألسنة الأنبياء ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح ولم يحملوا ابتلاء الله تعالى على عادات الدهر وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وحدوا الله واتقوا الشرك ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ لوسعنا عليهم الخير و يسرناه لهم من كل جانب مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التى بعضها من السماء و بعضها من الأرض وقيل المراد المطر والنبات وقرىء لفتحنا بالتشديد للتكثير ﴿ ولكن كذبوا ﴾ أى ولكن لم يؤمنوا ولم يتقوا وقد اكتفى بذكر الأول لاستلزامه للثانى ﴿ فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ من أنواع الكفر والمعاصى التى من جملتها قولهم قد مس آباءنا الخ وهذا الأخذ عبارة عما فى قوله تعالى فأخذناهم بغتة لا عن الجدب والقحط كما قيل فانهما قد زالا بتبديل الحسنة مكان السيئة ﴿ أفأمن أهل القرى ﴾ أى أهل القرى المذكورة على وضع المظهر موضع المضمر للايذان بأن مدار التوبيخ أمن كل طائفة ما أتاهم من البأس لا أمن مجموع الأمم فان كل طائفة منهم أصابهم بأس خاص بهم لا يتعداهم الى غيرهم كما سيأتى والهمزة لانكار الواقع واستقباحه لا لانكار الوقوع ونفيه كما قاله أبو شامة وغيره لقوله تعالى فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون والفاء للعطف على أخذناهم وما بينهما اعتراض توسط بينهما للمسارعة الى بيان أن الأخذ المذكور مما كسبته أيديهم والمعنى أبعد ذلك الأخذ أمن أهل القرى ﴿ أن يأتيهم بأسنا بياتا ﴾ أى تبييتا أو وقت بيات أو مبيتا أو مبيتين وهو فى الأصل مصدر بمعنى البيتوتة و يجىء بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم ﴿ وهم نائمون ﴾ حال من ضميرهم البارز أو المستتر فى بياتا ﴿ أوأمن أهل القرى ﴾ انكار بعد انكار للمبالغة فى التوبيخ والتشديد ولذلك لم يقل أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون أوضحى وهم يلعبون وقرىء أو بسكون الواو على الترديد ﴿ أن يأتيهم بأسنا ضحى ﴾ أى ضحوة النهار وهو فى الأصل ضوء الشمس اذا ارتفعت ﴿ وهم يلعبون ﴾ أى يلهون من فرط الغفلة أو يشتغلون بما لا ينفعهم كأنهم يلعبون ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ تكرير للنكير لزيادة التقرير ومكر الله تعالى استعارة لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب والمراد به اتيان

بأسه تعالى فى الوقتين المذكورين ولذلك عطف الاول والثالث بالفاء فى الانكار فيهما متوجه الى ترتب الأمن على الأخذ المذكور وأما الثانى فمن تتمة الأول ﴿فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون﴾ أى الذين خسروا أنفسهم وأضاعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها والاستعداد القريب المستفاد من النظر فى الآيات ﴿أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ أى يخلفون من خلا قبلهم من الأمم المهلكة ويرثون ديارهم والمراد بهم أهل مكة ومن حولها وتعدية فعل الهداية باللام اما لتنزيلها منزلة اللازم كأنه قيل أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم الخ واما لانها بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل على التقديرين هو الجملة الشرطية أى أولم يبين لهم مآل أمرهم ﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ أى أن الشأن لو نشاء أصبناهم بجزاء ذنوبهم أو بسبب ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم وقرئ نهد بنون العظمة فالجملة مفعوله ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ عطف على مايفهم من قوله تعالى أولم يهد كأنه قيل لايهتدون أو يغفلون عن الهداية أوعن التفكر والتأمل أو منقطع عنه بمعنى ونحن نطبع ولايجوز عطفه على أصبناهم على أنه بمعنى طبعنا لافضائه الى نفى الطبع عنهم لأنه فى سياق جواب لو ﴿فهم لايسمعون﴾ أى أخبار الأمم المهلكة فضلا عن التدبر والنظر فيها والاغتنام بما فى تضاعيفها من الهداية ﴿تلك القرى﴾ جملة مستأنفة جارية مجرى الفذلكة لما قبلها من القصص منبئة عن غاية غواية الأمم المذكورة وتماديهم فيها بعدما أتتهم الرسل بالمعجزات الباهرة وتلك اشارة الى قرى الأمم المهلكة على أن اللام للعهد وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿نقص عليك من أنبائها﴾ خبره وصيغة المضارع للايذان بعدم انقضاء القصة بعد ومن للتبعيض أى بعض أخبارها التى فيها عظة وتذكير وقيل تلك مبتدأ والقرى خبره ومابعده حال أو خبر بعد خبر عند من يجوز كون الخبر الثانى جملة كما فى قوله تعالى فاذا هى حية تسعى وتصدير الكلام بذكر القرى واضافة الانباء اليها مع أن المقصوص أنباء أهلها والمقصود بيان أحوالهم حسبما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ لما أن حكاية هلاكهم بالمرة على وجه الاستئصال بحيث يشمل أماكنهم أيضا بالخسف بها والرجفة وبقائها خاوية معطلة أهول وأفظع والباء فى قوله تعالى بالبينات متعلقة اما بالفعل المذكور على أنها للتعدية واما بمحذوف وقع حالا من فاعله أى ملتبسين بالبينات لكن لابأن يأتى كل رسول ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصة به معينة له حسب اقتضاء الحكمة فان مراعاة انقسام الآحاد الى الآحاد انما هى فيما بين الرسل وضمير الأمم والجملة مستأنفة مبينة لكمال عتوهم وعنادهم أى وبالله لقد جاء كل أمة من تلك الأمم المهلكة رسولهم الخاص بهم بالمعجزات البينة المتكثرة المتواردة عليهم الواضحة الدلالة على صحة رسالته الموجبة للايمان حتما وقوله تعالى ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ بيان لاستمرار عدم ايمانهم فى الزمان الماضى لالعدم استمرار ايمانهم وترتيب حالتهم هذه على مجىء الرسل بالبينات بالفاء لما أن الاستمرار على فعل من الأفعال بعد ورود مايوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه فى الحقيقة لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث نحو وعظته فلم ينزجر ودعوته فلم يجب واللام لتأكيد النفى أى فما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوام فى وقت من الأوقات أن يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعا منهم الى أن لقوا مالقوا لغاية عتوهم وشدة شكيمتهم فى الكفر والطغيان ثم ان كان المحكى عنهم آخر حال كل قوم منهم فالمراد بعدم ايمانهم المذكور هنا اصرارهم على ذلك بعد اللتيا والتى وبما أشير اليه بقوله تعالى ﴿بما كذبوا من قبل﴾ تكذيبهم من لدن مجىء الرسل الى وقت الاصرار والعناد وانما لم يجعل ذلك مقصودا بالذات كالأول بل جعل صلة للموصول ايذانا بأنه بين بنفسه وانما المحتاج الى البيان عدم ايمانهم بعد تواتر البينات الظاهرة وتظاهر المعجزات الباهرة التى كانت تضطرهم الى القبول لو كانوا من أصحاب العقول والموصول الذى تعلق به الايمان والتكذيب سلبا وايجابا عبارة عن جميع الشرائع التى جاء بها كل رسول أصولها وفروعها

وان كان المحكى جميع أحوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر أو لا كفرهم المستمر من حين مجيء الرسل الخ و بما أشير اليه آخرا تكذيبهم قبل مجيئهم فلا بد من جعل الموصول المذكور عبارة عن أصول الشرائع التى أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا أممهم اليها آثر ذى أثير لاستحالة تبدلها وتغيرها مثل ملة التوحيد و لوازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجيء رسلهم أنهم ما كانوا فى زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا كلمة التوحيد قط بل كانت كل أمة من أولئك الأمم يتسامعون بها من بقايا من قبلهم فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجيء رسلهم كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث اليهم أحد وتخصيص التكذيب وعدم الايمان بما ذكر من الأصول لظهور حال الباقى بدلالة النص فانهم حين لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافة الرسل فلأن لا يؤمنوا بما تفرد به بعضهم أولى وعدم جعل هذا التكذيب مقصودا بالذات لما أن ماعليه يدور فلك العذاب والعقاب هو التكذيب الواقع بعد الدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وانما ذكر ماوقع قبلها بيانا لعراقتهم فى الكفر والتكذيب وعلى كلا التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة فى المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع الى أسلافهم والمعنى فما كان الابناء ليؤمنوا بما كذب به الآباء و لايخفى مافيه من التعسف وقيل المراد ما كانوا ليؤمنوا لو أحييناهم بعد اهلاكهم و رددناهم الى دار التكليف بما كذبوا من قبل كقوله تعالى و لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقيل الباء للسببية ومامصدرية أى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل و لايرد عليه ههنا ماورد فى سورة يونس من مخالفة الجمهور بجعل ما المصدرية من قبيل الأسماء كما هو رأى الأخفش وابن السراج ليرجع اليه الضمير فى به ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الطبع الشديد المحكم ﴿يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ أى من المذكورين وغيرهم فلا يكاد يؤثر فيها الآيات والنذر وفيه تحذير للسامعين واظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وادخال الروعة ﴿وما وجدنا لأكثرهم﴾ أى أكثر الأمم المذكورين واللام متعلقة بالوجدان كما فى قولك ماوجدت له مالا أى ماصادفت له مالا و لا لقيته أو بمحذوف وقع حالا من قوله تعالى ﴿من عهد﴾ لأنه فى الأصل صفة للنكرة فلما قدمت عليها انتصبت حالا والأصل ماوجدنا عهداً كائنا لأكثرهم ومن مزيدة للاستغراق أى وما وجدنا لأكثرهم من وفاء عهد فانهم نقضوا ماعاهدوا الله عليه عند مساس البأساء والضراء قائلين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فتخصيص هذا الشأن بأكثرهم ليس لأن بعضهم كانوا يوفون بعهودهم بل لأن بعضهم كانوا لايعهدون و لا يوفون وقيل المراد بالعهد ماعهد الله تعالى اليهم من الايمان والتقوى بنصب الآيات وانزال الحجج وقيل ماعهدوا عند خطاب ألست بربكم فالمراد بأكثرهم كلهم وقيل الضمير للناس والجملة اعتراض فان أكثرهم لا يوفون بالعهود بأى معنى كان ﴿وان وجدنا أكثرهم﴾ أى أكثر الأمم أى علمناهم كما فى قولك وجدت زيدا ذا حفاظ وقيل الأول أيضا كذلك وان مخففة من ان وضمير الشأن محذوف أى ان الشأن وجدناهم ﴿لفاسقين﴾ خارجين عن الطاعة ناقضين للعهود وعند الكوفيين أن ان نافية واللام بمعنى الا أى ماوجدناهم الا فاسقين ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى﴾ أى أرسلناه من بعد انقضاء وقائع الرسل المذكورين أو من بعد هلاك الامم المحكية والتصريح بذلك مع دلالة ثم على التراخى للايذان بأن بعثه عليه الصلاة والسلام جرى على سنن السنة الالهية من ارسال الرسل تترى وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ﴿بآياتنا﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعول بعثنا أو صفة لمصدره أى بعثناه عليه الصلاة والسلام ملتبسا بآياتنا أو بعثناه بعثا ملتبسا بها وهى الآيات التسع المفصلات التى هى العصا واليد البيضاء والسنون ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم حسبما سيأتى على التفصيل ﴿الى فرعون﴾ هو لقب لكل من ملك مصر من العمالقة

كما أن كسرى لقب لكل من ملك فارس وقيصر لكل من ملك الروم واسمه قابوس وقيل الوليد بن مصعب بن الريان ﴿ وملئه ﴾ أى أشراف قومه وتخصيصهم بالذكر مع عموم رسالته عليه الصلاة والسلام لقومه كافة حيث كانوا جميعا مأمورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التى كان يدعيها الطاغية و يقبلها منه فئته الباغية لاصالتهم فى تدبير الامور واتباع غيرهم لهم فى الورود والصدور ﴿ فظلموا بها ﴾ أى كفروا بها أجرى الظلم مجرى الكفر لكونهما من واد واحد أو ضمن معنى الكفر أو التكذيب أى ظلموا كافرين بها أو مكذبين بها أو كفروا بها مكان الايمان الذى هو من حقها لوضوحها ولهذا المعنى وضع ظلموا موضع كفروا وقيل ظلموا أنفسهم بسببها بأن عرضوها للعذاب الخالد أو ظلموا الناس بصدهم عن الايمان بها والمراد به الاستمرار على الكفر بها الى أن لقوا من العذاب مالقوا ألا يرى الى قوله تعالى ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ فكما أن ظلمهم بها مستتبع لتلك العاقبة الهائلة كذلك حكاية ظلمهم بها مستتبع للامر بالنظر اليها و كيف خبر كان قدم على اسمها لاقتضائه الصدارة والجملة فى حيز النصب باسقاط الخافض أى فانظر بعين عقلك الى كيفية مافعلنا بهم و وضع المفسدين موضع ضميرهم للايذان بأن الظلم مستلزم للافساد ﴿ وقال موسى ﴾ كلام مبتدأ مسوق لتفصيل ما أجمل فيما قبله من كيفية اظهار الآيات و كيفية عاقبة المفسدين ﴿ يا فرعون انى رسول ﴾ أى اليك ﴿ من رب العالمين ﴾ على الوجه الذى مر بيانه ﴿ حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق ﴾ جواب عما ينساق اليه الذهن من حكاية ظلمهم بالآيات من تكذيبه اياه عليه الصلاة والسلام فى دعوى الرسالة وكان أصله حقيق على أن لا أقول الخ كما هو قراءة نافع فقلب للامن من الالباس كما فى قول من قال وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر أو لأن مالزمك فقد لزمته أو للاغراق فى الوصف بالصدق والمعنى واجب على القول الحق أن أكون أنا قائله لايرضى الابمثلى ناطقا به أو ضمن حقيق معنى حريص أو وضع على موضع الباء لافادة التمكن كقولهم رميت على القوس وجئت على حال حسنة و يؤيده قراءة أبى بالباء وقرئ حقيق أن لا أقول وقوله تعالى ﴿ قد جئتكم ببينة من ربكم ﴾ استئناف مقرر لما قبله من كونه رسولا من رب العالمين و كونه حقيقا بقول الحق ولم يكن هذا القول منه عليه الصلاة والسلام ومابعده من جواب فرعون اثر ماذكر ههنا بل بعد ماجرى بينهما من المحاورة المحكية بقوله تعالى قال فمن ربكما الآيات وقوله تعالى ومارب العالمين الآيات وقد طوى ههنا ذكره للايجاز ومن متعلقة اما بجئتكم على أنها لابتداء الغاية مجازا واما بمحذوف وقع صفة لبينة مفيدة لفخامتها الاضافية المؤكدة لفخامتها الذاتية المستفادة من التنوين التفخيمى واضافة اسم الرب الى المخاطبين بعد اضافته فيما قبله الى العالمين لتأكيد وجوب الايمان بها ﴿ فأرسل معى بنى اسرائيل ﴾ أى فخلهم حتى يذهبوا معى الى الارض المقدسة التى هى وطن آبائهم وكان قد استعبدهم بعد انقراض الاسباط يستعملهم و يكلفهم الافاعيل الشاقة فأنقذهم الله تعالى بموسى عليه الصلاة والسلام وكان بين اليوم الذى دخل يوسف مصر واليوم الذى دخله موسى عليهما السلام أربعمائة عام والفاء لترتيب الارسال أو الامر به على ماقبله من رسالته عليه السلام ومجيئه بالبينة ﴿ قال ﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الكلام كأنه قيل فماذا قال فرعون له عليه السلام حين قال له ماقال فقيل قال ﴿ ان كنت جئت بآية ﴾ أى من عند من أرسلك كما تدعيه ﴿ فأت بها ﴾ أى فأحضرها حتى تثبت بها رسالتك ﴿ ان كنت من الصادقين ﴾ فى دعواك فان كونك من جملة المعروفين بالصدق يقتضى اظهار الآية لامحالة ﴿ فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ﴾ أى ظاهر أمره لايشك فى كونه ثعبانا وهو الحية العظيمة وايثار الجملة الاسمية للدلالة على كمال سرعة الانقلاب وثبات وصف الثعبانية فيها كأنها فى الأصل كذلك . روى أنه لما ألقاها صارت ثعبانا أشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر ثم توجه نحو

فرعون فهرب منه وأحدث فانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفا فصاح فرعون ياموسى أنشدك بالذى أرسلك خذه وأنا أؤمن بك وأرسل معك بنى اسرائيل فأخذه فعاد عصا ﴿ونزع يده﴾ أى من جيبه أو من تحت ابطه ﴿فاذا هى بيضاء للناظرين﴾ أى بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن العادة يجتمع عليه النظارة تعجبا من أمرها وذلك مايروى أنه أرى فرعون يده وقال ماهذه فقال يدك ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها فاذا هى بيضاء بياضا نورانيا غلب شعاعه شعاع الشمس وكان عليه السلام آدم شديد الادمة وقيل بيضاء للناظرين لأنها كانت بيضاء فى جبلتها ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾ أى الاشراف منهم وهم أصحاب مشورته ﴿ان هذا لساحر عليم﴾ أى مبالغ فى علم السحر ماهر فيه قالوه تصديقا لفرعون وتقريرا لكلامه فان هذا القول بعينه معزى فى سورة الشعراء اليه ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ أى من أرض مصر ﴿فماذا تأمرون﴾ بفتح النون ومافى ماذا فى محل النصب على أنه مفعول ثان لتأمرون بحذف الجار والأول محذوف والتقدير بأى شىء تأمرونى وهذا من كلام فرعون كما فى قوله تعالى ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب أى فاذا كان كذلك فماذا تشيرون على فى أمره وقيل قاله الملأ من قبله بطريق التبليغ الى العامة فقوله تعالى ﴿قالوا أرجه وأخاه﴾ على الأول وهو الأظهر حكاية لكلام الملأ الذين شاورهم فرعون وعلى الثانى لكلام العامة الذين خاطبهم الملأ ويأباه أن الخطاب لفرعون وأن المشاورة ليست من وظائفهم أى أخره وأخاه وعدم التعرض لذكره لظهور كونه معه حسبما ينادى به الآيات الأخر والمعنى أخر أمرهما وأصدرهما عنك حتى ترى رأيك فيهما وتدبر شأنهما وقرىء أرجئه وأرجه من أرجأه وأرجاه ﴿وأرسل فى المدائن حاشرين﴾ قيل هى مدائن صعيد مصر وكان رؤساء السحرة ومهرتهم بأقصى مدائن الصعيد وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم كانوا سبعين ساحرا أخذوا السحر من رجلين مجوسيين من أهل نينوى مدينة يونس عليه السلام بالموصل ورد ذلك بأن المجوسية ظهرت بزرادشت وهو انما جاء بعد موسى عليه الصلاة والسلام ﴿يأتوك بكل ساحر عليم﴾ أى ماهر فى السحر وقرىء بكل سحار عليم والجملة جواب الأمر ﴿وجاء السحرة فرعون﴾ بعد ماأرسل اليهم الحاشرين وانما لم يصرح به حسبما فى قوله تعالى فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين للايذان بمسارعة فرعون الى الارسال ومبادرة الحاشرين والسحرة الى الامتثال ﴿قالوا﴾ استئناف منوط بسؤال نشأ من حكاية مجىء السحرة كأنه قيل فماذا قالوا له عند مجيئهم اياه فقيل قالوا مدلين بما عندهم واثقين بغلبتهم ﴿ان لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين﴾ بطريق الاخبار بثبوت الأجر وايجابه كأنهم قالوا لابد لنا من أجر عظيم حينئذ أو بطريق الاستفهام التقريرى بحذف الهمزة وقرىء باثباتها وقولهم ان كنا لمجرد تعيين مناط ثبوت الأجر لالترددهم فى الغلبة وتوسيط الضمير وتحلية الخبر باللام للقصر أى ان كنا نحن الغالبين لاموسى ﴿قال نعم﴾ وقوله تعالى ﴿وانكم لمن المقربين﴾ عطف على محذوف سد مسده حرف الايجاب كأنه قال ان لكم لأجرا وانكم مع ذلك لمن المقربين للمبالغة فى الترغيب . روى أنه قال لهم تكونون أول من يدخل مجلسى وآخر من يخرج منه ﴿قالوا﴾ استئناف كما مر كأنه قيل فماذا فعلوا بعد ذلك فقيل قالوا متصدين لشأنهم مخاطبين لموسى عليه السلام ﴿ياموسى اما أن تلقى﴾ ماتلقى أولا ﴿واما أن نكون نحن الملقين﴾ أى لما نلقى أولا أو الفاعلين للالقاء أولا خيروه عليه السلام بالبدء بالالقاء مراعاة للادب واظهارا للجلادة وأنه لايختلف حالهم بالتقديم والتأخير ولكن كانت رغبتهم فى التقديم كما ينبىء عنه تغييرهم للنظم بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل وتأكيد الضمير المتصل ﴿قال ألقوا﴾ غير مبال بأمرهم أى ألقوا ماتلقون ﴿فلما ألقوا﴾ ما ألقوا ﴿سحروا أعين الناس﴾ بأن خيلوا اليهم مالاحقيقة له ﴿واسترهبوهم﴾ أى بالغوا فى ارهابهم ﴿وجاءوا

بسحر عظيم﴾ فى بابه. روى أنهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا كأنها حيات ملأت الوادى وركب بعضها بعضا ﴿وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هى تلقف ما يأفكون﴾ الفاء فصيحة أى فألقاها فصارت حية فاذا هى الآية وانما حذف للاشعار بمسارعة موسى عليه السلام الى الالقاء وبغاية سرعة الانقلاب كأن لقفها لما يأفكون قد حصل متصلا بالأمر بالالقاء وصيغة المضارع لاستحضار صورة اللقف الهائلة والافك الصرف والقلب عن الوجه المعتاد وما موصولة أو موصوفة والعائد محذوف أى ما يأفكونه ويزورونه أو مصدرية وهى مع الفعل بمعنى المفعول روى أنها لما تلقفت ملء الوادى من الخشب والحبال ورفعها موسى فرجعت عصا كما كانت وأعدم الله تعالى بقدرته الباهرة تلك الاجرام العظام أو فرقها أجزاء لطيفة قالت السحرة لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا ﴿فوقع الحق﴾ أى فثبت لظهور أمره ﴿وبطل ما كانوا يعملون﴾ أى ظهر بطلان ما كانوا مستمرين على عمله ﴿فغلبوا﴾ أى فرعون وقومه ﴿هنالك﴾ أى فى مجلسهم ﴿وانقلبوا صاغرين﴾ أى صاروا أذلاء مبهوتين أو رجعوا الى المدينة أذلاء مقهورين والأول هو الظاهر لقوله تعالى ﴿وألقى السحرة ساجدين﴾ فان ذلك كان بمحضر من فرعون قطعا أى خروا سجدا كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم كيف لا وقد بهرهم الحق واضطرهم الى ذلك ﴿قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون﴾ أبدلوا الثانى من الأول لئلا يتوهم أن مرادهم فرعون. عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لما آمنت السحرة اتبع موسى من بنى اسرائيل ستمائة ألف ﴿قال فرعون﴾ منكرا على السحرة موبخا لهم على ما فعلوه ﴿آمنتم به﴾ بهمزة واحدة اما على الاخبار المحض المتضمن للتوبيخ أو على الاستفهام التوبيخى بحذف الهمزة كما مر فى ان لنا لأجرا وقد قرىء بتحقيق الهمزتين معا وبتحقيق الأولى وتسهيل الثانية بين بين أى آمنتم بالله تعالى ﴿قبل أن آذن لكم﴾ أى بغير أن آذن لكم كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى لا أن الاذن منه ممكن فى ذلك ﴿ان هذا لمكر مكرتموه﴾ يعنى ان ما صنعتموه ليس مما اقتضى الحال صدوره عنكم لقوة الدليل وظهور المعجزة بل هو حيلة احتلتموها مع مواطأة موسى ﴿فى المدينة﴾ يعنى مصر قبل أن تخرجوا الى الميعاد. روى أن موسى عليه الصلاة والسلام وأمير السحرة التقيا فقال له موسى أرأيتك ان غلبتك أتؤمن بى وتشهد أن ما جئت به الحق فقال الساحر والله لئن غلبتنى لأومنن بك وفرعون يسمعهما وهو الذى نشأ عنه هذا القول ﴿لتخرجوا منها أهلها﴾ أى القبط وتخلص هى لك ولبنى اسرائيل وهاتان شبهتان ألقاهما الى أسماع عوام القبط عند معاينتهم لارتفاع أعلام المعجزة ومشاهدتهم لخضوع أعناق السحرة لها وعدم تمالكهم من أن يؤمنوا بها ليمنعهم بهما عن الايمان بنبوة موسى عليه الصلاة والسلام بارائة أن ايمان السحرة مبنى على المواضعة بينهم وبين موسى وأن غرضهم بذلك اخراج القوم من المدينة وابطال ملكهم ومعلوم أن مفارقة الأوطان المألوفة والنعمة المعروفة مما لا يطاق به فجمع اللعين بين الشبهتين تثبيتا للقبط على ماهم عليه وتهييجا لعداوتهم له عليه الصلاة والسلام ثم عقبهما بالوعيد ليريهم أن له قوة وقدرة على المدافعة فقال ﴿فسوف تعلمون﴾ أى عاقبة ما فعلتم وهذا وعيد ساقه بطريق الاجمال للتهويل ثم عقبه بالتفصيل فقال ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أى من كل شق طرفا ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ تفضيحا لكم وتنكيلا لامثالكم. قيل هو أول من سن ذلك فشرعه الله تعالى لقطاع الطريق تعظيما لجرمهم ولذلك سماه الله تعالى محاربة لله ورسوله ﴿قالوا﴾ استئناف مسوق للجواب عن سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قال السحرة عند ما سمعوا وعيد فرعون هل تأثروا به أو تصلبوا فيما هم فيه من الدين فقيل قالوا ثابتين على ما أحدثوا من الايمان ﴿انا الى ربنا منقلبون﴾ أى بالموت لامحالة فسواء كان ذلك من قبلك أولا فلا نبالى بوعيدك أو انا الى رحمة ربنا وثوابه منقلبون ان فعلت بنا ذلك كأنهم استطابوه شغفا على لقاء الله

تعالى أوانا جميعا الى ربنا منقلبون فيحكم بيننا و بينك ﴿ وماتنقم منا ﴾ أى وماتنكر وتعيب منا ﴿ الاأن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ﴾ وهو خير الأعمال وأصل المفاخر ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلبا لمرضاتك ثم أعرضوا عن مخاطبته اظهارا لما فى قلوبهم من العزيمة على ماقالوا وتقريرا له ففزعوا الى الله عز وجل وقالوا ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا ﴾ أى أفض علينا من الصبر مايغمرنا كما يغمر الماء أوصب علينا مايطهرنا من أوضار الأوزار وأدناس الآثام وهو الصبر على وعيد فرعون ﴿ وتوفنا مسلمين ﴾ ثابتين على مارزقتنا من الاسلام غير مفتونين من الوعيد قيل فعل بهم ماأوعدهم به وقيل لم يقدر عليه لقوله تعالى أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون ﴾ مخاطبين له بعد ماشاهدوا من أمر موسى عليه السلام ﴿ أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ﴾ أى فى أرض مصر بتغيير الناس عليك وصرفهم عن متابعتك ﴿ ويذرك ﴾ عطف على يفسدوا أو جواب الاستفهام بالواو كما فى قول الحطيئة

ألم أك جاركم ويكون بينى وبينكم المودة والاخاء

أى أيكون منك ترك موسى ويكون تركه اياك وقرىء بالرفع عطفا على أتذر أو استئنافا أو حالا وقرىء بالسكون كأنه قيل يفسدوا و يذرك كقوله تعالى فأصدق وأكن ﴿ وآلهتك ﴾ ومعبوداتك قيل انه كان يعبد الكواكب وقيل صنع لقومه أصناما وأمرهم بأن يعبدوها تقربا اليه ولذلك قال أنا ربكم الأعلى وقرىء والهتك أى عبادتك ﴿ قال ﴾ مجيبا لهم ﴿ سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ﴾ كما كنا نفعل بهم ذلك من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ولا يتوهم أنه المولود الذى حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يديه وقرىء سنقتل بالتخفيف ﴿ وانا فوقهم قاهرون ﴾ كما كنا لم يتغير حالنا أصلا وهم مقهورون تحت أيدينا كذلك ﴿ قال موسى لقومه ﴾ تسلية لهم وعدة بحسن العاقبة حين سمعوا قول فرعون وتضجروا منه ﴿ استعينوا بالله واصبروا ﴾ على ماسمعتم من أقاويله الباطلة ﴿ ان الأرض لله ﴾ أى أرض مصر أو جنس الأرض وهى داخلة فيها دخولا أوليا ﴿ يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ الذين أنتم منهم وفيه ايذان بأن الاستعانة بالله تعالى والصبر من باب التقوى وقرىء والعاقبة بالنصب عطفا على اسم ان ﴿ قالوا ﴾ أى بنو اسرائيل ﴿ أوذينا ﴾ أى من جهة فرعون ﴿ من قبل أن تأتينا ﴾ أى بالرسالة يعنون بذلك قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه الصلاة والسلام و بعده ﴿ ومن بعد ماجئتنا ﴾ أى رسولا يعنون به ماتوعدهم به من اعادة قتل الأبناء وسائر ما كان يفعل بهم لعداوة موسى عليه السلام من فنون الجور والظلم والعذاب وأما ما كانوا يستعبدون به و يمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن كما قيل فليس مما يلحقهم بواسطته عليه السلام فليس لذكره كثير ملابسة بالمقام ﴿ قال ﴾ أى موسى عليه الصلاة والسلام لما رأى شدة جزعهم مما شاهدوه مسليا لهم بالتصريح بما لوح به فى قوله ان الأرض لله الخ ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ الذى فعل بكم مافعل وتوعدكم باعادته ﴿ ويستخلفكم فى الأرض ﴾ أى يجعلكم خلفاء فى أرض مصر ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ أحسنا أم قبيحا فيجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال وفيه تأكيد للتسلية وتحقيق للأمر قيل لعل الاتيان بفعل الطمع لعدم الجزم منه عليه السلام بأنهم هم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم فقد روى أن مصر انما فتحت فى زمن داود عليه السلام ولا يساعده قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها فان المتبادر استخلاف أنفس المستضعفين لا استخلاف أولادهم وانما مجىء فعل الطمع للجرى على سنن الكبرياء ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾ شروع فى تفصيل مبادى الهلاك الموعود وايذان بأنه تعالى لم يمهلهم بعد ذلك ولم يكونوا فى خفض ودعة بل رتبت أسباب هلاكهم فتحولوا من حال الى حال الى أن حل بهم عذاب الاستئصال وتصدير الجملة بالقسم

لاظهار الاعتناء بمضمونها والسنون جمع سنة والمراد بها عام القحط وفيها لغتان أشهرهما اجراؤها مجرى المذكر السالم فيرفع بالواو وينصب ويجر بالياء ويحذف نونه بالاضافة واللغة الثانية اجراء الاعراب على النون ولكن مع الياء خاصة اما باثبات تنوينها أو بحذفه قال الفراء هي في هذه اللغة مصروفة عند بني عامر وغير مصروفة عند بني تميم ووجه حذف التنوين التخفيف وحينئذ لا يحذف النون للاضافة وعلى ذلك جاء قول الشاعر

دعاني من نجد فان سنينه   لعبن بنا شيبا وشيبننا مردا

وجاء الحديث اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف وسنين كسنين يوسف باللغتين ﴿ونقص من الثمرات﴾ باصابة العاهات عن كعب يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة الا تمرة. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أما السنون فكانت لباديتهم وأهل ماشيتهم وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم ﴿لعلهم يذكرون﴾ كي يتذكروا ويتعظوا بذلك ويقفوا على أن ذلك لأجل معاصيهم وينزجروا عما هم عليه من العتو والعناد. قال الزجاج ان أحوال الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله عز وجل وفي الرجوع اليه تعالى ألا يرى الى قوله تعالى واذا مسه الشر فذو دعاء عريض وقدمر تحقيق القول في لعل وفي محلها في تفسير قوله تعالى لعلكم تتقون في أوائل سورة البقرة وقوله تعالى ﴿فاذا جاءتهم الحسنة﴾ الخ بيان لعدم تذكرهم وتماديهم في الغي أي فاذا جاءتهم السعة والخصب وغيرهما من الخيرات ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي لاجلنا واستحقاقنا لها ﴿وان تصبهم سيئة﴾ أي جدب وبلاء ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي يتشاءموا بهم ويقولوا ما أصابتنا الا بشؤمهم وهذا كما ترى شاهد بكمال قساوة قلوبهم ونهاية جهلهم وغباوتهم فان الشدائد ترقق القلوب وتلين العرائك لاسيما بعد مشاهدة الآيات وقد كانوا بحيث لم يؤثر فيهم شيء منها بل ازدادوا عتوا وعنادا وتعريف الحسنة وذكرها بأداة التحقيق للايذان بكثرة وقوعها وتعلق الارادة بها بالذات كما أن تنكير السيئة وايرادها بحرف الشك للاشعار بندرة وقوعها وعدم تعلق الارادة بها الا بالعرض وقوله تعالى ﴿ألا انما طائرهم عند الله﴾ استئناف مسوق من قبله تعالى لرد مقالتهم الباطلة وتحقيق الحق في ذلك وتصديره بكلمة التنبيه لابراز كمال العناية بمضمونه أي ليس سبب خيرهم الا عنده تعالى وهو حكمه ومشيئته المتضمنة للحكم والمصالح أو ليس سبب شؤمهم وهو أعمالهم السيئة الا عنده تعالى أي مكتوبة لديه فانها التي ساقت اليهم ما يسوؤهم لا ما عداها وقرىء انما طيرهم وهو اسم جمع طائر وقيل جمع له ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ذلك فيقولون ما يقولون مما حكي عنهم واسناد عدم العلم الى أكثرهم للاشعار بأن بعضهم يعلمون أن ما أصابهم من الخير والشر من جهة الله تعالى أو يعلمون أن ما أصابهم من المصائب والبلايا ليس الا بما كسبت أيديهم ولكن لا يعملون بمقتضاه عنادا واستكبارا ﴿وقالوا﴾ شروع في بيان بعض آخر مما أخذ به آل فرعون من فنون العذاب التي هي في أنفسها آيات بينات وعدم ارعوائهم مع ذلك عما كانوا عليه من الكفر والعناد أي قالوا بعد ما رأوا ما رأوا من شأن العصا والسنين ونقص الثمرات ﴿مهما تأتنا به﴾ كلمة مهما تستعمل للشرط والجزاء وأصلها ما الجزائية ضمت اليها ما المزيدة للتأكيد كما ضمت الى أين وان في أينما تكونوا واما نذهبن بك خلا أن ألف الاولى قلبت هاء حذرا من تكرير المتجانسين هذا هو الرأي السديد وقيل مه كلمة يصوت بها الناهي ضمت اليها ما الشرطية ومحلها الرفع بالابتداء أو النصب بفعل يفسره ما بعدها أي أي شيء تظهره لدينا وقوله تعالى ﴿من آية﴾ بيان لمهما وتسميتهم اياها آية لمجاراتهم على رأي موسى عليه السلام واستهزائهم بها وللاشعار بأن عنوان كونها آية لا يؤثر فيهم وقوله تعالى ﴿لتسحرنا بها﴾ اظهار لكمال الطغيان والغلو فيه وتسمية للارشاد الى الحق بالسحر وتسكير الابصار والضميران المجروران راجعان الى مهما وتذكير الاول لمراعاة جانب اللفظ لابهامه وتأنيث الثاني للمحافظة على جانب المعنى لتبيينه بآية كما في قوله تعالى ما يفتح الله

للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له ﴿فما نحن لك بمؤمنين﴾ بمصدقين لك ومؤمنين لنبوتك ﴿فأرسلنا عليهم﴾ عقوبة لجرائمهم لاسيما لقولهم هـذا ﴿الطوفان﴾ أى الماء الذى طاف بهم وغشى أماكنهم وحروثهم من مطر أوسيل وقيل هو الجدرى وقيل الموتان وقيل الطاعون ﴿والجراد والقمل﴾ قيل هو كبار القردان وقيل أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها ﴿والضفادع والدم﴾ روى أنهم مطروا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة لا يستطيع أن يخرج أحد من بيته ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه الى تراقيهم ولم يدخل بيوت بنى اسرائيل منه قطرة وهى فى خلال بيوتهم وفاض الماء على أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والتصرف ودام ذلك سبعة أيام فقالوا له عليه الصلاة والسلام ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك فدعا فكشف عنهم فنبت من العشب والكلأ مالم يعهد قبله ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم الجراد فأكل زروعهم وثمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم ففزعوا اليه عليه الصلاة والسلام لما ذكر فخرج الى الصحراء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت الى النواحى التى جاءت منها فلم يؤمنوا فسلط الله تعالى عليهم القمل فأكل ما أبقته الجراد وكان يقع فى أطعمتهم ويدخل بين ثيابهم وجلودهم فيمصها ففزعوا اليه ثالثا فرفع عنهم فقالوا قد تحققنا الآن أنك ساحر ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام الا وجدت فيه وكانت تمتلىء منها مضاجعهم وتثب الى قدورهم وهى تغلى والى أفواههم عند التكلم ففزعوا اليه رابعا وتضرعوا فأخذ عليهم العهود فدعا فكشف الله عنهم فنقضوا العهد فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماء حتى كان يجتمع القبطى والاسرائيلى على اناء فيكون مايليه دما وما يلى الاسرائيلى ماء على حاله ويمص من فم الاسرائيلى فيصير دما فى فيه وقيل سلط الله عليهم الرعاف ﴿آيات﴾ حال من المنصوبات المذكورة ﴿مفصلات﴾ مبينات لا يشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمته وقيل مفرقات بعضها من بعض لامتحان أحوالهم وكان بين كل آيتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة منها أسبوعا وقيل انه عليه السلام لبث فيهم بعد ماغلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل ﴿فاستكبروا﴾ أى عن الايمان بها ﴿وكانوا قوما مجرمين﴾ جملة معترضة مقررة لمضمون ماقبلها ﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ أى العذاب المذكور على التفصيل فاللام للجنس المنتظم لكل واحدة من الآيات المفصلة أى كلما وقع عليهم عقوبة من تلك العقوبات قالوا فى كل مرة ﴿ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾ أى بعهده عندك وهو النبوة أو بالذى عهد اليك أن تدعوه فيجيبك كما أجابك فى آياتك وهو صلة لادع أو حال من الضمير فيه بمعنى ادع الله متوسلا اليه بما عهد عندك أو متعلق بمحذوف دل عليه التماسهم مثل أسعفنا الى مانطلب بحق ماعندك أو قسم أجيب بقوله تعالى ﴿لئن كشفت عنا الرجز﴾ الذى وقع علينا ﴿لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل﴾ أى أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت الخ ﴿فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه﴾ أى الى حد من الزمان هم بالغوه فمعذبون بعده أو مهلكون ﴿اذا هم ينكثون﴾ جواب لما أى فلما كشفنا عنهم فاجؤا النكث من غير تأمل وتوقف ﴿فانتقمنا منهم﴾ أى فأردنا أن ننتقم منهم لما أسلفوا من المعاصى والجرائم فان قوله تعالى ﴿فأغرقناهم﴾ عين الانتقام منهم فلا يصح دخول الفاء بينهما ويجوز أن يكون المراد مطلق الانتقام منهم والفاء تفسيرية كما فى قوله تعالى ونادى نوح ربه فقال رب الخ ﴿فى اليم﴾ فى البحر الذى لا يدرك قعره وقيل فى لجته ﴿بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ تعليل للاغراق أى كان اغراقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى واعراضهم عنها وعدم تفكرهم فيها بحيث صاروا كالغافلين عنها بالكلية والفاء وان دلت على ترتب الاغراق على ماقبله من النكث لكنه صرح بالتعليل ايذانا بأن مدار جميع ذلك تكذيب آيات الله تعالى والاعراض عنها ليكون ذلك مزجرة للسامعين عن تكذيب الآيات الظاهرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والاعراض عنها

﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ﴾ أى بالاستعباد وذبح الابناء والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدده وهم بنو اسرائيل ذكروا بهذا العنوان اظهارا لكمال لطفه تعالى بهم وعظيم احسانه اليهم فى رفعهم من حضيض المذلة الى أوج العزة ﴿ مشارق الارض ومغاربها ﴾ أى جانبيها الشرقى والغربى حيث ملكها بنو اسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتصرفوا فى أكنافها الشرقية والغربية كيف شاؤا وقوله تعالى ﴿ التى باركنا فيها ﴾ أى بالخصب وسعة الارزاق صفة للمشارق والمغارب وقيل للارض وفيه ضعف للفصل بين الصفة والموصوف بالمعطوف كما فى قولك قام أم هند وأبوها العاقلة ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى ﴾ وهى وعده تعالى اياهم بالنصر والتمكين كما ينبئ عنه قوله تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين وقرئ كلمات لتعدد المواعيد ومعنى تمت مضت واستمرت ﴿ على بنى اسرائيل بما صبروا ﴾ أى بسبب صبرهم على الشدائد التى كابدوها من جهة فرعون وقومه ﴿ ودمرنا ﴾ أى خربنا وأهلكنا ﴿ ما كان يصنع فرعون وقومه ﴾ من العمارات والقصور أى ودمرنا الذى كان فرعون يصنعه على أن فرعون اسم كان و يصنع خبر مقدم والجملة الكونية صلة ما والعائد محذوف وقيل اسم كان ضمير عائد الى ما الموصولة و يصنع مسند الى فرعون والجملة خبر كان والعائد محذوف أيضا والتقدير ودمرنا الذى كان هو يصنعه فرعون الخ وقيل كان زائدة وما مصدرية والتقدير ما يصنع فرعون الخ وقيل كان زائدة كما ذكر وما موصولة اسمية والعائد محذوف تقديره ودمرنا الذى يصنعه فرعون الخ أى صنعه والعدول الى صيغة المضارع على هذين القولين لاستحضار الصورة ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾ من الجنات أو ما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان وقرئ يعرشون بضم الراء والكسر أفصح وهذا آخر قصة فرعون وقومه وقوله عز وجل ﴿ وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر ﴾ شروع فى قصة بنى اسرائيل وشرح ما أحدثوه من الامور الشنيعة بعد أن أنقذهم الله عز وجل من ملكة فرعون ومن عليهم من النعم العظام الموجبة للشكر وأراهم من الآيات الكبار ما تخر له شم الجبال تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وايقاظا للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم وجاوز بمعنى جاز وقرئ جوزنا بالتشديد وهو أيضا بمعنى جاز فعدى بالباء أى قطعنا بهم البحر . روى أنه عبر بهم موسى عليه السلام يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله تعالى فرعون فصاموه شكرا لله عز وجل ﴿ فأتوا ﴾ أى مروا ﴿ على قوم ﴾ قيل كانوا من لخم وقيل من العمالقة الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم ﴿ يعكفون على أصنام لهم ﴾ أى يواظبون على عبادتها و يلازمونها وقرئ بكسر الكاف قال ابن جريج كانت أصنامهم تماثيل بقر وهو أول شأن العجل ﴿ قالوا ﴾ عند ما شاهدوا أحوالهم ﴿ ياموسى اجعل لنا الها ﴾ مثالا نعبده ﴿ كما لهم آلهة ﴾ الكاف متعلقة بمحذوف وقع صفة لالها وما موصولة ولهم صلتها وآلهة بدل من ما والتقدير اجعل لنا الها كائنا كالذى استقر هو لهم ﴿ قال انكم قوم تجهلون ﴾ تعجب عليه السلام من قولهم هذا اثر ما شاهدوا من الآية الكبرى والمعجزة العظمى فوصفهم بالجهل المطلق اذ لا جهل أعظم مما ظهر منهم وأكده بقوله ﴿ ان هؤلاء ﴾ يعنى القوم الذين يعبدون تلك التماثيل ﴿ متبر ﴾ أى مدمر مكسر ﴿ ما هم فيه ﴾ أى من الدين الباطل أى يتبر الله تعالى و يهدم دينهم الذى هم عليه عن قريب و يحطم أصنامهم و يتركها رضاضا وانما جئ بالجملة الاسمية للدلالة على التحقق ﴿ وباطل ﴾ أى مضمحل بالكلية ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ من عبادتها وان كان قصدهم بذلك التقرب الى الله تعالى فانه كفر محض وليس هذا كما فى قوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا كما توهم فان المراد به أعمال البر التى عملوها فى الجاهلية فانها فى أنفسها حسنات لو قارنت الايمان لاستتبعت أجورها وانما بطلت لمقارنتها الكفر وفى

ايقاع هؤلاء اسما لان وتقديم الخبر من الجملة الواقعة خبرا لها وسم لعبدة الأصنام بانهم هم المعرضون للتبار وأنه لا يعدوهم البتة وأنه لهم ضربة لازب ليحذرهم عاقبة ماطلبوا و يبغض اليهم ما أحبوا ﴿قال أغير الله أبغيكم الها﴾ شروع فى بيان شئون الله تعالى الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى بعد بيان أن ماطلبوا عبادته مما لا يمكن طلبه أصلا لكونه هالكا باطلا ولذلك وسط بينهما قال مع كون كل منهما كلام موسى عليه الصلاة والسلام والاستفهام للانكار والتعجب والتوبيخ وادخال الهمزة على غير للايذان بأن المنكر هو كون المبغى غيره تعالى لما أنه لاختصاص الانكار بغيره تعالى دون انكار الاختصاص بغيره تعالى وانتصاب غير على أنه مفعول أبغى بحذف اللام أى أبغى لكم أى أطلب لكم غير الله تعالى والها اما تمييز أو حال أو على الحالية من الها وهو المفعول لأبغى على أن الأصل أبغى لكم الها غير الله فغير الله صفة لالها فلما قدمت صفة النكرة انتصبت حالا ﴿وهو فضلكم على العالمين﴾ أى والحال أنه تعالى خصكم بنعم لم يعطها غيركم وفيه تنبيه على ماصنعوا من سوء المعاملة حيث قابلوا تخصيص الله تعالى اياهم من بين أمثالهم بما لم يستحقوه تفضلا بأن عمدوا الى أخس شىء من مخلوقاته فجعلوه شريكاله تعالى تبا لهم ولما يعبدون ﴿واذ أنجيناكم﴾ تذكير لهم من جهته سبحانه بنعمة الانجاء من ملكة فرعون وقرىء نجيناكم من التنجية وقرىء أنجاكم فيكون مسوقا من جهة موسى عليه الصلاة والسلام أى واذكروا وقت انجائنا اياكم ﴿من آل فرعون﴾ من ملكتهم لا بمجرد تخليصكم من أيديهم وهم على حالهم فى المكنة والقدرة بل باهلاكهم بالكلية وقوله تعالى ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ من سامه خسفا أى أولاه اياه أو كلفه اياه وهو اما استئناف لبيان ما أنجاهم منه أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون أو منهما معا لاشتماله على ضميريهما وقوله تعالى ﴿يقتلون أبناءكم و يستحيون نساءكم﴾ بدل من يسومونكم مبين أو مفسر له ﴿وفى ذلكم﴾ الانجاء أو سوء العذاب ﴿بلاء﴾ أى نعمة أو محنة ﴿من ربكم﴾ من مالك أمركم فان النعمة والنقمة كلتاهما منه سبحانه وتعالى ﴿عظيم﴾ لا يقادر قدره ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ روى أن موسى عليه السلام وعد بنى اسرائيل وهم بمصر ان أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى عليه السلام ربه الكتاب فامره بصوم ثلاثين يوما وهو شهر ذى القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك وقيل أوحى الله تعالى اليه أما علمت أن ريح فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك فأمره الله تعالى بأن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك وذلك قوله تعالى ﴿وأتممناها بعشر﴾ والتعبير عنها بالليالى لأنها غرر الشهور وقيل أمره الله تعالى بأن يصوم ثلاثين يوما وأن يعمل فيها بما يقربه من الله تعالى ثم أنزلت عليه التوراة فى العشر وكلم فيها وقد أجمل ذكر الاربعين فى سورة البقرة وفصل ههنا وواعدنا بمعنى وعدنا وقد قرىء كذلك وقيل الصيغة على بابها بناء على تنزيل قبول موسى عليه السلام منزلة الوعد وثلاثين مفعول ثان لواعدنا بحذف المضاف أى اتمام ثلاثين ليلة ﴿فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾ أى بالغا أربعين ليلة ﴿وقال موسى لأخيه هرون﴾ حين توجه الى المناجاة حسبما أمر به ﴿اخلفنى﴾ أى كن خليفتى ﴿فى قومى﴾ وراقبهم فيما يأتون وما يذرون ﴿وأصلح﴾ ما يحتاج الى الاصلاح من أمورهم أو كن مصلحا ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ أى لا تتبع من سلك الافساد ولا تطع من دعاك اليه ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ لوقتنا الذى وقتناه واللام للاختصاص أى اختص مجيئه بميقاتنا ﴿وكلمه ربه﴾ من غير واسطة كما يكلم الملائكة عليهم السلام وفيما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يسمع ذلك من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه عز وجل ليس من جنس سماع كلام المحدثين ﴿قال رب أرنى أنظر اليك﴾ أى أرنى ذاتك بأن تمكننى من رؤيتك أو تتجلى لى فأنظر اليك وأراك وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة فى الجملة

لما أن طلب المستحيل مستحيل من الانبياء لا سيما ما يقتضى الجهل بشئون الله تعالى ولذلك رده بقوله لن ترانى دون لن أرى ولن أريك ولن تنظر الى تنبيها على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على معد فى الرائى ولم يوجد فيه ذلك بعد وجعل السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا أرنا الله جهرة خطأ اذ لوكانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبهتهم كما فعل ذلك حين قالوا اجعل لنا الها وأن لا يتبع سبيلهم كما قال لأخيه ولا تتبع سبيل المفسدين والاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ اذ لا يدل الاخبار بعدم رؤيته اياه على أنه لا يراه أبدا وأن لا يراه غيره أصلا فضلا عن أن يدل على استحالتها ودعوى الضرورة مكابرة أو جهل لحقيقة الرؤية ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا قال رب العزة حين قال موسى عليه السلام ماقال فقيل قال ﴿لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى﴾ استدراك لبيان أنه لا يطيق بها وفى تعليقها باستقرار الجبل أيضا دليل على الجواز ضرورة أن المعلق بالممكن ممكن والجبل قيل هو جبل أردن ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ أى ظهرت له عظمته وتصدى له اقتداره وأمره وقيل أعطى الجبل حياة ورؤية حتى رآه ﴿جعله دكا﴾ مدكوكا مفتتا والدك والدق أخوان كالشك والشق وقرىء دكاء أى أرضا مستوية ومنه ناقة دكاء للتى لاسنام لها وقرىء دكا جمع دكاء أى قطعا ﴿وخر موسى صعقا﴾ مغشيا عليه من هول ما رآه ﴿فلما أفاق﴾ الافاقة رجوع العقل والفهم الى الانسان بعد ذهابهما بسبب من الاسباب ﴿قال﴾ تعظيما لما شاهده ﴿سبحانك﴾ أى تنزيها لك من أن أسألك شيأ بغير اذن منك ﴿تبت﴾ اليك أى من الجراءة والاقدام على السؤال بغير اذن ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ أى بعظمتك وجلالك وقيل أول من آمن بأنك لاترى فى الدنيا وقيل بأنه لا يجوز السؤال بغير اذن منك ﴿قال ياموسى﴾ استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام من عدم الاجابة الى سؤال الرؤية كأنه قيل ان منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم أعط أحدا من العالمين فاغتنمها وثابر على شكرها ﴿انى اصطفيتك﴾ أى اخترتك واتخذتك صفوة وآثرتك ﴿على الناس﴾ أى المعاصرين لك وهرون وان كان نبيا كان مأمورا باتباعه وما كان كليما ولا صاحب شرع ﴿برسالاتى﴾ أى بأسفار التوراة وقرىء برسالتى ﴿وبكلامى﴾ وبتكليمى اياك بغير واسطة ﴿فخذ ما آتيتك﴾ أى أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿وكن من الشاكرين﴾ على ما أعطيت من جلائل النعم. قيل كان سؤال الرؤية يوم عرفة واعطاء التوراة يوم النحر ﴿وكتبنا له فى الالواح من كل شىء﴾ أى مما يحتاجون اليه من أمور دينهم ﴿موعظة وتفصيلا لكل شىء﴾ بدل من الجار والمجرور أى كتبنا له كل شىء من المواعظ وتفصيل الاحكام واختلف فى عدد الألواح وفى جوهرها ومقدارها فقيل انها كانت عشرة ألواح وقيل سبعة وقيل لوحين وانها كانت من زمردة جاء بها جبريل عليه السلام وقيل من زبرجدة خضراء أو ياقوتة حمراء وقيل أمر الله تعالى موسى بقطعها من صخرة صماء لينها له فقطعها بيده وشققها بأصابعه وعن الحسن رضى الله عنه كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة وان طولها كان عشرة أذرع وقيل أنزلت التوراة وهى سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منه فى سنة لم يقرأها الا أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى عليهم السلام وعن مقاتل رضى الله عنه كتب فى الالواح انى أنا الله الرحمن الرحيم لاتشركوا بى شيئا ولا تقطعوا السبيل ولا تزنوا ولا تعقوا الوالدين ﴿فخذها﴾ على اضمار قول معطوف على كتبنا أى فقلنا خذها ﴿بقوة﴾ بجد وعزيمة وقيل هو بدل من قوله تعالى فخذ ما آتيتك والضمير للالواح أو لكل شىء لأنه بمعنى الأشياء أو للرسالة أو للتوراة ﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ أى بأحسن مافيها كالعفو والصبر بالاضافة الى الاقتصاص والانتصار على طريقة الندب والحث على اختيار الأفضل كما فى قوله تعالى واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم أو بواجباتها فانها أحسن من المباح وقيل المعنى يأخذوا بها وأحسن صلة قال قطرب أى بحسنها

وكلها حسن كقوله تعالى ولذكر الله أكبر وقيل هو أن تحمل الكلمة المحتملة لمعنيين أو لمعان على أشبه محتملاتها بالحق وأقربها الى الصواب ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى قومه عليه الصلاة والسلام بطريق الالتفات حملالهم على الجد فى الامتثال بما أمروا به اما على نهج الوعيد والترهيب على أن المراد بدار الفاسقين أرض مصر وديار عاد وثمود وأضرابهم فان رؤيتها وهى خالية عن أهلها خاوية على عروشها موجبة للاعتبار والانزجار عن مثل أعمال أهلها كيلا يحل بهم ماحل بأولئك واما على نهج الوعد والترغيب على أن المراد بدار الفاسقين اما أرض مصر خاصة أو مع أرض الجبابرة والعمالقة بالشام فانها أيضا مما أتيح لبنى اسرائيل وكتب لهم حسبما ينطق به قوله عز وجل ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ومعنى الاراءة الادخال بطريق الايراث ويؤيده قراءة من قرأ سأورثكم بالثاء المثلثة كما فى قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها وقرىء سأوريكم ولعله من أوريت الزند أى سأبينها لكم وقوله تعالى ﴿سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض﴾ استئناف مسوق لتحذيرهم عن التكبر الموجب لعدم التفكر فى الآيات التى هى ما كتب فى ألواح التوراة من المواعظ والأحكام أوما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية التى من جملتها ماوعداراءته من دار الفاسقين ومعنى صرفهم عنها الطبع على قلوبهم بحيث لايكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها لاصرارهم على ماهم عليه من التكبر والتجبر كقوله تعالى فلمازاغوا أزاغ الله قلوبهم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع أن فى المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الجليل أى سأطبع على قلوب الذين يعدون أنفسهم كبراء ويرون لهم على الخلق مزية وفضلا فلا ينتفعون بآياتى التنزيلية والتكوينية ولا يغتنمون مغانم آثارها فلا تسلكوا مسلكهم لتكونوا أمثالهم وقيل المعنى سأصرفهم عن ابطالها وان اجتهدوا كما اجتهد فرعون فى ابطال مارآه من الآيات فأبى الله تعالى الا احقاق الحق وازهاق الباطل وعلى هذا فالانسب أن يرادبدار الفاسقين أرض الجبابرة والعمالقة المشهورين بالفسق والتكبر فى الأرض وباراءتها للمخاطبين ادخالهم الشام واسكانهم فى مساكنهم ومنازلهم حسبما نطق به قوله تعالى ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ويكون قوله تعالى سأصرف عن آياتى الخ جوابا عن سؤال مقدر ناشىء من الوعد بادخال الشام على أن المراد بالآيات ماتلى آنفا ونظائره وبصرفهم عنها ازالتهم عن مقام معارضتها وممانعتها لوقوع أخبارها وظهور أحكامها وآثارها باهلاكهم على يد موسى عليه الصلاة والسلام حين سار بعد التيه بمن بقى من بنى اسرائيل أو بذرياتهم على اختلاف الروايتين الى أريحا ويوشع بن نون فى مقدمته ففتحها واستقر بنو اسرائيل بالشام وملكوا مشارقها ومغاربها كأنه قيل كيف يرون دارهم وهم فيها فقيل سأهلكهم وانما عدل الى الصرف ليزدادوا ثقة بالآيات واطمئنانا بها وقوله تعالى ﴿بغير الحق﴾ اما صلة للتكبر أى يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل وظلمهم المفرط أو متعلق بمحذوف هو حال من فاعله أى يتكبرون ملتبسين بغير الحق وقوله تعالى ﴿وان يروا كل آية لايؤمنوا بها﴾ عطف على يتكبرون داخل معه فى حكم الصلة والمراد بالآية اما المنزلة فالمراد برؤيتها مشاهدتها بسماعها أو مايعمها وغيرها من المعجزات فالمراد برؤيتها مطلق المشاهدة المنتظمة للسماع والابصار أى وان يشاهدوا كل آية من الآيات لايؤمنوا بها على عموم النفى لاعلى نفى العموم أى كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائهم اياها كما هى وهذا كما ترى يؤيد كون الصرف بمعنى الطبع وقوله تعالى ﴿وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا﴾ عطف على ماقبله داخل فى حكمه أى لايتوجهون الى الحق ولا يسلكون سبيله أصلا لاستيلاء الشيطنة عليهم ومطبوعيتهم على الانحراف والزيغ وقرىء بفتحتين وقرىء الرشاد وثلاثتها لغات كالسقم والسقم والسقام ﴿وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا﴾ أى يختارونه لأنفسهم مسلكا

مستمراً لا يكادون يعدلون عنه لموافقته لأهوائهم الباطلة وافضائه بهم الى شهواتهم ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماذكر من تكبرهم وعدم ايمانهم بشىء من الآيات واعراضهم عن سبيل الرشد واقبالهم التام الى سبيل الغى وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿بأنهم﴾ أى حاصل بسبب أنهم ﴿كذبوا بآياتنا﴾ الدالة على بطلان ما اتصفوا به من القبائح وعلى حقية أضدادها ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ لا يتفكرون فيها والا لما فعلوا مافعلوا من الاباطيل ويجوز أن يكون اشارة الى ماذكر من الصرف ولا يمنعه الاشعار بعلية مافى حيز الصلة كيف لا وقد مر أن ذلك فى قوله تعالى ذلك بما عصوا الآية يجوز أن يكون اشارة الى ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم مع كون ذلك معللا بالكفر بآيات الله صريحا وقيل محل اسم الاشارة النصب على المصدر أى سأصرفهم ذلك الصرف بسبب تكذيبهم بآياتنا وغفلتهم عنها ﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة﴾ أى وبلقائهم الدار الآخرة أو لقائهم ماوعده الله تعالى فى الآخرة من الجزاء ومحل الموصول الرفع على الابتداء وقوله تعالى ﴿حبطت أعمالهم﴾ خبره أى ظهر بطلان أعمالهم التى كانوا عملوها من صلة الأرحام واغاثة الملهوفين ونحو ذلك أو حبطت بعد ما كانت مرجوة النفع على تقدير ايمانهم بها ﴿هل يجزون﴾ أى لا يجزون ﴿الا ما كانوا يعملون﴾ أى الا جزاء ما كانوا يعملونه من الكفر والمعاصى ﴿واتخذ قوم موسى من بعده﴾ أى من بعد ذهابه الى الطور ﴿من حليهم﴾ متعلق باتخذ كالجار الاول لاختلاف معنييهما فان الاول للابتداء والثانى للتبعيض أو للبيان أو الثانى متعلق بمحذوف وقع حالا مما بعده اذ لو تأخر لكان صفة له واضافة الحلى اليهم مع أنها كانت للقبط لادنى الملابسة حيث كانوا استعاروها من أربابها قبيل الغرق فبقيت فى أيديهم وأما أنهم ملكوها بعد الغرق فذلك منوط بتملك بنى اسرائيل غنائم القبط وهم مستأمنون فيما بينهم فلا يساعده قولهم حملنا أوزاراً من زينة القوم والحلى بضم الحاء وكسر اللام جمع حلى كثدى وثدى وقرىء بكسر الحاء بالاتباع كدلى وقرىء حليهم على الافراد وقوله تعالى ﴿عجلا﴾ مفعول اتخذ أخر عن المجرور لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع مافيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم وقيل هو متعد الى اثنين بمعنى التصيير والمفعول الثانى محذوف أى الها وقوله تعالى ﴿جسدا﴾ بدل من عجلا أى جثة ذا دم ولحم أو جسدا من ذهب لا روح معه وقوله تعالى ﴿له خوار﴾ أى صوت بقر وقرىء بالجيم والهمزة وهو الصياح نعت لعجلا . روى أن السامرى لما صاغ العجل ألقى فى فمه ترابا من أثر فرس جبريل عليه الصلاة والسلام وقد كان أخذه عند فلق البحر أو عند توجهه الى الطور فصار حيا وقيل صاغه بنوع من الحيل فيدخل الريح فى جوفه فيصوت والانسب بما فى سورة طه هو الاول وانما نسب اتخاذه اليهم وهو فعله اما لأنه واحد منهم واما لأنهم رضوا به فكأنهم فعلوه واما لأن المراد بالاتخاذ اتخاذهم اياه الها لا صنعه واحداثه ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم﴾ استئناف مسوق لتقريعهم وتشنيعهم وتركيك عقولهم وتسفيههم فيما أقدموا عليه من المنكر الذى هو اتخاذه الها أى ألم يروا أنه ليس فيه شىء من أحكام الالوهية حيث لا يكلمهم ﴿ولا يهديهم سبيلا﴾ بوجه من الوجوه فكيف اتخذوه الها وقوله تعالى ﴿اتخذوه﴾ أى فعلوا ذلك ﴿وكانوا ظالمين﴾ أى واضعين للاشياء فى غير موضعها فلم يكن هذا أول منكر فعلوه والجملة اعتراض تذييلى وتكرير اتخذوه لتثنية التشنيع وترتيب الاعتراض عليه ﴿ولما سقط فى أيديهم﴾ أى ندموا على مافعلوا غاية الندم فان ذلك كناية عنه لأن النادم المتحسر يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها وقرىء سقط على البناء للفاعل بمعنى وقع العض فيها فاليد حقيقة وقال الزجاج معناه سقط الندم فى أنفسهم اما بطريق الاستعارة بالكناية أو بطريق التمثيل ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ باتخاذ العجل أى تبينوا بحيث تيقنوا بذلك حتى كأنهم رأوه بأعينهم وتقديم ذكر ندمهم على هذه الرؤية مع كونه متأخرا عنها للمسارعة الى بيانه والاشعار

بغاية سرعته كأنه سابق على الرؤية ﴿قالوا﴾ والله ﴿لئن لم يرحمنا ربنا﴾ بانزال التوبة المكفرة ﴿ويغفر لنا﴾ ذنوبنا بالتجاوز عن خطيئتنا وتقديم الرحمة على المغفرة مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية اما للمسارعة الى ماهو المقصود الأصلي واما لأن المراد بالرحمة مطلق ارادة الخير بهم وهو مبدأ لانزال التوبة المكفرة لذنوبهم واللام فى لئن موطئة للقسم كما أشير اليه وفى قوله تعالى ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ لجواب القسم وماحكى عنهم من الندامة والرؤية والقول وان كان بعد مارجع موسى عليه الصلاة والسلام اليهم كما ينطق به الآيات الواردة فى سورة طه لكن أريد بتقديمه عليه حكاية ماصدر عنهم من القول والفعل فى موضع واحد ﴿ولما رجع موسى الى قومه﴾ شروع فى بيان ماجرى من موسى عليه السلام بعد رجوعه من الميقات اثر بيان ماوقع من قومه بعده وقوله تعالى ﴿غضبان أسفا﴾ حالان من موسى عليه السلام أو الثانى من المستكن فى غضبان والاسف الشديد الغضب وقيل الحزين ﴿قال بئسما خلفتمونى من بعدى﴾ أى بئسما فعلتم من بعد غيبتى حيث عبدتم العجل بعد مارأيتم فعلى من توحيد الله تعالى ونفى الشركاء عنه واخلاص العبادة له أو من حملكم على ذلك وكفكم عما طمحت نحوه أبصاركم حيث قلتم اجعل لنا الها كما لهم آلهة ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف فالخطاب للعبدة من السامرى وأشياعه أو بئسما قمتم مقامى ولم تراعوا عهدى حيث لم تكفوا العبدة عما فعلوا فالخطاب لهرون ومن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى قال ياهرون مامنعك اذ رأيتهم ضلوا أن لاتتبعن أفعصيت أمرى ويجوز أن يكون الخطاب للكل على أن المراد بالخليفة مايعم الامرين المذكورين وما نكرة موصوفة مفسرة لفاعل بئس المستكن فيه والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدى خلافتكم ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ أى تركتموه غير تام على تضمين عجل معنى سبق يقال عجل عن الامر اذا تركه غير تام أو أعجلتم وعد ربكم الذى وعدنيه من الأربعين وقدرتم موتى وغيرتم بعدى كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم ﴿وألقى الالواح﴾ طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر حمية للدين . روى أن التوراة كانت سبعة أسباع فى سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفعت ستة أسباعها التى كان فيها تفصيل كل شئ وبقى سبع كان فيه المواعظ والاحكام ﴿وأخذ برأس أخيه﴾ بشعر رأسه عليهما السلام ﴿يجره اليه﴾ حال من ضمير أخذ فعله عليه السلام توهما أنه قصر فى كفهم وهرون كان أكبر منه عليهما السلام بثلاث سنين وكان حمولا ولذلك كان أحب الى بنى اسرائيل ﴿قال﴾ أى هرون مخاطبا لموسى عليهما السلام ﴿ابن أم﴾ بحذف حرف النداء وتخصيص الأم بالذكر مع كونهما شقيقين لما أن حق الأم أعظم وأحق بالمراعاة مع أنها كانت مؤمنة وقد قاست فيه المخاوف والشدائد وقرئ بكسر الميم باسقاط الياء تخفيفا كالمنادى المضاف الى الياء وقراءة الفتح لزيادة التخفيف أو لتشبيهه بخمسة عشر ﴿ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى﴾ ازاحة لتوهم التقصير فى حقه والمعنى بذلت جهدى فى كفهم حتى قهرونى واستضعفونى وقاربوا قتلى ﴿فلا تشمت بى الأعداء﴾ أى فلا تفعل بى ما يكون سببا لشماتتهم بى ﴿ولا تجعلنى مع القوم الظالمين﴾ أى معدودا فى عدادهم بالمؤاخذة أو النسبة الى التقصير وهذا يؤيد كون الخطاب للكل أو لاتعتقد أنى واحد من الظالمين مع براءتى منهم ومن ظلمهم ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية اعتذار هرون عليه السلام كأنه قيل فماذا قال موسى عندذلك فقيل قال ﴿رب اغفر لى﴾ أى مافعلت بأخى من غير ذنب مقرر من قبله ﴿ولأخى﴾ ان فرط منه تقصير ما فى كفهم عما فعلوه من العظيمة استغفر عليه السلام لنفسه ليرضى أخاه ويظهر للشامتين رضاه لئلا تتم شماتتهم به ولأخيه للايذان بأنه محتاج الى الاستغفار حيث كان يجب عليه أن يقاتلهم ﴿وأدخلنا فى رحمتك﴾ بمزيد الانعام بعد غفران ماسلف منا ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ فلا غرو فى انتظامنا فى سلك رحمتك الواسعة فى الدنيا

والآخرة والجملة اعتراض تذييلى مقرر لماقبله ﴿ان الذين اتخذوا العجل﴾ أى تموا على اتخاذه واستمروا على عبادته كالسامرى وأشياعه من الذين أشربوه فى قلوبهم كما يفصح عنه كون الموصول الثانى عبارة عن التائبين فان ذلك صريح فى أن الموصول الاول عبارة عن المصرين ﴿سينالهم﴾ أى فى الآخرة ﴿غضب﴾ أى عظيم لايقادر قدره مستتبع لفنون العقوبات لما أن جريمتهم أعظم الجرائم وأقبح الجرائر وقوله تعالى ﴿من ربهم﴾ أى مالكهم متعلق بينالهم أو بمحذوف هو نعت لغضب مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى كائن من ربهم ﴿وذلة فى الحيوة الدنيا﴾ هى ذلة الاغتراب التى تضرب بها الامثال والمسكنة المنتظمة لهم ولأولادهم جميعا والذلة التى اختص بها السامرى من الانفراد عن الناس والابتلاء بلا مساس . يروى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك واذا مس أحدهم أحد غيرهم حما جميعا فى الوقت وايراد مانالهم فى حيز السين مع مضيه بطريق تغليب حال الأخلاف على حال الأسلاف وقيل المراد بهم التائبون وبالغضب ماأمروا به من قتل أنفسهم واعتذر عن السين بأن ذلك حكاية عما أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل بأنه سينالهم غضب من ربهم وذلة فيكون سابقا على الغضب وأنت خبير بأن سباق النظم الكريم وسياقه نابيان عن ذلك نبوا ظاهرا كيف لا وقوله تعالى ﴿وكذلك نجزى المفترين﴾ ينادى على خلافه فانهم شهداء تائبون فكيف يمكن وصفهم بعد ذلك بالافتراء وأيضا ليس يجزى الله تعالى كل المفترين بهذا الجزاء الذى ظاهره قهر وباطنه لطف ورحمة وقيل المراد بهم أبناؤهم المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فان تعيير الأبناء بأفاعيل الآباء مشهور معروف منه قوله تعالى واذقتلتم نفسا الآية وقوله تعالى واذقلتم ياموسى الآية والمراد بالغضب الغضب الأخروى وبالذلة ماأصابهم من القتل والاجلاء وضرب الجزية عليهم وقيل المراد بالموصول المتخذون حقيقة وبالضمير فى ينالهم أخلافهم ولاريب فى أن توسيط حال هؤلاء فى تضاعيف بيان حال المتخذين من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه ﴿والذين عملوا السيئات﴾ أى سيئة كانت ﴿ثم تابوا﴾ عن تلك السيئات ﴿من بعدها﴾ أى من بعد عملها ﴿وآمنوا﴾ ايمانا صحيحا خالصا واشتغلوا باقامة ماهو من مقتضياته من الأعمال الصالحة ولم يصروا على مافعلوا كالطائفة الاولى ﴿ان ربك من بعدها﴾ أى من بعد تلك التوبة المقرونة بالايمان ﴿لغفور﴾ للذنوب وان عظمت وكثرت ﴿رحيم﴾ مبالغ فى افاضة فنون الرحمة الدنيوية والاخروية والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام للتشريف ﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ شروع فى بيان بقية الحكاية اثرمابين تحزب القوم الى مصر وتائب والاشارة الى مآل كل منهما اجمالا أى لما سكن عنه الغضب باعتذار أخيه وتوبة القوم وهذا صريح فى أن ماحكى عنهم من الندم وما يتفرع عليه كان بعد مجىء موسى عليه الصلاة والسلام وفى هذا النظم الكريم من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب الحامل له على ماصدر عنه من الفعل والقول منزلة الآمر بذلك المغرى عليه بالتحكم والتشديد والتعبير عن سكونه بالسكوت مالايخفى وقرىء سكن وسكت وأسكت على أن الفاعل هو الله تعالى أو أخوه أو التائبون ﴿أخذ الالواح﴾ التى ألقاها ﴿وفى نسختها﴾ أى فيما نسخ فيها وكتب فعلة بمعنى مفعول كالخطبة وقيل فيما نسخ منها أى من الالواح المنكسرة ﴿هدى﴾ أى بيان للحق ﴿ورحمة﴾ للخلق بارشادهم الى مافيه الخير والصلاح ﴿للذين هم لربهم يرهبون﴾ اللام الاولى متعلقة بمحذوف هو صفة لرحمة أى كائنة لهم أوهى لام الاجل أى هدى ورحمة لاجلهم والثانية لتقوية عمل الفعل المؤخر كما فى قوله تعالى ان كنتم للرؤيا تعبرون أوهى أيضا لام العلة والمفعول محذوف أى يرهبون المعاصى لاجل ربهم لاللرياء والسمعة ﴿واختار موسى قومه﴾ شروع فى بيان كيفية استدعاء التوبة وكيفية وقوعها واختار يتعدى الى اثنين ثانيهما مجرور بمن أى اختار من قومه بحذف

الجار وايصال الفعل الى المجرور كما فى قوله

اختارك الناس اذرثت خلائقهم واعتل من كان يرجى عنده السول

أى اختارك من الناس ﴿سبعين رجلا﴾ مفعول لاختار أخر عن الثانى لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ﴿لميقاتنا﴾ الذى وقتناه بعد ماوقع من قومه ماوقع لا لميقات الكلام الذى ذكر قبل ذلك كما قيل . قال السدى أمره الله تعالى بأن يأتيه فى ناس من بنى اسرائيل يعتذرون اليه تعالى من عبادة العجل و وعدهم موعدا فاختار عليه السلام من قومه سبعين رجلا وقال محمد بن اسحق اختارهم ليتوبوا اليه تعالى مما صنعوه و يسألوه التوبة على من تركوهم و راءهم من قومهم قالوا اختار عليه الصلاة والسلام من كل سبط ستة فزاد اثنان فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال عليه الصلاة والسلام ان لمن قعد مثل أجر من خرج فقعد كالب و يوشع وذهب مع الباقين وأمرهم أن يصوموا و يتطهروا و يطهروا ثيابهم فخرج بهم الى طور سيناء فلما دنوا من الجبل غشيه غمام فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجدا فسمعوه تعالى يكلم موسى يأمره و ينهاه حسبما يشاء وهو الامر بقتل أنفسهم توبة ﴿فلما أخذتهم الرجفة﴾ مما اجترءوا عليه من طلب الرؤية فانه يروى أنه لما انكشف الغمام أقبلوا الى موسى عليه السلام وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة أى الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا منها أى ماتوا ولعلهم أرادوا بقولهم لن نؤمن لك لن نصدقك فى أن الآمر بما سمعنا من الامر بقتل أنفسهم هو الله تعالى حتى نراه حيث قاسوا رؤيته تعالى على سماع كلامه قياسا فاسدا فحين شاهد موسى تلك الحالة الهائلة ﴿قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل﴾ أى حين فرطوا فى النهى عن عبادة العجل وما فارقوا عبدته حين شاهدوا اصرارهم عليها ﴿واياى﴾ أيضا حين طلبت منك الرؤية أى لو شئت اهلاكنا بذنوبنا لأهلكتنا حينئذ أراد به عليه السلام تذكير العفو السابق لاستجلاب العفو اللاحق فان الاعتراف بالذنب والشكر على النعمة مما يربط العتيد و يستجلب المزيد يعنى انا كنا مستحقين للاهلاك ولم يكن من موانعه الاعدم مشيئتك اياه فحيث لطفت بنا وعفوت عنا تلك الجرائم فلا غرو فى أن تعفو عنا هذه الجريمة أيضا وحمل الكلام على التمنى يأباه قوله تعالى ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ أى الذين لايعلمون تفاصيل شئونك و لا يتثبتون فى المداحض والهمزة اما لانكار وقوع الاهلاك ثقة بلطف الله عز وجل كما قاله ابن الانبارى أو للاستعطاف كما قاله المبرد أى لاتهلكنا ﴿ان هى الافتنتك﴾ استئناف مقرر لما قبله واعتذار عما صنعوا ببيان منشأ غلطهم أى ما الفتنة التى وقع فيها السفهاء وقالوا بسببها ماقالوا من العظيمة الافتنتك أى محنتك وابتلاؤك حيث أسمعتهم كلامك فافتتنوا بذلك ولم يتثبتوا فطمعوا فيما فوق ذلك تابعين للقياس الفاسد وقوله تعالى ﴿تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء﴾ اما استئناف مبين لحكم الفتنة أو حال من فتنتك أى حال كونها مضلا بها الخ أى تضل بسببها من تشاء اضلاله فلا يهتدى الى التثبت وتهدى من تشاء هدايته الى الحق فلا يتزلزل فى أمثالها فيقوى بها ايمانه ﴿أنت ولينا﴾ أى القائم بأمورنا الدنيوية والاخروية وناصرنا وحافظنا لاغيرك ﴿فاغفر لنا﴾ ماقارفناه من المعاصى والفاء لترتيب الدعاء على ماقبله من الولاية كانه قيل فمن شأن الولى المغفرة والرحمة وقيل ان اقدامه عليه الصلاة والسلام على أن يقول ان هى الا فتنتك الخ جراءة عظيمة فطلب من الله تعالى غفرانها والتجاوز عنها ﴿وارحمنا﴾ بافاضة آثار الرحمة الدنيوية والاخروية علينا ﴿وأنت خير الغافرين﴾ اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من الدعاء وتخصيص المغفرة بالذكر لانها الأهم بحسب المقام ﴿واكتب لنا﴾ أى عين لنا وقيل أوجب وحقق وأثبت ﴿فى هذه الدنيا حسنة﴾ أى نعمة وعافية أو خصلة حسنة . قال ابن عباس رضى الله عنهما اقبل وفادتنا و ردنا بالمغفرة والرحمة ﴿وفى الآخرة﴾ أى واكتب لنا فيها أيضا حسنة وهى المثوبة الحسنى والجنة

﴿انا هدنا اليك﴾ أى تبنا وأنبنا اليك من هاد يهود اذا رجع وقرئ بكسر الهاء من هاده يهيده اذا حركه وأماله و يحتمل أن يكون مبنيا للفاعل أو للمفعول بمعنى أملنا أنفسنا أو أملنا اليك وتجويز أن تكون القراءة المشهورة على بناء المفعول على لغة من يقول عود المريض مع كونها لغة ضعيفة مما لايليق بشأن التنزيل الجليل والجملة استئناف مسوق لتعليل الدعاء فان التوبة مما يوجب قبوله بموجب الوعد المحتوم وتصديرها بحرف التحقيق لاظهار كمال النشاط والرغبة فى التوبة والمعنى انا تبنا و رجعنا عما صنعنا من المعصية العظيمة التى جئناك للاعتذار عنها وعما وقع ههنا من طلب الرؤية فبعيد من لطفك وفضلك أن لاتقبل توبة التائبين . قيل لما أخذتهم الرجفة ماتوا جميعا فأخذ موسى عليه الصلاة والسلام يتضرع الى الله تعالى حتى أحياهم وقيل رجفوا وكادت تبين مفاصلهم وأشرفوا على الهلاك فخاف موسى عليه الصلاة والسلام فبكى فكشفها الله تعالى عنهم ﴿قال﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الكلام كأنه قيل فماذا قال الله تعالى عند دعاء موسى عليه السلام فقيل قال ﴿عذابى أصيب به من أشاء﴾ لعله عز وجل حين جعل توبة عبدة العجل بقتلهم أنفسهم ضمن موسى عليه السلام دعاءه التخفيف والتيسير حيث قال واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة أى خصلة حسنة عارية عن المشقة والشدة فان فى قتل أنفسهم من العذاب والتشديد مالا يخفى فأجاب تعالى بأن عذابى شأنه أن أصيب به من أشاء تعذيبه من غير دخل لغيرى فيه وهم ممن تناولته مشيئتى ولذلك جعلت توبتهم مشوبة بالعذاب الدنيوى ﴿ورحمتى وسعت كل شئ﴾ أى شأنها أن تسع فى الدنيا المؤمن والكافر بل كل مايدخل تحت الشيئية من المكلفين وغيرهم وقد نال قومك نصيب منها فى ضمن العذاب الدنيوى وفى نسبة الاصابة الى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة الى الرحمة بصيغة الماضى ايذان بأن الرحمة مقتضى الذات وأما العذاب فبمقتضى معاصى العباد والمشيئة معتبرة فى جانب الرحمة أيضا وعدم التصريح بها للاشعار بغاية الظهور ألا يرى الى قوله تعالى ﴿فسأكتبها﴾ أى أثبتها وأعينها فانه متفرع على اعتبار المشيئة كأنه قيل فاذا كان الأمر كذلك أى كما ذكر من اصابة عذابى وسعة رحمتى لكل من أشاء فسأكتبها كتبة كائنة كما دعوت بقولك واكتب لنا فى هذه الخ أى سأكتبها خالصة غير مشوبة بالعذاب الدنيوى ﴿للذين يتقون﴾ أى الكفر والمعاصى اما ابتداء أو بعد ملابستهما وفيه تعريض بقومه كأنه قيل لالقومك لانهم غير متقين فيكفيهم ماقدر لهم من الرحمة وان كانت مقارنة للعذاب الدنيوى ﴿ويؤتون الزكوة﴾ وفيه أيضا تعريض بهم حيث كانت الزكاة شاقة عليهم ولعل الصلاة انما لم تذكر مع انافتها على سائر العبادات اكتفاء عنها بالاتقاء الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك المنكرات عن آخرها وايراد ايتاء الزكاة لما مر من التعريض ﴿والذين هم بآياتنا﴾ جميعا ﴿يؤمنون﴾ ايمانا مستمرا من غير اخلال بشئ منها وفيه تعريض بهم وبكفرهم بالآيات العظام التى جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام وبما سيجئ بعد ذلك من الآيات البينات كتظليل الغمام وانزال المن والسلوى وغير ذلك وتكرير الموصول مع أن المراد به عين ماأريد بالموصول الأول دون أن يقال ويؤمنون بآياتنا عطفا على يؤتون الزكاة كما عطف هو على يتقون لما أشير اليه من القصر بتقديم الجار والمجرور أى هم بجميع آياتنا يؤمنون لابيعضها دون بعض ﴿الذين يتبعون الرسول﴾ الذى نوحى اليه كتابا مختصا به ﴿النبى﴾ أى صاحب المعجزة وقيل عنوان الرسالة بالنسبة اليه تعالى وعنوان النبوة بالنسبة الى الأمة ﴿الأمى﴾ بضم الهمزة نسبة الى الأم كأنه باق على حالته التى ولد عليها من أمه أو الى أمة العرب كما قال عليه الصلاة والسلام انا أمة لانحسب ولانكتب أو الى أم القرى وقرئ بفتح الهمزة أى الذى لم يمارس القراءة والكتابة وقد جمع مع ذلك علوم الأولين والآخرين والموصول بدل من الموصول الأول بدل الكل أو منصوب على المدح أو مرفوع عليه أى أعنى الذين أو هم الذين وأما جعله مبتدأ على أن خبره يأمرهم أو أولئك هم

المفلحون فغير سديد ﴿الذى يجدونه مكتوبا﴾ باسمه ونعوته بحيث لا يشكون أنه هو ولذلك عدل عن أن يقال يجدون اسمه أو وصفه مكتوبا ﴿عندهم﴾ زيد هذا لزيادة التقرير وأن شأنه عليه الصلاة والسلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلا ﴿فى التوراة والانجيل﴾ اللذين تعبد بهما بنو اسرائيل سابقا ولاحقا والظرفان متعلقان بيجدونه أو بمكتوبا وذكر الانجيل قبل نزوله من قبيل مانحن فيه من ذكر النبي عليه الصلاة والسلام والقرآن الكريم قبل مجيئهما ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ كلام مستأنف لا محل له من الاعراب قاله الزجاج متضمن لتفصيل بعض أحكام الرحمة التى وعد فيما سبق بكتبها اجمالا فان مابين فيه من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واحلال الطيبات وتحريم الخبائث واسقاط التكاليف الشاقة كلها من آثار رحمته الواسعة وقيل فى محل النصب على أنه حال مقدرة من مفعول يجدونه أو من النبى أو من المستكن فى مكتوبا أو مفسر لمكتوبا أى لما كتب ﴿ويحل لهم الطيبات﴾ التى حرمت عليهم بشؤم ظلمهم ﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم﴾ أى يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التى هى من قبيل ما كتب عليهم حينئذ من كون التوبة بقتل النفس كتعيين القصاص فى العمد والخطأ من غير شرع الدية وقطع الاعضاء الخاطئة وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب واحراق الغنائم وتحريم السبت . وعن عطاء أنه كانت بنو اسرائيل اذا قاموا يصلون لبسوا المسوح وغلوا أيديهم الى أعناقهم وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها الى السارية يحبس نفسه على العبادة وقرىء آصارهم أصل الأصر الثقل الذى يأصر صاحبه من الحراك ﴿فالذين آمنوا به﴾ تعليم لكيفية اتباعه عليه الصلاة والسلام وبيان لعلو رتبة متبعيه واغتنامهم مغانم الرحمة الواسعة فى الدارين اثر بيان نعوته الجليلة والاشارة الى ارشاده عليه الصلاة والسلام اياهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واحلال الطيبات وتحريم الخبائث أى فالذين آمنوا بنبوته وأطاعوه فى أوامره ونواهيه ﴿وعزروه﴾ أى عظموه ووقروه وأعانوه بمنع أعدائه عنه وقرىء بالتخفيف وأصله المنع ومنه التعزير ﴿ونصروه﴾ على أعدائه فى الدين ﴿واتبعوا النور الذى أنزل معه﴾ أى مع نبوته وهو القرآن عبر عنه بالنور المنبىء عن كونه ظاهرا بنفسه ومظهرا لغيره أو مظهرا للحقائق كاشفا عنها لمناسبة الاتباع ويجوز أن يكون معه متعلقا باتبعوا أى واتبعوا القرآن المنزل مع اتباعه عليه الصلاة والسلام بالعمل بسنته وبما أمر به ونهى عنه أو اتبعوا القرآن مصاحبين له فى اتباعه ﴿أولئك﴾ اشارة الى المذكورين من حيث اتصافهم بما فصل من الصفات الفاضلة للاشعار بعليتها للحكم وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم فى الفضل والشرف أى أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة ﴿هم المفلحون﴾ أى هم الفائزون بالمطلوب الناجون عن الكروب لا غيرهم من الامم فيدخل فيهم قوم موسى عليه الصلاة والسلام دخولا أوليا حيث لم ينجوا عما فى توبتهم من المشقة الهائلة وبه يتحقق التحقيق ويتأتى التوفيق والتطبيق بين دعائه عليه الصلاة والسلام وبين الجواب لا بمجرد ماقيل من أنه لما دعا لنفسه ولبنى اسرائيل أجيب بما هو منطو على توبيخ بنى اسرائيل على استجازتهم الرؤية على الله عز وجل وعلى كفرهم بآياته العظام التى أجراها على يد موسى عليه الصلاة والسلام وعرض بذلك فى قوله تعالى والذين هم بآياتنا يؤمنون وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به كعبد الله بن سلام وغيره من أهل الكتابين لطفا بهم وترغيبا فى اخلاص الايمان والعمل الصالح ﴿قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم﴾ لما حكى مافى الكتابين من نعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف من يتبعه من أهلهما ونيلهم لسعادة الدارين أمر عليه الصلاة والسلام ببيان أن تلك السعادة غير مختصة بهم بل شاملة لكل من يتبعه كائنا من كان ببيان عموم رسالته للثقلين مع اختصاص رسالة سائر الرسل عليهم السلام

باقوامهم وارسال موسى عليه السلام الى فرعون وملئه بالآيات التسع انما كان لأمرهم بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة التي كان يدعيها الطاغية و يقبلها منه فئته الباغية و بارسال بني اسرائيل من الاسر والقسر وأما العمل بأحكام التوراة فمختص ببني اسرائيل ﴿جميعا﴾ حال من الضمير في اليكم ﴿الذى له ملك السموات والأرض﴾ منصوب أو مرفوع على المدح أو مجرور على أنه صفة للجلالة وان حيل بينهما بما هو متعلق بما أضيف اليه فانه في حكم المتقدم عليه وقوله تعالى ﴿لا اله الا هو﴾ بيان لما قبله فان من ملك العالم كان هو الاله لا غيره وقوله تعالى ﴿يحيي و يميت﴾ لزيادة تقرير ألوهيته والفاء في قوله تعالى ﴿فآمنوا بالله و رسوله﴾ لتفريع الأمر على ما تمهد وتقرر من رسالته عليه الصلاة والسلام وايراد نفسه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة على طريقة الالتفات الى الغيبة للمبالغة في ايجاب الامتثال بأمره ووصف الرسول بقوله ﴿النبي الأمي﴾ لمدحه عليه الصلاة والسلام بهما ولزيادة تقرير أمره وتحقيق أنه المكتوب في الكتابين و وصفه بقوله تعالى ﴿الذى يؤمن بالله وكلماته﴾ أي ما أنزل اليه والى سائر الرسل عليهم السلام من كتبه ووحيه لحمل أهل الكتابين على الامتثال بما أمروا به والتصريح بايمانه بالله تعالى للتنبيه على أن الايمان به تعالى لا ينفك عن الايمان بكلماته ولا يتحقق الا به وقرىء وكلمته على ارادة الجنس أو القرآن تنبيها على أن المأمور به هو الايمان به عليه الصلاة والسلام من حيث أنزل عليه القرآن لا من حيثية أخرى أو على أن المراد بها عيسى عليه الصلاة والسلام تعريضا باليهود وتنبيها على أن من لم يؤمن به لم يعتد بايمانه ﴿واتبعوه﴾ أي في كل ما يأتي وما يذر من أمور الدين ﴿لعلكم تهتدون﴾ علة للفعلين أو حال من فاعليهما أي رجاء لاهتدائكم الى المطلوب أو راجين له وفي تعليقه بهما ايذان بأن من صدقه ولم يتبعه بالتزام أحكام شريعته فهو بمعزل من الاهتداء مستمر على الغي والضلالة ﴿ومن قوم موسى﴾ كلام مبتدأ مسوق لدفع ما عسى يوهمه تخصيص كتب الرحمة والتقوى والايمان بالآيات بمتبعي رسول الله صلى الله عليه وسلم من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام من كل خير و بيان أن كلهم ليسوا كما حكيت أحوالهم بل منهم ﴿أمة يهدون﴾ أي الناس ﴿بالحق﴾ أي ملتبسين به أو يهدونهم بكلمة الحق ﴿وبه﴾ أي بالحق ﴿يعدلون﴾ أي في الاحكام الجارية فيما بينهم وصيغة المضارع في الفعلين لحكاية الحال الماضية وقيل هم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم و يأباه أنه قد مر ذكرهم فيما سلف وقيل ان بني اسرائيل لما بالغوا في العتو والطغيان حتى اجترؤا على قتل الأنبياء عليهم السلام تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله تعالى أن يفرق بينهم و بين أولئك الطاغين ففتح الله تعالى لهم نفقا في الأرض فساروا فيه سنة ونصفا حتى خرجوا من وراء الصين وهم اليوم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا وقد ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل عليه السلام ذهب به ليلة الاسراء نحوهم فكلمهم فقال جبريل عليه السلام هل تعرفون من تكلمون قالوا لا قال هذا محمد النبي الأمي فآمنوا به وقالوا يارسول الله ان موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد فليقرأ مني عليه السلام فرد محمد على موسى السلام عليهما السلام ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن نزلت يومئذ فريضة غير الصلاة والزكاة أمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فامرهم أن يجمعوا و يتركوا السبت هذا وأنت خبير بأن تخصيصهم بالهداية من بين قومه عليه السلام مع أن منهم من آمن بجميع الشرائع لا يخلو عن بعد ﴿وقطعناهم﴾ أي قوم موسى لا الأمة المذكورة منهم وقرىء بالتخفيف وقوله تعالى ﴿اثنتي عشرة﴾ ثاني مفعولي قطع لتضمنه معنى التصيير والتأنيث للحمل على الأمة أو القطعة أي صيرناهم اثنتي عشرة أمة أو قطعة متميزا بعضها من بعض أو حال من مفعوله أي فرقناهم معدودين هذا العدد وقوله تعالى ﴿أسباطا﴾ بدل منه ولذلك جمع أو مميز له على أن كل واحدة من اثنتي عشرة قطعة أسباط لا سبط وقرىء عشرة بكسر الشين وقوله تعالى ﴿أمما﴾ على الأول بدل

بعد بدل أو نعت لأسباطا وعلى الثاني بدل من أسباطا ﴿ وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه ﴾ حين استولى عليهم العطش فى التيه الذى وقعوا فيه بسوء صنيعهم لا بمجرد استسقائهم اياه عليه الصلاة والسلام بل باستسقائه لهم لقوله تعالى واذ استسقى موسى لقومه وقوله تعالى ﴿ أن اضرب بعصاك الحجر ﴾ مفسر لفعل الايحاء وقد مر بيان شأن الحجر فى تفسير سورة البقرة ﴿ فانبجست ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام قد حذف تعويلا على كمال الظهور وايذانا بغاية مسارعته عليه السلام الى الامتثال واشعارا بعدم تأثير الضرب حقيقة وتنبيها على كمال سرعة الانبجاس وهو الانفجار كانه حصل اثر الأمر قبل تحقق الضرب كما فى قوله تعالى اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فضرب فانبجست ﴿ منه اثنتا عشرة عينا ﴾ بعدد الأسباط وأما ماقيل من أن التقدير فان ضربت فقد انبجست فغير حقيق بجزالة النظم التنزيلى وقرئ عشرة بكسر الشين وفتحها ﴿ قد علم كل أناس ﴾ كل سبط عبر عنهم بذلك ايذانا بكثرة كل واحد من الاسباط ﴿ مشربهم ﴾ أى عينهم الخاصة بهم ﴿ وظللنا عليهم الغمام ﴾ أى جعلناها بحيث تلقى عليهم ظلها تسير فى التيه بسيرهم وتسكن باقامتهم وكان ينزل بالليل عمود من نار يسيرون بضوئه ﴿ وأنزلنا عليهم المن والسلوى ﴾ أى الترنجبين والسمانى. قيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر الى الطلوع لكل انسان صاع وتبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه ﴿ كلوا ﴾ أى وقلنا لهم كلوا ﴿ من طيبات ما رزقناكم ﴾ أى مستلذاته وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن المن والسلوى ﴿ وماظلمونا ﴾ رجوع الى سنن الكلام الأول بعد حكاية خطابهم وهو معطوف على جملة محذوفة للايجاز والاشعار بانه أمر محقق غنى عن التصريح به أى فظلموا بأن كفروا بتلك النعم الجليلة وماظلمونا بذلك ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ اذ لا يتخطاهم ضرره وتقديم المفعول لافادة القصر الذى يقتضيه النفى السابق وفيه ضرب من التهكم بهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على تماديهم فيما هم فيه من الظلم والكفر ﴿ واذ قيل لهم ﴾ منصوب بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام وايراد الفعل على البناء للمفعول مع استناده اليه تعالى كما يفصح عنه ما وقع فى سورة البقرة من قوله تعالى واذ قلنا للجرى على سنن الكبرياء والايذان بالغنى عن التصريح به لتعين الفاعل وتغيير النظم بالامر بالذكر للتشديد فى التوبيخ أى اذكر لهم وقت قوله تعالى لأسلافهم ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾ منصوب على المفعولية يقال سكنت الدار وقيل على الظرفية اتساعا وهى بيت المقدس وقيل أريحا وهى قرية الجبارين وكان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة رأسهم عوج بن عنق وفى قوله تعالى اسكنوا ايذان بان المأمور به فى سورة البقرة هو الدخول على وجه السكنى والاقامة ولذلك اكتفى به عن ذكر رغدا فى قوله تعالى ﴿ وكلوا منها ﴾ أى من مطاعمها وثمارها على أن من تبعيضية أو منها على أنها ابتدائية ﴿ حيث شئتم ﴾ أى من نواحيها من غير أن يزاحمكم فيها أحد فان الأكل المستمر على هذا الوجه لايكون الا رغدا واسعا وعطف كلوا على اسكنوا بالواو لمقارنتهما زمانا بخلاف الدخول فانه مقدم على الاكل ولذلك قيل هناك فكلوا ﴿ وقولوا حطة ﴾ أى مسئلتنا أو أمرك حطة لذنوبنا وهى فعلة من الحط كالجلسة ﴿ وادخلوا الباب ﴾ أى باب القرية ﴿ سجدا ﴾ أى متطامنين مخبتين أو ساجدين شكرا على اخراجهم من التيه وتقديم الأمر بالدخول على الأمر بالقول المذكور فى سورة البقرة غير مخل بهذا الترتيب لأن المأمور به هو الجمع بين الفعلين من غير اعتبار الترتيب بينهما ثم ان كان المراد بالقرية أريحاء فقد روى أنهم دخلوها حيث سار اليها موسى عليه السلام بمن بقى من بنى اسرائيل أو بذراريهم على اختلاف الروايتين ففتحها كما مر فى سورة المائدة وأما ان كان بيت المقدس فقد روى أنهم لم يدخلوه فى حياة موسى عليه السلام فقيل المراد بالباب باب القبة التى كانوا يصلون اليها ﴿ نغفر لكم خطيأتكم ﴾ وقرئ خطاياكم كما فى سورة البقرة وتغفر لكم خطيئاتكم وخطاياكم وخطيئتكم على البناء للمفعول ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ عدة بشيئين

بالمغفرة و بالزيادة وطرح الواو ههنا لايخل بذلك لأنه استئناف مترتب على تقدير سؤال نشأ من الاخبار بالغفران كأنه قيل فماذا لهم بعد الغفران فقيل سنزيد و كذلك زيادة منهم زيادة بيان ﴿فبدل الذين ظلموا منهم﴾ بما أمروا به من التوبة والاستغفار حيث أعرضوا عنه ووضعوا موضعه ﴿قولا﴾ آخر مما لاخير فيه . روى أنهم دخلوه زاحفين على أستاههم وقالوا مكان حطة حنطة وقيل قالوا بالنبطية حطا شمقاثا يعنون حنطة حمراء استخفافا بأمر الله تعالى واستهزاء بموسى عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى ﴿غير الذى قيل لهم﴾ نعت لقولا صرح بالمغايرة مع دلالة التبديل عليها قطعا تحقيقا للمخالفة وتنصيصا على المغايرة من كل وجه ﴿فأرسلنا عليهم﴾ اثر مافعلوا مافعلوا من غير تأخير و فى سورة البقرة على الذين ظلموا والمعنى واحد والارسال من فوق فيكون كالانزال ﴿رجزا من السماء﴾ عذابا كائنا منها والمراد الطاعون . روى أنه مات منهم فى ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفا ﴿بما كانوا يظلمون﴾ بسبب ظلمهم المستمر السابق واللاحق حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل لابسبب التبديل فقط كما يشعر به ترتيب الارسال عليه بالفاء والتصريح بهذا التعليل لما أن الحكم ههنا مترتب على المضمر دون الموصول بالظلم كما فى سورة البقرة وأما التعليل بالفسق بعد الاشعار بعلية الظلم فقد مر وجهه هناك والله تعالى أعلم ﴿واسألهم﴾ عطف على المقدر فى اذ قيل أى واسأل اليهود المعاصرين لك سؤال تقريع وتقرير بقديم كفرهم وتجاوزهم لحدود الله تعالى واعلاما لهم بأن ذلك مع كونه من علومهم الخفية التى لايقف عليها الامن مارس كتبهم قد أحاط به النبى عليه الصلاة والسلام خبرا واذ ليس ذلك بالتلقى من كتبهم لأنه عليه الصلاة والسلام بمعزل من ذلك تعين أنه من جهة الوحى الصريح ﴿عن القرية﴾ أى عن حالها وخبرها وماجرى على أهلها من الداهية الدهياء وهى ايلة قرية بين مدين والطور وقيل هى مدين وقيل طبرية والعرب تسمى المدينة قرية ﴿التى كانت حاضرة البحر﴾ أى قريبة منه مشرفة على شاطئه ﴿اذ يعدون فى السبت﴾ أى يتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد يوم السبت واذ ظرف للمضاف المحذوف أو بدل منه وقيل ظرف لكانت أو حاضرة وليس بذاك اذ لافائدة فى تقييد الكون أو الحضور بوقت العدوان وقرىء يعدون وأصله يعتدون و يعدون من الاعداد حيث كانوا يعدون آلات الصيد يوم السبت وهم منهيون عن الاشتغال فيه بغير العبادة ﴿اذ تأتيهم حيتانهم﴾ ظرف ليعدون أو بدل بعد بدل والاول هو الاولى لأن السؤال عن عدوانهم أدخل فى التقريع والحيتان جمع حوت قلبت الواو ياء لانكسار ماقبلها كنون ونينان لفظا ومعنى واضافتها اليهم للاشعار باختصاصها بهم لاستقلالها بما لايكاد يوجد فى سائر أفراد الجنس من الخواص الخارقة للعادة أو لأن المراد بها الحيتان الكائنة فى تلك الناحية وان ماذكر من الاتيان وعدمه لاعتيادها أحوالهم فى عدم التعرض يوم السبت ﴿يوم سبتهم﴾ ظرف لتأتيهم أى تأتيهم يوم تعظيمهم لأمر السبت وهو مصدر سبتت اليهود اذا عظمت السبت بالتجرد للعبادة وقيل اسم لليوم والاضافة لاختصاصهم بأحكام فيه و يؤيد الاول قراءة من قرأ يوم اسباتهم وقوله تعالى ﴿شرعا﴾ جمع شارع من شرع عليه اذا دنا وأشرف وهو حال من حيتانهم أى تأتيهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء قريبة من الساحل ﴿و يوم لايسبتون﴾ أى لايراعون أمر السبت لكن لا بمجرد عدم المراعاة مع تحقق يوم السبت كما هو المتبادر بل مع انتفائهما معا أى لاسبت ولا مراعاة كما فى قوله ولا ترى الضب بها ينجحر وقرىء لا يسبتون من أسبت و لا يسبتون على البناء للمفعول بمعنى لايدخلون فى السبت و لايدار عليهم حكم السبت و لا يؤمرون فيه بما أمروا به يوم السبت ﴿لاتأتيهم﴾ كما كانت تأتيهم يوم السبت حذارا من صيدهم وتغيير السبك حيث لم يقل و لا تأتيهم يوم لايسبتون لما أن الاخبار باتيانها يوم سبتهم مظنة أن يقال فماذا حالها يوم لايسبتون فقيل يوم لا يسبتون لاتأتيهم ﴿كذلك نبلوهم﴾ أى مثل ذلك البلاء العجيب الفظيع

نعاملهم معاملة من يختبرهم ليظهر عداوتهم ونؤاخذهم به وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها والتعجيب منها ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أى بسبب فسقهم المستمر المدلول عليه بالجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل لكن لافى تلك المادة فان فسقهم فيها لايكون سببا للبلوى بل بسبب فسقهم المستمر فى كل مايأتون وما يذرون وقيل كذلك متصل بما قبله أى لاتأتيهم مثل ماتأتيهم يوم سبتهم فالجملة بعده حينئذ استئناف مبنى على السؤال عن حكمة اختلاف حال الحيتان بالاتيان تارة وعدمه أخرى ﴿واذ قالت﴾ عطف على اذيعدون مسوق لتماديهم فى العدوان وعدم انزجارهم عنه بعد العظات والانذارات ﴿أمة منهم﴾ أى جماعة من صلحائهم الذين ركبوا فى عظتهم متن كل صعب وذلول حتى يئسوا من احتمال القبول لآخرين لايقلعون عن التذكير رجاء للنفع والتأثير مبالغة فى الاعذار وطمعا فى فائدة الانذار ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾ أى مخترمهم بالكلية ومطهر الارض منهم ﴿أو معذبهم عذابا شديدا﴾ دون الاستئصال بالمرة وقيل مهلكهم مخزيهم فى الدنيا أو معذبهم فى الآخرة لعدم اقلاعهم عما كانوا عليه من الفسق والطغيان والترديد لمنع الخلو دون منع الجمع فانهم مهلكون فى الدنيا ومعذبون فى الآخرة وايثار صيغة اسم الفاعل مع أن كلا من الاهلاك والتعذيب مترقب للدلالة على تحققهما وتقررهما البتة كأنهما واقعان وانما قالوه مبالغة فى أن الوعظ لاينجع فيهم أو ترهيبا للقوم أو سؤالا عن حكمة الوعظ ونفعه ولعلهم انما قالوه بمحضر من القوم حثالهم على الاتعاظ فان بت القول بهلاكهم وعذابهم مما يلقى فى قلوبهم الخوف والخشية وقيل المراد طائفة من الفرقة الهالكة أجابوا به وعاظهم ردا عليهم وتهكما بهم وليس بذاك كما ستقف عليه ﴿قالوا﴾ أى الوعاظ ﴿معذرة الى ربكم﴾ أى نعظهم معذرة اليه تعالى على أنه مفعول له وهو الأنسب بظاهر قولهم لم تعظون أو نعتذر معذرة على أنه مصدر لفعل محذوف وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى موعظتنا معذرة اليه تعالى حتى لاننسب الى نوع تفريط فى النهى عن المنكر وفى اضافة الرب الى ضمير المخاطبين نوع تعريض بالسائلين ﴿ولعلهم يتقون﴾ عطف على معذرة أى ورجاء لأن يتقوا بعض التقاة وهذا صريح فى أن القائلين لم تعظون الخ ليسوا من الفرقة الهالكة والالوجب الخطاب ﴿فلما نسوا ماذكروا به﴾ أى تركوا ماذكرهم به صلحاؤهم ترك الناسى للشئ وأعرضوا عنه اعراضا كليا بحيث لم يخطر ببالهم شئ من تلك المواعظ أصلا ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ وهم الفريقان المذكوران واخراج انجائهم مخرج الجواب الذى حقه الترتب على الشرط وهو نسيان المعتدين المستتبع لاهلاكهم لما أن مافى حيز الشرط شيآن النسيان والتذكير كأنه قيل فلما ذكر المذكرون ولم يتذكر المعتدون أنجينا الاولين وأخذنا الآخرين وأما تصدير الجواب بانجائهم فلما مرارا من المسارعة الى بيان نجاتهم من أول الأمر مع مافى المؤخر من نوع طول ﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾ بالاعتداء ومخالفة الأمر ﴿بعذاب بئيس﴾ أى شديد وزنا ومعنى من بؤس يبؤس بأسا اذا اشتد وقرئ بيئس على وزن فيعل بفتح العين وكسرها وبئس كحذر وبئس على تخفيف العين ونقل حركتها الى الفاء ككبد فى كبد وبيس بقلب الهمزة ياء كذيب فى ذئب وبيس كريس بقلب همزة بئيس ياء وادغام الياء فيها وبيس على تخفيف بيس كهين فى هين وتنكير العذاب للتفخيم والتهويل ﴿بما كانوا يفسقون﴾ متعلق بأخذنا كالباء الأولى ولاضير فيه لاختلافهما معنى أى أخذناهم بما ذكر من العذاب بسبب تماديهم فى الفسق الذى هو الخروج عن الطاعة وهو الظلم والعدوان أيضا واجراء الحكم على الموصول وان أشعر بعلية مافى حيز الصلة له لكنه صرح بالتعليل المذكور ايذانا بأن العلة هو الاستمرار على الظلم والعدوان مع اعتبار كون ذلك خروجا عن طاعة الله عز وجل لانفس الظلم والعدوان والالما أخروا عن ابتداء المباشرة ساعة ولعله تعالى قد عذبهم بعذاب شديد دون الاستئصال فلم يقلعوا عما كانوا

عليه بل ازدادوا فى الغى فمسخهم بعد ذلك لقوله تعالى ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ أى تمردوا وتكبروا وأبوا أن يتركوا مانهوا عنه ﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ صاغرين أذلاء بعداء عن الناس والمراد بالأمر هو الأمر التكوينى لاالقولى وترتيب المسخ على العتو عن الانتهاء عما نهوا عنه للايذان بأنه ليس لخصوصية الحوت بل العمدة فى ذلك هو مخالفة الأمر والاستعصاء عليه تعالى وقيل المراد بالعذاب البئيس هو المسخ والجملة الثانية تقرير للأولى . روى أن اليهود أمروا باليوم الذى أمرنا به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت وهو المعنى بقوله تعالى انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه فابتلوا به وحرم عليهم الصيد فيه وأمروا بتعظيمه فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت كأنها المخاض لايرى وجه الماء لكثرتها ولا تأتيهم فى سائر الأيام فكانوا على ذلك برهة من الدهر ثم جاءهم ابليس فقال لهم انما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضا سهلة الورود صعبة الصدور ففعلوا فجعلوا يسوقون الحيتان اليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج منها ويأخذونها يوم الأحد وأخذ رجل منهم حوتا وربط فى ذنبه خيطا الى خشبة فى الساحل ثم شواه يوم الأحد فوجد جاره ريح السمك فتطلع فى تنوره فقال له انى أرى الله سيعذبك فلما لم يره عذب أخذ فى يوم السبت القابل حوتين فلما رأوا أن العذاب لايعاجلهم استمروا على ذلك فصادوا وأكلوا وملحوا وباعوا وكانوا نحواً من سبعين ألفا فصار أهل القرية أثلاثا ثلث استمروا على النهى وثلث ملوا التذكير وسئموه وقالوا للواعظين لم تعظون الخ وثلث باشروا الخطيئة فلما لم ينتهوا قال المسلمون نحن لا نساكنكم فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتدين باب ولعنهم داود عليه السلام فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا ان لهم لشأنا فعلوا الجدار فنظروا فاذاهم قردة ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القردة أنسباءهم من الانس وهم لايعرفونها فجعل القرد يأتى نسيبه فيشم ثيابه فيبكى فيقول له نسيبه ألم ننهكم فيقول القرد برأسه بلى ثم ماتوا عن ثلاث وقيل صار الشبان قردة والشيوخ خنازير وعن مجاهد رضى الله عنه مسخت قلوبهم وقال الحسن البصرى أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها أثقلها خزيا فى الدنيا وأطولها عذابا فى الآخرة هاه وأيم الله ماحوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم ولكن الله تعالى جعل موعدا والساعة أدهى وأمر ﴿واذ تأذن ربك﴾ منصوب على المفعولية بمضمر معطوف على قوله تعالى واسألهم وتأذن بمعنى آذن كما أن توعد بمعنى أوعد أو بمعنى عزم فان العازم على الأمر يحدث به نفسه وأجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله فلذلك أجيب بجوابه حيث قيل ﴿ليبعثن عليهم الى يوم القيامة﴾ أى واذكر لهم وقت ايجابه تعالى على نفسه أن يسلط على اليهود البتة ﴿من يسومهم سوء العذاب﴾ كالاذلال وضرب الجزية وغير ذلك من فنون العذاب وقد بعث الله تعالى عليهم بعد سليمان عليه السلام بخت نصر فخرب ديارهم وقتل مقاتلتهم وسبى نساءهم وذراريهم وضرب الجزية على من بقى منهم وكانوا يؤدونها الى المجوس حتى بعث النبى عليه الصلاة والسلام ففعل مافعل ثم ضرب الجزية عليهم فلا تزال مضروبة الى آخر الدهر ﴿ان ربك لسريع العقاب﴾ يعاقبهم فى الدنيا ﴿وانه لغفور رحيم﴾ لمن تاب وآمن منهم ﴿وقطعناهم﴾ أى فرقنا بنى اسرائيل ﴿فى الأرض﴾ وجعلنا كل فرقة منهم فى قطر من أقطارها بحيث لاتخلو ناحية منها منهم تكملة لادبارهم حتى لاتكون لهم شوكة وقوله تعالى ﴿أمما﴾ اما مفعول ثان لقطعنا أو حال من مفعوله ﴿منهم الصالحون﴾ صفة لأمما أو بدل منه وهم الذين آمنوا بالمدينة ومن يسير بسيرتهم ﴿ومنهم دون ذلك﴾ أى ناس دون ذلك الوصف أى منحطون عن الصلاح وهم كفرتهم وفسقتهم ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾ بالنعم والنقم ﴿لعلهم يرجعون﴾ عما كانوا فيه من الكفر والمعاصى ﴿فخلف من بعدهم﴾ أى من بعد المذكورين ﴿خلف﴾ أى بدل سوء مصدر نعت به

و لذلك يقع على الواحد والجمع وقيل جمع وهو شائع فى الشر والخالف بفتح اللام فى الخير والمراد به الذين كانوا فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ أى التوراة من أسلافهم يقرؤنها و يقفون على مافيها ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ استئناف مسوق لبيان مايصنعون بالكتاب بعد و راثتهم اياه أى يأخذون حطام هذا الشيء الأدنى أى الدنيا وهو من الدنو أو الدناءة والمراد به ما كانوا يأخذونه من الرشا فى الحكومات وعلى تحريف الكلام وقيل حال من واو ورثوا ﴿ ويقولون سيغفر لنا ﴾ ولا يؤاخذنا الله تعالى بذلك و يتجاوز عنه والجملة تحتمل العطف والحالية والفعل مسند الى الجار والمجرور أو مصدر يأخذون ﴿ وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ حال من الضمير فى لنا أى يرجون المغفرة والحال أنهم مصرون على الذنب عائدون الى مثله غير تائبين عنه ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ﴾ أى الميثاق الوارد فى الكتاب ﴿ أن لا يقولوا على الله الا الحق ﴾ عطف بيان للميثاق أو متعلق به أى بأن لا يقولوا الخ والمراد به الرد عليهم والتوبيخ على بتهم القول بالمغفرة بلا توبة والدلالة على أنها افتراء على الله تعالى وخروج عن ميثاق الكتاب ﴿ ودرسوا مافيه ﴾ عطف على ألم يؤخذ من حيث المعنى فانه تقرير أو على ورثوا وهو اعتراض ﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون ﴾ مافعل هؤلاء ﴿ أفلا تعقلون ﴾ فتعلموا ذلك فلا تستبدلوا الأدنى المؤدى الى العقاب بالنعيم المخلد وقرىء بالياء و فى الالتفات تشديد للتوبيخ ﴿ والذين يمسكون بالكتاب ﴾ أى يتمسكون فى أمور دينهم يقال مسك بالشيء وتمسك به قال مجاهد هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه تمسكوا بالكتاب الذى جاء به موسى عليه السلام فلم يحرفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلة وقال عطاء هم أمة محمد عليه الصلاة والسلام وقرىء يمسكون من الامساك وقرىء تمسكوا واستمسكوا موافقا لقوله تعالى ﴿ وأقاموا الصلوة ﴾ ولعل التغيير فى المشهورة للدلالة على أن التمسك بالكتاب أمر مستمر فى جميع الأزمنة بخلاف اقامة الصلاة فانها مختصة بأوقاتها وتخصيصها بالذكر من بين سائر العبادات لانافتها عليها ومحل الموصول اما الجر نسقا على الذين يتقون وقوله أفلا تعقلون اعتراض مقرر لما قبله واما الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى ﴿ انا لانضيع أجر المصلحين ﴾ والرابط اما الضمير المحذوف كما هو رأى جمهور البصريين والتقدير أجر المصلحين منهم واما الالف واللام كما هو رأى الكوفيين فانه فى حكم مصلحيهم كما فى قوله تعالى فان الجنة هى المأوى أى مأواهم وقوله تعالى مفتحة لهم الأبواب أى أبوابها واما العموم فى مصلحين فانه من الروابط ومنه نعم الرجل زيد على أحد الوجوه وقيل الخبر محذوف والتقدير والذين يمسكون بالكتاب مأجورون أو مثابون وقوله تعالى انا لانضيع الخ اعتراض مقرر لما قبله ﴿ واذ نتقنا الجبل فوقهم ﴾ أى قلعناه من مكانه و رفعناه عليهم ﴿ كأنه ظلة ﴾ أى سقيفة وهى كل ماأظلك ﴿ وظنوا ﴾ أى تيقنوا ﴿ أنه واقع بهم ﴾ ساقط عليهم لأن الجبل لا يثبت فى الجو لأنهم كانوا يوعدون به واطلاق الظن فى الحكاية لعدم وقوع متعلقه وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرفع الله تعالى عليهم الطور وقيل لهم ان قبلتم مافيها فبها والا ليقعن عليكم ﴿ خذوا ما آتيناكم ﴾ أى وقلنا أو قائلين خذوا ما آتيناكم من الكتاب ﴿ بقوة ﴾ بجد وعزيمة على تحمل مشاقه وهو حال من الواو ﴿ واذكروا مافيه ﴾ بالعمل و لا تتركوه كالمنسى ﴿ لعلكم تتقون ﴾ بذلك قبائح الأعمال و رذائل الأخلاق أو راجين أن تنتظموا فى سلك المتقين ﴿ واذ أخذ ربك ﴾ منصوب بمضمر معطوف على ماانتصب به اذ نتقنا مسوق للاحتجاج على اليهود بتذكير الميثاق العام المنتظم للناس قاطبة و توبيخهم بنقضه اثر الاحتجاج عليهم بتذكير ميثاق الطور وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ماوقع فيه من الحوادث قد مر بيانه مرارا أى واذكر لهم أخذ ربك ﴿ من بنى آدم ﴾ المراد بهم الذين ولدهم كائنا من كان نسلا بعد نسل سوى من لم يولد له بسبب من

الأسباب كالعقم وعدم التزوج والموت صغيرا وايثار الأخذ على الاخراج للايذان بالاعتناء بشأن المأخوذ لما فيه من الأنباء عن الاجتباء والاصطفاء وهو السبب فى اسناده الى اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتى واضافته الى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف وقوله تعالى ﴿من ظهورهم﴾ بدل من بنى آدم بدل البعض بتكرير الجار كما فى قوله تعالى للذين استضعفوا لمن آمن منهم ومن فى الموضعين ابتدائية وفيه مزيد تقرير لابتنائه على البيان بعد الابهام والتفصيل غب الاجمال وتنبيه على أن الميثاق قد أخذ منهم وهم فى أصلاب الآباء ولم يستودعوا فى أرحام الأمهات وقوله تعالى ﴿ذريتهم﴾ مفعول أخذ أخر عن المفعول بواسطة الجار لاشتماله على ضمير راجع اليه ولمراعاة أصالته ومنشئيته ولما مر مرارا من التشويق الى المؤخر وقرىء ذرياتهم والمراد بهم أولادهم على العموم فيندرج فيهم اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم اندراجا أوليا كما اندرج أسلافهم فى بنى آدم كذلك وتخصيصهما باليهود سلفا وخلفا مع أن ما أريد بيانه من بديع صنع الله تعالى عز وجل شامل للكل كافة مخل بفخامة التنزيل وجزالة التمثيل ﴿وأشهدهم على أنفسهم﴾ أى أشهد كل واحدة من أولئك الذريات المأخوذين من ظهور آبائهم على نفسها لا على غيرها تقريرا لهم بربوبيته التامة وما تستتبعه من المعبودية على الاختصاص وغير ذلك من أحكامها وقوله تعالى ﴿ألست بربكم﴾ على ارادة القول أى قائلا ألست بربكم ومالك أمركم ومربيكم على الاطلاق من غير أن يكون لأحد مدخل فى شأن من شئونكم فينتظم استحقاق المعبودية ويستلزم اختصاصه به تعالى ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا قالوا حينئذ فقيل قالوا ﴿بلى شهدنا﴾ أى على أنفسنا بأنك ربنا والهنا لا رب لنا غيرك كما ورد فى الحديث الشريف وهذا تمثيل لخلقه تعالى اياهم جميعا فى مبدأ الفطرة مستعدين للاستدلال بالدلائل المنصوبة فى الآفاق والأنفس المؤدية الى التوحيد والاسلام كما ينطق به قوله عليه الصلاة والسلام كل مولود يولد على الفطرة الحديث مبنى على تشبيه الهيئة المنتزعة من تعريضه تعالى اياهم لمعرفة ربوبيته بعد تمكينهم منها بما ركز فيهم من العقول والبصائر ونصب لهم فى الآفاق والانفس من الدلائل تمكينا تاما ومن تمكنهم منها تمكنا كاملا وتعرضهم لها تعرضا قويا بهيئة منتزعة من حمله تعالى اياهم على الاعتراف بها بطريق الأمر ومن مسارعتهم الى ذلك من غير تلعثم أصلا من غير أن يكون هناك أخذ واشهاد وسؤال وجواب كما فى قوله تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين وقوله تعالى ﴿أن تقولوا﴾ بالتاء على تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى معاصريه من اليهود تشديدا فى الالزام أو اليهم والى متقدميهم بطريق التغليب لكن لا من حيث انهم مخاطبون بقوله تعالى ألست بربكم فانه ليس من الكلام المحكى وقرىء بالياء على أن الضمير للذرية وأياما كان فهو مفعول له لما قبله من الاخذ والاشهاد أى فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرة أو يقولوا هم ﴿يوم القيامة﴾ عند ظهور الأمر ﴿انا كنا عن هذا﴾ عن وحدانية الربوبية وأحكامها ﴿غافلين﴾ لم ننبه عليه فانهم حيث جبلوا على ما ذكر من التهيؤ التام لتحقيق الحق والقوة القريبة من الفعل صاروا محجوجين عاجزين عن الاعتذار بذلك اذ لا سبيل لاحد الى انكار ما ذكر من خلقهم على الفطرة السليمة وقوله تعالى ﴿أو تقولوا انما أشرك آباؤنا﴾ عطف على تقولوا وأو لمنع الخلو دون الجمع أى هم اخترعوا الاشراك وهم سنوه ﴿من قبل﴾ أى من قبل زماننا ﴿وكنا﴾ نحن ﴿ذرية من بعدهم﴾ لا نهتدى الى السبيل ولا نقدر على الاستدلال بالدليل ﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ من آبائنا المضلين بعد ظهور أنهم المجرمون ونحن عاجزون عن التدبير والاستبداد بالرأى أو أتؤاخذنا فتهلكنا الخ فان ما ذكر من استعدادهم الكامل يسد عليهم باب الاعتذار بهذا أيضا فان التقليد عند قيام الدلائل والقدرة على الاستدلال بها مما لا مساغ له أصلا هذا وقد حملت هذه المقاولة على الحقيقة كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما

من أنه لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام مسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها الى يوم القيامة فقال ألست بربكم قالوا بلى فنودى يومئذ جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه سئل عن الآية الكريمة فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال ان الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة و بعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار و بعمل أهل النار يعملون وليس المعنى أنه تعالى أخرج الكل من ظهره عليه الصلاة والسلام بالذات بل أخرج من ظهره عليه السلام أبناءه الصلبية ومن ظهرهم أبناءهم الصلبية وهكذا الى آخر السلسلة لكن لما كان المظهر الأصلى ظهره عليه الصلاة والسلام وكان مساق الحديثين الشريفين بيان حال الفريقين اجمالا من غير أن يتعلق بذكر الوسايط غرض على نسب اخراج الكل اليه وأما الآية الكريمة فحيث كانت مسوقة للاحتجاج على الكفرة المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان عدم افادة الاعتذار باسناد الاشراك الى آبائهم اقتضى الحال نسبة اخراج كل واحد منهم الى ظهر أبيهم من غير تعرض لاخراج الابناء الصلبية لآدم عليه السلام من ظهره قطعا وعدم بيان الميثاق فى حديث عمر رضى الله تعالى عنه ليس بيانا لعدمه و لامستلزما له وأما ماقالوا من أن أخذ الميثاق لاسقاط عذر الغفلة حسبما ينطق به قوله تعالى أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ومعلوم أنه غير دافع لغفلتهم فى دار التكليف اذ لا فرد من أفراد البشر يذكر ذلك فمردود لكن لا بما قيل من أن الله عز وجل قد أوضح الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا به فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمته الحجة ونسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد اخبار المخبر الصادق بل بأن قوله تعالى أن تقولوا الخ ليس مفعولا له لقوله تعالى وأشهدهم ومايتفرع عليه من قولهم بلى شهدنا حتى يجب كون ذلك الاشهاد والشهادة محفوظا لهم فى الزامهم بل لفعل مضمر ينسحب عليه الكلام والمعنى فعلنا مافعلنا من الأمر بذكر الميثاق و بيانه كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرة يوم القيامة انا كنا غافلين عن ذلك الميثاق لم ننبه عليه فى دار التكليف والا لعملنا بموجبه هذا على قراءة الجمهور وأما على القراءة بالياء فهو مفعول له لنفس الأمر المضمر العامل فى اذ أخذ والمعنى اذكر لهم الميثاق المأخوذ منهم فيما مضى لئلا يعتذروا يوم القيامة بالغفلة عنه أو بتقليد الآباء هذا على تقدير كون قوله تعالى شهدنا من كلام الذرية وهو الظاهر فاما على تقدير كونه من كلامه تعالى فهو العامل فى أن تقولوا ولا محذور أصلا اذ المعنى شهدنا قولكم هذا لئلا تقولوا يوم القيامة الخ لأنا نردكم ونكذبكم حينئذ ﴿وكذلك﴾ اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو شأن المشار اليه و بعد منزلته والكاف مقحمة مؤكدة لما أفاده اسم الاشارة من الفخامة والتقديم على الفعل لافادة القصر ومحله النصب على المصدرية أى ذلك التفصيل البليغ المستتبع للمنافع الجليلة ﴿نفصل الآيات﴾ المذكورة لاغير ذلك ﴿ولعلهم يرجعون﴾ وليرجعوا عما هم عليه من الاصرار على الباطل وتقليد الآباء نفعل التفصيل المذكور قالوا وان ابتدائيتان و يجوز أن تكون الثانية عاطفة على مقدر مترتب على التفصيل أى وكذلك نفصل الآيات ليقفوا على ما فيها من المرغبات والزواجر وليرجعوا الخ ﴿واتل عليهم﴾ عطف على المضمر العامل فى اذ أخذ وارد على نمطه فى الانباء عن الحور بعد الكور والضلالة بعد الهدى أى واتل على اليهود ﴿نبأ الذى آتيناه آياتنا﴾ أى خبره الذى له شأن وخطر وهو أحد علماء بنى اسرائيل وقيل هو بلعم بن باعوراء أو بلعام بن باعر من الكنعانيين أوتى علم بعض كتب الله تعالى وقيل هو أمية بن أبى الصلت و كان قد قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسل فى ذلك الزمان رسولا و رجا أن يكون هو الرسول فلما بعث الله تعالى النبى صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به والأول هو الانسب بمقام توبيخ اليهود بهناتهم

﴿فانسلخ منها﴾ أى من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة ولم يخطرها بباله أصلا أو خرج منها بالكلية بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره وأيا ما كان فالتعبير عنه بالانسلاخ المنبىء عن اتصال المحيط بالمحاط خلقة وعن عدم الملاقاة بينهما أبدا للايذان بكمال مباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال ﴿فاتبعه الشيطان﴾ أى تبعه حتى لحقه وأدركه فصار قرينا له وهو المعنى على قراءة فاتبعه من الافتعال وفيه تلويح بأنه أشد من الشيطان غواية أو أتبعه خطواته ﴿فكان من الغاوين﴾ فصار من زمرة الضالين الراسخين فى الغواية بعد أن كان من المهتدين وروى أن قومه طلبوا اليه أن يدعو على موسى عليه السلام فقال كيف أدعو على من معه الملائكة فلم يزالوا به حتى فعل فبقوا فى التيه ويرده أن التيه كان لموسى عليه السلام روحا وراحة وانما عذب به بنو اسرائيل وقد كان ذلك بدعائه عليه السلام عليهم كما مر فى سورة المائدة ﴿ولو شئنا﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان مناط ماذكر من انسلاخه من الآيات ووقوعه فى مهاوى الغواية ومفعول المشيئة محذوف لوقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء على القاعدة المستمرة أى ولو شئنا رفعه ﴿لرفعناه﴾ أى الى المنازل العالية للابرار العالمين بتلك الآيات العاملين بموجبها لكن لا بمحض مشيئتنا من غير أن يكون له دخل فى ذلك أصلا فانه مناف للحكمة التشريعية المؤسسة على تعليق الاجزية بالافعال الاختيارية للعباد بل مع مباشرته للعمل المؤدى الى الرفع بصرف اختياره الى تحصيله كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿بها﴾ أى بسبب تلك الآيات بأن عمل بموجبها فان اختياره وان لم يكن مؤثرا فى حصوله ولا فى ترتب الرفع عليه بل كلاهما بخلق الله تعالى لكن خلقه تعالى منوط بذلك البتة حسب جريان العادة الالهية وقد أشير الى ذلك فى الاستدراك بأن أسند ما يؤدى الى نقيض التالى اليه حيث قيل ﴿ولكنه أخلد الى الأرض﴾ مع أن الاخلاد اليها أيضا مما لا يتحقق عند صرف اختياره اليه الا بخلقه تعالى كأنه قيل ولو شئنا رفعه بمباشرته لسببه لرفعناه بسبب تلك الآيات التى هى أقوى أسباب الرفع ولكن لم نشأه لمباشرته لسبب نقيضه فترك فى كل من المقامين ماذكر فى الآخر تعويلا على اشعار المذكور بالمطوى كما فى قوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله وتخصيص كل من المذكورين بمقامه للايذان بأن الرفع مراد له تعالى بالذات وتفضل محض عليه لا دخل فيه لفعله حقيقة كيف لا وجميع أفعاله ومباديها من نعمه تعالى وتفضلاته وان نقيضه انما أصابه بسوء اختياره على موجب الوعيد لا بالارادة الذاتية له سبحانه كما قيل فى وجه ذكر الارادة مع الخير والمس مع الضر فى الآية المذكورة وهو السر فى جريان السنة القرآنية على اسناد الخير اليه تعالى واضافة الشر الى الغير كما فى قوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين ونظائره والاخلاد الى الشىء الميل اليه مع الاطمئنان به والمراد بالارض الدنيا وقيل السفالة والمعنى ولكنه آثر الدنيا الدنية على المنازل السنية أو الضعة والسفالة على الرفعة والجلالة ﴿واتبع هواه﴾ معرضا عن تلك الآيات الجليلة فانحط أبلغ انحطاط وارتد أسفل سافلين والى ذلك أشير بقوله تعالى ﴿فمثله كمثل الكلب﴾ لما أنه أخس الحيوانات وأسفلها وقد مثل حاله بأخس أحواله وأذلها حيث قيل ﴿ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ أى فحاله التى هى مثل فى السوء كصفته فى أرذل أحواله وهى حالة دوام اللهث به فى حالتى التعب والراحة فكأنه قيل فتردى الى مالا غاية وراءه فى الخسة والدناءة وايثار الجملة الاسمية على الفعلية بأن يقال فصار مثله كمثل الكلب الخ للايذان بدوام اتصافه بتلك الحالة الخسيسة وكمال استقراره واستمراره عليها والخطاب فى فعل الشرط لكل أحد ممن له حظ من الخطاب فانه أدخل فى اشاعة فظاعة حاله واللهث ادلاع اللسان بالتنفس الشديد أى هو ضيق الحال مكروب دائم اللهث سواء هيجته وأزعجته بالطرد العنيف أو تركته على حاله فانه فى الكلاب طبع لا تقدر على نفض الهواء المتسخن وجلب الهواء البارد بسهولة لضعف قلبها وانقطاع فؤادها بخلاف سائر الحيوانات فانها لا تحتاج الى التنفس الشديد

٢٤	
٢٥	
٢٦	الاتحافات السنية من الأحاديث
٢٧	الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية
٢٨	
٢٩	أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف
٣٠	
٣١	

ملاحظة : يجب أن يرسل البيان قبل حلول شهره بأسبوع .

تحريراً فى ________ سنة ١٣٧ (________ سنة ٩٥

إمضاء الواعظ ________

« الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية »

الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية

أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف

المدرس بجامعة القاهرة بالقطر المصري

وكل كتاب لابد وأن تحصل منه على فائدة إما دينية أو اجتماعية

ولا يلحقها الكرب والمضايقة الاعند التعب والاعياء والشرطية مع أختها تفسير لما أبهم فى المثل وتفصيل لما أجمل فيه وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه لامحل له من الاعراب على منهاج قوله تعالى خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون اثر قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم وقيل هى فى محل النصب على الحالية من الكلب بناء على خروجهما من حقيقة الشرط وتحولهما الى معنى التسوية حسب تحول الاستفهامين المتناقضين اليه فى مثل قوله تعالى أأنذرتهم أم لم تنذرهم كأنه قيل لاهثا فى الحالتين وأياما كان فالاظهر أنه تشبيه للهيئة المنتزعة مما اعتراه بعد الانسلاخ من سوء الحال واضطرام القلب ودوام القلق والاضطراب وعدم الاستراحة بحال من الاحوال بالهيئة المنتزعة مما ذكر من حال الكلب وقيل لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فتدلى على صدره وجعل يلهث كالكلب الى أن هلك ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماذكر من الحالة الخسيسة منسوبة الى الكلب أو الى المنسلخ وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها فى الخسة والدناءة أى ذلك المثل السيء ﴿مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ وهم اليهود حيث أوتوا فى التوراة ماأوتوا من نعوت النبي عليه الصلاة والسلام وذكر القرآن المعجز ومافيه فصدقوه وبشروا الناس باقتراب مبعثه وكانوا يستفتحون به فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة ﴿فاقصص القصص﴾ القصص مصدر سمى به المفعول كالسلب واللام للعهد والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها أى اذا تحقق أن المثل المذكور مثل هؤلاء المكذبين فاقصصه عليهم حسبما أوحى اليك ﴿لعلهم يتفكرون﴾ فيقفون على جلية الحال وينزجرون عما هم عليه من الكفر والضلال ويعلمون انك قد علمته من جهة الوحى فيزدادون ايقانا بك والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير المخاطب أو على أنها مفعول له أى فاقصص القصص راجيا لتفكرهم أى أو رجاء لتفكرهم ﴿ساء مثلا﴾ استئناف مسوق لبيان كمال قبح حال المكذبين بعد بيان كونه كحال الكلب أو المنسلخ وساء بمعنى بئس وفاعلها مضمر فيها ومثلا تمييز مفسر له والمخصوص بالذم قوله تعالى ﴿القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ وحيث وجب التصادق بينه وبين الفاعل والتمييز وجب المصير الى تقدير مضاف اما اليه وهو الظاهر أى ساء مثلا مثل القوم الخ أو الى التمييز أى ساء أصحاب مثل القوم الخ وقرىء ساء مثل القوم واعادة القوم موصوفا بالموصول مع كفاية الضمير بأن يقال ساء مثلا مثلهم للايذان بأن مدار السوء مافى حيز الصلة ولربط قوله تعالى ﴿وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ به فانه اما معطوف على كذبوا داخل معه فى حكم الصلة بمعنى جمعوا بين تكذيب آيات الله بعد قيام الحجة عليها وعلمهم بها وبين ظلمهم لانفسهم خاصة أو منقطع عنه بمعنى وما ظلموا بالتكذيب الا أنفسهم فان وباله لا يتخطاها وأياما كان ففى يظلمون لمح الى أن تكذيبهم بالآيات متضمن للظلم بها وأن ذلك أيضا معتبر فى القصر المستفاد من تقديم المفعول ﴿من يهد الله فهو المهتدى﴾ لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بأن يقص قصص المنسلخ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم كمثله ليتفكروا فيه ويتركوا ماهم عليه من الاخلاد الى الضلالة ويهتدوا الى الحق عقب ذلك بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهة الله عز وجل وانما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية فى حصول الاهتداء من غير تأثير لها فيه سوى كونها دواعى الى صرف العبد اختياره نحو تحصيله حسبما نيط به خلق الله تعالى اياه كسائر أفعال العباد فالمراد بهذه الهداية مايوجب الاهتداء قطعا لكن لالأن حقيقتها الدلالة الموصلة الى البغية البتة بل لأنها الفرد الكامل من حقيقة الهداية التى هى الدلالة الى مايوصل الى البغية أى مامن شأنه الايصال اليها كما سبق تحقيقه فى تفسير قوله تعالى هدى للمتقين وليس المراد مجرد الاخبار باهتداء من هداه الله تعالى حتى يتوهم عدم الافادة بحسب الظاهر لظهور استلزام هدايته تعالى للاهتداء ويحمل النظم الكريم على تعظيم شأن الاهتداء والتنبيه على أنه فى نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه بل هو قصر الاهتداء على من هداه الله تعالى حسبما يقضى به تعريف الخبر فالمعنى

من يهده الله أى يخلق فيه الاهتداء على الوجه المذكور فهو المهتدى لاغير كائنا من كان ﴿ومن يضلل﴾ بأن لم يخلق فيه الاهتداء بل خلق فيه الضلالة لصرف اختياره نحوها ﴿فأولئك﴾ الموصوفون بالضلالة على الوجه المذكور ﴿هم الخاسرون﴾ أى الكاملون فى الخسران لاغير وافراد المهتدى نظرا الى لفظ من وجمع الخاسرين نظرا الى معناها للايذان باتحاد منهاج الهدى وتفرق طرق الضلال ﴿ولقد ذرأنا﴾ كلام مستأنف مقرر لمضمون ماقبله بطريق التذييل أى خلقنا ﴿لجهنم﴾ أى لدخولها والتعذيب بها وتقديمه على قوله تعالى ﴿كثيرا﴾ أى خلقا كثيرا مع كونه مفعولا به لما فى توابعه من نوع طول يؤدى توسيطه بينهما وتأخيره عنها الى الاخلال بجزالة النظم الكريم وقوله تعالى ﴿من الجن والانس﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لكثيرا أى كائنا منهما وتقديم الجن لأنهم أعرق من الانس فى الاتصاف بما نحن فيه من الصفات وأكثر عددا وأقدم خلقا والمراد بهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة لكن لابطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم مايؤدى الى ذلك بل لعلمه تعالى بأنهم لايصرفون اختيارهم نحو الحق أبدا بل يصرون على الباطل من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر فبهذا الاعتبار جعل خلقهم مغيابها كما أن جميع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفطرى للعبادة وتمكنهم التام منها جعل خلقهم مغيابها كما نطق به قوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وقوله تعالى ﴿لهم قلوب﴾ فى محل النصب على أنه صفة أخرى لكثيرا وقوله تعالى ﴿لا يفقهون بها﴾ فى محل الرفع على أنه صفة لقلوب مؤكدة لما يفيده تنكيرها وابهامها من كونها غير معهودة مخالفة لسائر أفراد الجنس فاقدة لكماله بالكلية لكن لابحسب الفطرة حقيقة بل بسبب امتناعهم عن صرفها الى تحصيله وهذا وصف لها بكمال الاغراق فى القساوة فانها حيث لم يتأت منها الفقه بحال فكأنها خلقت غير قابلة له رأسا وكذا الحال فى أعينهم وآذانهم وحذف المفعول للتعميم أى لهم قلوب ليس من شأنها أن يفقهوا بها شيئا مما من شأنه أن يفقه فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دخولا أوليا وتخصيصه بذلك مخل بالافصاح عن كنه حالهم ﴿ولهم أعين لايبصرون بها﴾ الكلام فيه كما فيما عطف هو عليه والمراد بالابصار والسمع المنفيين مايختص بالعقلاء من الادراك على ماهو وظيفة الثقلين لامايتناول مجرد الاحساس بالشبح والصوت كما هو وظيفة الانعام أى لايبصرون بها شيأ من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجا أوليا ﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ أى شيأ من المسموعات فيتناول الآيات التنزيلية تناولا أوليا واعادة الخبر فى الجملتين المعطوفتين مع انتظام الكلام بأن يقال وأعين لايبصرون بها وآذان لايسمعون بها لتقرير سوء حالهم وفى اثبات المشاعر الثلاثة لهم ثم وصفها بعدم الشعور دون سلبها عنهم ابتداء بأن يقال ليس لهم قلوب يفقهون بها ولا أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها من الشهادة بكمال رسوخهم فى الجهل والغواية مالايخفى ﴿أولئك﴾ اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الضلال أى أولئك الموصوفون بالاوصاف المذكورة ﴿كالأنعام﴾ أى فى انتفاء الشعور على الوجه المذكور أو فى أن مشاعرهم متوجهة الى أسباب التعيش مقصورة عليها ﴿بل هم أضل﴾ فانها تدرك مامن شأنها أن تدركه من المنافع والمضار فتجتهد فى جلبها وسلبها غاية جهدها مع كونها بمعزل من الخلود وهؤلاء ليسوا كذلك حيث لايميزون بين المنافع والمضار بل يعكسون الأمر فيتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لأنها تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لايعرفون ربهم ولايذكرونه ولا يطيعونه وفى الخبر كل شىء أطوع لله من ابن آدم ﴿أولئك﴾ المنعوتون بما مر من مثلية الأنعام والشرية منها ﴿هم الغافلون﴾ الكاملون فى الغفلة المستحقون لأن يخص بهم الاسم ولايطلق على غيرهم كيف لا وانهم لايعرفون من شئون الله عز وجل ولا من شئون ماسواه شيأ فيشركون

به سبحانه وليس كمثله شئ وهو السميع البصير أصنامهم التى هى من أخس مخلوقاته تعالى ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ تنبيه للمؤمنين على كيفية ذكره تعالى وكيفية المعاملة مع المخلين بذلك الغافلين عنه سبحانه عما يليق به من الأمور ومالا يليق به اثر بيان غفلتهم التامة وضلالتهم الطامة والحسنى تأنيث الأحسن أى الاسماء التى هى أحسن الاسماء وأجلها لانبائها عن أحسن المعانى وأشرفها ﴿فادعوه بها﴾ أى فسموه بتلك الاسماء ﴿وذروا الذين يلحدون فى أسمائه﴾ الالحاد واللحد الميل والانحراف يقال لحد وألحد اذا مال عن القصد وقرئ يلحدون من الثلاثى أى يميلون فى شأنها عن الحق الى الباطل امابأن يسموه تعالى بما لاتوقيف فيه أو بما يوهم معنى فاسدا كما فى قول أهل البدو ياأبا المكارم ياأبيض الوجه يابخى ونحو ذلك فالمراد بالترك المأمور به الاجتناب عن ذلك وبأسمائه ماأطلقوه عليه تعالى وسموه به على زعمهم لاأسماؤه تعالى حقيقة وعلى ذلك يحمل ترك الاضمار بأن يقال يلحدون فيها واما بأن يعدلوا عن تسميته تعالى ببعض أسمائه الكريمة كما قالوا وما الرحمن مانعرف سوى رحمان اليمامة فالمراد بالترك الاجتناب أيضا وبالاسماء أسماؤه تعالى حقيقة فالمعنى سموه تعالى بجميع أسمائه الحسنى واجتنبوا اخراج بعضها من البين واما بأن يطلقوها على غيره تعالى كما سموا أصنامهم آلهة واما بأن يشتقوا من بعضها أسماء أصنامهم كما اشتقوا اللات من الله تعالى والعزى من العزيز فالمراد بالاسماء أسماؤه تعالى حقيقة كما فى الوجه الثانى والاظهار فى موقع الاضمار مع التجريد عن الوصف فى الكل للايذان بأن الحادهم فى نفس الاسماء من غير اعتبار الوصف وليس المراد بالترك حينئذ الاجتناب عن ذلك اذ لايتوهم صدور مثل هذا الالحاد عن المؤمنين ليؤمروا بتركه بل هو الاعراض عنهم وعدم المبالاة بما فعلوا ترقبا لنزول العقوبة بهم عن قريب كما هو المتبادر من قوله تعالى ﴿سيجزون ماكانوا يعملون﴾ فانه استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الامر بعدم المبالاة والاعراض عن المجازاة كأنه قيل لم لانبالى بالحادهم ولانتصدى لمجازاتهم فقيل لانه سينزل بهم عقوبته وتشفون بذلك عن قريب وأما على الوجهين الأولين فالمعنى اجتنبوا الحادهم كيلا يصيبكم ماأصابهم فانه سينزل بهم عقوبة الحادهم ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ بيان اجمالى لحال من عدا المذكورين من الثقلين الموصوفين بما ذكر من الضلال والالحاد عن الحق ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ اماباعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف وما بعده خبره كما مر فى تفسير قوله تعالى ومن الناس الخ أى وبعض من خلقنا أو وبعض ممن خلقنا أمة أى طائفة كثيرة يهدون الناس ملتبسين بالحق أو يهدونهم بكلمة الحق ويدلونهم على الاستقامة وبالحق يحكمون فى الحكومات الجارية فيما بينهم ولايجورون فيها . عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول اذا قرأها هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة الآية . وعنه عليه الصلاة والسلام ان من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى وروى لاتزال من أمتى طائفة على الحق الى أن يأتى أمر الله وروى لاتزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لايضرهم من خذلهم ولامن خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون وفيه من الدلالة على صحة الاجماع مالايخفى والاقتصار على نعتهم بهداية الناس للايذان بأن اهتداءهم فى أنفسهم أمر محقق غنى عن التصريح به ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ شروع فى تحقيق الحق الذى به يهدى الهادون وبه يعدل العادلون وحمل الناس على الاهتداء به على وجه الترهيب ومحل الموصول الرفع على أنه مبتدأ خبره مابعده من الجملة الاستقبالية واضافة الآيات الى نون العظمة لتشريفها واستعظام الاقدام على تكذيبها أى والذين كذبوا بآياتنا التى هى معيار الحق ومصداق الصدق والعدل ﴿سنستدرجهم﴾ أى نستدنيهم البتة الى الهلاك شيئا فشيئا والاستدراج استفعال من درج اما بمعنى صعد ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل نقل تدريجى سواء كان بطريق الصعود أو الهبوط أو الاستقامة واما بمعنى مشى مشيا ضعيفا واما بمعنى طوى والأول هو الانسب بالمعنى المراد الذى هو النقل الى

أعلى درجات المهالك ليبلغ أقصى مراتب العقوبة والعذاب ثم استعير لطلب كل نقل تدريجى من حال الى حال من الاحوال الملائمة للمنتقل الموافقة لهواه بحيث يزعم أن ذلك ترق فى مراقى منافعه مع أنه فى الحقيقة ترد فى مهاوى مصارعه فاستدراجه سبحانه اياهم أن يواتر عليهم النعم مع انهما كهم فى الغى فيحسبوا أنها لطف لهم منه تعالى فيزدادوا بطرا وطغيانا لكن لا على أن المطلوب تدرجهم فى مراتب النعم بل هو تدرجهم فى مدارج المعاصى الى أن يحق عليهم كلمة العذاب على أفظع حال وأشنعها والأول وسيلة اليه وقوله تعالى ﴿من حيث لا يعلمون﴾ متعلق بمضمر وقع صفة لمصدر الفعل المذكور أى سنستدرجهم استدراجا كائنا من حيث لا يعلمون أنه كذلك بل يحسبون أنه أثرة من الله عز وجل وتقريب منه وقيل لا يعلمون ما يراد بهم ﴿وأملى لهم﴾ عطف على سنستدرجهم غير داخل فى حكم السين لما أن الاملاء الذى هو عبارة عن الامهال والاطالة ليس من الأمور التدريجية كالاستدراج الحاصل فى نفسه شيئاً فشيئاً بل هو فعل يحصل دفعة وانما الحاصل بطريق التدريج آثاره وأحكامه لا نفسه كما يلوح به تغيير التعبير بتوحيد الضمير مع ما فيه من الافتنان المنبئ عن مزيد الاعتناء بمضمون الكلام لابتنائه على تجديد القصد والعزيمة وأما ان ذلك للاشعار بأنه بمحض التقدير الالهى والاستدراج بتوسط المدبرات فبناه دلالة نون العظمة على الشركة وأنى ذلك والالاحترز عن ايرادها فى قوله تعالى ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم انما نملى لهم الآية بل انما ايرادها فى أمثال هذه الموارد بطريق الجريان على سنن الكبرياء ﴿ان كيدى متين﴾ تقرير للوعيد وتأكيد له أى قوى لا يدافع بقوة ولا بحيلة والمراد به اما الاستدراج والاملاء مع نتيجتهما التى هى الأخذ الشديد على غرة فتسميته كيدا لما أن ظاهره لطف وباطنه قهر واما نفس ذلك الأخذ فقط فالتسمية لكون مقدماته كذلك وأما أن حقيقة الكيد هو الأخذ على خفاء من غير أن يعتبر فيه اظهار خلاف ما أبطنه فمما لا تعويل عليه مع عدم مناسبته للمقام ضرورة استدعائه لاعتبار القيد المذكور حتما ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾ كلام مبتدأ مسوق لانكار عدم تفكرهم فى شأنه عليه الصلاة والسلام وجهلهم بحقيقة حاله الموجبة للايمان به وبما أنزل عليه من الآيات التى كذبوا بها والهمزة للانكار والتعجيب والتوبيخ والواو للعطف على مقدر يستدعيه سياق النظم الكريم وسياقه وما اما استفهامية انكارية فى محل الرفع بالابتداء والخبر بصاحبهم واما نافية اسمها جنة وخبرها بصاحبهم والجنة من المصادر التى يراد بها الهيئة كالركبة والجلسة وتنكيرها للتقليل والتحقير والجملة معلقة لفعل التفكر لكونه من أفعال القلوب ومحلها على الوجهين النصب على نزع الجار أى أكذبوا بها ولم يتفكروا فى أى شئ من جنون ما كائن بصاحبهم الذى هو أعظم الأمة الهادية بالحق وعليه أنزلت تلك الآيات أو فى أنه ليس بصاحبهم شئ من جنة حتى يؤديهم التفكر فى ذلك الى الوقوف على صدقه وصحة نبوته فيؤمنوا به وبما أنزل عليه من الآيات وقيل قد تم الكلام عند قوله تعالى أولم يتفكروا أى أكذبوا بها ولم يفعلوا التفكر ثم ابتدئ فقيل أى شئ بصاحبهم من جنة ما على طريقة الانكار والتعجيب والتبكيت أو قيل ليس بصاحبهم شئ منها والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبهم للايذان بأن طول مصاحبتهم له عليه الصلاة والسلام مما يطلعهم على نزاهته عليه الصلاة والسلام عن شائبة ما ذكر ففيه تأكيد للنكير وتشديد له والتعرض لنفى الجنون عنه عليه الصلاة والسلام مع وضوح استحالة ثبوته له عليه الصلاة السلام لما أن التكلم بما هو خارق لقضية العقول والعادات لا يصدر الاعمن به مس من الجنون كيفما اتفق من غير أن يكون له أصل ومعنى أو عمن له تأييد الهى يخبر به عن الأمور الغيبية واذ ليس به عليه السلام شائبة الأول تعين أنه عليه الصلاة والسلام مؤيد من عند الله تعالى وقيل انه عليه الصلاة والسلام علا الصفا ليلا فجعل يدعو قريشا فخذاً فخذاً يحذرهم بأس الله تعالى فقال قائلهم ان صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت الى الصباح فنزلت فالتصريح بنفى الجنون حينئذ للرد على عظيمتهم الشنعاء والتعبير عنه

عليه الصلاة والسلام بصاحبهم وارد على شاكلة كلامهم مع مافيه من النكتة المذكورة وقوله تعالى ﴿ان هو الانذير مبين﴾ جملة مقررة لمضمون ماقبلها ومبينة لحقيقة حاله عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى ان هذا الاملك كريم بعد قوله تعالى ماهذا بشرا أى ماهو عليه الصلاة والسلام الا مبالغ فى الانذار مظهر له غاية الاظهار ابرازا لكمال الرأفة ومبالغة فى الاعذار وقوله تعالى ﴿أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض﴾ استئناف آخر مسوق للانكار والتوبيخ باخلالهم بالتأمل فى الآيات التكوينية المنصوبة فى الآفاق والانفس الشاهدة بصحة مضمون الآيات المنزلة اثر مانعى عليهم اخلالهم بالتفكر فى شأنه عليه الصلاة والسلام والهمزة لما ذكر من الانكار والتعجب والتوبيخ والواو للعطف على المقدر المذكور أو على الجملة المنفية بلم والملكوت الملك العظيم أى أكذبوا بها أولم يتفكروا فيما ذكر ولم ينظروا نظر تأمل فيما يدل عليه السموات والارض من عظم الملك وكمال القدرة ﴿وماخلق الله﴾ أى وفيما خلق فيهما على أنه عطف على ملكوت وتخصيصه بهما لكمال ظهور عظم الملك فيهما أو وفى ملكوت ماخلق على أنه عطف على السموات والارض والتعميم لاشتراك الكل فى الدلالة على عظم الملك فى الحقيقة وعليه قوله تعالى فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وقوله تعالى ﴿من شىء﴾ بيان لما خلق مفيد لعدم اختصاص الدلالة المذكورة بجلائل المصنوعات دون دقائقها والمعنى أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وماخلق فيهما من جليل ودقيق مما ينطلق عليه اسم الشىء ليدلهم ذلك على العلم بوحدانيته تعالى وبسائر شؤنه التى ينطق بها تلك الآيات فيؤمنوا بها لاتحادهما فى المدلول فان كل فرد من أفراد الاكوان مما عزوهان دليل لائح على الصانع المجيد وسبيل واضح الى عالم التوحيد وقوله تعالى ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ عطف على ملكوت وأن مخففة من أن واسمها ضمير الشان وخبرها عسى مع فاعلها الذى هو أن يكون واسم يكون أيضا ضمير الشأن والخبر قد اقترب أجلهم والمعنى أو لم ينظروا فى أن الشأن عسى أن يكون الشان قد اقترب أجلهم وقد جوز أن يكون اسم يكون أجلهم وخبرها قد اقترب على أنها جملة من فعل وفاعل هو ضمير أجلهم لتقدمه حكما وأيا ما كان فمناط الانكار والتوبيخ تأخيرهم للنظر والتأمل أى لعلهم يموتون عما قريب فما لهم لايسارعون الى التدبر فى الآيات التكوينية الشاهدة بما كذبوه من الآيات القرآنية وقد جوز أن يكون الاجل عبارة عن الساعة والاضافة الى ضميرهم لملابستهم لها من جهة انكارهم لها وبحثهم عنها وقوله تعالى ﴿فبأى حديث بعده يؤمنون﴾ قطع لاحتمال ايمانهم رأسا ونفى له بالكلية مترتب على ماذكر من تكذيبهم بالآيات واخلالهم بالتفكر والنظر والباء متعلقة بيؤمنون وضمير بعده للآيات على حذف المضاف المفهوم من كذبوا والتذكير باعتبار كونها قرآنا أو بتأويلها بالمذكور واجراء الضمير مجرى اسم الاشارة والمعنى أكذبوا بها ولم يتفكروا فيما يوجب تصديقها من أحواله عليه الصلاة والسلام وأحوال المصنوعات فبأى حديث يؤمنون بعد تكذيبه ومعه مثل هذه الشواهد القوية كلاوهيهات وقيل الضمير للقرآن والمعنى فبأى حديث بعد القرآن يؤمنون اذا لم يؤمنوا به وهو النهاية فى البيان وقيل هو انكار وتبكيت لهم مترتب على اخلالهم بالمسارعة الى التأمل فيما ذكر كأنه قيل لعل أجلهم قد اقترب فما لهم لايبادرون الى الايمان بالقرآن قبل الفوت وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق وبأى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا وقيل الضمير لاجلهم والمعنى فبأى حديث بعد انقضاء أجلهم يؤمنون وقيل للرسول عليه الصلاة والسلام على حذف مضاف أى فبأى حديث بعد حديثه يؤمنون وهو أصدق الناس وقوله تعالى ﴿من يضلل الله فلا هادى له﴾ استئناف مقرر لما قبله منبىء عن الطبع على قلوبهم وقوله تعالى ﴿ويذرهم فى طغيانهم﴾ بالياء والرفع على الاستئناف أى وهو يذرهم وقرىء بنون العظمة على طريقة الالتفات أى ونحن نذرهم وقرىء بالياء والجزم عطفا على محل فلا هادى له كأنه قيل من يضلل الله

لايهده أحد و يذرهم وقد روى الجزم بالنون عن نافع وأبى عمرو فى الشواذ وقوله تعالى ﴿ يعمهون ﴾ أى يترددون و يتحيرون حال من مفعول يذرهم وتوحيد الضمير فى حيز النفى نظرا الى لفظ من وجمعه فى حيز الاثبات نظرا الى معناها للتنصيص على شمول النفى والاثبات للكل ﴿ يسألونك عن الساعة ﴾ استئناف مسوق لبيان بعض أحكام ضلالهم وطغيانهم أى عن القيامة وهى من الاسماء الغالبة واطلاقها عليها اما لوقوعها بغتة أو لسرعة مافيها من الحساب أو لأنها ساعة عند الله تعالى مع طولها فى نفسها قيل ان قوما من اليهود قالوا يامحمد أخبرنا متى الساعة ان كنت نبيا فانا نعلم متى هى وكان ذلك امتحانا منهم مع علمهم أنه تعالى قداستأثر بعلمها وقيل السائلون قريش وقوله تعالى ﴿ أيان مرساها ﴾ بفتح الهمزة وقدقرىء بكسرها وهوظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام و يليه المبتدأ أوالفعل المضارع دون الماضى بخلاف متى حيث يليها كلاهما قيل اشتقاقه من أى فعلان منه لأن معناه أى وقت وهو من أو يت الى الشىء لأن البعض آو الى الكل متساند اليه ومحله الرفع على أنه خبر مقدم ومرساها مبتدأ مؤخر أى متى ارساؤها أى اثباتها وتقريرها فانه مصدر ميمى من أرساه اذا أثبته وأقره ولا يكاد يستعمل الافى الشىء الثقيل كما فى قوله تعالى والجبال أرساها ومنه مرساة السفن ومحل الجملة قيل الجر على البدلية من الساعة والتحقيق أن محلها النصب بنزع الخافض لأنها بدل من الجار والمجرور لا من المجرور فقط كأنه قيل يسألونك عن الساعة عن أيان مرساها و فى تعليق السؤال بنفس الساعة أولا و بوقت وقوعها ثانيا تنبيه على أن المقصد الأصلى من السؤال نفسها باعتبار حلولها فى وقتها المعين لا وقتها باعتبار كونه محلا لها وقد سلك هذا المسلك فى الجواب الملقن أيضا حيث أضيف العلم المطلوب بالسؤال الى ضميرها فأخبر باختصاصه به عز وجل حيث قيل ﴿ قل انما علمها ﴾ أى علمها بالاعتبار المذكور ﴿ عند ربى ﴾ ولم يقل انما علم وقت ارسائها ومن لم يتنبه لهذه النكتة حمل النظم الكريم على حذف المضاف والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام للايذان بأن توفيقه عليه الصلاة والسلام للجواب على الوجه المذكور من باب التربية والارشاد ومعنى كونه عنده تعالى خاصة أنه تعالى قد استأثر به بحيث لم يخبر به أحدا من ملك مقرب أو نبى مرسل وقوله تعالى ﴿ لايجليها لوقتها الا هو ﴾ بيان لاستمرار تلك الحالة الى حين قيامها واقناط كلى عن اظهار أمرها بطريق الاخبار من جهته تعالى أو من جهة غيره لاقتضاء الحكمة التشريعية اياه فانه أدعى الى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أن اخفاء الاجل الخاص للانسان كذلك والمعنى لا يكشف عنها و لا يظهر للناس أمرها الذى تسألوننى عنه الا هو بالذات من غير أن يشعر به أحد من المخلوقين فيتوسط فى اظهاره لهم لكن لا بأن يخبرهم بوقتها بل بمجيئه كما هو المسئول بل بان يقيمها فيشاهدوها عيانا كما يفصح عنه التجلية المنبئة عن الكشف التام المزيل للابهام بالكلية وقوله تعالى لوقتها أى فى وقتها قيد للتجلية بعد ورود الاستثناء عليها لاقبله كأنه قيل لايجليها الا هو فى وقتها الا أنه قدم على الاستثناء للتنبيه من أول الامر على أن تجليتها ليست بطريق الاخبار بوقتها بل باظهار عينها فى وقتها الذى يسألون عنه وقوله تعالى ﴿ ثقلت فى السموات والارض ﴾ استئناف كما قبله مقرر لمضمون ماقبله أى كبرت وشقت على أهلهما من الملائكة والثقلين كل منهم أهمه خفاؤها وخروجها عن دائرة العقول وقيل عظمت عليهم حيث يشفقون منها و يخافون شدائدها وأهوالها وقيل ثقلت فيهما اذ لا يطيقها منهما ومما فيهما شىء أصلا والاول هو الانسب بما قبله و بما بعده من قوله تعالى ﴿ لاتأتيكم الا بغتة ﴾ فانه أيضا استئناف مقرر لمضمون ماقبله فلا بد من اعتبار الثقل من حيث الخفاء أى لاتأتيكم الا فجأة على غفلة كما قال عليه الصلاة والسلام ان الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقوم سلعته فى سوقه والرجل يخفض ميزانه و يرفعه ﴿ يسألونك كأنك حفى عنها ﴾ استئناف مسوق لبيان خطئهم فى توجيه السؤال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

بناء على زعمهم أنه عليه الصلاة والسلام عالم بالمسئول عنه أو أن العلم بذلك من مواجب الرسالة اثر بيان خطئهم فى أصل السؤال باعلام شأن المسئول عنه والجملة التشبيهية فى محل النصب على أنها حال من الكاف جئ بها بيانا لما يدعوهم الى السؤال على زعمهم واشعارا بخطئهم فى ذلك أى يسألونك مشبها حالك عندهم بحال من هو حفى عنها أى مبالغ فى العلم بها فعيل من حفى وحقيقته كأنك مبالغ فى السؤال عنها فان ذلك فى حكم المبالغة فى العلم بها لما أن من بالغ فى السؤال عن الشئ والبحث عنه استحكم علمه به ومبنى التركيب على المبالغة والاستقصاء ومنه احفاء الشارب واحتفاء البقل أى استئصاله والاحفاء فى المسئلة أى الالحاف فيها وقيل عن متعلقة بيسألونك وقوله تعالى كأنك حفى معترض وصلة حفى محذوفة أى حفى بها وقد قرئ كذلك وقيل هو من الحفاوة بمعنى البر والشفقة فان قريشا قالوا له عليه الصلاة والسلام ان بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة والمعنى يسألونك كأنك حفى تتحفى بهم فتخصهم بتعليم وقتها لاجل القرابة وتزوى أمرها عن غيرهم ففيه تخطئة لهم من جهتين وقيل هو من حفى بالشئ بمعنى فرح به والمعنى كأنك فرح بالسؤال عنها تحبه مع أنك كاره له لما أنه تعرض لحرم الغيب الذى استأثر الله عز وجل بعلمه ﴿قل انما علمها عند الله﴾ أمر عليه الصلاة والسلام باعادة الجواب الأول تأكيدا للحكم وتقريرا له واشعارا بعلته على الطريقة البرهانية بايراد اسم الذات المنبئ عن استتباعها الصفات الكمال التى من جملتها العلم وتمهيدا للتعريض بجهلهم بقوله تعالى ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أى لا يعلمون ماذكر من اختصاص علمها به تعالى فبعضهم ينكرونها رأسا فلا يعلمون شيئا مما ذكر قطعا وبعضهم يعلمون أنها واقعة البتة ويزعمون أنك واقف على وقت وقوعها فيسألونك عنه جهلا وبعضهم يدعون أن العلم بذلك من مواجب الرسالة فيتخذون السؤال عنه ذريعة الى القدح فى رسالتك والمستثنى من هؤلاء هم الواقفون على جلية الحال من المؤمنين وأما السائلون عنها من اليهود بطريق الامتحان فهم منتظمون فى سلك الجاهلين حيث لم يعملوا بعلمهم وقوله تعالى ﴿قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا﴾ شروع فى الجواب عن السؤال ببيان عجزه عن علمها اثر بيان عجز الكل عنه وابطال زعمهم الذى بنوا عليه سؤالهم من كونه عليه الصلاة والسلام ممن يعلمها واعادة الأمر لاظهار كمال العناية بشأن الجواب والتنبيه على استقلاله ومغايرته للاول والتعرض لبيان عجزه عما ذكر من النفع والضر لاثبات عجزه عن علمها بالطريق البرهانى واللام اما متعلق بأملك أو بمحذوف وقع حالا من نفعا أى لا أقدر لأجل نفسى على جلب نفع ما ولا على دفع ضر ما ﴿الا ماشاء الله﴾ أن أملكه من ذلك بأن يلهمنيه فيمكننى منه ويقدرنى عليه أو لكن ماشاء الله من ذلك كائن فالاستثناء منقطع وهذا أبلغ فى اظهار العجز ﴿ولو كنت أعلم الغيب﴾ أى جنس الغيب الذى من جملته مابين الاشياء من المناسبات المصححة عادة للسببية والمسببية ومن المباينات المستتبعة للمانعة والمدافعة ﴿لاستكثرت من الخير﴾ أى لحصلت كثيرا من الخير الذى نيط تحصيله بالافعال الاختيارية للبشر بترتيب أسبابه ودفع موانعه ﴿وما مسنى السوء﴾ أى السوء الذى يمكن التفصى عنه بالتوقى عن موجباته والمدافعة بموانعه لاسوء ما فان منه مالا مدفع له ﴿ان أنا الا نذير وبشير﴾ أى ما أنا الا عبد مرسل للانذار والبشارة شأنى حيازة مايتعلق بهما من العلوم الدينية والدنيوية لا الوقوف على الغيوب التى لا علاقة بينها وبين الاحكام والشرائع وقد كشفت من أمر الساعة مايتعلق به الانذار من مجيئها لا محالة واقترابها وأما تعيين وقتها فليس مما يستدعيه الانذار بل هو مما يقدح فيه لما مر من أن ابهامه أدعى الى الانزجار عن المعاصى وتقديم النذير على البشير لما أن المقام مقام الانذار وقوله تعالى ﴿لقوم يؤمنون﴾ اما متعلق بهما جميعا لانهم ينتفعون بالانذار كما ينتفعون بالبشارة واما بالبشير فقط وما يتعلق بالنذير محذوف أى نذير للكافرين أى الباقين على الكفر وبشير لقوم يؤمنون أى فى أى وقت كان ففيه ترغيب للكفرة فى احداث الايمان وتحذير عن الاصرار على الكفر والطغيان ﴿هو الذى خلقكم﴾ استئناف

سيق لبيان كمال عظم جناية الكفرة فى جراءتهم على الاشراك بتذكير مبادى أحوالهم المنافية له وايقاع الموصول خبرا لتفخيم شأن المبتدا اى هو ذلك العظيم الشأن الذى خلقكم جميعا وحده من غير أن يكون لغيره مدخل فى ذلك بوجه من الوجوه ﴿من نفس واحدة﴾ هو آدم عليه الصلاة والسلام وهذا نوع تفصيل لما أشير اليه فى مطلع السورة الكريمة اشارة اجمالية من خلقهم وتصويرهم فى ضمن خلق آدم وتصويره و بيان لكيفيته ﴿وجعل﴾ عطف على خلقكم داخل فى حكم الصلة ولا ضير فى تقدمه عليه وجودا لما أن الواو لا تستدعى الترتيب فى الوجود ﴿منها﴾ أى من جنسها كما فى قوله تعالى جعل لكم من أنفسكم أزواجا أو من جسدها لما يروى أنه تعالى خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم عليه الصلاة والسلام والأول هو الأنسب اذ الجنسية هى المؤدية الى الغاية الآتية لا الجزئية والجعل اما بمعنى التصيير فقوله تعالى ﴿زوجها﴾ مفعوله الأول والثانى هو الظرف المقدم واما بمعنى الانشاء والظرف متعلق بجعل قدم على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أو بمحذوف هو حال من المفعول والأول هو الأولى وقوله تعالى ﴿ليسكن اليها﴾ علة غائية للجعل باعتبار تعلقه بمفعوله الثانى أى ليستأنس بها و يطمئن اليها اطمئنانا مصححا للازدواج كما يلوح به تذكير الضمير و يفصح عنه قوله تعالى ﴿فلما تغشاها﴾ أى جامعها ﴿حملت حملا خفيفا﴾ فى مبادىء الأمر فانه عند كونه نطفة أو علقة أو مضغة أخف عليها بالنسبة الى ما بعد ذلك من المراتب والتعرض لذكر خفته للاشارة الى نعمته تعالى عليهم فى انشائه تعالى اياهم متدرجين فى أطوار الخلق من العدم الى الوجود ومن الضعف الى القوة ﴿فمرت به﴾ أى فاستمرت به كما كانت قبل حيث قامت وقعدت وأخذت وتركت وعليه قراءة ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقرىء فمرت بالتخفيف وفارت من المور وهو المجىء والذهاب أو من المرية فظنت الحمل وارتابت به وأما ماقيل من أن المعنى حملت حملا خف عليها ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذية ولم تستثقله كما يستثقلنه فمرت به أى فمضت به الى ميلاده من غير اخداج ولا ازلاق فيرده قوله تعالى ﴿فلما أثقلت﴾ اذ معناه فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد فى بطنها ولا ريب فى أن الثقل بهذا المعنى ليس مقابلا للخفة بالمعنى المذكور انما يقابلها الكرب الذى يعترى بعضهن من أول الحمل الى آخره دون بعض أصلا وقرىء أثقلت على البناء للمفعول أى أثقلها حملها ﴿دعوا الله﴾ أى آدم وحواء عليهما السلام لما دهمهما أمر لم يعهداه ولم يعرفا مآله فاهتما به وتضرعا اليه عز وجل وقوله تعالى ﴿ربهما﴾ أى مالك أمرهما الحقيق بان يخص به الدعاء اشارة الى أنهما قد صدرا به دعاءهما كما فى قولهما ربنا ظلمنا أنفسنا الآية ومتعلق الدعاء محذوف تعويلا على شهادة الجملة القسمية به أى دعواه تعالى أن يؤتيهما صالحا ووعدا بمقابلته الشكر على سبيل التوكيد القسمى وقالا أو قائلين ﴿لئن آتيتنا صالحا﴾ أى ولدا من جنسنا سويا ﴿لنكونن﴾ نحن ومن يتناسل من ذريتنا ﴿من الشاكرين﴾ الراسخين فى الشكر على نعمائك التى من جملتها هذه النعمة وترتيب هذا الجواب على الشرط المذكور لما أنهما قد علما أن ما علقا به دعاءهما أنموذج لسائر أفراد الجنس ومعيار لها ذاتا وصفة وجوده مستتبع لوجودها وصلاحه مستلزم لصلاحها فالدعاء فى حقه متضمن للدعاء فى حق الكل مستتبع له كأنهما قالا لئن آتيتنا وذريتنا أولادا صالحة وقيل ان ضمير آتيتنا أيضا لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما فالوجه ظاهر وأنت خبير بأن نظم الكل فى سلك الدعاء اصالة يأباه مقام المبالغة فى الاعتناء بشأن ما هما بصدده وأما جعل ضمير لنكونن للكل فلا محذور فيه لأن توسيع دائرة الشكر غير مخل بالاعتناء المذكور بل مؤكد له وأيا ما كان فمعنى قوله تعالى ﴿فلما آتاهما صالحا﴾ لما آتاهما ما طلباه أصالة واستتباعا من الولد و ولد الولد ما تناسلوا فقوله تعالى ﴿جعلا﴾ أى جعل أولادهما ﴿له﴾ تعالى ﴿شركاء﴾ على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ثقة بوضوح

الأمر وتعويلا على ما يعقبه من البيان وكذا الحال فى قوله تعالى ﴿فيما آتاهما﴾ أى فيما آتى أولادهما من الأولاد حيث سموهم بعبد مناف وعبد العزى ونحو ذلك وتخصيص اشراكهم هذا بالذكر فى مقام التوبيخ مع أن اشراكهم بالعبادة أغلظ منه جناية وأقدم وقوعا لما أن مساق النظم الكريم لبيان اخلالهم بالشكر فى مقابلة نعمة الولد الصالح وأول كفرهم فى حقه انما هو تسميتهم اياه بما ذكر وقرىء شركا أى شركة أوذوى شركة أى شركاء ان قيل ما ذكر من حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه انما يصار اليه فيما يكون للفعل ملابسة ما بالمضاف اليه أيضا بسرايته اليه حقيقة أوحكما وتتضمن نسبته اليه صورة مزية يقتضيها المقام كما فى مثل قوله تعالى واذ نجينا كم من آل فرعون الآية فان الانجاء منهم مع أن تعلقه حقيقة ليس الا باسلاف اليهود قد نسب الى أخلافهم بحكم سرايته اليهم توفية لمقام الامتنان حقه وكذا فى قوله تعالى قل فلم تقتلون أنبياء الله الآية فان القتل حقيقة مع كونه من جناية آبائهم قد أسند اليهم بحكم رضاهم به أداء لحق مقام التوبيخ والتبكيت ولا ريب فى أنهما عليهما الصلاة والسلام بريئان من سراية الجعل المذكور اليهما بوجه من الوجوه فما وجه اسناده اليهما صورة قلنا وجهه الايذان بتركهما الاولى حيث أقدما على نظم أولادهما فى سلك أنفسهما والتزما شكرهم فى ضمن شكرهما وأقسما على ذلك قبل تعرف أحوالهم ببيان أن اخلالهم بالشكر الذى وعداه وعدا مؤكدا باليمين بمنزلة اخلالهما بالذات فى استيجاب الحنث والخلف مع ما فيه من الاشعار بتضاعف جنايتهم ببيان أنهم بجعلهم المذكور أوقعوهما فى ورطة الحنث والخلف وجعلوهما كأنهما باشراه بالذات فجمعوا بين الجناية على الله تعالى والجناية عليهما عليهما السلام ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ تنزيه فيه معنى التعجب والفاء لترتيبه على ما فصل من أحكام قدرته تعالى وآثار نعمته الزاجرة عن الشرك الداعية الى التوحيد وصيغة الجمع لما أشير اليه من تعين الفاعل وتنزيه آدم وحواء عن ذلك وما فى عما اما مصدرية أى عن اشراكهم أو موصولة أو موصوفة أى عما يشركونه به سبحانه والمراد باشراكهم اما تسميتهم المذكورة أومطلق اشراكهم المنتظم لها انتظاما أوليا وقرىء تشركون بتاء الخطاب بطريق الالتفات وقيل الخطاب لآل قصى من قريش والمراد بالنفس الواحدة نفس قصى فانهم خلقوا منه وكان له زوج من جنسه عربية قرشية وطلبا من الله تعالى ولدا صالحا فأعطاهما أربعة بنين فسماهم عبد مناف وعبد شمس وعبد قصى وعبد الدار وضمير يشركون لهما ولأعقابهما المقتدين بهما وأما ماقيل من أنه لما حملت حواء أتاها ابليس فى صورة رجل فقال لها مايدريك ما فى بطنك لعله بهيمة أو كلب أو خنزير وما يدريك من أين يخرج فخافت من ذلك فذكرته لآدم فأهمهما ذلك ثم عاد اليها وقال انى من الله تعالى بمنزلة فان دعوته أن يجعله خلقا مثلك و يسهل عليك خروجه تسميه عبد الحرث وكان اسمه حارثا فى الملائكة فقبلت فلما ولدته سمته عبد الحرث فمما لاتعويل عليه . كيف لاوأنه عليه الصلاة والسلام كان علما فى علم الاسماء والمسميات فعدم علمه بابليس واسمه واتباعه اياه فى مثل هذا الشأن الخطير أمر قريب من المحال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ﴿أيشركون﴾ استئناف مسوق لتوبيخ كافة المشركين واستقباح اشراكهم على الاطلاق وابطاله بالكلية ببيان شأن ماأشركوه به سبحانه وتفصيل أحواله القاضية ببطلان مااعتقدوه فى حقه أى أيشركون به تعالى ﴿مالا يخلق شيئا﴾ أى لايقدر على أن يخلق شيئا من الاشياء أصلا ومن حق المعبود أن يكون خالقا لعابده لامحالة وقوله تعالى ﴿وهم يخلقون﴾ عطف على لايخلق وايراد الضميرين بجمع العقلاء مع رجوعهما الى ما المعبر بها عن الاصنام انما هو بحسب اعتقادهم فيها واجرائهم لها مجرى العقلاء وتسميتهم لها آلهة و كذا حال سائر الضمائر الآتية و وصفها بالمخلوقية بعد وصفها بنفى الخالقية لابانة كمال منافاة حالها لما اعتقدوه فى حقها واظهار غاية جهلهم فان اشراك مالا يقدر على خلق شىء ما بخالقه وخالق جميع الاشياء مما لا يمكن أن يسوغه من له عقل فى الجملة وعدم التعرض لخالقها

للايذان بتعينه والاستغناء عن ذكره ﴿ولا يستطيعون لهم﴾ أى لعبدتهم اذا حزبهم أمر مهم وخطب ملم ﴿نصرا﴾ أى نصراً ما بجلب منفعة أو دفع مضرة ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ اذا اعتراهم حادثة من الحوادث أى لا يدفعونها عن أنفسهم وايراد النصر للمشاكلة وهذا بيان لعجزهم عن ايصال منفعة ما من المنافع الوجودية والعدمية الى عبدتهم وأنفسهم بعد بيان عجزهم عن ايصال منفعة الوجود اليهم والى أنفسهم خلا أنهم وصفوا هناك بالمخلوقية لكونهم أهلا لها وههنا لم يوصفوا بالمنصورية لانهم ليسوا أهلا لها وقوله تعالى ﴿وان تدعوهم الى الهدى﴾ بيان لعجزهم عما هو أدنى من النصر المنفى عنهم وأيسر وهو مجرد الدلالة على المطلوب والارشاد الى طريق حصوله من غير أن يحصله الطالب والخطاب للمشركين بطريق الالتفات المنبئ عن مزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيت أى ان تدعوهم أيها المشركون الى أن يهدوكم الى ما تحصلون به المطالب أو تنجون به عن المكاره ﴿لا يتبعوكم﴾ الى مرادكم وطلبتكم وقرئ بالتخفيف وقوله تعالى ﴿سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ومبين لكيفية عدم الاتباع أى مستو عليكم فى عدم الافادة دعاؤكم لهم وسكوتكم البحت فانه لا يتغير حالكم فى الحالين كما لا يتغير حالهم بحكم الجمادية وقوله تعالى أم أنتم صامتون جملة اسمية فى معنى الفعلية معطوفة على الفعلية لانها فى قوة أم صمتم عدل عنها للمبالغة فى عدم افادة الدعاء ببيان مساواته للسكوت الدائم المستمر وما قيل من أن الخطاب للمسلمين والمعنى وان تدعوا المشركين الى الهدى أى الاسلام لا يتبعوكم الخ مما لا يساعده سباق النظم الكريم وسياقه أصلا على أنه لو كان كذلك لقيل عليهم مكان عليكم كما فى قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم فان استواء الدعاء وعدمه انما هو بالنسبة الى المشركين لا بالنسبة الى الداعين فانهم فائزون بفضل الدعوة ﴿ان الذين تدعون من دون الله﴾ تقرير لما قبله من عدم اتباعهم لهم أى ان الذين تعبدونهم من دونه تعالى من الاصنام وتسمونهم آلهة ﴿عباد أمثالكم﴾ أى مماثلة لكم لكن لا من كل وجه بل من حيث أنها مملوكة لله عز وجل مسخرة لامره عاجزة عن النفع والضرر وتشبيهها بهم فى ذلك مع كون عجزها عنهما أظهر وأقوى من عجزهم انما هو لاعترافهم بعجز أنفسهم وادعائهم لقدرتها عليهما اذ هو الذى يدعوهم الى عبادتها والاستعانة بها وقوله تعالى ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم﴾ تحقيق لمضمون ما قبله بتعجيزهم وتبكيتهم أى فادعوهم فى جلب نفع أو كشف ضر ﴿ان كنتم صادقين﴾ فى زعمكم أنهم قادرون على ما أنتم عاجزون عنه وقوله تعالى ﴿ألهم رجل يمشون بها﴾ الخ تبكيت اثر تبكيت مؤكد لما يفيده الأمر التعجيزى من عدم الاستجابة ببيان فقدان آلاتها بالكلية فان الاستجابة من الهياكل الجسمانية انما تتصور اذا كان لها حياة وقوى محركة ومدركة وما ليس له شئ من ذلك فهو بمعزل من الأفاعيل بالمرة كأنه قيل ألهم هذه الآلات التى بها تتحقق الاستجابة حتى يمكن استجابتهم لكم وقد وجه الانكار الى كل واحدة من هذه الآلات الأربع على حدة تكريرا للتبكيت وتثنية للتقريع واشعارا بأن انتفاء كل واحدة منها بحيالها كاف فى الدلالة على استحالة الاستجابة و وصف الأرجل بالمشى بها للايذان بأن مدار الانكار هو الوصف وانما وجه الى الأرجل لا الى الوصف بأن يقال أيمشون بأرجلهم لتحقيق أنها حيث لم يظهر منها ما يظهر من سائر الأرجل فهى ليست بأرجل فى الحقيقة وكذا الكلام فيما بعده من الجوارح الثلاث الباقية وكلمة أم فى قوله تعالى ﴿أم لهم أيد يبطشون بها﴾ منقطعة وما فيها من الهمزة لما مر من التبكيت والالزام و بل للاضراب المفيد للانتقال من فن من التبكيت بعد تمامه الى فن آخر منه لما ذكر من المزايا والبطش الأخذ بقوة وقرئ يبطشون بضم الطاء وهى لغة فيه والمعنى بل ألهم أيد يأخذون بها ما يريدون أخذه وتأخير هذا عما قبله لما أن المشى حالهم فى أنفسهم والبطش حالهم بالنسبة الى الغير وأما تقديمه على قوله تعالى ﴿أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها﴾ مع أن الكل

سواء فى أنهـا من أحوالهم بالنسبة الى الغـير فلمراعاة المقابلة بين الأيدى والأرجل و لأن انتفاء المشى والبطش أظهر والتبكيت بذلك أقوى وأما تقديم الأعين فلما أنها أشهر من الآذان وأظهر عينا وأثرا هذا وقد قرىء ان الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم على اعمال ان النافية عمل ما الحجازية أى ما الذين تدعون من دونه تعالى عبادا أمثالكم بل أدنى منكم فيكون قوله تعالى ألهم الخ تقريرا لنفى المماثلة باثبات القصور والنقصان ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ بعد ما بين أن شركاءهم لايقدرون على شىء ما أصلا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يناصبهم للمحاجة و يكرر عليهم التبكيت والقام الحجر أى ادعوا شركاءكم واستعينوا بهم على ﴿ثم كيدون﴾ جميعا أنتم وشركاؤكم و بالغوا فى ترتيب ماتقدرون عليه من مبادى الـكيد والمـكر ﴿فلا تنظرون﴾ أى فلا تمهلونى ساعة بعد ترتيب مقدمات الـكيد فانى لاأبالى بكم أصلا ﴿ان ولىى الله الذى نزل الـكتاب﴾ تعليل لعدم المبالاة المنفهم من السوق انفهاما جليا و وصفه تعالى بتنزيل الـكتاب للاشعار بدليل الولاية والاشارة الى علة أخرى لعدم المبالاة كأنه قيل لا أبالى بكم و بشركائكم لأن ولىى هو الله الذى أنزل الـكتاب الناطق بأنه ولىى وناصرى و بأن شركاءكم لايستطيعون نصر أنفسهم فضلا عن نصركم وقوله تعـالى ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله أى ومن عادته أن يتولى الصالحين من عباده و ينصرهم ولا يخذلهم ﴿والذين تدعون﴾ أى تعبدونهم ﴿من دونه﴾ تعالى أو تدعونهم للاستعانة بهم على حسبما أمرتكم به ﴿لايستطيعون نصركم﴾ أى فى أمر من الأمور أو فى خصوص الأمر المذكور ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ اذا نابتهم نائبة ﴿وان تدعوهم الى الهـدى﴾ الى أن يهدوكم الى ماتحصلون به مقاصدكم على الاطلاق أو فى خصوص الـكيد المعهود ﴿لايسمعوا﴾ أى دعاءكم فضلا عن المساعدة والامداد وهـذا أبلغ من نفى الاتبـاع وقوله تعـالى ﴿وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون﴾ بيان لعجزهم عن الابصار بعد بيان عجزهم عن السمع و به يتم التعليل فلا تكرار أصلا والرؤية بصرية وقوله تعـالى ينظرون اليك حال من المفعول والجملة الاسمية حال من فاعل ينظرون أى وترى الأصنام رأى العين يشبهون الناظرين اليك و يخيل اليك أنهم يبصرونك لمـا أنهم صنعوا لهـا أعينا مركبة بالجواهر المضيئة المتلألئة وصوروها بصورة من قلب حدقته الى الشىء ينظر اليه والحال أنهم غير قادرين على الابصار وتوحيد الضمير فى تراهم مع رجوعه الى المشركين لتوجيه الخطاب الى كل واحد واحد منهم لا الى الكل من حيث هو كما فى الخطابات السابقة تنبيها على أن رؤية الأصنام على الهيئة المذكورة لاتتسنى للكل معا بل لكل من يواجهها وقيل ضمير الفاعل فى تراهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وضمير المفعول على حاله وقيل للمشركين على أن التعليل قدتم عند قوله تعالى لايسمعوا أى وترى المشركين ينظرون اليك والحال أنهم لايبصرونك كما أنت عليه وعن الحسن أن الخطاب فى قوله تعالى وان تدعوا للمؤمنين على أن التعليل قدتم عند قوله تعـالى ينصرون أى وان تدعوا أيهـا المؤمنون المشركين الى الاسلام لايلتفتوا اليكم ثم خوطب عليه السلام بطريق التجريد بأنك تراهم ينظرون اليك والحال أنهم لايبصرونك حق الابصار تنبيها على أن مافيه عليه السلام من شواهد النبوة ودلائل الرسالة من الجلاء بحيث لايكاد يخفى على الناظرين ﴿خذ العفو﴾ بعد ماعد من أباطيل المشركين وقبائحهم مالايطاق تحمله أمر عليه الصلاة والسلام بمجامع مكارم الأخلاق التى من جملتها الاغضاء عنهم أى خذ ماعفالك من أفعال الناس وتسهل ولا تكلفهم مايشق عليهم من العفو الذى هو ضد الجهد أو خـذ العفو من المذنبين أو الفضل من صدقاتهم وذلك قبل وجوب الزكاة ﴿وأمر بالعرف﴾ بالجميل المستحسن من الأفعال فانها قريبة من قبول الناس من غير نـكير ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ من غير مماراة و لامكافأة قيـل لمـا نزلت سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فقال لاأدرى حتى أسأل ثم رجع فقال يامحمد ان ربك

أمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك وعن جعفر الصادق أمر الله تعالى نبيه بمكارم الأخلاق وروى أنه لما نزلت الآية الكريمة قال عليه الصلاة والسلام كيف يارب والغضب متحقق فنزل قوله تعالى ﴿واما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ النزغ والنسغ والنخس الغرز شبهت وسوسته للناس واغراؤه لهم على المعاصى بغرز السائق لما يسوقه واسناده الى النزغ من قبيل جد جده أى واما يحملنك من جهته وسوسة ما على خلاف ماأمرت به من اعتراء غضب أو نحوه ﴿فاستعذ بالله﴾ فالتجىء اليه تعالى من شره ﴿انه سميع﴾ يسمع استعاذتك به قولا ﴿عليم﴾ يعلم تضرعك اليه قلبا فى ضمن القول أو بدونه فيعصمك من شره وقد جوز أن يراد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب على نهج الاستعارة كما فى قول الصديق رضى الله عنه ان لى شيطانا يعترينى ففيه زيادة تنفير عنه وفرط تحذير عن العمل بموجبه وفى الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لأمره وتنبيه على أنه من الغوائل الصعبة التى لايتخلص من مضرتها الا بالالتجاء الى حرم عصمته عز وجل وقيل يعلم مافيه صلاح أمرك فيحملك عليه أو سميع بأقوال من آذاك عليم بأفعاله فيجازيه عليها ﴿ان الذين اتقوا﴾ استئناف مقرر لما قبله ببيان أن ماأمر به عليه الصلاة والسلام من الاستعاذة بالله تعالى سنة مسلوكة للمتقين والاخلال بها ديدن الغاوين أى ان الذين اتصفوا بوقاية أنفسهم عما يضرها ﴿اذا مسهم طائف من الشيطان﴾ أدنى لمة منه على أن تنوينه للتحقير وهو اسم فاعل من طاف يطوف كأنها تطوف بهم وتدور حولهم لتوقع بهم أو من طاف به الخيال يطيف طيفا أى ألم وقرىء طيف على أنه مصدر أو تخفيف من طيف من الواوى أو اليائى كهين ولين والمراد بالشيطان الجنس ولذلك جمع ضميره فيما سيأتى ﴿تذكروا﴾ أى الاستعاذة به تعالى والتوكل عليه ﴿فاذاهم﴾ بسبب ذلك التذكر ﴿مبصرون﴾ مواقع الخطأ ومكايد الشيطان فيحترزون عنها ولا يتبعونه ﴿واخوانهم﴾ أى اخوان الشياطين وهم المنهمكون فى الغى المعرضون عن وقاية أنفسهم عن المضار ﴿يمدونهم فى الغى﴾ أى يكون الشياطين مددا لهم فيه ويعضدونهم بالتزيين والحمل عليه وقرىء يمدونهم من الامداد ويمادونهم كأنهم يعينونهم بالتسهيل والاغراء وهؤلاء بالاتباع والامتثال ﴿ثم لايقصرون﴾ أى لايمسكون عن الاغواء حتى يردوهم بالكلية ويجوز أن يكون الضمير للاخوان أى لايرعوون عن الغى ولا يقصرون كالمتقين ويجوز أن يراد بالاخوان الشياطين ويرجع الضمير الى الجاهلين فيكون الخبر جاريا على من هوله ﴿واذا لم تأتهم بآية﴾ من القرآن عند تراخى الوحى أو بآية مما اقترحوه ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ اجتبى الشىء بمعنى جباه لنفسه أى هلا جمعتها من تلقاء نفسك تقولا يرون بذلك أن سائر الآيات أيضا كذلك أو هلا تلقيتها من ربك استدعاء ﴿قل﴾ ردا عليهم ﴿انما أتبع مايوحى الى من ربى﴾ من غير أن يكون لى دخل ما فى ذلك أصلا على معنى تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام باتباع مايوحى اليه بتوجيه القصر المستفاد من كلمة انما الى نفس الفعل بالنسبة الى مقابله الذى كلفوه اياه عليه الصلاة والسلام لا على معنى تخصيص اتباعه عليه الصلاة والسلام بما يوحى اليه بتوجيه القصر الى المفعول بالقياس الى مفعول آخر كما هو الشائع فى موارد الاستعمال وقدمر تحقيقه فى قوله تعالى ان أتبع الا مايوحى الى كأنه قيل ماأفعل الا اتباع مايوحى الى منه تعالى وفى التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية والتبليغ الى الكمال اللائق مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه عليه الصلاة والسلام والتنبيه على تأييده مالايخفى ﴿هذا﴾ اشارة الى القرآن الكريم المدلول عليه بما يوحى الى ﴿بصائر من ربكم﴾ بمنزلة البصائر للقلوب بها تبصر الحق وتدرك الصواب وقيل حجج بينة وبراهين نيرة ومن متعلقة بمحذوف هو صفة لبصائر مفيدة لفخامتها أى بصائر كائنة منه تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم لتأكيد وجوب الايمان بها وقوله تعالى ﴿وهدى ورحمة﴾ عطف على

بصائر وتقديم الظرف عليهما وتعقيبهما بقوله تعالى ﴿لقوم يؤمنون﴾ للايذان بأن كون القرآن بمنزلة البصائر للقلوب متحقق بالنسبة الى الكل و به تقوم الحجة على الجميع وأما كونه هدى ورحمة فمختص بالمؤمنين به اذهم المقتبسون من أنواره والمغتنمون بآثاره والجملة من تمام القول المأمور به ﴿واذا قرئ القرآن فاستمعوا له﴾ ارشاد الى طريق الفوز بما أشير اليه من المنافع الجليلة التى ينطوى عليها القرآن أى واذا قرئ القرآن الذى ذكرت شئونه العظيمة فاستمعوا له استماع تحقيق وقبول ﴿وأنصتوا﴾ أى واسكتوا فى خلال القراءة وراعوها الى انقضائها تعظيما له وتكميلا للاستماع ﴿لعلكم ترحمون﴾ أى تفوزون بالرحمة التى هى أقصى ثمراته وظاهر النظم الكريم يقتضى وجوب الاستماع والانصات عند قراءة القرآن فى الصلاة وغيرها وقيل معناه اذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وجمهور الصحابة رضى الله تعالى عنهم على أنه فى استماع المؤتم وقد روى أنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة فأمروا باستماع قراءة الامام والانصات له وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ فى المكتوبة وقرأ أصحابه خلفه فنزلت وأما خارج الصلاة فعامة العلماء على استحبابهما والآية اما من تمام القول المأمور به أو استئناف من جهته تعالى فقوله تعالى ﴿واذكر ربك فى نفسك﴾ على الأول عطف على قل وعلى الثانى فيه تجريد للخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عام فى الأذكار كافة فان الاخفاء أدخل فى الاخلاص وأقرب من الاجابة ﴿تضرعا وخيفة﴾ أى متضرعا وخائفا ﴿ودون الجهر من القول﴾ أى ومتكلما كلاما دون الجهر فانه أقرب الى حسن التفكر ﴿بالغدو والآصال﴾ متعلق باذكر أى اذكره فى وقت الغدوات والعشيات وقرئ والايصال وهو مصدر آصل أى دخل فى الأصيل موافق للغدو ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ عن ذكر الله تعالى ﴿ان الذين عند ربك﴾ وهم الملائكة عليهم السلام ومعنى كونهم عنده سبحانه وتعالى قربهم من رحمته وفضله لتوفرهم على طاعته تعالى ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ بل يؤدونها حسبما أمروا به ﴿ويسبحونه﴾ أى ينزهونه عن كل ما لا يليق بجناب كبريائه ﴿وله يسجدون﴾ أى يخصونه بغاية العبودية والتذلل لا يشركون به شيئاً وهو تعريض بسائر المكلفين ولذلك شرع السجود عند قراءته . عن النبى صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم آية السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى فيقول ياويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار . وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الأعراف جعل الله تعالى يوم القيامة بينه وبين ابليس سترا وكان آدم عليه السلام شفيعا له يوم القيامة

سورة الأنفال

(مدنية . وهى ست وسبعون آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿يسألونك عن الأنفال﴾ النفل الغنيمة سميت به لأنها عطية من الله تعالى زائدة على ما هو أصل الأجر فى الجهاد من الثواب الأخروى ويطلق على ما يعطى بطريق التنفيل زيادة على السهم من المغنم وقرئ علنفال بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وادغام نون عن فى اللام . روى أن المسلمين اختلفوا فى غنائم بدر وفى قسمتها فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقسم ولمن الحكم فيها أللمهاجرين أم للانصار أم لهم جميعا وقيل ان الشباب قد أبلوا يومئذ بلاء حسنا فقتلوا سبعين وأسروا سبعين فقالوا نحن المقاتلون ولنا الغنائم وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كنا ردءا لكم وفئة تنحازون اليها حتى قال سعد بن معاذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما منعنا

أن نطلب ماطلب هؤلاء زهادة فى الأجر ولا جبن من العدو ولكن كرهنا أن نعرى مصافك فيعطف عليك خيل من المشركين فنزلت وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم قدشرط لمن كان له بلاء أن ينفله ولذلك فعل الشبان مافعلوا من القتل والاسر فسألوه عليه الصلاة والسلام ماشرطه لهم فقال الشيوخ المغنم قليل والناس كثير وان تعط هؤلاء ماشرطت لهم حرمت أصحابك فنزلت والأول هو الظاهر لما أن السؤال استعلام لحكم الأنفال بقضية كلمة عن لا استعطاء لنفسها كما نطق به الوجه الأخير وادعاء زيادة عن تعسف ظاهر والاستدلال عليه بقراءة ابن مسعود وسعد بن أبى وقاص وعلى ابن الحسين وزيد ومحمد الباقر وجعفر الصادق وعكرمة وعطاء يسألونك الأنفال غير منتهض فان مبناها كما قالوا على الحذف والايصال كما يعرب عنه الجواب بقوله عز وجل ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ أى حكمها مختص به تعالى يقسمها الرسول عليه الصلاة والسلام كيفما أمر به من غير أن يدخل فيه رأى أحد ولو كان السؤال استعطاء لما كان هذا جوابا له فان اختصاص حكم ماشرط لهم من الأنفال بالله والرسول لاينافى اعطاءها اياهم بل يحققه لأنهم انما يسألونها بموجب شرط الرسول عليه الصلاة والسلام الصادر عنه باذن الله تعالى لابحكم سبق أيديهم اليها ونحو ذلك مما يخل بالاختصاص المذكور وحمل الجواب على معنى أن الأنفال بالمعنى المذكور مختصة برسول الله صلى الله عليه وسلم لاحق فيها للمنفل كائنا من كان مما لاسبيل اليه قطعا ضرورة ثبوت الاستحقاق بالتنفيل وادعاء أن ثبوته بدليل متأخر التزام لتكرر النسخ من غير علم بالناسخ الأخير ولامساغ للمصير الى ماذهب اليه مجاهد وعكرمة والسدى من أن الأنفال كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ليس لأحد فيها شىء بهذه الآية فنسخت بقوله تعالى فأن لله خمسه وللرسول لما أن المراد بالأنفال فيما قالوا هو المعنى الأول حتما كما نطق به قوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شىء الآية على أن الحق أنه لانسخ حينئذ أيضا حسبما قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بل بين فى صدر السورة الكريمة اجمالا أن أمرها مفوض الى الله تعالى ورسوله ثم بين مصارفها وكيفية قسمتها على التفصيل وادعاء اقتصار هذا الحكم أعنى الاختصاص برسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنفال المشروطة يوم بدر بجعل اللام للعهد مع بقاء استحقاق المنفل فى سائر الأنفال المشروطة يأباه مقام بيان الأحكام كما ينبىء عنه اظهار الأنفال فى موقع الاضمار على أن الجواب عن سؤال الموعود ببيان كونه له عليه الصلاة والسلام خاصة مما لايليق بشأنه الكريم أصلا وقد روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال قتل أخى عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبنى فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ان الله تعالى قد شفى صدرى من المشركين فهب لى هذا السيف فقال لى عليه الصلاة والسلام ليس هذا لى ولا لك اطرحه فى القبض فطرحته وبى مالا يعلمه الا الله من قتل أخى وأخذ سلبى فما جاوزت الا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ياسعد انك سألتنى السيف وليس لى وقد صار لى فاذهب فخذه وهذا كما ترى يقتضى عدم وقوع التنفيل يومئذ والا لكان سؤال السيف من سعد بموجب شرطه ووعده عليه السلام لابطريق الهبة المبتدأة وحمل ذلك من سعد على مراعاة الأدب مع كون سؤاله بموجب الشرط يرده رده عليه الصلاة والسلام قبل النزول وتعليله بقوله ليس هذا لى لاستحالة أن يعد عليه الصلاة والسلام بما لايقدر على انجازه واعطاؤه صلى الله عليه وسلم بعد النزول وترتيبه على قوله وقد صار لى ضرورة أن مناط صيرورته له عليه الصلاة والسلام قوله تعالى الأنفال لله والرسول والفرض أنه المانع من اعطاء المسئول ومما هو نص فى الباب قوله عز وجل ﴿فاتقوا الله﴾ أى اذا كان أمر الغنائم لله تعالى ورسوله فاتقوه تعالى واجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة فيها والاختلاف الموجب لسخط الله تعالى أو فاتقوه فى كل ماتأتون وما تذرون فيدخل فيه ماهم فيه دخولا أوليا ولو كان السؤال طلبا للمشروط لما كان

فيه محذور يجب اتقاؤه واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتعليل الحكم ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ جعل مابينهم من الحال لملابستها التامة لبينهم صاحبة له كما جعلت الأمور المضمرة فى الصدور ذات الصدور أى اصلحوا مابينكم من الأحوال بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى وتفضل به عليكم وعن عبادة بن الصامت نزلت فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله تعالى من أيدينا فجعله لرسوله فقسمه بين المسلمين على السواء وكان فى ذلك تقوى الله وطاعة رسوله واصلاح ذات البين وعن عطاء كان الاصلاح بينهم أن دعاهم وقال اقسموا غنائمكم بالعدل فقالوا قد أكلنا وأنفقنا فقال ليرد بعضكم على بعض ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ بتسليم أمره ونهيه وتوسيط الأمر باصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لاظهار كمال العناية بالاصلاح بحسب المقام وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ متعلق بالأوامر الثلاثة والجواب محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أو هو الجواب على الخلاف المشهور وأياما كان فالمقصود تحقيق المعلق بناء على تحقق المعلق به وفيه تنشيط للمخاطبين وحث لهم على المسارعة الى الامتثال والمراد بالايمان كماله أى ان كنتم كاملى الايمان فان كمال الايمان يدور على هذه الخصال الثلاث طاعة الأوامر واتقاء المعاصى واصلاح ذات البين بالعدل والاحسان ﴿انما المؤمنون﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان من أريد بالمؤمنين بذكر أوصافهم الجليلة المستتبعة لما ذكر من الخصال الثلاث وفيه مزيد ترغيب لهم فى الامتثال بالأوامر المذكورة أى انما الكاملون فى الايمان المخلصون فيه ﴿الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أى فزعت لمجرد ذكره من غير أن يذكر هناك مايوجب الفزع من صفاته وأفعاله استعظاماً لشأنه الجليل وتهيبا منه وقيل هو الرجل يهم بمعصية فيقال له اتق الله فينزع عنها خوفا من عقابه وقرىء وجلت بفتح الجيم وهى لغة وقرىء فرقت أى خافت ﴿واذا تليت عليهم آياته﴾ أى آية كانت ﴿زادتهم ايمانا﴾ أى يقينا وطمأنينة نفس فان تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج والبراهين موجب لزيادة الاطمئنان وقوة اليقين وقيل ان نفس الايمان لا يقبل الزيادة والنقصان وانما زيادته باعتبار زيادة المؤمن به فانه كلما نزلت آية صدق بها المؤمن فزاد ايمانه عدداً وأما نفس الايمان فهو بحاله وقيل باعتبار أن الأعمال تجعل من الايمان فيزيد بزيادتها والأصوب أن نفس التصديق يقبل القوة وهى التى عبر عنها بالزيادة للفرق النير بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشفات ويقين آحاد الأمة وعليه مبنى ماقال على رضى الله عنه لو كشف الغطاء ماازددت يقينا وكذا بين ماقام عليه دليل واحد وما قامت عليه أدلة كثيرة ﴿وعلى ربهم﴾ مالكهم ومدبر أمورهم خاصة ﴿يتوكلون﴾ يفوضون أمورهم لا الى أحد سواه والجملة معطوفة على الصلة وقوله تعالى ﴿الذين يقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون﴾ مرفوع على أنه نعت للموصول الأول أو بدل منه أو بيان له أو منصوب على القطع المنبىء عن المدح ذكر أولا من أعمالهم الحسنة أعمال القلوب من الخشية والاخلاص والتوكل ثم عقب بأعمال الجوارح من الصلاة والصدقة ﴿أولئك﴾ اشارة الى من ذكرت صفاتهم الحميدة من حيث أنهم متصفون بها وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك عمن عداهم أكمل تميز منتظمون بسببه فى سلك الأمور المشاهدة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الشرف ﴿هم المؤمنون حقا﴾ لأنهم حققوا ايمانهم بأن ضموا اليه مافصل من أفاضل الأعمال القلبية والقالبية وحقا صفة لمصدر محذوف أى أولئك هم المؤمنون ايمانا حقا أو مصدر مؤكد للجملة أى حق ذلك حقا كقولك هو عبدالله حقا ﴿لهم درجات﴾ من الكرامة والزلفى وقيل درجات عالية فى الجنة وهو اما جملة مبتدأة مبنية على سؤال نشأ من تعداد مناقبهم كأنه قيل ما لهم بمقابلة هذه الخصال فقيل لهم كيت وكيت أو خبر ثان لأولئك وقوله تعالى ﴿عند ربهم﴾ اما متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات مؤكدة لما أفاده التنوين من

الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى كائنة عنده تعالى أو بمـا تعلق به الخبر أعنى لهم من الاستقرار و فى اضافة الظرف الى الرب المضاف الى ضميرهم مزيد تشريف ولطف لهم وايذان بأن ما وعدلهم متيقن الثبوت والحصول مأمون الفوات ﴿ ومغفرة ﴾ لمـا فرط منهم ﴿ و رزق كريم ﴾ لا ينقضى أمده و لا ينتهى عدده وهو ما أعدلهم من نعيم الجنة ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ الكاف فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه الحال كحال اخراجك يعنى أن حالهم فى كراهتهم لمـا رأيت مع كونه حقا كحالهم فى كراهتهم لخروجك للحرب وهو حق أو فى محل النصب على أنه صفة لمصدر مقدر فى قوله تعالى الأنفال لله أى الأنفال ثبتت لله والرسول مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات اخراج ربك اياك من بيتك فى المدينة أو من المدينة اخراجا ملتبسا بالحق ﴿ وان فريقا من المؤمنين لكارهون ﴾ أى والحال أن فريقا منهم كارهون للخروج اما لنفرة الطبع عن القتال أو لعدم الاستعداد وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام وفيهـا تجارة عظيمة ومعها أربعون راكبا منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم فنادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول عيركم أموالكم ان أصابهـا محمد لم تفلحوا بعدها أبدا وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه رؤيا فقالت لاخيها انى رأيت عجبا رأيت كأن ملكا نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة الا أصابه حجر من تلك الصخرة فحدث بها العباس رضى الله عنه فقال أبو جهل ما يرضى رجالهم أن يتنبئوا حتى تتنبأ نساؤهم فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير فقيل له ان العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس الى مكة فقال لا واللات لا يكون ذلك أبدا حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور ونقيم القينات والمعازف ببدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا وأن محمدا لم يصب العير وأنا قد أعضضناه فمضى بهم الى بدر و بدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما فى السنة فنزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد ان الله وعدكم احدى الطائفتين اما العير واما قريشا فاستشار النبى عليه الصلاة والسلام أصحابه فقال ما تقولون ان القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير أحب اليكم أم النفير فقالوا بل العير أحب الينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردد عليهم فقال ان العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل فقالوا يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو فقام عند ما غضب النبى صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فأحسنا ثم قام سعد بن عبادة فقال انظر أمرك فامض فوالله لو سرت الى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الانصار ثم قال المقداد بن عمرو رضى الله عنه يا رسول الله امض لمـا أمرك الله فانا معك حيثما أحببت لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى عليه السلام اذهب أنت و ربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت و ربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ما دامت عين منا تطرف فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال أشيروا على أيها الناس وهو يريد الانصار لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة انا برآء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا فاذا وصلت الينا فأنت فى ذمامنا نمنعك بمـا نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان النبى عليه الصلاة والسلام يتخوف أن تكون الأنصار لا ترى عليهم نصرته الا على عدو دهمه بالمدينة فقام سعد بن معاذ فقال لكأنك تريدنا يا رسول الله قال أجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لمـا أردت فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وانا لصبر عنـد الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم و بسطه قول سعد ثم قال سيروا على بركة الله وأبشروا

فان الله قدوعدنى احدى الطائفتين والله لكأنى الآن أنظر الى مصارع القوم. وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر عليك بالعير ليس دونها شيء فناداه العباس رضى الله عنه وهو فى وثاقه لا يصلح فقال النبى عليه الصلاة والسلام لم قال لان الله وعدك احدى الطائفتين وقد أعطاك ماوعدك ﴿يجادلونك فى الحق﴾ الذى هو تلقى النفير لايثارهم عليه تلقى العير والجملة استئناف أوحال ثانية أى أخرجك فى حال مجادلتهم اياك ويجوز أن يكون حالا من الضمير فى لكارهون وقوله تعالى ﴿بعد ماتبين﴾ منصوب بيجادلونك وما مصدرية أى بعد تبين الحق لهم باعلامك أنهم ينصرون أينما توجهوا ويقولون ما كان خروجنا الا للعير وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب وكان ذلك لكراهتهم القتال ﴿كأنما يساقون الى الموت﴾ الكاف فى محل النصب على الحالية من الضمير فى لكارهون أى مشبهين بالذين يساقون بالعنف والصغار الى القتل ﴿وهم ينظرون﴾ حال من ضمير يساقون أى والحال أنهم ينظرون الى أسباب الموت ويشاهدونها عيانا وما كانت هذه المرتبة من الخوف والجزع الا لقلة عددهم وعدم تأهبهم وكونهم رجالة. روى أنه لم يكن فيهم الا فارسان ﴿واذ يعدكم الله احدى الطائفتين﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله عز وجل بالمؤمنين مع مابهم من قلة الحزم ودناءة الهمة وقصور الرأى والخوف والجزع واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به المؤمنون بطريق التلوين والالتفات واحدى الطائفتين مفعول ثان ليعدكم أى اذكروا وقت وعد الله اياكم احدى الطائفتين وتذكير الوقت مع أن المقصود تذكير مافيه من الحوادث لما مر مرارا من المبالغة فى ايجاب ذكرها لما أن ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ماوقع فيه بالطريق البرهانى ولان الوقت مشتمل على ماوقع فيه من الحوادث بتفاصيلها فاذا استحضر كان ماوقع فيه حاضرا مفصلا كأنه مشاهد عيانا وقرىء يعدكم بسكون الدال تخفيفا وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها وقوله تعالى ﴿أنها لكم﴾ بدل اشتمال من احدى الطائفتين مبين لكيفية الوعد أى يعدكم أن احدى الطائفتين كائنة لكم مختصة بكم مسخرة لكم تتسلطون عليها تسلط الملاك وتتصرفون فيهم كيف شئتم ﴿وتودون﴾ عطف على يعدكم داخل تحت الأمر بالذكر أى تحبون ﴿أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ من الطائفتين لاذات الشوكة وهى النفير ورئيسهم أبو جهل وهم ألف مقاتل وغير ذات الشوكة هى العير اذلم يكن فيها الا أربعون فارسا ورأسهم أبو سفيان والتعبير عنهم بهذا العنوان للتنبيه على سبب ودادتهم لملاقاتهم وموجب كراهتهم ونفرتهم عن موافاة النفير والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك وشوك القنا شباها ﴿ويريد الله﴾ عطف على تودون منتظم معه فى سلك التذكير ليظهر لهم عظيم لطف الله بهم مع دناءة هممهم وقصور آرائهم أى اذكروا وقت وعده تعالى اياكم احدى الطائفتين وودادتكم لأدناهما وارادته تعالى لأعلاهما وذلك قوله تعالى ﴿أن يحق الحق﴾ أى يثبته ويعليه ﴿بكلماته﴾ أى بآياته المنزلة فى هذا الشأن أو بأوامره للملائكة بالامداد وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم فى قليب بدر وقرىء بكلمته ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ أى آخرهم ويستأصلهم بالمرة والمعنى أنتم تريدون سفساف الأمور والله عز وعلا يريد معاليها ومايرجع الى علو كلمة الحق وسمو رتبة الدين وشتان بين المرادين وقوله تعالى ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ جملة مستأنفة سيقت لبيان الحكمة الداعية الى اختيار ذات الشوكة ونصرهم عليها مع ارادتهم لغيرها واللام متعلقة بفعل مقدر مؤخر عنها أى لهذه الغاية الجليلة فعل مافعل لا لشىء آخر وليس فيه تكرار اذ الاول لبيان تفاوت مابين الارادتين وهذا لبيان الحكمة الداعية الى ماذكر ومعنى احقاق الحق اظهار حقيته لا جعله حقا بعد أن لم يكن كذلك وكذا حال ابطال الباطل ﴿ولو كره المجرمون﴾ أى المشركون ذلك أى احقاق الحق وابطال الباطل ﴿اذ تستغيثون ربكم﴾ بدل من اذ يعدكم معمول لعامله فالمراد تذكير استمدادهم

منه سبحانه والتجائهم اليه تعالى حين ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وامداده تعالى حينئذ وقيل متعلق بقوله تعالى ليحق الحق على الظرفية وماقيل من أن قوله تعالى ليحق مستقبل لأنه منصوب بأن فلا يمكن عمله فى اذلانه ظرف لما مضى ليس بشئ لأن كونه مستقبلا انما هو بالنسبة الى زمان ماهو غاية له من الفعل المقدر لا بالنسبة الى زمان الاستغاثة حتى لايعمل فيه بل هما فى وقت واحد وانما عبر عن زمانها باذنظرا الى زمان النزول وصيغة الاستقبال فى تستغيثون لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل متعلق بمضمر مستأنف أى اذكروا وقت استغاثتكم وذلك أنهم لما علموا أنه لابد من القتال جعلوا يدعون الله تعالى قائلين أى رب انصرنا على عدوك ياغياث المستغيثين أغثنا وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر الى المشركين وهم ألف والى أصحابه وهم ثلثمائة وبضعة عشر فاستقبل القبلة ومديديه يدعو اللهم أنجزلى ماوعدتنى اللهم ان تهلك هذه العصابة لاتعبد فى الأرض فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فأخذه أبو بكر رضى الله عنه فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه وقال يانبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجزلك ماوعدك ﴿فاستجاب لكم﴾ عطف على تستغيثون داخل معه فى حكم التذكير لما عرفت أنه ماض وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة ﴿أنى ممدكم﴾ أى بأنى فحذف الجار وسلط عليه الفعل فنصب محله وقرئ بكسر الهمزة على ارادة القول أو على اجراء استجاب مجرى قال لان الاستجابة من مقولة القول ﴿بألف من الملائكة مردفين﴾ أى جاعلين غيرهم من الملائكة رديفا لانفسهم فالمراد بهم رؤساؤهم المستتبعون لغيرهم وقد اكتفى ههنا بهذا البيان الاجمالى وبين فى سورة آل عمران مقدار عددهم وقيل معناه متبعين أنفسهم ملائكة آخرين أو متبعين المؤمنين أو بعضهم بعضا من أردفته اذا جئت بعده أو متبعين بعضهم بعض المؤمنين أو أنفسهم المؤمنين من أردفته اياه فردفه وقرئ مردفين بفتح الدال أى متبعين أومتبعين بمعنى أنهم كانوا مقدمة الجيش أوساقتهم وقرئ مردفين بكسر الراء وضمها وتشديد الدال وأصلهما مرتدفين بمعنى مترادفين فأدغمت التاء فى الدال فالتقى الساكنان فحركت الراء بالكسر على الاصل أو بالضم على الاتباع وقرئ بآلاف ليوافق مافى سورة آل عمران ووجه التوفيق بينه وبين المشهور أن المراد بالالف الذين كانوا على المقدمة أو الساقة أو وجوههم وأعيانهم أومن قاتل منهم واختلف فى مقاتلتهم وقد روى أخبار تدل على وقوعها ﴿وما جعله الله﴾ كلام مستأنف سيق لبيان أن الاسباب الظاهرة بمعزل من التأثير وانما التأثير مختص به عز وجل ليثق به المؤمنون ولايقنطوا من النصر عند فقدان أسبابه والجعل متعد الى مفعول واحد هو الضمير العائد الى مصدر فعل مقدر يقتضيه المقام اقتضاء ظاهرا مغنيا عن التصريح به كأنه قيل فأمدكم بهم وماجعل امدادكم بهم ﴿الا بشرى﴾ وهو استثناء مفرغ من أعم العلل أى وماجعل امدادكم بانزال الملائكة عيانا لشئ من الاشياء الا للبشرى لكم بأنكم تنصرون ﴿ولتطمئن به﴾ أى بالامداد ﴿قلوبكم﴾ وتسكن اليه نفوسكم كما كانت السكينة لبنى اسرائيل كذلك فكلاهما مفعول له للجعل وقد نصب الاول لاجتماع شرائطه وبقى الثانى على حاله لفقدانها وقيل للاشارة الى أصالته فى العلية وأهميته فى نفسه كما قيل فى قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة وفى قصر الامداد عليهما اشعار بعدم مباشرة الملائكة للقتال وانما كان امدادهم بتقوية قلوب المباشرين وتكثير سوادهم ونحوه كما هو رأى بعض السلف وقيل الجعل متعد الى اثنين ثانيهما الا بشرى على أنه استثناء من أعم المفاعيل أى وما جعله الله شيئا من الاشياء الا بشارة لكم فاللام فى ولتطمئن متعلقة بمحذوف مؤخر تقديره ولتطمئن به قلوبكم فعل ذلك لا لشئ آخر ﴿وما النصر﴾ اى حقيقة النصر على الاطلاق ﴿الا من عند الله﴾ أى الا كائن من عنده عز وجل من غير أن يكون فيه شركة من جهة الاسباب والعدد وانما هى مظاهر له بطريق جريان السنة الالهية ﴿ان الله عزيز﴾ لايغالب فى حكمه ولا

ينازع فى أقضيته ﴿ حكيم ﴾ يفعل كل مايفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تعليل لما قبلها متضمن للاشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات الحكم البالغة ﴿ اذ يغشيكم النعاس ﴾ أى يجعله غاشيا لكم ومحيطا بكم وهو بدل ثان من اذ يعدكم لاظهار نعمة أخرى وصيغة الاستقبال فيه وفيما عطف عليه لحكاية الحال الماضية كما فى تستغيثون أو منصوب باضمار اذكروا وقيل هو متعلق بالنصر أو بما فى من عند الله من معنى الفعل أو بالجعل وليس بواضح وقرىء يغشيكم من الاغشاء بمعنى التغشية والفاعل فى الوجهين هو البارى تعالى وقرىء يغشاكم على اسناد الفعل الى النعاس وقوله تعالى ﴿ أمنة منه ﴾ على القراءتين الأولين منصوب على العلية بفعل مترتب على الفعل المذكور أى يغشيكم النعاس فتنعسون أمنا كائنا من الله تعالى لا كلالا واعياء أو على أنه مصدر لفعل آخر كذلك أى فتأمنون أمنا كما فى قوله تعالى وأنبتها نباتا حسنا على أحد الوجهين وقيل منصوب بنفس الفعل المذكور والأمنة بمعنى الايمان وعلى القراءة الاخيرة منصوب على العلية بيغشاكم باعتبار المعنى فانه فى حكم تنعسون أو على أنه مصدر لفعل مترتب عليه كما مر وقرىء أمنة كرحمة ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ﴾ تقديم الجار والمجرور على المفعول به لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة له فعند وروده يتمكن عندها فضل تمكن وتقديم عليكم لما أن بيان كون التنزيل عليهم أهم من بيان كونه من السماء وقرىء بالتخفيف من الانزال ﴿ ليطهركم به ﴾ أى من الحدث الاصغر والاكبر ﴿ ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ الكلام فى تقديم الجار والمجرور كما مر آنفا والمراد برجز الشيطان وسوسته وتخويفه اياهم من العطش. روى أنهم نزلوا فى كثيب أعفر تسوخ فيه الاقدام على غير ماء وناموا فاحتلم أكثرهم وقد غلب المشركون على الماء فتمثل لهم الشيطان فوسوس اليهم وقال أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنابة وقد عطشتم ولو كنتم على الحق ماغلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم الا أن يجهدكم العطش فاذا قطع أعناقكم مشوا اليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم الى مكة فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا فأنزل الله عز وجل المطر فمطروا ليلا حتى جرى الوادى فاغتسلوا وتوضئوا وسقوا الركاب وتلبد الرمل الذى كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الاقدام وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس وقويت القلوب وذلك قوله تعالى ﴿ وليربط على قلوبكم ﴾ أى يقويها بالثقة بلطف الله تعالى فيما بعد بمشاهدة طلائعه ﴿ ويثبت به الاقدام ﴾ فلا تسوخ فى الرمل فالضمير للماء كالاول ويجوز أن يكون للربط فان القلب اذا قوى وتمكن فيه الصبر والجراءة لاتكاد تزل القدم فى معارك الحروب وقوله تعالى ﴿ اذ يوحى ربك الى الملائكة ﴾ منصوب بمضمر مستأنف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام بطريق التجريد حسبما تنطق به الكاف لما أن المأمور به مما لا يستطيعه غيره عليه الصلاة والسلام فان الوحى المذكور قبل ظهوره بالوحى المتلو على لسانه عليه الصلاة والسلام ليس من النعم التى يقف عليها عامة الامة كسائر النعم السابقة التى أمروا بذكر وقتها بطريق الشكر وقيل منصوب بقوله تعالى ويثبت به الاقدام فلا بد حينئذ من عود الضمير المجرور فى به الى الربط على القلوب ليكون المعنى ويثبت أقدامكم بتقوية قلوبكم وقت ايحائه الى الملائكة وأمره بتثبيتهم اياكم وهو وقت القتال ولا يخفى أن تقييد التثبيت المذكور بوقت مبهم عندهم ليس فيه مزيد فائدة وأما انتصابه على أنه بدل ثالث من اذ يعدكم كما قيل فيأباه تخصيص الخطاب به عليه الصلاة والسلام مع ماعرفت من أن المأمور به ليس من الوظائف العامة للكل كسائر أخواته وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من التنويه والتشريف مالا يخفى والمعنى اذكر وقت ايحائه تعالى الى الملائكة ﴿ أنى معكم ﴾ أى بالامداد والتوفيق فى أمر التثبيت فهو مفعول يوحى وقرىء بالكسر على ارادة القول أو اجراء الوحى

مجراه وما يشعر به دخول كلمة مع من متبوعية الملائكة انما هى من حيث انهم المباشرون للتثبيت صورة فلهم الاصالة من تلك الحيثية كما فى أمثال قوله تعالى ان الله مع الصابرين والفاء فى قوله تعالى ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ لترتيب مابعدها على ماقبلها فان امداده تعالى اياهم من أقوى موجبات التثبيت واختلفوا فى كيفية التثبيت فقالت جماعة انما أمروا بتثبيتهم بالبشارة وتكثير السواد ونحوهما مما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم و يتأكد جدهم فى القتال وهو الأنسب بمعنى التثبيت وحقيقته التى هى عبارة عن الحمل على الثبات فى موطن الحراب والجد فى مقاساة شدائد القتال وقد روى أنه كان الملك يتشبه بالرجل الذى يعرفونه بوجهه فيأتى و يقول انى سمعت المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن و يمشى بين الصفين فيقول أبشروا فان الله تعالى ناصركم وقال آخرون أمروا بمحاربة أعدائهم وجعلوا قوله تعالى ﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ تفسيرا لقوله تعالى أنى معكم وقوله تعالى ﴿ فاضربوا ﴾ الخ تفسيرا لقوله تعالى فثبتوا مبينا لكيفية التثبيت وقد روى عن أبى داود المازنى رضى الله عنه وكان ممن شهد بدرا أنه قال اتبعت رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه فوقعت رأسه بين يدى قبل أن يصل اليه سيفى وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه أنه قال لقد رأيتنا يوم بدروان أحدنا يشير بسيفه الى المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل اليه السيف وأنت خبير بأن قتلهم للكفرة مع عدم ملاءمته لمعنى تثبيت المؤمنين مما لايتوقف على الامداد بالقاء الرعب فلا يتجه ترتيب الامر به عليه بالفاء وقد اعتذر الأولون بأن قوله تعالى سألقى الخ ليس بنص فيما ذكر بل يجوز أن يكون ذلك اثر قوله تعالى فثبتوا الذين آمنوا تلقيناً للملائكة مايثبتونهم به كأنه قيل قولوا لهم قولى سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا الخ فالضاربون هم المؤمنون وأما ماقيل من أن ذلك خطاب منه تعالى للمؤمنين بالذات على طريق التلوين فمبناه توهم وروده قبل القتال وأنى ذلك والسورة الكريمة انما نزلت بعد تمام الوقعة وقوله تعالى ﴿ فوق الأعناق ﴾ أى أعاليها التى هى المذابح أو الهامات ﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ قيل البنان أطراف الاصابع من اليدين والرجلين وقيل هى الاصابع من اليدين والرجلين وقال أبو الهيثم البنان المفاصل وكل مفصل بنانة وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك يعنى الاطراف أى اضربوهم فى جميع الاعضاء من أعاليها الى أسافلها وقيل المراد بالبنان الادانى و بفوق الاعناق الاعالى والمعنى فاضربوا الصناديد والسفلة وتكرير الامر بالضرب لمزيد التشديد والاعتناء بأمره ومنهم متعلق به أو بمحذوف وقع حالا مما بعده ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى ما أصابهم من العقاب ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد درجته فى الشدة والفظاعة والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يليق بالخطاب ومحله الرفع على الابتداء وخبره قوله تعالى ﴿ بأنهم شاقوا الله و رسوله ﴾ أى ذلك العقاب الفظيع واقع عليهم بسبب مشاقتهم ومغالبتهم من لاسبيل الى مغالبته أصلا واشتقاق المشاقة من الشق لما أن كلا من المشاقين فى شق خلاف شق الآخر كما أن اشتقاق المعاداة والمخاصمة من العدوة والخصم أى الجانب لان كلا من المتعادين والمتخاصمين فى عدوة وخصم غير عدوة الآخر وخصمه ﴿ ومن يشاقق الله و رسوله ﴾ الاظهار فى موضع الاضمار لتربية المهابة واظهار كمال شناعة مااجترؤا عليه والاشعار بعلة الحكم وقوله تعالى ﴿ فان الله شديد العقاب ﴾ اما نفس الجزاء قد حذف منه العائد الى من عند من يلتزمه أى شديد العقاب له أو تعليل للجزاء المحذوف أى يعاقبه الله فان الله شديد العقاب وأياما كان فالشرطية تكملة لما قبلها وتقرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهانى كأنه قيل ذلك العقاب الشديد بسبب مشاقتهم لله تعالى و رسوله و كل من يشاقق الله و رسوله كائناً من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد فاذن لهم بسبب مشاقتهم لهما عقاب شديد وأما أنه وعيد لهم بما أعد لهم فى الآخرة بعدما حاق بهم فى الدنيا كما قيل فيرده مابعده من قوله تعالى ﴿ ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴾ فانه مع كونه هو المسوق للوعيد بما ذكر

ناطق بكون المراد بالعقاب المذكور ماأصابهم عاجلا سواء جعل ذلكم اشارة الى نفس العقاب أو الى ماتفيده الشرطية من ثبوت العقاب لهم أما على الأول فلان الأظهر أن محله النصب بمضمر يستدعيه قوله تعالى فذوقوه والواو فى قوله تعالى وأن للكافرين الخ بمعنى مع فالمعنى باشروا ذلكم العقاب الذى أصابكم فذوقوه عاجلا مع أن لكم عذاب النار آجلا فوضع الظاهر موضع الضمير لتوبيخهم بالكفر وتعليل الحكم به وأما على الثانى فلان الأقرب أن محله الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وقوله تعالى وأن للكافرين الخ معطوف عليه والمعنى حكم الله ذلكم أى ثبوت هذا العقاب لكم عاجلا وثبوت عذاب النار آجلا وقوله تعالى فذوقوه اعتراض وسط بين المعطوفين للتهديد والضمير على الأول لنفس المشار اليه وعلى الثانى لما فى ضمنه وقد ذكر فى اعراب الآية الكريمة وجوه أخر مدار الكل على أن المراد بالعقاب ماأصابهم عاجلا والله تعالى أعلم وقرىء بكسر أن على الاستئناف ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ خطاب للمؤمنين بحكم كلى جار فيما سيقع من الوقائع والحروب جىء به فى تضاعيف القصة اظهارا للاعتناء بشأنه ومبالغة فى حقهم على المحافظة عليه ﴿اذا لقيتم الذين كفروا زحفا﴾ الزحف الدبيب يقال زحف الصبى زحفا اذا دب على استه قليلا قليلا سمى به الجيش الداهم المتوجه الى العدو لانه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه يزحف وذلك لان الكل يرى كجسم واحد متصل فيحس حركته بالقياس اليه فى غاية البطء وان كانت فى نفس الأمر على غاية السرعة قال قائلهم

وأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج

ونصبه اما على أنه حال من مفعول لقيتم أى زاحفين نحوكم واما على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر هو الحال منه أى يزحفون زحفا وأما كونه حالا من فاعله أو منه ومن مفعوله معا كما قيل فيأباه قوله تعالى ﴿فلا تولوهم الادبار﴾ اذ لا معنى لتقييد النهى عن الادبار بتوجههم السابق الى العدو أو بكثرتهم بل توجه العدو اليهم وكثرتهم هو الداعى الى الادبار عادة والمحوج الى النهى عنه وحمله على الاشعار بما سيكون منهم يوم حنين حيث تولوا مدبرين وهم زحف من الزحوف اثنا عشر ألفا بعيد والمعنى اذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تولوهم أدباركم فضلا عن الفرار بل قابلوهم وقاتلوهم مع قلتكم فضلا عن أن تدانوهم فى العدد أو تساووهم ﴿ومن يولهم يومئذ﴾ أى يوم اللقاء ﴿دبره﴾ فضلا عن الفرار وقرىء بسكون الباء ﴿الا متحرفاً لقتال﴾ اما بالتوجه الى قتال طائفة أخرى أهم من هؤلاء واما بالفر للكر بأن يخيل عدوه أنه منهزم ليغره ويخرجه من بين أعوانه ثم يعطف عليه وحده أو مع من فى الكمين من أصحابه وهو باب من خدع الحرب ومكايدها ﴿أو متحيزا الى فئة﴾ أى منحازا الى جماعة أخرى من المؤمنين لينضم اليهم ثم يقاتل معهم العدو. عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ان سرية فروا وأنا معهم فلما رجعوا الى المدينة استحيوا ودخلوا البيوت فقلت يارسول الله نحن الفرارون فقال صلى الله عليه وسلم بل أنتم العكارون أى الكرارون من عكر أى رجع وأنا فئتكم وانهزم رجل من القادسية فأتى المدينة الى عمر رضى الله عنه فقال ياأمير المؤمنين هلكت ففررت من الزحف فقال رضى الله عنه أنا فئتك ووزن متحيز متفيعل لامتفعل والا لكان متحوزا لانه من حاز يحوز وانتصابهما اما على الحالية والا لغو لا عمل لها واما على الاستثناء من المولين أى ومن يولهم دبره الا رجلا منهم متحرفا أو متحيزا ﴿فقد باء﴾ أى رجع ﴿بغضب﴾ عظيم لايقادر قدره ومن فى قوله تعالى ﴿من الله﴾ متعلقة بمحذوف هو صفة لغضب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة والهول بالفخامة الاضافية أى بغضب كائن منه تعالى ﴿ومأواه جهنم﴾ أى بدل ما أراد بفراره أن يأوى اليه من مأوى ينجيه من القتل ﴿وبئس المصير﴾ فى ايقاع البوء فى موقع جواب الشرط الذى هو التولية مقرونا بذكر المأوى والمصير من الجزالة مالا مزيد عليه . عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الفرار من الزحف من أكبر

الكبائر وهذا اذا لم يكن العدو أكثر من الضعف لقوله تعالى الآن خفف الله عنكم الآية وقيل الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه فى الحرب ﴿فلم تقتلوهم﴾ رجوع الى بيان بقية أحكام الوقعة وأحوالها وتقرير ماسبق منها والفاء جواب شرط مقدر يستدعيه ما مر من ذكر امداده تعالى وأمره بالتثبيت وغير ذلك كأنه قيل اذا كان الأمر كذلك فلم تقتلوهم أنتم بقوتكم وقدرتكم ﴿ولكن الله قتلهم﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم والقاء الرعب فى قلوبهم ويجوز أن يكون التقدير اذا علمتم ذلك فلم تقتلوهم أى فاعلموا أو فاخبركم أنكم لم تقتلوهم وقيل التقدير ان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم على أحد التأويلين لما روى أنهم لما انصرفوا من المعركة غالبين غانمين أقبلوا يتفاخرون يقولون قتلت وأسرت وفعلت وتركت فنزلت وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين طلعت قريش من العقنقل قال هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم انى أسألك ما وعدتنى فأتاه جبريل عليه السلام فقال خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال لعلى رضى الله تعالى عنه أعطنى قبضة من حصباء الوادى فرمى بها فى وجوههم وقال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك الا شغل بعينيه فانهزموا وذلك قوله عز وجل بطريق تلوين الخطاب ﴿وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى﴾ تحقيقا لكون الرمى الظاهر على يده عليه الصلاة والسلام حينئذ من أفعاله عز وجل وتجريد الفعل عن المفعول به لما أن المقصود الأصلى بيان حال الرمى نفيا واثباتا اذ هو الذى ظهر منه ماظهر وهو المنشأ لتغير المرمى به فى نفسه وتكثره الى حيث أصاب عينى كل واحد من أولئك الأمة الجمة شىء من ذلك أى وما فعلت أنت يامحمد تلك الرمية المستتبعة لهذه الآثار العظيمة حقيقة حين فعلتها صورة والا لكان أثرها من جنس آثار الأفاعيل البشرية ولكن الله فعلها أى خلقها حين باشرتها لكن لا على نهج عادته تعالى فى خلق أفعال العباد بل على وجه غير معتاد ولذلك أثرت هذا التأثير الخارج عن طوق البشر ودائرة القوى والقدر فمدار اثباتها لله تعالى ونفيها عنه عليه الصلاة والسلام كون أثرها من أفعاله سبحانه لا من أفعاله عليه الصلاة والسلام وقرىء ولكن الله بالتخفيف والرفع فى المحلين واللام فى قوله تعالى ﴿وليبلى المؤمنين منه﴾ أى ليعطيهم من عنده تعالى ﴿بلاء حسنا﴾ أى عطاء جميلا غير مشوب بمقاساة الشدائد والمكاره اما متعلقة بمحذوف متأخر فالواو اعتراضية أى وللاحسان اليهم بالنصر والغنيمة فعل مافعل لا لشىء غير ذلك مما لا يجديهم نفعا واما برمى فالواو للعطف على علة محذوفة أى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلى الخ وقوله تعالى ﴿ان الله سميع﴾ أى لدعائهم واستغاثتهم ﴿عليم﴾ أى بنياتهم وأحوالهم الداعية الى الاجابة تعليل للحكم ﴿ذلكم﴾ اشارة الى البلاء الحسن ومحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى ﴿وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ بالاضافة معطوف عليه أى المقصد ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وابطال حيلهم وقيل المشار اليه القتل والرمى والمبتدأ الامر أى الامر ذلكم أى القتل فيكون قوله تعالى وأن الله الآية من قبيل عطف البيان وقرىء موهن بالتنوين مخففا ومشددا ونصب كيد الكافرين ﴿ان تستفتحوا﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم بهم وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين أى ان تستنصروا لأعلى الجندين ﴿فقد جاءكم الفتح﴾ حيث نصر أعلاهما وقد زعمتم أنكم الأعلى فالتهكم فى المجىء أو فقد جاءكم الهزيمة والقهر فالتهكم فى نفس الفتح حيث وضع موضع ما يقابله ﴿وان تنتهوا﴾ عما كنتم عليه من الحراب ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿فهو﴾ أى الانتهاء ﴿خير لكم﴾ أى من الحراب الذى ذقتم غائلته لما فيه من السلامة من القتل والأسر ومبنى اعتبار أصل الخيرية فى المفضل عليه هو التهكم ﴿وان تعودوا﴾ أى الى حرابه عليه الصلاة والسلام ﴿نعد﴾ لما شاهدتموه من الفتح ﴿ولن تغنى﴾ بالتاء الفوقانية وقرىء بالياء التحتانية لأن تأنيث الفئة

غير حقيقي وللفصل أي لن تدفع أبدا ﴿عنكم فئتكم﴾ جماعتكم التي تجمعونهم وتستعينون بهم ﴿شيئا﴾ أي من الاغناء أو من المضار وقوله تعالى ﴿ولو كثرت﴾ جملة حالية وقد مر التحقيق ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾ أي ولأن الله معين المؤمنين كان ذلك أو والأمر أن الله مع المؤمنين و يقرب منه بحسب المعنى قراءة الكسر على الاستئناف وقيل الخطاب للمؤمنين والمعنى ان تستنصروا فقد جاءكم النصر وان تنتهوا عن التكاسل والرغبة عما يرغب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو خير لكم من كل شيء لما أنه مناط لنيل سعادة الدارين وان تعودوا اليه نعد عليكم بالانكار وتهييج العدو ولن تغنى حينئذ كثرتكم اذا لم يكن الله معكم بالنصر والأمر أن الله مع الكاملين في الايمان ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا﴾ بطرح احدى التاءين وقرئ بادغامها ﴿عنه﴾ أي لا تتولوا عن الرسول فان المراد هو الأمر بطاعته والنهي عن الاعراض عنه وذكر طاعته تعالى للتمهيد والتنبيه على أن طاعته تعالى في طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام من يطع الرسول فقد أطاع الله وقيل الضمير للجهاد وقيل للامر الذي دل عليه الطاعة وقوله تعالى ﴿وأنتم تسمعون﴾ جملة حالية واردة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولي مطلقا كما في قوله تعالى فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون لا لتقييد النهي عنه بحال السماع كما في قوله تعالى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى أي لا تتولوا عنه والحال أنكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته والمواعظ الزاجرة عن مخالفته سماع فهم واذعان ﴿ولا تكونوا﴾ تقرير للنهي السابق وتحذير عن مخالفته بالتنبيه على أنها مؤدية الى انتظامهم في سلك الكفرة بكون سماعهم كلاسماع أي لا تكونوا بمخالفة الأمر والنهي ﴿كالذين قالوا سمعنا﴾ بمجرد الادعاء من غير فهم واذعان كالكفرة والمنافقين الذين يدعون السماع ﴿وهم لا يسمعون﴾ حال من ضمير قالوا أي قالوا ذلك والحال أنهم لا يسمعون حيث لا يصدقون ما سمعوه ولا يفهمونه حق فهمه فكأنهم لا يسمعونه رأسا ﴿ان شر الدواب﴾ استئناف مسوق لبيان كمال سوء حال المشبه بهم مبالغة في التحذير وتقريرا للنهي اثر تقرير أي ان شر ما يدب على الأرض أو شر البهائم ﴿عند الله﴾ أي في حكمه وقضائه ﴿الصم﴾ الذين لا يسمعون الحق ﴿البكم﴾ الذين لا ينطقون به وصفوا بالصمم والبكم لأن ما خلق له الاذن واللسان سماع الحق والنطق به وحيث لم يوجد فيهم شيء من ذلك صاروا كأنهم فاقدون للجارحتين رأسا وتقديم الصم على البكم لما أن صممهم متقدم على بكمهم فان السكوت عن النطق بالحق من فروع عدم سماعهم له كما أن النطق به من فروع سماعه ثم وصفوا بعدم التعقل فقيل ﴿الذين لا يعقلون﴾ تحقيقا لكمال سوء حالهم فان الأصم الأبكم اذا كان له عقل ربما يفهم بعض الأمور و يفهمه غيره بالاشارة و يهتدي بذلك الى بعض مطالبه وأما اذا كان فاقدا للعقل أيضا فهو الغاية في الشرية وسوء الحال و بذلك يظهر كونهم شرا من البهائم حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها و به يفضلون على كثير من خلق الله عز وجل فصاروا أخس من كل خسيس ﴿ولو علم الله فيهم خيرا﴾ شيئا من جنس الخير الذي من جملته صرف قواهم الى تحري الحق واتباع الهدى ﴿لأسمعهم﴾ سماع تفهم وتدبر ولوقفوا على حقية الرسول عليه الصلاة والسلام وأطاعوه وآمنوا به ولكن لم يعلم فيهم شيئا من ذلك لخلوهم عنه بالمرة فلم يسمعهم كذلك لخلوه عن الفائدة وخروجه عن الحكمة واليه أشير بقوله تعالى ﴿ولو أسمعهم لتولوا﴾ أي لو أسمعهم سماع تفهم وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلية لتولوا عما سمعوه من الحق ولم ينتفعوا به قط أو ارتدوا بعد ما صدقوه وصاروا كأن لم يسمعوه أصلا وقوله تعالى ﴿وهم معرضون﴾ اما حال من ضمير تولوا أي لتولوا على أدبارهم والحال أنهم معرضون عما سمعوه بقلوبهم واما اعتراض تذييلي أي وهم قوم عادتهم الاعراض وقيل كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحي قصيا فانه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك ونؤمن بك فالمعنى ولو أسمعهم كلام قصي الخ وقيل هم بنو عبد الدار بن قصي لم يسلم منهم الا مصعب بن

عمير وسويد بن حرملة كانوا يقولون نحن صم بكم عمى عما جاء به محمد لا نسمعه و لا نجيبه قاتلهم الله تعالى فقتلوا جميعا بأحد و كانوا أصحاب اللواء وعن ابن جريج أنهم المنافقون وعن الحسن رضى الله عنه أنهم أهل الكتاب ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ تكرير النداء مع وصفهم بنعت الايمان لتنشيطهم الى الاقبال على الامتثال بما يرد بعده من الأوامر وتنبيههم على أن فيهم ما يوجب ذلك ﴿استجيبوا لله وللرسول﴾ بحسن الطاعة ﴿اذا دعاكم﴾ أى الرسول اذ هو المباشر لدعوة الله تعالى ﴿لما يحييكم﴾ من العلوم الدينية التى هى مناط الحياة الأبدية كما أن الجهل مدار الموت الحقيق أو هى ماء حياة القلب كما أن الجهل موجب موته وقيل لمجاهدة الكفار لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم كما فى قوله تعالى ولكم فى القصاص حياة . روى أنه عليه الصلاة والسلام مر على أبى بن كعب وهو يصلى فدعاه فعجل فى صلاته ثم جاء فقال عليه الصلاة والسلام ما منعك من اجابتى قال كنت فى الصلاة قال ألم تخبر فيما أوحى الى استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم الخ واختلف فيه فقيل هذا من خصائص دعائه عليه الصلاة والسلام وقيل لأن اجابته عليه الصلاة والسلام لا تقطع الصلاة وقيل كان ذلك الدعاء لأمر مهم لا يحتمل التأخير وللمصلى أن يقطع الصلاة لمثله ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ تمثيل لغاية قربه تعالى من العبد كقوله تعالى ونحن أقرب اليه من حبل الوريد وتنبيه على أنه تعالى مطلع من مكنونات القلوب على ما عسى يغفل عنه صاحبها أو حث على المبادرة الى اخلاص القلوب وتصفيتها قبل ادراك المنية فانها حائلة بين المرء وقلبه أو تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه بحيث يفسخ عزائمه و يغير نياته ومقاصده و يحول بينه و بين الكفران أراد سعادته و يبدله بالأمن خوفا و بالذكر نسيانا وما أشبه ذلك من الأمور المعترضة المفوتة للفرصة وقرىء بين المر بتشديد الراء على حذف الهمزة والقاء حركتها على الراء واجراء الوصل مجرى الوقف ﴿وأنه﴾ أى الله عز وجل أو الشأن ﴿اليه تحشرون﴾ لا الى غيره فيجازيكم بحسب مراتب أعمالكم فسارعوا الى طاعته تعالى وطاعة رسوله و بالغوا فى الاستجابة لهما ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ أى لا تختص اصابتها بمن يباشر الظلم منكم بل يعمه وغيره كاقرار المنكر بين أظهرهم والمداهنة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل فى الجهاد على أن قوله لا تصيبن الخ اما جواب الأمر على معنى ان أصابتكم لا تصيبن الخ وفيه أن جواب الشرط متردد فلا يليق به النون المؤكدة لكنه لما تضمن معنى النهى ساغ فيه كقوله تعالى ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم واما صفة لفتنة و لا للنفى وفيه شذوذ لأن النون لا تدخل المنفى فى غير القسم أو للنهى على ارادة القول كقول من قال

حتى اذا جن الظلام واختلط جاؤا بمذق هل رأيت الذئب قط

واما جواب قسم محذوف كقراءة من قرأ لتصيبن وان اختلف المعنى فيهما وقد جوز أن يكون نهيا عن التعرض للظلم بعد الأمر باتقاء الذنب فان و باله يصيب الظالم خاصة و يعود عليه ومن فى منكم على الوجوه الأول للتبعيض وعلى الأخيرين للتبيين وفائدته التنبيه على أن الظلم منكم أقبح منه من غيركم ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ ولذلك يصيب بالعذاب من لم يباشر سببه ﴿واذكروا اذ أنتم قليل﴾ أى وقت كونكم قليلا فى العدد وايثار الجملة الاسمية للايذان باستمرار ما كانوا فيه من القلة وما يتبعها من الضعف والخوف وقوله تعالى ﴿مستضعفون﴾ خبر ثان أو صفة لقليل وقوله تعالى ﴿فى الأرض﴾ أى فى أرض مكة تحت أيدى قريش والخطاب للمهاجرين أو تحت أيدى فارس والروم والخطاب للعرب كافة فانهم كانوا أذلاء تحت أيدى الطائفتين وقوله تعالى ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ خبر ثالث أو صفة ثانية لقليل وصف بالجملة بعد ما وصف بالمفرد أو حال من المستكن فى مستضعفون والمراد بالناس على الاول وهو الاظهر اما كفار قريش واما كفار العرب لقربهم منهم وشدة عداوتهم لهم وعلى الثانى فارس والروم أى واذكروا وقت قلتكم وذلتكم

وهوانكم على الناس وخوفكم من اختطافهم ﴿فآواكم﴾ الى المدينة أوجعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم ﴿وأيدكم بنصره﴾ على الكفار أو بمظاهرة الانصار أو بامداد الملائكة ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ من الغنائم ﴿لعلكم تشكرون﴾ هذه النعم الجليلة ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول﴾ أصل الخون النقص كما أن أصل الوفاء التمام واستعماله فى ضد الأمانة لتضمنه اياه أى لاتخونوهما بتعطيل الفرائض والسنن أو بأن تضمروا خلاف ماتظهرون أو فى الغلول فى الغنائم روى أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بنى قريظة احدى وعشرين ليلة فسألوا الصلح كما صالح بنى النضير على أن يسيروا الى اخوانهم بأذرعات وأريحاء من الشام فأبى الا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه فأبوا وقالوا أرسل الينا أبا لبابة وكان مناصحا لهم لما أن ماله وعياله كانا فى أيديهم فبعثه اليهم فقالوا ماترى هل ننزل على حكم سعد فأشار الى حلقه انه الذبح قال أبو لبابة فما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله فنزلت فشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على فمكث سبعة أيام حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له قد تيب عليك فحل نفسك قال لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى فجاءه عليه الصلاة والسلام فحله فقال ان من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى فقال عليه الصلاة والسلام يجزئك الثلث ان تتصدق به ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ فيما بينكم وهو مجزوم معطوف على الاول أومنصوب على الجواب بالواو ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنكم تخونون أو وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ لانها سبب الوقوع فى الاثم والعقاب أو محنة من الله عز وجل ليبلوكم فى ذلك فلايحملنكم حبهما على الخيانة كأبى لبابة ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ لمن آثر رضاه تعالى عليهما وراعى حدوده فيهما فنيطوا هممكم بما يؤديكم اليه ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ تكرير الخطاب والوصف بالايمان لاظهار كمال العناية بما بعده والايذان بأنه مما يقتضى الايمان مراعاته والمحافظة عليه كما فى الخطابين السابقين ﴿ان تتقوا الله﴾ أى فى كل ما تأتون وما تذرون ﴿يجعل لكم﴾ بسبب ذلك ﴿فرقانا﴾ هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل أونصرا يفرق بين المحق والمبطل باعزاز المؤمنين واذلال الكافرين أو مخرجا من الشبهات أو نجاة عما تحذرون فى الدارين أو ظهورا يشهر أمركم وينشر صيتكم من قولهم بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان أى الصبح ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ أى يسترها ﴿ويغفر لكم﴾ ذنوبكم بالعفو والتجاوز عنها وقيل السيئات الصغائر والذنوب الكبائر وقيل المراد ما تقدم وما تأخر لانها فى أهل بدر وقد غفرهما الله تعالى لهم وقوله تعالى ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ تعليل لما قبله وتنبيه على أن ما وعده الله تعالى لهم على التقوى تفضل منه واحسان لا أنه مما يوجبه التقوى كما اذا وعد السيد عبده انعاما على عمل ﴿واذ يمكر بك الذين كفروا﴾ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم معطوف على قوله تعالى واذكروا اذ أنتم الخ مسوق لتذكير النعمة الخاصة به صلى الله عليه وسلم بعد تذكير النعمة العامة للكل أى واذكر وقت مكرهم بك ﴿ليثبتوك﴾ بالوثاق ويعضده قراءة من قرأ ليقيدوك أو الاثخان بالجرح من قولهم ضربه حتى أثبته لا حراك به ولا براح وقرئ ليثبتوك بالتشديد وليبيتوك من البيات ﴿أو يقتلوك﴾ أى بسيوفهم ﴿أو يخرجوك﴾ أى من مكة وذلك أنهم لما سمعوا باسلام الانصار ومبايعتهم له عليه الصلاة والسلام فرقوا واجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون فى أمره صلى الله عليه وسلم فدخل ابليس عليهم فى صورة شيخ وقال أنا من نجد سمعت باجتماعكم فاردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا فقال أبو البحترى رأيى أن تحبسوه فى بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون اليه طعامه وشرابه منها حتى يموت فقال الشيخ بئس الرأى يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم فقال هشام بن عمرو رأيى أن

تحملوه على جمل وتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع فقال و بئس الرأى يفسد قوما غيركم و يقاتلكم بهم فقال أبوجهل أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه فى القبائل فلا يقوى بنوهاشم على حرب قريش كلهم فاذا طلبوا العقل عقلناه فقال صدق هذا الفتى فتفرقوا على رأيه فأتى جبريل النبى عليهما الصلاة والسلام وأخبره بالخبر وأمره بالهجرة فبيت عليا رضى الله تعالى عنه على مضجعه وخرج هو مع أبى بكر رضى الله عنه الى الغار ﴿ و يمكرون و يمكر الله ﴾ أى يرد مكرهم عليهم أو يجازيهم عليه أو يعاملهم معاملة الماكرين وذلك بأن أخرجهم الى بدر وقال المسلمين فى أعينهم حتى حملوا عليهم فلقوا منهم ما لقوا ﴿ والله خير الماكرين ﴾ لا يعبأ بمكرهم عند مكره واسناد أمثال هذا اليه سبحانه مما يحسن للمشاكلة و لا مساغ له ابتداء لما فيه من ايهام مالا يليق به سبحانه ﴿ واذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ التى حقها أن يخرلها صم الجبال ﴿ قالوا قد سمعنا لونشاء لقلنا مثل هذا ﴾ قاله اللعين النضر بن الحرث واسناده الى الكل لما أنه كان رئيسهم وقاضيهم الذى يقولون بقوله و يأخذون برأيه وقيل قاله الذين ائتمروا فى أمره صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة وهذا كما ترى غاية المكابرة ونهاية العناد كيف لا و لو استطاعوا شيئا من ذلك فما الذى كان يمنعهم من المشيئة وقد تحدوا عشر سنين وقرعوا على العجز وذاقوا من ذلك الأمرين ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوا بما سواه مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا لاسيما فى باب البيان ﴿ ان هذا الا أساطير الأولين ﴾ أى ما يسطرونه من القصص ﴿ واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ هذا أيضا من أباطيل ذلك اللعين . روى أنه لما قال ان هذا الا أساطير الأولين قال له النبى صلى الله عليه وسلم و يلك انه كلام الله تعالى فقال ذلك والمعنى ان القرآن ان كان حقا منزلا من عندك فأمطر علينا الحجارة عقوبة على انكارنا أو ائتنا بعذاب أليم سواه والمراد منه التهكم واظهار اليقين والجزم التام على أنه ليس كذلك وحاشاه وقرىء الحق بالرفع على أن هو مبتدأ لا فصل وفائدة التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقا على الوجه الذى يدعيه صلى الله عليه وسلم وهو تنزيله لا الحق مطلقا لتجويزهم أن يكون مطابقا للواقع غير منزل كالأساطير ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للموجب لامهالهم والتوقف فى اجابة دعائهم واللام لتأكيد النفى والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبى عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم خارج عن عادته تعالى غير مستقيم فى حكمه وقضائه والمراد باستغفارهم فى قوله تعالى ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ اما استغفار من بقى منهم من المؤمنين أو قولهم اللهم اغفر أو فرضه على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله تعالى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴿ ومالهم أن لا يعذبهم الله ﴾ بيان لاستحقاقهم العذاب بعد بيان أن المانع ليس من قبلهم أى ومالهم مما يمنع تعذيبهم متى زال ذلك وكيف لا يعذبون ﴿ وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ أى وحالهم ذلك ومن صدهم عنه الجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الهجرة واحصارهم عام الحديبية ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ حال من ضمير يصدون مفيدة لكمال قبح ما صنعوا من الصد فان مباشرتهم للصد عنه مع عدم استحقاقهم لولاية أمره فى غاية القبح وهو رد لما كانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء ﴿ ان أولياؤه الا المتقون ﴾ من الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره تعالى ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أنه لا ولاية لهم عليه وفيه اشعار بأن منهم من يعلم ذلك ولكنه يعاند وقيل أريد بأكثرهم كلهم كما يراد بالقلة العدم ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت ﴾ أى دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة أو ما يضعون موضعها ﴿ الا مكاء ﴾ أى صفيرا فعال من مكا يمكو اذا صفر وقرىء بالقصر كالبكى ﴿ وتصدية ﴾ أى تصفيقا تفعلة من الصدى أو من الصد على ابدال أحد حرفى التضعيف بالياء وقرىء صلاتهم بالنصب على أنه الخبر

لكان ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب أوعدم ولايتهم للمسجد فانها لاتليق بمن هذه صلاته . روى أنهم كانوا يطوفون عراة الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها و يصفقون وقيل كانوا يفعلون ذلك اذا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلى يخلطون عليه و يرون أنهم يصلون أيضا ﴿فذوقوا العذاب﴾ أى القتل والاسر يوم بدر وقيل عذاب الآخرة واللام يحتمل أن تكون للعهد والمعهود ائتنا بعذاب أليم ﴿بما كنتم تكفرون﴾ اعتقادا وعملا ﴿ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ نزلت فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا من قريش يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر أو فى أبى سفيان استأجر ليوم أحد ألفين سوى من استجاش من العرب وأنفق فيهم أربعين أوقية أو فى أصحاب العير فانه لما أصيب قريش يوم بدر قيل لهم أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك ثأرنا منه ففعلوا والمراد بسبيل الله دينه واتباع رسوله ﴿فسينفقونها﴾ بتمامها ولعل الأول اخبار عن انفاقهم فى تلك الحال وهو انفاق يوم بدر والثانى اخبار عن انفاقهم فيما يستقبل وهو انفاق يوم أحد ويحتمل أن يراد بهما واحد على أن مساق الأول لبيان الغرض من الانفاق ومساق الثانى لبيان عاقبته وأنه لم يقع بعد ﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾ ندما وغما لفواتها من غير حصول المقصود جعل ذاتها حسرة وهى عاقبة انفاقها مبالغة ﴿ثم يغلبون﴾ آخر الامر وان كان الحرب بينهم سجالا قبل ذلك ﴿والذين كفروا﴾ أى ثبتوا على الكفر وأصروا عليه ﴿الى جهنم يحشرون﴾ أى يساقون لا الى غيرها ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ أى الكافر من المؤمن أو الفساد من الصلاح واللام متعلقة بيحشرون أو بيغلبون أو ما أنفقه المشركون فى عداوته صلى الله عليه وسلم مما أنفقه المسلمون فى نصرته واللام متعلقة بقوله ثم تكون عليهم حسرة وقرئ ليميز بالتشديد للمبالغة ﴿و يجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا﴾ أى يضم بعضه الى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم فيجمعه أو يضم الى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابه كما للكافرين ﴿فيجعله فى جهنم﴾ كله ﴿أولئك﴾ اشارة الى الخبيث اذ هو عبارة عن الفريق أو الى المنفقين ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم فى الخبث ﴿هم الخاسرون﴾ الكاملون فى الخسران لانهم خسروا أنفسهم وأموالهم ﴿قل للذين كفروا﴾ هم أبو سفيان وأصحابه أى قل لأجلهم ﴿ان ينتهوا﴾ عما هم فيه من معاداة النبى صلى الله عليه وسلم بالدخول فى الاسلام ﴿يغفر لهم ماقد سلف﴾ من الذنوب وقرئ ان تنتهوا يغفر لكم و يغفر لكم على البناء للفاعل وهو الله تعالى ﴿وان يعودوا﴾ الى قتاله ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ الذين تحزبوا على الانبياء عليهم السلام بالتدمير كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك ﴿وقاتلوهم﴾ عطف على قل وقد عمم الخطاب لزيادة ترغيب المؤمنين فى القتال لتحقيق ما يتضمنه قوله تعالى فقد مضت سنة الأولين من الوعيد ﴿حتى لاتكون فتنة﴾ أى لا يوجد منهم شرك ﴿ويكون الدين كله لله﴾ وتضمحل الأديان الباطلة اما باهلاك أهلها جميعا أو برجوعهم عنها خشية القتل ﴿فان انتهوا﴾ عن الكفر بقتالكم ﴿فان الله بما يعملون بصير﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه واسلامهم وقرئ بتاء الخطاب أى بما تعملون من الجهاد المخرج لهم الى الاسلام وتعليقه بانتهائهم للدلالة على أنهم يثابون بالسببية كما يثاب المباشرون بالمباشرة ﴿وان تولوا﴾ ولم ينتهوا عن ذلك ﴿فاعلموا أن الله مولاكم﴾ ناصركم فثقوا به ولاتبالوا بمعاداتهم ﴿نعم المولى﴾ لايضيع من تولاه ﴿ونعم النصير﴾ لايغلب من نصره ﴿واعلموا أنما غنمتم﴾ عن الكلبى أنها نزلت ببدر وقال الواقدى كان الخمس فى غزوة بنى قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة وما موصولة وعائدها محذوف أى الذى أصبتموه من الكفار عنوة وأصل الغنيمة اصابة الغنم من العدو ثم اتسع وأطلق على كل ما أصيب منهم كائنا ما كان وقوله تعالى ﴿من شئ﴾ بيان للموصول

محله النصب على أنه حال من عائد الموصول قصد به الاعتناء بشأن الغنيمة وأن لا يشذ عنها شئ أى ما غنمتموه كائنا مما يقع عليه اسم الشئ حتى الخيط والمخيط خلا أن سلب المقتول للقاتل اذا نفله الامام وأن الاسارى يخير فيها الامام وكذا الاراضى المغنومة وقوله تعالى ﴿فأن لله خمسه﴾ مبتدأ خبره محذوف أى فحق أو واجب أن له تعالى خمسه وهذه الجملة خبر لأنما الخ وقرئ بالكسر والاولى آكد وأقوى فى الايجاب لما فيه من تكرر الاسناد كأنه قيل فلا بد من ثبات الخمس ولا سبيل الى الاخلال به وقرئ فلله خمسه وقرئ خمسه بسكون الميم والجمهور على أن ذكر الله تعالى للتعظيم كما فى قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وأن المراد قسمة الخمس على المعطوفين عليه بقوله تعالى ﴿وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ واعادة اللام فى ذى القربى دون غيرهم من الاصناف الثلاثة لدفع توهم اشتراكهم فى سهم النبى صلى الله عليه وسلم لمزيد اتصالهم به عليه الصلاة والسلام وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون بنى عبد شمس وبنى نوفل لما روى عن عثمان وجبير بن مطعم رضى الله عنهما أنهما قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء اخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذى جعلك الله منهم أرأيت اخواننا بنى المطلب أعطيتهم وحرمتنا وانما نحن وهم بمنزلة واحدة فقال صلى الله عليه وسلم انهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا اسلام انما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد وشبك بين أصابعه وكيفية قسمتها عندنا أنها كانت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم سهم له عليه الصلاة والسلام وسهم للمذكورين من ذوى قرباه وثلاثة أسهم للاصناف الثلاثة الباقية وأما بعده صلى الله عليه وسلم فسهمه ساقط وكذا سهم ذوى القربى وانما يعطون لفقرهم فهم أسوة لسائر الفقراء ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على الاصناف الثلاثة ويؤيده ما روى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه منع بنى هاشم الخمس وقال انما لكم أن يعطى فقيركم وتزوج أيمكم ويخدم من لا خادم له منكم ومن عداهم فهو بمنزلة ابن السبيل الغنى لا يعطى من الصدقة شيأ وعن زيد بن على مثله قال ليس لنا أن نبنى منه قصورا ولا نركب منه البراذين وقيل سهم الرسول صلى الله عليه وسلم لولى الامر بعده وأما عند الشافعى رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف الى ما كان يصرفه عليه الصلاة والسلام من مصالح المسلمين كعدة الغزاة من الكراع والسلاح ونحو ذلك وسهم لذوى القربى من أغنيائهم وفقرائهم يقسم بينهم للذكر مثل حظ الانثيين والباقى للفرق الثلاث وعند مالك رحمه الله الامر فيه مفوض الى اجتهاد الامام ان رأى قسمه بين هؤلاء وان رأى أعطاه بعضا منهم دون بعض وان رأى غيرهم أولى وأهم فغيرهم وتعلق أبو العالية بظاهر الآية الكريمة فقال يقسم ستة أسهم ويصرف سهم الله تعالى الى رتاج الكعبة لما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ منه قبضة فيجعلها لمصالح الكعبة ثم يقسم ما بقى على خمسة أسهم وقيل سهم الله لبيت المال وقيل هو مضموم الى سهم الرسول عليه الصلاة والسلام هذا شأن الخمس وأما الاخماس الاربعة فتقسم بين الغانمين للراجل سهم وللفارس سهمان عند أبى حنيفة رضى الله عنه وثلاثة أسهم عندهما رحمهما الله . قال القرطبى لما بين الله تعالى حكم الخمس وسكت عن الباقى دل ذلك على أنه ملك للغانمين وقوله تعالى ﴿ان كنتم آمنتم بالله﴾ متعلق بمحذوف ينبئ عنه المذكور أى ان كنتم آمنتم به تعالى فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به الى الله تعالى فاقطعوا أطماعكم منه واقتنعوا بالاخماس الاربعة وليس المراد به مجرد العلم بذلك بل العلم المشفوع بالعمل والطاعة لامره تعالى ﴿وما أنزلنا﴾ عطف على الاسم الجليل أى ان كنتم آمنتم بالله وبما أنزلناه ﴿على عبدنا﴾ وقرئ عبدنا وهو اسم جمع أريد به الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنون فان بعض ما نزل نازل عليهم بالذات كما ستعرفه ﴿يوم الفرقان﴾ يوم بدر سمى به لفرقه بين الحق والباطل وهو منصوب بأنزلنا أو بآمنتم ﴿يوم التقى الجمعان﴾ أى الفريقان من المؤمنين والكافرين

وهو بدل من يوم الفرقان أو منصوب بالفرقان والمراد ما أنزل عليه عليه الصلاة والسلام يومئذ من الوحى والملائكة والفتح على أن المراد بالانزال مجرد الايصال والتيسير فينتظم الكل انتظاما حقيقيا وجعل الايمان بانزال هذه الاشياء من موجبات العلم بكون الخمس لله تعالى على الوجه المذكور من حيث ان الوحى ناطق بذلك وان الملائكة والفتح لما كانا من جهته تعالى وجب أن يكون ماحصل بسببهما من الغنيمة مصروفة الى الجهات التى عينها الله تعالى ﴿ والله على كل شئ قدير ﴾ يقدر على نصر القليل على الكثير والذليل على العزيز كما فعل بكم ذلك اليوم ﴿ اذ أنتم بالعدوة الدنيا ﴾ بدل ثان من يوم الفرقان والعدوة بالضم شط الوادى وكذا بالفتح والكسر وقد قرئ بهما أيضا ﴿ وهم بالعدوة القصوى ﴾ أى البعدى من المدينة وهى تأنيث الاقصى وكان القياس قلب الواو ياء كالدنيا والعليا مع كونهما من بنات الواو لكنها جاءت على الاصل كالقود واستصوب وهو أكثر استعمالا من القصيا ﴿ والركب ﴾ أى العير أو قوادها ﴿ أسفل منكم ﴾ أى فى مكان أسفل من مكانكم يعنى الساحل وهو نصب على الظرفية واقع موقع الخبر والجملة حال من الظرف قبله وفائدتها الدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب وحرصهم على المقاتلة عنها وتوطين نفوسهم على أن لايخلوا مراكزهم ويبذلوا منتهى جهدهم وضعف شأن المسلمين والتياث أمرهم واستبعاد غلبتهم عادة وكذا ذكر مراكز الفريقين فان العدوة الدنيا كانت رخوة تسوخ فيها الارجل ولا يمشى فيها الا بتعب ولم يكن فيها ماء بخلاف العدوة القصوى وكذا قوله تعالى ﴿ ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ﴾ أى لو تواعدتم أنتم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلفتم أنتم فى الميعادهيبة منهم ويأسا من الظفر عليهم ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس الا صنعا من الله عز وجل خارقا للعادات فيزدادوا ايمانا وشكرا وتطمئن نفوسهم بفرض الخمس ﴿ ولكن ﴾ جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد ﴿ ليقضى الله أمرا كان مفعولا ﴾ حقيقا بأن يفعل من نصر أوليائه وقهر أعدائه أو مقدرا فى الازل وقوله تعالى ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ﴾ بدل منه أو متعلق بمفعولا أى ليموت من يموت عن بينة عاينها ويعيش من يعيش عن بينة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعذرة فان وقعة بدر من الآيات الواضحة أو ليصدر كفر من كفر وايمان من آمن عن وضوح بينة على استعارة الهلاك والحياة للكفر والايمان والمراد بمن هلك ومن حى المشارف للهلاك والحياة أو من حاله فى علم الله تعالى الهلاك والحياة وقرئ ليهلك بالفتح وحيى بفك الادغام حملا على المستقبل ﴿ وان الله لسميع عليم ﴾ أى بكفر من كفر وعقابه وايمان من آمن وثوابه ولعل الجمع بين الوصفين لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد ﴿ اذ يريكهم الله فى منامك قليلا ﴾ منصوب باذكر أو بدل آخر من يوم الفرقان أو متعلق بعليم أى يعلم المصالح اذ يقللهم فى عينك فى رؤياك وهو أن تخبر به أصحابك فيكون تثبيتا لهم وتشجيعا على عدوهم ﴿ ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ﴾ أى لجبنتم وهبتم الاقدام ﴿ ولتنازعتم فى الامر ﴾ أى أمر القتال وتفرقت آراؤكم فى الثبات والفرار ﴿ ولكن الله سلم ﴾ أى أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿ انه عليم بذات الصدور ﴾ يعلم ماسيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع ولذلك دبر مادبر ﴿ واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ﴾ منصوب بمضمر خوطب به الكل بطريق التلوين والتعميم معطوف على المضمر السابق والضميران مفعولا يرى وقليلا حال من الثانى وانما قللهم فى أعين المسلمين حتى قال ابن مسعود رضى الله عنه لمن الى جنبه أتراهم سبعين فقال أراهم مائة تثبيتا لهم وتصديقا لرؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ ويقللكم فى أعينهم ﴾ حتى قال أبوجهل انما أصحاب محمد أكلة جزور قللهم فى أعينهم قبل التحام القتال ليجترئوا عليهم ولا يستعدوا لهم ثم كثرهم حتى رأوهم مثليهم لتفاجئهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا وهذه من عظائم آيات تلك الوقعة فان البصر قد يرى الكثير قليلا والقليل كثيرا لكن لا على هذا الوجه ولا الى هذا الحد وانما ذلك بصد الله تعالى الابصار عن

ابصار بعض دون بعض مع التساوى فى الشرائط ﴿ليقضى الله أمرا كان مفعولا﴾ كرر لاختلاف الفعل المعلل به أو لأن المراد بالأمر ثمة الالتقاء على الوجه المذكور وههنا اعزاز الاسلام وأهله واذلال الكفر وحزبه ﴿والى الله ترجع الأمور﴾ كلها يصرفها كيفما يريد لا راد لأمره ولا معقب لحكمه وهو الحكيم المجيد ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ صدر الخطاب بحرفى النداء والتنبيه اظهارا لكمال الاعتناء بمضمون ما بعده ﴿اذا لقيتم فئة﴾ أى حاربتم جماعة من الكفرة وانما لم يوصفوا بالكفر لظهور أن المؤمنين لايحاربون الا الكفرة واللقاء مما غلب فى القتال ﴿فاثبتوا﴾ أى للقائهم فى مواطن الحرب ﴿واذكروا الله كثيرا﴾ أى فى تضاعيف القتال مستمدين منه مستعينين به مستظهرين بذكره مترقبين لنصره ﴿لعلكم تفلحون﴾ أى تفوزون بمرامكم وتظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة وفيه تنبيه على أن العبد ينبغى أن لايشغله شىء عن ذكر الله تعالى وأن يلتجىء اليه عند الشدائد ويقبل اليه بكليته فارغ البال واثقا بأن لطفه لاينفك عنه فى حال من الأحوال ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ فى كل ما تأتون وما تذرون فيندرج فيه ما أمروا به ههنا اندراجا أوليا ﴿ولاتنازعوا﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر أو أحد ﴿فتفشلوا﴾ جواب للنهى وقيل عطف عليه ﴿وتذهب ريحكم﴾ بالنصب عطف على جواب النهى وقرىء بالجزم على تقدير عطف فتفشلوا على النهى أى تذهب دولتكم وشوكتكم فانها مستعارة للدولة من حيث انها فى تمشى أمرها ونفاذه مشبهة بها فى هبوبها وجريانها وقيل المراد بها الحقيقة فان النصرة لاتكون الا بريح يبعثها الله تعالى وفى الحديث نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور ﴿واصبروا﴾ على شدائد الحرب ﴿ان الله مع الصابرين﴾ بالنصرة والكلاءة وما يفهم من كلمة مع من أصالتهم انما هى من حيث انهم المباشرون للصبر فهم متبعون من تلك الحيثية ومعيته تعالى انما هى من حيث الامداد والاعانة ﴿ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم﴾ بعد ما أمروا بما أمروا به من أحاسن الأعمال ونهوا عما يقابلها من قبائحها والمراد بهم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير ﴿بطرا﴾ أى فخرا وأشرا ﴿ورئاء الناس﴾ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة وذلك أنهم لما بلغوا جحفة أتاهم رسول أبى سفيان وقال ارجعوا فقد سلمت عيركم فأبوا الا اظهار آثار الجلادة فلقوا ما لقوا حسبما ذكر فى أوائل السورة الكريمة فنهى المؤمنون أن يكونوا أمثالهم مرائين بطرين وأمروا بالتقوى والاخلاص من حيث ان النهى عن الشىء مستلزم للامر بضده ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ عطف على بطرا ان جعل مصدرا فى موضع الحال وكذا ان جعل مفعولا له لكن على تأويل المصدر ﴿والله بما يعملون محيط﴾ فيجازيهم عليه ﴿واذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ منصوب بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين أى واذكر وقت تزيين الشيطان أعمالهم فى معاداة المؤمنين وغيرها بأن وسوس اليهم ﴿وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم﴾ أى ألقى فى روعهم وخيل اليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون لكثرة عددهم وعددهم وأوهمهم أن اتباعهم اياه فيما يظنون أنها قربات مجير لهم حتى قالوا اللهم انصر احدى الفئتين وأفضل الدينين ولكم خبر لاغالب أو صفته وليس صلته والالانتصب كقولك لاضاربا زيدا عندنا ﴿فلما تراءت الفئتان﴾ أى تلاقى الفريقان ﴿نكص على عقبيه﴾ رجع القهقرى أى بطل كيده وعاد ما خيل اليهم أنه مجيرهم سببا لهلاكهم ﴿وقال انى برىء منكم انى أرى ما لا ترون انى أخاف الله﴾ أى تبرأ منهم وخاف عليهم ويئس من حالهم لما رأى امداد الله تعالى للمسلمين بالملائكة وقيل لما اجتمعت قريش على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الاحنة فكاد ذلك يثنيهم فتمثل لهم ابليس فى صورة سراقة بن مالك الكنانى وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وانى مجيركم من كنانة فلما رأى الملائكة تنزل نكص وكان يده فى يد الحرث بن هشام فقال له الى أين أتخذلنا فى هذه الحالة فقال انى أرى مالا ترون ودفع فى صدر الحرث وانطلق فانهزموا

فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغه ذلك فقال والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قوله انى أخاف الله أخافه أن يصيبنى بمكروه من الملائكة أو يهلكنى ويكون الوقت هو الوقت الموعود اذ رأى فيه مالم يره قبله والأول ما قاله الحسن واختاره ابن بحر ﴿ والله شديد العقاب ﴾ يجوز أن يكون من كلامه أو مستأنفا من جهة الله عز وجل ﴿ اذ يقول المنافقون ﴾ منصوب بزين أو بنكص أو بشديد العقاب ﴿ والذين فى قلوبهم مرض ﴾ أى الذين لم تطمئن قلوبهم بالايمان بعد و بقى فيها نوع شبهة وقيل هم المشركون وقيل هم المنافقون فى المدينة والعطف لتغاير الوصفين كما فى قوله

يالهف زيابة للحارث الصابح فالغانم فالآيب

﴿ غر هؤلاء ﴾ يعنون المؤمنين ﴿ دينهم ﴾ حتى تعرضوا لما لا طاقه لهم به فخرجوا وهم ثلثمائة و بضعة عشر الى زهاء ألف ﴿ ومن يتوكل على الله ﴾ جواب لهم من جهته تعالى و رد لمقالتهم ﴿ فان الله عزيز ﴾ غالب لايذل من توكل عليه واستجاربه وان قل ﴿ حكيم ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما تستبعده العقول وتحار فى فهمه ألباب الفحول وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه ﴿ ولو ترى ﴾ أى ولو رأيت فان لو الامتناعية ترد المضارع ماضيا كما أن ان ترد الماضى مضارعا والخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى ولو ترى اذ وقفوا على النار وكلمة اذ فى قوله تعالى ﴿ اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ ظرف لترى والمفعول محذوف أى و لو ترى الكفرة أو حال الكفرة حين يتوفاهم الملائكة ببدر وتقديم المفعول للاهتمام به وقيل الفاعل ضمير عائد الى الله عز وجل والملائكة مبتدأ وقوله تعالى ﴿ يضربون وجوههم ﴾ خبره والجملة حال من الموصول قد استغنى فيها بالضمير عن الواو وهو على الأول حال منه أو من الملائكة أو منهما لاشتماله على ضميريهما ﴿ وأدبارهم ﴾ أى وأستاههم أو ما أقبل منهم وما أدبر من الأعضاء ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ على ارادة القول معطوفا على يضربون أو حالا من فاعله أى و يقولون أو قائلين ذوقوا بشارة لهم بعذاب الآخرة وقيل كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا التهبت النار منها وجواب لو محذوف للايذان بخروجه عن حدود البيان أى لرأيت أمرا فظيعا لايكاد يوصف ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى ما ذكر من الضرب والعذاب ومافيه من معنى البعد للاشعار بكونهما فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره ﴿ بما قدمت أيديكم ﴾ أى ذلك الضرب والعذاب واقع بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصى ومحل أن فى قوله ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفى الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعا على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا قد مر تحقيقه فى سورة آل عمران والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبلها وأما ماقيل من أنها معطوفة على ما للدلالة على أن سببيته مقيدة بانضمامه اليه اذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم فليس بسديد لما أن امكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب بل وقوعه لاينافى كون تعذيب هؤلاء الكفرة المعينة بسبب ذنوبهم حتى يحتاج الى اعتبار عدمه معه نعم لو كان المدعى كون جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذبين لاحتيج الى ذلك ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ فى محل الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف والجملة استئناف مسوق لبيان أن ماحل بهم من العذاب بسبب كفرهم لا بشىء آخر من جهة غيرهم بتشبيه حالهم بحال المعروفين بالاهلاك بسبب جرائمهم لزيادة تقبيح حالهم وللتنبيه على أن ذلك سنة مطردة فيما بين الأمم المهلكة أى شأنهم الذى استمروا عليه مما فعلوا وفعل بهم من الأخذ كدأب آل فرعون المشهورين بقباحة الأعمال وفظاعة العذاب والنكال ﴿ والذين من قبلهم ﴾ أى من قبل آل فرعون من الأمم التى فعلوا

من المعاصى مافعلوا ولقوا من العقاب مالقوا كقوم نوح وعاد وأضرابهم من أهل الكفر والعناد وقوله تعالى ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ تفسير لدأبهم الذى فعلوه لا لدأب آل فرعون ونحوهم كما قيل فان ذلك معلوم منه بقضية التشبيه وقوله تعالى ﴿ فأخذهم الله ﴾ تفسير لدأبهم الذى فعل بهم والفاء لبيان كونه من لوازم جناياتهم وتبعاتها المتفرعة عليها وقوله تعالى ﴿ بذنوبهم ﴾ لتأكيد ما أفاده الفاء من السببية مع الاشارة الى أن لهم مع كفرهم ذنوبا أخر لها دخل فى استتباع العقاب ويجوز أن يكون المراد بذنوبهم معاصيهم المتفرعة على كفرهم فتكون الباء للملابسة أى فأخذهم ملتبسين بذنوبهم غير تائبين عنها فدأبهم مجموع مافعلوا وفعل بهم لا مافعلوه فقط كما قيل قال ابن عباس رضى الله عنهما ان آل فرعون أيقنوا أن موسى عليه السلام نبى الله فكذبوه كذلك هؤلاء جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق فكذبوه فأنزل الله تعالى بهم عقوبته كما أنزل بآل فرعون وجعل العذاب من جملة دأبهم مع أنه ليس مما يتصور مداومتهم عليه واعتيادهم اياه كما هو المعتبر فى مدلول الدأب اما لتغليب مافعلوه على مافعل بهم أو لتنزيل مداومتهم على مايوجبه من الكفر والمعاصى منزلة مداومتهم عليه لما بينهما من الملابسة التامة وقوله تعالى ﴿ ان الله قوى شديد العقاب ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ماقبله من الأخذ وقوله تعالى ﴿ ذلك ﴾ الخ استئناف مسوق لتعليل مايفيده النظم الكريم من كون ماحل بهم من العذاب منوطا بأعمالهم السيئة غير واقع بلا سابقة مايقتضيه وهو المشار اليه لا نفس ماحل بهم من العذاب والانتقام كما قيل فانه مع كونه معللا بما ذكر من كفرهم وذنوبهم لا يتصور تعليله بجريان عادته تعالى على عدم تغيير نعمته على قوم قبل تغييرهم لحالهم وتوهم أن السبب ليس ماذكر كما هو منطوق النظم الكريم بل مايستفاد من مفهوم الغاية من جريان عادته تعالى على تغيير نعمتهم عند تغيير حالهم بناء على تخيل أن المعلل ترتب عقابهم على كفرهم من غير تخلف عنه ركوب شطط هائل وابعاد عن الحق بمراحل وتهوين لأمر الكفر بآيات الله واسقاط له عن رتبة ايجاب العقاب فى مقام تهويله والتحذير منه فالمعنى ذلك أى ترتب العقاب على أعمالهم السيئة دون أن يقع ابتداء مع قدرته تعالى على ذلك ﴿ بأن الله ﴾ أى بسبب أنه تعالى ﴿ لم يك ﴾ فى حد ذاته ﴿ مغيرا نعمة أنعمها ﴾ أى لم ينبغ له سبحانه ولم يصح فى حكمته أن يكون بحيث يغير نعمة أنعم بها ﴿ على قوم ﴾ من الاقوام أى نعمة كانت جلت أو هانت ﴿ حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ من الأعمال والأحوال التى كانوا عليها وقت ملابستهم بالنعمة ويتصفوا بما ينافيها سواء كانت أحوالهم السابقة مرضية صالحة أو قريبة من الصلاح بالنسبة الى الحادثة كدأب هؤلاء الكفرة حيث كانوا قبل البعثة كفرة عبدة أصنام مستمرين على حالة مصححة لافاضة نعمة الامهال وسائر النعم الدنيوية عليهم فلما بعث اليهم النبى صلى الله عليه وسلم بالبينات غيروها الى أسوأ منها وأسخط حيث كذبوه عليه الصلاة والسلام وعادوه ومن تبعه من المؤمنين وتحزبوا عليهم يبغونهم الغوائل فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الامهال وعاجلهم بالعذاب والنكال وأصل يك يكن فحذفت النون تخفيفا لشبهها بالحروف اللينة ﴿ وأن الله سميع عليم ﴾ عطف على أن الله الخ داخل معه فى حيز التعليل أى وبسبب أنه تعالى سميع عليم يسمع ويعلم جميع مايأتون ومايذرون من الاقوال والافعال السابقة واللاحقة فيرتب على كل منها مايليق بها من ابقاء النعمة وتغييرها وقرىء وان الله بكسر الهمزة فالجملة حينئذ استئناف مقرر لمضمون ماقبلها وقوله تعالى ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ﴾ فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى حتى يغيروا ما بأنفسهم تغييرا كائنا كدأب آل فرعون أى كتغييرهم على أن دأبهم عبارة عما فعلوه فقط كما هو الانسب بمفهوم الدأب وقوله تعالى ﴿ كذبوا بآيات ربهم ﴾ تفسير له بتمامه وقوله تعالى ﴿ فأهلكناهم ﴾ اخبار بترتب العقوبة عليه لا أنه من تمام تفسيره ولا ضير فى توسط قوله تعالى وان الله سميع عليم بينهما كما مر نظيره فى سورة آل عمران حيث

جوزوا انتصاب محل الكاف بلن تغنى مع ماينهما من قوله تعالى وأولئك هم وقود النار وهـذا على تقدير عطف الجملة على ماقبلها وأما على تقدير كونها اعتراضا فلا غبار فى توسطها قطعا وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف كما قبله فالجملة حينئذ استئناف آخر مسوق لتقرير ماسيق له الاستئناف الاول بتشبيه دأبهم بدأب المذكورين لكن لابطريق التكرير المحض بل بتغيير العنوان وجعل الدأب فى الجانبين عبارة عما يلازم معناه الاول من تغيير الحال وتغيير النعمة أخذا مما نطق به قوله تعالى ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة الآية أى دأب هؤلاء وشأنهم الذى هو عبارة عن التغييرين المذكورين كدأب أولئك حيث غير واحالهم فغير الله تعالى نعمته عليهم فقوله تعالى كذبوا بآيات ربهم تفسير لدأبهم الذى فعلوه من تغييرهم لحالهم وقوله تعالى فأهلكناهم تفسير لدأبهم الذى فعل بهم من تغييره تعالى ماتهم من نعمته وأما دأب قريش فمستفاد منه بحكم التشبيه فلله در شأن التنزيل حيث اكتفى فى كل من التشبيهين بتفسير أحد الطرفين واضافة الآيات الى الرب المضاف الى ضميرهم لزيادة تقبيح مافعلوا بها من التكذيب والالتفات الى نون العظمة فى أهلكنا جريا على سنن الكبرياء لتهويل الخطب والكلام فى الفاء و فى قوله تعالى ﴿بذنوبهم﴾ كالذى مر وعطف قوله تعالى ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ على أهلكنا مع اندراجه تحته للايذان بكمال هول الاغراق وفظاعته كعطف جبريل عليه السلام على الملائكة ﴿وكل﴾ أى وكل من الفرق المذكورين أوكل من هؤلاء وأوائك أوكل من غرقى القبط وقتلى قريش ﴿كانوا ظالمين﴾ أى أنفسهم بالكفر والمعاصى حيث عرضوها للهلاك أو واضعين للكفر والتكذيب مكان الايمان والتصديق ولذلك أصابهم ما أصابهم ﴿ان شر الدواب﴾ بعد ماشرح أحوال المهلكين من شرار الكفرة شرع فى بيان أحوال الباقين منهم وتفصيل أحكامهم وقوله تعالى ﴿عندالله﴾ أى فى حكمه وقضائه ﴿الذين كفروا﴾ أى أصروا على الكفر ولجوا فيه جعلوا شر الدواب لا شر الناس ايماء الى أنهم بمعزل من مجانستهم وانماهم من جنس الدواب ومع ذلك شر من جميع أفرادها حسبما نطق به قوله تعالى ان هم الا كالأنعام بل هم أضل وقوله تعالى ﴿فهم لايؤمنون﴾ حكم مترتب على تماديهم فى الكفر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من أصل الطبع لايلويهم صارف ولا يثنيهم عاطف أصلا جىء به على وجه الاعتراض لأنه عطف على كفروا داخل معه فى حيز الصلة التى لاحكم فيها بالفعل وقوله تعالى ﴿الذين عاهدت منهم﴾ بدل من الموصول الاول أو عطف بيان له أو نصب على الذم أى عاهدتهم ومن للايذان بأن المعاهدة التى هى عبارة عن اعطاء العهد وأخذه من الجانبين معتبرة ههنا من حيث أخذه عليه الصلاة والسلام عهدهم اذ هو المناط لقباحة ما نعى عليهم من النقض لااعطاؤه عليه الصلاة والسلام اياهم عهده كأنه قيل الذين أخذت منهم عهدهم وقيل هى للتبعيض لأن المباشر بالذات للعهد بعضهم لا كلهم ﴿ثم ينقضون عهدهم﴾ عطف على عاهدت داخل معه فى حكم الصلة وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض وتعدده وكونهم على نيته فى كل حال أى ينقضون عهدهم الذى أخذته منهم ﴿فى كل مرة﴾ أى من مرات المعاهدة اذ هى التى يتوقع فيها عدم النقض و يستقبح وجوده لامن مرات المحاربة كما قيل اذ لايتوقع فيها عدم النقض بل لايتصور أصلا حتى يستقبح فيها وجوده لكونها مظنة لعدمه فلا فائدة فى تقييد النقض بالوقوع فى كل مرة من مراتها بل لاصحة له قطعا لأن النقض لايتحقق الافى المرة الواردة على المعاهدة لافى المرات الواقعة بعدها بلا معاهدة ولئن سلم أن المراد هى المرات الواقعة اثر المعاهدة يبقى النقض الواقع بلا محاربة كبيع السلاح ونحوه خارجا من البيان ولئن عد ذلك من المحاربة فلامحيص من لزوم خلو الكلام عن الفائدة بالمرة لأن المحاربة بهذا المعنى عين النقض فيؤول الأمر الى أن يقال ينقضون عهدهم فى كل مرة من مرات النقض وحمل المحاربة على محاربة غيرهم ليكون المعنى ينقضون عهدهم فى كل مرة من مرات

محاربة الاعداء مع كونه فى غاية البعد والركاكة يستلزم خروج بدئهم بالنقض من البيان ﴿وهم لايتقون﴾ حال من فاعل ينقضون أى يستمرون على النقض والحال أنهم لايتقون سبة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار وقوله تعالى ﴿فاما تثقفنهم﴾ شروع فى بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها أى فاذا كان حالهم كما ذكر فاما تصادفنهم وتظفرن بهم ﴿فى الحرب﴾ أى فى تضاعيفها ﴿فشرد بهم﴾ أى ففرق عن مناصبتك تفريقا عنيفا موجبا للاضطرار والاضطراب ونكل عنها بأن تفعل بهم من النكاية والتعذيب مايوجب أن تنكل ﴿من خلفهم﴾ أى من وراءهم من الكفرة وفيه ايماء الى أنهم بصدد الحرب قريب من هؤلاء وقرئ شرذ بالذال المعجمة ولعله مقلوب شذر بمعنى فرق وقرئ من خلفهم أى افعل التشريد من ورائهم والمعنى واحد لأن ايقاع التشريد فى الوراء لايتحقق الابتشريد من وراءهم ﴿لعلهم يذكرون﴾ يتعظون بما شاهدوا مما نزل بالناقضين فيرتدعوا عن النقض أو عن الكفر وقوله تعالى ﴿واما تخافن من قوم خيانة﴾ بيان لأحكام المشرفين الى نقض العهد اثر بيان أحكام الناقضين له بالفعل والخوف مستعار للعلم أى واما تعلمن من قوم من المعاهدين نقض عهد فيما سيأتى بما لاح لك منهم من دلائل الغدر ومخايل الشر ﴿فانبذ اليهم﴾ أى فاطرح اليهم عهدهم ﴿على سواء﴾ على طريق مستوقصد بأن تظهر لهم النقض وتخبرهم اخبارا مكشوفا بأنك قد قطعت مابينك وبينهم من الوصلة ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد كيلا يكون من قبلك شائبة خيانة أصلا فالجار متعلق بمحذوف هو حال من النابذ أى فانبذ اليهم ثابتا على سواء وقيل على استواء فى العلم بنقض العهد بحيث يستوى فيه أقصاهم وأدناهم أو تستوى فيه أنت وهم فهو على الأول حال من المنبوذ اليهم وعلى الثانى من الجانبين ﴿ان الله لايحب الخائنين﴾ تعليل للأمر بالنبذ اما باعتبار استلزامه للنهى عن المناجزة التى هى خيانة فيكون تحذيرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم منها واما باعتبار استتباعه للقتال بالآخرة فيكون حثا له عليه الصلاة والسلام على النبذ أولا وعلى قتالهم ثانيا كأنه قيل واما تعلمن من قوم خيانة فانبذ اليهم ثم قاتلهم ان الله لايحب الخائنين وهم من جملتهم لما علمت من حالهم ﴿ولا يحسبن الذين كفروا﴾ أى أنفسهم فحذف للتكرار وقوله تعالى ﴿سبقوا﴾ أى فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم مفعول ثان ليحسبن والمراد اقناطهم من الخلاص وقطع أطماعهم الفارغة من الانتفاع بالنبذ والاقتصار على دفع هذا التوهم مع أن مقاومة المؤمنين بل الغلبة عليهم أيضا مما تتعلق به أمانيهم الباطلة للتنبيه على أن ذلك مما لايحوم حوله وهمهم وحسبانهم وانما الذى يمكن أن يدور فى خلدهم حسبان المناص فقط وقيل الفعل مسند الى أحد أو الى من خلفهم والمفعول الأول الموصول المتناول لهم أيضا وقيل هو الفاعل وأن محذوفة من سبقوا وهى مع مافى حيزها سادة مسد المفعولين والتقدير ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا ويعضده قراءة من قرأ أنهم سبقوا ونظيره فى الحذف قوله تعالى ومن آياته يريكم البرق خوفا وقوله تعالى أغير الله تأمرونى أعبد الآية قاله الزجاج وقرئ بالتاء على خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى قراءة واضحة وقرئ ولاتحسب الذين بكسر الباء وبفتحها على حذف النون الخفيفة وقوله تعالى ﴿انهم لايعجزون﴾ أى لايفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن ادراكهم تعليل للنهى على طريقة الاستئناف وقرئ بفتح الهمزة على حذف لام التعليل وقيل الفعل واقع عليه ولا زائدة وسبقوا حال بمعنى سابقين أى مفلتين هاربين وهذا على قراءة الخطاب لازاحة ماعسى يحذر من عاقبة النبذ لما أنه ايقاظ للعدو وتمكين لهم من الهرب والخلاص من أيدى المؤمنين وفيه نفى لقدرتهم على المقاومة والمقابلة على أبلغ وجه وآكده كما أشير اليه وقيل نزلت فيمن أفلت من فل المشركين وقرئ لايعجزون بكسر النون ولا يعجزون بالتشديد ﴿وأعدوا لهم﴾ توجيه الخطاب الى كافة المؤمنين لما أن

المأمور به من وظائف الكل كما أن توجيهه فيما سبق وما لحق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكون ما فى حيزه من وظائفه عليه الصلاة والسلام أى أعدوا لقتال الذين نبذ اليهم العهد وهيئوا الحرابهم أو لقتال الكفار على الاطلاق وهو الأنسب بسياق النظم الكريم ﴿ما استطعتم من قوة﴾ من كل مايتقوى به فى الحرب كائنا ما كان وعن عقبة ابن عامر رضى الله عنه سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر ألا ان القوة الرمى قالها ثلاثا ولعل تخصيصه عليه الصلاة والسلام اياه بالذكر لانافته على نظائره من القوى ﴿ومن رباط الخيل﴾ الرباط اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله تعالى فعال بمعنى مفعول أو مصدر سميت هى به يقال ربط ربطا و رباطا و رابط مرابطة و رباطا أو جمع ربيط كفصيل وفصال أو جمع ربط ككعب و كعاب و كلب و كلاب وقرئ ربط الخيل بضم الباء وسكونها جمع رباط وعطفها على القوة مع كونها من جملتها للايذان بفضلها على بقية أفرادها كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة ﴿ترهبون به﴾ أى تخوفون وقرئ ترهبون بالتشديد وقرئ تخزون به والضمير لما استطعتم أو للاعداد وهو الأنسب ومحل الجملة النصب على الحالية من فاعل أعدوا أى أعدوا مرهبين به أو من الموصول أو من عائده المحذوف أى أعدوا ما استطعتموه مرهبا به ﴿عدو الله وعدوكم﴾ وهم كفار مكة خصوا بذلك من بين الكفار مع كون الكل كذلك لغاية عتوهم ومجاوزتهم الحد فى العداوة ﴿وآخرين من دونهم﴾ من غيرهم من الكفرة وقيل هم اليهود وقيل المنافقون وقيل الفرس ﴿لا تعلمونهم﴾ أى لا تعرفونهم بأعيانهم أو لا تعلمونهم كما هم عليه من العداوة وهو الأنسب بقوله تعالى ﴿الله يعلمهم﴾ أى لا غيره فان أعيانهم معلومة لغيره تعالى أيضا ﴿وما تنفقوا من شئ﴾ لاعداد العتاد قل أو جل ﴿فى سبيل الله﴾ الذى أوضحه الجهاد ﴿يوف اليكم﴾ أى جزاؤه كاملا ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ بترك الاثابة أو بنقص الثواب والتعبير عن تركها بالظلم مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلما لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وابراز الاثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه تعالى كما مر فى تفسير قوله تعالى فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم ﴿وان جنحوا﴾ الجنوح الميل ومنه الجناح و يعدى باللام و بالى أى ان مالوا ﴿للسلم﴾ أى للصلح بوقوع الرهبة فى قلوبهم بمشاهدة ما بكم من الاستعداد واعتاد العتاد ﴿فاجنح لها﴾ أى للسلم والتأنيث لحمله على نقيضه قال

السلم تأخذ منها مارضيت به ... والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وقرئ فاجنح بضم النون ﴿وتوكل على الله﴾ ولا تخف أن يظهروا لك السلم وجوانحهم مطوية على المكر والكيد ﴿انه﴾ تعالى ﴿هو السميع﴾ فيسمع ما يقولون فى خلواتهم من مقالات الخداع ﴿العليم﴾ فيعلم نياتهم فيؤاخذهم بما يستحقونه و يرد كيدهم فى نحرهم والآية خاصة باليهود وقيل عامة نسختها آية السيف ﴿وان يريدوا أن يخدعوك﴾ باظهار السلم وابطال الحراب ﴿فان حسبك الله﴾ أى فاعلم بأن محسبك الله من شرورهم وناصرك عليهم ﴿هو الذى أيدك بنصره﴾ تعليل لكفايته تعالى اياه عليه الصلاة والسلام بطريق الاستئناف فان تأييده تعالى اياه عليه الصلاة والسلام فيما سلف على ما ذكر من الوجه البعيد من الوقوع من دلائل تأييده تعالى فيما سيأتى أى هو الذى أيدك بامداد من عنده بلا واسطة كقوله تعالى وما النصر الا من عند الله أو بالملائكة مع خرقه للعادات ﴿وبالمؤمنين﴾ من المهاجرين والأنصار ﴿وألف بين قلوبهم﴾ مع ما كان بينهم قبل ذلك من العصبية والضغينة والتهالك على الانتقام بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان حتى صاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة وهذا من أبهر معجزاته عليه الصلاة والسلام ﴿لو أنفقت ما فى الأرض جميعا﴾ أى لتأليف ما بينهم ﴿ما ألفت بين قلوبهم﴾ استئناف مقرر لما قبله ومبين لعزة

المطلب وصعوبة المـأخذ أى تناهى التعادى فيما بينهم الى حد لو أنفق منفق فى اصلاح ذات البين جميع مافى الأرض من الأموال والذخائر لم يقدر على التأليف والاصلاح وذكر القلوب للاشعار بأن التأليف بينها لايتسنى وان أمكن التأليف ظاهرا ﴿ولكن الله ألف بينهم﴾ قلبا وقالبا بقدرته الباهرة ﴿انه عزيز﴾ كامل القدرة والغلبة لايستعصى عليه شئ مما يريده ﴿حكيم﴾ يعلم كيفية تسخير مايريده وقيل الآية فى الأوس والخزرج كان بينهم احن لاأمدلها و وقائع أفنت ساداتهم وأعاظمهم ودقت أعناقهم وجماجمهم فأنسى الله عز وجل جميع ذلك وألف بينهم بالاسلام حتى تصافوا وأصبحوا يرمون عن قوس واحـدة وصاروا أنصارا ﴿ياأيها النبى﴾ شروع فى بيان كفايته تعالى اياه عليه الصلاة والسلام فى جميع أموره وأمور المؤمنين أو فى الأمور الواقعة بينهم و بين الكفرة كافة اثر بيان كفايته تعالى اياه عليه الصلاة والسلام فى مادة خاصة وتصدير الجملة بحرفى النداء والتنبيه للتنبيه على مزيد الاعتناء بمضمونها وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان النبوة للاشعار بعليتها للحكم ﴿حسبك الله﴾ أى كافيك فى جميع أمورك أو فيما بينك و بين الكفرة من الحراب ﴿ومن اتبعك من المؤمنين﴾ فى محل النصب على أنه مفعول معه أى كفاك و كفى أتباعك الله ناصرا كما فى قول من قال فحسبك والضحاك عضب مهند وقيل فى موضع الجر عطفا على الضمير كما هو رأى الكوفيين أى كافيك وكافيهم أو فى محل الرفع عطفا على اسم الله تعـالى أى كفاك الله والمؤمنون والآية نزلت فى البيداء فى غزوة بدر قبل القتـال وقيل أسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر رضى الله عنه فنزلت و لذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى اسلام عمر رضى الله عنه ﴿ياأيها النبى﴾ بعد مابين كفايته اياهم بالنصر والامداد أمر عليه الصلاة والسلام بترتيب مبادى نصره وامداده وتكرير الخطاب على الوجه المذكور لاظهار كمال الاعتناء بشأن المأمور به ﴿حرض المؤمنين على القتال﴾ أى بالغ فى حثهم عليه وترغيبهم فيه بكل ماأمكن من الأمور المرغبـة التى أعظمها تذكير وعده تعالى بالنصر وحكمه بكفايته تعالى أو بكفايتهم وأصل التحريض الحرض وهو أن ينهكه المرض حتى يشفى على الموت وقال الراغب كأنه فى الأصل ازالة الحرض وهو مالا خير فيه و لا يعتد به قلت فالأوجه حينئذ أن يجعل الحرض عبارة عن ضعف القلب الذى هو من باب نهك المرض وقيل معنى تحريضهم تسميتهم حرضا بأن يقال انى أراك فى هذا الامر حرضا أى محرضا فيه لتهيجه الى الاقدام وقرئ حرص بالصاد المهملة وهو واضح ﴿ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ وعد كريم منه تعالى بتغليب كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم بطريق الاستئناف بعد الامر بتحريضهم وقوله تعالى ﴿وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا﴾ مع انفهام مضمونه مما قبله لـكون كل منهما عدة بتأييد الواحد على العشرة لزيادة التقرير المفيدة لزيادة الاطمئنان على أنه قد يجرى بين الجمعين القليلين مالا يجرى بين الجمعـين الكثيرين مع أن التفاوت فيما بين كل من الجمعـين القليلين والكثيرين على نسبة واحدة فبين أن ذلك لايتفاوت فى الصورتين وقوله تعالى ﴿من الذين كفروا﴾ بيان للالف وهذا القيد معتبر فى المـائتين أيضا وقد ترك ذكره تعويلا على ذكره ههنا كما ترك قيد الصبر ههنا مع كونه معتبرا حتما ثقة بذكره هناك ﴿بأنهم قوم لايفقهون﴾ متعلق بيغلبوا أى بسبب أنهم قوم جهلة بالله تعالى و باليوم الآخر لايقاتلون احتسابا وامتثالا بأمر الله تعالى واعلاء لكلمته وابتغاء لرضوانه كما يفعله المؤمنون وانمـا يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع خطوات الشيطان واثارة ثائرة البغى والعدوان فلا يستحقون الا القهر والخذلان وأما ماقيل من أن من لا يؤمن بالله واليوم الآخر لايؤمن بالميعاد فالسعادة عنده ليست الا هذه الحياة الدنيوية فيشح بها و لا يعرضها للزوال بمزاولة الحروب واقتحام موارد الخطوب فيميل الى مافيه السلامة فيفر فيغلب وأما من اعتقد أن لاسعادة فى هذه الحياة الفانية وانمـا

السعادة هى الحياة الباقية فلا يبالى بهذه الحياة الدنيا ولا يقيم لها وزنا فيقدم على الجهاد بقلب قوى وعزم صحيح فيقوم الواحد من مثله مقام الكثير فكلام حق لكنه لا يلائم المقام ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا﴾ لما كان الوعد السابق متضمنا لايجاب مقاومة الواحد للعشرة وثباته لهم كما نقل عن ابن جريج أنه كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد للعشرة وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة فى ثلاثين راكبا فلقى أبا جهل فى ثلثمائة راكب فهزمهم ثقل عليهم ذلك وضجوا منه بعد مدة فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد للاثنين وقيل كان فيهم قلة فى الابتداء ثم لما كثروا نزل التخفيف والمراد بالضعف ضعف البدن وقيل ضعف البصيرة وكانوا متفاوتين فى الاهتداء الى القتال لا الضعف فى الدين كما قيل وقرئ ضعفا بضم الضاد وهى لغة فيه كالفقر والفقر والمكث والمكث وقيل الضعف بالفتح مافى الرأى والعقل وبالضم مافى البدن وقرئ ضعفاء جمع ضعيف والمراد بعلمه تعالى بضعفهم علمه تعالى به من حيث هو متحقق بالفعل لا علمه تعالى به مطلقا كيف لا وهو ثابت فى الازل وقوله تعالى ﴿فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾ تفسير للتخفيف وبيان لكيفيته وقرئ تكن ههنا وفيما سبق بالتاء الفوقانية ﴿وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله﴾ أى بتيسيره وتسهيله وهذا القيد معتبر فيما سبق من غلبة المائة المائتين والالف وغلبة العشرين المائتين كما أن قيد الصبر معتبر ههنا وانما ترك ذكره ثقة بما مر وبقوله تعالى ﴿والله مع الصابرين﴾ فانه اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله والمراد بالمعية معية نصره وتأييده ولم يتعرض ههنا لحال الكفرة من الخذلان كما لم يتعرض هناك لحال المؤمنين مع أن مدار الغلبة فى الصورتين بمجموع الامرين أعنى نصر المؤمنين وخذلان الكفرة اكتفاء بما ذكر فى كل مقام عما ترك فى المقام الآخر وما تشعر به كلمة مع من متبوعية مدخولها لاصالتهم من حيث انهم المباشرون للصبر كما مر مرارا ﴿ما كان لنبى﴾ وقرئ للنبى على العهد والاول أبلغ لما فيه من بيان أن ما يذكر سنة مطردة فيما بين الانبياء عليهم الصلاة والسلام أى ماصح وما استقام لنبى من الانبياء عليهم السلام ﴿أن يكون له أسرى﴾ وقرئ بتأنيث الفعل وأسارى أيضا ﴿حتى يثخن فى الارض﴾ أى يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الاسلام ويستولى أهله من أثخنه المرض والجرح اذا أثقله وجعله بحيث لا حراك به ولا براح وأصله الثخانة التى هى الغلظ والكثافة وقرئ بالتشديد للمبالغة ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ استئناف مسوق للعتاب أى تريدون حطامها بأخذكم الفداء وقرئ يريدون بالياء ﴿والله يريد الآخرة﴾ أى يريد لكم ثواب الآخرة الذى لا مقدار عنده للدنيا ومافيها أو يريد سبب نيل الآخرة من اعزاز دينه وقمع أعدائه وقرئ بجر الآخرة على اضمار المضاف كما فى قوله

أكل امرئ تحسبين امرأ ونار توقد بالليل نارا

﴿والله عزيز﴾ يغلب أولياءه على أعدائه ﴿حكيم﴾ يعلم ما يليق بكل حال ويخصه بها كما أمر بالاثخان ونهى عن أخذ الفداء حين كانت الشوكة للمشركين وخير بينه وبين المن بقوله تعالى فاما منا بعد واما فداء لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين. روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بسبعين أسيرا فيهم العباس وعقيل بن أبى طالب فاستشار فيهم فقال أبو بكر قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوى أصحابك وقال عمر اضرب أعناقهم فانهم أئمة الكفر والله أغناك عن الفداء مكن عليا من عقيل وحمزة من العباس ومكنى من فلان نسيب له فلنضرب أعناقهم فقال عليه الصلاة والسلام ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم ومثلك يا عمر مثل نوح قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فخير أصحابه فأخذوا الفداء فنزلت فدخل

عمر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو وأبو بكر يبكيان فقال يارسول الله أخبرنى فان وجدت بكاء بكيت والا تباكيت فقال أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال لو نزل عذاب من السماء لما نجا غير عمر وسعد بن معاذ وكان هو أيضا ممن أشار بالاثخان ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ أى لولا حكم منه تعالى سبق اثباته فى اللوح المحفوظ وهو أن لا يعاقب المخطئ فى اجتهاده أو أن لا يعذب أهل بدر أو قوما لم يصرح لهم بالنهى وأما أن الفدية التى أخذوها واستحل لهم فلا يصلح أن يعد من موانع مساس العذاب فان الحل اللاحق لا يرفع حكم الحرمة السابقة كما أن الحرمة اللاحقة كما فى الخمر مثلا لا ترفع حكم الاباحة السابقة على أنه قادح فى تهويل ما نعى عليهم من أخذ الفداء ﴿لمسكم﴾ أى لأصابكم ﴿فيما أخذتم﴾ أى لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿عذاب عظيم﴾ لا يقادر قدره ﴿فكلوا مما غنمتم﴾ روى أنهم أمسكوا عن الغنائم فنزلت قالوا الفاء لترتيب ما بعدها على سبب محذوف أى قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم والأظهر أنها للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى دعوه فكلوا مما غنمتم وقيل ما عبارة عن الفدية فانها من جملة الغنائم ويأباه سباق النظم الكريم وسياقه ﴿حلالا﴾ حال من المغنوم أو صفة للمصدر أى أكلا حلالا وفائدته الترغيب فى أكلها وقوله تعالى ﴿طيبا﴾ صفة لحلالا مفيدة لتأكيد الترغيب ﴿واتقوا الله﴾ أى فى مخالفة أمره ونهيه ﴿ان الله غفور رحيم﴾ فيغفر لكم ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل ورود الاذن فيه ويرحمكم ويتوب عليكم اذا اتقيتموه ﴿يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم﴾ أى فى ملكتكم كأن أيديكم قابضة عليهم ﴿من الأسرى﴾ وقرئ من الأسارى ﴿ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا﴾ خلوص ايمان وصحة نية ﴿يؤتكم خيرا مما أخذ منكم﴾ من الفداء وقرئ أخذ على البناء للفاعل. روى أنها نزلت فى العباس كلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفدى ابنى أخيه عقيل بن أبى طالب ونوفل ابن الحرث فقال يا محمد تركتنى أتكفف قريشا ما بقيت فقال له عليه الصلاة والسلام فاين الذهب الذى دفعته الى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها ما أدرى ما يصيبنى فى وجهى هذا فان حدث بى حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل فقال العباس ما يدريك فقال أخبرنى به ربى قال العباس فانا أشهد أنك صادق وأن لا اله الا الله وأنك عبده ورسوله والله لم يطلع عليه أحد الا الله ولقد دفعته اليها فى سواد الليل ولقد كنت مرتابا فى أمرك فأما اذ أخبرتنى بذلك فلا ريب قال العباس بعد حين فأبدلنى الله خيرا من ذلك لى الآن عشرون عبدا وان أدناهم ليضرب فى عشرين ألفا وأعطانى زمزم ما أحب أن لى بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربى يتأول به ما فى قوله تعالى ﴿ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ فانه وعد بالمغفرة مؤكد بما بعده من الاعتراض التذييلى ﴿وان يريدوا خيانتك﴾ أى نكث ما بايعوك عليه من الاسلام وهذا كلام مسوق من جهته تعالى لتسليته عليه الصلاة والسلام بطريق الوعد له والوعيد لهم ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ بكفرهم ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه ﴿فأمكن منهم﴾ أى أقدرك عليهم حسبما رأيت يوم بدر فان أعادوا الخيانة فاعلم أنه سيمكنك منهم أيضا وقيل المراد بالخيانة منع ماضمنوا من الفداء وهو بعيد ﴿والله عليم﴾ فيعلم ما فى نياتهم وما يستحقونه من العقاب ﴿حكيم﴾ يفعل كل ما يفعله حسبما تقتضيه حكمته البالغة ﴿ان الذين آمنوا وهاجروا﴾ هم المهاجرون هاجروا أوطانهم حبا لله تعالى ولرسوله ﴿وجاهدوا بأموالهم﴾ بأن صرفوها الى الكراع والسلاح وأنفقوها على المحاويج ﴿وأنفسهم﴾ بمباشرة القتال واقتحام المعارك والخوض فى المهالك ﴿فى سبيل الله﴾ متعلق بجاهدوا قيد لنوعى الجهاد ولعل تقديم الاموال على الأنفس لما أن المجاهدة بالاموال أكثر وقوعا وأتم دفعا للحاجة حيث لا يتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال ﴿والذين آووا ونصروا﴾ هم الانصار آووا المهاجرين

وأنزلوهم منازلهم وبذلوا اليهم أموالهم وآثروهم على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ونصروهم على أعدائهم ﴿أولئك﴾ اشارة الى الموصوفين بما ذكر من النعوت الفاضلة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضيلة وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿بعضهم﴾ امابدل منه وقوله تعالى ﴿أولياء بعض﴾ خبره واما مبتدأ ثان وأولياء بعض خبره والجملة خبر للمبتدا الأول أى بعضهم أولياء بعض فى الميراث وقد كان المهاجرون والانصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نسخ بقوله تعالى وأولو الارحام الآية وقيل فى النصرة والمظاهرة ويرده قوله تعالى فعليكم النصر بعد نفى موالاتهم ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا﴾ كسائر المؤمنين ﴿مالكم من ولايتهم من شئ﴾ أى من توليهم فى الميراث وان كانوا من أقرب أقاربكم ﴿حتى يهاجروا﴾ وقرئ بكسر الواو تشبيها بالعمل والصناعة كالكتابة والامارة ﴿وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿الا على قوم﴾ منهم ﴿بينكم وبينهم ميثاق﴾ معاهدة فانه لايجوز نقض عهدهم بنصرهم عليهم ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلا تخالفوا أمره كيلا يحل بكم عقابه ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ آخر منهم أى فى الميراث أوفى الموازرة وهذا بمفهومه مفيد لنفى الموارثة والموازرة بينهم وبين المسلمين وايجاب المباعدة والمصارمة وان كانوا أقارب ﴿الاتفعلوه﴾ أى ماأمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم بعضا حتى التوارث ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار ﴿تكن فتنة فى الأرض﴾ أى تحصل فتنة عظيمة فيها وهى ضعف الايمان وظهور الكفر ﴿وفساد كبير﴾ فى الدارين وقرئ كثير ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا﴾ كلام مسوق للثناء عليهم والشهادة لهم بفوزهم بالقدح المعلى من الايمان مع الوعد الكريم بقوله تعالى ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ لاتبعة له ولامنة فيه فلا تكرار لما أن مساق الأول لايجاب التواصل بينهم ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا﴾ بعد هجرتكم ﴿وجاهدوا معكم﴾ فى بعض مغازيكم ﴿فأولئك منكم﴾ أى من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار وهم الذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ألحقهم الله تعالى بالسابقين وجعلهم منهم تفضلا منه وترغيبا فى الايمان والهجرة وفى توجيه الخطاب اليهم بطريق الالتفات من تشريفهم ورفع محلهم مالايخفى ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ آخر منهم فى التوارث من الأجانب ﴿فى كتاب الله﴾ أى فى حكمه أو فى اللوح أو فى القرآن واستدل به على توريث ذوى الارحام ﴿ان الله بكل شئ عليم﴾ ومن جملته مافى تعليق التوارث بالقرابة الدينية أولا وبالقرابة النسبية آخرا من الحكم البالغة . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة وشاهد أنه برئ من النفاق وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته والله تعالى أعلم

سورة براءة

(مدنيـة وهى مائة وثلاثون آية)

ولها أسماء أخر: سورة التوبة والمقشقشة والبحوث والمنقرة والمبعثرة والمثيرة والحافرة والمخزية والفاضحة والمنكلة والمشردة والمدمدمة وسورة العذاب لما فيها من ذكر التوبة ومن التبرئة من النفاق والبحث والتنقير عن حال المنافقين واثارتها والحفر عنها ومايخزيهم ويشردهم ويدمدم عليهم واشتهارها بهذه الأسماء يقضى بأنها سورة مستقلة وليست بعضا من سورة الأنفال وادعاء اختصاص الاشتهار بالقائلين باستقلالها خلاف الظاهر فيكون حكمة ترك التسمية عند النزول

نزولها فى رفع الامان الذى يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى مشفوعا بوصف الرحمة كما روى عن ابن عيينة رضى الله عنه لا الاشتباه فى استقلالها وعدمه كما يحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما ولا رعاية ماوقع بين الصحابة رضى الله عنهم من الاختلاف فى ذلك على أن ذلك ينزع الى القول بأن التسمية ليست من القرآن وانما كتبت للفصل بين السور كما نقل عن قدماء الحنفية وأن مناط اثباتها فى المصاحف وتركها انما هو رأى من تصدى لجمع القرآن دون التوقيف ولا ريب فى أن الصحيح من المذهب أنها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها وأن لا مدخل لرأى أحد فى الاثبات والترك وانما المتبع فى ذلك هو الوحى والتوقيف ولا مرية فى عدم نزولها ههنا والا لامتنع أن يقع فى الاستقلال اشتباه أو اختلاف فهو اما لاتحاد السورتين أو لما ذكرنا لاسبيل الى الأول والا لبينه عليه الصلاة والسلام لتحقق مزيد الحاجة الى البيان لتعاضد أدلة الاستقلال من كثرة الآيات وطول المدة فيما بين نزولها فحيث لم يبينه عليه الصلاة والسلام تعين الثانى لان عدم البيان من الشارع فى موضع البيان بيان للعدم

﴿براءة﴾ خبر مبتدا محذوف وتنوينه للتفخيم وقرىء بالنصب أى اسمعوا براءة ومن فى قوله تعالى ﴿من الله ورسوله﴾ ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لها ليفيدها زيادة تفخيم وتهويل أى هذه براءة مبتدأة من جهة الله تعالى ورسوله واصلة ﴿الى الذين عاهدتم من المشركين﴾ وانما لم يذكر ماتعلق به البراءة حسبما ذكر فى قوله تعالى ان الله برىء من المشركين اكتفاء بما فى حيز الصلة فانه منبىء عنه انباء ظاهرا واحترازا عن تكرير لفظة من وقيل هى مبتدأ لتخصصها بالصفة وخبره الى الذين الخ والذى تقتضيه جزالة النظم هو الأول لان هذه البراءة أمر حادث لم يعهد عند المخاطبين ذاتها ولا عنوان ابتدائها من الله تعالى ورسوله حتى يخرج ذلك العنوان مخرج الصفة لها ويجعل المقصود بالذات والعمدة فى الاخبار شيئا آخر هو وصولها الى المعاهدين وانما الحقيق بأن يعتنى بافادته حدوث تلك البراءة من جهته تعالى ووصولها اليهم فان حق الصفات قبل علم المخاطب بثبوتها لموصوفاتها أن تكون أخبارا وحق الاخبار بعد العلم بثبوتها لما هى له أن تكون صفات كما حقق فى موضعه وقرىء من الله بكسر النون على أن الأصل فى تحريك الساكن الكسر ولكن الوجه هو الفتح فى لام التعريف خاصة لكثرة الوقوع والعهد العقد الموثق باليمين والخطاب فى عاهدتم للمسلمين وقد كانوا عاهدوا مشركى العرب من أهل مكة وغيرهم باذن الله تعالى واتفاق الرسول صلى الله عليه وسلم فنكثوا الا بنى ضمرة وبنى كنانة فأمر المسلمون بنبذ العهد الى الناكثين وأمهلوا أربعة أشهر ليسيروا أين شاؤا وانما نسبت البراءة الى الله ورسوله مع شمولها للمسلمين واشتراكهم فى حكمها ووجوب العمل بموجبها وعلقت المعاهدة بالمسلمين خاصة مع كونها باذن الله تعالى واتفاق الرسول صلى الله عليه وسلم للانباء عن تنجزها وتحتمها من غير توقف على رأى المخاطبين لانها عبارة عن انهاء حكم الأمان ورفع الخطر المترتب على العهد السابق عن التعرض للكفرة وذلك منوط بجناب الله عز وجل لانه أمر كسائر الأوامر الجارية على حسب حكمة تقتضيها وداعية تستدعيها تترتب عليها آثارها من غير توقف على شىء أصلا واشتراك المسلمين فى حكمها ووجوب العمل بموجبها انما هو على طريقة الامتثال بالأمر لا على أن يكون لهم مدخل فى اتمامها أو فى ترتب أحكامها عليها وأما المعاهدة فحيث كانت عقدا كسائر العقود الشرعية لا تتحصل فى نفسها ولا تترتب عليها أحكامها الا بمباشرة المتعاقدين على وجوه مخصوصة اعتبرها الشرع لم يتصور صدورها عنه سبحانه وانما الصادر عنه فى شأنها هو الاذن فيها وانما الذى يباشرها ويتولى أمرها المسلمون ولا يخفى أن البراءة انما تتعلق بالعهد لا بالاذن فيه فنسبت كل واحدة منهما الى من هو أصل فيها على أن فى ذلك تفخيما لشأن البراءة وتهويلا لأمرها وتسجيلا على الكفرة بغاية الذل والهوان ونهاية الخزى والخذلان وتنزيها لساحة السبحان والكبرياء عما يوهم شائبة النقص والبداء تعالى عن ذلك

علوا كبيرا وادراجه عليه الصلاة والسلام فى النسبة الأولى واخراجه عن الثانية لتنويه شأنه الرفيع واجلال قدره المنيع فى كلا المقامين صلى الله عليه وسلم وايثار الجملة الاسمية على الفعلية كأن يقال قد برئ الله و رسوله من الذين أو نحو ذلك للدلالة على دوامها واستمرارها وللتوسل الى تهويلها بالتنوين التفخيمى كما أشير اليه ﴿فسيحوا﴾ السياحة والسيح الذهاب فى الارض والسير فيها بسهولة على مقتضى المشيئة كسيح الماء على موجب الطبيعة ففيه من الدلالة على كمال التوسعة والترفيه ماليس فى سيروا ونظائره و زيادة قوله عز وجل ﴿فى الارض﴾ لقصد التعميم لاقطارها من دار الاسلام وغيرها والمراد اباحة ذلك لهم وتخليتهم وشأنهم من الاستعداد للحرب أو تحصين الاهل والمال وتحصيل المهرب أو غير ذلك لا تكليفهم بالسياحة فيها وتلوين الخطاب بصرفه عن المسلمين وتوجيهه اليهم مع حصول المقصود بصيغة أمر الغائب أيضا للمبالغة فى الاعلام بالامهال حسما لمادة تعللهم بالغفلة وقطعا لشأفة اعتذارهم بعدم الاستعداد وايثار صيغة الامر مع تسنى افادة ذلك المعنى بطريق الاخبار أيضا كأن يقال مثلا فلكم أن تسيحوا أو نحو ذلك لاظهار كمال القوة والغلبة وعدم الاكتراث لهم و لاستعدادهم فكأن ذلك أمر مطلوب منهم والفاء لترتيب الامر بالسياحة وما يعقبه على ما تؤذن به البراءة المذكورة من الحراب على أن الاول مترتب على نفسه والثانى بكلا متعلقيه على عنوان كونه من الله العزيز لا لترتيب الاول عليه والثانى على الاول كما فى قوله تعالى قل سيروا فى الارض فانظروا الخ كأنه قيل هذه براءة موجبة لقتالكم فاسعوا فى تحصيل العدد والاسباب و بالغوا فى اعتاد العتاد من كل باب ﴿أربعة أشهر واعلموا أنكم﴾ بسياحتكم فى أقطار الارض فى العرض والطول وان ركبتم متن كل صعب وذلول ﴿غير معجزى الله﴾ أى لا تفوتونه بالهرب والتحصن ﴿وأن الله﴾ وضع الاسم الجليل موضع المضمر لتربية المهابة وتهويل أمر الاخزاء وهو الاذلال بما فيه فضيحة وعار ﴿مخزى الكافرين﴾ أى مخزيكم ومذلكم فى الدنيا بالقتل والأسر وفى الآخرة بالعذاب وايثار الاظهار على الاضمار لذمهم بالكفر بعد وصفهم بالاشراك وللاشعار بأن علة الاخزاء هى كفرهم و يجوز أن يكون المراد جنس الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولا أوليا والمراد بالأشهر الأربعة هى الأشهر الحرم التى علق القتال بانسلاخها فقيل هى شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وقيل هى عشرون من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الاول وعشر من شهر ربيع الآخر وجعلت حرما لحرمة قتالهم فيها أو لتغليب ذى الحجة والمحرم على البقية وقيل من عشر ذى القعدة الى عشر من شهر ربيع الأول لأن الحج فى تلك السنة كان فى ذلك الوقت للنسئ الذى كان فيهم ثم صار فى العام القابل فى ذى الحجة وذلك قوله عليه الصلاة والسلام ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض . روى أنه عليه الصلاة والسلام أمر أبا بكر رضى الله تعالى عنه على موسم سنة تسع ثم أتبعه عليا رضى الله تعالى عنه على العضباء ليقرأها على أهل الموسم فقيل له عليه الصلاة والسلام لو بعثت بها الى أبى بكر فقال صلى الله عليه وسلم لا يؤدى عنى الا رجل منى وذلك لأن عادة العرب أن لا يتولى أمر العهد والنقض على القبيلة الا رجل منها فلما دنا على سمع أبو بكر الرغاء فوقف فقال هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما لحقه قال أمير أو مأمور قال مأمور فمضيا فلما كان قبل يوم التروية خطب أبو بكر رضى الله عنه وحدثهم عن مناسكهم وقام على رضى الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال يا أيها الناس انى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكم فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال أمرت بأربع أن لا يقرب البيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان و لا يدخل الجنة الا كل نفس مؤمنة وأن يتم الى كل ذى عهد عهده ﴿وأذان من الله و رسوله﴾ أى اعلام منهما فعال بمعنى الإفعال كالعطاء بمعنى الاعطاء و رفعه كرفع براءة والجملة معطوفة على مثلها وانما قيل ﴿الى الناس﴾ أى كافة لان

الأذان غير مختص بقوم دون آخرين كالبراءة الخاصة بالناكثين بل هو شامل لعامة الكفرة وللمؤمنين أيضا ﴿يوم الحج الأكبر﴾ هو يوم العيد لان فيه تمام الحج ومعظم أفعاله ولان الاعلام كان فيه ولما روى أنه عليه الصلاة والسلام وقف يوم النحر عند الجمرات فى حجة الوداع فقال هذا يوم الحج الاكبر وقيل يوم عرفة لقوله عليه الصلاة والسلام الحج عرفة ووصف الحج بالاكبر لان العمرة تسمى الحج الاصغر أو لان المراد بالحج ما يقع فى ذلك اليوم من أعماله فانه أكبر من باقى الاعمال أو لان ذلك الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون أو لانه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين ﴿أن الله﴾ أى بأن الله وقرئ بالكسر لما أن الأذان فيه معنى القول ﴿برئ من المشركين﴾ أى المعاهدين الناكثين ﴿ورسوله﴾ عطف على المستكن فى برئ أو على محل ان واسمها على قراءة الكسر وقرئ بالنصب عطفا على اسم أن أو لان الواو بمعنى مع أى برئ معه منهم وبالجر على الجوار وقيل على القسم ﴿فان تبتم﴾ من الشرك والغدر التفات من الغيبة الى الخطاب لزيادة التهديد والتشديد والفاء لترتيب مقدم الشرطية على الاذان بالبراءة المذيلة بالوعيد الشديد المؤذن بلين عريكتهم وانكسار شدة شكيمتهم ﴿فهو﴾ أى فالتوب ﴿خير لكم﴾ فى الدارين ﴿وان توليتم﴾ عن التوبة أو ثبتم على التولى عن الاسلام والوفاء ﴿فاعلموا أنكم غير معجزى الله﴾ غير سابقين ولا فائتين ﴿وبشر الذين كفروا﴾ تلوين للخطاب وصرف له عنهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن البشارة ﴿بعذاب أليم﴾ وان كانت بطريق التهكم انما تليق بمن يقف على الاسرار الالهية ﴿الا الذين عاهدتم من المشركين﴾ استدراك من النبذ السابق الذى أخر فيه القتال أربعة أشهر كأنه قيل لاتمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر لكن الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم فلا تجروهم مجرى الناكثين فى المسارعة الى قتالهم بل أتموا اليهم عهدهم ولا يضر فى ذلك تخلل الفاصل بقوله تعالى وأذان من الله ورسوله الخ لانه ليس بأجنبى بالكلية بل هو أمر باعلام تلك البراءة كأنه قيل واعلموها وقيل هو استثناء متصل من المشركين الأول ويرده بقاء الثانى على العموم مع كونهما عبارة عن فريق واحد وجعله استثناء من الثانى يأباه بقاء الأول كذلك وقيل هو استدراك من المقدر فى فسيحوا أى قولوا لهم سيحوا أربعة أشهر لكن الذين عاهدتم منهم ﴿ثم لم ينقصوكم شيئا﴾ من شروط الميثاق ولم يقتلوا منكم أحدا ولم يضروكم قط وقرئ بالمعجمة أى لم ينقضوا عهدكم شيأ من النقض وكلمة ثم للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادى المدة ﴿ولم يظاهروا﴾ أى لم يعاونوا ﴿عليكم أحدا﴾ من أعدائكم كما عدت بنو بكر على خزاعة فى غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فظاهرتهم قريش بالسلاح ﴿فأتموا اليهم عهدهم﴾ أى أدوه اليهم كملا ﴿الى مدتهم﴾ ولا تفاجئوهم بالقتال عند مضى الاجل المضروب للناكثين ولا تعاملوهم معاملتهم قال ابن عباس رضى الله عنهما بقى لحى من بنى كنانة من عهدهم تسعة أشهر فأتم اليهم عهدهم ﴿ان الله يحب المتقين﴾ تعليل لوجوب الامتثال وتنبيه على أن مراعاة حقوق العهد من باب التقوى وأن التسوية بين الوفى والغادر منافية لذلك وان كان المعاهد مشركا ﴿فاذا انسلخ﴾ أى انقضى استعير له من الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده والاغلب اسناده الى الجلد والمعنى اذا انقضى ﴿الأشهر الحرم﴾ وانفصلت عما كانت مشتملة عليه ساترة له انفصال الجلد عن الشاة وانكشفت عنه انكشاف الحجاب عما وراءه كما ذكره أبو الهيثم من أنه يقال أهللنا شهر كذا أى دخلنا فيه ولبسناه فنحن نزداد كل ليلة لباسا منه الى مضى نصفه ثم نسلخه عن أنفسنا جزأ فجزأ حتى نسلخه عن أنفسنا كله فينسلخ وأنشد

اذا ماسلخت الشهر أهللت مثله … كفى قاتلا سلخى الشهور واهلالى

وتحقيقه أن الزمان محيط بما فيه من الزمانيات مشتمل عليه اشتمال الجلد للحيوان وكذا كل جزء من أجزائه الممتدة من

الايام والشهور والسنين فاذا مضى فكأنه انسلخ عما فيه وفيه مزيد لطف لما فيه من التلويح بأن تلك الاشهر كانت حرزا لأولئك المعاهدين عن غوائل أيدى المسلمين فنيط قتالهم بزوالها والمراد بها اما مامر من الاشهر الاربعة فقط ووضع المظهر موضع المضمر ليكون ذريعة الى وصفها بالحرمة تأكيداً لما ينبئ عنه اباحة السياحة من حرمة التعرض لهم مع مافيه من مزيد الاعتناء بشأنها أو هى مع مافهم من قوله تعالى فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم من تتمة مدة بقيت لغير الناكثين فعلى الأول يكون المراد بالمشركين فى قوله تعالى ﴿فاقتلوا المشركين﴾ الناكثين خاصة فلا يكون قتال الباقين مفهوما من عبارة النص بل من دلالته وعلى الثانى مفهوما من العبارة الا أنه يكون الانسلاخ ومانيط به من القتال حينئذ شيأ فشيأ لادفعة واحدة كأنه قيل فاذا تم ميقات كل طائفة فاقتلوهم وحملها على الاشهر المعهودة الدائرة فى كل سنة لايساعده النظم الكريم وأما أنه يستدعى بقاء حرمة القتال فيها اذليس فيما نزل بعدما ينسخها فلا اعتداد به لا لانها نسخت بقوله تعالى وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة كما توهم فانه رجم بالغيب لانه ان أريد به مافى سورة الانفال فانه نزل عقيب غزوة بدر، وقد صح أن المراد بالذين كفروا فى قوله تعالى قل للذين كفروا الخ أبو سفيان وأصحابه وقد أسلم فى أواسط رمضان عام الفتح سنة ثمان وسورة التوبة انما نزلت فى شوال سنة تسع وان أريد مافى سورة البقرة فانه أيضا نزل قبل الفتح كما يعرب عنه ماقبله من قوله تعالى وأخرجوهم من حيث أخرجوكم أى من مكة وقد فعل ذلك يوم الفتح فكيف ينسخ به ماينزل بعده بل لان انعقاد الاجماع على انتساخها كاف فى الباب من غير حاجة الى كون سنده منقولا الينا وقد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم حاصر الطائف لعشر بقين من المحرم ﴿حيث وجدتموهم﴾ من حل وحرم ﴿وخذوهم﴾ أى أيسروهم والأخيذ الاسير ﴿واحصروهم﴾ أى قيدوهم أو امنعوهم من التقلب فى البلاد. قال ابن عباس رضى الله عنهما حيلوا بينهم وبين المسجد الحرام ﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ أى كل ممر ومجتاز يجتازون منه فى أسفارهم وانتصابه على الظرفية أى ارصدوهم وارقبوهم حتى لايمروا به وفائدته على التفسير الثانى دفع احتمال أن يراد بالحصر المحاصرة المعهودة ﴿فان تابوا﴾ عن الشرك بالايمان بعدما اضطروا بما ذكر من القتل والاسر والحصر ﴿وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة﴾ تصديقا لتوبتهم وايمانهم واكتفى بذكرهما عن ذكر بقية العبادات لكونهما رأسى العبادات البدنية والمالية ﴿فخلوا سبيلهم﴾ فدعوهم وشأنهم ولا تتعرضوا لهم بشئ مما ذكر ﴿ان الله غفور رحيم﴾ يغفر لهم ماسلف من الكفر والغدر ويثيبهم بايمانهم وطاعاتهم وهو تعليل للامر بتخلية السبيل ﴿وان أحد﴾ شروع فى بيان حكم المتصدين لمبادى التوبة من سماع كلام الله تعالى والوقوف على شعائر الدين اثر بيان حكم التائبين عن الكفر والمصرين عليه وهو مرتفع بشرط مضمر يفسره الظاهر لا بالابتداء لان ان لاتدخل الا على الفعل ﴿من المشركين استجارك﴾ بعد انقضاء الاجل المضروب أى سألك أن تؤمنه وتكون له جارا ﴿فأجره﴾ أى أمنه ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة ماتدعو اليه والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة الى شئ آخر فى الفهم لكونهم من أهل اللسن والفصاحة وحتى سواء كانت للغاية أو للتعليل متعلقة بما بعدها لا بقوله تعالى استجارك لانه يؤدى الى اعمال حتى فى المضمر وذلك مما لايكاد يرتكب فى غير ضرورة الشعر كما فى قوله

فلا والله لايلفى أناس فتى حتاك ياابن أبى يزيد

كذا قيل الا أن تعلق الاجارة بسماع كلام الله تعالى بأحد الوجهين يستلزم تعلق الاستجارة أيضا بذلك أو بما فى معناه من أمور الدين وما روى عن على رضى الله عنه أنه أتاه رجل من المشركين فقال ان أراد الرجل منا أن يأتى محمدا بعد انقضاء هذا الاجل لسماع كلام الله تعالى أو لحاجة قتل قال لا لان الله تعالى يقول وان أحد من المشركين استجارك فأجره الخ فالمراد بما فيه من الحاجة هى الحاجة المتعلقة بالدين لا مايعمها وغيرها من الحاجات الدنيوية كما ينبئ عنه قوله أن يأتى

محمدا فان من يأتيه عليه السلام انما يأتيه للامور المتعلقة بالدين ﴿ثم أبلغه﴾ بعد استماعه له ان لم يؤمن ﴿مأمنه﴾ أى مسكنه الذى يأمن فيه وهو دار قومه ﴿ذلك﴾ يعنى الامر بالاجارة وابلاغ المأمن ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿قوم لايعلمون﴾ ما الاسلام وما حقيقته أو قوم جهلة فلا بد من اعطاء الامان حتى يفهموا الحق ولا يبقى لهم معذرة أصلا ﴿كيف يكون للمشركين عهد﴾ شروع فى تحقيق حقية ماسبق من البراءة وأحكامها المتفرعة عليها وتبيين الحكمة الداعية الى ذلك والمراد بالمشركين الناكثون لأن البراءة انما هى فى شأنهم والاستفهام انكارى لابمعنى انكار الواقع كما فى قوله تعالى كيف تكفرون بالله الخ بل بمعنى انكار الوقوع ويكون من الكون التام وكيف فى محل النصب على التشبيه بالحال أو الظرف وقيل من الكون الناقص وكيف خبر يكون قدم على اسمه وهو عهد لاقتضائه الصدارة وللمشركين متعلق بمحذوف وقع حالا من عهد ولو كان مؤخرا لكان صفة له أو بيكون عند من يجوز عمل الأفعال الناقصة فى الظروف وعند متعلق بمحذوف وقع صفة لعهد أو بنفسه لأنه مصدر أو بيكون كما مر ويجوز أن يكون الخبر للمشركين وعند كما ذكر أو متعلق بالاستقرار الذى تعلق به للمشركين ويجوز أن يكون الخبر عند الله وللمشركين اما تبيين واما حال من عهد واما متعلق بيكون أو بالاستقرار الذى تعلق به الخبر ولا يبالى بتقديم معمول الخبر على الاسم لكونه حرف جر وكيف على الوجهين الأخيرين نصب على التشبيه بالظرف أو الحال كما فى صورة الكون التام وهو الأولى لأن فى انكار ثبوت العهد فى نفسه من المبالغة ماليس فى انكار ثبوته للمشركين لان ثبوته الرابطى فرع ثبوته العينى فانتفاء الأصل يوجب انتفاء الفرع رأسا وفى توجيه الانكار الى كيفية ثبوت العهد من المبالغة ماليس فى توجيهه الى ثبوته لان كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعا فاذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى أى على أى أو فى أى حال يوجد لهم عهد معتد به ﴿عند الله وعند رسوله﴾ يستحق أن يراعى حقوقه ويحافظ عليه الى اتمام المدة ولا يتعرض لهم بحسبه قتلا ولا أخذا وأما أن يأمنوا به من عذاب الآخرة كما قيل فلا سبيل الى اعتباره أصلا اذ لادخل لعهدهم فى ذلك الأمن قطعا وان كان مرعيا عند الله تعالى وعند رسوله كعهد غير الناكثين وتكرير كلمة عند للايذان بعدم الاعتداد به عند كل منهما على حدة ﴿الا الذين﴾ استدراك من النفى المفهوم من الاستفهام المتبادر شموله لجميع المعاهدين أى لكن الذين ﴿عاهدتم عند المسجد الحرام﴾ وهم المستثنون فيما سلف والتعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام لزيادة بيان أصحابها والاشعار بسبب وكادتها ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ والفاء لتضمنه معنى الشرط وما اما مصدرية منصوبة المحل على الظرفية بتقدير المضاف أى فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم واما شرطية منصوبة المحل على الظرفية الزمانية أى أى زمان استقاموا لكم فاستقيموا لهم أو مرفوعة على الابتداء والعائد محذوف أى أى زمان استقاموا لكم فيه فاستقيموا لهم فيه وقيل الاستثناء متصل محله النصب على الأصل أو الجر على البدل من المشركين والمراد بهم الجنس لا المعهود وأيا ما كان فحكم الأمر بالاستقامة ينتهى بانتهاء مدة العهد لأن استقامتهم التى وقت بوقتها الاستقامة المأمور بها عبارة عن مراعاة حقوق العهد وبعد انقضاء مدته لاعهد ولا استقامة فصار عين الأمر الوارد فيما سلف حيث قيل فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم خلا أنه قد صرح ههنا بما لم يصرح به هناك مع كونه معتبرا قطعا وهو تقييد الاتمام المأمور به ببقائهم على ما كانوا عليه من الوفاء ﴿ان الله يحب المتقين﴾ تعليل للأمر بالاستقامة واشعار بأن القيام بموجب العهد من أحكام التقوى كما مر ﴿كيف﴾ تكرير لاستنكار مامر من أن يكون للمشركين عهد حقيق بالمراعاة عند الله سبحانه وعند رسوله صلى الله عليه وسلم وأما ماقيل من أنه لاستبعاد ثباتهم على العهد فكما

ترى لأن ما يذكر بصدد التعليل للاستبعاد عين عدم ثباتهم على العهد لأنه شئ يستدعيه وانما أعيد الاستنكار والاستبعاد تأكيدا لها وتمهيداً لتعداد العلل الموجبة لها لاخلال تخلل مافى البين من الارتباط والتقريب وحذف الفعل المستنكر للايذان بأن النفس مستحضرة له مترقبة لورود مايوجب استنكاره لالمجرد كونه معلوما كما فى قوله

وخبرتمانى أنما الموت بالقرى فكيف وهاتا هضبة وقليب

فانه علة مصححة لامرجحة أى كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وان يظهروا عليكم﴾ أى وحالهم أنهم ان يظهروا عليكم أى يظفروا بكم ﴿لا يرقبوا فيكم﴾ أى لا يراعوا فى شأنكم وأصل الرقوب النظر بطريق الحفظ والرعاية ومنه الرقيب ثم استعمل فى مطلق الرعاية والمراقبة أبلغ منه كالمراعاة وفى نفى الرقوب من المبالغة ماليس فى نفيها ﴿إلا ولا ذمة﴾ أى حلفا وقيل قرابة ولا عهدا أو حقا يعاب على اغفاله مع ماسبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق يعنى أن وجوب مراعاة حقوق العهد على كل من المتعاهدين مشروط بمراعاة الآخر لها فاذا لم يراعها المشركون فكيف تراعونها على منوال قول من قال

علام تقبل منهم فدية وهم لافضة قبلوا منا ولا ذهبا

وقيل الال من أسماء الله عز وجل أى لايراعوا حق الله تعالى وقيل الجوار ومآله الحلف لأنهم اذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم لتشهيره ولما كان تعليق عدم رعاية العهد بالظفر موهما للرعاية عند عدمه كشف عن حقيقة شئونهم الجلية والخفية بطريق الاستئناف وبين أنهم فى حالة العجز أيضا ليسوا من الوفاء فى شئ وأن مايظهرونه مداهنة لامهادنة فقيل ﴿يرضونكم بأفواههم﴾ حيث يظهرون الوفاء والمصافاة ويعدون لكم بالايمان والطاعة ويؤكدون ذلك بالأيمان الفاجرة ويتعللون عند ظهور خلافه بالمعاذير الكاذبة ونسبة الارضاء الى الأفواه للايذان بأن كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها من غير أن يكون لها مصداق فى قلوبهم ﴿وتأبى قلوبهم﴾ ما يفيده كلامهم ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ خارجون عن الطاعة فان مراعاة حقوق العهد من باب الطاعة متمردون ليست لهم مروءة رادعة ولا عقيدة وازعة ولا يتسترون كما يتعاطاه بعضهم ممن يتفادى عن الغدر ويتعفف عما يجر أحدوثة السوء ﴿اشتروا بآيات الله﴾ بآياته الآمرة بالايفاء بالعهود والاستقامة فى كل أمر أو بجميع آياته فيدخل فيها ماذكر دخولا أوليا أى تركوها وأخذوا بدلها ﴿ثمنا قليلا﴾ أى شيئاً حقيرا من حطام الدنيا وهو أهواؤهم وشهواتهم التى اتبعوها وما أنفقه أبو سفيان من الطعام وصرفه الى الاعراب ﴿فصدوا﴾ أى عدلوا ونكبوا من صد صدودا أو صرفوا غيرهم من صد صداً والفاء للدلالة على سببية الاشتراء لذلك ﴿عن سبيله﴾ أى الدين الحق الذى لامحيد عنه والاضافة للتشريف أو سبيل بيته الحرام حيث كانوا يصدون الحجاج والعمار عنه ﴿انهم ساء ما كانوا يعملون﴾ أى بئس ما كانوا يعملونه أو عملهم المستمر والمخصوص بالذم محذوف وقد جوز أن تكون كلمة ساء على أصلها من التصرف لازمة بمعنى قبح أو متعدية والمفعول محذوف أى ساءهم الذى يعملونه أو عملهم وقوله عز وعلا ﴿لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة﴾ ناع عليهم عدم مراعاة حقوق عهد المؤمنين على الاطلاق فلا تكرار وقيل هذا فى اليهود أو فى الاعراب المذكورين ومن يحذو حذوهم وأما ماقيل من أنه تفسير لقوله تعالى يعملون أو دليل على ماهو مخصوص بالذم فمشعر باختصاص الذم والسوء بعملهم هذا دون غيره ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما عدد من الصفات السيئة ﴿هم المعتدون﴾ المجاوزون الغاية القصوى من الظلم والشرارة ﴿فان تابوا﴾ أى عما هم عليه من الكفر وسائر العظائم والفاء للايذان بأن تقريعهم بما نعى عليهم من مساوى أعمالهم مزجرة عنها ومظنة للتوبة ﴿وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة﴾ أى التزموهما وعزموا على اقامتهما ﴿فاخوانكم﴾ أى فهم اخوانكم

وقوله تعالى ﴿في الدين﴾ متعلق باخوانكم لما فيه من معنى الفعل أي لهم مالكم وعليهم ما عليكم فعاملوهم معاملة الاخوان وفيه من استمالتهم واستجلاب قلوبهم مالامزيد عليه والاختلاف بين جواب هذه الشرطية وجواب التي مرت من قبل مع اتحاد الشرط فيهما لما أن الاولى سيقت اثر الامر بالقتل ونظائره فوجب أن يكون جوابها أمراً بخلاف ذلك وهذه سيقت بعد الحكم عليهم بالاعتداء وأشباهه فلا بد من كون جوابها حكما بخلافه البتة ﴿ونفصل الآيات﴾ أي نبينها والمراد بها اما مامر من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين من الناكثين وغيرهم وأحكامهم حالتى الكفر والايمان واما جميع الآيات فيندرج فيها تلك الآيات اندراجا أوليا ﴿لقوم يعلمون﴾ أي مافيها من الأحكام أو لقوم عالمين وهو اعتراض للحث على التأمل فى الاحكام المندرجة فى تضاعيفها والمحافظة عليها ﴿وان نكثوا﴾ عطف على قوله تعالى فان تابوا أي وان لم يفعلوا ذلك بل نقضوا ﴿أيمانهم من بعد عهدهم﴾ الموثق بها وأظهروا مافى ضمائرهم من الشر وأخرجوه من القوة الى الفعل حسبما ينبىء عنه قوله تعالى وان يظهروا عليكم لايرقبوا الآية أوثبتوا على ماهم عليه من النكث لا أنهم ارتدوا بعد الايمان كما قيل ﴿وطعنوا فى دينكم﴾ قدحوا فيه بصريح التكذيب وتقبيح الاحكام ﴿فقاتلوا ايمة الكفر﴾ أي فقاتلوهم وانما أوثر ماعليه النظم الكريم للايذان بأنهم صاروا بذلك ذوى رياسة وتقدم فى الكفر أحقاء بالقتل والقتال وقيل المراد بأئمتهم رؤساؤهم وصناديدهم وتخصيصهم بالذكر اما لاهمية قتلهم أو للمنع من مراقبتهم لكونهم مظنة لها أو للدلالة على استئصالهم فان قتلهم غالبا يكون بعد قتل من دونهم وقرىء أئمة بتحقيق الهمزتين على الأصل والأفصح اخراج الثانية بين بين وأما التصريح بالياء فلحن ظاهر عند الفراء ﴿انهم لا أيمان لهم﴾ أي على الحقيقة حيث لايراعونها ولا يعدون نقضها محذورا وان أجروها على ألسنتهم وانما علق النفى بها كالنكث فيما سلف لا بالعهد المؤكد بها لأنها العمدة فى المواثيق وجعل الجملة تعليلا للامر بالقتال لايساعده تعليقه بالنكث والطعن لان حالهم فى أن لا أيمان لهم حقيقة بعد النكث والطعن كحالهم قبل ذلك وحمله على معنى عدم بقاء أيمانهم بعد النكث والطعن مع أنه لاحاجة الى بيانه خلاف الظاهر ولعل الاولى جعلها تعليلا لمضمون الشرط كأنه قيل وان نكثوا وطعنوا كما هو المتوقع منهم اذ لا أيمان لهم حقيقة حتى لاينكثوها أو لاستمرار القتال المأمور به المستفاد من سياق الكلام كأنه قيل فقاتلوهم الى أن يؤمنوا انهم لا أيمان لهم حتى يعقد معهم عهد آخر وقرىء بكسر الهمزة على أنه مصدر بمعنى اعطاء الامان أي لا سبيل الى أن تعطوهم أمانا بعد ذلك أبدا وأما العكس كما قيل فلا وجه له لاشعاره بأن معاهدتهم معنا على طريقة أن يكون اعطاء الامان من قبلهم وذلك بين البطلان أو بمعنى الاسلام ففى كونه تعليلا للامر بالقتال اشكال بل استحالة لانه ان حمل على انتفاء الاسلام مطلقا فهو بمعزل عن العلية للقتال أو للامر به كما قبل النكث والطعن وان حمل على انتفائه فيما سيأتى فلا يلائم جعل الانتهاء غاية للقتال فيما سيجىء فالوجه أن يجعل تعليلا لما ذكر من مضمون الشرط كانه قيل ان نكثوا وطعنوا وهو الظاهر من حالهم لانه لا اسلام لهم حتى يرتدعوا عن نقض جنس أيمانهم وعن الطعن فى دينكم ﴿لعلهم ينتهون﴾ متعلق بقوله تعالى فقاتلوهم أي قاتلوهم ارادة أن ينتهوا أي ليكن غرضكم من القتال انتهاءهم عما هم عليه من الكفر وسائر العظائم التى يرتكبونها لا ايصال الاذية بهم كما هو ديدن المؤذين ﴿ألا تقاتلون﴾ الهمزة الداخلة على انتفاء مقاتلتهم للانكار والتوبيخ تدل على تحضيضهم على المقاتلة بطريق حملهم على الاقرار بانتفائها كانه أمر لايمكن أن يعترف به طائعا لكمال شناعته فيلجئون الى ذلك ولا يقدرون على الاقرار به فيختارون المقاتلة ﴿قوما نكثوا أيمانهم﴾ التى حلفوها عند المعاهدة على أن لا يعاونوا عليهم فعاونوا بنى بكر على خزاعة ﴿وهموا باخراج الرسول﴾ من مكة حين تشاوروا

فى أمره بدار الندوة حسبما ذكر فى قوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا فيكون نعيا عليهم جناياتهم القديمة وقيل هم اليهود نكثوا عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وهموا باخراجه من المدينة ﴿وهم بدءوكم﴾ بالمعاداة والمقاتلة ﴿أول مرة﴾ لان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم أولا بالكتاب المبين وتحداهم به فعدلوا عن المحاجة لعجزهم عنها الى المقاتلة أو بدءوا بقتال خزاعة حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم لان اعانة بنى بكر عليهم قتال معهم ﴿أتخشونهم﴾ أى أتخشون أن ينالكم منهم مكروه حتى تتركوا قتالهم وبخهم أولا بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الرغبة فيها ويحقق أن من كان على تلك الصفات السيئة حقيق بأن لا تترك مصادمته ويوبخ من فرط فيها ﴿فالله أحق أن تخشوه﴾ بمخالفة أمره وترك قتال أعدائه ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ فان قضية الايمان تخصيص الخشية به تعالى وعدم المبالاة بمن سواه وفيه من التشديد ما لا يخفى ﴿قاتلوهم﴾ تجريد للامر بالقتال بعد التوبيخ على تركه ووعد بنصرهم وبتعذيب أعدائهم واخزائهم وتشجيع لهم ﴿يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم﴾ قتلا وأسرا ﴿وينصركم عليهم﴾ أى يجعلكم جميعا غالبين عليهم أجمعين ولذلك أخر عن التعذيب والاخزاء ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ ممن لم يشهد القتال وهم خزاعة قال ابن عباس رضى الله عنهما هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيرا فبعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون اليه فقال عليه السلام أبشروا فان الفرج قريب ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ بما كابدوا من المكاره والمكايد ولقد أنجز الله سبحانه جميع ماوعدهم به على أجمل ما يكون فكان اخباره عليه السلام بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ كلام مستأنف ينبىء عما سيكون من بعض أهل مكة من التوبة المقبولة بحسب مشيئته تعالى المبنية على الحكم البالغة فكان كذلك حيث أسلم ناس منهم وحسن اسلامهم وقرىء بالنصب باضمار أن ودخول التوبة فى جملة ما أجيب به الأمر بحسب المعنى فان القتال كما هو سبب لفل شوكتهم وإلانة شكيمتهم فهو سبب للتدبر فى أمرهم وتوبتهم من الكفر والمعاصى وللاختلاف فى وجه السببية غير السبك والله تعالى أعلم ﴿والله﴾ ايثار اظهار الجلالة على الاضمار لتربية المهابة وادخال الروعة ﴿عليم﴾ لايخفى عليه خافية ﴿حكيم﴾ لايفعل ولا يأمر الا بما فيه حكمة ومصلحة ﴿أم حسبتم﴾ أم منقطعة جىء بها للدلالة على الانتقال من التوبيخ السابق الى آخر وما فيها من همزة الاستفهام الانكارى توبيخ لهم على الحسبان المذكور أى بل أحسبتم ﴿أن تتركوا﴾ على ما أنتم عليه ولا تؤمروا بالجهاد ولا تبتلوا بما يمحصكم والخطاب اما لمن شق عليهم القتال من المؤمنين أو للمنافقين ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ الواو حالية ولما للنفى مع التوقع والمراد من نفى العلم نفى المعلوم بالطريق البرهانى اذلو شم رائحة الوجود لعلم قطعا فلما لم يعلم لزم عدمه قطعا أى أم حسبتم أن تتركوا والحال أنه لم يتبين الخلص من المجاهدين منكم من غيرهم وما فى لما من التوقع منبه على أن ذلك سيكون وفائدة التعبير عما ذكر من عدم التبين بعدم علم الله تعالى أن المقصود هو التبين من حيث كونه متعلقا للعلم ومداراً للثواب وعدم التعرض لحال المقصرين لما أن ذلك بمعزل من الاندراج تحت ارادة أكرم الأكرمين ﴿ولم يتخذوا﴾ عطف على جاهدوا داخل فى حيز الصلة أو حال من فاعله أى جاهدوا حال كونهم غير متخذين ﴿من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ أى بطانة وصاحب سر وهو الذى تطلعه على مافى ضميرك من الأسرار الخفية من الولوج وهو الدخول ومن دون الله متعلق بالاتخاذ ان أبقى على حاله أو مفعول ثان له ان جعل بمعنى التصيير ﴿والله خبير بما تعملون﴾ أى بجميع أعمالكم وقرىء على الغيبة وهو تذييل يزيح ما يتوهم من ظاهر. قوله تعالى ولما يعلم الخ أو حال متداخلة من فاعله أو من مفعوله والمعنى ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم

والحال أنه يعلم جميع أعمالكم لايخفى عليه شئ منها ﴿ما كان للمشركين﴾ أى ماصح وما استقام لهم على معنى نفى الوجود والتحقق لانفى الجواز كما فى قوله تعالى أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الاخائفين أى ماوقع وما تحقق لهم ﴿أن يعمروا﴾ عمارة معتدا بها ﴿مساجدالله﴾ أى المسجد الحرام وانما جمع لأنه قبلة المساجد وامامها فعامره كعامرها أو لأن كل ناحية من نواحيه المختلفة الجهات مسجد على حياله بخلاف سائر المساجد اذليس فى نواحيها اختلاف الجهة ويؤيده القراءة بالتوحيد وقيل ما كان لهم أن يعمروا شيئاً من المساجد فضلا عن المسجد الحرام الذى هو صدر الجنس ويأباه أنهم لايتصدون لتعمير سائر المساجد ولا يفتخرون بذلك على أنه مبنى على كون النفى بمعنى نفى الجواز واللياقة دون نفى الوجود ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ أى باظهار آثار الشرك من نصب الأوثان حول البيت والعبادة لها فان ذلك شهادة صريحة على أنفسهم بالكفر وان أبوا أن يقولوا نحن كفار كما نقل عن الحسن رضى الله عنه وهو حال من الضمير فى يعمروا أى محال أن يكون ماسموه عمارة عمارة بيت الله مع ملابستهم لما ينافيها ويحبطها من عبادة غيره تعالى فانها ليست من العمارة فى شئ وأما ماقيل من أن المعنى مااستقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة بيت الله تعالى وعبادة غيره تعالى فليس بمعرب عن كنه المرام فان عدم استقامة الجمع بين المتنافيين انما يستدعى انتفاء أحدهما لابعينه لاانتفاء العمارة الذى هو المقصود. روى أن المهاجرين والانصار أقبلوا على أسارى بدر يعيرونهم بالشرك وطفق على رضى الله تعالى عنه يوبخ العباس بقتال النبى صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم وأغلظ له فى القول فقال العباس تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا فقال ولكم محاسن قالوا نعم انا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحجيج ونفك العانى فنزلت ﴿أولئك﴾ الذين يدعون عمارة المسجد ومايضاهيها من أعمال البر مع ماهم من الكفر ﴿حبطت أعمالهم﴾ التى يفتخرون بها بما قارنها من الكفر فصارت هباء منثورا ﴿وفى النار هم خالدون﴾ لكفرهم ومعاصيهم وايراد الجملة الاسمية للمبالغة فى الدلالة على الخلود والظرف متعلق بالخبر قدم عليه للاهتمام به ومراعاة الفاصلة وكلتا الجملتين مستأنفة لتقرير النفى السابق. الاولى من جهة نفى استتباع الثواب والثانية من جهة نفى استدفاع العذاب ﴿انما يعمر مساجدالله﴾ الكلام فى ايراد صيغة الجمع كما مر فيما مر خلا أن ارادة جميع المساجد وادراج المسجد الحرام فى ذلك غير مخالفة لمقتضى الحال فان الايجاب ليس كالسلب وقد قرئ بالافراد أيضا والمراد ههنا أيضا قصر تحقق العمارة ووجودها على المؤمنين لاقصر جوازها ولياقتها أى انما يصح ويستقيم أن يعمرها عمارة يعتد بها ﴿من آمن بالله﴾ وحده ﴿واليوم الآخر﴾ بما فيه من البعث والحساب والجزاء حسبما نطق به الوحى ﴿وأقام الصلوة وآتى الزكوة﴾ على ماعلم من الدين فيندرج فيه الايمان بنبوة النبى صلى الله عليه وسلم حتما وقيل هو مندرج تحت الايمان بالله خاصة فان أحد جزأى كلمتى الشهادة علم للكل أى انما يعمرها من جمع هذه الكمالات العلمية والعملية والمراد بالعمارة مايعم مرمة مااسترم منها وقمها وتنظيفها وتزيينها بالفرش وتنويرها بالسرج وادامة العبادة والذكر ودراسة العلوم فيها ونحو ذلك وصيانتها مما لم تبن له كحديث الدنيا . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش وقال عليه الصلاة والسلام قال الله تعالى ان بيوتى فى أرضى المساجد وان زوارى فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى فحق على المزور أن يكرم زائره وعنه عليه الصلاة والسلام من ألف المسجد ألفه الله تعالى وقال عليه الصلاة والسلام اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان وعن أنس رضى الله عنه من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له مادام فى ذلك المسجد ضوؤه ﴿ولم يخش﴾ فى أمور الدين ﴿الاالله﴾ فعمل بموجب أمره ونهيه غير آخذه فى الله لومة لائم ولاخشية ظالم فيندرج

فيه عدم الخشية عند القتال ونحو ذلك وأما الخوف الجبلى من الأمور المخوفة فليس من هذا الباب ولا مما يدخل تحت التكليف والخطاب وقيل كانوا يخشون الأصنام ويرجونها فأريد نفى تلك الخشية عنهم ﴿فعسى أولئك﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ﴿أن يكونوا من المهتدين﴾ الى مباغيهم من الجنة ومافيها من فنون المطالب العلية وابراز اهتدائهم مع مابهم من الصفات السنية فى معرض التوقع لقطع أطماع الكفرة عن الوصول الى مواقف الاهتداء والانتفاع بأعمالهم التى يحسبون أنهم فى ذلك محسنون ولتوبيخهم بقطعهم بأنهم مهتدون فان المؤمنين مع مابهم من هذه الكمالات اذا كان أمرهم دائرا بين لعل وعسى فما بال الكفرة وهم هم وأعمالهم أعمالهم وفيه لطف للمؤمنين وترغيب لهم فى ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء و رفض الاعتذار بالله تعالى ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام﴾ أى فى الفضيلة وعلو الدرجة ﴿كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله﴾ السقاية والعمارة مصدران لايتصور تشبيههما بالاعيان فلا بد من تقدير مضاف فى أحد الجانبين أى أجعلتم أهلهما كمن آمن بالله الخ و يؤيده قراءة من قرأ سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام أو أجعلتموهما كايمان من آمن الخ وعلى التقديرين فالخطاب اما للمشركين على طريقة الالتفات وهو المتبادر من تخصيص ذكر الايمان بجانب المشبه به واما لبعض المؤمنين المؤثرين للسقاية والعمارة ونحوهما على الهجرة والجهاد ونظائرهما وهو المناسب للاكتفاء فى الرد عليهم ببيان عدم مساواتهم عند الله للفريق الثانى و بيان أعظمية درجتهم عند الله تعالى على وجه يشعر بعدم حرمان الاولين بالكلية وجعل معنى التفضيل بالنسبة الى زعم الكفرة لايجدى كثير نفع لأنه ان لم يشعر بعدم الحرمان فليس بمشعر بالحرمان أيضا أما على الأول فهو توبيخ للمشركين ومداره على انكار تشبيه أنفسهم من حيث اتصافهم بوصفيهم المذكورين مع قطع النظر عماهم عليه من الشرك بالمؤمنين من حيث اتصافهم بالايمان والجهاد أو على انكار تشبيه وصفيهم المذكورين فى حدذاتهما مع الاغماض عن مقارنتهما للشرك بالايمان والجهاد وأما اعتبار مقارنتهما له كما قيل فيأباه المقام كيف لا وقد بين آنفا حبوط أعمالهم بذلك الاعتبار بالمرة وكونها بمنزلة العدم فتوبيخهم بعد ذلك على تشبيههما بالايمان والجهاد ثم رد ذلك بما يشعر بعدم حرمانهم عن أصل الفضيلة بالكلية كما أشير اليه مما لايساعده النظم التنزيلى ولو اعتبر ذلك لما احتيج الى تقرير انكار التشبيه وتأكيده بشىء آخر اذ لاشىء أظهر بطلانا من تشبيه المعدوم بالموجود فالمعنى أجعلتم أهل السقاية والعمارة فى الفضيلة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيله أو أجعلتموهما فى ذلك كالايمان والجهاد وشتان بينهما فان السقاية والعمارة وان كانتا فى أنفسهما من أعمال البر والخير لكنهما وان خلتا عن القوادح بمعزل عن صلاحية أن يشبه أهلهما بأهل الايمان والجهاد أو يشبه نفسهما بنفس الايمان والجهاد وذلك قوله عز وجل ﴿لا يستوون عند الله﴾ أى لا يساوى الفريق الاول الثانى من حيث اتصاف كل منهما بوصفيهما ومن ضرورته عدم التساوى بين الوصفين الاولين و بين الآخرين لأنه المدار فى التفاوت بين الموصوفين واسناد عدم الاستواء الى الموصوفين لأن الأهم بيان تفاوتهم وتوجيه النفى ههنا والانكار فيما سلف الى الاستواء والتشبيه مع أن دعوى المفتخرين بالسقاية والعمارة من المشركين والمؤمنين انما هى الافضلية دون التساوى والتشابه للمبالغة فى الرد عليهم فان نفى التساوى والتشابه نفى للافضلية بالطريق الاولى والجملة استئناف لتقرير الانكار المذكور وتأكيده أو حال من مفعولى الجعل والرابط هو الضمير كأنه قيل أسويتم بينهم حال كونهم متفاوتين عنده تعالى وقوله تعالى ﴿والله لايهدى القوم الظالمين﴾ حكم عليهم بأنهم مع ظلمهم بالاشراك ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم ضالون فى هذا الجعل غير مهتدين الى طريق معرفة الحق وتمييز الراجح من المرجوح وظالمون بوضع كل منهما موضع الآخر وفيه زيادة تقرير لعدم التساوى بينهم وقوله تعالى ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم

وأنفسهم ﴾ استئناف لبيان مراتب فضلهم اثر بيان عدم الاستواء وضلال المشركين وظلمهم و زيادة الهجرة وتفصيل نوعى الجهاد للايذان بأن ذلك من لوازم الجهاد لا أنه اعتبر بطريق التدارك أمر لم يعتبر فيما سلف أى هم باعتبار اتصافهم بهذه الاوصاف الجميلة ﴿ أعظم درجة عند الله ﴾ أى أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم يتصف بها كائنا من كان وان حاز جميع ما عداها من الكمالات التى من جملتها السقاية والعمارة ﴿ وأولئك ﴾ أى المنعوتون بتلك النعوت الفاضلة وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للدلالة على بعد منزلتهم فى الرفعة ﴿ هم الفائزون ﴾ المختصون بالفوز العظيم أو بالفوز المطلق كأن فوز من عداهم ليس بفوز بالنسبة الى فوزهم وأما على الثانى فهو توبيخ لمن يؤثر السقاية والعمارة من المؤمنين على الهجرة والجهاد روى أن عليا قال للعباس رضى الله عنهما بعد اسلامه ياعم ألا تهاجرون ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألست فى أفضل من الهجرة أسقى حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام فلما نزلت قال ما أرانى الا تارك سقايتنا فقال عليه السلام أقيموا على سقايتكم فان لكم فيها خيرا وروى النعمان بن بشير قال كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد أن أسقى الحاج وقال آخر ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر رضى الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ولكن اذا صليتم استفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفتم فيه فدخل فأنزل الله عز وجل هذه الآية والمعنى أجعلتم أهل السقاية والعمارة من المؤمنين فى الفضيلة والرفعة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيله أو أجعلتموهما كالايمان والجهاد وانما لم يذكر الايمان فى جانب المشبه مع كونه معتبرا فيه قطعا تعويلا على ظهور الأمر واشعارا بأن مدار انكار التشبيه هو السقاية والعمارة دون الايمان وانما لم يترك ذكره فى جانب المشبه به أيضا تقوية للانكار وتذكيرا لأسباب الرجحان ومبادى الأفضلية وايذانا بكمال التلازم بين الايمان وما تلاه ومعنى عدم الاستواء عند الله تعالى على هذا التقدير ظاهر وكذا أعظمية درجة الفريق الثانى وأما قوله تعالى والله لا يهدى القوم الظالمين فالمراد به عدم هدايته تعالى لهم الى معرفة الراجح من المرجوح وظلمهم بوضع كل منهما موضع الآخر لا عدم الهداية مطلقا ولا الظلم عموما والقصر فى قوله تعالى وأولئك هم الفائزون بالنسبة الى درجة الفريق الثانى أو الى الفوز المطلق ادعاء كما مر والله أعلم ﴿ يبشرهم ﴾ وقرىء بالتخفيف ﴿ ربهم برحمة ﴾ عظيمة ﴿ منه و رضوان ﴾ كبير ﴿ وجنات ﴾ عالية ﴿ لهم فيها ﴾ فى تلك الجنات ﴿ نعيم مقيم ﴾ نعم لا نفاد لها وفى التعرض لعنوان الربوبية تأكيد للمبشر به وتربية له ﴿ خالدين فيها ﴾ أى فى الجنات ﴿ أبدا ﴾ تأكيد للخلود لزيادة توضيح المراد به اذ قد يراد به المكث الطويل ﴿ ان الله عنده أجر عظيم ﴾ لا قدر عنده لأجور الدنيا أو للاعمال التى فى مقابلته والجملة استئناف وقع تعليلا لما سبق ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ﴾ نهى لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة فرد من المشركين بقضية مقابلة الجمع بالجمع الموجبة لانقسام الآحاد الى الآحاد كما فى قوله عز وجل وما للظالمين من أنصار لا عن موالاة طائفة منهم فان ذلك مفهوم من النظم دلالة لا عبارة والآية نزلت فى المهاجرين فانهم لما أمروا بالهجرة قالوا ان هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا وذهبت تجاراتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا و بقينا ضائعين فنزلت فهاجروا فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت اليه ولا ينزله ولا ينفق عليه ثم رخص لهم فى ذلك وقيل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة نهيا عن موالاتهم . وعن النبى صلى الله عليه وسلم لا يطعم أحدكم طعم الايمان حتى يحب فى الله و يبغض فى الله حتى يحب فى الله أبعد الناس منه و يبغض فى الله أقرب الناس اليه ﴿ ان استحبوا الكفر ﴾ أى اختاروه ﴿ على الايمان ﴾ وأصروا عليه اصرارا

لا يرجى معه الاقلاع عنه أصلا وتعليق النهى عن الموالاة بذلك لما أنها قبل ذلك ربما تؤدى بهم الى الاسلام بسبب شعورهم بمحاسن الدين ﴿ومن يتولهم﴾ أى واحدا منهم كما أشير اليه وافراد الضمير فى الفعل لمراعاة لفظ الموصول وللايذان باستقلال كل واحد منهم فى الاتصاف بالظلم لا أن المراد تولى فرد واحد وكلمة من فى قوله تعالى ﴿منكم﴾ للجنس لا للتبعيض ﴿فأولئك﴾ أى أولئك المتولون ﴿هم الظالمون﴾ بوضعهم الموالاة فى غير موضعها كأن ظلم غيرهم كلا ظلم عند ظلمهم ﴿قل﴾ تلوين للخطاب وأمر له عليه الصلاة والسلام بأن يثبت المؤمنين ويقوى عزائمهم على الانتهاء عما نهوا عنه من موالاة الآباء والاخوان ويزهدهم فيهم وفيمن يجرى مجراهم من الأبناء والأزواج ويقطع علائقهم عن زخارف الدنيا وزينتها على وجه التوبيخ والترهيب ﴿ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم﴾ لم يذكر الابناء والأزواج فيما سلف لأن موالاة الأبناء والأزواج غير معتادة بخلاف المحبة ﴿وعشيرتكم﴾ أى أقرباؤكم مأخوذ من العشرة أى الصحبة وقيل من العشرة فانهم جماعة ترجع الى عقد كعقد العشرة وقرىء عشيراتكم وعشائركم ﴿وأموال اقترفتموها﴾ أى اكتسبتموها وانما وصفت بذلك ايماء الى عزتها عندهم لحصولها بكد اليمين ﴿وتجارة﴾ أى أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح ﴿تخشون كسادها﴾ بفوات وقت رواجها بغيبتكم عن مكة المعظمة فى أيام الموسم ﴿ومساكن ترضونها﴾ أى منازل تعجبكم الاقامة فيها من الدور والبساتين والتعرض للصفات المذكورة للايذان بأن اللوم على محبة ما ذكر من زينة الحياة الدنيا ليس لتناسى ما فيها من مبادى المحبة وموجبات الرغبة فيها وأنها مع مالها من فنون المحاسن بمعزل عن أن يؤثر حبها على حبه تعالى وحب رسوله عليه الصلاة والسلام كما فى قوله عز وجل ما غرك بربك الكريم ﴿أحب اليكم من الله ورسوله﴾ بالحب الاختيارى المستتبع لأثره الذى هو الملازمة وعدم المفارقة لا الحب الجبلى الذى لا يخلو عنه البشر فانه غير داخل تحت التكليف الدائر على الطاقة ﴿وجهاد فى سبيله﴾ نظم حبه فى سلك حب الله عز وجل وحب رسوله صلى الله عليه وسلم تنويها لشأنه وتنبيها على أنه مما يجب أن يحب فضلا عن أن يكره وايذانا بأن محبته راجعة الى محبتهما فان الجهاد عبارة عن قتال أعدائهما لأجل عداوتهم فمن يحبهما يجب أن يحب قتال من لا يحبهما ﴿فتربصوا﴾ أى انتظروا ﴿حتى يأتى الله بأمره﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه فتح مكة وقيل هى عقوبة عاجلة أو آجلة ﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ الخارجين عن الطاعة فى موالاة المشركين أو القوم الفاسقين كافة فيدخل فى زمرتهم هؤلاء دخولا أوليا أى لا يرشدهم الى ماهو خير لهم وفى الآية الكريمة من الوعيد ما لا يكاد يتخلص منه الا من تداركه لطف من ربه والله المستعان ﴿لقد نصركم الله﴾ الخطاب للمؤمنين خاصة ﴿فى مواطن كثيرة﴾ من الحروب وهى مواقعها ومقاماتها والمراد بها وقعات بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة ﴿ويوم حنين﴾ عطف على محل فى مواطن بحذف المضاف فى أحدهما أى وموطن يوم حنين أو فى أيام مواطن كثيرة ويوم حنين ولعل التغيير للايماء الى ما وقع فيه من قلة الثبات من أول الامر وقيل المراد بالموطن الوقت كمقتل الحسين وقيل يوم حنين منصوب بمضمر معطوف على نصركم أى ونصركم يوم حنين ﴿اذ أعجبتكم كثرتكم﴾ بدل من يوم حنين ولا منع فيه من عطفه على محل الظرف بناء على أنه لم يكن فى المعطوف عليه كثرة ولا اعجاب اذ ليس من قضية العطف مشاركة المعطوفين فيما أضيف اليه المعطوف أو منصوب باضمار اذكر وحنين واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفا عشرة آلاف منهم من شهد فتح مكة من المهاجرين والانصار وألفان من الطلقاء وبين هوازن وثقيف وكانوا أربعة آلاف فيمن ضامهم من أمداد سائر العرب وكانوا الجم الغفير فلما التقوا قال رجل من المسلمين اسمه سلمة بن سلامة الانصارى

لن نغلب اليوم من قلة فساءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا الذرارى فأكب المسلمون على الغنائم فتنادى المشركون ياحماة السوء اذكروا الفضائح فتراجعوا فأدركت المسلمين كلمة الاعجاب فانكشفوا وذلك قوله عز وجل ﴿فلم تغن عنكم شيئا﴾ والاغناء اعطاء ما يدفع به الحاجة أى لم تعطكم تلك الكثرة ما تدفعون به حاجتكم شيئا من الاغناء ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ أى برحبها وسعتها على أن ما مصدرية والباء بمعنى مع أى لاتجدون فيها مفرا تطمئن اليه نفوسكم من شدة الرعب ولاتثبتون فيها كمن لا يسعه مكان ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ روى أنه بلغ فلهم مكة و بقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ليس معه الا عمه العباس آخذا بلجام بغلته وابن عمه أبو سفيان بن الحرث آخذا بركابه وهو يركض البغلة نحو المشركين وهو يقول أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب. روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يحمل على الكفار فيفرون ثم يحملون عليه فيقف لهم فعل ذلك بضع عشرة مرة قال العباس كنت أكف البغلة لئلا تسرع به نحو المشركين وناهيك بهذه الواحدة شهادة صدق على أنه عليه الصلاة والسلام كان فى الشجاعة و رباطة الجأش سباقا للغايات القاصية وما كان ذلك الا لكونه مؤيدا من عند الله العزيز الحكيم فعند ذلك قال يارب ائتنى بما وعدتنى وقال العباس وكان صيتا صح بالناس فنادى الأنصار فخذا فخذا ثم نادى يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة فكروا عنقا واحدا وهم يقولون لبيك لبيك وذلك قوله تعالى ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله﴾ أى رحمته التى تسكن بها القلوب وتطمئن اليها اطمئنانا كليا مستتبعا للنصر القريب وأما مطلق السكينة فقد كانت حاصلة له عليه الصلاة والسلام قبل ذلك أيضا ﴿وعلى المؤمنين﴾ عطف على رسوله وتوسيط الجار بينهما للدلالة على ما بينهما من التفاوت أى المؤمنين الذين انهزموا وقيل على الذين ثبتوا مع النبى صلى الله عليه وسلم أو على الكل وهو الأنسب ولا ضير فى تحقق أصل السكينة فى الثابتين من قبل والتعرض لوصف الايمان للاشعار بعلية الانزال ﴿وأنزل جنودا لم تروها﴾ أى بأبصاركم كما يرى بعضكم بعضا وهم الملائكة عليهم السلام عليهم البياض على خيول بلق فنظر النبى صلى الله عليه وسلم الى قتال المسلمين فقال هكذا حين حمى الوطيس فأخذ كفا من التراب فرمى به نحو المشركين وقال شاهت الوجوه فلم يبق منهم أحد الا امتلأت به عيناه ثم قال عليه الصلاة والسلام انهزموا ورب الكعبة واختلفوا فى عدد الملائكة يومئذ فقيل خمسة آلاف وقيل ثمانية آلاف وقيل ستة عشر ألفا و فى قتالهم أيضا فقيل قاتلوا وقيل لم يقاتلوا الا يوم بدر وانما كان نزولهم لتقوية قلوب المؤمنين بالقاء الخواطر الحسنة وتأييدهم بذلك والقاء الرعب فى قلوب المشركين. قال سعيد بن المسيب حدثنى رجل كان فى المشركين يوم حنين قال لما كشفنا المسلمين جعلنا نسوقهم فلما انتهينا الى صاحب البغلة الشهباء تلقانا رجال بيض الوجوه فقالوا شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا فركبوا أكتافنا ﴿وعذب الذين كفروا﴾ بالقتل والاسر والسبى ﴿وذلك﴾ أى مافعل بهم مما ذكر ﴿جزاء الكافرين﴾ لكفرهم فى الدنيا ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾ أن يتوب عليه منهم لحكمة تقتضيه أى يوفقه للاسلام ﴿والله غفور﴾ يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصى ﴿رحيم﴾ يتفضل عليهم ويثيبهم روى أن ناسا منهم جاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم و بايعوه على الاسلام وقالوا يارسول الله أنت خير الناس وأبر الناس وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا. قيل سبى يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الابل والغنم مالا يحصى فقال عليه الصلاة والسلام ان عندى ماترون ان خير القول أصدقه اختاروا اما ذراريكم ونساءكم واما أموالكم قالوا ما كنا نعدل بالاحساب شيئا فقام النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان هؤلاء جاؤنا مسلمين وانا خيرناهم بين الذرارى والاموال فلم يعدلوا بالاحساب شيئا فمن كان بيده سبى وطابت نفسه أن يرده فشأنه ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب

شيئاً فنعطيه مكانه قالوا قد رضينا وسلمنا فقال عليه الصلاة والسلام انا لاندرى لعل فيكم من لايرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك الينا فرفعت اليه العرفاء أنهم قد رضوا ﴿ياأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس﴾ وصفوا بالمصدر مبالغة كأنهم عين النجاسة أوهم ذوو نجس لخبث باطنهم أو لان معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس أو لانهم لايتطهرون ولا يغتسلون ولايجتنبون النجاسات فهى ملابسة لهم . عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير وعن الحسن من صافح مشركا توضأ وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين وقرىء نجس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف نجس ككبد فى كبد كأنه قيل انما المشركون جنس نجس أوضرب نجس وأكثر ماجاء تابعا لرجس ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾ تفريع على نجاستهم وانما نهى عن القرب للمبالغة أو للمنع عن دخول الحرم وهو مذهب عطاء وقيل المراد به النهى عن الدخول مطلقا وقيل المراد المنع عن الحج والعمرة وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله تعالى و يؤيده قوله عز وجل ﴿بعد عامهم هذا﴾ فان تقييد النهى بذلك يدل على اختصاص المنهى عنه بوقت من أوقات العام أى لايحجوا و لا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسعة من الهجرة حين أمر أبو بكر رضى الله عنه على الموسم ويدل عليه قول على رضى الله عنه حين نادى ببراءة ألا لايحج بعد عامنا هذا مشرك ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عنده وعند الشافعى يمنعون من المسجد الحرام خاصة وعند مالك يمنعون من جميع المساجد ونهى المشركين أن يقربوه راجع الى نهى المسلمين عن تمكينهم من ذلك وقيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه و يعزلوا عن ذلك ﴿وان خفتم عيلة﴾ أى فقرا بسبب منعهم من الحج وانقطاع ما كانوا يجلبونه اليكم من الارفاق والمكاسب وقرىء عائلة على أنها مصدر كالعافية أو حالا عائلة ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ من عطائه أو من تفضله بوجه آخر فأرسل الله تعالى السماء عليهم مدرارا أغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم وأسلم أهل تبالة وجرش فحملوا الى مكة الطعام ومايعاش به فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته ثم فتح عليهم البلاد والغنائم وتوجه اليهم الناس من أقطار الارض ﴿ان شاء﴾ أن يغنيكم مشيئة تابعة للحكمة الداعية اليها وانما قيد ذلك بها لتنقطع الآمال الى الله تعالى و لان الاغناء ليس مطردا بحسب الافراد والاحوال والاوقات ﴿ان الله عليم﴾ بمصالحكم ﴿حكيم﴾ فيما يعطى و يمنع ﴿قاتلوا الذين لايؤمنون بالله و لا باليوم الآخر﴾ أمرهم بقتال أهل الكتابين اثر أمرهم بقتال المشركين و بمنعهم من أن يحوموا حول ما كانوا يفعلونه من الحج والعمرة غير خائفين من الفاقة المتوهمة من انقطاعهم ونبههم فى تضاعيف ذلك على بعض طرق الاغناء الموعود على الوجه الكلى وأرشدهم الى سلوكه ابتغاء لفضله واستنجازا لوعده والتعبير عنهم بالموصول للايذان بعلية ما فى حيز الصلة للامر بالقتال و بانتظامهم بسبب ذلك فى سلك المشركين فان اليهود مثنية والنصارى مثلثة فهم بمعزل من أن يؤمنوا بالله سبحانه و لا باليوم الآخر فان علمهم باحوال الآخرة كلاعلم فايمانهم المبنى عليه ليس بايمان به ﴿و لا يحرمون ما حرم الله و رسوله﴾ أى ما ثبت تحريمه بالوحى متلوا أو غير متلو وقيل المراد برسوله الرسول الذى يزعمون اتباعه أى يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقادا وعملا ﴿و لا يدينون دين الحق﴾ الثابت الذى هو ناسخ لسائر الأديان وهو دين الاسلام وقيل دين الله ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ من التوراة والانجيل فمن بيانية لا تبعيضية حتى يكون بعضهم على خلاف مانعت ﴿حتى يعطوا﴾ أى يقبلوا أن يعطوا ﴿الجزية﴾ أى ما تقرر عليهم أن يعطوه مشتق من جزى دينه أى قضاه أو لانهم يجزون بها من من عليهم بالاعفاء عن القتل ﴿عن يد﴾ حال من الضمير فى يعطوا أى عن يد مؤاتية مطيعة بمعنى منقادين أومن يدهم بمعنى مسلمين بأيديهم غير باعثين بأيدى غيرهم ولذلك منع من التوكيل فيه أو عن غنى و لذلك لم تجب الجزية على الفقير العاجز أو عن

يد قاهرة عليهم أى بسبب يد بمعنى عاجزين أذلاء أو عن انعام عليهم فان ابقاء مهجتهم بما بذلوا من الجزية نعمة عظيمة عليهم أو من الجزية أى نقدا مسلمة عن يد الى يد وغاية القتال ليست نفس هذا الاعطاء بل قبوله كما أشير اليه ﴿وهم صاغرون﴾ أى أذلاء وذلك بأن يأتى بها بنفسه ماشيا غير راكب و يسلمها وهو قائم والمتسلم جالس ويؤخذ بتلبيبه و يقال له أد الجزية وان كان يؤديها وهى تؤخذ عند أبى حنيفة رضى الله عنه من أهل الكتاب مطلقا ومن مشركى العجم لا من مشركى العرب وعند أبى يوسف رضى الله عنه لا تؤخذ من العربى كتابيا كان أو مشركا وتؤخذ من الاعجمى كتابيا كان أو مشركا وعند الشافعى رضى الله عنه تؤخذ من أهل الكتاب عربيا أو عجميا ولا تؤخذ من أهل الاوثان مطلقا وذهب مالك والاوزاعى الى أنها تؤخذ من جميع الكفار وأما المجوس فقد اتفقت الصحابة رضى الله عنهم على أخذ الجزية منهم لقوله عليه الصلاة والسلام سنوا بهم سنة أهل الكتاب وروى عن على رضى الله عنه أنه كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا وقد أسرى على كتابهم فرفع من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبيحتهم ومناكحتهم لقوله عليه الصلاة والسلام فى آخر مانقل من الحديث غير ناكحى نسائهم وآكلى ذبيحتهم ووقت الأخذ عند أبى حنيفة رضى الله عنه أول السنة وتسقط بالموت والاسلام ومقدارها على الفقير المعتمل اثنا عشر درهما وعلى المتوسط الحال أربعة وعشرون درهما وعلى الغنى ثمانية وأربعون درهما ولا جزية على فقير عاجز عن الكسب ولا على شيخ فان أو زمن أو صبى أو امرأة وعند الشافعى رضى الله عنه تؤخذ فى آخر السنة من كل واحد دينار غنيا كان أو فقيرا كان له كسب أو لم يكن ﴿وقالت اليهود﴾ جملة مبتدأة سيقت لتقرير مامر من عدم ايمان أهل الكتابين بالله سبحانه وانتظامهم بذلك فى سلك المشركين ﴿عزير ابن الله﴾ مبتدأ وخبر وقرىء بغير تنوين على أنه اسم أعجمى كعازر وعزار غير منصرف للعجمة والتعريف وأما تعليله بالتقاء الساكنين أو بجعل الابن وصفا على أن الخبر محذوف فتعسف مستغنى عنه قيل هو قول قدمائهم ثم انقطع فحكى الله تعالى ذلك عنهم ولاعبرة بانكار اليهود وقيل قول بعض ممن كان بالمدينة . عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ناس منهم وهم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا ذلك وقيل قاله فنحاص بن عازوراء وهو الذى قال ان الله فقير ونحن أغنياء وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الانبياء بعد موسى عليه السلام فرفع الله تعالى عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم فخرج عزير وهو غلام يسيح فى الارض فأتاه جبريل عليه السلام فقال له أين تذهب قال أطلب العلم فحفظه التوراة فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لايخرم حرفا فقالوا ما جمع الله التوراة فى صدره وهو غلام الا أنه ابنه قال الامام الكلبى لما قتل بخت نصر علماءهم جميعا وكان عزير اذ ذاك صغيرا فاستصغره ولم يقتله فلما رجع بنو اسرائيل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله تعالى عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون آية بعد ما أماته مائة عام يقال انه أتاه ملك باناء فيه ماء فسقاه فمثلت فى صدره فلما أتاهم فقال لهم انى عزير كذبوه فقالوا ان كنت كما تزعم فأمل علينا التوراة ففعل فقالوا ان الله تعالى لم يقذف التوراة فى قلب رجل الا لأنه ابنه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن اليهود أضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فأنساهم الله تعالى التوراة ونسخها من صدورهم ورفع التابوت فتضرع عزير الى الله تعالى وابتهل اليه فعاد حفظ التوراة الى قلبه فأنذر قومه به ثم ان التابوت نزل فعرضوا ماتلاه عزير على مافيه فوجدوه مثله فقالوا ماقالوا ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ هو أيضا قول بعضهم وانما قالوه استحالة لأن يكون ولد بغير أب أو لأن يفعل مافعله من ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى من لم يكن الها ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماصدر عنهم من العظيمتين ومافيه من معنى البعد للدلالة على بعد درجة المشار اليه فى الشناعة والفظاعة ﴿قولهم بأفواههم﴾ اما تأكيد لنسبة القول المذكور اليهم ونفى التجوز عنها أو اشعار بأنه قول مجرد

عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل الموجود فى الافواه من غير أن يكون له مصداق فى الخارج ﴿يضاهئون﴾ أى فى الكفر والشناعة وقرئ بغير همز ﴿قول الذين كفروا﴾ أى يشابه قولهم على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه عند انقلابه مرفوعا قول الذين كفروا ﴿من قبل﴾ أى من قبلهم وهم المشركون الذين يقولون الملائكة بنات الله أو اللات والعزى بنات الله لا قدماؤهم كما قيل اذ لا تعدد فى القول حتى يتأتى التشبيه وجعله بين قولى الفريقين مع اتحاد المقول ليس فيه مزيد مزية وقيل الضمير للنصارى أى يضاهى قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزير الخ لأنهم أقدم منهم وهو أيضا كما ترى فانه يستدعى اختصاص الرد والابطال بقوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم بقول النصارى ﴿قاتلهم الله﴾ دعاء عليهم جميعا بالاهلاك فان من قاتله الله هلك أو تعجب من شناعة قولهم ﴿أنى يؤفكون﴾ كيف يصرفون من الحق الى الباطل والحال أنه لا سبيل اليه أصلا ﴿اتخذوا﴾ زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى ﴿أحبارهم﴾ وهم علماء اليهود واختلف فى واحده قال الاصمعى لا أدرى أهو حبر أم حبر وقال أبو الهيثم بالفتح لا غير وكان الليث وابن السكيت يقولان حبر وحبر للعالم ذميا كان أو مسلما بعد أن كان من أهل الكتاب ﴿ورهبانهم﴾ وهم علماء النصارى من أصحاب الصوامع أى اتخذ كل واحد من الفريقين علماءهم لا الكل الكل ﴿أربابا من دون الله﴾ بأن أطاعوهم فى تحريم ما أحله الله تعالى وتحليل ما حرمه أو بالسجود لهم ونحوه تسمية اتباع الشيطان عبادة له فى قوله تعالى يا أبت لا تعبد الشيطان وقوله تعالى بل كانوا يعبدون الجن . قال عدى بن حاتم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنق صليب من ذهب وكان اذ ذاك على دين يسمى الركوسية فريق من النصارى وهو يقرأ سورة براءة فقال يا عدى اطرح هذا الوثن فطرحته فلما انتهى الى قوله تعالى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قلت يارسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه الصلاة والسلام أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتستحلونه فقلت بلى قال ذلك عبادتهم قال الربيع قلت لأبى العالية كيف كانت تلك الربوبية فى بنى اسرائيل قال انهم ربما وجدوا فى كتاب الله تعالى ما يخالف أقوال الاحبار فكانوا يأخذون بأقوالهم ويتركون حكم كتاب الله ﴿والمسيح ابن مريم﴾ عطف على رهبانهم أى اتخذه النصارى ربا معبودا بعد ما قالوا انه ابنه تعالى عن ذلك علوا كبيرا وتخصيص الاتخاذ به يشير الى أن اليهود ما فعلوا ذلك بعزير وتأخيره فى الذكر مع أن اتخاذهم له عليه الصلاة والسلام ربا معبودا أقوى من مجرد الاطاعة فى أمر التحليل والتحريم كما هو المراد باتخاذهم الاحبار والرهبان أربابا لأنه مختص بالنصارى ونسبته عليه الصلاة والسلام الى أمه من حيث دلالتها على مربوبيته المنافية للربوبية للايذان بكمال ركاكة رأيهم والقضاء عليهم بنهاية الجهل والحماقة ﴿وما أمروا﴾ أى والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا فى كتابيهم ﴿الا ليعبدوا الها واحدا﴾ عظيم الشأن هو الله سبحانه وتعالى ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه فان ذلك مخل بعبادته تعالى فان جميع الكتب السماوية متفقة على ذلك قاطبة وقد قال المسيح عليه السلام انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وأما اطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر من أمر الله تعالى بطاعته فهى فى الحقيقة اطاعة لله عز وجل أو وما أمر الذين اتخذهم الكفرة أربابا من المسيح والأحبار والرهبان الا ليوحدوا الله تعالى فكيف يصح أن يكونوا أربابا وهم مأمورون مستعبدون مثلهم ولا يقدح فى ذلك كون ربوبية الأحبار والرهبان بطريق الاطاعة فان تخصيص العبادة به تعالى لا يتحقق الا بتخصيص الطاعة أيضا به تعالى وحيث لم يخصوها به تعالى لم يخصوا العبادة به سبحانه ﴿لا اله الا هو﴾ صفة ثانية لالها أو استئناف مقرر للتوحيد ﴿سبحانه عما يشركون﴾ عن الاشراك به فى العبادة والطاعة ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله﴾ اطفاء النار عبارة عن ازالة لهبها الموجبة لزوال نورها لا عن ازالة نورها كما قيل لكن لما كان الغرض من اطفاء نار لا يراد

بها الا النور كالمصباح ازالة نورها جعل اطفاؤها عبارة عنها ثم شاع ذلك حتى كان عبارة عن مطلق ازالة النور وان كان لغير النار والسر فى ذلك انحصار امكان الازالة فى نورها والمراد بنور الله سبحانه اما حجته النيرة الدالة على وحدانيته وتنزهه عن الشركاء والأولاد أو القرآن العظيم الناطق بذلك أى يريد أهل الكتابين أن يردوا القرآن و يكذبوه فيما نطق به من التوحيد والتنزه عن الشركاء والأولاد والشرائع التى من جملتها ما خالفوه من أمر الحل والحرمة ﴿بأفواههم﴾ بأقاويلهم الباطلة الخارجة منها من غير أن يكون لها مصداق تنطبق عليه أو أصل تستند اليه حسبما حكى عنهم وقيل المراد به نبوة النبى صلى الله عليه وسلم هذا وقد قيل مثلت حالهم فيما ذكر بحال من يريد طمس نور عظيم منبث فى الآفاق بنفخه ﴿و يأبى الله﴾ أى لا يريد ﴿الا أن يتم نوره﴾ باعلاء كلمة التوحيد واعزاز دين الاسلام وانما صح الاستثناء المفرغ من الموجب لكونه بمعنى النفى كما أشير اليه لوقوعه فى مقابلة قوله تعالى يريدون وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ماليس فى نفى الارادة أى لا يريد شيئا من الأشياء الا اتمام نوره فيندرج فى المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه فضلا عن الاطفاء و فى اظهار النور فى مقام الاضمار مضافا الى ضميره عز وجل زيادة اعتناء بشأنه وتشريف له على تشريف واشعار بعلة الحكم ﴿ولو كره الكافرون﴾ جواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على جملة قبلها مقدرة و كلتاهما فى موقع الحال أى لا يريد الله الا اتمام نوره لو لم يكره الكافرون ذلك ولو كرهوه أى على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى فى الباب حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة لأن الشىء اذا تحقق عند المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذا السر يدور ما فى ان ولو الوصليتين من التأكيد وقد مر زيادة تحقيق لهذا مرارا ﴿هو الذى أرسل رسوله﴾ ملتبسا ﴿بالهدى﴾ أى القرآن الذى هو هدى للمتقين ﴿ودين الحق﴾ الثابت وهو دين الاسلام ﴿ليظهره﴾ أى رسوله ﴿على الدين كله﴾ أى على أهل الأديان كلهم أو ليظهر الدين الحق على سائر الأديان بنسخه اياها حسبما تقتضيه الحكمة والجملة بيان وتقرير لمضمون الجملة السابقة والكلام فى قوله عز وجل ﴿ولو كره المشركون﴾ كما فيما سبق خلا أن وصفهم بالشرك بعد وصفهم بالكفر للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول الى الكفر بالله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ شروع فى بيان حال الأحبار والرهبان فى اغوائهم لأراذلهم اثر بيان سوء حال الاتباع فى اتخاذهم لهم أربابا يطيعونهم فى الأوامر والنواهى واتباعهم لهم فيما يأتون ومايذرون ﴿ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾ يأخذونها بطريق الرشوة لتغيير الأحكام والشرائع والتخفيف والمسامحة فيها وانما عبر عن ذلك بالأكل بناء على أنه معظم الغرض منه وتقبيحا لحالهم وتنفيرا للسامعين عنهم ﴿و يصدون﴾ الناس ﴿عن سبيل الله﴾ عن دين الاسلام أو عن المسلك المقرر فى التوراة والانجيل الى ما افتروه وحرفوه بأخذ الرشا أو يصدون عنه بأنفسهم بأكلهم الأموال بالباطل ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ أى يجمعونهما و يحفظونهما سواء كان ذلك بالدفن أو بوجه آخر والموصول عبارة اما عن الكثير من الأحبار والرهبان فيكون مبالغة فى الوصف بالحرص والضن بهما بعد وصفهم بما سبق من أخذ الرشا والبراطيل فى الأباطيل واما عن المسلمين الكانزين غير المنفقين وهو الأنسب بقوله عز وجل ﴿ولا ينفقونها فى سبيل الله﴾ فيكون نظمهم فى قرن المرتشين من أهل الكتاب تغليظا ودلالة على كونهم أسوة لهم فى استحقاق البشارة بالعذاب الأليم فالمراد بالانفاق فى سبيل الله الزكاة لما روى أنه لما نزل كبر ذلك على المسلمين فذكر عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تعالى لم يفرض الزكاة الا ليطيب بها ما بقى من أموالكم ولقوله عليه الصلاة والسلام ما أدى زكاته فليس بكنز أى بكنز أوعد عليه فان الوعيد عليه مع عدم الانفاق فيما أمر الله بالانفاق فيه وأما قوله عليه الصلاة والسلام من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها

ونحوه فالمراد بها مالم يؤد حقها لقوله عليه الصلاة والسلام مامن صاحب ذهب و لا فضة لايؤدى منها حقها الا اذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ خبر للموصول والفاء لتضمنه معنى الشرط و يجوز أن يكون الموصول منصوبا بفعل يفسره فبشرهم ﴿يوم﴾ منصوب بعذاب أليم أو بمضمر يدل عليه ذلك أى يعذبون أوباذكر ﴿يحمى عليها فى نار جهنم﴾ أى يوم توقد النار ذات حمى شديد عليها وأصله تحمى النار فجعل الاحماء للنار مبالغة ثم حذفت النار وأسند الفعل الى الجار والمجرور تنبيها على المقصود فانتقل من صيغة التأنيث الى التذكير كما تقول رفعت القصة الى الأمير فان طرحت القصة قلت رفع الى الأمير وانما قيل عليها والمذكور شيآن لأن المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة كما قال على رضى الله عنه أربعة آلاف وما دونها نفقة وما فوقها كنز وكذا الكلام فى قوله تعالى ولا ينفقونها وقيل الضمير للاموال والكنوز فان الحكم عام وتخصيصهما بالذكر لأنهما قانون التمول أو للفضة وتخصيصها لقربها ودلالة حكمها على أن الذهب كذلك بل أولى ﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ لأن جمعهم لها وامساكهم كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس البهية أو لأنهم ازوروا عن السائل وأعرضوا عنه وولوه ظهورهم أو لأنها أشرف الاعضاء الظاهرة فانها المشتملة على الاعضاء الرئيسة التى هى الدماغ والقلب والكبد أو لانها أصول الجهات الاربعة التى هى مقاديم البدن ومآخره وجنباه ﴿هذا ما كنزتم﴾ على ارادة القول ﴿لأنفسكم﴾ لمنفعتها فكان عين مضرتها وسبب تعذيبها ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ أى وبال كنزكم أو ماتكنزونه وقرئ بضم النون ﴿ان عدة الشهور﴾ أى عددها ﴿عند الله﴾ أى فى حكمه وهو معمول لها لانها مصدر ﴿اثنا عشر﴾ خبر لان ﴿شهرا﴾ تمييز مؤكد كما فى قولك عندى من الدنانير عشرون دينارا والمراد الشهور القمرية اذ عليها يدور فلك الاحكام الشرعية ﴿فى كتاب الله﴾ فى اللوح المحفوظ أو فيما أثبته وأوجبه وهو صفة اثنا عشر أى اثنا عشر شهرا مثبتا فى كتاب الله وقوله عز وجل ﴿يوم خلق السموات والارض﴾ متعلق بما فى الجار والمجرور من معنى الاستقرار أو بالكتاب على أنه مصدر والمعنى ان هذا أمر ثابت فى نفس الامر منذ خلق الله تعالى الاجرام والحركات والازمنة ﴿منها﴾ أى من تلك الشهور الاثنى عشر ﴿أربعة حرم﴾ هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ومنه قوله عليه الصلاة والسلام فى خطبته فى حجة الوداع ألاان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض السنة اثناعشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان والمعنى رجعت الاشهر الى ما كانت عليه من الحل والحرمة وعاد الحج الى ذى الحجة بعد ما كانوا أزالوه عن محله بالنسئ الذى أحدثوه فى الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة وكانت حجة أبى بكر رضى الله عنه قبلها فى ذى القعدة ﴿ذلك﴾ أى تحريم الاشهر الاربعة المعينة المعدودة وما فى ذلك من معنى البعد لتفخيم المشار اليه هو ﴿الدين القيم﴾ المستقيم دين ابراهيم واسمعيل عليهما السلام وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما وكانوا يعظمون الاشهر الحرم ويكرهون القتال فيها حتى أنه لو لقى رجل قاتل أبيه أوأخيه لم يهجه وسموا رجبا الاصم ومنصل الأسنة حتى أحدثوا النسئ فغيروا ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ بهتك حرمتهن وارتكاب ما حرم فيهن والجمهور على أن حرمة القتال فيهن منسوخة وأن الظلم ارتكاب المعاصى فيهن فانه أعظم وزرا كارتكابها فى الحرم وعن عطاء أنه لا يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الاشهر الحرم الا أن يقاتلوا وما نسخت ويؤيد الاول أنه عليه الصلاة والسلام حصر طائفا وغزا هوازن بحنين فى شوال وذى القعدة ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ أى جميعا وهو مصدر كف عن الشئ فان الجميع مكفوف عن الزيادة وقع موقع الحال ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾

أى معكم بالنصر والامداد فيما تباشرونه من القتال وانما وضع المظهر موضعه مدحا لهم بالتقوى وحثا للقاصرين عليه وايذانا بأنه المدار فى النصر وقيل هى بشارة وضمان لهم بالنصرة بسبب تقواهم ﴿انما النسىء﴾ هو مصدر نسأه اذا أخره نسأونساء ونسيئا نحو مس مسا ومساساومسيسا وقرىء بهن جميعا وقرىء بقلب الهمزة ياء وتشديد الياء الاولى فيها كانوا اذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا امكانه شهرا آخر حتى رفضوا خصوص الاشهر واعتبروا مجرد العدد وربما زادوا فى عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ويجعلوا أربعة أشهر من السنة حرما ولذلك نص على العدد المعين فى الكتاب والسنة أى انما تأخير حرمة شهر الى شهر آخر ﴿زيادة فى الكفر﴾ لأنه تحليل ما حرمه الله وتحريم ما حلله فهو كفر آخر مضموم الى كفرهم ﴿يضل به الذين كفروا﴾ ضلالا على ضلالهم القديم وقرىء على البناء للفاعل من الافعال على أن الفعل لله سبحانه أى يخلق فيهم الضلال عند مباشرتهم لمباديه وأسبابه وهو المعنى على القراءة الأولى أيضا وقيل المضلون حينئذ رؤساؤهم والموصول عبارة عن أتباعهم وقرىء يضل بفتح الياء والضاد من ضلل يضلل ونضل بنون العظمة ﴿يحلونه﴾ أى الشهر المؤخر ﴿عاما﴾ من الاعوام ويحرمون مكانه شهرا آخر مما ليس بحرام ﴿ويحرمونه﴾ أى يحافظون على حرمته كما كانت والتعبير عن ذلك بالتحريم باعتبار احلالهم له فى العام الماضى أو لاسنادهم له الى آلهتهم كما سيجىء ﴿عاما﴾ آخر اذا لم يتعلق بتغييره غرض من أغراضهم قال الكلبى أول من فعل ذلك رجل من كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان اذا هم الناس بالصدر من الموسم يقوم فيخطب ويقول لامرد لما قضيت وأنا الذى لا أعاب ولا أجاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه أن ينسئهم شهرا يغيرون فيه فيقول ان صفر العام حرام فاذا قال ذلك حلوا الأوتار ونزعوا الأسنة والأزجة وان قال حلال عقدوا الأوتار وشدوا الأزجة وأغاروا وقيل هو جنادة بن عوف الكنانى وكان مطاعا فى الجاهلية كان يقوم على جمل فى الموسم فينادى بأعلى صوته ان آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ثم يقوم فى العام القابل فيقول ان آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه وقيل هو رجل من كنانة يقال له القلمس قال قائلهم ومنا ناسىء الشهر القلمس وعن ابن عباس رضى الله عنهما أول من سن النسىء عمر بن لحى بن قمعة بن خندف والجملتان تفسير للضلال أو حال من الموصول والعامل عامله ﴿ليواطئوا﴾ أى ليوافقوا ﴿عدة ما حرم الله﴾ من الاشهر الاربعة واللام متعلقة بالفعل الثانى أو بما يدل عليه مجموع الفعلين ﴿فيحلوا ما حرم الله﴾ بخصوصه من الأشهر المعينة ﴿زين لهم سوء أعمالهم﴾ وقرىء على البناء للفاعل وهو الله سبحانه والمعنى جعل أعمالهم مشتهاة للطبع محبوبة للنفس وقيل خذلهم حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسنا فاستمروا على ذلك ﴿والله لايهدى القوم الكافرين﴾ هداية موصلة الى المطلوب البتة وانما يهديهم الى ما يوصل اليه عند سلوكه وهم قد صدوا عنه بسوء اختيارهم فتاهوا فى تيه الضلال ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ رجوع الى حث المؤمنين وتجريد عزائمهم على قتال الكفرة اثر بيان طرف من قبائحهم الموجبة لذلك ﴿ما لكم﴾ استفهام فيه معنى الانكار والتوبيخ ﴿اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم﴾ تباطأتم وتقاعستم أصله تثاقلتم وقد قرىء كذلك أى أى شىء حصل أو حاصل لكم أو ما تصنعون حين قال لكم النبى صلى الله عليه وسلم انفروا أى اخرجوا الى الغزو فى سبيل الله متثاقلين على أن الفعل ماض لفظا مضارع معنى كأنه قيل تتثاقلون فالعامل فى الظرف الاستقرار المقدر فى لكم أو معنى الفعل المدلول عليه بذلك ويجوز أن يعمل فيه الحال أى مالكم متثاقلين حين قيل لكم انفروا وقرىء أثاقلتم على الاستفهام الانكارى التوبيخى فالعامل فى الظرف حينئذ انما هو الاول ﴿الى الأرض﴾ متعلق باثاقلتم على تضمينه معنى الميل والاخلاد أى اثاقلتم مائلين الى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل وكرهتم مشاق الغزو ومتاعبه المستتبعة للراحة الخالدة كقوله تعالى

أخلد الى الارض واتبع هواه أو الى الاقامة بأرضكم ودياركم وكان ذلك فى غزوة تبوك فى سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف استنفروا فى وقت عسرة وقحط وقيظ وقد أدركت ثمار المدينة وطابت ظلالها مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم ذلك وقيل ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها الا ورى بغيرها الا فى غزوة تبوك فانه عليه الصلاة والسلام بين لهم المقصد فيها ليستعدوا لها ﴿أرضيتم بالحيوة الدنيا﴾ وغرورها ﴿من الآخرة﴾ أى بدل الآخرة ونعيمها الدائم ﴿فما متاع الحيوة الدنيا﴾ أظهر فى مقام الاضمار لزيادة التقرير أى فما التمتع بها وبلذائذها ﴿فى الآخرة﴾ أى فى جنب الآخرة ﴿الا قليل﴾ أى مستحقر لا يؤبه له وفى ترشيح الحياة الدنيا بما يؤذن بنفاستها ويستدعى الرغبة فيها وتجريد الآخرة عن مثل ذلك مبالغة فى بيان حقارة الدنيا ودناءتها وعظم شأن الآخرة وعلوها ﴿الا تنفروا﴾ أى ان لا تنفروا الى ما استنفرتم اليه ﴿يعذبكم﴾ أى الله عز وجل ﴿عذابا أليما﴾ أى يهلككم بسبب فظيع هائل كقحط ونحوه ﴿ويستبدل﴾ بكم بعد اهلاككم ﴿قوما غيركم﴾ وصفهم بالمغايرة لهم لتأكيد الوعيد والتشديد فى التهديد بالدلالة على المغايرة الوصفية والذاتية المستلزمة للاستئصال أى قوما مطيعين مؤثرين للآخرة على الدنيا ليسوا من أولادكم ولا أرحامكم كأهل اليمن وأبناء فارس وفيه من الدلالة على شدة السخط ما لا يخفى ﴿ولا تضروه شيئاً﴾ أى لا يقدح تثاقلكم فى نصرة دينه أصلا فانه الغنى عن كل شئ فى كل شئ وقيل الضمير للرسول صلى الله عليه وسلم فان الله عز وجل وعده بالعصمة والنصرة وكان وعده مفعولا لا محالة ﴿والله على كل شئ قدير﴾ فيقدر على اهلاككم والاتيان بقوم آخرين ﴿الا تنصروه فقد نصره الله﴾ أى ان لم تنصروه فسينصره الله الذى قد نصره فى وقت ضرورة أشد من هذه المرة فحذف الجزاء وأقيم سببه مقامه أو ان لم تنصروه فقد أوجب له النصرة حتى نصره فى مثل ذلك الوقت فلن يخذله فى غيره ﴿اذ أخرجه الذين كفروا﴾ أى تسببوا لخروجه حيث أذن له عليه الصلاة والسلام فى ذلك حين هموا باخراجه ﴿ثانى اثنين﴾ حال من ضميره عليه الصلاة والسلام وقرئ بسكون الياء على لغة من يجرى الناقص مجرى المقصور فى الاعراب أى أحد اثنين من غير اعتبار كونه عليه الصلاة والسلام ثانيا فان معنى قولهم ثالث ثلاثة ورابع أربعة ونحو ذلك أحد هذه الاعداد مطلقا لا الثالث والرابع خاصة ولذلك منع الجمهور أن ينصب ما بعده بأن يقال ثالث ثلاثة ورابع أربعة وقدم فى قوله تعالى لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة من سورة المائدة وجعله عليه الصلاة والسلام ثانيهما لمشى الصديق أمامه ودخوله فى الغار أولا لكنسه وتسوية البساط كما ذكر فى الاخبار تمحل مستغنى عنه ﴿اذ هما فى الغار﴾ بدل من اذ أخرجه بدل البعض اذ المراد به زمان متسع والغار ثقب فى أعلى ثور وهو جبل فى يمنى مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلاثا ﴿اذ يقول﴾ بدل ثان أو ظرف لثانى ﴿لصاحبه﴾ أى الصديق ﴿لا تحزن ان الله معنا﴾ بالعون والعصمة والمراد بالمعية الولاية الدائمة التى لا تحوم حول صاحبها شائبة شئ من الحزن وما هو المشهور من اختصاص مع بالمتبوع فالمراد بما فيه من المتبوعية هو المتبوعية فى الأمر المباشر روى أن المشركين طلعوا فوق الغار فاشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان نصب اليوم ذهب دين الله فقال عليه الصلاة والسلام ما ظنك باثنين الله ثالثهما وقيل لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا فى أسفله والعنكبوت فنسجت عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطنون قد أخذ الله تعالى أبصارهم عنه وفيه من الدلالة على علو طبقة الصديق رضى الله عنه وسابقة صحبته ما لا يخفى ولذلك قالوا من أنكر صحبة أبى بكر رضى الله عنه فقد كفر لانكاره كلام الله سبحانه وتعالى ﴿فأنزل الله سكينته﴾ أمنته التى تسكن عندها القلوب ﴿عليه﴾ على النبى صلى الله عليه وسلم فالمراد بها ما لا يحوم حوله شائبة الخوف

أصلا أو على صاحبه اذهو المنزعج وأما النبي صلى الله عليه وسلم فكان على طمأنينة من أمره ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ عطف على نصره الله والجنود هم الملائكة النازلون يوم بدر والاحزاب وحنين وقيل هم الملائكة أنزلهم الله ليحرسوه فى الغار و يأباه وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم وقوله عز وعلا ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ يعنى الشرك أو دعوة الكفر فان ذلك الجعل لا يتحقق بمجرد الانجاء بل بالقتل والاسر ونحو ذلك ﴿وكلمة الله﴾ أى التوحيد أو دعوة الاسلام ﴿هى العليا﴾ لا يدانيها شئ وتغيير الاسلوب للدلالة على أنها فى نفسها كذلك لا يتبدل شأنها ولا يتغير حالها دون غيرها من الكلم ولذلك وسط ضمير الفصل وقرئ بالنصب عطفا على كلمة الذين ﴿والله عزيز﴾ لا يغالب ﴿حكيم﴾ فى حكمه وتدبيره ﴿انفروا﴾ تجريد للامر بالنفور بعد التوبيخ على تركه والانكار على المساهلة فيه وقوله تعالى ﴿خفافا وثقالا﴾ حالان من ضمير المخاطبين أى على أى حال كان من يسر وعسر حاصلين بأى سبب كان من الصحة والمرض أو الغنى والفقر أو قلة العيال و كثرتهم أو غير ذلك مما ينتظمه مساعدة الاسباب وعدمها بعد الامكان والقدرة فى الجملة وماذكر فى تفسيرهما من قولهم خفافا لقلة عيالكم وثقالا لكثرتها أو خفافا من السلاح وثقالا منه أو ركبانا ومشاة أو شبانا وشيوخا أو مهازيل وسمانا أو صحاحا ومراضا ليس لتخصيص الأمرين المتقابلين بالارادة من غير مقارنة للباقى وعن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلى أن أنفر قال عليه الصلاة والسلام نعم حتى نزل ليس على الأعمى حرج . وعن ابن عباس رضى الله عنهما نسخت بقوله عز وجل ليس على الضعفاء و لا على المرضى الآية ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله﴾ ايجاب للجهاد بهما ان أمكن و بأحدهما عند امكانه واعواز الآخر حتى ان من ساعده النفس والمال يجاهد بهما ومن ساعده المال دون النفس يغزى مكانه من حاله على عكس حاله الى هذا ذهب كثير من العلماء وقيل هو ايجاب للقسم الاول فقط ﴿ذلكم﴾ أى ماذكر من النفير والجهاد وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلته فى الشرف ﴿خير لكم﴾ أى خير عظيم فى نفسه أو خير مما يبتغى بتركه من الراحة والدعة وسعة العيش والتمتع بالاموال والاولاد ﴿ان كنتم تعلمون﴾ أى تعلمون الخير علمتم أنه خير أو ان كنتم تعلمون أنه خير اذ لا احتمال لغير الصدق فى أخبار الله تعالى فبادروا اليه ﴿لو كان﴾ صرف للخطاب عنهم وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعديدا لما صدر عنهم من الهنات قولا وفعلا على طريق المباثة و بيانا لدناءة هممهم وسائر رذائلهم أى لو كان مادعوا اليه ﴿عرضا قريبا﴾ العرض ماعرض لك من منافع الدنيا أى لو كان ذلك غنما سهل المأخذ قريب المنال ﴿وسفرا قاصدا﴾ ذا قصد بين القريب والبعيد ﴿لاتبعوك﴾ فى النفير طمعا فى الفوز بالغنيمة وتعليق الاتباع بكلا الأمرين يدل على عدم تحققه عند توسط السفر فقط ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ أى المسافة الشاطة الشاقة التى تقطع بمشقة وقرئ بكسر العين والشين ﴿وسيحلفون﴾ أى المتخلفون عن الغزو وقوله تعالى ﴿بالله﴾ اما متعلق بسيحلفون أو هو من جملة كلامهم والقول مراد على الوجهين أى سيحلفون بالله اعتذارا عند قفولك قائلين ﴿لو استطعنا﴾ أو سيحلفون قائلين بالله لو استطعنا الخ أى لو كان لنا استطاعة من جهة العدة أو من جهة الصحة أو من جهتهما جميعا حسبما عن لهم من الكذب والتعلل وعلى كلا التقديرين فقوله تعالى ﴿لخرجنا معكم﴾ ساد مسد جوابى القسم والشرط جميعا أما على الثانى فظاهر وأما على الاول فلان قولهم لو استطعنا فى قوة بالله لو استطعنا لأنه بيان لقوله تعالى سيحلفون بالله وتصديق له والاخبار بما سيكون منهم بعد القفول وقد وقع حسبما أخبر به من جملة المعجزات الباهرة وقرئ لو استطعنا بضم الواو تشبيها لها بواو الجمع كما فى قوله عز وجل فتمنوا الموت ﴿يهلكون أنفسهم﴾ بدل من سيحلفون لان الحلف الكاذب اهلاك للنفس ولذلك قال عليه الصلاة والسلام اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع

أو حال من فاعله أى مهلكين أنفسهم أو من فاعل خرجنا جئ به على طريقة الاخبار عنهم كأنه قيل نهلك أنفسنا أى لخرجنا معكم مهلكين أنفسنا كما فى قولك حلف ليفعلن مكان لأفعلن ﴿ والله يعلم انهم لكاذبون ﴾ أى فى مضمون الشرطية وفيما ادعوا ضمنا من انتفاء تحقق المقدم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا ﴿ عفا الله عنك ﴾ صريح فى أنه سبحانه وتعالى قد عفا عنه عليه الصلاة والسلام ماوقع منه عند استئذان المتخلفين فى التخلف معتذرين بعدم الاستطاعة واذنه اعتمادا على أيمانهم ومواثيقهم لخلوها عن المزاحم من ترك الأولى والأفضل الذى هو التأنى والتوقف الى انجلاء الأمر وانكشاف الحال وقوله عزوجل ﴿ لم أذنت لهم ﴾ أى لاى سبب أذنت لهم فى التخلف حين اعتلوا بعللهم بيان لما أشير اليه بالعفو من ترك الأولى واشارة الى أنه ينبغى أن تكون أموره عليه الصلاة والسلام منوطة بأسباب قوية موجبة لها أومصححة وأن ما أبروزه فى معرض التعلل والاعتذار مشفوعا بالأيمان كان بمعزل من كونه سببا للاذن قبل ظهور صدقه وكلتا اللامين متعلقة بالاذن لاختلافهما فى المعنى فان الأولى للتعليل والثانية للتبليغ والضمير المجرور لجميع المستأذنين وتوجه الانكار الى الاذن باعتبار شموله للكل لا باعتبار تعلقه بكل فرد لتحقق عدم استطاعة بعضهم كما ينبئ عنه قوله سبحانه ﴿ حتى يتبين لك الذين صدقوا ﴾ أى فيما أخبروا به عند الاعتذار من عدم الاستطاعة من جهة المال أومن جهة البدن أومن جهتهما معا حسبما عن لهم هناك ﴿ وتعلم الكاذبين ﴾ فى ذلك فتعامل كلا من الفريقين بما يستحقه وهو بيان لذلك الأولى الأفضل وتحضيض له عليه الصلاة والسلام عليه فان كلمة حتى سواء كانت بمعنى اللام أو بمعنى الى لا يمكن تعلقها بقوله تعالى لم أذنت لاستلزامه أن يكون اذنه عليه الصلاة والسلام لهم معللا أو مغيا بالتبين والعلم ويكون توجه الاستفهام اليه من تلك الحيثية وذلك بين الفساد بل بما يدل عليه ذلك كأنه قيل لم سارعت الى الاذن لهم وهلا تأنيت حتى ينجلى الأمر كما هو قضية الحزم . قال قتادة وعمرو بن ميمون اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر فيهما بشئ اذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الاسارى فعاتبه الله تعالى كما تسمعون وتغيير الاسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصول الذى صلته فعل دال على الحدوث وعن الفريق الثانى باسم الفاعل المفيد للدوام للايذان بأن ماظهر من الأولين صدق حادث فى أمر خاص غير مصحح لنظمهم فى سلك الصادقين وأن ماصدر من الآخرين وان كان كذبا حادثا متعلقا بأمر خاص لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ناشئ عن رسوخهم فى الكذب والتعبير عن ظهور الصدق بالتبين وعما يتعلق بالكذب بالعلم لما هو المشهور من أن مدلول الخبر هو الصدق والكذب احتمال عقلى فظهور صدقه انما هو تبين ذلك المدلول وانقطاع احتمال نقيضه بعد ما كان محتملا له احتمالا عقليا وأما كذبه فأمر حادث لادلالة للخبر عليه فى الجملة حتى يكون ظهوره تبينا له بل هو نقيض لمدلوله فما يتعلق به يكون علما مستأنفا واسناده الى ضميره عليه الصلاة والسلام لا الى المعلومين ببناء الفعل للمفعول مع اسناد التبين الى الأولين لما أن المقصود ههنا علمه عليه الصلاة والسلام بهم ومؤاخذتهم بموجبه بخلاف الأولين حيث لا مؤاخذة عليهم ومن لم يتنبه لهذا قال حتى يتبين لك من صدق فى عذره ممن كذب فيه واسناد التبين الى الأولين وتعليق العلم بالآخرين مع أن مدار الاسناد والتعلق أولا وبالذات هو وصف الصدق والكذب كما أشير اليه لما أن المقصد هو العلم بكلا الفريقين باعتبار اتصافهما بوصفيهما المذكورين ومعاملتهما بحسب استحقاقهما لا العلم بوصفيهما بذاتيهما أو باعتبار قيامهما بموصوفيهما هذا وفى تصدير فاتحة الخطاب ببشارة العفو دون مايوهم العتاب من مراعاة جانبه عليه الصلاة والسلام وتعهده بحسن المفاوضة ولطف المراجعة مالا يخفى على أولى الالباب .
قال سفيان بن عيينة انظروا الى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل ذكر المعفو ولقد أخطأ وأساء الأدب وبئسما فعل فيما قال وكتب من زعم أن الكلام كناية عن الجناية وأن معناه أخطأت وبئسما فعلت هب أنه كناية أليس ايثارها على التصريح

بالجناية للتلطيف فى الخطاب والتخفيف فى العتاب وهب أن العفو مستلزم للخطأ فهل هو مستلزم لكونه من القبح واستتباع اللائمة بحيث يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء أو يسوغ انشاء الاستقباح بكلمة بئسما المنبئة عن بلوغ القبح الى رتبة يتعجب منها ولا يخفى أنه لم يكن فى خروجهم مصلحة للدين أو منفعة للمسلمين بل كان فيه فساد وخبال حسبما نطق به قوله عز وجل لو خرجوا الخ وقد كرهه سبحانه كما يفصح عنه قوله تعالى ولكن كره الله انبعاثهم الآية. نعم كان الأولى تأخير الاذن حتى يظهر كذبهم آثر ذى أثير و يفتضحوا على رؤس الاشهاد ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم بأنهم غروه عليه الصلاة والسلام وأرضوه بالاكاذيب على أنه لم يهنأ لهم عيش ولا قرت لهم عين اذ لم يكونوا على أمن واطمئنان بل كانوا على خوف من ظهور أمرهم وقد كان ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ تنبيه على أنه كان ينبغى أن يستدل باستئذانهم على حالهم ولا يؤذن لهم أى ليس من عادة المؤمنين أى يستأذنوك فى ﴿أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ وأن الخلص منهم يبادرون اليه من غير توقف على الاذن فضلا عن أن يستأذنوك فى التخلف وحيث استأذنك هؤلاء فى التخلف كان ذلك مئنة للتأنى فى أمرهم بل دليلا على نفاقهم وقيل المستأذن فيه محذوف ومعنى قوله تعالى أن يجاهدوا كراهة أن يجاهدوا ثم قيل المحذوف هو التخلف والمعنى لا يستأذنك المؤمنون فى التخلف كراهة الجهاد فيتوجه النفى الى القيد وبه يمتاز المؤمن من المنافق وهو وان كان فى نفسه أمراً خفيا لا يوقف عليه بادئ الأمر لكن عامة أحوالهم لما كانت منبئة عن ذلك جعل أمرا ظاهرا مقررا وقيل هو الجهاد أى لا يستأذنك المؤمنون فى الجهاد كراهة أن يجاهدوا بناء على أن الاستئذان فى الجهاد ربما يكون لكراهته ولا يخفى أن الاستئذان فى الشئ لكراهته مما لا يقع بل لا يعقل ولو سلم وقوعه فالاستئذان لعلة الكراهة مما لا يمتاز بحسب الظاهر من الاستئذان لعلة الرغبة ولو سلم فالذى نفى عن المؤمنين يجب أن يثبت للمنافقين وظاهر أنهم لم يستأذنوا فى الجهاد لكراهتهم له بل انما استأذنوا فى التخلف ﴿والله عليم بالمتقين﴾ شهادة لهم بالانتظام فى سلك المتقين وعدة لهم بأجزل الثواب وتقرير لمضمون ما سبق كأنه قيل والله عليم بأنهم كذلك واشعار بأن ما صدر عنهم معلل بالتقوى ﴿انما يستأذنك﴾ أى فى التخلف مطلقا على الأول أو لكراهة الجهاد على الثانى ﴿الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ تخصيص الايمان بهما فى الموضعين للايذان بأن الباعث على الجهاد بذل النفس والمال انما هو الايمان بهما اذ به يتسنى للمؤمنين استبدال الحياة الأبدية والنعيم المقيم الخالد بالحياة الفانية والمتاع الكاسد ﴿وارتابت قلوبهم﴾ عطف على الصلة وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الريب وتقرره ﴿فهم﴾ حال كونهم ﴿فى ريبهم﴾ وشكهم المستقر فى قلوبهم ﴿يترددون﴾ أى يتحيرون فان التردد ديدن المتحير كما أن الثبات ديدن المستبصر والتعبير عنه به مما لا يخفى حسن موقعه ﴿ولو أرادوا الخروج﴾ يدل على أن بعضهم قالوا عند الاعتذار كنا نريد الخروج لكن لم نتهيأ له وقد قرب الرحيل بحيث لا يمكننا الاستعداد فقيل تكذيبا لهم لو أرادوه ﴿لأعدوا له﴾ أى للخروج فى وقته ﴿عدة﴾ أى أهبة من الزاد والراحلة والسلاح وغير ذلك مما لا بد منه للسفر وقرئ عده بحذف التاء والاضافة الى ضمير الخروج كما فعل بالعدة من قال وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا أى عدته وقرئ عده بكسر العين وعدة بالاضافة ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ أى نهوضهم للخروج. قيل هو استدراك عما يفهم من مقدم الشرطية فان انتفاء ارادتهم للخروج يستلزم انتفاء خروجهم وكراهة الله تعالى انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج فكأنه قيل ماخرجوا ولكن تثبطوا والاتفاق فى المعنى لا يمنع الوقوع بين طرفى لكن بعد تحقق الاختلاف نفيا واثباتا فى اللفظ كقولك ما أحسن الى زيد ولكن أساء والأظهر أن يكون استدراكا من نفس المقدم على نهج ما فى الأقيسة الاستثنائية والمعنى لو أرادوا

الخروج لاعدوا له عدة ولكن ما أرادوه لما أنه تعالى كره انبعاثهم لما فيه من المفاسد التى ستبين ﴿فثبطهم﴾ أى حبسهم بالجبن والكسل فتثبطوا عنه ولم يستعدوا له ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ تمثيل لالقاء الله تعالى كراهة الخروج فى قلوبهم أو لوسوسة الشيطان بالأمر بالقعود أو هو حكاية قول بعضهم لبعض أو هو اذن الرسول صلى الله عليه وسلم لهم فى القعود والمراد بالقاعدين اما المعذورون أو غيرهم وأياً ما كان فغير خال عن الذم ﴿لو خرجوا فيكم﴾ بيان لسر كراهته تعالى لانبعاثهم أى لو خرجوا مخالطين لكم ﴿ما زادوكم﴾ أى ما أورثوكم شيئاً من الأشياء ﴿الا خبالا﴾ أى فساداً وشراً فالاستثناء مفرغ متصل وقيل منقطع وليس بذلك ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ أى ولسعوا فيما بينكم بالنمائم والتضريب وافساد ذات البين من وضع البعير وضعا اذا أسرع وأوضعته أنا أى حملته على الاسراع والمعنى لأوضعوا ركائبهم بينكم والمراد به المبالغة فى الاسراع بالنمائم لأن الراكب أسرع من الماشى وقرىء ولأرقصوا من رقصت الناقة أسرعت وأرقصتها أنا وقرىء ولأوفضوا أى أسرعوا ﴿يبغونكم الفتنة﴾ يحاولون أن يفتنوكم بايقاع الخلاف فيما بينكم والقاء الرعب فى قلوبكم وافساد نياتكم والجملة حال من ضمير أوضعوا أو استئناف ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ أى نمامون يسمعون حديثكم لأجل نقله اليهم أو فيكم قوم ضعفة يسمعون للمنافقين أى يطيعونهم والجملة حال من مفعول يبغونكم أو من فاعله لاشتمالها على ضميريهما أو مستأنفة ولعلهم لم يكونوا فى كمية العدد وكيفية الفساد بحيث يخل مكانهم فيما بين المؤمنين بأمر الجهاد اخلالا عظيما ولم يكن فساد خروجهم معادلا لمنفعته ولذلك لم تقتض الحكمة عدم خروجهم فخرجوا مع المؤمنين ولكن حيث كان انضمام المنافقين القاعدين اليهم مستتبعا لخلل كلى كره الله انبعاثهم فلم يتسن اجتماعهم فاندفع فسادهم ووجه العتاب على الاذن فى قعودهم مع تقرره لامحالة وتضمن خروجهم لهذه المفاسد أنهم لو قعدوا بغير اذن منه عليه الصلاة والسلام لظهر نفاقهم فيما بين المسلمين من أول الأمر ولم يقدروا على مخالطتهم والسعى فيما بينهم بالأراجيف ولم يتسن لهم التمتع بالعيش الى أن يظهر حالهم بقوارع الآيات النازلة ﴿والله عليم بالظالمين﴾ علما محيطاً بضمائرهم وظواهرهم وما فعلوا فيما مضى وما يتأتى منهم فيما سيأتى ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والتشديد فى الوعيد والاشعار بترتبه على الظلم ولعله شامل للفريقين السماعين والقاعدين ﴿لقد ابتغوا الفتنة﴾ تشتيت شملك وتفريق أصحابك منك ﴿من قبل﴾ أى يوم أحد حين انصرف عبد الله بن أبى بن سلول المنافق بمن معه وقد تخلف بمن معه عن تبوك أيضا بعد ما خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم الى ذى جدة أسفل من ثنية الوداع وعن ابن جريج رضى الله عنه وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلا من المنافقين ليفتكوا به عليه الصلاة والسلام فردهم الله تعالى خاسئين ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ تقليب الأمر تصريفه من وجه الى وجه وترديده لأجل التدبير والاجتهاد فى المكر والحيلة يقال للرجل المتصرف فى وجوه الحيل حول قلب أى اجتهدوا ودبروا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء فى ابطال أمرك وقرىء بالتخفيف ﴿حتى جاء الحق﴾ أى النصر والتأييد الالهى ﴿وظهر أمر الله﴾ غلب دينه وعلا شرعه ﴿وهم كارهون﴾ والحال أنهم كارهون لذلك أى على رغم منهم والآيتان لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن تخلف المتخلفين وبيان ما ثبطهم الله تعالى لاجله وهتك أستارهم وكشف أسرارهم وازاحة أعذارهم تداركا لما عسى يفوت بالمبادرة الى الاذن وايذانا بأن ما فات بها ليس مما لا يمكن تلافيه تهوينا للخطب ﴿ومنهم من يقول ائذن لى﴾ فى القعود ﴿ولا تفتنى﴾ أى لا توقعنى فى الفتنة وهى المعصية والاثم يريد انى متخلف لامحالة أذنت أو لم تأذن فائذن لى حتى لا أقع فى المعصية بالمخالفة أو لا تلقنى فى الهلكة فانى ان خرجت معك هلك مالى وعيالى لعدم من يقوم بمصالحهم

وقيل قال الجد بن قيس قد علمت الانصار أنى مشتهر بالنساء فلا تفتنى ببنات الاصفر يعنى نساء الروم ولكن أعينك بمالى فاتركنى وقرئ ولا تفتنى من أفتنه بمعنى فتنه ﴿ألافى الفتنة﴾ أى فى عينها ونفسها وأكمل أفرادها الغنى عن الوصف بالكمال الحقيق باختصاص اسم الجنس به ﴿سقطوا﴾ لافى شئ مغاير لها فضلا عن أن يكون مهربا ومخلصا عنها وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف والجراءة على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعة ومن القعود بالاذن المبنى عليه وعلى الاعتذارات الكاذبة وقرئ بافراد الفعل محافظة على لفظ من وفى تصدير الجملة بحرف التنبيه مع تقديم الظرف ايذان بأنهم وقعوا فيها وهم يحسبون أنها منجى من الفتنة زعما منهم أن الفتنة انما هى التخلف بغير اذن وفى التعبير عن الافتتان بالسقوط فى الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم فى دركات الردى أسفل سافلين وقوله عز وجل ﴿وان جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ وعيد لهم على مافعلوا معطوف على الجملة السابقة داخل تحت التنبيه أى جامعة لهم يوم القيامة من كل جانب وايثار الجملة الاسمية للدلالة على الثبات والاستمرار أو محيطة بهم الآن تنزيلا لشئ سيقع عن قريب منزلة الواقع أو وضعا لاسباب الشئ موضعه فان مبادى احاطة النار بهم من الكفر والمعاصى محيطة بهم الآن من جميع الجوانب ومن جملتها مافروا منه وما سقطوا فيه من الفتنة وقيل تلك المبادى المتشكلة بصور الاعمال والاخلاق هى النار بعينها ولكن لايظهر ذلك فى هذه النشأة وانما يظهر عند تشكلها بصورها الحقيقية فى النشأة الآخرة والمراد بالكافرين اما المنافقون وايثار وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر والاشعار بأنه معظم أسباب الاحاطة المذكورة واما جميع الكافرين الشاملين للمنافقين شمولا أوليا ﴿ان تصبك﴾ فى بعض مغازيك ﴿حسنة﴾ من الظفر والغنيمة ﴿تسؤهم﴾ تلك الحسنة أى تورثهم مساءة لفرط حسدهم وعداوتهم لك ﴿وان تصبك﴾ فى بعضها ﴿مصيبة﴾ من نوع شدة ﴿يقولوا﴾ متبجحين بما صنعوا حامدين لآرائهم ﴿قد أخذنا أمرنا﴾ أى تلافينا ما يهمنا من الامر يعنون به الاعتزال عن المسلمين والقعود عن الحرب والمداراة مع الكفرة وغير ذلك من أمور الكفر والنفاق قولا وفعلا ﴿من قبل﴾ أى من قبل اصابة المصيبة فى وقت تداركه يشيرون بذلك الى أن المعاملة المذكورة انما تروج عند الكفرة بوقوعها حال قوة الاسلام لا بعد اصابة المصيبة ﴿ويتولوا﴾ عن مجلس الاجتماع والتحدث الى أهاليهم أو يعرضوا عن النبى صلى الله عليه وسلم ﴿وهم فرحون﴾ بما صنعوا من أخذ الامر وبما أصابه عليه الصلاة والسلام والجملة حال من الضمير فى يقولوا ويتولوا لا فى الاخير فقط لمقارنة الفرح لهما معا وايثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام السرور واسناد المساءة الى الحسنة والمسرة الى أنفسهم دون المصيبة بأن يقال وان تصبك مصيبة تسرهم للايذان باختلاف حاليهم حالتى عروض المساءة والمسرة بأنهم فى الاولى مضطرون وفى الثانية مختارون ﴿قل﴾ بيانا لبطلان ما بنوا عليه مسرتهم من الاعتقاد ﴿لن يصيبنا﴾ أبدا وقرئ هل يصيبنا وهل يصيبنا من فيعل لامن فعل لانه واوى يقال صاب السهم يصوب واشتقاقه من الصواب ﴿الا ما كتب الله لنا﴾ أى أثبته لمصلحتنا الدنيوية أو الاخروية من النصرة عليكم أو الشهادة المؤدية الى النعيم الدائم ﴿هو مولانا﴾ ناصرنا ومتولى أمورنا ﴿وعلى الله﴾ وحده ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ التوكل تفويض الامر الى الله والرضا بما فعله وان كان ذلك بعد ترتيب المبادى العادية والفاء للدلالة على السببية والاصل ليتوكل المؤمنون على الله قدم الظرف على الفعل لافادة القصر ثم أدخل الفاء للدلالة على استيجابه تعالى للتوكل عليه كما فى قوله تعالى واياى فارهبون والجملة ان كانت من تمام الكلام المأمور به فاظهار الاسم الجليل فى مقام الاضمار لاظهار التبرك والتلذذ به وان كانت مسوقة من قبله تعالى أمرا للمؤمنين بالتوكل اثر أمره عليه الصلاة والسلام بما ذكر فالامر ظاهر وكذا اعادة الامر فى قوله عز وجل

﴿قل هل تربصون بنا﴾ لانقطاع حكم الامر الاول بالثانى وان كان أمر الغائب وأما على الوجه الاول فهى لابراز كمال العناية بشأن المأمور به والاشعار بما بينه وبين ما أمر به أولا من الفرق فى السياق والتربص التمكث مع انتظار مجئ شئ خيرا كان أوشرا والباء للتعدية واحدى التاءين محذوفة أى ما تنتظرون بنا ﴿الا احدى الحسنيين﴾ أى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هى حسنى العواقب وهما النصر والشهادة وهذا نوع بيان لما أبهم فى الجواب الاول وكشف لحقيقة الحال باعلام أن ما يزعمونه مضرة للمسلمين من الشهادة أنفع مما يعدونه منفعة من النصر والغنيمة ﴿ونحن نتربص بكم﴾ احدى السوأيين من العواقب اما ﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده﴾ كما أصاب من قبلكم من الامم المهلكة والظرف صفة عذاب ولذلك حذف عامله وجوبا ﴿أو﴾ بعذاب ﴿بأيدينا﴾ وهو القتل على الكفر ﴿فتربصوا﴾ الفاء فصيحة أى اذا كان الامر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا ﴿انا معكم متربصون﴾ ما هو عاقبتكم فاذا لقى كل منا ومنكم ما يتربصه لا تشاهدون الا ما يسرنا ولانشاهد الا ما يسوؤكم ﴿قل أنفقوا أموالكم﴾ فى سبيل الله ﴿طوعا أوكرها﴾ مصدران وقعا موقع الفاعل أى طائعين أو كارهين وهو أمر فى معنى الخبر كقوله تعالى استغفرلهم أولا تستغفرلهم والمعنى أنفقتم طوعا أوكرها ﴿لن يتقبل منكم﴾ ونظم الكلام فى سلك الامر للمبالغة فى بيان تساوى الامرين فى عدم القبول كأنهم أمروا بأن يمتحنوا الحال فينفقوا على الحالين فينظروا هل يتقبل منهم فيشاهدوا عدم القبول وهو جواب قول جد بن قيس ولكن أعينك بمالى ونفى التقبل يحتمل أن يكون بمعنى عدم الاخذ منهم وأن يكون بمعنى عدم الاثابة عليه وقوله عز وجل ﴿انكم كنتم قوما فاسقين﴾ أى عاتين متمردين تعليل لرد انفاقهم ﴿وما منعهم أن تقبل منهم﴾ وقرئ بالتحتانية ﴿نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ استثناء من أعم الاشياء أى ما منعهم قبول نفقاتهم منهم شئ من الاشياء الا كفرهم وقرئ يقبل على البناء للفاعل وهو الله تعالى ﴿ولا يأتون الصلوة الا وهم كسالى﴾ أى لا يأتونها فى حال من الاحوال الا حال كونهم متثاقلين ﴿ولا ينفقون الا وهم كارهون﴾ لأنهم لا يرجون بهما ثوابا ولا يخافون على تركهما عقابا فقوله تعالى طوعا أى من غير الزام من جهته عليه الصلاة والسلام لا رغبة أو هو فرضى لتوسيع الدائرة ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾ فان ذلك استدراج لهم ووبال عليهم حسبما ينبئ عنه قوله عز وجل ﴿انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحيوة الدنيا﴾ بما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يقاسون فيها من الشدائد والمصائب ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر فى العاقبة فيكون ذلك لهم نقمة لا نعمة وأصل الزهوق الخروج بصعوبة ﴿ويحلفون بالله انهم لمنكم﴾ فى الدين والاسلام ﴿وماهم منكم﴾ فى ذلك ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ يخافون أن يفعل بهم ما يفعل بالمشركين فيظهرون الاسلام تقية ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة ﴿لو يجدون ملجأ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما سبق من أنهم ليسوا من المسلمين وأن التجاءهم الى الانتماء اليهم انما هو للتقية اضطرارا حتى انهم لو وجدوا غير ذلك ملجأ أى مكانا حصينا يلجأون اليه من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة وايثار صيغة الاستقبال فى الشرط وان كان المعنى على المضى لافادة استمرار عدم الوجدان فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس نصا فى افادة انتفاء استمرار الفعل كما هو الظاهر بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضا حسبما يقتضيه المقام فان معنى قولك لو تحسن الى لشكرتك أن انتفاء الشكر بسبب استمرار انتفاء الاحسان لأنه بسبب انتفاء استمرار الاحسان فان الشكر يتوقف على وجود الاحسان لا على استمراره كما حقق فى موضعه ﴿أو مغارات﴾ أى غيرانا وكهوفا يخفون فيها أنفسهم وقرئ بضم الميم من أغار الرجل اذا دخل الغور وقيل هو متعد من غار اذا دخل الغور أى أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم وأهليهم ويجوز أن يكون من

أغار الثعلب اذا أسرع بمعنى مهارب ومفار ﴿أومدخلا﴾ أى نفقا يندسون فيه و ينجحرون وهو مفتعل من الدخول وقرئ مدخلا من الدخول ومدخلا من الادخال أى مكانا يدخلون فيه أنفسهم وقرئ متدخلا ومندخلا من التدخل والاندخال ﴿لولوا﴾ أى لصرفوا وجوههم وأقبلوا وقرئ لوالوا أى لالتجأوا ﴿اليه﴾ أى الى أحد ماذكر ﴿وهم يجمحون﴾ أى يسرعون بحيث لا يردهم شئ من الفرس الجموح وهو الذى لا يثنيه اللجام وفيه اشعار بكمال عتوهم وطغيانهم وقرئ يجمزون بمعنى يجمحون و يشتدون ومنه الجمازة ﴿ومنهم من يلمزك﴾ بكسر الميم وقرئ بضمها أى يعيبك سرا وقرئ يلمزك و يلامزك مبالغة ﴿فى الصدقات﴾ أى فى شأنها وقسمتها ﴿فان أعطوا منها﴾ بيان لفساد لمزهم وأنه لا منشأ له سوى حرصهم على حطام الدنيا أى ان أعطوا منها قدر ما يريدون ﴿رضوا﴾ بما وقع من القسمة واستحسنوها ﴿وان لم يعطوا منها﴾ ذلك المقدار ﴿اذا هم يسخطون﴾ أى يفاجئون السخط واذا نائب مناب فاء الجزاء. قيل نزلت الآية فى أبى الجواظ المنافق حيث قال ألا ترون الى صاحبكم يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم و يزعم أنه يعدل وقيل فى ابن ذى الخويصرة واسمه حرقوص بن زهير التميمى رأس الخوارج كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين فاستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال اعدل يارسول الله فقال عليه الصلاة والسلام و يلك ان لم أعدل فمن يعدل وقيل هم المؤلفة قلوبهم والأول هو الأظهر ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾ أى ما أعطاهم الرسول صلى الله عليه وسلم من الصدقات طيبى النفوس به وان قل وذكر الله عز وجل للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم كان بأمره سبحانه ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أى كفانا فضله وصنعه بنا وما قسمه لنا ﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾ بعد هذا حسبما نرجو ونؤمل ﴿انا الى الله راغبون﴾ فى أن يخولنا فضله والآية بأسرها فى حيز الشرط والجواب محذوف بناء على ظهوره أى لكان خيرا لهم ﴿انما الصدقات﴾ شروع فى تحقيق حقية ما صنعه الرسول صلى الله عليه وسلم من القسمة ببيان المصارف و رد لمقالة القالة فى ذلك وحسم لأطماعهم الفارغة المبنية على زعمهم الفاسد ببيان أنهم بمعزل من الاستحقاق أى جنس الصدقات المشتملة على الأنواع المختلفة ﴿للفقراء والمساكين﴾ أى مخصوصة بهؤلاء الاصناف الثمانية الآتية لا تتجاوزهم الى غيرهم كأنه قيل انما هى لهم لا لغيرهم فما للذين لا علاقة بينها و بينهم يقولون فيها ما يقولون وما سوغهم أن يتكلموا فيها وفى قاسمها والفقير من له أدنى شئ والمسكين من لا شئ له هو المروى عن أبى حنيفة رضى الله عنه وقد قيل على العكس ولكل منهما وجه يدل عليه ﴿والعاملين عليها﴾ الساعين فى جمعها وتحصيلها ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ هم أصناف فمنهم أشراف من العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألفهم ليسلموا فيرضخ لهم ومنهم قوم أسلموا ونياتهم ضعيفة فيؤلف قلوبهم بأجزال العطاء كعيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس ومنهم من يترقب باعطائهم اسلام نظرائهم ولعل الصنف الأول كان يعطيهم الرسول صلى الله عليه وسلم من خمس الخمس الذى هو خالص ماله وقد عد منهم من يؤلف قلبه بشئ منها على قتال الكفار ومانعى الزكاة وقد سقط سهم هؤلاء بالاجماع لما أن ذلك كان لتكثير سواد الاسلام فلما أعزه الله عز وعلا وأعلى كلمته استغنى عن ذلك ﴿وفى الرقاب﴾ أى وللصرف فى فك الرقاب بأن يعان المكاتبون بشئ منها على أداء نجومهم وقيل بأن يفدى الاسارى وقيل بأن يبتاع منها الرقاب فتعتق وأيا ما كان فالعدول عن اللام لعدم ذكرهم بعنوان مصحح للمالكية والاختصاص كالذين من قبلهم أو للايذان بعدم قرار ملكهم فيما أعطوا كما فى الوجهين الاولين أو بعدم ثبوته رأسا كما فى الوجه الاخير أو للاشعار برسوخهم فى استحقاق الصدقة لما أن فى للظرفية المنبئة عن احاطتهم بها وكونهم محلها ومركزها ﴿والغارمين﴾ أى الذين تداينوا لانفسهم فى غير معصية اذا لم يكن لهم نصاب فاضل عن ديونهم وكذلك

عند الشافعى رضى الله عنه من غرم لاصلاح ذات البين واطفاء النائرة بين القبيلتين وان كانوا أغنياء ﴿ وفى سبيل الله ﴾
أى فقراء الغزاة والحجيج والمنقطع بهم ﴿ وابن السبيل ﴾ أى المسافر المنقطع عن ماله وتكرير الظرف فى الاخيرين
للايذان بزيادة فضلهما فى الاستحقاق أو لما ذكر من ايرادهما بعنوان غير مصحح للمالكية والاختصاص فهذه مصارف
الصدقات فللمتصدق أن يدفع صدقته الى كل واحد منهم وأن يقتصر على صنف منهم لان اللام لبيان أنهم مصارف
لا تخرج عنهم لا لاثبات الاستحقاق وقد روى ذلك عن عمر وابن عباس وحذيفة رضى الله عنهم وعند الشافعى لا يجوز
الا أن يصرف الى ثلاثة من تلك الاصناف ﴿ فريضة من الله ﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه صدر الآية أى فرض لهم
الصدقات فريضة ونقل عن سيبويه أنه منصوب بفعله مقدرا أى فرض الله ذلك فريضة أو حال من الضمير المستكن
فى قوله للفقراء أى انما الصدقات كائنة لهم حال كونها فريضة أى مفروضة ﴿ والله عليم ﴾ بأحوال الناس ومراتب
استحقاقهم ﴿ حكيم ﴾ لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة من الأمور الحسنة التى من جملتها سوق الحقوق الى مستحقيها
﴿ ومنهم الذين يؤذون النبى ﴾ نزلت فى فرقة من المنافقين قالوا فى حقه عليه الصلاة والسلام ما لا ينبغى فقال بعضهم
لا تفعلوا فانا نخاف أن يبلغه ذلك فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد نقول ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا
بما نقول انما محمد أذن سامعة وذلك قوله عز وجل ﴿ ويقولون هو أذن ﴾ أى يسمع كل ما قيل من غير أن يتدبر
فيه ويميز بين ما يليق بالقبول لمساعدة أمارات الصدق له وبين ما لا يليق به وانما قالوه لأنه عليه الصلاة والسلام كان
لا يواجههم بسوء ما صنعوا ويصفح عنهم حلما وكرما فحملوه على سلامة القلب وقالوا ما قالوا ﴿ قل أذن خير لكم ﴾
من قبيل رجل صدق فى الدلالة على المبالغة فى الجودة والصلاح كأنه قيل نعم هو أذن ولكن نعم الأذن ويجوز أن يكون
المراد أذنا فى الخير والحق وفيما ينبغى سماعه وقبوله لا فى غير ذلك كما يدل عليه قراءة رحمة بالجر عطفا عليه أى هو أذن
خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله وقرىء أذن بسكون الذال فيهما وقرىء أذن خير على أنه صفة أو خبر ثان
وقوله عز وجل ﴿ يؤمن بالله ﴾ تفسير لكونه أذن خير لهم أى يصدق بالله تعالى لما قام عنده من الأدلة الموجبة له
وكون ذلك خيرا للمخاطبين كما أنه خير للعالمين مما لا يخفى ﴿ ويؤمن للمؤمنين ﴾ أى يصدقهم لما علم فيهم من الخلوص
واللام مزيدة للتفرقة بين الايمان المشهور وبين الايمان بمعنى التسليم والتصديق كما فى قوله تعالى أنؤمن لك الخ وقوله
تعالى فما آمن لموسى الخ ﴿ ورحمة ﴾ عطف على أذن خير أى وهو رحمة بطريق اطلاق المصدر على الفاعل للمبالغة
﴿ للذين آمنوا منكم ﴾ أى للذين أظهروا الايمان منكم حيث يقبله منهم لكن لا تصديقا لهم فى ذلك بل رفقا بهم وترحما
عليهم ولا يكشف أسرارهم ولا يهتك أستارهم واسناد الايمان اليهم بصيغة الفعل بعد نسبته الى المؤمنين بصيغة الفاعل
المنبئة عن الرسوخ والاستمرار للايذان بأن ايمانهم أمر حادث ماله من قرار وقرىء بالنصب على أنها علة لفعل دل
عليه أذن خير أى يأذن لكم رحمة ﴿ والذين يؤذون رسول الله ﴾ بما نقل عنهم من قولهم هو أذن ونحوه وفى صيغة
الاستقبال المشعرة بترتب الوعيد على الاستمرار على ما هم عليه اشعار بقبول توبتهم كما أفصح عنه قوله تعالى فيما سيأتى
فان يتوبوا يك خيرا لهم ﴿ لهم ﴾ بما يجترئون عليه من أذيته عليه الصلاة والسلام كما ينبىء عنه بناء الحكم على الموصول
﴿ عذاب أليم ﴾ وهذا اعتراض مسوق من قبله عز وجل على نهج الوعيد غير داخل تحت الخطاب وفى تكرير الاسناد باثبات
العذاب الأليم لهم ثم جعل الجملة خبرا للموصول ما لا يخفى من المبالغة وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة مضافا
الى الاسم الجليل لغاية التعظيم والتنبيه على أن أذيته راجعة الى جنابه عز وجل موجبة لكمال السخط والغضب ﴿ يحلفون
بالله لكم ﴾ الخطاب للمؤمنين خاصة وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن ثم يأتونهم فيعتذرون اليهم ويؤكدون معاذيرهم

بالأيمان ليعذروهم و يرضوا عنهم أى يحلفون لكم أنهم ما قالوا ما نقل اليهم مما يورث أذاة النبى صلى الله عليه وسلم وأما التخلف عن الجهاد فليس بداخل فى هذا الاعتذار ﴿ليرضوكم﴾ بذلك وافراد ارضائهم بالتعليل مع أن عمدة أغراضهم ارضاء الرسول صلى الله عليه وسلم وقد قبل عليه الصلاة والسلام ذلك منهم ولم يكذبهم للايذان بأن ذلك بمعزل من أن يكون وسيلة الى ارضائه عليه الصلاة والسلام وأنه صلى الله عليه وسلم انما لم يكذبهم رفقاً بهم وستراً لعيوبهم لا عن رضا بما فعلوا كما أشير اليه ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ أى أحق بالارضاء ولا يتسنى ذلك الا بالطاعة والمتابعة وايفاء حقوقه عليه الصلاة والسلام فى باب الاجلال والاعظام مشهدا ومغيبا وأما ما أتوا به من الأيمان الفاجرة فانما يرضى به من انحصر طريق علمه فى الاخبار الى أن يجئ الحق ويزهق الباطل والجملة نصب على الحالية من ضمير يحلفون أى يحلفون لكم لارضائكم والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالارضاء منكم أى يعرضون عما يهمهم ويجديهم ويشتغلون بما لا يعنيهم وافراد الضمير فى يرضوه اما للايذان بأن رضاه عليه الصلاة والسلام مندرج تحت رضاه سبحانه وارضاؤه عليه الصلاة والسلام ارضاء له تعالى لقوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله واما لأنه مستعار لاسم الاشارة الذى يشار به الى الواحد والمتعدد بتأويل المذكور كما فى قول رؤبة

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كأن ذلك لا يقال أى حاجة الى الاستعارة بعد التأويل المذكور لأنا نقول لولا الاستعارة لم يتسن التأويل لما أن الضمير لا يتعرض الا لذات مايرجع اليه من غير تعرض لوصف من أوصافه التى من جملتها المذكورية وانما المتعرض لها اسم الاشارة واما لأنه عائد الى رسوله والكلام جملتان حذف خبر الأولى لدلالة خبر الثانية عليه كما ذهب اليه سيبويه ومنه قول من قال نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

أو الى الله على أن المذكور خبر الجملة الأولى وخبر الثانية محذوف كما هو رأى المبرد ﴿ان كانوا مؤمنين﴾ جوابه محذوف تعويلا على دلالة ماسبق عليه أى ان كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله بما ذكر فانهما أحق بالارضاء ﴿ألم يعلموا﴾ أى أولئك المنافقون والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من العظيمة مع علمهم بسوء عاقبتها وقرئ بالتاء على الالتفات لزيادة التقريع والتوبيخ أى ألم يعلموا بما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من فنون القوارع والانذارات ﴿أنه﴾ أى الشأن ﴿من يحادد الله ورسوله﴾ المحادة من الحد كالمشاقة من الشق والمعاداة من العدوة بمعنى الجانب فان كل واحد من مباشرى كل من الأفعال المذكورة فى محل غير محل صاحبه ومن شرطية جوابها قوله تعالى ﴿فأن له نار جهنم﴾ على أن خبره محذوف أى فحق أن له نار جهنم وقرئ بكسر الهمزة والجملة الشرطية فى محل الرفع على أنها خبر لأن وهى مع خبرها سادة مسد مفعولى يعلموا وقيل المعنى فله وأن تكرير للأولى تأكيدا لطول العهد لا من باب التأكيد اللفظى المانع للأولى من العمل ودخول الفاء كما فى قول من قال

لقد علم الحى اليمانون أننى اذا قلت أما بعد أنى خطيبها

وقد جوز أن يكون فأن له معطوفا على أنه وجواب الشرط محذوف تقديره ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فأن له الخ ورد بأن ذلك انما يجوز عند كون فعل الشرط ماضيا أو مضارعا مجزوما بلم ﴿خالداً فيها﴾ حال مقدرة من الضمير المجرور ان اعتبر فى الظرف ابتداء الاستقرار وحدوثه وان اعتبر مطلق الاستقرار فالأمر ظاهر ﴿ذلك﴾ أشير الى ماذكر من العذاب الخالد بذلك ايذانا ببعد درجته فى الهول والفظاعة ﴿الخزى العظيم﴾ الخزى الذل والهوان المقارن للفضيحة والندامة وهى ثمرات نفاقهم حيث يفتضحون على رءوس الاشهاد بظهورها ولحوق العذاب الخالد

بهم والجملة تذييل لما سبق ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم﴾ فى شأنهم فان مانزل فى حقهم نازل عليهم ﴿سورة تنبئهم بما فى قلوبهم﴾ من الأسرار الخفية فضلا عما كانوا يظهرونه فيما بينهم من أقاويل الكفر والنفاق ومعنى تنبئتها اياهم بما فى قلوبهم مع أنه معلوم لهم وأن المحذور عندهم اطلاع المؤمنين على أسرارهم لا اطلاع أنفسهم عليها أنها تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم فتنتشر فيما بين الناس فيسمعونها من أفواه الرجال مذاعة فكأنها تخبرهم بها أو المراد بالتنبئة المبالغة فى كون السورة مشتملة على أسرارهم كأنها تعلم من أحوالهم الباطنة مالا يعلمونه فتنبئهم بها وتنعى عليهم قبائحهم وقيل معنى يحذر ليحذر وقيل الضميران الأولان للمؤمنين والثالث للمنافقين ولا يبالى بالتفكيك عند ظهور الأمر بعود المعنى اليه أى يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما فى قلوب المنافقين وتهتك عليهم أستارهم قال أبو مسلم كان اظهار الحذر منهم بطريق الاستهزاء فانهم كانوا اذا سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر كل شىء ويقول انه بطريق الوحى يكذبونه ويستهزئون به ولذلك قيل ﴿قل استهزؤا﴾ أى افعلوا الاستهزاء وهو أمر تهديد ﴿ان الله مخرج﴾ أى من القوة الى الفعل أو من الكمون الى البروز ﴿ماتحذرون﴾ أى ماتحذرونه من انزال السورة ومن مخازيكم ومثالبكم المستكنة فى قلوبكم الفاضحة لكم على ملا الناس والتأكيد لرد انكارهم بذلك لا لدفع ترددهم فى وقوع المحذور اذ ليس حذرهم بطريق الحقيقة ﴿ولئن سألتهم﴾ عما قالوا ﴿ليقولن انما كنا نخوض ونلعب﴾ روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يسير فى غزوة تبوك وبين يديه ركب من المنافقين يستهزئون بالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم ويقولون انظروا الى هذا الرجل يريد أن يفتتح حصون الشام وقصورها هيهات هيهات فأطلع الله تعالى نبيه على ذلك فقال احبسوا على الركب فأتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يانبى الله لا والله ما كنا فى شىء من أمرك ولا من أمر أصحابك ولكن كنا فى شىء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر ﴿قل﴾ غير ملتفت الى اعتذارهم ناعيا عليهم جناياتهم منزلا لهم منزلة المعترف بوقوع الاستهزاء موبخا لهم على أخطائهم موقع الاستهزاء ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن﴾ حيث عقب حرف التقرير بالمستهزأ به ولا يستقيم ذلك الا بعد تحقق الاستهزاء وثبوته ﴿لاتعتذروا﴾ لاتشتغلوا بالاعتذار وهو عبارة عن محو أثر الذنب فانه معلوم الكذب بين البطلان ﴿قد كفرتم﴾ أظهرتم الكفر بايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم والطعن فيه ﴿بعد ايمانكم﴾ بعد اظهاركم له ﴿ان نعف عن طائفة منكم﴾ لتوبتهم واخلاصهم أو تجنبهم عن الايذاء والاستهزاء وقرىء ان يعف على اسناد الفعل الى الله سبحانه وقرىء على البناء للمفعول مسندا الى الظرف بتذكير الفعل وبتأنيثه أيضا ذهابا الى المعنى كأنه قيل ان ترحم طائفة ﴿نعذب﴾ بنون العظمة وقرىء بالياء على البناء للفاعل وبالتاء على البناء للمفعول مسندا الى مابعده ﴿طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾ مصرين على الاجرام وهو غير التائبين أو مباشرين له وهم غير المجتنبين قال محمد بن اسحق الذى عفى عنه رجل واحد هو يحيى بن حمير الاشجعى لما نزلت هذه الآية تاب عن نفاقه وقال اللهم انى لاأزال أسمع آية تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فأصيب يوم اليمامة فما أحد من المسلمين الا عرف مصرعه غيره ﴿المنافقون والمنافقات﴾ التعرض لأحوال الاناث للايذان بكمال عراقتهم فى الكفر والنفاق ﴿بعضهم من بعض﴾ أى متشابهون فى النفاق والبعد عن الايمان كأبعاض الشىء الواحد بالشخص وقيل أريد به نفى أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم فى حلفهم بالله انهم لمنكم وتقرير لقوله تعالى وماهم منكم وقوله تعالى ﴿يأمرون بالمنكر﴾ أى بالكفر والمعاصى ﴿وينهون عن المعروف﴾ أى عن الايمان والطاعة استئناف مقرر لمضمون ماسبق ومفصح عن مضادة حالهم لحال المؤمنين أو خبر

ثان ﴿ و يقبضون أيديهم ﴾ أى عن المبرات والانفاق فى سبيل الله فان قبض اليد كناية عن الشح ﴿ نسوا الله ﴾
أغفلوا ذكره ﴿ فنسيهم ﴾ فتركهم من رحمته وفضله وخذلهم والتعبير عنه بالنسيان للمشاكلة ﴿ ان المنافقين هم
الفاسقون ﴾ الكاملون فى التمرد والفسق الذى هو الخروج عن الطاعة والانسلاخ عن كل خير والاظهار فى
موقع الاضمار لزيادة التقرير كما فى قوله تعالى ﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار ﴾ أى المجاهرين ﴿ نار جهنم
خالدين فيها ﴾ مقدرين الخلود فيها ﴿ هى حسبهم ﴾ عقابا وجزاء وفيه دليل على عظم عقابها وعذابها ﴿ ولعنهم الله ﴾
أى أبعدهم من رحمته وأهانهم وفى اظهار الاسم الجليل من الايذان بشدة السخط مالا يخفى ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾
أى نوع من العذاب غير عذاب النار دائم لا ينقطع أبدا أو لهم عذاب مقيم معهم فى الدنيا لا ينفك عنهم وهو مايقاسونه
من تعب النفاق الذى هم منه فى بلية دائمة لا يأمنون ساعة من خوف الفضيحة ونزول العذاب ان اطلع عن أسرارهم
﴿ كالذين من قبلكم ﴾ التفات من الغيبة الى الخطاب للتشديد والكاف فى محل الرفع على الخبرية أى أنتم مثل الذين
من قبلكم من الأمم المهلكة أو فى حيز النصب بفعل مقدر أى فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم ﴿ كانوا أشد منكم قوة
وأكثر أموالا وأولادا ﴾ تفسير وبيان لشبههم بهم وتمثيل لحالهم بحالهم ﴿ فاستمتعوا ﴾ تمتعوا وفى صيغة الاستفعال
ماليس فى صيغة التفعل من الاستزادة والاستدامة فى التمتع ﴿ بخلاقهم ﴾ بنصيبهم من ملاذ الدنيا واشتقاقه من الخلق
بمعنى التقدير وهو ماقدر لصاحبه ﴿ فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع ﴾ الكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر
محذوف أى استمتاعا كاستمتاع ﴿ الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسة من
الشهوات الفانية والتهائهم بها عن النظر فى العواقب الحقة واللذائذ الحقيقية تمهيدا لذم المخاطبين بمشابهتهم اياهم
واقتفائهم أثرهم ﴿ وخضتم ﴾ أى دخلتم فى الباطل ﴿ كالذى خاضوا ﴾ أى كالذين باسقاط النون أو كالفوج الذى
أو كالخوض الذى خاضوه ﴿ أولئك ﴾ اشارة الى المتصفين بالأوصاف المعدودة من المشبهين والمشبه بهم لا الى الفريق
الأخير فقط فان ذلك يقتضى أن يكون حبوط أعمال المشبهين وخسرانهم مفهومين ضمنا لا صريحا و يؤدى الى خلو تلوين
الخطاب عن الفائدة اذ الظاهر حينئذ أولئكم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح للخطاب أى
أولئك الموصوفون بما ذكر من الأفعال الذميمة ﴿ حبطت أعمالهم ﴾ ليس المراد بها أعمالهم المعدودة كما يشعر به
التعبير عنهم باسم الاشارة فان غائلتها غنية عن البيان بل أعمالهم التى كانوا يستحقون بها أجورا حسنة لو قارنت الايمان
أى ضاعت و بطلت بالكلية ولم يترتب عليها أثر ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ بطريق المثوبة والكرامة أما فى الآخرة فظاهر
وأما فى الدنيا فلأن مايترتب على أعمالهم فيها من الصحة والسعة وغير ذلك حسبما ينبىء عنه قوله عز وجل من كان يريد
الحيوة الدنيا و زينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ليس ترتبه عليها على طريقة المثوبة والكرامة بل بطريق
الاستدراج ﴿ وأولئك ﴾ أى الموصوفون بحبوط الاعمال فى الدارين ﴿ هم الخاسرون ﴾ الكاملون فى الخسران
فى الدارين الجامعون لمباديه وأسبابه طرا فانه قد ذهبت رؤس أموالهم التى هى أعمالهم فيما ضرهم ولم ينفعهم قط ولو أنها
ذهبت فيما لا يضرهم و لا ينفعهم لكفى به خسرانا وايراد اسم الاشارة فى الموضعين للاشعار بعلية الاوصاف المشار اليها
للحبوط والخسران ﴿ ألم يأتهم ﴾ أى المنافقين ﴿ نبأ الذين من قبلهم ﴾ أى خبرهم الذى له شأن وهو مافعلوا ومافعل
بهم والاستفهام للتقرير والتحذير ﴿ قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين ﴾ وهم قوم شعيب ﴿ والمؤتفكات ﴾
قريات قوم لوط ائتفكت بهم أى انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل وقيل قريات المكذبين
وائتفاكهن انقلاب أحوالهن من الخير الى الشر ﴿ أتتهم رسلهم بالبينات ﴾ استئناف لبيان نبئهم ﴿ فما كان الله

ليظلمهم ﴾ الفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام و يستدعيه النظام أى فكذبوهم فأهلكهم الله تعالى فما ظلمهم بذلك وايثار ماعليه النظم الكريم للمبالغة فى تنزيه ساحة السبحان عن الظلم أى ماصح وما استقام له أن يظلمهم ولكنهم ظلموا أنفسهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فى قوله عزوجل ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ للدلالة على استمرار ظلمهم حيث لم يزالوا يعرضونها للعقاب بالكفر والتكذيب وتقديم المفعول لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد الى قصر المظلومية عليهم على رأى من لايرى التقديم موجبا للقصر فيكون كما فى قوله تعالى وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم من غير قصر للظلم على الفاعل أو المفعول وسيجىء لهذا مزيد بيان فى قوله سبحانه ان الله لايظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين والمؤمنات حالا ومآلا اثر بيان قبح حال أضدادهم عاجلا وآجلا والتعبير عن نسبة هؤلاء بعضهم الى بعض بالولاية وعن نسبة أولئك بمن الاتصالية للايذان بأن نسبة هؤلاء بطريق القرابة الدينية المبنية على المعاقدة المستتبعة للآثار من المعونة والنصرة وغير ذلك ونسبة أولئك بمقتضى الطبيعة والعادة ﴿ يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر ﴾ أى جنس المعروف والمنكر المنتظمين لكل خير وشر ﴿ و يقيمون الصلوة ﴾ فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو فى مقابلة ماسبق من قوله تعالى نسوا الله ﴿ و يؤتون الزكوة ﴾ بمقابلة قوله تعالى و يقبضون أيديهم ﴿ و يطيعون الله و رسوله ﴾ أى فى كل أمر ونهى وهو بمقابلة وصف المنافقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة ﴿ أولئك ﴾ اشارة الى المؤمنين والمؤمنات باعتبار اتصافهم بما سلف من الصفات الفاضلة ومافيه من معنى البعد للاشعار ببعد درجتهم فى الفضل أى أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة ﴿ سيرحمهم الله ﴾ أى يفيض عليهم آثار رحمته من التأييد والنصرة البتة فان السين مؤكدة للوقوع كما فى قولك سأنتقم منك ﴿ ان الله عزيز ﴾ تعليل للوعد أى قوى قادر على اعزاز أوليائه وقهر أعدائه ﴿ حكيم ﴾ يبنى أحكامه على أساس الحكمة الداعية الى ايصال الحقوق من النعمة والنقمة الى مستحقيها من أهل الطاعة وأهل المعصية وهذا وعد للمؤمنين متضمن لوعيد المنافقين كما أن ماسبق فى شأن المنافقين من قوله تعالى فنسيهم وعيد لهم متضمن لوعد المؤمنين فان منع لطفه تعالى عنهم لطف فى حق المؤمنين ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات ﴾ تفصيل لآثار رحمته الأخروية اثر ذكر رحمته الدنيوية والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بعلية وصف الايمان لحصول ماتعلق به الوعد وعدم التعرض لذكر مامر من الأمر بالمعروف وغير ذلك للايذان بأنه من لوازمه ومستتبعاته أى وعدهم وعدا شاملا لكل أحد منهم على اختلاف طبقاتهم فى مراتب الفضل كيفا وكما ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ فان كل أحد منهم فائز بها لامحالة ﴿ ومساكن طيبة ﴾ أى وعد بعض الخواص الكمل منهم منازل تستطيبها النفوس أو يطيب فيها العيش . فى الخبر أنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر ﴿ فى جنات عدن ﴾ هى أبهى أماكن الجنات وأسناها . عن النبى صلى الله عليه وسلم عدن دار الله لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لايسكنها غير ثلاثة النبيون والصديقون والشهداء يقول الله تعالى طوبى لمن دخلك وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج وله خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حوراء لايدخله الانبى أو صديق أو شهيد وعن ابن مسعود رضى الله عنه هى بطنان الجنة وسرتها فعدن على هذا علم وقيل هو بمعناه اللغوى أعنى الاقامة والخلود فمرجع العطف الى اختلاف الوصف وتغايره فكأنه وصفه أولا بأنه من جنس ماهو أشرف الاماكن المعروفة عندهم من الجنات ذات الانهار الجارية لتميل اليها طباعهم أول مايقرع أسماعهم ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش معرى عن شوائب الكدورات التى لاتكاد تخلو عنها أماكن الدنيا وفيها ماتشتهى

الأنفس وتلذ الأعين ثم وصفه بأنه دار اقامة وثبات فى جوار العليين لايعتريهم فيها فناء و لاتغير ثم وعدهم بما هو أعلى من ذلك كله فقال ﴿و رضوان من الله﴾ أى وشئ يسير من رضوانه تعالى ﴿أكبر﴾ اذ عليه يدو رفوز كل خير وسعادة و به يناط نيل كل شرف وسيادة ولعل عدم نظمه فى سلك الوعد مع عزته فى نفسه لأنه متحقق فى ضمن كل موعود و لأنه مستمر فى الدارين . روى أنه تعالى يقول لأهل الجنة هل رضيتم فيقولون مالنا لانرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول أنا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا وأى شئ أفضل من ذلك قال أحل عليكم رضوانى فلاأسخط عليكم أبدا ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماسبق ذكره ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد درجته فى العظم والفخامة ﴿هو الفوز العظيم﴾ دون مايعده الناس فوزا من حظوظ الدنيافانها مع قطع النظر عن فنائها وتغيرها وتنغصها وتكدرها ليست بالنسبة الى أدنى شئ من نعيم الآخرة بمثابة جناح البعوض قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوكانت الدنيا تزن عندالله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء ونعما قال من قال

تالله لوكانت الدنيا بأجمعها   تبقى علينا و يأتى رزقها رغدا
ماكان من حق حر أن يذل بها   فكيف وهى متاع يضمحل غدا

﴿يا أيها النبى جاهد الكفار﴾ أى المجاهرين منهم بالسيف ﴿والمنافقين﴾ بالحجة واقامة الحدود ﴿واغلظ عليهم﴾ فى ذلك و لاتأخذك بهم رأفة . قال عطاء نسخت هذه الآية كل شئ من العفو والصفح ﴿ومأواهم جهنم﴾ جملة مستأنفة لبيان آجل أمرهم اثر بيان عاجله وقيل حالية ﴿و بئس المصير﴾ تذييل لما قبله والمخصوص بالذم محذوف ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ استئناف لبيان ماصدر عنهم من الجرائم الموجبة لما مر من الامر بالجهاد والغلظة عليهم ودخول جهنم روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن و يعيب المنافقين المتخلفين فيسمعه من كان منهم معه عليه الصلاة والسلام فقال الجلاس بن سويد منهم لئن كان مايقول محمد حقا لاخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا وأشرافنا فنحن شر من الحمير فقال عامر بن قيس الانصارى للجلاس أجل والله ان محمدا الصادق وأنت شر من الحمار فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضر فحلف بالله ما قال فرفع عامر يده فقال اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب وتكذيب الصادق فنزل وايثار صيغة الاستقبال فى يحلفون لاستحضار الصورة وللدلالة على تكرير الحلف وصيغة الجمع فى قالوا مع أن القائل هو الجلاس للايذان بأن بقيتهم برضاهم بقوله صاروا بمنزلة القائل ﴿ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ هى ماحكى آنفا والجملة مع ماعطف عليها اعتراض ﴿و كفروا بعد اسلامهم﴾ أى وأظهروا ما فى قلوبهم من الكفر بعد اظهارهم الاسلام ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ هو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه توافق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عليه الصلاة والسلام عن راحلته اذا تسنم العقبة بالليل و كان عمار بن ياسر آخذا بخطام راحلته يقودها وحذيفة بن اليمان خلفها يسوقها فبينماهما كذلك اذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الابل و بقعقعة السلاح فالتفت فاذا قوم متلثمون فقال اليكم اليكم ياأعداء الله فهربوا وقيل هم المنافقون بقتل عامر لرده على الجلاس وقيل أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبى بن سلول وان لم يرض به رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وما نقموا﴾ أى وما أنكروا وما عابوا أو وما وجدوا مايورث نقمتهم ﴿الا أن أغناهم الله و رسوله من فضله﴾ سبحانه وتعالى وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فى غاية مايكون من ضنك العيش لايركبون الخيل و لايحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشر ألف درهم فاستغنى والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل أومن أعم العلل أى وما أنكروا شيئا من الاشياء الا اغناء الله تعالى اياهم أو وما أنكروا ما أنكروا لعلة من العلل الالاغناء الله اياهم ﴿فان يتوبوا﴾ عما هم عليه من الكفر

والنفاق ﴿يك خيراً لهم﴾ فى الدارين. قيل لما تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الجلاس يارسول الله لقد عرض الله على التوبة والله لقد قلت وصدق عامر فتاب الجلاس وحسنت توبته ﴿وان يتولوا﴾ أى استمروا على ما كانوا عليه من التولى والاعراض عن الدين أو أعرضوا عن التوبة بعد هذا العرض ﴿يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا﴾ بالقتل والاسر والنهب وغير ذلك من فنون العقوبات ﴿والآخرة﴾ بالنار وغيرها من أفانين العقاب ﴿وما لهم فى الارض﴾ مع سعتها وتباعد أقطارها وكثرة أهلها المصححة لوجدان مانفى بقوله عز وجل ﴿من ولى ولا نصير﴾ ينقذهم من العذاب بالشفاعة أو المدافعة ﴿ومنهم﴾ بيان لقبائح بعض آخر منهم ﴿من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾ لنؤتين الزكاة وغيرها من الصدقات ﴿ولنكونن من الصالحين﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد الحج وقرىء بالنون الخفيفة فيهما. قيل نزلت فى ثعلبة بن حاطب أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال عليه الصلاة والسلام ياثعلبة قليل تؤدى حقه خير من كثير لا تطيقه فراجعه وقال والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه فدعا له فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود حتى ضاقت بها المدينة فنزل واديا وانقطع عن الجماعة والجمعة فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد فقال ياويح ثعلبة فبعث مصدقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فيه الفرائض فقال ماهذه الا الجزية ماهذه الا أخت الجزية وقال ارجعا حتى أرى رأيى وذلك قوله عز وجل ﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به﴾ أى منعوا حق الله منه ﴿وتولوا﴾ أى أعرضوا عن طاعة الله سبحانه فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلماه ياويح ثعلبة مرتين فنزلت فجاء ثعلبة بالصدقة فقال عليه الصلاة والسلام ان الله منعنى أن أقبل منك فجعل يحثو التراب على رأسه فقال عليه الصلاة والسلام هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى فقبض عليه الصلاة والسلام فجاء بها الى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبلها وجاء بها الى عمر رضى الله عنه فى خلافته فلم يقبلها وهلك فى خلافة عثمان رضى الله عنه وقيل نزلت فيه وفى سهل بن الحرث وجد بن قيس ومعتب بن قشير والأول هو الأشهر ﴿وهم معرضون﴾ جملة معترضة أى وهم قوم عادتهم الاعراض أو حالية أى تولوا باجرامهم وهم معرضون بقلوبهم ﴿فأعقبهم﴾ أى جعل الله عاقبة فعلهم ذلك ﴿نفاقا﴾ راسخا ﴿فى قلوبهم الى يوم يلقونه﴾ الى يوم موتهم الذى يلقون الله تعالى عنده أو يلقون فيه جزاء عملهم وهو يوم القيامة وقيل فأورثهم البخل نفاقا متمكنا فى قلوبهم ولا يلائمه قوله عز وجل ﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه﴾ أى بسبب اخلافهم ما وعدوه تعالى من التصدق والصلاح ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ أى وبكونهم مستمرين على الكذب فى جميع المقالات التى من جملتها وعدهم المذكور وتخصيص الكذب به يؤدى الى تخلية الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل عن المزية فان تسبب الاعقاب المذكور بالاخلاف والكذب يقضى باسناده الى الله عز وجل اذ لا معنى لكونهما سببين لاعقاب البخل النفاق والتحقيق أنه لما كانت الفاء الدالة على الترتيب والتفريع منبئة عن ترتب اعقاب النفاق المخلد على أفعالهم المحكية عنهم من المعاهدة بالتصدق والصلاح والبخل والتولى والاعراض وفيها مالا دخل له فى الترتب المذكور كالمعاهدة أزيح ما فى ذلك من الابهام بتعيين ما هو المدار فى ذلك والله تعالى أعلم وقرىء بتشديد الذال ﴿ألم يعلموا﴾ أى المنافقون أو من عاهد الله وقرىء بالتاء الفوقانية خطابا للمؤمنين فالهمزة على الأول للانكار والتوبيخ والتهديد أى ألم يعلموا ﴿أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾ أى ما أسروا به فى أنفسهم وما تناجوا به فيما بينهم من المطاعن وتسمية الصدقة جزية وغير ذلك مما لا خير فيه وسر تقديم السر على النجوى سيظهر فى قوله سبحانه وستردون الى عالم الغيب والشهادة ﴿وأن الله علام الغيوب﴾ فلا يخفى عليه شىء من الأشياء

حتى اجترؤا على ما اجترؤا عليه من العظائم واظهار اسم الجلالة فى الموقعين لالقاء الروعة وتربية المهابة وفى ايراد العلم المتعلق بسرهم ونجواهم بصيغة الفعل الدال على الحدوث والتجدد والعلم المتعلق بالغيوب الكثيرة الدائمة بصيغة الاسم الدال على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالة ما لايخفى وعلى الثانى لتقرير علم المؤمنين بذلك وتنبيههم على أنه تعالى مؤاخذهم ومجازيهم بما علم من أعمالهم ﴿الذين يلمزون﴾ نصب أو رفع على الذم و يجوز جره على البدلية من الضمير فى سرهم ونجواهم وقرئ بضم الميم وهى لغة أى يعيبون ﴿المطوعين﴾ أى المتطوعين المتبرعين ﴿من المؤمنين﴾ حال من المطوعين وقوله تعالى ﴿فى الصدقات﴾ متعلق بيلمزون . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حث الناس على الصدقة فأتى عبدالرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب وقيل بأربعة آلاف درهم وقال كان لى ثمانية آلاف فأقرضت ربى أربعة وأمسكت لعيالى أربعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك له حتى صولحت تماضر رابعة نسائه عن ربع الثمن على ثمانين ألفا وتصدق عاصم بن عدى بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الأنصارى بصاع من تمر فقال بت ليلتى أجر بالجرير على صاعين فتركت صاعا لعيالى وجئت بصاع فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره على الصدقات فلمزهم المنافقون وقالوا ما أعطى عبد الرحمن وعاصم الا رياء وان كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبى عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات فنزلت ﴿والذين لا يجدون الا جهدهم﴾ عطف على المطوعين أى و يلمزون الذين لا يجدون الا طاقتهم وقرئ بفتح الجيم وهو مصدر جهد فى الأمر اذا بالغ فيه وقيل هو بالضم الطاقة و بالفتح المشقة ﴿فيسخرون منهم﴾ عطف على يلمزون أى يهزؤون بهم والمراد بهم الفريق الاخير ﴿سخر الله منهم﴾ اخبار بمجازاته تعالى اياهم على مافعلوا من السخرية والتعبير عنها بذلك للمشاكلة ﴿ولهم﴾ أى ثابت لهم ﴿عذاب أليم﴾ التنوين للتهويل والتفخيم وايراد الجملة اسمية للدلالة على الاستمرار ﴿استغفر لهم أولا تستغفر لهم﴾ اخبار باستواء الامرين الاستغفار لهم وتركه فى استحالة المغفرة وتصويره بصورة الامر للمبالغة فى بيان استوائهما كأنه عليه الصلاة والسلام أمر بامتحان الحال بأن يستغفر تارة و يترك أخرى ليظهر له جلية الأمر كما مر فى قوله عز وجل قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم ﴿ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ بيان لاستحالة المغفرة بعد المبالغة فى الاستغفار اثر بيان الاستواء بينه و بين عدمه . روى أن عبدالله بن عبد الله بن أبى وكان من المخلصين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض أبيه أن يستغفر له ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام محافظة على ما هو الاصل من أن مراتب الاعداد حدود معينة يخالف حكم كل منها حكم ما فوقها ان الله قد رخص لى فسأزيد على السبعين فنزلت سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة فى مطلق التكثير لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد فكأنها العدد بأسره وقيل هى أكمل الاعداد لجمعها معانيها ولأن الستة أول عدد تام لتعادل أجزائها الصحيحة اذ نصفها ثلاثة وثلثها اثنان وسدسها واحد وجملتها ستة وهى مع الواحد سبعة فكانت كاملة اذ لا مرتبة بعد التمام الا الكمال ثم السبعون غاية الكمال اذ الآحاد غايتها العشرات والسبعمائة غاية الغايات ﴿ذلك﴾ اشارة الى امتناع المغفرة لهم ولو بعد المبالغة فى الاستغفار أى ذلك الامتناع ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل ﴿بأنهم﴾ أى بسبب أنهم ﴿كفروا بالله و رسوله﴾ كفرا متجاوزا عن الحد كما يلوح به وصفهم بالفسق فى قوله عز وجل ﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ فان الفسق فى كل شئ عبارة عن التمرد والتجاوز عن حدوده أى لا يهديهم هداية موصلة الى المقصد البتة لمخالفة ذلك للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وأما الهداية بمعنى الدلالة على ما يوصل اليه فهى متحققة

لا محالة ولكنهم بسوء اختيارهم لم يقبلوها فوقعوا فيما وقعوا وهو تذييل مؤكد لما قبله من الحكم فان مغفرة الكافر انما هى بالاقلاع عن الكفر والاقبال الى الحق والمنهمك فيه المطبوع عليه بمعزل من ذلك وفيه تنبيه على عذر النبى صلى الله عليه وسلم فى استغفاره لهم وهو عدم يأسه من ايمانهم حيث لم يعلم أنهم مطبوعون على الغى والضلال اذ الممنوع هو الاستغفار لهم بعد تبين حالهم كما سيتلى من قوله عز وجل ما كان للنبى الآية ﴿فرح المخلفون﴾ أى الذين خلفهم النبى صلى الله عليه وسلم بالاذن لهم فى القعود عند استئذانهم أو خلفهم الله بتثبيطه اياهم لما علم فى ذلك من الحكمة الخفية أو خلفهم كسلهم أو نفاقهم ﴿بمقعدهم﴾ متعلق بفرح أى بقعودهم وتخلفهم عن الغزو ﴿خلاف رسول الله﴾ أى خلفه وبعد خروجه حيث خرج ولم يخرجوا يقال أقام خلاف الحى أى بعدهم ظعنوا ولم يظعن ويؤيده قراءة من قرأ خلف رسول الله فانتصابه على أنه ظرف لمقعدهم اذ لا فائدة فى تقييد فرحهم بذلك وقيل هو بمعنى المخالفة ويعضده قراءة من قرأ خلف رسول الله بضم الخاء فانتصابه على أنه مفعول له والعامل اما فرح أى فرحوا لاجل مخالفته عليه الصلاة والسلام بالقعود واما مقعدهم أى فرحوا بقعودهم لاجل مخالفته عليه الصلاة والسلام أو على أنه حال والعامل أحد المذكورين أى فرحوا مخالفين له عليه الصلاة والسلام أو فرحوا بالقعود مخالفين له عليه الصلاة والسلام ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله﴾ لا ايثارا للدعة والخفض على طاعة الله تعالى فقط بل مع ما فى قلوبهم من الكفر والنفاق فان ايثار أحد الأمرين قد يتحقق بأدنى رجحان منه من غير أن يبلغ الآخر مرتبة الكراهية وانما أوثر ما عليه النظم الكريم على أن يقال وكرهوا أن يخرجوا الى الغزو إيذانا بأن الجهاد فى سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب وأشرف المطالب التى يجب أن يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه كما فرحوا بأقبح القبائح الذى هو القعود خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وقالوا﴾ أى لاخوانهم تثبيتا لهم على التخلف والقعود وتواصيا فيما بينهم بالشر والفساد أو للمؤمنين تثبيطا لهم عن الجهاد ونهيا عن المعروف واظهارا لبعض العلل الداعية لهم الى ما فرحوا به من القعود فقد جمعوا ثلاث خلال من خصال الكفر والضلال الفرح بالقعود وكراهية الجهاد ونهى الغير عن ذلك ﴿لا تنفروا فى الحر﴾ فانه لا يستطاع شدته ﴿قل﴾ ردا عليهم وتجهيلا لهم ﴿نار جهنم﴾ التى ستدخلونها بما فعلتم ﴿أشد حرا﴾ مما تحذرون من الحر المعهود وتحذرون الناس منه فما لكم لا تحذرونها وتعرضون أنفسكم لها بايثار القعود على النفير ﴿لو كانوا يفقهون﴾ اعتراض تذييلى من جهته سبحانه وتعالى غير داخل تحت القول المأمور به مؤكد لمضمونه وجواب لو اما مقدر أى لو كانوا يفقهون أنها كذلك أو كيف هى أو أن مآلهم اليها لما فعلوا ما فعلوا أو لتأثروا بهذا الالزام واما غير منوى على أن لو لمجرد التمنى المنبىء عن امتناع تحقق مدخولها أى لو كانوا من أهل الفطانة والفقه كما فى قوله عز وجل قل انظروا ماذا فى السموات والارض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴿فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا﴾ اخبار عن عاجل أمرهم وآجله من الضحك القليل والبكاء الطويل المؤدى اليه أعمالهم السيئة التى من جملتها ما ذكر من الفرح والفاء لسببية ما سبق للاخبار بما ذكر من الضحك والبكاء لا لنفسهما اذ لا يتصور السببية فى الأول أصلا وقليلا وكثيرا منصوبان على المصدرية أو الظرفية أى ضحكا قليلا وبكاء كثيرا أو زمانا قليلا وزمانا كثيرا واخراجه فى صورة الأمر للدلالة على تحتم وقوع المخبر به فان أمر الآمر المطاع مما لا يكاد يتخلف عنه المأمور به خلا أن المقصود افادته فى الأول هو وصف القلة فقط وفى الثانى وصف الكثرة مع الموصوف . يروى أن أهل النفاق يبكون فى النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم ويجوز أن يكون الضحك كناية عن الفرح والبكاء عن الغم وأن تكون القلة عبارة عن العدم والكثرة عن الدوام ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ من فنون المعاصى والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددى ما داموا فى الدنيا

وجزاء مفعول له للفعل الثانى أى ليبكوا جزاء أومصدر حذف ناصبه أى يجزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاء بما كسبوا من المعاصى المذكورة ﴿فان رجعك الله﴾ الفاء لتفريع الامر الآتى على مابين من أمرهم والفعل من الرجع المتعدى دون الرجوع اللازم أى فان ردك الله تعالى ﴿الى طائفة منهم﴾ أى الى المنافقين من المتخلفين فى المدينة فان تخلف بعضهم انما كان لعذر عائق مع الاسلام أو الى من بقى من المنافقين المتخلفين بأن ذهب بعضهم بالموت أو بالغيبة عن البلد أو بأن لم يستأذن البعض . عن قتادة أنهم كانوا اثنى عشر رجلا قيل فيهم ماقيل ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ معك الى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه ﴿فقل﴾ اخراجا لهم عن ديوان الغزاة وابعادا لمحلهم عن محفل صحبتك ﴿لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا﴾ من الاعداء وهو اخبار فى معنى النهى للمبالغة وقد وقع كذلك ﴿انكم﴾ تعليل لما سلف أى لانكم ﴿رضيتم بالقعود﴾ أى عن الغزو وفرحتم بذلك ﴿أول مرة﴾ هى غزوة تبوك ﴿فاقعدوا﴾ الفاء لتفريع الامر بالقعود بطريق العقوبة على ما صدر عنهم من الرضا بالقعود أى اذ رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا من بعد ﴿مع الخالفين﴾ أى المتخلفين الذين ديدنهم القعود والتخلف دائما وقرئ الخلفين على القصر فكان محو أساميهم من دفتر المجاهدين ولزهم فى قرن الخالفين عقوبة لهم أى عقوبة وتذكير اسم التفضيل المضاف الى المؤنث هو الا كثر الدائر على الالسنة فانك لا تكاد تسمع قائلا يقول هى كبرى امرأة أو أولى مرة ﴿ولا تصل على أحد منهم مات﴾ صفة لأحد وانما جئ بصيغة الماضى تنبيها على تحقق الوقوع لا محالة ﴿أبدا﴾ متعلق بالنهى أى لا تدع ولا تستغفر لهم أبدا ﴿ولا تقم على قبره﴾ أى لا تقف عليه للدفن أو للزيارة والدعاء . روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم فلما مرض رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول بعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتيه فلما دخل عليه قال عليه السلام أهلكك حب اليهود فقال يارسول الله بعثت اليك لتستغفرلى لا لتؤنبنى وسأله أن يكفنه فى شعاره الذى يلى جلده ويصلى عليه فلما مات دعاه ابنه وكان مؤمنا صالحا فأجابه عليه السلام تسلية له ومراعاة لجانبه وأرسل اليه قميصه فكفن فيه فلما هم بالصلاة أو صلى نزلت . وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لما هلك عبد الله بن أبى وضعناه ليصلى عليه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أتصلى على عدو الله القائل يوم كذا كذا وكذا والقائل يوم كذا كذا وكذا وعددت أيامه الخبيثة فتبسم عليه السلام وصلى عليه ثم مشى معه وقام على حفرته حتى دفن فوالله ما لبث الا يسيرا حتى نزل ولا تصل الخ فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على منافق ولا قام على قبره وانما لم ينه عن التكفين بقميصه صلى الله عليه وسلم لان الضنة بالقميص كانت مظنة الاخلال بالكرم على أنه كان مكافأة لقميصه الذى كان ألبسه العباس رضى الله تعالى عنه حين أسر ببدر والخبر مشهور ﴿انهم كفروا بالله ورسوله﴾ تعليل للنهى على معنى أن الاستغفار للميت والوقوف على قبره انما يكون لاستصلاحه وذلك مستحيل فى حقهم لانهم استمروا على الكفر بالله ورسوله مدة حياتهم ﴿وماتوا وهم فاسقون﴾ أى متمردون فى الكفر خارجون عن حدوده كما بين من معنى الفسق ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم﴾ تكرير لما سبق وتقرير لمضمونه بالاخبار بوقوعه ويجوز أن يكون هذا فى حق فريق غير الفريق الاول وتقديم الاموال فى أمثال هذه المواقع على الاولاد مع كونهم أعز منها اما لعموم مساس الحاجة اليها بحسب الذات وبحسب الافراد والاوقات فانها مما لابد منه لكل أحد من الآباء والامهات والاولاد فى كل وقت وحين حتى أن من له أولاد ولا مال له فهو وأولاده فى ضيق ونكال وأما الاولاد فانما يرغب فيهم من بلغ مبلغ الابوة واما لأن المال مناط لبقاء النفس والاولاد لبقاء النوع واما لانها أقدم فى الوجود من الاولاد لأن الاجزاء المنوية انما تحصل من الاغذية كما سيأتى فى سورة الكهف

﴿انما يريد الله﴾ بما متعهم به من الاموال والاولاد ﴿أن يعذبهم بها فى الدنيا﴾ بسبب معاناتهم المشاق ومكابدتهم الشدائد فى شأنها ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ أى فيموتوا كافرين باشتغالهم بالتمتع بها والالتهاء عن النظر والتدبر فى العواقب ﴿واذا أنزلت سورة﴾ من القرآن ويجوز أن يراد بها بعضها ﴿أن آمنوا بالله﴾ أن مفسرة لما فى الانزال من معنى القول والوحى أو مصدرية حذف عنها الجار أى بأن آمنوا ﴿وجاهدوا مع رسوله﴾ لاعزاز دينه واعلاء كلمته ﴿استأذنك أولوا الطول منهم﴾ أى ذووا الفضل والسعة والقدرة على الجهاد بدناً ومالا ﴿وقالوا﴾ عطف تفسيرى لاستأذنك مغن عن ذكر ما استأذنوا فيه يعنى القعود ﴿ذرنا نكن مع القاعدين﴾ أى الذين قعدوا عن الغزو لما بهم من عذر ﴿رضوا﴾ استئناف لبيان سوء صنيعهم وعدم امتثالهم لكلا الأمرين وان لم يردوا الاول صريحا ﴿بأن يكونوا مع الخوالف﴾ مع النساء اللاتى شأنهن القعود ولزوم البيوت جمع خالفة وقيل الخالفة من لاخير فيه ﴿وطبع على قلوبهم فهم﴾ بسبب ذلك ﴿لايفقهون﴾ ما فى الايمان بالله وطاعته فى أوامره ونواهيه واتباع رسوله عليه السلام والجهاد من السعادة وما فى أضداد ذلك من الشقاوة ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه﴾ بالله وبما جاء من عنده تعالى وفيه ايذان بأنهم ليسوا من الايمان بالله فى شئ وان لم يعرضوا عنه صريحا اعراضهم عن الجهاد باستئذانهم فى القعود ﴿جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ أى ان تخلف هؤلاء عن الغزو فقد نهد اليه ونهض له من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقداوأقاموا أمر الجهاد بكلا نوعيه كقوله تعالى فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين ﴿وأولئك﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿لهم﴾ بواسطة نعوتهم المزبورة ﴿الخيرات﴾ أى منافع الدارين النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة والكرامة فى العقبى وقيل الحور كقوله عز قائلا فيهن خيرات حسان وهى جمع خيرة تخفيف خيرة ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أى الفائزون بالمطلوب لامن حاز بعضا من الحظوظ الفانية عما قليل وتكرير اسم الاشارة تنويه لشأنهم ورفع لمكانهم ﴿أعد الله لهم﴾ استئناف لبيان كونهم مفلحين أى هيأ لهم فى الآخرة ﴿جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ حال مقدرة من الضمير المجرور والعامل أعد ﴿ذلك﴾ اشارة الى ما فهم من اعداد الله سبحانه لهم الجنات المذكورة من نيل الكرامة العظمى ﴿الفوز العظيم﴾ الذى لافوز وراءه ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾ شروع فى بيان أحوال منافقى الاعراب اثر بيان منافقى أهل المدينة والمعذرون من عذر فى الامر اذا قصر فيه وتوانى ولم يجد وحقيقته أن يوهم أن له عذرا فيما يفعل ولا عذر له أو المعتذرون بادغام التاء فى الذال ونقل حركتها الى العين وهم المعتذرون بالباطل وقرئ المعذرون من الاعذار وهو الاجتهاد فى العذر والاحتشاد فيه قيل هم أسد وغطفان قالوا ان لنا عيالا وان بنا لجهداً فائذن لنا فى التخلف وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا ان غزونا معك أغارت أعراب طيئ على أهالينا ومواشينا فقال عليه السلام سيغنينى الله تعالى عنكم وعن مجاهد نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله سبحانه وعن قتادة اعتذروا بالكذب وقرئ المعذرون بتشديد العين والذال من تعذر بمعنى اعتذر وهو لحن اذ التاء لاتدغم فى العين ادغامها فى الطاء والزاء والصاد فى المطوعين وازكى واصدق وقيل أريد بهم المعتذرون بالصحة وبه فسر المعذرون والمعذرون أى الذين لم يفرطوا فى العذر ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ وهم منافقو الاعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا فظهر أنهم كذبوا الله ورسوله فى ادعاء الايمان والطاعة ﴿سيصيب الذين كفروا منهم﴾ أى من الاعراب أو من المعذرين فان منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿عذاب أليم﴾ بالقتل والاسر فى الدنيا والنار فى الآخرة ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ كالهرمى والزمنى ﴿ولا على الذين لايجدون ماينفقون﴾ لفقرهم كمزينة وجهينة وبنى عذرة ﴿حرج﴾ اثم فى التخلف ﴿اذا نصحوا لله ورسوله﴾ وهو عبارة عن الايمان بهما والطاعة لهما فى السر

والعلن وتوليهما فى السراء والضراء والحب فيهما والبغض فيهما كما يفعل المولى الناصح بصاحبه ﴿ماعلى المحسنين من سبيل﴾ استئناف مقرر لمضمون ماسبق أى ليس عليهم جناح و لا الى معاتبتهم سبيل ومن مزيدة للتأكيد ووضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على انتظامهم بنصحهم لله و رسوله فى سلك المحسنين أو تعليل لنفى الحرج عنهم أى ماعلى جنس المحسنين من سبيل وهم من جملتهم ﴿والله غفور رحيم﴾ تذييل مؤيد لمضمون ماذكر مشير الى أن بهم حاجة الى المغفرة وان كان تخلفهم بعذر ﴿ولا على الذين اذا ماأتوك لتحملهم﴾ عطف على المحسنين كما يؤذن به قوله عز وجل فيما سيأتى انما السبيل الآية وقيل عطف على الضعفاء وهم البكاؤن سبعة من الانصار معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن معقل وعلبة بن زيد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغز معك فقال عليه السلام لاأجد فتولوا وهم يبكون وقيل هم بنومقرن معقل وسويد ونعمان وقيل أبوموسى الاشعرى وأصحابه رضى الله تعالى عنهم ﴿قلت لاأجد ماأحملكم عليه﴾ حال من الكاف فى أتوك باضمار قد وماعامة لماسألوه عليه السلام وغيره مما يحمل عليه عادة و فى ايثار لاأجد على ليس عندى من تلطيف الكلام وتطييب قلوب السائلين مالايخفى كأنه عليه السلام يطلب مايسألونه على الاستمرار فلا يجده ﴿تولوا﴾ جواب اذا ﴿وأعينهم تفيض﴾ أى تسيل بشدة ﴿من الدمع﴾ أى دمعا فان من البيانية مع مجرورها فى حيز النصب على التمييز وهو أبلغ من يفيض دمعها لافادتها أن العين بعينها صارت دمعا فياضا والجملة حالية وقوله عز اسمه ﴿حزنا﴾ نصب على العلية أو الحالية أو المصدرية لفعل دل عليه ماقبله أى تفيض للحزن فان الحزن يسند الى العين مجازا كالفيض أو تولوا له أو حزنين أو يحزنون حزنا فتكون هذه الجملة حالا من الضمير فى تفيض ﴿ألا يجدوا﴾ على حذف لام متعلقة بحزنا أو تفيض أى لئلا يجدوا ﴿ماينفقون﴾ فى شراء مايحتاجون اليه اذ لم يجدوه عندك ﴿انما السبيل﴾ بالمعاتبة ﴿على الذين يستأذنونك﴾ فى التخلف ﴿وهم أغنياء﴾ واجدون لأهبة الغزو مع سلامتهم ﴿رضوا﴾ استئناف تعليلى لماسبق كأنه قيل مابالهم استأذنوا وهم أغنياء فقيل رضوا ﴿بأن يكونوا مع الخوالف﴾ الذين شأنهم الضعة والدناءة ﴿وطبع الله على قلوبهم﴾ أى خذلهم فغفلوا عن وخامة العاقبة ﴿فهم﴾ بسبب ذلك ﴿لايعلمون﴾ أبدا غائلة مارضوا به ومايستتبعه آجلا كما لم يعلموا بخساسة شأنه عاجلا ﴿يعتذرون اليكم﴾ استئناف لبيان مايتصدون له عند القفول اليهم . روى أنهم كانوا بضعة وثمانين رجلا فلما رجع عليه السلام اليهم جاؤا يعتذرون اليه بالباطل والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانهم كانوا يعتذرون اليهم أيضا لا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط أى يعتذرون اليكم فى التخلف ﴿اذا رجعتم﴾ من الغزو منتهين ﴿اليهم﴾ وانما لم يقل الى المدينة ايذانا بأن مدار الاعتذار هو الرجوع اليهم لا الرجوع الى المدينة فلعل منهم من بادر الى الاعتذار قبل الرجوع اليها ﴿قل﴾ تخصيص هذا الخطاب برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد تعميمه فيما سبق لاصحابه أيضا لما أن الجواب وظيفته عليه السلام وأما اعتذارهم فكان شاملا للمسلمين شمول الرجوع لهم ﴿لاتعتذروا﴾ أى لاتفعلوا الاعتذار كقوله تعالى اخسؤا فيها و لاتكلمون أو لاتعتذروا بما عندكم من المعاذير وأما التعرض لعنوان كذبها فلا يساعده قوله تعالى ﴿لن نؤمن لكم﴾ أى لن نصدقكم فى ذلك أبدا فانه استئناف تعليلى للنهى مبنى على سؤال نشأ من قبلهم متفرع على ادعاء الصدق فى الاعتذار كأنهم قالوا لم لانعتذر فقيل لأنا لانصدقكم أبدا فيكون عبثا اذ لايترتب عليه غرض المعتذر وقوله عز وجل ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ تعليل لانتفاء التصديق أى أعلمنا بالوحى بعض أخباركم المنافية للتصديق مما باشرتموه من الشر والفساد وأضمرتموه فى ضمائركم وهيأتموه للابراز فى معرض الاعتذار من

الأكاذيب وجمع ضمير المتكلم فى الموضعين للمبالغة فى حسم أطماعهم من التصديق رأسا ببيان عدم رواج اعتذارهم عند أحد من المؤمنين أصلا فان تصديق البعض لهم ربما يطمعهم فى تصديق الرسول أيضا صلى الله عليه وسلم بواسطة المصدقين وللايذان بأن افتضاحهم بين المؤمنين كافة ﴿وسيرى الله عملكم﴾ فيما سيأتى أتنيبون اليه تعالى مما أنتم فيه من النفاق أم تثبتون وكأنه استتابة وامهال للتوبة وتقديم مفعول الرؤية على ماعطف على فاعله من قوله تعالى ﴿ورسوله﴾ للايذان باختلاف حال الرؤيتين وتفاوتهما وللاشعار بأن مدار الوعيد هو علمه عز وجل بأعمالهم ﴿ثم تردون﴾ يوم القيامة ﴿الى عالم الغيب والشهادة﴾ للجزاء بما ظهر منكم من الاعمال ووضع المظهر موضع المضمر لتشديد الوعيد فان علمه سبحانه وتعالى بجميع أعمالهم الظاهرة والباطنة واحاطته بأحوالهم البارزة والكامنة مما يوجب الزجر العظيم ﴿فينبئكم﴾ عند ردكم اليه ووقوفكم بين يديه ﴿بما كنتم تعملون﴾ أى بما كنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار من الاعمال السيئة السابقة واللاحقة على أن ما موصولة والعائد اليها محذوف أو بعملكم المستمر على أنها مصدرية والمراد بالتنبئة بذلك المجازاة به وايثارها عليها لمراعاة ماسبق من قوله تعالى قد نبأنا الله الخ فان المنبأ به الاخبار المتعلقة بأعمالهم وللايذان بأنهم ماكانوا عالمين فى الدنيا بحقيقة أعمالهم وانما يعلمونها يومئذ ﴿سيحلفون بالله لكم﴾ تأكيداً لمعاذيرهم الكاذبة وتقريراً لها والسين للتأكيد والمحلوف عليه محذوف يدل عليه الكلام وهو ما اعتذروا به من الاكاذيب والجملة بدل من يعتذرون أو بيان له ﴿اذا انقلبتم﴾ أى انصرفتم من الغزو ﴿اليهم﴾ ومعنى الانقلاب هو الرجوع والانصراف مع زيادة معنى الوصول والاستيلاء وفائدة تقييد حلفهم به الايذان بأنه ليس لدفع ما خاطبهم النبى عليه السلام به من قوله تعالى لاتعتذروا الخ بل هو أمر مبتدأ ﴿لتعرضوا﴾ وتصفحوا ﴿عنهم﴾ صفح رضا فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم كما يفصح عنه قوله تعالى لترضوا عنهم ﴿فأعرضوا عنهم﴾ لكن لا اعراض رضا كما هو طلبتهم بل اعراض اجتناب ومقت كما يعرب عنه قوله عز وجل ﴿انهم رجس﴾ فانه صريح فى أن المراد بالاعراض عنهم اما الاجتناب عنهم لما فيهم من الرجس الروحانى واما ترك استصلاحهم بترك المعاتبة لأن المقصود بها التطهير بالحمل على الانابة وهؤلاء أرجاس لاتقبل التطهير فلا يتعرض لهم بها وقوله عز وعلا ﴿ومأواهم جهنم﴾ اما من تمام التعليل فان كونهم من أهل النار من دواعى الاجتناب عنهم وموجبات ترك استصلاحهم باللوم والعتاب واما تعليل مستقل أى وكفتهم النار عتابا وتوبيخا فلا تتكلفوا أنتم فى ذلك ﴿جزاء﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر من لفظه وقع حالا أى يجزون جزاء أو لمضمون الجملة السابقة فانها مفيدة لمعنى المجازاة قطعا كأنه قيل يجزيون جزاء ﴿بما كانوا يكسبون﴾ فى الدنيا من فنون السيئات أو على أنه مفعول له ﴿يحلفون لكم﴾ بدل مما سبق وعدم ذكر المحلوف به لظهوره أى يحلفون به تعالى ﴿لترضوا عنهم﴾ بحلفهم وتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم ﴿فان ترضوا عنهم﴾ حسبما راموا وساعدتموهم فى ذلك ﴿فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أى فان رضاكم عنهم لايجديهم نفعا لأن الله ساخط عليهم ولا أثر لرضاكم عند سخطه سبحانه ووضع الفاسقين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حل بهم من السخط وللايذان بشمول الحكم لمن شاركهم فى ذلك والمراد به نهى المخاطبين عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجه وآكده فان الرضا عمن لايرضى عنه الله تعالى مما لايكاد يصدر عن المؤمن وقيل انما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين من دواعى رضا الله تعالى. قيل هم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين منافقا فقال النبى صلى الله عليه وسلم للمؤمنين حين قدم المدينة لاتجالسوهم ولا تكلموهم وقيل جاء عبد الله بن أبى يحلف أن لا يتخلف عنه أبدا ﴿الأعراب﴾ هى صيغة جمع وليست بجمع للعرب قاله سيبويه لئلا يلزم كون الجمع أخص من الواحد فان

العرب هو هذا الجيل الخاص سواء سكن البوادى أم القرى وأما الاعراب فلا يطلق الا على من يسكن البوادى ولهذا نسب الى الاعراب على لفظه فقيل أعرابى وقال أهل اللغة رجل عربى وجمعه العرب كما يقال مجوسى ويهودى ثم يحذف ياء النسب فى الجمع فيقال المجوس واليهود ورجل اعرابى ويجمع على الاعراب والأعاريب أى أصحاب البدو ﴿أشد كفرا ونفاقا﴾ من أهل الحضر لجفائهم وقسوة قلوبهم وتوحشهم ونشئهم فى معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده كما فى قوله تعالى وكان الانسان كفورا اذ ليس كلهم كما ذكر على ماستحيط به خبرا ﴿وأجدر أن لايعلموا﴾ أى أحق وأخلق بأن لايعلموا ﴿حدود ماأنزل الله على رسوله﴾ لبعدهم عن مجلسه صلى الله عليه وسلم وحرمانهم من مشاهدة معجزاته ومعاينة ماينزل عليه من الشرائع فى تضاعيف الكتاب والسنة ﴿والله عليم﴾ بأحوال كل من أهل الوبر والمدر ﴿حكيم﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم من العقاب والثواب ﴿ومن الأعراب﴾ شروع فى بيان تشعب جنس الاعراب الى فريقين وعدم انحصارهم فى الفريق المذكور كما يتراءى من ظاهر النظم الكريم وشرح لبعض مثالب هؤلاء المتفرعة على الكفر والنفاق بعد بيان تماديهم فيهما وحمل الاعراب على الفريق المذكور خاصة وان ساعده كون من يحكى حاله بعضا منهم وهم الذين بصدد الانفاق من أهل النفاق دون فقرائهم أو أعراب أسد وغطفان وتميم كما قيل لكن لايساعده ماسيأتى من قوله تعالى ومن الاعراب من يؤمن الخ فان أولئك ليسوا من هؤلاء قطعا وانما هم من الجنس أى ومن جنس الاعراب الذى نعت بنعت بعض أفراده ﴿من يتخذ ماينفق﴾ من المال أى يعد مايصرفه فى سبيل الله ويتصدق به صورة ﴿مغرما﴾ أى غرامة وخسرانا لازما اذ لاينفقه احتسابا ورجاء لثواب الله تعالى ليكون له مغنما وانما ينفقه رياء وتقية فهى غرامة محضة ومافى صيغة الاتخاذ من معنى الاختيار والانتفاع بما يتخذ انما هو باعتبار غرض المنفق من الرياء والتقية لاباعتبار ذات النفقة أعنى كونها غرامة ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ أصل الدائرة مايحيط بالشئ والمراد بها مالا محيص عنه من مصائب الدهر أى ينتظر بكم دوائر الدهر ونوبه ودوله ليذهب غلبتكم عليه فليتخلص مما ابتلى به ﴿عليهم دائرة السوء﴾ دعاء عليهم بنحو ماأرادوا بالمؤمنين على نهج الاعتراض كقوله سبحانه غلت أيديهم بعد قول اليهود ماقالوا والسوء مصدر ثم أطلق على كل ضر وشر وأضيفت اليه الدائرة ذما كما يقال رجل سوء لأن من دارت عليه يذمها وهى من باب اضافة الموصوف الى صفته فوصفت فى الأصل بالمصدر مبالغة ثم أضيفت الى صفتها كقوله عز وجل ماكان أبوك امرأ سوء وقيل معنى الدائرة يقتضى معنى السوء فانما هى اضافة بيان وتأكيد كما قالوا شمس النهار ولحيا رأسه وقرئ بالضم وهو العذاب كما قيل له سيئة ﴿والله سميع﴾ لما يقولونه عند الانفاق مما لاخير فيه ﴿عليم﴾ بما يضمرونه من الأمور الفاسدة التى من جملتها أن يتربصوا بكم الدوائر وفيه من شدة الوعيد مالا يخفى ﴿ومن الأعراب﴾ أى من جنسهم على الاطلاق ﴿من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ﴾ أى يأخذ لنفسه على وجه الاصطفاء والادخار ﴿ماينفق﴾ أى ينفقه فى سبيل الله تعالى ﴿قربات﴾ أى ذرائع اليها وللايذان بما بينهما من كمال الاختصاص جعل كأنه نفس القربات والجمع باعتبار أنواع القربات أو أفرادها وهى ثانى مفعولى يتخذ وقوله تعالى ﴿عند الله﴾ صفتها أو ظرف ليتخذ ﴿وصلوات الرسول﴾ أى وسائل اليها فانه عليه الصلاة والسلام كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ولذلك سن للمصدق أن يدعو للمتصدق عند أخذ صدقته لكن ليس له أن يصلى عليه كما فعله عليه الصلاة والسلام حين قال اللهم صل على آل أبى أوفى فان ذلك منصبه فله أن يتفضل به على من يشاء والتعرض لوصف الايمان بالله واليوم الآخر فى الفريق الأخير مع أن مساق الكلام لبيان الفرق بين الفريقين فى شأن اتخاذ ماينفقانه حالا

وما لا وأن ذكر اتخاذه ذريعة الى القربات والصلوات مغن عن التصريح بذلك لكمال العناية بايمانهم و بيان اتصافهم به و زيادة الاعتناء بتحقيق الفرق بين الفريقين من أول الأمر وأما الفريق الأول فاتصافهم بالكفر والنفاق معلوم من سياق النظم الكريم صريحا ﴿ألا انها قربة لهم﴾ شهادة لهم من جناب الله تعالى بصحة ما اعتقدوه وتصديق لرجائهم والضمير لما ينفق والتأنيث باعتبار الخبر مع مامر من تعدده بأحد الوجهين والتنكير للتفخيم المغنى عن الجمع أى قربة عظيمة لايكتنه كنهها و فى ايراد الجملة اسمية وتصديرها بحرفى التنبيه والتحقيق من الجزالة مالا يخفى والاقتصار على بيان كونها قربة لهم لأنها الغاية القصوى وصلوات الرسول من ذرائعها وقوله تعالى ﴿سيدخلهم الله فى رحمته﴾ وعد لهم باحاطة رحمته الواسعة بهم وتفسير للقربة كما أن قوله عز وعلا والله سميع عليم وعيد للأولين عقيب الدعاء عليهم والسين للدلالة على تحقق ذلك وتقرره البتة وقوله تعالى ﴿ان الله غفور رحيم﴾ تعليل لتحقق الوعد على نهج الاستئناف التحقيقى قيل هذا فى عبد الله ذى البجادين وقومه وقيل فى بنى مقرن من مزينة وقيل فى أسلم وغفار وجهينة و روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم وغفار وشىء من جهينة ومزينة خير عند الله يوم القيامة من تميم وأسد بن خزيمة وهوازن وغطفان ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين﴾ بيان لفضائل أشراف المسلمين اثر بيان فضيلة طائفة منهم والمراد بهم الذين صلوا الى القبلتين أو الذين شهدوا بدرا أو الذين أسلموا قبل الهجرة ﴿والأنصار﴾ أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة نفر وأهل بيعة العقبة الثانية وكانوا سبعين رجلا والذى آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير وقرىء بالرفع عطفا على والسابقون ﴿والذين اتبعوهم باحسان﴾ أى ملتبسين به والمراد به كل خصلة حسنة وهم اللاحقون بالسابقين من الفريقين على أن من تبعيضية أو الذين اتبعوهم بالايمان والطاعة الى يوم القيامة فالمراد بالسابقين جميع المهاجرين والانصار ومن بيانية ﴿رضى الله عنهم﴾ خبر للمبتدأ أى رضى الله عنهم بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ﴿ورضوا عنه﴾ بما نالوه من رضاه المستتبع لجميع المطالب طرا ﴿وأعد لهم﴾ فى الآخرة ﴿جنات تجرى تحتها الانهار﴾ وقرىء من تحتها كما فى سائر المواقع ﴿خالدين فيها أبدا﴾ من غير انتهاء ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ الذى لا فوز وراءه وما فى اسم الاشارة من معنى البعد لبيان بعد منزلتهم فى مراتب الفضل وعظم الدرجة من مؤمنى الاعراب ﴿وممن حولكم من الأعراب﴾ شروع فى بيان أحوال منافقى أهل المدينة ومن حولها من الأعراب بعد بيان حال أهل البادية منهم أى ممن حول بلدتكم ﴿منافقون﴾ وهم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها ﴿ومن أهل المدينة﴾ عطف على ممن حولكم عطف مفرد على مفرد وقوله تعالى ﴿مردوا على النفاق﴾ اما جملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب مسوقة لبيان غلوهم فى النفاق اثر بيان اتصافهم به واما صفة للمبتدا المذكور فصل بينها و بينه بما عطف على خبره وان صفة لمحذوف أقيمت هى مقامه وهو مبتدا خبره من أهل المدينة كما فى قوله أنا ابن جلا وطلاع الثنايا والجملة عطف على الجملة السابقة أى ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق أى تمهروا فيه من مرن فلان على عمله ومرد عليه اذا درب به وضرى حتى لان عليه ومهر فيه غير أن مرد لا يكاد يستعمل الا فى الشر فالتمرد على الوجهين الاولين شامل للفريقين حسب شمول النفاق وعلى الوجه الأخير خاص بمنافقى أهل المدينة وهو الأظهر والأنسب بذكر منافقى أهل البادية أولا ثم ذكر منافقى الاعراب المجاورين للمدينة ثم ذكر منافقى أهلها والله تعالى أعلم وقوله عز شأنه ﴿لاتعلمهم﴾ بيان لتمردهم أى لا تعرفهم أنت لكن لا بأعيانهم وأسمائهم وأنسابهم بل بعنوان نفاقهم يعنى أنهم بلغوا من المهارة فى النفاق والتنوق فى مراعاة التقية والتحامى عن مواقع التهم الى مبلغ يخفى عليك حالهم مع ما أنت عليه من علو الكعب وسمو الطبقة فى كمال الفطنة وصدق الفراسة و فى تعليق نفى العلم بهم مع أنه متعلق بحالهم مبالغة فى ذلك

وايماء الى أن ماهم فيه من صفة النفاق لعراقتهم و رسوخهم فيها صارت بمنزلة ذاتياتهم أو مشخصاتهم بحيث لايعدمن لايعرفهم بتلك الصفة عالما بهم وحمل عدم علمه عليه الصلاة والسلام بأعيانهم على عدم علمه عليه الصلاة والسلام بعد مجئ هذا البيان على أنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن فيهم منافقين لكن لا يعلمهم بأعيانهم مع كونه خلاف الظاهر عار عما ذكر من المبالغة وقوله عزوجل ﴿نحن نعلمهم﴾ تقرير لما سبق من مهارتهم فى فن النفاق أى لا يقف على سرائرهم المركوزة فى ضمائرهم الامن لاتخفى عليه خافية لما هم عليه من شدة الاهتمام بابطان الكفر واظهار الاخلاص و فى تعليق العلم بهم مع أن المقصود بيان تعلقه بحالهم مامر فى تعليق نفيه بهم وقوله عز شأنه ﴿سنعذبهم﴾ وعيدلهم وتحقيق لعذابهم حسبما علم الله فيهم من موجباته والسين للتأكيد ﴿مرتين﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قام خطيبا يوم الجمعة فقال اخرج يافلان فانك منافق اخرج يافلان فانك منافق فأخرج ناسا وفضحهم فهذا هو العذاب الاول والثانى اما القتل واما عذاب القبر أو الاول هو القتل والثانى عذاب القبر أو الاول أخذ الزكاة لما أنهم يعدونها مغرما بحتا والثانى نهك الابدان واتعابها بالطاعات الفارغة عن الثواب ولعل تكرير عذابهم لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه و يجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير كما فى قوله تعالى فارجع البصر كرتين أى كرة بعد أخرى ﴿ثم يردون﴾ يوم القيامة ﴿الى عذاب عظيم﴾ هو عذاب النار و فى تغيير السبك باسناد عذابهم السابق الى نون العظمة حسب اسناد ماقبله من العلم واسناد ردهم الى العذاب اللاحق الى أنفسهم ايذان باختلافهما حالا وأن الاول خاص بهم وقوعا و زمانا يتولاه سبحانه وتعالى والثانى شامل لعامة الكفرة وقوعا وزمانا وان اختلفت طبقات عذابهم ﴿وآخرون﴾ بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم فى أمور الدين وهو عطف على منافقون أى ومنهم يعنى وممن حولكم ومن أهل المدينة قوم آخرون ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ التى هى تخلفهم عن الغزو وايثار الدعة عليه والرضا بسوء جوار المنافقين وندموا على ذلك ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة ولم يخفوا ماصدر عنهم من الاعمال السيئة كما فعله من اعتاد اخفاء مافيه وابراز ماينافيه من المنافقين الذين اعتذروا بما لاخير فيه من المعاذير المؤكدة بالأيمان الفاجرة حسب ديدنهم المألوف وهم رهط من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد عندما بلغهم مانزل فى المتخلفين فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين حسب عادته الكريمة ورآهم كذلك فسأل عن شأنهم فقيل انهم أقسموا أن لايحلوا أنفسهم حتى تحلهم فقال عليه الصلاة والسلام وأنا أقسم أن لاأحلهم حتى أومر فيهم فنزلت ﴿خلطوا عملا صالحا﴾ هو ماسبق منهم من الاعمال الصالحة والخروج الى المغازى السابقة وغيرها ومالحق من الاعتراف بذنوبهم فى التخلف عن هذه المرة وتذممهم وندامتهم على ذلك وتخصيصه بالاعتراف لايناسب الخلط لاسيما على وجه يؤذن بتوارد المختلطين وكون كل منهما مخلوطا ومخلوطا به كما يؤذن به تبديل الواو بالباء فى قوله تعالى ﴿وآخر سيئا﴾ فان قولك خلطت الماء باللبن يقتضى ايراد الماء على اللبن دون العكس وقولك خلطت الماء واللبن معناه ايقاع الخلط بينهما من غير دلالة على اختصاص أحدهما بكونه مخلوطا والآخر بكونه مخلوطا به وترك تلك الدلالة للدلالة على جعل كل منهما متصفا بالوصفين جميعا وذلك فيما نحن فيه بورود كل من العملين على الآخر مرة بعد أخرى والمراد بالعمل السيئ ماصدر عنهم من الاعمال السيئة أولا وآخرا وعن الكلبى التوبة والاثم وقيل الواو بمعنى الباء كما فى قولهم بعت الشاء شاة ودرهما بمعنى شاة بدرهم ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ أى يقبل توبتهم المفهومة من اعترافهم بذنوبهم ﴿ان الله غفور رحيم﴾ يتجاوز عن سيئات التائب و يتفضل عليه وهو تعليل لما تفيده كلمة عسى من وجوب القبول فانها للاطماع الذى هو من أكرم الاكرمين ايجاب وأى ايجاب ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ روى أنهم لما

أطلقوا قالوا يارسول الله هذه أموالنا التى خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا فقال عليه الصلاة والسلام ماأمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً فنزلت فليست هى الصدقة المفروضة لكونها مأمورا بها ولما روى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ منهم الثلث وترك لهم الثلثين فوقع ذلك بيانا لما فى صدقة من الاجمال وانما هى كفارة لذنوبهم حسبما ينبئ عنه قوله عزوجل ﴿تطهرهم﴾ أى عما تلطخوا به من أوضار التخلف والتاء للخطاب والفعل مجزوم على أنه جواب للامر وقرئ بالرفع على أنه حال من ضمير المخاطب فى خذ أو صفة لصدقة والتاء للخطاب أو للصدقة والعائد على الاول محذوف ثقة بما بعده وقرئ تطهرهم من أطهره بمعنى طهره ﴿وتزكيهم بها﴾ باثبات الياء وهو خبر لمبتدا محذوف والجملة حال من الضمير فى الأمر أو فى جوابه أى وأنت تزكيهم بها أى تنمى بتلك الصدقة حسناتهم الى مراتب المخلصين أو أموالهم أوتبالغ فى تطهيرهم هذا على قراءة الجزم فى تطهرهم وأما على قراءة الرفع فسواء جعلت التاء للخطاب أو للصدقة وكذا اذا جعلت الجملة الأولى حالا من ضمير المخاطب أو صفة للصدقة على الوجهين فالثانية عطف على الأولى حالا وصفة من غير حاجة الى تقدير المبتدا لتوجيه دخول الواو فى الجملة الحالية ﴿وصل عليهم﴾ أى واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم ﴿ان صلوتك﴾ وقرئ صلواتك مراعاة لتعدد المدعو لهم ﴿سكن لهم﴾ تسكن نفوسهم اليها وتطمئن قلوبهم بها ويثقون بأنه سبحانه قبل توبتهم والجملة تعليل للامر بالصلاة عليهم ﴿والله سميع﴾ يسمع ماصدر عنهم من الاعتراف بالذنب والتوبة والدعاء ﴿عليم﴾ بما فى ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم ومن الاخلاص فى التوبة والدعاء أو سميع يجيب دعاءك لهم عليم بما تقتضيه الحكمة والجملة حينئذ تذييل للتعليل مقرر لمضمونه وعلى الاول تذييل لما سبق من الآيتين محقق لما فيهما ﴿ألم يعلموا﴾ وقرئ بالتاء والضمير امالتائبين فهو تحقيق لما سبق من قبول توبتهم وتطهير الصدقة وتزكيتها لهم وتقرير لذلك وتوطين لقلوبهم ببيان أن المتولى لقبول توبتهم وأخذ صدقاتهم هو الله سبحانه وان أسند الاخذ والتطهير والتزكية اليه عليه الصلاة والسلام أى ألم يعلم أولئك التائبون ﴿أن الله هو يقبل التوبة﴾ الصحيحة الخالصة ﴿عن عباده﴾ المخلصين فيها ويتجاوز عن سيئاتهم كما يفصح عنه كلمة عن والمراد بهم اما أولئك التائبون ووضع المظهر فى موضع المضمر للاشعار بعلية العبادة لقبولها واما كافة العباد وهم داخلون فى ذلك دخولا أوليا ﴿ويأخذ الصدقات﴾ أى يقبل صدقاتهم على أن اللام عوض عن المضاف اليه أوجنس الصدقات المندرج تحته صدقاتهم اندراجا أوليا أى هو الذى يتولى قبول التوبة وأخذ الصدقات ومايتعلق بها من التطهير والتزكية وان كنت أنت المباشر لها ظاهرا وفيه من تقرير ماذكر ورفع شأن النبى صلى الله عليه وسلم على نهج قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله مالايخفى ﴿وأن الله هو التواب الرحيم﴾ تأكيد لما عطف عليه وزيادة تقرير لما يقرره مع زيادة معنى ليس فيه أى ألم يعلموا أنه المختص المستأثر ببلوغ الغاية القصوى من قبول التوبة والرحمة وأن ذلك سنة مستمرة له وشأن دائم والجملتان فى حيز النصب بيعلموا بسد كل واحدة منهما مسد مفعوليه واما لغير التائبين من المؤمنين فقدروى أنهم قالوا لما تيب على الأولين هؤلاء الذين تابوا كانوا بالامس معنا لايكلمون ولايجالسون فمالهم فنزلت أى ألم يعلموا ماللتائبين من الخصال الداعية الى التكرمة والتقريب والانتظام فى سلك المؤمنين والتلقى بحسن القبول والمجالسة فهو ترغيب لهم فى التوبة والصدقة وقوله تعالى ﴿وقل اعملوا﴾ زيادة ترغيب لهم فى العمل الصالح الذى من جملته التوبة وللاولين فى الثبات على ماهم عليه أى قل لهم بعد مابان لهم شأن التوبة اعملوا ماتشاؤن من الأعمال فظاهره ترخيص وتخيير وباطنه ترغيب وترهيب وقوله عز وجل ﴿فسيرى الله عملكم﴾ أى خيرا كان أوشرا تعليل لما قبله وتأكيد للترغيب والترهيب والسين للتأكيد ﴿ورسوله﴾ عطف على الاسم الجليل وتأخيره عن المفعول للاشعار بما

بين الرؤيتين من التفاوت ﴿والمؤمنون﴾ فى الخبر لو أن رجلا عمل فى صخرة لاباب لها و لا كوة لخرج عمله الى الناس كائنا ما كان والمعنى ان أعمالكم غير خافية عليهم كما رأيتم وتبين لكم ثم ان كان المراد بالرؤية معناها الحقيقى فالامر ظاهر وان أريد بها مآلها من الجزاء خيرا أوشرا فهو خاص بالدنيوى من اظهار المدح والثناء والذكر الجميل والاعزاز ونحو ذلك من الأجزية وأضدادها ﴿وستردون﴾ أى بعد الموت ﴿الى عالم الغيب والشهادة﴾ فى وضع الظاهر موضع المضمر من تهويل الأمر وتربية المهابة مالايخفى ووجه تقديم الغيب فى الذكر لسعة عالمه و زيادة خطره على الشهادة غنى عن البيان وقيل ان الموجودات الغائبة عن الحواس علل أو كالعلل للموجودات المحسوسة والعلم بالعلل علة للعلم بالمعلولات فوجب سبق العلم بالغيب على العلم بالشهادة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما الغيب مايسرونه من الأعمال والشهادة مايظهرونه كقوله تعالى يعلم مايسرون وما يعلنون فالتقديم حينئذ لتحقيق أن نسبة علمه المحيط بالسر والعلن واحدة على أبلغ وجه وآكده لا لايهام أن علمه سبحانه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه كيف لا وعلمه سبحانه بمعلوماته منزه عن أن يكون بطريق حصول الصورة بل وجود كل شىء وتحققه فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى و فى هذا المعنى لايختلف الحال بين الأمور البارزة والكامنة واما للايذان بأن رتبة السر متقدمة على رتبة العلن اذ مامن شىء يعلن الا وهو أو مباديه القريبة أو البعيدة مضمر قبل ذلك فى القلب فتعلق علمه تعالى به فى حالته الأولى متقدم على تعلقه به فى حالته الثانية ﴿فينبئكم﴾ عقيب الرد الذى هو عبارة عن الأمر الممتد الى يوم القيامة ﴿بما كنتم تعملون﴾ قبل ذلك فى الدنيا والمراد بالتنبئة بذلك الجزاء بحسبه ان خيرا فخير وان شرا فشر فهو وعد و وعيد ﴿وآخرون﴾ عطف على آخرون قبله أى ومن المتخلفين من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب قوم آخرون غير المعترفين المذكورين ﴿مرجون﴾ وقرىء مرجئون من أرجيته وأرجأته أى أخرته ومنه المرجئة الذين لايقطعون بقبول التوبة ﴿لأمر الله﴾ فى شأنهم . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية لم يسارعوا الى التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السوارى واظهار الغم والجزع والندم على ما فعلوا فوقفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى أصحابه عن أن يسلموا عليهم و يكلموهم وكانوا من أصحاب بدر فهجروهم والناس فى شأنهم على اختلاف فمن قائل هلكوا وقائل عسى الله أن يغفر لهم فصاروا عندهم مرجئين لأمره تعالى ﴿اما يعذبهم﴾ ان بقوا على ماهم عليه من الحال وقيل ان أصروا على النفاق وليس بذاك فان المذكورين ليسوا من المنافقين ﴿واما يتوب عليهم﴾ ان خلصت نيتهم وصحت توبتهم والجملة فى محل النصب على الحالية أى منهم هؤلاء اما معذبين واما متوبا عليهم وقيل آخرون مبتدأ ومرجون صفته وهذه الجملة خبره ﴿والله عليم﴾ بأحوالهم ﴿حكيم﴾ فيما فعل بهم من الارجاء وما بعده وقرىء والله غفور رحيم ﴿والذين اتخذوا مسجدا﴾ عطف على ماسبق أى ومنهم الذين أو نصب على الذم وقرىء بغير واو لأنها قصة على حيالها ﴿ضرارا﴾ أى مضارة للمؤمنين وانتصابه على أنه مفعول له أو مفعول ثان لاتخذوا أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر منصوب على الحالية أى يضارون بذلك ضرارا أو على أنه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالا من ضمير اتخذوا أى مضارين للمؤمنين . روى أن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فيصلى بهم فى مسجدهم فلما فعله عليه الصلاة والسلام حسدتهم اخوتهم بنو غنم بن عوف وقالوا نبنى مسجدا ونرسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فيه و يصلى فيه أبو عامر الراهب أيضا اذا قدم من الشام وهو الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق وقد كان قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لا أجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم فلم يزل يفعل ذلك

الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يومئذ ولى هاربا الى الشام وأرسل الى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فانى ذاهب الى قيصر وآت بجنود ومخرج محمدا وأصحابه من المدينة فبنوا مسجدا الى جنب مسجد قباء وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة فقال عليه الصلاة والسلام انى على جناح سفر وحال شغل واذا قدمنا ان شاء الله تعالى صلينا فيه فلما قفل عليه الصلاة والسلام من غزوة تبوك سألوه اتيان المسجد فنزلت عليه فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر ابن السكن و وحشى فقال لهم انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ففعلوا وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة وهلك أبو عامر الفاسق بالشام بقنسرين ﴿وكفرا﴾ تقوية للكفر الذى يضمرونه ﴿وتفريقا بين المؤمنين﴾ الذين كانوا يصلون فى مسجد قباء مجتمعين فيغص بهم فأرادوا أن يتفرقوا وتختلف كلمتهم ﴿وارصادا﴾ اعدادا وانتظارا وترقبا ﴿لمن حارب الله ورسوله﴾ وهو الراهب الفاسق أى لأجله حتى يجئ فيصلى فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿من قبل﴾ متعلق باتخذوا أى اتخذوه من قبل أن ينافقوا بالتخلف حيث كانوا بنوه قبل غزوة تبوك أو بحارب أى حاربهما قبل اتخاذ هذا المسجد ﴿وليحلفن ان أردنا﴾ أى ما أردنا ببناء هذا المسجد ﴿الا الحسنى﴾ الا الخصلة الحسنى وهى الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين أو الا الارادة الحسنى ﴿والله يشهد انهم لكاذبون﴾ فى حلفهم ذلك ﴿لا تقم﴾ للصلاة ﴿فيه﴾ فى ذلك المسجد حسبما دعوك اليه ﴿أبدا لمسجد أسس﴾ أى بنى أصله ﴿على التقوى﴾ يعنى مسجد قباء أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهى يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة وقيل هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وعن أبى سعيد رضى الله عنه سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذى أسس على التقوى فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال مسجدكم هذا مسجد المدينة واللام اما للابتداء أو للقسم المحذوف أى والله لمسجد وعلى التقديرين فمسجد مبتدأ وما بعده صفته وقوله تعالى ﴿من أول يوم﴾ أى من أيام تأسيسه متعلق بأسس وقوله تعالى ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ أى للصلاة وذكر الله تعالى خبره وقوله تعالى ﴿فيه رجال﴾ جملة مستأنفة مبينة لأحقيته لقيامه عليه الصلاة والسلام فيه من جهة الحال بعد بيان أحقيته له من حيث المحل أو صفة أخرى للمبتدا أو حال من الضمير فى فيه وعلى كل حال ففيه تحقيق وتقرير لاستحقاقه القيام فيه والمراد بكونه أحق نفس كونه حقيقا به اذ لا استحقاق فى مسجد الضرار رأسا وانما عبر عنه بصيغة التفضيل لفضله وكماله فى نفسه أو الأفضلية فى الاستحقاق المتناول لما يكون باعتبار زعم البانى ومن يشايعه فى الاعتقاد وهو الأنسب بما سيأتى ﴿يحبون أن يتطهروا﴾ من المعاصى والخصال الذميمة لمرضاة الله سبحانه وقيل من الجنابة فلا ينامون عليها ﴿والله يحب المطهرين﴾ أى يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه ادناء المحب حبيبه . قيل لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فاذا الأنصار جلوس فقال أمؤمنون أنتم فسكت القوم ثم أعادها فقال عمر رضى الله تعالى عنه يارسول الله انهم لمؤمنون وأنا معهم فقال عليه الصلاة والسلام أترضون بالقضاء قالوا نعم قال عليه الصلاة والسلام أتصبرون على البلاء قالوا نعم قال أتشكرون فى الرخاء قالوا نعم قال عليه الصلاة والسلام مؤمنون ورب الكعبة فجلس ثم قال يامعشر الأنصار ان الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذى تصنعون عند الوضوء وعند الغائط فقالوا نتبع الغائط الاحجار الثلاثة ثم نتبع الأحجار الماء فتلا النبى عليه الصلاة والسلام فيه رجال يحبون أن يتطهروا وقرئ أن يطهروا بالادغام وقيل هو عام فى التطهر عن النجاسات كلها وكانوا يتبعون الماء اثر البول وعن الحسن رضى الله عنه هو التطهر عن

الذنوب بالتوبة وقيل يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا عن آخرهم ﴿أفمن أسس بنيانه﴾ على بناء الفعل للفاعل والنصب وقرئ على البناء للمفعول والرفع وقرئ أسس بنيانه على الاضافة جمع اساس وأساس بالفتح والكسر جمع اس وقرئ اساس بنيانه جمع اس أيضا واس بنيانه وهى جملة مستأنفة مبينة لخيرية الرجال المذكورين من أهل مسجد الضرار والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر أى أبعد ماعلم حالهم من أسس بنيان دينه ﴿على تقوى من الله و رضوان﴾ أى على قاعدة محكمة هى التقوى من الله وابتغاء مرضاته بالطاعة والمراد بالتقوى درجتها الثانية التى هى التوقى عن كل مايؤثم من فعل أوترك وقرئ تقوى بالتنوين على أن الألف للالحاق دون التأنيث ﴿خير أمن أسس بنيانه﴾ ترك الاضمار للايذان باختلاف البنيانين ذاتا مع اختلافهما وصفا واضافة ﴿على شفا جرف هار﴾ الشفا الحرف والشفير والجرف ما جرفه السيل أى استأصله واحتفر ما تحته فبقى واهيا يريد الانهدام والهار الهائر المتصدع المشرف الى السقوط من هار يهور ويهار أو هار يهير قدمت لامه على عينه فصار كغاز ورام وقيل حذفت عينه اعتباطا أى بغير موجب فجرى وجوه الاعراب على لامه ﴿فانهار به فى نار جهنم﴾ مثل ما بنوا عليه أمر دينهم فى البطلان وسرعة الانطماس بما ذكر ثم رشح بانهياره فى النار و وضع بمقابلة الرضوان تنبيها على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار و يوصله الى الرضوان ومقتضياته التى أدناها الجنة وتأسيس هذا على ماهو بصدد الوقوع فى النار ساعة فساعة ثم مصيرهم اليها لامحالة وقرئ جرف بسكون الراء ﴿والله لايهدى القوم الظالمين﴾ أى لانفسهم أو الواضعين للاشياء فى غير مواضعها أى لايرشدهم الى مافيه نجاتهم وصلاحهم ارشادا موجبا له لا محالة وأما الدلالة على مايرشدهم اليه ان استرشدوا به فهو متحقق بلا اشتباه ﴿لايزال بنيانهم الذى بنوا﴾ البنيان مصدر أريد به المفعول و وصفه بالموصول الذى صلته فعله للايذان بكيفية بنائهم له وتأسيسه على أوهن قاعدة وأوهى أساس وللاشعار بعلة الحكم أى لايزال مسجدهم ذلك مبنيا ومهدوما ﴿ريبة فى قلوبهم﴾ أى سبب ريبة وشك فى الدين كانه نفس الريبة أما حال بنيانه فظاهر لما أن اعتزالهم من المؤمنين واجتماعهم فى مجمع على حياله يظهرون فيه مافى قلوبهم من آثار الكفر والنفاق ويدبرون فيه أمورهم ويتشاورون فى ذلك و يلقى بعضهم الى بعض ماسمعوا من أسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكا فى الدين وأما حال هدمه فلما أنه رسخ به ما كان فى قلوبهم من الشر وتضاعفت آثاره وأحكامه أو سبب ريبة فى أمرهم حيث ضعفت قلوبهم و وهى اعتقادهم بخفاء أمرهم على المؤمنين لانهم أظهروا من أمرهم بعد البناء أكثر مما كانوا يظهرونه قبل ذلك وقت اختلاطهم بالمؤمنين وساءت ظنونهم بأنفسهم فلما هدم بنيانهم تضاعف ذلك الضعف وتقوى وصاروا مرتابين فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هل يتركهم على ما كانوا عليه من قبل أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم وقال الكلبى معنى ريبة حسرة وندامة وقال السدى وحبيب والمبرد لايزال هدم بنيانهم حزازة وغيظا فى قلوبهم ﴿الا أن تقطع﴾ من التفعل بحذف احدى التاءين أى الا أن تتقطع ﴿قلوبهم﴾ قطعا وتتفرق أجزاء بحيث لا يبقى لها قابلية ادراك واضمار قطعا وهو استثناء من أعم الاوقات أو أعم الاحوال ومحله النصب على الظرفية أى لايزال بنيانهم ريبة فى كل الاوقات أو كل الاحوال الاوقت تقطع قلوبهم أو حال تقطع قلوبهم فحينئذ يسلون عنها وأما مادامت سالمة فالريبة باقية فيها فهو تصوير لامتناع زوال الريبة عن قلوبهم ويجوز أن يكون المراد حقيقة تقطعها عند قتلهم أوفى القبور أو فى النار وقرئ تقطع على بناء المجهول من التفعيل وعلى البناء للفاعل منه على خطاب النبى صلى الله عليه وسلم أى الا أن تقطع أنت قلوبهم بالقتل وقرئ على البناء للمجهول من الثلاثى مذكرا ومؤنثا وقرئ الى أن تقطع قلوبهم والى أن تقطع قلوبهم على الخطاب وقرئ ولو قطعت قلوبهم على اسناد الفعل مجهولا الى قلوبهم ولو قطعت قلوبهم على الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم

او لكل أحد ممن يصلح للخطاب وقيل الا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم ﴿ والله عليم ﴾ بجميع الاشياء التى من جملتها ماذكر من أحوالهم ﴿ حكيم ﴾ فى جميع أفعاله التى من زمرتها أمره الوارد فى حقهم ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾ ترغيب للمؤمنين فى الجهاد ببيان فضيلته اثر بيان حال المتخلفين عنه ولقد بولغ فى ذلك على وجه لامزيد عليه حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التى بذلوها فى سبيله تعالى واثابته اياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية ثم جعل المبيع الذى هو العمدة والمقصد فى العقد أنفس المؤمنين وأموالهم والثمن الذى هو الوسيلة فى الصفقة الجنة ولم يجعل الامر على العكس بأن يقال ان الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدل على أن المقصد فى العقد هو الجنة وما بذله المؤمنون فى مقابلتها من الانفس والاموال وسيلة اليها ايذانا بتعلق كمال العناية بهم وبأموالهم ثم انه لم يقل بالجنة بل قيل ﴿ بأن لهم الجنة ﴾ مبالغة فى تقرير وصول الثمن اليهم واختصاصه بهم كانه قيل بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم وأما ما يقال من أن ذلك لمدح المؤمنين بأنهم بذلوا أنفسهم وأموالهم بمجرد الوعد لكمال ثقتهم بوعده تعالى وأن تمام الاستعارة موقوف على ذلك اذ لو قيل بالجنة لاحتمل كون الشراء حقيقة لانها صالحة للعوضية بخلاف الوعد بها فليس بشىء لان مناط دلالة ماعليه النظم الكريم على الوعد ليس كونه جملة ظرفية مصدرة بأن فان ذلك بمعزل من الدلالة على الاستقبال بل هو الجنة التى يستحيل وجودها فى الدنيا ولو سلم ذلك يكون العوض الجنة الموعود بها لا الوعد بها ﴿ يقاتلون فى سبيل الله ﴾ استئناف لكن لا لبيان مالاجله الشراء ولا لبيان نفس الاشتراء لان قتالهم فى سبيل الله تعالى ليس باشتراء الله تعالى منهم أنفسهم وأموالهم بل هو بذل لها فى ذلك بل لبيان البيع الذى يستدعيه الاشتراء المذكور كانه قيل كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة فقيل يقاتلون فى سبيل الله وهو بذل منهم لأنفسهم وأموالهم الى جهة الله سبحانه وتعريض لها للهلاك وقوله تعالى ﴿ فيقتلون ويقتلون ﴾ بيان لكون القتال فى سبيل الله بذلا للنفس وأن المقاتل فى سبيله باذل لها وان كانت سالمة غانمة فان الاسناد فى الفعلين ليس بطريق اشتراط الجمع بينهما ولا اشتراط الاتصاف بأحدهما البتة بل بطريق وصف الكل بحال البعض فانه يتحقق القتال من الكل سواء وجد الفعلان أو أحدهما منهم أو من بعضهم بل يتحقق ذلك وان لم يصدر منهم أحدهما أيضا كما اذا وجدت المضاربة ولم يوجد القتل من أحد الجانبين أو لم توجد المضاربة أيضا فانه يتحقق الجهاد بمجرد العزيمة والنفير وتكثير السواد وتقديم حالة القاتلية على حالة المقتولية للايذان بعدم الفرق بينهما فى كونهما مصداقا لكون القتال بذلا للنفس وقرىء بتقديم المبنى للمفعول رعاية لكون الشهادة عريقة فى الباب وايذانا بعدم مبالاتهم بالموت فى سبيل الله تعالى بل بكونه أحب اليهم من السلامة كما قيل فى حقهم

لايفرحون اذا نالت رماحهم   قوما وليسوا مجازيعا اذا نيلوا

لايقطع الطعن الا فى نحورهم   ومالهم عن حياض الموت تهليل

وقيل فى يقاتلون الخ معنى الأمر كما فى قوله تعالى تجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴿ وعدا عليه ﴾ مصدر مؤكد لما يدل عليه كون الثمن مؤجلا ﴿ حقا ﴾ نعت لوعدا والظرف حال منه لأنه لو تأخر لكان صفة له وقوله تعالى ﴿ فى التوراة والانجيل والقرآن ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لوعدا أى وعدا مثبتا فى التوراة والانجيل كما هو مثبت فى القرآن ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقية الوعد على نهج المبالغة فى كونه سبحانه أوفى بالعهد من كل واف فان اخلاف الميعاد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع امكان صدوره عنهم فكيف بجناب الخلاق الغنى عن العالمين جل جلاله وسبك التركيب وان كان على انكار أن يكون أحد أوفى بالعهد منه تعالى من غير تعرض

لانكار المساواة ونفيها لكن المقصود به قصدا مطردا انكار المساواة ونفيها قطعا فاذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل ﴿فاستبشروا﴾ التفات الى الخطاب تشريفا لهم على تشريف و زيادة لسرورهم على سرور والاستبشار اظهار السرور والسين فيه ليس للطلب كاستوقد وأوقد والفاء لترتيب الاستبشار أو الامر به على ماقبله أى فاذا كان كذلك فسروا نهاية السرور وافرحوا غاية الفرح بما فزتم به من الجنة وانما قيل ﴿ببيعكم﴾ مع أن الابتهاج به باعتبار أدائه الى الجنة لأن المراد ترغيبهم فى الجهاد الذى عبر عنه بالبيع وانما لم يذكر العقد بعنوان الشراء لأن ذلك من قبل الله سبحانه لا من قبلهم والترغيب انما يكون فيما يتم من قبلهم وقوله تعالى ﴿الذى بايعتم به﴾ لزيادة تقرير بيعهم وللاشعار بكونه مغايراً لسائر البياعات فانه بيع للفانى بالباقى ولأن كلا البدلين له سبحانه وتعالى . عن الحسن رضى الله عنه أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها . روى أن الانصار لما بايعوه عليه الصلاة والسلام على العقبة قال عبد الله بن رواحة رضى الله تعالى عنه اشترط لربك ولنفسك ماشئت قال عليه الصلاة والسلام أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم قال فاذا فعلنا ذلك فمالنا قال لكم الجنة قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ومر برسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابى وهو يقرؤها قال كلام من قال كلام الله عز وجل قال بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله فخرج الى الغزو واستشهد ﴿وذلك﴾ أى الجنة التى جعلت ثمنا بمقابلة ما بذلوا من أنفسهم وأموالهم ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذى لا فوز أعظم منه وما فى ذلك من معنى البعد اشارة الى بعد منزلة المشار اليه وسمو رتبته فى الكمال ويجوز أن يكون ذلك اشارة الى البيع الذى أمروا بالاستبشار به و يجعل ذلك كأنه نفس الفوز العظيم أو يجعل فوزا فى نفسه فالجملة على الأول تذييل للآية الكريمة وعلى الثانى لقوله تعالى فاستبشروا مقرر لمضمونه ﴿التائبون﴾ رفع على المدح أى هم التائبون يعنى المؤمنين المذكورين كما يدل عليه القراءة بالياء نصبا على المدح ويجوز أن يكون مجرورا على أنه صفة للمؤمنين وقد جوز الرفع على الابتداء والخبر محذوف أى التائبون من أهل الجنة أيضا وان لم يجاهدوا كقوله تعالى وكلا وعد الله الحسنى ويجوز أن يكون خبره قوله تعالى ﴿العابدون﴾ وما بعده خبر بعد خبر أى التائبون من الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه النعوت الفاضلة أى المخلصون فى عبادة الله تعالى ﴿الحامدون﴾ لنعمائه أو لما نابهم من السراء والضراء ﴿السائحون﴾ الصائمون لقوله عليه الصلاة والسلام سياحة أمتى الصوم شبه بها لأنه عائق عن الشهوات أو لأنه رياضة نفسانية يتوسل بها الى العثور على خفايا الملك والملكوت وقيل هم السائحون فى الجهاد وطلب العلم ﴿الراكعون الساجدون﴾ فى الصلاة ﴿الآمرون بالمعروف﴾ بالايمان والطاعة ﴿والناهون عن المنكر﴾ عن الشرك والمعاصى والعطف فيه للدلالة على أن المتعاطفين بمنزلة خصلة واحدة وأما قوله تعالى ﴿والحافظون لحدود الله﴾ أى فيما بينه وعينه من الحقائق والشرائع عملا وحملا للناس عليه فلئلا يتوهم اختصاصه بأحد الوجهين ﴿وبشر المؤمنين﴾ أى الموصوفين بالنعوت المذكورة و وضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن ملاك الأمر هو الايمان وأن المؤمن الكامل من كان كذلك وحذف المبشر به للايذان بخروجه عن حد البيان و فى تخصيص الخطاب بالأولين اظهار زيادة اعتناء بأمرهم من الترغيب والتسلية ﴿ما كان للنبى والذين آمنوا﴾ بالله وحده أى ماصح لهم فى حكم الله عز وجل وحكمته وما استقام ﴿أن يستغفروا للمشركين﴾ به سبحانه ﴿ولو كانوا﴾ أى المشركون ﴿أولى قربى﴾ أى ذوى قرابة لهم وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على جملة أخرى قبلها محذوفة حذفا مطردا كما بين فى قوله تعالى ولو كره الكافرون ونظائره . روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لعمه أبى طالب لما حضرته الوفاة ياعم قل كلمة أحاج

لك بها عند الله فأبى فقال عليه الصلاة والسلام لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه فنزلت وقيل لما افتتح مكة خرج الى الابواء فزار قبر أمه ثم قام مستعبرا فقال انى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى وأنزل على الآيتين ﴿من بعد ماتبين لهم﴾ أى للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ﴿أنهم﴾ أى المشركين ﴿أصحاب الجحيم﴾ بأن ماتوا على الكفر أو نزل الوحى بأنهم يموتون على ذلك ﴿وما كان استغفار ابراهيم لأبيه﴾ بقوله واغفر لأبى أى بأن توفقه للايمان وتهديه اليه كما يلوح به تعليله بقوله انه كان من الضالين والجملة استئناف مسوق لتقرير ما سبق ودفع ما يتراءى بحسب الظاهر من المخالفة وقرىء وما استغفر ابراهيم لأبيه وقرىء وما يستغفر ابراهيم على حكاية الحال الماضية وقوله تعالى ﴿الا عن موعدة﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أى لم يكن استغفاره عليه السلام لأبيه ازر ناشئاً عن شىء من الأشياء الا عن موعدة ﴿وعدها﴾ ابراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿إياه﴾ أى أباه وقد قرىء كذلك بقوله لأستغفرن لك وقوله سأستغفر لك ربى بناء على رجاء ايمانه لعدم تبين حقيقة أمره والا لما وعدها اياه كأنه قيل وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة مبنية على عدم تبين أمره كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿فلما تبين له﴾ أى لابراهيم بأن أوحى اليه أنه مصر على الكفر غير مؤمن أبدا وقيل بأن مات على الكفر والأول هو الأنسب بقوله تعالى ﴿أنه عدو لله﴾ فان وصفه بالعداوة مما يأباه حالة الموت ﴿تبرأ منه﴾ أى تنزه عن الاستغفار له وتجانب كل التجانب وفيه من المبالغة ما ليس فى تركه ونظائره ﴿ان ابراهيم لأواه﴾ لكثير التأوه وهو كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب ﴿حليم﴾ صبور على الأذية والمحنة وهو استئناف لبيان ما كان يدعوه عليه الصلاة والسلام الى ما صدر عنه من الاستغفار وفيه ايذان بأن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان أواها حليما فلذلك صدر عنه ما صدر من الاستغفار قبل التبين فليس لغيره أن يأتسى به فى ذلك وتأكيد لوجوب الاجتناب عنه بعد التبين بأنه عليه الصلاة والسلام تبرأ منه بعد التبين وهو فى كمال رقة القلب والحلم فلابد أن يكون غيره أكثر منه اجتنابا وتبرؤاً وأما أن الاستغفار قبل التبين لو كان غير محظور لما استثنى من الائتساء به فى قوله تعالى الا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك فقد حقق فى سورة مريم باذن الله تعالى ﴿وما كان الله ليضل قوما﴾ أى ليس من عادته أن يصفهم بالضلال عن طريق الحق ويجرى عليهم أحكامه ﴿بعد اذ هداهم﴾ للاسلام ﴿حتى يبين لهم﴾ بالوحى صريحا أو دلالة ﴿مايتقون﴾ أى ما يجب اتقاؤه من محظورات الدين فلا ينزجروا عما نهوا عنه وأما قبل ذلك فلا يسمى ما صدر عنهم ضلالا ولا يؤاخذون به فكأنه تسلية للذين استغفروا للمشركين قبل ذلك وفيه دليل على أن الغافل غير مكلف بما لا يستبد بمعرفته العقل ﴿ان الله بكل شىء عليم﴾ تعليل لما سبق أى انه تعالى عليم بجميع الاشياء التى من جملتها حاجتهم الى بيان قبح مالا يستقل العقل فى معرفته فيبين لهم ذلك كما فعل ههنا ﴿ان الله له ملك السموات والأرض﴾ من غير شريك له فيه ﴿يحيى ويميت وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير﴾ لما منعهم من الاستغفار للمشركين وان كانوا أولى قربى وضمن ذلك التبرؤ منهم رأسا بين لهم أن الله تعالى مالك كل موجود ومتولى أموره والغالب عليه ولا يتأتى لهم نصر ولا ولاية الا منه تعالى ليتوجهوا اليه بشراشرهم متبرئين عما سواه غير قاصدين الا اياه ﴿لقد تاب الله على النبى﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو العفو عن اذنه للمنافقين فى التخلف عنه ﴿والمهاجرين والأنصار﴾ قيل هو فى حق زلات سبقت منهم يوم أحد ويوم حنين وقيل المراد بيان فضل التوبة وأنه مامن مؤمن الا وهو محتاج اليها حتى النبى صلى الله عليه وسلم لما صدر عنه فى بعض الأحوال من ترك الأولى ﴿الذين اتبعوه﴾ ولم يتخلفوا عنه ولم يخلوا بأمر من أوامره ﴿فى ساعة العسرة﴾ أى فى وقتها والتعبير عنه بالساعة لزيادة تعيينه وهى حالهم فى غزوة

تبوك كانوا فى عسرة من الظهر يعتقب عشرة على بعير واحد ومن الزاد تزودوا التمر المدود والشعير المسوس والاهالة الزنخة و بلغت بهم الشدة الى أن اقتسم التمرة اثنان و ربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء المتغير و فى عسرة من الماء حتى نحروا الابل واعتصروا فروثها و فى شدة زمان من حمادة القيظ ومن الجدب والقحط والضيقة الشديدة ووصف المهاجرين والأنصار بما ذكر من اتباعهم له عليه الصلاة والسلام فى مثل هاتيك المراتب من الشدة للمبالغة فى بيان الحاجة الى التوبة فان ذلك حيث لم يغنهم عنها فلأن لا يستغنى عنها غيرهم أولى وأحرى ﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ بيان لتناهى الشدة و بلوغها الى ما لا غاية و راءها وهو اشراف بعضهم على أن يميلوا الى التخلف عن النبي عليه الصلاة والسلام و فى كاد ضمير الشأن أوضمير القوم الراجع اليه الضمير فى منهم وقرىء بتأنيث الفعل وقرىء من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم يعنى المتخلفين من المؤمنين كأبى لبابة وأضرابه ﴿ثم تاب عليهم﴾ تكرير للتأكيد وتنبيه على أنه يتاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة والمراد أنه تاب عليهم لكيدودتهم ﴿انه بهم رؤف رحيم﴾ استئناف تعليلى فان صفة الرأفة والرحمة من دواعى التوبة والعفو و يجوز كون الأول عبارة عن ازالة الضرر والثانى عن ايصال المنفعة وأن يكون أحدهما للسوابق والآخر للواحق ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ أى وتاب الله على الثلاثة الذين أخر أمرهم عن أمر أبى لبابة وأصحابه حيث لم يقبل معذرتهم مثل أولئك و لا ردت ولم يقطع فى شأنهم بشىء الى أن نزل فيهم الوحى وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وقرىء خلفوا أى خلفوا الغازين بالمدينة أوفسدوا من الخالفة وخلوف الفم وقرىء على المخلفين والأول هو الأنسب لان قوله تعالى ﴿حتى اذا ضاقت عليهم الأرض﴾ غاية للتخليف و لا يناسبه الا المعنى الأول أى خلفوا وأخر أمرهم الى أن ضاقت عليهم الارض ﴿بما رحبت﴾ أى برحبها وسعتها لاعراض الناس عنهم وانقطاعهم عن مفاوضتهم وهو مثل لشدة الحيرة كأنه لا يستقر به قرار و لا تطمئن له دار ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ أى اذا رجعوا الى أنفسهم لا يطمئنون بشىء لعدم الانس والسرور واستيلاء الوحشة والحيرة ﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه﴾ أى علموا أنه لا ملجأ من سخطه تعالى الا الى استغفاره ﴿ثم تاب عليهم﴾ أى وفقهم للتوبة ﴿ليتوبوا﴾ أو أنزل قبول توبتهم ليصيروا من جملة التوابين أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم ﴿ان الله هو التواب﴾ المبالغ فى قبول التوبة كما وكيفا وان كثرت الجنايات وعظمت ﴿الرحيم﴾ المتفضل عليهم بفنون الآلاء مع استحقاقهم لأفانين العقاب . روى أن ناسا من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم من بدا له و كره مكانه فلحق به عليه الصلاة والسلام . عن الحسن رضى الله عنه أنه قال بلغنى أنه كان لاحدهم حائط كان خيرا من مائة ألف درهم فقال يا حائطاه ما خلفنى الا ظلك وانتظار ثمارك اذهب فأنت فى سبيل الله ولم يكن لآخر الا أهله فقال يا أهلاه ما بطأنى و لا خلفنى الا الفتن بك فلا جرم والله لأكابدن الشدائد حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فتأبط زاده ولحق به عليه الصلاة والسلام قال الحسن رضى الله عنه كذلك والله المؤمن يتوب من ذنوبه و لا يصر عليها وعن أبى ذر الغفارى أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشيا فقال عليه الصلاة والسلام لما رأى سواده كن أبا ذر فقال الناس هو ذاك فقال عليه الصلاة والسلام رحم الله أبا ذر يمشى وحده و يموت وحده و يبعث وحده وعن أبى خيثمة أنه بلغ بستانه و كانت له امرأة حسناء فرشت له فى الظل و بسطت له الحصير وقربت اليه الرطب والماء البارد فنظر فقال ظل ظليل و رطب يانع وماء بارد وامرأة حسناء و رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضح والريح ما هذا بخير فقام و رحل ناقته وأخذ سيفه و رمحه ومر كالريح فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه الى الطريق فاذا براكب يزهاه السراب فقال كن أبا خيثمة فكانه ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم

واستغفر له ومنهم من بقى لم يلحق به عليه الصلاة والسلام منهم الثلاثه . قال كعب رضى الله عنه لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فرد على كالمغضب بعد ما ذكرنى وقال ياليت شعرى ما خلف كعبا فقيل له ما خلفه الاحسن برديه والنظر فى عطفيه فقال عليه الصلاة والسلام ما أعلم الا فضلا واسلاما ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهن فلما تمت خمسون ليلة اذا أنا بنداء من ذروة سلع أبشر يا كعب بن مالك فخررت لله ساجدا وكنت كما وصفنى ربى وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وتتابعت البشارة فلبست ثوبى وانطلقت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو جالس فى المسجد وحوله المسلمون فقام الى طلحة بن عبيدالله يهرول الى حتى صافحنى وقال لتهنك توبة الله عليك فلن أنساها لطلحة رضى الله عنه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر أبشر يا كعب بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ثم تلا علينا الآية وعن أبى بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ خطاب عام يندرج فيه التائبون اندراجا أوليا وقيل لمن تخلف عليه من الطلقاء عن غزوة تبوك خاصة ﴿ اتقوا الله ﴾ فى كل ما تأتون وما تذرون فيدخل فيه المعاملة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر المغازى دخولا أوليا ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ فى أيمانهم وعهودهم أو فى دين الله نية وقولا وعملا أو فى كل شأن من الشئون فيدخل ما ذكر أو فى توبتهم وانابتهم فيكون المراد بهم حينئذ هؤلاء الثلاثة وأضرابهم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه خطاب لمن آمن من أهل الكتاب أى كونوا مع المهاجرين والأنصار وانتظموا فى سلكهم فى الصدق وسائر المحاسن وقرئ من الصادقين ﴿ ما كان لأهل المدينة ﴾ ماصح وما استقام لهم ﴿ ومن حولهم من الأعراب ﴾ كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأضرابهم ﴿ أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ عند توجهه عليه الصلاة والسلام الى الغزو ﴿ ولا يرغبوا ﴾ نصب وقد جوز الجزم ﴿ بأنفسهم عن نفسه ﴾ أى لا يصرفوها عن نفسه الكريمة ولا يصونوها عما لم يصن عنه نفسه بل يكابدوا معه ما يكابده من الاهوال والخطوب والكلام فى معنى النهى وان كان على صورة الخبر ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى مادل عليه الكلام من وجوب المشايعة ﴿ بأنهم ﴾ بسبب أنهم ﴿ لا يصيبهم ظمأ ﴾ أى عطش يسير ﴿ ولا نصب ﴾ ولا تعب ما ﴿ ولا مخمصة ﴾ أى مجاعة ما لا يستباح عنده المحرمات من مراتبها فان الظمأ والنصب اليسيرين حين لم يخلوا من الثواب فلأن لا يخلو ذلك منه أولى فلا حاجة الى تأكيد النفى بتكرير كلمة لا ويجوز أن يراد بها تلك المرتبة ويكون الترتيب بناء على كثرة الوقوع وقلته فان الظمأ أكثر وقوعا من النصب الذى هو أكثر وقوعا من المخمصة بالمعنى المذكور فتوسيط كلمة لا حينئذ ليس لتأكيد النفى بل للدلالة على استقلال كل واحد منها بالفضيلة والاعتداد به ﴿ فى سبيل الله ﴾ واعلاء كلمته ﴿ ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار ﴾ أى لا يدوسون بأرجلهم وحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم دوسا أو مكانا يداس ﴿ ولا ينالون من عدو نيلا ﴾ مصدر كالقتل والأسر والنهب أو مفعول أى شيئا ينال من قبلهم ﴿ الا كتب لهم به ﴾ أى بكل واحد من الأمور المعدودة ﴿ عمل صالح ﴾ وحسنة مقبولة مستوجبة بحكم الوعد الكريم للثواب الجميل ونيل الزلفى والتنوين للتفخيم وكون المكتوب عين ما فعلوه من الأمور لا يمنع دخول الباء فان اختلاف العنوان كاف فى ذلك ﴿ ان الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ على احسانهم تعليل لما سلف من الكتب والمراد بالمحسنين اما المبحوث عنهم ووضع المظهر موضع المضمر لمدحهم والشهادة عليهم بالانتظام فى سلك المحسنين وأن أعمالهم من قبيل الاحسان وللاشعار بعلية المأخذ للحكم واما جنس المحسنين وهم داخلون فيه دخولا أوليا ﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ﴾ ولو تمرة أو علاقة سوط ﴿ ولا كبيرة ﴾ كما أنفق عثمان رضى الله عنه

والترتيب باعتبار ما ذكر من كثرة الوقوع وقلته وتوسيط لا للتنصيص على استبداد كل منهما بالكتب والجزاء لا لتأكيد النفي كما في قوله عز وجل ﴿ولا يقطعون﴾ أي لا يجتازون في مسيرهم ﴿واديا﴾ وهو في الاصل كل منفرج من الجبال والآكام يكون منفذا للسيل اسم فاعل من ودى اذا سال ثم شاع في الأرض على الاطلاق ﴿الا كتب لهم﴾ أي أثبت لهم ذلك الذي فعلوه من الانفاق والقطع ﴿ليجزيهم الله﴾ بذلك ﴿أحسن ما كانوا يعملون﴾ أحسن جزاء أعمالهم أو جزاء أحسن أعمالهم ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ أي ما صح وما استقام لهم أن ينفروا جميعا لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم أن يتثبطوا جميعا فان ذلك مخل بأمر المعاش ﴿فلولا نفر﴾ فهلا نفر ﴿من كل فرقة﴾ أي طائفة كثيرة ﴿منهم﴾ كأهل بلدة أو قبيلة عظيمة ﴿طائفة﴾ أي جماعة قليلة ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ أي يتكلفوا الفقاهة فيه ويتجشموا مشاق تحصيلها ﴿ولينذروا قومهم﴾ أي وليجعلوا غاية سعيهم ومرمى غرضهم من ذلك ارشاد القوم وانذارهم ﴿اذا رجعوا اليهم﴾ وتخصيصه بالذكر لأنه أهم وفيه دليل على أن التفقه في الدين من فروض الكفاية وأن يكون غرض المتعلم الاستقامة والاقامة لا الترفع على العباد والتبسط في البلاد كما هو ديدن أبناء الزمان والله المستعان ﴿لعلهم يحذرون﴾ ارادة أن يحذروا عما ينذرون واستدل به على أن أخبار الآحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضي أن ينفر من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفة الى التفقه لتنذر فرقتها كي يتذكروا ويحذروا فلو لم يعتبر الاخبار ما لم يتواتر لم يفد ذلك وقد قيل للآية وجه آخر وهو أن المؤمنين لما سمعوا ما نزل في المتخلفين سارعوا الى النفير رغبة ورهبة وانقطعوا عن التفقه فأمروا أن ينفر من كل فرقة طائفة الى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطع الفقه الذي هو الجهاد الأكبر لأن الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة فالضمير في ليتفقهوا ولينذروا لبواقي الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو وفي رجعوا للطوائف أي ولينذر البواقي قومهم النافرين اذا رجعوا اليهم بما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ أمروا بقتال الأقرب منهم فالأقرب كما أمر عليه الصلاة والسلام أولا بانذار عشيرته فان الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح قيل هم اليهود حوالي المدينة كبني قريظة والنضير وخيبر وقيل الروم فانهم كانوا يسكنون الشام وهو قريب من المدينة بالنسبة الى العراق وغيره ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾ أي شدة وصبرا على القتال وقرئ بفتح الغين كسخطة وبضمها وهما لغتان فيها ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ بالعصمة والنصرة والمراد بهم اما المخاطبون ووضع الظاهر موضع الضمير للتنصيص على أن الايمان والقتال على الوجه المذكور من باب التقوى والشهادة بكونهم من زمرة المتقين واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والمراد بالمعية الولاية الدائمة وقد ذكر وجه دخول مع على المتبوع في قوله تعالى ان الله معنا ﴿واذا ما أنزلت سورة﴾ من سور القرآن ﴿فمنهم﴾ أي من المنافقين ﴿من يقول﴾ لاخوانه ليثبتهم على النفاق أو لعوام المؤمنين وضعفتهم ليصدهم عن الايمان ﴿أيكم زادته هذه﴾ السورة ﴿ايمانا﴾ وقرئ بنصب أيكم على تقدير فعل يفسره المذكور أي أيكم زادت زادته هذه الخ وايراد الزيادة مع أنه لا ايمان فيهم أصلا باعتبار اعتقاد المؤمنين حسبما نطق به قوله تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ﴿فأما الذين آمنوا﴾ جواب من جهته سبحانه وتحقيق للحق وتعيين لحالهم عاجلا وآجلا أي فأما الذين آمنوا بالله تعالى وبما جاء من عنده ﴿فزادتهم ايمانا﴾ بزيادة العلم اليقيني الحاصل من التدبر فيها والوقوف على ما فيها من الحقائق وانضمام ايمانهم بما فيها بايمانهم السابق ﴿وهم يستبشرون﴾ بنزولها وبما فيه من المنافع الدينية والدنيوية ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ أي كفر وسوء عقيدة ﴿فزادتهم رجسا الى رجسهم﴾ أي كفرا بها مضموما الى الكفر بغيرها وعقائد باطلة وأخلاقا ذميمة كذلك ﴿وماتوا

وهم كافرون ﴾ واستحكم ذلك الى أن يموتوا عليه ﴿ أولا يرون ﴾ الهمزة للانكار والتوبيخ والواو للعطف على مقدر أى ألاينظرون ولايرون ﴿ أنهم ﴾ أى المنافقين ﴿ يفتنون فى كل عام ﴾ من الاعوام ﴿ مرة أو مرتين ﴾ والمراد مجرد التكثير لابيان الوقوع حسب العدد المزبور أى يبتلون بأفانين البليات من المرض والشدة وغير ذلك مما يذكر الذنوب والوقوف بين يدى رب العزة فيؤدى الى الايمان به تعالى أو بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعاينون ماينزل عليه من الآيات لاسيما القوارع الزائدة للايمان الناعية عليهم ما فيهم من القبائح المخزية لهم ﴿ ثم لايتوبون ﴾ عطف على لا يرون داخل تحت الانكار والتوبيخ وكذا قوله تعالى ﴿ ولاهم يذكرون ﴾ والمعنى أولا يرون افتتانهم الموجب لايمانهم ثم لا يتوبون عماهم عليه من النفاق ولا هم يتذكرون بتلك الفتن الموجبة للتذكر والتوبة وقرىء بالتاء والخطاب للمؤمنين والهمزة للتعجيب أى ألا تنظرون ولا ترون أحوالهم العجيبة التى هى افتتانهم على وجه التتابع وعدم التنبه لذلك فقوله تعالى ثم لا يتوبون وما عطف عليه معطوف على يفتنون ﴿ واذا ما أنزلت سورة ﴾ بيان لأحوالهم عند نزولها وهم فى محفل تبليغ الوحى كما أن الاول بيان لمقالاتهم وهم غائبون عنه ﴿ نظر بعضهم الى بعض ﴾ تغامزوا بالعيون انكارا لها أوسخرية بها أو غيظا لما فيها من مخازيهم ﴿ هل يراكم من أحد ﴾ أى قائلين هل يراكم أحد من المسلمين لننصرف مظهرين أنهم لا يصطبرون على استماعها ويغلب عليهم الضحك فيفتضحون أو ترامقوا يتشاورون فى تدبير الخروج والانسلال لواذا يقولون هل يراكم من أحد ان قمتم من المجلس وايراد ضمير الخطاب لبعث المخاطبين على الجد فى انتهاز الفرصة فان المرء بشأنه أكثر اهتماما منه بشأن أصحابه كما فى قوله تعالى وليتلطف ولايشعرن بكم أحدا وقيل المعنى واذا ما أنزلت سورة فى عيوب المنافقين ﴿ ثم انصرفوا ﴾ عطف على نظر بعضهم والتراخى باعتبار وجدان الفرصة والوقوف على عدم رؤية أحد من المؤمنين أى انصرفوا جميعا عن محفل الوحى خوفا من الافتضاح أو غير ذلك ﴿ صرف الله قلوبهم ﴾ أى عن الايمان حسب انصرافهم عن المجلس والجملة اخبارية أودعائية ﴿ بأنهم ﴾ أى بسبب أنهم ﴿ قوم لايفقهون ﴾ لسوء الفهم أو لعدم التدبر ﴿ لقد جاءكم ﴾ الخطاب للعرب ﴿ رسول ﴾ أى رسول عظيم الشأن ﴿ من أنفسكم ﴾ من جنسكم عربى قرشى مثلكم وقرىء بفتح الفاء أى أشرفكم وأفضلكم ﴿ عزيز عليه ماعنتم ﴾ أى شاق شديد عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع فى العذاب وهذا من نتائج ماسلف من المجانسة ﴿ حريص عليكم ﴾ فى ايمانكم وصلاح حالكم ﴿ بالمؤمنين ﴾ منكم ومن غيركم ﴿ رؤف رحيم ﴾ قدم الأبلغ منهما وهى الرأفة التى هى عبارة عن شدة الرحمة محافظة على الفواصل ﴿ فان تولوا ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى النبى صلى الله عليه وسلم تسلية له أى ان أعرضوا عن الايمان بك ﴿ فقل حسبى الله ﴾ فانه يكفيك ويعينك عليهم ﴿ لااله الا هو ﴾ استئناف مقرر لمضمون ماقبله ﴿ عليه توكلت ﴾ فلا أرجو ولا أخاف الا منه ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ أى الملك العظيم أو الجسم الأعظم المحيط الذى تنزل منه الأحكام والمقادير وقرىء العظيم بالرفع وعن أبى أن آخر مانزل هاتان الآيتان . وعن النبى صلى الله عليه وسلم مانزل القرآن على الا آية آية وحرفا حرفا ماخلا سورة براءة وسورة قل هو الله أحد فانهما أنزلتا على ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة

سورة يونس عليه السلام

(مكية وآيها مائة وتسع آيات)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الر﴾ بتفخيم الراء المفتوحة وقرئ بالامالة اجراء للأصلية مجرى المنقلبة عن الياء وقرئ بين بين وهو اما مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى على أحد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الاعراب واما اسم للسورة كما عليه اطباق الأكثر فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أى هذه السورة مسماة بالر وهو أظهر من الرفع على الابتداء لعدم سبق العلم بالتسمية بعد فحقها الاخبار بها لاجعلها عنوان الموضوع لتوقفه على علم المخاطب بالانتساب كما مر . والاشارة اليها قبل جريان ذكرها لما أنها باعتبار كونها على جناح الذكر و بصدده صارت فى حكم الحاضر كما يقال هذا ما اشترى فلان أو النصب بتقدير فعل لائق بالمقام نحو اذكر أو اقرأ وكلمة ﴿تلك﴾ اشارة اليها أما على تقدير كون الر مسرودة على نمط التعديد فقد نزل حضور مادتها التى هى الحروف المذكورة منزلة ذكرها فأشير اليها كأنه قيل هذه الكلمات المؤلفة من جنس هذه الحروف المبسوطة الخ وأما على تقدير كونه اسما للسورة فقد نوهت بالاشارة اليها بعد تنويهها بتعيين اسمها أو الأمر بذكرها أو بقراءتها ومافى اسم الاشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتها فى الفخامة ومحله الرفع على أنه مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿آيات الكتاب﴾ وعلى تقدير كون الر مبتدأ فهو مبتدأ ثان أو بدل من الأول والمعنى هى آيات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل والمقصود ببيان بعضيتها منه وصفها بما اشتهر اتصافه به من النعوت الفاضلة والصفات الكاملة والمراد بالكتاب اما جميع القرآن العظيم وان لم ينزل الكل حينئذ اما باعتبار تعينه وتحققه فى علم الله عز وعلا أو فى اللوح أو باعتبار أنه أنزل جملة الى السماء الدنيا كما هو المشهور فان فاتحة الكتاب كانت مسماة بهذا الاسم وبأم القرآن فى عهد النبوة ولما يحصل المجموع الشخصى اذ ذاك فلا بد من ملاحظة كل من الكتاب والقرآن بأحد الاعتبارات المذكورة واما جميع القرآن النازل وقتئذ المتفاهم بين الناس اذ ذاك فانه كما يطلق على المجموع الشخصى يطلق على مجموع مانزل فى كل عصر ألا يرى الى ماروى عن جابر رضى الله عنه أنه قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أحد فى ثوب واحد ثم يقول أيهم أكثر أخذاً للقرآن فاذا أشير له الى أحدهما قدمه فى اللحد فان مايفهمه الناس من القرآن فى ذلك الوقت و يحافظون على التفاوت فى أخذه انما هو المجموع النازل حينئذ من غير ملاحظة لتحقق المجموع الشخصى فى علم الله سبحانه أو فى اللوح و لالنزوله جملة الى السماء الدنيا ﴿الحكيم﴾ ذى الحكمة وصف به لاشتماله على فنون الحكم الباهرة ونطقه بها أو هو من باب وصف الكلام بصفة صاحبه أو من باب الاستعارة المكنية المبنية على تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة هذا وقد جعل الكتاب عبارة عن نفس السورة وكلمة تلك اشارة الى مافى ضمنها من الآى فانها فى حكم الحاضر لاسيما بعد ذكر مايتضمنها من السورة عند بيان اسمها أو الأمر بذكرها أو بقراءتها وينبغى أن يكون المشار اليه حينئذ كل واحدة منها لاجميعها من حيث هو جميع لأنه عين السورة فلا يكون للاضافة وجه ولا لتخصيص الوصف بالمضاف اليه حكمة فلا يتأتى ماقصد من مدح المضاف بما للمضاف اليه من صفات الكمال و لأن فى بيان اتصاف كل منها بالكمال من المبالغة ماليس فى بيان اتصاف الكل بذلك والمتبادر من الكتاب عند الاطلاق وان كان كله بأحد الوجهين المذكورين لكن صحة اطلاقه على بعضه أيضا مما لاريب فيها والمعهود المشهور وان كان اتصاف الكل بأحد الاعتبارين

بما ذكر من نعوت الكمال الا أن شهرة اتصاف كل سورة منه بما اتصف به الكل مما لا ينكر وعليه يدور تحقق مدح السورة بكونها بعضا من القرآن الكريم اذ لولا أن بعضه منعوت بنعت كله داخل تحت حكمه لما تسنى ذلك وفيه مالا يخفى من التكلف والتعسف ﴿أكان للناس عجبا﴾ الهمزة لانكار تعجبهم ولتعجب السامعين منه لكونه فى غير محله والمراد بالناس كفار مكة وانما عبر عنهم باسم الجنس من غير تعرض لكفرهم مع أنه المدار لتعجبهم كما تعرض له فى قوله عز وجل قال الكافرون الخ لتحقيق مافيه الشركة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعيين مدار التعجب فى زعمهم ثم تبيين خطئهم واظهار بطلان زعمهم بايراد الانكار والتعجيب واللام متعلقة بمحذوف وقع حالا من عجبا وقيل بعجبا على التوسع المشهور فى الظروف وقيل المصدر اذا كان بمعنى اسم الفاعل أو اسم المفعول جاز تقديم معموله عليه وقيل متعلقة بكان وهو مبنى على دلالة كان الناقصة على الحدث ﴿أن أوحينا﴾ اسم كان قدم عليه خبرها اهتماما بشأنه لكونه مدار الانكار والتعجيب وتشويقا الى المؤخر ولأن فى الاسم ضرب تفصيل ففى مراعاة الأصل نوع اخلال بتجاوب أطراف الكلام وقرىء برفع عجب على أنه الاسم وهو نكرة والخبر أن أوحينا وهو معرفة لأن أن مع الفعل فى تأويل المصدر المضاف الى المعرفة البتة والمختار حينئذ أن تجعل كان تامة وأن أوحينا متعلقا بعجب على حذف حرف التعليل أى أحدث للناس عجب لأن أوحينا أو من أن أوحينا أو بدلا من عجب لكن لا على توجيه الانكار والتعجيب الى حدوثه بل الى كونه عجبا فان كون الابدال فى حكم تنحية المبدل منه ليس معناه اهداره بالمرة وانما قيل للناس لا عند الناس للدلالة على أنهم اتخذوه أعجوبة لهم وفيه من زيادة تقبيح حالهم مالا يخفى ﴿الى رجل منهم﴾ أى الى بشر من جنسهم كقولهم أبعث الله بشرا رسولا أو من أفنائهم من حيث المال لا من عظمائهم كقولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وكلا الوجهين من ظهور البطلان بحيث لا مزيد عليه . أما الأول فلأن بعث الملك انما يكون عند كون المبعوث اليهم ملائكة كما قال سبحانه قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية كيف لا وهى منوطة بالتناسب والتجانس فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وانما الذى تقتضيه الحكمة أن يبعث الملك من بينهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا الى جانب . وأما الثانى فلما أن مناط الاصطفاء للنبوة والرسالة هو التقدم فى الاتصاف بما ذكر من النعوت الجميلة والصفات الجليلة والسبق فى احراز الفضائل العلية وحيازة الملكات السنية جبلة واكتسابا ولا ريب لاحد منهم فى أنه عليه الصلاة والسلام فى ذلك الشأن فى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية وأما التقدم فى الرياسات الدنيوية والسبق فى نيل الحظوظ الدنية فلا دخل له فى ذلك قطعا بل له اخلال به غالبا قال عليه الصلاة والسلام لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء ﴿أن أنذر الناس﴾ أن مصدرية لجواز كون صلتها أمرا كما فى قوله تعالى وأن أقم وجهك وذلك لان الخبر والانشاء فى الدلالة على المصدر سيان فساغ وقوع الأمر والنهى صلة حسب وقوع الفعل فليجرد عند ذلك عن معنى الأمر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال ووجوب كون الصلة فى الموصول الاسمى خبرية انما هو للتوصل بها الى وصف المعارف بالجمل لا لقصور فى دلالة الانشاء على المصدر أو مفسرة اذ الايحاء فيه معنى القول وقد جوز كونها مخففة من المثقلة على حذف ضمير الشأن والقول من الخبر والمعنى أن الشأن قولنا أنذر الناس والمراد به جميع الناس كافة لاما أريد بالأول وهو النكتة فى ايثار الاظهار على الاضمار وكون الثانى عين الأول عند اعادة المعرفة ليس على الاطلاق ﴿وبشر الذين آمنوا﴾ بما أوحيناه

وصدقوه ﴿أن لهم﴾ أى بأن لهم ﴿قدم صدق﴾ أى سابقة ومنزلة رفيعة ﴿عند ربهم﴾ وانما عبر عنها بها اذ بها يحصل السبق والوصول الى المنازل الرفيعة كما يعبر عن النعمة باليد لانها تعطى بها وقيل مقام صدق والوجه أن الوصول الى المقام انما يحصل بالقدم واضافتها الى الصدق للدلالة على تحققها وثباتها وللتنبيه على أن مدار نيل ما نالوه من المراتب العلية هو صدقهم فان التصديق لاينفك عن الصدق ﴿قال الكافرون﴾ هم المتعجبون وايرادهم ههنا بعنوان الكفر بما لاحاجة الى ذكر سببه وترك العاطف لجريانه مجرى البيان للجملة التى دخلت عليها همزة الانكار أو لكونه استئنافا مبنيا على السؤال كأنه قيل ماذا صنعوا بعد التعجب هل بقوا على التردد والاستبعاد أو قطعوا فيه بشىء فقيل قال الكافرون على طريقة التأكيد ﴿ان هذا﴾ يعنون به ماأوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن الحكيم المنطوى على الانذار والتبشير ﴿لسحر مبين﴾ أى ظاهر وقرىء لساحر على أن الاشارة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء ماهذا الاسحر مبين وهذا اعتراف من حيث لايشعرون بأن ماعاينوه خارج عن طوق البشر نازل من جناب خلاق القوى والقدر ولكنهم سموه بما قالوا تماديا فى العناد كما هو ديدن المكابر اللجوج ودأب المفحم المحجوج ﴿ان ربكم﴾ كلام مستأنف سيق لاظهار بطلان تعجبهم المذكور ومابنوا عليه من المقالة الباطلة غب الاشارة اليه بالانكار والتعجيب وحقق فيه حقية ماتعجبوا منه وصحة ماأنكروه بالتنبيه الاجمالى على بعض مايدل عليها من شئون الخلق والتقدير وأحوال التكوين والتدبير ويرشدهم الى معرفتها بأدنى تذكير لاعترافهم به من غير نكير لقوله تعالى قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون وقوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض الى قوله تعالى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله أى ان ربكم ومالك أمركم الذى تتعجبون من أن يرسل اليكم رجلا منكم بالانذار والتبشير وتعدون ماأوحى اليه من الكتاب الحكيم سحرا هو ﴿الله الذى خلق السموات والارض﴾ ومافيهما من أصول الكائنات ﴿فى ستة أيام﴾ أى فى ستة أوقات أو فى مقدار ستة أيام معهودة فان نفس اليوم الذى هو عبارة عن زمان كون الشمس فوق الارض مما لايتصور تحققه حين لا أرض ولا سماء وفى خلقها مدرجا مع القدرة التامة على ابداعها دفعة دليل على الاختيار واعتبار للنظار وحث لهم على التأنى فى الاحوال والاطوار وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فأمر قد استأثر بعلم مايستدعيه علام الغيوب جلت قدرته ودقت حكمته وايثار صيغة الجمع فى السموات لما هو المشهور من الايذان بأنها أجرام مختلفة الطباع متباينة الآثار والاحكام ﴿ثم استوى على العرش﴾ العرش هو الجسم المحيط بسائر الأجسام سمى به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك فان الأوامر والتدابير منه تنزل وقيل هو الملك ومعنى استوائه سبحانه عليه استيلاؤه عليه أو استواء أمره وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة له سبحانه بلا كيف والمعنى أنه سبحانه استوى على العرش على الوجه الذى عناه منزها عن التمكن والاستقرار وهذا بيان لجلالة ملكه وسلطانه بعد بيان عظمة شأنه وسعة قدرته بما مر من خلق هاتيك الاجرام العظام ﴿يدبر الأمر﴾ التدبير النظر فى أدبار الامور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود والمراد ههنا التقدير على الوجه الأتم الاكمل والمراد بالامر أمر ملكوت السموات والارض والعرش وغير ذلك من الجزئيات الحادثة شيئا فشيئا على أطوار شتى وأنحاء لاتكاد تحصى من المناسبات والمباينات فى الذوات والصفات والازمنة والاوقات أى يقدر ما ذكر من أمر الكائنات الذى ما تعجبوا منه من أمر البعث والوحى فرد من جملته وشعبة من دوحته ويهيىء أسباب كل منها حدوثا وبقاء فى أوقاتها المعينة ويرتب مصالحها على الوجه الفائق والنمط اللائق حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير استوى وقد جوز كونها خبرا ثانيا لان أو مستأنفة لا محل لها من الاعراب مبنية على سؤال نشأ من ذكر الاستواء على العرش المنبىء

عن اجراء أحكام الملك وعلى كل حال فايثار صيغة المضارع للدلالة على تجدد التدبير واستمراره وقوله عز وجل ﴿ ما من شفيع ﴾ بيان لاستبداده سبحانه فى التقدير والتدبير ونفى للشفاعة على أبلغ الوجوه فان نفى جميع أفراد الشفيع بمن الاستغراقية يستلزم نفى الشفاعة على أتم الوجوه كما فى قوله تعالى لا عاصم اليوم من أمر الله وهذا بعد قوله تعالى يدبر الامر جار مجرى قوله تعالى وهو يجير ولا يجار عليه عقيب قوله تعالى قل من بيده ملكوت كل شىء وقوله تعالى ﴿ الا من بعد اذنه ﴾ استثناء مفرغ من أعم الاوقات أى ما من شفيع يشفع لاحد فى وقت من الاوقات الا بعد اذنه المبنى على الحكمة الباهرة وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الاخيار والمشفوع له ممن يليق بالشفاعة كقوله تعالى يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا وفيه من الدلالة على عظمة جلاله سبحانه ما لا يخفى ﴿ ذلكم ﴾ اشارة الى المعلوم بتلك العظمة أى ذلكم العظيم الشأن المنعوت بما ذكر من نعوت الكمال التى عليها يدور استحقاق الالوهية ﴿ الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ ربكم ﴾ بيان له أو بدل منه أو خبر ثان لاسم الاشارة وهذا بعد بيان أن ربهم الله الذى خلق السموات والارض الخ لزيادة التقرير والمبالغة فى التذكير ولتفريع الامر بالعبادة عليه بقوله تعالى ﴿ فاعبدوه ﴾ أى وحدوه من غير أن تشركوا به شيئا من ملك أو نبى فضلا عن جماد لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وآمنوا بما أنزله اليكم ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى أتعلمون أن الامر كما فصل فلا تتذكرون ذلك حتى تقفوا على فساد ما أنتم عليه فترتدعوا عنه ﴿ اليه ﴾ لا الى أحد سواه استقلالا أو اشتراكا ﴿ مرجعكم ﴾ أى بالبعث كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ جميعا ﴾ فانه حال من الضمير المجرور لكونه فاعلا فى المعنى أى اليه رجوعكم مجتمعين والجملة كالتعليل لوجوب العبادة ﴿ وعد الله ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن قوله عز وجل اليه مرجعكم وعد منه سبحانه بالبعث أو لفعل مقدر أى وعد الله وأياما كان فهو دليل على أن المراد بالمرجع هو الرجوع بالبعث لأن ما بالموت بمعزل من الوعد كما أنه بمعزل من الاجتماع وقرىء بصيغة الفعل ﴿ حقا ﴾ مصدر آخر مؤكد لما دل عليه الأول ﴿ انه يبدأ الخلق ﴾ وقرىء يبدىء ﴿ ثم يعيده ﴾ وهو استئناف علل به وجوب المرجع اليه سبحانه وتعالى فان غاية البدء والاعادة هو جزاء المكلفين بأعمالهم حسنة أو سيئة وقرىء بالفتح أى لانه ويجوز كونه منصوبا بما نصب وعد الله أى وعد الله وعدا بدء الخلق ثم اعادته ومرفوعا بما نصب حقا أى حق حقا بدء الخلق الخ ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ أى بالعدل وهو حال من فاعل يجزى أى ملتبسا بالعدل أو متعلق بيجزى أى ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم وانما أجمل ذلك ايذانا بأنه لا يفى به الحصر أو بقسطهم وعدلهم عند ايمانهم ومباشرتهم للاعمال الصالحة وهو الانسب بقوله عز وجل ﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ فان معناه ويجزى الذين كفروا بسبب كفرهم وتكرير الاسناد بجعل الجملة الظرفية خبرا للموصول لتقوية الحكم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على مواظبتهم على الكفر وتغيير النظم الكريم للايذان بكمال استحقاقهم للعقاب وأن التعذيب بمعزل عن الانتظام فى سلك العلة الغائية للخلق بدءا واعادة وانما يحيق ذلك بالكفرة على موجب سوء اختيارهم وأما المقصود الاصلى من ذلك فهو الاثابة ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء ﴾ تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته بآثار صنعه فى النيرين بعد التنبيه على الاستدلال بما مر من ابداع السموات والارض والاستواء على العرش وغير ذلك وبيان لبعض أفراد التدبير الذى أشير اليه اشارة اجمالية وارشاد الى أنه حيث دبرت أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بالمعاد بارسال الرسول وانزال الكتاب وتبيين طرائق الهدى وتعيين مهاوي الردى أولى وأحرى والجعل ان جعل بمعنى الانشاء والابداع فضياء حال من مفعوله أى خلقها حال كونها

ذات ضياء على حذف المضاف أو ضياء محضا للمبالغة وان جعل بمعنى التصيير فهو مفعوله الثانى أى جعلها ضياء على أحد الوجهين المذكورين لكن لابعد أن كانت خالية عن تلك الحالة بل أبدعها كذلك كما فى قولهم ضيق فم الركية و وسع أسفلها والضياء مصدر كقيام أوجمع ضوء كسياط وسوط و ياؤه منقلبة من الواو لانكسار ماقبلها وقرىء ضئاء بهمزتين بينهما ألف بتقديم اللام على العين ﴿والقمر نورا﴾ الكلام فيه كالكلام فى الشمس والضياء أقوى من النور وقيل ما بالذات ضوء وما بالعرض نور ففيه اشعار بأن نوره مستفاد من الشمس ﴿وقدره﴾ أى قدر له وهيأ ﴿منازل﴾ أو قدر مسيره فى منازل أو قدره ذا منازل على تضمين التقدير معنى التصيير وتخصيص القمر بهذا التقدير لسرعة سيره ومعاينة منازله وتعلق أحكام الشريعة به و كونه عمدة فى تواريخ العرب وقد جعل الضمير لكل منهما وهى ثمانية وعشرون منزلا ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها لايتخطاه و لايتقاصر عنه على تقدير مستو لايتفاوت يسير فيها من ليلة المستهل الى الثامنة والعشرين فاذا كان فى آخر منازله دق واستقوس ثم يستتر ليلتين أو ليلة اذا نقص الشهر و يكون مقام الشمس فى كل منزلة منها ثلاثة عشر يوما وهذه المنازل هى مواقع النجوم التى نسبت اليها العرب الانواء المستمطرة وهى الشرطان والبطين والثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العواء السماك الغفر الزبانى الاكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الأخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا وهو بطن الحوت ﴿لتعلموا﴾ اما بتعاقب الليل والنهار المنوطين بطلوع الشمس وغروبها أو باعتبار نزول كل منهما فى تلك المنازل ﴿عدد السنين﴾ التى يتعلق بها غرض على لاقامة مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿والحساب﴾ أى حساب الاوقات من الاشهر والايام والليالى وغير ذلك مما نيط به شىء من المصالح المذكورة وتخصيص العدد بالسنين والحساب بالاوقات لما أنه لم يعتبر فى السنين المعدودة معنى مغاير لمراتب الاعداد كما اعتبر فى الاوقات المحسوبة وتحقيقه أن الحساب احصاء ماله كمية انفصالية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل كالسنة المتحصلة من اثنى عشر شهرا قد تحصل كل من ذلك من ثلاثين يوما قد تحصل كل من ذلك من أربع وعشرين ساعة مثلا والعد مجرد احصائه بتكرير أمثاله من غير اعتبار أن يتحصل بذلك شىء كذلك ولما لم يعتبر فى السنين المعدودة تحصل حد معين له اسم خاص غير أسامى مراتب الاعداد وحكم مستقل أضيف اليها العدد وتحصل مراتب الاعداد من العشرات والمئات والالوف اعتبارى لايجدى فى تحصل المعدود نفعا وحيث اعتبر فى الاوقات المحسوبة تحصل ماذكر من المراتب التى لها أسام خاصة وأحكام مستقلة علق بها الحساب المنبىء عن ذلك والسنة من حيث تحققها فى نفسها مما يتعلق به الحساب وانما الذى يتعلق به العد طائفة منها وتعلقه فى ضمن ذلك بكل واحدة من تلك الطائفة ليس من الحيثية المذكورة أعنى حيثية تحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد حصل كل منها بطائفة من الساعات فان ذلك وظيفة الحساب بل من حيث أنها فرد من تلك الطائفة المعدودة من غير أن يعتبر معها شىء غير ذلك وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجودا وعلما على العكس لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم اجمالى بما تعلق به الحساب تفصيلا وان لم تتحد الجهة أو لأن العدد من حيث أنه لم يعتبر فيه تحصل أمر آخر حسبما حقق آنفا نازل من الحساب الذى اعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب ﴿ماخلق الله ذلك﴾ أى ماذكر من الشمس والقمر على ماحكى من الاحوال وفيه ايذان بأن معنى جعلهما على تلك الاحوال والهيئات ليس الاخلقهما كذلك كما أشير اليه و لايقدح فى ذلك أن استفادة القمر النور من الشمس أمر حادث فان المراد بجعله نورا انما هو جعله بحيث يتصف بالنور عند وجود شرائط الاتصاف به بالفعل ﴿الا بالحق﴾ استثناء مفرغ من أعم أحوال الفاعل

أو المفعول أى ماخلق ذلك ملتبسا بشىء من الاشياء الاملتبسا بالحق مراعيا لمقتضى الحكمة البالغة أو مراعى فيه ذلك وهو ماأشير اليه اجمالا من العلم بأحوال السنين والاوقات المنوط به أمور معاملاتهم وعباداتهم ﴿ يفصل الآيات ﴾ أى الآيات التكوينية المذكورة أو جميع الآيات فيدخل فيها الآيات المذكورة دخولا أوليا أو يفصل الآيات التنزيلية المنبهة على ذلك وقرىء بنون العظمة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ الحكمة فى ابداع الكائنات فيستدلون بذلك على شئون مبدعها جل وعلا أو يعلمون مافى تضاعيف الآيات المنزلة فيؤمنون بها وتخصيص التفصيل بهم لانهم المنتفعون به ﴿ ان فى اختلاف الليل والنهار ﴾ تنبيه آخر اجمالى على ماذكر أى فى تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها التابعين لحركات السموات وسكون الارض أو فى تفاوتهما فى أنفسهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قربا و بعدا بحسب الازمنة أو فى اختلافهما وتفاوتهما بحسب الأمكنة امافى الطول والقصر فان البلاد القريبة من القطب الشمالى أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها واما فى أنفسهما فان كرية الارض تقتضى أن يكون بعض الاوقات فى بعض الاماكن ليلا و فى مقابله نهارا ﴿ وماخلق الله فى السموات والارض ﴾ من أصناف المصنوعات ﴿ لآيات ﴾ عظيمة أو كثيرة دالة على وجود الصانع تعالى ووحدته وكمال علمه وقدرته و بالغ حكمته التى من جملة مقتضياتها ما أنكروه من ارسال الرسول صلى الله عليه وسلم وانزال الكتاب والبعث والجزاء ﴿ لقوم يتقون ﴾ خصهم بذلك لأن الداعى الى النظر والتدبر انما هو تقوى الله تعالى والحذر من العاقبة فهم الواقفون على أن جميع المخلوقات آيات دون غيرهم وكأى من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴿ ان الذين لايرجون لقاءنا ﴾ بيان لمآل أمر من كفر بالبعث وأعرض عن البينات الدالة عليه بعد تحقيق أن مرجع الكل اليه تعالى وأنه يعيدهم بعدبدئهم للجزاء ثوابا وعقابا وتفصيل بعض الآيات الشاهدة بذلك والمراد بلقائه اما الرجوع اليه تعالى بالبعث أولقاء الحساب كما فى قوله عز وعلا انى ظننت أنى ملاق حسابيه وأياما كان ففيه مع الالتفات الى ضمير الجلالة من تهويل الأمر مالايخفى والمراد بعدم الرجاء عدم التوقع مطلقا المنتظم لعدم الامل وعدم الخوف فان عدمهما لايستدعى عدم اعتقاد وقوع المأمول والمخوف أى لايتوقعون الرجوع الينا أو لقاء حسابنا المؤدى اما الى حسن الثواب أو الى سوء العذاب فلا يأملون الأول واليه أشير بقوله عزوجل ﴿ ورضوا بالحيوة الدنيا ﴾ فانه منبىء عن ايثار الادنى الخسيس على الاعلى النفيس كقوله تعالى أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة و لايخافون الثانى واليه أشير بقوله تعالى ﴿ واطمأنوا بها ﴾ أى سكنوا فيها سكون من لابراح له منها آمنين من اعتراء المزعجات غير مخطرين ببالهم مايسوؤهم من عذابنا وقيل المراد بالرجاء معناه الحقيق و باللقاء حسن اللقاء أى لايأملون حسن لقائنا بالبعث والاحياء بالحياة الابدية ورضوا بدلا منها وبمافيها من فنون الكرامات السنية بالحياة الدنيا الدنية الفانية واطمأنوا بها أى سكنوا اليها مكبين عليها قاصرين مجامع هممهم على لذائذها وزخارفها من غير صارف يلويهم و لاعاطف يثنيهم وايثار الباء على كلمة الى المنبئة عن مجرد الوصول والانتهاء للايذان بتمام الملابسة ودوام المصاحبة والمؤانسة وحمل الرجاء على الخوف فقط يأباه كلمة الرضا بالحياة الدنيا فانها منبئة عما ذكر من ترك الأعلى وأخذ الأدنى واختيار صيغة الماضى فى الصلتين الاخيرتين للدلالة على التحقق والتقرر كما أن اختيار صيغة المستقبل فى الاولى للايذان باستمرار عدم الرجاء ﴿ والذين هم عن آياتنا ﴾ المفصلة فى صحائف الاكوان حسبما أشير الى بعضها أو آياتنا المنزلة المنبهة على الاستشهاد بها المتفقة معها فى الدلالة على حقية مالايرجونه من اللقاء المترتب على البعث وعلى بطلان مارضوا به واطمأنوا اليه من الحياة الدنيا ﴿ غافلون ﴾ لايتفكرون فيها أصلا وان نبهوا على ذلك وذكروا

بأنواع القوارع لانهماكهم فيما يصدهم عنها من الاحوال المعدودة وتكرير الموصول للتوسل به الى جعل صلته جملة اسمية منبئة عما هم عليه من استمرار الغفلة ودوامها وتنزيل التغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى ايذانا بمغايرة الوصف الاخير للاوصاف الاول واستقلاله باستتباع العذاب هذا وأما ماقيل من أن العطف اما لتغاير الوصفين والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأسا والانهماك فى الشهوات بحيث لايخطر ببالهم الآخرة أصلا واما لتغاير الفريقين والمراد بالاولين من أنكر البعث ولم يرد الا الحياة الدنيا وبالآخرين من ألهاه حب العاجل عن التأمل فى الآجل فكلام ناء عن السداد فتأمل ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ﴿مأواهم﴾ أى مسكنهم ومقرهم الذى لابراح لهم منه ﴿النار﴾ لاما اطمأنوا بها من الحياة الدنيا ونعيمها ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الاعمال القلبية المعدودة وما يستتبعه من أصناف المعاصى والسيئات أو بكسبهم اياها والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددى والباء متعلقة بمضمون الجملة الاخيرة الواقعة خبرا عن اسم الاشارة وهو مع خبره خبر لان فى قوله تعالى ان الذين لايرجون لقاءنا الخ ﴿ان الذين آمنوا﴾ أى فعلوا الايمان أو آمنوا بما يشهد به الآيات التى غفل عنها الغافلون أو بكل مايجب أن يؤمن به فيندرج فيه ذلك اندراجا أوليا ﴿وعملوا الصالحات﴾ أى الاعمال الصالحة فى أنفسها اللائقة بالايمان وانما ترك ذكر الموصوف لجريانها مجرى الاسماء ﴿يهديهم ربهم﴾ أوثر الالتفات تشريفا لهم باضافة الرب واشعارا بعلة الهداية ﴿بايمانهم﴾ أى يهديهم بسبب ايمانهم الى مأواهم ومقصدهم وهى الجنة وانما لم تذكر تعويلا على ظهورها وانسياق النفس اليها لاسيما بملاحظة ماسبق من بيان مأوى الكفرة وما اداهم اليه من أعمالهم السيئة ومشاهدة مالحق من التلويح والتصريح وفى النظم الكريم اشعار بأن مجرد الايمان والعمل الصالح لايكفى فى الوصول الى الجنة بل لابد بعد ذلك من الهداية الربانية وأن الكفر والمعاصى كافية فى دخول النار ثم انه لانزاع فى أن المراد بالايمان الذى جعل سببا لتلك الهداية هو ايمانهم الخاص المشفوع بالاعمال الصالحة لا الايمان المجرد عنها ولا ماهو أعم منهما الا أن ذلك بمعزل عن الدلالة على خلاف ماعليه أهل السنة والجماعة من أن الايمان الخالى عن العمل الصالح يفضى الى الجنة فى الجملة ولا يخلد صاحبه فى النار فان منطوق الآية الكريمة أن الايمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية الى الجنة وأما أن كل ماهو سبب لها يجب أن يكون كذلك فلا دلالة لها ولا لغيرها عليه قطعا كيف لا وقوله عز وجل الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون مناد بخلافه فان المراد بالظلم هو الشرك كما أطبق عليه المفسرون والمعنى لم يخلطوا ايمانهم بشرك ولئن حمل على ظاهره أيضا يدخل فى الاهتداء من آمن ولم يعمل صالحا ثم مات قبل أن يظلم بفعل حرام أو بترك واجب ﴿تجرى من تحتهم الأنهار﴾ أى بين أيديهم كقوله سبحانه وهذه الأنهار تجرى من تحتى أو تجرى وهم على سرر مرفوعة وأرائك مصفوفة والجملة مستأنفة أو خبر ثان لان أو حال من مفعول يهديهم على تقدير كونه المهدى اليه مايريدونه فى الجنة كما قيل وقيل يهديهم ويسددهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدى الى الثواب والجنة وقوله تجرى من تحتهم الانهار جار مجرى التفسير والبيان فان التمسك بحبل السعادة فى حكم الوصول اليها وقيل يهديهم الى ادراك الحقائق البديعة بحسب القوة العملية كما قال عليه الصلاة والسلام من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم ﴿فى جنات النعيم﴾ خبر آخر أو حال أخرى منه أو من الانهار أو متعلق بتجرى أو يهدى فالمراد بالمهدى اليه اما منازلهم فى الجنة أو مايريدونه فيها ﴿دعواهم﴾ أى دعاؤهم وهو مبتدأ وقوله عز وجل ﴿فيها﴾ متعلق به وقوله تعالى ﴿سبحانك اللهم﴾ خبره أى دعاؤهم هذا الكلام وهو معمول لمقدر لايجوز اظهاره والمعنى اللهم انا نسبحك تسبيحا ولعلهم يقولونه عند ماعاينوا فيها من تعاجيب آثار قدرته تعالى ونتائج

رحمته و رأفته مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر تقديسا لمقامه تعالى عن شوائب العجز والنقصان وتنزيها لوعده الكريم عن سمات الخلف ﴿وتحيتهم فيها﴾ التحية التكرمة بالحالة الجليلة أصلها أحياك الله حياة طيبة أى مايحيى به بعضهم بعضا أو تحية الملائكة اياهم كما فى قوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام أو تحية الله عز وجل لهم كما فى قوله تعالى سلام قولا من رب رحيم ﴿سلام﴾ أى سلامة عن كل مكروه ﴿وآخر دعواهم﴾ أى خاتمة دعائهم ﴿أن الحمد لله رب العالمين﴾ أى أن يقولوا ذلك نعتا له عز وجل بصفات الاكرام اثر نعته تعالى بصفات الجلال أى دعاؤهم منحصر فيما ذكر اذ ليس لهم مطلب مترقب حتى ينظموه فى سلك الدعاء وأن هى المخففة من أن المثقلة أصله أنه الحمد لله فحذف ضمير الشأن كما فى قوله أن هالك كل من يحفى و ينتعل وقرئ أن الحمد لله بالتشديد ونصب الحمد ولعل توسيط ذكر تحيتهم عند الحكاية بين دعائهم وخاتمته للتوسل الى ختم الحكاية بالتحميد تبركا مع أن التحية ليست بأجنبية على الاطلاق ودعوى كون ترتيب الوقوع أيضا كذلك بأن كانوا حين دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى و كبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة من الآفات والفوز بأصناف الكرامات أوحياهم بذلك رب العزة فحمدوه تعالى وأثنوا عليه يأباها اضافة الآخر الى دعواهم وقد جوز أن يكون المراد بالدعاء العبادة كما فى قوله تعالى وأعتزلكم وماتدعون الخ ايذانا بأن لاتكليف فى الجنة أى ماعبادتهم الا أن يسبحوه و يحمدوه وليس ذلك بعبادة انما يلهمونه و ينطقون به تلذذا ولا يساعده تعيين الخاتمة ﴿ولو يعجل الله للناس﴾ هم الذين لايرجون لقاء الله تعالى لانكارهم البعث ومايترتب عليه من الحساب والجزاء أشير الى بعض من عظائم معاصيهم المتفرعة على ذلك وهو استعجالهم بما أوعدوا به من العذاب تكذيبا واستهزاء وايرادهم باسم الجنس لما أن تعجيل الخير لهم ليس دائرا على وصفهم المذكور اذ ليس كل ذلك بطريق الاستدراج أى لو يعجل الله لهم ﴿الشر﴾ الذى كانوا يستعجلون به فانهم كانوا يقولون اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ونحو ذلك وقوله تعالى ﴿استعجالهم بالخير﴾ نصب على أنه مصدر تشبيهى وضع موضع مصدر ناصبه دلالة على اعتبار الاستعجال فى جانب المشبه كاعتبار التعجيل فى جانب المشبه به واشعارا بسرعة اجابته تعالى لهم حتى كان استعجالهم بالخير نفس تعجيله لهم والتقدير ولو يعجل الله لهم الشر عند استعجالهم به تعجيلا مثل تعجيله لهم الخير عند استعجالهم به فحذف ما حذف تعويلا على دلالة الباقى عليه ﴿لقضى اليهم أجلهم﴾ لأدى اليهم الاجل الذى عين لعذابهم وأميتوا وأهلكوا بالمرة وما أمهلوا طرفة عين وفى ايثار صيغة المبنى للمفعول جرى على سنن الكبرياء مع الايذان بتعين الفاعل وقرئ على البناء للفاعل كما قرئ لقضينا واختيار صيغة الاستقبال فى الشرط وان كان المعنى على المضى لافادة أن عدم قضاء الاجل لاستمرار عدم التعجيل فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى افادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضا بحسب المقام كما حقق فى موضعه واعلم أن مدار الافادة فى الشرطية أن يكون التالى أمرا مغايرا للمقدم فى نفسه مترتبا عليه فى الوجود كما فى قوله عز وجل لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم فان العنت أى الوقوع فى المشقة والهلاك أمر مغاير لطاعته عليه الصلاة والسلام لهم مترتب عليها فى الوجود أو يكون فردا كاملا من أفراده ممتازا عن البقية بأمر يخصه كما فى الأجوبة المحذوفة فى مثل قوله تعالى ولو ترى اذ وقفوا على ربهم وقوله تعالى ولو ترى اذ وقفوا على النار وقوله تعالى ولو ترى اذ المجرمون ونظائرها أى لرأيت أمرا هائلا فظيعا أو نحو ذلك وكما فى قوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة اذا فسر الجواب بالاستئصال فانه فرد كامل من أفراد مطلق المؤاخذة قد عبر عنه بما لامزيد عليه فى الدلالة على الشدة والفظاعة فحسن موقعه فى معرض التالى للمؤاخذة المطلقة وأما

مانحن فيه من القضاء فليس بأمر مغاير لتعجيل الشر فى نفسه وهو ظاهر بل هواما نفسه أوجزئى منه كسائر جزئياته من غير مزية له على البقية اذلم يعتبر فى مفهومه ما ليس فى مفهوم تعجيل الشر من الشدة والهول فلا يكون فى ترتبه عليه وجودا أوعدما مزيد فائدة مصححة لجعله تاليا له فالحق أن المقدم ليس نفس التعجيل المذكور بل هوارادته المستتبعة للقضاء المذكور وجودا وعدما كما فى قوله تعالى لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب أى لو يريد مؤاخذتهم فان تعجيل العذاب لهم نفس المؤاخذة أوجزئى من جزئياتها غير ممتاز عن البقية فليس فى بيان ترتبه عليها وجوداً أوعدما مزيد فائدة وانما الفائدة فى بيان ترتبه على ارادتها حسبما ذكر وأيضا فى ترتب التالى على ارادة المقدم ماليس فى ترتبه على نفسه من الدلالة على المبالغة وتهويل الامر والدلالة على أن الامور منوطة بارادته تعالى المبنية على الحكم البالغة ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ بنون العظمة الدالة على التشديد فى الوعيد وهو عطف على مقدر تنبئ عنه الشرطية كانه قيل لكن لانفعل ذلك لما تقتضيه الحكمة فنتركهم امهالا واستدراجا ﴿فى طغيانهم﴾ الذى هو عدم رجاء اللقاء وانكار البعث والجزاء وما يتفرع على ذلك من أعمالهم السيئة ومقالاتهم الشنيعة ﴿يعمهون﴾ أى يترددون ويتحيرون ففى وضع الموصول موضع الضمير نوع بيان للطغيان بما فى حيز الصلة واشعار بعليته للترك والاستدراج ﴿واذا مس الانسان الضر﴾ أى أصابه جنس الضر من مرض وفقر وغيرهما من الشدائد اصابة يسيرة ﴿دعانا﴾ لكشفه وازالته ﴿لجنبه﴾ حال من فاعل دعا بشهادة ماعطف عليه من الحالين واللام بمعنى على كما فى قوله تعالى يخرون للاذقان أى دعانا كائنا على جنبه أى مضطجعا ﴿أو قاعدا أو قائما﴾ أى فى جميع الاحوال بما ذكر ومالم يذكر وتخصيص المعدودات بالذكر لعدم خلو الانسان عنها عادة أو دعانا فى جميع أحوال مرضه على أنه المراد بالضر خاصة مضطجعا عاجزا عن القعود وقاعدا غير قادر على النهوض وقائما لا يستطيع الحراك ﴿فلما كشفنا عنه ضره﴾ الذى مسه غب مادعانا حسبما ينبئ عنه الفاء ﴿مر﴾ أى مضى واستمر على طريقته التى كان ينتحيها قبل مساس الضر ونسى حالة الجهد والبلاء أو مر عن موقف الضراعة والابتهال ونأى بجانبه ﴿كأن لم يدعنا﴾ أى كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن كما فى قوله كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا والجملة التشبيهية فى محل النصب على الحالية من فاعل مر أى مر مشبها بمن لم يدعنا ﴿الى ضر﴾ اى الى كشف ضر ﴿مسه﴾ وهذا وصف للجنس باعتبار حال بعض أفراده ممن هو متصف بهذه الصفات ﴿كذلك﴾ نصب على المصدرية وذلك اشارة الى مصدر الفعل الآتى ومافيه من معنى البعد للتفخيم والكاف مقحمة للدلالة على زيادة فخامة المشار اليه اقحاما لا يكاد يترك فى لغة العرب ولا فى غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل مكان أنت لا تبخل أى مثل ذلك التزيين العجيب ﴿زين للمسرفين﴾ أى للموصوفين بما ذكر من الصفات الذميمة واسرافهم لما أن الله تعالى انما أعطاهم القوى والمشاعر ليصرفوها الى مصارفها و يستعملوها فيما خلقت له من العلوم والاعمال الصالحة فلما صرفوها الى مالا ينبغى وهى رأس مالهم فقد أتلفوها وأسرفوا اسرافا ظاهرا والتزيين امامن جهة الله سبحانه على طريقة التخلية والخذلان أومن الشيطان بالوسوسة والتسويل ﴿ما كانوا يعملون﴾ من الاعراض عن الذكر والدعاء والانهماك فى الشهوات وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث ان فى كل منهما املاء للكفرة على طريقة الاستدراج بعد الانقاذ من الشر المقدر فى الأولى ومن الضر المقرر فى الأخرى ﴿ولقد أهلكنا القرون﴾ أى القرون الخالية مثل قوم نوح وعاد وأضرابهم ومن فى قوله تعالى ﴿من قبلكم﴾ متعلقة بأهلكنا أى أهلكناهم من قبل زمانكم والخطاب لأهل مكة على طريقة الالتفات للمبالغة فى تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القسمى ﴿لما ظلموا﴾ ظرف للاهلاك أى أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب والتمادى فى الغى والضلال من غير تأخير وقوله تعالى

﴿وجاءتهم رسلهم﴾ حال من ضمير ظلموا باضمار قد وقوله تعالى ﴿بالبينات﴾ متعلق بجاءتهم على أن الباء للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من رسلهم دالة على افراطهم فى الظلم وتناهيهم فى المكابرة أى ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينة الدالة على صدقهم أو ملتبسين بها حين لا مجال للتكذيب وقد جوز أن يكون قوله تعالى وجاءتهم عطفا على ظلموا فلا محل له من الاعراب عند سيبويه وعند غيره محله الجر لأنه معطوف على ماهو مجرور باضافة الظرف اليه وليس الظلم منحصرا فى التكذيب حتى يحتاج الى الاعتذار بأن الترتيب الذكرى لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعى كما فى قوله تعالى ورفع أبويه على العرش وخروا له الخ بل هو محمول على سائر أنواع الظلم والتكذيب مستفاد من قوله تعالى ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ على أبلغ وجه وآكده فان اللام لتأكيد النفى أى وماصح وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله تعالى اياهم لعلمه بأن الالطاف لا تنجع فيهم والجملة على الاول عطف على ظلموا لأنه اخبار باحداث التكذيب وهذا بالاصرار عليه وعلى الثانى عطف على ماعطف عليه وقيل اعتراض بين الفعل ومايجرى مجرى مصدره التشبيهى أعنى قوله تعالى ﴿كذلك﴾ فان الجزاء المشار اليه عبارة عن مصدره أى مثل ذلك الجزاء الفظيع أى الاهلاك الشديد الذى هو الاستئصال بالمرة ﴿نجزى القوم المجرمين﴾ أى كل طائفة مجرمة وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد لأهل مكة لاشتراكهم لأولئك المهلكين فى الجرائم والجرائر التى هى تكذيب الرسول والاصرار عليه وتقرير لمضمون ماسبق من قوله تعالى ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير وقرىء بالياء على الالتفات الى الغيبة وقد جوز أن يكون المراد بالقوم المجرمين أهل مكة على طريقة وضع الظاهر موضع ضمير الخطاب ايذانا بأنهم أعلام فى الاجرام ويأباه كل الاباء قوله عز وجل ﴿ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم﴾ فانه صريح فى أنه ابتداء تعرض لأمورهم وأن ما بين فيه انما هو مبادى أحوالهم لاختبار كيفيات أعمالهم على وجه يشعر باستمالتهم نحو الايمان والطاعة فمحال أن يكون ذلك اثر بيان منتهى أمرهم وخطابهم ببت القول باهلاكهم لكمال اجرامهم والمعنى ثم استخلفناكم فى الارض من بعد اهلاك أولئك القرون التى تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها استخلاف من يختبر ﴿لننظر﴾ أى لنعامل معاملة من ينظر ﴿كيف تعملون﴾ فهى استعارة تمثيلية وكيف منصوب على المصدرية بتعملون لا بننظر فان مافيه من معنى الاستفهام مانع من تقدم عامله عليه أى أى عمل أو على الحالية أى على أى حال تعملون الاعمال اللائقة بالاستخلاف من أوصاف الحسن كقوله عز وعلا ليبلوكم أيكم أحسن عملا ففيه اشعار بأن المراد بالذات والمقصود الاصلى من الاستخلاف انما هو ظهور الكيفيات الحسنة للاعمال الصالحة وأما الاعمال السيئة فبمعزل من أن تصدر عنهم لاسيما بعد ماسمعوا أخبار القرون المهلكة وشاهدوا آثار بعضها فضلا عن أن ينظم ظهورها فى سلك العلة الغائية للاستخلاف وقيل منصوب على أنه مفعول به أى أى عمل تعملون أخيرا أم شرا فنعاملكم بحسبه فلا يكون فى كلمة كيف حينئذ دلالة على أن المعتبر فى الجزاء جهات الاعمال وكيفياتها لا ذواتها كما هو رأى القائل بل تكون حينئذ مستعارة لمعنى أى شىء ﴿واذا تتلى عليهم﴾ التفات من خطابهم الى الغيبة اعراضا عنهم وتوجيها للخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعديد جناياتهم المضادة لما أريد منهم بالاستخلاف من تكذيب الرسول والكفر بالآيات البينات وغير ذلك كدأب من قبلهم من القرون المهلكة وصيغة المضارع للدلالة على تجدد جوابهم الآتى حسب تجدد التلاوة ﴿آياتنا﴾ الدالة على حقية التوحيد وبطلان الشرك والاضافة لتشريف المضاف والترغيب فى الايمان به والترهيب عن تكذيبه ﴿بينات﴾ حال كونها واضحات الدلالة على ذلك وايراد فعل التلاوة مبنيا للمفعول مسندا الى الآيات دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ببنائه للفاعل للاشعار بعدم الحاجة لتعين التالى وللايذان بأن كلامهم فى نفس المتلو دون التالى

﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ وضع الموصول موضع الضمير اشعارا بعلية ما فى حيز الصلة للعظيمة المحكية عنهم وأنهم انما اجترؤا عليها لعدم خوفهم من عقابه تعالى يوم اللقاء لانكارهم له ولما هو من مباديه من البعث وذما لهم بذلك أى قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما لم يذكر ايذانا بتعينه ﴿ائت بقرآن غير هذا﴾ أشاروا بهذا الى القرآن المشتمل على تلك الآيات لا الى نفسها فقط قصدا الى اخراج الكل من البين أى ائت بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما نستبعده من البعث والحساب والجزاء وما نكرهه من ذم آلهتنا ومعايبها والوعيد على عبادتها ﴿أو بدله﴾ بتغيير ترتيبه بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى خالية عنها وانما قالوه كيدا وطمعا فى المساعدة ليتوسلوا به الى الالزام والاستهزاء به ﴿قل﴾ لهم ﴿ما يكون لى﴾ أى ما يصح وما يستقيم لى ولا يمكننى أصلا ﴿أن أبدله من تلقاء نفسى﴾ أى من قبل نفسى وهو مصدر استعمل ظرفا وقرئ بفتح التاء وقصر الجواب ببيان امتناع ما اقترحوه على اقتراحهم الثانى للايذان بأن استحالة ما اقترحوه أولا من الظهور بحيث لا حاجة الى بيانها وأن التصدى لذلك مع كونه ضائعا ربما يعد من قبيل المجاراة مع السفهاء اذ لا يصدر مثل ذلك الاقتراح عن العقلاء ولان ما يدل على استحالة الثانى يدل على استحالة الاول بالطريق الاولى ﴿ان أتبع﴾ أى ما أتبع فى شئ مما آتى وأذر ﴿الا ما يوحى الى﴾ من غير تغيير له فى شئ أصلا على معنى قصر حاله عليه السلام على اتباع ما يوحى اليه لا قصر اتباعه على ما يوحى اليه كما هو المتبادر من ظاهر العبارة كأنه قيل ما أفعل الا اتباع ما يوحى الى وقد مر تحقيق المقام فى سورة الأنعام وهو تعليل لصدر الكلام فان من شأنه اتباع الوحى على ماهو عليه لا يستبد بشئ دونه قطعا وفيه جواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض ورد لما عرضوا به عليه الصلاة والسلام بهذا السؤال من أن القرآن كلامه عليه الصلاة والسلام ولذلك قيد التبديل فى الجواب بقوله من تلقاء نفسى وسماه عصيانا عظيما مستتبعا لعذاب عظيم بقوله تعالى ﴿انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم﴾ فانه تعليل لمضمون ما قبله من امتناع التبديل واقتصار أمره عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحى أى أخاف ان عصيته تعالى بتعاطى ما ليس لى من التبديل من تلقاء نفسى والاعراض عن اتباع الوحى عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة أو يوم اللقاء الذى لا يرجونه وفيه اشعار بأنهم استوجبوه بهذا الاقتراح والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام لتهويل أمر العصيان واظهار كمال نزاهته عليه السلام عنه وايراد اليوم بالتنوين التفخيمى ووصفه بالعظم لتهويل ما فيه من العذاب وتفظيعه ولا مساغ لحمل مقترحهم على التبديل والاتيان بقرآن آخر من جهة الوحى بتفسير قوله تعالى ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى بأنه لا يتسهل لى أن أبدله بالاستدعاء من جهة الوحى ما أتبع الا ما يوحى الى من غير صنع ما من الاستدعاء وغيره من قبلى لأنه يرده التعليل المذكور لا لأن المقترح حينئذ ليس فيه معصية أصلا كما توهم فان استدعاء تبديل الآيات النازلة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعية بعضها ببعض لاسيما بموجب اقتراح الكفرة مما لا ريب فى كونه معصية بل لانه ليس فيه معصية الافتراء مع أنها المقصودة بما ذكر فى التعليل ألا يرى الى ما بعده من الآيتين الكريمتين فانه صريح فى أن مقترحهم الاتيان بغير القرآن وتبديله بطريق الافتراء وأن زعمهم فى الاصل أيضا كذلك وقوله عز وجل ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾ تحقيق لحقية القرآن وكونه من عند الله تعالى اثر بيان بطلان ما اقترحوا الاتيان به واستحالته عبارة ودلالة وانما صدر بالامر المستقل مع كونه داخلا تحت الامر السابق اظهارا لكمال الاعتناء بشأنه وايذانا باستقلاله مفهوما وأسلوبا فانه برهان دال على كونه بأمر الله تعالى ومشيئته كما سيأتى وما سبق مجرد اخبار باستحالة ما اقترحوه ومفعول شاء محذوف ينبئ عنه الجزاء لا غير ذلك كما قيل فان مفعول المشيئة انما يحذف اذا وقعت شرطا وكان مفعولها مضمون الجزاء ولم يكن فى تعلقها به غرابة

كما فى قوله ولو شئت أن أبكى دما لبكيته حيث لم يحذف لفقدان الشرط الاخير ولان المستلزم للجزاء أعنى عدم تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن عليهم انما هو مشيئته تعالى له لامشيئته لغير القرآن والمعنى أن الامر كله منوط بمشيئته تعالى وليس لى منه شئ قط ولو شاء عدم تلاوتى له عليكم لابأن شاء عدم تلاوتى له من تلقاء نفسى بل بأن لم ينزله على ولم يأمرنى بتلاوته كما ينبئ عنه ايثار التلاوة على القراءة ماتلوته عليكم ﴿ولا أدراكم به﴾ أى ولا أعلمكم به بواسطتى والتالى وهو عدم التلاوة والادراء منتف فينتفى المقدم أعنى مشيئة عدم التلاوة ولا يخفى أنها مستلزمة لعدم مشيئة التلاوة قطعا فانتفاؤها مستلزم لانتفائه حتما وانتفاء عدم مشيئة التلاوة انما يكون بتحقق مشيئة التلاوة فثبت أن تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن بمشيئته تعالى وأمره وانما قيدنا الادراء بكونه بواسطته عليه الصلاة والسلام لان عدم الاعلام مطلقا ليس من لوازم الشرط الذى هو مشيئة عدم تلاوته عليه السلام فلا يجوز نظمه فى سلك الجزاء وفى اسناد عدم الادراء اليه تعالى المنبئ عن استناد الادراء اليه تعالى ايذان بأن لادخل له عليه السلام فى ذلك حسبما يقتضيه المقام وقرئ ولا دراتكم ولا ادرأكم بالهمزة فيهما على لغة من يقول أعطأت وأرضأت فى أعطيت وأرضيت أو على أنه من الدرء بمعنى الدفع أى ولا جعلتكم بتلاوته عليكم خصماء تدرؤننى بالجدال وقرئ ولا أنذرتكم به وقرئ لأدراكم بلام الجواب أى لو شاء الله ماتلوته عليكم أنا ولأعلمكم به على لسان غيرى على معنى انه الحق الذى لا محيص عنه لو لم أرسل به أنا لأرسل به غيرى البتة أو على معنى أنه تعالى يمن على من يشاء فخصنى بهذه الكرامة ﴿فقد لبثت فيكم عمرا﴾ تعليل للملازمة المستلزمة لكون تلاوته بمشيئة الله تعالى وأمره حسبما بين آنفا لكن لا بطريق الاستدلال عليها بعدم تلاوته عليه الصلاة والسلام فيما سبق بسبب مشيئته تعالى اياه بل بطريق الاستشهاد عليها بما شاهدوا منه عليه الصلاة والسلام فى تلك المدة الطويلة من الأمور الدالة على استحالة كون التلاوة من جهته عليه الصلاة والسلام بلا وحى وعمرا نصب على التشبيه بظرف الزمان والمعنى قد أقمت فيما بينكم دهرا مديدا مقدار أربعين سنة تحفظون تفاصيل أحوالى طرا وتحيطون بما لدى خبرا ﴿من قبله﴾ أى من قبل نزول القرآن لاأتعاطى شيأ مما يتعلق به لا من حيث نظمه المعجز ولا من حيث معناه الكاشف عن أسرار الحقائق وأحكام الشرائع ﴿أفلا تعقلون﴾ أى ألا تلاحظون ذلك فلا تعقلون امتناع صدوره عن مثلى ووجوب كونه منزلا من عند الله العزيز الحكيم فانه غير خاف على من له عقل سليم والحق الذى لا محيد عنه أن من له أدنى مسكة من العقل اذا تأمل فى أمره عليه الصلاة والسلام وأنه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل من غير مصاحبة العلماء فى شأن من الشئون ولا مراجعة اليهم فى فن من الفنون ولا مخالطة البلغاء فى المفاوضة والحوار ولا خوض معهم فى انشاء الخطب والاشعار ثم أتى بكتاب بهرت فصاحته كل فصيح فائق وبذت بلاغته كل بليغ رائق وعلا نظمه كل منثور ومنظوم وحوى فحواه بدائع أصناف العلوم كاشف عن أسرار الغيب من وراء أستار الكمون ناطق بأخبار ما قد كان وما سيكون مصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة مهيمن عليها فى أحكامها المجملة والمفصلة لايبقى عنده شائبة اشتباه فى أنه وحى منزل من عند الله هذا هو الذى اتفقت عليه كلمة الجمهور ولكن الانسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور التغيير والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم واقتصار حاله عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحى وامتناع الاستبداد بالرأى من غير تعرض هناك ولاههنا لكون القرآن فى نفسه أمرا خارجا عن طوق البشر ولا لكونه عليه الصلاة والسلام غير قادر على الاتيان بمثله أن يستشهد ههنا على المطلب بما يلائم ذلك من أحواله المستمرة فى تلك المدة المتطاولة من كمال نزاهته عليه الصلاة والسلام عما يوهم شائبة صدور الكذب والافتراء عنه فى حق أحد كائنا من كان كما ينبئ عنه تعقيبه بتظليم

المفترى على الله تعالى والمعنى قد لبثت فيما بين ظهرانيكم قبل الوحى لاأتعرض لاحد قط بتحكم ولاجدال ولا أحوم حول مقال فيه شائبة شبهة فضلاعما فيه كذب أوافتراء ألا تلاحظون فلاتعقلون أن من هذا شأنه المطرد فى هذا العهد البعيد مستحيل أن يفترى على الله عز وجل و يتحكم على كافة الخلق بالاوامر والنواهى الموجبة لسلب الاموال وسفك الدماء ونحو ذلك وأن ماأتى به وحى مبين تنزيل من رب العالمين وقوله عز وجل ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ استفهام انكارى معناه الجحد أى لاأحد أظلم منه على معنى أنه أظلم من كل ظالم وان كان سبك التركيب مفيداً لانكار أن يكون أحد أظلم منه من غير تعرض لانكار المساواة ونفيها فانه اذا قيل من أفضل من فلان أو لا أعلم منه يفهم منه حتما أنه أفضل من كل فاضل وأعلم من كل عالم و زيادة قوله تعالى كذبا مع أن الافتراء لايكون الا كذلك للايذان بأن ماأضافوه اليه ضمنا وحملوه عليه الصلاة والسلام عليه صريحا مع كونه افتراء على الله تعالى كذب فى نفسه فرب افتراء يكون كذبه فى الاسناد فقط كما اذا أسند ذنب زيد الى عمرو وهذا للمبالغة منه عليه الصلاة والسلام فى التفادى عما ذكر من الافتراء على الله سبحانه ﴿أو كذب بآياته﴾ فكفر بها وهذا تظليم للمشركين بتكذيبهم للقرآن وحملهم على أنه من جهته عليه الصلاة والسلام والفاء لترتيب الكلام على ماسبق من بيان كون القرآن بمشيئته تعالى وأمره فلا مجال لحمل الافتراء على الافتراء باتخاذ الولد والشريك أى واذا كان الأمر كذلك فمن افترى عليه تعالى بأن يختلق كلاما فيقول هذا من عند الله أو يبدل بعض آياته تعالى ببعض كما تجوزون ذلك فى شأنى وكذلك من كذب بآياته تعالى كما تفعلونه أظلم من كل ظالم ﴿انه﴾ الضمير للشأن وقع اسما لان والخبر مايعقبه من الجملة ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصديرها به الايذان بفخامة مضمونها مع مافيه من زيادة تقريره فى الذهن فان الضمير لايفهم منه من أول الامر الاشأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده عليه فضل تمكن فكانه قيل ان الشأن هذا أى ﴿لايفلح المجرمون﴾ أى لاينجون من محذور ولا يظفرون بمطلوب والمراد جنس المجرمين فيندرج فيه المفترى والمكذب اندراجا أوليا ﴿ويعبدون من دون الله﴾ حكاية لجناية أخرى لهم نشأت عنها جناياتهم الاولى معطوفة على قوله تعالى واذا تتلى عليهم الآية عطف قصة على قصة ومن دون متعلق بيعبدون ومحله النصب على الحالية من فاعله أى متجاوزين الله سبحانه لابمعنى ترك عبادته بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وجعلها قرينا لعبادة الاصنام كما يفصح عنه سياق النظم الكريم ﴿ما لايضرهم ولاينفعهم﴾ أى ما ليس من شأنه الضر والنفع من الاصنام التى هى جمادات وما موصولة أو موصوفة وتقديم نفى الضر لأن أدنى أحكام العبادة دفع الضرر الذى هو أول المنافع والعبادة أمر حادث مسبوق بالعدم الذى هو مظنة الضرر فحيث لم تقدر الاصنام على الضرر لم يوجد لاحداث العبادة سبب وقيل لا يضرهم ان تركوا عبادتها ولاينفعهم ان عبدوها . كان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مكة عزى ومناة وهبل واسافا ونائلة ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ عن النضر بن الحرث اذا كان يوم القيامة يشفع لى اللات قيل انهم كانوا يعتقدون أن المتولى لكل اقليم روح معين من أرواح الافلاك فعينوا لذلك الروح صنما معينا من الاصنام واشتغلوا بعبادته ومقصودهم ذلك الروح ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عند الاله الأعظم مشتغلا بعبوديته وقيل انهم كانوا يعبدون الكواكب فوضعوا لها أصناما معينة واشتغلوا بعبادتها قصدا الى عبادة الكواكب وقيل انهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الاصنام ثم تقربوا اليها وقيل انهم وضعوا هذه الاصنام على صور أنبيائهم وأكابرهم و زعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فان أولئك الأكابر يشفعون لهم عند الله تعالى ﴿قل﴾ تبكيتا لهم ﴿أتنبئون الله بما لايعلم﴾ أى أتخبرونه بما لاوجود له أصلا وهو كون الأصنام

شفعاءهم عند الله تعالى اذ لو لاه لعلمه علام الغيوب وفيه تقريع لهم وتهكم بهم و بمـا يدعونه من المحال الذى لا يكاد يدخل تحت الصحة والامكان وقرىء أتنبئون بالتخفيف وقوله تعالى ﴿فى السموات و لافى الارض﴾ حال من العائد المحذوف فى يعلم مؤكدة للنفى لان مالا يوجد فيهما فهو منتف عادة ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ عن اشراكهم المستلزم لتلك المقالة الباطلة أو عن شركائهم الذين يعتقدونهم شفعاءهم عند الله تعالى وقرىء تشركون بتاء الخطاب على أنه من جملة القول المأمور به وعلى الأول هو اعتراض تذييلى من جهته سبحانه وتعالى ﴿وما كان الناس الا أمة واحدة﴾ بيان لان التوحيد والاسلام ملة قديمة أجمعت عليها الناس قاطبة فطرة وتشريعا وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة خلافا للجمهور وشقا لعصا الجماعة وأما حمل اتحادهم على الاتفاق على الضلال عند الفترة واختلافهم على ما كان منهم من الاتباع والاصرار فمما لا احتمال له أى وما كان الناس كافة من أول الأمر الا متفقين على الحق والتوحيد من غير اختلاف وذلك من عهد آدم عليه الصلاة والسلام الى أن قتل قابيل هابيل وقيل الى زمن ادريس عليه السلام وقيل الى زمن نوح عليه السلام وقيل من حين الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارا الى أن ظهر فيما بينهم الكفر وقيل من لدن ابراهيم عليه الصلاة والسلام الى أن أظهر عمرو بن لحى عبادة الأصنام فالمراد بالناس العرب خاصة وهو الأنسب بايراد الآية الكريمة اثر حكاية ما حكى عنهم من الهنات وتنزيه ساحة الكبرياء عن ذلك ﴿فاختلفوا﴾ بأن كفر بعضهم وثبت آخرون على ما هم عليه فخالف كل من الفريقين الآخر لا أن كلا منهما أحدث ملة على حدة من ملل الكفر مخالفة لملة الآخر فان الكلام ليس فى ذلك الاختلاف اذ كل منهما مبطل حينئذ فلا يتصور أن يقضى بينهما بابقاء المحق واهلاك المبطل والفاء التعقيبية لا تنافى امتداد زمان الاتفاق اذ المراد بيان وقوع الاختلاف عقيب انصرام مدة الاتفاق لا عقيب حدوث الاتفاق ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ بتأخير القضاء بينهم أو بتأخير العذاب الفاصل بينهم الى يوم القيامة فانه يوم الفصل ﴿لقضى بينهم﴾ عاجلا ﴿فيما فيه يختلفون﴾ بتمييز الحق من الباطل بابقاء المحق واهلاك المبطل وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية وللدلالة على الاستمرار ﴿ويقولون﴾ حكاية لجناية أخرى لهم معطوفة على قوله تعالى ويعبدون وصيغة المضارع لاستحضار صورة مقالتهم الشنعاء والدلالة على الاستمرار والقائلون أهل مكة ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ أرادوا آية من الآيات التى اقترحوها كأنهم لفرط العتو والفساد ونهاية التمادى فى المكابرة والعناد لم يعدوا البينات النازلة عليه عليه الصلاة السلام من جنس الآيات واقترحوا غيرها مع أنه قد أنزل عليه من الآيات الباهرة والمعجزات المتكاثرة ما يضطرهم الى الانقياد والقبول لو كانوا من أرباب العقول ﴿فقل لهم فى الجواب ﴿انما الغيب لله﴾ اللام للاختصاص العلمى دون التكوينى فان الغيب والشهادة فى ذلك الاختصاص سيان والمعنى أن ما اقترحتموه و زعمتم أنه من لوازم النبوة وعلقتم ايمانكم بنزوله من الغيوب المختصة بالله تعالى لا وقوف لى عليه ﴿فانتظروا﴾ نزوله ﴿انى معكم من المنتظرين﴾ أى لما يفعل الله بكم لاجترائكم على مثل هذه العظيمة من جحود الآيات واقتراح غيرها وجعل الغيب عبارة عن الصارف عن انزال الآيات المقترحة يأباه ترتيب الأمر بالانتظار على اختصاص الغيب به تعالى ﴿واذا أذقنا الناس رحمة﴾ صحة وسعة ﴿من بعد ضراء مستهم﴾ أى خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم واسناد المساس الى الضراء بعد اسناد الاذاقة الى ضمير الجلالة من الآداب القرآنية كما فى قوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين ونظائره. قيل سلط الله تعالى على أهل مكة القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم بالحيا فطفقوا يطعنون فى آياته تعالى و يعادون رسوله عليه الصلاة والسلام و يكيدونه وذلك قوله تعالى ﴿اذا لهم مكر فى آياتنا﴾ أى بالطعن فيها وعدم الاعتداد بها والاحتيال فى دفعها واذا الأولى شرطية والثانية جوابها كأنه

قيل فاجؤوا وقوع المكر منهم وتنكير مكر للتفخيم وفى متعلقة بالاستقرار الذى يتعلق به اللام ﴿قل الله أسرع مكرا﴾ أى أعجل عقوبة أى عذابه أسرع وصولا اليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق وتسمية العقوبة بالمكر لوقوعها فى مقابلة مكرهم وجودا أو ذكرا ﴿ان رسلنا﴾ الذين يحفظون أعمالكم والاضافة للتشريف ﴿يكتبون ما تمكرون﴾ أى مكركم أو ما تمكرونه وهو تحقيق للانتقام منهم وتنبيه على أن ما دبروا فى اخفائه غير خاف على الحفظة فضلا عن العليم الخبير وصيغة الاستقبال فى الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددى والجملة تعليل من جهته تعالى لأسرعية مكره سبحانه غير داخل فى الكلام الملقن كقوله تعالى ولو جئنا بمثله مددا فان كتابة الرسل لما يمكرون من مبادى بطلان مكرهم وتخلف أثره عنه بالكلية وفيه من المبالغة ما لا يوصف وتلوين الخطاب بصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم للتشديد فى التوبيخ وقرىء على لفظ الغيبة فيكون حينئذ تعليلا لما ذكر أو للامر ﴿هو الذى يسيركم﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان جناية أخرى لهم مبنية على ما مر آنفا من اختلاف حالهم حسب اختلاف ما يعتريهم من السراء والضراء أى يمكنكم من السير تمكينا مستمرا عند الملابسة به وقبلها ﴿فى البر﴾ مشاة وركبانا وقرىء ينشركم من النشر ومنه قوله عز وجل بشر تنتشرون ﴿والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك﴾ أى السفن فانه جمع فلك على زنة أسد جمع أسد لا على وزن قفل وغاية التسيير ليست ابتداء ركوبهم فيها بل مضمون الشرطية بتمامه كما ينبىء عنه ايثار الكون المؤذن بالدوام على الركوب المشعر بالحدوث ﴿وجرين﴾ أى السفن ﴿بهم﴾ بالذين فيها والالتفات الى الغيبة للايذان بمالهم من سوء الحال الموجب للاعراض عنهم كأنه يذكر لغيرهم مساوى أحوالهم ليعجبهم منها ويستدعى منه الانكار والتقبيح وقيل ليس فيه التفات بل معنى قوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك اذا كان بعضكم فيها اذ الخطاب للكل ومنهم المسيرون فى البر فالضمير الغائب عائد الى ذلك المضاف المقدر كما فى قوله تعالى أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه أى أو كذى ظلمات يغشاه موج ﴿بريح طيبة﴾ لينة الهبوب موافقة لمقصدهم ﴿وفرحوا بها﴾ بتلك الريح لطيبها وموافقتها ﴿جاءتها﴾ جواب اذا والضمير المنصوب للريح الطيبة أى تلقتها واستولت عليها من طرف مخالف لها فان الهبوب على وفقها لا يسمى مجيئا لريح أخرى عادة بل هو اشتداد للريح الاولى وقيل للفلك والأول أظهر لاستلزامه للثانى من غير عكس لأن الهبوب على طريقة الريح اللينة يعد مجيئا بالنسبة الى الفلك دون الريح اللينة مع أنه لا يستتبع تلاطم الأمواج الموجب لمجيئها من كل مكان ولأن التهويل فى بيان استيلائها على ما فرحوا به وعلقوا به حبال رجائهم أكثر ﴿ريح عاصف﴾ أى ذات عصف وقيل العصوف مختص بالريح فلا حاجة الى الفارق وقيل الريح قد يذكر ﴿وجاءهم الموج﴾ فى الفلك ﴿من كل مكان﴾ أى من أمكنة مجىء الموج عادة ولا بعد فى مجيئه من جميع الجوانب أيضا اذ لا يجب ان يكون مجيئه من جهة هبوب الريح فقط بل قد يكون من غيرها بحسب أسباب تتفق له ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أى هلكوا فان ذلك مثل فى الهلاك أصله احاطة العدو بالحى أو سدت عليهم مسالك الخلاص ﴿دعوا الله﴾ بدل من ظنوا بدل اشتمال لما بينهما من الملابسة والتلازم أو استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الأذهان كأنه قيل فماذا صنعوا فقيل دعوا الله ﴿مخلصين له الدين﴾ من غير أن يشركوا به شيئا من آلهتهم لا مخصصين للدعاء به تعالى فقط بل للعبادة أيضا فانهم بمجرد تخصيص الدعاء به تعالى لا يكونون مخلصين له الدين ﴿لئن أنجيتنا﴾ اللام موطئة للقسم على ارادة القول أى قائلين والله لئن انجيتنا ﴿من هذه﴾ الورطة ﴿لنكونن﴾ البتة بعد ذلك أبدا ﴿من الشاكرين﴾ لنعمك التى من جملتها هذه النعمة المسئولة وقيل الجملة مفعول دعوا لأن الدعاء من قبيل القول والأول هو الأولى لاستدعاء الثانى لاقتصار دعائهم على ذلك فقط وفى قوله لنكونن من الشاكرين من المبالغة فى الدلالة على كونهم ثابتين فى الشكر مثابرين عليه منتظمين فى سلك المنعوتين

بالشكر الراسخين فيه ماليس فى أن يقال لنشكرن ﴿فلما أنجاهم﴾ مما غشيهم من الكربة والفاء للدلالة على سرعة الاجابة ﴿اذا هم يبغون فى الأرض﴾ أى فاجؤا الفساد فيها وسارعوا اليه متراقين فى ذلك متجاوزين عما كانوا عليه من حدود العيث من قولهم بغى الجرح اذا ترامى فى الفساد وزيادة فى الأرض للدلالة على شمول بغيهم لاقطارها وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقوله تعالى ﴿بغير الحق﴾ تأكيد لما يفيده البغى أو معناه أنه بغير الحق عندهم أيضا بأن يكون ذلك ظلما ظاهرا لايخفى قبحه على أحد كما فى قوله تعالى و يقتلون النبيين بغير الحق وأما ماقيل من أنه للاحتراز عن البغى بحق كتخريب الغزاة ديار الكفرة وقطع أشجارهم واحراق زرعهم فلا يساعده النظم الكريم لابتنائه على كون البغى بمعنى افساد صورة الشىء وابطال منفعته دون ماذكر من المعنى اللائق بحال المفسدين ﴿يا أيها الناس﴾ توجيه للخطاب الى أولئك الباغين للتشديد فى التهديد والمبالغة فى الوعيد ﴿انما بغيكم﴾ الذى تتعاطونه وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿على أنفسكم﴾ خبره أى عليكم فى الحقيقة لاعلى الذين تبغون عليهم وان ظن كذلك وقوله تعالى ﴿متاع الحيوة الدنيا﴾ بيان لكون مافيه من المنفعة العاجلة شيأ غير معتد به سريع الزوال دائم الوبال وهو نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر بطريق الاستئناف أى تتمتعون متاع الحياة الدنيا وقيل على أنه مصدر وقع موقع الحال أى متمتعين بالحياة الدنيا والعامل هو الاستقرار الذى فى الخبر لانفس البغى لأنه يؤدى الى الفصل بين المصدر ومعموله بالخبر ولا يخبر عن الموصول الا بعد تمام صلته وأنت خبير بأنه ليس فى تقييد كون بغيهم على أنفسهم بحال تمتعهم بالحياة الدنيا معنى يعتد به وقيل على أنه ظرف زمان نحو مقدم الحاج أى زمن متاع الحياة الدنيا وفيه مامر بعينه وقيل على أنه مفعول لفعل دل عليه المصدر أى تبغون متاع الحياة الدنيا ولا يخفى أنه لايدل على البغى بمعنى الطلب وجعل المصدر أيضا بمعناه مما يخل بجزالة النظم الكريم لأن الاستئناف لبيان سوء عاقبة ماحكى عنهم من البغى المفسر بالافساد المفرط اللائق بحالهم فأى مناسبة بينه و بين البغى بمعنى الطلب وجعل الأول أيضا بمعناه مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عنه وقيل على أنه مفعول له أى لأجل متاع الحياة الدنيا والعامل ماذكر من الاستقرار وفيه أن المعلل بماذكر نفس البغى لا كونه على أنفسهم وقيل العامل فيه فعل مدلول عليه بالمصدر أى تبغون لأجل متاع الحياة الدنيا على أن الجملة مستأنفة وقيل على أنه مفعول صريح للمصدر وعلى أنفسكم ظرف لغو متعلق به والمراد بالأنفس الجنس والخبر محذوف لطول الكلام والتقدير انما بغيكم على أبناء جنسكم متاع الحياة الدنيا محذور أو ظاهر الفساد أو نحو ذلك وفيه مامر من ابتنائه على مالا يليق بالمقام من كون البغى بمعنى الطلب نعم لو جعل نصبه على العلة أى انما بغيكم على أبناء جنسكم لأجل متاع الحياة الدنيا محذور كما اختاره بعضهم لكان له وجه فى الجملة لكن الحق الذى تقتضيه جزالة التنزيل انما هو الأول وقرىء متاع بالرفع على أنه الخبر والظرف صلة للمصدر أو خبر ثان أو خبر لمبتدا محذوف أى هو متاع الخ كما فى قوله تعالى الا ساعة من نهار بلاغ أى هذا بلاغ فالمراد بأنفسهم على الوجه الأول أبناء جنسهم وانما عبر عنهم بذلك هزأ لشفقتهم عليهم وحثا لهم على ترك ايثار التمتع المذكور على حقوقهم ولا مجال للحمل على الحقيقة لأن كون بغيهم و بالا عليهم ليس بثابت عندهم حسبما يقتضيه ماحكى عنهم ولم يخبر به بعد حتى يجعل من تتمة الكلام و يجعل كونه متاعا مقصود الافادة على أن عنوان كونه و بالا عليهم قادح فى كونه متاعا فضلا عن كونه من مبادى ثبوته للمبتدا كما هو المتبادر من السوق وأما كون البغى على أبناء الجنس فمعلوم الثبوت عندهم ومتضمن لمبادى التمتع من أخذ المال والاستيلاء على الناس وغير ذلك وأما على الوجهين الأخيرين فلا موجب للعدول عن الحقيقة فان المبتدا اما نفس البغى أو الضمير العائد اليه من حيث هو هو لا من حيث كونه و بالا عليهم كما فى صورة كون

الظرف صلة للمصدر فتدبر وقرئ متاعا الحياة الدنيا أما نصب متاعا فعلى مامر وأما نصب الحياة فعلى أنه بدل من متاعا بدل اشتمال وقيل على أنه مفعول به لمتاعا اذا لم يكن انتصابه على المصدرية لأن المصدر المؤكد لا يعمل . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لاتمكر ولا تعن ماكرآ ولا تبغ ولا تعن باغيا ولا تنكث ولا تعن ناكثا وكان يتلوها وقال محمد ابن كعب ثلاث من كن فيه كن عليه البغي والنكث والمكر قال تعالى انما بغيكم على أنفسكم وما يمكرون الا بأنفسهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه وعنه عليه الصلاة والسلام أسرع الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقابا البغي واليمين الفاجرة وروى ثنتان يعجلهما الله تعالى فى الدنيا البغي وعقوق الوالدين وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لو بغى جبل على جبل لدك الباغي ﴿ثم الينا مرجعكم﴾ عطف على مامر من الجملة المستأنفة المقدرة كأنه قيل تتمعون متاع الحياة الدنيا ثم ترجعون الينا وانما غير السبك الى الجملة الاسمية مع تقديم الجار والمجرور للدلالة على الثبات والقصر ﴿فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ فى الدنيا على الاستمرار من البغي وهو وعيد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت وفيه نكتة خفية مبنية على حكمة أبية وهى أن كل مايظهر فى هذه النشأة من الأعيان والاعراض فانما يظهر بصورة مغايرة لصورته الحقيقية التى بها يظهر فى النشأة الآخرة فان المعاصى مثلا سموم قاتلة قد برزت فى الدنيا بصور تستحسنها نفوس العصاة وكذا الطاعات مع كونها أحسن الأحاسن قد ظهرت عندهم بصور مكروهة ولذلك قال عليه الصلاة والسلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات فالبغي فى هذه النشأة وان برز بصورة تشتهيها البغاة وتستحسنها الغواة لتمتعهم به من حيث أخذ المال والتشفى من الأعداء ونحو ذلك لكن ذلك ليس بتمتع فى الحقيقة بل هو تضرر من حيث لايحتسبون وانما يظهر لهم ذلك عند ابراز ماكانوا يعملونه من البغي بصورته الحقيقية المضادة لما كانوا يشاهدونه على ذلك من الصورة وهو المراد بالتنبئة المذكورة والله سبحانه وتعالى أعلم ﴿انما مثل الحيوة الدنيا﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان شأن الحياة الدنيا وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود وقد شبه حالها العجيبة الشأن البديعة المثال المنتظمة لغرابتها فى سلك الأمثال فى سرعة تقضيها وانصرام نعيمها غب اقبالها واغترار الناس بها بحال ماعلى الأرض من أنواع النبات فى زوال رونقها ونضارتها فجأة وذهابها حطاما لم يبق لها أثر أصلا بعد ماكانت غضة طرية قد التف بعضها ببعض وزينت الأرض بألوانها وتقوت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلمت من الجوائح وليس المشبه به مادخله الكاف فى قوله عز وجل ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ بل مايفهم من الكلام فانه من التشبيه المركب ﴿مما يأكل الناس والأنعام﴾ من البقول والزروع والحشيش ﴿حتى اذا أخذت الأرض زخرفها﴾ جعلت الأرض فى تزينها بما عليها من أصناف النباتات وأشكالها وألوانها المختلفة المونقة آخذة زخرفها على طريقة التمثيل بالعروس التى قد أخذت من ألوان الثياب والزين فتزينت بها ﴿وازينت﴾ أصله تزينت فأدغم وقرئ على الأصل وقرئ وأزينت كأغيلت من غير اعلال والمعنى صارت ذات زينة وازيانت كابياضت ﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ متمكنون من حصدها ورفع غلتها ﴿أتاها أمرنا﴾ جواب اذا أى ضرب زرعها مايجتاحه من الآفات والعاهات ﴿ليلا أونهارا فجعلناها﴾ أى زرعها وسائر ماعليها ﴿حصيدآ﴾ أى شبيها بما حصد من أصله ﴿كأن لم تغن﴾ كأن لم يغن زرعها والمضاف محذوف للمبالغة وقرئ بتذكير الفعل ﴿بالأمس﴾ أى فيما قبل بزمان قريب فان الأمس مثل فى ذلك كأنه قيل لم تغن آنفا ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك التفصيل البديع ﴿نفصل الآيات﴾ أى الآيات القرآنية التى من جملتها هذه الآيات المنبهة على أحوال الحياة الدنيا أى نوضحها ونبينها ﴿لقوم يتفكرون﴾ فى تضاعيفها ويقفون على معانيها وتخصيص تفصيلها بهم

لأنهم المنتفعون بها و يجوز أن يراد بالآيات ماذكر فى أثناء التمثيل من الكائنات والفاسدات و بتفصيلها تصريفها على الترتيب المحكى ايجادا واعداما فانها آيات وعلامات يستدل بها من يتفكر فيها على أحوال الحياة الدنيا حالا ومآلا ﴿ والله يدعو الى دار السلام ﴾ ترغيب للناس فى الحياة الأخروية الباقية اثر ترغيبهم عن الحياة الدنيوية الفانية أى يدعو الناس جميعا الى الدار السلامة عن كل مكروه وآفة وهى الجنة وانما ذكرت بهذا الاسم لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معرضا للآفات أو الى دار الله تعالى وتخصيص الاضافة التشريفية بهذا الاسم الكريم للتنبيه على ذلك أو الى دار يسلم الله أو الملائكة فيها على من يدخلها أو يسلم بعضهم على بعض ﴿ ويهدى من يشاء ﴾ هدايته منهم ﴿ الى صراط مستقيم ﴾ موصل اليها وهو الاسلام والتزود بالتقوى وفى تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الارادة وأن من أصر على الضلالة لم يرد الله رشده ﴿ للذين أحسنوا ﴾ أى أعمالهم أى عملوها على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ﴿ الحسنى ﴾ أى المثوبة الحسنى ﴿ وزيادة ﴾ أى وما يزيد على تلك المثوبة تفضلا لقوله عز اسمه و يزيدهم من فضله وقيل الحسنى مثل حسناتهم والزيادة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وأكثر وقيل الزيادة مغفرة من الله و رضوان وقيل الحسنى الجنة والزيادة اللقاء ﴿ ولا يرهق وجوههم ﴾ أى لا يغشاها ﴿ قتر ﴾ غبرة فيها سواد ﴿ ولا ذلة ﴾ أى أثر هوان وكسوف بال والمعنى لا يرهقهم ما يرهق أهل النار أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من الحزن وسوء الحال والتنكير للتحقير أى شىء منهما والجملة مستأنفة لبيان أمنهم من المكاره اثر بيان فوزهم بالمطالب والثانى وان اقتضى الأول الا أنه ذكر اذكارا بما ينقذهم الله تعالى منه برحمته وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام ببيان أن المصون من الرهق أشرف أعضائهم وللتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة لوروده فعند وروده عليها يتمكن عندها فضل تمكن ولأن فى الفاعل ضرب تفصيل كما فى قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وقوله عز وجل وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿ أولئك ﴾ اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بالصفات المذكورة وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم أى أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجليلة الفائزون بالمثوبات الناجون عن المكاره ﴿ أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ بلا زوال دائمون بلا انتقال ﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾ أى الشرك والمعاصى وهو مبتدا بتقدير المضاف خبره قوله تعالى ﴿ جزاء سيئة بمثلها ﴾ أى جزاء الذين كسبوا السيئات أن يجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزاد عليها كما يزاد فى الحسنة وتغيير السبك حيث لم يقل وللذين كسبوا السيئات السوأى لمراعاة ما بين الفريقين من كمال التنائى والتباين وايراد الكسب للايذان بأن ذلك انما هو لسوء صنيعهم و بسبب جنايتهم على أنفسهم أو الموصول معطوف على الموصول الأول كأنه قيل وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها كقولك فى الدار زيد والحجرة عمرو وفيه دلالة على أن المراد بالزيادة الفضل ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ وأى ذلة كما ينبىء عنه التنوين التفخيمى وفى اسناد الرهق الى أنفسهم دون وجوههم ايذان بأنها محيطة بهم غاشية لهم جميعا وقرىء يرهقهم بالياء التحتانية ﴿ مالهم من الله من عاصم ﴾ أى لا يعصمهم أحد من سخطه وعذابه تعالى أو ما لهم من عنده تعالى من يعصمهم كما يكون للمؤمنين وفى نفى العاصم من المبالغة فى نفى العصمة ما لا يخفى والجملة مستأنفة أو حال من ضمير ترهقهم ﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل ﴾ لفرط سوادها وظلمتها ﴿ مظلما ﴾ حال من الليل والعامل فيه أغشيت لانه العامل فى قطعا وهو موصوف بالجار والمجرور والعامل فى الموصوف عامل فى الصفة أو معنى الفعل فى من الليل وقرىء قطعا بسكون الطاء وهو طائفة من الليل قال

افتحى الباب وانظرى فى النجوم   كم علينا من قطع ليل بهيم

فيجوز كون مظلما صفة له أو حالا منه وقرىء كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم والجملة كما قبلها مستأنفة أو حال من ضمير ترهقهم ﴿أولئك﴾ أى الموصوفون بما ذكر من الصفات الذميمة ﴿أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ وحيث كانت الآية الكريمة فى حق الكفار بشهادة السياق والسباق لم يكن فيها تمسك للوعيدية ﴿ويوم نحشرهم﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بعض آخر من أحوالهم الفظيعة وتأخيره فى الذكر مع تقدمه فى الوجود على بعض أحوالهم المحكية سابقا للايذان باستقلال كل من السابق واللاحق بالاعتبار ولو روعى الترتيب الخارجى لعد الكل شيأ واحدا كما مر فى قصة البقرة ولذلك فصل عما قبله و يوم منصوب على المفعولية بمضمر أى أنذرهم أو ذكرهم وضمير نحشرهم لكلا الفريقين الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات لأنه المتبادر من قوله تعالى ﴿جميعا﴾ ومن أفراد الفريق الثانى بالذكر فى قوله تعالى ﴿ثم نقول للذين أشركوا﴾ أى نقول للمشركين من بينهم و لأن توبيخهم وتهديدهم على رؤس الاشهاد أفظع والاخبار بحشر الكل فى تهويل اليوم أدخل وتخصيص وصف اشراكهم بالذكر فى حيز الصلة من بين سائر ما اكتسبوه من السيئات لابتناء التوبيخ والتقريع عليه مع ما فيه من الايذان بكونه معظم جناياتهم وعمدة سيئاتهم وقيل للفريق الثانى خاصة فيكون وضع الموصول موضع الضمير لما ذكر آنفا ﴿مكانكم﴾ نصب على أنه فى الاصل ظرف لفعل أقيم مقامه لا على أنه اسم فعل وحركته حركة بناء كما هو رأى الفارسى أى الزموه حتى تنظروا ما يفعل بكم ﴿أنتم﴾ تأكيد للضمير المنتقل اليه من عامله لسده مسده ﴿وشركاؤكم﴾ عطف عليه وقرىء بالنصب على أن الواو بمعنى مع ﴿فزيلنا﴾ من زلت الشىء عن مكانه أزيله أى أزلته والتضعيف للتكثير لا للتعدية وقرىء فزايلنا بمعناه نحو كلمته وكالمته وهو معطوف على نقول وايثار صيغة الماضى للدلالة على التحقق المورث لزيادة التوبيخ والتحسير والفاء للدلالة على وقوع التزييل ومباديه عقيب الخطاب من غير مهلة ايذانا بكمال رخاوة ما بين الفريقين من العلاقة والوصلة أى ففرقنا ﴿بينهم﴾ وقطعنا أقرانهم والوصل التى كانت بينهم فى الدنيا لكن لا من الجانبين بل من جانب العبدة فقط لعدم احتمال شمول الشركاء للشياطين كما سيجىء فخابت آمالهم وانصرمت عرى أطماعهم وحصل لهم اليأس الكلى من حصول ما كانوا يرجونه من جهتهم والحال وان كانت معلومة لهم من حين الموت والابتلاء بالعذاب لكن هذه المرتبة من اليقين انما حصلت عند المشاهدة والمشافهة وقيل المراد بالتزييل التفريق الحسى أى فباعدنا بينهم بعد الجمع فى الموقف وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم كما فى قوله تعالى أينما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا فالواو حينئذ فى قوله تعالى ﴿وقال شركاؤهم﴾ حالية بتقدير كلمة قد عند من يشترطها و بدونه عند غيره لا عاطفة كما فى التفسير الاول لاستدعاء المحاورة الحاضرة الفائتة بالمباعدة وليس فى ترتيب التزييل بهذا المعنى على الامر بلزوم المكان ما فى ترتيبه عليه بالمعنى الاول من النكتة المذكورة ليصار لاجل رعايتها الى تغيير الترتيب الخارجى فان المباعدة بعد المحاورة حتما وأما قطع الاقران والعلائق فليس كذلك بل ابتداؤه حاصل من حين الحشر بل بعض مراتبه حاصل قبله أيضا وانما الحاصل عند المحاورة أقصاها كما أشير اليه فلا اعتداد بما فى تقديمه من التغيير لاسيما مع رعاية ما ذكر من النكتة ولو سلم تأخر جميع مراتبه عن المحاورة فمراعاة تلك النكتة كافية فى استدعاء تقديمه عليها و يجوز أن تكون حالية على هذا التقدير أيضا والمراد بالشركاء قيل الملائكة وعزير والمسيح وغيرهم ممن عبدوه من أولى العلم ففيه تأييد لرجوع الضمير الى الكل وقولهم ﴿ما كنتم ايانا تعبدون﴾ عبارة عن تبرئهم من عبادتهم وأنهم انما عبدوا فى الحقيقة أهواءهم وشياطينهم الذين أغووهم لانها الآمرة لهم بالاشراك دونهم كقولهم سبحانك أنت ولينا من دونهم الآية وقيل الاصنام ينطقها الله الذى أنطق كل شىء فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التى كانوا يتوقعونها ﴿فكفى بالله شهيدا بيننا و بينكم﴾ فانه العليم الخبير ﴿ان كنا عن

عبادتكم لغافلين ﴾ أى عن عبادتكم لنا وتركه للظهور وللايذان بكمال الغفلة عنها والغفلة عبارة عن عدم الارتضاء والافعدم شعور الملائكة بعبادتهم لهم غير ظاهر وهذا يقطع احتمال كون المراد بالشركاء الشياطين كما قيل فان ارتضاءهم باشراكهم مما لاريب فيه وان لم يكونوا مجبرين لهم على ذلك وان مخففة من ان واللام فارقة ﴿ هنالك ﴾ أى فى ذلك المقام الدهش أو فى ذلك الوقت على استعارة ظرف المكان للزمان ﴿ تبلو ﴾ أى تختبر وتذوق ﴿ كل نفس ﴾ مؤمنة كانت أو كافرة سعيدة أو شقية ﴿ ما أسلفت ﴾ من العمل وتعاينه بكنهه مستتبعا لآثاره من نفع أو ضر وخير أو شر وأما ماعلمت من حالها من حين الموت والابتلاء بالعذاب فى البرزخ فأمر مجمل وقرىء نبلو بنون العظمة ونصب كل وابدال مامنه أى نعاملها معاملة من يبلوها و يتعرف أحوالها من السعادة والشقاوة باختبار ما أسلفت من العمل ويجوز أن يراد نصيب بالبلاء أى العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر فيكون مامنصوبة بنزع الخافض وقرىء تتلو أى تتبع لأن عملها هو الذى يهديها الى طريق الجنة أو الى طريق النار أو تقرأ فى صحيفة أعمالها ماقدمت من خير أو شر ﴿ وردوا ﴾ الضمير للذين أشركوا على أنه معطوف على زيلنا وماعطف عليه قوله عز وجل هنالك تبلو الخ اعتراض فى أثناء الحكاية مقرر لمضمونها ﴿ الى الله ﴾ أى الى جزائه وعقابه ﴿ مولاهم ﴾ ربهم ﴿ الحق ﴾ أى المتحقق الصادق ربوبيته لاما اتخذوه ربا باطلا وقرىء الحق بالنصب على المدح كقولهم الحمد لله أهل الحمد أو على المصدر المؤكد ﴿ وضل عنهم ﴾ وضاع أى ظهر ضياعه وضلاله لا أنه كان قبل ذلك غير ضال أو ضل فى اعتقادهم أيضا ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم أو ما كانوا يدعون أنها آلهة هذا وجعل الضمير فى ردوا للنفوس المدلول عليها بكل نفس على أنه معطوف على تبلو وأن العدول الى الماضى للدلالة على التحقق والتقرر وأن ايثار صيغة الجمع للايذان بأن ردهم الى الله يكون على طريقة الاجتماع لايلائمه التعرض لوصف الحقية فى قوله تعالى مولاهم الحق فانه للتعريض بالمردودين حسبما أشير اليه ولئن اكتفى فيه بالتعريض ببعضهم أو حمل الحق على معنى العدل فى الثواب والعقاب فقوله عز وجل وضل عنهم ما كانوا يفترون مما لامجال فيه للتدارك قطعا فان مافيه من الضمائر الثلاثة للمشركين فيلزم التفكيك حتما وتخصيص كل نفس بالنفوس المشركة مع عموم البلوى للكل يأباه مقام تهويل المقام والله تعالى أعلم ﴿ قل ﴾ أى لاولئك المشركين الذين حكيت أحوالهم و بين ما يؤدى اليه أعمالهم احتجاجا على حقية التوحيد و بطلان ماهم عليه من الاشراك ﴿ من يرزقكم من السماء والارض ﴾ أى منهما جميعا فان الارزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية أو من كل واحدة منهما توسعة عليكم وقيل من لبيان كلمة من على حذف المضاف أى من أهل السماء والارض ﴿ أم من يملك السمع والأبصار ﴾ أم منقطعة ومافيها من كلمة بل للاضراب عن الاستفهام الاول لكن لا على طريقة الابطال بل على وجه الانتقال وصرف الكلام عنه الى استفهام آخر تنبيها على كفايته فيما هو المقصود أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على هذه الفطرة العجيبة أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالها من أدنى شىء يصيبهما ﴿ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ﴾ أى ومن يحيى و يميت أو ومن ينشىء الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ أى ومن يلى تدبير أمر العالم جميعا وهو تعميم بعد تخصيص بعض ماندرج تحته من الأمور الظاهرة بالذكر ﴿ فسيقولون ﴾ بلا تلعثم ولا تأخير ﴿ الله ﴾ اذ لامجال للمكابرة لغاية وضوحه والخبر محذوف أى الله يفعل ماذكر من الافاعيل لاغيره ﴿ فقل ﴾ عند ذلك تبكيتا لهم ﴿ أفلا تتقون ﴾ الهمزة لانكار عدم الاتقاء بمعنى انكار الواقع كما فى أتضرب أباك لا بمعنى انكار الوقوع كما فى أأضرب أبى والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم أى أتعلمون ذلك فلاتتقون أنفسكم عذابه الذى ذكر لكم بما تتعاطونه من اشراككم به

مالا يشاركه فى شىء مما ذكر من خواص الالهية ﴿فذلكم﴾ فذلكة لما تقدم أى ذلكم الذى اعترفتم باتصافه بالنعوت المذكورة وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿الله﴾ خبره وقوله تعالى ﴿ربكم﴾ أى مالككم ومتولى أموركم على الاطلاق بدل منه أو بيان له وقوله تعالى ﴿الحق﴾ صفة له أى ربكم الثابت ربوبيته والمتحقق ألوهيته تحققا لاريب فيه ﴿فماذا﴾ يجوز أن يكون الكل اسما واحدا قد غلب فيه الاستفهام على اسم الاشارة وأن يكون ذا موصولا بمعنى الذى أى ماالذى ﴿بعد الحق﴾ أى غيره بطريق الاستعارة واظهار الحق اما لأن المراد به غير الاول واما لزيادة التقرير ومراعاة كمال المقابلة بينه وبين الضلال والاستفهام انكارى بمعنى انكار الوقوع ونفيه أى ليس غير الحق ﴿الا الضلال﴾ الذى لا يختاره أحد فحيث ثبت أن عبادة من هو منعوت بما ذكر من النعوت الجميلة حق ظهر أن ماعداها من عبادة الاصنام ضلال محض اذ لا واسطة بينهما وانما سميت ضلالا مع كونها من أعمال الجوارح باعتبار ابتنائها على ماهو ضلال من الاعتقاد والرأى هذا على تقدير كون الحق عبارة عن التوحيد وأما على تقدير كونه عبارة عن الاول فالمراد بالضلال هو الاصنام لاعبادتها والمعنى فماذا بعد الرب الحق الثابت ربوبيته الا الضلال أى الباطل الضائع المضمحل وانما سمى بالمصدر مبالغة كأنه نفس الضلال والضياع وهذا أنسب بقوله تعالى وضل عنهم ما كانوا يفترون على التفسير الثانى ﴿فأنى تصرفون﴾ استفهام انكارى بمعنى انكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه وفيه من المبالغة ماليس فى توجيه الانكار الى نفس الفعل لأن كل موجود لابد من أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعا فاذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى كما مر مرارا والفاء لترتيب الانكار على ماقبله أى كيف تصرفون من الحق الذى لامحيد عنه وهو التوحيد الى الضلال عن السبيل المستبين وهو الاشراك وعبادة الاصنام أو من عبادة ربكم الحق الثابت ربوبيته الى عبادة الباطل الذى سمعتم ضلاله وضياعه فى الآخرة وفى ايثار صيغة المبنى للمفعول ايذان بأن الانصراف من الحق الى الضلال مما لا يصدر عن العاقل بارادته وانما يقع عند وقوعه بالقسر من جهة صارف خارجى ﴿كذلك﴾ أى كما حقت الربوبية لله تعالى أو كما أنه ليس بعد الحق الا الضلال أو أنهم مصروفون عن الحق ﴿حقت كلمة ربك﴾ وحكمه وقضاؤه ﴿على الذين فسقوا﴾ أى تمردوا فى الكفر وخرجوا من أقصى حدوده ﴿أنهم لايؤمنون﴾ بدل من الكلمة أو تعليل لحقيتها والمراد بها العدة بالعذاب ﴿قل هل من شركائكم﴾ احتجاج آخر على حقية التوحيد وبطلان الاشراك باظهار كون شركائهم بمعزل من استحقاق الالهية ببيان اختصاص خواصها من بدء الخلق واعادته به سبحانه وتعالى وانما لم يعطف على ما قبله ايذانا باستقلاله فى اثبات المطلوب والسؤال للتبكيت والالزام وقد جعلت هلية الاعادة وتحققها لوضوح مكانها وسنوح برهانها بمنزلة بدء الخلق فنظمت فى سلكه حيث قيل ﴿من يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ ايذانا بتلازمهما وجودا وعلما يستلزم الاعتراف بها وان صدهم عن ذلك مابهم من المكابرة والعناد ثم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يبين لهم من يفعل ذلك فقيل له ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أى هو يفعلهما لاغير كائنا ما كان لابأن ينوب عليه الصلاة والسلام عنهم فى ذلك كما قيل لأن القول المأمور به غير ما أريد منهم من الجواب وان كان مستلزما له اذ ليس المسئول عنه من يبدأ الخلق ثم يعيده كما فى قوله تعالى قل من رب السموات والارض قل الله حتى يكون القول المأمور به عين الجواب الذى أريد منهم ويكون عليه الصلاة والسلام نائبا عنهم فى ذلك بل انما هو وجود من يفعل البدء والاعادة من شركائهم فالجواب المطلوب منهم لا لاغير نعم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يضمنه مقالته ايذانا بتعينه وتحققه واشعارا بأنهم لا يجترئون على التصريح به مخافة التبكيت والقام الحجر لا مكابرة ولجاجا فتدبر واعادة الجملة فى الجواب بتمامها غير محذوفة الخبر كما فى الجواب السابق لمزيد التأكيد

والتحقيق ﴿فأنى تؤفكون﴾ الافك الصرف والقلب عن الشيء وقد يخص بالقلب عن الرأى وهو الأنسب بالمقام أى كيف تقلبون من الحق الى الباطل والكلام فيه كما ذكر فى تصرفون ﴿قل هل من شركائكم﴾ احتجاج آخر على ما ذكر جيء به الزاما لهم غب الزام والحاما اثر الحام وفصله عما قبله لما ذكر من الدلالة على استقلاله ﴿من يهدى الى الحق﴾ أى بوجه من الوجوه فان أدنى مراتب المعبودية هداية المعبود لعبدته الى ما فيه صلاح أمرهم وأما تعيين طريق الهداية وتخصيصه بنصب الحجج وارسال الرسل والتوفيق للنظر والتدبر كما قيل فمخل بما يقتضيه المقام من كال التبكيت والالزام فان العجز عن الهداية على وجه خاص لا يستلزم العجز عن مطلق الهداية وهدى كما يستعمل بكلمة الى لتضمنه معنى الانتهاء يستعمل باللام للدلالة على أن المنتهى غاية الهداية وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك استعمل بها ما أسند الى الله تعالى حيث قيل ﴿قل الله يهدى للحق﴾ أى هو يهدى له دون غيره وذلك بما ذكر من نصب الأدلة والحجج وارسال الرسل وانزال الكتب والتوفيق للنظر والتدبر وغير ذلك من فنون الهدايات والكلام فى الأمر بالسؤال والجواب كما مر فيما مر ﴿أفمن يهدى الى الحق﴾ وهو الله عز وجل ﴿أحق أن يتبع أمن لا يهدى﴾ بكسر الهاء أصله يهتدى فأدغم وكسرت الهاء لالتقاء الساكنين وقرىء بكسر الياء اتباعا لها لحركة الهاء وقرىء بفتح الهاء نقلا لحركة التاء اليها أى لا يهتدى بنفسه فضلا عن هداية غيره وفيه من المبالغة ما لا يخفى وانما نفى عنه الاهتداء مع أن المفهوم مما سبق نفى الهداية لما أن نفيها مستتبع لنفيه غالبا فان من اهتدى الى الحق لا يخلو عن هداية غيره فى الجملة وأدناها كونه قدوة له بأن يراه فيسلك مسلكه من حيث لا يدرى والفاء لترتيب الاستفهام على ماسبق من تحقق هدايته تعالى صريحا وعدم هداية شركائهم المفهوم من القصر ومن عدم الجواب المنبىء عن الجواب بالعدم فان ذلك مما يضطرهم الى الجواب الحق لا لتوجيه الاستفهام الى الترتيب كما يقع فى بعض المواقع فان ذلك مختص بالانكارى كما فى قوله تعالى أفمن اتبع رضوان الله الخ ونحوه والهمزة متأخرة فى الاعتبار وانما تقديمها فى الذكر لاظهار عراقتها فى اقتضاء الصدارة كما هو رأى الجمهور حتى لو كان السؤال بكلمة أى لأخرت حتما ألا يرى الى قوله تعالى فأى الفريقين أحق بالأمن اثر تقدير ما يلجىء المشركين الى الجواب من حالهم وحال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء لا يهدى بمعنى لا يهتدى لمجيئه لازما أو لا يهدى غيره وصيغة التفضيل اما على حقيقتها والمفضل عليه محذوف كما اختاره مكى والتقدير أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع ممن لا يهدى أم من لا يهدى أحق الخ واما بمعنى حقيق كما اختاره أبو حيان وأيا ما كان فالاستفهام للالزام وأن يتبع فى حيز النصب أو الجر بعد حذف الجار على الخلاف المعروف أى بأن يتبع ﴿الا أن يهدى﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا يهتدى أو لا يهدى غيره فى حال من الاحوال الا حال هدايته تعالى له الى الاهتداء أو الى هداية الغير وهذا حال اشراف شركائهم من الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام وقيل المعنى أم من لا يهتدى من الاوثان الى مكان فينتقل اليه الا أن ينقل اليه أو الا أن ينقله الله تعالى من حاله الى أن يجعله حيوانا مكلفا فيهديه وقرىء الا أن يهدى من التفعيل للمبالغة ﴿فما لكم﴾ أى أى شيء لكم فى اتخاذكم هؤلاء شركاء لله سبحانه وتعالى والاستفهام للانكار التوبيخى وفيه تعجيب من حالهم وقوله تعالى ﴿كيف تحكمون﴾ أى بما يقضى صريح العقل ببطلانه انكار لحكمهم الباطل وتعجب منه وتشنيع لهم بذلك والفاء لترتيب كلا الانكارين على ماظهر من وجوب اتباع الهادى الى الحق ان قلت التبكيت بالاستفهام السابق انما يظهر فى حق من يعكس جوابه الصحيح فيحكم بأحقية من لا يهدى بالاتباع دون من يهدى وهم ليسوا حاكمين بأحقية شركائهم لذلك دون الله سبحانه وتعالى بل باستحقاقهما جميعا مع رجحان جانبه تعالى حيث يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قلت حكمهم باستحقاقه تعالى للاتباع بطريق الاشتراك حكم منهم

بعدم استحقاقه تعالى لذلك بطريق الاستقلال فصاروا حاكمين باستحقاق شركائهم له دون الله تعالى من حيث لا يحتسبون ﴿وما يتبع أكثرهم﴾ كلام مبتدأ غير داخل فى حيز الامر مسوق من قبله تعالى لبيان عدم فهمهم لمضمون ما أفحمهم وألقمهم الحجر من البرهان النير الموجب لاتباع الهادى الى الحق الناعى عليهم بطلان حكمهم وعدم تأثرهم من ذلك لعدم اهتدائهم الى طريق العلم أصلا أن مايتبع أكثرهم فى معتقداتهم ومحاوراتهم ﴿الاظنا﴾ واهيا من غير التفات الى فرد من أفراد العلم فضلا عن أن يسلكوا مسالك الادلة الصحيحة الهادية الى الحق المبنية على المقدمات اليقينية الحقة فيفهموا مضمونها و يقفوا على صحتها و بطلان مايخالفها من أحكامهم الباطلة فيحصل التبكيت والالزام فالمراد بالاتباع مطلق الاعتقاد الشامل لما يقارن القبول والانقياد ومالا يقارنه و بالقصر ماأشير اليه من أن لا يكون لهم فى أثنائه اتباع لفرد من أفراد العلم والتفات اليه و وجه تخصيص هذا الاتباع بأكثرهم الاشعار بأن بعضهم قد يتبعون العلم فيقفون على حقية التوحيد و بطلان الشرك لكن لا يقبلونه مكابرة وعنادا فيحصل بالنسبة اليهم التأثر من البرهان المزبور وان لم يظهر وهو كونهم أشد كفرا وأكثر عذابا من الفريق الأول لا يقدح فيما يفهم من فحوى الكلام عرفا من كون أولئك أسوأ حالا من غيرهم اذ المعتبر سوء الحال من حيث الفهم والادراك لا من حيث الكفر والعذاب أو مايتبع أكثرهم مدة عمرهم الا ظنا و لا يتركونه أبدا فان حرف النفى الداخل على المضارع يفيد استمرار النفى بحسب المقام فالمراد بالاتباع حينئذ هو الاذعان والانقياد والقصر باعتبار الزمان و وجه تخصيص هذا الاتباع بأكثرهم مع مشاركة المعاندين لهم فى ذلك التلويح بما سيكون من بعضهم من اتباع الحق والتوبة كما سيأتى هذا وقد قيل المعنى وما يتبع أكثرهم فى اقرارهم بالله تعالى الا ظنا غير مستند الى برهان عندهم وقيل وما يتبع أكثرهم فى قولهم للاصنام انها آلهة الا ظنا والمراد بالاكثر الجميع فتأمل وقيل الضمير فى أكثرهم للناس فلا حاجة الى التكلف ﴿ان الظن لا يغنى من الحق﴾ من العلم اليقينى والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع ﴿شيئاً﴾ من الاغناء و يجوز أن يكون مفعولا به ومن الحق حالا منه والجملة استئناف ببيان شأن الظن و بطلانه وفيه دلالة على وجوب العلم فى الاصول وعدم جواز الاكتفاء بالتقليد ﴿ان الله عليم بما يفعلون﴾ وعيد لهم على أفعالهم القبيحة فيندرج تحتها ماحكى عنهم من الاعراض عن البراهين القاطعة والاتباع للظنون الفاسدة اندراجا أوليا وقرئ تفعلون بالالتفات الى الخطاب لتشديد الوعيد ﴿وما كان هذا القرآن﴾ شروع فى بيان ردهم للقرآن الكريم اثر بيان ردهم للادلة العقلية المندرجة فى تضاعيفه أى وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الهدايات المستوجبة للاتباع التى من جملتها هاتيك الحجج البينة الناطقة بحقية التوحيد و بطلان الشرك ﴿أن يفترى من دون الله﴾ أى افتراء من الخلق أى مفترى منهم سمى بالمصدر مبالغة ﴿ولكن تصديق الذى بين يديه﴾ من الكتب الالهية المشهود على صدقها أى مصدقا لها كيف لا وهو لكونه معجزا دونها عيار عليها شاهد بصحتها ونصبه بأنه خبر كان مقدرا وقد جوز كونه علة لفعل محذوف تقديره لكن أنزله الله تصديق الخ وقرئ بالرفع على تقدير المبتدا أى ولكن هو تصديق الخ ﴿وتفصيل الكتاب﴾ عطف عليه نصبا و رفعا أى وتفصيل ما كتب وأثبت من الحقائق والشرائع ﴿لا ريب فيه﴾ خبر ثالث داخل فى حكم الاستدراك أى منتفيا عنه الريب أو حال من الكتاب وان كان مضافا اليه فانه مفعول فى المعنى أو استئناف لا محل له من الاعراب ﴿من رب العالمين﴾ خبر آخر أى كائنا من رب العالمين أو متعلق بتصديق أو بتفصيل أو بالفعل المعلل بهما و لا ريب فيه اعتراض كما فى قولك زيد لاشك فيه كريم أو حال من الكتاب أو من الضمير فى فيه ومساق الآية الكريمة بعد المنع عن اتباع الظن لبيان مايجب اتباعه ﴿أم يقولون افتراه﴾ أى بل أيقولون افتراه محمد عليه الصلاة والسلام والهمزة لانكار الواقع

واستبعاده ﴿قل﴾ تبكيتالهم واظهاراً لبطلان مقالتهم الفاسدة ان كان الأمر كما تقولون ﴿فأتوا بسورة مثله﴾ أى فى البلاغة وحسن الصياغة وقوة المعنى على وجه الافتراء فانكم مثلى فى العربية والفصاحة وأشد تمرنا منى فى النظم والعبارة وقرئ بسورة مثله على الاضافة أى بسورة كتاب مثله ﴿وادعوا﴾ للمظاهرة والمعاونة ﴿من استطعتم﴾ دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التى تزعمون أنها ممدة لكم فى المهمات والملمات ومدارهكم الذين تلجؤن الى آرائهم فى كل ماتأتون وماتذرون ﴿من دون الله﴾ متعلق بادعوا ودون جار مجرى أداة الاستثناء وقد مر تفصيله فى قوله تعالى وادعوا شهداءكم من دون الله أى ادعوا سواه تعالى من استطعتم من خلقه فانه لا يقدر عليه أحد واخراجه سبحانه من حكم الدعاء للتنصيص على براءتهم منه تعالى وكونهم فى عدوة المضادة والمشاقة لالبيان استبداده تعالى بالقدرة على ماكلفوه فان ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم اليه ﴿ان كنتم صادقين﴾ أى فى انى افتريته فان ذلك مستلزم لامكان الاتيان بمثله وهو أيضا مستلزم لقدرتكم عليه والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ اضراب وانتقال عن اظهار بطلان ماقالوا فى حق القرآن العظيم بالتحدى الى اظهاره ببيان أنه كلام ناشئ عن جهلهم بشأنه الجليل فما عبارة عن كله لاعما فيه من ذكر البعث والجزاء وما يخالف دينهم كما قيل فانه مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن مثله أى سارعوا الى تكذيبه آثر ذى أثير من غير أن يتدبروا فيه و يقفوا على مافى تضاعيفه من الشواهد الدالة على كونه كما وصف آنفا و يعلموا أنه ليس مما يمكن أن يكون له نظير يقدر عليه المخلوق والتعبير عنه بما لم يحيطوا بعلمه دون أن يقال بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحو ذلك للايذان بكمال جهلهم به وأنهم لم يعلموه الا بعنوان عدم العلم به وبأن تكذيبهم به انما هو بسبب عدم علمهم به لما أن ادارة الحكم على الموصول مشعرة بعلية مافى حيز الصلة له ﴿ولما يأتهم تأويله﴾ عطف على الصلة أو حال من الموصول أى ولم يقفوا بعد على تأويله ولم يبلغ أذهانهم معانيه الرائقة المنبئة عن علو شأنه والتعبير عن ذلك باتيان التأويل للاشعار بأن تأويله متوجه الى الأذهان منساق اليها بنفسه أو لم يأتهم بعد تأويل مافيه من الاخبار بالغيوب حتى يتبين أنه صدق أم كذب والمعنى أن القرآن معجز من جهة النظم والمعنى ومن جهة الاخبار بالغيب وهم قد فاجؤا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه و يتفكروا فى معناه أو ينتظروا وقوع ما أخبر به من الأمور المستقبلة ونفى اتيان التأويل بكلمة لما الدالة على التوقع بعد نفى الاحاطة بعلمه بكلمة لم لتأكيد الذم وتشديد التشنيع فان الشناعة فى تكذيب الشئ قبل علمه المتوقع اتيانه أفحش منها فى تكذيبه قبل علمه مطلقا والمعنى أنه كان يجب عليهم أن يتوقفوا الى زمان وقوع المتوقع فلم يفعلوا وأما أن المتوقع قد وقع بعد وأنهم استمروا عند ذلك أيضا على ماهم عليه أو لا فلا تعرض له ههنا والاستشهاد عليه بعدم انقطاع الذم أو ادعاء أن قولهم افتراه تكذيب بعد التدبر ناشئ من عدم التدبر فتدبر كيف لا وهم لم يقولوه بعد التحدى بل قبله وادعاء كونه مسبوقا بالتحدى الوارد فى سورة البقرة يرده أنها مدنية وهذه مكية وانما الذى يدل عليه ماسيتلى عليك من قوله تعالى ومنهم من يؤمن به ومنهم الخ وقوله تعالى ﴿كذلك﴾ الخ وصف لحالهم المحكى وبيان لما يؤدى اليه من العقوبة أى مثل ذلك التكذيب المبنى على بادى الرأى والمجازفة من غير تدبر وتأمل ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ أى فعلوا التكذيب أو كذبوا ما كذبوا من المعجزات التى ظهرت على أيدى أنبيائهم أو كذبوا أنبياءهم ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ وهم الذين من قبلهم من المكذبين وانما وضع المظهر موضع المضمر للايذان بكون التكذيب ظلما أو بعليته لاصابة ما أصابهم من سوء العاقبة وبدخول هؤلاء الظالمين فى زمرتهم جرما وعيدا دخولا أوليا وقوله عز وجل ﴿ومنهم﴾ الخ وصف لحالهم بعد اتيان التأويل المتوقع اذ حينئذ يمكن تنويعهم الى المؤمن به وغير المؤمن به ضرورة امتناع الايمان بشئ من غير علم به واشتراك الكل فى التكذيب والكفر به

قبل ذلك حسبما أفاده قوله تعالى بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه أى ومن هؤلاء المكذبين ﴿من يؤمن به﴾ عند الاحاطة بعلمه واتيان تأويله وظهور حقيته بعد ماسعوا فى المعارضة و راز وا قواهم فيها فتضاءلت دونها أو بعد ماشاهدوا وقوع ما أخبر به كما أخبر به مرارا ومعنى الايمان به اما الاعتقاد بحقيته فقط أى يصدق به فى نفسه و يعلم أنه حق ولكنه يعاند و يكابر وهؤلاء هم الذين أشير بقصر اتباع الظن على أكثرهم الى أنهم يعلمون الحق على التفسير الأول كما أشير اليه فيما سلف واما الايمان الحقيقى أى سيؤمن به و يتوب عن الكفر وهم الذين أشير بالقصر المذكور على التفسير الثانى الى أنهم سيتبعون الحق كما مر ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ أى لا يصدق به فى نفسه كما لا يصدق به ظاهرا لفرط غباوته المانعة عن الاحاطة بعلمه كما ينبغى وان كان فوق مرتبة عدم الاحاطة به أصلا أو لسخافة عقله واختلال تمييزه وعجزه عن تخليص علومه عن مخالطة الظنون والاوهام التى ألفها فيبقى على ما كان عليه من الشك وهذا القدر من الاحاطة واتيان التأويل كاف فى مقابلة ماسبق من عدم الاحاطة بالمرة وهؤلاء هم الذين أريدوا فيما سلف بقوله عز وجل وما يتبع أكثرهم الا ظنا على التفسير الأول أو لا يؤمن به فيما سيأتى بل يموت على كفره معاندا كان أو شاكا وهم المستمرون على اتباع الظن على التفسير الثانى من غير اذعان للحق وانقياد له ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ أى بكلا الفريقين على الوجه الأول لا بالمعاندين فقط كما قيل لاشتراكهما فى أصل الافساد المستدعى لاشتراكهما فى الوعيد أو بالمصرين الباقين على الكفر على الوجه الثانى من المعاندين والشاكين ﴿وان كذبوك﴾ أى ان تموا على تكذيبك وأصروا عليه حسبما أخبر عنهم بعد الزام الحجة بالتحدى ﴿فقل لى عملى ولكم عملكم﴾ أى تبرأ منهم فقد أعذرت كقوله تعالى فان عصوك فقل انى برىء والمعنى لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم حقا كان أو باطلا وتوحيد العمل المضاف اليهم باعتبار الاتحاد النوعى ولمراعاة كمال المقابلة ﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون﴾ تأكيد لما أفادته لام الاختصاص من عدم تعدى جزاء العمل الى غير عامله أى لا تؤاخذون بعملى و لا أؤاخذ بعملكم ولما فيه من ايهام المتاركة وعدم التعرض لهم قيل انه منسوخ بآية السيف ﴿ومنهم من يستمعون اليك﴾ بيان لكونهم مطبوعا على قلوبهم بحيث لا سبيل الى ايمانهم وانما جمع الضمير الراجع الى كلمة من رعاية لجانب المعنى كما أفرد فيما سيأتى محافظة على ظاهر اللفظ ولعل ذلك للايماء الى كثرة المستمعين بناء على عدم توقف الاستماع على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحجاب والظلمة أى ومنهم ناس يستمعون اليك عند قراءتك القرآن وتعليمك الشرائع ﴿أفأنت تسمع الصم﴾ همزة الاستفهام انكارية والفاء عاطفة وليس الجمع بينهما لترتيب انكار الاسماع على الاستماع كما هو رأى سيبويه والجمهور على أن يجعل تقديم الهمزة على الفاء لاقتضائها الصدارة كما تقرر فى موضعه بل لانكار ترتبه عليه حسبما هو المعتاد لكن لا بطريق العطف على الفعل المذكور لادائه الى اختلال المعنى لانه اما صلة أو صفة وأياما كان فالعطف عليه يستدعى دخول المعطوف فى حيزه وتوجه الانكار اليه من تلك الحيثية و لا ريب فى فساده بل بطريق العطف على مقدر مفهوم من فحوى النظم كأنه قيل أيستمعون اليك فأنت تسمعهم لا انكارا لاستماعهم فانه أمر محقق بل انكارا لوقوع الاستماع عقيب ذلك وترتبه عليه حسب العادة الكلية بل نفيا لامكانه أيضا كما ينبىء عنه وضع الصم موضع ضميرهم و وصفهم بعدم العقل بقوله تعالى ﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾ أى ولو انضم الى صممهم عدم عقولهم لان الاصم العاقل ربما تفرس اذا وصل الى صماخه صوت وأما اذا اجتمع فقدان السمع والعقل جميعا فقد تم الأمر ﴿ومنهم من ينظر اليك﴾ و يعاين دلائل نبوتك الواضحة ﴿أفأنت﴾ أى أعقيب ذلك أنت تهديهم وانما قيل ﴿تهدى العمى﴾ تربية لانكار هدايتهم وابرازا لوقوعها فى معرض الاستحالة وقد أكد ذلك حيث قيل ﴿ولو كانوا لا يبصرون﴾ أى ولو انضم الى عدم البصر عدم البصيرة فان المقصود من

الابصار الاعتبار والاستبصار والعمدة فى ذلك هى البصيرة و لذلك يحدس الاعمى المستبصر و يتفطن لما لا يدركه البصير الاحمق فحيث اجتمع فيهم الحمق والعمى فقد انسد عليهم باب الهدى وجواب لو فى الجملتين محذوف لدلالة قوله تعالى تسمع الصم تهدى العمى عليه و كل منهما معطوفة على جملة مقدرة مقابلة لها فى الفحوى كلتاهما فى موضع الحال من مفعول الفعل السابق أى أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون أفأنت تهدى العمى لو كانوا يبصرون ولو كانوا لا يبصرون أى على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى فى الباب حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة فان الشيء اذا تحقق عند تحقق المانع أو المانع القوى فلأن يتحقق عند عدمه أو عند تحقق المانع الضعيف أولى وعلى هذه النكتة يدور ما فى لو وان الوصليتين من التأكيد وقد مر الكلام فى قوله تعالى و لو كره الكافرون ونظائره مرارا ﴿ان الله لا يظلم الناس﴾ اشارة الى أن ما حكى عنهم من عدم اهتدائهم الى طريق الحق وتعطل مشاعرهم من الادراك ليس لأمر مستند الى الله عز وجل من خلقهم مؤفى المشاعر ونحو ذلك بل انما هو من قبلهم أى لا ينقصهم ﴿شيئا﴾ مما نيط به مصالحهم الدينية والدنيوية وكمالاتهم الاولوية والاخروية من مبادى ادراكاتهم وأسباب علومهم من المشاعر الظاهرة والباطنة والارشاد الى الحق بارسال الرسل وانزال الكتب بل يوفيهم ذلك من غير اخلال بشىء أصلا ﴿ولكن الناس﴾ وقرىء بالتخفيف و رفع الناس وضع الظاهر موضع الضمير لزيادة تعيين وتقرير أى لكنهم بعدم استعمال مشاعرهم فيما خلقت له واعراضهم عن قبول دعوة الحق وتكذيبهم للرسل والكتب ﴿أنفسهم يظلمون﴾ أى ينقصون ما ينقصون مما يخلون به من مبادى كمالهم وذرائع اهتدائهم وانما لم يذكر لما أن مرمى الغرض انما هو قصر الظلم على أنفسهم لا لبيان ما يتعلق به الظلم والتعبير عن فعلهم بالنقص مع كونه تفويتا بالكلية وابطالا بالمرة لمراعاة جانب قرينته وقوله عز وجل أنفسهم اما تأكيد للناس فيكون بمنزلة ضمير الفصل فى قوله تعالى وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين فى قصر الظالمية عليهم واما مفعول ليظلمون حسبما وقع فى سائر المواقع وتقديمه عليه لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد الى قصر المظلومية عليهم على رأى من لا يرى التقديم موجبا للقصر فيكون كما فى قوله تعالى وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم من غير قصر للظلم لا على الفاعل ولا على المفعول وأما على رأى من يراه موجبا له فلعل ايثار قصرها دون قصر الظالمية عليهم للمبالغة فى بيان بطلان أفعالهم وسخافة عقولهم لما أن أقبح الأمرين عند اتحاد الفاعل والمفعول وأشدهما انكارا عند العقل ونفرة لدى الطبع وأوجبهما حذرا منه عند كل أحد هو المظلومية لا الظالمية على أن قصر الأولى عليهم مستلزم لما يقتضيه ظاهر الحال من قصر الثانية عليهم ضرورة أنه اذا لم يظلم أحد من الناس الا نفسه يلزم أن لا يظلمه الا نفسه اذ لو ظلمه غيره يلزم كون ذلك الغير ظالما لغير نفسه والمفروض أن لا يظلم أحد الا نفسه فاكتفى بالقصر الأول عن الثانى مع رعاية ما ذكر من الفائدة وصيغة المضارع للاستمرار نفيا واثباتا فان حرف النفى اذا دخل على المضارع يفيد بحسب المقام استمرار النفى لا نفى الاستمرار ألا يرى أن قولك ما زيدا ضربت يدل على اختصاص النفى لا على نفى الاختصاص ومساق الآية الكريمة لالزام الحجة ويجوز أن يكون للوعيد فالمضارع المنفى للاستقبال والمثبت للاستمرار والمعنى أن الله لا يظلمهم بتعذيبهم يوم القيامة شيئا من الظلم ولكنهم أنفسهم يظلمون ظلما مستمرا فان مباشرتهم المستمرة للسيئات الموجبة للتعذيب عين ظلمهم لأنفسهم وعلى الوجهين فالآية الكريمة تذييل لما سبق ﴿ويوم يحشرهم﴾ منصوب بمضمر وقرىء بالنون على الالتفات أى اذكر لهم أو أنذرهم يوم يحشرهم ﴿كأن لم يلبثوا﴾ أى كأنهم لم يلبثوا ﴿الا ساعة من النهار﴾ أى شيئا قليلا منه فانها مثل فى غاية القلة وتخصيصها بالنهار لأن ساعاته أعرف حالا من ساعات الليل والجملة فى موقع الحال من ضمير المفعول أى

يحشرهم مشبهين فى أحوالهم الظاهرة للناس بمن لم يلبث فى الدنيا ولم يتقلب فى نعيمها الا ذلك القدر اليسير فان من أقام بها دهرا وتمتع بمتاعها لا يخلو عن بعض اثار نعمة وأحكام بهجة منافية لما بهم من رثاثة الهيئة وسوء الحال أو بمن لم يلبث فى البرزخ الا ذلك المقدار ففائدة التقييد بيان كمال يسر الحشر بالنسبة الى قدرته تعالى و لو بعد دهر طويل واظهار بطلان استبعادهم وانكارهم بقولهم أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ونحو ذلك أو بيان تمام الموافقة بين النشأتين فى الأشكال والصور فان قلة اللبث فى البرزخ من موجبات عدم التبدل والتغير فيكون قوله عز وعلا ﴿يتعارفون بينهم﴾ بيانا وتقريرا له لأن التعارف مع طول العهد ينقلب تناكرا وعلى الاول يكون استئنافا أى يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتفارقوا الا قليلا وذلك أول ما خرجوا من القبور اذهم حينئذ على ما كانوا عليه من الهيئة المتعارفة فيما بينهم ثم ينقطع التعارف بشدة الاهوال المذهلة واعتراء الاحوال المعضلة المغيرة للصور والاشكال المبدلة لها من حال الى حال ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ شهادة من الله سبحانه وتعالى على خسرانهم وتعجب منه وقيل حال من ضمير يتعارفون على ارادة القول والتعبير عنهم بالموصول مع كون المقام مقام اضمار لذمهم بما فى حيز الصلة والاشعار بعليته لما أصابهم والمراد بلقاء الله ان كان مطلق الحساب والجزاء أو حسن اللقاء فالمراد بالخسران الوضيعة والمعنى وضعوا فى تجاراتهم ومعاملاتهم واشترائهم الكفر بالايمان والضلالة بالهدى ومعنى قوله تعالى ﴿وما كانوا مهتدين﴾ ما كانوا عارفين بأحوال التجارة مهتدين لطرقها وان كان سوء اللقاء فالخسار الهلاك والضلال أى قد ضلوا وهلكوا بتكذيبهم وما كانوا مهتدين الى طريق النجاة ﴿وإما نرينك﴾ أصله ان نرك ومامزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة أكد الفعل بالنون أى بنصرتك بأن نظهرلك ﴿بعض الذى نعدهم﴾ أى وعدناهم من العذاب ونعجله فى حياتك فتراه والعدول الى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار أى نعدهم وعدا متجددا حسبما تقتضيه الحكمة من انذار غب انذار وفى تخصيص البعض بالذكر رمز الى العدة باراءة بعض الموعود وقد أراه يوم بدر ﴿أو نتوفينك﴾ قبل ذلك ﴿فالينا مرجعهم﴾ أى كيفما دارت الحال أريناك بعض ما وعدناهم أو لا فالينا مرجعهم فى الدنيا والآخرة فننجز ما وعدناهم البتة وقيل المذكور جواب للشرط الثانى كأنه قيل فالينا مرجعهم فنريكه فى الآخرة وجواب الأول محذوف لظهوره أى فذاك ﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ من الافعال السيئة التى حكيت عنهم والمراد بالشهادة اما مقتضاها ونتيجتها وهى معاقبته تعالى اياهم واما اقامتها وأداؤها بانطاق الجوارح واظهار اسم الجلالة لادخال الروعة وتربية المهابة وتأكيد التهديد وقرئ ثمة أى هناك ﴿ولكل أمة﴾ من الامم الخالية ﴿رسول﴾ يبعث اليهم بشريعة خاصة مناسبة لاحوالهم ليدعوهم الى الحق ﴿فاذا جاء رسولهم﴾ فبلغهم ما أرسل به فكذبوه وخالفوه ﴿قضى بينهم﴾ أى بين كل أمة ورسولها ﴿بالقسط﴾ بالعدل وحكم بنجاة الرسول والمؤمنين به وهلاك المكذبين كقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴿وهم لا يظلمون﴾ فى ذلك القضاء المستوجب لتعذيبهم لانه من نتائج أعمالهم أو ولكل أمة من الامم يوم القيامة رسول تنسب اليه وتدعى به فاذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والايمان كقوله عز وجل وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ استعجالا لما وعدوا من العذاب على طريقة الاستهزاء به والانكار حسبما يرشد اليه الجواب لاطلبا لتعيين وقت مجيئه على وجه الالزام كما فى سورة الملك ﴿ان كنتم صادقين﴾ أى فى أنه يأتينا والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الذين يتلون عليهم الآيات المتضمنة للوعد المذكور وجواب الشرط محذوف اعتمادا على ما تقدم حسبما حذف فى مثل قوله تعالى فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين فان الاستعجال فى قوة الامر بالاتيان عجلة كأنه قيل

فليأتنا بعجلة ان كنتم صادقين ولما فيه من الاشعار بكون اتيانه بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم قيل ﴿قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا﴾ أى لا أقدر على شئ منهما بوجه من الوجوه وتقديم الضر لما أن مساق النظم لاظهار العجز عنه وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تكملة للعجز وما وقع فى سورة الاعراف من تقديم النفع للاشعار بأهميته والمقام مقامه والمعنى انى لا أملك شيأ من شئونى ردا وايرادا مع أن ذلك أقرب حصولا فكيف أملك شئونكم حتى أتسبب فى اتيان عذابكم الموعود ﴿الا ما شاء الله﴾ استثناء منقطع أى ولكن ماشاء الله كائنا وحمله على الاتصال على معنى الا ماشاء الله أن أملكه يأباه مقام التبرؤ من أن يكون له عليه السلام دخل فى اتيان الوعد فان ذلك يستدعى بيان كون المتنازع فيه مما لا يشاء الله أن يملكه عليه السلام وجعل ماعبارة عن بعض الاحوال المعهودة المنوطة بالافعال الاختيارية المفوضة الى العباد على أن يكون المعنى لا أملك لنفسى شيأ من الضر والنفع الا ما شاء الله أن أملكه منهما من الضر والنفع المترتبين على أفعالى الاختيارية كالضر والنفع المترتبين على الاكل والشرب عدما ووجودا تعسف ظاهر وقوله تعالى ﴿لكل أمة أجل﴾ بيان لما أبهم فى الاستثناء وتقييد لما فى القضاء السابق من الاطلاق المشعر بكون المقضى به أمرا منجزا غير متوقف على شئ غير مجئ الرسول وتكذيب الامة أى لكل أمة أمة ممن قضى بينهم وبين رسولهم أجل معين خاص بهم لا يتعدى الى أمة أخرى مضروب لعذابهم يحل بهم عند حلوله ﴿اذا جاء أجلهم﴾ ان جعل الأجل عبارة عن حد معين من الزمان فمعنى مجيئه ظاهر وان أريد به ما امتد اليه من الزمان فمجيؤه عبارة عن انقضائه اذ هناك يتحقق مجيؤه بتمامه والضمير ان جعل للامم المدلول عليها بكل أمة فاظهار الاجل مضافا اليه لافادة المعنى المقصود الذى هو بلوغ كل أمة أجلها الخاص بها ومجيؤه اياها بعينها من بين الامم بواسطة اكتساب الاجل بالاضافة عموما يفيده معنى الجمعية كأنه قيل اذا جاءهم آجالهم بأن يجئ كل واحدة من تلك الامم أجلها الخاص بها وان جعل لكل أمة خاصة كما هو الظاهر فالاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاضافة الى الضمير لافادة كمال التعيين أى اذا جاءها أجلها الخاص بها ﴿فلا يستأخرون﴾ عن ذلك الاجل ﴿ساعة﴾ أى شيأ قليلا من الزمان فانها مثل فى غاية القلة منه أى لا يتأخرون عنه أصلا وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له ﴿ولا يستقدمون﴾ أى لا يتقدمون عليه وهو عطف على يستأخرون لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع امكانه فى نفسه كالتأخر بل للمبالغة فى انتفاء التأخر بنظمه فى سلك المستحيل عقلا كما فى قوله سبحانه وتعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار فان من مات كافرا مع ظهور أن لا توبة له رأسا قد نظم فى عدم قبول التوبة فى سلك من سوفها الى حضور الموت ايذانا بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة كما مر فى سورة الاعراف وقد جوز أن يراد بمجئ الاجل دنوه بحيث يمكن التقدم فى الجملة كمجئ اليوم الذى ضرب لهلاكهم ساعة معينة منه لكن ليس فى تقييد عدم الاستئخار بدنوه مزيد فائدة وتقديم بيان انتفاء الاستئخار على بيان انتفاء الاستقدام لأن المقصود الاهم بيان عدم خلاصهم من العذاب ولو ساعة وذلك بالتأخر وأما ما فى قوله تعالى ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون من سبق السبق فى الذكر فلما أن المراد هناك بيان سر تأخير عذابهم مع استحقاقهم له حسبما ينبئ عنه قوله عز وجل ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون فالاهم اذ ذاك بيان انتفاء السبق كما ذكرهناك ﴿قل﴾ لهم غب ما بينت كيفية جريان سنة الله عز وجل فيما بين الامم على الاطلاق ونبهتهم على أن عذابهم أمر مقرر محتوم لا يتوقف الا على مجئ أجله المعلوم ايذانا بكمال دنوه وتنزيلا له منزلة اتيانه حقيقة ﴿أرأيتم﴾ أى أخبرونى ﴿ان أتاكم عذابه﴾ الذى تستعجلون به ﴿بياتا﴾ أى وقت بيات واشتغال بالنوم ﴿أو نهارا﴾ أى عند اشتغالكم بمشاغلكم حسبما عين لكم من الاجل بمقتضى المشيئة

التابعة للحكمة كما عين لسائر الامم المهلكة وقوله عز وجل ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ جواب للشرط بحذف الفاء كما فى قولك ان أتيتك ماذا تطعمنى والمجرمون موضوع موضع المضمر لتأكيد الانكار ببيان مباينة حالهم للاستعجال فان حق المجرم أن يهلك فزعا من اتيان العذاب فضلا عن استعجاله والجملة الشرطية متعلقة بأرأيتم والمعنى أخبرونى ان أتاكم عذابه تعالى أى شىء تستعجلون منه سبحانه والشىء لا يمكن استعجاله بعد اتيانه والمراد به المبالغة فى انكار استعجاله باخراجه عن حيز الامكان وتنزيله فى الاستحالة منزلة استعجاله بعد اتيانه بناء على تنزيل تقرر اتيانه ودنوه منزلة اتيانه حقيقة كما أشير اليه وهذا الانكار بمنزلة النهى فى قوله عز وعلا أتى أمر الله فلا تستعجلوه خلا أن التنزيل هناك صريح وهنا ضمنى كما فى قول من قال لغريمه الذى يتقاضاه حقه أرأيت ان أعطيتك حقك فماذا تطلب منى يريد المبالغة فى انكار التقاضى بنظمه فى سلك التقاضى بعد الاعطاء بناء على تنزيل تقرره منزلة نفسه وقوله عز وجل ﴿أثم اذا ما وقع آمنتم به﴾ انكار لايمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقة داخل مع ماقبله من انكار استعجالهم به بعد اتيانه حكما تحت القول المأمور به أى أبعد ما وقع العذاب وحل بكم حقيقة آمنتم به حين لا ينفعكم الايمان انكارا لتأخيره الى هذا الحد وايذانا باستتباعه للندم والحسرة ليقلعوا عماهم عليه من العناد ويتوجهوا نحو التدارك قبل فوت الوقت فتقديم الظرف للقصر وقيل ماذا يستعجل منه متعلق بأرأيتم وجواب الشرط محذوف أى تندموا على الاستعجال أو تعرفوا خطأه والشرطية اعتراض مقرر لمضمون الاستخبار وقيل الجواب قوله تعالى أثم اذا ما وقع الخ والاستفهامية الاولى اعتراض والمعنى أخبرونى ان أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الايمان ثم جىء بكلمة التراخى دلالة على الاستبعاد ثم زيد أداة الشرط دلالة على استقلاله بالاستبعاد وعلى أن الأول كالتمهيد له وجىء باذا مؤكدا بما ترشيحا لمعنى الوقوع وزيادة للتجهيل وأنهم لم يؤمنوا الا بعد أن لم ينفعهم الايمان البتة وقوله تعالى ﴿آلآن﴾ استئناف من جهته تعالى غير داخل تحت القول الملقن مسوق لتقرير مضمون ماسبق على ارادة القول أى قيل لهم عند ايمانهم بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به انكارا للتأخير وتوبيخا عليه ببيان أنه لم يكن ذلك لعدم سبق الانذار به ولا للتأمل والتدبر فى شأنه ولا لشىء آخر مما عسى يعد عذرا فى التأخير بل كان ذلك على طريق التكذيب والاستعجال به على وجه الاستهزاء وقرىء آلان بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وقوله تعالى ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ أى تكذيبا واستهزاء جملة وقعت حالا من فاعل آمنتم المقدر لتشديد التوبيخ والتقريع وزيادة التنديم والتحسير وتقديم الجار والمجرور على الفعل لمراعاة الفواصل دون القصر وقوله تعالى ﴿ثم قيل﴾ الخ تأكيد للتوبيخ والعتاب بوعيد العذاب والعقاب وهو عطف على ماقدر قبل آلآن ﴿للذين ظلموا﴾ أى وضعوا الكفر والتكذيب موضع الايمان والتصديق أوظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب والهلاك ووضع الموصول موضع الضمير لذمهم بما فى حيز الصلة والاشعار بعليته لاصابة ما أصابهم ﴿ذوقوا عذاب الخلد﴾ المؤلم على الدوام ﴿هل تجزون﴾ اليوم ﴿الا بما كنتم تكسبون﴾ فى الدنيا من أصناف الكفر والمعاصى التى من جملتها مامر من الاستعجال ﴿ويستنبئونك﴾ أى يستخبرونك فيقولون على طريقة الاستهزاء أو الانكار ﴿أحق هو﴾ أحق خبر قدم على المبتدا الذى هو الضمير للاهتمام به ويؤيده قوله تعالى انه لحق أو مبتدأ والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر والجملة فى موقع النصب بيستنبئونك وقرىء ألحق هو تعريضا بأنه باطل كأنه قيل أهو الحق لا الباطل أو أهو الذى سميتموه الحق ﴿قل﴾ لهم غير ملتفت الى استهزائهم مغضيا عما قصدوا وبانيا للامر على أساس الحكمة ﴿إى وربى﴾ إى من حروف الايجاب بمعنى نعم فى القسم خاصة كما أن هل بمعنى قد فى الاستفهام خاصة ولذلك يوصل بواوه ﴿انه﴾ أى العذاب الموعود ﴿لحق﴾ لثابت البتة أكد الجواب بأتم وجوه التأكيد حسب شدة انكارهم وقوته وقد زيد تقريرا

وتحقيقا بقوله عز اسمه ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أى بفائتين العذاب بالهرب وهو لاحق بكم لامحالة وهواما معطوف على جواب القسم أومستأنف سيق لبيان عجزهم عن الخلاص مع مافيه من التقرير المذكور ﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ﴾ بالشرك أو التعدى على الغير أو غير ذلك من أصناف الظلم ولو مرة حسبما يفيده كون الصفة فعلا ﴿ مافى الارض ﴾ أى مافى الدنيا من خزائنها وأموالها ومنافعها قاطبة بما كثرت ﴿ لافتدت به ﴾ أى لجعلته فدية لها من العذاب من افتداه بمعنى فداه ﴿ وأسروا ﴾ أى النفوس المدلول عليها بكل نفس والعدول الى صيغة الجمع مع تحقق العموم فى صورة الافراد أيضا لافادة تهويل الخطب بكون الاسرار بطريق المعية والاجتماع وانما لم يراع ذلك فيما سبق لتحقيق مايتوخى من فرض كون جميع مافى الارض لكل واحدة من النفوس وايثار صيغة جمع المذكر لحمل لفظ النفس على الشخص أو لتغليب ذكور مدلوله على اناثه ﴿ الندامة ﴾ على مافعلوا من الظلم أى أخفوها ولم يظهروها لكن لا للاصطبار والتجلد هيهات ولات حين اصطبار بل لانهم بهتوا ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أى عند معاينتهم من فظاعة الحال وشدة الاهوال مالم يكونوا يحتسبون فلم يقدروا على أن ينطقوا بشىء فلما بمعنى حين منصوب بأسروا أو حرف شرط حذف جوابه لدلالة ماتقدم عليه وقيل أسرها رؤساؤهم ممن أضلوهم حياء منهم وخوفا من توبيخهم ولكن الأمر أشد من أن يعتريهم هناك شىء غير خوف العذاب وقيل أسروا الندامة أخلصوها لأن اسرارها اخلاصها أو لأن سر الشىء خالصته حيث تخفى ويضن بها ففيه تهكم بهم وقيل أظهروا الندامة من قولهم أسر الشىء وأشره اذا أظهره حين عيل صبره وفنى تجلده ﴿ وقضى بينهم ﴾ أى أوقع القضاء بين الظالمين من المشركين وغيرهم من أصناف أهل الظلم بأن أظهر الحق سواء كان من حقوق الله سبحانه أو من حقوق العباد من الباطل وعومل أهل كل منهما بما يليق به ﴿ بالقسط ﴾ بالعدل وتخصيص الظلم بالتعدى وحمل القضاء على مجرد الحكومة بين الظالمين والمظلومين من غير أن يتعرض لحال المشركين وهم أظلم الظالمين لايساعده المقام فان مقتضاه اما كون الظلم عبارة عن الشرك أو عما يدخل فيه دخولا أوليا ﴿ وهم ﴾ أى الظالمون ﴿ لايظلمون ﴾ فيما فعل بهم من العذاب بل هو من مقتضيات ظلمهم ولوازمه الضرورية ﴿ ألا ان لله مافى السموات والأرض ﴾ أى ماوجد فيهما داخلا فى حقيقتهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما وكلمة ما لتغليب غير العقلاء على العقلاء فهو تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الاشياء وبيان لاندراج الكل تحت ملكوته يتصرف فيه كيفما يشاء ايجادا واعداما واثابة وعقابا ﴿ ألا ان وعد الله ﴾ اظهار الاسم الجليل لتفخيم شان الوعد والاشعار بعلة الحكم وهو اما بمعنى الموعود أى جميع ماوعد به كائنا ما كان فيندرج فيه العذاب الذى استعجلوه وماذكر فى أثناء بيان حاله اندراجا أوليا أو بمعناه المصدرى أى وعده بجميع ماذكر فمعنى قوله تعالى ﴿ حق ﴾ على الاول ثابت واقع لامحالة وعلى الثانى مطابق للواقع وتصدير الجملتين بحرفى التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقق مضمونهما المقرر لمضمون ماسلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضاره والمحافظة عليه ﴿ ولكن أكثرهم ﴾ لقصور عقولهم واستيلاء الغفلة عليهم والفهم بالاحوال المحسوسة المعتادة ﴿ لايعلمون ﴾ ذلك فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون ﴿ هو يحيى ويميت ﴾ فى الدنيا من غير دخل لاحد فى ذلك ﴿ واليه ترجعون ﴾ فى الآخرة بالبعث والحشر ﴿ ياأيها الناس ﴾ التفات ورجوع الى استمالتهم نحو الحق واستنزالهم الى قبوله واتباعه غب تحذيرهم من غوائل الضلال بما تلى عليهم من القوارع الناعية عليهم سوء عاقبتهم وايذان بأن جميع ذلك مسوق لمصالحهم ومنافعهم ﴿ قد جاءتكم موعظة ﴾ هى والوعظ والعظة التذكير بالعواقب سواء كان بالزجر والترهيب أو بالاستمالة والترغيب وكلمة من فى قوله تعالى ﴿ من ربكم ﴾ ابتدائية متعلقة بجاءتكم أو تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لموعظة أى موعظة كائنة من

مواعظ ربكم و فى التعرض لعنوان الربوبية من حسن الموقع مالايخفى ﴿وشفاء لما فى الصدور وهدى و رحمة للمؤمنين﴾ أى كتاب جامع لهذه الفوائد والمنافع فانه كاشف عن أحوال الاعمال حسناتها وسيئاتها مرغب فى الاولى و رادع عن الأخرى ومبين للمعارف الحقة التى هى شفاء لما فى الصدور من الادواء القلبية كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الزائغة وهاد الى طريق الحق واليقين بالارشاد الى الاستدلال بالدلائل المنصوبة فى الآفاق والانفس و فى مجيئه رحمة للمؤمنين حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال الى نور الايمان وتخلصوا من دركات النيران وارتقوا الى درجات الجنان والتنكير فى الكل للتفخيم ﴿قل﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأمر الناس بأن يغتنموا مافى مجىء القرآن العظيم من الفضل والرحمة ﴿بفضل الله و برحمته﴾ المراد بهما اما مافى مجىء القرآن من الفضل والرحمة واما الجنس وهما داخلان فيه دخولا أوليا والباء متعلقة بمحذوف وأصل الكلام ليفرحوا بفضل الله و برحمته وتكرير الباء فى رحمته للايذان باستقلالها فى استيجاب الفرح ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لافادة القصر ثم أدخل عليه الفاء لافادة معنى السببية فصار بفضل الله و برحمته فليفرحوا ثم قيل ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ للتأكيد والتقرير ثم حذف الفعل الاول لدلالة الثانى عليه والفاء الاولى جزائية والثانية للدلالة على السببية والأصل ان فرحوا بشىء فبذلك ليفرحوا لابشىء آخر ثم أدخل الفاء للدلالة على السببية ثم حذف الشرط ومعنى البعد فى اسم الاشارة للدلالة على بعد درجة فضل الله تعالى و رحمته ويجوز أن يراد بفضل الله و برحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا ويجوز أن يتعلق الباء بجاءتكم أى جاءتكم موعظة بفضل الله و برحمته فبذلك أى فبمجيئها فليفرحوا وقرىء فلتفرحوا وقرأ أبى فافرحوا وعن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل بفضل الله و برحمته فقال بكتاب الله والاسلام وقيل فضله الاسلام و رحمته ماوعد عليه ﴿هو﴾ أى ما ذكر من فضل الله و رحمته ﴿خير مما يجمعون﴾ من حطام الدنيا وقرىء تجمعون أى فبذلك فليفرح المؤمنون هو خير مما تجمعون أيها المخاطبون ﴿قل أرأيتم﴾ أى أخبرونى ﴿ما أنزل الله لكم من رزق﴾ مامنصوبة المحل بما بعدها أو بما قبلها واللام للدلالة على أن المراد بالرزق ماحل لهم وجعله منزلا لأنه مقدر فى السماء محصل هو أو مايتوقف عليه وجودا أو بقاء باسباب سماوية من المطر والكواكب فى الانضاج والتلوين ﴿فجعلتم منه﴾ أى جعلتم بعضه ﴿حراما﴾ أى حكمتم بأنه حرام ﴿وحلالا﴾ أى وجعلتم بعضه حلالا أى حكمتم بحله مع كون كله حلالا وذلك قولهم هذه أنعام وحرث حجر الآية وقولهم مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ونحو ذلك وتقديم الحرام لظهور أثر الجعل فيه ودوران التوبيخ عليه ﴿قل﴾ تكرير لتأكيد الأمر بالاستخبار أى أخبرونى ﴿آلله أذن لكم﴾ فى ذلك الجعل فأنتم فيه ممتثلون بأمره تعالى ﴿أم على الله تفترون﴾ أم متصلة والاستفهام للتقرير والتبكيت لتحقق العلم بالشق الاخير قطعا كأنه قيل أم لم يأذن لكم بل تفترون عليه سبحانه فأظهر الاسم الجليل وقدم على الفعل دلالة على كمال قبح افترائهم وتأكيدا للتبكيت اثر تأكيد مع مراعاة الفواصل و يجوز أن يكون الاستفهام للانكار وأم منقطعة ومعنى بل فيها الاضراب والانتقال من التوبيخ والزجر بانكار الاذن الى ماتفيده همزتها من التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريره وتقديم الجار والمجرور على هذا يجوز أن يكون للقصر كأنه قيل بل أعلى الله تعالى خاصة تفترن ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب﴾ كلام مسوق من قبله تعالى لبيان هول ماسيلقونه غير داخل تحت القول المأمور به والتعبير عنهم بالموصول فى موقع الاضمار لقطع احتمال الشق الاول من الترديد والتسجيل عليهم بالافتراء و زيادة الكذب مع أن الافتراء لا يكون الا كذبا لاظهار كمال قبح مافعلوا و كونه كذبا فى اعتقادهم أيضا وكلمة ما استفهامية وقعت مبتدأ وظن خبرها ومفعولاه

محذوفان وقوله عز وجل ﴿يوم القيامة﴾ ظرف لنفس الظن أى أى شئ ظنهم فى ذلك اليوم يوم عرض الافعال والاقوال والمجازاة عليها مثقالا بمثقال والمراد تهويله وتفظيعه بهول مايتعلق به مما يصنع بهم يومئذ وقيل هو ظرف لما يتعلق به ظنهم اليوم من الامور التى ستقع يوم القيامة تنزيلا له ولما فيه من الأحوال لكمال وضوح أمره فى التقرر والتحقق منزلة المسلم عندهم أى أى شئ ظنهم لما سيقع يوم القيامة أيحسبون أنهم لايسألون عن افترائهم أو لا يجازون عليه أو يجازون جزاء يسيرا و لا جل ذلك يفعلون مايفعلون كلا انهم لفى أشد العذاب لان معصيتهم أشد المعاصى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا وقرئ على لفظ الماضى أى أى ظن ظنوا يوم القيامة وايراد صيغة الماضى لأنه كائن فكأنه قدكان ﴿ان الله لذو فضل﴾ أى عظيم لا يكتنه كنهه ﴿على الناس﴾ أى جميعا حيث أنعم عليهم بالعقل المميز بين الحق والباطل والحسن والقبيح و رحمهم بانزال الكتب وارسال الرسل و بين لهم الاسرار التى لاتستقل العقول فى ادراكها وأرشدهم الى مايهمهم من أمر المعاش والمعاد ﴿ولكن أكثرهم لايشكرون﴾ تلك النعمة الجليلة فلايصرفون قواهم ومشاعرهم الى ماخلقت له و لا يتبعون دليل العقل فيما يستبد به و لا دليل الشرع فيما لايدرك الا به وقد تفضل عليهم ببيان ماسيلقونه يوم القيامة فلا يلتفتون اليه فيقعون فيما يقعون فهو تذييل لما سبق مقرر لمضمونه ﴿وما تكون فى شأن﴾ أى فى أمر من شأنت شأنه أى قصدت قصده مصدر بمعنى المفعول ﴿وماتتلومنه﴾ الضمير للشأن والظرف صفة لمصدر محذوف أى تلاوة كائنة من الشأن اذهى معظم شئونه عليه السلام أو للتنزيل والاضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه ومن ابتدائية أو تبعيضية أو لله عز وجل ومن ابتدائية والتى فى قوله تعالى ﴿من قرآن﴾ مزيدة لتأكيد النفى او ابتدائية على الوجه الاول و بيانية أو تبعيضية على الثانى والثالث ﴿ولا تعملون من عمل﴾ تعميم للخطاب اثر تخصيصه بمقتدى الكل وقد روعى فى كل من المقامين مايليق به حيث ذكر أولا من الاعمال مافيه فخامة وجلالة وثانيا مايتناول الجليل والحقير ﴿الا كنا عليكم شهودا﴾ استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالافعال الثلاثة أى ما تلابسون بشئ منها فى حال من الاحوال الاحال كوننا رقباء مطلعين عليه حافظين له ﴿اذ تفيضون فيه﴾ أى تخوضون وتندفعون فيه وأصل الافاضة الاندفاع بكثرة أو بقوة وحيث أريد بالافعال السابقة الحالة المستمرة الدائمة المقارنة للزمان الماضى ايضا أوثر فى الاستثناء صيغة الماضى وفى الظرف كلمة اذ التى تفيد المضارع معنى الماضى ﴿وما يعزب عن ربك﴾ أى لايبعد ولا يغيب على علمه الشامل وفى التعرض لعنوان الربوبية من الاشعار باللطف مالا يخفى وقرئ بكسر الزاء ﴿من مثقال ذرة﴾ كلمة من مزيدة لتأكيد النفى أى مايعزب عنه مايساوى فى الثقل نملة صغيرة أو هباء ﴿فى الأرض ولا فى السماء﴾ أى فى دائرة الوجود والامكان فان العامة لاتعرف سواهما ممكنا ليس فى أحدهما أو متعلقا بهما وتقديم الارض لان الكلام فى حال أهلها والمقصود اقامة البرهان على احاطة علمه تعالى بتفاصيلها وقوله تعالى ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين﴾ كلام برأسه مقرر لما قبله ولا نافية للجنس وأصغر اسمها وفى كتاب خبرها وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر ومن عطف على لفظ مثقال ذرة وجعل الفتح بدل الكسر لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعا كأنه قيل لايعزب عن ربك شئ ما لكن جميع الاشياء فى كتاب مبين فكيف يعزب عنه شئ منها وقيل يجوز أن يكون الاستثناء متصلا ويعزب بمعنى يبين ويصدر والمعنى لايصدر عنه تعالى شئ الا وهو فى كتاب مبين والمراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ ﴿ألا ان أولياء الله﴾ بيان على وجه التبشير والوعد لما هو نتيجة لاعمال المؤمنين وغاية لما ذكر قبله من كونه تعالى مهيمنا على نبيه عليه السلام وأمته فى كل مايأتون ومايذرون واحاطة علمه سبحانه بجميع مافى السماء والارض وكون الكل مثبتا فى الكتاب المبين بعد ماأشير الى فظاعة حال المفترين على الله

تعالى يوم القيامة وماسيعتريهم من الهول اشارة اجمالية على طريق التهديد والوعيد وصدرت الجملة بحرف التنبيه والتحقيق لزيادة تقرير مضمونها والولى لغة القريب والمراد بأولياء الله خاص المؤمنين لقربهم الروحانى منه سبحانه وتعالى كما سيفصح عنه تفسيرهم ﴿لاخوف عليهم﴾ فى الدارين من لحوق مكروه ﴿ولاهم يحزنون﴾ من فوات مطلوب أى لايعتريهم مايوجب ذلك لاأنه يعتريهم لكنهم لايخافون ولا يحزنون ولا أنه لايعتريهم خوف وحزن أصلا بل يستمرون على النشاط والسرور كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارا للجد والسعى فى اقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لابيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما مر مرارا من أن النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام وانما لايعتريهم ذلك لأن مقصدهم ليس الا طاعة الله تعالى ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزلفى وذلك مما لاريب فى حصوله ولا احتمال لفواته بموجب الوعد بالنسبة اليه تعالى وأما ماعدا ذلك من الأمور الدنيوية المترددة بين الحصول والفوات فهى بمعزل من الانتظام فى سلك مقصدهم وجوداً وعدما حتى يخافوا من حصول ضارها أو يحزنوا بفوات نافعها وقوله عز وجل ﴿الذين آمنوا﴾ أى بكل ماجاء من عند الله تعالى ﴿وكانوا يتقون﴾ أى يقون أنفسهم عما يحق وقايتها عنه من الأفعال والتروك وقاية دائمة حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل بيان وتفسير لهم واشارة الى مابه نالوا مانالوا على طريقة الاستئناف المبنى على السؤال ومحل الموصول الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف كأنه قيل من أولئك وما سبب فوزهم بتلك الكرامة فقيل هم الذين جمعوا بين الايمان والتقوى المفضيين الى كل خير المنجيين عن كل شر وقيل محله النصب أو الرفع على المدح أو على أنه وصف مادح للاولياء ولا يقدح فى ذلك توسط الخبر والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقى عن الشرك التى يفيدها الايمان أيضا ومرتبة التجنب عن كل مايؤثم من فعل وترك أعنى تنزه الانسان عن كل مايشغل سره عن الحق والتبتل اليه بالكلية وهى التقوى الحقيقى المأمور به فى قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته وبه يحصل الشهود والحضور والقرب الذى عليه يدور اطلاق الاسم عليه وهكذا كان حال كل من دخل معه عليه السلام تحت الخطاب بقوله عز وجل ولا تعملون من عمل خلا أن لهم فى شأن التبتل والتنزه درجات متفاوتة حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الأبية أقصاها ماانتهى اليه همم الأنبياء عليهم السلام حتى جمعوا بذلك بين رياستى النبوة والولاية ولم يعقهم التعلق بعالم الأشباح عن الاستغراق فى عالم الأرواح ولم تصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن التبتل الى جناب الحق لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية فملاك أمر الولاية هو التقوى المذكور فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ويقرب منه ماقيل من أنهم الذين تولى الله هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة اليه ولا يخالفه ماقيل من أنهم الذين يذكر الله برؤيتهم لما روى عن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أولياء الله فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم أى بسمتهم واخباتهم وسكينتهم ولا ماقيل من أنهم المتحابون فى الله لما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول ان من عباد الله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله قالوا يارسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام منهم ولا أموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لايخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس فان ماذكر من حسن السمت والسكينة المذكرة لله تعالى والتحاب فى الله سبحانه من الأحكام الدنيوية اللازمة للايمان والتقوى والآثار الخاصة بهما

الحقيقة بالتخصيص بالذكر لظهورها وقربها من أفهام الناس قد أو رد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا من ذلك حسبما يقتضيه مقام الارشاد والتذكير ترغيبا للسائلين أو غيرهم من الحاضرين فيما خصه بالذكر هناك من أحكامهما فلعل الحاضرين أولا كانوا محتاجين الى اصلاح الحال من جهة الأقوال والأفعال والملابس ونحو ذلك والحاضرين ثانيا مفتقرين الى تأليف قلوبهم وعطفها نحو المؤمنين الذين لاعلاقة بينهم و بينهم من جهة النسب والقرابة وتأكيد ما بينهم من الأخوة الدينية ببيان عظم شأنها ورفعة مكانتها وحسن عاقبتها ليراعوا حقوقها و يهجروا من لا يوافقهم فى الدين من أرحامهم وأما ماذكر من أنه يغبطهم الأنبياء فتصوير لحسن حالهم على طريقة التمثيل قال الكواشى وهذا مبالغة والمعنى لوفرض قوم بهذه الصفة لكانوا هؤلاء وقيل أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة و يتولاهم بالكرامة وجعل قوله عز وجل الذين آمنوا وكانوا يتقون تفسيرا لتوليهم اياه تعالى وقوله عز وجل ﴿لهم البشرى فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة﴾ تفسيرا لتوليه تعالى اياهم ولا ريب فى أن اعتبار القيد الأخير فى مفهوم الولاية غير مناسب لمقام ترغيب المؤمنين فى تحصيلها والثبات عليها و بشارتهم بآثارها ونتائجها بل مخل بذلك اذ التحصيل انما يتعلق بالمقدور والاستبشار لا يحصل الا بما علم وجود سببه والقيد المذكور ليس بمقدور لهم حتى يحصلوا الولايه بتحصيله و لا بمعلوم لهم عند حصوله حتى يعرفوا حصول الولاية لهم و يستبشروا بمحاسن آثارها بل التولى بالكرامة عين نتيجة الولاية فاعتباره فى عنوان الموضوع ثم الاخبار بعدم الخوف والحزن مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل فالذى يقتضيه نظمه الكريم أن الأول تفسير للاولياء حسبما شرح والثانى بيان لما أولاهم من خيرات الدارين بعد بيان انجائهم من شرور هما ومكارههما والجملة مستأنفة كما سبق كأنه قيل هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامة فقيل لهم مايسرهم فى الدارين وتقديم الأول لما أن التخلية سابقة على التحلية مع مافيه من مراعاة حق المقابلة بين حسن حال المؤمنين وسوء حال المفترين وتعجيل ادخال المسرة بتبشير الخلاص عن الأهوال وتوسيط البيان السابق بين بشارة الخلاص عن المحذور و بشارة الفوز بالمطلوب لاظهار كمال العناية بتفسير الأولياء مع الايذان بأن انتفاء الخوف والحزن لاتقائهم عما يؤدى اليهما من الأسباب والبشرى مصدر أريد به المبشر به من الخيرات العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك والآجلة الغنية عن البيان وايثار الابهام والاجمال للايذان بكونه وراء البيان والتفصيل والظرفان فى موقع الحال منه والعامل ما فى الخبر من معنى الاستقرار أى لهم البشرى حال كونها فى الحياة الدنيا وحال كونها فى الآخرة أى عاجلة وآجلة أو من الضمير المجرور أى حال كونهم فى الحياة الخ ومن البشرى العاجلة الثناء الحسن والذكر الجميل ومحبة الناس . عن أبى ذر رضى الله عنه قلت يارسول الله الرجل يعمل العمل لله و يحبه الناس فقال عليه السلام تلك عاجل بشرى المؤمن هذا وقيل البشرى مصدر والظرفان متعلقان به . أما البشرى فى الدنيا فهى البشارات الواقعة للمؤمنين المتقين فى غير موضع من الكتاب المبين وعن النبى صلى الله عليه وسلم هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له وعنه عليه الصلاة والسلام ذهبت النبوة و بقيت المبشرات وعن عطاء لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة قال الله تعالى تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة . وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة اياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وما يرون من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرؤن منها وغير ذلك من البشارات فتكون هذه بشارة بما سيقع من البشارات العاجلة والآجلة المطلوبة لغاياتها لا لذواتها و لايخفى أن صرف البشارة الناجزة عن المقاصد بالذات الى وسائلها مما لا يساعده جلالة شأن التنزيل الكريم ﴿لاتبديل لكلمات الله﴾ لا تغيير لأقواله التى من جملتها مواعيده الواردة بشارة للمؤمنين المتقين فيدخل فيها البشارات الواردة ههنا دخولا أوليا و يثبت امتناع الاخلاف فيها ثبوتا قطعيا وعلى تقدير كون

المراد بالبشرى الرؤيا الصالحة فالمراد بعدم تبديل كلماته تعالى ليس عدم الخلف بينها و بين نتائجها الدنيوية والأخروية بل عدم الخلف بينها و بين ما دل على ثبوتها و وقوعها فيما سيأتى بطريق الوعد من قوله تعالى لهم البشرى فتدبر ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماذكر من أن لهم البشرى فى الدارين ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذى لا فوز وراءه وفيه تفسير لما أبهم فيما سبق وهاتيك الجملة والتى قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه وليس من شرطه أن يكون بعده كلام متصل بما قبله أو هذه تذييل والسابقة اعتراض ﴿ولا يحزنك قولهم﴾ تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من الأذية الناشئة عن مقالاتهم الموحشة وتبشير له عليه الصلاة والسلام بأنه عز وجل ينصره و يعزه عليهم اثر بيان أن له ولاتباعه أمنا من كل محذور و فوزا بكل مطلوب وقرىء ولا يحزنك من أحزنه وهو فى الحقيقة نهى له عليه السلام عن الحزن كأنه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبال بتكذيبهم وتشاورهم فى تدبير هلاكك وابطال أمرك وسائر ما يتفوهون به فى شأنك مما لا خير فيه وانما وجه النهى الى قولهم للمبالغة فى نهيه عليه السلام عن الحزن لما أن النهى عن التأثير نهى عن التأثر بأصله ونفى له بالمرة وقد يوجه النهى الى اللازم والمراد هو النهى عن الملزوم كما فى قولك لا أرينك ههنا وتخصيص النهى عن الحزن بالايراد مع شمول النفى السابق للحزن أيضا لما أنه لم يكن فيه عليه السلام شائبة خوف حتى ينهى عنه و ربما كان يعتريه عليه السلام فى بعض الأوقات نوع حزن فسلى عن ذلك وقوله تعالى ﴿ان العزة﴾ تعليل للنهى على طريقة الاستئناف أى الغلبة والقهر ﴿لله جميعا﴾ أى فى ملكته وسلطانه لا يملك أحد شيئا منها أصلا لا هم ولا غيرهم فهو يقهرهم و يعصمك منهم و ينصرك عليهم وقد كان كذلك فهى من جملة المبشرات العاجلة وقرىء بفتح أن على صريح التعليل أى لأن العزة لله ﴿هو السميع العليم﴾ يسمع ما يقولون فى حقك و يعلم ما يعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك ﴿ألا ان لله من فى السموات ومن فى الأرض﴾ أى العقلاء من الملائكة والثقلين وتخصيصهم بالذكر للايذان بعدم الحاجة الى التصريح بغيرهم فانهم مع شرفهم وعلو طبقتهم اذا كانوا عبيدا له سبحانه مقهورين تحت قهره وملكته فما عداهم من الموجودات أولى بذلك وهو مع ما فيه من التأكيد لما سبق من اختصاص العزة بالله تعالى الموجب لسلوته عليه السلام وعدم مبالاته بالمشركين و بمقالاتهم تمهيد لما لحق من قوله تعالى ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ و برهان على بطلان ظنونهم وأعمالهم المبنية عليها وما اما نافية وشركاء مفعول يتبع ومفعول يدعون محذوف لظهوره أى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فى الحقيقة وان سموها شركاء فاقتصر على أحدهما لظهور دلالته على الآخر و يجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون و يكون مفعول يتبع محذوفا لانفهامه من قوله تعالى ﴿ان يتبعون الا الظن﴾ أى ما يتبعون يقينا انما يتبعون ظنهم الباطل واما موصولة معطوفة على من كأنه قيل ولله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أى وله شركاؤهم وتخصيصهم بالذكر مع دخولهم فيما سبق عبارة أو دلالة للمبالغة فى بيان بطلان اتباعهم وفساد ما بنوه عليه من ظنهم شركاءهم معبودين مع كونهم عبيدا له سبحانه واما استفهامية أى وأى شىء يتبعون أى لا يتبعون شيئا ما يتبعون الا الظن والخيال الباطل كقوله تعالى ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها الخ وقرىء تدعون بالتاء فالاستفهام للتبكيت والتوبيخ كأنه قيل وأى شىء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين تقريرا لكونهم متبعين لله تعالى مطيعين له وتوبيخا لهم على عدم اقتدائهم بهم فى ذلك كقوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ثم صرف الكلام عن الخطاب الى الغيبة فقيل ان يتبع هؤلاء المشركون الا الظن ولا يتبعون ما يتبعه الملائكة والنبيون من الحق ﴿وان هم الا يخرصون﴾ يكذبون فيما ينسبونه اليه سبحانه و يحزرون و يقدرون انهم شركاء تقديرا باطلا ﴿هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾ تنبيه على

تفرده تعالى بالقدرة الكاملة والنعمة الشاملة ليدلهم على توحده سبحانه باستحقاق العبادة وتقرير لما سلف من كون جميع الموجودات الممكنة تحت قدرته وملكته المفصح عن اختصاص العزة به سبحانه والجعل ان كان بمعنى الابداع والخلق فمبصرا حال والا فلكم مفعوله الثانى أو هو حال كما فى الوجه الأول والمفعول الثانى لتسكنوا فيه أوهو محذوف يدل عليه المفعول الثانى من الجملة الثانية كما أن العلة الغائية منها محذوفة اعتمادا على ما فى الأولى والتقدير هو الذى جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه والنهار مبصرا لتتحركوا فيه لمصالحكم كما سيجيء نظيره فى قوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلاراد لفضله الآية فحذف فى كل واحد من الجانبين ماذكر فى الآخر اكتفاء بالمذكور عن المتروك واسناد الابصار الى النهار مجازى كالذى فى نهاره صائم ﴿ان فى ذلك﴾ أى فى جعل كل منهما كما وصف أو فيهما وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه وعلو رتبته ﴿لآيات﴾ عجيبة كثيرة أو آيات أخر غير ما ذكر ﴿لقوم يسمعون﴾ أى هذه الآيات المتلوة ونظائرها المنبهة على تلك الآيات التكوينية الآمرة بالتأمل فيها سماع تدبر واعتبار فيعملون بمقتضاها وتخصيص الآيات بهم مع انها منصوبة لمصلحة الكل لما أنهم المنتفعون بها ﴿قالوا﴾ شروع فى ذكر ضرب آخر من أباطيلهم وبيان بطلانه ﴿اتخذ الله ولدا﴾ أى تبناه ﴿سبحانه﴾ تنزيه وتقديس له عما نسبوا اليه وتعجيب من كلمتهم الحمقاء ﴿هو الغنى﴾ على الاطلاق عن كل شيء فى كل شيء وهو علة لتنزيهه سبحانه وايذان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة وقوله عز وجل ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ أى من العقلاء وغيرهم تقرير لغناه وتحقيق لمالكيته تعالى لكل ماسواه وقوله تعالى ﴿ان عندكم من سلطان﴾ أى حجة ﴿بهذا﴾ أى بما ذكر من قولهم الباطل توضيح لبطلانه بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع عن المعارض فمن فى قوله تعالى من سلطان زائدة لتأكيد النفى وهو مبتدأ والظرف المقدم خبره أو مرتفع على أنه فاعل للظرف لاعتماده على النفى وبهذا متعلق اما بسلطان لأنه بمعنى الحجة والبرهان واما بمحذوف وقع صفة له واما بما فى عندكم من معنى الاستقرار كأنه قيل ان عندكم فى هذا القول من سلطان والالتفات الى الخطاب لمزيد المبالغة فى الالزام والافحام وتأكيد ما فى قوله تعالى ﴿أتقولون على الله مالا تعلمون﴾ من التوبيخ والتقريع على جهلهم واختلاقهم وفيه تنبيه على أن كل مقالة لادليل عليها فهى جهالة وأن العقائد لابد لها من برهان قطعى وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به ﴿قل﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين لهم سوء مغبتهم ووخامة عاقبتهم ﴿ان الذين يفترون على الله الكذب﴾ أى فى كل أمر فيدخل مانحن بصدده من الافتراء بنسبة الولد والشريك اليه سبحانه دخولا أوليا ﴿لايفلحون﴾ أى لاينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب أصلا وتخصيص عدم النجاة والفوز بما يندرج فى ذلك من عدم النجاة من النار وعدم الفوز بالجنة لايناسب مقام المبالغة فى الزجر عن الافتراء عليه سبحانه ﴿متاع فى الدنيا﴾ كلام مستأنف سيق لبيان أن مايتراءى فيهم بحسب الظاهر من نيل المطالب والفوز بالحظوظ الدنيوية على الاطلاق أو فى ضمن افترائهم بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح كأنه قيل كيف لايفلحون وهم فى غبطة ونعيم فقيل هو متاع يسير فى الدنيا وليس بفوز بالمطلوب ثم أشير الى انتفاء النجاة عن المكروه أيضا بقوله عز وعلا ﴿ثم الينا مرجعهم﴾ أى بالموت ﴿ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ فيبقون فى الشقاء المؤبد بسبب كفرهم المستمر أو بكفرهم فى الدنيا فأين هم من الفلاح وقيل المبتدأ المحذوف حياتهم أو تقلبهم وقد قيل انه افتراؤهم ولايخفى أن المتاع انما يطلق على ما يكون مطبوعا عند النفس مرغوبا فيه فى نفسه يتمتع وينتفع به وانما عدم الاعتداد به لسرعة زواله ونفس الافتراء عليه سبحانه أقبح القبائح عند النفس فضلا عن أن يكون مطبوعا عندها وعده كذلك باعتبار

اجراء حكم مايؤدى اليه من رياستهم عليه مما لا وجه له فالوجه ماذكر أو لا وليس يبعيد ماقيل ان المحذوف هو الخبر أى لهم متاع والآية اما مسوقة من جهة الله تعالى لتحقيق عدم افلاحهم غير داخلة فى الكلام المأمور به كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى ثم الينا وقوله تعالى ثم نذيقهم واما داخلة فيه على أن النبى عليه الصلاة والسلام مأمور بنقله وحكايته عنه عزوجل ﴿ واتل عليهم ﴾ أى على المشركين من أهل مكة وغيرهم لتحقيق ماسبق من أنهم لايفلحون وأن مايتمتعون به على جناح الفوات وأنهم مشرفون على العذاب الخالد ﴿ نبأ نوح ﴾ أى خبره الذى له شأن وخطر مع قومه الذين هم أضراب قومك فى الكفر والعناد ليتدبروا مافيه من زوال ماتمتعوا به من النعيم وحلول عذاب الغرق الموصول بالعذاب المقيم لينزجروا بذلك عماهم عليه من الكفر أو تنكسر شدة شكيمتهم أو يعترف بعضهم بصحة نبوتك بأن عرفوا أن ماتتلوه موافقا لما ثبت عندهم من غير مخالفة بينهما أصلا مع علمهم بأنك لم تسمع ذلك من أحد ليس الا بطريق الوحى وفيه من تقرير ماسبق من كون الكل لله سبحانه واختصاص العزة به تعالى وانتفاء الخوف والحزن عن أوليائه عز وعلا قاطبة وتشجيع النبى صلى الله عليه وسلم وحمله على عدم المبالاة بهم و بأقوالهم وأفعالهم مالايخفى ﴿ اذ قال ﴾ معمول لنبأ أو بدل منه بدل اشتمال وأياما كان فالمراد بعض نبئه عليه السلام لا كل ماجرى بينه و بين قومه واللام فى قوله تعالى ﴿ لقومه ﴾ للتبليغ ﴿ ياقوم ان كان كبر ﴾ أى عظم وشق ﴿ عليكم مقامى ﴾ أى نفسى كما يقال فعلته لمكان فلان أى لفلان ومنه قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه أى خاف ربه أو قيامى ومكثى بين ظهرانيكم مدة طويلة أو قيامى ﴿ وتذكيرى بآيات الله ﴾ فانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة يقومون على أرجلهم والجماعة قعود ليظهر حالهم و يسمع مقالهم ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ جواب للشرط أى دمت على تخصيص التوكل به تعالى و يجوز أن يراد به احداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل ﴿ فأجمعوا أمركم ﴾ عطف على الجواب والفاء لترتيب الأمر بالاجماع على التوكل لا لترتيب نفس الاجماع عليه أو هو الجواب وماسبق جملة معترضة والاجماع العزم قيل هو متعد بنفسه وقيل فيه حذف وايصال قال السدوسى أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه وقال أبو الهيثم أجمع أمره جعله مجموعا بعدما كان متفرقا وتفرقه أنه يقول مرة أفعل كذا وأخرى أفعل كذا واذا عزم على أمر واحد فقد جمعه أى جعله جميعا ﴿ وشركاءكم ﴾ بالنصب على أن الواو بمعنى مع كما تدل عليه القراءة بالرفع عطفا على الضمير المتصل تنزيلا للفصل منزلة التأكيد واسناد الاجماع الى الشركاء على طريقة التهكم وقيل انه عطف على أمركم بحذف المضاف أى أمر شركائكم وقيل منصوب بفعل محذوف أى وادعوا شركاءكم وقد قرىء كذلك وقرىء فاجمعوا من الجمع أى فاعزموا على أمركم الذى تريدون بى من السعى فى اهلاكى واحتشدوا فيه على أى وجه يمكنكم ﴿ ثم لا يكن أمركم ﴾ ذلك ﴿ عليكم غمة ﴾ أى مستورا من غمه اذا ستره بل مكشوفا مشهورا تجاهروننى به فان السر انما يصار اليه لسد باب تدارك الخلاص بالهرب أو نحوه فحيث استحال ذلك فى حقى لم يكن للسر وجه وانما خاطبهم عليه السلام بذلك اظهارا لعدم المبالاة بهم وأنهم لم يجدوا اليه سبيلا وثقة بالله سبحانه و بما وعده من عصمته وكلاءته فكلمة ثم للتراخى فى الرتبة واظهار الأمر فى موقع الاضمار لزيادة تقرير يقتضيها مقام الأمر بالاظهار الذى يستلزمه النهى عن التستر والاسرار وقيل المراد بأمرهم مايعتريهم من جهته عليه السلام من الحال الشديدة عليهم المكروهة لديهم والغمة والغم كالكربة والكرب وثم للتراخى الزمانى والمعنى لايكن حالكم عليكم غمة وتخلصوا باهلاكى من ثقل مقامى وتذكيرى ولايخفى أنه لايساعده قوله عز وجل ﴿ ثم اقضوا الى ولا تنظرون ﴾ أى أدوا الى أى أحكموا ذلك الأمر الذى تريدون بى ولا تمهلونى كقوله تعالى وقضينا اليه ذلك الأمر أو أدوا الى ماهو حق عليكم عندكم من اهلاكى كما يقضى الرجل غريمه فان توسيط مايحصل بعد الاهلاك بين الأمر بالعزم على مباديه و بين الأمر بقضائه من قبيل

الفصل بين الشجر ولحائه وقرئ أفضوا بالفاء أى انتهوا الى بشركم أو ابرزوا الى من أفضى اذا خرج الى الفضاء ﴿فان توليتم﴾ الفاء لترتيب التولى على ماسبق فالمراد به اما الاستمرار عليه واما احداث التولى المخصوص أى ان أعرضتم عن نصيحتى وتذكيرى اثر ماشاهدتم منى من مخايل صحة ما أقول ودلائلها التى من جملتها دعوتى اياكم جميعا الى تحقيق ماتريدون بى من السوء غير مبال بكم وبما يأتى منكم واحجامكم من الاجابة علما منكم بأنى على الحق المبين مؤيد من عندالله العزيز ﴿فما سألتكم﴾ بمقابلة وعظى وتذكيرى ﴿من أجر﴾ تؤدونه الى حتى يؤدى ذلك الى توليكم اما لاتهامكم اياى بالطمع والسؤال واما لثقل دفع المسئول عليكم أوحتى يضرنى توليكم المؤدى الى الحرمان فالاول لاظهار بطلان التولى ببيان عدم مايصححه والثانى لاظهار عدم مبالاته عليه السلام بوجوده وعدمه وعلى التقديرين فالفاء الجزائية لسببية الشرط لاعلام مضمون الجزاء لالنفسه والمعنى ان توليتم فاعلموا أن ليس فى مصحح له ولا تأثر منه وقوله عزوجل ﴿ان أجرى الا على الله﴾ ينتظم المعنيين جميعا خلا أنه على الاول تأكيد وعلى الثانى تعليل لاستغنائه عليه السلام عنهم أى مائوابى على العظة والتذكير الا عليه تعالى يثيبنى به آمنتم أو توليتم ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ المنقادين لحكمه لاأخالف أمره ولا أرجو غيره أو المستسلمين لكل مايصيب من البلاء فى طاعة الله تعالى ﴿فكذبوه﴾ فأصروا على ماهم عليه من التكذيب بعد ما ألزمهم الحجة وبين لهم المحجة وحقق أن توليهم ليس له سبب غير التمرد والعناد فلاجرم حقت عليهم كلمة العذاب ﴿فنجيناه ومن معه فى الفلك﴾ من المسلمين وكانوا ثمانين ﴿وجعلناهم خلائف﴾ من الهالكين ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ أى بالطوفان وتأخير ذكره عن ذكر الانجاء والاستخلاف حسبما وقع فى قوله عزوعلا ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة وغير ذلك من الآيات الكريمة لاظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللايذان بسبق الرحمة التى هى من مقتضيات الربوبية على الغضب الذى هو من مستتبعات جرائم المجرمين ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾. تهويل لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول عليه الصلاة والسلام وتسلية له عليه السلام ﴿ثم بعثنا﴾ أى أرسلنا ﴿من بعده﴾ أى من بعد نوح عليه السلام ﴿رسلا﴾ التنكير للتفخيم ذاتا ووصفا أى رسلا كراما ذوى عدد كثير ﴿الى قومهم﴾ أى الى أقوامهم لكن لابأن أرسلنا كل رسول منهم الى أقوام الكل أو الى قوم ما أى قوم كانوا بل كل رسول الى قومه خاصة مثل هود الى عاد وصالح الى ثمود وغير ذلك ممن قص منهم ومن لم يقص ﴿فجاءوهم﴾ أى جاء كل رسول قومه المخصوصين به ﴿بالبينات﴾ أى المعجزات الواضحة الدالة على صدق ماقالوا والباء اما متعلقة بالفعل المذكور على أنها للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من ضمير جاءوا أى ملتبسين بالبينات لكن لابأن يأتى كل رسول ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصة به معينة له حسب اقتضاء الحكمة فان مراعاة انقسام الآحاد الى الآحاد انما هى فيما بين ضميرى جاءوهم كما أشير اليه ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ بيان لاستمرار عدم ايمانهم فى الزمان الماضى لالعدم استمرار ايمانهم كما مر مثله فى هذه السورة الكريمة غير مرة أى فما صح وما استقام لقوم من أولئك الاقوام فى وقت من الاوقات أن يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعا منهم لشدة شكيمتهم فى الكفر والعناد ثم ان كان المحكى آخر حال كل قوم حسبما يدل عليه حكاية قوم نوح فالمراد بعدم ايمانهم المذكور ههنا اصرارهم على ذلك بعد اللتيا والتى وبما أشير اليه فى قوله عز وجل ﴿بما كذبوا به من قبل﴾ تكذيبهم من حين مجئ الرسل الى زمان الاصرار والعناد وانما لم يجعل ذلك مقصودا بالذات كالأول حيث جعل صلة للموصول ايذانا بأنه بين بنفسه غنى عن البيان وانما المحتاج الى ذلك عدم ايمانهم بعد تواتر البينات الظاهرة وتظاهر المعجزات الباهرة التى كانت تضطرهم الى القبول لوكانوا من أصحاب العقول

والموصول الذى تعلق به الايمان والتكذيب سلبا وايجابا عبارة عن جميع الشرائع التى جاء بها كل رسول أصولها وفروعها وان كان المحكى جميع أحوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر أولا كفرهم المستمر من حين مجىء الرسل الى آخره وبما أشير اليه آخرا تكذيبهم قبل مجيئهم فلا بد من كون الموصول المذكور عبارة عن أصول الشرائع التى أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا أممهم اليها آثر ذى أثير لاستحالة تبدلها وتغيرها مثل ملة التوحيد ولوازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجىء رسلهم أنهم ما كانوا فى زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قط بل كان كل قوم من أولئك الاقوام يتسامعون بها من بقايا من قبلهم كثمود من بقايا عاد وعاد من بقايا قوم نوح عليه السلام فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجىء الرسل كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث اليهم أحد وتخصيص التكذيب وعدم الايمان بما ذكر من الاصول لظهور حال الباقى بدلالة النص فانهم حيث لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافة الرسل فلأن لا يؤمنوا بما تفرد به بعضهم أولى وعدم جعل هذا التكذيب مقصودا بالذات لما أن ما عليه يدور أمر العذاب والعقاب عند اجتماع المكذبين هو التكذيب الواقع بعد الدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وانما ذكر ما وقع قبلها بيانا لعراقتهم فى الكفر والتكذيب وعلى التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة فى المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع الى قوم نوح عليه السلام والمعنى فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب بمثله قوم نوح ولا يخفى ما فيه من التعسف وقيل الباء للسببية أى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل ولا يخفى أن ذلك يؤدى الى مخالفة الجمهور من جعل ما المصدرية من قبيل الاسماء كما هو رأى الاخفش وابن السراج ليرجع اليها الضمير وفى ارجاعه الى الحق بادعاء كونه مركوزا فى الاذهان ما لا يخفى من التعسف ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الطبع المحكم ﴿نطبع﴾ بنون العظمة وقرىء بالياء على أن الضمير لله سبحانه ﴿على قلوب المعتدين﴾ المتجاوزين عن الحدود المعهودة فى الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم لانهماكهم فى الغى والضلال وفى أمثال هذا دلالة على أن الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد ﴿ثم بعثنا﴾ عطف على قوله تعالى ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم عطف قصة على قصة ﴿من بعدهم﴾ أى من بعد أولئك الرسل عليهم السلام ﴿موسى وهرون﴾ خصت بعثتهما عليهما السلام بالذكر ولم يكتف باندراج خبرهما فيما أشير اليه اشارة اجمالية من أخبار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم وأوثر فى ذلك ضرب تفصيل ايذانا بخطر شأن القصة وعظم وقعها كما فى نبأ نوح عليه السلام ﴿الى فرعون وملئه﴾ أى أشراف قومه وتخصيصهم بالذكر لاصالتهم فى اقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل اليهم فى النوازل والملمات ﴿بآياتنا﴾ أى ملتبسين بها وهى الآيات المفصلات فى الأعراف ﴿فاستكبروا﴾ الاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق والفاء فصيحة أى فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا عن اتباعهما وذلك قول اللعين لموسى عليه السلام ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين الخ ﴿وكانوا قوما مجرمين﴾ اعتراض مقرر لمضمون ماقبله أى كانوا معتادين لارتكاب الذنوب العظام فان الاجرام مؤذن بعظم الذنب ومنه الجرم أى الجثة فلذلك اجترؤا على ما اجترؤا عليه من الاستهانة برسالة الله تعالى وحمل الاستكبار على الامتناع عن قبول الآيات لايساعده قوله عز وعلا ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين﴾ فانه صريح فى أن المراد باستكبارهم ماوقع منهم قبل مجىء الحق الذى سموه سحرا أعنى العصا واليد البيضاء كما ينبىء عنه سياق النظم الكريم وذلك أول ما أظهره عليه السلام من الآيات العظام والفاء فيه أيضا فصيحة معربة عما صرح به فى مواضع أخر كأنه قيل قال موسى قد جئتكم ببينة من ربكم الى قوله تعالى فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا

هى بيضاء للناظرين فلما جاءهم الحق من عندنا وعرفوه قالوا من فرط عتوهم وعنادهم ان هذا لسحر مبين أى ظاهر كونه سحرا أوفائق فى بابه واضح فيما بين أضرابه وقرئ لساحر ﴿قال موسى﴾ استئناف مبنى على سؤال تنساق اليه الأذهان كأنه قيل فماذا قال لهم موسى حينئذ فقيل قال على طريقة الاستفهام الانكارى التوبيخى ﴿أتقولون للحق﴾ الذى هو أبعد شئ من السحر الذى هو الباطل البحت ﴿لما جاءكم﴾ أى حين مجيئه اياكم ووقوفكم عليه أو من أول الأمر من غير تأمل وتدبر وكلا الحالين مما ينافى القول المذكور والمقول محذوف ثقة بدلالة ما قبله وما بعده عليه وايذانا بأنه مما لا ينبغى أن يتفوه به ولو على نهج الحكاية أى أتقولون له ماتقولون من أنه سحر يعنى به أنه مما لا يمكن أن يقوله قائل و يتكلم به متكلم أوالقول بمعنى العيب والطعن من قولهم فلان يخاف القالة و بين الناس تقاول اذا قال بعضهم لبعض مايسوؤه ونظيره الذكر فى قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم الخ فيستغنى عن المفعول أى أتعيبونه وتطعنون فيه وعلى الوجهين فقوله عز وجل ﴿أسحر هذا﴾ انكار مستأنف من جهته عليه السلام لكونه سحرا وتكذيب لقولهم وتوبيخ لهم على ذلك اثر توبيخ وتجهيل بعد تجهيل أما على الأول فظاهر وأما على الثانى فوجه ايثار انكار كونه سحرا على انكار كونه معيبا بأن يقال مثلا أفيه عيب حسبما يقتضيه ظاهر الانكار السابق التصريح بالرد عليهم فى خصوصية ماعابوه به بعد التنبيه بالانكار السابق على أن ليس فيه شائبة عيب ما وما فى هذا من معنى القرب لزيادة تعيين المشار اليه واستحضار مافيه من الصفات الدالة على كونه آية باهرة من آيات الله المنادية على امتناع كونه سحرا أى أسحر هذا الذى أمره واضح مكشوف وشأنه مشاهد معروف بحيث لا يرتاب فيه أحد ممن له عين مبصرة وتقديم الخبر للايذان بأنه مصب الانكار ولما استلزم كونه سحرا كون من أتى به ساحرا أكد الانكار السابق وما فيه من التوبيخ والتجهيل بقوله عز وجل ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ وهو جملة حالية من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو بلا ضمير كما فى قول من قال جاء الشتاء ولست أملك عدة وقولك جاء زيد ولم تطلع الشمس أى أتقولون للحق انه سحر والحال أنه لا يفلح فاعله أى لا يظفر بمطلوب ولا ينجو من مكروه فكيف يمكن صدوره ممن مثلى من المؤيدين من عند الله العزيز الحكيم الفائزين بكل مطلب الناجين من كل محذور وقوله تعالى أسحر هذا جملة معترضة بين الحال وصاحبها أكد بها الانكار السابق ببيان استحالة كونه سحرا بالنظر الى ذاته قبل بيان استحالته بالنظر الى صدوره عنه عليه السلام هذا وأما تجويز أن يكون الكل مقول القول على أن المعنى أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح و لا يفلح الساحرون فمما لا يساعده النظم الكريم أصلا أما أولا فلان ما قالوا هو الحكم بأنه سحر من غير أن يكون فيه دلالة على ما تعسف فيه من المعنى بوجه من الوجوه فصرف جوابه عليه السلام عن صريح ما خاطبوه به الى مالا يفهم منه أصلا مما يجب تنزيه النظم التنزيلى عن الحمل على أمثاله وأما ثانيا فلان التعرض لعدم افلاح السحرة على الاطلاق من وظائف من يتمسك بالحق المبين دون الكفرة المتشبثين بأذيال بعض منهم فى معارضته عليه السلام ولو كان ذلك من كلامهم لناسب تخصيص عدم الافلاح بمن زعموه ساحرا بناء على غلبة من يأتون به من السحرة وأما ثالثا فلان قوله عز وجل ﴿قالوا أجئتنا﴾ الخ مسوق لبيان أنه عليه السلام ألقمهم الحجر فانقطعوا عن الاتيان بكلام له تعلق بكلامه عليه السلام فضلا عن الجواب الصحيح واضطروا الى التشبث بذيل التقليد الذى هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل معاند لجوج على أنه استئناف وقع جوابا عما قبله من كلامه عليه السلام على طريقة قوله تعالى قال موسى الخ حسبما أشير اليه كأنه قيل فماذا قالوا لموسى عليه السلام عندما قال لهم ما قال فقيل قالوا عاجزين عن المحاجة أجئتنا ﴿لتلفتنا﴾ أى لتصرفنا فان الفتل واللفت أخوان ﴿عما وجدنا عليه آباءنا﴾ أى من عبادة الاصنام ولا ريب فى أن ذلك انما يتسنى بكون ما ذكر من تتمة

كلامه عليه السلام على الوجه الذى شرح اذ على تقدير كونه محكيا من قبلهم يكون جوابه عليه السلام خاليا عن التبكيت الملجئ لهم الى العدول عن سنن المحاجة ولا ريب فى أنه لا علاقة بين قولهم أجئتنا الخ وبين انكاره عليه السلام لما حكى عنهم مصححة لكونه جوابا عنه ﴿وتكون لكما الكبرياء﴾ أى الملك أو التكبر على الناس باستتباعهم وقرئ ويكون بالياء التحتانية وكلمة فى فى قوله تعالى ﴿فى الأرض﴾ أى أرض مصر متعلقة بتكون أو بالكبرياء أو بالاستقرار فى لكما لوقوعه خبرا أو بمحذوف وقع حالا من الكبرياء أو من الضمير فى لكما لتحمله اياه ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾ أى بمصدقين فيما جئتما به وتثنية الضمير فى هذين الموضعين بعد افراده فيما تقدم من المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للآخر وأما اللفت والمجئ له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة أسند الى موسى عليه السلام خاصة ﴿وقال فرعون﴾ توحيد الفعل لأن الأمر من وظائف فرعون أى قال لملئه يأمرهم بترتيب مبادى الزامهما عليهما السلام بالفعل بعد اليأس من الزامهما بالقول ﴿ائتونى بكل ساحر عليم﴾ بفنون السحر حاذق ماهر فيه وقرئ سحار ﴿فلما جاء السحرة﴾ عطف على مقدر يستدعيه المقام قد حذف ايذانا بسرعة امتثالهم لأمر فرعون كما هو شأن الفاء الفصيحة فى كل مقام أى فأتوا به فلما جاؤا ﴿قال لهم موسى﴾ لكن لا فى ابتداء مجيئهم بل بعدما قالوا له عليه السلام ما حكى عنهم فى السور الأخر من قولهم اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين ونحو ذلك ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾ أى ملقون له كائنا ما كان من أصناف السحر ﴿فلما ألقوا﴾ ما ألقوا من العصى والحبال واسترهبوا الناس وجاؤا بسحر عظيم ﴿قال﴾ لهم ﴿موسى﴾ غير مكترث بهم وبما صنعوا ﴿ما جئتم به السحر﴾ ما موصولة وقعت مبتدأ والسحر خبره أى هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه من آيات الله سبحانه أو هو من جنس السحر يريهم أن حاله بين لا يعبأ به كأنه قال ما جئتم به مما لا ينبغى أن يجاء به وقرئ آلسحر على الاستفهام فما استفهامية أى أى شئ جئتم به أهو السحر الذى يعرف حاله كل أحد ولا يتصدى له عاقل وقرئ ما جئتم به سحر وقرئ ما أتيتم به سحر ودلالتهما على المعنى الثانى فى القراءة المشهورة أظهر ﴿ان الله سيبطله﴾ أى سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدى من المعجزة فلا يبقى له أثر أصلا أو سيظهر بطلانه للناس والسين للتأكيد ﴿ان الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ أى عمل جنس المفسدين على الاطلاق فيدخل فيه السحر دخولا أوليا أو عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالافساد والاشعار بعلة الحكم وليس المراد بعدم اصلاح عملهم عدم جعل فسادهم صلاحا بل عدم اثباته واتمامه أى لا يثبته ولا يكمله ولا يديمه بل يمحقه ويهلكه ويسلط عليه الدمار والجملة تعليل لما سبق من قوله ان الله سيبطله والكل اعتراض تذييلى وفيه دليل على أن السحر افساد وتمويه لا حقيقة له ﴿ويحق الله الحق﴾ عطف على قوله سيبطله أى يثبته ويقويه واظهار الاسم الجليل فى المقامين الأخيرين لالقاء الروعة وتربية المهابة ﴿بكلماته﴾ بأوامره وقضاياه وقرئ بكلمته ﴿ولو كره المجرمون﴾ ذلك والمراد بهم كل من اتصف بالاجرام من السحرة وغيرهم ﴿فما آمن لموسى﴾ معطوف على مقدر قد فصل فى مواقع أخر أى فألقى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون الخ وانما لم يذكر تعويلا على ذلك وايثارا للايجاز وايذانا بأن قوله تعالى ان الله سيبطله مما لا يحتمل الخلف أصلا وعطفه على ذلك بالفاء مع كونه عدما مستمرا من قبيل ما فى قوله عز وجل فاتبعوا أمر فرعون وما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر والسر فى ذلك أن الاتيان بالشئ بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث أى فما آمن له عليه السلام بمشاهدة تلك الآيات القاهرة ﴿الا ذرية من قومه﴾ أى الا أولاد من أولاد قومه بنى اسرائيل حيث دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون وأجابته طائفة من شبانهم وقيل الضمير

لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به عليه السلام أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وامرأته وماشطته وهو بعيد ﴿على خوف﴾ أى كائنين على خوف عظيم ﴿من فرعون وملئهم﴾ الضمير لفرعون والجمع لما هو المعتاد فى ضمائر العظماء ولا يأباه مقام بيان علوه فى الفساد وغلوه فى الشر والتسلط على العباد أو لأن المراد به آله كما يقال ربيعة ومضر أو للذرية أو للقوم أى على خوف من فرعون ومن أشراف بنى اسرائيل حيث كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم ﴿أن يفتنهم﴾ أى يعذبهم وهو بدل اشتمال أو مفعول لخوف فان اعمال المصدر المنكر كثير كما فى قوله عز وجل أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما أو مفعول له بعد حذف اللام واسناد الفعل الى فرعون خاصة لأنه الآمر بالتعذيب ﴿وان فرعون لعال فى الأرض﴾ لغالب فى أرض مصر ﴿وانه لمن المسرفين﴾ فى الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء أو فى الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء والجملتان اعتراض تذييلى مؤكد لمضمون ماسبق ﴿وقال موسى﴾ لما رأى تخوف المؤمنين منه ﴿ياقوم ان كنتم آمنتم بالله﴾ أى صدقتم به وبآياته ﴿فعليه توكلوا﴾ وبه ثقوا ولا تخافوا أحدا غيره فانه كافيكم كل شر وضر ﴿ان كنتم مسلمين﴾ مستسلمين لقضاء الله تعالى مخاصين له وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين فان المعلق بالايمان وجوب التوكل عليه تعالى فانه المقتضى له والمشروط بالاسلام وجوده فانه لا يتحقق مع التخليط ونظيره ان أحسن اليك زيد فأحسن اليه ان قدرت عليه ﴿فقالوا﴾ مجيبين له عليه السلام من غير تلعثم فى ذلك ﴿على الله توكلنا﴾ لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين ثم دعوا ربهم قائلين ﴿ربنا لاتجعلنا فتنة﴾ أى موقع فتنة ﴿للقوم الظالمين﴾ أى لاتسلطهم علينا حتى يعذبونا أو يفتنونا عن ديننا أو يفتتنوا بنا ويقولوا لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا وقوله تعالى ﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ دعاء منهم بالانجاء من سوء جوارهم وشؤم مصاحبتهم بعد الانجاء من ظلمهم ولذلك عبر عنهم بالكفر بعد ماوصفوا بالظلم وفى ترتيب الدعاء على التوكل تلويح بأن الداعى حقه أن يبنى دعاءه على التوكل على الله تعالى ﴿وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ﴾ أن مفسرة لأن فى الوحى معنى القول أى اتخذا مباءة ﴿لقومكما بمصر بيوتا﴾ تسكنون فيها وترجعون اليها للعبادة ﴿واجعلوا﴾ أنتما وقومكما ﴿بيوتكم﴾ تلك ﴿قبلة﴾ مصلى وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعنى الكعبة فان موسى عليه السلام كان يصلى اليها ﴿وأقيموا الصلوة﴾ أى فيها أمروا بذلك فى أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم ﴿وبشر المؤمنين﴾ بالنصرة فى الدنيا اجابة لدعوتهم والجنة فى العقبى وانما ثنى الضمير أولا لأن التبوأ للقوم واتخاذ المعابد مما يتولاه رؤساء القوم بتشاور ثم جمع لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما يفعله كل أحد ثم وحد لأن بشارة الأمة وظيفة صاحب الشريعة ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم لمدحهم بالايمان وللاشعار بأنه المدار فى التبشير ﴿وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة﴾ أى مايتزين به من اللباس والمراكب ونحوها ﴿وأموالا﴾ وأنواعا كثيرة من المال ﴿فى الحيوة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾ دعاء عليهم بلفظ الأمر بما علم بممارسة أحوالهم أنه لايكون غيره كقولك لعن الله ابليس وقيل اللام للعاقبة وهى متعلقة بآتيت أو للعلة لأن ايتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال ولأنهم لما جعلوها ذريعة الى الضلال فكأنهم أوتوها ليضلوا فيكون ربنا تكريرا للأول تأكيدا أو تنبيها على أن المقصود عرض ضلالهم وكفرانهم تقدمة لقوله تعالى ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ الطمس المحو وقرئ بضم الميم أى أهلكها ﴿واشدد على قلوبهم﴾ أى اجعلها قاسية واطبع عليها حتى لاتنشرح للايمان كما هو قضية شأنهم ﴿فلا يؤمنوا﴾ جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهى أو عطف على ليضلوا ومابينهما دعاء معترض ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾

أى يعاينوه و يوقنوا به بحيث لا ينفعهم ذلك اذ ذاك ﴿قال قد أجيبت دعوتكما﴾ يعنى موسى وهرون عليهما السلام لأنه كان يؤمن كما يشعر به اضافة الرب الى ضمير المتكلم مع الغير فى المواقع الثلاثة ﴿فاستقيما﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزام الحجة و لا تستعجلا فان ماطلبتما كائن فى وقته لامحالة . روى أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة ﴿ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ أى بعادات الله سبحانه فى تعليق الأمور بالحكم والمصالح أو سبيل الجهلة فى الاستعجال أو عدم الوثوق بوعد الله تعالى وقرئ بالنون الخفيفة و كسرها لالتقاء الساكنين و لا تتبعان من تبع و لا تتبعان أيضا ﴿وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر﴾ هو من جاوز المكان اذا تخطاه وخلفه والباء للتعدية أى جعلناهم مجاوزين البحر بأن جعلناه يبسا وحفظناهم حتى بلغوا الشط وقرئ جوزنا وهو من التجويز المرادف للمجاوزة لا بما هو بمعنى التنفيذ نحو ماوقع فى قول الأعشى كما جوز السكى فى الباب فيتق والا لقيل وجوزنا بنى اسرائيل فى البحر ولخلا النظم الكريم عن الايذان بانفصالهم عن البحر و بمقارنة العناية الالهية لهم عند الجواز كما هو المشهور فى الفرق بين أذهبه وذهب به ﴿فأتبعهم﴾ يقال تبعته حتى اتبعته اذا كان سبقك فلحقته أى أدركهم ولحقهم ﴿فرعون وجنوده﴾ حتى تراءت الفئتان و كاد يجتمع الجمعان ﴿بغيا وعدوا﴾ ظلما واعتداء أى باغين وعادين أو للبغى والعدوان وقرئ وعدوا وذلك أن موسى عليه السلام خرج ببنى اسرائيل على حين غفلة من فرعون فلما سمع به تبعهم حتى لحقهم و وصل الى الساحل وهم قد خرجوا من البحر ومسلكهم باق على حاله يبسا فسلكه بجنوده أجمعين فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج غشيهم من اليم ماغشيهم ﴿حتى اذا أدركه الغرق﴾ أى لحقه وألجه ﴿قال آمنت أنه﴾ أى بأنه والضمير للشأن وقرئ انه على الاستئناف بدلا من آمنت وتفسيرا له ﴿لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل﴾ لم يقل كما قاله السحرة آمنا برب العالمين رب موسى وهرون بل عبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلته ايمان بنى اسرائيل به تعالى للاشعار برجوعه عن الاستعصاء و باتباعه لمن كان يستتبعهم طمعا فى القبول والانتظام معهم فى سلك النجاة ﴿وأنا من المسلمين﴾ أى الذين أسلموا نفوسهم لله أى جعلوها سالمة خالصة له تعالى وأراد بهم اما بنى اسرائيل خاصة واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة على الأول عطف على آمنت وايثار الاسمية لادعاء الدوام والاستمرار وعلى الثانى يحتمل الحالية أيضا من ضمير المتكلم أى آمنت مخلصا لله منتظما فى سلك الراسخين فيه ولقد كرر المعنى الواحد بثلاث عبارات حرصا على القبول المفضى الى النجاة وهيهات هيهات بعد مافات مافات وأتى ماهو آت وقوله عز وجل ﴿آلآن﴾ مقول لقول مقدر معطوف على قال أى فقيل آلآن وهو الى قوله تعالى آية حكاية لما جرى منه سبحانه من الغضب على المخذول ومقابلة ما أظهره بالرد على وجه الانكار التوبيخى على تأخيره وتقريعه بالعصيان والافساد وغير ذلك وفى حذف الفعل المذكور وابراز الخبر المحكى فى صورة الانشاء من الدلالة على عظم السخط وشدة الغضب مالا يخفى كما يفصح عنه ماروى من أن جبريل دس فاه عند ذلك بحال البحر وسده به فانه تأكيد للرد القولى بالرد الفعلى و لا ينافيه تعليله بمخافة ادراك الرحمة فيما نقل أنه قال للنبى عليهما السلام فلو رأيتنى يا محمد وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة اذ المراد بها الرحمة الدنيوية أى النجاة التى هى طلبة المخذول وليس من ضرورة ادراكها صحة الايمان كما فى ايمان قوم يونس عليه السلام حتى يلزم من كراهته مالا يتصور فى شأن جبريل عليه السلام من الرضا بالكفر اذ لا استحالة فى ترتب هذه الرحمة على مجرد التفوه بكلمة الايمان وان كان ذلك فى حالة البأس واليأس فيحمل دسه عليه السلام على سد باب الاحتمال البعيد لكمال الغيظ وشدة الحرد فتدبر والله الموفق وحق العامل فى الظرف أن يقدر مؤخرا ليتوجه الانكار والتوبيخ الى تأخير الايمان الى حد يمتنع قبوله فيه أى آلآن تؤمن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات وقوله عز وعلا ﴿وقد عصيت

قبل ﴾ حال من فاعل الفعل المقدر جيء به لتشديد التوبيخ والتقريع على تأخير الايمان الى هذا الآن ببيان أنه لم يكن تأخيره لعدم بلوغ الدعوة اليه و لا للتأمل والتدبر فى دلائله وآياته و لالشىء آخر مما عسى يعد عذرا فى التأخير بل كان ذلك على طريقة الرد والاستعصاء والافساد فان قوله تعالى ﴿ وكنت من المفسدين ﴾ عطف على عصيت داخل فى حيز الحال أى وكنت من الغالين فى الضلال والاضلال عن الايمان كقوله تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون فهذا عبارة عن فساده الراجع الى نفسه والسارى الى غيره من الظلم والتعدى وصد بنى اسرائيل عن الايمان والأول عن عصيانه الخاص به ﴿ فاليوم ننجيك ﴾ أى نخرجك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافيا وفى التعبير عنه بالتنجية تلويح بأن مراده بالايمان هو النجاة كما مر وتهكم به أو نلقيك على نجوة من الارض ليراك بنو اسرائيل وقرىء ننجيك من الانجاء وننحيك بالحاء من التنحية أى نلقيك بناحية الساحل ﴿ ببدنك ﴾ فى موضع الحال من ضمير المخاطب أى ننجيك ملابسا ببدنك فقط لامع روحك كما هو مطلوبك فهو تخييب له وحسم لاطماعه بالمرة أو عاريا عن اللباس أو كاملا سويا أو بدرعك وكانت له درع من الذهب يعرف بها وقرىء بأبدانك أى بأجزاء بدنك كلها كقولهم هوى باجرامه أو بدروعك كأنه كان مظاهرا بينها ﴿ لتكون لمن خلفك آية ﴾ لمن وراءك علامة وهم بنو اسرائيل اذ كان فى نفوسهم من عظمته ماخيل اليهم أنه لايهلك حتى يروى أنهم لم يصدقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه الى أن عاينوه مطرحا على ممرهم من الساحل أو تكون لمن يأتى بعدك من الامم اذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالا من الطغيان أو حجة تدلهم على أن الانسان وان بلغ الغاية القصوى من عظم الشان وعلو الكبرياء وقوة السلطان فهو مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية وقرىء لمن خلفك فعلا ماضيا أى لمن خلفك من الجبابرة وقرىء لمن خلقك بالقاف أى لتكون لخالقك آية كسائر الآيات فان افراده سبحانه اياك بالالقاء الى الساحل دليل على أنه قصد منه لكشف تزويرك واماطة الشبهة فى أمرك وبرهان نير على كمال علمه وقدرته وحكمته وارادته وهذا الوجه محتمل على القراءة المشهورة أيضا وفى تعليل تنجيته بما ذكر ايذان بأنها ليست لاعزازه أو لفائدة أخرى عائدة اليه بل لكمال الاستهانة به وتفضيحه على رؤس الأشهاد وزيادة تفظيع حاله كمن يقتل ثم يجر جسده فى الأسواق أو يدار برأسه فى البلاد واللام الأولى متعلقة بننجيك والثانية بمحذوف وقع حالا من آية أى كائنة لمن خلفك ﴿ وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ لايتفكرون فيها ولا يعتبرون بها وهو اعتراض تذييلى جىء به عند الحكاية تقريرا لفحوى الكلام المحكى ﴿ ولقد بوأنا بنى اسرائيل ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان النعم الفائضة عليهم اثر نعمة الانجاء على وجه الاجمال واخلالهم بشكرها وأداء حقوقها أى أسكناهم وأنزلناهم بعد ما أنجيناهم وأهلكنا أعداءهم ﴿ مبوأ صدق ﴾ أى منزلا صالحا مرضيا وهو الشام ومصر ملكوهما بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا فى نواحيهما حسبما نطق به قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أى اللذائذ ﴿ فما اختلفوا ﴾ فى أمر دينهم ﴿ حتى جاءهم العلم ﴾ أى الا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها أو فى أمر محمد عليه الصلاة والسلام الا من بعد ما علموا صدق نبوته وتظاهر معجزاته فالمراد بالمختلفين أعقابهم الذين كانوا فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام ﴿ ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ فيميز بين المحق والمبطل بالاثابة والتعذيب ﴿ فان كنت فى شك ﴾ أى فى شك ما يسير على الفرض والتقدير فان مضمون الشرطية انما هو تعليق شىء بشىء من غير تعرض لامكان شىء منهما كيف لا وقد يكون كلاهما ممتنعا كقوله عز وجل قل ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين وقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك ونظائرهما ﴿ مما أنزلنا اليك ﴾ من القصص التى من جملتها

قصة فرعون وقومه وأخبار بنى اسرائيل ﴿فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك﴾ فان ذلك محقق عندهم ثابت فى كتبهم حسبما ألقينا اليك والمراد اظهار نبوته عليه السلام بشهادة الأحبار حسبما هو المسطور فى كتبهم وان لم يكن اليه حاجة أصلا أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ فى العلم بصحة نبوته عليه السلام أو تهييجه عليه السلام و زيادة تثبيته على ما هو عليه من اليقين لا تجويز صدور الشك منه عليه السلام و لذلك قال عليه السلام لا أشك و لا أسأل وقيل المراد بالموصول مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وتميم الدارى و كعب وأضرابهم وقيل الخطاب للنبى عليه السلام والمراد أمته أو لكل من يسمع أى ان كنت أيها السامع فى شك مما أنزلنا اليك على لسان نبينا وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع الى حلها بالرجوع الى أهل العلم وقرئ فاسأل الذين يقرؤن الكتب ﴿لقد جاءك الحق﴾ الذى لا محيد عنه و لا ريب فى حقيته ﴿من ربك﴾ وظهر ذلك بالآيات القاطعة التى لا يحوم حولها شائبة الارتياب وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من التشريف ما لا يخفى ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين ودم على ذلك كما كنت من قبل ﴿و لا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله﴾ من باب التهييج والالهاب والمراد به اعلام أن التكذيب من القبح والمحذورية بحيث ينبغى أن ينهى عنه من لا يتصور امكان صدوره عنه فكيف بمن يمكن اتصافه به وفيه قطع لاطماع الكفرة ﴿فتكون﴾ بذلك ﴿من الخاسرين﴾ أنفسا وأعمالا ﴿ان الذين حقت عليهم﴾ شروع فى بيان سر اصرار الكفرة على ما هم عليه من الكفر والضلال أى ثبتت و وجبت بمقتضى المشيئة المبنية على الحكمة البالغة ﴿كلمة ربك﴾ حكمه وقضاؤه بأنهم يموتون على الكفر و يخلدون فى النار كقوله تعالى ولكن حق القول منى لأملأن جهنم الى آخره ﴿لا يؤمنون﴾ أبدا اذ لا كذب لكلامه ولا انتقاض لقضائه أى لا يؤمنون ايمانا نافعا واقعا فى أوانه فيندرج فيهم المؤمنون عند معاينة العذاب مثل فرعون باقيا عند الموت فيدخل فيهم المرتدون ﴿ولو جاءتهم كل آية﴾ واضحة المدلول مقبولة لدى العقول لأن سبب ايمانهم وهو تعلق ارادته تعالى به مفقود لكن فقدانه ليس لمنع منه سبحانه مع استحقاقهم له بل لسوء اختيارهم المتفرع على عدم استعدادهم لذلك ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ كدأب آل فرعون وأضرابهم ﴿فلولا كانت﴾ كلام مستأنف لتقرير ما سبق من استحالة ايمان من حقت عليهم كلمته تعالى لسوء اختيارهم مع تمكنهم من التدارك فيكون الاستثناء الآتى بيانا لكون قوم يونس عليه السلام ممن لم يحق عليه الكلمة لاهتدائهم الى التدارك فى وقته ولولا بمعنى هلا وقرئ كذلك أى فهلا كانت ﴿قرية﴾ من القرى المهلكة ﴿آمنت﴾ قبل معاينة العذاب ولم تؤخر ايمانها الى حين معاينته كما فعل فرعون وقومه ﴿فنفعها ايمانها﴾ بأن يقبله الله تعالى منها و يكشف بسببه العذاب عنها ﴿الا قوم يونس﴾ استثناء منقطع أى لكن قوم يونس ﴿لما آمنوا﴾ أول ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخروا الى حلوله ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحيوة الدنيا﴾ بعدما أظلهم وكاد يحل بهم و يجوز أن تكون الجملة فى معنى النفى كما يفصح عنه حرف التحضيض فيكون الاستثناء متصلا اذ المراد بالقرى أهاليها كأنه قيل ما آمنت طائفة من الامم العاصية فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس عليه السلام فيكون قوله تعالى لما آمنوا استئنافا لبيان نفع ايمانهم و يؤيده قراءة الرفع على البدلية ﴿ومتعناهم﴾ بمتاع الدنيا بعد كشف العذاب عنهم ﴿الى حين﴾ مقدر لهم فى علم الله سبحانه. روى أن يونس عليه السلام بعث الى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة وقيل قال لهم يونس عليه السلام أجلكم أربعون ليلة فقالوا ان رأينا أسباب الهلاك آمنا بك فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيما

أسود هائلا يدخن دخانا شديدا ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم و يسود سطوحهم فلبسوا المسوح و برزوا الى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان و بين الدواب وأولادها فحن بعضها الى بعض وعلت الاصوات والعجيج وأظهروا الايمان والتوبة وتضرعوا الى الله تعالى فرحمهم و كشف عنهم وكان ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود رضى الله عنه بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى ان الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده الى صاحبه وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا ياحى حين لاحى وياحى محيى الموتى وياحى لا اله الا أنت فقالوها فكشف عنهم وعن الفضيل بن عياض قالوا ان ذنوبنا قدعظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ماأنت أهله ولاتفعل بنا مانحن أهله ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الارض ﴾ تحقيق لدوران ايمان كافة المكلفين وجودا وعدما على قطب مشيئته تعالى مطلقا اثر بيان تبعية كفر الكفرة لكلمته ومفعول المشيئة محذوف لوجود ما يقتضيه من وقوعها شرطا و كون مفعولها مضمون الجزاء وأن لايكون فى تعلقها به غرابة كما هو المشهور أى لو شاء سبحانه ايمان من فى الارض من الثقلين لآمن ﴿ كلهم ﴾ بحيث لايشذ عنهم أحد ﴿ جميعا ﴾ مجتمعين على الايمان لايختلفون فيه لكنه لايشاؤه لكونه مخالفا للحكمة التى عليها بنى أساس التكوين والتشريع وفيه دلالة على أن من شاء الله تعالى ايمانه يؤمن لامحالة ﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ على مالم يشأ الله منهم حسبما ينبئ عنه حرف الامتناع فى الشرطية والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل أربك لايشاء ذلك فأنت تكرههم ﴿ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ فيكون الانكار متوجها الى ترتيب الاكراه المذكور على عدم مشيئته تعالى ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الانكار على عدم مشيئته تعالى بناء على أن الهمزة متأخرة فى الاعتبار وانما قدمت لاقتضائها الصدارة كما هو رأى الجمهور وأياما كان فالمشيئة على اطلاقها اذ لا فائدة بل لاوجه لاعتبار عدم مشيئة الالجاء خاصة فى انكار الترتيب عليه أو ترتيب الانكار عليه وفى ايلاء الاسم حرف الاستفهام ايذان بأن الاكراه أمر ممكن لكن الشأن فى المكره من هو وماهو الاهو وحده لايشاركه فيه لأنه القادر على أن يفعل فى قلوبهم مايضطرهم الى الايمان وذلك غير مستطاع للبشر وفيه ايذان باعتبار الالجاء فى المشيئة كما أشير اليه ﴿ وما كان لنفس ﴾ بيان لتبعية ايمان النفوس المؤمنة لمشيئته تعالى وجودا بعد بيان الدوران الكلى عليها وجودا وعدما أى ماصح وما استقام لنفس من النفوس التى علم الله تعالى أنها تؤمن ﴿ أن تؤمن الا باذن الله ﴾ أى بتسهيله ومنحه للالطاف وانما خصت النفس بمن ذكر ولم يجعل من قبيل قوله تعالى وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله لان الاستثناء مفرغ من أعم الاحوال أى ما كان لنفس أن تؤمن فى حال من أحوالها الاحال كونها ملابسة باذنه تعالى فلا بد من كون الايمان مما يؤول اليه حالها كما أن الموت مآل لكل نفس بحيث لامحيص لها عنه فلابد من تخصيص النفس بمن ذكر فان النفوس التى علم الله أنها لاتؤمن ليس لها حال تؤمن فيها حتى يستثنى تلك الحال من غيرها ﴿ ويجعل الرجس ﴾ أى الكفر بقرينة ماقبله عبر عنه بالرجس الذى هو عبارة عن القبيح المستقذر المستكره لكونه علما فى القبح والاستكراه وقيل هو العذاب أو الخذلان المؤدى اليه وقرئ بنون العظمة وقرئ بالزاى أى يجعل الكفر و يبقيه ﴿ على الذين لايعقلون ﴾ لايستعملون عقولهم بالنظر فى الحجج والآيات أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع فلا يحصل لهم الهداية التى عبر عنها بالاذن فيبقون مغمورين بقبائح الكفر والضلال أو مقهورين بالعذاب والنكال والجملة معطوفة على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم كأنه قيل فيأذن لهم بمنح الالطاف ويجعل الخ ﴿ قل ﴾ مخاطبا لأهل مكة بعثا لهم على التدبر فى ملكوت السموات والأرض ومافيهما من تعاجيب الآيات الانفسية والآفاقية ليتضح لك أنهم من الذين

لايعقلون وحقت عليهم الكلمة ﴿انظروا﴾ أى تفكروا وقرئ بنقل حركة الهمزة الى لام قل ﴿ماذا فى السموات والارض﴾ أى أى شئ بديع فيهما من عجائب صنعه الدالة على وحدته وكمال قدرته على أن ماذا جعل بالتركيب اسما واحدا مغلبا فيه الاستفهام على اسم الاشارة فهو مبتدأ خبره الظرف ويجوز أن يكون ما مبتدأ وذا بمعنى الذى والظرف صلته والجملة خبر المبتدا وعلى التقديرين فالمبتدا والخبر فى محل النصب باسقاط الخافض وفعل النظر معلق بالاستفهام ﴿وما تغنى﴾ أى ما تنفع وقرئ بالتذكير ﴿الآيات﴾ وهى التى عبر عنها بقوله تعالى ماذا فى السموات والارض ﴿والنذر﴾ جمع نذير على أنه فاعل بمعنى منذر أو على أنه مصدر أى لاتنفع الآيات والرسل المنذرون أو الانذارات ﴿عن قوم لايؤمنون﴾ فى علم الله تعالى وحكمه فما نافية والجملة اما حالية أو اعتراضية ويجوز كون ما استفهامية انكارية فى موضع النصب على المصدرية أى أى اغناء تغنى الخ فالجملة حينئذ اعتراضية ﴿فهل ينتظرون﴾ أى مشركو مكة وأضرابهم ﴿الا مثل أيام الذين خلوا﴾ أى الا يوما مثل أيام الذين خلوا ﴿من قبلهم﴾ من مشركى الامم الماضية أى مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم اذ لايستحقون غيره من قولهم أيام العرب لوقائعها ﴿قل﴾ تهديدا لهم ﴿فانتظروا﴾ ماهو عاقبتكم ﴿انى معكم من المنتظرين﴾ لذلك ﴿ثم ننجى رسلنا﴾ بالتشديد وقرئ بالتخفيف وهو عطف على مقدر يدل عليه قوله مثل أيام الذين خلوا وما بينهما اعتراض جئ به مسارعة الى التهديد ومبالغة فى تشديد الوعيد كأنه قيل أهلكنا الامم ثم نجينا رسلنا المرسلة اليهم ﴿والذين آمنوا﴾ وصيغة الاستقبال لحكاية الاحوال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صورها وتأخير حكاية التنجية عن حكاية الاهلاك على عكس ما فى قوله تعالى فنجيناه ومن معه فى الفلك الخ ونظائره الواردة فى مواقع عديدة ليتصل به قوله عز وجل ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الانجاء ﴿حقا علينا﴾ اعتراض بين العامل والمعمول أى حق ذلك حقا وقيل بدل من المحذوف الذى ناب عنه كذلك أى انجاء مثل ذلك حقا والكاف متعلقة بقوله تعالى ﴿ننجى المؤمنين﴾ أى من كل شدة وعذاب والجملة تذييل لما قبلها مقرر لمضمونه والمراد بالمؤمنين اما الجنس المتناول للرسل عليهم السلام والأتباع واما الاتباع فقط وانما لم يذكر انجاء الرسل ايذانا بعدم الحاجة اليه وأيا ما كان ففيه تنبيه على أن مدار النجاة هو الايمان ﴿قل﴾ لجمهور المشركين ﴿يا أيها الناس﴾ أوثر الخطاب باسم الجنس مصدرا بحرف التنبيه تعميما للتبليغ واظهاراً لكمال العناية بشأن ما بلغ اليهم ﴿ان كنتم فى شك من دينى﴾ الذى أتعبد الله عز وجل به وأدعوكم اليه ولم تعلموا ماهو وما صفته ﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ فى وقت من الاوقات ﴿ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم﴾ ثم يفعل بكم ما يفعل من فنون العذاب أى فاعلموا أنه تخصيص العبادة به ورفض عبادة ما سواه من الاصنام وغيرها مما تعبدونه جهلا وتقديم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدم التخلية على التحلية كما فى كلمة التوحيد وللايذان بالمخالفة من أول الأمر أو ان كنتم فى شك من صحة دينى وسداده فاعلموا أن خلاصته اخلاص العبادة لمن بيده الايجاد والاعدام دون ما هو بمعزل منهما من الاصنام فاعرضوها على عقولكم وأجيلوا فيها أفكاركم وانظروا فيها بعين الانصاف لتعلموا أنه حق لاريب فيه وفى تخصيص التوفى بالذكر متعلقا بهم ما لا يخفى من التهديد والتعبير عما هم فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة للايذان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل فى هذا الباب هو الشك فى صحته وأما القطع بعدمها فلا سبيل اليه أو ان كنتم فى شك من ثباتى على الدين فاعلموا أنى لا أتركه أبدا ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ بما دل عليه العقل ونطق به الوحى وهو تصريح بأن ما هو عليه من دين التوحيد ليس بطريق العقل الصرف بل بالامداد السماوى والتوفيق الالهى وحذف حرف الجر من أن يجوز أن يكون من باب الحذف المطرد مع أن وأن وأن يكون خاصا بفعل الأمر كما فى قوله

أمرتك الخير فافعل ماأمرت به ﴿وأن أقم وجهك للدين﴾ عطف على أن أكون خلا أن صلة أن محكية بصيغة الامر ولا ضير فى ذلك لان مناط جواز وصلها بصيغ الافعال دلالتها على المصدر وذلك لايختلف بالخبرية والطلبية ووجوب كون الصلة خبرية فى الموصول الاسمى انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهى لاتوصف الا بالجمل الخبرية وليس الموصول الحرفى كذلك أى وأمرت بالاستقامة فى الدين والاستبداد فيه بأداء المأمور به والانتهاء عن المنهى عنه أو باستقبال القبلة فى الصلاة وعدم الالتفات الى اليمين والشمال ﴿حنيفا﴾ حال من الدين أو الوجه أى مائلا عن الاديان الباطلة ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ عطف على أقم داخل تحت الامر أى لاتكونن منهم اعتقادا ولا عملا وقوله عز وعلا ﴿ولا تدع﴾ عطف على قوله تعالى قل ياأيها الناس غير داخل تحت الامر وقيل على ماقبله من النهى والوجه هو الاول لأن مابعده من الجمل الى آخر الآيتين متسقة لايمكن فصل بعضها عن بعض كما ترى ولا وجه لادراج الكل تحت الامر وهو تأكيد للنهى المذكور وتفصيل لما أجمل فيه اظهارا لكمال العناية بالامر وكشفا عن وجه بطلان ماعليه المشركون أى لاتدع ﴿من دون الله﴾ استقلالا ولا اشتراكا ﴿مالا ينفعك﴾ اذا دعوته بدفع مكروه أو جلب محبوب ﴿ولا يضرك﴾ اذا تركته بسلب المحبوب دفعا أو رفعا أو بايقاع المكروه وتقديم النفع على الضر غنى عن بيان السبب ﴿فان فعلت﴾ أى مانهيت عنه من دعاء مالا ينفع ولا يضر كنى به عنه تنويها لشأنه عليه السلام وتنبيها على رفعة مكانه من أن ينسب اليه عبادة غير الله سبحانه ولو فى ضمن الجملة الشرطية ﴿فانك اذاً من الظالمين﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال من يسأل عن تبعة مانهى عنه ﴿وان يمسسك الله بضر﴾ تقرير لما أو ردفى حيز الصلة من سلب النفع من الاصنام وتصوير لاختصاصه به سبحانه ﴿فلا كاشف له﴾ عنك كائنا من كان وما كان ﴿الا هو﴾ وحده فيثبت عدم كشف الاصنام بالطريق البرهانى وهو بيان لعدم النفع برفع المكروه المستلزم لعدم النفع بجلب المحبوب استلزاما ظاهرا فان رفع المكروه أدنى مراتب النفع فاذا انتفى انتفى النفع بالكلية ﴿وان يردك بخير﴾ تحقيق لسلب الضرر الوارد فى حيز الصلة أى ان يرد أن يصيبك بخير ﴿فلا راد لفضله﴾ الذى من جملته ماأرادك به من الخير فهو دليل على جواب الشرط لانفس الجواب وفيه ايذان بأن فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضل من غير استحقاق عليه سبحانه أى لاأحد يقدر على رده كائنا ما كان فيدخل فيه الاصنام دخولا أوليا وهو بيان لعدم ضرها بدفع المحبوب قبل وقوعه المستلزم لعدم ضرها برفعه أو بايقاع المكروه استلزاما جليا ولعل ذكر الارادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الامرين للايذان بأن الخير مراد بالذات وأن الضر انما يمس من يمسه لما يوجبه من الدواعى الخارجية لابالقصد الأولى أو أريد معنى الفعلين فى كل من الضر والخير وأنه لاراد لما يريد منهما ولامزيل لما يصيب به منهما فأوجز الكلام بأن ذكر فى أحدهما المس وفى الآخر الارادة ليدل بما ذكر فى كل جانب على ماترك فى الجانب الآخر على أنه قد صرح بالاصابة حيث قيل ﴿يصيب به﴾ اظهارا لكمال العناية بجانب الخير كما ينبىء عنه ترك الاستثناء فيه أى يصيب بفضله الواسع المنتظم لما أرادك به من الخير وجعل الفضل عبارة عن ذلك الخير بعينه على أن يكون من باب وضع المظهر فى موضع المضمر لما ذكر من الفائدة يأباه قوله عز وجل ﴿من يشاء من عباده﴾ فان ذلك ينادى بعموم الفضل وقوله عز قائلا ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ تذييل لقوله تعالى يصيب به الخ مقرر لمضمونه والكل تذييل للشرطية الاخيرة محقق لمضمونها ﴿قل﴾ مخاطبا لاولئك الكفرة بعدما بلغتهم ماأوحى اليك ﴿ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾ وهو القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام التى من جملتها مامر آنفا من أصول الدين واطلعتم على مافى تضاعيفه من البينات والهدى ولم يبق لكم عذر ﴿فمن اهتدى﴾ بالايمان به والعمل بما فى

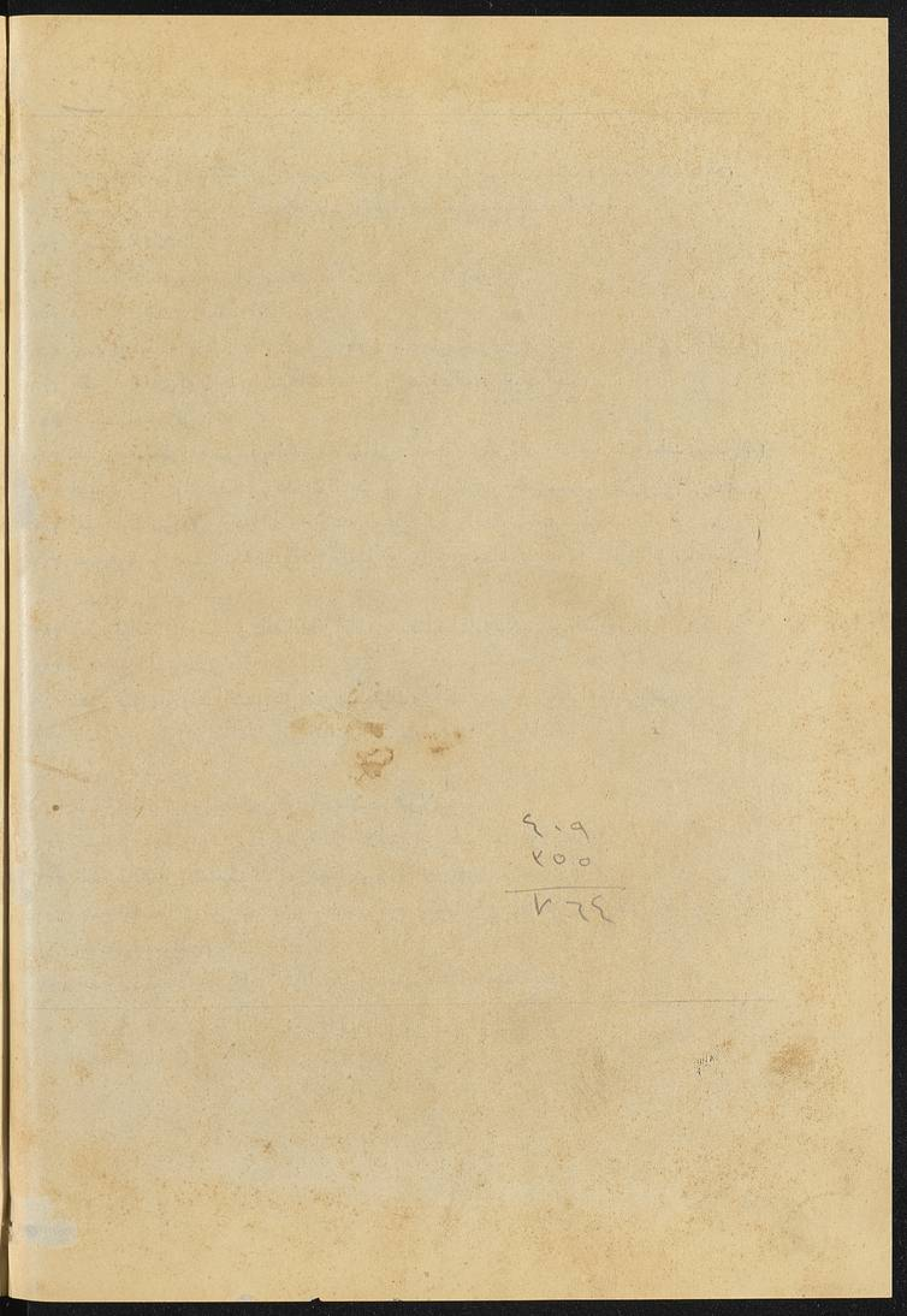
مطاويه ﴿فانما يهتدى لنفسه﴾ أى منفعة اهتدائه لها خاصة ﴿ومن ضل﴾ بالكفر به والاعراض عنه ﴿فانما يضل عليها﴾ أى فوبال الضلال مقصور عليها والمراد تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد اليه عليه السلام من جلب نفع أو دفع ضر كما يلوح به اسناد المجىء الى الحق من غير اشعار بكون ذلك بواسطته ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ بحفيظ موكول الى أمركم وانما أنا بشير ونذير ﴿واتبع﴾ اعتقادا وعملا وتبليغا ﴿مايوحى اليك﴾ على نهج التجدد والاستمرار من الحق المذكور المتأكد يوما فيوما وفى التعبير عن بلوغه اليهم بالمجىء واليه عليه السلام بالوحى تنبيه على مابين المرتبتين من التنائى ﴿واصبر﴾ على مايعتريك من مشاق التبليغ ﴿حتى يحكم الله﴾ بالنصرة عليهم أو بالامر بالقتال ﴿وهو خير الحاكمين﴾ اذ لايمكن الخطأ فى حكمه لاطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس أعطى له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون والحمد لله وحده

﴿تم الجزء الثانى من تفسير العلامة أبى السعود ويليه الجزء الثالث أوله سورة هود عليه السلام﴾

صحيفة

صحيفة

﴿تم فهرس الجزء الثانى من تفسير أبى السعود﴾





المسمى

إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم

لخاتمة المحققين وامام المدققين قاضى القضاة أبى السعود محمد بن محمد العمادى

ولد رحمه الله تعالى سنة ٨٩٦ هجرية وتوفى سنة ٩٥١

الجزء الثالث

صححت هذه الطبعة بمعرفة بعض أفاضل العلماء وقوبلت على عدة نسخ وقرئت فى المرة الأخيرة على حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ حسن محمد المسعودى

المدرس بالقسم العالى بالأزهر

الـتزام

محمد محمد عبد اللطيف

صاحب المكتبة الحسينية المصرية

بالأزهر الشريف بمصر

الطبعة الأولى

سنة ١٣٤٧ هجرية — سنة ١٩٢٨ ميلادية

المطبعة المصرية

ادارة محمد محمد عبد اللطيف

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة هود عليه السلام

(مكية وهى مائة وثلاث وعشرون آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الر﴾ محله الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف وقيل على أنه مبتدأ والأول هو الاظهر كما أشير اليه فى سورة يونس أو النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اذكر أو اقرأ على تقدير كونه اسما للسورة على ماعليه اطباق الاكثر أو لامحل له من الاعراب مسرود على نمط التعديد حسبما فصل فى أخواته وقوله تعالى ﴿كتاب﴾ خبر له على الوجه الثانى ولمبتدا محذوف على الوجوه الباقية ﴿أحكمت آياته﴾ نظمت نظما متقنا لايعتريه خلل بوجه من الوجوه أو جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها أو منعت من النسخ بمعنى التغيير مطلقا أو أيدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله عز وجل أو على ثبوت مدلولاتها فالمراد بالآيات جميعها أو على حقية ماتشتمل عليه من الاحكام الشرعية فالمراد بها بعضها المشتمل عليها كما اذا فسر الاحكام بالمنع من النسخ بمعنى تبديل الحكم الشرعى خاصة وأما تفسيره بالمنع من الفساد أخذا من قولهم أحكمت الدابة اذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ففيه ايهام مالا يكاد يليق بشأن الآيات الكريمة من التداعى الى الفساد لولا المانع وفى اسناد الاحكام على الوجوه المذكورة الى آيات الكتاب دون نفسه لاسيما على الوجوه الشاملة لكل آية آية منه من حسن الموقع والدلالة على كونه فى أقصى غاية منه مالا يخفى ﴿ثم فصلت﴾ أى جعلت فصولا من الاحكام والدلائل والمواعظ والقصص أو فصل فيها مهمات العباد فى المعاش والمعاد على الاسناد المجازى والتفسير بجعلها آية آية لايساعده المقام لان ذلك من الاوصاف الاولية فلا يناسب عطفه على احكامها بكلمة التراخى وأما المعنيان الاولان فهما وان كانا مع الاحكام زمانا حيث لم تزل الآيات محكمة مفصلة لاأنها أحكمت أو فصلت بعد أن لم تكن كذلك اذ الفعلان من قبيل قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل الا أنهما حيث كانا من صفات الآيات باعتبار نسبة بعضها الى بعض على وجه يستتبع أحكاما مخصوصة وآثارا معتدا بها وبملاحظة مصالح العباد ناسب أن يشار الى تراخى رتبتهما عن رتبة الاحكام وان حمل جعلها آية آية على معنى تفريق بعضها عن بعض يكون من هذا القبيل الا أنه ليس فى مثابته فى استتباع مايستتبعه من الاحكام والآثار أو فرقت فى التنزيل منجمة بحسب المصالح فان أريد تنزيلها المنجم بالفعل فالتراخى زمانى وان أريد جعلها فى نفسها بحيث يكون نزولها منجما حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فهو رتبى لان ذلك وصف لازم لها حقيق بأن يرتب على وصف احكامها وقرىء أحكمت آياته ثم فصلت على صيغة التكلم وعن عكرمة والضحاك ثم فصلت أى فرقت بين الحق والباطل ﴿من لدن حكيم خبير﴾ صفة للكتاب وصف بها بعد ماوصف باحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو رتبته من حيث الذات ابانة لجلالة شأنه من حيث الاضافة أو خبر بعد خبر للمبتدا المذكور أو المحذوف أو صلة للفعلين وفى بنائهما للمفعول ثم ايراد الفاعل بعنوان الحكمة البالغة والاحاطة بجلائلها ودقائقها منكرا بالتنكير التفخيمى وربطهما به لاعلى النهج المعهود فى اسناد الافاعيل الى فواعلها مع رعاية حسن الطباق من الجزالة والدلالة على فخامتهما وكونهما على أكمل مايكون

مالايكتنه كنهه ﴿ ألا تعبدوا الا الله ﴾ مفعول له حذف عنه اللام مع فقدان الشرط أعنى كونه فعلا لفاعل الفعل المعلل جريا على سنن القياس المطرد فى حذف حرف الجر مع أن المصدرية كانه قيل كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا الا الله أى لتتركوا عبادة غير الله عز وجل وتتمحضوا فى عبادته فان الاحكام والتفصيل على ما فصل من المعانى مما يدعوهم الى الايمان والتوحيد وما يتفرع عليه من الطاعات قاطبة وقيل أن مفسرة لما فى التفصيل من معنى القول أى قيل لا تعبدوا الا الله ﴿ اننى لكم منه ﴾ من جهة الله تعالى ﴿ نذير ﴾ أنذركم عذابه ان لم تتركوا ما أنتم عليه من الكفر وعبادة غير الله تعالى ﴿ وبشير ﴾ أبشركم بثوابه ان آمنتم به وتمحضتم فى عبادته ولما ذكر شئون الكتاب من احكام آياته وتفصيلها وكون ذلك من قبل الله تعالى وأورد معظم ما نظم فى سلك الغاية والأمر من التوحيد وترك الاشراك وسط بينه وبين قرينيه أعنى الاستغفار والتوبة ذكر أن من نزل عليه ذلك الكتاب مرسل من عند الله تعالى لتبليغ أحكامه وترشيحها بالمؤيدات من الوعد والوعيد للايذان بأن التوحيد فى أقصى مراتب الأهمية حتى أفرد بالذكر وأيد ايجابه بالخطاب غب الكتاب مع تلويح بأنه كما لا يتحقق فى نفسه الا مقارنا للحكم برسالته عليه السلام كذلك فى الذكر لا ينفك أحدهما عن الآخر وقد روعى فى سوق الخطاب بتقديم الانذار على التبشير ما روعى فى الكتاب من تقديم النفى على الاثبات والتخلية على التحلية ليتجاوب أطراف الكلام ويجوز أن يكون قوله تعالى ألا تعبدوا الا الله كلاما منقطعا عما قبله واردا على لسانه عليه السلام اغراء لهم على اختصاصه تعالى بالعبادة كأنه عليه السلام قال ترك عبادة غير الله أى الزموه على معنى اتركوا عبادة غير الله تركا مستمرا اننى لكم من جهة الله تعالى نذير وبشير أى نذير أنذركم من عقابه على تقدير استمراركم على الكفر وبشير أبشركم بثوابه على تقدير تركـكم له وتوحيدكم ولما سيق اليهم حديث التوحيد وأكد ذلك بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الانذار والتبشير شرع فى ذكر ما هو من تتماته على وجه يتضمن تفصيل ما أجمل فى وصف البشير والنذير فقيل ﴿ وأن استغفروا ربكم ﴾ وهو معطوف على أن لا تعبدوا على ما ذكر من الوجهين فعلى الاول أن مصدرية لجواز كون صلتها أمرا أو نهيا كما فى قوله تعالى وأن أقم وجهك للدين حنيفا لأن مدار جواز كونها فعلا انما هو دلالته على المصدر وهو موجود فيهما ووجوب كونها خبرية فى صلة الموصول الاسمى انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهى لا توصف بها الا اذا كانت خبرية وأما الموصول الحرفى فليس كذلك ولما كان الخبر والانشاء فى الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الأمر والنهى صلة حسبما ساغ وقوع الفعل فيتجرد عند ذلك عن معنى الأمر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال ﴿ ثم توبوا اليه ﴾ عطف على استغفروا والكلام فيه كالكلام فيه والمعنى فعل ما فعل من الاحكام والتفصيل لتخصوا الله تعالى بالعبادة وتطلبوا منه ستر ما فرط منكم من الشرك ثم ترجعوا اليه بالطاعة أو تستمروا على ما أنتم عليه من التوحيد والاستغفار أو تستغفروا من الشرك وتتوبوا من المعاصى وعلى الثانى أن مفسرة أى قيل فى أثناء تفصيل الآيات لا تعبدوا الا الله واستغفروه ثم توبوا اليه والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وارشاد لهم الى طريق الابتهال فى السؤال وترشيح لما يعقبه من التمتيع وايتاء الفضل بقوله تعالى ﴿ يمتعكم متاعا حسنا ﴾ أى تمتيعا وانتصابه على أنه مصدر حذف منه الزوائد كقوله تعالى أنبتكم من الأرض نباتا أو على أنه مفعول به وهو اسم لما يتمتع به من منافع الدنيا من الأموال والبنين وغير ذلك والمعنى يعشكم عيشا مرضيا لا يفوتكم فيه شىء مما تشتهون ولا ينغصه شىء من المكدرات ﴿ الى أجل مسمى ﴾ مقدر عند الله عز وجل وهو آخر أعماركم ولما كان ذلك غاية لا يطمح وراءها طامح جرى التمتيع اليها مجرى التأبيد عادة أو لا يهلككم بعذاب الاستئصال ﴿ ويؤت كل ذى فضل ﴾ فى الطاعة والعمل ﴿ فضله ﴾ جزاء فضله اما فى الدنيا أو فى الآخرة

وهذه تكملة لما أجمل من التمتيع الى أجل مسمى وتبيين لما عسى يعسر فهم حكمته من بعض مايتفق فى الدنيا من تفاوت الحال بين العاملين فرب انسان له فضل طاعة وعمل لايمتع فى الدنيا أكثر مما متع آخر دونه فى الفضل وربما يكون المفضول أكثر تمتيعا فقيل و يعط كل فاضل جزاء فضله اما فى الدنيا كما يتفق فى بعض المواد وامافى الآخرة وذلك مما لامرد له وهذا ضرب تفصيل لما أجمل فيما سبق من البشارة ثم شرع فى الانذار فقيل ﴿وان تولوا﴾ أى تتولوا عما ألقى اليكم من التوحيد والاستغفار والتوبة وانما أخر عن البشارة جريا على سنن تقدم الرحمة على الغضب أو لأن العذاب قد علق بالتولى عما ذكر من التوحيد والاستغفار والتوبة وذلك يستدعى سابقة ذكره وقرئ تولوا من ولى ﴿فانى أخاف عليكم﴾ بموجب الشفقة والرأفة أو أتوقع ﴿عذاب يوم كبير﴾ هو يوم القيامة وصف بالكبر كما وصف بالعظم فى قوله تعالى ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم اما لكونه كذلك فى نفسه أو وصف بوصف مايكون فيه كما وصف بالثقل فى قوله تعالى ثقلت فى السموات والأرض وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بقحط أكلوا فيه الجيف وأيا ما كان ففى اضافة العذاب اليه تهويل وتفظيع له ﴿الى الله مرجعكم﴾ رجوعكم بالموت ثم البعث للجزاء فى مثل ذلك اليوم لاالى غيره ﴿وهو على كل شئ قدير﴾ فيندرج فى تلك الكلية قدرته على اماتتكم ثم بعثكم وجزائكم فيعذبكم بأفانين العذاب وهو تقرير لما سلف من كبر اليوم وتعليل للخوف ولما ألقى اليهم فحوى الكتاب على لسان النبى صلى الله عليه وسلم وسيق اليهم ماينبغى أن يساق من الترغيب والترهيب وقع فى ذهن السامع أنهم بعد ماسمعوا مثل هذا المقال الذى تخر له صم الجبال هل قابلوه بالاقبال أم تمادوا فيما كانوا عليه من الاعراض والضلال فقيل مصدراً بكلمة التنبيه اشعاراً بأن مايعقبها من هناتهم أمر يجب أن يفهم ويتعجب منه ﴿ألا انهم يثنون صدورهم﴾ يزورون عن الحق وينحرفون عنه أى يستمرون على ماكانوا عليه من التولى والاعراض لأن من أعرض عن شئ ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه وهذا معنى جزل مناسب لما سبق وقد نحا نحوه العلامة الزمخشرى ولكن حيث لم يصلح التولى سببا للاستخفاء فى قوله عز وجل ﴿ليستخفوا منه﴾ التجأ الى اضمار الارادة حيث قال و يريدون ليستخفوا من الله تعالى فلا يطلع رسوله والمؤمنين على اعراضهم وجعله فى قود المعنى اليه من قبيل الاضمار فى قوله تعالى اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فضرب فانفلق ولايخفى أن انسياق الذهن الى توسيط الارادة بين ثنى الصدور و بين الاستخفاء ليس كانسياقه الى توسيط الضرب بين الأمر به و بين الانفلاق ولعل الاظهر أن معناه يعطفون صدورهم على مافيها من الكفر والاعراض عن الحق وعداوة النبى صلى الله عليه وسلم بحيث يكون ذلك مخفيا مستورا فيها كما تعطف الثياب على مافيها من الاشياء المستورة وانما لم يذكر ذلك استهجانا بذكره أو ايماء الى أن ظهوره مغن عن ذكره أوليذهب ذهن السامع الى كل مالاخير فيه من الأمور المذكورة فيدخل فيه ماذكر من توليهم عن الحق الذى ألقى اليهم دخولا أوليا فحينئذ يظهر وجه كون ذلك سببا للاستخفاء ويؤيده ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو المنطق حسن السياق للحديث يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة و يضمر فى قلبه مايضادها وقال ابن شداد انها نزلت فى بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كيلا يراه النبى صلى الله عليه وسلم فكأنه انما كان يصنع مايصنع لأنه لو رآه النبى صلى الله عليه وسلم لم يمكنه التخلف عن حضور مجلسه والمصاحبة معه وربما يؤدى ذلك الى ظهور مافى قلبه من الكفر والنفاق وقرئ يثنونى صدورهم بالياء والتاء من اثنونى افعوعل من الثنى كاحلولى من الحلاوة وهو بناء مبالغة وعن ابن عباس رضى الله عنهما لتثنونى وقرئ تثنون وأصله تثنونن من تفعوعل من الثن وهو ماهش من الكلأ وضعف يريد مطاوعة صدورهم

للثنى كما يثنى الهش من النبات أو أراد ضعف ايمانهم و رخاوة قلوبهم وقرئ تثنئن من اثنان افعال منه ثم همز كما قيل ابياضت وادهامت وقرئ تثنوى بوزن ترعوى ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم ﴾ أى يتغطون بها للاستخفاء على مانقل عن ابن شداد أوحين يأوون الى فراشهم و يتدثرون بثيابهم فان مايقع حينئذ حديث النفس عادة وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته و يرخى ستره ويحنى ظهره و يتغشى بثوبه و يقول هل يعلم الله مافى قلبى ﴿ يعلم مايسرون ﴾ أى يضمرون فى قلوبهم ﴿ ومايعلنون ﴾ أى يستوى بالنسبة الى علمه المحيط سرهم وعلنهم فكيف يخفى عليه ما عسى يظهرونه وانما قدم السر على العلن نعيا عليهم من أول الأمر ماصنعوا وايذانا بافتضاحهم و وقوع مايحذرونه وتحقيقا للمساواة بين العلمين على أبلغ وجه فكأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه ونظيره قوله تعالى قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله حيث قدم فيه الاخفاء على الابداء على عكس ما وقع فى قوله تعالى وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله اذلم يتعلق باشعار أن المحاسبة بما يخفونه أولى منها بمايبدونه غرض بل الأمر بالعكس وأماههنا فقد تعلق باشعار كون تعلق علمه تعالى بمايسرونه أولى منه بما يعلنونه غرض مهم مع كونهما على السوية كيف لا وعلمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول الصورة بل وجود كل شئ فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى و فى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة وأما قوله تعالى وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون فحيث كان واردا بصدد الخطاب مع الملائكة عليهم السلام المنزه مقامهم عن اقتضاء التأكيد والمبالغة فى الاخبار باحاطة علمه تعالى بالظاهر والباطن لم يسلك فيه ذلك المسلك مع أنه وقع الغنية عنه بما قبله من قوله عز وجل انى أعلم غيب السموات والارض و يجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن اذ ما من شئ يعلن الا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر فى القلب فتعلق علمه سبحانه بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية ﴿ انه عليم بذات الصدور ﴾ تعليل لما سبق وتقرير له واقع موقع الكبرى من القياس و فى صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق والتعبير عن الضمائر بعنوان صاحبيتها من البراعة مالا يصفه الواصفون كأنه قيل انه مبالغ فى الاحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة فى صدورهم بحيث لا تفارقها أصلا فكيف يخفى عليه مايسرون ومايعلنون و يجوز أن يراد بذات الصدور القلوب من قوله تعالى ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور والمعنى أنه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها ﴿ وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ﴾ غذاؤها اللائق بها من حيث الخلق ومن حيث الايصال اليها بطريق طبيعى أو ارادى لتكفله اياه تفضلا و رحمة وانما جئ به على طريق الوجوب اعتبارا لسبق الوعد وتحقيقا لوصوله اليها البتة وحملا للمكلفين على الثقة به تعالى والاعراض عن اتعاب النفس فى طلبه ﴿ و يعلم مستقرها ﴾ محل قرارها فى الأصلاب ﴿ ومستودعها ﴾ موضعها فى الأرحام وما يجرى مجراها من البيض ونحوها وانما خص كل من الاسمين بما خص به من المحلين لأن النطفة بالنسبة الى الأصلاب فى حيزها الطبيعى ومنشئها الخلقى وأما بالنسبة الى الأرحام وما يجرى مجراها فهى مودعة فيها الى وقت معين أو مسكنها من الأرض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة ولعل تقديم محلها باعتبار حالتها الأخيرة لرعاية المناسبة بينها و بين عنوان كونها دابة فى الأرض والمعنى مامن دابة فى الأرض الا يرزقها الله تعالى حيث كانت من أماكنها يسوقه اليها و يعلم موادها المتخالفة المتدرجة فى مراتب الاستعدادات المتفاوتة المتطورة فى الأطوار المتباينة ومقارها المتنوعة و يفيض عليها فى كل مرتبة مايليق بها من مبادى وجودها وكمالاتها المتفرعة عليه وقد فسر المستودع بأماكنها فى الممات ولا يلائمه مقام التكفل بأرزاقها ﴿ كل ﴾ من الدواب و رزقها ومستقرها ومستودعها ﴿ فى كتاب مبين ﴾

أى مثبت فى اللوح المحفوظ البين لمن ينظر فيه من الملائكة عليهم السلام أو المظهر لما أثبت فيه للناظرين ولما انتهى الأمر الى أنه سبحانه محيط بجميع أحوال مافى الأرض من المخلوقات التى لاتكاد تحصى من مبدأ فطرتها الى منتهاها اقتضى الحال التعرض لمبدأ خلق السموات والأرض والحكمة الداعية الى ذلك فقيل ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام﴾ السموات فى يومين والأرض فى يومين وماعليها من أنواع الحيوانات والنبات وغير ذلك فى يومين حسبما فصل فى سورة حم السجدة ولم يذكر خلق مافى الأرض لكونه من تتمات خلقها وهو السر فى جعل زمان خلقه تتمة لزمان خلقها فى قوله تعالى فى أربعة أيام أى فى تتمة أربعة أيام والمراد بالأيام الأوقات كما فى قوله تعالى ومن يولهم يومئذ دبره أى فى ستة أوقات أو مقدارستة أيام فان اليوم فى المتعارف زمان كون الشمس فوق الأرض ولا يتصور ذلك حين لاأرض ولا سماء وفى خلقها مدرجا مع القدرة التامة على خلقها دفعة دليل على أنه قادر مختار واعتبار للنظار وحث على التأنى فى الأمور وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فأمر استأثر بعلم مايقتضيه علام الغيوب جلت حكمته وايثار صيغة الجمع فى السموات لما هو المشهور من الاشارة الى كونها أجراما مختلفة الطبائع ومتفاوتة الآثار والاحكام ﴿وكان عرشه﴾ قبل خلقهما ﴿على الماء﴾ ليس تحته شئ غيره سواء كان بينهما فرجة أو كان موضوعا على متنه كما ورد فى الاثر فلا دلالة فيه على امكان الخلاء كيف لا ولودل لدل على وجوده لاعلى امكانه فقط ولا على كون الماء أول ماحدث فى العالم بعد العرش وانما يدل على أن خلقهما أقدم من خلق السموات والأرض من غير تعرض للنسبة بينهما ﴿ليبلوكم﴾ متعلق بخلق أى خلق السموات والأرض وما فيهمامن المخلوقات التى من جملتها أنتم ورتب فيهما جميع ماتحتاجون اليه من مبادى وجودكم وأسباب معايشكم وأودع فى تضاعيفهمامن تعاجيب الصنائع والعبر ماتستدلون به على مطالبكم الدينية ليعاملكم معاملة من يبتليكم ﴿أيكم أحسن عملا﴾ فيجازيكم بالثواب والعقاب غب ماتبين المحسن من المسىء وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب من الحجج والدلائل والامارات والمخايل ومراتب أعمالهم المتفرعة على ذلك فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه السلام بقوله أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله فان لكل من القلب والقالب عملا مخصوصا به فكما أن الأول أشرف من الثانى فكذا الحال فى عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد آثر ذى أثير وانما طريقها النظرى التفكر فى بدائع صنائع الملك الخلاق والتدبر فى آياته البينات المنصوبة فى الأنفس والآفاق ولا طاعة بدون فهم مافى مطاوى الكتاب الحكيم من الأوامر والنواهى وغير ذلك مما له مدخل فى الباب وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لاتفضلونى على يونس ابن متى فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الأرض قالوا وانما كان ذلك التفكر فى أمر الله عز وجل الذى هو عمل القلب لأن أحدا لايقدر على أن يعمل فى اليوم بجوارحه مثل عمل أهل الأرض وتعليق فعل البلوى أى تعقيبه بحرف الاستفهام لاالتعليق المشهور الذى يقتضى عدم ايراد المفعول أصلا مع اختصاصه بأفعال القلوب لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعية وايراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والأحسن فقط للايذان بأن المراد بالذات والمقصود الأصلى مما ذكر من ابداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع انما هو ظهور كمال احسان المحسنين وأن ذلك لكونه على أتم الوجوه اللائقة وأكمل الأساليب الرائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لايحيد أحد عن سننه المستبين بل يهتدى كل فرد الى مايرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة وانما التفاوت

بينهم فى مراتبهما بحسب القوة والضعف والكثرة والقلة وأما الاعراض عن ذلك والوقوع فى مهاوى الضلال فبمعزل
من الاندراج تحت الوقوع فضلا عن أن ينظم ظهوره فى سلك العلة الغائية لذلك الصنع البديع وانما هو عمل يصدر
عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب ولا يخفى مافيه من الترغيب فى الترقى الى معارج العلوم ومدارج
الطاعات والزجر عن مباشرة نقائضها والله تعالى أعلم ﴿ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت﴾ على مايوجبه قضية
الابتلاء ليترتب عليه الجزاء المتفرع على ظهور مراتب الأعمال ﴿ليقولن الذين كفروا﴾ ان وجه الخطاب فى قوله
تعالى انكم الى جميع المكلفين فالموصول مع صلته للتخصيص أى ليقولن الكافرون منهم وان وجه الى الكافرين منهم
فهو وارد على طريقة الذم ﴿ان هذا الا سحر مبين﴾ أى مثله فى الخديعة أو البطلان وهذا اشارة الى القول المذكور
أو الى القرآن فان الاخبار عن كونهم مبعوثين وان لم يجب كونه بطريق الوحى المتلو الا أنهم عند سماعهم ذلك تخلصوا
الى القرآن لانبائه عنه فى كل موضع وكونه علما عندهم فى ذلك فعمدوا الى تكذيبه وتسميته سحرا تماديا منهم فى
العناد وتفاديا عن سنن الرشاد وقيل هو اشارة الى نفس البعث ولا يلائمه التسمية بالسحر فانه انما يطلق على شئ
موجود ظاهرا لا أصل له فى الحقيقة ونفس البعث عندهم معدوم بحت وتعلق الآية الكريمة بما قبلها اما من حيث أن
البعث كما أشير اليه من تتمات الابتلاء المذكور فكأنه قيل الأمر كما ذكر ومع ذلك ان أخبرتهم بمقدمة فذة من مقدماته
وقضية فردة من تتماته لايتلعثمون فى الرد ويعدون ذلك من قبيل مالا صحة له أصلا فضلا عن تصديق ماهذه من تتماته
وأما من حيث أن البعث خلق جديد فكأنه قيل وهو الذى خلق جميع المخلوقات ابتداء لهذه الحكمة البالغة ومع ذلك
ان أخبرتهم بأنه يعيدهم تارة أخرى وهو أهون عليه يقولون مايقولون فسبحان الله عما يصفون وقرأ حمزة والكسائى
الا ساحر على أن الاشارة الى القائل أو الى القرآن على أسلوب شعر شاعر وقرئ بالفتح على تضمين قلت معنى ذكرت
أو على أن أنك بمعنى عنك فى علك أى ولئن قلت لعلكم مبعوثون على أن الرجاء والتوقع باعتبار حال المخاطبين أى
توقعوا ذلك ولا تبتوا القول بانكاره أو على أنه مجاراة معهم فى الكلام على نهج المساعدة لئلا يسارعوا الى اللجاج
والعناد ريثما قرع أسماعهم بت القول بخلاف ماألفوا وألفوا عليه آباءهم من انكار البعث ويكون ذلك أدعى لهم الى التأمل
والتدبر وما فعلوه قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب﴾ المترتب على بعثهم أو العذاب الموعود فى
قوله تعالى فان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير وقيل عذاب يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قتل
جبريل عليه السلام للمستهزئين والظاهر أن المراد به العذاب الشامل للكفرة دون مايخص ببعض منهم على أنه لم يكن موعودا
يستعجل منه المجرمون ﴿الى أمة معدودة﴾ الى طائفة من الأيام قليلة لأن مايحصره العد قليل ﴿ليقولن مايحبسه﴾ أى
أى شئ يمنعه من المجئ فكأنه يريده فيمنعه مانع وانما كانوا يقولونه بطريق الاستعجال استهزاء لقوله تعالى ماكانوا به
يستهزئون ومرادهم انكار المجئ والحبس رأسا لا الاعتراف به والاستفسار عن حابسه ﴿ألا يوم يأتيهم﴾ ذلك
﴿ليس مصروفا﴾ محبوسا ﴿عنهم﴾ على معنى أنه لايرفعه رافع أبدا ان أريد به عذاب الآخرة أولا يدفعه عنكم
دافع بل هو واقع بكم ان أريد به عذاب الدنيا ويوم منصوب بخبر ليس مقدما عليه واستدل به البصريون على جواز
تقديمه على ليس اذ المعمول تابع للعامل فلا يقع الا حيث يقع متبوعه ورد بأن الظرف يجوز فيه ما لايجوز فى غيره
توسعا وبأنه قد يقدم المعمول حيث لامجال لتقدم العامل كما فى قوله تعالى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر فان
اليتيم والسائل مع كونهما منصوبين بالفعلين المجزومين قد تقدما على لا الناهية مع امتناع تقدم الفعلين عليها . قال أبو حيان
وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ليس عليها ولا بتقديم معموله الا مادل عليه ظاهر هذه الآية

الكريمة وقول الشاعر فيأبى فما يزداد الا لجاجة وكنت أبياً فى الخنا لست أقدم

﴿ وحاق بهم ﴾ أى أحاط بهم ﴿ ما كانوا به يستهزؤن ﴾ أى العذاب الذى كانوا يستعجلون به استهزاء و فى التعبير عنه بالموصول تهويل لمكانه واشعار بعلية ماورد فى حيز الصلة من استهزائهم به لنزوله واحاطته والتعبير عنها بالماضى وارد على عادة الله تعالى فى أخباره لانها فى تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة وفى ذلك من الفخامة والدلالة على علوشأن المخبر وتقرير وقوع المخبر به مالا يخفى ﴿ ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ﴾ أى أعطيناه نعمة من صحة وأمن وجدة وغيرها وأوصلناها اليه بحيث يجد لذتها ﴿ ثم نزعناها منه ﴾ أى سلبناه اياها وايراد النزع للاشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها ﴿ انه ليؤوس ﴾ شديد القنوط من روح الله قطوع رجاءه من عود أمثالها عاجلا أو آجلا بفضل الله تعالى لقلة صبره وعدم توكله عليه وثقته به ﴿ كفور ﴾ عظيم الكفران لما سلف من النعم وفيه اشارة الى أن النزع انما كان بسبب كفرانهم بما كانوا يتقلبون فيه من نعم الله عز وجل وتأخيره عن وصف يأسهم مع تقدمه عليه لرعاية الفواصل على أن اليأس من فضل الله سبحانه وقطع الرجاء عن افاضة أمثاله فى العاجل وايصال أجره فى الآجل من باب الكفران للنعمة السالفة أيضا ﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ﴾ كصحة بعد سقم وجدة بعد عدم وفرج بعد شدة و فى التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن بلذتهما و كونهما مما يرغب فيه وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها فى أدنى ما ينطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها واسناد الاول الى الله عز وجل دون الثانى مالا يخفى من الجزالة والدلالة على أن مراده تعالى انما هو ايصال الخير المرغوب فيه على أحسن ما يكون وأنه انما يريد بعباده اليسر دون العسر وانما ينالهم ذلك بسوء اختيارهم نيلا يسيرا كانما يلاصق البشرة من غير تأثير وأما نزع الرحمة فانما صدر عنه بقضية الحكمة الداعية الى ذلك وهى كفرانهم بها كما سبق وتنكير الرحمة باعتبار لحوق النزع بها ﴿ ليقولن ذهب السيئات عنى ﴾ أى المصائب التى تسوؤنى ولن يعترينى بعد أمثالها كما هو شأن أولئك الاشرار فان الترقب لورود أمثالها مما يكدر السرور وينغص العيش ﴿ انه لفرح ﴾ بطر وأشر بالنعم مغتر بها ﴿ فخور ﴾ على الناس بما أوتى من النعم مشغول بذلك عن القيام بحقها واللام فى لئن فى الآيات الاربع موطئة للقسم وجوابه ساد مسد جواب الشرط ﴿ الا الذين صبروا ﴾ على ما أصابهم من الضراء سابقا أو لاحقا ايمانا بالله واستسلاما لقضائه ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ شكرا على آلائه السالفة والآنفة واللام فى الانسان اما لاستغراق الجنس فالاستثناء متصل أو للعهد فمنقطع ﴿ أولئك ﴾ اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم و بعد منزلتهم فى الفضل أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿ لهم مغفرة ﴾ عظيمة لذنوبهم وان جمت ﴿ وأجر ﴾ ثواب لاعمالهم الحسنة ﴿ كبير ﴾ و وجه تعلق الآيات الثلاث بما قبلهن من حيث ان اذاقة النعماء ومساس الضراء فصل من باب الابتلاء واقع موقع التفصيل من الاجمال الواقع فى قوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا والمعنى أن كلا من اذاقة النعماء ونزعها مع كونه ابتلاء للانسان أيشكر أم يكفر لايهتدى الى سنن الصواب بل يحيد فى كلتا الحالتين عنه الى مهاوى الضلال فلا يظهر منه حسن عمل الامن الصابرين الصالحين أو من حيث ان انكارهم بالبعث واستهزاءهم بالعذاب بسبب بطرهم وفخرهم كأنه قيل انما فعلوا مافعلوا لان طبيعة الانسان مجبولة على ذلك ﴿ فلعلك تارك بعض مايوحى اليك ﴾ من البينات الدالة على حقية نبوتك المنادية بكونها من عند الله عز وجل لمن له أذن واعية ﴿ وضائق به صدرك ﴾ أى عارض لك ضيق صدر بتلاوته عليهم وتبليغه اليهم فى أثناء الدعوة والمحاجة ﴿ أن يقولوا ﴾ لان يقولوا تعاميا عن تلك البراهين التى لاتكاد تخفى صحتها على أحد ممن له أدنى بصيرة وتماديا فى العناد

على وجه الاقتراح ﴿لولا أنزل عليه كنز﴾ مال خطير مخزون يدل على صدقه ﴿أوجاء معه ملك﴾ يصدقه قيل قاله عبد الله بن أمية المخزومى . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا يامحمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة يشهدوا بنبوتك فقال لاأقدر على ذلك فنزلت فكأنه عليه الصلاة والسلام لما عاين اجتراءهم على اقتراح مثل هذه العظائم غير قانعين بالبينات الباهرة التى كانت تضطرهم الى القبول لو كانوا من أرباب العقول وشاهد ركوبهم من المكابرة متن كل صعب وذلول مسارعين الى المقابلة بالتكذيب والاستهزاء وتسميتها سحرا مثل حاله عليه الصلاة والسلام بحال من يتوقع منه أن يضيق صدره بتلاوة تلك الآيات الساطعة عليهم وتبليغها اليهم فحمل على الحذر منه بما فى لعل من الاشفاق فقيل ﴿انما أنت نذير﴾ ليس عليك الا الانذار بما أوحى اليك غير مبال بما صدر عنهم من الرد والقبول ﴿والله على كل شئ وكيل﴾ يحفظ أحوالك وأحوالهم فتوكل عليه فى جميع أمورك فانه فاعل بهم مايليق بحالهم والاقتصار على النذير فى أقصى غاية من اصابة المحز ﴿أم يقولون افتراه﴾ اضراب بأم المنقطعة عن ذكر ترك اعتدادهم بما يوحى وتهاونهم به وعدم اقتناعهم بما فيه من المعجزات الظاهرة الدالة على كونه من عند الله عز وجل وعلى حقية نبوته عليه الصلاة والسلام وشروع فى ذكر ارتكابهم لما هو أشد منه وأعظم وما فيها من معنى الهمزة للتوبيخ والانكار والتعجيب والضمير المستكن فى افتراه للنبى صلى الله عليه وسلم والبارز لما يوحى أى بل أيقولون افتراه وليس من عند الله ﴿قل﴾ ان كان الامر كما تقولون ﴿فأتوا﴾ أنتم أيضاً ﴿بعشر سور مثله﴾ فى البلاغة وحسن النظم وهو نعت لسور أى أمثاله وتوحيده اما باعتبار مماثلة كل واحدة منها أو لان المطابقة ليست بشرط حتى يوصف المثنى بالمفرد كما فى قوله تعالى أنؤمن لبشرين مثلنا أو للايماء الى أن وجه الشبه ومدار المماثلة فى الجميع شئ واحد هو البلاغة المؤدية الى مرتبة الاعجاز فكأن الجميع واحد ﴿مفتريات﴾ صفة أخرى لسور أخرت عن وصفها بالمماثلة لما يوحى لانها الصفة المقصودة بالتكليف اذ بها يظهر عجزهم وقعودهم عن المعارضة وأما وصف الافتراء فلا يتعلق به غرض يدور عليه شئ فى مقام التحدى وانما ذكر على نهج المساهلة وارخاء العنان ولأنه لو عكس الترتيب لربما توهم أن المراد هو المماثلة فى الافتراء والمعنى فأتوا بعشر سور مماثلة له فى البلاغة مختلقات من عند أنفسكم ان صح أنى اختلقته من عندى فانكم أقدر على ذلك منى لانكم عرب فصحاء بلغاء قد مارستم مبادى ذلك من الخطب والاشعار وحفظتم الوقائع والأيام وزاولتم أساليب النظم والنثر ﴿وادعوا﴾ للاستظهار فى المعارضة ﴿من استطعتم﴾ دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التى تزعمون أنها ممدة لكم فى كل ماتأتون وماتذرون والكهنة ومدارهكم الذين تلجؤن الى آرائهم فى الملمات ليسعدوكم فيها ﴿من دون الله﴾ متعلق بادعوا أى متجاوزين الله تعالى ﴿ان كنتم صادقين﴾ فى أنى افتريته فان ذلك يستلزم امكان الاتيان بمثله وهو أيضاً يستلزم قدرتكم عليه والجواب محذوف يدل عليه المذكور ﴿فان لم يستجيبوا لكم﴾ أى فان لم يفعلوا ما كلفوه من الاتيان بمثله كقوله تعالى فان لم تفعلوا وانما عبر عنه بالاستجابة ايماء الى أنه عليه الصلاة والسلام على كمال أمن من أمره كأن أمره لهم بالاتيان بمثله دعاء لهم الى أمر يريد وقوعه والضمير فى لكم للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم كما فى قول من قال وان شئت حرمت النساء سواكم أوله وللمؤمنين لانهم أتباع له عليه الصلاة والسلام فى الأمر بالتحدى وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم أن لاينفكوا عنه عليه الصلاة والسلام ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين كما كانوا يفعلونه فى الجهاد وارشاد الى أن ذلك مما يفيد الرسوخ فى الايمان والطمأنينة فى الايقان ولذلك رتب عليه قوله عز وجل ﴿فاعلموا﴾ أى اعلموا حين ظهر لكم عجزهم عن المعارضة مع تهالكهم عليها علما يقينا متاخما لعين اليقين بحيث لامجال معه لشائبة

ريب بوجه من الوجوه كأن ماعداه من مراتب العلم ليس بعلم لكن لا للاشعار بانحطاط تلك المراتب بل بارتفاع هذه المرتبة وبه يتضح سر ايراد كلمة الشك مع القطع بعدم الاستجابة فان تنزيل سائر المراتب منزلة العدم مستتبع لتنزيل الجزم بعدم الاستجابة منزلة الشك فيه أو اثبتوا واستمروا على ما كنتم عليه من العلم ﴿ انما أنزل ﴾ ملتبسا ﴿ بعلم الله ﴾ المخصوص به بحيث لا تحوم حوله العقول والافهام مستبدا بخصائص الاعجاز من جهتى النظم الرائق والاخبار بالغيب ﴿ وأن لا اله الا هو ﴾ أى واعلموا أيضا أن لا شريك له فى الالوهية وأحكامها ولا يقدر على ما يقدر عليه أحد ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ أى مخلصون فى الاسلام أو ثابتون عليه وهذا من باب التثبيت والترقية الى معارج اليقين ويجوز أن يكون الخطاب فى الكل للمشركين من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم داخلا تحت الأمر بالتحدى والضمير فى لم يستجيبوا لمن استطعتم أى فان لم يستجب لكم آلهتكم وسائر من اليهم تجأرون فى مهماتكم وملماتكم الى المعاونة والمظاهرة فاعلموا أن ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر وأنه منزل من خالق القوى والقدر فايراد كلمة الشك حينئذ مع الجزم بعدم الاستجابة من جهة آلهتهم تهكم بهم وتسجيل عليهم بكمال سخافة العقل وترتيب الأمر بالعلم على مجرد عدم الاستجابة من حيث أنه مسبوق بالدعاء المسبوق بعجزهم واضطرارهم فكأنه قيل فان لم يستجيبوا لكم عند التجائكم اليهم بعد ما اضطررتم الى ذلك وضاقت عليكم الحيل وعيت بكم العلل أو من حيث ان من يستمدون بهم أقوى منهم فى اعتقادهم فاذا ظهر عجزهم بعدم استجابتهم وان كان ذلك قبل ظهور عجز أنفسهم يكون عجزهم أظهر وأوضح واعلموا أيضا أن آلهتكم بمعزل عن رتبة الشركة فى الألوهية وأحكامها فهل أنتم داخلون فى الاسلام اذلم يبق بعد شائبة شبهة فى حقيته وفى بطلان ما كنتم فيه من الشرك فيدخل فيه الاذعان لكون القرآن من عند الله تعالى دخولا أوليا أو منقادون للحق الذى هو كون القرآن من عند الله تعالى وتاركون لما كنتم فيه من المكابرة والعناد وفى هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر واقناط من أن يجيرهم آلهتهم من بأس الله عز سلطانه هذا والأول أنسب لما سلف من قوله تعالى وضائق به صدرك ولما سيأتى من قوله تعالى فلا تك فى مرية منه وأشد ارتباطا بما يعقبه كما ستحيط به خبرا ﴿ من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها ﴾ أى ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن والسعة فى الرزق وكثرة الأولاد والرياسة وغير ذلك والمراد بالارادة ما يحصل عند مباشرة الأعمال لا مجرد الارادة القلبية لقوله تعالى ﴿ نوف اليهم أعمالهم فيها ﴾ وادخال كان عليها للدلالة على استمرارها منهم بحيث لا يكادون يريدون الآخرة أصلا وليس المراد باعمالهم أعمال كلهم فانه لا يجد كل متمن ما يتمناه ولا كل أحد ينال كل ما يهواه فان ذلك منوط بالمشيئة الجارية على قضية الحكمة كما نطق به قوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ولا كل أعمالهم بل بعضها الذى يترتب عليه الأمور المذكورة بطريق الأجر والجزاء من أعمال البر وقد أطلقت وأريد بها ثمراتها فالمعنى نوصل اليهم ثمرات أعمالهم فى الحياة الدنيا كاملة وقرئ يوف على الاسناد الى الله عز وجل وتوف بالفوقانية على البناء للمفعول ورفع أعمالهم وقرئ نوفى بالتخفيف والرفع لكون الشرط ماضيا كقوله

وان أتاه خليل يوم مسغبة يقول لا غائب مالى ولا حرم

﴿ وهم فيها ﴾ أى فى الحياة الدنيا ﴿ لا يبخسون ﴾ أى لا ينقصون وانما عبر عن ذلك بالبخس الذى هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه كما عبر عن اعطائه بالتوفية التى هى اعطاء الحقوق مع أن أعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك بناء للامر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الأعمال ومبالغة فى نفى النقص كأن ذلك نقص لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلا والمعنى انهم فيها خاصة لا ينقصون ثمرات أعمالهم وأجورها نقصا

كليا مطردا ولا يحرمونها حرمانا كليا وأما فى الآخرة فهم فى الحرمان المطلق واليأس المحقق كما ينطق به قوله تعالى ﴿أولئك﴾ الخ فانه اشارة الى المذكورين باعتبار ارادتهم الحياة الدنيا أو باعتبار توفيتهم أجورهم من غير بخس أو باعتبارهما معا وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى سوء الحال أى أولئك المريدون للحياة الدنيا و زينتها الموفون فيها ثمرات أعمالهم من غير بخس ﴿الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار﴾ لأن هممهم كانت مصروفة الى الدنيا وأعمالهم مقصورة على تحصيلها وقد اجتنوا ثمرتها ولم يكونوا يريدون بها شيئاً آخر فلا جرم لم يكن لهم فى الآخرة الا النار وعذابها المخلد ﴿وحبط ماصنعوا فيها﴾ أى ظهر فى الآخرة حبوط ما صنعوه من الأعمال التى كانت تؤدى الى الثواب لو كانت معمولة للآخرة أو حبط ما صنعوه فى الدنيا من أعمال البر اذ شرط الاعتداد بها الاخلاص ﴿وباطل﴾ أى فى نفسه ﴿ما كانوا يعملون﴾ فى أثناء تحصيل المطالب الدنيوية ولأجل أن الأول من شأنه استتباع الثواب والأجر وأن عدمه لعدم مقارنته للايمان والنية الصحيحة وأن الثانى ليس له جهة صالحة قط علق بالأول الحبوط المؤذن بسقوط أجره بصيغة الفعل المنبىء عن الحدوث و بالثانى البطلان المفصح عن كونه بحيث لا طائل تحته أصلا بالاسمية الدالة على كون ذلك وصفا لازما له ثابتا فيه و فى زيادة كان فى الثانى دون الأول ايماء الى أن صدور أعمال البر منهم وان كان لغرض فاسد ليس فى الاستمرار والدوام كصدور الأعمال التى هى من مقدمات مطالبهم الدنية وقرىء و بطل على الفعل أى ظهر بطلانه حيث علم هناك أن ذلك وما يستتبعه من الحظوظ الدنيوية مما لا طائل تحته أو انقطع أثره الدنيوى فبطل مطلقا وقرىء وباطلا ما كانوا يعملون على أن ما ابهامية أو فى معنى المصدر كقوله ولا خارجا من فى زور كلام وعن أنس رضى الله عنه أن المراد بقوله تعالى من كان يريد الخ اليهود والنصارى ان أعطوا سائلا أو وصلوا رحما عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة فى الرزق وصحة فى البدن وقيل هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسهم لهم فى الغنائم وأنت خبير بأن ذلك انما كان بعد الهجرة والسورة مكية وقيل هم أهل الرياء يقال للقراء منهم أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ذلك وهكذا لغيره ممن يعمل أعمال البر لا لوجه الله تعالى فعلى هذا لابد من تقييد قوله تعالى ليس لهم الا النار بأن ليس لهم بسبب أعمالهم الريائية الا ذلك والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم أن المراد به مطلق الكفرة بحيث يندرج فيهم القادحون فى القرآن العظيم اندراجا أوليا فانه عز وعلا لما أمر نبيه عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأن يزدادوا علما و يقينا بأن القرآن منزل بعلم الله و بأن لا قدرة لغيره على شىء أصلا وهيجهم على الثبات على الاسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما يدعون من دون الله عن المعارضة وتبين أنهم ليسوا على شىء أصلا اقتضى الحال أن يتعرض لبعض شئونهم الموهمة لكونهم على شىء فى الجملة من نيلهم الحظوظ العاجلة واستيلائهم على المطالب الدنيوية و بيان أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه ولقد بين ذلك أى بيان ثم أعيد الترغيب فيما ذكر من الايمان بالقرآن والتوحيد والاسلام فقيل ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ أى برهان نير عظيم الشأن يدل على حقية مارغب فى الثبات عليه من الاسلام وهو القرآن و باعتباره أو بتأويل البرهان ذكر الضمير الراجع اليها فى قوله تعالى ﴿و يتلوه﴾ أى يتبعه ﴿شاهد﴾ يشهد بكونه من عند الله تعالى وهو الاعجاز فى نظمه المطرد فى كل مقدار سورة منه أو ماوقع فى بعض آياته من الاخبار بالغيب و كلاهما وصف تابع له شاهد بكونه من عند الله عز وجل غير أنه على التقدير الأول يكون فى الكلام اشارة الى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى تمسكهم بالقرآن عند تبين كونه منزلا بعلم الله بشهادة الاعجاز ﴿منه﴾ أى من القرآن غير خارج عنه أو من جهة الله تعالى فان كلا منهما وارد من جهته تعالى للشهادة و يجوز على هذا التقدير أن يراد بالشاهد المعجزات الظاهرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فان ذلك أيضا من الشواهد التابعة للقرآن

الواردة من جهته تعالى فالمراد بمن فى قوله تعالى أفمن كل من اتصف بهذه الصفة الحميدة فيدخل فيه المخاطبون بقوله تعالى
فاعلموا فهل أنتم دخولا أوليا وقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم وقيل مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه
وقيل المراد بالبينة دليل العقل و بالشاهد القرآن فالضمير فى منه لله تعالى أو البينة القرآن و يتلوه من التلاوة والشاهد
جبريل أو لسان النبي صلى الله عليه وسلم على أن الضمير له أو من التلو والشاهد ملك يحفظ والأولى هو الأول
ولما كان المراد بتلو الشاهد للبرهان اقامة الشهادة بصحته وكونه من عند الله تابعا له بحيث لا يفارقه فى مشهد من المشاهد
فان القرآن بينة باقية على وجه الدهر مع شاهدها الذى يشهد بأمرها الى يوم القيامة عند كل مؤمن وجاحد عطف
كتاب موسى فى قوله عز قائلا ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾ على فاعله مع كونه مقدما عليه فى النزول فكأنه قيل
أفمن كان على بينة من ربه و يشهد به شاهد منه وشاهد آخر من قبله هو كتاب موسى وانما قدم فى الذكر المؤخر
فى النزول لكونه وصفا لازما له غير مفارق عنه ولعراقته فى وصف التلو والتنكير فى بينة وشاهد للتفخيم ﴿اماما﴾
أى مؤتما به فى الدين ومقتدى و فى التعرض لهذا الوصف بصدد بيان تلو الكتاب ما لا يخفى من تفخيم شأن المتلو ﴿ورحمة﴾
أى نعمة عظيمة على من أنزل اليهم ومن بعدهم الى يوم القيامة باعتبار أحكامه الباقية المؤيدة بالقرآن العظيم وهما حالان
من الكتاب ﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفة الحميدة وهو الكون على بينة من الله ولما أن ذلك عبارة عن مطلق
التمسك بها وقد يكون ذلك بطريق التقليد لمن سلف من عظماء الدين من غير عثور على دقائق الحقائق وصفهم بأنهم
﴿يؤمنون به﴾ أى يصدقونه حق التصديق حسبما تشهد به الشواهد الحقة المعربة عن حقيته ﴿ومن يكفر به﴾ أى
بالقرآن ولم يصدق بتلك الشواهد الحقة ﴿من الاحزاب﴾ من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله صلى الله
عليه وسلم ﴿فالنار موعده﴾ يردها لامحالة حسبما نطق به قوله تعالى ليس لهم فى الآخرة الا النار و فى جعلها موعدا اشعار
بأن له فيها ما لا يوصف من أفانين العذاب ﴿فلا تك فى مرية منه﴾ أى فى شك من أمر القرآن وكونه من عند الله عز
وجل غبما شهدت به الشواهد المذكورة وظهر فضل من تمسك به ﴿انه الحق من ربك﴾ الذى يربيك فى دينك ودنياك
﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ بذلك اما القصور أنظارهم واختلال أفكارهم واما العنادهم واستكبارهم فمن فى قوله تعالى
أفمن كان على بينة من ربه مبتدأ حذف خبره لاغناء الحال عن ذكره وتقديره أفمن كان على بينة من ربه كأولئك الذين
ذكرت أعمالهم و بين مصيرهم ومآلهم يعنى أن بينهما تفاوتا عظيما بحيث لا يكاد يتراءى ناراهما وايراد الفاء بعد الهمزة
لانكار ترتب توهم المماثلة على ما ذكر من صفاتهم وعدد من هناتهم كأنه قيل أبعد ظهور رحالهم فى الدنيا والآخرة كما وصف
يتوهم المماثلة بينهم وبين من كان على أحسن ما يكون فى العاجل والآجل كما فى قوله تعالى أفاتخذتم من دونه أولياء أى أبعد
أن علمتموه رب السموات والارض اتخذتم من دونه أولياء وقوله تعالى أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو
أعمى ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ بأن نسب اليه ما لا يليق به كقولهم للملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك
علوا كبيرا وقولهم لآلهتهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله يعنى أنهم مع كفرهم بآيات الله تعالى مفترون عليه كذبا وهذا التركيب
وان كان سبكه على انكار أن يكون أحد أظلم منهم من غير تعرض لانكار المساواة ونفيها ولكن المقصود به قصدا مطردا
انكار المساواة ونفيها وافادة أنهم أظلم من كل ظالم كما ينبئ عنه ما سيتلى من قوله عز وجل لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون
فاذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد منه حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل ﴿أولئك﴾
الموصوفون بالظلم البالغ الذى هو الافتراء على الله تعالى و بهذه الاشارة حصلت الغنية عن اسناد العرض الى أعمالهم واكتفى
باسناده اليهم حيث قيل ﴿يعرضون﴾ لان عرضهم من تلك الحيثية و بذلك العنوان عرض لاعمالهم على وجه أبلغ

فان عرض العامل بعمله أفظع من عرض عمله مع غيبته ﴿على ربهم﴾ الحق وفيه ايماء الى بطلان رأيهم فى اتخاذهم أربابا من دون الله عز وجل ﴿ويقول الأشهاد﴾ عند العرض من الملائكة والنبيين أومن جوارحهم وهو جمع شاهد أو شهيد كأصحاب وأشراف ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم﴾ بالافتراء عليه كأن ذلك أمر واضح غنى عن الشهادة بوقوعه وانما المحتاج الى الشهادة تعيين من صدر عنه ذلك فلذلك لايقولون هؤلاء كذبوا على ربهم ويجوز أن يكون المراد بالاشهاد الحضار وهم جميع أهل الموقف على ماقاله قتادة ومقاتل ويكون قولهم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ذما لهم بذلك لاشهادة عليهم كما يشعر به قوله تعالى ويقول دون ويشهد الخ وتوطئة لما يعقبه من قوله تعالى ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ بالافتراء المذكور ويجوز أن يكون هذا على الوجه الأول من كلام الله تعالى وفيه تهويل عظيم لما يحيق بهم من عاقبة ظلمهم اللهم انا نعوذ بك من الخزى على رؤس الاشهاد ﴿الذين يصدون﴾ أى كل من يقدرون على صده أو يفعلون الصد ﴿عن سبيل الله﴾ عن دينه القويم ﴿ويبغونها عوجا﴾ انحرافا أى يصفونها بذلك وهى أبعد شئ منه أو يبغون أهلها أن ينحرفوا عنها يقال بغيتك خيرا أو شرا أى طلبت لك وهذا شامل لتكذيبهم بالقرآن وقولهم انه ليس من عندالله ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أى يصفونها بالعوج والحال أنهم كافرون بها لاأنهم يؤمنون بها ويزعمون أن لها سبيلا سويا يهدون الناس اليه وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به كأن كفرغيرهم ليس بشئ عند كفرهم ﴿أولئك﴾ مع ماوصف من أحوالهم الموجبة للتدمير ﴿لم يكونوا معجزين﴾ الله تعالى مفلتين بأنفسهم من أخذه لوأراد ذلك ﴿فى الارض﴾ مع سعتها وان هربوا منها كل مهرب ﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ ينصرونهم من بأسه ولكن أخر ذلك لحكمة تقتضيه والجمع اماباعتبار أفراد الكفرة كأنه قيل وما كان لاحدمنهم من ولى أو باعتبار تعدد ما كانوا يدعون من دون الله تعالى فيكون ذلك بيانا لحال آلهتهم من سقوطها عن رتبة الولاية ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ استئناف يتضمن حكمة تأخير المؤاخذة وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالتشديد ﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾ لفرط تصامهم عن الحق وبغضهم له كأنهم لايقدرون على السمع ولما كان قبح حالهم فى عدم اذعانهم للقرآن الذى طريق تلقيه السمع أشد منه فى عدم قبولهم لسائر الآيات المنوطة بالابصار بالغ فى نفى الاول عنهم حيث نفى عنهم الاستطاعة واكتفى فى الثانى بنفى الابصار فقال تعالى ﴿وما كانوا يبصرون﴾ لتعاميهم عن آيات الله المبسوطة فى الانفس والآفاق وهو استئناف وقع تعليلا لمضاعفة العذاب وقيل هو بيان لما نفى من ولاية الآلهة فان مالايسمع ولايبصر بمعزل من الولاية وقوله تعالى يضاعف لهم العذاب اعتراض وسط بينهما نعيا عليهم من أول الأمر سوء العاقبة ﴿أولئك﴾ المنعوتون بما ذكر من القبائح ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله عز سلطانه ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ من الآلهة وشفاعتها أوخسروا مابذلوا وضاع عنهم ماحصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة ﴿لاجرم﴾ فيه ثلاثة أوجه الاول أن لانافية لما سبق وجرم فعل بمعنى حق وأن مع مافى حيزه فاعله والمعنى لاينفعهم ذلك الفعل حق ﴿أنهم فى الآخرة هم الأخسرون﴾ وهذا مذهب سيبويه والثانى جرم بمعنى كسب ومابعده مفعوله وفاعله مادل عليه الكلام أى كسب ذلك خسرانهم فالمعنى ماحصل من ذلك الا ظهور خسرانهم والثالث أن لاجرم بمعنى لابد أى لابد أنهم فى الآخرة هم الاخسرون وأيا ما كان فمعناه أنهم أخسر من كل خاسر فتبين أنهم أظلم من كل ظالم وهذه الآيات الكريمة كما ترى مقررة لما سبق من انكار المماثلة بين من كان على بينة من ربه وبين من كان يريد الحياة الدنيا أبلغ تقرير فانهم حيث كانوا أظلم من كل ظالم وأخسر من كل خاسر لم يتصور مماثلة بينهم وبين أحد من الظلمة الاخسرين فما ظنك بالمماثلة بينهم وبين من هو فى أعلى مدارج الكمال ولما ذكر فريق الكفار وأعمالهم

و بين مصيرهم ومآلهم شرع فى بيان حال أضدادهم أعنى فريق المؤمنين ومايؤل اليه أمرهم من العواقب الحميدة تكملة لما سلف من محاسنهم المذكورة فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه الآية ليتبين ماينهما من التباين البين حالا ومآلا فقيل ﴿ان الذين آمنوا﴾ أى بكل مايجب أن يؤمن به فيندرج تحته مانحن بصدده من الايمان بالقرآن الذى عبر عنه بالكون على بينة من الله وانما يحصل ذلك باستماع الوحى والتدبر فيه ومشاهدة مايؤدى الى ذلك فى الانفس والآفاق أو فعلوا الايمان كما فى يعطى ويمنع ﴿وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم﴾ أى اطمأنوا اليه وانقطعوا الى عبادته بالخضوع والتواضع من الخبت وهى الأرض المطمئنة ومعنى أخبت دخل فى الخبت كأتهم وأنجد دخل فى تهامة ونجد ﴿أولئك﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ دائمون وبعد بيان تباين حاليهما عقلا أريد بيان تباينهما حسا فقيل ﴿مثل الفريقين﴾ المذكورين أى حالهما العجيب لأن المثل لا يطلق الا على مافيه غرابة من الأحوال والصفات ﴿كالأعمى والأصم والبصير والسميع﴾ أى كحال هؤلاء فيكون ذواتهم كذواتهم والكلام وان أمكن أن يحمل على تشبيه الفريق الاول بالأعمى و بالأصم وتشبيه الفريق الثانى بالبصير و بالسميع لكن الأدخل فى المبالغة والاقرب الى مايشير اليه لفظ المثل والانسب بما سبق من وصف الكفرة بعدم استطاعة السمع و بعدم الابصار أن يحمل على تشبيه الفريق الاول بمن جمع بين العمى والصمم وتشبيه الفريق الثانى بمن جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواو فى قوله تعالى والأصم و فى قوله والسميع لعطف الصفة على الصفة كما فى قول من قال

الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وأياما كان فالظاهر أن المراد بالحال المدلول عليها بلفظ المثل وهى التى يدور عليها أمر التشبيه مايلائم الأحوال المذكورة المعتبرة فى جانب المشبه به من تعامى الفريق الاول عن مشاهدة آيات الله المنصوبة فى العالم والنظر اليها بعين الاعتبار وتصامهم عن استماع آيات القرآن الكريم وتلقيها بالقبول حسبما ذكر فى قوله تعالى ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون وانما لم يراع هذا الترتيب ههنا لكون الأعمى أظهر وأشهر فى سوء الحال من الاصم ومن استعمال الفريق الثانى لكل من أبصارهم وأسماعهم فيما ذكر كما ينبغى المدلول عليه بما سبق من الايمان والعمل الصالح والاخبات حسبما فسر به فيما مر فلا يكون التشبيه تمثيليا لاجميع الاحوال المعدودة لكل من الفريقين مما ذكروما يؤدى اليه من العذاب المضاعف والخسران البالغ فى أحدهما ومن النعيم المقيم فى الآخر فان اعتبار ذلك ينزع الى كون التشبيه تمثيليا بأن ينتزع من حال الفريق الأول فى تصامهم وتعاميهم المذكورين و وقوعهم بسبب ذلك فى العذاب المضاعف والخسران الذى لاخسران فوقه هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن فقد مشعرى البصر والسمع فتخبط فى مسالكه فوقع فى مهاوى الردى ولم يجد الى مقصده سبيلا و ينتزع من حال الفريق الثانى فى استعمال مشاعرهم فى آيات الله تعالى حسبما ينبغى وفوزهم بدار الخلود هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن له بصر وسمع يستعملهما فى مهماته فيهتدى الى سبيله و ينال مرامه ﴿هل يستويان﴾ يعنى الفريقين المذكورين والاستفهام انكارى مذكر لما سبق من انكار المماثلة فى قوله عز وجل أفمن كان على بينة الآية ﴿مثلا﴾ أى حالا وصفة وهو تمييز من فاعل يستويان ﴿أفلا تذكرون﴾ أى أتشكون فى عدم الاستواء وما بينهما من التباين أو أتغفلون عنه فلا تتذكرونه بالتأمل فيما ضرب لكم من المثل فيكون الانكار واردا على المعطوفين معا أو أتسمعون هذا فلا تتذكرون فيكون راجعا الى عدم التذكر بعد تحقق مايوجب وجوده وهو المثل المضروب كما فى قوله تعالى أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم فان الفاء هناك لانكار الانقلاب بعد تحقق مايوجب عدمه من علمهم بخلو الرسل قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أفلا تفعلون التذكر أو أفلا تعقلون ومعنى الهمزة انكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين وأنه ليس مما يصح أن يقع لامن

قبيل الانكار فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه وقوله تعالى هل يستويان فان ذلك لنفى المماثلة ونفى الاستواء . ولما بين من فاتحة السورة الكريمة الى هذا المقام أنها كتاب محكم الآيات مفصلها نازل فى شأن التوحيد وترك عبادة غير الله سبحانه وأن الذى أنزل عليه نذير وبشير من جهته تعالى وقرر فى تضاعيف ذلك ماله مدخل فى تحقيق هذا المرام من الترغيب والترهيب والزام المعاندين بما يقارنه من الشواهد الحقة الدالة على كونه من عند الله تعالى وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم مما عراه من ضيق الصدر العارض له من اقتراحاتهم الشنيعة وتكذيبهم له وتسميتهم للقرآن تارة سحر وأخرى مفترى وتثبيته عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على التمسك به والعمل بموجبه على أبلغ وجه وأبدع أسلوب شرع فى تحقيق ماذكر وتقريره بذكر قصص الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين المشتملة على ما اشتمل عليه فاتحة السورة الكريمة ليتأكد ذلك بطريقين أحدهما أن ماأمر به من التوحيد وفروعه مما أطبق عليه الانبياء قاطبة والثانى أن ذلك انما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الوحى فلا يبقى فى حقيته كلام أصلا وليتسلى بما يشاهده من معاناة الرسل قبله من أممهم ومقاساتهم الشدائد من جهتهم فقيل ﴿ولقد أرسلنا نوحا الى قومه﴾ الواوابتدائية واللام جواب قسم محذوف وحرفه الباء لا الواو كما فى سورة الاعراف لئلا يجتمع واوان ولا يكاد تطلق هذه اللام الا مع قد لانها مظنة التوقع وأن المخاطب اذا سمعها توقع وقوع ماصدر بها ونوح هو ابن لمك بن متوشلخ بن ادريس عليهما السلام وهو أول نبى بعث بعده . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بعث عليه الصلاة والسلام على رأس أربعين من عمره ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وكان عمره ألفا وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة ﴿انى لكم نذير﴾ بالكسر على ارادة القول أى فقال أو قائلا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالفتح على اضمار حرف الجر أى أرسلناه ملتبسا بذلك الكلام وهو انى لكم نذير بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح فى كأن والمعنى على الكسر وهو قولك ان زيدا كالاسد واقتصر على ذكر كونه عليه الصلاة والسلام نذيرا لا لان دعوته عليه الصلاة والسلام كانت بطريق الانذار فقط ألا يرى الى قوله تعالى فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا الخ بل لانهم لم يغتنموا مغانم ابشاره عليه الصلاة والسلام ﴿مبين﴾ أبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص منه لان الانذار اعلام المحذور لا لمجرد التخويف والازعاج بل للحذر منه فيتعلق صفته بكلا وصفيه ﴿ألا تعبدوا الا الله﴾ أى بأن لا تعبدوا على أن أن مصدرية والباء متعلقة بأرسلنا ولا ناهية أى أرسلناه ملتبسا بنهيهم عن الشرك الا أنه وسط بينهما بيان بعض أوصافه وأحواله عليه الصلاة والسلام وهو كونه نذيرا مبينا ليكون أدخل فى القبول ولم يفعل ذلك فى صدر السورة لئلا يفرق بين الكتاب ومضمونه بما ليس من أوصافه وأحواله أو مفسرة متعلقة به أو بنذير أو مفعول لمبين وعلى قراءة الفتح بدل من أنى لكم نذير مبين وتعيين لما يوجب وقوع المحذور وتبيين لوجه الخلاص وهو عبادة الله تعالى وقوله تعالى ﴿انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ تعليل لموجب النهى وتصريح بالمحذور وتحقيق للانذار والمراد به يوم القيامة أو يوم الطوفان ووصفه بالأليم على الاسناد المجازى للمبالغة كما فى نهاره صائم وهذه المقالة وما فى معناها مما قاله عليه الصلاة والسلام فى أثناء الدعوة على ما عزى اليه فى سائر السور لما لم تصدر عنه عليه الصلاة والسلام مرة واحدة بل كان يكررها عليهم فى تلك المدة المتطاولة على ما نطق به قوله تعالى رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا الآيات عطف على فعل الارسال المقارن لها أو القول المقدر بعده جوابهم المتعرض لأحوال المؤمنين الذين اتبعوه عليه الصلاة والسلام بعد

التيا والتى بالفاء التعقيبية فقيل ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أى الأشراف منهم من قولهم فلان ملىء بكذا أى مطيق له لأنهم ملئوا بكفايات الأمور أو لأنهم ملأوا القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لأنهم ملئوا بالاحلام والآراء الصائبة و وصفهم بالكفر لذمهم والتسجيل عليهم بذلك من أول الأمر لا لأن بعض أشرافهم ليسوا بكفرة ﴿ما نراك الا بشرا مثلنا﴾ مرادهم ما أنت الا بشر مثلنا ليس فيك مزية تخصك من دوننا بما تدعيه من النبوة ولو كان كذلك لرأيناه لا أن ذلك محتمل ولكن لانراه وكذا الحال فى قولهم ﴿وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى﴾ فالفعلان من رؤية العين وقوله تعالى الا بشرا مثلنا حال من المفعول وكذا قوله اتبعك فى موضع الحال منه اما على حاله أو بتقدير قد عند من يشترط ذلك و يجوز أن يكون من رؤية القلب وهو الظاهر فهما المفعول الثانى وتعلق الرأى فى الأول بالمثلية لا بالبشرية فقط وانما لم يبتوا القول بذلك مع جزمهم به واصرارهم عليه اراءة بأن ذلك لم يصدر عنهم جزافا بل بعد التأمل فى الأمر والتدبر فيه ولذلك اقتصروا على ذكر الظن فيما سيأتى وتعريضا من أول الأمر برأى المتبعين فكأن قولهم وما نراك جواب عما يرد عليهم من أنه عليه الصلاة والسلام ليس مثلهم حيث عاين دلائل نبوته واغتنم اتباعه من له عين تبصر وقلب يدرك فزعموا أن هؤلاء أراذلنا أى أخساؤنا وأدانينا جمع أرذل فانه صار بالغلبة جاريا مجرى الاسم كالأكبر والأكابر أو جمع أرذل جمع رذل كأكالب وأكلب وكلب يعنون أنه لا عبرة باتباعهم لك اذ ليس لهم رزانة عقل ولا اصالة رأى وقد كان ذلك منهم فى بادى الرأى أى ظاهره من غير تعمق من البدو أو فى أوله من البدء والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها وقد قرأه أبو عمرو بها وانتصابه على الظرفية على حذف المضاف أى وقت حدوث بادى الرأى والعامل فيه اتبعك وانما استرذلوهم مع كونهم أولى الألباب الراجحة لفقرهم فانهم لما لم يعلموا الا ظاهر الحياة الدنيا كان الأشرف عندهم الأكثر منها حظا والارذل من حرمها ولم يفقهوا أن ذلك لا يزن عند الله جناح بعوضة وأن النعيم انما هو نعيم الآخرة والأشرف من فاز به والأرذل من حرمه نعوذ بالله تعالى من ذلك ﴿وما نرى لكم﴾ أى لك ولمتبعيك فغلب المخاطب على الغائبين ﴿علينا من فضل﴾ يعنون أن اتباعهم لك لا يدل على نبوتك ولا يجديهم فضيلة تستتبع اتباعنا لكم واقتصارهم ههنا على ذكر عدم رؤية الفضل بعد تصريحهم برذالتهم فيما سبق باعتبار حالهم السابق واللاحق ومرادهم أنهم كانوا أراذل قبل اتباعهم لك ولا نرى فيهم وفيك بعد الاتباع فضيلة علينا ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ جميعا لكون كلامكم واحدا ودعواكم واحدة أو اياك فى دعوى النبوة واياهم فى تصديقك واقتصارهم على الظن احترازا منهم عن نسبتهم الى المجازفة ومجاراة معه عليه الصلاة والسلام بطريق الاراءة على نهج الانصاف ﴿قال ياقوم أرأيتم﴾ أى أخبرونى وفيه ايماء الى ركاكة رأيهم المذكور ﴿ان كنت على بينة﴾ برهان ظاهر ﴿من ربى﴾ وشاهد يشهد بصحة دعواى ﴿وآتانى رحمة من عنده﴾ هى النبوة ويجوز أن تكون هى البينة نفسها جىء بها ايذانا بأنها مع كونها بينة من الله تعالى رحمة ونعمة عظيمة من عنده فوجه افراد الضمير فى قوله تعالى ﴿فعميت عليكم﴾ حينئذ ظاهر وان أريد بها النبوة و بالبينة البرهان الدال على صحتها فالافراد لارادة كل واحدة منهما أو لكون الضمير للبينة والاكتفاء بذلك لاستلزام خفائها خفاء النبوة أو لتقدير فعل آخر بعد البينة ومعنى عميت أخفيت وقرىء عميت ومعناه خفيت وحقيقته أن الحجة كما تجعل مبصرة و بصيرة تجعل عمياء لان الاعمى لايهتدى ولا يهدى غيره وفى قراءة أبى فعماها عليكم على الاسناد الى الله عز وجل ﴿أنلزمكموها﴾ أى أنكرهكم على الاهتداء بها وهو جواب أرأيتم وساد مسد جواب الشرط وقرأ أبو عمرو باخفاء حركة الميم وحيث اجتمع ضميران منصوبان وقد قدم أعرفهما جاز فى الثانى الوصل والفصل فوصل كما فى قوله تعالى فسيكفيكهم الله ﴿وأنتم لها كارهون﴾

لا تختارونها و لا تتأملون فيها ومحصول الجواب أخبرونى ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة دعواى الا أنها خافية عليكم غير مسلمة عندكم أيمكننا أن نكرهكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غير متدبرين فيها أى لا يكون ذلك وظاهره مشعر بصدوره عنه عليه الصلاة والسلام بطريق اظهار اليأس عن الزامهم والقعود عن محاجتهم كقوله تعالى ولا ينفعكم نصحى الخ لكنه محمول على أن مراده عليه الصلاة والسلام ردهم عن الاعراض عنها وحثهم على التدبر فيها بصرف الانكار الى الالزام حال كراهتهم لها لا الى الالزام مطلقا هذا و يجوز أن يكون المراد بالبينة دليل العقل الذى هو ملاك الفضل و بحسبه يمتاز أفراد البشر بعضها من بعض و به يناط الكرامة عند الله عز وجل والاجتباء للرسالة و بالكون عليها التمسك به والثبات عليه و بخفائها على الكفرة على أن الضمير للبينة عدم ادراكهم لكونه عليه الصلاة والسلام عليها و بالرحمة النبوة التى أنكروا اختصاصه عليه السلام بها بين ظهرانيهم والمعنى أنكم زعمتم أن عهد النبوة لا يناله الا من له فضيلة على سائر الناس مستتبعة لاختصاصه به دونهم أخبرونى ان امتزت عنكم بزيادة مزية وحيازة فضيلة من ربى و آتانى بحسبها نبوة من عنده فخفيت عليكم تلك البينة ولم تصيبوها ولم تنالوها ولم تعلموا حيازتى لها و كونى عليها الى الآن حتى زعمتم أنى مثلكم وهى متحققة فى نفسها أنلزمكم قبول نبوتى التابعة لها والحال أنكم كارهون لذلك فيكون الاستفهام للحمل على الاقرار وهو الأنسب بمقام المحاجة وحينئذ يكون كلامه عليه الصلاة والسلام جوابا عن شبههم التى أدرجوها فى خلال مقالهم من كونه عليه السلام بشرا قصارى أمره أن يكون مثلهم من غير فضل له عليهم وقطعا لشأفة آرائهم الركيكة ﴿ و ياقوم لا أسألكم عليه ﴾ أى على ماقلته فى أثناء دعوتكم ﴿ مالا ﴾ تؤدونه الى بعد ايمانكم واتباعكم لى فيكون ذلك أجرا لى فى مقابلة اهتدائكم ﴿ ان أجرى الا على الله ﴾ الذى يثيبنى فى الآخرة و فى التعبير عنه حين نسب اليهم بالمال مالا يخفى من المزية ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ جواب عما لوحوا به بقولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا من أنه لو اتبعه الأشراف لوافقوهم وأن اتباع الفقراء مانع لهم عن ذلك كما صرحوا به فى قولهم أنؤمن لك واتبعك الأرذلون فكان ذلك التماسا منهم لطردهم وتعليقا لايمانهم به عليه الصلاة والسلام بذلك أنفة من الانتظام معهم فى سلك واحد ﴿ انهم ملاقو ربهم ﴾ تعليل لامتناعه عليه السلام عن طردهم أى انهم فائزون فى الآخرة بلقاء الله عز وجل كأنه قيل لا أطردهم و لا أبعدهم عن مجلسى لأنهم مقربون فى حضرة القدس والتعرض لوصف الربوبية لتربية وجوب رعايتهم وتحتم الامتناع عن طردهم أو مصدقون فى الدنيا بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة فكيف أطردهم وحمله على معنى أنهم يلاقونه فيجازيهم على مافى قلوبهم من ايمان صحيح ثابت كما ظهر لى أو على خلاف ذلك مما تعرفونهم به من بناء ايمانهم على بادى الرأى من غير نظر وتفكر وما على أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم ان كان الأمر كما تزعمون يأباه الجزم بترتب غضب الله عز وجل على طردهم كما سيأتى وأيضا فهم انما قالوا ان اتباعهم لك انما هو بحسب بادى الرأى بلا تأمل وتفكر وهذا لا يكاد يصلح مدارا للطرد فى الدنيا و لا للمؤاخذة فى الآخرة غايته أن لا يكونوا فى مرتبة الموقنين وادعاء أن بناء الايمان على ظاهر الرأى يؤدى الى الرجوع عنه عند التأمل فكأنهم قالوا انهم اتبعوك بلا تأمل فلا يثبتون على دينك بل يرتدون عنه تعسف لا يخفى ﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ بكل ماينبغى أن يعلم و يدخل فيه جهلهم بلقاء الله عز وجل و بمنزلتهم عنده و باستيجاب طردهم لغضب الله كما سيأتى و بركاكة رأيهم فى التماس ذلك وتوقيف ايمانهم عليه أنفة عن الانتظام معهم فى سلك واحد و زعما منهم أن الرذالة بالفقر والشرف بالغنى وايثار صيغة الفعل للدلالة على التجدد والاستمرار أو تتسافهون على المؤمنين بنسبتهم الى الخساسة ﴿ و ياقوم من ينصرنى من الله ﴾ يدفع حلول سخطه عنى

﴿ان طردتهم﴾ فان ذلك أمر لامرد له لكون الطرد ظلما موجبا لحلول السخط قطعا وانما لم يصرح به اشعارا بأنه غنى عن البيان لاسيما غب ما قدم مايلوح به من أحوالهم فكأنه قيل من يدفع عنى غضب الله تعالى ان طردتهم وهم بتلك المثابة من الكرامة والزلفى كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿أفلا تذكرون﴾ أى أتستمرون على ماأنتم عليه من الجهل المذكور فلا تتذكرون ماذكر من حالهم حتى تعرفوا أن ماتأتونه بمعزل عن الصواب ولكون هذه العلة مستقلة بوجه مخصوص ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع عن الطرد أفردت عن التعليل السابق وصدرت بياقوم ﴿ولاأقول لكم﴾ حين أدعى النبوة ﴿عندى خزائن الله﴾ أى رزقه وأمواله حتى تستدلوا بعدمها على كذبى بقولكم وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين فان النبوة أعز من أن تنال بأسباب دنيوية ودعواها بمعزل عن ادعاء المال والجاه ﴿ولا أعلم الغيب﴾ أى لاأدعى فى قولى انى لكم نذير مبين انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم علم الغيب حتى تسارعوا الى الانكار والاستبعاد ﴿ولا أقول انى ملك﴾ حتى تقولوا مانراك الا بشراً مثلنا فان البشرية ليست من موانع النبوة بل من مباديها يعنى انكم اتخذتم فقدان هذه الأمور الثلاثة ذريعة الى تكذيبى والحال أنى لاأدعى شيأ من ذلك ولا الذى أدعيه يتعلق بشىء منها وانما يتعلق بالفضائل النفسانية التى بها تتفاوت مقادير البشر ﴿ولا أقول﴾ مساعدة لكم كما تقولون ﴿للذين تزدرى أعينكم﴾ أى تقتحمهم وتحتقرهم من زراه اذاعابه واسناد الازدراء الى أعينهم بالنظر الى قولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا واما للاشعار بأن ذلك لقصور نظرهم ولو تدبروا فى شأنهم مافعلوا ذلك أى لاأقول فى شأن الذين استرذلتموهم لفقرهم من المؤمنين ﴿لن يؤتيهم الله خيراً﴾ فى الدنيا أو فى الآخرة فعسى الله أن يؤتيهم خيرى الدارين ان قلت هذا القول ليس مما تستنكره الكفرة ولا مما يتوهمون صدوره عنه عليه السلام أصالة أو استتباعا كادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن مما نفاه عليه الصلاة والسلام عن نفسه بطريق التبرؤ والتنزه عنه فمن أى وجه عطف نفيه على نفيها قلت من جهة أن كلا النفيين رد لقياسهم الباطل الذى تمسكوا به فيما سلف فانهم زعموا أن النبوة تستتبع الأمور المذكورة وأنها لاتتسنى ممن ليس على تلك الصفات فان العثور على مكانها واغتنام مغانمها ليس من دأب الأراذل فأجاب عليه الصلاة والسلام بنفى ذلك جميعا فكأنه قال لاأقول وجود تلك الأشياء من مواجب النبوة ولا عدم المال والجاه من موانع الخير ﴿الله أعلم بما فى أنفسهم﴾ من الايمان وانما اقتصر على نفى القول المذكور مع أنه عليه الصلاة والسلام جازم بأن الله سبحانه سيؤتيهم خيراً عظيما فى الدارين وأنهم على يقين راسخ فى الايمان جريا على سنن الانصاف مع القوم واكتفاء بمخالفة كلامهم وارشاداً لهم الى مسلك الهداية بأن اللائق لكل أحد أن لايبت القول الا فيما يعلمه يقينا ويبنى أموره على الشواهد الظاهرة ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة ﴿انى اذاً﴾ أى اذا قلت ذلك ﴿لمن الظالمين﴾ لهم بحط مرتبتهم ونقص حقوقهم أو من الظالمين لأنفسهم بذلك فان وباله راجع الى أنفسهم وفيه تعريض بأنهم ظالمون فى ازدرائهم واسترذالهم وقيل اذاقلت شيأ مماذكر من ادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن وهو بعيد لأن تبعة تلك الأقوال مغنية عن التعليل بلزوم الانتظام فى زمرة الظالمين ﴿قالوا يانوح قد جادلتنا﴾ خاصمتنا ﴿فأكثرت جدالنا﴾ أى أطلته أو أتيته بأنواعه فان اكثار الجدال يتحقق بعد وقوع أصله فلذلك عطف عليه بالفاء أو أردت ذلك فأكثرته كما فى قوله تعالى فاذاقرأت القرآن فاستعذ بالله ولما حجهم عليه الصلاة والسلام وأبرز لهم بينات واضحة المدلول وحججا تتلقاها العقول بالقبول وألقمهم الحجر برد شبههم الباطلة ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وقالوا ﴿فائتنا بما تعدنا﴾ من العذاب المعجل أو العذاب الذى أشير اليه فى قوله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم على تقدير أن لايكون المراد باليوم يوم القيامة ﴿ان كنت من الصادقين﴾ فيما تقول ﴿قال انما يأتيكم

به الله ان شاء ﴾ يعنى أن ذلك ليس موكولا الى و لا هو مما يدخل تحت قدرتى وانما يتولاه الله الذى كفرتم به وعصيتموه يأتيكم به عاجلا أو آجلا ان تعلق به مشيئته التابعة للحكمة وفيه مالا يخفى من تهويل الموعود فكأنه قيل الاتيان به أمر خارج عن دائرة القوى البشرية وانما يفعله الله عز وجل ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ بالهرب أو بالمدافعة كما تدافعوننى فى الكلام ﴿ ولا ينفعكم نصحى ﴾ النصح كلمة جامعة لكل ما يدور عليه الخير من قول أو فعل وحقيقته امحاض ارادة الخير والدلالة عليه ونقيضه الغش وقيل هو اعلام موقع الغى ليتقى وموضع الرشد ليقتفى ﴿ ان أردت أن أنصح لكم ﴾ شرط حذف جوابه لدلالة ماسبق عليه والتقدير ان أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى وهذه الجملة دليل على ما حذف من جواب قوله تعالى ﴿ ان كان الله يريد أن يغويكم ﴾ والتقدير ان كان الله يريد أن يغويكم فان أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى هذا على ما ذهب اليه البصريون من عدم تقديم الجزاء على الشرط وأما على ما ذهب اليه الكوفيون من جوازه فقوله عز وعلا و لا ينفعكم نصحى جزاء للشرط الأول والجملة جزاء للشرط الثانى وعلى التقديرين فالجزاء متعلق بالشرط الأول وتعلقه به معلق بالشرط الثانى وهذا الكلام متعلق بقولهم قد جادلتنا فأكثرت جدالنا صدر عنه عليه الصلاة والسلام اظهارا للعجز عن الزامهم بالحجج والبينات لتماديهم فى العناد وايذانا بأن ماسبق منه ليس بطريق الجدال والخصام بل بطريق النصيحة لهم والشفقة عليهم و بأنه لم يأل جهدا فى ارشادهم الى الحق وهدايتهم الى سبيله المستبين وامحاض النصح لهم ولكن لا ينفعهم ذلك عند ارادة الله تعالى لاغوائهم وتقييد عدم نفع النصح بارادته مع أنه محقق لامحالة للايذان بأن ذلك النصح منه مقارن للارادة والاهتمام به ولتحقيق المقابلة بين ذلك و بين ماوقع بازائه من ارادته تعالى لاغوائهم وانما اقتصر فى ذلك على مجرد ارادة الاغواء دون نفسه حيث لم يقل ان كان الله يغويكم مبالغة فى بيان غلبة جنابه عز وعلا حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لايجديهم عند مجرد ارادة الله سبحانه لاغوائهم فكيف عند تحقيق ذلك وخلقه فيهم و زيادة كان للاشعار بتقدم ارادته تعالى زمانا كتقدمها رتبة وللدلالة على تجددها واستمرارها وانما قدم على هذا الكلام مايتعلق بقولهم فائتنا بما تعدنا من قوله تعالى انما يأتيكم به الله ان شاء ردا عليهم من أول الامر وتسجيلا عليهم بحلول العذاب مع مافيه من اتصال الجواب بالسؤال وفيه دليل على أن ارادته تعالى يصح تعلقها بالاغواء وأن خلاف مراده غير واقع وقيل معنى أن يغويكم أن يهلككم من غوى الفصيل غوى اذا بشم وهلك ﴿ هو ربكم ﴾ خالقكم ومالك أمركم ﴿ واليه ترجعون ﴾ فيجازيكم على أعمالكم لا محالة ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعنى نوحا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أيقول قوم نوح ان نوحا افترى ماجاء به مسندا الى الله عز وجل ﴿ قل ﴾ يا نوح ﴿ ان افتريته ﴾ بالفرض البحت ﴿ فعلى اجرامى ﴾ اثمه و وبال اجرامى وهو كسب الذنب وقرئ بلفظ الجمع و ينصره أن فسره الأولون بآثامى ﴿ وأنا برئ مما تجرمون ﴾ من اجرامكم فى اسناد الافتراء الى فلا وجه لاعراضكم عنى ومعاداتكم لى وقال مقاتل يعنى محمدا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أيقول مشركو مكة افترى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر نوح فكأنه انما جئ به فى تضاعيف القصة عند سوق طرف منها تحقيقا لحقيتها وتأكيدا لوقوعها وتشويقا للسامعين الى استماعها لا سيما وقد قص منها طائفة متعلقة بما جرى بينه عليه السلام و بين قومه من المحاجة و بقيت طائفة مستقلة متعلقة بعذابهم ﴿ وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك ﴾ أى المصرين على الكفر وهو اقناط له عليه السلام من ايمانهم واعلام لكونه كالمحال الذى لا يصح توقعه ﴿ الا من قد آمن ﴾ الا من قد وجد منه ما كان يتوقع من ايمانه وهذا الاستثناء على طريقة قوله تعالى الا ماقد سلف ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾ أى لا تحزن حزن بائس مستكين و لا تغتم بما

كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والايذاء فى هذه المدة الطويلة فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم ﴿واصنع الفلك﴾ ملتبسا ﴿بأعيننا﴾ أى بحفظنا وكلاءتنا كأن معه من الله عز وجل حفاظا وحراسا يكلؤنه بأعينهم من التعدى من الكفرة ومن الزيغ فى الصنعة ﴿ووحينا﴾ اليك كيف تصنعها وتعليمنا والهامنا . عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله تعالى اليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر والامر للوجوب اذلا سبيل الى صيانة الروح من الغرق الا به فيجب كوجوبها واللام اما للعهد بأن يحمل على أن هذا مسبوق بوحى الله تعالى اليه عليه السلام أنه سيهلكهم بالغرق وينجيه ومن معه بشىء سيصنعه بأمره تعالى ووحيه من شأنه كيت وكيت واسمه كذا واما للجنس . قيل صنعها عليه الصلاة والسلام فى سنتين وقيل فى أربعمائة سنة وكانت من خشب الساج وجعلت ثلاثة بطون حمل فى البطن الأول الوحوش والسباع والهوام وفى البطن الاوسط الدواب والانعام وفى البطن الاعلى جنس البشر هو ومن معه مع ما يحتاجون اليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه الصلاة والسلام وقيل جعل فى الأول الدواب والوحوش وفى الثانى الانس وفى الاعلى الطير قيل كان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعا وسمكها ثلاثين ذراعا وقال الحسن كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وقيل ان الحواريين قالوا لعيسى عليه الصلاة والسلام لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى الى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب بن حام قال فضرب بعصاه فقال قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه الصلاة والسلام أهكذا هلكت قال لا مت وأنا شاب ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثمة شبت فقال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة للدواب والوحش وطبقة للانس وطبقة للطير ثم قال عد باذن الله تعالى كما كنت فعاد ترابا ﴿ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا﴾ أى لا تراجعنى فيهم ولا تدعنى باستدفاع العذاب عنهم وفيه من المبالغة ماليس فيما لو قيل ولا تدعنى فيهم وحيث كان فيه ما يلوح بالسببية أكد التعليل فقيل ﴿انهم مغرقون﴾ أى محكوم عليهم بالاغراق قد مضى به القضاء وجف القلم فلا سبيل الى كفه ولزمتهم الحجة فلم يبق الا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين ومثلا للآخرين ﴿ويصنع الفلك﴾ حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل تقديره وأخذ يصنع الفلك أو أقبل يصنعها فاقتصر على يصنع وأياما كان ففيه ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالا من ضميره أعنى قوله تعالى ﴿وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾ استهزؤا به لعمله السفينة اما لأنهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وسخروا منه واما لأنه كان يصنعها فى برية بهماء فى أبعد موضع من الماء وفى وقت عزته عزة شديدة وكانوا يتضاحكون ويقولون يا نوح صرت نجارا بعدما كنت نبيا وقيل لانه عليه الصلاة والسلام كان ينذرهم الغرق فلما طال مكثه فيهم ولم يشاهدوا منه عينا ولا أثرا عدوه من باب المحال ثم لما رأوا اشتغاله بأسباب الخلاص من ذلك فعلوا ما فعلوا ومدار الجميع انكار أن يكون لعمله عليه الصلاة والسلام عاقبة حميدة مع ما فيه من تحمل المشاق العظيمة التى لا تكاد تطاق واستجهاله عليه السلام فى ذلك ﴿قال ان تسخروا منا﴾ مستجهلين لنا فيما نحن فيه ﴿فانا نسخر منكم﴾ أى نستجهلكم فيما أنتم عليه واطلاق السخرية عليه للمشاكلة وجمع الضمير فى منا اما لأن سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام سخرية من المؤمنين أيضا أو لانهم كانوا يسخرون منهم أيضا الا أنه اكتفى بذكر سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام ولذلك تعرض الجميع للمجازاة فى قوله تعالى فانا نسخر منكم الخ فتكافأ الكلام من الجانبين وتعليق استجهاله عليه الصلاة والسلام اياهم بما فعلوا من

السخرية باعتبار اظهاره ومشافهته عليه الصلاة والسلام اياهم بذلك والا فعده عليه الصلاة والسلام اياهم جاهلين فيما يأتون و يذرون أمر مطرد لاتعلق له بسخريتهم منهم لكنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يتصدى لاظهاره جريا على نهج الاخلاق الحميدة وانما أظهره جزاء بماصنعوا بعد اللتيا والتى فان سخريتهم كانت مستمرة ومتجددة حسب تجدد مرورهم عليه ولم يكن يجيبهم فى كل مرة والا لقيل و يقول ان تسخروا منا الخ بل انما أجابهم بعد بلوغ أذاهم الغاية كما يؤذن به الاستئناف فكأن سائلا سأل فقال فما صنع نوح عند بلوغهم منه هذا المبلغ فقيل قال ان تسخروا منا أى ان تنسبونا فيما نحن بصدده من التأهب والمباشرة لاسباب الخلاص من العذاب الى الجهل وتسخروا منا لاجله فانا ننسبكم اليه فيما أنتم فيه من الاعراض عن استدفاعه بالايمان والطاعة ومن الاستمرار على الكفر والمعاصى والتعرض لاسباب حلول سخط الله تعالى التى من جملتها استجهالكم ايانا وسخريتكم منا والتشبيه فى قوله تعالى ﴿كما تسخرون﴾ اما فى مجرد التحقق والوقوع أو فى التجدد والتكرر حسبما صدر عن ملأ غب ملأ لافى الكيفيات والأحوال التى لاتليق بشأن النبي عليه الصلاة والسلام فكلا الامرين واقع فى الحال وقيل نسخر منكم فى المستقبل سخرية مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة ولعل مراده نعاملكم معاملة من يفعل ذلك لان نفس السخرية مما لا يكاد يليق بمنصب النبوة ومع ذلك لاسداد له لأن حالهم اذ ذاك ليس مما يلائمه السخرية أو ما يجرى مجراها فتأمل ﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ وهو عذاب الغرق ﴿و يحل عليه﴾ حلول الدين المؤجل ﴿عذاب مقيم﴾ هو عذاب النار الدائم وهو تهديد بليغ ومن عبارة عنهم وهى اما استفهامية فى حيز الرفع أو موصولة فى محل النصب بتعلمون وما فى حيزها ساد مسد مفعولين أو مفعول واحد ان جعل العلم بمعنى المعرفة ولما كان مدار سخريتهم استجهالهم اياه عليه الصلاة والسلام فى مكابدة المشاق الفادحة لدفع مالا يكاد يدخل تحت الصحة على زعمهم من الطوفان ومقاساة الشدائد فى بناء السفينة و كانوا يعدونه عذابا قيل بعد استجهالهم فسوف تعلمون من يأتيه العذاب يعنى أن ماأباشره ليس فيه عذاب لاحق بى فسوف تعلمون من المعذب ولقد أصاب العلم بعد استجهالهم محزه و وصف العذاب بالاخزاء لما فى الاستهزاء والسخرية من لحوق الخزى والعار عادة والتعرض لحلول العذاب المقيم للمبالغة فى التهديد وتخصيصه بالمؤجل وايراد الاول بالاتيان فى غاية الجزالة ﴿حتى اذا جاء أمرنا﴾ حتى هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهى مع ذلك غاية لقوله و يصنع وما بينهما حال من الضمير فيه وسخروا منه جواب لكلما وقال استئناف على تقدير سؤال سائل كما ذكرناه وقيل هو الجواب وسخروا منه بدل من مر أو صفة لملأ وقد عرفت أن الحق هو الاول لان المقصود بيان تناهيهم فى ايذائه عليه الصلاة والسلام وتحمله لأذيتهم لا مسارعته عليه الصلاة والسلام الى جوابهم كلما وقع منهم ما يؤذيه من الكلام ﴿وفار التنور﴾ نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها والتنور تنور الخبز وهو قول الجمهور . روى أنه قيل لنوح عليه الصلاة والسلام اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم عليه الصلاة والسلام وكان من حجارة فصار الى نوح وانما نبع منه وهو أبعد شئ من الماء على خرق العادة و كان فى الكوفة فى موضع مسجدها عن يمين الداخل مما يلى باب كندة و كان عمل السفينة فى ذلك الموضع أو فى الهند أو فى موضع بالشام يقال له عين وردة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعكرمة والزهرى أن التنور وجه الأرض وعن قتادة أشرف موضع فى الأرض أى أعلاه وعن على رضى الله تعالى عنه فار التنور طلع الفجر ﴿قلنا احمل فيها﴾ أى فى السفينة وهو جواب اذا ﴿من كل﴾ أى من كل نوع لابد منه فى الأرض ﴿زوجين﴾ الزوج ماله مشاكل من نوعه فالذكر زوج للانثى .

كما هى زوج له وقد يطلق على مجموعهما فيقابل الفرد ولازالة ذلك الاحتمال قيل ﴿اثنين﴾ كل منهما زوج للآخر وقرئ على الاضافة وانما قدم ذلك على أهله وسائر المؤمنين لكونه عريقا فيما أمر به من الحمل لأنه يحتاج الى مزاولة الأعمال منه عليه الصلاة والسلام فى تمييز بعضه من بعض وتعيين الازواج فانه روى أنه عليه الصلاة والسلام قال يارب كيف أحمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه السباع والطير وغيرها فجعل يضرب بيديه فى كل جنس فيقع الذكر فى يده اليمنى والانثى فى اليسرى فيجعلهما فى السفينة وأما البشر فانما يدخل الفلك باختياره فيخف فيه معنى الحمل أو لانها انما تحمل بمباشرة البشر وهم انما يدخلونها بعد حملهم اياها ﴿وأهلك﴾ عطف على زوجين أو على اثنين والمراد امرأته و بنوه و نساؤهم ﴿الا من سبق عليه القول﴾ بأنه من المغرقين بسبب ظلمهم فى قوله تعالى و لاتخاطبنى فى الذين ظلموا الآية والمراد به ابنه كنعان وأمه واعلة فانهما كانا كافرين والاستثناء منقطع ان أريد بالاهل الاهل ايمانا وهو الظاهر كما ستعرفه أو متصل ان أريد به الاهل قرابة و يكفى فى صحة الاستثناء المعلومية عند المراجعة الى أحوالهم والتفحص عن أعمالهم وجئ بعلى لكون السابق ضارا لهم كما جئ باللام فيما هو نافع لهم من قوله عز وجل ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين وقوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴿ومن آمن﴾ من غيرهم وافراد الاهل منهم للاستثناء المذكور وايثار صيغة الافراد فى آمن محافظة على لفظ من للايذان بقلتهم كما أعرب عنه قوله عز قائلا ﴿وما آمن معه الاقليل﴾ قيل كانوا ثمانية نوح عليه الصلاة والسلام وأهله و بنوه الثلاثة ونساؤهم وعن ابن اسحق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وعنه أيضا أنهم كانوا عشرة سوى نسائهم وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلا وامرأة وأولاد نوح سام وحام و يافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء واعتبار المعية فى ايمانهم للايماء الى المعية فى مقر الامان والنجاة ﴿وقال﴾ أى نوح عليه الصلاة والسلام لمن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى ان ربى لغفور رحيم ولو رجع الضمير الى الله تعالى لناسب أن يقال ان ربكم ولعل ذلك بعد ادخال ما أمر بحمله فى الفلك من الازواج كأنه قيل فحمل الازواج أو أدخلها فى الفلك وقال للمؤمنين ﴿اركبوا فيها﴾ كما سيأتى مثله فى قوله تعالى وهى تجرى بهم والركوب العلو على شئ متحرك و يتعدى بنفسه واستعماله ههنا بكلمة فى ليس لأن المأمور به كونهم فى جوفها لافوقها كما ظن فان أظهر الروايات أنه عليه السلام جعل الوحوش ونظائرها فى البطن الأسفل والأنعام فى الاوسط وركب هو ومن معه فى الأعلى بل لرعاية جانب المحلية والمكانية فى الفلك والسر فيه أن معنى الركوب العلو على شئ له حركة اما ارادية كالحيوان أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما فاذا استعمل فى الاول يوفر له حظ الاصل فيقال ركبت الفرس وعليه قوله عز من قائل والخيل والبغال والحمير لتركبوها وان استعمل فى الثانى يلوح بمحلية المفعول بكلمة فى فيقال ركبت فى السفينة وعليه الآية الكريمة وقوله عز قائلا فاذا ركبوا فى الفلك وقوله تعالى فانطلقا حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها ﴿بسم الله﴾ متعلق باركبوا حال من فاعله أى اركبوا مسمين الله تعالى أو قائلين بسم الله ﴿مجريها ومرساها﴾ نصب على الظرفية أى وقت اجرائها وارسائها على أنهما اسما زمان أومصدران كالاجراء والارساء بحذف الوقت كقولك آتيك خفوق النجم أو اسما مكان انتصبا بما فى بسم الله من معنى الفعل أو ارادة القول ويجوز أن يكون بسم الله مجريها ومرساها مستقلة من مبتدا وخبر فى موضع الحال من ضمير الفلك أى اركبوا فيها مجراة ومرساة باسم الله بمعنى التقدير كقوله تعالى ادخلوها خالدين أو جملة مقتضبة على أن نوحا أمرهم بالركوب فيها ثم أخبرهم بأن اجراءها وارساءها باسم الله تعالى فيكونان كلامين له عليه الصلاة والسلام قيل كان عليه السلام اذا أراد أن يجريها يقول بسم الله فتجرى واذا أراد أن يرسيها يقول بسم الله فترسو ويجوز أن يكون الاسم مقحما كما فى قوله

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ويراد بالله اجراؤها وارساؤها أى بقدرته وأمره وقرىء مجريها ومرسيها على صيغة الفاعل مجرورى المحل صفتين لله عز وجل ومجراها ومرساها بفتح الميم مصدرين أو زمانين أو مكانين من جرى ورسا ﴿ان ربى لغفور﴾ للذنوب والخطايا ﴿رحيم﴾ لعباده ولذلك نجاكم من هذه الطامة والداهية العامة ولولا ذلك لما فعله وفيه دلالة على أن نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها بل بمحض فضل الله سبحانه وغفرانه ورحمته على ماعليه رأى أهل السنة ﴿وهى تجرى بهم﴾ متعلق بمحذوف دل عليه الأمر بالركوب أى فركبوا فيها مسمين وهى تجرى ملتبسة بهم ﴿فى موج كالجبال﴾ وهو ماارتفع من الماء عند اضطرابه كل موجة من ذلك كجبل فى ارتفاعها وتراكمها وماقيل من أن الماء طبق مابين السماء والأرض وكانت السفينة تجرى فى جوفه كالحوت فغير ثابت والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا أو أربعين ذراعا ولئن صح ذلك فهذا الجريان انما هو قبل أن يتفاقم الخطب كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ونادى نوح ابنه﴾ فان ذلك انما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والبر اذ حينئذ يمكن جريان ماجرى بين نوح عليه الصلاة والسلام وبين ابنه من المفاوضة بالاستدعاء الى السفينة والجواب بالاعتصام بالجبل وقرىء ابنها وابنه بحذف الألف على أن الضمير لامرأته وكان ربيبه ومايقال من أنه كان لغير رشدة لقوله تعالى فخانتاهما فارتكاب عظيمة لايقادر قدرها فان جناب الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه أرفع من أن يشار اليه باصبع الطعن وانما المراد بالخيانة الخيانة فى الدين وقرىء ابناه على الندبة ولكونها حكاية سوغ حذف حرفها وأنت خبير بأنه لايلائمه الاستدعاء الى السفينة فانه صريح فى أنه لم يقع فى حياته يأس بعد ﴿وكان فى معزل﴾ أى فى مكان عزل فيه نفسه عن أبيه واخوته وقومه بحيث لم يتناوله الخطاب باركبوا واحتاج الى النداء المذكور وقيل فى معزل عن الكفار قد انفرد عنهم وظن نوح أنه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه الى السفينة وقيل كان ينافق أباه فظن أنه مؤمن وقيل كان يعلم أنه كافر الى ذلك الوقت لكنه عليه الصلاة والسلام ظن أنه عند مشاهدة تلك الأهوال ينزجر عما كان عليه ويقبل الايمان وقيل لم يكن الذى تقدم من قوله تعالى الامن سبق عليه القول نصاًفى كون ابنه داخلا تحته بل كان كالمجمل فحملته شفقة الأبوة على ذلك ﴿يابنى﴾ بفتح الياء اقتصارا عليه من الألف المبدلة من ياء الاضافة فى قولك يابنيا وقرىء بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الاضافة أوسقطت الياء والألف لالتقاء الساكنين لأن الراء بعدهما ساكنة ﴿اركب معنا﴾ قرأ أبو عمرو والكسائى وحفص بادغام الباء فى الميم لتقاربهما فى المخرج وانما أطلق الركوب عن ذكر الفلك لتعينها وللايذان بضيق المقام حيث حال الجريض دون القريض مع اغناء المعية عن ذلك ﴿ولاتكن مع الكافرين﴾ أى فى المكان وهو وجه الأرض خارج الفلك لافى الدين وان كان ذلك مما يوجبه كما يوجب ركوبه معه عليه الصلاة والسلام كونه معه فى الايمان لأنه عليه الصلاة والسلام بصدد التحذير عن الهلكة فلا يلائمه النهى عن الكفر ﴿قال سآوى الى جبل﴾ من الجبال ﴿يعصمنى﴾ بارتفاعه ﴿من الماء﴾ زعما منه أن ذلك كسائر المياه فى أزمنة السيول المعتادة التى ربما يتقى منها بالصعود الى الربا وأنى له ذلك وقد بلغ السيل الزبى وجهلا بأن ذلك انما كان لاهلاك الكفرة وأن لامحيص من ذلك سوى الالتجاء الى ملجأ المؤمنين فلذلك أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين له حقيقة الحال ويصرفه عن ذلك الفكر المحال وكان مقتضى الظاهر أن يجيب بما ينطبق عليه كلامه ويتعرض لنفى ما أثبته للجبل من كونه عاصما له من الماء بأن يقول لايعصمك منه مفيدا لنفى وصف العصمة عنه فقط من غير تعرض لنفيه عن غيره ولا لنفى الموصوف أصلا لكنه عليه الصلاة والسلام حيث ﴿قال لاعاصم اليوم من أمر الله﴾ سلك طريقة نفى الجنس المنتظم لنفى جميع أفراد العاصم ذاتا وصفة كما فى قولهم ليس فيه داع ولامجيب أى أحد من الناس المبالغة فى نفى كون

الجبل عاصما بالوجهين المذكورين و زاد اليوم للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التى تقع فيها الوقائع وتلم فيها الملمات المعتادة التى ربما يتخلص من ذلك بالالتجاء الى بعض الأسباب العادية وعبر عن الماء فى محل اضماره بأمر الله أى عذابه الذى أشير اليه حيث قيل حتى اذا جاء أمرنا تفخيما لشأنه وتهويلا لأمره وتنبيها لابنه على خطئه فى تسميته ماء و يوهم أنه كسائر المياه التى يتفصى منها بالهرب الى بعض المهارب المعهودة وتعليلا للنفى المذكور فان أمر الله لا يغالب وعذابه لايرد وتمهيدا لحصر العصمة فى جناب الله عز جاره بالاستثناء كانه قيل لاعاصم من أمر الله الا هو وانما قيل ﴿الا من رحم﴾ تفخيما لشأنه الجليل بالابهام ثم التفسير و بالاجمال ثم التفصيل واشعارا بعلية رحمته فى ذلك بموجب سبقها على غضبه وكل ذلك لكمال عنايته عليه الصلاة والسلام بتحقيق مايتوخاه من نجاة ابنه ببيان شأن الداهية وقطع أطماعه الفارغة وصرفه عن التعلل بما لا يغنى عنه شيئاً وارشاده الى العياذ بالمعاذ الحق عز حماه وقيل لا مكان يعصم من أمر الله الا مكان من رحمه الله وهو الفلك وقيل معنى لا عاصم لاذا عصمة الا من رحمه الله تعالى ﴿وحال بينهما الموج﴾ أى بين نوح و بين ابنه فانقطع مابينهما من المجاوبة لابين ابنه و بين الجبل لقوله تعالى ﴿فكان من المغرقين﴾ اذ هو انما يتفرع على حيلولة الموج بينه عليه الصلاة والسلام و بين ابنه لابينه و بين الجبل لانه بمعزل من كونه عاصما وان لم يحل بينه و بين الملتجىء اليه موج وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه فكان ذلك أمراً مقرر الوقوع غير مفتقر الى البيان و فى ايراد كان دون صار مبالغة فى كونه منهم ﴿وقيل ياأرض ابلعى﴾ أى انشفى استعير له من ازدراد الحيوان مايأكله للدلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد التدريجى ﴿ماءك﴾ أى ماعلى وجهك من ماء الطوفان دون المياه المعهودة فيها من العيون والأنهار وعبر عنه بالماء بعد ماعبر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى لان المقام مقام النقص والتقليل لامقام التفخيم والتهويل ﴿و ياسماء أقلعى﴾ أى أمسكى عن ارسال المطر يقال أقلعت السماء اذا انقطع مطرها وأقلعت الحمى أى كفت ﴿وغيض الماء﴾ أى نقص مابين السماء والأرض من الماء ﴿وقضى الأمر﴾ أى أنجز ماوعد الله تعالى نوحا من اهلاك قومه وانجائه بأهله أو أتم الأمر ﴿واستوت﴾ أى استقرت الفلك ﴿على الجودى﴾ هو جبل بالموصل أو بالشأم أو بآمل . روى أنه عليه الصلاة والسلام ركب فى الفلك فى عاشر رجب ونزل عنها فى عاشر المحرم فصام ذلك اليوم شكرا فصار سنة ﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ أى هلاكا لهم والتعرض لوصف الظلم للاشعار بعليته للهلاك ولتذكيره ماسبق من قوله تعالى ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ولقد بلغت الآية الكريمة من مراتب الاعجاز قاصيتها وملكت من غرر المزايا ناصيتها وقد تصدى لتفصيلها المهرة المتقنون ولعمرى ان ذلك فوق مايصفه الواصفون فحرى بنا أن نوجز الكلام فى هذا الباب ونفوض الأمر الى تأمل أولى الألباب والله عنده علم الكتاب ﴿ونادى نوح ربه﴾ أى أراد ذلك بدليل الفاء فى قوله تعالى ﴿فقال رب ان ابنى من أهلى﴾ وقد وعدتنى انجاءهم فى ضمن الأمر بحملهم فى الفلك أو النداء على الحقيقة والفاء لتفصيل مافيه من الاجمال ﴿وان وعدك الحق﴾ أى وعدك ذلك أو ان كل وعد تعده حق لايتطرق اليه خلف فيدخل فيه الوعد المعهود دخولا أوليا ﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾ لانك أعلمهم وأعدلهم أو أنت أكثر حكمة من ذوى الحكم على أن الحاكم من الحكمة كالدارع من الدرع وهذا الدعاء منه عليه الصلاة والسلام على طريقة دعاء أيوب عليه الصلاة والسلام اذنادى ربه انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴿قال يانوح﴾ لما كان دعاؤه عليه الصلاة السلام بتذكير وعده جل ذكره مبنيا على كون كنعان من أهله نفى أولا كونه منهم بقوله تعالى ﴿انه ليس من أهلك﴾ أى ليس منهم أصلا لأن مدار الأهلية هو القرابة الدينية ولا علاقة بين المؤمن والكافر أو ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم فى الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء وعلى

التقديرين ليس هو من الذين وعد بانجائهم ثم علل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقي بقوله تعالى ﴿انه عمل غير صالح﴾ أصله انه ذو عمل غير صالح فجعل نفس العمل مبالغة كما فى قول الخنساء فانما هى اقبال وادبار وايثار غير صالح على فاسد اما لأن الفاسد ربما يطلق على ما فسد ومن شأنه الصلاح فلا يكون نصاً فيما هو من قبيل الفاسد المحض كالقتل والمظالم واما للتلويح بأن نجاة من نجا انما هى لصلاحه وقرأ الكسائى و يعقوب انه عمل غير صالح أى عملا غير صالح ولما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام مبنيا على ما ذكر من اعتقاد كون كنعان من أهله وقد نفى ذلك وحقق ببيان علته فرع على ذلك النهى عن سؤال انجائه الا أنه جىء بالنهى على وجه عام يندرج فيه ذلك اندراجا أوليا فقيل ﴿فلا تسألنى﴾ أى اذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب منى ﴿ما ليس لك به علم﴾ أى مطلبا لا تعلم يقينا أن حصوله صواب وموافق للحكمة على تقدير كون ما عبارة عن المسئول الذى هو مفعول للسؤال أو طلبا لا تعلم أنه صواب على تقدير كونه عبارة عن المصدر الذى هو مفعول مطلق فيكون النهى واردا بصريحه فى كل من معلوم الفساد ومشتبه الحال و يجوز أن يكون المعنى ما ليس لك علم بأنه صواب أو غير صواب فيكون النهى واردا فى مشتبه الحال و يفهم منه حال معلوم الفساد بالطريق الأولى وعلى التقديرين فهو عام يندرج تحته ما نحن فيه كما ذكرناه وهذا كما ترى صريح فى أن نداءه عليه الصلاة والسلام ربه عز وعلا ليس استفسارا عن سبب عدم انجاء ابنه مع سبق وعده بانجاء أهله وهو منهم كما قيل فان النهى عن استفسار مالم يعلم غير موافق للحكمة اذ عدم العلم بالشىء داع الى الاستفسار عنه لا الى تركه بل هو دعاء منه لانجاء ابنه حين حال الموج بينهما ولم يعلم بهلاكه بعد اما بتقريبه الى الفلك بتلاطم الأمواج أو بتقريبها اليه وقيل أو بانجائه فى قلة الجبل و يأباه تذكير الوعد فى الدعاء فانه مخصوص بالانجاء فى الفلك وقوله تعالى لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ومجرد حيلولة الموج بينهما لا يستوجب هلاكه فضلا عن العلم به لظهور امكان عصمة الله تعالى اياه برحمته وقد وعد بانجاء أهله ولم يكن ابنه مجاهرا بالكفر كما ذكرناه حتى لا يجوز عليه عليه السلام أن يدعوه الى الفلك أو يدعو ربه لانجائه واعتزاله عنه عليه الصلاة والسلام وقصده الالتجاء الى الجبل ليس بنص فى الاصرار على الكفر لظهور جواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة فى الفلك و زعمه أن الجبل أيضا يجرى مجراه أو لكراهة الاحتباس فى الفلك بل قوله سآوى الى جبل يعصمنى من الماء بعد ما قال له نوح عليه الصلاة والسلام ولا تكن مع الكافرين ربما يطمعه عليه السلام فى ايمانه حيث لم يقل أكون معهم أو سنأوى أو يعصمنا فان افراده نفسه بنسبة الفعلين المذكورين ربما يشعر بانفراده من الكافرين واعتزاله عنهم وامتثاله ببعض ما أمره به نوح عليه الصلاة والسلام الا أنه عليه الصلاة والسلام لو تأمل فى شأنه حق التأمل وتفحص عن أحواله فى كل ما يأتى ويذر لما اشتبه عليه أنه ليس بمؤمن وأنه المستثنى من أهله ولذلك قيل ﴿انى أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ فعبر عن ترك الاولى بذلك وقرىء فلا تسألن بغير ياء الاضافة وبالنون الثقيلة بياء و بغير ياء ﴿قال رب انى أعوذ بك أن أسألك﴾ أى أطلب منك من بعد ﴿ما ليس لى به علم﴾ أى مطلوبا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة أو طلبا لا أعلم أنه صواب سواء كان معلوم الفساد أو مشتبه الحال أو لا أعلم أنه صواب أو غير صواب على ما مر وهذه توبة منه عليه السلام مما وقع منه وانما لم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغة فى التوبة واظهارا للرغبة والنشاط فيها وتبركا بذكر ما لقنه الله تعالى وهو أبلغ من أن يقول أتوب اليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمرا هائلا محذورا لا محيص منه الا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته قاصرة عن النجاة من المكاره الا بذلك ﴿والا تغفر لى﴾ ما صدر عنى من السؤال المذكور ﴿وترحمنى﴾ بقبول توبتى ﴿أكن من الخاسرين﴾ أعمالا بسبب ذلك فان الذهول عن شكر الله تعالى لا سيما عند وصول مثل هذه النعمة الجليلة

التي هي النجاة وهلاك الاعداء والاشتغال بما لا يعني خصوصا بمبادي خلاص من قيل في شأنه انه عمل غير صالح والتضرع إلى الله تعالى في أمره معاملة غير رابحة وخسران مبين وتأخير ذكر هذا النداء عن حكاية الامر الوارد على الارض والسماء وما يتلوه من زوال الطوفان وقضاء الامر واستواء الفلك على الجودي والدعاء بالهلاك على الظالمين مع أن حقه أن يذكر عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين حسبما وقع في الخارج اذ حينئذ يتصور الدعاء بالانجاء لا بعد العلم بالهلاك ليس لما قيل من استقلاله بغرض مهم هو جعل قرابة الدين غامرة لقرابة النسب وأن لا يقدم في الامور الدينية الأصولية الا بعد اليقين قياسا على ما وقع في قصة البقرة من تقديم ذكر الامر بذبحها على ذكر القتيل الذي هو أول القصة وكان حقها أن يقال واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها كما قرر في موضعه فان تغيير الترتيب هناك للدلالة على كمال سوء حال اليهود بتعديد جناياتهم المتنوعة وتثنية التقريع عليهم بكل نوع على حدة فقوله تعالى واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة الخ لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة الى الامتثال وما يتبع ذلك وقوله تعالى واذ قتلتم نفسا الخ للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الامور العظيمة ولو قصت القصة على ترتيبها لفات الغرض الذي هو تثنية التقريع ولظن أن المجموع تقريع واحد وأما ما نحن فيه فليس مما يمكن أن يراعى فيه مثل تلك النكتة أصلا وما ذكر من جعل القرابة الدينية غامرة للقرابة النسبية الخ لا يفوت على تقدير سوق الكلام على ترتيب الوقوع أيضا بل لأن ذكر هذا النداء كما ترى مستدع لذكر ما مر من الجواب المستدعي لذكر ما مر من توبته عليه الصلاة والسلام المؤدي ذكرها الى ذكر قبولها في ضمن الأمر الوارد بنزوله عليه الصلاة والسلام من الفلك بالسلام والبركات الفائضة عليه وعلى المؤمنين حسبما سيجيء مفصلا ولا ريب في أن هذه المعاني آخذ بعضها بحجزة بعض بحيث لا يكاد يفرق الآيات الكريمة المنطوية عليها بعضها من بعض وأن ذلك انما يتم بتمام القصة ولا ريب أن ذلك انما يكون بتمام الطوفان فلا جرم اقتضى الحال ذكر تمامها قبل هذا النداء وذلك انما يكون عند ذكر كون كنعان من المغرقين ولهذه النكتة ازداد حسن موقع الايجاز البليغ وفيه فائدة أخرى هي التصريح بهلاكه من أول الأمر ولو ذكر النداء الثاني عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين لربما توهم من أول الأمر الى أن يرد قوله انه ليس من أهلك أنه ينجو بدعائه عليه الصلاة والسلام فنص على هلاكه من أول الأمر ثم ذكر الأمر الوارد على الأرض والسماء الذي هو عبارة عن تعلق الارادة الربانية الأزلية بما ذكر من الغيض والاقلاع وبين بلوغ أمر الله محله وجريان قضائه ونفوذ حكمه عليهم بهلاك من هلك ونجاة من نجا بتمام ذلك الطوفان واستواء الفلك على الجودي فقصت القصة الى هذه المرتبة وبين ذلك أي بيان ثم تعرض لما وقع في تضاعيف ذلك مما جرى بين نوح عليه السلام وبين رب العزة جلت حكمته فذكر بعد توبته عليه الصلاة والسلام قبولها بقوله ﴿قيل يانوح اهبط﴾ أي انزل من الفلك وقرئ بضم الباء ﴿بسلام﴾ ملتبسا بسلامة من المكاره كائنة ﴿منا﴾ أو بسلام وتحية منا عليك كما قال سلام على نوح في العالمين ﴿وبركات عليك﴾ أي خيرات نامية في نسلك وما يقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الأرزاق وقرئ بركة وهذا اعلام وبشارة من الله تعالى بقبول توبته وخلاصه من الخسران بفيضان أنواع الخيرات عليه في كل ما يأتي ومايذر ﴿وعلى أمم﴾ ناشئة ﴿ممن معك﴾ الى يوم القيامة متشعبة منهم فمن ابتدائية والمراد الامم المؤمنة المتناسلة ممن معه الى يوم القيامة ﴿وأمم سنمتعهم﴾ أي ومنهم على أنه خبر حذف لدلالة ما سبق عليه فان ايراد الأمم المبارك عليهم المتشعبة منهم نكرة يدل على أن بعض من يتشعب منهم ليسوا على طبقتهم يعني ليس جميع من تشعب منهم مسلما ومباركا عليه بل منهم أمم ممتعون في الدنيا معذبون في الآخرة وعلى هذا لا يكون الكائنون مع نوح عليه السلام مسلما ومباركا

عليهم صريحا وانما يفهم ذلك من كونهم مع نوح عليه الصلاة والسلام ومن كون ذرياتهم كذلك بدلالة النص ويجوز أن تكون من بيانية أى وعلى أمم هم الذين معك وانما سموا أمما لأنهم أمم متحزبة وجماعات متفرقة أو لأن جميع الأمم انما تشعبت منهم فحينئذ يكون المراد بالأمم المشار اليهم فى قوله تعالى وأمم سنمتعهم بعض الأمم المتشعبة منهم وهى الأمم الكافرة المتناسلة منهم الى يوم القيامة ويبقى أمر الأمم المؤمنة الناشئة منهم مبهما غير متعرض له ولا مدلول عليه ومع ذلك فى دلالة المذكور على خبره المحذوف خفاء لأن من المذكورة بيانية والمحذوفة تبعيضية أو ابتدائية فتأمل ﴿ثم يمسهم﴾ اما فى الآخرة أو فى الدنيا أيضا ﴿منا عذاب أليم﴾ عن محمد بن كعب القرظى دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وعن ابن زيد هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلا منهم من رحم ومنهم من عذب وقيل المراد بالأمم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام وبالعذاب ما نزل بهم ﴿تلك﴾ اشارة الى ما قص من قصة نوح عليه الصلاة والسلام اما لكونها بتقضيها فى حكم البعيد أو للدلالة على بعد منزلتها وهى مبتدأ خبره ﴿من أنباء الغيب﴾ أى من جنسها أى ليست من قبيل سائر الأنباء بل هى نسيج وحدها منفردة عما عداها أو بعضها ﴿نوحيها اليك﴾ خبر ثان والضمير لها أى موحاة اليك أو هو الخبر ومن أنباء متعلق به فالتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة أو حال من أنباء الغيب أى موحاة اليك ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك﴾ خبر آخر أى مجهولة عندك وعند قومك ﴿من قبل هذا﴾ أى من قبل ايحائنا اليك واخبارك بها أو من قبل هذا العلم الذى كسبته بالوحى أو من قبل هذا الوقت أو حال من الهاء فى نوحيها أو الكاف فى اليك أى جاهلا أنت وقومك بها وفى ذكر جهلهم تنبيه على أنه عليه الصلاة والسلام لم يتعلمه اذ لم يخالط غيرهم وانهم مع كثرتهم لما لم يعلموه فكيف بواحد منهم ﴿فاصبر﴾ متفرع على الايحاء أو العلم المستفاد منه المدلول عليه بقوله ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا أى واذ قد أوحيناها اليك أو علمتها بذلك فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة وأذية قومك كما صبر نوح على ما سمعته من أنواع البلايا فى هذه المدة المتطاولة وهذا ناظر الى ما سبق من قوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك الخ ﴿ان العاقبة﴾ بالظفر فى الدنيا وبالفوز فى الآخرة ﴿للمتقين﴾ كما شاهدته فى نوح عليه الصلاة والسلام وقومه ولك فيه اسوة حسنة فهى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليل للأمر بالصبر فان كون العاقبة الحميدة للمتقين وهو فى أقصى درجات التقوى والمؤمنون كلهم متقون مما يسليه عليه الصلاة والسلام ويهون عليه الخطوب ويذهب عنه ما عسى يعتريه من ضيق صدره وهذا على تقدير أن يراد بالتقوى الدرجة الأولى منه أعنى التوقى من العذاب المخلد بالتبرؤ من الشرك وعليه قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى ويجوز أن يراد الدرجة الثالثة منه وهى أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل اليه بشراشره وهو التقوى الحقيقى المطلوب بقوله تعالى اتقوا الله حق تقاته فان التقوى بهذا المعنى منطو على الصبر المذكور فكأنه قيل فاصبر فان العاقبة للصابرين ﴿والى عاد﴾ متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى أرسلنا فى قصة نوح وهو الناصب لقوله تعالى ﴿أخاهم﴾ أى وأرسلنا الى عاد أخاهم أى واحدا منهم فى النسب كقولهم يا أخا العرب وتقديم المجرور على المنصوب هنا للحذار عن الاضمار قبل الذكر وقيل متعلق بالفعل المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحا وقد مر فى سورة الأعراف وقوله تعالى ﴿هودا﴾ عطف بيان لأخاهم وكان عليه الصلاة والسلام من جملتهم فانه هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن العوص بن ارم بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام وقيل هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ابن عم أبى عاد وانما جعل منهم لأنهم أفهم لكلامه وأعرف بحاله وأرغب فى اقتفائه ﴿قال﴾ لما كان ذكر ارساله عليه الصلاة والسلام اليهم مظنة للسؤال عما قال لهم ودعاهم اليه أجيب

عنه بطريق الاستئناف فقيل قال ﴿ياقوم اعبدوا الله﴾ أى وحده كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿مالكم من اله غيره﴾ فانه استئناف يجرى مجرى البيان للعبادة المأمور بها والتعليل للامر بها كأنه قيل خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئا اذ ليس لكم من اله سواه وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله وقرئ بالجر حملا له على لفظه ﴿ان أنتم﴾ ما أنتم باتخاذكم الأصنام شركاء له أو بقولكم ان الله أمرنا بعبادتها ﴿الا مفترون﴾ عليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿ياقوم لا أسألكم عليه أجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى﴾ خاطب به كل نبى قومه ازاحة لما عسى يتوهمونه وامحاضا للنصيحة فانها مادامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير وايراد الموصول للتفخيم وجعل الصلة فعل الفطرة لكونه أقدم النعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذى لا يتأتى الا بالجريان على موجب أمره الغالب معرضا عن المطالب الدنيوية التى من جملتها الأجر ﴿أفلا تعقلون﴾ أى أتغفلون عن هذه القضية أو ألا تتفكرون فيها فلا تعقلونها أو أتجهلون كل شئ فلا تعقلون شيأ أصلا فان هذا مما لا ينبغى أن يخفى على أحد من العقلاء ﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ أى اطلبوا مغفرته لما سلف منكم من الذنوب بالايمان والطاعة ﴿ثم توبوا اليه﴾ أى توسلوا اليه بالتوبة وأيضا التبرؤ من الغير انما يكون بعد الايمان بالله تعالى والرغبة فيما عنده ﴿يرسل السماء﴾ أى المطر ﴿عليكم مدرارا﴾ أى كثير الدرور ﴿ويزدكم قوة﴾ مضافة ومنضمة ﴿الى قوتكم﴾ أى يضاعفها لكم وانما رغبهم بكثرة المطر لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات وقيل حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين فوعدهم عليه الصلاة والسلام كثرة الأمطار وتضاعف القوة بالتناسل على الايمان والتوبة ﴿ولا تتولوا﴾ أى لا تعرضوا عما دعوتكم اليه ﴿مجرمين﴾ مصرين على ما كنتم عليه من الاجرام ﴿قالوا ياهود ماجئتنا ببينة﴾ أى بحجة تدل على صحة دعواك وانما قالوه لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من البينات الفائتة للحصر ﴿وما نحن بتاركى آلهتنا﴾ أى بتاركى عبادتها ﴿عن قولك﴾ أى صادرين عنه أى صادرا تركنا عن ذلك باسناد حال الوصف الى الموصوف ومعناه التعليل على أبلغ وجه لدلالته على كونه علة فاعلية و لا يفيده الباء واللام وهذا كقولهم المنقول عنهم فى سورة الأعراف أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ أى بمصدقين فى شئ مما تأتى وتذر فيندرج تحته مادعاهم اليه من التوحيد وترك عبادة الآلهة وفيه من الدلالة على شدة الشكيمة وتجاوز الحد فى العتو مالا يخفى ﴿ان نقول الا اعتراك﴾ أى ما نقول الا قولنا اعتراك أى أصابك ﴿بعض آلهتنا بسوء﴾ بجنون لسبك اياها وصدك عن عبادتها وحطك لها عن رتبة الألوهية والمعبودية بما مر من قولك مالكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون والتنكير فى سوء للتقليل كأنهم لم يبالغوا فى السوء كما ينبئ عنه نسبة ذلك الى بعض آلهتهم دون كلها والجملة مقول القول والا لغو لأن الاستثناء مفرغ وهذا الكلام مقرر لما مر من قولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين فان اعتقادهم بكونه عليه الصلاة والسلام كما قالوا وحاشاه عن ذلك يوجب عدم الاعتداد بقوله وعده من قبيل الخرافات فضلا عن التصديق والعمل بمقتضاه يعنون انا لانعد كلامك الا من قبيل مالا يحتمل الصدق والكذب من الهذيانات الصادرة عن المجانين فكيف نصدقه ونؤمن به ونعمل بموجبه ولقد سلكوا فى طريقة المخالفة والعناد الى سبيل الترقى من الأدنى الى الأعلى حيث أخبروا أولا عن عدم مجيئه بالبينة مع احتمال كون ماجاء به عليه الصلاة والسلام حجة فى نفسه وان لم تكن واضحة الدلالة على المراد وثانيا عن ترك الامتثال بقوله عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك مع امكان تحقق ذلك بتصديقهم له عليه الصلاة والسلام فى كلامه ثم نفوا تصديقهم له عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن لك بمؤمنين مع كون كلامه عليه الصلاة والسلام مما يقبل التصديق ثم نفوا عنه تلك

المرتبة أيضا حيث قالوا ماقالوا قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه﴾
أى من اشراككم من دون الله أى من غير أن ينزل به سلطانا كما قال فى سورة الأعراف أتجادلوننى فى أسماء سميتموها
أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان أو مما تشركونه من آلهة غير الله أجاب به عن مقالتهم الحمقاء المبنية على اعتقاد
كون آلهتهم مما يضر أو ينفع وأنها بمعزل من ذلك ولما كان ماوقع أو لا منه عليه الصلاة والسلام فى حق آلهتهم من
كونها بمعزل عن الألوهية انما وقع فى ضمن الأمر بعبادة الله تعالى واختصاصه بها وقد شق عليهم ذلك وعدوه مما
يورث شينا حتى زعموا أنها تصيبه عليه الصلاة والسلام بسوء مجازاة لصنيعه معها صرح عليه الصلاة والسلام بالحق
وصدع به حيث أخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسمية المصدرة بان وأشهد الله على ذلك وأمرهم بأن يسمعوا ذلك
و يشهدوا به استهانة بهم ثم أمرهم بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعا دون بعض منها حسبما يشعر به قولهم بعض
آلهتنا والتعاون فى ايصال الكيد اليه عليه الصلاة والسلام ونهاهم عن الانظار والامهال فى ذلك فقال ﴿فكيدونى
جميعا ثم لاتنظرون﴾ أى ان صح مالوحتم به من كون آلهتكم مما يقدر على اضرار من ينال منها و يصد عن عبادتها
ولو بطريق ضمنى فانى برىء منها فكونوا أنتم معها جميعا و باشروا كيدى ثم لاتمهلونى و لا تسامحونى فى ذلك فالفاء
لتفريع الأمر على زعمهم فى قدرة آلهتهم على ماقالوا وعلى البراءة كليهما وهذا من أعظم المعجزات فانه عليه الصلاة والسلام
كان رجلا مفردا بين الجم الغفير والجمع الكثير من عتاة عاد الغلاظ الشداد وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقرهم و آلهتهم
وهيجهم على مباشرة مبادى المضادة والمضارة وحثهم على التصدى لأسباب المعازة والمعارة فلم يقدروا على مباشرة شىء
مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهورا بينا كيف لا وقد التجأ الى ركن منيع رفيع واعتصم بحبل متين حيث قال ﴿انى
توكلت على الله ربى و ربكم﴾ يعنى انكم وان بذلتم فى مضارتى مجهودكم لاتقدرون على شىء مما تريدون بى فانى متوكل
على الله تعالى وانما جىء بلفظ الماضى لكونه أدل على الانشاء المناسب للمقام و واثق بكلاءتى وحفظى عن غوائلكم
وهو مالكى ومالككم لايصدر عنكم شىء و لا يصيبنى أمر الا بارادته ومشيئته ثم برهن عليه بقوله ﴿مامن دابة الا
هو آخذ بناصيتها﴾ أى الا هو مالك لها قادر عليها يصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه فان الأخذ بالناصية تمثيل
لذلك ﴿ان ربى على صراط مستقيم﴾ تعليل لما يدل عليه التوكل من عدم قدرتهم على اضراره أى هو على الحق
والعدل فلا يكاد يسلطكم على اذ لايضيع عنده معتصم و لا يفتات عليه ظالم والاقتصار على اضافة الرب الى نفسه اما
بطريق الاكتفاء لظهور المراد واما لأن فائدة كونه تعالى مالكا لهم أيضا راجعة اليه عليه الصلاة والسلام ﴿فان تولوا﴾
أى تتولوا بحذف احدى التاءين أى ان تستمروا على ما كنتم عليه من التولى والاعراض ﴿فقد أبلغتكم ماأرسلت
به اليكم﴾ أى لم أعاتب على تفريط فى الابلاغ و كنتم محجوجين بأن بلغكم الحق فأبيتم الا التكذيب والجحود
﴿و يستخلف ربى قوما غيركم﴾ استئناف بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلككم و يستخلف فى ديارهم وأموالهم قوما
آخرين أو عطف على الجواب بالفاء و يؤيده قراءة ابن مسعود رضى الله عنه بالجزم عطفا على الموضع كأنه قيل فان تولوا
يعذرنى و يهلككم و يستخلف مكانكم آخرين و فى اقتصار اضافة الرب عليه عليه السلام رمز الى اللطف به والتدمير
للمخاطبين ﴿ولا تضرونه﴾ بتوليكم ﴿شيئا﴾ من الضرر لاستحالة ذلك عليه ومن جزم و يستخلف أسقط منه
النون ﴿ان ربى على كل شىء حفيظ﴾ أى رقيب مهيمن فلا تخفى عليه أعمالكم فيجازيكم بحسبها أو حافظ مستول
على كل شىء فكيف يضره شىء وهو الحافظ للكل ﴿ولما جاء أمرنا﴾ أى نزل عذابنا و فى التعبير عنه بالأمر
مضافا الى ضميره جل جلاله وعن نزوله بالمجىء مالايخفى من التفخيم والتهويل أو ورد أمرنا بالعذاب ﴿نجينا هودا والذين

آمنوا معه﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿برحمة﴾ عظيمة كائنة لهم ﴿منا﴾ وهى الايمان الذى أنعمنا به عليهم بالتوفيق له والهداية اليه ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ أى كانت تلك التنجية تنجية من عذاب غليظ وهى السموم التى كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطعهم اربا اربا وقيل أريد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة و لاعذاب أغلظ منه وأشد وهذه التنجية وان لم تكن مقيدة بمجىء الأمر لكن جىء بها تكملة للنعمة عليهم وتعريضا بأن المهلكين كما عذبوا فى الدنيا بالسموم فهم معذبون فى الآخرة بالعذاب الغليظ ﴿وتلك عاد﴾ أنث اسم الاشارة باعتبار القبيلة أو لأن الاشارة الى قبورهم و آثارهم ﴿جحدوا بآيات ربهم﴾ كفروا بها بعد ما استيقنوها ﴿وعصوا رسله﴾ جمع الرسل مع أنه لم يرسل اليهم غير هود عليه الصلاة والسلام تفظيعا لحالهم واظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم ببيان أن عصيانهم له عليه الصلاة والسلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد لانفرق بين أحد من رسله فيجوز أن يراد بالآيات ما أتى به هود وغيره من الأنبياء عليهم السلام وفيه زيادة ملاءمة لما تقدم من جميع الآيات وما تأخر من قوله ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ من كبرائهم و رؤسائهم الدعاة الى الضلال والى تكذيب الرسل فكأنه قيل عصوا كل رسول واتبعوا أمر كل جبار وهذا الوصف ليس كما سبق من جحود الآيات وعصيان الرسل فى الشمول لكل فرد فرد منهم فان الاتباع للأمر من أوصاف الأسافل دون الرؤساء وعنيد فعيل من عند عنداً وعنداً اذا طغا والمعنى عصوا من دعاهم الى الهدى وأطاعوا من حداهم الى الردى ﴿وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة﴾ ابعاداً عن الرحمة وعن كل خير أى جعلت اللعنة لازمة لهم وعبر عن ذلك بالتبعية للمبالغة فكأنها لاتفارقهم وان ذهبوا كل مذهب بل تدور معهم حيثما داروا ولوقوعه فى صحبة اتباعهم رؤساءهم يعنى أنهم لما اتبعوهم أتبعوا ذلك جزاء لصنيعهم جزاء وفاقا ﴿ويوم القيامة﴾ أى أتبعوا يوم القيامة أيضا لعنة وهى عذاب النار المخلد حذفت لدلالة الأولى عليها وللايذان بكون كل من اللعنتين نوعا برأسه لم تجمعا فى قرن واحد بأن يقال وأتبعوا فى هذه الدنيا ويوم القيامة لعنة كما فى قوله تعالى واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ايذانا باختلاف نوعى الحسنتين فان المراد بالحسنة الدنيوية نحو الصحة والكفاف والتوفيق للخير وبالحسنة الاخروية الثواب والرحمة ﴿ألا ان عاداً كفروا ربهم﴾ أى بربهم أو نعمة ربهم حملا له على نقيضه الذى هو الشكر أو جحدوه ﴿ألا بعداً لعاد﴾ دعاء عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين أى هلاك تسجيلا عليهم باستحقاق الهلاك واستيجاب الدمار وتكرير حرف التنبيه واعادة عاد للمبالغة فى تفظيع حالهم والحث على الاعتبار بقصتهم ﴿قوم هود﴾ عطف بيان لعاد فائدته التميز عن عاد الثانية عاد ارم والايماء الى أن استحقاقهم للبعد بسبب ماجرى بينهم وبين هود عليه الصلاة والسلام وهم قومه ﴿والى ثمود أخاهم صالحا﴾ عطف على ماسبق من قوله تعالى والى عاد أخاهم هودا وثمود قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن ارم بن سام وقيل انما سموا بذلك لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وصالح عليه الصلاة والسلام هو ابن عبيد بن اسف بن ماشج ابن عبيد بن جادر بن ثمود ولما كان الاخبار بارساله اليهم مظنة لان يسأل ويقال ماذا قال لهم قيل جوابا عنه بطريق الاستئناف ﴿قال ياقوم اعبدوا الله﴾ أى وحده وعلل ذلك بقوله ﴿مالكم من اله غيره﴾ ثم زيد فيما يبعثهم على الايمان والتوحيد ويحثهم على زيادة الاخلاص فيه بقوله ﴿هو أنشأكم من الارض﴾ أى هو كونكم وخلقكم منها لاغيره قصر قلب أو قصر افراد فان خلق آدم عليه الصلاة والسلام منها خلق لجميع أفراد البشر منها لما مر مراراً من أن خلقته عليه الصلاة والسلام لم تكن مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على خلق جميع ذرياته التى ستوجد الى يوم القيامة انطواء اجماليا وقيل ان خلق آدم عليه الصلاة والسلام وانشاء مواد النطف التى منها خلق نسله من التراب

انشاء لجميع الخلق من الارض فتدبر ﴿واستعمركم﴾ من العمر أى عمركم واستبقاكم ﴿فيها﴾ أو من العمارة أى أقدركم على عمارتها أو أمركم بها وقيل هو من العمرى بمعنى أعمركم فيها دياركم و يرثها منكم بعد انصرام أعماركم أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لمثلكم ﴿فاستغفروه ثم توبوا اليه﴾ فان ما فصل من فنون الاحسان داع الى الاستغفار عما وقع منهم من التفريط والتوبة عما كانوا يباشرونه من القبائح وقد زيد فى بيان ما يوجب ذلك فقيل ﴿ان ربى قريب﴾ أى قريب الرحمة كقوله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين ﴿مجيب﴾ لمن دعاه وسأله وقد روعى فى النظم الكريم نكتة حيث قدم ذكر العلة الباعثة المتقدمة على الأمر بالاستغفار والتوبة وأخر عنه ذكر الغائية المتأخرة عنهما فى الوجود أعنى الاجابة ﴿قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا﴾ أى كنا نرجو منك لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد أن تكون لنا سيداً و مستشارا فى الأمور وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فاضلا خيراً نقدمك على جميعنا وقيل كنا نرجو أن تدخل فى ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه ﴿قبل هذا﴾ الذى باشرته من الدعوة الى التوحيد وترك عبادة الآلهة أو قبل هذا الوقت فكأنهم لم يكونوا الى الآن على يأس من ذلك ولو بعد الدعوة الى الحق فالآن قد انصرم عنك رجاؤنا وقرأ طلحة مرجوءا بالمد والهمزة ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ أى عبدوه والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿واننا لفى شك مما تدعونا اليه﴾ من التوحيد وترك عبادة الاوثان وغير ذلك من الاستغفار والتوبة ﴿مريب﴾ أى موقع فى الريبة من أرابه أى أوقعه فى الريبة أى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة أو من أراب اذا كان ذا ريبة وأيهما كان فالاسناد مجازى والتنوين فيه وفى شك للتفخيم ﴿قال ياقوم أرأيتم﴾ أى أخبرونى ﴿ان كنت﴾ فى الحقيقة ﴿على بينة﴾ أى حجة ظاهرة و برهان وبصيرة ﴿من ربى﴾ مالكى ومتولى أمرى ﴿وآتانى منه﴾ من جهته ﴿رحمة﴾ نبوة وهذه الأمور وان كانت محققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتباراً لحال المخاطبين و رعاية لحسن المحاورة لاستنزالهم عن المكابرة ﴿فمن ينصرنى من الله﴾ أى ينجينى من عذابه والعدول الى الاظهار لزيادة التهويل والفاء لترتيب انكار النصرة على ماسبق من ايتاء النبوة وكونه على بينة من ربه على تقدير العصيان حسبما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ان عصيته﴾ أى بالمساهلة فى تبليغ الرسالة والمجاراة معكم فيما تأتون وتذرون فان العصيان ممن ذلك شأنه أبعد والمؤاخذة عليه ألزم وانكار نصرته أدخل ﴿فما تزيدوننى﴾ اذن باستتباعكم اياى كما ينبئ عنه قولهم قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أى لاتفيدوننى اذ لم يكن فيه أصل الخسران حتى يزيدوه ﴿غير تخسير﴾ أى غير أن تجعلونى خاسرا بابطال أعمالى وتعريضى لسخط الله تعالى أو فما تزيدوننى بما تقولون غير أن أنسبكم الى الخسران وأقول لكم انكم لخاسرون فالزيادة على معناه والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من انكاره على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه عليه الصلاة والسلام على بينة من ربه وايتائه النبوة ﴿و ياقوم هذه ناقة الله﴾ الاضافة للتشريف والتنبيه على أنها مفارقة لسائر ما يجانسها من حيث الخلقة ومن حيث الخلق ﴿لكم آية﴾ معجزة دالة على صدق نبوتى وهى حال من ناقة الله والعامل ما فى هذه من معنى الفعل ولكم حال من آية متقدمة عليها لكونها نكرة ولو تأخرت لكانت صفة لها ويجوز أن يكون ناقة الله بدلا من هذه أو عطف بيان ولكم خبرا وعاملا فى آية ﴿فذروها﴾ خلوها وشأنها ﴿تأكل فى أرض الله﴾ ترع نباتها وتشرب ماءها واضافة الأرض الى الله تعالى لتربية استحقاقها لذلك وتعليل الأمر بتركها وشأنها ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ بولغ فى النهى عن التعرض لها بما يضرها حيث نهى عن المس الذى هو من مبادى الاصابة ونكر السوء أى لاتضربوها ولا تطردوها ولا تقربوها بشىء من السوء فضلا عن عقرها وقتلها ﴿فيأخذكم عذاب قريب﴾ أى قريب النزول . روى أنهم طلبوا منه أن يخرج من صخرة تسمى الكاثبة ناقة عشراء

مخترجة جوفاء و براء وقالوا ان فعلت ذلك صدقناك فأخذ صالح عليه الصلاة والسلام عليهم مواثيقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن فقالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء كما وصفوا وهم ينظرون ثم أنتجت ولداً مثلها فى العظم فآمن به جندع ابن عمرو فى جماعة ومنع الباقين من الايمان دواب بن عمرو والحباب صاحب أوثانهم ورباب كاهنهم فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غبا فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل مافيها ثم تتفحج فيحلبون ماشاؤا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادى فتهرب منها أنعامهم الى بطنه وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم الى ظهره فشق عليهم ذلك ﴿فعقروها﴾ قيل زينت عقرها لهم عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار فعقروها واقتسموا لحمها فرقى سقبها جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا فقال صالح لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها ﴿فقال﴾ لهم صالح ﴿تمتعوا﴾ أى عيشوا ﴿فى داركم﴾ أى فى منازلكم أو فى الدنيا ﴿ثلاثة أيام﴾ قيل قال لهم تصبح وجوهكم غداً مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب ﴿ذلك﴾ اشارة الى مايدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام من نزول العذاب عقيبها والمراد بما فيه من معنى البعد تفخيمه ﴿وعد غير مكذوب﴾ أى غير مكذوب فيه فحذف الجار للاتساع المشهور كقوله ويوم شهدناه سليما وعامراً أو غير مكذوب كأن الواعد قال له أفى بك فان وفى به صدقه والا كذبه أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول ﴿فلما جاء أمرنا﴾ أى عذابنا أو أمرنا بنزوله وفيه مالايخفى من التهويل ﴿نجينا صالحا والذين آمنوا معه﴾ متعلق بنجينا أو بآمنوا ﴿برحمة﴾ بسبب رحمة عظيمة ﴿منا﴾ وهى بالنسبة الى صالح النبوة والى المؤمنين الايمان كامر أو ملتبسين برحمة ورأفة منا ﴿ومن خزى يومئذ﴾ أى ونجيناهم من خزى يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة كقوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ على معنى أنه كانت تلك التنجية تنجية من خزى يومئذ أى من ذلته ومهانته أو ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة كما فسر به العذاب الغليظ فيما سبق فيكون المعنى ونجيناهم من عذاب يوم القيامة بعد تنجيتنا اياهم من عذاب الدنيا وعن نافع بالفتح على اكتساب المضاف البناء من المضاف اليه هنا وفى المعارج فى قوله تعالى من عذاب يومئذ وقرئ بالتنوين ونصب يومئذ ﴿ان ربك﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿هو القوى العزيز﴾ القادر على كل شئ والغالب عليه لاغيره ولكون الاخبار بتنجية الأولياء لاسيما عند الانباء بحلول العذاب أهم ذكرها أولا ثم أخبر بهلاك الأعداء فقال ﴿وأخذ الذين ظلموا﴾ عدل عن المضمر الى المظهر تسجيلا عليهم بالظلم واشعارا بعليته لنزول العذاب بهم ﴿الصيحة﴾ أى صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شئ فى الارض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم وفى سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة ولعلها وقعت عقيب الصيحة المستتبعة لتموج الهواء ﴿فأصبحوا﴾ أى صاروا ﴿فى ديارهم﴾ أى بلادهم أومساكنهم ﴿جاثمين﴾ هامدين موتى لايتحركون والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب وحركة كما يكون ذلك عند الموت المعتاد ولا يخفى مافيه من الدلالة على شدة الاخذ وسرعته اللهم انا نعوذ بك من حلول غضبك. قيل لما رأوا العلامات التى بينها صالح من اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا الى قتله عليه الصلاة والسلام فنجاه الله تعالى الى أرض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع وهو يوم السبت تحنطوا وتكفنوا بالانطاع فأتتهم الصيحة فتقطعت قلوبهم فهلكوا ﴿كأن لم يغنوا﴾ أى كأنهم لم يقيموا ﴿فيها﴾ فى بلادهم أوفى مساكنهم وهو فى موقع الحال أى أصبحوا جاثمين مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم فى مقام قط ﴿ألا ان ثمود﴾ وضع موضع الضمير لزيادة البيان ونونه أبو بكر هنا وفى النجم وقرأ حفص هنا وفى الفرقان والعنكبوت بغير تنوين

﴿ كفروا ربهم ﴾ صرح بكفرهم مع كونه معلوما مما سبق من أحوالهم تقبيحا لحالهم وتعليلا لاستحقاقهم بالدعاء عليهم بالبعد والهلاك فى قوله تعالى ﴿ ألا بعداً لثمود ﴾ وقرأ الكسائى بالتنوين ﴿ ولقد جاءت رسلنا ابراهيم ﴾ وهم الملائكة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم جبريل وملكان وقيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن محمد بن كعب جبريل ومعه سبعة وعن السدى أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل كانوا اثنى عشر ملكا وانما أسند اليهم مطلق المجىء بالبشرى دون الارسال لانهم لم يكونوا مرسلين اليه عليه السلام بل الى قوم لوط لقوله تعالى انا أرسلنا الى قوم لوط وانما جاؤه لداعية البشرى ولما كان المقصود فى السورة الكريمة ذكر سوء صنيع الأمم السالفة مع الرسل المرسلة اليهم ولحوق العذاب بهم بسبب ذلك ولم يكن جميع قوم ابراهيم عليه الصلاة والسلام ممن لحق بهم العذاب بل انما لحق بقوم لوط منهم خاصة غير الاسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى والى عاد أخاهم هودا والى ثمود أخاهم صالحا ثم رجع اليه حيث قيل والى مدين أخاهم شعيبا ﴿ بالبشرى ﴾ أى ملتبسين بها قيل هى مطلق البشرى المنتظمة للبشارة بالولد من سارة لقوله تعالى فبشرناها باسحق الآية وقوله تعالى وبشرناه بغلام حليم وقوله وبشروه بغلام عليم وللبشارة بعدم لحوق الضرر به لقوله تعالى فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى لظهور تفرع المجادلة على مجيئها كما سيأتى وقيل هى البشارة بهلاك قوم لوط ويأباه مجادلته عليه الصلاة والسلام فى شأنهم والاظهر أنها البشارة بالولد وستعرف سر تفرع المجادلة على ذلك ولما كان الاخبار بمجيئهم بالبشرى مظنة لسؤال السامع بأنهم ماقالوا أجيب بأنهم ﴿ قالوا سلاما ﴾ أى سلمنا أو نسلم عليك سلاما ويجوز أن يكون نصبه بقالوا أى قالوا قولا ذا سلام أو ذكروا سلاما ﴿ قال سلام ﴾ أى عليكم سلام أو سلام عليكم حياهم بأحسن من تحيتهم وقرىء سلم كحرم فى حرام وقرأ ابن أبى عبلة قال سلاما وعنه أنه قرأ بالرفع فيهما ﴿ فما لبث ﴾ أى ابراهيم ﴿ أن جاء بعجل ﴾ أى فى المجىء به أوما لبث مجيئه بعجل ﴿ حنيذ ﴾ أى مشوى بالرضف فى الاخدود وقيل سمين يقطر ودكه لقوله بعجل سمين من حنذت الفرس اذا عرقته بالجلال ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل اليه ﴾ لا يمدون اليه أيديهم للاكل ﴿ نكرهم ﴾ أى أنكرهم يقال نكره وأنكره واستنكره بمعنى وانما أنكرهم لأنهم كانوا اذا نزل بهم ضيف ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجىء بخير وقد روى أنهم كانوا ينكتون بقداح كانت فى أيديهم فى اللحم ولا تصل اليه أيديهم وهذا الانكار منه عليه الصلاة والسلام راجع الى فعلهم المذكور وأما انكاره المتعلق بأنفسهم فلا تعلق له برؤية عدم أكلهم وانما وقع ذلك عند رؤيته لهم لعدم كونهم من جنس ما كان يعهده من الناس ألا يرى الى قوله تعالى فى سورة الذاريات سلام قوم منكرون ﴿ وأوجس منهم ﴾ أى أحس أو أضمر من جهتهم ﴿ خيفة ﴾ لما ظن أن نزولهم لأمر أنكره الله تعالى عليه أو لتعذيب قومه وانما أخر المفعول الصريح عن الظرف لأن المراد الاخبار بأنه عليه الصلاة والسلام أوجس من جهتهم شيئاً هو الخيفة لا أنه أوجس الخيفة من جهتهم لا من جهة غيرهم وتحقيقه أن تأخير ماحقه التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن ﴿ قالوا لا تخف ﴾ ماقالوه بمجرد ما رأوا منه مخايل الخوف ازالة له منه بل بعد اظهاره عليه الصلاة والسلام له قال تعالى فى سورة الحجر قال انا منكم وجلون ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بذلك ﴿ انا أرسلنا ﴾ ظاهره أنه استئناف فى معنى التعليل للنهى المذكور كما أن قوله تعالى انا نبشرك تعليل لذلك فان ارسالهم الى قوم آخرين يوجب أمنهم من الخوف أى أرسلنا بالعذاب ﴿ الى قوم لوط ﴾ خاصة الا أنه ليس كذلك فان قوله تعالى قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين صريح فى أنهم قالوه جوابا عن سؤاله عليه الصلاة والسلام وقد أوجز الكلام اكتفاء بذلك ﴿ وامرأته قائمة ﴾ وراء الستر بحيث تسمع محاورتهم أو على رؤسهم للخدمة حسبما هو المعتاد والجملة حال من

ضمير قالوا أى قالوه وهى قائمة تسمع مقالتهم ﴿فضحكت﴾ سرورا بزوال الخوف أو بهلاك أهل الفساد أو بهما جميعا وقيل بوقوع الأمر حسبما كانت تقول فيما سلف فانها كانت تقول لابراهيم اضمم اليك لوطا فانى أرى أن العذاب نازل بهؤلاء القوم وقيل ضحكت حاضت ومنه ضحكت الشجرة اذا سال صمغها وهو بعيد وقرئ بفتح الحاء ﴿فبشرناها باسحق﴾ أى عقبنا سرورها بسرور أتم منه على ألسنة رسلنا ﴿ومن وراء اسحق يعقوب﴾ بالنصب على أنه مفعول لما دل عليه قوله بشرناها أى وهبنا لها من وراء اسحق يعقوب وقرئ بالرفع على الابتداء خبره الظرف أى من بعد اسحق يعقوب مولود أو موجود وكلا الاسمين داخل فى البشارة كيحيى أو واقع فى الحكاية بعد أن ولدا فسميا بذلك وتوجيه البشارة ههنا اليها مع أن الأصل فى ذلك ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقد وجهت اليه حيث قيل وبشرناه بغلام حليم وبشروه بغلام عليم للايذان بأن مابشر به يكون منهما ولكونها عقيمة حريصة على الولد ﴿قالت﴾ استئناف ورد جوابا عن سؤال من سأل وقال فما فعلت اذ بشرت بذلك فقيل قالت ﴿ياويلتا﴾ أصل الويل الخزى ثم شاع فى كل أمر فظيع والالف مبدلة من ياء الاضافة كما فى يالهفا وياعجبا وقرأ الحسن على الأصل وأمالها أبوعمرو وعاصم فى رواية ومعناه ياويلتى احضرى فهذا أوان حضورك وقيل هى ألف الندبة ويوقف عليها بهاء السكت ﴿أألد وأنا عجوز﴾ بنت تسعين أو تسع وتسعين سنة ﴿وهذا﴾ الذى تشاهدونه ﴿بعلى﴾ أى زوجى وأصل البعل القائم بالامر ﴿شيخا﴾ وكان ابن مائة وعشرين سنة ونصبه على الحال والعامل معنى الاشارة وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى هو شيخ أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وبعلى بدل من اسم الاشارة أو بيان له وكلتا الجملتين وقعت حالا من الضمير فى أألد لتقرير مافيه من الاستبعاد وتعليله أى أألد وكلانا على حالة منافية لذلك وانما قدمت بيان حالها على بيان حاله عليه الصلاة والسلام لأن مباينة حالها لما ذكر من الولادة أكثر اذ ربما يولد للشيوخ من الشواب أما العجائز داؤهن عقام ولأن البشارة متوجهة اليها صريحا ولأن العكس فى البيان ربما يوهم من أول الأمر نسبة المانع من الولادة الى جانب ابراهيم عليه الصلاة والسلام وفيه مالا يخفى من المحذور واقتصارها الاستبعاد على ولادتها من غير تعرض لحال النافلة لانها المستبعد وأما ولادة ولدها فلا يتعلق بها استبعاد ﴿ان هذا﴾ أى ماذكر من حصول الولد من هرمين مثلنا ﴿لشئ عجيب﴾ بالنسبة الى سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده وهذه الجملة لتعليل الاستبعاد بطريق الاستئناف التحقيقى ومقصدها استعظام نعمة الله تعالى عليها فى ضمن الاستعجاب العادى لا استبعاد ذلك بالنسبة الى قدرته سبحانه وتعالى ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ أى قدرته وحكمته أو تكوينه أو شأنه أنكروا عليها تعجبها من ذلك لانها كانت ناشئة فى بيت النبوة ومهبط الوحى والآيات ومظهر المعجزات والامور الخارقة للعادات فكان حقها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهى سائر النساء من أمثال هذه الخوارق من ألطاف الله تعالى الخفية ولطائف صنعه الفائضة على كل أحد مما يتعلق بذلك مشيئته الازلية لاسيما على أهل بيت النبوة الذين ليست مرتبتهم عند الله سبحانه كمراتب سائر الناس وأن تسبح الله تعالى وتحمده وتمجده والى ذلك أشاروا بقوله تعالى ﴿رحمة الله﴾ التى وسعت كل شئ واستتبعت كل خير وانما وضع المظهر موضع المضمر لزيادة تشريفها ﴿وبركاته﴾ أى خيراته النامية المتكاثرة فى كل باب التى من جملتها هبة الاولاد وقيل الرحمة النبوة والبركات الاسباط من بنى اسرائيل لأن الانبياء منهم وكلهم من ولد ابراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿عليكم أهل البيت﴾ نصب على المدح أو الاختصاص لأنهم أهل بيت خليل الرحمن وصرف الخطاب من صيغة الواحدة الى جمع المذكر لتعميم حكمه لابراهيم عليه الصلاة السلام أيضا ليكون جوابهم لها جوابا له أيضا ان خطر بباله مثل ماخطر ببالها والجملة كلام مستأنف علل به

انكار تعجبها كأنه قيل ليس المقام مقام التعجب فان الله تعالى على كل شئ قدير ولستم يا أهل بيت النبوة والكرامة والزلفى كسائر الطوائف بل رحمته المستتبعة لكل خير الواسعة لكل شئ و بركاته أى خيراته النامية الفائضة منه بواسطة تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لا تفارقكم ﴿انه حميد﴾ فاعل ما يستوجب الحمد ﴿مجيد﴾ كثير الخير والاحسان الى عباده والجملة لتعليل ما سبق من قوله رحمة الله و بركاته عليكم ﴿فلما ذهب عن ابراهيم الروع﴾ أى ما أوجس منهم من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم وعرفان سبب مجيئهم والفاء لربط بعض أحوال ابراهيم عليه الصلاة والسلام ببعض غب انفصالها بما ليس بأجنبي من كل وجه بل له مدخل تام فى السباق والسياق وتأخير الفاعل عن الظرف لأنه مصب الفائدة فان بتأخير ما حقه التقديم تبقى النفس منتظرة الى وروده فيتمكن فيها عند وروده اليها فضل تمكن ﴿وجاءته البشرى﴾ ان فسرت البشرى بقولهم لا تخف فسببية ذهاب الخوف ومجئ السرور للمجادلة المدلول عليها بقوله تعالى ﴿يجادلنا فى قوم لوط﴾ أى جادل رسلنا فى شأنهم وعدل الى صيغة الاستقبال لاستحضار صورتها أو طفق يجادلنا ظاهرة وأما ان فسرت ببشارة الولد أو بما يعمها فلعل سببيتها لها من حيث انها تفيد زيادة اطمئنان قلب بسلامته وسلامة أهله كافة ومجادلته اياهم أنه قال لهم حين قالوا له انا مهلكوا أهل هذه القرية أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى باغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله ان قيل المتبادر من هذا الكلام أن يكون ابراهيم عليه السلام قد علم أنهم مرسلون لاهلاك قوم لوط قبل ذهاب الروع عن نفسه ولكن لم يقدر على مجادلتهم فى شأنهم لاشتغاله بشأن نفسه فلما ذهب عنه الروع فرغ لها مع أن ذهاب الروع انما هو قبل العلم بذلك لقوله تعالى قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط قلنا كان لوط عليه السلام على شريعة ابراهيم عليه السلام وقومه مكلفين بها فلما رأى من الملائكة ما رأى خاف على نفسه وعلى كافة أمته التى من جملتهم قوم لوط ولا ريب فى تقدم هذا الخوف على قولهم لا تخف وأما الذى علمه عليه السلام بعد النهى عن الخوف فهو اختصاص قوم لوط بالهلاك لا دخولهم تحت العموم فتأمل والله الموفق ﴿ان ابراهيم لحليم﴾ غير عجول على الانتقام ممن أساء اليه ﴿أواه﴾ كثير التأوه على الذنوب والتأسف على الناس ﴿منيب﴾ راجع الى الله تعالى والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة بيان ما حمله عليه السلام على ما صدر عنه من المجادلة ﴿يا ابراهيم﴾ أى قالت الملائكة يا ابراهيم ﴿أعرض عن هذا﴾ الجدال ﴿انه﴾ اى الشأن ﴿قد جاء أمر ربك﴾ أى قدره الجارى على وفق قضائه الازلى الذى هو عبارة عن الارادة الازلية والعناية الالهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص حسب تعلقها بالاشياء فى أوقاتها وهو المعبر عنه بالقدر ﴿وانهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ لا بجدال ولا بدعاء ولا بغيرهما ﴿ولما جاءت رسلنا لوطا﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما انطلقوا من عند ابراهيم عليه السلام الى لوط عليه السلام و بين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه فى صور غلمان مرد حسان الوجوه فلذلك ﴿سئ بهم﴾ أى ساءه مجيئهم لظنه أنهم أناس فخاف أن يقصدهم قومه و يعجز عن مدافعتهم وقرأ نافع وابن عامر والكسائى وأبو عمرو سئ وسيئت باشمام السين الضم . روى أن الله تعالى قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فلما مشى معهم منطلقا بهم الى منزله قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرها قال أشهد بالله انها لشر قرية فى الأرض عملا يقول ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فأخبرت به قومها وقالت ان فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط ﴿وضاق بهم ذرعا﴾ أى ضاق بمكانهم صدره أو قلبه أو وسعه وطاقته وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه وقيل ضاقت

نفسه عن هذا الحادث وذكر الذرع مثل وهو المساحة وكأنه قدر البدن مجازا أى ان بدنه ضاق قدره من احتمال ماوقع
وقيل الذراع اسم للجارحة من المرفق الى الانامل والذرع مدها ومعنى ضيق الذرع فى قوله تعالى ضاق بهم ذرعاقصرها
كما أن معنى سعتها و بسطتها طولها و وجه التمثيل بذلك أن القصير الذراع اذا مدها ليتناول ما يتناول الطويل الذراع
تقاصر عنه وعجز عن تعاطيه فضرب مثلا للذى قصرت طاقته دون بلوغ الأمر ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾ شديد
من عصبه اذا شده ﴿وجاءه﴾ أى لوطا وهو فى بيته مع أضيافه ﴿قومه يهرعون اليه﴾ أى يسرعون كأنما
يدفعون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه والجملة حال من قومه وكذا قوله تعالى ﴿ومن قبل﴾ أى من قبل هذا
الوقت ﴿كانوا يعملون السيئات﴾ أى جاءوا مسرعين والحال أنهم كانوا منهمكين فى عمل السيئات فضروا
بها وتمرنوا فيهاحتى لم يبق عندهم قباحتها و لذلك لم يستحيوا مما فعلوا من مجيئهم مهرعين مجاهرين ﴿قال ياقوم هؤلاء
بناتى هن أطهر لكم﴾ فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن من قبل ولايجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لالعدم مشروعيته فان
تزويج المسلمات من الكفار كان جائزا وقد زوج النبى عليه الصلاة والسلام ابنتيه من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن
الربيع قبل الوحى وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه وأيا ما كان فقد أراد به وقاية
ضيفه وذلك غاية الكرم وقيل ما كان ذلك القول منه مجرى على الحقيقة من ارادة النكاح بل كان ذلك مبالغة فى التواضع
لهم واظهاراً لشدة امتعاضه مما أو ردوا عليه طمعا فى أن يستحيوا منه و يرقوا له اذا سمعوا ذلك فينزجروا عما أقدموا
عليه مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم جميعا بأن لا مناكحة بينهم وهو الأنسب بقولهم لقد علمت مالنا فى
بناتك من حق كما ستقف عليه ﴿فاتقوا الله﴾ بترك الفواحش أو بايثارهن عليهم ﴿ولا تخزون فى ضيفى﴾ أى
لا تفضحونى فى شأنهم فان اخزاء ضيف الرجل وجاره اخزاء له أو لا تخجلونى من الخزاية وهى الحياء ﴿أليس منكم
رجل رشيد﴾ يهتدى الى الحق الصريح و يرعوى عن الباطل القبيح ﴿قالوا﴾ معرضين عما نصحهم به من الأمر
بتقوى الله والنهى عن اخزائه مجيبين عن أول كلامه ﴿لقد علمت مالنا فى بناتك من حق﴾ مستشهدين بعلمه بذلك
يعنون انك قد علمت أن لا سبيل الى المناكحة بيننا و بينك وما عرضك الا عرض سابرى و لا مطمع لنا فى ذلك
﴿وانك لتعلم ما نريد﴾ من اتيان الذكران ولما يئس عليه السلام من ارعوائهم عما هم عليه من الغى ﴿قال لو أن لى
بكم قوة﴾ أى لفعلت بكم مافعلت وصنعت ما صنعت كقوله تعالى و لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض
أو كلم به الموتى ﴿أو اوى الى ركن شديد﴾ عطف على أن لى بكم الى آخره لما فيه من معنى الفعل أى لو قويت على
دفعكم بنفسى أو أويت الى ناصر عزيز قوى أتمنع به عنكم شبهه بركن الجبل فى الشدة والمنعة و روى عن النبى صلى الله
عليه وسلم رحم الله أخى لوطا كان يأوى الى ركن شديد. روى أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم
من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب ﴿قالوا﴾ أى الرسل لما شاهدوا عجزه
عن مدافعة قومه ﴿يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك﴾ بضرر و لا مكروه فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب
فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه رب العزة جل جلاله فى عقوبتهم فأذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها
فنشر جناحه و له جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم
وأعماهم كما قال عز وعلا فطمسنا أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان فى بيت لوط
قوما سحرة ﴿فأسر بأهلك﴾ بالقطع من الاسراء وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث جاء فى القرآن من السرى والفاء
لترتيب الأمر بالاسراء على الاخبار برسالتهم المؤذنة بورود الأمر والنهى من جنابه عز وجل اليه عليه السلام ﴿بقطع

من الليل﴾ بطائفة منه ﴿ولا يلتفت منكم﴾ أى لا يتخلف أو لا ينظر الى و رائه ﴿أحد﴾ منك ومن أهلك وانما نهوا عن ذلك ليجدوا فى السير فان من يلتفت الى ما وراءه لايخلو عن أدنى وقفة أو لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم ﴿الا امرأتك﴾ استثناء من قوله تعالى فأسر بأهلك و يؤيده أنه قرئ فأسر بأهلك بقطع من الليل الا امرأتك وقرئ بالرفع على البدل من أحد فالالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر الى الخلف كيلا يلزم التناقض بين القراءتين المتواترتين فان النصب يقتضى كونه عليه السلام غير مأمور بالاسراء بها والرفع كونه مأمورا بذلك والاعتذار بأن مقتضى الرفع انما و مجرد كونها معهم وذلك لا يستدعى الأمر بالاسراء بها حتى يلزم المناقضة لجواز أن تسرى هى بنفسها كما يروى أنه عليه السلام لما أسرى بأهله تبعتهم فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت ياقوماه فأدركها حجر فقتلها وأن يسرى بها عليه السلام من غير أمر بذلك اذ موجب النصب انما هو عدم الأمر بالاسراء بها لا النهى عن الاسراء بها حتى يكون عليه السلام بالاسراء بها مخالفا للنهى لا يجدى نفعا لأن انصراف الاستثناء الى الالتفات يستدعى بقاء الأهل على العموم فيكون الاسراء بها مأمورا به قطعا وفى حمل الأهلية فى احدى القراءتين على الأهلية الدينية و فى الأخرى على النسبية مع أن فيه مالا يخفى من التحكم والاعتساف كر على ما فر منه من المناقضة فالأولى حينئذ جعل الاستثناء على القراءتين من قوله لا يلتفت مثل الذى فى قوله تعالى ما فعلوه الا قليل منهم فان ابن عامر قرأه بالنصب وان كان الأفصح الرفع على البدل ولا بعد فى كون أكثر القراء على غير الأفصح ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات بل عدم نهيها عنه بطريق الاستصلاح ولذلك علله على طريقة الاستئناف بقوله ﴿انه مصيبها ما أصابهم﴾ من العذاب وهو امطار الأحجار وان لم يصبها الخسف والضمير فى انه للشأن وقوله تعالى مصيبها خبر وقوله ما أصابهم مبتدأ والجملة خبر لان الذى اسمه ضمير الشأن وفيه ما لا يخفى من تفخيم شأن ما أصابهم و لا يحسن جعل الاستثناء منقطعا على قراءة الرفع ﴿ان موعدهم الصبح﴾ أى موعد عذابهم وهلاكهم تعليل للأمر بالاسراء والنهى عن الالتفات المشعر بالحث على الاسراع ﴿أليس الصبح بقريب﴾ تأكيد للتعليل فان قرب الصبح داع الى الاسراع فى الاسراء للتباعد عن مواقع العذاب و روى أنه قال للملائكة متى موعد هلاكهم قالوا الصبح قال أريد أسرع من ذلك فقالوا ذلك وانما جعل ميقات هلاكهم الصبح لانه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ولانه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين ﴿فلما جاء أمرنا﴾ أى وقت عذابنا وموعده وهو الصبح ﴿جعلنا عاليها﴾ أى عالى قرى قوم لوط وهى التى عبر عنها بالمؤتفكات وهى خمس مدائن فيها أربعمائة ألف ألف ﴿سافلها﴾ أى قلبناها على تلك الهيئة وجعل عاليها مفعولا أول للجعل وسافلها مفعولا ثانيا له وان تحقق القلب بالعكس أيضا لتهويل الأمر وتفظيع الخطب لأن جعل عاليها الذى هو مقارهم ومساكنهم سافلها أشد عليهم وأشق من جعل سافلها عاليها وان كان مستلزما له . روى أنه جعل جبريل عليه السلام جناحه فى أسفلها ثم رفعها الى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم واسناد الجعل والامطار الى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبب لتفخيم الامر وتهويل الخطب ﴿وأمطرنا عليها﴾ على أهل المدائن أو شذاذهم ﴿حجارة من سجيل﴾ من طين متحجر كقوله حجارة من طين وأصله سنك كل فعرب وقيل هو من أسجله اذا أرسله أو أدر عطيته والمعنى من مثل الشئ المرسل أو مثل العطية فى الادرار أو من السجل أى مما كتب الله تعالى أن يعذبهم به وقيل أصله من سجين أى من جهنم فأبدلت نونه لاما ﴿منضود﴾ نضد فى السماء نضدا معدا للعذاب وقيل يرسل بعضه اثر بعض كقطار الأمطار ﴿مسومة﴾ معلمة للعذاب وقيل معلمة ببياض وحمرة أو بسيما تتميز به عن حجارة الأرض أو باسم من ترمى به ﴿عند

ربك﴾ فى خزائنه التى لايتصرف فيها غيره عز وجل ﴿وماهى﴾ أى الحجارة الموصوفة ﴿من الظالمين﴾ من كل ظالم ﴿ببعيد﴾ فانهم بسبب ظلمهم مستحقون لها وملابسون بها وفيه وعيد شديد لأهل الظلم كافة . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام فقال يعنى ظالمى أمتك ما من ظالم منهم الا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير للقرى أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون بها فى مسايرهم وأسفارهم الى الشام وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو اجرائه على موصوف مذكر أى بشئ بعيد أو بمكان بعيد فانها وان كانت فى السماء وهى فى غاية البعد من الأرض الا أنها حين هوت منها فهى أسرع شئ لحوقا بهم فكانها بمكان قريب منهم أو لانه على زنة المصدر كالزئير والصهيل والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث ﴿والى مدين﴾ أى أولاد مدين بن ابراهيم عليه السلام أو جعل اسما للقبيلة بالغلبة أو أهل مدين وهو بلد بناه مدين فسمى باسمه ﴿أخاهم﴾ أى نسيبهم ﴿شعيبا﴾ وهو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه والجملة معطوفة على قوله تعالى والى ثمود أخاهم صالحا أى وأرسلنا الى مدين أخاهم شعيبا ﴿قال﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن صدر الكلام فكانه قيل فماذا قال لهم فقيل قال كما قال من قبله من الرسل عليهم السلام ﴿ياقوم اعبدوا الله﴾ وحده ولا تشركوا به شيئاً ﴿مالكم من اله غيره﴾ تحقيق للتوحيد وتعليل للامر به و بعد ما أمرهم بما هو ملاك أمر الدين وأول ما يجب على المكلفين نهاهم عن ترتيب مبادى ما اعتادوه من البخس والتطفيف عادة مستمرة فقال ﴿ولاتنقصوا المكيال والميزان﴾ كى تتوسلوا بذلك الى بخس حقوق الناس ﴿انى أراكم بخير﴾ أى ملتبسين بثروة وسعة تغنيكم عن ذلك أو بنعمة من الله تعالى حقها أن تقابل بغير ماتأتونه من المسامحة والتفضل على الناس شكرا عليها أو أراكم بخير فلا تزيلوه بما أنتم عليه من الشر وهو على كل حال علة للنهى عقبت بعلة أخرى أعنى قوله عز وجل ﴿وانى أخاف عليكم﴾ ان لم تنتهوا عن ذلك ﴿عذاب يوم محيط﴾ لايشذ منه شاذ منكم وقيل عذاب يوم مهلك من قوله تعالى وأحيط بثمره واصله من احاطة العدو والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال و وصف اليوم بالاحاطة وهى حال العذاب على الاسناد المجازى وفيه من المبالغة مالايخفى فان اليوم زمان يشتمل على ماوقع فيه من الحوادث فاذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب مااشتمل عليه منه كما اذا أحاط بنعيمه و يجوز أن يكون هذا تعليلا للامر والنهى جميعا ﴿وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ أى بالعدل من غير زيادة ولا نقصان فان الزيادة فى الكيل والوزن وان كان تفضلا مندوبا اليه لكنها فى الآلة محظورة كالنقص فلعل الزائد للاستعمال عند الاكتيال والناقص للاستعمال وقت الكيل وانما أمر بتسويتهما وتعديلهما صريحا بعد النهى عن نقصهما مبالغة فى الحمل على الايفاء والمنع من البخس وتنبيها على أنه لا يكفيهم مجرد الكف عن النقص والبخس بل يجب عليهم اصلاح ماأفسدوه وجعلوه معيارا لظلمهم وقانونا لعدوانهم ﴿ولا تبخسوا الناس﴾ بسبب نقصهما وعدم اعتدالهما ﴿أشياءهم﴾ التى يشترونها بهما وقد صرح بالنهى عن البخس بعد ما علم ذلك فى ضمن النهى عن نقص المعيار والأمر بايفائه اهتماما بشأنه وترغيبا فى ايفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها و يجوز أن يكون المراد بالأمر بايفاء المكيال والميزان الأمر بايفاء المكيلات والموزونات و يكون النهى عن البخس عاما للنقص فى المقدار وغيره تعميما بعد التخصيص كما فى قوله تعالى ﴿ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾ فان العثى يعم نقص الحقوق وغيره من أنواع الفساد وقيل البخس المكس كأخذ العشور فى المعاملات قال زهير بن أبى سلمى

أفى كل أسواق العراق اتاوة ... وفى كل ماباع امرؤ مكس درهم

والعثى فى الأرض السرقة وقطع الطريق والغارة وفائدة الحال اخراج مايقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام من

خرق السفينة وقتل الغلام وقيل معناه ولا تعثوا فى الأرض مفسدين أمر آخرتكم ومصالح دينكم ﴿بقية الله﴾ أى ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عن تعاطى المحرمات ﴿خير لكم﴾ مما تجمعون بالبخس والتطفيف فان ذلك هباء منثورا بل شر محض وان زعمتم أن فيه خيرا كقوله تعالى يمحق الله الربو و يربى الصدقات ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ بشرط أن تؤمنوا فان خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالايمان لا محالة أوان كنتم مصدقين لى فى مقالتى لكم وقيل البقية الطاعات كقوله عز وجل والباقيات الصالحات خير عند ربك وقرىء تقية الله بالفوقانية وهى تقواه عن المعاصى ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أحفظكم من القبائح أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم وانما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت اذ أنذرت ولم آل فى ذلك جهدا أوما أنا بحافظ ومستبق عليكم نعم الله تعالى ان لم تتركوا ما أنتم عليه من سوء الصنيع ﴿قالوا ياشعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ من الأوثان أجابوا بذلك أمره عليه السلام اياهم بعبادة الله وحده المتضمن لنهيهم عن عبادة الأصنام ولقد بالغوا فى ذلك و بلغوا أقصى مراتب الخلاعة والمجون والضلال حيث لم يكتفوا بانكار الوحى الآمر بذلك حتى ادعوا أن لا آمر به من العقل واللب أصلا وأنه من أحكام الوسوسة والجنون وعلى ذلك بنوا استفهامهم وقالوا بطريق الاستهزاء أصلاتك التى هى من نتائج الوسوسة وأفاعيل المجانين تأمرك بأن نترك عبادة الأوثان التى توارثناها أبا عن جد وانما جعلوه عليه السلام مأمورا مع أن الصادر عنه انما هو الأمر بعبادة الله تعالى وغير ذلك من الشرائع لأنه عليه السلام لم يكن يأمرهم بذلك من تلقاء نفسه بل من جهة الوحى وأنه كان يعلمهم بأنه مأمور بتبليغه اليهم وتخصيصهم باسناد الأمر الى الصلاة من بين سائر أحكام النبوة لأنه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة معروفا بذلك وكانوا اذا رأوه يصلى يتغامزون و يتضاحكون فكانت هى من بين سائر شعائر الدين ضحكة لهم وقرىء أصلواتك ﴿أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء﴾ جواب عن أمره عليه السلام بايفاء الحقوق ونهيه عن البخس والنقص معطوف على ما أى أو أن نترك أن نفعل فى أموالنا ما نشاء من الأخذ والاعطاء والزيادة والنقص وقرىء بالتاء فى الفعلين عطفا على مفعول تأمرك أى أصلاتك تأمرتك أن تفعل أنت فى أموالنا ما تشاء وتجويز العطف على ما قيل يستدعى أن يراد بالترك معنيان متخالفان والمراد بفعله عليه السلام ايجاب الايفاء والعدل فى معاملاتهم لا نفس الايفاء فان ذلك ليس من أفعاله عليه السلام بل من أفعالهم وانما لم نقل عطفا على أن نترك لأن الترك ليس مأمورا به على الحقيقة بل المأمور به تكليفه عليه السلام اياهم وأمره بذلك والمعنى أصلاتك تأمرك أن تكلفنا أن نترك ما يعبد آباؤنا وحمله على معنى أصلاتك تأمرك بما ليس فى وسعك وعهدتك من أفاعيل غيرك ليكون ذلك تعريضا منهم بركاكة رأيه عليه السلام واستهزاء به من تلك الجهة يأباه دخول الهمزة على الصلاة دون الأمر و يستدعى أن يصدر عنه عليه السلام فى أثناء الدعوة ما يدل على ذلك أو يوهمه وأنى ذلك فتأمل وقرىء بالنون فى الأول والتاء فى الثانى عطفا على أن نترك أى أو أن نفعل نحن فى أموالنا عند المعاملة ما تشاء أنت من التسوية والايفاء ﴿انك لأنت الحليم الرشيد﴾ وصفوه عليه السلام بالوصفين على طريقة التهكم وانما أرادوا بذلك وصفه بضديهما كقول الخزنة ذق انك أنت العزيز الكريم و يجوز أن يكون تعليلا لما سبق من استبعاد ما ذكروه على معنى انك لأنت الحليم الرشيد على زعمك وأما وصفه بهما على الحقيقة فيأباه مقام الاستهزاء اللهم الا أن يراد بالصلاة الدين كما قيل ﴿قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة﴾ أى حجة واضحة و برهان نير عبر بها عما آتاه الله تعالى من النبوة والحكمة ردا على مقالتهم الشنعاء فى جعلهم أمره ونهيه غير مستند الى سند ﴿من ربى﴾ ومالك أمورى وايراد حرف الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ماهو عليه من البينات والحجج لاعتبار حال المخاطبين ومراعاة حسن المحاورة معهم كما ذكرناه فى نظائره ﴿ورزقنى منه﴾ أى من لدنه

﴿ رزقا حسنا ﴾ هو النبوة والحكمة أيضا عبر عنهما بذلك تنبيها على أنهما مع كونهما بينة رزق حسن كيف لا وذلك مناط الحياة الابدية له ولأمته وجواب الشرط محذوف يدل عليه فحوى الكلام أى أتقولون فى شأنى ماتقولون والمعنى انكم نظمتمونى فى سلك السفهاء والغواة وعددتم ماصدر عنى من الأوامر والنواهى من قبيل مالا يصح أن يتفوه به عاقل وجعلتموه من أحكام الوسوسة والجنون واستهزأتم بى وبأفعالى حتى قلتم ان ماأمرتكم به من التوحيد وترك عبادة الاصنام والاجتناب عن البخس والتطفيف ليس مما يأمر به آمر العقل ويقضى به قاضى الفطنة وانما يأمر به صلاتك التى هى من أحكام الوسوسة والجنون فأخبرونى ان كنت من جهة ربى ومالك أمورى ثابتا على النبوة والحكمة التى ليس وراءها غاية للكمال ولا مطمح لطامح ورزقنى بذلك رزقا حسنا أتقولون فى شأنى وشأن أفعالى ماتقولون مما لاخير فيه ولاشر وراءه هذا هو الجواب الذى يستدعيه السباق والسياق ويساعده النظم الكريم وأما ماقيل من أن المحذوف أيصح لى أن لا آمركم بترك عبادة الاوثان والكف عن المعاصى أوهل يسع لى مع هذا الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون فى وحيه وأخالفه فى أمره ونهيه فبمعزل من ذلك وانما يناسب تقديره ان حمل كلامهم على الحقيقة وأريد بالصلاة الدين على معنى أدينك يأمرك أن تكلفنا بترك عبادة آلهتنا القديمة وترك التصرف المطلق فى أموالنا وتخالفنا فى ذلك وتشق عصانا وهذا مما لاينبغى أن يصدر عنك فانك أنت المشهور بالحلم الفاضل والرشد الكامل فيمابيننا كما كان قول قوم صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا مسرودا على ذلك النمط فأجيبوا بما أجيبوا به وعلى هذا الوجه يكون المراد بالرزق الحسن الحلال الذى آتاه الله تعالى والمعنى حينئذ أخبرونى ان كنت نبيا من عند الله تعالى ورزقنى مالا حلالا أستغنى به عن العالمين أيصح أن أخالف أمره وأوافقكم فيما تأتون وماتذرون ﴿ وما أريد ﴾ بنهيى اياكم عما أنهاكم عنه من البخس والتطفيف ﴿ أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ﴾ أى أقصده بعدما وليتم عنه وأستبد به دونكم يقال خالفت زيدا الى كذا اذا قصدته وهو مول عنه وخالفته عن كذا اذا كان الأمر على العكس ﴿ ان أريد ﴾ أى ماأريد بما أباشره من الأمر والنهى ﴿ الا الاصلاح ﴾ الا أن أصلحكم بالنصيحة والموعظة ﴿ مااستطعت ﴾ أى مقدار مااستطعته من الاصلاح والتقييد به للاحتراز عن الاكتفاء بالاصلاح فى الجملة لا عن ارادة ماليس فى وسعه منه ﴿ وماتوفيقى ﴾ أى كونى موفقا لتحقيق ماأنتحيه من اصلاحكم ﴿ الا بالله ﴾ أى بتأييده ومعونته بل الاصلاح من حيث الخلق مستند اليه سبحانه وانما أنا من مباديه الظاهرة قاله عليه السلام تحقيقا للحق وازاحة لما عسى يوهمه اسناد الاستطاعة اليه بارادته من استبداده بذلك ﴿ عليه توكلت ﴾ فى ذلك معرضا عما عداه فانه القادر على كل مقدور وماعداه عاجز محض فى حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار بمعزل عن مرتبة الاستمداد به والاستظهار ﴿ واليه أنيب ﴾ أى أرجع فيما أنا بصدده ويجوز أن يكون المراد وما كونى موفقا لاصابة الحق والصواب فى كل ما آتى وأذر الا بهدايته ومعونته عليه توكلت وهو اشارة الى محض التوحيد الذاتى والفعلى واليه أنيب أى عليه أقبل بشراشر نفسى فى مجامع أمورى وايثار صيغة الاستقبال على الماضى الأنسب للتقرر والتحقق كما فى التوكل لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار ولايخفى مافى جوابه عليه السلام من مراعاة لطف المراجعة ورفق الاستنزال والمحافظة على قواعد حسن المجاراة والمحاورة وتمهيد معاقد الحق بطلب التوفيق من جناب الله تعالى والاستعانة به فى أموره وحسم أطماع الكفار واظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بمعاداتهم وأما تهديدهم بالرجوع الى الله تعالى للجزاء كما قيل فلا لان الانابة انما هى الرجوع الاختيارى بالفعل الى الله تعالى لا الرجوع الاضطرارى للجزاء أومايعمه ﴿ وياقوم لايجرمنكم ﴾ أى لايكسبنكم من جرمته ذنبا مثل كسبته مالا ﴿ شقاقى ﴾ معاداتى وأصلها أن أحد المتعاديين يكون فى عدوة وشق والآخر فى آخر ﴿ أن يصيبكم ﴾ مفعول ثان

ليجرمنكم أى لايكسبنكم معاداتكم لى أن يصيبكم ﴿ مثل ما أصاب قوم نوح ﴾ من الغرق ﴿ أو قوم هود ﴾ من الريح ﴿ أو قوم صالح ﴾ من الصيحة والرجفة وقرأ ابن كثير بضم الياء من أجرمته ذنبا اذا جعلته جارما له أى كاسبا وهو منقول من جرم المتعدى الى مفعول واحد كما نقل أكسبه المال من كسب المال فكما لافرق بين كسبته مالا وأكسبته اياه لافرق بين جرمته ذنبا وأجرمته اياه فى المعنى الا أن الأول أصح وأدور على ألسنة الفصحاء وقرأ أبو حيوة مثل ما أصاب بالفتح لاضافته الى غير متمكن كقوله

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة فى غصون ذات أوقال

وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للشقاق عن كسب اصابة العذاب لكنه فى الحقيقة نهى للكفرة عن مشاقته عليه السلام على ألطف أسلوب وأبدعه كما مر فى سورة المائدة عند قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم الآية ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ زمانا أو مكانا فان لم تعتبروا بمن قبلهم من الأمم المعدودة فاعتبروا بهم فكأنه انما غير أسلوب التحذير بهم ولم يصرح بما أصابهم بل اكتفى بذكر قربهم ايذانا بأن ذلك مغن عن ذكره لشهرة كونه منظوما فى سمط ماذكر من دواهى الأمم المرقومة أو ليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمعاصى فلا يبعد أن يصيبكم مثل ما أصابهم وافراد البعيد مع تذكيره لأن المراد وما اهلاكهم على نية المضاف أو وماهم بشىء بعيد لان المقصود افادة عدم بعدهم على الاطلاق لامن حيث خصوصية كونهم قوما أو ماهم فى زمان بعيد أو مكان بعيد ولا يبعد أن يكون ذلك لكونه على زنة المصادر كالنهيق والشهيق ولما أنذرهم عليه السلام بسوء عاقبة صنيعهم عقبه طمعا فى ارعوائهم عما كانوا فيه يعمهون من طغيانهم بالحمل على الاستغفار والتوبة فقال ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ﴾ مر تفسير مثله فى أول السورة ﴿ ان ربى رحيم ﴾ عظيم الرحمة للتائبين ﴿ ودود ﴾ مبالغ فى فعل مايفعل البالغ المودة بمن يوده من اللطف والاحسان وهذا تعليل للامر بالاستغفار والتوبة وحث عليهما ﴿ قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول ﴾ الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه أى مانفهم مرادك وانما قالوه بعد ماسمعوا منه دلائل الحق المبين على أحسن وجه وأبلغه وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل فلم يجدوا الى محاورته سبيلا سوى الصدود عن منهاج الحق والسلوك الى سبيل الشقاء كما هو ديدن المفحم المحجوج يقابل البينات بالسب والابراق والارعاد فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبيل مالا يفهم معناه ولا يدرك فحواه وأدمجوا فى ضمن ذلك أن فى تضاعيفه مايستوجب أقصى ما يكون من المؤاخذة والعقاب ولعل ذلك مافيه من التحذير من عواقب الأمم السالفة ولذلك قالوا ﴿ وانا لنراك فينا ﴾ فيما بيننا ﴿ ضعيفا ﴾ لاقوة لك ولا قدرة على شىء من الضر والنفع والايقاع والدفع ﴿ ولولا رهطك ﴾ لولا مراعاة جانبهم لا لولاهم يمانعوننا ويدافعوننا ﴿ لرجمناك ﴾ فان ممانعة الرهط وهو اسم للثلاثة الى السبعة أو الى العشرة لهم وهم ألوف مؤلفة مما لا يكاد يتوهم وقد أيد ذلك بقوله عز وجل ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ مكرم محترم حتى نمتنع من رجمك وانما نكف عنه للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا وايلاء الضمير حرف النفى وان لم يكن الخبر فعليا غير خال عن الدلالة على رجوع النفى الى الفاعل دون الفعل لاسيما مع قرينة قوله ولولا رهطك كأنه قيل وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الاعزة علينا وحيث كان غرضهم من عظيمتهم هذه عائدا الى نفى مافيه عليه السلام من القوة والعزة الربانيتين حسبما يوجبه كونه على بينة من ربه مؤيدا من عنده ويقتضيه قضية طلب التوفيق منه والتوكل عليه والانابة اليه والى اسقاط ذلك كله عن درجة الاعتداد به والاعتبار ﴿ قال ﴾ عليه السلام فى جوابهم ﴿ ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله ﴾ فان الاستهانة بمن لايتعزز الا به عز وجل استهانة بجنابه العزيز وانما أنكر عليهم أعزية رهطه منه تعالى

مع أن ما أثبتوه انمـا هو مطلق عزة رهطه لا أعزيتهم منه عز وجل مع الاشتراك فى أصل العزة لتثنية التقريع وتكرير التوبيخ حيث أنكر عليهم أولا ترجيح جنبة الرهط على جنبة الله تعالى وثانيا نفى العزة بالمرة والمعنى أرهطى أعز عليكم من الله فانه مما لا يكاد يصح والحال انكم لم تجعلوا له تعالى حظا من العزة أصلا ﴿واتخذتموه﴾ بسبب عدم اعتدادكم بمن لا يرد ولا يصدر الا بأمره ﴿وراءكم ظهريا﴾ أى شيئا منبوذا وراء الظهر منسيا لا يبالى به منسوب الى الظهر والكسر لتغيير النسب كالامسى فى النسبة الى الامس ﴿ان ربى بمـا تعملون﴾ من الأعمال السيئة التى من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه ﴿محيط﴾ لا يخفى عليه منها خافية وان جعلتموه منسيا فيجازيكم عليها ويحتمل أن يكون الانكار للرد والتكذيب فانهم لمـا ادعوا أنهم لا يكفون عن رجمه عليه السلام لقوته وعزته بل لمراعاة جانب رهطه رد عليهم ذلك بأنكم ماقدرتم الله حق قدره العزيز ولم تراعوا جنابه القوى فكيف تراعون جانب رهطى الأذلة ﴿وياقوم اعملوا﴾ لمـا رأى عليه السلام اصرارهم على الكفر وأنهم لا يرعوون عمـاهم عليه من المعاصى حتى اجترؤا على العظيمة التى هى الاستهانة به والعزيمة على رجمه لولا حرمة رهطه قال لهم على طريقة التهديد اعملوا ﴿على مكانتكم﴾ أى على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ التمكن وانمـا قاله عليه السلام ردا لمـا ادعوا أنهم أقوياء قادرون على رجمه وأنه ضعيف فيما بينهم لا عزة له أو على ناحيتكم وجهتكم التى أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة والمعنى اثبتوا على ماأنتم عليه من الكفر والمشاقة لى وسائر ماأنتم عليه ممـا لا خير فيـه وابذلوا جهدكم فى مضارتى وايقاع مافى نيتكم واخراج مافى أمنيتكم من القوة الى الفعل ﴿انى عامل﴾ على مكانتى حسبما يؤيدنى الله ويوفقنى بأنواع التأييد والتوفيق ﴿سوف تعلمون﴾ لمـا هددهم عليه السلام بقوله اعملوا على مكانتكم انى عامل كان مظنة أن يسأل منهم سائل فيقول فماذا يكون بعد ذلك فقيل سوف تعلمون ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ وصف العذاب بالاخزاء تعريضا بمـا أوعدوه عليه السلام به من الرجم فانه مع كونه عذابا فيه خزى ظاهر حيث لا يكون الا بجناية عظيمة توجبه ﴿ومن هو كاذب﴾ عطف على من يأتيه لا على أنه قسيمه بل حيث أوعدوه بالرجم وكذبوه قيل سوف تعلمون من المعذب ومن الكاذب وفيه تعريض بكذبهم فى ادعائهم القوة والقدرة على رجمه عليـه السلام وفى نسبته الى الضعف والهوان وفى ادعائهم الابقاء عليه لرعاية جانب الرهط والاختلاف بين المعطوفين بالفعلية والاسمية لان كذب الكاذب ليس بمرتقب كاتيان العذاب بل انمـا المرتقب ظهور الكذب السابق المستمر ومن اما استفهامية معلقة للعلم عن العمل كانه قيل سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه وأينا كاذب واما موصولة أى سوف تعرفون الذى يأتيه عذاب والذى هو كاذب ﴿وارتقبوا﴾ وانتظروا مآل ماأقول ﴿انى معكم رقيب﴾ منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم أو المراقب كالعشير أو المرتقب كالرفيع وفى زيادة معكم اظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره ﴿ولمـا جاء أمرنا﴾ أى عذابنا كما ينبئ عنه قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه أو وقته فان الارتقاب مؤذن بذلك ﴿نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ وهى الايمـان الذى وفقناهم له أو برحمة كائنة منا لهم وانما ذكر بالواو كما فى قصة عاد لمـا أنه لم يسبقه فيها ذكر وعد يجرى مجرى السبب المقتضى لدخول الفاء فى معلوله كما فى قصتى صالح ولوط فانه قد سبق هنالك سابقة الوعـد بقوله ذلك وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح ﴿وأخذت الذين ظلموا﴾ عدل اليه عن الضمير تسجيلا عليهم بالظلم واشعارا بأن ماأخذهم انمـا أخذهم بسبب ظلمهم الذى فصل فيما سبق فنونه ﴿الصيحة﴾ قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا وفى سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة وفى سورة العنكبوت فأخذتهم الرجفة أى الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء المفضى اليها كما مر فيما قبل ﴿فأصبحوا فى ديارهم جاثمين﴾ ميتين لازمين لاماكنهم لا براح لهم

منها ولما لم يجعل متعلق العلم فى قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب الخ نفس مجىء العذاب بل من يجيئه ذلك جعل مجيئه بعد ذلك أمرا مسلم الوقوع غنيا عن الاخبار به حيث جعل شرطا وجعل تنجية شعيب عليه السلام واهلاك الكفرة جوابا له ومقصود الافادة وانما قدم تنجيته اهتماما بشأنها وايذانا بسبق الرحمة التى هى مقتضى الربوبية على الغضب الذى يظهر أثره بموجب جرائمهم وجرائمهم ﴿كأن لم يغنوا﴾ أى لم يقيموا ﴿فيها﴾ متصرفين فى أطرافها متقلبين فى أكنافها ﴿ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود﴾ العدول عن الاضمار الى الاظهار ليكون أدل على طغيانهم الذى أداهم الى هذه المرتبة وليكون أنسب بمن شبه هلاكهم بهلاكهم أعنى ثمود وانما شبه هلاكهم بهلاكهم لانهما أهلكتا بنوع من العذاب وهو الصيحة غير أن هؤلاء صيح بهم من فوقهم وأولئك من تحتهم وقرىء بعدت بالضم على الاصل فان الكسر تغيير لتخصيص معنى البعد بما يكون سبب الهلاك والبعد مصدر لهما والبعد مصدر للمكسور ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ وهى الآيات التسع المفصلات التى هى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والانفس ومنهم من جعلهما آية واحدة وعد منها اظلال الجبل وليس كذلك فانه لقبول أحكام التوراة حين أباه بنو اسرائيل والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول أرسلنا أو نعتا لمصدره المؤكد أى أرسلناه حال كونه ملتبسا بآياتنا أو أرسلناه ارسالا ملتبسا بها ﴿وسلطان مبين﴾ هو المعجزات الباهرة منها أو هو العصا والافراد بالذكر لاظهار شرفها لكونها أبهرها أو المراد بالآيات ما عداها أو هما عبارتان عن شىء واحد أى أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا و بين كونه سلطانا له على نبوته واضحا فى نفسه أو موضحا اياها من أبان لازما ومتعديا أو هو الغلبة والاستيلاء كقوله تعالى ونجعل لكما سلطانا ويجوز أن يكون المراد ما بينه عليه السلام فى تضاعيف دعوته حين قال له فرعون من ربكما فما بال القرون الأولى من الحقائق الرائقة والدقائق اللائقة وجعله عبارة عن التوراة أو ادراجها فى جملة الآيات يرده قوله عز وجل ﴿الى فرعون وملئه﴾ فان نزولها انما كان بعد مهلك فرعون وقومه قاطبة ليعمل بها بنو اسرائيل فيما يأتون وما يذرون وأما فرعون وقومه فانما كانوا مأمورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التى كان يدعيها الطاغية و يقبلها منه فئته الباغية و بارسال بنى اسرائيل من الأسر والقسر وتخصيص ملئه بالذكر مع عموم رسالته عليه السلام لقومه كافة لاصالتهم فى الرأى وتدبير الأمور واتباع غيرهم لهم فى الورود والصدور وانما لم يصرح بكفر فرعون بآيات الله تعالى وانهما كه فيما كان عليه من الضلال والاضلال بل اقتصر على ذكر شأن ملئه فقيل ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ أى أمره بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين للايذان بوضوح حاله فكأن كفره وأمر ملئه بذلك أمر محقق الوجود غير محتاج الى الذكر صريحا وانما المحتاج الى ذلك شأن ملئه المترددين بين هاد الى الحق وداع الى الضلال فنعى عليهم سوء اختيارهم وايراد الفاء فى اتباعهم المترتب على أمر فرعون المبنى على كفره المسبوق بتبليغ الرسالة للاشعار بمفاجأتهم فى الاتباع ومسارعة فرعون الى الكفر وأمرهم به فكان ذلك كله لم يتراخ عن الارسال والتبليغ بل وقع جميع ذلك فى وقت واحد فوقع اثر ذلك اتباعهم و يجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه المشهور وطريقته الزائغة فيكون معنى فاتبعوا فاستمروا على الاتباع والفاء مثل ما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فان الاتيان بالشىء بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث فتأمل وترك الاضمار لدفع توهم الرجوع الى موسى عليه السلام من أول الأمر ولزيادة تقبيح حال المتبعين فان فرعون علم فى الفساد والافساد والضلال والاضلال فاتباعه لفرط الجهالة وعدم الاستبصار وكذا الحال فى قوله تعالى ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ الرشد ضد الغى وقد يراد به محمودية العاقبة فهو على الأول

بمعنى المرشد أو ذى الرشد حقيقة لغوية والاسناد مجازى وعلى الثانى مجاز والاسناد حقيقى ﴿ يقدم قومه ﴾ جميعا من الأشراف وغيرهم ﴿ يوم القيامة ﴾ أى يتقدمهم من قدمه بمعنى تقدمه وهو استئناف لبيان حاله فى الآخرة أى كما كان قدوة لهم فى الضلال كذلك يتقدمهم الى النار وهم يتبعونه أو لتوضيح عدم صلاح مآل أمره وسوء عاقبته ﴿ فأوردهم النار ﴾ أى يوردهم وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع لا محالة شبه فرعون بالفارط الذى يتقدم الواردة الى الماء وأتباعه بالواردة والنار بالماء الذى يردونه ثم قيل ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ أى بئس الورد الذى يردونه النار لأن الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار على ضد ذلك ﴿ وأتبعوا ﴾ أى الملأ الذين اتبعوا أمر فرعون ﴿ فى هذه ﴾ أى فى الدنيا ﴿ لعنة ﴾ عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الأمم الى يوم القيامة ﴿ ويوم القيامة ﴾ أيضا حيث يلعنهم أهل الموقف قاطبة فهى تابعة لهم حينما ساروا دائرة معهم أينما داروا فى الموقف فكما اتبعوا فرعون اتبعتهم اللعنة فى الدارين جزاء وفاقا واكتفى ببيان حالهم الفظيع وشأنهم الشنيع عن بيان حال فرعون اذ حين كان حالهم هكذا فما ظنك بحال من أغواهم وألقاهم فى هذا الضلال البعيد وحيث كان شأن الاتباع أن يكونوا أعوانا للمتبوع جعلت اللعنة رفدا لهم على طريقة التهكم فقيل ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ أى بئس العون المعان وقد فسر الرفد بالعطاء ولا يلائمه المقام وأصله ما يضاف الى غيره ليعمده والمخصوص بالذم محذوف أى رفدهم وهى اللعنة فى الدارين وكونه مرفودا من حيث أن كل لعنة منها معينة وممدة لصاحبتها ومؤيدة لها ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى ما قص من أنباء الأمم وبعده باعتبار تقضيه فى الذكر والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره ﴿ من أنباء القرى ﴾ المهلكة بما جنته أيدى أهلها ﴿ نقصه عليك ﴾ خبر بعد خبر أى ذلك النبأ بعض أنباء القرى مقصوص عليك ﴿ منها ﴾ أى من تلك القرى ﴿ قائم وحصيد ﴾ أى ومنها حصيد حذف لدلالة الأول عليه شبه ما بقى منها بالزرع القائم على ساقه وما عفا وبطل بالحصيد والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب ﴿ وما ظلمناهم ﴾ بأن أهلكناهم ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف ما يوجبه ﴿ فما أغنت عنهم ﴾ فما نفعتهم ولا دفعت بأس الله تعالى عنهم ﴿ آلهتهم التى يدعون ﴾ أى يعبدونها ﴿ من دون الله ﴾ أوثر صيغة المضارع حكاية للحال الماضية أو دلالة على استمرار عبادتهم لها ﴿ من شىء ﴾ فى موضع المصدر أى شيأ من الاغناء ﴿ لما جاء أمر ربك ﴾ أى حين مجىء عذابه وهو منصوب بأغنت وقرىء آلهتهم اللاتى ويدعون على البناء للمجهول ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ أى اهلاك وتخسير فانهم انما هلكوا وخسروا بسبب عبادتهم لها ﴿ وكذلك ﴾ أى ومثل ذلك الأخذ الذى مر بيانه وهو رفع على الابتداء وخبره قوله ﴿ أخذ ربك ﴾ وقرىء أخذ ربك فمحل الكاف النصب على أنه مصدر مؤكد ﴿ اذا أخذ القرى ﴾ أى أهلها وانما أسند اليها للاشعار بسريان أثره اليها حسبما ذكر وقرىء اذ أخذ ﴿ وهى ظالمة ﴾ حال من القرى وهى فى الحقيقة لأهلها لكنها لما أقيمت مقامهم فى الأخذ أجريت الحال عليها وفائدتها الاشعار بأنهم انما أخذوا بظلمهم ليكون ذلك عبرة لكل ظالم ﴿ ان أخذه أليم شديد ﴾ وجيع صعب على المأخوذ لا يرجى منه الخلاص وفيه ما لا يخفى من التهديد والتحذير ﴿ ان فى ذلك ﴾ أى فى أخذه تعالى للامم المهلكة أو فى قصصهم ﴿ لآية ﴾ لعبرة ﴿ لمن خاف عذاب الآخرة ﴾ فانه المعتبر به حيث يستدل بما حاق بهم من العذاب الشديد بسبب ما عملوا من السيئات على أحوال عذاب الآخرة وأما من أنكر الآخرة وأحال فناء العالم وزعم أن ليس هو ولا شىء من أحواله مستندا الى الفاعل المختار وأن ما يقع فيه من الحوادث فانما يقع لأسباب تقتضيه من أوضاع فلكية تتفق فى بعض الأوقات لا لما ذكر من المعاصى التى يقترفها الامم الهالكة فهو بمعزل من هذا الاعتبار تبا لهم ولما لهم من

الأفكار ﴿ذلك﴾ اشارة الى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة ﴿يوم مجموع له الناس﴾ أى يجمع له الناس للمحاسبة والجزاء والتغيير للدلالة على ثبات معنى الجمع وتحقق وقوعه لا محالة وعدم انفكاك الناس عنه فهو أبلغ من قوله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴿وذلك﴾ أى يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمع الناس له ﴿يوم مشهود﴾ أى مشهود فيه حيث يشهد فيه أهل السموات والأرضين فاتسع فيه باجراء الظرف مجرى المفعول به كما فى قوله فى محفل من نواصى الناس مشهود أى كثير شاهدوه ولو جعل نفس اليوم مشهودا لفات ماهو الغرض من تعظيم اليوم وتهويله وتمييزه عن غيره فان سائر الأيام أيضا كذلك ﴿وما نؤخره﴾ أى ذلك اليوم الملحوظ بعنوانى الجمع والشهود ﴿الا لأجل معدود﴾ الا لانقضاء مدة قليلة مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة ﴿يوم يأت﴾ أى حين يأتى ذلك اليوم المؤخر بانقضاء أجله كقوله تعالى أن تأتيهم الساعة وقيل يوم يأتى الجزاء الواقع فيه وقيل أى الله عز وجل فان المقام مقام تفخيم شأن اليوم وقرىء باثبات الياء على الأصل ﴿لا تكلم نفس﴾ أى لا تتكلم بما ينفع وينجى من جواب أو شفاعة وهو العامل فى الظرف أو الانتهاء المحذوف فى قوله تعالى الا لأجل معدود أى ينتهى الأجل يوم يأتى أو المضمر المعهود أعنى اذكر ﴿الا باذنه﴾ عز سلطانه فى التكلم كقوله تعالى لا يتكلمون الامن أذن له الرحمن وهذا فى موطن من مواطن ذلك اليوم وقوله عز وجل هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون فى موقف آخر من مواقفه كما أن قوله سبحانه يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها فى آخر منها أو المأذون فيه الجوابات الحقة والممنوع عنه الاعذار الباطلة نعم قد يؤذن فيها أيضا لاظهار بطلانها كما فى قول الكفرة والله ربنا ما كنا مشركين ونظائره ﴿فمنهم شقى﴾ وجبت له النار بموجب الوعيد ﴿وسعيد﴾ أى ومنهم سعيد حذف الخبر لدلالة الأول عليه وهو من وجبت له الجنة بمقتضى الوعد والضمير لأهل الموقف المدلول عليهم بقوله لا تكلم نفس أو للناس وتقديم الشقى على السعيد لأن المقام مقام التحذير والانذار ﴿فأما الذين شقوا﴾ أى سبقت لهم الشقاوة ﴿ففى النار﴾ أى مستقرون فيها ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾ الزفير اخراج النفس والشهيق رده واستعمالهما فى أول النهيق وآخره قال الشماخ يصف حمار الوحش

بعيد مدى التطريب أول صوته ... زفير ويتلوه شهيق محشرج

والمراد بهما وصف شدة كربهم وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة وانحصر فيه روحه أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير وقرىء شقوا بالضم والجملة مستأنفة كأن سائلا قال ما شأنهم فيها فقيل لهم فيها كذا وكذا أو منصوبة المحل على الحالية من النار أو من الضمير فى الجار والمجرور كقوله عز اسمه ﴿خالدين فيها﴾ خلا أنه ان أريد حدوث كونهم فى النار فالحال مقدرة ﴿مادامت السموات والأرض﴾ أى مدة دوامهما وهذا التوقيت عبارة عن التأييد ونفى الانقطاع بناء على منهاج قول العرب مادام تعار وما أقام ثبير وما لاح كوكب وما اختلف الليل والنهار وما طما البحر وغير ذلك من كلمات التأبيد لا تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والأرض فان النصوص القاطعة دالة على تأبيد قرارهم فيها وانقطاع دوامهما وان أريد التعليق فالمراد سموات الآخرة وأرضها كما يدل على ذلك النصوص كقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الأرض والسموات وقوله تعالى وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وجزم كل أحد بأن أهل الآخرة لابد لهم من مظلة ومقلة دائمتين يكفى فى تعليق دوام قرارهم فيها بدوامهما ولا حاجة الى الوقوف على تفاصيل أحوالهما وكيفياتهما ﴿الا ماشاء ربك﴾ استثناء من الخلود على طريقة قوله تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى وقوله ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف وقوله تعالى حتى يلج الجمل فى سم الخياط غير أن استحالة الامور المذكورة معلومة بحكم العقل واستحالة تعلق المشيئة بعدم الخلود معلومة بحكم النقل يعنى انهم

مستقرون فى النار فى جميع الأزمنة الا فى زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم فيها واذ لاامكان لتلك المشيئة ولا لزمانها بحكم النصوص القاطعة الموجبة للخلود فلاامكان لانتهاء مدة قرارهم فيها ولدفع ماعسى يتوهم من كون استحالة تعلق مشيئة الله تعالى بعدم الخلود بطريق الوجوب على الله تعالى قال ﴿ان ربك فعال لما يريد﴾ يعنى انه فى تخليد الأشقياء فى النار بحيث يستحيل وقوع خلافه فعال بموجب ارادته قاض بمقتضى مشيئته الجارية على سنن حكمته الداعية الى ترتيب الأجزية على أفعال العباد والعدول من الاضمار الى الاظهار لتربية المهابة و زيادة التقرير وقيل هو استثناء من الخلود فى عذاب النار فانهم لايخلدون فيه بل يعذبون بالزمهرير و بأنواع أخر من العذاب و بما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله تعالى عليهم وخسؤه لهم واهانته اياهم وأنت تدرى أنا وان سلمنا أن المراد بالنار ليس مطلق دار العذاب المشتملة على أنواع العذاب بل نفس النار فما خلا عذاب الزمهرير من تلك الأنواع مقارن لعذاب النار فلا مصداق فى ذلك للاستثناء ولك أن تقول انهم ليسوا بمخلدين فى العذاب الجسمانى الذى هو عذاب النار بل لهم من أفانين العذاب مالا يعلمه الا الله سبحانه وهى العقوبات والآلام الروحانية التى لا يقف عليها فى هذه الحياة الدنيا المنغمسون فى أحكام الطبيعة المقصور ادراكهم على ما ألفوا من الأحوال الجسمانية وليس لهم استعداد لتلقى ما وراء ذلك من الأحوال الروحانية اذا ألقى اليهم و لذلك لم يتعرض لبيانه وا كتفى بهذه المرتبة الاجمالية المنبئة عن التهويل وهذه العقوبات وان كانت تعتريهم وهم فى النار لكنهم ينسون بها عذاب النار ولا يحسون به وهذه المرتبة كافية فى تحقيق معنى الاستثناء هذا وقد قيل الا بمعنى سوى وهو أوفق بما ذكر وقيل ما بمعنى من على ارادة معنى الوصفية فالمعنى ان الذين شقوا فى النار مقدرين الخلود فيها الا الذين شاء الله عدم خلودهم فيها وهم عصاة المؤمنين ﴿وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض﴾ الكلام فيه كالكلام فيما سبق خلا أنه لم يذكر ههنا أن لهم فيها بهجة وسرورا كما ذكر فى أهل النار من أنه لهم فيها زفير وشهيق لأن المقام مقام التحذير والانذار ﴿الا ما شاء ربك﴾ ان حمل على طريقة التعليق بالمحال فقوله سبحانه ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ نصب على المصدرية من معنى الجملة لأن قوله تعالى ففى الجنة خالدين فيها يقتضى اعطاء وانعاما فكانه قيل يعطيهم عطاء وهو اما اسم مصدر هو الاعطاء أو مصدر بحذف الزوائد كقوله تعالى أنبتكم من الأرض نباتا وان حمل على ما أعد الله لعباده الصالحين من النعيم الروحانى الذى عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهو نصب على الحالية من المفعول المقدر للمشيئة أو تمييز فان نسبة مشيئة الخروج الى الله تعالى يحتمل أن تكون على جهة عطاء مجذوذ وعلى جهة عطاء غير مجذوذ فهو رافع للابهام عن النسبة قال ابن زيد أخبرنا الله تعالى بالذى يشاء لأهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذى يشاء لأهل النار ويجوز أن يتعلق بكلا التعيمين أو بالأول دفعا لما يتوهم من ظاهر الاستثناء من انقطاعه ﴿فلاتك فى مرية﴾ أى فى شك والفاء لترتيب النهى على ماقص من القصص و بين فى تضاعيفها من العواقب الدنيوية والاخروية ﴿مما يعبد هؤلاء﴾ أى من جهة عبادة هؤلاء المشركين وسوء عاقبتها أو من حال مايعبدونه من الاوثان فى عدم نفعه لهم ولما كان مساق النظم الكريم قبيل الشروع فى القصص لبيان غاية سوء حال الكفرة وكمال حسن حال المؤمنين وقد ضرب لهم مثل فقيل مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون وقد قص عقيب ذلك من أنباء الامم السالفة مع رسلهم المبعوثة اليهم مايتذكر به المتذكر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كونه فى شك من مصير أمر هؤلاء المشركين فى العاجل والآجل ثم علل ذلك بطريق الاستئناف فقيل ﴿مايعبدون الا كما يعبد آباؤهم﴾ الذين قصت عليك قصصهم ﴿من قبل﴾ أى هم و آباؤهم

سواء فى الشرك مايعبدون عبادة الا كعبادتهم أو مايعبدون شيئاً الا مثل ماعبدوه من الاوثان والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها أو مثل ما كانوا يعبدونه فحذف كان لدلالة قوله من قبل عليه ولقد بلغك مالحق بآبائهم فسيلحقهم مثل ذلك فان تماثل الاسباب يقتضى تماثل المسببات ﴿وانا لموفوهم﴾ أى هؤلاء الكفرة ﴿نصيبهم﴾ أى حظهم المعين لهم حسب جرائمهم وجرائرهم من العذاب عاجلا وآجلا كما وفينا آباءهم أنصباءهم المقدرة لهم أو من الرزق المقسوم لهم فيكون بيانا لوجه تأخر العذاب عنهم مع تحقق مايوجبه ﴿غيرمنقوص﴾ حال مؤكدة من النصيب كقوله تعالى ثم وليتم مدبرين وفائدته دفع توهم التجوز وجعلها مقيدة له لدفع احتمال كونه منقوصا فى حد نفسه مبنى على الذهول عن كون العامل هو التوفية فتأمل ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أى التوراة ﴿فاختلف فيه﴾ أى فى شأنه وكونه من عند الله تعالى فآمن به قوم وكفر به آخرون فلا تبال باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن وقولهم لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وزعمهم انك افتريته ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ وهى كلمة القضاء بانظارهم الى يوم القيامة على حسب الحكمة الداعية الى ذلك ﴿لقضى بينهم﴾ أى لأوقع القضاء بين المختلفين من قومك بانزال العذاب الذى يستحقه المبطلون ليتميزوا به عن المحقين وقيل بين قوم موسى وليس بذاك ﴿وانهم﴾ أى وان كفار قومك أريد به بعض من رجع اليهم ضمير بينهم للأمن من الالباس ﴿لفى شك﴾ عظيم ﴿منه﴾ أى من القرآن وان لم يجر له ذكر فان ذكر ايتاء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه لاسيما بصدد التسلية ينادى به نداء غير خفى ﴿مريب﴾ موقع فى الريبة ﴿وان كلا﴾ التنوين عوض عن المضاف اليه أى وان كل المختلفين فيه المؤمنين منهم والكافرين وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الأعمال اعتباراً للأصل ﴿لما ليوفينهم ربك أعمالهم﴾ أى أجزية أعمالهم واللام الأولى موطئة للقسم والثانية جواب للقسم المحذوف ولما مركبة من من الجارة وما الموصولة أو الموصوفة وأصلها لمن فقلبت النون ميما للادغام فاجتمع ثلاث ميمات فحذفت أولاهن والمعنى لمن الذى أو لمن خلق أو لمن فريق والله ليوفينهم ربك وقرىء لما بالتخفيف على أن ما مزيدة للفصل بين اللامين والمعنى وان جميعهم والله ليوفينهم الآية وقرىء لما بالتنوين أى جميعا كقوله سبحانه أكلا لما وقرأ أبى وان كل لما ليوفينهم على أن ان نافية ولما بمعنى الا وقد قرىء به ﴿انه بما يعملون﴾ أى بما يعمله كل فرد من المختلفين من الخير والشر ﴿خبير﴾ بحيث لايخفى عليه شىء من جلائله ودقائقه وهو تعليل لما سبق من توفية أجزية أعمالهم فان الاحاطة بتفاصيل أعمال الفريقين وما يستوجبه كل عمل بمقتضى الحكمة من الجزاء المخصوص توجب توفية كل ذى حق حقه ان خيراً فخير وان شراً فشر ﴿فاستقم كما أمرت﴾ لما بين فى تضاعيف القصص المحكية عن الأمم الماضية سوء عاقبة الكفر وعصيان الرسل وأشير الى أن حال هؤلاء الكفرة فى الكفر والضلال واستحقاق العذاب مثل أولئك المعذبين وأن نصيبهم من العذاب واصل اليهم من غير نقص وأن تكذيبهم للقرآن مثل تكذيب قوم موسى عليه السلام للتوراة وأنه لولم تسبق كلمة القضاء بتأخير عقوبتهم العامة ومؤاخذتهم التامة الى يوم القيامة لفعل بهم مافعل بآبائهم من قبل وأنهم يوفون نصيبهم غير منقوص وأن كل واحد من المؤمنين والكافرين يوفى جزاء عمله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة كما أمر به فى العقائد والاعمال المشتركة بينه وبين سائر المؤمنين ولاسيما الاعمال الخاصة به عليه السلام من تبليغ الأحكام الشرعية والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة بحيث يدخل تحته ماأمر به فيما سبق من قوله تعالى فلعلك تارك بعض مايوحى اليك وضائق به صدرك الآية وبالجملة فهذا الامر منتظم لجميع محاسن الأحكام الأصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية والخروج من عهدته فى غاية مايكون من الصعوبة ولذلك

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شيبتنى سورة هود ﴿ومن تاب معك﴾ أى تاب من الشرك والكفر وشاركك فى الايمان وهو المعنى بالمعية وهو معطوف على المستكن فى قوله فاستقم وحسن من غير تأكيد لمكان الفاصل القائم مقامه و فى الحقيقة هو من عطف الجملة على الجملة اذ المعنى وليستقم من تاب معك وقيل هو منصوب على أنه مفعول معه كما قاله أبو البقاء والمعنى استقم مصاحبا لمن تاب معك ﴿ولا تطغوا﴾ و لا تنحرفوا عما حد لكم بافراط أو تفريط فان كلا طرفى قصد الأمور ذميم وانما سمى ذلك طغيانا وهو تجاوز الحد تغليظا أو تغليبا لحال سائر المؤمنين على حاله عليه السلام ﴿انه بما تعملون بصير﴾ فيجازيكم على ذلك وهو تعليل للأمر والنهى وفى الآية دلالة على وجوب اتباع المنصوص عليه من غير انحراف بمجرد الرأى فانه طغيان وضلال وأما العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعلل النصوص فذلك من باب الاستقامة كما أمر على موجب النصوص الآمرة بالاجتهاد ﴿ولا تركنوا﴾ أى لا تميلوا أدنى ميل ﴿الى الذين ظلموا﴾ أى الى الذين وجد منهم الظلم فى الجملة ومدار النهى هو الظلم والجمع باعتبار جمعية المخاطبين وما قيل من أن ذلك للمبالغة فى النهى من حيث أن كونهم جماعة مظنة الرخصة فى مداهنتهم انما يتم أن لو كان المراد النهى عن الركون اليهم من حيث انهم جماعة وليس كذلك ﴿فتمسكم﴾ بسبب ذلك ﴿النار﴾ واذا كان حال الميل فى الجملة الى من وجد منه ظلم ما فى الافضاء الى مساس النار هكذا فما ظنك بمن يميل الى الراسخين فى الظلم والعدوان ميلا عظيما و يتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم و يلقى شراشره على مؤانستهم ومعاشرتهم و يبتهج بالتزيى بزيهم و يمد عينيه الى زهرتهم الفانية و يغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية وهو فى الحقيقة من الحبة طفيف ومن جناح البعوض خفيف بمعزل عن أن تميل اليه القلوب ضعف الطالب والمطلوب والآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم والتهديد عليه وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التى هى العدل فان الميل الى أحد طرفى الافراط والتفريط ظلم على نفسه أو على غيره وقرىء تركنوا على لغة تميم وتركنوا على صيغة البناء للمفعول من أركنه ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ أى من أنصار ينقذونكم من النار والجملة نصب على الحالية من قوله فتمسكم النار ونفى الأولياء ليس بطريق نفى أن يكون لكل واحد منهم أولياء حتى يصدق أن يكون له ولى بل لمكان لكم بطريق انقسام الآحاد على الآحاد لكن لا على معنى نفى استقلال كل منهم بنصير بل على معنى نفى أن يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام ﴿ثم لا تنصرون﴾ من جهة الله سبحانه اذ قد سبق فى حكمه أن يعذبكم بركونكم اليهم و لا يبقى عليكم وثم لتراخى رتبة كونهم غير منصورين من جهة الله بعد ما أوعدهم بالعذاب وأوجبه عليهم و يجوز أن يكون منزلا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فانه لما بين أن الله تعالى معذبهم وأن غيره لا ينقذهم أنتج أنهم لا ينصرون أصلا ﴿وأقم الصلوة طرفى النهار﴾ أى غدوة وعشية وانتصابه على الظرفية لكونه مضافا الى الوقت ﴿وزلفا من الليل﴾ أى ساعات منه قريبة من النهار فانه من أزلفه اذا قربه جمع زلفة عطف على طرفى النهار والمراد بصلاتيهما صلاة الغداة والعصر وقيل الظهر موضع العصر لأن ما بعد الزوال عشى و بصلاة الزلف المغرب والعشاء وقرىء زلفا بضمتين وضمة وسكون كبسر و بسر و زلفى بمعنى زلفة كقربى بمعنى قربة ﴿ان الحسنات﴾ التى من جملتها بل عمدتها ما أمرت به من الصلوات ﴿يذهبن السيئات﴾ التى قلما يخلو منها البشر أى يكفرنها و فى الحديث ان الصلاة الى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنب الكبائر وقيل نزلت فى أبى اليسر الانصارى اذ قبل امرأة ثم ندم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل فقال عليه السلام أنتظر أمر ربى فلما صلى صلاة العصر نزلت قال عليه السلام نعم اذهب فانها كفارة لما عملت أو يمنعن من اقترافها كقوله تعالى ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿ذلك﴾ اشارة الى قوله تعالى فاستقم فما بعده وقيل الى القرآن ﴿ذكرى للذاكرين﴾ أى عظة للمتعظين

﴿ واصبر ﴾ على مشاق ماأمرت به فى تضاعيف الأوامر السابقة وأمامانهى عنه من الطغيان والركون الى الذين ظلموا فليس فى الانتهاء عنه مشقة فلاوجه لتعميم الصبر له اللهم الا أن يراد به مالا يمكن عادة خلو البشر عنه من أدنى ميل بحكم الطبيعة عن الاستقامة المأمور بها ومن يسير ميل بحكم البشرية الى من وجد منه ظلم ما فان فى الاحتراز عن أمثاله من المشقة مالا يخفى ﴿ فان الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ أى يوفيهم أجور أعمالهم من غير بخس أصلا وانما عبر عن ذلك بنفى الاضاعة مع أن عدم اعطاء الأجر ليس باضاعة حقيقة كيف لا والأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه من القبائح وابراز الاثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه وانما عدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع افادة فائدة عامة لكل من يتصف به وهو تعليل للامر بالصبر وفيه ايماء الى أن الصبر على ما ذكر من باب الاحسان ﴿ فلولا كان ﴾ فهلا كان ﴿ من القرون ﴾ الكائنة ﴿ من قبلكم ﴾ على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أو كائنة من قبلكم ﴿ أولو بقية ﴾ من الرأى والعقل أو أولو فضل وخير وسميا بها لأن الرجل انما يستبقى مما يخرجه عادة أجوده وأفضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم ومنه ماقيل فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية من التقوى أى فهلا كان منهم ذوو ابقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه ويؤيده أنه قرئ أولو بقية وهى المرة من مصدر بقاه يبقيه اذا راقبه وانتظره أى أولو مراقبة وخشية من عذاب الله تعالى كأنهم ينتظرون نزوله لاشفاقهم ﴿ ينهون عن الفساد فى الأرض ﴾ الواقع منهم حسب ما حكى عنهم ﴿ الا قليلا ممن أنجينا منهم ﴾ استثناء منقطع أى لكن قليلا منهم أنجيناهم لكونهم على تلك الصفة على أن من للبيان لا للتبعيض لأن جميع الناجين ناهون ولا صحة للاتصال على ظاهر الكلام لأنه يكون تحضيضا لأولى البقية على النهى المذكور الا للقليل من الناجين منهم كما اذا قلت هلا قرأ قومك القرآن الا الصلحاء منهم مريداً لاستثناء الصلحاء من المحضضين على القراءة نعم يصح ذلك ان جعل استثناء من النفى اللازم للتحضيض فكأنه قيل ما كان من القرون أولو بقية الا قليلا منهم لكن الرفع هو الأفصح حينئذ على البدلية ﴿ واتبع الذين ظلموا ﴾ بمباشرة الفساد وترك النهى عنه ﴿ ما أترفوا فيه ﴾ أى أنعموا من الشهوات واهتموا بتحصيلها أما المباشرون فظاهر وأما المساهلون فلما لهم فى ذلك من نيل حظوظهم الفاسدة وقيل المراد بهم تاركو النهى وأنت خبير بأنه يلزم منه عدم دخول مباشرى الفساد فى الظلم والاجرام عبارة ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ أى كافرين فهو بيان لسبب استئصال الأمم المهلكة وهو فشو الظلم واتباع الهوى فيهم وشيوع ترك النهى عن المنكرات مع الكفر وقوله واتبع عطف على مضمر دل عليه الكلام أى لم ينهوا واتبع الخ فيكون العدول الى المظهر لادراج المباشرين معهم فى الحكم والتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بعلية ذلك لما حاق بهم من العذاب أو على استئناف يترتب على قوله الا قليلا أى الا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا من مباشرى الفساد وتاركى النهى عنه فيكون الاظهار مقتضى الظاهر وقوله وكانوا مجرمين عطف على أترفوا أى اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام أو أريد بالاجرام اغفالهم للشكر أو على اتبع أى اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين ويجوز أن يكون اعتراضا وتسجيلا عليهم بأنهم قوم مجرمون وقرئ وأتبع أى أتبعوا جزاء ما أترفوا فتكون الواو للحال ويجوز أن يفسر به المشهورة ويعضده تقدم الانجاء ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى ﴾ أى ما صح وما استقام بل استحال فى الحكمة أن يهلك القرى التى أهلكها حسب ما بلغك أنباؤها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتأكيد النفى وقوله ﴿ بظلم ﴾ أى ملتبسا به قيل هو حال من الفاعل أى ظالما لها والتنكير للتفخيم والايذان بأن اهلاك المصلحين ظلم

عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة مايستحيل صدوره عنه تعالى والا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائنا ما كان لما تقرر من قاعدة أهل السنة وقد مر تفصيله فى سورة آل عمران عند قوله تعالى وان الله ليس بظلام للعبيد وقوله تعالى ﴿وأهلها مصلحون﴾ حال من المفعول والعامل عامله ولكن لا باعتبار تقيده بما وقع حالا من فاعله أعنى بظلم لدلالته على تقيد نفى الاهلاك ظلما بحال كون أهلها مصلحين ولا ريب فى فساده بل مطلقا عن ذلك وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسببية أى لا يهلك القرى بسبب اشراك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون الى شركهم فسادا آخر وذلك لفرط رحمته ومسامحته فى حقوقه تعالى ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله تعالى الغنى الحميد وقيل الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم وأنت تدرى أن مقام النهى عن المنكرات التى أقبحها الاشراك بالله لا يلائمه فان الشرك داخل فى الفساد فى الأرض دخولا أوليا ولذلك كان ينهى كل من الرسل الذين قصت أنباؤهم أمته أولا عن الاشراك ثم عن سائر المعاصى التى كانوا يتعاطونها فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من أصناف المعاصى وحمل الاصلاح على اصلاحه والاقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهى عنه وبعضهم متوجهين الى الاتعاظ غير مصرين على ماهم عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ مجتمعة على الحق ودين الاسلام بحيث لا يكاد يختلف فيه أحد ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متفقين على الحق ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ فى الحق أى مخالفين له كقوله تعالى وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ﴿الا من رحم ربك﴾ الا قوما قد هداهم الله تعالى بفضله الى الحق فاتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه أى لم يخالفوه وحمله على مطلق الاختلاف الشامل لما يصدر من المحق والمبطل يأباه الاستثناء المذكور ﴿ولذلك﴾ أى ولما ذكر من الاختلاف ﴿خلقهم﴾ أى الذين بقوا بعد الثنيا وهم المختلفون فاللام للعاقبة أو للترحم فالضمير لمن واللام فى معناها أو لهما معا فالضمير للناس كافة واللام بمعنى مجازى عام لكلا المعنيين ﴿وتمت كلمة ربك﴾ أى وعيده أو قوله للملائكة ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ أى من عصاتهما أجمعين أو منهما أجمعين لا من أحدهما ﴿وكلا﴾ أى وكل نبأ فالتنوين عوض عن المضاف اليه ﴿نقص عليك﴾ نخبرك به وقوله تعالى ﴿من أنباء الرسل﴾ بيان لكلا وقوله تعالى ﴿ما نثبت به فؤادك﴾ بدل منه والأظهر أن يكون المضاف اليه المحذوف فى كلا المفعول المطلق لنقص أى كل اقتصاص أى كل أسلوب من أساليبه نقص عليك من أنباء الرسل وقوله تعالى ما نثبت به فؤادك مفعول نقص وفائدته التنبيه على أن المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذية الكفار بالوقوف على تفاصيل أحوال الأمم السالفة فى تماديهم فى الضلال وما لقى الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق ﴿وجاءك فى هذه﴾ السورة أو الأنباء المقصوصة عليك ﴿الحق﴾ الذى لا محيد عنه ﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ أى الجامع بين كونه حقا فى نفسه وكونه موعظة وذكرى للمؤمنين ولكون الوصف الأول حالا له فى نفسه حلى باللام دونما هو وصف له بالقياس الى غيره وتقديم الظرف أعنى فى هذه على الفاعل لأن المقصود بيان منافع السورة أو الأنباء المقصوصة فيها واشتمالها على ماذكر من المنافع المفصلة لابيان كون ذلك فيها لا فى غيرها ولأن عند تأخير ما حقه التقديم تبقى النفس مترقبة اليه فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن ولأن فى المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم ﴿وقل للذين لا يؤمنون﴾ بهذا الحق ولا يتعظون به ولا يتذكرون ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ على حالكم وجهتكم التى هى عدم الايمان ﴿انا عاملون﴾ على حالنا وهو الايمان به والاتعاظ والتذكر به ﴿وانتظروا﴾ بنا الدوائر

﴿ انا منتظرون ﴾ أن ينزل بكم نحو ما نزل بأمثالكم من الكفرة ﴿ ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله ﴾ فيرجع لا محالة أمرك وأمرهم اليه وقرئ على البناء للفاعل من رجع رجوعا ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ فانه كافيك والفاء لترتيب الامر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الامور كلها الى الله تعالى وفى تأخير الامر بالتوكل عن الامر بالعبادة اشعار بأنه لا ينفع دونها ﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ فيجازيهم بموجبه وقرئ تعملون على تغليب المخاطب أى أنت وهم فيجازى كلا منك ومنهم بموجب الاستحقاق . عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قرأ سورة هود أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق كل واحد من الانبياء المعدودين فيها عليهم الصلاة والسلام وبعدد من كذبهم وكان يوم القيامة من السعداء بفضل الله سبحانه وتعالى

سورة يوسف عليه السلام

(وهى مائة واحدى عشرة آية)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الر ﴾ الكلام فيه وفى محله وفيما أريد بالاشارة والآيات والكتاب فى قوله تعالى ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ عين ما سلف فى مطلع سورة يونس ﴿ المبين ﴾ من أبان بمعنى بان أى الظاهر أمره فى كونه من عند الله تعالى وفى اعجازه بنوعيه لا سيما الاخبار عن الغيب أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقائقه ولا يلتبس لديهم دقائقه لنزوله على لغتهم أو بمعنى بين أى المبين لما فيه من الأحكام والشرائع وخفايا الملك والملكوت وأسرار النشأتين فى الدارين وغير ذلك من الحكم والمعارف والقصص وعلى تقدير كون الكتاب عبارة عن السورة فابانته انباؤه عن قصة يوسف عليه السلام فانه قد روى أن أحبار اليهود قالوا لرؤساء المشركين سلوا محمدا صلى الله عليه وسلم لماذا انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام ففعلوا ذلك فيكون وصف الكتاب بالابانة من قبيل براعة الاستهلال لما سيأتى ولما وصف الكتاب بما يدل على الشرف الذاتى عقب ذلك بما يدل على الشرف الاضافى فقيل ﴿ انا أنزلناه ﴾ أى الكتاب المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة فان كان عبارة عن الكل وهو الاظهر الأنسب بقوله تعالى ﴿ قرآنا عربيا ﴾ اذ هو المشهور بهذا الاسم المعروف بهذا النعت المتسارع الى الفهم عند اطلاقهما فالأمر ظاهر وان جعل عبارة عن السورة فتسميتها قرآنا لما عرفته فيما سلف والسر فى ذلك أنه اسم جنس فى الأصل يقع على الكل والبعض كالكتاب أو لانه مصدر بمعنى المفعول أى أنزلناه حال كونه مقروءا بلغتكم ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أى لكى تفهموا معانيه طرا وتحيطوا بما فيه من البدائع خبرا وتطلعوا على أنه خارج عن طوق البشر منزل من عند خلاق القوى والقدر ﴿ نحن نقص عليك ﴾ أى نخبرك ونحدثك واشتقاقه من قص أثره اذا اتبعه لان من يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيأ فشيأ كما يقال تلا القرآن لانه يتبع ما حفظ منه آية بعد آية ﴿ أحسن القصص ﴾ أى أحسن الاقتصاص فنصبه على المصدرية وفيه مع بيان الواقع ايهام لما فى اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل وترك المفعول اما للاعتماد على انفهامه من قوله عز وجل ﴿ بما أوحينا ﴾ أى بايحائنا ﴿ اليك هذا القرآن ﴾ أى هذه السورة فان كونها موحاة منبئ عن كون ما فى ضمنها مقصوصا والتعرض لعنوان قرآنيتها لتحقيق أن الاقتصاص ليس بطريق الالهام أو الوحى غير المتلو واما لظهوره من سؤال المشركين بتلقين علماء اليهود . وأحسنيته لأنه قد اقتص على أبدع الطرائق الرائعة الرائقة وأعجب الاساليب الفائقة اللائقة كما لا يكاد يخفى على من طالع القصة من كتب الأولين والآخرين وان كان لا يميز الغث من السمين ولا يفرق بين الشمال

واليمين و فى كلمة هذا ايماء الى مغايرة هذا القرآن لما فى قوله تعالى قرآنا عربيا بأن يكون المراد بذلك المجموع فتأمل أو نقص عليك أحسن ما نقص من الأنباء وهو قصة آل يعقوب عليه السلام على أن القصص فعل بمعنى المفعول كالنبأ والخبر أو مصدر سمى به المفعول كالخلق والصيد ونصب أحسن على المفعولية وأحسنيتها لتضمنها من الحكم والعبر ما لا يخفى كمال حسنه ﴿وان كنت﴾ ان مخففة من الثقيلة وضمير الشأن الواقع اسمها لها محذوف واللام فارقة والجملة خبر والمعنى وان الشأن كنت ﴿من قبله﴾ من قبل ايحائنا اليك هذه السورة ﴿لمن الغافلين﴾ عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط وهو تعليل لكونه موحى والتعبير عن عدم العلم الغفلة لاجلال شأن النبى عليه السلام وان غفل عنه بعض الغافلين ﴿اذ قال يوسف﴾ نصب باضمار اذكر وشروع فى القصة انجازا للوعد بأحسن الاقتصاص أو بدل من أحسن القصص على تقدير كونه مفعولا بدل اشتمال فان اقتصاص الوقت المشتمل على المقصوص من حيث اشتماله عليه اقتصاص للمقصوص و يوسف اسم عبرى لاعربى لخلوه عن سبب آخر غير التعريف وفتح السين و كسرها على بعض القراءات بناء على التلعب به لا على أنه مضارع بنى للمفعول أو الفاعل من آسف لشهادة المشهورة بعجمته ﴿لأبيه﴾ يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وقد روى عنه عليه السلام ان الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ﴿ياأبت﴾ أصله ياأبى فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما فى الزيادة فلذلك قلبت هاء فى الوقف على قراءة ابن كثير وأبى عمرو و يعقوب و كسرتها لانها عوض عن حرف يناسبها وفتحها ابن عامر فى كل القرآن لانها حركة أصلها أو لان الاصل ياأبتا فحذف الالف وبقى الفتحة وانما لم يجز ياأبتى لانه جمع بين العوض والمعوض وقرئ بالضم اجراء لها مجرى الالفاظ المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض وعدم تسكينها كاصلها لانها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب ﴿انى رأيت﴾ من الرؤيا لا من الرؤية لقوله لاتقصص رؤياك هذا تأويل رؤياى ولان الظاهر أن وقوع مثل هذه الامور البديعة فى عالم الشهادة لايختص برؤية راء دون راء فيكون طامة كبرى لا يخفى على أحد من الناس ﴿أحد عشر كوكبا والشمس والقمر﴾ روى عن جابر رضى الله عنه أن يهوديا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرنى يامحمد عن النجوم التى رآهن يوسف عليه السلام فسكت النبى عليه السلام فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال عليه السلام اذا أخبرتك بذلك هل تسلم فقال نعم قال عليه السلام جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرع و وثاب وذو الكتفين رآها يوسف عليه السلام والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له فقال اليهودى اى والله انها لاسماؤها وقيل الشمس والقمر أبواه وقيل أبوه وخالته والكواكب اخوته وانما أخر الشمس والقمر عن الكواكب لاظهار مزيتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليها كما فى عطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام وقد يجوز أن تكون الواو بمعنى مع أى رأيت الكواكب مع الشمس والقمر ولا يبعد أن يكون ذلك اشارة الى تأخر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته لاخوته وعن وهب ان يوسف عليه السلام رأى وهو ابن سبع سنين أن احدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة فى الأرض كهيئة الدارة واذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها فوصف ذلك لأبيه فقال اياك أن تذكر هذا لاخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتى عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لاتقصها عليهم فيبغوا لك الغوائل وقيل كان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه أربعون سنة وقيل ثمانون ﴿رأيتهم لى ساجدين﴾ استئناف ببيان حالهم التى رآهم عليها كأن سائلا سأل فقال كيف رأيتهم فأجاب بذلك وانما أجريت مجرى العقلاء فى الضمير لوصفها بوصف

العقلاء أعنى السجود وتقديم الجار والمجرور لاظهار العناية والاهتمام بما هو الاهم مع ما فى ضمنه من رعاية الفاصلة ﴿قال يابنى﴾ صغره للشفقة أولها ولصغر السن وهو أيضا استئناف مبنى على سؤال من قال فماذا قال يعقوب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة ولما عرف يعقوب عليه السلام من هذه الرؤيا أن يوسف يبلغه الله تعالى مبلغا جليلا من الحكمة و يصطفيه للنبوة و ينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرام خاف عليه حسد الاخوة و بغيهم فقال صيانة لهم من ذلك وله من معاناة المشاق ومقاساة الاحزان وان كان واثقا بأن الله تعالى سيحقق ذلك لامحالة وطمعا فى حصوله بلا مشقة ﴿لاتقصص رؤياك﴾ هى ما فى المنام كما أن الرؤية ما فى اليقظة فرق بينهما بحرفى التأنيث كما فى القربى والقربة وحقيقتها ارتسام الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة الى الحس المشترك والصادقة منها انما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق من المعانى الحاصلة هناك ثم ان المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها الى الحس المشترك فتصير مشاهدة ثم اذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت الا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير والا احتاجت اليه ﴿على اخوتك فيكيدوا﴾ نصب باضمار أن أى فيفعلوا ﴿لك﴾ أى لاجلك ولاهلاكك ﴿كيدا﴾ متينا راسخا لاتقدر على التفصى عنه أو خفيا عن فهمك لاتتصدى لمدافعته وهذا أوفق بمقام التحذير وان كان يعقوب عليه السلام يعلم أنهم ليسوا بقادرين على تحويل ما دلت الرؤيا على وقوعه وهذا الاسلوب آكد من أن يقال فيكيدوك كيدا اذ ليس فيه دلالة على كون نفس الفعل مقصود الايقاع وقد قيل انما جىء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدى باللام ليفيد معنى المضمن والمضمن فيه للتأكيد أى فيحتالوا لك ولاهلاكك حيلة و كيدا والمراد باخوته ههنا الذين يخشى غوائلهم ومكايدهم بنو علاته الاحدعشر وهم يهوذا و روبيل وشمعون و لاوى وربالون و يشجر ودينة بنو يعقوب من ليا بنت خالته ودان ونفتالى وجاد وآشر بنوه من سريتين زلفة و بلهة وهؤلاء هم المشار اليهم بالكواكب الاحدعشر وأما بنيامين الذى هو شقيق يوسف عليه السلام وأمهما راحيل التى تزوجها يعقوب عليه السلام بعد وفاة أختها ليا أوفى حياتها اذ لم يكن جمع الاختين اذ ذاك محرما فليس بداخل تحت هذا النهى اذ لايتوهم مضرته ولايخشى معرته ولم يكن معدودا معهم فى الرؤيا اذ لم يكن معهم فى السجود ليوسف والمراد نهيه عن اقتصاص الرؤيا عليهم كلا أو بعضا ﴿ان الشيطان للانسان عدو مبين﴾ ظاهر العداوة فلا يألوجهدا فى اغراء اخوتك واضلالهم وحملهم على مالا خير فيه وهو استئناف كأن يوسف عليه السلام قال كيف يصدر ذلك عن اخوتى الناشئين فى بيت النبوة فقيل ان الشيطان يحملهم على ذلك ولما نبهه عليهما السلام على أن لرؤياه شأنا عظيما يستتبع منافع وحذره اشاعتها المؤدية الى أن يحول اخوته بينها و بين ظهور آثارها وحصولها أو يوعروا سبيل وصولها شرع فى تعبيرها وتأويلها على وجه اجمالى فقال ﴿وكذلك﴾ أى ومثل ذلك الاجتباء البديع الذى شاهدت آثاره فى عالم المثال من سجود تلك الاجرام العلوية النيرة لك وبحسبه وعلى وفقه ﴿يجتبيك ربك﴾ يختارك لجناب كبريائه و يستنبؤك افتعال من جباه اذا جمعه و يصطفيك على أشراف الخلائق وسراة الناس قاطبة و يبرز مصداق تلك الرؤيا فى عالم الشهادة حسب ما عاينته من غير قصور والمراد بالتشبيه بيان المضاهاة المتحققة بين الصور المرئية فى عالم المثال و بين ما وقعت هى صورا وأشباحا له من الكائنات الظاهرة بحسبها فى عالم الشهادة أى كما سخرت لك تلك الاجرام العظام يسخر لك وجوه الناس ونواصيهم مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ومراده بيان اطاعة أبويه واخوته له لكنه انما لم يصرح به حذرا من اذاعته ﴿ويعلمك﴾ كلام مبتدأ غير داخل تحت التشبيه أراد به عليه السلام تأكيد مقالته

وتحقيقها وتوطين نفس يوسف عليه السلام بما أخبر به على طريقة التعبير والتأويل كأنه قال وهو يعلمك ﴿من تأويل الأحاديث﴾ أى ذلك الجنس من العلوم أو طرفا صالحا منه فتطلع على حقية ما أقول ولا يخفى ما فيه من تأكيد ما سبق والبعث على تلقى ما سيأتى بالقبول والمراد بتأويل الاحاديث تعبير الرؤيا اذ هى أحاديث الملك ان كانت صادقة أو أحاديث النفس أو الشيطان ان لم تكن كذلك والاحاديث اسم جمع للحديث كالاباطيل اسم جمع للباطل لا جمع أحدوثة وقيل كأنهم جمعوا حديثا على أحدثة ثم جمعوا الجمع على أحاديث كقطيع وأقطعة وأقاطيع وقيل هو تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الانبياء عليهم السلام والأول هو الأظهر وتسمية التعبير تأويلا لانه جعل المرئى آئلا الى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ورجعه اليه فكأنه عليه الصلاة والسلام أشار بذلك الى ما سيقع من يوسف عليه السلام من تعبيره لرؤيا صاحبى السجن ورؤيا الملك وكون ذلك ذريعة الى ما يبلغه الله تعالى اليه من الرياسة العظمى التى عبر عنها باتمام النعمة وانما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحى أو أراد كون هذه الخصلة سببا لظهور أمره عليه السلام على الاطلاق فيجوز حينئذ أن تكون معرفته عليه السلام لذلك بطريق الفراسة والاستدلال من الشواهد والدلائل والامارات والمخايل بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لابد من توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالها وتمييز ما هو آفاقى منها مما هو أنفسى كيف لا وهى تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام فى عالم المثال وقوة تصرفاتها فيه فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الامور الواقعة بحسبها فى عالم الشهادة وأقوى وقوفا على النسب الواقعة بين الصور المعاينة فى أحد ذينك العالمين وبين الكائنات الظاهرة على وفقها فى العالم الآخر وأن هذا الشأن البديع لابد أن يكون انموذجا لظهور أمر من اتصف به ومدارا لجريان أحكامه فان لكل نبى من الانبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة بها تظهر آثاره وتجرى أحكامه ﴿ويتم نعمته عليك﴾ بأن يضم الى النبوة المستفادة من الاجتباء الملك ويجعله تتمة لها وتوسيط ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه من لوازم النبوة والاجتباء ولرعاية ترتيب الوجود الخارجى ولما أشرنا اليه من كون أثره وسيلة الى تمام النعمة ويجوز أن يعد نفس الرؤيا من نعم الله تعالى عليه فيكون جميع النعم الواصلة اليه بحسبها مصداقا لها تماما لتلك النعمة ﴿وعلى آل يعقوب﴾ وهم أهله من بنيه وغيرهم فان رؤية يوسف عليه السلام اخوته كواكب يهتدى بأنوارها من نعم الله تعالى عليهم لدلالتها على مصير أمرهم الى النبوة فيقع كل ما يخرج من القوة الى الفعل من كمالاتهم بحسب ذلك تماما لتلك النعمة لا محالة وأما اذا أريد بتمام تلك النعمة الملك فكونه كذلك بالنسبة اليهم باعتبار أنهم يغتنمون آثاره من العز والجاه والمال ﴿كما أتمها على أبويك﴾ نصب على المصدرية أى ويتم نعمته عليك اتماما كائنا كاتمام نعمته على أبويك وهى نعمة الرسالة والنبوة واتمامها على ابراهيم عليه السلام باتخاذه خليلا وانجائه من النار ومن ذبح الولد وعلى اسحق بانجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم وباخراج يعقوب والاسباط من صلبه وكل ذلك نعم جليلة وقعت تتمة لنعمة النبوة ولا يجب فى تحقيق التشبيه كون ذلك فى جانب المشبه به مثل ما وقع فى جانب المشبه من كل وجه ﴿من قبل﴾ أى من قبل هذا الوقت أو من قبلك ﴿ابراهيم واسحق﴾ عطف بيان لابويك والتعبير عنهما بالاب مع كونهما أباجده وأبا أبيه للاشعار بكمال ارتباطه بالانبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام وتذكير معنى الولد سر أبيه ليطمئن قلبه بما أخبر به فى ضمن التعبير الاجمالى لرؤياه والاقتصار فى المشبه به على ذكر اتمام النعمة من غير تعرض للاجتباء من باب الاكتفاء فان اتمام النعمة يقتضى سابقة النعمة المستدعية للاجتباء لا محالة ﴿ان ربك﴾ استئناف لتحقيق مضمون الجمل المذكورة أى يفعل ما ذكر لانه ﴿عليم﴾ بكل شئ فيعلم من يستحق الاجتباء وما يتفرع عليه من التعليم المذكور واتمام النعمة العامة على الوجه المذكور ﴿حكيم﴾ فاعل لكل شئ حسبما تقتضيه

الحكمة والمصلحة فيفعل مايفعل كما يفعل جريا على سنن علمه وحكمته والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين لتربية تحقق وقوع ماذكر من الافاعيل هذا وقد قيل فى تفسير الآية الكريمة أى وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس يجتبيك ربك للنبوة والملك أو لأمور عظام ويتم نعمته عليك بالنبوة أو بأن يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة حيث جعلهم فى الدنيا أنبياء وملوكا ونقلهم عنها الى الدرجات العلا فى الجنة كما أتمها على أبويك بالرسالة فتأمل والله الهادى ﴿لقد كان فى يوسف واخوته﴾ أى فى قصتهم والمراد بهم ههنا اما جميعهم فان لبنيامين أيضا حصة من القصة أو بنو علاته المعدودون فيما سلف اذ عليهم يدور رحاها ﴿آيات﴾ علامات عظيمة الشأن دالة على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمته الباهرة ﴿للسائلين﴾ لكل من سأل عن قصتهم وعرفها أو الطالبين للآيات المعتبرين بها فانهم الوقفون عليها والمنتفعون بها دون من عداهم ممن اندرج تحت قوله تعالى وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون فالمراد بالقصة نفس المقصوص أو على نبوته عليه السلام لمن سأله من المشركين أو اليهود عن قصتهم فأخبرهم بذلك على ماهى عليه من غير سماع من أحد ولا ممارسة شئ من الكتب فالمراد بها اقتصاصها وجمع الآيات حينئذ للاشعار بأن اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية فى الدلالة على نبوته عليه السلام على نحو ماذكر فى قوله تعالى مقام ابراهيم على تقدير كونه عطف بيان لقوله تعالى آيات بينات لا لما قيل من أنه لتعدد جهة الاعجاز لفظا ومعنى وقرأ ابن كثير آية وفى بعض المصاحف عبرة وقيل انما قص الله تعالى على النبى صلى الله عليه وسلم خبر يوسف وبغى اخوته عليه لما رأى من بغى قومه عليه ليتأسى به ﴿اذ قالوا ليوسف وأخوه﴾ أى شقيقه بنيامين وانما لم يذكر باسمه تلويحا بأن مدار المحبة أخوته ليوسف من الطرفين ألا يرى الى أنهم كيف اكتفوا باخراج يوسف من البين من غير تعرض له حيث قالوا اقتلوا يوسف ﴿أحب الى أبينا منا﴾ وحد الخبر مع تعدد المبتدا لأن أفعل من كذا لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر والمؤنث نعم اذا عرف وجب الفرق واذا أضيف جاز الامران وفائدة لام الابتداء فى يوسف تحقيق مضمون الجملة وتأكيده ﴿ونحن عصبة﴾ أى والحال أنا جماعة قادرون على الحل والعقد أحقاء بالمحبة والعصبة والعصابة العشرة من الرجال فصاعدا سموا بذلك لأن الأمور تعصب بهم ﴿ان أبانا﴾ فى ترجيحهما علينا فى المحبة مع فضلنا عليهما وكونهما بمعزل من كفاية الأمور بالصغر والقلة ﴿لفى ضلال﴾ أى ذهاب عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كل منا منزلته ﴿مبين﴾ ظاهر الحال . روى أنه كان أحب اليه لما يرى فيه من مخايل الخير وكانت اخوته يحسدونه فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه فتضاعف حسدهم حتى حملهم على مباشرة ماقص عنهم ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾ من جملة ماحكى بعد قوله اذ قالوا وقد قاله بعض منهم مخاطباً للباقين بقضية الصيغة فكأنهم رضوا بذلك كما يروى أن القائل شمعون أودان والباقون كانوا راضين الا من قال لاتقتلوا الخ فجعلوا كأنهم القائلون وأدرجوا تحت القول المسند الى الجميع أو قاله كل واحد منهم مخاطباً للبقية وهو أدل على مسارعتهم الى ذلك القول وتنكير أرضا واخلاؤها من الوصف للابهام أى أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران ولذلك نصبت نصب الظروف المبهمة ﴿يخل﴾ بالجزم جواب للأمر أى يخلص ﴿لكم وجه أبيكم﴾ فيقبل عليكم بكليته ولا يلتفت عنكم الى غيركم ولا يساهمكم فى محبته أحد فذكر الوجه لتصوير معنى اقباله عليهم ﴿وتكونوا﴾ بالجزم عطفا على يخل أو بالنصب على اضمار أن أو الواو بمعنى مع مثل قوله وتكتموا الحق وايثار الخطاب فى لكم وما بعده للمبالغة فى حملهم على القبول فان اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل ﴿من بعده﴾ من بعد يوسف أى من بعد الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه ﴿قوماً صالحين﴾ تائبين الى الله تعالى

عما جنيتم أو صالحين مع أبيكم باصلاح ماينكم و بينه بعذر تمهدونه أو صالحين فى أمور دنياكم بانتظامها بعده بخلو وجه أبيكم ﴿قال قائل منهم﴾ هو يهوذا و كان أحسنهم فيه رأياً وهو الذى قال فلن أبرح الأرض الخ وقيل روبيل وهو استئناف مبنى على سؤال من سأل وقال أنفقوا على ماعرض عليهم من خصلتى الضيع أم خالفهم فى ذلك أحد فقيل قال قائل منهم ﴿لاتقتلوا يوسف﴾ أظهره فى مقام الاضمار استجلابا لشفقتهم عليه أواستعظاما لقتله وهو هو فانه يروى أنه قال لهم القتل عظيم ولم يصرح بنهيهم عن الخصلة الأخرى وأحاله على أولوية ماعرضه عليهم بقوله ﴿وألقوه فى غيابة الجب﴾ أى فى قعره وغوره سمى بها لغيبته عن عين الناظر والجب البئر التى لم تطو بعد لأنها أرض جبت جبا من غير أن يزاد على ذلك شئ وقرأ نافع فى غيابات الجب فى الموضعين كأن لتلك الجب غيابات أو أراد بالجب الجنس أى فى بعض غيابات الجب وقرئ غيابات وغيبة ﴿يلتقطه﴾ يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف فان الالتقاط أخذ شئ مشرف على الضياع ﴿بعض السيارة﴾ أى بعض طائفة تسير فى الارض واللام فى السيارة كما فى الجب ومافيهما و فى البعض من الابهام لتحقيق مايتوخاه من ترويج كلامه بموافقته لغرضهم الذى هو تنائى يوسف عنهم بحيث لايدرى أثره ولايروى خبره وقرئ تلتقطه على التأنيث لأن بعض السيارة سيارة كقوله

كما شرقت صدر القناة من الدم ومنه قطعت بعض أصابعه ﴿ان كنتم فاعلين﴾ بمشورتى لم يبت القول عليهم بل انما عرض عليهم ذلك تأليفا لقلبهم وتوجيها لهم الى رأيه وحذرا من نسبتهم له الى التحكم والافتيات أو ان كنتم فاعلين ماأزمعتم عليه من ازالته من عند أبيه لامحالة ولما كان هذا مظنة لسؤال السائل يقول فما فعلوا بعد ذلك هل قبلوا ذلك منه أولا أجيب بطريق الاستئناف على وجه أدرج فى تضاعيفه قبولهم له بما سيجئ من قوله وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب فقيل ﴿قالوا ياأبانا﴾ خاطبوه بذلك تحريكا لسلسلة النسب بينه و بينهم وتذكيراً لرابطة الاخوة بينهم و بين يوسف عليه الصلاة والسلام ليتسببوا بذلك الى استنزاله عليه السلام عن رأيه فى حفظه منهم لما أحس منهم بأمارات الحسد والبغى فكأنهم قالوا ﴿مالك﴾ أى أى شئ لك ﴿لاتأمنا﴾ أى لاتجعلنا أمناء ﴿على يوسف﴾ مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا ﴿وانا له لناصحون﴾ مريدون له الخير ومشفقون عليه ليس فينا مايخل بالنصيحة والمقة قط والقراءة المشهورة بالادغام والاشمام وعن نافع رضى الله عنه ترك الاشمام ومن الشواذ ترك الادغام ﴿أرسله معنا غدا﴾ الى الصحراء ﴿يرتع﴾ أى يتسع فى أكل الفواكه ونحوها فان الرتع هو الاتساع فى الملاذ ﴿ويلعب﴾ بالاستباق والتناضل ونظائرهما مما يعد من باب التأهب للغزو وانما عبروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئته تحقيقا لما راموه من استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له بصورة مايلائم حاله عليه السلام وقرئ نرتع ونلعب بالنون وقرأ ابن كثير نرتع من ارتعى ونافع بالكسر والياء فيه وفى يلعب وقرئ يرتع من أرتع ماشيته و يرتع بكسر العين و يلعب بالرفع على الابتداء ﴿وانا له لحافظون﴾ من أن يناله مكروه أكدوا مقالتهم بأصناف التأكيد من ايراد الجملة اسمية وتحليتها بأن واللام واسناد الحفظ الى كلهم وتقديم له على الخبر احتيالا فى تحصيل مقصدهم ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال من يقول فماذا قال يعقوب عليه السلام فقيل قال ﴿انى ليحزننى﴾ اللام للابتداء كما فى قوله عز وجل ان ربك ليحكم بينهم ﴿أن تذهبوا به﴾ لشدة مفارقته على وقلة صبرى عنه ﴿و﴾ مع ذلك ﴿أخاف أن يأكله الذئب﴾ لأن الارض كانت مذأبة والحزن ألم القلب بفوت المحبوب والخوف انزعاج النفس لنزول المكروه ولذلك أسند الاول الى الذهاب به المفوت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسف والثانى الى مايتوقع نزوله من أكل الذئب وقيل رأى فى المنام أنه قد شد عليه عليه السلام ذئب وكان يحذره فقال ذلك وقد لقنهم العلة ان البلاء موكل بالمنطق وقرأ ابن كثير ونافع فى رواية

البزى بالهمز على الاصل وأبو عمرو به وقفا وعاصم وابن عامر وحمزة درجا وقيل اشتقاقه من تذاءبت الريح اذا هاجت من كل جانب وقال الاصمعى الامر بالعكس وهو أظهر لفظا ومعنى ﴿وأنتم عنه غافلون﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه ﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾ أى والحال أنا جماعة كثيرة جديرة بأن يعصب بنا الأمور العظام وتكفى الخطوب بآرائنا وتدبيراتنا واللام الداخلة على الشرط موطئة للقسم وقوله ﴿انا اذا لخاسرون﴾ جواب مجزىء عن الجزاء أى لهالكون ضعفا وخورا وعجزا أو مستحقون للهلاك اذ لاغناء عندنا ولا جدوى فى حياتنا أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والدمار ويقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حيث أكل الذئب بعضهم وهم حضور وقيل ان لم نقدر على حفظه وهو أعز شىء عندنا فقد هلكت مواشينا اذن وخسرناها وانما اقتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من أكل الذئب لأنه السبب القوى فى المنع دون الحزن لقصر مدته بناء على أنهم يأتون به عن قريب ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا﴾ أى أزمعوا ﴿أن يجعلوه﴾ مفعول لاجمعوا يقال أجمع الامر ومنه فأجمعوا أمركم ولا يستعمل ذلك الا فى الافعال التى قويت الدواعى الى فعلها ﴿فى غيابة الجب﴾ قيل هى بئر بأرض الاردن وقيل بين مصر ومدين وقيل على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام بكنعان التى هى من نواحى الاردن كما أن مدين كذلك وأما مايقال من أنها بئر بيت المقدس فيرده التعليل بالتقاط السيارة ومجيئهم أباهم عشاء ذلك اليوم فان بين منزل يعقوب عليه السلام وبين بيت المقدس مراحل وجواب لما محذوف ايذانا بظهوره واشعارا بأن تفصيله مما لايحويه فلك العبارة ومجمله فعلوا به من الاذية مافعلوا . يروى أنهم لما برزوا الى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه فجعل يصيح ويستغيث فقال يهوذا أما عاهدتمونى أن لاتقتلوه فأتوا به الى البئر فتعلق بثيابهم فنزعوها من يديه فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه لما عزموا عليه من تلطيخه بالدم احتيالا لأبيه فقال يااخوتاه ردوا على قميصى أتوارى به فقالوا ادع الشمس والقمر والاحدعشر كوكبا تؤنسك فدلوه فيها فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة فقام عليها وهو يبكى فنادوه وظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه فمنعهم يهوذا وكان يأتيه بالطعام كل يوم ويروى أن ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وجرد عن ثيابه أتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة وعلقها فى عنق يوسف فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه من التميمة فألبسه اياه ﴿وأوحينا اليه﴾ عند ذلك تبشيرا له بما يؤول اليه أمره وازالة لوحشته وايناسا له قيل كان ذلك قبل ادراكه كما أوحى الى يحيى وعيسى وقيل كان اذ ذاك مدركا قال الحسن رضى الله عنه كان له سبع عشرة سنة ﴿لتنبئنهم بأمرهم هذا﴾ أى لتتخلصن مما أنت فيه من سوء الحال وضيق المجال ولتحدثن اخوتك بما فعلوا بك ﴿وهم لايشعرون﴾ بأنك يوسف لتباين حاليك حالك هذا وحالك يومئذ لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وبعد حالك عن أوهامهم وقيل لبعد العهد المبدل للهيئات المغير للاشكال والاول أدخل فى التسلية روى أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف وكان يدنيه دونكم وأنكم انطلقتم به وألقيتموه فى غيابة الجب وقلتم لابيكم أكله الذئب وبعتموه بثمن بخس ويجوز أن يتعلق وهم لايشعرون بالايحاء على معنى أنا آنسناه بالوحى وأزلنا عن قلبه الوحشة التى أورثوه وهم لايشعرون بذلك ويحسبون أنه مرهق ومستوحش لا أنيس له وقرىء لننبئنهم بالنون على أنه وعيد لهم فقوله تعالى وهم لايشعرون متعلق بأوحينا لاغير ﴿وجاؤا أباهم عشاء﴾ آخر النهار وقرىء عشيا وهو تصغير عشى وعشى بالضم والقصر جمع أعشى أى عشوا من البكاء ﴿يكون﴾

متباكين. روى أنه لما سمع يعقوب عليه السلام بكاءهم فزع وقال مالكم يابنى وأين يوسف ﴿قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق﴾ أى متسابقين فى العدو والرمى وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل ونظائرهما ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ أى ماتمتع به من الثياب والازواد وغيرهما ﴿فأكله الذئب﴾ عقيب ذلك من غير مضى زمان يعتاد فيه التفقد والتعهد وحيث لايكاد يطرح المتاع عادة الافى مقام يؤمن فيه الغوائل لم يعد تركه عليه السلام عنده من باب الغفلة وترك الحفظ الملتزم لاسيما اذا لم يبرحوه ولم يغيبوا عنه فكأنهم قالوا انا لم نقصر فى محافظته ولم نغفل عن مراقبته بل تركناه فى مأمننا ومجمعنا بمرأى منا لأن ميدان السباق لا يكون عادة الابحيث يتراءى غايتاه ومافارقناه الاساعة يسيرة بيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ بمصدق لنا فى هذه المقالة الدالة على عدم تقصير نافى أمره ﴿ولو كنا﴾ عندك وفى اعتقادك ﴿صادقين﴾ موصوفين بالصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا وكلمة لوفى أمثال هذه المواقع لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع غيره من الأحوال بطريق الاولوية لما أن الشيء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لايذكر معه شيء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعددها وقد مر تفصيله فى سورة البقرة عند قوله تعالى أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون وفى سورة الأعراف عند قوله تعالى أو لو كنا كارهين ﴿وجاؤا على قميصه﴾ محله النصب على الظرفية من قوله ﴿بدم﴾ أى جاؤا فوق قميصه بدم كما تقول جاء على جماله بأحمال أو على الحالية منه والخلاف فى تقدم الحال على المجرور فيما اذا لم يكن الحال ظرفا ﴿كذب﴾ مصدر وصف به الدم مبالغة أو مصدر بمعنى المفعول أى مكذوب فيه أو بمعنى ذى كذب أى ملابس لكذب وقرىء كذبا على أنه حال من الضمير أى جاؤا كاذبين أو مفعول له وقرأت عائشة رضى الله تعالى عنها بغير المعجمة أى كدر وقيل طرى قال ابن جنى أصله من الكدب وهو الفوف البياض الذى يخرج على أظفار الاحداث كأنه دم قد أثر فى قميصه. روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها وزل عنهم أن يمزقوه فلما سمع يعقوب بخبر يوسف عليهما السلام صاح بأعلى صوته وقال أين القميص فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله مارأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه وقيل كان فى قميص يوسف عليه السلام ثلاث آيات كان دليلا ليعقوب على كذبهم وألقاه على وجهه فارتد بصيرا ودليلا على براءة يوسف عليه السلام حين قدمن دبر ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال فكأنه قيل ماقال يعقوب هل صدقهم فيما قالوا أم لا فقيل قال لم يكن ذلك ﴿بل سولت لكم أنفسكم﴾ أى زينت وسهلت قاله ابن عباس رضى الله عنهما والتسويل تقدير شيء فى النفس مع الطمع فى اتمامه قال الازهرى كأن التسويل تفعيل من سؤل الانسان وهو أمنيته التى يطابها فتزين لطالبها الباطل وغيره وأصله مهموز وقيل من السول وهو الاسترخاء ﴿أمرا﴾ من الامور منكرا لا يوصف ولا يعرف ﴿فصبر جميل﴾ أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل أجمل أو أمثل وفى الحديث الصبر الجميل الذى لاشكوى فيه أى الى الخلق والافقد قال يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقيل سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بعصابة فقيل له ماهذا قال طول الزمان وكثرة الاحزان فأوحى الله عز وجل اليه يايعقوب أتشكونى قال يارب خطيئة فاغفرها لى وقرأ أبى فصبرا جميلا ﴿والله المستعان﴾ أى المطلوب منه العون وهو انشاء منه عليه السلام للاستعانة المستمرة ﴿على ماتصفون﴾ على اظهار حال ماتصفون وبيان كونه كذبا واظهار سلامته

فانه علم فى الكذب قال سبحانه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وهو الاليق بما سيجىء من قوله تعالى فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا وتفسير المستعان عليه باحتمال مايصفون من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه يأباه تكذيبه عليه السلام لهم فى ذلك ولا تساعده الصيغة فانها قد غلبت فى وصف الشىء بما ليس فيه كما أشير اليه ﴿وجاءت﴾ شروع فى بيان ماجرى على يوسف فى الجب بعد الفراغ من ذكر ماوقع بين اخوته وبين أبيه والتعبير بالمجىء ليس بالنسبة الى مكانهم فان كنعان ليس بالجانب المصرى من مدين بل الى مكان يوسف وفى ايثاره على المرور أو الاتيان أونحوهما ايماء الى كونه عليه السلام فى الكرامة والزلفى عند مليك مقتدر والظاهر أن الجب كان فى الامم المثناء فان المتبادر من اسناد المجىء الى السيارة مطلقا فى قوله عز وجل وجاءت ﴿سيارة﴾ أى رفقة تسير من جهة مدين الى مصر وقوعه باعتبار سيرهم المعتاد وهو الذى يقتضيه قوله تعالى فيما سلف يلتقطه بعض السيارة وقد قيل انه كان فى قفرة بعيدة من العمران لم تكن الا للرعاة فأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا منه وقيل كان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه عليه السلام ﴿فأرسلوا واردهم﴾ الذى يرد الماء ويستقى لهم وكان ذلك مالك بن ذعر الخزاعى وانما لم يذكر منتهى الارسال كما لم يذكر منتهى المجىء أعنى الجب للايذان بأن ذلك معهود لا يضرب عنه الذكر صفحا ﴿فأدلى دلوه﴾ أى أرسلها الى الجب والحذف لما عرفته فتدلى بها يوسف فخرج ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال يقتضيه الحال ﴿يابشرى هذا غلام﴾ كأنه نادى البشرى وقال تعالى فهذا أوانك حيث فاز بنعمة باردة وأى نعمة مكان مايوجد مباحا من الماء وقيل هو اسم صاحب له ناداه ليعينه على اخراجه وقرأ غير الكوفيين يابشراى وأمال فتحة الراء حمزة والكسائى وقرأ ورش بين اللفظين وقرىء يابشرى بالادغام وهى لغة وبشراى على قصد الوقف ﴿وأسروه﴾ أى أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الرفقة وقيل أخفوا أمره ووجدانهم له فى الجب وقالوا لهم دفعه الينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر وقيل الضمير لاخوة يوسف وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بطعام فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر اخوته فأتوا الرفقة وقالوا هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ولا يخفى مافيه من البعد ﴿بضاعة﴾ نصب على الحالية أى أخفوه حال كونه بضاعة أى متاعا للتجارة فانها قطعة من المال بضعت عنه أى قطعت للتجارة ﴿والله عليم بما يعملون﴾ وعيد لهم على ماصنعوا من جعلهم مثل يوسف وهو هو عرضة للابتذال بالبيع والشراء ومادبروا فى ذلك من الحيل ﴿وشروه﴾ أى باعوه والضمير للوارد وأصحابه ﴿بثمن بخس﴾ زيف ناقص العيار ﴿دراهم﴾ بدل من ثمن أى لادنانير ﴿معدودة﴾ أى غير موزونة فهو بيان لقلته ونقصانه مقدارا بعد بيان نقصانه فى نفسه اذ المعتاد فيما لا يبلغ أربعين العد دون الوزن فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها كانت عشرين درهما وعن السدى رضى الله عنه أنها كانت اثنين وعشرين درهما ﴿وكانوا﴾ أى البائعون ﴿فيه﴾ فى يوسف ﴿من الزاهدين﴾ من الذين لا يرغبون فيما بأيديهم فلذلك باعوه بما ذكر من الثمن البخس وسبب ذلك أنهم التقطوه والملتقط للشىء متهاون به أو غير واثق بأمره يخاف أن يظهر له مستحق فينتزعه منه فيبيعه من أول مساوم بأوكس ثمن ويجوز أن يكون معنى شروه اشتروه من اخوته على ماحكى وهم غير راغبين فى شراه خشية ذهاب مالهم لما طن فى آذانهم من الاباق والعدول عن صيغة الافتعال المنبئة عن الاتخاذ لما مر من أن أخذهم انما كان بطريق البضاعة دون الاجتباء والاقتناء وفيه متعلق بالزاهدين ان جعل اللام للتعريف وبيان لما زهدوا فيه ان جعلت موصولة كأنه قيل فى أى شىء زهدوا فقيل زهدوا فيه لأن ما يتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول ﴿وقال الذى اشتراه من مصر﴾ وهو العزيز الذى كان على خزائنه واسمه قطفير أو اطفير وبيان كونه من مصر لتربية مايتفرع عليه من الأمور مع الاشعار بكونه غير

من اشتراه من الملتقطين بما ذكر من الثمن البخس وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد العمليقى ومات فى حياة يوسف عليه السلام بعد أن آمن به فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه الى الاسلام فأبى وقيل كان الملك فى أيامه فرعون موسى عليه السلام عاش أربعمائة سنة لقوله عز وجل ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء واختلف فى مقدار ما اشتراه به العزيز فقيل بعشرين دينارا وزوجى نعل وثوبين أبيضين وقيل أدخلوه فى السوق يعرضونه فترافعوا فى ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكا وزنه ورقا ووزنه حريرا فاشتراه قطفير بذلك المبلغ وكان سنه اذ ذاك سبع عشرة سنة وأقام فى منزله مع ما مر عليه من مدة لبثه فى السجن ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة ﴿لامرأته﴾ راعيل أو زليخا وقيل اسمها هو الأول والثانى لقبها واللام متعلقة بقال لا باشتراه ﴿أكرمى مثواه﴾ اجعلى محل اقامته كريما مرضيا والمعنى أحسنى تعهده ﴿عسى أن ينفعنا﴾ فى ضياعنا وأموالنا ونستظهر به فى مصالحنا ﴿أو نتخذه ولدا﴾ أى نتبناه وكان ذلك لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة ولذلك قيل أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر وابنة شعيب التى قالت يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر رضى الله عنهما ﴿وكذلك﴾ نصب على المصدرية وذلك اشارة الى ما يفهم من كلام العزيز وما فيه من معنى البعد لتفخيمه أى مثل ذلك التمكين البديع ﴿مكنا ليوسف فى الأرض﴾ أى جعلنا له فيها مكانا يقال مكنه فيه أى اثبته فيه ومكن له فيه أى جعل له فيه مكانا ولتقاربهما وتلازمهما يستعمل كل منهما فى محل الآخر قال عز وجل وكم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم أى ما لم نمكنكم فيها أو مكنا لهم فى الأرض الخ والمعنى كما جعلنا له مثوى كريما فى منزل العزيز أو مكانا عليا فى قلبه حتى أمر امرأته دون سائر حواشيه باكرام مثواه جعلنا له مكانة رفيعة فى أرض مصر ولعله عبارة عن جعله وجيها بين أهلها ومحببا فى قلوبهم كافة كما فى قلب العزيز لأنه الذى يؤدى الى الغاية المذكورة فى قوله تعالى ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ أى نوفقه لتعبير بعض المنامات التى عمدتها رؤيا الملك وصاحبى السجن لقوله تعالى ذلكما مما علمنى ربى سواء جعلناه معطوفا على غاية مقدرة ينساق اليها الكلام ويستدعيها النظام كأنه قيل ومثل ذلك التمكين مكنا ليوسف فى الارض وجعلنا قلوب أهلها كافة محال محبته ليترتب عليه ما ترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه بعض تأويل الأحاديث وهو تأويل الرؤيا المذكورة فيؤدى ذلك الى الرياسة العظمى ولعل ترك المعطوف عليه للاشعار بعدم كونه مرادا بالذات أو جعلناه علة لمعلل محذوف كأنه قيل ولهذه الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين دون غيرها مما ليس له عاقبة حميدة هذا ولا يخفى عليك أن الذى عليه تدور هذه الأمور انما هو التمكين فى جانب العزيز وأما التمكين فى جانب الناس كافة فتأديته الى ذلك انما هى باعتبار اشتماله على ذلك التمكين فاذن الحق أن يكون ذلك اشارة الى مصدر قوله تعالى مكنا ليوسف على أن يكون هو عبارة عن التمكين فى قلب العزيز أو فى منزله وكون ذلك تمكينا فى الأرض بملابسة أنه عزيز فيها لا عن تمكين آخر يشبه به كما مر فى قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا من أن ذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده لا الى جعل آخر يقصد تشبيه هذا الجعل به فالكاف مقحم للدلالة على فخامة شأن المشار اليه اقحاما لا يكاد يترك فى لغة العرب ولا فى غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل وهكذا ينبغى أن يحقق المقام وأما التمكين بمعنى جعله ملكا يتصرف فى أرض مصر بالامر والنهى فهو من آثار ذلك التعليم ونتائجه المتفرعة عليه كما عرفته لا من مباديه المؤدية اليه فلا سبيل الى جعله غاية له ولم يعهد منه عليه السلام فى تضاعيف قضاياه العمل بموجب المنامات المنبهة على الحوادث قبل

وقوعها عهدا مصححا لجعله غاية لولايته وماوقع من التدارك فى أمر السنين فانما هو عمل بموجب الرؤيا السابقة المعهودة اللهم الا أن يراد بتعليم تأويل الاحاديث ماسبق من تفهيم غوامض أسرار الكتب الالهية ودقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيكون المعنى حينئذ مكناله فى أرض مصر ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه معانى كتب الله تعالى وأحكامها ودقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيقضى بها فيما بين أهلها والتعليم الاجمالى لتلك المعانى والاحكام وان كان غير متأخر عن تمكينه بذلك المعنى الا أن تعليم كل معنى شخصى يتفق فى ضمن الحوادث والارشاد الى الحق فى كل نازلة من النوازل متأخر عن ذلك صالح لأن يكون غاية له ﴿والله غالب على أمره﴾ لايستعصى عليه أمر ولا يمانعه شئ بل انما أمره لشئ اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فيدخل فى ذلك شؤنه المتعلقة بيوسف دخولا أوليا أومتول على أمر يوسف لايكله الى غيره وقد أريد به من الفتنة ماأريد مرة غب مرة فلم يكن الا ماأراد الله له من العاقبة الحميدة ﴿ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾ أن الأمر كذلك فيأتون ويذرون زعما منهم أن لهم من الأمر شيئاً وأنى لهم ذلك وان الأمر كله لله عزوجل أو لايعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله ﴿ولما بلغ أشده﴾ أى منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سن الوقوف مابين الثلاثين الى الأربعين وقيل سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم والأول هو الأظهر لقوله تعالى ﴿آتيناه حكما﴾ حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أوحكما بين الناس وفقها أونبوة ﴿وعلما﴾ أى تفقها فى الدين وتنكيرهما للتفخيم أى حكما وعلما لايكتنه كنههما ولايقادر قدرهما فهما ما آتاه الله تعالى عند تكامل قواه سواء كانا عبارة عن النبوة والحكم بين الناس أوغيرهما كيف لاوقد جعل ايتاؤهما جزاء لعمله عليه السلام حيث قيل ﴿وكذلك﴾ أى مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿نجزى المحسنين﴾ أى كل من يحسن فى عمله فيجب أن يكون ذلك بعد انقضاء أعماله الحسنة التى من جملتها معاناة الاحزان والشدائد وقد فسر العلم بعلم تأويل الأحاديث ولاصحة له الا أن يخص بعلم تأويل رؤيا الملك فان ذلك حيث كان عند تناهى أيام البلاء صح أن يعد ايتاؤه من جملة الجزاء وأما رؤيا صاحبى السجن فقدلبث عليه السلام بعد تعبيرها فى السجن بضع سنين وفى تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين اشعار بعلية الاحسان له وتنبيه على أنه سبحانه انما آتاه ما آتاه لكونه محسنا فى أعماله متقيا فى عنفوان أمره هل جزاء الاحسان الا الاحسان ﴿وراودته التى هو فى بيتها﴾ رجوع الى شرح ماجرى عليه فى منزل العزيز بعد ماأمر امرأته باكرام مثواه وقوله تعالى وكذلك مكنا ليوسف الى هنا اعتراض جئ به أنموذجا للقصة ليعلم السامع من أول الامر أن مالقيه عليه السلام من الفتن التى ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وأنه عليه السلام محسن فى جميع أعماله لم يصدر عنه فى حالتى السراء والضراء مايخل بنزاهته ولايخفى أن مدار حسن التخلص الى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة انما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز فادراج الانجاء السابق تحت الاشارة بذلك فى قوله تعالى وكذلك مكنا كما فعله الجمهور ناء من التقريب فتأمل والمراودة المطالبة من راد يرود اذا جاء وذهب لطلب شئ ومنه الرائد لطالب الماء والكلا وهى مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة المديون ومداواة الطبيب ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه فان هذه الأفعال وان كانت صادرة عن أحد الجانبين لكن لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة عنهما وهذا باب لطيف المسلك مبنى على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشئ يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما فى قولهم كما تدين تدان أى كما تجزى تجزى فان فعل البادى وان لم يكن جزاء لكنه لكونه سببا للجزاء أطلق عليه اسمه وكذلك ارادة القيام الى الصلاة وارادة قراءة القرآن حيث كانتا سببا للقيام والقراءة عبر عنهما بهما فقيل اذا قمتم الى الصلاة فاذا قرأت القرآن وهذه قاعدة مطردة مستمرة ولما كانت أسباب الافعال المذكورة فيما نحن فيه صادرة

عن الجانب المقابل لجانب فاعلها فان مطالبة الدائن للماطلة التى هى من جانب الغريم وهى منه للمطالبة التى هى من جانب الدائن وكذا مداواة الطبيب للمرض الذى هو من جانب المريض وكذلك مراودتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام نزل صدورها عن محالها بمنزلة صدورمسبباتها التى هى تلك الافعال فبنى الصيغة على ذلك وروعى جانب الحقيقة بأن أسند الفعل الى الفاعل وأوقع على صاحب السبب فتأمل ويجوز أن يراد بصيغة المغالبة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى أنها طلبت منه الفعل وهو منها الترك ويجوز أن يكون من الرويد وهو الرفق والتحمل وتعديتها بعن لتضمينها معنى المخادعة فالمعنى خادعته ﴿عن نفسه﴾ أى فعلت مايفعل المخادع لصاحبه عن شىء لايريد اخراجه من يده وهو يحتال أن يأخذه منه وهى عبارة عن التمحل فى مواقعته اياها والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر أو للاستهجان بذكره وايراد الموصول لتقرير المراودة فان كونه فى بيتها مما يدعو الى ذلك قيل لواحدة ما حملك على ما أنت عليه مما لاخير فيه قالت قرب الوساد وطول السواد ولاظهار كمال نزاهته عليه السلام فان عدم ميله اليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصاءه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادى بكونه عليه السلام فى أعلى معارج العفة والنزاهة ﴿وغلقت الأبواب﴾ قيل كانت سبعة ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل دون الافعال وقيل للمبالغة فى الايثاق والاحكام ﴿وقالت هيت لك﴾ قرىء بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبناؤه كبناء أين وعيط وهيت كجير وهيت كحيث اسم فعل معناه أقبل وبادر واللام للبيان أى لك أقول هذا كما فى هلم لك وقرىء هئت لك على صيغة الفعل بمعنى تهيأت يقال هاء يهىء كجاء يجىء اذا تهيأ وهيئت لك واللام صلة للفعل ﴿قال معاذ الله﴾ أى أعوذ بالله معاذا مما تدعيننى اليه وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه واشارة الى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه وما ذاك الا لأنه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النير على ماهو عليه فى حد ذاته من غاية القبح ونهاية السوء وقوله عز وجل ﴿انه ربى أحسن مثواى﴾ تعليل للامتناع ببعض الاسباب الخارجية مما عسى يكون مؤثرا عندها وداعيا لها الى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتى الذى لاتكاد تقبله لما سولته لها نفسها والضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصدير الجملة به الايذان بفخامة مضمونها مع مافيه من زيادة تقريره فى الذهن فان الضمير لايفهم منه من أول الأمر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكأنه قيل ان الشأن الخطير هذا وهو ربى أى سيدى العزيز أحسن مثواى أى أحسن تعهدى حيث أمرك باكرامى فكيف يمكن أن أسىء اليه بالخيانة فى حرمه وفيه ارشاد لها الى رعاية حق العزيز بألطف وجه وقيل الضمير لله عز وجل وربى خبر ان وأحسن مثواى خبر ثان أو هو الخبر والاول بدل من الضمير والمعنى أن الحال هكذا فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل وعلى التقديرين ففى الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض لاقتضائها الامتناع عما دعته اليه ايذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية فى الدلالة على استحالته وكونه مما لايدخل تحت الوقوع أصلا وقوله تعالى ﴿انه لايفلح الظالمون﴾ تعليل للامتناع المذكور غب تعليل والفلاح الظفر وقيل البقاء فى الخير ومعنى أفلح دخل فيه كاصبح وأخواته والمراد بالظالمين كل من ظلم كائنا من كان فيدخل فى ذلك المجازون للاحسان بالاساءة والعصاة لامر الله تعالى دخولا أوليا وقيل الزناة لانهم ظالمون لانفسهم وللمزنى بأهله ﴿ولقد همت به﴾ بمخالطته اذ الهم لايتعلق بالاعيان أى قصدتها وعزمت عليها عزما جازما لايلويها عنه صارف بعد ماباشرت مباديها وفعلت مافعلت من المراودة وتغليق الأبواب ودعوته عليه السلام الى نفسها بقولها هيت لك ولعلها تصدت هنالك لافعال أخر من بسط يدها اليه وقصد المعانقة وغير ذلك مما يضطره عليه السلام الى الهرب نحو الباب والتأكيد لدفع

ما عسى يتوهم من احتمال اقلاعها عما كانت عليه بما فى مقالته عليه السلام من الزواجر ﴿وهم بها﴾ بمخالطتها أى مال اليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب وقرمه ميلا جبليا لا يكاد يدخل تحت التكليف لا انه قصدها قصدا اختياريا ألا يرى الى ماسبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له ونفرته عنه وحكمه بعدم افلاح الظالمين وهل هو الا تسجيل باستحالة صدور الهم منه عليه السلام تسجيلا محكما وانما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه فى صحبة همها فى الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهه به كما قيل ولقد أشير الى تباينهما حيث لم يلزا فى قرن واحد من التعبير بأن قيل ولقد هما بالمخالطة أو هم كل منهما بالآخر وصدر الأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمى وعقب الثانى بما يعفو أثره من قوله عز وجل ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ أى حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنى وسوء سبيله والمراد برؤيته لها كمال ايقانه بها ومشاهدته لها مشاهدة واصلة الى مرتبة عين اليقين الذى تتجلى هناك حقائق الاشياء بصورها الحقيقية وتنخلع عن صورها المستعارة التى بها تظهر فى هذه النشأة على ما نطق به قوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى بموجب ذلك البرهان النير على ماهو عليه فى حد ذاته أقبح ما يكون وأوجب ما يجب أن يحذر منه ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام والحكم بعدم افلاح من يرتكبه وجواب لولا محذوف يدل عليه الكلام أى لولا مشاهدته برهان ربه فى شأن الزنى لجرى على موجب ميله الجبلى ولكنه حيث كان مشاهدا له من قبل استمر على ماهو عليه من قضية البرهان وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة بل لمحض العفة والنزاهة مع وفور الدواعى الداخلية وترتب المقدمات الخارجية الموجبة لظهور الاحكام الطبيعية هذا وقد نص أئمة الصناعة على أن لولا فى أمثال هذه المواقع جار من حيث المعنى لا من حيث الصيغة مجرى التقييد للحكم المطلق كما فى مثل قوله تعالى ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها فلا يتحقق هناك هم أصلا وقد جوز أن يكون وهم بها جواب لولا جريا على قاعدة الكوفيين فى جواز التقديم فالهم حينئذ على معناه الحقيقى فالمعنى لولا أنه قد شاهد برهان ربه لهم بها كما همت به ولكن حيث انتفى عدم المشاهدة بدليل استعصامه وما يتفرع عليه انتفى الهم رأسا هذا وقد فسر همه عليه السلام بأنه عليه السلام حل الهميان وجلس مجلس الختان وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها ورؤيته للبرهان بأنه سمع صوتا اياك واياها فلم يكترث ثم وثم الى أن تمثل له يعقوب عليه السلام عاضا على أنملته وقيل ضرب على صدره فخرجت شهوته من أنامله وقيل بدت كف فيما بينهما ليس فيها عضد ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فلم ينته ثم رأى فيها واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فلم ينجع فقال الله عز وجل لجبريل أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عليه السلام وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب فى ديوان الانبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل وقيل ان كل ذلك الا خرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والاذهان ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها ﴿كذلك﴾ الكاف منصوب المحل وذلك اشارة الى الاراءة المدلول عليها بقوله تعالى لولا أن رأى برهان ربه أى مثل ذلك التبصير والتعريف عرفناه برهاننا فيما قبل أو الى التثبيت اللازم له أى مثل ذلك التثبيت ثبتناه ﴿لنصرف عنه السوء﴾ على الاطلاق فيدخل فيه خيانة السيد دخولا أوليا ﴿والفحشاء﴾ والزنى لانه مفرط فى القبح وفيه آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه اليها قط والا لقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء وانما توجه اليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل وقرئ ليصرف على اسناد الصرف الى ضمير الرب ﴿انه من عبادنا المخلصين﴾ تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق والمخلصون هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته

بأن عصمهم عما هو قادح فيها وقرئ على صيغة الفاعل وهم الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وعلى كلا المعنيين فهو منتظم فى سلكهم داخل فى زمرتهم من أول أمره بقضية الجملة الاسمية لأن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية ﴿واستبقا الباب﴾ متصل بقوله ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وقوله كذلك الى آخره اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريراً لنزاهته عليه السلام كقوله تعالى وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض والمعنى لقد همت به وأبى هو واستبقا الباب أى تسابقا الى الباب البرانى الذى هو المخلص ولذلك وحد بعد الجمع فيما سلف وحذف حرف الجر وأوصل الفعل الى المجرور نحو واذا كالوهم أو ضمن الاستباق معنى الابتدار واسناد السبق فى ضمن الاستباق اليها مع أن مرادها مجرد منع يوسف وذا لا يوجب الانتهاء الى الباب لانها لما رأته يسرع الى الباب ليتخلص منها أسرعت هى أيضا لتسبقه اليه وتمنعه عن الفتح والخروج أو عبر عن اسراعها أثره بذلك مبالغة ﴿وقدت قميصه من دبر﴾ اجتذبته من ورائه فانشق طولا وهو القد كما أن الشق عرضا هو القط وقد قيل فى وصف على رضى الله عنه انه كان اذا اعتلى قد واذا اعترض قط واسناد القد اليها خاصة مع أن لقوة يوسف أيضا دخلا فيه اما لأنها الجزء الأخير للعلة التامة واما للايذان بمبالغتها فى منعه عن الخروج وبذل مجهودها فى ذلك لفوت المحبوب أو لخوف الافتضاح ﴿وألفيا سيدها﴾ أى صادفا زوجها واذ لم يكن ملكه ليوسف عليه السلام صحيحا لم يقل سيدهما قيل ألفياه مقبلا وقيل كان جالسا مع ابن عم للمرأة ﴿لدى الباب﴾ أى البرانى كما مر. روى كعب رضى الله عنه أنه لما هرب يوسف عليه السلام جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب ﴿قالت﴾ استئناف مبنى على سؤال سائل يقول فماذا كان حين ألفيا العزيز عند الباب فقيل قالت ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾ من الزنى ونحوه ﴿الا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ ما نافيه أى ليس جزاؤه الا السجن أو العذاب الأليم قيل المراد به الضرب بالسياط أو استفهامية أى أى شىء جزاؤه غير ذاك أو ذلك ولقد أتت فى تلك الحالة التى تدهش فيها الفطن حيث شاهدها العزيز على تلك الهيئة المريبة بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال واستنزال يوسف عن رأيه فى استعصائه عليها وعدم مواتاته على مرادها بالقاء الرعب فى قلبه من مكرها طمعا فى مواقعته لها كرها عند يأسها عن ذلك اختيارا كما قالت ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ثم انها جعلت صدور الارادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمرا محققا مفروغا عنه غنيا عن الاخبار بوقوعه وأن ما هى عليه من الأفاعيل لاجل تحقيق جزائها فهى تريد ايقاعه حسبما يقتضيه قانون الايالة وفى ابهام المريد تهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانونا مطردا فى حق كل أحد كائنا من كان وفى ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز اعظام للخطب واغراء له على تحقيق ما تتوخاه بحكم الغضب والحمية ﴿قال﴾ استئناف وجواب عما يقال فماذا قال يوسف حينئذ فقيل قال ﴿هى راودتنى عن نفسى﴾ أى طالبتنى للمواتاة لانى أردت بها سوءا كما قالت وانما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عما أسند اليه من الخيانة وعدم معرفة حق السيد ودفع ما عرضته له من الأمرين الأمرين وفى التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب أو اسم الاشارة مراعاة لحسن الأدب مع الايماء الى الاعراض عنها ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قيل هو ابن عمها وقيل هو الذى كان جالسا مع زوجها لدى الباب وقيل كان حكيما يرجع اليه الملك ويستشيره وقد جوز أن يكون بعض أهلها قد بصر بها من حيث لا تشعر فأغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيام بالحق وانما ألقى الله سبحانه الشهادة الى من هو من أهلها ليكون أدل على نزاهته عليه السلام وأنفى للتهمة وقيل كان الشاهد ابن خال لها صبيا فى المهد أنطقه الله تعالى ببراءته وهو الاظهر فانه روى أن النبى صلى الله

عليه وسلم قال تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى عليه السلام رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال صحيح على شرط الشيخين وذكر كونه من أهلها لبيان الواقع اذلا يختلف الحال في هذه الصورة بين كون الشاهد من أهلها أو من غيرهم ﴿ان كان قميصه قد من قبل﴾ أى ان علم أنه قد من قبل ونظيره ان أحسنت الى فقد أحسنت اليك فيما قبل فان معناه ان تعتد باحسانك الى فأعتد باحساني السابق اليك ﴿فصدقت﴾ بتقدير قد لانها تقرب الماضي الى الحال أى فقد صدقت وكذا الحال في قوله فكذبت وهي وان لم تصرح بأنه عليه السلام أراد بها سوءا الا أن كلامها حيث كان واضح الدلالة عليه أسند اليها الصدق والكذب بذلك الاعتبار فانهما كما يعرضان للكلام باعتبار منطوقه يعرضان له باعتبار ما يستلزمه و بذلك الاعتبار يعترضان للانشاءات ﴿وهو من الكاذبين﴾ وهذه الشرطية حيث لا ملازمة عقلية ولا عادية بين مقدمها وتاليها ليست من الشهادة في شيء وانما ذكرت توسيعا للدائرة وارخاء للعنان الى جانب المرأة باجراء ما عسى يحتمله الحال في الجملة بأن يقع القد من قبل بمدافعتها له عليه السلام عن نفسها عند ارادته المخالطة والتكشف مجرى الظاهر الغالب الوقوع تقريبا لما هو المقصود باقامة الشهادة أعني مضمون الشرطية الثانية التي هي قوله عز وجل ﴿وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾ الى التسليم والقبول عند السامع لكونه أقرب الى الوقوع وأدل على المطلوب وان لم يكن بين طرفيها أيضا ملازمة وحكاية الشرطية بعد فعل الشهادة لكونها من قبيل الأقوال أو بتقدير القول أى شهد قائلا الخ وتسميتها شهادة مع أنه لا حكم فيها بالفعل بالصدق والكذب لتأديتها مؤداها بل لانها شهادة على الحقيقة وحكم بصدقه و كذبها أما على تقدير كون الشاهد هو الصبي فظاهر اذ هو اخبار بهما من قبل علام الغيوب والتصوير بصورة الشرطية للايذان بأن ذلك ظاهر من العلائم أيضا وأما على تقدير كونه غيره فلأن الظاهر أن صورة الحال معلومة له على ما هي عليه اما مشاهدة أو اخبارا فهو متيقن بعدم مقدم الشرطية الاولى و بوجود مقدم الشرطية الثانية ومن ضرورته الجزم بانتفاء تالي الاولى و بوقوع تالي الثانية فاذن هو اخبار بكذبها وصدقه عليه السلام لكنه ساق شهادته مساقا مأمونا من الجرح والطعن حيث صورها بصورة الشرطية المترددة ظاهرا بين نفعها ونفعه وأما حقيقة فلا تردد فيها قطعا لأن الشرطية الاولى تعليق لصدقها بما يستحيل وجوده من قد القميص من قبل فيكون محالا لا محالة ومن ضرورته تقرر كذبها والثانية تعليق لصدقه عليه السلام بأمر محقق الوجود وهو القد من دبر فيكون محقق البتة وهذا كما قيل فيمن قال لامرأة زوجيني نفسك فقالت لي زوج فكذبها في ذلك فقالت ان لم يكن لي زوج فقد وجتك نفسي فقبل الرجل فاذا لا زوج لها فهو نكاح اذ تعليق الشيء بأمر مقرر تنجيز له وقرىء من قبل ومن دبر بالضم لانهما قطعا عن الاضافة كقبل و بعد و بالفتح كأنهما جعلا علمين للجهتين فمنعا الصرف للتأنيث والعلمية وقرىء بسكون العين ﴿فلما رأى قميصه قد من دبر﴾ كأنه لم يكن رأى ذلك بعد أو لم يتدبره فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال ﴿قال انه﴾ أى الأمر الذي وقع فيه التشاجر وهو عبارة عن ارادة السوء التي أسندت الى يوسف وتدبير عقوبته بقولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءا الى آخره لكن لا من حيث صدور تلك الارادة والاسناد عنها بل مع قطع النظر عن ذلك لئلا يخلو قوله تعالى ﴿من كيدكن﴾ أى من جنس حيلتكن ومكركن أيتها النساء لا من غيركن عن الافادة وتدبير العقوبة وان لم يمكن تجريده عن الاضافة اليها الا أنها لما صورته بصورة الحق أفاد الحكم بكونه من كيدهن افادة ظاهرة فتأمل وتعميم الخطاب للتنبيه على أن ذلك خلق لهن عريق

ولا تحسبا هندا لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند

و رجع الضمير الى قولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءا فقط عدول عن البحث عن أصل ما وقع فيه النزاع من أن ارادة

السوء ممن هى الى البحث عن شعبة من شعبه وجعل للسوء أو للامر المعبر به عن طمعها فى يوسف عليه السلام يأباه الخبر فان الكيد يستدعى أن يعتبر مع ذلك هنات أخر من قبلها كما أشرنا اليه ﴿ان كيدكن عظيم﴾ فانه ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيرا فى النفس . وعن بعض العلماء انى أخاف من النساء مالا أخاف من الشيطان فانه تعالى يقول ان كيد الشيطان كان ضعيفا وقال للنساء ان كيدكن عظيم ولان الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به الرجال ﴿يوسف﴾ حذف منه حرف النداء لقربه وكمال تفطنه للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله ﴿أعرض عن هذا﴾ أى عن هذا الأمر وعن التحديث به واكتمه فقد ظهر صدقك ونزاهتك ﴿واستغفرى﴾ أنت ياهذه ﴿لذنبك﴾ الذى صدر عنك وثبت عليك ﴿انك كنت﴾ بسبب ذلك ﴿من الخاطئين﴾ من جملة القوم المتعمدين للذنب أو من جنسهم يقال خطىء اذا أذنب عمدا وهو تعليل للامر بالاستغفار والتذكير لتغليب الذكور على الاناث وكان العزيز رجلا حليما فاكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها وقيل كان قليل الغيرة ﴿وقال نسوة﴾ أى جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقى وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقى كتأنيث اللمة وهى اسم لجماعة النساء والثبة وهى اسم لجماعة الرجال ولذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث ﴿فى المدينة﴾ ظرف لقال أى أشعن الأمر فى مصر أو صفة لنسوة ﴿امرأة العزيز﴾ أى الملك يردن قطفير واضافتهن لها اليه بذلك العنوان دون أن يصرحن باسمها أو اسمه ليست لقصد المبالغة فى اشاعة الخبر بحكم أن النفوس الى سماع أخبار ذوى الاخطار أميل كما قيل اذ ليس مرادهن تفضيح العزيز بل هى لقصد الاشباع فى لومها بقولهن ﴿تراود فتاها﴾ أى تطالبه بمواقعته لها وتتمحل فى ذلك وتخادعه ﴿عن نفسه﴾ وقيل تطلب منه الفاحشة وايثارهن لصيغة المضارع للدلالة على دوام المراودة والفتى من الناس الشاب وأصله فتى لقولهم فتيان والفتوة شاذة وجمعه فتية وفتيان ويستعار للملوك وهو المراد ههنا وفى الحديث لايقل أحدكم عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى وتعبيرهن عن يوسف عليه السلام بذلك مضافا اليها لا الى العزيز الذى لا تستلزم الاضافة اليه الهوان بل ربما يشعر بنوع عزة لابانة ما بينهما من التباين البين الناشىء عن المالكية والمملوكية وكل ذلك لتربية ما مر من المبالغة والاشباع فى اللوم فان من لا زوج لها من النساء أو لها زوج دنىء قد تعذر فى مراودة الأخدان لاسيما اذا كان فيهم علو الجناب وأما التى لها زوج وأى زوج عزيز مصر فمراودتها لغيره لاسيما لعبدها الذى لا كفاءة بينها وبينه أصلا وتماديها فى ذلك غاية الغى ونهاية الضلال ﴿قد شغفها حبا﴾ أى شق حبه شغاف قلبها وهو حجابه أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب حتى وصل الى فؤادها وقرىء شعفها بالعين من شعف البعير اذا هنأه فأحرقه بالقطران وعن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما الشغف الحب القاتل والشعف حب دون ذلك وكان الشعبى يقول الشغف حب والشعف جنون والجملة خبر ثان أو حال من فاعل تراود أو من مفعوله وأيا ما كان فهو تكرير للوم وتأكيد للعذل ببيان اختلال أحوالها القلبية كأحوالها القالبية وجعلها تعليلا لدوام المراودة من حيث الانية مصير الى الاستدلال على الأجلى بالأخفى ومن حيث اللمية ميل الى تمهيد العذر من قبلها ولسن بذلك المقام وانتصاب حبا على التمييز لنقله عن الفاعلية اذ الأصل قد شغفها حبه كما أشير اليه ﴿انا لنراها﴾ أى نعلمها علما متاخما للمشاهدة والعيان فيما صنعت من المراودة والمحبة المفرطة مستقرة ﴿فى ضلال﴾ عن طريق الرشد والصواب أو عن سنن العقل ﴿مبين﴾ واضح لا يخفى كونه ضلالا على أحد أو مظهر لأمرها بين الناس فالجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع وتسجيل عليها بأنها فى أمرها على خطأ عظيم وانما لم يقلن انها لفى ضلال مبين اشعارا بأن ذلك الحكم غير صادر عنهن مجازفة بل عن علم ورأى مع التلويح بأنهن متنزهات عن

أمثال ما هى عليه ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ باغتيابهن وسوء قالتهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى وهو مقتها وتسميته مكرا لكونه خفية منها كمكر الماكر وان كان ظاهرا لغيرها وقيل استكتمتهن سرها فأفشينه عليها وقيل انما قلن ذلك لتريهن يوسف عليه السلام ﴿أرسلت اليهن﴾ تدعوهن قيل دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات ﴿وأعتدت﴾ أى أحضرت وهيأت ﴿لهن متكأ﴾ أى ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد أو رتبت لهن مجلس طعام وشراب لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك نهى الرجل أن يأكل متكئا وقيل متكأ طعاما من قولهم اتكأنا عند فلان أى طعمنا قال جميل

فظللنا بنعمة واتكأنا وشربنا الحلال من قلله

وعن مجاهد متكأ طعاما يحز حزا كأن المعنى يعتمد بالسكين عند القطع لأن القاطع يتكىء على المقطوع بالسكين وقرىء بغير همز وقرىء بالمد باشباع حركة الكاف كمنتزاح فى منتزح و ينباع فى ينبع وقرأ متكا وهو الاترج وأنشدوا

وأهدت متكة لبنى أبيها تخب بها العثمثمة الوقاح

أو ما يقطع من متك الشىء اذا بتكه ومتكأ من تكى اذا اتكى ﴿وآتت كل واحدة منهن سكينا﴾ لتستعمله فى قطع ما يعهد قطعه مما قدم بين أيديهن وقرب اليهن من اللحوم والفواكه ونحوها وهن متكئات وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن ﴿وقالت﴾ ليوسف وهن مشغولات بمعالجة السكاكين وأعمالها فيما بأيديهن من الفواكه وأضرابها والعطف بالواو ربما يشير الى أن قولها ﴿اخرج عليهن﴾ أى ابرز لهن لم يكن عقيب ترتيب أمورهن ليتم غرضها من استغفالهن ﴿فلما رأينه﴾ عطف على مقدر يستدعيه الأمر بالخروج و ينسحب عليه الكلام أى فخرج عليهن فرأينه وانما حذف تحقيقا لمفاجأة رؤيتهن كأنها تفوت عند ذكر خروجه عليهن كما حذف لتحقيق السرعة فى قوله عز وجل فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك وفيه ايذان بسرعة امتثاله عليه السلام بأمرها فيما لا يشاهد مضرته من الأفاعيل ﴿أكبرنه﴾ عظمنه وهبن حسنه الفائق وجماله الرائع الرائق فان فضل جماله على جمال كل جميل كان كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب . عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر وقيل كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس على الماء وقيل معنى أكبرن حضن والهاء للسكت أو ضمير راجع الى يوسف عليه السلام على حذف اللام أى حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبى

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع فان لحت حاضت فى الخدور العواتق

﴿وقطعن أيديهن﴾ أى جرحنها بما فى أيديهن من السكاكين لفرط دهشتهن وخروج حركات جوارحهن عن منهاج الاختيار والاعتياد حتى لم يعلمن ما فعلن و فى التعبير عن الجرح بالقطع ما لا يخفى من الدلالة على كثرة جرحهن ومع ذلك لم يبالين بذلك ولم يشعرن به ﴿وقلن حاش لله﴾ تنزيها له سبحانه عن صفات النقص والعجز وتعجبا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع وأصله حاشا كما قرأه أبو عمرو فى الدرج فحذفت ألفه الاخيرة تخفيفا وهو حرف جر يفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء فلا يستثنى به الا ما يكون موجبا للتنزيه فوضع موضعه فمعنى حاشا الله تنزيه الله و براءة الله وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه واللام لبيان المنزه والمبرأ كما فى سقيا لك والدليل على وضعه موضع المصدر قراءة أبى السمال حاشا بالتنوين وقراءة أبى عمرو بحذف الالف الأخيرة وقراءة الاعمش بحذف الاولى فان التصرف من خصائص الاسم فيدل على تنزيله منزلته وعدم التنوين لمراعاة أصله كما فى قولك جلست من عن يمينه وقوله غدت من عليه منقلب الالف الى الياء مع الضمير وقرىء حاش لله بسكون الشين اتباعا للفتحة الالف فى الاسقاط وحاش الاله وقيل حاشا

فاعل من الحشا الذى هو الناحية وفاعله ضمير يوسف أى صار فى ناحية من أن يقارف مارمته به لله أى لطاعته أولمكانه أوجانب المعصية لأجل الله ﴿ماهذا بشرا﴾ على اعمال مابمعنى ليس وهى لغة أهل الحجاز لمشاركتهما فى نفى الحال وقرئ بشر على لغة تميم و بشرى أى بعبد مشترى لئيم نفين عنه البشرية لماشاهدن فيه من الجمال العبقرى الذى لم يعهد مثاله فى البشر وقصرنه على الملكية بقولهن ﴿ان هذا الاملك كريم﴾ بناء على ماركز فى العقول من أن لاحى أحسن من الملك كما ركب فيها أن لا أقبح من الشيطان ولذلك لايزال يشبه بهما كل متناه فى الحسن والقبح وغرضهن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال ﴿قالت فذلكن﴾ الفاء فصيحة والخطاب للنسوة والاشارة الى يوسف بالعنوان الذى وصفنه به الآن من الخروج فى الحسن والجمال عن المراتب البشرية والاقتصار على الملكية فاسم الاشارة مبتدأ والموصول خبره والمعنى ان كان الأمر كما قلتن فذلكن الملك الكريم النائى عن المراتب البشرية هو ﴿الذى لمتننى فيه﴾ أى عيرتننى فى الافتتان به حيث رأيتن بمحلى بنسبتى الى العزيز و وضعتن قدره بكونه من المماليك أو بالعنوان الذى وصفنه به فيما سبق بقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى فهو خبر لمبتدا محذوف أى فهو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى أنفسكن وقلتن فيه و فى ماقلتن فالآن قدعلمتن من هو وماقولكن فينا وأما مايقال تعنى أنكن لم تصورنه بحق صورته و لو صورتنه بما عاينتن لعذرتننى فى الافتتان به فلا يلائم المقام فان مرادها بدعوتهن وتمهيد مامهدته لهن تبكيتهن وتنديمهن على ماصدر عنهن من اللوم وقد فعلت ذلك بمالا مزيد عليه وماذكر من المقال لحق المعتذر قبل ظهور معذرته وقد قيل فى تعليل الملكية أن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من الخواص الملكية وهو أيضا لايلائم قولها فذلكن الذى لمتننى فيه فان عنوان العصمة مما ينافى تمشية مرامها ثم بعدما أقامت عليهن الحجة وأوضحت لديهن عذرها وقد أصابهن من قبله عليه السلام ماأصابها باحت لهن ببقية سرها فقالت ﴿ولقد راودته عن نفسه﴾ حسبما قلتن وسمعتن ﴿فاستعصم﴾ امتنع طالبا للعصمة وهو بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها كما فى استمسك واستجمع الرأى وفيه برهان نير على أنه لم يصدر عنه عليه السلام شئ مخل باستعصامه بقوله معاذ الله من الهم وغيره اعترفت لهن أولا بما كن يسمعنه من مراودتها له و أكدته اظهارا لابتهاجها بذلك ثم زادت على ذلك أنه أعرض عنها على أبلغ ما يكون ولم يمل اليها قط ثم زادت عليه أيضا أنها مستمرة على ماكانت عليه غير مرعوية عنه لابلوم العواذل و لا باعراض الحبيب فقالت ﴿ولئن لم يفعل ما آمره﴾ أى آمر به فيما سيأتى كما لم يفعل فيما مضى فحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير كما فى أمرتك الخير فالضمير للموصول أوأمرى اياه أى موجب أمرى ومقتضاه فمامصدرية والضمير ليوسف وعبرت عن مراودتها بالأمر اظهاراً لجريان حكومتها عليه واقتضاء للامتثال بأمرها ﴿ليسجنن﴾ بالنون المثقلة آثرت بناء الفعل المفعول جريا على رسم الملوك أو ايهاما لسرعة ترتب ذلك على عدم امتثاله لامرها كأنه لايدخل بينهما فعل فاعل ﴿وليكونا﴾ بالمخففة ﴿من الصاغرين﴾ أى الاذلاء فى السجن وقد قرئ الفعلان بالتثقيل ولكن المشهورة أولى لأن النون كتبت فى المصحف ألفا على حكم الوقف واللام الداخلة على حرف الشرط موطئة للقسم وجوابه سادمسد الجوابين ولقد أتت بهذا الوعيد المنطوى على فنون التأكيد بمحضر منهن ليعلم يوسف عليه السلام أنها ليست فى أمرها على خفية ولاخيفة من أحد فتضيق عليه الحيل وتعيا به العلل و ينصحن له و يرشدنه الى موافقتها ولما كان هذا الابراق والارعاد منها مظنة لسؤال سائل يقول فما صنع يوسف حينئذ قيل ﴿قال﴾ مناجيا لربه عز سلطانه ﴿رب السجن﴾ الذى أوعدتنى بالالقاء فيه وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر ﴿أحب الى﴾ أى آثر عندى لانه مشقة قليلة نافدة أثرها راحات جليلة أبدية

﴿مما يدعوننى اليه﴾ من مؤاتاتها التى تؤدى الى الشقاء والعذاب الأليم وهذا الكلام منه عليه السلام مبنى على مامر من انكشاف الحقائق لديه و بروز كل منها بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست على بابها اذليس له شائبة محبة لمادعته اليه وانما هو والسجن شران أهونهما وأقربهما الى الايثار السجن والتعبير عن الايثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفا من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث ان الصغار من فروعه ومستتبعاته واسناد الدعوة اليهن جميعا لان النسوة رغبته فى مطاوعتها وخوفته من مخالفتها وقيل دعونه الى أنفسهن وقيل انما ابتلى عليه السلام بالسجن لقوله هذا وكان الأولى به أن يسأل الله تعالى العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبر ﴿والاتصرف﴾ أى ان لم تصرف ﴿عنى كيدهن﴾ فى تحبيب ذلك الى وتحسينه لدى بأن تثبتنى على ماأنا عليه من العصمة والعفة ﴿أصب اليهن﴾ أى أمل الى اجابتهن أو الى أنفسهن على قضية الطبيعة وحكم القوة الشهوية وهذا فزع منه عليه السلام الى ألطاف الله تعالى جريا على سنن الأنبياء والصالحين فى قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن باظهار أن لاطاقة له بالمدافعة كقول المستغيث أدركنى والاهلكت لانه يطلب الاجبار والالجاء الى العصمة والعفة وفى نفسه داعية تدعوه الى هواهن والصبوة الميل الى الهوى ومنه الصبا لأن النفوس تصبو اليها لطيب نسيمها وروحها وقرىء أصب اليهن من الصبابة وهى رقة الشوق ﴿وأكن من الجاهلين﴾ الذين لايعملون بما يعلمون لأن من لاجدوى لعلمه فهو والجاهل سواء أومن السفهاء بارتكاب مايدعوننى اليه من القبائح لأن الحكيم لايفعل القبيح ﴿فاستجاب له ربه﴾ دعاءه الذى تضمنه قوله والاتصرف عنى كيدهن الخ فان فيه استدعاء لصرف كيدهن على أبلغ وجه وألطفه كما مر وفى اسناد الاستجابة الى الرب مضافا اليه عليه السلام مالايخفى من اظهار اللطف ﴿فصرف عنه كيدهن﴾ حسب دعائه وثبته على العصمة والعفة ﴿انه هو السميع﴾ لدعاء المتضرعين اليه ﴿العليم﴾ بأحوالهم ومايصلحهم ﴿ثم بدا لهم﴾ أى ظهر للعزيز وأصحابه المتصدين للحل والعقد ريثما اكتفوا بأمر يوسف بالكتمان والاعراض عن ذلك ﴿من بعدمارأوا الآيات﴾ الصارفة لهم عن ذلك البداء وهى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام وفاعل بدا امامصدره أوالرأى المفهوم من السياق أوالمصدر المدلول عليه بقوله ﴿ليسجننه﴾ والمعنى بدا لهم بداء أو رأى أوسجنه المحتوم قائلين والله ليسجننه فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول المقدر حالا من ضميرهم وما كان ذلك البداء الاباستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه فى الذروة والغارب وكان مطواعة لها تقوده حيث شاءت قال السدى انها قالت للعزيز ان هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يخبرهم بأنى راودته عن نفسه فاما أن تأذن لى فأخرج فأعتذر الى الناس واما أن تحبسه فحبسه ولقد أرادت بذلك تحقيق وعيدها لتلين به عريكته وتنقادلها قرونته لما انصرمت حبال رجائها عن استتباعه بعرض الجمال والترغيب بنفسها وبأعوانها وقرىء لتسجننه على صيغة الخطاب بأن خاطب بعضهم العزيز ومن يليه أو العزيز وحده على وجه التعظيم أو خاطب به العزيز ومن عنده من أصحاب الرأى المباشرين للسجن والحبس ﴿حتى حين﴾ الى حين انقطاع قالة الناس وهذا بادى الرأى عند العزيز وذويه وأما عندها فحتى يذلله السجن ويسخره لها ويحسب الناس أنه المجرم وقرىء عتى حين بلغة هذيل ﴿ودخل معه﴾ أى فى صحبته ﴿السجن فتيان﴾ من فتيان الملك ومماليكه أحدهما شرابيه والآخر خبازه. روى أن جماعة من أهل مصر ضمنوا لهما مالا ليسما الملك فى طعامه وشرابه فاجاباهم الى ذلك ثم ان الساقى نكل عن ذلك ومضى عليه الخباز فسم الخبز فلما حضر الطعام قال الساقى لاتأكل أيها الملك فان الخبز مسموم وقال الخباز لاتشرب أيها الملك فان الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشربه

فشربه فلم يضره وقال للخباز كله فأبى فجرب بدابة فهلكت فأمر بحبسهما فاتفق أن أدخلاه معه وتأخير الفاعل عن المفعول لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ليتمكن عند النفس حين وروده عليها فضل تمكن ونظيره تقديم الظرف على المفعول الصريح فى قوله تعالى فأوجس فى نفسه خيفة وتأخير السجن عن الظرف لايهام العكس أن يكون الظرف خبرا مقدما على المبتدا وتكون الجملة حالا من فاعل دخل فتأمل ﴿قال أحدهما﴾ استئناف مبنى على سؤال من يقول ماصنعا بعدما دخلا معه السجن فأجيب بانه قال أحدهما وهو الشرابى ﴿انى أرانى﴾ أى رأيتنى والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية ﴿أعصر خمرا﴾ أى عنبا سماه بما يؤول اليه لكونه المقصود من العصر وقيل الخمر بلغة عمان اسم للعنب وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه أعصر عنبا ﴿وقال الآخر﴾ وهو الخباز ﴿انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا﴾ تأخير المفعول عن الظرف لما مر آنفا وقوله ﴿تأكل الطير منه﴾ أى تنهس منه صفة للخبز أو استئناف مبنى على السؤال ﴿نبئنا بتأويله﴾ بتأويل ماذكر من الرؤيين أو مارئى باجراء الضمير مجرى ذلك بطريق الاستعارة فان اسم الاشارة يشار به الى متعدد كما فى قوله

فيها خطوط من سواد وبلق   كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كأن ذلك والسر فى المصير الى اجراء الضمير مجرى اسم الاشارة مع أنه لاحاجة اليه بعد تأويل المرجع بماذكر أو بمارئى أن الضمير انما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرض لحال من أحواله فلا يتسنى تأويله بأحد الاعتبارين الا باجرائه مجرى اسم الاشارة الذى يدل على المشار اليه بالاعتبار الذى جرى عليه فى الكلام فتأمل هذا اذا قالاه معا أو قاله أحدهما من جهتهما معا وأما اذا قاله كل منهما اثر ماقص مارآه فالخطاب المذكور ليس عبارتهما ولا عبارة أحدهما من جهتهما ليتعدد المرجع بل عبارة كل منهما نبئنى بتأويله مستفسرا لما رآه وصيغة المتكلم مع الغير واقعة فى الحكاية دون المحكى على طريقة قوله عز وجل ياأيها الرسل كلوا من الطيبات فانهم لم يخاطبوا بذلك دفعة بل خوطب كل منهم فى زمانه بصيغة مفردة خاصة به ﴿انا نراك﴾ تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارها منه عليه السلام ﴿من المحسنين﴾ من الذين يجيدون عبارة الرؤيا لما رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له تأويلا حسنا أو من العلماء لما سمعاه يذكر للناس مايدل على علمه وفضله أو من المحسنين الى أهل السجن أى فأحسن الينا بكشف غمتنا ان كنت قادرا على ذلك. روى أنه عليه السلام كان اذا مرض منهم رجل قام عليه واذا ضاق مكانه أوسع له واذا احتاج جمع له وعن قتادة رضى الله عنه كان فى السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول أبشروا واصبروا تؤجروا فقالوا بارك الله عليك ماأحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يافتى فقال أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب ابن ذبيح الله اسحق ابن خليل الله ابراهيم فقال له عامل السجن لو استطعت خليت سبيلك ولكنى أحسن جوارك فكن فى أى بيوت السجن شئت وعن الشعبى أنهما تحالماله ليمتحناه فقال الشرابى أرانى فى بستان فاذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطعتها وعصرتها فى كأس الملك وسقيته وقال الخباز انى أرانى وفوق رأسى ثلاث سلال فيها أنواع الاطعمة واذا سباع الطير تنهس منها ﴿قال لايأتيكما طعام ترزقانه﴾ فى مقامكما هذا حسب عادتكما المطردة ﴿الا نبأتكما بتأويله﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لايأتيكما طعام فى حال من الأحوال الا حال مانبأتكما به بأن بينت لكما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله ﴿قبل أن يأتيكما﴾ واطلاق التأويل عليه اما بطريق الاستعارة فان ذلك بالنسبة الى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل بالنظر الى مارئى فى المنام وشبيه له واما بطريق المشاكلة حسبما وقع فى عبارتهما من قولهما نبئنا بتأويله ولا يبعد أن يراد بالتأويل الشىء الآئل لا المآل فانه فى الأصل جعل شىء آئلا

الى شئ آخر فكما يجوز أن يراد به الثانى يجوز أن يراد به الأول فالمعنى الا نبأتكما بما يؤول اليه من الكلام والخبر المطابق للواقع وكان عليه السلام يقول لهما اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيجدنه كذلك ومراده عليه السلام بذلك بيان كل ما يهمهما من الأمور المترقبة قبل وقوعها وانما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقا فى ذلك بحسب الحال مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص اليه مما استعبراه من الرؤيين المتعلقتين بالشراب والطعام وقد جعل الضمير لما قصا من الرؤيين على معنى لا يأتيكما طعام ترزقانه حسب عادتكما الا أخبرتكما بتأويل ما قصصتما على قبل أن يأتيكما ذلك الطعام الموقت مرادا به الاخبار بالاستعجال فى التنبئة وأنت خبير بأن النظم الكريم ظاهر فى تعدد اتيان الطعام والاخبار بالتأويل وتجددهما وأن المقام مقام اظهار فضله فى فنون العلوم بحيث يدخل فى ذلك تأويل رؤياهما دخولا أوليا وانما لم يكتف عليه السلام بمجرد تأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله لأنهما لما نعتاه عليه السلام بالانتظام فى سمط المحسنين وانهما قد علما ذلك حيث قالا انا نراك من المحسنين توسم عليه السلام فيهما خيرا وتوجها الى قبول الحق فأراد أن يخرج آثر ذى أثير عما فى عهدته من دعوة الخلق الى الحق فمهد قبل الخوض فى ذلك مقدمة تزيدهما علما بعظم شأنه وثقة بأمره ووقوفا على علو طبقته فى بدائع العلوم توسلا بذلك الى تحقيق ما يتوخاه وقد تخلص اليها من كلامهما فكأنه قال تأويل ما قصصتماه على فى طرف الثمام حيث رأيتما مثاله فى المنام وانى أبين لكما كل جليل ودقيق من الأمور المستقبلة وان لم يكن هناك مقدمة المنام حتى ان الطعام الموظف الذى يأتيكما كل يوم أبينه لكما قبل اتيانه ثم أخبرهما بأن علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والعرافين بل هو فضل الهى يؤتيه من يشاء ممن يصطفيه للنبوة فقال ﴿ذلكما﴾ أى ذلك التأويل والاخبار بالمغيبات ومعنى البعد فى ذلك للاشارة الى علو درجته وبعد منزلته ﴿مما علمنى ربى﴾ بالوحى والالهام أى بعض منه أو من ذلك الجنس الذى لا يحوم حول ادراكه العقول ولقد دلهما بذلك على أن له علوما جمة ما سمعاه قطعة من جماتها وشعبة من دوحتها ثم بين أن نيل تلك الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه الأنبياء العظام وامتناعه عن الشرك فقال ﴿انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ وهو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من قوله ذلكما مما علمنى ربى وتعليلا له لا للتعليم الواقع صلة للموصول لتأديته الى معنى أنه مما علمنى ربى لهذا السبب دون غيره ولا لمضمون الجملة الخبرية لأن ما ذكر بصدد التعليل ليس بعلة لكون التأويل المذكور بعضا مما علمه ربه أو لكونه من جنسه بل لنفس تعليم ما علمه فكأنه قيل لماذا علمك ربك تلك العلوم البديعة فقيل لأنى تركت ملة الكفرة أى دينهم الذى اجتمعوا عليه من الشرك وعبادة الأوثان والمراد بتركها الامتناع عنها رأسا كما يفصح عنه قوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ لا تركها بعد ملابستها وانما عبر عنه بذلك لكونه أدخل بحسب الظاهر فى اقتدائهما به عليه السلام والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الايمان به للتنصيص على أن عبادتهم له تعالى مع عبادة الأوثان ليست بايمان به تعالى كما هو زعمهم الباطل على ما مر فى قوله تعالى انه عمل غير صالح ﴿وهم بالآخرة﴾ وما فيها من الجزاء ﴿هم كافرون﴾ على الخصوص دون غيرهم لافراطهم فى الكفر ﴿واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب﴾ يعنى أنه انما حاز هذه الكمالات وفاز بتلك الكرامات بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام ولم يتبع ملة قوم كفروا بالمبدأ والمعاد وانما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه فى الايمان والتوحيد وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لان التخلية متقدمة على التحلية ﴿ما كان﴾ أى ما صح وما استقام فضلا عن الوقوع ﴿لنا﴾ معاشر الانبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا ﴿أن نشرك بالله من شئ﴾ أى شئ كان من ملك أو جنى أو انسى فضلا عن الجماد البحت ﴿ذلك﴾ أى التوحيد المدلول عليه بقوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ ﴿من فضل الله علينا﴾ أى

ناشئ من تأييده لنا بالنبوة وترشيحه ايانا لقيادة الأمة وهدايتهم الى الحق وذلك مع كونه من موجبات التوحيد ودواعيه نعمة جليلة وفضل عظيم علينا بالذات ﴿وعلى الناس﴾ كافة بواسطتنا وحيث عبر عن ذلك بذلك العنوان عبر عن التوحيد الذي يوجبه بالشكر فقيل ﴿ولكن أكثر الناس لايشكرون﴾ أى لايوحدون فان التوحيد مع كونه من آثار ماذكر من التأييد شكر لله عز وجل على تلك النعمة وانما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع الى الناس لزيادة توضيح وبيان ولقطع توهم رجوعه الى المجموع الموهم لعدم اختصاص غير الشاكر بالناس وقيل ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث نصب لنا أدلة ننظر فيها ونستدل بها على الحق وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس أيضا ولكن أكثرهم لاينظرون ولا يستدلون بها اتباعا لأهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين ولك أن تقول ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث أعطانا عقولا ومشاعر نستعملها فى دلائل التوحيد التى مهدها فى الأنفس والآفاق وقد أعطى سائر الناس أيضا مثلها ولكن أكثرهم لايشكرون أى لا يصرفون تلك القوى والمشاعر الى ماخلقت هى له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والأنفسية والعقلية والنقلية ﴿ياصاحبي السجن﴾ أى ياصاحبي فى السجن كما تقول ياسارق الليلة ناداهما بعنوان الصحبة فى مدار الأشجان ودار الأحزان التى تصفو فيها المودة وتخلص النصيحة ليقبلا عليه و يقبلا مقالته وقد ضرب لهما مثلا يتضح به الحق عندهما حق اتضاح فقال ﴿أأرباب متفرقون﴾ لاارتباط بينهم ولا اتفاق يستعبد كما كل منهم حسبما أراد غير مراقب للآخرين مع عدم استقلاله ﴿خير﴾ لكما ﴿أم الله﴾ المعبود بالحق ﴿الواحد﴾ المتفرد بالألوهية ﴿القهار﴾ الغالب الذى لايغالبه أحد وبعد ما نبههما على فساد تعدد الأرباب بين لهما سقوط آلهتهما عن درجة الاعتبار رأسا فضلا عن الألوهية فقال معمما للخطاب لهما ولمن على دينهما ﴿ماتعبدون من دونه﴾ أى من دون الله شيأ ﴿الا أسماء﴾ فارغة لامطابق لها فى الخارج لأن ماليس فيه مصداق اطلاق الاسم عليه لاوجود له أصلا فكانت عبادتهم لتلك الأسماء فقط ﴿سميتموها﴾ جعلتموها أسماء وانما لم يذكر المسميات تربية لما يقتضيه المقام من اسقاطها عن مرتبة الوجود وايذانا بأن تسميتهم فى البطلان حيث كانت بلا مسمى كعبادتهم حيث كانت بلا معبود ﴿أنتم وآباؤكم﴾ بمحض جهلكم وضلالتكم ﴿ما أنزل الله بها﴾ أى بتلك التسمية المستتبعة للعبادة ﴿من سلطان﴾ من حجة تدل على صحتها ﴿ان الحكم﴾ فى أمر العبادة المتفرعة على تلك التسمية ﴿الا لله﴾ عز سلطانه لأنه المستحق لها بالذات اذهو الواجب بالذات الموجد للكل والمالك لأمره ﴿أمر﴾ استئناف مبنى على سؤال ناشئ من قوله ان الحكم الا لله فكأنه قيل فماذا حكم الله فى هذا الشأن فقيل أمر على ألسنة الأنبياء عليهم السلام ﴿ألا تعبدوا﴾ أى بأن لاتعبدوا ﴿الا اياه﴾ حسبما تقضى به قضية العقل أيضا ﴿ذلك﴾ أى تخصيصه تعالى بالعبادة ﴿الدين القيم﴾ الثابت المستقيم الذى تعاضدت عليه البراهين عقلا ونقلا ﴿ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾ أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم بتلك البراهين أو لايعلمون شيأ أصلا فيعبدون أسماء سموها من تلقاء أنفسهم معرضين عن البرهان العقلى والسلطان النقلى وبعد تحقيق الحق ودعوتهما اليه وبيانه لهما مقداره الرفيع ومرتبة علمه الواسع شرع فى تفسير مااستفسراه ولكونه بحثا مغايرا لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال ﴿ياصاحبي السجن أما أحدكما﴾ وهو الشرابى وانما لم يعينه ثقة بدلالة التعبير وتوسلا بذلك الى ابهام أمر صاحبه حذار مشافهته بما يسوءه ﴿فيسقى ربه﴾ أى سيده ﴿خمرا﴾ روى انه عليه السلام قال له ماأريت من الكرمة وحسنها الملك وحسن حالك عنده وأما القضبان الثلاثة فثلاثة أيام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود الى ما كنت عليه وقرأ عكرمة فيسقى ربه على البناء للمفعول أى يسقى مايروى به ﴿وأما الآخر﴾

وهو الخباز ﴿فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾ روى أنه عليه السلام قال له مارأيت من السلال الثلاث ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل ﴿قضى﴾ أى أتم وأحكم ﴿الأمر الذى فيه تستفتيان﴾ وهو ماراياه من الرؤيين قطعا لاما له الذى هو عبارة عن نجاة أحدهما وهلاك الآخر كما يوهمه اسناد القضاء اليه اذ الاستفتاء انما يكون فى الحادثة لافى حكمها يقال استفتى الفقيه فى الحادثة أى طلب منه بيان حكمها و لا يقال استفتاه فى حكمها و كذا الافتاء فانه يقال أفتى فلان فى الواقعة الفلانية بكذا و لا يقال أفتى فى حكمها أو جوابها بكذا ومما هو علم فى ذلك قوله تعالى ياأيها الملأ أفتونى فى رؤياى ومعنى استفتائهما فيه طلبهما لتأويله بقولهما نبئنا بتأويله وانما عبر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلا لأمره وتفخيما لشأنه اذ الاستفتاء انما يكون فى النوازل المشكلة الحكم المبهمة الجواب وايثار صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما فى ذلك لما أنهما بصدده الى أن يقضى عليه السلام من الجواب وطره واسناد القضاء اليه مع انه من أحوال مآله لانه فى الحقيقة عين ذلك المآل وقد ظهر فى عالم المثال بتلك الصورة وأما توحيده مع تعدد رؤياهما فوارد على حسب ماوحداه فى قولهما نبئنا بتأويله لا لان الأمر ماتهما به وسجنا لاجله من سم الملك فانهما لم يستفتيافيه ولا فيما هو صورته بل فيما هو صورة لمآله وعاقبته فتأمل وانما أخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقا لتعبيره وتأكيدا له وقيل لما عبر رؤياهما جحدا وقالا مارأينا شيئاً فأخبرهما ان ذلك كائن صدقتما أو كذبتما ولعل الجحود من الخباز اذ لاداعى الى جحود الشرابى الا أن يكون ذلك لمراعاة جانبه ﴿وقال﴾ أى يوسف عليه السلام ﴿للذى ظن أنه ناج﴾ أوثر على صيغة المضارع مبالغة فى الدلالة على تحقق النجاة حسبما يفيده قوله تعالى قضى الأمر الذى فيه تستفتيان وهو السر فى ايثار ماعليه النظم الكريم على أن يقال للذى ظنه ناجيا ﴿منهما﴾ من صاحبيه وانما ذكر بوصف النجاة تمهيدا لمناط التوصية بالذكر عند الملك وعنوان التقرب المفهوم من التعبير المذكور وان كان أدخل فى ذلك وأدعى الى تحقيق ماوصاه به لكنه ليس بوصف فارق يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك والظان هو يوسف عليه السلام لاصاحبه لان التوصية المذكورة لاتدور على ظن الناجى بل على ظن يوسف وهو بمعنى اليقين كما فى قوله تعالى ظننت أنى ملاق حسابيه فالتعبير بالوحى كما ينبىء عنه قوله تعالى قضى الأمر الخ وقيل هو بمعناه والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الأمر أيضا اجتهادى ﴿اذكرنى﴾ بما أنا عليه من الحال والصفة ﴿عند ربك﴾ سيدك وصفنى له بصفتى التى شاهدتها ﴿فأنساه الشيطان﴾ أى أنسى الشرابى بوسوسته والقائه فى قلبه أشغالا تعوقه عن الذكر والا فالانساء فى الحقيقة لله عز وجل والفاء للسببية فان توصيته عليه السلام المتضمنة للاستعانة بغيره سبحانه كانت باعثة لما ذكر من الانساء ﴿ذكر ربه﴾ أى ذكر الشرابى له عليه السلام عند الملك والاضافة لادنى ملابسة أو ذكر اخبار ربه ﴿فلبث﴾ أى يوسف عليه السلام بسبب ذلك الانساء أو القول ﴿فى السجن بضع سنين﴾ البضع مابين الثلاث الى التسع من البضع وهو القطع وأكثر الاقاويل انه لبث فيه سبع سنين و روى عن النبى عليه السلام رحم الله أخى يوسف لولم يقل اذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعا بعد الخمس والاستعانة بالعباد وان كانت مرخصة لكن اللائق بمناصب الانبياء عليهم السلام الاخذ بالعزائم ﴿وقال الملك﴾ أى الريان ﴿انى أرى﴾ أى رأيت وايثار صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿سبع بقرات سمان﴾ جمع سمين وسمينة ككرام فى جمع كريم وكريمة يقال رجال كرام ونسوة كرام ﴿يأكلهن﴾ أى أكلهن والعدول الى المضارع لاستحضار الصورة تعجيبا والجملة حال من البقرات أو صفة لها ﴿سبع عجاف﴾ أى سبع بقرات عجاف وهى جمع عجفاء والقياس عجف لان فعلاء وأفعل لايجمع على فعال ولكن عدل به عن القياس حملا لاحد النقيضين على الآخر وانما لم يقل سبع عجاف بالاضافة لان التميز موضوع لبيان الجنس والصفة

ليست بصالحة لذلك فلا يقال ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ وأما قولك ثلاثة فرسان وخمسة ركبان فلجريان الفارس والراكب مجرى الاسماء روى أنه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وخرج عقيبهن سبع بقرات عجاف فى غاية الهزال فابتلعت العجاف السمان ﴿ وسبع سنبلات خضر ﴾ قد انعقد حبها ﴿ وأخر يابسات ﴾ أى وسبعا أخر يابسات قد أدركت والتوت على الخضر حتى غلبتها على ما روى ولعل عدم التعرض لذكره للا كتفاء بما ذكر من حال البقرات ﴿ ياأيها الملأ ﴾ خطاب للاشراف من العلماء والحكماء ﴿ أفتونى فى رؤياى ﴾ هذه أى عبروها وبينوا حكمها وماتؤل اليه من العاقبة والتعبير عن التعبير بالافتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه ﴿ ان كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ أى تعلمون عبارة جنس الرؤيا علما مستمرا وهى الانتقال من الصور الخيالية المشاهدة فى المنام الى ماهى صور وأمثلة لها من الأمور الآفاقية أو الانفسية الواقعة فى الخارج من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر اذا قطعته وجاوزته ونحوه أولتها أى ذكرت مآلها وعبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها تعبيرا والجمع بين الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار كما أشير اليه واللام للبيان أو لتقوية العامل المؤخر لرعاية الفواصل أو لتضمين تعبرون معنى فعل متعد باللام كأنه قيل ان كنتم تنتدبون لعبارتها ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان كما يقال فلان لهذا الأمر اذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبر آخر ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال الملأ للملك فقيل قالوا هى ﴿ أضغاث أحلام ﴾ أى تخاليطها جمع ضغث وهو فى الاصل ماجمع من أخلاط النبات وحزم ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس ووساوس الشيطان وتريها فى المنام والاحلام جمع حلم وهى الرؤيا الكاذبة التى لاحقيقة لها والاضافة بمعنى من أى هى أضغاث من أحلام أخرجوها من جنس الرؤيا التى لها عاقبة تؤول اليها ويعتنى بأمرها وجمعوها وهى رؤيا واحدة مبالغة فى وصفها بالبطلان كما فى قولهم فلان يركب الخيل ويلبس العمائم لمن لايملك الا فرسا واحدا وعمامة فردة أو لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان والسبع العجاف والسنابل السبع الخضر والأخر اليابسات فتأمل حسن موقع الاضغاث مع السنابل فلله درشأن التنزيل ﴿ وما نحن بتأويل الاحلام ﴾ أى المنامات الباطلة التى لا أصل لها ﴿ بعالمين ﴾ لا لأن لها تأويلا ولكن لانعلمه بل لأنه لاتأويل لها وانما التأويل للمنامات الصادقة ويجوز أن يكون ذلك اعترافا منهم بقصور علمهم وأنهم ليسوا بنحارير فى تأويل الاحلام مع أن لها تأويلا كما يشعر به عدولهم عما وقع فى كلام الملك من العبارة المعربة عن مجرد الانتقال من الدال الى المدلول حيث لم يقولوا بتعبير الاحلام أو عبارتها الى التأويل المنبئ عن التصرف والتكلف فى ذلك لما بين الآئل والمآل من البعد ويؤيده قوله عز وجل أنا أنبئكم بتأويله ﴿ وقال الذى نجا منهما ﴾ أى من صاحبى يوسف وهو الشرابى ﴿ وادكر ﴾ بغير المعجمة وهو الفصيح وعن الحسن بالمعجمة أى تذكر يوسف عليه السلام وشئونه التى شاهدها ووصيته بتقريب رؤيا الملك واشكال تأويلها على الملا ﴿ بعد أمة ﴾ أى مدة طويلة وقرىء امة بالكسر وهى النعمة أى بعد ما أنعم عليه بالنجاة وأمه أى نسيان والجملة حال من الموصول أو من ضميره فى الصلة وقيل معطوفة على نجا وليس بذاك لأن حق كل من الصفة والصلة أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف والموصول عند المخاطب كما عند المتكلم ولذلك قيل ان الصفات قبل العلم بها أخبار والاخبار بعد العلم بها صفات وأنت تدرى أن تذكره بعد أمة انما علم بهذه الجملة فلا مجال لنظمه مع نجاته المعلومة قبل فى سلك الصلة ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ أى أخبركم به بالتلقى عمن عنده علمه لامن تلقاء نفسى ولذلك لم يقل أنا أفتيكم فيها وعقبه بقوله ﴿ فأرسلون ﴾ أى الى يوسف وانما لم يذكره ثقة بما سبق من التذكر وما لحق من قوله ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ أى أرسل اليه فأتاه فقال يا يوسف ووصفه بالمبالغة فى الصدق حسبما شاهده وذاق أحواله وجربها لكونه

بصدد اغتنام آثاره واقتباس أنواره فهو من باب براعة الاستهلال ﴿أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾ أى فى رؤيا ذلك وانما لم يصرح به لوضوح مرامه بقرينة ماسبق من معاملتهما ولدلالة مضمون الحادثة عليه حيث لا امكان لوقوعه فى عالم الشهادة أى بين لنا مآلها وحكمها وحيث عاين علو رتبته عليه السلام فى الفضل عبر عن ذلك بالافتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولا نبئنا بتأويله وفى قوله أفتنا مع أنه المستفتى وحده اشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة وأنه فى ذلك معبر وسفير كما آذن بذلك حيث قال ﴿لعلى أرجع الى الناس﴾ أى الى الملك ومن عنده أو الى أهل البلد ان كان السجن فى الخارج كما قيل فأنبئهم بذلك ﴿لعلهم يعلمون﴾ ذلك ويعملون بمقتضاه أو يعلمون فضلك ومكانك مع ماأنت فيه من الحال فتتخلص منه وانما لم يبت القول فى ذلك مجاراة معه على نهج الادب واحترازا عن المجازفة اذ لم يكن على يقين من الرجوع فربما اخترم دونه لعل المنايا دون ماتعدانى ولا من علمهم بذلك فربما لم يعلموه ﴿قال﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال يوسف عليه السلام فى التأويل فقيل قال ﴿تزرعون سبع سنين دأبا﴾ قرىء بفتح الهمزة وسكونها وكلاهما مصدر دأب فى العمل اذا جد فيه وتعب وانتصابه على الحالية من فاعل تزرعون أى دائبين أو تدأبون دأبا على انه مصدر مؤكد لفعل هو الحال أول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والعجاف واليابسات بسنين مجدبة فأخبرهم بأنهم يواظبون سبع سنين على الزراعة ويبالغون فيها اذ بذلك يتحقق الخصب الذى هو مصداق البقرات السمان وتأويلها ودلهم فى تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال ﴿فما حصدتم﴾ أى فى كل سنة ﴿فذروه فى سنبله﴾ ولا تذروه كيلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها ولعله عليه السلام استدل على ذلك بالسنبلات الخضر وانما أمرهم بذلك اذ لم يكن معتادا فيما بينهم وحيث كانوا معتادين للزراعة لم يأمرهم بها وجعلها أمرا محقق الوقوع وتأويلا للرؤيا مصداقا لما فيها من البقرات السمان ﴿الا قليلا مما تأكلون﴾ فى تلك السنين وفيه ارشاد منه عليه السلام لهم الى التقليل فى الأكل والاقتصار على استثناء المأكول دون البذر لكون ذلك معلوما من قوله تزرعون سبع سنين وبعد اتمام ماأمرهم به شرع فى بيان بقية التأويل التى يظهر منها حكمة الأمر المذكور فقال ﴿ثم يأتى﴾ وهو عطف على تزرعون فلا وجه لجعله بمعنى الأمر حثا لهم على الجد والمبالغة فى الزراعة على أنه يحصل بالاخبار بذلك أيضا ﴿من بعد ذلك﴾ أى من بعد السنين السبع المذكورات وانما لم يقل من بعدهن قصدا الى الاشارة الى وصفهن فان الضمير ساكت عن أوصاف المرجع بالكلية ﴿سبع شداد﴾ أى سبع سنين صعاب على الناس ﴿يأكلن ماقدمتم لهن﴾ من الحبوب المتروكة فى سنابلها وفيه تنبيه على أن أمره عليه السلام بذلك كان لوقت الضرورة واسناد الأكل اليهن مع أنه حال الناس فيهن مجازى كما فى نهاره صائم وفيه تلويح بأنه تأويل لأكل العجاف السمان واللام فى لهن ترشيح لذلك فكأن ماادخر فى السنابل من الحبوب شىء قد هيىء وقدم لهن كالذى يقدم للنازل والا فهو فى الحقيقة مقدم للناس فيهن ﴿الا قليلا مما تحصنون﴾ تحرزون لبذور الزراعة ﴿ثم يأتى من بعد ذلك﴾ أى من بعد السنين الموصوفة بما ذكر من الشدة وأكل الغلال المدخرة ﴿عام﴾ لم يعبر عنه بالسنة تحاشيا عن المدلول الأصلى لها من عام القحط وتنبيها من أول الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق ﴿فيه يغاث الناس﴾ من الغيث أى يمطرون يقال غيثت البلاد اذا مطرت فى وقت الحاجة أو من الغوث يقال أغاثنا الله تعالى أى أمدنا برفع المكاره حين أظلتنا ﴿وفيه يعصرون﴾ أى ما من شأنه أن يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها من الفواكه لكثرتها والتعرض لذكر العصر مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم فى الحبوب

اما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب اذ المذكورات يتوقف صلاحها على مباد أخرى غير المطر واما المراعاة جانب المستفتي باعتبار حالته الخاصة به بشارة له وهي التي يدور عليها حسن موقع تغليبه على الناس في القراءة بالفوقانية وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع وتكرير فيه اما للاشعار باختلاف أوقات مايقع فيه من الغيث والعصر زمانا وهو ظاهر وعنوانا فان الغيث والغوث من فضل الله تعالى والعصر من فعل الناس واما لأن المقام مقام تعداد منافع ذلك العام ولأجله قدم في الموضعين على الفعلين فان المقصود الأصلي بيان أنه يقع في ذلك العام هذا النفع وذاك النفع لابيان أنهما يقعان في ذلك العام كما يفيده التأخير ويجوز أن يكون التقديم للقصر على معنى أن غيثهم وعصرهم في سائر السنين بمنزلة العدم بالنسبة الى عامهم ذلك وأن يكون ذلك في الأخير لمراعاة الفواصل وفي الأول لرعاية حاله وقرىء يعصرون على البناء للمفعول من عصره اذا أنجاه وهو المناسب للاغاثة ويجوز أن يكون المبني للفاعل أيضا منه كأنه قيل فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أي يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضا وقيل معنى يعصرون يمطرون من أعصرت السحابة اما بتضمين أعصرت معنى مطرت وتعديته واما بحذف الجار وايصال الفعل على أن الأصل أعصرت عليهم وأحكام هذا العام المبارك ليست مستنبطة من رؤيا الملك وانما تلقاها عليه السلام من جهة الوحي فبشرهم بها بعدما أول الرؤيا بما أول وأمرهم بالتدبير اللائق في شأنه ابانة لعلو كعبه ورسوخ قدمه في الفضل وأنه محيط بما لم يخطر ببال أحد فضلا عما يرى صورته في المنام على نحو قوله لصاحبيه عند استفتائهما في منامهما لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله واتماما للنعمة عليهم حيث لم يشاركه عليه السلام في العلم بوقوعها أحد ولو برؤية مايدل عليها في المنام ﴿وقال الملك﴾ بعد ماجاءه السفير بالتعبير وسمع منه ماسمع من نقير وقطمير ﴿ائتوني به﴾ لما علم من علمه وفضله ﴿فلما جاءه﴾ أي يوسف ﴿الرسول﴾ واستدعاه الى الملك ﴿قال ارجع الى ربك﴾ أي سيدك ﴿فاسأله مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ أي ففتشه عن شأنهن وانما لم يقل فاسأله أن يفتش عن ذلك حثا للملك على الجد في التفتيش ليتبين براءته ويتضح نزاهته اذ السؤال مما يهيج الانسان على الاهتمام في البحث للتفصي عما توجه اليه وأما الطلب فمما قد يتسامح ويتساهل فيه ولا يبالي به وانما لم يتعرض لامرأة العزيز مع مالقي منها مالقي من مقاساة الأحزان ومعاناة الأشجان محافظة على مواجب الحقوق واحترازا عن مكرها حيث اعتقدها مقيمة في عدوة العداوة وأما النسوة فقد كان يطمع في صدعهن بالحق وشهادتهن باقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدي ولم يصرح بمراودتهن له وقولهن أطع مولاتك واكتفى بالايماء الى ذلك بقوله ﴿ان ربي بكيدهن عليم﴾ مجاملة معهن واحترازا عن سوء قالتهن عند الملك وانتصابهن للخصومة مدافعة عن أنفسهن متى سمعن بنسبته لهن الى الفساد ﴿قال﴾ استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال الملك اثر مابلغه الرسول الخبر وأحضرهن ﴿ماخطبكن﴾ أي شأنكن وهو الأمر الذي يحق لعظمه أن يخاطب المرء فيه صاحبه ﴿اذ راودتن يوسف﴾ وخادعتنه ﴿عن نفسه﴾ ورغبتنه في اطاعة مولاته هل وجدتن فيه شيئا من سوء وريبة ﴿قلن حاش لله﴾ تنزيها له وتعجبا من نزاهته وعفته ﴿ماعلمنا عليه من سوء﴾ بالغن في نفي جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة من ﴿قالت امرأة العزيز﴾ وكانت حاضرة في المجلس وقيل أقبلت النسوة عليها يقررنها وقيل خافت أن يشهدن عليها بما قالت لهن ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين فأقرت قائلة ﴿الآن حصحص الحق﴾ أي ثبت واستقر أو تبين وظهر بعد خفاء قاله الخليل وقيل هو مأخوذ من الحصة وهي القطعة من الجملة أي تبين حصة الحق من حصة الباطل كما تتبين حصص الاراضي وغيرها وقيل بان وظهر من حص شعره اذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه وقرىء على البناء للمفعول من حصحص البعير مباركه أي

ألقاها فى الارض للاناخة قال فحصحص فى صم الصفاثفناته وناء بسلمى نوأة ثم صمما
والمعنى أقر الحق فى مقره ووضع فى موضعه ولم ترد بذلك مجرد ظهور ماظهر بشهادتهن من مطاق نزاهته عليه السلام
فيما أحاط به علمهن من غير تعرض لنزاهته فى سائر المواطن خصوصا فيما وقع فيه التشاجر بمحضر العزيز ولا بحث عن
حال نفسها وماصنعت فى ذلك بل أرادت ظهور ماهو متحقق فى نفس الأمر وثبوته من نزاهته عليه السلام فى محل النزاع
وخيانتها فقالت ﴿أنا راودته عن نفسه﴾ لا أنه راودنى عن نفسى ﴿وانه لمن الصادقين﴾ أى فى قوله حين افتريت
عليه هى راودتنى عن نفسى وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام لا زمان شهادتهن فتأمل أيها المنصف هل ترى فوق
هذه المرتبة نزاهة حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها والفضل ماشهدت به الخصماء وانما تصدى عليه السلام لتمهيد
هذه المقدمة قبل الخروج ليظهر براءة ساحته مما قذف به لا سيما عند العزيز قبل أن يحل ماعقده كما يعرب عنه قوله
عليه السلام لما رجع اليه الرسول وأخبره بكلامهن ﴿ذلك﴾ أى ذلك التثبيت المؤدى الى ظهور حقيقة الحال ﴿ليعلم﴾
أى العزيز ﴿أنى لم أخنه﴾ فى حرمته كما زعمه لا علما مطلقا فان ذلك لا يستدعى تقديم التفتيش على الخروج من السجن
بل قبل ماذكر من نقض ماأبرمه ولعله لمراعاة حقوق السيادة لأن المباشرة للخروج من حبسه قبل ظهور بطلان ماجعله
سببا له وان كان ذلك بأمر الملك مما يوهم الافتيات على رأيه وأما أن يكون ذلك لئلا يتمكن من تقبيح أمره عند الملك
تمحلا لامضاء ماقضاه فلا يليق بشأنه عليه السلام فى الوثوق بأمره والتوكل على ربه جل جلاله ﴿بالغيب﴾ أى بظهر
الغيب وهو حال من الفاعل أو المفعول أى لم أخنه وأنا غائب عنه أو وهو غائب عنى أو ظرف أى بمكان الغيب وراء
الاستار والأبواب المغلقة وأياً ما كان فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة وغاية اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها
﴿وأن الله﴾ أى وليعلم أنه تعالى ﴿لا يهدى كيد الخائنين﴾ أى لا ينفذه ولا يسدده بل يبطله ويزهقه أو لا يهديهم
فى كيدهم ايقاعا للفعل على الكيد مبالغة كما فى قوله تعالى يضاهئون قول الذين كفروا أى يضاهئونهم فى قولهم وفيه
تعريض بامرأته فى خيانتها أمانته وبه فى خيانته أمانة الله تعالى حين ساعدها على حبسه بعد مارأوا آيات نزاهته عليه
السلام ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته وأنه لو كان خائنا لما هدى الله عز وجل أمره وأحسن عاقبته ﴿وما أبرىء
نفسى﴾ أى لا أنزهها عن السوء قاله عليه السلام هضما لنفسه الكريمة البريئة عن كل سوء وربأ بمكانها عن التزكية
والاعجاب بحالها عند ظهور كمال نزاهتها على أسلوب قوله عليه السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر أو تحديثا بنعمة الله عز وجل
عليه وابرازاً لسره المكنون فى شأن أفعال العباد أى لا أنزهها عن السوء من حيث هى هى ولا أسند هذه الفضيلة اليها
بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله عز وعلا ﴿ان النفس﴾ البشرية التى من جملتها نفسى فى حد ذاتها ﴿لأمارة
بالسوء﴾ مائلة الى الشهوات مستعملة للقوى والآلات فى تحصيلها بل انما ذلك بتوفيق الله تعالى وعصمته ورحمته كما
يفيده قوله ﴿الا ما رحم ربى﴾ من النفوس التى يعصمها من الوقوع فى المهالك ومن جملتها نفسى أو هى أمارة بالسوء
فى كل وقت الا وقت رحمة ربى وعصمته لها وقيل الاستثناء منقطع أى لكن رحمة ربى هى التى تصرف عنها السوء كما
فى قوله تعالى ولا هم ينقذون الا رحمة ﴿ان ربى غفور رحيم﴾ عظيم المغفرة لما يعترى النفوس بموجب طباعها
ومبالغ فى الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك وايثار الاظهار فى مقام الاضمار مع التعرض لعنوان الربوبية
لتربية مبادى المغفرة والرحمة وقيل الى هنا من كلام امرأة العزيز والمعنى ذلك الذى قلت ليعلم يوسف عليه السلام انى لم أخنه
ولم أكذب عليه فى حال الغيبة وجئت بما هو الحق الواقع وما أبرىء نفسى مع ذلك من الخيانة حيث قلت فى حقه
ماقلت وفعلت به مافعلت ان كل نفس لأمارة بالسوء الا مارحم ربى أى الا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف

ان ربى غفور لمن استغفر لذنبه واعترف به رحيم له فعلى هذا يكون تأنيه عليه السلام فى الخروج من السجن لعدم رضاه عليه السلام بملاقاة الملك وأمره بين بين ففعل مافعل حتى يتبين نزاهته وأنه انما سجن بظلم عظيم مع ماله من الفضل ونباهة الشأن ليتلقاه الملك بما يليق به من الاعظام والاجلال وقد وقع ﴿وقال الملك ائتونى به أستخلصه﴾ أجعله خالصا ﴿لنفسى﴾ وخاصابى ﴿فلما كلمه﴾ أى فأتوا به فحذف للايذان بسرعة الاتيان به فكأنه لم يكن بين الأمر باحضاره والخطاب معه زمان أصلا والضمير المستكن فى كلمه ليوسف والبارز للملك أى فلما كلمه يوسف اثر ماأتاه فاستنطقه وشاهد منه ماشاهد ﴿قال انك اليوم لدينا مكين﴾ ذو مكانة ومنزلة رفيعة ﴿أمين﴾ مؤتمن على كل شئ واليوم ليس بمعيار لمدة المكانة والأمانة بل هو آن التكلم والمراد تحديد مبدئهما احترازا عن احتمال كونهما بعد حين . روى أنه عليه السلام لما جاءه الرسول خرج من السجن ودعا لأهله واغتسل ولبس ثيابا جددا فلما دخل على الملك قال اللهم انى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره وشر غيره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال ماهذا اللسان قال لسان آبائى وكان الملك يعرف سبعين لسانا فكلمه بها فأجابه بجميعها فتعجب منه فقال أحب أن أسمع منك رؤياى فحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على مارآها فأجلسه على السرير وفوض اليه أمره وقيل توفى قطفير فى تلك الليالى فنصبه منصبه وزوجه راعيل فوجدها عذراء وولدت له افرايم وميشا ولعل ذلك انما كان بعد تعيينه عليه السلام لما عين له من أمر الخزائن كما يعرب عنه قوله عز وجل ﴿قال اجعلنى على خزائن الأرض﴾ أى أرض مصر أى ولنى أمرها من الايراد والصرف ﴿انى حفيظ﴾ لها ممن لايستحقها ﴿عليم﴾ بوجوه التصرف فيها وفيه دليل على جواز طلب الولاية اذا كان الطالب ممن يقدر على اقامة العدل واجراء أحكام الشريعة وان كان من يد الجائر أو الكافر وعن مجاهد أنه أسلم الملك على يده عليه السلام ولعل ايثاره عليه السلام لتلك الولاية خاصة انما كان للقيام بما هو أهم أمور السلطنة اذ ذاك من تدبير أمر السنين حسبما فصل فى التأويل لكونه من فروع تلك الولاية لالمجرد عموم الفائدة وجموم العائدة كما قيل وانما لم يذكر اجابة الملك الى ماسأله عليه السلام من جعله على خزائن الأرض ايذانا بأن ذلك أمر لامرد له غنى عن التصريح به لاسيما بعد تقديم مايندرج تحته من أحكام السلطنة بحذافيرها من قوله انك اليوم لدينا مكين أمين وللتنبيه على أن كل ذلك من الله عز وجل وانما الملك آلة فى ذلك قيل ﴿وكذلك﴾ أى مثل ذلك التمكين البليغ ﴿مكنا ليوسف﴾ أى جعلنا له مكانا ﴿فى الأرض﴾ أى أرض مصر . روى أنها كانت أربعين فرسخا فى أربعين وفى التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين فى الأرض مسندا الى ضميره عز سلطانه من تشريفه عليه السلام والمبالغة فى كمال ولايته والاشارة الى حصول ذلك من أول الأمر لأنه حصل بعد السؤال مالا يخفى ﴿يتبوأ منها﴾ ينزل من بلادها ﴿حيث يشاء﴾ ويتخذه مباءة وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها ودخولها تحت ملكته وسلطانه فكأنها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل فى منزله وقرأ ابن كثير بالنون . روى أن الملك توجه وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت فقال عليه السلام أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى فقال قد وضعته اجلالا لك واقرارا بفضلك فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض اليه الملك أمره وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام فى السنة الأولى بالدنانير والدراهم وفى الثانية بالحلى والجواهر وفى الثالثة بالدواب ثم بالضياع والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم جميعا فقالوا مارأينا كاليوم ملكا أجل وأعظم منه ثم أعتقهم ورد اليهم أموالهم وكان لايبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير تقسيطا بين الناس ﴿نصيب برحمتنا﴾ بعطائنا فى

الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم ﴿من نشاء﴾ بمقتضى الحكمة الداعية الى المشيئة ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ بل نوفيه بكماله وفيه اشعار بأن مدار المشيئة المذكورة احسان من تصيبه الرحمة المرقومة وأنها أجر له ولدفع توهم انحصار ثمرات الاحسان فيما ذكر من الأجر العاجل قيل على سبيل التوكيد ﴿ولأجر الآخرة﴾ أى أجرهم فى الآخرة فالاضافة للملابسة وهو النعيم المقيم الذى لانفاد له ﴿خير﴾ لهم أى للمحسنين المذكورين وانما وضع موضعه الموصول فقيل ﴿للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ تنبيها على أن المراد بالاحسان انما هو الايمان والثبات على التقوى المستفاد من جمع صيغتى الماضى والمستقبل ﴿وجاء اخوة يوسف﴾ ممتارين لما أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب أرض مصر وقد كان أرسلهم يعقوب عليه السلام جميعا غير بنيامين ﴿فدخلوا عليه﴾ أى على يوسف وهو فى مجلس ولايته ﴿فعرفهم﴾ لقوة فهمه وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ لمفارقته اياهم وهم رجال وتشابه هيآتهم وزيهم فى الحالين ولكون همته معقودة بهم وبمعرفة أحوالهم لاسيما فى زمن القحط وعن الحسن ما عرفهم حتى تعرفوا له ﴿وهم له منكرون﴾ أى والحال أنهم منكرون له لطول العهد وتباين ما بين حاليه عليه السلام فى نفسه ومنزلته وزيه ولاعتقادهم أنه هلك وحيث كان انكارهم له أمرا مستمرا فى حالتى المحضر والمغيب أخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام اياهم ﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ أى أصلحهم بعدتهم من الزاد وما يحتاج اليه المسافر وأوقر ركائبهم بما جاؤا له من الميرة وقرئ بكسر الجيم ﴿قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم﴾ لم يقل بأخيكم مبالغة فى اظهار عدم معرفته لهم ولعله عليه السلام انما قاله لما قيل من أنهم سألوه عليه السلام حملا زائدا على المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم أن يأتوا به لا لما قيل من أنه لما رأوه وكلموه بالعبرية قال لهم من أنتم فانى أنكركم فقالوا له نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لهم لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبى من الأنبياء اسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنا اثنى عشر فهلك منا واحد فقال كم أنتم ههنا قالوا عشرة قال فأين الحادى عشر قالوا هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك قال فمن يشهد لكم أنكم لستم عيونا وأن ما تقولون حق قالوا نحن بيلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندى رهينة وائتونى بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم فاقترعوا فأصاب القرعة شمعون فخلفوه عنده اذ لا يساعده ورود الأمر بالاتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بايفاء الكيل ولا الاحسان فى الانزال ولا الاقتصار على منع الكيل على تقدير عدم الاتيان به ولا جعل بضاعتهم فى رحالهم لاجل رجوعهم ولاعدتهم بالاتيان به بطريق المراودة ولا تعليلهم عند أبيهم ارسال أخيهم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالة على أن استبقاء شمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال ﴿ألا ترون انى أوفى الكيل﴾ أتمه لكم وايثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على أن ذلك عادة له مستمرة ﴿وأنا خير المنزلين﴾ جملة حالية أى ألا ترون أنى أوفى الكيل لكم ايفاء مستمرا والحال انى فى غاية الاحسان فى انزالكم وضيافتكم وقد كان الأمر كذلك وتخصيص الرؤية بالايفاء لوقوع الخطاب فى أثنائه وأما الاحسان فى الانزال فقد كان مستمرا فيما سبق ولحق ولذلك أخبر عنه بالجملة الاسمية ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنان بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به والاقتصار فى الكيل على ذكر الايفاء لان معاملته عليه السلام معهم فى ذلك كمعاملته مع غيرهم فى مراعاة مواجب العدل وأما الضيافة فليس للناس فيها حق فخصهم فى ذلك بما شاء ﴿فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى﴾ من بعد فضلا عن ايفائه ﴿ولا تقربون﴾ بدخول بلادى فضلا عن الاحسان فى الانزال والضيافة وهو اما نهى أو نفى معطوف على محل الجزاء وفيه دليل على أنهم

كانوا على نية الامتيار مرة بعد أخرى وأن ذلك كان معلوما له عليه السلام ﴿قالوا سنراود عنه أباه﴾ أى سنخادعه
عنه ونحتال فى انتزاعه من يده ونجتهد فى ذلك وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله ﴿وانا لفاعلون﴾ ذلك غير
مفرطين فيه ولا متوانين أو لقادرون عليه لا نتعانى به ﴿وقال﴾ يوسف ﴿لفتيانه﴾ غلمانه الكيالين جمع فتى وقرىء
لفتيته وهى جمع قلة له ﴿اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم﴾ فانه وكل بكل رحل رجلا يعبى فيه بضاعتهم التى شروا بها الطعام وكانت
نعالا وأدما وانما فعله عليه السلام تفضلا عليهم وخوفا من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى وكل ذلك لتحقيق
ما يتوخاه من رجوعهم بأخيه كما يؤذن به قوله ﴿لعلهم يعرفونها﴾ أى يعرفون حق ردها والتكرم فى ذلك أو لكى يعرفوها
وهو ظاهر التعلق بقوله ﴿اذا انقلبوا الى أهلهم﴾ فان معرفتهم لها مقيدة بالرجوع وتفريغ الأوعية قطعا وأما معرفة حق
التكرم فى ردها فهى وان كانت فى ذاتها غير مقيدة بذلك لكن لما كان ابتداؤها حينئذ قيدت به ﴿لعلهم يرجعون﴾
حسبما أمرتهم به فان التفضل عليهم باعطاء البدلين ولا سيما عند اعواز البضاعة من أقوى الدواعى الى الرجوع وما قيل انما فعله
عليه السلام لما لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه واخوته ثمنا فكلام حق فى نفسه ولكن يأباه التعليل المذكور وأما أن علية
الجعل المذكور للرجوع من حيث ان ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لأنهم لا يستحلون امساكها فمداره حسبانهم أنها بقيت فى
رحالهم نسيانا وظاهر أن ذلك مما لا يخطر ببال أحد أصلا فان هيئة التعبية تنادى بأن ذلك بطريق التفضل ألا يرى أنهم كيف
جزموا بذلك حين رأوها وجعلوا ذلك دليلا على التفضلات السابقة كما ستحيط به خبرا ﴿فلما رجعوا الى أبيهم قالوا﴾ قبل
أن يشتغلوا بفتح المتاع ﴿يا أبانا منع منا الكيل﴾ أى فيما بعد وفيه ما لا يخفى من الدلالة على كون الامتيار مرة بعد
مرة معهودا فيما بينهم وبينه عليه السلام ﴿فأرسل معنا أخانا﴾ بنيامين الى مصر وفيه ايذان بأن مدار المنع عدم كونه
معهم ﴿نكتل﴾ بسببه من الطعام ما نشاء وقرأ حمزة والكسائى بالياء على اسناده الى الأخ لكونه سببا للاكتيال أو
يكتل لنفسه مع اكتيالنا ﴿وانا له لحافظون﴾ من أن يصيبه مكروه ﴿قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على
أخيه﴾ يوسف ﴿من قبل﴾ وقد قلتم فى حقه أيضا ما قلتم ثم فعلتم به ما فعلتم فلا أثق بكم ولا بحفظكم وانما أفوض
الأمر الى الله ﴿فالله خير حافظا﴾ وقرىء حفظا وانتصابهما على التمييز والحالية على القراءة الأولى توهم تقيد الخيرية
بتلك الحالة ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ فأرجو أن يرحمنى بحفظه ولا يجمع على مصيبتين وهذا كما ترى ميل منه عليه السلام
الى الاذن والارسال لما رأى فيه من المصلحة ﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم﴾ أى تفضلا وقد
علموا ذلك بما مر من دلالة الحال وقرىء بنقل حركة الدال المدغمة الى الراء كما قيل فى قيل وكيل ﴿قالوا﴾ استئناف
مبنى على السؤال كأنه قيل ماذا قالوا حينئذ فقيل قالوا لأبيهم ولعله كان حاضرا عند الفتح ﴿يا أبانا ما نبغى﴾ اذا فسر
البغى بالطلب فما اما استفهامية منصوبة به فالمعنى ماذا نبتغى وراء ما وصفنا لك من احسان الملك الينا وكرمه الداعى
الى امتثال أمره والمراجعة اليه فى الحوايج وقد كانوا أخبروه بذلك وقالوا له انا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة
لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته وقوله تعالى ﴿هذه بضاعتنا ردت الينا﴾ جملة مستأنفة موضحة لما دل
عليه الانكار من بلوغ اللطف غايته كأنهم قالوا كيف لا وهذه بضاعتنا ردها الينا تفضلا من حيث لا ندرى بعد ما من علينا
من المنن العظام هل من مزيد على هذا فنطلبه ولم يريدوا به الاكتفاء بذلك مطلقا أو التقاعد عن طلب نظائره بل أرادوا
الاكتفاء به فى استيجاب الامتثال لأمره والالتجاء اليه فى استجلاب المزيد كما أشرنا اليه وقوله تعالى ردت الينا حال
من بضاعتنا والعامل معنى الاشارة وايثار صيغة البناء للمفعول للايذان بكمال الاحسان الناشىء عن كمال الاخفاء
المفهوم من كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله وقوله عز وجل ﴿ونمير أهلنا﴾ أى نجلب اليهم الطعام

من عند الملك معطوف على مقدر ينسحب عليه رد البضاعة أى فنستظهر بها ونمير أهلنا ﴿ونحفظ أخانا﴾ من المكاره حسبما وعدنا فما يصيبه من مكروه ﴿ونزداد﴾ أى بواسطته ولذلك وسط الاخبار بحفظه بين الاصل والمزيد ﴿كيل بعير﴾ أى وسق بعير زائدا على أوساق أباعرنا على قضية التقسيط ﴿ذلك﴾ أى مايحمله أباعرنا ﴿كيل يسير﴾ أى مكيل قليل لايقوم بأودنا فهو استئناف وقع تعليلا لما سبق كانه قيل أى حاجة الى الازدياد فقيل ماقيل أو ذلك الكيل الزائد شىء قليل لايضايقنا فيه الملك أوسهل عليه لايتعاظمه أوأى مطلب نطلب من مهماتنا والجملة الواقعة بعده توضيح وبيان لما يشعر به الانكار من كونهم فائزين ببعض المطالب أومتمكنين من تحصيله فكأنهم قالوا بضاعتنا حاضرة فنستظهر بها ونمير أهلنا ونحفظ أخانا فما يصيبه شىء من المكاره ونزداد بسببه غير مانكتاله لأنفسنا كيل بعير فأى شىء نبتغى وراء هذه المباغى وقرىء ماتبغى على خطاب يعقوب عليه السلام أى أى شىء تبغى وراء هذه المباغى المشتملة على سلامة أخينا وسعة ذات أيدينا أو وراء مافعل بنا الملك من الاحسان داعيا الى التوجه اليه والجملة الاستئنافية موضحة لذلك أو أى شىء تبغى شاهدا على صدقنا فيما وصفنا لك من احسانه والجملة المذكورة عبارة عن الشاهد المدلول عليه بفحوى الانكار واما نافية فالمعنى مانبغى شيأ غير مارأينا من احسان الملك فى وجوب المراجعة اليه أو مانبغى غير هذه المباغى وقيل مانطلب منك بضاعة أخرى والجملة المستأنفة تعليل له وأما اذا فسر البغى بمجاوزة الحد فما نافية فقط والمعنى مانبغى فى القول وما نتزيد فيما وصفنالك من احسان الملك الينا وكرمه الموجب لما ذكر والجملة المستأنفة لبيان ماادعوا من عدم البغى وقوله ونمير أهلنا عطف على مانبغى أى مانبغى فيما ذكرنا من احسانه وتحصيل أمثاله من مير أهلنا وحفظ أخينا فان ذلك أهون شىء بواسطة احسانه وقد جوز أن يكون كلاما مبتدأ أى جملة اعتراضية تذييلية على معنى وينبغى أن نمير أهلنا وشبه ذلك بقولك سعيت فى حاجة فلان ويجب أن أسعى وأنت خبير بأن شأن الجمل التذييلية أن تكون مؤكدة لمضمون الصدر ومقررة له كما فى المثال المذكور وقولك فلان ينطق بالحق فالحق أبلج وان قوله ونمير الخ وان ساعدنا فى حمله على معنى ينبغى أن نمير أهلنا بمعزل من ذلك أو مانبغى فى الرأى ومانعدل عن الصواب فيما نشير به عليك من ارسال أخينا معنا والجمل الى آخرها تفصيل وبيان لعدم بغيهم واصابة رأيهم أى بضاعتنا حاضرة نستظهر بها ونمير أهلنا ونصنع كيت وذيت فتأمل ﴿قال لن أرسله معكم﴾ بعد ماعاينت منكم ماعاينت ﴿حتى تؤتون موثقا من الله﴾ أى ماأتوثق به من جهة الله عز وجل وانما جعله موثقا منه تعالى لأن تأكيد العهود به مأذون فيه من جهته تعالى فهو اذن منه عز وجل ﴿لتأتننى به﴾ جواب القسم اذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتننى به ﴿الا أن يحاط بكم﴾ أى الا أن تغلبوا فلا تطيقوا به أوالا أن تهلكوا وأصله من احاطة العدو فان من أحاط به العدو فقد هلك غالبا وهو استثناء من أعم الأحوال أوأعم العلل على تأويل الكلام بالنفى الذى ينساق اليه أى لتأتننى به ولا تمتنعن منه فى حال من الأحوال أولعلة من العلل الاحال الاحاطة بكم أولعلة الاحاطة بكم ونظيره قولهم أقسمت عليك لما فعلت والا فعلت أى ماأريد منك الافعلك وقد جوز الأول بلاتأويل أيضا أى لتأتننى به على كل حال الاحال الاحاطة بكم وأنت تدرى أنه حيث لم يكن الاتيان به من الأفعال الممتدة الشاملة للاحوال على سبيل المعية كما فى قولك لألزمنك الاأن تعطينى حقى ولم يكن مراده عليه السلام مقارنته على سبيل البدل لماعدا الحال المستثناة كما اذا قلت صل الاأن تكون محدثا بل مجرد تحققه ووقوعه من غير اخلال به كما فى قولك لأحجن العام الاأن أحصر فان مرادك انما هو الاخبار بعدم منع ماسوى حال الاحصار عن الحج الاالاخبار بمقارنته لتلك الأحوال على سبيل البدل كما هو مرادك فى مثال الصلاة كان اعتبار الأحوال معه

من حيث عدم منعها منه فآل المعنى الى التأويل المذكور ﴿فلما أتوه موثقهم﴾ عهدهم من الله حسبما أراد يعقوب عليه السلام ﴿قال الله على مانقول﴾ أى على ماقلنا فى أثناء طاب الموثق وايتائه من الجانبين وايثار صيغة الاستقبال لاستحضار صورته المؤدى الى تثبتهم ومحافظتهم على تذكره ومراقبته ﴿وكيل﴾ مطلع رقيب يريد به عرض ثقته بالله تعالى وحثهم على مراعاة ميثاقهم ﴿وقال﴾ ناصحا لهم لما أزمع على ارسالهم جميعا ﴿يابنى لاتدخلوا﴾ مصر ﴿من باب واحد﴾ نهاهم عن ذلك حذارا من اصابة العين فانهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة وقد كانوا تجملوا فى هذه الكرة أكثر مما فى المرة الأولى وقد اشتهروا فى مصر بالكرامة والزلفى لدى الملك بخلاف النوبة الأولى فكانوا مئنة لدنو كل ناظر وطموح كل طامح واصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست مما ينكر وقد ورد عنه عليه السلام ان العين حق وعنه عليه السلام ان العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر وقد كان عليه السلام يعوذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة وكان عليه السلام يقول كان أبوكما يعوذ بها اسمعيل واسحق عليهم السلام رواه البخارى فى صحيحه وقد شهدت بذلك التجارب ولما لم يكن عدم الدخول من باب واحد مستلزما للدخول من أبواب متفرقة وكان فى دخولهم من بابين أو ثلاثة بعض مافى الدخول من باب واحد من نوع اجتماع مصحح لوقوع المحذور قال ﴿وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ بيانا لما هو المراد بالنهى وانما لم يكتف بهذا الأمر مع كونه مستلزما له اظهارا لكمال العناية وايذانا بأنه المراد بالأمر المذكور لاتحقيق لشىء آخر ﴿وما أغنى عنكم﴾ أى لا أنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيرى ﴿من الله من شىء﴾ أى شيأ مما قضى عليكم فان الحذر لايمنع القدر ولم يرد به عليه السلام الغاء الحذر بالمرة كيف لا وقد قال عز قائلا ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وقال خذوا حذركم بل أراد بيان ان ماوصاهم به ليس مما يستوجب المراد لامحالة بل هو تدبير فى الجملة وانما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير وأن ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه اليه ﴿ان الحكم﴾ مطلقا ﴿الا لله﴾ لايشاركه أحد ولا يمانعه شىء ﴿عليه﴾ لاعلى أحد سواه ﴿توكلت﴾ فى كل ما آتى وأذر وفيه دلالة على أن ترتيب الأسباب غير مخل بالتوكل ﴿وعليه﴾ دون غيره ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ جمع بين الحرفين فى عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص مقيدا بالواو عطف فعل غيره من تخصيص التوكل بالله عز وجل على فعل نفسه وبالفاء سببية فعله لكونه نبيا لفعل غيره من المقتدين به فيدخل فيهم بنوه دخولا أوليا وفيه مالا يخفى من حسن هدايتهم وارشادهم الى التوكل فيماهم بصدده على الله عز وجل غير مغترين بما وصاهم به من التدبير ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم﴾ من الأبواب المتفرقة من البلد قيل كانت له أربعة أبواب فدخلوا منها وانما اكتفى بذكره لاستلزامه الانتهاء عما نهوا عنه ﴿ما كان﴾ ذلك الدخول ﴿يغنى﴾ فيما سيأتى عند وقوع ما وقع ﴿عنهم﴾ عن الداخلين لان المقصود به استدفاع الضرر عنهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل لتحقيق المقارنة الواجبة بين جواب لما ومدخوله فان عدم الاغناء بالفعل انما يتحقق عند نزول المحذور لاوقت الدخول وانما المتحقق حينئذ ما أفاده الجمع المذكور من عدم كون الدخول المذكور مغنيا فيما سيأتى فتأمل ﴿من الله﴾ من جهته ﴿من شىء﴾ أى شيأ مما قضاه عليهم مع كونه مظنة لذلك فى بادى الرأى حيث وصاهم به يعقوب عليه السلام وعملوا بموجبه واثقين بجدواه من فضل الله تعالى فليس المراد بيان سببية الدخول المذكور لعدم الاغناء كما فى قوله تعالى فلما جاءهم نذير مازادهم الا نفورا فان مجىء النذير هناك سبب لزيادة نفورهم بل بيان عدم سببيته للاغناء مع كونها متوقعة فى بادى الرأى كما فى قولك حلف أن يعطينى حقى عند حلول الاجل فلما حل لم يعطنى شيئا فان المراد بيان عدم سببية حلول الاجل للاعطاء مع كونها مرجوة بموجب الحلف لا بيان سببيته لعدم

الاعطاء فالمآل بيان عدم ترتب الغرض المقصود على التدبير المعهود مع كونه مرجو الوجود لابيان ترتب عدمه عليه ويجوز أن يراد ذلك أيضا بناء على ماذكره عليه السلام فى تضاعيف وصيته من أنه لايغنى عنهم من الله شيأ فكأنه قيل ولما فعلوا ماوصاهم به لم يفد ذلك شيأ ووقع الامر حسبما قال عليه السلام فلقوا ما لقوا فيكون من باب وقوع المتوقع فتأمل ﴿ الا حاجة ﴾ استثناء منقطع أى ولكن حاجة وحرازة كائنة ﴿ فى نفس يعقوب قضاها ﴾ أى أظهرها ووصاهم بها دفعا للخاطرة غير معتقد أن للتدبير تأثيرا فى تغيير التقدير وقد جعل ضمير الفاعل فى قضاها للدخول على معنى ان ذلك الدخول قضى حاجة فى نفس يعقوب وهى ارادته أن يكون دخولهم من أبواب متفرقة فالمعنى ما كان ذلك الدخول يغنى عنهم من جهة الله تعالى شيأ ولكن قضى حاجة حاصلة فى نفس يعقوب بوقوعه حسب ارادته فالاستثناء منقطع أيضا وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدة سوى دفع الخاطرة وأما اصابة العين فانما لم تقع لكونها غير مقدرة عليهم لالانها اندفعت بذلك مع كونها مقضية عليهم ﴿ وانه لذو علم ﴾ جليل ﴿ لما علمناه ﴾ لتعليمنا اياه بالوحى ونصب الادلة حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر وأن التدبير له حظ من التأثير حتى يتبين الخلل فى رأيه عند تخلف الاثر أو حيث بت القول بأنه لا يغنى عنهم من الله شيأ فكان الحال كما قال وفى تأكيد الجملة بأن واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند الى ذاته سبحانه من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وفخامته مالايخفى ﴿ ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ أسرار القدر ويزعمون أنه يغنى عنه الحذر وأما ما يقال من أن المعنى لا يعلمون ايجاب الحذر مع أنه لايغنى شيأ من القدر فيأباه مقام بيان تخلف المطلوب عن المبادى ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه ﴾ بنيامين أى ضمه اليه فى الطعام أو فى المنزل أو فيهما . روى أنهم لما دخلوا عليه قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وستجدون ذلك عندى فاكرمهم ثم أضافهم وأجلسهم مثنى مثنى فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا لاجلسنى معه فقال يوسف بقى أخوكم فريدا واجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ثم أنزل كل اثنين منهم بيتا فقال هذا لا ثانى معه فيكون معى فبات يوسف يضمه اليه ويشم رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده فقال لى عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لى هلك فقال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال من يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه وتعرف اليه وعند ذلك ﴿ قال انى أنا أخوك ﴾ يوسف ﴿ فلا تبتئس ﴾ أى فلا تحزن ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ بنا فيما مضى فان الله تعالى قد أحسن الينا وجمعنا بخير ولا تعلمهم بما أعلمتك قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعن وهب انه لم يتعرف اليه بل قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود ومعنى فلا تبتئس لا تحزن بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم وروى أنه قال له فأنا لا أفارقك قال قد علمت باغتمام والدى بى فاذا حبستك يزداد غمه ولا سبيل الى ذلك الا أن أنسبك الى مالا يجمل قال لا أبالى فافعل ما بدا لك قال أدس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليك بأنك سرقته ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك معهم قال افعل ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية ﴾ أى المشربة قيل كانت مشربة جعلت صاعا يكال به وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحبوب وكانت من فضة وقيل من ذهب وقيل من فضة مموهة بالذهب وقيل كانت اناء مستطيلة تشبه المكوك الفارسى الذى يلتقى طرفاه يستعمله الأعاجم وقيل كانت مرصعة بالجواهر ﴿ فى رحل أخيه ﴾ بنيامين وقرىء وجعل على حذف جواب لما تقديره أمهلهم حتى انطلقوا ﴿ ثم أذن مؤذن ﴾ نادى مناد ﴿ أيتها العير ﴾ وهى الابل التى عليها الأحمال لأنها تعير أى تذهب وتجىء وقيل هى قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وأصلها فعل مثل سقف وسقف ففعل به ما فعل ببيض وغيد والمراد أصحابها كما فى قوله عليه السلام ياخيل الله اركبى روى أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا منزلا وقيل خرجوا من العمارة ثم أمر بهم فأدركوا ونودوا ﴿ انكم

لسارقون ﴾ هذا الخطاب ان كان بأمر يوسف فلعله أريد بالسرقة أخذهم له من أبيه ودخول بنيامين فيه بطريق التغليب والا فهو من قبل المؤذن بناء على زعمه والأول هو الأظهر الأوفق للسياق وقرأ اليمانى سارقون بلا لام ﴿ قالوا ﴾ أى الاخوة ﴿ وأقبلوا عليهم ﴾ جملة حالية من ضمير قالوا جئ بها للدلالة على انزعاجهم مما سمعوه لمباينته لحالهم ﴿ ماذا تفقدون ﴾ أى تعدمون تقول فقدت الشئ اذا عدمته بأن ضل عنك لا بفعلك والمآل ماذا ضاع عنكم وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة وقرئ تفقدون من أفقدته اذا وجدته فقيدا وعلى التقديرين فالعدول عما يقتضيه الظاهر من قولهم ماذا سرق منكم لبيان كمال نزاهتهم باظهار أنه لم يسرق منهم شئ فضلا أن يكونوا هم السارقين له وانما الممكن أن يضيع منهم شئ فيسألونهم أنه ماذا وفيه ارشاد لهم الى مراعاة حسن الأدب والاحتراز عن المجازفة ونسبة البرآء الى ما لاخير فيه لا سيما بطريق التوكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث ﴿ قالوا ﴾ فى جوابهم ﴿ نفقد صواع الملك ﴾ ولم يقولوا سرقتموه أو سرق وقرئ صاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها و باهمال العين واعجامها من الصياغة ثم قالوا تربية لما تلقوه من قبلهم وارائة لاعتقاد أنه انما بقى فى رحلهم اتفاقا ﴿ ولمن جاء به ﴾ من عند نفسه مظهرا له قبل التفتيش ﴿ حمل بعير ﴾ من الطعام جعلا له لا على نية تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع وجود الشرط وعزمهم على ما لا يخفى من أخذ من وجد فى رحله ﴿ وأنا به زعيم ﴾ كفيل أؤديه اليه وهو قول المؤذن ﴿ قالوا تالله ﴾ الجمهور على أن التاء بدل من الواو ولذلك لا تدخل الا على الجلالة المعظمة أو الرب المضاف الى الكعبة أو الرحمن فى قول ضعيف ولو قلت تالرحيم لم يجز وقيل من الباء وقيل أصل بنفسها وأيا ما كان ففيه تعجب ﴿ لقد علمتم ﴾ علما جازما مطابقا للواقع ﴿ ماجئنا لنفسد فى الأرض ﴾ أى لنسرق فانه من أعظم أنواع الافساد أو لنفسد فيها أى افساد كان مما عز أوهان فضلا عما نسبتمونا اليه من السرقة ونفى المجئ للافساد وان لم يكن مستلزما لما هو مقتضى المقام من نفى الافساد مطلقا لكنهم جعلوا المجئ الذى يترتب عليه ذلك ولو بطريق الاتفاق مجيئا لغرض الافساد مفعولا لاجله ادعاء اظهاراً لكمال قبحه عندهم وتربية لاستحالة صدوره عنهم كما قيل فى قوله تعالى ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد الدال بظاهره على نفى المبالغة فى الظلم دون نفى الظلم فى الجملة الذى هو مقتضى المقام من أن المعنى اذا عذبت من لا يستحق التعذيب كنت ظلاما مفرطا فى الظلم فكأنهم قالوا ان صدر عنا افساد كان مجيئنا لذلك مريدين به تقبيح حاله واظهار كمال نزاهتهم عنه يعنون أنه قد شاع بينكم فى كرتى مجيئنا ما نحن عليه وقد كانوا على غاية ما يكون من الديانة والصيانة فيما يأتون ويذرون حتى روى أنهم دخلوا مصر وأفواه رواحلهم مكمومة لئلا تتناول زرعا أو طعاما لأحد وكانوا مثابرين على فنون الطاعات وعلمتم بذلك أنه لا يصدر عنا افساد ﴿ وما كنا سارقين ﴾ أى ما كنا نوصف بالسرقة قط وانما حكموا بعلمهم ذلك لأن العلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العلم بأحوالهم الغائبة وانما لم يكتفوا بنفى الأمرين المذكورين بل استشهدوا بعلمهم بذلك الزاما للحجة عليهم وتحقيقا للتعجب المفهوم من تاء القسم ﴿ قالوا ﴾ أى أصحاب يوسف عليه السلام ﴿ فما جزاؤه ﴾ الضمير للصواع على حذف المضاف أى فما جزاء سرقته عندكم وفى شريعتكم ﴿ ان كنتم كاذبين ﴾ لا فى دعوى البراءة عن السرقة فانهم صادقون فيها بل فيما يستلزمه ذلك من نفى كون الصواع فيهم كما يؤذن به قوله عز وجل ﴿ قالوا جزاؤه من وجد ﴾ أى أخذ من وجد الصواع ﴿ فى رحله ﴾ حيث ذكر بعنوان الوجدان فى الرحل دون عنوان السرقة وان كان ذلك مستلزما لها فى اعتقادهم المبنى على قواعد العادة ولذلك أجابوا بما أجابوا فان الأخذ والاسترقاق سنة انما هو جزاء السارق دون من وجد فى يده مال غيره كيفما كان فتأمل واحمل كلام كل فريق على ما لا يزاحم رأيه فانه أقرب الى معنى الكيد وأبعد من الافتراء وقوله تعالى ﴿ فهو جزاؤه ﴾ تقرير لذلك الحكم أى فأخذه جزاؤه

كقولك حق الضيف أن يكرم فهو حقه و يجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هى خبره على اقامة الظاهر مقام المضمر والأصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو هو على أن الأول لمن والثانى للظاهر الذى وضع موضعه ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الجزاء الاوفى ﴿نجزى الظالمين﴾ بالسرقة تأكيد للحكم المذكور غب تأكيد و بيان لقبح السرقة ولقد فعلوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها وهم عما فعل بهم غافلون ﴿فبدأ﴾ يوسف بعد مارجعوا اليه للتفتيش ﴿بأوعيتهم﴾ بأوعية الاخوة العشرة أى بتفتيشها ﴿قبل﴾ تفتيش ﴿وعاء أخيه﴾ بنيامين لنفى التهمة. روى أنه لما بلغت النوبة الى وعائه قال ما أظن هذا أخذ شيئا فقالوا والله لا نتركه حتى تنظر فى رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا ﴿ثم استخرجها﴾ أى السقاية أو الصواع فانه يذكر و يؤنث ﴿من وعاء أخيه﴾ لم يقل منه على رجع الضمير الى الوعاء أو من وعائه على رجعه الى أخيه قصدا الى زيادة كشف و بيان وقرئ بضم الواو و بقلبها همزة كما فى اشاح فى وشاح ﴿كذلك﴾ نصب على المصدرية والكاف مقحمة للدلالة على فخامة المشار اليه و كذا ما فى ذلك من معنى البعد أى مثل ذلك الكيد العجيب وهو عبارة عن ارشاد الاخوة الى الافتاء المذكور باجرائه على ألسنتهم و بحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث لم يحتسبوا فمعنى قوله عزوجل ﴿كدنا ليوسف﴾ صنعناله ودبرنا لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التى رتبها من دس الصواع وما يتلوه فاللام ليست كما فى قوله فيكيدوا لك كيدا فانها داخلة على المتضرر على ماهو الاستعمال الشائع وقوله تعالى ﴿ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك﴾ استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه لا تفسير و بيان له كما قيل كأنه قيل لماذا فعل ذلك فقيل لانه لم يكن ليأخذ أخاه بما فعله فى دين الملك فى أمر السارق أى فى سلطانه قاله ابن عباس أو فى حكمه وقضائه قاله قتادة الابه لأن جزاء السارق فى دينه انما كان ضربه وتغريمه ضعف ما أخذ دون الاسترقاق والاستعباد كما هو شريعة يعقوب عليه السلام فلم يكن يتمكن بما صنعه من أخذ أخيه بالسرقة التى نسبها اليه فى حال من الأحوال ﴿الا أن يشاء الله﴾ أى الاحال مشيئته التى هى عبارة عن ارادته لذلك الكيد أو الاحال مشيئته للأخذ بذلك الوجه و يجوز أن يكون الكيد عبارة عنه وعن مباديه المؤدية اليه جميعا من ارشاد يوسف وقومه الى ماصدر عنهم من الأفعال والأقوال حسبما شرح مرتبا لكن لا على أن يكون القصر المستفاد من تقديم المجرور مأخوذا بالنسبة الى غيره مطلقا على معنى مثل ذلك الكيد كدنا لا كيدا آخر اذ لا معنى لتعليله بعجز يوسف عن أخذ أخيه فى دين الملك فى شأن السارق قطعا اذ لا علاقة بين مطلق الكيد ودين الملك فى أمر السارق أصلا بل بالنسبة الى بعضه على معنى مثل ذلك الكيد البالغ الى هذا الحد كدناله ولم نكتف ببعض من ذلك لأنه لم يكن يأخذ أخاه فى دين الملك به الاحال مشيئتنا له بايجاد ما يجرى مجرى الجزء الصورى من العلة التامة وهو ارشاد اخوته الى الافتاء المذكور وعلى هذا ينبغى أن يحمل القصر فى تفسير من فسر قوله تعالى كدنا ليوسف بقوله علمناه اياه وأوحينا به اليه أى مثل ذلك التعليم المستتبع لما شرح مرتبا علمناه دون بعض من ذلك فقط الخ وعلى كل حال فالاستثناء من أعم الأحوال كما أشير اليه و يجوز أن يكون من أعم العلل والأسباب أى لم يكن يأخذ أخاه لعلة من العلل أو بسبب من الأسباب الالعلة مشيئته تعالى أو الابسبب مشيئته تعالى وأياما كان فهو متصل لأن أخذ السارق اذا كان ممن يرى ذلك و يعتقده دينا لاسيما عند رضاه وافتائه به ليس مخالفا لدين الملك وقد قيل معنى الاستثناء الا أن يشاء الله أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك وأنت تدرى أن المراد بدينه ما عليه حينئذ فتغييره مخل بالاتصال وارادة مطلق ما يتدين به أعم منه ومما يحدث تفضى الى كون الاستثناء من قبيل التطبيق بالمحال اذ المقصود بيان عجز يوسف عليه السلام عن أخذ أخيه حينئذ ولم تتعلق المشيئة بالجعل المذكور اذ ذاك وارادة عجزه مطلقا تؤدى الى خلاف المراد فان استثناء حال المشيئة المذكورة من أحوال عجزه عليه السلام مما يشعر بعدم الحاجة الى الكيد

المذكور فتدبر وقد جوز الانقطاع أى لكن أخذه بمشيئة الله تعالى واذنه فى دين غير دين الملك ﴿نرفع درجات﴾ أى رتبا كثيرة عالية من العلم وانتصابها على المصدرية أوالظرفية أو على نزع الخافض أى الى درجات والمفعول قوله تعالى ﴿من نشاء﴾ أى نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بأن ذلك سنة مستمرة غير مختصة بهذه المادة والجملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب ﴿وفوق كل ذى علم﴾ من أولئك المرفوعين ﴿عليم﴾ لاينالون شأوه واعلم أنه ان جعل الكيد عبارة عن المعنيين الأولين فالمراد برفع يوسف عليه السلام ما اعتبر فيه بالشرطية أو الشطرية من ارشاده عليه السلام الى دس الصواع فى رحل أخيه وما يتفرع عليه من المقدمات المرتبة لاستبقاء أخيه مما يتم من قبله والمعنى أرشدنا اخوته الى الافتاء المذكور لانه لم يكن متمكنا من أخذ أخيه بدونه أوأرشدنا كلا منهم ومن يوسف وأصحابه الى ما صدر عنهم ولم نكتف بما تم من قبل يوسف فقط لأنه لم يكن متمكنا من أخذ أخيه بذلك فقوله تعالى نرفع درجات الى قوله تعالى عليم توضيح لذلك على معنى أن الرفع المذكور لا يوجب تمام مرامه اذ ليس ذلك بحيث لا يعزب عن علمه شىء بل انما نرفع كل من نرفع حسب استعداده وفوق كل واحد منهم عليم لايقادر قدر علمه ولا يكتنه كنهه يرفع كلا منهم الى ما يليق به من معارج العلم ومدارجه وقد رفع يوسف الى مايليق به من الدرجات العالية وعلم أن ماحواه دائرة علمه لايفى بمرامه فأرشد اخوته الى الافتاء المذكور فكان ما كان وكأنه عليه السلام لم يكن على يقين من صدور الافتاء المذكور عن اخوته وان كان على طمع منه فان ذلك الى الله عز وجل وجودا وعلما والتعرض لوصف العلم لتعيين جهة الفوقية وفى صيغة المبالغة مع التنكير والالتفات الى الغيبة من الدلالة على فخامة شأنه عز وعلا وجلالة قدار علمه المحيط مالا يخفى وأما ان جعل عبارة عن التعليم المستتبع للافتاء المذكور فالرفع عبارة عن ذلك التعليم والافتاء وان لم يكن داخلا تحت قدرته عليه السلام لكنه كان داخلا تحت علمه بواسطة الوحى والتعليم والمعنى مثل ذلك التعليم البالغ الى هذا الحد علمناه ولم نقتصر على تعليم ماعدا الافتاء الذى سيصدر عن اخوته اذلم يكن متمكنا من أخذ أخيه الابذلك فقوله نرفع درجات من نشاء توضيح لقوله كدنا وبيان لأن ذلك من باب الرفع الى الدرجات العالية من العلم ومدح ليوسف برفعه اليها وقوله وفوق كل ذى علم عليم تذييل له أى نرفع درجات عالية من العلم من نشاء رفعه وفوق كل منهم عليم هو أعلى درجة قال ابن عباس رضى الله عنهما فوق كل عالم عالم الى أن ينتهى العلم الى الله تعالى والمعنى ان اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء الا أن يوسف عليه السلام أفضل منهم وقرىء درجات من نشاء بالاضافة والأول أنسب بالتذييل حيث نسب فيه الرفع الى من نسب اليه الفوقية لا الى درجته ويجوز أن يكون العليم فى هذا التفسير أيضا عبارة عن الله عز وجل أى وفوق كل من أولئك المرفوعين عليم يرفع كلا منهم الى درجته اللائقة به والله تعالى أعلم ﴿قالوا ان يسرق﴾ يعنون بنيامين ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾ يريدون به يوسف عليه السلام وماجرى عليه من جهة عمته على ما قيل من أنها كانت تحضنه فلما شب أراد يعقوب عليه السلام انتزاعه منها وكانت لاتصبر عنه ساعة وكانت لها منطقة ورثتها من أبيها اسحق عليه السلام فاحتالت لاستبقاء يوسف عليه السلام فعمدت الى المنطقة فحزمتها عليه من تحت ثيابه ثم قالت فقدت منطقة اسحق عليه السلام فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت انه لى سلم أفعل به ماأشاء فخلاه يعقوب عليه السلام عندها حتى ماتت وقيل كان أخذ فى صباه صنما لابى أمه فكسره وألقاه فى الجيف وقيل دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه ﴿فأسرها يوسف﴾ أى أكن الحزازة الحاصلة مما قالوا ﴿فى نفسه﴾ لا أنه أسرها لبعض أصحابه كما فى قوله تعالى وأسررت لهم اسرارا ﴿ولم يبدها لهم﴾

لاقولا و لافعلا صفحا عنهم وحلما وهو تأكيد لما سبق ﴿ قال ﴾ أى فى نفسه وهو استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاخبار بالاسرار المذكور كأنه قيل فماذا قال فى نفسه فى تضاعيف ذلك الاسرار فقيل قال ﴿ أنتم شر مكانا ﴾ أى منزلة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البرىء وقيل بدل من أسرها والضمير للمقالة المفسرة بقوله أنتم شر مكانا ﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ أى عالم علما بالغا الى أقصى المراتب بأن الأمر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا بل انما هو افتراء علينا فالصيغة لمجرد المبالغة لا لتفصيل علمه عزوجل على علمهم كيف لا وليس لهم بذلك من علم ﴿ قالوا ﴾ عند ما شاهدوا مخايل أخذ بنيامين مستعطفين ﴿ يأيها العزيز ان له أبا ﴾ لم يريدوا بذلك الاخبار بأن له أبا فان ذلك معلوم مما سبق وانما أرادوا الاخبار بأن له أبا ﴿ شيخا كبيرا ﴾ فى السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علالة به يتعلل عن شقيقه الهالك ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة ﴿ انا نراك من المحسنين ﴾ الينا فأتمم احسانك بهذه التتمة أو المتعودين بالاحسان فلا تغير عادتك ﴿ قال معاذ الله ﴾ أى نعوذ بالله معاذا من ﴿ أن نأخذ ﴾ فحذف الفعل وأقيم مقامه المصدر مضافا الى المفعول به بعد حذف الجار ﴿ الا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ لأن أخذنا له انما هو بقضية فتواكم فليس لنا الاخلال بموجبها وايثار صيغة التكلم مع الغير مع كون الخطاب من جانب اخوته على التوحيد من باب السلوك الى سنن الملوك أو للاشعار بأن الأخذ والاعطاء ليس مما يستبد به بل هو منوط بآراء أولى الحل والعقد وايثار من وجدنا متاعنا عنده دون من سرق متاعنا لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب فى الكلام مع تمام المرام فانهم لا يحملون وجدان الصواع فى الرحل على محمل غير السرقة ﴿ انا اذا ﴾ أى اذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه ﴿ لظالمون ﴾ فى منهبكم ومالنا ذلك وهذا المعنى هو الذى أريد بالكلام فى أثناء الحوار وله معنى باطن هو أن الله عز وجل انما أمرنى بالوحى أن آخذ بنيامين لمصالح علمها الله فى ذلك فلو أخذت غيره كنت ظالما وعاملا بخلاف الوحى ﴿ فلما استيأسوا منه ﴾ أى يئسوا من يوسف واجابته لهم أشد يأس بدلالة صيغة الاستفعال وانما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس لما شاهدوه من عوذه بالله مما طلبوه الدال على كون ذلك عنده فى أقصى مراتب الكراهة وأنه مما يجب أن يحترز عنه و يعاذ منه بالله عز وجل ومن تسميته ظلما بقوله انا اذا لظالمون ﴿ خلصوا ﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس ﴿ نجيا ﴾ أى ذوى نجوى على أن يكون بمعنى النجوى والتناجى أو فوجا نجيا على أن يكون بمعنى المناجى كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى وقربناه نجيا و يجوز أن يقال هم نجى كما يقال هم صديق لأنه بزنة المصادر من الزفير والزئير ﴿ قال كبيرهم ﴾ فى السن وهو روبيل أو فى العقل وهو يهوذا أو رئيسهم وهو شمعون ﴿ ألم تعلموا ﴾ كأنهم أجمعوا عند التناجى على الانقلاب جملة ولم يرض به فقال منكرا عليهم ألم تعلموا ﴿ أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ﴾ عهدا يوثق به وهو حلفهم بالله تعالى وكونه من الله لاذنه فيه وكون الحلف باسمه الكريم ﴿ ومن قبل ﴾ أى ومن قبل هذا ﴿ مافرطتم فى يوسف ﴾ قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم وقد قلتم وانا له لناصحون وانا له لحافظون وما مزيدة أو مصدرية ومحل المصدر النصب عطفا على مفعول تعلموا أى ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقا وتفريطكم السابق فى شأن يوسف عليه السلام و لا ضير فى الفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف وقد جوز النصب عطفا على اسم أن والخبر فى يوسف أو من قبل على معنى ألم تعلموا أن تفريطكم السابق وقع فى شأن يوسف عليه السلام أو أن تفريطكم الكائن أو كائنا فى شأن يوسف عليه السلام وقع من قبل وفيه ان مقتضى المقام انما هو الاخبار بوقوع ذلك التفريط لا بكون تفريطهم السابق واقعا فى شأن يوسف كما هو مفاد الأول و لا بكون تفريطهم الكائن فى شأنه واقعا من قبل

كما هو مفاد الثانى على أن الظرف المقطوع عن الاضافة لايقع خبرا و لا صفة و لا صلة و لا حالا عند البعض كما تقرر فى موضعه وقيل محله الرفع على الابتداء والخبر من قبل وفيه مافيه وقيل ماموصولة أو موصوفة ومحلها النصب أو الرفع والحق هو النصب عطفا على مفعول تعلموا أى مافرطتموه بمعنى قدمتموه فى حقه من الخيانة واما النصب عطفا على اسم أن أوالرفع على الابتداء فقد عرفت حاله ﴿فان أبرح الارض﴾ متفرع على ماذكره وذكرهم اياهم من ميثاق أبيه وقوله لتأتننى به الا أن يحاط بكم أى فلن أفارق أرض مصر جاريا على قضية الميثاق ﴿حتى يأذن لى أبى﴾ فى البراح بالانصراف اليه وكان أيمانهم كانت معقودة على عدم الرجوع بغير اذن يعقوب عليه السلام ﴿أو يحكم الله لى﴾ بالخروج منها على وجه لايؤدى الى نقض الميثاق أو بخلاص أخى بسبب من الاسباب. روى أنهم كلموا العزيز فى اطلاقه فقال روبيل أيها الملك لتردن الينا أخانا أو لأصيحن صيحة لاتبقى بمصر حامل الا ألقت ولدها ووقفت كل شعرة فى جسده فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب اذا غضبوا لايطاقون خلا انه اذا مس من غضب واحد منهم سكن غضبه فقال يوسف لابنه قم الى جنبه فمسه فقال روبيل من هذا ان فى هذا البلد بذرا من بذر يعقوب ﴿وهو خير الحاكمين﴾ اذ لايحكم الا بالحق والعدل ﴿ارجعوا﴾ أنتم ﴿الى أبيكم فقولوا ياأبانا ان ابنك سرق﴾ على ظاهر الحال وقرئ سرق أى نسب الى السرقة ﴿وماشهدنا﴾ عليه ﴿الا بما علمنا﴾ وشاهدنا أن الصواع استخرجت من وعائه ﴿وما كنا للغيب﴾ أى باطن الحال ﴿حافظين﴾ فما ندرى أن حقيقة الأمر كما شاهدنا أم بخلافه أو وما كنا عالمين حين أعطيناك الموثق أنه سيسرق أو أنا نلاقى هذا الأمر أو أنك تصاب به كما أصبت بيوسف ﴿واسأل القرية التى كنا فيها﴾ أى مصر أو قرية بقربها لحقهم المنادى عندها أى أرسل الى أهلها واسألهم عن القصة ﴿والعير التى أقبلنا فيها﴾ أى أصحابها فان القصة معروفة فيما بينهم وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام وقيل من صنعاء ﴿وانا لصادقون﴾ تأكيد فى محل القسم ﴿قال﴾ أى يعقوب عليه السلام وهو استئناف مبنى على سؤال نشأ مما سبق فكأنه قيل فماذا كان عند قول المتوقف لاخوته ماقال فقيل قال يعقوب عند مارجعوا اليه فقالوا له ماقالوا وانما حذف للايذان بأن مسارعتهم الى قبوله و رجوعهم به الى أبيهم أمر مسلم غنى عن البيان وانما المحتاج اليه جواب أبيهم ﴿بل سولت﴾ أى زينت وسهلت وهو اضراب لاعن صريح كلامهم فانهم صادقون فى ذلك بل عما يتضمنه من ادعاء البراءة عن التسبب فيما نزل به وأنه لم يصدر عنهم مايؤدى الى ذلك من قول أو فعل كأنه قيل لم يكن الأمر كذلك بل زينت ﴿لكم أنفسكم أمرا﴾ من الأمور فأتيتموه يريد بذلك فتياهم بأخذ السارق بسرقته ﴿فصبر جميل﴾ أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل أجمل ﴿عسى الله أن يأتينى بهم جميعا﴾ بيوسف وأخيه والمتوقف بمصر ﴿انه هو العليم﴾ بحالى وحالهم ﴿الحكيم﴾ الذى لم يبتلنى الا لحكمة بالغة ﴿وتولى﴾ أى أعرض ﴿عنهم﴾ كراهة لما سمع منهم ﴿وقال ياأسفا على يوسف﴾ الاسف أشد الحزن والحسرة أضافه الى نفسه والالف بدل من الياء فناداه أى ياأسفى تعالى فهذا أوانك وانما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخويه لان رزأه كان قاعدة الارزاء غضا عنده وان تقادم عهده آخذا بمجامع قلبه لاينساه و لانه كان واثقا بحياتهما عالما بمكانهما طامعا فى ايابهما وأما يوسف فلم يكن فى شأنه مايحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله تعالى وفضله و فى الخبر لم تعط أمة من الأمم انا لله وانا اليه راجعون الا أمة محمد عليه الصلاة والسلام ألا يرى الى يعقوب حين أصابه ماأصابه لم يسترجع بل قال ماقال والتجانس بين لفظى الاسف و يوسف مما يزيد النظم الكريم بهجة كما فى قوله عز وجل وهم ينهون عنه و ينأون عنه وقوله اثاقلتم الى الارض أرضيتم وقوله ثم كلى من كل الثمرات وجئتك من سبأ بنبأ يقين ونظائرها ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ الموجب للبكاء فان العبرة اذا كثرت محقت سواد

العين وقلبته الى بياض كدر قيل قد عمى بصره وقيل كان يدرك ادراكا ضعيفا . روى انه ماجفت عينا يعقوب من يوم فراق يوسف الى حين لقائه ثمانين عاما وماعلى وجه الارض أكرم على الله عز وجل من يعقوب عليه السلام وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سأل جبريل عليه السلام مابلغ من وجد يعقوب عليه السلام على يوسف قال وجد سبعين ثكلى قال فما كان له من الاجر قال أجر مائة شهيد وماساء ظنه بالله ساعة قط وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند النوائب فان الكف عن ذلك مما لايدخل تحت التكليف فانه قل من يملك نفسه عند الشدائد ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولانقول مايسخط الرب وانا عليك ياابراهيم لمحزونون وانما الذى لايجوز مايفعله الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الخدود والصدور وشق الجيوب وتمزيق الثياب وعن النبي عليه السلام انه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه فقيل يارسول الله تبكى وقد نهيتنا عن البكاء فقال مانهيتكم عن البكاء وانما نهيتكم عن صوتين أحمقين صوت عند الفرح وصوت عند الترح ﴿فهو كظيم﴾ مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له فى قلبه لايظهره فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله تعالى وهو مكظوم من كظم السقاء اذا شده على ملئه أو بمعنى فاعل كقوله والكاظمين الغيظ من كظم الغيظ اذا اجترعه وأصله كظم البعير جرته اذا ردها فى جوفه ﴿قالوا تالله تفتأ﴾ أى لاتفتأ ولاتزال ﴿تذكر يوسف﴾ تفجعا عليه فحذف حرف النفى كما فى قوله فقلت يمين الله أبرح قاعدا لعدم الالتباس بالاثبات فان القسم اذا لم يكن معه علامة الاثبات يكون على النفى البتة ﴿حتى تكون حرضا﴾ مريضا مشفيا على الهلاك وقيل الحرض من أذابه هم أو مرض وهو فى الأصل مصدر ولذلك لايؤنث ولايثنى ولايجمع والنعت منه بالكسر كدنف وقد قرىء به وبضمتين كجنب وغرب ﴿أو تكون من الهالكين﴾ أى الميتين ﴿قال انما أشكو بثى﴾ البث أصعب الهم الذى لايصبر عليه صاحبه فيبثه الى الناس أى ينشره فكأنهم قالوا له ماقالوا بطريق التسلية والاشكاء فقال لهم انى لاأشكو مابى اليكم أو الى غيركم حتى تتصدوا لتسليتى وانما أشكو همى ﴿وحزنى الى الله﴾ تعالى ملتجئا الى جنابه متضرعا لدى بابه فى دفعه وقرىء بفتحتين وضمتين ﴿وأعلم من الله مالاتعلمون﴾ من لطفه ورحمته فأرجو أن يرحمنى ويلطف بى ولا يخيب رجائى أو أعلم وحيا أو الهاما من جهته مالاتعلمون من حياة يوسف . قيل رأى ملك الموت فى المنام فسأله عنه فقال هو حى وقيل علم من رؤيا يوسف عليه السلام انه يسخر له أبواه واخوته سجدا ﴿يابنى اذهبوا فتحسسوا﴾ أى تعرفوا وهو تفعل من الحس وقرىء بالجيم من الجس وهو الطلب أى تطلبوا ﴿من يوسف وأخيه﴾ أى من خبرهما ولم يذكر الثالث لان غيبته اختيارية لايعسر ازالتها ﴿ولاتيأسوا من روح الله﴾ لاتقنطوا من فرجه وتنفيسه وقرىء بضم الراء أى من رحمته التى يحيى بها العباد وهذا ارشاد لهم الى بعض ماأبهم فى قوله وأعلم من الله مالاتعلمون ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله ﴿انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون﴾ لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته فان العارف لايقنط فى حال من الاحوال ﴿فلما دخلوا عليه﴾ أى على يوسف بعد مارجعوا الى مصر بموجب أمر أبيهم وانما لم يذكر ذلك ايذانا بمسارعتهم الى ماأمروا به واشعارا بأن ذلك أمر محقق لايفتقر الى الذكر والبيان ﴿قالوا ياأيها العزيز﴾ أى الملك القادر المتمنع ﴿مسنا وأهلنا الضر﴾ الهزال من شدة الجوع ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها من أزجيته اذا دفعته وطردته والريح تزجى السحاب قيل كانت بضاعتهم من متاع الاعراب صوفا وسمنا وقيل الصنوبر وحبة الخضراء وقيل سويق المقل والاقط وقيل دراهم زيوفا لاتؤخذ الابوضيعة وانما قدموا ذلك ليكون ذريعة الى اسعاف مرامهم ببعث الشفقة وهز العطف والرأفة وتحريك سلسلة المرحمة ثم قالوا ﴿فأوف لنا الكيل﴾ أى أتممه لنا ﴿وتصدق علينا﴾ برد أخينا الينا قاله الضحاك وابن جريج وهو الانسب بحالهم

نظرا الى أمر أبيهم أو بالايفاء أو بالمسامحة وقبول المزجاة أو بالزيادة على مايساويها تفضلا وانما سموه تصدقا تواضعا أو أرادوا التصدق فوق مايعطيهم بالثمن بناء على اختصاص حرمة الصدقة بنبينا عليه الصلاة والسلام وانما لم يبدؤا بما أمروا به استجلابا للرأفة والشفقة ليبعثوا بما قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو على أن ماساقوه كلام ذو وجهين فان قولهم وتصدق علينا ﴿ان الله يجزى المتصدقين﴾ يحتمل الحمل على المحملين فلعله عليه السلام حمله على المحمل الأول ولذلك ﴿قال﴾ مجيبا عما عرضوا به وضمنوه كلامهم من طلب رد أخيهم ﴿هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه﴾ وكان الظاهر أن يتعرض لما فعلوا بأخيه فقط وانما تعرض لما فعلوا بيوسف لاشتراكهما فى وقوع الفعل عليهما فان المراد بذلك افرادهم له عن يوسف واذلاله بذلك حتى كان لايستطيع أن يكلمهم الا بعجز وذلة أى هل تبتم عن ذلك بعد علمكم بقبحه فهو سؤال عن الملزوم والمراد لازمه ﴿اذ أنتم جاهلون﴾ بقبحه فلذلك أقدمتم على ذلك أو جاهلون عاقبته وانما قاله نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى عجزهم وتمسكنهم لامعاتبة وتثريبا ويجوز أن يكون هذا الكلام منه عليه السلام منقطعا عن كلامهم وتنبيها لهم على ماهو حقهم ووظيفتهم من الاعراض عن جميع المطالب والتمحض فى طلب بنيامين بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحى أو الالهام على وصية أبيه وارساله اياهم للتحسس منه ومن أخيه فلما رآهم قد اشتغلوا عن ذلك قال ماقال وقيل أعطوه كتاب يعقوب عليه السلام وقد كتب فيه كتاب من يعقوب اسرائيل الله بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله الى عزيز مصر أما بعد فانا أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدى فشدت يداه ورجلاه فرمى به فى النار فنجاه الله تعالى وجعلت النار له بردا وسلاما وأما أبى فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله تعالى وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى الى فذهب به اخوته الى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم فقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى من بكائى عليه ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا انه سرق وانك حبسته وانا أهل بيت لانسرق ولانلد سارقا فان رددته على والادعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام . فلما قرأه لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ماقال وقيل لما قرأه بكى وكتب الجواب اصبر كما صبروا وتظفر كما ظفروا ﴿قالوا أئنك لأنت يوسف﴾ استفهام تقرير ولذلك أكدوه بأن واللام قالوه استغرابا وتعجبا وقرىء انك بالايجاب قيل عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به وقيل تبسم فعرفوه بثناياه وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب مثلها وقرىء ائنك أو أنت يوسف على معنى ائنك يوسف أو أنت يوسف فحذف الاول لدلالة الثانى عليه وفيه زيادة استغراب ﴿قال أنا يوسف﴾ جوابا عن مسئلتهم وقد زاد عليه قوله ﴿وهذا أخى﴾ أى من أبوى مبالغة فى تعريف نفسه وتفخيما لشأن أخيه وتكملة لما أفاده قوله هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه حسبما يفيده قوله ﴿قد من الله علينا﴾ فكأنه قال هل علمتم مافعلتم بنا من التفريق والاذلال فانا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا بالخلاص عما ابتلينا به والاجتماع بعد الفرقة والعزة بعد الذلة والانس بعد الوحشة ولايبعد أن يكون فيه اشارة الى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه أخى لاأخوكم فلا وجه لطلبكم ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليلى بقوله ﴿انه من يتق﴾ أى يفعل التقوى فى جميع أحواله أو يق نفسه عما يوجب سخط الله تعالى وعذابه ﴿ويصبر﴾ على المحن أو على مشقة الطاعات أو عن المعاصى التى تستلذها النفس ﴿فان الله لايضيع أجر المحسنين﴾ أى أجرهم وانما وضع المظهر موضع المضمر تنبيها على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالاحسان ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾ اختارك وفضلك علينا بما ذكرت من النعوت الجليلة ﴿وان كنا﴾ وان الشأن كنا ﴿لخاطئين﴾ لمتعمدين للذنب اذ فعلنا بك مافعلنا ولذلك أعزك وأذلنا وفيه اشعار بالتوبة والاستغفار

ولذلك ﴿قال لاتثريب﴾ أى لاعتب ولاتأنيب ﴿عليكم﴾ وهو تفعيل من الثرب وهو الشحم الغاشى للكرش ومعناه ازالته كما أن التجليد ازالة الجلد والتقريع ازالة القرع لانه اذا ذهب كان ذلك غاية الهزال فضرب مثلا للتقريع الذى يذهب بماء الوجوه وقوله عز وعلا ﴿اليوم﴾ منصوب بالتثريب أو بالمقدر خبرا للا أى لاأثربكم أو لاتثريب مستقر عليكم اليوم الذى هو مظنة له فما ظنكم بسائر الايام أو بقوله ﴿يغفر الله لكم﴾ لانه حينئذ صفح عن جريمتهم وعفا عن جريرتهم بما فعلوا من التوبة ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ يغفر الصغائر والكبائر و يتفضل على التائب بالقبول ومن كرمه عليه الصلاة والسلام أن اخوته أرسلوا اليه انك تدعونا الى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحي منك بما فرطنا فيك فقال عليه الصلاة والسلام ان أهل مصر وان ملكت فيهم كانوا ينظرون الى بالعين الاولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما مابلغ ولقد شرفت بكم الآن وعظمت فى العيون حيث علم الناس أنكم اخوتى وأنى من حفدة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿اذهبوا بقميصى هذا﴾ قيل هو الذى كان عليه حينئذ وقيل هو القميص المتوارث الذى كان فى التعويذ أمره جبريل بارساله اليه وأوحى اليه أن فيح ريح الجنة لايقع على مبتلى الا عوفى ﴿فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا﴾ يكن بصيرا أو يأت الى بصيرا و ينصره قوله ﴿وائتونى بأهلكم أجمعين﴾ أى بأبى وغيره ممن ينتظمه لفظ الأهل جميعا من النساء والذرارى . قيل انما حمل القميص يهوذا وقال أنا أحزنته بحمل القميص ملطخا بالدم اليه فأفرحه كما أحزنته وقيل حمله وهو حاف حاسر من مصر الى كنعان و بينهما مسيرة ثمانين فرسخا ﴿ولما فصلت العير﴾ خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولا اذا انفصل منه وجاوز حيطانه وقرأ ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انفصل العير ﴿قال أبوهم﴾ يعقوب عليه الصلاة والسلام لمن عنده ﴿انى لأجد ريح يوسف﴾ أوجده الله سبحانه ماعبق بالقميص من ريح يوسف من ثمانين فرسخا حين أقبل به يهوذا ﴿لولا أن تفندون﴾ أى تنسبونى الى الفند وهو الخرف وانكار العقل وفساد الرأى من هرم يقال شيخ مفند ولايقال عجوز مفندة اذ لم تكن فى شبيبتها ذات رأى فتفند فى كبرها وجواب لولا محذوف أى لصدقتمونى ﴿قالوا﴾ أى الحاضرون عنده ﴿تالله انك لفى ضلالك القديم﴾ لفى ذهابك عن الصواب قدما فى افراط محبتك ليوسف ولهجك بذكره و رجائك للقائه وكان عندهم أنه قدمات ﴿فلما أن جاء البشير﴾ وهو يهوذا ﴿ألقاه﴾ أى ألقى البشير القميص ﴿على وجهه﴾ أى وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه ﴿فارتد﴾ عاد ﴿بصيرا﴾ لما انتعش فيه من القوة ﴿قال ألم أقل لكم﴾ يعنى قوله انى لاجد ريح يوسف فالخطاب لمن كان عنده بكنعان أوقوله ولاتيأسوا من روح الله فالخطاب لبنيه وهو الأنسب بقوله ﴿انى أعلم من الله مالاتعلمون﴾ فان مدار النهى المذكور انما هو العلم الذى أوتى يعقوب من جهة الله سبحانه وعلى هذا يجوز أن يكون هذا مقول القول أى ألم أقل لكم حين أرسلتكم الى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم عن اليأس من روح الله تعالى وأعلم من الله مالاتعلمون من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام . روى أنه سأل البشير كيف يوسف فقال هو ملك مصر قال ماأصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة ﴿قالوا ياأبانا استغفرلنا ذنوبنا انا كنا خاطئين﴾ ومن حق من اعترف بذنبه أن يصفح عنه و يستغفر له فكأنهم كانوا على ثقة من عفوه عليه الصلاة والسلام و لذلك اقتصروا على استدعاء الاستغفار وأدرجوا ذلك فى الاستغفار ﴿قال سوف أستغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم﴾ وهذا مشعر بعفوه قيل أخر الاستغفار الى وقت السحر وقيل الى ليلة الجمعة ليتحرى به وقت الاجابة وقيل أخره الى أن يستحل لهم من يوسف عليه الصلاة والسلام أو يعلم أنه قد عفا عنهم فان عفو المظلوم شرط المغفرة و يعضده أنه روى عنه أنه استقبل القبلة قائما يدعو وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا

خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم و ظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال ان الله قد أجاب دعوتك فى ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة فان صح ثبتت نبوتهم وان ماصدر عنهم انما صدر قبل الاستنباء وقيل المراد الاستمرار على الدعاء فقد روى أنه كان يستغفر كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة وقيل قام الى الصلاة فى وقت السحر فلما فرغ رفع يديه فقال اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لولدى ماأتوا الى أخيهم فأوحى الله اليه ان الله قد غفر لك ولهم أجمعين ﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ روى أنه وجه يوسف الى أبيه جهازا ومائتى راحلة ليتجهز اليه بمن معه فاستقبله يوسف والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب عليه الصلاة والسلام وهو يمشى متوكئا على يهوذا فنظر الى الخيل والناس فقال يا يهوذا أهذا فرعون مصر قال لا بل ولدك فلما لقيه قال عليه الصلاة والسلام السلام عليك يامذهب الأحزان وقيل قال له يوسف ياأبت بكيت على حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا فقال بلى ولكنى خشيت أن يسلب دينك فيحال بينى وبينك وقيل ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون مابين رجل وامرأة وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتى ألف ﴿اوى اليه أبويه﴾ أى أباه وخالته وتنزيلها منزلة الام كتنزيل العم منزلة الأب فى قوله عز وجل واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق أو لان يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد أمه وقال الحسن وابن اسحق كانت أمه فى الحياة فلا حاجة الى التأويل ومعنى آوى اليه ضمهما اليه واعتنقهما وكأنه عليه الصلاة والسلام ضرب فى الملتقى مضربا فنزل فيه فدخلوا عليه فاواهما اليه ﴿وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين﴾ من الشدائد والمكاره قاطبة والمشيئة متعلقة بالدخول على الأمن ﴿ورفع أبويه﴾ عند نزولهم بمصر ﴿على العرش﴾ على السرير تكرمة لهما فوق مافعله لاخوته ﴿وخروا له﴾ أى أبواه واخوته ﴿سجدا﴾ تحية له فانه كان السجود عندهم جاريا مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الفاشية فى التعظيم والتوقير وقيل ما كان ذلك الا انحناء دون تعفير الجباه ويأباه الخرور وقيل خروا لاجله سجدا لله شكرا ويرده قوله تعالى ﴿وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى﴾ التى رأيتها وقصصتها عليك ﴿من قبل﴾ فى زمن الصبا ﴿قد جعلها ربى حقا﴾ صدقا واقعا بعينه والاعتذار بجعل يوسف بمنزلة القبلة وجعل اللام كما فى قوله أليس أول من صلى لقبلتكم تعسف لا يخفى وتأخيره عن الرفع على العرش ليس بنص فى ذلك لأن الترتيب الذكرى لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعى فلعل تأخيره عنه ليصل به ذكر كونه تعبيرا لرؤياه وما يتصل به من قوله ﴿وقد أحسن بى﴾ المشهور استعمال الاحسان بالى وقد يستعمل بالباء أيضا كما فى قوله عز اسمه وبالوالدين احسانا وقيل هذا بتضمين لطف وهو الاحسان الخفى كما يؤذن به قوله تعالى ان ربى لطيف لما يشاء وفيه فائدة لا تخفى أى لطف بى محسنا الى غير هذا الاحسان ﴿اذ أخرجنى من السجن﴾ بعدما ابتليت به ولم يصرح بقصة الجب حذارا من تثريب اخوته لان الظاهر حضورهم لوقوع الكلام عقيب خرورهم سجدا واكتفاء بما يتضمنه قوله تعالى ﴿وجاء بكم من البدو﴾ اى البادية ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى﴾ أى أفسد بيننا بالاغواء وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجرى يقال نزغه ونسغه اذا نخسه ولقد بالغ عليه الصلاة والسلام فى الاحسان حيث أسند ذلك الى الشيطان ﴿ان ربى لطيف لما يشاء﴾ أى لطيف التدبير لأجله رفيق حتى يجىء على وجه الحكمة والصواب مامن صعب الا وهو بالنسبة الى تدبيره سهل ﴿انه هو العليم﴾ بوجوه المصالح ﴿الحكيم﴾ الذى يفعل كل شىء على قضية الحكمة روى أن يوسف أخذ بيد يعقوب عليهما الصلاة والسلام فطاف به فى خزائنه فأدخله فى خزائن الورق والذهب وخزائن الحلى وخزائن الثياب وخزائن السلاح

وغير ذلك فلما أدخله خزائن القراطيس قال يابنى ماأعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الى على ثمانى مراحل قال أمرنى جبريل قال أو ماتسأله قال أنت أبسط اليه منى فسأله قال جبريل الله تعالى أمرنى بذلك لقولك أخاف أن يأكله الذئب قال فهلا خفتنى وروى أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام معه أربعا وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفنه بالشام الى جنب أبيه اسحق فمضى بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد الى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة فلما تم أمره وعلم أنه لايدوم له تاقت نفسه الى الملك الدائم الخالد فتمنى الموت فقال ﴿رب قد آتيتنى من الملك﴾ أى بعضا منه عظيما وهو ملك مصر ﴿وعلمتنى من تأويل الاحاديث﴾ أى بعضا من ذلك كذلك ان أريد بتعليم تأويل الاحاديث تفهيم غوامض أسرار الكتب الالهية ودقائق سنن الانبياء عليهم الصلاة والسلام فالترتيب ظاهر وأما ان أريد به تعليم تعبير الرؤيا كما هو الظاهر فلعل تقديم ايتاء الملك عليه فى الذكر لانه بمقام تعداد النعم الفائضة عليه من الله سبحانه والملك أعرق فى كونه نعمة من التعليم المذكور وان كان ذلك أيضا نعمة جليلة فى نفسه ولا يمكن تمشية هذا الاعتذار فيما سبق لان التعليم هناك وارد على نهج العلة الغائية للتمكين فان حمل على معنى التمليك لزم تأخره عنه وأما الواقع ههنا فمجرد التأخير فى الذكر والعطف بحرف الواو ولا يستدعى ذلك الترتيب فى الوجود ﴿فاطر السموات والأرض﴾ مبدعهما وخالقهما نصب على أنه صفة للمنادى أو منادى آخر وصفه تعالى به بعد وصفه بالربوبية مبالغة فى ترتيب مبادى مايعقبه من قوله ﴿أنت وليى﴾ مالك أمورى ﴿فى الدنيا والآخرة﴾ أو الذى يتولانى بالنعمة فيهما واذ قد أتممت على نعمة الدنيا ﴿توفنى﴾ اقبضنى ﴿مسلما وألحقنى بالصالحين﴾ من آبائى أو بعامة الصالحين فى الرتبة والكرامة فانما تتم النعمة بذلك قيل لما دعا توفاه الله عز وجل طيبا طاهرا فتخاصم أهل مصر فى دفنه وتشاحوا فى ذلك حتى هموا بالقتال فرأوا أن يصنعوا له تابوتا من مرمر فجعلوه فيه ودفنوه فى النيل ليمر عليه ثم يصل الى مصر ليكونوا شرعا واحدا فى التبرك به وولد له أفرايم وميشا ولافرايم نون ولنون يوشع فتى موسى عليه الصلاة والسلام ولقد توارثت الفراعنة من العمالقة بعده مصر ولم يزل بنو اسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه الى أن بعث الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماسبق من نبأ يوسف وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من الدلالة على بعد منزلته أو كونه بالانقضاء فى حكم البعيد والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره ﴿من أنباء الغيب﴾ الذى لايحوم حوله أحد وقوله ﴿نوحيه اليك﴾ خبر بعد خبر أو حال من الضمير فى الخبر ويجوز أن يكون ذلك اسما موصولا ومن أنباء الغيب صلته ويكون الخبر نوحيه اليك ﴿وما كنت لديهم﴾ يريد اخوة يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿اذ أجمعوا أمرهم﴾ وهو جعلهم اياه فى غيابة الجب ﴿وهم يمكرون﴾ به ويبغون له الغوائل حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها وتطلع على سرائرهم طرا وتحيط بما لديهم خبرا وليس المراد مجرد نفى حضوره عليه الصلاة والسلام فى مشهد اجماعهم ومكرهم فقط بل فى سائر المشاهد أيضا وانما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة وأخفى أحوالها كما ينبئ عنه قوله وهم يمكرون والخطاب وان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكن المراد الزام المكذبين والمعنى ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك اذلا سبيل الى معرفتك اياه سوى ذلك اذ عدم سماعك ذلك من الغير وعدم مطالعتك للكتب أمر لايشك فيه المكذبون أيضا ولم تكن بين ظهرانيهم عند وقوع الامر حتى تعرفه كما هو فتبلغه اليهم وفيه تهكم بالكفار فكأنهم يشكون فى ذلك فيدفع شكهم وفيه أيضا ايذان بأن ماذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع وما ينقله أهل الكتاب ليس على ماهو عليه يعنى أن مثل هذا التحقيق بلاوحى لايتصور الا بالحضور والمشاهدة واذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحى ومثله قوله تعالى وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم

وقوله وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الامر ﴿وما أكثر الناس﴾ يريد به العموم أو أهل مكة ﴿ولو حرصت﴾ أى على ايمانهم و بالغت فى اظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك ﴿بمؤمنين﴾ لتصميمهم على الكفر واصرارهم على العناد روى أن اليهود وقريشا لما سألوا عن قصة يوسف وعدوا أن يسلموا فلما أخبرهم بها على موافقة التوراة فلم يسلموا حزن النبى صلى الله عليه وسلم فقيل له ذلك ﴿وما تسألهم عليه﴾ أى على الانباء أو على القرآن ﴿من أجر﴾ من جعل كما يفعله حملة الاخبار ﴿ان هو الاذكر﴾ عظة من الله تعالى ﴿للعالمين﴾ كافة لا أن ذلك مختص بهم ﴿وكأين من آية﴾ أى كأى عدد شئت من الآيات والعلامات الدالة على وجود الصانع و وحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته غير هذه الآية التى جئت بها ﴿فى السموات والارض﴾ أى كائنة فيهما من الاجرام الفلكية وما فيها من النجوم وتغير أحوالها ومن الجبال والبحار وسائر مافى الارض من العجائب الفائتة للحصر ﴿يمرون عليها﴾ أى يشاهدونها و لا يعبؤن بها وقرئ برفع الارض على الابتداء و يمرون خبره وقرئ بنصبها على معنى و يطؤن الارض يمرون عليها و فى مصحف عبدالله والارض يمشون عليها والمراد ما يرون فيها من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من الآيات والعبر ﴿وهم عنها معرضون﴾ غير ناظرين اليها ولا متفكرين فيها ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله﴾ فى اقرارهم بوجوده وخالقيته ﴿الا وهم مشركون﴾ بعبادتهم لغيره أو باتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا أو بقولهم باتخاذه تعالى ولدا سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا أو بالنور والظلمة وهى جملة حالية أى لا يؤمن أكثرهم الا فى حال شركهم قيل نزلت الآية فى أهل مكة وقيل فى المنافقين وقيل فى أهل الكتاب ﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ أى عقوبة تغشاهم وتشملهم ﴿أو تأتيهم الساعة بغتة﴾ فجأة من غير سابقة علامة ﴿وهم لا يشعرون﴾ باتيانها غير مستعدين لها ﴿قل هذه سبيلى﴾ وهى الدعوة الى التوحيد والايمان بالاخلاص وفسرها بقوله ﴿أدعو الى الله على بصيرة﴾ بيان وحجة واضحة غير عمياء أو هى حال من الضمير فى سبيلى والعامل فيها معنى الاشارة ﴿أنا﴾ تأكيد للمستكن فى أدعو أو على بصيرة لانه حال منه أو مبتدأ خبره على بصيرة ﴿ومن اتبعنى﴾ عطف عليه ﴿وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ مؤكد لما سبق من الدعوة الى الله ﴿وما أرسلنا من قبلك الا رجالا﴾ رد لقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة ﴿نوحى اليهم﴾ كما أوحينا اليك وقرئ بالياء ﴿من أهل القرى﴾ لانهم أعلم وأحلم وأهل البوادى فيهم الجهل والجفاء والقسوة ﴿أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك ﴿ولدار الآخرة﴾ أى الساعة أو الحياة الآخرة ﴿خير للذين اتقوا﴾ الشرك والمعاصى ﴿أفلا تعقلون﴾ فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيرية دار الآخرة وقرئ بالياء على أنه غير داخل تحت قل ﴿حتى اذا استيأس الرسل﴾ غاية لمحذوف دل عليه السياق أى لا يغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء فان من قبلهم قد أمهلوا حتى أيس الرسل عن النصر عليهم فى الدنيا أو عن ايمانهم لانهماكهم فى الكفر وتماديهم فى الطغيان من غير وازع ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون عليهم أو كذبهم رجاؤهم فانه يوصف بالصدق والكذب والمعنى ان مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله تعالى قد تطاولت وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم فى الدنيا ﴿جاءهم نصرنا﴾ فجأة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وظنوا أنهم قد أخلفوا ماوعدهم الله من النصر فان صح ذلك عنه فلعله أراد بالظن مايخطر بالبال من شبه الوسوسة وحديث النفس وانما عبر عنه بالظن تهويلا للخطب وأما الظن الذى هو ترجح أحد الجانبين على الآخر فلا يتصور ذلك من آحاد الامة فما ظنك بالانبياء عليهم الصلاة والسلام وهم هم ومنزلتهم فى معرفة شئون الله سبحانه منزلتهم وقيل

الضميران للمرسل اليهم وقيل الاول لهم والثانى للرسل وقرىء بالتشديد أى ظن الرسل أن القوم كذبوهم فيما وعدوهم وقرىء بالتخفيف على بناء الفاعل على أن الضميرين للرسل أى ظنوا أنهم كذبوا عند قومهم فيما حدثوا به لما تراخى عنهم ولم يروا له أثرا أو على أن الاول لقومهم ﴿فنجى من نشاء﴾ هم الرسل والمؤمنون بهم وقرىء فننجى على لفظ المستقبل بالتخفيف والتشديد وقرىء فنجا ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ اذا نزل بهم وفيه بيان لمن تعلق بهم المشيئة ﴿لقد كان فى قصصهم﴾ أى قصص الانبياء وأممهم وينصره قراءة من قرأ بكسر القاف أو قصص يوسف واخوته ﴿عبرة لأولى الالباب﴾ لذوى العقول المبرأة عن شوائب أحكام الحس ﴿ما كان﴾ أى القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة ﴿حديثا يفترى ولكن﴾ كان ﴿تصديق الذى بين يديه﴾ من الكتب السماوية وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى ولكن هو تصديق الذى بين يديه ﴿وتفصيل كل شىء﴾ مما يحتاج اليه فى الدين اذما من أمر دينى الا وهو يستند الى القرآن بالذات أو بوسط ﴿وهدى﴾ من الضلالة ﴿ورحمة﴾ ينال بها خير الدارين ﴿لقوم يؤمنون﴾ أى يصدقونه لانهم المنتفعون به وأما من عداهم فلا يهتدون بهداه ولا ينتفعون بجدواه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم علموا أرقاءكم سورة يوسف فانه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلما

سورة الرعد

(مدنية وقيل مكية الا قوله ويقول الذين كفروا الآية وآيها خمس وأربعون)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿المر﴾ اسم للسورة ومحله اما الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أى هذه السورة مسماة بهذا الاسم وهو أظهر من الرفع على الابتداء اذ لم يسبق العلم بالتسمية كما مر مرارا وقوله تعالى ﴿تلك﴾ على الوجه الأول مبتدأ مستقل وعلى الوجه الثانى مبتدأ ثان أو بدل من الأول أشير به اليه ايذانا بفخامته واما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اقرأ أو اذكر فتلك مبتدأ كما اذا جعل المر مسرودا على نمط التعديد أو بمعنى أنا الله أعلم وأرى على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما والخبر على التقادير قوله تعالى ﴿آيات الكتاب﴾ أى الكتاب العجيب الكامل الغنى عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به فهو عبارة عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزل حينئذ حسبما مر فى مطلع سورة يونس اذ هو المتبادر من مطلق الكتاب المستغنى عن النعت وبه يظهر ما أريد من وصف الآيات بوصف ما أضيفت اليه من نعوت الكمال بخلاف ما اذا جعل عبارة عن السورة فانها ليست بتلك المثابة من الشهوة فى الاتصاف بذلك المغنية عن التصريح بالوصف على أنها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك اشارة الى كل واحدة منها وفيه ما لا يخفى من التعسف الذى مر تفصيله فى سورة يونس ﴿والذى أنزل اليك من ربك﴾ أى الكتاب المذكور بكماله لا هذه السورة وحدها ﴿الحق﴾ الثابت المطابق للواقع فى كل ما نطق به الحقيق بأن يخص به الحقية لعراقته فيها وليس فيه ما يدل على أن ما عداه ليس بحق أصلا على أن حقيته مستتبعة لحقية سائر الكتب السماوية لكونه مصدقا لما بين يديه ومهيمنا عليه وفى التعبير عنه بالموصول واسناد الانزال اليه بصيغة المبنى للمفعول والتعرض لوصف الربوبية مضافا الى ضميره عليه السلام من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لجلالة شأن المنزل وتشريف المنزل اليه والايماء الى وجه بناء الخبر ما لا يخفى ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ بذلك الحق المبين لاخلالهم بالنظر والتأمل فيه فعدم ايمانهم متعلق بعنوان حقيته

لانه المرجع للتصديق والتكذيب لابعنوان كونه منزلا كما قيل و لانه وارد على طريقة الوصف دون الاخبار ﴿الله الذى رفع السموات﴾ أى خلقهن مرتفعات على طريقة قولهم سبحان من كبر الفيل وصغر البعوض لأنه رفعها بعدأن لم تكن كذلك والجملة مبتدأ وخبر كقوله وهو الذى مد الارض ﴿بغير عمد﴾ أى بغير دعائم جمع عماد كاهاب واهب وهو مايعمد به أى يسند يقال عمدت الحائط أى أدعمته وقرئ عمد على جمع عمود بمعنى عماد كرسل و رسول وايراد صيغة الجمع لجمع السموات لا لان المنفى عن كل واحدة منها عمد لاعماد ﴿ترونها﴾ استئناف استشهد به على ماذكر من رفع السموات بغير عمد وقيل صفة لعمد جئ بها إيهاماً لان لها عمدا غير مرئية هى قدرة الله تعالى ﴿ثم استوى﴾ أى استولى ﴿على العرش﴾ بالحفظ والتدبير أو استوى أمره وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة لله عزوجل بلا كيف وأياما كان فليس المراد به القصد الى ايجاد العرش وخلقه فلاحاجة الى جعل كلمة ثم للتراخى فى الرتبة ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ ذللهما وجعلهما طائعين لما أريد منهما من الحركات وغيرها ﴿كل﴾ من الشمس والقمر ﴿يجرى﴾ حسبما أريد منها ﴿لأجل مسمى﴾ لمدة معينة فيها تتم دورته كالسنة للشمس والشهر للقمر فان كلا منهما يجرى كل يوم على مدار معين من المدارات اليومية أو لمدة ينتهى فيها حركاتهما و يخرج جميع ما أريد منهما من القوة الى الفعل أو لغاية يتم عندها ذلك والجملة بيان لحكم تسخيرهما ﴿يدبر﴾ بما صنع من الرفع والاستواء والتسخير أى يقضى و يقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿الأمر﴾ أمر الخلق كله وأمر ملكوته و ربوبيته ﴿يفصل الآيات﴾ الدالة على كمال قدرته و بالغ حكمته أى يأتى بها مفصلة وهى ماذكر من الافعال العجيبة ومايتلوها من الاوضاع الفلكية الحادثة شيئاً فشيئاً المستتبعة للآثار الغريبة فى السفليات على موجب التدبير والتقدير فالجلتان اما حالان من ضمير استوى وقوله وسخر الشمس والقمر من تتمة الاستواء واما مفسرتان له أوالأولى حال منه والثانية من الضمير فيها أو كلاهما من ضمائر الافعال المذكورة وقوله كل يجرى لأجل مسمى من تتمة التسخير أو خبران عن قوله الله خبرا بعد خبر والموصول صفة للمبتدا جئ به للدلالة على تحقيق الخبر وتعظيم شأنه كما فى قول الفرزدق

ان الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

﴿لعلكم﴾ عندمعاينتكم لها وعثوركم على تفاصيلها ﴿بلقاء ربكم﴾ بملاقاته للجزاء ﴿توقنون﴾ فان من تدبرها حق التدبر أيقن أن من قدر على ابداع هذه الصنائع البديعة على كل شئ قدير وأن لهذه التدبيرات المتينة عواقب وغايات لابدمن وصولها وقد بينت على ألسنة الأنبياء عليهم السلام أن ذلك ابتلاء المكلفين ثم جزاؤهم حسب أعمالهم فاذن لابد من الايقان بالجزاء ولما قرر الشواهد العلوية أردفها بذكر الدلائل السفلية فقال ﴿وهو الذى مد الارض﴾ أى بسطها طولا وعرضا قال الأصم المد هو البسط الى مالايدرك منتهاه ففيه دلالة على بعد مداها وسعة أقطارها ﴿وجعل فيها رواسى﴾ أى جبالا ثوابت فى أحيازها من الرسو وهو ثبات الاجسام الثقيلة ولم يذكر الموصوف لاغناء غلبة الوصف بها عن ذلك وانحصار مجئ فواعل جمعا لفاعل فى فوارس وهوالك ونواكس انما هو فى صفات العقلاء وأما فى غيرهم فلا يراعى ذلك أصلا كما فى قوله تعالى أياماً معدودات وقوله الحج أشهر معلومات الى غيرذلك فلا حاجة الى أن يجعل مفردها صفة لجمع القلة أعنى أجبلا و يعتبر فى جمع الكثرة أعنى جبالا انتظامها لطائفة من جموع القلة وتنزيل كل منها منزلة مفردها كما قيل على أنه لامجال لذلك فان جمعية كل من صيغتى الجمعين انما هى باعتبار الافراد التى تحتها لا باعتبار انتظام جمع القلة للافراد وجمع الكثرة لجموع القلة فكل منهما جمع جبل لا أن جبالا جمع أجبل كما أن طوائف جمع طائفة و لاالى أن يلتجأ الى جعل الوصف المذكور بالغلبة فى عداد الاسماء التى تجمع على فواعل كما ظن على أنه لاوجه

لما أن الغلبة انما هى فى الجمع دون المفرد والتعبير عن الجبال بهذا العنوان لبيان تفرع قرار الارض على ثباتها ﴿وأنهارا﴾ مجارى واسعة والمراد مايجرى فيها من المياه و فى نظمها مع الجبال فى معمولية فعل واحد اشارة الى أن الجبال منشأ للانهار وبيان لفائدة أخرى للجبال غير كونها حافظة للارض عن الاضطراب المخل بثبات الاقدام وتقلب الحيوان متفرعة على تمكنه وتقلبه وهى تعيشه بالماء والكلأ ﴿ومن كل الثمرات﴾ متعلق بجعل فى قوله تعالى ﴿جعل فيها زوجين اثنين﴾ أى اثنينية حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر وأكد به الزوجين لئلا يفهم أن المراد بذلك الشفعان اذ يطلق الزوج على المجموع ولكن اثنينية ذلك اثنينية اعتبارية أى جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة فى الدنيا ضربين وصنفين اما فى اللون كالابيض والاسود أو فى الطعم كالحلو والحامض أو فى القدر كالصغير والكبير أو فى الكيفية كالحار والبارد وما أشبه ذلك ويجوز أن يتعلق بجعل الأول ويكون الثانى استئنافا لبيان كيفية ذلك الجعل ﴿يغشى الليل النهار﴾ استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه ازالة نور الجو بالظلمة بتغطية الاشياء الظاهرة بالاغطية أى يستر النهار بالليل والتركيب وان احتمل العكس أيضا بالحمل على تقديم المفعول الثانى على الأول فان ضوء النهار أيضا ساتر لظلمة الليل الا أن الانسب بالليل أن يكون هو الغاشى وعد هذا فى تضاعيف الآيات السفلية وان كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهرا باعتبار أن ظهوره فى الارض فان الليل انما هو ظلها وفيما فوق موقع ظلها لاليل أصلا ولان الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والانضاج على انهما أيضا زوجان متقابلان مثلها وقرىء يغشى من التغشية ﴿ان فى ذلك﴾ أى فيما ذكر من مد الارض وإيتادها بالرواسى واجراء الانهار وخلق الثمرات واغشاء الليل النهار وفى الاشارة بذلك تنبيه على عظم شأن المشار اليه فى بابه ﴿لآيات﴾ باهرة وهى آثار تلك الافاعيل البديعة جلت حكمة صانعها فنى على معناها فان تلك الآثار مستقرة فى تلك الأفاعيل منوطة بها ويجوز أن يشار بذلك الى تلك الآثار المدلول عليهما بتلك الأفاعيل ففى تجريدية ﴿لقوم يتفكرون﴾ فان التفكر فيها يؤدى الى الحكم بأن تكوين كل من ذلك على هذا النمط الرائق والأسلوب اللائق لابدله من مكون قادر حكيم يفعل ما يشاء ويختار ما يريد لامعقب لحكمه وهو الحميد المجيد ﴿وفى الأرض قطع﴾ جملة مستأنفة مشتملة على طائفة أخرى من الآيات أى بقاع كثيرة مختلفة فى الاوصاف فمن طيبة الى سبخة وكريمة الى زهيدة وصلبة الى رخوة الى غير ذلك ﴿متجاورات﴾ أى متلاصقات وفى بعض المصاحف قطعا متجاورات أى جعل فى الارض قطعا ﴿وجنات من أعناب﴾ أى بساتين كثيرة منها ﴿وزرع﴾ من كل نوع من أنواع الحبوب وافراده لمراعاة أصله ولعل تقديم ذكر الجنات عليه مع كونه عمود المعاش لظهور حالها فى اختلافها ومباينتها لسائرها ورسوخ ذلك فيها وتأخير قوله تعالى ﴿ونخيل﴾ لئلا يقع بينها وبين صفتها وهى قوله تعالى ﴿صنوان وغير صنوان﴾ فاصلة والصنوان جمع صنو كقنوان وقنو وهى النخلة التى لها رأسان وأصلها واحد وقرىء بضم الصاد على لغة بنى تميم وقيس وقرىء جنات بالنصب عطفا على زوجين وبالجر على كل الثمرات فلعل عدم نظم قوله تعالى وفى الارض قطع متجاورات فى هذا السلك مع أن اختصاص كل من تلك القطع بمالها من الاحوال والصفات بمحض جعل الخالق الحكيم جلت قدرته حين مد الارض ودحاها للايماء الى كون تلك الاحوال صفات راسخة لتلك القطع وقرىء وزرع ونخيل بالجر عطفا على أعناب أو جنات ﴿يسقى﴾ أى ماذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل وقرىء بالتأنيث مراعاة للفظ والاول أوفق بمقام بيان اتحاد الكل فى حالة السقى ﴿بماء واحد﴾ لااختلاف فى طبعه سواء كان السقى بماء الامطار أو بماء الانهار ﴿ونفضل﴾ مع تآخذ أسباب التشابه بمحض قدرتنا واختيارنا ﴿بعضها على بعض﴾ آخر منها ﴿فى الأكل﴾ فيما يحصل منها من الثمر والطعم وقرىء بالياء

على بناء الفاعل رداعلى يدبر و يفصل و يغشى وعلى بناء المفعول وفيه مالايخفى من الفخامة والدلالة على أن عدم احتمال استناد الفعل الى فاعل آخر مغن عن بناء الفعل للفاعل ﴿ان فى ذلك﴾ الذى فصل من أحوال القطع والجنات ﴿لآيات﴾ كثيرة عظيمة ظاهرة ﴿لقوم يعقلون﴾ يعلمون على قضية عقولهم فان من عقل هذه الاحوال العجيبة لايتلعثم فى الجزم بأن من قدر على ابداع هذه البدائع وخلق تلك الثمار المختلفة فى الاشكال والالوان والطعوم والروائح فى تلك القطع المتباينة المتجاورة وجعلها حدائق ذات بهجة قادر على اعادة ما أبداه بل هى أهون فى القياس وهذه الاحوال وان كانت هى الآيات أنفسها لانها فيها الا أنه قد جردت عنها أمثالها مبالغة فى كونها آية ففى تجريدية مثلها فى قوله تعالى لهم فيها دار الخلد أو المشار اليه الاحوال الكلية والآيات أفرادها الحادثة شيئا فشيئا فى الازمنة وآحادها الواقعة فى الاقطار والامكنة المشاهدة لاهلها فنى على معناها وحيث كانت دلالة هذه الاحوال على مدلولاتها أظهر مما سبق علق كونها آيات بمحض التعقل و لذلك لم يتعرض لغير تفضيل بعضها على بعض فى الأكل الظاهر لكل عاقل مع تحقق ذلك فى الخواص والكيفيات مما يتوقف العثور عليه على نوع تأمل وتفكر كأنه لاحاجة فى ذلك الى التفكر أيضا وفيه تعريض بأن المشركين غير عاقلين ﴿وان تعجب﴾ يامحمد من شئ ﴿فعجب﴾ لاأعجب منه حقيق بأن يقصر عليه التعجب ﴿قولهم﴾ بعد مشاهدة ماعدد لك من الآيات الشاهدة بأنه تعالى على كل شئ قدير ﴿أئذا كنا ترابا﴾ على طريقة الاستفهام الانكارى المفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار وهو فى محل الرفع على البدلية من قولهم على انه بمعنى المقول أو فى محل النصب على المفعولية منه على أنه مصدر فالعجب على الأول كلامهم وعلى الثانى تكلمهم بذلك والعامل فى اذا مادل عليه قوله ﴿أئنا لفى خلق جديد﴾ وهو نبعث أو نعاد وتقديم الظرف لتقوية الانكار بالبعث بتوجيهه اليه فى حالة منافية له وتكرير الهمزة فى قولهم أئنا لتأكيد الانكار وليس مدار انكارهم كونهم ثابتين فى الخلق الجديد بالفعل عند كونهم ترابا بل كونهم بعريضة ذلك واستعدادهم له وفيه من الدلالة على عتوهم وتماديهم فى النكير مالا يخفى وقيل وان تعجب من قولهم فى انكار البعث فعجب قولهم والمآل وان تعجب فقد تعجبت فى موضع التعجب وقيل وان تعجب من انكارهم البعث فعجب قولهم الدال عليه فتأمل وقد جوز كون الخطاب لكل من يصلح له أى ان تعجب يامن ينظر فى هذه الآيات من قدرة من هذه أفعاله فازدد تعجبا ممن ينكر مع هذه الدلائل قدرته تعالى على البعث وهو أهون من هذه والأنسب بقوله و يستعجلونك بالسيئة هو الاول وقوله تعالى فعجب خبر قدم على المبتدا للقصر والتسجيل من أول الامر بكون قولهم ذلك أمرا عجيبا و يجوز أن يكون مبتدأ لكونه موصوفا بالوصف المقدر كما أشير اليه فالمعنى وان تعجب فالعجب الذى لاعجب وراءه قولهم هذا فاعجب منه وعلى الأول وان تعجب فقولهم هذا عجب لاعجب فوقه ﴿أولئك﴾ مبتدأ والموصول خبره أى أولئك المنكرون لقدرته تعالى على البعث ريثما عاينوا مافصل من الآيات الباهرة الملجئة لهم الى الايمان لوكانوا يبصرون ﴿الذين كفروا بربهم﴾ وتمادوا فى ذلك فان انكارهم لقدرته عز وجل كفر به وأى كفر ﴿وأولئك﴾ مبتدأ خبره قوله ﴿الأغلال فى أعناقهم﴾ أى مقيدون بقيود الضلال لايرجى خلاصهم أو مغلولون يوم القيامة ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات ﴿أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لاينفكون عنها وتوسيط ضمير الفصل ليس لتخصيص الخلود بمنكرى البعث خاصة بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى أولئك الذين كفروا بربهم ﴿و يستعجلونك بالسيئة﴾ بالعقوبة التى أنذروها وذلك حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بانذاره ﴿قبل الحسنة﴾ أى العافية والاحسان اليهم بالامهال ﴿وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ أى عقوبات أمثالهم من المكذبين فمالهم لايعتبرون بها ولا يحترزون حلول مثلها بهم والجملة الحالية لبيان ركاكة رأيهم

فى الاستعجال بطريق الاستهزاء أى يستعجلونك بها مستهزئين بانذارك منكرين لوقوع ما أنذرتهم اياه والحال انه قد مضت العقوبات النازلة على أمثالهم من المكذبين والمستهزئين والمثلة بوزن السمرة العقوبة سميت بها لما بينها وبين المعاقب عليه من المماثلة ومنه المثال للقصاص وقرئ المثلات بضمتين باتباع الفاء العين والمثلات بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال السمرة والمثلات بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات جمع مثلة كركبة وركبات ﴿وان ربك لذو مغفرة﴾ عظيمة ﴿للناس على ظلمهم﴾ أنفسهم بالذنوب والمعاصى ومحله النصب على الحالية أى ظالمين والعامل فيه المغفرة والمعنى ان ربك لغفور للناس لا يعجل لهم العقوبة وان كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها ﴿وان ربك لشديد العقاب﴾ يعاقب من يشاء منهم حين يشاء فتأخير ما استعجلوه ليس للاهمال وعنه عليه الصلاة والسلام لولا عفو الله وتجاوزه ماهنأ لاحد العيش ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد ﴿ويقول الذين كفروا﴾ وهم المستعجلون أيضا وانما عدل عن الاضمار الى الموصول ذما لهم ونعيا عليهم كفرهم بآيات الله تعالى التى تخر لها صم الجبال حيث لم يرفعوا لها رأسا ولم يعدوها من جنس الآيات وقالوا ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ مثل آيات موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام عنادا ومكابرة والافق أدنى آية أنزلت عليه عليه الصلاة والسلام غنية وعبرة لأولى الالباب ﴿انما أنت منذر﴾ مرسل للانذار من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون كدأب من قبلك من الرسل وليس عليك الا الاتيان بما يعلم به نبوتك وقد حصل ذلك بما لا مزيد عليه ولا حاجة الى الزامهم والقامهم الحجر بالاتيان بما اقترحوا من الآيات ﴿ولكل قوم هاد﴾ معين لا بالذات بل بعنوان الهداية يعنى لكل قوم نبى مخصوص له هداية مخصوصة يقتضى اختصاص كل منهم بما يختص به حكم لا يعلمها الا الله أو لكل قوم هاد عظيم الشأن قادر على ذلك هو الله سبحانه وما عليك الا انذارهم فلا يهمنك عنادهم وانكارهم للآيات المنزلة عليك وازدراؤهم بها ثم عقبه بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدره المبنيين على الحكم والمصالح تنبيها على أن تخصيص كل قوم بنبى وكل نبى بجنس معين من الآيات انما هو للحكم الداعية الى ذلك اظهارا لكمال قدرته على هدايتهم لكن لا يهدى الا من تعلق بهدايته مشيئته التابعة لحكم استأثر بعلمها فقال ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ أى تحمله فما موصولة أريد بها ما فى بطنها من حين العلوق الى زمن الولادة لا بعد تكامل الخلق فقط والعلم متعد الى واحد أو أى شئ تحمل وعلى أى حال هو من الاحوال المتواردة عليه طورا فطورا فهى استفهامية معلقة للعلم أو حملها فهى مصدرية ﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾ أى تنقصه وتزداده فى الجثة كالخديج والتام وفى المدة كالمولود فى أقل مدة الحمل والمولود فى أكثرها وفيما بينهما قيل ان الضحاك ولد فى سنتين وهرم بن حيان فى أربع ومن ذلك سمى هرما وفى العدد كالواحد فما فوقه يروى أن شريكا كان رابع أربعة أو يعلم نقصها وازديادها لما فيها فالفعلان متعديان كما فى قوله تعالى وغيض الماء وقوله تعالى وازدادوا تسعا وقوله ونزداد كيل بعير أو لازمان قد أسندا الى الارحام مجازا وهما لما فيها ﴿وكل شئ﴾ من الأشياء ﴿عنده بمقدار﴾ بقدر لا يمكن تجاوزه عنه كقوله انا كل شئ خلقناه بقدر فان كل حادث من الأعيان والأعراض له فى كل مرتبة من مراتب التكوين ومباديها وقت معين وحال مخصوص لا يكاد يجاوزه والمراد بالعندية الحضور العلمى بل العلم الحضورى فان تحقق الأشياء فى أنفسها فى أى مرتبة كانت من مراتب الوجود والاستعداد لذلك علم له بالنسبة الى الله عز وجل ﴿عالم الغيب﴾ أى الغائب عن الحس ﴿والشهادة﴾ أى الحاضر له عبر عنهما بهما مبالغة وقيل أريد بالغيب المعدوم وبالشهادة الموجود وهو خبر مبتدا محذوف أو خبر بعد خبر وقرئ بالنصب على المدح وهذا كالدليل على ما قبله من قوله تعالى الله يعلم الخ ﴿الكبير﴾ العظيم الشأن الذى كل شئ دونه ﴿المتعال﴾ المستعلى على كل شئ بقدرته أو المنزه

عن نعوت المخلوقات و بعد مابين سبحانه أنه عالم بجميع أحوال الانسان فى مراتب فطرته ومحيط بعالمى الغيب والشهادة بين أنه تعالى عالم بجميع مايأتون وما يذرون من الأفعال والأقوال وأنه لافرق بالنسبة اليه بين السر والعلن فقال ﴿سواء منكم من أسر القول﴾ فى نفسه ﴿ومن جهر به﴾ أظهره لغيره ﴿ومن هو مستخف﴾ مبالغ فى الاختفاء كأنه مختف ﴿بالليل﴾ وطالب للزيادة ﴿وسارب﴾ بارز يراه كل أحد ﴿بالنهار﴾ من سرب سروبا أى برز وهو عطف على من هو مستخف أو على مستخف ومن عبارة عن الاثنين كما فى قوله

تعال فان عاهدتنى لاتخوننى نكن مثل من ياذئب يصطحبان

كانه قيل سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار والاستواء وان أسند الى من أسر ومن جهر والى المستخفى والسارب لكنه فى الحقيقة مسند الى ماأسره وماجهر به أو الى الفاعل من حيث هو فاعل كما فى الاخيرين وتقديم الاسرار والاستخفاء لاظهار كمال علمه تعالى فكانه فى التعلق بالخفيات أقدم منه بالظواهر والافنسبته الى الكل سواء لما عرفته آنفا ﴿له﴾ أى لكل ممن أسر أوجهر والمستخفى أوالسارب ﴿معقبات﴾ ملائكة تعتقب فى حفظه جمع معقبة من عقبه مبالغة عقبه اذا جاء على عقبه كأن بعضهم يعقب بعضا أو لانهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونه أواعتقب فادغمت التاء فى القاف والتاء للمبالغة أو المراد بالمعقبات الجماعات وقرئ معاقيب جمع معقب أومعقبة على تعويض الياء من احدى القافين ﴿من بين يديه ومن خلفه﴾ من جميع جوانبه أومن الأعمال ماقدم وأخر ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ من بأسه حين اذنب بالاستمهال والاستغفار له أو يحفظونه من المضار أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى وقد قرئ به وقيل من بمعنى الباء وقيل من أمر الله صفة ثانية لمعقبات وقيل المعقبات الحراس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه فى توهمه من قضاء الله تعالى ﴿ان الله لايغير مابقوم﴾ من النعمة والعافية ﴿حتى يغيروا مابأنفسهم﴾ من الأعمال الصالحة أوملكاتها التى هى فطرة الله التى فطر الناس عليها الى أضدادها ﴿واذا أراد الله بقوم سوءا﴾ لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك ﴿فلا مرد له﴾ فلا رد له والعامل فى اذا مادل عليه الجواب ﴿ومالهم من دونه من وال﴾ يلى أمرهم ويدفع عنهم السوء الذى أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من تغيير مابهم وفيه دلالة على أن تخلف مراده تعالى محال وايذان بأنهم بما باشروه من انكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية قدغيروا مابأنفسهم من الفطرة واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه ﴿هو الذى يريكم البرق خوفا﴾ من الصاعقة ﴿وطمعا﴾ فى المطر فوجه تقديم الخوف على الطمع ظاهر لما أن المخوف عليه النفس أوالرزق العتيد والمطموع فيه الرزق المترقب وقيل الخوف أيضا من المطر لكن الخائف منه غير الطامع فيه كالخزاف والحراث و يأباه الترتيب اللهم الا أن يتكلف ماأشير اليه من أن المخوف عتيد والمطموع فيه مترقب وانتصابهما اما على المصدرية أى فتخافون خوفا وتطمعون طمعا أوعلى الحالية من البرق أوالمخاطبين باضمار ذوى أو بجعل المصدر بمعنى المفعول أوالفاعل مبالغة أوعلى العلية بتقدير المضاف أى ارادة خوف وطمع أو بتأويل الاخافة والاطماع ليتحد فاعل العلة والفعل المعلل وأما جعل المعلل هى الرؤية التى تتضمنها الاراءة على طريقة قول النابغة

وحلت بيوتى فى يفاع ممنع تخال به راعى الحمولة طائرا
حذارا على أن لاينال معاونى ولانسوتى حتى يمتن حرائرا

أى أحللت بيوتى حذارا فلا سبيل اليه لان ماوقع فى معرض العلة الغائية لاسيما الخوف لايصلح علة لرؤيتهم ﴿وينشئ السحاب﴾ الغمام المنسحب فى الجو ﴿الثقال﴾ بالماء وهى جمع ثقيلة وصف بها السحاب لكونها اسم جنس فى معنى

الجمع والواحدة سحابة يقال سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما يقال امرأة كريمة ونسوة كرام ﴿ويسبح الرعد﴾ أى سامعوه من العباد الراجين للمطر ملتبسين ﴿بحمده﴾ أى يضجون بسبحان الله والحمد لله واسناده الى الرعد لحمله لهم على ذلك أو يسبح الرعد نفسه على أن تسبيحه عبارة عن دلالته على وحدانيته تعالى وفضله المستوجب لحمده وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول سبحان من يسبح الرعد بحمده واذا اشتد يقول اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك وعن على رضى الله عنه سبحان من سبحت له وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان اليهود سألت النبي عليه الصلاة والسلام عن الرعد فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب وعن الحسن خلق من خلق الله تعالى ليس بملك ﴿والملائكة﴾ أى يسبح الملائكة ﴿من خيفته﴾ من هيبته واجلاله جل جلاله وقيل الضمير للرعد ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ فيهلكه بذلك ﴿وهم﴾ أى الكفرة المخاطبون فى قوله تعالى هو الذى يريكم البرق وقد التفت الى الغيبة ايذانا باسقاطهم عن درجة الخطاب واعراضا عنهم وتعديداً لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب كأنه قيل هو الذى يفعل أمثال هذه الافاعيل العجيبة من اراءة البرق وانشاء السحاب الثقال وارسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته ويعقلها من يعقلها من المؤمنين أو الرعد نفسه أو الملك الموكل به والملائكة ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيبته تعالى وهم أى الكفرة الذين حكيت هناتهم مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم ﴿يجادلون فى الله﴾ أى فى شأنه تعالى حيث يفعلون ما يفعلون من انكار البعث واستعجال العذاب استهزاء واقتراح الآيات فالواو لعطف الجملة على ماقبلها من قوله تعالى هو الذى يريكم البرق الخ أو على قوله الله يعلم ماتحمل الخ وأما العطف على قوله تعالى ويقول الذين كفروا كما قيل فلا مجال له لان قوله تعالى الله يعلم الخ استئناف لبيان بطلان قولهم ذلك ونظائره من استعجال العذاب وانكار البعث قاطع لعطف مابعده على ماقبله وقيل للحال أى فيصيب بالصواعق من يشاء وهم فى الجدال وقد أريد به ما أصاب أربد بن ربيعة أخا لبيد فانه أقبل مع عامر بن الطفيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغيانه الغوائل فدخلا المسجد وهو عليه الصلاة والسلام جالس فى نفر من الأصحاب رضى الله عنهم فاستشرفوا لجمال عامر وكان من أجمل الناس وقد كان أوصى الى أربد انه اذا رأيتنى أكلم محمدا عليه الصلاة والسلام فدر من خلفه واضربه بالسيف فجعل يكلمه عليه الصلاة والسلام فدار أربد من خلفه عليه الصلاة والسلام فاخترط من سيفه شبرا فحبسه الله تعالى فلم يقدر على سله وجعل عامر يومىء اليه فرأى النبي عليه الصلاة والسلام الحال فقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله عز وجل على أربد صاعقة فى يوم صحو صائف فأحرقته وولى عامر هاربا فنزل فى بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم عليه سلاحه وتغير لونه وركب فرسه فجعل يركض فى الصحراء ويقول ابرز يا ملك الموت ويقول الشعر ويقول واللات لئن أصحر لى محمد وصاحبه يعنى ملك الموت لانفذتهما برمحى فأرسل الله تعالى ملكا فلطمه بجناحه فأرداه فى التراب فخرجت على ركبته فى الوقت غدة عظيمة فعاد الى بيت السلولية وهو يقول غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية ثم دعا بفرسه فركبه فأجراه حتى مات على ظهره وقيل أريد به ماروى عن الحسن أنه كان رجل من طواغيت العرب فبعث النبي عليه الصلاة والسلام نفرا من أصحابه يدعونه الى الله عز وجل فقال لهم أخبرونى عما تدعوننى اليه ماهو ومم هو من ذهب أم من فضة أم من نحاس أم من حديد أم من در فاستعظموا مقالته فرجعوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا مارأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا اليه فرجعوا اليه فمازاد الا مقالته الأولى وأخبث فرجعوا اليه عليه الصلاة والسلام وأخبروه بما صنع فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا اليه فرجعوا اليه فبينما هم عنده ينازعونه اذ ارتفعت سحابة ورعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحترق الكافر فجاؤا يسعون

ليخبروه عليه الصلاة والسلام بالخبر فاستقبلهم الاصحاب فقالوا احترق صاحبكم قالوا من أين علمتم قالوا أوحى الى النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وهو شديد المحال﴾ أى والحال أنه شديد المماحلة والمكابرة والمماكرة لاعدائه من محله اذا كاده وعرضه للهلاك ومنه تمحل اذا تكلف استعمال الحيل وقيل هو محال من المحل بمعنى القوة وقيل محول من الحول أو الحيلة أعل على غير قياس ويعضده أنه قرئ بفتح الميم على أنه مفعل من حال يحول اذا احتال ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلا فى القوة والقدرة كقولهم فساعد الله أشد وموساه أحد ﴿له دعوة الحق﴾ أى الدعوة الثابتة الواقعة فى محلها المجابة عند وقوعها والاضافة للايذان بملابستها للحق واختصاصها به وكونه بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال كما يقال كلمة الحق وقيل له دعوة الله سبحانه أى الدعوة اللائقة بحضرته كما فى قوله عليه الصلاة والسلام فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله والتعرض لوصف الحقية لتربية معنى الاستجابة والاولى هو الاول لقوله تعالى وما دعاء الكافرين الا فى ضلال وتعلق الجملتين بما قبلهما من حيث ان اهلاك أربد وعامر محال من الله تعالى واجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما ان كانت الآية نزلت فى شأنهما أو من حيث انه وعيد للكفرة على مجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم وتحذير لهم باجابة دعوته عليهم ﴿والذين يدعون﴾ أى الاصنام الذين يدعوهم المشركون فحذف العائد ﴿من دونه﴾ من دون الله عز وجل ﴿لا يستجيبون لهم بشئ﴾ من طلباتهم ﴿الا كباسط كفيه الى الماء﴾ أى الا استجابة كائنة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه من بعيد فالاستجابة مصدر من المبنى للفاعل على مايقتضيه الفعل الظاهر أعنى لايستجيبون ويجوز أن يكون من المبنى للمفعول ويضاف الى الباسط بناء على استلزام المصدر من المبنى للفاعل للمصدر من المبنى للمفعول وجودا وعدما فكانه قيل لايستجيبون لهم بشئ فلا يستجاب لهم الا استجابة كائنة كاستجابة من بسط كفيه الى الماء كما فى قوله

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع   من المال الى مسحت أو مجلف

أى لم تدع فلم يبق الا مسحت أو مجلف ﴿ليبلغ﴾ أى الماء بنفسه من غير أن يؤخذ بشئ من اناء ونحوه ﴿فاه وما هو﴾ أى الماء ﴿ببالغه﴾ يبالغ فيه أبدا لكونه جماداً لا يشعر بعطشه ولا ببسط يده اليه فضلا عن الاستطاعة لما أراده من البلوغ الى فيه شبه حال المشركين فى عدم حصولهم فى دعاء آلهتهم على شئ أصلا وركاكة رأيهم فى ذلك بحال عطشان هائم لايدرى مايفعل قد بسط كفيه من بعيد الى الماء يبغى وصوله الى فيه من غير ملاحظة التشبيه فى جميع مفردات الاطراف فان الماء فى نفسه شئ نافع بخلاف آلهتهم والمراد نفى الاستجابة رأسا الا أنه قد أخرج الكلام مخرج التهكم بهم فقيل لايستجيبون لهم شيئاً من الاستجابة الا استجابة كائنة فى هذه الصورة التى ليست فيها شائبة الاستجابة قطعا فهو فى الحقيقة من باب التعليق بالمحال وقرئ تدعون بالتاء وكباسط بالتنوين ﴿وما دعاء الكافرين الا فى ضلال﴾ أى ذهاب وضياع وخسار ﴿ولله﴾ وحده ﴿يسجد﴾ يخضع وينقاد لالشئ غيره استقلالا ولا اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والافراد ﴿من فى السموات والارض﴾ من الملائكة والثقلين ﴿طوعا وكرها﴾ أى طائعين وكارهين او انقياد طوع وكره أو حال طوع وكره فان خضوع الكل لعظمة الله عز وجل وانقيادهم لاحداث ماأراده فيهم من أحكام التكوين والاعدام شاؤا أو أبوا وعدم مداخلة حكم غيره بل غير حكمه تعالى فى تلك الشؤون مما لايخفى على أحد ﴿وظلالهم﴾ أى وتنقاد له تعالى ظلال من له ظل منهم أعنى الانس حيث تتصرف على مشيئته وتتأتى لارادته فى الامتداد والتقلص والفئ والزوال ﴿بالغدو والآصال﴾ ظرف للسجود المقدر أو حال من الظلال وتخصيص الوقتين بالذكر مع أن انقيادها متحقق فى جميع أوقات وجودها لظهور ذلك فيهما والغدو جميع غداة كقنى

فى جمع فتاة والآصال جمع أصيل وقيل جمع أصل وهو جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب وقيل الغدو مصدر ويؤيده انه قرئ والايصال أى الدخول فى الاصيل هذا وقد قيل ان المراد حقيقة السجود فان الكفرة حال الاضطرار وهو المعنى بقوله تعالى وكرها يخصون السجود به سبحانه قال تعالى فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ولا يبعد أن يخلق الله تعالى فى الظلال أفهاما وعقولا بها تسجد لله سبحانه كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثار التجلى كما قاله ابن الانبارى ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهد فيها من هيئة السجود تبعا لاصحابها وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر حالة الضرورة والشدة بالله سبحانه لايجدى فان سجودهم لاصنامهم حالة الرخاء مخل بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور فالوجه حمل السجود على الانقياد ولان تحقيق انقياد الكل فى الابداع والاعدام له تعالى أدخل فى التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من تحقيق سجودهم له تعالى وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضا كذلك لأنهم العمدة وانقيادهم دليل انقياد غيرهم على أنه بين ذلك بقوله عز وجل ﴿قل من رب السموات والأرض﴾ فانه لتحقيق أن خالقهما ومتولى أمرهما مع ما فيهما على الاطلاق هو الله سبحانه وقوله تعالى ﴿قل الله﴾ أمر بالجواب من قبله عليه الصلاة والسلام اشعارا بأنه متعين للجوابية فهو والخصم فى تقريره سواء أو أمر بحكاية اعترافهم ايذانا بأنه أمر لابد لهم من ذلك كانه قيل احك اعترافهم فبكتهم بما يلزمهم من الحجة وألقمهم الحجر أو أمر بتلقينهم ذلك ان تلعثموا فى الجواب حذرا من الالزام فانهم لايتماسكون اذ ذاك ولا يقدرون على انكاره ﴿قل﴾ الزاما لهم وتبكيتا ﴿أفاتخذتم﴾ لانفسكم والهمزة لانكار الواقع كما فى قولك أضربت أباك لالانكار الوقوع كما فى قولك أضربت أبى والفاء للعطف على مقدر بعد الهمزة أى أعلمتم أن ربهما هو الله الذى ينقاد لأمره من فيهما كافة فاتخذتم عقيبه ﴿من دونه أولياء﴾ عاجزين ﴿لايملكون لأنفسهم نفعا﴾ يستجلبونه ﴿ولا ضرا﴾ يدفعونه عن أنفسهم فضلا عن القدرة على جلب النفع لغيره ودفع الضرر عنه لا على أن يكون الانكار متوجها الى المعطوفين معا كما فى قوله تعالى أفلا تعقلون اذا قدر المعطوف عليه ألا تسمعون بل الى ترتب الثانى على الأول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما اذا قدر أتسمعون والمعنى أبعد أن علمتم أن ربهما هو الله جل جلاله اتخذتم من دونه أولياء عجزة والحال ان قضية العلم بذلك انما هو الاقتصار على توليه فعكستم الأمر كما فى قوله تعالى كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى ووصف الأولياء ههنا بعدم المالكية للنفع والضر فى ترشيح الانكار وتأكيده كتقييد الاتخاذ هناك بالجملة الحالية أعنى قوله تعالى وهم لكم عدو فان كلا منهما مما ينفى الاتخاذ المذكور ويؤكد انكاره ﴿قل﴾ تصويرا لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس ﴿هل يستوى الأعمى﴾ الذى هو المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها ﴿والبصير﴾ الذى هو الموحد العالم بذلك أو الأول عبارة عن المعبود الغافل والثانى اشارة الى المعبود العالم بكل شئ ﴿أم هل تستوى الظلمات﴾ التى هى عبارة عن الكفر والضلال ﴿والنور﴾ الذى هو عبارة عن التوحيد والايمان وقرئ بالياء ولما دل النظم الكريم على أن الكفرة فيما فعلوا من اتخاذ الأصنام أولياء من دون الله سبحانه فى الضلال المحض والخطا البحت بحيث لايخفى بطلانه على أحد وأنهم فى ذلك كالاعمى الذى لايهتدى الى شئ أصلا وليس لهم فى ذلك شبهة تصلح أن تكون منشأ لغلطهم وخطئهم فضلا عن الحجة أكد ذلك فقيل ﴿أم جعلوا لله﴾ أى بل أجعلوا له ﴿شركاء خلقوا كخلقه﴾ سبحانه والهمزة لانكار الوقوع لالانكار الواقع مع وقوعه وقوله خلقوا كخلقه هو الذى يتوجه اليه الانكار وأما نفس الجعل فهو واقع لا يتعلق به الانكار بهذا المعنى والمعنى انهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه ﴿فتشابه الخلق عليهم﴾ بسبب ذلك وقالوا هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى فاستحقوا بذلك العبادة كما استحقها ليكون ذلك منشأ لخطئهم بل انما جعلوا له شركاء

ماهو بمعزل من ذلك بالمرة وفيه مالايخفى من التعريض بركاكة رأيهم والتهكم بهم ﴿قل﴾ تحقيقا للحق وارشاداً لهم اليه ﴿الله خالق كل شئ﴾ كافة لاخالق سواه فيشاركه فى استحقاق العبادة ﴿وهو الواحد﴾ المتوحد بالالوهية المتفرد بالربوبية ﴿القهار﴾ لكل ماسواه فكيف يتوهم أن يكون له شريك و بعد مامثل المشرك والشرك بالاعمى والظلمات والموحد والتوحيد بالبصير والنور مثل الحق الذى هو القرآن العظيم فى فيضانه من جناب القدس على قلوب خالية عنه متفاوتة الاستعداد و فى جريانه عليها ملاحظة وحفظا وعلى الالسنة مذاكرة وتلاوة و فى ثباته فيهما مع كونه ممدا لحياتها الروحانية ومايتلوها من الملكات السنية والأعمال المرضية بالماء النازل من السماء السائل فى أودية يابسة لم تجرعادتها بذلك سيلانا مقدرا بمقدار اقتضته الحكمة فى احياء الأرض وماعليها الباقى فيها حسبما يدور عليه منافع الناس و فى كونه حلية تتحلى به النفوس وتصل الى البهجة الابدية ومتاعا يتمتع به فى المعاش والمعاد بالذهب والفضة وسائر الفلزات التى يتخذ منها أنواع الآلات والادوات وتبقى منتفعا بها مدة طويلة ومثل الباطل الذى ابتلى به الكفرة لقصور نظرهم بما يظهر فيهما من غير مداخلة له فيهما واخلال بصفائهما من الزبد الرابى فوقهما المضمحل سريعا فقيل ﴿أنزل من السماء﴾ أى من جهتها ﴿ماء﴾ أى كثيرا أو نوعا منه وهو ماء المطر ﴿فسالت﴾ بذلك ﴿أودية﴾ واقعة فى مواقعه لاجميع الاودية اذ الامطار لاتستوعب الاقطار وهو جمع واد وهو مفرج بين جبال أوتلال أو آكام على الشذوذ كناد وأندية وناج وأنجية قالوا وجهه أن فاعلا يجئ بمعنى فعيل كناصر ونصير وشاهد وشهيد وعالم وعليم وحيث جمع فعيل على أفعلة كجريب وأجربة جمع فاعل أيضا على أفعلة فان أريد بها مايسيل فيها مجازا فاسناد السيلان اليها حقيقى وان أريد معناها الحقيقى فالاسناد مجازى كما فى جرى النهر وايثار التمثيل بها على الانهار المستمرة الجريان لوضوح المماثلة بين شأنها وشأن مامثل بها كما أشير اليه ﴿بقدرها﴾ أى سالت ملتبسة بمقدارها الذى عينه الله تعالى واقتضته حكمته فى نفع الناس أو بمقدارها المتفاوت قلة و كثرة بحسب تفاوت محالها صغرا و كبرا لا بكونها مالئة لها منطبقة عليها بل بمجرد قلتها بصغرها المستلزم لقلة موارد الماء و كثرتها بكبرها المستدعى لكثرة الموارد فان مورد السيل الجارى فى الوادى الصغير أقل من مورد السيل الجارى فى الوادى الكبير هذا ان أريد بالاودية مايسيل فيها أما ان أريد بها معناها الحقيقى فالمعنى سالت مياهها بقدر تلك الاودية على نحو ماعرفته آنفا أو يراد بضميرها مياهها بطريق الاستخدام و يراد بقدرها ماذكر أولا من المعنيين ﴿فاحتمل السيل﴾ الجارى فى تلك الاودية أى حمل معه ﴿زبدا﴾ أى غثاء و رغوة وانما وصف ذلك بقوله تعالى ﴿رابيا﴾ أى عاليا منتفخا فوقه بيانا لما أريد بالاحتمال المحتمل لكون الحمل غير طاف كالاشجار الثقيلة وانما لم يدفع ذلك الاحتمال بأن يقال فاحتمل السيل فوقه للايذان بأن تلك الفوقية مقتضى شأن الزبد لامن جهة المحتمل تحقيقا للمماثلة بينه و بين مامثل به من الباطل الذى شأنه الظهور فى بادى الرأى من غير مداخلة فى الحق ﴿ومما يوقدون عليه فى النار﴾ أى يفعلون الايقاد عليه كائنا فى النار والضمير للناس أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره وقرئ بالخطاب ﴿ابتغاء حلية أومتاع﴾ أى لطلب اتخاذ حلية وهى مايتزين ويتجمل به كالحلى المتخذة من الذهب والفضة أواتخاذ متاع وهو مايتمتع به من الاوانى والآلات المتخذة من الرصاص والحديد وغيرذلك من الفلزات ﴿زبد﴾ خبث ﴿مثله﴾ مثل ماذكر من زبد الماء فى كونه رابيا فوقه فقوله زبد مبتدأ خبره الظرف المقدم ومن ابتدائية دالة على مجرد كونه مبتدأ وناشئا منه لاتبعيضية معربة عن كونه بعضا منه كما قيل لاخلال ذلك بالتمثيل و فى التعبير عن ذلك بالموصول والتعرض لما فى حيز الصلة من ايقاد النار عليه جرى على سنن الكبرياء باظهار التهاون به كما فى قوله تعالى فأوقد لى ياهامان على الطين واشارة الى كيفية حصول الزبد منه بذو بانه

وفى زيادة فى النار اشعار بالمبالغة فى الاعتمال للاذابة وحصول الزبد كما أشير اليه وعدم التعرض لاخراجه من الارض لعدم دخل ذلك العنوان فى التمثيل كما أن لعنوان انزال الماء من السماء دخلا فيه حسبما فصل فيما سلف بل له اخلال بذلك ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نكت رائقة ﴿يضرب الله الحق والباطل﴾ أى مثل الحق ومثل الباطل والحذف للانباء عن كمال التماثل بين الممثل والممثل به كأن المثل المضروب عين الحق والباطل وبعد تحقيق التمثيل مع الايماء فى تضاعيف ذلك الى وجوه المماثلة على أبدع وجوه وآنقها حسبما أشير اليه فى مواقعها بين عاقبة كل من الممثلين على وجه التمثيل مع التصريح ببعض ما به المماثلة من الذهاب والبقاء تتمة للغرض من التمثيل من الحث على اتباع الحق الثابت والردع عن الباطل الزائد فقيل ﴿فأما الزبد﴾ من كل منهما ﴿فيذهب جفاء﴾ أى مرميا به وقرئ جفالا والمعنى واحد ﴿وأما ماينفع الناس﴾ منهما كالماء الصافى والفلز الخالص ﴿فيمكث فى الأرض﴾ أما الماء فيثبت بعضه فى مناقعه و يسلك بعضه فى عروق الأرض الى العيون والقنا والآبار وأما الفلز فيصاغ من بعضه أنواع الحلى و يتخذ من بعضه أصناف الآلات والأدوات فينتفع بكل من ذلك أنواع الانتفاعات مدة طويلة فالمراد بالمكث فى الارض ماهو أعم من المكث فى نفسها ومن البقاء فى أيدى المتقلبين فيها وتغيير ترتيب اللف الواقع فى الفذلكة الموافق للترتيب الواقع فى التمثيل لمراعاة الملاءمة بين حالتى الذهاب والبقاء و بين ذكريهما فان المعتبر انما هو بقاء الباقى بعد ذهاب الذاهب لاقبله ﴿كذلك يضرب الله﴾ أى مثل ذلك الضرب العجيب يضرب ﴿الأمثال﴾ فى كل باب اظهاراً لكمال اللطف والعناية فى الارشاد والهداية وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله كذلك يضرب الله الحق والباطل اما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الأول أو بجعل ذلك اشارة اليهما جميعا و بعد مابين شأن كل من الحق والباطل حالا ومآلا أكمل بيان شرع فى بيان حال أهل كل منهما مآلا تكميلا للدعوة ترغيبا وترهيبا فقيل ﴿للذين استجابوا لربهم﴾ اذ دعاهم الى الحق بفنون الدعوة التى من جملتها ضرب الأمثال فانه ألطف ذريعة الى تفهيم القلوب الغبية وأقوى وسيلة الى تسخير النفوس الأبية كيف لاوهو تصوير للمعقول بصورة المحسوس وابراز لأوابد المعانى فى هيئة المأنوس فأى دعوة أولى منه بالاستجابة والقبول ﴿الحسنى﴾ أى المثوبة الحسنى وهى الجنة ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ وعاندوا الحق الجلى ﴿لو أن لهم مافى الأرض﴾ من أصناف الأموال ﴿جميعا﴾ بحيث لم يشذ منه شاذ فى أقطارها أو مجموعا غير متفرق بحسب الازمان ﴿ومثله معه لافتدوا به﴾ أى بما فى الأرض ومثله معه جميعا ليتخلصوا عما بهم وفيه من تهويل ما يلقاهم مالا يحيط به البيان فالموصول مبتدأ والشرطية كما هى خبره لكن لا على أنها وضعت موضع السوءى فوقعت فى مقابلة الحسنى الواقعة فى القرينة الاولى لمراعاة حسن المقابلة فصار كأنه قيل وللذين لم يستجيبوا له السوءى كما يوهم فان الشرطية وان دلت على كمال سوء حالهم لكنها بمعزل من القيام مقام لفظ السوءى مصحوبا باللام الداخلة على الموصول أوضميره وعليه يدور حصول المرام وانما الواقع فى تلك المقابلة سوء الحساب فى قوله تعالى ﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾ وحيث كان اسم الاشارة الواقع مبتدأ فى هذه الجملة عبارة عن الموصول الواقع مبتدأ فى الجملة السابقة كان خبرها أعنى الجملة الظرفية خبرا عن الموصول فى الحقيقة ومبينا لابهام مضمون الشرطية الواقعة خبرا عنه أولا و لذلك ترك العطف فصار كأنه قيل والذين لم يستجيبوا له لهم سوء الحساب وذلك فى قوة أن يقال وللذين لم يستجيبوا له سوء الحساب مع زيادة تأكيد فتم حسن المقابلة على أبلغ وجه وآكده ثم بين مؤدى ذلك فقيل ﴿ومأواهم﴾ أى مرجعهم ﴿جهنم﴾ وفيه نوع تأكيد لتفسير الحسنى بالجنة ﴿وبئس المهاد﴾ أى المستقر والمخصوص بالذم محذوف وقيل اللام فى قوله تعالى للذين استجابوا لربهم متعلقة بقوله يضرب الله الأمثال أى الأمثال

السالفة وقوله الحسنى صفة للمصدر أى استجابوا الاستجابة الحسنى وقوله والذين لم يستجيبوا له معطوف على الموصول الأول وقوله لو أن لهم الخ كلام مستأنف مسوق لبيان ما أعد لغير المستجيبين من العذاب والمعنى كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين أى هما مثلا الفريقين وأنت خبير بأن عنوان الاستجابة وعدمها لا مناسبة بينه و بين مايدور عليه أمر التمثيل وأن الاستعمال المستفيض دخول اللام على من يقصد تذكيره بالمثل نعم قد يستعمل فى هذا المعنى أيضا كما فى قوله سبحانه ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ونظائره على أن بعض الأمثال المضروبة لاسيما المثل الاخير الموصول بالكلام ليس مثل الفريقين بل مثل للحق والباطل و لا مساغ لجعل الفريقين مضروبا لهم أيضا بأن يجعل فى حكم أن يقال كذلك يضرب الله الأمثال للناس اذ لا وجه حينئذ لتنويعهم الى المستجيبين وغير المستجيبين فتأمل ﴿أفمن يعلم أن ما أنزل اليك من ربك﴾ من القرآن الذى مثل بالماء المنزل من السماء والابريز الخالص فى المنفعة والجدوى ﴿الحق﴾ الذى لاحق وراءه أو الحق الذى أشير اليه بالأمثال المضروبة فيستجيب له ﴿كمن هو أعمى﴾ عمى القلب لا يشاهده وهو نار على علم و لا يقدر قدره وهو فى أقصى مراتب العلو والعظم فيبقى حائرا فى ظلمات الجهل وغياهب الضلال أو لا يتذكر بما ضرب من الأمثال أى كمن لا يعلم ذلك الا انه أريد زيادة تقبيح حاله فعبر عنه بالأعمى وايراد الفاء بعد الهمزة لتوجيه الانكار الى ترتب توهم المماثلة على ظهور حال كل منهما بما ضرب من الأمثال و بين المصير والمآل كأنه قيل أبعد ما بين حال كل من الفريقين ومآلها يتوهم المماثلة بينهما ثم استؤنف فقيل ﴿انما يتذكر﴾ بما ذكر من المذكرات فيقف على ما بينهما من التفاوت والتنائى ﴿أولو الالباب﴾ أى العقول الخالصة المبرأة من مشايعة الالف ومعارضة الوهم ﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ بما عقدوا على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته تعالى حين قالوا بلى أو ما عهد الله عليهم فى كتبه ﴿و لا ينقضون الميثاق﴾ ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الايمان بالله وغيره من المواثيق بينهم و بين الله و بين العباد وهو تعميم بعد تخصيص وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ من الرحم وموالاة المؤمنين والايمان بجميع الانبياء المجمعين على الحق من غير تفريق بين أحد منهم و يندرج فيه مراعاة جميع حقوق الناس بل حقوق كل ما يتعلق بهم من الهر والدجاج ﴿و يخشون ربهم﴾ خشية جلال وهيبة ورهبة فلا يعصونه فيما أمر به ﴿ويخافون سوء الحساب﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا وفيه دلالة على كمال فظاعته حسبما ذكر فيما قبل ﴿والذين صبروا﴾ على كل ما تكرهه النفس من الافعال والتروك ﴿ابتغاء وجه ربهم﴾ طلبا لرضاه خاصة من غير أن ينظروا الى جانب الخلق رياء وسمعة و لا الى جانب النفس زينة وعجبا وحيث كان الصبر على الوجه المذكور ملاك الامر فى كل ما ذكر من الصلات السابقة واللاحقة أورد على صيغة الماضى اعتناء بشأنه ودلالة على وجوب تحققه فان ذلك مما لابد منه اما فى أنفس الصلات كما فيما عدا الاولى والرابعة والخامسة أو فى اظهار أحكامها كما فى الصلات الثلاث المذكورات فانها وان استغنت عن الصبر فى أنفسها حيث لا مشقة على النفس فى الاعتراف بالربوبية والخشية والخوف لكن اظهار أحكامها والجرى على موجبها غير خال عن الاحتياج اليه ﴿وأقاموا الصلوة﴾ المفروضة ﴿وأنفقوا مما رزقناهم﴾ أى بعضه الذى يجب عليهم انفاقه ﴿سرا﴾ لمن لم يعرف بالمال أو لمن لا يتهم بترك الزكاة أو عند انفاقه واعطائه من تمنعه المروءة من أخذه ظاهرا ﴿وعلانية﴾ لمن لم يكن كما ذكر أو الاول فى التطوع والثانى فى الفرض ﴿ويدرؤن بالحسنة السيئة﴾ أى يجازون الاساءة بالاحسان أو يتبعون الحسنة السيئة فتمحوها. عن ابن عباس رضى الله عنهما يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم وعن الحسن اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا وعن ابن كيسان اذا أذنبوا تابوا وقيل اذا رأوا منكرا أمروا بتغييره وتقديم المجرور على المنصوب

لاظهار كمال العناية بالحسنة ﴿أولئك﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة والملكات الجميلة وهو مبتدأ خبره الجملة الظرفية أعنى قوله تعالى ﴿لهم عقبى الدار﴾ أى عاقبه الدنيا وما ينبغى أن يكون مآل أمر أهلها وهى الجنة وقيل الجار والمجرور خبر لاولئك وعقبى الدار فاعل الاستقرار وأياما كان فليس فيه قصر حتى يرد أن بعض مافى حيز الصلة ليس من العزائم التى يخل اخلالها بالموصول الى حسن العاقبة والجملة خبر للموصولات المتعاطفة أو استئناف لبيان مااستوجبوه بتلك الصفات ان جعلت الموصولات المتعاطفة صفات لاولى الالباب على طريقة المدح من غير أن يقصد أن يكون للصلات المذكورة مدخل فى التذكر ﴿جنات عدن﴾ بدل من عقبى الدار أو مبتدأ خبره ﴿يدخلونها﴾ والعدن الاقامة ثم صار علما لجنة من الجنات أى جنات يقيمون فيها وقيل هو بطنان الجنة ﴿ومن صلح من آبائهم﴾ جمع أبوى كل واحد منهم فكانه قيل من آبائهم وأمهاتهم ﴿وأزواجهم وذرياتهم﴾ وهو عطف على المرفوع فى يدخلون وانما ساغ ذلك للفصل بالضمير الآخر أو مفعول معه والمعنى انه يلحق بهم من صلح من أهلهم وان لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم تعظيما لشأنهم وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة وأن الموصوف بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة فى دخول الجنة زيادة فى أنسهم وفى التقييد بالصلاح قطع للاطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الانساب ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ من أبواب المنازل أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين ﴿سلام عليكم﴾ بشارة لهم بدوام السلامة ﴿بما صبرتم﴾ متعلق بعليكم أو بمحذوف أى هذه الكرامة العظمى بما صبرتم أى بسبب صبركم أو بدل مااحتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه والمعنى لئن تعبتم فى الدنيا لقد استرحتم الساعة وتخصيص الصبر بما ذكر من بين الصلات السابقة لما قدمناه من أن له دخلا فى كل منها ومزية زائدة من حيث انه ملاك الامر فى كل منها وان شيئاً منها لايعتد به الا بأن يكون لابتغاء وجه الرب تعالى وتقدس ﴿فنعم عقبى الدار﴾ أى فنعم عقبى الدار الجنة وقرئ بفتح النون والاصل نعم فسكن العين بنقل حركتها الى النون تارة وبدونه أخرى وعن النبى عليه السلام انه كان يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وكذا عن الخلفاء الاربعة رضوان الله عليهم أجمعين ﴿والذين ينقضون عهد الله﴾ أريد بهم من يقابل الاولين ويعاندهم فى الاتصاف بنقائض صفاتهم ﴿من بعد ميثاقه﴾ من بعدما أوثقوه من الاعتراف والقبول ﴿ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل﴾ من الايمان بجميع الانبياء المجمعين على الحق حيث يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعضهم ومن حقوق الارحام وموالاة المؤمنين وغير ذلك مما لايراعون حقوقه من الأمور المعدودة فيما سلف وانما لم يتعرض لنفى الخشية والخوف عنهم صريحا لدلالة النقض والقطع على ذلك وأما عدم التعرض لنفى الصبر المذكور فلانه انما اعتبر تحققه فى ضمن الحسنات المعدودة ليقعن معتدا بهن فلا وجه لنفيه عمن بينه وبين الحسنات بعد المشرقين كما لاوجه لنفى الصلاة والزكاة ممن لايحوم حول أصل الايمان بالله تعالى فضلا عن فروع الشرائع وان أريد بالانفاق التطوع فنفيه مندرج تحت قطع ماأمر الله تعالى بوصله وأما درء السيئة بالحسنة فانتفاؤه عنهم ظاهر مما سبق ولحق فان من يجازى احسانه عز وجل بنقض العهد ومخالفة الامر ويباشر الفساد بدأ حسبما يحكيه قوله عز وعلا ﴿ويفسدون فى الارض﴾ أى بالظلم وتهييج الفتن كيف يتصور منه مجازاة الاساءة بالاحسان على أن ذلك يشعر بأن له دخلا فى الافضاء الى العقوبة التى ينبئ عنها قوله تعالى ﴿أولئك﴾ الخ أى أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿لهم﴾ بسبب ذلك ﴿اللعنة﴾ أى الابعاد من رحمة الله تعالى ﴿ولهم﴾ مع ذلك ﴿سوء الدار﴾ أى سوء عاقبة الدنيا أو عذاب جهنم فانها دارهم لان ترتيب الحكم على الموصول مشعر بعلية الصلة له ولا يخفى أنه لادخل له فى ذلك على أكثر التفاسير فان مجازاة السيئة

بمثلها مأذون فيها ودفع الكلام السيء بالحسن وكذا الاعطاء عند المنع والعفو عند الظلم والوصل عند القطع ليس مما يورث تركه تبعة وأما ما اعتبر اندراجه تحت الصلة الثانية من الاخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضير فى ذلك لان اعتباره من حيث انه من مستتبعات الاخلال بالعزائم بالكفر ببعض الانبياء وعقوق الوالدين وترك سائر الحقوق الواجبة وتكرير لهم للتأكيد والايذان باختلافهما واستقلال كل منهما فى الثبوت ﴿الله يبسط الرزق﴾ أى يوسعه ﴿لمن يشاء﴾ من عباده ﴿ويقدر﴾ أى يضيقه على من يشاء حسبما تقتضيه الحكمة من غير أن يكون لاحد مدخل فى ذلك ولا شعور بحكمته فربما يبسطه للكافر املاء واستدراجا وربما يضيقه على المؤمن زيادة لاجره فلا يغتر ببسطه الكافر كما لا يقنط بقدره المؤمن ﴿وفرحوا﴾ أى أهل مكة فرح أشر وبطر لا فرح سرور بفضل الله تعالى ﴿بالحيوة الدنيا﴾ وما بسط لهم فيها من نعيمها ﴿وما الحيوة الدنيا﴾ وما يتبعها من النعيم ﴿فى الآخرة﴾ أى فى جنب نعيم الآخرة ﴿الامتاع﴾ الاشيء نزر يتمتع به كعجالة الراكب وزاد الراعى والمعنى انهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة والحال أن ما أشروا به فى جنب ما أعرضوا عنه شيء قليل النفع سريع النفاد ﴿ويقول الذين كفروا﴾ أى أهل مكة وايثار هذه الطريقة على الاضمار مع ظهور ارادتهم عقيب ذكر فرحهم بالحياة الدنيا لذمهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حكى عنهم من قولهم ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ فان ذلك فى أقصى مراتب المكابرة والعناد كان ما أنزل عليه عليه السلام من الآيات العظام الباهرة ليس بآية حتى اقترحوا ما لا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التى لا يبقى لاحد بعد ذلك طاقة بعدم القبول ولذلك أمر فى الجواب بقوله تعالى ﴿قل ان الله يضل من يشاء﴾ اضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية اليها أى يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره الى تحصيله ويدعه منهمكا فيه لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الارشاد كمن كان على صفتكم فى المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو فى الفساد فلا سبيل له الى الاهتداء ولو جاءته كل آية ﴿ويهدى اليه﴾ أى الى جنابه العلى الكبير هداية موصلة اليه لا دلالة مطلقة على ما يوصل اليه فان ذلك غير مختص بالمهتدين وفيه من تشريفهم ما لا يوصف ﴿من أناب﴾ أقبل الى الحق وتأمل فى تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة وحقيقة الانابة الدخول فى نوبة الخير وايثار ايرادها فى الصلة على ايراد المشيئة كما فى الصلة الأولى للتنبيه على الداعى الى الهداية بل الى مشيئتها والاشعار بما دعا الى المشيئة الاولى من المكابرة وفيه حث للكفرة على الاقلاع عما هم عليه من العتو والعناد وايثار صيغة الماضى للايماء الى استدعاء الهداية لسابقة الانابة كما أن ايثار صيغة المضارع فى الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم ﴿الذين آمنوا﴾ بدل ممن أناب فان أريد بالهداية الهداية المستمرة فالامر ظاهر لظهور كون الايمان مؤديا اليها وان أريد احداثها فالمراد بالذين آمنوا الذين صار أمرهم الى الايمان كما فى قوله تعالى هدى للمتقين أى الصائرين الى التقوى والا فالايمان لا يؤدى الى الهداية نفسها أو خبر مبتدأ محذوف أى هم الذين آمنوا أو منصوب على المدح ﴿وتطمئن قلوبهم﴾ أى تستقر وتسكن ﴿بذكر الله﴾ بكلامه المعجز الذى لا ريب فيه كقوله تعالى وهذا ذكر مبارك أنزلناه وقوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ويعلمون أن لا آية أعظم منه فيقترحوها والعدول الى صيغة المضارع لافادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد الآيات وتعددها ﴿ألا بذكر الله﴾ وحده ﴿تطمئن القلوب﴾ دون غيره من الامور التى تميل اليها النفوس من الدنياويات وهذا ظاهر وأما سائر المعجزات فالقصر من حيث انها ليست فى افادة الطمأنينة بالنسبة الى من لم يشاهدها بمثابة القرآن المجيد فانه معجزة باقية الى يوم القيامة يشاهدها كل أحد وتطمئن به القلوب كافة وفيه اشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب وأفئدتهم هواء حيث لم يطمئنوا بذكر الله تعالى ولم يعدوه آية وهو أظهر الآيات وأبهرها وقيل تطمئن قلوبهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب

من خشيته كقوله تعالى ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته أو بذكره جل وعلا أنسابه وتبتلا اليه فالمراد بالهداية دوامها واستمرارها ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ بدل من القلوب على حذف المضاف بدل الكل حسبما رمز اليه أى قلوب الذين آمنوا وفيه ايماء الى أن الانسان انما هو القلب أو مبتدأ خبره الجملة الدعائية على التأويل أعنى قوله ﴿طوبى لهم﴾ أو خبر مبتدا مضمر أو نصب على المدح فطوبى لهم حال عاملها الفعلان وطوبى مصدر من طاب كبشرى و زلفى والواو منقلبة من الياء كموقن وموسر وقرأ مكوزة الاعرابى طيبى لتسلم الياء والمعنى أصابوا خيرا ومحلها النصب كسلاما لك أو الرفع على الابتداء وان كانت نكرة لكونها فى معنى الدعاء كسلام عليك يدل على ذلك القراءة فى قوله تعالى ﴿وحسن مآب﴾ بالنصب والرفع واللام فى لهم للبيان مثلها فى سقيالك ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الارسال العظيم الشأن المصحوب بهذه المعجزة الباهرة ﴿أرسلناك فى أمة قد خلت﴾ أى مضت ﴿من قبلها أمم﴾ كثيرة قد أرسل اليهم رسل ﴿لتتلو﴾ لتقرأ ﴿عليهم الذى أوحينا اليك﴾ من الكتاب العظيم الشأن وتهديهم الى الحق رحمة لهم وتقديم المجرور على المنصوب من قبيل الابهام ثم البيان كما فى قوله تعالى و وضعنا عنك وزرك وفيه ما لا يخفى من ترقب النفس الى ما سيرد وحسن قبولها له عند وروده عليها ﴿وهم﴾ أى والحال أنهم ﴿يكفرون بالرحمن﴾ بالبليغ الرحمة الذى وسعت كل شئ رحمته وأحاطت به نعمته والعدول الى المظهر المتعرض لوصف الرحمة من حيث ان الارسال ناشئ منها كما قال تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين فلم يقدروا قدره ولم يشكروا نعمه لاسيما ما أنعم به عليهم بارسال مثلك اليهم وانزال القرآن الذى هو مدار المنافع الدينية والدنياوية عليهم وقيل نزلت فى مشركى مكة حين أمروا بالسجود فقالوا وما الرحمن ﴿قل هو﴾ أى الرحمن الذى كفرتم به وأنكرتم معرفته ﴿ربى﴾ الرب فى الاصل بمعنى التربية وهى تبليغ الشئ الى كماله شيئا فشيئا ثم وصف به مبالغة كالصوم والعدل وقيل هو نعت أى خالق ومبلغى الى مراتب الكمال وايراده قبل قوله ﴿لا اله الا هو﴾ أى لا مستحق للعبادة سواه تنبيه على أن استحقاق العبادة منوط بالربوبية وقيل ان أبا جهل سمع النبى عليه السلام يقول يا ألله يا رحمن فرجع الى المشركين فقال ان محمدا يدعو الهين فنزلت ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الآية ﴿عليه توكلت﴾ فى جميع أمورى لاسيما فى النصرة عليكم لا على أحد سواه ﴿واليه﴾ خاصة ﴿متاب﴾ أى توبتى كقوله تعالى واستغفر لذنبك أمر عليه السلام بذلك ابانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى وأنها صفة الانبياء وبعثا للكفرة على الرجوع عما هم عليه بابلغ وجه وألطفه فانه عليه السلام حيث أمر بها وهو منزه عن شائبة اقتراف ما يوجبها من الذنب وان قل فتوبتهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصى مما لا بد منه أصلا وقد فسر المتاب بمطلق الرجوع فقيل مرجعى ومرجعكم و زيد فيحكم بينى و بينكم وقد قيل فيثيبنى على مصابرتكم فتأمل ﴿ولو أن قرآنا﴾ أى قرآنا ما وهو اسم أن والخبر قوله تعالى ﴿سيرت به الجبال﴾ وجواب لو محذوف لانسياق الكلام اليه بحيث يتلقفه السامع من التالى والمقصود اما بيان عظم شأن القرآن العظيم وفساد رأى الكفرة حيث لم يقدروا قدره العلى ولم يعدوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره مما أوتى موسى وعيسى عليهما السلام واما بيان غلوهم فى المكابرة والعناد وتماديهم فى الضلال والفساد فالمعنى على الأول لو أن قرآنا سيرت به الجبال أى بانزاله أو بتلاوته عليها و زعزعت عن مقارها كما فعل ذلك بالطور لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿أو قطعت به الارض﴾ أى شققت وجعلت أنهارا وعيونا كما فعل بالحجر حين ضرب به عليه السلام بعصاه أو جعلت قطعا متصدعة ﴿أو كلم به الموتى﴾ أى بعد أن أحيى بقراءته عليها كما أحييت لعيسى عليه السلام لكان ذلك هذا القرآن لكونه الغاية القصوى فى الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عز وجل كقوله تعالى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية

الله لا فى الاعجاز اذ لا مدخل له فى هـذه الآثار و لا فى التذكير والانذار والتخويف لاختصاصها بالعقلاء مع أنه لا
علاقة لها بتكليم الموتى واعتبار فيض العقول اليها مخل بالمبالغة المقصودة وتقديم المجرور فى المواضع الثلاثة على المرفوع
لما مر غير مرة من قصد الابهام ثم التفسير لزيادة التقرير لأن بتقديم ما حقه التأخير تبقى النفس مستشرفة ومترقبة
الى المؤخر أنه ماذا فيتمكن عند و روده عليها فضل تمكن وكلمة أو فى الموضعين لمنع الخلو لا لمنع الجمع واقتراحهم وان
كان متعلقا بمجرد ظهور مثل هذه الافاعيل العجيبة على يده عليه السلام لا بظهورها بواسطة القرآن لكن ذلك حيث
كان مبنيا على عدم اشتماله فى زعمهم على الخوارق نيط ظهورها به مبالغة فى بيان اشتماله عليها وأنه حقيق بأن يكون
مصدراً لكل خارق وابانة لركاكة رأيهم فى شأنه الرفيع كأنه قيل لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه من مقتضيات الحكمة
لكان مظهرها هـذا القرآن الذى لم يعدوه آية وفيه من تفخيم شأنه العزيز و وصفهم بركاكة العقل ما لا يخفى ﴿ بل لله
الامر جميعا ﴾ أى له الامر الذى عليـه يدور فلك الاكوان وجودا وعدما يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد لما يدعو
اليه من الحكم البالغة وهو اضراب عما تضمنه الشرطية من معنى النفى لا بحسب منطوقه بل باعتبار موجبه ومؤداه أى
لو أن قرآنا فعل به ما ذكر لكان ذلك هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن لان الامر كله له وحده
فالاضراب ليس بمتوجه الى كون الامر لله سبحانه بل الى ما يؤدى اليـه ذلك من كون الشـأن على ما كان لما تقتضيه
الحكمة من بناء التكليف على الاختبار ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ أى أفلم يعلموا على لغـة هوازن أو قوم من النخع
أو على استعمال اليأس فى معنى العلم لتضمنـه له و يؤيده قراءة على وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضى الله
عنهم أفلم يتبين بطريق التفسير والفاء للعطف على مقـدر أى أغفلوا عن كون الامر جميعا لله تعالى فلم يعلموا ﴿ أن لو
يشاء الله ﴾ على حذف ضمير الشأن وتخفيف أن ﴿ لهدى الناس جميعا ﴾ باظهار أمثال تلك الآثار العظيمة فالانكار
متوجه الى المعطوفين جميعا أو أعلموا كون الامر جميعا لله فلم يعلموا ما يوجبه ذلك العلم مما ذكر فهو متوجه الى ترتب
المعطوف على المعطوف عليه أى تخلف العلم الثانى عن العلم الاول وعلى التقـديرين فالانكار انكار الوقوع كما فى قوله
تعالى ألم يعـدكم ربكم وعدا حسناً لا انكار الواقع كما فى قولك ألم تخف الله حتى عصيته ثم ان مناط الانكار ليس عـدم
علمهم بمضمون الشرطية فقط بل مع عدم علمهم بعدم تحقق مقدمها كأنه قيل ألم يعلموا أن الله تعالى لو شاء هدايتهم
لهداهم وأنه لم يشـأها وذلك لانهم كانوا يودون أن يظهر ما اقترحوا من الآيات ليجتمعوا على الايمـان وعلى الثانى
لو أن قرآنا فعل به ما فصـل من التعاجيب لمـا آمنوا به كقوله تعالى و لو أننـا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى الآية
فالاضراب حينئـذ متوجه الى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم فى العناد على ما شرح أى فليس لهم ذلك بل لله الامر
جميعا ان شاء أتى بمـا اقترحوا وان شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعيـة الحكمة من غير أن يكون لأحد عليه تحكم أو
اقتراح واليـأس بمعنى القنوط أى ألم يعلم الذين آمنوا حالهم هـذه فلم يقنطوا من ايمـانهم حتى أحبوا ظهور مقترحاتهم
فالانكار متوجه الى المعطوفين أو أعلموا ذلك فلم يقنطوا من ايمـانهم فهو متوجه الى وقوع المعطوف بعد المعطوف
عليه أى الى تخلف القنوط عن العلم المذكور والانكار على التقديرين انكار الواقع كما فى قوله تعالى أفلا تتقون ونظائره
لا انـكار الوقوع فان عـدم قنوطهم منه ممـا لامرد له وقوله تعالى أن لو يشاء الله الخ متعلق بمحذوف أى أفلم ييأسوا
من ايمـانهم علمـا منهم أو عالمين بأنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وأنه لم يشأ ذلك أو بآمنوا أى أفلم يقنط الذين
آمنوا بأن لو يشاء الله لهـدى الناس جميعا على معنى أفلم ييأس من ايمـانهم المؤمنون بمضمون الشرطية و بعـدم
تحقق مقدمها المنفهم من مكابرتهم حسبما تحكيه كلمة لو فالوصف المذكور من دواعى انكار يأسهم وقيل ان أبا جهل

وأضرابه قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيا سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا وتتخذ فيها البساتين والقطائع وقد سخرت لداود عليه السلام فلست بأهون على الله منه ان كنت نبيا كما زعمت أوسخر لنا به الريح كما سخرت لسليمان عليه السلام لنتجر عليها الى الشام فقد شق علينا قطع الشقة البعيدة أوابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا فنزلت فمعنى تقطيع الارض حينئذ قطعها بالسير و لاحاجة حينئذ الى الاعتذار فى اسناد الافاعيل المذكورة الى القرآن كما احتيج اليه فى الوجهين الأولين وعن الفراء أنه متعلق بما قبله من قولهم وهم يكفرون بالرحمن ومابينهما اعتراض وهو بالحقيقة دال على الجواب والتقدير ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أوكلم به الموتى لكفروا بالرحمن والتذكير فى كلم به الموتى لتغليب المذكر من الموتى على غيره ﴿ولايزال الذين كفروا﴾ من أهل مكة ﴿تصيبهم بما صنعوا﴾ أى بسبب ماصنعوه من الكفر والتمادى فيه وعدم بيانه اما للقصد الى تهويله أو استهجانه وهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له مع مافى صيغة الصنع من الايذان برسوخهم فى ذلك ﴿قارعة﴾ داهية تقرعهم وتقلقهم وهو ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والأسر والنهب والسلب وتقديم المجرور على الفاعل لما مر مرارا من ارادة التفسير اثر الابهام لزيادة التقرير والاحكام مع مافيه من بيان أن مدار الاصابة من جهتهم آثر ذى أثير ﴿أو تحل﴾ تلك القارعة ﴿قريبا﴾ أى مكانا قريبا ﴿من دارهم﴾ فيفزعون منها و يتطاير اليهم شرارها شبهت القارعة بالعدو المتوجه اليهم فاسند اليها الاصابة تارة والحلول أخرى ففيه استعارة بالكناية وتخييل وترشيح ﴿حتى يأتى وعد الله﴾ أى موتهم أو القيامة فان كلا منهما وعد محتوم لامرد له وفيه دلالة على أن ما يصيبهم عند ذلك من العذاب فى غاية الشدة وأن ماذكر سابقة نفحة يسيرة بالنسبة اليه ثم حقق ذلك بقوله تعالى ﴿ان الله لايخلف الميعاد﴾ أى الوعد كالميلاد والميثاق بمعنى الولادة والتوثقة لاستحالة ذلك على الله سبحانه وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها و كانوا بين اغارة واختطاف وتخويف بالهجوم عليهم فى ديارهم فالاصابة والحلول حينئذ من أحوالهم و يجوز على هذا أن يكون قوله تعالى أو تحل قريبا من دارهم خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم مرادا به حلوله الحديبية والمراد بوعد الله ماوعد به من فتح مكة ﴿ولقد استهزئ برسل﴾ كثيرة خلت ﴿من قبلك فأمليت للذين كفروا﴾ أى تركتهم ملاوة من الزمان فى أمن ودعة كما يملى للبهيمة فى المرعى وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقى من المشركين من التكذيب والاقتراح على طريقة الاستهزاء به ووعيد لهم والمعنى ان ذلك ليس مختصا بك بل هو أمر مطرد قد فعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك فأمهلت الذين فعلوه بهم والعدول فى الصلة الى وصف الكفر ليس لان المملى لهم غير المستهزئين بل لارادة الجمع بين الوصفين أى فأمليت للذين كفروا مع استهزائهم لا باستهزائهم فقط ﴿ثم أخذتهم فكيف كان عقاب﴾ أى عقابى اياهم وفيه من الدلالة على تناهى كيفيته فى الشدة والفظاعة مالايخفى ﴿أفمن هو قائم﴾ أى رقيب مهيمن ﴿على كل نفس﴾ كائنة من كانت ﴿بما كسبت﴾ من خير أو شر لايخفى عليه شئ من ذلك بل يجازى كلا بعمله وهو الله تعالى والخبر محذوف أى كمن ليس كذلك انكارا لذلك وادخال الفاء لتوجيه الانكار الى توهم المماثلة غب ماعلم مما فعل تعالى بالمستهزئين من الاملاء المديد والأخذ الشديد ومن كون الأمر كله لله تعالى و كون هداية الناس جميعا منوطة بمشيئته تعالى ومن تواتر القوارع على الكفرة الى أن يأتى وعد الله كأنه قيل أ الأمر كذلك فمن هذا شأنه كما ليس فى عداد الاشياء حتى تشركوه به فالانكار متوجه الى ترتب المعطوف أعنى توهم المماثلة على المعطوف عليه المقدر أعنى كون الأمر كما ذكر كما فى قولك أتعلم الحق فلا تعمل به لا الى المعطوفين جميعا كما اذا قلت ألا تعلمه فلا تعمل به وقوله تعالى ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ جملة مستقلة جئ بها للدلالة على الخبر أو حالية أى أفمن هذه

صفاته كما ليس كذلك وقد جعلوا له شركاء لا شريكا واحدا أو معطوفة على الخبر ان قدر مايصلح لذلك أى أفمن هذا شأنه لم يوحدوه وجعلوا له شركاء ووضع المظهر موضع المضمر للتنصيص على وحدانيته ذاتا واسما وللتنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادة مع مافيه من البيان بعد الابهام بايراده موصولا للدلالة على التفخيم وقوله تعالى ﴿قل سموهم﴾ تبكيت لهم اثر تبكيت أى سموهم من هم وماذا أسماؤهم أوصفوهم وانظروا هل لهم مايستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ﴿أم تنبئونه﴾ أى بل أتنبئون الله ﴿بما لا يعلم فى الارض﴾ أى بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم الله تعالى ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات والارض وقرىء بالتخفيف ﴿أم بظاهر من القول﴾ أى بل أتسمونهم بشركاء بظاهر من القول من غير أن يكون له معنى وحقيقة كتسمية الزنجى كافورا كقوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم وهاتيك الاساليب البديعة التى وردعليها الآية الكريمة منادية على أنها خارجة عن قدرة البشر من كلام خلاق القوى والقدر فتبارك الله رب العالمين ﴿بل زين للذين كفروا﴾ وضع الموصول موضع المضمر ذما لهم وتسجيلا عليهم بالكفر ﴿مكرهم﴾ تمويههم الاباطيل أو كيدهم للاسلام بشركهم ﴿وصدوا عن السبيل﴾ أى سبيل الحق من صده صدا وقرىء بكسر الصاد على نقل حركة الدال اليها وقرىء بفتحها أى صدوا الناس أو من صد صدودا ﴿ومن يضلل الله﴾ أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره أو يخذله ﴿فما له من هاد﴾ يوفقه للهدى ﴿لهم عذاب﴾ شاق ﴿فى الحيوة الدنيا﴾ بالقتل والاسر وسائر ما يصيبهم من المصائب فانها انما تصيبهم عقوبة على كفرهم ﴿ولعذاب الآخرة أشق﴾ من ذلك بالشدة والمدة ﴿ومالهم من الله﴾ من عذابه المذكور ﴿من واق﴾ من حافظ يعصمهم من ذلك فمن الأولى صلة للوقاية والثانية مزيدة للتأكيد ﴿مثل الجنة﴾ أى صفتها العجيبة الشان التى فى الغرابة كالمثل ﴿التى وعد المتقون﴾ عن الكفر والمعاصى وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أى فيما قصصنا عليك مثل الجنة وقوله تعالى ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ تفسير لذلك المثل على أنه حال من الضمير المحذوف من الصلة العائد الى الجنة أى وعدها وهو الخبر عند غيره كقولك شان زيد يأتيه الناس ويعظمونه أو على حذف موصوف أى مثل الجنة جنة تجرى الخ ﴿أكلها﴾ ثمرها ﴿دائم﴾ لاينقطع ﴿وظلها﴾ أيضا كذلك لا تنسخه الشمس كما تنسخ ظلال الدنيا ﴿تلك﴾ الجنة المنعوتة بما ذكر ﴿عقبى الذين اتقوا﴾ الكفر والمعاصى أى مآلهم ومنتهى أمرهم ﴿وعقبى الكافرين النار﴾ لاغير وفيه مالايخفى من اطماع المتقين واقناط الكافرين ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ هم المسلمون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة ﴿يفرحون بما أنزل اليك﴾ اذ هو الكتاب الموعود فى التوراة والانجيل ﴿ومن الأحزاب﴾ أى من أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الاشرف والسيد والعاقب اسقفى نجران وأتباعهما ﴿من ينكر بعضه﴾ وهو الشرائع الحادثة انشاء أو نسخا لا مايوافق ماحرفوه والا لنعى عليهم من أول الأمر أن مدار ذلك انما هو جنايات أيديهم وأما مايوافق كتبهم فلم ينكروه وان لم يفرحوا به وقيل يجوز أن يراد بالموصول الأول عامتهم فانهم أيضا يفرحون به لكونه مصداقا لكتبهم فى الجملة فحينئذ يكون قوله تعالى ومن الأحزاب الخ تتمة بمنزلة أن يقال ومنهم من ينكر بعضه ﴿قل﴾ الزاما لهم وردا لانكارهم ﴿انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به﴾ أى شيئا من الاشياء أو لا أفعل الاشراك به والمراد قصر الأمر بالعبادة على الله تعالى لا قصر الأمر مطلقا على عبادته تعالى خاصة أى قل لهم انما أمرت فيما أنزل الى بعبادة الله وتوحيده وظاهر أن لا سبيل لكم الى انكاره لاطباق جميع الأنبياء والكتب على ذلك كقوله تعالى قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا فما لكم تشركون به عزيرا والمسيح وقرىء ولا أشرك به بالرفع

على الاستئناف أى وأنا لا أشرك به ﴿ اليه ﴾ الى الله تعالى خاصة على النهج المذكور من التوحيد أو الى ما أمرت به من التوحيد ﴿ أدعو ﴾ الناس لا الى غيره أو لا الى شئ آخر مما لم يطبق عليه الكتب الالهية والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فما وجه انكاركم ﴿ واليه ﴾ الى الله تعالى وحده ﴿ مآب ﴾ مرجعى للجزاء وحيث كانت هذه الحجة الباهرة لازمة لهم لا يجدون عنها محيصا أمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبهم بذلك الزاما وتبكيتا لهم ثم شرع فى رد انكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداء أو بدلا من الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة فى ذلك فقيل ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ أى ما أنزل اليك وذلك اشارة الى مصدر أنزلناه أو أنزل اليك ومحله النصب على المصدرية أى مثل ذلك الانزال البديع المنتظم لاصول مجمع عليها وفروع متشعبة الى موافقة ومخالفة حسبما تقتضيه قضية الحكمة والمصلحة أنزلناه ﴿ حكما ﴾ حاكما يحكم فى القضايا والواقعات بالحق أو يحكم به كذلك والتعرض لذلك العنوان مع أن بعضه ليس بحكم لتربية وجوب مراعاته وتحتم المحافظة عليه ﴿ عربيا ﴾ مترجما بلسان العرب والتعرض لذلك للاشارة الى أن ذلك احدى مواد المخالفة للكتب السابقة مع أن ذلك مقتضى الحكمة اذ بذلك يسهل فهمه وادراك اعجازه والاقتصار على اشتمال الانزال على أصول الديانات المجمع عليها حسبما يفيده قوله تعالى قل انما أمرت أن أعبد الله الخ يأباه التعرض لاتباع أهوائهم وحديث المحو والاثبات وان لكل أجل كتاب فان المجمع عليه لا يتصور فيه الاستتباع والاتباع ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ التى يدعونك اليها من تقرير الامور المخالفة لما أنزل اليك من الحق كالصلاة الى بيت المقدس بعد التحويل ﴿ بعدما جاءك من العلم ﴾ العظيم الشأن الفائض من ذلك الحكم العربى أو العلم بمضمونه ﴿ مالك من الله ﴾ من جنابه العزيز والالتفات من التكلم الى الغيبة وايراد الاسم الجليل لتربية المهابة قال الأزهرى لا يكون الها حتى يكون معبودا وحتى يكون خالقا ورازقا ومدبرا ﴿ من ولى ﴾ يلى أمرك وينصرك على من يبغيك الغوائل ﴿ ولا واق ﴾ يقيك من مصارع السوء وحيث لم يستلزم نفى الناصر على العدو نفى الواقى من نكايته أدخل على المعطوف حرف النفى للتأكيد كقولك مالى دينار ولا درهم أو مالك من بأس الله من ناصر وواق لاتباعك أهواءهم وأمثال هاتيك القوارع انما هى لقطع أطماع الكفرة وتهييج المؤمنين على الثبات فى الدين واللام فى لئن موطئة ومالك ساد مسد جوابى الشرط والقسم ﴿ ولقد أرسلنا رسلا ﴾ كثيرة كائنة ﴿ من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾ نساء وأولادا كما جعلناها لك وهو رد لما كانوا يعيبونه صلى الله عليه وسلم بالزواج والاولاد كما كانوا يقولون مالهذا الرسول يأكل الطعام الخ ﴿ وما كان لرسول ﴾ منهم أى ما صح وما استقام ولم يكن فى وسعه ﴿ أن يأتى بآية ﴾ مما اقترح عليه وحكم مما التمس منه ﴿ الا باذن الله ﴾ ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح التى عليها يدور أمر الكائنات لا سيما مثل هذه الامور العظام والالتفات لما قدمناه ولتحقيق مضمون الجملة بالايماء الى العلة ﴿ لكل أجل ﴾ أى لكل مدة ووقت من المدد والأوقات ﴿ كتاب ﴾ حكم معين يكتب على العباد حسبما تقتضيه الحكمة فان الشرائع كلها لاصلاح أحوالهم فى المبدأ والمعاد ومن قضية ذلك أنه يختلف حسب اختلاف أحوالهم المتغيرة حسب تغير الاوقات كاختلاف العلاج حسب اختلاف أحوال المرضى بحسب الاوقات ﴿ يمحو الله ما يشاء ﴾ أى ينسخ ما يشاء نسخه من الاحكام لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت ﴿ ويثبت ﴾ بدله ما فيه المصلحة أو يبقيه على حاله غير منسوخ أو يثبت ما شاء اثباته مطلقا أعم منهما ومن الانشاء ابتداء أو يمحو من ديوان الحفظة الذين ديدنهم كتب كل قول وعمل ما لا يتعلق به الجزاء ويثبت الباقى أو يمحو سيئات التائب ويثبت مكانها الحسنة أو يمحو قرنا ويثبت آخرين أو يمحو الفاسدات من العالم الجسمانى ويثبت الكائنات أو يمحو الرزق ويزيد فيه أو يمحو الأجل أو السعادة والشقاوة وبه قال ابن مسعود وابن عمر رضى الله عنهم والقائلون به يتضرعون الى الله تعالى أن يجعلهم سعداء وهذا رواه جابر عن النبى عليه الصلاة والسلام والأنسب

تعميم كل من المحو والاثبات ليشمل الكل ويدخل فى ذلك مواد الانكار دخولا أوليا وقرىء بالتشديد ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أى أصله وهو اللوح المحفوظ اذ ما من شىء من الذاهب والثابت الا وهو مكتوب فيه كما هو ﴿واما نرينك﴾ أصله ان نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة ألحقت النون بالفعل ﴿بعض الذى نعدهم﴾ أى وعدناهم من انزال العذاب عليهم والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أو نعدهم وعدا متجددا حسبما تقتضيه الحكمة من انذار غب انذار وفى ايراد البعض رمز الى اراءة بعض الموعود ﴿أو نتوفينك﴾ قبل ذلك ﴿فانما عليك البلاغ﴾ أى تبليغ أحكام الرسالة بتمامها لا تحقيق مضمون ما بلغته من الوعيد الذى هو من جملتها ﴿وعلينا﴾ لا عليك ﴿الحساب﴾ محاسبة أعمالهم السيئة والمؤاخذة بها أى كيفما دارت الحال أريناك بعض ما وعدناهم من العذاب الدنيوى أولم نركه فعلينا ذلك وما عليك الا تبليغ الرسالة فلا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من الظفر ولا يضجرك تأخره فان ذلك لما نعلم من المصالح الخفية ثم طيب نفسه عليه الصلاة والسلام بطلوع تباشيره فقال ﴿أولم يروا﴾ استفهام انكارى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أأنكروا نزول ما وعدناهم أو أشكوا أو لم ينظروا فى ذلك ولم يروا ﴿أنا نأتى الأرض﴾ أى أرض الكفر ﴿ننقصها من أطرافها﴾ بأن نفتحها على المسلمين شيأ فشيأ ونلحقها بدار الاسلام ونذهب منها أهلها بالقتل والاسر والاجلاء أليس هذا من ذلك ومثله قوله عز سلطانه أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون وقوله ننقصها حال من فاعل نأتى أو من مفعوله وقرىء ننقصها بالتشديد وفى لفظ الاتيان المؤذن بالاستواء المحتوم والاستيلاء العظيم من الفخامة ما لا يخفى كما فى قوله عز وجل وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴿والله يحكم﴾ ما يشاء كما يشاء وقد حكم للاسلام بالعزة والاقبال وعلى الكفر بالذلة والادبار حسبما يشاهد من المخايل والآثار وفى الالتفات من التكلم الى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الجليل من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالاشارة الى العلة ما لا يخفى وهى جملة اعتراضية جىء بها لتأكيد فحوى ما تقدمها وقوله تعالى ﴿لا معقب لحكمه﴾ اعتراض فى اعتراض لبيان علو شأن حكمه جل جلاله وقيل نصب على الحالية كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاء زيد لا عمامة على رأسه أى حاسرا والمعقب من يكر على الشىء فيبطله وحقيقته من يعقبه ويقفيه بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يقفى غريمه بالاقتضاء والطلب ﴿وهو سريع الحساب﴾ فعما قليل يحاسبهم ويجازيهم فى الآخرة بأفانين العذاب غب ما عذبهم بالقتل والاسر والاجلاء حسبما يرى وقال ابن عباس رضى الله عنهما سريع الانتقام ﴿وقد مكر﴾ الكفار ﴿الذين﴾ خلوا ﴿من قبلهم﴾ من قبل كفار مكة بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لا عبرة بمكرهم ولا تأثير بل لا وجود له فى الحقيقة ولم يصرح بذلك اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله أعنى قوله تعالى ﴿فلله المكر﴾ أى جنس المكر ﴿جميعا﴾ لا وجود لمكرهم أصلا اذ هو عبارة عن ايصال المكروه الى الغير من حيث لا يشعر به وحيث كان جميع ما يأتون وما يذرون بعلم الله تعالى وقدرته وانما لهم مجرد الكسب من غير فعل ولا تأثير حسبما يبينه قوله عز وجل ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ ومن قضيته عصمة أوليائه وعقاب الماكرين بهم توفية لكل نفس جزاء ما تكسبه ظهر أن ليس لمكرهم بالنسبة الى من مكروا بهم عين ولا أثر وأن المكر كله لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا من فنون المعاصى التى من جملتها مكرهم من حيث لا يحتسبون أو لله المكر الذى باشروه جميعا لا لهم على معنى أن ذلك ليس مكرا منهم بالأنبياء بل هو بعينه مكر من الله تعالى بهم وهم لا يشعرون حيث لا يحيق المكر السيىء الا بأهله ﴿وسيعلم الكفار﴾ حين يقضى بمقتضى علمه فيوفى كل نفس جزاء ما تكسبه ﴿لمن عقبى

الدار﴾ أى العاقبة الحميدة من الفريقين وان جهلوا ذلك يومئذ وقيل السين لتأكيد وقوع ذلك وعلمهم به حينئذ وقرىء سيعلم الكافر على ارادة الجنس والكافرون والكفر أى أهله والذين كفروا وسيعلم على صيغة المجهول من الاعلام أى سيخبر ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلا﴾ قيل قاله رؤساء اليهود وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيبا منها أو للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم ﴿قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم﴾ فانه قد أظهر على رسالتى من الحجج القاطعة والبينات الساطعة ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ أى علم القرآن وما عليه من النظم المعجز أو من هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لانهم يشهدون بنعته عليه الصلاة والسلام فى كتبهم والآية مدنية بالاتفاق أو من عنده علم اللوح المحفوظ وهو الله سبحانه أى كفى به شاهدا بيننا بالذى يستحق العبادة فانه قد شحن كتابه بالدعوة الى عبادته وأيدنى بأنواع التأييد وبالذى يختص بعلم ما فى اللوح من الأشياء الكائنة الثابتة التى من جملتها رسالتى وقرىء من عنده بالكسر وعلم الكتاب على الاول مرتفع بالظرف المعتمد على الموصول أو مبتدأ خبره الظرف وهو متعين على الثانى ومن عنده علم الكتاب بالكسر وبناء المفعول ورفع الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الرعد أعطى من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون الى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله عز وجل والله أعلم بالصواب

سورة ابراهيم عليه السلام

(مكية وهى احدى وخمسون آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الر﴾ مر الكلام فيه وفى محله غير مرة وقوله تعالى ﴿كتاب﴾ خبر له على تقدير كون الر مبتدأ أو لمبتدا مضمر على تقدير كونه خبرا لمبتدأ محذوف أو مسرودا على نمط التعديد ويجوز أن يكون خبرا ثانيا لهذا المبتدا المحذوف وقوله تعالى ﴿أنزلناه اليك﴾ صفة له وقوله تعالى ﴿لتخرج الناس﴾ متعلق بأنزلناه أى لتخرجهم كافة بما فى تضاعيفه من البينات الواضحة المفصحة عن كونه من عند الله عز وجل الكاشفة عن العقائد الحقة وقرىء ليخرج الناس ﴿من الظلمات﴾ أى ليخرج به الناس من عقائد الكفر والضلال التى كلها ظلمات محضة وجهالات صرفة ﴿الى النور﴾ الى الحق الذى هو نور بحت لكن لا كيفما كان فانك لاتهدى من أحببت بل ﴿باذن ربهم﴾ أى بتيسيره وتوفيقه وللانباء عن كون ذلك منوطا باقبالهم الى الحق كما يفصح عنه قوله تعالى ويهدى اليه من أناب استعير له الاذن الذى هو عبارة عن تسهيل الحجاب لمن يقصد الورود وأضيف الى ضميرهم اسم الرب المفصح عن التربية التى هى عبارة عن تبليغ الشىء الى كماله المتوجه اليه وشمول الاذن بهذا المعنى للكل واضح وعليه يدور كون الانزال لاخراجهم جميعا وعدم تحقق الاذن بالفعل فى بعضهم لعدم تحقق شرطه المستند الى سوء اختيارهم غير مخل بذلك والباء متعلقة بتخرج أو بمضمر وقع حالا من مفعوله أى ملتبسين باذن ربهم وجعله حالا من فاعله يأباه اضافة الرب اليهم لا اليه وحيث كان الحق مع وضوحه فى نفسه وايضاحه لغيره موصلا الى الله عز وجل استعير له النور تارة والصراط أخرى فقيل ﴿الى صراط العزيز الحميد﴾ على وجه الابدال بتكرير العامل كما فى قوله تعالى للذين استضعفوا لمن آمن منهم واخلال البدل والبيان بالاستعارة انما هو فى الحقيقة لا فى المجاز كما فى قوله سبحانه حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر وقيل هو استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل الى أى نور فقيل الى صراط العزيز الحميد واضافة الصراط اليه تعالى لانه مقصده أو المبين له وتخصيص الوصفين بالذكر للترغيب فى سلوكه ببيان

مافيه من الامن والعاقبة الحميدة ﴿ الله ﴾ بالجر عطف بيان للعزيز الحميد لجريانه مجرى الاعلام الغالبة بالاختصاص بالمعبود بالحق كالنجم فى الثريا وقرئ بالرفع على هو الله أى العزيز الحميد الذى أضيف اليه الصراط الله ﴿ الذى له ملكا وملكا ﴿ مافى السموات ومافى الأرض ﴾ أى ماوجد فيهما داخلا فيهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما كما مر فى آية الكرسى ففيه على القراءتين بيان لكمال فخامة شأن الصراط واظهار لتحتم سلوكه على الناس قاطبة وتجويز الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبرا مبناه الغفول عن هذه النكتة وقوله عز وجل ﴿ وويل للكافرين ﴾ وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات الى النور بالويل وهو نقيض الوال وهو النجاة وأصله النصب كسائر المصادر ثم رفع رفعها للدلالة على الثبات كسلام عليك ﴿ من عذاب شديد ﴾ متعلق بويل على معنى يولولون ويضجون منه قائلين ياويلاه كقوله تعالى دعوا هنالك ثبورا ﴿ الذين يستحبون الحيوة الدنيا ﴾ أى يؤثرونها استفعال من المحبة فان المؤثر للشئ على غيره كانه يطلب من نفسه أن يكون أحب اليها وأفضل عندها من غيره ﴿ على الآخرة ﴾ أى الحياة الآخرة الابدية ﴿ ويصدون ﴾ الناس ﴿ عن سبيل الله ﴾ التى بين شأنها والاقتصار على الاضافة الى الاسم الجليل المنطوى على كل وصف جميل لروم الاختصار وهو من صده صدا وقرئ يصدون من أصد المنقول من صد صدودا اذا نكب وهو غير فصيح كاوقف فان فى صده وقفه لمندوحة عن تكلف النقل ﴿ ويبغونها ﴾ أى يبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير أى يطلبون لها ﴿ عوجا ﴾ أى زيغا واعوجاجا وهى أبعد شئ من ذلك أى يقولون لمن يريدون صده واضلاله انها سبيل ناكبة وزائغة غير مستقيمة ومحل موصول هذه الصلات الجر على أنه بدل من الكافرين أو صفة له فيعتبر كل وصف من أوصافهم بازاء ما يناسبه من المعانى المعتبرة فى الصراط فالكفر المنبئ عن الستر بازاء كونه نورا واستحباب الحياة الدنيا الفانية المفصحة عن وخامة العاقبة بمقابلة كون سلوكه محمود العاقبة والصد عنه بازاء كونه مأمونا وفيه من الدلالة على تماديهم فى الغى مالا يخفى أو النصب على الذم أو الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى ﴿ أولئك فى ضلال بعيد ﴾ وعلى الاول جملة مستأنفة وقعت معللة لما سبق من لحوق الويل بهم تأكيدا لما أشعر به بناء الحكم على الموصول أى أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورة من استحباب الحياة الدنيا على الآخرة وصد الناس عن سبيل الله المستقيمة ووصفها بالاعوجاج وهى منه بنزه فى ضلال عن طريق الحق بعيد بالغ فى ذلك غاية الغايات القاصية والبعد وان كان من أحوال الضال الا أنه قد وصف به وصفه مجازا للمبالغة كجد جده وداهية دهياء ويجوز أن يكون المعنى فى ضلال ذى بعد أو فيه بعد فان الضال قد يضل عن الطريق مكانا قريبا وقد يضل بعيدا وفى جعل الضلال محيطا بهم احاطة الظرف بما فيه مالا يخفى من المبالغة ﴿ وما أرسلنا ﴾ أى فى الامم الخالية من قبلك كما سيذكر اجمالا ﴿ من رسول الا ﴾ ملتبسا ﴿ بلسان قومه ﴾ متكلما بلغة من أرسل اليهم من الامم المتفقة على لغة سواء بعث فيهم أو لا وقرئ بلسن وهو لغة فيه كريش ورياش وبلسن بضمتين وضمة وسكون كعمد وعمد ﴿ ليبين لهم ﴾ ما أمروا به فيتلقوه منه بيسر وسرعة ويعملوا بموجبه من غير حاجة الى الترجمة ممن لم يؤمر به وحيث لم يمكن مراعاة هذه القاعدة فى شأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين لعموم بعثته الثقلين كافة على اختلاف لغاتهم وكان تعدد نظم الكتاب المنزل اليه حسب تعدد ألسنة الامم أدعى الى التنازع واختلاف الكلمة وتطرق أيدى التحريف مع أن استقلال بعض من ذلك بالاعجاز دون غيره مئنة لقدح القادحين واتفاق الجميع فيه أمر قريب من الالجاء وحصر البيان بالترجمة والتفسير اقتضت الحكمة اتحاد النظم المنبئ عن العزة وجلالة الشأن المستتبع لفوائد غنية عن البيان على أن الحاجة الى الترجمة تتضاعف عند التعدد اذ لابد لكل أمة من معرفة توافق الكل وتحاذيه حذو القذة بالقذة من غير مخالفة ولو فى خصلة فذة وانما

يتم ذلك بمن يترجم عن الكل واحدا أو متعددا وفيه من التعذر مايتاخم الامتناع ثم لما كان أشرف الاقوام وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومه الذين بعث فيهم ولغتهم أفضل اللغات نزل الكتاب المتين بلسان عربى مبين وانتشرت أحكامه فيما بين الامم أجمعين وقيل الضمير فى قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم فانه تعالى أنزل الكتب كلها عربية ثم ترجمها جبريل عليه الصلاة والسلام أو كل من نزل عليه من الأنبياء عليهم السلام بلغة من نزل عليهم ويرده قوله تعالى ليبين لهم فانه ضمير القوم وظاهر أن جميع الكتب لم ينزل لتبيين العرب وفى رجعه الى قوم كل نبى كأنه قيل وما أرسلنا من رسول الا بلسان قوم محمد عليه الصلاة والسلام ليبين الرسول لقومه الذين أرسل اليهم ما لا يخفى من التكلف ﴿فيضل الله من يشاء﴾ اضلاله أى يخلق فيه الضلال لمباشرة أسبابه المؤدية اليه أو يخذله ولا يلطف به لما يعلم أنه لا ينجع فيه الالطاف ﴿ويهدى﴾ بالتوفيق ومنح الالطاف ﴿من يشاء﴾ هدايته لما فيه من الانابة والاقبال الى الحق والالتفات باسناد الفعلين الى الاسم الجليل المنطوى على الصفات لتفخيم شأنهما وترشيح مناط كل منهما والفاء فصيحة مثلها فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق كأنه قيل فبينوه لهم فأضل الله منهم من شاء اضلاله لما لا يليق الا به وهدى من شاء هدايته لاستحقاقه لها والحذف للايذان بأن مسارعة كل رسول الى ما أمر به وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سننه أمر محقق غنى عن الذكر والبيان والعدول الى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار حسب تجدد البيان من الرسل المتعاقبة عليهم السلام وتقديم الاضلال على الهداية اما لانه ابقاء ما كان على ما كان والهداية انشاء مالم يكن أو للمبالغة فى بيان أن لا تأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل وأن مدار الامر انما هو مشيئته تعالى بايهام أن ترتب الضلالة على ذلك أسرع من ترتب الاهتداء وهذا محقق لما سلف من تقييد الاخراج من الظلمات الى النور باذن الله تعالى ﴿وهو العزيز﴾ فلا يغالب فى مشيئته ﴿الحكيم﴾ الذى لا يفعل شيئاً من الاضلال والهداية الا لحكمة بالغة وفيه أن ما فوض الى الرسل انما هو تبليغ الرسالة وتبيين طريق الحق وأما الهداية والارشاد اليه فذلك بيد الله سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ولقد أرسلنا موسى﴾ شروع فى تفصيل ما أجمل فى قوله عز وجل وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم الآية ﴿بآياتنا﴾ أى ملتبسا بها وهى معجزاته التى أظهرها لبنى اسرائيل ﴿أن أخرج قومك﴾ بمعنى أى أخرج لان الارسال فيه معنى القول أو بأن أخرج كما فى قوله تعالى وأن أقم وجهك فان صيغ الافعال فى الدلالة على المصدر سواء وهو المدار فى صحة الوصل والمراد بذلك اخراج بنى اسرائيل بعد مهلك فرعون ﴿من الظلمات﴾ من الكفر والجهالات التى أدتهم الى أن يقولوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ﴿الى النور﴾ الى الايمان بالله وتوحيده وسائر ما أمروا به ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ أى بنعمائه وبلائه كما ينبئ عنه قوله اذكروا نعمة الله عليكم لكن لا بما جرى عليهم فقط بل عليهم وعلى من قبلهم من الامم فى الأيام الخالية حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم الآيات أو بأيامه المنطوية على ذلك كما يلوح به قوله تعالى اذ أنجاكم والالتفات من التكلم الى الغيبة باضافة الايام الى الاسم الجليل للايذان بفخامة شأنها والاشعار بعدم اختصاص ما فيها من المعاملة بالمخاطب وقومه كما توهمه الاضافة الى ضمير المتكلم أى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد وقيل أيام الله وقائعه التى وقعت على الامم قبلهم وأيام العرب وقائعها وحروبها وملاحمها أى أنذرهم وقائعه التى دهمت الامم الدارجة ويرده ما تصدى له عليه الصلاة والسلام بصدد الامتثال من التذكير بكل من السراء والضراء مما جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يتلى عليك ﴿ان فى ذلك﴾ أى فى التذكير بها أو فى مجموع تلك النعماء والبلاء أو فى أيامها ﴿لآيات﴾ عظيمة أو كثيرة دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته فهى على الأول عبارة عن الأيام سواء أريد بها أنفسها أو ما فيها من النعماء والبلاء ومعنى ظرفية التذكير لها كونه مناطا لظهورها وعلى الثالث عن تلك النعماء والبلاء ومعنى الظرفية

ظاهر وأما على الثانى وهو كونه اشارة الى مجموع النعماء فعن كل واحدة من تلك النعماء والبلاء والمشار اليه المجموع المشتمل عليها من حيث هو مجموع أوكلمة فى تجريدية مثلها فى قوله تعالى لهم فيها دار الخلد ﴿لكل صبار﴾ على بلائه ﴿شكور﴾ لنعمائه وقيل لكل مؤمن والتعبير عنهم بذلك للاشعار بأن الصبر والشكر عنوان المؤمن أى لكل من يليق بكمال الصبر والشكر أوالايمان و يصير أمره اليها لا لمن اتصف بها بالفعل لأنه تعليل للامر بالتذكير المذكور السابق على التذكر المؤدى الى تلك المرتبة فان من تذكر مافاض أونزل عليه أوعلى من قبله من النعماء والبلاء وتنبه لعاقبة الشكر والصبر أوالايمان لايكاد يفارقها وتخصيص الآيات بهم لأنهم المنتفعون بها لالأنها خافية عن غيرهم فان التبيين حاصل بالنسبة الى الكل وتقديم الصبار على الشكور لتقدم متعلق الصبر أعنى البلاء على متعلق الشكر أعنى النعماء وكون الشكر عاقبة الصبر ﴿واذ قال موسى لقومه﴾ شروع فى بيان تصديه عليه الصلاة والسلام لما أمر به من التذكير للاخراج المذكور واذمنصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ماوقع فيه من الحوادث قدمر سره غير مرة أى اذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لقومه ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾ بدأ عليه الصلاة والسلام بالترغيب لأنه عند النفس أقبل وهى اليه أميل والظرف متعلق بنفس النعمة ان جعلت مصدرا أو بمحذوف وقع حالا منها ان جعلت اسما أى اذكروا انعامه عليكم أواذكروا نعمته كائنة عليكم و كذلك كلمة اذفى قوله تعالى ﴿اذأنجاكم من آل فرعون﴾ أى اذكروا انعامه عليكم وقت انجائه اياكم من آل فرعون أواذكروا نعمة الله مستقرة عليكم وقت انجائه اياكم منهم أو بدل اشتمال من نعمة الله مرادا بها الانعام أوالعطية ﴿يسومونكم﴾ يبغونكم من سامه خسفا اذاأولاه ظلما وأصل السوم الذهاب فى طلب الشىء ﴿سوء العذاب﴾ السوء مصدر ساء يسوء والمراد به جنس العذاب السيء أو استعبادهم واستعمالهم فى الأعمال الشاقة والاستهانة بهم وغير ذلك مما لايحصر ونصبه على أنه مفعول ليسومونكم ﴿ويذبحون أبناءكم﴾ المولودين وانما عطفه على يسومونكم اخراجاله عن مرتبة العذاب المعتاد وانما فعلوا ذلك لأن فرعون رأى فى المنام أوقال له الكهنة انه سيولد منهم من يذهب بملكه فاجتهدوا فى ذلك فلم يغن عنهم من قضاء الله شيئا ﴿ويستحيون نساءكم﴾ أى يبقونهن فى الحياة مع الذل والصغار ولذلك عد من جملة البلاء والجمل أحوال من آل فرعون أومن ضمير المخاطبين أومنهما جميعا لأن فيها ضمير كل منهما ﴿وفى ذلكم﴾ أى فيما ذكر من أفعالهم الفظيعة ﴿بلاء من ربكم﴾ أى ابتلاء منه لاأن البلاء عين تلك الأفعال اللهم الا أن تجعل فى تجريدية فنسبته الى الله تعالى امامن حيث الخلق أوالاقدار والتمكين ﴿عظيم﴾ لايطاق ويجوز أن يكون المشار اليه الانجاء من ذلك والبلاء الابتلاء بالنعمة وهو الأنسب كما يلوح به التعرض لوصف الربوبية وعلى الأول يكون ذلك باعتبار المآل الذى هو الانجاء أوباعتبار أن بلاء المؤمن تربية له ﴿واذ تأذن ربكم﴾ من جملة مقال موسى عليه الصلاة والسلام لقومه معطوف على نعمة الله أى اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم أى آذن ايذانا بليغا لاتبقى معه شائبة شبهة لما فى صيغة التفعل من معنى التكلف المحمول فى حقه سبحانه على غايته التى هى الكمال وقيل هومعطوف على قوله تعالى اذأنجاكم أى اذكروا نعمته تعالى فى هذين الوقتين فان هذا التأذن أيضا نعمة من الله تعالى عليهم ينالون بها خيرى الدنيا والآخرة و فى قراءة ابن مسعود رضى الله تعالى عنه واذقال ربكم ولقد ذكرهم عليه الصلاة والسلام أولا بنعمائه تعالى عليهم صريحا وضمنه تذكير ماأصابهم قبل ذلك من الضراء ثم أمرهم ثانيا بذكر ماجرى من الله سبحانه من الوعد بالزيادة على تقدير الشكر والوعيد بالعذاب على تقدير الكفر والمراد بتذكير الاوقات تذكير ماوقع فيها من الحوادث مفصلة اذهى محيطة بذلك فاذا ذكرت ذكر مافيها كأنه مشاهد معاين ﴿لئن شكرتم﴾ يابنى اسرائيل ماخولتكم

من نعمة الانجاء واهلاك العدو وغير ذلك من النعم والآلاء الفائتة للحصر وقابلتموه بالايمان والطاعة ﴿لأزيدنكم﴾ نعمة الى نعمة ﴿ولئن كفرتم﴾ ذلك وغمصتموه ﴿ان عذابي لشديد﴾ فعسى يصيبكم منه مايصيبكم ومن عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد فما ظنك بأكرم الأكرمين ويجوز أن يكون المذكور تعليلا للجواب المحذوف أى لاعذبنكم واللام فى الموضعين موطئة للقسم وكل من الجوابين ساد مسد جوابى الشرط والقسم والجملة امامفعول لتأذن لأنه ضرب من القول أولقول مقدر بعده كأنه قيل واذ تأذن ربكم فقال الخ ﴿وقال موسى ان تكفروا﴾ نعمه تعالى ولم تشكروها ﴿أنتم﴾ يابنى اسرائيل ﴿ومن فى الأرض﴾ من الخلائق ﴿جميعا فان الله لغنى﴾ عن شكركم وشكر غيركم ﴿حميد﴾ مستوجب للحمد بذاته لكثرة مايوجبه من أياديه وان لم يحمده أحد أومحمود يحمده الملائكة بل كل ذرة من ذرات العالم ناطقة بحمده والحمد حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها من الفضائل كان أدل على كماله سبحانه وهو تعليل لما حذف من جواب ان أى ان تكفروا لم يرجع و باله الا عليكم فان الله تعالى لغنى عن شكر الشاكرين ولعله عليه الصلاة والسلام انما قاله عند ماعاين منهم دلائل العناد ومخايل الاصرار على الكفر والفساد وتيقن أنه لاينفعهم الترغيب و لاالتعريض بالترهيب أوقاله غب تذكيرهم بما ذكر من قول الله عز سلطانه تحقيقا لمضمونه وتحذيرا لهم من الكفران ثم شرع فى الترهيب بتذكير ماجرى على الامم الخالية فقال ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم﴾ ليتدبروا ماأصاب كل واحد من حزبى المؤمن والكافر فيقلعوا عماهم عليه من الشر و ينيبوا الى الله تعالى وقيل هو ابتداء كلام من الله تعالى خطابا للكفرة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فيختص تذكير موسى عليه الصلاة والسلام بما اختص ببنى اسرائيل من السراء والضراء والأيام بالأيام الجارية عليهم فقط وفيه مالايخفى من البعد وأيضا لايظهر حينئذ وجه تخصيص تذكير الكفرة الذين فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام بما أصاب أولئك المعدودين مع أن غيرهم أسوة لهم فى الخلو قبل هؤلاء ﴿قوم نوح﴾ بدل من الموصول أوعطف بيان ﴿وعاد﴾ معطوف على قوم نوح ﴿وثمود والذين من بعدهم﴾ أى من بعد هؤلاء المذكورين عطف عام على قوم نوح وماعطف عليه وقوله تعالى ﴿لايعلمهم الا الله﴾ اعتراض أوالموصول مبتدأ و لايعلمهم الى آخره خبره والجملة اعتراض والمعنى انهم من الكثرة بحيث لايعلم عددهم الا الله سبحانه وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بين عدنان واسمعيل ثلاثون أبا لايعرفون و كان ابن مسعود رضى الله تعالى عنه اذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون يعنى أنهم يدعون علم الانساب وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد ﴿جاءتهم رسلهم﴾ استئناف لبيان نبئهم ﴿بالبينات﴾ بالمعجزات الظاهرة والبينات الباهرة فبين كل رسول لأمته طريق الحق وهداهم اليه ليخرجهم من الظلمات الى النور ﴿فردوا أيديهم فى أفواههم﴾ مشيرين بذلك الى ألسنتهم ومايصدر عنها من المقالة اعتناء منهم بشأنها وتنبيها للرسل على تلقيها والمحافظة عليها واقناطالهم عن التصديق والايمان باعلام أن لاجواب لهم سواه ﴿وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به﴾ أى على زعمكم وهى البينات التى أظهروها حجة على صحة رسالاتهم كقوله تعالى ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ومرادهم بالكفر بها الكفر بدلالتها على صحة رسالاتهم أوفعضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ أو وضعوها عليها تعجبا منه واستهزاء به كمن غلبه الضحك أواسكاتا للانبياء عليهم السلام وأمرا لهم باطباق الأفواه أو ردوها فى أفواه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يمنعونهم من التكلم تحقيقا أوتمثيلا أوجعلوا أيدى الأنبياء فى أفواههم تعجبا من عتوهم وعنادهم كما ينبئ عنه تعجبهم بقولهم أفى الله شك الخ وقيل الأيدى بمعنى الأيادى عبر بها عن مواعظهم ونصائحهم وشرائعهم التى هى مدار النعم الدينية والدنيوية لأنهم لما كذبوها فلم يقبلوها فكأنهم ردوها الى حيث جاءت منه ﴿وانا لفى شك﴾ عظيم

﴿مما تدعوننا اليـه﴾ من الايمان بالله والتوحيد فلا ينافى شكهم فى ذلك كفرهم القطعى بما أرسل به الرسل من البينات فانهم كفروا بها قطعا حيث لم يعتدوا بها ولم يجعلوها من جنس المعجزات و لذلك قالوا فأتونا بسلطان مبين وقرئ تدعون بالادغام ﴿مريب﴾ موقع فى الريبة من أرابه أوذى ريبة من أراب الرجل وهى قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشئ ﴿قالت رسلهم﴾ استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه المقال كأنه قيل فماذا قالت لهم رسلهم فأجيب بأنهم قالوا منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء ﴿أفى الله شك﴾ بادخال الهمزة على الظرف للايذان بأن مدار الانكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلا منقادين عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا أأنتم فى شك مريب من الله تعالى مبالغة فى تنزيه ساحة السبحان عن شائبة الشك وتسجيلا عليهم بسخافة العقول أى أفى شأنه سبحانه من وجوده و وحدته و وجوب الايمان به وحده شك ما وهو أظهر من كل ظاهر وأجلى من كل جلى حتى تكونوا من قبله فى شك مريب وحيث كان مقصدهم الاقصى الدعوة الى الايمان والتوحيد و كان اظهار البينات وسيلة الى ذلك لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرة انا كفرنا بما أرسلتم به واقتصروا على بيان ماهو الغاية القصوى ثم عقبوا ذلك الانكار بما يوجبه من الشواهد الدالة على انتفاء المنكر فقالوا ﴿فاطر السموات والارض﴾ أى مبدعهما ومافيهما من المصنوعات على نظام انيق شاهد بتحقق ما أنتم منه فى شك وهو صفة للاسم الجليل أو بدل منه وشك مرتفع بالظرف لاعتماده على الاستفهام وجعله مبتدأ على أن الظرف خبره يفضى الى الفصل بين الموصوف والصفة بالاجنبى أعنى المبتدأ والفاعل ليس بأجنبى من رافعه وقد جوز ذلك أيضا ﴿يدعوكم﴾ الى الايمان بارساله ايانا لا أنا ندعوكم اليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم مما تدعوننا اليه ﴿ليغفر لكم﴾ بسببه أو يدعوكم لاجل المغفرة كقولك دعوته ليأكل معى ﴿من ذنوبكم﴾ أى بعضها وهو ما عدا المظالم مما بينهم و بينه تعالى فان الاسلام يجبه قيل هكذا وقع فى جميع القرآن فى وعد الكفرة دون وعد المؤمنين تفرقة بين الوعدين ولعل ذلك لما أن المغفرة حيث جاءت فى خطاب الكفرة مرتبة على محض الايمان و فى شأن المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصى ونحو ذلك فيتناول الخروج من المظالم وقيل المعنى ليغفر لكم بدلا من ذنوبكم ﴿و يؤخركم الى أجل مسمى﴾ الى وقت سماه الله تعالى وجعله منتهى أعماركم على تقدير الايمان ﴿قالوا استئناف﴾ كما سبق ﴿ان أنتم﴾ أى ما أنتم ﴿الا بشر مثلنا﴾ من غير فضل يؤهلكم لما تدعونه من النبوة ﴿تريدون﴾ صفة ثانية لبشر حملا على المعنى كقوله تعالى أبشر يهدوننا أو كلام مستأنف أى تريدون بما تتصدون له من الدعوة والارشاد ﴿أن تصدونا﴾ بتخصيص العبادة بالله سبحانه ﴿عما كان يعبد آباؤنا﴾ اى عن عبادة ما استمر آباؤنا على عبادته من غير شئ يوجبه والا ﴿فأتونا﴾ أى وان لم يكن الأمر كما قلنا بل كنتم رسلا من جهة الله تعالى كما تدعونه فأتونا ﴿بسلطان مبين﴾ يدل على فضلكم واستحقاقكم لتلك الرتبة أو على صحة ما تدعونه من النبوة حتى نترك ما لم نزل نعبده أبا عن جد ولقد كانوا آتوهم من الآيات الظاهرة والبينات الباهرة ما تخر له صم الجبال ولكنهم انما يقولون ما يقولون من العظائم مكابرة وعنادا واراءة لمن و راءهم أن ذلك ليس من جنس ما ينطلق عليه السلطان المبين ﴿قالت لهم رسلهم﴾ مجاراة معهم فى أول مقالتهم وانما قيل لهم لاختصاص الكلام بهم حيث أريد الزامهم بخلاف ماسلف من انكار وقوع الشك فى الله سبحانه فان ذلك عام وان اختص بهم ما يعقبه ﴿ان نحن الا بشر مثلكم﴾ كما تقولون ﴿ولكن الله يمن﴾ بالنبوة ﴿على من يشاء من عباده﴾ يعنون أن ذلك عطية من الله تعالى يعطيها من يشاء من عباده بمحض الفضل والامتنان من غير داعية توجبه قالوه تواضعا وهضما للنفس أو ما نحن من الملائكة بل نحن بشر مثلكم فى الصورة أو فى الدخول تحت

الجنس ولكن الله يمن بالفضائل والكمالات والاستعدادات على من يشاء المن بها وما يشاء ذلك الا لعلمه باستحقاقه لها وتلك الفضائل والكمالات والاستعدادات هى التى يدو رعليها فلك الاصطفاء للنبوة ﴿ وما كان ﴾ وما صح وما استقام ﴿ لنا أن نأتيكم بسلطان ﴾ أى بحجة من الحجج فضلا عن السلطان المبين بشىء من الاشياء وسبب من الاسباب ﴿ الا باذن الله ﴾ فانه أمر يتعلق بمشيئته تعالى ان شاء كان والا فلا ﴿ وعلى الله ﴾ وحده دون ماعداه مطلقا ﴿ فليتوكل المؤمنون ﴾ أمر منهم للمؤمنين بالتوكل ومقصودهم حمل أنفسهم عليه آثر ذى أثير ألا يرى الى قوله عز وجل ﴿ ومالنا ﴾ أى أى عذرلنا ﴿ أن لانتوكل على الله ﴾ أى فى أن لانتوكل عليه والاظهار لاظهار النشاط بالتوكل عليه والاستلذاذ بذكر اسمه تعالى وتعليل التوكل ﴿ وقد هدانا ﴾ أى والحال أنه قد فعل بناما يوجبه و يستدعيه حيث هدانا ﴿ سبلنا ﴾ أى أرشد كلا منا سبيله ومنهاجه الذى شرعه له وأوجب عليه سلوكه فى الدين وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح فى التوكل قالوا على سبيل التوكيد القسمى مظهرين لكمال العزيمة ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا ﴾ بالعناد واقتراح الآيات وغير ذلك مما لاخير فيه ﴿ وعلى الله ﴾ خاصة ﴿ فليتوكل المتوكلون ﴾ أى فليثبت المتوكلون على ما أحدثوه من التوكل والمراد هو المراد بما سبق من ايجاب التوكل على أنفسهم والمراد بالمتوكلين المؤمنون والتعبير عنهم بذلك لسبق ذكر اتصافهم به و يجوز أن يراد وعليه فليتوكل من توكل دون غيره ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ لعل هؤلاء القائلين بعض المتمردين العاتين الغالين فى الكفر من أولئك الامم الكافرة التى نقلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب وأضرابهم و لذلك لم يقل وقالوا ﴿ لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ﴾ لم يقنعوا بعصيانهم الرسل ومعاندتهم الحق بعد ما رأوا البينات الفائتة للحصر حتى اجترؤا على مثل هاتيك العظيمة التى لا يكاد يحيط بها دائرة الامكان فحلفوا على أن يكون أحد الحالين والعود اما بمعنى مطلق الصيرورة أو باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل وقد مر فى الاعراف وسيأتى فى الكهف ﴿ فأوحى اليهم ﴾ أى الى الرسل ﴿ ربهم ﴾ مالك أمرهم عند تناهى كفر الكفرة وبلوغهم من العتو الى غاية لا مطمع بعدها فى ايمانهم ﴿ لنهلكن الظالمين ﴾ على اضمار القول أو على اجراء الايحاء مجراه لكونه ضربا منه ﴿ ولنسكننكم الارض ﴾ أى أرضهم و ديارهم عقوبة لهم بقولهم لنخرجنكم من أرضنا كقوله تعالى وأو رثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها ﴿ من بعدهم ﴾ أى من بعد اهلاكهم وقرىء ليهلكن وليسكننكم بالياء اعتباراً لأوحى كقولهم حلف زيد ليخرجن غدا ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى الموحى به وهو اهلاك الظالمين واسكان المؤمنين ديارهم أى ذلك الامر محقق ثابت ﴿ لمن خاف مقامى ﴾ موقفى وهو الموقف الذى يقف فيه العباد يوم يقوم الناس لرب العالمين أوقيامى عليه وحفظى لاعماله وقيل لفظ المقام مقحم ﴿ وخاف وعيد ﴾ وعيدى بالعذاب أوعذابى الموعود للكفار و المعنى ان ذلك حق للمتقين كقوله والعاقبة للمتقين ﴿ واستفتحوا ﴾ أى استنصروا الله على أعدائهم كقوله تعالى ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أو استحكموا وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهى الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق فالضمير للرسل وقيل للكفرة وقيل للفريقين فانهم سألوا أن ينصر المحق ويهلك المبطل وهو معطوف على أوحى اليهم وقرىء بلفظ الامر عطفا على لنهلكن الظالمين أى أوحى اليهم ربهم لنهلكن وقال لهم استفتحوا ﴿ وخاب ﴾ أى خسر وهلك ﴿ كل جبار عنيد ﴾ متصف بضد ما اتصف به المتقون أى فنصروا عند استفتاحهم وظفروا بما سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم المعاندون فالخيبة بمعنى مطلق الحرمان دون الحرمان عن المطلوب أو ذلك باعتبار أنهم كانوا يزعمون أنهم على الحق أو استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا وانما قيل وخاب كل جبار عنيد ذما لهم وتسجيلا عليهم بالتجبر والعناد

لا أن بعضهم ليسوا كذلك وأنه لم يصبهم الخيبة أو استفتحوا جميعا فنصر الرسل وأنجز لهم الوعد وخاب كل عات متمرد فالخيبة بمعنى الحرمان غب الطلب و فى اسناد الخيبة الى كل منهم ما لا يخفى من المبالغة ﴿من و رائه جهنم﴾ أى بين يديه فانه مرصد لها واقف على شفيرها فى الدنيا مبعوث اليها فى الآخرة وقيل من و راء حياته وحقيقته ماتوارى عنك ﴿و يسقى﴾ معطوف على مقدر جوابا عن سؤال سائل كأنه قيل فماذا يكون اذن فقيل يلقى فيها و يسقى ﴿من ماء﴾ مخصوص لا كالمياه المعهودة ﴿صديد﴾ وهو قيح أو دم مختلط بمدة يسيل من الجرح قال مجاهد وغيره هو ما يسيل من أجساد أهل النار وهو عطف بيان لما أبهم أو لا ثم بين بالصديد تهويلا لأمره وتخصيصه بالذكر من بين عذابها يدل على أنه من أشد أنواعه ﴿يتجرعه﴾ قيل هو صفة لماء أو حال منه والأظهر أنه استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا يفعل به فقيل يتجرعه أى يتكلف جرعه مرة بعد أخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ أى لا يقارب أن يسيغه فضلا عن الاساغة بل يغص به فيشربه بعد اللتيا والتى جرعة غب جرعة فيطول عذابه تارة بالحرارة والعطش وأخرى بشربه على تلك الحال فان السوغ انحدار الشراب فى الحلق بسهولة وقبول نفس ونفيه لا يوجب نفى ما ذكر جميعا وقيل لا يكاد يدخله فى جوفه وعبر عنه بالاساغة لما أنها المعهودة فى الأشربة وهو حال من فاعل يتجرعه أو من مفعوله أو منهما جميعا ﴿و يأتيه الموت﴾ أى أسبابه من الشدائد ﴿من كل مكان﴾ ويحيط به من جميع الجهات أو من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وابهام رجله ﴿وماهو بميت﴾ أى والحال أنه ليس بميت حقيقة كما هو الظاهر من مجىء أسبابه لاسيما من جميع الجهات حتى لا يتألم بما غشيه من أصناف الموبقات ﴿ومن و رائه﴾ من بين يديه ﴿عذاب غليظ﴾ يستقبل كل وقت عذابا أشد وأشق مما كان قبله ففيه دفع ما يتوهم من الخفة بحسب الاعتياد كما فى عذاب الدنيا وقيل هو الخلود فى النار وقيل هو حبس الانفاس وقيل المراد بالاستفتاح والخيبة استسقاء أهل مكة فى سنيهم التى أرسلها الله تعالى عليهم بدعوته عليه الصلاة والسلام وخيبتهم فى ذلك وقد وعد لهم بدل ذلك صديد أهل النار ﴿مثل الذين كفروا بربهم﴾ أى صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التى هى كالمثل فى الغرابة وهو مبتدا خبره قوله تعالى ﴿أعمالهم كرماد﴾ كقولك صفة زيد عرضه مهتوك وماله منهوب وهو استئناف مبنى على سؤال من قال ما بال أعمالهم التى عملوها فى وجوه البر من صلة الارحام واعتاق الرقاب وفداء الاسارى واغاثة الملهوفين وقرى الاضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم حتى آل أمرهم الى هذا المآل فأجيب بأن ذلك كرماد ﴿اشتدت به الريح﴾ حملته وأسرعت الذهاب به ﴿فى يوم عاصف﴾ العصف اشتداد الريح وصف به زمانها مبالغة كقولك ليلة ساكرة وانما السكور لريحها شبهت صنائعهم المعدودة لابتنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والايمان به و التوجه بها اليه تعالى برماد طيرته الريح العاصفة أو استئناف مسوق لبيان اعمالهم للاصنام أو مبتدا خبره محذوف كما هو رأى سيبويه أى فيما يتلى عليك مثلهم وقوله أعمالهم جملة مستأنفة مبنية على سؤال من يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كيت و كيت سواء أريد بها صنائعهم أو أعمالهم لأصنامهم وقيل أعمالهم بدل من مثل الذين وقوله كرماد خبره ﴿لا يقدرون﴾ أى يوم القيامة ﴿مما كسبوا﴾ من تلك الاعمال ﴿على شىء﴾ ما أى لا يرون له أثرا من ثواب أو تخفيف عذاب كدأب الرماد المذكور وهو فذلكة التمثيل والاكتفاء ببيان عدم رؤية الاثر لاعمالهم للاصنام مع أن لها عقوبات هائلة للتصريح ببطلان اعتقادهم و زعمهم انها شفعاء لهم عند الله تعالى وفيه تهكم بهم ﴿ذلك﴾ أى ما دل عليه التمثيل دلالة واضحة من ضلالهم مع حسبانهم أنهم على شىء ﴿هو الضلال البعيد﴾ عن طريق الصواب أو عن نيل الثواب ﴿ألم تر﴾ خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته وقيل لكل أحد من الكفرة لقوله تعالى يذهبكم والرؤية رؤية القلب وقوله تعالى ﴿أن الله خلق

السموات والارض﴾ سادمسد مفعو ليها أى ألم تعلم أنه تعالى خلقهما ﴿بالحق﴾ ملتبسة بالحكمة والوجه الصحيح الذى يحق أن تخلق عليه وقرئ خالق السموات والارض ﴿ان يشأ يذهبكم﴾ يعدمكم بالمرة ﴿و يأت بخلق جديد﴾ أى يخلق بدلكم خلقا آخر مستأنفا لاعلاقة بينكم و بينهم رتب قدرته تعالى على ذلك على قدرته تعالى على خلق السموات والارض على هذا النمط البديع ارشاداً الى طريق الاستدلال فان من قدر على خلق مثل هاتيك الأجرام العظيمة كان على تبديل خلق آخر بهم أقدر و لذلك قال ﴿وما ذلك﴾ أى اذهابكم والاتيان بخلق جديد مكانكم ﴿على الله بعزيز﴾ بمتعذر أو متعسر فانه قادر لذاته على جميع الممكنات لااختصاص له بمقدو ر دون مقدو ر ومن هذا شأنه حقيق بأن يؤمن به و يرجى ثوابه و يخشى عقابه ﴿و برزوا لله جميعا﴾ أى يبرزون يوم القيامة وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه كما فى قوله سبحانه ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أو لانه لامضى و لا استقبال بالنسبة اليه سبحانه والمراد بروزهم من قبورهم لامر الله تعالى ومحاسبته أو لله على ظنهم فانهم كانوا يظنون عند ارتكابهم الفواحش سرا أنها تخفى على الله سبحانه فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم ﴿فقال الضعفاء﴾ الأتباع جمع ضعيف والمراد ضعف الرأى وانما كتب بالواو على لفظ من يفخم الالف قبل الهمزة ﴿للذين استكبروا﴾ لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغووهم ﴿انا كنا﴾ فى الدنيا ﴿لكم تبعا﴾ فى تكذيب الرسل عليهم السلام والاعراض عن نصائحهم وهو جمع تابع كغيب فى جمع غائب أو مصدر نعت به مبالغة أو على اضمار أى ذوى تبع ﴿فهل أنتم مغنون﴾ دافعون ﴿عنا﴾ والفاء للدلالة على سببية الاتباع للاغناء والمراد التوبيخ والعتاب والتقريع والتبكيت ﴿من عذاب الله من شئ﴾ من الاولى للبيان واقعة موقع الحال والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول أى بعض الشئ الذى هو عذاب الله تعالى و يجوز كونهما للتبعيض أى بعض شئ هو بعض عذاب الله والاعراب كما سبق و يجوز أن تكون الاولى مفعولا والثانية مصدرا أى فهل أنتم مغنون عنا بعض العذاب بعض الاغناء و يعضد الاول قوله تعالى فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ﴿قالوا﴾ أى المستكبرون جوابا عن معاتبة الأتباع واعتذارا عما فعلوا بهم ﴿لو هدانا الله﴾ أى للايمان و وفقنا له ﴿لهديناكم﴾ ولكن ضللنا فأضللناكم أى اخترنا لكم مااخترناه لأنفسنا أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنينا عنكم كما عرضناكم له ولكن سد دوننا طريق الخلاص و لات حين مناص ﴿سواء علينا أجزعنا﴾ مما لقينا ﴿أم صبرنا﴾ على ذلك أى مستو علينا الجزع والصبر فى عدم الانجاء والهمزة وأم لتأكيد التسوية كما فى قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم وانما أسندوهما ونسبوا استواءهما الى ضمير المتكلم المنتظم للمخاطبين أيضا مبالغة فى النهى عن التوبيخ باعلام أنهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم و يجوز أن يكون قوله سواء علينا الخ من كلام الفريقين على منوال قوله تعالى ذلك ليعلم انى لم أخنه و يؤيده ماروى أنهم يقولون تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون كذلك فلا ينفعهم فعند ذلك يقولون ذلك و لما كان عتاب الأتباع من باب الجزع ذيلوا جوابهم ببيان أن لاجدوى فى ذلك فقالوا ﴿ما لنا من محيص﴾ من منجى ومهرب من العذاب من حاص الحمار اذا عدل بالفرار وهو اما اسم مكان كالمبيت والمصيف أو مصدر كالمغيب والمشيب وهى جملة مفسرة لاجمال مافيه الاستواء فلا محل لها من الاعراب أو حال مؤكدة أو بدل منه ﴿وقال الشيطان﴾ الذى أضل كلا الفريقين واستتبعهما عندما عتاه بما قاله الأتباع للمستكبرين ﴿لما قضى الامر﴾ أى أحكم وفرغ منه وهو الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار خطيبا فى محفل الاشقياء من الثقلين ﴿ان الله وعدكم وعد الحق﴾ أى وعدا من حقه أن ينجز فأنجزه أو وعدا أنجزه وهو الوعد بالبعث والجزاء ﴿و وعدتكم﴾ أى وعد الباطل وهو أن لابعث و لا جزاء ولئن كان فالاصنام شفعاؤكم

ولم يصرح ببطلانه لما دل عليه قوله ﴿فأخلفتكم﴾ أى موعدى على حذف المفعول الثانى أى نقضته جعل خلف وعده كالاخلاف منه كأنه كان قادرا على انجازه وأنى له ذلك ﴿وما كان لى عليكم من سلطان﴾ أى تسلط أو حجة تدل على صدق ﴿الا أن دعوتكم﴾ الا دعائى اياكم اليه وتسويله وهو وان لم يكن من باب السلطان لكنه أبرزه فى، مبرو زه على طريقة تحية بينهم ضرب وجيع مبالغة فى نفى السلطان عن نفسه كأنه قال انما يكون لى عليكم سلطان اذا كان مجرد الدعاء من بابه ويجوز كون الاستثناء منقطعا ﴿فاستجبتم لى﴾ فأسرعتم اجابتى ﴿فلا تلومونى﴾ بوعدى اياكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر والالجاء كما يدل عليه الفاء وقرىء بالياء على وجه الالتفات كما فى قوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم ﴿ولوموا أنفسكم﴾ حيث استجبتم لى باختياركم حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل بمجرد تزيين وتسويل ولم تستجيبوا ربكم اذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبيناب والحجج وليس مراده التنصل عن توجه اللائمة اليه بالمرة بل بيان أنهم أحق بها منه وليس فيه دلالة على استقلال العبد فى افعاله كما زعمت المعتزلة بل يكفى فى ذلك أن يكون لقدرته الكاسبة التى عليها يدور فلك التكليف مدخل فيه فانه سبحانه انما يخلق أفعاله حسبما يختاره وعليه تترتب السعادة والشقاوة وما قيل من أنه يستدعى أن يقال فلا تلومونى ولا أنفسكم فان الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه مبنى على عدم الفرق بين مذهب أهل الحق وبين مسلك الجبرية ﴿ما أنا بمصرخكم﴾ أى بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب ﴿وما أنتم بمصرخى﴾ مما أنا فيه وانما تعرض لذلك مع أنه لم يكن فى حيز الاحتمال مبالغة فى بيان عدم اصراخه اياهم وايذانا بأنه أيضا مبتلى بمثل ما ابتلوا به ومحتاج الى الاصراخ فكيف من اصراخ الغير ولذلك آثر الجملة الاسمية فكان ما مضى كان جوابا منه عن توبيخهم وتقريعهم وهذا جواب عن استغاثتهم واستعانتهم به فى استدفاع ما دهمهم من العذاب وقرىء بكسر الياء ﴿انى كفرت﴾ اليوم ﴿بما أشركتمونى من قبل﴾ أى باشراككم اياى بمعنى تبرأت منه واستنكرته كقوله تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم يعنى أن اشراككم لى بالله سبحانه هو الذى يطمعكم فى نصرتى لكم بأن كان لكم على حق حيث جعلتمونى معبودا وكنت أود ذلك وأرغب فيه فاليوم كفرت بذلك ولم أحمده ولم أقبله منكم بل تبرأت منه ومنكم فلم يبق بينى وبينكم علاقة أو كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذى أشركتمونيه وهو الله تعالى كما فى قوله سبحان ما سخركن لنا فيكون تعليلا لعدم اصراخه فان الكافر بالله سبحانه بمعزل من الاغاثة والاعانة سواء كان ذلك بالمدافعة أو الشفاعة وأما جعله تعليلا لعدم اصراخهم اياه فلا وجه له اذلا احتمال له حتى يحتاج الى التعليل ولان تعليل عدم اصراخهم بكفره يوهم أنهم بسبيل من ذلك لولا المانع من جهته ﴿ان الظالمين لهم عذاب أليم﴾ تتمة كلامه أو ابتداء كلام من جهة الله عز وجل وفى حكاية أمثاله لطف للسامعين وايقاظ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم﴾ أى بأمره أو بتوفيقه وهدايته وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم اظهار مزيد اللطف بهم والمدخلون هم الملائكة عليهم السلام وقرىء على صيغة التكلم فيكون قوله تعالى باذن ربهم متعلقا بقوله تعالى ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ أى يحييهم الملائكة بالسلام باذن ربهم ﴿ألم تر﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وقد علق بما بعده من قوله تعالى ﴿كيف ضرب الله مثلا﴾ أى كيف اعتمده ووضعه فى موضعه اللائق به ﴿كلمة طيبة﴾ منصوب بمضمر أى جعل كلمة طيبة هى كلمة التوحيد أو كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة ﴿كشجرة طيبة﴾ أى حكم بأنها مثلها لأنه تعالى صيرها مثلها فى الخارج وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا كقولك شرف الأمير زيدا كساه حلة وحمله على فرس ويجوز أن يكون كلمة بدلا من مثلا وكشجرة صفتها أو خبر مبتدا محذوف أى هى كشجرة وأن يكون أول

مفعولى ضرب اجراء له مجرى جعل قد أخر عن ثانيهما أعنى مثلا لئلا يبعد عن صفته التى هى كشجرة وقد قرئت بالرفع على الابتداء ﴿أصلها ثابت﴾ أى ضارب بعروقه فى الارض وقرأ أنس بن مالك رضى الله عنه كشجرة طيبة ثابت أصلها وقراءة الجماعة أقوى سبكا وأنسب بقرينته أعنى قوله تعالى ﴿وفرعها﴾ أى أعلاها ﴿فى السماء﴾ فى جهة العلو ويجوز أن يراد وفروعها على الاكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع ﴿تؤتى أكلها﴾ تعطى ثمرها ﴿كل حين﴾ وقته الله تعالى لاثمارها ﴿باذن ربها﴾ بارادة خالقها والمراد بالشجرة المنعوتة اما النخلة كما روى مرفوعا أو شجرة فى الجنة ﴿و يضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ لان فى ضربها زيادة افهام وتذكير فانه تصوير للمعانى بصور المحسوسات ﴿ومثل كلمة خبيثة﴾ هى كلمة الكفر والدعاء اليه أو تكذيب الحق أو مايعم الكل أو كل كلمة قبيحة ﴿كشجرة خبيثة﴾ أى كمثل شجرة خبيثة قيل هى كل شجرة لايطيب ثمرها كالحنظل والكشوث ونحوهما وتغيير الاسلوب للايذان بأن ذلك غير مقصود الضرب والبيان وانما ذلك أمر ظاهر يعرفه كل أحد ﴿اجتثت﴾ استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية ﴿من فوق الارض﴾ لكون عروقها قريبة منه ﴿مالها من قرار﴾ استقرار عليها ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ الذى ثبت بالحجة عندهم وتمكن فى قلوبهم وهو الكلمة الطيبة التى ذكرت صفتها العجيبة ﴿فى الحيوة الدنيا﴾ فلا يزالون عنه اذا افتتنوا فى دينهم كزكريا و يحيى وجرجيس وشمسون والذين فتنهم أصحاب الأخدود ﴿و فى الآخرة﴾ فلا يتلعثمون اذا سئلوا عن معتقدهم فى الموقف و لاتدهشهم أهوال القيامة أو عند سؤال القبر . روى أنه عليه الصلاة والسلام ذكر قبض روح المؤمن فقال ثم يعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فى قبره فيقولان من ربك ومادينك ومن نبيك فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبيي محمد عليه الصلاة والسلام فينادى مناد من السماء انه صدق عبدى فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وهذا مثال ايتاء الشجرة المذكورة أكلها كل حين قال الثعلبى فى تفسيره أخبرنى أبو القاسم بن حبيب فى سنة ست وثمانين وثلثمائة قال سمعت أبا الطيب محمد بن على الخياط يقول سمعت سهل ابن عمار العملى يقول رأيت يزيد بن هرون فى منامى بعد موته فقلت مافعل الله بك قال أتانى فى قبرى ملكان فظان فقالا من ربك ومادينك ومن نبيك فأخذت بلحيتى البيضاء فقلت لهما أمثلى يقال هذا وقد علمت الناس جوابكما ثمانين سنة فذهبا ﴿و يضل الله الظالمين﴾ أى يخلق فيهما الضلال عن الحق الذى ثبت المؤمنين عليه حسب ارادتهم واختيارهم والمراد بهم الكفرة بدليل مايقابله و وصفهم بالظلم اما باعتبار وضعهم للشىء فى غير موضعه واما باعتبار ظلمهم لانفسهم حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها فلم يهتدوا الى القول الثابت أو كل من ظلم نفسه بالاقتصار على التقليد والاعراض عن البينات الواضحة فلا يتثبت فى مواقف الفتن و لايهتدى الى الحق فالمراد بالذين آمنوا حينئذ المخلصون فى الايمان الراسخون فى الايقان كما ينبىء عنه التثبيت لكنه يوهم كون كلمة التوحيد اذا كانت لا عن ايقان داخلة تحت ما الاقرار له من الشجرة المضروبة مثلا ﴿و يفعل الله مايشاء﴾ من تثبيت بعض واضلال آخرين حسبما توجبه مشيئته التابعة للحكم البالغة المقتضية لذلك و فى اظهار الاسم الجليل فى الموضعين من الفخامة وتربية المهابة مالايخفى مع مافيه من الايذان بالتفاوت فى مبدأ التثبيت والاضلال فان مبدأ صدور كل منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العلا غير ماهو مبدأ صدور الآخر ﴿ألم تر﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد مما صنع الكفرة من الاباطيل التى لاتكاد تصدر عمن له أدنى ادراك أى ألم تنظر ﴿الى الذين بدلوا نعمة الله﴾ أى شكر نعمته تعالى بأن وضعوا موضعه ﴿كفرا﴾ عظيما وغمطا لها أو بدلوا نفس النعمة كفرا فانهم لما كفروها سلبوها فصاروا مستبدلين بها كفرا كأهل مكة حيث خلقهم الله سبحانه وأسكنهم حرمه الآمن الذى يجبى اليه ثمرات كل شىء وجعلهم قوام بيته وشرفهم بمحمد عليه الصلاة والسلام

فكفر واذلك فقحطوا سبع سنين وقتلوا وأسروا يوم بدر فصاروا أذلاء مسلوبى النعمة باقين بالكفر بدلها وعن عمر وعلى رضى الله عنهما هم الافجران من قريش بنو المغيرة و بنو أمية أما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية فمتعوا الى حين كأنهما يتأولان ماسيتلى من قوله عز وجل قل تمتعوا الآية ﴿وأحلوا﴾ أى أنزلوا ﴿قومهم﴾ بارشادهم اياهم الى طريقة الشرك والضلال وعدم التعرض لحلولهم لدلالة الاحلال عليه اذهو فرع الحلول كقوله تعالى يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴿دار البوار﴾ دار الهلاك الذى لاهلاك وراءه ﴿جهنم﴾ عطف بيان لها وفى الابهام ثم البيان مالايخفى من التهويل ﴿يصلونها﴾ حال منها أو من قومهم أى داخلين فيها مقاسين لحرها أواستئناف لبيان كيفية الحلول أومفسر لفعل يقدر ناصبا لجهنم فالمراد بالاحلال المذكور حينئذ تعريضهم للهلاك بالقتل والاسر لكن قوله تعالى قل تمتعوا فان مصيركم الى النار أنسب بالتفسير الأول ﴿وبئس القرار﴾ على حذف المخصوص بالذم أى بئس المقر جهنم أو بئس القرار قرارهم فيها وفيه بيان أن حلولهم وصليهم على وجه الدوام والاستمرار ﴿وجعلوا﴾ عطف على أحلوا وما عطف عليه داخل معهما فى حيز الصلة وحكم التعجيب أى جعلوا فى اعتقادهم وحكمهم ﴿لله﴾ الفرد الصمد الذى ليس كمثله شىء وهو الواحد القهار ﴿أندادا﴾ أشباها فى التسمية أو فى العبادة ﴿ليضلوا﴾ قومهم الذين يشايعونهم حسبما ضلوا ﴿عن سبيله﴾ القويم الذى هو التوحيد و يوقعوهم فى ورطة الكفر والضلال ولعل تغيير الترتيب مع أن مقتضى ظاهر النظم أن يذكر كفرانهم نعمة الله تعالى ثم كفرهم بذاته تعالى باتخاذ الأنداد ثم اضلالهم لقومهم المؤدى الى احلالهم دار البوار لتثنية التعجيب وتكريره والايذان بأن كل واحد من وضع الكفر موضع الشكر واحلال القوم دار البوار واتخاذ الأنداد للاضلال أمر يقضى منه العجب ولوسيق النظم على نسق الوجود لربما فهم التعجيب من مجموع الهنات الثلاث كما فى قصة البقرة وقرىء ليضلوا بالفتح وأياما كان فليس ذلك غرضا حقيقيا لهم من اتخاذ الأنداد لكن لما كان ذلك نتيجة له شبه بالغرض وأدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعية ﴿قل﴾ تهديدا لأولئك الضالين المضلين ونعيا عليهم وايذانا بأنهم لشدة ابائهم قبول الحق وفرط انهماكهم فى الباطل وعدم ارعوائهم عن ذلك بحال أحقاء بأن يضرب عنهم صفحا و يعطف عنهم عنان العظة ويخلوا وشأنهم ولاينهوا عنه بل يؤمروا بمباشرته مبالغة فى التخلية والخذلان ومسارعة الى بيان عاقبته الوخيمة و يقال لهم ﴿تمتعوا﴾ بما أنتم عليه من الشهوات التى من جملتها كفران النعم العظام واستتباع الناس فى عبادة الاصنام ﴿فان مصيركم الى النار﴾ ليس الا فلابد لكم من تعاطى ما يوجب ذلك ويقتضيه من أحوالكم بل هى فى الحقيقة صورة لدخولها ومثال له حسبما يلوح به قوله سبحانه وأحلوا قومهم دار البوار الخ فهو تعليل للامر المأمور وفيه من التهديد الشديد والوعيد الأكيد مالا يوصف أوقل لهم تصويرا لحالهم وتعبيرا عما يلجئهم الى ذلك تمتعوا ايذانا بأنهم لفرط انغماسهم فى التمتع بما هم فيه من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم مأمورون بذلك من قبل آمر الشهوة مذعنون لحكمه منقادون لأمره كدأب مأمور ساع فى خدمة آمر مطاع فليس قوله تعالى فان مصيركم الى النار حينئذ تعليلا للامر بل هو جواب شرط ينسحب عليه الكلام كأنه قيل هذه حالكم فان دمتم عليه فان مصيركم الى النار وفيه التهديد والوعيد لافى الأمر ﴿قل لعبادى الذين آمنوا﴾ خصهم بالاضافة اليه تنويها لهم وتنبيها على أنهم المقيمون لوظائف العبودية الموفون بحقوقها وترك العاطف بين الأمرين للايذان بتباين حاليهما باعتبار المقول تهديدا وتشريفا والمقول ههنا محذوف دل عليه الجواب أى قل لهم أقيموا وأنفقوا ﴿يقيموا الصلوة و ينفقوا مما رزقناهم﴾ أى يداوموا على ذلك وفيه ايذان بكمال مطاوعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم وغاية مسارعتهم الى الامتثال بأوامره وقد جوزوا أن يكون المقول يقيموا و ينفقوا بحذف لام الأمر عنهما وانما حسن ذلك دون الحذف فى قوله

محمد تفد نفسك كل نفس　اذا ما خفت من أمر تبالا

لدلالة قل عليه وقيل هما جوابا أقيموا وأنفقوا اقد أقيما مقامهما وليس بذاك ﴿سرا وعلانية﴾ منتصبان على المصدرية من الأمر المقدر لا من جواب الأمر المذكور أى أنفقوا انفاق سر وعلانية والأحب فى الانفاق اخفاء المتطوع به واعلان الواجب والمراد حث المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنية والمالية و ترك التمتع بمتاع الدنيا والركون اليها كما هو صنيع الكفرة ﴿من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه﴾ فيبتاع المقصر ما يتلافى به تقصيره أو يفتدى به نفسه والمقصود نفى عقد المعاوضة بالمرة وتخصيص البيع بالذكر للايجاز مع المبالغة فى نفى العقد اذ انتفاء البيع يستلزم انتفاء الشراء على أبلغ وجه وانتفاؤه بما يتصور مع تحقق الايجاب من قبل البائع ﴿ولا خلال﴾ ولا مخالة فيشفع له خليل أو يسامحه بمال يفتدى به نفسه أو من قبل أن يأتى يوم لا اثر فيه لما لهجوا بتعاطيه من البيع والمخالة ولا انتفاع بذلك وانما الانتفاع والارتفاق فيه بالانفاق لوجه الله سبحانه والظاهر أن من متعلقة بأنفقوا وتذكير اتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه كما فى سورة البقرة من حيث ان كلا من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير معاوضة وتبرعا وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين فى الدنيا وعدم الانتفاع بهما من أقوى الدواعى الى الاتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الانفاق فى سبيل الله عز وجل أو من حيث ان ادخار المال وترك انفاقه انما يقع غالبا للتجارات والمهاداة فحيث لا يمكن ذلك فى الآخرة فلا وجه لادخاره الى وقت الموت وتخصيص التأكيد بذلك لميل الطباع الى المال وكونها مجبولة على حبه والضنة به ولا يبعد أن يكون تأكيدا لمضمون الأمر باقامة الصلاة أيضا من حيث ان تركها كثيرا ما يكون بالاشتغال بالبياعات والمخالات كما فى قوله تعالى واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وقرىء بالفتح فيهما على ارادة النفى العام ودلالة الرفع على ذلك باعتبار خطابى هو وقوعه فى جواب هل فيه بيع أو خلال ﴿الله﴾ مبتدأ خبره ﴿الذى خلق السموات﴾ وما فيها من الأجرام العلوية ﴿والأرض﴾ وما فيها من أنواع المخلوقات لما ذكر أحوال الكافرين لنعم الله تعالى وأمر المؤمنين باقامة مراسم الطاعة شكرا لنعمه شرع فى تفصيل ما يستوجب على كافة الانام المثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام والمنن الجسام حثا للمؤمنين عليها وتقريعا للكفرة المخلين بها الواضعين موضعها الكفر والمعاصى وفى جعل المبتدا الاسم الجليل والخبر الاسم الموصول بتلك الأفاعيل العظيمة من خلق هذه الاجرام العظام وانزال الأمطار واخراج الثمرات وما يتلوها من الآثار العجيبة ما لا يخفى من تربية المهابة والدلالة على قوة السلطان ﴿وأنزل من السماء﴾ أى السحاب فان كل ما علاك سماء أو من الفلك فان المطر منه يبتدىء الى السحاب ومنه الى الأرض على ما دلت عليه ظواهر النصوص أو من أسباب سماوية تثير الأجزاء الرطبة من أعماق الأرض الى الجو فينعقد سحابا ماطرا وأياما كان فمن ابتدائية ﴿ماء﴾ أى نوعا منه هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب اما باعتبار كونه مبدأ لنزوله أو لتشريفه كما فى قولك أعطاه السلطان من خزانته مالا أو لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر ﴿فأخرج به﴾ بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾ الفائتة للحصر اما لان صيغ الجموع يتعاور بعضها موضع بعض واما لانه أريد بمفردها جماعة الثمرة التى فى قولك أدركت ثمرة بستان فلان ﴿رزقا لكم﴾ تعيشون به وهو بمعنى المرزوق شامل للمطعوم والملبوس مفعول لأخرج ومن للتبيين كقولك أنفقت من الدراهم ألفا ويجوز أن يكون من الثمرات مفعولا ورزقا حالا منه أو مصدرا من أخرج بمعنى رزق أو للتبعيض بدليل قوله تعالى فأخرجنا به ثمرات كأنه قيل أنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم اذلم ينزل من السماء كل الماء ولا أخرج بالمطر كل الثمار ولا جعل كل الرزق ثمرا وخروج الثمرات وان كان بمشيئته عز وجل وقدرته لكن جرت عادته تعالى بافاضة صورها وكيفياتها على المواد الممتزجة من الماء والتراب

أوأودع فى المـاء قوة فاعلة و فى الأرض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار وهو قادر على ايجاد الأشياء بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الأسباب كذلك لمـا أن له تعـالى فى انشائها مدرجا من طور الى طور صنائع وحـكما يجدد فيها لأولى الأبصار عبرا وسكونا الى عظيم قدرته ليس ذلك فى ابداعها دفعة وقوله لكم صفة لقوله رزقا ان أريد به المرزوق ومفعول به ان أريد به المصدر كأنه قيل رزقا اياكم ﴿وسخر لكم الفلك﴾ بأن أقدركم على صنعتها واستعمالها بما ألهمكم كيفية ذلك ﴿لتجرى فى البحر﴾ جريا تابعا لارادتكم ﴿بأمره﴾ بمشيئته التى نيط بها كل شىء وتخصيصه بالذكر للتنصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الأعمال واستعمال الآلات كما يترائى من ظاهر الحال ﴿وسخر لكم الانهار﴾ ان أريد بها المياه العظيمة الجارية فى الانهار العظام كما يومىء اليه ذكرها عند البحر فتسخيرها جعلها معدة لانتفاع الناس حيث يتخذون منها جداول يسقون بها زروعهم وجنانهم وما أشبه ذلك وان أريد بها نفس الأنهار فتسخيرها تيسيرها لهم ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ يدأبان فى سيرهما وانارتهما أصالة وخلافة واصلاحهما لمـا نيط بهما صلاحه من المكونات ﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وانضاجها ذكر سبحانه وتعالى أنواع النعم الفائضة عليهم وأبرز كل واحدة منها فى جملة مستقلة تنويها لشأنها وتنبيها على رفعة مكانهـا وتنصيصا على كون كل منها نعمة جليلة مستوجبة للشكر و فى التعبير عن التصريف المتعلق بمـا ذكر من الفلك والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار بالتسخير من الاشعار بمـا فيها من صعوبة المأخذ وعزة المنال والدلالة على عظم السلطان وشدة المحال مالا يخفى وتأخير تسخير الشمس والقمر عن تسخير ماتقدمـه من الامور المعدودة مع مابينه و بين خلق السموات من المناسبة الظاهرة لاستتباع ذكرها لذكر الأرض المستدعى لذكر انزال المـاء منها اليها الموجب لذكر اخراج الرزق الذى من جملته مايحصل بواسطة الفلك والأنهار أوللتفادى عن توهم كون الكل أعنى خلق السموات والأرض وتسخير الشمس والقمر نعمة واحدة كما مر فى قصة البقرة ﴿وآتاكم من كل ماسألتموه﴾ أى أعطاكم بعض جميع ماسألتموه حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة كقوله سبحانه من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد أو آتاكم من كل ذلك مااحتجتم اليه ونيط به انتظام أحوالكم على الوجه المقدر فكأنكم سألتموه أو كل ماطلبتموه بلسان الاستعداد أو كل ماسألتموه على أن من للبيان وكلمة كل للتكثير كقولك فلان يعلم كل شىء وأتاه كل الناس وعليه قوله عز وجل فتحنا عليهم أبواب كل شىء وقيل الأصل وآتاكم من كل ماسألتموه ومالم تسألوه فحذف الثانى لدلالة ماأبقى على ماألقى وقرىء بتنوين كل على أن مانافية ومحل ماسألتموه النصب على الحالية أى آتاكم من كل غير سائليه ﴿وان تعدوا نعمة الله﴾ التى أنعم بها عليكم ﴿لاتحصوها﴾ لاتطيقوا بحصرها ولو اجمالا فانها غير متناهية وأصل الاحصاء أن الحاسب اذا بلغ عقدا معينا من عقود الاعداد وضع حصاة ليحفظ بها ففيه ايذان بعـدم بلوغ مرتبة معتـد بهـا من مراتبها فضـلا عن بلوغ غايتها كيف لا ومامن فرد من أفراد الناس وان كان فى أقصى مراتب الفقر والافلاس ممنوا بأصناف العنايا مبتلى بأنواع الرزايا فهو بحيث لوتأملته ألفيته متقلبا فى نعم لاتحد وممن لاتحصى و لاتعد كأنه قـد أعطى كل ساعة وآن من النعماء ماحواه حيطة الامكان وان كنت فى ريب من ذلك فقدر أنه ملك ملك أقطار العالم ودانت له كافة الامم وأذعنت لطاعته السراة وخضعت لهيبته رقاب العتاة وفاز بكل مرام ونال كل منال وحاز جميع مافى الدنيا من أصناف الأموال من غير ند يزاحمه ولاشريك يساهمه بل قدر أن جميع مافيها من حجر ومدر يواقيت غاليـة ونفائس درر ثم قدر أنه قـد وقع من فقـد مشروب أومطعوم فى حالة بلغت نفسه الحلقوم فهـل يشترى وهو فى تلك الحال بجميع ماله من الملك والمـال لقمة تنجيه عن رواه أوشربة ترويه من ظماه أم يختار الهـلاك

فتذهب الأموال والأملاك بغير بدل يبقى عليه ولا نفع يعود اليه كلا بل يبذل لذلك كل ماتحويه اليدان كائنا ما كان وليس فى صفقته شائبة الخسران فاذن تلك اللقمة والشربة خير مما فى الدنيا بألف رتبة مع أنهما فى طرف الثمام ينالهما متى شاء من الليالى والأيام أوقدر أنه قد احتبس عليه النفس فلادخل منه ماخرج ولا خرج منه ماولج والحين قدحان وأتاه الموت من كل مكان أما يعطى ذلك كله بمقابلة نفس واحد بل يعطيه وهو لرأيه حامد فاذن هو خير من أموال الدنيا بجملتها ومطالبها برمتها مع أنه قد أبيح له كل آن من آنات الليالى والأيام حال اليقظة والمنام هذا من الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد من العقلاء وان رمت العثور على حقيقة الحق والوقوف على كل ما جل من السر ودق فاعلم أن الانسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائقة بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الالهية من العلاقة لما استقر له القرار ولا اطمأنت به الدار الا فى مطمورة العدم والبوار ومهاوى الهلاك والدمار لكن يفيض عليه من الجناب الأقدس تعالى شأنه وتقدس فى كل زمان يمضى وكل آن يمر وينقضى من أنواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية ما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلمه الا العليم الخبير وتوضيحه أنه كما لا يستحق الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء وانما ذلك من جناب المبدأ الأول عز وجل فكما لا يتصور وجوده ابتداء ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الاصلى لا يتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته مالم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الطارىء لان الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبى وأنت خبير بأن ما يتوقف عليه وجوده من الامور الوجودية التى هى علله وشرائطه وان وجب كونها متناهية لوجوب تناهى ما دخل تحت الوجود لكن الامور العدمية التى لها دخل فى وجوده ليست كذلك اذ لا استحالة فى أن يكون لشىء واحد موانع غير متناهية وانما الاستحالة فى دخولها تحت الوجود فارتفاع تلك الموانع التى لا تتناهى أعنى بقاءها على العدم مع امكان وجودها فى أنفسها فى كل آن من آنات وجوده نعم غير متناهية حقيقة لا ادعاء وكذا الحال فى وجودات علله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداء وبقاء وكذا فى كمالاته التابعة لوجوده فاتضح أنه يفيض عليه كل آن نعم لا تتناهى من وجوه شتى فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانك لا تلاحظك العيون بأنظارها ولا تطالعك العقول بافكارها شأنك لا يضاهى واحسانك لا يتناهى ونحن فى معرفتك حائرون وفى اقامة مراسم شكرك قاصرون نسألك الهداية الى مناهج معرفتك والتوفيق لاداء حقوق نعمتك لا نحصى ثناء عليك لا اله الا أنت نستغفرك ونتوب اليك ﴿ان الانسان لظلوم﴾ يظلم النعمة باغفال شكرها أو بوضعه اياها فى غير موضعها أو يظلم نفسه بتعريضها للحرمان ﴿كفار﴾ شديد الكفران وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع كفار فى النعمة يجمع ويمنع واللام فى الانسان للجنس ومصداق الحكم بالظلم والكفران بعض من وجدافيه من أفراده ويدخل فى ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفرا الخ دخولا أوليا ﴿واذ قال ابراهيم﴾ أى واذكر وقت قوله عليه الصلاة والسلام والمقصود من تذكيره تذكير ماوقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل والمراد به تأكيد ماسلف من تعجيبه عليه السلام ببيان فن آخر من جناياتهم حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم بعدما كفروا بالنعم العامة وعصوا أباهم ابراهيم عليه السلام حيث أسكنهم بمكة شرفها الله تعالى لاقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الاصنام والشكر لنعم الله تعالى وسأله تعالى أن يجعله بلدا آمنا ويرزقهم من الثمرات وتهوى قلوب الناس اليهم من كل أوب سحيق فاستجاب الله تعالى دعاءه وجعله حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شىء فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار وجعلوا لله أندادا وفعلوا مافعلوا ﴿رب اجعل هذا البلد﴾ يعنى مكة شرفها الله سبحانه ﴿آمنا﴾ أى ذا أمن أو آمنا أهله بحيث لا يخاف فيه على مامر فى سورة البقرة

والفرق بينه وبين مافيها من قوله رب اجعل هذا بلدا آمنا أن المسؤل هناك البلدية والامن معا وههنا الامن فقط حيث جعل هو المفعول الثانى للجعل وجعل البلد صفة للمفعول الاول فان حمل على تعدد السؤال فلعله عليه السلام سأل أولا كلا الامرين فاستجيب له فى أحدهما وتأخر الآخر الى وقته المقدر لما يقتضيه من الحكمة الداعية اليه ثم كرر السؤال كما هو المعتاد فى الدعاء والابتهال أو كان المسؤل أولا مجرد الأمن المصحح للسكن كما فى سائر البلاد وقد أجيب اليه وثانيا الامن المعهود أو كان هو المسؤل فيهما وقد أجيب اليه أيضا لكن السؤال الثانى للاستدامة والاقتصار على ذلك لانه المقصود الاصلى أو لان المعتاد فى البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الامن وان حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر أن المسؤل كلا الامرين وقد حكى أولا واقتصر هنا على حكاية سؤال الامن لا لمجرد أن نعمة الامن أدخل فى استيجاب الشكر فذكره أنسب بمقام تقريع الكفرة على اغفاله كما قيل بل لان سؤال البلدية قد حكى بقوله تعالى فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم اذ المسؤل هويتها اليهم للمساكنة معهم لا للحج فقط وهو عين سؤال البلدية قد حكى بعبارة أخرى وكان ذلك أول ماقدم عليه السلام مكة كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام لما أسكن اسمعيل وهاجر هناك وعاد متوجها الى الشام تبعته هاجر وجعلت تقول الى من تكلنا فى هذا البلقع وهو لا يرد عليها جوابا حتى قالت آلله أمرك بهذا فقال نعم قالت اذا لا يضيعنا فرضيت ومضى حتى اذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادى فقال ربنا انى أسكنت الآية وانما فصل مابينهما تثنية للامتنان وايذانا بأن كلا منهما نعمة جليلة مستتبعة لشكر كثير كما فى قصة البقرة ﴿ واجنبنى وبنى ﴾ بعدنى واياهم ﴿ أن نعبد الاصنام ﴾ واجعلنا منها فى جانب بعيد أى ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الاسلام والبعد عن عبادة الاصنام وقرىء واجنبنى من الافعال وهما لغة أهل نجد يقولون جنبنى شره وأجنبنى شره وأما أهل الحجاز فيقولون جنبنى شره وفيه دليل على أن عصمة الانبياء عليهم السلام بتوفيق الله تعالى والظاهر أن المراد بنيه أولاده الصلبية فلا احتجاج به لابن عيينة رضى الله عنه على أن أحدا من أولاد اسمعيل عليه السلام لم يعبد الصنم وانما كان لكل قوم حجر نصبوه وقالوا هو حجر والبيت حجر فكانوا يدورون به ويسمونه الدوار فاستحب أن يقال طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت وليت شعرى كيف ذهب عليه مافى القرآن العظيم من قوارع تنعى على قريش عبادة الاصنام على ان فيما ذكره كرا على مافر منه ﴿ رب انهن ﴾ أى الاصنام ﴿ أضللن كثيرا من الناس ﴾ أى تسببن له كقوله تعالى وغرتهم الحيوة الدنيا وهو تعليل لدعائه وانما صدره بالنداء اظهارا لاعتنائه به ورغبة فى استجابته ﴿ فمن تبعنى ﴾ منهم فيما أدعو اليه من التوحيد وملة الاسلام ﴿ فانه منى ﴾ أى بعضى قاله عليه السلام مبالغة فى بيان اختصاصه به أو متصل بى لا ينفك عنى فى أمر الدين ﴿ ومن عصانى ﴾ أى لم يتبعنى والتعبير عنه بالعصيان للايذان بأنه عليه السلام مستمر على الدعوة وأن عدم اتباع من لم يتبعه انما هو لعصيانه لا لانه لم يبلغه الدعوة ﴿ فانك غفور رحيم ﴾ قادر على أن تغفر له وترحمه ابتداء أو بعد توبته وفيه أن كل ذنب فلله تعالى أن يغفره حتى الشرك خلا أن الوعيد قضى بالفرق بينه وبين غيره ﴿ ربنا ﴾ آثر عليه السلام ضمير الجماعة لا لما قيل من تقدم ذكره وذكر بنيه والالراعاه فى قوله رب انهن الخ بل لان الدعاء المصدر به وما أورده بصدد تمهيد مبادى اجابته من قوله ﴿ انى أسكنت ﴾ الآية متعلق بذريته فالتعرض لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخل فى القبول واجابة المسؤل ﴿ من ذريتى ﴾ أى بعضهم أو ذرية من ذريتى فحذف المفعول وهو اسمعيل عليه السلام وما سيولد له فان اسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمن لاسكانهم روى أن هاجر أم اسمعيل عليه السلام كانت لسارة فوهبتها من ابراهيم عليه السلام فلما ولدت له اسمعيل عليه السلام غارت عليهما فناشدته أن يخرجهما

من عندها فأخرجهما الى أرض مكة فأظهر الله تعالى عين زمزم ﴿بواد غير ذى زرع﴾ لايكون فيه زرع أصلا وهو وادى مكة شرفها الله تعالى ﴿عند بيتك﴾ ظرف لأسكنت كقولك صليت بمكة عند الركن لانه صفة لواد أو بدل منه اذ المقصود اظهار كون ذلك الاسكان مع فقدان مباديه بالمرة لمحض التقرب الى الله تعالى والالتجاء الى جواره الكريم كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الحرمة المؤذن بعزة الملتجأ وعصمته عن المكاره فى قوله تعالى ﴿المحرم﴾ حيث حرم التعرض له والتهاون به أولم يزل معظما ممنعا يهابه الجبابرة فى كل عصر أو منع منه الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سمى عتيقا وتسميته اذ ذاك بيتا ولم يكن له بناء وانما كان نشزا مثل الرابية تأتيه السيول فتأخذ ذات اليمين وذات الشمال ليست باعتبار ماسيؤل اليه الامر من بنائه عليه السلام فانه ينزع الى اعتبار عنوان الحرمة أيضا كذلك بل انما هى باعتبار ما كان من قبل فان تعدد بناء الكعبة المعظمة مما لاريب فيه وانما الاختلاف فى كمية عدده وقد ذكرناها فى سورة البقرة بفضل الله تعالى ﴿ربنا ليقيموا الصلوة﴾ متوجهين اليه متبركين به وهو متعلق بأسكنت وتخصيصها بالذكر من بين سائر شعائر الدين لفضلها وتكرير النداء وتوسيطه لاظهار كمال العناية باقامة الصلاة والاهتمام بعرض أن الغرض من اسكانهم بذلك الوادى البلقع ذلك المقصد الاقصى والمطلب الاسنى وكل ذلك لتمهيد مبادى اجابة دعائه واعطاء مسؤله الذى لايتسنى ذلك المرام الا به ولذلك أدخل عليه الفاء فقال ﴿فاجعل أفئدة من الناس﴾ أى أفئدة من أفئدتهم فمن للتبعيض و لذلك قيل لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم وأما مازيد عليه من قولهم ولحجت اليهود والنصارى فغير مناسب للمقام اذ المسؤل توجيه القلوب اليهم للمساكنة معهم لاتوجيهها الى البيت للحج والا لقيل تهوى اليه فانه عين الدعاء بالبلدية قد حكى بعبارة أخرى كما مر أو لابتداء الغاية كقولك القلب منى سقيم أى أفئدة ناس وقرئ آفدة على القلب كآدر فى أدؤر أو على أنه اسم فاعل من أفدت الرحلة أى عجلت أى جماعة من الناس وأفدة بطرح الهمزة من الافئدة أو على النعت من أفد ﴿تهوى اليهم﴾ تسرع اليهم شوقا و ودادا وقرئ على البناء للمفعول من أهواه غيره وتهوى من باب علم أى تحب وتعديته بالى لتضمنه معنى الشوق والنزوع وأول آثار هذه الدعوة ماروى أنه مرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير تحوم على الجبل فقالوا ان هذا الطائر لعائف على الماء فأشرفوا فاذاهم بهاجر فقالوا لها ان شئت كنا معك و آنسناك والماء ماؤك فأذنت لهم و كانوا معها الى أن شب اسمعيل عليه السلام وماتت هاجر فتزوج اسمعيل منهم كما هو المشهور ﴿وارزقهم﴾ أى ذريتى الذين أسكنتهم هناك أو مع من ينحاز اليهم من الناس وانما لم يخص الدعاء بالمؤمنين منهم كما فى قوله وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر اكتفاء بذكر اقامة الصلاة ﴿من الثمرات﴾ من أنواعها بأن يجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك أو يجبى اليه من الاقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى انه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا ابراهيم عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى و وضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهرى رضى الله عنه أنه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم عليه السلام ﴿لعلهم يشكرون﴾ تلك النعمة باقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبودية وقيل اللام فى ليقيموا لام الامر والمراد أمرهم باقامة الصلاة والدعاء من الله تعالى بتوفيقهم لها و لا يناسبه الفاء فى قوله تعالى فاجعل الخ و فى دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الادب والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة مالايخفى فانه عليه السلام بذكر كون الوادى غير ذى زرع بين كمال افتقارهم الى المسؤل و بذكر كون اسكانهم عند البيت المحرم أشار الى أن جوار الكريم يستوجب افاضة النعيم و بعرض كون ذلك الاسكان مع كمال اعواز مرافق

المعاش لمحض اقامة الصلاة وأداء حقوق البيت مهد جميع مبادى اجابة السؤال ولذلك قرنت دعوته عليه السلام بحسن القبول ﴿ربنا انك تعلم مانخفى وما نعلن﴾ من الحاجات وغيرها والمراد بما نخفى ما يقابل مانعلن سواء تعلق به الاخفاء أو لا أى تعلم مانظهره ومالا نظهره فان علمه تعالى متعلق بما لا يخطر بباله مما فيه من الاحوال الخفية فضلا عن اخفائه وتقديم مانخفى على مانعلن لتحقيق المساواة بينهما فى تعلق العلم بهما على أبلغ وجه فكأن تعلقه بما يخفى أقدم منه بما يعلن أولان مرتبة السر والخفاء متقدمة على مرتبة العلن اذما من شئ يعلن الا وهو قبل ذلك خفى فتعلق علمه سبحانه بحالته الاولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية وقصده عليه السلام أن اظهار هذه الحاجات وماهو من مباديها وتتماتها ليس لكونها غير معلومة لك بل انما هو لاظهار العبودية والتخشع لعظمتك والتذلل لعزتك وعرض الافتقار الى ماعندك والاستعجال لنيل أياديك وتكرير النداء للمبالغة فى الضراعة والابتهال وضمير الجماعة لان المراد ليس مجرد علمه تعالى بسره وعلنه بل بجميع خفايا الملك والملكوت وقد حققه بقوله على وجه الاعتراض ﴿وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء﴾ لما أنه العالم بالذات فما من أمر يدخل تحت الوجود كائنا ما كان فى زمان من الازمان الا ووجوده فى ذاته علم بالنسبة اليه سبحانه وانما قال وما يخفى على الله الخ دون أن يقول ويعلم مافى السموات والارض تحقيقا لما عناه بقوله تعلم مانخفى من أن علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة الى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة الى علوم المخلوقات وكلمة فى متعلقة بمحذوف وقع صفة لشئ أى من شئ كائن فيهما أعم من أن يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما أو على وجه الجزئية منهما أو بيخفى وتقديم الارض على السماء مع توسيط لا بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة الى علومنا والالتفات من الخطاب الى اسم الذات المستجمعة للصفات لتربية المهابة والاشعار بعلة الحكم على نهج قوله تعالى ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير والايذان بعمومه لانه ليس بشأن يختص به أو بمن يتعلق به بل شامل لجميع الاشياء فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحح لمبدأ الكل وقيل هو من كلام الله عز وجل وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه وكذلك يفعلون ومن للاستغراق على الوجهين ﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر﴾ أى مع كبرى ويأسى عن الولد قيد الهبة به استعظاما للنعمة واظهاراً لشكرها ﴿اسمعيل واسحق﴾ روى أنه ولد له اسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة أو مائة وسبع عشرة سنة ﴿ان ربى﴾ ومالك أمرى ﴿لسميع الدعاء﴾ لمجيبه من قولهم سمع الملك كلامه اذا اعتد به وهى من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل أضيف الى مفعوله أو فاعله باسناد السماع الى دعاء الله تعالى مجازا وهو مع كونه من تتمة الحمد والشكر اذ هو وصف له تعالى بأن ذلك الجميل سنته المستمرة تعليل على طريقة التذييل للهبة المذكورة وفيه ايذان بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاء بقوله رب هب لى من الصالحين فاقترنت الهبة بقبول الدعوة وتوحيد ضمير المتكلم وان كان عقيب ذكر هبتهما لما أن نعمة الهبة فائضة عليه خاصة وهما من النعم لا من المنعم عليهم ﴿رب اجعلنى مقيم الصلوة﴾ مثابرا عليها معدلا لها وتوحيد ضمير المتكلم مع شمول دعوته لذريته أيضا حيث قال ﴿ومن ذريتى﴾ أى بعضهم من المذكورين ومن يسير سيرتهما من أولادهما للاشعار بأنه المقتدى فى ذلك وذريته أتباع له وان ذكرهم بطريق الاستطراد لا كما فى قوله ربنا انى أسكنت الخ فان اسكانه مع عدم تحققه بلا ملابسة لمن أسكنه انما هو مذكور بطريق التمهيد للدعاء الذى هو مخصوص بذريته وانما خص هذا الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهة الله تعالى أن بعضا منهم لا يكون مقيم الصلاة كقوله تعالى ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴿ربنا وتقبل دعاء﴾ أى دعائى هذا المتعلق بجعلى وجعل بعض ذريتى مقيمى الصلاة ثابتين على ذلك مجتنبين عن عبادة الاصنام ولذلك جئ

بضمير الجماعة ﴿ربنا اغفرلى﴾ أى مافرط منى من ترك الاولى فى باب الدين وغير ذلك مما لا يسلم منه البشر ﴿ولوالدى﴾ وقرئ بالتوحيد و لأبوى وهذا الاستغفار منه عليه السلام انما كان قبل تبين الامر له عليه السلام وقيل أراد بو الديه آدم وحواء وقيل بشرط الاسلام ويرده قوله تعالى الا قول ابراهيم الآية وقدمر فى سورة التوبة نوع تحقيق للمقام وسيأتى تمامه فى سورة مريم بفضل الله تعالى ﴿وللمؤمنين﴾ كافة من ذريته وغيرهم وللايذان باشتراك الكل فى الدعاء بالمغفرة جئ بضمير الجماعة ﴿يوم يقوم الحساب﴾ أى يثبت و يتحقق محاسبة أعمال المكلفين على وجه العدل استعير له من ثبوت القائم على الرجل بالاستقامة ومنه قامت الحرب على ساق والمراد تهويله وقيل أسند اليه قيام أهله مجازا أو حذف المضاف كما فى واسأل القرية واعلم أن ماحكى عنه عليه السلام من الادعية والاذكار وما يتعلق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المحكى و لا على وجه المعية بل صدر عنه فى أزمنة متفرقة حكى مرتبا للدلالة على سوء حال الكفرة بعد ظهور أمره فى الملة وارشاد الناس اليها والتضرع الى الله تعالى لمصالحهم الدينية والدنياوية ﴿و لاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم و المراد تثبيته على ما كان عليه من عدم حسبانه عز وجل كذلك نحو قوله ولا تكونن من المشركين ونظائره مع مافيه من الايذان بكونه واجب الاحتراز عنه فى الغاية حتى نهى عنه من لا يمكن تعاطيه أونهيه عليه السلام عن حسبانه تعالى تاركا لعقابهم على طريقة العفو والتعبير عنه بذلك للمبالغة فى النهى والايذان بأن ذلك الحسبان بمنزلة حسبانه تعالى غافلا عن أعمالهم اذ العلم بذلك مستوجب لعقابهم لامحالة فتركه لو كان لكان للغفلة عما يوجبه من أعمالهم الخبيثة وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم و وعد له أكيد و وعيد للكفرة وسائر الظالمين شديد أو لكل أحد ممن يستعجل عذابهم أو يتوهم اهمالهم للجهل بصفاته تعالى والاغترار بامهاله وقيل معناه لاتحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل عما عملوا بل معاملة من يحافظ على أعمالهم و يجازيهم بذلك نقيرا وقطميرا والمراد بالظالمين أهل مكة ممن عدت مساويهم من تبديل نعمة الله تعالى كفرا واحلال قومهم دار البوار واتخاذ الانداد كما يؤذن به التعرض لحكمة التأخير المنبئ عنه قوله تعالى قل تمتعوا الآية أو جنس الظالمين وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا ﴿انما يؤخرهم﴾ يمهلهم متمتعين بالحظوظ الدنياوية ولا يعجل عقوبتهم حسبما يشاهد وهو استئناف وقع تعليلا للنهى السابق أى دم على ما كنت عليه من عدم حسبانه تعالى غافلا عن أعمالهم و لا تحزن بتأخير ماتستوجبه من العذاب الاليم اذ تأخيره للتشديد والتغليظ أو لا تحسبنه تعالى تاركا لعقوبتهم لما ترى من تأخيرها انما ذلك لأجل هذا أو لا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل و لايؤاخذهم بما عملوا لما ترى من التأخير انما هو لهذه الحكمة وقرئ بالنون وايقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر انما هو عذابهم لتهويل الخطب وتفظيع الحال ببيان أنهم متوجهون الى العذاب مرصدون لامر ما لأنهم باقون باختيارهم وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال بالمرة وأن لا يبقى منهم فى الوجود عين و لا أثر وللايذان بأن المؤخر له من جملة العذاب وعنوانه و لوقيل انما يؤخر عذابهم الخ لما فهم ذلك ﴿ليوم﴾ هائل ﴿تشخص فيه الأبصار﴾ ترتفع أبصار أهل الموقف فيدخل فى زمرتهم الكفرة المعهودون دخولا أوليا أى تبق مفتوحة لاتتحرك أجفانهم من هول مايرونه واعتبار عدم قرارها فى أماكنها اما باعتبار الارتفاع الحسى فى جرم العين واما بجعل الصيغة من شخص من بلد الى بلد وسار فى ارتفاع ﴿مهطعين﴾ مسرعين الى الداعى مقبلين عليه بالخوف والذل والخشوع أومقبلين بأبصارهم عليه لا يقلعون عنه و لا يطرفون هيبة وخوفا وحيث كان ادامة النظر ههنا بالنظر الى الداعى قيل ﴿مقنعى رؤسهم﴾ أى رافعيها مع ادامة النظر من غير التفات الى شئ قاله العتبى وابن عرفة أو ناكسيها و يقال

أقنع رأسه أى طأطأها ونكسها فهو من الاضداد وهما حالان مما دل عليه الابصار من أصحابها أو الثانى حال متداخلة من الضمير فى الأول واضافته غير حقيقية فلا ينافى الحالية ﴿لايرتد اليهم طرفهم﴾ أى لا يرجع اليهم تحريك أجفانهم حسبما كان يرجع اليهم كل لحظة بل تبقى أعينهم مفتوحة لاتطرف أو لاترجع اليهم أجفانهم التى هى آلة الطرف فيكون اسناد الرجوع الى الطرف مجازيا أو هو نفس الجفن قال الفيروزابادى الطرف العين لايجمع لأنه مصدر فى الأصل أو اسم جامع للعين أو لايرجع نظرهم الى أنفسهم فضلا عن أن يرجع الى شىء آخر فيبقون مبهوتين وهو أيضا حال أو بدل من مقنعى الخ أو استئناف والمعنى لايزول ما اعتراهم من شخوص الأبصار وتأخيره عمن هو من تتمته من الاهطاع والاقناع مع ماينه وبين الشخوص المذكور من المناسبة لتربية هذا المعنى ﴿وأفئدتهم هواء﴾ خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهش كأنها نفس الهواء الخالى من كل شاغل ومنه قيل للجبان والاحمق قلبه هواء أى لاقوة و لارأى فيه واعتبار خلوها عن كل خير لايناسب المقام وهو اما حال عاملها لايرتد مفيدة لكون شخوص أبصارهم وعدم ارتداد طرفهم بلافهم ولا اختيار أو جملة مستقلة ﴿وأنذر الناس﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد اعلامه أن تأخيرهم لماذا وأمر له بانذارهم وتخويفهم منه والمراد بالناس الكفار المعبر عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهر اتيان العذاب والعدول اليه من الاضمار للاشعار بأن المراد بالانذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للازعاج والايذاء فالمناسب عدم ذكرهم بعنوان الظلم أو الناس جميعا فان الانذار عام للفريقين كقوله تعالى انما تنذر من اتبع الذكر والاتيان يعمهما من حيث كونهما فى الموقف وان كان لحوقه بالكفار خاصة أى أنذرهم وخوفهم ﴿يوم يأتيهم العذاب﴾ المعهود وهو اليوم الذى وصف بما لايوصف من الأوصاف الهائلة أعنى يوم القيامة وقيل هو يوم موتهم معذبين بالسكرات ولقاء الملائكة بلابشرى أو يوم هلاكهم بالعذاب العاجل و يأباه القصر السابق ﴿فيقول الذين ظلموا﴾ أى فيقولون والعدول عنه الى ماعليه النظم الكريم للتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بأن مالقوه من الشدة انما هو لظلمهم وايثاره على صيغة الفاعل حسبما ذكر أولا للايذان بأن الظلم فى الجملة كاف فى الافضاء الى ماذكر من الأهوال من غير حاجة الى الاستمرار عليه كما ينبىء عنه صيغة الفاعل وعلى تقدير كون المراد بالناس من يعم المسلمين أيضا فالمعنى الذين ظلموا منهم وهم الكفار أو يقول كل من ظلم بالشرك والتكذيب من المنذرين وغيرهم من الامم الخالية فان اتيان العذاب يعمهم كما يشعر بذلك وعدهم باتباع الرسل ﴿ربنا أخرنا﴾ ردنا الى الدنيا وأمهلنا ﴿الى أجل قريب﴾ الى أمد وحد من الزمان قريب ﴿نجب دعوتك﴾ أى الدعوة اليك والى توحيدك أو دعوتك لنا على ألسنة الرسل ففيه ايماء الى أنهم صدقوهم فى أنهم مرسلون من عند الله تعالى ﴿ونتبع الرسل﴾ فيما جاؤنا به أى نتدارك مافرطنا فيه من اجابة الدعوة واتباع الرسل والجمع اما باعتبار اتفاق الجميع على التوحيد و كون عصيانهم للرسول صلى الله عليه وسلم عصيانا لهم جميعا واما باعتبار أن المحكى كلام ظالمى الامم جميعا والمقصود بيان وعد كل أمة باتباع رسولها ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل﴾ على اضمار القول معطوفا على فيقول أى فيقال لهم توبيخا وتبكيتا ألم تؤخروا فى الدنيا ولم تكونوا أقسمتم اذ ذاك بألسنتكم بطرا وأشرا وجهلا وسفها ﴿مالكم من زوال﴾ مما أنتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنياوية أو بألسنة الحال حيث بنيتم مشيدا وأملتم بعيدا ولم تحدثوا أنفسكم بالانتقال منها الى هذه الحالة وفيه اشعار بامتداد زمان التأخير و بعد مداه أو مالكم من زوال من هذه الدار الى دار أخرى للجزاء كقوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت وصيغة الخطاب فى جواب القسم لمراعاة حال الخطاب فى أقسمتم كما فى قوله حلف بالله ليخرجن وهو أدخل فى التوبيخ من أن يقال مالنا مراعاة لحال المقسم ذكر البيهقى عن محمد بن كعب القرظى أنه قال لأهل النار

خمس دعوات يجيبهم الله تعالى فى أربع منها فاذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل فيجيبهم الله تعالى ذلكم بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ثم يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون فيجيبهم الله تعالى فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا الآية ثم يقولون ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل فيجيبهم الله تعالى أولم تكونوا أقسمتم الآية ثم يقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل فيجيبهم الله تعالى أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا و كنا قوما ضالين فيجيبهم الله تعالى اخسؤا فيها و لاتكلمون فلا يتكلمون بعدها أبدا ان هو الازفير وشهيق وعند ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم اللهم انابك نعوذ و بكنفك نلوذ عزجارك وجل ثناؤك و لااله غيرك ﴿وسكنتم﴾ من السكنى بمعنى التبوؤ والايطان وانما استعمل بكلمة فى حيث قيل ﴿فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ جريا على الأصل لأنه منقول عن مطلق السكون الذى حقه التعدية بها أو من السكون واللبث أى قررتم فى مساكنهم مطمئنين سائرين سيرتهم فى الظلم بالكفر والمعاصى غير محدثين لأنفسكم بما لقوا بسبب ما اجترحوا من الموبقات و فى ايقاع الظلم على أنفسهم بعد اطلاقه فيما سلف ايذان بأن غائلة الظلم آئلة الى صاحبه والمراد بهم اما جميع من تقدم من الامم المهلكة على تقدير اختصاص الاستمهال والخطاب السابق بالمنذرين واما أوائلهم من قوم نوح وهود على تقدير عمومهما للكل وهذا الخطاب وما يتلوه باعتبار حال أواخرهم ﴿وتبين لكم﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الاخبار ﴿كيف فعلنا بهم﴾ من الاهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد و كيف منصوب بما بعده من الفعل وليس الجملة فاعلا لتبين كما قاله بعض الكوفيين بل فاعله مادلت هى عليه دلالة واضحة أى فعلنا العجيب بهم وفيه من المبالغة ماليس فى أن يقال مافعلنا بهم كما مر فى قوله تعالى ليسجننه وقرئ و بين ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ أى بينا لكم فى القرآن العظيم على تقدير اختصاص الخطاب بالمنذرين أوعلى ألسنة الأنبياء عليهم السلام على تقدير عمومه لجميع الظالمين صفات مافعلوا ومافعل بهم من الامور التى هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم لتعتبروا بها وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم ومآلكم على مآلهم وتنتقلوا من حلول العذاب العاجل الى حلول العذاب الآجل فترتدعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصى أو بينا لكم أنكم مثلهم فى الكفر واستحقاق العذاب والجمل الثلاث فى موقع الحال من ضمير أقسمتم أى أقسمتم بالخلود والحال أنكم سكنتم فى مساكن المهلكين بظلمهم وتبين لكم فعلنا العجيب بهم ونبهناكم على جلية الحال بضرب الأمثال وقوله عزوجل ﴿وقدمكروا مكرهم﴾ حال من الضمير الأول فى فعلنا بهم أو من الثانى أو منهما جميعا وانما قدم عليه قوله تعالى وضربنا لكم الأمثال لشدة ارتباطه بما قبله أى فعلنا بهم مافعلنا والحال أنهم قدمكروا فى ابطال الحق وتقرير الباطل مكرهم العظيم الذى استفرغوا فى عمله المجهود وجاوزوا فيه كل حد معهود بحيث لايقدر عليه غيرهم فالمراد بيان تناهيهم فى استحقاق مافعل بهم أوقدمكروا مكرهم المذكور فى ترتيب مبادى البقاء ومدافعة أسباب الزوال فالمقصود اظهار عجزهم واضمحلال قدرتهم وحقارتها عند قدرة الله تعالى ﴿وعند الله مكرهم﴾ أى جزاء مكرهم الذى فعلوه على أن المكر مضاف الى فاعله أو أخذه تعالى بهم على أنه مضاف الى مفعوله وتسميته مكرا لكونه بمقابلة مكرهم وجودا وذكرا أو لكونه فى صورة المكر فى الاتيان من حيث لايشعرون وعلى التقديرين فالمراد به ما أفاده قوله عز وجل كيف فعلنا بهم لا انه وعيد مستأنف والجملة حال من الضمير فى مكروا أى مكروا مكرهم وعند الله جزاؤه أو ماهو أعظم منه والمقصود بيان فساد رأيهم حيث باشروا فعلا مع تحقق ما يوجب تركه ﴿وان كان مكرهم﴾ فى العظم والشدة ﴿لتزول منه الجبال﴾

أى وان كان مكرهم فى غاية المتانة والشدة وعبر عن ذلك بكونه مسوى ومعدا لازالة الجبال عن مقارها لكونه مثلا فى ذلك والجملة المصدرة بأن الوصلية معطوفة على جملة مقدرة والمعنى وعند الله جزاء مكرهم أو المكر الذى يحيق بهم ان لم يكن مكرهم لتزول منه الجبال وان كان الخ وقد حذف ذلك حذفا مطردا لدلالة المذكور عليه دلالة واضحة فان الشئ اذا تحقق عند وجود المانع القوى فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور مافى ان الوصلية من التأكيد المعنوى والجواب محذوف دل عليه ماسبق وهو قوله تعالى وعند الله مكرهم وقيل ان نافية واللام لتأكيدها كما فى قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وينصره قراءة ابن مسعود رضى الله عنه وما كان مكرهم فالجملة حينئذ حال من الضمير فى مكروا لامن قوله تعالى وعند الله مكرهم أى مكروا مكرهم والحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال على أنها عبارة عن آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدى الرسل السالفة عليهم السلام التى هى بمنزلة الجبال الراسيات فى الرسوخ وأما كونها عبارة عن أمر النبى صلى الله عليه وسلم وأمر القرآن العظيم كما قيل فلا مجال له اذ الماكرون هم المهلكون لا الساكنون فى مساكنهم من المخاطبين وان خص الخطاب بالمنذرين وقيل هى مخففة من ان والمعنى انه كان مكرهم ليزول منه ماهو كالجبال فى الثبات مما ذكر من الآيات والشرائع والمعجزات والجملة كما هى حال من ضمير مكروا أى مكروا مكرهم المعهود وان الشان كان مكرهم لازالة الآيات والشرائع على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك وكان شأن الآيات والشرائع مانعا من مباشرة المكر لازالته وقد قرأ الكسائى لتزول بفتح اللام على أنها الفارقة والمعنى تعظيم مكرهم فالجملة حال من قوله تعالى وعند الله مكرهم أى عنده تعالى جزاء مكرهم أو المكر بهم والحال أن مكرهم بحيث تزول منه الجبال أى فى غاية الشدة وقرئ بالفتح والنصب على لغة من يفتح لام كى وقرئ وان كاد مكرهم هذا هو الذى يقتضيه النظم الكريم وينساق اليه الطبع السليم وقد قيل ان الضمير فى مكروا للمنذرين والمراد بمكرهم ما أفاده قوله عز وجل واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك الآية وغيره من أنواع مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل الوجه حينئذ أن يكون قوله تعالى وقد مكروا الخ حالا من القول المقدر أى فيقال لهم ما يقال والحال أنهم مع ما فعلوا من الاقسام المذكور مع ماينافيه من السكون فى مساكن المهلكين وتبين أحوالهم وضرب الامثال قد مكروا مكرهم العظيم أى لم يكن الصادر عنهم مجرد الاقسام الذى وبخوا به بل اجترؤا على مثل هذه العظيمة وقوله تعالى وعند الله مكرهم حال من ضمير مكروا حسبما ذكرنا من قبل وقوله تعالى وان كان مكرهم لتزول منه الجبال مسوق لبيان عدم تفاوت الحال فى تحقيق الجزاء بين كون مكرهم قويا أو ضعيفا كما مر هناك وعلى تقدير كون ان نافية فهو حال من ضمير مكروا والجبال عبارة عن أمر النبى صلى الله عليه وسلم أى وقد مكروا والحال أن مكرهم ما كان لتزول منه هاتيك الشرائع والآيات التى هى فى القوة كالجبال وعلى تقدير كونها مخففة من الثقيلة واللام مكسورة يكون حالا منه أيضا على معنى أن ذلك المكر العظيم منهم كان لهذا الغرض على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك لما أن شأن الشرائع أعظم من أن يمكر بها ماكر وعلى تقدير فتح اللام فهو حال من قوله تعالى وعند الله مكرهم كما ذكرنا من قبل فليتأمل ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ لم يرد به والله سبحانه أعلم ماوعده بقوله تعالى انا لننصر رسلنا الآية وقوله كتب الله لأغلبن أنا ورسلى كما قيل فانه لا اختصاص له بالتعذيب لاسيما الاخروى بل ماسلف آنفا من وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى انما يؤخرهم الآية كما يفصح عنه الفاء الداخلة على النهى الذى أريد به تثبيته عليه الصلاة والسلام على ما كان عليه من الثقة بالله تعالى والتيقن بانجاز وعده المذكور المقرون بالامر بانذارهم يوم اتيان العذاب المتضمن لذكر تعذيب الامم السالفة بسبب كفرهم وعصيانهم رسلهم بعد ما وعدهم بذلك كما فصلت قصة كل منهم فى القرآن العظيم فكأنه قيل واذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة وأخبرناك بما يلقونه من

الشدائد وبما يسالونه من الرد الى الدنيا وبما أجبناهم به وقرعناهم بعدم تأملهم فى أحوال من سبقهم من الامم الذين أهلكناهم بظلمهم بعدما وعدنا رسلهم باهلاكهم فدم على ما كنت عليه من اليقين بعدم اخلافنا رسلنا وعدنا ﴿ان الله عزيز﴾ غالب لا يماكر وقادر لا يقادر ﴿ذو انتقام﴾ لاوليائه من أعدائه والجملة تعليل للنهى المذكور وتذييل له وحيث كان الوعد عبارة عما ذكرنا من تعذيبهم خاصة لم يذيل بأن يقال ان الله لا يخلف الميعاد بل تعرض لوصف العزة والانتقام المشعرين بذلك والمراد بالانتقام ما أشير اليه بالفعل وعبر عنه بالمكر ﴿يوم تبدل الارض غير الارض﴾ ظرف لمضمر مستأنف ينسحب عليه النهى المذكور أى ينجزه يوم الخ أو معطوف عليه نحو وارتقب يوم تبدل الارض غير الارض أو لانتقام وهو يوم يأتيهم العذاب بعينه ولكن له أحوال جمة يذكر كل مرة بعنوان مخصوص والتقييد به مع عموم انتقامه للاوقات كلها للافصاح عما هو المقصود من تعذيب الكفرة المؤخر الى ذلك اليوم بموجب الحكمة الداعية اليه وقيل بدل من يوم يأتيهم العذاب أو نصب باذكر أو باضمار لا يخلف وعده يوم تبدل الخ وفيه أيضا ما فى الوجه الثالث من الحاجة الى الاعتذار ولا يجوز أن ينتصب بقوله مخلف وعده لان ما قبل ان لا يعمل فيما بعده وقيل هو غير مانع لان قوله تعالى ان الله عزيز ذو انتقام جملة اعتراضية فلا يبالى بها فاصلا واعلم أن التبديل قد يكون فى الذات كما فى بدلت الدراهم دنانير وعليه قوله عز وجل بدلناهم جلودا غيرها وقد يكون فى الصفات كما فى قولك بدلت الحلقة خاتما اذا غيرت شكلها ومنه قوله تعالى يبدل الله سيئاتهم حسنات على بعض الاقوال والآية الكريمة ليست بنص فى أحد الوجهين فعن على رضى الله عنه تبدل أرضا من فضة وسموات من ذهب وعن ابن مسعود رضى الله عنه تبدل الارض بأرض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الارض وانما تغير صفاتها وأنشد

وما الناس بالناس الذين عهدتهم … وما الدار بالدار التى كنت تعلم

وتبدل السموات بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابا ويدل عليه ما روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال تبدل الارض غير الارض فتبسط وتمدد مد الاديم العكاظى لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴿والسموات﴾ أى وتبدل السموات غير السموات حسبما مر من التفصيل وتقديم تبديل الارض لقربها منا ولكون تبديلها أعظم أثرا بالنسبة الينا ﴿وبرزوا﴾ أى الخلائق أو الظالمون المدلول عليهم بمعونة السباق والمراد بروزهم من أجداثهم التى فى بطون الارض أو ظهورهم بأعمالهم التى كانوا يعملونها سرا ويزعمون أنها لا تظهر أو يعملون عمل من يزعم ذلك ولعل اسناد البروز اليهم مع أنه لاعمالهم للايذان بتشكلهم بأشكال تناسبها وهو معطوف على تبدل والعدول الى صيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه أو حال من الارض بتقدير قد والرابط بينها وبين صاحبها الواو ﴿لله الواحد القهار﴾ للحساب والجزاء والتعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة واظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام فى ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفا له وتحقيق اتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلا من يوم يأتيهم العذاب فان الأمر اذا كان لواحد غلاب لا يغار وقادر لا يضار ولا يغار كان فى غاية ما يكون من الشدة والصعوبة ﴿وترى المجرمين﴾ عطف على برزوا والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار الصورة أو للدلالة على الاستمرار وأما البروز فهو دفعى لا استمرار فيه وعلى تقدير حالية برزوا فهو معطوف على تبدل ويجوز عطفه على عامل الظرف المقدم على تقدير كونه ينجزه ﴿يومئذ﴾ يوم اذ برزوا له عز وجل أو يوم اذ تبدل الارض أو يوم اذ ينجز وعده ﴿مقرنين﴾ قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم فى الجرائم والجرائر أو قرنوا مع الشياطين الذين أغووهم أو قرنوا مع ما اقترفوا من العقائد الزائغة والملكات الردية والاعمال السيئة غب تصور كل منها وتشكلهما بما يناسبها من الصور الموحشة والاشكال الهائلة أو قرنت

أيديهم وأرجلهم الى رقابهم وهو حال من المجرمين ﴿في الأصفاد﴾ في القيود أو الاغلال وهو اما متعلق بقوله تعالى مقرنين أوحال من ضميره أي مصفدين ﴿سرابيلهم﴾ أي قمصانهم ﴿من قطران﴾ جملة من مبتدا وخبر محلها النصب على الحالية من المجرمين أو من ضميرهم في مقرنين رابطتها الضمير فقط كما في كلمته فوه الى في أو مستأنفة والقطران مايتحلب من الابهل فيطبخ فتهنأ به الابل الجربى فيحرق الجرب بما فيه من الحدة الشديدة وقد تصل حرارته الى الجوف وهو أسود منتن يسرع فيه اشتعال النار يطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل ليجتمع عليهم الالوان الاربعة من العذاب لذعه وحرقته واسراع النار في جلودهم واللون الموحش والنتن على أن التفاوت بينه و بين مانشاهده و بين النارين لايكاد يقادر قدره فكأن مانشاهده منهما أسماء مسمياتها في الآخرة فبكرمه العميم نعوذ و بكنفه الواسع نلوذ و يحتمل أن يكون ذلك تمثيلا لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الردية والهنات الوحشية فتجلب اليها الآلام والغموم بل وان يكون القطران المذكور عين مالابسوه في هذه النشأة وجعلوه شعارا لهم من العقائد الباطلة والاعمال السيئة المستجلبة لفنون العذاب قد تجسدت في النشأة الآخرة بتلك الصورة المستتبعة لاشتداد العذاب عصمنا الله سبحانه عن ذلك بمنه ولطفه وقرئ من قطرآن أي نحاس مذاب متناه حره ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ أي تعلوها وتحيط بها النار التي تمس جسدهم المسربل بالقطران وتخصيص الوجوه بالحكم المذكور مع عمومه لسائر أعضائهم لكونها أعز الاعضاء الظاهرة وأشرفها كقوله تعالى أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب الخ ولكونها مجمع المشاعر والحواس التي خلقت لادراك الحق وقد أعرضوا عنه ولم يستعملوها في تدبره كما أن الفؤاد أشرف الاعضاء الباطنة ومحل المعرفة وقد ملؤها بالجهالات ولذلك قيل تطلع على الافئدة أولخلوها عن القطران المغنى عن ذكر غشيان النار لها ولعل تخليتها عنه ليتعارفوا عند انكشاف اللهب أحيانا و يتضاعف عذابهم بالخزي على رؤس الاشهاد وقرئ تغشى أي تتغشى بحذف احدى التاءين والجملة نصب على الحالية لا على أن الواو حالية لانه مضارع مثبت بل على أنها معطوفة على الحال قاله أبو البقاء ﴿ليجزي الله﴾ متعلق بمضمر أي يفعل بهم ذلك ليجزي ﴿كل نفس﴾ مجرمة ﴿ماكسبت﴾ من أنواع الكفر والمعاصي جزاء موافقا لعملها وفيه ايذان بأن جزاءهم مناسب لاعمالهم أو بقوله برزوا على تقدير كونه معطوفا على تبدل والضمير للخلق وقوله وترى المجرمين الخ اعتراض بين المتعلق والمتعلق به أي برزوا للحساب ليجزي الله كل نفس مطيعة أو عاصية ما كسبت من خير أو شر وقد اكتفى بذكر عقاب العصاة تعويلا على شهادة الحال لا سيما مع ملاحظة سبق الرحمة الواسعة ﴿ان الله سريع الحساب﴾ اذ لايشغله شأن عن شأن فيتمه في أعجل مايكون من الزمان فيوفي الجزاء بحسبه أو سريع المجيء يأتي عن قريب أو سريع الانتقام كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى وهو سريع الحساب ﴿هذا﴾ أي ماذكر من قوله سبحانه و لاتحسبن الله غافلا الى قوله سريع الحساب ﴿بلاغ﴾ كفاية في العظة والتذكير من غير حاجة الى ماانطوى عليه السورة الكريمة أو كل القرآن المجيد من فنون العظات والقوارع ﴿للناس﴾ للكفار خاصة على تقدير اختصاص الانذار بهم في قوله تعالى وأنذر الناس أولهم وللمؤمنين كافة على تقدير شموله لهم أيضا وان كان ماشرح مختصا بالظالمين ﴿ولينذروا به﴾ عطف على مقدر واللام متعلقة بالبلاغ أي كفاية لهم في أن ينصحوا و ينذروا به أو هذا بلاغ لهم ليفهموه ولينذروا به على أن البلاغ بمعنى الابلاغ كما في قوله تعالى ماعلى الرسول الا البلاغ أومتعلقة بمحذوف أي ولينذروا به أنزل أو تلي وقرئ لينذروا به من نذر بالشيء اذا علمه وحذره واستعد له ﴿وليعلموا﴾ بالتأمل فيما فيه من الدلائل الواضحة التي هي اهلاك الامم واسكان آخرين مساكنهم وغيرهما مما سبق ولحق ﴿أنما هو اله واحد﴾ لاشريك له وتقديم الانذار لانه الداعي الى التأمل المؤدي الى ماهو غايته

من العلم المذكور والتذكر فى قوله تعالى ﴿وليذكر أولوا الالباب﴾ أى ليتذكروا ما كانوا يعملونه من قبل من التوحيد وغيره من شئون الله عز وجل ومعاملته مع عباده فيرتدعوا عما يرديهم من الصفات التى يتصف بها الكفار و يتدرعوا بما يحظيهم من العقائد الحقة والاعمال الصالحة و فى تخصيص التذكر بأولى الالباب تلويح باختصاص العلم بالكفار ودلالة على أن المشار اليه بهذا ماذكرنا من القوارع المسوقة لشأنهم لا كل السورة المشتملة عليها وعلى ماسيق للمؤمنين أيضا فان فيه مايفيدهم فائدة جديدة وحيث كان مايفيده البلاغ من التوحيد ومايترتب عليه من الاحكام بالنسبة الى الكفرة أمرا حادثا و بالنسبة الى أولى الألباب الثبات على ذلك حسبما أشير اليه عبر عن الأول بالعلم وعن الثانى بالتذكر و روعى ترتيب الوجود مع مافيه من الختم بالحسنى والله سبحانه أعلم ختم الله لنا بالسعادة والحسنى و رزقنا الفوز بمرضاته فى الاولى والعقبى آمين . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة ابراهيم أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من عبد الاصنام ومن لم يعبد والحمد لله وحده

سورة الحجر

(مكية وهى تسع وتسعون آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الر﴾ قدمر الكلام فيه و فى محله فى مطلع سورة الرعد وأخواتها ﴿تلك﴾ اشارة اليه أى تلك السورة العظيمة الشان ﴿آيات الكتاب﴾ الكامل المعهود الغنى عن الوصف به المشهور بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به على الاطلاق أى بعض منه مترجم مستقل باسم خاص فهو عبارة عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزل اذ ذاك اذ هو المتسارع الى الفهم حينئذ عند الاطلاق وعليه يترتب فائدة وصف الآيات بنعت ما أضيفت اليه من نعوت الكمال لا على جعله عبارة عن السورة اذ هى فى الاتصاف بذلك ليست بتلك المرتبة من الشهرة حتى يستغنى عن التصريح بالوصف على أنها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك اشارة الى كل واحدة منها وفيه من التكلف مالا يخفى كما ذكر فى سورة الرعد ﴿وقرآن﴾ أى قرآن عظيم الشأن ﴿مبين﴾ مظهر لما فى تضاعيفه من الحكم والاحكام أو لسبيل الرشد والغى أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام ولقد فخم شأنه العظيم مع ماجمع فيه من وصفى الكتابية والقرآنية على الطريقتين احداهما اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الالهية فكأنه كلها والثانية طريقة كونه ممتازا عن غيره نسيج وحده بديعا فى بابه خارجا عن دائرة البيان وأخرت الطريقة الثانية لما أن الاشارة الى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره من الكتب أدخل فى المدح كيلا يتوهم من أول الأمر أن امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصة به من غير اشتمال على نعوت كمال سائر الكتب الكريمة وهكذا الكلام فى فاتحة سورة النمل خلا أنه قدم فيها القرآن على الكتاب لما سيذكر هناك ولما بين كون السورة الكريمة بعضا من الكتاب والقرآن لتوجيه المخاطبين الى حسن تلقى مافيها من الاحكام والقصص والمواعظ شرع فى بيان ماتتضمنه فقيل ﴿ربما﴾ بضم الراء وتخفيف الباء المفتوحة وقرئ بالتشديد و بفتح الراء مخففا وبزيادة التاء مشددا وفيه ثمانى لغات فتح الراء وضمها مشددا ومخففا وبزيادة التاء أيضا مشددا ومخففا ورب حرف جر لايدخل الا على الاسم وما كافة مصححة لدخوله على الفعل وحقه الدخول على الماضى ودخوله على قوله تعالى ﴿يود الذين كفروا﴾ لما أن المترقب فى أخباره تعالى كالماضى المقطوع فى تحقق الوقوع فكأنه قيل ربما ود الذين كفروا والمراد كفرهم بالكتاب والقرآن و بكونه من عند الله تعالى

﴿لو كانوا مسلمين﴾ منقادين لحكمه ومذعنين لامره وفيه ايذان بأن كفرهم انما كان بالجحود بعد ماعلموا كونه من عند الله تعالى وتلك الودادة يوم القيامة أو عند موتهم أو عند معاينة حالهم وحال المسلمين أو عند رؤيتهم خروج عصاة المسلمين من النار روى أبو موسى الاشعرى رضى الله عنه أنه قال النبى صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة واجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله تعالى من أهل القبلة قال لهم الكفار ألستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما أغنى عنكم اسلامكم وقد صرتم معنا الى النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغضب الله سبحانه لهم بفضل رحمته فيأمر بكل من كان من أهل القبلة فى النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وروى مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لايزال الرب يرحم و يشفع اليه حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة فعند ذلك يتمنون الاسلام والحق أن ذلك محمول على شدة ودادتهم وأما نفس الودادة فليست بمختصة بوقت دون وقت بل هى مقررة مستمرة فى كل آن يمر عليهم وأن المراد بيان ذلك على ماهو عليه من الكثرة وانما جىء بصيغة التقليل جريا على سنن العرب فيما يقصدون به الافراط فيما يعكسون عنه تقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول رب فارس عندى أولا تعدم عندى فارسا وعنده مقانب جمة من الكتائب وقصده فى ذلك التمارى فى تكثير فرسانه ولكنه يريد اظهار براءته من التزيد وابراز أنه ممن يقلل لعلو الهمة كثير ماعنده فضلا عن تكثير القليل وهذه طريقة انما تسلك اذا كان الأمر من الوضوح بحيث لايحوم حوله شائبة ريب فيصار اليه هضما للحق فدل النظم الكريم على ودادة الكافرين للاسلام فى كل آن من آنات اليوم الآخر وأن ذلك من الظهور بحيث لايشتبه على أحد ولوجىء بكلام يدل على ضده وعلى أن تلك الودادة مع كثرتها فى نفسها مما يستقل بالنسبة الى جناب الكبرياء وهذا هو الموافق لمقام بيان حقارة شأن الكفار وعدم الاعتداد بما هم فيه من الكفر والتكذيب كما ينطق به قوله تعالى ذرهم يأكلوا الآية أوذهابا الى الاشعار بأن من شأن العاقل اذا عن له أمر يكون مظنون الحمد أوقليلا مايكون كذلك أن لايفارقه ولايقارف ضده فكيف اذا كان متيقن الحمد كما فى قولهم لعلك ستندم على مافعلت وربما ندم الانسان على مافعل فان المقصود ليس بيان كون الندم مرجو الوجود بلا تيقن به أوقليل الوقوع بل التنبيه على أن العاقل لا يباشر ما يرجى فيه الندم أو يقل وقوعه فيه فكيف بقطعى الوقوع وأنه يكفى قليل الندم فى كونه حاجزا عن ذلك الفعل فكيف كثيره والمقصود من سلوك هذه الطريقة اظهار الترفع والاستغناء عن التصريح بالغرض بناء على ادعاء ظهوره فالمعنى لو كانوا يودون الاسلام مرة واحدة لوجب عليهم أن لايفارقوه فكيف وهم يودونه كل آن وهذا أوفق بمقام استنزالهم عما هم عليه من الكفر وهذان طريقان متمايزان ذاتا ومقاما فمن ظنهما واحدا فقد نأى عن توفية المقام حقه ﴿ذرهم﴾ دعهم عن النهى عما هم عليه بالتذكرة والنصيحة اذ لاسبيل الى ارعوائهم عن ذلك و بالغ فى تخليتهم وشأنهم بل مرهم بتعاطى مايتعاطونه ﴿يأكلوا ويتمتعوا﴾ بدنياهم وفى تقديم الاكل ايذان بأن تمتعهم انما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب والمراد دوامهم على ذلك لا احداثه فانهم كانوا كذلك أو تمتعهم بلا استماع ماينغص عيشهم من القوارع والزواجر فان التمتع على ذلك الوجه أمر حادث يصلح أن يكون مترتبا على تخليتهم وشأنهم ﴿ويلههم﴾ و يشغلهم عن اتباعك أوعن التفكر فيما هم يصيرون اليه أو عن الايمان والطاعة فان الأكل والتمتع يفضيان الى ذلك ﴿الأمل﴾ والتوقع لطول الاعمار و بلوغ الاوطار واستقامة الاحوال وأن لا يلقوا فى العاقبة والمآل الاخيرا فالافعال الثلاثة مجزومة على الجوابية للامر حسبما عرفت من تضمن الامر بالترك للامر بها على طريقة المجاز أو على أن يكون المراد بالافعال المرقومة مباشرتهم لها غافلين عن وخامة عاقبتها غير سامعين لسوء مغبتها أصلا ولاريب فى ترتب ذلك على الامر بالترك فان النهى عماهم

عليه من ارتكاب القبائح بما يشوش عليهم تمتعهم و ينغص عليهم عيشهم فأمر عليه السلام بتركه ليتمرغوا فيما هم فيه
من حظوظهم فيدهمهم مايدهمهم وهم عنه غافلون ﴿فسوف يعلمون﴾ سوء صنيعهم أو وخامة عاقبته أو حقيقة الحال
التى ألجأتهم الى التمنى المذكور حيث لم يعلموا ذلك من جهتك وهو مع كونه وعيداً أيما وعيد وتهديداً غب تهديد تعليل
للامر بالترك فان علمهم ذلك علة لترك النهى والنصيحة لهم وفيه الزام للحجة ومبالغة فى الانذار اذ لا يتحقق الامر
بالضد الا بعد تكرر الانذار وتقرر الجحود والانكار وكذلك ماترتب عليه من الأكل والتمتع والالهاء ﴿وما أهلكنا﴾
شروع فى بيان سر تأخير عذابهم الى يوم القيامة وعدم نظمهم فى سلك الامم الدارجة فى تعجيل العذاب أى ما أهلكنا
﴿من قرية﴾ من القرى بالخسف بها و بأهلها كما فعل ببعضها أو باخلائها عن أهلها غب اهلاكهم كما فعل بآخرين
﴿الا ولها﴾ فى ذلك الشأن ﴿كتاب﴾ أى أجل مقدر مكتوب فى اللوح واجب المراعاة بحيث لايمكن تبديله لوقوعه
حسب الحكمة المقتضية له ﴿معلوم﴾ لاينسى و لا يغفل عنه حتى يتصور التخلف عنه بالتقدم والتأخر فكتاب مبتدأ
خبره الظرف والجملة حال من قرية فانها لعمومها لاسيما بعد تأكده بكلمة من فى حكم الموصوفة كما أشير اليه والمعنى
ما أهلكنا قرية من القرى فى حال من الاحوال الا حال أن يكون لها كتاب أى أجل موقت لمهلكها قد كتبناه لانهلكها
قبل بلوغه معلوم لا يغفل عنه حتى يمكن مخالفته بالتقدم والتأخر أو مرتفع بالظرف والجملة كما هى حال أى ما أهلكنا
قرية من القرى فى حال من الاحوال الا وقد كان لها فى حق هلاكها كتاب أى أجل مقدر مكتوب فى اللوح معلوم لا يغفل
عنه أو صفة لكن لا للقرية المذكورة بل للمقدرة التى هى بدل من المذكورة على المختار فيكون بمنزلة كونه صفة للمذكورة
أى ما أهلكنا قرية من القرى الا قرية لها كتاب معلوم كما فى قوله تعالى ليس لهم طعام الا من ضريع لايسمن فان قوله
تعالى لايسمن صفة لكن لا للطعام المذكور لانه انما يدل على انحصار طعامهم الذى لايسمن فى الضريع وليس المراد
ذلك بل للطعام المقدر بعد الا أى ليس لهم طعام من شىء من الاشياء الا طعام لايسمن فليس فيه فصل بين الموصوف
والصفة بكلمة الا كما توهم وأما توسيط الواو بينهما وان كان القياس عدمه فللايذان بكمال الالتصاق بينهما من حيث ان
الواو شأنها الجمع والربط فان مانحن فيه من الصفة أقوى لصوقا بالموصوف منها به فى قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا
لها منذرون فان امتناع انفكاك الاهلاك عن الاجل المقدر عقلى وعن الانذار عادى جرى عليه السنة الالهية ولما بين
أن الامم المهلكة كان لكل منهم وقت معين لهلاكهم وأن هلاكهم لم يكن الا حسبما كان مكتوبا فى اللوح بين أن كل أمة
من الامم منهم ومن غيرهم لها كتاب لا يمكن التقدم عليه و لا التأخر عنه فقيل ﴿ماتسبق من أمة﴾ من الامم المهلكة
وغيرهم ﴿أجلها﴾ المكتوب فى كتابها أى لايجىء هلاكها قبل مجىء كتابها أو لاتمضى أمة قبل مضى أجلها فان السبق
اذا كان واقعا على زمانى فمعناه المجاوزة والتخليف فاذا قلت سبق زيد عمرا فمعناه أنه جاوزه وخلفه وراءه واذا كان واقعا
على زمان كان الامر بالعكس والسر فى ذلك أن الزمان يعتبر فيه الحركة والتوجه الى المتكلم فما سبقه يتحقق قبل تحققه
وأما الزمانى فانما يعتبر فيه الحركة والتوجه الى ماسيأتى من الزمان فالسابق ماتقدم الى المقصد وايراده بعنوان الاجل
باعتبار ما يقتضيه من السبق كما أن ايراده بعنوان الكتاب المعلوم باعتبار مايوجبه من الاهلاك ﴿ومايستأخرون﴾ أى
ومايتأخرون وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له و ايثار صيغة المضارع فى الفعلين بعد ماذكر نفى
الاهلاك بصيغة الماضى لان المقصود بيان دوامهما واستمرارهما فيما بين الامم الماضية والباقية واسنادهما الى الامة
بعد اسناد الاهلاك الى القرية لما أن السبق والاستئخار حال الامة دون القرية مع مافى الامة من العموم لاهل تلك
القرى وغيرهم ممن أخرت عقوباتهم الى الآخرة وتأخير ذكر عدم تأخرهم عن ذكر عدم سبقهم مع كون المقام مقام

المبالغة فى بيان تحقق عذابهم اما باعتبار تقدم السبق فى الوجود واما باعتبار أن المراد بيان سر تأخير عذابهم مع استحقاقهم لذلك وايراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل و لذلك حذف الجار والمجرور والجملة مبينة لما سبق والمعنى أن تأخير عذابهم الى يوم القيامة حسبما أشير اليه ببيان ودادتهم للاسلام اذذاك و بالامر بتركهم وشأنهم الى أن يعلموا حقيقة الحال انما هو لتأخر أجلهم المقدر لما يقتضيه من الحكم البالغة ومن جملتها ماعلم الله تعالى من ايمان بعض من يخرج منهم الى يوم القيامة ﴿وقالوا﴾ شروع فى بيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب ومايؤول اليه حالهم والقائلون مشركو مكة لغاية تماديهم فى العتو والغى ﴿يا أيها الذى نزل عليه الذكر﴾ خاطبوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتسليما لذلك واعتقادا له بل استهزاء به عليه الصلاة والسلام واشعارا بعلة حكمهم الباطل فى قولهم ﴿انك لمجنون﴾ كدأب فرعون اذ قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون يعنون يامن يدعى مثل هذا الامر البديع الخارق للعادات انك بسبب تلك الدعوى أو بشهادة مايعتريك عندما تدعى أنه ينزل عليك لمجنون وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لان انكارهم متوجه الى كون النازل ذكرا من الله تعالى لا الى كون المنزل عليه رسول الله بعد تسليم كون النازل منه تعالى كما فى قوله تعالى لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم فان الانكار هناك متوجه الى كون المنزل عليه رسول الله تعالى وايراد الفعل على صيغة المجهول لايهام أن ذلك ليس بفعل له فاعل أو لتوجيه الانكار الى كون التنزيل عليه لا الى استناده الى الفاعل ﴿لوما تأتينا﴾ كلمة لو عند تركبها مع ماتفيد ماتفيده عند تركبها مع لا من معنى امتناع الشىء لوجود غيره ومعنى التحضيض خلا أنه عند ارادته لايليها الا فعل ظاهر أو مضمر وعند ارادة المعنى الاول لايليها الا اسم ظاهر أو مقدر عند البصريين والمراد ههنا هو الثانى أى هلا تأتينا ﴿بالملائكة﴾ يشهدون بصحة نبوتك و يعضدونك فى الانذار كقوله تعالى لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا أو يعاقبوننا على التكذيب كما تأتى الامم المكذبة لرسلهم ﴿ان كنت من الصادقين﴾ فى دعواك فان قدرة الله تعالى على ذلك مما لاريب فيه وكذا احتياجك اليه فى تمشية أمرك فانا لانصدقك بدون ذلك أو ان كنت من جملة تلك الرسل الصادقين الذين عذبت أممهم المكذبة لهم ﴿ماننزل الملائكة﴾ بالنون على بناء الفعل لضمير الجلالة من التنزيل وقرىء من الانزال وقرىء تنزل مضارعا من التنزيل على صيغة البناء للمفعول ومن التنزل بحذف احدى التاءين وماضيا منه ومن التنزيل ومن الثلاثى وهو كلام مسوق الى النبى صلى الله عليه وسلم جوابا لهم عن مقالتهم المحكية وردا لاقتراحهم الباطل ولشدة استدعاء ذلك للجواب قدم رده على ماهو جواب عن أولها أعنى قوله انانحن نزلنا الذكر الآية كما فعل فى قوله تعالى قال انما يأتيكم به الله فانه مع كونه جوابا عن قولهم فائتنا بما تعدنا قدم على قوله ولا ينفعكم نصحى الآية مع كونه جوابا عن أول كلامهم الذى هو قولهم يانوح قد جادلتنا لما ذكر من شدة اقتضائه للجواب وليكون أحد الجوابين متصلا بالسؤال و فى العكس يلزم انفصال كل من الجوابين عن سؤاله والعدول عن تطبيقه لظاهر كلامهم بصدد الاقتراح وهو أن يقال ماتأتيهم بهم للايذان بأنهم قد أخطؤا فى التعبير حسبما أخطؤا فى الاقتراح وأن الملائكة لعلو رتبتهم أعلى من أن ينسب اليهم مطلق الاتيان الشامل للانتقال من أحد الأمكنة المتساوية الى الآخر منها بل من الأسفل الى الأعلى وأن يكون مقصد حركاتهم أولئك الكفرة وأن يدخلوا تحت ملكوت أحد من البشر وانما الذى يليق بشأنهم النزول من مقامهم العالى و كون ذلك بطريق التنزيل من جناب الرب الجليل ﴿الا بالحق﴾ أى ملتبسا بالوجه الذى يحق ملابسة التنزيل به مما تقتضيه الحكمة وتجرى به السنة الالهية كقوله سبحانه وماخلقنا السموات والارض ومابينهما الا بالحق والذى اقترحوه من التنزيل لأجل الشهادة لديهم وهم هم ومنزلتهم فى الحقارة والهوان منزلتهم مما لايكاد يدخل تحت الصحة والحكمة أصلا فان ذلك من باب

التنزيل بالوحى الذى لايكاد يفتح على غير الأنبياء الكرام من أفراد كمل المؤمنين فكيف على أمثال أولئك الكفرة اللئام وانما الذى يدخل فى حقهم تحت الحكمة فى الجملة هو التنزيل للتعذيب والاستئصال كما فعل بأضرابهم من الامم السالفة ولوفعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة ﴿وما كانوا اذاً منظرين﴾ جزاء الشرط مقدر وفيه ايذان بانتاج مقدماتهم لنقيض مطلوبهم كما فى قوله تعالى واذن لايلبثون خلافك الاقليلا قال صاحب النظم لفظة اذن مركبة من اذوهو اسم بمعنى الحين تقول أتيتك اذجئتنى أى حين جئتنى ثم ضم اليه أن فصار اذأن ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فمجىء لفظة أن دليل على اضمار فعل بعدها والتقدير وماكانوا اذأن كان ماطلبوه منظرين والمعنى لونزلناهم ماكانوا مؤخرين كدأب سائر الامم المكذبة المستهزئة ومع استحقاقهم لذلك قدجرى قلم القضاء بتأخير عذابهم الى يوم القيامة حسبما أجمل فى قوله تعالى ذرهم يأكلوا و يتمتعوا و يلههم الأمل الخ وحال حائل الحكمة بينهم و بين استئصالهم لتعلق العلم والارادة بازديادهم عذابا و بايمان بعض ذراريهم وأما نظم ايمان بعضهم فى سمط الحكمة فيأباه مقام بيان تماديهم فى الكفر والفساد ولجاجهم فى المكابرة والعناد هذا هو الذى يستدعيه اعجاز التنزيل الجليل وأما ماقيل فى تعليل عدم موافقة التنزيل للحكمة من أنهم حينئذ يكونون مصدقين عن اضطرار أوأنه لاحكمة فى أن تأتيكم بصور تشاهدونها فانه لايزيدكم الالبسا أوأن انزال الملائكة لايكون الابالحق وحصول الفائدة بانزالهم وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنه لو أنزل اليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم فيصير انزالهم عبثا باطلا و لا يكون حقافمع اخلال كل من ذلك بقطعية الباقى لايلزم من فرض وقوع شىء من ذلك تعجيل العذاب الذى يفيده قوله تعالى وما كانوا اذاً منظرين هذا على تقدير كون اقتراحهم لاتيان الملائكة لأجل الشهادة أما على تقدير كون ذلك لتعذيبهم فالمعنى انامانتزل الملائكة للتعذيب الاتنزيلا ملتبسا بالحق الذى تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة حتما بحيث لامحيد عنه ولونزلناهم حسبما اقترحوا ماكان ذلك التنزيل ملتبسا بمقتضى الحكمة الموجبة لتأخير عذابهم الى يوم القيامة لارفقابهم بل تشديدا عليهم كما مر من قبل وحيث كان فى نسبة تنزيلهم للتعذيب الى عدم موافقته الحكمة نوع ايهام لعدم استحقاقهم التعذيب عدل عما يقتضيه الظاهر الى ماعليه النظم الكريم فكأنه قيل لونزلناهم ماكانوا منظرين وذلك غير موافق للحكمة الموجبة لتأخير عذابهم لتشديد عقابهم وقيل المراد بالحق الوحى وقيل العذاب فتدبر ﴿انا نحن نزلنا الذكر﴾ رد لانكارهم التنزيل واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وتسلية له أى نحن بعظم شأننا وعلو جنابنا نزلنا ذلك الذكر الذى أنكروه وأنكروا نزوله عليك ونسبوك بذلك الى الجنون وعموا منزله حيث بنوا الفعل للمفعول ايماء الى أنه أمر لامصدر له وفعل لافاعل له ﴿وانا له لحافظون﴾ من كل مالا يليق به فيدخل فيه تكذيبهم له واستهزاؤهم به دخولا أوليا فيكون وعيدا للمستهزئين وأما الحفظ عن مجرد التحريف والزيادة والنقص وأمثالها فليس بمقتضى المقام فالوجه الحمل على الحفظ من جميع مايقدح فيه من الطعن فيه والمجادلة فى حقيته و يجوز أن يراد حفظه بالاعجاز دليلا على التنزيل من عنده تعالى اذلوكان من عند غير الله لتطرق عليه الزيادة والنقص والاختلاف و فى سبك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شأن التنزيل مالايخفى و فى ايراد الثانية بالجملة الاسمية دلالة على دوام الحفظ والله سبحانه أعلم وقيل الضمير المجرور للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى والله يعصمك من الناس وتأخير هذا الكلام وان كان جوابا عن أول كلامهم الباطل ردا له لما ذكر آنفا ولارتباطه بما يعقبه من قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا﴾ أى رسلا وانما لم يذكر لدلالة مابعده عليه ﴿من قبلك﴾ متعلق بأرسلنا أو بمحذوف هو نعت للمفعول المحذوف أى رسلا كائنة من قبلك ﴿فى شيع الأولين﴾ أى فرقهم وأحزابهم جمع شيعة وهى الفرقة المتفقة على طريقة ومذهب من شاعه اذا تبعه واضافته الى

الأولين من اضافة الموصوف الى صفته عند الفراء ومن حذف الموصوف عند البصريين أى شيع الامم الأولين ومعنى ارسالهم فيهم جعل كل منهم رسولا فيما بين طائفة منهم ليتابعوه فى كل ما يأتى ويذر من أمور الدين ﴿وما يأتيهم من رسول﴾ المرادنفى اتيان كل رسول لشيعته الخاصة به لا نفى اتيان كل رسول لكل واحدة من تلك الشيع جميعا أوعلى سبيل البدل وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة على طريقة حكاية الحال الماضية فان ما لاتدخل فى الاغلب على مضارع الاوهو فى معنى الحال ولا على ماض الاوهو قريب من الحال أى ماأتى شيعة من تلك الشيع رسول خاص بها ﴿الا كانوا به يستهزؤن﴾ كما يفعله هؤلاء الكفرة والجملة فى محل النصب على أنها حال مقدرة من ضمير المفعول فى يأتيهم اذاكان المراد بالاتيان حدوثه أو فى محل الرفع على أنها صفة رسول فان محله الرفع على الفاعلية أى الارسول كانوا به يستهزؤن وأما الجر على أنها صفة باعتبار لفظه فيفضى الى زيادة من الاستغراقية فى الاثبات ويجوز أن يكون منصوبا على الوصفية بأن يقدر الموصوف منصوبا على الاستثناء وان كان المختار الرفع على البدلية وهذا كما ترى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن هذه عادة الجهال مع الأنبياء عليهم السلام وحيث كان الرسول مصحوبا بكتاب من عند الله تعالى تضمن ذكر استهزائهم بالرسول استهزاءهم بالكتاب ولذلك قيل ﴿كذلك﴾ اشارة الى مادل عليه الكلام السابق من القاء الوحى مقرونا بالاستهزاء أى مثل ذلك السلك الذى سلكناه فى قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاؤابه من الكتب ﴿نسلكه﴾ أى الذكر ﴿فى قلوب المجرمين﴾ أى أهل مكة أوجنس المجرمين فيدخلون فيه دخولا أوليا ومحله النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أوحال منه أى نسلكه سلكا مثل ذلك السلك أونسلك السلك حال كونه مثله أى مقرونا بالاستهزاء غير مقبول لما تقتضيه الحكمة فانهم من أهل الخذلان ليس لهم استحقاق لقبول الحق وصيغة المضارع لكون المشبه به مقدما فى الوجود وهو السلك الواقع فى الامم السالفة أوللدلالة على استحضار الصورة والسلك ادخال الشئ فى آخر يقال سلكت الخيط فى الابرة والرمح فى المطعون ﴿لا يؤمنون به﴾ أى بالذكر حال من ضمير نسلكه أى غير مؤمن به أو بيان للجملة السابقة فلامحل لها وقد جعل الضمير للاستهزاء فيتعين البيانية الا أن يجعل الضمير المجرور أيضا له على أن الباء للملابسة أى نسلك الاستهزاء فى قلوبهم حال كونهم غير مؤمنين بملابسته والحال اما مقدرة أو مقارنة للايذان بأن كفرهم مقارن للالقاء كما فى قوله تعالى فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾ أى قد مضت طريقتهم التى سنها الله تعالى فى اهلاكهم حين فعلوا مافعلوا من التكذيب والاستهزاء وهو استئناف جئ به تكملة للتسلية وتصريحا بالوعيد والتهديد ﴿ولو فتحنا عليهم﴾ أى على هؤلاء المقترحين المعاندين ﴿بابا من السماء﴾ أى بابا ما لابابا من أبوابها المعهودة كما قيل ويسرنا لهم الرقى والصعود اليه ﴿فظلوا فيه﴾ فى ذلك الباب ﴿يعرجون﴾ بآلة أو بغيرها ويرون مافيها من العجائب عيانا كما يفيده الظلول أوفظل الملائكة الذين اقترحوا اتيانهم يعرجون فى ذلك الباب وهم يرونه عيانا مستوضحين طول نهارهم ﴿لقالوا﴾ لفرط عنادهم وغلوهم فى المكابرة وتفاديهم عن قبول الحق ﴿انما سكرت أبصارنا﴾ أى سدت من الاحساس من السكر كما يدل عليه القراءة بالتخفيف أوحيرت كما يعضده قراءة من قرأ سكرت أى حارت ﴿بل نحن قوم مسحورون﴾ قد سحرنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قالوه عند ظهور سائر الآيات الباهرة وفى كلمتى الحصر والاضراب دلالة على أنهم يبتون القول بذلك وأن مايرونه لاحقيقة له وانما هو أمر خيل اليهم بالسحر وفى اسمية الجملة الثانية دلالة على دوام مضمونها وايرادها بعد تسكير الابصار لبيان انكارهم لغير مايرونه فان عروج كل منهم الى السماء وان كان مرئيا لغيره فهو معلوم بطريق الوجدان مع قطع النظر عن الابصار فهم يدعون أن ذلك نوع آخر من السحر غير تسكير الابصار ﴿ولقد جعلنا فى السماء بروجا﴾ قصورا ينزلها السيارات وهى البروج

الاثنا عشر المشهورة المختلفة الهيئات والخواص حسبما يدل عليه الرصد والتجربة مع ما اتفق عليه الجمهور من بساطة السماء والجعل ان جعل بمعنى الخلق والابداع وهو الظاهر فالجار متعلق به وان جعل بمعنى التصيير فهو مفعول ثان له متعلق بمحذوف أى جعلنا بروجا كائنة فى السماء ﴿وزيناها﴾ أى السماء بتلك البروج المختلفة الاشكال والكواكب سيارات كانت أو ثوابت ﴿للناظرين﴾ اليها فمعنى التزيين ظاهر أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها فتزيينها ترتيبها على نظام بديع مستتبع للآثار الحسنة ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ مرمى بالنجوم فلا يقدر أن يصعد اليها و يوسوس فى أهلها و يتصرف فيها و يقف على أحوالها ﴿الا من استرق السمع﴾ محله النصب على الاستثناء المتصل ان فسر الحفظ بمنع الشياطين عن التعرض لها على الاطلاق والوقوف على ما فيها فى الجملة أو المنقطع ان فسر ذلك بالمنع عن دخولها والتصرف فيها. عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات و لما ولد النبي صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها واستراق السمع اختلاسه سرا شبه به خطفتهم اليسيرة من قطان السموات بما بينهم من المناسبة فى الجوهر أو بالاستدلال من الاوضاع ﴿فأتبعه﴾ أى تبعه ولحقه ﴿شهاب﴾ لهب محرق وهو شعلة نار ساطعة وقد يطلق على الكواكب والسنان لما فيهما من البريق ﴿مبين﴾ ظاهر أمره للمبصرين قال معمر قلت لابن شهاب الزهرى أكان يرمى بالنجوم فى الجاهلية قال نعم وان النجم ينقض و يرمى به الشيطان فيقتله أو يخبله لئلا يعود الى استراق السمع ثم يعود الى مكانه قال أفرأيت قوله تعالى وأنا كنا نقعد منها مقاعد الآية قال غلظت وشدد أمرها حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن قتيبة ان الرجم كان قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام ولكن لم يكن فى شدة الحراسة كما بعد مبعثه عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا يخطىء أبدا فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه و جنبه و يده حيث يشاء الله تعالى ومنهم من يخبله فيصير غولا فيضل الناس فى البوادى. قال القرطبى اختلفوا فى أن الشهاب هل يقتل أم لا قال ابن عباس رضى الله عنهما يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل وقال الحسن وطائفة يقتل قال والاول أصح ﴿والارض مددناها﴾ بسطناها وهو بالنصب على الحذف على شريطة التفسير ولم يقرأ بالرفع لرجحان النصب للعطف على الجملة الفعلية أعنى قوله تعالى ولقد جعلنا الخ وليوافق ما بعده أعنى قوله تعالى ﴿وألقينا فيها رواسى﴾ أى جبالا ثوابت وقد مر بيانه فى أول الرعد ﴿وأنبتنا فيها﴾ أى فى الارض أو فيها و فى رواسيها ﴿من كل شىء موزون﴾ بميزان الحكمة ذاتا وصفة ومقدارا وقيل ما يوزن من الذهب والفضة وغيرهما أو من كل شىء مستحسن مناسب أو ما يوزن و يقدر من أبواب النعمة ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ ما تعيشون به من المطاعم والملابس وغيرهما مما يتعلق به البقاء وهى بياء صريحة وقرىء بالهمزة تشبيها له بالشمائل ﴿ومن لستم له برازقين﴾ عطف على معايش أو على محل لكم كأنه قيل جعلنا لكم معايش وجعلنا لكم من لستم برازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب وما أشبهها على طريقة التغليب وذكرهم بهذا العنوان لرد حسبانهم أنهم يكفون مؤناتهم ولتحقيق أن الله تعالى هو الذى يرزقهم واياهم أو وجعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين ﴿وان من شىء﴾ ان للنفى ومن مزيدة للتأكيد وشىء فى محل الرفع على الابتداء أى ما من شىء من الاشياء الممكنة فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليا ﴿الا عندنا خزائنه﴾ الظرف خبر للمبتدا وخزائنه مرتفع به على أنه فاعله لاعتماده أو خبر له والجملة خبر للمبتدا الاول والخزائن جمع الخزانة وهى ما يحفظ فيه نفائس الاموال لا غير غلب فى العرف على ما للملوك والسلاطين من خزائن أرزاق الناس شبهت مقدوراته تعالى الفائتة للحصر المندرجة تحت قدرته

الشاملة فى كونها مستورة عن علوم العالمين ومصونة عن وصول أيديهم مع كال افتقارهم اليها و رغبتهم فيها و كونها مهيأة متأتية لايجاده وتكوينه بحيث متى تعلقت الارادة بوجودها وجدت بلاتأخر بنفائس الاموال المخزونة فى الخزائن السلطانية فذكر الخزائن على طريقة الاستعارة التخييلية ﴿ وما ننزله ﴾ أى ما نوجد ومانكون شيئا من تلك الاشياء ملتبسا بشىء من الاشياء ﴿ الا بقدر معلوم ﴾ أى الا ملتبسا بمقدار معين تقتضيه الحكمة وتستدعيه المشيئة التابعة لها لا بما تقتضيه القدرة فان ذلك غير متناه فان تخصيص كل شىء بصفة معينة وقدر معين و وقت محدود دون ماعداذلك مع استواء الكل فى الامكان واستحقاق تعلق القدرة به لابد له من حكمة تقتضى اختصاص كل من ذلك بما اختص به وهذا البيان سر عدم تكوين الاشياء على وجه الكثرة حسبما هو فى خزائن القدرة وهو اما عطف على مقدر أى ننزله وما ننزله الخ أوحال مما سبق أى عندنا خزائن كل شىء والحال أنا ماننزله الا بقدر معلوم فالأول لبيان سعة القدرة والثانى لبيان بالغ الحكمة وحيث كان انشاء ذلك بطريق التفضل من العالم العلوى الى العالم السفلى كما فى قوله تعالى وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج وكان ذلك بطريق التدريج عبر عنه بالتنزيل وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار ﴿ وأرسلنا الرياح ﴾ عطف على جعلنا لكم فيها معايش وما بينهما اعتراض لتحقيق ماسبق وترشيح مالحق أى أرسلنا الرياح ﴿ لواقح ﴾ أى حوامل شبهت الريح التى تجىء بالخير من انشاء سحاب ماطر بالحامل كما شبه بالعقيم مالايكون كذلك أوملقحات بالشجر والسحاب ونظيره الطوائح بمعنى المطيحات فى قوله ومختبط مما تطيح الطوائح أى المهلكات وقرىء وأرسلنا الريح على ارادة الجنس ﴿ فأنزلنا من السماء ﴾ بعد ما أنشأنا بتلك الرياح سحابا ماطرا ﴿ ماء فأسقيناكموه ﴾ أى جعلناه لكم سقيا وهو أبلغ من سقيناكموه لما فيه من الدلالة على جعل الماء معدا لهم ينتفعون به متى شاؤا ﴿ وماأنتم له بخازنين ﴾ نفى عنهم ما أثبته لجنابه بقوله وان من شىء الا عندنا خزائنه كأنه قيل نحن القادرون على ايجاده وخزنه فى السحاب وانزاله وماأنتم على ذلك بقادرين وقيل ماأنتم بخازنين له بعدما أنزلناه فى الغدران والآبار والعيون بل نحن نخزنه فيها لنجعلها سقيا لكم مع أن طبيعة الماء تقتضى الغور ﴿ وانا لنحن نحيى ﴾ بايجاد الحياة فى بعض الاجسام القابلة لها ﴿ ونميت ﴾ بازالتها عنها وقد يعمم الاحياء والاماتة لما يشمل الحيوان والنبات وتقديم الضمير للحصر وهو اما تأكيد للاول أو مبتدأ خبره الفعل والجملة خبر لانا و لايجوز كونه ضمير الفصل لا لان اللام مانعة من ذلك كما قيل فان النحاة جوزوا دخول لام التأكيد على ضمير الفصل كما فى قوله تعالى ان هذا لهو القصص الحق بل لانه لم يقع بين اسمين ﴿ ونحن الوارثون ﴾ أى الباقون بعد فناء الخلق قاطبة المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك المجازى الحاكمون فى الكل أولا وآخرا وليس لهم الا التصرف الصورى والملك المجازى وفيه تنبيه على أن المتأخر ليس بوارث للمتقدم كما يتراءى من ظاهر الحال ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾ من تقدم منكم ولادة وموتا ﴿ ولقد علمنا المستأخرين ﴾ من تأخر ولادة وموتا أومن خرج من أصلاب الآباء ومن لم يخرج بعد أومن تقدم فى الاسلام والجهاد وسبق الى الطاعة ومن تأخر فى ذلك لايخفى علينا شىء من أحوالكم وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته فان مايدل عليها دليل عليه و فى تكرير قوله تعالى ولقد علمنا مالا يخفى من الدلالة على كمال التأكيد وقيل رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصف الاول فازدحموا عليه فنزلت وقيل ان امرأة حسناء كانت تصلى خلف رسول الله عليه الصلاة والسلام فتقدم بعض الناس لئلا يراها وتأخر آخرون ليروها فنزلت والاول هو المناسب لما سبق وما لحق من قوله تعالى ﴿ وان ربك هو يحشرهم ﴾ أى للجزاء وتوسيط ضمير العظمة للدلالة على أنه هو القادر على حشرهم والمتولى له لاغير لانهم كانوا يستبعدون ذلك و يستنكرونه و يقولون من يحيى العظام وهى رميم أى هو يحشرهم لاغير وفى الالتفات والتعرض لعنوان الربوبية اشعار بعلة الحكم و فى الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام دلالة على اللطف

به عليه الصلاة والسلام ﴿انه حكيم﴾ بالغ الحكمة متقن فى أفعاله فانها عبارة عن العلم بحقائق الاشياء على ماهى عليه والاتيان بالافعال على ما ينبغى ﴿عليم﴾ وسع علمه كل شئ ولعل تقديم صفة الحكمة للايذان باقتضائها للحشر والجزاء ﴿ولقد خلقنا الانسان﴾ أى هذا النوع بأن خلقنا أصله وأول فرد من أفراده خلقا بديعا منطويا على خلق سائر أفراده انطواء اجماليا كما مر تحقيقه فى سورة الأنعام ﴿من صلصال﴾ من طين يابس غير مطبوخ يصلصل أى يصوت عند نقره قيل اذا توهمت فى صوته مدا فهو صليل وان توهمت فيه ترجيعا فهو صلصلة وقيل هو تضعيف صل اذا أنتن ﴿من حمأ﴾ من طين تغير واسود بطول مجاورة الماء وهو صفة لصلصال أى من صلصال كائن من حمأ ﴿مسنون﴾ أى مصور من سنة الوجه وهى صورته أو مصبوب من سن الماء صبه أى مفرغ على هيئة الانسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة فى القوالب وقيل منتن فهو صفة لحمأ وعلى الأولين حقه أن يكون صفة لصلصال وانما أخر عن حمأ تنبيها على أن ابتداء مسنونيته ليس فى حال كونه صلصالا بل فى حال كونه حمأ كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور من ذلك تمثال انسان أجوف فيبس حتى اذا نقر صوت ثم غيره الى جوهر آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿والجان﴾ أبا الجن وقيل ابليس ويجوز أن يراد به الجنس كما هو الظاهر من الانسان لان تشعب الجنس لما كان من فرد واحد مخلوق من مادة واحدة كان الجنس بأسره مخلوقا منها وقرئ بالهمزة وانتصابه بفعل يفسره ﴿خلقناه﴾ وهو أقوى من الرفع للعطف على الجملة الفعلية ﴿من قبل﴾ من قبل خلق الانسان ومن هذا يظهر جواز كون المراد بالمستقدمين أحد الثقلين وبالمستأخرين الآخر والخطاب بقوله منكم للكل ﴿من نار السموم﴾ من نار الحر الشديد النافذ فى المسام ولا امتناع من خلق الحياة فى الاجرام البسيطة كما لا امتناع من خلقها فى الجواهر المجردة فضلا عن الاجساد المؤلفة التى غالب أجزائها الجزء النارى فانها أقبل لها من التى غالب أجزائها الجزء الارضى وقوله تعالى من نار باعتبار الغالب كقوله تعالى خلقكم من تراب ومساق الآية الكريمة كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التى يتوقف عليها امكان الحشر وهو قبول المواد للجمع والاحياء ﴿واذ قال ربك﴾ نصب باضمار اذكر وتذكير الوقت لما مر مرارا من أنه أدخل فى تذكير ما وقع فيه من الحوادث وفى التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن تبليغ الشئ الى كماله اللائق به شيئا فشيئا مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام اشعار بعلة الحكم وتشريف له عليه الصلاة والسلام أى اذكر وقت قوله تعالى ﴿للملائكة انى خالق﴾ فيما سيأتى وفيه ما ليس فى صيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعل له البتة من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلويه ﴿بشرا﴾ أى انسانا قيل ليس هذا عين العبارة الجارية وقت الخطاب بل الظاهر أن يكون قد قيل لهم انى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكن اقتصر عند الحكاية على الاسم وقيل جسما كثيفا يلاقى ويباشر وقيل خلقا بادى البشر بلا صوف ولا شعرة ﴿من صلصال﴾ متعلق بخالق أو بمحذوف وقع صفة لمفعوله أى بشرا كائنا من صلصال كائن ﴿من حمأ مسنون﴾ تقدم تفسيره ولا ينافى هذا ما فى قوله تعالى فى سورة ص من قوله بشرا من طين فان عدم التعرض عند الحكاية لوصف الطين من التغير والاسوداد ولما ورد عليه من آثار التكوين لا يستلزم عدم التعرض لذلك عند وقوع المحكى غايته أنه لم يتعرض له هناك اكتفاء بما شرح ههنا ﴿فاذا سويته﴾ أى صورته بالصورة الانسانية والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه ﴿ونفخت فيه من روحى﴾ النفخ اجراء الريح الى تجويف جسم صالح لامساكها والامتلاء بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل لافاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها أى فاذا كملت استعداده وأفضت عليه ما يحيا به من الروح التى هى من أمرى ﴿فقعوا له﴾ أمر من وقع يقع وفيه دليل على أن ليس المأمور به مجرد الانحناء كما قيل أى اسقطوا له ﴿ساجدين﴾ تحية له وتعظيما أو اسجدوا لله تعالى

على أنه عليه الصلاة والسلام بمنزلة القبلة حيث ظهر فيه تعاجيب آثار قدرته تعالى وحكمته كقول حسان رضى الله تعالى عنه

أليس أول من صلى لقبلتكم وأعلم الناس بالقرآن والسنن

﴿فسجد الملائكة﴾ أى نخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد الملائكة ﴿كلهم﴾ بحيث لم يشذ منهم أحد ﴿أجمعون﴾ بحيث لم يتأخر فى ذلك أحد منهم عن أحد ولا اختصاص لافادة هذا المعنى بالحالية بل يفيده التأكيد أيضا فان الاشتقاق الواضح يرشد الى أن فيه معنى الجمع والمعية بحسب الوضع والأصل فى الخطاب التنزيل على أكمل أحوال الشىء ولا ريب فى أن السجود معا أكمل أصناف السجود لكن شاع استعماله تأكيدا وأقيم مقام كل فى افادة معنى الاحاطة من غير نظر الى الكمال فاذا فهمت الاحاطة من لفظ آخر لم يكن بد من مراعاة الأصل صونا للكلام عن الالغاء وقيل أكدبتأكيدين مبالغة فى التعميم هذا وأما أن سجودهم هذا هل ترتب على ماحكى من الأمر التعليقى كما تقتضيه هذه الآية الكريمة والتى فى سورة ص أو على الأمر التنجيزى كما يستدعيه ما فى غيرهما فقد خرجنا بفضل الله عز وجل عن عهدة تحقيقه فى تفسير سورة البقرة ﴿الا ابليس﴾ استثناء متصل اما لانه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة فعد منهم تغليبا واما لان من الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم وقوله تعالى ﴿أبى أن يكون مع الساجدين﴾ استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء فان مطلق عدم السجود قد يكون مع التردد به علم أنه مع الاباء والاستكبار أو منقطع فيتصل به مابعده أى لكن ابليس أبى أن يكون معهم وفيه دلالة على كمال ركاكة رأيه حيث أدمج فى معصية واحدة ثلاث معاص مخالفة الأمر والاستكبار مع تحقير آدم عليه الصلاة والسلام ومفارقة الجماعة والاباء عن الانتظام فى سلك أولئك المقربين الكرام ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال من قال فماذا قال تعالى عند ذلك فقيل قال ﴿يا ابليس مالك﴾ أى أى سبب لك لاأى غرض لك كما قيل لقوله تعالى مامنعك ﴿ألا تكون﴾ فى أن لاتكون ﴿مع الساجدين﴾ لآدم مع أنهم هم ومنزلتهم فى الشرف منزلتهم وما كان التوبيخ عند وقوعه لمجرد تخلفه عنهم بل لكل من المعاصى الثلاث المذكورة قال تعالى فى سورة الأعراف قال مامنعك ألا تسجد اذ أمرتك وفى سورة ص قال يا ابليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى ولكن اقتصر عند الحكاية فى كل موطن على ماذكر فيه اجتزاء بما ذكر فى موطن آخر واشعارا بأن كل واحدة من تلك المعاصى الثلاث كافية فى التوبيخ واظهار بطلان ما ارتكبه وقد تركت حكاية التوبيخ رأسا فى سورة البقرة وسورة بنى اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه ﴿قال﴾ أى ابليس وهو أيضا استئناف مبنى على السؤال الذى ينساق اليه الكلام ﴿لم أكن لأسجد﴾ اللام لتأكيد النفى أى ينافى حالى ولا يستقيم منى لأنى مخلوق من أشرف العناصر وأعلاها أن أسجد ﴿لبشر﴾ أى جسم كثيف ﴿خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾ اقتصر ههنا على الاشارة الاجمالية الى ادعاء الخيرية وشرف المادة اكتفاء بما صرح به حين قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ولم يكتف اللعين بمجرد ذكر كونه عليه الصلاة والسلام من التراب الذى هو أخس العناصر وأسفلها بل تعرض لكونه مخلوقا منه فى أخس أحواله من كونه طينا متغيرا وقد اكتفى فى سورة الأعراف وسورة ص بما حكى عنه ههنا فاقتصر على حكاية تعرضه لخلقه عليه الصلاة والسلام من طين وكذا فى سورة بنى اسرائيل حيث قيل أأسجد لمن خلقت طينا وفى جوابه دليل على أن قوله تعالى مالك ليس استفسارا عن الغرض بل هو استفسار عن السبب وفى عدوله عن تطبيق جوابه على السؤال روم للتفصى عن المناقشة وأنى له ذلك كأنه قال لم أمتنع عن امتثال الأمر ولا عن الانتظام فى سلك الملائكة بل عما لا يليق بشأنى من الخضوع للمفضول ولقد جرى خذله الله تعالى على سنن قياس عقيم وزل عنه أن ما يدور عليه فلك الفضل والكمال هو التحلى بالمعارف الربانية والتخلى عن الملكات الردية التى أقبحها التكبر والاستعصاء على أمر رب العالمين

جل جلاله ﴿قال فاخرج منها﴾ أى من زمرة الملائكة المعززين لامن السماء فان وسوسته لآدم عليه الصلاة والسلام فى الجنة انما كانت بعد هذا الطرد وقوله تعالى فاهبط منها ليس نصا فى ذلك فان الخروج من بين الملأ الأعلى هبوط وأى هبوط أومن الجنة على أن وسوسته كانت بطريق النداء من بابها كما روى عن الحسن البصرى أو بطريق المشافهة بعد أن احتال فى دخولها وتوسل اليه بالحية كما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ولا ينافى هذا طرده على رؤس الاشهاد لما يقتضيه من الحكم البالغة ﴿فانك رجيم﴾ مطرود من كل خير وكرامة فان من يطرد يرجم بالحجارة أوشيطان يرجم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته فان من عارض النص بالقياس فهو رجيم ملعون ﴿وان عليك اللعنة﴾ الابعاد عن الرحمة وحيث كان ذلك من جهة الله سبحانه وان كان جاريا على ألسنة العباد قيل فى سورة ص وان عليك لعنتى ﴿الى يوم الدين﴾ الى يوم الجزاء والعقوبة وفيه اشعار بتأخير عقابه وجزائه اليه وأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لفعله وانما يتحقق ذلك يومئذ وفيه من التهويل مالا يوصف وجعل ذلك أقصى أمد اللعنة ليس لأنها تنقطع هنالك بل لأنه عند ذلك يعذب بما ينسى به اللعنة من أفانين العذاب فتصير هى كالزائل وقيل انما حدت به لأنه أبعد غاية يضربها الناس كقوله تعالى خالدين فيها مادامت السموات والارض وحيث أمكن كون تأخير العقوبة مع الموت كسائر من أخرت عقوباتهم الى الآخرة من الكفرة طلب اللعين تأخير موته كما حكى عنه بقوله تعالى ﴿قال رب فأنظرنى﴾ أى أمهلنى وأخرنى ولا تمتنى والفاء متعلق بمحذوف ينسحب عليه الكلام أى اذ جعلتنى رجيما فأمهلنى ﴿الى يوم يبعثون﴾ أى آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد بذلك أن يجد فسحة لاغوائهم ويأخذ منهم ثاره وينجو من الموت لاستحالة بعد يوم البعث ﴿قال فانك من المنظرين﴾ وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ماسأله لآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعا لهم فى ذلك دليل على أنه اخبار بالانظار المقدر لهم أزلا لا انشاء لانظار خاص به وقع اجابة لدعائه أى انك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين فالفاء ليست لربط نفس الانظار بالاستنظار بل لربط الاخبار المذكور به كما فى قوله فان ترحم فأنت لذاك أهل فانه لا امكان لجعل الفاء فيه لربط مافيه تعالى من الاهلية القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة بل هى لربط الاخبار بتلك الاهلية للرحمة بوقوعها وأن استنظاره كان طلبا لتأخير الموت اذ به يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير العقوبة كما قيل ونظمه فى ذلك فى سلك من أخرت عقوبتهم الى الآخرة فى علم الله تعالى ممن سبق من الجن ولحق من الثقلين لا يلائم مقام الاستنظار مع الحياة ولأن ذلك التاخير معلوم من اضافة اليوم الى الدين مع اضافته فى السؤال الى البعث كما عرفته وفى سورة الأعراف قال أنظرنى الى يوم يبعثون قال انك من المنظرين بترك التوقيت والنداء والفاء فى الاستنظار والانظار تعويلا على ماذكر ههنا وفى سورة ص فان ايراد كلام واحد على أساليب متعددة غير عزيز فى الكتاب العزيز وأما أن كل أسلوب من أساليب النظم الكريم لابد أن يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره وأن ماحكى من اللعين انما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع الادفعة فمقام المحاورة ان اقتضى أحد الاساليب المذكورة فهو المطابق لمقتضى الحال والبالغ الى طبقة الاعجاز وماعداه قاصر عن رتبة البلاغة فضلا عن الارتقاء الى معالم الاعجاز فقدمر تحقيقه بتوفيق الله تعالى فى سورة الأعراف ﴿الى يوم الوقت المعلوم﴾ وهو وقت النفخة الاولى التى علم أنه يصعق عندها من فى السموات ومن فى الأرض الامن شاء الله تعالى ويجوز أن يكون المراد بالايام واحدا والاختلاف فى العبارات لاختلاف الاعتبارات فالتعبير بيوم البعث لأن غرض اللعين به يتحقق ويوم الدين لما ذكر من الجزاء ويوم الوقت المعلوم لما ذكر أو لاستئثاره تعالى بعلمه فلعل كلا من هلاك الخلق جميعا وبعثهم وجزائهم فى يوم واحد يموت اللعين فى أوله ويبعث فى أواسطه ويعاقب فى بقيته

يروى أن بين موته وبعثه أربعين سنة من سنى الدنيا مقدار مابين النفختين ونقل عن الاحنف بن قيس رحمه الله تعالى أنه قال قدمت المدينة أريد أمير المؤمنين عمر رضى الله تعالى عنه فاذا أنا بحلقة عظيمة وكعب الأحبار فيها يحدث الناس وهو يقول لما حضر آدم عليه الصلاة والسلام الوفاة قال يارب سيشمت بى عدوى ابليس اذا رآنى ميتا وهو منظر الى يوم القيامة فأجيب أن يا آدم انك سترد الى الجنة ويؤخر اللعين الى النظرة ليذوق ألم الموت بعدد الأولين والآخرين ثم قال لملك الموت صف كيف تذيقه الموت فلما وصفه قال يارب حسبى فضج الناس وقالوا ياأبا اسحق كيف ذلك فأبى فألحوا فقال يقول الله سبحانه لملك الموت عقيب النفخة الاولى قدجعلت فيك قوة أهل السموات السبع وأهل الارضين السبع وانى ألبستك اليوم أثواب السخط والغضب كلها فانزل بغضبى وسطوتى على رجيمى ابليس فأذقه الموت واحمل عليه فيه مرارة الأولين والآخرين من الثقلين أضعافا مضاعفة وليكن معك من الزبانية سبعون ألفا قد امتلأوا غيظا وغضبا وليكن مع كل منهم سلسلة من سلاسل جهنم وغل من أغلالها وانزع روحه المنتن بسبعين ألف كلاب من كلاليبها وناد مالكا ليفتح أبواب النيران فينزل ملك الموت بصورة لو نظر اليها أهل السموات والارضين لماتوا بغتة من هولها فينتهى الى ابليس فيقول قف لى ياخبيث لأذيقنك الموت كم من عمر أدركت وقرون أضللت وهذا هو الوقت المعلوم قال فيهرب اللعين الى المشرق فاذا هو بملك الموت بين عينيه فيهرب الى المغرب فاذا هو به بين عينيه فيغوص البحار فتنزمنه البحار فلا تقبله فلا يزال يهرب فى الأرض ولا محيص له ولا ملاذ ثم يقوم فى وسط الدنيا عند قبر آدم ويتمرغ فى التراب من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق حتى اذا كان فى الموضع الذى أهبط فيه آدم عليه الصلاة والسلام وقد نصبت له الزبانية الكلاليب وصارت الأرض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه بالكلاليب ويبقى فى النزع والعذاب الى حيث يشاء الله تعالى ويقال لآدم وحواء اطلعا اليوم الى عدوكما كيف يذوق الموت فيطلعان فينظران الى ماهو فيه من شدة العذاب فيقولان ربنا أتممت علينا نعمتك ﴿قال رب بما أغويتنى﴾ الباء للقسم وما مصدرية والجواب ﴿لأزينن لهم﴾ أى أقسم باغوائك اياى لازينن لهم المعاصى ﴿فى الأرض﴾ أى فى الدنيا التى هى دار الغرور كقوله تعالى أخلد الى الأرض واقسامه بعزة الله المفسرة بسلطانه وقهره لاينافى اقسامه بهذا فانه فرع من فروعها وأثر من آثارها فلعله أقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه بهذا وأخرى بذاك أو للسببية وقوله لأزينن جواب قسم محذوف والمعنى بسبب تسببك لاغوائى أقسم لافعلن بهم مثل مافعلت بى من التسبيب لاغوائهم بتزيين المعاصى وتسويل الاباطيل والمعتزلة أولوا الاغواء بالنسبة الى الغى أو التسبب له بأمره اياه بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام واعتذروا عن امهال الله تعالى وتسليطه له على اغواء بنى آدم بأنه تعالى قدعلم منه وممن تبعه أنهم يموتون على الكفر ويصيرون الى النار أمهل أم لم يمهل وأن فى امهاله تعريضا لمن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب ﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ لاحملنهم على الغواية ﴿الاعبادك منهم المخلصين﴾ الذين أخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من الشوائب فلايعمل فيهم كيدى وقرىء بكسر اللام أى الذين أخلصوا نفوسهم لله تعالى ﴿قال هذا صراط﴾ أى حق ﴿على﴾ أن أراعيه ﴿مستقيم﴾ لاعوج فيه والاشارة الى ماتضمنه الاستثناء وهو تخلص المخلصين من اغوائه أو الاخلاص على معنى أنه طريق يؤدى الى الوصول الى من غير اعوجاج وضلال والاظهر أن ذلك لما وقع فى عبارة ابليس حيث قال لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم الآية وقرىء على من علو الشرف ﴿ان عبادى﴾ وهم المشار اليهم بالمخلصين ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾ تسلط وتصرف بالاغواء ﴿الامن اتبعك من الغاوين﴾ وفيه مع كونه تحقيقا لما قاله اللعين تفخيم لشأن المخلصين وبيان لمنزلتهم ولانقطاع مخالب الاغواء عنهم وأن اغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان

بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم ﴿وان جهنم لموعدهم﴾ أى موعد المتبعين أو الغاوين والأول أنسب وأدخل فى الزجر عن اتباعه وفيه دلالة على أن جهنم مكان الوعد وأن الموعود مما لا يوصف فى الفظاعة ﴿أجمعين﴾ تأكيد للضمير أو حال والعامل فيها الموعد ان جعل مصدرا على تقدير المضاف أو معنى الاضافة ان جعل اسم مكان ﴿لها سبعة أبواب﴾ يدخلونها لكثرتهم أو سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى الغواية والمتابعة وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ﴿لكل باب منهم﴾ من الاتباع أو الغواة ﴿جزء مقسوم﴾ حزب معين مفرز من غيره حسبما يقتضيه استعداده فأعلاها للموحدين والثانية لليهود والثالثة للنصارى والرابعة للصابئين والخامسة للمجوس والسادسة للمشركين والسابعة للمنافقين وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان جهنم لمن ادعى الربوبية ولظى لعبدة النار والحطمة لعبدة الأصنام وسقر لليهود والسعير للنصارى والجحيم للصابئين والهاوية للموحدين ولعل حصرها فى السبع لانحصار المهلكات فى المحسوسات بالحواس الخمس ومقتضيات القوة الشهوية والغضبية وقرىء بضم الزاى وبحذف الهمزة والقاء حركتها الى ماقبلها مع تشديدها فى الوقف والوصل ومنهم حال من جزء أو من ضميره فى الظرف لافى مقسوم لأن الصفة لاتعمل فيما تقدم موصوفها ﴿ان المتقين﴾ من اتباعه فى الكفر والفواحش فان غيرها مكفر ﴿فى جنات وعيون﴾ أى مستقرون فيها خالدين لكل واحد منهم جنة وعين أو لكل منهم عدة منهما كقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقرىء بكسر العين حيث وقع فى القرآن العظيم ﴿ادخلوها﴾ على ارادة القول أمر امن الله تعالى لهم بالدخول وقرىء أدخلوها أمرا منه تعالى للملائكة بادخالهم وقرأ الحسن أدخلوها مبنيا للمفعول على صيغة الماضى من الادخال ﴿بسلام﴾ ملتبسين بسلام أى سالمين أو مسلما عليكم ﴿آمنين﴾ من الآفات والزوال ﴿ونزعنا مافى صدورهم من غل﴾ أى حقد كان فى الدنيا وعن على رضى الله تعالى عنه أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ﴿اخوانا﴾ حال من الضمير فى قوله تعالى فى جنات أو من فاعل ادخلوها أو من الضمير فى آمنين أو الضمير المضاف اليه والعامل فيه معنى الاضافة وكذلك قوله تعالى ﴿على سرر متقابلين﴾ ويجوز كونهما صفتين لاخوانا أو حالين من ضميره لانه بمعنى متصافين وكون الثانى حالا من المستكن فى الاول وعن مجاهد تدور بهم الأسرة حيثما داروا فهم متقابلون فى جميع أحوالهم ﴿لايمسهم فيها نصب﴾ أى تعب بأن لا يكون لهم فيها مايوجبه من الكد فى تحصيل مالا بدلهم منه لحصول كل مايريدونه من غير مزاولة عمل أصلا أو بأن لايعتريهم ذلك وان باشروا الحركات العنيفة لكمال قوتهم وهو استئناف أو حال بعد حال أو حال من الضمير فى متقابلين ﴿وماهم منها بمخرجين﴾ أبد الآباد لان تمام النعمة بالخلود ﴿نبىء عبادى﴾ وهم الذين عبر عنهم بالمتقين ﴿أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم﴾ فذلكة لما سلف من الوعد والوعيد وتقرير له وفى ذكر المغفرة اشعار بأن ليس المراد بالمتقين من يتق جميع الذنوب كبيرها وصغيرها وفى وصف ذاته تعالى بها وبالرحمة على وجه القصر دون التعذيب ايذان بأنهما مما يقتضيهما الذات وأن العذاب انما يتحقق بما يوجبه من خارج ﴿ونبئهم﴾ عطف على نبىء عبادى والمقصود اعتبارهم بماجرى على ابراهيم عليه الصلاة والسلام مع أهله من البشرى فى تضاعيف الخوف وبما حل بقوم لوط من العذاب ونجاته عليه الصلاة والسلام مع أهله التابعين له فى ضمن الخوف وتنبيههم بحلول انتقامه تعالى من المجرمين وعلمهم بأن عذاب الله هو العذاب الاليم ﴿عن ضيف ابراهيم﴾ عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انهم جبريل عليه الصلاة والسلام وملكان معه وقال محمد بن كعب وسبعة معه وقيل جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم الصلاة والسلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن السدى كانوا أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل أنهم كانوا اثنى عشر ملكا

وانما لم يتعرض لعنوان رسالتهم لانهم لم يكونوا مرسلين الى ابراهيم عليه الصلاة والسلام بل الى قوم لوط حسبما يأتى ذكره ﴿اذ دخلوا عليه﴾ نصب بفعل مضمر معطوف على نبئ أى واذكر وقت دخولهم عليه أو خبر مقدر مضاف الى ضيف أى خبر ضيف ابراهيم حين دخولهم عليه أو بنفس ضيف على أنه مصدر فى الاصل ﴿فقالوا﴾ عند ذلك ﴿سلاما﴾ أى نسلم سلاما أو سلمنا أو سلمت سلاما ﴿قال انا منكم وجلون﴾ أى خائفون فان الوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه قاله عليه الصلاة والسلام حين امتنعوا من أكل ماقربه اليهم من العجل الحنيذ لما أن المعتاد عندهم أنه اذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجئ بخير لاعند ابتداء دخولهم لقوله تعالى فلما رأى أيديهم لاتصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة فلا مجال لكون خوفه عليه الصلاة والسلام بسبب دخولهم بغير اذنه لا بغير وقت اذ لوكان كذلك لاجابوا حينئذ بما أجابوا حينئذ به ولم يتصد عليه الصلاة والسلام لتقريب الطعام اليهم وانما لم يذكر ههنا اكتفاء بما بين فى غير هذا الموضع ألا يرى الى أنه لم يذكر ههنا رده عليه الصلاة والسلام لسلامهم ﴿قالوا لا توجل﴾ لاتخف وقرئ لاتاجل ولا توجل من أوجله أى أخافه ولا تواجل من واجله بمعنى أوجله ﴿انا نبشرك﴾ استئناف لتعليل النهى عن الوجل فان المبشر به لايكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حزن كيف لاوهو بشارة ببقائه وبقاء أهله فى عافية وسلامة زمانا طويلا ﴿بغلام﴾ هو اسحق عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى فبشرناها باسحق ولم يتعرض ههنا لبشارة يعقوب عليه الصلاة والسلام اكتفاء بما ذكر فى سورة هود ﴿عليم﴾ اذا بلغ وفى موضع آخر بغلام حليم ﴿قال أبشرتمونى﴾ بذلك ﴿على أن مسنى الكبر﴾ وأثر فى تعجب عليه الصلاة والسلام من بشارتهم بالولد فى حالة مباينة للولادة وزاد فى ذلك فقال ﴿فبم تبشرون﴾ أى بأى أعجوبة تبشروننى فان البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شئ او بأى طريقة تبشروننى وقرئ بتشديد النون المكسورة على ادغام نون الجمع فى نون الوقاية ﴿قالوا بشرناك بالحق﴾ أى بما يكون لامحالة أو باليقين الذى لالبس فيه أو بطريقة هى حق وهو أمر الله تعالى وقوله ﴿فلا تكن من القانطين﴾ من الآيسين من ذلك فان الله قادر على أن يخلق بشرا بغير أبوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر وقرئ من القنطين وكان مقصده عليه الصلاة والسلام استعظام نعمته تعالى عليه فى ضمن التعجب العادى المبنى على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده لااستبعاد ذلك بالنسبة الى قدرته سبحانه كما ينبئ عنه قول الملائكة فلا تكن من القانطين دون أن يقولوا من الممترين أو نحوه ﴿قال ومن يقنط﴾ استفهام انكارى أى لايقنط ﴿من رحمة ربه الا الضالون﴾ المخطئون طريق المعرفة والصواب فلا يعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته كما قال يعقوب عليه الصلاة والسلام لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون ومراده نفى القنوط عن نفسه على أبلغ وجه أى ليس بى قنوط من رحمته تعالى وانما الذى أقول لبيان منافاة حالى لفيضان تلك النعمة الجليلة على وفى التعرض لوصف الربوبية والرحمة مالا يخفى من الجزالة وقرئ بضم النون وبكسرها من قنط بالفتح ولم تكن هذه المفاوضة من الملائكة مع ابراهيم عليه الصلاة والسلام خاصة بل مع سارة أيضا حسبما شرح فى سورة هود ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بما ذكر هناك كما أنه لم يذكر هذه هناك اكتفاء بما ذكر ههنا ﴿قال﴾ أى ابراهيم عليه الصلاة والسلام وتوسيطه بين قوله السابق وبين قوله ﴿فما خطبكم﴾ أى أمركم وشأنكم الخطير الذى لاجله ارسلتم سوى البشارة ﴿أيها المرسلون﴾ صريح فى أن بينهما مقالة مطوية لهم أشير به الى مكانها كما فى قوله تعالى قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذى كرمت على الآية فان قوله الاخير ليس موصولا بقوله الاول بل هو مبنى على قوله تعالى فاخرج منها فانك رجيم فان توسيط قال بين قوليه للايذان بعدم اتصال الثانى بالاول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره ثم خطابه لهم عليهم الصلاة والسلام بعنوان الرسالة

بعدما كان خطابه السابق مجردا عن ذلك مع تصديره بالفاء دليل على أن مقالتهم المطوية كانت متضمنة لبيان أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة بل لهم شأن آخر لاجله ارسلوا فكأنه قال عليه الصلاة والسلام ان لم يكن شأنكم مجرد البشارة فماذا هو فلا حاجة الى الالتجاء الى أن علمه عليه الصلاة والسلام بأن كل المقصود ليس البشارة بسبب أنهم كانوا ذوى عدد والبشارة لاتحتاج الى عدد ولذلك اكتفى بالواحد فى زكريا عليه الصلاة والسلام ومريم ولا الى أنهم بشروه فى تضاعيف الحال لازالة الوجل ولو كانت تمام المقصود لابتدؤا بها فتأمل ﴿ قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين ﴾ هم قوم لوط لكن وصفوا بالاجرام وجىء بهم بطريق التنكير ذما لهم واستهانة بهم ﴿ الا آل لوط ﴾ استثناء متصل من الضمير فى مجرمين أى الى قوم أجرموا جميعا الا آل لوط فالقوم والارسال شاملان للمجرمين وغيرهم والمعنى انا أرسلنا الى قوم أجرم كلهم الا آل لوط لنهلك الاولين وننجى الآخرين ويدل عليه قوله تعالى ﴿ انا لمنجوهم ﴾ أى لوطا وآله ﴿ أجمعين ﴾ أى مما يصيب القوم فانه استئناف للاخبار بنجاتهم لعدم اجرامهم أو لبيان مافهم من الاستثناء من مطلق عدم شمول العذاب لهم فان ذلك قد يكون بكون حالهم بين بين أو لتعليله فان من تعلق بهم التنجية بمنجى من شمول العذاب أو منقطع من قوم وقوله تعالى انا لمنجوهم متصل بآل لوط جار مجرى خبر لكن وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ الا امرأته ﴾ استثناء من آل لوط أو من ضميرهم وعلى الأول من الضمير خاصة لاختلاف الحكمين اللهم الا أن يجعل انا لمنجوهم اعتراضا وقرىء بالتخفيف ﴿ قدرنا انها لمن الغابرين ﴾ الباقين مع الكفرة لتهلك معهم وقرىء قدرنا بالتخفيف وانما علق فعل التقدير مع اختصاص ذلك بأفعال القلوب لتضمنه معنى العلم ويجوز حمله على معنى قلنا لأنه بمعنى القضاء قول وأصله جعل الشىء على مقدار غيره واسنادهم له الى أنفسهم وهو فعل الله سبحانه لما لهم من الزلفى والاختصاص ﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون ﴾ شروع فى بيان كيفية اهلاك المجرمين وتنجية آل لوط حسبما أجمل فى الاستثناء ثم فصل فى التعليل نوع تفصيل ووضع المظهر موضع المضمر للايذان بأن مجيئهم لتحقيق ما أرسلوا به من الاهلاك والتنجية وليس المراد به ابتداء مجيئهم بل مطلق كينونتهم عند آل لوط فان ماحكى عنه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى ﴿ قال انكم قوم منكرون ﴾ انما قاله عليه الصلاة والسلام بعد اللتياو التى حين ضاقت عليه الحيل وعيت به العلل لما لم يشاهد من المرسلين عند مقاساته الشدائد ومعاناته المكايد من قومه الذين يريدون بهم مايريدون ماهو المعهود والمعتاد من الاعانة والامداد فيما يأتى ويذر عند تجشمه فى تخليصهم انكارا لخذلانهم له وترك نصرته فى مثل تلك المضايقة المعترية له بسببهم حيث لم يكونوا مباشرين معه لاسباب المدافعة والممانعة حتى ألجأته الى أن قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد حسبما فصل فى سورة هود لا أنه قاله عند ابتداء ورودهم له خوفا أن يطرقوه بشر كما قيل كيف لاوهم بجوابهم المحكى بقوله تعالى ﴿ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ أى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به فيمترون فيه ويكذبونك قد قشروا العصا وبينوا له عليه الصلاة والسلام جلية الامر فأنى يمكن أن يعتريه بعد ذلك المساءة وضيق الذرع وليست كلمة بل اضرابا عن موجب الخوف المذكور على معنى ماجئناك بما تنكرنا لاجله بل بما يسرك وتقر به عينك بل هى اضراب عما فهمه عليه الصلاة والسلام من ترك النصر له والمعنى ماخذلناك وماخلينا بينك وبينهم بل جئناك بما يدمرهم من العذاب الذى كانوا يكذبونك حين كنت تتوعدهم به ولعل تقديم هذه المقاولة على ماجرى بينه وبين أهل المدينة من المجادلة للمسارعة الى ذكر بشارة لوط عليه الصلاة والسلام باهلاك قومه وتنجية آله عقيب ذكر بشارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام بهما وحيث كان ذلك مستدعيا لبيان كيفية النجاة وترتيب مباديها أشير الى ذلك اجمالا ثم ذكر مافعل القوم وما فعل بهم ولم يبال بتغيير الترتيب الوقوعى ثقة بمراعاته فى مواقع أخر ونسبة المجىء

بالعذاب اليه عليه الصلاة والسلام مع أنه نازل بالقوم بطريق تفويض أمره اليه لا بطريق نزوله عليه كأنهم جاءوه به وفوضوا أمره اليه ليرسله عليهم حسبما كان يتوعدهم به ﴿ وأتيناك بالحق ﴾ أى باليقين الذى لا مجال فيه للامتراء والشك وهو عذابهم عبر عنه بذلك تنصيصا على نفى الامتراء عنه أو المراد بالحق الاخبار بمجىء العذاب المذكور وقوله تعالى ﴿ وانا لصادقون ﴾ تأكيد له أى أتيناك فيما قلنا بالخبر الحق أى المطابق للواقع وانا لصادقون فى ذلك الخبر أو فى كل كلام فيكون كالدليل على صدقهم فيه وعلى الأول تأكيدا اثر تأكيد وقوله تعالى ﴿ فأسر بأهلك ﴾ شروع فى ترتيب مبادى النجاة أى اذهب بهم فى الليل وقرىء بالوصل وكلاهما من السرى وهو السير فى الليل وقرىء فسر من السير ﴿ بقطع من الليل ﴾ بطائفة منه أو من آخره قال

افتحى الباب وانظرى فى النجوم　　كم علينا من قطع ليل بهيم

وقيل هو بعد ما مضى منه شىء صالح ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ وكن على أثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ولعل ايثار الاتباع على السوق مع أنه المقصود بالامر للمبالغة فى ذلك اذ السوق ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر عن بعض ويلزمه عادة الغفلة عن حال المتأخر والالتفات المنهى عنه بقوله تعالى ﴿ ولا يلتفت منكم ﴾ أى منك ومنهم ﴿ أحد ﴾ فيرى ما وراءه من الهول فلا يطيقه أو يصيبه ما أصابهم أو ولا ينصرف منكم أحد ولا يتخلف لغرض فيصيبه العذاب وقيل نهوا عن ذلك ليوطنوا أنفسهم على المهاجرة أو هو نهى عن ربط القلب بما خلفوه أو هو للاسراع فى السير فان الملتفت قلما يخلو عن أدنى وقفة وعدم ذكر استثناء المرأة من الاسراء والالتفات لا يستدعى عدم وقوعه فان ذلك لما عرفت مرارا للاكتفاء بما ذكر فى مواضع أخر ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾ الى حيث أمركم الله تعالى بالمضى اليه وهو الشام أو مصر وحذف الصلتين على الاتساع المشهور وايثار المضى الى ما ذكر على الوصول اليه واللحوق به للايذان بأهمية النجاة ولمراعاة المناسبة بينه وبين ما سلف من الغابرين ﴿ وقضينا ﴾ أى أوحينا ﴿ اليه ﴾ مقضيا ولذلك عدى بالى ﴿ ذلك الأمر ﴾ مبهم يفسره ﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع ﴾ على أنه بدل منه وايثار اسم الاشارة على الضمير للدلالة على اتصافهم بصفاتهم القبيحة التى هى مدار ثبوت الحكم أى دابر هؤلاء المجرمين وايراد صيغة المفعول بدل صيغة المضارع لكونها أدخل فى الدلالة على الوقوع وفى لفظ القضاء والتعبير عن العذاب بالأمر والاشارة اليه بذلك وتأخيره عن الجار والمجرور وابهامه أولا ثم تفسيره ثانيا من الدلالة على فخامة الأمر وفظاعته ما لا يخفى وقرىء بالكسر على الاستئناف والمعنى انهم يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد ﴿ مصبحين ﴾ داخلين فى الصبح وهو حال من هؤلاء أو من الضمير فى مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر هؤلاء بمعنى مدبرى هؤلاء ﴿ وجاء أهل المدينة ﴾ شروع فى حكاية ما صدر عن القوم عند وقوفهم على مكان الاضياف من الفعل والقول وما ترتب عليه بعدما أشير الى ذلك اجمالا حسبما نبه عليه أى جاء أهل سدوم منزل لوط عليه الصلاة والسلام ﴿ يستبشرون ﴾ أى مستبشرين بأضيافه عليه الصلاة والسلام طمعا فيهم ﴿ قال ان هؤلاء ضيفى ﴾ الضيف حيث كان مصدرا فى الأصل أطلق على الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث واطلاقه على الملائكة بحسب اعتقاده عليه الصلاة والسلام لكونهم فى زى الضيف والتأكيد ليس لانكارهم بذلك بل لتحقيق اتصافهم به واظهار اعتنائه بشأنهم وتشمره لمراعاة حقوقهم وحمايتهم من السوء ولذلك قال ﴿ فلا تفضحون ﴾ أى عندهم بأن تتعرضوا لهم بسوء فيعلموا أنه ليس لى عندكم قدر وحرمة أو لا تفضحون بفضيحة ضيفى فان من أسىء الى ضيفه فقد أسىء اليه يقال فضحه فضحا وفضيحة اذا أظهر من أمره ما يلزمه العار ﴿ واتقوا الله ﴾ فى مباشرتكم لما يسوؤنى ﴿ ولا تخزون ﴾ أى لا تذلونى ولا تهينونى بالتعرض لمن أجرتهم بمثل تلك الفعلة الخبيثة وحيث كان التعرض لهم بعد أن نهاهم عليه الصلاة

والسلام عن ذلك بقوله فلا تفضحون أكثر تأثيرا فى جانبه عليه الصلاة والسلام وأجلب للعار اليه اذ التعرض للجار قبل شعور المجير بذلك ربما يتسامح فيه وأما بعد الشعور به والمناصبة لحمايته والذب عنه فذاك أعظم العار عبر عليه الصلاة والسلام عما يعتريه من جهتهم بعد النهى المذكور بسبب لجاجهم ومجاهرتهم بمخالفته بالخزى وأمرهم بتقوى الله تعالى فى ذلك وانما لم يصرح بالنهى عن نفس تلك الفاحشة لانه كان يعرف أنه لا يفيدهم ذلك وقيل المراد تقوى الله تعالى فى ركوب الفاحشة ولا يساعده توسيطه بين النهيين عن أمرين متعلقين بنفسه عليه الصلاة والسلام وكذلك قوله تعالى ﴿قالوا أولم ننهك عن العالمين﴾ أى عن التعرض لهم بمنعهم عنا وضيافتهم والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر أى ألم نتقدم اليك ولم ننهك عن ذلك فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد من الغرباء بالسوء وكان عليه الصلاة والسلام ينهاهم عن ذلك بقدر وسعه وكانوا قد نهوه عليه الصلاة السلام عن أن يجير أحدا فكأنهم قالوا ماذكرت من الفضيحة والخزى انما جاءك من قبلك لا من قبلنا اذ لولا تعرضك لما نتصدى له لما اعتراك تلك الحالة ولما رآهم لا يقلعون عماهم عليه ﴿قال هؤلاء بناتى﴾ يعنى نساء القوم فان نبى كل أمة بمنزلة أبيهم أو بناته حقيقة أى فتزوجوهن وقد كانوا من قبل يطلبونهن ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعية المناكحة بين المسلمات والكفار وقد فصل ذلك فى سورة هود ﴿ان كنتم فاعلين﴾ أى قضاء الوطر أو ما أقول لكم ﴿لعمرك﴾ قسم من الله تعالى بحياة النبى عليه الصلاة والسلام أو من الملائكة بحياة لوط عليه الصلاة والسلام والتقدير لعمرك قسمى وهى لغة فى العمر يختص به القسم ايثاراً للخفة لكثرة دورانه على الالسنة ﴿انهم لفى سكرتهم﴾ غوايتهم أو شدة غلمتهم التى أزالت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ والصواب ﴿يعمهون﴾ يتحيرون ويتمادون فكيف يسمعون النصح وقيل الضمير لقريش والجملة اعتراض ﴿فأخذتهم الصيحة﴾ أى الصيحة العظيمة الهائلة وقيل صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام ﴿مشرقين﴾ داخلين فى وقت شروق الشمس ﴿فجعلنا عاليها﴾ عالى المدينة أو عالى قراهم وهو المفعول الاول لجعلنا وقوله تعالى ﴿سافلها﴾ مفعول ثان له وهو أدخل فى الهول والفظاعة من العكس كامر ﴿وأمطرنا عليهم﴾ فى تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلاب ﴿حجارة﴾ كائنة ﴿من سجيل﴾ من طين متحجر أو طين عليه كتاب وقد فصل ذلك فى سورة هود ﴿ان فى ذلك﴾ أى فيما ذكر من القصة ﴿لآيات﴾ لعلامات يستدل بها على حقيقة الحق ﴿للمتوسمين﴾ أى المتفكرين المتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشئ بسمته ﴿وانها﴾ أى المدينة أو القرى ﴿لبسبيل مقيم﴾ أى طريق ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها ﴿ان فى ذلك﴾ فيما ذكر من المدينة أو القرى أو فى كونها بمرأى من الناس يشاهدونها فى ذهابهم وايابهم ﴿لآية﴾ عظيمة ﴿للمؤمنين﴾ بالله ورسوله فانهم الذين يعرفون أن ماحاق بهم العذاب الذى ترك ديارهم بلاقع انما حاق بهم لسوء صنيعهم وأما غيرهم فيحملون ذلك على الاتفاق أو الاوضاع الفلكية وافراد الآية بعد جمعها فيما سبق لما أن المشاهد ههنا بقية الآثار لا كل القصة كما فيما سلف ﴿وان كان﴾ ان مخففة من ان وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف واللام هى الفارقة أى وان الشأن كان ﴿أصحاب الأيكة﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام والايكة والليكة الشجرة الملتفة المتكاثفة وكان عامة شجرهم المقل وكانوا يسكنونها فبعثه الله تعالى اليهم ﴿لظالمين﴾ متجاوزين عن الحد ﴿فانتقمنا منهم﴾ بالعذاب روى ان الله تعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام ثم بعث سحابة فالتجؤا اليها يلتمسون الروح فبعث الله تعالى عليهم منها نارا فأحرقتهم فهو عذاب يوم الظلة ﴿وانهما﴾ يعنى سدوم والايكة وقيل الايكة ومدين فانه عليه الصلاة والسلام كان مبعوثا اليهما فذكر أحدهما منبه على الآخر ﴿لبامام مبين﴾ لبطريق واضح والامام اسم مايؤتم به سمى به الطريق ومطمر البناء واللوح الذى يكتب فيه لانها مما يؤتم به ﴿ولقد

كذب أصحاب الحجر ﴾ يعنى ثمود ﴿ المرسلين ﴾ أى صالحا فان من كذب واحدا من الانبياء عليهم السلام فقد كذب الجميع لاتفاقهم على التوحيد والاصول التى لاتختلف باختلاف الامم والاعصار وقيل المراد صالح ومن معه من المؤمنين كما قيل الخبيبون لخبيب بن عبد الله بن الزبير وأصحابه والحجر واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه ﴿ وآتيناهم آياتنا ﴾ وهى الآيات المنزلة على نبيهم أو المعجزات من الناقة وسقيها وشربها ودرها أو الادلة المنصوبة لهم ﴿ فكانوا عنها معرضين ﴾ اعراضا كليا بل كانوا معارضين لها حيث فعلوا بالناقة مافعلوا ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾ من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الاعداء لوثاقتها أو من العذاب لحسبانهم أن ذلك يحميهم منه . عن جابر رضى الله تعالى عنه أنه قال مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴾ وهكذا وقع فى سورة هود قيل صاح بهم جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء فى الارض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم و فى سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة أى الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء تموجا شديدا يفضى اليها كما مر فى سورة هود ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ ولم يدفع عنهم مانزل بهم ﴿ ما كانوا يكسبون ﴾ من بناء البيوت الوثيقة والاموال الوافرة والعدد المتكاثرة وفيه تهكم بهم والفاء لترتيب عدم الاغناء الخاص بوقت نزول العذاب حسبما كانوا يرجونه لا عدم الاغناء المطلق فانه أمر مستمر ﴿ وما خلقنا السموات والارض ومابينهما الا بالحق ﴾ أى الا خلقا ملتبسا بالحق والحكمة والمصلحة بحيث لايلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور ولذلك اقتضت الحكمة اهلاك أمثال هؤلاء دفعا لفسادهم وارشادا لمن بقى الى الصلاح أو الا بسبب العدل والانصاف يوم الجزاء على الأعمال كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ وان الساعة لآتية ﴾ فينتقم الله تعالى لك فيها ممن كذبك ﴿ فاصفح ﴾ أى أعرض عنهم ﴿ الصفح الجميل ﴾ اعراضا جميلا وتحمل أذيتهم ولاتعجل بالانتقام منهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم وقيل هى منسوخة بآية السيف ﴿ ان ربك ﴾ الذى يبلغك الى غاية الكمال ﴿ هو الخلاق ﴾ لك ولهم ولسائر الموجودات على الاطلاق ﴿ العليم ﴾ بأحوالك وأحوالهم بتفاصيلها فلا يخفى عليه شىء مما جرى بينك و بينهم فهو حقيق بأن تكل جميع الأمور اليه ليحكم بينكم أو هو الذى خلقكم وعلم تفاصيل أحوالكم وقد علم أن الصفح اليوم أصلح الى أن يكون السيف أصلح فهو تعليل للامر بالصفح على التقديرين وفى مصحف عثمان وأبى رضى الله تعالى عنهما هو الخالق وهو صالح للقليل والكثير والخلاق مختص بالكثير ﴿ ولقد آتيناك سبعا ﴾ سبع آيات وهى الفاتحة وعليه عمر وعلى وابن مسعود وأبو هريرة رضى الله تعالى عنهم والحسن وأبو العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة رحمهم الله تعالى وقيل سبع سور وهى الطوال التى سابعتها الانفال والتوبة فانهما فى حكم سورة واحدة ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية وقيل يونس أو الحواميم السبع وقيل الصحائف السبع وهى الاسباع ﴿ من المثانى ﴾ بيان للسبع من التثنية وهى التكرير فان كان المراد الفاتحة وهو الظاهر فتسميتها مثانى لتكرر قراءتها فى الصلاة وأما تكرر قراءتها فى غير الصلاة كما قيل فليس بحيث يكون مدارا للتسمية ولانها تثنى بما يقرأ بعدها فى الصلاة وأما تكرر نزولها فلا يكون وجها للتسمية لانها كانت مسماة بهذا الاسم قبل نزولها الثانى اذ السورة مكية بالاتفاق وان كان المراد غيرها من السور فوجه كونها من المثانى أن كلا من ذلك تكرر قراءته وألفاظه أو قصصه ومواعظه أو من الثناء لاشتماله على ماهو ثناء على الله واحدتها مثناة أو مثنية صفة للآية وأما الصحائف وهى الاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما فيها من الثناء على الله تعالى كأنها تثنى عليه

سبحانه بأفعاله وصفاته الحسنى ويجوز أن يراد بالمثانى القرآن لما ذكر أو لانه مثنى عليه بالاعجاز أو كتب الله تعالى كلها فمن للتبعيض وعلى الاول للبيان ﴿والقرآن العظيم﴾ ان أريد بالسبع الآيات أو السور فمن عطف الكل على البعض أو العام على الخاص وان أريد به الاسباع أو كل القرآن فهو عطف أحد الوصفين على الآخر كما فى قوله

الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتائب فى المزدحم

أى ولقد أتيناك ما يقال له السبع المثانى والقرآن العظيم ﴿لا تمدن عينيك﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب ولا تدم نظرك ﴿الى ما متعنا به﴾ من زخارف الدنيا وزينتها ومحاسنها وزهرتها ﴿أزواجا منهم﴾ أصنافا من الكفرة فان مافى الدنيا من أصناف الاموال والذخائر بالنسبة الى ما أوتيته مستحقر لا يعبأ به أصلا وفى حديث أبى بكر رضى الله تعالى عنه من أوتى القرآن فرأى أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وروى أنه وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل ليهود بنى قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى سبيل الله فقيل لهم قد أعطيتم سبع آيات وهى خير من هذه القوافل السبع ﴿ولا تحزن عليهم﴾ حيث لم يؤمنوا ولم ينتظموا أتباعك فى سلك ليتقوى بهم ضعفاء المسلمين وقيل أو أنهم المتمتعون به ويأباه كلمة على فان تمتعهم به لا يكون مدارا للحزن عليهم ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ أى تواضع لهم وارفق بهم وألن جانبك لهم وطب نفسا من ايمان الاغنياء ﴿وقل انى أنا النذير المبين﴾ أى المنذر المظهر لنزول عذاب الله وحلوله ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾ قيل انه متعلق بقوله تعالى ولقد آتيناك الخ أى أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أى قسموه الى حق وباطل حيث قالوا عنادا وعدوانا بعضه حق موافق للتوراة والانجيل وبعضه باطل مخالف لهما أو اقتسموه لأنفسهم استهزاء حيث كان يقول بعضهم سورة البقرة لى وبعضهم سورة آل عمران لى وهكذا أو قسموا ما قرؤا من كتبهم وحرفوه فأقروا ببعضه وكذبوا ببعضه وحمل توسط قوله تعالى لا تمدن عينيك على امداد ماهو المراد بالكلام من التسلية وعقب ذلك بأنه جل المقام عن التشبيه ولقد أوتى عليه الصلاة والسلام مالم يؤت أحد قبله ولا بعده مثله وقيل انه متعلق بقوله انى أنا النذير المبين فانه فى قوة الأمر بالانذار كأنه قيل أنذر قريشا مثل ما أنزلنا على المقتسمين يعنى اليهود وهو ماجرى على بنى قريظة والنضير بأن جعل المتوقع كالواقع وقد وقع كذلك وأنت خبير بأن ما يشبه به العذاب المنذر لابد أن يكون محقق الوقوع معلوم الحال عند المنذرين اذ به تتحقق فائدة التشبيه وهى تأكيد الانذار وتشديده وعذاب بنى قريظة والنضير مع عدم وقوعه اذ ذاك لم يسبق به وعد ووعيد فهم منه فى غفلة محضة وشك مريب وتنزيل المتوقع منزلة الواقع له موقع جليل من الاعجاز لكن اذا صادف مقاما يقتضيه كما فى قوله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا ونظائره على أن تخصيص الاقتسام باليهود بمجرد اختصاص العذاب المذكور بهم مع شركتهم للنصارى فى الاقتسام المتفرع على الموافقة والمخالفة وفى الاقتسام بمعنى التحريف الشامل للكتابين بل تخصيص العذاب المذكور بهم مع كونه من نتائج الاقتسام تخصيص من غير مخصص وقد جعل الموصول مفعولا أول لانذر أى أنذر المعضين الذين يجزؤن القرآن الى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم فقعد كل منهم فى مدخل لينفروا الناس عن الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم لا تغتروا بالخارج منا فانه ساحر ويقول الآخر شاعر والآخر كذاب فأهلكهم الله تعالى يوم بدر وقبله بآفات وفيه مع ما فيه من الاشتراك لما سبق فى عدم كون العذاب الذى شبه به العذاب المنذر واقعا ولا معلوما للمنذرين ولا موعود الوقوع أنه لا داعى الى تخصيص وصف التعضية بهم واخراج المقتسمين من بينهم مع كونهم أسوة

لهم فى ذلك فان وصفهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما وصفوا من السحر والشعر والكذب متفرع على وصفهم للقرآن بذلك وهل هو الانفس التعضية و لاالى اخراجهم من حكم الانذار على أن مانزل بهم من العذاب لم يكن من الشدة بحيث يشبه به عذاب غيرهم و لامخصوصا بهم بل عاما لكلا الفريقين وغيرهم مع أن بعض المنذرين كالوليدبن المغيرة والعاص بن وائل والاسود بن المطلب قدهلكوا قبل مهلك أكثر المقتسمين يوم بدر و لاالى تقديم المفعول الثانى على الأول كما ترى وقيل انه وصف لمفعول النذير أقيم مقامه والمقتسمون هم القاعدون فى مداخل مكة كما حرر وفيه مع مامر أن قوله تعالى كما أنزلنا صريح فى أنه من قول الله تعالى لامن قول الرسول عليه الصلاة والسلام والاعتذار بأن ذلك من باب مايقوله بعض خواص الملك أمرنا بكذا وان كان الآمر هو الملك حسبما سلف فى قوله تعالى قدرنا انها لمن الغابرين تعسف لايخفى وأن اعمال الوصف الموصوف بمالم يجوزه البصريون فلابد من الهرب الى مسلك الكوفيين أو المصير الى جعله مفعولا غير صريح أى أنا النذير المبين بعذاب مثل عذاب المقتسمين وقيل المراد بالمقتسمين الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحا عليه الصلاة والسلام فأهلكهم الله تعالى وأنت تدرى أن عذابهم حيث كان متحققا ومعلوما للمنذرين حسبما نطق به القرآن العظيم صالح لأن يقع مشبها به العذاب المنذر لكن الموصول المذكور عقيبه حيث لم يمكن كونه صفة للمقتسمين حينئذ فسواء جعلناه مفعولا أول للنذير أولما دل هو عليه من أنذر لايكون للتعرض لعنوان التعضية فى حيز الصلة و لالعنوان الاقتسام بالمعنى المزبور فى حيز المفعول الثانى فائدة لما أن ذلك انما يكون للاشعار بعلية الصلة والصفة للحكم الثابت للموصول والموصوف فلايكون هناك وجه شبه يدور عليه تشبيه عذابهم بعذابهم خاصة لعدم اشتراكهم فى السبب فان المعضين بمعزل من التقاسم على التبييت الذى هو السبب لهلاك أولئك كما أن أولئك بمعزل من التعضية التى هى السبب لهلاك هؤلاء و لاعلاقة بين السببين مفهوما و لاوجودا تصحح وقوع أحدهما فى جانب والآخر فى جانب واتفاق الفريقين على مطلق الاتفاق على الشر المفهوم من الاتفاق على الشر المخصوص الذى هو التبييت المدلول عليه بالتقاسم غير مفيد اذلادلالة لعنوان التعضية على ذلك وانما يدل عليه اقتسام المداخل وجعل الموصول مبتدأ على أن خبره الجملة القسمية لايليق بجزالة التنزيل وجلالة شأنه الجليل اذا عرفت هذا فاعلم أن الأقرب من الأقوال المذكورة أنه متعلق بالأول وأن المراد بالمقتسمين أهل الكتابين وأن الموصول مع صلته صفة مبينة لكيفية اقتسامهم ومحل الكاف النصب على المصدرية وحديث جلالة المقام عن التشبيه من لوائح النظر الجليل والمعنى لقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم ايتاء مماثلا لانزال الكتابين على أهلهما وعدم التعرض لذكر ماأنزل عليهم من الكتابين لأن الغرض بيان المماثلة بين الايتاءين لابين متعلقيهما والعدول عن تطبيق مافى جانب المشبه به على مافى جانب المشبه بأن يقال كما آتينا المقتسمين حسبما وقع فى قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب الخ للتنبيه على مابين الايتاءين من التنائى فان الأول على وجه التكرمة والامتنان وشتان بينه و بين الثانى و لايقدح ذلك فى وقوعه مشبها به فان ذلك انما هو لمسلميته عندهم وتقدم وجوده على المشبه زمانا لالمزية تعود الى ذاته كما فى الصلاة الخليلية فان التشبيه فيها ليس لكون رحمة الله تعالى الفائضة على ابراهيم عليه الصلاة والسلام و آله أتم وأكمل مما فاض على النبى عليه الصلاة والسلام وانما ذلك للتقدم فى الوجود والتنصيص عليه فى القرآن العظيم فليس فى التشبيه شائبة اشعار بأفضلية المشبه به من المشبه فضلا عن ايهام أفضلية ماتعلق به الأول مما تعلق به الثانى وانما ذكروا بعنوان الاقتسام انكارا لاتصافهم به مع تحقق ماينفيه من الانزال المذكور وايذانا بأنه كان من حقهم أن يؤمنوا بكله حسب ايمانهم بما أنزل عليهم بحكم الاشتراك فى العلة والاتحاد فى الحقيقة التى هى مطلق الوحي وتوسيط قوله تعالى لاتمدن الخ لكمال اتصاله بما هو المقصود من بيان حال ماأوتى النبى عليه الصلاة والسلام

ولقد بين أو لا علو شأنه و رفعة مكانه بحيث يستوجب اغتباطه عليه الصلاة والسلام بمكانه واستغناءه به عما سواه ثم نهى عن الالتفات الى زهرة الدنيا وعبر عن ايتائها لأهلها بالتمتيع المنبىء عن وشك زوالها عنهم ثم عن الحزن بعدم ايمان المنهمكين فيها وأمر بمراعاة المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم و باظهار قيامه بمواجب الرسالة ومراسم النذارة حسبما فصل فى تضاعيف ماأوتى من القرآن العظيم ثم رجع الى كيفية ايتائه على وجه أدمج فيه مايزيح شبه المنكرين و يستنزلهم عن العناد من بيان مشاركته لما لاريب لهم فى كونه وحيا صادقا فتأمل والله عنده علم الكتاب هذا وقد قيل المعنى قل انى أنا النذير المبين كما قد أنزلنا فى الكتب انك ستأتى نذيرا على أن المقتسمين أهل الكتاب انتهى يريد أن ما فى كما موصولة والمراد بالمشابهة المستفادة من الكاف الموافقة وهى مع ما فى حيزها فى محل النصب على الحالية من مفعول قل أى قل هذا القول حال كونه كما أنزلنا على أهل الكتابين أى موافقا لذلك فالأنسب حينئذ حمل الاقتسام على التحريف ليكون وصفهم بذلك تعريضا بما فعلوا من تحريفهم و كتمانهم لنعت النبى صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى عضين جمع عضة وهى الفرقة أصلها عضوة فعلة من عضى الشاة تعضية اذا جعلها أعضاء وانما جمعت جمع السلامة جبرا للمحذوف كسنين وعزين والتعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية التى هى تفريق الأعضاء من ذى الروح المستلزم لازالة حياته وابطال اسمه دون مطلق التجزئة والتفريق اللذين ربما يوجدان فيما لا يضره التبعيض من المثليات للتنصيص على كمال قبح مافعلوه بالقرآن العظيم وقيل هى فعلة من عضهته اذا بهته وعن عكرمة العضه السحر بلسان قريش فنقصانها على الأول واو وعلى الثانى هاء ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ أى لنسألن يوم القيامة أصناف الكفرة من المقتسمين وغيرهم سؤال توبيخ وتقريع ﴿عما كانوا يعملون﴾ فى الدنيا من قول وفعل وترك فيدخل فيه ماذكر من الاقتسام والتعضية دخولا أوليا ولنجزينهم بذلك جزاء موفورا وفيه من التشديد وتأكيد الوعيد مالا يخفى والفاء لترتيب الوعيد على أعمالهم التى ذكر بعضها وفى التعرض لوصف الربوبية مضافا اليه عليه الصلاة والسلام اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ فاجهر به من صدع بالحجة اذا تكلم بها جهاراً أو افرق بين الحق والباطل وأصله الابانة والتمييز وما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف أى ماتؤمر به من الشرائع المودعة فى تضاعيف ما أوتيته من المثانى السبع والقرآن العظيم ﴿وأعرض عن المشركين﴾ أى لاتلتفت الى مايقولون و لاتبال بهم و لا تتصد للانتقام منهم ﴿انا كفيناك المستهزئين﴾ بقمعهم وتدميرهم قيل كانوا خمسة من أشراف قريش الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والحرث بن قيس بن الطلاطلة والاسود بن عبد يغوث والاسود بن المطلب يبالغون فى ايذاء النبى صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال قد أمرت أن أكفيكهم فأومأ الى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظما لاخذه فأصاب عرقا فى عقبه فقطعه فمات وأومأ الى اخمص العاص فدخلت فيه شوكة فقال لدغت لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحى فمات وأشار الى عينى الاسود بن المطلب فعمى والى أنف الحرث فامتخط قيحا فمات والى الاسود بن عبد يغوث وهو قاعد فى أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة و يضرب وجهه بالشوك حتى مات ﴿الذين يجعلون مع الله الها آخر﴾ وصفهم بذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهوينا للخطب عليه باعلام أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام بل اجترؤا على العظيمة التى هى الاشراك بالله سبحانه ﴿فسوف يعلمون﴾ عاقبة مايأتون ويذرون ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ من كلمات الشرك والطعن فى القرآن والاستهزاء به و بك وتحلية الجملة بالتأكيد لافادة تحقيق ماتتضمنه من التسلية وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم حسب استمرار متعلقه باستمرار مايوجبه من أقوال الكفرة ﴿فسبح بحمد ربك﴾ فافزع الى

الله تعالى فيما نابك من ضيق الصدر والحرج بالتسبيح والتقديس ملتبسا بحمده و فى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام مالايخفى من اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلاة والاشعار بعلة الحكم أعنى الامر بالتسبيح والحمد ﴿ وكن من الساجدين ﴾ أى المصلين يكفك و يكشف الغم عنك أو فنزهه عما يقولون ملتبسا بحمده على أن هداك للحق المبين وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة ﴿ واعبد ربك ﴾ دم على ما أنت عليه من عبادته تعالى وايثار الاظهار بالعنوان السالف آنفا لتأكيد ماسبق من اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والاشعار بعلة الامر بالعبادة ﴿حتى يأتيك اليقين﴾ أى الموت فانه متيقن اللحوق بكل حى مخلوق واسناد الاتيان اليه للايذان بأنه متوجه الى الحى طالب للوصول اليه والمعنى دم على العبادة مادمت حيا من غير اخلال بها لحظة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحجر كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والانصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم

سورة النحل

(مكية الا وان عاقبتم الى آخرها . وهى مائة وثمان وعشرون آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿أتى أمر الله﴾ أى الساعة أوما يعمها وغيرها من العذاب الموعود للكفرة عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل وللايذان بأن تحققه فى نفسه واتيانه منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب واتيانه عبارة عن دنوه واقترابه على طريقة نظم المتوقع فى سلك الواقع أو عن اتيان مباديه القريبة على نهج اسناد حال الاسباب الى المسببات وأياما كان ففيه تنبيه على كمال قربه من الوقوع واتصاله وتكميل لحسن موقع التفريع فى قوله عز وجل ﴿فلا تستعجلوه﴾ فان النهى عن استعجال الشىء وان صح تفريعه على قرب وقوعه أو على وقوع اسبابه القريبة لكنه ليس بمثابة تفريعه على وقوعه اذ بالوقوع يستحيل الاستعجال رأسا لا بما ذكر من قرب وقوعه و وقوع مباديه والخطاب للكفرة خاصة كما يدل عليه القراءة على صيغة نهى الغائب واستعجالهم وان كان بطريق الاستهزاء لكنه حمل على الحقيقة ونهوا عنه بضرب من التهكم لامع المؤمنين سواء أريد بأمر الله ماذكر أو العذاب الموعود للكفرة خاصة أما الأول فلأنه لا يتصور من المؤمنين استعجال الساعة أوما يعمها وغيرها من العذاب حتى يعمهم النهى عنه وأما الثانى فلأن استعجالهم له بطريق الحقيقة واستعجال الكفرة بطريق الاستهزاء كما عرفته فلا ينتظمهما صيغة واحدة والالتجاء الى ارادة معنى مجازى يعمهما معا من غير أن يكون هناك رعاية نكتة سرية تعسف لا يليق بشأن التنزيل الجليل وماروى من أنه لما نزلت اقتربت الساعة قال الكفار فيما بينهم ان هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ماهو كائن فلما تأخرت قالوا مانرى شيئاً فنزلت اقترب للناس حسابهم فأشفقوا وانتظروا قربها فلما امتدت الايام قالوا يا محمد مانرى شيئاً مما تخوفنا به فنزلت أتى أمر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع الناس رؤسهم فلما نزل فلا تستعجلوه اطمأنوا فليس فيه دلالة على عموم الخطاب كما قيل لا لما توهم من أن التصدير بالفاء يأباه فانه بمعزل عن ابائه حسبما تحققته بل لان مناط اطمئنانهم انما وقوفهم على أن المراد بالاتيان هو الاتيان الادعائى لا الحقيقى الموجب لاستحالة الاستعجال المستلزمة لامتناع النهى عنه لما أن النهى عن الشىء يقتضى امكانه فى الجملة ومدار ذلك الوقوف انما هو النهى عن الاستعجال المستلزم لامكانه المقتضى لعدم وقوع المستعجل بعد و لا يختلف ذلك باختلاف المستعجل كائنا من كان بل فيه دلالة واضحة على عدم العموم لأن المراد بأمر

الله انما هو الساعة وقد عرفت استحالة صدور استعجالها عن المؤمنين نعم يجوز تخصيص الخطاب بهم على تقدير كون
أمر الله عبارة عن العذاب الموعود للكفرة خاصة لكن الذى يقضى به الاعجاز التنزيلى أنه خاص بالكفرة كما ستقف عليه
ولما كان استعجالهم ذلك من نتائج اشراكهم المستتبع لنسبة الله عز وجل الى مالا يليق به من العجز والاحتياج الى
الغير واعتقاد أن أحدا يحجزه عن انجاز وعده وامضاء وعيده وقد قالوا فى تضاعيفه ان صح مجئ العذاب فالاصنام
تخلصنا عنه بشفاعتها ردذلك فقيل بطريق الاستئناف ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أى تنزه وتقدس بذاته وجل
عن اشراكهم المؤدى الى صدور أمثال هذه الاباطيل عنهم أو عن أن يكون له شريك فيدفع ماأراد بهم بوجه من الوجوه
وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد اشراكهم واستمراره والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء ذكر قبائحهم للاعراض
عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب وحكاية شنائعهم لغيرهم وعلى تقدير تخصيص الخطاب بالمؤمنين تفوت هذه النكتة كما
يفوت ارتباط المنهى عنه بالمتنزه عنه وقرئ على صيغة الخطاب ﴿ينزل الملائكة﴾ بيان لتحتم التوحيد حسبما نبه عليه
تنبيها اجماليا ببيان تقدس جناب الكبرياء وتعاليه عن أن يحوم حوله شائبة أن يشاركه شئ فى شئ وايذان بأنه دين أجمع
عليه جمهور الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأمروا بدعوة الناس اليه مع الاشارة الى سر البعثة والتشريع وكيفية القاء
الوحى والتنبيه على طريق علم الرسول عليه الصلاة والسلام باتيان ماأوعدهم به وباقترابه ازاحة لاستبعادهم اختصاصه
عليه الصلاة والسلام بذلك واظهارا لبطلان رأيهم فى الاستعجال والتكذيب وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بأن ذلك
عادة مستمرة له سبحانه والمراد بالملائكة اما جبريل عليه السلام قال الواحدى يسمى الواحد بالجمع اذا كان رئيسا أوهو
ومن معه من حفظة الوحى بأمر الله تعالى وقرئ ينزل من الانزال وتنزل بحذف احدى التاءين وعلى صيغة المبنى المفعول
من التنزيل ﴿بالروح﴾ أى بالوحى الذى من جملته القرآن على نهج الاستعارة فانه يحيى القلوب الميتة بالجهل أو يقوم
فى الدين مقام الروح فى الجسد والباء متعلقة بالفعل أو بما هو حال من مفعوله أى ملتبسين بالروح ﴿من أمره﴾
بيان للروح الذى أريد به الوحى فانه أمر بالخير أو حال منه أى حال كونه ناشئا ومبتدأ منه أو صفة له على رأى من جوز
حذف الموصول مع بعض صلته أى بالروح الكائن من أمره الناشئ منه أو متعلق بينزل ومن للسببية كالباء مثل مافى
قوله تعالى مما خطيئاتهم أى ينزلهم بأمره ﴿على من يشاء من عباده﴾ أن ينزلهم به عليهم لاختصاصهم بصفات تؤهلهم
لذلك ﴿أن أنذروا﴾ بدل من الروح أى ينزلهم ملتبسين بأن أنذروا أى بهذا القول والمخاطبون به الانبياء الذين نزلت
الملائكة عليهم والآمر هو الله سبحانه والملائكة نقلة للامر كما يشعر به الباء فى المبدل منه وأن اما مخففة من أن وضمير
الشأن الذى هو اسمها محذوف أى ينزلهم ملتبسين بأن الشأن أقول لكم أنذروا أومفسرة على أن تنزيل الملائكة بالوحى
فيه معنى القول كأنه قيل يقول بواسطة الملائكة لمن يشاء من عباده أنذروا فلا محل لها من الاعراب أومصدرية لجواز
كون صلتها انشائية كما فى قوله تعالى وأن أقم وجهك حسبما ذكر فى أوائل سورة هود فمحلها الجر على البدلية أيضا والانذار
الاعلام خلا أنه مختص باعلام المحذور من نذر بالشئ اذا علمه فحذره وأنذره بالأمر انذارا أى أعلمه وحذره وخوفه فى
ابلاغه كذا فى القاموس أى أعلموا الناس ﴿أنه لااله الا أنا﴾ فالضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته
المغنية عن التصريح به وفائدة تصدير الجملة به الايذان من أول الامر بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقرير له فى
الذهن فان الضمير لايفهم منه ابتداء الاشأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن لديه عند وروده فضل
تمكن كأنه قيل أنذروا أن الشأن الخطير هذا وانباء مضمونه عن المحذور ليس لذاته بل من حيث اتصاف المنذرين
بما يضاده من الاشراك وذلك كاف فى كون اعلامه انذارا وقوله سبحانه ﴿فاتقون﴾ خطاب للمستعجلين على طريقة

الالتفات والفاء فصيحة أى اذا كان الامر كما ذكر من جريان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على الانبياء عليهم السلام وأمرهم بأن ينذروا الناس أنه لاشريك له فى الالوهية فاتقون فى الاخلال بمضمونه ومباشرة ماينافيه من الاشراك وفروعه التى من جملتها الاستعجال والاستهزاء وبعد تمهيد الدليل السمعى للتوحيد شرع فى تحرير الادلة العقلية فقيل ﴿خلق السموات والارض بالحق﴾ أى أوجدهما على ماهما عليه من الوجه الفائق والنمط اللائق ﴿تعالى﴾ وتقدس بذاته لاسيما بأفعاله التى من جملتها ابداع هذين المخلوقين ﴿عما يشركون﴾ عن اشراكهم المعهود أوعن شركة مايشركونه به من الباطل الذى لايبدئ ولا يعيد وبعد مانبه على صنعه الكلى المنطوى على تفاصيل مخلوقاته شرع فى تعداد مافيه من خلائقه فبدأ بفعله المتعلق بالانفس فقال ﴿خلق الانسان﴾ أى هذا النوع غير الفرد الاول منه ﴿من نطفة﴾ جماد لاحس له ولا حراك سيال لا يحفظ شكلا ولا وضعا ﴿فاذا هو﴾ بعد الخلق ﴿خصيم﴾ منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم ﴿مبين﴾ لحجته لقن بها وهذا أنسب بمقام الامتنان باعطاء القدرة على الاستدلال بذلك على قدرته تعالى ووحدته أومخاصم لخالقه منكر له قائل من يحيى العظام وهى رميم وهذا أنسب بمقام تعداد هنات الكفرة روى أن أبى بن خلف الجمحى أتى النبى عليه السلام بعظم رميم فقال يامحمد أترى الله تعالى يحيى هذا بعدما قدرم فنزلت ﴿والأنعام﴾ وهى الازواج الثمانية من الابل والبقر والضأن والمعز وانتصابها بمضمر يفسره قوله تعالى ﴿خلقها﴾ أو بالعطف على الانسان وما بعده بيان ما خلق لاجله والذى بعده تفصيل لذلك وقوله تعالى ﴿لكم﴾ اما متعلق بخلقها وقوله ﴿فيها﴾ خبر مقدم وقوله ﴿دفء﴾ مبتدأ وهو مايدفأ به فيقى من البرد والجملة حال من المفعول أو الظرف الاول خبر للمبتدأ المذكور وفيها حال من دفء اذ لو تأخر لكان صفة ﴿ومنافع﴾ هى درها وركوبها وحملها والحراثة بها وغير ذلك وانما عبر عنها بها ليتناول الكل مع أنه الانسب بمقام الامتنان بالنعم وتقديم الدفء على المنافع لرعاية أسلوب الترقى الى الاعلى ﴿ومنها تأكلون﴾ أى تأكلون مايؤكل منها من اللحوم والشحوم وغير ذلك وتغيير النظم للايماء الى أنها لا تبقى عند الاكل كما فى السابق واللاحق فان الدفء والمنافع والجمال يحصل منها وهى باقية على حالها ولذلك جعلت محالا لها بخلاف الاكل وتقديم الظرف للايذان بأن الاكل منها هو المعتاد المعتمد فى المعاش لان الاكل مما عداها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر من قبيل التفكه مع أن فيه مراعاة للفواصل ويحتمل أن يكون معنى الاكل منها أكل ما يحصل بسببها فان الحبوب والثمار المأكولة تكتسب باكراء الابل وبأثمار نتاجها وألبانها وجلودها ﴿ولكم فيها﴾ مع ما فصل من أنواع المنافع الضرورية ﴿جمال﴾ أى زينة فى أعين الناس ووجاهة عندهم ﴿حين تريحون﴾ تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشى ﴿وحين تسرحون﴾ تخرجونها بالغداة من حظائرها الى مسارحها فالمفعول محذوف من كلا الفعلين لرعاية الفواصل وتعيين الوقتين لان مايدور عليه أمر الجمال من تزين الأفنية والاكناف بها وبتجاوب ثغائها ورغائها انما هو عند ورودها وصدورها فى ذينك الوقتين وأما عند كونها فى المراعى فينقطع اضافتها الحسية الى أربابها وعند كونها فى الحظائر لايراها راء ولاينظر اليها ناظر وتقديم الاراحة على السرح لتقدم الورود على الصدور ولكونها أظهر منه فى استتباع ماذكر من الجمال وأتم فى استجلاب الانس والبهجة اذ فيها حضور بعد غيبة واقبال بعد ادبار على أحسن ما يكون ملأى البطون مرتفعة الضلوع حافلة الضروع وقرئ حينا تريحون وحينا تسرحون على أن كلا الفعلين وصف لحينا بمعنى تريحون فيه وتسرحون فيه ﴿وتحمل أثقالكم﴾ جمع ثقل وهو متاع المسافر وقيل أثقالكم أجرامكم ﴿الى بلد﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما أريد به اليمن ومصر والشام ولعله نظر الى انها متاجر أهل مكة وقال عكرمة أريد به مكة ولعله نظر الى أن أثقالهم وأحمالهم عند القفول من متاجرهم أكثر وحاجتهم الى الحمولة

أمس والظاهر أنه عام لكل بلد سحيق ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ واصلين اليه بانفسكم مجردين عن الاثقال لولا الابل ﴿الابشق الانفس﴾ فضلا عن استصحابها معكم وقرئ بفتح الشين وهما لغتان بمعنى الكلفة والمشقة وقيل المفتوح مصدر من شق الأمر عليه شقا وحقيقته راجعة الى الشق الذى هو الصدع والمكسور النصف كأنه يذهب نصف القوة لما يناله من الجهد فالاضافة الى الانفس مجازية أو على تقدير مضاف أى الا بشق قوى الانفس وهو استثناء مفرغ من أعم الاشياء أى لم تكونوا بالغيه بشئ من الاشياء الابشق الانفس ولعل تغيير النظم الكريم السابق الدال على كون الانعام مدارا للنعم السابقة الى الجملة الفعلية المفيدة لمجرد الحدوث للاشعار بأن هذه النعمة ليست فى العموم بحسب المنشأ وبحسب المتعلق وفى الشمول للاوقات والاطراد فى الاحيان المعهودة بمثابة النعم السالفة فانها بحسب المنشأ وخاصة بالابل وبحسب المتعلق بالضاربين فى الارض المتقلبين فيها للتجارة وغيرها فى أحايين غير مطردة وأما سائر النعم المعدودة فموجودة فى جميع أصناف الانعام وعامة لكافة المخاطبين دائما أو فى عامة الأوقات ﴿ان ربكم لرؤف رحيم﴾ ولذلك أسبغ عليكم هذه النعم الجليلة ويسر لكم الامور الشاقة ﴿والخيل﴾ هو اسم جنس للفرس لا واحد له من لفظه كالابل وهو عطف على الأنعام أى خلق الخيل ﴿والبغال والحمير لتركبوها﴾ تعليل بمعظم منافعها والا فالانتفاع بها بالحمل أيضا مما لاريب فى تحققه ﴿وزينة﴾ عطف على محل لتركبوها وتجريده عن اللام لكونه فعلا لفاعل الفعل المعلل دون الأول وتأخيره لكون الركوب أهم منه أو مصدر لفعل محذوف أى وتتزينوا بها زينة وقرئ بغير واو أى خلقها زينة لتركبوها ويجوز أن يكون مصدرا واقعا موقع الحال من فاعل تركبوها أو مفعوله أى متزينين بها أو متزينا بها ﴿ويخلق مالا تعلمون﴾ أى يخلق فى الدنيا غير ما عدد من أصناف النعم فيكم ولكم مالا تعلمون كنهه وكيفية خلقه فالعدول الى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدد أو لاستحضار الصورة أو يخلق لكم فى الجنة غير ماذكر من النعم الدنيوية مالا تعلمون أى ماليس من شأنكم أن تعلموه وهو ما أشير اليه بقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ويجوز أن يكون هذا اخبارا بأنه سبحانه يخلق من الخلائق مالا علم لنا به دلالة على قدرته الباهرة الموجبة للتوحيد كنعمته الباطنة والظاهرة . عن ابن عباس رضى الله عنهما ان عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر فيغتسل فيزداد نورا الى نور وجمالا الى جمال وعظما الى عظم ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك فيدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور وسبعون ألف ملك الكعبة لا يعودون اليه الى يوم القيامة ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ القصد مصدر بمعنى الفاعل يقال سبيل قصد وقاصد أى مستقيم على طريقة الاستعارة أو على نهج اسناد حال سالكه اليه كأنه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لا يعدل عنه أى حق عليه سبحانه وتعالى بموجب رحمته ووعده المحتوم بيان الطريق المستقيم الموصل لمن يسلكه الى الحق الذى هو التوحيد بنصب الأدلة وارسال الرسل وانزال الكتب لدعوة الناس اليه أو مصدر بمعنى الاقامة والتعديل قاله أبو البقاء أى عليه عز وجل تقويمها وتعديلها أى جعلها بحيث يصل سالكها الى الحق لكن لا بعد ما كانت فى نفسها منحرفة عنه بل ابداعها ابتداء كذلك على نهج قوله سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل وحقيقته راجعة الى ماذكر من نصب الأدلة وقد فعل ذلك حيث أبدع هذه البدائع التى كل واحد منها لاحب يهتدى بمناره وعلم يستضاء بناره وأرسل رسلا مبشرين ومنذرين وأنزل عليهم كتبا من جملتها هذا الوحى الناطق بحقيقة الحق الفاحص عن كل ماجل من الاسرار ودق الهادى الى سبيل الاستدلال بتلك الأدلة المفضية الى معالم الهدى المنجية

عن فيافى الضلالة ومهاوى الردى ألا يرى كيف بين أو لا تنزه جناب الكبرياء وتعاليه بحسب الذات عن أن يحوم حوله شائبة توهم الاشراك ثم أوضح سر القاء الوحى على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكيفية أمرهم بانذار الناس ودعوتهم الى التوحيد ونهيهم عن الاشراك ثم كر على بيان تعاليه عن ذلك بحسب الأفعال مرشدا الى طريقة الاستدلال فبدأ بفعله المتعلق بمحيط العالم الجسمانى ومركزه بقوله تعالى خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ثم فصل أفعاله المتعلقة بما بينهما فبدأ بفعله المتعلق بانفس المخاطبين ثم ذكر مايتعلق بما لابد لهم منه فى معايشهم ثم بين قدرته على خلق مالايحيط به علم البشر بقوله ويخلق مالاتعلمون وكل ذلك كما ترى بيان لسبيل التوحيد غب بيان وتعديل له أيما تعديل فالمراد بالسبيل على الأول الجنس بدليل اضافة القصد اليه وقوله تعالى ﴿ومنها﴾ فى محل الرفع على الابتداء اما باعتبار مضمونه واما بتقدير الموصوف كما فى قوله تعالى ومنادون ذلك وقد مر فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الخ أى بعض السبيل أو بعض من السبيل فانها تؤنث وتذكر ﴿جائر﴾ أى مائل عن الحق منحرف عنه لا يوصل سالكه اليه وهو طرق الضلال التى لا يكاد يحصى عددها المندرج كلها تحت الجائر وعلى الثانى نفس السبيل المستقيم والضمير فى منها راجع اليها بتقدير المضاف أى ومن جنسها لما عرفت من أن تعديل السبيل وتقويمه ابداعه ابتداء على وجه الاستقامة والعدالة لا تقويمه بعد انحرافه وأياما كان فليس فى النظم الكريم تغيير الاسلوب رعاية لأمر مطلوب كما قيل فان ذلك انما يكون فيما اقتضى الظاهر سبكا معينا ولكن يعدل عن ذلك لنكتة أهم منه كما فى قوله سبحانه الذى يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين فان مقتضى الظاهر أن يقال والذى يسقمنى ويشفين ولكن غير الى ماعليه النظم الكريم تفاديا عن اسناد ماتكرهه النفس اليه سبحانه وليس المراد ببيان قصد السبيل مجرد اعلام أنه مستقيم حتى يصح اسناد أنه جائر اليه تعالى فيحتاج الى الاعتذار عن عدم ذلك على أنه لو أريد ذلك لم يوجد لتغيير الاسلوب نكتة وقد بين ذلك فى مواضع غير معدودة بل المراد مامر من نصب الأدلة لهداية الناس اليه ولا امكان لاسناد مثله اليه تعالى بالنسبة الى الطريق الجائر بأن يقال وجائرها حتى يصرف ذلك الاسناد منه تعالى الى غيره لنكتة تستدعيه ولا يتوهمه متوهم حتى يقتضى الحال دفع ذلك بأن يقال لا جائرها ثم يغير سبك النظم عن ذلك لداعية أقوى منه بل الجملة الظرفية اعتراضية جىء بها لبيان الحاجة الى البيان والتعديل واظهار جلالة قدر النعمة فى ذلك والمعنى على الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل الى الحق وتعديله بما ذكر من نصب الأدلة ليسلكه الناس باختيارهم ويصلوا الى المقصود وهذا هو الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل الى المطلوب لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة فان ذلك مما ليس بحق على الله تعالى لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته بل هو مخل بحكمته حيث يستدعى تسوية المحسن والمسىء والمطيع والعاصى بحسب الاستعداد واليه أشير بقوله تعالى ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ أى لو شاء أن يهديكم الى ماذكر من التوحيد هداية موصلة اليه البتة مستلزمة لاهتدائكم أجمعين لفعل ذلك ولكن لم يشأه لأن مشيئته تابعة للحكمة الداعية اليها ولا حكمة فى تلك المشيئة لما أن الذى عليه يدور فلك التكليف واليه ينسحب الثواب والعقاب انما هو الاختيار الجزئى الذى عليه يترتب الأعمال التى بها نيط الجزاء هذا هو الذى يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام وقد فسر كون قصد السبيل عليه تعالى بانتهائه اليه على نهج الاستقامة وايثار حرف الاستعلاء على أداة الانتهاء لتأكيد الاستقامة على وجه تمثيلى من غير أن يكون هناك استعلاء لشىء عليه سبحانه وتعالى عنه علوا كبيرا كما فى قوله تعالى هذا صراط على مستقيم فالقصد مصدر بمعنى الفاعل والمراد بالسبيل الجنس كما مر وقوله تعالى ومنها جائر معطوف على الجملة الاولى والمعنى أن قصد السبيل واصل اليه تعالى بالاستقامة وبعضها منحرف عنه ولو شاء لهداكم جميعا الى الأول وأنت خبير

بأن هذا حق فى نفسه ولكنه بمعزل عن نكتة موجبة لتوسيطه بين ماسبق من أدلة التوحيد و بين مالحق ولما بين الطريق السمعى للتوحيد على وجه اجمالى وفصل بعض أدلته المتعلقة بأحوال الحيوانات وعقب ذلك ببيان السر الداعى اليه بعثا للمخاطبين على التأمل فيما سبق وحثا على حسن التلق لما لحق أتبع ذلك ذكر مايدل عليه من أحوال النبات فقيل ﴿هو الذى أنزل﴾ بقدرته القاهرة ﴿من السماء﴾ أى من السحاب أو من جانب السماء ﴿ماء﴾ أى نوعا منه وهو المطر وتأخره عن المجرور لما مر مرارا من أن المقصود هو الاخبار بأنه أنزل من السماء شيئا هو الماء لا لأنه أنزله من السماء والسر فيه ماساف من أن عند تأخير ماحقه التقديم يبقى الذهن مترقباله مشتاقا اليه فيتمكن لديه عند و روده عليه فضل تمكن ﴿لكم منه شراب﴾ أى ماتشربونه وهو امامرتفع بالظرف الأول أومبتدأ وهو خبره والجملة صفة لماء والظرف الثانى نصب على الحالية من شراب ومن تبعيضية وليس فى تقديمه ايهام حصر المشروب فيه حتى يفتقر الى الاعتذار بأنه لابأس به لأن مياه العيون والابيار منه لقوله تعالى فسلكه ينابيع فى الأرض وقوله تعالى فأسكناه فى الأرض وقيل الظرف الأول متعلق بأنزل والثانى خبر لشراب والجملة صفة لماء وأنت خبير بأن مافيه من توسيط المنصوب بين المجرورين وتوسيط الثانى منهما بين الماء وصفته مما لا يليق بجزالة نظم التنزيل الجليل ﴿ومنه شجر﴾ من ابتدائية أى ومنه يحصل شجر ترعاه المواشى والمراد به ما يثبت من الأرض سواء كان له ساق أو لا أو تبعيضية مجازا لأنه لما كان سقيه من الماء جعل كأنه منه كقوله أسنمة الآبال فى ربابه يعنى به المطر الذى ينبت به الكلأ الذى تأكله الابل فتسمن أسنمتها و فى حديث عكرمة لا تأكلوا ثمن الشجر فانه سحت يعنى الكلأ ﴿فيه تسيمون﴾ ترعون من سامت الماشية وأسامها صاحبها وأصلها السومة وهى العلامة لأنها تؤثر بالرعى علامات فى الأرض ﴿ينبت﴾ أى الله عزوجل وقرىء بالنون ﴿لكم به﴾ بما أنزل من السماء ﴿الزرع والزيتون والنخيل والأعناب﴾ بيان للنعم الفائضة عليهم من الأرض بطريق الاستئناف وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار وأنها سنته الجارية على مر الدهور أو لاستحضار صورة الانبات وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر آنفا مع مافى تقديم أولهما من الاهتمام به لادخال المسرة ابتداء وتقديم الزرع على ماعداه لانه أصل الاغذية وعمود المعاش وتقديم الزيتون لما فيه من الشرف من حيث انه ادام من وجه وفاكهة من وجه وتقديم النخيل على الاعناب لظهور أصالتها و بقائها وجمع الاعناب للاشارة الى مافيها من الاشتمال على الاصناف المختلفة وتخصيص الأنواع المعدودة بالذكر مع اندراجها تحت قوله تعالى ﴿ومن كل الثمرات﴾ للاشعار بفضلها وتقديم الشجر عليها مع كونه غذاء للانعام لحصوله بغير صنع من البشر أو للارشاد الى مكارم الاخلاق فان مقتضاها أن يكون اهتمام الانسان بامر ما تحت يده أكمل من اهتمامه بأمر نفسه أو لان أكثر المخاطبين من أصحاب المواشى ليس لهم زرع و لا ثمر وقيل المراد تقديم مايسام لا تقديم غذائه فانه غذاء حيوانى للانسان وهو أشرف الاغذية وقرىء ينبت من الثلاثى مسندا الى الزرع وماعطف عليه ﴿ان فى ذلك﴾ أى فى انزال الماء وانبات مافصل ﴿لآية﴾ عظيمة دالة على تفرده تعالى بالالوهية لاشتماله على كمال العلم والقدرة والحكمة ﴿لقوم يتفكرون﴾ فان من تكفر فى أن الحبة أو النواة تقع فى الارض وتصل اليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الارض و ينشق أعلاها وان كانت منتكسة فى الوقوع ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الأوراق والازهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الاشكال والالوان والخواص والطبائع وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرر لا الى نهاية مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية بالنسبة الى الكل علم أن من هذه أفعاله واثاره لا يمكن أن يشبهه شيء فى شيء من صفات الكمال فضلا عن أن يشاركه أخس الاشياء فى أخص صفاته التى هى الالوهية واستحقاق

العبادة تعالى عن ذلك علوا كبيرا وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة الى ترتيب المقدمات الفكرية قطع الآية الكريمة بالتفكر ﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وانضاجها ﴿والشمس والقمر﴾ يدأبان فى سيرهما وانارتهما أصالة وخلافة واصلاحهما لما نيط بهما صلاحه من المكونات التى من جملتها مافصل وأجمل كل ذلك لمصالحكم ومنافعكم وليس المراد بتسخيرها لهم تمكينهم من تصرفها كيف شاؤا كما فى قوله تعالى سبحان الذى سخر لنا هذا ونظائره بل هو تصريفه تعالى لها حسبما يترتب عليه منافعهم ومصالحهم كان ذلك تسخير لهم وتصرف من قبلهم حسب ارادتهم وفى التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير ايماء الى مافى المسخرات من صعوبة المأخذ بالنسبة الى المخاطبين وايثار صيغة الماضى للدلالة على أن ذلك أمر واحد مستمر وان تجددت آثاره ﴿والنجوم مسخرات بأمره﴾ مبتدأ وخبر أى سائر النجوم فى حركاتها وأوضاعها من التثليث والتربيع ونحوهما مسخرات لله تعالى أو لما خلقن له بارادته ومشيئته وحيث لم يكن عود منافع النجوم اليهم فى الظهور بمثابة ماقبلها من الملوين والقمرين لم ينسب تسخيرها اليهم بأداة الاختصاص بل ذكر على وجه يفيد كونها تحت ملكوته تعالى من غير دلالة على شئ آخر و لذلك عدل عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث الى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار وقرئ برفع الشمس والقمر أيضا وقرئ بنصب النجوم على أنه مفعول أول لفعل مقدر ينبئ عنه الفعل المذكور ومسخرات مفعول ثان له أى وجعل النجوم مسخرات بأمره أو على أنه معطوف على المنصوبات المتقدمة ومسخرات حال من الكل والعامل مافى سخر من معنى نفع أى نفعكم بها حال كونها مسخرات لله الذى خلقها ودبرها كيف شاء أو لما خلقن له بايجاده وتقديره أو لحكمه أو مصدر ميمى جمع لاختلاف الانواع أى أنواعا من التسخير وماقيل من أن فيه ايذانا بالجواب عما عسى يقال ان المؤثر فى تكوين النبات حركات الكواكب وأوضاعها بأن ذلك ان سلم فلا ريب فى أنها أيضا أمور ممكنة الذات والصفات واقعة على بعض الوجوه الممكنة فلابد لها من موجد مخصص مختار واجب الوجود دفعا للدور والتسلسل فمبناه حسبان ماذكر أدلة على وجود الصانع تعالى وقدرته واختياره وأنت تدرى أن ليس الأمر كذلك فانه ليس مما ينازع فيه الخصم ولا يتلعثم فى قبوله قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون وقال تعالى ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيى به الارض من بعد موتها ليقولن الله الآية وانما ذلك أدلة التوحيد من حيث ان من هذا شأنه لايتوهم أن يشاركه شئ فى شئ فضلا عن أن يشاركه الجماد فى الالوهية ﴿ان فى ذلك﴾ أى فيماذكر من التسخير المتعلق بماذكر مجملا ومفصلا ﴿لآيات﴾ باهرة متكاثرة ﴿لقوم يعقلون﴾ وحيث كانت هذه الآثار العلوية متعددة ودلالة مافيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية أظهر جمع الآيات وعلقت بمجرد العقل من غير حاجة الى التأمل والتفكر ويجوز أن يكون المراد لقوم يعقلون ذلك فالمشار اليه حينئذ تعاجيب الدقائق المودعة فى العلويات المدلول عليها بالتسخير التى لايتصدى لمعرفتها الا المهرة من أساطين علماء الحكمة و لاريب فى أن احتياجها الى التفكر أكثر ﴿وماذرأ﴾ عطف على قوله تعالى والنجوم رفعا ونصبا على أنه مفعول لجعل أى وماخلق ﴿لكم فى الأرض﴾ من حيوان ونبات حال كونه ﴿مختلفا ألوانه﴾ أى أصنافه فان اختلافها غالبا يكون باختلاف اللون مسخر لله تعالى أو لما خلق له من الخواص والأحوال والكيفيات أوجعل ذلك مختلف الألوان أى الأصناف لتتمتعوا من ذلك بأى صنف شئتم وقد عطف على ماقبله من المنصوبات وعقب بأن ذكر الخلق لهم مغن عن ذكر التسخير واعتذر بأن الأول لا يستلزم الثانى لزوما عقليا لجواز كون ماخلق لهم عزيز المرام صعب المنال وقيل هو منصوب بفعل مقدر أى خلق وأنبت على أن قوله مختلفا ألوانه حال من مفعوله ﴿ان فى ذلك﴾ الذى ذكر من التسخيرات ونحوها ﴿لآية﴾ بينة الدلالة على أن من هذا شأنه واحد

لاندله ولاضد ﴿لقوم يذكرون﴾ فان ذلك غير محتاج الاالى تذكر ماعسى يغفل عنه من العلوم الضرورية وأما مايقال من أن اختلافها فى الطباع والهيآت والمناظر ليس الابصنع صانع حكيم فمداره مالوحنابه من حسبان ماذكر دليلا على اثبات الصانع تعالى وقد عرفت حقيقة الحال فان ايراد مايدل على اتصافه سبحانه بما ذكر من صفات الكمال ليس بطريق الاستدلال عليه بل من حيث ان ذلك من المقدمات المسلمة جئ به للاستدلال به على مايقتضيه ضرورة من وحدانيته تعالى واستحالة أن يشاركه شئ فى الالوهية ﴿وهو الذى سخر البحر﴾ شروع فى تعداد النعم المتعلقة بالبحر اثر تفصيل النعم المتعلقة بالبر حيوانا ونباتا أى جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والغوص والاصطياد ﴿لتأكلوا منه لحما طريا﴾ هو السمك والتعبير عنه باللحم مع كونه حيوانا للتلويح بانحصار الانتفاع به فى الأكل ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته والتنبيه على وجوب المسارعة الى أكله كيلا يتسارع اليه الفساد كما ينبئ عنه جعل البحر مبتدأ أكله وللايذان بكمال قدرته تعالى فى خلقه عذبا طريا فى ماء زعاق ومن اطلاق اللحم عليه ذهب مالك والثورى أن من حلف لايأكل اللحم حنث بأكله والجواب أن مبنى الأيمان العرف ولاريب فى أنه لايفهم من اللحم عند الاطلاق ولذلك لوأمر خادمه بشراء اللحم فجاء بالسمك لم يكن ممتثلا بالأمر ألا يرى الى أن الله تعالى سمى الكافر دابة حيث قال ان شر الدواب عند الله الذين كفروا ولايحنث بركوبه من حلف لايركب دابة ﴿وتستخرجوا منه حلية﴾ كاللؤلؤ والمرجان ﴿تلبسونها﴾ عبر فى مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم أولكون لبسهن لأجلهم ﴿وترى الفلك﴾ السفن ﴿مواخر فيه﴾ جوارى فيه مقبلة ومدبرة ومعترضة بريح واحدة تشقه بحيزومها من المخر وهو شق الماء وقيل هو صوت جرى الفلك ﴿ولتبتغوا﴾ عطف على تستخرجوا وماعطف هو عليه ومابينهما اعتراض لتمهيد مبادى الابتغاء ودفع توهم كونه باستخراج الحلية أوعلى علة محذوفة أى لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا ذكره ابن الانبارى أومتعلقة بفعل محذوف أى وفعل ذلك لتبتغوا ﴿من فضله﴾ من سعة رزقه بركوبها للتجارة ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أى تعرفون حقوق نعمه الجليلة فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث ان فيها قطعا لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة فى مدة قليلة من غير مزاولة أسباب السفر بل من غير حركة أصلا مع أنها فى تضاعيف المهالك وعدم توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر للايذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معا ﴿وألقى فى الأرض رواسى﴾ أى جبالا ثوابت وقد مر تحقيقه فى أول سورة الرعد ﴿أن تميد بكم﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب أولئلا تميد بكم فان الأرض قبل أن تخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة الطبع وكان من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالافلاك أوتتحرك بأدنى سبب محرك فلما خلقت الجبال تفاوتت حافاتها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالاوتاد وقيل لما خلق الله تعالى الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة ماهى بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال ﴿وأنهارا﴾ أى وجعل فيه أنهارا لأن فى ألقى معنى الجعل ﴿وسبلا لعلكم تهتدون﴾ بها الى مقاصدكم ﴿وعلامات﴾ معالم يستدل بها السابلة بالنهار من جبل ومنهل وريح وقد نقل أن جماعة يشمون التراب ويتعرفون به الطرقات ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ بالليل فى البرارى والبحار حيث لاعلامة غيره والمراد بالنجم الجنس وقيل هو الثريا والفرقدان وبنات النعش والجدى وقرئ بضمتين وبضمة وسكون وهو جمع كرهن ورهن وقيل الاول بطريق حذف الواو من النجوم للتخفيف ولعل الضمير لقريش فانهم كانوا كثيرى التردد للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم فى أسفارهم وصرف النظم عن سنن الخطاب وتقديم النجم واقحام الضمير للتخصيص كانه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فالاعتبار بذلك والشكر

عليه ألزم لهم وأوجب عليهم ﴿أفمن يخلق﴾ هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هاتيك الافاعيل البديعة أو يخلق كل شيء ﴿كمن لا يخلق﴾ شيئاً أصلا وهو تبكيت للكفرة وابطال لاشراكهم وعبادتهم للاصنام بانكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى بعد تعداد ما يقتضى ذلك اقتضاء ظاهرا وتعقيب الهمزة بالفاء لتوجيه الانكار الى توهم المشابهة المذكورة على ما فصل من الامور العظيمة الظاهرة الاختصاص به تعالى المعلومة كذلك فيما بينهم حسبما يؤذن به ما تلوناه من قوله تعالى ولئن سألتهم الآيتين والاقتصار على ذكر الخلق من بينها لكونه أعظمها وأظهرها واستتباعه اياها أو لكون كل منها خلقا مخصوصا أى أبعد ظهور اختصاصه تعالى بمبدئية هذه الشؤن الواضحة الدلالة على وحدانيته تعالى وتفرده بالالوهية واستبداده باستحقاق العبادة يتصور المشابهة بينه وبين ما هو بمعزل من ذلك بالمرة كما هو قضية اشراككم ومدارها وان كان على تشبيه غير الخالق بالخالق لكن التشبيه حيث كان نسبة تقوم بالمنتسبين اختير ما عليه النظم الكريم مراعاة لحق سبق الملكة على العدم وتفاديا عن توسيط عدمها بينها وبين جزئياتها المفصلة قبلها وتنبيها على كمال قبح ما فعلوه من حيث ان ذلك ليس مجرد رفع الاصنام عن محلها بل هو حط لمنزلة الربوبية الى مرتبة الجمادات ولا ريب فى أنه أقبح من الاول والمراد بمن لا يخلق كل ما هذا شأنه كائنا ما كان والتعبير عنه بما يختص بالعقلاء للمشاكلة أو العقلاء خاصة ويعرف منه حال غيرهم لدلالة النص فان من يخلق حيث لم يكن كمن لا يخلق وهو من جملة العقلاء فما ظنك بالجماد وأيا ما كان فدخول الاصنام فى حكم عدم المماثلة والمشابهة اما بطريق الاندراج تحت الموصول العام واما بطريق الانفهام بدلالة النص على الطريقة البرهانية لا بأنها هى المرادة بالموصول خاصة ﴿أفلا تذكرون﴾ أى ألا تلاحظون فلا تذكرون ذلك فانه لوضوحه بحيث لا يفتقر الى شيء سوى التذكر ﴿وان تعدوا نعمة الله﴾ تذكير اجمالى لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها وكان الظاهر ايراده عقيبها تكملة لها على طريقة قوله تعالى ويخلق ما لا تعلمون ولعل فصل ما بينهما بقوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون للمبادرة الى الزام الحجة والقام الحجر اثر تفصيل ما فصل من الافاعيل التى هى أدلة الوحدانية مع ما فيه من سر ستقف عليه ودلالتها عليها وان لم تكن مقصورة على حيثية الخلق ضرورة ظهور دلالتها عليها من حيثية الانعام أيضا لكنها حيث كانت مستتبعات الحيثية الاولى استغنى عن التصريح بها ثم بين حالها بطريق الاجمال أى ان تعدوا نعمته الفائضة عليكم مما ذكر وما لم يذكر حسبما يعرب عنه قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ﴿لا تحصوها﴾ أى لا تطيقوا حصرها وضبط عددها ولو اجمالا فضلا عن القيام بشكرها وقد خرجنا عن عهدة تحقيقه فى سورة ابراهيم بفضل الله سبحانه ﴿ان الله لغفور﴾ حيث يستر ما فرط منكم من كفرانها والاخلال بالقيام بحقوقها ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك ﴿رحيم﴾ حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع والحرمان بما تأتون وتذرون من أصناف الكفر التى من جملتها عدم الفرق بين الخالق وغيره وكل من ذلك نعمة وأيما نعمة فالجملة تعليل للحكم بعدم الاحصاء وتقديم وصف المغفرة على نعت الرحمة لتقدم التخلية على التحلية ﴿والله يعلم ما تسرون﴾ تضمرونه من العقائد والاعمال ﴿وما تعلنون﴾ أى تظهرونه منهما وحذف العائد لمراعاة الفواصل أى يستوى بالنسبة الى علمه المحيط سركم وعلنكم وفيه من الوعيد والدلالة على اختصاصه سبحانه بنعوت الالهية ما لا يخفى وتقديم السر على العلن لما ذكرناه فى سورة البقرة وسورة هود من تحقيق المساواة بين علميه المتعلقين بهما على أبلغ وجه كان علمه تعالى بالسر أقدم منه بالعلن أو لان كل شيء يعلن فهو قبل ذلك مضمر فى القلب فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية ﴿والذين يدعون﴾ شروع فى تحقيق كون الاصنام بمعزل من استحقاق العبادة وتوضيحه بحيث لا يبقى فيه شائبة ريب بتعديد أوصافها وأحوالها المنافية لذلك منافاة ظاهرة وتلك الاحوال وان كانت غنية

عن البيان لكنها شرحت للتنبيه على كمال حماقة عبدتها وانهم لا يعرفون ذلك الا بالتصريح أى والآلهة الذين يعبدهم الكفار ﴿من دون الله﴾ سبحانه وقرىء على صيغة المبنى للمفعول وعلى الخطاب ﴿لا يخلقون شيئاً﴾ من الاشياء أصلا أى ليس من شأنهم ذلك ولما لم يكن بين نفى الخالقية وبين المخلوقية تلازم بحسب المفهوم وان تلازما فى الصدق أثبت لهم ذلك صريحا فقيل ﴿وهم يخلقون﴾ أى شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية لانها ذوات ممكنة مفتقرة فى ماهياتها ووجوداتها الى الموجد وبناء الفعل للمفعول لتحقيق التضاد والمقابلة بين ما أثبت لهم وبين ما نفى عنهم من وصفى المخلوقية والخالقية وللايذان بعدم الافتقار الى بيان الفاعل لظهور اختصاص الفعل بفاعله جل جلاله ويجوز أن يجعل الخلق الثانى عبارة عن النحت والتصوير رعاية للمشاكلة بينه وبين الاول ومبالغة فى كونهم مصنوعين لعبدتهم وأعجز عنهم وايذانا بكمال ركاكة عقولهم حيث أشركوا بخالقهم مخلوقهم وأما جعل الاول أيضا عبارة عن ذلك كما فعل فلا وجه له اذ القدرة على مثل ذلك الخلق ليست مما يدور عليه استحقاق العبادة أصلا ولما أن اثبات المخلوقية لهم غير مستدع لنفى الحياة عنهم لما أن بعض المخلوقين أحياء صرح بذلك فقيل ﴿أموات﴾ وهو خبر ثان للموصول لا للضمير كما قيل أو خبر مبتدا محذوف وحيث كان بعض الاموات مما يعتريه الحياة سابقا أو لاحقا كاجساد الحيوان والنطف التى ينشئها الله تعالى حيوانا احترز عن ذلك فقيل ﴿غير أحياء﴾ أى لا يعتريها الحياة أصلا فهى أموات على الاطلاق وأما قوله تعالى ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ أى ما يشعر أولئك الآلهة أيان يبعث عبدتهم فعلى طريقة التهكم بهم لان شعور الجماد بالامور الظاهرة بديهى الاستحالة عند كل أحد فكيف بما لا يعلمه الا العليم الخبير وفيه ايذان بأن البعث من لوازم التكليف وان معرفة وقته مما لا بد منه فى الالوهية ﴿الهكم اله واحد﴾ لا يشاركه شىء فى شىء وهو تصريح بالمدعى وتمحيض للنتيجة غب اقامة الحجة ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ وأحوالها التى من جملتها ما ذكر من البعث وما يعقبه من الجزاء المستلزم لعقوبتهم وذلتهم ﴿قلوبهم منكرة﴾ للوحدانية جاحدة لها أو للآيات الدالة عليها ﴿وهم مستكبرون﴾ عن الاعتراف بها أو عن الآيات الدالة عليها والفاء للايذان بأن اصرارهم على الانكار واستمرارهم على الاستكبار وقع موقع النتيجة للدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة والمعنى أنه قد ثبت بما قرر من الحجج والبينات اختصاص الالهية به سبحانه فكان من نتيجة ذلك اصرارهم على ما ذكر من الانكار والاستكبار وبناء الحكم المذكور على الموصول للاشعار بكونه معللا بما فى حيز الصلة فان الكفر بالآخرة وبما فيها من البعث والجزاء المتنوع الى الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية يؤدى الى قصر النظر على العاجل والاعراض عن الدلائل السمعية والعقلية الموجب لانكارها وانكار مؤداها والاستكبار عن اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقه وأما الايمان بها وبما فيها فيدعو لا محالة الى التأمل فى الآيات والدلائل رغبة ورهبة فيورث ذلك يقينا بالوحدانية وخضوعا لامر الله تعالى ﴿لا جرم﴾ أى حقا وقد مر تحقيقه فى سورة هود ﴿ان الله يعلم ما يسرون﴾ من انكار قلوبهم ﴿وما يعلنون﴾ من استكبارهم وقولهم للقرآن أساطير الاولين وغير ذلك من قبائحهم فيجازيهم بذلك ﴿انه لا يحب المستكبرين﴾ تعليل لما تضمنه الكلام من الوعيد أى لا يحب المستكبرين عن التوحيد أو عن الآيات الدالة عليها أو لا يحب جنس المستكبرين فكيف بمن استكبر عما ذكر ﴿واذا قيل لهم﴾ أى لاولئك المنكرين المستكبرين وهو بيان لاضلالهم غب بيان ضلالهم ﴿ماذا أنزل ربكم﴾ القائل الوافدون عليهم أو المسلمون أو بعض منهم على طريق التهكم وماذا منصوب بما بعده أو مرفوع أى أى شىء أنزل أو ما الذى أنزله ﴿قالوا أساطير الاولين﴾ أى ما تدعون نزوله والمنزل بطريق السخرية أحاديث الاولين وأباطيلهم وليس من الانزال فى شىء قيل هؤلاء القائلون هم المقتسمون الذين اقتسموا مداخل

مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سؤال وفود الحاج عما نزل عليه عليه السلام ﴿ليحملوا﴾ متعلق بقالوا أى قالوا ماقالوا ليحملوا ﴿أوزارهم﴾ الخاصة بهم وهى أوزار ضلالهم ﴿كاملة﴾ لم يكفر منها شئ بنكبة أصابتهم فى الدنيا كما يكفر بها أوزار المؤمنين ﴿يوم القيامة﴾ ظرف ليحملوا ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم﴾ وبعض أوزار من ضل باضلالهم وهو وزر الاضلال لانهما شريكان هذا يضله وهذا يطاوعه فيتحاملان الوزر واللام للتعليل فى نفس الامر من غير أن يكون غرضا وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار الاضلال أو باعتبار حال قولهم لاحال الحمل ﴿بغير علم﴾ حال من الفاعل أى يضلونهم غير عالمين بأن مايدعون اليه طريق الضلال وأما حمله على معنى غير عالمين بأنهم يحملون يوم القيامة أوزار الضلال والاضلال على أن يكون العامل فى الحال قالوا وتأييده بما سيأتى من قوله تعالى وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون من حيث ان حمل ماذكر من أوزار الضلال والاضلال من قبيل اتيان العذاب من حيث لايشعرون فيرده أن الحمل المذكور انما هو يوم القيامة والعذاب المذكور انما هو العذاب الدنيوى كما ستقف عليه أو حال من المفعول أى يضلون من لا يعلم انهم ضلال وفائدة التقييد بها الاشعار بأن مكرهم لايروج عند ذى لب وانما يتبعهم الاغبياء والجهلة والتنبيه على أن جهلهم ذلك لا يكون عذرا اذ كان يجب عليهم أن يبحثوا و يميزوا بين المحق الحقيق بالاتباع و بين المبطل ﴿ألا ساء مايزرون﴾ أى بئس شيأ يزرونه ماذكر ﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ وعيد لهم برجوع غائلة مكرهم الى أنفسهم كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذين أصابهم ما أصابهم من العذاب العاجل أى قد سووا منصوبات ليمكروا بها رسل الله تعالى ﴿فأتى الله﴾ أى أمره وحكمه ﴿بنيانهم﴾ وقرئ بيتهم وبيوتهم ﴿من القواعد﴾ وهى الاساطين التى تعمده أو أساسه فضعضعت أركانه ﴿فخر عليهم السقف من فوقهم﴾ أى سقط عليهم سقف بنيانهم اذ لايتصور له القيام بعد تهدم القواعد شبهت حال أولئك الماكرين فى تسويتهم المكايد والمنصوبات التى أرادوا بها الايقاع برسل الله سبحانه وفى ابطاله تعالى تلك الحيل والمكايد وجعله اياها أسبابا لهلاكهم بحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فأتى ذلك من قبل أساطينه بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا وقرئ فخر عليهم السقف بضمتين ﴿وأتاهم العذاب﴾ أى الهلاك والدمار ﴿من حيث لايشعرون﴾ باتيانه منه بل يتوقعون اتيان مقابله مما يريدون ويشتهون والمعنى أن هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير الأولين سيأتيهم من العذاب مثل ماأتاهم وهم لايحتسبون والمراد به العذاب العاجل لقوله سبحانه ﴿ثم يوم القيامة يخزيهم﴾ فانه عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى هذا الذى فهم من التمثيل من عذاب هؤلاء أو ماهو أعم منه ومما ذكر من عذاب أولئك جزاؤهم فى الدنيا ويوم القيامة يخزيهم أى يذلهم بعذاب الخزى على رؤس الاشهاد وأصل الخزى ذل يستحيى منه وثم للايماء الى مابين الجزاءين من التفاوت مع مايدل عليه من التراخى الزمانى وتغيير السبك بتقديم الظرف ليس لقصر الخزى على يوم القيامة كما هو المتبادر من تقديم الظرف على الفعل بل لأن الاخبار بجزائهم فى الدنيا مؤذن بأن لهم جزاء أخرو يا فتبقى النفس مترقبة الى وروده سائلة عنه بأنه ماذا مع تيقنها بأنه فى الآخرة فسيق الكلام على وجه يؤذن بأن المقصود بالذكر اخزاؤهم لا كونه يوم القيامة والضمير اما للمفترين فى حق القرآن الكريم أو لهم ولمن مثلوا بهم من الماكرين كما أشير اليه وتخصيصه بهم يأباه السباق والسياق كما ستقف عليه ﴿ويقول﴾ لهم تفضيحا وتوبيخا فهو الخ بيان للاخزاء ﴿أين شركائى﴾ أضافهم اليه سبحانه حكاية لاضافتهم الكاذبة ففيه توبيخ اثر توبيخ مع الاستهزاء بهم ﴿الذين كنتم تشاقون فيهم﴾ أى تخاصمون الانبياء والمؤمنين فى شأنهم بأنهم شركاء حقا حين بينوا لكم بطلانها والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة أو المدافعة على طريقة الاستهزاء والتبكيت والاستفسار عن مكانهم لايوجب غيبتهم حقيقة حتى

يعتذر بأنهم يجوز أن يحال بينهم و بين عبدتهم حينئذ ليتفقدوها فى ساعة علقوا بهـا الرجاء فيها أو بأنهم لـما لم ينفعوهم فكأنهم غيب بل يكفى فى ذلك عدم حضورهم بالعنوان الذى كانوا يزعمون أنهم متصفون من عنوان الالهية فليس هناك شركاء و لا أما كنها على أن قوله ليتفقدوا ليس بسديد فانه قد تبين عندهم الامر حينئذ فرجعوا عن ذلك الزعم الباطل فكيف يتصور منهم التفقد وقرىء بكسر النون أى تشاقوننى على أن مشاقة الانبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين لاسيما فى شأن متعلق به سبحانه مشاقة له عز وجل ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ من أهل الموقف وهم الانبياء والمؤمنون الذين أوتوا علما بدلائل التوحيد وكانوا يدعونهم فى الدنيا الى التوحيد فيجادلونهم و يتكبرون عليهم أى يقولون توبيخا لهم واظهارا للشماتة بهم وتقريرا لـما كانوا يعظونهم وتحقيقا لـما أو عدوهم به وايثار صيغة المـاضى للدلالة على تحققه وتحتم وقوعه حسبما هو المعتاد فى اخباره سبحانه وتعـالى كقوله ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب الاعراف ﴿أن الخزى﴾ الفضيحة والذل والهوان ﴿اليوم﴾ منصوب بالخزى على رأى من يرى اعمال المصدر المصدر باللام أو بالاستقرار فى الظرف وفيه فصل بين العامل والمعمول بالمعطوف الا أنه مغتفر فى الظروف وايراده للاشعار بأنهم كانوا قبل ذلك فى عزة وشقاق ﴿والسوء﴾ العذاب ﴿على الكافرين﴾ بالله تعالى و بآياته و رسله ﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾ بتأنيث الفعل وقرىء بتذكيره و بادغام التاء فى التاء والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار صورة توفيهم اياهم لـما فيها من الهول والموصول فى محل الجر على أنه نعت للكافرين أو بدل منـه أو فى محل النصب أو الرفع على الذم وفائدته تخصيص الخزى والسوء بمن استمر كفره الى حين الموت دون من آمن منهم ولو فى آخر عمره أى على الكافرين المستمرين على الكفر الى أن يتوفاهم الملائكة ﴿ظالمى أنفسهم﴾ أى حال كونهم مستمرين على الكفر فانه ظلم منهم لانفسهم وأى ظلم حيث عرضوها للعذاب المخلد و بدلوا فطرة الله تبديلا ﴿فألقوا السلم﴾ أى فيلقون والعدول الى صيغة المـاضى للدلالة على تحقق الوقوع وهو عطف على قوله تعالى و يقول أين شركائى وما بينهما جملة اعتراضية جىء بها تحقيقا لـما حاق بهم من الخزى على رؤس الاشهاد أى فيسالمون و يتركون المشاقة و ينزلون عما كانوا عليه فى الدنيا من الكبر وشدة الشكيمة قائلين ﴿ما كنا نعمل﴾ فى الدنيا ﴿من سوء﴾ أى من شرك قالوه منكرين لصدوره عنهم كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين وانمـا عبروا عنـه بالسوء اعترافا بكونه سيئا لا انكارا لكونه كذلك مع الاعتراف بصدوره عنهم و يجوز أن يكون تفسيرا للسلم على أن يكون المراد به الكلام الدال عليه وعلى التقديرين فهو جواب عن قوله سبحانه أين شركائى كما فى سورة الانعام لا عن قول أولى العلم ادعاء لعدم استحقاقهم لـما دهمهم من الخزى والسوء ﴿بلى﴾ رد عليهم من قبل أولى العلم واثبات لـما نفوه أى بلى كنتم تعملون ما تعملون ﴿ان الله عليم بمـا كنتم تعملون﴾ فهو يجازيكم عليه وهذا أوانه ﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾ أى كل صنف بابه المعدله وقيـل أبوابها أصناف عذابها فالدخول عبارة عن الملابسة والمقاساة ﴿خالدين فيها﴾ ان أريد بالدخول حدوثه فالحال مقدرة وان أريد مطلق الكون فيها فهى مقارنة ﴿فلبئس مثوى المتكبرين﴾ عن التوحيد كما قال تعالى قلوبهم منكرة وهم مستكبرون وذكرهم بعنوان التكبر للاشعار بعليته لثوائهم فيها والمخصوص بالذم محذوف أى جهنم وتأويل قولهم ما كنا نعمل من سوء بأنا ما كنا عاملين ذلك فى اعتقادنا روما للمحافظة على أن لا كذب ثمة يرده الرد المذكور وما فى سورة الانعام من قوله تعالى انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴿وقيل للذين اتقوا﴾ أى المؤمنين وصفوا بالتقوى اشعارا بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشىء عن التقوى ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا﴾ سلكوا فى الجواب مسلك السؤال من غير تلعثم و لا تغيير فى الصورة والمعنى أى أنزل خيرا فانه جواب مطابق للسؤال ولسبكا لواقع فى نفس الامر مضمونا وأما الكفرة فانهم خذلهم الله تعالى كما غيروا

الجواب عن نهج الحق الواقع الذى ليس له من دافع غيروا صورته وعدلوا بها عن سنن السؤال حيث رفعوا الاساطير روماما مر من انكار النزول روى أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي عليه السلام فاذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف وقالوا ان لم تلقه كان خيرا لك فيقول أنا شر وافد ان رجعت الى قومى دون أن أستطاع أمر محمد وأراه فيلقى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم و رضى عنهم فيخبرونه بحقيقة الحال فهم الذين قالوا خيرا ﴿للذين أحسنوا﴾ أى أعمالهم أو فعلوا الاحسان ﴿فى هذه﴾ الدار ﴿الدنيا حسنة﴾ أى مثوبة حسنة مكافأة فيها ﴿ولدار الآخرة﴾ أى مثوبتهم فيها ﴿خير﴾ مما أوتوا فى الدنيا من المثوبة أو خير على الاطلاق فيجوز اسناد الخيرية الى نفس دار الآخرة ﴿ولنعم دار المتقين﴾ أى دار الآخرة حذف لدلالة ماسبق عليه وهذا كلام مبتدأ مدح الله تعالى به المتقين وعدجوابهم المحكى من جملة احسانهم و وعدهم بذلك ثوابى الدنيا والآخرة فلا محل له من الاعراب أو بدل من خيرا أو تفسير له أى أنزل خيرا هو هذا الكلام الجامع قالوه ترغيبا للسائل ﴿جنات عدن﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أى لهم جنات ويجوز أن يكون هو المخصوص بالمدح ﴿يدخلونها﴾ صفة لجنات على تقدير تنكير عدن وكذلك ﴿تجرى من تحتها الانهار﴾ أو كلاهما حال على تقدير علميته ﴿لهم فيها﴾ فى تلك الجنات ﴿مايشاؤن﴾ الظرف الاول لخبر لما والثانى حال منه والعامل مافى الاول أو متعلق به أى حاصل لهم فيها مايشاؤن من أنواع المشتهيات وتقديمه للاحتراز عن توهم تعلقه بالمشيئة أو لما مر مرارا من أن تأخير ماحقه التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الجزاء الاوفى ﴿يجزى الله المتقين﴾ اللام للجنس أى كل من يتق من الشرك والمعاصى ويدخل فيه المتقون المذكورون دخولا أوليا ويكون فيه بعث لغيرهم على التقوى أو للعهد فيكون فيه تحسير للكفرة ﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾ نعت للمتقين وقوله تعالى ﴿طيبين﴾ أى طاهرين عن دنس الظلم لانفسهم حال من الضمير وفائدته الايذان بأن ملاك الأمر فى التقوى هو الطهارة عما ذكر الى وقت توفيهم ففيه حث للمؤمنين على الاستمرار على ذلك ولغيرهم على تحصيله وقيل فرحين طيبي النفوس ببشارة الملائكة اياهم بالجنة أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية الى جناب القدس ﴿يقولون﴾ حال من الملائكة أى قائلين لهم ﴿سلام عليكم﴾ قال القرظى رحمه الله اذا استدعيت نفس المؤمن جاءه ملك الموت عليه السلام فقال السلام عليك ياولى الله الله تعالى يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة ﴿ادخلوا الجنة﴾ اللام للعهد أى جنات عدن الخ ولذلك جردت عن النعت والمراد دخولهم لها فى وقته فان ذلك بشارة عظيمة وان تراخى المبشر به لادخول القبر الذى هو روضة من رياضها اذ ليس فى البشارة به مافى البشارة بدخول نفس الجنة ﴿بما كنتم تعملون﴾ بسبب ثباتكم على التقوى والطاعة أو بالذى كنتم تعملونه من ذلك وقيل المراد بالتوفى التوفى للحشر لان الأمر بالدخول حينئذ يتحقق ﴿هل ينظرون﴾ أى ماينتظر كفار مكة المار ذكرهم ﴿الا أن تأتيهم الملائكة﴾ لقبض أرواحهم بالعذاب جعلوا منتظرين لذلك وشتان بينهم وبين انتظاره لا لانه يلحقهم البتة لحوق الامر المنتظر بل لمباشرتهم لاسبابه الموجبة له المؤدية اليه فكأنهم يقصدون اتيانه ويترصدون لوروده وقرئ بتذكير الفعل ﴿أو يأتى أمر ربك﴾ التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام اشعار بأن اتيانه لطف به عليه الصلاة والسلام وان كان عذابا عليهم والمراد بالأمر العذاب الدنيوى لا القيامة لكن لا لان انتظارها يجامع انتظار اتيان الملائكة فلا يلائمه العطف بأو لانها ليست نصا فى العناد اذ يجوز أن يعتبر منع الخلو ويراد بايرادها كفاية كل واحد من الأمرين فى عذابهم بل لان قوله تعالى فأصابهم سيأتى ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فأصابهم الآية صريح فى أن المراد به ما أصابهم من العذاب الدنيوى ﴿كذلك﴾ أى مثل فعل هؤلاء من الشرك والظلم

والتكذيب والاستهزاء ﴿فعل الذين﴾ خلوا ﴿من قبلهم﴾ من الامم ﴿وماظلمهم الله﴾ بما سيتلى من عذابهم ﴿ولكن كانوا﴾ بما كانوا مستمرين عليه من القبائح الموجبة لذلك ﴿أنفسهم يظلمون﴾ كان الظاهر أن يقال ولكن كانوا هم الظالمين كما فى سورة الزخرف لكنه أوثر ما عليه النظم الكريم لافادة أن غائلة ظلمهم آيلة اليهم وعاقبته مقصورة عليهم مع استلزام اقتصار ظلم كل أحد على نفسه من حيث الوقوع اقتصاره عليه من حيث الصدور وقدمر تحقيقه فى سورة يونس ﴿فأصابهم﴾ عطف على قوله تعالى فعل الذين من قبلهم ومابينهما اعتراض لبيان أن فعلهم ذلك ظلم لانفسهم ﴿سيئات ماعملوا﴾ أى أجزية أعمالهم السيئة على طريقة تسمية المسبب باسم سببه ايذانا بانفظاعته لا على حذف المضاف فانه يوهم أن لهم أعمالا غير سيئاتهم ﴿وحاق بهم﴾ أى أحاط بهم من الحيق الذى هو احاطة الشر وهو أبلغ من الاصابة وأفظع ﴿ما كانوا به يستهزؤن﴾ من العذاب ﴿وقال الذين أشركوا﴾ أى أهل مكة وهو بيان لفن آخر من كفرهم والعدول عن الاضمار الى الموصول لتقريعهم بما فى حيز الصلة وذمهم بذلك من أول الأمر ﴿لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شئ﴾ أى لو شاء عدم عبادتنا لشئ غيره كما تقول لما عبدنا ذلك ﴿نحن و لا آباؤنا﴾ الذين نقتدى بهم فى ديننا ﴿و لا حرمنا من دونه من شئ﴾ من السوائب والبحائر وغيرها وانما قالوا ذلك تكذيبا للرسول عليه الصلاة والسلام وطعنا فى الرسالة رأسا متمسكين بأن ماشاء الله تعالى يجب ومالم يشأ يمتنع فلو أنه شاء أن نوحده ولا نشرك به شيئاً و لا نحرم مما حرمنا شيئاً كما يقول الرسل و ينقلونه من جهة الله عز وجل لكان الأمر كما شاء من التوحيد ونفى الاشراك وما يتبعهما وحيث لم يكن كذلك ثبت أنه لم يشأ شيئاً من ذلك وانما يقوله الرسل من تلقاء أنفسهم فأجيب عنه بقوله عز وجل ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿فعل الذين من قبلهم﴾ من الامم أى أشركوا بالله وحرموا حله و ردوا رسله وجادلوهم بالباطل حين نبهوهم على الخطا وهدوهم الى الحق ﴿فهل على الرسل﴾ الذين يبلغون رسالات الله وعزائم أمره ونهيه ﴿الا البلاغ المبين﴾ أى ليست وظيفتهم الا تبليغ الرسالة تبليغا واضحا أو موضحا وابانة طريق الحق واظهار أحكام الوحى الذى من جملتها تحتم تعلق مشيئة الله تعالى باهتداء من صرف قدرته واختياره الى تحصيل الحق لقوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وأما الجاؤهم الى ذلك وتنفيذ قولهم عليهم شاؤا أو أبوا كما هو مقتضى استدلالهم فليس ذلك من وظيفتهم ولا من الحكمة التى عليها يدور أمر التكليف فى شئ حتى يستدل بعدم ظهور آثاره على عدم حقية الرسل أو على عدم تعلق مشيئته تعالى بذلك فان مايترتب عليه الثواب والعقاب من أفعال العباد لابد فى تعلق مشيئته تعالى بوقوعه من مباشرتهم الاختيارية له وصرف اختيارهم الجزئى الى تحصيله والا لكان الثواب والعقاب اضطراريين فالفاء للتعليل كأنه قيل كذلك فعل أسلافهم وذلك باطل فان الرسل ليس شأنهم الا تبليغ أوامر الله تعالى ونواهيه لاتحقيق مضمونهما واجراء موجبهما على الناس قسرا والجاء وايراد كلمة على للايذان بأنهم فى ذلك مأمورون أو بأن ما يبلغونه حق للناس عليهم ايفاؤه و بهذا ظهر أن حمل قولهم لو شاء الله الخ على الاستهزاء لايلائم الجواب والله تعالى أعلم بالصواب ﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا﴾ تحقيق لكيفية تعلق مشيئته تعالى بافعال العباد بعد بيان أن الالجاء ليس من وظائف الرسالة و لا من باب المشيئة المتعلقة بما يدور عليه الثواب والعقاب من الافعال الاختيارية لهم أى بعثنا فى كل أمة من الامم الخالية رسولا خاصا بهم ﴿أن اعبدوا الله﴾ يجوز أن تكون أن مفسرة لما فى البعث من معنى القول وأن تكون مصدرية أى بعثنا بأن اعبدوا الله وحده ﴿واجتنبوا الطاغوت﴾ هو الشيطان و كل ما يدعو الى الضلالة ﴿فمنهم﴾ أى من تلك الامم والفاء فصيحة أى فبلغوا ما بعثوا به من الامر بعبادة الله وحده واجتناب الطاغوت فتفرقوا فمنهم ﴿من هدى الله﴾ الى الحق الذى هو عبادته واجتناب الطاغوت بعد صرف قدرتهم واختيارهم الجزئى الى تحصيله ﴿ومنهم

من حقت عليه الضلالة ﴿ أى وجبت وثبتت الى حين الموت لعناده واصراره عليها وعدم صرف قدرته الى تحصيل الحق وتغيير الاسلوب للاشعار بأن ذلك لسوء اختيارهم كقوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين فلم يكن كل من مشيئة الهداية وعدمها الا حسبما حصل منهم من التوجه الى الحق وعدمه الا بطريق القسر والالجاء حتى يستدل بعدمهما على عدم تعلق مشيئته تعالى بعبادتهم له تعالى وحده ﴿ فسيروا ﴾ يامعشر قريش ﴿ فى الارض فانظروا ﴾ فى أكنافها ﴿ كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ من عادوثمود ومن سار سيرتهم ممن حقت عليه الضلالة لعلكم تعتبرون حين تشاهدون فى منازلهم وديارهم آثار الهلاك والعذاب وترتيب الامر بالسير على مجرد الاخبار بثبوت الضلالة عليهم من غير اخبار بحلول العذاب للايذان بأنه غنى عن البيان وأن ليس الخبر كالعيان وترتيب النظر على السير لما أنه بعده وأن ملاك الامر فى تلك العاقبة هو التكذيب والتعالل بأنه لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شيء ﴿ ان تحرص ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء بفتح الراء وهى لغية ﴿ على هداهم ﴾ أى ان تطلب هدايتهم بجهدك ﴿ فان الله لا يهدى من يضل ﴾ أى فاعلم أنه تعالى لايخلق الهداية جبرا وقسرا فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره والمراد به قريش وانما وضع الموصول موضع الضمير للتنصيص على أنهم ممن حقت عليه الضلالة وللاشعار بعلة الحكم ويجوز أن يكون المذكور علة للجزاء المحذوف أى ان تحرص على هداهم فلست بقادر على ذلك لان الله لا يهدى من يضله وهؤلاء من جملتهم وقرىء لا يهدى على بناء المفعول أى لايقدر أحد على هداية من يضله الله تعالى وقرىء لا يهدى بفتح الهاء وادغام تاء يهتدى فى الدال ويجوز أن يكون يهدى بمعنى يهتدى وقرىء يضل بفتح الياء وقرىء لا هادى لمن يضل ولمن أضل ﴿ ومالهم من ناصرين ﴾ ينصرونهم فى الهداية أو يدفعون العذاب عنهم وصيغة الجمع فى الناصرين باعتبار الجمعية فى الضمير فان مقابلة الجمع بالجمع يقتضى انقسام الآحاد الى الآحاد لا لأن المراد نفى طائفة من الناصرين من كل منهم ﴿ وأقسموا بالله ﴾ شروع فى بيان فن آخر من أباطيلهم وهو انكارهم البعث ﴿ جهد أيمانهم ﴾ مصدر فى موقع الحال أى جاهدين فى أيمانهم ﴿ لايبعث الله من يموت ﴾ ولقد رد الله تعالى عليهم أبلغ رد بقوله الحق ﴿ بلى ﴾ أى بلى يبعثهم ﴿ وعدا ﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه بلى فان ذلك موعد من الله سبحانه أو المحذوف أى وعد بذلك وعدا ﴿ عليه ﴾ صفة لوعد أى وعدا ثابتا عليه انجازه لامتناع الخلف فى وعده أو لأن البعث من مقتضيات الحكمة ﴿ حقا ﴾ صفة أخرى له أو نصب على المصدرية أى حق حقا ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ لجهلهم بشؤون الله عز شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال وبما يجوز عليه ومالايجوز وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه وعلى أن البعث مما يقتضيه الحكمة التى جرت عادته سبحانه بمراعاتها ﴿ لايعلمون ﴾ أنه يبعثهم فيبتون القول بعدمه أو أنه وعد عليه حق فيكذبونه قائلين لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين ﴿ ليبين لهم ﴾ غاية لما دل عليه بلى من البعث والضمير لمن يموت اذ التبيين يعم المؤمنين أيضا فانهم وان كانوا عالمين بذلك لكنه عند معاينة حقيقة الحال يتضح الامر فيصل علمهم الى مرتبة عين اليقين أى يبعثهم ليبين لهم بذلك وبما يحصل لهم من مشاهدة الأحوال كما هى ومعاينتها بصورها الحقيقية الشأن ﴿ الذين يختلفون فيه ﴾ من الحق المنتظم لجميع ماخالفوه مما جاء به الشرع المبين ويدخل فيه البعث دخولا أوليا ﴿ وليعلم الذين كفروا ﴾ بالله سبحانه بالاشراك وانكار البعث وتكذيب وعده الحق ﴿ أنهم كانوا كاذبين ﴾ فى كل مايقولون لاسيما فى قولهم لايبعث الله من يموت والتعبير عن الحق بالموصول للدلالة على فخامته وللاشعار بعلية ماذكر فى حيز الصلة للتبيين وماعطف عليه وجعلهما غاية للبعث المشار اليه باعتبار وروده فى معرض الرد على المخالفين وابطال مقالة المعاندين المستدعى للتعرض لما يردعهم عن المخالفة

و يلجئهم الى الاذعان للحق فان الكفرة اذا علموا أن تحقيق البعث اذا كان لتبيين أنه حق وليعلموا انهم كاذبون فى انكاره كان ذلك أزجر لهم عن انكاره وأدعى الى الاعتراف به ضرورة أنه يدل على صدق العزيمة على تحقيقه كما تقول لمن ينكر أنك تصلى لأصلين رغما لانفك واظهارا لكذبك ولأن تكرر الغايات أدل على وقوع الفعل المغيابها والافالغاية الأصلية للبعث باعتبار ذاته انما هو الجزاء الذى هو الغاية القصوى للخلق المغيا بمعرفته عز وجل وعبادته وانما لم يذكر ذلك لتكرر ذكره فى مواضع أخر وشهرته وانما لم يدرج علم الكفار بكذبهم تحت التبيين بأن يقال وان الذين كفروا كانوا كاذبين بل جيء بصيغة العلم لأن ذلك ليس مما تعلق به التبيين الذى هو عبارة عن اظهار ما كان مبهما قبل ذلك بأن يخبر به فيختلف فيه كالبعث الذى نطق به القرآن فاختلف فيه المختلفون واما كذب الكافرين فليس من هذا القبيل فما يتعلق به علم ضرورى حاصل لهم من قبل أنفسهم وقدمر تحقيقه فى سورة التوبة عند قوله تعالى حتى يتبين لك الذين صدقوا وانما خص الاسناد بهم حيث لم يقل وليعلموا أن الكافرين الآية لأن علم المؤمنين بذلك حاصل قبل ذلك أيضا ﴿انما قولنا﴾ استئناف لبيان كيفية التكوين على الاطلاق ابداء واعادة بعد التنبيه على انية البعث ومنه يظهر كيفيته فما كافة وقولنا مبتدأ وقوله ﴿لشيء﴾ أى أى شيء كان مما عز وهان متعلق به على أن اللام للتبليغ كهى فى قولك قلت له قم فقام وجعلها الزجاج سببية أى لأجل شيء وليس بواضح والتعبير عنه بذلك باعتبار وجوده عند تعلق مشيئته تعالى به لا لأنه كان شيأ قبل ذلك ﴿اذا أردناه﴾ ظرف لقولنا أى وقت ارادتنا لوجوده ﴿أن نقول له كن﴾ خبر للمبتدا ﴿فيكون﴾ اما عطف على مقدر يفصح عنه الفاء و ينسحب عليه الكلام أى فنقول ذلك فيكون كقوله تعالى اذاقضى أمرا فانما يقول له كن فيكون واما جواب لشرط محذوف أى فاذا قلنا ذلك فهو يكون وليس هناك قول و لامقول له ولا أمر و لا مأمور حتى يقال انه يلزم منه أحد المحالين اما خطاب المعدوم أو تحصيل الحاصل أو يقال انما يستدعيه انحصار قوله تعالى كن وليس يلزم منه انحصار أسباب التكوين فيه كما يفيده قوله تعالى انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فان المراد بالأمر هو الشأن الشامل للقول والفعل ومن ضرورة انحصاره فى كلمة كن انحصار أسبابه على الاطلاق فيه بل انما هو تمثيل لسهولة تأتى المقدورات حسب تعلق مشيئته تعالى بها وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فى ذلك من طاعة المأمور المطيع لأمر الآمر المطاع فالمعنى انما إيجادنا الشيء عند تعلق مشيئتنا به أن نوجده فى أسرع ما يكون ولما عبر عنه بالأمر الذى هو قول مخصوص وجب أن يعبر عن مطلق الايجاد بالقول المطلق فتأمل و فى الآية الكريمة من الفخامة والجزالة مايحار فيه العقول والالباب وقرىء بنصب يكون عطفا على نقول أو تشبيها له بجواب الأمر ﴿والذين هاجروا فى الله﴾ أى فى شأن الله تعالى و رضاه و فى حقه ولوجهه ﴿من بعد ماظلموا﴾ ولعلهم الذين ظلمهم أهل مكة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجوهم من ديارهم فهاجروا الى الحبشة ثم بوأهم الله تعالى المدينة حسبما وعد بقوله سبحانه ﴿لنبوئنهم فى الدنيا حسنة﴾ أى مباءة حسنة أو تبوئة حسنة كما قال قتادة وهو الانسب بما هو المشهور من كون السورة غير ثلاث آيات من آخرها مكية وأما مانقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنها نزلت فى صهيب و بلال وعمار وخباب وعايس وجبير وأبى جندل بن سهيل أخذهم المشركون فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الاسلام فأما صهيب فقال لهم أنا رجل كبير ان كنت معكم لم أنفعكم وان كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه أبو بكر رضى الله عنه قال ربح البيع ياصهيب وقال عمر رضى الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه فانما يناسب ماحكى عن الأصم من كون كل السورة مدنية ومانقل عن قتادة من كون هذه الآية الى آخر السورة مدنية فيحمل مانقلناه عنه من نزول الآية فى أصحاب الهجرتين على أن يكون نزولها بالمدينة بين الهجرتين وأما جعل

رسول الله صلى الله عليه وسلم من جملتهم فلا يساعده نظم التنزيل و لا شأنه الجليل وقرئ لنثوينهم ومعناه اثواءة حسنة أولننزلنهم فى الدنيا منزلة حسنة وهى الغلبة على من ظلمهم من أهل مكة وعلى العرب قاطبة وأهل الشرق والغرب كافة ﴿ ولأجر الآخرة ﴾ أى أجر أعمالهم المذكورة فى الآخرة ﴿ أكبر ﴾ مما يعجل لهم فى الدنيا وعن عمر رضى الله عنه انه كان اذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله تعالى لك فيه هذا ماوعدك الله تعالى فى الدنيا وماادخر فى الآخرة أفضل ﴿ لوكانوا يعلمون ﴾ الضمير للكفار أى لوعلموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم فى الدين وقيل للمهاجرين أى لو علموا ذلك لزادوا فى الاجتهاد أو لما تألموا لما أصابهم من المهاجرة وشدائدها ﴿ الذين صبروا ﴾ على الشدائد من أذية الكفار ومفارقة الأهل والوطن وغير ذلك ومحله النصب أو الرفع على المدح ﴿ وعلى ربهم ﴾ خاصة ﴿ يتوكلون ﴾ منقطعين اليه تعالى معرضين عما سواه مفوضين اليه الأمر كله والجملة اما معطوفة على الصلة وتقديم الجار والمجرور للدلالة على قصر التوكل على الله تعالى وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام التوكل أو حال من ضمير صبروا ﴿ وماأرسلنا من قبلك الارجالا نوحى اليهم ﴾ وقرئ بالياء مبنيا للمفعول وهو رد لقريش حين قالوا الله أجل من أن يكون له رسول من البشر كما هو مبنى قولهم لوشاء الله ماعبدنا الخ أى جرت السنة الالهية حسبما اقتضته الحكمة بأن لايبعث للدعوة العامة الابشرا يوحى اليهم بواسطة الملك أوامره ونواهيه ليبلغوها الناس ولما كان المقصود من الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنبيه الكفار على مضمونه صرف الخطاب اليهم فقيل ﴿ فاسئلوا أهل الذكر ﴾ أى أهل الكتاب أوعلماء الأخبار أوكل من يذكر بعلم وتحقيق ليعلموكم ذلك ﴿ ان كنتم لاتعلمون ﴾ حذف جوابه لدلالة ماقبله عليه وفيه دلالة على انه لم يرسل للدعوة العامة ملكا وقوله تعالى جاعل الملائكة رسلا معناه رسلا الى الملائكة أو الى الرسل و لا امرأة و لا صبيا و لا ينافيه نبوة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو فى المهد لأنها أعم من الرسالة واشارة الى وجوب المراجعة الى العلماء فيما لايعلم ﴿ بالبينات والزبر ﴾ بالمعجزات والكتب والباء متعلقة بمقدر وقع جوابا عن سؤال من قال بم أرسلوا فقيل أرسلوا بالبينات والزبر أو بما أرسلنا داخلا تحت الاستثناء مع رجالا عند من يجوزه أى ماأرسلنا الارجالا بالبينات كقولك ماضربت الازيدا بالسوط أوعلى نية التقديم قبل أداة الاستثناء أى ماأرسلنا من قبلك بالبينات والزبر الارجالا عند من يجوز تأخر صلة ماقبل الاالى مابعده أو بما وقع صفة للمستثنى أى الارجالا ملتبسين بالبينات أو بنوحى على المفعولية أوالحالية من القائم مقام فاعل يوحى وهو اليهم على أن قوله تعالى فاسئلوا اعتراض أو بقوله لاتعلمون على أن الشرط للتبكيت كقول الاجير ان كنت عملت لك فأعطنى حقى ﴿ وأنزلنا اليك الذكر ﴾ أى القرآن وانما سمى به لأنه تذكير وتنبيه للغافلين ﴿ لتبين للناس ﴾ كافة ويدخل فيهم أهل مكة دخولا أوليا ﴿ مانزل اليهم ﴾ فى ذلك الذكر من الأحكام والشرائع وغير ذلك من أحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب حسب أعمالهم الموجبة لذلك على وجه التفصيل بيانا شافيا كما ينبئ عنه صيغة التفعيل فى الفعلين لاسيما بعد ورود الثانى أولا على صيغة الأفعال ولما أن التبيين أعم من التصريح بالمقصود ومن الارشاد الى مايدل عليه دخل تحته القياس على الاطلاق سواء كان فى الأحكام الشرعية أوغيرها ولعل قوله عزوجل ﴿ ولعلهم يتفكرون ﴾ اشارة الى ذلك أى ارادة ان يتأملوا فيتنبهوا للحقائق ومافيه من العبر ويحترزوا عما يؤدى الى مثل ماأصاب الأولين من العذاب ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ﴾ هم أهل مكة الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وراموا صد أصحابه عن الايمان عليهم الرضوان لا الذين احتالوا لهلاك الأنبياء كما قيل و لا من يعم الفريقين لما أن المراد تحذير هؤلاء عن اصابة مثل ماأصاب أولئك من فنون العذاب المعدودة والسيئات نعت لمصدر محذوف أى مكروا المكرات السيئات

التى قصت عنهم أو مفعول به للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل أى عملوا السيئات فقوله تعالى ﴿أن يخسف الله بهم الأرض﴾ مفعول لأمن أو السيئات صفة لما هو المفعول أى أفأمن الماكرون العقوبات السيئة وقوله أن يخسف الخ بدل من ذلك وعلى كل حال فالفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم أى أنزلنا اليك الذكر لتبين لهم مضمونه الذى من جملته أنباء الامم المهلكة بفنون العذاب و يتفكروا فى ذلك ألم يتفكروا فأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون على توجيه الانكار الى المعطوفين معا أو أتفكروا فأمنوا على توجيهه الى المعطوف على أن الامن بعد التفكر مما لا يكاد يفعله أحد وقيل هو عطف على مقدر ينبئ عنه الصلة أى أمكر فأمن الذين مكروا الخ ﴿أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ باتيانه أى فى حالة غفلتهم أو من مأمنهم أو من حيث يرجون اتيان ما يشتهون كما حكى فيما سلف بما نزل بالماكرين ﴿أو يأخذهم فى تقلبهم﴾ أى فى حالة تقلبهم فى مسائرهم ومتاجرهم ﴿فما هم بمعجزين﴾ بممتنعين أو فائتين بالهرب والفرار على مايوهمه حال التقلب والسير والفاء اما لتعليل الاخذ أو لترتيب عدم الاعجاز عليه دلالة على شدته وفظاعته حسبما قال عليه السلام ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته وايراد الجملة الاسمية للدلالة على دوام النفى لا لنفى الدوام ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ أى مخافة وحذر عن الهلاك والعذاب بأن يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم العذاب وهم متخوفون وحيث كانت حالتا التقلب والتخوف مظنة للهرب عبر عن اصابة العذاب فيهما بالاخذ وعن اصابته حالة الغفلة المنبئة عن السكون بالاتيان وقيل التخوف التنقص قال قائلهم

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن

أى يأخذهم على أن ينقصهم شيئاً بعد شئ فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا والمراد بذكر الاحوال الثلاث بيان قدرة الله سبحانه على اهلاكهم بأى وجه كان لا الحصر فيها ﴿فان ربكم لرؤف رحيم﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة و يحلم عنكم مع استحقاقكم لها ﴿أولم يروا﴾ استفهام انكارى وقرئ على صيغة الخطاب والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألم ينظروا ولم يروا متوجهين ﴿الى ما خلق الله من شئ﴾ أى من كل شئ ﴿يتفيؤ ظلاله﴾ أى يرجع شيئاً فشيئا حسبما يقتضيه ارادة الخالق تعالى فان التفيؤ مطاوع الافاءة وقرئ بتأنيث الفعل ﴿عن اليمين والشمائل﴾ أى ألم يروا الاشياء التى لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها أى عن جانبى كل واحد منها استعير لهما ذلك من يمين الانسان وشماله ﴿سجداً لله﴾ حال من الظلال كقوله تعالى وظلالهم بالغدو والآصال والمراد بسجودها تصرفها على مشيئة الله سبحانه وتأتيها لارادته تعالى فى الامتداد والتقلص وغيرهما غير ممتنعة عليه فيما سخرها له وقوله تعالى ﴿وهم داخرون﴾ أى صاغرون منقادون حال من الضمير فى ظلاله والجمع باعتبار المعنى وايراد الصيغة الخاصة بالعقلاء لما أن الدخور من خصائصهم والمعنى ترجع الظلال من جانب الى جانب بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها فانها كل يوم من أيام السنة تتحرك على مدار معين من المدارات اليومية بتقدير العزيز العليم منقادة لما قدر لها من التفيؤ أو واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد والحال أن أصحابها من الاجرام داخرة منقادة لحكمه تعالى و وصفها بالدخور مغن عن وصف ظلالها به أو كلاهما حال من الضمير المشار اليه والمعنى ترجع ظلال تلك الاجرام حال كونها منقادة لله تعالى داخرة فوصفها بهما مغن عن وصف ظلالها بهما ولعل المراد بالموصول الجمادات من الجبال والاشجار والاحجار التى لا يظهر لظلالها أثر سوى التفيؤ بما ذكر من ارتفاع الشمس وانحدارها أو اختلاف مشارقها ومغاربها وأما الحيوان فظله يتحرك بتحركه وقيل المراد باليمين والشمائل يمين الفلك وهو جانبه الشرقى لان الكواكب منه تظهر آخذة فى الارتفاع والسطوع وشماله وهو جانبه الغربى المقابل له فان الظلال فى أول النهار تبتدئ من الشرق واقعة على الربع

الغربى من الارض وعند الزوال تبتدئ من الغرب واقعة على الربع الشرقى منها و بعد مابين سجود الظلال وأصحابها من الاجرام السفلية الثابتة فى أخبارها ودخورها لسبحانه و تعالى شرع فى بيان سجود المخلوقات المتحركة بالارادة سواء كانت لها ظلال أو لا فقيل ﴿ ولله يسجد ﴾ أى له تعالى وحده يخضع و ينقاد لالشئ غيره استقلالا أو اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والافراد الا أن الانسب بحال المخاطبين قصر الافراد كما يؤذن به قوله تعالى وقال الله لاتتخذوا الهين اثنين ﴿ مافى السموات ﴾ قاطبة ﴿ ومافى الارض ﴾ كائنا ماكان ﴿ من دابة ﴾ بيان لما فى الارض وتقديمه لقلته ولئلا يقع بين المبين والمبين فصل والافراد مع أن المراد الجمع لافادة وضوح شمول السجود لكل فرد من الدواب قال الاخفش هو كقولك ماأتانى من رجل مثله وماأتانى من الرجال مثله ﴿ والملائكة ﴾ عطف على مافى السموات عطف جبريل على الملائكة تعظيما واجلالا أو على أن يراد بما فى السموات الخلق الذى يقال له الروح أو يراد به ملائكة السموات و بقوله والملائكة ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم ﴿ وهم ﴾ أى الملائكة مع علو شأنهم ﴿ لايستكبرون ﴾ عن عبادته عز وجل والسجود له وتقديم الضمير ليس للقصر والجملة اما حال من ضمير الفاعل فى يسجد مسند الى الملائكة او استئناف أخبر عنهم بذلك ﴿ يخافون ربهم ﴾ أى مالك أمرهم وفيه تربية للمهابة واشعار بعلة الحكم ﴿ من فوقهم ﴾ أى يخافونه جل وعلا خوف هيبة واجلال وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده أو يخافون أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم والجملة حال من الضمير فى لايستكبرون أو بيان له وتقرير لان من يخاف الله سبحانه لايستكبر عن عبادته ﴿ ويفعلون مايؤمرون ﴾ أى مايؤمرون به من الطاعات والتدبيرات وايراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الجلالة وايذان بعدم الحاجة الى التصريح بالفاعل لاستحالة استناده الى غيره سبحانه وفيه أن الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء و بعد مابين أن جميع الموجودات يخصون الخضوع والانقياد الطبيعى وما يجرى مجراه من عبادة الملائكة حيث لايتصور منهم عدم الانقياد أصلا لله عز وجل أردف ذلك بحكاية نهيه سبحانه وتعالى للمكلفين عن الاشراك فقيل ﴿ وقال الله ﴾ عطفا على قوله ولله يسجد واظهار الفاعل وتخصيص لفظة الجلالة بالذكر للايذان بأنه متعين الالوهية وانما المنهى عنه هو الاشراك به لا أن المنهى عنه مطلق اتخاذ الهين بحيث يتحقق الانتهاء عنه برفض أيهما كان أى قال تعالى لجميع المكلفين ﴿ لاتتخذوا الهين اثنين ﴾ وانما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عن ذلك دلالة على أن مساق النهى هى الاثنينية وانها منافية للالوهية كما أن وصف الاله بالوحدة فى قوله تعالى ﴿ انما هو اله واحد ﴾ للدلالة على أن المقصود اثبات الوحدانية وأنها من لوازم الالهية وأما الالهية فأمر مسلم الثبوت له سبحانه واليه أشير حيث أسند اليه القول وفيه التفات من التكلم الى الغيبة على رأى من اكتفى فى تحقق الالتفات بكون الاسلوب الملتفت عنه حق الكلام ولم يشترط سبق الذكر على ذلك الوجه ﴿ فاياى فارهبون ﴾ التفات من الغيبة الى التكلم لتربية المهابة والقاء الرهبة فى القلوب و لذلك قدم المفعول و كرر الفعل أى ان كنتم راهبين شيئا فاياى ارهبوا فارهبون لاغير فانى ذلك الواحد الذى يسجد له مافى السموات والارض ﴿ وله مافى السموات والارض ﴾ خلقا وملكا تقرير لعلة انقياد مافيها له سبحانه خاصة وتحقيق لتخصيص الرهبة به تعالى وتقديم الظرف لتقوية مافى اللام من معنى الاختصاص وكذا فى قوله تعالى ﴿ وله الدين ﴾ أى الطاعة والانقياد ﴿ واصبا ﴾ أى واجبا ثابتا لازوال له لما تقرر أنه الاله وحده الحقيق بأن يرهب وقيل واصبا من الوصب أى وله الدين ذا كلفة وقيل الدين الجزاء أى وله الجزاء الدائم بحيث لاينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر ﴿ أفغير الله تتقون ﴾ الهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه السياق أى أعقيب تقرر الشئون المذكورة من تخصيص جميع الموجودات للسجود به تعالى و كون ذلك كله له ونهيه

عن اتخاذ الانداد وكون الدين له واصبا المستدعى ذلك لتخصيص التقوى به سبحانه غير الله الذى شأنه ماذكر تتقون فتطيعون ﴿وما بكم﴾ أى أى شىء يلابسكم ويصاحبكم ﴿من نعمة﴾ أية نعمة كانت ﴿فمن الله﴾ فهى من الله فما شرطية أو موصولة متضمنة لمعنى الشرط باعتبار الاخبار دون الحصول فان ملابسة النعمة بهم سبب للاخبار بأنها منه تعالى لا لكونها منه تعالى ﴿ثم اذا مسكم الضر﴾ مساساً يسيرا ﴿فاليه تجأرون﴾ تتضرعون فى كشفه لا الى غيره والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة قال الاعشى

يراوح من صلوات المليك طورا سجوداً وطورا جؤارا

وقرىء تجرون بطرح الهمزة والقاء حركتها الى ماقبلها وفى ذكر المساس المنبىء عن أدنى اصابة وايراده بالجملة الفعلية المعربة عن الحدوث مع ثم الدالة على وقوعه بعد برهة من الدهر وتحلية الضر بلام الجنس المفيدة لمساس أدنى ماينطلق عليه اسم الجنس مع ايراد النعمة بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والتعبير عن ملابستها للمخاطبين بباء الصاحبة وايراد ما المعربة عن العموم مالايخفى من الجزالة والفخامة ولعل ايراد اذا دون ان للتوسل به الى تحقق وقوع الجواب ﴿ثم اذا كشف الضر عنكم﴾ وقرىء كاشف الضر وكلمة ثم ليست للدلالة على تمادى زمان مساس الضر ووقوع الكشف بعد برهة مديدة بل للدلالة على تراخى رتبة مايترتب عليه من مفاجأة الاشراك المدلول عليها بقوله سبحانه ﴿اذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ فان ترتبها على ذلك فى أبعد غاية من الضلال ثم ان وجه الخطاب الى الناس جميعا فمن للتبعيض والفريق فريق الكفرة وان وجه الى الكفرة فمن للبيان كأنه قيل اذا فريق كافروهم أنتم ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر وازدجر كقوله تعالى فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد فمن تبعيضية أيضا والتعرض لوصف الربوبية للايذان بكمال قبح ما ارتكبوه من الاشراك والكفران ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ من نعمة الكشف عنهم كانهم جعلوا غرضهم فى الشرك كفران النعمة وانكار كونها من الله عزوجل ﴿فتمتعوا﴾ أمر تهديد والالتفات الى الخطاب للايذان بتناهى السخط وقرىء بالياء مبنيا للمفعول عطفا على ليكفروا على أن يكون كفران النعمة والتمتع غرضا لهم من الاشراك ويجوز أن يكون اللام لام الامر الوارد للتهديد ﴿فسوف تعلمون﴾ عاقبة أمركم ومايتنزل بكم من العذاب وفيه وعيد أكيد منبىء عن أخذ شديد حيث لم يذكر المفعول اشعارا بأنه مما لا يوصف ﴿ويجعلون﴾ لعله عطف على ما سبق بحسب المعنى تعدادا لجناياتهم أى يفعلون ما يفعلون من الجؤار الى الله تعالى عند مساس الضر ومن الاشراك به عند كشفه ويجعلون ﴿لما لا يعلمون﴾ أى لما لا يعلمون حقيقته وقدره الخسيس من الجمادات التى يتخذونها شركاء لله سبحانه جهالة وسفاهة ويزعمون أنها تنفعهم وتشفع لهم على أن ما موصولة والعائد اليها محذوف أو لما لا علم له أصلا وليس من شأنه ذلك فما موصولة أيضا والعائد اليها ما فى الفعل من الضمير المستكن وصيغة جمع العقلاء لكون ما عبارة عن آلهتهم التى وصفوها بصفات العقلاء أو مصدرية واللام للتعليل أى لعدم علمهم والمجعول له محذوف للعلم بمكانه ﴿نصيبا مما رزقناهم﴾ من الزرع والأنعام وغيرهما تقربا اليها ﴿تالله لتسألن﴾ سؤال توبيخ وتقريع ﴿عما كنتم تفترون﴾ فى الدنيا بأنها آلهة حقيقة بأن يتقرب اليها وفى تصدير الجملة بالقسم وصرف الكلام من الغيبة الى الخطاب المنبىء عن كمال الغضب من شدة الوعيد ما لايخفى ﴿ويجعلون لله البنات﴾ هم خزاعة وكنانة الذين يقولون الملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ تنزيه وتقديس له عز وجل عن مضمون قولهم ذلك أو تعجيب من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة ﴿ولهم مايشتهون﴾ من البنين ومامرفوعة المحل على أنه مبتدأ والظرف المقدم خبره والجملة حالية وسبحانه اعتراض فى حاق موقعه وجعلها منصوبة بالعطف على

البنات أى يجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين يؤدى الى جعل الجعل بمعنى يعم الزعم والاختيار ﴿ واذا بشر أحدهم بالأنثى ﴾ أى أخبر بولادتها ﴿ ظل وجهه ﴾ أى صار أو دام النهار كله ﴿ مسودا ﴾ من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشويش ﴿ وهو كظيم ﴾ ممتلىء حنقا وغيظا ﴿ يتوارى ﴾ أى يستخفى ﴿ من القوم من سوء ما بشر به ﴾ من أجل سوئه والتعبير عنها بما لاسقاطها عن درجة العقلاء ﴿ أيمسكه ﴾ أى مترددا فى أمره محدثا نفسه فى شأنه أيمسكه ﴿ على هون ﴾ ذل وقرىء هوان ﴿ أم يدسه ﴾ يخفيه ﴿ فى التراب ﴾ بالوأد والتذكير باعتبار لفظ ما وقرىء بالتأنيث ﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ حيث يجعلون ما هذا شأنه عندهم من الهون والحقارة لله المتعالى عن الصاحبة والولد والحال أنهم يتحاشون عنه و يختارون لانفسهم البنين فمدار الخطأ جعلهم ذلك لله سبحانه مع أبائهم اياه لاجعلهم البنين لانفسهم و لا عدم جعلهم له سبحانه و يجوز أن يكون مداره التعكيس لقوله تعالى تلك اذا قسمة ضيزى ﴿ للذين لايؤمنون بالآخرة ﴾ ممن ذكرت قبائحهم ﴿ مثل السوء ﴾ صفة السوء الذى هو كالمثل فى القبح وهى الحاجة الى الولد ليقوم مقامه عند موتهم وايثار الذكور للاستظهار بهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الاملاق المنادى كل ذلك بالعجز والقصور والشح البالغ و وضع الموصول موضع الضمير للاشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة ﴿ ولله ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ المثل الأعلى ﴾ أى الصفة العجيبة الشأن التى هى مثل فى العلو مطلقا وهو الوجوب الذاتى والغنى المطلق والجود الواسع والنزاهة عن صفات المخلوقين و يدخل فيه علوه تعالى عما قالوه علوا كبيرا ﴿ وهو العزيز ﴾ المتفرد بكمال القدرة لاسيما على مؤاخذتهم بذنوبهم ﴿ الحكيم ﴾ الذى يفعل كل مايفعل بمقتضى الحكمة البالغة وهذا أيضا من جملة صفاته العجيبة تعالى ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس ﴾ الكفار ﴿ بظلمهم ﴾ بكفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ماعدد من قبائحهم وهذا تصريح بما أفاده قوله تعالى وهو العزيز الحكيم وايذان بأن ماأتوه من القبائح قد تناهى الى أمد لاغاية وراءه ﴿ ماترك عليها ﴾ على الأرض المدلول عليها بالناس وبقوله تعالى ﴿ من دابة ﴾ أى ماترك عليها شيأ من دابة قط بل أهلكها بالمرة بشؤم ظلم الظالمين كقوله تعالى واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وعن أبى هريرة رضى الله عنه انه سمع رجلا يقول ان الظالم لايضر الانفسه فقال بلى والله حتى ان الحبارى لتموت فى وكرها بظلم الظالم وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم أومن دابة ظالمة وقيل لوأهلك الآباء لم يكن الابناء فيلزم أن لايكون فى الأرض دابة لما أنها مخلوقة لمنافع البشر لقوله سبحانه هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ﴿ ولكن ﴾ لايؤاخذهم بذلك بل ﴿ يؤخرهم الى أجل مسمى ﴾ لاعمارهم أولعذابهم كى يتوالدوا أو يكثر عذابهم ﴿ فاذا جاء أجلهم ﴾ المسمى ﴿ لايستأخرون ﴾ عن ذلك الاجل أى لايتأخرون وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له ﴿ ساعة ﴾ فذة وهى مثل فى قلة المدة ﴿ ولايستقدمون ﴾ أى لايتقدمون وانما تعرض لذكره مع أنه لايتصور الاستقدام عند مجىء الاجل مبالغة فى بيان عدم الاستئخار بنظمه فى سلك مايمتنع كما فى قوله تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن و لا الذين يموتون وهم كفار فان من مات كافرا مع أنه لاتوبة له رأسا قد نظم فى سمط من لم تقبل توبته للايذان بأنهما سيان فى ذلك وقد مر فى تفسير سورة يونس ﴿ و يجعلون لله ﴾ أى يثبتون له سبحانه و ينسبون اليه فى زعمهم ﴿ مايكرهون ﴾ لانفسهم مما ذكر وهو تكرير لما سبق تثنية للتقريع وتوطئة لقوله تعالى ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب ﴾ أى يجعلون له تعالى مايجعلون ومع ذلك تصف ألسنتهم الكذب وهو ﴿ أن لهم الحسنى ﴾ العاقبة الحسنى عند الله تعالى كقوله ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى وقرىء الكذب وهو جمع الكذوب على أنه صفة الألسنة ﴿ لاجرم ﴾ رد لكلامهم ذلك

واثبات لنقيضه أى حقا ﴿أن لهم﴾ مكان ماأملوا من الحسنى ﴿النار﴾ التى ليس وراء عذابها عذاب وهى علم فى السوأى ﴿وأنهم مفرطون﴾ أى مقدمون اليها من أفرطته أى قدمته فى طلب الماء وقيل منسيون من أفرطت فلانا خلفى اذا خلفته ونسيته وقرىء بالتشديد وفتح الراء من فرطته فى طلب الماء وبكسر الراء المشددة من التفريط فى الطاعات وبكسر المخففة من الافراط فى المعاصى فلا يكونان حينئذ من أحوالهم الاخروية كما عطف عليه ﴿تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يناله من جهالات الكفرة ووعيد لهم على ذلك أى أرسلنا اليهم رسلا فدعوهم الى الحق فلم يجيبوا الى ذلك ﴿فزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ القبيحة فعكفوا عليها مصرين ﴿فهو وليهم﴾ أى قرينهم وبئس القرين ﴿اليوم﴾ أى يوم زين لهم الشيطان أعمالهم فيه على طريق حكاية الحال الماضية أو فى الدنيا أو يوم القيامة على طريق حكاية الحال الآتية وهى حال كونهم معذبين فى النار والولى بمعنى الناصر أى فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره مبالغة فى نفى الناصر عنهم ويجوز أن يكون الضمير عائدا الى مشركى قريش والمعنى زين للامم السالفة أعمالهم فهو ولى هؤلاء لانهم منهم وأن يكون على حذف المضاف أى ولى أمثالهم ﴿ولهم﴾ فى الآخرة ﴿عذاب أليم﴾ هو عذاب النار ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب﴾ أى القرآن ﴿الا لتبين﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أى ما أنزلناه عليك لعلة من العلل الا لتبين ﴿لهم﴾ أى للناس ﴿الذى اختلفوا فيه﴾ من التوحيد والقدر واحكام الافعال وأحوال المعاد ﴿وهدى ورحمة﴾ معطوفان على محل لتبين أى وللهداية والرحمة ﴿لقوم يؤمنون﴾ وانما انتصبا لكونهما أثرى فاعل الفعل المعلل بخلاف التبيين حيث لم ينتصب لفقدان شرطه ولعل تقديمه عليهما لتقدمه فى الوجود وتخصيص كونهما هدى ورحمة بالمؤمنين لانهم المغتنمون آثاره ﴿والله أنزل من السماء﴾ من السحاب أو من جانب السماء حسبما مر وهذا تكرير لما سبق تأكيدا لمضمونه وتوطئة لما يعقبه من أدلة التوحيد ﴿ماء﴾ نوعا خاصا من الماء هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر فأحيى به الارض بما أنبت به فيها من أنواع النباتات ﴿بعد موتها﴾ أى بعد يبسها وما يفيده الفاء من التعقيب العادى لا ينافيه ما بين المعطوفين من المهلة ﴿ان فى ذلك﴾ أى فى انزال الماء من السماء واحياء الارض الميتة به ﴿لآية﴾ وأية آية دالة على وحدته سبحانه وعلمه وقدرته وحكمته ﴿لقوم يسمعون﴾ هذا التذكير ونظائره سماع تفكر وتدبر فكان من ليس كذلك أصم ﴿وان لكم فى الانعام لعبرة﴾ عظيمة وأى عبرة تحار فى دركها العقول وتهيم فى فهمها ألباب الفحول ﴿نسقيكم﴾ استئناف لبيان ما أبهم أولا من العبرة ﴿مما فى بطونه﴾ أى بطون الانعام والتذكير هنا لمراعاة جانب اللفظ فانه اسم جمع ولذلك عده سيبويه فى المفردات المبنيه على أفعال كاكباش وأخلاق كما أن تأنيثه فى سورة المؤمنين لرعاية جانب المعنى ومن جعله جمع نعم جعل الضمير للبعض فان اللبن ليس لجميعها أوله على المعنى فان المراد به الجنس وقرىء بفتح النون ههنا وفى سورة المؤمنين ﴿من بين فرث ودم لبنا﴾ الفرث فضالة ما يبقى من العلف فى الكرش المنهضمة بعض الانهضام وكثيف ما يبقى فى المعاء وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان البهيمة اذا اعتلفت وانطبخ العلف فى كرشها كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما ولعل المراد به أن أوسطه يكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم الذى يغذو البدن لان عدم تكونهما فى الكرش مما لا ريب فيه بل الكبد تجذب صفاوة الطعام المنهضم فى الكرش ويبقى ثفله وهو الفرث ثم يمسكها ريثما يهضمها فيحدث أخلاطا أربعة معها مائية فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين الصفراء والسوداء وتدفعها الى الكلية والمرارة والطحال ثم توزع الباقى على الاعضاء بحسبها فتجرى على كل حقه على ما يليق به بتقدير العزيز العليم ثم ان كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها فيندفع الزائد أولا لاجل الجنين الى

الرحم فاذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه الى الضروع فيبيض لمجاورته لحومها الغذوية البيض و يلذ طعمه فيصير لبنا ومن تدبر فى بدائع صنع الله تعالى فيما ذكر من الاخلاط والالبان واعداد مقارها ومجاريها والاسباب المولدة لها وتسخير القوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به اضطر الى الاعتراف بكمال علمه وقدرته وحكمته وتناهى رأفته ورحمته فمن الاولى تبعيضية لما أن اللبن بعض مافى بطونه لانه مخلوق من بعض أجزاء الدم المتولد من الاجزاء اللطيفة التى فى الفرث حسبما فصل والثانية ابتدائية كقولك سقيت من الحوض لان بين الفرث والدم مبدأ الاسقاء وهى متعلقة بنسقيكم وتقديمه على المفعول لما مر مرارا من أن تقديم ماحقه التأخير يبعث للنفس شوقا الى المؤخر موجبا لفضل تمكنه عند وروده عليها لاسيما اذا كان المقدم متضمنا لوصف مناف لوصف المؤخر كالذى نحن فيه فان بين وصفى المقدم والمؤخر تنافيا وتنائيا بحيث لايترائ ناراهما فان ذلك مما يزيد الشوق والاستشراف الى المؤخر كما فى قوله تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا أو حال من لبنا قدم عليه لتنكيره والتنبيه على أنه موضع العبرة ﴿خالصا﴾ عن شائبة مافى الدم والفرث من الاوصاف ببرزخ من القدرة القاهرة الحاجزة عن بغى أحدهما عليه مع كونهما مكتنفين له ﴿سائغا للشاربين﴾ سهل المرور فى حلقهم قيل لم يغص أحد باللبن وقرئ سيغا بالتشديد و بالتخفيف مثل هين وهين ﴿ومن ثمرات النخيل والاعناب﴾ متعلق بما يدل عليه الاسقاء من مطلق الاطعام المنتظم لاعطاء المطعوم والمشروب فان اللبن مطعوم كما أنه مشروب أى ونطعمكم من ثمرات النخيل ومن الاعناب أى من عصيرهما وقوله تعالى ﴿تتخذون منه سكرا﴾ استئناف لبيان كنه الاطعام وكشفه أو بقوله تتخذون منه وتكرير الظرف للتأكيد أو خبر لمبتدا محذوف صفته تتخذون أى ومن ثمرات النخيل والاعناب ثمر تتخذون منه وحذف الموصوف اذا كان فى الكلام كلمة من سائغ نحو قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم وتذكير الضمير على الوجهين الاولين لأنه للمضاف المحذوف أعنى العصير أو لأن المراد هو الجنس والسكر مصدر سمى به الخمر وقيل هو النبيذ وقيل هو الطعم ﴿ورزقا حسنا﴾ كالتمر والدبس والزبيب والخل والآية ان كانت سابقة النزول على تحريم الخمر فدالة على كراهتها والا فجامعة بين العتاب والمنة ﴿ان فى ذلك لآيات﴾ باهرة ﴿لقوم يعقلون﴾ يستعملون عقولهم فى الآيات بالنظر والتأمل ﴿وأوحى ربك الى النحل﴾ أى ألهمها وقذف فى قلوبها وعلمها بوجه لايعلمه الا العليم الخبير وقرئ بفتحتين ﴿أن اتخذى﴾ أى بأن اتخذى على أن أن مصدرية ويجوز أن تكون مفسرة لما فى الايحاء من معنى القول وتأنيث الضمير مع أن النحل مذكر للحمل على معنى أو لأنه جمع نحلة والتأنيث لغة أهل الحجاز ﴿من الجبال بيوتا﴾ أى أوكارا مع مافيها من الخلايا وقرئ بيوتا بكسر الباء ﴿ومن الشجر ومما يعرشون﴾ أى يعرشه الناس أى يرفعه من كرم أو سقف وقيل المراد به مايرفعه الناس ويبنونه للنحل والمعنى اتخذى لنفسك بيوتا من الجبال والشجر اذا لم يكن لك أرباب والا فاتخذى مايعرشونه لك وايراد حرف التبعيض لما أنها لاتبنى فى كل جبل وكل شجر وكل عرش ولا فى كل مكان منها ﴿ثم كلى من كل الثمرات﴾ من كل ثمرة تشتهينها حلوها ومرها ﴿فاسلكى﴾ ماأكلت منها ﴿سبل ربك﴾ أى مسالكه التى برأها بحيث يحيل فيها بقدرته القاهرة النور المر عسلا من أجوافك أو فاسلكى الطرق التى ألهمك فى عمل العسل أو فاسلكى راجعة الى بيوتك سبل ربك لاتتوعر عليك ولاتلتبس ﴿ذللا﴾ جمع ذلول وهو حال من السبل أى مذللة غير متوعرة ذللها الله سبحانه وسهلها لك أو من الضمير فى اسلكى أى اسلكى منقادة لما أمرت به ﴿يخرج من بطونها﴾ استئناف عدل به عن خطاب النحل لبيان مايظهر منها من تعاجيب صنع الله تعالى التى هى موضع العبرة بعد ماأمرت بما أمرت ﴿شراب﴾ أى عسل لانه مشروب واحتج به وبقوله تعالى كلى من زعم أن النحل تأكل

الازهار والاوراق العطرة فتستحيل فى بطنها عسلا ثم تقىء ادخارا للشتاء ومن زعم أنها تلتقط بأفواهها أجزاء قليلة حلوة صغيرة متفرقة على الازهار والاوراق وتضعها فى بيوتها فاذا اجتمع فيها شىء كثير يكون عسلا فسر البطون بالافواه ﴿مختلف ألوانه﴾ أبيض وأسود وأصفر وأحمر حسب اختلاف سن النحل أو الفصل أو الذى أخذت منه العسل ﴿فيه شفاء للناس﴾ اما بنفسه كما فى الامراض البلغمية أو مع غيره كما فى سائر الامراض اذ قلما يكون معجون لايكون فيه عسل مع أن التنكير فيه مشعر بالتبعية ويجوز كونه للتفخيم وعن قتادة ان رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان أخى يشتكى بطنه فقال عليه الصلاة والسلام اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال اذهب فاسقه عسلا فقد صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرىء كأنما انشط من عقال وقيل الضمير للقرآن أو لما بين الله تعالى من أحوال النحل وعن ابن مسعود رضى الله عنه العسل شفاء لكل داء والقرآن شفاء لما فى الصدور فعليكم بالشفاءين العسل والقرآن ﴿ان فى ذلك﴾ الذى ذكر من أعاجيب آثار قدرة الله تعالى ﴿لآية﴾ عظيمة ﴿لقوم يتفكرون﴾ فان من تفكر فى اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والافعال العجيبة المشتملة على حسن الصنعة وصحة القسمة التى لايقدر عليها حذاق المهندسين الا بآلات رقيقة وأدوات أنيقة وأنظار دقيقة جزم قطعا بأن له خالقا قادرا حكيما يلهمها ذلك ويهديها اليه جل جلاله ﴿والله خلقكم﴾ لما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ماذكر من الماء والنبات والانعام والنحل أشار الى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره الى آخره وتطوراته فيما بين ذلك وقد ضبطوا مراتب العمر فى أربع الاولى سن النشو والنماء والثانية سن الوقوف وهى سن الشباب والثالثة سن الانحطاط القليل وهى سن الكهولة والرابعة سن الانحطاط الكبير وهى سن الشيخوخة ﴿ثم يتوفاكم﴾ حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على حكم بالغة بآجال مختلفة أطفالا وشبابا وشيوخا ﴿ومنكم من يرد﴾ قبل توفيه أى يعاد ﴿الى أرذل العمر﴾ أى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة على ماروى عن على رضى الله عنه وتسعون سنة على مانقل عن قتادة رضى الله عنه وقيل خمس وتسعون وايثار الرد على الوصول والبلوغ ونحوهما للايذان بأن بلوغه والوصول اليه رجوع فى الحقيقة الى الضعف بعد القوة كقوله تعالى ومن نعمره ننكسه فى الخلق ولا عمر أسوأ حالا من عمر الهرم الذى يشبه الطفل فى نقصان العقل والقوة ﴿لكيلا يعلم بعد علم﴾ كثير ﴿شيئاً﴾ من العلم أو من المعلومات أو لكيلا يعلم شيئاً بعد علم بذلك الشىء وقيل لئلا يعقل بعد عقله الاول شيئاً ﴿ان الله عليم﴾ بمقادير أعماركم ﴿قدير﴾ على كل شىء يميت الشاب النشيط ويبقى الهرم الفانى وفيه تنبيه على أن تفاوت الآجال ليس الا بتقدير قادر حكيم ركب أبنيتهم وعدل أمزجتهم على قدر معلوم ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لما بلغ التفاوت هذا المبلغ ﴿والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق﴾ أى جعلكم متفاوتين فيه فاعطاكم منه أفضل مما أعطى مماليككم ﴿فما الذين فضلوا﴾ فيه على غيرهم ﴿برادى رزقهم﴾ الذى رزقهم اياه ﴿على ماملكت أيمانهم﴾ على مماليكهم الذين هم شركاؤهم فى المخلوقية والمرزوقية ﴿فهم﴾ أى الملاك والمماليك ﴿فيه﴾ أى فى الرزق ﴿سواء﴾ أى لايردونه عليهم بحيث يساوونهم فى التصرف ويشاركونهم فى التدبير والفاء للدلالة على ترتيب التساوى على الرد أى لايردونه عليهم ردا مستتبعا للتساوى وانما يردون عليهم منه شيئاً يسيرا فحيث لايرضون بمساواة مماليكهم لانفسهم وهم أمثالهم فى البشرية والمخلوقية لله عز سلطانه فى شىء لايختص بهم بل يعمهم واياهم من الرزق الذى هم اسوة لهم فى استحقاقه فما بالهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيما لايليق الا به من الالوهية والمعبودية الخاصة بذاته تعالى لذاته بعض مخلوقاته الذى هو بمعزل من درجة الاعتبار وهذا كما ترى مثل ضرب لكمال قباحة مافعله المشركين تقريعا عليهم كقوله تعالى هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء

فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء الآية ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ حيث يفعلون مايفعلون من الاشراك فان ذلك
يقتضى أن يضيفوا نعم الله سبحانه الفائضة عليهم الى شركائهم و يجحدوا كونها من عند الله تعالى أو حيث أنكروا
أمثال هذه الحجج البالغة بعد ماأنعم الله بها عليهم والباء لتضمين الجحود معنى الكفر نحو وجحدوا بها والفاء
للعطف على مقدر وهى داخلة فى المعنى على الفعل أى أيشركون به فيجحدون نعمته وقرىء تجحدون على الخطاب
أو ليس الموالى برادى رزقهم على مماليكهم بل أنا الذى أرزقهم واياهم فلا يحسبوا انهم يعطونهم شيئاً وانما هو رزقى
أجريه على أيدهم فهم جميعا فى ذلك سواء لامزية لهم على مماليكهم ألا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله فهو رد على
زعم المفضلين أو على فعلهم المؤذن بذلك أوما المفضلون برادى بعض فضلهم على مماليكهم فيتساووا فى ذلك جميعا مع
أن التفضيل ليس الا ليبلوهم أيشكرون أم يكفرون ألا يعرفون ذلك فيجحدون نعمة الله تعالى كأنه قيل فلم يردوه
عليهم والجملة الاسمية للدلالة على استمرارهم على عدم الرد يحكى عن أبى ذر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول انما هم اخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون فما رؤى عبده بعد ذلك الا ورداؤه رداؤه
وازاره ازاره من غير تفاوت ﴿والله جعل لكم من أنفسكم﴾ أى من جنسكم ﴿أزواجا﴾ لتأنسوا بها وتقيموا بذلك
جميع مصالحكم ويكون أولادكم أمثالكم وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم عليه الصلاة والسلام ﴿وجعل لكم من
أزواجكم﴾ وضع الظاهر موضع المضمر للايذان بأن المراد جعل لكل منكم من زوجه لا من زوج غيره ﴿بنين﴾
وبأن نتيجة الازواج هو التوالد ﴿وحفدة﴾ جمع حافد وهو الذى يسرع فى الخدمة والطاعة ومنه قول القانت واليك
نسعى ونحفد أى جعل لكم خدما يسرعون فى خدمتكم وطاعتكم فقيل المراد بهم أولاد الاولاد وقيل البنات عبر عنهن
بذلك ايذانا بوجه المنة فانهن يخدمن البيوت أتم خدمة وقيل أولاد المرأة من الزوج الأول وقيل البنون والعطف لاختلاف
الوصفين وقيل الاختان على البنات وتأخير المنصوب فى الموضعين عن المجرور لما مر من التشويق وتقديم المجرور
باللام على المجرور بمن للايذان من أول الأمر بعود منفعة الجعل اليهم امدادا للتشويق وتقوية له أى جعل لمصلحتكم
مما يناسبكم أزواجا وجعل لمنفعتكم من جهة مناسبة لكم بنين وحفدة ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ من اللذائذ أو من
الحلالات ومن للتبعيض اذ المرزوق فى الدنيا أنموذج لما فى الآخرة ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ وهو أن الاصنام تنفعهم
وأن البحائر ونحوها حرام والفاء فى المعنى داخلة على الفعل وهى للعطف على مقدر أى أيكفرون بالله الذى شأنه هذا
فيؤمنون بالباطل أو أبعد تحقق ماذكر من نعم الله تعالى بالباطل يؤمنون دون الله سبحانه ﴿وبنعمة الله﴾ تعالى
الفائضة عليهم بما ذكر ومما لا يحيط به دائرة البيان ﴿هم يكفرون﴾ حيث يضيفونها الى الاصنام وتقديم الصلة
على الفعل للاهتمام أو لايهام الاختصاص مبالغة أو لرعاية الفواصل والالتفات الى الغيبة للايذان باستيجاب حالهم
للاعراض عنهم وصرف الخطاب الى غيرهم من السامعين تعجيبا لهم مما فعلوه ﴿ويعبدون من دون الله﴾ لعله
عطف على يكفرون داخل تحت الانكار التوبيخى أى أيكفرون بنعمة الله ويعبدون من دونه ﴿مالا يملك لهم رزقا
من السموات والأرض شيأ﴾ ان جعل الرزق مصدرا فشيأ نصب على المفعولية منه أى مالا يقدر على أن يرزقهم شيأ
لا من السموات مطرا ولا من الارض نباتا وان جعل اسما للمرزوق فنصب على البدلية منه بمعنى قليلا ومن السموات والارض
صفة لرزقا أى كائنا منهما ويجوز كونه تأكيدا للايملك أى لا يملك رزقا ما شيأ من الملك ﴿ولا يستطيعون﴾ أن
يملكوه اذ لا استطاعة لهم رأسا لانها موات لا حراك بها فالضمير للآلهة ويجوز أن يكون للكفرة على معنى انهم مع
كونهم أحياء متصرفين فى الامور لا يستطيعون من ذلك شيأ فكيف بالجماد الذى لا حس به ﴿فلا تضربوا لله الامثال﴾

التفات الى الخطاب للايذان بالاهتمام بشأن النهى أى لا تشركوا به شيأ والتعبير عن ذلك بضرب المثل للقصد الى النهى عن الاشراك به تعالى فى شأن من الشؤن فان ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة وقصة بقصة أى لا تشبهوا بشأنه تعالى شأنا من الشؤن واللام مثلها فى قوله تعالى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون لا مثلها فى قوله تعالى واضرب لهم مثلا أصحاب القرية ونظائره والفاء للدلالة على ترتب النهى على ماعدد من النعم الفائضة عليهم من جهته سبحانه وكون مايشركون به تعالى بمعزل من أن يملك لهم من أقطار السموات والأرض شيئا من رزق مافضلا عما فصل من نعمة الخلق والتفضيل فى الرزق ونعمة الازواج والاولاد ﴿ان الله يعلم﴾ تعليل للنهى المذكور ووعيد على المنهى عنه أى أنه تعالى يعلم كنه ماتأتون وما تذرون وأنه فى غاية العظم والقبح ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ ذلك والا لما فعلتموه أو أنه تعالى يعلم كنه الاشياء وأنتم لا تعلمونه فدعوا رأيكم وقفوا مواقف الامتثال لما ورد عليكم من الامر والنهى ويجوز أن يراد فلا تضربوا الله الامثال ان الله يعلم كيف تضرب الامثال وأنتم لا تعلمون ذلك فتقعون فيما تقعون فيه من مهاوى الردى والضلال ثم علمهم كيفية ضرب الامثال فى هذا الباب فقال ﴿ضرب الله مثلا﴾ أى ذكر وأورد شيأ يستدل به على تباين الحال بين جنابه عز وجل وبين ماأشركوا به وعلى تباعدهما بحيث ينادى بفساد ماارتكبوه نداء جليا ﴿عبدا مملوكا لا يقدر على شىء﴾ بدل من مثلا وتفسير له والمثل فى الحقيقة حالته العارضة له من المملوكية والعجز التام وبحسبها ضرب نفسه مثلا ووصف العبد بالمملوكية للتمييز عن الحر لاشتراكهما فى كونهما عبدان لله سبحانه وقد أدمج فيه أن الكل عبيد له تعالى وبعدم القدرة لتمييزه عن المكاتب والمأذون اللذين لهما تصرف فى الجملة وفى ابهام المثل أولا ثم بيانه بما ذكر مالا يخفى من الفخامة والجزالة ﴿ومن رزقناه﴾ من موصوفة معطوفة على عبدا أى رزقناه بطريق الملك والالتفات الى التكلم للاشعار باختلاف حالى ضرب المثل والرزق ﴿منا﴾ من جنابنا الكبير المتعالى ﴿رزقا حسنا﴾ حلالا طيبا أو مستحسنا عند الناس مرضيا ﴿فهو ينفق منه﴾ تفضلا واحسانا والفاء لترتيب الانفاق على الرزق كأنه قيل ومن رزقناه منا رزقا حسنا فأنفق وايثار ماعليه النظم الكريم من الجملة الاسمية الفعلية الخبر للدلالة على ثبات الانفاق واستمراره التجددى ﴿سرا وجهرا﴾ أى حال السر والجهر أو انفاق سر وانفاق جهر والمراد بيان عموم انفاقه للاوقات وشمول انعامه لمن يجتنب عن قبوله جهرا والاشارة الى أصناف نعم الله تعالى الباطنة والظاهرة وتقديم السر على الجهر للايذان بفضله عليه والعدول عن تطبيق القرينتين بأن يقال وحرا مالكا للاموال مع كونه أدل على تباين الحال بينه وبين قسيمه لتوخى تحقيق الحق بأن الأحرار أيضا تحت ربقة عبوديته سبحانه وتعالى وأن مالكيتهم لما يملكونه ليست الا بأن يرزقهم الله تعالى اياه من غير أن يكون لهم مدخل فى ذلك مع محاولة المبالغة فى الدلالة على ماقصد بالمثل من تباين الحال بين الممثلين فان العبد المملوك حيث لم يكن مثل العبد المالك فما ظنك بالجماد ومالك الملك خلاق العالمين ﴿هل يستوون﴾ جمع الضمير للايذان بأن المراد بما ذكر من اتصف بالاوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لا فردان معينان منهما أى هل يستوى العبيد والاحرار الموصوفون بما ذكر من الصفات مع أن الفريقين سيان فى البشرية والمخلوقية لله سبحانه وأن ماينفقه الاحرار ليس مما لهم دخل فى ايجاده ولا فى تملكه بل هو مما أعطاه الله تعالى اياهم فحيث لم يستو الفريقان فما ظنكم برب العالمين حيث تشركون به مالا ذليل أذل منه وهو الاصنام ﴿الحمد لله﴾ أى كله له لأنه مولى جميع النعم لا يستحقه أحد غيره وان ظهرت على أيدى بعض الوسايط فضلا عن استحقاق العبادة وفيه ارشاد الى ماهو الحق من أن مايظهر على يد من ينفق مما ذكر راجع الى الله سبحانه كما لوح به قوله تعالى رزقناه ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ماذكر فيضيفون نعمه تعالى الى غيره

و يعبدونه لاجلها ونفى العلم عن أكثرهم للاشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك وانما لا يعلمون بموجبه عنادا كقوله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴿ وضرب الله مثلا ﴾ أى مثلا آخر يدل على مادل عليه المثل السابق على وجه أوضح وأظهر و بعد ما أبهم ذلك لتنتظر النفس الى وروده وتترقبه حتى يتمكن لديها عند وروده بين فقيل ﴿ رجلين أحدهما أبكم ﴾ وهو من ولد أخرس ﴿ لا يقدر على شئ ﴾ من الاشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره بحدس أوفراسة لقلة فهمه وسوء ادراكه ﴿ وهو كل ﴾ ثقل وعيال ﴿ على مولاه ﴾ على من يعوله و يلى أمره وهذا بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شئ مطلقا وقوله تعالى ﴿ أينما يوجهه ﴾ أى حيث يرسله مولاه فى أمر بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح مولاه ولو كانت مصلحة يسيرة وقرئ على البناء للمفعول وعلى صيغة الماضى من التوجه ﴿ لا يأت بخير ﴾ بنجح وكفاية مهم البتة ﴿ هل يستوى هو ﴾ مع مافيه من الاوصاف المذكورة ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ أى من هو منطيق فهم ذو رأى وكفاية و رشد ينفع الناس بحثهم على العدل الجامع لمجامع الفضائل ﴿ وهو ﴾ فى نفسه مع ماذكر من نفعه العام للخاص والعام ﴿ على صراط مستقيم ﴾ ومقابلة الصفات المذكورة بهذين الوصفين لانهما فى حاق مايقابلها فان محصل الصفات المذكورة عدم استحقاق المأمورية وملخص هذين استحقاق كمال الآمرية المستتبع لحيازة المحاسن بأجمعها وتغيير الاسلوب حيث لم يقل والآخر آمر بالعدل الآية لمراعاة الملاءمة بينه وبين ماهو المقصود من بيان التباين بين القرينتين واعلم أن كلا من الفعلين ليس المراد بهما حكاية الضرب الماضى بل المراد انشاؤه بما ذكر عقيبه ولا يبعد أن يقال ان الله تعالى ضرب مثلا بخلق الفريقين على ماهما عليه فكان خلقهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوى بينه سبحانه وبين مايشركون فيكون كل من الفعلين حكاية للضرب الماضى ﴿ ولله ﴾ تعالى خاصة لا لاحد غيره استقلالا ولا اشتراكا ﴿ غيب السموات والارض ﴾ أى الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة بحيث لاسبيل لهم اليها لا مشاهدة ولا استدلالا ومعنى الاضافة اليهما التعلق بهما اما باعتبار الوقوع فيهما حالا أو مآلا واما باعتبار الغيبة عن أهلهما والمراد بيان الاختصاص به تعالى من حيث المعلومية حسبما ينبئ عنه عنوان الغيبية لا من حيث المخلوقية والمملوكية وان كان الأمر كذلك فى نفس الأمر وفيه اشعار بأن علمه سبحانه حضورى فان تحقق الغيوب فى أنفسها علم بالنسبة اليه تعالى ولذلك لم يقل ولله علم غيب السموات والارض ﴿ وما أمر الساعة ﴾ التى هى أعظم ماوقع فيه المماراة من الغيوب المتعلقة بهما من حيث غيبتها عن أهلهما أو ظهور آثارها فيهما عند وقوعها فان وقت وقوعها بعينه من الغيوب المختصة به سبحانه وان كان انيتها من الغيوب التى نصبت عليها الادلة أى ماشأنها فى سرعة المجئ ﴿ الا كلمح البصر ﴾ أى كرجع الطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها ﴿ أو هو ﴾ أى بل أمرها فيما ذكر ﴿ أقرب ﴾ من ذلك وأسرع زمانا بأن يقع فى بعض من زمانه فان ذلك وان قصر عن حركة انية لها هوية اتصالية منطبقة على زمان له هوية كذلك قابل للانقسام الى أبعاض هى أزمنة أيضا بل فى آن غير منقسم من ذلك الزمان وهو آن ابتداء تلك الحركة أو ما أمرها الا كالشئ الذى يستقرب و يقال هو كلمح البصر أو هو أقرب وأياما كان فهو تمثيل لسرعة مجيئها حسبما عبر عنها فى فاتحة السورة الشريفة بالاتيان ﴿ ان الله على كل شئ قدير ﴾ ومن جملة الاشياء أن يجئ بها أسرع مايكون فهو قادر على ذلك أو وما أمر اقامة الساعة التى كنهها وكيفيتها من الغيوب الخاصة به سبحانه وهى اماتة الاحياء واحياء الاموات من الأولين والآخرين وتبديل صور الاكوان أجمعين وقد أنكرها المنكرون وجعلوها من قبيل مالا يدخل تحت الامكان فى سرعة الوقوع وسهولة التأتى الا كلمح البصر أو هو أقرب على مامر من الوجهين ان الله على كل شئ قدير فهو قادر على ذلك لا محالة وقيل غيب السموات والارض عبارة عن

يوم القيامة بعينه لما أن علمه بخصوصه غائب عن أهلهما فوضع الساعة موضع الضمير لتقوية مضمون الجملة ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم﴾ عطف على قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا منتظم معه فى سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى والله أنزل من السماء ماء وقوله تعالى والله خلقكم وقوله تعالى والله فضل بعضكم على بعض والامهات بضم الهمزة وقرىء بكسرها أيضا جمع الام زيدت الهاء فيه كما زيدت فى اهراق من اراق وشذت زيادتها فى الواحدة قال أمهتى خندف والياس أبى ﴿لاتعلمون شيئاً﴾ فى موقع الحال أى غير عالمين شيئاً أصلا ﴿وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة﴾ عطف على أخرجكم وليس فيه دلالة على تأخر الجعل المذكور عن الاخراج لما أن مدلول الواو هو الجمع مطلقا لا الترتيب على أن أثر ذلك الجعل لايظهر قبل الاخراج أى جعل لكم هذه الاشياء آلات تحصلون بها العلم والمعرفة بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الاشياء وتدركوها بأفئدتكم وتتنبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرر الاحساس فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية والافئدة جمع فؤاد وهو وسط القلب وهو من القلب كالقلب من الصدر وهو من جموع القلة التى جرت مجرى جموع الكثرة وتقديم المجرور على المنصوبات لما مر من الايذان من أول الأمر بكون المجعول نافعا لهم وتشويق النفس الى المؤخر ليتمكن عند وروده عليها فضل تمكن ﴿لعلكم تشكرون﴾ كى تعرفوا ما أنعم به عليكم طورا غب طور فتشكروه وتقديم السمع على البصر لما أنه طريق تلقى الوحى أو لان ادراكه أقدم من ادراك البصر وافراده باعتبار كونه مصدرا فى الأصل ﴿ألم يروا﴾ وقرىء بالتاء ﴿الى الطير﴾ جمع طائر أى ألم ينظروا اليها ﴿مسخرات﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الاجنحة والاسباب المساعدة له وفيه مبالغة من حيث ان معنى التسخير جعل الشىء منقادا لآخر يتصرف فيه كيف يشاء كتسخير البحر والفلك والدواب للانسان والواقع ههنا تسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء فكان مقتضى طبيعة الطير السقوط فسخرها الله تعالى للطيران وفيه تنبيه على أن الطيران ليس بمقتضى طبع الطير بل ذلك بتسخير الله تعالى ﴿فى جو السماء﴾ أى فى الهواء المتباعد من الارض والسكاك واللوح أبعد منه واضافته الى السماء لما أنه فى جانبها من الناظر و لاظهار كمال القدرة ﴿مايمسكهن﴾ فى الجوحين قبض أجنحتهن و بسطها و وقوفهن ﴿الا الله﴾ عز وجل بقدرته الواسعة فان ثقل جسدها و رقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها و لاعلاقة من فوقها و لادعامة من تحتها وهو اما حال من الضمير المستتر فى مسخرات أو من الطير واما مستأنف ﴿ان فى ذلك﴾ الذى ذكر من تسخير الطير للطيران بأن خلقها خلقة تتمكن بها منه بأن جعل لها أجنحة خفيفة وأذنابا كذلك وجعل أجسادها من الخفة بحيث اذا بسطت أجنحتها وأذنابها لا يطيق ثقلها يخرق ما تحتها من الهواء الرقيق القوام وتخرق ما بين يديها من الهواء لانها لاتلاقيه بحجم كبير ﴿لآيات﴾ ظاهرة ﴿لقوم يؤمنون﴾ أى من شأنهم أن يؤمنوا وانما خص ذلك بهم لانهم المنتفعون به ﴿والله جعل لكم﴾ معطوف على مامر وتقديم لكم على ما سيأتى من المجرور والمنصوب لما مر من الايذان من أول الامر بأنه لمصلحتهم ومنفعتهم لتشويق النفس الى وروده وقوله تعالى ﴿من بيوتكم﴾ أى من بيوتكم المعهودة التى تبنونها من الحجر والمدرتبيين لذلك المجعول المبهم فى الجملة وتأكيد لما سبق من التشويق ﴿سكنا﴾ فعل بمعنى مفعول أى موضعا تسكنون فيه وقت اقامتكم أو تسكنون اليه من غير أن ينتقل من مكانه أى جعل بعض بيوتكم بحيث تسكنون اليه وتطمئنون به ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا﴾ أى بيوتا أخر مغايرة لبيوتكم المعهودة هى الخيام والقباب والاخبية والفساطيط ﴿تستخفونها﴾ تجدونها خفيفة سهلة المأخذ ﴿يوم ظعنكم﴾ وقت ترحالكم فى النقض والحمل والنقل وقرىء بفتح العين ﴿ويوم اقامتكم﴾ وقت نزولكم فى الضرب والبناء ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها﴾ عطف على قوله تعالى من جلود والضمائر للأنعام على وجه التنويع أى

وجعل لكم من أصواف الضأن وأو بار الابل وأشعار المعز ﴿أثاثا﴾ أى متاع البيت وأصله الكثرة والاجتماع ومنه شعر أثيث ﴿ومتاعا﴾ أى شيئاً يتمتع به بفنون التمتع ﴿الى حين﴾ الى أن تقضوا منه أوطاركم أو الى أن يبلى ويفنى فانه فى معرض البلا والفناء وقيل الى أن تموتوا والكلام فى ترتيب المفاعيل مثل مامر من قبل ﴿والله جعل لكم مما خلق﴾ من غير صنع من قبلكم ﴿ظلالا﴾ أشياء تستظلون بها من الحر كالغمام والشجر والجبل وغيرها امتن سبحانه بذلك لما أن تلك الديار غالبة الحرارة ﴿وجعل لكم من الجبال أكنانا﴾ مواضع تسكنون فيها من الكهوف والغيران والسروب والكلام فى الترتيب الواقع بين المفاعيل كالذى مر غير مرة ﴿وجعل لكم سرابيل﴾ جمع سربال وهو كل مايلبس أى جعل لكم ثيابا من القطن والكتان والصوف وغيرها ﴿تقيكم الحر﴾ خصه بالذكر اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر أو لان وقايته هى الأهم عندهم لما مر آنفا ﴿وسرابيل﴾ من الدروع والجواشن ﴿تقيكم بأسكم﴾ أى البأس الذى يصل الى بعضكم من بعض فى الحرب من الضرب والطعن ولقد من الله سبحانه علينا حيث ذكر جميع نعمه الفائضة على جميع الطوائف فبدأ بما يخص المقيمين حيث قال والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ثم بما يخص المسافرين ممن لهم قدرة على الخيام وأضرابها حيث قال وجعل لكم من جلود الأنعام الخ ثم بما يعم من لايقدر على ذلك ولا يأويه الا الظلال حيث قال وجعل لكم مما خلق ظلالا الخ ثم بمالابد منه لاحد حيث قال وجعل لكم سرابيل الخ ثم بما لاغنى عنه فى الحروب حيث قال وسرابيل تقيكم بأسكم ثم قال ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الاتمام البالغ ﴿يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾ أى ارادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والأنفسية والآفاقية فتعرفوا حق منعمها فتؤمنوا به وحده وتذروا ما كنتم به تشركون وتنقادوا لامره وافراد النعمة امالان المراد بها المصدر أو لاظهار أن ذلك بالنسبة الى جانب الكبرياء شىء قليل وقرىء تسلمون أى تسلمون من العذاب أو من الشرك وقيل من الجراح بلبس الدروع ﴿فان تولوا﴾ فعل ماض على طريقة الالتفات وصرف الخطاب عنهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية له أى فان أعرضوا عن الاسلام ولم يقبلوا منك ماالقى اليهم من البينات والعبر والعظات ﴿فانما عليك البلاغ المبين﴾ أى فلاقصور من جهتك لان وظيفتك هى البلاغ الموضح أو الواضح وقد فعلته بما لامزيد عليه فهو من باب وضع السبب موضع المسبب ﴿يعرفون نعمة الله﴾ استئناف لبيان أن توليهم واعراضهم عن الاسلام ليس لعدم معرفتهم بما عدد من نعم الله تعالى أصلا فانهم يعرفونها ويعترفون أنها من الله تعالى ﴿ثم ينكرونها﴾ بأفعالهم حيث يعبدون غير منعمها أو بقولهم انها بشفاعة آلهتنا أو بسبب كذا وقيل نعمة الله تعالى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عرفوها بالمعجزات كما يعرفون أبناءهم ثم أنكروها عنادا ومعنى ثم لاستبعاد الانكار بعد المعرفة لان حق من عرف النعمة الاعتراف بها لا الانكار واسناد المعرفة والانكار المتفرع عليها الى ضمير المشركين على الاطلاق من باب اسناد حال البعض الى الكل كقولهم بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم فان بعضهم ليسوا كذلك لقوله سبحانه ﴿وأكثرهم الكافرون﴾ أى المنكرون بقلوبهم غير المعترفين بما ذكر والحكم عليهم بمطلق الكفر المؤذن بالكمال من حيث الكمية لاينافى كمال الفرقة الاولى من حيث الكيفية هذا وقد قيل ذكر الاكثر امالان بعضهم لم يعرفوا لنقصان العقل أو التفريط فى النظر أو لم يقم عليه الحجة لانه لم يبلغ حد التكليف فتدبر ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا﴾ يشهد لهم بالايمان والطاعة وعليهم بالكفر والعصيان وهو نبيها ﴿ثم لايؤذن للذين كفروا﴾ فى الاعتذار اذلا عذر لهم وثم للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبىء عن الاقناط الكلى وهو عندما يقال لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون أشد من ابتلائهم بشهادة الانبياء عليهم السلام عليهم وأطم ﴿ولاهم يستعتبون﴾ يسترضون أى

لا يقال لهم أرضوا ربكم اذ الآخرة دار الجزاء لا دار العمل وانتصاب الظرف بمحذوف تقديره اذكر أو خوفهم يوم نبعث الخ أو يوم نبعث يحيق بهم ما يحيق بما لا يوصف وكذا قوله تعالى ﴿ واذا رأى الذين ظلموا العذاب ﴾ الذى يستوجبونه بظلمهم وهو عذاب جهنم ﴿ فلا يخفف عنهم ﴾ ذلك ﴿ ولاهم ينظرون ﴾ أى يمهلون كقوله تعالى بل تأتيهم بغتة فتبهتهم ﴿ واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ﴾ الذين كانوا يدعونهم فى الدنيا وهم الاوثان أو الشياطين الذين شاركوهم فى الكفر بالحمل عليه وقارنوهم فى الغى والضلال ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ﴾ أى نعبدهم أو نطيعهم ولعلهم قالوا ذلك طمعا فى توزيع العذاب بينهم كما ينبئ عنه قوله سبحانه ﴿ فألقوا ﴾ أى شركاؤهم ﴿ اليهم القول انكم لكاذبون ﴾ فان تكذيبهم اياهم فيما قالوا ليس الا للمدافعة والتخاص عن غائلة مضمونة وانما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم ويطيعونهم لان الاوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم فكأن عبادتهم لم تكن عبادة لهم كما قالت الملائكة عليهم السلام بل كانوا يعبدون الجن يعنون أن الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لا نحن أو كذبوهم فى تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله سبحانه عن الشريك والشياطين وان كانوا راضين بعبادتهم لهم لكنهم لم يكونوا حاملين لهم على وجه القسر والالجاء كما قال ابليس وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فكأنهم قالوا ما عبدتمونا حقيقة بل انما عبدتم أهواءكم ﴿ وألقوا ﴾ أى الذين أشركوا ﴿ الى الله يومئذ السلم ﴾ الاستسلام والانقياد لحكمه العزيز الغالب بعد الاستكبار عنه فى الدنيا ﴿ وضل عنهم ﴾ أى ضاع وبطل ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ من أن لله سبحانه شركاء وأنهم ينصرون ويشفعون لهم وذلك حين كذبوهم وتبرؤا منهم ﴿ الذين كفروا ﴾ فى أنفسهم ﴿ وصدوا ﴾ غيرهم ﴿ عن سبيل الله ﴾ بالمنع عن الاسلام والحمل على الكفر ﴿ زدناهم عذابا فوق العذاب ﴾ الذى كانوا يستحقونه بكفرهم قيل فى زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع احداهن فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفا وقيل يخرجون من النار الى الزمهرير فيبادرون من شدة البرد الى النار ﴿ بما كانوا يفسدون ﴾ متعلق بقوله زدناهم أى زدنا عذابهم بسبب استمرارهم على الافساد وهو الصد المذكور ﴿ ويوم نبعث ﴾ تكرير لما سبق تثنية للتهديد ﴿ فى كل أمة شهيدا عليهم ﴾ أى نبيا ﴿ من أنفسهم ﴾ من جنسهم قطعا لمعذرتهم وفى قوله تعالى عليهم اشعار بأن شهادة أنبيائهم على الامم تكون بمحضر منهم ﴿ وجئنا بك ﴾ ايثار لفظ المجئ على البعث لكمال العناية بشأنه عليه السلام وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع ﴿ شهيدا على هؤلاء ﴾ الأمم وشهدائهم كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقيل على أمتك والعامل فى الظرف محذوف كما مر والمراد به يوم القيامة ﴿ ونزلنا عليك الكتاب ﴾ الكامل فى الكتابية الحقيق بأن يخص باسم الجنس وهو اما استئناف أو حال بتقدير قد ﴿ تبيانا ﴾ بيانا بليغا ﴿ لكل شئ ﴾ يتعلق بأمور الدين ومن جملة ذلك أحوال الأمم مع أنبيائهم عليهم السلام فيكون كالدليل على كونه عليه السلام شهيدا عليهم وكذا من جملته ما أخبر به هذه الآية الكريمة من بعث الشهداء وبعثه عليه السلام شهيدا عليهم عليهم الصلاة والسلام والتبيان كالتلقاء فى كسر أوله وكونه تبيانا لكل شئ من أمور الدين باعتبار أن فيه نصا على بعضها واحالة لبعضها على السنة حيث أمر باتباع النبى عليه السلام وطاعته وقيل فيه وما ينطق عن الهوى وحثا على الاجماع وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته باتباع أصحابه حيث قال أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق الاجتهاد فكانت السنة والاجماع والقياس مستندة الى تبيان الكتاب ولم يضر ما فى البعض من الخفاء فى كونه تبيانا فان المبالغة باعتبار الكمية دون الكيفية كما قيل فى قوله تعالى وما أنا بظلام للعبيد انه من قولك فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده ومنه قوله سبحانه وما للظالمين من أنصار ﴿ وهدى ورحمة ﴾ للعالمين فان حرمان الكفرة من مغانم آثاره من تفريطهم لا من جهة الكتاب ﴿ وبشرى

للمسلمين ﴾ خاصة أو يكون كل ذلك خاصا بهم لانهم المنتفعون بذلك ﴿ ان الله يأمر ﴾ أى فيما نزله تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين وايثار صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لافادة التجدد والاستمرار ﴿ بالعدل ﴾ بمراعاة التوسط بين طرفى الافراط والتفريط وهو رأس الفضائل كلها يندرج تحته فضيلة القوة العقلية الملكية من الحكمة المتوسطة بين الجرمزة والبلادة وفضيلة القوة الشهوية البهيمية من العفة المتوسطة بين الخلاعة والخمود وفضيلة القوة الغضبية السبعية من الشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن فمن الحكم الاعتقادية التوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن العدل هو التوحيد والقول بالكسب المتوسط بين الجبر والقدر ومن الحكم العملية التعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب ومن الحكم الخلقية الجود المتوسط بين البخل والتبذير ﴿ والاحسان ﴾ أى الاتيان بما أمر به على الوجه اللائق وهو اما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل أو بحسب الكيفية كما يشير اليه قوله صلى الله عليه وسلم الاحسان أن تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ﴿ وايتاء ذى القربى ﴾ أى اعطاء الاقارب ما يحتاجون اليه وهو تخصيص اثر تعميم اهتماما بشأنه ﴿ و ينهى عن الفحشاء ﴾ الافراط فى مشايعة القوة الشهوية كالزنى مثلا ﴿ والمنكر ﴾ ما ينكر شرعا أو عقلا من الافراط فى اظهار آثار القوة الغضبية ﴿ والبغى ﴾ الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية التى هى حاصلة من رذيلتى القوتين المذكورتين الشهوية والغضبية وليس فى البشر شر الا وهو مندرج فى هذه الاقسام صادر عنه بواسطة هذه القوى الثلاث و لذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه هى أجمع آية فى القرآن للخير والشر ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت فى كونه تبيانا لكل شئ وهدى ﴿ يعظكم ﴾ بما يأمر و ينهى وهو اما استئناف واما حال من الضميرين فى الفعلين ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ طلبا لان تتعظوا بذلك ﴿ وأوفوا بعهد الله ﴾ هو البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانها مبايعة لله سبحانه لقوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ﴿ اذا عاهدتم ﴾ أى حافظوا على حدود ما عاهدتم الله عليه و بايعتم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ و لا تنقضوا الأيمان ﴾ التى تحلفون بها عند المعاهدة ﴿ بعد توكيدها ﴾ حسبما هو المعهود فى أثناء العهود لا على أن يكون النهى مقيدا بالتوكيد مختصا به ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ﴾ شاهدا رقيبا فان الكفيل مراع لحال المكفول به محافظ عليه ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ من نقض الايمان والعهود فيجازيكم على ذلك ﴿ و لا تكونوا ﴾ فيما تصنعون من النقض ﴿ كالتى نقضت غزلها ﴾ أى ما غزلته مصدر بمعنى المفعول ﴿ من بعد قوة ﴾ متعلق بنقضت أى كالمرأة التى نقضت غزلها من بعد ابرامه واحكامه ﴿ أنكاثا ﴾ طاقات نكثت فتلها جمع نكث وانتصابه على الحالية من غزلها أو على أنه مفعول ثان لنقضت فانه بمعنى صيرت والمراد تقبيح حال النقض بتشبيه الناقض بمثل هذه الخرقاء المعتوهة . قيل هى ريطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل هى وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن ﴿ تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ﴾ حال من الضمير فى لا تكونوا أو فى الجار والمجرور الواقع موقع الخبر أى مشابهين لامرأة شأنها هذا حال كونكم متخذين أيمانكم مفسدة ودخلا بينكم وأصل الدخل ما يدخل الشئ و لم يكن منه ﴿ أن تكون أمة ﴾ أى بأن تكون جماعة ﴿ هى أربى ﴾ أى أزيد عددا وأوفر مالا ﴿ من أمة ﴾ من جماعة أخرى أى لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم أو لكثرة منابذيهم وقوتهم كقريش فانهم كانوا اذا رأوا شوكة فى أعادى حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم ﴿ انما يبلوكم الله به ﴾ أى بأن تكون أمة أربى من أمة أى يعاملكم بذلك معاملة من يختبركم لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله و بيعة رسوله عليه السلام أم تغترون بكثرة قريش

وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال ﴿وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ حين جازاكم بأعمالكم ثوابا وعقابا ﴿ولو شاء الله﴾ مشيئة قسر والجاء ﴿لجعلكم أمة واحدة﴾ متفقة على الاسلام ﴿ولكن﴾ لا يشاء ذلك لكونه مزاحما لقضية الحكمة بل ﴿يضل من يشاء﴾ إضلاله أى يخلق فيه الضلال حسبما يصرف اختياره الجزئى اليه ﴿ويهدى من يشاء﴾ هدايته حسبما يصرف اختياره الى تحصيلها ﴿ولتسألن﴾ جميعا يوم القيامة ﴿عما كنتم تعملون﴾ فى الدنيا وهذا اشارة الى ما لوح به من الكسب الذى عليه يدور أمر الهداية والضلال ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم﴾ تصريح بالنهى عنه بعد التضمين تأكيدا ومبالغة فى بيان قبح المنهى عنه وتمهيدا لقوله سبحانه ﴿فتزل قدم﴾ عن محجة الحق ﴿بعد ثبوتها﴾ عليها ورسوخها فيها بالايمان وافراد القدم وتنكيرها للايذان بأن زلل قدم واحدة أى قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم فكيف بأقدام كثيرة ﴿وتذوقوا السوء﴾ أى العذاب الدنيوى ﴿بما صددتم﴾ بصدودكم أو بصدكم غيركم ﴿عن سبيل الله﴾ الذى ينتظم الوفاء بالعهود والأيمان فان من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنة لغيره ﴿ولكم﴾ فى الآخرة ﴿عذاب عظيم ولا تشتروا بعهد الله﴾ أى لا تأخذوا بمقابلة عهده تعالى وبيعة رسوله عليه السلام أو آياته الناطقة بايجاب المحافظة على العهود والايمان ﴿ثمنا قليلا﴾ أى لا تستبدلوا بها عرضا يسيرا وهو ما كانت قريش يعدون ضعفة المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد من حطام الدنيا ﴿انما عند الله﴾ عز وجل من النصر والتغنيم والثواب الأخروى ﴿هو خير لكم﴾ مما يعدونكم ﴿ان كنتم تعلمون﴾ أى ان كنتم من أهل العلم والتمييز وهو تعليل للنهى على طريقة التحقيق كما أن قوله تعالى ﴿ما عندكم﴾ تعليل للخيرية بطريق الاستئناف أى ما تتمتعون به من نعيم الدنيا وان جل بل الدنيا ومافيها جميعا ﴿ينفد﴾ وان جم عدده وينقضى وان طال أمده ﴿وما عند الله﴾ من خزائن رحمته الدنيوية والأخروية ﴿باق﴾ لا نفاد له أما الأخروية فظاهرة وأما الدنيوية فحيث كانت موصولة بالاخروية ومستتبعة لها فقد انتظمت فى سمط الباقيات الصالحات وفى ايثار الاسم على صيغة المضارع من الدلالة على الدوام مالا يخفى وقوله تعالى ﴿ولنجزين﴾ بنون العظمة على طريقة الالتفات تكرير للوعد المستفاد من قوله تعالى ان ما عند الله هو خير لكم على نهج التوكيد القسمى مبالغة فى الحمل على الثبات فى الدين والالتفات عما يقتضيه ظاهر الحال من أن يقال ولنجزينكم أجركم بأحسن ما كنتم تعملون للتوسل الى التعرض لاعمالهم والاشعار بعليتها للجزاء أى والله لنجزين ﴿الذين صبروا﴾ على أذية المشركين ومشاق الاسلام التى من جملتها الوفاء بالعهود والفقر وقرىء بالياء من غير التفات ﴿أجرهم﴾ مفعول ثان لنجزين أى لنعطينهم أجرهم الخاص بهم بمقابلة صبرهم على ما منوا به من الامور المذكورة ﴿بأحسن ما كانوا يعملون﴾ أى لنجزينهم بما كانوا يعملونه من الصبر المذكور وانما أضيف اليه الاحسن للاشعار بكمال حسنه كما فى قوله سبحانه وحسن ثواب الآخرة لا لافادة قصر الجزاء على الاحسن منه دون الحسن فان ذلك مما لا يخطر ببال أحد لاسيما بعد قوله تعالى أجرهم أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الادنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيه بمقابلة الفرد الاعلى منها من الاجر الجزيل لا انا نعطى الاجر بحسب أفرادها المتفاوتة فى مراتب الحسن بأن نجزى الحسن منها بالاجر الحسن والاحسن بالاحسن وفيه مالا يخفى من العدة الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم فى تضاعيف الصبر من بعض جزع ونظمه فى سلك الصبر الجميل أو لنجزينهم بجزاء أحسن من أعمالهم وأما التفسير بما ترجح فعله من أعمالهم كالواجبات والمندوبات أو بما ترجح تركه أيضا كالمحرمات والمكروهات دلالة على أن ذلك هو المدار للجزاء دون ما يستوى فعله وتركه كالمباحات فلا يساعده مقام الحث على الثبات على ماهم عليه من الاعمال

الحسنة المخصوصة والترغيب فى تحصيل ثمراتها بل التعرض لاخراج بعض أعمالهم عن مدارية الجزاء من قبيل تحجير الرحمة الواسعة فى مقام توسيع حماها ﴿من عمل صالحا﴾ أى عملا صالحا أى عمل كان وهذا شروع فى تحريض كافة المؤمنين على كل عمل صالح غب ترغيب طائفة منهم فى الثبات على ما هم عليه من عمل صالح مخصوص دفعا لتوهم اختصاص الاجر الموفور بهم و بعملهم المذكور وقوله تعالى ﴿من ذكر أو أنثى﴾ مبالغة فى بيان شموله للكل ﴿وهو مؤمن﴾ قيده به اذ لا اعتداد بأعمال الكفرة فى استحقاق الثواب أو تخفيف العذاب لقوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وايثار ايراده بالجملة الاسمية الحالية على نظمه فى سلك الصلة لافادة وجوب دوامه ومقارنته للعمل الصالح ﴿فلنحيينه حيوة طيبة﴾ فى الدنيا يعيش عيشا طيبا أما ان كان موسرا فظاهر وأما ان كان معسرا فيطيب عيشه بالقناعة والرضى بالقسمة وتوقع الاجر العظيم كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله بخلاف الفاجر فانه ان كان معسرا فظاهر وان كان موسرا فلا يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه ﴿ولنجزينهم﴾ فى الآخرة ﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ حسبما نفعل بالصابرين فليس فيه شائبة تكرار والجمع فى الضمائر العائدة الى الموصول لمراعاة جانب المعنى كما أن الافراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ و إيثار ذلك على العكس لما أن وقوع الجزاء بطريق الاجتماع المناسب للجمعية ووقوع ما فى حيز الصلة وما يترتب عليه بطريق الافتراق والتعاقب الملائم للافراد واذ قد انتهى الأمر الى أن مدار الجزاء المذكور هو صلاح العمل وحسنه رتب عليه بالفاء الارشاد الى ما به يحسن العمل الصالح و يخلص عن شوب الفساد فقيل ﴿فاذا قرأت القرآن﴾ أى اذا أردت قراءته عبر بها عن ارادتها على طريقة اطلاق اسم المسبب على السبب ايذانا بأن المراد هى الارادة المتصلة بالقراءة ﴿فاستعذ بالله﴾ فاسأله عز جاره أن يعيذك ﴿من الشيطان الرجيم﴾ من وساوسه وخطراته كيلا يوسوسك عند القراءة فان له همة بذلك قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته الآية وتوجيه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند ارادتها للتنبيه على أنها لغيره عليه الصلاة والسلام وفى سائر الأعمال الصالحة أهم فانه عليه السلام حيث أمر بها عند قراءة القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فما ظنكم بمن عداه عليه السلام فيما عدا القراءة من الأعمال والأمر للندب وهذا مذهب الجمهور وعند عطاء للوجوب وقد أخذ بظاهر النظم الكريم فاستعاذ عقيب القراءة أبو هريرة رضى الله عنه ومالك وابن سيرين وداود وحمزة من القراء وعن ابن مسعود رضى الله عنه قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال عليه السلام قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ ﴿انه﴾ الضمير للشأن أو للشيطان ﴿ليس له سلطان﴾ تسلط و ولاية ﴿على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ أى اليه يفوضون أمورهم و به يعوذون فى كل ما يأتون وما يذرون فان وسوسته لا تؤثر فيهم ودعوته غير مستجابة عندهم وايثار صيغة الماضى فى الصلة الأولى للدلالة على التحقق كما أن اختيار صيغة الاستقبال فى الثانية لافادة الاستمرار التجددى وفى التعرض لوصف الربوبية عدة كريمة باعاذة المتوكلين والجملة تعليل للامر بالاستعاذة أو لجوابه المنوى أى يعذك أو نحوه ﴿انما سلطانه﴾ أى تسلطه و ولايته بدعوته المستتبعة للاستجابة لا سلطانه بالقسر والالجاء فانه منتف عن الفريقين لقوله سبحانه حكاية عنه وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى وقد أفصح عنه قوله تعالى ﴿على الذين يتولونه﴾ أى يتخذونه وليا و يستجيبون دعوته و يطيعونه فان المقسور بمعزل من ذلك ﴿والذين هم به﴾ سبحانه وتعالى ﴿مشركون﴾ أو بسبب الشيطان مشركون اذ هو

الذى حملهم على الاشراك بالله سبحانه وقصر سلطانه عليهم غب نفيه عن المؤمنين المتوكلين دليل على أن لاواسطة فى الخارج بين التوكل على الله تعالى و بين تولى الشيطان وان كان بينهما واسطة فى المفهوم وأن من لم يتوكل عليه تعالى ينتظم فى سلك من يتولى الشيطان من حيث لا يحتسب اذ به يتم التعليل ففيه مبالغة فى الحمل على التوكل والتحذير عن مقابله وايثار الجملة الفعلية الاستقبالية فى الصلة الأولى لما مر من افادة الاستمرار التجددى كما أن اختيار الجملة الاسمية فى الثانية للدلالة على الثبات وتكرير الموصول للاحتراز عن توهم كون الصلة الثانية حالية مفيدة لعدم دخول غير المشركين من أولياء الشيطان تحت سلطانه وتقديم الأولى على الثانية التى هى بمقابلة الصلة الأولى فيما سلف لرعاية المقارنة بينها و بين ما يقابلها من التوكل على الله تعالى ولو روعى الترتيب السابق لانفصل كل من القرينتين عما يقابلها ﴿ واذا بدلنا آية مكان آية ﴾ أى اذا أنزلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلا منها بأن نسخناها بها ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ أولا و آخرا و بأن كلا من ذلك ما نزلت حيثما نزلت الا حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فان كل وقت له مقتض غير مقتضى الآخر فكم من مصلحة فى وقت تنقلب فى وقت آخر مفسدة و بالعكس لانقلاب الأمور الداعية الى ذلك وما الشرائع الا مصالح للعباد فى المعاش والمعاد تدور حسبما تدور المصالح والجملة اما معترضة لتوبيخ الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم وفى الالتفات الى الغيبة مع اسناد الخبر الى الاسم الجليل المستجمع للصفات ما لا يخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض أو حالية وقرىء بالتخفيف من الانزال ﴿ قالوا ﴾ أى الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ ﴿ انما أنت مفتر ﴾ أى متقول على الله تعالى تأمر بشىء ثم يبدو لك فتنهى عنه وحكاية هذا القول عنهم ههنا للايذان بأن ذلك كفرة ناشئة من نزغات الشيطان وانه وليهم ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى لا يعلمون شيئاً أصلا أو لا يعلمون أن فى النسخ حكما بالغة واسناد هذا الحكم الى الاكثر لما أن منهم من يعلم ذلك وانما ينكره عنادا ﴿ قل نزله ﴾ أى القرآن المدلول عليه الآية ﴿ روح القدس ﴾ يعنى جبريل عليه السلام أى الروح المطهر من الأدناس البشرية واضافة الروح الى القدس وهو الطهر كاضافة حاتم الى الجود حيث قيل حاتم الجود للمبالغة فى ذلك الوصف كأنه طبع منه وفى صيغة التفعيل فى الموضعين اشعار بأن التدريج فى الانزال مما تقتضيه الحكم البالغة ﴿ من ربك ﴾ فى اضافة الرب الى ضميره صلى الله عليه وسلم من الدلالة على تحقيق افاضة آثار الربوبية عليه صلى الله عليه وسلم ما ليس فى اضافته الى ياء المتكلم المبنية على التلقين المحض ﴿ بالحق ﴾ أى ملتبسا بالحق الثابت الموافق للحكمة المقتضية له بحيث لا يفارقها انشاء ونسخا وفيه دلالة على أن النسخ حق ﴿ ليثبت الذين آمنوا ﴾ على الايمان بأنه كلامه تعالى فانهم اذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح اللائقة بالحال رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم وقرىء ليثبت من الافعال ﴿ وهدى و بشرى للمسلمين ﴾ المنقادين لحكمه تعالى وهما معطوفان على محل ليثبت أى تثبيتا وهداية و بشارة وفيه تعريض بحصول أضداد الأمور المذكورة لمن سواهم من الكفار ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون ﴾ غير ما نقل عنهم من المقالة الشنعاء ﴿ انما يعلمه ﴾ أى القرآن ﴿ بشر ﴾ على طريق البت مع ظهور أنه نزله روح القدس عليه الصلاة والسلام وتحلية الجملة بفنون التأكيد لتحقيق ما تتضمنه من الوعيد وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم بحسب الاستمرار التجددى فى متعلقه فانهم مستمرون على تفوه تلك العظيمة يعنون بذلك جبر الرومى غلام عامر بن الحضرمى وقيل جبرا و يسارا كانا يصنعان السيف بمكة و يقرآن التوراة والانجيل وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يمر عليهما و يسمع ما يقرآنه وقيل عايسا غلام حويطب بن عبد العزى قد أسلم وكان صاحب كتب وقيل سلمان الفارسى وانما لم يصرح باسم من زعموا أنه يعلمه مع كونه أدخل فى ظهور كذبهم للايذان بأن مدار خطابهم ليس نسبته عليه السلام الى التعلم من شخص معين

بل من البشر كائنا من كان مع كونه عليه السلام معدنا لعلوم الأولين والآخرين ﴿لسان الذى يلحدون اليه أعجمى﴾ الالحاد الامالة من ألحد القبر اذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر فى شق منه ثم استعير لكل امالة عن الاستقامة فقالوا ألحد فلان فى قوله وألحد فى دينه أى لغة الرجل الذى يميلون اليه القول عن الاستقامة أعجمية غير بينة وقرئ بفتح الياء والحاء و بتعريف اللسان ﴿وهذا﴾ أى القرآن الكريم ﴿لسان عربى مبين﴾ ذو بيان وفصاحة والجملتان مستأنفتان لابطال طعنهم وتقريره أن القرآن معجز بنظمه كما أنه معجز بمعناه فان زعمتم أن بشرا يعلمه معناه فكيف يعلمه هذا النظم الذى أعجز جميع أهل الدنيا والتشبث فى أثناء الطعن بأذيال أمثال هذه الخرافات الركيكة دليل على كمال عجزهم ﴿ان الذين لايؤمنون بآيات الله﴾ أى لايصدقون أنها من عند الله بل يقولون فيها مايقولون يسمونها تارة افتراء وأخرى أساطير معلمة من البشر ﴿لايهديهم الله﴾ الى الحق أو الى سبيل النجاة هداية موصلة الى المطلوب لما علم أنهم لايستحقون ذلك لسوء حالهم ﴿ولهم﴾ فى الآخرة ﴿عذاب أليم﴾ وهذا تهديد لهم و وعيد على ماهم عليه من الكفر بآيات الله تعالى ونسبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الافتراء والتعلم من البشر بعد اماطة شبهتهم و ردطعنهم وقوله تعالى ﴿انما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله﴾ رد لقولهم انما أنت مفتر وقلب للامر عليهم ببيان أنهم هم المفترون بعد رده بتحقيق أنه منزل من عند الله بواسطة روح القدس وانما وسط بينهما قوله تعالى ولقدنعلم الآية لما لايخفى من شدة اتصاله بالرد الأول والمعنى والله تعالى أعلم أن المفترى هو الذى يكذب بآيات الله و يقول انه افتراء ومعلم من البشر أى تكذيبها على الوجه المذكور هو الافتراء على الحقيقة لان حقيقته الكذب والحكم بأن ماهو كلامه تعالى ليس بكلامه تعالى فى كونه كذبا وافتراء كالحكم بأن ماليس بكلامه تعالى كلامه تعالى والتصريح بالكذب للمبالغة فى بيان قبحه وصيغة المضارع لرعاية المطابقة بينه و بين ماهو عبارة عنه أعنى قوله لايؤمنون وقيل المعنى انما يفترى الكذب و يليق ذلك بمن لايؤمن بآيات الله لانه لايترقب عقابا عليه ليرتدع عنها وأما من يؤمن بها و يخاف مانطقت به من العقاب فلا يمكن أن يصدر عنه افتراء البتة ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من عدم الايمان بآيات الله ﴿هم الكاذبون﴾ على الحقيقة أو الكاملون فى الكذب اذ لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى والطعن فيها بأمثال هاتيك الاباطيل والسر فى ذلك أن الكذب الساذج الذى هو عبارة عن الاخبار بعدم وقوع ماهو واقع فى نفس الامر بخلق الله تعالى أو بوقوع مالم يقع كذلك مدافعة لله تعالى فى فعله فقط والتكذيب مدافعة له سبحانه فى فعله وقوله المنبئ عنه معا أو الذين عادتهم الكذب لايزعهم عنه وازع من دين أو مروءة وقيل الكاذبون فى قولهم انما أنت مفتر ﴿من كفر بالله﴾ أى تلفظ بكلمة الكفر ﴿من بعد ايمانه﴾ به تعالى وهو ابتداء كلام لبيان حال من كفر بآيات الله بعد ما آمن بها بعد بيان حال من لم يؤمن بها رأسا ومن موصولة ومحلها الرفع على الابتداء والخبر محذوف لدلالة الخبر الآتى عليه أو هو خبر لهما معا أو النصب على الذم ﴿الا من أكره﴾ على ذلك بأمر يخاف على نفسه أو على عضو من أعضائه وهو استثناء متصل من حكم الغضب والعذاب أو الذم لان الكفر لغة يتم بالقول كما أشير اليه وقوله تعالى ﴿وقلبه مطمئن بالايمان﴾ حال من المستثنى والعامل هو الكفر الواقع بالاكراه لانفس الاكراه لان مقارنة اطمئنان القلب بالايمان للاكراه لاتجدى نفعا وانما المجدى مقارنته للكفر الواقع به أى الا من كفر باكراه والامن أكره فكفر والحال أن قلبه مطمئن بالايمان لم تتغير عقيدته وانما لم يصرح به ايماء الى أنه ليس بكفر حقيقة وفيه دليل على أن الايمان هو التصديق بالقلب ﴿ولكن من﴾ لم يكن كذلك بل ﴿شرح بالكفر صدرا﴾ أى اعتقده وطاب به نفسا ﴿فعليهم غضب﴾ عظيم لا يكتنه كنهه ﴿من الله﴾ اظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتقوية تعظيم العذاب ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ اذلا جرم أعظم من جرمهم والجمع

فى الضميرين المجرورين لمراعاة جانب المعنى كما أن الافراد فى المستكن فى الصلة لرعاية جانب اللفظ . روى أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسرا وسمية على الارتداد فأباه أبواه فربطوا سمية بين بعيرين ووجئت بحربة فى قبلها وقالوا انما أسلمت من أجل الرجال فقتلوها وقتلوا ياسرا وهما أول قتيلين فى الاسلام وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوا عليه فقيل يا رسول الله ان عمارا كفر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال مالك ان عادوا لك فعدلهم بما قلت وهو دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الاكراه الملجىء وان كان الافضل أن يتجنب عنه اعزازا الدين كما فعله أبواه وروى أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لاحدهما ما تقول فى محمد قال رسول الله قال فما تقول فى قال فأنت أيضا فخلاه وقال للآخر ما تقول فى محمد قال رسول الله قال فما تقول فى قال أنا أصم فأعاد ثلاثا فأعاد جوابه فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما الاول فقد أخذ برخصة وأما الثانى فقد صدع بالحق ﴿ذلك﴾ اشارة الى الكفر بعد الايمان أو الى الوعيد المذكور ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿استحبوا الحيوة الدنيا﴾ آثروها ﴿على الآخرة وأن الله لايهدى﴾ الى الايمان والى ما يوجب الثبات عليه هداية قسر والجاء ﴿القوم الكافرين﴾ فى علمه المحيط فلا يعصمهم عن الزيغ وما يؤدى اليه من الغضب والعذاب العظيم ولولا أحد الأمرين اما ايثار الحيوة الدنيا على الآخرة واما عدم هداية الله سبحانه للكافرين هداية قسر بأن آثروا الآخرة على الدنيا أو بأن هداهم الله تعالى هداية قسر لما كان ذلك لكن الثانى مخالف للحكمة والاول مما لايدخل تحت الوقوع واليه أشير بقوله تعالى ﴿أولئك﴾ أى أولئك الموصوفين بما ذكر من القبائح ﴿الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم﴾ فأبت عن ادراك الحق والتأمل فيه ﴿وأولئك هم الغافلون﴾ أى الكاملون فى الغفلة اذ لا غفلة أعظم من الغفلة عن تدبر العواقب ﴿لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون﴾ اذ ضيعوا أعمارهم وصرفوها الى مالا يفضى الا الى العذاب المخلد ﴿ثم ان ربك للذين هاجروا﴾ الى دار الاسلام وهم عمار وأصحابه رضى الله عنهم أى لهم بالولاية والنصر لا عليهم كما يوجبه ظاهر أعمالهم السابقة فالجار والمجرور خبر لأن ويجوز أن يكون خبرها محذوفا لدلالة الخبر الآتى عليه ويجوز أن يكون ذلك خبراً لها وتكون ان الثانية تأكيداً للاولى وثم للدلالة على تباعد رتبة حالهم هذه عن رتبة حالهم التى يفيدها الاستثناء من مجرد الخروج عن حكم الغضب والعذاب بطريق الاشارة لا عن رتبة حال الكفرة ﴿من بعد ما فتنوا﴾ أى عذبوا على الارتداد وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمئنان قلوبهم بالايمان وقرئ على بناء الفاعل أى عذبوا المؤمنين كالحضرمى أكره مولاه جبرا حتى ارتد ثم أسلما وهاجرا ﴿ثم جاهدوا﴾ فى سبيل الله ﴿وصبروا﴾ على مشاق الجهاد ﴿ان ربك من بعدها﴾ من بعد المهاجرة والجهاد والصبر فهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له أو من بعد الفتنة المذكورة فهو لبيان عدم اخلال ذلك بالحكم ﴿لغفور﴾ لما فعلوا من قبل ﴿رحيم﴾ ينعم عليهم مجازاة على ماصنعوا من بعد وفى التعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين ايماء الى علة الحكم وفى اضافة الرب الى ضميره عليه السلام مع ظهور الاثر فى الطائفة المذكورة اظهار لكمال اللطف به عليه السلام واشعار بأن افاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه السلام ولكونهم أتباعا له ﴿يوم تأتى كل نفس﴾ منصوب برحيم ومارتب عليه أو باذكر وهو يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿تجادل عن نفسها﴾ عن ذاتها تسعى فى خلاصها بالاعتذار لايهمها شأن غيرها فتقول نفسى نفسى ﴿وتوفى كل نفس﴾ أى تعطى وافيا كاملا ﴿ماعملت﴾ أى جزاء ماعملت بطريق اطلاق اسم

السبب على المسبب اشعارا بكمال الاتصال بين الاجزية والأعمال وايثار الاظهار على الاضمار لزيادة التقرير وللايذان باختلاف وقتى المجادلة والتوفية وان كانتا فى يوم واحد ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ لا ينقصون أجورهم أو لا يعاقبون بغير موجب و لا يزاد فى عقابهم على ذنوبهم ﴿ وضرب الله مثلا قرية ﴾ قيل ضرب المثل صنعه واعتماله وقدمر تحقيقه فى سورة البقرة و لا يتعدى الا الى مفعول واحد وانما عدى الى الاثنين لتضمينه معنى الجعل وتأخير قرية مع كونها مفعولا أولا لئلا يحول المفعول الثانى بينها و بين صفتها ومايترتب عليها اذ التأخير عن الكل مخل بتجاذب أطراف النظم وتجاوبها و لأن تأخير ماحقه التقديم ممـا يورث النفس ترقبا لوروده وتشوقا اليه لاسيما اذا كان فى المقدم مايدعو اليه فان المثل ممـا يدعو الى المحافظة على تفاصيل أحوال ماهو مثل فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضل تمكن والقرية اما محققة فى الغابرين واما مقدرة أى جعلها مثلا لأهل مكة خاصة أو لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا مافعلوا فبدل الله تعالى بنعمتهم نقمة ودخل فيهم أهل مكة دخولا أوليا ﴿ كانت آمنة ﴾ ذات أمن من كل مخوف ﴿ مطمئنة ﴾ لا يزعج أهلها مزعج ﴿ يأتيها رزقها ﴾ أقوات أهلها صفـة ثانية لقرية وتغيير سبكها عن الصفة الاولى لمـا أن اتيان رزقها متجدد و كونها آمنة مطمئنة ثابت مستمر ﴿ رغدا ﴾ واسعا ﴿ من كل مكان ﴾ من نواحيها ﴿ فكفرت ﴾ أى كفر أهلها ﴿ بأنعم الله ﴾ أى بنعمه جمع نعمـة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع أو جمع نعم كبؤس وأبؤس والمراد بها نعمة الرزق والأمن المستمر وايثار جمع القلة للايذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب فما ظنك بكفران نعم كثيرة ﴿ فأذاقها الله ﴾ أى اذاق أهلها ﴿ لباس الجوع والخوف ﴾ شبـه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم باللباس الغاشى للابس فاستعير له اسمه وأوقع عليه الاذاقة المستعارة لمطلق الايصال المنبئة عن شدة الاصابة بمـا فيها من اجتماع ادراكى اللامسة والذائقة على نهج التجريد فانها لشيوع استعمالهـا فى ذلك و كثرة جريانها على الألسنة جرت مجرى الحقيقة كقول كثير

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا   غلقت لضحكته رقاب المـال

فان الغمر مع كونه فى الحقيقة من أحوال المـاء الكثير لمـا كان كثير الاستعمال فى المعروف المشبه بالمـاء الكثير جرى مجرى الحقيقـة فصارت اضافتـه الى الرداء المستعار للمعروف تجريدا أوشبه أثرهما وضررهما من حيث الاحاطة بهم والكراهة لديهم تارة باللباس الغاشى للابس المناسب للخوف بجامع الاحاطة واللزوم تشبيه معقول بمحسوس فاستعير له اسمه استعارة تصريحية وأخرى بطعم المر البشع الملائم للجوع الناشئ من فقد الرزق بجامع الكراهة فأومى اليه بأن أوقع عليه الاذاقة المستعارة لايصال الضار المنبئة عن شدة الاصابة بمـا فيها من اجتماع ادراكى اللامسة والذائقة وتقديم الجوع الناشئ ممـا ذكر من فقدان الرزق على الخوف المترتب على زوال الأمن المقدم فيما تقدم على اتيان الرزق لكونه أنسب بالاذاقة أو لمراعاة المقارنة بينها و بين اتيان الرزق وقد قرئ بتقديم الخوف و بنصبـه أيضا عطفا على المضاف أواقامة له مقام مضاف محذوف وأصله ولباس الخوف ﴿ بمـا كانوا يصنعون ﴾ فيما قبل أو على وجـه الاستمرار وهو الكفران المذكور أسند ذلك الى أهل القرية تحقيقا للامر بعد اسناد الكفران اليها وايقاع الاذاقة عليها ارادة للمبالغة و فى صيغة الصنعة ايذان بأن كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم وسنة مسلوكة ﴿ ولقد جاءهم ﴾ من تتمة المثل جئ بها لبيان أن مافعلوه من كفران النعم لم يكن مزاحمة منهم لقضية العقل فقط بل كان ذلك معارضة لحجة الله على الخلق أيضا أى ولقد جاء أهل تلك القرية ﴿ رسول منهم ﴾ أى من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه فأخبرهم بوجوب الشكر على النعمة وأنذرهم سوء عاقبة مايأتون وما يذرون ﴿ فكذبوه ﴾ فى رسالته أو فيما أخبرهم به ممـا ذكر فالفاء فصيحة

وعدم ذكره للايذان بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تلعثم ﴿فأخذهم العذاب﴾ المستأصل لشأفتهم غب ماذاقوا نبذة من ذلك ﴿وهم ظالمون﴾ أى حال التباسهم بما هم عليه من الظلم الذى هو كفران نعم الله تعالى وتكذيب رسوله غير مقلعين عنه بما ذاقوا من مقدماته الزاجرة عنه وفيه دلالة على تماديهم فى الكفر والعناد وتجاوزهم فى ذلك كل حد معتاد وترتيب العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى حسبما يرشد اليه قوله سبحانه وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا و به يتم التمثيل فان حال أهل مكة سواء ضرب المثل لهم خاصة أولمن سار سيرتهم كافة محاذية لحال أهل تلك القرية حذو القذة بالقذة من غير تفاوت بينهما ولو فى خصلة فذة كيف لا وقد كانوا فى حرم آمن و يتخطف الناس من حولهم ومايمر ببالهم طيف من الخوف وكانت تجبى اليه ثمرات كل شئ ولقد جاءهم رسول منهم وأى رسول يحار فى ادراك سمو رتبته العقول صلى الله عليه وسلم مااختلف الدبور والقبول فكفروا بأنعم الله و كذبوا رسوله عليه السلام فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف حيث أصابهم بدعائه عليه السلام بقوله اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف ماأصابهم من جدب شديد وأزمة حصت كل شئ حتى اضطرتهم الى أكل الجيف والكلاب الميتة والعظام المحرقة والعلهز وهو الوبر المعالج بالدم وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وعيرهم وقوافلهم ثم أخذهم يوم بدر ماأخذهم من العذاب هذا هو الذى يقتضيه المقام و يستدعيه حسن النظام وأما ماأجمع عليه أكثر أهل التفسير من أن الضمير فى قوله تعالى ولقد جاءهم لأهل مكة قد ذكر حالهم صريحا بعد ماذكر مثلهم وأن المراد بالرسول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم و بالعذاب ماأصابهم من الجدب و وقعة بدر فبمعزل من التحقيق كيف لا وقوله سبحانه ﴿فكلوا مما رزقكم الله﴾ مفرع على نتيجة التمثيل وصدلهم عما يؤدى الى مثل عاقبته والمعنى واذ قد استبان لكم حال من كفر بأنعم الله و كذب رسوله وماحل بهم بسبب ذلك من اللتيا والتى أولا و آخرا فانتهوا عما أنتم عليه من كفران النعم وتكذيب الرسول عليه السلام كيلا يحل بكم مثل ماحل بهم واعرفوا حق نعم الله تعالى وأطيعوا رسوله عليه السلام فى أمره ونهيه وكلوا من رزق الله حال كونه ﴿حلالا طيبا﴾ وذروا ماتفترون من تحريم البحائر ونحوها ﴿واشكروا نعمة الله﴾ واعرفوا حقها و لاتقابلوها بالكفران والفاء فى المعنى داخلة على الأمر بالشكر وانما أدخلت على الأمر بالأكل لكون الأكل ذريعة الى الشكر فكأنه قيل فاشكروا نعمة الله غب أكلها حلالا طيبا وقد أدمج فيه النهى عن زعم الحرمة و لاريب فى أن هذا انما يتصور حين كان العذاب المستأصل متوقعا بعد وقد تمهدت مباديه و بعد ماوقع ماوقع فمن ذا الذى يحذر ومن ذا الذى يؤمر بالأكل والشكر وحمل قوله تعالى فأخذهم العذاب وهم ظالمون على الأخبار بذلك قبل الوقوع يأباه التصدى لاستصلاحهم بالأمر والنهى وتوجيه خطاب الأمر بالأكل الى المؤمنين مع أن مايتلوه من خطاب النهى متوجه الى الكفار كما فعله الواحدى حيث قال فكلوا أنتم يامعشر المؤمنين مما رزقكم الله من الغنائم مما لايليق بشأن التنزيل الجليل ﴿ان كنتم اياه تعبدون﴾ أى تطيعون أوان صح زعمكم انكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته تعالى ﴿انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾ تعليل لحل ماأمرهم بأكله مما رزقهم أى انما حرم هذه الأشياء دون ماتزعمون حرمته من البحائر والسوائب ونحوها ﴿فمن اضطر﴾ بما اعتراه من الضرورة فتناول شيئا من ذلك ﴿غير باغ﴾ أى على مضطر آخر ﴿ولا عاد﴾ أى متجاوز قدر الضرورة ﴿فان ربك غفور رحيم﴾ (١) أى لايؤاخذه بذلك فأقيم سببه مقامه وفى التعرض لوصف الربوبية ايماء الى علة الحكم

(١) قوله ﴿فان ربك غفور رحيم﴾ التلاوة فان الله غفور رحيم وحينئذ فلا حاجة لبيان نكتة التعبير بالربوبية المضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام بقوله (وفى التعرض لوصف الربوبية الخ)

و فى الاضافة الى ضميره عليه السلام اظهار لكمال اللطف به عليه السلام وتصدير الجملة بانما لحصر المحرمات فى الاجناس الأربعة الاماضم اليه كالسباع والحمر الاهلية ثم أكد ذلك بالنهى عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال ﴿ و لاتقولوا لما تصف ألسنتكم ﴾ اللام صلة مثلها فى قوله تعالى و لاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات أى لاتقولوا فى شأن ماتصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة فى قولكم مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر فضلا عن استناده الى وحى أوقياس مبنى عليه ﴿ الكذب ﴾ منتصب بلاتقولوا وقوله تعالى ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ بدل منه ويجوز أن يتعلق بتصف على ارادة القول أى لاتقولوا لما تصف ألسنتكم فتقول هذا حلال وهذا حرام وأن يكون القول المقدر حالا من ألسنتهم أى قائلة هذا حلال الخ ويجوز أن ينتصب الكذب بتصف و يتعلق هذا حلال الخ بلا تقولوا واللام للتعليل وما مصدرية أى لاتقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أى لاتحلوا و لا تحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب وتصويرها له بصورة مستحسنة وتزيينها له فى المسامع كان ألسنتهم لكونها منشأ للكذب ومنبعا للزور شخص عالم بكنهه ومحيط بحقيقته يصفه للناس و يعرفه أوضح وصف وأبين تعريف على طريقة الاستعارة بالكناية كما يقال وجهه يصف الجمال وعينه تصف السحر وقرىء بالجر صفة لما مع مدخولها كأنه قيل لوصفها الكذب بمعنى الكاذب كقوله تعالى بدم كذب والمراد بالوصف وصفها البهائم بالحل والحرمة وقرىء الكذب جمع كذوب بالرفع صفة للالسنة و بالنصب على الشتم او بمعنى الكلم الكواذب أوهو جمع الكذاب من قولهم كذب كذابا ذكره ابن جنى ﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾ فان مدار الحل والحرمة ليس الا أمر الله تعالى فالحكم بالحل والحرمة اسناد للتحليل والتحريم الى الله سبحانه من غير أن يكون ذلك منه واللام لام العاقبة ﴿ ان الذين يفترون على الله الكذب ﴾ فى أمر من الأمور ﴿ لايفلحون ﴾ لايفوزون بمطالبهم التى ارتكبوا الافتراء للفوز بها ﴿ متاع قليل ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة ﴿ ولهم ﴾ فى الآخرة ﴿ عذاب أليم ﴾ لايكتنه كنهه ﴿ وعلى الذين هادوا ﴾ خاصة دون غيرهم من الاولين والآخرين ﴿ حرمنا ما قصصنا عليك ﴾ أى بقوله تعالى حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الآية ﴿ من قبل ﴾ متعلق بقصصنا أو بحرمنا وهو تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بابطال مايخالفه من فرية اليهود وتكذيبهم فى ذلك فانهم كانوا يقولون لسنا أول من حرمت عليه وانما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا ﴿ وما ظلمناهم ﴾ بذلك التحريم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ حيث فعلوا ماعوقبوا به عليه حسبما نعى عليهم قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم الآية ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ماحرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين روى أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا التوراة كيف وقد بين فيها أن تحريم ما حرم عليهم من الطيبات لظلمهم و بغيهم عقوبة وتشديدا أوضح بيان وفيه تنبيه على الفرق بينهم و بين غيرهم فى التحريم ﴿ ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ﴾ أى بسبب جهالة أو ملتبسين بها ليعم الجهل بالله و بعقابه وعدم التدبر فى العواقب لغلبة الشهوة والسوء يعم الافتراء على الله تعالى وغيره ﴿ ثم تابوا من بعد ذلك ﴾ أى من بعد ماعملوا ماعملوا والتصريح به مع دلالة ثم عليه للتأكيد والمبالغة ﴿ وأصلحوا ﴾ أى أصلحوا أعمالهم أو دخلوا فى الصلاح ﴿ ان ربك من بعدها ﴾ من بعد التوبة ﴿ لغفور ﴾ لذلك السوء ﴿ رحيم ﴾ يثيب على طاعته تركا وفعلا وتكرير قوله تعالى ان ربك لتأكيد الوعد واظهار كمال العناية بانجازه والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه

السلام مع ظهور الاثر فى التائبين للايماء الى أن افاضة آثار الربوبية من المغفرة والرحمة عليهم بتوسطه عليه السلام
وكونهم من أتباعه كما أشير اليه فيما ﴿ان ابراهيم كان أمة﴾ على حياله لحيازته من الفضائل البشرية مالا تكاد توجد
الامتفرقة فى أمة جمة حسبما قيل ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد
وهو رئيس أهل التوحيد وقدوة أصحاب التحقيق جادل أهل الشرك وألقمهم الحجر ببينات باهرة لاتبقى و لاتذر وأبطل مذاهبهم
الزائغة بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة أو لانه عليه السلام كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار وقيل هى فعلة بمعنى مفعول
كالرحلة والنخبة من أمه اذا قصده أو اقتدى به فان الناس كانوا يقصدونه ويقتدون بسيرته لقوله تعالى انى جاعلك للناس اماما وايراد
ذكره عليه السلام عقيب تزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن فى النبوة وتحريم ما أحله الله تعالى للايذان بان حقية
دين الاسلام و بطلان الشرك وفروعه أمر ثابت لاريب فيه ﴿قانتا لله﴾ مطيعا له قائما بأمره ﴿حنيفا﴾ مائلا عن كل دين
باطل الى الدين الحق غير زائل عنه بحال ﴿ولم يك من المشركين﴾ فى أمر من أمور دينهم أصلا وفرعا صرح بذلك
مع ظهوره لارداعلى كفار قريش فقط فى قولهم نحن على ملة أبينا ابراهيم بل عليهم وعلى اليهود المشركين بقولهم عزير ابن الله
فى افترائهم وادعائهم أنه عليه الصلاة والسلام كان على ماهم عليه كقوله سبحانه ما كان ابراهيم يهوديا و لا نصرانيا
ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين اذبه ينتظم أمر ايراد التحريم والسبت سابقا و لاحقا ﴿شاكرا لأنعمه﴾
صفة ثالثة لامة وانما أوثر صيغة جمع القلة للايذان بأنه عليه السلام كان لايخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة
وللتصريح بكونه عليه السلام على خلاف ما هم عليه من الكفران بانعم الله تعالى حسبما بين ذلك بضرب المثل
﴿اجتباه﴾ للنبوة ﴿وهداه الى صراط مستقيم﴾ موصل اليه سبحانه وهو ملة الاسلام وليست نتيجة هذه الهداية
مجرد اهتدائه عليه السلام بل مع ارشاد الخلق أيضا بمعونة قرينة الاجتباء ﴿وآتيناه فى الدنيا حسنة﴾ حالة حسنة من
الذكر الجميل والثناء فيما بين الناس قاطبة حتى انه ليس من أهل دين الاوهم يتولونه وقيل هى الخلة والنبوة وقيل قول
المصلى منا كما صليت على ابراهيم والالتفات الى التكلم لاظهار كمال الاعتناء بشأنه وتفخيم مكانه عليه الصلاة والسلام
﴿وانه فى الآخرة لمن الصالحين﴾ أصحاب الدرجات العالية فى الجنة حسبما سأله بقوله وألحقنى بالصالحين واجعل لى
لسان صدق فى الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم ﴿ثم أوحينا اليك﴾ مع علو طبقتك وسمو رتبتك ﴿أن اتبع
ملة ابراهيم﴾ الملة اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الانبياء عليهم السلام من أمللت الكتاب اذا أمليته وهو
الدين بعينه لكن باعتبار الطاعة له وتحقيقه أن الوضع الالهى مهما نسب الى من يؤديه عن الله تعالى يسمى ملة ومهما
نسب الى من يقيمه و يعمل به يسمى دينا قال الراغب الفرق بينهما أن الملة لاتضاف الا الى النبى عليه السلام و لاتكاد
توجد مضافة الى الله سبحانه و لا الى آحاد الامة و لاتستعمل الافى جملة الشرائع دون آحادها والمراد بملته عليه السلام
الاسلام الذى عبر عنه آنفا بالصراط المستقيم ﴿حنيفا﴾ حال من المضاف اليه لما أن المضاف لشدة اتصاله به عليه
السلام جرى منه مجرى البعض فعد بذلك من قبيل رأيت وجه هند قائمة والمأمور به الاتباع فى الاصول دون الشرائع
المتبدلة بتبدل الاعصار وما فى ثم من التراخى فى الرتبة للايذان بأن هذه النعمة من أجل النعم الفائضة عليه عليه السلام
﴿وما كان من المشركين﴾ تكرير لما سبق لزيادة تأكيد وتقرير لنزاهته عليه السلام عما هم عليه من عقد وعمل
وقوله تعالى ﴿انما جعل السبت﴾ أى فرض تعظيمه والتخلى فيه للعبادة وترك الصيد فيه تحقيق لذلك النفى الكلى
وتوضيح له بابطال ما عسى يتوهم كونه قادحا فى كليته حسبما سلف فى قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا الخ فان
اليهود كانوا يدعون أن السبت من شعائر الاسلام وأن ابراهيم عليه السلام كان محافظا عليه أى ليس السبت من

شرائع ابراهيم وشعائر ملته التى أمرت باتباعها حتى يكون بينه عليه الصلاة والسلام و بين بعض المشركين علاقة فى الجملة وانما شرع ذلك لبنى اسرائيل بعد مدة طويلة وايراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء وايذان بعدم الحاجة الى التصريح بالفاعل لاستحالة الاسناد الى الغير وقد قرىء على البناء للفاعل وانما عبر عن ذلك بالجعل موصولا بكلمة على وعنهم بالاسم الموصول باختلافهم فقيل انما جعل السبت ﴿على الذين اختلفوا فيه﴾ للايذان بتضمنه للتشديد والابتلاء المؤدى الى العذاب وبكونه معللا باختلافهم فى شأنه قبل الوقوع ايثارا له على ما أمر الله تعالى به واختيارا للعكس لكن لا باعتبار شمول العلية لطرفى الاختلاف وعموم الغائلة للفريقين بل باعتبار حال منشأ الاختلاف من الطرف المخالف للحق وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام أمر اليهود أن يجعلوا فى الاسبوع يوما واحدا للعبادة وأن يكون ذلك يوم الجمعة فأبوا عليه وقالوا نريد اليوم الذى فرغ الله تعالى فيه من خلق السموات والارض وهو السبت الا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فأذن الله تعالى لهم فى السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه فأطاع أمر الله تعالى الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله سبحانه قردة دون أولئك المطيعين ﴿وان ربك ليحكم بينهم﴾ أى بين الفريقين المختلفين فيه ﴿يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أى يفصل ما بينهما من الخصومة والاختلاف فيجازى كل فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب وفيه ايماء الى أن ما وقع فى الدنيا من مسخ أحد الفريقين وانجاء الآخر بالنسبة الى ما سيقع فى الآخرة شئ لا يعتد به هذا هو الذى يستدعيه الاعجاز التنزيلى وقيل المعنى انما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه أى أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى وكان حتما عليهم أن يتفقوا على تحريمه حسبما أمر الله سبحانه به وفسر الحكم بينهم بالمجازاة باختلاف أفعالهم بالاحلال تارة والتحريم أخرى ووجه ايراده ههنا بانه أريد به انذار المشركين من سخط الله تعالى على العصاة والمخالفين لاوامره كضرب المثل بالقرية التى كفرت بأنعم الله تعالى ولا ريب فى أن كلمة بينهم تحكم بأن المراد بالحكم هو فصل ما بين الفريقين من الاختلاف وأن توسيط حديث المسخ للانذار المذكور بين حكاية أمر النبى صلى الله عليه وسلم باتباع ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام وبين أمره صلى الله عليه وسلم بالدعوة اليها من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه فتأمل ﴿ادع﴾ أى من بعثت اليهم من الامة قاطبة فحذف المفعول للتعميم أوافعل الدعوة كما فى قولهم يعطى ويمنع أى يفعل الاعطاء والمنع فحذفه للقصد الى ايجاد نفس الفعل اشعارا بأن عموم الدعوة غنى عن البيان وانما المقصود الامر بايجادها على وجه مخصوص ﴿الى سبيل ربك﴾ الى الاسلام الذى عبر عنه تارة بالصراط المستقيم وأخرى بملة ابراهيم عليه السلام وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية وتبليغ الشئ الى كماله اللائق شيئا فشيئا مع اضافة الرب الى ضمير النبى عليه الصلاة والسلام فى مقام الامر بدعوة الأمة على الوجه الحكيم وتكميلهم باحكام الشريعة الشريفة من الدلالة على اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والايماء الى وجه بناء الحكم ما لا يخفى ﴿بالحكمة﴾ أى بالمقالة المحكمة الصحيحة وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة ﴿والموعظة الحسنة﴾ أى الخطابيات المقنعة والعبر النافعة على وجه لا يخفى عليهم أنك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم فالاولى لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق والثانية لدعوة عوامهم ويجوز أن يكون المراد بهما القرآن المجيد فانه جامع لكلا الوصفين ﴿وجادلهم﴾ أى ناظر معانديهم ﴿بالتى هى أحسن﴾ بالطريقة التى هى أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين واختيار الوجه الايسر واستعمال المقدمات المشهورة تسكينا لشغبهم واطفاء للهيبهم كما فعله الخليل عليه السلام ﴿ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ الذى أمرك بدعوة الخلق اليه وأعرض عن قبول الحق بعد ما عاين ما عاين من الحكم والمواعظ والعبر ﴿وهو أعلم

بالمهتدين﴾ اليه بذلك وهو تعليل لما ذكر من الامرين والمعنى والله تعالى أعلم اسلك فى الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة فانه تعالى هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال بموجب استعداده المكتسب و بحال من يصير أمره الى الاهتداء لما فيه من خير جبلى فما شرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة فانه كاف فى هداية المهتدين وازالة عذر الضالين أوماعليك الاما ذكر من الدعوة والمجادلة بالاحسن وأما حصول الهداية أو الضلال والمجازاة عليهما فالى الله سبحانه اذ هو أعلم بمن يبقى على الضلال و بمن يهتدى اليه فيجازى كلا منهما بما يستحقه وتقديم الضالين لما أن مساق الكلام لهم وايراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث لما أنه تغيير لفطرة الله التى فطر الناس عليها واعراض عن الدعوة وذلك أمر عارض بخلاف الاهتداء الذى هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة و لذلك جئ به على صيغة الاسم المنبئ عن الثبات و تكرير هو أعلم للتأكيد والاشعار بتباين حال المعلومين ومآلهما من العقاب والثواب و بعد ما أمره عليه الصلاة والسلام فيما يختص به من شأن الدعوة بما أمره به من الوجه اللائق عقبه بخطاب شامل له ولمن شايعه فيما يعم الكل فقال ﴿وان عاقبتم﴾ أى ان أردتم المعاقبة على طريقة قول الطبيب للمحتمى ان أكلت فكل قليلا ﴿فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به﴾ أى بمثل ما فعل بكم وقد عبر عنه بالعقاب على طريقة اطلاق اسم المسبب على السبب نحو كما تدين تدان أو على نهج المشاكلة والمقصود ايجاب مراعاة العدل مع من يناصبهم من غير تجاوز حين ما آل الجدال الى القتال وأدى النزاع الى القراع فان الدعوة المأمور بها لاتكاد تنفك عن ذلك كيف لاوهى موجبة لصرف الوجوه عن القبل المعبودة وادخال الاعناق فى قلادة غير معهودة قاضية عليهم بفساد ما يأتون وما يذرون و بطلان دين استمرت عليه آباؤهم الاولون وقدضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وسدت عليهم طرق المحاجة والمناظرة وأرتجت دونهم أبواب المباحثة والمحاورة وقيل انه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزة رضى الله عنه يوم أحد قد مثل به قال لئن أظفرنى الله بهم لامثلن بسبعين مكانك فنزلت فكفر عن يمينه و كف عما أراده وقرئ وان عقبتم فعقبوا أى وان قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم غير متجاوزين عنه والامر وان دل على اباحة المماثلة فى المثلة من غير تجاوز لكن فى تقييده بقوله وان عاقبتم حث على العفو تعريضا وقد صرح به على الوجه الآكد فقيل ﴿ولئن صبرتم﴾ أى عن المعاقبة بالمثل ﴿لهو﴾ أى لصبركم ذلك ﴿خير﴾ لكم من الانتصار بالمعاقبة وانما قيل ﴿للصابرين﴾ مدحا لهم وثناء عليهم بالصبر أو وصفا لهم بصفة تحصل لهم عند ترك المعاقبة ويجوز عود الضمير الى مطلق الصبر المدلول عليه بالفعل فيدخل فيه صبرهم كدخول أنفسهم فى جنس الصابرين دخولا أوليا ثم أمر عليه الصلاة والسلام صريحا بما ندب اليه غيره تعريضا من الصبر لأنه أولى الناس بعزائم الأمور لزيادة علمه بشؤنه سبحانه و وفور وثوقه به فقيل ﴿واصبر﴾ أى على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والأذية وعاينت من اعراضهم عن الحق بالكلية ﴿وما صبرك الا بالله﴾ استثناء مفرغ من أعم الاشياء أى وما صبرك ملابسا ومصحوبا بشئ من الاشياء الا بالله أى بذكره والاستغراق فى مراقبة شؤنه والتبتل اليه بمجامع الهمة وفيه من تسليته عليه الصلاة والسلام وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه مالا مزيد عليه أوالا بمشيئته المبنية على حكم بالغة مستتبعة لعواقب حميدة فالتسلية من حيث اشتماله على غايات جميلة وقيل الا بتوفيقه ومعونته فهى من حيث تسهيله وتيسيره فقط ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أى على الكافرين بوقوع اليأس من ايمانهم بك ومتابعتهم لك نحو فلا تأس على القوم الكافرين وقيل على المؤمنين وما فعل بهم والاول هو الانسب بجزالة النظم الكريم ﴿ولاتك فى ضيق﴾ بالفتح وقرئ بالكسر وهما لغتان كالقول والقيل أى لاتكن فى ضيق صدر وحرج ويجوز أن يكون الاول تخفيف ضيق كهين من هين أى فى

أمر ضيق ﴿مما يمكرون﴾ أى من مكرهم بك فيما يستقبل فالاول نهى عن التألم بمطلوب من قبلهم فات والثانى عن التألم بمحذور من جهتهم آت والنهى عنهما مع أن انتفاءهما من لوازم الصبر المأمور به لاسيما على الوجه الاول لزيادة التأكيد واظهار كمال العناية بشأن التسلية والافهل يخطر ببال من توجه الى الله سبحانه بشراشر نفسه متنزها عن كل ماسواه من الشواغل شيء من مطلوب فينهى عن الحزن بفواته أو محذور فكيف عن الخوف من وقوعه ﴿ان الله مع الذين اتقوا﴾ تعليل لما سبق من الأمر والنهى والمراد بالمعية الولاية الدائمة التى لا تحوم حول صاحبها شائبة شيء من الجزع والحزن وضيق الصدر وما يشعر به دخول كلمة مع من متبوعية المتقين انما هى من حيث انهم المباشرون للتقوى وكذا الحال فى قوله سبحانه ان الله مع الصابرين ونظائرهما كافة والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منه الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقى عن الشرك ومرتبة التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك أعنى التنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق والتبتل اليه بشراشر نفسه وهو التقوى الحقيقى المورث لولايته تعالى المقرونة ببشارة قوله سبحانه ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون والمعنى ان الله ولى الذين تبتلوا اليه بالكلية وتنزهوا عن كل ما يشغل سرهم عنه فلم يخطر ببالهم شيء من مطلوب أو محذور فضلا عن الحزن بفواته أو الخوف من وقوعه وهو المعنى بما به الصبر المأمور به حسبما أشير اليه وبه يحصل التقريب ويتم التعليل كما فى قوله تعالى فاصبر ان العاقبة للمتقين على أحد التفسيرين كما حقق فى مقامه والا فمجرد التوقى عن المعاصى لايكون مدارا لشيء من العزائم المرخص فى تركها فكيف بالصبر المشار اليه ورديفيه وانما مداره المعنى المذكور فكأنه قيل ان الله مع الذين صبروا وانما أوثر ما عليه النظم الكريم مبالغة فى الحث على الصبر بالتنبيه على أنه من خصائص أجل النعوت الجليلة وروادفه كما أن قوله تعالى ﴿والذين هم محسنون﴾ للاشعار بأنه من باب الاحسان الذى يتنافس فيه المتنافسون على ما فصل ذلك حيث قيل واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين وقد نبه على أن كلا من الصبر والتقوى من قبيل الاحسان فى قوله تعالى انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين وحقيقة الاحسان الاتيان بالاعمال على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وتكرير الموصول للايذان بكفاية كل من الصلتين فى ولايته سبحانه من غير أن تكون احداهما تتمة للاخرى وايراد الاولى فعلية للدلالة على الحدوث كما أن ايراد الثانية اسمية لافادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم وتقديم التقوى على الاحسان لما أن التخلية متقدمة على التحلية والمراد بالموصولين اما جنس المتقين والمحسنين وهو عليه الصلاة والسلام داخل فى زمرتهم دخولا أوليا واما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه عبر عنهم بذلك مدحا لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين وفيه رمز الى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاقتداء الامة به كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما عند التعزية

اصبر نكن بك صابرين فانما صبر الرعية عند صبر الراس

عن هرم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار أوص قال انما الوصية من المال وأوصيكم بخواتيم سورة النحل . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما أنعم عليه فى دار الدنيا وان مات فى يوم تلاها أو ليلته كان له من الاجر كالذى مات وأحسن الوصية والحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله أجمعين

سورة بنى اسرائيل

(مائة واحدى عشرة آية . مكية الا آيات فى آخرها)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿سبحان الذى أسرى بعبده﴾ سبحان علم للتسبيح كعثمان للرجل وحيث كان المسمى معنى لاعينا وجنسا لا شخصا لم تكن اضافته من قبيل ما فى زيد المعارك أو حاتم طىء وانتصابه بفعل متروك الاظهار تقديره اسبح الله سبحان الخ وفيه مالايخفى من الدلالة على التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والابعاد فى الارض ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول من المصدر الى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما وهو علم يشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة قيامه مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران بمعنى التنزه ففيه مبالغة من حيث اضافة التنزه الى ذاته المقدسة ومناسبة تامة بين المحذوف و بين ماعطف عليه فى قوله تعالى سبحانه وتعالى كأنه قيل تنزه بذاته وتعالى والاسراء السير بالليل خاصة كالسرى وقوله تعالى ﴿ليلا﴾ لافادة قلة زمان الاسراء لما فيه من التنكير الدال على البعضية من حيث الاجزاء دلالته على البعضية من حيث الافراد فان قولك سرت ليلا كما يفيد بعضية زمان سيرك من الليالى يفيد بعضيته من فرد واحد منها بخلاف ما اذا قلت سرت الليل فانه يفيد استيعاب السير لهجميعا فيكون معيارا للسير لاظرفا له و يؤيده قراءة من الليل أى بعضه وايثار لفظ العبد للايذان بتمحضه عليه الصلاة والسلام فى عبادته سبحانه و بلوغه فى ذلك غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية حسبما يلوح به مبدأ الاسراء ومنتهاه واضافة التنزيه او التنزه الى الموصول المذكور للاشعار بعلية ما فى حيز الصلة للمضاف فان ذلك من أدلة كمال قدرته و بالغ حكمته ونهاية تنزهه عن صفات المخلوقين ﴿من المسجد الحرام﴾ اختلف فى مبدأ الاسراء فقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر فانه روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتانى جبريل عليه الصلاة والسلام بالبراق وقيل هو دار أم هانىء بنت أبى طالب والمراد بالمسجد الحرام الحرم لاحاطته بالمسجد والتباسه به أو لأن الحرم كله مسجد فانه روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه عليه الصلاة والسلام كان نائما فى بيت أم هانىء بعد صلاة العشاء فكان ما كان فقصه عليها فلما قام ليخرج الى المسجد تشبثت بثوبه عليه الصلاة والسلام لتمنعه خشية أن يكذبه القوم قال عليه الصلاة والسلام وان كذبونى فلما خرج جلس اليه أبو جهل فأخبره صلى الله عليه وسلم بحديث الاسراء فقال أبو جهل يامعشر كعب بن لؤى بن غالب هلم فحدثهم فمن مصفق و واضع يده على رأسه تعجبا وانكارا وارتد ناس ممن كان آمن به وسعى رجال الى أبى بكر فقال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا أتصدقه على ذلك قال انى اصدقه على أبعد من ذلك فسمى الصديق و كان فيهم من يعرف بيت المقدس فاستنعتوه المسجد فجلى له بيت المقدس فطفق ينظر اليه و ينعته لهم فقالوا أما النعت فقد أصابه فقالوا أخبرنا عن عيرنا فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد أشرقت فقال آخر هذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا قاتلهم الله أنى يؤفكون . واختلف فى وقته أيضا فقيل كان قبل الهجرة بسنة وعن أنس والحسن أنه كان قبل البعثة واختلف أيضا أنه فى اليقظة أو فى المنام فعن الحسن أنه كان فى المنام وأكثر الاقاويل بخلافه والحق أنه كان فى المنام قبل البعثة و فى اليقظة بعدها واختلف أيضا أنه كان جسمانيا أو روحانيا فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت

مافقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه وعن معاوية أنه قال انما عرج بروحه والحق انه كان جسمانيا على ماينبىء عنه التصدير بالتنزيه ومافى ضمنه من التعجب فان الروحانى ليس فى الاستبعاد والاستنكار وخرق العادة بهذه المثابة و لذلك تعجبت منه قريش وأحالوه و لا استحالة فيه فانه قد ثبت فى الهندسة أن قطر الشمس ضعف قطر الارض مائة ونيفا وستين مرة ثم ان طرفها الاسفل يصل الى موضع طرفها الأعلى بحركة الفلك الأعظم مع معاوقة حركة فلكها فى أقل من ثانية وقد تقرر أن الاجسام متساوية فى قبول الاعراض التى من جملتها الحركة وأن الله سبحانه قادر على كل مايحيط به حيطة الامكان فيقدر على أن يخلق مثل تلك الحركة بل أسرع منها فى جسد النبى صلى الله عليه وسلم أو فيما يحمله و لو لم يكن مستبعدا لم يكن معجزة ﴿الى المسجد الأقصى﴾ أى بيت المقدس سمى به اذلم يكن حينئذ وراءه مسجد و فى ذلك من تربية معنى التنزيه والتعجب مالايخفى ﴿الذى باركنا حوله﴾ ببركات الدين والدنيا لأنه مهبط الوحى ومتعبد الانبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿لنريه﴾ غاية للاسراء ﴿من آياتنا﴾ العظيمة التى من جملتها ذهابه فى برهة من الليل مسيرة شهر ولا يقدح فى ذلك كونه قبل الوصول الى المقصد ومشاهدة بيت المقدس وتمثل الانبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية عليهم الصلاة والسلام والالتفات الى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات وقرىء ليريه بالياء ﴿انه هو السميع﴾ لاقواله عليه الصلاة والسلام بلا أذن ﴿البصير﴾ بأفعاله بلا بصر حسبما يؤذن به القصر فيكرمه و يقربه بحسب ذلك وفيه ايماء الى أن الاسراء المذكور ليس الا لتكرمته عليه الصلاة والسلام و رفع منزلته والا فالاحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة من غير حاجة الى التقريب والالتفات الى الغيبة لتربية المهابة ﴿وآتينا موسى الكتاب﴾ أى التوراة وفيه ايماء الى دعوته عليه الصلاة والسلام الى الطور وماوقع فيه من المناجاة جمعا بين الأمرين المتحدين فى المعنى ولم يذكر ههنا العروج بالنبى عليه السلام الى السماء وما كان فيه مما لايكتنه كنهه حسبما نطقت به سورة النجم تقريبا للاسراء الى قبول السامعين أى آتيناه التوراة بعد ماأسرينا به الى الطور ﴿وجعلناه﴾ أى ذلك الكتاب ﴿هدى لبنى اسرائيل﴾ يهتدون بما فى مطاويه ﴿أن لاتتخذوا﴾ أى لاتتخذوا نحو كتبت اليه أن افعل كذا وقرىء بالياء على أن أن مصدرية والمعنى آتينا موسى الكتاب لهداية بنى اسرائيل لئلا يتخذوا ﴿من دونى وكيلا﴾ أى ربا تكلون اليه أموركم والافراد لما أن فعيلا مفرد فى اللفظ جمع فى المعنى ﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾ نصب على الاختصاص أو النداء على قراءة النهى والمراد تأكيد الحمل على التوحيد بتذكير انعامه تعالى عليهم فى ضمن انجاء آبائهم من الغرق فى سفينة نوح عليه السلام أو على أنه أحد مفعولى لا يتخذوا على قراءة النفى ومن دونى حال من وكيلا فيكون كقوله تعالى و لا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أو بدل من واو لاتتخذوا بابدال الظاهر من ضمير المخاطب كما هو مذهب بعض البغاددة وقرىء ذرية بكسر الذال ﴿انه﴾ أى ان نوحا عليه الصلاة والسلام ﴿كان عبدا شكورا﴾ كثير الشكر فى مجامع حالاته وفيه ايذان بأن انجاء من معه كان ببركة شكره عليه الصلاة والسلام وحث للذرية على الاقتداء به و زجر لهم عن الشرك الذى هو أعظم مراتب الكفران وقيل الضمير لموسى عليه السلام ﴿وقضينا﴾ أى أتممنا وأحكمنا منزلين ﴿الى بنى اسرائيل﴾ أوموحين اليهم ﴿فى الكتاب﴾ أى فى التوراة فان الانزال والوحى الى موسى عليه السلام انزال و وحى اليهم ﴿لتفسدن فى الارض﴾ جواب قسم محذوف و يجوز اجراء القضاء المحتوم مجرى القسم كأنه قيل وأقسمنا لتفسدن ﴿مرتين﴾ مصدر والعامل فيه من غير جنسه أو لاهما مخالفة حكم التوراة وقتل شعياء عليه الصلاة والسلام وحبس أرمياء حين أنذرهم سخط الله تعالى والثانية قتل زكريا و يحيى وقصد قتل عيسى عليهم الصلاة والسلام ﴿ولتعلن علوا كبيرا﴾

لتستكبرن عن طاعة الله سبحانه أو لتغابن الناس بالظلم والعدوان وتفرطن فى ذلك افراطا مجاوزا للحدود ﴿فاذا جاء وعد أولاهما﴾ أى أولى كرتى الافساد أى حان وقت حلول العقاب الموعود ﴿بعثنا عليكم﴾ لمؤاخذتكم بجناياتكم ﴿عبادا لنا﴾ وقرئ عبيدا لنا ﴿أولى بأس شديد﴾ ذوى قوة و بطش فى الحروب هم سنجاريب من أهل نينوى وجنوده وقيل بخت نصر عامل لهراسب وقيل جالوت ﴿فجاسوا﴾ أى ترددوا لطلبكم بالفساد وقرئ بالحاء والمعنى واحد وقرئ وجوسوا ﴿خلال الديار﴾ فى أوساطها للقتل والغارة وقرئ خلل الديار فقتلوا علماءهم وكبارهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفا وذلك من قبيل تولية بعض الظالمين بعضا مما جرت به السنة الالهية ﴿وكان﴾ ذلك ﴿وعدا مفعولا﴾ لامحالة بحيث لاصارف عنه و لامبدل ﴿ثم رددنا لكم الكرة﴾ أى الدولة والغلبة ﴿عليهم﴾ على الذين فعلوا بكم مافعلوا بعد مائة سنة حين تبتم و رجعتم عما كنتم عليه من الافساد والعلو قيل هى قتل بخت نصر واستنقاذ بنى اسرائيل أساراهم وأموالهم و رجوع الملك اليهم وذلك أنه لما و رث بهمن بن اسفنديار الملك من جده كشتاسف بن لهراسب ألقى الله تعالى فى قلبه الشفقة عليهم فرد أساراهم الى الشام وملك عليهم دانيال عليه السلام فاستولوا على من كان فيها من أتباع بخت نصر وقيل هى قتل داود عليه السلام لجالوت ﴿وأمددناكم بأموال﴾ كثيرة بعدما نهبت أموالكم ﴿وبنين﴾ بعدما سبيت أولادكم ﴿وجعلناكم أكثر نفيرا﴾ مما كنتم من قبل أو من عدوكم والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر وهم القوم المجتمعون للذهاب الى العدو كالعبيد والمعين ﴿ان أحسنتم﴾ أعمالكم سواء كانت لازمة لانفسكم أو متعدية الى الغير أى عملتموها على الوجه اللائق و لا يتصور ذلك الا بعد أن تكون الاعمال حسنة فى أنفسها او ان فعلتم الاحسان ﴿أحسنتم لأنفسكم﴾ لان ثوابها لها ﴿وان أسأتم﴾ أعمالكم بأن عملتموها لاعلى الوجه اللائق و يلزمه السوء الذاتى أو فعلتم الاساءة ﴿فلها﴾ اذ عليها و بالها وعن على كرم الله وجهه ماأحسنت الى أحد و لا أسأت اليه وتلاها ﴿فاذا جاء وعد الآخرة﴾ حان وقت ماوعد من عقوبة المرة الآخرة ﴿ليسوءوا وجوهكم﴾ متعلق بفعل حذف لدلالة ماسبق عليه أى بعثناهم ليسوءوا ومعنى ليسوءوا وجوهكم ليجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية فى وجوهكم كقوله تعالى سيئت وجوه الذين كفروا وقرئ ليسوء على أن الضمير لله تعالى أو للوعد أو للبعث ولنسوء بنون العظمة و فى قراءة على رضى الله عنه لنسوأن على أنه جواب اذا وقرئ لنسوأن بالنون الخفيفة وليسوأن واللام فى قوله عز وجل ﴿وليدخلوا المسجد﴾ عطف على ليسوءوا متعلق بما تعلق هو به ﴿كما دخلوه أول مرة﴾ أى فى أول مرة ﴿وليتبروا﴾ أى يهلكوا ﴿ماعلوا﴾ ماغلبوه واستولوا عليه أو مدة علوهم ﴿تتبيرا﴾ فظيعا لا يوصف بأن سلط الله عز سلطانه عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه جودرد وقيل جردوس وقيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دما يغلى فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال لم تصدقونى فقتل على ذلك ألوفا فلم يهدأ الدم ثم قال ان لم تصدقونى ماتركت منكم أحدا فقالوا انه دم يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام فقال لمثل هذا ينتقم منكم ربكم ثم قال يايحيى قد علم ربى و ربك ماأصاب قومك من أجلك فاهدأ باذن الله تعالى قبل أن لاأبقى منهم أحدا فهدأ ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ بعد المرة الآخرة ان تبتم توبة أخرى وانزجرتم عما كنتم عليه من المعاصى ﴿وان عدتم﴾ الى ما كنتم فيه من الفساد مرة أخرى ﴿عدنا﴾ الى عقوبتكم ولقد عادوا فأعاد الله سبحانه عليهم النقمة بأن سلط عليهم الاكاسرة ففعلوا بهم مافعلوا من ضرب الاتاوة ونحو ذلك وعن الحسن عادوا فبعث الله تعالى محمدا عليه الصلاة والسلام فهم يعطون الجزية عن يد و هم صاغرون وعن قتادة مثله ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا﴾ أى محبسا لا يستطيعون الخروج منها أبد الآبدين وقيل بساطا

كما يبسط الحصير وانما عدل عن أن يقال وجعلنا جهنم لكم تسجيلا على كفرهم بالعود وذما لهم بذلك واشعارا بعلة الحكم ﴿ان هذا القرآن﴾ الذى آتيناكه ﴿يهدى﴾ أى الناس كافة لافرقة مخصوصة منهم كدأب الكتاب الذى آتيناه موسى ﴿للتى﴾ للطريقة التى ﴿هى أقوم﴾ أى أقوم الطرائق وأسدها أعنى ملة الاسلام والتوحيد وترك ذكرها ليس لقصد التعميم لها وللحالة والخصلة ونحوها مما يعبر به عن المقصد المذكور بل للايذان بالغنى عن التصريح بها لغاية ظهورها لاسيما بعد ذكر الهداية التى هى من روادفها والمراد بهدايته لها كونه بحيث يهتدى اليها من يتمسك به لاتحصيل الاهتداء بالفعل فانه مخصوص بالمؤمنين حينئذ ﴿ويبشر المؤمنين﴾ بما فى تضاعيفه من الاحكام والشرائع وقرئ بالتخفيف ﴿الذين يعملون الصالحات﴾ التى شرحت فيه ﴿ان لهم﴾ أى بأن لهم بمقابلة تلك الأعمال ﴿أجرا كبيرا﴾ بحسب الذات وبحسب التضعيف عشر مرات فصاعدا ﴿وان الذين لايؤمنون بالآخرة﴾ وأحكامها المشروحة فيه من البعث والحساب والجزاء وتخصيصها بالذكر من بين سائر ما كفروا به لكونها معظم ما أمروا بالايمان به ولمراعاة التناسب بين أعمالهم وجزائها الذى أنبأ عنه قوله عزوجل ﴿أعتدنا لهم عذابا أليما﴾ وهو عذاب جهنم أى أعتدنا لهم فيما كفروا به وأنكروا وجوده من الآخرة عذابا أليما وهو أبلغ فى الزجر لما أن اتيان العذاب من حيث لا يحتسب افظع وأفجع والجملة معطوفة على جملة يبشر باضمار يخبر أو على قوله تعالى أن لهم داخلة معه تحت التبشير المراد به مجازا مطلق الاخبار المنتظم للاخبار بالخبر السار وبالنبا الضار حقيقة فيكون ذلك بيانا لهداية القرآن بالترغيب والترهيب ويجوز كون التبشير بمعناه والمراد تبشير المؤمنين ببشارتين ثوابهم وعقاب أعدائهم وقوله تعالى ﴿ويدع الانسان بالشر﴾ بيان لحال المهدى اثر بيان حال الهادى واظهار لما بينهما من التباين والمراد بالانسان الجنس أسند اليه حال بعض أفراده أوحكى عنه حاله فى بعض أحيانه فالمعنى على الاول أن القرآن يدعو الانسان الى الخير الذى لاخير فوقه من الاجر الكبير ويحذره من الشر الذى لاشر وراءه من العذاب الاليم وهو أى بعض منه وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور اما بلسانه حقيقة كدأب من قال منهم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ومن قال فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين الى غير ذلك مما حكى عنهم واما بأعمالهم السيئة المفضية اليه الموجبة له مجازا كما هو ديدن كلهم ﴿دعاءه بالخير﴾ أى مثل دعائه بالخير المذكور فرضا لاتحقيقا فانه بمعزل من الدعاء به وفيه رمز الى أنه اللائق بحاله ﴿وكان الانسان﴾ أى من أسند اليه الدعاء المذكور من أفراده ﴿عجولا﴾ يسارع الى طلب ما يخطر بباله متعاميا عن ضرره أومبالغا فى العجلة يستعجل العذاب وهو آتيه لامحالة ففيه نوع تهكم به وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم تحمل العجولية على اللج والتمادى فى استيجاب العذاب بتلك الاعمال وعلى الثانى ان القرآن يدعو الانسان الى ماهو خير وهو فى بعض أحيانه كما عند الغضب يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر وكان الانسان بحسب جبلته عجولا ضجرا لايتأنى الى أن يزول عنه ما يعتريه روى أنه عليه الصلاة والسلام دفع الى سودة أسيرا فأرخت كتافه رحمة لأنينه بالليل من ألم القيد فهرب فلما أخبر به النبى عليه الصلاة والسلام قال اللهم اقطع يديها فرفعت سودة يديها تتوقع الاجابة فقال عليه السلام انى سألت الله تعالى أن يجعل دعائى على من لايستحق من أهلى عذابا رحمة أو يدعو بما هو شر وهو يحسبه خيرا وكان الانسان عجولا غير متبصر لايتدبر فى أموره حق التدبر ليتحقق ما هو خير حقيق بالدعاء به وما هو شر جدير بالاستعاذة منه ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ شروع فى بيان بعض وجوه ماذكر من الهداية بالارشاد الى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية التى كل واحدة منها برهان نير لا ريب فيه ومنهاج بين لايضل من ينتحيه فان

الجعل المذكور وماعطف عليه من محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة وان كانت من الهدايات التكوينية لكن الاخبار بذلك من الهدايات القرآنية المنبهة على تلك الهدايات وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودى اذ منه ينسلخ النهار وفيه تظهر غرر الشهور ولو أن الليلة أضيفت الى ماقبلها من النهار لكانت من شهر وصاحبها من شهر آخر ولترتيب غاية آية النهار عليها بلا واسطة أى جعلنا الملوين بهيا آتهما وتعاقبهما واختلافهما فى الطول والقصر على وتيرة عجيبة يحار فى فهمها العقول آيتين تدلان على أن لهما صانعا حكيما قادرا عليما وتهديان الى ماهدى اليه القرآن الكريم من ملة الاسلام والتوحيد ﴿فمحونا آية الليل﴾ الاضافة اما بيانية كما فى اضافة العدد الى المعدود أى محونا الآية التى هى الليل وفائدتها تحقيق مضمون الجملة السابقة ومحوها جعلها ممحوة الضوء مطموسته لكن لابعد أن لم يكن كذلك بل ابداعها على ذلك كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أى أنشأهما كذلك والفاء تفسيرية لان المحو المذكور وماعطف عليه ليسا مما يحصل عقيب جعل الجديدين آيتين بل هما من جملة ذلك الجعل ومتماته ﴿وجعلنا آية النهار﴾ أى الآية التى هى النهار على نحو مامر ﴿مبصرة﴾ أى مضيئة يبصر فيها الاشياء وصفا لها بحال أهلها أو مبصرة للناس من أبصره فبصره واماحقيقية وآية الليل والنهار نيراهما ومحو القمر اما خلقه مطموس النور فى نفسه فالفاء كما ذكر واما نقص ما استفاده من الشمس شيئاً فشيئاً الى المحاق على ما هو معنى المحو والفاء للتعقيب وجعل الشمس مبصرة ابداعها مضيئة بالذات ذات أشعة تظهر بها الاشياء المظلمة ﴿لتبتغوا﴾ متعلق بقوله تعالى وجعلنا آية النهار كما أشير اليه أى وجعلناها مضيئة لتطلبوا لانفسكم فى بياض النهار ﴿فضلا من ربكم﴾ أى رزقا اذ لا يتسنى ذلك فى الليل وفى التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال شيئاً فشيئاً دلالة على أن ليس للعبد فى تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب وانما الاعطاء الى الله سبحانه لابطريق الوجوب عليه بل تفضلا بحكم الربوبية ﴿ولتعلموا﴾ متعلق بكلا الفعلين أعنى محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة لا بأحدهما فقط اذ لا يكون ذلك بانفراده مدارا للعلم المذكور أى لتعلموا بتفاوت الجديدين أو نيريهما ذاتا من حيث الاظلام والاضاءة مع تعاقبهما أو حركاتهما وأوضاعهما وسائر أحوالهما ﴿عدد السنين﴾ التى يتعلق بها غرض علمى لاقامة مصالحكم الدينية الدنيوية ﴿والحساب﴾ أى الحساب المتعلق بما فى ضمنها من الاوقات أى الاشهر والليالى والايام وغير ذلك مما نيط به شئ من المصالح المذكورة ونفس السنة من حيث تحققها مما ينتظمه الحساب وانما الذى تعلق به العد طائفة منها وتعلقه فى ضمن ذلك بكل واحدة منها ليس من الحيثية المذكورة أعنى حيثية تحققها وتحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد حصل كل منها بطائفة من الساعات مثلا فان ذلك وظيفة الحساب بل من حيث أنها فرد من تلك الطائفة المعدودة يعدها أى يفنيها من غير أن يعتبر فى ذلك تحصل شئ معين وتحقيقه مامر فى سورة يونس من أن الحساب احصاء ماله كمية منفصلة بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص وحكم مستقل كما أشير اليه آنفا والعد احصاؤه بمجرد تكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شئ كذلك ولما أن السنين لم يعتبر فيها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل أضيف اليها العدد وعلق الحساب بما عداها مما اعتبر فيه تحصل مراتب معينة لها أسام خاصة وأحكام مستقلة وتحصل مراتب الاعداد من العشرات والمئات والالوف اعتبارى لايجدى فى تحصل المعدودات وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجودا وعلما على العكس للتنبيه من أول الامر على أن متعلق الحساب مافى تضاعيف السنين من الاوقات أو لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم اجمالى بما تعلق به الحساب تفصيلا أو لأن العدد من حيث أنه لم يعتبر فيه تحصل

شيء آخر منه حسبما ذكر نازل من الحساب المعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب أو لأن العلم المتعلق بالاول أقصى المراتب فكان جديرا بالتقديم فى مقام الامتنان والله سبحانه أعلم ﴿ وكل شيء ﴾ تفتقرون اليه فى المعاش والمعاد سوى ماذكر من جعل الليل والنهار آيتين وما يتبعه من المنافع الدينية والدنيوية وهو منصوب بفعل يفسره قوله تعالى ﴿ فصلناه تفصيلا ﴾ أى بيناه فى القرآن الكريم بيانا بليغا لا التباس معه كقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء فظهر كونه هاديا للتى هى أقوم ظهورا بينا ﴿ وكل انسان ﴾ مكلف ﴿ ألزمناه طائره ﴾ أى عمله الصادر عنه باختياره حسبما قدر له كانه طار اليه من عش الغيب ووكر القدر أو ماوقع له فى القسمة الازلية الواقعة حسب استحقاقه فى العلم الازلى من قولهم طار له سهم كذا ﴿ فى عنقه ﴾ تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط أى ألزمناه عمله بحيث لايفارقه أبدا بل يلزمه لزوم القلادة أو الغل للعنق لاينفك عنه بحال وقرىء بسكون النون ﴿ ونخرج له ﴾ بنون العظمة وقد قرىء بالياء مبنيا للفاعل على أن الضمير لله عز وجل وللمفعول والضمير للطائر كما فى قراءة يخرج من الخروج ﴿ يوم القيامة ﴾ والبعث للحساب ﴿ كتابا ﴾ مسطورا فيه ماذكر من عمله نقيرا وقطميرا وهو مفعول لنخرج على القراءتين الاولين أو حال من المفعول المحذوف الراجع الى الطائر وعلى الأخريين حال من المستتر فى الفعل من ضمير الطائر ﴿ يلقاه ﴾ أى يلقى الانسان أو يلقاه الانسان ﴿ منشورا ﴾ وهما صفتان للكتاب أو الاول صفة والثانى حال منها وقرىء يلقاه من لقيته كذا أى يلقى الانسان اياه قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك فى قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة ﴿ اقرأ كتابك ﴾ أى قائلين لك ذلك . عن قتادة يقرأ ذلك اليوم من لم يكن فى الدنيا قارئا وقيل المراد بالكتاب نفسه المنتقشة بآثار أعماله فان كل عمل يصدر من الانسان خيرا أو شرا يحدث منه فى جوهر روحه أمر مخصوص الا أنه يخفى ما دام الروح متعلقا بالبدن مشتغلا بواردات الحواس والقوى فاذا انقطعت علاقته عن البدن قامت قيامته لأن النفس كانت ساكنة مستقرة فى الجسد وعند ذلك قامت وتوجهت نحو الصعود الى العالم العلوى فيزول الغطاء وتنكشف الأحوال ويظهر على لوح النفس نقش كل شيء عمله فى مدة عمره وهذا معنى الكتابة والقراءة ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ أى كفى نفسك والباء زائدة واليوم ظرف لكفى وحسيبا تمييز وعلى صلته لأنه بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارم من حسب عليه كذا أو بمعنى الكافى ووضع موضع الشهيد لأنه يكفى المدعى ما أهمه وتذكيره لأن ما ذكر من الحساب والكفاية مما يتولاه الرجال أو لأنه مبنى على تأويل النفس بالشخص على أنها عبارة عن نفس المذكر كقول جبلة بن حريث

يانفس انك باللذات مسرور فاذكر فهل ينفعنك اليوم تذكير

﴿ من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ﴾ فذلكة لما تقدم من بيان كون القرآن هاديا لاقوم الطرائق ولزوم الاعمال لاصحابها أى من اهتدى بهدايته وعمل بما فى تضاعيفه من الاحكام وانتهى عمانهاه عنه فانما تعود منفعة اهتدائه الى نفسه لاتتخطاه الى غيره ممن لم يهتد ﴿ ومن ضل ﴾ عن الطريقة التى يهديه اليها ﴿ فانما يضل عليها ﴾ أى فانما وبال ضلاله عليها لا على من عداه ممن لم يباشره حتى يمكن مفارقة العمل صاحبه ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ تأكيد للجملة الثانية أى لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها ويختل مابين العامل وعمله من التلازم بل انما تحمل كل منها وزرها وهذا تحقيق لمعنى قوله عز وجل وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه وأما مايدل عليه قوله تعالى من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وقوله تعالى

ليحملوا أو زارهم كاملة يوم القيامة ومن أو زار الذين يضلونهم بغير علم من حمل الغير و زر الغير وانتفاعه بحسنته وتضرره بسيئته فهو فى الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئته فان جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له وانما الذى يصل الى من يشفع جزاء شفاعته لاجزاء أصل الحسنة والسيئة وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين وما يحمله المضلون انما هو جزاء الاضلال لاجزاء الضلال وانما خص التأكيد بالجملة الثانية قطعا للاطماع الفارغة حيث كانوا يزعمون أنهم ان لم يكونوا على الحق فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم ﴿ وماكنا معذبين ﴾ بيان للعناية الربانية اثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها أى وما صح وما استقام منابل استحال فى سنتنا المبنية على الحكم البالغة أوما كان فى حكمنا الماضى وقضائنا السابق أن نعذب أحدا من أهل الضلال والاو زار اكتفاء بقضية العقل ﴿ حتى نبعث ﴾ اليهم ﴿ رسولا ﴾ يهديهم الى الحق ويردعهم عن الضلال ويقيم الحجج ويمهد الشرائع حسبما فى تضاعيف الكتاب المنزل عليه والمراد بالعذاب المنفى اماعذاب الاستئصال كما قاله الشيخ أبو منصور الماتريدى رحمه الله وهو المناسب لما بعده أوالجنس الشامل للدنيوى والاخروى وهو من أفراده وأياما كان فالبعث غاية لعدم صحة وقوعه فى وقته المقدر له لا لعدم وقوعه مطلقا كيف لاوالاخروى لايمكن وقوعه عقيب البعث والدنيوى أيضالايحصل الا بعد تحقق مايوجبه من الفسق والعصيان ألايرى الى قوم نوح كيف تأخر عنهم ماحل بهم زهاء ألف سنة وقوله تعالى ﴿ واذا أردنا أن نهلك قرية ﴾ بيان لكيفية وقوع التعذيب بعد البعثة التى جعلت غاية لعدم صحته وليس المراد بالارادة تحققها بالفعل اذلا يتخلف عنها المراد ولا الارادة الأزلية المتعلقة بوقوع المراد فى وقته المقدر له اذلا يقارنه الجزاء الآتى بل دنو وقتها كما فى قوله تعالى أتى أمر الله أى واذا دنا وقت تعلق ارادتنا باهلاك قرية بأن نعذب أهلها بما ذكرنا من عذاب الاستئصال الذى بينا أنه لا يصح منا قبل البعثة أو بنوع مما ذكرنا شأنه من مطلق العذاب أعنى عذاب الاستئصال لما لهم من الظلم والمعاصى دنو اقتضيه الحكمة من غير أن يكون له حد معين ﴿ أمرنا ﴾ بواسطة الرسول المبعوث الى أهلها ﴿ مترفيها ﴾ متنعميها وجباريها وملوكها خصهم بالذكر مع توجه الامر الى الكل لانهم الاصول فى الخطاب والباقى أتباع لهم ولأن توجه الامر اليهم آكد وعدم التعرض للمأمور به اما لظهور أن المراد به الحق والخير لأن الله لا يأمر بالفحشاء لاسيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدى اليه واما لأن المراد وجد منا الأمر كما يقال فلان يعطى ويمنع ﴿ ففسقوا فيها ﴾ أى خرجوا عن الطاعة وتمردوا ﴿ فحق عليها القول ﴾ أى ثبت وتحقق موجبه بحلول العذاب اثر ما ظهر منهم من الفسق والطغيان ﴿ فدمرناها ﴾ بتدمير أهلها ﴿ تدميرا ﴾ لايكتنه كنهه ولا يوصف هذا هو المناسب لما سبق وقيل الامر مجاز عن الحمل على الفسق والتسبب له بأن صب عليهم ما أبطرهم وأفضى بهم الى الفسوق وقيل هو بمعنى التكثير يقال أمرت الشىء فأمر أى كثرته فكثر وفى الحديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أى كثيرة النتاج ويعضده قراءة آمرنا وأمرنا من الافعال والتفعيل وقد جعلتا من الامارة أى جعلناهم أمراء وكل ذلك لا يساعده مقام الزجر عن الضلال والحث على الاهتداء فان مؤدى ذلك أن طغيانهم منوط بارادة الله سبحانه وانعامه عليهم بنعم وافرة أبطرتهم وحملتهم على الفسق حملا حقيقيا بأن يعبر عنه بالأمر به ﴿ وكم أهلكنا ﴾ أى وكثيرا ما أهلكنا ﴿ من القرون ﴾ بيان لكم وتمييز له والقرن مدة من الزمان يخترم فيها القوم وهى عشرون أو ثلاثون أو أربعون أو ثمانون أو مائة وقد أيد ذلك بأنه عليه الصلاة والسلام دعا لرجل فقال عش قرنا فعاش مائة سنة أو مائة وعشرون ﴿ من بعد نوح ﴾ من بعد زمنه عليه الصلاة والسلام كعاد وثمود ومن بعدهم ممن قصت أحوالهم فى القرآن العظيم ومن لم تقص وعدم نظم قومه عليه الصلاة والسلام فى تلك القرون المهلكة لظهور أمرهم على أن ذكره

عليه الصلاة والسلام رمز الى ذكرهم ﴿ وكفى بربك ﴾ أى كفى ربك ﴿ بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾ يحيط بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها وتقديم الخبير لتقدم متعلقه من الاعتقادات والنيات التى هى مبادى الاعمال الظاهرة أولعمومه حيث يتعلق بغير المبصرات أيضا وفيه اشارة الى أن البعث والأمر وما يتلوهما من فسقهم ليس لتحصيل العلم بما صدر عنهم من الذنوب فان ذلك حاصل قبل ذلك وانما هو لقطع الاعذار والزام الحجة من كل وجه ﴿ من كان يريد ﴾ بأعماله التى يعملها سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كأعمال البر أو بطريق ترتب المعلولات على العلل كالاسباب أو بأعمال الآخرة فالمراد بالمريد على الأول الكفرة وأكثر الفسقة وعلى الثانى أهل الرياء والنفاق والمهاجر للدنيا والمجاهد لمحض الغنيمة ﴿ العاجلة ﴾ فقط من غير أن يريد معها الآخرة كما ينبىء عنه الاستمرار المستفاد من زيادة كان ههنا مع الاقتصار على مطلق الارادة فى قسيمه والمراد بالعاجلة الدار الدنيا وبارادتها ارادة مافيها من فنون مطالبها كقوله تعالى ومن كان يريد حرث الدنيا ويجوز أن يراد الحياة العاجلة كقوله عز وجل من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها لكن الأول أنسب بقوله ﴿ عجلنا له فيها ﴾ أى فى تلك العاجلة فان الحياة واستمرارها من جملة ماعجل له فالانسب بذلك كلمة من كما فى قوله تعالى ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ﴿ مانشاء ﴾ أى مانشاء تعجيله له من نعيمها لا كل مايريد ﴿ لمن نريد ﴾ تعجيل مانشاء له وهو بدل من الضمير فى له باعادة الجار بدل البعض فانه راجع الى الموصول المنبىء عن الكثرة وقرىء لمن يشاء على أن الضمير لله سبحانه وقيل هو لمن فيكون مخصوصا بمن أراد به ذلك وهو واحد من الدهماء وتقييد المعجل والمعجل له بما ذكر من المشيئة والارادة لما أن الحكمة التى عليها يدور فلك التكوين لا تقتضى وصول كل طالب الى مرامه ولا استيفاء كل واصل لما يطلبه بتمامه وأما ما يتراءى من قوله تعالى من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون من نيل كل مؤمل لجميع آماله ووصول كل عامل الى نتيجة أعماله فقد أشير الى تحقيق القول فيه فى سورة هود بفضل الله تعالى ﴿ ثم جعلنا له ﴾ مكان ماعجلنا له ﴿ جهنم ﴾ ومافيها من أصناف العذاب ﴿ يصلاها ﴾ يدخلها وهو حال من الضمير المجرور أو من جهنم أو استئناف ﴿ مذموما مدحورا ﴾ مطرودا من رحمة الله تعالى وقيل الآية فى المنافقين كانوا يراؤن المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم الا مساهمتهم فى الغنائم ونحوها ويأباه مايقال ان السورة مكية سوى آيات معينة ﴿ ومن أراد ﴾ بأعماله ﴿ الآخرة ﴾ الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم ﴿ وسعى لها سعيها ﴾ أى السعى اللائق بها وهو الاتيان بما أمر والانتهاء عما نهى لا التقرب بما يخترعون بآرائهم وفائدة اللام اعتبار النية والاخلاص ﴿ وهو مؤمن ﴾ ايمانا صحيحا لا يخالطه شىء قادح فيه وايراد الايمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لما ذكر فى حيز الصلة ﴿ فأولئك ﴾ اشارة الى الموصول بعنوان اتصافه بما فى حيز الصلة ومافى ذلك من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم والجمعية لمراعاة جانب المعنى ايماء الى أن الاثابة المفهومة من الخبر تقع على وجه الاجتماع أى أولئك الجامعون لما مر من الخصال الحميدة أعنى ارادة الآخرة والسعى الجميل لها والايمان ﴿ كان سعيهم مشكورا ﴾ مقبولا عند الله تعالى أحسن القبول مثابا عليه وفى تعليق المشكورية بالسعى دون قرينيه اشعار بأنه العمدة فيها ﴿ كلا ﴾ التنوين عوض عن المضاف اليه أى كل واحد من الفريقين لا الفريق الأخير المريد للخير الحقيق بالاسعاف فقط ﴿ نمد ﴾ أى نزيد مرة بعد مرة بحيث يكون الآنف مددا للسالف ومابه الامداد ماعجل لاحدهما من العطايا العاجلة وما أعد للآخر من العطايا الآجلة المشار اليها بمشكورية السعى وانما لم يصرح به تعويلا على ماسبق تصريحا وتلويحا واتكالا على مالحق عبارة واشارة كما ستقف عليه وقوله تعالى ﴿ هؤلاء ﴾ بدل من كلا ﴿ وهؤلاء ﴾ عطف عليه أى نمد هؤلاء المعجل لهم وهؤلاء المشكور سعيهم فان الاشارة متعرضة لذات المشار اليه بماله من العنوان

لا للذات فقط كالاضمار ففيه تذكير لما به الامداد وتعيين للمضاف اليه المحذوف دفعا لتوهم كونه أفراد الفريق الأخير وتأكيد للقصر المستفاد من تقديم المفعول وقوله تعالى ﴿من عطاء ربك﴾ أى من معطاه الواسع الذى لا تناهى له متعلق بنمد ومغن عن ذكر مابه الامداد ومنبه على أن الامداد المذكور ليس بطريق الاستيجاب بالسعى والعمل بل بمحض التفضل ﴿وما كان عطاء ربك﴾ أى دنيويا كان أو أخرويا وانما أظهر اظهارا لمزيد الاعتناء بشأنه واشعارا بعليته للحكم ﴿محظورا﴾ ممنوعا ممن يريده بل هو فائض على من قدر له بموجب المشيئة المبنية على الحكمة وان وجد منه مايقتضى الحظر كالكافر وهو فى معنى التعليل لشمول الامداد للفريقين والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين للاشعار بمبدئيتها لما ذكر من الامداد وعدم الحظر ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ كيف فى محل النصب بفضلنا على الحالية والمراد توضيح مامر من الامداد وعدم محظورية العطاء بالتنبيه على استحضار مراتب أحد العطاءين والاستدلال بها على مراتب الآخر أى انظر بنظر الاعتبار كيف فضلنا بعضهم على بعض فيما أمددناهم به من العطايا العاجلة فمن وضيع ورفيع وظالع وضليع ومالك ومملوك وموسر وصعلوك تعرف بذلك مراتب العطايا الآجلة ودرجات تفاضل أهلها على طريقة الاستشهاد بحال الادنى على حال الاعلى كما أفصح عنه قوله تعالى ﴿وللآخرة أكبر﴾ أى هى وما فيها أكبر من الدنيا وقرىء أكثر ﴿درجات وأكبر تفضيلا﴾ لان التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها العالية التى لا يقادر قدرها ولا يكتنه كنهها كيف لا وقد عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر هذا ويجوز أن يراد بما به الامداد العطايا العاجلة فقط ويحمل القصر المذكور على دفع توهم اختصاصها بالفريق الأول فان تخصيص ارادتهم لها ووصولهم اليها بالذكر من غير تعرض لبيان النسبة بينها وبين الفريق الثانى ارادة ووصولا مما توهم اختصاصها بالأولين فالمعنى كل واحد من الفريقين نمد بالعطايا العاجلة لا من ذكرنا ارادته لها فقط من الفريق الأول من عطاء ربك الواسع وما كان عطاؤه الدنيوى محظورا من أحد ممن يريده وممن يريد غيره أنظر كيف فضلنا فى ذلك العطاء بعض كل من الفريقين على بعض آخر منهما وللآخرة الآية واعتبار عدم المحظورية بالنسبة الى الفريق الأول تحقيقا لشمول الامداد له كما فعله الجمهور حيث قالوا لا يمنعه من عاص لعصيانه يقتضى كون القصر لدفع توهم اختصاص الامداد الدنيوى بالفريق الثانى مع أنه لم يسبق فى الكلام مايوهم ثبوته له فضلا عن ايهام اختصاصه ﴿لا تجعل مع الله الها آخر﴾ الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد به أمته وهو من باب التهييج والالهاب أو كل أحد ممن يصلح للخطاب ﴿فتقعد﴾ بالنصب جوابا للنهى والقعود بمعنى الصيرورة من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة أو بمعنى العجز من قعد عنه أى عجز عنه ﴿مذموما مخذولا﴾ خبران أو حالان أى جامعا على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله تعالى وفيه اشعار بأن الموحد جامع بين المدح والنصرة ﴿وقضى ربك﴾ أى أمر أمرا مبرما وقرىء وأوصى ربك ووصى ربك ﴿أن لا تعبدوا﴾ أى بأن لا تعبدوا ﴿الا اياه﴾ على أن أن مصدرية ولا نافيه أو أى لا تعبدوا على أنها مفسرة ولا ناهية لان العبادة غاية التعظيم فلا تحق الا لمن له غاية العظمة ونهاية الانعام وهو كالتفصيل للسعى للآخرة ﴿وبالوالدين﴾ أى وبأن تحسنوا بهما أو وأحسنوا بهما ﴿احسانا﴾ لانهما السبب الظاهر للوجود والتعيش ﴿اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ اما مركبة من ان الشرطية وما المزيدة لتأكيدها ولذلك دخل الفعل نون التأكيد ومعنى عندك فى كنفك وكفالتك وتقديمه على المفعول مع أن حقه التأخر عنه للتشويق الى وروده فانه مدار تضاعف الرعاية والاحسان وأحدهما فاعل للفعل وتأخيره عن الظرف والمفعول لئلا يطول الكلام به وبما عطف عليه وقرىء يبلغان فأحدهما بدل من ضمير التثنية وكلاهما عطف عليه ولا سبيل الى جعل كلاهما تأكيدا للضمير وتوحيد ضمير الخطاب فى عندك وفيما بعده مع أن

ماسبق على الجمع للاحتراز عن التباس المراد فان المقصود نهى كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما ولو قوبل الجمع بالجمع أو بالتثنية لم يحصل هذا المرام ﴿فلا تقل لهما﴾ أى لواحد منهما حالتى الانفراد والاجتماع ﴿أف﴾ وهو صوت ينبئ عن تضجر أواسم فعل هو أتضجر وقرئ بالكسر بلا تنوين و بالفتح والضم منونا وغير منون أى لا تتضجر بما تستقذر منهما وتستثقل من مؤنهما و بهذا النهى يفهم النهى عن سائر ما يؤذيهما بدلالة النص وقد خص بالذكر بعضه اظهارا للاعتناء بشأنه فقيل ﴿ولا تنهرهما﴾ أى لا تزجرهما عما لا يعجبك باغلاظ قيل النهى والنهر والنهم اخوات ﴿وقل لهما﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿قولا كريما﴾ ذا كرم أوهو وصف له بوصف صاحبه أى قولا صادرا عن كرم ولطف وهو القول الجميل الذى يقتضيه حسن الادب و يستدعيه النزول على المروءة مثل أن يقول يا أباه و يا أماه كدأب ابراهيم عليه السلام اذ قال لأبيه يا أبت مع ما به من الكفر ولا يدعوهما بأسمائهما فانه من الجفاء وسوء الادب وديدن الدعار وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال أن لا تقوم الى خدمتهما عن كسل وقيل أن لا ترفع صوتك عليهما ولا تنظر اليهما شزرا ولا يريا منك مخالفة فى ظاهر ولا باطن وأن تترحم عليهما ما عاشا وتدعو لهما اذا ماتا وتقوم بخدمة أودائهما من بعدهما فعن النبي عليه الصلاة والسلام ان من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ عبارة عن إلانة الجانب والتواضع والتذلل لهما فان اعزازهما لا يكون الا بذلك فكأنه قيل واخفض لهما جناحك الذليل أو جعل لذله جناح كما جعل لبيد فى قوله وغداة ريح قد كشفت وقرة اذ أصبحت بيد الشمال زمامها للقرة زماما وللشمال يدا تشبيها له بطائر يخفض جناحه لأفراخه تربية لها وشفقة عليها وأما جعل خفض الجناح عبارة عن ترك الطيران كما فعله القفال فلا يناسب المقام ﴿من الرحمة﴾ من فرط رحمتك وعطفك عليهما و رقتك لهما لافتقارهما اليوم الى من كان أفقر خلق الله تعالى اليهما ولا تكتف برحمتك الفانية بل ادع الله لهما برحمته الواسعة الباقية ﴿وقل رب ارحمهما﴾ برحمتك الدنيوية والأخروية التى من جملتها الهداية الى الاسلام فلا ينافى ذلك كفرهما ﴿كما ربيانى﴾ الكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى رحمة مثل تربيتهما لى أومثل رحمتهما لى على أن التربية رحمة و يجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معا وقد ذكر أحدهما فى أحد الجانبين والآخر فى الآخر كما يلوح به التعرض لعنوان الربوبية فى مطلع الدعاء كأنه قيل رب ارحمهما و ربهما كما رحمانى و ربيانى ﴿صغيرا﴾ و يجوز أن تكون الكاف للتعليل أى لاجل تربيتهما لى كقوله تعالى واذكروه كما هداكم ولقد بالغ عز وجل فى التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الاحسان اليهما بتوحيده سبحانه ونظمهما فى سلك القضاء بهما معا ثم ضيق الأمر فى باب مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع ماله من موجبات الضجر ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وختمها بأن جعل رحمته التى وسعت كل شئ مشبهة بتربيتهما وعن النبي عليه الصلاة والسلام رضى الله فى رضى الوالدين وسخطه فى سخطهما و روى يفعل البار ما يشاء أن يفعل فلن يدخل النار و يفعل العاق ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبوى بلغا من الكبر أنى ألى منهما ما وليا منى فى الصغر فهل قضيتهما حقهما قال لا فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما و روى أن شيخا أتى النبي عليه الصلاة والسلام فقال ان ابنى هذا له مال كثير وانه لا ينفق على من ماله فنزل جبريل عليه السلام وقال ان هذا الشيخ قد أنشأ فى ابنه أبياتا ما قرع سمع بمثلها فاستنشدها فأنشدها الشيخ فقال

غذوتك مولودا ومنتك يافعا تعل بما أجنى عليك وتنهل
اذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت لسقمك الا باكيا أتململ

كأنى أنا المطروق دونك بالذى طرقت به دونى وعينى تهمل
فلما بلغت السن والغاية التى اليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك اذ لم ترع حق أبوتى فعلت كما الجار المجاور يفعل

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أنت ومالك لأبيك ﴿ربكم أعلم بما فى نفوسكم﴾ من البر والعقوق ﴿ان تكونوا صالحين﴾ قاصدين للصلاح والبر دون العقوق والفساد ﴿فانه﴾ تعالى ﴿كان للاوابين﴾ أى الرجاعين اليه تعالى عما فرط منهم مما لا يكاد يخلو عنه البشر ﴿غفورا﴾ لما وقع منهم من نوع تقصير أو أذية فعلية أو قولية وفيه مالايخفى من التشديد فى الأمر بمراعاة حقوقهما و يجوز أن يكون عاما لكل تائب و يدخل فيه الجانى على أبويه دخولا أوليا ﴿وآت ذا القربى﴾ أى ذا القرابة ﴿حقه﴾ توصية بالاقارب اثر التوصية ببر الوالدين ولعل المراد بهم المحارم و بحقهم النفقة كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿والمسكين وابن السبيل﴾ فان المأمور به فى حقهما المواساة المالية لامحالة أى وآتهما حقهما مما كان مفترضا بمكة بمنزلة الزكاة وكذا النهى عن التبذير وعن الافراط فى القبض والبسط فان الكل من التصرفات المالية ﴿ولا تبذر تبذيرا﴾ نهى عن صرف المال الى من سواهم ممن لا يستحقه فان التبذير تفريق فى غير موضعه ماخوذ من تفريق حبات والقائها كيفما كان من غير تعهد لمواقعه لاعن الا كثار فى صرفه اليهم والا لناسبه الاسراف الذى هو تجاوز الحد فى صرفه وقد نهى عنه بقوله تعالى ولا تبسطها و كلاهما مذموم ﴿ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين﴾ تعليل للنهى عن التبذير ببيان انه يجعل صاحبه ملزوزا فى قرن الشياطين والمراد بالاخوة المماثلة التامة فى كل مالاخير فيه من صفات السوء التى من جملتها التبذير أى كانوا بما فعلوا من التبذير أمثال الشياطين أو الصداقة والملازمة أى كانوا أصدقاءهم وأتباعهم فيما ذكر من التبذير والصرف فى المعاصى فانهم كانوا ينحرون الابل و يتياسرون عليها و يبذرون أموالهم فى السمعة وسائر مالاخير فيه من المناهى والملاهى أو المقارنة أى قرناءهم فى النار على سبيل الوعيد ﴿وكان الشيطان لربه كفورا﴾ من تتمة التعليل أى مبالغا فى كفران نعمته تعالى لأن شأنه أن يصرف جميع ما أعطاه الله تعالى من القوى والقدر الى غير ماخلقت هى له من أنواع المعاصى والافساد فى الارض واضلال الناس وحملهم على الكفر بالله و كفران نعمه الفائضة عليهم وصرفها الى غير ما أمر الله تعالى به وتخصيص هذا الوصف بالذكر من بين سائر أوصافه القبيحة للايذان بأن التبذير الذى هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى الى غير مصرفها من باب الكفران المقابل للشكر الذى هو عبارة عن صرفها الى ماخلقت هى له والتعرض لوصف الربوبية للاشعار بكمال عتوه فان كفران نعمة الرب مع كون الربوبية من أقوى الدواعى الى شكرها غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان ﴿واما تعرضن عنهم﴾ أى ان اعتراك أمر اضطرك الى أن تعرض عن أولئك المستحقين ﴿ابتغاء رحمة من ربك﴾ أى لفقد رزق من ربك اقامة المسبب مقام السبب فان الفقد سبب للابتغاء ﴿ترجوها﴾ من الله تعالى لتعطيهم وكان عليه السلام اذا سئل شيئاً وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء فأمر بتعهدهم بالقول الجميل لئلا تعتريهم الوحشة بسكوته عليه السلام فقيل ﴿فقل لهم قولا ميسورا﴾ سهلا لينا وعدهم وعدا جميلا من يسر الأمر نحو سعد أو قل لهم رزقنا الله واياكم من فضله على انه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم ﴿ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ تمثيلان لمنع الشحيح واسراف المبذر زجرا لهما عنهما وحملا على ما بينهما من الاقتصاد كلا طرفى قصد الامور ذميم وحيث كان قبح الشح مقارنا له معلوما من أول الأمر روعى ذلك فى التصوير

بأقبح الصور ولما كان غائلة الاسراف فى آخره بين قبحه فى أثره فقيل ﴿فتقعد ملوما﴾ أى فتصير ملوما عند الله تعالى وعند الناس وعند نفسك اذا احتجت وندمت على مافعلت ﴿محسورا﴾ نادما أو منقطعا بك لاشىء عندك من حسرة السفر اذا بلغ منه وما قيل من أنه روى عن جابر رضى الله عنه أنه قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد اذ أتاه صبى فقال ان أمى تستكسيك درعا فقال عليه السلام من ساعة الى ساعة فعد الينا فذهب الى أمه فقالت له قل ان أمى تستكسيك الدرع الذى عليك فدخل صلى الله عليه وسلم داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانا وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة فنزلت فيأباه أن السورة مكية خلا آيات فى آخرها وكذا ما قيل انه عليه السلام أعطى الاقرع بن حابس مائة من الابل وكذا عيينة بن حصن الفزارى فجاء عباس بن مرداس فأنشأ يقول

أتجعل نهبى ونهب العبيـــد بين عيينة والاقرع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال عليه السلام يا أبا بكر اقطع لسانه عنى أعطه مائة من الابل وكانوا جميعا من المؤلفة القلوب فنزلت ﴿ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ تعليل لما مر أى يوسعه على بعض ويضيقه على آخرين حسبما تتعلق به مشيئته التابعة للحكمة فليس ما يرهقك من الاضاقة التى تحوجك الى الاعراض عن السائلين أو نفاد ما فى يدك اذا بسطتها كل البسط الا لمصلحتك ﴿انه كان بعباده خبيرا بصيرا﴾ تعليل لما سبق أى يعلم سرهم وعلنهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ويجوز أن يراد ان البسط والقبض من أمر الله العالم بالسرائر والظواهر الذى بيده خزائن السموات والارض وأما العباد فعليهم أن يقتصدوا وأن يراد أنه تعالى يبسط تارة ويقبض أخرى فاستنوا بسنته فلا تقبضوا كل القبض ولا تبسطوا كل البسط وأن يراد أنه تعالى يبسط ويقدر حسب مشيئته فلا تبسطوا على من قدر عليه رزقه وأن يكون تمهيدا لقوله ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق﴾ أى مخافة فقر وقرىء بكسر الخاء كانوا يئدون بناتهم مخافة الفقر فنهوا عن ذلك ﴿نحن نرزقهم واياكم﴾ لا أنتم فلا تخافوا الفاقة بناء على علمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهى المذكور بابطال موجبه فى زعمهم وتقديم ضمير الأولاد على المخاطبين على عكس ما وقع فى سورة الأنعام للاشعار باصالتهم فى افاضة الرزق أو لأن الباعث على القتل هناك الاملاق الناجز ولذلك قيل من املاق وههنا الاملاق المتوقع ولذلك قيل خشية املاق فكأنه قيل نرزقهم من غير أن ينتقص من رزقكم شىء فيعتريكم ما تخشونه واياكم أيضا رزقا الى رزقكم ﴿ان قتلهم كان خطأ كبيرا﴾ تعليل آخر ببيان أن المنهى عنه فى نفسه منكر عظيم والخطء الذنب والاثم يقال خطىء خطأ كأثم اثما وقرىء بالفتح والسكون وبفتحتين بمعناه كالحذر والحذر وقيل بمعنى ضد الصواب وبكسر الخاء والمد وبفتحها ممدودا وبفتحها وحذف الهمزة وبكسرها كذلك ﴿ولا تقربوا الزنا﴾ بمباشرة مباديه القريبة أو البعيدة فضلا عن مباشرته وانما نهى عن قربانه على خلاف ما سبق ولحق من القتل للمبالغة فى النهى عن نفسه ولأن قربانه داع الى مباشرته وتوسيط النهى عنه بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن قتل النفس المحرمة على الاطلاق باعتبار أنه قتل للاولاد لما أنه تضييع للانساب فان من لم يثبت نسبه ميت حكما ﴿انه كان فاحشة﴾ فعلة ظاهرة القبح متجاوزة عن الحد ﴿وساء سبيلا﴾ أى بئس طريقا طريقه فانه غصب الابضاع المؤدى الى اختلال أمر الأنساب وهيجان الفتن كيف لا وقد قال النبى عليه السلام اذا زنى العبد خرج منه الايمان فكان على رأسه كالظلة فاذا انقطع رجع اليه وقال عليه السلام لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن وعن حذيفة رضى الله عنه أنه قال عليه السلام اياكم والزنا فان فيه ست خصال

ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة فأما التى فى الدنيا فذهاب البهاء ودوام الفقر وقصر العمر وأما التى فى الآخرة فسخط الله تعالى وسوء الحساب والخلود فى النار ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله ﴾ قتلها بأن عصمها بالاسلام أو بالعهد ﴿ الا بالحق ﴾ الا باحدى ثلاث كفر بعد ايمان وزنا بعد احصان وقتل نفس معصومة عمدا فالاستثناء مفرغ أى لاتقتلوها بسبب من الأسباب الا بسبب الحق أو ملتبسين أو ملتبسة بشىء من الأشياء ويجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف أى لا تقتلوها قتلا ما الا قتلا ملتبسا بالحق ﴿ ومن قتل مظلوما ﴾ بغير حق يوجب قتله أو يبيحه للقاتل حتى انه لايعتبر اباحته لغير القاتل فان من عليه القصاص اذا قتله غير من له القصاص يقتص له ولا يفيده قول الولى أنا أمرته بذلك مالم يكن الأمر ظاهرا ﴿ فقد جعلنا لوليه ﴾ لمن يلى أمره من الوارث أو السلطان عند عدم الوارث ﴿ سلطانا ﴾ تسلطا واستيلاء على القاتل يؤاخذه بالقصاص أو بالدية حسبما تقتضيه جنايته أو حجة غالبة ﴿ فلا يسرف ﴾ وقرىء لا تسرف ﴿ فى القتل ﴾ أى لا يسرف الولى فى أمر القتل بان يتجاوز الحد المشروع بأن يزيد عليه المثلة أو بأن يقتل غير القاتل من أقاربه أو بأن يقتل الاثنين مكان الواحد كما يفعله أهل الجاهلية أو بأن يقتل القاتل فى مادة الدية وقرىء بصيغة النفى مبالغة فى افادة معنى النهى ﴿ انه كان منصورا ﴾ تعليل للنهى والضمير للولى على معنى أنه تعالى نصره بأن أوجب له القصاص أو الدية وأمر الحكام بمعونته فى استيفاء حقه فلا يبغ ما وراء حقه ولا يستزد عليه ولا يخرج من دائرة أمر الناصر أو للمقتول ظلما على معنى أنه تعالى نصره بما ذكر فلا يسرف وليه فى شأنه أو للذى يقتله الولى ظلما واسرافا ووجه التعليل ظاهر وعن مجاهد أن الضمير فى لا يسرف للقاتل الاول ويعضده قراءة فلاتسرفوا والضميران فى التعليل عائدان الى الولى أو المقتول فالمراد بالاسراف حينئذ اسراف القاتل على نفسه بتعريضه لها للهلاك العاجل والآجل لا الاسراف وتجاوز الحد فى القتل أى لا يسرف على نفسه فى شأن القتل كما فى قوله تعالى قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾ نهى عن قربانه لما ذكر من المبالغة فى النهى عن التعرض له ومن افضاء ذلك اليه وللتوسل الى الاستثناء بقوله تعالى ﴿ الا بالتى هى أحسن ﴾ أى الا بالخصلة والطريقة التى هى أحسن الخصال والطرائق وهى حفظه واستثماره ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ غاية لجواز التصرف على الوجه الاحسن المدلول عليه بالاستثناء لا للوجه المذكور فقط ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ سواء جرى بينكم وبين ربكم أو بينكم وبين غيركم من الناس والايفاء بالعهد والوفاء به هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه ولا يكاد يستعمل الا بالباء فرقا بينه وبين الايفاء الحسى كايفاء الكيل والوزن ﴿ ان العهد ﴾ أظهر فى مقام الاضمار اظهاراً لكمال العناية بشأنه أو لأن المراد مطلق العهد المنتظم للعهد المعهود ﴿ كان مسئولا ﴾ أى مسؤلا عنه على حذف الجار وجعل الضمير بعد انقلابه مرفوعا مستكنا فى اسم المفعول كقوله تعالى وذلك يوم مشهود أى مشهود فيه ونظيره ما فى قوله تعالى تلك آيات الكتاب الحكيم على أن أصله الحكيم قائله فحذف المضاف وجعل الضمير مستكنا فى الحكيم بعد انقلابه مرفوعا ويجوز أن يكون تخييلا كأنه يقال للعهد لم نكثت وهلا وفى بك تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة بأى ذنب قتلت ﴿ وأوفوا الكيل ﴾ أى أتموه ولا تخسروه ﴿ اذا كلتم ﴾ أى وقت كيلكم للمشترين وتقييد الأمر بذلك لما أن التطفيف هناك يكون وأما وقت الاكتيال على الناس فلا حاجة الى الأمر بالتعديل قال تعالى اذا اكتالوا على الناس يستوفون الآية ﴿ وزنوا بالقسطاس ﴾ وهو القرسطون وقيل كل ميزان صغيرا كان أو كبيرا رومى معرب ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن لانتظام المعربات فى سلك الكلم العربية وقرىء بضم القاف ﴿ المستقيم ﴾ أى العدل السوى ولعل الاكتفاء باستقامته عن الأمر بايفاء الوزن لما أن عند استقامته لايتصور الجور غالبا بخلاف الكيل فانه كثيرا

ما يقع التطفيف مع استقامة الآلة كما أن الاكتفاء بايفاء الكيل عن الأمر بتعديله لما أن ايفاءه لا يتصور بدون تعديل المكيال وقد أمر بتقويمه أيضا فى قوله تعالى أوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴿ذلك﴾ أى ايفاء الكيل والوزن بالميزان السوى ﴿خير﴾ فى الدنيا اذهو أمانة توجب الرغبة فى معاملته والذكر الجميل بين الناس ﴿وأحسن تأويلا﴾ عاقبة تفعيل من آل اذا رجع والمراد ما يؤول اليه ﴿ولا تقف﴾ ولا تتبع من قفا أثره اذا تبعه وقرىء ولا تقف من قاف أثره أى قفاه ومنه القافة فى جمع القائف ﴿ماليس لك به علم﴾ أى لا تكن فى اتباع ما لا علم لك به من قول أو فعل كمن يتبع مسلكا لا يدرى أنه يوصله الى مقصده واحتج به من منع اتباع الظن وجوابه أن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند قطعيا كان أو ظنيا واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه وقيل انه مخصوص بالعقائد وقيل بالرمى وشهادة الزور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج ومنه قول الكميت

ولا أرمى البرىء بغير ذنب ولا أقفو الحواصن ان رمينا

﴿ان السمع والبصر والفؤاد﴾ وقرىء بفتح الفاء والواو المقلوبة من الهمزة عند ضم الفاء ﴿كل أولئك﴾ أى كل واحد من تلك الأعضاء فأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤلة عن أحوالها شاهدة على أصحابها هذا وان أولاء وان غلب فى العقلاء لكنه من حيث انه اسم جمع لذا الذى يعم القبيلين جاء لغيرهم أيضا قال

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

﴿كان عنه مسؤلا﴾ أى كان كل من تلك الأعضاء مسؤلا عن نفسه على أن اسم كان ضمير يرجع الى كل وكذا الضمير المجرور وقد جوز أن يكون الاسم ضمير القافى بطريق الالتفات اذ الظاهر أن يقال كنت عنه مسؤلا وقيل الجار والمجرور فى محل الرفع قد أسند اليه مسؤلا معللا بأن الجار والمجرور لا يلتبس بالمبتدا وهو السبب فى منع تقديم الفاعل وما يقوم مقامه ولكن النحاس حكى الاجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل اذا كان جارا ومجرورا ويجوز أن يكون من باب الحذف على شريطة التفسير ويحذف الجار من المفسر ويعود الضمير مستكنا كما ذكرنا فى قوله تعالى يوم مشهود وجوز أن يكون مسؤلا مسندا الى المصدر المدلول عليه بالفعل وأن يكون فاعله المصدر وهو السؤال وعنه فى محل النصب وسأل ابن جنى أبا على عن قولهم فيك يرغب وقال لا يرتفع بما بعده فاين المرفوع فقال المصدر أى فيك يرغب الرغبة بمعنى تفعل الرغبة كما فى قولهم يعطى ويمنع أى يفعل الاعطاء والمنع وجوز أن يكون اسم كان أو فاعله ضمير كل بحذف المضاف أى كان صاحبه عنه مسؤلا أو مسؤلا صاحبه ﴿ولا تمش فى الأرض﴾ التقييد لزيادة التقرير والاشعار بأن المشى عليها مما لا يليق بالمرح ﴿مرحا﴾ تكبرا وبطرا واختيالا وهو مصدر وقع موقع الحال أى ذا مرح أو تمرح مرحا أو لاجل المرح وقرىء بالكسر ﴿انك لن تخرق الأرض﴾ تعليل للنهى وفيه تهكم بالمختال وايذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض وتكبر عليها أى لن تخرق الأرض بدوسك وشدة وطأتك وقرىء بضم الراء ﴿ولن تبلغ الجبال﴾ التى هى بعض أجزاء الأرض ﴿طولا﴾ حتى يمكن لك أن تتكبر عليها اذ التكبر انما يكون بكثرة القوة وعظم الجثة وكلاهما مفقود وفيه تعريض بما عليه المختال من رفع رأسه ومشيه على صدور قدميه ﴿كل ذلك﴾ اشارة الى ماعلم فى تضاعيف ذكر الأوامر والنواهى من الخصال الخمس والعشرين ﴿كان سيئه﴾ الذى نهى عنه وهى اثنتاعشرة خصلة ﴿عند ربك مكروها﴾ مبغضا غير مرضى أو غير مراد بالارادة الأولية لا غير مراد مطلقا لقيام الأدلة القاطعة على أن جميع الأشياء واقعة بارادته سبحانه وهو تتمة لتعليل الامور

المنهى عنها جميعا و وصف ذلك بمطلق الكراهة مع أن البعض من الكبائر للايذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية فى وجوب الانتهاء عن ذلك وتوجيه الاشارة الى الكل ثم تعيين البعض دون توجيهها اليه ابتداء لما أن البعض المذكور ليس بمذكور جملة بل على وجه الاختلاط وفيه اشعار بكون ماعداه مرضيا عنده تعالى وانما لم يصرح بذلك ايذانا بالغنى عنه وقيل الاضافة بيانية كما فى آية الليل و آية النهار وقرئ سيئة على أنه خبر كان وذلك اشارة الى مانهى عنه من الامور المذكورة ومكروها بدل من سيئة أوصفة لها محمولة على المعنى فانه بمعنى سيئا وقد قرئ به أومجرى على موصوف مذكر أى أمرا مكروها أومجرى مجرى الاسماء زال عنه معنى الوصفية و يجوز كونه حالا من المستكن فى كان أو فى الظرف على أنه صفة سيئة وقرئ سيئاته وقرئ شأنه ﴿ذلك﴾ أى الذى تقدم من التكاليف المفصلة ﴿مما أوحى اليك ربك﴾ أى بعض منه أو من جنسه ﴿من الحكمة﴾ التى هى علم الشرائع أو معرفة الحق لذاته والعمل به أو من الأحكام المحكمة التى لا يتطرق اليها النسخ والفساد وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان هذه الآيات الثمانى عشرة كانت فى ألواح موسى عليه السلام أولها لاتجعل مع الله الها آخر قال تعالى و كتبنا له فى الالواح من كل شئ موعظة وهى عشر آيات فى التوراة ومن اما متعلقة بأوحى على أنها تبعيضية أو ابتدائية واما بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من ضميره المحذوف فى الصلة أى كائنا من الحكمة واما بدل من الموصول باعادة الجار ﴿و لا تجعل مع الله الها آخر﴾ الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد غيره ممن يتصور منه صدور المنهى عنه وقد كرر للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه وأنه رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم ينفعه علومه وحكمه وان بذفيها أساطين الحكماء وحك بيافوخه عنان السماء وقد رتب عليه ماهو عائدة الاشراك أولا حيث قيل فتقعد مذموما مخذولا و رتب عليه ههنا نتيجته فى العقبى فقيل ﴿فتلقى فى جهنم ملوما﴾ من جهة نفسك ومن جهة غيرك ﴿مدحورا﴾ مبعدا من رحمة الله تعالى و فى ايراد الالقاء مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء وازدراء بالمشرك وجعل له من قبيل خشبة يأخذها آخذ بكفه فيطرحها فى التنور ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا﴾ خطاب للقائلين بأن الملائكة بنات الله سبحانه والاصفاء بالشئ جعله خالصا والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يفسره المذكور أى أفضلكم على جنابه فخصكم بأفضل الأولاد على وجه الخلوص و آثر لذاته أخسها وأدناها كما فى قوله سبحانه ألكم الذكر وله الانثى وقوله تعالى أم له البنات ولكم البنون وقد قصد ههنا بالتعرض لعنوان الربوبية تشديد النكير وتأكيده وأشير بذكر الملائكة عليهم السلام وايراد الاناث مكان البنات الى كفرة لهم أخرى وهى وصفهم لهم عليهم السلام بالأنوثة التى هى أخس صفات الحيوان كقوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا ﴿انكم لتقولون﴾ بمقتضى مذهبكم الباطل الذى هو اضافة الولد اليه سبحانه ﴿قولا عظيما﴾ لايقادر قدره فى استتباع الاثم وخرقه لقضايا العقول بحيث لايجترئ عليه أحد حيث يجعلونه تعالى من قبيل الاجسام المتجانسة السريعة الزوال وليس كمثله شئ وهو الواحد القهار الباقى بذاته ثم تضيفون اليه ماتكرهون من أخس الأولاد وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين ثم تصفون الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق بالانوثة التى هى أخس أوصاف الحيوان فيالها من ضلة ماأقبحها و كفرة ماأشنعها وأفظعها ﴿ولقد صرفنا﴾ هذا المعنى و كررناه ﴿فى هذا القرآن﴾ على وجوه من التصريف فى مواضع منه وانما ترك الضمير تعويلا على الظهور وقرئ بالتخفيف ﴿ليذكروا﴾ مافيه و يقفوا على بطلان مايقولونه والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء الحال أن يعرض عنهم و يحكى للسامعين هناتهم وقرئ بالتخفيف من الذكر بمعنى التذكر و يجوز أن يراد بهذا القرآن مانطق ببطلان مقالاتهم المذكورة من الآيات الكريمة الواردة على أساليب مختلفة ومعنى التصريف فيه جعله مكانا له أى أوقعنا

فيه التصريف كقوله يجرح فى عراقيبها نصلى وقد جوز أن يراد به ابطال اضافتهم اليه تعالى البنات وأنت تعلم أن ابطالها من آثار القرآن ونتائجها ﴿ومايزيدهم﴾ أى والحال أنه مايزيدهم ذلك التصريف البالغ ﴿الا نفورا﴾ عن الحق واعراضا عنه فضلا عن التذكر المؤدى الى معرفة بطلان ماهم عليه من القبائح ﴿قل﴾ فى اظهار بطلان ذلك من جهة أخرى ﴿لوكان معه﴾ تعالى ﴿آلهة كما يقولون﴾ أى المشركون قاطبة وقرىء بالتاء خطابا لهم من قبل النبى عليه الصلاة والسلام والكاف فى محل النصب على أنها نعت لمصدر محذوف أى كونا مشابها لما يقولون والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة ﴿اذاً لابتغوا﴾ جواب عن مقالتهم الشنعاء وجزاء للو أى لطلبوا ﴿الى ذى العرش﴾ أى الى من له الملك والربوبية على الاطلاق ﴿سبيلا﴾ بالمغالبة والممانعة كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض على طريقة قوله تعالى لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقيل بالتقرب اليه تعالى كقوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة والأول هو الأظهر الأنسب لقوله ﴿سبحانه﴾ فانه صريح فى أن المراد بيان أنه يلزم مما يقولونه محذور عظيم من حيث لايحتسبون وأما ابتغاء السبيل اليه تعالى بالتقرب فليس مما يختص بهذا التقرير ولا هو مما يلزمهم من حيث لايشعرون بل هو أمر يعتقدونه رأسا أى تنزه بذاته تنزها حقيقا به ﴿وتعالى﴾ متباعدا ﴿عما يقولون﴾ من العظيمة التى هى أن يكون معه آلهة وأن يكون له بنات ﴿علوا﴾ تعاليا كقوله تعالى والله أنبتكم من الأرض نباتا ﴿كبيرا﴾ لاغاية وراءه كيف لا وانه سبحانه فى أقصى غايات الوجود وهو الوجوب الذاتى ومايقولونه من أن لله تعالى شركاء وأولادا فى أبعد مراتب العدم أعنى الامتناع لالأنه تعالى فى أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود لذاته واتخاذ الولد من أدنى مراتبه فانه من خواص مايمتنع بقاؤه كما قيل فان مايقولونه ليس مجرد اتخاذ الولد بل اتخاذه تعالى له وأن يكون معه آلهة ولا ريب فى أن ذلك ليس بداخل فى حد الامكان فضلا عن دخوله تحت الوجود وكونه من أدنى مراتب الوجود انما هو بالنسبة الى من شأنه ذلك ﴿تسبح﴾ بالفوقانية وقرىء بالتحتانية وقرىء سبحت ﴿له السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾ من الملائكة والثقلين على أن المراد بالتسبيح معنى منتظم لما ينطق به لسان المقال ولسان الحال بطريق عموم المجاز ﴿وان من شىء﴾ من الأشياء حيوانا كان أونباتا أوجمادا ﴿الا يسبح﴾ ملتبسا ﴿بحمده﴾ أى ينزهه تعالى بلسان الحال عما لايليق بذاته الأقدس من لوازم الامكان ولواحق الحدوث اذ ما من موجود الا وهو بامكانه وحدوثه يدل دلالة واضحة على أن له صانعا عليما قادرا حكيما واجبا لذاته قطعا للسلسلة ﴿ولكن لاتفقهون تسبيحهم﴾ أيها المشركون لاخلالكم بالنظر الصحيح الذى به يفهم ذلك وقرىء لايفقهون على صيغة المبنى للمفعول من باب التفعيل ﴿انه كان حليما﴾ ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة مع ماأنتم عليه من موجباتها من الاعراض عن التدبر فى الدلائل الواضحة الدالة على التوحيد والانهماك فى الكفر والاشراك ﴿غفورا﴾ لمن تاب منكم ﴿واذا قرأت القرآن﴾ الناطق بالتسبيح والتنزيه ودعوتهم الى العمل بما فيه من التوحيد ورفض الشرك وغير ذلك من الشرائع ﴿جعلنا﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على دواعى الحكم الخفية ﴿بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة﴾ أوثر الموصول على الضمير ذما لهم بما فى حيز الصلة وانما خص بالذكر كفرهم بالآخرة من بين سائر ما كفروا به من التوحيد ونحوه دلالة على أنها معظم ماأمروا بالايمان به فى القرآن وتمهيدا لما سينقل عنهم من انكار البعث واستعجاله ونحو ذلك ﴿حجابا﴾ يحجبهم من أن يدركوك على ماأنت عليه من النبوة ويفهموا قدرك الجليل ولذلك اجترؤا على تفوه العظيمة التى هى قولهم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وحمل الحجاب على ماروى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه من أنه لما نزلت سورة تبت أقبلت العوراء أم جميل امرأة أبى لهب وفى يدها فهر والنبى عليه الصلاة والسلام قاعد فى المسجد

ومعه أبو بكر رضى الله عنه فلما رآها قال يارسول الله لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك قال عليه الصلاة والسلام انها لن تراني وقرأ قرآنا فوقفت على أبي بكر رضى الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يقبله الذوق السليم ولا يساعده النظم الكريم ﴿مستورا﴾ ذاستر كما فى قولهم سيل مفعم أو مستورا عن الحس بمعنى غير حسى أو مستورا فى نفسه بحجاب آخر أو مستورا كونه حجابا حيث لايدرون أنهم لايدرون ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أغطية كثيرة جمع كنان ﴿أن يفقهوه﴾ مفعول لأجله أى كراهة أن يفقهوه أو مفعول لما دل عليه الكلام أى منعناهم أن يقفوا على كنهه و يعرفوا أنه من عند الله تعالى ﴿وفى آذانهم وقرا﴾ صمما و ثقلا مانعا من سماعه اللائق به وهذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشئون النبي عليه الصلاة والسلام وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له جىء بها بيانا لعدم فقههم لتسبيح لسان المقال اثر بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال وايذانا بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه الا لمانع قوى يعترى المشاعر فيبطلها وتنبيها على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق لا حكاية لما قالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه و فى آذاننا وقر ومن بيننا و بينك حجاب كيف لا و قصدهم بذلك انما هو الاخبار بما اعتقدوه فى حق القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام جهلا و كفرا من اتصافهما بأوصاف مانعة من التصديق والايمان ككون القرآن سحرا وشعرا وأساطير وقس عليه حال النبي عليه الصلاة والسلام لا الاخبار بأن هناك أمرا وراء ما أدركوه قد حال بينهم و بين ادراكه حائل من قبلهم و لا ريب فى أن ذلك المعنى مما لا يكاد يلائم المقام ﴿واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده﴾ واحدا غير مشفوع به آلهتهم وهو مصدر وقع موقع الحال أصله يحد وحده ﴿ولوا على أدبارهم﴾ أى هربوا ونفروا ﴿نفورا﴾ أو ولوا نافرين ﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾ ملتبسين به من اللغو والاستخفاف والهزء بك و بالقرآن يروى أنه كان يقوم عن يمينه عليه الصلاة والسلام رجلان من بنى عبد الدار وعن يساره رجلان فيصفقون و يصفرون و يخلطون عليه بالاشعار ﴿اذ يستمعون اليك﴾ ظرف لأعلم وفائدته تأكيد الوعيد بالاخبار بأنه كما يقع الاستماع المزبور منهم يتعلق به العلم لا أن العلم يستفاد هناك من أحد و كذا قوله تعالى ﴿واذهم نجوى﴾ لكن لا من حيث تعلقه بما به الاستماع بل بما به التناجى المدلول عليه بسياق النظم والمعنى نحن أعلم بالذى يستمعون ملتبسين به مما لا خير فيه من الامور المذكورة و بالذى يتناجون به فيما بينهم أو الاول ظرف ليستمعون والثانى ليتناجون والمعنى نحن أعلم بما به الاستماع وقت استماعهم من غير تأخير و بما به التناجى وقت تناجيهم ونجوى مرفوع على الخبرية بتقدير المضاف أى ذو و نجوى أو هو جمع نجى كقتلى جمع قتيل أى متناجون ﴿اذ يقول الظالمون﴾ بدل من اذهم وفيه دليل على أن مايتناجون به غير ما يستمعون به وانما وضع الظالمون موضع المضمر اشعارا بأنهم فى ذلك ظالمون مجاوزون للحد أى يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم ﴿ان تتبعون﴾ ماتتبعون ان وجد منكم الاتباع فرضا أو ما تتبعون باللغو والهزء ﴿الا رجلا مسحورا﴾ أى سحر فجن أو رجلا ذا سحر أى رئة يتنفس أى بشرا مثلكم ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ أى مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون ﴿فضلوا﴾ فى جميع ذلك عن منهاج المحاجة ﴿فلا يستطيعون سبيلا﴾ الى طعن يمكن أن يقبله أحد فيتهافتون و يخبطون و يأتون بما لا يرتاب فى بطلانه أحد أو الى سبيل الحق والرشاد وفيه من الوعيد وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم مالا يخفى ﴿وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا﴾ استفهام انكارى مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار للبعث بعد ما آل الحال الى هذا المآل لما بين غضاضة الحى و يبوسة الرميم من التنافى كأن استحالة الامر من الظهور بحيث لا يقدر المخاطب على التكلم به والرفات مابولغ فى دقه وتفتيته وقال الفراء هو التراب وهو قول مجاهد وقيل هو الحطام واذا متمحضة للظرفية وهو الاظهر والعامل فيها مادل عليه قوله

تعالى ﴿أئنا لمبعوثون﴾ لانفسه لان مابعد ان والهمزة واللام لايعمل فيما قبلها وهو نبعث أو نعاد وهو المرجع للانكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيصه به فانهم منكرون للاحياء بعد الموت وان كان البدن على حاله بل لتقوية الانكار للبعث بتوجيهه اليه فى حالة منافية له وتكرير الهمزة فى قولهم أئنا لتأكيد النكير وتحلية الجملة بأن واللام لتأكيد الانكار لا لانكار التأكيد كما عسى يتوهم من ظاهر النظم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى مثل قوله تعالى أفلا تعقلون ونظائره على رأى الجمهور فان المعنى عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وليس مدار انكارهم كونهم ثابتين فى المبعوثية بالفعل فى حال كونهم عظاما و رفاتا كما يتراءى من ظاهر الجملة الاسمية بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له ومرجعه الى انكار البعث بعد تلك الحالة وفيه من الدلالة على غلوهم فى الكفر وتماديهم فى الضلال مالا مزيد عليه ﴿خلقا جديدا﴾ نصب على المصدر من غير لفظه أو الحالية على أن الخلق بمعنى المخلوق ﴿قل﴾ جوابا لهم وتقريبا لما استبعدوه ﴿كونوا حجارة أو حديدا أوخلقا﴾ آخر ﴿مما يكبر فى صدوركم﴾ أى يعظم عندكم عن قبول الحياة لكمال المباينة والمنافاة بينها و بينه فانكم مبعوثون ومعادون لامحالة ﴿فسيقولون من يعيدنا﴾ مع مابيننا و بين الاعادة من مثل هذه المباعدة والمباينة ﴿قل﴾ لهم تحقيقا للحق وازاحة للاستبعاد وارشادا لهم الى طريقة الاستدلال ﴿الذى﴾ أى يعيدكم القادر العظيم الذى ﴿فطركم﴾ اخترعكم ﴿أول مرة﴾ من غير مثال يحتذيه و لا أسلوب ينتحيه وكنتم ترابا ماشم رائحة الحياة أليس الذى يقدر على ذلك بقادر على أن يعيد العظام البالية الى حالتها المعهودة بلى انه على كل شىء قدير ﴿فسينغضون اليك رؤسهم﴾ أى سيحركونها نحوك تعجبا وانكارا ﴿و يقولون﴾ استهزاء ﴿متى هو﴾ أى ماذكرته من الاعادة ﴿قل﴾ لهم ﴿عسى أن يكون﴾ ذلك ﴿قريبا﴾ نصب على أنه خبر ليكون أو ظرف على أن كان تامة أى أن يقع فى زمان قريب ومحل أن مع مافى حيزها اما نصب على أنه خبر لعسى وهى ناقصة واسمها ضمير عائد الى ماعاد اليه هو أى عسى البعث أن يكون قريبا أو عسى البعث يقع فى زمان قريب أو رفع على أنه فاعل لعسى وهى تامة أى عسى كونه قريبا أو وقوعه فى زمان قريب ﴿يوم يدعوكم﴾ منصوب بفعل مضمر أى اذكروا أو على أنه بدل من قريبا على أنه ظرف أو يكون تامة بالاتفاق أو ناقصة عند من يجوز اعمال الناقصة فى الظروف أو بضمير المصدر المستكن فى عسى أو يكون أعنى البعث عند من يجوز اعمال ضمير المصدر كما فى قول زهير

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم

فهو ضمير المصدر وقد تعلق به مابعده من الجار ﴿فتستجيبون﴾ أى يوم يبعثكم فتبعثون وقد استعير لهما الدعاء والاجابة ايذانا بكمال سهولة التأتى و بأن المقصود منهما الاحضار للمحاسبة والجواب ﴿بحمده﴾ حال من ضمير تستجيبون أى منقادين له حامدين لما فعل بكم غير مستعصين أو حامدين له تعالى على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها ومعاينة أحكامها ﴿وتظنون﴾ عطف على تستجيبون أى تظنون عند ماترون ماترون من الامور الهائلة ﴿ان لبثتم﴾ أى مالبثتم فى القبور ﴿الا قليلا﴾ كالذى مر على قرية أو مالبثتم فى الدنيا ﴿وقل لعبادى﴾ أى المؤمنين ﴿يقولوا﴾ عند محاورتهم مع المشركين ﴿التى﴾ أى الكلمة التى ﴿هى أحسن﴾ و لايخاشنوهم كقوله تعالى و لاتجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن ﴿ان الشيطان ينزغ بينهم﴾ أى يفسد و يهيج الشر والمراء و يغرى بعضهم على بعض لتقع بينهم المشاقة والمشارة والمعارة والمضارة فلعل ذلك يؤدى الى تأكد العناد وتمادى الفساد فهو تعليل للامر السابق وقرىء بكسر الزاء ﴿ان الشيطان كان﴾ قدما ﴿للانسان عدوا مبينا﴾ ظاهر العداوة وهو تعليل لما سبق من أن الشيطان ينزغ بينهم ﴿ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم﴾ بالتوفيق للايمان ﴿أوان يشأ يعذبكم﴾ بالاماتة على الكفر وهذا تفسير التى هى

أحسن وما بينهما اعتراض أى قولوا لهم هذه الكلمة ومايشا كلها و لا تصرحوا بأنهم من أهل النار فانه مما يهيجهم على الشر مع أن العاقبة مما لا يعلمه الا الله سبحانه فعسى يهديهم الى الايمان ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلا﴾ موكولا اليك أمورهم تقسرهم على الايمان وانما أرسلناك بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمشاقة وذلك قبل نزول آية السيف وقيل نزلت فى عمر رضى الله عنه شتمه رجل فأمر بالعفو وقيل أفرط أذية المشركين بالمؤمنين فشكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وقيل الكلمة التى هى أحسن أن يقولوا يهديكم الله و يرحمكم الله ﴿وربك أعلم بمن فى السموات والأرض﴾ وتفاصيل أحوالهم الظاهرة والكامنة التى بها يستأهلون الاصطفاء والاجتباء فيختار منهم لنبوته و لايته من يشاء ممن يستحقه وهو رد عليهم اذ قالوا بعيد أن يكون يتيم أبى طالب نبيا وأن يكون العراة الجوع أصحابه دون أن يكون ذلك من الاكابر والصناديد وذكر من فى السموات لابطال قولهم لولا أنزل علينا الملائكة وذكر من فى الارض لرد قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ بالفضائل النفسانية والتنزه عن العلائق الجسمانية لا بكثرة الاموال والاتباع ﴿وآتينا داود زبورا﴾ بيان لحيثية تفضيله عليه الصلاة والسلام فان ذلك ايتاء الزبور لا ايتاء الملك والسلطنة وفيه ايذان بتفضيل النبى عليه الصلاة والسلام فان نعوته الجليلة وكونه خاتم النبيين مسطورة فى الزبور وأن المراد بعباد الله الصالحين فى قوله تعالى ان الارض يرثها عبادى الصالحون هو النبى عليه الصلاة والسلام وأمته وتعريف الزبور تارة وتنكيره أخرى اما لانه فى الاصل فعول بمعنى المفعول كالحلوب أو مصدر بمعناه كالقبول واما لان المراد آتينا داود زبورا من الزبر أو بعضا من الزبور فيه ذكره عليه الصلاة والسلام وقرىء بضم الزاى على أنه جمع زبر بمعنى مزبور ﴿قل ادعوا الذين زعمتم﴾ انها آلهة ﴿من دونه﴾ تعالى من الملائكة والمسيح وعزير ﴿فلايملكون﴾ فلايستطيعون ﴿كشف الضر عنكم﴾ بالمرة كالمرض والفقر والقحط ونحو ذلك ﴿ولاتحويلا﴾ أى ولاتحويله الى غيركم ﴿أولئك الذين يدعون﴾ أى أولئك الآلهة الذين يدعوهم المشركون من المذكورين ﴿يبتغون﴾ يطلبون لأنفسهم ﴿الى ربهم﴾ ومالك أمورهم ﴿الوسيلة﴾ القربة بالطاعة والعبادة ﴿أيهم أقرب﴾ بدل من فاعل يبتغون وأى موصولة أى يبتغى من هو أقرب اليه تعالى الوسيلة فكيف بمن دونه أو ضمن الابتغاء معنى الحرص فكأنه قيل يحرصون أيهم يكون أقرب اليه تعالى بالطاعة والعبادة ﴿ويرجون رحمته﴾ بها ﴿ويخافون عذابه﴾ بتركها كدأب سائر العباد فأين هم من كشف الضر فضلا عن الالهية ﴿ان عذاب ربك كان محذورا﴾ حقيقا بأن يحذره كل أحد حتى الملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام وهو تعليل لقوله تعالى ويخافون عذابه وتخصيصه بالتعليل لما أن المقام مقام التحذير من العذاب وأن بينهم و بين العذاب بونا بعيدا ﴿وان من قرية﴾ بيان لتحتم حلول عذابه تعالى بمن لا يحذره اثر بيان أنه حقيق بالحذر وأن اساطين الخلق من الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام على حذر من ذلك وكلمة ان نافية ومن استغراقية والمراد بالقرية القرية الكافرة أى مامن قرية من قرى الكفار ﴿الانحن مهلكوها﴾ أى مخربوها البتة بالخسف بها أو باهلاك أهلها بالمرة لما ارتكبوا من عظائم الموبقات المستوجبة لذلك وفى صيغة الفاعل وان كانت بمعنى المستقبل ماليس فيه من الدلالة على التحقق والتقرر وانما قيل ﴿قبل يوم القيامة﴾ لأن الاهلاك يومئذ غير مختص بالقرى الكافرة ولا هو بطريق العقوبة وانما هو لانقضاء عمر الدنيا ﴿أومعذبوها﴾ أى معذبو أهلها على الاسناد المجازى ﴿عذابا شديدا﴾ لا بالقتل والسبى ونحوهما من البلايا الدنيوية فقط بل بما لا يكتنه كنهه من فنون العقوبات الاخروية أيضا حسبما يفصح عنه اطلاق التعذيب عما قيد به الاهلاك من قبلية يوم القيامة كيف لا وكثير من القرى العاتية العاصية قد أخرت عقوباتها الى يوم القيامة ﴿كان

ذلك﴾ الذى ذكر من الاهلاك والتعذيب ﴿فى الكتاب﴾ أى اللوح المحفوظ ﴿مسطورا﴾ مكتوبا لم يغادر منه شىء الابين فيه بكيفياته وأسبابه الموجبة له ووقته المضروب له هذا وقد قيل الهلاك للقرى الصالحة والعذاب للطالحة وعن مقاتل وجدت فى كتاب الضحاك بن مزاحم فى تفسيرها أما مكة فيخربها الحبشة وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف وأما خراسان فهلاكها ضروب ثم ذكرها بلدا بلدا وقال الحافظ أبو عمرو الدوانى فى كتاب الفتن انه روى عن وهب بن منبه أن الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر ومصر آمنة حتى تخرب الكوفة ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة فاذا كانت الملحمة الكبرى فتحت قسطنطينية على يدى رجل من بنى هاشم وخراب الاندلس من قبل الزنج وخراب أفريقية من قبل الاندلس وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها وخراب العراق من الجوع وخراب الكوفة من قبل عدو من ورائهم يحصرهم حتى لا يستطيعون أن يشربوا من الفرات قطرة وخراب البصرة من قبل الغرق وخراب الايلة من قبل عدو يحصرهم برا وبحرا وخراب الرى من الديلم وخراب خراسان من قبل التبت وخراب التبت من قبل الصين وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان وخراب مكة من الحبشة وخراب المدينة من قبل الجوع وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى عليه الصلاة والسلام قال آخر قرية من قرى الاسلام خرابا المدينة وقد أخرجه العمرى من هذا الوجه وأنت خبير بان تعميم القرية لا يساعده السباق ولا السياق ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات﴾ أى الآيات التى اقترحتها قريش من احياء الموتى وقلب الصفا ذهبا ونحو ذلك ﴿الا أن كذب بها الأولون﴾ استثناء مفرغ من أعم الاشياء أى وما منعنا ارسالها شىء من الاشياء الا تكذيب الاولين بها حين جاءتهم باقتراحهم وعدم ارساله تعالى بها وان كان بمشيئته المبنية على الحكم البالغة لا لمنع مانع عن ذلك من التكذيب أو غيره لاستحالة العجز عليه تعالى لكن تكذيبهم المذكور بواسطة استتباعه لاستئصالهم بحكم السنة الالهية واستلزامه لتكذيب الآخرين بحكم الاشتراك فى العتو والعناد وافضائه الى أن يحل بهم مثل ما حل بهم بحكم الشركة فى الجريرة لما كان منافيا للارسال لما اقترحوه من الآيات لتعين التكذيب المستدعى للاستئصال المخالف لما جرى به قلم القضاء من تأخير عقوبات هذه الأمة الى الآخرة لحكم باهرة من جملتها ما يتوهم من ايمان بعض أعقابهم عبر عن تلك المنافاة بالمنع على نهج الاستعارة ايذانا بتعاضد مبادى الارسال لا كما زعموا من عدم ارادته تعالى لتأييده عليه الصلاة والسلام بالمعجزات وهو السر فى ايثار الارسال على الايتاء لما فيه من الاشعار بتداعى الآيات الى النزول لولا أن تمسكها يد التقدير واسناد على هذا المنع الى تكذيب الاولين لا الى علمه تعالى بما سيكون من الآخرين كما فى قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون لاقامة الحجة عليهم بابراز الانموذج وللايذان بأن مدار عدم الاجابة الى ايتاء مقترحهم ليس الا صنيعهم ﴿وآتينا ثمود الناقة﴾ عطف على ما يفصح عنه النظم الكريم كأنه قيل وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون حيث آتيناهم ما اقترحوا من الآيات الباهرة فكذبوها وآتينا باقتراحهم ثمود الناقة ﴿مبصرة﴾ على صيغة الفاعل أى بينة ذات ابصار أو بصائر يدركها الناس أو أسند اليها حال من يشاهدها مجازا أو جاعلتهم ذوى بصائر من أبصره جعله بصيرا وقرىء على صيغة المفعول وبفتح الميم والصاد وهى نصب على الحالية وقرىء بالرفع على انها خبر مبتدأ محذوف ﴿فظلموا بها﴾ فكفروا بها ظالمين أى لم يكتفوا بمجرد الكفر بها بل فعلوا بها ما فعلوا من العقر أو ظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها ولعل تخصيصها بالذكر لما أن ثمود عرب مثلهم وأن لهم من العلم بحالهم ما لا مزيد عليه حيث يشاهدون آثار هلاكهم ورودا وصدورا أو لانها من جهة انها حيوان أخرج من الحجر أوضح دليل على تحقق مضمون قوله تعالى قل كونوا حجارة

أوحديدا ﴿ ومانرسل بالآيات ﴾ المقترحة ﴿ الاتخويفا ﴾ لمن أرسلت هى عليهم مما يعقبها من العذاب المستأصل كالطليعة له وحيث لم يخافوا ذلك فعل بهم مافعل فلامحل للجملة حينئذ من الاعراب ويجوز أن تكون حالا من ضمير ظلموا أى فظلموا بها ولم يخافوا عاقبته والحال أنا مانرسل بالآيات التى هى من جملتها الاتخويفا من العذاب الذى يعقبها فنزل بهم مانزل ﴿ واذ قلنالك ان ربك أحاط بالناس ﴾ أى علما كما نقله الامام الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما فلا يخفى عليه شىء من أفعالهم الماضية والمستقبلة من الكفر والتكذيب و فى قوله تعالى ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس ﴾ الى آخر الآية تنبيه على تحققها بالاستدلال عليها بماصدر عنهم عند مجىء بعض الآيات لاشتراك الكل فى كونها أمورا خارقة للعادات منزلة من جانب الله سبحانه لتصديق النبى عليه الصلاة والسلام فتكذيبهم لبعضها مستلزم لتكذيب الباقى كما أن تكذيب الآخرين بغير المقترحة يدل على تكذيبهم بالآيات المقترحة والمراد بالرؤيا ما عاينه عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج من عجائب الأرض والسماء حسبما ذكر فى فاتحة السورة الكريمة والتعبير عن ذلك بالرؤيا اما لأنه لافرق بينها وبين الرؤية أو لانها وقعت بالليل أولان الكفرة قالوا لعلها رؤيا أى وماجعلنا الرؤيا التى أريناكها عيانا مع كونها آية عظيمة وأية آية حقيقة بأن لايتلعثم فى تصديقها أحد ممن له أدنى بصيرة الا فتنة افتتن بها الناس حتى ارتد بعضهم ﴿ والشجرة الملعونة فى القرآن ﴾ عطف على الرؤيا والمراد بلعنها فيه لعن طاعمها على الاسناد المجازى أو ابعادها عن الرحمة فانها تنبت فى أصل الجحيم فى أبعدمكان من الرحمة أى وما جعلناها الا فتنة لهم حيث أنكروا ذلك وقالوا ان محمدا يزعم أن الجحيم يحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر ولقد ضلوا فى ذلك ضلالا بعيدا حيث كابروا قضية عقولهم فانهم يرون النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد المحماة فلا تضرها ويشاهدون المناديل المتخذة من وبر السمندر تلقى فى النار فلا تؤثر فيها ويرون أن فى كل شجر نارا وقرىء بالرفع على حذف الخبر كانه قيل والشجرة الملعونة فى القرآن كذلك ﴿ ونخوفهم ﴾ بذلك وبنظائرها من الآيات فان الكل للتخويف وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار فما يزيدهم التخويف ﴿ الاطغيانا كبيرا ﴾ متجاوزا عن الحد فلو أنا أرسلنا بما اقترحوه من الآيات لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها وفعل بهم ما فعل بأشياعهم وقد قضينا بتأخير العقوبة العامة لهذه الامة الى الطامة الكبرى هذا هو الذى يستدعيه النظم الكريم وقدحمل أكثر المفسرين الاحاطة على الاحاطة بالقدرة تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما عسى يعتريه من عدم الاجابة الى انزال الآيات التى اقترحوها لان انزالها ليس بمصلحة من نوع حزن من طعن الكفرة حيث كانوا يقولون لوكنت رسولا حقا لأتيت بهذه المعجزات كما أتى بها موسى وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكانه قيل اذكر وقت قولنا لك ان ربك اللطيف بك قد أحاط بالناس فهم فى قبضة قدرته لايقدرون على الخروج من مشيئته فهو يحفظك منهم فلا تهتم بهم وامض لما أمرتك به من تبليغ الرسالة ألايرى أن الرؤيا التى أريناك من قبل جعلناها فتنة للناس مورثة للشبهة مع أنهاما أورثت ضعفا لامرك وفتورا فى حالك وقد فسر الاحاطة باهلاك قريش يوم بدر وانما عبر عنه بالماضى مع كونه منتظرا حسبما ينبىء عنه قوله تعالى سيهزم الجمع ويولون الدبر وقوله تعالى قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وغير ذلك جريا على عادته سبحانه فى أخباره وأولت الرؤيا بما رآه عليه الصلاة والسلام فى المنام من مصارعهم لما روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ورد ماء بدر قال والله لكانى أنظر الى مصارع القوم وهو يومىء الى الأرض هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان فتسامعت به قريش فاستسخروا منه وبما رآه عليه الصلاة والسلام أنه سيدخل مكة وأخبر به أصحابه فتوجه اليها فصده المشركون عام الحديبية واعتذر عن كون ماذكر مدنيا بأنه يجوز أن يكون الوحى باهلاكهم وكذا الرؤيا واقعا بمكة وذكر الرؤيا وتعيين المصارع واقعين بعد الهجرة وأنت خبير بأنه

يلزم منه أن يكون افتتان الناس بذلك واقعا بعد الهجرة وأن يكون ازديادهم طغيانا متوقعا غير واقع عند نزول الآية وقد
قيل الرؤيا ما رآه عليه الصلاة والسلام فى وقعة بدر من مضمون قوله تعالى اذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا
لفشلتم ولا ريب فى أن تلك الرؤيا مع وقوعها فى المدينة ما جعلت فتنة للناس ﴿ واذ قلنا للملائكة ﴾ تذكير لما جرى
منه تعالى من الأمر ومن الملائكة من الامتثال والطاعة من غير تردد وتحقيق لمضمون ما سبق من قوله تعالى أولئك
الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا ويعلم
من حال الملائكة حال غيرهم من عيسى وعزير عليهما السلام فى الطاعة وابتغاء الوسيلة ورجاء الرحمة ومخافة العذاب
ومن حال ابليس حال من يعاند الحق ويخالف الأمر أى واذكر وقت قولنا لهم ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ تحية وتكريما
لما له من الفضائل المستوجبة لذلك ﴿ فسجدوا ﴾ له من غير تلعثم امتثالا للامر وأداء لحقه عليه الصلاة والسلام
﴿ الا ابليس ﴾ وكان داخلا فى زمرتهم مندرجا تحت الأمر بالسجود ﴿ قال ﴾ أى عند ما وبخ بقوله عز سلطانه
يا ابليس مالك أن لا تكون مع الساجدين وقوله ما منعك أن لا تسجد اذ أمرتك وقوله ما منعك أن تسجد لما خلقت
بيدى كما أشير اليه فى سورة الحجر ﴿ أأسجد ﴾ وأنا مخلوق من العنصر العالى ﴿ لمن خلقت طينا ﴾ نصب على نزع
الخافض أى من طين أو حال من الراجع الى الموصول أى خلقته وهو طين أو من نفس الموصول أى أأسجد له وأصله
طين والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بالموصول لتعليل انكاره بما فى حيز الصلة ﴿ قال ﴾ أى ابليس لكن لا عقيب
كلامه المحكى بل بعد الانظار المترتب على استنظاره المتفرع على الأمر بخروجه من بين الملأ الأعلى باللعن المؤبد وانما
لم يصرح بذلك اكتفاء بما ذكر فى مواضع أخر فان توسيط قال بين كلامى اللعين للايذان بعدم اتصال الثانى بالأول
وعدم ابتنائه عليه بل على غيره كما فى قوله تعالى قال فما خطبكم بعد قوله تعالى قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون
﴿ أرأيتك هذا الذى كرمت على ﴾ الكاف لتأكيد الخطاب لا محل لها من الاعراب وهذا مفعول أول والموصول صفته
والثانى محذوف لدلالة الصلة عليه أى أخبرنى عن هذا الذى كرمته على بأن أمرتنى بالسجود له لم كرمته على وقيل هذا
مبتدأ حذف عنه حرف الاستفهام والموصول مع صلته خبره ومقصوده الاستصغار والاستحقار أى أخبرنى أهذا من
كرمته على وقيل معنى أرأيتك أتأملت كان المتكلم ينبه المخاطب على استحضار ما يخاطبه به عقيبه ﴿ لئن أخرتن ﴾ حيا
﴿ الى يوم القيامة ﴾ كلام مبتدأ واللام موطئة للقسم وجوابه قوله ﴿ لأحتنكن ذريته ﴾ أى لاستأصلنهم من قولهم
احتنك الجراد الأرض اذا جرد ما عليها أكلا أو لأقودنهم حيث ما شئت ولأستولين عليهم استيلاء قويا من قولهم
حنكت الدابة واحتنكتها اذا جعلت فى حنكها الأسفل حبلا تقودها به وهذا كقوله لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم
أجمعين وانما علم تسنى ذلك المطلب له تلقيا من جهة الملائكة عليهم الصلاة والسلام أو استنباطا من قولهم أتجعل فيها
من يفسد فيها ويسفك الدماء أو توسما من خلقه ﴿ الا قليلا ﴾ منهم وهم المخلصون الذين عصمهم الله تعالى ﴿ قال اذهب ﴾
أى امض لشأنك الذى اخترته وهو طرد له وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه ﴿ فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم ﴾
أى جزاؤك وجزاؤهم فغلب المخاطب على الغائب رعاية لحق المتبوعية ﴿ جزاء موفورا ﴾ أى جزاء مكملا من قولهم
فر لصاحبك عرضه فرة أى وفر وهو نصب على أنه مصدر مؤكد لما فى قوله فان جهنم جزاؤكم من معنى تجازون أو للفعل
المقدر أو حال موطئة لقوله موفورا ﴿ واستفزز ﴾ أى استخف ﴿ من استطعت منهم ﴾ أن تستفزه ﴿ بصوتك ﴾
بدعائك الى الفساد ﴿ وأجلب عليهم ﴾ أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح ﴿ بخيلك ورجلك ﴾ أى بأعوانك
وأنصارك من راكب وراجل من أهل العيث والفساد قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقتادة ان له خيلا ورجلا

من الجن والانس فما كان من راكب يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من خيل ابليس وما كان من راجل يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من رجل ابليس والخيل الخيالة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام ياخيل الله اركبي والرجل اسم جمع للراجل كالصحب والركب وقرئ بكسر الجيم وهى قراءة حفص على أنه فعل بمعنى فاعل كتعب وتاعب و بضمة مثل حدث وحدث وندس وندس ونظائرهما أى جمعك الراجل ليطابق الخيل وقرئ رجالك و رجالك و يجوز أن يكون استفزازه بصوته واجلابه بخيله و رجله تمثيلا لتسلطه على من يغويه فكأنه مغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتا يزعجهم من أماكنهم و يقلقهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجنده من خيالة و رجالة حتى استأصلهم ﴿وشاركهم فى الأموال﴾ بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام والتصرف فيها على مالا ينبغى ﴿والاولاد﴾ بالحث على التوصل اليهم بالاسباب المحرمة والاشراك كتسميتهم بعبدالعزى والتضليل بالحمل على الاديان الزائغة والحرف الذميمة والأفعال القبيحة ﴿وعدهم﴾ المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكال على كرامة الآباء وتأخير التوبة بتطويل الأمل ﴿ومايعدهم الشيطان الاغرورا﴾ اعتراض لبيان شأن مواعيده والالتفات الى الغيبة لتقوية معنى الاعتراض مع ما فيه من صرف الكلام عن خطابه و بيان شأنه للناس ومن الاشعار بعلية شيطنته للغرور وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب ﴿ان عبادى﴾ الاضافة للتشريف وهم المخلصون وفيه أن من تبعه ليس منهم وأن الاضافة لثبوت الحكم فى قوله تعالى ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾ أى تسلط وقدرة على اغوائهم كقوله تعالى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴿وكفى بربك وكيلا﴾ لهم يتوكلون عليه و يستمدون به فى الخلاص عن اغوائك والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلى مع الاضافة الى ضمير ابليس للاشعار بكيفية كفايته تعالى لهم أعنى سلب قدرته على اغوائهم ﴿ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر﴾ مبتدأ وخبر والازجاء السوق حالا بعد حال أى هو القادر الحكيم الذى يسوق لمنافعكم الفلك و يجريها فى البحر ﴿لتبتغوا من فضله﴾ من رزقه الذى هو فضل من قبله أو من الربح الذى هو معطيه ومن مزيدة أو تبعيضية وهذا تذكير لبعض النعم التى هى دلائل التوحيد وتمهيد لذكر توحيدهم عند مساس الضر تكملة لما مر من قوله تعالى فلا يملكون الآية ﴿انه كان بكم﴾ أزلا وأبدا ﴿رحيما﴾ حيث هيأ لكم ما تحتاجون اليه وسهل عليكم ما يعسر من مباديه وهذا تذييل فيه تعليل لما سبق من الازجاء لابتغاء الفضل وصيغة الرحيم للدلالة على أن المراد بالرحمة الدنيوية والنعمة العاجلة المنقسمة الى الجليلة والحقيرة ﴿واذا مسكم الضر فى البحر﴾ خوف الغرق فيه ﴿ضل من تدعون﴾ أى ذهب عن خواطركم ما كنتم تدعون من دون الله من الملائكة أو المسيح أو غيرهم ﴿الا اياه﴾ وحده من غير أن يخطر ببالكم أحد منهم وتدعوه لكشفه استقلالا أو اشتراكا أو ضل كل من تدعونه عن اغاثتكم وانقاذكم ولم يقدر على ذلك الا الله على الاستثناء المنقطع ﴿فلما نجاكم﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿الى البر أعرضتم﴾ عن التوحيد أو اتسعتم فى كفران النعمة ﴿وكان الانسان كفورا﴾ تعليل لما سبق من الاعراض ﴿أفأمنتم﴾ الهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم ﴿أن يخسف بكم جانب البر﴾ الذى هو مأمنكم أى يقلبه ملتبسا بكم أو بسبب كونكم فيه وفى زيادة الجانب تنبيه على تساوى الجوانب والجهات بالنسبة الى قدرته سبحانه وتعالى وقهره وسلطانه وقرئ بنون العظمة ﴿أو يرسل عليكم﴾ من فوقكم وقرئ بالنون ﴿حاصبا﴾ ريحا ترمى بالحصباء ﴿ثم لاتجدوا لكم وكيلا﴾ يحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم فانه لاراد لامره الغالب ﴿أم أمنتم أن يعيدكم فيه﴾ فى البحر أوثرت كلمة فى على كلمة الى المنبئة عن مجرد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه ﴿تارة أخرى﴾ اسناد الاعادة اليه تعالى مع أن العود اليه

باختيارهم باعتبار خلق الدواعى الملجئة لهم الى ذلك وفيه ايماء الى كمال شدة هول مالاقوه فى التارة الأولى بحيث لولا الاعادة لما عادوا ﴿فيرسل عليكم﴾ وأنتم فى البحر وقرئ بالنون ﴿قاصفا من الريح﴾ وهى التى لاتمر بشئ الا كسرته وجعلته كالرميم أو التى لها قصيف وهو الصوت الشديد كأنها تتقصف أى تتكسر ﴿فيغرقكم﴾ بعد كسر فلككم كما ينبئ عنه عنوان القصف وقرئ بالنون و بالتاء على الاسناد الى ضمير الريح ﴿بما كفرتم﴾ بسبب اشراككم أو كفرانكم لنعمة الانجاء ﴿ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا﴾ أى ثائرا يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا ودركا للثار من جهتنا كقوله سبحانه ولايخاف عقباها ﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾ قاطبة تكريما شاملا لبرهم وفاجرهم أى كرمناهم بالصورة والقامة المعتدلة والتسلط على مافى الارض والتمتع به والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة ومن جملته ماذكره ابن عباس رضى الله عنهما من أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه الا الانسان فانه يرفعه اليه بيده وما قيل من شركة القرد له فى ذلك مبنى على عدم الفرق بين اليد والرجل فانه متناول له برجله التى يطأ بها القاذورات لابيده ﴿وحملناهم فى البر والبحر﴾ على الدواب والسفن من حملته اذا جعلت له مايركبه وليس من المخلوقات شئ كذلك وقيل حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم الارض ولم نغرقهم بالماء وأنت خبير بأن الاول هو الانسب بالتكريم اذ جميع الحيوانات كذلك ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أى فنون النعم وضروب المستلذات مما يحصل بصنعهم و بغير صنعهم ﴿وفضلناهم﴾ فى العلوم والادراكات بما ركبنا فيهم من القوى المدركة التى بها يتميز الحق من الباطل والحسن من القبيح ﴿على كثير ممن خلقنا﴾ وهم من عدا الملائكة عليهم الصلاة والسلام ﴿تفضيلا﴾ عظيما فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ولايكفروها و يستعملوا قواهم فى تحصيل العقائد الحقة و يرفضوا ماهم عليه من الشرك الذى لايقبله أحد ممن له أدنى تميز فضلا عمن فضل على من عدا الملأ الأعلى الذين هم العقول المحضة وانما استثنى جنس الملائكة من هذا التفضيل لان علومهم دائمة عارية عن الخطأ والخلل وليس فيه دلالة على أفضليتهم بالمعنى المتنازع فيه فان المراد هنا بيان التفضيل فى أمر مشترك بين جميع أفراد البشر صالحها وطالحها و لا يمكن أن يكون ذلك هو الفضل فى عظم الدرجة و زيادة القربة عند الله سبحانه. ان قيل أى حاجة الى تعيين مافيه التفضيل بعد بيان ماهو المراد بالمفضلين فان استثناء الملائكة عليهم الصلاة والسلام من تفضيل جميع أفراد البشر عليهم لايستلزم استثناءهم من تفضيل بعض أفراده عليهم قلنا لابد من تعيينه البتة اذ ليس من الأفراد الفاجرة للبشر أحد يفضل على أحد من المخلوقات فيما هو المتنازع فيه أصلا بل هم أدنى من كل دنئ حسبما ينبئ عنه قوله تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل وقوله تعالى ان شر الدواب عند الله الذين كفروا ﴿يوم ندعو﴾ نصب على المفعولية باضمار اذكر أو ظرف لما دل عليه قوله تعالى ولا يظلمون وقرئ بالياء على البناء للفاعل والمفعول و يدعو بقلب الالف واوا على لغة من يقول فى أفعى أفعو وقد جوز كون الواو علامة الجمع كما فى قوله تعالى وأسروا النجوى أو ضميره و كل بدلا منه والنون محذوفة لقلة المبالاة بها فانها ليست الا علامة الرفع وقد يكتفى بتقديره كما فى يدعى ﴿كل أناس﴾ من بنى آدم الذين فعلنا بهم فى الدنيا مافعلنا من التكريم والتفضيل وهذا شروع فى بيان تفاوت أحوالهم فى الآخرة بحسب أحوالهم وأعمالهم فى الدنيا ﴿بامامهم﴾ أى بمن ائتموا به من نبى أو مقدم فى الدين أو كتاب أو دين وقيل بكتاب أعمالهم التى قدموها فيقال يا أصحاب كتاب الخير يا أصحاب كتاب الشر أو يا أهل دين كذا يا أهل كتاب كذا وقيل الامام جمع أم كخف وخفاف والحكمة فى دعوتهم بأمهاتهم اجلال عيسى عليه السلام وتشريف الحسنين رضى الله عنهما والستر على أولاد الزنا ﴿فمن أوتى﴾ يومئذ من أولئك المدعوين ﴿كتابه﴾ صحيفة أعماله ﴿بيمينه﴾ ابانة لخطر الكتاب المؤتى وتشريفا لصاحبه وتبشيرا له من أول الامر بما فى مطاويه ﴿فأولئك﴾ اشارة الى من باعتبار معناه

ايذانا بأنهم حزب مجتمعون على شأن جليل أو اشعارا بأن قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد كما فى حال الايتاء ومافيه من الدلالة على البعد للاشعار برفعة درجاتهم أى أولئك المختصون بتلك الكرامة التى يشعر بها الايتاء المزبور ﴿يقرءون كتابهم﴾ الذى أوتوه على الوجه المبين تبجحا بما سطر فيه من الحسنات المستتبعة لفنون الكرامات ﴿ولا يظلمون﴾ أى لاينقصون من أجور أعمالهم المرتسمة فى كتبهم بل يؤتونها مضاعفة ﴿فتيلا﴾ أى قدر فتيل وهو القشرة التى فى شق النواة أو أدنى شىء فان الفتيل مثل فى القلة والحقارة ﴿ومن كان﴾ من المدعوين المذكورين ﴿فى هذه﴾ الدنيا التى فعل بهم فيها مافعل من فنون التكريم والتفضيل ﴿أعمى﴾ فاقد البصيرة لايهتدى الى رشده و لا يعرف ماأوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل فضلا عن شكرها والقيام بحقوقها و لا يستعمل ماأودعناه فيه من العقول والقوى فيما خلقن له من العلوم والمعارف الحقة ﴿فهو فى الآخرة﴾ التى عبر عنها بيوم ندعو ﴿أعمى﴾ كذلك أى لايهتدى الى ماينجيه و لا يظفر بما يجديه لان العمى الأول موجب للثانى وقد جوز كون الثانى بمعنى التفضيل على أن عماه فى الآخرة أشد من عماه فى الدنيا ولذلك قرأ أبو عمرو الاول ممالا والثانى مفخما ﴿وأضل سبيلا﴾ أى من الاعمى لزوال الاستعداد الممكن وتعطل الآلات بالكلية وهذا بعينه هو الذى أوتى كتابه بشماله بدلالة حال ماسبق من الفريق القابل له ولعل العدول عن ذكره بذلك العنوان مع أنه الذى يستدعيه حسن المقابلة حسبما هو الواقع فى سورة الحاقة وسورة الانشقاق للايذان بالعلة الموجبة له كما فى قوله تعالى وأما ان كان من المكذبين الضالين بعد قوله تعالى فأما ان كان من أصحاب اليمين وللرمز الى علة حال الفريق الاول وقد ذكر فى أحد الجانبين المسبب و فى الآخر السبب ودل بالمذكور فى كل منهما على المتروك فى الآخر تعويلا على شهادة العقل كما فى قوله عز وعلا وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الاهو وان يردك بخير فلا راد لفضله ﴿وان كادوا ليفتنونك﴾ نزلت فى ثقيف اذ قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم لاندخل فى أمرك حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب لانعشر و لانحشر ولا نجبى فى صلاتنا وكل ربا لنا فهو لنا وكل ربا علينا فهو موضوع عنا وأن تمتعنا باللات سنة وأن تحرم وادينا وج كما حرمت مكة فاذا قالت العرب لم فعلت فقل ان الله أمرنى بذلك وقيل فى قريش حيث قالوا اجعل لنا آية عذاب آية رحمة و آية رحمة آية عذاب أوقالوا لانمكنك من استلام الحجر حتى تلم بآلهتنا فان مخففة من المشددة وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف واللام هى الفارقة بينها و بين النافية أى ان الشأن قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك فاتنين ﴿عن الذى أوحينا اليك﴾ من أوامرنا ونواهينا و وعدنا و وعيدنا ﴿لتفترى علينا غيره﴾ لتتقول علينا غير الذى أوحينا اليك مما اقترحته ثقيف أو قريش حسبما نقل ﴿واذن لاتخذوك خليلا﴾ أى لو اتبعت أهواءهم لكنت لهم وليا ولخرجت من ولايتى ﴿ولو لا أن ثبتناك﴾ على ماأنت عليه من الحق بعصمتنا لك ﴿لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا﴾ من الركون الذى هو أدنى ميل أى لو لا تثبيتنالك لقاربت أن تميل اليهم شيئا يسيرا من الميل اليسير لقوة خدعهم وشدة احتيالهم لكن أدركتك العصمة فمنعتك من أن تقرب من أدنى مراتب الركون اليهم فضلا عن نفس الركون وهذا صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام ماهم باجابتهم مع قوة الداعى اليها ودليل على أن العصمة بتوفيق الله تعالى وعنايته ﴿إذن﴾ لو قاربت أن تركن اليهم أدنى ركنة ﴿لأذقناك ضعف الحيوة وضعف الممات﴾ أى عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ضعف مايعذب به فى الدارين بمثل هذا الفعل غيرك لأن خطأ الخطير خطير وكان أصل الكلام عذابا ضعفا فى الحياة وعذابا ضعفا فى الممات بمعنى مضاعفا ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ثم أضيفت اضافة موصوفها وقيل الضعف من أسماء العذاب وقيل المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة و بضعف الممات عذاب القبر ﴿ثم لاتجد لك علينا نصيرا﴾ يدفع عنك العذاب ﴿وان كادوا﴾

الكلام فيه كما فى الأول أى كاد أهل مكة ﴿ليستفزونك﴾ أى ايزعجونك بعداوتهم ومكرهم ﴿من الأرض﴾ أى الأرض التى أنت فيها وهى أرض مكة ﴿ليخرجوك منها واذن لايلبثون﴾ بالرفع عطفا على خبر كاد وقرىء لايلبثوا بالنصب باعمال اذن على أن الجملة معطوفة على جملة وان كادوا ليستفزونك ﴿خلافك﴾ أى بعدك قال

خلت الديار خلافهم فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيرا

أى ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك وقرىء خلفك ﴿الا قليلا﴾ الا زمانا قليلا وقد كان كذلك فانهم أهلكوا ببدر بعد هجرته عليه الصلاة والسلام وقيل نزلت الآية فى اليهود حيث حسدوا مقام النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة فقالوا الشام مقام الأنبياء عليهم السلام فان كنت نبيا فالحق بها حتى نؤمن بك فوقع ذلك فى قلبه عليه الصلاه والسلام فخرج مرحلة فنزلت فرجع ثم قتل منهم بنو قريظة وأجلى بنو النضير بقليل ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا﴾ نصب على المصدرية أى سن الله تعالى سنة وهى أن يهلك كل أمة أخرجت رسولهم من بين أظهرهم فالسنة لله تعالى واضافتها الى الرسل لأنها سنت لأجلهم على ماينطق به قوله عز وجل ﴿ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾ أى تغيرا ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ لزوالها كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام أتانى جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت فصلى بى الظهر واشتقاقه من الدلك لأن من نظر اليها حينئذ يدلك عينه وقيل لغروبها من دلكت الشمس أى غربت وقيل أصل الدلوك الميل فينتظم كلا المعنيين واللام للتأقيت مثلها فى قولك لثلاث خلون ﴿الى غسق الليل﴾ الى اجتماع ظلمته وهو وقت صلاة العشاء وليس المراد اقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار بل اقامة كل صلاة فى وقتها الذى عين لها ببيان جبريل عليه السلام كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة الى بيانه عليه السلام ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى فى أوقات الصلوات من غير فصل بينها لما أن الانسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة فبعضها متصل ببعض بخلاف أول وقت العشاء والفجر فانه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ينقطع أحدهما عن الآخر ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الأوقات وقيل المراد بالصلاة صلاة المغرب والتحديد المذكور بيان لمبدئه ومنتهاه واستدل به على امتداد وقته الى غروب الشفق وقوله تعالى ﴿وقرآن الفجر﴾ أى صلاة الفجر نصب عطفا على مفعول أقم أو على الاغراء قاله الزجاج وانما سميت قرآنا لأنه ركنها كما تسمى ركوعا وسجودا واستدل به على الركنية ولكن لادلالة له على ذلك لجواز كون مدار التجوز كون القراءة مندوبة فيها نعم لو فسر بالقراءة فى صلاة الفجر لدل الأمر باقامتها على الوجوب فيها نصا وفيما عداها دلالة ويجوز أن يكون وقرآن الفجر حثا على تطويل القراءة فى صلاة الفجر ﴿ان قرآن الفجر﴾ أظهر فى مقام الاضمار ابانة لمزيد الاهتمام به ﴿كان مشهودا﴾ يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار أو شواهد القدرة من تبدل الضياء بالظلمة والانتباه بالنوم الذى هو أخو الموت أو يشهده كثير من المصلين أو من حقه أن يشهده الجم الغفير فالآية على تفسير الدلوك بالزوال جامعة للصلوات الخمس وعلى تفسيره بالغروب لما عدا الظهر والعصر ﴿ومن الليل﴾ قيل هو نصب على الاغراء أى الزم بعض الليل وقيل لا يكون المغرى به حرفا ولا يجدى نفعا كون معناها التبعيض فان واو مع ليست اسما بالاجماع وان كانت بمعنى الاسم الصريح بل هو منصوب على الظرفية بمضمر أى قم بعض الليل ﴿فتهجد به﴾ أى أزل وألق الهجود أى النوم فان صيغة التفعل تجىء للازالة كالتحرج والتحنث والتأثم ونظائرها والضمير المجرور للقرآن من حيث هو لابقيد اضافته الى الفجر أو للبعض المفهوم من قوله تعالى ومن الليل أى تهجد فى ذلك البعض على أن الباء بمعنى فى وقيل منصوب بتهجد أى تهجد بالقرآن بعض الليل على طريقة واياى فارهبون ﴿نافلة لك﴾ فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة خاصة بك دون الأمة ولعله هو الوجه فى تأخير

ذكرها عن ذكر صلاة الفجر مع تقدم وقتها على وقتها أو تطوعا لكن لا لكونها زيادة على الفرائض بل لكونها زيادة له صلى الله عليه وسلم فى الدرجات على ماقال مجاهد والسدى فانه عليه السلام مغفور له ماتقدم من ذنبه وماتأخر فيكون تطوعه زيادة فى درجاته بخلاف من عداه من الامة فان تطوعهم لتكفير ذنوبهم وتدارك الخلل الواقع فى فرائضهم وانتصابها اما على المصدرية بتقدير تنفل أو بجعل تهجد بمعناه أو بجعل نافلة بمعنى تهجدا فان ذلك عبادة زائدة واما على الحالية من الضمير الراجع الى القرآن أى حال كونها صلاة نافلة واما على المفعولية لتهجد اذا جعل بمعنى صل وجعل الضمير المجرور للبعض أى فصل فى ذلك البعض نافلة لك ﴿عسى أن يبعثك ربك﴾ الذى يبلغك الى كمالك اللائق بك من بعد الموت الأكبر كما انبعثت من النوم الذى هو الموت الاصغر بالصلاة والعبادة ﴿مقاما﴾ نصب على الظرفية على اضمار فيقيمك أو تضمين البعث معنى الاقامة اذ لا بد من أن يكون العامل فى مثل هذا الظرف فعلا فيه معنى الاستقرار ويجوز أن يكون حالا بتقدير مضاف أى يبعثك ذا مقام ﴿محمودا﴾ عندك وعند جميع الناس وفيه تهوين لمشقة قيام الليل وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المقام المحمود هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى وعن ابن عباس رضى الله عنهما مقاما يحمدك فيه الأولون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق تسأل فتعطى وتشفع فتشفع ليس أحد الا تحت لوائك وعن حذيفة رضى الله عنه يجمع الناس فى صعيد واحد فلا تتكلم فيه نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس اليك والمهدى من هديت وعبدك بين يديك وبك واليك لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت ﴿وقل رب أدخلنى﴾ أى القبر ﴿مدخل صدق﴾ أى ادخالا مرضيا ﴿وأخرجنى﴾ أى منه عند البعث ﴿مخرج صدق﴾ أى اخراجا مرضيا ملقى بالكرامة فهو تلقين للدعاء بما وعده من البعث المقرون بالاقامة المعهودة التى لا كرامة فوقها وقيل المراد ادخال المدينة والاخراج من مكة وتغيير ترتيب الوجود لكون الادخال هو المقصد وقيل ادخاله عليه السلام مكة ظاهرا عليها واخراجه منها آمنا من المشركين وقيل ادخاله الغار واخراجه منه سالما وقيل ادخاله فيما حمله من أعباء الرسالة واخراجه منه مؤديا حقه وقيل ادخاله فى كل مايلابسه من مكان أو أمر واخراجه منه وقرئ مدخل ومخرج بالفتح على معنى أدخلنى فأدخل دخولا وأخرجنى فأخرج خروجا كقوله

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع من المال الا مسحت أو مجلف

أى لم تدع فلم يبق ﴿واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا﴾ حجة تنصرنى على من يخالفنى أو ملكا وعزا ناصرا للاسلام مظهرا له على الكفر فأجيبت دعوته عليه السلام بقوله عز وعلا والله يعصمك من الناس ألا ان حزب الله هم الغالبون ليظهره على الدين كله ليستخلفنهم فى الارض ﴿وقل جاء الحق﴾ أى الاسلام والوحى الثابت الراسخ ﴿وزهق الباطل﴾ أى ذهب وهلك الشرك والكفر وتسويلات الشيطان من زهق روحه اذا خرج ﴿ان الباطل﴾ كائنا ما كان ﴿كان زهوقا﴾ أى شأنه أن يكون مضمحلا غير ثابت وهو عدة كريمة باجابة الدعاء بالسلطان النصير الذى لقنه. عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه عليه السلام دخل مكة يوم الفتح وحول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل ينكت بمخصرة كانت بيده فى عين واحد واحد ويقول جاء الحق وزهق الباطل فينكب لوجهه حتى ألقى جميعها وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من صفر فقال يا على ارم به فصعد فرمى به فكسره ﴿وننزل من القرآن﴾ وقرئ ننزل من الانزال ﴿ماهو شفاء﴾ لما فى الصدور من أدواء الريب وأسقام الاوهام ﴿ورحمة للمؤمنين﴾ به العاملين بما فى تضاعيفه أى ماهو فى تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافى للمرضى ومن بيانية قدمت على المبين اعتناء فان كل القرآن

كذلك وعن النبى عليه السلام من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله أو تبعيضية لكن لا بمعنى أن بعضه ليس كذلك بل بمعنى انا ننزل منه فى كل نوبة ما تستدعى الحكمة نزوله حينئذ فيقع ذلك ممن نزل عليهم بسبب موافقته لاحوالهم الداعية الى نزوله موقع الدواء الشافى المصادف لابأنه من المرضى المحتاجين اليه بحسب الحال من غير تقديم و لا تأخير فكل بعض منه متصف بالشفاء لكن لا فى كل حين بل عند تنزيله وتحقيق التبعيض باعتبار الشفاء الجسمانى كما فى الفاتحة وآيات الشفاء لايساعده قوله سبحانه ﴿ و لا يزيد الظالمين الا خسارا ﴾ أى لايزيد القرآن كله أو كل بعض منه الكافرين المكذبين به الواضعين الاشياء فى غير مواضعها مع كونه فى نفسه شفاء من الاسقام الاخسارا أى هلاكا بكفرهم وتكذيبهم لانقصانا كما قيل فان مابهم من داء الكفر والضلال حقيق بأن يعبر عنه بالهلاك لا بالنقصان المنبىء عن حصول بعض مبادى الاسقام فيهم و زيادتهم فى مراتب الهلاك من حيث انهم كلما جددوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة تدريجا ازدادوا بذلك هلاكا وفيه ايماء الى أن ما بالمؤمنين من الشبه والشكوك المعترية لهم فى أثناء الاهتداء والاسترشاد بمنزلة الامراض وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك واسناد الزيادة المذكورة الى القرآن مع انهم هم المزدادون فى ذلك بسوء صنعهم باعتبار كونه سببا لذلك وفيه تعجيب من أمره حيث يكون مدارا للشفاء والهلاك ﴿ واذا أنعمنا على الانسان ﴾ بالصحة والنعمة ﴿ أعرض ﴾ عن ذكرنا فضلا عن القيام بموجب الشكر ﴿ ونأى ﴾ تباعد عن طاعتنا ﴿ بجانبه ﴾ النأى بالجانب أن يلوى عن الشىء عطفه و يوليه عرض وجهه فهو تأكيد للاعراض أوعبارة عن الاستكبار لأنه من ديدن المستكبرين ﴿ واذا مسه الشر ﴾ من فقر أومرض أونازلة من النوازل و فى اسناد المساس الى الشر بعد اسناد الانعام الى ضمير الجلالة ايذان بأن الخير مراد بالذات والشر ليس كذلك ﴿ كان يؤوسا ﴾ شديد اليأس من روحنا وهذا وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة و لا ينافيه قوله تعالى واذا مسه الشر فذودعاء عريض ونظائره فان ذلك شأن بعض آخرين منهم وقيل أريد به الوليد بن المغيرة وقرىء ناء اما على القلب كما يقال راء فى رأى واما على أنه بمعنى نهض ﴿ قل كل ﴾ أى كل أحد منكم وممن هو على خلافكم ﴿ يعمل ﴾ عمله ﴿ على شاكلته ﴾ طريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلالة أوجوهر روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه ﴿ فربكم ﴾ الذى برأكم على هذه الطبائع المتخالفة ﴿ أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ أى أسد طريقا وأبين منهاجا وقد فسرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدين ﴿ و يسألونك عن الروح ﴾ الظاهر أن السؤال كان عن حقيقة الروح الذى هو مدبر البدن الانسانى ومبدأ حياته روى أن اليهود قالوا لقريش سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فان أجاب عنها جميعا أو سكت فليس بنبى وان أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم فى التوراة ﴿ قل الروح ﴾ أظهر فى مقام الاضمار اظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه ﴿ من أمر ربى ﴾ كلمة من بيانية والأمر بمعنى الشأن والاضافة للاختصاص العلمى لا الايجادى لاشتراك الكل فيه وفيها من تشريف المضاف مالا يخفى كما فى الاضافة الثانية من تشريف المضاف اليه أى هو من جنس ما استأثر الله تعالى بعلمه من الاسرار الخفية التى لا يكاد يحوم حولها عقول البشر ﴿ وما أوتيتم من العلم الاقليلا ﴾ لا يمكن تعلقه بأمثال ذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب قال عليه الصلاة والسلام بل نحن وأنتم فقالوا ما أعجب شأنك ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فنزلت ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام الآية وانما قالوا ذلك لركاكة عقولهم فان الحكمة الانسانية أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقة البشرية بل ما نيط به المعاش والمعاد وذلك بالاضافة الى مالانهاية له من معلوماته سبحانه قليل ينال به خير كثير

فى نفسه أو بالنسبة الى الانسان أو هو من الابداعيات الكائنة بمحض الأمر التكوينى من غير تحصل من مادة وتولد من أصل كأعضاء الجسد حتى يمكن تعريفه ببعض مباديه ومآله أنه من عالم الأمر لا من عالم الخلق وليس هذا من قبيل قوله سبحانه انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فان ذلك عبارة عن سرعة التكوين سواء كان الكائن من عالم الامر أو من عالم الخلق وفيه تنبيه على أنه مما لا يحيط بكنهه دائرة ادراك البشر وانما الممكن هذا القدر الاجمالى المندرج تحت ما استثنى بقوله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا أى الا علما قليلا تستفيدونه من طرق الحواس فان تعقل المعارف النظرية انما هو من احساس الجزئيات و لذلك قيل من فقد حسا فقد فقد علما ولعل أكثر الاشياء لا يدركه الحس و لا شىء من أحواله التى يدور عليها معرفة ذاته وأما حمل ماذكر على السؤال عن قدمه وحدوثه وجعل الجواب اخبارا بحدوثه أى كائن بتكوينه حادث باحداثه بالأمر التكوينى فمع عدم ملاءمته لحال السائلين لا يساعده التعرض لبيان قلة علمهم فان ماسألوا عنه مما يفى به علمهم حينئذ وقد أخبر عنه وقيل المراد بالروح خلق عظيم روحانى أعظم من الملك وقيل جبريل عليه السلام وقيل القرآن ومعنى من أمر ربى من وحيه و كلامه لا من كلام البشر ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك ﴾ من القرآن الذى هو شفاء و رحمة للمؤمنين ومنبع للعلوم التى أوتيتموها وثبتناك عليه حين كادوا يفتنونك عنه ولولاه لكدت تركن اليهم شيئاً قليلا وانما عبر عنه بالموصول تفخيما لشأنه و وصفا له بما فى حيز الصلة ابتداء واعلاما بحاله من أول الأمر و بأنه ليس من قبيل كلام المخلوق واللام موطئة للقسم ولنذهبن جوابه النائب مناب جزاء الشرط و بذلك حسن حذف مفعول المشيئة والمراد من الذهاب به المحو من المصاحف والصدور وهو أبلغ من الاذهاب عن ابن مسعود رضى الله عنه أن أول ما تفقدون من دينكم الامانة وآخر ما تفقدون الصلاة وليصلين قوم و لا دين لهم وأن هذا القرآن تصبحون يوما ومافيكم منه شىء فقال رجل كيف ذلك وقد أثبتناه فى قلوبنا وأثبتناه فى مصاحفنا نعلمه أبناءنا و يعلمه أبناؤنا أبناءهم فقال يسرى عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف و ينزع مافى القلوب ﴿ ثم لا تجد لك به ﴾ أى بالقرآن ﴿ علينا وكيلا ﴾ من يتوكل علينا استرداده مسطورا محفوظا ﴿ الا رحمة من ربك ﴾ فانها ان نالتك لعلها تسترده عليك ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا بمعنى ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به فيكون امتنانا بابقائه بعد المنة بتنزيله وترغيبا فى المحافظة على أداء حقوقه وتحذيرا من أن لا يقدر قدره الجليل و يفرط فى القيام بشكره وهو أجل النعم وأعظمها ﴿ ان فضله كان عليك كبيرا ﴾ كارسالك وانزال الكتاب عليك وابقائه فى حفظك وغير ذلك ﴿ قل ﴾ للذين لا يعرفون جلالة قدر التنزيل و لا يفهمون فخامة شأنه الجليل بل يزعمون أنه من كلام البشر ﴿ لئن اجتمعت الانس والجن ﴾ أى اتفقوا ﴿ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ﴾ المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة فى البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى وتخصيص الثقلين بالذكر لان المنكر لكونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما لا لان غيرهما قادر على المعارضة ﴿ لا يأتون بمثله ﴾ أوثر الاظهار على ايراد الضمير الراجع الى المثل المذكور احترازا عن أن يتوهم أن له مثلا معينا وايذانا بأن المراد نفى الاتيان بمثل ما أى لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات البديعة وفيهم العرب العاربة أرباب البراعة والبيان وهو جواب للقسم الذى ينبىء عنه اللام الموطئة وساد مسد جزاء الشرط ولولاها لكان جوابا له بغير جزم لكون الشرط ماضيا كما فى قول زهير

وان أتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائب مالى ولا حرم

وحيث كان المراد بالاجتماع على الاتيان بمثل القرآن مطلق الاتفاق على ذلك سواء كان التصدى للمعارضة من كل واحد منهم على الانفراد أو من المجموع بأن يتألبوا على تلفيق كلام واحد بتلاحق الافكار وتعاضد الانظار قيل ﴿ ولو كان بعضهم

لبعض ظهيرا ﴾ أى فى تحقيق ماياتو خونه من الاتيان بمثله وهو عطف على مقدر أى لا يأتون بمثله لولم يكن بعضهم ظهيرا لبعض ولوكان الخ وقد حذف المعطوف عليه حذفا مطردا لدلالة المعطوف عليه دلالة واضحة فان الاتيان بمثله حيث انتفى عند التظاهر فلأن ينتفى عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور مافى ان ولو الوصليتين من التأكيد كما مر غير مرة ومحله النصب على الحالية حسبما عطف عليه أى لا يأتون بمثله على كل حال مفروض ولو فى هذه الحال المنافية لعدم الاتيان به فضلا عن غيرها وفيه حسم لاطماعهم الفارغة فى روم تبديل بعض آياته ببعض و لامساغ لكون الآية تقريرا لما قبلها من قوله تعالى ثم لاتجد لك به علينا وكيلا كما قيل لكن لا لما قيل من أن الاتيان بمثله أصعب من استرداد عينه ونفى الشيء انما يقرره نفى مادونه لانفى مافوقه فان أصعبية الاسترداد بغير أمره تعالى من الاتيان بمثله مما لاشبهة فيه بل لأن الجملة القسمية ليست مسوقة الى النبى صلى الله عليه وسلم بل الى المكابرين من قبله عليه السلام ﴿ ولقد صرفنا ﴾ كررنا ورددنا على أنحاء مختلفة توجب زيادة تقرير وبيان و وكادة رسوخ واطمئنان ﴿ للناس فى هذا القرآن ﴾ المنعوت بما ذكر من النعوت الفاضلة ﴿ من كل مثل ﴾ من كل معنى بديع هو فى الحسن والغرابة واستجلاب النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول ﴿ فأبى أكثر الناس ﴾ أوثر الاظهار على الاضمار تأكيدا وتوضيحا ﴿ الا كفورا ﴾ أى الا جحودا وانما صح الاستثناء من الموجب مع أنه لا يصح ضربت الا زيدا لأنه متأول بالنفى كأنه قيل ماقبل أكثرهم الا كفورا وفيه من المبالغة ماليس فى أبوا الايمان لأن فيه دلالة على أنهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفور من الايمان والتوقف فى الأمر ونحو ذلك وأنهم بالغوا فى عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الاباء ﴿ وقالوا ﴾ عند ظهور عجزهم و وضوح مغلوبيتهم بالاعجاز التنزيلى وغيره من المعجزات الباهرة متعللين بما لا يمكن فى العادة وجوده و لاتقتضى الحكمة وقوعه من الأمور كما هو ديدن المبهوت المحجوج ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر ﴾ وقرىء بالتشديد ﴿ لنا من الارض ﴾ أرض مكة ﴿ ينبوعا ﴾ عينا لا ينضب ماؤها يفعول من نبع الماء كيعبوب من عب الماء اذا زخر ﴿ أو تكون لك جنة ﴾ أى بستان تستر أشجاره ماتحتها من العرصة ﴿ من نخيل وعنب فتفجر الانهار ﴾ أى تجريها بقوة ﴿ خلالها تفجيرا ﴾ كثيرا والمراد اما اجراء الانهار خلالها عند سقيها أو ادامة اجرائها كما ينبىء عنه الفاء لا ابتداؤه ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ﴾ جمع كسفة كقطعة وقطع لفظا ومعنى وقرىء بالسكون كسدرة وسدر وهى حال من السماء والكاف فى كما فى محل النصب على أنه صفة مصدر محذوف أى اسقاطا مماثلا لما زعمت يعنون بذلك قوله تعالى أو تسقط عليهم كسفا من السماء ﴿ أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ﴾ أى مقابلا كالعشير والمعاشر أو كفيلا يشهد بصحة ماتدعيه وهو حال من الجلالة وحال الملائكة محذوفة لدلالتها عليها أى والملائكة قبلاء كما حذف الخبر فى قوله فانى وقيار بها لغريب أو جماعة فيكون حالا من الملائكة ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ من ذهب وقد قرىء به وأصله الزينة ﴿ أو ترقى فى السماء ﴾ أى فى معارجها فحذف المضاف يقال رقى فى السلم و فى الدرجة ﴿ ولن نؤمن لرقيك ﴾ أى لأجل رقيك فيها وحده أو لن نصدق رقيك فيها ﴿ حتى تنزل ﴾ منها ﴿ علينا كتابا ﴾ فيه تصديقك ﴿ نقرؤه ﴾ نحن من غير أن يتلقى من قبلك . عن ابن عباس رضى الله عنهما قال عبد الله بن أبى أمية لن نؤمن لك حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتى معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول وما كانوا يقصدون بهاتيك الاقتراحات الباطلة الا العناد واللجاج ولو أنهم أوتوا أضعاف مااقترحوا من الآيات مازادهم ذلك الا مكابرة والا فقد كان يكفيهم بعض ماشاهدوا من المعجزات التى تخر لها صم الجبال ﴿ قل ﴾ تعجبا من شدة شكيمتهم وتنزيها لساحة السبحات عما لايكاد يليق بها من مثل هذه الاقتراحات الشنيعة التى تكاد السموات يتفطرن منها أو عن طلبك ذلك وتنبيها على بطلان

ماقالوه ﴿سبحان ربى﴾ وقرئ قال سبحان ربى ﴿هل كنت الا بشرا﴾ لا ملكا حتى يتصور منى الرقى فى السماء ونحوه ﴿رسولا﴾ مأمورا من قبل ربى بتبليغ الرسالة من غير أن يكون لى خيرة فى الامر كسائر الرسل وكانوا لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله على أيديهم حسبما يلائم حال قومهم ولم يكن أمر الآيات اليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله سبحانه بشئ منها وقوله بشرا خبر لكنت و رسولا صفته ﴿وما منع الناس﴾ أى الذين حكيت اباطيلهم ﴿أن يؤمنوا﴾ مفعول ثان لمنع وقوله ﴿اذجاءهم الهدى﴾ أى الوحى ظرف لمنع أو يؤمنوا أى ومامنعهم وقت مجئ الوحى المقرون بالمعجزات المستدعية للايمان أن يؤمنوا بالقرآن و بنبوتك أو مامنعهم أن يؤمنوا بذلك وقت مجئ ماذكر ﴿الا أن قالوا﴾ فى محل الرفع على أنه فاعل منع أى الا قولهم ﴿أبعث الله بشرا رسولا﴾ منكرين أن يكون رسول الله تعالى من جنس البشر وليس المراد أن هذا القول صدر عن بعضهم فمنع بعضا آخر منهم بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل المستتبع لهذا القول منهم وانما عبر عنه بالقول ايذانا بأنه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهوم ومصداق وحصر المانع من الايمان فيما ذكر مع أن لهم موانع شتى لما أنه معظمها أو لأنه هو المانع بحسب الحال أعنى عند سماع الجواب بقوله تعالى هل كنت الا بشرا رسولا اذ هو الذى يتشبثون به حينئذ من غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهية وفيه ايذان بكمال عنادهم حيث يشير الى أن الجواب المذكور مع كونه حاسما لمواد شبههم ملجئا الى الايمان يعكسون الأمر و يجعلونه مانعا منه ﴿قل﴾ لهم أولا من قبلنا تبيينا للحكمة وتحقيقا للحق المزيح للريب ﴿لو كان﴾ أى لو وجد واستقر ﴿فى الأرض﴾ بدل البشر ﴿ملائكة يمشون مطمئنين﴾ قارين فيها من غير أن يعرجوا فى السماء و يعلموا ما يجب أن يعلم ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا﴾ يهديهم الى الحق و يرشدهم الى الخير لتمكنهم من الاجتماع والتلقى منه وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية فكيف لا وهى منوطة بالتناسب والتجانس فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التى عليها مبنى التكوين والتشريع وانما يبعث الملك من بينهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب و يلقوا الى جانب وقوله تعالى ملكا يحتمل أن يكون حالا من رسولا وأن يكون موصوفا به وكذلك بشرا فى قوله تعالى أبعث الله بشرا رسولا والأول أولى ﴿قل﴾ لهم ثانيا من جهتك بعد ما قلت لهم من قبلنا ما قلت وبينت لهم ما تقتضيه الحكمة فى البعثة ولم يرفعوا اليه رأسا ﴿كفى بالله﴾ وحده ﴿شهيدا﴾ على أنى أديت ما على من مواجب الرسالة أكمل أداء وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد وتوجيه الشهادة الى كونه عليه السلام رسولا باظهار المعجزة على وفق دعواه كما اختير لا يساعده قوله تعالى ﴿بينى و بينكم﴾ ومابعده من التعليل وانما لم يقل بيننا تحقيقا للمفارقة وابانة للمباينة وشهيدا اما حال أو تمييز ﴿انه كان بعباده﴾ من الرسل والمرسل اليهم ﴿خبيرا بصيرا﴾ محيطا بظواهر أحوالهم و بواطنها فيجازيهم على ذلك وهو تعليل للكفاية وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفار ﴿ومن يهد الله﴾ كلام مبتدأ يفصل ما أشار اليه الكلام السابق من مجازاة العباد اشارة اجمالية أى من يهده الله الى الحق بما جاء من قبله من الهدى ﴿فهو المهتد﴾ اليه والى ما يؤدى اليه من الثواب أو المهتد الى كل مطلوب ﴿ومن يضلل﴾ أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين ﴿فلن تجد لهم﴾ أوثر ضمير الجماعة اعتبارا لمعنى من غب ما أوثر فى مقابله الافراد نظرا الى لفظها تلويحا بوحدة طريق الحق وقلة سالكيه وتعدد سبل الضلال وكثرة الضلال ﴿أولياء من دونه﴾ من دون الله تعالى أى أنصارا يهدونهم الى طريق الحق أو الى طريق يوصلهم الى مطالبهم الدنيوية والأخروية أو الى طريق النجاة من العذاب الذى يستدعيه ضلالهم على

معنى لن تجد لأحدمنهم وليا على ما تقتضيه قضية مقابلة الجمع بالجمع من انقسام الآحاد الى الآحاد ﴿ونحشرهم﴾ التفات من الغيبة الى التكلم ايذانا بكمال الاعتناء بأمر الحشر ﴿يوم القيامة على وجوههم﴾ حال من الضمير المنصوب أى كائنين عليها سحبا كقوله تعالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم أو مشيا فقد روى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ﴿عميا﴾ حال من الضمير المجرور فى الحال السابقة ﴿وبكما وصما﴾ لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا ينطقون ما يقبل منهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم لما قد كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر ولا ينطقون بالحق ولا يستمعونه ويجوز أن يحشروا بعد الحساب من الموقف الى النار موفى القوى والحواس وأن يحشروا كذلك ثم يعاد اليهم قواهم وحواسهم فان ادراكاتهم بهذه المشاعر فى بعض المواطن مما لا ريب فيه ﴿مأواهم جهنم﴾ اما حال واستئناف وكذا قوله تعالى ﴿كلما خبت زدناهم سعيرا﴾ أى كلما سكن لهبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق فيهم ما تتعلق به النار وتحرقه زدناهم توقدا بأن بدلناهم جلودا غيرها فعادت ملتهبة ومستعرة ولعل ذلك عقوبة لهم على انكارهم الاعادة بعد الفناء بتكريرها مرة بعد أخرى ليروها عيانا حيث لم يعلموها برهانا كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ذلك﴾ أى ذلك العذاب ﴿جزاؤهم بأنهم﴾ أى بسبب أنهم ﴿كفروا بآياتنا﴾ العقلية والنقلية الدالة على صحة الاعادة دلالة واضحة فذلك مبتدأ وجزاؤهم خبره ويجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وبأنهم خبره والجملة خبرا لذلك وأن يكون جزاؤهم بدلا من ذلك أو بيانا له والخبر هو الظرف ﴿وقالوا﴾ منكرين أشد الانكار ﴿أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا﴾ اما مصدر مؤكد من غير لفظه أى لمبعوثون بعثا جديدا واما حال أى مخلوقين مستأنفين ﴿أولم يروا﴾ أى ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أن الله الذى خلق السموات والارض﴾ من غير مادة مع عظمهما ﴿قادر على أن يخلق مثلهم﴾ فى الصغر على أن المثل مقحم والمراد بالخلق الاعادة كما عبر عنها بذلك حيث قيل خلقا جديدا ﴿وجعل لهم أجلا لاريب فيه﴾ عطف على أولم يروا فانه فى قوة قد رأوا والمعنى قد علموا أن من قدر على خلق السموات والارض فهو قادر على خلق أمثالهم من الانس وجعل لهم ولبعثهم أجلا محققا لاريب فيه هو يوم القيامة ﴿فأبى الظالمون﴾ وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد بالمرة ﴿الا كفورا﴾ أى جحودا ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى﴾ خزائن رزقه التى أفاضها على كافة الموجودات وأنتم مرتفع بفعل يفسره المذكور كقول حاتم لوذات سوار لطمتنى وفائدة ذلك المبالغة والدلالة على الاختصاص ﴿اذن لأمسكتم﴾ لبخلتم ﴿خشية الانفاق﴾ مخافة النفاد بالانفاق اذليس فى الدنيا أحد الا وهو يختار النفع لنفسه ولو آثر غيره بشئ فانما يؤثره لعوض يفوقه فاذن هو بخيل بالاضافة الى جود الله سبحانه ﴿وكان الانسان قتورا﴾ مبالغا فى البخل لان مبنى أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج اليه وملاحظة العوض بما يبذله ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ واضحات الدلالة على نبوته وصحة ماجاء به من عندالله وهى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والطوفان والسنون ونقص الثمرات وقيل انفجار الماء من الحجر ونتق الطور على بنى اسرائيل وانفلاق البحر بدل الثلاث الاخيرة ويأباه أن هذه الثلاث لم تكن منزلة اذ ذاك وأن الأولين لا تعلق لهما بفرعون وانما أوتيهما بنو اسرائيل وعن صفوان بن عسال أن يهوديا سأل النبى عليه الصلاة والسلام عنها فقال أن لا تشركوا به شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببرئ الى ذى سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا فى السبت فقبل اليهودى يده ورجله عليه السلام ولا يساعده أيضا ماذكر ولعل جوابه عليه السلام بذلك لما أنه المهم للسائل وقبوله لما أنه كان

فى التوراة مسطورا وقد علم أنه ماعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم الامن جهة الوحى ﴿فاسأل بنى اسرائيل﴾ وقرىء فسل أى فقلنا له سلهم من فرعون وقل له أرسل معى بنى اسرائيل أو سلهم عن ايمانهم أو عن حال دينهم أو سلهم أن يعاضدوك و يؤيده قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم على صيغة الماضى وقيل الخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام أى فاسألهم عن تلك الآيات لتزداد يقينا وطمأنينة أو ليظهر صدقك ﴿اذ جاءهم﴾ متعلق بقلنا و بسأل على القراءة المذكورة و بآتينا أو بمضمر هو يخبروك أو اذكر على تقدير كون الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿فقال له فرعون﴾ الفاء فصيحة أى فأظهر عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات و بلغه ما أرسل به فقال له فرعون ﴿انى لأظنك ياموسى مسحورا﴾ سحرت فتخبط عقلك ﴿قال لقد علمت ماأنزل هؤلاء﴾ يعنى الآيات التى أظهرها ﴿الا رب السموات والارض﴾ خالقهما ومدبرهما والتعرض لربوبيته تعالى لهما للايذان بأنه لا يقدر على ايتاء مثل هاتيك الآيات العظام الا خالقهما ومدبرهما ﴿بصائر﴾ حال من الآيات أى بينات مكشوفات تبصرك صدقى ولكنك تعاند وتكابر نحو وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ومن ضرورة ذلك العلم العلم بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال رصانة العقل فضلا عن توهم المسحورية وقرىء علمت على صيغة التكلم أى لقد علمت بيقين أن هذه الآيات الباهرة أنزلها الله عز سلطانه فكيف يتوهم أن يحوم حولى سحر ﴿وانى لأظنك يافرعون مثبورا﴾ مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر من قولهم ماثبرك عن هذا أى ماصرفك أو هالكا ولقد قارع عليه السلام ظنه بظنه وشتان بينهما كيف لا وظن فرعون افك مبين وظنه عليه الصلاة والسلام يتاخم اليقين ﴿فأراد﴾ أى فرعون ﴿أن يستفزهم﴾ أى يستخفهم ويزعجهم ﴿من الارض﴾ أرض مصر أو من الارض مطلقا بالقتل كقوله سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ﴿فأغرقناه ومن معه جميعا﴾ فعكسنا عليه مكره واستفززناه وقومه بالاغراق ﴿وقلنا من بعده﴾ من بعد اغراقهم ﴿لبنى اسرائيل اسكنوا الارض﴾ التى أراد أن يستفزكم منها ﴿فاذا جاء وعد الآخرة﴾ الكرة الآخرة أو الحياة أو الساعة والدار الآخرة أى قيام القيامة ﴿جئنا بكم لفيفا﴾ مختلطين اياكم واياهم ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم واللفيف الجماعات من قبائل شتى ﴿و بالحق أنزلناه و بالحق نزل﴾ أى وما أنزلنا القرآن الا ملتبسا بالحق المقتضى لانزاله ومانزل الا ملتبسا بالحق الذى اشتمل عليه أو ما أنزلناه من السماء الا محفوظا ومانزل على الرسول الا محفوظا من تخليط الشياطين ولعل المراد بيان عدم اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره ﴿وما أرسلناك الا مبشرا﴾ للمطيع بالثواب ﴿ونذيرا﴾ للعاصى من العقاب وهو تحقيق لحقية بعثته عليه الصلاة والسلام اثر تحقيق حقية انزال القرآن ﴿وقرآنا﴾ منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى ﴿فرقناه﴾ وقرىء بالتشديد دلالة على كثرة نجومه ﴿لتقرأه على الناس على مكث﴾ على مهل وتثبت فانه أيسر للحفظ وأعون على الفهم وقرىء بالفتح وهو لغة فيه ﴿ونزلناه تنزيلا﴾ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة و يقع من الحوادث والواقعات ﴿قل﴾ للذين كفروا ﴿آمنوا به أو لاتؤمنوا﴾ فان ايمانكم به لا يزيده كمالا وامتناعكم لا يورثه نقصا ﴿ان الذين أوتوا العلم من قبله﴾ أى العلماء الذين قرؤا الكتب السالفة من قبل تنزيله وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوة وتمكنوا من التميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل و رأوا فيها نعتك ونعت ماأنزل اليك ﴿اذا يتلى﴾ أى القرآن ﴿عليهم يخرون للاذقان﴾ أى يسقطون على وجوههم ﴿سجدا﴾ تعظيما لأمر الله تعالى أو شكرا لانجاز ماوعد به فى تلك الكتب من بعثتك وتخصيص الاذقان بالذكر للدلالة على كمال التذلل اذ حينئذ يتحقق الخرور عليها وايثار اللام للدلالة على اختصاص الخرور بها كما فى قوله فخر صريعا لليدين وللفم وهو تعليل لما يفهم من قوله تعالى آمنوا به أو لا تؤمنوا من عدم المبالاة بذلك أى ان لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن ايمان من هو خير منكم و يجوز أن يكون تعليلا لقل على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل تسل بايمان

العلماء عن ايمان الجهلة و لاتكترث بايمانهم واعراضهم ﴿ ويقولون ﴾ فى سجودهم ﴿ سبحان ربنا ﴾ عما يفعل الكفرة من التكذيب أوعن خاف وعده ﴿ ان كان وعد ربنا لمفعولا ﴾ ان مخففة من المثقلة واللام فارقة أى ان الشأن هذا ﴿ ويخرون للاذقان يبكون ﴾ كرر الخرور للاذقان لاختلاف السبب فان الأول لتعظيم أمر الله تعالى أوالشكر لانجاز الوعد والثانى لما أثرفيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله ﴿ ويزيدهم ﴾ أى القرآن بسماعهم ﴿ خشوعا ﴾ كما يزيدهم علما و يقينا بالله تعالى ﴿ قل ادعوا الله أوادعوا الرحمن ﴾ نزل حين سمع المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ياالله يارحمن فقالوا انه ينهانا عن عبادة الهين وهو يدعو الها آخر وقالت اليهود انك لتقل ذكر الرحمن وقدأ كثره الله تعالى فى التوراة والمراد على الاول هو التسوية بين اللفظين بأنهما عبارتان عن ذات واحدة وان اختلف الاعتبار والتوحيد انما هو للذات الذى هو المعبود وعلى الثانى انهما سيان فى حسن الاطلاق والافضاء الى المقصود وهو أوفق لقوله تعالى ﴿ أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ والدعاء بمعنى التسمية وهو يتعدى الى مفعولين حذف أولهما استغناء عنه وأوللتخيير والتنوين فى أياعوض عن المضاف اليه ومامزيدة لتأكيد مافى أى من الابهام والضمير فى له للمسمى لأن التسمية له لا للاسم وكان أصل الكلام أياماتدعوا فهوحسن فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة والدلالة على ماهو الدليل عليه اذحسن جميع أسمائه يستدعى حسن ذينك الاسمين وكونها حسنى لدلالتها على صفات الكمال من الجلال والجمال والاكرام ﴿ ولاتجهر بصلاتك ﴾ أى بقراءة صلاتك بحيث تسمع المشركين فان ذلك يحملهم على السب واللغو فيها ﴿ ولاتخافت بها ﴾ أى بقراءتها بحيث لاتسمع من خلفك من المؤمنين ﴿ وابتغ بين ذلك ﴾ أى بين الجهر والمخافتة على الوجه المذكور ﴿ سبيلا ﴾ أمراوسطا قصدا فان خير الامور أوساطها والتعبير عن ذلك بالسبيل باعتبار أنه أمر يتوجه اليه المتوجهون ويؤمه المقتدون ويوصلهم الى المطلوب وروى أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه كان يخفت و يقول أناجى ربى وقدعلم حاجتى وعمر رضى الله عنه كان يجهر بها و يقول أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان فلما نزلت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع قليلا وعمر أن يخفض قليلا وقيل المعنى لاتجهر بصلاتك كلها و لاتخافت بها بأسرها وابتغ بين ذلك سبيلا بالمخافتة نهارا والجهر ليلا وقيل بصلاتك بدعائك وذهب قوم الى أنها منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ﴾ كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مليح حيث قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿ ولم يكن له شريك فى الملك ﴾ أى الالوهية كما يقوله الثنوية القائلون بتعدد الآلهة ﴿ ولم يكن له ولى من الذل ﴾ ناصر ومانع منه لاعتزازه به أو لم يوال أحدا من أجل مذلة ليدفعها به وفى التعرض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة ايذان بأن المستحق للحمد من هذه نعوته دون غيره اذبذلك يتم الكمال والقدرة التامة على الايجاد ومايتفرع عليه من افاضة أنواع النعم وماعداه ناقص مملوك نعمة أومنعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى ﴿ وكبره تكبيرا ﴾ وفيه تنبيه على أن العبد وان بالغ فى التنزيه والتمجيد واجتهد فى الطاعة والتحميد ينبغى أن يعترف بالقصور فى ذلك . روى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه هذه الآية الكريمة . وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة بنى اسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار فى الجنة والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية والحمد لله سبحانه وله الكبرياء والعظمة والجبروت

سورة الكهف

(مكية وقيل الا قوله تعالى واصبر نفسك الآية . وهى مائة واحدى عشرة آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الحمد لله الذى أنزل على عبده﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿الكتاب﴾ أى الكتاب الكامل الغنى عن الوصف بالكمال المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به وهو عبارة عن جميع القرآن أوعن جميع المنزل حينئذ كما مر مرارا و فى وصفه تعالى بالموصول اشعار بعلية مافى حيز الصلة لاستحقاق الحمد وايذان بعظم شأن التنزيل الجليل كيف لاوعليه يدور فلك سعادة الدارين و فى التعبير عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالعبد مضافا الى ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه عليه الصلاة والسلام الى أعلى معارج العبادة وتشريف له أى تشريف واشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبدا للمرسل لا كما زعمت النصارى فى حق عيسى عليه السلام وتأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور مع أن حقه التقديم عليه ليتصل به قوله تعالى ﴿ولم يجعل له عوجا﴾ أى شيئا من العوج بنوع اختلال فى النظم وتناف فى المعنى أوانحراف عن الدعوة الى الحق وهو فى المعانى كالعوج فى الأعيان وأما قوله تعالى لاترى فيها عوجا و لا أمتا مع كون الجبال من الأعيان فللدلالة على انتفاء مالايدرك من العوج بحاسة البصر بل انما يوقف عليه بالبصيرة بواسطة استعمال المقاييس الهندسية ولما كان ذلك مما لايشعر به بالمشاعر الظاهرة عد من قبيل مافى المعانى وقيل الفتح فى اعوجاج المنتصب كالعود والحائط والكسر فى اعوجاج غيره عينا كان أومعنى ﴿قيما﴾ بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد على ماينبىء عنه مابعده من الانذار والتبشير فيكون وصفا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال أوعلى ماقبله من الكتب السماوية شاهدا بصحتها ومهيمنا عليها أومتناهيا فى الاستقامة فيكون تأكيدا لما دل عليه نفى العوج مع افادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له حسبما تنبىء عنه الصيغة لأنه نفى عنه العوج مع كونه من شأنه وانتصابه على تقدير كون الجملة المتقدمة معطوفة على الصلة بمضمر ينبىء عنه نفى العوج تقديره جعله قيما وأما على تقدير كونها حالية فهو على الحالية من الكتاب اذ لافصل حينئذ بين أبعاض المعطوف عليه بالمعطوف وقرىء قيما ﴿لينذر﴾ متعلق بأنزل والفاعل ضمير الجلالة كما فى الفعلين المعطوفين عليه والاطلاق عن ذكر المفعول الأول للايذان بأن ماسيق له الكلام هو المفعول الثانى وأن الأول ظاهر لاحاجة الى ذكره أى أنزل الكتاب لينذر بما فيه الذين كفروا به ﴿بأسا﴾ أى عذابا ﴿شديدا من لدنه﴾ أى صادرا من عنده نازلا من قبله بمقابلة كفرهم وتكذيبهم وقرىء من لدنه بسكون الدال مع اشمام الضمة وكسر النون لالتقاء الساكنين وكسر الهاء للاتباع ﴿و يبشر﴾ بالتشديد وقرىء بالتخفيف ﴿المؤمنين﴾ أى المصدقين به ﴿الذين يعملون الصالحات﴾ الأعمال الصالحة التى بينت فى تضاعيفه وايثار صيغة الاستقبال فى الصلة للاشعار بتجدد الأعمال الصالحة واستمرارها واجراء الموصول على موصوفه المذكور لما أن مدار قبول الأعمال هو الايمان ﴿أن لهم﴾ أى بأن لهم بمقابلة ايمانهم وأعمالهم المذكورة ﴿أجرا حسنا﴾ هو الجنة ومافيها من المثوبات الحسنى ﴿ماكثين﴾ حال من الضمير المجرور فى لهم ﴿فيه﴾ أى فى ذلك الاجر ﴿أبدا﴾ من غير انتهاء أى خالدين فيه وهو نصب على الظرفية لماكثين وتقديم الانذار على التبشير لاظهار كمال العناية بزجر الكفار عماهم عليه مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية وتكرير الانذار بقوله تعالى ﴿و ينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا﴾ متعلقا بفرقة خاصة ممن عمه الانذار السابق من مستحق البأس الشديد للايذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم أى و ينذر من بين سائر الكفرة

هؤلاء المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة خاصة وهم كفار العرب الذين يقولون الملائكة بنات الله تعالى واليهود القائلون عزير ابن الله والنصارى القائلون المسيح ابن الله وترك اجراء الموصول على الموصوف كما فعل فى قوله تعالى ويبشر المؤمنين للايذان بكفاية ما فى حيز الصلة فى الكفر على أقبح الوجوه وايثار صيغة الماضى فى الصلة للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق وجعل المفعول المحذوف فيما سلف عبارة عن هذه الطائفة يؤدى الى خروج سائر أصناف الكفرة عن الانذار والوعيد وتعميم الانذار هناك للمؤمنين أيضا بحمله على معنى مجرد الاخبار بالخبر الضار من غير اعتبار حلول المنذر به على المنذر كما فى قوله تعالى أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا يفضى الى خلو النظم الكريم عن الدلالة على حلول البأس الشديد على من عدا هذه الفرقة ويجوز أن يكون الفاعل فى الأفعال الثلاثة ضمير الكتاب أو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ ما لهم به ﴾ أى باتخاذه سبحانه وتعالى ولدا ﴿ من علم ﴾ مرفوع على الابتداء أو الفاعلية لاعتماد الظرف ومن مزيدة لتأكيد النفى والجملة حالية أو مستأنفة لبيان حالهم فى مقالهم أى مالهم بذلك شىء من علم أصلا لا لاخلالهم بطريقه مع تحقق المعلوم أو امكانه بل لاستحالته فى نفسه ﴿ ولا لآبائهم ﴾ الذين قلدوهم فتاهوا جميعا فى تيه الجهالة والضلالة أو ما لهم علم بما قالوه أهو صواب أم خطأ بل انما قالوه رميا عن عمى وجهالة من غير فكر وروية كما فى قوله تعالى وخرقوا له بنين وبنات بغير علم أو بحقيقة ما قالوه وبعظم رتبته فى الشناعة كما فى قوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه الآيات وهو الأنسب بقوله تعالى ﴿ كبرت كلمة ﴾ أى عظمت مقالتهم هذه فى الكفر والافتراء لما فيها من نسبته سبحانه الى ما لا يكاد يليق بجناب كبريائه والفاعل فى كبرت اما ضمير المقالة المدلول عليها بقالوا وكلمة نصب على التمييز أو ضمير مبهم مفسر بما بعده من النكرة المنصوبة تمييزا كبئس رجلا والمخصوص بالذم محذوف تقديره كبرت هى كلمة خارجة من أفواههم وقرىء كبرت باسكان الباء مع اشمام الضم وقرىء كلمة بالرفع ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ صفة للكلمة مفيدة لاستعظام اجترائهم على التفوه بها واسناد الخروج اليها مع أن الخارج هو الهواء المتكيف بكيفية الصوت لملابسته بها ﴿ ان يقولون ﴾ ما يقولون فى ذلك الشان ﴿ الا كذبا ﴾ أى الا قولا كذبا لا يكاد يدخل تحت امكان الصدق أصلا والضميران لهم ولآبائهم مثل حاله عليه الصلاة والسلام فى شدة الوجد على اعراض القوم وتوليهم عن الايمان بالقرآن وكمال التحسر عليهم بحال من يتوقع منه اهلاك نفسه اثر فوت ما يحبه عند مفارقة أحبته تأسفا على مفارقتهم وتلهفا على مهاجرتهم فقيل على طريقة التمثيل حملا له عليه الصلاة والسلام على الحذر والاشفاق من ذلك ﴿ فلعلك باخع ﴾ أى مهلك ﴿ نفسك على آثارهم ﴾ غما ووجدا على فراقهم وقرىء بالاضافة ﴿ ان لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴾ أى القرآن الذى عبر عنه فى صدر السورة بالكتاب وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه وقرىء بأن المفتوحة أى لأن لم يؤمنوا فاعمال باخع بحمله على حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة كما فى قوله عز وجل باسط ذراعيه ﴿ أسفا ﴾ مفعول له لباخع أى لفرط الحزن والغضب أو حال مما فيه من الضمير أى متأسفا عليهم ويجوز حمل النظم الكريم على الاستعارة التبعية بجعل التشبيه بين أجزاء الطرفين لا بين الهيئتين المنتزعتين منهما كما فى التمثيل وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ختم الله على قلوبهم ﴿ انا جعلنا ما على الارض ﴾ استئناف وتعليل لما فى لعل من معنى الاشفاق أى انا جعلنا ما عليها مما عدا من وجه اليه التكليف من الزخارف حيوانا كان أو نباتا أو معدنا كقوله تعالى هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ﴿ زينة ﴾ مفعول ثان للجعل ان حمل على معنى التصيير أو حال ان حمل على معنى الابداع واللام فى ﴿ لها ﴾ اما متعلقة بزينة أو بمحذوف هو صفة لها أى كائنة لها أى

ليتمتع بها الناظرون من المكلفين و ينتفعوا بها نظرا واستدلالا فان الحيات والعقارب من حيث تذكيرهما لعذاب الآخرة من قبيل المنافع بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على وجود الصانع و وحدته فان الأزواج والأولاد أيضا من زينة الحياة الدنيا بل أعظمها و لا يمنع ذلك كونهم من جملة المكلفين فانهم من جهة انتسابهم الى أصحابهم داخلون تحت الزينة ومن جهة كونهم مكلفين داخلون تحت الابتلاء ﴿لنبلوهم﴾ متعلق بجعلنا أى جعلنا ما جعلنا لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿أيهم أحسن عملا﴾ فنجازيهم بالثواب والعقاب حسبما تبين المحسن من المسيء وامتازت طبقات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز مراتب علومهم المرتبة على أنظارهم وتفاوت درجات أعمالهم المتفرعة على ذلك كما قررناه فى مطلع سورة هود وأى اما استفهامية مرفوعة بالابتداء وأحسن خبرها والجملة فى محل النصب معلقة لفعل البلوى لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالسؤال والنظر ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعية واما موصولة بمعنى الذى وأحسن خبر مبتدا مضمر والجملة صلة لها وهى فى حيز النصب بدل من مفعول لنبلوهم والتقدير لنبلو الذى هو أحسن عملا فحينئذ يحتمل أن تكون الضمة فى أيهم للبناء كما فى قوله عز وجل ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا على أحد الاقوال لتحقق شرط البناء الذى هو الاضافة لفظا وحذف صدر الصلة وأن تكون للاعراب لأن ماذكر شرط لجواز البناء لا لوجوبه وحسن العمل الزهد فيها وعدم الاغترار بها والقناعة باليسير منها وصرفها على ماينبغى والتأمل فى شأنها وجعلها ذريعة الى معرفة خالقها والتمتع بها حسبما أذن له الشرع وأداء حقوقها والشكر لها لا اتخاذها وسيلة الى الشهوات والاغراض الفاسدة كما يفعله الكفرة وأصحاب الاهواء وايراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والاحسن فقط للاشعار بأن الغاية الاصلية للجعل المذكور انما هو ظهور كمال احسان المحسنين على ماحقق فى تفسير قوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴿وانا لجاعلون﴾ فيما سيأتى عند تناهى عمر الدنيا ﴿ماعليها﴾ من المخلوقات قاطبة بافنائها بالكلية وانما أظهر فى مقام الاضمار لزيادة التقرير أو لادراج المكلفين فيه ﴿صعيدا﴾ مفعول ثان للجعل والصعيد التراب أو وجه الارض قال أبو عبيدة هو المستوى من الارض وقال الزجاج هو الطريق الذى لانبات فيه ﴿جرزا﴾ ترابا لانبات فيه بعد ما كان يتعجب من بهجته النظار وتتشرف بمشاهدته الابصار يقال أرض جرز لانبات فيها وسنة جرز لامطر فيها قال الفراء جرزت الارض فهى مجروزة أى ذهب نباتها بقحط أو جراد و يقال جرزها الجراد والشاة والابل اذا أكلت ماعليها وهذه الجملة لتكميل مافى السابقة من التعليل والمعنى لاتحزن بما عاينت من القوم من تكذيب ماأنزلنا عليك من الكتاب فانا قدجعلنا ماعلى الارض من فنون الاشياء زينة لها لنختبر أعمالهم فنجازيهم بحسبها وانا لمفنون جميع ذلك عن قريب ومجازون لهم بحسب أعمالهم ﴿أم حسبت﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد انكار حسبان أمته وأم منقطعة مقدرة ببل التى هى للانتقال من حديث الى حديث لا للابطال و بهمزة الاستفهام عند الجمهور و ببل وحدها عند غيرهم أى بل أحسبت ﴿أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا﴾ فى بقائهم على الحياة مدة طويلة من الدهر ﴿من آياتنا﴾ من بين آياتنا التى من جملتها ماذكرناه من جعل ماعلى الارض زينة لها للحكمة المشار اليها ثم جعل ذلك كله صعيدا جرزا كأن لم تغن بالامس ﴿عجبا﴾ أى آية ذات عجب وضعا له موضع المضاف أو وصفا لذلك بالمصدر مبالغة وهو خبر لكانوا ومن آياتنا حال منه والمعنى أن قصتهم وان كانت خارقة للعادات ليست بعجيبة بالنسبة الى سائر الآيات التى من جملتها ماذكر من تعاجيب خلق الله تعالى بل هى عندها كالنزر الحقير والكهف الغار الواسع فى الجبل والرقيم كلبهم قال أمية بن أبي الصلت

وليس بها الا الرقيم مجاورا وصيدهم والقوم فى الكهف همد

وقيل هو لوح رصاصى أو حجرى رقمت فيه أسماؤهم وجعل على باب الكهف وقيل هو الوادى الذى فيه الكهف فهو من رقمة الوادى أى جانبه وقيل الجبل وقيل قريتهم وقيل مكانهم بين غضبان وايلة دون فلسطين وقيل أصحاب الرقيم آخرون وكانوا ثلاثة انطبق عليهم الغار فنجوا بذكر كل منهم أحسن عمله على ما فصل فى الصحيحين ﴿اذ أوى﴾ ظرف لعجبا لا لحسبت أو مفعول لاذكر أى حين التجأ ﴿الفتية﴾ أى أصحاب الكهف أوثر الاظهار على الاضمار لتحقيق ما كانوا عليه فى أنفسهم من حال الفتوة فانهم كانوا فتية من أشراف الروم أرادهم دقيانوس على الشرك فهربوا منه بدينهم ولأن صاحبية الكهف من فروع التجائهم الى الكهف فلا يناسب اعتبارها معهم قبل بيانه ﴿الى الكهف﴾ بجعلهم للجلوس واتخذوه مأوى ﴿فقالوا ربنا آتنا من لدنك﴾ من خزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن عيون أهل العادات فمن ابتدائية متعلقة بآتنا أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله الثانى قدمت عليه لكونه نكرة ولو تأخرت لكانت صفة له أى آتنا كائنة من لدنك ﴿رحمة﴾ خاصة تستوجب المغفرة والرزق والأمن من الاعداء ﴿وهيء لنا من أمرنا﴾ الذى نحن عليه من مهاجرة الكفار والمثابرة على طاعتك وأصل التهيئة احداث هيئة الشيء أى أصلح ورتب وأتمم لنا من أمرنا ﴿رشدا﴾ اصابة للطريق الموصل الى المطلوب واهتداء اليه وكلا الجارين متعلق بهيء لاختلافهما فى المعنى وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بهما وابراز الرغبة فى المؤخر بتقديم أحواله فان تأخير ما حقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع الى وروده ينبيء عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لا محالة وكذا الكلام فى تقديم قوله تعالى من لدنك على تقدير تعلقه بآتنا وتقديم لنا على من أمرنا الايذان من أول الامر بكون المسئول مرغوبا فيه لديهم أو اجعل أمرنا رشدا كله على أن من تجريدية مثلها فى قولك رأيت منك أسدا ﴿فضربنا على آذانهم﴾ أى أنمناهم على طريقة التمثيل المبنى على تشبيه الانامة الثقيلة المانعة عن وصول الأصوات الى الآذان بضرب الحجاب عليها وتخصيص الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها فى الحجب عن الشعور عند النوم لما أنها المحتاج الى الحجب عادة اذ هى الطريقة للتيقظ غالبا لاسيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق وقيل الضرب على الآذان كناية عن الانامة الثقيلة وحمله على تعطيلها كما فى قولهم ضرب الأمير على يد الرعية أى منعهم من التصرف مع عدم ملاءمته لما سيأتى من البعث لايدل على النوم مع أنه المراد قطعا والفاء فى فضربنا كما فى قوله عز وجل فاستجبنا له بعد قوله تعالى اذ نادى فان الضرب المذكور وما ترتب عليه من التقليب ذات اليمين وذات الشمال والبعث وغير ذلك ايتاء رحمة لدنية خافية عن أبصار المتمسكين بالاسباب العادية استجابة لدعوتهم ﴿فى الكهف﴾ ظرف مكان لضربنا ﴿سنين﴾ ظرف زمان له باعتبار بقائه لا لابتدائه ﴿عددا﴾ أى ذوات عدد أو تعد عددا على أنه مصدر أو معدودة على أنه بمعنى المفعول ووصف السنين بذلك اما للتكثير وهو الانسب باظهار كمال القدرة أو للتقليل وهو الاليق بمقام انكار كون القصة عجبا من بين سائر الآيات العجيبة فان مدة لبثهم كبعض يوم عنده عز وجل ﴿ثم بعثناهم﴾ أى أيقظناهم من تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت ﴿لنعلم﴾ بنون العظمة وقرىء بالياء مبنيا للفاعل بطريق الالتفات وأياما كان فهو غاية للبعث لكن لا بجعل العلم مجازا من الاظهار والتمييز أو بحمله على ما يصح وقوعه غاية للبعث الحادث من العلم الحالى الذى يتعلق به الجزاء كما فى قوله تعالى الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وقوله تعالى وليعلم الله الذين آمنوا ونظائرهما التى يتحقق فيها العلم بتحقق متعلقه قطعا فان تحويل القبلة قد ترتب عليه تحزب الناس الى متبع ومنقلب وكذا مداولة الايام بين الناس ترتب عليه تحزبهم الى الثابت على الايمان والمتزلزل فيه وتعلق بكل من الفريقين العلم

الحالى والاظهار والتميز وأما بعث هؤلاء فلم يترتب عليه تفرقهم الى المحصى وغيره حتى يتعلق بهما العلم أو الاظهار والتميز ويتسنى نظم شئ من ذلك فى سلك الغاية وانما الذى ترتب عليه تفرقهم الى مقدر تقديرا غير مصيب ومفوض الى العلم الربانى وليس شئ منهما من الاحصاء فى شئ بل يحمل النظم الكريم على التمثيل المبنى على جعل العلم عبارة عن الاختبار مجازا بطريق اطلاق اسم المسبب على السبب وليس من ضرورة الاختبار صدور الفعل المختبر به عن المختبر قطعا بل قد يكون لاظهار عجزه عنه على سنن التكاليف التعجيزية كقوله تعالى فأت بها من المغرب وهو المراد ههنا فالمعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿أى الحزبين﴾ أى الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم بالتقدير والتفويض كما سيأتى ﴿أحصى﴾ أى أضبط ﴿لما لبثوا﴾ اى للبثهم ﴿أمدا﴾ أى غاية فيظهر لهم عجزهم ويفوضوا ذلك الى العليم الخبير ويتعرفوا حالهم وماصنع الله تعالى بهم من حفظ أبدانهم وأديانهم فيزدادوا يقينا بكمال قدرته وعلمه ويستبصروا به أمر البعث ويكون ذلك لطفا لمؤمنى زمانهم وآية بينة لكفارهم وقد اقتصر ههنا من تلك الغايات الجليلة على ذكر مبدئها الصادر عنه عز وجل وفيما سيأتى على ماصدر عنهم من التساؤل المؤدى اليها وهذا أولى من تصوير التمثيل بأن يقال بعثناهم بعث من يريد أن يعلم الخ حسبما وقع فى تفسير قوله تعالى وليعلم الله الذين آمنوا على أحد الوجوه حيث حمل على معنى فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الايمان من غير الثابت اذ ربما يتوهم منه استلزام الارادة لتحقق المراد فيعود المحذور فيصار الى جعل ارادة العلم عبارة عن الاختبار فاختبر واختر. هذا وقد قرئ ليعلم مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل من الاعلام على أن المفعول الاول محذوف والجملة المصدرة بأى فى موقع المفعول الثانى فقط ان جعل العلم عرفانيا وفى موقع المفعولين ان جعل يقينيا أى ليعلم الله الناس أى الحزبين أحصى الخ وروى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أحد الحزبين الفتية والآخر الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك وقيل كلاهما من غيرهم والاول هو الاظهر فان اللام للعهد ولا عهد لغيرهم والامد بمعنى المدى كالغاية فى قولهم ابتداء الغاية وانتهاء الغاية وهو مفعول لأحصى والجار والمجرور حال منه قدمت عليه لكونه نكرة وليس معنى احصاء تلك المدة ضبطها من حيث كميتها المتصلة الذاتية فانه لا يسمى احصاء بل ضبطها من حيث كميتها المنفصلة العارضة لها باعتبار قسمتها الى السنين وبلوغها من تلك الحيثية الى مراتب الاعداد على ما يرشدك اليه كون تلك المدة عبارة عما سبق من السنين ويجوز أن يراد بالامد معناه الوضعى بتقدير المضاف أى لزمان لبثهم وبدونه أيضا فان اللبث عبارة عن الكون المستمر المنطبق على الزمان المذكور فباعتبار الامتداد العارض له بسببه يكون له أمد لا محالة لكن ليس المراد به ما يقع غاية ومنتهى لذلك الكون المستمر باعتبار كميته المتصلة العارضة له بسبب انطباقه على الزمان الممتد بالذات وهو آن انبعاثهم من نومهم فان معرفته من تلك الحيثية لا تخفى على أحد ولا تسمى احصاء كما مر بل باعتبار كميته المنفصلة معارضة له بسبب عروضها لزمانه المنطبق هو عليه باعتبار انقسامه الى السنين ووصوله الى مرتبة معينة من مراتب العدد كما حقق فى الصورة الاولى والفرق بين الاعتبارين أن ما تعلق به الاحصاء فى الصورة السابقة نفس المدة المنقسمة الى السنين فهو مجموع ثلثمائة وتسع سنين وفى الصورة الاخيرة منتهى تلك المدة المنقسمة اليها أعنى السنة التاسعة بعد الثلثمائة وتعلق الاحصاء بالامد بالمعنى الاول ظاهر وأما تعلقه به بالمعنى الثانى فباعتبار انتظامه لما تحته من مراتب العدد واشتماله عليها هذا على تقدير كون ما فى قوله تعالى لما لبثوا مصدرية ويجوز أن تكون موصولة حذف عائدها من الصلة أى للذى لبثوا فيه من الزمان الذى عبر عنه فيما قبل بسنين عددا فالامد بمعناه الوضعى على ما تحققته وقيل اللام مزيدة والموصول مفعول وأمدا نصب على التميز وأما ما قيل من أن أحصى اسم تفضيل لانه الموافق لما وقع فى سائر الآيات الكريمة نحو أيهم أحسن عملا أيهم أقرب لكم نفعا الى غير ذلك مما لا يحصى ولان كونه فعلا ماضيا

يشعر بأن غاية البعث هو العلم بالاحصاء المتقدم على البعث لا بالاحصاء المتأخر عنه وليس كذلك وادعاء أن مجيء أفعل التفضيل من المزيد عليه غير قياسي مدفوع بأنه عند سيبويه قياس مطلقا وعند ابن عصفور فيما ليست همزته للنقل ولا ريب فى أن ما نحن فيه من ذلك القبيل وامتناع عمله انما هو فى غير التمييز من المعمولات وأما أن التمييز يجب كونه فاعلا فى المعنى فلمانع أن يمنعه بصحة أن يقال أيهم أحفظ لهذا الشعر وزنا أو تقطيعا أو يقال ان العامل فى أمدا فعل محذوف يدل عليه المذكور أى يحصى لما لبثوا أمدا كما فى قوله وأضرب منا بالسيوف القوانسا وحديث الوقوع فى المحذور بلا فائدة مدفوع بما أشير اليه من فائدة الموافقة للنظائر فمع ما فيه من الاعتساف والخلل بمعزل من السداد لان مؤداه أن يكون المقصود بالاختبار اظهار أفضل الحزبين وتمييزه عن الادنى مع تحقق أصل الاحصاء فيهما ومن البين أن لا تحقق له أصلا وأن المقصود بالاختبار اظهار عجز الكل عنه رأسا فهو فعل ماض قطعا وتوهم ايذانه بأن غاية البعث هو العلم بالاحصاء المتقدم عليه مردود بأن صيغة الماضى باعتبار حال الحكاية والله تعالى أعلم ﴿نحن نقص عليك﴾ شروع فى تفصيل ما أجمل فيما سلف من قوله تعالى اذ أوى الفتية الخ أى نحن نخبرك بتفاصيل أخبارهم وقد مر بيان اشتقاقه فى مطلع سورة يوسف عليه السلام ﴿نبأهم﴾ النبأ الخبر الذى له شأن وخطر ﴿بالحق﴾ اما صفة لمصدر محذوف أو حال من ضمير نقص أو من نبأهم أو صفة له على رأى من يرى حذف الموصول مع بعض صلته أى نقص قصصا ملتبسا بالحق أو نقصه ملتبسين به أو نقص نبأهم ملتبسا به أو نبأهم الملتبس به ونبأهم حسبما ذكره محمد بن اسحق بن يسار أنه قد مرج أهل الانجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم فعبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت وكان ممن بالغ فى ذلك وعتا عتوا كبيرا دقيانوس فانه غلا فيه غلوا شديدا فجاس خلال الديار والبلاد بالعيث والفساد وقتل من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام وكان يتبع الناس فيخيرهم بين القتل وعبادة الاوثان فمن رغب فى الحياة الدنيا الدنية يصنع ما يصنع ومن آثر عليها الحياة الابدية قتله وقطع آرابه وعلقها فى سور المدينة وأبوابها فلما رأى الفتية ذلك وكانوا عظماء أهل مدينتهم وقيل كانوا من خواص الملك قاموا فتضرعوا الى الله عز وجل واشتغلوا بالصلاة والدعاء فبينما هم كذلك اذ دخل عليهم أعوان الجبار فاحضروهم بين يديه فقال لهم ما قال وخيرهم بين القتل وبين عبادة الاوثان فقالوا ان لنا الها ملأ السموات والارض عظمته وجبروته لن ندعو من دونه أحدا ولن نقر لما تدعونا اليه أبدا فاقض ما أنت قاض فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة وأخرجهم من عنده وخرج هو الى مدينة نينوى لبعض شأنه وأمهلهم الى رجوعه ليتأملوا فى أمرهم فان تبعوه والا فعل بهم ما فعل بسائر المسلمين فأزمعت الفتية على الفرار بالدين والالتجاء الى الكهف الحصين فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيئاً فتصدقوا ببعضه وتزودوا بالباقى فأووا الى الكهف فجعلوا يصلون فيه آناء الليل وأطراف النهار ويبتهلون الى الله سبحانه بالانين والجؤار وفوضوا أمر نفقتهم الى يمليخا فكان اذا أصبح يضع عنه ثيابه الحسان ويلبس لباس المساكين ويدخل المدينة ويشترى ما يهمهم ويتحسس ما فيها من الاخبار ويعود الى أصحابه فلبثوا على ذلك الى أن قدم الجبار المدينة فطلبهم وأحضر آباءهم فاعتذروا بأنهم عصوهم ونهبوا أموالهم وبذروها فى الاسواق وفروا الى الجبل فلما رأى يمليخا ما رأى من الشر رجع الى أصحابه وهو يبكى ومعه قليل من الزاد فأخبرهم بما شاهده من الهول ففزعوا الى الله عز وجل وخروا له سجدا ثم رفعوا رؤسهم وجلسوا يتحدثون فى أمرهم فبيناهم كذلك اذ ضرب الله تعالى على آذانهم فناموا ونفقتهم عند رؤسهم فخرج دقيانوس فى طلبهم بخيله ورجله فوجدوهم قد دخلوا الكهف فأمر باخراجهم فلم يطق أحد أن يدخله فلما ضاق بهم ذرعا قال قائل منهم أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعا وعطشا وليكن كهفهم قبرا لهم ففعل ثم كان من

شأنهم ماقص الله عز وجل عنهم ﴿انهم فتية﴾ استئناف تحقيقي مبني على تقدير السؤال من قبل المخاطب والفتية جمع قلة للفتى كالصبية للصبي ﴿آمنوا بربهم﴾ أوثر الالتفات للاشعار بعلية وصف الربوبية لايمانهم ولمراعاة ماصدر عنهم من المقالة حسبما سيحكى عنهم ﴿وزدناهم هدى﴾ بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه من الدين وأظهرنا لهم مكنونات محاسنه وفيه التفات من الغيبة الى ماعليه سبك النظم سباقا وسياقا من التكلم ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أى قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل والاوطان والنعيم والاخوان واجترؤا على الصدع بالحق من غير خوف وحذار والرد على دقيانوس الجبار ﴿اذ قاموا﴾ منصوب بربطنا والمراد بقيامهم انتصابهم لاظهار شعار الدين قال مجاهد خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد فقال أكبرهم انى لاجد فى نفسى شيئاً أن ربى رب السموات والارض فقالوا نحن أيضا كذلك فقاموا جميعا ﴿فقالوا ربنا رب السموات والارض﴾ ضمنوا ادعواهم مايحقق فحواها ويقضى بمقتضاها فان ربوبيته عز وجل لهما تقتضى ربوبيته لما فيهما أى اقتضاء وقيل المراد قيامهم بين يدى الجبار من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام فحينئذ يكون ماسيأتى من قوله تعالى هؤلاء الخ منقطعا عما قبله صادرا عنهم بعد خروجهم من عنده ﴿لن ندعو﴾ لن نعبد أبدا ﴿من دونه الها﴾ معبودا آخر لا استقلالا ولا اشتراكا والعدول عن أن يقال ربا للتنصيص على رد المخالفين حيث كانوا يسمون أصنامهم آلهة وللاشعار بأن مدار العبادة وصف الالوهية وللايذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الالوهية لابطريق المالكية المجازية ﴿لقد قلنا اذا شططا﴾ أى قولا ذا شطط أى تجاوز عن الحد أو قولا هو عين الشطط على أنه وصف بالمصدر مبالغة ثم اقتصر على الوصف مبالغة على مبالغة وحيث كانت العبادة مستلزمة للقول لما أنها لاتعرى عن الاعتراف بالوهية المعبود والتضرع اليه قيل لقد قلنا واذا جواب وجزاء أى لو دعونا من دونه الها والله لقد قلنا قولا خارجا عن حد العقول مفرطا فى الظلم ﴿هؤلاء﴾ هو مبتدأ وفى اسم الاشارة تحقير لهم ﴿قومنا﴾ عطف بيان له ﴿اتخذوا من دونه آلهة﴾ خبره وفيه معنى الانكار ﴿لولا يأتون﴾ تحضيض فيه معنى الانكار والتعجيز أى هلا يأتون ﴿عليهم﴾ على ألوهيتهم أو على صحة اتخاذهم لها آلهة ﴿بسلطان بين﴾ بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم وهو تبكيت لهم والقام حجر ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ بنسبة الشريك اليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا والمعنى أنه أظلم من كل ظالم وان كان سبك النظم على انكار الأظلمية من غير تعرض لانكار المساواة كما مر تحقيقه فى سورة هود ﴿واذ اعتزلتموهم﴾ أى فارقتموهم فى الاعتقاد أو أردتم الاعتزال الجسمانى ﴿وما يعبدون الا الله﴾ عطف على الضمير المنصوب وما موصولة أو مصدرية أى اذ اعتزلتموهم ومعبوديهم الا الله أو وعبادتهم الا عبادة الله وعلى التقديرين فالاستثناء متصل على تقدير كونهم مشركين كأهل مكة ومنقطع على تقدير تمحضهم فى عبادة الأوثان ويجوز كون ما نافية على أنه اخبار من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترض بين اذ وجوابه ﴿فأووا﴾ أى التجئوا ﴿الى الكهف﴾ قال الفراء هو جواب اذ كما تقول اذ فعلت فافعل كذا وقيل هو دليل على جوابه أى اذ اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا أو اذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء الى الكهف ﴿ينشر لكم﴾ يبسط لكم ويوسع عليكم ﴿ربكم﴾ مالك أمركم ﴿من رحمته﴾ فى الدارين ﴿ويهيئ لكم﴾ يسهل لكم ﴿من أمركم﴾ الذى أنتم بصدده من الفرار بالدين ﴿مرفقا﴾ ما ترتفقون وتنتفعون به وقرئ بفتح الميم وكسر الفاء مصدرا كالمرجع وتقديم لكم فى الموضعين لما مر مرارا من الايذان من أول الأمر بكون المؤخر من منافعهم والتشويق الى وروده ﴿وترى الشمس﴾ بيان لحالهم بعد ما أووا الى الكهف ولم يصرح به ايذانا بعدم الحاجة اليه لظهور جريانهم على موجب الأمر به لكونه صادرا عن رأى صائب وتعويلا على ما سلف من

قوله سبحانه اذ أوى الفتية الى الكهف وما لحق من اضافة الكهف اليهم و كونهم فى فجوة منه والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب وليس المراد به الاخبار بوقوع الرؤية تحقيقا بل الانباء بكون الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس ﴿اذا طلعت تزاور﴾ أى تتزاور وتتنحى بحذف احدى التاءين وقرئ بادغام التاء فى الزاى وتزور كتحمر وتزوار كتحمار وتزوئر وكلها من الزور وهو الميل ﴿عن كهفهم﴾ الذى أووا اليه فالاضافة لادنى ملابسة ﴿ذات اليمين﴾ أى جهة ذات يمين الكهف عند توجه الداخل الى قعره أى جانبه الذى يلى المغرب فلا يقع عليهم شعاعها فيؤذيهم ﴿واذا غربت﴾ أى تراها عند غروبها ﴿تقرضهم﴾ أى تقطعهم من القطيعة والصرم ولا تقربهم ﴿ذات الشمال﴾ أى جهة ذات شمال الكهف أى جانبه الذى يلى المشرق وكان ذلك بتصريف الله سبحانه على منهاج خرق العادة كرامة لهم وقوله تعالى ﴿وهم فى فجوة منه﴾ جملة حالية مبينة لكون ذلك أمرا بديعا أى تراها تميل عنهم يمينا وشمالا ولا تحوم حولهم مع أنهم فى متسع من الكهف معرض لاصابتها لولا أن صرفتها عنهم يد التقدير ﴿ذلك﴾ أى ما صنع الله بهم من تزاور الشمس وقرضها حالتى الطلوع والغروب مع كونهم فى موقع شعاعها ﴿من آيات الله﴾ العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته وحقية التوحيد وكرامة أهله عنده سبحانه وتعالى وهذا قبل أن سد دقيانوس باب الكهف وقيل كان باب الكهف شماليا مستقبل بنات نعش وأقرب المشارق والمغارب الى محاذاته رأس مشرق السرطان ومغربه والشمس اذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الايمن وهو الذى يلى المغرب وتغرب محاذية لجانبه الايسر فيقع شعاعها على جنبيه وتحلل عفونته وتعدل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذى أجسادهم ويبلى ثيابهم ولعل ميل الباب الى جانب الغرب كان أكثر ولذلك أوقع التزاور على كهفهم والقرض على أنفسهم فذلك حينئذ اشارة الى ايوائهم الى كهف هذا شأنه وأما جعله اشارة الى حفظ الله سبحانه اياهم فى ذلك الكهف تلك المدة الطويلة أو الى اطلاعه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم على أخبارهم فلا يساعده ايراده فى تضاعيف القصة ﴿من يهد الله﴾ الى الحق بالتوفيق له ﴿فهو المهتد﴾ الذى أصاب الفلاح والمراد اما الثناء عليهم والشهادة لهم باصابة المطلوب والاخبار بتحقيق ما أملوه من نشر الرحمة وتهيئة المرافق أو التنبيه على أن أمثال هذه الآية كثيرة ولكن المنتفع بها من وفقه الله تعالى للاستبصار بها ﴿ومن يضلل﴾ أى يخلق فيه الضلال لصرف اختياره اليه ﴿فلن تجد له﴾ أبدا وان بالغت فى التتبع والاستقصاء ﴿وليا﴾ ناصرا ﴿مرشدا﴾ يهديه الى ما ذكر من الفلاح لاستحالة وجوده فى نفسه لا أنك لا تجده مع وجوده أو امكانه ﴿وتحسبهم﴾ بفتح السين وقرئ بكسرها أيضا والخطاب فيه كما سبق ﴿أيقاظا﴾ جمع يقظ بكسر القاف وفتحها وهو اليقظان ومدار الحسبان انفتاح عيونهم على هيئة الناظر وقيل كثرة تقلبهم ولا يلائمه قوله تعالى ونقلبهم ﴿وهم رقود﴾ أى نيام وهو تقرير لما لم يذكر فيما سلف اعتمادا على ذكره السابق من الضرب على آذانهم ﴿ونقلبهم﴾ فى رقدتهم ﴿ذات اليمين﴾ نصب على الظرفية أى جهة تلى أيمانهم ﴿وذات الشمال﴾ أى جهة تلى شمائلهم كيلا تأكل الارض ما يليها من أبدانهم. قال ابن عباس رضى الله عنهما لو لم يقلبوا لأكلتهم الارض قيل لهم تقلبتان فى السنة وقيل تقلبة واحدة يوم عاشوراء وقيل فى كل تسع سنين وقرئ يقلبهم على الاسناد الى ضمير الجلالة وتقلبهم على المصدر منصوبا بمضمر ينبئ عنه وتحسبهم أى وترى تقلبهم ﴿وكلبهم﴾ قيل هو كلب مروا به فتبعهم فطردوه مرارا فلم يرجع فأنطقه الله تعالى فقال لا تخشوا جانبى فانى أحب أحباء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم وقيل هو كلب راع قد تبعهم على دينهم ويؤيده قراءة كالبهم اذ الظاهر لحوقه بهم وقيل هو كلب صيد أحدهم أو زرعه أو غنمه واختلف فى لونه فقيل كان انمر وقيل أصفر وقيل أصهب وقيل غير ذلك وقيل كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل تتوه وقيل قطمور وقيل ثور قال خالد

ابن معدان ليس فى الجنة من الدواب الا كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم وقيل لم يكن ذلك من جنس الكلاب بل كان أسدا ﴿باسط ذراعيه﴾ حكاية حال ماضية و لذلك أعمل اسم الفاعل وعند الكسائى وهشام وأبى جعفر من البصريين يجوز اعماله مطلقا والذراع من المرفق الى رأس الأصبع الوسطى ﴿بالوصيد﴾ أى بموضع الباب من الكهف ﴿لو اطلعت عليهم﴾ أى لوعاينتهم وشاهدتهم وأصل الاطلاع الاشراف على الشىء بالمعاينة والمشاهدة وقرىء بضم الواو ﴿لوليت منهم فرارا﴾ هربا بما شاهدت منهم وهو اما نصب على المصدرية من معنى ما قبله اذ التولية والفرار من واد واحد واما على الحالية بجعل المصدر بمعنى الفاعل أى فارا أو بجعل الفاعل مصدرا مبالغة كما فى قولها فانما هى اقبال وادبار واما على أنه مفعول له ﴿ولملئت منهم رعبا﴾ وقرىء بضم العين أى خوفا يملأ الصدر و يرعبه وهو اما مفعول ثان أو تمييز ذلك لما ألبسهم الله عز وجل من الهيبة والهيئة كانت أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذى يريد أن يتكلم وقيل لطول أظفارهم وشعورهم و لا يساعده قولهم لبثنا يوما أو بعض يوم وقوله و لا يشعرن بكم أحدا فان الظاهر من ذلك عدم اختلاف أحوالهم فى أنفسهم وقيل لعظم أجرامهم ولعل تأخير هذا عن ذكر التولية للايذان باستقلال كل منهما فى الترتب على الاطلاع اذ لو روعى ترتيب الوجود لتبادر الى الفهم ترتب المجموع من حيث هو هو عليه وللاشعار بعدم زوال الرعب بالفرار كما هو المعتاد وعن معاوية لما غزا الروم فمر بالكهف قال لو كشفت لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال له ابن عباس رضى الله عنهما ليس لك ذلك قد منع الله تعالى من هو خير منك حيث قال لو اطلعت عليهم الآية قال معاوية لا أنتهى حتى أعلم علمهم فبعث ناسا وقال لهم اذهبوا فانظروا ففعلوا فلما دخلوا الكهف بعث الله تعالى ريحا فأحرقتهم وقرىء بتشديد اللام على التكثير و بابدال الهمزة ياء مع التخفيف والتشديد ﴿وكذلك بعثناهم﴾ أى كما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البلى والتحلل آية دالة على كمال قدرتنا بعثناهم من النوم ﴿ليتساءلوا بينهم﴾ أى ليسأل بعضهم بعضا فيترتب عليه ما فصل من الحكم البالغة وجعله غاية للبعث المعلل فيما سبق بالاختبار من حيث انه من أحكامه المترتبة عليه والاقتصار على ذكره لاستتباعه لسائر آثاره ﴿قال﴾ استئناف لبيان تساؤلهم ﴿قائل منهم﴾ هو رئيسهم واسمه مكسلمينا ﴿كم لبثتم﴾ فى منامكم لعله قاله لما رأى من مخالفة حالهم لما هو المعتاد فى الجملة ﴿قالوا﴾ أى بعضهم ﴿لبثنا يوما أو بعض يوم﴾ قيل انما قالوه لما أنهم دخلوا الكهف غدوة و كان انتباههم آخر النهار فقالوا لبثنا يوما فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعد قالوا أو بعض يوم وكان ذلك بناء على الظن الغالب فلم يعزوا الى الكذب ﴿قالوا﴾ أى بعض آخر منهم بما سنح لهم من الأدلة أو بالهام من الله سبحانه ﴿ربكم أعلم بما لبثتم﴾ أى أنتم لا تعلمون مدة لبثكم وانما يعلمها الله سبحانه وهذا رد منهم على الأولين بأجمل ما يكون من مراعاة حسن الادب و به يتحقق التحزب الى الحزبين المعهودين فيما سبق وقد قيل القائلون جميعهم ولكن فى حالتين و لا يساعده النظم الكريم فان الاستئناف فى الحكاية والخطاب فى المحكى يقضى بأن الكلام جار على منهاج المحاورة والمجاوبة والا لقيل ثم قالوا ربنا أعلم بما لبثنا ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة﴾ قالوه اعراضا عن التعمق فى البحث واقبالا على ما يهمهم بحسب الحال كما ينبىء عنه الفاء والورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة ووصفها باسم الاشارة يشعر بأن القائل ناولها بعض أصحابه ليشترى بها قوت يومهم ذلك وقرىء بسكون الراء و بادغام القاف فى الكاف و بكسر الواو و بسكون الراء مع الادغام وحملهم لها دليل على أن التزود لا ينافى التوكل على الله تعالى ﴿فلينظر أيها﴾ أى أهلها ﴿أزكى﴾ أحل وأطيب أو أكثر وأرخص ﴿طعاما فليأتكم برزق منه﴾ أى من ذلك الازكى طعاما ﴿وليتلطف﴾ وليتكلف اللطف فى المعاملة كيلا يغبن أو فى الاستخفاء لئلا يعرف ﴿ولا يشعرن بكم أحدا﴾ من أهل المدينة فانه يستدعى شيوع أخباركم أى لا يفعلن ما يؤدى الى ذلك فالنهى على الاول تأسيس وعلى

الثانى تأكيد للامر بالتلطف ﴿انهم﴾ تعليل لما سبق من الامر والنهى أى ليبالغ فى التلطف وعدم الاشعار لانهم ﴿ان يظهروا عليكم﴾ أى يطلعوا عليكم أو يظفروا بكم والضمير للاهل المقدر فى أيها ﴿يرجموكم﴾ ان ثبتم على ما أنتم عليه ﴿أو يعيدوكم فى ملتهم﴾ أى يصيروكم اليها ويدخلوكم فيها كرها من العود بمعنى الصيرورة كقوله تعالى أولتعودن فى ملتنا وقيل كانوا أولا على دينهم وايثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على الاستقرار الذى هو أشد شىء عندهم كراهة وتقديم احتمال الرجم على احتمال الاعادة لان الظاهر من حالهم هو الثبات على الدين المؤدى اليه وضمير الخطاب فى المواضع الاربعة للمبالغة فى حمل المبعوث على الاستخفاء وحث الباقين على الاهتمام بالتوصية فان امحاض النصح أدخل فى القبول واهتمام الانسان بشأن نفسه اكثر وأوفر ﴿ولن تفلحوا اذا﴾ أى ان دخلتم فيها ولو بالكره والالجاء لن تفوزوا بخير ﴿أبدا﴾ لا فى الدنيا ولا فى الآخرة وفيه من التشديد فى التحذير مالا يخفى ﴿وكذلك﴾ أى وكما أنمناهم وبعثناهم لما مر من ازديادهم فى مراتب اليقين ﴿أعثرنا﴾ أى أطلعنا الناس ﴿عليهم ليعلموا﴾ أى الذين أعثرناهم عليهم بما عاينوا من أحوالهم العجيبة ﴿أن وعد الله﴾ أى وعده بالبعث أو موعوده الذى هو البعث أوأن كل وعده أو كل موعوده فيدخل فيه وعده بالبعث أو البعث الموعود دخولا أوليا ﴿حق﴾ صادق لا خلف فيه أو ثابت لامرد له لان نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث ﴿وأن الساعة﴾ أى القيامة التى هى عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعا للحساب والجزاء ﴿لاريب فيها﴾ لاشك فى قيامها فان من شاهد أنه جل وعلا توفى نفوسهم وأمسكها ثلثمائة سنة وأكثر حافظا أبدانها من التحلل والتفتت ثم أرسلها اليها لا يبقى له شائبة شك فى أن وعده تعالى حق وأنه يبعث من فى القبور فيرد اليهم أرواحهم فيحاسبهم ويجزيهم بحسب أعمالهم ﴿اذ يتنازعون﴾ ظرف لقوله أعثرنا قدم عليه الغاية اظهاراً لكمال العناية بذكرها لا لقوله ليعلموا كما قيل لدلالته على أن التنازع يحدث بعد الاعثار وليس كذلك أى أعثرناهم عليهم حين يتنازعون ﴿بينهم أمرهم﴾ ليرتفع الخلاف ويتبين الحق قيل المتنازع فيه أمر دينهم حيث كانوا مختلفين فى البعث فمن مقر له وجاحد به وقائل يقول ببعث الأرواح دون الاجساد وآخر يقول ببعثهما معا قيل كان ملك المدينة حينئذ رجلا صالحا مؤمنا وقد اختلف أهل مملكته فى البعث حسبما فصل فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحا وجلس على رماد وسأل ربه أن يظهر الحق فألقى الله عزوجل فى نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سد به دقيانوس باب الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه فعند ذلك بعثهم الله تعالى فجرى بينهم من التقاول ماجرى روى أن المبعوث لما دخل المدينة أخرج الدرهم ليشترى به الطعام وكان على ضرب دقيانوس فاتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به الى الملك فقص عليه القصة فقال بعضهم ان آباءنا أخبرونا بأن فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء فانطلق الملك وأهل المدينة من مسلم وكافر وأبصروهم وكلموهم ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الانس والجن ثم رجعوا الى مضاجعهم فماتوا فألقى الملك عليهم ثيابه وجعل لكل منهم تابوتا من ذهب فرآهم فى المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجدا وقيل لما انتهوا الى الكهف قال لهم الفتى مكانكم حتى أدخل أولا لئلا يفزعوا فدخل فعمى عليهم المدخل فبنوا ثمة مسجدا وقيل المتنازع فيه أمر الفتية قبل بعثهم أى أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم وماجرى بينهم وبين دقيانوس من الأحوال والاهوال ويتلقون ذلك من الاساطير وأفواه الرجال وعلى التقديرين فالفاء فى قوله عزوجل ﴿فقالوا﴾ فصيحة أى أعثرناهم عليهم فرأوا مارأوا فماتوا فقالوا أى قال بعضهم ﴿ابنوا عليهم﴾ أى على باب كهفهم ﴿بنيانا﴾ لئلا يتطرق اليهم الناس ضنا بتربتهم ومحافظة عليها وقوله تعالى ﴿ربهم أعلم بهم﴾ من كلام المتنازعين كانهم لما رأوا عدم اهتدائهم الى حقيقة حالهم من حيث النسب ومن حيث العدد ومن حيث اللبث فى

الكهف قالوا ذلك تفويضا للامر الى علام الغيوب أو من كلام الله تعالى رداً لقول الخائضين فى حديثهم من أولئك المتنازعين وقيل هو أمرهم وتدبيرهم عند وفاتهم أوشأنهم فى الموت والنوم حيث اختلفوا فى أنهم ماتوا أوناموا كما فى أول مرة فاذ حينئذ متعلق بقوله تعالى ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم﴾ وهم الملك والمسلمون ﴿لنتخذن عليهم مسجدا﴾ وقوله تعالى فقالوا معطوف على يتنازعون وايثار صيغة الماضى للدلالة على أن هذا القول ليس مما يستمر و يتجدد كالتنازع وقيل متعلق باذكر مضمرا وأما تعلقه بأعثرنا فيأباه أن اعثارهم ليس فى زمان تنازعهم فيما ذكر بل قبله وجعل وقت التنازع ممتدا يقع فى بعضه الاعثار و فى بعضه التنازع تعسف لايخفى مع أنه لامخصص لاضافته الى التنازع وهو مؤخر فى الوقوع ﴿سيقولون﴾ الضمير فى الافعال الثلاثة للخائضين فى قصتهم فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب والمسلمين لكن لا على وجه اسناد كل منها الى كلهم بل الى بعضهم ﴿ثلاثة رابعهم كلبهم﴾ أى هم ثلاثة أشخاص رابعهم أى جاعلهم أربعة بانضمامه اليهم كلبهم قيل قالته اليهود وقيل قاله السيد من نصارى نجران و كان يعقوبيا وقرىء ثلاث بادغام الثاء فى التاء ﴿و يقولون خمسة سادسهم كلبهم﴾ قيل قالته النصارى أو العاقب منهم و كان نسطوريا ﴿رجما بالغيب﴾ رميا بالخبر الخفى الذى لامطلع عليه أوظنا بالغيب من قولهم رجم بالظن اذا ظن وانتصابه على الحالية من الضمير فى الفعلين جميعا أى راجمين أو على المصدرية منهما فان الرجم والقول واحد أو من محذوف مستأنف واقع موقع الحال من ضمير الفعلين معا أى يرجمون رجما وعدم ايراد السين للاكتفاء بعطفه على مافيه ذلك ﴿و يقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾ هو مايقوله المسلمون بطريق التلقى من هذا الوحى ومافيه مما يرشدهم الى ذلك من عدم نظمه فى سلك الرجم بالغيب و تغيير سبكه بزيادة الواو المفيدة لزيادة و كادة النسبة فيما بين طرفيها الا بوحى آخر كما قيل ﴿قل﴾ تحقيقا للحق و ردا على الأولين ﴿ربى أعلم﴾ أى أقوى علما ﴿بعدتهم﴾ بعددهم ﴿مايعلمهم﴾ أى مايعلم عدتهم أو مايعلمهم فضلا عن العلم بعدتهم ﴿الا قليل﴾ من الناس قد وفقهم الله تعالى للاستشهاد بتلك الشواهد قال ابن عباس رضى الله عنه حين وقعت الواو انقطعت العدة وعليه مدار قوله رضى الله عنه أنا من ذلك القليل ولو كان فى ذلك وحى آخر لما خفى عليه ولما احتاج الى الاستشهاد بالواو ولكان المسلمون اسوة له فى العلم بذلك وعن على كرم الله وجهه أنهم سبعة نفر أسماؤهم يمليخا ومكشليينا ومشلينيا هؤلاء أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش و كان يستشير هؤلاء الستة فى أمره والسابع الراعى الذى وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس واسمه كفيشيططيوش ﴿فلا تمار﴾ الفاء لتفريع النهى على ماقبله أى اذ قد عرفت جهل أصحاب القولين الأولين فلا تجادلهم ﴿فيهم﴾ فى شأن الفتية ﴿الامراء ظاهرا﴾ قدر ماتعرض له الوحى من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الاجمالى وتفويض العلم الى الله سبحانه من غير تصريح بجهلهم وتفضيح لهم فانه مما يخل بمكارم الاخلاق ﴿و لاتستفت فيهم﴾ فى شأنهم ﴿منهم﴾ من الخائضين ﴿أحدا﴾ فان فيما قص عليك لمندوحة عن ذلك مع انه لاعلم لهم بذلك وقال عطاء الا قليل من أهل الكتاب فالضمائر الثلاثة فى الافعال الثلاثة لهم وماذكر من الشواهد لارشاد المؤمنين الى صحة القول الثالث وفيه محيص عما فى الأول من التكلف فى جعل أحد الاقوال المحكية المنظومة فى سمط واحد ناشئا عن الحكاية مع كون الأخيرين بخلافه و وضوح فى سبب حذف المفعول فى لاتمار والمعنى حينئذ واذ قد وقفت على أن كلهم ليسوا على خطأ فى ذلك فلا تجادلهم الا جدالا ظاهرا نطق به الوحى المبين من غير تجهيل لجميعهم فان فيهم مصيبا وان قل والنهى عن الاستفتاء لدفع ماعسى يتوهم من احتمال جوازه أو احتمال وقوعه بناء على اصابة بعضهم فالمعنى لاتراجع اليهم فى شأن الفتية و لاتصدق القول الثالث من حيث صدوره عنهم بل من حيث التلقى من الوحى ﴿و لاتقولن لشىء﴾ أى لاجل

شيء تعزم عليه ﴿انى فاعل ذلك﴾ الشيء ﴿غدا﴾ أى فيما يستقبل من الزمان مطلقا فيدخل فيه الغد دخولا أوليا فانه نزل حين قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذى القرنين فسألوه عليه الصلاة والسلام فقال ائتونى غدا أخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه الوحى حتى شق عليه وكذبته قريش وماقيل من أن المدلول بالعبارة هو الغد وما بعد ذلك مفهوم بطريق دلالة النص يرده أن مابعده ليس بمعناه فى مناط النهى فان وسعة المجال دليل القدرة فليتأمل ﴿الا أن يشاء الله﴾ استثناء مفرغ من النهى أى لاتقولن ذلك فى حال من الاحوال الا حال ملابسته بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد وهو أن يقال ان شاء الله أو فى وقت من الأوقات الا وقت أن يشاء الله أن تقوله لامطلقا بل مشيئة اذن فان النسيان أيضا بمشيئته تعالى و لامساغ لتعليقه بفاعل لعدم سداد استثناء اقتران المشيئة بالفعل ومنافاة استثناء اعتراضها النهى وقيل الاستثناء جار مجرى التأبيد كأنه قيل لاتقولنه أبدا كقوله تعالى وما كان لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ﴿واذكر ربك﴾ بقولك ان شاء الله متداركا له ﴿اذا نسيت﴾ اذا فرط منك نسيان ثم ذكرته وعن ابن عباس رضى الله عنهما ولو بعد سنة مالم يحنث ولذلك جوز تأخير الاستثناء وعامة الفقهاء على خلافه اذ لو صح ذلك لما تقرر اقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم صدق ولا كذب قال القرطبي هذا فى تدارك التبرك والتخلص عن الاثم وأما الاستثناء المغير للحكم فلا يكون الا متصلا ويجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار اذا نسيت الاستثناء مبالغة فى الحث عليه أو اذكر ربك وعقابه اذا تركت بعض ما أمرك به ليبعثك ذلك على التدارك أو اذكره اذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها ﴿وقل عسى أن يهدين ربى﴾ أى يوفقنى ﴿لأقرب من هذا﴾ أى لشيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف من الآيات والدلائل الدالة على نبوتى ﴿رشدا﴾ أى ارشادا للناس ودلالة على ذلك وقد فعل عز وجل ذلك حيث آتاه من البينات ماهو أعظم من ذلك وأبين كقصص الأنبياء المتباعد أيامهم والحوادث النازلة فى الاعصار المستقبلة الى قيام الساعة أو لاقرب رشدا وأدنى خيرا من المنسى ﴿ولبثوا فى كهفهم﴾ أحياء مضروبا على آذانهم ﴿ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا﴾ وهى جملة مستأنفة مبينة لما أجمل فيما سلف وأشير الى عزة مناله وقيل انه حكاية كلام أهل الكتاب فانهم اختلفوا فى مدة لبثهم كما اختلفوا فى عدتهم فقال بعضهم هكذا و بعضهم ثلثمائة وروى عن على رضى الله عنه أنه قال عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية والله تعالى ذكر السنة القمرية والتفاوت بينهما فى كل مائة سنة ثلاث سنين فيكون ثلثمائة وتسع سنين وسنين عطف بيان لثلثمائة وقيل بدل وقرىء على الاضافة وضعا للجمع موضع المفرد ومما يحسنه ههنا أن علامة الجمع فيه جبر لما حذف فى الواحد وأن الأصل فى العدد اضافته الى الجمع ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أى بالزمان الذى لبثوا فيه ﴿له غيب السموات والأرض﴾ أى ماغاب فيهما وخفى من أحوال أهلهما واللام للاختصاص العلمى دون التكوينى فانه غير مختص بالغيب ﴿أبصر به وأسمع﴾ دل بصيغة التعجب على أن شأن علمه سبحانه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه ادراك المدركين لا يحجبه شيء ولا يحول دونه حائل ولا يتفاوت بالنسبة اليه اللطيف والكثيف والصغير والكبير والخفى والجلى والهاء ضمير الجلالة ومحله الرفع على الفاعلية والباء مزيدة عند سيبويه وكان أصله أبصر أى صار ذا بصر ثم نقل الى صيغة الأمر للانشاء فبرز الضمير لعدم لياقة الصيغة له أو لزيادة الباء كما فى كفى به والنصب على المفعولية عند الأخفش والفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد والباء مزيدة ان كانت الهمزة للتعدية ومعدية ان كانت للصيرورة ولعل تقديم أمر ابصاره تعالى لما أن الذى نحن بصدده من قبيل المبصرات ﴿ما لهم﴾ لأهل السموات والأرض ﴿من دونه﴾ تعالى ﴿من ولى﴾ يتولى أمورهم وينصرهم استقلالا ﴿ولا يشرك فى حكمه﴾ فى قضائه أو فى علم الغيب

﴿أحدا﴾ منهم ولا يجعل له فيه مدخلا وهو كما ترى أبلغ فى نفى الشريك من أن يقال من ولى ولا شريك وقرئ على صيغة نهى الحاضر على أن الخطاب لكل أحد ولما دل انتظام القرآن الكريم لقصة أصحاب الكهف من حيث انها بالنسبة الى النبي صلى الله عليه وسلم من المغيبات على أنه وحى معجز أمره عليه السلام بالمداومة على دراسته فقال ﴿واتل ماأوحى اليك من كتاب ربك﴾ ولا تسمع لقولهم ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴿لا مبدل لكلماته﴾ لا قادر على تبديله و تغييره غيره ﴿ولن تجد﴾ أبد الدهر وان بالغت فى الطلب ﴿من دونه ملتحدا﴾ ملجأ تعدل اليه عند المام ملمة ﴿واصبر نفسك﴾ احبسها وثبتها مصاحبة ﴿مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى﴾ أى دائبين على الدعاء فى جميع الأوقات وقيل فى طرفى النهار وقرئ بالغدوة على أن ادخال اللام عليها وهى علم فى الأغلب على تأويل التنكير بهم والمراد بهم فقراء المؤمنين مثل صهيب وعمار وخباب ونحوهم رضى الله عنهم وقيل أصحاب الصفة وكانوا نحو سبعمائة رجل قيل انه قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم نح هؤلاء الموالى الذين كأن ريحهم ريح الضأن حتى نجالسك كما قال قوم نوح عليه السلام أنؤمن لك واتبعك الأرذلون فنزلت والتعبير عنهم بالموصول لتعليل الأمر بما فى حيز الصلة من الخصلة الداعية الى ادامة الصحبة ﴿يريدون﴾ بدعائهم ذلك ﴿وجهه﴾ حال من المستكن فى يدعون أى مريدين لرضاه تعالى وطاعته ﴿ولا تعد عيناك عنهم﴾ أى لا يجاوزهم نظرك الى غيرهم من عداه أى جاوزه واستعماله بعن لتضمينه معنى النبو أو لا تصرف عيناك النظر عنهم الى غيرهم من عدوته عن الأمر أى صرفته عنه على أن المفعول محذوف لظهوره وقرئ ولا تعد عينيك ولا تعد عينيك من الاعداء والتعدية والمراد نهيه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زيهم طموحا الى زى الاغنياء ﴿تريد زينة الحيوة الدنيا﴾ أى تطلب مجالسة الأشراف والاغنياء وأصحاب الدنيا وهى حال من الكاف على الوجه الاول من القراءة المشهورة ومن الفاعل على الوجه الثانى منها وضمير تريد للعينين واسناد الارادة اليه مجاز وتوحيده للتلازم كما فى قوله

لمن زحلوقة زل بها العينان تنهل

ومن المستكن فى الفعل على القراءتين الاخيرتين ﴿ولا تطع﴾ فى تنحية الفقراء عن مجالسك ﴿من أغفلنا قلبه﴾ أى جعلناه غافلا لبطلان استعداده للذكر بالمرة أو وجدناه غافلا كقولك أجبنته وأبخلته اذا وجدته كذلك أوهو من أغفل ابله أى لم نسمه بالذكر ﴿عن ذكرنا﴾ كأولئك الذين يدعونك الى طرد الفقراء عن مجلسك فانهم غافلون عن ذكرنا على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء فى مجامع الاوقات وفيه تنبيه على أن الباعث له على ذلك الدعاء غفلة قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته وانهماكه فى الحسيات حتى خفى عليه أن الشرف بحلية النفس لابزينة الجسد وقرئ اغفلنا قلبه على اسناد الفعل الى القلب أى حسبنا غافلين عن ذكرنا اياه بالمؤاخذة من أغفلته اذا وجدته غافلا ﴿واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾ ضياعا وهلاكا أو متقدما للحق والصواب نابذاله وراء ظهره من قولهم فرس فرط أى متقدم للخيل أوهو بمعنى الافراط والتفريط فان الغفلة عن ذكره سبحانه تؤدى الى اتباع الهوى المؤدى الى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب والتعبير عنهم بالموصول للايذان بعلية مافى حيز الصلة للنهى عن الاطاعة ﴿وقل﴾ لاولئك الغافلين المتبعين هواهم ﴿الحق من ربكم﴾ أى ماأوحى الى الحق لاغير كائنا من ربكم أو الحق المعهود من جهة ربكم لامن جهتى حتى يتصور فيه التبديل أو يمكن التردد فى اتباعه وقوله تعالى ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ امامن تمام القول المأمور به والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها بطريق التهديد لالتفريعه عليه كما فى قوله تعالى هذا عطاؤنا فامنن أوأمسك بغير حساب وقوله تعالى الحق من ربك فلا تكونن من الممترين أى عقيب تحقق أن ماأوحى الى حق لاريب فيه وأن ذلك الحق من جهة ربكم فمن

شاء أن يؤمن به فليؤمن كسائر المؤمنين و لايتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل ومن شاء أن يكفر به فليفعل وفيه من التهديد واظهار الاستغناء عن متابعتهم وعدم المبالاة بهم و بايمانهم وجودا وعدما مالايخفى واما تهديد من جهة الله تعالى والفاء لترتيب مابعدها من التهديد على الأمر لاعلى مضمون المأمور به والمعنى قل لهم ذلك و بعد ذلك من شاء أن يؤمن به أوأن يصدقك فيه فليؤمن ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليفعل فقوله تعالى ﴿انا أعتدنا﴾ وعيد شديد وتأكيد للتهديد وتعليل لما يفيده من الزجر عن الكفر أولما يفهم من ظاهر التخيير من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه فان اعداد جزائه من دواعي الاملاء والامهال وعلى الوجه الأول هو تعليل للامر بما ذكر من التخيير التهديدى أى قل لهم ذلك انا أعتدنا ﴿للظالمين﴾ أى هيأنا للكافرين بالحق بعد ماجاء من الله سبحانه والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره تجاوز عن الحد و وضع للشئ فى غير موضعه ﴿نارا﴾ عظيمة عجيبة ﴿أحاط بهم﴾ أى يحيط بهم وايثار صيغة الماضى للدلالة على التحقق ﴿سرادقها﴾ أى فسطاطها شبه به مايحيط بهم من النار وقيل السرادق الحجرة التى تكون حول الفسطاط وقيل سرادقها دخانها وقيل حائط من نار ﴿وان يستغيثوا﴾ من العطش ﴿يغاثوا بماء كالمهل﴾ كالحديد المذاب وقيل كدردى الزيت وهو على طريقة قوله فاعتبوا بالصيلم ﴿يشوى الوجوه﴾ اذا قدم ليشرب انشوى الوجه لحرارته عن النبى عليه الصلاة والسلام هو كعكر الزيت فاذاقرب اليه سقطت فروة وجهه ﴿بئس الشراب﴾ ذلك ﴿وساءت﴾ النار ﴿مرتفقا﴾ متكأ وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد وأنى ذلك فى النار وانماهو بمقابلة قوله تعالى حسنت مرتفقا ﴿ان الذين آمنوا﴾ فى محل التعليل للحث على الايمان المنفهم من التخيير كأنه قيل وللذين آمنوا ولعل تغيير سبكه للايذان بكمال تنافى مآلى الفريقين أى ان الذين آمنوا بالحق الذى أوحى اليك ﴿وعملوا الصالحات﴾ حسبما بين فى تضاعيفه ﴿انا لانضيع أجر من أحسن عملا﴾ خبر ان الاولى هى الثانية مع مافى حيزها والراجع محذوف أى من أحسن منهم عملا أومستغنى عنه كما فى قولك نعم الرجل زيد أو واقع موقعه الظاهر فان من أحسن عملا فى الحقيقة هو الذى آمن وعمل الصالحات ﴿أولئك﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار﴾ استئناف لبيان الاجر أوهو الخبر ومابينهما اعتراض أوهو خبر بعد خبر ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب﴾ من الاولى ابتدائية والثانية بيانية صفة لاساور والتنكير للتفخيم وهو جمع أسورة أوأسوار جمع سوار ﴿ويلبسون ثيابا خضرا﴾ خصت الخضرة بثيابهم لأنها أحسن الألوان وأكثرها طراوة ﴿من سندس واستبرق﴾ أى مما رق من الديباج وماغلظ جمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين ﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ على السرر على ماهو شأن المتنعمين ﴿نعم الثواب﴾ ذلك ﴿وحسنت﴾ أى الأرائك ﴿مرتفقا﴾ أى متكأ ﴿واضرب لهم﴾ أى للفريقين الكافر والمؤمن ﴿مثلا رجلين﴾ مفعولان لاضرب أولهما ثانيهما لأنه المحتاج الى التفصيل والبيان أى اضرب للكافرين والمؤمنين لامن حيث أحوالهما المستفادة مما ذكر آنفا من أن للاولين فى الآخرة كذا وللآخرين كذا بل من حيث عصيان الأولين مع تقلبهم فى نعم الله تعالى وطاعة الآخرين مع مكابدتهم مشاق الفقر مثلا حال رجلين مقدرين أومحققين هما اخوان من بنى اسرائيل أوشريكان كافر اسمه قطروس ومؤمن اسمه يهوذا اقتسما ثمانية آلاف دينار فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا وصرف المؤمن نصيبه الى وجوه المبار فآل أمرهما الى ماحكاه الله تعالى وقيل هما أخوان من بنى مخزوم كافر هو الاسود ابن عبد الاسد ومسلم هو أبو سلمة عبد الله بن عبد الاسد زوج أم سلمة رضى الله عنها أولا ﴿جعلنا لأحدهما﴾ وهو الكافر ﴿جنتين﴾ بستانين ﴿من أعناب﴾ من كروم متنوعة والجملة بتمامها بيان للتمثيل أوصفة لرجلين

﴿ وحففناهما بنخل ﴾ أى جعلنا النخل محيطة بهما مؤزرا بها كرومهما يقال حفه القوم اذا طافوا به وحففته بهم جعلتهم حافين حوله فيزيده الباء مفعولا آخر كقولك غشيته به ﴿ وجعلنا بينهما ﴾ وسطهما ﴿ زرعا ﴾ ليكون كل منهما جامعا للاقوات والفواكه متواصل العمارة على الهيئة الرائقة والوضع الانيق ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ﴾ ثمرها و بلغت مبلغا صالحا للاكل وقرئ بسكون الكاف وقرئ كل الجنتين آتى أكله ﴿ ولم تظلم منه ﴾ لم تنقص من أكلها ﴿ شيئا ﴾ كما يعهد ذلك فى سائر البساتين فان الثمار غالبا تكثر فى عام وتقل فى آخر وكذا بعض الاشجار يأتى بالثمر فى بعض الاعوام دون بعض ﴿ وفجرنا خلالهما ﴾ فيما بين كل من الجنتين ﴿ نهراً ﴾ على حدة ليدوم شربهما و يزيد بهاؤهما وقرئ بالتخفيف ولعل تأخير ذكر تفجير النهر عن ذكر ايتاء الأكل مع أن الترتيب الخارجى على العكس للايذان باستقلال كل من ايتاء الأكل وتفجير النهر فى تكميل محاسن الجنتين كما فى قصة البقرة ونحوها ولو عكس لانفهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها مترتب على بعض فان ايتاء الأكل متفرع على السقى عادة وفيه ايماء الى أن ايتاء الأكل لا يتوقف على السقى كقوله تعالى يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار ﴿ وكان له ﴾ لصاحب الجنتين ﴿ ثمر ﴾ أنواع من المال غير الجنتين من ثمر ماله اذا كثره قال ابن عباس رضى الله عنهما هو جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك وقال مجاهد هو الذهب والفضة خاصة ﴿ فقال لصاحبه ﴾ المؤمن ﴿ وهو ﴾ أى القائل ﴿ يحاوره ﴾ أى صاحبه المؤمن وان جاز العكس أى يراجعه فى الكلام من حار اذا رجع ﴿ أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ﴾ حشما وأعوانا أو أولادا ذكورا لأنهم الذين ينفرون معه ﴿ ودخل جنته ﴾ التى شرحت أحوالها وعددها وصفاتها وهيآتها وتوحيدها اما لعدم تعلق الغرض بتعددها واما لاتصال احداهما بالأخرى واما لأن الدخول يكون فى واحدة فواحدة ﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ ضار لها بعجبه وكفره ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من ذكر دخول جنته حال ظلمه لنفسه كانه قيل فماذا قال اذ ذاك فقيل قال ﴿ ما أظن أن تبيد هذه ﴾ الجنة أى تفنى ﴿ أبدا ﴾ لطول أمله وتمادى غفلته واغتراره بمهلته ولعله انما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره بفناء جنتيه ونهيه عن الاغترار بهما وأمره بتحصيل الباقيات الصالحات ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ كائنة فيما سيأتى ﴿ ولئن رددت ﴾ بالبعث عند قيامها كما تقول ﴿ الى ربى لأجدن ﴾ يومئذ ﴿ خيرا منها ﴾ أى من هذه الجنة وقرئ منهما أى من الجنتين ﴿ منقلبا ﴾ مرجعا وعاقبة ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة اعتقاد أنه تعالى انما أولاه ما أولاه فى الدنيا لاستحقاقه الذاتى وكرامته عليه سبحانه ولم يدر أن ذلك استدراج ﴿ قال له صاحبه ﴾ استئناف كما سبق ﴿ وهو يحاوره ﴾ جملة حالية كما مر فائدتها التنبيه من أول الأمر على أن ما يتلوه كلام معتنى بشأنه مسوق للمحاورة ﴿ أكفرت ﴾ حيث قلت ما أظن الساعة قائمة ﴿ بالذى خلقك ﴾ أى فى ضمن خلق أصلك ﴿ من تراب ﴾ فان خلق آدم عليه السلام منه متضمن لخلقه منه لما أن خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام اذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه وقيل خلقك منه لانه أصل مادتك اذ به يحصل الغذاء الذى منه تحصل النطفة فتدبر ﴿ من نطفة ﴾ هى مادتك القريبة فالمخلوق واحد والمبدأ متعدد ﴿ ثم سواك رجلا ﴾ أى عدلك وكملك انسانا ذكرا أوصيرك رجلا والتعبير عنه تعالى بالموصول للاشعار بعلية ما فى حيز الصلة لانكار الكفر والتلويح بدليل البعث الذى نطق به قوله عز من قائل يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب الخ ﴿ لكنا هو الله ربى ﴾ أصله لكن انا وقد قرئ كذلك فحذفت الهمزة فتلاقت النونان فكان الادغام وهو ضمير الشأن وهو مبتدأ خبره الله ربى

وتلك الجملة خبر أنا والعائد منها اليه الضمير وقرىء باثبات الف أنا فى الوصل والوقف جميعا وفى الوقف خاصة وقرىء لكنه بالهاء ولكن بطرح انا ولكن انا لا اله الا هو ربى ومدار الاستدراك قوله تعالى أكفرت كأنه قال أنت كافر لكنى مؤمن موحد ﴿ ولا أشرك بربى أحدا ﴾ فيه ايذان بأن كفره كان بطريق الاشراك ﴿ ولولا اذ دخلت جنتك قلت ﴾ أى هلا قلت عند ما دخلتها وتقديم الظرف على المحضض عليه للايذان بتحتم القول فى آن الدخول من غير ريث لا للقصر ﴿ ماشاء الله ﴾ أى الأمر ماشاء الله أو ماشاء الله كائن على أن ماموصولة مرفوعة المحل أو أى شىء شاء الله كان على أنها شرطية منصوبة والجواب محذوف والمراد تحضيضه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى ان شاء أبقاها وان شاء أفناها ﴿ لاقوة الا بالله ﴾ أى هلا قلت ذلك اعترافا بعجزك و بأن ماتيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها انما هو بمعونته تعالى واقداره عن النبى صلى الله عليه وسلم من رأى شيأ فأعجبه فقال ماشاء الله لاقوة الا بالله لم يضره ﴿ ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا ﴾ أنا اما مؤكد لياء المتكلم أو ضمير فصل بين مفعولى الرؤية ان جعلت علمية وأقل ثانيهما وحال ان جعلت بصرية فيكون أنا حينئذ تأكيدا لاغير لأن شرط كونه ضمير فصل توسطه بين المبتدا والخبر أو ما أصله المبتدأ والخبر وقرىء أقل بالرفع خبرا لانا والجملة مفعول ثان للرؤية أو حال وفى قوله تعالى وولدا نصرة لمن فسر النفر بالولد ﴿ فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك ﴾ هو جواب الشرط والمعنى ان ترن أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله سبحانه أن يقلب مابى ومابك من الفقر والغنى فيرزقنى لايمانى جنة خيرا من جنتك و يسلبك لكفرك نعمته و يخرب جنتك ﴿ ويرسل عليها حسبانا ﴾ هو مصدر بمعنى الحساب كالبطلان والغفران أى مقدارا قدره الله تعالى وحسبه وهو الحكم بتخريبها وقيل عذاب حسبان وهو حساب ما كسبت يداه وقيل مرامى جمع حسبانة وهى الصواعق ومساعدة النظم الكريم فيما سيأتى للاولين أكثر ﴿ من السماء فتصبح صعيدا زلقا ﴾ مصدر أريد به المفعول مبالغة أى أرضا ملساء يزلق عليها لاستئصال ماعليها من البناء والشجر والنبات ﴿ أو يصبح ﴾ عطف على قوله تعالى فتصبح وعلى الوجه الثالث على يرسل ﴿ ماؤها غورا ﴾ أى غائرا فى الارض أطلق عليه المصدر مبالغة ﴿ فلن تستطيع ﴾ أبدا ﴿ له ﴾ أى للماء الغائر ﴿ طلبا ﴾ فضلا عن وجدانه ورده ﴿ وأحيط بثمره ﴾ أهلك أمواله المعهودة من جنتيه ومافيهما وأصله من احاطة العدو وهو عطف على مقدر كأنه قيل فوقع بعض ماتوقع من المحذور وأهلك أمواله وانما حذف لدلالة السباق والسياق عليه كما فى المعطوف عليه بالفاء الفصيحة ﴿ فأصبح يقلب كفيه ﴾ ظهرا لبطن وهو كناية عن الندم كأنه قيل فأصبح يندم ﴿ على ما أنفق فيها ﴾ أى فى عمارتها من المال ولعل تخصيص الندم به دون ماهلك الآن من الجنة لما أنه انما يكون على الافعال الاختيارية ولأن ما أنفق فى عمارتها كان مما يمكن صيانته عن طوارق الحدثان وقد صرفه الى مصالحها رجاء أن يتمتع بها أكثر مما يتمتع به وكان يرى أنه لاتنالها أيدى الردى ولذلك قال ماأظن أن تبيد هذه أبدا فلما ظهر له أنها مما يعتريه الهلاك ندم على ماصنع بناء على الزعم الفاسد من انفاق مايمكن ادخاره فى مثل هذا الشىء السريع الزوال ﴿ وهى ﴾ أى الجنة من الاعناب المحفوفة بنخل ﴿ خاوية ﴾ ساقطة ﴿ على عروشها ﴾ أى دعائمها المصنوعة للكروم لسقوطها قبل سقوطها وتخصيص حالها بالذكر دون النخل والزرع اما لأنها العمدة وهما من متمماتها واما لأن ذكر هلاكها مغن عن ذكر هلاك الباقى لانها حيث هلكت وهى مشيدة بعروشها فهلاك ماعداها بالطريق الاولى واما لأن الانفاق فى عمارتها أكثر وقيل أرسل الله تعالى عليها نارا فأحرقتها وغار ماؤها ﴿ ويقول ﴾ عطف على يقلب أو حال من ضميره أى وهو يقول ﴿ ياليتنى لم أشرك بربى أحدا ﴾ كأنه تذكر موعظة أخيه وعلم أنه انما أتى من قبل شركه فتمنى لولم يكن مشركا فلم يصبه ما أصابه قيل ويحتمل أن يكون ذلك توبة من الشرك وندما على مافرط منه

﴿ولم تكن له﴾ وقرئ بالياء التحتانية ﴿فئة ينصرونه﴾ يقدرون على نصره بدفع الاهلاك أو على رد المهلك أو الاتيان بمثله وجمع الضمير باعتبار المعنى كما فى قوله عز وعلا يرونهم مثليهم ﴿من دون الله﴾ فانه القادر على ذلك وحده ﴿وما كان﴾ فى نفسه ﴿منتصرا﴾ ممتنعا بقوته عن انتقامه سبحانه ﴿هنالك﴾ فى ذلك المقام وفى تلك الحال ﴿الولاية لله الحق﴾ أى النصر له وحده لا يقدر عليها أحد فهو تقرير لما قبله أو ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة كما نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن ويعضده قوله تعالى ﴿هو خير ثوابا وخير عقبا﴾ أى لأوليائه وقرئ الولاية بكسر الواو ومعناها الملك والسلطان أى هنالك السلطان له عز وجل لا يغلب ولا يمتنع منه أو لا يعبد غيره كقوله تعالى واذا ركبوا دعوا الله مخلصين له الدين فيكون تنبيها على أن قوله ياليتنى لم أشرك الخ كان عن اضطرار وجزع عماد هاه على أسلوب قوله تعالى آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين وقيل هنالك اشارة الى الآخرة كقوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقرئ برفع الحق على أنه صفة للولاية وبنصبه على أنه مصدر مؤكد وقرئ عقبا بضم القاف وعقبى كرجعى والكل بمعنى العاقبة ﴿واضرب لهم مثل الحيوة الدنيا﴾ أى واذكر لهم ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يطمئنوا بها ولا يعكفوا عليها ولا يضربوا عن الآخرة صفحا بالمرة أو بين لهم صفتها العجيبة التى هى فى الغرابة كالمثل ﴿كماء﴾ استئناف لبيان المثل أى هى كماء ﴿أنزلناه من السماء﴾ ويجوز كونه مفعولا ثانيا لاضرب على أنه بمعنى صير ﴿فاختلط به﴾ اشتبك بسببه ﴿نبات الارض﴾ فالتف وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه أو نجع الماء فى النبات حتى روى ورف فمقتضى الظاهر حينئذ فاختلط بنبات الأرض وايثار ماعليه النظم الكريم عليه للمبالغة فى الكثرة فان كلا من المختلطين موصوف بصفة صاحبه ﴿فأصبح﴾ ذلك النبات الملتف اثر بهجتها ورفيفها ﴿هشيما﴾ مهشوما مكسورا ﴿تذروه الرياح﴾ تفرقه وقرئ تذريه من اذراه وتذروه الريح وليس المشبه به نفس الماء بل هو الهيئة المنتزعة من الجملة وهى حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر وارفا ثم هشيما تطيره الرياح كان لم يغن بالامس ﴿وكان الله على كل شئ﴾ من الاشياء التى من جملتها الانشاء والافناء ﴿مقتدرا﴾ قادرا على الكمال ﴿المال والبنون زينة الحيوة الدنيا﴾ بيان لشأن ماكانوا يفتخرون به من محسنات الحياة الدنيا كما قال الأخ الكافر أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا اثر بيان شأن نفسها بما مر من المثل وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه كما فى الآية المحكية آنفا وقوله تعالى وأمددناكم بأموال وبنين وغير ذلك من الآيات الكريمة لعراقته فيما نيط به من الزينة والامداد وغير ذلك وعمومه بالنسبة الى الافراد والاوقات فانه زينة وممد لكل أحد من الآباء والبنين فى كل وقت وحين وأما البنون فزينتهم وامدادهم انما يكون بالنسبة الى من بلغ مبلغ الابوة ولأن المال مناط لبقاء النفس والبنين لبقاء النوع ولان الحاجة اليه أمس من الحاجة اليهم ولانه أقدم منهم فى الوجود ولانه زينة بدونهم من غير عكس فان من له بنون بلا مال فهو فى ضيق حال ونكال وافراد الزينة مع أنها مسندة الى الاثنين لما أنها مصدر فى الاصل أطلق على المفعول مبالغة كانهما نفس الزينة والمعنى انما يفتخرون به من المال والبنين شئ يتزين به فى الحياة الدنيا وقد علم شأنها فى سرعة الزوال وقرب الاضمحلال فكيف بما هو من أوصافها التى شأنها أن تزول قبل زوالها ﴿والباقيات الصالحات﴾ هى أعمال الخير وقيل هى الصلوات الخمس وقيل سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وقيل كل ما أريد به وجه الله تعالى وعلى كل تقدير يدخل فيها أعمال فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه دخولا أوليا أما صلاحها فظاهر وأما بقاؤها فبقاء عوائدها عند فناء كل ما تطمح اليه النفس من حظوظ الدنيا ﴿خير﴾ أى مما نعت شأنه من المال والبنين واخراج بقاء تلك الاعمال وصلاحها مخرج الصفات المفروغ عنها مع أن حقهما أن يكونا مقصودى

الافادة لاسيما فى مقابلة اثبات الفناء لما يقابلها من المال والبنين على طريقة قوله تعالى ماعندكم ينفد وما عند الله باق للايذان بأن بقاءها أمر محقق لا حاجة الى بيانه بل لفظ الباقيات اسم لها وصف ولذلك لم يذكر الموصوف وانما الذى يحتاج الى التعرض له خيريتها ﴿عند ربك﴾ أى فى الآخرة وهو بيان لما يظهر فيه آثار خيريتها بمنزلة اضافة الزينة الى الحياة الدنيا لا لأفضليتها فيها من المال والبنين مع مشاركة الكل فى الاصل اذ لا مشاركة لهما فى الخيرية فى الآخرة ﴿ثوابا﴾ عائدة تعود الى صاحبها ﴿وخير أملا﴾ حيث ينال بها صاحبها فى الآخرة كل ما كان يؤمله فى الدنيا وأما ما مر من المال والبنين فليس لصاحبه أمل يناله وتكرير خير للاشعار باختلاف حيثيتى الخيرية والمبالغة فيها ﴿ويوم نسير الجبال﴾ منصوب بمضمر أى اذكر حين نقلعها من أماكنها ونسيرها فى الجو على هيئاتها كما ينبئ عنه قوله تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب أونسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباء منبثا والمراد بتذكيره تحذير المشركين مما فيه من الدواهى وقيل هو معطوف على ما قبله من قوله تعالى عند ربك أى الباقيات الصالحات خير عند الله و يوم القيامة وقرئ تسير على صيغة البناء للمفعول من التفعيل جريا على سنن الكبرياء وايذانا بالاستغناء عن الاسناد الى الفاعل لتعينه وقرئ تسير ﴿وترى الأرض﴾ أى جميع جوانبها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أولكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية وقرئ ترى على صيغة البناء للمفعول ﴿بارزة﴾ أما بروزما تحت الجبال فظاهر وأما ما عداه فكانت الجبال تحول بينه و بين الناظر قبل ذلك فالآن أضحى قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا ﴿وحشرناهم﴾ جمعناهم الى الموقف من كل أوب وايثار صيغة الماضى بعد نسير وترى للدلالة على تحقق الحشر المتفرع على البعث الذى ينكره المنكرون وعليه يدور أمر الجزاء وكذا الكلام فيما عطف عليه منفيا وموجبا وقيل هو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الاهوال كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك ﴿فلم نغادر﴾ أى لم نترك ﴿منهم أحدا﴾ يقال غادره وأغدره اذا تركه ومنه الغدر الذى هو ترك الوفاء والغدير الذى هو ماء يتركه السيل فى الارض الغائرة وقرئ بالياء وبالفوقانية على اسناد الفعل الى ضمير الارض كما فى قوله تعالى وألقت ما فيها وتخلت ﴿وعرضوا على ربك﴾ شبهت حالهم بحال جند عرضوا على السلطان ليأمر فيهم بما يأمر وفى الالتفات الى الغيبة وبناء الفعل للمفعول مع التعرض لعنوان الربوبية والاضافة الى ضميره عليه السلام من تربية المهابة والجرى على سنن الكبرياء واظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى ﴿صفا﴾ أى غير متفرقين ولا مختلطين فلا تعرض فيه لوحدة الصف وتعدده وقد ورد فى الحديث الصحيح يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا ﴿لقد جئتمونا﴾ على اضمار القول على وجه يكون حالا من ضمير عرضوا أى مقولا لهم أو وقلنا لهم وأما كونه عاملا فى يوم نسير كما قيل فبعيد من جزالة التنزيل الجليل كيف لا ويلزم منه أن هذا القول هو المقصود بالاصالة دون سائر القوارع مع أنه خاص التعلق بما قبله من العرض والحشر دون تسيير الجبال وبروز الارض ﴿كما خلقناكم﴾ نعت لمصدر مقدر أى مجيئا كائنا كمجيئكم عند خلقنا لكم ﴿أول مرة﴾ أو حال من ضمير جئتمونا أى كائنين كما خلقناكم أول مرة حفاة عراة غرلا أو ما معكم شئ مما تفتخرون به من الاموال والانصار كقوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴿بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا﴾ اضراب وانتقال من كلام الى كلام كلاهما للتوبيخ والتقريع أى زعمتم فى الدنيا أنه لن نجعل لكم أبدا وقتا ننجز فيه ما وعدناه من البعث وما يتبعه وأن مخففة من المثقلة فصل بحرف النفى بينها وبين خبرها لكونه جملة فعلية متصرفة غير دعاء والظرف اما مفعول ثان للجعل وهو بمعنى التصيير والاول هو موعدا أو حال من موعدا وهو بمعنى الخلق والابداع ﴿ووضع الكتاب﴾ عطف على عرضوا داخل تحت الامور الهائلة التى أريد تذكيرها بتذكير وقتها أورد فيه ما أورد فى أمثاله من صيغة

الماضى دلالة على التقرر أيضا أى وضع صحائف الاعمال وايثار الافراد للاكتفاء بالجنس والمراد بوضعها اماوضعها فى أيدى أصحابها يمينا وشمالا واما فى الميزان ﴿فترى المجرمين﴾ قاطبة فيدخل فيهم الكفرة المنكرون للبعث دخولا أوليا ﴿مشفقين﴾ خائفين ﴿مما فيه﴾ من الجرائم والذنوب ﴿ويقولون﴾ عندوقوفهم على مافى تضاعيفه نقيرا وقطميرا ﴿ياويلتنا﴾ منادين لهلكتهم التى هلكوها من بين الهلكات مستدعين لها ليهلكوا ولا يروا هول مالاقوه أى ياويلتنا احضرى فهذا أوان حضورك ﴿مالهذا الكتاب﴾ أى أى شئ له وقوله تعالى ﴿لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها﴾ أى حواها وضبطها جملة حالية محققة لما فى الجملة الاستفهامية من التعجب أواستئنافية مبنية على سؤال نشأ من التعجب كأنه قيل ماشأنه حتى يتعجب منه فقيل لايغادر سيئة صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ﴿ووجدوا ماعملوا﴾ فى الدنيا من السيئات أو جزاء ماعملوا ﴿حاضرا﴾ مسطورا عتيدا ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾ فيكتب مالم يعمل من السيئات أو يزيد فى عقابه المستحق فيكون اظهارا لمعدلة القلم الازلى ﴿واذ قلنا للملائكة﴾ أى اذكر وقت قولنا لهم ﴿اسجدوا لآدم﴾ سجود تحية وتكريم وقد مر تفصيله ﴿فسجدوا﴾ جميعا امتثالا بالامر ﴿الا ابليس﴾ فانه لم يسجد بل أبى واستكبر وقوله تعالى ﴿كان من الجن﴾ كلام مستأنف سيق مساق التعليل لما يفيده استثناء اللعين من الساجدين كأنه قيل ماله لم يسجد فقيل كان أصله جنيا ﴿ففسق عن أمر ربه﴾ أى خرج عن طاعته كما ينبئ عنه الفاء أو صار فاسقا كافرا بسبب أمر الله تعالى اذ لولاه لما أبى والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق لبيان كمال قبح مافعله والمراد بتذكير قصته تشديد النكير على المتكبرين المفتخرين بأنسابهم وأموالهم المستنكفين عن الانتظام فى سلك فقراء المؤمنين ببيان أن ذلك من صنيع ابليس وأنهم فى ذلك تابعون لتسويله كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿أفتتخذونه﴾ الخ فان الهمزة للانكار والتعجيب والفاء للتعقيب أى أعقيب علمكم بصدور تلك القبائح عنه تتخذونه ﴿وذريته﴾ أى أولاده وأتباعه جعلوا ذريته مجازا قال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل يدخل ذنبه فى دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين ﴿أولياء من دونى﴾ فتستبدلونهم بى فتطيعونهم بدل طاعتى ﴿وهم﴾ أى والحال أن ابليس وذريته ﴿لكم عدو﴾ أى أعداء كما فى قوله تعالى فانهم عدو لى الا رب العالمين وقوله تعالى هم العدو وانما فعل به ذلك تشبيها له بالمصادر نحو القبول والولوع وتقييد الاتخاذ بالجملة الحالية لتأكيد الانكار وتشديده فان مضمونها مانع من وقوع الاتخاذ ومناف له قطعا ﴿بئس للظالمين﴾ أى الواضعين للشئ فى غير موضعه ﴿بدلا﴾ من الله سبحانه ابليس وذريته وفى الالتفات الى الغيبة مع وضع الظالمين موضع الضمير من الايذان بكمال السخط والاشارة الى أن مافعلوه ظلم قبيح مالايخفى ﴿ماأشهدتهم﴾ استئناف مسوق لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور فى أنفسهم بعد بيان الصوارف عن ذلك من خباثة المحتد والفسق والعداوة أى ماأحضرت ابليس وذريته ﴿خلق السموات والارض﴾ حيث خلقتهما قبل خلقهم ﴿ولاخلق أنفسهم﴾ أى ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى ولاتقتلوا أنفسكم هذا ماأجمع عليه الجمهور حذارا من تفكيك الضميرين ومحافظة على ظاهر لفظ الأنفس ولك أن ترجع الضمير الثانى الى الظالمين وتلتزم التفكيك بناء على قود المعنى اليه فان نفى اشهاد الشياطين خلق الذين يتولونهم هو الذى يدور عليه انكار اتخاذهم أولياء بناء على أن أدنى مايصحح التولى حضور الولى خلق المتولى وحيث لاحضور لامصحح للتولى قطعا وأما نفى اشهاد بعض الشياطين خلق بعض منهم فليس من مدارية الانكار المذكور فى شئ على أن اشهاد بعضهم خلق بعض ان كان مصححا لتولى الشاهد بناء على دلالته على كماله باعتبار أن له مدخلا فى خلق المشهود فى الجملة فهو مخل بتولى المشهود بناء على قصوره عمن شهد خلقه فلا يكون نفى الاشهاد المذكور متمحضا فى نفى الكمال المصحح للتولى عن الكل وهو

المناط للانكار المذكور ﴿وما كنت متخذ المضلين﴾ أى متخذهم وانما وضع موضعه المظهر ذما لهم وتسجيلا عليهم بالاضلال وتأكيدا لما سبق من انكار اتخاذهم أولياء ﴿عضدا﴾ أعوانا فى شأن الخلق أو فى شأن من شئونى حتى يتوهم شركتهم فى التولى بناء على الشركة فى بعض أحكام الربوبية وفيه تهكم بهم وايذان بكمال ركاكة عقولهم وسخافة آرائهم حيث لايفهمون هذا الأمر الجلى الذى لايكاد يشتبه على البله والصبيان فيحتاجون الى التصريح به وايثار نفى الاشهاد على نفى شهودهم ونفى اتخاذهم أعوانا على نفى كونهم كذلك للاشعار بأنهم مقهورون تحت قدرته تعالى تابعون لمشيئته وارادته فيهم وأنهم بمعزل من استحقاق الشهود والمعونة من تلقاء أنفسهم من غير احضار واتخاذ وانما قصارى مايتوهم فى شأنهم أن يبلغوا ذلك المبلغ بأمر الله عز وجل ولم يكد ذلك يكون وقيل الضمير للمشركين والمعنى ما أشهدتهم خلق ذلك وما أطلعتهم على أسرار التكوين وماخصصتهم بفضائل لايحويها غيرهم حتى يكونوا قدوة للناس فيؤمنوا بايمانهم كما يزعمون فلا يلتفت الى قولهم طمعا فى نصرتهم للدين فانه لاينبغى لى أن أعتضد بالمضلين ويعضده القراءة بفتح التاء خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى ماصح لك الاعتضاد بهم ووصفهم بالاضلال لتعليل نفى الاتخاذ وقرىء متخذا المضلين على الأصل وقرىء عضدا بضم العين وسكون الضاد وبفتح وسكون بالتخفيف وبضمتين بالاتباع وبفتحتين على أنه جمع عاضد كرصد وراصد ﴿ويوم يقول﴾ أى الله عز وجل للكافرين توبيخا وتعجيزا وقرىء بنون العظمة ﴿نادوا شركائى الذين زعمتم﴾ أنهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم والمراد بهم كل ماعبد من دونه تعالى وقيل ابليس وذريته ﴿فدعوهم﴾ أى نادوهم للاغاثة وفيه بيان لكمال اعتنائهم باعانتهم على طريقة الشفاعة اذ معلوم أن لاطريق الى المدافعة ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ فلم يغيثوهم اذ لا امكان لذلك وفى ايراده مع ظهوره تهكم بهم وايذان بأنهم فى الحماقة بحيث لا يفهمونه الا بالتصريح به ﴿وجعلنا بينهم﴾ بين الداعين والمدعوين ﴿موبقا﴾ اسم مكان أو مصدر من وبق وبوقا كوثب وثوبا أو وبق وبقا كفرح فرحا اذا هلك أى مهلكا يشتركون فيه وهو النار أو عداوة هى فى الشدة نفس الهلاك كقول عمر رضى الله عنه لايكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا وقيل البين الوصل أى وجعلنا تواصلهم فى الدنيا هلاكا فى الآخرة ويجوز أن يكون المراد بالشركاء الملائكة وعزيرا وعيسى عليهم السلام ومريم وبالموبق البرزخ البعيد أى جعلنا بينهم أمدا بعيدا يهلك فيه الاشواط لفرط بعده لانهم فى قعر جهنم وهم فى أعلى الجنان ﴿ورأى المجرمون النار﴾ وضع المظهر مقام المضمر تصريحا باجرامهم وذما لهم بذلك ﴿فظنوا﴾ أى فأيقنوا ﴿أنهم مواقعوها﴾ مخالطوها واقعون فيها أو ظنوا اذ رأوها من مكان بعيد أنهم مواقعوها الساعة ﴿ولم يجدوا عنها مصرفا﴾ انصرافا أو معدلا ينصرفون اليه ﴿ولقد صرفنا﴾ أى كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم ﴿فى هذا القرآن للناس﴾ لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿من كل مثل﴾ من جملته امر من مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا أو من كل نوع من أنواع المعانى البديعة الداعية الى الايمان التى هى فى الغرابة والحسن واستجلاب النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا ﴿وكان الانسان﴾ بحسب جبلته ﴿أكثر شىء جدلا﴾ أى أكثر الاشياء التى يتأتى منها الجدل وهو ههنا شدة الخصومة بالباطل والمماراة من الجدل الذى هو الفتل والمجادلة الملاواة لان كلا من المجادلين يلتوى على صاحبه وانتصابه على التميز والمعنى أن جدله أكثر من جدل كل مجادل ﴿وما منع الناس﴾ أى أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم ﴿أن يؤمنوا﴾ من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا ما هم فيه من الاشراك ﴿اذ جاءهم الهدى﴾ أى القرآن العظيم الهادى الى الايمان بما فيه من فنون المعانى الموجبة له ﴿ويستغفروا ربهم﴾ عما فرط منهم من أنواع الذنوب التى من جملتها مجادلتهم للحق بالباطل ﴿الا أن تأتيهم سنة الاولين﴾ أى الا طلب اتيان سنتهم أو الا انتظار اتيانها أو الا تقديره لحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وسنتهم الاستئصال ﴿أو يأتيهم العذاب﴾ أى

عذاب الآخرة ﴿قبلا﴾ أى أنواعا جمع قبيل أو عيانا كما فى قراءة قبلا بكسر القاف وفتح الباء وقرىء بفتحتين أى مستقبلا يقال لقيته قبلا وقبلا وقبلا وانتصابه على الحالية من الضمير أو العذاب والمعنى أن ما تضمنه القرآن الكريم من الامور المستوجبة للايمان بحيث لولم يكن مثل هذه الحكمة القوية لما امتنع الناس من الايمان وان كانوا مجبولين على الجدل المفرط ﴿وما نرسل المرسلين﴾ الى الامم ملتبسين بحال من الاحوال ﴿الا﴾ حال كونهم ﴿مبشرين﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿ومنذرين﴾ للكفرة والعصاة بالعقاب ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات والسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتا ﴿ليدحضوا به﴾ أى بالجدال ﴿الحق﴾ أى يزيلوه عن مركزه و يبطلوه من ادحاض القدم وهو ازلاقها وهو قولهم للرسل عليهم الصلاة والسلام ما أنتم الا بشر مثلنا ولو شاء الله لأنزل ملائكة ونحوهما ﴿واتخذوا آياتى﴾ التى تخر لها صم الجبال ﴿وما أنذروا﴾ أى أنذروه من القوارع الناعية عليهم العقاب والعذاب أو انذارهم ﴿هزوا﴾ استهزاء وقرىء بسكون الزاى وهو ما يستهزأ به ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه﴾ وهو القرآن العظيم ﴿فأعرض عنها﴾ ولم يتدبرها ولم يتذكر بها وهذا السبك وان كان مدلوله الوضعى نفى الأظلمية من غير تعرض لنفى المساواة فى الظلم الا أن مفهومه العرفى أنه أظلم من كل ظالم وبناء الأظلمية على ما فى حيز الصلة من الاعراض عن القرآن للاشعار بأن ظلم من يجادل فيه و يتخذه هزوا خارج عن الحد ﴿ونسى ما قدمت يداه﴾ أى عمله من الكفر والمعاصى التى من جملتها ما ذكر من المجادلة بالباطل والاستهزاء بالحق ولم يتفكر فى عاقبتها ﴿انا جعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أغطية كثيرة جمع كنان وهو تعليل لاعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم ﴿أن يفقهوه﴾ مفعول لما دل عليه الكلام أى منعناهم أن يقفوا على كنهه أو مفعول له أى كراهة أن يفقهوه ﴿وفى آذانهم﴾ أى جعلنا فيها ﴿وقرا﴾ ثقلا يمنعهم من استماعه ﴿وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا﴾ أى فلن يكون منهم اهتداء البتة مدة التكليف واذن جزاء للشرط وجواب عن سؤال النبى عليه الصلاة والسلام المدلول عليه بكمال عنايته باسلامهم كأنه قال عليه الصلاة والسلام ما لى لا أدعوهم فقيل ان تدعهم الخ وجمع الضمير الراجع الى الموصول فى هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه كما أن افراده فى المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار لفظه ﴿وربك﴾ مبتدأ وقوله تعالى ﴿الغفور﴾ خبره وقوله تعالى ﴿ذو الرحمة﴾ أى الموصوف بها خبر بعد خبر وايراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب ولان المغفرة ترك المضار وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهى من العذاب وأما الرحمة فهى فعل وايجاد ولا يدخل تحت الوجود الا ما يتناهى وتقديم الوصف الاول لان التخلية قبل التحلية أو لانه أهم بحسب الحال اذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها كما يعرب عنه قوله عز وجل ﴿لو يؤاخذهم﴾ أى لو يريد مؤاخذتهم ﴿بما كسبوا﴾ من المعاصى التى من جملتها ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل واعراضهم عن آيات ربهم وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات ﴿لعجل لهم العذاب﴾ لاستيجاب أعمالهم لذلك وايثار المؤاخذة المنبئة عن شدة الاخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوهما للايذان بأن النفى المستفاد من مقدم الشرطية متعلق بوصف السرعة كما ينبىء عنه تاليها وايثار صيغة الاستقبال وان كان المعنى على المضى لافادة أن انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم ارادة المؤاخذة فان المضارع الواقع موقع الماضى يفيد استمرار انتفاء الفعل فيما مضى كما حقق فى موضعه ﴿بل لهم موعد﴾ اسم زمان هو يوم بدر أو يوم القيامة والجملة معطوفة على مقدر كأنه قيل لكنهم ليسوا بمؤاخذين بغتة ﴿لن يجدوا﴾ البتة ﴿من دونه موئلا﴾ منجى أو ملجأ يقال وأل أى نجا ووأل اليه أى لجأ اليه ﴿وتلك القرى﴾ أى قرى عاد وثمود

وأضرابها وهي مبتدأ على تقدير المضاف أى وأهل تلك القرى خبره قوله تعالى ﴿أهلكناهم﴾ أو مفعول مضمر مفسر به ﴿لما ظلموا﴾ أي وقت ظلمهم كما فعلت قريش بما حكى عنهم من القبائح وترك المفعول اما لتعميم الظلم أو لتنزيله منزلة اللازم أى لما فعلوا الظلم ولما اما حرف كما قال ابن عصفور واما ظرف استعمل للتعليل وليس المراد به الوقت المعين الذى عملوا فيه الظلم بل زمان ممتد من ابتداء الظلم الى آخره ﴿وجعلنا لمهلكهم﴾ أى عينا لهلاكهم ﴿موعدا﴾ أى وقتا معينا لا محيد لهم عن ذلك وهذا استشهاد على ما فعل بقريش من تعيين الموعد ليتنبهوا لذلك ولا يغتروا بتأخر العذاب وقرئ بضم الميم وفتح اللام أى اهلاكهم وبفتحهما ﴿واذ قال موسى﴾ نصب باضمار فعل أى اذكر وقت قوله عليه السلام ﴿لفتاه﴾ وهو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف عليه السلام سمى فتاه اذ كان يخدمه ويتبعه وقيل كان يتعلم منه ويسمى التلميذ فتى وان كان شيخا ولعل المراد بتذكيره عقيب بيان أن لكل أمة موعدا تذكير ما فى القصة من موعد الملاقاة مع ما فيها من سائر المنافع الجليلة ﴿لا أبرح﴾ من برح الناقص كزال يزال أى لا أزال أسير فحذف الخبر اعتمادا على قرينة الحال اذ كان ذلك عند التوجه الى السفر واتكالا على ما يعقبه من قوله ﴿حتى أبلغ﴾ فان ذلك غاية تستدعى ذا غاية يؤدى اليها ويجوز أن يكون أصل الكلام لا يبرح مسيرى حاصلا حتى أبلغ فيحذف المضاف ويقام المضاف اليه مقامه فينقلب الضمير البارز المجرور المحل مرفوعا مستكنا والفعل من صيغة الغيبة الى التكلم ويجوز أن يكون من برح التام كزال يزول أى لا أفارق ما أنا بصدده حتى أبلغ ﴿مجمع البحرين﴾ هو ملتقى بحر فارس والروم مما يلى المشرق وقيل طنجة وقيل هما الكر والرس بارمينية وقيل افريقية وقرئ بكسر الميم لشرق ﴿أو أمضى حقبا﴾ أسير زمانا طويلا أتيقن معه فوات المطلب والحقب الدهر أو ثمانون سنة وكان منشأ هذه العزيمة أن موسى عليه السلام لما ظهر على مصر مع بنى اسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط أمره الله عز وجل أن يذكر قومه النعمة فقام فيهم خطيبا بخطبة بديعة رقت بها القلوب وذرفت العيون فقالوا له من أعلم الناس قال أنا فعتب الله تعالى عليه اذ لم يرد العلم اليه عز وجل فأوحى اليه بل أعلم منك عبد لى عند مجمع البحرين وهو الخضر عليه السلام وكان فى أيام أفريذون قبل موسى عليه السلام وكان على مقدمة ذى القرنين الاكبر وبقى الى أيام موسى وقيل ان موسى عليه السلام سأل ربه أى عبادك أحب اليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى قال فأى عبادك أقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى قال فأى عبادك أعلم قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال ان كان فى عبادك من هو أعلم منى فدلنى عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه قال على ساحل البحر عند الصخرة قال يارب كيف لى به قال تأخذ حوتا فى مكتل فحيثما فقدته فهو هناك فأخذ حوتا فجعله فى مكتل فقال لفتاه اذا فقدت الحوت فأخبرنى فذهبا يمشيان ﴿فلما بلغا﴾ الفاء فصيحة كما أشير اليه ﴿مجمع بينهما﴾ أى مجمع البحرين وبينهما ظرف أضيف اليه اتساعا أو بمعنى الوصل ﴿نسيا حوتهما﴾ الذى جعل فقدانه أمارة وجدان المطلوب أى نسيا تفقد أمره وما يكون منه وقيل نسى يوشع أن يقدمه وموسى عليه السلام أن يأمره فيه بشئ . روى أنهما لما بلغا مجمع البحرين وفيه الصخرة وعين الحياة التى لا يصيب ماؤها ميتا الا حيى وضعا رؤسهما على الصخرة فناما فلما أصاب الحوت برد الماء وروحه عاش وقد كانا أكلا منه وكان ذلك بعد ما استيقظ يوشع عليه السلام وقيل توضأ عليه السلام من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش فوقع فى الماء ﴿فاتخذ سبيله فى البحر سربا﴾ مسلكا كالسرب وهو النفق قيل أمسك الله عز وجل جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه معجزة لموسى أو للخضر عليهما السلام وانتصاب سربا على أنه مفعول ثان لاتخذ وفى البحر حال منه أو من السبيل ويجوز أن يتعلق باتخذ ﴿فلما جاوزا﴾ أى مجمع البحرين

الذى جعل موعدا للملاقاة قيل أدلجا وسارا الليلة والغد الى الظهر وألقى على موسى عليه السلام الجوع فعند ذلك ﴿قال لفتاه آتنا غداءنا﴾ أى ماتتغدى به وهو الحوت كما ينبئ عنه الجواب ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا﴾ اشارة الى ماسارا بعد مجاوزة الموعد ﴿نصبا﴾ تعبا واعياء قيل لم ينصب ولم يجع قبل ذلك والجملة فى محل التعليل للامر بايتاء الغداء اما باعتبار أن النصب انما يعترى بسبب الضعف الناشئ عن الجوع واما باعتبار ما فى أثناء التغدى من استراحة ما ﴿قال﴾ أى فتاه عليه السلام ﴿أرأيت اذ أوينا الى الصخرة﴾ أى التجأنا اليها وأقمنا عندها وذكر الاواء اليها مع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغ مجمع البحرين لزيادة تعيين محل الحادثة فان المجمع محل متسع لا يمكن تحقيق المراد المذكور بنسبة الحادثة اليه ولتمهيد العذر فان الاواء اليها والنوم عندها مما يؤدى الى النسيان عادة والرؤية مستعارة للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملة ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ماشاهده من العظائم التى لا تكاد تنسى وقد جعل فقدانه علامة لوجدان المطلوب وهذا أسلوب معتاد فيما بين الناس يقول أحدهم لصاحبه اذا نابه خطب أرأيت ما نابنى يريد بذلك تهويله وتعجيب صاحبه منه وأنه مما لا يعهد وقوعه لا استخباره عن ذلك كما قيل والمفعول محذوف اعتمادا على مايدل عليه من قوله عزوجل ﴿فانى نسيت الحوت﴾ وفيه تأكيد للتعجيب وتربية لاستعظام المنسى وايقاع النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغداء مع أنه المأمور باتيانه للتنبيه من أول الأمر على انه ليس من قبيل نسيان المسافر زاده فى المنزل وأن ماشاهده ليس من قبيل الأحوال المتعلقة بالغداء من حيث هو غداء وطعام بل من حيث هو حوت كسائر الحيتان مع زيادة أى نسيت أن أذكر لك أمره وماشاهدت منه من الامور العجيبة ﴿وما أنسانيه الا الشيطان﴾ بوسوسته الشاغلة عن ذلك وقوله تعالى ﴿أن أذكره﴾ بدل اشتمال من الضمير أى ما أنسانى أن أذكره لك وفى تعليق الانساء بضمير الحوت أولا وبذكره له ثانيا على طريق الابدال المنبئ عن تنحية المبدل منه اشارة الى أن متعلق النسيان أيضا ليس نفس الحوت بل ذكر أمره وقرئ أن أذكره وايثار أن أذكره على المصدر للمبالغة فان مدلوله نفس الحدث عند وقوعه والحال وان كانت غريبة لا يعهد نسيانها لكنه لما تعود بمشاهدة أمثالها عند موسى عليه السلام وألفها قل اهتمامه بالمحافظة عليها ﴿واتخذ سبيله فى البحر عجبا﴾ بيان لطرف من أمر الحوت منبئ عن طرف آخر منه ومابينهما اعتراض قدم عليه للاعتناء بالاعتذار كانه قيل حي واضطرب ووقع فى البحر واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا فعجبا ثانى مفعولى اتخذ والظرف حال من أولهما أو ثانيهما أو هو المفعول الثانى وعجبا صفة مصدر محذوف أى اتخاذا عجبا وهو كون مسلكه كالطاق والسرب أو مصدر فعل محذوف أى أتعجب منه عجبا وقد قيل انه من كلام موسى عليه الصلاة والسلام وليس بذاك ﴿قال﴾ أى موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ذلك﴾ الذى ذكرت من أمر الحوت ﴿ما كنا نبغ﴾ وقرئ باثبات الياء والضمير العائد الى الموصول محذوف أصله نبغيه أى نطلبه لكونه أمارة للفوز بالمرام ﴿فارتدا﴾ أى رجعا ﴿على آثارهما﴾ طريقهما الذى جاءا منه ﴿قصصا﴾ يقصان قصصا أى يتبعان آثارهما اتباعا أو مقتصين حتى أتيا الصخرة ﴿فوجدا عبدا من عبادنا﴾ التنكير للتفخيم والاضافة للتشريف والجمهور على أنه الخضر واسمه بليابن ملكان وقيل اليسع وقيل الياس عليهم الصلاة والسلام ﴿آتيناه رحمة من عندنا﴾ هى الوحى والنبوة كما يشعر به تنكير الرحمة واختصاصها بجناب الكبرياء ﴿وعلمناه من لدنا علما﴾ خاصا لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره وهو علم الغيوب ﴿قال له موسى﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من السياق كانه قيل فماذا جرى بينهما من الكلام فقيل قال له موسى ﴿هل أتبعك على أن تعلمن﴾ استئذانا منه فى اتباعه له على وجه التعلم ﴿مما علمت رشدا﴾ أى علما ذا رشد أرشد به فى دينى والرشد اصابة الخير وقرئ بفتحتين وهو

مفعول تعلمن ومفعول علمت محذوف وكلاهما منقول من علم المتعدى الى مفعول واحد ويجوز كونه علة لأتبعك أومصدرا باضمار فعله ولاينافى نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من نبى آخر مالاتعلق له بأحكام شريعته من أسرار العلوم الخفية ولقد راعى فى سوق الكلام غاية التواضع معه عليهما السلام ﴿قال﴾ أى الخضر ﴿انك لن تستطيع معى صبرا﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد كأنه مما لا يصح ولا يستقيم وعلله بقوله ﴿وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا﴾ ايذانا بأنه يتولى أمورا خفية المدار منكرة الظواهر والرجل الصالح لاسيما صاحب الشريعة لايتمالك أن يشمئز عند مشاهدتها وفى صحيح البخارى قال الخضر ياموسى انى على علم من علم الله تعالى علمنيه لاتعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لاأعلمه وخبرا تمييز أى لم يحط به خبرك ﴿قال﴾ موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ستجدنى ان شاء الله صابرا﴾ معك غير معترض عليك وتوسيط الاستثناء بين مفعولى الوجدان لكمال الاعتناء بالتيمن ولئلا يتوهم تعلقه بالصبر ﴿ولاأعصى لك أمرا﴾ عطف على صابرا أى ستجدنى صابرا وغير عاص وفى وعد هذا الوجدان من المبالغة ماليس فى الوعد بنفس الصبر وترك العصيان أوعلى ستجدنى فلا محل له من الاعراب والاول هو الاولى لما عرفته ولظهور تعلقه بالاستثناء حينئذ وفيه دليل على أن أفعال العباد بمشيئة الله سبحانه وتعالى ﴿قال فان اتبعتنى﴾ اذن له فى الاتباع بعد اللتيا والتى والفاء لتفريع الشرطية على مامر من التزام موسى عليه الصلاة والسلام للصبر والطاعة ﴿فلاتسألنى عن شئ﴾ تشاهده من أفعالى أى لاتفاتحنى بالسؤال عن حكمته فضلا عن المناقشة والاعتراض ﴿حتى أحدث لك منه ذكرا﴾ أى حتى أبتدئ ببيانه وفيه ايذان بأن كل ماصدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة وهذا من أدب المتعلم مع العالم والتابع مع المتبوع وقرئ فلاتسألنى بالنون المثقلة ﴿فانطلقا﴾ أى موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام على الساحل يطلبان السفينة وأما يوشع فقد صرفه موسى عليه الصلاة والسلام الى بنى اسرائيل قيل انهما مرا بسفينة فكلما أهلها فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول ﴿حتى اذا ركبا فى السفينة﴾ استعمال الركوب فى أمثال هذه المواقع بكلمة فى مع تجريده عنها فى مثل قوله عزوجل لتركبوها وزينة على مايقتضيه تعديته بنفسه لما أشرنا اليه فى قوله تعالى وقال اركبوا فيها لالما قيل من أن فى ركوبها معنى الدخول ﴿خرقها﴾ قيل خرقها بعد مالججوا حيث أخذ فأسا فقلع من ألواحها لوحين مما يلى الماء فعند ذلك ﴿قال﴾ موسى عليه السلام ﴿أخرقتها لتغرق أهلها﴾ من الاغراق وقرئ بالتشديد من التغريق وليغرق أهلها من الثلاثى ﴿لقد جئت﴾ أتيت وفعلت ﴿شيئا إمرا﴾ أى عظيما هائلا من أمر الامر اذا عظم قيل الأصل أمرا فخفف ﴿قال﴾ أى الخضر عليه السلام ﴿ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا﴾ تذكير لما قاله من قبل وتحقيق لمضمونه متضمن للانكار على عدم الوفاء بوعده ﴿قال لاتؤاخذنى بما نسيت﴾ بنسيانى أو بالذى نسيته أو بشئ نسيته وهو وصيته بأن لا يسأله عن حكمة ماصدر عنه من الافعال الخفية الأسباب قبل بيانه أراد أنه نسى وصيته ولا مؤاخذة على الناسى كما ورد فى صحيح البخارى من أن الأول كان من موسى نسيانا أوأخرج الكلام فى معرض النهى عن المؤاخذة بالنسيان يوهمه أنه قد نسى ليبسط عذره فى الانكار وهو من معاريض الكلام التى يتقى بها الكذب مع التوصل الى الغرض أوأراد بالنسيان الترك أى لاتؤاخذنى بما تركت من وصيتك أول مرة ﴿ولا ترهقنى﴾ أى لاتغشنى ولاتحملنى ﴿من أمرى﴾ وهو اتباعه اياه ﴿عسرا﴾ أى لاتعسر على متابعتك ويسرها على بالاغضاء وترك المناقشة وقرئ عسرا بضمتين ﴿فانطلقا﴾ الفاء فصيحة أى فقبل عذره فخرجا من السفينة فانطلقا ﴿حتى اذا لقيا غلاما فقتله﴾ قيل كان الغلام يلعب مع الغلمان ففتل عنقه وقيل ضرب برأسه الحائط وقيل أضجعه فذبحه بالسكين ﴿قال﴾ أى موسى عليه الصلاة والسلام ﴿أقتلت نفسا زكية﴾

طاهرة من الذنوب وقرئ زاكية ﴿بغير نفس﴾ أى بغير قتل نفس محرمة وتخصيص نفى هذا المبيح بالذكر من بين سائر المبيحات من الكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان لأنه الأقرب الى الوقوع نظرا الى حال الغلام ولعل تغيير النظم الكريم بجعل ماصدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام ههنا من جملة الشرط وابراز ماصدر عن موسى عليه الصلاة والسلام فى معرض الجزاء المقصود افادته مع أن الحقيق بذلك انما هو ماصدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام من الخوارق البديعة لاستشراف النفس الى ورود خبرها لقلة وقوعها فى نفس الأمر وندرة وصول خبرها الى الاذهان ولذلك روعيت تلك النكتة فى الشرطية الاولى لما أن صدور الخوارق منه عليه الصلاة والسلام خرج بوقوعه مرة مخرج العادة فانصرفت النفس عن ترقبه الى ترقب أحوال موسى عليه الصلاة والسلام هل يحافظ على مراعاة شرطه بموجب وعده الأكيد عند مشاهدة خارق آخر أو يسارع الى المناقشة كما مر فى المرة الاولى فكان المقصود افادة ماصدر عنه عليه الصلاة والسلام ففعل مافعل ولله در شأن التنزيل وأما ماقيل من أن القتل أقبح والاعتراض عليه أدخل فكان جديرا بأن يجعل عمدة فى الكلام فليس من دفع الشبهة فى شئ بل هو مؤيد لها فان كون القتل أقبح من مبادى قلة صدوره عن المؤمن العاقل وندرة وصول خبره الى الاسماع وذلك مما يستدعى جعله مقصودا بالذات وكون الاعتراض عليه أدخل من موجبات كثرة صدوره عن كل عاقل وذلك مما لايقتضى جعله كذلك ﴿لقد جئت شيئاً نكرا﴾ قيل معناه أنكر من الأول اذ لايمكن تداركه كما يمكن تدارك الأول بالسد ونحوه وقيل الأمر أعظم من النكر لأن قتل نفس واحدة أهون من اغراق أهل السفينة ﴿قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا﴾ زيد لك لزيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير حتى زاد فى النكير فى المرة الثانية ﴿قال﴾ أى موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ان سألتك عن شئ بعدها﴾ أى بعد هذه المرة ﴿فلا تصاحبنى﴾ وقرئ من الافعال أى لا تجعلنى صاحبك ﴿قد بلغت من لدنى عذرا﴾ أى قد أعذرت ووجدت من قبلى عذرا حيث خالفتك ثلاث مرات عن النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى موسى استحى فقال ذلك لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب وقرئ لدنى بتخفيف النون وقرئ بسكون الدال كعضد فى عضد ﴿فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية﴾ هى أنطاكية وقيل أيلة وهى أبعد أرض الله من السماء وقيل هى برقة وقيل بلدة بأندلس عن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا أهل قرية لئاما وقيل شر القرى التى لا يضاف فيها الضيف ولا يعرف لابن السبيل حقه وقوله تعالى ﴿استطعما أهلها﴾ فى محل الجر على أنه صفة لقرية ولعل العدول عن استطعامهم على أن يكون صفة للاهل لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم فان الاباء من الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبح وأشنع روى أنهما طافا فى القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم ﴿فأبوا أن يضيفوهما﴾ بالتشديد وقرئ بالتخفيف من الاضافة يقال ضافه اذا كان له ضيفا وأضافه وضيفه أنزله وجعله ضيفا له وحقيقة ضاف مال اليه من ضاف السهم عن الغرض ونظيره زاره من الازورار ﴿فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض﴾ أى يدانى أن يسقط فاستعيرت الارادة للمشارفة للدلالة على المبالغة فى ذلك والانقضاض الاسراع فى السقوط وهو انفعال من القض يقال قضضته فانقض ومنه انقضاض الطير والكوكب لسقوطه بسرعة وقيل هو افعلال من النقض كاحمر من الحمرة وقرئ أن ينقض من النقض وأن ينقاض من انقاضت السن اذا انشقت طولا ﴿فأقامه﴾ قيل مسحه بيده فقام وقيل نقضه وبناه وقيل أقامه بعمود عمده به قيل كان سمكه مائة ذراع ﴿قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا﴾ تحريضا له على أخذ الجعل لينتعشا به أو تعريضا بأنه فضول لما فى لو من النفى كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك الصبر

واتخذ افتعل من تخذ بمعنى أخذ كاتبع من تبع وليس من الاخذ عند البصريين وقرئ لتخذت أى لأخذت وقرئ بادغام الذال فى التاء ﴿قال﴾ أى الخضر عليه الصلاة والسلام ﴿هذا فراق بينى وبينك﴾ على اضافة المصدر الى الظرف اتساعا وقد قرئ على الأصل والمشار اليه اما نفس الفراق كما فى هذا أخوك أو الوقت الحاضر أى هذا الوقت وقت فراق بينى وبينك أو السؤال الثالث أى هذا سبب ذلك الفراق حسبما هو الموعود ﴿سأنبئك﴾ السين للتأكيد لعدم تراخى التنبئة ﴿بتأويل مالم تستطع عليه صبرا﴾ التأويل رجع الشئ الى مآله والمراد به ههنا المآل والعاقبة اذ هو المنبأ به دون التأويل وهو خلاص السفينة من اليد العادية وخلاص أبوى الغلام من شره مع الفوز بالبدل الأحسن واستخراج اليتيمين للكنز وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر دون أن يقال بتأويل مافعلت أو بتأويل مارأيت ونحوهما نوع تعريض به عليه الصلاة والسلام وعتاب ﴿أما السفينة﴾ التى خرقتها ﴿فكانت لمساكين﴾ لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة وقيل كانت لعشرة أخوة خمسة منهم زمنى وخمسة ﴿يعملون فى البحر﴾ واسناد العمل الى الكل حينئذ انما هو بطريق التغليب أو لان عمل الوكلاء بمنزلة عمل الموكلين ﴿فأردت أن أعيبها﴾ أى أجعلها ذات عيب ﴿وكان وراءهم ملك﴾ أى أمامهم وقد قرئ به أو خلفهم وكان رجوعهم عليه لامحالة واسمه جلندى بن كركر وقيل منولة بن جلندى الازدى ﴿يأخذ كل سفينة﴾ أى صالحة وقد قرئ كذلك ﴿غصبا﴾ من أصحابها وانتصابه على أنه مصدر مبين لنوع الاخذ ولعل تفريع ارادة تعييب السفينة على مسكنة أصحابها قبل بيان خوف الغصب مع أن مدارها كلا الأمرين للاعتناء بشأنها اذ هى المحتاجة الى التأويل وللايذان بأن الاقوى فى المدارية هو الامر الأول ولذلك لا يبالى بتخليص سفن سائر الناس مع تحقق خوف الغصب فى حقهم أيضا ولان فى التأخير فصلا بين السفينة وضميرها مع توهم رجوعه الى الاقرب ﴿وأما الغلام﴾ الذى قتلته ﴿فكان أبواه مؤمنين﴾ لم يصرح بكفرانه أو بكفره اشعارا بعدم الحاجة الى الذكر لظهوره ﴿فخشينا أن يرهقهما﴾ فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين ﴿طغيانا﴾ عليهما ﴿وكفرا﴾ لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شرا وبلاء أو يقرن بايمانهما طغيانه وكفره فيجتمع فى بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه وانما خشى الخضر عليه الصلاة والسلام منه ذلك لان الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره وقرئ فخاف ربك أى كره سبحانه كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره ويجوز أن تكون القراءة المشهورة على الحكاية بمعنى فكرهنا كقوله تعالى لأهب لك ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا﴾ منه بأن يرزقهما بدله ولدا خيرا ﴿منه﴾ وفى التعرض لعنوان الربوبية والاضافة اليهما مالايخفى من الدلالة على ارادة وصول الخير اليهما ﴿زكوة﴾ طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة ﴿وأقرب رحما﴾ أى رحمة وعطفا قيل ولدت لهما جارية تزوجها نبى فولدت نبيا هدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم وقيل ولدت سبعين نبيا وقيل أبدلهما ابنا مؤمنا مثلهما وقرئ يبدلهما بالتشديد وقرئ رحما بضم الحاء أيضا وانتصابه على التمييز مثل زكوة ﴿وأما الجدار﴾ المعهود ﴿فكان لغلامين يتيمين فى المدينة﴾ هى القرية المذكورة فيما سبق ولعل التعبير عنها بالمدينة لاظهار نوع اعتداد بها باعتداد مافيها من اليتيمين وأبيهما الصالح قيل اسماهما اصرم وصريم واسم المقتول جيسور ﴿وكان تحته كنز لهما﴾ من فضة وذهب كما روى مرفوعا والذم على كنزهما فى قوله عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة لمن لا يؤدى زكاتهما وسائر حقوقهما وقيل كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وقيل صحف فيها علم ﴿وكان أبوهما صالحا﴾ تنبيه على أن سعيه فى ذلك كان لصلاحه قيل كان

بينهما و بين الاب الذى حفظافيه سبعة آباء ﴿فأراد ربك﴾ أى مالكك ومدبر أمورك ففى اضافة الرب الى ضمير موسى عليه الصلاة والسلام دون ضميرهما تنبيه له عليه الصلاة والسلام على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لارادته سبحانه و وجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الأمور المذكورة ﴿أن يبلغا أشدهما﴾ أى حلمهما وكمال رأيهما ﴿و يستخرجا بالكلية كنزهما﴾ من تحت الجدار ولولا أنى أقمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع ﴿رحمة من ربك﴾ مصدر فى موقع الحال أى مرحومين منه عز وجل أو مفعول له أو مصدر مؤكد لأراد فان ارادة الخير رحمة وقيل متعلق بمضمر أى فعلت مافعلت من الأمور التى شاهدتها رحمة من ربك و يعضده اضافة الرب الى ضمير المخاطب دون ضميرهما فيكون قوله عز وعلا ﴿وما فعلته عن أمرى﴾ أى عن رأيى واجتهادى تأكيد لذلك ﴿ذلك﴾ اشارة الى العواقب المنظومة فى سلك البيان ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتها فى الفخامة ﴿تأويل مالم تسطع﴾ أى لم تستطع فحذف التاء للتخفيف ﴿عليه صبرا﴾ من الأمور التى رابته أى مآله وعاقبته فيكون انجازا للتنبئة الموعودة أو الى البيان نفسه فيكون التأويل بمعناه وعلى كل حال فهو فذلكة لما تقدم و فى جعل الصلة عين مامر تكرير للنكير وتشديد للعتاب (تنبيه) اختلفوا فى حياة الخضر عليه الصلاة والسلام فقيل انه حى وسببه انه كان على مقدمة ذى القرنين فلما دخل الظلمات أصاب الخضر عين الحياة فنزل واغتسل منها وشرب من مائها وأخطأ ذو القرنين الطريق فعاد قالوا والياس أيضا فى الحياة يلتقيان كل سنة بالموسم وقيل انه ميت لما روى أن النبى عليه الصلاة والسلام صلى العشاء ذات ليلة ثم قال أرأيتكم ليلتكم هذه فان رأس مائة سنة منها لايبقى ممن هو اليوم على ظهر الارض أحد ولو كان الخضر حينئذ حيا لما عاش بعدمائة عام . روى أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يفارقه قال له أوصنى قال لاتطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به ﴿و يسألونك عن ذى القرنين﴾ هم اليهود سألوه على وجه الامتحان أوسأله قريش بتلقينهم وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك الى ورود الجواب وهو ذو القرنين الأكبر واسمه الاسكندر بن فيلفوس اليونانى وقال ابن اسحق اسمه مرزبان بن مردبه من ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام وكان اسود وقيل اسمه عبدالله بن الضحاك وقيل مصعب بن عبد الله بن قينان بن منصور بن عبد الله بن الآزر بن عون بن زيد بن كهلان ابن سبا بن يعرب بن قحطان وقال السهيلى قيل ان اسمه مرزبان بن مدركة ذكره بن هشام وهو أول التبابعة وقيل انه أفريذون ابن النعمان الذى قتل الضحاك وذكر أبو الريحان البيرونى فى كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون الخالية أن ذا القرنين هو أبو كرب سمى بن عيرين بن أفريقيس الحميرى وأن ملكه بلغ مشارق الارض ومغاربها وهو الذى افتخر به التبع اليمانى حيث قال

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ملكا علا فى الارض غير مفند
بلغ المشارق والمغارب يبتغى أسباب أمر من حكيم مرشد

وجعل هذا القول أقرب لان الاذواء كانوا من اليمن كذى المنار وذى نواس وذى النون وذى رعين وذى يزن وذى جدن قال الامام الرازى والاول هو الاظهر لان من بلغ ملكه من السعة والقوة الى الغاية التى نطق بها التنزيل الجليل انما هو الاسكندر اليونانى كما تشهد به كتب التواريخ يروى أنه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن كان طوائف ثم قصد ملوك العرب وقهرهم ثم أمعن حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم عاد الى مصر فبنى الاسكندرية وسماها باسمه ثم دخل الشأم وقصد بنى اسرائيل و ورد بيت المقدس وذبح فى مذبحه ثم انعطف الى أرمينية و باب الأبواب ودان له العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دارا بن دارا و هزمه مرارا الى أن قتله صاحب حرسه واستولى على ممالك الفرس وقصد الهند

وفتحه وبنى مدينة سرنديب وغيرها من المدن العظام ثم قصد الصين وغزا الامم البعيدة ورجع الى خرسان وبنى بها مدائن كثيرة ورجع الى العراق ومرض بشهر زورومات انتهى كلام الامام وروى أن أهل النجوم قالوا له انك لاتموت الاعلى أرض من حديد وتحت سماء من خشب وكان يدفن كنز كل بلدة فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعه فبلغ بابل فرعف وسقط عن دابته فبسطت له دروع فنام عليها فآذته الشمس فأظلوه بترس فنظر فقال هذه أرض من حديد وسماء من خشب فأيقن بالموت فمات وهو ابن ألف وستمائة سنة وقيل ثلاثة آلاف سنة قال ابن كثير وهذا غريب وأغرب منه ماقاله ابن عساكر من أنه بلغنى أنه عاش ستا وثلاثين سنة أوثنتين وثلاثين سنة وأنه كان بعدداود وسليمان عليهما السلام فان ذلك لاينطبق الا على ذى القرنين الثانى كما سنذكره قلت وكذا ماذكره الامام من قصد بنى اسرائيل وورود بيت المقدس والذبح فى مذبحه فانه مما لايكاد يتأتى نسبته الى الأول واختلف فى نبوته بعد الاتفاق على اسلامه وولايته فقيل كان نبيا لقوله تعالى انا مكنا له فى الارض وظاهر أنه متناول للتمكين فى الدين وكماله بالنبوة ولقوله تعالى وآتيناه من كل شىء سببا ومن جملة الأشياء النبوة ولقوله تعالى قلنا ياذا القرنين ونحو ذلك وقيل كان ملكا لما روى أن عمر رضى الله عنه سمع رجلا يقول لآخر ياذا القرنين فقال اللهم غفرا أما رضيتم أن تتسموا بأسماء الانبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة قال ابن كثير والصحيح أنه ما كان نبيا ولاملكا وانما كان ملكا صالحا عادلا ملك الاقاليم وقهر أهلها من الملوك وغيرهم ودانت له البلاد وأنه كان داعيا الى الله تعالى سائرا فى الخلق بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المنصور وكان الخضر على مقدمة جيشه بمنزلة المستشار الذى هو من الملك بمنزلة الوزير وقد ذكر الازرقى وغيره أنه أسلم على يدى ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فطاف معه بالكعبة هو واسماعيل عليهم السلام وروى أنه حج ماشيا فلما سمع ابراهيم عليه الصلاة والسلام بقدومه تلقاه ودعاله وأوصاه بوصايا ويقال أنه أتى بفرس ليركب فقال لا أركب فى بلد فيه الخليل فعند ذلك سخر له السحاب وطوى له الاسباب وبشره ابراهيم عليه الصلاة والسلام بذلك فكانت السحاب تحمله وعساكره وجميع آلاتهم اذاأرادوا غزوةقوم وقال أبو الطفيل سئل عنه على كرم الله وجهه أكان نبيا أم ملكا فقال لم يكن نبيا ولا ملكا لكن كان عبدا أحب الله فأحبه وناصح الله فناصحه سخر له السحاب ومد له الاسباب واختلف فى وجه تسميته بذى القرنين فقيل لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها وقيل لأنه ملك الروم وفارس وقيل الروم والترك وقيل لأنه كان فى رأسه أو فى تاجه مايشبه القرنين وقيل لأنه كان له ذؤابتان وقيل لأنه كانت صفحتا رأسه من النحاس وقيل لأنه دعا الناس الى الله عز وجل فضرب بقرنه الايمن فمات ثم بعثه الله تعالى فضرب بقرنه الايسر فمات ثم بعثه الله تعالى وقيل لأنه رأى فى منامه أنه صعد الفلك فأخذ بقرنى الشمس وقيل لأنه انقرض فى عهده قرنان وقيل لأنه سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه وقيل لقب به لشجاعته هذا وأما ذو القرنين الثانى فقد قال ابن كثير أنه الاسكندر بن فيليس بن مصريم بن هرمس بن ميطون بن رومى بن ليطى بن يونان ابن يافث بن نونه بن شرخون بن رومية بن ثونط بن نوفيل بن رومى بن الاصفر بن العنز بن العيص بن اسحق بن ابراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام كذا نسبه ابن عساكر المقدونى اليونانى المصرى بانى الاسكندرية الذى يؤرخ بايامه الروم وكان متأخرا عن الأول بدهر طويل أكثر من ألفى سنة كان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة وكان وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف وهو الذى قتل دارا بن دارا وأذل ملوك الفرس ووطىء أرضهم ثم قال ابن كثير وانما بينا هذا لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد وأن المذكور فى القرآن العظيم هو هذا المتأخر فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير كيف لا والأول كان عبدا صالحا مؤمنا وملكا عادلا وزيره الخضر عليه الصلاة والسلام وقد قيل

انه كان نبيا وأما الثانى فقد كان كافرا و زيره ارسطاطاليس الفيلسوف وقد كان مابينهما من الزمان أكثر من ألفى سنة فأين هذا من ذاك انتهى قلت المقدونى نسبة الى بلدة من بلاد الروم غربى دار السلطنة السنية قسطنطينية المحمية لازالت مشحونة بالشعائر الدينية بينهما من المسافة مسيرة خمسة عشر يوما أونحو ذلك عند مدينة سيروز اسمها بلغة اليونانيين مقدونيا كانت سرير ملك هذا الاسكندر وهى اليوم بلقع لايقيم بها أحد ولكن فيها علائم تحكى كمال عظمها فى عهد عمرانها ونهاية شوكة واليها وسلطانها ولقد مررت بها عند القفول من بعض المغازى السلطانية فعاينت فيها من تعاجيب الآثار ما فيه عبرة لأولى الابصار ﴿قل﴾ لهم فى الجواب ﴿سأتلو عليكم﴾ أى سأذكر لكم ﴿منه﴾ أى من ذى القرنين ﴿ذكرا﴾ أى نبأ مذكورا وحيث كان ذلك بطريق الوحى المتلو حكاية عن جهة الله عز وجل قيل سأتلو أو سأتلو فى شأنه من جهته تعالى ذكرا أى قرآنا والسين للتأكيد والدلالة على التحقيق المناسب لمقام تأييده عليه الصلاة والسلام وتصديقه بانجاز وعده أى لاأترك التلاوة البتة كما فى قول من قال

سأشكر عمرا ان تراخت منيتى أيادى لم تمنن وان هى جلت

لاللدلالة على أن التلاوة ستقع فيما يستقبل كما قيل لان هذه الآية مانزلت بانفرادها قبل الوحى بتمام القصة بل موصولة بما بعدها ريثما سألوه عليه الصلاة والسلام عنه وعن الروح وعن أصحاب الكهف فقال لهم عليه الصلاة والسلام ائتونى غدا أخبركم فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوما أو أربعين كما ذكر فيما سلف وقوله عز وجل ﴿انا مكنا له فى الأرض﴾ شروع فى تلاوة الذكر المعهود حسبما هو الموعود والتمكين ههنا الاقدار وتمهيد الأسباب يقال مكنه ومكن له ومعنى الأول جعله قادرا وقويا ومعنى الثانى جعل له قدرة وقوة ولتلازمهما فى الوجود وتقاربهما فى المعنى يستعمل كل منهما فى محل الآخر كما فى قوله عز وعلا مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم أى جعلناهم قادرين من حيث القوى والأسباب والآلات على أنواع التصرفات فيها مالم نجعله لكم من القوة والسعة فى المال والاستظهار بالعدد والأسباب فكأنه قيل مالم نمكنكم فيها أى مالم نجعلكم قادرين على ذلك فيها أو مكنا لهم فى الأرض مالم نمكن لكم وهكذا اذا كان التمكين مأخوذا من المكان بناء على توهم ميمه أصلية كما أشير اليه فى سورة يوسف عليه الصلاة والسلام والمعنى انا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فى الأرض من حيث التدبير والرأى والأسباب حيث سخر له السحاب ومدله فى الأسباب وبسط له النور وكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير فى الأرض وذللت له طرقها ﴿وآتيناه من كل شىء﴾ أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه ﴿سببا﴾ أى طريقا يوصله اليه وهو كل مايتوصل به الى المقصود من علم أو قدرة أو آلة ﴿فأتبع﴾ بالقطع أى فأراد بلوغ المغرب فأتبع ﴿سببا﴾ يوصله اليه ولعل قصد بلوغ المغرب ابتداء لمراعاة الحركة الشمسية وقرىء فاتبع من الافتعال والفرق أن الأول فيه معنى الادراك والاسراع دون الثانى ﴿حتى اذا بلغ مغرب الشمس﴾ أى منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لايتمكن أحد من مجاوزته ووقف على حافة البحر المحيط الغربى الذى يقال له أوقيانوس الذى فيه الجزائر المسماة بالخالدات التى هى مبدأ الأطوال على أحد القولين ﴿وجدها﴾ أى الشمس ﴿تغرب فى عين حمئة﴾ أى ذات حمأة وهى الطين الاسود من حمئت البئر اذا كثرت حماتها وقرىء حامية أى حارة روى أن معاوية رضى الله عنه قرأ حامية وعنده ابن عباس رضى الله عنهما فقال حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمرو بن العاص كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين وروى فى ثأط فوافق قول ابن عباس رضى الله عنهما وليس بينهما منافاة قطعية لجواز كون العين جامعة بين الوصفين وكون الياء فى

الثانية منقلبة عن الهمزة لانكسار ماقبلها وأما رجوع معاوية الى قول ابن عباس رضى الله عنهم بما سمعه من كعب مع أن قراءته أيضا مسموعة قطعا فلكون قراءة ابن عباس رضى الله عنهما قطعية فى مدلولها وقراءته محتملة ولعله لما بلغ ساحل المحيط رآها كذلك اذ ليس فى مطمح بصره غير الماء كما يلوح به قوله تعالى وجدها تغرب ﴿ و وجد عندها ﴾ عند تلك العين ﴿ قوما ﴾ قيل كان لباسهم جلود الوحوش وطعامهم مالفظه البحر وكانوا كفارا فخيره الله جل ذكره بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم الى الايمان وذلك قوله تعالى ﴿ قلنا يا ذا القرنين اما أن تعذب ﴾ بالقتل من أول الأمر ﴿ واما أن تتخذ فيهم حسنا ﴾ أى أمرا ذا حسن على حذف المضاف أو على طريقة اطلاق المصدر على موصوفه مبالغة وذلك بالدعوة الى الاسلام والارشاد الى الشرائع ومحل أن مع صلته اما الرفع على الابتداء أو الخبرية واما النصب على المفعولية أى اما تعذيبك واقع أو اما أمرك تعذيبك أو اما تفعل تعذيبك وهكذا الحال فى الاتخاذ ومن لم يقل بنبوته قال كان ذلك الخطاب بواسطة نبى فى ذلك العصر أو كان ذلك الهاما لا وحيا بعد أن كان ذلك التخيير موافقا لشريعة ذلك النبى ﴿ قال ﴾ أى ذو القرنين لذلك النبى أو لمن عنده من خواصه بعدما تلقى أمره تعالى مختارا للشق الأخير ﴿ أما من ظلم ﴾ أى نفسه ولم يقبل دعوتى وأصر على ما كان عليه من الظلم العظيم الذى هو الشرك ﴿ فسوف نعذبه ﴾ بالقتل وعن قتادة أنه كان يطبخ من كفر فى القدور ومن آمن أعطاه وكساه ﴿ ثم يرد الى ربه ﴾ فى الآخرة ﴿ فيعذبه ﴾ فيها ﴿ عذابا نكرا ﴾ أى منكرا فظيعا وهو عذاب النار وفيه دلالة ظاهرة على أن الخطاب لم يكن بطريق الوحى اليه وأن مقاولته كانت مع النبى أو مع من عنده من أهل مشورته ﴿ وأما من آمن ﴾ بموجب دعوتى ﴿ وعمل ﴾ عملا ﴿ صالحا ﴾ حسبما يقتضيه الايمان ﴿ فله ﴾ فى الدارين ﴿ جزاء الحسنى ﴾ أى فله المثوبة الحسنى أو الفعلة الحسنى أو الجنة جزاء على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة قدم على المبتدأ اعتناء به أو منصوب بمضمر أى نجزى بها جزاء والجملة حالية أو معترضة بين المبتدأ والخبر المتقدم عليه أو حال أى مجزيا بها أو تمييز وقرئ منصوبا غير منون على أنه سقط تنوينه لالتقاء الساكنين ومرفوعا منونا على أنه المبتدأ والحسنى بدله والخبر الجار والمجرور وقيل خير بين القتل والأسر والجواب من باب الأسلوب الحكيم لأن الظاهر التخيير بينهما وهم كفار فقال أما الكافر فيراعى فى حقه قوة الاسلام وأما المؤمن فلا يتعرض له الا بما يجب ويجوز أن تكون اما واما للتوزيع دون التخيير أى وليكن شأنك معهم اما التعذيب واما الاحسان فالأول لمن بقى على حاله والثانى لمن تاب ﴿ وسنقول له من أمرنا ﴾ أى مما نأمر به ﴿ يسرا ﴾ أى سهلا متيسرا غير شاق وتقديره ذا يسر أو أطلق عليه المصدر مبالغة وقرئ بضمتين ﴿ ثم أتبع سببا ﴾ أى طريقا راجعا من مغرب الشمس موصلا الى مشرقها ﴿ حتى اذا بلغ مطلع الشمس ﴾ يعنى الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولا من معمورة الأرض وقرئ بفتح اللام على تقدير مضاف أى مكان طلوع الشمس فانه مصدر قيل بلغه فى اثنتى عشرة سنة وقيل فى أقل من ذلك بناء على ما ذكر من أنه سخر له السحاب وطوى له الأسباب ﴿ وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا ﴾ من اللباس والبناء قيل هم الزنج وعن كعب أن أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب فاذا طلعت الشمس دخلوا الاسراب أو البحر فاذا ارتفع النهار خرجوا الى معايشهم وعن بعضهم خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء فقالوا بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فاذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الاخرى ومعى صاحب يعرف لسانهم فقالوا له جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس قال فبينما نحن كذلك اذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشى على ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن فلما طلعت الشمس على الماء اذا هو فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سربا لهم فلما ارتفع النهار خرجوا الى البحر يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج لهم وعن مجاهد

من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الارض ﴿كذلك﴾ أى أمر ذى القرنين كما وصفناه لك فى رفعة المحل و بسطة الملك أو أمره فيهم كأمره فى أهل المغرب من التخيير والاختيار و يجوز أن يكون صفة مصدر محذوف لوجد أو نجعل أو صفة قوم أى على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم الشمس فى الكفر والحكم أو سترا مثل ستركم من اللباس والا كنان والجبال وغير ذلك ﴿وقد أحطنا بما لديه﴾ من الاسباب والعدد والعدد ﴿خبرا﴾ يعنى أن ذلك من الكثرة بحيث لا يحيط به الا علم اللطيف الخبير هذا على الوجه الاول وأما على الوجوه الباقية فالمراد بما لديه ما يتناول ما جرى عليه وما صدر عنه وما لاقاه فتأمل ﴿ثم أتبع سببا﴾ أى طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا من الجنوب الى الشمال ﴿حتى اذا بلغ بين السدين﴾ بين الجبلين الذين سد ما بينهما وهو منقطع أرض الترك مما يلى المشرق لاجبلا أرمينية وأذربيجان كما توهم وقرىء بالضم قيل ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان من عمل الخلق فهو مفتوح وانتصاب بين على المفعولية لانه مبلوغ وهو من الظروف التى تستعمل أسماء أيضا كما ارتفع فى قوله تعالى لقد تقطع بينكم وانجر فى قوله تعالى هذا فراق بينى و بينك ﴿وجد من دونهما﴾ أى من ورائهما مجاوزا عنهما ﴿قوما﴾ أى أمة من الناس ﴿لا يكادون يفقهون قولا﴾ لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرىء من باب الافعال أى لايفهمون السامع كلامهم واختلفوا فى أنهم من أى الاقوام فقال الضحاك هم جيل من الترك وقال السدى الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة انهم اثنتان وعشرون قبيلة سد ذو القرنين على احدى وعشرين قبيلة منهم و بقيت واحدة فسموا الترك لأنهم تركوا خارجين قال أهل التاريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام و يافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة و يافث أبو الترك والخزر والصقالبة و يأجوج ومأجوج ﴿قالوا﴾ أى بواسطة مترجمهم أو بالذات على أن يكون فهم ذى القرنين كلامهم وافهام كلامه اياهم من جملة ما آتاه الله تعالى من الاسباب ﴿ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج﴾ قد ذكرنا أنهما من أولاد يافث بن نوح عليه السلام وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل واختلف فى صفاتهم فقيل فى غاية صغر الجثة وقصر القامة لايزيد قدهم على شبر واحد وقيل فى نهاية عظم الجسم وطول القامة تبلغ قدودهم نحو مائة وعشرين ذراعا وفيهم من عرضه كذلك وقيل لهم مخالب وأضراس كالسباع وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف وقيل عربيان من أج الظليم اذا أسرع وأصلهما الهمزة كما قرأ عاصم وقد قرىء بغير همزة ومنع صرفهما للتعريف والتأنيث ﴿مفسدون فى الارض﴾ أى فى أرضنا بالقتل والتخريب واتلاف الزروع قيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون أخضر الا أكلوه و لا يابسا الا احتملوه وقيل كانوا يأكلون الناس أيضاً ﴿فهل نجعل لك خرجا﴾ أى جعلا من أموالنا والفاء لتفريع العرض على افسادهم فى الارض وقرىء خراجا و كلاهما واحد كالنول والنوال وقيل الخراج ماعلى الارض والذمة والخرج المصدر وقيل الخرج ما كان على كل رأس والخراج ما كان على البلد وقيل الخرج ماتبرعت به والخراج مالزمك أداؤه ﴿على أن تجعل بيننا و بينهم سدا﴾ وقرىء بالضم ﴿قال ما مكنى﴾ بالادغام وقرىء بالفك أى ما مكننى ﴿فيه ربى﴾ وجعلنى فيه مكينا قادرا من الملك والمال وسائر الاسباب ﴿خير﴾ أى مما تريدون أن تبذلوه الى من الخرج فلاحاجة بى اليه ﴿فأعينونى بقوة﴾ أى بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل و بآلات لابد منها فى البناء والفاء لتفريع الامر بالاعانة على خيرية ما مكنه الله تعالى فيه من مالهم أو على عدم قبول خرجهم ﴿أجعل﴾ جواب للامر ﴿بينكم و بينهم﴾ تقديم اضافة الظرف الى ضمير المخاطبين على اضافته الى ضمير يأجوج ومأجوج لاظهار كمال العناية بمصالحهم كما راعوه فى قولهم

بيننا وبينهم ﴿ ردما ﴾ أى حاجزا حصينا و برزخا متينا وهو أكبر من السد وأوثق يقال ثوب مردم أى فيه رقاع فوق رقاع وهذا اسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه ﴿ آتونى زبر الحديد ﴾ جمع زبرة كغرف فى غرفة وهى القطعة الكبيرة وهذا لا ينافى رد خراجهم لان المأمور به الايتاء بالثمن أو المناولة كما ينبىء عنه القراءة بوصل الهمزة أى جيئونى بزبر الحديد على حذف الباء كما فى أمرتك الخير ولان ايتاء الآلة من قبيل الاعانة بالقوة دون الخراج على العمل ولعل تخصيص الامر بالايتاء بها دون سائر الآلات من الصخور والحطب ونحوهما لما أن الحاجة اليها أمس اذهى الركن فى السد ووجودها أعز قيل حفر للاساس حتى بلغ الماء وجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين الى أعلاهما وكان مائة فرسخ وذلك قوله عز قائلا ﴿ حتى اذا ساوى بين الصدفين ﴾ أى أتوه اياها فأخذ يبنى شيئاً فشيئاً حتى اذا جعل ما بين ناحيتى الجبلين من البنيان مساويا لهما فى السمك على النهج المحكى قيل كان ارتفاعه مائتى ذراع وعرضه خمسين ذراعا وقرىء سوى من التسوية وسووى على البناء للمجهول ﴿ قال ﴾ للعملة ﴿ انفخوا ﴾ أى بالكيران فى الحديد المبنى ففعلوا ﴿ حتى اذا جعله ﴾ أى المنفوخ فيه ﴿ نارا ﴾ أى كالنار فى الحرارة والهيئة واسناد الجعل المذكور الى ذى القرنين مع انه فعل الفعلة للتنبيه على أنه العمدة فى ذلك وهم بمنزلة الآلة ﴿ قال ﴾ للذين يتولون أمر النحاس من الاذابة ونحوها ﴿ آتونى أفرغ عليه قطرا ﴾ أى آتونى قطرا أى نحاسا مذابا أفرغ عليه قطرا فحذف الاول لدلالة الثانى عليه وقرىء بالوصل أى جيئونى كأنه يستدعيهم للاعانة باليد عند الافراغ واسناد الافراغ الى نفسه للسر الذى وقفت عليه آنفا وكذا الكلام فى قوله تعالى ساوى وقوله تعالى أجعل ﴿ فما اسطاعوا ﴾ بحذف تاء الافتعال تخفيفا وحذرا عن تلاقى المتقاربين وقرىء بالادغام وفيه جمع بين الساكنين على غير حده وقرىء بقلب السين صادا والفاء فصيحة أى ففعلوا ما أمروا به من إيتاء القطر أو الاتيان فأفرغه عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلا صلدا فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه وينقبوه فما استطاعوا ﴿ أن يظهروه ﴾ أى يعلوه ويرقوا فيه لارتفاعه وملاسته ﴿ وما استطاعوا له نقبا ﴾ لصلابته وثخانته وهذه معجزة عظيمة لأن تلك الزبر الكثيرة اذا أثرت فيها حرارة النار لا يقدر الحيوان على أن يحوم حولها فضلا عن النفخ فيها الى أن تكون كالنار أو عن افراغ القطر عليها فكأنه سبحانه وتعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للاعمال فكان ما كان والله على كل شىء قدير وقيل بناه من الصخور مرتبطا بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب فى تجاويفها بحيث لم يبق هناك فرجة أصلا ﴿ قال ﴾ أى ذوالقرنين لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم ﴿ هذا ﴾ اشارة الى السد وقيل الى تمكينه من بنائه والفضل للمتقدم أى هذا الذى ظهر على يدى وحصل بمباشرتى من السد الذى شأنه ما ذكر من المتانة وصعوبة المنال ﴿ رحمة ﴾ أى أثر رحمة عظيمة عبر عنه بها مبالغة ﴿ من ربى ﴾ على كافة العباد لا سيما على مجاوريه وفيه ايذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة بل هو احسان الهى محض وان ظهر بمباشرتى والتعرض لوصف الربوبية لتربية معنى الرحمة ﴿ فاذا جاء وعد ربى ﴾ مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة لا خروج يأجوج ومأجوج كما قيل اذ لا يساعده النظم الكريم والمراد بمجيئه ما ينتظم مجيئه ومجىء مباديه من خروجهم وخروج الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام ونحو ذلك لا دنو وقوعه فقط كما قيل فان بعض الامور التى ستحكى تقع بعد مجيئه حتما ﴿ جعله ﴾ أى السد المشار اليه مع متانته ورصانته وفيه من الجزالة ما ليس فى توجيه الاشارة السابقة الى التمكين المذكور ﴿ دكاء ﴾ أى أرضا مستوية وقرىء دكا أى مدكوكا مسوى بالأرض وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندك ومنه الجمل الادك أى المنبسط السنام

وهذا الجعل وقت مجيء الوعد بمجيء بعض مباديه وفيه بيان لعظم قدرته عز وجل بعد بيان سعة رحمته ﴿ وكان وعد ربى ﴾ أى وعده المعهود أو كل ما وعد به فيدخل فيه ذلك دخولا أوليا ﴿ حقا ﴾ ثابتا لا محالة واقعا البتة وهذه الجملة تذييل من ذى القرنين لما ذكره من الجملة الشرطية ومقررة مؤكدة لمضمونها وهو آخر ما حكى من قصته وقوله عز وجل ﴿ وتركنا بعضهم ﴾ كلام مسوق من جنابه تعالى معطوف على قوله تعالى جعله دكاء ومحقق لمضمونه أى جعلنا بعض الخلائق ﴿ يومئذ ﴾ أى يوم اذجاء الوعد بمجيء بعض مباديه ﴿ يموج فى بعض ﴾ آخر منهم يضطربون اضطراب أمواج البحر ويختلط انسهم وجنهم حيارى من شدة الهول ولعل ذلك قبل النفخة الأولى أو تركنا بعض يأجوج ومأجوج يموج فى بعض آخر منهم حين يخرجون من السد مزدحمين فى البلاد روى أنهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله عز وجل نغفا فى أقفائهم فيدخل آذانهم فيموتون موت نفس واحدة فيرسل الله تعالى عليهم طيرا فتلقيهم فى البحر ثم يرسل مطرا يغسل الأرض ويطهرها من نتنهم حتى يتركها كالزلفة ثم يوضع فيها البركة وذلك بعد نزول عيسى عليه الصلاة والسلام وقتل الدجال ﴿ ونفخ فى الصور ﴾ هى النفخة الثانية بقضية الفاء فى قوله تعالى ﴿ فجمعناهم ﴾ ولعل عدم التعرض لذكر النفخة الأولى لأنها داهية عامة ليس فيها حالة مختصة بالكفار ولئلا يقع الفصل بين ما يقع فى النشأة الأولى من الاحوال والاهوال وبين ما يقع منها فى النشأة الآخرة أى جمعنا الخلائق بعدما تفرقت أوصالهم وتمزقت أجسادهم فى صعيد واحد للحساب والجزاء ﴿ جمعا ﴾ أى جمعا عجيبا لا يكتنه كنهه ﴿ وعرضنا جهنم ﴾ أى أظهرناها وأبرزناها ﴿ يومئذ ﴾ أى يوم اذجمعنا الخلائق كافة ﴿ للكافرين ﴾ منهم حيث جعلناها بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا ﴿ عرضا ﴾ أى عرضا فظيعا هائلا لا يقادر قدره وتخصيص العرض بهم مع انها بمرأى من أهل الجمع قاطبة لأن ذلك لاجلهم خاصة ﴿ الذين كانت أعينهم ﴾ وهم فى الدنيا ﴿ فى غطاء ﴾ كثيف وغشاوة غليظة محاطة بذلك من جميع الجوانب ﴿ عن ذكرى ﴾ عن الآيات المؤدية لأولى الأبصار المتدبرين فيها الى ذكرى بالتوحيد والتمجيد أو كانت أعين بصائرهم فى غطاء عن ذكرى على وجه يليق بشأنى أو عن القرآن الكريم ﴿ وكانوا ﴾ مع ذلك ﴿ لا يستطيعون ﴾ لفرط تصامهم عن الحق وكمال عداوتهم للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ سمعا ﴾ استماعا لذكرى وكلامى الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهذا تمثيل لاعراضهم عن الأدلة السمعية كما أن الأول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار والموصول نعت للكافرين أو بدل منه أو بيان جيء به لذمهم بما فى حيز الصلة وللاشعار بعليته لاصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم فان ذلك انما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم فى الدنيا من الآيات واعراضهم عنها مع كونها أسبابا منجية عما ابتلوا به فى الآخرة ﴿ أفحسب الذين كفروا ﴾ أى كفروا بى كما يعرب عنه قوله تعالى عبادى والحسبان بمعنى الظن وقد قرىء أفظن والهمزة للانكار والتوبيخ على معنى انكار الواقع واستقباحه كما فى قولك أضربت أباك لا انكار الوقوع كما فى قوله أأضرب أبى والفاء للعطف على مقدر يفصح عنه الصلة على توجيه الانكار والتوبيخ الى المعطوفين جميعا كما اذا قدر المعطوف عليه فى قوله تعالى أفلا تعقلون منفيا أى ألا تسمعون فلا تعقلون لا الى المعطوف فقط كما اذا قدر مثبتا أى أتسمعون فلا تعقلون والمعنى أكفروا بى مع جلالة شأنى فحسبوا ﴿ أن يتخذوا عبادى من دونى ﴾ من الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام وهم تحت سلطانى وملكوتى ﴿ أولياء ﴾ معبودين ينصرونهم من بأسى وما قيل انها للعطف على ما قبلها من قوله تعالى كانت الخ وكانوا الخ دلالة على أن الحسبان ناشىء من التعامى والتصام وأدخل عليها همزة الانكار ذما على ذم وقطعا

له عن المعطوف عليهما لفظا لا معنى للايذان بالاستقلال المؤكد للذم يأباه ترك الاضمار والتعرض لوصف آخر غير التعامى والتصام على أنهما أخرجا مخرج الاحوال الجبلية لهم ولم يذكروا من حيث أنهما من أفعالهم الاختيارية الحادثة لحسبانهم ليحسن تفريعه عليهما وأيضا فانه دين قديم لهم لا يمكن جعله ناشئا عن تصامهم عن كلام الله عز وجل وتخصيص الانكار بحسبانهم المتأخر عن ذلك تعسف لا يخفى وما فى حيز صلة أن ساد مسد مفعولى حسب كما فى قوله تعالى وحسبوا أن لا تكون فتنة أى أفحسبوا أنهم يتخذونهم أولياء على معنى أن ذلك ليس من الاتخاذ فى شئ لما أنه انما يكون من الجانبين وهم عليهم الصلاة والسلام منزهون عن ولايتهم بالمرة لقولهم سبحانك أنت ولينا من دونهم وقيل مفعوله الثانى محذوف أى أفحسبوا اتخاذهم نافعا لهم والوجه هو الاول لان فى هذا تسليما لنفس الاتخاذ واعتدادا به فى الجملة وقرئ أفحسب الذين كفروا أى أفحسبهم وكافيهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر أو الفعل والفاعل فان النعت اذا اعتمد الهمزة ساوى الفعل فى العمل فالهمزة حينئذ بمعنى انكار الوقوع ﴿انا أعتدنا جهنم﴾ أى هيأناها ﴿للكافرين﴾ المعهودين عدل عن الاضمار ذما لهم واشعارا بأن ذلك الاعتاد بسبب كفرهم المتضمن لحسبانهم الباطل ﴿نزلا﴾ أى شيئا يتمتعون به عند ورودهم وهو ما يقام للنزيل أى الضيف مما حضر من الطعام وفيه تخطئة لهم فى حسبانهم وتهكم بهم حيث كان اتخاذهم اياهم أولياء من قبيل اعتاد العتاد واعداد الزاد ليوم المعاد فكأنه قيل انا أعتدنا لهم مكان ما أعدوا لانفسهم من العدة والذخر جهنم عدة وفى ايراد النزل ايماء الى أن لهم وراء جهنم من العذاب ماهو أنموذج له وقيل النزل موضع النزول ولذلك فسره ابن عباس رضى الله عنهما بالمثوى ﴿قل هل ننبئكم﴾ الخطاب الثانى للكفرة على وجه التوبيخ والجمع فى صيغة المتكلم لتعيينه من أول الامر وللايذان بمعلومية النبأ للمؤمنين أيضا ﴿بالأخسرين أعمالا﴾ نصب على التميز والجمع للايذان بتنوعها وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ماصدر عنهم من الاعمال الحسنة فى أنفسها وفى حسبانهم أيضا حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها غب بيان حالهم باعتبار أعمالهم السيئة فى أنفسها مع كونها حسنة فى حسبانهم ﴿الذين ضل سعيهم﴾ فى اقامة تلك الاعمال أى ضاع وبطل بالكلية ﴿فى الحيوة الدنيا﴾ متعلق بالسعى لا بالضلال لان بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا قيل المراد بهم أهل الكتابين قاله ابن عباس وسعد بن أبى وقاص ومجاهد رضى الله عنهم ويدخل فى الاعمال حينئذ ما عملوه من الاحكام المنسوخة المتعلقة بالعبادات وقيل الرهابنة الذين يحبسون أنفسهم فى الصوامع ويحملونها على الرياضات الشاقة ولعله ما يعمهم وغيرهم من الكفرة ومحل الموصول الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف لانه جواب للسؤال كأنه قيل من هم فقيل الذين الخ وجعله مجرورا على أنه نعت للاخسرين أو بدل منه أو منصوبا على الذم على أن الجواب ماسيأتى من قوله تعالى أولئك الآية يأباه أن صدره ليس منبئا عن خسران الاعمال وضلال السعى كما يستدعيه مقام الجواب والتفريع الاول وان دل على حبوطها لكنه ساكت عن انباء ما هو العمدة فى تحقيق معنى الخسران من الوثوق بترتب الربح واعتقاد النفع فيما صنعوا على أن التفريع الثانى مما يقطع ذلك الاحتمال رأسا اذ لامجال لادراجه تحت الامر بقضية نون العظمة ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ الاحسان الاتيان بالاعمال على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى أى يحسبون أنهم يعملون ذلك على الوجه اللائق وذلك لاعجابهم بأعمالهم التى سعوا فى اقامتها وكابدوا فى تحصيلها والجملة حال من فاعل ضل أى بطل سعيهم المذكور والحال أنهم يحسبون أنهم يحسنون فى ذلك وينتفعون بآثاره أو من المضاف اليه لكونه فى محل الرفع نحو قوله تعالى اليه مرجعكم جميعا أى بطل سعيهم والحال أنهم الخ والفرق بينهما أن المقارن لحال حسبانهم المذكور فى الأول ضلال سعيهم وفى الثانى نفس سعيهم والأول

أدخل فى بيان خطائهم ﴿أولئك﴾ كلام مستأنف من جنابه تعالى مسوق لتكميل تعريف الاخسرين وتبيين سبب خسرانهم وضلال سعيهم و تعيينهم بحيث ينطبق التعريف على المخاطبين غير داخل تحت الأمر أى أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعى مع الحسبان المزبور ﴿الذين كفروا بآيات ربهم﴾ بدلائله الداعية الى التوحيد عقلاونقلا والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم فى الكفر المذكور ﴿ولقائه﴾ بالبعث ومايتبعه من أمور الآخرة على ماهى عليه ﴿فحبطت﴾ لذلك ﴿أعمالهم﴾ المعهودة حبوطا كليا ﴿فلا نقيم لهم﴾ أى لاولئك الموصوفين بما مر من حبوط الأعمال وقرئ بالياء ﴿يوم القيامة وزنا﴾ أى فنزدريهم و لانجعل لهم مقدارا واعتبارا لأن مداره الأعمال الصالحة وقد حبطت بالمرة وحيث كان هذا الازدراء من عواقب حبوط الأعمال عطف عليه بطريق التفريع وأما ماهو من أجزية الكفر فسيجئ بعد ذلك أو لانضع لأجل و زن أعمالهم ميزانا لانه انما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين ليتميز به مقادير الطاعات والمعاصى ليترتب عليه التكفير أوعدمه لأن ذلك فى الموحدين بطريق الكمية وأما الكفر فاحباطه للحسنات بحسب الكيفية دون الكمية فلايوضع لهم الميزان قطعا ﴿ذلك﴾ بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم اثر بيان مآل أعمالهم المحبطة بذلك أى الأمر ذلك وقوله عزوجل ﴿جزاؤهم جهنم﴾ جملة مبينة له أوذلك مبتدأ والجملة خبره والعائد محذوف أى جزاؤهم به أوجزاؤهم بدله وجهنم خبره أوجزاؤهم خبره وجهنم عطف بيان للخبر ﴿بما كفروا﴾ تصريح بأن ماذكر جزاء لكفرهم المتضمن لسائر القبائح التى أنبأ عنها قوله تعالى ﴿واتخذوا آياتى و رسلى هزوا﴾ أى مهزوا بهما فانهم لم يقتنعوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضا ﴿ان الذين آمنوا﴾ بيان بطريق الوعد لمآل الذين اتصفوا بأضداد مااتصف به الكفرة اثر بيان مآلهم بطريق الوعيد أى آمنوا بآيات ربهم ولقائه ﴿وعملوا الصالحات﴾ من الأعمال ﴿كانت لهم﴾ فيما سبق من حكم الله تعالى و وعده وفيه ايماء الى أن أثر الرحمة يصل اليهم بمقتضى الرأفة الازلية بخلاف مامر من جعل جهنم للكافرين نزلا فانه بموجب ماحدث من سوء اختيارهم ﴿جنات الفردوس﴾ عن مجاهد ان الفردوس هو البستان بالرومية وقال عكرمة هو الجنة بالحبشية وقال الضحاك هو الجنة الملتفة الأشجار وقيل هى الجنة التى تنبت ضروبا من النبات وقيل هى الجنة من الكرم خاصة وقيل ماكان غالبه كرما وقال المبرد هوفيما سمعت من العرب الشجر الملتف والاغلب عليه أن يكون من العنب وعن كعب أنه ليس فى الجنان أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنة مائة درجة مابين كل درجة مسيرة مائة عام والفردوس أعلاها وفيها الأنهار الأربعة فاذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فان فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة ﴿نزلا﴾ خبر كانت والجار والمجرور متعلق بمحذوف على أنه حال من نزلا أوعلى أنه بيان أوحال من جنات الفردوس والخبر هو الجار والمجرور فان جعل النزول بمعنى مايهيأ للنازل فالمعنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس نزلا أوجعلت نفس الجنات نزلا مبالغة فى الاكرام وفيه ايذان بأنها عند ماأعد الله لهم على ماجرى على لسان النبوة من قوله أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت و لاأذن سمعت و لاخطر على قلب بشر بمنزلة النزل بالنسبة الى الضيافة وان جعل بمعنى المنزل فالمعنى ظاهر ﴿خالدين فيها﴾ نصب على الحالية ﴿لايبغون عنها حولا﴾ مصدر كالعوج والصغر أى لايطلبون تحولا عنها اذ لايتصور أن يكون شئ أعز عندهم وأرفع منها حتى تنازعهم اليه أنفسهم وتطمح نحوه أبصارهم ويجوز أن يراد نفى التحول وتأكيد الخلود والجملة حال من صاحب خالدين أومن ضميره فيه فيكون حالا متداخلة ﴿قل لو كان البحر﴾ أى جنس البحر ﴿مدادا﴾ وهو ماتمد به الدواة من الحبر ﴿لكلمات ربى﴾ لتحرير كلمات علمه وحكمته

التى من جملتها ماذكر من الآيات الداعية الى التوحيد المحذرة من الاشراك ﴿لنفد البحر﴾ مع كثرته ولم يبق منه شىء لتناهيه ﴿قبل أن تنفد﴾ وقرىء بالياء والمعنى من غير أن تنفد ﴿كلمات ربى﴾ لعدم تناهيها فلادلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر و فى اضافة الكلمات الى اسم الرب المضاف الى ضميره صلى الله عليه وسلم فى الموضعين من تفخيم المضاف وتشريف المضاف اليه مالايخفى واظهار البحر والكلمات فى موضع الاضمار لزيادة التقرير ﴿ولوجئنا﴾ كلام من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن جىء به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله مع زيادة مبالغة وتأكيد والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة أى لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى لولم نجىء بمثله مددا ولوجئنا بقدرتنا الباهرة ﴿بمثله مددا﴾ عونا وزيادة لأن مجموع المتناهيين متناه بل مجموع مايدخل تحت الوجود من الاجسام لايكون الامتناهيا لقيام الأدلة القاطعة على تناهى الابعاد وقرىء مددا جمع مدة وهى مايستمده الكاتب وقرىء مدادا ﴿قل﴾ لهم بعد مابينت لهم شأن كلماته تعالى ﴿انما أنابشر مثلكم﴾ لاأدعى الاحاطة بكلماته التامة ﴿يوحى الى﴾ من تلك الكلمات ﴿أنما الهكم اله واحد﴾ لاشريك له فى الخلق ولافى سائر أحكام الالوهية وانما تميزت عنكم بذلك ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ الرجاء توقع وصول الخير فى المستقبل والمراد بلقائه تعالى كرامته وادخال الماضى على المستقبل للدلالة على أن اللائق بحال المؤمن الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء أى فمن استمر على رجاء كرامته تعالى ﴿فليعمل﴾ لتحصيل تلك الطلبة العزيزة ﴿عملا صالحا﴾ فى نفسه لائقا بذلك المرجو كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ولايشرك بعبادة ربه أحدا﴾ اشراكا جليا كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ولااشراكا خفيا كما يفعله أهل الرياء ومن يطلب به أجرا وايثار وضع المظهر موضع المضمر فى الموضعين مع التعرض لعنوان الربوبية لزيادة التقرير وللاشعار بعلية العنوان للامر والنهى ووجوب الامتثال فعلا وتركا . روى أن جندب ابن زهير رضى الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى لأعمل العمل لله تعالى فاذا اطلع عليه سرنى فقال عليه الصلاة والسلام ان الله لايقبل ماشورك فيه فنزلت تصديقا له وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال له لك أجران أجر السر وأجر العلانية وذلك اذا قصد أن يقتدى به وعنه عليه السلام اتقوا الشرك الأصغر قيل وماالشرك الأصغر قال الرياء . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورا من قرنه الى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ عند مضجعه قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى الخ كان له من مضجعه نورا يتلألأ الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وان كان مضجعه بمكة كان له نورا يتلألأ من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ الحمد لله سبحانه على نعمه العظام

سورة مريم عليها السلام

(مكية الا آية السجدة وهى ثمان أوتسع وتسعون آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿كهيعص﴾ بامالة الهاء والياء واظهار الدال وقرىء بفتح الهاء وامالة الياء وبتفخيمهما وباخفاء النون قبل الصاد لتقاربهما وقد سلف أن مالايكون من هذه الفواتح مفردة ولاموازنة لمفرد فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الاعجاز على الوقف سواء جعلت أسماء للسور أومسرودة على نمط التعديد وان لزمها التقاء الساكنين لكونه مغتفرا فى باب الوقف قطعا

لحق هذه الفاتحة الكريمة أن يوقف عليها جريا على الأصل وقرىء بادغام الدال فيما بعدها لتقاربهما فى المخرج فان جعلت اسما للسورة على ماعليه اطباق الاكثر فحله الرفع اما على انه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هذا كهيعص أى مسمى به وانما صحت الاشارة اليه مع عدم جريان ذكره لأنه باعتبار كونه على جناح الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد كما يقال هذا ما اشترى فلان أو على أنه مبتدأ خبره ﴿ ذكر رحمة ربك ﴾ أى المسمى به ذكر رحمة الخ فان ذكرها لما كان مطلع السورة الكريمة ومعظم ما انطوت هى عليه جعلت كأنها نفس ذكرها والأول هو الاولى لأن ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون معلوم الانتساب اليه عند المخاطب واذ لا علم بالتسمية من قبل فحقها الاخبار بها كما فى الوجه الأول وان جعلت مسرودة على نمط التعديد حسبما جنح اليه أهل التحقيق فذكر الخ خبر لمبتدا محذوف هو ماينبىء عنه تعديد الحروف كأنه قيل المؤلف من جنس هذه الحروف المبسوطة مرادا به السورة ذكر الرحمة الخ أو اسم اشارة أشير به اليه تنزيلا لحضور المادة منزلة حضور المؤلف منها أى هذا ذكر رحمة الخ وقيل هو مبتدأ قد حذف خبره أى فيما يتلى عليك ذكرها وقرىء ذكر رحمة ربك على صيغة الماضى من التذكير أى هذا المتلو ذكرها وقرىء ذكر على صيغة الأمر والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميره عليه السلام للايذان بأن تنزيل السورة عليه عليه الصلاة والسلام تكميل له عليه السلام وقوله تعالى ﴿ عبده ﴾ مفعول لرحمة ربك على أنها مفعول لما أضيف اليها وقيل للذكر على أنه مصدر أضيف الى فاعله على الاتساع ومعنى ذكر الرحمة بلوغها واصابتها كما يقال ذكرنى معروف فلان أى بلغنى وقوله عز وعلا ﴿ زكريا ﴾ بدل منه أو عطف بيان له ﴿ اذ نادى ربه نداء خفيا ﴾ ظرف لرحمة ربك وقيل لذكر على أنه مضاف الى فاعله اتساعا لا على الوجه الاول لفساد المعنى وقيل هو بدل اشتمال من زكريا كما فى قوله واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت ولقد راعى عليه الصلاة والسلام حسن الادب فى اخفاء دعائه فانه مع كونه بالنسبة اليه عز وجل كالجهر أدخل فى الاخلاص وأبعد من الرياء وأقرب الى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد لتوقفه على مباد لا يليق به تعاطيها فى أوان الكبر والشيخوخة وعن غائلة مواليه الذين كان يخافهم وقيل كان ذلك منه عليه السلام لضعف الهرم قالوا كان سنه حينئذ ستين وقيل خمسا وستين وقيل سبعين وقيل خمسا وسبعين وقيل ثمانين وقيل أكثر منها كما مر فى تفسير سورة آل عمران ﴿ قال ﴾ جملة مفسرة لنادى لا محل لها من الاعراب ﴿ رب انى وهن العظم منى ﴾ اسناد الوهن الى العظم لما أنه عماد البدن ودعام الجسد فاذا أصابه الضعف والرخاوة أصاب كله أو لانه أشد أجزائه صلابة وقواما وأقلها تأثرا من العلل فاذا وهن كان ما وراءه أوهن وافراده للقصد الى الجنس المنبىء عن شمول الوهن لكل فرد من أفراده ومنى متعلق بمحذوف هو حال من العظم وقرىء وهن بكسر الهاء وبضمها أيضا وتأكيد الجملة لابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها ﴿ واشتعل الرأس شيبا ﴾ شبه عليه الصلاة والسلام الشيب فى البياض والانارة بشواظ النار وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعالها ثم أخرجه مخرج الاستعارة ثم أسند الاشتعال الى محل الشعر ومنبته وأخرجه مخرج التمييز وأطلق الرأس اكتفاء بما قيد به العظم وفيه من فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لا يخفى حيث كان الاصل اشتعل شيب رأسى فأسند الاشتعال الى الرأس كما ذكر لافادة شموله لكلها فان وزانه بالنسبة الى الاصل وزان اشتعل بيته نارا بالنسبة الى اشتعل النار فى بيته ولزيادة تقريره بالاجمال أولا والتفصيل ثانيا ولمزيد تفخيمه بالتنكير وقرىء بادغام السين فى الشين ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقيا ﴾ أى ولم أكن بدعائى اياك خائبا فى وقت من أوقات هذا العمر الطويل بل كلما دعوتك استجبت لى والجملة معطوفة على ما قبلها أو حال من ضمير المتكلم اذ المعنى واشتعل رأسى شيبا وهذا توسل منه عليه السلام بما سلف منه من الاستجابة عند كل

دعوة اثر تمهيد ما يستدعى الرحمة و يستجلب الرأفة من كبر السن وضعف الحال فانه تعالى بعد ما عود عبده بالاجابة دهرا طويلا لا يكاد يخيبه أبدا لا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره والتعرض فى الموضعين لوصف الربوبية المنبئة عن اضافة ما فيه صلاح المربوب مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لا سيما توسيطه بين كان وخبرها لتحريك سلسلة الاجابة بالمبالغة فى التضرع ولذلك قيل اذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاته ﴿ وانى خفت الموالى ﴾ عطف على قوله تعالى انى وهن العظم مترتب مضمونه على مضمونه فان ضعف القوى وكبر السن من مبادى خوفه عليه السلام من يلى أمره بعد موته ومواليه بنو عمه وكانوا أشرار بنى اسرائيل فخاف أن لا يحسنوا خلافته فى أمته ويبدلوا عليهم دينهم وقوله ﴿ من ورائى ﴾ أى بعد موتى متعلق بمحذوف ينساق اليه الذهن أى فعل الموالى من بعدى أو جور الموالى وقد قرئ كذلك أو بما فى الموالى من معنى الولاية أى خفت الذين يلون الامر من ورائى لا بخفت لفساد المعنى وقرئ وراى بالقصر وفتح الياء وقرئ خفت الموالى من ورائى أى قلوا وعجزوا عن القيام بأمور الدين بعدى أو خفت الموالى القادرون على اقامة مراسم الملة ومصالح الامة من خف القوم أى ارتحلوا مسرعين أى درجوا قدامى ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد فالظرف حينئذ متعلق بخفت ﴿ وكانت امرأتى عاقرا ﴾ أى لا تلد من حين شبابها ﴿ فهب لى من لدنك ﴾ كلا الجارين متعلق بهب لاختلاف معنييهما فاللام صلة له ومن لابتداء الغاية مجازا وتقديم الاول لكون مدلوله أهم عنده ويجوز تعلق الثانى بمحذوف وقع حالا من المفعول ولدن فى الاصل ظرف بمعنى أول غاية زمان أو مكان أو غيرهما من الذوات وقد مر تفصيله فى أوائل سورة آل عمران أى أعطنى من محض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة بطريق الاختراع لا بواسطة الاسباب العادية ﴿ وليا ﴾ أى ولدا من صلبي وتأخيره عن الجارين لاظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع مع ما فيه من التشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مستشرفة له فعند وروده لها يتمكن عندها فضل تمكن ولأن فيه نوع طول بما بعده من الوصف فتأخيرهما عن الكل أو توسيطهما بين الموصوف والصفة مما لا يليق بجزالة النظم الكريم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان ما ذكره عليه الصلاة والسلام من كبر السن وضعف القوى وعقر المرأة موجب لانقطاع رجائه عليه السلام عن حصول الولد بتوسط الاسباب العادية واستيهابه على الوجه الخارق للعادة ولا يقدح فى ذلك أن يكون هناك داع آخر الى الاقبال على الدعاء المذكور من مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرة فى حق مريم كما يعرب عنه قوله تعالى هنالك دعا زكريا ربه الآية وعدم ذكره ههنا للتعويل على ذكره هناك كما أن عدم ذكر مقدمة الدعاء هناك للاكتفاء بذكره ههنا فان الاكتفاء بما ذكر فى موطن عما ترك فى موطن آخر من النكت التنزيلية وقوله تعالى ﴿ يرثنى ﴾ صفة لوليا وقرئ هو وما عطف عليه بالجزم جوابا للدعاء أى يرثنى من حيث العلم والدين والنبوة فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام لا يورثون المال قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة وقيل يرثنى الحبورة وكان عليه السلام حبرا ﴿ ويرث من آل يعقوب ﴾ يقال ورثه وورث منه لغتان وآل الرجل خاصته الذين يؤول اليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين وكانت زوجة زكريا أخت أم مريم أى ويرث منهم الملك قيل هو يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وقال الكلبي ومقاتل هو يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان من نسل سليمان عليه السلام وكان آل يعقوب أخوال يحيى بن زكريا قال الكلبي كان بنو ماثان رؤس بنى اسرائيل وملوكهم وكان زكريا رئيس الاحبار يومئذ فأراد أن يرثه ولده حبورته ويرث من بنى ماثان ملكهم وقرئ ويرث وارث آل يعقوب على أنه حال من المستكن فى يرث وقرئ أو يرث آل يعقوب بالتصغير

ففيه ايماء الى وراثته عليه السلام لما يرثه فى حالة صغره وقرئ وارث من آل يعقوب على أنه فاعل يرثنى على طريقة التجريد أى يرثنى به وارث وقيل من للتبعيض اذ لم يكن كل آل يعقوب عليه السلام أنبياء ولا علماء ﴿ واجعله رب رضيا ﴾ مرضيا عندك قولا وفعلا وتوسيط رب بين معفولى اجعل للمبالغة فى الاعتناء بشأن مايستدعيه ﴿ يازكريا ﴾ على ارادة القول أى قال تعالى يازكريا ﴿ انا نبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾ لكن لا بأن يخاطبه عليه الصلاة والسلام بذلك بالذات بل بواسطة الملك على أن يحكى له عليه الصلاة والسلام هذه العبارة عنه عز وجل على نهج قوله تعالى قل ياعبادى الذين أسرفوا الآية وقد مر تحقيقه فى سورة آل عمران وهذا جواب لندائه عليه الصلاة والسلام ووعد باجابة دعائه لكن لا كلا كما هو المتبادر من قوله تعالى فاستجبنا له ووهبنا له يحيى الخ بل بعضا حسبما تقتضيه المشيئة الالهية المبنية على الحكم البالغة فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام وان كانوا مستجابى الدعوة لكنهم ليسوا كذلك فى جميع الدعوات ألا يرى الى دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فى حق أبيه والى دعوة النبى عليه الصلاة والسلام حيث قال وسألته أن لايذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها وقد كان من قضائه عز وعلا أن يهبه يحيى نبيا مرضيا ولا يرثه فاستجيب دعاؤه فى الأول دون الثانى حيث قتل قبل موت أبيه عليهما الصلاة والسلام على ماهو المشهور وقيل بقى بعده برهة فلا اشكال حينئذ وفى تعيين اسمه عليه الصلاة والسلام تأكيد للوعد وتشريف له عليه الصلاة والسلام وفى تخصيصه به عليه السلام حسبما يعرب عنه قوله تعالى ﴿ لم نجعل له من قبل سميا ﴾ أى شريكا له فى الاسم حيث لم يسم أحد قبله يحيى مزيد تشريف وتفخيم له عليه الصلاة والسلام فان التسمية بالاسامى البديعة الممتازة عن أسماء سائر الناس تنويه بالمسمى لامحالة وقيل سميا شبيها فى الفضل والكمال كما فى قوله تعالى هل تعلم له سميا فان المتشاركين فى الوصف بمنزلة المتشاركين فى الاسم قالوا لم يكن له عليه الصلاة والسلام مثل فى أنه لم يعص الله تعالى ولم يهم بمعصية قط وأنه ولد من شيخ فان وعجوز عاقر وأنه كان حصورا فيكون هذا اجمالا لما نزل بعده من قوله تعالى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين والاظهر أنه اسم أعجمى وان كان عربيا فهو منقول عن الفعل كيعمر ويعيش قيل سمى به لانه حيى به رحم أمه أو حيى دين الله تعالى بدعوته ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حينئذ فقيل قال ﴿ رب ﴾ ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى اليه بتوسط الملك للمبالغة فى التضرع والمناجاة والجد فى التبتل اليه تعالى والاحتراز عما عسى يوهم خطابه للملك من توهم أن علمه تعالى بما يصدر عنه متوقف على توسطه كما أن علم البشر بما يصدر عنه سبحانه متوقف على ذلك فى عامة الاوقات ﴿ أنى يكون لى غلام ﴾ كلمة أنى بمعنى كيف أو من أين وكان اما تامة وأنى واللام متعلقتان بها وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر أى كيف أو من أين يحدث لى غلام ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حال من غلام اذ لو تأخر لكان صفة له أى أنى يحدث كائنا لى غلام أو ناقصة اسمها ظاهر وخبرها اما أنى ولى متعلق بمحذوف كما مر أو هو الخبر وأنى نصب على الظرفية وقوله تعالى ﴿ وكانت امرأتى عاقرا ﴾ حال من ضمير المتكلم بتقدير قد وكذا قوله تعالى ﴿ وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾ حال منه مؤكدة للاستبعاد اثر تأكيد أى كانت امرأتى عاقرا لم تلد فى شبابها وشبابى فكيف وهى الآن عجوز وقد بلغت أنا من أجل كبر السن جساوة وقحولا فى المفاصل والعظام أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه مايسمى عتيا من عتا يعتو وأصله عتوو كقعود فاستثقل توالى الضمتين والواوين فكسرت التاء فانقلبت الاولى ياء لسكونها وانكسار ماقبلها ثم قلبت الثانية أيضا لاجتماع الواو والياء وسبق احداهما بالسكون وكسرت العين اتباعا لما بعدها وقرئ بضمها ولعل البداءة ههنا بذكر حال امرأته على عكس مافى سورة آل عمران لما أنه قد ذكر حاله فى تضاعيف دعائه وانما المذكور ههنا بلوغه أقصى مراتب الكبر تتمة

لما ذكر قبل وأما هنالك فلم يسبق فى الدعاء ذكر حاله فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته لما أن المسارعة الى بيان قصور شأنه أنسب وانما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله لاسيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة فى سورة آل عمران استعظاما لقدرة الله تعالى وتعجيبا منها واعتدادا بنعمته تعالى عليه فى ذلك باظهار أنه من محض لطف الله عز وعلا وفضله مع كونه فى نفسه من الأمور المستحيلة عادة لااستبعاداله وقيل انما قاله ليجاب بما أجيب به فيزداد المؤمنون ايقانا ويرتدع المبطلون وقيل كان ذلك منه عليه الصلاة والسلام استفهاما عن كيفية حدوثه وقيل بل كان ذلك بطريق الاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قدنسى دعاءه وهو بعيد ﴿قال﴾ استئناف كما مر مبنى على سؤال نشأ مما سلف والكاف فى قوله تعالى ﴿كذلك قال ربك﴾ مقحمة كما فى مثلك لا يبخل محلها اما النصب على أنه مصدر تشبيهى لقال الثانى وذلك اشارة الى مصدره الذى هو عبارة عن الوعد السابق لا الى قوم آخر شبه هذا به وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا وقوله تعالى ﴿هو على هين﴾ جملة مقررة للوعد المذكور دالة على انجازه داخلة فى حيز قال الاول كانه قيل قال الله عز وجل مثل ذلك القول البديع قلت أى مثل ذلك الوعد الخارق للعادة وعدت هو على خاصة هين وان كان فى العادة مستحيلا وقرىء وهو على هين فالجملة حينئذ حال من ربك والياء عبارة عن ضميره كما ستعرفه أو اعتراض وعلى كل حال فهى مؤكدة ومقررة لما قبلها ثم أخرج القول الثانى مخرج الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة وادخال الروعة كقول الخلفاء أمير المؤمنين يرسم لك مكان أنا أرسم ثم أسند الى اسم الرب المضاف الى ضميره عليه السلام تشريفا له واشعارا بعلة الحكم فان تذكير جريان أحكام ربوبيته تعالى عليه عليه الصلاة والسلام من ايجاده من العدم وتصريفه فى أطوار الخلق من حال الى حال شيئاً فشيئاً الى أن يبلغ كماله اللائق به مما يقلع أساس استبعاده عليه الصلاة والسلام لحصول الموعود ويورثه عليه الصلاة والسلام الاطمئنان بانجازه لامحالة ثم التفت من ضمير الغائب العائد الى الرب الى ياء العظمة ايذانا بأن مدار كونه هينا عليه سبحانه هو القدرة الذاتية لاربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام خاصة وتمهيدا لما يعقبه وقيل ذلك اشارة الى مبهم يفسره قوله تعالى هو على هين على طريقة قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ولا يخرج هذا الوجه على القراءة بالواو لأنها لا تدخل بين المفسر والمفسر واما الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وذلك اشارة الى ماتقدم من وعده تعالى أى قال عز وعلا الأمر كما وعدت وهو واقع لا محالة وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مقرر لمضمونه والجملة المحكية على القراءة الثانية معطوفة على المحكية الأولى أو حال من المستكن فى الجار والمجرور وأياما كان فتوسيط قال بينهما مشعر بمزيد الاعتناء بكل منهما والكلام فى اسناد القول الى الرب ثم الالتفات الى التكلم كالذى مر آنفا وقيل ذلك اشارة الى ماقاله زكريا عليه الصلاة والسلام أى قال تعالى الأمر كما قلت تصديقا له فيما حكاه من الحالة المباينة للولادة فى نفسه وفى امرأته وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مسوق لازالة استبعاده بعد تقريره أى قال تعالى هو مع بعده فى نفسه على هين والقراءة الثانية أدخل فى افادة هذا المعنى على أن الواو للعطف وأما جعلها للحال فخل بسداد المعنى لأن مآله تقرير صعوبته حال سهولته عليه تعالى مع أن المقصود بيان سهولته عليه سبحانه مع صعوبته فى نفسه وقوله تعالى ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها والمراد به ابتداء خلق البشر اذ هو الواقع اثر العدم المحض لاما كان بعد ذلك بطريق التوالد المعتاد وانما لم ينسب ذلك الى آدم عليه الصلاة والسلام وهو المخلوق من العدم حقيقة بأن يقال وقد خلقت أباك أو آدم من قبل ولم يك شيئاً مع كفايته فى ازالة الاستبعاد بقياس حال مابشر به على حاله عليه الصلاة والسلام لتأكيد الاحتجاج وتوضيح منهاج القياس حيث نبه على أن كل فرد من

أفراد البشر له حظ من انشائه عليه الصلاة والسلام من العدم اذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على فطرية سائر آحاد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان ابداعه عليه الصلاة والسلام على ذلك الوجه ابداعا للكل أحد من فروعه كذلك ولما كان خلقه عليه الصلاة والسلام على هذا النمط السارى الى جميع أفراد ذريته أبدع من أن يكون ذلك مقصورا على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور اليه وأدل على عظم قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته وكان عدم زكريا حينئذ أظهر عنده وأجلى وكان حاله أولى بأن يكون معيار الحال مابشر به نسب الخلق المذكور اليه كما نسب الخلق والتصوير الى المخاطبين فى قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم توفية لمقام الامتنان حقه فكأنه قيل وقد خلقتك من قبل فى تضاعيف خلق آدم ولم تكن اذذاك شيئا أصلا بل عدما بحتا ونفيا صرفا هذا وأما حمل الشئ على المعتد به أى ولم تكن شيئا معتدا به فيأباه المقام ويرده نظم الكلام وقرئ خلقناك ﴿قال رب اجعل لى آية﴾ أى علامة تدلنى على تحقق المسؤول ووقوع الحبل ولم يكن هذا السؤال منه عليه الصلاة والسلام لتأكيد البشارة وتحقيقها كما قيل فان ذلك مما لا يليق بمنصب الرسالة وانما كان ذلك لتعريف وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه وهو أمر خفى لا يوقف عليه فأراد أن يطلعه الله تعالى عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حدوثها ولا يؤخره الى أن تظهر ظهورا معتادا وقدمرت الاشارة فى تفسير سورة آل عمران الى أن هذا السؤال ينبغى أن يكون بعد ما مضى بعد البشارة برهة من الزمان لما روى أن يحيى كان أكبر من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين ولا ريب فى أن دعاء زكريا عليه الصلاة والسلام كان فى صغر مريم لقوله تعالى هنالك دعا زكريا ربه وهى انما ولدت عيسى عليه الصلاة والسلام وهى بنت عشر سنين أو بنت ثلاث عشرة سنة والجعل ابداعى واللام متعلقة به وتقديمها على المفعول به لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أو بمحذوف وقع حالا من آية اذ لو تأخر لكان صفة لها وقيل بمعنى التصيير المستدعى لمفعولين أولهما آية وثانيهما الظرف وتقديمه لأنه لامسوغ لكون آية مبتدأ عند انحلال الجملة الى مبتدأ وخبر سوى تقديم الظرف فلايتغير حالها بعد ورود الناسخ ﴿قال آيتك أن لا تكلم الناس﴾ أى أن لا تقدر على أن تكلمهم بكلام الناس مع القدرة على الذكر والتسبيح ﴿ثلاث ليال﴾ مع أيامهن للتصريح بها فى سورة آل عمران ﴿سويا﴾ حال من فاعل تكلم مفيد لكون انتفاء التكلم بطريق الاضطرار دون الاختيار أى تمنع الكلام فلاتطيق به حال كونك سوى الخلق سليم الجوارح مابك شائبة بكم ولا خرس ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ أى من المصلى أو من الغرفة وكانوا من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلوا اذ خرج عليهم متغيرا لونه فأنكروه وقالوا مالك ﴿فأوحى اليهم﴾ أى أومأ اليهم لقوله تعالى الا رمزا وقيل كتب على الأرض وأن فى قوله تعالى ﴿أن سبحوا﴾ اما مفسرة لأوحى أومصدرية والمعنى أى صلوا أو بأن صلوا ﴿بكرة وعشيا﴾ هما ظرفا زمان للتسبيح. عن أبى العالية أن المراد بهما صلاة الفجر وصلاة العصر أونزهوا ربكم طرفى النهار ولعله كان مأمورا بأن يسبح شكرا ويأمر قومه بذلك ﴿يايحيى﴾ استئناف طوى قبله جمل كثيرة مسارعة الى الانباء بانجاز الوعد الكريم أى قلنا يايحيى ﴿خذ الكتاب﴾ التوراة ﴿بقوة﴾ أى بجد واستظهار بالتوفيق ﴿وآتيناه الحكم صبيا﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما الحكم النبوة استنبأه وهو ابن ثلاث سنين وقيل الحكم الحكمة وفهم التوراة والفقه فى الدين روى أنه دعاه الصبيان الى اللعب فقال ماللعب خلقنا ﴿وحنانا من لدنا﴾ عطف على الحكم وتنوينه للتفخيم وهو التحنن والاشتياق ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنة من جنابنا أو رحمة فى قلبه وشفقة على أبويه وغيرهما ﴿وزكوة﴾ أى طهارة

من الذنوب أو صدقة تصدقنا به على أبويه أو وفقناه للتصدق على الناس ﴿وكان تقيا﴾ مطيعا متجنبا عن المعاصى ﴿و برا بوالديه﴾ عطف على تقيا أى بارابهما لطيفا بهما محسنا اليهما ﴿ولم يكن جبارا عصيا﴾ متكبرا عاقا لهما أو عاصيا لربه ﴿وسلام عليه﴾ من الله عز وجل ﴿يوم ولد﴾ من أن يناله الشيطان بما ينال به بنى آدم ﴿و يوم يموت﴾ من عذاب القبر ﴿و يوم يبعث حيا﴾ من هول القيامة وعذاب النار ﴿واذكر فى الكتاب﴾ كلام مستأنف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام وأمر بذكر قصة مريم اثر قصة زكريا لما بينهما من كمال الاشتباك والمراد بالكتاب السورة الكريمة لا القرآن اذ هى التى صدرت بقصة زكريا المستتبعة لذكر قصتها وقصص الانبياء المذكورين فيها أى واذكر للناس ﴿مريم﴾ أى نبأها فان الذكر لا يتعلق بالاعيان وقوله تعالى ﴿اذ انتبذت﴾ ظرف لذلك المضاف لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبأها عند انتباذها فقط بل كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستئناف داخل فى حيز الظرف متمم للنبأ وقيل بدل اشتمال من مريم على أن المراد بها نبأها فان الظروف مشتملة على ما فيها وقيل بدل الكل على أن المراد بالظرف ما وقع فيه وقيل اذ بمعنى أن المصدرية كما فى قولك أكرمتك اذلم تكرمنى أى لأن لم تكرمنى فهو بدل اشتمال لا محالة وقوله تعالى ﴿من أهلها﴾ متعلق بانتبذت وقوله ﴿مكانا شرقيا﴾ مفعول له باعتبار ما فى ضمنه من معنى الاتيان المترتب وجودا واعتبارا على أصل معناه العامل فى الجار والمجرور وهو السر فى تأخيره عنه أى اعتزلت وانفردت منهم وأتت مكانا شرقيا من بيت المقدس أو من دارها لتتخلى هنالك للعبادة وقيل قعدت فى مشرقة لتغتسل من الحيض محتجبة بحائط أو بشىء يسترها وذلك قوله تعالى ﴿فاتخذت من دونهم حجابا﴾ وكان موضعها المسجد فاذا حاضت تحولت الى بيت خالتها واذا طهرت عادت الى المسجد فبينا هى فى مغتسلها أتاها الملك عليه الصلاة والسلام فى صورة آدمى شاب أمرد وضىء الوجه جعد الشعر وذلك قوله تعالى ﴿فأرسلنا اليها روحنا﴾ أى جبريل عليه الصلاة والسلام عبر عنه بذلك توفية للمقام حقه وقرىء بفتح الراء لكونه سببا لما فيه روح العباد الذى هو عدة المقربين فى قوله تعالى فأما ان كان من المقربين فروح و ريحان ﴿فتمثل لها بشرا سويا﴾ سوى الخلق كامل البنية لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شيئاً وقيل تمثل فى صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وذلك لتستأنس بكلامه وتتلقى منه ما يلقى اليها من كلماته تعالى اذ لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته وأما ما قيل من أن ذلك لتهييج شهوتها فتنحدر نطفتها الى رحمها فمع مخالفته لمقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة يكذبه قوله تعالى ﴿قالت انى أعوذ بالرحمن منك﴾ فانه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما اليه فضلا عما ذكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة نعم كان تمثيله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسبر عفتها ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه وذكره تعالى بعنوان الرحمانية للمبالغة فى العياذ به تعالى واستجلاب آثار الرحمة الخاصة التى هى العصمة مما دهمها وقوله تعالى ﴿ان كنت تقيا﴾ أى تتقى الله تعالى وتبالى بالاستعاذة به وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السباق عليه أى فانى عائذة به أو فتعوذ بتعوذى أو فلا تتعرض لى ﴿قال انما أنا رسول ربك﴾ يريد عليه الصلاة والسلام انى لست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر وانما أنا رسول ربك الذى استعذت به ﴿لأهب لك غلاما﴾ أى لأكون سببا فى هبته بالنفخ فى الدرع و يجوز أن يكون ذلك حكاية لقوله تعالى و يؤيده القراءة بالياء والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرها لتشريفها وتسليتها والاشعار بعلة الحكم فان هبة الغلام لها من أحكام تربيتها و فى بعض المصاحف أمرنى أن أهب لك غلاما ﴿زكيا﴾ طاهرا من الذنوب أو ناميا على الخير أى مترقيا من سن الى سن على الخير والصلاح ﴿قالت أنى يكون لى غلام﴾ كما وصفت

﴿ولم يمسسنى بشر﴾ أى والحال أنه لم يباشرنى بالنكاح رجل وانما قيل بشر مبالغة فى بيان تنزهها من مبادى الولادة ﴿ولم أك بغيا﴾ عطف على لم يمسسنى داخل معه فى حكم الحالية مفصح عن كون المساس عبارة عن المباشرة بالنكاح أى ولم أكن فاجرة تبغى الرجال وهى فعول بمعنى الفاعل أصلها بغوى فأدغمت الواو بعد قلبها ياء فى الياء وكسرت الغين للياء وقيل هى فعيل بمعنى الفاعل والا لقيل بغو كما يقال فلان نهو عن المنكر وانما لم تلحقه التاء لانها من باب النسب كطالق أو بمعنى المفعول أى يبغيها الرجال للفجور بها ﴿قال﴾ أى الملك تقريرا لمقالته وتحقيقا لها ﴿كذلك﴾ أى الامر كما قلت لك وقوله تعالى ﴿قال ربك﴾ الخ استئناف مقرر له أى قال ربك الذى أرسلنى اليك ﴿هو﴾ أى ماذكرت لك من هبة الغلام من غير أن يمسك بشر أصلا ﴿على﴾ خاصة ﴿هين﴾ وان كان مستحيلا عادة لما أنى لاأحتاج الى الاسباب والوسائط وقوله تعالى ﴿ولنجعله آية للناس﴾ اما علة لمعلل محذوف أى ولنجعل وهب الغلام آية لهم و برهانا يستدلون به على كمال قدرتنا نفعل ذلك أو معطوف على علة أخرى مضمرة أى لنبين به عظم قدرتنا ولنجعله آية الخ والواو على الأول اعتراضية والالتفات الى نون العظمة لاظهار كمال الجلالة ﴿ورحمة﴾ عظيمة كائنة ﴿منا﴾ عليهم يهتدون بهدايته و يسترشدون بارشاده ﴿وكان﴾ ذلك ﴿أمرا مقضيا﴾ محكما قد تعلق به قضاؤنا الازلى أو قدر وسطر فى اللوح لابد من جريانه عليك البتة أو كان أمرا حقيقا بأن يقضى و يفعل لتضمنه حكما بالغة ﴿فحملته﴾ بأن نفخ جبريل عليه الصلاة والسلام فى درعها فدخلت النفخة فى جوفها قيل انه عليه الصلاة والسلام رفع درعها فنفخ فى جيبه فحملت وقيل نفخ عن بعد فوصل الريح اليها فحملت فى الحال وقيل ان النفخة كانت فى فيها وكانت مدة حملها سبعة أشهر وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية أشهر غيره وقيل تسعة أشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة كما حملت وضعته وسنها حينئذ ثلاث عشرة سنة وقيل عشر سنين وقد حاضت حيضتين ﴿فانتبذت به﴾ أى فاعتزلت وهو فى بطنها كما فى قوله تدوس بنا الجماجم والتريبا فالجار والمجرور فى حيز النصب على الحالية أى فانتبذت ملتبسة به ﴿مكانا قصيا﴾ بعيدا من أهلها وراء الجبل وقيل أقصى الدار وهو الانسب بقصر مدة الحمل ﴿فأجاءها المخاض﴾ أى فألجأها وهو فى الاصل منقول من جاء لكنه لم يستعمل فى غيره كآتى فى أعطى وقرىء المخاض بكسر الميم وكلاهما مصدر مخضت المرأة اذا تحرك الولد فى بطنها للخروج ﴿الى جذع النخلة﴾ لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة وهو مابين العرق والغصن وكانت نخلة يابسة لارأس لها ولا خضرة وكان الوقت شتاء والتعريف اما للجنس أو للعهد اذ لم يكن ثمة غيرها وكانت كالمتعالم عند الناس ولعله تعالى ألهمها ذلك ليريها من آياتها مايسكن روعتها و يطعمها الرطب الذى هو خرسة النفساء الموافقة لها ﴿قالت ياليتنى مت﴾ بكسر الميم من مات يمات كخفت وقرىء بضمها من مات يموت ﴿قبل هذا﴾ أى هذا الوقت الذى لقيت فيه مالقيت وانما قالته مع أنها كانت تعلم ماجرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم استحياء من الناس وخوفا من لائمتهم أوحذارا من وقوع الناس فى المعصية بما تكلموا فيها أوجريا على سنن الصالحين عند اشتداد الأمر عليهم كما روى عن عمر رضى الله عنه أنه أخذ تبنة من الارض فقال ياليتنى هذه التبنة ولم اكن شيئا وعن بلال أنه قال ليت بلالا لم تلده أمه ﴿وكنت نسيا﴾ أى شيأ تافها شأنه أن ينسى ولا يعتد به أصلا وقرىء بالكسر قيل هما لغتان فى ذلك كالوتر والوتر وقيل هو بالكسر اسم لما ينسى كالنقض اسم لما ينقض و بالفتح مصدر سمى به المفعول مبالغة وقرىء بهما مهموزا من نسأت اللبن اذا صببت عليه الماء فصار مستهلكا فيه وقرىء نسا كعصا ﴿منسيا﴾ لايخطر ببال أحد من الناس وهو نعت للمبالغة وقرىء بكسر الميم اتباعا له بالسين ﴿فناداها﴾ أى جبريل عليه السلام ﴿من تحتها﴾ قيل أنه كان يقبل الولد وقيل من تحتها اى من مكان أسفل منها تحت

الاكمة وقيل من تحت النخلة وقيل ناداها عيسى عليه السلام وقرىء خاطبها من تحتها بفتح الميم ﴿أن لاتحزنى﴾ أى لاتحزنى على أن أن مفسرة او بأن لاتحزنى على أنها مصدرية قد حذف عنها الجار ﴿قد جعل ربك تحتك﴾ أى بمكان أسفل منك وقيل تحت أمرك ان أمرت بالجرى جرى وان أمرت بالامساك أمسك ﴿سريا﴾ أى نهرا صغيرا حسبما روى مرفوعا قال ابن عباس رضى الله عنه ان جبريل عليه السلام ضرب برجله الارض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولا وقيل فعله عيسى عليه السلام وقيل كان هناك نهر يابس أجرى الله عز وجل فيه الماء حينئذ كما فعل مثله بالنخلة فانها كانت نخلة يابسة لارأس لها ولا ورق فضلا عن الثمر وكان الوقت شتاء فجعل الله لها اذ ذاك رأسا وخوصا وثمرا وقيل كان هناك ماء جار والاول هو الموافق لمقام بيان ظهور الخوارق والمتبادر من النظم الكريم وقيل سريا أى سيدا نبيلا رفيع الشأن جليلا وهو عيسى عليه السلام فالتنوين للتفخيم والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى عنه والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرها للتشريف بها ولتأكيد التعليل وتكميل التسلية ﴿وهزى﴾ هز الشىء تحريكه الى الجهات المتقابلة تحريكا عنيفا متداركا والمراد ههنا ما كان منه بطريق الجذب والدفع لقوله تعالى ﴿اليك﴾ أى الى جهتك والباء فى قوله عز وعلا ﴿بجذع النخلة﴾ صلة للتأكيد كما فى قوله تعالى ولاتلقوا بأيديكم الخ قال الفراء تقول العرب هزه وهز به وأخذ الخطام وأخذ بالخطام أو لالصاق الفعل بمدخولها أى افعلى الهز بجذعها أو هزى الثمرة بهزه وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول الهز أى هزى اليك الرطب كائنا بجذعها ﴿تساقط﴾ أى تسقط النخلة ﴿عليك﴾ اسقاطا متواترا حسب تواتر الهز وقرىء تسقط ويسقط من الاسقاط بالتاء والياء وتتساقط باظهار التاءين وتساقط بطرح الثانية وتساقط بادغامها فى السين ويساقط بالياء كذلك وتسقط ويسقط من السقوط على أن التاء فى الكل للنخلة والياء للجذع وقوله تعالى ﴿رطبا﴾ على القراءات الثلاث الأول مفعول وعلى الست البواقى تمييز وقوله تعالى ﴿جنيا﴾ صفة له وهو ما قطع قبل يبسه فعيل بمعنى مفعول أى رطبا مجنيا أى صالحا للاجتناء وقيل بمعنى فاعل أى طريا طيبا وقرىء جنيا بكسر الجيم للاتباع ﴿فكلى واشربى﴾ أى ذلك الرطب وماء السرى أو من الرطب وعصيره ﴿وقرى عينا﴾ وطيبى نفسا وارفضى عنها ما أحزنك وأهمك فانه تعالى قد نزه ساحتك عما اختلج فى صدور المتعبدين بالأحكام العادية بأن أظهر لهم من البسائط العنصرية والمركبات النباتية ما يخرق العادات التكوينية ويرشدهم الى الوقوف على سريرة أمرك وقرىء وقرى بكسر القاف وهى لغة نجد واشتقاقه من القرار فان العين اذا رأت ما يسر النفس سكنت اليه من النظر الى غيره أو من القر فان دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة ولذلك يقال قرة العين وسخنة العين للمحبوب والمكروه ﴿فاما ترين من البشر أحدا﴾ أى آدميا كائنا من كان وقرىء ترئن على لغة من يقول لبأت بالحج لما بين الهمزة والياء من التآخى ﴿فقولى﴾ له ان استنطقك ﴿انى نذرت للرحمن صوما﴾ أى صمتا وقد قرىء كذلك أو صياما وكان صيامهم بالسكوت ﴿فلن أكلم اليوم انسيا﴾ أى بعد أن أخبرتكم بنذرى وانما أكلم الملائكة وأناجى ربى وقيل أمرت بأن تخبر بنذرها بالاشارة وهو الأظهر قال الفراء العرب تسمى كل ما وصل الى الانسان كلاما بأى طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فاذا أكد لم يكن الا حقيقة الكلام وانما أمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام فانه نص قاطع فى قطع الطعن ﴿فأتت به قومها﴾ أى جاءتهم مع ولدها راجعة اليهم عند ما طهرت من نفاسها ﴿تحمله﴾ أى حاملة له ﴿قالوا﴾ مؤنبين لها ﴿يا مريم لقد جئت﴾ أى فعلت ﴿شيئا فريا﴾ أى عظيما بديعا منكرا من فرى الجلد أى قطعه أو جئت مجيئا عجيبا عبر عنه بالشىء تحقيقا للاستغراب ﴿يا أخت هرون﴾ استئناف لتجديد التعيير وتأكيد التوبيخ عنوا به هرون النبى عليه السلام وكانت من أعقاب من

كان معه فى طبقة الأخوة وقيل كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة وقيل هو رجل صالح أو طالح كان فى زمانهم شبهوها به أى كنت عندنا مثله فى الصلاح أو شتموها به ﴿ ماكان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ﴾ تقرير لكون ما جاءت به فريا منكرا وتنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش ﴿ فأشارت اليه ﴾ أى الى عيسى عليه السلام أن كلموه والظاهر أنها حينئذ بينت نذرها وأنها بمعزل من محاورة الانس حسبما أمرت ففيه دلالة على أن المأمور به بيان نذرها بالاشارة لا بالعبارة والجمع بينهما مما لا عهد به ﴿ قالوا ﴾ منكرين لجوابها ﴿ كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ﴾ ولم نعهد فيما سلف صبيا يكلمه عاقل وقيل كان لايقاع مضمون الجملة فى زمان ماض مبهم صالح لقريبه وبعيده وهو ههنا لقريبه خاصة بدليل أنه مسوق للتعجب وقيل هى زائدة والظرف صلة من وصبيا حال من المستكن فيه أو هى تامة أو دائمة كما فى قوله تعالى وكان الله عليما حكيما ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من سياق النظم الكريم كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال عيسى عليه السلام ﴿ انى عبد الله ﴾ أنطقه الله عز وجل بذلك آثر ذى أثير تحقيقا للحق وردا على من يزعم ربوبيته قيل كان المستنطق لعيسى زكريا عليهما الصلاة والسلام وعن السدى رضى الله عنه لما أشارت اليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا أشد علينا مما فعلت وروى أنه عليه السلام كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار اليهم بسبابته فقال ما قال الخ وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان ﴿ آتانى الكتاب ﴾ أى الانجيل ﴿ وجعلنى نبيا وجعلنى ﴾ مع ذلك ﴿ مباركا ﴾ نفاعا معلما للخير والتعبير بلفظ الماضى فى الأفعال الثلاثة اما باعتبار ما سبق فى القضاء المحتوم أو بجعل ما فى شرف الوقوع لا محالة واقعا وقيل أكمله الله عقلا واستنبأه طفلا ﴿ أينما كنت ﴾ أى حيثما كنت ﴿ وأوصانى بالصلوة ﴾ أى أمرنى بها أمرا مؤكدا ﴿ والزكوة ﴾ زكاة المال ان ملكته أو بتطهير النفس عن الرذائل ﴿ ما دمت حيا ﴾ فى الدنيا ﴿ وبرا بوالدتى ﴾ عطف على مباركا أى جعلنى بارا بها وقرئ بالكسر على أنه مصدر وصف به مبالغة أو منصوب بمضمر دل عليه أوصانى أى وكلفنى برا ويؤيده القراءة بالكسر والجر عطفا على الصلاة والزكاة والتنكير للتفخيم ﴿ ولم يجعلنى جبارا شقيا ﴾ عند الله تعالى لفرط تكبره ﴿ والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾ كما هو على يحيى على أن التعريف للعهد والأظهر أنه للجنس والتعريض باللعن على أعدائه فان اثبات جنس السلام لنفسه تعريض باثبات ضده لأضداده كما فى قوله تعالى والسلام على من اتبع الهدى فانه تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى ﴿ ذلك ﴾ اشارة الى من فصلت نعوته الجليلة وما فيه من معنى البعد للدلالة على علو مرتبته وبعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله منزلة المشاهد المحسوس ﴿ عيسى بن مريم ﴾ لا ما يصفه النصارى وهو تكذيب لهم فيما يزعمونه على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهانى حيث جعله موصوفا بأضداد ما يصفونه ﴿ قول الحق ﴾ بالنصب على أنه مصدر مؤكد لقال انى عبد الله الخ وقوله تعالى ذلك عيسى ابن مريم اعتراض مقرر لمضمون ما قبله وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هو قول الحق الذى لا ريب فيه والاضافة للبيان والضمير للكلام السابق أو لتمام القصة وقيل صفة عيسى أو بدله أو خبر ثان ومعناه كلمة الله وقرئ قال الحق وقول الحق فان القول والقول والقال فى معنى واحد ﴿ الذى فيه يمترون ﴾ أى يشكون أو يتنازعون فيقول اليهود ساحر والنصارى ابن الله وقرئ بتاء الخطاب ﴿ ماكان لله ﴾ أى ما صح وما استقام له تعالى ﴿ أن يتخذ من ولد سبحانه ﴾ تكذيب للنصارى وتنزيه له تعالى عما بهتوه وقوله تعالى ﴿ اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ﴾ تبكيت لهم ببيان أن شأنه تعالى اذا قضى أمرا من الأمور أن يتعلق به ارادته فيكون حينئذ بلا تأخير فمن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد

وقرىء فيكون بالنصب على الجواب وقوله تعالى ﴿وان الله ربى و ربكم فاعبدوه﴾ من تمام كلام عيسى عليه السلام قيل هو عطف على قوله انى عبد الله داخل تحت القول وقد قرىء بغير واو وقرىء بفتح الهمزة على حذف اللام أى ولأنه تعالى ربى و ربكم فاعبدوه كقوله تعالى وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا وقيل معطوف على الصلاة ﴿هذا﴾ أى الذى ذكرته من التوحيد ﴿صراط مستقيم﴾ لا يضل سالكه والفاء فى قوله تعالى ﴿فاختلف الاحزاب من بينهم﴾ لترتيب ما بعدها على ماقبلها تنبيها على سوء صنيعهم بجعلهم مايوجب الاتفاق منشأ للاختلاف فان ماحكى من مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصا قاطعة فى كونه عبده تعالى و رسوله قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والافراط أو فرق النصارى فقالت النسطورية هو ابن الله وقالت اليعقوبية هو الله هبط الى الأرض ثم صعد الى السماء تعالى عن ذلك علوا كبيرا وقالت الملكانية هو عبدالله ونبيه ﴿فويل للذين كفروا﴾ وهم المختلفون عبر عنهم بالموصول ايذانا بكفرهم جميعا واشعاراً بعلة الحكم ﴿من مشهد يوم عظيم﴾ أى من شهود يوم عظيم الهول والحساب والجزاء وهو يوم القيامة أو من وقت شهوده أو من مكان الشهود فيه أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أن يشهد عليهم الملائكة والأنبياء عليهم السلام وألسنتهم و آذانهم وأيديهم وأرجلهم وسائر آرابهم بالكفر والفسوق أو من وقت الشهادة أو من مكانها وقيل هو ماشهدوا به فى حق عيسى وأمه عليهما السلام ﴿أسمع بهم وأبصر﴾ تعجب من حدة سمعهم وابصارهم يومئذ ومعناه أن أسماعهم وأبصارهم ﴿يوم يأتوننا﴾ للحساب والجزاء أى يوم القيامة جدير بأن يتعجب منها بعد أن كانوا فى الدنيا صما عميا أو تهديد بما سيسمعون و يبصرون يومئذ وقيل أمر بأن يسمعهم و يبصرهم مواعيد ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه والجر والمجرور على الأول فى موقع الرفع وعلى الثانى فى حيز النصب ﴿لكن الظالمون اليوم﴾ أى فى الدنيا ﴿فى ضلال مبين﴾ لا تدرك غايته حيث أغفلوا الاستماع والنظر بالكلية و وضع الظالمين موضع الضمير للايذان بأنهم فى ذلك ظالمون لأنفسهم ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ أى يوم يتحسر الناس قاطبة أما المسىء فعلى اساءته وأما المحسن فعلى قلة احسانه ﴿اذ قضى الأمر﴾ أى فرغ من الحساب وتصادر الفريقان الى الجنة والنار روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظرون فينادى المنادى ياأهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرح وأهل النار غما الى غم واذ بدل من يوم الحسرة أو ظرف للحسرة فان المصدر المعرف باللام يعمل فى المفعول الصريح عند بعضهم فكيف بالظرف ﴿وهم فى غفلة﴾ أى عما يفعل بهم فى الآخرة ﴿وهم لا يؤمنون﴾ وهما جملتان حاليتان من الضمير المستتر فى قوله تعالى فى ضلال مبين أى مستقرون فى ذلك وهم فى تينك الحالتين ومابينهما اعتراض أو من مفعول أنذرهم أى أنذرهم غافلين غير مؤمنين فيكون حالا متضمنة لمعنى التعليل ﴿انا نحن نرث الارض ومن عليها﴾ لا يبقى لأحد غيرنا عليها وعليهم ملك ولا ملك أو نتوفى الارض ومن عليها بالافناء والاهلاك توفى الوارث لارثه ﴿والينا يرجعون﴾ أى يردون للجزاء لا الى غيرنا استقلالا أو اشتراكا ﴿واذكر﴾ عطف على أنذرهم ﴿فى الكتاب﴾ أى فى السورة أو فى القرآن ﴿ابراهيم﴾ أى اتل على الناس قصته و بلغها اياهم كقوله تعالى واتل عليهم نبأ ابراهيم فانهم ينتمون اليه عليه السلام فعساهم باستماع قصته يقلعون عماهم فيه من القبائح ﴿انه كان صديقا﴾ ملازما للصدق فى كل مايأتى و يذر أو كثير التصديق لكثرة ماصدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه و رسله والجملة استئناف مسوق لتعليل موجب الامر فان وصفه عليه السلام بذلك من دواعى ذكره ﴿نبيا﴾ خبر آخر لكان مقيد للاول مخصص له كما ينبىء عنه قوله تعالى من النبيين والصديقين الآية أى كان جامعا بين الصديقية والنبوة ولعل هذا الترتيب للمبالغة فى الاحتراز عن

توهم تخصيص الصديقية بالنبوة فان كل نبى صديق ﴿اذ قال﴾ بدل اشتمال من ابراهيم وما بينهما اعتراض مقرر لما قبله أو متعلق بكان أو بنبيا وتعليق الذكر بالاوقات مع أن المقصود تذكير ماوقع فيها من الحوادث قد مر سره مرارا أى كان جامعا بين الاثرتين حين قال ﴿لأبيه﴾ آزر متلطفا فى الدعوة مستميلا له ﴿يا أبت﴾ أى يا أبى فان التاء عوض عن ياء الاضافة ولذلك لايجتمعان وقد قيل يا أبتا لكون الالف بدلا من الياء ﴿لم تعبد مالا يسمع﴾ ثناءك عليه عند عبادتك له وجؤارك اليه ﴿ولا يبصر﴾ خضوعك وخشوعك بين يديه أولا يسمع ولا يبصر شيأ من المسموعات والمبصرات فيدخل فى ذلك ماذكر دخولا أوليا ﴿ولا يغنى﴾ أى لا يقدر على أن يغنى ﴿عنك شيأ﴾ فى جلب نفع أودفع ضر ولقد سلك عليه السلام فى دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل لئلا يركب متن المكابرة والعناد ولا ينكب بالكلية عن محجة الرشاد حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل من عالم وجاهل ويأبى الركون اليه فضلا عن عبادته التى هى الغاية القاصية من التعظيم مع أنها لاتحق الا لمن له الاستغناء التام والانعام العام الخالق الرازق المحيي المميت المثيب المعاقب ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل لداعية صحيحة وغرض صحيح والشىء لو كان حيا مميزا سميعا بصيرا قادرا على النفع والضر مطيقا بايصال الخير والشر لكن كان ممكنا لاستنكف العقل السليم عن عبادته وان كان أشرف الخلائق لما يراه مثله فى الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أوشجر ليس له من أوصاف الاحياء عين ولا أثر ثم دعاه الى أن يتبعه ليهديه الى الحق المبين لما أنه لم يكن محظوظا من العلم الالهى مستقلا بالنظر السوى مصدرا لدعوته بما مر من الاستمالة والاستعطاف حيث قال ﴿يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك﴾ ولم يسم أباه بالجهل المفرط وان كان فى أقصاه ولا نفسه بالعلم الفائق وان كان كذلك بل أبرز نفسه فى صورة رفيق له أعرف بأحوال ماسلكاه من الطريق فاستماله برفق حيث قال ﴿فاتبعنى أهدك صراطا سويا﴾ أى مستقيما موصلا الى أسنى المطالب منجيا عن الضلال المؤدى الى مهاوى الردى والمعاطب ثم ثبطه عما كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة مستجلب لضرر عظيم فانه فى الحقيقة عبادة الشيطان لما أنه الآمر به فقال ﴿يا أبت لاتعبد الشيطان﴾ فان عبادتك للاصنام عبادة له اذ هو الذى يسولها لك ويغريك عليها وقوله ﴿ان الشيطان كان للرحمن عصيا﴾ تعليل لموجب النهى وتأكيد له ببيان أنه مستعص على ربك الذى أنعم عليك بفنون النعم ولا ريب فى أن المطيع للعاصى عاص وكل من هو عاص حقيق بأن يسترد منه النعم وينتقم منه والاظهار فى موضع الاضمار لزيادة التقرير والاقتصاد على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته لأنه ملاكها أو لأنه نتيجة معاداته لآدم عليه السلام وذريته فتذكيره داع لأبيه الى الاحتراز عن موالاته وطاعته والتعرض لعنوان الرحمانية لاظهار كمال شناعة عصيانه وقوله ﴿يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن﴾ تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه من عبادة الشيطان وهو ابتلاؤه بما ابتلى به معبوده من العذاب الفظيع وكلمة من متعلقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية واظهار الرحمن للاشعار بأن وصف الرحمانية لايدفع حلول العذاب كما فى قوله عزوجل ماغرك بربك الكريم ﴿فتكون للشيطان وليا﴾ أى قرينا له فى اللعن المخلد وذكر الخوف للمجاملة وابراز الاعتناء بأمره ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل فماذا قال أبوه عند ماسمع منه عليه السلام هذه النصائح الواجبة القبول فقيل قال مصرا على عناده ﴿أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم﴾ أى أمعرض ومنصرف أنت عنها بتوجيه الانكار الى نفس الرغبة مع ضرب من التعجب كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل فضلا عن ترغيب الغير عنها وقوله ﴿لئن لم تنته لأرجمنك﴾

تهديد وتحذير عما كان عليه من العظة والتذكير أى والله ائن لم تنته عما كنت عليه من النهى عن عبادتها لارجمنك بالحجارة وقيل باللسان ﴿ واهجرنى ﴾ أى فاحذرنى واتركنى ﴿ مليا ﴾ أى زمانا طويلا أو مليا بالذهاب مطيقا به ﴿ قال ﴾ استئناف كما سلف ﴿ سلام عليك ﴾ توديع ومتاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة أى لا أصيبك بمكروه بعد ولا أشافهك بما يؤذيك ولكن ﴿ سأستغفر لك ربى ﴾ أى أستدعيه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ويهديك الى الايمان كما يلوح به تعليل قوله تعالى واغفر لأبى بقوله تعالى انه كان من الضالين والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبين أنه يموت على الكفر مما لاريب فى جوازه وانما المحظور استدعاء المغفرة له مع بقائه على الكفر فانه مما لامساغ له عقلا ولانقلا وأما الاستغفار له بعد موته على الكفر فلا تأباه قضية العقل وانما الذى يمنعه السمع ألا يرى الى أنه عليه السلام قال لعمه أبى طالب لاأزال أستغفر لك مالم أنه عنه فنزل قوله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية والاشتباه فى أن هذا الوعد من ابراهيم عليه السلام وكذا قوله لأستغفرن لك وما ترتب عليهما من قوله واغفر لأبى الآية انما كان قبل انقطاع رجائه عن ايمانه لعدم تبين أمره لقوله تعالى فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما مر فى تفسير سورة التوبة واستثناؤه عما يؤتسى به فى قوله تعالى الاقول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك لايقدح فى جوازه لكن لا لأن ذلك كان قبل ورود النهى أو لموعدة وعدها اياه كما قيل لما أن النهى انما ورد فى شأن الاستغفار بعد تبين الأمر وقد كان استغفاره عليه السلام قبل التبين فلم يتناوله النهى أصلا وأن الوعد بالمحظور لايرفع حظره بل لأن المراد بما يؤتسى به مايجب الائتساء به حتما لورود الوعيد على الاعراض عنه بقوله تعالى لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد فاستثناؤه عن ذلك انما يفيد عدم وجوب استدعاء الايمان للكافر المرجو ايمانه لاسيما وقد انقطع ذلك عند ورود الاستثناء وذلك مما لايتردد فيه أحد من العقلاء وأما عدم جوازه قبل تبين الأمر فلادلالة للاستثناء عليه قطعا وتوجيه الاستثناء الى العدة بالاستغفار لا الى نفس الاستغفار بقوله واغفر لأبى الآية لأنها كانت هى الحاملة له عليه السلام عليه وتخصيص تلك العدة بالذكر دون ما وقع ههنا لورودها على نهج التأكيد القسمى وأما جعل الاستغفار دائرا عليها وترتيب التبرؤ على تبين الأمر فقد مر تحقيقه فى تفسير سورة التوبة وقوله ﴿ انه كان بى حفيا ﴾ أى بليغا فى البر والالطاف تعليل لمضمون ماقبله ﴿ وأعتزلكم ﴾ أى أتباعد عنك وعن قومك وما تدعون من دون الله بالمهاجرة بدينى حيث لم تؤثر فيكم نصائحى ﴿ وأدعو ربى ﴾ أعبده وحده وقد جوز أن يراد به دعاؤه المذكور فى تفسير سورة الشعراء ولايبعد أن يراد به استدعاء الولد أيضا بقوله رب هب لى من الصالحين حسبما يساعده السباق والسياق ﴿ عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا ﴾ أى خائبا ضائع السعى وفيه تعريض بشقائهم فى عبادة آلهتهم وفى تصدير الكلام بعسى من اظهار التواضع ومراعاة حسن الأدب والتنبيه على حقيقة الحق من أن الاجابة والاثابة بطريق التفضل منه عز وجل لابطريق الوجوب وأن العبرة بالخاتمة وذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير ما لا يخفى ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ﴾ بالمهاجرة الى الشام ﴿ وهبنا له اسحق ويعقوب ﴾ بدل من فارقهم من أقربائه الكفرة لكن لا عقيب المهاجرة فان المشهور أن الموهوب حينئذ اسمعيل عليه السلام لقوله تعالى فبشرناه بغلام حليم اثر دعائه بقوله رب هب لى من الصالحين ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله ههنا لبيان كمال عظم النعم التى أعطاها الله تعالى اياه بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقرباء فانهما شجرتا الأنبياء لهما أولاد وأحفاد أولوا شأن خطير وذووا عدد كثير هذا وقد روى أنه عليه السلام لما قصد الشام أتى أولا حران وتزوج بسارة وولدت له اسحاق وولد لاسحق يعقوب والأول هو الأقرب الأظهر ﴿ وكلا ﴾ أى كل واحد منهما أومنهم وهو

مفعول أول لقوله تعالى ﴿ جعلنا نبيا ﴾ قدم عليه للتخصيص لكن لا بالنسبة الى من عداهم بل بالنسبة الى بعضهم أى كل واحد منهم جعلنا نبيا لا بعضهم دون بعض ﴿ و وهبنا له من رحمتنا ﴾ هى النبوة وذكرها بعد ذكر جعلهم نبيا للايذان بأنها من باب الرحمة وقيل هى المال والأولاد وما بسط لهم من سعة الرزق وقيل هو الكتاب والأظهر أنها عامة لكل خير دينى ودنيوى أوتوه مما لم يؤته أحد من العالمين ﴿ وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ يفتخر بهم الناس ويثنون عليهم استجابة لدعوته بقوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين والمراد باللسان ما يوجد به من الكلام ولسان العرب لغتهم واضافته الى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنون عليهم وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الاعصار وتبدل الدول وتحول الملل والنحل ﴿ واذكر فى الكتاب موسى ﴾ قدم ذكره على ذكر اسمعيل لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب عليهما السلام ﴿ انه كان مخلصا ﴾ موحدا أخلص عبادته عن الشرك والرياء أو أسلم وجهه لله تعالى وأخلص نفسه عما سواه وقرىء مخلصا على أن الله تعالى أخلصه ﴿ وكان رسولا نبيا ﴾ أرسله الله تعالى الى الخلق فأنبأهم عنه ولذلك قدم رسولا مع كونه أخص وأعلى ﴿ وناديناه من جانب الطور الايمن ﴾ الطور جبل بين مصر ومدين والايمن صفة للجانب أى ناديناه من ناحيته اليمنى من اليمين وهى التى تلى يمين موسى عليه السلام أو من جانبه الميمون من اليمن ومعنى ندائه منه أنه تمثل له الكلام من تلك الجهة ﴿ وقربناه نجيا ﴾ تقريب تشريف مثل حاله عليه السلام بحال من قربه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته ونجيا أى مناجيا حال من أحد الضميرين فى ناديناه أو قربناه وقيل مرتفعا لما روى أنه عليه السلام رفع فوق السموات حتى سمع صريف القلم ﴿ ووهبنا له من رحمتنا ﴾ أى من أجل رحمتنا ورأفتنا له أو بعض رحمتنا ﴿ أخاه ﴾ أى معاضدة أخيه وموازرته اجابة لدعوته بقوله واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى لا نفسه لانه كان أكبر منه عليهما السلام وهو على الاول مفعول لوهبنا وعلى الثانى بدل وقوله تعالى ﴿ هرون ﴾ عطف بيان له وقوله تعالى ﴿ نبيا ﴾ حال منه ﴿ واذكر فى الكتاب اسمعيل ﴾ فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لابراز كمال الاعتناء بأمره بايراده مستقلا وقوله تعالى ﴿ انه كان صادق الوعد ﴾ تعليل لموجب الامر وايراده عليه السلام بهذا الوصف لكمال شهرته به وناهيك أنه وعد الصبر على الذبح بقوله ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فوفى ﴿ وكان رسولا نبيا ﴾ فيه دلالة على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فان أولاد ابراهيم عليه السلام كانوا على شريعته ﴿ وكان يأمر أهله بالصلوة والزكوة ﴾ اشتغالا بالأهم وهو أن يقبل الرجل بالتكميل على نفسه ومن هو أقرب الناس اليه قال تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين وأمر أهلك بالصلوة قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقصدا الى تكميل الكل بتكميلهم لانهم قدوة يؤتسى بهم وقيل أهله أمته فان الانبياء عليهم السلام آباء الامم ﴿ وكان عند ربه مرضيا ﴾ لاتصافه بالنعوت الجليلة التى من جملتها ما ذكر من خصاله الحميدة ﴿ واذكر فى الكتاب ادريس ﴾ وهو سبط شيث وجد أبى نوح فانه نوح بن لمك بن متوشلح بن أخنوخ وهو ادريس عليه السلام واشتقاقه من الدرس يرده منع صرفه نعم لا يبعد أن يكون معناه فى تلك اللغة قريبا من ذلك فلقب به لكثرة دراسته روى أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة وأنه أول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب ﴿ انه كان صديقا ﴾ ملازما للصدق فى جميع أحواله ﴿ نبيا ﴾ خبر آخر لكان مخصص للاول اذ ليس كل صديق نبيا ﴿ ورفعناه مكانا عليا ﴾ هو شرف النبوة والزلفى عند الله عز وجل وقيل علو الرتبة بالذكر الجميل فى الدنيا كما فى قوله تعالى ورفعنا لك ذكرك وقيل الجنة وقيل السماء السادسة أو الرابعة روى عن كعب وغيره فى سبب رفع ادريس عليه السلام أنه سار ذات يوم فى حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يارب انى قد مشيت فيها يوما وقد أصابنى منها ما أصابنى فكيف من يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم

واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرهـا مالا يعرف فقال يارب ما الذي قضيت فيه قال ان عبدى ادريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته قال يارب اجعل بينى و بينه خلة فأذن الله تعالى له فرفعه الى السماء ﴿أولئك﴾ اشارة الى المذكورين فى السورة الكريمة وما فيـه من معنى البعد للاشارة بعلو رتبهم و بعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿الذين أنعم الله عليهم﴾ صفته أى أنعم عليهم بفنون النعم الدينية والدنيوية حسبما أشير اليه مجملا وقوله تعالى ﴿من النبيين﴾ بيان للموصول وقوله تعالى ﴿من ذرية آدم﴾ بدل منه باعادة الجار و يجوز أن تكون كلمة من فيه للتبعيض لان المنعم عليهم أعم من الانبياء وأخص من الذرية ﴿وممن حملنا مع نوح﴾ أى ومن ذرية من حملنا معه خصوصا وهم من عدا ادريس عليه السلام فان ابراهيم كان من ذرية سام بن نوح ﴿ومن ذرية ابراهيم﴾ وهم الباقون ﴿واسرائيل﴾ عطف على ابراهيم أى ومن ذرية اسرائيل وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية ﴿وممن هدينا واجتبينا﴾ أى ومن جملة من هديناهم الى الحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة وقوله تعالى ﴿اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا﴾ خبر لأولئك و يجوز أن يكون الخبر هو الموصول وهـذا استئنافا مسوقا لبيان خشيتهم من الله تعالى واخباتهم له مع مالهم من علو الرتبة وسمو الطبقة فى شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عز سلطانه وسجدا و بكيا حالان من ضمير خروا أى ساجدين باكين عن النبى صلى الله عليه وسلم اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا والبكى جمع باك كالسجد جمع ساجد وأصله بكوى فاجتمعت الواو والياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء وحركت الكاف بالكسر المجانس للياء وقرىء يتلى بالياء التحتانية لأن التأنيث غير حقيقى وقرىء بكيا بكسر الباء للاتباع قالوا ينبغى أن يدعو الساجد فى سجدته بما يليق بآيتها فههنا يقول اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم المهديين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك وفى آية الاسراء يقول اللهم اجعلنى من الباكين اليك الخاشعين لك و فى آية تنزيل السجدة يقول اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ يقال لعقب الخير خلف بفتح اللام ولعقب الشر خلف بالسكون أى فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء ﴿أضاعوا الصلوة﴾ وقرىء الصلوات أى تركوها أو أخروها عن وقتها ﴿واتبعوا الشهوات﴾ من شرب الخمر واستحلال نكاح الأخت من الأب والانهماك فى فنون المعاصى وعن على رضى الله عنه من بنى المشيد و ركب المنظور ولبس المشهور ﴿فسوف يلقون غيا﴾ أى شرا فان كل شر عند العرب غى وكل خير رشاد كقوله

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغى لائما

وعن الضحاك جزاء غى كقوله تعالى يلق أثاما أى جزاء اثام أو غيا عن طريق الجنة وقيل غى واد فى جهنم تستعيذ منه أوديتها وقوله تعالى ﴿الا من تاب وآمن وعمل صالحا﴾ يدل على أن الآية فى حق الكفرة ﴿فأولئك﴾ اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا أى فأولئك المنعوتون بالتوبة والايمان والعمل الصالح ﴿يدخلون الجنة﴾ بموجب الوعد المحتوم وقرىء يدخلون على البناء للمفعول ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾ أى لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً أو لا ينقصون شيئاً من النقص وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لا يضرهم ولا ينقص أجورهم ﴿جنات عدن﴾ بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها وما بينهما اعتراض أو نصب على المدح وقرىء بالرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف أى هى أو تلك جنات الخ أو مبتدأ خبره التى وعد الخ وقرىء جنة عدن نصبا

و رفعا وعدن علم لمعنى العدن وهو الاقامة كما أن فينة وسحر وأمس فيمن لم يصرفها أعلام لمعانى الفينة وهى الساعة التى أنت فيها والسحر والأمس فجرى لذلك مجرى العدن أوهو علم لأرض الجنة خاصة و لولا ذلك لما ساغ ابدال ما أضيف اليه من الجنة بلا وصف عند غير البصريين و لا وصفه بقوله تعالى ﴿التى وعد الرحمن عباده﴾ وجعله بدلا منه خلاف الظاهر فان الموصول فى حكم المشتق وقد نصوا على أن البدل بالمشتق ضعيف والتعرض لعنوان الرحمة للايذان بأن وعدها وانجازه لكمال سعة رحمته تعالى والباء فى قوله تعالى ﴿بالغيب﴾ متعلقة بمضمر هو حال من المضمر العائد الى الجنات أو من عباده أى وعدها اياهم ملتبسة أو ملتبسين بالغيب أى غائبة عنهم غير حاضرة أوغائبين عنها لا يرونها وانما آمنوا بها بمجرد الاخبار أو بمضمر هو سبب للوعد أى وعدها اياهم بسبب ايمانهم ﴿انه كان وعده﴾ أى موعوده كائنا ما كان فيدخل فيه الجنات الموعودة دخولا أوليا ولما كانت هى مثابة يرجع اليها قيل ﴿مأتيا﴾ أى يأتيه من وعدله لا محالة بغير خلف وقيل هو مفعول بمعنى فاعل وقيل مأتيا أى مفعولا منجزا من أتى اليه احسانا أى فعله ﴿لا يسمعون فيها لغوا﴾ أى فضول كلام لا طائل تحته وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها وفيه تنبيه على أن اللغو مما ينبغى أن يجتنب عنه فى هذه الدار ما أمكن ﴿الا سلاما﴾ استثناء منقطع أى لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم أو تسليم بعضهم على بعض أو متصل بطريق التعليق بالمحال أى لا يسمعون لغوا ما الا سلاما فحيث استحال كون السلام لغوا استحال سماعهم له بالكلية كما فى قوله

و لا عيب فيهم غير أن سيوفهم ۞ بهن فلول من قراع الكتائب

أو على أن معناه الدعاء بالسلامة وهم أغنياء عنه فهو من باب اللغو ظاهرا وانما فائدته الاكرام وقوله تعالى ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ وارد على عادة المتنعمين فى هذه الدار وقيل المراد دوام رزقهم ودروره والا فليس فيها بكرة ولا عشى ﴿تلك الجنة﴾ مبتدأ وخبر جىء به لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها فان ما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها وعلو رتبتها ﴿التى نورث﴾ أى نورثها ﴿من عبادنا من كان تقيا﴾ أى نبقيها عليهم بتقواهم ونمتعهم بها كما نبقى على الوارث مال مورثه ونمتعه به والوراثة أقوى ما يستعمل فى التملك والاستحقاق من الألفاظ من حيث انها لا تعقب بفسخ و لا استرجاع و لا ابطال وقيل يورث المتقون من الجنة المساكن التى كانت لأهل النار لو آمنوا وأطاعوا زيادة فى كرامتهم وقرىء نورث بالتشديد ﴿وما نتنزل الا بأمر ربك﴾ حكاية لقول جبريل حين استبطأه رسول الله عليهما الصلاة والسلام لما سئل عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح فلم يدر كيف يجيب و رجا أن يوحى اليه فيه فأبطأ عليه أربعين يوما أو خمسة عشر فشق ذلك عليه مشقة شديدة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه ثم نزل ببيان ذلك وأنزل الله عز وجل هذه الآية وسورة والضحى والتنزل النزول على مهل لانه مطاوع للتنزيل وقد يطلق على مطلق النزول كما يطلق التنزيل على الانزال والمعنى وما نتنزل وقتا غب وقت الا بأمر الله تعالى على ما تقتضيه حكمته وقرىء وما يتنزل بالياء والضمير للوحى ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾ وهو ما نحن فيه من الاماكن والازمنة ولا ننتقل من مكان الى مكان و لا نتنزل فى زمان دون زمان الا بأمره ومشيئته ﴿وما كان ربك نسيا﴾ أى تاركا لك يعنى أن عدم النزول لم يكن الا لعدم الأمر به لحكمة بالغة فيه ولم يكن لتركه تعالى لك وتوديعه اياك كما زعمت الكفرة و فى اعادة اسم الرب المعرب عن التبليغ الى الكمال اللائق مضافا الى ضميره عليه السلام من تشريفه والاشعار بعلة الحكم ما لا يخفى وقيل أول الآية حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة مخاطبا بعضهم بعضا بطريق التبجح والابتهاج والمعنى وما نتنزل الجنة الا بأمر الله تعالى ولطفه وهو مالك الأمور كلها سالفها ومترقبها وحاضرها فما وجدناه وما نجده من لطفه وفضله وقوله تعالى وما كان ربك نسيا تقرير لقولهم من جهة الله

تعالى أى وما كان ناسيا لاعمال العاملين وماوعدهم من الثواب عليها وقوله تعالى ﴿رب السموات والارض ومابينهما﴾ بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فان من بيده ملكوت السموات والارض ومابينهما كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحانه الغفلة والنسيان وهو خبر مبتدا محذوف أو بدل من ربك والفاء فى قوله تعالى ﴿فاعبده واصطبر لعبادته﴾ لترتيب مابعدها من موجب الأمرين على ماقبلها من كونه تعالى رب السموات والارض ومابينهما وقيل من كونه تعالى غير تارك له عليه السلام أو غير ناس لاعمال العاملين والمعنى فحين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية الكاملة فاعبده فان ايجاب معرفته تعالى كذلك لعبادته مما لاريب فيه أو حين عرفت أنه تعالى لاينساك أو لاينسى أعمال العاملين كائنا من كان فأقبل على عبادته واصطبر على مشاقها و لاتحزن بابطاء الوحى وهزؤ الكفرة فانه يراقبك و يراعيك و يلطف بك فى الدنيا والآخرة وتعدية الاصطبار باللام لابحرف الاستعلاء كما فى قوله تعالى واصطبر عليها لتضمينه معنى الثبات للعبادة فيما تورد عليه من الشدائد والمشاق كقولك للمبارز اصطبر لقرنك أى اثبت له فيما يورد عليك من شدائده ﴿هل تعلم له سمياً﴾ السمى هو الشريك فى الاسم والظاهر أن يراد به ههنا الشريك فى اسم خاص قد عبر عنه تعالى بذلك وهو رب السموات والارض ومابينهما والمراد بانكار العلم ونفيه انكار المعلوم ونفيه على أبلغ وجه وآكده فالجملة تقرير لما أفاده الفاء من علية ربوبيته العامة لوجوب عبادته بل لوجوب تخصيصها به تعالى ببيان استقلاله عز وجل بذلك الاسم وانتفاء اطلاقه على الغير بالكلية حقا أو باطلا وقيل المراد هو الشريك فى الاسم الجليل فان المشركين مع غلوهم فى المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة أصلا وقيل هو الشريك فى اسم الاله والمراد بالتسمية التسمية على الحق فالمعنى هل تعلم شيئاً يسمى بالاستحقاق الها وأما التسمية على الباطل فهى كلا تسمية فتقرير الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار مافى الاسمين الكريمين من الاشعار باستحقاق العبادة فتدبر ﴿ويقول الانسان﴾ المراد به اما الجنس بأسره واسناد القول الى الكل لوجود القول فيما بينهم وان لم يقله الجميع كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم واما البعض المعهود منهم وهم الكفرة أو أبى بن خلف فانه أخذ عظاما بالية ففتها وقال يزعم محمد أنا نبعث بعد مانموت ونصير الى هذه الحال أى يقول بطريق الانكار والاستبعاد ﴿أئذا مامت لسوف أخرج حيا﴾ أى أبعث من الارض أومن حال الموت وتقديم الظرف وايلاؤه حرف الانكار لما أن المنكر كون مابعد الموت وقت الحياة وانتصابه بفعل دل عليه أخرج لابه فان مابعد اللام لايعمل فيما قبلها وهى ههنا مخلصة للتوكيد مجردة عن معنى الحال كما خلصت الهمزة واللام للتعويض فى ياألله فساغ اقترانها بحرف الاستقبال وقرىء اذا مامت بهمزة واحدة مكسورة على الخبر ﴿أولا يذكر الانسان﴾ من الذكر الذى يراد به التفكر والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بأن الانسانية من دواعى التفكر فيما جرى عليه من شئون التكوين المنحية بالقلع عن القول المذكور وهو السر فى اسناده الى الجنس أو الى الفرد بذلك العنوان والهمزة للانكار التوبيخى والواو لعطف الجملة المنفية على مقدر يدل عليه يقول أى أيقول ذلك ولا يذكر ﴿أنا خلقناه من قبل﴾ أى من قبل الحالة التى هو فيها وهى حالة بقائه ﴿ولم يك شيئا﴾ أى والحال أنه لم يكن حينئذ شيئا أصلا فحيث خلقناه وهو فى تلك الحالة المنافية للخلق بالكلية مع كونه أبعد من الوقوع فلأن نبعثه بجمع المواد المتفرقة وايجاد مثل ماكان فيها من الاعراض أولى وأظهر فماله لايذكره فيقع فيما يقع فيه من النكير وقرىء يذكر ويتذكر على الاصل ﴿فوربك﴾ اقسامه باسمه عزت أسماؤه مضافا الى ضميره عليه السلام لتحقيق الامر بالاشعار بعليته وتفخيم شأنه عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته ﴿لنحشرنهم﴾ لنجمعن القائلين بالسوق الى المحشر بعد ما أخرجناهم من الارض أحياء ففيه اثبات للبعث بالطريق البرهانى على أبلغ وجه وآكده كأنه أمر واضح غنى عن التصريح به وانما المحتاج الى البيان

ما بعد ذلك من الاهوال ﴿والشياطين﴾ معطوف على الضمير المنصوب أو مفعول معه . روى أن الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين التي كانت تغويهم كل منهم مع شيطانه فى سلسلة وهذا وان كان مختصا بهم لكن ساغ نسبته الى الجنس باعتبار أنهم لما حشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا معهم جميعا كما ساغ نسبة القول المحكى اليه مع كون القائل بعض أفراده ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا﴾ ليرى السعداء مانجاهم الله تعالى منه فيزدادوا غبطة وسرورا وينال الاشقياء ما ادخروا لمعادهم عدة ويزدادوا غيظا من رجوع السعداء عنهم الى دار الثواب وشماتتهم بهم والجثى جمع جاث من جثا اذا قعد على ركبتيه وأصله جثوو بواوين فاستثقل اجتماعهما بعد ضمتين فكسرت الثاء للتخفيف فانقلبت الواو الاولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها فاجتمعت واو وياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء الأولى وكسرت الجيم اتباعا لما بعدها وقرىء بضمها ونصبه على الحالية من الضمير البارز أى لنحضرنهم حول جهنم جاثين على ركبهم لما يدهمهم من هول المطلع أو لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التواصل الى الثواب والعقاب فان أهل الموقف جاثون كما ينطق به قوله تعالى وترى كل أمة جاثية على ماهو المعتاد فى مواقف التقاول وان كان المراد بالانسان الكفرة فلعلهم يساقون من الموقف الى شاطىء جهنم جثاة اهانة بهم أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من الشدة ﴿ثم لننزعن من كل شيعة﴾ أى من كل أمة شاعت دينا من الأديان ﴿أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾ أى من كان منهم أعصى وأعتى فنطرحهم فيها وفى ذكر الاشد تنبيه على أنه تعالى يعفو عن بعض من أهل العصيان وعلى تقدير تفسير الانسان بالكفرة فالمعنى انا نميز من كل طائفة منهم أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فنطرحهم فى النار على الترتيب أو ندخل كلا منهم طبقتها اللائقة به وأيهم مبنى على الضم عند سيبويه لأن حقه أن يبنى كسائر الموصولات لكنه أعرب حملا على كل وبعض للزوم الاضافة واذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد الى حقه ومنصوب المحل بننزعن ولذلك قرىء منصوبا ومرفوع عند غيره بالابتداء على أنه استفهامى وخبره أشد والجملة محكية والتقدير لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم أيهم أشد أو معلق عنها لننزعن لتضمنه معنى التمييز اللازم للعلم أو مستأنفة والفعل واقع على كل شيعة على زيادة من أو على معنى لننزعن بعض كل شيعة كقوله تعالى ووهبنا لهم من رحمتنا وعلى للبيان فيتعلق بمحذوف كأن سائلا قال على من عتوا فقيل على الرحمن أو متعلق بأفعل وكذا الباء فى قوله تعالى ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا﴾ أى هم أولى بصليها أو صليهم أولى بالنار وهم المنتزعون ويجوز أن يراد بهم وبأشدهم عتيا رؤساء الشيع فان عذابهم مضاعف لضلالهم واضلالهم والصلى كالعتى صيغة واعلالا وقرىء بضم الصاد ﴿وان منكم﴾ التفات لاظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام وقيل هو خطاب للناس من غير التفات الى المذكور ويؤيد الأول أنه قرىء وان منهم أى مامنكم أيها الانسان ﴿الا واردها﴾ أى واصلها وحاضر دونها يمر بها المؤمنون وهى خامدة وتنهار بغيرهم وعن جابر أنه صلى الله عليه وسلم سئل عنه فقال اذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهى خامدة وأما قوله تعالى أولئك عنها مبعدون فالمراد به الابعاد عن عذابها وقيل ورودها الجواز على الصراط الممدود عليها ﴿كان﴾ أى ورودهم اياها ﴿على ربك حتما مقضيا﴾ أى أمرا محتوما أوجبه الله عز وجل على ذاته وقضى أنه لابد من وقوعه البتة وقيل أقسم عليه ﴿ثم ننجى الذين اتقوا﴾ الكفر والمعاصى مما كانوا عليه من حال الجثو على الركب على الوجه الذى سلف فيساقون الى الجنة وقرىء ننجى بالتخفيف وينجى وينجى على البناء للمفعول وقرىء ثمة ننجى بفتح الثاء أى هناك ننجيهم ﴿ونذر الظالمين﴾ بالكفر والمعاصى ﴿فيها جثيا﴾ منهارا بهم كما كانوا قيل فيه دليل على أن المراد بالورود الجثو حوالها وأن المؤمنين يفارقون الفجرة بعد تجاثيهم حولها ويلقى

الفجرة فيها على هيآتهم وقوله تعالى ﴿ وإذا تتلى عليهم ﴾ الآية الى آخرها حكاية لما قالوا عند سماع الآيات الناعية عليهم فظاعة حالهم و وخامة مآلهم أى واذا تتلى على المشركين ﴿ آياتنا ﴾ التى من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بحسن حال المؤمنين وسوء حال الكفرة وقوله تعالى ﴿ بينات ﴾ أى مرتلات الالفاظ مبينات المعانى بنفسها أو ببيان الرسول عليه الصلاة والسلام أو بينات الاعجاز حال مؤكدة من آياتنا ﴿ قال الذين كفروا ﴾ أى قالوا و وضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على أنهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادين له أو قال الذين مردوا منهم على الكفر ومرنوا على العتو والعناد وهم النضر بن الحرث وأتباعه الفجرة واللام فى قوله تعالى ﴿ للذين آمنوا ﴾ للتبليغ كما فى مثل قوله تعالى وقال لهم نبيهم وقيل لام الاجل كما فى قوله تعالى وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه أى قالوا لأجلهم و فى حقهم والأول هو الاولى لأن قولهم ليس فى حق المؤمنين فقط كما ينطق به قوله تعالى ﴿ أى الفريقين ﴾ أى المؤمنين والكافرين كأنهم قالوا أينا ﴿ خير ﴾ نحن أو أنتم ﴿ مقاما ﴾ أى مكانا وقرىء بضم الميم أى موضع اقامة ومنزل ﴿ وأحسن نديا ﴾ أى مجلسا ومجتمعا يروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم و يدهنونها و يتطيبون و يتزينون بالزين الفاخرة ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين يريدون بذلك أن خيريتهم حالا وأحسنيتهم منالا مما لا يقبل الانكار وأن ذلك لكرامتهم على الله سبحانه و زلفاهم عنده اذ هو العيار على الفضل والنقصان والرفعة والضعة وأن من ضرورته هوان المؤمنين عليه تعالى لقصور حظهم العاجل وما هذا القياس العقيم والرأى السقيم الا لكونهم جهلة لا يعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا وذلك مبلغهم من العلم فرد عليهم ذلك من جهته تعالى بقوله ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا و رئيا ﴾ أى كثيرا من القرون التى كانت أفضل منهم فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية كعاد وثمود وأضرابهم من الامم العاتية قبل هؤلاء أهلكناهم بفنون العذاب ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا لما فعلنا بهم ما فعلنا وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى كأنه قيل فلينتظر هؤلاء أيضا مثل ذلك فكم مفعول أهلكنا ومن قرن بيان لابهامها وأهل كل عصر قرن لمن بعدهم لانهم يتقدمونهم مأخوذ من قرن الدابة وهو مقدمها وقوله تعالى هم أحسن أثاثا فى حيز النصب على أنه صفة لكم وأثاثا تمييز النسبة وهو متاع البيت وقيل هو ما جد منه والخرثى ما لبس منه و رث والرئى المنظر فعل من الرؤية لما يرى كالطحن لما يطحن وقرىء ريا على قلب الهمزة ياء وادغامها أو على أنه من الرى وهو النعمة والترفه وقرىء ريئا على القلب و ريا بحذف الهمزة و زيا بالزاى المعجمة من الزى وهو الجمع فانه عبارة عن المحاسن المجموعة ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا ﴾ لما بين عاقبة أمر الامم المهلكة مع ما كان لهم من التمتع بفنون الحظوظ العاجلة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب هؤلاء المفتخرين بما لهم من الحظوظ ببيان مآل أمر الفريقين اما على وجه كلى متناول لهم ولغيرهم من المنهمكين فى اللذة الفانية المبتهجين بها على أن من على عمومها واما على وجه خاص بهم على أنها عبارة عنهم و وصفهم بالتمكن لذمهم والاشعار بعلة الحكم أى من كان مستقرا فى الضلالة مغمورا بالجهل والغفلة عن عواقب الامور فليمدد له الرحمن أى يمد له و يمهله بطول العمر واعطاء المال والتمكين من التصرفات واخراجه على صيغة الامر للايذان بأن ذلك مما ينبغى أن يفعل بموجب الحكمة لقطع المعاذير كما ينبىء عنه قوله عز وجل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى انما نملى لهم ليزدادوا اثما وقيل المراد به الدعاء بالمد والتنفيس واعتبار الاستقرار فى الضلالة لما أن المد لا يكون الا للمصرين عليها اذ رب ضال يهديه الله عز وجل والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن المد من أحكام الرحمة الدنيوية وقوله تعالى ﴿ حتى اذا رأوا ما يوعدون ﴾ غاية للمد الممتد لا لقول المفتخرين كما قيل اذ ليس فيه امتداد بحسب الذات وهو ظاهر ولا استمرار بحسب التكرار

لوقوعه فى حيز جواب اذا و جمع الضمير فى الفعلين باعتبار معنى من كما أن الافراد فى الضميرين الاولين باعتبار لفظها وقوله تعالى ﴿اما العذاب واما الساعة﴾ تفصيل للموعود بدل منه على سبيل البدل فانه اما العذاب الدنيوى بغلبة المسلمين واستيلائهم عليهم وتعذيبهم اياهم قتلا وأسرا واما يوم القيامة وما نالهم فيه من الخزى والنكال على طريقة منع الخلو دون منع الجمع فان العذاب الأخروى لا ينفك عنهم بحال وقوله تعالى ﴿فسيعلمون﴾ جواب الشرط والجملة محكية بعد حتى أى حتى اذا عاينوا ما يوعدون من العذاب الدنيوى أو الأخروى فقط فسيعلمون حينئذ ﴿من هو شر مكانا﴾ من الفريقين بأن يشاهدوا الأمر على عكس ما كانوا يقدرونه فيعلمون أنهم شر مكانا لا خير مقاما ﴿وأضعف جندا﴾ أى فئة وأنصارا لا أحسن نديا كما كانوا يدعونه وليس المراد أن له ثمة جندا ضعفاء كلا ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا وانما ذكر ذلك ردا لما كانوا يزعمون أن لهم أعوانا من الأعيان وأنصارا من الأخيار و يفتخرون بذلك فى الأندية والمحافل ﴿و يزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حال المهتدين اثر بيان حال الضالين وقيل عطف على فايمدد لأنه فى معنى الخبر حسبما عرفته كأنه قيل من كان فى الضلالة يمده الله و يزيد المهتدين هداية كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وقيل عطف على الشرطية المحكية بعد القول كأنه لما بين أن امهال الكافر وتمتيعه بالحياة ليس لفضله عقب ذلك ببيان أن قصور حظ المؤمن منها ليس لنقصه بل لأنه تعالى أراد به ما هو خير من ذلك وقوله تعالى ﴿والباقيات الصالحات خير﴾ على تقديرى الاستئناف والعطف كلام مستأنف وارد من جهته تعالى لبيان فضل أعمال المهتدين غير داخل فى حيز الكلام الملقن لقوله تعالى ﴿عند ربك﴾ أى الطاعات التى تبقى فوائدها وتدوم عوائدها ومن جملتها ما قيل من الصلوات الخمس وما قيل من قول سبحان الله والحمد لله و لا اله الا الله والله أكبر خير عند الله تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره لتشريفه عليه السلام ﴿ثوابا﴾ أى عائدة مما يتمتع به الكفرة من النعم المخدجة الفانية التى يفتخرون بها لاسيما ومآلها النعيم المقيم ومآل هذه الحسرة السرمدية والعذاب الأليم كما أشير اليه بقوله تعالى ﴿وخير مردا﴾ أى مرجعا وعاقبة وتكرير الخير لمزيد الاعتناء ببيان الخيرية وتأكيد لها وفى التفضيل مع أن ما للكفرة بمعزل من أن يكون له خيرية فى العاقبة تهكم بهم ﴿أفرأيت الذى كفر بآياتنا﴾ أى بآياتنا التى من جملتها آيات البعث نزلت فى العاص بن وائل كان لخباب بن الأرت عليه مال فاقتضاه فقال لا حتى تكفر بمحمد قال لا والله لا أكفر به حيا و لا ميتا و لا حين بعثت قال فاذا بعثت جئنى فيكون لى ثمة مال و ولد فأعطيك وفى رواية قال لا أكفر به حتى يميتك ثم تبعث فقال انى لميت ثم مبعوث، قال نعم قال دعنى حتى أموت وأبعث فسأوتى مالا و ولدا فاقضيك فنزلت فالهمزة للتعجيب من حاله والايذان بأنها من الغرابة والشناعة بحيث يجب أن ترى و يقضى منها العجب ومن فرق بين ألم تر وأرأيت بعد بيان اشتراكهما فى الاستعمال لقصد التعجيب بأن الأول يعلق بنفس المتعجب منه فيقال ألم تر الى الذى صنع كذا بمعنى انظر اليه فتعجب من حاله والثانى يعلق بمثل المتعجب منه فيقال أرأيت مثل الذى صنع كذا بمعنى أنه من الغرابة بحيث لا يرى له مثل فقد حفظ شيئا وغابت عنه أشياء وكأنه ذهب عليه قوله عز وجل أرأيت الذى يكذب بالدين والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أنظرت فرأيت الذى كفر بآياتنا الباهرة التى حقها أن يؤمن بها كل من يشاهدها ﴿وقال﴾ مستهزئا بها مصدرا لكلامه باليمين الفاجرة والله ﴿لأوتين﴾ فى الآخرة ﴿مالا وولدا﴾ أى انظر اليه فتعجب من حالته البديعة وجراءته الشنيعة هذا هو الذى يستدعيه جزالة النظم الكريم وقد قيل ان أرأيت بمعنى أخبر والفاء على أصلها والمعنى أخبر بقصة هذا الكافر عقيب حديث أولئك الذين قالوا أى الفريقين خير مقاما

الآية وأنت خبير بأن المشهور استعمال أرأيت فى معنى أخبرنى بطريق الاستفهام جاريا على أصله أو مخرجا الى ما يناسبه من المعانى لا بطريق الأمر بالاخبار لغيره وقرىء ولدا على أنه جمع ولد كأسد جمع أسد أو على أنه لغة فيه كالعرب والعرب وقوله تعالى ﴿أطلع الغيب﴾ رد لكلمته الشنعاء واظهار لبطلانها اثر ما أشير اليه بالتعجيب منها أى أقد بلغ من عظمة الشأن الى أن ارتقى الى علم الغيب الذى استأثر به العليم الخبير حتى ادعى أن يؤتى فى الآخرة مالا وولدا وأقسم عليه ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهدا﴾ بذلك فانه لا يتوصل الى العلم به الا بأحد هذين الطريقين والتعرض لعنوان الرحمانية للاشعار بعلية الرحمة لايتاء مايدعيه وقيل العهد كلمة الشهادة وقيل العمل الصالح فان وعده تعالى بالثواب عليهما كالعهد وهذا مجاراة مع اللعين بحسب منطوق مقاله كما أن كلامه مع خباب كان كذلك وقوله تعالى ﴿كلا﴾ ردع له عن التفوه بتلك العظيمة وتنبيه على خطائه ﴿سنكتب مايقول﴾ أى سنظهر أنا كتبنا قوله كقوله اذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة أى يتبين أنى لم تلدنى لئيمة أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة الجانى وحفظها عليه فان نفس الكتبة لا تكاد تتأخر عن القول لقوله عز وعلا ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد فبنى الاول تنزيل اظهار الشىء الخفى منزلة احداث الامر المعدوم بجامع أن كلا منهما اخراج من الكمون الى البروز فيكون استعارة تبعية مبنية على تشبيه اظهار الكتابة على رؤس الاشهاد باحداثها ومدار الثانى تسمية الشىء باسم سببه فان كتابة جريمة المجرم سبب لعقوبته قطعا ﴿ونمد له من العذاب مدا﴾ مكان مايدعيه لنفسه من الامداد بالمال والولد أى نطول له من العذاب مايستحقه أو نزيد عذابه ونضاعفه له لكفره وافترائه على الله سبحانه واستهزائه بآياته العظام ولذلك أكد بالمصدر دلالة على فرط الغضب ﴿ونرثه﴾ بموته ﴿ما يقول﴾ أى مسمى ما يقول ومصداقه وهو ما أوتيه فى الدنيا من المال والولد وفيه ايذان بأنه ليس لما يقوله مصداق موجود سوى ما ذكر أى ننزع عنه ما آتيناه ﴿ويأتينا﴾ يوم القيامة ﴿فردا﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له فى الدنيا فضلا أن يؤتى ثمة زائدا وقيل نزوى عنه ما زعم أنه يناله فى الآخرة ونعطيه ما يستحقه ويأباه معنى الارث وقيل المراد بما يقول نفس القول المذكور لا مسماه والمعنى انما يقول هذا القول ما دام حيا فاذا قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضا له منفردا عنه وأنت خبير بأن ذلك مبنى على أن صدور القول المذكور عنه بطريق الاعتقاد وأنه مستمر على التفوه به راج لوقوع مضمونه ولا ريب فى أن ذلك مستحيل ممن كفر بالبعث وانما قال ما قال بطريق الاستهزاء وتعليق اداء دينه بالمحال ﴿واتخذوا من دون الله آلهة﴾ حكاية لجناية عامة للكل مستتبعة لضد ما يرجون ترتبه عليها اثر حكاية مقالة الكافر المعهود واستتباعها لنقيض مضمونها أى اتخذوا الاصنام آلهة متجاوزين الله تعالى ﴿ليكونوا لهم عزا﴾ أى ليتعززوا بهم بأن يكونوا لهم وصلة اليه عز وجل وشفعاء عنده ﴿كلا﴾ ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل وانكار لوقوع ما علقوا به أطماعهم الفارغة ﴿سيكفرون بعبادتهم﴾ أى ستجحد الآلهة بعبادتهم لها بأن ينطقها الله تعالى وتقول ما عبدتمونا أو سينكر الكفرة حين شاهدوا سوء عاقبة كفرهم عبادتهم لها كما فى قوله تعالى والله ربنا ما كنا مشركين ومعنى قوله تعالى ﴿ويكونون عليهم ضدا﴾ على الاول تكون الآلهة التى كانوا يرجون أن تكون لهم عزا ضدا للعز أى ذلا وهوانا أو تكون عونا عليهم وآلة لعذابهم حيث تجعل وقود النار وحصب جهنم أو حيث كانت عبادتهم لها سببا لعذابهم واطلاق الضد على العون لما أن عون الرجل يضاد عدوه وينافيه باعانته له عليه وعلى الثانى يكون الكفرة ضدا وأعداء للآلهة كافرين بها بعد أن كانوا يحبونها كحب الله ويعبدونها وتوحيد الضد لوحدة المعنى الذى عليه تدور مضادتهم فانهم بذلك كشىء واحد كما فى قوله عليه السلام وهم يد على من سواهم وقرىء كلا

بفتح الكاف والتنوين على قلب الالف نونا فى الوقف قلب ألف الاطلاق فى قوله

أقلى اللوم عاذل والعتابن وقولى ان أصبت لقد أصابن

أو على معنى كل هذا الرأى كلا وقرىء كلا على اضمار فعل يفسره ما بعده أى سيجحدون كلا سيكفرون الخ ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين ﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما نطقت به الآيات الكريمة السالفة وحكته عن هولاء الكفرة الغواة والمردة العتاة من فنون القبائح من الاقاويل والافاعيل والتمادى فى الغى والانهماك فى الضلال والافراط فى العناد والتصميم على الكفر من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم والاجماع على مدافعة الحق بعد اتضاحه وانتفاء الشك عنه بالكلية وتنبيه على أن جميع ذلك منهم باضلال الشياطين واغوائهم لا لان له مسوغا ما فى الجملة ومعنى ارسال الشياطين عليهم اما تسليطهم عليهم وتمكينهم من اضلالهم واما تقييضهم لهم وليس المراد تعجيبه عليه السلام من ارسالهم عليهم كما يوهمه تعليق الرؤية به بل مما ذكر من أحوال الكفرة من حيث كونها من آثار اغواء الشياطين كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ تؤزهم أزا ﴾ فانه اما حال مقدرة من الشياطين أو استئناف وقع جوابا عما نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يفعل الشياطين بهم حينئذ فقيل تؤزهم أى تغريهم وتهيجهم على المعاصى تهييجا شديدا بأنواع الوساوس والتسويلات فان الاز والهز والاستفزاز أخوات معناها شدة الازعاج ﴿ فلا تعجل عليهم ﴾ أى بأن يهلكوا حسبما تقتضيه جناياتهم ويبيدوا عن آخرهم وتطهر الارض من فساداتهم والفاء للاشعار بكون ما قبلها مظنة لوقوع المنهى عنه محوجة الى النهى كما فى قوله تعالى ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة وقوله تعالى ﴿ انما نعد لهم عدا ﴾ تعليل لموجب النهى ببيان اقتراب هلاكهم أى لا تستعجل بهلاكهم فانه لم يبق لهم الا أيام وأنفاس نعدها عدا ﴿ يوم نحشر المتقين ﴾ منصوب على الظرفية بفعل مؤخر قد حذف للاشعار بضيق العبارة عن حصره وشرحه لكمال فظاعة ما يقع فيه من الطامة التامة والدواهى العامة كأنه قيل يوم نحشر المتقين أى نجمعهم ﴿ الى الرحمن ﴾ الى ربهم الذى يغمرهم برحمته الواسعة ﴿ وفدا ﴾ وافدين عليه كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وانعامهم ﴿ ونسوق المجرمين ﴾ كما تساق البهائم ﴿ الى جهنم وردا ﴾ عطاشا فان من يرد الماء لا يورده الا العطش أو كالدواب التى ترد الماء نفعل بالفريقين من الافعال ما لا يفى ببيانه نطاق المقال وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم أى اذكر لهم بطريق الترغيب والترهيب يوم نحشر الخ وقيل على الظرفية لقوله تعالى ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ والذى يقتضيه مقام التهويل وتستدعيه جزالة التنزيل أن ينتصب بأحد الوجهين الاولين ويكون هذا استئنافا مبينا لبعض ما فيه من الأمور الدالة على هوله وضميره عائدا الى العباد المدلول عليهم بذكر الفريقين لانحصارهم فيهما وقيل الى المتقين خاصة وقيل الى المجرمين من الكفرة وأهل الاسلام والشفاعة على الاولين مصدر من المبنى للفاعل وعلى الثالث ينبغى أن تكون مصدرا من المبنى للمفعول وقوله تعالى ﴿ الا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ على الاول استثناء متصل من لا يملكون ومحل المستثنى اما الرفع على البدل أو النصب على أصل الاستثناء والمعنى لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم الا من استعد له بالتحلى بالايمان والتقوى أو من أمر بذلك من قولهم عهد الامير الى فلان بكذا اذا أمره به فيكون ترغيبا للناس فى تحصيل الايمان والتقوى المؤدى الى نيل هذه الرتبة وعلى الثانى استثناء من الشفاعة على حذف المضاف والمستثنى منصوب على البدل أو على أصل الاستثناء أى لا يملك المتقون الشفاعة الا شفاعة من اتخذ العهد بالاسلام فيكون ترغيبا فى الاسلام وعلى الثالث استثناء من لا يملكون أيضا والمستثنى مرفوع على البدل أو

منصوب على الاصل والمعنى لايملك المجرمون أن يشفع لهم الا من كان منهم مسلما ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ﴾ حكاية لجناية اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا اثر حكاية عبدة الاصنام بطريق عطف القصة على القصة وقوله تعالى ﴿ لقد جئتم شيئاً إدا ﴾ رد لمقالتهم الباطلة وتهويل لأمرها بطريق الالتفات المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجراءة والاد بالكسر والفتح العظيم المنكر والادة الشدة وأدنى الامر وآدنى أثقلنى وعظم على أى فعلتم أمرا منكرا شديدا لايقادر قدره فان جاء وأتى يستعملان فى معنى فعل فيعديان تعديته وقوله تعالى ﴿ تكاد السموات ﴾ الخ صفة لادا أو استئناف لبيان عظم شأنه فى الشدة والهول وقرئ يكاد بالتذكير ﴿ يتفطرن منه ﴾ يتشققن مرة بعد أخرى من عظم ذلك الامر وقرئ ينفطرن والاول أبلغ لان تفعل مطاوع فعل وانفعل مطاوع فعل ولان أصل التفعل التكلف ﴿ وتنشق الارض ﴾ أى تكاد وتنشق الارض ﴿ وتخر الجبال ﴾ أى تسقط وتتهدم وقوله تعالى ﴿ هدا ﴾ مصدر مؤكد لمحذوف هو حال من الجبال أى تهد هدا أومصدر من المبنى للمفعول مؤكد لتخر على غير الصدر لانه حينئذ بمعنى التهدم والخرور كأنه قيل وتخر الجبال خرورا أو مصدر بمعنى المفعول منصوب على الحالية أى مهدودة أو مفعول له أى لانها تهد وهذا تقرير لكونه ادا والمعنى أن هول تلك الكلمة الشنعاء وعظمها بحيث لو تصورت بصورة محسوسة لم تطاق بها هاتيك الاجرام العظام وتفتتت من شدتها أو أن فظاعتها فى استجلاب الغضب واستيجاب السخط بحيث لولا حلمه تعالى لخرب العالم و بددت قوائمه غضبا على من تفوه بها ﴿ أن دعوا للرحمن ولدا ﴾ منصوب على حذف اللام المتعلقة بتكاد أو مجرور باضمارها أى تكاد السموات يتفطرن والارض تنشق والجبال تخر لأن دعوا له سبحانه ولدا وقيل اللام متعلقة بهدا وقيل الجملة بدل من الضمير المجرور فى منه كما فى قوله على جوده لضن بالماء حاتم وقيل خبر مبتدا محذوف أى الموجب لذلك أن دعوا الخ وقيل فاعل هدا أى هدها دعاء الولد والاول هو الاولى ودعوا من دعا بمعنى سمى المتعدى الى مفعولين وقد اقتصر على ثانيهما ليتناول كل مادعى له ولدا أومن دعا بمعنى نسب الذى مطاوعه ادعى الى فلان أى انتسب اليه وقوله تعالى ﴿ وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ حال من فاعل قالوا أودعوا مقررة لبطلان مقالتهم واستحالة تحقق مضمونها أى قالوا اتخذ الرحمن ولدا أو أن دعوا للرحمن ولدا والحال أنه ماينبغى به تعالى اتخاذ الولد ولا يتطلب له لو طلب مثلا لاستحالته فى نفسه ووضع الرحمن موضع الضمير للاشعار بعلة الحكم بالتنبيه على أن كل ماسواه تعالى اما نعمة أو منعم عليه فكيف يتسنى أن يجانس من هو مبدأ النعم ومولى أصولها وفروعها حتى يتوهم أن يتخذه ولدا وقد صرح لقوم به عز قائلا ﴿ ان كل من فى السموات والارض ﴾ أى مامنهم أحد من الملائكة والثقلين ﴿ الا آتى الرحمن عبدا ﴾ الا وهو مملوك له يأوى اليه بالعبودية والانقياد وقرئ آت الرحمن على الأصل ﴿ لقد أحصاهم ﴾ أى حصرهم وأحاط بهم بحيث لايكاد يخرج منهم أحد من حيطة علمه وقبضة قدرته وملكوته ﴿ وعدهم عدا ﴾ أى عد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم وكل شئ عنده بمقدار ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ أى كل واحد منهم آت إياه تعالى منفردا من الاتباع والانصار وفى صيغة الفاعل من الدلالة على اتيانهم كذلك البتة ماليس فى صيغة المضارع لو قيل يأتيه فاذا كان شأنه تعالى وشأنهم كما ذكر فأنى يتوهم احتمال أن يتخذ شيئا منهم ولدا ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ لما فصلت قبائح أحوال الكفرة عقب ذلك بذكر محاسن أحوال المؤمنين ﴿ سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ أى سيحدث لهم فى القلوب مودة من غير تعرض منهم لاسبابها سوى مالهم من الايمان والعمل الصالح والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن الموعود

من آثارها وعن النبي عليه الصلاة والسلام اذا أحب الله عبدا يقول لجبريل عليه السلام انى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء ان الله أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له المحبة فى الارض والسين لان السورة مكية وكانوا اذ ذاك ممقوتين بين الكفرة فوعدهم ذلك ثم أنجزه حين ربا الاسلام أو لان الموعود فى القيامة حين تعرض حسناتهم على رؤس الاشهاد فينزع مافى صدورهم من الغل الذى كان فى الدنيا ولعل افراد هذا بالوعد من بين ماسيؤتون يوم القيامة من الكرامات السنية لما أن الكفرة سيقع بينهم يومئذ تباغض وتضاد وتقاطع وتلاعن ﴿فانما يسرناه﴾ أى القرآن ﴿باسانك﴾ بان أنزلناه على لغتك والباء بمعنى على وقيل ضمن التيسير معنى الانزال أى يسرنا القرآن منزلين له بلغتك والفاء لتعليل أمر ينساق اليه النظم الكريم كانه قيل بعد ايحاء السورة الكريمة بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر فانما يسرناه بلسانك العربى المبين ﴿لتبشر به المتقين﴾ أى الصائرين الى التقوى بامتثال مافيه من الامر والنهى ﴿وتنذر به قوما لدا﴾ لايؤمنون به لجاجا وعنادا واللد جمع الالد وهو الشديد الخصومة اللجوج المعاند وقوله تعالى ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى ضمن وعيد الكفرة بالاهلاك وحث له عليه الصلاة والسلام على الانذار أى قرنا كثيرا أهلكنا قبل هولاء المعاندين وقوله تعالى ﴿هل تحس منهم من أحد﴾ استئناف مقرر لمضمون ماقبله أى هل تشعر بأحد منهم وترى ﴿أو تسمع لهم ركزا﴾ أى صوتا خفيا وأصل الركز هو الخفاء ومنه ركز الرمح اذا غيب طرفه فى الارض والركاز المال المدفون المخفى والمعنى أهلكناهم بالكلية واستأصلناهم بحيث لايرى منهم أحد ولا يسمع منهم صوت خفى . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة مريم أعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى وعيسى ومريم وسائر الانبياء المذكورين فيها وبعدد من دعا الله تعالى فى الدنيا ومن لم يدع الله تعالى

سورة طه

(مكية وهى مائة وخمس وثلاثون آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿طه﴾ فخمهما قالون وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الاصل والطاء وحده أبو عمرو وورش لاستعلائه وأمالهما الباقون وهو من الفواتح التى يصدر بها السور الكريمة وعليه جمهور المتقنين وقيل معناه يارجل وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنه والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبي الا أنه عند سعيد على اللغة النبطية وعند قتادة على السريانية وعند عكرمة على الحبشية وعند الكلبي على لغة عك وقيل عكل وهى لغة يمانية قالوا ان صح فلعل أصله ياهذا فتصرفوا فيه بقلب الياء طاء وحذف ذا من هذا وما استشهد به من قول الشاعر

ان السفاهة طه فى خلائقكم لاقدس الله أخلاق الملاعين

ليس بنص فى ذلك لجواز كونه قسما كما فى حم لا ينصرون وقد جوز أن يكون الأصل طاها بصيغة الأمر من الوطء فقلت الهمزة فى يطأ ألفا لانفتاح ماقبلها كما فى قول من قال لا هناك المرتع وها ضمير الأرض على أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يطأ الأرض بقدميه لما كان يقوم فى تهجده على احدى رجليه مبالغة فى المجاهدة ولكن يأباه كتابتهما على صورة الحرف كما تأبى التفسير بيارجل فان الكتابة على صورة الحرف مع كون التلفظ بخلافه من خصائص حروف المعجم وقرئ طه اما على أن أصله طأ فقلبت همزته هاء كما فى أمثال هرقت أو قلبت الهمزة فى يطأ ألفا

كما مر ثم بنى منه الامر وألحق به هاء السكت واما على أنه اكتفى فى التلفظ بشطرى الاسمين وأقيما مقامهما فى الدلالة على المسميين فكانهما اسماهما الدالان عليهما وعلى هذا ينبغى أن يحمل قول من قال أو اكتفى بشطرى الكلمتين وعبر عنهما باسمهما والا فالشطران لم يذكرا من حيث انهما مسميان لاسميهما ليقعا معبرا عنهما بل من حيث انهما جزآن لهما قد اكتفى بذكرهما عن ذكرهما ولذلك وقع التلفظ بأنفسهما لا باسميهما بأن يراد بضمير التثنية فى الموضعين الشطران من حيث هما مسميان لا من حيث هما جزآن للاسمين ويراد باسمهما الشطران من حيث هما قائمان مقام الاسمين فالمعنى اكتفى فى التلفظ بشطرى الكلمتين أى الاسمين فعبر عنهما أى عن الشطرين من حيث هما مسميان بهما من حيث هما قائمان مقام الاسمين وأما حمله على معنى أنه اكتفى فى الكتابة بشطرى الكلمتين يعنى طا على تقديرى كونه أمرا وكونه حرف نداء وها على تقديرى كونها كناية عن الأرض وكونها حرف تنبيه وعدل عن ذينك الشطرين فى التلفظ باسمهما فبين البطلان كيف وطا وها على ما ذكر من التقادير ليسا باسمين للحرفين المذكورين بل الأول أمر أو حرف نداء والثانى ضمير الأرض أو حرف تنبيه على أن كتابة صورة الحرف والتلفظ بغيره من خواص حروف المعجم كما مر فالحق ما سلف من أنها من الفواتح اما مسرودة على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين فى مطالع سورة البقرة فلا محل لها من الاعراب وكذا ما بعدها من قوله تعالى ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ فانه استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب فان الشقاء شائع فى ذلك المعنى ومنه أشقى من رائض مهر أى ما أنزلناه عليك لتتعب بالمبالغة فى مكابدة الشدائد فى مقاولة العتاة ومحاورة الطغاة وفرط التأسف على كفرهم به والتحسر على أن يؤمنوا كقوله عز وجل فلعلك باخع نفسك على آثارهم الآية بل للتبليغ والتذكير وقد فعلت فلا عليك ان لم يؤمنوا به بعد ذلك أو لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من المبالغة فى المجاهدة فى العبادة كما يروى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم بالليل حتى ترم قدماه فقال له جبريل عليه السلام أبق على نفسك فان لها عليك حقا أى ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك وحملها على الرياضات الشاقة والشدائد الفادحة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وقيل ان أبا جهل والنضر بن الحرث قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك شقى حيث تركت دين آبائك وان القرآن نزل عليك لتشقى به فرد ذلك بأنا ما أنزلناه عليك لما قالوا والاول هو الأنسب كما يشهد به الاستثناء الآتى هذا واما اسم للقرآن محله الرفع على أنه مبتدأ وما بعده خبره والقرآن ظاهر أوقع موقع العائد الى المبتدأ كانه قيل القرآن ما أنزلناه عليك لتشقى أو النصب على اضمار فعل القسم أو الجر بتقدير حرفه وما بعده جوابه وعلى هذين الوجهين يجوز أن يكون اسما للسورة أيضا بخلاف الوجه الأول فانه لا يتسنى على ذلك التقدير لكن لا لأن المبتدأ يبقى حينئذ بلا عائد ولا قائم مقامه فان القرآن صادق على السورة لا محالة اما بطريق الاتحاد بأن يراد به القدر المشترك بين الكل والبعض أو باعتبار الاندراج ان أريد به الكل بل لأن نفى كون انزاله للشقاء يستدعى سبق وقوع الشقاء مترتبا على انزاله قطعا اما بحسب الحقيقة كما لو أريد به معنى التعب أو بحسب زعم الكفرة كما لو أريد به ضد السعادة ولا ريب فى أن ذلك انما يتصور فى انزال ما أنزل من قبل وأما انزال السورة الكريمة فليس مما يمكن ترتب الشقاء السابق عليه حتى يتصدى لنفيه عنه أما باعتبار الاتحاد فظاهر وأما باعتبار الاندراج فلأن مآله أن يقال هذه السورة ما أنزلنا القرآن المشتمل عليها لتشقى ولا يخفى أن جعلها مخبرا عنها مع أنه لا دخل لانزالها فى الشقاء السابق أصلا مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل وقوله تعالى ﴿الا تذكرة﴾ نصب على أنه مفعول له لأنزلنا لكن لا من حيث انه معلل بالشقاء على معنى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بتبليغه الا تذكرة الآية كقولك ماضربتك للتأديب

الا اشفاقا لما أنه يجب فى أمثاله أن يكون بين العلتين ملابسة بالسببية والمسببية حتما كما فى المثال المذكور وفى قولك ماشافهتك بالسوء لتتأذى الازجرا لغيرك فان التأديب فى الأول مسبب عن الاشفاق والتأذى فى الثانى سبب لزجر الغير وقد عرفت مابين الشقاء والتذكرة من التنافى ولايجدى أن يراد به التعب فى الجملة الجامع للتذكرة لظهور أن لاملابسة بينهما بما ذكر من السببية والمسببية وانما يتصور ذلك أن لوقيل مكان الا تذكرة الاتكثيرا لثوابك فان الأجر بقدر التعب ولامن حيث انه بدل من محل لتشقى كما فى قوله تعالى مافعلوه الا قليل لوجوب المجانسة بين البدلين وقد عرفت حالها بل من حيث انه معطوف عليه بحسب المعنى بعد نفيه بطريق الاستدراك المستفاد من الاستثناء المنقطع كأنه قيل ماأنزلنا عليك القرآن لتتعب فى تبليغه ولكن تذكرة ﴿لمن يخشى﴾ وقد جرد التذكرة عن اللام لكونها فعلا لفاعل الفعل المعلل أى لمن من شأنه أن يخشى الله عز وعلا ويتأثر بالانذار لرقة قلبه ولين عريكته أو لمن علم الله تعالى أنه يخشى بالتخويف وتخصيصها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لانهم المنتفعون بها وقوله تعالى ﴿تنزيلا﴾ مصدر مؤكد لمضمر مستأنف مقرر لما قبله أى نزل تنزيلا أو لما تفيده الجملة الاستثنائية فانها متضمنة لأن يقال أنزلناه للتذكرة والأول هو الأنسب بما بعده من الالتفات أو منصوب على المدح والاختصاص وقيل هو منصوب بيخشى على المفعولية أى يخشى تنزيلا من الله تعالى وأنت خبير بأن تعليق الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غير معهود نعم قد يعلق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونظائره كما فى قوله تعالى يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم وقيل هو بدل من تذكرة لكن لا على أنه مفعول له لأنزلنا اذ لا يعلل الشىء بنفسه ولا بنوعه بل على أنه مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال من الكاف فى عليك أو من القرآن ولامساغ له الا بأن يكون قيدا لأنزلنا بعد تقيده بالقيد الأول وقد عرفت حاله فيما سلف وقرىء تنزيل على أنه خبر لمبتدا محذوف ومن فى قوله تعالى ﴿ممن خلق الارض والسموات العلى﴾ متعلقة بتنزيلا أو بمضمر هو صفة له مؤكدة لما فى تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية ونسبة التنزيل الى الموصول بطريق الالتفات الى الغيبة بعد نسبته الى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب الافعال والصفات اثر بيانها بحسب الذات بطريق الابهام ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير وتخصيص خلقهما بالذكر مع أن المراد خلقهما بجميع مايتعلق بهما كما يفصح عنه قوله تعالى له مافى السموات ومافى الارض الآية لاصالتهما واستتباعهما لما عداهما وتقديم الارض لكونه أقرب الى الحس وأظهر عنده ووصف السموات بالعلا وهو جمع العليا تأنيث الأعلى لتأكيد الفخامة مع مافيه من مراعاة الفواصل وكل ذلك الى قوله تعالى له الاسماء الحسنى مسوق لتعظيم شأن المنزل عز وجل المستتبع لتعظيم شأن المنزل الداعى الى تربية المهابة وادخال الروعة المؤدية الى استنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان واستمالتهم نحو الخشية المفضية الى التذكرة والايمان ﴿الرحمن﴾ رفع على المدح أى هو الرحمن وقد عرفت فى صدر سورة البقرة أن المرفوع مدحا فى حكم الصفة الجارية على ماقبله وان لم يكن تابعا له فى الاعراب ولذلك التزموا حذف المبتدا ليكون فى صورة متعلق من متعلقاته وقد قرىء بالجر على أنه صفة صريحة للموصول وماقيل من أن الاسماء الناقصة لا يوصف منها الا الذى وحده مذهب الكوفيين وأيا ما كان فوصفه بالرحمانية اثر وصفه بخالقية السموات والارض للاشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى كما أن قوله تعالى رب السموات والارض ومابينهما الرحمن للايذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الرحمة وفيه اشارة الى أن تنزيل القرآن أيضا من أحكام رحمته تعالى كما ينبىء عنه قوله تعالى الرحمن علم القرآن أو رفع على الابتداء واللام للعهد والاشارة الى الموصول والخبر قوله تعالى ﴿على العرش استوى﴾ وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذى شأنه ان يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب للايذان بأن ذلك أمر بين لاستره به غنى عن الاخبار به صريحا وعلى

متعلقة باستوى قدمت عليه لمراعاة الفواصل والجار والمجرور على الأول خبر مبتدا محذوف كما فى قراءة الجر وقد جوز أن يكون خبرا بعد خبر والاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان متفرع على الكناية فيمن يجوز عليه القعود على السرير يقال استوى فلان على سرير الملك يراد به ملك وان لم يقعد على السرير أصلا والمراد بيان تعلق ارادته الشريفة بايجاد الكائنات وتدبير أمرها وقوله تعالى ﴿له مافى السموات ومافى الارض﴾ سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلول فيهما ﴿ومابينهما﴾ من الموجودات الكائنة فى الجو دائما كالهواء والسحاب أو أكثريا كالطير أى له وحده دون غيره لاشركة و لااستقلالا كل ماذكر ملكا وتصرفا واحياء واماتة وايجادا واعداما ﴿وماتحت الثرى﴾ أى ماوراء التراب وذكره مع دخوله تحت مافى الارض لزيادة التقرير روى عن محمد بن كعب أنه ماتحت الارضين السبع وعن السدى أن الثرى هو الصخرة التى عليها الارض السابعة ﴿وان تجهر بالقول﴾ بيان لاحاطة علمه تعالى بجميع الاشياء اثر بيان سعة سلطنته وشمول قدرته لجميع الكائنات أى وان تجهر بذكره تعالى ودعائه فاعلم أنه تعالى غنى عن جهرك ﴿فانه يعلم السر وأخفى﴾ أى ماأسررته الى غيرك وشيئاً أخفى من ذلك وهو ماأخطرته ببالك من غير أن تتفوه به أصلا أو ماأسررته لنفسك وأخفى منه وهو ماستسره فيما سيأتى وتنكيره للمبالغة فى الخفاء وهذا اما نهى عن الجهر كقوله تعالى واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول واما ارشاد للعباد الى أن الجهر ليس لاسماعه سبحانه بل لغرض آخر من تصوير النفس بالذكر وتثبيته فيها ومنعها من الاشتغال بغيره وقطع الوسوسة عنها وهضمها بالتضرع والجؤار وقوله تعالى ﴿الله﴾ خبر مبتدا محذوف والجملة استئناف مسوق لبيان أن ماذكر من صفات الكمال موصوفها ذلك المعبود بالحق أى ذلك المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة الله عز وجل وقوله تعالى ﴿لا اله الا هو﴾ تحقيق للحق وتصريح بما تضمنه ماقبله من اختصاص الالوهية به سبحانه فان ماأسند اليه تعالى من خلق جميع الموجودات والرحمانية والمالكية للكل والعلم الشامل مما يقتضيه اقتضاء بينا وقوله تعالى ﴿له الاسماء الحسنى﴾ بيان لكون ماذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماءه وصفاته من غير تعدد فى ذاته تعالى فانه روى أن المشركين حين سمعوا النبى عليه الصلاة والسلام يقول ياالله يارحمن قالوا ينهانا أن نعبد الهين وهو يدعو الها آخر والحسنى تأنيث الاحسن يوصف به الواحدة المؤنثة والجمع من المذكر والمؤنث كمآرب أخرى وآياتنا الكبرى ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد الذى اليه انتهى مساق الحديث وبيان أنه أمر مستمر فيما بين الأنبياء كابرا عن كابر وقد خوطب به موسى عليه الصلاة والسلام حيث قيل له اننى أنا الله لا اله الا أنا وبه ختم عليه الصلاة والسلام مقاله حيث قال انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وأما ما قيل من أن ذلك لترغيب النبى عليه الصلاة والسلام فى الائتساء بموسى عليه الصلاة والسلام فى تحمل أعباء النبوة والصبر على مقاساة الخطوب فى تبليغ أحكام الرسالة فيأباه أن مساق النظم الكريم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن اقتحام المشاق وقوله تعالى ﴿اذ رأى نارا﴾ ظرف للحديث وقيل لمضمر مؤخر أى حين رأى نارا كان كيت وكيت وقيل مفعول لمضمر مقدم أى اذكر وقت رؤيته نارا روى أنه عليه الصلاة والسلام استأذن شعيبا عليهما الصلاة والسلام فى الخروج الى أمه وأخيه فخرج بأهله وأخذ على غير الطريق مخافة من ملوك الشأم فلما وافى وادى طوى وهو بالجانب الغربى من الطور ولد له ولد فى ليلة مظلمة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده فبينما هو فى ذلك اذ رأى نارا على يسار الطريق من جانب الطور ﴿فقال لاهله امكثوا﴾ أى أقيموا مكانكم أمرهم عليه الصلاة والسلام بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه عليه الصلاة والسلام من الذهاب الى النار كما هو المعتاد لا لئلا ينتقلوا الى موضع آخر فانه مما لا يخطر بالبال

والخطاب للمرأة والولد والخادم وقيل لها وحدها والجمع اما لظاهر لفظ الاهل أو للتفخيم كما فى قول من قال
وان شئت حرمت النساء سواكم ﴿انى آنست نارا﴾ أى أبصرتها ابصارا بينا لاشبهة فيه وقيل الايناس خاص بابصار
ما يؤنس به والجملة تعليل للامر أو المأمور به ﴿لعلى آتيكم منها﴾ أى أجيئكم من النار ﴿بقبس﴾ أى بشعلة مقتبسة من
معظم النار وهى المرادة بالجذوة فى سورة القصص و بالشهاب القبس ﴿أو أجد على النار هدى﴾ هاديا يدلنى على الطريق
على أنه مصدر سمى به الفاعل مبالغة أو حذف منه المضاف أى ذا هداية أو على أنه اذا وجد الهادى فقد وجد الهدى وقيل
هاديا يهدينى الى أبواب الدين فان أفكار الابرار مغمورة بالهمة الدينية فى عامة أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل والاول
هو الاظهر لان مساق النظم الكريم لتسلية أهله وقد نص عليه فى سورة القصص حيث قيل لعلى آتيكم منها بخبر
أو جذوة الآية وكلمة أو فى الموضعين لمنع الخلو دون منع الجمع ومعنى الاستعلاء فى قوله تعالى على النار أن أهل
النار يستعلون المكان القريب منها أو لانهم عند الاصطلاء يكتنفونها قياما وقعودا فيشرفون عليها ولما كان
الاتيان بهما مترقبا غير محقق الوقوع صدر الجملة بكلمة الترجى وهى اما علة لفعل قد حذف ثقة بما يدل عليه من الأمر
بالمكث والاخبار بايناس النار وتفاديا عن التصريح بما يوحشهم واما حال من فاعله أى فأذهب اليها لآتيكم أو كى
آتيكم أو راجيا أن آتيكم منها بقبس الآية وقد مر تحقيق ذلك مفصلا فى تفسير قوله تعالى يا أيها الناس اعبدوا ربكم
الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴿فلما أتاها﴾ أى النار التى آنسها قال ابن عباس رضى الله عنهما رأى شجرة
خضراء أطافت بها من أسفلها الى أعلاها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون فوقف متعجبا من شدة ضوئها وشدة خضرة
الشجرة فلا النار تغير خضرتها و لا كثرة ماء الشجرة تغير ضوءها . قالوا النار أربعة أصناف صنف يأكل و لا يشرب
وهى نار الدنيا وصنف يشرب و لا يأكل وهى نار الشجر الاخضر وصنف يأكل و يشرب وهى نار جهنم وصنف
لا يأكل و لا يشرب وهى نار موسى عليه الصلاة والسلام وقالوا أيضا هى أربعة أنواع نوع له نور واحراق وهى نار
الدنيا ونوع لا نور له و لا احراق وهى نار الاشجار ونوع له نور بلا احراق وهى نار موسى عليه الصلاة والسلام ونوع
له احراق بلا نور وهى نار جهنم روى أن الشجرة كانت عوسجة وقيل كانت سمرة ﴿نودى ياموسى﴾ أى نودى
فقيل ياموسى ﴿انى أنا ربك﴾ أو عومل النداء معاملة القول لكونه ضربا منه وقرىء بالفتح أى بأنى وتكرير
الضمير لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة واماطة الشبهة روى أنه لما نودى ياموسى قال عليه الصلاة والسلام من
المتكلم فقال الله عز وجل أنا ربك فوسوس اليه ابليس لعلك تسمع كلام شيطان فقال أنا عرفت أنه كلام الله تعالى
بأنى أسمعه من جميع الجهات بجميع الاعضاء قلت وذلك لأن سماع ماليس من شأنه ذلك من الاعضاء ليس الا من
آثار قدرة الخلاق العليم تعالى وتقدس وقيل تلقى عليه الصلاة والسلام كلام رب العزة تلقيا روحانيا ثم تمثل ذلك
الكلام لبدنه وانتقل الى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة ﴿فاخلع نعليك﴾ أمر عليه
الصلاة والسلام بذلك لأن الحفوة أدخل فى التواضع وحسن الادب و لذلك كان السلف الصالحون يطوفون بالكعبة
حافين وقيل ليباشر الوادى بقدميه تبركا به وقيل لما أن نعليه كانا من جلد حمار غير مدبوغ وقيل معناه فرغ قلبك من
الاهل والمال والفاء لترتيب الامر على ما قبلها فان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من موجبات الامر ودواعيه
وقوله تعالى ﴿انك بالواد المقدس﴾ تعليل لوجوب الخلع المأمور به وبيان لسبب ورود الامر بذلك من شرف البقعة
وقدسها روى أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما وألقاهما وراء الوادى ﴿طوى﴾ بضم الطاء غير منون وقرىء منونا
وقرىء بالكسر منونا وغير منون فمن نونه أوله بالمكان دون البقعة وقيل هو كثنى من الطى مصدر لنودى أو المقدس

أى نودى نداءين أوقدس مرة بعد أخرى ﴿وأنا اخترتك﴾ أى اصطفيتك للنبوة والرسالة وقرئ وانا اخترناك بالفتح والكسر والفاء فى قوله ﴿فاستمع﴾ لترتيب الامر أو المأمور به على ماقبلها فان اختياره عليه السلام لما ذكر من موجبات الاستماع والامر به واللام فى قوله تعالى ﴿لما يوحى﴾ متعلقة باستمع وما موصولة أو مصدرية أى فاستمع للذى يوحى اليك أوللوحى لا باخترتك كما قيل لكن لا لما قيل من أنه من باب التنازع واعمال الاول فلا بد حينئذ من اعادة الضمير مع الثانى بل لأن قوله تعالى ﴿اننى أنا الله لااله الا أنا﴾ بدل من مايوحى ولاريب فى أن اختياره عليه الصلاة والسلام ليس لهذا الوحى فقط والفاء فى قوله تعالى ﴿فاعبدنى﴾ لترتيب المأمور به على ماقبلها فان اختصاص الالوهية به سبحانه وتعالى من موجبات تخصيص العبادة به عز وجل ﴿وأقم الصلوة﴾ خصت الصلاة بالذكر وأفردت بالامر مع اندراجها فى الامر بالعبادة لفضلها وانافتها على سائر العبادات بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره وذلك قوله تعالى ﴿لذكرى﴾ أى لتذكرنى فان ذكرى كما ينبغى لايتحقق الا فى ضمن العبادة والصلاة أو لتذكرنى فيها لاشتمالها على الاذكار أو لذكرى خاصة لاتشوبه بذكر غيرى أو لاخلاص ذكرى وابتغاء وجهى لاترائى بها و لاتقصد بها غرضا آخر أو لتكون ذاكرا لى غير ناس وقيل لذكرى اياها وأمرى بها فى الكتب أو لأن أذكرك بالمدح والثناء وقيل لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة أولذكر صلاتى لما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها اذا ذكرها لأن الله تعالى يقول وأقم الصلاة لذكرى وقرئ لذكرى بألف التأنيث وللذكرى معرفا وللذكر بالتعريف والتنكير وقوله تعالى ﴿ان الساعة آتية﴾ تعليل لوجوب العبادة واقامة الصلاة أى كائنة لامحالة وانما عبر عن ذلك بالاتيان تحقيقا لحصولها بابرازها فى معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين ﴿أكاد أخفيها﴾ أى لاأظهرها بأن أقول انها آتية ولولا أن مافى الاخبار بذلك من اللطف وقطع الاعذار لمافعلت أو أكاد أظهرها بايقاعها من أخفاه اذا أظهره بسلب خفائه و يؤيده القراءة بفتح الهمزة من خفاه بمعنى أظهره وقيل أخفاه من الاضداد يجئ بمعنى الاظهار والستر وقوله تعالى ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ متعلق بآتية ومابينهما اعتراض أو بأخفيها على المعنى الاخير ومامصدرية أى لتجزى كل نفس بسعيها فى تحصيل ماذكر من الأمور المأمور بها وتخصيصه فى معرض الغاية لاتيانها مع أنه لجزاء كل نفس بماصدر عنها سواء كان سعيا فيما ذكر أو تقاعدا عنه بالمرة أو سعيا فى تحصيل مايضاده للايذان بأن المراد بالذات من اتيانها هو الاثابة بالعبادة وأما العقاب بتركها فمن مقتضيات سوء اختيار العصاة و بأن المأمور به فى قوة الوجوب والساعة فى شدة الهول والفظاعة بحيث يوجبان على كل نفس أن تسعى فى الامتثال بالامر وتجد فى تحصيل ماينجيها من الطاعات وحينئذ تحترز عن اقتراف مايرديها من المعاصى وعليه مدار الامر فى قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا فان الابتلاء مع شموله لكافة المكلفين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والاحسن فقط قد علق بالأخيرين لما ذكر من أن المقصود الاصلى من ابداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع انما هو ظهور كمال احسان المحسنين وان ذلك لكونه على أتم الوجوه الرائقة وأكمل الانحاء اللائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لايحيد أحد عن سننه المستبين بل يهتدى كل فرد الى مايرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة وانما التفاوت بينهم فى مراتبهما بحسب القوة والضعف وأما الاعراض عن ذلك والوقوع فى مهاوى الضلال فبمعزل من الوقوع فضلا عن أن ينتظم فى سلك الغاية لذلك الصنع البديع وانما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له أو مسوغ هذا و يجوز أن يراد بالسعى مطلق العمل ﴿فلا يصدنك عنها﴾ أى عن ذكر الساعة ومراقبتها وقيل عن تصديقها والاول هو

الاليق بشأن موسى عليه الصلاة والسلام وان كان النهى بطريق التهييج والالهاب وتقديم الجار والمجرور على قوله تعالى ﴿من لا يؤمن بها﴾ لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ماحقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مستشرفة له فيتمكن عند وروده لها فضل تمكن ولأن فى المؤخر نوع طول ربما يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للكافر عن صد موسى عليه الصلاة والسلام عن الساعة لكنه فى الحقيقة نهى له عليه الصلاة والسلام عن الانصداد عنها على أبلغ وجه وآكده فان النهى عن أسباب الشىء ومباديه المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وابطال للسببية من أصلها كما فى قوله تعالى ولا يجرمنكم الخ فان صد الكافر حيث كان سببا لانصداده عليه الصلاة والسلام كان النهى عنه نهيا بأصله وموجبه وابطالا له بالكلية ويجوز أن يكون من باب النهى عن المسبب وارادة النهى عن السبب على أن يراد نهيه عليه الصلاة والسلام عن اظهار لين الجانب للكفرة فان ذلك سبب لصدهم اياه عليه الصلاة والسلام كما فى قوله لا أرينك ههنا فان المراد به نهى المخاطب عن الحضور لديه الموجب لرؤيته ﴿واتبع هواه﴾ أى ماتهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية ﴿فتردى﴾ أى فتهلك فان الاغفال عنها وعن تحصيل ماينجى عن أهوالها مستتبع للهلاك لامحالة وهو فى محل النصب على جواب النهى أو فى محل الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى فأنت تردى ﴿وماتلك بيمينك ياموسى﴾ شروع فى حكاية ما كلف به عليه الصلاة والسلام من الامور المتعلقة بالخلق اثر حكاية ماأمر به من الشؤون الخاصة بنفسه فما استفهامية فى حيز الرفع بالابتداء وتلك خبره أو بالعكس وهو أدخل بحسب المعنى وأوفق بالجواب وبيمينك متعلق بمضمر وقع حالا أى وماتلك قارة أو مأخوذة بيمينك والعامل معنى الاشارة كما فى قوله عز وعلا وهذا بعلى شيخا وقيل تلك موصولة أى ماالتى هى بيمينك وأياما كان فالاستفهام ايقاظ وتنبيه له عليه الصلاة والسلام على ماسيبدو له من التعاجيب وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه ﴿قال هى عصاى﴾ نسبها الى نفسه تحقيقا لوجه كونها بيمينه وتمهيدا لما يعقبه من الافاعيل المنسوبة اليه عليه الصلاة والسلام وقرىء عصى على لغة هذيل ﴿أتوكأ عليها﴾ أى أعتمد عليها عند الاعياء أو الوقوف على رأس القطيع ﴿وأهش بها﴾ أى أخبط بها الورق وأسقطه ﴿على غنمى﴾ وقرىء أهش بكسر الهاء وكلاهما من هش الخبز يهش اذا انكسر لهشاشته وقرىء بالسين غير المعجمة وهو زجر الغنم وتعديته بعلى لتضمين معنى الانحاء والاقبال أى أزجرها منحيا ومقبلا عليها ﴿ولى فيها مآرب أخرى﴾ أى حاجات أخر من هذا الباب مثل ماروى أنه عليه الصلاة والسلام كان اذا سار ألقاها على عاتقة فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب ونحوها واذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل به واذا قصر الرشاء وصله بها واذا تعرضت لغنمه السباع قاتل بها قيل ومن جملة المآرب أنها كانت ذات شعبتين ومحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا أراد كسره لواه بالشعبتين وكانه عليه الصلاة والسلام فهم أن المقصود من السؤال بيان حقيقتها وتفصيل منافعها بطريق الاستقصاء حتى اذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة وبدت منها خواص بديعة علم أنها آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله تعالى وليست من الخواص المترتبة عليها فذكر حقيقتها ومنافعها على التفصيل والاجمال على معنى أنها من جنس العصى مستتبعة لمنافع بنات جنسها ليطابق جوابه الغرض الذى فهمه من سؤال العليم الخبير ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كانه قيل فماذا قال عز وجل فقيل قال ﴿ألقها ياموسى﴾ لترى من شأنها مالم يخطر ببالك من الامور وتكرير النداء لتأكيد التنبيه ﴿فألقاها﴾ على الارض ﴿فاذا هى حية تسعى﴾ روى أنه عليه الصلاة والسلام حين ألقاها انقلبت حية صفراء فى غلظ العصا ثم انتفخت وعظمت فلذلك شبهت بالجان تارة وسميت ثعبانا أخرى وعبر عنها ههنا بالاسم العام للحالين وقيل قد انقلبت من أول الامر ثعبان وهو

الاليق بالمقام كما يفصح عنه قوله عز وجل فاذاهى ثعبان مبين وانما شبهت بالجان فى الجلادة وسرعة الحركة لافى صغر الجثة وقوله تعالى تسعى اماصفة لحية أو خبر ثان عندمن يجوز كونه جملة ﴿قال﴾ استئناف كما سبق ﴿خذها ولا تخف﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع كل شىء من الصخر والشجر فلما رآه كذلك خاف ونفر وماملكه مايملك البشر عند مشاهدة الأهوال والمخاوف من الفزع والنفار وفى عطف النهى على الامر اشعار بأن عدم المنهى عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط وقوله تعالى ﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ مع كونه استئنافا مسوقا لتعليل الامتثال بالامر والنهى فان اعادتها الى ماكانت عليه من موجبات أخذها وعدم الخوف منها عدة كريمة باظهار معجزة أخرى على يده عليه الصلاة والسلام وايذان بكونها مسخرة له عليه الصلاة والسلام ليكون على طمأنينة من أمره ولا يعتريه شائبة تزلزل عند محاجة فرعون أى سنعيدها بعد الاخذ الى حالتها الاولى التى هى الهيئة العصوية قيل بلغ عليه الصلاة والسلام عند ذلك من الثقة وعدم الخوف الى حيث كان يدخل يده فى فمها و يأخذ بلحييها والسيرة فعلة من السير تجوز بها للطريقة والهيئة وانتصابها على نزع الجار أى الى سيرتها أو على أن أعاد منقول من عاده بمعنى عاد اليه أو على الظرفية أى سنعيدها فى طريقتها أو على تقدير فعلها وايقاعها حالا من المفعول أى سنعيدها عصا كما كانت من قبل تسير سيرتها الاولى أى سائرة سيرتها الاولى فتنتفع بها كما كنت تنتفع من قبل ﴿واضمم يدك الى جناحك﴾ أمر عليه الصلاة والسلام بذلك بعدما أخذ الحية وانقلبت عصا كما كانت أى أدخلها تحت عضدك فان جناحى الانسان جنباه كما أن جناحى العسكر ناحيتاه مستعار من جناحى الطائر وقد سميا جناحين لانه يجنحهما أى يميلهما عند الطيران وقوله تعالى ﴿تخرج﴾ جواب الامر وقوله تعالى ﴿بيضاء﴾ حال من الضمير فيه وقوله تعالى ﴿من غير سوء﴾ متعلق بمحذوف هو حال من الضمير فى بيضاء أى كائنة من غير عيب وقبح كنى به عن البرص كما كنى بالسوأة عن العورة لما أن الطباع تعافه وتنفر عنه روى أنه عليه الصلاة والسلام كان آدم فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس تغشى البصر ﴿آية أخرى﴾ أى معجزة أخرى غير العصا وانتصابها على الحالية اما من الضمير فى تخرج على أنها بدل من الحال الاولى واما من الضمير فى بيضاء وقيل من الضمير فى الجار والمجرور وقيل هى منصوبة بفعل مضمر نحو خذ أودونك وقوله تعالى ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ متعلق بمضمر ينساق اليه النظم الكريم كأنه قيل فعلنا مافعلنا من الامر والاظهار لنريك بذلك بعض آياتنا الكبرى على أن الكبرى صفة لآياتنا أو نريك بذلك من آياتنا ماهى كبرى على أن الكبرى مفعول ثان لنريك ومن آياتنا متعلق بمحذوف هو حال من ذلك المفعول وأياما كان فالآية الكبرى عبارة عن العصا واليد جميعا واما تعلقه بما دل عليه آية أى دللنا بها لنريك الخ أو بقوله تعالى واضمم أو بقوله تخرج أو بما قدر من نحو خذ ودونك كما قال بكل من ذلك قائل فيؤدى الى عراء آية العصا عن وصف الكبر فتدبر ﴿اذهب الى فرعون﴾ تخلص الى ماهو المقصود من تمهيد المقدمات السالفة فصل عما قبله من الاوامر ايذانا بأصالته أى اذهب اليه بما رأيته من الآيات الكبرى وادعه الى عبادتى وحذره نقمتى وقوله تعالى ﴿انه طغى﴾ تعليل للأمر أو لوجوب المأمور به أى جاوز الحد فى التكبر والعتو والتجبر حتى تجاسر على العظيمة التى هى دعوى الربوبية ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حين أمر بهذا الأمر الخطير والخطب العسير فقيل قال مستعينا بربه عز وجل ﴿رب اشرح لى صدرى و يسر لى أمرى﴾ لما أمر بما أمر به من الخطب الجليل تضرع الى ربه عز وجل وأظهر عجزه بقوله و يضيق صدرى و لا ينطلق لسانى وسأله تعالى أن يوسع صدره و يفسح قلبه و يجعله عليما بشؤون الحق وأحوال الخلق حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد والمكاره

بجميل الصبر وحسن الثبات و يتلقاها بصدر فسيح وجأش رابط وأن يسهل عليه مع ذلك أمره الذى هو أجل الأمور
وأعظمها وأصعب الخطوب وأهولها بتوفيق الأسباب و رفع الموانع وفى زيادة كلمة لى مع انتظام الكلام بدونها
تأكيد لطلب الشرح والتيسير بابهام المشروح والميسر أولا وتفسيرهما ثانيا و فى تقديمها وتكريرها اظهار مزيد اعتناء
بشأن كل من المطلوبين وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما له واختصاصهما به ﴿ واحلل عقدة من لسانى ﴾ روى أنه كان
فى لسانه عليه الصلاة والسلام رتة من جمرة أدخلها فاه فى صغره وذلك أن فرعون حمله ذات يوم فأخذ لحيته فنتفها لما
كان فيها من الجواهر فغضب وأمر بقتله فقالت آسية انه صبي لا يفرق بين الجمر والياقوت فأحضرا بين يديه فأخذ الجمرة
فوضعها فى فيه قيل واحترقت يده فاجتهد فرعون فى علاجها فلم تبرأ ثم لما دعاه قال الى أى رب تدعونى قال الى الذى أبرأ
يدى وقد عجزت عنه واختلف فى زوال العقدة بكمالها فمن قال به تمسك بقوله تعالى قد أوتيت سؤلك ومن لم يقل به احتج
بقوله تعالى هو أفصح منى وقوله تعالى ولا يكاد يبين وأجاب عن الاول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية بل حل عقدة
تمنع الافهام ولذلك نكرها و وصفها بقوله من لسانى أى عقدة كائنة من عقد لسانى وجعل قوله تعالى ﴿ يفقهوا قولى ﴾
جواب الامر وغرضا من الدعاء فبحلها فى الجملة يتحقق ايتاء سؤله عليه الصلاة والسلام والحق أن ماذكر لا يدل على
بقائها فى الجملة أما قوله تعالى هو أفصح منى فلانه عليه الصلاة والسلام قاله قبل استدعاء الحل كما ستعرفه على أن أفصحيته
منه عليهما الصلاة والسلام لا تستدعى بقاءها أصلا بل تستدعى عدم البقاء لما أن الافصحية توجب ثبوت أصل الفصاحة
فى المفضول أيضا وذلك مناف للعقدة رأسا وأما قوله تعالى ولا يكاد يبين فمن باب غلو اللعين فى العتو والطغيان والا لدل
على عدم زوالها أصلا وتنكيرها انما يفيد قلتها فى نفسها لا قلتها باعتبار كونها بعضا من الكثير وتعلق كلمة من فى قوله تعالى
من لسانى بمحذوف هو صفة لها ليس بمقطوع به بل الظاهر تعلقها بنفس الفعل فان المحلول اذا كان متعلقا بشىء
ومتصلا به فكما يتعلق الحل به يتعلق بذلك الشىء أيضا باعتبار ازالته عنه أو ابتداء حصوله منه ﴿ واجعل لى وزيرا
من أهلى هرون أخى ﴾ أى موازرا يعاوننى فى تحمل أعباء ما كلفته على أن اشتقاقه من الوزر الذى هو الثقل او ملجأ
أعتصم برأيه على أنه من الوزر وهو الملجأ وقيل أصله أزير من الأزر بمعنى القوة فعيل بمعنى مفاعل كالعشير والجليس
قلبت همزته واوا كقلبها فى موازر ونصبه على أنه مفعول ثان لاجعل قدم على الأول الذى هو قوله تعالى هرون اعتناء
بشأن الوزارة ولى صلة للجعل أو متعلق بمحذوف هو حال من وزيرا اذ هو صفة له فى الاصل ومن أهلى اما صفة
لوزيرا أو صلة لاجعل وقيل مفعولاه لى وزيرا وهرون عطف بيان للوزير ومن أهلى كما مر من الوجهين وأخى فى الوجهين
بدل من هرون أو عطف بيان آخر وقيل هما وزيرا من أهلى ولى تبيين كما فى قوله تعالى ولم يكن له كفوا أحد ورد بأن
شرط المفعولين فى باب النواسخ صحة انعقاد الجملة الاسمية ولا مساغ لجعل وزيرا مبتدأ ويخبر عنه بما بعده ﴿ أشدد
به أزرى وأشركه فى أمرى ﴾ كلاهما على صيغة الدعاء أى أحكم به قوتى واجعله شريكى فى أمر الرسالة حتى نتعاون على
أدائها كما ينبغى وفصل الاول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فان شد الازر عبارة عن جعله وزيرا وأما
الاشراك فى الامر فحيث كان من أحكام الوزارة توسط بينهما العاطف ﴿ كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا ﴾
غاية للادعية الثلاثة الاخيرة فان فعل فيها كل واحد منهما من التسبيح والذكر مع كونه مكثرا لفعل الآخر ومضاعفا له
بسبب انضمامه اليه مكثر له فى نفسه أيضا بسبب تقويته وتأييده اذ ليس المراد بالتسبيح والذكر ما يكون منهما
بالقلب أو فى الخلوات حتى لا يتفاوت حاله عند التعدد والانفراد بل ما يكون منهما فى تضاعيف أداء الرسالة ودعوة
المردة العتاة الى الحق وذلك مما لا ريب فى اختلاف حاله فى حالتى التعدد والانفراد فان كلا منهما يصدر عنه

بتأييد الآخر من اظهار الحق مالا يكاد يصدر عنه مثله فى حال الانفراد و كثيرا فى الموضعين نعت لمصدر محذوف أو
زمان محذوف أى ننزهك عمالا يليق بك من الصفات والأفعال التى من جملتها مايدعيه فرعون الطاغية و يقبله منه فئته
الباغية من ادعاء الشركة فى الالوهيـة ونصفك بمـا يليق بك من صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال تنزيها كثيرا أو
زمانا كثيرا من جملته زمان دعوة فرعون وأوان المحاجة معه وأما ماقيل من أن المعنى كى نصلى لك كثيرا ونحمدك ونثنى
عليـك فلا يساعده المقام ﴿انك كنت بنا بصيرا﴾ أى عالما بأحوالنا و بأن مادعوتك به ممـا يصلحنا و يفيدنا فى
تحقيق ما كلفته من اقامة مراسم الرسالة وبأن هرون نعم الردء فى أداء ما أمرت به والباء متعلقة ببصيرا قدمت عليه لمراعاة
الفواصل ﴿قال قد أوتيت سؤلك﴾ أى أعطيت سؤلك فعـل بمعنى مفعول كالخبز والأكل بمعنى المخبوز والمـأكول
والايتاء عبارة عن تعلق ارادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السلام البتة وتقديره اياها حتما فكلها حاصلة
له عليه السلام وان كان وقوع بعضها بالفعل مترقبا بعد كتيسير الأمر وشد الأزر و باعتباره قيل سنشد عضدك بأخيك
وقوله تعالى ﴿ياموسى﴾ تشريف له عليـه السلام بشرف الخطاب اثر تشريفه بشرف قبول الدعاء وقوله تعالى
﴿ولقد مننا عليك﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ماقبله و زيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول ببيان أنه
تعالى حيث أنعم عليـه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب فلان ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداع أولى
وأحرى وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أى و بالله لقد أنعمنا ﴿مرة أخرى﴾ أى فى وقت غير هذا الوقت لا
أن ذلك مؤخر عن هذا فان أخرى تأنيث آخر بمعنى غير والمرة فى الاصل اسم للمرور الواحد ثم أطلق على كل فعلة واحدة
من الفعلات متعدية كانت أو لازمة ثم شاع فى كل فرد واحد من أفراد ماله أفراد متجددة متعـددة فصار علما فى ذلك
حتى جعل معيارا لمـا فى معناه من سائر الاشياء فقيل هذا بناء المرة و يقرب منها الكرة والتارة والدفعة والمراد بها ههنا
الوقت الممتد الذى وقع فيـه ماسيأتى ذكره من المنن العظيمة الكثيرة وقوله تعالى ﴿اذ أوحينا الى أمك ما يوحى﴾
ظرف لمننا والمراد بالايحاء اما الايحاء على لسان نبى فى وقتها كقوله تعالى واذ أوحيت الى الحواريين الآية واما الايحاء
بواسطة الملك لاعلى وجه النبوة كما أوحى الى مريم واما الالهام كما فى قوله تعالى وأوحى ربك الى النحل واما الاراءة فى
المنام والمراد بمـا يوحى ماسيأتى من الأمر بقذفه فى التابوت وقذفه فى البحر أبهم أولا تهويلا له وتفخيما لشأنه ثم فسر
ليكون أقر عند النفس وقيل معناه ما ينبغى أن يوحى و لا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به وقيـل مالا يعلم الا بالوحى
وفيه انه لايلائم المعنيين الاخيرين للوحى اذ لا تفخيم لشأنه فى أن يكون ممـا لا يعلم الا بالالهام أو بالاراءة فى المنام
وأن فى قوله تعالى ﴿أن اقذفيه فى التابوت﴾ مفسرة لأن الوحى من باب القول أو مصدرية حذف منها الباء أى بأن
اقذفيه ومعنى القذف ههنا الوضع وأما فى قوله تعالى ﴿فاقذفيه فى اليم﴾ فالالقاء وهذا التفصيل هو المراد بقوله تعالى فاذا
خفت عليه فألقيه فى اليم لا القذف بلا تابوت ﴿فليلقه اليم بالساحل﴾ لمـا كان القاء البحر اياه بالساحل أمرا واجب
الوقوع لتعلق الارادة الربانية به جعـل البحر كانه ذو تمييز مطيع أمر بذلك وأخرج الجواب مخرج الامر والضمائر كلها
لموسى عليه السـلام والمقذوف فى البحر والملقى بالساحل وان كان هو التابوت أصالة لـكن لمـا كان المقصود بالذات
مافيه جعل التابوت تبعا له فى ذلك ﴿يأخذه عدو لى وعدو له﴾ جواب للامر بالالقاء وتكرير العدو للمبالغة والتصريح
بالامر والاشعار بأن عداوته له مع تحققها لا تؤثر فيـه و لا تضره بل تؤدى الى المحبة فان الامر بمـا هو سبب للهـلاك
صورة من قذفه فى البحر و وقوعه فى يد عدو الله تعالى وعدوه مشعر بأن هناك لطفا خفيا مندرجا تحت قهر صورى وقيل
الاول باعتبار الواقع والثانى باعتبار المتوقع وليس المراد بالساحل نفس الشاطىء بل ما يقابل الوسط وهو مايلى الساحل

من البحر بحيث يجرى ماؤه الى نهر فرعون لما روى أنها جعلت فى التابوت قطنا و وضعته فيه ثم قيرته و ألقته فى اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر صغير فدفعه الماء اليه فأتى به الى بركة فى البستان وكان فرعون جالسا ثمة مع آسية بنت مزاحم فأمر به فأخرج ففتح فاذا هو صبي أصبح الناس وجها فأحبه عدوالله حبا شديدا لا يكاد يتمالك الصبر عنه وذلك قوله تعالى ﴿وألقيت عليك محبة منى﴾ كلمة من متعلقه بمحذوف هو صفة لمحبة مؤكدة لما فى تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى محبة عظيمة كائنة منى قد زرعتها فى القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك و لذلك أحبك عدو الله و آله وقيل هى متعلقة بألقيت أى أحببتك ومن أحبه الله تعالى أحبته القلوب لا محالة وقوله تعالى ﴿ولتصنع على عينى﴾ متعلق بألقيت معطوف على علة له مضمرة أى ليتعطف عليك ولتربى بالحنو والشفقة بمراقبتى وحفظى أو بمضمر مؤخر هو عبارة عما قبله من القاء المحبة والجملة مبتدأة أى ولتصنع على عينى فعلت ذلك وقرىء ولتصنع على صيغة الامر بسكون اللام و كسرها وقرىء بفتح التاء والنصب أى وليكون عملك على عين منى لئلا يخالف به عن أمرى ﴿اذ تمشى أختك﴾ ظرف لتصنع على أن المراد به وقت وقع فيه مشيها الى بيت فرعون وما ترتب عليه من القول والرجع الى أمها وتربيتها له بالبر والحنو وهو المصداق لقوله تعالى ولتصنع على عينى اذ لا شفقة أعظم من شفقة الام وصنعها على موجب مراعاته تعالى وقيل هو بدل من اذ أوحينا على أن المراد به زمان متسع متباعد الاطراف وهو الانسب بما سيأتى من قوله تعالى فنجيناك من الغم الخ فان جميع ذلك من المنن الالهية ولا تعلق لشىء منها بالصنع المذكور وأما كونه ظرفا لألقيت كما جوز فربما يوهم أن القاء المحبة لم يحصل قبل ذلك ولا ريب فى أن معظم آثار القائها ظهر عند فتح التابوت ﴿فتقول﴾ أى لفرعون وآسية حين رأتهما يطلبان له عليه السلام مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثديا وصيغة المضارع فى الفعلين لحكاية الحال الماضية ﴿هل أدلكم على من يكفله﴾ أى يضمه الى نفسه و يربيه وذلك انما يكون بقبوله ثديها روى أنه فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاما فى النيل لا يرتضع ثدى امرأة واضطروا الى تتبع النساء فخرجت أخته مريم لتعرف خبره فجاءتهم متنكرة فقالت ما قالت وقالوا ما قالوا فجاءت بامه فقبل ثديها فالفاء فى قوله تعالى ﴿فرجعناك الى أمك﴾ فصيحة معربة عن محذوف قبلها يعطف عليه ما بعدها أى فقالوا دلينا عليها فجاءت بامك فرجعناك اليها ﴿كى تقر عينها﴾ بلقائك ﴿ولا تحزن﴾ أى لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك والا فزوال الحزن مقدم على السرور المعبر عنه بقرة العين فان التخلية متقدمة على التحلية وقيل ولا تحزن أنت بفقد اشفاقها ﴿وقتلت نفسا﴾ هى نفس القبطى الذى استغاثه الاسرائيلى عليه ﴿فنجيناك من الغم﴾ أى غم قتله خوفا من عقاب الله تعالى بالمغفرة ومن اقتصاص فرعون بالانجاء منه بالمهاجرة الى مدين ﴿وفتناك فتونا﴾ أى ابتليناك ابتلاء أو فتونا من الابتلاء على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز فى حجزة و بدور فى بدرة أى خلصناك مرة بعد أخرى وهو اجمال ما ناله فى سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الالاف والمشى راجلا وفقد الزاد وقد روى أن سعيد بن جبير سأل عنه ابن عباس رضى الله عنهما فقال خلصناك من محنة بعد محنة ولد فى عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة يا ابن جبير وألقته أمه فى البحر وهم فرعون بقتله وقتل قبطيا وآجر نفسه عشر سنين وضل الطريق وتفرقت غنمه فى ليلة مظلمة وكان يقول عند كل واحدة فهذه فتنة يا ابن جبير ولكن الذى يقتضيه النظم الكريم أن لا تعد اجارة نفسه وما بعدها من تلك الفتون ضرورة أن المراد بها ما وقع قبل وصوله عليه السلام الى مدين بقضية الفاء فى قوله تعالى ﴿فلبثت سنين فى أهل مدين﴾ اذ لا ريب فى أن الاجارة المذكورة وما بعدها مما وقع بعد الوصول اليهم وقد أشير بذكر لبثه عليه السلام فيهم دون وصوله

اليهم الى جميع ماقاساه عليه السلام فى تضاعيف تلك السنين العشر من فنون الشدائد والمكاره التى كل واحد منها فتنة وأى فتنة ومدين بلدة شعيب عليه الصلاة والسلام على ثمانى مراحل من مصر ﴿ثم جئت﴾ الى المكان الذى أونس فيه النار ووقع فيه النداء والجؤار وفى كلمة التراخى ايذان بأن مجيئه عليه السلام كان بعد اللتيا والتى من ضلال الطريق وتفرق الغنم فى الليلة المظلمة الشاتية وغير ذلك ﴿على قدر﴾ أى تقدير قدرته لان أكلمك وأستنبئك فى وقت قدعينته لذلك فما جئت الا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر وقيل على مقدار من الزمان يوحى فيه الى الانبياء عليهم السلام وهو رأس أربعين سنة وقوله تعالى ﴿ياموسى﴾ تشريف له عليه الصلاة والسلام وتنبيه على انتهاء الحكاية التى هى تفصيل المرة الاخرى التى وقعت قبل المرة المحكية أولا وقوله تعالى ﴿واصطنعتك لنفسى﴾ تذكير لقوله تعالى وأنا اخترتك وتمهيد لارساله عليه السلام الى فرعون مؤيدا بأخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المنن السابغة السابقة تأكيدا لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرها اللاحقة وهذا تمثيل لما خوله عز وعلا من الكرامة العظمى بتقريب الملك بعض خواصه واصطناعه لنفسه وترشيحه لبعض أموره الجليلة والعدول عن نون العظمة الواقعة فى قوله تعالى وفتناك ونظيريه السابقين تمهيد لافراد لفظ النفس اللائق بالمقام فانه أدخل فى تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص أى اصطفيتك برسالاتى و بكلامى وقوله تعالى ﴿اذهب أنت وأخوك﴾ أى وليذهب أخوك حسبما استدعيت استئناف مسوق لبيان ماهو المقصود بالاصطناع ﴿بآياتى﴾ أى بمعجزاتى التى أريتكها من اليد والعصا فانهما وان كانتا اثنتين لكن فى كل منهما آيات شتى كما فى قوله تعالى فيه آيات بينات مقام ابراهيم فان انقلاب العصا حيوانا آية وكونها ثعبانا عظيما لايقادر قدره آية أخرى وسرعة حركته مع عظم جرمه آية أخرى وكونه مع ذلك مسخرا له عليه السلام بحيث كان يدخل يده فى فمه فلا يضره آية أخرى ثم انقلابها عصا آية أخرى وكذلك اليد فان بياضها فى نفسه آية وشعاعها آية ثم رجوعها الى حالتها الاولى آية أخرى والباء للمصاحبة لا للتعدية اذ المراد ذهابهما الى فرعون ملتبسين بالآيات متمسكين بها فى اجراء أحكام الرسالة واكمال أمر الدعوة لا مجرد اذهابها وايصالها اليه ﴿ولاتنيا﴾ لاتفترا ولا تقصرا وقرىء لاتنيا بكسر التاء للاتباع ﴿فى ذكرى﴾ أى بما يليق بى من الصفات الجليلة والافعال الجميلة عند تبليغ رسالتى والدعاء الى وقيل المعنى لاتنيا فى تبليغ رسالتى فان الذكر يقع على جميع العبادات وهو أجلها وأعظمها وقيل لاتنسيانى حيثما تقلبتما واستمدا بذكرى العون والتأييد واعلما أن أمرا من الامور لا يتأتى ولايتسنى الا بذكرى ﴿اذهبا الى فرعون﴾ جمعهما فى صيغة أمر الحاضر مع غيبة هرون اذ ذاك للتغليب وكذا الحال فى صيغة النهى روى أنه أوحى الى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى عليهما السلام وقيل سمع باقباله فتلقاه ﴿انه طغى﴾ تعليل لموجب الامر والفاء فى قوله تعالى ﴿فقولا له قولا لينا﴾ لترتيب ما بعدها على طغيانه فان تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة و يلين عريكة الطغاة قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تعنفا فى قولكما وقيل القول اللين مثل هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فانها دعوة فى صورة عرض ومشورة و برده ماسيجىء من قوله تعالى فقولا انا رسولا ربك الآيتين وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى أبو العباس وأبوالوليد وأبو مرة وقيل عداه شبابا لا يهرم و يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح وملكا لا يزول الا بالموت وقرىء لينا ﴿لعله يتذكر﴾ بما بلغتماه من ذكرى و يرغب فيما رغبتماه فيه ﴿أو يخشى﴾ عقابى ومحل الجملة النصب على الحال من ضمير التثنية أى فقولا له قولا لينا راجين أن يتذكر أو يخشى وكلمة أو لمنع الخلو أى باشرا الامر مباشرة من يرجو ويطمع فى أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه وهو يجتهد بطوقه و يحتشد بأقصى وسعه وجدوى ارسالها اليه مع العلم

بحاله الزام الحجة وقطع المعذرة ﴿قالا ربنا﴾ أسند القول اليهما مع أن القائل حقيقة هو موسى عليه الصلاة والسلام بطريق التغليب ايذانا بأصالته فى كل قول وفعل وتبعية هرون عليه السلام له فى كل مايأتى و يذرو يجوز أن يكون هرون قد قال ذلك بعد تلاقيهما فحكى ذلك مع قول موسى عليه السلام عند نزول الآية كما فى قوله تعالى ياأيها الرسل كلوا من الطيبات فان هذا الخطاب قد حكى لنا بصيغة الجمع مع أن كلا من المخاطبين لم يخاطب الا بطريق الانفراد ضرورة استحالة اجتماعهم فى الوجود فكيف باجتماعهم فى الخطاب ﴿اننا نخاف أن يفرط علينا﴾ أى يعجل علينا بالعقوبة ولا يصبر الى اتمام الدعوة واظهار المعجزة من فرط اذا تقدم ومنه الفارط وفرس فارط يسبق الخيل وقرئ يفرط من أفرطه اذا حمله على العجلة أى نخاف أن يحمله حامل من الاستكبار أو الخوف على الملك أو غيرهما على المعاجلة بالعقاب ﴿أو أن يطغى﴾ أى يزداد طغيانا الى أن يقول فى شأنك مالا ينبغى لكمال جرائه وقساوته واطلاقه من حسن الادب واظهار كلمة أن مع سداد المعنى بدونه لاظهار كمال الاعتناء بالامر والاشعار بتحقق الخوف من كل منهما ﴿قال﴾ استئناف مبنى على السؤال الناشئ من النظم الكريم ولعل اسناد الفعل الى ضمير الغيبة للاشعار بانتقال الكلام من مساق الى مساق آخر فان ماقبله من الافعال الواردة على صيغة التكلم حكاية لموسى عليه السلام بخلاف ماسيأتى من قوله تعالى قلنا لا تخف انك أنت الأعلى فان ما قبله أيضا وارد بطريق الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل فماذا قال لهما ربهما عند تضرعهما اليه فقيل قال ﴿لا تخافا﴾ ما توهمتما من الامرين وقوله تعالى ﴿اننى معكما﴾ تعليل لموجب النهى ومزيد تسلية لهما والمراد بالمعية كمال الحفظ والنصرة كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿أسمع وأرى﴾ أى ما يجرى بينكما و بينه من قول وفعل فأفعل فى كل حال ما يليق بها من دفع ضر وشر وجلب نفع وخير ويجوز أن لا يقدر شئ على معنى اننى حافظكما سميعا بصيرا والحافظ الناصر اذا كان كذلك فقدتم و بلغت النصرة غايتها ﴿فأتياه﴾ أمرا باتيانه الذى هو عبارة عن الوصول اليه بعد ما أمرا بالذهاب اليه فلا تكرار وهو عطف على لاتخافا باعتبار تعليله بما بعده ﴿فقولا انا رسولا ربك﴾ أمرا بذلك تحقيقا للحق من أول الامر ليعرف الطاغية شأنهما ويبنى جوابه عليه وكذا التعرض لربوبيته تعالى له والفاء فى قوله تعالى ﴿فأرسل معنا بنى اسرائيل﴾ لترتيب مابعدها على ماقبلها فان كونهما رسولى ربه مما يوجب ارسالهم معهما والمراد بالارسال اطلاقهم من الاسر والقسر واخراجهم من تحت يده العادية لاتكليفهم أن يذهبوا معهما الى الشام كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿ولا تعذبهم﴾ أى بابقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فانهم كانوا تحت ملكة القبط يستخدمونهم فى الاعمال الصعبة الفادحة من الحفر ونقل الاحجار وغيرهما من الامور الشاقة و يقتلون ذكور أولادهم عاما دون عام و يستخدمون نساءهم وتوسيط حكم الارسال بين بيان رسالتهما و بين ذكر المجئ بآية دالة على صحتها لاظهار الاعتناء به مع مافيه من تهوين الامر على فرعون فان ارسالهم معهما من غير تعرض لنفسه وقومه بفنون التكاليف الشاقة كما هو حكم الرسالة عادة ليس مما يشق عليه كل المشقة و لأن فى بيان مجئ الآية نوع طول كما ترى فتأخير ذلك عنه مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم وأما ماقيل من أن ذلك دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم الى الايمان فكلا ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ تقرير لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة وتعليل لوجوب الارسال فان مجيئهما بالآية من جهته تعالى مما يحقق رسالتهما و يقررها و يوجب الامتثال بامرهما واظهار اسم الرب فى موضع الاضمار مع الاضافة الى ضمير المخاطب لتاكيد ماذكر من التقرير والتعليل وتوحيد الآية مع تعددها لان المراد اثبات الدعوى ببرهانها لابيان تعدد الحجة وكذلك قوله تعالى قد جئتكم ببينة وقوله تعالى أولو جئتك بشئ مبين

وأما قوله تعالى فأت بآية ان كنت من الصادقين فالظاهر أن المراد بها آية من الآيات ﴿والسلام﴾ المستتبع لسلامة الدارين من الله تعالى والملائكة وغيرهم من المسلمين ﴿على من اتبع الهدى﴾ بتصديق آيات الله تعالى الهادية الى الحق وفيه من ترغيبه فى اتباعهما على ألطف وجه مالا يخفى ﴿انا قد أوحى الينا﴾ من جهة ربنا ﴿أن العذاب﴾ الدنيوى والاخروى ﴿على من كذب﴾ أى بآياته تعالى ﴿وتولى﴾ أى أعرض عن قبولها وفيه من التلطيف فى الوعيد حيث لم يصرح بحلول العذاب به مالا مزيد عليه ﴿قال﴾ أى فرعون بعد ما أتياه و بلغاه ما أمرا به وانما طوى ذكره للايجاز والاشعار بأنهما كما أمرا بذلك سارعا الى الامتثال به من غير تلعثم و بأن ذلك من الظهور بحيث لا حاجة الى التصريح به ﴿فمن ربكما ياموسى﴾ لم يضف الرب الى نفسه و لو بطريق حكاية ما فى قوله تعالى انا رسولا ربك وقوله تعالى قد جئناك بآية من ربك لغاية عتوه ونهاية طغيانه بل أضافه اليهما لما أن المرسل لابد أن يكون ربا للرسول أو لانهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل بان قالا انا رسول رب العالمين كما وقع فى سورة الشعراء والاقتصار ههنا على ذكر ربوبيته تعالى لفرعون لكفايته فيما هو المقصود والفاء لترتيب السؤال على ما سبق من كونهما رسولى ربهما أى اذا كنتما رسولى ربكما فأخبرا من ربكما الذى أرسلكما وتخصيص النداء بموسى عليه الصلاة والسلام مع توجيه الخطاب اليهما لما أنه الاصل فى الرسالة وهرون وزيره وأما ما قيل من أن ذلك لانه قد عرف أن له عليه الصلاة والسلام رتة فأراد أن يفحمه فيرده ما شاهده منه عليه الصلاة والسلام من حسن البيان القاطع لذلك الطمع الفارغ وأما قوله ولا يكاد يبين فمن غلوه فى الخبث والدعارة كما مر ﴿قال﴾ أى موسى عليه الصلاة والسلام مجيبا له ﴿ربنا﴾ اما مبتدأ وقوله تعالى ﴿الذى أعطى كل شىء خلقه﴾ خبره أو هو خبر لمبتدا محذوف والموصول صفته وأيا ما كان فلم يريدا بضمير المتكلم أنفسهما فقط حسبما أراد اللعين بل جميع المخلوقات تحقيقا للحق و ردا عليه كما يفصح عنه ما فى حيز الصلة أى هو ربنا الذى أعطى كل شىء من الاشياء خلقه أى صورته وشكله اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع أو أعطى مخلوقاته كل شىء تحتاج هى اليه وترتفق به وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به أو أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة حيث زوج الحصان بالحجر والبعير بالناقة والرجل بالمرأة ولم يزوج شيأ من ذلك بخلاف جنسه وقرىء خلقه على صيغة الماضى على أن الجملة صفة للمضاف أو المضاف اليه وحذف المفعول الثانى اما للاقتصار على الاول أى كل شىء خلقه الله تعالى لم يحرمه من عطائه وانعامه أو للاختصار من كونه منويا مدلولا عليه بقرينة الحال أى أعطى كل شىء خلقه الله تعالى ما يحتاج اليه ﴿ثم هدى﴾ أى الى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل الى بقائه وكماله اما اختيارا كما فى الحيوانات أو طبعا كما فى الجمادات والقوى الطبيعية النباتية والحيوانية ولما كان الخلق الذى هو عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام متقدما على الهداية التى هى عبارة عن ابداع القوى المحركة والمدركة فى تلك الأجسام وسط بينهما كلمة التراخى ولقد ساق عليه الصلاة والسلام جوابه على نمط رائق وأسلوب لائق حيث بين أنه تعالى عالم قادر بالذات خالق لجميع الأشياء منعم عليها بجميع ما يليق بها بطريق التفضل وضمنه أن ارساله تعالى اياه الى الطاغية من جملة هداياته تعالى اياه بعد أن هداه الى الحق بالهدايات التكوينية حيث ركب فيه العقل وسائر المشاعر والآلات الظاهرة والباطنة ﴿قال فما بال القرون الأولى﴾ لما شاهد اللعين ما نظمه عليه الصلاة والسلام فى سلك الاستدلال من البرهان النير على الطراز الرائع خاف أن يظهر للناس حقية مقالاته عليه الصلاة والسلام و بطلان خرافات نفسه ظهورا بينا فأراد أن يصرفه عليه الصلاة والسلام عن سننه الى ما لا يعنيه من الامور التى لا تعلق لها بالرسالة من الحكايات و يشغله عما هو بصدده عسى يظهر فيه نوع غفلة فيتسلق بذلك الى أن

يدعى بين يدى قومه نوع معرفة فقال ما حال القرون الماضية والأمم الخالية وما ذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة فاجاب عليه الصلاة والسلام بأن العلم بأحوالهم مفصلة مما لا ملابسة له بمنصب الرسالة وانما علمها عند الله عز وجل وأما ما قيل من أنه سأله عن حال من خلا من القرون وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد فيأباه قوله تعالى ﴿قال علمها عند ربى﴾ فان معناه أنه من الغيوب التى لا يعلمها الا الله تعالى وانما أنا عبد لا أعلم منها الا ما علمنيه من الأمور المتعلقة بما أرسلت به ولو كان المسؤول عنه ما ذكر من الشقاوة والسعادة لأجيب ببيان أن من اتبع الهدى منهم فقد سلم ومن تولى فقد عذب حسبما نطق به قوله تعالى والسلام الآيتين ﴿فى كتاب﴾ أى مثبت فى اللوح المحفوظ بتفاصيله ويجوز أن يكون ذلك تمثيلا لتمكنه وتقرره فى علم الله عز وجل بما استحفظه العالم وقيده بالكتبة كما يلوح به قوله تعالى ﴿لا يضل ربى ولا ينسى﴾ أى لا يخطىء ابتداء ولا يذهب علمه بقاء بل هو ثابت أبدا فانهما محالان عليه سبحانه وهو على الأول لبيان أن اثباته فى اللوح ليس لحاجته تعالى اليه فى العلم به ابتداء أو بقاء واظهار ربى فى موقع الاضمار للتلذذ بذكره ولزيادة التقرير والاشعار بعلة الحكم فان الربوبية مما يقتضى عدم الضلال والنسيان حتما ولقد أجاب عليه الصلاة والسلام عن السؤال بجواب عبقرى بديع حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها مع أنه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شؤنه تعالى ثم تخلص اليه حيث قال بطريق الحكاية عن الله عز وجل لما سيأتى من الالتفات ﴿الذى جعل لكم الأرض مهدا﴾ على أن الموصول اما مرفوع على المدح أو منصوب عليه أو خبر مبتدا محذوف أى جعلها لكم كالمهد تتمهدونها أو ذات مهد وهو مصدر سمى به المفعول وقرىء مهادا وهو اسم لما يمهد كالفراش أو جمع مهد أى جعل كل موضع منها مهدا لكل واحد منكم ﴿وسلك لكم فيها سبلا﴾ أى حصل لكم طرقا و وسطها بين الجبال والأودية والبرارى تسلكونها من قطر الى قطر لتقضوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها ﴿وأنزل من السماء ماء﴾ هو المطر ﴿فأخرجنا به﴾ أى بذلك الماء وهو عطف على أنزل داخل تحت الحكاية وانما التفت الى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة والايذان بأنه لا يتأتى الا من قادر مطاع عظيم الشأن تنقاد لأمره وتذعن لمشيئته الأشياء المختلفة كما فى قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها وقوله تعالى أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة خلا أن ما قبل الالتفات هناك صريح كلامه تعالى وأما ههنا فحكاية عنه تعالى وجعل قوله تعالى فاخرجنا به هو المحكى مع كون ماقبله كلام موسى عليه الصلاة والسلام خلاف الظاهر مع أنه يفوت حينئذ الالتفات لعدم اتحاد المتكلم ﴿أزواجا﴾ أصنافا سميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض ﴿من نبات﴾ بيان أو صفة لأزواجا أى كائنة من نبات و كذا قوله تعالى ﴿شتى﴾ أى متفرقة جمع شتيت و يجوز أن يكون صفة لنبات لما أنه فى الاصل مصدر يستوى فيه الواحد والجمع يعنى أنها شتى مختلفة فى الطعم والرائحة والشكل والنفع بعضها صالح للناس على اختلاف وجوه الصلاح و بعضها للبهائم فان من تمام نعمته تعالى أن أرزاق عباده لما كان تحصلها بعمل الانعام جعل علفها مما يفضل عن حاجاتهم ولا يليق بكونه طعاما لهم وقوله تعالى ﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾ حال من ضمير فاخرجنا على ارادة القول أى أخرجنا منها أصناف النبات قائلين كلوا وارعوا أنعامكم أى معديها لانتفاعكم بالذات و بالواسطة آذنين فى ذلك ﴿ان فى ذلك﴾ اشارة الى ماذكر من شؤنه تعالى وأفعاله وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته و بعد منزلته فى الكمال والتنكير فى قوله تعالى ﴿لآيات﴾ للتفخيم كما وكيفا أى لآيات كثيرة جليلة واضحة الدلالة على شؤن الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله وعلى صحة نبوة موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام ﴿لأولى النهى﴾ جمع نهية سمى بها العقل لنهيه عن اتباع الباطل

وارتكاب القبائح كما سمى بالعقل والحجر لعقله وحجره عن ذلك أى لذوى العقول الناهية عن الاباطيل التى من جملتها ما يدعيه الطاغية و يقبله منه فئته الباغية وتخصيص كونها آيات بهم مع أنها آيات للعالمين باعتبار أنهم المنتفعون بها ﴿منها خلقناكم﴾ أى فى ضمن خلق أبيكم آدم عليه الصلاة و السلام منها فان كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه الصلاة والسلام اذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه عليه الصلاة والسلام بل كانت أنموذجا منطو يا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه الصلاة و السلام منها خلقا للكل منها وقيل المعنى خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة من الاغذية المتولدة من الارض بوسائط وقيل ان الملك الموكل بالرحم يأخذ من تربة المكان الذى يدفن فيه المولود فيبددها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة ﴿وفيها نعيدكم﴾ بالاماتة وتفريق الاجزاء وايثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على الاستقرار المديد فيها ﴿ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ورد الارواح اليها و كون هذا الاخراج تارة أخرى باعتبار أن خلقهم من الارض اخراج لهم منها وان لم يكن على نهج التارة الثانية والتارة فى الاصل اسم للتور الواحد وهو الجريان ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتجددة كما مر فى المرة ﴿ولقد أريناه﴾ حكاية اجمالية لما جرى بين موسى عليه الصلاة و السلام و بين فرعون اثر حكاية ما ذكره عليه الصلاة والسلام بجلائل نعمائه الداعية له الى قبول الحق والانقياد له وتصديرها بالقسم لابراز كمال العناية بمضمونها واسناد الاراءة الى نون العظمة نظرا الى الحقيقة لا الى موسى نظرا الى الظاهر لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها واظهار كمال شناعة اللعين وتماديه فى المكابرة والعناد أى وبالله لقد بصرنا فرعون أو عرفناه ﴿آياتنا﴾ حين قال لموسى عليه الصلاة والسلام ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار ما فى تضاعيفهما من بدائع الامور التى كل منها آية بينة لقوم يعقلون حسبما بين فى تفسير قوله تعالى اذهب أنت وأخوك بآياتى وقد ظهر عند فرعون أمور أخر كل واحد منها داهية دهياء فانه روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ألقاها انقلبت ثعبانا أشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الاسفل على الارض والاعلى على سور القصر وتوجه نحو فرعون فهرب وأحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفا من قومه فصاح فرعون ياموسى أنشدك بالذى أرسلك الا أخذته فأخذه فعاد عصا وروى أنها انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون و جعلت تقول ياموسى مرنى بما شئت و يقول فرعون أنشدك الخ ونزع يده من جيبه فاذا هى بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن حدود العادات قد غلب شعاعه شعاع الشمس يجتمع عليه النظارة تعجبا من أمره ففى تضاعيف كل من الآيتين آيات جمة لكنها لما كانت غير مذكورة صراحة أكدت بقوله تعالى ﴿كلها﴾ كانه قيل أريناه آياتنا بجميع مستتبعاتهما وتفاصيلهما قصدا الى بيان أنه لم يبق له فى ذلك عذر ما ولا مساغ لعد بقية الآيات التسع منها لما أنها انما ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرة على مهل فى نحو من عشرين سنة كما مر فى تفسير سورة الاعراف ولا ريب فى أن أمر السحرة مترقب بعد وأبعد من ذلك أن يعد منها ما جعل لاهلاكهم لا لارشادهم الى الايمان من فلق البحر وما ظهر بعد مهلكه من الآيات الظاهرة لبنى اسرائيل من نتق الجبل والحجر سواء أريد به الحجر الذى فر بثوبه أو الذى انفجرت منه العيون وكذا أن يعد منها الآيات الظاهرة على يد الانبياء عليهم الصلاة والسلام بناء على أن حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون فى حكم اظهارها بين يديه واراءته اياها لاستحالة الكذب عليه عليه الصلاة والسلام فان حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون مما لم

يجر ذكره ههنا على أن ما سيأتى من حمل ما أظهره عليه الصلاه والسلام على السحر والتصدى للمعارضة بالمثل يأباه اباء بينا و ينطق بأن المراد بها ماذكرناه قطعا ولولا ذلك لجاز جعل ما فصله عليه الصلاة والسلام من أفعاله تعالى الدالة على اختصاصه بالربوبية وأحكامها من جملة الآيات ﴿فكذب﴾ موسى عليه الصلاة والسلام من غير تردد وتأخر مع ماشاهد فى يده من الشواهد الناطقة بصدقه جحودا وعنادا ﴿وأبى﴾ الايمان والطاعة لعتوه واستكباره وقيل كذب بالآيات جميعا وأبى أن يقبل شيأ منها أو أبى قبول الحق وقوله تعالى ﴿قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى﴾ استئناف مبين لكيفية تكذيبه وابائه والهمزة لانكار الواقع واستقباحه وادعاء أنه أمر محال والمجىء اما على حقيقته أو بمعنى الاقبال على الأمر والتصدى له أى أجئتنا من مكانك الذى كنت فيه بعد ماغبت عنا أو أقبلت علينا لتخرجنا من مصر بما أظهرته من السحر فان ذلك مما لا يصدر عن العاقل لكونه من باب محاولة المحال وانما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه الصلاة والسلام بابراز أن مراده عليه الصلاة والسلام ليس مجرد انجاء بنى اسرائيل من أيديهم بل اخراج القبط من وطنهم وحيازة أموالهم وأملاكهم بالكلية حتى لا يتوجه الى اتباعه أحد و يبالغوا فى المدافعة والمخاصمة وسمى ماأظهره عليه الصلاة والسلام من المعجزة الباهرة سحرا لتجسيرهم على المقابلة ثم ادعى أنه يعارضه بمثل ماأتى به عليه الصلاة والسلام فقال ﴿فلنأتينك بسحر مثله﴾ الفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها واللام جواب قسم محذوف كأنه قيل اذا كان كذلك فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك ﴿فاجعل بيننا و بينك موعدا﴾ أى وعدا كما ينبىء عنه وصفه بقوله تعالى ﴿لانخلفه﴾ فانه المناسب لا المكان والزمان أى لانخالف ذلك الوعد ﴿نحن ولا أنت﴾ وانما فوض اللعين أمر الوعد الى موسى عليه الصلاة والسلام للاحتراز عن نسبته الى ضعف القلب وضيق المجال واظهار الجلادة واراءة أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة وترتيب آلات المغالبة طال الأمد أم قصر كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه الصلاة والسلام وتوسيط كلمة النفى بينهما للايذان بمسارعته الى عدم الاخلاف وأن عدم اخلافه لايوجب عدم اخلافه عليه الصلاة والسلام ولذلك أكد النفى بتكرير حرفه وانتصاب ﴿مكانا سوى﴾ بفعل يدل عليه المصدر لابه فانه موصوف أو بأنه بدل من موعدا على تقدير مكان مضاف اليه فحينئذ تكون مطابقة الجواب فى قوله تعالى ﴿قال موعدكم يوم الزينة﴾ من حيث المعنى فان يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه يومئذ أو باضمار مثل مكان موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الأول أو وعدكم وعد يوم الزينة وقرىء يوم بالنصب وهو ظاهر فى أن المراد به المصدر ومعنى سوى منتصفا تستوى مسافته الينا واليك وهو فى النعت كقولهم قوم عدى فى الشذوذ وقرىء بكسر السين قيل يوم الزينة يوم عاشوراء أو يوم النيروز أو يوم عيد كان لهم فى كل عام وانما خصه عليه الصلاة والسلام بالتعيين لاظهار كمال قوته وكونه على ثقة من أمره وعدم مبالاته بهم لما أن ذلك اليوم وقت ظهور غاية شوكتهم وليكون ظهور الحق وزهوق الباطل فى يوم مشهود على رؤس الاشهاد و يشيع ذلك فيمابين كل حاضر و باد ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ عطف على يوم أو الزينة وقرىء على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون و بالياء على أن الضمير له على سنن الملوك أو لليوم ﴿فتولى فرعون﴾ أى انصرف عن المجلس ﴿فجمع كيده﴾ أى مايكاد به من السحرة وأدواتهم ﴿ثم أتى﴾ أى الموعد ومعه ماجمعه من كيده وفى كلمة التراخى ايماء الى أنه لم يسارع اليه بل أتاه بعد لأى وتلعثم وقوله تعالى ﴿قال لهم موسى﴾ الخ بطريق الاستئناف المبنى على السؤال يقضى بأن المترقب من أحواله عليه الصلاة والسلام حينئذ والمحتاج الى السؤال والبيان ليس الا ماصدر عنه عليه الصلاة والسلام من الكلام وأما اتيانه أو لا فأمر محقق غنى عن التصريح به كأنه قيل فماذا صنع موسى

عليه الصلاة والسلام عند اتيان فرعون بمن جمعه من السحرة فقيل قال لهم بطريق النصيحة ﴿ ويلكم لاتفتروا على الله كذبا ﴾ بأن تدعوا آياته التى ستظهر على يدى سحرا كما فعل فرعون ﴿ فيسحتكم ﴾ أى يستأصلكم بسببه ﴿ بعذاب ﴾ هائل لايقادر قدره وقرئ يسحتكم من الثلاثى على لغة أهل الحجاز والاسحات لغة بنى تميم ونجد ﴿ وقد خاب من افترى ﴾ أى على الله كائنا من كان بأى وجه كان فيدخل فيه الافتراء المنهى عنه دخولا أوليا أو وقد خاب فرعون المفترى فلا تكونوا مثله فى الخيبة والجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبلها ﴿ فتنازعوا ﴾ أى السحرة حين سمعوا كلامه عليه الصلاة والسلام كأن ذلك غاظهم فتنازعوا ﴿ أمرهم ﴾ الذى أريد منهم من مغالبته عليه الصلاة والسلام وتشاوروا وتناظروا ﴿ بينهم ﴾ فى كيفية المعارضة وتجاذبوا أهداب القول فى ذلك ﴿ وأسروا النجوى ﴾ أى من موسى عليه الصلاة والسلام لئلا يقف عليه فيدافعه وكان نجواهم مانطق به قوله تعالى ﴿ قالوا ﴾ أى بطريق التناجى والاسرار ﴿ ان هذان لساحران ﴾ الخ فانه تفسير له ونتيجة لتنازعهم وخلاصة مااستقرت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور وان مخففة من ان قد أهملت عن العمل واللام فارقة وقرئ بتشديد نون هذان وقيل هى نافية واللام بمعنى الا أى ماهذان الا ساحران وقرئ ان بالتشديد وهذان اسمها على لغة بلحارث بن كعب فانهم يعربون التثنية تقديرا وقيل اسمها ضمير الشأن المحذوف وهذان لساحران خبرها وقيل ان بمعنى نعم وما بعدها جملة من مبتدا وخبر وفيهما أن اللام لاتدخل خبر المبتدا وقيل أصله انه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكد باللام لايليق به الحذف وقرئ ان هذين لساحران وهى قراءة واضحة ﴿ يريدان أن يخرجاكم من أرضكم ﴾ أى أرض مصر بالاستيلاء عليها ﴿ بسحرهما ﴾ الذى أظهراه من قبل ﴿ ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ أى بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب وأمثلها باظهار مذهبهما واعلاء دينهما يريدون به ما كان عليه قوم فرعون لاطريقة السحر فانهم ما كانوا يعتقدونه دينا وقيل أرادوا أهل طريقتكم وهم بنو اسرائيل لقول موسى عليه الصلاة والسلام أرسل معنا بنى اسرائيل وكانوا أرباب علم فيما بينهم ويأباه أن اخراجهم من أرضهم انما يكون بالاستيلاء عليها تمكنا وتصرفا فكيف يتصور حينئذ نقل بنى اسرائيل الى الشأم وحمل الاخراج على اخراج بنى اسرائيل منها مع بقاء قوم فرعون على حالهم مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله على أن هذه المقالة منهم للاغراء بالمبالغة فى المغالبة والاهتمام بالمناصبة فلابد أن يكون الانذار والتحذير بأشد المكاره وأشقها عليهم ولا ريب فى أن اخراج بنى اسرائيل من بينهم والذهاب بهم الى الشأم وهم آمنون فى ديارهم ليس فيه كثير محذور وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم لما أنهم قدوة لغيرهم ولا يخفى أن تخصيص الاذهاب بهم مما لامزية فيه وقوله تعالى ﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ تصريح بالمطلوب اثر تمهيد المقدمات والفاء فصيحة أى اذا كان الأمر كما ذكر من كونهما ساحرين يريدان بكم ماذكر من الاخراج والاذهاب فأزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعا عليه بحيث لايتخلف عنه واحد منكم وارموا عن قوس واحدة وقرئ فاجمعوا من الجمع ويعضده قوله تعالى فجمع كيده أى فاجمعوا أدوات سحركم ورتبوها كما ينبغى ﴿ ثم ائتوا صفا ﴾ أى مصطفين أمروا بذلك لأنه أهيب فى صدور الرائين وأدخل فى استجلاب الرهبة من المشاهدين قيل كانوا سبعين ألفا مع كل منهم حبل وعصا وأقبلوا عليه اقبالة واحدة وقيل كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط والباقى من بنى اسرائيل وقيل تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقيل خمسة عشر ألفا وقيل بضعة وثلاثين ألفا والله أعلم ولعل الموعد كان مكانا متسعا خاطبهم موسى عليه الصلاة والسلام بما ذكر فى قطر من أقطاره وتنازعوا أمرهم فى قطر آخر منه ثم أمروا بأن يأتوا وسطه على الوجه المذكور وقد فسر الصف بالمصلى لاجتماع الناس فيه فى الاعياد والصلوات

و وجه صحته أن يكون علما لموضع معين من المكان الموعود وأما ارادة مصلى من المصليات بعد تعين المكان الموعود فلا مساغ لها قطعا وقوله تعالى ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ اعتراض تذييلي من قبلهم مؤكد لما قبله من الأمرين أى قد فاز بالمطلوب من غلب يريدون بالمطلوب ماوعدهم فرعون من الأجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى قال نعم وانكم لمن المقربين و بمن غلب أنفسهم جميعا على طريقة قولهم بعزة فرعون انا لنحن الغالبون أو من غلب منهم حثالهم على بذل المجهود فى المغالبة هذا هو اللائق بتجاوب أطراف النظم الكريم وقد قيل كان نجواهم أن قالوا حين سمعوا مقالة موسى عليه الصلاة والسلام ماهذا بقول ساحر وقيل كان ذلك أن قالوا ان غلبنا موسى اتبعناه وقيل كان ذلك قولهم ان كان ساحرا فسنغلبه وان كان من السماء فله أمر فيكون اسرارهم حينئذ من فرعون وملئه ويحمل قولهم ان هذان لساحران الخ على أنهم اختلفوا فيما بينهم على الأقاويل المذكورة ثم رجعوا عن ذلك بعد التنازع والتناظر واستقرت آراؤهم على ذلك وأبوا الا المناصبة للمعارضة وأما جعل ضمير قالوا لفرعون وملئه على أنهم قالوا ذلك للسحرة ردا لهم عن الاختلاف وأمروهم بالاجماع والازماع واظهار الجلادة بالاتيان على وجه الاصطفاف فمخل بجزالة النظم الكريم كما يشهد به الذوق السليم ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على سؤال ناشئ من حكاية ماجرى بين السحرة من المقاولة كأنه قيل فماذا فعلوا بعد ماقالوا فيما بينهم ماقالوا فقيل قالوا ﴿ياموسى﴾ وانما لم يتعرض لاجماعهم واتيانهم بطريق الاصطفاف اشعارا بظهور أمرهما وغناهما عن البيان ﴿اما أن تلقى﴾ أى ماتلقيه أولا على أن المفعول محذوف لظهوره أو تفعل الالقاء أولا على أن الفعل منزل منزلة اللازم ﴿واما أن نكون أول من ألقى﴾ مايلقيه أو أول من يفعل الالقاء خيروه عليه الصلاة والسلام بما ذكر مراعاة للادب لما رأوا منه عليه الصلاة والسلام مارأوا من مخايل الخير و رزانة الرأى واظهارا للجلادة باراءة أنه لايختلف حالهم بالتقديم والتأخير وأن مع مافى حيزها منصوب بفعل مضمر أو مرفوع بخبرية مبتدأ محذوف أى اختر القاءك أولا أو القاءنا أو الأمر اما القاؤك أو القاؤنا ﴿قال﴾ استئناف كما سلف ناشئ من حكاية تخيير السحرة اياه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام فقيل قال ﴿بل ألقوا﴾ أنتم أولا مقابلة للادب بأحسن من أدبهم حيث بت القول بالقائهم أولا واظهارا لعدم المبالاة بسحرهم ومساعدة لما أوهموا من الميل الى البدء وليبرزوا مامعهم و يستفرغوا أقصى جهدهم و يستنفدوا أقصارى وسعهم ثم يظهر الله عز وجل سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه لما علم أن ما سيظهر بيده سيلقف ما يصنعون من مكايد السحر ﴿فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى﴾ الفاء فصيحة معربة عن مسارعتهم الى الالقاء كما فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فألقوا فاذا حبالهم وهى للمفاجأة والتحقيق أنها أيضا ظرفية تستدعى متعلقا ينصبها وجملة تضاف اليها لكنها خصت بكون متعلقها فعل المفاجأة والجملة ابتدائية والمعنى فألقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت أن يخيل اليه سعى حبالهم وعصيهم من سحرهم وذلك أنهم كانوا لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت فخيل اليه أنها تتحرك وقرئ تخيل بالتاء على اسناده الى ضمير الحبال والعصى وابدال أنها تسعى منه بدل اشتمال وقرئ يخيل باسناده اليه تعالى وقرئ تخيل بحذف احدى التاءين من تتخيل ﴿فأوجس فى نفسه خيفة موسى﴾ أى أضمر فيها بعض خوف من مفاجأته بمقتضى البشرية المجبولة على النفرة من الحيات والاحتراز من ضررها المعتاد من اللسع ونحوه وقيل من أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه وليس بذاك كما ستعرفه وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل ﴿قلنا لا تخف﴾ أى ما توهمت ﴿انك أنت الأعلى﴾ تعليل لما يوجبه النهى من الانتهاء عن الخوف وتقرير لغلبته على أبلغ وجه وآكده كما يعرب عنه الاستئناف وحرف التحقيق

وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو المنبئ عن الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل ﴿وألق ما فى يمينك﴾ أى عصاك كما وقع فى سورة الأعراف وانما أوثر الابهام تهويلا لامرها وتفخيما لشأنها وايذانا بأنها ليست من جنس العصى المعهودة المستتبعة للآثار المعتادة بل خارجة عن حدود سائر أفراد الجنس مبهمة الكنه مستتبعة لآثار غريبة وعدم مراعاة هذه النكتة عند حكاية الأمر فى موضع آخر لا يستدعى عدم مراعاتها عند وقوع المحكى هذا وحمل الابهام على التحقير بأن يراد لاتبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الذى فى يدك فانه بقدرة الله تعالى يلقفها مع وحدته وكثرتها وصغره وعظمها يأباه ظهور حالها فيما مر مرتين على أن ذلك المعنى انما يليق بما لو فعلت العصا ما فعلت وهى على هيئتها الأصلية وقد كان منها ما كان وقوله تعالى ﴿تلقف ما صنعوا﴾ بالجزم جوابا للامر من لقفه اذا ابتلعه والتقمه بسرعة والتأنيث لكون ماعبارة عن العصا أى تبتلع ما صنعوه من الحبال والعصى التى خيل اليك سعيها وخفتها والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير والايذان بالتمويه والتزوير وقرئ تلقف بتشديد القاف واسقاط احدى التاءين من تتلقف وقرئ بالرفع على الحال أو الاستئناف والجملة الامرية معطوفة على النهى متممة بما فى حيزها لتعليل موجبه ببيان كيفية غلبته عليه الصلاة والسلام وعلوه فان ابتلاع عصاه لاباطيلهم التى منها أوجس فى نفسه ما أوجس مما يقلع مادته بالكلية وهذا كما ترى صريح فى أن خوفه عليه الصلاة والسلام لم يكن مما ذكر من مخالجة الشك للناس وعدم اتباعهم له عليه الصلاة والسلام والا لعلل بما يزيله من الوعد بما يوجب ايمانهم واتباعهم له عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى ﴿ان ماصنعوا﴾ الخ تعليل لقوله تعالى تلقف ماصنعوا وماامام وصولة أو موصوفة أى ان الذى صنعوه أو ان شيأ صنعوه ﴿كيدساحر﴾ بالرفع على أنه خبر لان أى كيد جنس الساحر وتنكيره للتوسل به الى تنكير ما أضيف اليه للتحقير وقرئ بالنصب على أنه مفعول صنعوا وما كافة وقرئ كيد سحر على أن الاضافة للبيان كما فى علم فقه أو على معنى ذى سحر أو على تسمية الساحر سحرا مبالغة وقوله تعالى ﴿ولا يفلح الساحر﴾ أى هذا الجنس ﴿حيث أتى﴾ أى حيث كان وأين أقبل من تمام التعليل وعدم التعرض لشأن العصا وكونها معجزة الهية مع مافى ذلك من تقوية التعليل للايذان بظهور أمرها والفاء فى قوله تعالى ﴿فألقى السحرة سجدا﴾ كما سلف فصيحة معربة عن محذوفين ينساق اليهما النظم الكريم غنيين عن التصريح بهما لعدم احتمال تردد موسى عليه السلام فى الامتثال بالأمر واستحالة عدم وقوع اللقف الموعود أى فألقاه عليه السلام فوقع ماوقع من اللقف فألقى السحرة سجدا لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر وانما هى آية من آيات الله عز وجل روى أن رئيسهم قال كنا نغلب الناس وكانت الآلات تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فأين ما ألقيناه من الآلات فاستدل بتغير أحوال الأجسام على الصانع القادر العالم وبظهور ذلك على يد موسى عليه الصلاة والسلام على صحة رسالته لاجرم ألقاهم ما شاهدوه على وجوههم وتابوا وآمنوا وأتوا بما هو غاية الخضوع قيل لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار والثواب والعقاب وعن عكرمة لما خروا سجدا أراهم الله تعالى فى سجودهم منازلهم فى الجنة ولا ينافيه قولهم انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا الخ لأن كون تلك المنازل منازلهم باعتبار صدور هذا القول عنهم ﴿قالوا﴾ استئناف كما مر غير مرة ﴿آمنا برب هرون وموسى﴾ تأخير موسى عند حكاية كلامهم لرعاية الفواصل وقد جوز أن يكون ترتيب كلامهم أيضا هكذا اما لكبر سن هرون عليه الصلاة والسلام واما للمبالغة فى الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه حيث كان فرعون ربى موسى عليه الصلاة والسلام فى صغره فلو قدموا موسى عليه الصلاة والسلام لربما توهم اللعين وقومه من أول الأمر أن مرادهم فرعون ﴿قال﴾ أى فرعون للسحرة ﴿آمنتم له﴾ أى لموسى عليه الصلاة والسلام واللام لتضمين الفعل معنى الاتباع وقرئ

على الاستفهام التوبيخى ﴿قبل أن آذن لكم﴾ أى من غير أن آذن لكم فى الايمان له كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى لا أن اذنه لهم فى ذلك واقع بعده أو متوقع ﴿انه﴾ يعنى موسى عليه الصلاة والسلام ﴿لكبيركم﴾ أى فى فنكم وأعلمكم به وأستاذكم ﴿الذى علمكم السحر﴾ فتواطأتم على مافعلتم أو فعلمكم شيأ دون شىء فلذلك غلبكم وهذه شبهة زورها اللعين وألقاها على قومه وأراهم أن أمر الايمان منوط باذنه فلما كان ايمانهم بغير اذنه لم يكن معتدا به وأنهم من تلامذته عليه الصلاة والسلام فلا عبرة بما أظهره كما لا عبرة بما أظهروه وذلك لما اعتراه من الخوف من اقتداء الناس بالسحرة فى الايمان بالله تعالى ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد حيث قال ﴿فلأقطعن﴾ أى فوالله لاقطعن ﴿أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أى اليد اليمنى والرجل اليسرى ومن ابتدائية كان القطع ابتداء من مخالفة العضو العضو فان المبتدىء من المعروض مبتدىء من العارض أيضا وهى مع مجرورها فى حيز النصب على الحالية أى لاقطعنها مختلفات وتعيين تلك الحال للايذان بتحقيق الأمر وايقاعه لامحالة بتعيين كيفيته المعهودة فى باب السياسة لالأنها أفظع من غيرها ﴿ولأصلبنكم فى جذوع النخل﴾ أى عليها وايثار كلمة فى للدلالة على ابقائهم عليها زمانا مديدا تشبيها لاستمرارهم عليها باستقرار المظروف فى الظرف المشتمل عليه قالوا وهو أول من صلب وصيغة التفعيل فى الفعلين للتكثير وقد قرئا بالتخفيف ﴿ولتعلمن أينا﴾ يريد به نفسه وموسى عليه الصلاة والسلام لقوله آمنتم له قبل أن آذن لكم واللام مع الايمان فى كتاب الله تعالى لغيره تعالى وهذا اما القصد توضيع موسى عليه الصلاة والسلام والهزء به لأنه لم يكن من التعذيب فى شىء واما لاراءة أن ايمانهم لم يكن عن مشاهدة المعجزة ومعاينة البرهان بل كان عن خوف من قبل موسى عليه الصلاة والسلام حيث رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعصيهم فخافوا على أنفسهم أيضا وقيل يريد به رب موسى الذى آمنوا به بقولهم آمنا برب هرون وموسى ﴿أشد عذابا وأبقى﴾ أى أدوم ﴿قالوا﴾ غير مكترثين بوعيده ﴿لن نؤثرك﴾ لن نختارك بالايمان والاتباع ﴿على ماجاءنا﴾ من الله على يد موسى عليه الصلاة والسلام ﴿من البينات﴾ من المعجزات الظاهرة فان ماظهر بيده عليه الصلاة والسلام من العصا كان مشتملا على معجزات جمة كما مر تحقيقه فيما سلف فانهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائقها ﴿والذى فطرنا﴾ أى خلقنا وسائر المخلوقات وهو عطف على ماجاءنا وتأخيره لان مافى ضمنه آية عقلية نظرية وماشاهدوه آية حسية ظاهرة وايراده تعالى بعنوان فاطريته تعالى لهم للاشعار بعلة الحكم فان خالقيته تعالى لهم وكون فرعون من جملة مخلوقاته مما يوجب عدم ايثارهم له عليه سبحانه وتعالى وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله آمنتم له قبل أن آذن لكم وقيل هو قسم محذوف الجواب لدلالة المذكور عليه أى وحق الذى فطرنا لانؤثرك الخ ولا مساغ لكون المذكور جوابا له عند من يجوز تقديم الجواب أيضا لما أن القسم لايجاب بلن الا على شذوذ وقوله تعالى ﴿فاقض ما أنت قاض﴾ جواب عن تهديده بقوله لاقطعن الخ أى فاصنع ما أنت صانعه أو فاحكم ما أنت حاكم به وقوله تعالى ﴿انما تقضى هذه الحيوة الدنيا﴾ مع ما بعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد مما سبق من الامر بالقضاء أى انما تصنع ماتهواه أو تحكم بما تراه فى هذه الحياة الدنيا فحسب ومالنا من رغبة فى عذبها ولا رهبة من عذابها ﴿انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا﴾ التى اقترفنا فيها من الكفر والمعاصى ولا يؤاخذنا بها فى الدار الآخرة لا ليمتعنا بتلك الحياة الفانية حتى نتأثر بما أوعدتنا به من القطع والصلب وقوله تعالى ﴿وما أكرهتنا عليه من السحر﴾ عطف على خطايانا أى ويغفر لنا السحر الذى عملناه فى معارضة موسى عليه الصلاة والسلام باكراهك وحشرك ايانا من المدائن القاصية خصوه بالذكر مع اندراجه فى خطاياهم اظهارا لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم فى مغفرته وذكر الاكراه للايذان بأنه مما يجب أن يفرد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالاكراه وفيه نوع اعتذار

استجلاب المغفرة وقيل أرادوا الاكراه على تعلم السحر حيث روى أن رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين الثانى منهم من القبط والباقى من بنى اسرائيل وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر وقيل انه أكرههم على المعارضة حيث روى أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ما هذا بسحر فان الساحر اذا نام بطل سحره فأبى الا أن يعارضوه ويأباه تصديهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يعرب عنه قولهم أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين وقولهم بعزة فرعون انا لنحن الغالبون ﴿والله خير﴾ أى فى حد ذاته وهو ناظر الى قولهم والذى فطرنا ﴿وأبقى﴾ أى جزاء ثوابا كان أو عذابا أو خير ثوابا وأبقى عذابا وقوله تعالى ﴿انه﴾ الى آخر الشرطيتين تعليل من جهتهم لكونه تعالى خيرا وأبقى جزاء وتحقيق له وابطال لما ادعاه فرعون وتصديرهما بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونهما لأن مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره مع ما فيه من زيادة التقرير فان الضمير لا يفهم منه من أول الأمر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن كأنه قيل ان الشأن الخطير هذا أى قوله تعالى ﴿من يأت ربه مجرما﴾ بأن مات على الكفر والمعاصى ﴿فان له جهنم لا يموت فيها﴾ فينتهى عذابه وهذا تحقيق لكون عذابه أبقى ﴿ولا يحيا﴾ حياة ينتفع بها ﴿ومن يأته مؤمنا﴾ به تعالى وبما جاء من عنده من المعجزات التى من جملتها ما شاهدناه ﴿قد عمل الصالحات﴾ الصالحة كالحسنة جارية مجرى الاسم ولذلك لا تذكر غالبا مع الموصوف وهى كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والنقل ﴿فأولئك﴾ اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم أى فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات ﴿لهم﴾ بسبب ايمانهم وأعمالهم الصالحة ﴿الدرجات العلى﴾ أى المنازل الرفيعة وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار الايمان المجرد عن العمل الصالح فى استتباع الثواب لأن ما نيط بالايمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا بالثواب مطلقا وهل التشاجر الا فيه ﴿جنات عدن﴾ بدل من الدرجات العلى أو بيان وقدمر أن عدنا علم لمعنى الاقامة أو لأرض الجنة فقوله تعالى ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ حال من الجنات وقوله تعالى ﴿خالدين فيها﴾ حال من الضمير فى لهم والعامل معنى الاستقرار أو الاشارة ﴿وذلك﴾ اشارة الى ما أتيح لهم من الفوز بما ذكر من الدرجات العلى ومعنى البعد لما مر من التفخيم ﴿جزاء من تزكى﴾ أى تطهر من دنس الكفر والمعاصى بما ذكر من الايمان والأعمال الصالحة وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى وتقديم ذكر حال المجرم للمسارعة الى بيان أشدية عذابه ودوامه ردا على ما ادعاه فرعون بقوله أينا أشد عذابا وأبقى هذا وقد قيل هذه الآيات الثلاث ابتداء كلام من الله عز وجل قالوا ليس فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به ولم يثبت فى الأخبار ﴿ولقد أوحينا الى موسى﴾ حكاية اجمالية لما انتهى اليه أمر فرعون وقومه وقد طوى فى البين ذكر ماجرى عليهم من الآيات المفصلات الظاهرة على يد موسى عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرة فى نحو من عشرين سنة حسبما فصل فى سورة الأعراف وتصديرها بالقسم لابراز كمال العناية بمضمونها وأن فى قوله تعالى ﴿أن أسر بعبادى﴾ اما مفسرة لأن الوحى فيه معنى القول أو مصدرية حذف عنها الجار والتعبير عنهم بعنوان كونهم عبادا له تعالى لاظهار المرحمة والاعتناء بأمرهم والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم عباده عز وجل وفعل بهم من فنون الظلم ما فعل أى وبالله لقد أوحينا اليه عليه الصلاة والسلام أن أسر بعبادى الذين أرسلتك لانقاذهم من ملكة فرعون أى سر بهم من مصر ليلا ﴿فاضرب لهم﴾ أى فاجعل أو فاتخذ لهم ﴿طريقا فى البحر يبسا﴾ أى يابسا على أنه مصدر وصف به الفاعل مبالغة وقرئ يبسا وهو اما مخفف منه أو وصف كصعب أو جمع يابس كصحب

وصف به الواحد للمبالغة أو لتعدده حسب تعدد الأسباط ﴿لا تخاف دركا﴾ حال من المأمور أى آمنا من أن يدرككم العدو أو صفة أخرى لطريقا والعائد محذوف وقرىء لا تخف جوابا للامر ﴿ولا تخشى﴾ عطف على لا تخاف داخل فى حكمه أى ولا تخشى الغرق وعلى قراءة الجزم استئناف أى وأنت لا تخشى أو عطف عليه والالف للاطلاق كما فى قوله تعالى وتظنون بالله الظنونا وتقديم نفى الخوف المذكور للمسارعة الى ازاحة ما كانوا عليه من الخوف العظيم حيث قالوا انا لمدركون ﴿فأتبعهم فرعون بجنوده﴾ أى تبعهم ومعه جنوده حتى لحقوهم يقال اتبعتهم أى تبعتهم وذلك اذا كانوا سبقوك فلحقتهم ويؤيده أنه قرىء فاتبعهم من الافتعال وقيل المعنى أتبعهم فرعون نفسه فحذف المفعول الثانى وقيل الباء زائدة والمعنى فاتبعهم فرعون جنوده أى ساقهم خلفهم وأيا ما كان فالفاء فصيحة معربة عن مضمر قد طوى ذكره ثقة بغاية ظهوره وايذانا بكمال مسارعة موسى عليه الصلاة والسلام الى الامتثال بالأمر أى ففعل ما أمر به من الاسراء بهم وضرب الطريق وسلوكه فأتبعهم فرعون بجنوده برا وبحرا روى أن موسى عليه الصلاة والسلام خرج بهم أول الليل وكانوا ستمائة وسبعين ألفا فاخبر فرعون بذلك فاتبعهم بعساكره وكانت مقدمته سبعمائة ألف فقص أثرهم فلحقهم بحيث تراءى الجمعان فعند ذلك ضرب عليه الصلاة والسلام بعصاه البحر فانفلق على اثنى عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم فعبر موسى عليه الصلاة والسلام بمن معه من الأسباط سالمين وتبعهم فرعون بجنوده ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ أى علاهم منه وغمرهم ما غمرهم من الأمر الهائل الذى لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه وقيل غشيهم ما سمعت قصته وليس بذاك فان مدار التهويل والتفخيم خروجه عن حدود الفهم والوصف لا سماع قصته وقرىء فغشاهم من اليم ما غشاهم أى غطاهم ما غطاهم والفاعل هو الله عز وعلا أو ماغشاهم وقيل فرعون لأنه الذى ورطهم للهلكة ويأباه الاظهار فى قوله تعالى ﴿وأضل فرعون قومه﴾ أى سلك بهم مسلكا أداهم الى الخيبة والخسران فى الدين والدنيا معا حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوى المتصل بالعذاب الخالد الأخروى وقوله تعالى ﴿وما هدى﴾ أى ما أرشدهم قط الى طريق موصل الى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية تقرير لاضلاله وتأكيد له اذ رب مضل قد يرشد من يضله الى بعض مطالبه وفيه نوع تهكم به فى قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد فان نفى الهداية عن شخص مشعر بكونه ممن يتصور منه الهداية فى الجملة وذلك انما يتصور فى حقه بطريق التهكم وحمل الاضلال والهداية على ما يختص بالدينى منهما يأباه مقام بيان سوقه بجنوده الى مساق الهلاك الدنيوى وجعلهما عبارة عن الاضلال فى البحر والانجاء منه مما لا يقبله العقل السليم ﴿يابنى اسرائيل﴾ حكاية لما خاطبهم الله تعالى بعد اغراق فرعون وقومه وانجائهم منهم لكن لا عقيب ذلك بل بعد ما أفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية ما أفاض وقيل هو انشاء خطاب للذين كانوا منهم فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام على معنى أنه تعالى قد من عليهم بما فعل بآبائهم اصالة وبهم تبعا ويرده ما سيأتى من قوله تعالى وما أعجلك الآية ضرورة استحالة حمله على الانشاء فالوجه هو الحكاية بتقدير قلنا عطفا على أوحينا أى وقلنا يابنى اسرائيل ﴿قد أنجيناكم من عدوكم﴾ فرعون وقومه حيث كانوا يبغونكم الغوائل ويسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وقرىء نجيناكم ونجيتكم ﴿وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾ بالنصب على أنه صفة للمضاف وقرىء بالجر للجوار أى واعدناكم بواسطة نبيكم اتيان جانبه الايمن نظرا الى السالك من مصر الى الشام أى اتيان موسى عليه الصلاة والسلام للمناجاة وانزال التوراة عليه ونسبت المواعدة اليهم مع كونها لموسى عليه الصلاة والسلام نظرا الى ملابستها اياهم وسراية منفعتها اليهم وايفاء لمقام الامتنان حقه كما فى قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم حيث نسب الخلق والتصوير الى المخاطبين مع أن المخلوق المصور بالذات هو آدم

عليه الصلاة والسلام وقرئ واعدتكم و وعدناكم ﴿ونزلنا عليكم المن والسلوى﴾ أى الترنجبين والسمانى حيث كان ينزل عليهم المن وهم فى التيه مثل الثلج من الفجر الى الطلوع لكل انسان صاع و يبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه كما مر مراراً ﴿كلوا﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان اباحة ما ذكر لهم واتماما للنعمة عليهم ﴿من طيبات ما رزقناكم﴾ أى من لذائذه أوحلالاته وقرئ رزقتكم وفى البدء بنعمة الانجاء ثم بالنعمة الدينية ثم بالنعمة الدنيوية من حسن النظم ولطف الترتيب ما لا يخفى ﴿ولا تطغوا فيه﴾ أى فيما رزقناكم بالاخلال بشكره والتعدى لما حد لكم فيه كالسرف والبطر والمنع من المستحق ﴿فيحل عليكم غضبى﴾ جواب للنهى أى فتلزمكم عقوبتى وتجب لكم من حل الدين اذا وجب أداؤه ﴿ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى﴾ أى تردى وهلك وقيل وقع فى الهاوية وقرئ فيحل بضم الحاء من حل يحل اذا نزل ﴿وانى لغفار لمن تاب﴾ من الشرك والمعاصى التى من جملتها الطغيان فيما ذكر ﴿وآمن﴾ بما يجب الايمان به ﴿وعمل صالحا﴾ أى عملا صالحا مستقيما عند الشرع والعقل وفيه ترغيب لمن وقع منه الطغيان فيما ذكر وحث على التوبة والايمان وقوله تعالى ﴿ثم اهتدى﴾ أى استقام على الهدى اشارة الى أن من لم يستمر عليه بمعزل من الغفران وثم للتراخى الرتبى ﴿وما أعجلك عن قومك ياموسى﴾ حكاية لما جرى بينه تعالى و بين موسى عليه الصلاة والسلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة المذكورة أى وقلنا له أى شئ أعجلك منفردا عن قومك وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدمه على النقباء مسوق لانكار انفراده عنهم لما فى ذلك بحسب الظاهر من مخايل اغفالهم وعدم الاعتداد بهم مع كونه مأمورا باستصحابهم واحضارهم معه لا لانكار نفس العجلة الصادرة عنه عليه الصلاة والسلام لكونها نقيصة منافية للحزم اللائق بأولى العزم ولذلك أجاب عليه الصلاة والسلام بنفى الانفراد المنافى للاستصحاب والمعية حيث ﴿قال هم أولاء على أثرى﴾ يعنى أنهم معى وانما سبقتهم بخطا يسيرة ظننت أنها لا تخل بالمعية ولا تقدح فى الاستصحاب فان ذلك مما لا يعتد به فيما بين الرفقة أصلا و بعد ما ذكر عليه الصلاة والسلام أن تقدمه ذلك ليس لامر منكر ذكر أنه لأمر مرضى حيث قال ﴿وعجلت اليك رب لترضى﴾ عنى بمسارعتى الى الامتثال بأمرك واعتنائى بالوفاء بعهدك و زيادة رب لمزيد الضراعة والابتهال رغبة فى قبول العذر ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية اعتذاره عليه الصلاة والسلام وهو السر فى وروده على صيغة الغائب لا انه التفات من التكلم الى الغيبة لما أن المقدر فيما سبق من الموضعين على صيغة التكلم كأنه قيل من جهة السامعين فماذا قال له ربه حينئذ فقيل قال ﴿فانا قد فتنا قومك من بعدك﴾ أى ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم وهم الذين خلفهم مع هارون عليه الصلاة والسلام وكانوا ستمائة ألف ما نجا منهم من عبادة العجل الا اثنا عشر ألفا والفاء لترتيب الاخبار بما ذكر من الابتلاء على اخبار موسى عليه الصلاة والسلام بعجلته لكن لا لأن الاخبار بها سبب موجب للاخبار به بل لما بينهما من المناسبة المصححة للانتقال من أحدهما الى الآخر من حيث أن مدار الابتلاء المذكور عجلة القوم فانه روى أنهم أقاموا على ماوصى به موسى عليه الصلاة والسلام عشرين ليلة بعد ذهابه فحسبوها مع أيامها أربعين وقالوا قد أكملنا العدة وليس من موسى عليه الصلاة والسلام عين ولا أثر ﴿وأضلهم السامرى﴾ حيث كان هو المدبر فى الفتنة فقال لهم انما أخلف موسى عليه الصلاة والسلام ميعادكم لما معكم من حلى القوم وهو حرام عليكم فكان من أمر العجل ما كان فاخباره تعالى بوقوع هذه الفتنة عند قدومه عليه الصلاة والسلام اما باعتبار تحققها فى علمه تعالى ومشيئته واما بطريق التعبير عن المتوقع بالواقع كما فى قوله تعالى ونادى أصحاب الجنة ونظائره أو لأن السامرى كان قد عزم على ايقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه الصلاة والسلام وتصدى لترتيب مبانيها وتمهيد

مباديها فكانت الفتنة واقعة عند الاخبار بها وقرىء وأضلهم السامرى على صيغة التفضيل أى أشدهم ضلالا لانه ضال ومضل والسامرى منسوب الى قبيلة من بنى اسرائيل يقال لها السامرة وقيل كان علجا من كرمان وقيل من أهل باجرما واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا قد أظهر الاسلام وكان من قوم يعبدون البقر ﴿فرجع موسى الى قومه﴾ عند رجوعه المعهود أى بعد ما استوفى الاربعين وأخذ التوراة لا عقيب الاخبار بالفتنة فسببية ما قبل الفاء لما بعدها انما هى باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله تعالى ﴿غضبان أسفا﴾ لا باعتبار نفسه وان كانت داخلة عليه حقيقة فان كون الرجوع بعد تمام الاربعين أمر مقرر مشهور لا يذهب الوهم الى كونه عند الاخبار بالفتنة كما اذا قلت شايعت الحجاج ودعوت لهم بالسلامة فرجعوا سالمين فان أحدا لا يرتاب فى أن المراد رجوعهم المعتاد لا رجوعهم اثر الدعاء وأن سببية الدعاء باعتبار وصف السلامة لا باعتبار نفس الرجوع والاسف الشديد الغضب وقيل الحزين ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال ناشىء من حكاية رجوعه كذلك كأنه قيل فماذا فعل بهم فقيل قال ﴿ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا﴾ بأن يعطيكم التوراة فيها ما فيها من النور والهدى والهمزة لانكار عدم الوعد ونفيه وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكده أى وعدكم بحيث لا سبيل لكم الى انكاره والفاء فى قوله تعالى ﴿أفطال عليكم العهد﴾ أى الزمان للعطف على مقدر والهمزة لانكار المعطوف ونفيه فقط أى أوعدكم ذلك فطال زمان الانجاز فأخطأتم بسببه ﴿أم أردتم أن يحل﴾ أى يجب ﴿عليكم غضب﴾ شديد لا يقادر قدره كائن ﴿من ربكم﴾ أى من مالك أمركم على الاطلاق ﴿فأخلفتم موعدى﴾ أى وعدكم اياى بالثبات على ما أمرتكم به الى أن أرجع من الميقات على اضافة المصدر الى مفعوله للقصد الى زيادة تقبيح حالهم فان اخلافهم الوعد الجارى فيما بينهم وبينه عليه السلام من حيث اضافته اليه عليه السلام أشنع منه من حيث اضافته اليهم والفاء لترتيب ما بعدها على كل واحد من شقى الترديد على سبيل البدل كأنه قيل أنسيتم الوعد بطول العهد فأخلفتموه خطأ أم أردتم حلول الغضب عليكم فأخلفتموه عمدا وأما جعل الموعد مضافا الى فاعله وحمل اخلافه على معنى وجدان الخلف فيه أى فوجدتم الخلف فى موعدى لكم بالعود بعد الاربعين فمما لا يساعده السباق ولا السياق أصلا ﴿قالوا ما أخلفنا موعدك﴾ أى وعدنا اياك الثبات على ما أمرتنا به وايثاره على أن يقال موعدنا على اضافة المصدر الى فاعله لما مر آنفا ﴿بملكنا﴾ أى بان ملكنا أمورنا يعنون أنا لو خلينا وأمورنا ولم يسول لنا السامرى ما سوله مع مساعدة بعض الأحوال لما أخلفناه وقرىء بملكنا بكسر الميم وضمها والكل لغات فى مصدر ملكت الشىء ﴿ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم﴾ استدراك عما سبق واعتذار عما فعلوا ببيان منشأ الخطأ وقرىء حملنا بالتخفيف أى حملنا أحمالا من حلى القبط التى استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس وقيل كانوا استعاروها لعيد كان لهم ثم لم يردوها اليهم عند الخروج مخافة أن يقفوا على أمرهم وقيل هى ما ألقاه البحر على الساحل بعد اغراقهم فأخذوها ولعل تسميتهم لها أوزارا لأنها تبعات وآثام حيث لم تكن الغنائم تحل حينئذ ﴿فقذفناها﴾ أى فى النار رجاء للخلاص عن ذنبها ﴿فكذلك﴾ أى فمثل ذلك القذف ﴿ألقى السامرى﴾ أى ما كان معه منها وقد كان أراهم أنه أيضا يلقى ما كان معه من الحلى فقالوا ما قالوا على زعمهم وانما كان الذى ألقاه التربة التى أخذها من أثر الرسول كما سيأتى روى أنه قال لهم انما تأخر موسى عنكم لما معكم من الاوزار فالرأى أن نحفر حفيرة ونسجر فيها نارا ونقذف فيها كل ما معنا ففعلوا ﴿فأخرج﴾ أى السامرى ﴿لهم﴾ للقائلين ﴿عجلا﴾ من تلك الحلى المذابة وتأخيره مع كونه مفعولا صريحا عن الجار والمجرور لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم فان قوله تعالى ﴿جسدا﴾ أى جثة ذا دم ولحم أو جسدا من ذهب لا روح له

بدل منه وقوله تعالى ﴿ له خوار ﴾ أي صوت عجل نعت له ﴿ فقالوا ﴾ أي السامري ومن افتتن به أول ما رآه ﴿ هذا الهكم واله موسى فنسى ﴾ أي غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامرى فعلا وقولا من جهته تعالى قصدا الى زيادة تقريرها ثم ترتيب الانكار عليها لا من جهة القائلين والا لقيل فأخرج لنا والحمل على أن عدولهم الى ضمير الغيبة لبيان أن الاخراج والقول المذكورين للكل لا للعبدة فقط خلاف الظاهر مع أنه مخل باعتذارهم فان مخالفة بعضهم للسامرى وعدم افتتانهم بتسويله مع كون الاخراج والخطاب لهم مما يهون مخالفته للمعتذرين فافتتانهم بعد ذلك أعظم جناية وأكثر شناعة وأما ما قيل من أن المعتذرين هم الذين لم يعبدوا العجل وأن نسبة الاخلاف الى أنفسهم وهم برآء منه من قبيل قولهم بنو فلان قتلوا فلانا مع أن القاتل واحد منهم كأنهم قالوا ما وجد الاخلاف فيما بيننا بأمر كنا نملكه بل تمكنت الشبهة فى قلوب العبدة حيث فعل السامرى ما فعل فأخرج لهم ما أخرج وقال ما قال فلم نقدر على صرفهم عن ذلك ولم نفارقهم مخافة ازدياد الفتنة فيقضى بفساده سباق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى ﴿ أفلا يرون ﴾ الخ انكار وتقبيح من جهته تعالى لحال الضالين والمضلين جميعا وتسفيه لهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذى لا يشتبه بطلانه واستحالته على أحد وهو اتخاذه الها والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا يتفكرون فلا يعلمون ﴿ أن لا يرجع اليهم قولا ﴾ أى انه لا يرجع اليهم كلاما ولا يرد عليهم جوابا فكيف يتوهمون أنه اله وقرىء يرجع بالنصب قالوا فالرؤية حينئذ بصرية فان أن الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين أى ألا ينظرون فلا يبصرون عدم رجعه اليهم قولا من الاقوال وتعليق الابصار بما ذكر مع كونه أمرا عدميا للتنبيه على كمال ظهوره المستدعى لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم وقوله تعالى ﴿ ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ﴾ عطف على لا يرجع داخل معه فى حيز الرؤية أى أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرا أو يجلب لهم نفعا أو لا يقدر على أن يضرهم ان لم يعبدوه أو ينفعهم ان عبدوه ﴿ ولقد قال لهم هرون من قبل ﴾ جملة قسمية مؤكدة لما قبلها من الانكار والتشنيع ببيان عتوهم واستعصائهم على الرسول اثر بيان مكابرتهم لقضية العقول أى و بالله لقد نصح لهم هرون ونبههم على كنه الامر من قبل رجوع موسى عليه السلام اليهم وخطابه اياهم بما ذكر من المقالات وقيل من قبل قول السامرى كأنه عليه السلام أول ما أبصره حين طلع من الحفيرة توهم منهم الافتتان به فسارع الى تحذيرهم وقال لهم ﴿ ياقوم انما فتنتم به ﴾ أى أوقعتم فى الفتنة بالعجل أو أضللتم به على توجيه القصر المستفاد من كلمة انما الى نفس الفعل بالقياس الى مقابله الذى يدعيه القوم لا الى قيده المذكور بالقياس الى قيد آخر على معنى انما فعل بكم الفتنة لا الارشاد الى الحق لا على معنى انما فتنتم بالعجل لا بغيره وقوله تعالى ﴿ وان ربكم الرحمن ﴾ بكسر ان عطفا على انما ارشاد لهم الى الحق اثر زجرهم عن الباطل والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم الى الحق كما أن التعرض لوصف العجل للاهتمام بالزجر عن الباطل أى ان ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لا غير والفاء فى قوله تعالى ﴿ فاتبعونى ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من مضمون الجملتين أى اذا كان الامر كذلك فاتبعونى فى الثبات على الدين ﴿ وأطيعوا أمرى ﴾ هذا واتركوا عبادة ما عرفتم شأنه ﴿ قالوا ﴾ فى جواب هرون عليه السلام ﴿ لن نبرح عليه ﴾ على العجل وعبادته ﴿ عاكفين ﴾ مقيمين ﴿ حتى يرجع الينا موسى ﴾ جعلوا رجوعه عليه السلام اليهم غاية لعكوفهم على عبادة العجل لكن لا على طريق الوعد بتركها عند رجوعه عليه السلام بل بطريق التعلل والتسويف وقد دسوا تحت ذلك أنه عليه السلام لا يرجع بشىء مبين تعويلا على مقالة السامرى روى أنهم لما قالوه اعتزلهم هرون عليه السلام فى اثنى عشر ألفا وهم الذين لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى عليه السلام وسمع الصياح وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة فقال لهم ما قال وسمع منهم ما قالوا وقوله تعالى ﴿ قال ﴾ استئناف

مبنى على سؤال نشأ من حكاية جوابهم لهرون عليه السلام كانه قيل فماذا قال موسى لهرون عليهما السلام حين سمع جوابهم له وهل رضى بسكوته بعد ماشاهد منهم ماشاهد فقيل قال له وهو مغتاظ قد أخذ بلحيته و رأسه ﴿ ياهرون مامنعك اذ رأيتهم ضلوا ﴾ بعبادة العجل و بلغوا من المكابرة الى أن شافهوك بتلك المقالة الشنعاء ﴿ أن لاتتبعنى ﴾ أى أن تتبعنى على أن لا مزيدة وهو مفعول ثان لمنع وهو عامل فى اذ أى أى شئ منعك حين رؤيتك لضلالهم من أن تتبعنى فى الغضب لله تعالى والمقاتلة مع من كفر به وقيل المعنى ماحملك على أن لا تتبعنى فان المنع عن الشئ مستلزم للحمل على مقابله وقيل مامنعك أن تلحقنى وتخبرنى بضلالهم فتكون مفارقتك مزجرة لهم وفيه أن نصائح هرون عليه السلام حيث لم تزجرهم عما كانوا عليه فلأن لا تزجرهم مفارقته اياهم عنه أولى والاعتذار بانهم اذا علموا أنه يلحقه ويخبره بالقصة يخافون رجوع موسى عليه السلام فينزجروا عن ذلك بمعزل من حيز القبول كيف لا وهم قد صرحوا بانهم عاكفون عليه الى حين رجوعه عليه السلام ﴿ أفعصيت أمرى ﴾ أى بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه فان قوله له عليهما السلام اخلفنى متضمن للامر بهما حتما فان الخلافة لا تتحقق الا بمباشرة الخليفة ماكان يباشره المستخلف لو كان حاضرا والهمزة للانكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألم تتبعنى او أخالفتنى فعصيت أمرى ﴿ قال يا ابن أم ﴾ خص الام بالاضافة استعطافا لحقها وترقيقا لقلبه لا لما قيل من أنه كان أخاه لام فان الجمهور على انهما كانا شقيقين ﴿ لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى ﴾ أى ولا بشعر رأسى روى أنه عليه السلام أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لله وكان عليه السلام حديدا متصلبا فى كل شئ فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل ففعل مافعل وقوله تعالى ﴿ انى خشيت ﴾ الخ استئناف سيق لتعليل موجب النهى ببيان الداعى الى ترك المقاتلة وتحقيق أنه غير عاص لامره بل ممتثل به أى انى خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض وتفانوا وتفرقوا ﴿ أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ﴾ برأيك مع كونهم أبناء واحد كما ينبئ عنه ذكرهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه وأراد عليه السلام بالتفريق مايستتبعه القتال من التفريق الذى لا يرجى بعده الاجتماع ﴿ ولم ترقب قولى ﴾ يريد به قوله عليه السلام اخلفنى فى قومى وأصلح الخ يعنى انى رأيت أن الاصلاح فى حفظ الدهماء والمداراة معهم الى أن ترجع اليهم فلذلك استأنيتك لتكون أنت المتدارك للامر حسبما رأيت لا سيما وقد كانوا فى غاية القوة ونحن على القلة والضعف كما يعرب عنه قوله تعالى ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ﴿ قال ﴾ استئناف وقع جوابا عما نشأ من حكاية ماسلف من اعتذار القوم باسناد الفساد الى السامرى واعتذار هرون عليه السلام كأنه قيل فماذا صنع موسى عليه السلام بعد سماع ماحكى من الاعتذارين واستقرار أصل الفتنة على السامرى فقيل قال موبخا له هذا شأنهم ﴿ فما خطبك ياسامرى ﴾ أى ما شأنك وما مطلوبك مما فعلت خاطبه عليه السلام بذلك ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه ويفعل به وبما صنعه من العقاب مايكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من الأمم ﴿ قال ﴾ أى السامرى مجيبا له عليه السلام ﴿ بصرت بما لم يبصروا به ﴾ بضم الصاد فيهما وقرئ بكسرها فى الأول وفتحها فى الثانى وقرئ بالتاء على الوجهين على خطاب موسى عليه السلام وقومه أى علمت مالم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له أو رأيت مالم يروه وهو الانسب بما سيأتى من قوله وكذلك سولت لى نفسى لا سيما على القراءة بالخطاب فان ادعاء علم مالم يعلمه موسى عليه السلام جراءة عظيمة لا تليق بشأنه ولا بمقامه بخلاف ادعاء رؤية مالم يره عليه السلام فانها مما يقع بحسب مايتفق وقد كان رأى أن جبريل عليه السلام جاء راكب فرس وكان كلما رفع الفرس يديه أو رجليه على الطريق اليبس يخرج من تحته النبات فى الحال فعرف أن له شأنا فأخذ من موطئه حفنة وذلك قوله تعالى ﴿ فقبضت قبضة من

أثر الرسول﴾ وقرئ من أثر فرس الرسول أى من تربة موطئ فرس الملك الذى أرسل اليك ليذهب بك الى الطور ولعل ذكره بعنوان الرسالة للاشعار بوقوفه على ما لم يقف عليه القوم من الاسرار الالهية تأكيدا لما صدر به مقالته والتنبيه على وقت أخذ ما أخذه والقبضة المرة من القبض أطلقت على المقبوض مرة وقرئ بضم القاف وهو اسم المقبوض كالغرفة والمضغة وقرئ فقبصت قبصة بالصاد المهملة والأول للاخذ بجميع الكف والثانى بأطراف الاصابع ونحوهما الخضم والقضم ﴿فنبذتها﴾ أى فى الحلى المذابة فكان ما كان ﴿وكذلك سولت لى نفسى﴾ أى ما فعلته من القبض والنبذ فقوله تعالى ذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده ومحل كذلك فى الأصل النصب على أنه مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر محذوف والتقدير سولت لى نفسى تسويلا كائنا مثل ذلك التسويل فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة لافادة تأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة فصار نفس المصدر المؤكد لا نعتا له أى ذلك التزيين البديع زينت لى نفسى ما فعلته لا تزيينا أدنى منه ولذلك فعلته وحاصل جوابه أن ما فعله انما صدر عنه بمحض اتباع هوى النفس الامارة بالسوء واغوائها لا بشئ آخر من البرهان العقلى أو الالهام الالهى فعند ذلك ﴿قال﴾ عليه السلام ﴿فاذهب﴾ أى من بين الناس وقوله تعالى ﴿فان لك فى الحيوة﴾ الخ تعليل لموجب الامر وفى متعلقة بالاستقرار فى لك أى ثابت لك فى الحياة أو بمحذوف وقع حالا من الكاف والعامل معنى الاستقرار فى الظرف المذكور لاعتماده على ما هو مبتدأ معنى لا بقوله تعالى ﴿أن تقول لامساس﴾ لمكان أن أى ثابت لك كائنا فى الحياة أى مدة حياتك أن تفارقهم مفارقة كلية لكن لا بحسب الاختيار بموجب التكليف بل بحسب الاضطرار الملجئ اليها وذلك انه تعالى رماه بداء عقام لا يكاد يمس أحدا أو يمسه أحد كائنا من كان الا حما من ساعته حمى شديدة فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح بأقصى طوقه لامساس وحرم عليهم ملاقاته ومواجهته ومكالمته ومبايعته وغيرها مما يعتاد جريانه فيما بين الناس من المعاملات وصار بين الناس أوحش من القاتل اللاجئ الى الحرم ومن الوحش النافر فى البرية ويقال ان قومه باق فيهم تلك الحالة الى اليوم وقرئ لا مساس كفجار وهو علم للمسة ولعل السر فى مقابلة جنايته بتلك العقوبة خاصة ما بينهما من مناسبة التضاد فانه لما أنشأ الفتنة بما كانت ملابسته سببا لحياة الموات عوقب بما يضاده حيث جعلت ملابسته سببا للحمى التى هى من أسباب موت الاحياء ﴿وان لك موعدا﴾ أى فى الآخرة ﴿لن تخلفه﴾ أى لن يخلفك الله ذلك الوعد بل ينجزه لك البتة بعد ما عاقبك فى الدنيا وقرئ بكسر اللام والاظهر أنه من أخلفت الموعد أى وجدته خلفا وقرئ بالنون على حكاية قوله عز وجل ﴿وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا﴾ أى ظللت مقيما على عبادته فحذفت اللام الأولى تخفيفا وقرئ بكسر الظاء بنقل حركة اللام اليها ﴿لنحرقنه﴾ جواب قسم محذوف أى بالنار ويؤيده قراءة لنحرقنه من الاحراق وقيل بالمبرد على أنه مبالغة فى حرق اذا برد بالمبرد ويعضده قراءة لنحرقنه ﴿ثم لننسفنه﴾ أى لنذرينه وقرئ بضم السين ﴿فى اليم﴾ رمادا أو مبرودا كأنه هباء ﴿نسفا﴾ بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر ولقد فعل عليه السلام ذلك كله حينئذ كما يشهد به الأمر بالنظر وانما لم يصرح به تنبيها على كمال ظهوره واستحالة الخلف فى وعده المؤكد باليمين ﴿انما الهكم الله﴾ استئناف مسوق لتحقيق الحق اثر ابطال الباطل بتلوين الخطاب وتوجيهه الى الكل أى انما معبودكم المستحق للعبادة الله ﴿الذى لا اله﴾ فى الوجود لشئ من الأشياء ﴿الا هو﴾ وحده من غير أن يشاركه شئ من الأشياء بوجه من الوجوه التى من جملتها أحكام الألوهية وقرئ الله لا اله الا هو الرحمن رب العرش وقوله تعالى ﴿وسع كل شئ علما﴾ أى وسع علمه كل ما من شأنه أن يعلم بدل من الصلة كأنه قيل انما الهكم الله الذى وسع كل شئ علما لا غيره كائنا ما كان فيدخل فيه العجل دخولا أوليا وقرئ وسع بالتشديد فيكون انتصاب علما

على المفعولية لأنه على القراءة الأولى فاعل حقيقة و بنقل الفعل الى التعدية الى المفعولين صار الفاعل مفعولا أول
كأنه قيل وسع علمه كل شئ و به تم حديث موسى عليه السلام المذكور لتقرير أمر التوحيد حسبما نطقت به خاتمته
وقوله تعالى ﴿ كذلك نقص عليك ﴾ كلام مستأنف خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام بطريق الوعد الجميل
بتنزيل أمثال مامر من أنباء الأمم السالفة وذلك اشارة الى اقتصاص حديث موسى عليه السلام وما فيه من معنى البعد
للايذان بعلو رتبته و بعد منزلته فى الفضل ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر مقدر أى نقص عليك ﴿ من
أنباء ماقد سبق ﴾ من الحوادث الماضية الجارية على الأمم الخالية قصا مثل ذلك القص المار والتقديم للقصر المفيد
لزيادة التعيين ومن فى قوله تعالى من أنباء فى حيز النصب اما على أنه مفعول نقص باعتبار مضمونه واما على أنه متعلق
بمحذوف هو صفة للمفعول كما فى قوله تعالى ومنا دون ذلك أى جمع دون ذلك والمعنى نقص عليك بعض أنباء ماقد
سبق أو بعضا كائنا من أنباء ماقد سبق وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ وتأخيره عن
عليك لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أى مثل ذلك القص البديع الذى سمعته نقص عليك
ماذكر من الانباء لاقصا ناقصا عنه تبصرة لك وتوفيرا لعلمك وتكثيرا لمعجزاتك وتذكيرا للمستبصرين من أمتك
﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكرا ﴾ أى كتابا منطويا على هذه الأقاصيص والاخبار حقيقا بالتفكر والاعتبار وكلمة من
متعلقة بآتيناك وتنكير ذكرا للتفخيم وتأخيره عن الجار والمجرور لما أن مرجع الافادة فى الجملة كون المؤتى من لدنه
تعالى ذكرا عظيما وقرآنا كريما جامعا لكل كمال لا كون ذلك الذكر مؤتى من لدنه عزوجل مع مافيه من نوع طول
بما بعده من الصفة فتقديمه يذهب برونق النظم الكريم ﴿ من أعرض عنه ﴾ عن ذلك الذكر العظيم الشأن المستتبع
لسعادة الدارين وقيل عن الله عز وجل ومن اما شرطية أو موصولة وأيا ما كانت فالجملة صفة لذكرا ﴿ فانه ﴾ أى
المعرض عنه ﴿ يحمل يوم القيامة وزرا ﴾ أى عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائر ذنوبه وتسميتها وزرا اما لتشبيهها
فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذى يفدح الحامل و ينقض ظهره أو لأنها جزاء الوزر وهو الاثم والاول
هو الانسب بما سيأتى من تسميتها حملا وقوله تعالى ﴿ خالدين فيه ﴾ أى فى الوزر أو فى احتماله المستمر حال من
المستكن فى يحمل والجمع بالنظر الى معنى من لما أن الخلود فى النار مما يتحقق حال اجتماع أهلها كما أن الافراد فيما
سبق من الضمائر الثلاثة بالنظر الى لفظها ﴿ وساء لهم يوم القيامة حملا ﴾ أى بئس لهم ففيه ضمير مبهم يفسره حملا
والمخصوص بالذم محذوف أى ساء حملا وزرهم واللام للبيان كما فى هيت لك كأنه لما قيل ساء قيل لمن يقال هذا فأجيب
لهم واعادة يوم القيامة لزيادة التقرير وتهويل الأمر ﴿ يوم ينفخ فى الصور ﴾ بدل من يوم القيامة أو منصوب باضمار
اذكر أو ظرف لمضمر قد حذف للايذان بضيق العبارة عن حصره و بيانه حسبما مر فى تفسير قوله تعالى يوم يجمع
الله الرسل وقوله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا وقرىء ننفخ بالنون على اسناد النفخ الى الآمر به تعظيما له
و بالياء المفتوحة على أن ضميره لله عز وجل أو لاسرافيل عليه السلام وان لم يجر ذكره لشهرته ﴿ ونحشر المجرمين
يومئذ ﴾ أى يوم اذ ينفخ فى الصور وذكره صريحا مع تعين أن الحشر لا يكون الا يومئذ للتهويل وقرىء ويحشر
المجرمون ﴿ زرقا ﴾ أى حال كونهم زرق العيون وانما جعلوا كذلك لان الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها الى
العرب فان الروم الذين كانوا أعدى عدوهم زرق ولذلك قالوا فى صفة العدو أسود الكبد وأصهب السبال وأزرق
العين أو عميا لان حدقة الأعمى تزرق وقوله تعالى ﴿ يتخافتون بينهم ﴾ أى يخفضون أصواتهم و يخفونها لما يملأ
صدورهم من الرعب والهول استئناف ببيان ماياتون وما يذرون حينئذ أوحال أخرى من المجرمين أى يقول بعضهم

لبعض بطريق المخافتة ﴿ان لبثتم﴾ أى مالبثتم فى الدنيا ﴿الا عشراً﴾ أى عشر ليال استقصار المدة لبثهم فيها لزوالها أو لاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لما عاينوا الشدائد وأيقنوا أنهم استحقوها على اضاعتها فى قضاء الأوطار واتباع الشهوات أو فى القبر وهو الانسب بحالهم فانهم حين يشاهدون البعث الذى كانوا ينكرونه فى الدنيا ويعدونه من قبيل المحالات لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك اعترافا به وتحقيقا لسرعة وقوعه كأنهم قالوا قد بعثتم وما لبثتم فى القبر الا مدة يسيرة والا فحالهم أفظع من أن تمكنهم من الاشتغال بتذكر أيام النعمة والسرور واستقصارها والتأسف عليها ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ وهو مدة لبثهم ﴿اذ يقول أمثلهم طريقة﴾ أى أعدلهم رأيا أو عملا ﴿ان لبثتم الا يوما﴾ ونسبة هذا القول الى أمثلهم استرجاح منه تعالى له لكن لا لكونه أقرب الى الصدق بل لكونه أدل على شدة الهول ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ أى عن مآل أمرها وقد سأل عنه رجل من ثقيف وقيل مشركو مكة على طريق الاستهزاء ﴿فقل ينسفها ربى نسفا﴾ أى يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها والفاء للمسارعة الى الزام السائلين ﴿فيذرها﴾ الضمير اما للجبال باعتبار أجزائها السافلة الباقية بعد النسف وهى مقارها ومراكزها أى فيذر ما انبسط منها وساوى سطحه سطوح سائر أجزاء الارض بعد نسف ما نتأ منها ونشز واما للارض المدلول عليها بقرينة الحال لانها الباقية بعد نسف الجبال وعلى التقديرين يذر الكل ﴿قاعا صفصفا﴾ لان الجبال اذا سويت وجعل سطحها مساويا لسطوح سائر أجزاء الارض فقد جعل الكل سطحا واحدا والقاع قيل السهل وقيل المنكشف من الارض وقيل المستوى الصلب منها وقيل ما لا نبات فيه ولا بناء والصفصف الارض المستوية الملساء كأن أجزاءه صف واحد من كل جهة وانتصاب قاعا على الحالية من الضمير المنصوب أو هو مفعول ثان ليذر على تضمين معنى التصيير وصفصفا اما حال ثانية أو بدل من المفعول الثانى وقوله تعالى ﴿لا ترى فيها﴾ أى فى مقار الجبال أو فى الارض على ما مر من التفصيل ﴿عوجا﴾ بكسر العين أى اعوجاجا ما كأنه لغاية خفائه من قبيل ما فى المعانى أى لا تدركه ان تأملت بالمقاييس الهندسية ﴿ولا أمتا﴾ أى نتوءا يسيرا استئناف مبين لكيفية ما سبق من القاع الصفصف أو حال أخرى أو صفة لقاعا والخطاب لكل أحد ممن تتأتى منه الرؤية وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من طول ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم ﴿يومئذ﴾ أى يوم اذ نسفت الجبال على اضافة اليوم الى وقت النسف وهو ظرف لقوله تعالى ﴿يتبعون الداعى﴾ وقيل بدل من يوم القيامة وليس بذاك أى يتبع الناس داعى الله عز وجل الى المحشر وهو اسرافيل عليه السلام يدعو الناس عند النفخة الثانية قائما على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام النخرة والاوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة قومى الى عرض الرحمن فيقبلون من كل أوب الى صوبه ﴿لا عوج له﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ أى خضعت لهيبته ﴿فلا تسمع الا همسا﴾ أى صوتا خفيا ومنه الهميس لصوت أخفاف الابل وقد فسر الهمس بخفق أقدامهم ونقلها الى المحشر ﴿يومئذ﴾ أى يوم اذ يقع ما ذكر من الامور الهائلة ﴿لا تنفع الشفاعة﴾ من الشفعاء أحدا ﴿الا من أذن له الرحمن﴾ أن يشفع له ﴿ورضى له قولا﴾ أى ورضى لاجله قول الشافع فى شأنه أو رضى قوله لاجله وفى شأنه وأما من عداه فلا تكاد تنفعه وان فرض صدورها عن الشفعاء المتصدين للشفاعة للناس كقوله تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين فالاستثناء كما ترى من أعم المفاعيل وأما كونه استثناء من الشفاعة على معنى لا تنفع الشفاعة الا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع لغيره كما جوزوه فلا سبيل اليه لما أن حكم الشفاعة ممن لم يؤذن له أن لا يملكها ولا تصدر هى عنه أصلا كما فى قوله تعالى لا يملكون الشفاعة الا

من اتخذ عند الرحمن عهدا وقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى فالاخبار عنها بمجرد عدم نفعها للمشفوع له ربما يوهم امكان صدورها عمن لم يؤذن له مع اخلاله بمقتضى مقام تهويل اليوم وأما قوله تعالى ولا يقبل منها شفاعة فمعناه عدم الاذن فى الشفاعة لاعدم قبولها بعد وقوعها ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ أى ماتقدمهم من الاحوال وقيل من أمر الدنيا ﴿وماخلفهم﴾ وما بعدهم مما يستقبلونه وقيل من أمر الآخرة ﴿ولايحيطون به علما﴾ أى لاتحيط علومهم بمعلوماته تعالى وقيل بذاته أى من حيث اتصافه بصفات الكمال التى من جملتها العلم الشامل وقيل الضمير لاحد الموصولين أو لمجموعهما فانهم لا يعلمون جميع ذلك ولا تفصيل ما علموا منه ﴿وعنت الوجوه للحى القيوم﴾ أى ذلت وخضعت خضوع العناة أى الأسارى فى يد الملك القهار ولعلها وجوه المجرمين كقوله تعالى سيئت وجوه الذين كفروا ويؤيده قوله تعالى ﴿وقد خاب من حمل ظلما﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما خسر من أشرك بالله ولم يتب وهو استئناف لبيان ما لأجله عنت وجوههم أو اعتراض كأنه قيل خابوا وخسروا وقيل حال من الوجوه ومن عبارة عنها مغنية عن ضميرها وقيل الوجوه على العموم فالمعنى حينئذ وقد خاب من حمل منهم ظلما فقوله تعالى ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ الخ قسيم لقوله تعالى وقد خاب من حمل ظلما لا لقوله تعالى وعنت الوجوه الخ كما أنه كذلك على الوجه الأول أى ومن يعمل بعض الصالحات أو بعضا من الصالحات على أحد الوجهين المذكورين فى تفسير قوله تعالى من أنباء ما قدسبق ﴿وهو مؤمن﴾ فان الايمان شرط فى صحة الطاعات وقبول الحسنات ﴿فلا يخاف ظلما﴾ أى منع ثواب مستحق بموجب الوعد ﴿ولا هضما﴾ ولا كسرا منه ينقص أولا يخاف جزاء ظلم وهضم اذ لم يصدر عنه ظلم ولا هضم حتى يخافهما وقرئ فلا يخف على النهى ﴿وكذلك﴾ عطف على كذلك نقص وذلك اشارة الى انزال ماسبق من الآيات المتضمنة للوعيد المنبئة عما سيقع من أحوال القيامة وأهوالها أى مثل ذلك الانزال ﴿أنزلناه﴾ أى القرآن كله واضماره من غير سبق ذكره للايذان بنباهة شأنه وكونه مركوزا فى العقول حاضرا فى الاذهان ﴿قرآنا عربيا﴾ ليفهمه العرب ويقفوا على مافيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجا عن طوق البشر نازلا من عند خلاق القوى والقدر ﴿وصرفنا فيه من الوعيد﴾ أى كررنا فيه بعض الوعيد أو بعضا من الوعيد حسبما أشير اليه آنفا ﴿لعلهم يتقون﴾ أى كى يتقوا الكفر والمعاصى بالفعل ﴿أو يحدث لهم ذكرا﴾ اتعاظا واعتبارا مؤديا بالآخرة الى الاتقاء ﴿فتعالى الله﴾ استعظام له تعالى ولشؤنه التى يصرف عليها عباده من الاوامر والنواهى والوعد والوعيد وغير ذلك أى ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأفعاله وأحواله ﴿الملك﴾ النافذ أمره ونهيه الحقيق بأن يرجى وعده ويخشى وعيده ﴿الحق﴾ فى ملكوته وألوهيته لذاته أو الثابت فى ذاته وصفاته ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك﴾ أى يتم ﴿وحيه﴾ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ألقى اليه جبريل عليهما السلام الوحى يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة لكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ فنهى عن ذلك اثر ذكر الانزال بطريق الاستطراد لما أن استقرار الالفاظ فى الأذهان تابع لاستقرار معانيها فيها وربما يشغل التلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها وأمر باستفاضة العلم واستزادته منه تعالى فقيل ﴿وقل﴾ أى فى نفسك ﴿رب زدنى علما﴾ أى سل الله عز وجل زيادة العلم فانه الموصل الى طلبتك دون الاستعجال وقيل انه نهى عن تبليغ ما كان مجملا قبل أن يأتى بيانه وليس بذاك فان تبليغ المجمل وتلاوته قبل البيان مما لاريب فى صحته ومشروعيته ﴿ولقد عهدنا الى آدم﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ماسبق من تصريف الوعيد فى القرآن وبيان أن أساس بنى آدم على العصيان وعرقه راسخ فى النسيان مع مافيه من انجاز الموعود فى قوله تعالى كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق يقال عهد اليه الملك وعزم عليه وأوعز اليه وتقدم اليه اذا أمره

ووصاه والمعهود محذوف يدل عليه مابعده واللام جواب قسم محذوف أى وأقسم أو وبالله أو وتالله لقد أمرناه ووصيناه ﴿من قبل﴾ أى من قبل هذا الزمان ﴿فنسى﴾ أى العهد ولم يعتن به حتى غفل عنه أو تركه ترك المنسى عنه وقرئ فنسى أى نساه الشيطان ﴿ولم نجد له عزما﴾ تصميم رأى وثبات قدم فى الامور اذ لو كان كذلك لما أزله الشيطان ولما استطاع أن يغره وقد كان ذلك منه عليه السلام فى بدء أمره من قبل أن يجرب الامور ويتولى حارها وقارها ويذوق شريها وأريها عن النبى عليه الصلاة والسلام لو وزنت أحلام بنى آدم بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزما وقيل عزما على الذنب فانه أخطأ ولم يتعمد وقوله تعالى ولم نجد ان كان من الوجود العلمى فله عزما مفعولاه قدم الثانى على الاول لكونه ظرفا وان كان من الوجود المقابل للعدم وهو الانسب لأن مصب الفائدة هو المفعول وليس فى الاخبار بكون العزم المعدوم له مزيد مزية فله متعلق به قدم على مفعوله لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر أو بمحذوف هو حال من مفعوله المنكر كأنه قيل ولم نصادف له عزما وقوله تعالى ﴿واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ شروع فى بيان المعهود وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام أى واذكر وقت قولنا لهم وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث لما مر مرارا من المبالغة فى ايجاب ذكرها فان الوقت مشتمل على تفاصيل الأمور الواقعة فيه فالأمر بذكره أمر بذكر تفاصيل ما وقع فيه بالطريق البرهانى ولان الوقت مشتمل على أعيان الحوادث فاذا ذكر صارت الحوادث كأنها موجودة فى ذهن المخاطب بوجوداتها العينية أى اذكر ما وقع فى ذلك الوقت منا ومنه حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه ﴿فسجدوا الا ابليس﴾ قد سبق الكلام فيه مرارا ﴿أبى﴾ جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ عن الاخبار بعدم سجوده كأنه قيل ما باله لم يسجد فقيل أبى واستكبر ومفعول أبى اما محذوف أى أبى السجود كما فى قوله تعالى أبى أن يكون مع الساجدين أو غير منوى رأسا بتنزيله منزلة اللازم أى فعل الاباء وأظهره ﴿فقلنا﴾ عقيب ذلك اعتناء بنصحه ﴿يا آدم ان هذا﴾ الذى رأيت ما فعل ﴿عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما﴾ أى لا يكونن سببا لاخراجكما ﴿من الجنة﴾ والمراد نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان الى اخراجهما منها بالطريق البرهانى كما فى قولك لا أرينك ههنا والفاء لترتيب موجب النهى على عداوته لهما أو على الاخبار بها ﴿فتشقى﴾ جواب للنهى واسناد الشقاء اليه خاصة بعد تعليق الاخراج الموجب له بهما معا لاصالته فى الامور واستلزام شقائه لشقائها مع ما فيه من مراعاة الفواصل وقيل المراد بالشقاء التعب فى تحصيل مبادى المعاش وذلك من وظائف الرجال ﴿ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ تعليل لما يوجبه النهى فان اجتماع أسباب الراحة فيها مما يوجب المبالغة فى الاهتمام بتحصيل مبادى البقاء فيها والجد فى الانتهاء عما يؤدى الى الخروج عنها والعدول عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعما بفنون النعم من المآكل والمشارب وتمتعا بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية مع أن فيه من الترغيب فى البقاء فيها ما لا يخفى الى ما ذكر من نفى نقائضها التى هى الجوع والعطش والعرى والضحى لتذكير تلك الامور المنكرة والتنبيه على ما فيها من أنواع الشقوة التى حذره عنها ليبالغ فى التحامى عن السبب المؤدى اليها على أن الترغيب قد حصل بما سوغ له من التمتع بجميع ما فيها سوى ما استثنى من الشجرة حسبما نطق به قوله تعالى ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما وقد طوى ذكره ههنا اكتفاء بما ذكر فى موضع آخر واقتصر على ما ذكر من الترغيب المتضمن للترهيب ومعنى أن لا تجوع فيها الخ أن لا يصيبه شئ من الامور الاربعة أصلا فان الشبع والرى والكسوة والكن قد تحصل بعد عروض أضدادها باعواز الطعام والشراب واللباس والمسكن وليس الامر فيها كذلك بل كل ما وقع فيها شهوة وميل الى شئ

من الأمور المذكورة تمتع به من غير أن يصل الى حد الضرورة ووجه افراده عليه السلام بما ذكر مامر آنفا وفصل الظمأ عن الجوع فى الذكر مع تجانسهما وتقارنهما فى الذكر عادة وكذا حال العرى والضحو المتجانسين لتوفية مقام الامتنان حقه بالاشارة الى أن نفى كل واحد من تلك الامور نعمة على حيالها ولو جمع بين الجوع والظمأ لربما توهم أن نفيهما نعمة واحدة وكذا الحال فى الجمع بين العرى والضحو على منهاج قصة البقرة ولزيادة التقرير بالتنبيه على أن نفى كل واحد من الامور المذكورة مقصود بالذات مذكور بالاصالة لاأن نفى بعضها مذكور بطريق الاستطراد والتبعية لنفى بعض آخر كما عسى يتوهم لوجمع بين كل من المتجانسين وقرئ انك بالكسر والجمهور على الفتح بالعطف على أن لا تجوع وصحة وقوع الجملة المصدرة بأن المفتوحة اسما للمكسورة المشاركة لها فى افادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبرا لها لما أن المحذور اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة ولا اجتماع فيما نحن فيه لاختلاف مناط التحقيق فيما فى حيزهما بخلاف مالو وقعت خبرا لها فان اتحاد المناط حينئذ مما لاريب فيه بيانه أن كل واحدة من المكسورة والمفتوحة موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبرية المنعقدة من اسمها وخبرها ولا يخفى أن مرجع خبريتها مافيها من الحكم الايجابى أو السلبى وأن مناط ذلك الحكم خبرها لا اسمها فمدلول كل منهما تحقيق ثبوت خبرها لاسمها لاثبوت اسمها فى نفسه فاللازم من وقوع الجملة المصدرة بالمفتوحة اسما للمكسورة تحقيق ثبوت خبرها لتلك الجملة المؤولة بالمصدر وأما تحقيق ثبوتها فى نفسها فهو مدلول المفتوحة حتما فلم يلزم اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة قطعا وانما لم يجوزوا أن يقال ان أن زيدا قائم حق مع اختلاف المناط بل شرطوا الفصل بالخبر كقولنا ان عندى أن زيدا قائم للتجافى عن صورة الاجتماع والواو العاطفة وان كانت نائبة عن المكسورة التى يمتنع دخولها على المفتوحة بلافصل وقائمة مقامها فى افضاء معناها واجراء أحكامها على مدخولها لكنها حيث لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق لم يلزم من دخولها على المفتوحة اجتماع حرفى التحقيق أصلا فالمعنى ان لك عدم الجوع وعدم العرى وعدم الظمأ خلا أنه لم يقتصر على بيان أن الثابت له عليه السلام عدم الظمأ والضحو مطلقا كما فعل مثله فى المعطوف عليه بل قصد بيان أن الثابت له عليه السلام تحقيق عدمهما فوضع موضع الحرف المصدرى المحض أن المفيدة له كأنه قيل انالك فيها عدم ظمأك على التحقيق ﴿فوسوس اليه الشيطان﴾ أى أنهى اليه وسوسته أو أسرها اليه ﴿قال﴾ اما بدل من وسوس أو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ منه كأنه قيل فماذا قال فى وسوسته فقيل قال ﴿يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد﴾ أى شجرة من أكل منها خلد ولم يمت أصلا سواء كان على حاله أو بأن يكون ملكا لقوله تعالى الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴿وملك لايبلى﴾ أى لايزول ولايختل بوجه من الوجوه ﴿فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما عريا عن النور الذى كان الله تعالى ألبسهما حتى بدت فروجهما ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ قدمر تفسيره فى سورة الأعراف ﴿وعصى آدم ربه﴾ بما ذكر من أكل الشجرة ﴿فغوى﴾ ضل عن مطلوبه الذى هو الخلود أو عن المأمور به أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو وقرئ فغوى من غوى الفصيل اذا اتخم من اللبن وفى وصفه عليه السلام بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيم لها وزجر بليغ لاولاده عن أمثالها ﴿ثم اجتباه ربه﴾ أى اصطفاه وقربه اليه بالحمل على التوبة والتوفيق لها من اجتبى الشئ بمعنى جباه لنفسه أى جمعه كقولك اجتمعته أو من جبى الى كذا فاجتبيته مثل جليت على العروس فاجتليتها وأصل الكلمة الجمع وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام مزيد تشريف له عليه السلام ﴿فتاب عليه﴾ أى قبل توبته حين تاب هو وزوجته قائلين ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وافراده عليه السلام بالاجتباء وقبول

التوبة قدم وجهه ﴿ وهدى ﴾ أى الى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب العصمة ﴿ قال ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاخبار بأنه تعالى قبل توبته وهداه كأنه قيل فماذا أمره تعالى بعدذلك فقيل قال له ولزوجته ﴿ اهبطا منها جميعا ﴾ أى انزلا من الجنة الى الارض وقوله تعالى ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ حال من ضمير المخاطب فى اهبطا والجمع لما أنهما أصل الذرية ومنشأ الاولاد أى متعادين فى أمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب ﴿ فاما يأتينكم منى هدى ﴾ من كتاب ورسول ﴿ فمن اتبع هداى ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر مع الاضافة الى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة فى ايجاب اتباعه ﴿ فلا يضل ﴾ فى الدنيا ﴿ ولا يشقى ﴾ فى الآخرة ﴿ ومن أعرض عن ذكرى ﴾ أى عن الهدى الذاكر لى والداعى الى ﴿ فان له ﴾ فى الدنيا ﴿ معيشة ضنكا ﴾ ضيقا مصدر وصف به ولذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث وقرئ ضنكى كسكرى وذلك لان مجامع همته ومطامح نظره مقصورة على أعراض الدنيا وهو متهالك على ازديادها وخائف من انتقاصها بخلاف المؤمن الطالب للآخرة مع أنه قد يضيق الله تعالى بشؤم الكفر ويوسع ببركة الايمان كما قال تعالى وضربت عليهم الذلة والمسكنة وقال تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض وقال تعالى ولو أن أهل الكتاب آمنوا الى قوله تعالى لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقيل هو الضريع والزقوم فى النار وقيل عذاب القبر ﴿ ونحشره ﴾ وقرئ بسكون الهاء على لفظ الوقف وبالجزم عطفا على محل فان له معيشة ضنكا لانه جواب الشرط ﴿ يوم القيامة أعمى ﴾ فاقد البصر كما فى قوله تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما لا أعمى عن الحجة كما قيل ﴿ قال ﴾ استئناف كما مر ﴿ رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ﴾ أى فى الدنيا وقرئ أعمى بالامالة فى الموضعين وفى الاول فقط لكونه جديرا بالتغيير لكونه رأس الآية ومحل الوقف ﴿ قال كذلك ﴾ أى مثل ذلك فعلت أنت ثم فسره بقوله تعالى ﴿ أتتك آياتنا ﴾ واضحة نيرة بحيث لا تخفى على أحد ﴿ فنسيتها ﴾ أى عميت عنها وتركتها ترك المنسى الذى لا يذكر أصلا ﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك النسيان الذى كنت فعلته فى الدنيا ﴿ اليوم تنسى ﴾ تترك فى العمى والعذاب جزاء وفاقا لكن لا أبدا كما قيل بل الى ماشاء الله ثم يزيله عنه فيرى أهوال القيامة ويشاهد مقعده من النار ويكون ذلك له عذابا فوق العذاب وكذا البكم والصمم يزيلهما الله تعالى عنهم أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴿ وكذلك ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الموافق للجناية ﴿ نجزى من أسرف ﴾ بالانهماك فى الشهوات ﴿ ولم يؤمن بآيات ربه ﴾ بل كذبها وأعرض عنها ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ على الاطلاق أو عذاب النار ﴿ أشد وأبقى ﴾ أى من ضنك العيش أو منه ومن الحشر على العمى ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ماقبله من قوله تعالى وكذلك نجزى الآية والهمزة للانكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام واستعمال الهداية باللام اما لتنزيلها منزلة اللازم فلا حاجة الى المفعول أولأنها بمعنى التبيين والمفعول محذوف وأياما كان فالفاعل هو الجملة بمضمونها ومعناها وضمير لهم للمشركين المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى أغفلوا فلم يفعل الهداية لهم أو فلم يبين لهم مآل أمرهم كثرة اهلاكنا للقرون الاولى وقد مر فى قوله عز وجل أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها الآية وقيل الفاعل الضمير العائد الى الله عز وجل ويؤيده القراءة بنون العظمة وقوله تعالى كم أهلكنا الخ اما معلق للفعل سادمسد مفعوله أو مفسر لمفعوله المحذوف هكذا قيل والاوجه أن لا يلاحظ له مفعول كأنه قيل أفلم يفعل الله تعالى لهم الهداية ثم قيل بطريق الالتفات كم أهلكنا الخ بيانا لتلك الهداية ومن القرون فى محل النصب على أنه وصف لمميز كم أى كم قرنا كائنا من القرون وقوله تعالى ﴿ يمشون فى مساكنهم ﴾ حال من القرون أو من مفعول أهلكنا أى أهلكناهم وهم فى حال أمن وتقلب فى ديارهم أو من الضمير

فى لهم مؤكد للانكار والعامل يهد والمعنى أفلم يهدلهم اهلاكنا للقرون السالفة من أصحاب الحجر وثمود وقريات قوم لوط حال كونهم ماشين فى مساكنهم اذا سافروا الى الشام مشاهدين لآثارهلاكهم مع أن ذلك مما يوجب أن يهتدوا الى الحق فيعتبروا لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك وقرىء يمشون على البناء للمفعول أى يمكنون من المشى ﴿ان فى ذلك﴾ تعليل للانكار وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم وذلك اشارة الى مضمون قوله تعالى كم أهلكنا الخ وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلته وعلو شأنه فى بابه ﴿لآيات﴾ كثيرة عظيمة واضحات الهداية ظاهرات الدلالة على الحق فاذن هو هاد وأيما هاد ويجوز أن تكون كلمة فى تجريدية فافهم ﴿لأولى النهى﴾ لذوى العقول الناهية عن القبائح التى من أقبحها ما يتعاطاه كفار مكة من الكفر بآيات الله تعالى والتعامى عنها وغير ذلك من فنون المعاصى وفيه دلالة على أن مضمون الجملة هو الفاعل لا المفعول وقوله تعالى ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حكمة عدم وقوع مايشعر به قوله تعالى أفلم يهدلهم الآية من أن يصيبهم مثل ما أصاب القرون المهلكة أى ولولا الكلمة السابقة وهى العدة بتأخير عذاب هذه الامة الى الآخرة لحكمة تقتضيه ومصلحة تستدعيه ﴿لكان﴾ عقاب جناياتهم ﴿لزاما﴾ أى لازما لهؤلاء الكفرة بحيث لايتأخر عن جناياتهم ساعة لزوم مانزل بأولئك الغابرين وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام تلويح بأن ذلك التأخير لتشريفه عليه السلام كما ينبىء عنه قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم واللزام اما مصدر لازم وصف به مبالغة واما فعال بمعنى مفعل جعل آلة اللزوم لفرط لزومه كما يقال لزاز خصم ﴿وأجل مسمى﴾ عطف على كلمة أى ولولا أجل مسمى لاعمارهم أو لعذابهم وهو يوم القيامة ويوم بدر لما تأخر عذابهم أصلا وفصله عما عطف عليه للمسارعة الى بيان جواب لولا وللاشعار باستقلال كل منهما بنفى لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآى الكريمة وقد جوز عطفه على المستكن فى كان العائد الى الاخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلا للفصل بالخبر منزلة التأكيد أى لكان الاخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كدأب عاد وثمود وأضرابهم ولم ينفرد الاجل المسمى دون الأخذ العاجل ﴿فاصبر على يقولون﴾ أى اذا كان الأمر على ما ذكر من أن تأخير عذابهم ليس باهمال بل امهال وأنه لازم لهم البتة فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر فان علمه عليه السلام بأنهم معذبون لامحالة مما يسليه ويحمله على الصبر ﴿وسبح﴾ ملتبسا ﴿بحمد ربك﴾ أى صل وأنت حامد لربك الذى يبلغك الى كمالك على هدايته وتوفيقه أونزهه تعالى عما ينسبونه اليه مما لايليق بشأنه الرفيع حامدا له على ماميزك بالهدى معترفا بأنه مولى النعم كلها والأول هو الاظهر المناسب لقوله تعالى ﴿قبل طلوع الشمس﴾ الخ فان توقيت التنزيه غير معهود فالمراد صلاة الفجر ﴿وقبل غروبها﴾ يعنى صلاتى الظهر والعصر لانهما قبل غروبها بعد زوالها وجمعهما لمناسبة قوله تعالى قبل طلوع الشمس وقبل صلاة العصر ﴿ومن آناء الليل﴾ أى من ساعاته جمع انى بالكسر والقصر وأناء بالفتح والمد ﴿فسبح﴾ أى فصل والمراد به المغرب والعشاء وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل فان القلب فيهما أجمع والنفس الى الاستراحة أميل فتكون العبادة فيهما أشق ولذلك قال تعالى ان ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا ﴿وأطراف النهار﴾ تكرير لصلاة الفجر والمغرب ايذانا باختصاصهما بمزيد مزية ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الالباس كقول من قال ظهراهما مثل ظهور الترسين أو أمر بصلاة الظهر فانه نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الأخير وجمعه باعتبار النصفين أو لأن النهار جنس أو أمر بالتطوع فى أجزاء النهار ﴿لعلك ترضى﴾ متعلق بسبح أى سبح فى هذه الأوقات رجاء أن تنال عنده تعالى ماترضى به نفسك وقرىء ترضى على صيغة البناء للمفعول من أرضى أى يرضيك ربك ﴿ولا تمدن عينيك﴾ أى لا تطل نظرهما بطريق الرغبة والميل ﴿الى مامتعنا به﴾ من زخارف

الدنيا وقوله تعالى ﴿أزواجا منهم﴾ أى أصنافا من الكفرة مفعول متعنا قدم عليه الجار والمجرور للاعتناء به أو هو حال من الضمير والمفعول منهم أى الى الذى متعنا به وهو أصناف وأنواع بعضهم على أنه معنى من التبعيضية أو بعضا منهم على حذف الموصوف كما مر مرارا ﴿زهرة الحيوة الدنيا﴾ منصوب بمحذوف يدل عليه متعنا أى أعطينا أو به على تضمين معناه أو بالبدلية من محل به أو من أزواجا بتقدير مضاف أو بدونه أو بالذم وهى الزينة والبهجة وقرئ زهرة بفتح الهاء وهى لغة كالجهرة فى الجهرة أو جمع زاهر وصف لهم بأنهم زاهرو الدنيا لتنعمهم و بهاء زيهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزهاد ﴿لنفتنهم فيه﴾ متعلق بمتعنا جئ به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلا اثر اظهار بهجته حالا أى لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه ﴿ورزق ربك﴾ أى ما ادخر لك فى الآخرة أو ما رزقك فى الدنيا من النبوة والهدى ﴿خير﴾ مما منحهم فى الدنيا لأنه مع كونه فى نفسه أجل ما يتنافس فيه المتنافسون مأمون الغائلة بخلاف ما منحوه ﴿وأبقى﴾ فانه لا يكاد ينقطع نفسه أو أثره أبدا كما عليه زهرة الدنيا ﴿وأمر أهلك بالصلوة﴾ أمر عليه السلام بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له من أمته بالصلاة بعد ما أمر هو بها ليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا الفت أرباب الثروة ﴿واصطبر عليها﴾ وثابر عليها غير مشتغل بأمر المعاش ﴿لانسألك رزقا﴾ أى لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك ﴿نحن نرزقك﴾ واياهم ففرغ بالك بأمر الآخرة ﴿والعاقبة﴾ الحميدة ﴿للتقوى﴾ أى لأهل التقوى على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه تنبيها على أن ملاك الأمر هو التقوى روى أنه عليه السلام كان اذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية ﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه﴾ حكاية لبعض أقاويلهم الباطلة التى أمر عليه السلام بالصبر عليها أى هلا يأتينا بآية تدل على صدقه فى دعوى النبوة أو بآية مما اقترحوها بلغوا من المكابرة والعناد الى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التى تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات حتى اجترؤا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء وقوله تعالى ﴿أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى﴾ أى التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية رد من جهته عز وعلا لمقالتهم القبيحة وتكذيب لهم فيما دسوا تحتها من انكار اتيان الآية باتيان القرآن الكريم الذى هو أم الآيات وأس المعجزات وأعظمها وأبقاها لأن حقيقة المعجزة اختصاص مدعى النبوة بنوع من الأمور الخارقة للعادات أى أمر كان ولا ريب فى أن العلم أجل الأمور وأعلاها اذ هو أصل الاعمال ومبدأ الافعال ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الأولين والآخرين على يد أمى لم يمارس شيأ من العلوم ولم يدارس أحدا من أهلها أصلا فأى معجزة تراد بعد وروده وأى آية ترام مع وجوده وفى ايراده بعنوان كونه بينة لما فى الصحف الأولى من التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية أى شاهدا بحقية ما فيها من العقائد الحقة وأصول الأحكام التى أجمعت عليها كافة الرسل و بصحة ما تنطق به من أنباء الامم من حيث أنه غنى باعجازه عما يشهد بحقيته حقيق باثبات حقية غيره ما لا يخفى من تنويه شأنه وانارة برهانه ومزيد تقرير وتحقيق لاتيانه واسناد الاتيان اليه مع جعلهم اياه مأتيا به للتنبيه على أصالته فيه مع ما فيه من المناسبة للبينة والهمزة لانكار الوقوع والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل ألم يأتهم سائر الآيات ولم تأتهم خاصة بينة ما فى الصحف الاولى تقريرا لاتيانه وايذانا بأنه من الوضوح بحيث لا يتأتى منهم انكاره أصلا وان اجترؤا على انكار سائر الآيات مكابرة وعنادا وقرئ أولم يأتهم بالياء التحتانية وقرئ الصحف بالسكون تخفيفا وقوله تعالى ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب﴾ الى آخر الآية جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما قبلها من كون القرآن آية بينة لا يمكن انكارها ببيان أنهم يعترفون بها يوم القيامة والمعنى لو أنا أهلكناهم فى الدنيا بعذاب مستأصل ﴿من قبله﴾ متعلق بأهلكنا أو بمحذوف هو صفة لعذاب أى بعذاب كائن من قبل اتيان

البينة أو من قبل محمد عليه الصلاة والسلام ﴿لقالوا﴾ أي يوم القيامة ﴿ربنا لولا أرسلت الينا﴾ في الدنيا ﴿رسولا﴾ مع كتاب ﴿فنتبع آياتك﴾ التي جاءنا بها ﴿من قبل أن نذل﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿ونخزى﴾ بدخول النار اليوم ولكنا لم نهلكهم قبل اتيانها فانقطعت معذرتهم فعند ذلك قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء ﴿قل﴾ لأولئك الكفرة المتمردين ﴿كل﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿متربص﴾ منتظر لما يؤول اليه أمرنا وأمركم ﴿فتربصوا﴾ وقرئ فتمتعوا ﴿فستعلمون﴾ عن قريب ﴿من أصحاب الصراط السوى﴾ أي المستقيم وقرئ السواء أي الوسط الجيد وقرئ السوء والسوءى والسوى تصغير السوء ﴿ومن اهتدى﴾ من الضلالة ومن في الموضعين استفهامية محلها الرفع بالابتداء خبرها ما بعدها والجملة سادة مسد مفعولى العلم أو مفعوله ويجوز كون الثانية موصولة بخلاف الاولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب أو على الصراط وقيل العائد في الاولى محذوف والتقدير من هم أصحاب الصراط . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والانصار وقال لا يقرأ أهل الجنة من القرآن الا سورة طه ويس

سورة الانبياء

(مكية وهى مائة واثنتا عشرة آية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿اقترب للناس حسابهم﴾ مناسبة هذه الفاتحة الكريمة لما قبلها من الخاتمة الشريفة غنية عن البيان قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد بالناس المشركون وهو الذى يفصح عنه مابعده والمراد باقتراب حسابهم اقترابه في ضمن اقتراب الساعة واسناد الاقتراب اليه لا الى الساعة مع استتباعها له ولسائر ما فيها من الأحوال والاهوال الفظيعة لانسياق الكلام الى بيان غفلتهم عنه واعراضهم عما يذكرهم ذلك واللام متعلقة بالفعل وتقديمها على الفاعل للمسارعة الى ادخال الروعة فان نسبة الاقتراب اليهم من أول الامر مما يسوؤهم ويورثهم رهبة وانزعاجا من المقترب كما أن تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح في قوله تعالى هو الذى خلق لكم مافى الارض لتعجيل المسرة لما أن بيان كون الخلق لأجل المخاطبين مما يسرهم ويزيدهم رغبة فيما خلق لهم وشوقا اليه وجعلها تأكيدا للاضافة على أن الاصل المتعارف فيما بين الاوساط اقترب حساب الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم مع أنه تعسف تام بمعزل عما يقتضيه المقام وانما الذى يستدعيه حسن النظام ما قدمناه والمعنى دنا منهم حساب أعمالهم السيئة الموجبة للعقاب وفى اسناد الاقتراب المنبئ عن التوجه نحوهم الى الحساب مع امكان العكس بأن يعتبر التوجه والاقبال من جهتهم نحوه من تفخيم شأنه وتهويل أمره مالا يخفى لما فيه من تصويره بصورة شئ مقبل عليهم لايزال يطالبهم ويصيبهم لا محالة ومعنى اقترابه لهم تقاربه ودنوه منهم بعد بعده عنهم فانه في كل ساعة من ساعات الزمان أقرب اليهم منه في الساعة السابقة هذا وأما الاعتذار بأن قربه بالاضافة الى مامضى من الزمان أو بالنسبة الى الله عز وجل أو باعتبار أن كل آت قريب فلا تعلق له بما نحن فيه من الاقتراب المستفاد من صيغة الماضى ولا حاجة اليه في تحقيق أصل معناه نعم قد يفهم منه عرفا كونه قريبا في نفسه أيضا فيصار حينئذ الى التوجيه بالوجه الاول دون الاخيرين أما الثانى فلا سبيل الى اعتباره ههنا لان قربه بالنسبة اليه تعالى مما لا يتصور فيه التجدد والتفاوت حتما وانما اعتباره في قوله تعالى لعل الساعة قريب ونظائره مما لا دلالة فيه على

الحدوث وأما الثالث فلا دلالة فيه على القرب حقيقة ولو بالنسبة الى شئ آخر ﴿وهم فى غفلة﴾ أى فى غفلة تامة منه ساهون عنه بالمرة لأنهم غير مبالين به مع اعترافهم باتيانه بل منكرون له كافرون به مع اقتضاء عقولهم أن الاعمال لابد لها من الجزاء ﴿معرضون﴾ أى عن الآيات والنذر المنبهة لهم عن سنة الغفلة وهما خبران للضمير وحيث كانت الغفلة أمرا جبليالهم جعل الخبر الاول ظرفا منبئا عن الاستقرار بخلاف الاعراض والجملة حال من الناس وقد جوز كون الظرف حالا من المستكن فى معرضون ﴿ما يأتيهم من ذكر﴾ من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم ذلك أكمل تذكير وتنبهم عن الغفلة أتم تنبيه كانها نفس الذكر ومن فى قوله تعالى ﴿من ربهم﴾ لابتداء الغاية مجازامتعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة لذكر وأيا ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه و كمال شناعة مافعلوا به والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع ﴿محدث﴾ بالجر صفة لذكر وقرئ بالرفع حملا على محله أى محدث تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة وقوله تعالى ﴿الا استمعوه﴾ استثناء مفرغ محله النصب على أنه حال من مفعول يأتيهم باضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور وقوله تعالى ﴿وهم يلعبون﴾ حال من فاعل استمعوه وقوله تعالى ﴿لاهية قلوبهم﴾ اما حال أخرى منه أو من واو يلعبون والمعنى ما يأتيهم ذكر من ربهم محدث فى حال من الأحوال الا حال استماعهم اياه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه أو لاعبين به حال كون قلوبهم لاهية عنه لتناهى غفلتهم وفرط اعراضهم عن النظر فى الأمور والتفكر فى العواقب وقرئ لاهية بالرفع على أنه خبر بعد خبر ﴿وأسروا النجوى﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان جناية خاصة اثر حكاية جناياتهم المعتادة والنجوى اسم من التناجى ومعنى اسرارها مع أنها لاتكون الا سرا أنهم بالغوا فى اخفائها أو أسروا نفس التناجى بحيث لم يشعر أحد بأنهم متناجون وقوله تعالى ﴿الذين ظلموا﴾ بدل من واو أسروا منبئ عن كونهم موصوفين بالظلم الفاحش فيما أسروا به أو هو مبتدأ خبره أسروا النجوى قدم عليه اهتماما به والمعنى هم أسروا النجوى فوضع الموصول موضع الضمير تسجيلا على فعلهم بكونه ظلما أو منصوب على الذم وقوله تعالى ﴿هل هذا الا بشر مثلكم﴾ الخ فى حيز النصب على أنه مفعول لقول مضمر هو جواب عن سؤال نشأ عما قبله كأنه قيل ماذا قالوا فى نجواهم فقيل قالوا هل هذا الخ أو بدل من أسروا أو معطوف عليه أو على أنه بدل من النجوى أى أسروا هذا الحديث وهل بمعنى النفى والهمزة فى قوله تعالى ﴿أفتأتون السحر﴾ للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى ﴿وأنتم تبصرون﴾ حال من فاعل تأتون مقررة للانكار ومؤكدة للاستبعاد والمعنى ماهذا الا بشر مثلكم أى من جنسكم وما أتى به سحر أتعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الاذعان والقبول وأنتم تعاينون أنه سحر قالوه بناء على ما ارتكز فى اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون الا ملكا وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر و زل عنهم أن ارسال البشر الى عامة البشر هو الذى تقتضيه الحكمة التشريعية قاتلهم الله أنى يؤفكون وانما أسروا ذلك لأنه كان على طريق توثيق العهد وترتيب مبادى الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد فى هدم أمر النبوة واطفاء نور الدين والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴿قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض﴾ حكاية من جهته تعالى لما قاله عليه السلام بعد ما أوحى اليه أحوالهم وأقوالهم بيانا لظهور أمرهم وانكشاف سرهم وايثار القول المنتظم للسر والجهر على السر لاثبات علمه تعالى بالسر على النهج البرهانى مع مافيه من الايذان بأن علمه تعالى بالسر والجهر على وتيرة واحدة لاتفاوت بينهما بالجلاء والخفاء قطعا كما فى علوم الخلق وقرئ قل ربى الخ وقوله تعالى فى السماء والأرض متعلق بمحذوف وقع حالا من القول أى كائنا فى السماء والأرض وقوله تعالى ﴿وهو السميع العليم﴾ أى المبالغ فى العلم بالمسموعات والمعلومات التى من جملتها ما أسروه من النجوى فيجازيهم

بأقوالهم وأفعالهم اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله متضمن للوعيد ﴿بل قالوا أضغاث أحلام﴾ اضراب من جهته تعالى وانتقال من حكاية قولهم السابق الى حكاية قول آخر مضطرب فى مسالك البطلان أى لم يقتصروا على أن يقولوا فى حقه عليه السلام هل هذا الا بشر و فى حق ماظهر على يده من القرآن الكريم انه سحر بل قالوا تخاليط الأحلام ثم أضربوا عنه فقالوا ﴿بل افتراه﴾ من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل أو شبهة أصل ثم قالوا ﴿بل هو شاعر﴾ وما أتى به شعر يخيل الى السامع معانى لا حقيقة لها وهكذا شأن المبطل المحجوج متحير لايزال يتردد بين باطل وأبطل و يتذبذب بين فاسد وأفسد فالاضراب الأول كما ترى من جهته تعالى والثانى والثالث من قبلهم وقد قيل الكل من قبلهم حيث أضربوا عن قولهم هو سحر الى أنه تخاليط أحلام ثم الى أنه كلام مفترى ثم الى أنه قول شاعر ولا ريب فى أنه كان ينبغى حينئذ أن يقال قالوا بل أضغاث أحلام والاعتذار بأن بل قالوا مقول لقالوا المضمر قبل قوله تعالى هل هذا الا بشر الخ كأنه قيل وأسروا النجوى قالوا هل هذا الى قوله بل أضغاث أحلام وانما صرح بقالوا بعد بل لبعد العهد مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله ﴿فليأتنا بآية﴾ جواب شرط محذوف يفصح عنه السياق كأنه قيل وان لم يكن كما قلنا بل كان رسولا من الله تعالى فليأتنا بآية ﴿كما أرسل الأولون﴾ أى مثل الآية التى أرسل بها الأولون كاليد والعصا ونظائرهما حتى نؤمن به فما موصولة ومحل الكاف الجر على أنها صفة لآية و يجوز أن تكون مصدرية فالكاف منصوبة على أنها مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر محذوف أى فليأتنا بآية اتيانا كائنا مثل ارسال الأولين بها وصحة التشبيه من حيث ان الاتيان بالآية من فروع الارسال بها أى مثل اتيان مترتب على الارسال و يجوز أن يحمل النظم الكريم على أنه أريد كل واحد من الاتيان والارسال فى كل واحد من طرفى التشبيه لكنه ترك فى جانب المشبه ذكر الارسال و فى جانب المشبه به ذكر الاتيان اكتفاء بما ذكر فى كل موطن عما ترك فى الموطن الآخر حسبما مر فى آخر سورة يونس عليه السلام ﴿ما آمنت قبلهم من قرية﴾ كلام مستأنف مسوق لتكذيبهم فيما تنبىء عنه خاتمة مقالهم من الوعد الضمنى بالايمان كما أشير اليه و بيان أنهم فى اقتراح تلك الآيات كالباحث عن حتفه بظلفه وأن فى ترك الاجابة اليه ابقاء عليهم كيف لا ولو أعطوا مااقترحوا مع عدم ايمانهم قطعا لوجب استئصالهم لجريان سنة الله عز وجل فى الأمم السالفة على أن المقترحين اذا أعطوا مااقترحوه ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لامحالة وقد سبقت كلمة الحق منه تعالى أن هذه الأمة لايعذبون بعذاب الاستئصال فقوله من قرية أى من أهل قرية فى محل الرفع على الفاعلية ومن مزيدة لتأكيد العموم وقوله تعالى ﴿أهلكناها﴾ أى باهلاك أهلها لعدم ايمانهم بعد مجىء مااقترحوه من الآيات صفة لقرية والهمزة فى قوله تعالى ﴿أفهم يؤمنون﴾ لانكار الوقوع والفاء للعطف اما على مقدر دخلته الهمزة فأفادت انكار وقوع ايمانهم ونفيه عقيب عدم ايمان الأولين فالمعنى انه لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند اعطاء مااقترحوه من الآيات أهم لم يؤمنوا فهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا الى ماسألوا وأعطوا مااقترحوا مع كونهم أعتى منهم وأطغى واما على ما آمنت على أن الفاء متقدمة على الهمزة فى الاعتبار مفيدة لترتيب انكار وقوع ايمانهم على عدم ايمان الأولين وانما قدمت عليها الهمزة لاقتضائها الصدارة كما هو رأى الجمهور وقوله عز وجل ﴿وما أرسلنا قبلك الا رجالا﴾ جواب لقولهم هل هذا الا بشر الخ متضمن لرد مادسوا تحت قولهم كما أرسل الأولون من التعريض بعدم كونه عليه السلام مثل أولئك الرسل صلوات الله تعالى عليهم أجمعين ولذلك قدم عليه جواب قولهم فليأتنا بآية ولأنهم قالوا ذلك بطريق التعجيز فلا بد من المسارعة الى رده وابطاله كما مر فى تفسير قوله تعالى قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين وقوله تعالى ماننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذا منظرين و لأن فى هذا الجواب نوع بسط يخل

تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم والحق أن ما اتخذوه سببا للتكذيب موجب للتصديق فى الحقيقة لان مقتضى
الحكمة أن يرسل الى البشر البشر والى الملك الملك حسبما ينطق به قوله تعالى قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون
مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا فان عامة البشر بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية لتوقفها على التناسب
بين المفيض والمستفيض فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وانما الذى تقتضيه
الحكمة أن يبعث الملك منهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين
الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا الى جانب آخر وقوله تعالى ﴿نوحى اليهم﴾ استئناف مبين لكيفية
الارسال وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرة وحذف المفعول لعدم القصد الى خصوصه والمعنى وما أرسلنا
الى الأمم قبل ارسالك الى أمتك الا رجالا مخصوصين من أفراد الجنس مستأهلين للاصطفاء والارسال نوحى اليهم بواسطة
الملك ما نوحى من الشرائع والأحكام وغيرهما من القصص والاخبار كما نوحى اليك من غير فرق بينهما فى حقيقة الوحى
وحقية مدلوله حسبما يحكيه قوله تعالى انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين الى قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما كما
لا فرق بينك وبينهم فى البشرية فما لهم لا يفهمون أنك لست بدعا من الرسل وأن ما أوحى اليك ليس مخالفا لما أوحى
اليهم فيقولون ما يقولون وقرئ يوحى اليهم بالياء على صيغة المبنى للمفعول جريا على سنن الكبرياء وايذانا بتعين
الفاعل وقوله تعالى ﴿فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى الكفرة لتبكيتهم
واستنزالهم عن رتبة الاستبعاد والنكير اثر تحقيق الحق على طريقة الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه الحقيق
بالخطاب فى أمثال تلك الحقائق الأنيقة وأما الوقوف عليها بالاستخبار من الغير فهو من وظائف العوام والفاء لترتيب
ما بعدها على ما قبلها وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أى ان كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أيها الجهلة
أهل الكتاب الواقفين على أحوال الرسل السالفة عليهم الصلوات لتزول شبهتكم أمروا بذلك لأن اخبار الجم الغفير
يوجب العلم لا سيما وهم كانوا يشايعون المشركين فى عداوته عليه السلام ويشاورونهم فى أمره عليه السلام ففيه من الدلالة
على كمال وضوح الامر وقوة شأن النبى عليه السلام ما لا يخفى ﴿وما جعلناهم جسدا﴾ بيان لكون الرسل عليهم السلام
اسوة لسائر أفراد الجنس فى أحكام الطبيعة البشرية اثر بيان كونهم أسوة لهم فى نفس البشرية والجسد جسم الانسان
والجن والملائكة ونصبه اما على أنه مفعول ثان للجعل لكن لا بمعنى جعله جسدا بعد أن لم يكن كذلك كما هو المشهور
من معنى التصيير بل بمعنى جعله كذلك ابتداء على طريقة قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل كما مر فى قوله تعالى
وجعلنا آية النهار مبصرة واما حال من الضمير والجعل ابداعى وافراده لارادة الجنس المنتظم للكثير أيضا وقيل بتقدير
المضاف أى ذوى جسد وقوله تعالى ﴿لا يأكلون الطعام﴾ صفة له أى وما جعلناهم جسدا مستغنيا عن الاكل والشرب
بل محتاجا الى ذلك لتحصيل بدل ما يتحلل منه ﴿وما كانوا خالدين﴾ لأن مآل التحلل هو الفناء لا محالة وفى ايثار ما كانوا
على ما جعلناهم تنبيه على أن عدم الخلود مقتضى جبلتهم التى أشير اليها بقوله تعالى وما جعلناهم الخ لا بالجعل المستأنف والمراد
بالخلود اما المكث المديد كما هو شأن الملائكة أو الابدية وهم معتقدون أنهم لا يموتون والمعنى جعلناهم أجسادا متغذية
صائرة الى الموت بالآخرة على حسب آجالهم لا ملائكة ولا أجسادا مستغنية عن الاغذية مصونة عن التحلل كالملائكة
فلم يكن لها خلود كخلودهم فالجملة مقررة لما قبلها من كون الرسل السالفة عليهم السلام بشرا لا ملكا مع ما فى ذلك من الرد
على قولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام وقوله تعالى ﴿ثم صدقناهم الوعد﴾ عطف على ما يفهم من حكاية وحيه تعالى
اليهم على الاستمرار التجددى كأنه قيل أوحينا اليهم ما أوحينا ثم صدقناهم فى الوعد الذى وعدناهم فى تضاعيف الوحى

باهلاك أعدائهم ﴿فأنجيناهم ومن نشاء﴾ من المؤمنين، وغيرهم ممن تستدعى الحكمة ابقاءه كمن سيؤمن هو أو بعض فروعه بالآخرة وهو السر فى حماية العرب من عذاب الاستئصال ﴿وأهلكنا المسرفين﴾ أى المجاوزين للحدود فى الكفر والمعاصى ﴿لقد أنزلنا اليكم﴾ كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقية القرآن العظيم الذى ذكر فى صدر السورة الكريمة اعراض الناس عما يأتيهم من آياته واستهزاؤهم به وتسميتهم تارة سحرا وتارة أضغاث أحلام وأخرى مفترى وشعرا وبيان علو رتبته اثر تحقيق رسالته صلى الله عليه وسلم ببيان أنه كسائر الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام قد صدر بالتوكيد القسمى اظهارا لمزيد الاعتناء بمضمونه وايذانا بكون المخاطبين فى أقصى مراتب النكير أى والله لقد أنزلنا اليكم يامعشر قريش ﴿كتابا﴾ عظيم الشأن نير البرهان وقوله تعالى ﴿فيه ذكركم﴾ صفة لكتابا مؤكدة لما أفاده التنكير التفخيمى من كونه جليل المقدار بأنه جميل الآثار مستجلب لهم منافع جليلة أى فيه شرفكم وصيتكم كقوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك وقيل ماتحتاجون اليه فى أمور دينكم ودنياكم وقيل فيه ماتطلبون به حسن الذكر من مكارم الاخلاق وقيل فيه موعظتكم وهو الأنسب بسباق النظم الكريم وسياقه فان قوله تعالى ﴿أفلا تعقلون﴾ انكار توبيخى فيه بعث لهم على التدبر فى أمر الكتاب والتأمل فيما فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى ألاتتفكرون فلا تعقلون أن الأمر كذلك أو لاتعقلون شيأ من الاشياء التى من جملتها ماذكر وقوله تعالى ﴿وكم قصمنا من قرية﴾ نوع تفصيل لاجمال قوله تعالى وأهلكنا المسرفين وبيان لكيفية اهلاكهم وسببه وتنبيه على كثرتهم وكم خبرية مفيدة للتكثير محلها النصب على أنها مفعول لقصمنا ومن قرية تمييز وفى لفظ القصم الذى هو عبارة عن الكسر بابانة أجزاء المكسور وازالة تأليفها بالكلية من الدلالة على قوة الغضب وشدة السخط مالايخفى وقوله تعالى ﴿كانت ظالمة﴾ فى محل الجر على أنها صفة لقرية بتقدير مضاف ينبىء عنه الضمير الآتى أى وكثيرا قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين بآيات الله تعالى كافرين بها كدأبكم ﴿وأنشأنا بعدها﴾ أى بعد اهلاكها ﴿قوما آخرين﴾ أى ليسوا منهم نسبا ولادينا ففيه تنبيه على استئصال الاولين وقطع دابرهم بالكلية وهو السر فى تقديم حكاية انشاء هؤلاء على حكاية مبادى اهلاك أولئك بقوله تعالى ﴿فلما أحسوا بأسنا﴾ أى أدركوا عذابنا الشديد ادراكا تاما كأنه ادراك المشاهد المحسوس ﴿اذاهم منها يركضون﴾ يهربون مسرعين راكضين دوابهم أو مشبهين بهم فى فرط الاسراع ﴿لاتركضوا﴾ أى قيل لهم بلسان الحال أو بلسان المقال من الملك أو ممن ثمة من المؤمنين بطريق الاستهزاء والتوبيخ لاتركضوا ﴿وارجعوا الى ما أترفتم فيه﴾ من التنعم والتلذذ والاتراف ابطار النعمة ﴿ومساكنكم﴾ التى كنتم تفتخرون بها ﴿لعلكم تسألون﴾ تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير فى المهمات والنوازل أو تتفقدون اذا رئيت مساكنكم خالية وتسألون أين أصحابها أو يسألكم الوافدون نوالكم على أنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رياء أو بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما الى تهكم ﴿قالوا﴾ لما يئسوا من الخلاص بالهرب وأيقنوا بنزول العذاب ﴿ياويلنا﴾ أى هلاكنا ﴿انا كنا ظالمين﴾ أى مستوجبين للعذاب وهذا اعتراف منهم بالظلم وباستتباعه للعذاب وندم عليه حين لم ينفعهم ذلك ﴿فما زالت تلك دعواهم﴾ أى فمازالوا يرددون تلك الكلمة وتسميتها دعوى أى دعوة لأن المولول كأنه يدعو الويل قائلا ياويل تعال فهذا أوانك ﴿حتى جعلناهم حصيدا﴾ أى مثل الحصيد وهو المحصود من الزرع والنبت ولذلك لم يجمع ﴿خامدين﴾ أى ميتين من خمدت النار اذا طفئت وهو مع حصيدا فى حيز المفعول الثانى للجعل كقولك جعلته حلوا حامضا والمعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود أو حال من الضمير المنصوب فى جعلناهم أو من المستكن فى حصيدا أو صفة لحصيدا لتعدده معنى لأنه فى حكم جعلناهم أمثال حصيد ﴿وماخلقنا

السماء والارض﴾ اشارة اجمالية الى أن تكوين العالم وابداع بنى آدم مؤسس على قواعد الحكم البالغة المستتبعة للغايات الجليلة وتنبيه على أن ما حكى من العذاب الهائل والعقاب النازل باهل القرى من مقتضيات تلك الحكم ومتفرعاتها حسب اقتضاء أعمالهم اياه وأن للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوبا مثل ذنوبهم أى ما خلقناهما ﴿وما بينهما﴾ من المخلوقات التى لاتحصى أجناسها وأفرادها ولا تحصر أنواعها وآحادها على هذا النمط البديع والاسلوب المنيع خالية عن الحكم والمصالح وانما عبر عن ذلك باللعب واللهو حيث قيل ﴿لاعبين﴾ لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى عن الحكمة بتصويره بصورة مالا يرتاب أحد فى استحالة صدوره عنه سبحانه بل انما خلقناهما وما بينهما لتكون مبدأ لوجود الانسان وسببا لمعاشه ودليلا يقوده الى تحصيل معرفتنا التى هى الغاية القصوى بواسطة طاعتنا وعبادتنا كما ينطق به قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا وقوله تعالى وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون وقوله تعالى ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوا﴾ استئناف مقرر لماقبله من انتفاء اللعب واللهو أى لو أردنا أن نتخذ ما يتلهى به ويلعب ﴿لاتخذناه من لدنا﴾ أى من جهة قدرتنا أو من عندنا مما يليق بشأننا من المجردات لا من الأجسام المرفوعة والأجرام الموضوعة كديدن الجبابرة فى رفع العروش وتحسينها وتسوية الفروش وتزيينها لكن يستحيل ارادتنا له لمنافاته الحكمة فيستحيل اتخاذنا له قطعا وقوله تعالى ﴿ان كنا فاعلين﴾ جوابه محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه أى ان كنا فاعلين لاتخذناه وقيل ان نافية أى ما كنا فاعلين أى لاتخاذ اللهو لعدم ارادتنا اياه فيكون بيانا لانتفاء التالى لانتفاء المقدم أو لارادة اتخاذه فيكون بيانا لانتفاء المقدم المستلزم لانتفاء التالى وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى ولا يخفى بعده ﴿بل نقذف بالحق على الباطل﴾ اضراب عن اتخاذ اللهو بل عن ارادته كأنه قيل لكنا لانريده بل شأننا أن نغلب الحق الذى من جملته الجد على الباطل الذى من قبيله اللهو وتخصيص شأنه هذا من بين سائر شؤنه تعالى بالذكر للتخلص الى ما سيأتى من الوعيد ﴿فيدمغه﴾ أى يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكية وقد استعير لايراد الحق على الباطل القذف الذى هو الرمى الشديد بالجرم الصلب كالصخرة ولمحقه للباطل الدمغ الذى هو كسر الشىء الرخو الاجوف وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدى الى زهوق الروح تصويرا له بذلك وقرىء فيدمغه بالنصب وهو ضعيف وقرىء فيدمغه بضم الميم ﴿فاذا هو زاهق﴾ أى ذاهب بالكلية وفى اذا الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان مالا يخفى فكأنه زاهق من الاصل ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ وعيد لقريش بأن لهم أيضا مثل ما لأولئك من العذاب والعقاب ومن تعليلية متعلقة بالاستقرار الذى تعلق به الخبر أو بمحذوف هو حال من الويل أو من ضميره فى الخبر وما اما مصدرية أو موصولة أو موصوفة أى واستقر لكم الويل والهلاك من أجل وصفكم له سبحانه بما لا يليق بشأنه الجليل أو بالذى تصفونه أو بشىء تصفونه به من الولد أو كائنا مما تصفونه تعالى به ﴿وله من فى السموات والأرض﴾ استئناف مقرر لما قبله من خلقه تعالى لجميع مخلوقاته على حكمة بالغة ونظام كامل وأنه تعالى يحق الحق ويزهق الباطل أى له تعالى خاصة جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصرفا وإحياء وإماتة وتعذيبا واثابة من غير أن يكون لأحد فى ذلك دخل ما استقلالا أو استتباعا ﴿ومن عنده﴾ وهم الملائكة عليهم السلام عبر عنهم بذلك اثر ما عبر عنهم بمن فى السموات تنزيلا لهم لكرامتهم عليه عز وعلا وزلفاهم عنده منزلة المقربين عند الملوك بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره ﴿لايستكبرون عن عبادته﴾ أى لايتعظمون عنها ولا يعدون أنفسهم كبيرا ﴿ولا يستحسرون﴾ ولا يكلون ولا يعيون وصيغة الاستفعال المنبئة عن المبالغة فى الحسور للتنبيه على أن عباداتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها ومع ذلك لا يستحسرون

لا لافادة نفى المبالغة فى الحسور مع ثبوت أصله فى الجملة كما أن نفى الظلامية فى قوله تعالى وما أنا بظلام للعبيد لافادة كثرة الظلم المفروض تعلقه بالعبيد لا لافادة نفى المبالغة فى الظلم مع ثبوت أصل الظلم فى الجملة وقيل من عنده معطوف على من الأولى وافرادهم بالذكر مع دخولهم فى من فى السموات والأرض للتعظيم كما فى قوله تعالى وجبريل وميكال فقوله تعالى لا يستكبرون حينئذ حال من الثانية ﴿ يسبحون الليل والنهار ﴾ أى ينزهونه فى جميع الأوقات و يعظمونه و يمجدونه دائما وهو استئناف وقع جوابا عما نشأ مما قبله كأنه قيل ماذا يصنعون فى عباداتهم أو كيف يعبدون فقيل يسبحون الخ أو حال من فاعل يستحسرون وكذا قوله تعالى ﴿ لا يفترون ﴾ أى لا يتخلل تسبيحهم فترة أصلا بفراغ أو بشغل آخر ﴿ أم اتخذوا آلهة ﴾ حكاية لجناية أخرى من جناياتهم بطريق الاضراب والانتقال من فن الى فن آخر من التوبيخ اثر تحقيق الحق ببيان أنه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة وأنهم قاطبة تحت ملكوته وقهره وأن عباده مذعنون لطاعته ومثابرون على عبادته منزهون له عن كل ما لا يليق بشأنه من الأمور التى من جملتها الأنداد ومعنى الهمزة فى أم المنقطعة انكار الوقوع لا انكار الواقع وقوله تعالى ﴿ من الأرض ﴾ متعلق باتخذوا أو بمحذوف هو صفة لآلهة وأيا ما كان فالمراد هو التحقير لا التخصيص وقوله تعالى ﴿ هم ينشرون ﴾ أى يبعثون الموتى صفة لآلهة وهو الذى يدور عليه الانكار والتجهيل والتشنيع لا نفس الاتخاذ فانه واقع لا محالة أى بل اتخذوا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى كلا فان ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك وهم وان لم يقولوا بذلك صريحا لكنهم حيث ادعوا لها الالهية فكانهم ادعوا لها الانشار ضرورة أنه من الخصائص الالهية حتما ومعنى التخصيص فى تقديم الضمير ما أشير اليه من التنبيه على كمال مباينة حالهم للانشار الموجبة لمزيد الانكار كما فى قوله تعالى أفى الله شك وقوله تعالى أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون فان تقديم الجار والمجرور للتنبيه على كمال مباينة أمره تعالى لأن يشك فيه و يستهزأ به و يجوز أن يجعل ذلك من مستتبعات ادعائهم الباطل لأن الالوهية مقتضية للاستقلال بالابداء والاعادة فحيث ادعوا للأصنام الالهية فكأنهم ادعوا لها الاستقلال بالانشار كما أنهم جعلوا بذلك مدعين لأصل الانشار ﴿ لو كان فيهما آلهة الا الله ﴾ ابطال لتعدد الاله باقامة البرهان على انتفائه بل على استحالته وايراد الجمع لوروده اثر انكار اتخاذ الآلهة لا لأن للجمعية مدخلا فى الاستدلال وكذا فرض كونها فيهما والا بمعنى غير على أنها صفة لآلهة ولا مساغ للاستثناء لاستحالة شمول ما قبلها لما بعدها وافضائه الى فساد المعنى لدلالته حينئذ على أن الفساد لكونها فيهما بدونه تعالى ولا للرفع على البدل لأنه متفرع على الاستثناء ومشروط بأن يكون فى كلام غير موجب أى لو كان فى السموات والأرض آلهة غير الله كما هو اعتقادهم الباطل ﴿ لفسدتا ﴾ أى لبطلتا بما فيهما جميعا وحيث انتفى التالى علم انتفاء المقدم قطعا بيان الملازمة أن الالهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الاطلاق تغييرا وتبديلا وايجادا واعداما واحياء وامانة فبقاؤهما على ما هما عليه اما بتأثير كل منها وهو محال لاستحالة وقوع المعلول المعين بعلل متعددة واما بتأثير واحد منها فالبواقى بمعزل من الالهية قطعا واعلم أن جعل التالى فسادهما بعد وجودهما لما أنه اعتبر فى المقدم تعدد الآلهة فيهما والا فالبرهان يقضى باستحالة التعدد على الاطلاق فانه لو تعدد الاله فان توافق الكل فى المراد تطاردت عليه القدر وان تخالفت تعاوقت فلا يوجد موجود أصلا وحيث انتفى التالى تعين انتفاء المقدم والفاء فى قوله تعالى ﴿ فسبحان الله ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان أى فسبحوه سبحانه اللائق به ونزهوه عما لا يليق به من الامور التى من جملتها أن يكون له شريك فى الالوهية وايراد الجلالة فى موضع الاضمار للاشعار بعلة الحكم فان الالوهية مناط لجميع صفات كماله التى من جملتها تنزهه

تعالى عما لا يليق به و لتربية المهابة وادخال الروعة وقوله تعالى ﴿رب العرش﴾ صفة للاسم الجليل مؤكدة لتنزهه عز وجل ﴿عما يصفون﴾ متعلق بالتسبيح أي فسبحوه عما يصفونه من أن يكون من دونه آلهة ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ استئناف ببيان أنه تعالى لقوة عظمته وعزة سلطانه القاهر بحيث ليس لاحد من مخلوقاته أن يناقشه و يسأله عما يفعل من أفعاله اثر بيان أن ليس له شريك فى الالهية ﴿وهم﴾ أى العباد ﴿يسألون﴾ عما يفعلون نقيرا وقطميرا لانهم مملوكون له تعالى مستعبدون ففيه وعيد للكفرة ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة﴾ اضراب وانتقال من اظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة آلهة حقيقة باظهار خلوها عن خصائص الالهية التى من جملتها الانشار واقامة البرهان القاطع على استحالة تعدد الاله على الاطلاق وتفرده سبحانه بالالوهية الى اظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة مع عرائها عن تلك الخصائص بالمرة شركاء لله عز سلطانه وتبكيتهم بالجائهم الى اقامة البرهان على دعواهم الباطلة وتحقيق أن جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد و بطلان الاشراك والهمزة لانكار الاتخاذ المذكور واستقباحه واستعظامه ومن متعلقة باتخذوا والمعنى بل اتخذوا متجاوزين اياه تعالى مع ظهور شؤنه الجليلة الموجبة لتفرده بالالوهية آلهة مع ظهور خلوهم عن خواص الالوهية بالكلية ﴿قل﴾ لهم بطريق التبكيت والقام الحجر ﴿هاتوا برهانكم﴾ على ما تدعونه من جهة العقل والنقل فانه لا صحة لقول لا دليل عليه فى الامور الدينية لاسيما فى مثل هذا الشأن الخطير وما فى اضافة البرهان الى ضميرهم من الاشعار بأن لهم برهانا ضرب من التهكم بهم وقوله تعالى ﴿هذا ذكر من معى وذكر من قبلى﴾ انارة لبرهانه واشارة الى أنه مما نطقت به الكتب الالهية قاطبة وشهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة وزيادة تهييج لهم على اقامة البرهان لاظهار كمال عجزهم أى هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع العقلى ذكر أمتى أى عظتهم وذكر الامم السالفة قد أقمته فأقيموا أنتم أيضا برهانكم وقيل المعنى هذا كتاب أنزل على أمتى وهذا كتاب أنزل على أمم الانبياء عليهم السلام من الكتب الثلاثة والصحف فراجعوها وانظروا هل فى واحد منها غير الامر بالتوحيد والنهى عن الاشراك ففيه تبكيت لهم متضمن لاثبات نقيض مدعاهم وقرىء بالتنوين والاعمال كقوله تعالى أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما و به و بمن الجارة على أن مع اسم هو ظرف كقبل و بعد وقوله تعالى ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق﴾ اضراب من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن وانتقال من الامر بتبكيتهم بمطالبة البرهان الى بيان أنه لا ينجع فيهم المحاجة باظهار حقية الحق و بطلان الباطل فان أكثرهم لا يفهمون الحق ولا يميزون بينه و بين الباطل ﴿فهم﴾ لاجل ذلك ﴿معرضون﴾ أى مستمرون على الاعراض عن التوحيد واتباع الرسول لا يرعوون عما هم عليه من الغى والضلال وان كررت عليهم البينات والحجج أو معرضون عما ألقى عليهم من البراهين العقلية والنقلية وقرىء الحق بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وسط بين السبب والمسبب تأكيدا للسببية وقوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون﴾ استئناف مقرر لما أجمل فيما قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الالهية وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام وقرىء يوحى على صيغة الغائب مبنيا للمفعول وأياما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورة الوحى ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا﴾ حكاية لجناية فريق من المشركين جىء بها لاظهار بطلانها و بيان تنزهه تعالى عن ذلك اثر بيان تنزهه سبحانه عن الشركاء على الاطلاق وهم حى من خزاعة يقولون الملائكة بنات الله تعالى ونقل الواحدى أن قريشا و بعض أجناس العرب جهينة و بنى سلمة وخزاعة و بنى مليح يقولون ذلك والتعرض لعنوان الرحمانية المنبئة عن كون جميع ماسواه تعالى مربوبا له تعالى نعمة أو منعما عليه لابراز كمال شناعة مقالتهم

الباطلة ﴿سبحانه﴾ أى تنزه بالذات تنزهه اللائق به على أن السبحان مصدر من سبح أى بعد أو أسبحه تسبيحه على أنه علم للتسبيح وهو مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحه وقوله تعالى ﴿بل عباد﴾ اضراب وابطال لما قالوه كأنه قيل ليست الملائكة كما قالوا بل هم عباد له تعالى ﴿مكرمون﴾ مقربون عنده وقرئ مكرمون بالتشديد وفيه تنبيه على منشا غلط القوم وقوله تعالى ﴿لايسبقونه بالقول﴾ صفة أخرى لعباد منبئة عن كمال طاعتهم وانقيادهم لامره تعالى أى لايقولون شيأ حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به وأصله لا يسبق قولهم قوله تعالى فأسند السبق اليهم منسوبا اليه تعالى تنزيلا لسبق قولهم قوله تعالى منزلة سبقهم اياه تعالى لمزيد تنزيههم عن ذلك وللتنبيه على غاية استهجان السبق المعرض به للذين يقولون مالا يقوله الله تعالى وجعل القول محلا للسبق وأداة له ثم أنيب اللام عن الاضافة للاختصار والتجافى عن التكرار وقرئ لايسبقونه بضم الباء من سابقته فسبقته أسبقه وفيه مزيد استهجان للسبق واشعار بأن من سبق قوله قوله تعالى فقد تصدى لمغالبته تعالى فى السبق فسبقه فغلبه والعياذ بالله تعالى وزيادة تنزيه لهم عما نفى عنهم ببيان أن ذلك عندهم بمنزلة الغلبة بعد المغالبة فأنى يتوهم صدوره عنهم ﴿وهم بأمره يعملون﴾ بيان لتبعيتهم له تعالى فى الاعمال اثر بيان تبعيتهم له تعالى فى الاقوال فان نفى سبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه كأنه قيل هم بأمره يقولون و بأمره يعملون لابغير أمره أصلا فالقصر المستفاد من تقديم الجار معتبر بالنسبة الى غير أمره لا الى أمر غيره ﴿يعلم مابين أيديهم وماخلفهم﴾ استئناف وقع تعليلا لماقبله وتمهيدا لما بعده فانهم لعلمهم باحاطته تعالى بما قدموا وأخروا من الاقوال والاعمال لايزالون يراقبون أحوالهم فلا يقدمون على قول أو عمل بغير أمره تعالى ﴿ولا يشفعون الا لمن ارتضى﴾ أن يشفع له مهابة منه تعالى ﴿وهم﴾ مع ذلك ﴿من خشيته﴾ عز وجل ﴿مشفقون﴾ مرتعدون وأصل الخشية الخوف مع التعظيم و لذلك خص بها العلماء والاشفاق الخوف مع الاعتناء فعند تعديته بمن يكون معنى الخوف فيه أظهر وعند تعديته بعلى ينعكس الامر ﴿ومن يقل منهم﴾ أى من الملائكة الكلام فيهم وفى كونهم بمعزل مما قالوا فى حقهم ﴿انى اله من دونه﴾ متجاوزا اياه تعالى ﴿فذلك﴾ الذى فرض قوله فرض محال ﴿نجزيه جهنم﴾ كسائر المجرمين ولا يغنى عنهم ما ذكر من صفاتهم السنية وأفعالهم المرضية وفيه من الدلالة على قوة ملكوته تعالى وعزة جبروته واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم فى حقهم ما توهمه أولئك الكفرة ما لا يخفى ﴿كذلك نجزى الظالمين﴾ مصدر تشبيهى مؤكد لمضمون ماقبله اى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الذين يضعون الاشياء فى غير مواضعها و يتعدون أطوارهم والقصر المستفاد من التقديم معتبر بالنسبة الى النقصان دون الزيادة أى لاجزاء أنقص منه ﴿أولم ير الذين كفروا﴾ تجهيل لهم بتقصيرهم فى التدبر فى الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالالوهية وكون جميع ماسواه مقهورا تحت ملكوته والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر وقرئ بغير واو والرؤية قلبية أى ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أن السموات والارض كانتا﴾ أى جماعتا السموات والارضين كما فى قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ﴿رتقا﴾ الرتق الضم والالتحام والمعنى اما على حذف المضاف او هو بمعنى المفعول أى كانتا ذواتى رتق أو مرتوقتين وقرئ رتقا أى شيأ رتقا أى مرتوقا ﴿ففتقناهما﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عكرمة والحسن البصرى وقتادة وسعيد بن جبير كانتا شيأ واحدا ملتزمين ففصل الله تعالى بينهما و رفع السماء الى حيث هى وأقر الارض وقال كعب خلق الله تعالى السموات والارض ملتصقتين ثم خلق ريحا فتوسطتها ففتقتها وعن الحسن خلق الله تعالى الارض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها و بسط منها الارض وذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما وقال مجاهد والسدى

كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع أرضين وقال ابن عباس فى رواية عطاء وعليه أكثر المفسرين ان السموات كانت رتقا مستوية صلبة لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات فيكون المراد بالسموات السماء الدنيا والجمع باعتبار الآفاق او السموات جميعا على أن لها مدخلا فى الامطار وعلم الكفرة الرتق والفتق بهذا المعنى مما لا سترة به وأما بالمعانى الاول فهم وان لم يعلموهما لكنهم متمكنون من علمهما اما بطريق النظر والتفكر فان الفتق عارض مفتقر الى مؤثر قديم واما بالاستفسار من العلماء ومطالعة الكتب ﴿وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾ أى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء وذلك لانه من أعظم مواده أو لفرط احتياجه اليه وانتفاعه به أو صيرنا كل شىء حى من الماء أى بسبب منه لابد له من ذلك وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به لا لمجرد أن المفعولين فى الاصل مبتدأ وخبر وحق الخبر عند كونه ظرفا أن يتقدم على المبتدا فان ذلك مصحح محض لا مرجح وقرىء حيا على أنه صفة كل أو مفعول ثان والظرف كما فى الوجه الاول قدم على المفعول للاهتمام به والتشويق الى المؤخر ﴿أفلا يؤمنون﴾ انكار لعدم ايمانهم بالله وحده مع ظهور ما يوجبه حتما من الآيات الآفاقية والانفسية الدالة على تفرده عز وجل بالالوهية وعلى كون ماسواه من مخلوقاته مقهورة تحت ملكوته وقدرته والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الانكار السابق أى أيعلمون ذلك فلا يؤمنون ﴿وجعلنا فى الارض رواسى﴾ أى جبالا ثوابت جمع راسية من رسا الشىء اذا ثبت ورسخ ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث فى غير العقلاء مما لا ريب فى صحته كقوله تعالى أشهر معلومات وأياما معدودات ﴿أن تميد بهم﴾ أى كراهة أن تتحرك وتضطرب بهم أو لئلا تميد بهم بحذف اللام ولا لعدم الالباس ﴿وجعلنا فيها﴾ أى فى الارض وتكرير الفعل لاختلاف المجعولين ولتوفية مقام الامتنان حقه أو فى الرواسى لانها المحتاجة الى الطرق ﴿فجاجا﴾ مسالك واسعة وانما قدم على قوله تعالى ﴿سبلا﴾ وهو وصف له ليصير حالا فيفيد أنه تعالى حين خلقها خلقها كذلك أو ليبدل منها سبلا فيدل ضمنا على أنه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع ما فيه من التوكيد ﴿لعلهم يهتدون﴾ أى الى مصالحهم ومهماتهم ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا﴾ من الوقوع بقدرتنا القاهرة أو من الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم بمشيئتنا أو من استراق السمع بالشهب ﴿وهم عن آياتها﴾ الدالة على وحدانيته تعالى وعلمه وحكمته وقدرته وارادته التى بعضها محسوس وبعضها معلوم بالبحث عنه فى علمى الطبيعة والهيئة ﴿معرضون﴾ لا يتدبرون فيها فيبقون على ما هم عليه من الكفر والضلال وقوله تعالى ﴿وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر﴾ اللذين هما آيتاهما بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجب لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام أى هو الذى خلقهن وحده ﴿كل﴾ أى كل واحد منهما على أن التنوين عوض عن المضاف اليه ﴿فى فلك يسبحون﴾ أى يجرون فى سطح الفلك كالسبح فى الماء والمراد بالفلك الجنس كقولك كساهم الخليفة حلة والجملة حال من الشمس والقمر وجاز انفرادهما بها لعدم اللبس والضمير لهما والجمع باعتبار المطالع وجعل الضمير واو العقلاء لان السباحة حالهم ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ أى فى الدنيا لكونه مخالفا للحكمة التكوينية والتشريعية ﴿أفان مت﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿فهم الخالدون﴾ نزلت حين قالوا نتربص به ريب المنون والفاء لتعليق الشرطية بما قبلها والهمزة لانكار مضمونها بعد تقرر القاعدة الكلية النافية لذلك بالمرة والمراد بانكار خلودهم ونفيه انكار ما هو مدار له وجودا وعدما من شماتتهم بموته عليه السلام فان الشماتة بما يعتريه أيضا مما لا ينبغى أن يصدر عن العاقل كأنه قيل أفان مت فهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك وقوله تعالى ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أى ذائقة مرارة مفارقتها

جسدها برهان على ماانكر من خلودهم ﴿ونبلوكم﴾ الخطاب اماللناس كافة بطريق التلوين أوللكفرة بطريق الالتفات أى نعاملكم معاملة من يبلوكم ﴿بالشر والخير﴾ بالبلايا والنعم هل تصبرون وتشكرون أولا ﴿فتنة﴾ مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه ﴿والينا ترجعون﴾ لا الى غيرنا لااستقلالا ولا اشتراكا فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال فهو على الأول وعد ووعيد وعلى الثانى وعيد محض وفيه ايماء الى أن المقصود من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب وقرئ يرجعون بالياء على الالتفات ﴿واذا رآك الذين كفروا﴾ أى المشركون ﴿ان يتخذونك الا هزوا﴾ أى ما يتخذونك الامهزوءا به على معنى قصر معاملتهم معه عليه السلام على اتخاذهم اياه هزوا لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزوا كما هو المتبادر كأنه قيل ما يفعلون بك الا اتخاذك هزوا وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى ان أتبع الاما يوحى الى فى سورة الأنعام ﴿أهذا الذى يذكر آلهتكم﴾ على ارادة القول أى ويقولون أو قائلين ذلك أى يذكرهم بسوء كما فى قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم الخ وقوله تعالى ﴿وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ فى حيز النصب على الحالية من ضمير القول المقدر والمعنى أنهم يعيبون عليه عليه الصلاة والسلام أن يذكر آلهتهم التى لاتضر ولا تنفع بالسوء والحال أنهم بذكر الرحمن المنعم عليهم بما يليق به من التوحيد أو بارشاد الخلق بارسال الرسل وانزال الكتب أو بالقرآن كافرون فهم أحقاء بالعيب والانكار فالضمير الأول مبتدأ خبره كافرون وبذكر متعلق بالخبر والتقدير وهم كافرون بذكر الرحمن والضمير الثانى تأكيد لفظى للاول فوقع الفصل بين العامل ومعموله بالمؤكد وبين المؤكد والمؤكد بالمعمول ﴿خلق الانسان من عجل﴾ جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه تنزيلا لما طبع عليه من الاخلاق منزلة ما طبع منه من الاركان ايذانا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه ومن عجلته مبادرته الى الكفر واستعجاله بالوعيد روى أنها نزلت فى النضر بن الحرث حين استعجل العذاب بقوله اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر الآية وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بالانسان آدم عليه السلام وأنه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم وروى أنه لما دخل الروح فى عينيه نظر الى ثمار الجنة ولما دخل جوفه اشتهى الطعام وقيل خلقه الله تعالى فى آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس فأسرع فى خلقه قبل غيبتها فالمعنى خلق الانسان خلقا ناشئا من عجل فذكره لبيان أنه من دواعى عجلته فى الأمور والأظهر أن المراد به الجنس وان كان خلقه عليه السلام ساريا الى أولاده وقيل العجل الطين بلغة حمير ولا تقريب له ههنا وقوله تعالى ﴿سأريكم آياتى﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المستعجلين بطريق التهديد والوعيد أى سأريكم نقماتى فى الآخرة كعذاب النار وغيره ﴿فلا تستعجلون﴾ بالاتيان بها والنهى عما جبلت عليه نفوسهم ليقعدوها عن مرادها ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ أى وقت مجىء الساعة التى كانوا يوعدون وانما كانوا يقولونه استعجالا لمجيئه بطريق الاستهزاء والانكار كما يرشد اليه الجواب لا طلبا لتعيين وقته بطريق الالزام كما فى سورة الملك ﴿ان كنتم صادقين﴾ أى فى وعدكم بأنه يأتينا والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة عن مجىء الساعة وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه حسبما حذف فى مثل قوله تعالى فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين فان قولهم متى هذا الوعد استبطاء منهم للموعود وطلب لاتيانه بطريق العجلة فان ذلك فى قوة الأمر بالاتيان عجلة كأنه قيل فليأتنا بسرعة ان كنتم صادقين ﴿لو يعلم الذين كفروا﴾ استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه من العذاب وأنهم انما يستعجلونه لجهلهم بشأنه وايثار صيغة المضارع فى الشرط وان كان المعنى على المضى لافادة استمرار عدم العلم فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى

افادة انتفاء استمرار الفعل بل يفيد استمرار انتفائه أيضا بحسب المقام كما فى قولك لو تحسن الى لشكرتك فان المعنى أن انتفاء الشكر لاستمرار انتفاء الاحسان لا لانتفاء استمرار الاحسان و وضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على علة استعجالهم وقوله تعالى ﴿حين لا يكفون عن وجوههم النار و لا عن ظهورهم﴾ مفعول يعلم وهو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه واضافته الى الجملة الجارية مجرى الصفة التى حقها أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف عند المخاطب أيضا مع انكار الكفرة لذلك للايذان بأنه من الظهور بحيث لا حاجة له الى الاخبار به وانما حقه الانتظام فى سلك المسلمات المفروغ عنها وجواب لو محذوف أى لو لم يستمر عدم علمهم بالوقت الذى يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد من الحين الذى تحيط بهم النار فيه من كل جانب وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب واستلزام الاحاطة بهما الاحاطة بالكل بحيث لا يقدرون على دفعها بأنفسهم من جانب من جوانبهم ﴿و لا هم ينصرون﴾ من جهة الغير فى دفعها الخ لما فعلوا ما فعلوا من الاستعجال و يجوز أن يكون يعلم متروك المفعول منزلا منزلة اللازم أى لو كان لهم علم لما فعلوه وقوله تعالى حين الخ استئناف مقرر لجهلهم ومبين لاستمراره الى ذلك الوقت كأنه قيل حين يرون ما يرون يعلمون حقيقة الحال ﴿بل تأتيهم﴾ عطف على لا يكفون أى لا يكفونها بل تأتيهم أى العدة أو النار أو الساعة ﴿بغتة فتبهتهم﴾ أى تغلبهم أو تحيرهم وقرئ الفعلان بالتذكير على أن الضمير للوعد أو الحين و كذا الهاء فى قوله تعالى ﴿فلا يستطيعون ردها﴾ بتأويل الوعد بالنار أو العدة والحين بالساعة و يجوز عوده الى النار وقيل الى البغتة أى لا يستطيعون ردها عنهم بالكلية ﴿ولاهم ينظرون﴾ أى يمهلون ليستريحوا طرفة عين وفيه تذكير لامهالهم فى الدنيا ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك﴾ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به عليه السلام فى ضمن الاستعجال وعدة ضمنية بأنه يصيبهم مثل ما أصاب المستهزئين بالرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام وتصديرها بالقسم لزيادة تحقيق مضمونها وتنوين الرسل للتفخيم والتكثير ومن متعلقة بمحذوف هو صفة له أى و بالله لقد استهزئ برسل أولى شأن خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ﴿فحاق﴾ أى أحاط عقيب ذلك أو نزل أو حل أو نحو ذلك فان معناه يدور على الشمول واللزوم و لا يكاد يستعمل الا فى الشر والحيق ما يشتمل على الانسان من مكروه فعله وقوله تعالى ﴿بالذين سخروا منهم﴾ أى من أولئك الرسل عليهم السلام متعلق بحاق وتقديمه على فاعله الذى هو قوله تعالى ﴿ما كانوا به يستهزؤن﴾ للمسارعة الى بيان لحوق الشر بهم وما اما موصولة مفيدة للتهويل والضمير المجرور عائد اليها والجار متعلق بالفعل وتقديمه عليه لرعاية الفواصل أى فاحاط بهم الذى كانوا يستهزؤن به حيث أهلكوا لاجله واما مصدرية فالضمير المجرور راجع حينئذ الى جنس الرسول المدلول عليه بالجمع كما قالوا ولعل ايثاره على الجمع للتنبيه على أنه يحيق بهم جزاء استهزائهم بكل واحد واحد منهم عليهم السلام لا جزاء استهزائهم بكلهم من حيث هو كل فقط أى فنزل بهم جزاء استهزائهم على وضع السبب موضع المسبب ايذانا بكمال الملابسة بينهما أو عين استهزائهم ان أريد بذلك العذاب الاخروى بناء على تجسم الاعمال فان الاعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية تبرز فى النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها فى الحسن والقبح وعلى ذلك بنى الوزن وقد مر تفصيله فى سورة الاعراف وفى قوله تعالى انما بغيكم على أنفسكم الآية الى آخرها ﴿قل﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تسليته بما ذكر من مصير أمرهم الى الهلاك وأمر له عليه السلام بأن يقول لاولئك المستهزئين بطريق التقريع والتبكيت ﴿من يكلؤكم﴾ أى يحفظكم ﴿بالليل والنهار من الرحمن﴾ أى من بأسه الذى تستحقون نزوله ليلا أو نهارا وتقديم

الليل لما أن الدواهى أكثر فيه وقوعا وأشد وقعا وفى التعرض لعنوان الرحمانية ايذان بأن كالئهم ليس الا رحمته العامة وبعد ما أمر عليه السلام بما ذكر من السؤال على الوجه المذكور حسبما تقتضيه حالهم لانهم بحيث لولا أن الله تعالى يحفظهم فى الملوين لحل بهم فنون الآفات فهم أحقاء بأن يكلفوا الاعتراف بذلك فيو بخوا على ماهم عليه من الاشراك أضرب عن ذلك بقوله تعالى ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ ببيان أن لهم حالا أخرى مقتضية لصرف الخطاب عنهم هى أنهم لايخطرون ذكره تعالى ببالهم فضلا أن يخافوا بأسه ويعدوا ما كانوا عليه من الامن والدعة حفظا وكلاءة حتى يسألوا عن الكالئ على طريقة قول من قال

عوجوا فحيوا لنعمى دمنة الدار ۞ ماذا تحيون من نؤى وأحجار

وفى تعليق الاعراض بذكره تعالى وايراد اسم الرب المضاف الى ضميرهم المنبئ عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم فى الغاية القاصية من الضلالة والغى مالا يخفى وكلمة أم فى قوله تعالى ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ منقطعة وما فيها من معنى بل للاضراب والانتقال عما قبله من بيان أن جهلهم بحفظه تعالى اياهم لعدم خوفهم الناشئ عن اعراضهم عن ذكر ربهم بالكلية الى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم واسنادهم الحفظ اليها والهمزة لانكار أن يكون لهم آلهة تقدر على ذلك والمعنى بل ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا أو حفظنا أو من عذاب كائن من عندنا فهم معولون عليها واثقون بحفظها وفى توجيه الانكار والنفى الى وجود الآلهة الموصوفة بما ذكر من المنع لا الى نفس الصفة بان يقال أم تمنعهم آلهتهم الخ من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلا عن رتبة المنع مالا يخفى وقوله عز وعلا ﴿لا يستطيعون نصر أنفسهم ولاهم منا يصحبون﴾ استئناف مقرر لما قبله من الانكار وموضح لبطلان اعتقادهم أى هم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ولا يصحبون بالنصر من جهتنا فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم وقوله تعالى ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر﴾ اضراب عما توهموا ببيان أن الداعى الى حفظهم تمتيعنا اياهم بما قدر لهم من الاعمار أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك وهو أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحسبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ماهم عليه ولذلك عقب بما يدل على أنه طمع فارغ وأمل كاذب حيث قيل ﴿أفلا يرون﴾ أى ألا ينظرون فلا يرون ﴿أنا نأتى الارض﴾ أى أرض الكفرة ﴿ننقصها من أطرافها﴾ فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا وهو تمثيل وتصوير لما يخربه الله عز وجل من ديارهم على أيدى المسلمين ويضيفها الى دار الاسلام ﴿أفهم الغالبون﴾ على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والفاء لانكار ترتيب الغالبية على ما ذكر من نقص أرض الكفرة بتسليط المسلمين عليها كأنه قيل أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم كما مر فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه وقوله تعالى قل أفاتخذتم من دونه أولياء وفى التعريف تعريض بان المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون بها ﴿قل انما أنذركم﴾ بعد ما بين من جهته تعالى غاية هول ما يستعجله المستعجلون ونهاية سوء حالهم عند اتيانه ونعى عليهم جهلهم بذلك واعراضهم عن ذكر ربهم الذى يكلؤهم من طوارق الليل والنهار وغير ذلك من مساوى أحوالهم أمر عليه السلام بأن يقول لهم انما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة ﴿بالوحى﴾ الصادق الناطق باتيانها وفظاعة ما فيها من الاهوال أى انما شأنى أن أنذركم بالاخبار بذلك لا بالاتيان بها فانه مزاحم للحكمة التكوينية والتشريعية اذ الايمان برهانى لا عيانى وقوله تعالى ﴿ولا يسمع الصم الدعاء﴾ اما من تتمة الكلام الملقن تذييل له بطريق الاعتراض قد أمر عليه السلام بأن يقوله لهم توبيخا وتقريعا وتسجيلا عليهم بكمال الجهل والعناد واللام للجنس المنتظم للمخاطبين انتظاما أوليا أو للعهد فوضع المظهر موضع المضمر

للتسجيل عليهم بالتصام وتقييد نفى السماع بقوله تعالى ﴿اذا ماينذرون﴾ مع أن الصم لا يسمعون الكلام انذارا كان أوتبشيرا لبيان كمال شدة الصمم كما أن ايثار الدعاء الذى هو عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك فان الانذار عادة يكون بأصوات عالية مكررة مقارنة لهيآت دالة عليه فاذا لم يسمعوها يكون صممهم فى غاية لاغاية وراءها واما من جهته تعالى على طريقة قوله تعالى بل هم عن ذكر ربهم معرضون و يؤيده القراءة على خطاب النبى عليه الصلاة والسلام من الاسماع بنصب الصم والدعاء كأنه قيل قل لهم ذلك وأنت بمعزل من اسماعهم وقرىء بالياء أيضا على أن الفاعل هو عليه السلام وقرىء على البناء للمفعول أى لا يقدر أحد على اسماع الصم وقوله تعالى ﴿ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك﴾ بيان لسرعة تأثرهم من مجىء نفس العذاب اثر بيان عدم تأثرهم من مجىء خبره على نهج التوكيد القسمى أى و بالله لئن أصابهم أدنى اصابة أدنى شىء من عذابه تعالى كما ينبىء عنه المس والنفحة بجوهرها و بنائها فان أصل النفح هبوب رائحة الشىء ﴿ليقولن ياويلنا انا كنا ظالمين﴾ ليدعن على أنفسهم بالويل والهلاك و يعترفن عليها بالظلم وقوله تعالى ﴿ونضع الموازين القسط﴾ بيان لما سيقع عند اتيان ما أنذروه أى نقيم الموازين العادلة التى توزن بها صحائف الاعمال وقيل وضع الموازين تمثيل لارصاد الحساب السوى والجزاء على حسب الاعمال وقد مر تفصيل ما فيه من الكلام فى سورة الاعراف وافراد القسط لانه مصدر وصف به مبالغة ﴿ليوم القيامة﴾ التى كانوا يستعجلونها اى لجزائه أولاجل أهله أو فيه كما فى قولك جئت لخمس خلون من الشهر ﴿فلا تظلم نفس﴾ من النفوس ﴿شيأ﴾ حقا من حقوقها أو شيأ ما من الظلم بل يوفى كل ذى حق حقه ان خيرا فخير وان شرا فشر والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين ﴿وان كان﴾ أى العمل المدلول عليه بوضع الموازين ﴿مثقال حبة من خردل﴾ اى مقدار حبة كائنة من خردل أى وان كان فى غاية القلة والحقارة فان حبة الخردل مثل فى الصغر وقرىء مثقال حبة بالرفع على أن كان تامة ﴿أتينا بها﴾ أى أحضرناذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل للوزن والتأنيث لاضافته الى الحبة وقرىء آتينا بها أى جازينا بها من الايتاء بمعنى المجازاة والمكافأة لانهم أتوه بالاعمال وأتاهم بالجزاء وقرىء أثبنا من الثواب وقرىء جئنا بها ﴿وكفى بنا حاسبين﴾ اذ لا مزيد على علمنا وعدلنا ﴿ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين﴾ نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى وما أرسلنا قبلك الارجالا نوحى اليهم الى قوله تعالى وأهلكنا المسرفين واشارة الى كيفية انجائهم واهلاك أعدائهم وتصديره بالتوكيد القسمى لاظهار كمال الاعتناء بمضمونه والمراد بالفرقان هو التوراة وكذا بالضياء والذكر أى و بالله لقد آتيناهما وحيا ساطعا وكتابا جامعا بين كونه فارقا بين الحق والباطل وضياء يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية وذكرا يتعظ به الناس وتخصيص المتقين بالذكر لانهم المستضيئون بأنواره المغتنمون لمغانم آثاره أو ذكر مايحتاجون اليه من الشرائع والاحكام وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر والاول هو اللائق بمساق النظم الكريم فانه لتحقيق أمر القرآن المشارك لسائر الكتب الالهية لا سيما التوراة فيما ذكر من الصفات ولان فلق البحر هو الذى اقترح الكفرة مثله بقولهم فليأتنا بآية كما أرسل الاولون وقرىء ضياء بغير واو على انه حال من الفرقان وقوله تعالى ﴿الذين يخشون ربهم﴾ أى عذابه مجرور المحل على أنه صفة مادحة للمتقين أو بدل أو بيان أو منصوب أو مرفوع على المدح ﴿بالغيب﴾ حال من المفعول أى يخشون عذابه تعالى وهو غائب عنهم غير مشاهد لهم ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالانذار مالم يشاهدوا ما أنذروه وقيل من الفاعل ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ أى خائفون منها بطريق الاعتناء وتقديم الجار لمراعاة الفواصل وتخصيص اشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الاطلاق للايذان بكونها معظم المخوفات وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون وايثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الاشفاق

ودوامه ﴿وهذا﴾ أى القرآن الكريم أشير اليه بهذا ايذانا بغاية وضوح أمره ﴿ذكر﴾ يتذكر به من يتذكر وصف بالوصف الاخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقته لما مر فى صدر السورة الكريمة ﴿مبارك﴾ كثير الخير غزير النفع يتبرك به ﴿أنزلناه﴾ اما صفة ثانية لذكر أو خبر آخر ﴿أفأنتم له منكرون﴾ انكار لانكارهم بعد ظهور كون انزاله كايتاء التوراة كأنه قيل أبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة فى الايتاء والايحاء أنتم منكرون لكونه منزلا من عندنا فان ذلك بعد ملاحظة حال التوراة مما لا مساغ له أصلا ﴿ولقد آتينا ابراهيم رشده﴾ أى الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار وهو الاهتداء الكامل المستند الى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحى والاقتدار على اصلاح الامة باستعمال النواميس الالهية وقرئ رشده وهما لغتان كالحزن والحزن ﴿من قبل﴾ أى من قبل ايتاء موسى وهرون التوراة وتقديم ذكر ايتائها لما بينه و بين انزال القرآن من الشبه التام وقيل من قبل استنبائه أو قبل بلوغه و يأباه المقام ﴿وكنا به عالمين﴾ أى بأنه أهل لما آتيناه وفيه من الدليل على أنه تعالى عالم بالجزئيات مختار فى أفعاله مالا يخفى ﴿اذ قال لابيه وقومه﴾ ظرف لآتينا على أنه وقت متسع وقع فيه الايتاء وما ترتب عليه من أفعاله وأقواله وقيل مفعول لمضمر مستأنف وقع تعليلا لما قبله أى اذكر وقت قوله لهم ﴿ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون﴾ لتقف على كمال رشده وغاية فضله والتمثال اسم لشئ مصنوع مشبه بخلق من خلائق الله تعالى وهذا تجاهل منه عليه السلام حيث سألهم عن أصنامهم بما التى يطلب بها بيان الحقيقة أوشرح الاسم كأنه لا يعرف أنها ماذا مع احاطته بأن حقيقتها حجر أو شجر اتخذوها معبودا وعبر عن عبادتهم لها بمطلق العكوف الذى هو عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشئ لغرض من الاغراض قصدا الى تحقيرها واذلالها وتوبيخا لهم على اجلالها واللام فى لها للاختصاص دون التعدية والا لجئ بكلمة على والمعنى أنتم فاعلون العكوف لها وقد جوز تضمين العكوف معنى العبادة كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾ أجابوا بذلك لما أن مآل سؤاله عليه السلام الاستفسار عن سبب عبادتهم لها كما ينبئ عنه وصفه عليه السلام اياهم بالعكوف لها كأنه قال ما هى هل تستحق ما تصنعون من العكوف عليها فلما لم يكن لهم ملجأ يعتد به التجأوا الى التقليد فأبطله عليه السلام على طريقة التوكيد القسمى حيث ﴿قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم﴾ الذين سنوا لكم هذه السنة الباطلة ﴿فى ضلال﴾ عجيب لا يقادر قدره ﴿مبين﴾ أى ظاهر بين بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك ومعنى كنتم مطلق استقرارهم على الضلال لا استقرارهم الماضى الحاصل قبل زمان الخطاب المتناول لهم ولآبائهم أى والله لقد كنتم مستقرين على ضلال عظيم ظاهر لعدم استناده الى دليل ما والتقليد انما يجوز فيما يحتمل الحقية فى الجملة ﴿قالوا﴾ لما سمعوا مقالته عليه السلام استبعادا لكون ما هم عليه ضلالا وتعجبا من تضليله عليه السلام اياهم بطريق التوكيد القسمى وترددا فى كون ذلك منه عليه السلام على وجه الجد ﴿أجئتنا بالحق﴾ أى بالجد ﴿أم أنت من اللاعبين﴾ فتقول ماتقول على وجه المداعبة والمزاح وفى ايراد الشق الاخير بالجملة الاسمية الدالة على الثبات ايذان برجحانه عندهم ﴿قال﴾ عليه السلام اضرابا عما بنوا عليه مقالتهم من اعتقاد كونها أربابا لهم كما يفصح عنه قولهم نعبد أصناما فنظل لها عاكفين كأنه قيل ليس الأمر كذلك ﴿بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن﴾ وقيل هو اضراب عن كونه لاعبا باقامة البرهان على ماادعاه وضميرهن للسموات والارض وصفه تعالى بايجادهن اثر وصفه تعالى بربوبيته تعالى لهن تحقيقا للحق وتنبيها على أن مالا يكون كذلك بمعزل من الربوبية أى أنشأهن بما فيهن من المخلوقات التى من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه من غير مثال يحتذيه و لا قانون ينتحيه ورجع الضمير الى التماثيل أدخل فى تضليلهم وأظهر فى الزام الحجة عليهم لما فيه من التصريح المغنى عن التأمل فى كون ما يعبدونه

من جملة المخلوقات ﴿ وأنا على ذلكم ﴾ الذى ذكرته من كون ربكم رب السموات والأرض فقط دون ماعداه كائنا ما كان ﴿ من الشاهدين ﴾ أى العالمين به على سبيل الحقيقه المبرهنين عليه فان الشاهد على الشيء من تحققه وحققه وشهادته على ذلك ادلاؤه بالحجة عليه واثباته بها كأنه قال وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه ﴿ وتالله ﴾ وقرىء بالباء وهو الاصل والتاء بدل من الواو التى هى بدل من الأصل وفيها تعجب ﴿ لأكيدن أصنامكم ﴾ أى لاجتهدن فى كسرها وفيه ايذان بصعوبة الانتهاز وتوقفه على استعمال الحيل وانما قاله عليه السلام سرا وقيل سمعه رجل واحد ﴿ بعد أن تولوا مدبرين ﴾ من عبادتها الى عيدكم وقرىء تولوا من التولى بحذف احدى التاءين و يعضدها قوله تعالى فتولوا عنه مدبرين والفاء فى قوله تعالى ﴿ فجعلهم ﴾ فصيحة أى فولوا فجعلهم ﴿ جذاذا ﴾ أى قطاعا فعال بمعنى مفعول من الجذ الذى هو القطع كالحطام من الحطم الذى هو الكسر وقرىء بالكسر وهى لغة أو جمع جذيذ كخفاف وخفيف وقرىء بالفتح وجذذا جمع جذيذ وجذذا جمع جذة روى أن آزر خرج به فى يوم عيد لهم فبدؤا ببيت الأصنام فدخلوه فسجدوا لها ووضعوا بينها طعاما خرجوا به معهم وقالوا الى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا فذهبوا و بقى ابراهيم عليه السلام فنظر الى الأصنام وكانت سبعين صنما مصطفا وثمة صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب و فى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسر الكل بفأس كانت فى يده ولم يبق الا الكبير وعلق الفأس فى عنقه وذلك قوله تعالى ﴿ الا كبيرا لهم ﴾ أى للأصنام ﴿ لعلهم اليه ﴾ أى الى ابراهيم عليه السلام ﴿ يرجعون ﴾ فيحاجهم بما سيأتى فيحجهم و يبكتهم وقيل يرجعون الى الكبير فيسألونه عن الكاسر لان من شأن المعبود أن يرجع اليه فى الملمات وقيل يرجعون الى الله تعالى وتوحيده عند تحققهم عجز آلهتهم عن دفع مايصيبهم وعن الاضرار بمن كسرهم ﴿ قالوا ﴾ أى حين رجعوا من عيدهم و رأوا ما رأوا ﴿ من فعل هذا بآلهتنا ﴾ على طريقة الانكار والتوبيخ والتشنيع وانما عبروا عنها بما ذكر ولم يشيروا اليها بهؤلاء وهى بين أيديهم مبالغة فى التشنيع وقوله تعالى ﴿ انه لمن الظالمين ﴾ استئناف مقرر لما قبله وقيل من موصولة وهذه الجملة فى حيز الرفع على أنها خبرها والمعنى الذى فعل هذا الكسر والحطم بآلهتنا انه معدود من جملة الظلمة اما لجرأته على اهانتها وهى حقيقة بالاعظام أو لافراطه فى الكسر والحطم وتماديه فى الاستهانة بها أو بتعريض نفسه للهلكة ﴿ قالوا ﴾ أى بعض منهم مجيبين للسائلين ﴿ سمعنا فتى يذكرهم ﴾ أى يعيبهم فلعله فعل ذلك بها فقوله تعالى يذكرهم اما مفعول ثان لسمع لتعلقه بالعين أو صفة لفتى مصححة لتعلقه به هذا اذا كان القائلون سمعوه عليه السلام بالذات يذكرهم وان كانوا قد سمعوا من الناس أنه عليه السلام يذكرهم بسوء فلا حاجة الى المصحح ﴿ يقال له ابراهيم ﴾ صفة أخرى لفتى أى يطلق عليه هذا الاسم ﴿ قالوا ﴾ أى السائلون ﴿ فأتوا به على أعين الناس ﴾ أى بمرأى منهم بحيث يكون نصب أعينهم فى مكان مرتفع لايكاد يخفى على أحد ﴿ لعلهم يشهدون ﴾ أى يحضرون عقوبتنا له وقيل لعلهم يشهدون بفعله أو بقوله ذلك فالضمير حينئذ ليس للناس بل لبعض منهم مبهم أو معهود ﴿ قالوا ﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قولهم كأنه قيل فماذا فعلوا به عليه السلام بعد ذلك هل أتوابه أولا فقيل أتوا به ثم قالوا ﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ﴾ اقتصارا على حكاية مخاطبتهم اياه عليه السلام للتنبيه على أن اتيانهم به ومسارعتهم الى ذلك أمر محقق غنى عن البيان ﴿ قال بل فعله كبيرهم هذا ﴾ مشيرا الى الذى لم يكسره سلك عليه السلام مسلكا تعريضيا يؤديه الى مقصده الذى هو الزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه بحملهم على التأمل فى شأن آلهتهم مع مافيه من التوقى من الكذب حيث أبرز الكبير قولا فى معرض المباشر للفعل باسناده اليه كما أبرزه فى ذلك المعرض فعلا بجعل الفأس فى عنقه وقد قصد اسناده اليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الأصنام غاظته عليه السلام حين أبصرها مصطفة مرتبة للعبادة

من دون الله سبحانه وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد حسب زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل اليه باعتبار أنه الحامل عليه وقيل هو حكاية لما يقود الى تجويزه مذهبهم كأنه قال لهم ماتنكرون أن يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى الها أن يقدر على ماهو أشد من ذلك ويحكى أنه عليه السلام قال فعله كبيرهم هذا غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها فيكون تمثيلا أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم لاشراكهم بعبادته الأصنام وأما ماقيل من أنه عليه السلام لم يقصد نسبة الفعل الصادر عنه الى الصنم بل انما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم ومثل لذلك بما لو قال لك أمى فيما كتبته بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا فقلت له بل أنت كتبته كان قصدك تقرير الكتابة لنفسك مع الاستهزاء بالسائل لانفيها عنك واثباتها له فبمعزل من التحقيق لأن خلاصة المعنى فى المثال المذكور مجرد تقرير الكتابة لنفسك وادعاء ظهور الأمر مع الاستهزاء بالسائل وتجهيله فى السؤال لابتنائه على أن صدورها عن غيرك محتمل عنده مع استحالته عندك ولا ريب فى أن مراده عليه السلام من اسناد الكسر الى الصنم ليس مجرد تقريره لنفسه ولا تجهيلهم فى سؤالهم لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم بل انما مراده عليه السلام توجيههم نحو التأمل فى أحوال أصنامهم كما ينبئ عنه قوله ﴿فاسألوهم ان كانوا ينطقون﴾ أى ان كانوا ممن يمكن أن ينطقوا وانما لم يقل عليه السلام ان كانوا يسمعون أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضا لما أن نتيجة السؤال هو الجواب وأن عدم نطقهم أظهر وتبكيتهم بذلك أدخل وقد حصل ذلك أو لا حسبما نطق به قوله تعالى ﴿فرجعوا الى أنفسهم﴾ أى راجعوا عقولهم وتذكروا أن مالا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الاضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبودا ﴿فقالوا﴾ أى قال بعضهم لبعض فيما بينهم ﴿انكم أنتم الظالمون﴾ أى بهذا السؤال لأنه كان على طريقة التوبيخ المستتبع للمؤاخذة أو بعبادة الأصنام لامن ظلمتموه بقولكم انه لمن الظالمين أو أنتم الظالمون بعبادتها لامن كسرها ﴿ثم نكسوا على رؤسهم﴾ أى انقلبوا الى المجادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة شبه عودهم الى الباطل بصيرورة أسفل الشئ أعلاه وقرئ نكسوا بالتشديد ونكسوا على البناء للفاعل أى نكسوا أنفسهم ﴿لقد علمت ماهؤلاء ينطقون﴾ على ارادة القول أى قائلين والله لقد علمت أن ليس من شأنهم النطق فكيف تأمرنا بسؤالهم على أن المراد استمرار نفى النطق لانفى استمراره كما توهمه صيغة المضارع ﴿قال﴾ مبكتا لهم ﴿أفتعبدون﴾ أى أتعلمون ذلك فتعبدون ﴿من دون الله﴾ أى متجاوزين عبادته تعالى ﴿مالا ينفعكم شيأ﴾ من النفع ﴿ولا يضركم﴾ فان العلم بحاله المنافية للألوهية مما يوجب الاجتناب عن عبادته قطعا ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ تضجر منه عليه السلام من اصرارهم على الباطل البين واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لمزيد استقباح مافعلوا وأف صوت المتضجر ومعناه قبحا ونتنا واللام لبيان المتأفف له ﴿أفلا تعقلون﴾ أى ألا تتفكرون فلا تعقلون قبح صنيعكم ﴿قالوا﴾ أى قال بعضهم لبعض لما عجزوا عن المحاجة وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وهكذا ديدن المبطل المحجوج اذا قرعت شبهته بالحجة القاطعة وافتضح لايبقى له مفزع الا المناصبة ﴿حرقوه﴾ فانه أشد العقوبات ﴿وانصروا آلهتكم﴾ بالانتقام لها ﴿ان كنتم فاعلين﴾ أى للنصر أو لشئ يعتد به قيل القائل نمرود بن كنعان بن السنجاريب بن نمرود بن كوس ابن حام بن نوح وقيل رجل من أكراد فارس اسمه هيون وقيل هدير خسفت به الأرض روى أنهم لما أجمعوا على احراقه عليه السلام بنوا له حظيرة بكوثى قرية من قرى الانباط وذلك قوله تعالى قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم

فجمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة أربعين يوما فأوقدوا نارا عظيمة لايكاد يحوم حولها أحد حتى ان كانت الطير لتمر بها وهى فى أقصى الجو فتحترق من شدة وهجها ولم يكد أحد يحوم حولها فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السلام فيها فأتى ابليس وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه وقيل صنعه لهم رجل من الأكراد فخسف الله تعالى به الأرض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة ثم عمدوا الى ابراهيم عليه السلام فوضعوه فيه مغلولا فرموا به فيها فقال له جبريل عليهما السلام هل لك حاجة قال أما اليك فلا قال فاسأل ربك قال حسبي من سؤالى علمه بحالى فجعل الله تعالى ببركة قوله الحظيرة روضة وذلك قوله تعالى ﴿قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم﴾ أى كونى ذات برد وسلام أى ابردى بردا غير ضار وفيه مبالغات جعل النار المسخرة لقدرته تعالى مأمورة مطاوعة واقامة كونى ذات برد مقام ابردى ثم حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقيل نصب سلاما بفعله أى وسلمنا سلاما عليه . روى أن الملائكة أخذوا بضبعى ابراهيم وأقعدوه على الأرض فاذا عين ماء عذب و ورد أحمر ونرجس ولم تحرق النار منه الا وثاقه و روى أنه عليه السلام مكث فيها أربعين يوما أو خمسين وقال ما كنت أطيب عيشا منى اذ كنت فيها قال ابن يسار و بعث الله تعالى ملك الظل فقعد الى جنبه يؤنسه فنظر نمرود من صرحه فأشرف عليه فرآه جالسا فى روضة مونقة ومعه جليس على أحسن مايكون من الهيئة والنار محيطة به فناداه ياابراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال فقم فاخرج فقام يمشى فخرج منها فاستقبله نمرود وعظمه وقال من الرجل الذى رأيته معك قال ذلك ملك الظل أرسله ربى ليؤنسنى فقال انى مقرب الى الهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فقال عليه السلام لايقبل الله منك مادمت على دينك هذا قال لاأستطيع ترك ملكى ولكن سوف أذبح له أربعة آلاف بقرة فذبحها وكف عن ابراهيم عليه السلام وكان اذ ذاك ابن ست عشرة سنة وهذا كما ترى من أبدع المعجزات فان انقلاب النار هواء طيبا وان لم يكن بدعا من قدرة الله عز وجل لكن وقوع ذلك على هذه الهيئة مما يخرق العادات وقيل كانت النار على حالها لكنه تعالى دفع عنه عليه السلام أذاها كما تراه فى السمندل كما يشعر به ظاهر قوله تعالى على ابراهيم ﴿وأرادوا به كيدا﴾ مكرا عظيما فى الاضرار به ﴿فجعلناهم الأخسرين﴾ أى أخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم فى اطفاء نور الحق برهانا قاطعا على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل وموجبا لارتفاع درجته واستحقاقهم لأشد العذاب ﴿ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين﴾ أى من العراق الى الشأم و بركاته العامة أن أكثر الانبياء بعثوا فيه فانتشرت فى العالمين شرائعهم التى هى مبادى الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية وقيل كثرة النعم والخصب الغالب روى أنه عليه السلام نزل بفلسطين ولوط عليه السلام بالمؤتفكة و بينهما مسيرة يوم وليلة ﴿ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة﴾ أى عطية فهى حال منهما أو ولد ولد أو زيادة على ما سأل وهو اسحق فتختص بيعقوب ولا لبس فيه للقرينة الظاهرة ﴿وكلا﴾ أى كل واحد من هؤلاء الأربعة لا بعضهم دون بعض ﴿جعلنا صالحين﴾ بأن وفقناهم للصلاح فى الدين والدنيا فصاروا كاملين ﴿وجعلناهم أئمة﴾ يقتدى بهم فى أمور الدين اجابة لدعائه عليه السلام بقوله ومن ذريتى ﴿يهدون﴾ أى الأمة الى الحق ﴿بأمرنا﴾ لهم بذلك وارسالنا اياهم حتى صاروا مكملين ﴿وأوحينا اليهم فعل الخيرات﴾ ليحثوهم عليه فيتم كمالهم بانضمام العمل الى العلم وأصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات وكذا قوله تعالى ﴿واقام الصلاة وايتاء الزكاة﴾ وهو من عطف الخاص على العام دلالة على فضله وانافته وحذفت تاء الاقامة المعوضة من احدى الالفين لقيام المضاف اليه مقامه ﴿وكانوا لنا﴾ خاصة دون غيرنا ﴿عابدين﴾ لايخطر ببالهم غير عبادتنا ﴿ولوطا﴾ قيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى ﴿آتيناه﴾ أى وآتينا لوطا وقيل باذكر ﴿حكما﴾ أى حكمة أو نبوة

أو فصلا بين الخصوم بالحق ﴿وعلما﴾ بما ينبغى علمه للانبياء عليهم السلام ﴿ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث﴾ أى اللواطة وصفت بصفة أهلها وأسندت اليها على حذف المضاف واقامتها مقامه كما يؤذن به قوله تعالى ﴿انهم كانوا قوم سوء فاسقين﴾ فانه كالتعليل له ﴿وأدخلناه فى رحمتنا﴾ أى فى أهل رحمتنا أو فى جنتنا ﴿انه من الصالحين﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴿ونوحا﴾ أى اذكر نوحا أى خبره وقوله تعالى ﴿اذ نادى﴾ أى دعا الله تعالى على قومه بالهلاك ظرف للمضاف المقدر أى اذكر نبأه الواقع وقت دعائه ﴿من قبل﴾ أى من قبل هؤلاء المذكورين ﴿فاستجبناله﴾ أى دعاءه الذى من جملته قوله انى مغلوب فانتصر ﴿فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ وهو الطوفان وقيل أذية قومه وأصل الكرب الغم الشديد ﴿ونصرناه﴾ نصرا مستتبعا للانتقام والانتصار ولذلك قيل ﴿من القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ وحمله على فانتصر يأباه ماذكر من دعائه عليه السلام فان ظاهره يوجب اسناد الانتصار اليه تعالى مع مافيه من تهويل الامر وقوله تعالى ﴿انهم كانوا قوم سوء﴾ تعليل لما قبله وتمهيد لما بعده من قوله تعالى ﴿فأغرقناهم أجمعين﴾ فان الاصرار على تكذيب الحق والانهماك فى الشر والفساد مما يوجب الاهلاك قطعا ﴿وداود وسليمان﴾ اما عطف على نوحا معمول لعامله واما لمضمر معطوف على ذلك العامل بتقدير المضاف وقوله تعالى ﴿اذ يحكمان﴾ ظرف للمضاف المقدر وصيغة المضارع حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها أى اذكر خبرهما وقت حكمهما ﴿فى الحرث﴾ أى فى حق الزرع أو الكرم المتدلى عناقيده كما قيل أو بدل اشتمال منهما وقوله تعالى ﴿اذ نفشت﴾ أى تفرقت وانتشرت ﴿فيه غنم القوم﴾ ليلا بلا راع فرعته وأفسدته ظرف للحكم ﴿وكنا لحكمهم﴾ أى لحكم الحاكمين والمتحاكمين اليهما فان الاضافة لمجرد الاختصاص المنتظم لاختصاص القيام واختصاص الوقوع وقرىء لحكمهما ﴿شاهدين﴾ حاضرين علما والجملة اعتراض مقرر للحكم ومفيد لمزيد الاعتناء بشأنه ﴿ففهمناها سليمان﴾ عطف على يحكمان فانه فى حكم الماضى وقرىء فأفهمناها والضمير للحكومة أو الفتيا روى أنه دخل على داود عليه السلام رجلان فقال أحدهما ان غنم هذا دخلت فى حرثى ليلا فأفسدته فقضى له بالغنم فخرجا فمرا على سليمان عليه السلام فأخبراه بذلك فقال غير هذا أرفق بالفريقين فسمعه داود فدعاه فقال له بحق البنوة والأبوة الا أخبرتنى بالذى أرفق بالفريقين فقال أرى أن تدفع الغنم الى صاحب الارض لينتفع بدرها ونسلها وصوفها والحرث الى أرباب الغنم ليقوموا عليه حتى يعود الى ماكان ثم يترادا فقال القضاء ماقضيت وأمضى الحكم بذلك والذى عندى أن حكمهما عليهما السلام كان بالاجتهاد فان قول سليمان عليه السلام غير هذا أرفق بالفريقين ثم قوله أرى أن تدفع الخ صريح فى أنه ليس بطريق الوحى والا لبت القول بذلك ولما ناشده داود عليهما السلام لاظهار ما عنده بل وجب عليه أن يظهره بدأ وحرم عليه كتمه ومن ضرورته أن يكون القضاء السابق أيضا كذلك ضرورة استحالة نقض حكم النص بالاجتهاد بل أقول والله تعالى أعلم ان رأى سليمان عليه السلام استحسان كما ينبىء عنه قوله أرفق بالفريقين ورأى داود عليه السلام قياس كما أن العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى عند أبى حنيفة الى المجنى عليه أو يفديه ويبيعه فى ذلك أو يفديه عند الشافعى وقد روى أنه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت وأما سليمان عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاع بالغنم بازاء مافات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث الى أن يزول الضرر الذى أتاه من قبله كما قال أصحاب الشافعى فيمن غصب عبدا فأبق منه انه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من المنافع فاذا ظهر الآبق ترادا وفى قوله تعالى ففهمناها سليمان دليل على رجحان قوله ورجوع داود عليه السلام اليه مع أن الحكم المبنى على

الاجتهاد لا ينقض باجتهاد آخر وان كان أقوى منه لما أن ذلك من خصائص شريعتنا على أنه ورد فى الأخبار أن داود عليه السلام لم يكن بت الحكم فى ذلك حتى سمع من سليمان ما سمع وأما حكم المسئلة فى شريعتنا فعند أبى حنيفة رحمه الله لاضمان ان لم يكن معها سائق أو قائد وعند الشافعى يجب الضمان ليلا لا نهارا وقوله تعالى ﴿ وكلا آتينا حكما وعلما ﴾ لدفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهيم من عدم كون حكم داود عليه السلام حكما شرعيا أى وكل واحد منهما آتينا حكما وعلما كثيرا لا سليمان وحده وهذا انما يدل على أن خطأ المجتهد لا يقدح فى كونه مجتهدا وقيل بل على أن كل مجتهد مصيب وهو مخالف لقوله تعالى ففهمناها سليمان ولولا النقل لاحتمل توافقهما على أن قوله تعالى ففهمناها سليمان لاظهار ما تفضل عليه فى صغره فانه عليه السلام كان حينئذ ابن احدى عشرة سنة ﴿ وسخرنا مع داود الجبال ﴾ شروع فى بيان ما يختص بكل منهما من كراماته تعالى اثر بيان كرامته العامة لهما ﴿ يسبحن ﴾ أى يقدسن الله عز وجل معه بصوت يتمثل له أو يخلق الله تعالى فيها الكلام وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال أو استئناف مبين لكيفية التسخير ومع متعلقة بالتسخير وقيل بالتسبيح وهو بعيد ﴿ والطير ﴾ عطف على الجبال أو مفعول معه وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أى والطير مسخرات وقيل على العطف على الضمير فى يسبحن وفيه ضعف لعدم التأكيد والفصل ﴿ وكنا فاعلين ﴾ أى من شأننا أن نفعل أمثاله فليس ذلك ببدع منا وان كان بديعا عندكم ﴿ وعلمناه صنعة لبوس ﴾ أى عمل الدرع وهو فى الأصل اللباس قال قائلهم

البس لكل حالة لبوسها اما نعيمها واما بوسها

وقيل كانت صفائح فحلقها وسردها ﴿ لكم ﴾ متعلق بعلمنا أو بمحذوف هو صفة لبوس ﴿ لتحصنكم ﴾ أى اللبوس بتاويل الدرع وقرىء بالتذكير على أن الضمير لداود عليه السلام أو للبوس وقرىء بنون العظمة وهو بدل اشتمال من لكم باعادة الجار مبين لكيفية الاختصاص والمنفعة المستفادة من لام لكم ﴿ من بأسكم ﴾ قيل من حرب عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ أمر وارد على صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع ﴿ ولسليمان الريح ﴾ أى وسخرنا له الريح وايراد اللام ههنا دون الاول للدلالة على مابين التسخيرين من التفاوت فان تسخير ماسخر له عليه السلام من الريح وغيرها كان بطريق الانقياد الكلى له والامتثال بأمره ونهيه والمقهورية تحت ملكوته وأما تسخير الجبال والطير لداود عليه السلام فلم يكن بهذه المثابة بل بطريق التبعية له عليه السلام والاقتداء به فى عبادة الله عز وعلا ﴿ عاصفة ﴾ حال من الريح والعامل فيها الفعل المقدر أى وسخرنا له الريح حال كونها شديدة الهبوب من حيث أنها كانت تبعد بكرسيه فى مدة يسيرة من الزمان كما قال تعالى غدوها شهر ورواحها شهر وكانت رخاء فى نفسها طيبة وقيل كانت رخاء تارة وعاصفة أخرى حسب ارادته عليه السلام وقرىء الريح بالرفع على الابتداء والخبر هو الظرف المقدم وعاصفة حينئذ حال من ضمير المبتدأ فى الخبر والعامل ما فيه من معنى الاستقرار وقرىء الرياح نصبا ورفعا ﴿ تجرى بأمره ﴾ بمشيئته حال ثانية أو بدل من الاولى أو حال من ضميرها ﴿ الى الارض التى باركنا فيها ﴾ وهى الشأم رواحا بعدما سار به منه بكرة قال الكلبى كان سليمان عليه السلام وقومه يركبون عليها من اصطخر الى الشأم والى حيث شاء ثم يعود الى منزله ﴿ وكنا بكل شىء عالمين ﴾ فنجريه حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ ومن الشياطين ﴾ أى وسخرنا له من الشياطين ﴿ من يغوصون له ﴾ فى البحار ويستخرجون له من نفائسها وقيل من رفع على الابتداء وخبره ما قبله والاول هو الاظهر ﴿ ويعملون عملا دون ذلك ﴾ أى غير ما ذكر من بناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة لقوله تعالى يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل الآية وهؤلاء اما الفرقة

الاولى أو غيرها لعموم كلمة من كأنه قيل ومن يعملون وجمع الضمير الراجع اليها باعتبار معناها بعد مارشح جانبه بقوله تعالى ومن الشياطين روى أن المسخر له عليه السلام كفارهم لامؤمنوهم لقوله تعالى ومن الشياطين وقوله تعالى ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ أى من أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا على ماهو مقتضى جبلتهم قيل وكل بهم جمعا من الملائكة وجمعا من مؤمنى الجن وقال الزجاج كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوه بالنهار ﴿ وأيوب ﴾ الكلام فيه كما مر فى قوله تعالى وداود وسليمان أى واذكر خبر أيوب ﴿ اذ نادى ربه أنى ﴾ أى بأنى ﴿ مسنى الضر ﴾ وقرىء بالكسر على اضمار القول أو تضمين النداء معناه والضر شائع فى كل ضرر وبالضم خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ وصفه تعالى بغاية الرحمة بعد ماذكر نفسه بما يوجبها واكتفى به عن عرض المطلب لطفا فى السؤال وكان عليه السلام روميا من ولد عيص بن اسحاق استنبأه الله تعالى وكثر أهله وماله فابتلاه الله تعالى بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم وذهاب أمواله والمرض فى بدنه ثمانى عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو سبعا وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات روى أن امرأته ماخير بنت ميشا بن يوسف عليه السلام أو رحمة بنت افرايم بن يوسف قالت له يوما لو دعوت الله تعالى فقال كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال أستحيي من الله تعالى أن أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى وروى أن ابليس أتاها على هيئة عظيمة فقال أنا اله الارض فعلت بزوجك ما فعلت لانه تركنى وعبد اله السماء فلو سجد لى سجدة لرددت عليه وعليك جميع ما أخذت منكما وفى رواية لو سجدت لى سجدة لرجعت المال والولد وعافيت زوجك فرجعت الى أيوب وكان ملقى فى الكناسة لا يقرب منه أحد فأخبرته بالقصة فقال عليه السلام كأنك افتتنت بقول اللعين لئن عافانى الله عز وجل لاضربنك مائة سوط وحرام على أن أذوق بعد هذا شيئا من طعامك وشرابك فطردها فبقى طريحا فى الكناسة لايحوم حوله أحد من الناس فعند ذلك خر ساجدا فقال رب انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فقيل له ارفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك فركض فنبعت من تحته عين ماء فاغتسل منها فلم يبق فى ظاهر بدنه دابة الا سقطت ولا جراحة الا برئت ثم ركض مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء الا خرج وعاد صحيحا ورجع اليه شبابه وجماله ثم كسى حلة وذلك قوله تعالى ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ﴾ فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من الاهل والمال الا وقد ضاعفه الله تعالى وذلك قوله تعالى ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ وقيل كان ذلك بأن ولد له ضعف ما كان ثم ان امرأته قالت فى نفسها هب انه طردنى أفأتركه حتى يموت جوعا ويأكله السباع لأرجعن اليه فلما رجعت مارأت تلك الكناسة ولا تلك الحال وقد تغيرت الامور فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وهابت صاحب الحلة أن تأتيه وتسأل عنه فأرسل اليها أيوب ودعاها فقال ماتريدين ياأمة الله فبكت وقالت أريد ذلك المبتلى الذى كان ملقى على الكناسة قال لها ما كان منك فبكت وقالت بعلى قال أتعرفينه اذا رأيته قالت وهل يخفى على فتبسم فقال أنا ذلك فعرفته بضحكه فاعتنقته ﴿ رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ أى آتيناه ما ذكر لرحمتنا أيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب أو لرحمتنا العابدين الذين من جملتهم أيوب وذكرنا اياهم بالاحسان وعدم نسياننا لهم ﴿ واسماعيل وادريس وذا الكفل ﴾ أى واذكرهم وذو الكفل الياس وقيل يوشع بن نون وقيل زكريا سمى به لانه كان ذا حظ من الله تعالى أو تكفل منه أو ضعف عمل أنبياء زمانه وثوابهم فان الكفل يجىء بمعنى النصيب والكفالة والضعف ﴿ كل ﴾ أى كل واحد من هؤلاء ﴿ من الصابرين ﴾ أى على مشاق التكاليف وشدائد النوب والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الامر بذكرهم

﴿ وأدخلناهم فى رحمتنا ﴾ أى فى النبوة أو فى نعمة الآخرة ﴿ انهم من الصالحين ﴾ أى الكاملين فى الصلاح الكامل الذى لايحوم حوله شائبة الفساد وهم الانبياء فان صلاحهم معصوم من كدر الفساد ﴿ وذا النون ﴾ أى واذكر صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام ﴿ اذ ذهب مغاضبا ﴾ أى مراغما لقومه لما برم من طول دعوته اياهم وشدة شكيمتهم وتمادى اصرارهم مهاجرا عنهم قبل أن يؤمر وقيل وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال فظن انه كذبهم فغضب من ذلك وهو من بناء المغالبة للمبالغة أو لانه أغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها وقرىء مغضبا ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ أى لن نضيق عليه أو لن نقضى عليه بالعقوبة من القدر ويؤيده أنه قرىء مشددا أو لن نعمل فيه قدرتنا وقيل هو تمثيل لحاله بحال من يظن أن لن نقدر عليه أى نعامله معاملة من يظن أن لن نقدر عليه فى مراغمته قومه من غير انتظار لامرنا كما فى قوله تعالى يحسب أن ماله أخلده أى نعامله معاملة من يحسب ذلك وقيل خطرة شيطانية سبقت الى وهمه فسميت ظنا للمبالغة وقرىء بالياء مخففا ومثقلا مبنيا للفاعل ومبنيا للمفعول ﴿ فنادى ﴾ الفاء فصيحة أى فكان ما كان من المساهمة والتقام الحوت فنادى ﴿ فى الظلمات ﴾ أى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة أو فى ظلمات بطن الحوت والبحر والليل وقيل ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل فى ظلمتى بطنى الحوتين وظلمتى البحر والليل ﴿ أن لا اله الا أنت ﴾ أى بانه لا اله الا أنت على أن أن مخففة من أن وضمير الشأن محذوف أو أى لا اله الا أنت على أنها مفسرة ﴿ سبحانك ﴾ أنزهك تنزيها لائقا بك من أن يعجزك شىء أو أن يكون ابتلائى بهذا بغير سبب من جهتى ﴿ انى كنت من الظالمين ﴾ لانفسهم بتعريضها للهلكة حيث بادرت الى المهاجرة ﴿ فاستجبنا له ﴾ أى دعاءه الذى دعاه فى ضمن الاعتراف بالذنب على ألطف وجه وأحسنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له ﴿ ونجيناه من الغم ﴾ بأن قذفه الحوت الى الساحل بعد أربع ساعات كان فيها فى بطنه وقيل بعد ثلاثة أيام وقيل الغم غم الالتقام وقيل الخطيئة ﴿ وكذلك ﴾ أى مثل ذلك الانجاء الكامل ﴿ ننجى المؤمنين ﴾ من غموم دعوا الله تعالى فيها بالاخلاص لا انجاء أدنى منه وفى الامام نجى فلذلك أخفى الجماعة النون الثانية فانها تخفى مع حروف الفم وقرىء بتشديد الجيم على أن أصله ننجى فحذفت الثانية كما حذفت التاء فى تظاهرون وهى وان كانت فاء فحذفها أوقع من حذف حرف المضارعة التى لمعنى ولا يقدح فيه اختلاف حركتى النونين فان الداعى الى الحذف اجتماع المثلين مع تعذر الادغام وامتناع الحذف فى تتجافى لخوف اللبس وقيل هو ماض مجهول أسند الى ضمير المصدر وسكن آخره تخفيفا ورد بانه لا يسند الى المصدر والمفعول مذكور والماضى لا يسكن آخره ﴿ وزكريا ﴾ أى واذكر خبره ﴿ اذ نادى ربه ﴾ وقال ﴿ رب لا تذرنى فردا ﴾ أى وحيدا بلا ولد يرثنى ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ فحسبى أنت ان لم ترزقنى وارثا ﴿ فاستجبنا له ﴾ أى دعاءه ﴿ ووهبنا له يحيى ﴾ وقد مر بيان كيفية الاستجابة والهبة فى سورة مريم ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ أى أصلحناها للولادة بعد عقرها أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خلقها وكانت حردة وقوله تعالى ﴿ انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ﴾ تعليل لما فصل من فنون احسانه تعالى المتعلقة بالانبياء المذكورين أى كانوا يبادرون فى وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم فى أصل الخير وهو السر فى ايثار كلمة فى على كلمة الى المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين اليها كما فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة ﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ ذوى رغب ورهب أو راغبين فى الثواب راجين للاجابة أو فى الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية أو للرغب والرهب ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ أى مخبتين متضرعين أو دائمى الوجل والمعنى انهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة ﴿ والتى أحصنت

فرجها﴾ أى اذكر خبر التى أحصنته على الاطلاق من الحلال والحرام والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شأنها وتنزيهها
عما زعموه فى حقها آثر ذى أثير ﴿فنفخنا فيها﴾ أى أحيينا عيسى فى جوفها ﴿من روحنا﴾ من الروح الذى هو
من أمرنا وقيل فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام ﴿وجعلناها وابنها﴾ أى قصتهما أو حالهما
﴿آية للعالمين﴾ فان من تأمل حالهما تحقق كمال قدرته عز وجل فالمراد بالآية ماحصل بهما من الآية التامة مع تكاثر آيات كل
واحد منهما وقيل أريد بالآية الجنس الشامل لما لكل واحد منهما من الآيات المستقلة وقيل المعنى وجعلناها آية وابنها
آية فحذفت الاولى لدلالة الثانية عليها ﴿ان هذه﴾ أى ملة التوحيد والاسلام أشير اليها بهذه تنبيها على كمال ظهور أمرها
فى الصحة والسداد ﴿أمتكم﴾ أى ملتكم التى يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها ولا تخلوا بشىء منها والخطاب
للناس قاطبة ﴿أمة واحدة﴾ نصب على الحالية من أمتكم أى غير مختلفة فيما بين الانبياء عليهم السلام اذ لا مشاركة
لغيرها فى صحة الاتباع ولا احتمال لتبدلها وتغيرها كفروع الشرائع المتبدلة حسب تبدل الامم والاعصار وقرىء أمتكم
بالنصب على البدلية من اسم ان وأمة واحدة بالرفع على الخبرية وقرئتا بالرفع على أنهما خبران ﴿وأنا ربكم﴾ لا اله
لكم غيرى ﴿فاعبدون﴾ خاصة لا غير وقوله تعالى ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ التفات الى الغيبة لينعى عليهم ما أفسدوه
من التفرق فى الدين وجعل أمره قطعا موزعة وينهى قبائح أفعالهم الى الآخرين كأنه قيل ألا ترون الى عظيم ما ارتكب
هؤلاء فى دين الله الذى أجمعت عليه كافة الانبياء عليهم السلام ﴿كل﴾ أى كل واحدة من الفرق المتقطعة أو كل
واحد من آحاد كل واحدة من تلك الفرق ﴿الينا راجعون﴾ بالبعث لا الى غيرنا فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم
وايراد اسم الفاعل للدلالة على الثبات والتحقق وقوله تعالى ﴿فمن يعمل من الصالحات﴾ الخ تفصيل للجزاء أى فمن
يعمل بعض الصالحات أو بعضا من الصالحات ﴿وهو مؤمن﴾ بالله ورسله ﴿فلا كفران لسعيه﴾ أى لا حرمان
لثواب عمله ذلك عبر عن ذلك بالكفران الذى هو ستر النعمة وجحودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه بتصويره بصورة
مايستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وابراز الاثابة فى معرض الامور الواجبة عليه تعالى ونفى نفى الجنس للمبالغة
فى التنزيه وعبر عن العمل بالسعى لاظهار الاعتداد به ﴿وانا له﴾ أى لسعيه ﴿كاتبون﴾ أى مثبتون فى صحائف
أعمالهم لا نغادر من ذلك شيأ ﴿وحرام على قرية﴾ أى ممتنع على أهلها غير متصور منهم وقرىء حرم وهى لغة كالحل
والحلال ﴿أهلكناها﴾ قدرنا هلاكها أو حكمنا به لغاية طغيانهم وعتوهم وقوله تعالى ﴿أنهم لا يرجعون﴾ فى حيز
الرفع على أنه مبتدأ خبره حرام أو فاعل له سادمسد خبره والجملة لتقرير مضمون ماقبلها من قوله تعالى كل الينا راجعون
ومافى أن من معنى التحقيق معتبر فى النفى المستفاد من حرام لا فى المنفى أى ممتنع البتة عدم رجوعهم الينا للجزاء لا أن
عدم رجوعهم المحقق ممتنع وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع لعدم رجوع الكل حسبما نطق
به قوله تعالى كل الينا راجعون لأنهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم وقيل ممتنع رجوعهم الى التوبة على أن لا صلة
وقرىء انهم لا يرجعون بالكسر على أنه استئناف تعليلى لما قبله فحرام خبر مبتدا محذوف أى حرام عليها ذلك وهو
ماذكر فى الآية السابقة من العمل الصالح المشفوع بالايمان والسعى المشكور ثم علل بقوله تعالى انهم لا يرجعون عماهم
عليه من الكفر فكيف لا يمتنع ذلك ويجوز حمل المفتوحة أيضا على هذا المعنى بحذف اللام عنها أى لأنهم لا يرجعون
وحتى فى قوله تعالى ﴿حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج﴾ الخ هى التى يحكى بعدها الكلام وهى على الاول غاية لما
يدل عليه ماقبلها كأنه قيل يستمرون على ماهم عليه من الهلاك حتى اذا قامت القيامة يرجعون الينا ويقولون ياويلنا
الخ وعلى الثانى غاية للحرمة أى يستمر امتناع رجوعهم الى التوبة حتى اذا قامت القيامة يرجعون اليها حين لا تنفعهم

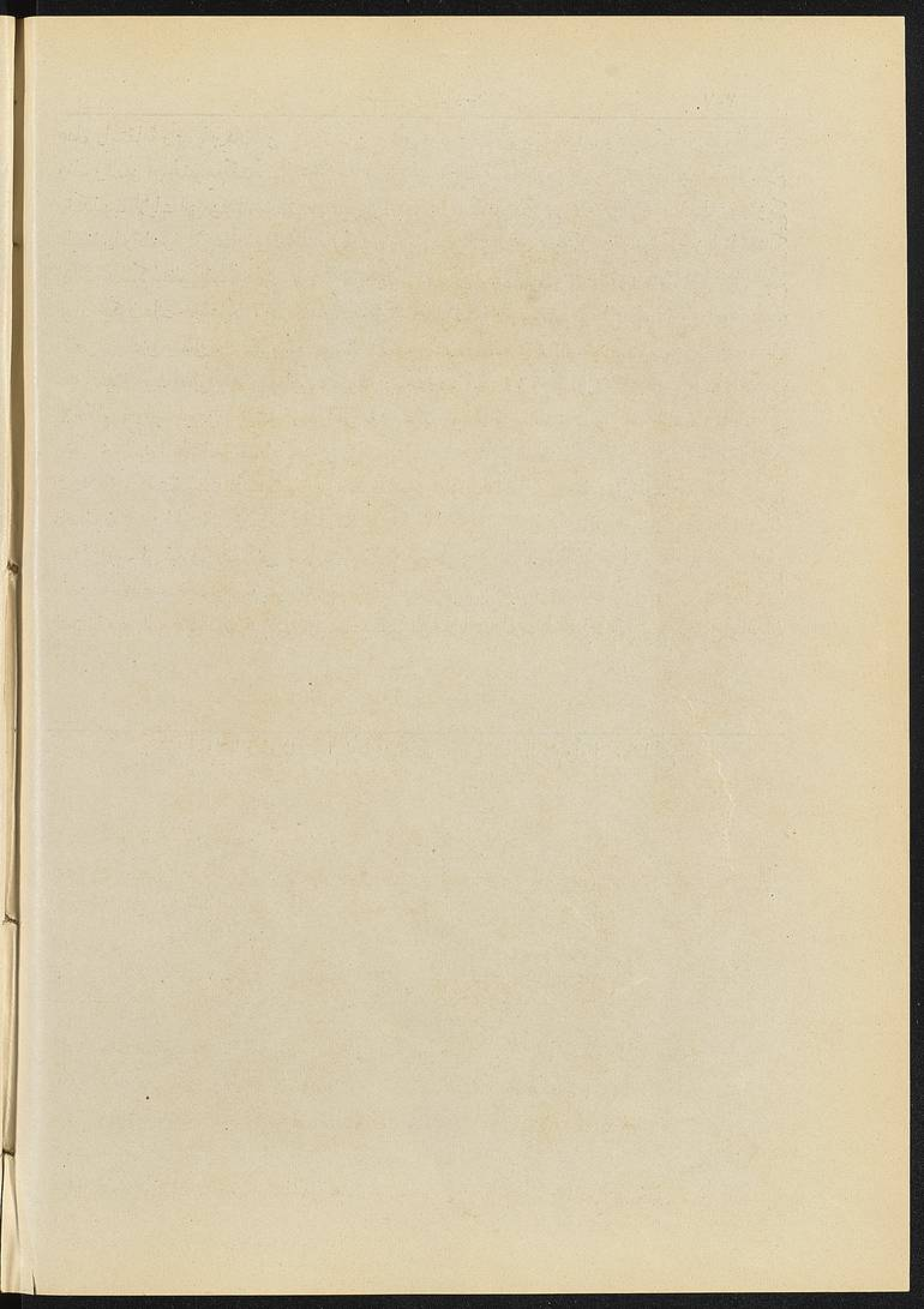
التوبة وعلى الثالث غاية لعدم الرجوع عن الكفر أى لا يرجعون عنه حتى اذا قامت القيامة يرجعون عنه حين لا ينفعهم الرجوع و يأجوج ومأجوج قبيلتان من الانس قالوا الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج والمراد بفتحها فتح سدها على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقرئ فتحت بالتشديد ﴿وهم﴾ أى يأجوج ومأجوج وقيل الناس ﴿من كل حدب﴾ أى نشز من الارض وقرئ جدث وهو القبر ﴿ينسلون﴾ أى يسرعون وأصله مقاربة الخطو مع الاسراع وقرئ بضم السين ﴿واقترب الوعد الحق﴾ عطف على فتحت والمراد به ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء لا النفخة الاولى ﴿فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا﴾ جواب الشرط واذا للمفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية كما فى قوله تعالى اذاهم يقنطون فاذا دخلتها الفاء تظاهرت على وصل الجزاء بالشرط والضمير للقصة أومبهم يفسره مابعده ﴿ياويلنا﴾ على تقدير قول وقع حالا من الموصول أى يقولون ياويلنا تعال فهذا أوان حضورك وقيل هو الجواب للشرط ﴿قد كنا فى غفلة﴾ تامة ﴿من هذا﴾ الذى دهمنا من البعث والرجوع اليه تعالى للجزاء ولم نعلم أنه حق ﴿بل كنا ظالمين﴾ اضراب عما قبله من وصف أنفسهم بالغفلة أى لم نكن غافلين عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بتلك الآيات والنذر مكذبين بها أو ظالمين لانفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب وقوله تعالى ﴿انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل أمرهم مع كونه معلوما مما سبق على وجه الاجمال مبالغة فى الانذار وازاحة الاعتذار وما تعبدون عبارة عن أصنامهم لانها التى يعبدونها كما يفصح عنه كلمة ما وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تلا الآية قال له ابن الزبعرى خصمتك ورب الكعبة أليست اليهود عبدوا عزيرا والنصارى المسيح وبنو مليح الملائكة رد عليه بقوله عليه السلام ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما لا يعقل ولا يعارضه ما روى أنه عليه السلام رده بقوله بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك ولا ما روى أن ابن الزبعرى قال هذا شئ لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله فقال عليه السلام بل لكل من عبد من دون الله تعالى اذ ليس شئ منهما نصا فى عموم كلمة ما كما أن الاول نص فى خصوصها وشمول حكم النص لا يقتضى شموله بطريق العبارة بل يكفى فى ذلك شموله لهم بطريق دلالة النص بجامع الشركة فى المعبودية من دون الله تعالى فلعله عليه السلام بعد ما بين مدلول النظم الكريم بما ذكر وعدم دخول المذكورين فى حكمه بطريق العبارة بين عدم دخولهم فيه بطريق الدلالة أيضا تأكيدا للرد والالزام وتكريرا للتبكيت والافحام لكن لا باعتبار كونهم معبودين لهم كما هو زعمهم فان اخراج بعض المعبودين عن حكم منبئ عن الغضب على العبدة والمعبودين مما يوهم الرخصة فى عبادته فى الجملة بل بتحقيق الحق وبيان أنهم ليسوا من المعبودية فى شئ حتى يتوهم دخولهم فى الحكم المذكور دلالة بموجب شركتهم للاصنام فى المعبودية من دون الله تعالى وانما معبودهم الشياطين التى أمرتهم بعبادتهم كما نطق به قوله تعالى سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن الآية فهم الداخلون فى الحكم المذكور لاشتراكهم الاصنام فى المعبودية من دونه تعالى دون المذكورين عليهم السلام وهذا هو الوجه فى التوفيق بين الاخبار المذكورة وأما تعميم كلمة ما للعقلاء أيضا وجعل ما سيأتى من قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الخ بيانا للتجوز أو التخصيص فمما لا يساعده السباق والسياق كما يشهد به الذوق السليم والحصب ما يرمى به و يهيج به النار من حصبه اذا رماه بالحصباء وقرئ بسكون الصاد وصفا له بالمصدر للمبالغة ﴿أنتم لها واردون﴾ استئناف أو بدل من حصب جهنم واللام معوضة من على للدلالة على الاختصاص وأن ورودهم لاجلها والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا ﴿لو كان هؤلاء﴾ أى أصنامهم ﴿آلهة﴾ كما يزعمون ﴿ما وردوها﴾ وحيث تبين ورودهم اياها تعين امتناع كونها آلهة بالضرورة وهذا كما ترى صريح فى أن المراد بما يعبدون هى الاصنام

لأن المراد اثبات نقيض ما يدعونه وهم انما يدعون الهية الاصنام لاالهية الشياطين حتى يحتج بورودها النار على عدم الهيتها وأما ما وقع فى الحديث الشريف فقد وقع بطريق التكملة بانجرار الكلام اليه عند بيان ماسيق له النظم الكريم بطريق العبارة حيث سأل ابن الزبعرى عن حال سائر المعبودين وكان الاقتصار على الجواب الأول مما يوهم الرخصة فى عبادتهم فى الجملة لأنهم المعبودون عندهم أجيب ببيان أن المعبودين هم الشياطين وأنهم داخلون فى حكم النص لكن بطريق الدلالة لابطريق العبارة لئلا يلزم التدافع بين الخبرين ﴿ وكل ﴾ أى من العبدة والمعبودين ﴿ فيها خالدون ﴾ لاخلاص لهم عنها ﴿ لهم فيها زفير ﴾ أى أنين وتنفس شديد وهو مع كونه من أفعال العبدة أضيف الى الكل للتغليب ويجوز أن يكون الضمير للعبدة لعدم الالباس وكذا فى قوله تعالى ﴿ وهم فيها لايسمعون ﴾ أى لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول وفظاعة العذاب وقيل لا يسمعون ما يسرهم من الكلام ﴿ ان الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ شروع فى بيان حال المؤمنين اثر شرح حال الكفرة حسبما جرت به سنة التنزيل من شفع الوعد بالوعيد وايراد الترغيب مع الترهيب أى سبقت لهم منا فى التقدير الخصلة الحسنى التى هى أحسن الخصال وهى السعادة وقيل التوفيق للطاعة أو سبقت لهم كلمتنا بالبشرى بالثواب على الطاعة وهو الادخل الاظهر فى الحمل عليها لما أن الأولين مع خفائهما ليسا من مقدورات المكلفين فالجملة مع ما بعدها تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون كما أن ماقبلها من قوله تعالى انكم وماتعبدون الخ تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى وحرام الخ ﴿ أولئك ﴾ اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الشرف والفضل أى أولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل ﴿ عنها ﴾ أى عن جهنم ﴿ مبعدون ﴾ لانهم فى الجنة وشتان بينها وبين النار ومار وى أن عليا رضى الله تعالى عنه خطب يوما فقرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح رضوان الله تعالى عنهم أجمعين ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه ويقول ﴿ لايسمعون حسيسها ﴾ ليس بنص فى كون الموصول عبارة عن طائفة مخصوصة والحسيس صوت يحس به أى لايسمعون صوتها سمعا ضعيفا كما هو المعهود عند كون المصوت بعيدا وان كان صوته فى غاية الشدة لأنهم لا يسمعون صوتها الخفى فى نفسه فقط والجملة بدل من مبعدون أو حال من ضميره مسوقة للمبالغة فى انقاذهم منها وقوله تعالى ﴿ وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ بيان لفوزهم بالمطالب اثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب أى دائمون فى غاية التنعم وتقديم الظرف للقصر والاهتمام به وقوله تعالى ﴿ لايحزنهم الفزع الاكبر ﴾ بيان لنجاتهم من الافزاع بالكلية بعد بيان نجاتهم من النار لانهم اذا لم يحزنهم أكبر الافزاع لا يحزنهم ماعداه بالضرورة عن الحسن رضى الله عنه أنه الانصراف الى النار وعن الضحاك حتى يطبق على النار وقيل حين يذبح الموت فى صورة كبش أملح وقيل النفخة الاخيرة لقوله تعالى ففزع من فى السموات ومن فى الارض وليس بذاك فان الآمن من ذلك الفزع من استثناه الله تعالى بقوله الا من شاء الله لاجميع المؤمنين الموصوفين بالاعمال الصالحة على أن الاكثرين على أن ذلك فى النفخة الاولى دون الأخيرة كما سيأتى فى سورة النمل ﴿ وتتلقاهم الملائكة ﴾ أى تستقبلهم مهنئين لهم ﴿ هذا يومكم ﴾ على ارادة القول أى قائلين هذا اليوم يومكم ﴿ الذى كنتم توعدون ﴾ فى الدنيا وتبشرون بما فيه من فنون المثوبات على الايمان والطاعات وهذا كما ترى صريح فى أن المراد بالذين سبقت لهم الحسنى كافة المؤمنين الموصوفين بالايمان والاعمال الصالحة لامن ذكر من المسيح وعزير والملائكة عليهم السلام خاصة كما قيل ﴿ يوم نطوى السماء ﴾ بنون العظمة منصوب باذكر وقيل ظرف لقوله تعالى لايحزنهم الفزع وقيل بتتلقاهم وقيل حال مقدرة من الضمير

المحذوف فى توعدون والطى ضد النشر وقيل المحو وقرئ يطوى بالياء والتاء والبناء للمفعول ﴿ كطى السجل ﴾ وهى الصحيفة أى طيا كطى الطومار وقرئ السجل كلفظ الدلو و بالكسر والسجل على وزن العتل وهما لغتان واللام فى قوله تعالى ﴿ للكتب ﴾ متعلقة بمحذوف هو حال من السجل أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى كطى السجل كائنا للكتب أو الكائن للكتب فان الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها فسجلها بعض أجزائها و به يتعلق الطى حقيقة وقرئ للكتاب وهو اما مصدر واللام للتعليل أى كما يطوى الطومار للكتابة أو اسم كالامام فاللام كما ذكر أولا وقيل السجل اسم ملك يطوى كتب أعمال بنى آدم اذا رفعت اليه وقيل هو كاتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ أى نعيد ما خلقناه مبتدأ اعادة مثل بدئنا اياه فى كونها ايجادا بعد العدم او جمعا من الاجزاء المتبددة والمقصود بيان صحة الاعادة بالقياس على المبدأ لشمول الامكان الذاتى المصحح للمقدورية وتناول القدرة لهما على السواء وما كافة أو مصدرية وأول مفعول لبدأنا أو لفعل يفسره نعيده أو موصولة والكاف متعلقة بمحذوف يفسره نعيده أى نعيد مثل الذى بدأناه وأول خلق ظرف لبدأنا أو حال من ضمير الموصول المحذوف ﴿ وعدا ﴾ مصدر مؤكد لفعله ومقرر لنعيده أو منتصب به لانه عدة بالاعادة ﴿ علينا ﴾ أى علينا انجازه ﴿ انا كنا فاعلين ﴾ لما ذكر لا محالة ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور ﴾ هو كتاب داود عليه السلام وقيل هو اسم لجنس ما أنزل على الانبياء عليهم السلام ﴿ من بعد الذكر ﴾ أى التوراة وقيل اللوح المحفوظ أى و بالله لقد كتبنا فى كتاب داود بعد ما كتبنا فى التوراة أو كتبنا فى جميع الكتب المنزلة بعد ما كتبنا وأثبتنا فى اللوح المحفوظ ﴿ أن الارض يرثها عبادى الصالحون ﴾ أى عامة المؤمنين بعد اجلاء الكفار وهذا وعد منه تعالى باظهار الدين واعزاز أهله وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد أرض الجنة كما ينبئ عنه قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقيل الارض المقدسة يرثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ان فى هذا ﴾ أى فيما ذكر فى السورة الكريمة من الاخبار والمواعظ البالغة والوعد والوعيد والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد وصحة النبوة ﴿ لبلاغا ﴾ أى كفاية أو سبب بلوغ الى البغية ﴿ لقوم عابدين ﴾ أى لقوم همهم العبادة دون العادة ﴿ وما أرسلناك ﴾ بما ذكر و بأمثاله من الشرائع والاحكام وغير ذلك من الامور التى هى مناط لسعادة الدارين ﴿ الا رحمة للعالمين ﴾ هو فى حيز النصب على أنه استثناء من أعم العلل أو من أعم الاحوال أى ما أرسلناك بما ذكر لعلة من العلل الا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة أو ما أرسلناك فى حال من الاحوال الا حال كونك رحمة لهم فان ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام مصالحهم فى النشأتين ومن لم يغتنم مغانم آثاره فانما فرط فى نفسه وحرمة حقه لأنه تعالى حرمه مما يسعده وقيل كونه رحمة فى حق الكفار أمنهم من الخسف والمسخ والاستئصال حسبما ينطق به قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴿ قل انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد ﴾ أى ما يوحى الى الا أنه لا اله لكم الا اله واحد لانه المقصود الاصلى من البعثة وأما ما عداه فمن الاحكام المتفرعة عليه فانما الاولى لقصر الحكم على الشئ كقولك انما يقوم زيد أى ما يقوم الا زيد والثانية لقصر الشئ على الحكم كقولك انما زيد قائم أى ليس له الا صفة القيام ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ أى مخلصون العبادة لله تعالى مخصصون لها به تعالى والفاء للدلالة على أن ما قبلها موجب لما بعدها قالوا فيه دلالة على أن صفة الوحدانية تصح أن يكون طريقها السمع ﴿ فان تولوا ﴾ عن الاسلام ولم يلتفتوا الى ما يوجبه من الوحى ﴿ فقل لهم ﴾ ﴿ آذنتكم ﴾ أى أعلمتكم ما أمرت به او حربى لكم ﴿ على سواء ﴾ كائنين على سواء فى الاعلام به لم أطوه عن أحد منكم أو مستوين به أنا وأنتم فى العلم بما أعلمتكم به أو فى المعاداة أو ايذانا على سواء وقيل أعلمتكم أنى على سواء أى

عدل واستقامة رأى بالبرهان النير ﴿وان أدرى﴾ أى ما أدرى ﴿أقريب أم بعيد ما توعدون﴾ من غلبة المسلمين وظهور الدين أو الحشر مع كونه آتيا لا محالة ﴿انه يعلم الجهر من القول﴾ أى ما تجاهرون به من الطعن فى الاسلام وتكذيب الآيات التى من جملتها ما نطق بمجئ الموعود ﴿ويعلم ما تكتمون﴾ من الاحن والاحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه نقيرا وقطميرا ﴿وان أدرى لعله فتنة لكم﴾ أى ما أدرى لعل تأخير جزائكم استدراج لكم وزيادة فى افتتانكم أو امتحان لكم لينظر كيف تعملون ﴿ومتاع الى حين﴾ أى وتمتع لكم الى أجل مقدر تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ليكون ذلك حجة عليكم ﴿قال رب احكم بالحق﴾ حكاية لدعائه عليه الصلاة والسلام وقرئ قل رب على صيغة الأمر أى اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضى لتعجيل العذاب والتشديد عليهم وقد استجيب دعاؤه عليه السلام حيث عذبوا ببدر أى تعذيب وقرئ رب احكم بضم الباء وربى أحكم على صيغة التفضيل وربى أحكم من الاحكام ﴿وربنا الرحمن﴾ مبتدأ أى كثير الرحمة على عباده وقوله تعالى ﴿المستعان﴾ أى المطلوب منه المعونة خبر وخبر آخر للمبتدا واضافة الرب فيما سبق الى ضميره عليه السلام خاصة لما أن الدعاء من الوظائف الخاصة به عليه السلام كما أن اضافته ههنا الى ضمير الجمع المنتظم للمؤمنين أيضا لما أن الاستعانة من الوظائف العامة لهم ﴿على ما تصفون﴾ من الحال فانهم كانوا يقولون ان الشوكة تكون لهم وان راية الاسلام تخفق ثم تركد وان المتوعد به لو كان حقا لنزل بهم الى غير ذلك مما لا خير فيه فاستجاب الله عز وجل دعوة رسوله عليه السلام فخيب آمالهم وغير أحوالهم ونصر أولياءه عليهم فاصابهم يوم بدر ما أصابهم والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله وقرئ يصفون بالياء التحتانية وعن النبى عليه السلام من قرأ اقترب حاسبه الله تعالى حسابا يسيرا وصافحه وسلم عليه كل نبى ذكر اسمه فى القرآن

﴿تم الجزء الثالث من تفسير العلامة أبى السعود ويليه الجزء الرابع وأوله سورة الحج﴾



صحيفة

﴿تم فهرس الجزء الثالث من تفسير العلامة أبى السعود﴾

